

قصة الحضارة ول ديورانت

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جبران إنجلترا -> أيرلندا جراتان

الفصل الحادي والثلاثون

جبران إنجلترا

1789-1756

1 - أيرلندا جراتان

شرح رحالة إنجليزي زار أيرلندا في 1764 أسباب جنوح الفقراء إلى الإجرام فقال: "أي خوف من العدالة أو العقاب يمكن توقعه من فلاح أيرلندي يتردى في حال من التعاسة والفقير المدقع، حال لو أن أول رجل صادفه ضربه على أم رأسه وأراحه إلى الأبد من حياته البائسة الضنكة لحق له أن يحسبه عملاً جديراً بالثناء؛ ... واحتمال الكثيرين منهم... لحالتهم المزرية بصبر دليل كاف لدي على ما في طبيعتهم من لطف فطري" (1).

ولك يكن ملاك الأرض ومعظمهم من البروتستانت - هم الظلمة المباشرين للفلاحين - ومعظمهم من الكاثوليك - ولا أشدهم ضراوة، فالملاك كانوا يعيشون عادة في إنجلترا لا يرون الدم الذي لطح الإيجارات التي يبيتها الوسطاء الذين يؤجرون لهم أرضهم؛ والوسطاء هم الذين استنزفوا كل درهم استطاعوا ابتزازه من الفلاحين، حتى اضطر هؤلاء إلى أن يكتفوا في غذائهم بالبطاطس وفي لباسهم بالأسمال.

وفي 1758، سمح لأيرلندا خمس سنين بتصدير الماشية إلى بريطانيا لأن المرض كان يفتك بالماشية في إنجلترا. فتحولت أفدنة كثيرة في أيرلندا - بما فيها الأرض المشاع التي كان المزارعون المقيمون يستعملونها من قبل - من الزراعة إلى رعي الأغنام أو الماشية، فازداد الأغنياء غنى والفقراء فقراً. ثم أضافوا إلى مشكلاتهم بالزواج المبكر - "عند أول ميسرة" كما

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> إيرلندا جراتان

قال السر ولیم بتی(2)، ولعل الأمل راودهم في أن أطفالهم لن يلبثوا يغطوا نفقاتهم ثم يعيرونهم على دفع الإيجار. وهكذا، ورغم ارتفاع نسبة الوفيات، زاد سكان إيرلندا من 3.191.000 عام 1745 إلى 4.753.000 عام 1791(3). أما صورة الصناعة فأخذت في الإشراق. ذلك أن الكثير من البروتستانت وبعض الكاثوليك قد أخذوا يحترفون إنتاج الأتيال أو الأصواف أو البضائع القطنية أو الحرير أو الزجاج. وفي الربع الأخير من القرن، بعد أن حصل جراتان على تخفيف للقيود البريطانية المفروضة على رجال الصناعة الإيرلنديين وعلى التجارة الإيرلندية، نشأت طبقة وسطى وفرت الركيزة الاقتصادية للسياسة التحريرية والنمو الثقافي. وغدت دبلن من أمهات المراكز في التعليم والموسيقى والدراما والعمارة في الجزر البريطانية. وكانت كلية ترنتي بسبيلها إلى أن تصبح جامعة، تملك فعلاً قائمة طويلة من الخريجين الممتازين. ولو أن إيرلندا احتفظت بنجومها الساطعة في أرض الوطن-بيرك، وجولد سميث، وشريدان، وسويفت، وباركلي-لسطعت جنباً إلى جنب مع ألمع الأمم في ذلك العهد. وبعد علم 1761 جعل نائب الملك دبلن مقره الدائم بدلاً من الاكتفاء بزيارات قصيرة مرة كل عام. وقامت الآن الصروح العامة الشامخة والقصور الأنيقة. وناقست مسارح دبلن مسارح لندن في تفوق إخراجها، وهنا رتل "مسيا" هندل أول مرة ولقيت أول ترحيب (1742)، وأخرج شريدان التمثيليات الناجحة الكثيرة التي ألقت زوجته بعضها.

وكان الدين بالطبع هو القضية الطاغية في إيرلندا، وقد حرم المنشقون-أعني المشيخيين، والمستقلين البيورتان، والمعمدانيين من تقلد الوظائف الحكومية ومن عضوية البرلمان بمقتضى قانون الاختبار، الذي اشترط في الموظف أو عضو البرلمان قبول سر التناول طبقاً للطقس الأنجليكاني. أما قانون التسامح الصادر في 1689 فلم يطبق على إيرلندا. وعبئاً احتج مشيخيو ألتر على هذه القيود، وهاجر الألوف منهم إلى أمريكا، حيث قاتل كثيرون منهم بإخلاص في صفوف جيوش الثوار.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> إيرلندا جراتان

وكان ثمانون في المائة من سكان إيرلندا كاثوليكياً، ولكن لم يكن جائزاً انتخاب أي كاثوليكي لعضوية البرلمان. ولم يملك أرضاً من الكاثوليك إلا قلة. وكان المستأجرون البروتستانت يعطون إيجارات مدى الحياة، أما إيجارات الكاثوليك فلا تمتد أكثر من إحدى وثلاثين سنة؛ وكان عليهم أن يدفعوا ثلثي أرباحهم إيجار(4). ولم يسمح بالمدارس الكاثوليكية، ولكن المسؤولين لم يطبقوا القانون الذي حرم على الإيرلنديين التماس التعليم خارج وطنهم. وقبل بعض الطلاب الكاثوليك في كلية ترنتي، ولكنهم لم يستطيعوا نيل درجة علمية. وسمح بالعبادة الكاثوليكية، ولكن لم يكن هناك وسائل شرعية لإعداد القساوسة الكاثوليك؛ على أنه جاز للطلاب أن يلتحقوا بالكليات اللاهوتية في القارة. وقد

اكتسب بعض هؤلاء الطلاب ما تحلى به الكهنوت في فرنسا وإيطاليا من دماثة طبع وتحرر آراء، فلما عادوا إلى إيرلندا قسماً لقوا الترحيب على موائد البروتستانت المتعلمين، وأعانوا على التخفيف من حدة التعصب على الجانبين، فلما أن دخل هنري جراتان البرلمان الإيرلندي (1775) كانت حركة التحرير الكاثوليكي قد اكتسبت تأييد الألوف من البروتستانت سواء في إنجلترا أو في إيرلندا.

وفي 1760 كان يحكم إيرلندا نائب عن الملك يعينه ملك إنجلترا وهو مسئول أمامه، وبرلمان يسوده الأساقفة الأنجليكان في مجلس اللوردات ويسوده في مجلس العموم ملاك الأرض وأرباب الرواتب الحكومية من الأنجليكان. وكانت الانتخابات البرلمانية خاضعة لنظام الدوائر "العنفة" أو دوائر "الجيب" ذاته المتبع في إنجلترا. وكانت قلة من كبار الأسر تعرف باسم "المتعهدين" تملك أصوات دوائرها كما تملك بيوتها (5). وكانت المقاومة الكاثوليكية للحكم الإنجليزي متفرقة عديمة الفاعلية. ففي 1763 راحت عصابات من الكاثوليك سموا "الصبيان البيض" نسبة للقمصان البيضاء التي كانوا يرتدونها فوق ملابسهم تجوب أنحاء الريف وتهدم سياجات الأراضي المسورة، وتعجز الماشية، وتهاجم جباة الضرائب أو العشور؛ ولكن قبض على زعمائهم وشقوا، وقتل التمرد. وكانت حركة التحرير "القومي" أحسن حظاً. ففي 1776 أخذ أكثر الجنود

صفحة رقم : 14168

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> إيرلندا جراتان

البريطانيون من إيرلندا ليحاربوا في أمريكا، وفي الوقت ذاته اعترى الاقتصاد أو الغزو من الخارج جند بروتستانت إيرلندا جيشاً سموه "المتطوعين". وازداد هؤلاء عدداً وسطوة حتى باتوا في 1780 قوة رهيبية. وبفضل تأييد هؤلاء المسلحين الذي بلغ عددهم أربعين ألفاً ظفر هنري فلود وهنري جراتان بانتصارتهما التشريعية. وكان كلاهما ضابطاً في جيش المتطوعين، وخطيباً مفوهاً من أعظم الخطباء في بلد استطاع أن يبعث ببيرك ورتشارد شريدان إلى إنجلترا ويبقى فيه رغم ذلك معين لا ينضب من البلاغة. ودخل فلود البرلمان الإيرلندي في 1759. وقد تزعم حملة للتخفيف عن الفساد في مجلس كان نصف أعضائه مدينين بالفضل للحكومة. ولكن الرشوة الشاملة هزمت، فاستسلم (1775) بقبول وظيفة نائب المخازن نظير راتب قدره 3.500 جنيه. في ذلك العام انتخبت دائرة دبلن هنري جراتان لعضوية البرلمان. وسرعان ما تبوأ مكان فلود زعيماً للمعارضة. وقد أذاع برنامجاً طموحاً، قوامه التخفيف عن الكاثوليك الإيرلنديين وتحرير "المنشقين" من ريقة قانون الاختيار، وإنهاء القيود الإنجليزية على التجارة الإيرلندية، وتوطيد استقلال البرلمان الإيرلندي. وقد سعى إلى هذه الأهداف بهمة وإخلاص ونجاح. مما جعله معبود الأمة سواء الكاثوليك والبروتستانت. وفي 1778 حصل على الموافقة على قانون يمكن الكاثوليك من الحصول على إيجارات مدتها تسع وتسعون سنة، ومن وراثة الأرض بالشروط التي يرثها البروتستانت. وبعد عام، وبناء على إلحاحه، ألغي قانون الاختيار، وأمن للمنشقين كامل الحقوق المدنية. وقد أفتح هو وفلود البرلمان الإيرلندي ونائب الملك بأن استمرار المعوقات البريطانية للتجارة الإيرلندية من شأنه أن يؤدي إلى العنف الثوري. وكان اللورد نورث، رئيس الحكومة البريطانية آنذ، يجذب إلغاء هذه القيود، ولكن رجال الصناعة الإنجليز انهالوا عليه بوابل من الالتماسات ضد الإلغاء، فأذعن لهم. وبدأ الإيرلنديون يقاطعون البضائع البريطانية، وتجمع "المتطوعون" أمام مبنى البرلمان الإيرلندي وفي أيديهم

صفحة رقم : 14169

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> إيرلندا جراتان

السلاح، وعلى مدافعهم عبارة تقول "حرية التجارة أو هذا". وسحب رجال الصناعة الإنجليز معارضتهم بعد أن أضرت بهم المقاطعة، وأصدر قانون حرية التجارة (1779). ثم ألح جراتان بعد هذا في طلب الاستقلال للبرلمان الإيرلندي. ففي مطلع 1780 اقترح أن يكون لملك إنجلترا وحده، بموافقة برلمان إيرلندا، الحق في التشريع لإيرلندا، وأن بريطانيا العظمى وإيرلندا لا يوحدهما سوى رباط ملكهما المشترك، ولكن اقتراحه هزم. فأعلن المتطوعون الذين اجتمع منهم في دنجانون 25.000 مقاتل (فبراير 1782) أنه لا ولاء لإنجلترا إلا إذا منحت إيرلندا الاستقلال الشرعي. وفي مارس سقطت وزارة اللورد نورث التي شاخت وخلفه في الوزارة روكنجهام وفوكس. وكان المركيز كورنو اليس فقد استسلم أثناء ذلك في يوركنون (1781)، وانضمت فرنسا وأسبانيا إلى أمريكا في الحرب ضد إنجلترا. ولم يكن في وسع بريطانيا أن توجه ثورة إيرلندا في هذا الوقت. وعليه ففي 6 أبريل 1782 أعلن البرلمان الإيرلندي بزعامة جراتان استقلاله التشريعي، وبعد شهر وافقت إنجلترا على هذا التنازل. وقرر البرلمان الإيرلندي منحة لجراتان قدرها 100.000 جنيه، وكان رجلاً فقيراً نسبياً، فقبل نصفها.

كان هذا بالطبع انتصاراً لبروتستانت إيرلندا لا لكاثوليكها. فلما شرع جراتان بتأييد قوي من الأسقف الأنجليكاني فردريك هرفي في حملة لإحراز قسط من التحرير للكاثوليك كان قصارى ما استطاعه (فيما يسميه المؤرخون "برلمان جراتان" وهو الحصول على حق التصويت للملاك الكاثوليك (1792)، فحصلت هذه القلة على حق التصويت دون حق انتخابهم لعضوية البرلمان أو تعيينهم في الوظائف البلدية أو القضائية. وذهب جراتان إلى إنجلترا، وحصل على انتخابه عضواً في البرلمان البريطاني، وهناك واصل حملته. ومات عام 1820، قبل أن يجيز البرلمان قانون التخفيف عن الكاثوليك بتسعة أعوام، وهو القانون الذي سمح للكاثوليك بعضوية البرلمان الإيرلندي، حقاً أن العدالة ليست عمياء فقط؛ إنها أيضاً عرجاء.

صفحة رقم : 14170

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> الخلفية الإسكتلندية

2- الخلفية الإسكتلندية

عندما أدمج اتحاد عام 1707 إسكتلندا مع إنجلترا بواسطة برلمان مشترك، رددت لندن على سبيل النكته أن الحوت قد ابتلع يونان (يونان)؛ وعندما أدخل بيوت (1762 وما بعدها) عشرين من الأسكتلنديين في الحكومة البريطانية تدمر الطرفاء لأن يونان أخذ في ابتلاع الحوت (6). أما من الناحية السياسية فإن الحوت انتصر. فقد ضاع النبلاء الإسكتلنديون الستة عشر ونواب العموم الخمسة والأربعون وسط 108 نبيلاً و513 نائباً إنجليزياً. وأسلمت إسكتلندا سياستها الخارجية، وإلى حد كبير اقتصادها، إلى تشريع يسوده المال الإنجليزي والعقول الإنجليزية. ولم ينس البلدان

عدائهما السابق. فالاسكتلنديين يشكون من أسباب التفرقة التجارية بين يونان والحوث، وصموئيل جونسون ينوب عن الحوث في عضة يونان بإصرار شوفيني. وكانت إسكتلندة تضم في عام 1760 من السكان نحو 1.250.000 نسمة. وكانت نسبة المواليد عالية، ولكن نسبة الوفيات لحقت بهم. وقد كتب آدم سميث حوالي 1770 يقول: "قيل لي أنه ليس من غير المألوف في إقليم المرتفعات الاسكتلندية لأم ولدت عشرين طفلاً ألا يبقى اثنان منهم أحياء" (7). وكان رؤساء القبائل في الإقليم يملكون الأرض كلها تقريباً خارج المدن، ويتركون الزراع فقراء فقراً بدائياً على تربة صخرية تبتلي بوابل من المطر ينهمر صيفاً وبتلوج الشتاء تهطل من سبتمبر إلى مايو. وقد زيدت الإيجارات مراراً فرفعت في إحدى المزارع من خمسة جنيهاً إلى عشرين خلال خمسة وعشرين عاماً (8). وهاجر كثير من الفلاحين إلى أمريكا بعد أن رأوا أن لا مهرب من الفقر في وطنهم، وهكذا "يستطيع زعيم القبيلة الجشع أن يحيل صنيعته برية فقراء" على حد قول جونسون: (9) وكان الملاك يحتجون بهبوط قيمة العملة ذريعة لرفع الإيجار. وكانت الأحوال أسوأ حتى من هذا في مناجم الفحم والملح، حيث كان العمال حتى عام 1775 يربطون بأعمالهم حتى يموتوا (10).

صفحة رقم : 14171

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسون -> جيران إنجلترا -> الخلفية الإسكتلندية

أما في مدن إقليم المنخفضات فإن الثورة الصناعية جلبت الرخاء لطبقة وسطى متسعة ومغامرة. وانتشرت في جنوب غربي إسكتلندة مصانع النسيج الكثيرة. وفضل الصناعات والتجارة الخارجية زاد سكان جلاسجو من 12.500 في عام 1707 إلى ثمانين ألفاً في عام 1800؛ وكانت تضم ضواحي غنية، ومباني ذات شقق في أحياء فقيرة مزدحمة، وجامعة. وفي 1768-90 شقت قناة ربطت نهر ي كلايد وفورث، فأنشأت بذلك طريقاً تجارياً مائياً من أوله لآخره بين الجنوب الغربي الصناعي والجنوب الشرقي السياسي. وكانت إدنبرة-التي ناهز سكانها خمسين ألفاً في 1740-قلب حكومة إسكتلندة وثقافتها ومؤسساتها. وكانت كل أسرة اسكتلندية ميسورة الحال تتطلع إلى قضاء جزء من السنة على الأقل فيها؛ وإليها أتى بوزويل وبيرنز، وفيها عاش هيوم وروبرنسم وريبورن، وهنا ظهر محامون ذائع الصيت مثل ايرسكينز، وقامت جامعة ذات مكانة مرموقة، وجمعية إدنبرة الملكية. وهنا كان المقر الرئيسي للمسيحية الاسكتلندية. وكان الكاثوليك الرومان قلة، ولكن عددهم كان كما رأينا كافياً لإحداث الزعر في بلد ما زال يتجاوب بأصداء دعوة يوحنا فوكس. وكان للكنيسة الأسقفية أتباع كثيرون بين سراة القوم الذين أعجبهم الأساقفة الأنجليكان وطقوس تناول الأنجليكانية. غير أن ولاء السواد الأعظم كان لكنيسة إسكتلندة، "الكيرك البرزبنترية" (المسيحية) التي رفضت نظام الأساقفة، واختزلت الطقوس إلى أدنى حد، ولم تقبل في الدين والأخلاق حكماً غير حكم مجالس أبرشياتها، وشيوخ أقسامها، ومجامع أقاليمها، وجمعيتها العامة. ولعله لم يوجد بلد آخر في أوربا باستثناء أسبانيا-تشرب شعبه اللاهوت بمنزل هذا العمق. وكان في استطاعة مجلس الكنيسة المؤلف من شيوخها وقسيسها أن يفرض الغرامات ويوقع العقوبات على المنحرفين المهترطين، وأن يحكم على الزناة بالوقوف واحتمال التوبيخ العلني أثناء الخدمة الدينية، وقد حاق بروبرت بيرنز وجين أمر مثل هذا العقاب في جلسة للكنيسة في 6 أغسطس 1786. وسيطر الإيمان بالآخرويات الكلفنية على عقول الجماهير فجعلت حرية الفكر خطراً على الحياة والأجساد؛ غير

صفحة رقم : 14172

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> الخلفية الإسكتلندية

أن لفيماً من القساوسة "المعتدلين" يتزعمهم روبرت ولسن وأدم فرجسون ووليم روبرتسن خففوا من تعصب الشعب تخفيفاً كفى لترك ديفد هيوم يموت موتة طبيعية.

وربما كان الدين الصارم لازماً للتصدي لعريضة شعب تدفعه قسوة البرد إلى الشرب حتى يثمل، ويعاني من قسوة الفقر ما يجعل لذته الوحيدة في الجري وراء الجنس. وسيرة بيرنز دليل على أن الرجال كانوا يسكرون ويفسقون رغم الشيطان والقساوسة، وأن الفتيات الراغبات لم يكن نادرات وقد طراً على القوم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر اضمحلال ملحوظ في الإيمان وفي التمسك بالفضائل التقليدية. ولاحظ وليم كريبتش وهو مصور إدنبري، أن يوم الأحد في سنة 1763 كان يوم تعبد ديني، ولكن في 1783 "لقي الحضور إلى الكنيسة إهمالاً شديداً، خصوصاً من الرجال"، وكانت الشوارع في الليل تضج بالشباب المنحل المشاغب "في سنة 1763 هناك خمسة مواخير أو ستة... وفي 1783 ازداد عدد المواخير عشرين ضعفاً، وازداد عدد نسوة المدينة أكثر من مائة ضعف. وابتلى كل حي في المدينة وضواحيها بأعداد غفيرة من الإناث اللاتي استسلمن للرديلة" (11). وكانت لعبة الجولف تصرف الرجال عن الكنيسة إلى اللقاءات أيام الأحاد، أما في باقي أيام الأسبوع فالرجال والنساء يرقصون (وكان الرقص من قبل يعد خطيئة)، ويذهبون إلى المسارح (وكان الذهاب إليها لا يزال يعد خطيئة)، ويختلفون إلى سباقات الخيل، ويقامرون في الحانات والأندية.

وكانت الكنيسة أهم مصدر للديموقراطية والتعليم. فكان شعبها يختار شيوخها، وكان ينتظر من القسيس (الذي يختاره عادة راع أو نصير) أن يدير مدرسة في كل أبرشية. وكان الجوع للتعليم شديداً. وكانت جامعة سانت أندروز، من بين الجامعات الأربع، قد اضمحلت، ولكنها تزعم أنها تملك خير مكتبة في بريطانيا. وقد وجد جونسن جامعة أبردين مزدهرة في 1773. أما جامعة جلاسجو فضمت بين أساتذتها جوزف بلاك الفيزيائي، وتوماس ريد الفيلسوف، وأدم سمث الاقتصادي، فضلاً عن إيوانها لجيمس وات. وأحدث الجامعات الأربع هي جامعة إدنبرة، ولكنها كانت تضطرب بما أنتت به حركة التنوير الاسكتلندية من إثارة.

صفحة رقم : 14173

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> التنوير الإسكتلندي

3- التنوير الإسكتلندي

لا يمكن أن يعلل تفجير العبقرية الذي أضاع إسكتلندا بين مبحث هيوم "في الطبيعة البشرية" (1739) وكتاب بوزيول "حياة جونسن" (1791) ألا بنمو تجارتها مع إنجلترا والعالم وتقدم الصناعة في إقليم السهول. ففي الفلسفة نبغ فرانسيس هنتيسن، وديفي هيوم، وأدم فيرجسن؛ وفي الاقتصاد آدم سمث؛ وفي الأدب جون هيوم (12)، وهنري هيوم (اللورد كيمس)، ووليم روبرتسن، وجيمس مكفرسن، وروبرت بيرنز، وجيمس بوزويل؛ وفي العلوم جوزف بلاك، وجيمس وات، ونيفل ماسكلين، وجيمس هاتن، واللورد مونودو (13)؛ وفي الطب جون ووليم هنتر: (14) هؤلاء

كوكبة تضارع النجوم التي سطعت في إنجلترا حول "الدب الأكبر" (جونسون)! وقد ألف هيوم وروبرتسن وغيرهما في إدنبرة "جمعية من الصفوة" للمناقشات الأسبوعية في الأفكار. واتصل هؤلاء الرجال وأشباههم بالفكر الفرنسي لا الإنجليزي، من جهة لأن فرنسا كانت منذ قرون مرتبطة بإسكتلندا، ومن جهة أخرى لأن الخصومة المستطيلة بين الإنجليز والإسكتلنديين عاقت اندماج الثقافتين. وكان هيوم سيئ الظن بالفكر الإنجليزي في جيله، إلى أن صدر كتاب "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" في عام موته فرحب بصدوره شاكرًا.

ولقد وفيينا من قبل ديننا لهتسن وهيوم (15). فلنلق الآن نظرة على عدو هيوم الكريم النفس، توماس ريد، الذي كافح ليرد الفلسفة من الميتافيزيقا المثالية إلى قبول واقع موضوعي. وقد ألف وهو يدرس في أبردين وجلاسجو كتابه "بحث في العقل البشري حول مبادئ الفطرة السليمة" (1764). وقبل أن ينشره أرسل المخطوطة إلى هيوم مشفوعة بخطاب مذهب يحتمل تحياته، ويشرح أسفه على اضطرابه لمعارضة شكوكية صاحبه الأكبر سنًا. ورد عليه هيوم بلطفه المعهود، وطلب إليه أن ينشر الكتاب دون خوف من ملامة (16).

وكان ريد قد سلم من قبل برأي باركلي القائل بأننا نعرف الأفكار فقط،

صفحة رقم : 14174

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> التنوير الإسكتلندي

ولا نعرف الأشياء أبدًا. فلما أكد هيوم بمثل هذا الاستدلال أننا نعرف الحالات العقلية فقط، دون أن نعرف مطلقًا "عقلًا" ملحقاتًا بها، أحس ريد أن مثل هذا التحليل المثقل بالتفاصيل غير هامة يقوض كل تفرقة بين الصدق والكذب، وبين الحق والباطل، وكل لإيمان بالله أو الخلود. وذهب إلى أنه اضطر لتنفيذ آراء هيوم اتقاء هذه الكارثة، ولكي يفند آراء هيوم كان عليه أن يرفض باركلي.

وعليه فقد سخر من الفكرة القائلة بأننا لا نعرف غير أحاسيسنا وأفكارنا، فنحن على العكس من هذا نعرف الأشياء مباشرة ولتو، و "من الإسراف في الرهافة" فقط أن نخلل تجربتنا مع وردة مثلاً، فنردها إلى حزمة من الأحاسيس والأفكار، والحزمة حقيقية، ولكن الوردة أيضاً حقيقية، وهي تحتفظ ببقاء ثابت بعد أن تتوقف احساساتنا بها. والصفات الأولية كالحجم والشكل والصلابة والنسيج والنقل والحركة والعدد تنتمي بالطبع إلى العالم الموضوعي، ولا تتغير ذاتياً إلا بفعل الأوهام الذاتية، وحتى الصفات الثانوية لها مصدر موضوعي بقدر ما تنشأ الأحاسيس الذاتية عن الأصول الطبيعية أو الكيميائية في الشيء أو البيئة-الرائحة، أو الطعم أو الدفء، أو اللعان، أو اللون، أو الصوت (17).

والإدراك الفطري السليم بنينا بهذا، غير أن "مبادئ الإدراك الفطري السليم ليست أهواء الجماهير الجاهلة، إنما هي المبادئ الغريزية" التي يرشدنا تكوين طبيعتنا (أي الإدراك الذي نشترك فيه كلنا) إلى الإيمان بها، والتي يتحتم علينا بالضرورة التسليم بها في الشؤون المشتركة للحياة (18)، وبالقياس إلى هذا الإحساس العام الذي يختبر كل يوم ويؤكد ألف مرة، تكون استدلالات الميتافيزيقا الخيالية مجرد لعبة يلعبها المرء في وحدته التي يهرب فيها من العالم؛ بل أن هيوم نفسه، باعترافه، كان يلقي عنه هذه اللعبة العقلية إذا غادر حجرة مكتبه (19). ولكن هذا الرجوع إلى الحس المشترك يرد الواقع إلى العقل: فليست الأفكار وحدها هي الموجودة، فهناك كائن حي، وعقل، وذات، لها أفكار. واللغة نفسها شاهد على هذا الاعتقاد العام: فكل لغة ضمير منفرد للمتكلم، فـ "أنا" هو الذي يشعر، ويتذكر،

صفحة رقم : 14175

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> التنوير الإسكتلندي

ويفكر، ويحب. "لقد بدا أن من الطبيعي جداً التفكير في أن "البحث في الطبيعة البشرية" احتاج إلى مؤلف يكتبه، ومؤلف في غاية الذكاء والبراعة، ولكن يقال لنا الآن أنه ليس إلا مجموعة من الأفكار اجتمعت معاً ورتبت نفسها بارتباطات وانجذابات معينة" (20).

وقرأ هيوم هذا كله بابتهاج وود، ولم يستطع أن يقبل نتائج ريد اللاهوتية، ولكنه احترم مزاجه المسيحي، ولعله أحس بالراحة في دخيلة نفسه حين عرف أن العالم الخارجي موجود على كل حال، برغم باركلي، وأن هيوم موجود برغم هيوم. كذلك استشعر الجمهور القارئ أيضاً الراحة، واشترى ثلاث طبعات من كتاب ريد "البحث" قبل موته. وكان بوزويل من بين سرى عنهم، فهو يبيننا بأن كتاب ريد "هدأ عقل الذي أنتابه القلق الشديد من طول التفكير العويص بالأسلوب التجريدي الشكوكي" (21).

وأضاف الفن اللون إلى عصر النور الإسكتلندي. فالأخوة "آدم" الأربعة الذين تركوا بصمتهم على العمارة الإنجليزية، كانوا إسكتلنديين. وقد هاجر ألن رمزي (بن الشاعر ألن رمزي) إلى لندن (1752) بعد أن أخفق في نيل التقدير في وطنه إدنبرة، وبعد سنوات من الكدح غير "مصوراً عادياً" للملك، مما أثار حفيظة الفنانين الإنجليز. وقد رسم صورة حسنة لجورج الثالث (22)، وأحسن منها لزوجته (23). غير أن انخلاع ذراعه اليمنى أنهى احترافه للتصوير. أما السر هنري ريبون فكان رينولز إسكتلندي. وكان بناً لرجل صناعة في ادنبره، علم نفسه التصوير بالزيت، ورسم أرملة وارثة بلغ من رضائها عن صورتها أنها تزوجته ومهرته بثروتها. وبعد أن درس عامين في إيطاليا عاد إلى إدنبرة (1787)، وسرعان ما تكاثر زبائنه فضاقت وقته عن رسمها؛ رسم روبرتسن، وجون هيوم، ودوجالد ستيوارت، والتر سكوت، وأفضل صورة، صورة اللورد نيوتن-جسد هائل، ورأس ضخمة، وشخصية من حديد امتزج بالبلسان. على النقيض لاحظ الجمال المتواضع الذي وجده ريبون في زوجته (24). وكان أحياناً ينافس رينولز

صفحة رقم : 14176

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> التنوير الإسكتلندي

في تصوير الأطفال، كما نرى في لوحته "أطفال دراموند" المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفنون. وقد أنعم على ريبون بلقب الفروسية في 1822، ولكنه مات بعد عام بالغاً السابعة والستين. ثم تفوق التنوير الإسكتلندي في مؤرخيه. فقد شارك آدم فيرجسن في تأسيس دراسة علم الاجتماع والسيكولوجية الاجتماعية بكتابه "مقال تاريخ المجتمع المدني" (1776) الذي طبع سبع مرات في حياته. والتاريخ في رأيه -لا يعرف الإنسان إلا عائشاً في جماعات، فإن شئنا فهم هذا الإنسان وجب أن نراه مخلوقاً اجتماعياً ولكنه متنافس-مركب من عادات اجتماعية ورغبات فردانية. وتطور الخلق والتنظيم الاجتماعي كلاهما يحدده تفاعل هاتين النزعتين المتعارضتين، وندر أن تتأثر بأفكار الفلاسفة. والمنافسة الاقتصادية، والخصومات السياسية، وألوان التفرقة الاجتماعية، والحرب ذاتها-كل أولئك مركب في طبيعة البشر، وسيظل كذلك أبدياً، وهو يعمل بوجه عام على تقدم النوع الإنساني.

وكان فيرجسن في زمانه لا يقل شهرة عن آدم سميث، ولكن صديقيهما وليم روبرتسن فاقهما شهرة. ونحن يذكر أمنية فيلاند التي تمنها لشيلر مؤرخاً، بأن "يرقى إلى مستر هيوم، وروبرتسن، وجيون" (25). وقد تساءل هوراس ولبول في 1756: "أيمكن أن يخطر لنا أننا نفتقد مؤلفين في التاريخ ما دام مستر هيوم ومستر روبرتسن أحياء؟.. أن كتابة روبرتسن تمتاز بأصفي ما قرأت أسلوباً وأعظمه نزاهة" (26). وكتب جيون في "مذكراته" يقول: "أن إنشاء الدكتور روبرتسن الذي بلغ الكمال، ولغته المشبوبة، ووقفاته المحكمة، أثرت في إلى حد التطلع الطموح إلى تأثر خطواته يوماً ما" (27)، وقال "أن الطرب يهزني كلما وجدت نفسي معدوداً ضمن ثالث المؤرخين البريطانيين" مع هيوم وروبرتسن (28). وقد عد هذين المؤرخين مع جويكارديني ومكيافلي أعظم المؤرخين المحدثين، ثم وصف روبرتسن في تاريخ لاحق بأنه "أول مؤرخي العصر الحاضر" (29).

صفحة رقم : 14177

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> التنوير الإسكتلندي

كان روبرتسن، مثل ريد، قسيساً وابن قسيس. عين راعياً لكنيسة جلادزموير وهو في الثانية والعشرين (1743) ثم أنتخب بعد عامين لعضوية الجمعية العامة للكنيسة الإسكتلندية. وأصبح فيها قائد المعتدلين، وقد حمى المهرطيين أمثال هيوم. وبعد ست سنوات من الجهد الشاق والدرس الدعوب للوثائق والمراجع، أصدر عام 1759 "تاريخاً لإسكتلندا في عهد الملكة ماري وجيمس السادس حتى ارتقائه عرش إنجلترا"، واختتم في تواضع حيث بدأ هيوم كتابه "تاريخ إنجلترا". وقد أبهج الكتاب إسكتلندا لتجنبه عبادة ماري ملكة الإسكتلنديين، وأبهج الإنجليز بأسلوبه - رغم أن جونسن أضحكه أن يجد بعض الألفاظ الثقيلة الجونسونية الطابع. وقد طبع الكتاب تسع طبعات في ثلاثة وخمسين عاماً.

على أن رائعة روبرتسن الكبرى كانت كتابه "تاريخ حكم الإمبراطور شارل الخامس" (1769) ذا المجلدات الثلاثة. وفي وسعنا الحكم على مدى السمعة التي حظي بها من الثمن الذي نقده عليه الناشر وهو 4.500 جنيه بالقياس إلى 600 جنيه تلقاها عن تأليف تاريخ إسكتلندا. وقد أثنت أوروبا على الكتاب الجديد في ترجماته المختلفة. وكانت كاترين الكبرى تحمله معها في رحلاتها الطويلة، وقد قالت "إنني لا أكف عن قراءته أبداً، خصوصاً المجلد الأول منه" (30)، وقد أبهجها كما يبهجنا كلنا ذلك التمهيد الطويل الذي استعرض التطورات الوسيطة التي انتهت بمجيء شارل الخامس. والكتاب تقادم نتيجة الأبحاث اللاحقة، ولكن ما من عرض لاحق للموضوع يمكن أن يباريه بوصفه أثراً أدبياً. ومن دواعي السرور أن نلاحظ أن التناء الذي ظفر به الكتاب، والذي كان أعظم كثيراً من النفرط الذي ناله "تاريخ" هيوم، ولم يوهن ما كان بين القسيس والزنديق من صداقة وود.

وأشهر من الإثنين جيمس مكفرسن، الذي سوى جونه بينه وبين هومر، ورفع نابليون فوق هومر (31) ففي 1760 أعلن مكفرسن الذي كان آنئذ في عامه الرابع والعشرين أن ملحمة على شيء من الطول والروعة تحويها مخطوطات غيلية متفرقة سيضطلع بجمعها وترجمتها إن أتيح له مدد من المال. وجمع المال فيرجسن وهوبلير (وهو قسيس مشيخي مفوه

صفحة رقم : 14178

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> التتوير الإسكتلندي

من إنبرة). وجاب مكفرسن واثان من الدارسين الغيليين أرجاء المرتفعات الاسكتلندية وجزر الهيريد، وجمعوا المخطوطات القديمة، وفي 1762 نشر مكفرسن كتابه "فنجال، ملحمة قديمة في ستة أجزاء... ألفها أوسيان، بن فنجال، وترجمت عن اللغة الغيلية". وبعد عام نشر ملحمة أخرى، اسمها "تيمورا" زعم أنها من تأليف أوسيان، وفي 1765 نشر الملحميتين بعنوان "أعمال أوسيان".

أما أوسيان هذا فهو كما تزعم الأسطورة (الإيرلندية والأسكتلندية) الابن الشاعر للمحارب فن ماكومهيل(32)، ويروون أنه عمر ثلاثمائة سنة، وامتد به الأجل حتى أعرب عن معارضته الوثنية للاهوت الجديد المجلوب إلى إيرلندا على يد القديس باتريك. وبعض القصائد المنسوبة له احتفظ بها في ثلاثة مخطوطات من القرن الخامس عشر، خصوصاً في "كتاب لزومور" الذي جمعه جيمس ماكريجور في 1512، وكان مكفرسن يملك هذه المخطوطات(33). وقد روى فنجال كيف دعا المقاتل الشاب، بعد أن هزم غزاة إيرلندا الأسكتلنديين، هؤلاء الغزاة إلى مأدبة ونشيد سلام. والقصة مروية رواية تبيض بالحياة، يذفنها تغزل الاسكتلنديين في الفتيات الإيرلنديات. ويقول أحد المقاتلين لمورنا ابنة الملك كورماك ما أشبهك بالثلج فوق المرج. أن شعرك كضباب كروملا حين يتجدد فوق الربى، حين يتألق لشعاع الغرب! ونهداك صخرتان ناعمتان تريان من "برانو" ذي الجدول، وذراعاك كعمودين ناصعي البياض في أبهاء فنجال العظيم"(34). ثم نلتقي بنهود أخرى، أقل تحجراً: "نهد أبيض" و "نهد نافر" و "نهد ممثلي"(35)، وهي تلهي القارئ قليلاً، ولكن القصة لا تلبث أن تنصرف عن الحب إلى أحقاد الحرب.

وأثار "أوسيان" مكفرسن ضجة في إسكتلندا، وإنجلترا، وفرنسا، وألمانيا. فرحب به الاسكتلنديين صفحة من ماضيهم الوسيط البطولي، وكانت إنجلترا مهياة لتقبل رومانس الأسطورة الغيلية وهي التي كانت في 1765 ترحب بكتاب يرسي "مخلفات من الشعر الإنجليزي القديم". أما جوته فقد أرانا في ختما "الام فرتر" (1774) بطله يقرأ للوتى ست

صفحة رقم : 14179

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> التتوير الإسكتلندي

صفحات من أوسيان. وكانت تحوي قصة دورا العذراء الرقيقة يرويهها أبوها أومين: كيف أغرتها "الأرض" الشريرة واقتادتها إلى صخرة في البحر بوعدا بأن حبيبها أرمار سيلقاها هناك، وكيف تركتها الأرض على الصخرة، وما من حبيب أتى. "فرفعت صوتها، ونادت على أخيها وأبيها: ارندال! أرمين!" وجدف ارندال لينقذها، ولكن سهماً أطلقه عدو مختبئ فتك به، وجاء حبيبها أرمار إلى الشاطئ، وحاول أن يسبح إلى دورا، "ولكن ريحاً عاصفة من التل طغت فجأة على الأمواج، فغاص في اليم، ولم يطف بعدها". أما الأب الذي كان أعجز وأضعف من أن يخف لنجدتها فأخذ يصرخ مرتعباً يائساً:

على الصخرة التي يلطمها اليم سمعنا ابنتي تستغيث وهي وحيدة. وكانت صرختها مترددة عالية فما الذي في وسع أبيها أن يفعله؟ لقد وقفت على الشاطئ الليل كله وأبصرتها على ضوء القمر الكليل... وكان للريح ضجيج والمطر ينهمر وابلأ على التل. وقبل أن ينبلج الصبح كان صوتها قد خفت، ثم تلاشى كأنه نسيم المساء بين عشب الصخور. وقد قضت كمداً وحرناً.

"لقد ضاعت قوتي في الحرب، وسقطت كبريائي بين النساء، وحين تهب العاصفة العاتية، وحين ترفع ريح الشمال الموح عاليًا أجلس إلى الشاطئ الصاخب وأنظر إلى الصخرة القائلة. وكثيراً ما أرى أشباح أطفال علي ضوء القمر الغارب... أما يتكلم أحدكم رحمة بي!" (36).

ولم يلبث أن ثار جدل حول الملحمة: فهل "أوسيان" حقاً ترجمة الملاحم الغيلية العتيقة، أم أنه سلسلة من القصائد نظمها مكفرسن ودسها على شاعر ربما لم يعيش قط؟ لقد صدق دعوى مكفرسن هررد وجوته في ألمانيا، وديرو في فرنسا، وهوبلير ولورد كيمز في إسكتلندا. ولكن في 1775 أعلن صموئيل جونسن في كتابه "رحلة إلى جزائر إسكتلندا الغربية" بعد تحقيقات في الهيريد (1773) رأيه في القصائد الأوسيانية: "أعتقد أنها لم توجد قط في أي صورة إلا الصورة التي رأيناها عليها. فلم

صفحة رقم : 14180

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> التنوير الإسكتلندي

يستطع المحرر، أو المؤلف، إبراز الأصل قط، ولن يستطيع ذلك غيره كائناً من كان" (37). وكتب مكفرسن لجونسن يقول إن شيخوخة الرجل الإنجليزي وحدها هي التي تحميه من تحديه للمبارزة أو من ضربه "عقله". ورد جونسن "أرجو ألا تعوقني أبداً سفالة وشب عن كشف ما أعتقد أنه غش وزيف... لقد كان رأيي في كتابك أنه منقول، وما زال رأيي فيه كذلك.. أما غضبك فإني أتداه" (38). وشارك هيوم وهوراس ولبول وغيرهما جونسن شكوكه. ولما طلب إلى مكفرسن أن يبرز الأصول التي زعم أنه ترجمها تباطأ، ولكنه ترك عند موته مخطوطات ملاحم غيلية، استعمل بعضها في وضع حبكة قصائده وتقرير طابعها. وقد أخذ عن هذه النصوص الكثير من العبارات والأسماء، ولكن الملحمتين كانتا من إنشائه.

على ان الغش لم يكن بالشدة أو الشناعة اللتين زعمهما جونسن: فلنسمه جوازاً شعرياً على نطاق واسع جداً. والملحمتان الشعريتان النثريتان، إذا أخذناهما في ذاتهما، تبرران بعض ما حظيتا به من إعجاب. فقد أعربتا عن جمال الطبيعة وأهوالها، وعن ضراوة الحقد، وعن لذة الحرب. وكان فيهما نزعة عاطفية مسرفة في الرقة، ولكنهما جمعنا إليها بعض السمو الذي أوحى به السر توماس مالوري قبل ذلك في قصيدته "موت آرثر" (1470). وقد صعدتا إلى قمة الشهرة على الموجة الرومانتيكية التي غمرت حركة التنوير.

صفحة رقم : 14181

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> آدم سمث

كان آدم سمث بعد هيوم أعظم شخصية في التنوير الاسكتلندي. وقد مات أبوه قبل مولده (1723) بشهور، وكان مراقباً للجمارك في كركلدي. وكانت المغامرة الوحيدة تقريباً في حياة رجل الاقتصاد يوم خطفه الغجر وهو طفل في الثالثة ثم تركوه على جانب الطريق بعد أن طوردوا. وبعد أن تلقى آدم بعض التعليم المدرسي في كركلدي، واختلف إلى محاضرات هنتسن في جلاسجو، ذهب إلى أكسفورد (1740) حيث وجد المدرسين كسالى تافهين كما سيصفهم جبون في 1752. وعلم سمث نفسه بالإطلاع، ولكن سلطات الكلية صادرت النسخة التي اقتناها من مبحث هيوم في الطبيعة

صفحة رقم : 14182

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> آدم سمث

البشرية بحجة أن الكتاب لا يصلح إطلاقاً لشباب مسيحي. وكفته سنة واحدة مع أساتذة الكلية؛ وكان أكثر حياً لأمه، فعاد إلى كركلدي، وواصل استغراقه في القراءة. وفي 1748 انتقل إلى إدنبرة، حيث حاضر مستقلاً في الأدب والبيان. وقد أعجبت محاضراته بعض ذوي النفوذ، فعين في كرسي المنطق بجامعة جلاسجو (1751)، وأصبح بعد عام أستاذ الفلسفة الأخلاقية-التي شملت الأخلاق، والقانون، والاقتصاد السياسي. وفي 1759 نشر استنتاجاته الأخلاقية في كتابه "نظرية العواطف الأخلاقية"، الذي حكم الكل بأنه "أهم كتاب كتب في هذا الموضوع الشائق" (40) متجاهلاً في هذا الحكم أرسطو وسبينوزا.

وقد استخلص سمث أحكامنا الأخلاقية من ميلنا التلقائي لتخيل أنفسنا في نوقف الغير؛ فحن بهذا نردد أصداء عواطفهم، وبهذا التعاطف، أو المشاركة الوجدانية، نحمل على الاستحسان أو الاستهجان (41). والحس الأخلاقي متأصل في غرائزنا الاجتماعية، أو في العادات العقلية التي نتخذها بوصفنا أفراداً في المجتمع، ولكنه لا يتعارض مع محبة الذات. وقمة التطور الأخلاقي للإنسان يبلغها حين يتعلم لأن يحكم على نفسه كما يحكم على الآخرين، "وأن يسوس نفسه طبقاً للمبادئ الموضوعية-مبادئ الإنصاف، والقانون الطبيعي، والحكمة، والعدالة" (42). والدين ليس المصدر ولا الركيزة لعواطفنا الأخلاقية، ولكن هذه العواطف تتأثر تأثراً قوياً بالإيمان بانبعثات ناموس الأخلاقي من إله في يده الثواب والعقاب (43).

وفي 1764 عين سمث-الذي بلغ الآن الحادية والأربعين-معلماً خاصاً ومرشداً يرافق الدوق بكليوتمش البالغ ثمانية عشر ربيعاً في سياحة في أوربا. وقد أتاح له الأجر الذي كان يتقاضاه في هذه المهمة-وهو 300 جنيه في العام-الاطمئنان والفرغ اللذان أعاناه على تأليف رائعته التي بدأ كتابتها خلال إقامته في تولوز ثمانية عشر شهراً. وقد زار فولتير في فرنیه، والنقى في باريس بهلفتيوس ودالمبير وكرتیه وطورجو. فلما عاد إلى إسكتلندا عام 1766 عاش السنوات العشر التالية قانعاً مع أمه في كركلدي عاكفا

صفحة رقم : 14183

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> آدم سميث

على تأليف كتابه. وظهر الكتاب واسمه "بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها" عام 1776. وقد رحب به هيوم في رسالة بعث بها إلى سميث ومات بعدها بقليل.

وكان هيوم نفسه في مقالاته قد أعان على تشكيل آراء سميث الاقتصادية والأخلاقية جميعاً. فقد سخر من "المذهب المركنتلي" الذي حذب التعريفات الجمركية الحامية، والاحتكارات التجارية، وغيرها من الإجراءات الحكومية التي يراد بها ضمان زيادة الصادرات على الواردات، والاستثمار من المعادن النفيسة باعتبارها الثروة الأساسية للأمة. وقال هيوم أن هذه السياسة أشبه بالجهد لمنع الماء من بلوغ مستواه الطبيعي، ثم عاد لتحرير الاقتصاد من "المعوقات التي لا يحصى عددها... والرسوم التي فرضها على التجارة جميع أمم أوروبا وفاققتها كلها إنجلترا في هذا المضمار" (44). وكان سميث بالطبع على بينة من الحملة التي شنّها كرتيه وغيره من الفيزيوقراطيين الفرنسيين على اللوائح والأنظمة المعوقة للصناعة والتجارة والتي فرضتها نقابات الطوائف الحرفية والحكومات، ومطالبتها بسياسة من عدم التدخل تترك الطبيعة تجري مجراها، وتجد فيها جميع الأسعار والأجور مستواها في منافسة حرة. وكانت الثورة الوليدة آنذاك في أمريكا على القيود التي فرضتها بريطانيا على تجارة المستعمرات جزءاً من خلفية تفكير سميث. ولو استرشدت الحكومة البريطانية بحرية التجارة التي أشار بها لكان من الجائز ألا يشهد عام صدور كتابه "إعلان الاستقلال" الأمريكي.

وكان لسميث آراء في النزاع بين بريطانيا وأمريكا. فعنده أن الاحتكار الإنجليزي لتجارة المستعمرات "من الذرائع الخبيثة التي يستخدمها النظام المركنتلي" (45). وقد اقترح إعطاء أمريكا استقلالها دون مزيد من النزاع ما دام المستعمرون يرفضون أن تجبى منهم الضرائب لدعم نفقات الإمبراطورية البريطانية "وبهذا الفراق، فراق الأصدقاء المتفاهمين، لن تلبث المودة الطبيعية التي بين المستعمرين ووطنهم الأم. أن تنتعش بسرعة، وقد تحملهم. على إثارتنا في الحرب كما يؤثروننا في التجارة، وبدلاً من أن يكونوا رعايا مزعجين مشاغبين يصبحون أوفى... وأكرم حلفاء لنا" (46). ثم أضاف

"لقد بلغ التقدم السريع الذي أحرزه ذلك البلد هذا المبلغ الكبير من الثروة والسكان والتحسين، بحيث قد لا ينقضي أكثر من قرن إلا قليلاً حتى يزيد ما تغله أمريكا من مال على حصيلة الضرائب البريطانية. وعندها ينقل مقر الإمبراطورية بالطبع نفسه إلى ذلك الجزء من الإمبراطورية الذي ساهم بأكبر نصيب في الدفاع عن الكل وفي دعمه" (47).

وقد عرف سميث ثروة أمة من الأمم لا بأنها مقدار الذهب أو الفضة الذي تمتلكه، بل الأرض وتحسيناتها وغلاتها، والشعب وجهده وخدماته ومهاراته وسلعه. وكانت نظريته أن أكبر الثروات المادية تكون نتيجة لأكثر الحريات الاقتصادية، وهذا مع بعض الاستثناءات. وحب المنفعة الشخصية أمر عام بين جميع الناس، ولكننا لو سمحنا لهذا الدافع القوي بالعمل بأقصى حرية اقتصادية لحفز من النشاط والجرأة والمنافسة ما يثمر من الثروات أكثر من أي نظام آخر عرفه التاريخ، (وهذه الفكرة هي فحوى قصة مندفيل الخرافية على النحل (48). في شرح تفصيلي) وقد آمن سميث بأن قوانين السوق -خصوصاً قانون العرض والطلب- ستتنسق بين حرية المنتج ومصالح المستهلك؛ ذلك أنه لو حقق المنتج أرباحاً باهظة لدخل غيره الميدان نفسه، ولأبقى التنافس المتبادل بينهما الأسعار والأرباح في نطاق حدود معقولة. ثم أن المستهلك سيتمتع بضرب من الديموقراطية الاقتصادية. ذلك أنه بالشراء أو برفض الشراء سيقدر إلى حد كبير أي السلع تنتج، وأي الخدمات تقدم وبأي مقدار وثمن، بدلاً من أن تملّي الحكومة كل هذه الأمور.

واتباعاً للفيزيوقراطيين (ولكن مع الحكم بأن نواتج العمل وخدمات التجارة ثروة حقيقية كنتاج الأرض) دعا سميث لإنهاء الرسوم الإقطاعية، والقيود النقابية، واللوائح الاقتصادية الحكومية، والاحتكارات الصناعية أو التجارية، لأنها جميعاً تحد من تلك الحرية التي تتيح التحرك بعجلات الإنتاج والتوزيع، بسماعها للفرد بأن يعمل، وينفق، ويوفر، ويشترى، ويبيع كما يشاء. وعلى الحكومة أن تطلق حرية العمل دون تدخل منها، وأن تترك الطبيعة -أي نوازع الناس الفطرية- تعمل طليقة، وأن تسمح

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> آدم سميث

للفرد بأن يدبر أمره بنفسه، وأن يجد عن طريق التجربة والخطأ العمل الذي يستطيع أداءه، والمكان الذي يستطيع شغله، في الحياة الاقتصادية، وأن تدعه يغرق أو يعوم.

"إننا لو اتبعنا نظام الحرية الطبيعية هذا، لكان على الملك (أو الدولة) ثلاثة واجبات تتطلب الاهتمام بها"... أولها واجب حماية المجتمع من عنف وغزو جماعات مستقلة أخرى؛ وثانيها واجب حماية أسي عضو في المجتمع، جهد الاستطاعة، من ظلم وقهر كل عضو آخر فيه، أي واجب إرساء إدارة صارمة للعدالة؛ وثالثها واجب الإنفاق على الأشغال العامة والمؤسسات العامة التي لا يمكن إطلاقاً أن يكون من مصلحة أي فرد، أو أي نفر قليل من الأفراد، القيام بها أو الإنفاق عليها(49).

هنا نجد صيغة الحكومة الجفرسونية، والهيكل العام لدولة تتيح للرأسمالية الجديدة أن تنمو وتترعرع جداً. على أن الصيغة كانت تنطوي على ثغرة. فما الرأي إذا كان منع الظلم يتضمن الالتزام بمنع استخدام الماكربين أو الأقوياء للسذج أو الضعفاء استخداماً غير إنساني؟ وقد أجاب سميث: أن ظلماً كهذا لا ينجم إلا عن الاحتكارات المقيدة للمنافسة أو التجارة، وقد وعدت مبادئه لإلغاء الاحتكارات. ويجب أن نعتمد في تنظيم الأجور على تنافس أرباب العمل على العمال، وتنافس العمال على الأعمال؛ وكل المحاولات التي تبتذلها الحكومات لتنظيمها تحبطها قوانين السوق إن عاجلاً أو آجلاً. ومع أن العمل (لا الأرض كما اعتقد الفيزوقراطيين) هو المصدر الوحيد للثروة(50)، إلا أنه سلعة، شأنه شأن رأس المال، وهو خاضع لقوانين العرض والطلب. "كلما حاول القانون تنظيم أجور العمال، كان التنظيم دائماً بخفض هذه الأجور لا رفعها"(51)، وذلك لأنه "كلما حاولت الهيئة التشريعية تنظيم الفوارق بين السادة وعمالهم، كان مستشاروها دائماً هم السادة"(52). وهذا الكلام كتب في وقت كان فيه القانون الإنجليزي يجيز لأرباب العمل، ويحرم على العمال، تنظيم أنفسهم لحماية لمصالحهم الاقتصادية. وقد ندد سميث بهذا التحيز من جانب القانون،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> آدم سميث

وتوقع حصول العمال على أجور أفضل لا بالتنظيم الحكومي بل بالتنظيم العمالي(53). وكان رائد الرأسمالية المزعوم هذا دائم الانحياز إلى العمال ضد أصحاب الأعمال. فحذر من مغبة ترك التجارة ورجال الصناعة يقررون سياسة الحكومة:

"أن مصلحة التجار... في أي فرع من فروع التجارة أو الصناعات هو دائماً مختلف من بعض الوجوه بل متعارض مع مصلحة الجمهور... واقترح أي قانون جديد، أو أي تنظيم للتجارة، يصدر عن هذه الطبقة ينبغي دائماً الاستماع إليه بغاية الحذر... فهو صادر عن طبقة من الناس... لهم بوجه عام مصلحة في أن يخدعوا الجمهور بل أن يبيغوا عليه، وهم... في مناسبات كثيرة خدعوه وبغوا عليه أيضاً"(54).

أهذا آدم سميث أم كارل ماركس؟ غير أن سميث دافع عن الملكية الخاصة لأنها حافز لا غنى عنه للجرأة والمغامرة، وآمن بأن عدد الأعمال المتاحة، والأجور المدفوعة، سيتوقف أولاً وقبل كل شيء على تجميع رأس المال

واستخدامه(55). ومع ذلك فقد دعا لرفع الأجور باعتبار هذا الرفع مجزياً لصاحب العمل والعامل على السواء(56)، وألح على إلغاء الرق على أساس أن "العمل الذي يؤديه الأحرار هو في النهاية أرخص من ذلك الذي يؤديه العبيد"(57).

وحين ننظر إلى سمث ذاته، في مظهره، وعاداته، وخلقه، نعجب كيف كتب رجل معزول على هذا النحو عن عمليات الزراعة والصناعة والتجارة في هذه الواقعية والبصيرة والجرأة. لقد كان شاردهم كنيوتن، قليل الاعتداد بالعرف والتقاليد، ومع أنه كان عادة مهذباً لطيفاً، فقد كان في وسعه أن يقابل جلافة صموئيل جونسن برد سريع من كلمات أربع تتشكك في شرعية نسب "الخان الأكبر". وبعد نشر كتابه "ثروة الأمم" قضى عامين في لندن حيث استمتع بالتعرف إلى جون ورينولدز وبيرك" وفي 1778 عين رسول حرية التجارة هذا-

صفحة رقم : 14186

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> آدم سمث

رئيساً للجمارك المتحصلة من إسكتلندا. وبعدها عاش في إدنبرة مع أمه، وظل أعزباً إلى النهاية. وقد ماتت أمه في 1784، ولحق بها في 1790 بالغا السابعة والستين. وسر إنجازه الكبير ليس في أصالة تفكيره بقدر ما هو في التمكن من بياناته والتنسيق بينها، وفي غنى مادته التوضيحية، وفي التطبيق المنير للنظرية على الأحوال الجارية، وفي أسلوبه البسيط الواضح المقنع، وفي نظريته العريضة التي رفعت الاقتصاد من مرتبة "العلم الكئيب" إلى مستوى الفلسفة. وكان كتابه علامة عصر لأنه محص وفسر ولم ينتج بالطبع-الحقائق والقوى التي أخذت تحول الإقطاعية والتجارية إلى الرأسمالية والمشروعات الحرة. وحين خفضت الثاني الضريبة المفروضة على الشاي من 199% إلى 12% وحاول عموماً أن يحقق للتجارة حرية أكبر، اعترف بدينه لكتاب "ثروة الأمم". وبخبرنا اللورد روزبري في حديثه عن حفلة عشاء حضرها بت، كيف أن الحاضرين على بكرة أبيهم قاموا وقوفاً حين دخل سمث وقال بت "سنظل واقفين حتى تجلس، لأننا جميعاً تلامذتك"(58). وقد تتبأ السر جيمس مري بلنتي بأن كتاب سمث "سيقنع الجيل الحاضر ويحكم الجيل القادم"(59).

صفحة رقم : 14187

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> روبرت بيرنز

يقول أشعر شعراء إسكتلنדה "إن دمي القديم الخسيس قد اندس إلي من أوغاد عاشوا منذ الطوفان" (60) ولكننا لن نتقصى نسبه لأبعد من وليم بيرنز، الذي لم يكن وغداً بل مزارعاً مستأجراً سريع الغضب شديد الاجتهاد. وفي 1757 تزوج أجنس براون، التي أهدته روبرت في 1759. وبعد ست سنوات استأجر وليم مزرعة مساحتها سبعون فداناً في ماونت أوليفانت، وهناك عاشت الأسرة المتكاثرة عيشة التقنير في بيت منعزل. وتلقى روبرت تعليمه في البيت واختلف إلى مدرسة للأبرشية، ولكنه اشتغل في المزرعة منذ بلوغه الثالثة عشرة. فلما ناهز الرابعة عشرة "أدخلتني صبية جميلة، لطيفة مرحة، في عاطفة حارة لذيذة أراها برغم خيبة الأمل المرة، والحكمة

صفحة رقم : 14188

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> روبرت بيرنز

الثقيلة، والفلسفة الغارقة في الدرس، أروع المباحج البشرية" (61). وفي الخامسة عشرة التقى بـ "ملاك" ثان وسهر الليالي المحمومة مفكراً بها.. وقد استحضر أخوه إلى الذهن أن "تعلق روبرت بالنساء اشتد كثيراً، وكان دائماً ضحية حسناء تسترقه" (62).

وفي 1777 وفي نوبة من الشجاعة المستهتره، استأجر وليم بيرنز مزرعة لوخلي، ومساحتها 130 فداناً، وفي تاربولتن، التي تعاقد على أن يدفع فيها 130 جنيهاً في العام. وأصبح روبرت الذي بلغ الآن الثامنة عشرة، والذي كان أكبر أبناء سبعة، العامل الأول في المزرعة لأن وليم شاخ قبل الأوان بعد أن حطمه الكد الذي لا غناء فيه. وقد باعد بين الوالد والولد غلو الأول في البيورتانية، وانفتاح الآخر على ناموس أرحب. وتردد روبرت على مدرسة للرقص رغم منع أبيه له. قال الشاعر ذاكراً تلك الحقبة "ومن مثل التمرد ذاك شعر بضرب من الكراهية لي، وكان هذا في اعتقادي من أسباب ذلك الفسق الذي اتسمت به سنواتي المستقبلية" (63): وحين بلغ روبرت الرابعة والعشرين انضم إلى محفل ماسوني. وفي 1783 صودرت المزرعة للتخلف في دفع الإيجار. وكنتل روبرت وأخوه جليبرت مواردتهما الضئيلة ليستأجروا مزرعة مساحتها 118 فداناً نظير تسعين جنيهاً في العام، وراحا يكدحان فوقها أربع سنين ولا يصيبان منها غير سبعة جنيهاً لكل منهما في العام لنفقاتهما الشخصية؛ وهناك عالاً أبويهما وشقيقتهما وأشقاهما. ثم مات الأب بالسل في 1784.

وقرأ روبرت في ليالي الشتاء الطويلة الكثير من الكتب، ومنها تواريخ روبرتسن، وفلسفة هيوم، والفردوس المفقود. "أعطني روحاً كروح بطلي المفضل، شيطان ملتن" (64). فلما غاظته رقابة الكنيسة الاسكتلندية على الأخلاق لم يعز عليه أن ينبذ لاهوتها ويكتفي بإيمان غامض بالله والخلود. وقد سخر من أولئك "السنين، الذين يؤمنون ببوحنا فوكس، وخامرهم الظن بأن هؤلاء القساوسة كانوا فيما بين أيام الأحاد يأتون خفية كما يأتهم" (65). وقد وصف في قصيدة "المهرجان المقدس" (التي تدور حول اجتماع للإنعاش الديني (سلسلة من الوعاظ يذمون الخطيئة ويهددون

صفحة رقم : 14189

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> روبرت بيرنز

بالجحيم، بينما تنتظر المؤسسات في ثقة خارج الاجتماع زبائنهم من جمهور المصلين. واشتد بغض بيرنز لرجال الدين حين أوفد أحدهم مندوباً عنه ليوبخه ويغرمه عقاباً على معاشرته لبتي باتن دون أن يكون زوجاً لها. ثم استحال البغض غضباً حين وبخ مجلس الكنيسة موكلين (1785) مالك أرضه اللطيف، جافن هاملتن، على تخلفه المتكرر عن صلوات الكنيسة. وكتب الشاعر الآن أقذع أهاجيه "صلاة القديس ولي" التي سخرت من فضيلة وليم فشر المرائية، وكان من شيوخ كنيسة موكلين. فصوره بيرنز يخاطب الله قائلاً:

إني أبارك وأحمد قدرتك التي لا ضريب لها،

إذ تركت الألوف في الليل،

لتأتي إلى هنا وأنا أمام ناظريك

طالباً عطايك وأفضالك ناراً ونوراً ساطعاً

لهذا البيت كله...

رباه إنك عليم بأنني كنت البارحة مع مج...

لذلك أطلب عفوك مخلصاً...

أواه! لا تكن هذه الفعلة لخرة دائمة

تلوث شرفي،

ولن أرفع ساقاً خاطئة

فوقها مرة أخرى.

ثم لا بد أن أعترف

بأنني كنت مع ابنة ليزي ثلاث مرات،

ولكني كنت يا ربي مخموراً في يوم الجمعة ذاك

حين دنوت منها،

صفحة رقم : 14190

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> روبرت بيرنز

وإلا فما كان عبدك

ليجرؤ على إغوائها قط...

ثم أذكر رباه أن جافن هاملتن يهجر الكنيسة،

ويسكر ويحلف ويلعب الورق

ومع ذلك فقد كثرت حيله المحببة

للناس كبيرهم وصغيرهم،

وهو يسرق قلوب الناس

من القس الذي اصطفاه الله...

رب أدنه في يوم انتقامك،

رب ابتل من استخدموه

ولا تغض عنهم في مراحمك

ولا تستمع إلى صلاتهم!

ولكن لأجل شعبك أهلكهم

ولا تبق منهم أحداً.

ولكن أذكرني يا رب وكل ما أملك

بمراحم أرضية وسماوية،

حتى أضيء بالنعمة والثراء

ولا يبزني في ذلك أحد،

وليكن لك كل المجد

آمين، آمين!

ولم يجرؤ بيرنز على نشر هذه القصيدة فلم تصل إلى المطبعة إلا بعد موته بثلاث سنين. وكان في غضون هذا يتيح للكنيسة الكثير من المبررات لتقريبه. فقد

صفحة رقم : 14191

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> روبرت بيرنز

لقب نفسه "زانياً محترفاً" (66). وكانت كل عذراء جديدة تثير عواطفه: "كلو الفاتنة تطفو فوق الموجة اللؤلؤية"، وجين آرمر، وماري كامبل الهايلاندية، وبيجي تشالمرز، و "كلارندا"، وجني كروكشانك، وجني الدالريه "مقبلة خلال الجاودار" و "الصغيرة الحلوة" دبورا ديفز، وأجنس فلمنج، وجني جافري، وبيجي كندي الساكنة "نهير دون الجميل"، وجسي ليوارز، وجين لوريمر (كلوريس)، وماري موريسن، وأنا بارك، وأنا ويلي ستيوارت، وبيجي طومسن-وغيرهن (67). ولم يعوضه عن مشاق الحياة وخطوبها غير عيونهن المشرفة الضاحكة، وأيديهن الناعمة وصدورهن الناصعة مثل "الثلج المتساقط". وقد اعتذر عن قلبه الجنسي بأن كل الأشياء في الطبيعة تتغير، فلم يكون الإنسان استثناء للقاعدة؟ (68) ولكنه حذر النساء من الثقة بعود الرجل (69). ونحن نعلم أنه أنجب خمسة أطفال من زوجته، وتسعة بغير زواج. وقال "إن لي عبقرية في الأبوة" وخيل إليه أنه لا شفاء له إلا أن يخصى (70). أما عن توبيخات القساوسة وقوانين إسكتلندا:

فلتتضافر الكنيسة والدولة لتتهيانني

عن فعل ما لا ينبغي أن أفعل.

فلتذهب الكنيسة والدولة إلى الجحيم

أما أنا فذاهب إلى حبيبتي أنا(70).

فلما ولدت له بتي باتن طفلاً (22 مايو 1785) عرض أن يتزوجها، ولكن أبويها رفضا العرض. فانصرف عنها إلى جين آرمر وأعطاهما تعهداً كتابياً بالزواج، ولم تلبث أن حملت. وفي 25 يونيو مثل أمام مجلس الكنيسة وأُعتَرِفَ بمسئوليته؛ ولكن أباهما رفض أن يزوجها لفلاح في السابعة عشرة مثقل بطفل غير شرعي. وفي 9 يوليو تلقى بيرنز من مقعده في الكنيسة التوبيخ العلني في إتضاع. وفي 3 أغسطس ولدت جين توأمين. وفي 6 أغسطس قبل هو وجين التوبيخ أمام شعب الكنيسة و "أحلا من الفضيحة" وأقسم الأب ليستصدرن أمراً بالقبض على بيرنز؛ فاختبأ الشاعر وخطط أن يركب البحر

صفحة رقم : 14192

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> روبرت بيرنز

إلى جامايكا. ولم ينفذ أمر القبض، وعاد روبرت إلى مزرعته. في ذلك الصيف ذاته وعد بأن يتزوج ماري كامبل وأن يسطحها إلى أمريكا؛ ولكنها ماتت قبل أن يستطيعا تنفيذ الخطة؛ وقد أحيا بيرنز ذكراها في قصيدته "ماري الهابلاندية" و "إلى ماري التي في السماء"(72).
في ذلك العام الحافل بالإنتاج (1786) نشر في كلمارنوك أول دواوين شعره بالاكنتاب. وحذف من الديوان القصائد التي تسيء إلى الكنيسة أو أخلاقيات الشعب، وأبهج قراءه بلهجته الإسكتلندية وأوصافه لمشاهد الطبيعة المألوفة؛ وسرّ الفلاحين برفع دقائق حياتهم إلى مستوى الشعر المفهوم. ولعل شاعراً من الشعراء لم يعبر قط كما عبر عن هذا التعاطف مع الحيوانات التي تشارك في أعباء يوم الفلاح، أو "الخروف الأبله" الحائر وسط الثلج المنهمر، أو الفأر الذي أراحه عن جحره المحراث القديم.

ولكنك يا جردي لست الوحيد

الذي يثبت أن بعد النظر قد يكون باطلاً،

فكثيراً ما تخطى أشد الفران والناس أحكاماً.

ويكاد يبلغ مبلغ هذه الأبيات في جريها على الألسن مجرى الأمثال تلك التي تختتم قصيدته المساه "إلى قملة عند رؤيتها أخرى على قبعة سيدة في الكنيسة".

ألا ليت قوة من القوى تهبنا أن

نرى أنفسنا كما يرانا الغير (73).

ولكي يضمن بيرنز الترحيب بديوانه الصغير توجه بقصيدة سماها "ليلة سبت الفلاح": قصور الفلاح يستريح بعد أسبوع من الكد الشديد؛ وزوجته وأطفاله يلتقون به كل يحكي قصة من قصص نهاره؛ وكبرى بناته تقدم لأبيها الخطيب الخجول في تردد وإحجام؛ ثم المشاركة السعيدة في الطعام البسيط؛ والأب يقرأ الكتاب المقدس على أسرته؛ ثم الصلاة الجماعية، وإلى هذه الصورة السارة أضاف بيرنز مناخاة وطنية لـ "إسكتلندة، أرضي ووطني الحبيب!" وبيع كل مطبوع من النسخ إلا ثلاثاً وعددها 612 في

صفحة رقم : 14193

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> روبرت بيرنز

أربعة أسابيع، وبلغ صافي حصيلة بيرنز منها عشرين جنياً. وكان قد فكر في أن يستخدم هذه الحصيلة ف يدفع أجر الرحلة إلى أمريكا ولكنه عدل وخصصها لفترة يقيمها في إدنبرة. فلما بلغها على الجواد استعار في نوفمبر 1786 اقتسم حجرة وسريراً مع فتى ريفي آخر. وكان يشغل الطابق الذي يعلوها بعض المومسات الصاحبات. وفتح له الأبواب نقاد إدنبرة الأدبيون، فكان معبود المجتمع المهذب طوال الموسم. ووصفه السر ولتر سكوت بهذه العبارات:

"كنت صيباً في الخامسة عشرة عام 1786-87 حين وفد بيرنز أول مرة إلى إدنبرة... ورأيتُه يوماً في بيت الأستاذ فيرجسون المحترم، حيث التقى نفر من السادة ذوي الشهرة الأدبية.. وكان شخصه قوياً عفيفاً، فيه جهامة ريفية بغير جلافة، عليه سيماء البساطة والصراحة الوقورين. وجهه ضخم والعين واسعة سوداء اللون... إذا تكلم... وكان في مجلسه من هؤلاء الرجال، وهم صفوة المثقفين في جيلهم ووطنهم، يعبر عن رأيه في قوة بالغة ولكن دون أدنى صلف" (75).

وقد وجد التشجيع على إصدار طبعة مزيدة من قصائده. ولكي يضيف إلى ديوانه الجديد مزيداً من المادة اعترم أن يضمه قصيدة من مطولاته اسمها "الشحاذون المرحون" لم يجرؤ من قبل على طبعتها في ديوان كلمارنوك وقد وصفت القصيدة تجمعاً للمتشردين؛ والصعاليك، والمجرمين، والشعراء، والعابثين، والبغايا، والعجزة، والجنود

المنبوذين، في خمارة نانسي بمدينة موكلين. ثم وضع بيرنز في أفواههم أصرح السير الذاتية وأمعنها في الخطيئة، واختتم هذا الخليط بكورس مخمور:

"ما أتفه الذين يحميهم القانون!

إن الحرية مآدبة فاخرة!

وقصور الملوك لم تبين إلا للجبناء.

وما شيدت الكنائس إلا مسرة لرعائها(76)"

وهالت الدارس والواعظ هيو بلير فكرة نشر هذا الازدراء للفضائل

صفحة رقم : 14194

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> روبرت بيرنز

فأذعن بيرنز، ونسي بعد ذلك به نظم هذه القصيدة،(77) وقد احتفظ بها أحد أصدقائه ثم رأت النور في 1799.

رقيقة على سبيل الوداع.

قبلة حارة واحدة ثم نفترق،

وداع واحد، ثم لا لقاء بعده!

لو لم نحب هذا الحب الرقيق،

ولو لم نحب هذا الحب الأعمى،

ولو لم نلتق ولو لم نفترق،

لما تحطم قلبانا قط(78).

ولكنها وجدت زوجها يعيش مع ساقية زنجية، فعادت إلى إدنبرة. أما وقد عجز بيرنز عن إشباع عشقه لها، فقد التمس الصحبة والقصف في ناد محلي يسمى "المدافعون عن كروكلان"-رجال تعاهدوا على الدفاع عن مدينتهم. هناك كان الخمر والنساء هما الآلهة الحارسة"، والفسق السيد المتسلط. وقد جمع بيرنز لأجلهم الأغاني الإسكتلندية القديمة وأضاف إليها من عنده؛ ووجد بعضها طريقه إلى النشر سراً وغفلاً عن اسم الشاعر عام 1800 بعنوان "عراس شعر كلدونيا المرحات". وقد قضى على ترحيب

صفحة رقم : 14195

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> روبرت بيرنز

مجتمع إدنبرة ببيرنز سريعاً انتمأؤه إلى هذا النادي، وازدراؤه السافر للفوارق الطبقيه(79)، وإعرا به الصريح عن الآراء المتطرفة في الدين والسياسة. ثم حاول الحصول على وظيفة جاب للضرائب. فلما صد عنها غير مرة، راض نفسه على المغامرة جديدة في الفلاحة. ففي فبراير سنة 1788 استأجر مزرعة إيلسلاند، الواقعة على خمسة أميال من دمفريز، واثني عشر من كريجنيتوك

مدينة كارليل. وأقرض مالك المزرعة الشاعر 300 جنيه ليبنى بئراً في المزرعة ويسيج الحقل بعد أن وصف التربة في غير موارد بأنها "في أسوأ حالات الإنهاك" (80). واتفق على أن يدفع له بيرنز خمسين جنيهاً كل عام على امتداد ثلاث سنين، ثم سيعين. وولدت جين أرمز أثناء ذلك توأمين (3 مارس سنة 1788) لم يلبثا أن ماتا. وتزوجها بيرنز قبل 28 أبريل بقليل، وأقبلت بطفلها الوحيد الذي بقي لها من أطفالها الأربعة الذين ولدتهم له لتخدمه زوجة ومديرة لبيته في اليسلاند. وأنجبت له طفلاً آخر سماه بيرنز "رائعتي في ذلك النوع من الصناعة، لأنني أرجو أن يكون" قام أو شانتر "إنجازي القياسي في الميدان السياسي" (81) وفي سنة 1790 توثقت علاقته بأنا بارك، الساقية في حانة دمفريز، وفي مارس سنة 1791 ولدت له طفلاً أخذته جين وربته مع أطفالها. (82)

وكانت الحياة شاقة في اليسلاند، ولكنه واصل قرص الشعر الرائع. وهناك أضاف مقطعين شهيرين لأغنية سكارى قديمة سماها "الأيام الخوالي" وظل بيرنز يكدح حتى انهارت قواه كما انهارت قوى أبيه من قبل. واغبط جين عين (14 يوليو سنة 1788) مفتش إنتاج، يجوب البلاد ليعاير البراميل، ويفتش على أصحاب المطاعم، والشماعين، ويقدم تقاريره لمجلس إنتاج إدنبرة. ويبدو أنه أرضى المجلس رغم كثرة شجاره مع جون بارليكورن. وفي نوفمبر سنة 1791 باع مزرعته بريج، وانتقل مع جين والأطفال الثلاثة إلى بيت في دمفريز.

وقد أذى شعور أهل مدينة الوقورين بترده على الحانات، وعودته مراراً إلى جين الصابرة وهو مثل بالخمير. (83) على أنه ظل شاعراً فحلاً،

صفحة رقم : 14196

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> روبرت بيرنز

ففي تلك السنوات الخمس نظم هذه القصائد: يا ضفاف نهر دون الجميل ومروجه" و "إلى الإسكتلنديين الذين أريقت دماؤهم مع ولاس" و "حبيبتى أشبه بوردة حمراء". وقد تبادل الرسائل مع السيدة فرانسيس دنلوب، التي كان يزورها أحياناً وكان في عروقتها آثار من دم ولاس، لأنه افتقد في زوجته الرفيق الفكري. وقد جاهدت هذه السيدة لترويض أخلاق بيرنز ولعته، ولم يكن ذلك دائماً لفائدة شعره. وكان أكثر تقديراً لأوراق البنكنوت من فئة الجنيهات الخمسة، التي كانت وأفيه بها بين الحين والحين. (84)

وقد عرض وظيفته في تفتيش الإنتاج للخطر بأرائه المتطرفة. فأشار على جورج الثالث في خمسة عشر مقطعاً رائعاً أن يتخلص من وزراءه الفاسدين، ونصح أمير ويلز (ولي العهد) بأن يكف عن فجوره، وعن إيسرافه في لعب القمار مع تشارلي (فوكس) "إن شاء أن يرث العرش" (85). وفي خطاب أرسله لصحيفة إدنبرة "كوراننت" صفق لإعلان الاستقلال الأمريكي. وفي سنة 1789 كان "نصيراً متحمساً للثورة الفرنسية. وفي سنة 1795 فجر لغماً على فوارق المراتب.

أبسبب الفقر الشريف

ينكس الفقير رأسه ويخزي؟

إنا لنمر بالعبد الجبان فلا نعبأ به،

وإنا نجرؤ على أن نكون فقراء رغم هذا كله!.

صفحة رقم : 14197

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> روبرت بيرنز

ورغم أن كونا وكدحنا مجهولان مغموران.

أن المراتب ليست سوى خاتم الجنيه،

أما الإنسان فهو الذئب رغم هذا كله.

إن الرجل الشريف، وأن اشتد فقره

أمير القوم رغم هذا كله.

أترى ذلك الرجل الذي يلتقبونه لورداً

والذي يختال في مشيته ويحرق في الناس

إنه ليس إلا غيباً أحمق رغم هذا

وإن انحنى المئات لأمره ونهيه

إذن لنصل ليأتي ذلك اليوم،

وهو آت لا ريب فيه رغم هذا كله،

يوم يحقق العقل والكفاءة الانتصار في كل الأرض قاطبة

إنه آت رغم هذا كله،

يوم يقف الرجل أما الرجل

إخواناً في بقاع الأرض.

وتوالت الشكاوي على مجلس الإنتاج تقول أن رجلاً منطرفاً كهذا ليس بالرجل الذي يصلح للتفتيش على الشماعين ومعايرة براميل الخمر، ولكن أعضاء المجلس صفحوا عنه لحبه لإسكتلندة وإشادته بها. وكانت الجنيهات التسعون التي أنته بها وظيفته لا تكاد تتيح له الخبز والكأس. وواصل تشرده الجنسي، وفي 1793 ولد له طفل من السيدة ماريا ريدل التي اعترفت بـ "قوة جاذبتي التي لا تقاوم" وأضعف إيمانه الخمر عقله وكبرياءه آخر الأمر. فراح يرسل إلى أصدقائه خطابات الاستجداء على نحو ما كان يفعل موتسارت في هذا العقد ذاته. (86) ورددت الشائعات أنه مصاب بالزهري، وأنه عثر عليه ذات صباح قارس البرد في يناير 1796 ملقى وسط الثلوج وهو سكران. (87) وقد انتقدت هذه الشائعات باعتبارها هرطقة لا سند لها، ويشخص الأطباء الإسكتلنديين مرض بيرنز الأخير بأنه حمى روماتزمية آذت قلبه. (88) وقبل أن يموت بثلاثة أيام كتب إلى حميه يقول "أرجوك بالله أن ترسل السيدة أمر إلينا فوراً، فزوجتي تتوقع كل ساعة أن تلزم الفراش. رباه! أي موقف يمكن أن تفقه المرأة المسكينة وهي بغير صديق! (89) ثم لزم فراشه ومات في 21 يوليو 1796. وبينما كانوا

صفحة رقم : 14198

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> روبرت بيرنز

يوارونه التراب ولدت زوجته ابناً. وجمع أصدقائه بعض المال للعناية بها، وقد عمرت إلى عام 1834 لأنها كانت صلبة العود قوية القلب.

صفحة رقم : 14199

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> جيمس بوزويل

6- جيمس بوزويل

كان يجري في عروقه الدم الملكي. فأبوه ألكسندر بوزويل، سيد ضيعة أوخلنك في إيرشيز والقاضي بمحكمة إسكتلندة المدنية العليا، سليل لأيرل أران، وهو جد بعيد لجيمس الثاني ملك إسكتلندة. أما أمه فتحدت من إيرل لفوكس الثالث، وكان جد اللورد دارنلي، الذي كان أبا جيمس السادس. وقد ولد جيمس بوزويل بإدنبرة في 29 أكتوبر 1740. وكان بوصفه أكبر أبناء ثلاثة الورث لصيعة أوخلنك المتواضعة (وكان ينطقها أفليك)، ولكن بما أن أباه عمر حتى 1782، فقد كان عليه أن يظل غير قانع بما يجريه عليه اللورد من دخل. وأصيب أخوه جون في 1762 بأولى نوبات الجنون العديدة وكان بوزويل نفسه فريسة لنوبات من الوهم التمس الشفاء منها في غيبوبة الشراب ودفء أجساد النساء. وقد علمته أمه العقيدة

صفحة رقم : 14200

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> جيمس بوزويل

الكفنية المشيخية التي كانت تنبض بدفء تقردت به. وكتب في تاريخ لاحق يقول "لن أنسى ما حييت ساعات الخوف التلسة التي تحملتها في صباي نتيجة الأفكار الضيقة عن الدين، بينما كان عقلي يمزقه رعب جهنمي" (90). وكان طوال حياته كلها يتذبذب بين الإيمان والشك، وبين التقوى والانغماس في لذة الجنس. ولم يحقق قط أكثر من تكامل وقتي أو اطمئنان عابر.

وبعد أن تلقى الدروس في البيت فترة أرسل إلى جامعة إدنبرة، ثم إلى جلاسجو، حيث اختلف إلى محاضرات آدم سميث ودرس القانون. وفي جلاسجو التقى بالمتثلين والممثلات وكان بعضهم كاثوليكياً. وبدا له أن مذهبهم أكثر من الكفنية توافقاً مع الحياة المرحية، وأعجبه بوجه خاص عقيدة المطهر التي تسمح للخاطئ بالخلاص بعد بضع دهور من الحريق. فركب جيمس فجأة وانطلق إلى لندن (مارس 1760) وانضم إلى كنيسة روما.

وأرسل الأب المفزع إلى إيرل أجلنتن يناشده أن يرعى جيمس، وكان الرجل جاراً من جيرانه في إيرشير يسكن لندن. وقال لاليرال للشباب أنه ظل كاثوليكياً فلن يستطيع أبداً أن يمارس المحاماة، أو يدخل البرلمان، أو يرث أوخلنك. فنقل جيمس إلى إسكتلندة وكنيستها، وعاش تحت سقف أبيه وبصره، ولكن لما كان القاضي مشغولاً، فقد أفلح ابنه في أن يلتقط عدوى مرض سري" (91) وكانت أولى إصاباته الكثيرة بالمرض السري. وخاف الأب أن يبدد الفنى الطائش ميراث أوخلنك على اللهو والعريضة حين يرثها، فأقنعه لقاء راتب سنوي قدره مائة جنيه بأن يوقع وثيقة يكل بمقتضاها إدارة التركة مستقبلاً لأوصياء يعينهم بوزويل الأب.

وفي 29 أكتوبر 1761 بلغ جيمس سن الرشد، فضوعف راتبه السنوي. وفي مارس التالي حبلت منه بجي دويج، وفي يوليو جاز امتحان المحاماة. وفي أول نوفمبر 1762 انطلق إلى لندن بعد أن ترك لبجي عشرة جنيهات (وقد ولدت طفلها بعد بضعة أيام، ولكن بوزويل لم يره قط).

صفحة رقم : 14201

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> جيمس بوزويل

واتخذ له في لندن غرفة مريحة في داوننج ستريت. ولم يأت الخامس والعشرون من نوفمبر حتى شعر أنه "تعس حقاً لافتقاره إلى النساء" (92)، ولكنه تذكر مرضه المعدي، ثم إن "أتعاب الجراحين في هذه المدينة باهظة" (93). وعلى ذلك تجلد حياة العفة "حتى أعر على فتاة مأمونة، أو تحبني امرأة من نساء المجتمع العصري" (94). وكان انطباعه عن لندن أنها تقدم كل لون من ألوان الغواني، "من السيدة الفخمة التي تتقاضى خمسين جنيهاً في الليلة إلى الحورية اللطيفة.... التي تسلم شخصها الجذاب لشرفك لقاء كوب من النبيذ وشلن واحد" (95). واتصل بـ "ممثلة مليحة" تدعى لويزة، بدا له أن تمنعها الطويل يشهد بنظافتها الصحية. وأخيراً أغراها، وحقق نشوة مخمسة، "وقد صرحت بأنني أعجوبة" (96). وبعد ثمانية أيام اكتشف أنه أصيب بالسيلان. وفي 27 فبراير شعر أنه شفي، وفي 25 مارس التقط موسماً من عرض الطريق و "باشرها وهو مدرع" (بكييس واق). وفي 27 مارس "سمعت صلاة في كنيسة سانت ونستن" وفي 31 مارس "تمشيت في هايدبارك وأخذت أول بغي لقبتيها" (97) وتسجل "يومية لندن" التي خلفها بوزويل أمثال هذه المغامرات خلال الشهور الأربعة التالية في جسر وستمنستر، وفي حانة "هد تافرن" التي كان يرتادها شكسبير، وفي هايد بارك، وفي حانة على الستراندي، وفي محاكم التمبل، وفي بيت الفتاة. وهذا بالطبع ليس إلا جانباً واحداً في صورة رجل، وحشد هذه الأحداث المتفرقة في فقرة واحدة يعطي انطباعاً خاطئاً عن حياة بوزويل وخلقه. أما الجانب الآخر فهو "حبه الحار لعظام الرجال" (98). وأول صيد له في هذا كان جاريك، الذي استطاع مدائح بوزويل وأحبه لتوه. ولكن جيمس كان يتطلع إلى الذرى الشامخة. وكان قد سمع في إدنبرة توماس شريدان يصف لودعية صموئيل جونسن وحديثه الدسم. فقال لنفسه إن لقاء هذا القمة في حياة لندن الأدبية سيكون "ضرباً من المجد". وأعانته الصدفة على ما ينشد. ففي 16 مايو 1763 كان بوزويل يشرب

صفحة رقم : 14202

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> جيمس بوزويل

الشاي في مكتبة الكتبي توماس ديفز بشارع رسل، وإذا "رجل ذو مظهر رهيب جداً" يدخل المكتبة. وتبين بوزويل شخصه من لوحة كان قد رسمها رينولدز لجونسن. فرجا ديفز ألا يبوح بأن وطنه إسكتلندة، ولكن ديفز باح بالسر "في خبث" للفور. ولم يفت جونسن لأن يلاحظ أن إسكتلندة بلد طيب يقدم منه الإنسان. وجفل بوزويل. ثم شكوا جونسن من أن جاريك ضن عليه بتذكرة مجانية للأنسة وليمز لتحضر تمثيلية معروضة، وتجاسر بوزويل على أن يقول "سيدي، لست أستطيع الاعتقاد بأن مستر جاريك يضمن عليك بمثل هذا الشيء التافه". وهنا انقض جونسن عليه بقوله "سيدي، لقد عرفت ديفد جاريك زمناً أطول مما عرفته، ولست أرى لك حقاً في أن تكلمني في هذا الأمر". ولم يكن في هذا الجواب ما يبشر بصحبة مديدة. و "صعق" بوزويل و "أحس بالخزي"، ولكن بعد مزيد من الحديث "اقتنعت بأنه وإن كان في مسلكه خشونة، إلا أنه ليس في طبعه لؤم" (99).

وبعد ثمانية أيام، وبشجيع من ديفز وبدعم من جرأته الصفيقة، قدم بوزويل نفسه لجونسن في سقته بالأثر تمبل، فاستقبله في تल्प في ظرف كثير. وفي 25 يونيو تعشى الدب والشيل معاً بحانة الميتر في فليت ستريت "كنت فخوراً جداً بفكرة وجودي معه" وفي 22 يوليو "خصصت لنا-أنا ومستر جونسن-غرفة في مشرب تيركس هد"

ثم كتب بوزويل في يومياته "بعد هذا سأكتفي بتسجيل الذكريات الخاصة بمستر جونسن، والجديرة بالتسجيل، كلما طفت في ذاكرتي" (100) وهكذا بدأت هذه السيرة الرائعة. ولما رحل بوزويل إلى هولندا (6 أغسطس 1763) ليدرس القانون استجابة لإلحاح أبيه، كان انسجام الأستاذ وتلميذه عظيماً حتى لقد رافق جونسن ذو الثالثة والخمسين بوزويل ذا الاثنتين والعشرين إلى هاروبتش ليودعه عند رحيله.

صفحة رقم : 14203

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> جيمس بوزويل

ب - بوزويل خارج بريطانيا

واستقر به المقام في أترخت، حيث درس القانون، وتعلم الهولندية والفرنسية، وقرأ كل كتاب فولتير "في الأعراف" (كما يقول). وقد عانى أول الأمر من نوبة اكتئاب قاسية، ووبخ نفسه على كونه زير نساء حقيراً، وفكر في الانتحار. وألقى اللوم في فجوره الأخير على فقدته إيمانه الديني. "كنت مرة كافراً"، وسلكت مسلك الكافرين؛ أما الآن فأنا جنّلمان مسيحي" (101). ووضع لنفسه "خطة محكمة" لإصلاح ذاته: فهو عازم على إعداد نفسه للقيام بواجبات اللورد الاسكتلندي" وعلى أن "يكون وفياً لكنيسة إنجلترا"، وأن يلتزم بالقانون الأخلاقي المسيحي "حذار من أن تتحدث عن نفسك" بل "احترم نفسك... وستكون على العموم شخصية ممتازة" (102). ثم استعاد اهتمامه بالحياة حين وحد قبولاً في بيوت سراة الهولنديين. فكان في زيه الآن "القرمز والذهب،... والجوارب الحريرية البيضاء، والخفان الجميلان... ومنديل برشلوني، وعلبة أنيقة لخلعة الأسنان" (103) وعلق قلبه بإيزابيللا فان تويل، التي كان المعجبون بها يلقبونها "حسنة زويلن" و "زليدة" أيضاً، وقد نوهنا من قبل عنها واحدة من نساء كثيرات لامعات في هولندا ذلك الجيل. ولكنها عرفت عن الزواج، وأقنع بوزويل نفسه بأنه قد رفضها. ثم جرب حظه مع مدام جيلفك، الأرملة الحسنة، ولكنه ألفاها "الذيذة حصناء" (104). وأخيراً "صممت على القيام برحلة إلى أمستردام واصطياد فتاة". فلما أن بلغها "ذهبت إلى ماحور... وأذى شعوري أن أجدني في مهاوي الفجور الوضع" وفي الغد "ذهبت إلى كنيسة واستمعت إلى عظة حسنة... ثم تجولت مخترقاً المواخير الحقيمة في أزقة قذرة" (105). واستعاد "كرامة الطبيعة الإنسانية" حين تسلّم من صديق خطاب تقديم إلى فولتير. وكان قد وفى بوعد لأبيه بأنه سيدرس بجد في أوترخت؛ لذلك تلقى منه الإذن والمال للرحلة الكبرى المألوفة التي يتوج بها الجنّلمان الإنجليزي

صفحة رقم : 14204

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> جيمس بوزويل

الشاب تعليمه. فودع زليدة، وبالطبع كان في عينه دموع الحب، وفي 18 يونيو 1764 عبر الحدود إلى ألمانيا. وظل قرابة عامين بعدها يرأسها ويبادلها الثناء والنقد. وكتب من برلين في 9 يوليو يقول:
"بما أننا قد رفعنا الكلفة فيما بيننا تماماً يا زليدة، فيجب علي أن أقول لك أن في قدرأ من الغرور... يكفي لتخليلي أنك كنت حقاً تحبيني... وأن في من الأريحية ما يسمح لي بتجنب خديعتك... فلست أود الزواج منك لأكون ملكاً... فلا بد لزوجتي من أن تكون شخصية مناقضة تماماً لعزيرتي زليدة، إلا في الحب، والأمانة، ولطف الطبع" (106).
ولم تجب. فعاود الكتابة في 1 أكتوبر، مؤكداً لها أنها تحبه؛ ولك تجب. فعاود الكتابة مرة أخرى في 25 ديسمبر.
"أيتها الأنسة، أنني رجل متكبر، وسأظل كذلك أبداً. وينبغي أن تفخري بتعليقي بك. ولست أعلم إن كان ينبغي أن أكون فخوراً بالمثل بتعلقك بي. أن الرجال الذين يملكون قلوباً وعقولاً مثلي نادرون. أما المرأة الكثيرة المواهب فليست بهذه الندرة... وقد تستطيعين أن توافيني بتفسير لمسلكك معي" (107).
أما ردها فيستحق أن يفرد له مكان في تاريخ المرأة. قالت:
" تلقيت رسالتك بفرح وقرأتها بشعور العرفان... وكل تعبيرات الصداقة تلك، ولكل تلك الوعود بالود الأبدي وبالذكرى الرقيقة أبداً، والتي خلصت إليها (من كلامها السابق له)، يعترف بها قلبي ويجدها في هذه اللحظة... وقد واصلت تكرار القول... بأنني كنت عاشقة لك... وأنت تصر على أن أعترف بهذا. وقد صممت على أن تسمعني أقوله وأرده. وأنني لأجد هذا نزوة في غاية الغرابة من رجل لا يحبني ويراه لزاماً عليه (بدافع اللياقة) أن يقول لي هذا بأصح العبارات وأقواها... وقد صدمني وأحزنتني أن أجد، في صديق كنت أتصوره رجلاً صغير السن موفور التمييز، والغرور المراهق الذي يتصف به أحمق مأفون.

صفحة رقم : 14205

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> جيمس بوزويل

"يا عزيزي بوزويل، لست مسؤولة إطلاقاً عن أنه لم يحدث في أي لحظة أن اضطرم في صدرك حديثي أو لهجتي أو نظرتي. فإذا كان هذا قد حدث، فإنسه... ولكن لا تنسى ذكرى الأحاديث الكثيرة التي تبادلناها حين كان كلانا خلي البال كصاحبه: فكنت أنا مغتبطة جداً بتوهمي في غرور أنك متعلق بي، وكنت أنت سعيد بالمثل بأن تعدني صديقة موكان المرأة الكثيرة المواهب شيء نادر.. أقول احتفظ بهذه الذكرى، وثق بأن لك حناني، وتقدير ي، بل أقول واحترامي، على الدوام" (108).
وقد أدبت بوزويل هذه الرسالة تأديباً عابراً؛ فلزم الصمت عاماً. ثم كتب (16 يناير 1766) من مارس إلى زليدة يطلب يدها "ألا يكون مؤسفاً ألا يتحقق ارتباط سعيد كهذا؟" (109). ورد الوالد بأن زليدة تنتظر في عرض آخر. وبعد عام أرسل إليها بوزويل عرضاً مباشراً. فأجابت، قرأت عبارات إعزازك المتأخرة بسرور، وبابتسامة. حسناً، إذن فقد أحببتني مرة" (110)- ثم رفضت عرضه.
وبينما كانت لعبة المراسلة هذه دائرة كان بوزويل قد جرب الكثير من الأقطار والنساء. ففي برلين شهد فردريك على ساحة العرض، ولكنه لم يره أقرب من ذلك. وصحب إلى فراشه بائعة شوكلاته حبلى بدت له مرفأ سليماً. وفي ليبزج التقى بجبيلبرت وجوتشيد، وفي درسدن زار "قاعة الصور الفخمة التي قيل لي إنها ارفع مثيلاتها في أوربا" (111). ثم هبط إلى سويسرا بطريق فرانكفورت وماينز وكارلسروه وستراسبورج. وقد رافقناه من قبل في زيارته لروسو وفولتير. وفي تلك الأيام المجيدة أهدت هالة العبقريّة وحمى الشهرة شهوة الشباب.

وفي أول يناير 1765 غادر جنيف ليعبر الألب. وأنفق تسعة شهور مبهجة في إيطاليا، ورأى كل مدينة كبيرة، وذاق طعم الأنتي في كل وقفه، وفي روما سعى للقاء فنكلمان، ولثم قدم البابا في خفها، وصلى في كاتدرائية القديس بطرس، والتقط عدوى مرضه المعضل من جديد. وارتقى فيزوف مع جون ولكس. وفي البندقية قاسم اللورد مونتستيوارت (بن إيرل بيوت)

صفحة رقم : 14206

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> جيمس بوزويل

محظيته، ووجد إصابته بمرضه القديم. وخلال شهر قضاه في سبينا تودد إلى يورتسيا سانسوني، خلية صديقه مونتستيوارت، وحثها على ألا تسمح لأي عاطفة وفاء بأن تعترض كرمها، لأن "سيدي اللورد في فطرته ما لا يجعل الوفاء حلة يقدر على التحلي بها أو يتوقعها منك" (112).
على أن جانبه الأنبل تجلى في مآثرته التالية. فقد استقل مركباً من ليفورنو إلى كورسيكا (11 أكتوبر 1765). وكان باولي قد حرر الجزيرة من سلطان جنوده في 1757 وله ثماني سنوات في حكم الدولة الجديدة. والتقى به بوزويل في سوللاكرو، وقدم إليه رسالة تعريف من روسو. وقد ظن به التجسس أول الأمر "ولكني سمحت لنفسني بأن أطلعته على مذكرة كتبتها في المزايا التي تحقها بريطانيا العظمى من تحالف تبرمه مع كورسيكا"، وبعدها كان يتغذى بانتظام مع الجنرال (113). وقد دون الكثير من الملاحظات التي أفادها بعد ذلك في كتابه "وصف كورسيكا" (1768). وغادر الجزيرة في 20 نوفمبر، وسافر في محاذة الرفيرا إلى مارسيليا. وهناك وافاه "قواد طويل القامة مهذب" بفتاة "أمينة، مأمونة، نزيهة" (114).
وفي أكس-أن-بروفانس بدأ يوافي "اللندن كرونكل" بفقرات أنباء تنشر في طبعات متلاحقة ابتداء من 7 يناير 1766، أعلنت الجمهور البريطاني بأن جيمس بوزويل يمد إنجلترا بمعلومات مباشرة عن كورسيكا فلما وصل إلى باريس (12 يناير) أتاه نبأ من أبيه بأن أمه ماتت. وقد تكفل بمصاحبة صديقة روسو، تريز لفاسير، إلى لندن؛ وقد أسلمت نفسها له في الطريق أن كان لنا أن نصدق روايته. وتلبث في لندن ثلاثة أسابيع. ورأى جونسن في مناسبات عدة، وأخيراً مثل أمام أبيه في إدنبرة (7 مارس 1766). وكانت فترة السنوات الثلاث والشهور الأربعة التي قضاه في الاستقلال والرحلة قد أعانت على إنضاجه. صحيح أنها لم تضعف من شهوته أو من غروره، ولكنه وسعت معارفه وأفقته، وأعطته اتزاناً وثقة بالنفس جديدين، وأصبح الآن يلقب "بوزويل الكورسيكي"، رجلاً تغدى مع باولي، عاكفاً على تأليف كتاب قد يدفع بإنجلترا إلى مد يد العون إلى ذلك المحرر وجعل الجزيرة حصناً بريطانياً في بحر استراتيجي.

صفحة رقم : 14207

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> جيمس بوزويل

ج - بوزويل في وطنه

في 29 يوليو 1766 رخص له بالاشتغال بالمحاماة في إسكتلندا، وتركزت إقامته طوال السنين العشرين التالية في ادنبرة، وتخلل ذلك غزوات كثيرة للندن، وواحدة لدبلن. وربما أعانه منصب أبيه قاضياً، ولكن أعانته أيضاً سرعة بديهته في النقاش، فكثرت زبائنه، و "ربح خمسة وتسعين جنيهاً" في أول شتاء ترافع فيه أمام المحاكم (115). وخالط السخاء المفرط تقديره لنفسه، فكان يدافع عن أفقر المجرمين، ويبدد بلاغته المنمقة على أشخاص إجرامهم واضح، ويخسر معظم قضاياها، وينفق كل أتعابه على الشراب، ذلك بأنه بعد تلك الشهور المشمسة التي قضاها في إيطاليا أحس بشتاء إسكتلندا يفري عظمه، ولم يبد أن هناك دواء لهذا البرد إلا الكحول.

ثم أنه واصل تشرده الجنسي. فاتخذ له خليفة تدعى المسز دورز، واستكمالاً لخدماتها "كنت أنام الليل كله مع... فتاة من عرض الطريق" وسرعان ما "اكتشفت أنني ابتليت بعدوى المرض" (116) وبعد ثلاثة أشهر، وفي دوار الخمر، "ذهبت إلى ماخور، وأنفقت ليلة كاملة بين ذراعي بغي... وكانت فتاة رائعة، قوية، مرحة، بغياً جديرة ببوزويل، إن كان لا بد لبوزويل من بغي" (117) وأصابته عدوى أخرى. وكان واضحاً أن الزواج هو السبيل الأوحى لإنقاذه من التدهور البدني والأخلاقي. فتودد إلى كاترين بليز، ولكنها رفضته. ثم وقع في غرام ماري أن بويد، وكانت صبية إيرلندية لها جسم إغريقي وأب غني. وتبعها إلى دبلن (مارس 1769)، وفقد غرامه في الطريق، وسكر، وألم ببغي إيرلندية، وأصيب مرة أخرى بمرض سري (118).

وفي فبراير 1768 دفع إلى المطبعة بمخطوط "تاريخ لكورسيكا، يوميات رحلة إلى تلك الجزيرة، ومذكرات باسكال باولي"، وأثارت خيال إنجلترا مناشدته بريطانيا لمد يد المعونة لباولي، وأعدت الرأي العام للموافقة على الإجراء الذي اتخذته الحكومة البريطانية بعد ذلك لإرسال السلاح والمؤن سرّاً إلى الكورسيكيين. وبيع من الكتاب عشرة آلاف نسخة في إنجلترا، وترجم

صفحة رقم : 14208

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> جيمس بوزويل

إلى أربع لغات، وأكسب بوزويل من الصيت الذائع في القارة ما لم يظفر به جونسن. وفي 7 سبتمبر 1769 ظهر المؤلف في مهرجان شكسبير بستراتفورد مرتدياً زي زعيم قبيلة كورسيكي، وعلى قبعته كتبت عبارة "بوزويل الكورسيكي"، وكان هذا لحفلة رقص تنكرية، لذلك لم يكن يستحق تماماً ما لقي من هزء وسخرية.

وكانت ابنة خاله مرجريت مونجومي ثد صحبته إلى إيرلندا، واحتملت في وداعة مغازلاته وعربدته الإيرلندية. وكانت تكبره بسنتين، ولم يكن في مهرها البالغ 1000 جنيه ما يجعلها زوجة كفوءاً لوريث أوخلك (كما أكد بوزويل الأب)، ولكن حين تأمل محبتها الصابرة لاح له أنها امرأة سالحة ستكون زوجة سالحة، ثم اشتهاه بالفسق والسكر حد مجال اختياره. وكان القاضي نفسه يفكر في الزواج، مما يضع زوجة الأب بين الوالد والولد، وقد يبدد شطراً من التركة. والنمس بوزويل من أبيه ألا يتزوج، ولكن الأب أصر، فنتشاجرا، وفكر بوزويل في الذهاب إلى أمريكا، وفي 20 يوليو 1769 كتب إلى "بجي" مونجومي يعرض عليها الزواج والذهاب معه إلى أمريكا والعيش على جنيهاتها المائة في العام وعلى فائدة جنيهاتها الألف. وأندرها بأنه عرضة لنوبات من الاكتئاب. وردها (22 يوليو) جدير بالتنويه:

"أنعمت التفكير، كما أردت، وأنا... أقبل شروطك... أن ج.ب. بجنيهاته المائة في العام هو في نظري غالي القيمة تماماً كما لو كنت أملك ضيعة أو خنك... ولما كنت خلواً من الطمع، فإنني أؤثر السعادة الحقة على مظهرها الفخم... فثق يا عزيزي جيمي أن لك صديقة على استعداد لبذل كل شيء في سبيلك، صديقة لم تشته قط الثروة إلا لتمنحها للرجل الذي ملك قلبها" (119).

وفي 19 نوفمبر تزوج الأب، وفي 25 نوفمبر تزوج الابن. وأقام الزوجان الشابان بيتاً خاصاً بهما، وفي 1771 استأجرا شقة من ديفيد هيوم. وكافح جيمس للإقلاع عن السكر، وجد في عمله محامياً، وسعد بالأطفال

صفحة رقم : 14209

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> جيمس بوزويل

الذين ولدتهم له زوجته. ويبدو أنها صدمت تودده الزوجي خلال الشهور الأخيرة من حملها المتكرر. ففي 27 أكتوبر 1772 ذهب إلى مومس بعد أن "أفرط في شرب النبيذ" (120). وقد التمس لنفسه العذر بحجة أن التسري أجازته التوراة. ثم عاد إلى الشراب، وأضاف إليه القمار. جاء في يومياته بتاريخ 5 أكتوبر 1774 "شربت حتى ثملت" وفي 3 نوفمبر "شرب كثيرون منا من الغداء حتى العاشرة ليلاً" وفي 4 نوفمبر "سكرت جداً... وقعت على الأرض بعد عنف كثير" وفي 8 نوفمبر "سكران مرة أخرى" وفي 9 نوفمبر "كنت مريضاً جداً، ولم أستطع مغادرة الفراش حتى الساعة الثانية تقريباً" وفي 24 نوفمبر: "كنت سكران جداً... مكثت أكثر من ساعة مع مومسين في مسكنها على سلم قدر ضيق في حي بو. ووجدت طريقي إلى بيتي حوالي الثانية عشرة. لقد سقطت" (121). وغفرت له زوجته، وبذلت له العناية في أمره.

وكان لشربه الخمر أسباب كثيرة: كثرة قضاياه الخاسرة في الحمامة، والعنت الذي لقيه في علاقته بأبيه، وخزيه من خيانتة الزوجية وشعوره بأنه لم يحقق أحلام غروره، واشمئزازه من الحياة في إسكتلندا. وألف أن يهرب إلى لندن كل سنة تقريباً، ومن جهة ليرافع في قضايا له هناك، ومن جهة أخرى ليستمتع بحديث جونسن، ورينولدز، وجاريك، وبيرك. وفي 1773 سمح له بالانضمام إلى "النادي". وفي خريف ذلك العام جاب شوارع إدنبرة في فخر وإلى جواره الدكتور جونسن، توطئة لرحلتهما إلى جزر الهبريد.

وظل في رحلاته اللندنية هذه أول الأمر وفياً لزوجته، وكان يكتب إليها في شغف، ولكن ما وافى عام 1775 حتى كان استأنف إيثاره للعريضة الجنسية. وقد اشتد انشغاله بها حوالي نهاية مارس 1776 يقول "فلما نزلت إلى الشارع ركبتني شهوة الفسق، ففكرت في أن أخصص لها ليلة". ولكن التخصيص امتد عدة ليالٍ. "فكرت في زوجتي الغالية بأعظم احترام وأحر محبة، ولكن ساورتني فكرة مشوشة بأن اتصالي الجسدي بالعاهرات لا يمس حبي لها بسوء" (122). وردة إلى رشده مرض سري جديد.

صفحة رقم : 14210

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> جيران إنجلترا -> جيمس بوزويل

وقد جرت عليه هذه المغامرات، وتبعيته لجونسن، تعليقات ملؤها الازدراء من رجال كهوراس وليول، ونقداً لاذعاً (بعد موته) من ماكولي(123)، ولكنها لم تتركه بغير صديق. "إن اتصافي بالكفاءة وكثرة المعارف يجعل الناس مغرمين بكسب مودتي"(124) وكان أكثر اللندينين يوافقون بوزويل على أنه ليس لامرأة الحق في رجل بأكمله. وإذا كان رجال كجونسن ورينولدز قد أحبوه، وإذا كانت بيوت لندنية كثيرة قد فتحت له أبوابها، فلا بد أن كان يملك الكثير من السجايا المحببة. وقد عرف هؤلاء الرجال ذوو البصيرة الثاقبة أنه كان ينتقل من امرأة لأخرى، ومن فكرة لفكرة، تنتقل المسافر المستعجل، يחדش سطوحاً كثيرة دون أن ينفذ إلى لباب الأشياء، ودون أن يشعر قط بالروح المرضوضة وراء لحم الضحية. وقد عرف هو أيضاً هذه الحقيقة فقال "أن لي في الحق عقلاً صغيراً مع كل كبريائي، وما أشبه بالوشي على الشاش"(125). "أن في أفكاري كلها نقصاً، وسطحية، ولست أفهم شيئاً بوضوح، وإلى القاع. فأنا ألتقط الشظايا، ولكني لست أملك في ذاكرتي كتلة كاملة ذات كبر أياً كان"(126).

ولكن تلك الشظايا وتلك الذاكرة، هي التي كفرت عنه، فقد عوض عن عيوبه بعبادته لذلك التفوق، الذي لم يستطع تحقيقه لنفسه، في الآخرين؛ بملازمتهم في تواضع، يتذكر كلماتهم وأفعالهم، وأخيراً، وبراعة عظيمة، بوصفها في ترتيب وفي ضوء ألفا صورة لا تباري لرجل ولعصر. وليت القناع لا يمزق عنا أبداً-عن أجسادنا وعقولنا، عن شهواتنا الدفينة وغرورنا الذي لا يني-مثل ما أمعن هذا الرجل، نصف التابع الخانع ونصف العبقري، في الكشف عن نفسه للأجيال القادمة.

صفحة رقم : 14211

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> الصحافة

الفصل الثاني والثلاثون

المسرح الأدبي

1789-1756

1- الصحافة

كان في الخلفية جرائد، ومجلات، وناشرون، ومكتبات متنقلة، ومسارح، كلها تتكاثر في اندفاع، وتنتقل صراعات الأحزاب والمواهب إلى جمهور لا يفتأ يتعاضم. وقد ولدت الآن عدة مجلات: "المجلة الأدبية"، و "مجلة النقد" في 1756، و "الدفتن العام" في 1760. وبدأت صحيفة جونسن "الرامبلر" (الحوال) في 1750، وكانت "مجلة الجنتلمان" التي أطعمت جونسن في سنوات كفاحه قد بدأت في 1731، وقدر لها أن تعمر حتى 1922. وضاعت جرائد لندن عددها ومجموع توزيعها في هذه الفترة. وبدأت "المونيتور" (المرشد) في 1755، و "النورث بريتن" في 1761، والمورننج كرونكل في 1769، والمورننج هرلد في 1780، والديلي يونفيرسل رجستر في 1785، التي أصبحت التيمز في 1788. ووقعت صحيفة "البيلك أدفرتايزر" على منجم ذهب بنشرها رسائل جونيوس "فارتفع توزيعها من 47.500 إلى 84.000. وكانت معظم الصحف اليومية الأخرى تعيش على عدد ضئيل من القراء؛ من ذلك أن توزيع التيمز في 1795 لم يزد على 4.800. وكانت أكثر تواضعاً في الحجم منها في الكلام. فهي تصدر عادة في أربع صفحات، تقرد إحداها للإعلانات. وقد ظن جونسن في 1759 أن الإعلان في الصحف قد بلغ حده النهائي.

صفحة رقم : 14212

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> الصحافة

"لقد زادت الإعلانات الآن زيادة جعلتها تقرأ بإهمال شديد، فأصبح من الضروري لفت النظر بالوعود البراقة، وبالبلاعة التي تكون أحياناً رائعة وأحياناً مثيرة للشفقة. فتاجر سائل التجميل مثلاً يبيع غسولاً يزعم أنه يمنع البثور، ويزيل النمش، ويطري الجلد، ويربل اللحم... وقد بلغت حرفة الإعلان الآن من الكمال ما لا يسهل معه اقتراح أي تحسين عليها، ولكن بما أن كل فن ينبغي أن يمارس بالخضوع الواجب للصالح العام، فلست أملك إلا أن أطرح الأمر على هؤلاء المتحكمين في مسمع الشعب بوصفه سؤالاً أخلاقياً، وهو: ألا يتلاعبون أحياناً بعواطفنا تلاعباً فيه الكثير من العبث والاستهتار؟ (1).

وظل الطباعون والكتّابيون والناشرون مختلطين اختلاطاً كبيراً في حرفة واحدة. من ذلك أن روبرت ددسلي كان قد نشر أعمال بوب وتشستر فيلد، فطبع الآن لولبول وجولدسمث. وكان لتوماس ديفز مكتبة يقبل المشترون عليها، ويسمح فيها لهم بالتنقيب على مهل، وقد ألف جونسن وغيره الاختلاف إليها لتصفح الكتب و"البصبة" لزوج الرجل الجميلة "وظفر وليم ستراهان بالشهرة بنشره قاموس جونسن، وكتاب آدم سمث "ثروة الأمم"، وكتاب جيون "الاضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها". وقد نشر الكتابان الأخيران في "سنة العجائب" 1776. وأسست أكسفورد مطبعة كلارندن في 1780. وكان الكتّابيون ينفقون المؤلفين أجوراً طيبة عن الكتب الجيدة، ولكن كان في استطاعتهم استخدام الكتاب الماجورين لإعداد المقالات والمصنفات لقاء أجور حقيرة. ويقول كتّبي في قصة هنري بروك "الأحمق الوجيه" (1766) "في استطاعتي تكليف أحد هؤلاء السادة... الذين أنفق على تعليم الواحد منهم من المال أكثر... مما يعول أسرة كريمة إلى آخر الدهر -استطيع تكليف أحدهم بالكذ كأنه حسان جر من الصباح إلى المساء لقاء أجر أقل مما أستأجر به... حمالاً أو ماسح أحذية ثلاث ساعات" (2). وتكاثر المؤلفون حتى تشبعت بهم السوق، واقتتلوا باستماتة في سبيل أجر ضئيل هزيل، وتهاجموا بأقلام تنفت السم الزعاف. وأضافت النساء إلى المنافسة: المسز أنا باربولد، وسارة

صفحة رقم : 14213

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> الصحافة

فليدجنج، والمسز أميليا أوبي، والمسز إليزابث انتشبولد، والمسز إليزابث مونتيجو، وفاني بيرني، وهانا مور. ودخل قسيس ريفي في المباراة وخرج منها بقصب سبق.

صفحة رقم : 14214

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> لورنس ستيرن

2- لورنس ستيرن

ولم يكن بالقسيس المطبوع، فأبوه جندي، وقد ظل عشر سنين يجر من الوظيفة إلى أخرى، وخلال هذه الفترة وبعدها التقط من العلم بالشئون العسكرية ما مكنه من أن يجعل "العم طوبي" يتكلم على الحصارات والحصون كلام قائد محنك. أما أمه فقد وصفها بعد ذلك بأنها "ابنة بدال فقير يتبع المعسكر في فلندر" (3). على أن جده الأعلى كان رئيس أساقفة يورك، وقد وفقت أسرة ستيرن في الحصول على منحة دراسية للورنس ألحقته بكمبردج. وهناك نال درجته الجامعية في 1737، ولكن نزيفاً رئوياً أصابه في 1736 أنذر بكفاح يخوضه مدى الحياة مع داء السل. ورسم قسيساً أنجليكانياً (1738)، وعين في أبرشية متواضعة في ساوثون-ان-ذ-فورست، قرب يورك. وفي 1741 تزوج إليزابث لملي، وأخذها لتعيش معه في بيته الخرب. وقد عهدت إليه بإيرادها السنوي البالغ أربعين جنيهاً، فاستثمر بعضه في أرض، ونما الإيراد.

وكانان فيما عدا هذا بانسين. فكلاهما مصاب بالسل، وكلاهما خلق من أعصاب. وسرعان ما خلصت المسز ستيرن إلى أن "أوسع بيت في إنجلترا لا يمكن أن يضمهما معاً لكثرة هياجهما ونزاعهما" (4). وقد وصفتها ابنة عمها المثقفة إليزابث مونتيجو بأنها قنفذ نكد شكس "لا يستطيع المرء أن يتقاضي الشجار معها إلا بالابتعاد عنها" (5) ثم رزقا طفلين، مات أحدهما، أما الطفلة الثانية وهي ليديا فقد تعلقت بأمها تعلقاً واضحاً. وزادت تعاستهما حين جاءت إلى يورك أم ستيرن وأخته، وكانتا تعيشان في فقر في إيرلنده، والتمستا منه أن يعينهما بثمانية جنيهات في العام من دخل زوجته. ولم تنثر الفكرة أي حماسة. وأعطى ستيرن أمه بعض المال ورجاها أن تعود إلى إيرلنده، ولكنها ظلت في يورك، فلما قبض عليها بتهمة التشرد رفض ستيرن أن يدفع كفالة للإفراج عنها.

صفحة رقم : 14215

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> لورنس ستيرن

وبعد ثمانية عشر عاماً من الزواج المضني أحس القسيس أن أي إنسان مسيحي حقاً سيسمح له بشيء من الزنا. وقد وقع في غرام كاترين فورمانتيل، وأقسم لها قائلاً "أحبك حب الجنون، وسأظل أحبك إلى الأبد" (6). واتهمته زوجته بالخيانة، فأنكر التهمة، وأشرفت هي على الجنون حتى عهد بها وبلديا إلى رعاية "طبيب لمجانين"، وواصل علاقته الغرامية.

وفي غمرة هذه الضجة كتب واحداً من أشهر الكتب في الأدب الإنجليزي. وقد رجاه أصدقاؤه الذي قرأوا طرفاً من مخطوطة الكتاب أن يحذف منه "التوريات النابية التي قد تكون مؤذية بحق، خصوصاً لصدورها من قسيس" فحذف نحو 150 صفحة وهو آسف. ثم أرسل الباقي إلى المطبعة غفلاً من اسمه، ونشر الكتاب في يناير 1760 بهذا العنوان، "حياة السيد تراسترام شاندي وأراؤه". وقد بقي في المجلدين من الفضائح والفكاهة الغربية الطريفة ما جعلها الحدث الأدبي الهام لذلك العام في لندن. وتردد صدى هذه الضجة في فرنیه النائبة، فقال فولتير "كتاب مستهتر جداً، وكتاب أصيل، إنهم مجنونون به في إنجلترا" (7). وقال هيوم "أنه خير ما كتب أي إنجليزي في هذه السنين الثلاثين رغم ما فيه من سوء" (8). وبيع مائتا نسخة من الكتاب في بحر يومين في يورك، حيث كان اسم المؤلف الحقيقي سراً مذاعاً وحيث تبين القراء الكثير من الأشخاص المحليين في شخوص القصة الكبار.

ومن العسير أن نصف الكتاب، إذ ليس له شكل أو موضوع، ولا رأس ولا ذيل. وعنوانه خدعة، لأن "السيد" الذي يروي القصة، والذي أزمعت أن تعرض "حياته وآراءه" لا يولد إلا في صفحة 209 من المجلد الرابع (من الطبعة الأصلية ذات المجلدات التسعة). ومادة القصة هي ما حدث، أو ما قيل، بينما كان يحبل به، وبينما كان ينمو على مهل في بطن أمه. والصفحة الأولى هي خير الصفحات.

"وددت لو أن أبي أو أمي، أو كليهما حقاً، إذ أنهما كانا معاً ملزمين بالأمر الواجب على السواء، أقول وددت لو أنهما فكرا فيما هما فاعلان حين أنجباني، فهل نظرا كما ينبغي أن ينظرا كم من الأمور يتوقف على

صفحة رقم : 14216

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> لورنس ستيرن

ما هما صانعان، وأن المسألة لا تتصل بإنجاب كائن عاقل فحسب، بل ربما اتخذ التكوين السليم لبدنه، ومزاج هذا البدن، ونيوغة وطبيعة ذهنه ذاتها، ربما اتخذت هذه كلها من الأمزجة والميول الغالية عليهما آنذاك، ولو أنهما وزنا هذا كله وفكرا فيه كما ينبغي، ثم تصرفا طبقاً لهذا، لكنك يقيناً قد انبعثت إلى العالم شخصاً مختلفاً كل الاختلاف. قالت أمي "من فضلك يا عزيزي، ألم تتس أن تملأ المنبه؟" -وصاح أبي... "رباه! هناك امرأة منذ خلق الله الدنيا تقاطع رجلاً بسؤال غبي كهذا؟".

ومن ذلك الحادث فصاعداً يتألف الكتاب من الاستطرادات. ذلك أن ستيرن لم يكن لديه حكاية يرويها، ومن باب أولى حكاية الغرام التي هي مدار أكثر القصص، إنما رغبته أن يسلي نفسه وقراءه بالحديث الهوائي عن كل شيء، ولكن دون نظام؛ فكان يثب حول مشكلات الحياة جليها وحقيرها وثب جواد مرح لعوب في حقل. وبعد أن كتب أربعة وستين فصلاً خطر له أنه لم يكتب لكتابه مقدمة، فأدخل المقدمة عند تلك النقطة، وأتاح له هذا أن يسخر من نقاده. ووصف منهجه بأنه "أكثر المناهج تقوى، لأنني أبدأ بكتابة الجملة الأولى، ثم أتكلم في مجيء الثانية على الإله

القدير" (9) وعلى النداعي الطليق في الباقي. ومن قبله صنع رابليه ما يشبه هذا، وترك سرفانتس روزنانتي يقوده من حادث إلى حادث، وجاب رورث بيرتن العالم قبل تشريحه للاكتئاب، أما ستيرن فقد رفع توافه الأمور إلى مقام المنهج، وحرر جميع الروائيين من الحاجة إلى موضوع أو خطة. ولقد أبهج طبقات بريطانيا ذات الفراغ أن ترى مقدار الضجة التي يمكن إثارتها حول لا شيء، وكيف أن في الإمكان تأليف كتاب بالإنجليزية الإنجليزية الإنجلوسكسونية في عصر جونسن. أما البريطانيون الأشداء فقد رحبوا بالطرافة المرححة التي وجدوها في قسيس يتحدث عن الجنس وانتفاخ البطن، والشق الذي في سروال العم طوبي. وفي مارس 1760 ذهب ستيرن إلى لندن ليرشف رحيق نجاحه، وأسعده أن يجد أن المجلدين قد نفدا، وأخذ

صفحة رقم : 14217

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> لورنس ستيرن

630 جنيتها نظيرهما ونظير مجلدين آخرين قادمين. لا بل أن "مواعظ مستر يوريك" التي نشرت بعد "تراسترام" بأربعة أشهر حظيت ببيع سريع حين عرف أن يورك هو ستيرن. وأقبلت الدعوات على المؤلف من تشستر فيلد، وريبولدز، وروكنجهام، لا بل من الأسقف واربرتن، الذي فاجأه بخمسين جنيتها إنجليزيا، وربما تقادياً من أن يزين الأسقف صفحة لاذعة الهجاء في مجلدات قادمة. واشترى ستيرن عربية وروجين من الخيل، وركبها في انتصار مرح عائداً إلى يورك، حيث وعظ في كنيسة الكبرى. ثم رقي إلى قسوسية أكثر ثراء في كوكسولد، على خمسة عشر ميلاً من يورك، فأخذ زوجته وابنته لتعيشا معه هناك، وهناك كتب المجلدين الثالث والرابع من "تراسترام" في يسر غير معقول.

وفي ديسمبر من ذلك العام 1760 ذهب إلى لندن ليتابع طبع المجلدين. ووصل ترسترام الآن إلى رحلة الولادة بالجفت، الأمر الذي شوه أنفه، وعليه انطلق المؤلف في حديث مستفيض عن فلسفة الأنوف بأسلوب أكثر العلماء تفقهاً. فقال أحد الثقات إن أنف الطفل تحدده نعومة الثدي الذي يرضعه أو صلابته: "فالأنف حين يغوص فيه... كما يغوص في قطعة زبد كبيرة يرتاح ويتغذى ويسمن وينتفش ويحيا" (10).

وبعد قضاء نصف عام في لندن عاد ستيرن إلى زوجته التي أخبرته أنها كانت أسعد حالاً بدونه. فأنطوى على مخطوطاته، وكتب المجلدين الخامس والسادس، وفي هذين كاد ترستام ينسى، وشغل المسرح العم طوبي والجاويش تريم بذكرياتهما عن الحرب وقلاعهما اللعب. وفي نوفمبر 1761 انطلق القسيس مرة أخرى إلى لندن، وفي آخر يوم من العام شهد صدور المجلدين الخامس والسادس. وقد حظيا باستقبال حسن. وراح يغازل المسز إليزابث فيزي، إحدى النساء المثقات، وأقسم ليضحين بأخر مزقة من قسوسيته لقاء لمسة من يدها الملاكية! (11) ثم أصيب بنزف رئوي، وهرب إلى جنوبي فرنسا. وتلبث في باريس زمناً كفى لحضوره بعض حفلات العشاء في "مجمع الملحدين" الذي تزعمه دولباخ، حيث استهوى دييرو استهواء لم يفارقه. ولما سمع ستيرن أن زوجته مريضة، وأن لبيدا مصابة

صفحة رقم : 14218

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> لورنس ستيرن

بالربو، دعاها للحاق به في فرنسا. واستقر ثلاثهما قرب تولوز (يوليو 1762). وفي مارس 1764 ترك زوجته وابنته بموافقتها وعاد إلى باريس ولندن وكوسولد. وكتب الجزئين السابع والثامن من "ترسترام"، وتسلم مقدماً أتعابهما، وأرسل جزءاً من الحصىلة لمسز ستيرن. وصدر الجزءان الجديدان في يوليو 1765، فلم يظفر إلا بتناء متضائل، ذلك أن النغمة الشانديه-الطوبية أخذت تضعف. وفي أكتوبر بدأ ستيرن رحلة في إيطاليا وفرنسا استغرقت ثمانية أشهر. وفي عودته للشمال انضم إلى أسرته في برجنديه، وطلبت الأسرة البقاء في فرنسا، فدفع نفقاتها وقل إلى كوكسولد (يوليو 1766). وكتب الجزء التاسع فيما بين نوبات نزيغه، وذهب إلى لندن ليشهد مولده (يناير 1767)، واستمع بالضجة التي أثارها طوافه حول حافة الجنس في وصفه تودد العم طوبي لمسز ودمن. وكتب القراء المروعون إلى الصحف وإلى رئيس أساقفة يورك يطالبون بشلح هذا القسيس الفاجر وطرده، ولكنه رفض أن يفعل. وجمع ستيرن خلال ذلك اكتتابات بلغت جملتها 1.050 جنيهاً في كتاب موعود سماه "رحلة عاطفية" وأرسل مزيداً من المال لزوجته وتودد إلى إليزابيث دراير. وكانت زوجة موظف في شركة الهند الشرقية آنذ (مارس 1767) معين في الهند. تزوجته وهي في الرابعة عشرة، وهو في الرابعة والثلاثين. وأرسل إليها ستيرن كتبه، واعتزم أن يتبعها بيده وقلبه. وظلا فترة يلتقيان كل يوم، ويتبادلان الرسائل الرقيقة. والرسائل العشر المسماة "رسائل إلى إليز" تقضح عن الغرام الحزين الأخير يضطرب في جوانح رجل يموت بالسل. "صحيح أنني في الخامسة والتسعين بنية"، وأنت لا تتجاوزين الخامسة والعشرين،... ولكن ما أفقده صبي سأعوضه فكاهاة ومرحاً. فما أحب سويفت حبيبته ستيل، ولا سكارون حبيبته ماننتون، ولا وولر حبيبته ساكاريسا، كما سأحبك، وأتغنى بك، يا زوجتي المختارة! "ذلك أم "زوجتي لا يمكن أن تعيش طويلاً" (12). وبعد عشر دقائق من إرسال هذا الخطاب أصابه نرف شديد، وظل ينزف الدم حتى الرابعة صباحاً.

صفحة رقم : 14219

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> لورنس ستيرن

وفي أبريل 1767 أبحرت المسز دراير إلى الهند استجابة لدعوة زوجها. وظل ستيرن من 13 أبريل إلى 4 أغسطس بدون "يوميز لاليزا" وهي "مذكرات يومية بالمشاعر التسعة التي يحس بها شخص افترق عن سيدة يذوب شوقاً إلى لقائها". "إني أقبلك على أي شروط تعرضينها يا اليزا! سوف أكون... منصفاً جداً، وعطوفاً جداً نحوك، ولن أكون بعد اليوم مستأهلاً للتعاسة" (13). وفي يومية 21 أبريل: "نزفت اثنتي عشرة أوقية من الدم". وأخبره طبيب أنه مصاب بالزهري، فاعترض قائلاً أن هذا "محال...، لأنني لم أبشر الجنس أياً كان إطلاقه حتى مع زوجتي،... طوال هذه السنين الخمس عشرة". "وقال الطبيب: لن نتجادل في الأمر، ولكن لا بد لك من أخذ علاج بالزئبق" (14). وأيد أطباء آخرون هذا التشخيص، وأكد له أحدهم أن "لونات الدم تظل كامنة عشرين عاماً". فأذعن مؤكداً عفته. وما وافى شهر يونيو حتى تمائل للشفاء وعاد إلى كوكسولد. وبينما كان يكتب "الرحلة العاطفية" أصيب بمزيد من نوبات النزف، وأدرك أنه لن يمهل في الأجل طويلاً. فذهب إلى لندن، وشهد صدور كتيبه "فبراير 1768"، واستمتع لآخر مرة بمحبة أصدقائه التي لم تقتر. وكما لأن "ترسترام" ذكر القراء برأيه، فكذلك عكس الكتاب الجديد التأثير المتساعد لرتشاردسن وروسو. غير أن فضيلة سايرن كانت أقل مناعة من فضيلة رتشاردسن، ودموعه أقل حرارة وإخلاصاً من دموع روسو. ولعل هذا الكتاب، وكتاب مكنزي "رجل الوجدان" (1771)، هما اللذان أدعا كلمتي "عاطفة Sentiment" و "عاطفي Sentimental" في المجتمع الإنجليزي. وقال بايرون أن ستيرن "يؤثر البكاء على حمار ميت على التخفيف عن أم حية" (15).

وبينما كان ستيرن يستمتع بانتصاراته الأخيرة في لندن أصيب بنزلة برد تفاقمت حتى أصبحت التهاباً بليورياً. فكتب إلى سيدة تدعى المسز جيمس رسالة محزنة يطلب إليها أن ترعى ليديا إن توفيت زوجته. ووافته المنية في 18 مارس 1768، في فندق بأولد بوند ستريت دون لأن يكون إلى جواره صديق، غير متجاوز الثانية والأربعين. وكان فيه إثارة من المشعوذ، وقد

صفحة رقم : 14220

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> لورنس ستيرن

جعل من نفسه "مهرجاً للناظرين"، ولكن في استطاعتنا أن نفهم حساسيته للنساء، والتوتر الذي فرضه زواج تعس على رجل أوتي هذه الأحاسيس المرهفة والصنعة الرقيقة. لقد فاسى كثيراً، وأعطى كثيراً، وكتب كتاباً من أغرب الكتب في تاريخ الأدب قاطبة.

صفحة رقم : 14221

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> فاني بيرني

3- فاني بيرني

وقد نافست امرأة النجاح الذي أحرزه ف ي ميدان القصص منافسة قصيرة الأمد. ولدت في 1752 لأب يدعى تشارلز بيرني أصبح فيما بعد مؤرخاً للموسيقى. وقد رببت على الموسيقى أكثر من الأدب، فكانت لا تعرف القراءة حتى بلغت الثامنة (16)، وما كان لأحد أن يحلم بأنها ستصبح كاتبة. وماتت أم فرانسس وهي في التاسعة. ولما كان أغلب الموسيقيين الذين يعزفون في لندن يختلفون إلى بيت أبيها ويجذبون إليه شطراً كبيراً من صفوة المثقفين، فإن فاني اكتسبت تعليمها بالاستماع إلى الكلام والموسيقى. واكتملت نضجها ببطي، وكانت خجولاً يعوزها الجمال، واستغرقت أربعين سنة لتعثر على زوج؛ وحين نشرت روايتها الشهيرة (يناير 1778) كانت في الخامسة والعشرين، وبلغ من خشيتها أن تغضب الرواية أباهاً أنها أخفت نسبتها لها. وأحدثت الرواية ضجة، واسمها "إفلينا، أو دخول شابة إلى العالم" وأثار إغفال اسم المؤلف فضول الناس، وأذاعت الشائعات أن كاتبها فتاة في السابعة عشرة. أما جونسن الذي أثنى عليه المقدمة فقد امتدح الرواية وزكاها للدكتور بيرني. وشكت المسز تريل من فرط قصر الرواية. فلما علمت بالسر ذاع في طول لندن وعرضها، وأصبحت فاني شخصية بارزة في المجتمع، وقرأ الجميع كتابها، وكان "أبي العطوف الصادق المحبة سعيداً جداً بسعادتي" (17).

وسر فيها هذا الوصف-الذي أعانته ذاكرة متلبثة وخيال حي للصورة التي تراءى بها المجتمع اللندني لفتاة يتيمة في السابعة عشرة رباها قسيس ريفي لا يمت بشبه قريب ولا بعيد للورنس ستيرن. وما من شك في أن فاني هي أيضاً قد انتشت بتمثيل جاريك، وشعرت كما كتبت إفلينا للوصي

صفحة رقم : 14222

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> فاني بيرني

عليها" يا له من أداء طبيعي! وما أشد حيوية أسلوبه! وأرشق حركاته! وما أعجب ما تضطرم به عيناه من نار ومعنى!... وحين رقص، أواه لكم حسدت كلارندا! كدت أتمنى أن أثب إلى خشبة المسرح وأشاركهما الرقص(18). أما لندن التي سئمت رذائلها فأحست أنها تتطهر بتلك الريح القوية التي تهب عليها من هذه الصفحات الشبابية. وقد ماتت تلك القصة التي حظيت بصيت ذائع يوماً ما، ولكن اليومية التي دونتها فاني ما زالت جزءاً حياً من الأدب والتاريخ الإنجليزيين، لأنها تتيح لنا نظرة عن كثب لمشاهير القوم من جونسن وجورج الثالث إلى هيرشل ونابليون. وقد عينت الملكة شارلوت الأنسة بيرني أمينة على ملابسها (1786)، وكانت فاني تلبس جلالتها وتخلع عنها ملابسها طوال السنوات الخمس التالية. ولكن الحياة المتكلفة الضيقة التي عاشتها المؤلفة كادت تخنقها، وأخيراً أنقدها أصدقاؤها، ففي 1793، بعد أن ذوى شبابها، تزوجت مهاجراً فرنسياً مفلساً هو الجنرال داربلية. وقد عالتها بمؤلفاتها ودخلها، وظلت عشر سنين تعيش معه في فرنسا بعيدة عن الأضواء يعزلها عن المجتمع عنف حروب الثورة وحروب نابليون. وفي 1814 سمح لها بأن تعود إلى إنجلترا وتنال بركة أبيها لآخر مرة قبل موته في الثامنة والثمانين. وقد عمرت هي نفسها لهذه السن، حتى أدركت عالماً مختلفاً كل الاختلاف، عالماً لم يدرك أن جين أوستن الذائعة الصيت (التي ماتت 1817) إنما استلهمت الروايات المنسية التي ألقتها سيدة منسية ظلت حية ترزق حتى سنة 1840.

صفحة رقم : 14223

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> هوراس وليبول

4- هوراس وليبول

قال "هذه الدنيا ملهامة لمن يفكرون، ومأساة لمن يشعرون" (19) لذلك تعلم أن يبتسم للحياة، بل أن يداعب نقرسه. وقد أرخ لجيله، ولكنه غسل يديه منه. كان ابناً لرئيس وزارة، ولكن السياسة لم تلذّه. وكان يعشق النساء، من فاني بيرني إلى أرقى الغراندوقات، ولكنه أبى أن يكون له زوجة منهن، ولا خليفة (على قدر علمنا). درس الفلسفة ولكن كان رأيه

صفحة رقم : 14224

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> هوراس ولبول

في الفلاسفة أنهم لعنة القرن ومصدر إزعاجه. كاتبة وحيدة فقط أعجب بها إغحاباً بغير تحفظ لسلوكها المهذب وفنها الذي لا تكلف فيه -وتلك هي مدام دسفينيه، وهي وحدها التي حاول محاكاتها؛ وإذا كانت رسائله لم تظفر بفتنتها ورشاققتها ومرحها، فإنها غدت أكثر كثيراً من رسائلها تاريخاً يومياً حياً للعصر الذي كتبت فيه؛ ومع أنه سماها حوليات مستشفى المجاذيب (20)، فإنه كتبها بعناية، أملاً في أن يمنحه بعضها ركناً في ذاكرة الناس؛ ولا غرو، فحتى الفيلسوف الذي راض نفسه على الفناء يشق عليه الرضى بالنسيان.

وكان هوراشيو (وهو اسمه الذي عمد به في 1717) أصغر أبناء خمسة ولدوا للسر روبرت ولبول، رئيس الوزارة الشجاع الذي ضحى بسمعته لأنه أثر السلام على الحرب، ولكنه لم يكد يؤذيها بإيثاره الزنا على الاكتفاء بزوجة واحدة (21). ولعل المتقولين نسبوا هوراس حيناً لأب آخر انتقاماً لزوجته الأولى، وهو كار، لورد هرفي، أخو الرجل المخنث جون، لور هرفي الإكورتشي -الذي اتهم السر روبرت بمحاولة إغواء الليدي هرفي (22). وفي هذه المسائل من التعقيد ما لا يسمح بإصدار الحكم عليها في الحاضر، وحسبنا أن نقول أن هوراس نشئ دون أن يرميه أقاربه بنسب منحرف. وقد عامله رئيس الوزراء بما يعامل به الرجل المشغول ولده من عدم المبالاة، أما أمه فقد "دللته" (كما يروى) بـ "ولع شديد" (23) وكان صبيّاً رائع الحسن، يلبس لباس الأمراء، ولكنه كان هشاً خجولاً، حساساً كأنه بنت. وحين ماتت أمه (1737) خشي كثيرون أن يموت الفتى ذو العشرين ربيعاً حزناً عليها. وسرى عنه السر روبرت بوظائف حكومية شريفة تقي بنفقات ولده على الثياب الفاخرة، والعيش الأنيق، ومجموعة التحف الغالية وأضمر هوراس الخصومة لأبيه إلى آخر حياته، ولكنه كان يدافع عن سياسته دائماً.

وحين بلغ العاشرة أرسل إلى إيتن حيث تعلم اللاتينية والفرنسية وصادق الشاعر جراي. وفي السابعة عشرة التحق بكنجز كولدج بكمبردج، وهناك تعلم الإيطالية وتشرب الربوبية من كونيرز مدلتن. وفي الثانية والعشرين

صفحة رقم : 14225

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> هوراس ولبول

انطلق مع جراي في رحلة يجوبان فيها إيطاليا وفرنسا دون ان ينال درجة جامعية. وبعد أن طوفا قليلاً استقر خمسة عشر شهراً في فيلا بفلورنسة ضيفين على القائم بالأعمال البريطاني السر هوراس مان. ولم يلتق ولبول ومان بعدها

قط، ولكنهما ظلّا يتراسلان طوال الخمس والأربعين السنة التالية (1741-85). وفي ريدجو اميليا تشاجر جراي وولبول، لأن هوراس كان قد دفع كل نفقات إقامتهما، ولم يستطع الشاعر أن يغتفر مظاهر الاحترام الشديد التي كان يختص بها ابن الرجل الذي يحكم إنجلترا. ولام هوراس نفسه على هذا الوضع وهو يستحضر تلك الفترة "كنت صغيراً جداً، شديد الوله بملاهي... شديد الانتشاء بالتدليل، والغرور، وغطرسة منصبي... بحيث تعذر علي الاهتمام والإحساس بمشاعر شخص حسبته أدنى مني مقاماً، شخص يخجلني أن أقول إنني كنت أعرف أنه مدين لي بفضل" (24). وافترقا، وكاد ولبول يموت من الندم أو من التهاب اللوزتين المتقيح، ورتب رحلة العودة لجراي. ثم تصالحا في 1745، وطبعت معظم قصائد جراي في مطبعة ولبول بستروزي هل. وجلس ولبول في هذه الفترة إلى الرسامة روزاليا كاربيرا لتصويره في لوحة جميلة بالباستيل.

وقبل أن يصل ولبون إلى إنجلترا (12 ديسمبر 1741) كان قد أنتخب عضواً في البرلمان. وهناك ألقى خطاباً متواضعاً لم يجد فتيلاً ضد المعارضة التي كانت جادة في إنهاء عهد وزارة أبيه الطويل الرخي. وظل يعاد انتخابه بانتظام حتى 1767 حين انسحب مختاراً من ميدان السياسة النشيطة. وكان بوجه عام يؤيد برنامج الهوجز التحرري: يقاوم توسيع السلطة الملكية، ويوصي بحل وسط مع ولكس، ويندد بالرق (1750) قبل أن يولد ولبرفورس بتسع سنين. وقد عارض في تحرير الكاثوليك الإنجليز سياسياً بحجة أن "البابويين والحرية نقيضان" (25). ورفض حجة الأمريكيين ضد قانون الدمغة (26)، ولكنه دافع عن مطالبية المستعمرات الأمريكية بالحرية، وتنبأ بأن أوج الحضارة القادم سيكون في أمريكا (27). وكتب (1786) يقول "من غير ميكيافلي يستطيع الزعم بأن لنا ظل حق في شير من الأرض في الهند؟" (28) وقد أبغض الحرب، فلما أفلح الإخوان مونجولفييه في

صفحة رقم : 14226

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> هوراس ولبول

الطيران بالبالون لأول مرة (1783) تنبأ في فزع بانتشار الحرب إلى الجو وكتب يقول "أرجو ألا تكون هذه الشهب الميكانيكية غير لعب للعلماء أو العاطلين، وألا تحول إلى آلات تدمير للنوع الإنساني، كما هي الحال في كثير من الأحيان في تحسينات العلم أو كشوفه" (29).

ثم قرر أن ينفق وقته في الريف حين وجد نفسه في الأغلب الأعم يقف مع الجانب الخاسر. وعليه ففي 1747 استأجر خمسة أفدنة وبيتاً صغيراً قرب تويكنام. وبعد عامين اشترى هذا الملك، وحول البناء إلى الطراز القوطي الحديث كما رأينا. وفي هذه القلعة التي طبعتها بطابع القصر الوسيط جمع شتى التحف المتفردة فناً أو تاريخاً، وما لبث أن استحال بيته متحفاً يحتاج إلى قائمة بمحتوياته. ووضع في حجرة مطبعة، وطبع فيها أربعة وثلاثين كتاباً بما فيها كتبه طباعة أنيقة. وقد طلع على القراء من ستروبري في أكثر الأحيان بخطاباته الباقية إلى اليوم وعددها 3.601 وكان له مائة صديق، تشاجر معهم كلهم تقريباً، ثم تصالح، وكان لطيفاً بقدر ما سمح به مزاجه العصبي المرهف. وكان يخرج الخبز واللبن كل يوم للسناجيب التي تتودد إليه. وكان يرعى وظائفه الشرفية ويسعى للمزيد منها، ولكن حين فصل ابن خاله هنري كونواي من وظيفته اقترح ولبول أن يقسم دخله معه.

وكان فيه ألف عيب، حشدها ماكولي بتفصيل كثير في مقال ذكي جانر. لقد كان ولبول مغروراً، نقياً، كتوماً، هوائياً، فخوراً بأجداده، مشمئزاً من أقاربه. وكانت فكاخته تنحو إلى الهجاء المقذع. وقد حمل إلى قبره، وفي التواريخ التي كتبها، احتقاره لكل الذين شاركوا في خلع أبيه. وكثيراً ما عنف في تحامله، كما نرى في أوصافه لليدي بومفريت (30) أو الليدي ماري ورتلي منتجيو (31). وقد نحا به جسده الهش إلى طبيعة تشبه طبيعة الهاوي السطحي. وإذا كان ديدرو، في عبارة سانت بوف المنيرة، أكثر الفرنسيين جميعاً أمانياً، فإن ولبون كان أكثر الإنجليز جميعاً فرنسية. وكان صريحاً شجاعاً في الإعراب عن ميوله وآرائه غير المألوفة؛ ففرجل في رأيه مضجر، ومن باب أولى رتشاردسن وستيرن. وقال عن

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> هوراس وليبول

دانتي أنه "مثودي في مستشفى المجاذيب" (32) وتظاهر بأنه يحتقر كل المؤلفين، وأصر كما أصر كنجريف على أنه يكتب كما يكتب جنتلمان لمزاجه، لا كأديب أجبر يعتمد على تسويق كلامه. ومن ثم نراه يكتب لهيوم قاتلاً: "أنت تعلم أننا في إنجلترا نقرأ كتب المؤلفين ولكن ندر أن نعبأ بهم أو لعلنا لا نعبأ بهم إطلاقاً. ونحن نراهم قد نالوا جزاء كافياً إذا راجت كتبهم، ثم نتركهم بالطبع لكلياتهم وإنغمارهم، وبهذه الطريقة لا يزعجنا غرورهم وسلطتهم... وأنتي، وأن أحد المؤلفين، يجب أن أعترف بأن هذا المسلك كعقول جداً، لأننا في الحق قبيل لا نفع فيه إطلاقاً" (33).

ولكنه هو أيضاً. باعترافة كان مؤلفاً، مغروراً مفرد الإنتاج. وإذ أحس الضجر في قلعه، فقد راح ينقب في الماضي كأنه يبغى الغوص بجذور عقله في أغنى طبقات تربته. فوضع "كتالوجاً بمؤلفي إنجلترا الملكيين والنبلاء" (1758). فنبلهم يفتقر لهم اشتغالهم بالتأليف، ورجال من الطراز الأول مثل بيكون وكلازندن يمكن أن يكونوا أهلاً لأن يسلكوا في هذه الطائفة. وطبع ثلاثمائة نسخة وزع معظمها هدايا، وغامر درسلي بطبعة من ألفي نسخة، فبيعت بسرعة، وجاءت لوبول بشهرة لا بد أنها جعلته ينكس رأسه خجلاً. ثم ضاعف خزيه بخمسة مجلدات عن "نوادير عن التصوير في إنجلترا" (1762-71) وهي تصنيف شائق ظفر بتقريظ من جيون.

ثم ألف رواية غرامية تحت للعصر الوسيط كأنه يتخفف من هذه التأليف العلمية المجهدة، واسم الرواية "قلعة أوترانتو" (1764)، وقد أصبحت أما لألف قصة تروي عجائب وأحوالاً خارقة. وقد جمع بين الأسرار الغامضة والتاريخ في "الشكوك التاريخية حول حياة الملك رنشارد الثالث وملكه" فذهب كما ذهب آخرون بعده إلى أن رنشارد قد اخترت عليه الرواية المتواترة وشكسبير؛ وقد وصف هيوم وجيون حججه بأنها غير مقنعة، ولكن وليبول راح يرددها حتى مماته. ثم تحول إلى أحداث عرفها

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> هوراس وليبول

معرفة خبير، فكتب مذكرات عن حكمي جورج الثاني وجورج الثالث، وهي مذكرات منيرة ولكنها متحيزة، نظر فيها إلى جيله بمنظار أسود لأنه كان حبيس تغرضاته: "وزراء غادرون، وأدعياء للوطنية، وبرلمانات مسابرة، وملوك غير معصومين" (34). "أنتي أرى وطني يسير إلى الخراب، وما من إنسان فيه من العقل ما يحمله على إنقاذه" (35) وقد كتب هذا الكلام عام 1768، حين كان شاتام قد خلق لتوه الإمبراطورية البريطانية. وبعد أربعة عشر عاماً، حين بدا أن الملك واللورد نورث سيد مرانها، خلص وليبول إلى هذه النتيجة "أننا منحطون انحطاطاً تاماً في كل ناحية، وهذا في ظني حال كل الدول المتهاوية" (36) وبعد جيل هزمت الجزيرة الصغيرة نابليون. وقد بدا النوع الإنساني كله

لولبول معرض وحوش "فيه حيوانات قميئة، قصيرة الأجل... مضحكة" (37) ولم يجد في الدين أي عزاء. وقد أيد الكنيسة الرسمية لأنها تساند الحكومة التي تدفع له رواتبه الشرفية ولكنه لم يخف أنه ملحد (38) "بدأت أرى أن الحماسة مادة، ولا يمكن تدميرها. فإذا قضيت على شكلها، اتخذت شكلاً آخر" (39). وظن في استطاعته العثور على شيء يحفزه في فرنسا (سبتمبر 1765). وفتحت له كل الأبواب، فرحبت به مدام دودفان بديلاً عن دالمبير. وكانت في الثامنة والسنتين، وولبول في الثامنة والأربعين، ولكن فارق السن اختفى حين التقت روحهما المتقاربتان في تبادل رقيق اليأس. وسرها أن تجد ولبول موافقاً على معظم ما قاله فولتير، ولكنه يود لو أحرق حياً ليمنعه من قوله، لأنه كان يرتعد فرقاً حين يفكر فيما يحق بحكومات أوروبا إذا انهارت المسيحية. وقد انتقص من قدر فولتير، ولكنه سخر من روسو. وهذه الرحلة إلى باريس هي التي كتب فيها الخطاب الذي زعم أن كتابه هو فردريك الأكبر، ويدعو روسو للذهاب إلى برلين والاستمتاع بالمزيد من الاضطهادات. "لقد انتشرت النسخ كأنها الحريق، وهأنذا أصبحت موضحة سرت في المجتمع" (40) وقد خلف هيوم شخصية تتهافت عليها الصالونات. وتعلم أن يحب إثارة باريس المرحلة القاسية، ولكن كان عزاء له أن يجد "الفرنسيين أحقر منا نحن (الإنجليز) عشر مرات" (41).

صفحة رقم : 14229

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> هوراس ولبول

وبعد أن عاد إلى وطنه (في أبريل 1766) بدأ ترأسه الطويل مع مدام دودفان. وسنرى فيما بعد كيف ألقاه الخوف من أن تجعله محبتها له هزءاً، ومع ذلك فأغلب الظن أن رغبته في أن يراها من جديد هي التي حملته على العودة إلى باريس في 1767 و1769 و1771 و1775. وقد أنساه حبها عمره، غير أم موت جراي (30 يوليو 1771) ذكره بفنائنه هو. ولكنه أدهش نفسه بأن عمر حتى 1797. ولم تكن له هموم مالية، فدخله في 1784 كان 8.000 جنيه (200.000 دولار؟) في السنة (42)، وفي 1796 ورث لقب اللورد أكسفورد. ولكن النقرس الذي أبتلى به منذ كان في الخامسة والعشرين ظل ينغص عليه عيشه إلى النهاية. ونقرأ أن كتلاً متجمعة من "الطباشير" كانت أحياناً تنفجر من أصابعه (43). وبات هزياً معوق الحركة في سنواته الأخيرة، وأقتضت حالته أن يحمله الخدم أحياناً من حجرة إلى حجرة، ولكنه واصل العمل والكتابة، وكان الزوار إذا ألموا به يعجبون لبريق الاهتمام في عينيه، وليقظة مجاملاته، ومرح حديثه، ونشاط ذهنه وصفائه. وكان كبار القوم يلمون به كل يوم تقريباً ليروا بيته المشهور ومجموعة تحفه المتنوعة، ومنهم هانا مور في 1786، والملكة شارلوت في 1795. ولكن رحيله عن هذه الدنيا لم يكن في ستروبري هل، بل في بيته اللندني بميدان باركلي، وكان ذلك في 2 مارس 1797 في عامه الثمانين. ويبدو أنه كان نادماً على احتواء مذكراته ورسائله لكثير من الفقرات اللاذعة، لذلك أمر بأن تحبس مخطوطاته في صندوق لا يفتح "حتى يطالب بفتحه إيرل ولد جريف الأول عند بلوغه الخامسة والثلاثين" (44) وعليه لا تنتشر المذكرات إلا في عام 1822 أو بعده، حين يكون كل الذين قد يتأذون منها قد فارقوا الحياة. وقد نشرت بعض الرسائل في 1778، ومزيد منها في 1818 و1820 و1840 و1857... وفي العالم القارئ للإنجليزية طولا وعرضاً رجال ونساء قرأوا كل كلمة وردت في تلك الرسائل، وهم يقدرونها فيما يقدر من أبهج ما خلفه القرن المنير من تراث.

صفحة رقم : 14230

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

5- إدوارد جبون

كتب وليول لأحد كبار المؤرخين، وهو روبرتسن، يقول "أن المؤرخين المجيدين أندر الكتاب أجمعين، ولا غرابة في هذا! فالأسلوب الجيد ليس بالأمر الشائع جداً، وأندر منه الإحاطة الدقيقة الشاملة بالحقائق، ولم تتوفر في جبون الشرط الأخير تماماً، ولكن هذا يقال أيضاً عن تاسيتوس، وهو وحده الذي يمكن أن يقف معه على قدم المساواة بين أساطين المؤرخين.

أ- إعداده

كتب جبون، أو بدأ كتابه، ست سير ذاتية، أدمجها منفذ وصيته الأدبي، وهو ايرل شفيلايد الأول، وفي "مذكرات. (1796) جيدة الحبكة، منقاة دون موجب، وتعرف أحياناً باسم "السيرة الذاتية". كذلك كان جبون يدون يومية، بدأها في 1761 وواصل تدوينها تحت عناوين مختلفة حتى 18 يناير 1763. وقد حكم العارفون على هذه المصادر الأولى لنشأته بأنها صحيحة إلى حد معقول، إلا فيما يتصل بنسبه.

وقد أنفق ثماني صفحات يفصل القول في كرم مجتده، وقد أخذه عنه النسابون القساة(46). فجده إدوارد جبون الأول كان أحد مديري شركة البحار الجنوبية الذين قبض عليهم بتهمة الانحراف بعد أن تفجرت تلك "الفقاعة" (1721). وصودرت كل ثروته التي قدرها بمبلغ 106.543 جنيه، فيما عدا 10.000 جنيه. ويروي لنا المؤرخ أن على هذه البقية الباقية "بنى صرح ثروة جديدة... لا تقل كثيراً عن الأولى"(47) ولم يكن موافقاً على زواج ابنه إدوارد الثاني، ومن ثم أوصى بمعظم ثروته لبنتيه كاترين وهستر وتزوجت بنت كاترين بإدوارد الثالث، الذي اشترى فيما بعد كرسيه في البرلمان لإدوارد جبون الثالث، أما هستر فأصبحت تابعة غنية من أتباع وليم لو (48)، وغاظت ابن أخيها رداً طويلاً بموتها البطيء. وقد تعلم إدوارد الثاني على يد لو، وأكمل تعليمه في مدرسة ونشستر وفي كمبردج، وتزوج

صفحة رقم : 14231

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

جوديت بورتن، ورزق منها سبعة أطفال، ولم يجز سن الطفولة منهم غير إدوارد الثالث. وقد ولد في بتن بإقليم صري في 8 مايو 1737. وماتت أمه في 1747 بسبب حملها السابع، فانقل الأب إلى ضيعة في الريف ببيتوربتن في هامبشير، على ثمانية وخمسين ميلاً من لندن، تاركاً الصبي في رعاية خاله ببيت جده في بتني.

وهناك أكثر دارس المستقبل الانتفاع بالمكتبة الحافلة بالكتب. وقد قطعت أمراضه المتكررة تقدمه في مدرسة ونشستر، ولكنه كان يشغل أيام نفاخته بالقراءة المهمة وأكثرها في التاريخ، خصوصاً تاريخ الشرق الأدنى "ولم يلبث محمد (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون أن استرعوا انتباهي.. وأسلمني كتاب إلى كتاب حتى طفت بكل تاريخ الشرق. وقبل أن أبلغ السادسة عشرة كنت قد أتيت على كل ما كتب بالإنجليزية عن العرب والفرس، والتتار والترك" (49). ومن هنا هذه الفصول الرائعة عن محمد (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين، والاستيلاء على القسطنطينية.

يروى أنه حين أرسل إلى كلية مجدلين بأكسفورد وهو في الخامسة عشرة "وصلت إليها بذخيرة من المعرفة الواسعة قد تحير فقيهاً، وبدرجة من الجهل يندى لها جبين تلميذ" وكان فيه من الهزال ما يمنعه من الانخراط في الألعاب الرياضية، ومن الحياء ما يصدّه عن الاختلاط الطبيعي بغيره من الطلاب. وكان من الجائز أن يكون تلميذاً نابغة لو قيض له معلم كفاء: ولكنه على ما كان به من شغف بالتعليم افتقد الأستاذ الشغوف بالتعليم. وكان أكثر المعلمين يسمحون لتلاميذهم بحضور المحاضرات أو التخلف عنها، بإنفاق نصف وقتهم في "إغراءات باطلة" (50) ومن ثم أغضوا عن "انحرافات السلوكية، والمعاشرات الرديئة، والسهر، والإنفاق الطائش"، وحتى الرحلات الترفيهية إلى باث أو لندن. على أنه "كان في من الحداثة والحياء ما يمنعني من الاستمتاع بحانات كوفنت جاردن وموآخيرها كما يستمتع بها الكثير من طلاب أكسفورد حين يلمون بلندن" (51). وكان أساتذة الكلية كلهم من رجال الدين، يعلمون ويسلمون بمواد

صفحة رقم : 14232

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جيون

الكنيسة الأنجليكانية التسع والثلاثين. وكان جيون ذا نزعة قتالية، كثير السؤال لمعلميه. ولاح له أن الكتاب المقدس والتاريخ يبران الكنيسة الكاثوليكية في دعوها بالأصل الإلهي. وحصل له أحد معارفه على بعض الكتب المقلقة، وأهمها كتاب بوسويه "عرض للعقيدة الكاثوليكية وتاريخ المذاهب البروتستانتية"، هذه "حققت هدايتي، ولا شك أنني وقعت في يد نبيلة" (52). وباندفاع الشباب اعترف على كاهن كاثوليكي، وقبل عضواً في كنيسة روما (8 يونيو 1753).

وأحاط أباه علماً بالأمر، ولم يدهشه أنه دعا للعودة إلى وطنه، لأن أكسفورد لم تكن تقبل الكلاب الكاثوليك، وكان دخول بروتستانتية في المذهب الكاثوليكي الروماني- طبقاً لما يقول بلاكستون يعد "خيانة عظمى". وما أسرع ما نفى الأب المروع الفتى إلى لوزان، ورتب أن يقيم مع راع كلفني. هناك عاش إدوارد أولاً في حالة من العناد المتجهم. ولكن المسيو بافيار كان رجلاً عطوفاً وأن أعوزه التسامح الديني، فاستشعر الصبي المحبة له في بطيء. ثم أن الراعي كان دارساً كلاسيكياً قديراً. وتعلم جيون أن يقرأ الفرنسية ويكتبها بطلاقة الإنجليزية، واكتسب معرفة طيبة باللاتينية. ولم يلبث أن استقبلته الأسر المتقفة التي كانت طباعها وحديثها تعليماً يفضل ما لقتته أكسفورد من قبل. فلما تحسنت فرنسيته أحس نسانم العقلانية الفرنسية تهب على لوزان. واختلف بابتهاج إلى التمثيليات التي قدمها فولتير في مونريون القريبة منه وهو بعد في العشرين (1757). "وكنت أحياناً أتعشى مع الممثلين" (53). والتقى بفولتير، وبدأ يقرأ فولتير، وقرأ كتاب فولتير الحديث "مقال في التاريخ العام" (مقال في الأعراف). وأكب على كتاب مونسكيو "روح القوانين" (1748) وأصبح كتاب "تأملات في أسباب عظمة الرومان وتدهورهم" (1734) نقطة الانطلاق لكتاب جيون "اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها". أياً كان الأمر، فإن تأثير الفلاسفة الفرنسيين، فضلاً عن قراءته لهيوم والريوبيين الإنجليز، قوضاً مسيحية جيون وكاثوليكيته

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جيون

على السواء، وأبطل قبول جيون للتتوير سراً الانتصار الذي أحرزه بافيار للإصلاح البروتستانتية. ولا بد أن روحه انتشت حين التقى في العام نفسه (1757) بكل من فولتير وسوزان كورشو؛ وكانت في العشرين، شقراء، حسناء، مرحة، تعيش مع أبويها البروتستانتين في كراسي، على أربعة أميال من لوزان، وكانت الروح القائدة في "جماعة الربيع" - وهي لفيق من خمسة عشرة شابة أو عشرين يلتقيين في بيوت بعضهم البعض، ويغنين، ويرقصن، ويمثلن الكوميديات، ويغازلن الشباب في حكمة وتعقل. ويؤكد لنا جيون أن "عفتين لن تلوثها قط همسة فضيحة أو شبة". ولندعه يروي القصة: "في زيارتها القصيرة لبعض أقربائها في لوزان كان ظرف الأنسة كورسو، جمالها، وسعة علمها، محل إعجاب الجميع. وقد أثار فضولي نبأ هذه العجيبة. فرأيت، وأحببت. ووجدتها مثقفة دون تنطع، مرحة في حديثها، نقية في عاطفتها، وشيقة في طباعها... وكانت ثروتها متواضعة، ولكن أسرتها محترمة... وقد أدنت لي بأن أزورها مرتين أو ثلاثاً في بيت أبيها. وأنفقت أياماً سعيدة هناك... وقد شجع والدها هذه الصلة تشجيعاً كريماً فأشبعحت حلمي بالسعادة العظمى" (54).

ويبدو أن خطبتهما عقدت رسمياً في نوفمبر 1757 (55)، ولكن موافقة سوزان كانت مشروطة بوعده جيون بالعيش في سويسرا (56). وفي غضون هذا أمر أبوه - الوائق بأن ابنه غدا الآن بروتستانتياً صالحاً - بأن يعود إلى وطنه ويستمتع إلى الخطط التي وضعت له. ولم يكن جيون حريصاً على العودة، لأن أباه كان قد اتخذ زوجة ثانية، ولكنه أطاع، ووصل لندن في 5 مايو 1758؛ "وسرعان ما تبينت أن أبي يرفض هذا الزواج الغريب، وأني سأكون مملقاً عاجزاً إذا أبى الموافقة. وبعد كفاح أليم أدعنت لإرادة أبي: تنهدت كعاشق وأطعت كإبن" (57). ثم نقل تنهده إلى سوزان برسالة كتبها في 24 أغسطس. ورتب له أبوه راتباً سنوياً قدره 300 جنيه. وكسبت زوج أمه عرفانه بصنيعها لأنها لم تتجب، ولم يلبث أن نمت

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جيون

في قلبه محبته. وأنفق شطراً كبيراً من دخله على الكتب، و "كونت بالندريج مكتبة كبيرة منقاة، وهي ركيذة مؤلفاتي، وخير عزاء لي في الحياة" (58).

وكان قد بدأ مقالاً في لوزان وأتمه في بوريتون (حيث كان ينفق الصيف) وعنوان المقال "في دراسة الأدب"، وقد نشر بانندن في 1761 وبنجيف في 1762. وإذ كان مكتوباً بالفرنسية، ويتناول أول ما تناول الأدب والفلسفة الفرنسية، فإنه لم يثر ضجة في إنجلترا، ولكنه استقبل في القارة استقبال إنجاز ممتاز لفتى في الثانية والعشرين. وقد احتوى بعض الأفكار ذات الدلالة في كتابة التاريخ. " أن تاريخ الإمبراطوريات هو تاريخ شقاء الإنسان، وتاريخ المعرفة هو تاريخ عظمتهم وسعادتهم... والاعتبارات كثيرة تجعل هذا النوع الثاني من الدراسة غالباً في عيني الفيلسوف" (59).

ومن ثم "إذا لم يكن الفلاسفة دائماً مؤرخين، فمن المرغوب فيه على الأقل أن يكون المؤرخون فلاسفة" (60). وقد أضاف جيون في "مذكراته" هذه العبارة "منذ شبابي الباكر تاقت نفسي إلى أن أكون مؤرخاً" (61). وراح يفتش عن موضوع يلائم الفلسفة والأدب كما يلائم التاريخ. أما التاريخ في القرن الثامن عشر فلم يدع أنه علم من العلوم، لا بل أنه تاق إلى أن يكون فناً. أما جيون فأحس بأنه يريد أن يكتب التاريخ بوصفه فيلسوفاً وفناناً: يعالج موضوعات واسعة في منظور واسع، ويسبغ على فوضى المواد دلالة فلسفية وشكلاً فنياً. غير أنه دعا فجأة من الدراسة إلى العمل. ذلك أن إنجلترا تعرضت غير مرة خلال حرب السنين السبع لخطر الغزو من فرنسا. واستعداداً لهذا الطارئ كون أعيان الإنجليز مليشياً تذود عن البلاد خطر الغزو أو التمرد. ولم يسمح إلا لذوي الأملاك بأن يكونوا ضباطاً. وعين جيون الأب ضابطاً كبيراً والابن ضابطاً صغيراً في يونيو 1759. والتحق إدوارد الثالث بفرقته في يونيو 1760، وبقي معها حتى ديسمبر 1762 فترات منقطعة، ينتقل من معسكر إلى معسكر. ولم يكن بالرجال الصالح للحياة العسكرية، وأصابه "الملل من رفاق لم يؤتوا معرفة الدارسين ولا طباع السادة المهذبين" (62).

صفحة رقم : 14235

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدوارد جيون

وفي حياته العسكرية وجد صفته يتمدد بما فيه من سائل. "اضطرت اليوم (6 سبتمبر 1762) لاستشارة الجراح المستر أندروز في أمر علة أهملتها بعض الوقت، وهي ورم في خصيتي اليسرى يخشى أن تكون خطيرة" (63). ففصد وأعطى مسهلاً، ولم يسفر هذا العلاج إلا عن تخفيف مؤقت. وقد قدر لهذه "علة" أن تعذبه حتى كانت القضية عليه.

وفي 25 يناير 1763 انطلق في رحلة إلى القارة. وتوقف برهة في باريس حيث التقى بدلامبير، وديدرو، ورينال، وغيرهم من نجوم حركة التنوير. "كان لي مكان خلال أربعة أيام في الأسبوع... على الموائد المضيفة للسيدات جوفران وبوكاج، وهلفتوس الذائع الصيت، والبارون دولباخ... ومرقت أربعة عشر أسبوعاً دون أن أحس بها، ولكن لو كنت غنياً غير معتمد على أبي لأطلقت المكث في باريس وربما جعلتها مستقري" (64).

وفي مايو 1763 وصل إلى لوزان حيث أقام قرابة عام. ورأى الأنسة كورشو، ولكن حين وجدها موفقة في خطبتها، ولم يحاول أن يجدد صداقته بها. ويعترف في هذه الزورة الثانية لسويسره قائلاً "أن عادات المليشيا وتمثلي بمواطني أفضيا بي إلى شيء من الإفراط الصاخب في الشراب، وقيل أن أرحل كنت قد فقدت عن جدارة رأي الناس الطيب في، وهو الرأي الذي ظفرت به في أيام سلوكي الأفضل" (65). وقد خسر مبالغ كبيرة في القمار، ولكنه واصل دراساته إعداداً لإيطاليا، ومكباً على القديم من الميداليات، والعملات، وأدلة السياح، والخرائط.

وفي أبريل 1764 عبر جبال الألب. وأنفق ثلاثة أشهر في فلورنسة، ثم مضى إلى روما. وأرشده مغترب اسكتلندي بين أطلال العصر الكلاسيكي القديم "في جهد يومي امتد ثمانية عشر أسبوعاً". يقول "في روما، وفي الخامس عشر من أكتوبر 1764، بينما أنا جالس مستغرقاً في تأملاتي وسط خرائب الكابنول، وبينما الرهبان الحفاة يرتلون صلوات العشاء في معبد جوبتر، خطرت لي لأول مرة فكرة الكتابة عن اضمحلال وسقوط المدينة لا الإمبراطورية" (66). وانتهى به التفكير إلى أن يرى في ذلك التسخ المدمر

صفحة رقم : 14236

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

"أعظم بل ربما أذهب مشهد في تاريخ الإنسان" (67). وبعد أن ألم بنا بلي، وبادوا، والبنديقية، وفتشنتسا، وفيرنا، عاد إلى لندن بطريق تورين وليون وباريس ("أسبوعان سعيدان آخران") (25 يوليو 1765). وكان يقضي معظم وقته الآن في بورتون، لذلك سمح لنفسه بأن ينلجى بالبده في كتابة تاريخ لسويسرا بالفرنسية. فلما رأى هيوم المخطوطة في لندن، كتب إلى جبون (24 أكتوبر 1767) يرجوه أن يستعمل الإنجليزية ويتنبأ بأن الإنجليزية ستبزع عما قريب الفرنسية انتشاراً ونفوذاً، ثم نبه جبون إلى أن استعماله للفرنسية أسلمه "إلى أسلوب فيه من الشعاعية والمجاز والإسراف في التلوين أكثر مما تسمح به لغتنا في المؤلفات التاريخية" (68). وقد اعترف جبون بعد ذلك قائلاً "أن عاداتي القديمة... شجعتني على أن أكتب بالفرنسية لقارة أوربا، ولكنني أنا نفسي كنت شاعراً بأن أسلوبى، الذي كان يعلو على النثر ويدنو عن الشعر، وقد انحدر إلى أسلوب خطابي طنان شديد الأطناب" (69). وخلف له موت أبيه (10 نوفمبر 1770) ثروة وفيرة. وفي أكتوبر 1772 اتخذ مقامه الدائم في لندن. "وما أن استقر بي المقام في بيتي ومكتبي حتى اضطلع بتأليف المجلد الأول من تاريخي" (70). وقد سمح لنفسه بألوان كثيرة من الترفيه- أمسيات في بيت هوايت، واختلاف إلى "نادي" جونسن، ورحلات إلى برايتن، وبات، وباريس. وفي 1774 أنتخب عضواً في البرلمان عن "دائرة جيب" يتحكم فيها قريب له. وقد لزم الصمت وسط المناقشات التي دارت في مجلس العموم. وكتب (25 فبراير 1775) يقول "ما زلت صامتاً. أن الأمر أذهب مما تصورت، فحول الخطابة بمألونني بأساً، وأضعفهم يملأني رعباً" (71). غير أن "الدورات الست التي قضيتها في البرلمان كانت لي مدرسة علمتني الحكمة المهذبة، وهي أولى فضائل المؤرخ وألزمها" (72) وحين اكتنفه الجدل حول أمريكا، صوت بانتظام في جانب سياسة الحكومة، ووجه للامة الفرنسية "مذكرات تبريرية" (1779) بسط فيها حجج إنجلترا ضد مستعمراتها

صفحة رقم : 14237

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

الثائرة. وقد أجزى بمقعد في مجلس التجارة والمزارع، أناه بسبعمائة وخمسين جنيهاً في السنة. واتهمه فوكس بالتكسب من ذلك الفساد السياسي الذي أوضح أنه من أسباب اضمحلال روما (73). وقال الطرفاء أن جورج الثالث اشترى جبون مخافة أن يسجل اضمحلال وسقوط الإمبراطورية البريطانية (74).

ب - الكتاب

كان شغل جبون الشاغل بعد عام 1772 كتابه في التاريخ، وقد وجد من العسير عليه أن يفكر جدياً في أي شيء سواه. "لقد بذلت محاولات كثيرة قبل أن استقر على أسلوب وسط بين سجل الأخبار الممل والعرض الخطابي البليغ. وكتب

الفصل الأول ثلاث مرات، والثاني والثالث مرتين، قبل أن أَرْضَى رضاء معقولاً عن وقعها" (75). لقد عقد عزم على أن يجعل كتابه التاريخي أثراً أدبياً.

وفي 1775 عرض جيون مخطوطة الفصول الستة عشر الأول على ناشر رفضها لأنها تكلفه ثمناً غالباً يحول دون النشر. واشترك كتيبان آخران هما توماس كولدويل ووليم سترهان في مغامرة طبع المجلد الأول من "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" (17 فبراير 1776). وبيعت النسخ الألف بحلول 26 مارس رغم أن الكتاب سعره بجنه إنجليزي (26 دولاراً). ونفدت طبعة ثانية من ألف وخمسمائة نسخة صدرت في 3 يونيو بعد صدورها بثلاثة أيام. "كان كتابي على كل خوان، وعلى كل تسريحة تقريباً" (76). وأجمعت دنيا الأدب على الثناء عليه وهي على ما عهد فيها من تحاسد وتناذب يمزقها. وبعث وليم روبرتسن إلى المؤلف بعبارات التحية السخية، أما هيوم فقد كتب في هذا العام الذي مات فيه إلى المؤلف رسالة يقول جيون إنها "أجزلت له المكافأة على جهد سنين عشر (77). وصرح هوراس ولبول غداة نشر الكتاب لوليم ميسن: "ها قد صدر للتو والساعة أثر من عيون الأدب حقاً". وقد استهل الكتاب استهلالاً منطقياً وجريئاً بثلاثة فصول عميقة فصلت

صفحة رقم : 14238

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جيون

الامتداد الجغرافي والتنظيم العسكري والبناء الاجتماعي والتكوين القانوني للإمبراطورية الرومانية عند موت مرقص أوريلبيوس (180م) وفي رأي جيون أن السنين الأربع والثمانين السابقة لهذا التاريخ قد شهدت الإمبراطورية في أوج كفاية موظفيها ورضى شعوبها.

" لو أن إنساناً إليه أن يحدد فترة في تاريخ العالم كانت فيها حال النوع الإنساني غاية في السعادة والرخاء، لاختار دون تردد الفترة التي امتدت من وفاة دوميشيان (96) إلى تولي كومودس (180). فقد كان ملك الإمبراطورية الرومانية الشاسع محكوماً بسلطة مطلقة، وبهدى من الفضيلة والحكمة. وكانت الجيوش تضبطها يد أربعة أباطرة متعاقبين، جمعت بين الحزم والرفق، وهم حكام فرضت شخصياتهم وسلطتهم الاحترام التلقائي. وصان أشكال الإدارة المدنية في عناية ودقة الأباطرة نيرفا، وتراجان، وهادريان، والانتونيان، هؤلاء الذين كانت صورة الحرية مبعث ابتهاج لهم، وسرهم أن يروا أنفسهم خدام القوانين والمسؤولين... ولقيت جهود هؤلاء الملوك خير جزاء في فخر الفضيلة الحق، والبهجة العميقة، يستشعرونها حين يرون السعادة العميقة التي كانوا صناعها" (78).

غير أن جيون أدرك "نزوع السعادة التي تعتمد بالضرورة على خلق رجل واحد. ولعل اللحظة القاضية كانت وشيكة، حين يبسيء فتى إباضي أو طاغية حسود.. استعمال السلطة المطلقة" (79). لقد كان "الأباطرة الصالحون" تنتخبهم ملكية متبينة- فكل حاكم يورث سلطانه لعضو مختار ومدرب من حاشيته. وقد سمح مرقص أوريلبيزس بأن يرث السلطة الإمبراطورية ابنه الحقيير كومودس، وأرخ جيون اضمحلال الإمبراطورية منذ توليه العرش. ثم ذهب جيون إلى أن ظهور المسيحية أعان على ذلك اضمحلال. وهنا تخلى عن اتباع رأي مونتسكيو الذي لم يقل شيئاً كهذا في كتابه "عظمة الرومان وانحطاطهم"، إنما اتبع فولتير، وكان موقفه عقلائياً خالصاً، فقد تجرد من أي ميل للنشوة الصوفية أو الإيمان المملوء بالرجاء،

صفحة رقم : 14239

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

وأعرب عن رأيه في فقرة تشتم فيها نكهة فولتيرية. قال: "أن شتى أساليب العبادة السائدة في العالم الروماني كانت كلها في نظر الشعب سواء في الصدق وفي نظر الفيلسوف سواء في الكذب، وفي نظر الحاكم سواء في النفع. وهكذا أثمر التسامح انسجاماً دينياً" (80)، وكان جبون يتجنب عادة أي تعبير مباشر بعدائه للمسيحية، فقد كانت لا تزال هناك قوانين في سجلات إنجلترا التشريعية تعد هذا التعبير جريمة خطيرة. مثال ذلك "إذا أنكر شخص نشئ على الديانة المسيحية، كتابة"،... صدق المسيحية، كان عقابه إذا عاد... السجن ثلاث سنوات دون قبول كفالة عنه" (81). ودرءاً لهذا العناء اتخذ الإلماع الخفي والتهمك الشفاف عنصرين من عناصر أسلوبه، ونوه في حرص إلى أنه لن يناقش مصادر المسيحية الأولية وفوق الطبيعة، بل سيكتفي بمناقشة العوامل الثانوية والطبيعية في أصل المسيحية ونموها. وأدرج في هذه العوامل الثانوية "أخلاقيات المسيحيين الطاهرة الصارمة" في القرن المسيحي الأول، ولكنه أضاف عاملاً آخر "غيره المسيحيين لا مرونة فيها (ولا تسامح إن جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير)" (82) ومع أنه امتدح "وحدة الجمهورية المسيحية وانضباطها"، فإنه لاحظ أنها "شيئاً فشيئاً كونت دولة مستقلة متعاضمة في قلب الإمبراطورية الرومانية" (83). وقد رد بوجه عام تقدم المسيحية في أول عهدا إلى العملية الطبيعية لا إلى المعجزة، ونقل الظاهرة من اللاهوت إلى التاريخ.

ولكن كيف أعانت المسيحية على اضمحلال روما؟ أولاً بإضعاف إيمان الشعب بالدين الرسمي، وبذلك قوضت أسس الدولة التي سندها ذلك الدين وقدها. (وهذا بالطبع كان بالضبط حجة اللاهوتيين على جماعة الفلاسفة). وارتابت الحكومة الرومانية في المسيحيين بحجة أنهم يؤلفون جماعة سرية معادية للخدمة العسكرية، ويصرفون الناس عن الأعمال النافعة إلى التركيز على الخلاص السماوي. (فالرهبان في رأي جبون كانوا رجالاً متبطلين استسهلوا التسول والصلاة على العمل). أما الملل الأخرى فكان في الاستطاعة التسامح معها لأنها كانت متسامحة ولأنها لم تعرض وحدة الأمة للخطر، وكان المسيحيون هم الملة الجديدة الوحيدة التي نددت بسواها

صفحة رقم : 14240

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

من الملل وحكمت عليها بأنها شريرة هالكة، وتنبأت صراحة بسقوط "بابل" - أي روما (84). وقد عزا جبون قدرأ كبيراً من هذا التعصب لأصل المسيحية اليهودية، وذهب مذهب تاسيتوس في التنديد باليهود في نقاط شتى في روايته. وحاول أن يفسر اضطهاد نيرون للمسيحيين على أنه في حقيقته اضطهاد لليهود (85)، وليس لهذه النظرية اليوم مؤيد. وكان أكثر توفيقاً في اتباع رأي فولتير في إنقاص عدد المسيحيين الذين استشهدوا على يد الحكومة الرومانية، فلم يزيدوا في تقديره على الألفين على الأكثر، ووافق فولتير على أن "المسيحيين، على مدى خلافاتهم الداخلية (منذ قسطنطين) أوقعوا بعضهم ببعض من أعمال القسوة ما هو أفدح بكثير مما لا قوة من تعصب الكفار"، وأن "كنيسة روما دافعت بعنف عن الإمبراطورية التي اكتسبتها بالحيلة" (86).

وقد أثار هذان الفصلان الختاميان (15-16) ردوداً كثيرة اتهمت جبون بعدم الدقة، أو التحيف، أو عدم الإخلاص. أما جبون ففي تجاهل مؤقت لنقاده سمح لنفسه بالاستمتاع بإجازة طويلة في باريس (مايو إلى نوفمبر 1777). ودعته

سوزان كورشو التي أصبحت زوجة جاك نكير المصرفي ووزير المالية إلى بيتهم. وكانت الآن في وضع مريح جداً بحيث لم يسوء ما سبق من أنه "تنهد تنهد العاشق، وأطاع طاعة الابن". أما المسيو نكير، الذي لم تخالجه الغيرة قط، فكثيراً ما كان يترك العاشقين السابقين وحيدين ويمضي إلى عمله أو فراشه. وشكا جيون قائلاً "يمكن أن يهيناني إهانة أفسى من هذه؟ يا لها من طمأنينة وقحة!" أما جرمين، ابنة سوزان، (وهي التي أصبحت فيما بعد مدام دستال (فقد طابت لها صحبته حتى لقد جربت ألا عيبها المنفتحة عليه (وهي بعد في الحادية عشرة) وعرضت أن تتزوجه حتى تحتفظ به في الأسرة(87). وفي بيت نكير التقى بالإمبراطور يوزف الثاني، وفي فرساي قدم إلى لويس السادس عشر، الذي قيل إنه شارك في ترجمة المجلد الأول إلى الفرنسية. واحتفى به القوم في الصالونات لا سيما صالون المركيزة دودفان، التي وجدته "لطيفاً مؤدباً... أرقى من جميع الأشخاص الذين عاشوا معهم تقريباً"، ولكنها

صفحة رقم : 14241

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جيون

حكمت على أسلوبه بأنه "منمق؛ خطابي"، وأنه "يجري على طريقة أدباننا المعترف بهم(88). وقد رفض دعوة من بنيامين فرانكلن، ببطاقة ذكر فيها أنه مع احترامه للمبعوث الأمريكي رجلاً فيلسوفاً، إلا أنه لا يستطيع أن يراه أمراً ينسجم مع واجبه قبل ملكه أن يدخل في أي حديث مع رجل مع الرعايا الثائرين. ورد فرانكلن بأنه يكن من الاحترام الشديد للمؤرخ ما يجعله سعيداً. أن خطر لجيون يوماً أن يتخذ من اضمحلال الإمبراطورية البريطانية وسقوطها موضوعاً للتأليف. بأن يزوده ببعض المواد المتصلة بالموضوع"(89).

فلما عاد جيون إلى لندن، أعد رداً على نقاده. "دفاع عن بعض فقرات وردت في الفصلين الخامس عشر والسادس عشر من تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" (1779) وقد تناول خصومه اللاهوتيين في إيجاز ورفق، ولكنه قليلاً في رده على هنري ديفز، وهو فتى في الحادية والعشرين كان قد اتهم جيون في كتاب من 284 صفحة بأخطاء سببها عدم الدقة. وقد اعترف المؤرخ ببعض الأخطاء ولكنه أنكر "تعمد التحريف، والأخطاء الجسيمة، والانتحالات الدليمة"(90). واستقبل هذا "الدفاع" عموماً على أنه رد موفق. وبعدها لم يرد جيون على النقد إلا عرضاً في "المذكرات"، ولكنه وجد مكاناً لبعض المديح الذي أسبغه على المسيحية على سبيل المصالحة في أجزاء الكتاب التالية.

وقد ازداد تأليفه سرعة بفقده كرسيه في البرلمان (أول سبتمبر 1780)، فصدر المجلدان الثاني والثالث من "التاريخ" في أول مارس 1781 وقد استقبلا استقبالاً هادئاً. ذلك أن غزوات القبائل الهمجية كانت قصة قديمة، أما المناقشات الطويلة المتخصصة للهرطقات التي أثارها الكنيسة المسيحية في القرنين الرابع والخامس فلم يكن فيها ما يشوق جيلاً من الشكاك الدنيويين. وكان جيون قد أرسل سلفاً نسخة من المجلد الثاني إلى هوراس وليول، فزار الآن وليول في ميدان باركلي، وأحزنه أن يقال له "إن في الكتاب إسهاباً كثيراً عن الأريوسيين والأونوميين وأشباه البلاحيين... بحيث أنني أخشى

صفحة رقم : 14242

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

أن القليلين سيصبرون على قراءة القصة رغم أنك كتبتها كأفضل ما يمكن كتابتها". وكتب وليول يقول "من تلك الساعة إلى الآن لم أراه قط، مع أنه اعتاد أن يزورني مرة أو مرتين كل أسبوع"(91). وقد وافق جبون فيما بعد على رأي وليول(92).

واستعاد المجلد الثاني الحياة حين تصدره قسطنطين. وقد فسر جبون دخوله الشهير في المسيحية على أنه عمل من أعمال الحنكة في فن الحكم. ذلك أن الإمبراطور كان قد أدرك أن تنفيذ أحكام القوانين أمر قاصر وغير مأمون، وأنها قلما تلهم بالفضيلة، وليس في قدرتها دائماً أن تكبح جماح الرذيلة". وفي وسط فوضى الأخلاق والاقتصاد والحكم في الإمبراطورية الممزقة، "قد يلحظ حاكم حصيف في سرور تقدم دين ييبث بين الناس نسقاً من المبادئ الخلقية خيراً شاملاً للجميع، مكيفاً لكل واجب وكل ظرف من واجبات الحياة وظروفها، مزكى باعتباره إرادة الإله الأعلى وفكره، منفذاً بتكريس من الثواب أو العقاب الأبديين"(93). أي أن قسطنطين أدرك أن العون المستمد من دين فوق طبيعي هو عون عظيم القيمة للأخلاق والنظام الاجتماعي والحكومة. ثم جرى قلم جبون بمائة وخمسين صفحة بليغة محايدة عن يولييان المرتد.

وقد ختم الفصل الثامن والثلاثين والمجلد الثالث بهامش امتدح ما تحلى به جورج الثالث من "حب خالص كريم للعلم وللشرف". وفي يونيو 1781، وبمساعدة اللور نورث، أعيد انتخاب جبون للبرلمان، حيث استأنف تأييده للوزارة. على أن سقوط اللور نورث (1782) أنهى حياة مجلس التجارة وأطاح بوظيفة جبون فيه؛ "لقد جردت من راتب مريح مقداره 750 جنيه في العام"(94). فلما شغل نورث مكاناً في وزارة ائتلاف (1783)، تقدم جبون بطلب وظيفة شرفية أخرى. ولكنه لم ينلها "ما كنت لأستطيع بغير دخل إضافي أن أحتفظ طويلاً أو بحكمة وتدبر بأسلوب الإنفاق الذي أفتته"(95). وقد أن في استطاعته الاحتفاظ بذلك الأسلوب في لوزان، حيث كان لجنيهاته الإسترلينية ضعف قوتها الشرائية في لندن. وعليه فقد

صفحة رقم : 14243

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

استقال من البرلمان، وباع كل ممتلكاته المنقولة غير الشخصية، فيما خلا مكتبته، وفي 15 سبتمبر 1783 رحل عن لندن "بدخانها وثرائها وضوضائها" قاصداً لوزان. وهناك قاسم صديقه القديم جورج ديفران قصراً مريحاً. وأنا أشرف على منظر مترام يجمع بين الوادي والجبل والماء، وبدلاً من الإطلال على حوش ميلط مساحته اثنا عشر قدماً مربعاً"(96). ووصلته كتبه الألفان بعد أن تأخرت قليلاً، فشرع في تأليف المجلد الرابع. وكان قد خطط أول الأمر أن ينهي "الاضمحلال والسقوط" بفتح روما عام 476. ولكنه بعد أن نشر المجلد الثالث "بدأت أتوق إلى الواجب اليومي، إلى البحث النشط الذي يسبغ على كل كتاب قيمة، وعلى كل تحقيق هدفاً"(97). ومن ثم استقر رأيه على أن يفسر عبارة "الإمبراطورية الرومانية: على أنها تنتظم الإمبراطورية الشرقية كما تنتظم الغربية، وأن يواصل قصته حتى يبلغ بها تدمير الحكم البيزنطي بفتح الأتراك للقسطنطينية عام 1453. وهكذا أضاف ألف سنة إلى مجال دراسته، واضطلع بمئات المواضيع الجديدة التي تتطلب البحث الشاق المضني.

وقد احتوى المجلد الرابع على فصول رائعة عن جستنيان وبلساريوس، وفصل عن القانون الروماني ظفر بمديح عظيم من فقهاء القانون، وفصل ممل عن مزيد من الحروب التي استعرت بين اللاهوتيين المسيحيين. وكتب وليول يقول: "ليت المستر جبون لم يسمع قط بالمونوفيزيين (القائلين بطبيعة المسيح الواحدة) أو النساطرة أو أي من هؤلاء

الحققي!"(98). وقد تحول جبون في المجلد الخامس في تخفيف واضح إلى ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) وفتح العرب للإمبراطورية الرومانية الشرقية، وأغدق على النبي والخلفاء الحربيين كل التقهيم المحاييد الذي خانته في حديثه عن المسيحية. وأعطته الحروب الصليبية موضوعاً مثيراً آخر في المجلد السادس، وكان استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية الذروة لمؤلفه والتاج الذي كلال عمله. وقد لخص جهوده في الفصل الأخير في جملة مشهورة: "لقد وصفت

صفحة رقم : 14244

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

انتصار الهمجية والدين"(99). ولم ير في العصور الوسطى غير الفجاجة والخرافة وهو ما رآه فيها فولتير، أستاذه الذي لم يقر بفضلها. وقد صور حالة الخراب التي آلت إليها روما في 1430 واستشهد برثاء بودجو لها إذ قال "ليت شعري أي خطب دهي بهاء الدنيا هذا! لشد ما انهار، وتغير، وشاه منظر أ!"- رأى خراب الآثار والفن الكلاسيكيين أو تدهمها، وساحة روما وقد حجبها نمو الحشائش واحتلتها الماشية والخنازير. واختتم جبون في حزن بهذه العبارة "وسط خرائب الكابيتول خطر لي لأول مرة خاطر القيام بهذا العمل الذي أبهج ودرب عشرين سنة من حياتي تقريباً، عمل أسلمه في النهاية إلى فضول جمهور القراء وصراحتهم أياً كان قصوره عن أن يدرك مرامي". وقد استحضرت في "مذكراته" تلك الساعة، ساعة الخلاص المفعمة بالمشاعر المتناقضة:

"وفي عشية السابع والعشرين من يونيو 1787، بين الحادية والثانية عشرة، كتبت آخر السطور في آخر صفحة، في مظلة صيفية في حديقتي، وبعد أن وضعت قلمي تجولت مرات... في ممشى مغطى من أشجار السنط، يشرف على مشهد يجمع بين الريف، والبحيرة، والجبال... وألست أريد إخفاء مشاعر الفرح التي غمرتني لاستعادتي حريتي، وربما لتوطيد شهرتي. ولكن سرعان ما أذلت كيرياي وأشاعت في عقلي اكتئاباً هادئاً، فكرة فراق الأبد لرفيق قديم أنيس، وأنه أياً كان مصير كتابي مستقبلاً، فإن حياة المؤرخ لا محالة قصيرة مزعزة"(100).

ج- الرجل

وصف المسيو بافيار جبون وهو في السادسة عشرة بأنه "جسد قصير نحيل يعلوه رأس كبير"(101). وإذ كان يكره الرياضة ويحب الطعام(102)، فإنه سرعان ما اكتسب استدارة في الجسم والوجه، وأصبح له كرش محترم يعتمد على ساقين نحيلتين، أضف إلى ذلك شعراً أحمر جعده من الجنب وعقصه من الخلف، وقسمات ملائكية لطيفة، وأنفاً دقيقاً، وخدين منتفختين، وذقناً ملغداً، وأهم من ذلك كله جبين عريض عال يعد ب "إنجازات

صفحة رقم : 14245

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

عظيمة القدر والخطر" والجلال واتساع المرمى. وكان تقريباً لجونسن في شهيته ولولبول في نقرسه. وقد تضخم صفته بشكل مؤلم عاماً بعد عام حتى أبرزته سراويله الضيقة بروزاً مزعجاً. ولكنه رغم معايبه كان مغروراً بمظهره ولباسه، وصدر المجلد الثاني من كتابه بصورته التي رسمها له رينولدز. وكان يحمل علبة نشوق في خاصرته، وينقر عليها نقرأ خفيفاً إذا احتد أو أراد أن يصغي إليه سامعيه. وكان أنانياً شأن أي رجل له هدف يستغرقه. ولكنه كان صادقاً "لقد وهبت مزاجاً بشوشاً، وحساسية معتدلة (ولكن دون إسراف في العاطفة) وميلاً فطرياً للاسترخاء" (103). وفي 1775 أنتخب عضواً في "النادي". وكان كثير التردد عليه نادر الكلام فيه، يبغض فكرة جونسن عن الحديث. وكان جونسن يعلق على "دمامة" جبون على نحو مسموع أكثر مما ينبغي (104)، أما جبون فكان يصف هذا "الدب الأكبر" بأنه "علام حكيم" وأنه "عدولاً يغفر"، و"عقل متعصب تعصباً أعمى وإن كان قوياً، يتلقف أي عذر ليبغض من يخالفون عقيدته ويضطهدهم" (105). وأما بوزويل، الذي لم يكن يشعر بشفقة على غير المؤمنين، فقد وصف المؤرخ بأنه "إنسان دميم مغرور مقرز" ينغص على "مندانا الأدبي". ومع ذلك فلا بد أن جبون كان له أصدقاء كثيرون، لأنه في لندن كان يتناول العشاء خارج بيته كل ليلة تقريباً.

وقد قدم من لوزان إلى لندن في أغسطس 1787 ليشراف على طبع المجلدات الرابع والخامس والسادس، والتي صدرت في عيد ميلاده الحادي والخمسين في 8 مايو 1788، وأنته بأربعة آلاف من الجنيهات، وبعد هذا من أعلى الأتعاب المدفوعة لمؤلف في القرن الثامن عشر. ويقول "أن خاتمة مؤلفي عمت قراءتها واختلاف الحكم عليها... ومع ذلك يبدو على الجملة أن تاريخ الاضمحلال والسقوط قد أصل جذوره سواء في أرض الوطن أو خارجه، ولعل ذمه سيستمر بعد مائة عام" (106). وكان آدم سمث قد وضعه فعلاً "على رأس معشر الأدباء قاطبة، والموجودين الآن في

صفحة رقم : 14246

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

أوربا" (107). وفي 13 يونيو 1788، خلال محاكمة هيبستجز في وستمنستر هول، طاب لجبون أن يسمع من شرفة الزوار شريدان يشير في خطاب من أروع خطبه إلى "صفحات جبون الوضاعة" (Luminous 108). وفي رواية غير محتملة التصديق أن شريدان زعم فيما بعد أنه قال (Voluminous) أي غزيرة الإنتاج (109)، ولكنها صفة لا يمكن أن تتعت بها الصفحات، والصفة الأولى هي ولا ريب اللفظ المطابق لمقتضى الحال. وفي يوليو 1788 قفل جبون إلى لوزان. وبعد عام مات ديفرادن مخلفاً بيته لجبون ما بقي من عمر المؤرخ. هنالك عاش جبون في رغد، يقوم على خدمته عدة خدم وبأنتيه دخل قدره 1.200 جنيه في العام، وشرب النبيذ الكثير، وزاد نقرسه ومحيط خصره، "من 9 فبراير إلى أول يوليو 1790 عجزت عن التحرك من بيتي أو مقعدي" (110). إلى هذه الحقبة التي تنتمي الأسطورة التي زعمت أنه جثا عند قدمي مدام كروزاز يبوح لها بحبه، وأنها طلبت إليه أن ينهض، وأنه لم يستطع لثقل جسمه (111). والمصدر الوحيد للقصة هو مدام جفليس التي وصفها سانت-بوف بأنها "امرأة خبيثة اللسان" (112)؛ وقد رفضت إبتها القصة وقالت أن سببها هو الخلط بين الأشخاص" (113). ثم قطعت الثورة الفرنسية على جبون هدوءه. وترددت المشاعر الثورية في الأقاليم السويسرية، وجاءت الأنباء بهياج مماثل في إنجلترا. وكان لجبون كل العذر في خوفه من أن تسقط الملكية الفرنسية، لأنه كان يستثمر 1.300 جنيه في قرض للحكومة الفرنسية (114). وكان قد كتب عام 1788، في نبوءة لم يوفق فيها، أن الملكية الفرنسية "تقف، كما يبدو، على أساس من صخر الزمن، والقوة، والرأى، تساندها أرستقراطية ثلاثية من الكنيسة والنبلاء

و البرلمانات" (115)، وقد اغتبط حين أصدر بيرك كتابه "تأملات في الثورة في فرنسا" (1790)، وكتب إلى اللورد شفيلد محذراً من أي إصلاح في النظام السياسي البريطاني، "ولو سمحت بأدنى تغيير وأكثره تمويهاً في نظامنا البرلماني لقضي عليكم" (116). وراح الآن

صفحة رقم : 14247

قصة الحضارة -> روسو و الثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

يتحسر على نجاح جماعة الفلاسفة في حربهم التي شنوها على الدين، "لقد خطر لي أحياناً أن أكتب حواراً بين الموتى، يتبادل فيه لوسيان و ارزم وفولتير الاعتراف بخطر تعريض خرافة قديمة لاحتقار الجماهير العمياء المتعصبة" (117). وحث بعض زعماء البرتغاليين على ألا يتخلوا عن ديوان التفتيش خلال هذه الأزمة التي هددت كل العروش (118).

ورحل جبون عن لوزان (9 مايو 1793) وأسرع بالعودة إلى إنجلترا، من جهة هرباً من جيش الثورة الفرنسية المقرب من لوزان، ومن جهة أخرى التماساً للجراحة الإنجليزية، ولسبب قريب هو تعزية اللورد شفيلد في وفاة زوجته، فوجد شفيلد في شغل بالسياسة عجل بسلواه. وكتب جبون يقول "شفي المريض قبل وصول الطبيب" (119). وأذعن المؤرخ نفسه الآن لأوامر الأطباء، لأن فيلته كانت قد بلغت من التضخم "حجم طفل صغير تقريباً... إنني أزحف وحفاً بشيء من الجهد وكثير من عدم اللياقة" (120) وقد صرفت إحدى الجراجات جالوناً من "السائل المائي الشفاف" من الخصية المريضة. ولكن السائل تجمع ثانية، وأخرج بزل ثان ثلاثة أرباع الجالون، واستشعر جبون الراحة مؤقتاً، واستأنف الخروج للعشاء. ولكن الفيلة تكونت من جديد، وباتت الآن عفنة. وفي 13 يناير بزلت للمرة الثالثة. وبدا أن جبون يتمثل للشفاء سريعاً، وسمح له الطبيب بأكل اللحم، وأكل جبون بعض الدجاج وشرب ثلاث أكواب من النبيذ. فأصابته آلام معوية شديدة حاول كما حاول فولتير تخفيفها بتعاطي الأفيون. ولكن في 16 يناير مات بالغا السادسة والخمسين.

د - المؤرخ

لم يكن جبون ملهماً في مرآه ولا في خلقه ولا في سيرته، فعظمته كلها انسكبت في كتابه، في فخامة فكرته وشجاعته، وفي الصبر على تأليفه والتقنن فيه، وفي الجلال الوضاء الذي كلله كله. أجل، لقد صدق شريدان فيما قال، فأسلوب جبون وضاء بالقدر الذي يسمح به التهكم، وقد ألقى الضوء أينما اتجه، اللهم إلا حين يحجب الهوى

صفحة رقم : 14248

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

رؤيته. وقد شكلت أسلوبه دراساته اللاتينية والفرنسية، فرأى الألفاظ الأنجلو-سكسونية البسيطة لا تتناسب وفار مذهبه في الكتابة.، وكثيراً ما كتب كأنه خطيب يخطب، وما أشبهه في هذا بليفي يشحذه هجاء تاسيتوس، وببيرك تجلوه فكاهة بسكال الذكية. وكان يوازن بين جملة بمهارة المشعوذ وجدله، ولكنه أسرف في تكرار لعبته هذه حتى قاربت الرتبة المملة أحياناً. وإذا كان أسلوبه يبدو فخماً طناناً، فإنه الأسلوب اللائق بترامي موضوعه وبهائه- وهو تفتتت أعظم إمبراطورية شهدها العالم على مدى ألف عام. ومآخذ أسلوبه العرضية تنوّه وسط زحام الرواية وقوة الأحداث، والصور والأوصاف الكاشفة، والتلخيصات الباتة التي تجمل قرناً بأسره في فقره، وتزواج بين الفلسفة والتاريخ. ولقد شعر جبون بعد أن اضطلع بهذا المبحث المترامي أن له الحق في توضيق حدوده ويقول "إن الحروب، وإدارة الأمور العامة، هما موضوعا التاريخ الرئيسيان" (120)، ومن ثم أغفل تاريخ الفن والعلم والأدب، فلم يكن لديه ما يقوله عن الكاتدرائيات القوطية أو المساجد الإسلامية، ولا عن العلم أو الفلسفة العربيين، وقد توج بترارك، ولكنه مر بدانتى مرور الكرام. ولم يكدي يلقى بالأى إلى حال الطبقات الدنيا، أو قيام الصناعة في القسطنطينية أو فلورنسة في العصر الوسيط. وفقد اهتمامه بالتاريخ البيزنطي التالي لموت هرقل (641). وفي رأي بيوري "أن جبون أخفق في إبراز حقيقة خطيرة، هي أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت حتى القرن الثاني عشر حصن أوربا الحصين في وجه الشرق، كذلك لم يقدر أهميتها في الحفاظ على تراث المدينة الإغريقية" (122)، غير أن جبون في نطاق الحدود التي رسمها لنفسه بلغ العظمة بربطه النتائج بالأسباب الطبيعية، وبتحويله ضخامة مواده إلى ترتيب مفهوم ورؤيته هادية للصورة بأكملها.

لقد كان علمه واسعاً وكثير التفاصيل. فحواشيه ذخيرة من المعرفة تلطفها الفكاهة الذكية، وقد درس أعوص جوانب العالم القديم، بما فيه من طرق وعمليات وموازن ومقاييس وقوانين؛ ووقع في أخطاء صححها

صفحة رقم : 14249

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

المتخصصون، ولكن بيوري هذا الذي بين مأخذه أضاف: "لو أخذنا في الاعتبار المدى الشاسع لمؤلفه لأدهشتنا دفته" (123) ولم يستطع أن ينقب في المصادر الأصلية غير المنشورة (كما يفعل محترفو المؤرخين ممن يقتصرون على رقعة صغيرة من الموضوع والزمان والمكان)، ولكي يتم عمله اقتصر على المادة المطبوعة، واعتمد بصراحة على مراجع ثانوية مثل كتاب أوكلي "تاريخ المسلمين" أو كتابي تلمون "تاريخ الأباطرة" و "التاريخ الكنسي"؛ وبعض المراجع التي اعتمد عليها مرفوضة الآن لأنها غير موثوق بها (124). وقد أفصح عن مصادره في تفصيل أمين وشكر مؤلفيها؛ من ذلك أنه قال في هامش حين جلوز الفترة التي تناولها تلمون: "هنا عليّ أن أستأذن إلى الأبد من ذلك المرشد الذي لا يبارى" (125).

ترى ما النتائج التي خلص إليها جبون من دراسته للتاريخ؟ إنا نراه أحياناً يتبع جماعة الفلاسفة الفرنسيين في قبول حقيقة التقدم: "يجوز لنا أن نرتضي النتيجة السارة التي تذهب إلى أن كل عصر في العالم زاد وما زال يزيد من ثروة النوع الإنساني الحقيقية، وسعادته، ومعارفه، وربما فضائله" (126)، ولكنه في لحظات أقل إشرافاً- وربما لأنه قد اتخذ الحرب والسياسة (واللاهوت) مادة للتاريخ- حكم على التاريخ بأنه "في الحق لا يعدو كثيراً أن يكون سجلاً لجرائم الإنسان وحماقته ونكباته" (127) ولم ير في التاريخ قصداً مرسوماً؛ فالأحداث ثمرة أسباب لا موجه لها، فهي متوازي أضلاع من قوى ذات أصل مختلف ونتيجة مركبة. وفي كل هذه المشاكل من الأحداث يبدو أن الطبيعة

البشرية تظل دون تغيير. ولقد ابتلى النوع الإنساني دائماً وسيظل دائماً مبتلى، بالفسوة والمعاناة والظلم، لأنها هذه كلها مركبة في طبيعة البشر"، إن الإنسان خليق بأن يخشى من ثورات إخوانه من البشر أكثر كثيراً مما يخشى اضطرابات الطبيعة العنيفة(129).

صفحة رقم : 14250

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

لقد تأقت نفس جبون وهو ربيب التنوير إلى أن يكون فيلسوفاً، أو على الأقل أن يفلسف التاريخ. "أن العصر المستنير يطالب المؤرخ بمسحة من الفلسفة والنقد"(130). وكان يحب أن يقطع روايته بتعليقات فلسفية. ولكنه لم يزعج أنه يرد التاريخ إلى فوائين أو يصيغ "فلسفة التاريخ". على أنه اتخذ له موقفاً في بعض المسائل الأساسية: فقد قصر تأثير المناخ على العصور الأولى من المدنية، ورفض أن يكون العرق عاملاً حاسماً(131)؛ وأقر، في حدود بتأثير الأفاذ من الرجال. "أن أهم المشاهد في الحياة البشرية تتوقف على أخلاق ممثل فرد. فقد يحدث عرق في رجل واحد فيغير مصير أمم"(132). وحين كان في استطاعة قريش أن تغتال محمداً (صلى الله عليه وسلم) "كان من الجائز أن يغير رمح عربي تاريخ العالم"(133). ولو لم يهزم شارل مارنل المغاربة في تور (732) لاكتسح المسلمون أوروبا بأسرها، "ولكان تفسير القرآن يدرس الآن في مدارس أكسفورد، وكان تلاميذه يفسرون لشعب من المختونين قدسية الوحي الذي نزل على النبي وصدقه"(134). على أنه لا بد للفرد الفذ من أن يرتكز على سند واسع إن أراد أن يحرز أقصى نفوذ على عصره. "أن النتائج التي يحققها الإقدام الشخصي ضئيلة جداً، إلا في الشعر أو الرومانس، بحيث يجب أن... يعتمد النصر على درجة المهارة التي ستعان بها لتجميع عواطف الجماهير المشبوبة وتوجيهها لخدمة رجل فرد"(135).

صفوة القول أن "اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها" يمكن على الجملة أن يعد الكتاب الأعظم للقرن الثامن عشر، وكتاب مونتسكيو "روح القوانين" أقرب منافس له. صحيح أنه لم يكن أكثر الكتب تأثيراً، ولم يكن في تأثيره على التاريخ تقريباً لكتاب روسو "العقد الاجتماعي" أو لكتاب آدم سميث "ثروة الأمم"، أو لكتاب كانت "نقد العقل الخالص". ولكننا إذا نظرنا إليه بوصفه أثراً أدبياً وجدناه لا يبارى في جيله أو نوعه. فإذا سألنا كيف أتيج لجبون أن ينتج هذه الرائعة أدركنا أن السر كان في

صفحة رقم : 14251

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> إدورد جبون

الارتباط الذي تصادف أن ربط بين الطموح والمال والفراغ والكفاية؛ ولا ندري متى يمكن أن نتوقع تكرار هذا الارتباط ثانية. ولقد قال مؤرخ آخر لروما هو باتولدينيور "أن كتاب جبون لن يبيزه كتاب أبداً"(136).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> تشارترتن وكوبر

6- تشارترتن وكوبر

من يظن الآن أن أحب الشعراء الإنجليز الأحياء إلى قلوب الناس في عام 1760 هو تشارلز تشرشل؟ كان ابناً لقسيس، وقد رسم هو نفسه قسيساً أنجليكانياً، غير أنه هوى مباحج لندن، وصرف زوجته، وغرق في الديون، ونظم قصيدة حظيت بالشهرة يوماً ما، هي "الروسكياده" (1761) وأتاحت له الوفاء بديونه، وتقرير معاش لزوجته، و"أن يطلع على الناس في زي لا ديني على نحو صارخ كفتى من فتيان لندن العصريين" (137). وقد اتخذ قصيدته اسمها من كوينتس روسكيوس الذي سيطر على المسرح الروماني أيام يوليوس قيصر؛ وهجت القصيدة كبار ممثل لندن، وجعلت جاريك يحفل؛ وذكر عن أحد ضحاياه أنه "كان يجري في شوارع المدينة كأنه ظبي جريح" (138). وقد انضم تشرشل إلى ولكس في شعائر "مدمنهم أبي" الفاجرة، وأعان على تحرير صحيفة "النورث بريتون"، وذهب إلى فرنسا ليقاسم ولكس منفاه، ولكنه مات في بولون (1764) إثر سكرة فاجرة، و ب "لا مبالاة أبيقورية" (139). وهناك قسيس آخر يدعى توماس بيرسي عاش حياة تليق بردائه الكهنوتي، وأصبح أسقفاً على درومور في إيرلندة، وترك بصمته على الأدب الأوربي حتى استنقذ مخطوطاً قديماً من يد خادم كانت على وشك إحراقه، وقد أمده المخطوط بأحد المصادر لكتابه "أثار من الشعر القديم" (1765) وراقت هذه القصائد القصصية الشعبية التي تنتمي لبريطانيا في العصر الوسيط المخضرمين من القراء، وشجعت الروح الرومانتيكية-التي طالما كتبت النزعة العقلية والمزاج الكلاسيكي-على الأعراب عن نفسها شعراً وقصصاً وفناً. وقد أُرِد زورث من هذه الآثار ظهور الحركة الرومانتيكية في الأدب الإنجليزي. وكانت أشعار مكفرسن "أوسيان"،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> تشارترتن وكوبر

وقصائد تشارترتن، وقصائد ولبول "قلعة أوترنتو" و "ستروربي هل"، وقصيدتا بكفورد "فاذك" و "فونتل أبي"-هذه كلها كانت أصواتاً شتى في صيحة تدعو للوجدان والغموض والرومانس، وتملكت العصور الوسطى الروح العصرية برهة.

وقد بدأ توماس تشاترتن محاولته لتثريب العصر الوسيط بإطالة النظر في رفاق عتيقة عثر عليها عمه في كنيسة بيرستل. وقد شب هذا الغلام الحساس الخصب الخيال-الذي ولد ببرستل (1752) عقب موت أبيه في عالم من صنع خيالاته التاريخية. وقد درس قاموساً للألفاظ الأنجلو-سكسونية، ونظم في لغة خالها لغة القرن الخامس عشر قصائد ادعى أنه عثر عليها في كنيسة سانت ماري راد كليف، ونسبها إلى توماس راولي، وهو راهب وهمي من رهبان القرن الخامس عشر. وفي 1769، حين بلغ السابعة عشرة، أرسل بعض "قصائد راولي" هذه إلى هوراس وليبول-الذي كان هو ذاته قد نشر "أوترانتو" زاعماً أنها من شعر العصر الوسيط الأصيل قبل ذلك بخمس سنوات. وأطرى وليبول القصائد ودعا لإرسال المزيد منها، فأرسل تشاترتن المزيد، وطلب العون على إيجاد ناشر ينشرها، ووظيفة مجزية في لندن. وعرض وليبول القصائد على توماس جراي، ووليم ميسن، فحكم كلاهما عليها بأنها مزيفة. وكتب وليبول إلى تشاترتن أن هذين الأدبيين "غير مقتنعين إطلاقاً بصحة مخطوطه المزعوم" ونصحه بأن يطرح الشعر جانباً حتى يستطيع كسب قوته. ثم رحل وليبول إلى باريس ونسي أي يرد القصائد لصاحبها. وكتب تشاترتن في طلبها ثلاث مرات، وانقضت ثلاثة أشهر قبل أن تصله (140).

وذهب الشاعر إلى لندن (إبريل 1770) وسطن عليه في شارع بروك بهوبورن. وأرسل إلى دوريات شتى مقالات منحازة لولكس، وبعض قصائد راولي، ولكن حصيلة الأجر الذي تلقاه عنها (ثمانية عشر بنساً للقصيد) كانت أقل من أن تقيم أوده، فحاول الحصول على وظيفة مساعد جراح على باخرة تجارية أفريقية ولكنه أخفق-وفي 27 أغسطس نظم وداعاً مرأ للعالم:

صفحة رقم : 14254

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> تشاترتن وكوبر

وداعاً يا أكوام الأجر القذرة في برستوليا،

يا عشاق المال، وعباد الخديعة والختل!

لقد ازديتم الفتى الذي أعطاكم الأغاني القديمة،

وأثبتتم المعرفة بالمديح الفارغ.

وداعاً أيها الحمقى من الرؤساء السكارى،

الذين هيأتكم الطبيعة مطية للفساد!

وداعاً أمي! وكفى أنت يا روجي المضناة،

ولا تدعي أمواج الحيرة والذهول تطغى علي!

رحماك أيتها السماء إن أنا كفتت عن العيش هنا،

واغفري لي هذه الفعلة الأخيرة من أفعال الشقاء.

ثم انتحر بشرب الزرنينخ بالغا من العمر سبعة عشر عاماً وتسعة أشهر. ودفن في قبر من قبور الفقراء المعدمين. وقصائده تملأ اليوم مجلدين. ولو كان قد وصفها بأنها تقليد لا أصل فلربما اعترف له بأنه شاعر أصيل، لأن بعض قصائد راوولي لا تقل جودة عن معظم القصائد الأصلية من هذا النوع ذاته. وكان حين كتب شعراً باسمه يستطيع نظم شعر هجائي يكاد يضارع شعر بوب، كما نرى في قصيدته "المتودي" (141)، أو في سبعة عشر بيتاً-هي أهجى شعره كله-يسوط فيها وليول متملقاً ذليلاً غليظ القلب (142). فلما أن نشرت مخطوطاته المتخلفة (1777) اتهم المشرف على نشرها وليول بأن عليه تقع بعض التبعية في موت الشاعر، ودافع وليول عن نفسه بأنه لم يشعر بأي التزام بمساعدة مزيف مصر على التزييف (143). وأصر بعض ذوي القلوب الرحيمة كجولد سمث على أن القصائد أصلية لا مزيفة، وضحك جونسون من صديقه، ولكنه قال: "هذا أعجب شاب عرفته، غريب كيف كتب الجرو كلاماً كهذا" (144). أما شلي فقد خلد ذكرى الفتى تخليداً موجزاً في قصيدته "أدونيس" (145)، وأما كيتس فقد نظم قصيدته "انديميون" في ذكراه.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> تشارترتن وكوبر

لقد هرب تشارترتن من واقع برستل ولندن والكئييب عن طريق أساطير العصر الوسيط والزرنيخ. أما وليم كوبر فقد هرب لندن التي عشقها جونسن إلى البساطة الريفية، والإيمان الديني، والجنون الدوري. وقد رأى جده من تهمة القتل وأصبح قاضياً، وكان أبوه قسيساً أنجليكانياً. وأمه تنتسب إلى الأسرة التي أنجبت جون دن. وقد ماتت وهو في السادسة، مخلفة له ذكريات حزينة لحد بها حبها، وحين أرسل له ابن عم له بعد ثلاثة وخمسين عاماً صورة قديمة لأمه استعاد في قصيدة رقيقة (146) تلك الجهود التي كثيراً ما بذلتها المخاوف التي أظلمت ليالي طفولته. وقد انتقل من هاتين الرقيقتين في عامه السابع إلى مدرسة داخلية أصبح فيها المسخر الجبان لطالب متمم أرفقه بكل ثقيل مذل من الواجبات. وأصيب بالتهاب في عينيه، فاضطر أن يظل أعواماً تحت رعايا رمدي. وفي 1741، حين بلغ العاشرة، بعث إلى مدرسة وستمنستر في لندن. وبدأ في السابعة عشرة الاشتغال ثلاثة أعوام كاتباً في مكتب محام بهوورن. واكمل الآن نضجه للرومانس، وكانت ابنة عمه تيودورا كوبر تعيش بقربه، فغدت معبودة أحلام يقظته. وحين بلغ الحادية والعشرين اتخذ له مسكناً في "المدل تمبل"، وفي الثالثة والعشرين سمح له بالاشتغال بالمحاماة. إذ كان كارهاً للقانون، شديد الإحجام أمام المحاكم، فقد ابتلى بحالة من الوهم المرضي، ازدادت عمقاً حين نهى تيودورا أبوها عن أي اتصال بابن عمها. ولم يرها كوبر بعدها قط، ولم ينسها قط، ولم يتزوج قط. وفي 1763، حين واجه ضرورة المثل أمام مجلس العموم، انهارت أعصابه، واختلط عقله، وحاول الانتحار. وأرسله بعض أصحابه إلى مستشفى للأمراض العقلية في سانت أولينز. وأفرج عنه بعد ثمانية عشر شهراً، وأثر العيش في هنتجند قرب كمبردج معتزلاً للناس تقريباً. وقال إنه الآن "لا يرغب في أي صحبة إلا صحبة الله والمسيح" (147). وقد قبل العقيدة الكلفنية بحذافيرها، وأطال التفكير في الخلاص والهلاك الأبدي. وألقت به الصدفة السعيدة بين يدي أسرة محلية كان إيمانها مجلبة للسلام والرحمة لا للخوف، وأفرادها هم القس مورلي أنوين، وزوجته ماري.

صفحة رقم : 14256

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> تشارترتن وكوبر

وابنه وليم، وابنته سوزانا. وقد شبه كوبر أب هذه الأسرة بالقس أدمز في قصة فيلدنج "جوزف أندروز"، ووجد أمًا ثانية له في السيدة أنوين التي كانت تكبره بسبع سنين، وقد عاملته هي وابنتها معاملة الابن والأخ، وأسبغت عليه من عطف المرأة الرقيق ما كاد يجيب إليه الحياة من جديد. ودعته الأسرة للعيش معها، ففعل (1765) ووجد الشفاء في حياتها البسيطة. ولكن هذا النعيم زال فجأة حين قتل الأب إثر سقطة من فوق جواده. وانتقلت الأرملة والابنة إلى أولني في بكنجهامشير واصطحبتا معهما كوبر، ليكونوا كلهم قريبين من الواعظ الإنجيلي الشهير جون نيوتن. وقد أفتق كوبر أن ينضم إليه في افتقاد المرضى وتأليف الترانيم. واحتوت إحدى "ترانيم أولني" هذه أبياتاً مشهورة:

إن الله يتحرك بطريقة خفية

ليصنع عجائبه،

أنه يزرع خطاه في البحر

ويركب فوق العاصفة(148).

على أن مواظ نيوتن المنذرة بنار الجحيم، والتي "هزت توازن الكثيرين من أعضاء كنيسة" لم أهدئ من مخاوف الشاعر اللاهوتية بل زادت حدة(149). يقول كوبر "إن الله يبدو لي دائماً رهيباً إلا حين أراه تعالى وقد تجرد من شوكته لأنه أغمدها في جسد المسيح"(150) وعرض الزواج على السيدة أنوين، ولكن نوبة ثانية من نوبات الجنون (1773) حالت دون زواجهما، ثم تماثل للشفاء بعد ثلاث سنين من العناية البشرية بالمحبة. وفي 1779 رحل نيوتن عن أولني، واتخذت تقوى كوبر مظهراً أكثر اعتدالاً. وأعانت نساء أخريات ماري أنوين على إبقاء الشاعر على صلة بالأرضيات. فتركت الليدي أوستن، الأرملة المرحمة، بيتها اللندني وقصدت أولني، واتصلت بآل أنوين، وجلبت المرح والحبور إلى بيت طال تركيزه على المآسي العارضة للحياة. وهذه السيدة هي التي روت لكوبر القصة التي

صفحة رقم : 14257

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> تشارترتن وكوبر

أحالتها إلى "تاريخ جون جلين المسلي"(151)، ورحلته الوعرة التي أكره عليها. وأرسل صديق للأسرة هذه القصة الشعرية المرحمة لإحدى الصحف، وأقاها ممثل كان قد خلف جاربيك على مسرح دروري لين هناك؛ فغدت حديث لندن السائر، وذاق كوبر طعم الشهرة لأول مرة. ولم يكن قد أخذ شاعريته من قبل مأخذ الجد، ولكن الليدي أوستن حثته الآن على أن ينظم شعراً ذا قيمة. ولكن في أي موضوع ينظمه؟ أجابت في أي شيء، وأشارت إلى أريكة، ثم فرضت عليه واجب إذاعة شهرتها في شعره. وقد سره أن تأمره امرأة فانتة، فنظم قصيدة "الواجب". وحين نشرت القصيدة عام 1785 استقبلها الناس بالترحيب بعد أن ملوا الحرب والسياسة وصراع المدينة.

وكتابة أو قراءة ستة "كتب" عن أريكة واجب ثقيل حقاً ما لم يؤت المرء خلق "كريببون" الابن(152)؛ ولكن كوبر كان لديه من الفطنة ما يكفي لاستخدامها نقطة انطلاق لا أكثر. فبعد أن جعل منها القمة في قصة فكهة عن المقاعد، تسلل إلى موضوعه المفضل الذي يمكن اجماله في بيت القصيد الذي يقول "لقد صنع الله الريف، أما الإنسان فصنع المدينة"(153). وقد اعترف الشاعر بأن الفن والبلاغة مزدهران في لندن، وأثنى على رينولدز وشاتام، وتعجب من العلم الذي "يقيس الذرة ويطوق العالم الآن"(154). ولكنه وبخ "ملكة المدائن على عقابها بالموت بعض السرقات التافهة، على حين تغدق أسباب التشريف على "مختلس المال العام". يقول:

من لي بكوخ في برية شاسعة

يكتفه ظل مترام لا حدود له،

حيث لا تفرع سمعي بعدها

أنباء الظلم والخداع،

ولا أخبار الحرب الخاسرة أو الظافرة،

إن أذني لتتأذى، ونفسي لتشمئز،

بما يأتي به كل يوم من أنباء

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> تشارترتن وكوبر

العدوان والمظالم التي تمتلئ بها الأرض (155).

وقد روعه الاتجار بالرقيق، وكان صوته أحد الأصوات الإنجليزية الأولى التي نددت بالرجل الذي:

يرى أخاه مذنباً بجريرة جلد

لونه غير لون جلده؛ إذ كان له

من القوة ما يمكنه من إنقاذ الباطل..

فهو يدينه ويملكه فريسة حلالاً...

فما الإنسان إذن؟ وأي إنسان له مشاعر البشر

يرى هذا ولا يحمر وجهه خجلاً،

ولا ينكس خزيًا من مجرد الفكرة بأنه إنسان؟ (156)

ومع ذلك يختم بهذه العبارة "

أنني ما زلت أحبك رغم كل أخطائك يا إنجلترا"(157).

وقد أحس أن هذه الأخطاء تخف إن ثابت إنجلترا إلى الدين وحياة الريف. "كنت ظيباً جريحاً ترك القطيع" أي أنه ترك لندن حيث "تدفعنا العاهرات بالمرافق، ووجد شفاءه في الإيمان والطبيعة. تعال إلى الريف! وتأمل نهر أوز" يحتوي مخترقاً سهلاً مستويًا"، ثم هاتيك الماشية المطمئنة وكوخ الفلاح وساكنيه الأشداء، وبرج القرية يرمز للحزن والرجاء! واستمع إلى رشاش مساقط المياه، وزرقة الطيور في الصباح. إن لكل فصل أفراده في الريف، فأمطار الربيع بركة، وتلوج الشتاء نقيه. وما أبهج السير الثقيل وسط الثلوج ثم التجمع حول نار المدفأة في المساء!". ولم يكتب كوبر شيئاً ذا بال بعد "الواجب". وفي 1786 انتقل ثانية إلى وستن أند روود القريبة، وهناك كابد نصف عام آخر من الجنون. وفي 1792 أصيبت السيدة أنوين بالفالج، وظلت ثلاث سنين عليله عاجزة؛ فمرضها كوبر كما مرضته من قبل، وفي آخر شهر في حياتها كتب أبياته التي عنوانها "إلى ماري أنوين":

إن خصلك الفضية التي كانت يوماً ما حمراء مشرقة

ما زالت في ناظري أحب إلي

صفحة رقم : 14259

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> تشارترتن وكوبر

من أشعة الصبح الذهبية

يا عزيزتي ماري!(158)

وفي 1794، حين أثقلته الهموم، وأرهقه جهده في ترجمة غير موفقة لهومر، التالف عقله مرة أخرى، فحاول الانتحار: ثم شفي، وأعفاه من عيشة الضنك معاش حكومي قدره 300 جنيه. ولكن ماري أنوين ماتت في 17 ديسمبر 1796، وشعر كوبر أنه ضائع مهجور رغم أنه وجد صديقة جديدة في أخت تيودورا، وهي الليدي هاربيت كوبر هسكت. لازمته المخاوف الدينية في أيامه الأخيرة، ثم قضى نحبه في 25 أبريل 1800 بالغاً الثامنة والستين. وكان في عالم الأدب ينتمي إلى الحركة الرومانتيكية وفي عالم الدين إلى الحركة الإنجيلية. وقد اختتم عصر سيادة بوب على الشعر ومهد لورزد زورث، وأدخل في الشعر طبيعة في الشكل وصدقاً في المشاعر أوقف سيل الثنائيات المفتعلة الذي أطلقه "العصر الأوغسطي" على إنجلترا. وكان دينه لعنة عليه لأنه صور له إلهاً منتقماً وجحيماً لا غفران فيه، ومع ذلك فعل الدين هو الذي دفع أولئك النسوة الرحيمات، كما دفعتهن غرائز. الأمومة، إلى الحدب على هذا "الطبي الجريح" في كل أحزانه وأفكاره السوداء.

صفحة رقم : 14260

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> أولفر جولد سمث

7- أولفر جولدسمث

وكان لـ "بل المسكين" هو أيضاً مأسية، غير أنها لم تعمقها عقيدة سادية، وخفت منه انتصارات في النثر والشعر وعلى خشبة المسرح. كان أبوه خورياً أنجليكانياً متواضعاً في قرية إيرلندية، يكسب أربعين جنيهاً في العام بإضافة الفلاحة إلى اللاهوت. فلما أن بلغ أولفر الثانية من عمره (1730) رقي الخوري قسيساً لكيكليني وست، وانتقلت الأسرة إلى بيت يقع على طريق رئيسي قرب ليسوي، التي غيرت في تاريخ لاحق اسمها في ضمير الشاعر إلى "أوبرن" حين نظم قصيدته "القرية المهجورة". والتحق جولدسمث بالمدرسة الأولية تلو المدرسة، وكان أنصع ذكريات أيامه المدرسية تلك ذكرى أمين إمدادات سابق في الجيش تحول معلماً، ولم يستطع قط أن ينسى حروبه، ولكنه كان إلى ذلك يروي لتلاميذه القصص الساحرة عن الجان وأرواح المنذرات بالموت والنفاريت. وحين بلغ

صفحة رقم : 14261

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> أولفر جولد سمث

الصبي التاسعة أشرف على الموت من الجدري، وزاد هذا المرض على ذلك تشويهاً ابتلى به وجهه من أقل الوجوه خطأً من الوسامة وهب لروح لطيفة محببة. وفي الخامسة عشرة التحق بكلية ترنتي في دبلن طالباً معاناً، يرتدي ثوباً يميزه، ويؤدي خدمات حقيرة، ويلاحقه معلم مستبد بمضايقاته. فهرب إلى كورك، مزماً أن يحاول الرحلة إلى أمريكا، غير أن أخاه الأكبر منه "هنري" أدركه ولاطفه فاقتنع بالعودة إلى الكلية. وتفوق أولفر في الدراسات الكلاسيكية، غير أن دراسة العلوم استعصت عليه، ولكنه على أي حال أفلح في نيل درجة البكالوريوس. ثم تقدم بطلب لوظيفة كنسية صغيرة، ولكنه أدهش الأسقف بما ارتداه من سراويل قرمزية واشتغل معلماً خاصاً بعد أن رفض طلبه، وتشاجر مع تلميذه، ويمم ثانية شطر كورك وأميركا. فتدخل في الأمر عم له أقرضه خمسين جنيهاً ليذهب إلى لندن، وخسر أولفر المبلغ كله في بيت للقفار. وقد أفزع أقرباءه لما لحظوا فيه من عجز وقلة حيلة، ولكن سحرهم مرحة ونايه وأغانيه. وجمع له بعض المال للإفناق على دراسته الطب في إدنبرة ثم في ليدن. وقد حقق بعض التقدم، ويقص علينا أنه كان في باريس يختلف إلى محاضرات روييل في الكيمياء. ثم انطلق على مهل (1755) يتجول في أنحاء فرنسا، وألمانيا، وسويسره، وشمالى إيطاليا، يعزف على نايه في المراقص الريفية، ويظفر بوجبات طعام كيفما اتفق له، ويتلقى الصدقات على أبواب الأديرة (159). ثم عاد إلى إنجلترا في يناير 1756 ومارس الطب في لندن، وصحح تجارب الطبع لسموئيل رتشردن، واشتغل معلماً بمدرسة في صري، ثم استقر في لندن كاتباً مأجوراً يقوم بأشتات من الأعمال الأدبية غير المنتظمة ويكتب المقالات للمجلات. وقد كتب في أربعة أسابيع "حياة فولتير". وفي 1759 أفتق ددسلي بأن ينشر كتاباً سطحياً اسمه "تحقيق في أحوال الثقافة الراقية في أوربا". وقد أساعت تعليقات التحقيق حول مديري المسارح إلى جاريك إساءة لم ينسها قط. وزعم هذا التحقيق أن عصور الأدب الخلاق تنحو إلى أن تتلوا عصور نقد، وتستتبط قواعد من أعمال المبدعين، وتنزع إلى تقييد أسلوب الشعراء الجدد وتعويق خيالهم. وقد رأى جولدسمث أن أوربا كانت تمر بهذه الحال في 1759.

صفحة رقم : 14262

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> أولفر جولد سمث

وبعد عام كتب لصحيفة نيوبيري "بيلك لدجر" بعض "الرسائل الصينية" التي أعيد نشرها في 1762 بعنوان "مواطن العالم". أما خطتها فقديمية: فهي تصور رحالة شرقياً يروي أساليب عيش الأوربيين في ضحك واشمئزاز شديد، فنرى "لاين تشي ألتانجي" يصف في رسائله إلى صديق له في وطنه، أوربا مسرحاً فوضوياً للجشع والطمع والدسائس. وقد نشر جولدسمث الكتاب غفلاً من اسمه، غير أن أهل فليت ستريت (شارع الصحافة) تبينوا أسلوبه في اللغة البسيطة، والأوصاف النابضة بالحياة، والنبرة اللطيفة المحببة، فلما أحس بشهرته انتقل إلى مسكن أفضل في رقم 6 بشارع واين أوفس كورت. وكان قد أطرى جونسن في "الرسائل الصينية" فجرؤ الآن على دعوة واضع المعجم إلى العشاء (وكان يسكن على جانب الطريق المقابل). وحضر جونسن، وبدأت من يومها صداقتهما المديدة (31 مايو 1761). وحدث في يوم من أيام أكتوبر 1762 أن تلقى جونسن رسالة عاجلة من جولدسمث يطلب فيها العون. فأرسل إليه جنيهاً، وحضر بعد قليل، فوجد أن جولدسمث يوشك أن يقبض عليه لعدم دفعه أجره مسكنه: وسأل جونسن صديقه إن كان لديه شيء ذو قيمة يرهنه أو يبيعه. فأعطاه جولدسمث مخطوطاً عنوانه "قسيس ويكفيلد". ويقول جونسن (160). إنه طلب إلى صاحبة الدار أن تنتظر، وقدم القصة إلى الكتبي جون نيوبيري، وباعها له بستين جنيهاً. ثم دفع بالنقود إلى جولدسمث، فسد هذا الإيجار واحتفل بهذه المناسبة بزجاجة من النبيذ. واحتفظ الكتبي بالمخطوط أربع سنين دون أن ينشره.

وفي ديسمبر 1764 طلع جولدسمث بأول قصائده الكبرى "الرحالة أو إطلالة على المجتمع" وقد استعاد فيها جولته في القارة، ووصف ما في كل قطر من نقائص وفضائل، ولاحظ أن كل بلد يحب نفسه خير بلاد الله. وفاخر بقوة إنجلترا "التي كانت قد انتصرت في حرب السنين السبع). ووصف أعضاء البرلمان بهذين البيتين:

أني أشهد سادة الجنس البشري يمرون

وفي مشيتهم سموخ، وفي عيونهم تحد؛

صفحة رقم : 14263

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> أولفر جولدسمث

ولكنه أنذر بأن الجشع يلوث الحكم البريطاني، وأن الحظائر المسيحية، المنبئة بأنانية الأغنياء، تفقر طبقة الفلاحين وتدفع أبناء إنجلترا الشداد للهجرة إلى أمريكا. وكان قد أطلع جونسن على المخطوط، فأضاف أبياتاً ستة معظمها قرب الخاتمة، استخف فيها بتأثير السياسة على سعادة الفرد، وأطرى المباهج البيئية البسيطة.

وقد أدهش نجاح القصيدة جميع الناس عدا جونسن الذي أعانها بتقريب أذاعه وقال فيه "أنه لم ينشر قط قصيدة بهذا الجمال منذ أيام بوب" (161) وهو قول تجاهل الشاعر جراي. وجنى الناشر ربحاً طيباً من الطبقات المعادة، ولكنه لم ينقد الشاعر غير عشرين جنيهاً. وانتقل جولدسمث إلى مسكن أفضل في "التمبل"، واشترى ثياباً جديدة ظهر فيها بسر أويل أرجوانية، ومعطف قرمزي، وشعر مستعار، وعصا، ثم استأنف في مظهره الوقور هذا مهنة الطبيب. غير أن التجربة لم يحالفها التوفيق، ثم رده نجاح "قسيس ويكفيلد" إلى حظيرة الأدب ثانية.

ذلك أن الكتبي الذي كان قد اشترى المخطوط من جونسن أحس أن شهرة جولدسمث الجديدة ستكون معاوناً على تقبل القراء لهذه القصة الغريبة. وقد صدرت في طبعة صغيرة في 27 مارس 1766، فبيعت الطبعة في شهرين، وبيعت طبعة ثانية في ثلاثة أشهر أخرى، ولكن المبيع من القصة لم يغط نفقات الناشر إلا عام 1744. وفي تاريخ مبكر (1770) زكاها هر دلجوت، الذي رأى فيها "قصة من أفضل ماكتي من قصص إلى الآن" (162). وأمن ولتر سكوت على هذا الرأي (163). أما واشنطن إيرفنج فقد تعجب من أن أعزباً حرم الحياة الأسرية منذ طفولته استطاع أن يرسم "الطف وأحب صورة للفضيلة الأسرية وكل ما يحبب الناس في الحياة الزوجية" (164). ولعل حرمان جولدسمث من الحياة الأسرية هو الذي هداه إلى أن يضيف على البيت هذه الصفات المثالية، ولعل حياة العزوبة التي كان يحيها على مضض هي التي جعلته يتسامى بصفات الشباب من النساء، ولعل غرامياته المجهولة هي التي دفعته إلى الإعلاء من قدر عفة المرأة لأنها أتمن من الحياة. وقد أمدته ذكرياته الحبيبة عن أبيه وأخيه

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> أولفر جولد سميث

بصورة الدكتور برمرورز، الذي كان بوصفه "قسيساً، ومزارعاً، ورب أسرة... يجمع في ذاته أعظم ثلاث شخصيات على هذه الأرض" (165). وقد عادت جولياته هو تظهر في شخص الابن جورج، الذي ختم رحلاته كما ختم جولدسميث نفسه كاتباً مأجوراً في لندن. أن القصة بعيدة التصديق، ولكنها ساحرة. وسرعان ما نفذت حصيلة "الرحالة" و "قسيس ويكفياد"، ولا غرو فقد كان جولدسميث متلافاً لا يستقر المال في يده لحظة، يعيش دائماً في المستقبل. وقد تطلع بعين الحسد إلى الشهرة والمال اللذين قد تأتي بهما مسرحية ناجحة فرصد قلمه لاقتحام هذا الميدان العسير من ميادين الأدب، وسمى ثمرة جهده "الرجل الطيب" وعرضه على جاربيك. وحاول جاربيك أن ينسى التعليقات المهنية التي كتبها جولدسميث عنه من قبل، ووافق على أن يخرج المسرحية. ولكنها كانت تسخر من الكوميديات العاطفية، وهذه الكوميديات هي التي درت على جاربيك الربح الوفير. فاقترح إدخال بعض التغييرات على المسرحية، ولكن جولدسميث رفضها. وقد جاربيك المؤلف مقدماً أربعين جنيهاً، ولكنه تباطأ تباطؤاً شديداً حمل المؤلف المتهور على عرض المخطوط على منافس لجاربيك هو جورج كولمان الذي كان يدير مسرح الكوفنت جاردن. وانتقص ممثلو كولمان من قدر المسرحية، ولكن جونسن أيدتها تأييداً قوياً، وحضر بروفتها، وكتب المقدمة التي تلقى قبيل العرض. وعرضت أول مرة في 29 يناير 1768، واستمر عرضها عشر ليال، ثم سحبت باعتبارها ناجحة نجاحاً متوسطاً، ومع ذلك بلغ صافي ما حصله المؤلف منها 500 جنيه. فلما أن جرى المال في يد جولدسميث عاماً انتقل إلى شقة جميلة في بريك كورت مخالفاً نصيحة جونسن، وأنتها تأثيثاً ممتازاً اضطره إلى العودة للكتابة المأجورة ليغطي نفقاته. وأخرج الآن كتباً شعبية في التاريخ- تاريخ روما، واليونان، وإنجلترا. و "تاريخاً للطبيعة الحية"- وكلها فقير في الدرس أثره النثر الرشيق. وحين سأله بعضهم لم كتب كتاباً كهذه أجاب\

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> أولفر جولد سميث

بأنها أعانتها على قوته، بينما أفضى به الشعر إلى التضور جوعاً. ومع ذلك ففي 26 مايو 1770 طلع على القراء برائعه "القرية المهجورة" التي نقد عنها مائة جنيه- وهو ثمن طيب في ذلك العهد لقصيدة لا تتجاوز سبع عشرة صفحة طولاً. وقد نفذت منها أربع طبعات في ثلاثة أشهر. أما موضوعها فهجر الزارع للريف بعد أن أفقدتهم الحظائر المسيجة أرضهم. وقد رسمت صورة لقريته:

أي أوبرن الحلوة! يا أجمل قرى السهل،

حيث يقر الفلاح الكادح علينا بالعافية والخير الوفير

وخلعت القصيدة كل الألوان الوردية التي حلم بها خيال جولدسمث الحضري على رخاء الفلاح الذي زعم أنه سبق هذه الحظائر المسيجة. وصف المناظر الريفية، والأزهار المختلفة، "والكوخ الظليل، والمزرعة المحروثة" ورياضيات القرية ومراقصها، و "العذراء الخجول" والصبي المغمز، والأسر السعيدة التي تسودها التقوى والفضيلة. ثم عاد يرى أباه يعظ كنيسة كيلكيني وست:

كان رجلاً عزيزاً على الناحية كلها

يعيش في رغد بأربعين جنيهاً في العام-

وهو مبلغ كفاه لأن يطعم الشريد،

وينقذ المتلاف، ويؤوي الجندي المحطم،

ويقتقد المرضى، ويواسي المحتضرين.

كانت نظراته في الكنيسة تجمل المكان الوقور

وهو يلقيها في لطف ورقة دون افتعال؛

ويخرج الحق من شفثيه قوياً جباراً،

فيمكث الجهال ليصلوا بعد أن جاعوا ليستهنوا!.

أما معلم المدرسة الذي أدب الشاعر في طفولته فقد تحول في ذكرياته إلى مدرس "صارم الطلعة".

ومع ذلك كان رحيماً، فإذا عنف في شيء

صفحة رقم : 14266

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> أولفر جولد سميث

فلأن المحبة التي يكنها العلم كانت خاطئة

ثم كان بارعاً في الجدل باعتراف القسيس،

فهو يواصله ولو كان مغلوباً

وكان بألفاظه الطويلة البليغة المرعدة

يبهر الريفيين الملتقين حوله محدقين

وتحديقهم يطول، وعجبهم يشند، لأن رأساً واحداً صغيراً حوى كل علمه.

وخيل لجولدسمث أن هذا الفردوس دمرته الحظائر المسيجة، فاستحالت مزرعة الفلاح إلى أرض للرعي، وفرت أسر الفلاحين إلى المدن أو المستعمرات، وأخذ يجف ذلك النبع الريفي الذي تنبثق منه الفضيلة الصادقة.

الويل لبلد يتكدس فيه المال ويفسد الرجال،

فهو فريسة لشورور وأفات لن تمهله طويلاً

أما وقد كتب جولدسمث خير قصيدة جاد بها جيله، فقد عاد الآن إلى الدراما. وفي 1771 عرض كولمان كوميديا جديدة سماها "تمسكنت فتمكنت" وتباطأ كولمان كما تباطأ جاريك من قبل، حتى تدخل جونسون في الأمر وأمر المدير تقريباً بإخراج التمثيلية. وكتب جاريك مقدمتها بعد أن تصالح مع جولدسمث. وبعد شذائد وضيقات كادت تحطم روح المؤلف، أخرجت المسرحية في 15 مارس 1773. وحضر جونسون ورينولدز وغيرهما من الأصدقاء حفلة الافتتاح وكانوا أول المصفيقين. أما جولدسمث نفسه فكان أثناء ذلك في حديقة سانت جيمس على غير هدى، إلى أن عثر عليه بعضهم وأكد له أن مسرحيته لقيت نجاحاً عظيماً. وقد طال عرضها، وجاءته الحفلات التي خصصت حصيلتها له بعام من الرخاء.

وكان قد ترقى الآن بنفسه إلى مكانة لا يعلو عليه فيها سوى جونسون بين كتاب العصر الإنجليزي، بل لقد حقق الشهرة خارج وطنه. وكان شخصية قائده في "النادي"، وجرؤ على مخالفة جونسون مراراً. وذات مرة والحديث يدور حول قصص الحيوان الخرافية، لاحظ أن من العسير

صفحة رقم : 14267

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسون -> المسرح الأدبي -> أولفر جولد سمث

جداً أن تجعل السمك يتكلم كالسمك، ثم قال لجونسن "وليس هذا بالأمر اليسير كما تحسبه، لأنك لو شئت أن تجري الكلام على أسنة السمك الصغير لتكلم كله كما تتكلم الحيتان" (166). وكان "الدب الأكبر" يخمسه ببرائته أحياناً في قسوة، ولكنه أحبه رغم ذلك، وقد رد جولدسمث المحبة بمتلها رغم حسده جونسن على تفوقه في فنون الحديث. ولم يكن جولدسمث قد نظم معارفه ورتبها قط، ولم يكن في استطاعته الرجوع إليها بسرعة أو ذكاء، قال جاريك "كان يكتب كما يكتب الملاك، ويتحدث كما يتحدث بل المسكين" (167). أما بوزويل فكان ينزع إلى الغضب من قدر جولدسمث، ولكن كثيراً من معاصريه- كريبولدز، وبير، وولكس، وبرسي- احتجوا على هذا الغضب لما فيه من ظلم (168). وقد لوحظ أن جولدسمث كثيراً ما كان يحسن الحديث في الاجتماعات التي تغيب عنها جونسن (169). وكانت لهجته في الحديث، وعاداته، ومظهره- كلها تعاكسه. فهو لم ينس قط لهجته الإيرلندية. وكان شديد الإهمال لهندامه، يلهو أحياناً بلبس الملابس الزاهية المتعددة الألوان المتناقضة المظهر. وكان مغروراً مزهواً بما حصل من ألوان الثقافة، ولم يعترف بتفوق جونسن عليه كاتباً. وكان طوله خمسة أقدام وخمس بوصات، وقد غاظه طول جونسن وضخامته. وكانت طبيعته الطيبة تشرق من خلال وجهه القبيح. والصورة التي رسمها له رينولدز لم تخلع عليه جمالاً، فهنا شفتان غليظتان، وجبين مترجع، وأنف ناتي، وعينان قلفتان. وقد زاد الرسامون الكاريكاتوريون أمثال هنري بنبري فم أولفر اتساعاً وأنفه طولاً، ووصفته صحيفة "اللندن باكت" بأنه أورانجوتان (170)، وسرت في المدينة عشرات القصص عن أخطائه الفاضحة في حديثه وسلوكه، وعن حبه المستور للحساء ماري هورنك. أما أصدقائه فكانوا عليهم بأن عيوبه سطحية، تخفي روحاً من الود، والمحبة، والكرم الذي كاد يدمر صاحبه، وحتى بوزويل وصفه بأنه "أعظم من وجد من الرجال سماحة قلب، أما وقد أتيت له الآن قدر كبير من الذهب مما غلته مسرحياته الفكاهية، فإن جميع المعوزين يعتمدون عليه" (171). فإذا لم يعد لديه من المال ما يعطيه اقترض ليسد مطالب الفقراء

صفحة رقم : 14268

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرح الأدبي -> أولفر جولد سمث

الذين التمسوا العون منه (172). وقد رجا جاريك (الذي لم يكن قد استرد منه جنيهاً منها الأربعة) أن يقرضه ستين جنيهاً على ذمة مسرحية أخرى، فوافاه بالمبلغ. وبلغت ديون جولدسمث عند موته 2000 جنيه. وتساءل جونسن "هل وجد قط فقير أولاه الناس هذه الثقة من قبل؟" (173). وفي 1774، بينما كان على وشك الذهاب إلى أحد الأندية العديدة التي انتمى إليها، وأصابته الحمى. فأصر على أن يصف لنفسه الدواء، ناسياً نصيحة بوكليرك بأنه ينبغي ألا يصف الدواء إلا لأعدائه، وتناول عقاراً مسجلاً، فساعت حاله. ودعي طبيب لعيادته، ولكن وقت إنقاذه كان قد فات. وقضى نحبه 4 أبريل غير متجاوز الخامسة والأربعين. والتف حول جثمانه حشد من الباكين، وكانوا رجالاً ونساء بسطاء يكادون يعتمدون في قوتهم على صدقاته. ودفن في فناء كنيسة "التمبل" ولكن أصحابه أصروا على أن يقام له نصب تذكاري في وستمنستر أبي. ونحت نولكنز التذكاري وكتب جونسن القبرية. وكان خيراً منها السطور التي كتبها الشاعر في مسرحية "الرجل الطيب" إذ يقول "ما أشبه الحياة في أعظم حالاتها وأفضلها بطفل شقي لا بد من ملاحظته ومسايرته قليلاً حتى ينام، ثم ينتهي كل الهم والقلق" (176).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> النشأة المشوهة

الفصل الثالث والثلاثون

صموئيل جونسن

17-1709

1- النشأة المشوهة

1746-1709

لقد كان نسيج وحده، ومع ذلك كان نموذجياً، فهو يختلف عن أي إنجليزي في زمانه، ومع ذلك فهو خلاصة لجون بول جسداً وروحاً، يبرزه معاصروه في جميع الميادين الأدبية (خلا تصنيف المعاجم) ومع ذلك فهو يسود عليهم جيلاً بأسره، ويملك عليهم دون أن يرفع شيئاً إلا صوته. ولنلم الآن الإمامة سريعة بالضربات التي طرقت له لتشكل طابعه الفريد. فلقد كان أول طفل ولد لمايكل جونسن، الكتيبي، والطباع، وتاجر الأدوات الكتابية في لتشفيلد، على 118 ميلاً من لندن. أما أمه فترقى أرومتها إلى قوم بهم إثارة من نبالة. كانت تبلغ السابعة والثلاثين حين تزوجت في 1706 مايكل البالغ من العمر خمسين عاماً. وكان صموئيل غلاماً، بلغ من ضعفه حين ولد أنه عمد للتو مخافة أن يكون مأواه الأبدي-إن مات بغير عماد-في الأعراف، مدخل الجحيم الكئيب. وسرعان ما بدت عليه إمارات "داء الملك" (الخنزيري). فلما أن بلغ ثلاثين شهراً أخذته أمه رغم أنها حامل في ولدها الثاني في الرحلة الطويلة إلى لندن لكي "تلمسه الملكة ليبراً من الخنازيري" وصنعت الملكة قصارها ولكن المرض كلف جونسن الاكتفاء بعين واحدة وأذن واحدة، وشارك غيره من البلايا في تشويه وجهه(1). على أنه اشتد رغم ذلك عضلاً

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> النشأة المشوهة

وهيكلاً، ودعمت قوته كما دعمت ضخامته تلك النزعة الاستبدادية التي أحالت جمهورية الأدب إلى ملكية كما شكوا جولدسمث. وقد ذهب صموئيل إلى أنه ورث عن أبيه "ذلك المزاج السوداوي الكريه الذي جعلني مجنوناً طوال حياتي، أو على الأقل غير متزن" (2). ولعل لوهمه المرضي أساساً دينياً لا بدنياً فقط، كما كان الشأن مع كوبر، فلقد كانت أم جونسن كلغنية راسخة تؤمن بأن الهالك الأبدي قاب قوسين منها. وقد قاسى صموئيل من رهبة الجحيم إلى يوم مماته.

وعن أبيه أخذ مبادئ المحافظين، والميول الأرستقراطية، والشغف بالكتب. فكان يقرأ بعضهم في مكتبة أبيه، وقد قال لبوزويل فيما بعد، "كنت في الثامنة عشرة أعرف تقريباً قدر ما أعرفه الآن" (3). وبعد أن نال حظاً من التعليم الأولي انتقل إلى مدرسة لتشفيلد الثانوية، وكان في ناظرها "من الضراوة ما جعل الآباء الذين تعلموا على يديه يأبون إرسال أبنائهم إلى مدرسته" (4). على أنه حين سئل في كبره كيف أتيج له أن يتمكن من اللاتينية على هذا النحو أجاب "كان معلمي يحسن ضربي بالسوط. لولا ذلك يا سيدي لما أفلحت في شيء" (5). وقد أعرب في شيخوخته عن أسفه لإهمال العصاب. "في مدارسنا الكبرى اليوم يجلدون التلاميذ أقل مما كانوا يجلدونهم في الماضي، ولكن ما يتعلمونه فيها أقل، فهم يخسرون في طرف ما حصلوه في الطرف الآخر" (6).

وفي 1728 أتيج لأبويه من الموارد ما يسر لهما إرساله إلى أكسفورد، وهناك راح يلتهم الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية ويزعج معلميه بعصيانه وتمرده. وفي ديسمبر 1729 عجل بالعودة إلى لتشفيلد، وربما لنفاد مال أبويه، أو لأن وهمه المرضي قد قارب الجنون قريباً أحوجه إلى العلاج الطبي. وعولج في برمنجهام، ثم ساعد أباه في متجره بدلاً من العودة إلى أكسفورد. فلما أن مات الأب (ديسمبر 1731) اشتغل صموئيل مدرساً مساعداً في مدرسة بماركيت بوزورث. وسرعان ما مل هذا العمل بعد قليل، فانتقل إلى برمنجهام، وسكن مع كتيبي، وكسب خمسة جنيهات بترجمة كتاب

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> النشأة المشوهة

عن الحبشة، وكان هذا مرجعاً بعيداً لقصته "راسيلاس". وفي 1734 ففل إلى ليتشفيلد حيث كانت أمه وأخوه يواصلان العمل في المتجر. وفي 9 يوليو 1735، قبل أن يتم السادسة والعشرين بشهرين، تزوج إليزابيث بورتر، وكانت أرملة في الثامنة والأربعين لها ثلاثة أطفال وتملك 700 جنيه. وبمالها هذا افتتح مدرسة داخلية في إديال القريبة منه. وكان من تلاميذه ديفي جارليك، أحد صبية لتشفيلد، ولكن لم يكن هناك ما يكفي لاستمالته إلى مهنة التعليم، وكان التأليف يختمر في باطنه. فكتب مسرحية سناها "أيريني"، وبعث بكلمة لأدورد كيف محرر "مجلة الجنتلمان"

يشرح كيف يمكن تحسين تلك المجلة. وفي 2 مارس 1737 انطلق إلى لندن مع ديفد جاريك وجواد واحد، ليبيع مأساته ويشق لنفسه طريقاً في العالم القاسي. على ان مظهره يعاكسه. كان نحيلاً طويلاً، ولكن كان له هيكل ناتئ العظام جعله كتلة من الزوايا. وكان وجهه مبقعاً بندوب الداء الخنازيري تهيجه مراراً انقباضة تشنجية، وكان جسمه عرضة لانقباضات مزعجة، وحديثه تؤكد حركات وإيماءات غريبة. وقد نصحه كتبي طلب عنده عملاً بأن "يحصل على إنشودة حمال ويحمل الحقائب" (7). والظاهر أنه تلقى بعض التشجيع من كيف، لأنه في يوليو عاد إلى لتشفيلد وأتى بزوجه إلى لندن. ولم يكن خلواً من المكر. فحين هوجم كيف في الصحف نظم جونسن قصيدة في الدفاع عنه وأرسلها إليه، فنشرها كيف، وكلفه بمهام أدبية، وانضم إلى ددسلي في نشر قصيدة جونسن "لندن" (مايو 1738) التي نقداه عشرة جنبهاات ثمناً لها. وقد قلدت القصيدة في غير مواريه "الهجائية الثالثة" لجوفنال، ومن ثم أكدت الجوانب المؤسفة لمدينة لندن التي سرعان ما تعلم الكاتب أن يحبها، كذلك كانت هجوماً على حكومة روبرت ولبول، الذي وصفه جونسن فيما بعد بأنه "خير وزير عرفته البلاد" (8). وكانت القصيدة من بعض نواحيها هجوماً غاضباً لشاب ظل غير واثق من قوت غده بعد أن قضى عاماً في لندن. ومن هنا بيته المشهور "أن الكفاية تصعد ببطئ لأن الفقر يوهنها" (9).

صفحة رقم : 14272

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> النشأة المشوهة

في أيام الكفاح تلك جرب جونسن قلمه في كل لون من ألوان الأدب. كتب "سير العظماء" (1740)، وديج مقالات شتى لمجلة الجنتلمان، منها تقارير وهمية عن المناقشات البرلمانية. وكان نشر المناقشات البرلمانية محظوراً حتى ذلك التاريخ، فوقع كيف على حيلة ادعى بها أن مجلته إنما تسجل المناقشات في "مجلس شيوخ مجنا للبيوتيا". وفي 1741 اضطلع جونسن بهذه المهمة. ومن المعلومات العامة التي اجتمعت له عن سير النقاش في البرلمان ألف خطباً نسبها إلى شخصيات كانت أسماؤهم تصحيفاً لأسماء كبار المجادلين في مجلس العموم (10). وكان في هذه التقارير من مظهر الصدق ما أوقع في روع الكثير من القراء أنها تقارير حرفية، واضطر جونسن إلى أن ينبه سموليت (الذي كان يكتب تاريخاً لإنجلترا) إلى عدم الاعتماد عليها كتقارير حقيقية. وذات مرة علق جونسن على إطراء سمعه لخطبة نسبها إلى شاتان بقوله "هذه الخطبة كتبت في عليبة باكستر ستريت" (11). فلما أثبت بعضهم على حياذ تقاريره اعترف قائلاً "لقد أحسنت إنقاذ المظاهر إلى حد معقول، ولكن حرصت على ألا يكون كلاب الهويجز هم الفائزون" (12).

ترى كم كان اجره على عمله هذا؟ لقد وصف كيف مرة بأنه "صراف بخيل"، ولكنه صرح غير مرة بحبه لذكراه. وقد دفع له كيف تسعة وأربعين جنيهاً بين 2 أغسطس 1738 و12 أبريل 1739، وفي 1744 قدر جونسن أن مبلغ خمسين جنيهاً في العام "يفيض ولا ريب عن حاجات الحياة" (13). غير أن الناس جروا على القول بأن جونسن كان يعيش في تلك السنين في فقر مدقع في لندن. وقد اعتقد بوزويل أن "جونسن وسفدج بلغ بهما الأملق أحياناً مبلغاً أعجزتهما عن دفع إيجار مسكن، فكانا يجوبان الشوارع لياليها بأكملها" (14)، وزعم مأكولي أن شهور الضنك تلك عودت جونسن قذارة الهندام و "شدة الشره" للطعام (15). وقد ادعى رنشرد سفيدج أنه ابن لأحد الأيرلانت، دون أن تقنع دعواه الناس ولكنه كان قد بات متبطلاً لا يصلح لشيء حين لقبه جونسن في 1737. وقد جابا الشوارع لأنهما أحبا الحانات أكثر مما أحبا مسكنيهما ويذكر بوزويل "بكل ما يمكن من احترام ولياقة".

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> النشأة المشوهة

أن سلوك جونسن بعد مجيئه إلى لندن، ومعاشرته لسفدج وغيره، لم يكن فيهما شديد الالتزام بالفضيلة، في إحدى النواحي، كما كان هو أصغر سناً. وقد عرف عنه أن ميوله الغرامية كانت قوية عاتية إلى حد غير عادي. واعترف لكثير من أصدقائه أنه اعتاد أن يأخذ نساء المدينة إلى الحانات، ويستمتع إليهن وهن يروين سيرتهن. وباختصار يجب ألا نخفي أن جونسن، كغيره من الرجال الطبيين الأتقياء الكثيرين (أكان بوزويل ذاكراً بنفسه وهو يقول هذا؟)... لم يكن خلواً من النوازع التي كانت على الدوام "تشن حرباً على ناموس عقله" -وأنه في معاركه معها كان يهزم أحياناً" (16).

وقد رحل سفدج عن لندن في يوليو 1739 ومات في سجن للمدنيين عام 1743. وبعد ذلك بعام أصدر جونسن "سيرة ريتشارد سفدج"، وهو كتاب وصفه فيلدنج بأنه "قطعة من الأدب لا تقل أنصافاً وإجادة عن أي قطعة قرأتها من نوعها" (17). وكانت هذه السيرة إرهاباً بكتاب جونسن "سير الشعراء" (وقد ضمننت فيه). ونشرت السيرة غفلاً من اسم الكاتب، ولكن سرعان ما اكتشف أدباء لندن أن جونسن كاتبها. وبدأ الكتابيون يرون فيه الرجل المؤهل لتصنيف قاموس اللغة الإنجليزية.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> القاموس

2- القاموس

1755-1746

كتب هيوم قبل ذلك في 1741 يقول "إننا لا نملك قاموساً للغتنا، ولا نكاد نملك أجرومية متوسطة الجودة" (18). وكان في هذا مخطئاً، لأن نثانائيل بيلى كان قد أصدر في 1721 "قاموساً إنجليزياً إيتمولوجياً جامعاً"، وكان لهذا القاموس أسلاف قريبة الشبه بالمعاجم. ويبدو أن اقتراح تصنيف قاموس جديد جاء من روبرت ددسلي في حضور جونسن، الذي قال أعتقد أنني لن أضطلع به" (19). ولكن حين انضم كتابيون آخرون إلى ددسلي وعرضوا 1.575 جنيهاً على جونسن أن التزم المهمة، وقع العقد في 18 يونيو 1746.

وبعد إطالة الفكر وضع في أربع وثلاثين صحيفة "خطة لقاموس اللغة

صفحة رقم : 14275

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> القاموس

الإنجليزية" وطبعها. ثم أرسلها إلى عدة أشخاص منهم اللورد تشستر فيلد، الذي كان يومها وزيراً للدولة، ومعها ثناء مشرب بالأمل على نبوغ هذا الأيرل في الإنجليزية وغيرها من ضروب المعرفة. ودعا تشستر فيلد للحضور، فذهب جونسن، ونفحه الأيرل بعشرة جنيهات وكلمة تشجيع. ثم قصده جونسن ثانية بعد حين، فأبقاه منظرًا ساعة، غادر بعدها المكان غاضباً، وطلق فكرة إهداء قاموسه إلى تشستر فيلد.

وشرع في مهمته على هون، ثم ازداد همة ونشاطاً، لأنه كان ينقد أجره منجماً. وحين وصل إلى كلمة Lexicographer (المعجمي) عرفها بهذه العبارة "كاتب للقواميس، كادح لا يؤدي أحداً" وكان الرجاء يحدوه بإنجاز العمل في ثلاث سنوات، فاستغرق منها تسعاً. وفي 1749 انتقل إلى جف سكوير، المقابل لفليت ستريت، واستأجر خمسة سكرتيرين أو ستة دفع من جيبه أجرهم، وأقامهم بالعمل في غرفة بالطابق الثالث. وقرأ أعلام كتاب القرن الواقع بين عامي 1558 و1660-ابتداء من ارتقاء إليزابيث الأولى العرش إلى ارتقاء تشارلز الثاني، فقد كان يعتقد أن اللغة الإنجليزية بلغت في تلك الحقبة أبعاد شأولها، وقصد أن يتخذ لغة الحديث الإليزابيثي-الاستيوارتي معياراً يرسى عليه قواعد الاستعمال الجيد للغة. وكان يضع خطأً تحت كل جملة يريد اقتباسها لإيضاح استعمال كلمة ما، ودون في لهامش الحرف الأول من الكلمة المراد تعريفها. وأصدر تعليماته لمعاونيه بأن ينسخوا كل جملة مخططة على جزارة منفصلة، ويدخلوا هذه في مكانها الأبجدي من قاموس بيبي، الذي استعان به منطلقاً ومرشداً.

وخلال هذه السنين التسع اقتنص اجازات كثيرة من تعاريف قاموسه. وكان أحياناً يستسهل نظم قصيدة عن تعريف لفظ. ففي 9 يناير 1749 نشر قصيدة من اثنتي عشرة صفحة عنوانها "بطلان الرغبات البشرية"، وكانت كسابقتها "لندن" التي نظمها قبل عشر سنين تقليداً لجوفينال من حيث الشكل، ولكنها عبرت بقوة هي قوته هو دون غيره. وقد ظل ساخطاً على فقره وعلى إهمال تشستر فيلد له:

فانظروا أي شرور تعدو على حياة الأديب

صفحة رقم : 14276

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> القاموس

الكدر، والحسد، والفقر، والراعي المتفضل، والسجن.

ثم ما أشد بطلان انتصارات المحارب!

تأمل تشارلز الثاني ملك السويد:

ترك الاسم، الذي كان يصفر لذكره وجه الدنيا،

ليدل الناس على عبرة أو ليكمل قصة(20).

إنن فما أغبى الأمل في طول العمر بينما نرى بطلان الشيخوخة وخديعتها وآلامها: كالعقل يشرد في حكايات مكررة، والحظ يهتز مع أحداث كل يوم، والأبناء يتأمرون على الميراث ويتحسرون على تباطؤ الموت، بينما "تغير أوصاف لا حصر لها على المفاصل، وتضرب نطاقاً على الحياة، وتضيق الخناق على هذا الحصار الرهيب"(21). وما من سبيل للفرار من الآمال الباطلة والفناء المحقق إلا سبيل واحدة: هي الصلاة، والإيمان بإله عنده الخلاص والثواب. ومع ذلك كان لهذا المنشأ لحظات استمتع فيها بالسعادة. ففي 6 فبراير 1749 أخرج جاريك مسرحيته "أيريني". وكان حدثاً خطيراً في نظر جونسن، فاغتسل، وشد على كرشه بصدرية قرمزية موشاة بمخرمات ذهبية، وازدهى بقبعة لها ذات الحلبة، وراح يرقب صديقه وهو يلعب دور محمد الثاني أمام السيدة كبير التي لعبت دور أيريني، واستمر عرض المأساة تسع ليال، وأنت لجونسن بحصيلة قدرها مائتا جنيه، ولم تبعث بعدها قط، ولكن ددسلي نقده مائة أخرى لقاء حق التأليف. وحقق الآن (1749) من الشهرة والثراء ما أتاح له تأسيس ناد، وليس هو "النادي" (Club) "الذي جاء بعد خمسة عشر عاماً، بل "نادي أيفي لين"، وهو اسم منقول عن الشارع الذي اعتاد فيه جونسن أن يلتقي في حانة كنجز هد بهوكنز وسبعة أصحاب آخرين كل مساء ثلاثاء يأكلون البفتيك ويتبادلون الآراء المتحيزة. ويقول جونسن "إلى هناك كنت أختلف دائماً"(22). وكان في كل ثلاثاء وجمعة، من 21 مارس 1750 إلى 14 مارس 1752، يكتب مقالاً صغيراً ينشره كيف تحت عنوان "الجوال" (رامبلر)،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> القاموس

ويتقاضى على ذلك أربعة جنيهات في الأسبوع. وكان المبيع من المقالات يقل عن الخمسمائة نسخة، وخسر كيف في هذه المغامرة، ولكنها حين جمعت في كتاب طبع منه اثنا عشرة طبعة قبل وفاة جونسن. فهل نعترف بأننا لم نجد طرافة إلا في عددين هما 170 و 171 (23)، وفيهما جعل جونسن مومساً تذل الناس على عبرة وتجمل قصة؟ وقد شكوا النقاد من إسراف الأسلوب والألفاظ في الطول على الطريقة اللاتينية، ولكن بوزويل، فيما بين أوزاره، وجد عزاء وراحة في حض جونسن قراءه على التقوى (24).

وكان جونسن يعاني توتراً غير عادي في تلك السنوات، لأن ذهنه أرهقته التعاريف، ومعنويته هبط بها تدهور حال زوجته. ذلك أن "نتي" راحت تهدئ الأم الشيخوخة والوحدة بالخمير والأفيون. وكثيراً ما كانت تقصي جونسن عن فراشها (25). ونادراً ما كان يصطحبها حين يتناول طعامه خارج الدار. ويقول الدكتور تيلر، كان يعرفهما معرفة وثيقة، إنها "كانت البلاء الذي نكبت به حياة جونسن، وكانت ثملة إلى درجة بشعة، حقيرة من جميع الوجوه، وكان جونسن يشكو مراراً... من وضعه مع زوجة كهذه" (26)، غير أن موتها (28 مارس 1752) أنساه عيوبها، فبات مفتوناً بها بعد موتها فتنة أضحكت أصحابه. وأطرى فضائلها، ورثى لوحده، ورجا أن تشفع له عند المسيح (27). ويقول بوزويل وهو يستحضر تلك الحقبة "لقد أخبرني أنه كان عادة يخرج من داره في الرابعة مساءً، وقل أن يعود إلا في الثانية صباحاً... وكان منجعه هو حانة ميتر بفليت ستريت، حيث كان يحب أن يطيل السهر" (28).

على أن جونسن كان يهرب الوحدة. ومن ثم فقد أتى بأنا وليمز إلى بيته في جف سكوير (1752)، وكانت شاعرة ولزية تكاد تفقد بصرها. ثم فشلت جراحة أجريت لعلاجها، فطف بصرها تماماً. وقد مكثت مع جونسن حتى وفاتها (1783) باستثناء فترات قصيرة تخللت هذه الفترة، تشرف على إدارة البيت والمطبخ، وتقطع شرائح الشواء وتحكم على امتلاء الأقداح دون مرشد غير أصابعها. أما احتياجات جونسن الأخص فقد اتخذ لقضائها (1753) خادماً زنجياً يدعى فرانك باربر، ظل يلازمه

صفحة رقم : 14278

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> القاموس

تسعة وعشرين عاماً. وقد أدخله جونسن المدرسة، وجهد ليجعله يتعلم اللاتينية واليونانية، وخلف له تركة لا يستهان بها. واستكمالاً لمقومات هذه المنشأة دعا جونسن طبيباً مهجوراً منبوذاً يدعى روبرت لفيت ليسكن معه (1760). وقد ألف ثلاثتهم بيتاً كثير الشجار، ولكن جونسن كان شاكراً لصحبتهم.

وفي يناير 1755 دفع بأخر فروخ "القاموس" إلى الطابع، الذي حمد الله على قرب خلاصه من هذا العمل وهذا الرجل. ونمى إلى تسشتر فيلد نبا القاموس الوشيك الظهور، وكان يأمل أن يصدره صاحبه بعبارة إهداء له. وحاول أن يكفر عن قصر نظره في الماضي بمقالين كتبهما لإحدى المجلات يرحب فيهما بالأثر الأدبي المرتقب، ويطري جونسن أدبياً يسره أن يرتضيه حكماً لا يرد في استعمال الإنجليزية الفصحى. غير أن المؤلف المعتر بكرامته أرسل إلى الأيرل (7 فبراير 1755) رسالة وصفها كارليل بأنها "نفخة بوق الحشر الذائعة الصيت التي أعلنت أن نظام رعاية الأدب يجب ألا تقوم له قائمة":

سيدي اللورد:

أبلغني صاحب مجلة "ورلد" مؤخراً أن فخامتكم كاتب المقالين اللذين زكيا قاموسي لجمهور القراء... وإن تنويهمكم بفضلني لشرف لا أدري كيف أستقبله أو بأي عبارات أعرب عن اعترافي به لقلّة تَعُودِي على أفضال العظماء. سيدي اللورد، لقد انقضت اليوم سبع سنوات منذ انتظرت في حجرتك الخارجية أو رددت عن بابك، ورحت خلال هذه الحقة أدفع عملي خلال مصاعب من العيب أن أشكو منها، حتى بلغت به آخر الأمر حافة النشر، دون أن تسدي إلي يد واحدة، أو كلمة تشجيع واحدة، أو ابتسامة عطف واحدة. ومثل هذه المعاملة لم أتوقعها، لأنه لم يكن لي راع بتاتاً قبل ذلك.

أليس راعي الأدب يا سيدي اللورد ذلك الذي ينظر في غير اكتراث إلى رجل يصارع من أجل الحياة في الماء، حتى إذا بلغ اليابسة أثقله بمساعدته؟

صفحة رقم : 14279

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلتره جونسن -> صموئيل جونسن -> القاموس

إن الاهتمام الذي طاب لك أن تبديه نحو جهودي كان كريماً لو أنه جاء مبكراً، ولكنه تأخر حتى أمسيت عديم الاكتراث له، عاجزاً عن الاستمتاع به، وحتى بت وحيداً لا أستطيع إشراك غيري فيه، معروفاً لا حاجة بي إليه. وأرجو ألا يعد من القسوة البالغة السخرية ألا أعتز بأفضال لم أتلق منها نفعاً، أو أن أكره أن يعدني الجمهور مديناً لراع بما مكنتني العناية الإلهية من أن أؤديه لنفسي.

وإنني إذ مضيت بعلمي هذا الشوط بقدر ضئيل جداً من الدين لأي راع للأدب، فلن يفت في عضدي أن أنهي العمل بقدر أضال إن كان هذا القدر متاحاً، ذلك أنني أفقت منذ أمد بعيد من حلم الأمل الذي كنت يوماً ما أعتز به في اغتباط شديد:

وإنني يا سيدي اللورد

خادمكم المتواضع المطيع

صموئيل جونسن(29).

أما تعليق تشستر فيلد الوحيد على الرسالة فهو أنها "كُتبت كتابة جيدة جداً"، وهي في الحق آية من آيات نثر القرن الثامن عشر، بريئة تماماً من المشتقات اللاتينية التي كانت أحياناً تعوق أسلوب جونسن وتثقله. ولا بد أن كاتبها كان عميق الإحساس بها والتفكير فيها، لأنه تلاها على مسامع بوزويل من الذاكرة بعد ست وعشرين سنة(30)، ولم تنشر

الرسالة في لايد بعد موت جونسن. ولعل غيظه شوه حكمه على "رسائل تنسترفيلد لولده" بأنها- "تعلم أخلاقيات بغي، وعادات معلم رقص" (31).
وذهب جونسن إلى أكسفورد في مطالع 1755، ومن جهة ليرجع إلى المكتبات، ومن جهة أخرى ليقتراح على صديقه توماس وارتن أنه مما يعين على رواج القاموس أن يستطیع مؤلفه إضافة درجة جامعية إلى اسمه. ودبر وارتن الأمر، وفي مارس خلعت على جونسن درجة أستاذ آداب فخرية. وهكذا صدر القاموس آخر الأمر، في مجلدين من القطع الكبيرة بلغا قرابة 2.300 صفحة، وحدد له ثمناً أربعة جنيهات وعشرة بنسات. وفي ختام المقدمة أعلن جونسن أن.

صفحة رقم : 14280

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> القاموس

" القاموس الإنجليزي ألف بمساعدة ضئيلة من المثقفين، ودون أي رعاية من العظماء، ولم يُولف في هدوء العزلة الناعم، ولا تحت الظلال الجامعية الوارفة، بل في غمار العناء والحيرة، وفي جو المرض والحزن، ولعله مما يكبح انتصار أصحاب النقد الخبيث أن يلاحظوا أنه إذا كانت لغتنا الإنجليزية لم تحظ هنا بعرض كامل، فعذري أنني إنما فشلت في محاولة لم تتجزها كمدرات البشر إلى الآن... لقد أطلقت عملي حتى طوى القبر أكثر من كنت أبغي إدخال السرور إلى أفئدتهم، وبات النجاح والإخفاق أصواتاً فارغة، ومن ثم فإني أطلقه في هدوء لا يبالي، إذ ليس هناك ما أخشاه أو أرجوه من اللوم أو المديح".
وما كان في الإمكان أن يتوقع من النقاد أن يدركوا أن قاموس جونسن عين قمة، وخطاً فاصلاً في أدب القرن الثامن عشر الإنجليزي، كما عينت موسوعة ديدروود الأمبر (1751-72) قمة ونقطة تحول في أدب فرنسا. ولقد كان هناك ضحك كثير على عيوب عارضة في عمل جونسن. فبين المواد التي بلغت أربعين ألفاً ألفاظ غريبة مثل Sygilates و Gentilitious (وهما لفظتان يحتفظ بهما قاموس وبستر باحترام). وحوى القاموس تعريفات غاضبة كتعريف كلمة "معاش" Pension "مكافأة تمنح لإنسان بدو مقابل. والكلمة في إنجلترا تفهم عموماً على أنها تعني راتباً يدفع لأجير للدولة نظير خيانتته لوطنه". أو كلمة Excise (ضريب الإنتاج) "ضريبة بغيضة على السلع". ثم هناك نكت شخصية كما في تعريف كلمة Oats (الشوفان) "غلة تطعم بها الخيول في إنجلترا عادة، ولكنها في إسكتلندا بقتات بها الأدميون"-وكان هذا صحيحاً لا غبار عليه. وسأل بوزويل جونسن إن كانت المدنية Civilization كلمة: فقال لا، ولكن Civility (الكياسة) (32). كلمة.. وكثير من "أتمولوجيات" جونسن (تتبع أصول الكلمات وتاريخها) يرفض اليوم، فقد كان يعرف الكثير من اللاتينية، وأقل منه من اليونانية، ولكنه كان ضئيل العلم باللغات الحديثة، وقد اعترف صراحة أن "الأتمولوجيا" نقطة الضعف فيه (33). وقد عرف كلمة Pastern بأنها "ركبة الحصان" (وصحتها جزء من قدم الحصان). وحين سألتها سيدة كيف

صفحة رقم : 14281

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> القاموس

حدث أنه وقع في خطأ كهذا. فأجاب "الجهل يا سيدتي، والجهل المطبق" (34)، ولم يكن في استطاعته تجنب العثرات في قاموس بهذه الضخامة كل صفحة فيه تفتح أبواباً كثيرة للزلل. ولقد لقي إنجاز جونسون العظيم التقدير خارج وطنه. فأهدته الأكاديمية الفرنسية نسخة من قاموسها، وأهدته أكاديمية ديلاكروسكا الفلورنسية قاموسها (35). وراج القاموس رواجاً أراضى الكتابيين، ففقدوا جونسون أجر تجهيز طبعة مختصرة. وظل القاموس المطول قياسياً حتى حل محله "نوح وبستر" في 1828. وقد وضع القاموس جونسون في قمة المؤلفين الإنجليز في عصره؛ والواقع أن جونسون اكتسب سلطان الحكم الذي لا يرد له حكم في الأدب الإنجليزي، إذا استثنينا أدباء أرسنقراطيين مثل هوراس ولبول. وهكذا بدأ حكم "خان الأدب الأكبر".

صفحة رقم : 14282

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسون -> صموئيل جونسون -> الحلقة المسحورة

3- الحلقة المسحورة

على أنه لم يكن فوق الاعتقال بسبب الدين. ذلك أنه أنفق أجره الذي تقاضاه عن القاموس بالسرعة التي أتاه بها. ففي 16 مارس 1756 كتب إلى صموئيل رتشاردسن يقول: "سيدي، أنني مضطر إلى طلب معونتك. فأنا الآن مقبوض علي لأنني مدين بخمسة جنيهات وثمانية عشر شلناً... فإذا تفضل بموافقتي بهذا المبلغ رددته لك شاكراً، مضيفاً إياه إلى كل أفضالك السابقة" (36). وأرسل إليه رتشاردسن ستة جنيهات. وكان يكسب قوته في تلك الحقبة بتحرير المقالات للمجلات، وبتأليف المواعظ بجنيهين للعظة لرجال الدين الذين لم يوهبوا القدرة الكبيرة على البيان، وبجمع الاكتتابات مقدماً عن طبعة من مؤلفات شكسبير وعد بتحقيقها، وبكتابة مقال أسبوعي لليونفرسل كرونكل (15 أبريل 1758 إلى 5 أبريل 1760) باسم "العاطل" وكانت هذه المقالات أخف روحاً من "الرمبلر"، ولكنها مع ذلك أشد جداً وثقلاً مما يحتمله القراء الذين يتحرون الجري في القراءة. وقد ندد مقال

صفحة رقم : 14283

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسون -> صموئيل جونسون -> الحلقة المسحورة

منها بتشريح الحيوان الحي، وشهر آخر بسجون المدينين. ورثى المقال رقم 5 لانفصال الجند عن زوجاتهم، واقترح تأليف فرق من " الفارسات الخفاف" يقمن بأعمال التموين والتمريض، ويرحن أزواجهن فيما عدا هذا. وفي يناير 1759 بلغه أن أمه ذات التسعين، التي لم يرها منذ اثنين وعشرين عاماً، مشرفة على الموت. فاقترض نقوداً من طابع، وبعث إليها بستة جنيهاً في رسالة رقيقة. ووافاه الأجل في 23 يناير. ولكي يغطي نفقات جنازتها وديونها كتب في أمسيات أسبوع واحد (في رواية رينولدز) "تاريخ راسيلاس أمير الحبشة" وأرسله إلى الطابع جزءاً فجزءاً، وقد عنه مائة جنيه. فلما نشر في أبريل رحب به النقاد أثرأ من عيون الأدب، وقارنوا بينه وبين قصة فولتير "كانديد" التي صدرت في الوقت نفسه تقريباً وعالجت المشكلة ذاتها: أيمكن أن تأتي الحياة بالسعادة؟ أما جونسن فلم يؤخر الجواب، "يا من تستمعون وأحلام الأمل تراودكم، وتتوقعون أن تحقق الشيخوخة وعود الشباب، وأن الغد سيعوض عن نقائص اليوم، انتبهوا لتاريخ راسيلاس" (37).

يقول جونسن أنه كان من عادة الملوك الأحباش أن يلزموا وريث العرش وادياً طيباً خصباً يأتي الوقت لاعتلائه العرش. وكان يزود بكل شيء: بقصر، وطعام طيب، وحيوانات مدبته، ورفاق أذكيا. ولكن راسيلاس يزهد في هذه المباحج حين بلغ السادسة والعشرين. فهو لا يفتقد الحرية فحسب بل الكفاح أيضاً. "سأكون سعيداً لو كان أمامي هدف أسعى نحوه". فيطيل الفكر في كيفية الهروب من هذا الوادي المطمئن ليرى كيف يسعى غيره من الرجال إلى السعادة وكيف يجدونها.

ويقترح ميكانيكي حاذق أن يبني آلة طائرة تحلق بهما فوق الجبال المحيط إلى الحرية. ويشرح فكرته هكذا: "أن الذي يستطيع السباحة يجب ألا يبأس من إمكان الطيران، فالسباحة طيران في سائل أكتف، والطيران سباحة في عنصر أخف. وما علينا إلا أن نحقق التناسب بين قوة مقاومتنا وكثافة المادة المختلفة التي نخرقها. فسيحملك الهواء بالضرورة إذا استطعت تحديد أي دفع يدفعه بأسرع مما

صفحة رقم : 14284

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الحلقة المسحورة

يستطيع الهواء أن يتراجع من الضغط.. وسيكون جهد الارتفاع عن الأرض شديداً.. ولكننا كلما ارتفعنا قلت جاذبية الأرض وثقل الجسم تدريجياً حتى نبلغ منطقة يطفو فيها الإنسان في الهواء دون أي ميل للسقوط". ويشجع راسيلاس الميكانيكي، فيوافق على صنع طائرة، "ولكن بشرط، وهو ألا يفشي سر هذه الصنعة، وألا تلمني بأن أصنع أجنحة لسوانا". ويسأله الأمير "ولم تضمن على غيرك بمثل هذه الفائدة الكبرى؟" ويجب الميكانيكي "لو كان الناس كلهم لعلمتهم بغاية الخفة أن يطيروا. ولكن أي ضمان للأخيار إذا كان في استطاعة الأشرار إن شاءوا أن يغزوه من الجو؟" ثم يصنع طائرة، ويحاول الطيران، فيسقط في بحيرة ينقذه منها الأمير (38). ويؤثر راسيلاس التحدث إلى الفيلسوف إيملاك، الذي شهد كثيراً من الأقطار والناس. ويجدان كهفاً يفضي إلى ممر يؤدي إلى العالم الخارجي، ويهربان من فردوسهما مع أخت الأمير نكاياه وخدامتها. ثم يزورون القاهرة وقد تزودوا بالحلي عملة عالمية، ويشاركون في ملاهيها ثم يملونها. ويستمعون إلى فيلسوف رواقى يتحدث عن قهر الشهوات، وبعد أيام يعثرون عليه وقد برح به الحزن على موت أبنته. وإذ كانوا قد قرعوا الشعر الرعوي فقد افترضوا أن رعاة الغنم لا بد سعداء، ولكنهم اكتشفوا أن هؤلاء الرجال "تقرحت سخطاً" و "حقدأ وضغينة على من هم أعلى منهم مكانة" (39). ثم يقعون على ناسك، فيتبينون أنه يتوق سراً إلى مباحج المدينة. ويستفسرون عن سعادة الحياة البيئية، فيجدون كل بيت قد خيم عليه الظلام الشقاق و "الصدام القاسي بين الرغبات المتعارضة" (40). ويرتادون الأهرام ويحكمون عليها بأنها قمة الحماقة. ويسمعون عن الحياة السعيدة التي يحيها الدارسون والعلماء، فيلتقون بفلكي مشهور، يخبرهم أن "الأمانة بغير المعرفة ضعيفة عديمة الجدوى، والمعرفة بغير الأمانة خطيرة رهيبة" (41)، ولكن

الفلكي بجن. وينتهون إلى أنه ما من طريق من طرق الحياة على الأرض يقضي إلى السعادة، ثم يعزيهم إيملاك بحديث عن خلود النفس، ويعتزمون

صفحة رقم : 14285

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الحلقة المسحورة

العودة إلى الحبشة والرضى بتقلبات الحياة في هدوء تحوهم الثقة في قيامة سعيدة. وهي قصة قديمة تجسدت في صورة من أبدع صورها. ويدهشنا ذلك التدفق الجميل والوضوح الذي يتميز به الأسلوب، الذي بعد كل البعد عن الألفاظ الثقيلة التي نجدها في مقالات جونسن بل حتى في حديثه. وبدا مستحيلاً أن يكون المعجمي المتفقه هو كاتب هذه القصة البسيطة، وأنه مما لا يصدق أن يكون قد كتب هذه الصفحات التي بلغت 141 في سبعة أيام.

وكان أثناء ذلك قد انتقل من جف سكوير إلى ستيل إن (23 مارس 1759)؛ وستراه بعد قليل وقد انتقل إلى جريز إن، ثم إلى الأتر تمل لين. والراجح أن هذه التنقلات كان دافعها الاقتصاد في النفقة. ولكن في يوليو 1762 رفع جونسن فجأة إلى حالة من الثراء النسبي بفضل معاش سنوي قدره 300 جنيه نفحه به جورج الثالث بناء على نصيحة اللورد بيوت. أما السبب في أن هذه المنحة كانت من نصيب رجل كان قد عارض الأسرة الهانوفرية في إصرر، وسخر من الإسكتلنديين في كل مناسبة، ووصف المعاش بأنه "أجر يدفع لأجير للدولة نظير خيانتة لوطنه"، هذا السبب دار حوله الكثير من قصص الأسرار. فاتهمه أعداؤه بأنه يؤثر المال على المبدأ، وزعموا أن بيوت كان يبحث عن قلم جبار يرد على ولكس، وتشرشل، وغيرهما ممن كانوا يشوهون سمعته بكتاباتهم. وزعم جونسن أنه قبل المعاش على أساس صريح أكده بيوت مرتين، هو ألا يطلب إليه أن يؤيد الحكومة بقلمه (42). وقد أسر إلى بوزويل بأن "لذة لعن بيت هانوفر، وشرب نخب الملك جيمس، ترجحها المئات الثلاث من الجنيهات في العام رجحاناً كبيراً" (43). على أي حال فقد استحق المعاش أضعافاً مضاعفة، لا عن الكراسات السياسية التي كتبها في السنين اللاحقة، بقدر استحقاقه إياه عن إثرانه الأدب الإنجليزي بالقلم والحديث والحكمة والنكتة المطهرة.

صفحة رقم : 14286

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الحلقة المسحورة

وكان له من الأصدقاء عدد يكفي لتشيتيت الأعداء. يقول "أن الصداقة هي الشراب المنعش الذي يعين على ابتلاع جرعة الحياة المقرزة" (44). وكان في كل محفل تقريباً من المحافل التي يختلف إليها يصبح محور الحديث، لا لأنه شق طريقه بالقوة إليه، بل لسبب أهم هو أنه كان أعظم شخصية متفردة في حلقات لندن الأدبية، وكان في استطاعة سامعيه أن يتقوا بأنه سيقول شيئاً كلما تكلم. ورينولدز هو الذي اقترح تأليف "النادي" الذي سماه بوزويل فيما بعد

"النادي الأدبي"، وأيد جونسون الاقتراح، وفي 16 أبريل 1764 بدأت الجماعة الجديدة لقاءاتها في أمسيات الإثنين بحانة "تيركس هد" في شارع جرارد بحي سو هو، أما الأعضاء الأصليون فهم رينولدز، وجونسون، وبيرك، وجولدسمث، وكريستوفر نجت، وتبهام بوكلك، وبنيت لانتجن، وانتوني كامين، والسر جون هوكنز. وأضيف إلى هؤلاء فيما بعد آخرون بتصويت الأعضاء: جيون، وجاريك، وشريدان، وفوكس، وأدم سمث، ودكتور بيرني... ولم يظفر بوزويل بالعضوية إلا في 1773، وقد يكون بعض السبب أنه لم يكن يفد على لندن إلا لماماً. ولم ينفق خلال السنين الإحدى والعشرين. بين التقائه بجونسون ووفاة جونسون، أكثر من عامين وبضعة أسابيع على قرب من معبوده. وكان في حرارة إعجابه التي لم يخفها، وفي علم جونسون بأن بوزويل يخطط لكتابة سيرته، ما جعل أكبر الرجلين يغفر ما أباده الاسكتلندي من مسلك يقرب من العبادة المتملقة. والمتكلم المجيد للكلام، والمستمع المجيد للاستماع، يؤلفان صاحبين سعيدين. ولم يكن جونسون شديد الاحترام لعقلية بوزويل. فحين قال "بوزي"، كما كان يلقبه، أن النبيذ الذي شربه أثناء حديثهما أصابه بالصداع، وقال جونسون مصححاً: لا يا سيدي، ليس النبيذ هو الذي صدع رأسك، بل المعنى الذي وضعته أنا فيه". وقال بوزويل متعجباً "ماذا يا سيدي! وهل يصدع المعنى الرأس؟" "نعم يا سيدي، إذا لم يكن معتاداً عليه" (45). (وفي "السيرة" فقرات يبدو فيها بوزويل يتكلم كلاماً معقولاً عن كلام جونسون). وفي معرض الثناء على ملحمة بوب عن المغفلين (الدنسياده) لاحظ جونسون أنها خلعت على بعض المغفلين ذكراً خالداً، ثم واصل نكتته: "لقد كانت

صفحة رقم : 14287

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسون -> صموئيل جونسون -> الحلقة المسحورة

الغفلة يومها أمراً جديراً بالاهتمام.. أه، يا سيدي، لو إنك عشت في تلك الأيام!" (46). ولكن الدب الشانخ لم يلبث أن تعلم أن يحب شبيله، فقال له في 1763 (47) "قليل من الناس من أنس إليه أنسى إليك". وقال بوزويل لم يغادر قط بيتاً دون أن يترك فيه رغبة في عودته" (48). وفي 1775 أعطى بوزويل حجرة في مسكن جونسون لينام فيها حين يمتد بهما الحديث إلى ساعة متأخرة من الليل (49).

وفي 31 مارس 1772 كتب في يومياته: "إني مصمم على كتابة سيرة المستر جونسون. وأنا لم أخبره بنيتي بعد، ولا أدري إن كان من واجبي أن أفعل". ولكن جونسون علم بالأمر في أبريل 1773 إن لم يكن قبله (50). وعلم غيره به. وغازتهم طريقة بوزويل في إثارة مسائل جدلية بقصد واضح هو جر رجل الأديب العجوز والظفر بدرة جديدة للسيرة. وافتخر الاسكتلندي الفضولي بأن "النبع كان أحياناً يسد حتى أفتح صنوبره" (51) ولعل جونسون الذي نعرفه ونستطيعه ما كان ليتجلى قط لولا أن حفزته إثارة بوزويل المفردة ومطاردته التي لا يعترها الكلال. وشتان بين جونسون هذا وجونسون الذي نجده في "السيرة" التي ألفها هوكنز، أو حتى في "النوادر" الرشيفة التي كتبتها مسز ثريل!

وبيناير 1765 هو تاريخ بداية صله جونسون بأسرة ثريل، وهي صلة لعبت في حياته دوراً أكبر من صداقته لبوزويل. وكان هنري ثريل صانع جعة، وإبناً لصانع جعة، أصاب حظاً طيباً من التعليم وجاب الأقطار، ولم يكن يؤمن أن يشرف وضعه الاجتماعي بانتخابه عضواً في البرلمان. وفي 1763 تزوج هستر لنسن سولزبري، وكانت فتاة ولزية لا يتجاوز طولها خمسة أقدام ولكنه مريحة ذكية. واستغرق هنري في عمله وهو يكبرها بأثني عشر عاماً، ولكنه بذل لها من الاهتمام ما كفى لجعلها تحبل كل سنة بين 1764 و 1778، ولنقل عدوى مرضه السري إليها (52). وولدت له اثني عشر طفلاً مات منهم ثمانية في طفولتهم وراحت تسري عن نفسها بالأدب، فلما جاء زوجها إلى البيت بصموئيل جونسون الدائع الصييت، سخرت كل فنون الأنثى وملاطفاتها لتربطه بالأسرة. وسرعان ما اعتاد أن

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الحلقة المسحورة

يتعشى مع آل ثريل كل خميس في منزلهما بسوثوراك، وكان منذ 1766 ينفق معهما الصيف عادة في فلتهم الريفية في ستريتهم بمقاطعة صري. وجعلت السيدة ثريل من بيتها صالوناً كان يقطبه جونسن، وراوده رينولدز وجولدسمث وجاريك وبيرك، وآل بيرني، وأخيراً جوزويل-مدفوعاً بالغيرة لأنه علم أن السيدة ثريل تجمع البيانات عن نظرات بطلها وعاداته وألفاظه. وهكذا قدر لـ "السيرة" أن يكون لها منافس.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الدب الأكبر

4- الدب الأكبر

كيف كان "الدب الأكبر" يبدو؟ كتب بوزويل عقب لقائهما الأول (1763) يقول: "أن مستر جونسن رجل رهيب المنظر للغاية... رجل كبير الحجم جداً، يشكو التهاب العينين، والشلل الارتجافي (تقلص عصبي لا إرادي) والداء الخنازيري وهو رث الهندام جداً، ويتحدث بصوت غابية في الخشونة" (53). ووصفته السيدة ثريل حين تقدم به العمر فقالت: "كانت قامته فارعة إلى حد ملحوظ، وأطرافه غاية في الكبر.. أما قسماته فمحددة تحديداً قوياً، ووجهه مشرس جداً.. وكان في إيصاره قصر، وفيه غير ذلك قصور، ومع ذلك كانت عيناه شديديتي الجموح، والنفوذ، والضراوة أحياناً، حتى أن الخوف منه كان في اعتقادي أول انفعال يبدو في عيون ناظره" (54). وكان جونسن يأسف على الساعات التي يجلس فيها إلى مصور يصوره باعتبارها "وقتاً مضيعاً"، ومع ذلك فعل هذا عشر مرات حين رسمه رينولدز، ومرة حين صنع نولكنز له تمثالاً نصفياً. وفي 1756 أبرزه السر جوشوا بديناً ثقيل الحركة (55)، وفي 1770 رسم له صورة جانبية وجعله يبدو شبيهاً بجولدسمث (56). وفي 1772 أسلمته أشهر صورة للأجيال اللاحقة رجلاً ضخماً صعب المراس، له شعر مستعار هائل، ووجه ممثلي كبير، وحاجبان هابطان فوق عينين حائرتين، وأنف ضخمة وشفتان غليظتان، وذقن ملغدي.. وكان شعره المستعار تزيحه غير مرة الحركات التشنجية التي تندد عن رأسه وكتفيه ويديه (57). وكان مهمل الهندام.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الدب الأكبر

وقد قال لبوزويل "إن الملابس الجميلة لا قيمة لها إلا من حيث سدها النقص في غيرها من وسائل جلب الاحترام للابسة" (58). ولم يكن يعبا كثيراً بالنظافة الشخصية إلى أن نزل ضيفاً على آل ثريل. وكان يأكل بشراهة ليملاً فراغ جوفه الكبير، وربما لأنه لم ينس سنوات الجوع. وقال لبوزويل: "لم أعرف قط رجلاً أكثر منه تليذاً بالأكل الطيب. كان إذا جلس إلى المائدة استغرقته مهمة اللحظة استغراقاً تاماً، فبدت نظراته وكأنها سمرت على طبقه. وما كان ليفوه بكلمة واحدة، ولا ليبيدي أقل انتباه لما يقوله غيره- إلا أن يكون في صحبة قوم رفيعي المقام جداً حتى يشبع شهيته التي كانت شديدة الضراوة حتى... لتنتفخ لها عروق جبينه عادة ويتقصد عرفاً غزيراً ملحوظاً للناظرين" (59).

وكان يأكل السمك بأصابه، "لأنني أشكو قصر النظر، وأخشى شوك السمك" (60). ولم يكن يطيق منظر الخضر. وكان في الأيام التي تتعاطم فيها شهيته للطعام "يحب أن ينعش نفسه بالخمير، ولكنه لم يسكر قط غير مرة واحدة" (61). وحين نددت المسز وليمز بالسكر قائلة "إني لأعجب أي لذة يمكن أن يحس بها الرجال في أن يجعلوا من أنفسهم حيوانات؟" أجاب على الفور "إني لأعجب يا سيدتي أنك لا تملكين من نفاذ البصيرة ما ترين به الإغراء القوي لهذا الإفراط في الشراب، ولأن من يجعل نفسه حيواناً يتخلص من الألم الذي يصيبه من كونه إنساناً" (62).

ولكن السكر في رأيه "لا يعين على الارتقاء بالحديث مع الناس، فهو يغير العقل حتى ليسر المخمور بأي حديث" (63). ثم تجنب كل ألوان المسكر في أخريات حياته، وقنع بالكاكاو، وعصير الليمون، وأقداح الشاي التي لا حصر لها. ولم يدخن قط، "إنه لأمر رهيب أن ننفث الدخان من أفواهنا في أفواه غيرنا من الناس وفي عيونهم وأن يفعل الناس بنا هذا الشيء ذاته". وعلل عادة التدخين بأنها "تحفظ العقل من الخواء التام" (64). وكانت عادته الفظة من جهة أثراً خلفته الأيام والليالي التي قضاها في قاع المجتمع، ومن جهة نتيجة للمثيرات البدنية والمخاوف العقلية. لقد كان

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الدب الأكبر

قوياً، فخوراً بقوته، استطاع أن يصرع كتيباً دون أن يخشى رده للنأر نفسه، وأن ينتزع من مكانه رجلاً جرؤ على احتلال كرسي أخلاه جونسن مؤقتاً ويطرحه جانبا؛ وقد امتطى جواداً وصاحب ثريل في رحلة صيد للتعالب عبر الريف امتدت خمسين ميلاً. ولكنه وجد مشقة في حمل بدنه الثقيل. "حين كان يسير في الشوارع، كان يبدو لدوران رأسه المتصل وما رافقه من حركة بدنه كأنه يشق طريقه بتلك الحركة مستقلاً عن قدميه" (65). فإذا ركب "لم يملك زمام جواده ولا توجيهه حيث يشاء، بل كان يحمل وكأنه في بللون" (66).

وبعد 1776 كان يعاني من الربو والنقرس والاستسقاء. ولا بد أن هذه الأمراض وغيرها من أوصاب البدن زادت مزاجه السوداوي حدة، وكان أحياناً يصيبه بغم شديد حتى "أنني لأرضى بأن يبتر مني عضو استرد بعدها

مرحي" (67) ولم يكن ليؤمن بأن بين الناس إنساناً سعيداً، ومرة قال عن رجل زعم أنه سعيد "هذا كله هراء، أن الكلب يعرف أنه تعس طوال الوقت" (68). وبعد أن أخبره طبيب بأن الوهم المرضي يفضي أحياناً إلى الجنون، خاف أن يلتاث عقله يوماً ما (69). وقد أجرى هذه العبارة على لسان إيملاك في قصة "راسيلاس"، "أن أشبع الشكوك وأكثرها إزعاجاً في حالتنا الراهنة هو الشك في احتفاظنا بسلامة عقولنا" (70). وإذا كان يشكو قصراً في بصره فإنه لم يجد لذة تذكر في تأمل جمال النساء أو الطبيعة أو الفن (71). وكان رأيه في النحت أن الناس غالوا في تقديره، "أن قيمة النحت ترجع إلى صعوبته. فأنت لا تقدر أبدع رأس نحت فوق جزره." (72). وقد حاول أن يتعلم العزف "ولكنني لم أفلح قط في إخراج نغمة". وسأل مرة "قل لي بريك يا سيدي من يكون باخ هذا؟ أزمارة هو؟" (73) -مشيراً إلى يوهان كريستيان باخ، وكان يومها (1771) أشهر عازف على البيان في إنجلترا. وأحس أن الموسيقى تفسدها الحركات البهلوانية على الأصابع. ومرة سمع بأن عازف كمان نال ثناء الناس لأن

صفحة رقم : 14292

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الدب الأكبر

القطع التي عزفها عسيرة جداً، فقال مندهشاً "عسيرة-ليتها كانت مستحيلة" (74). ولا بد أن رجلاً أوتى هذه القوة والعافية لقي عنناً في التعامل مع أحلام الجنس التي تهيج حتى العقل السوي. وحين حضر حفلة الافتتاح لتمثيلية "أيريني" وقاده جارنيك إلى "الحجرة الخضراء" التي ينتظر فيها الممثلون بين المشهد والمشهد، ورفض اقتراحاً بأن يكرر هذه الزيارة. "لا يا ديفد، لن أعود للمكان أبداً. لأن ثياب ممثلك البيضاء وجواربهن الحريرية تنثر أعضائي التناسلية" (75). وقد أدهش بوزويل أن يسمعه يقول يوماً وهو في جزائر الهيريد "كثيراً ما خطر لي أنه لو كنت أقتني حريماً..." (76). ويمكن القول عموماً أن نقائصه كانت اظهر من فضائله، التي لا تقل عن النقائص وجوداً حقيقياً. وفي وسعنا لأن نعكس ملاحظة هوراس ولبول الذي قال "مع أنه كان طيب الطبع في أعماقه فإنه كان سيئ الطبع جداً في قمته" (77). وقد أعرب جولدميث عن هذا المعنى ذاته بعبارة أطف: "إن في سلوك جونسن خشونة، ولكن ليس هناك إنسان حي له قلب أرق. فليس فيه من الدب إلا جلده" (78). فهذا الرجل الذي كان رث الهندام، بليداً مؤمناً بالخرافة، فظاً، مستبذ الرأي، منكبراً، كان أيضاً رحيماً، عطوفاً، كريماً، يبادر بطلب الصفح والنسيان. وقد قدرت مسز ثريل أن جونسن كان يبذل 200 جنيه من معاشه البالغ 300 جنيه (79)، وأضافت: "كان يرعى مجاميع بأسرها من الناس في بيته... وكان وهو ينفق نصف الأسبوع في بيتنا عادة، يحتفظ بأسرته الكبيرة العدد في فليت ستريت تخصصاً لأفرادها نفقة ثابتة، ولكنه يعود إليهم كل سبت ليقدم لهم ثلاث وجبات طيبة بالإضافة إلى صحبته، قبل أن يعود إلينا في ليلة الإثنين جادلاً لهم ذات الحفاوة والمجاملة التي كان يبذلها لمتلهم من أفراد المجتمع الراقي أو ربما أكثر منها" (80). وكان يكتب لغير المقدمات والإهداءات والعظات وحتى الآراء القانونية، مجاناً في حالات كثيرة. وقد جاهد بلسانه وقلمه لينقذ الدكتور وليم دد من حبل المشنقة. وحين رأى موسماً راقدة في الطريق (وكان في

صفحة رقم : 14293

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الدب الأكبر

عامه الخامس والسبعين) وضعها على ظهره، وحملها إلى مسكنه، واعتنى بها حتى استعادت صحتها، ثم "حاول أن يعينها على كسب رزق حلال" (81). وقد قال جورج ستيفنز الذي تعاون معه في التعليق على مسرحيات شكسبير "لو أن الحسنات الكثيرة التي أخفاها عمداً، والأفعال الإنسانية التي أسداها سراً، أعلن عنها بذات التفصيل الدقيق (كزلاته)، لتاهت عيوبه في وهج فضائله فلم يبق أمام الناس غير الفضائل" (82). ولم يؤلف خلال العوام التسعة عشر الباقية من عمره سوى كتاب هام واحد هو "سيرة الشعراء"، وفيما عدا ذلك أحل لسانه محل قلمه. وقد وصف نفسه بأنه "رجل يحب أن يلف ساقيه ويطلق حديثه" (83). ولو غضضنا النظر عن تلذذه بالطعام، لوجدناه أسعد ما يكون حياة حين يتحدث إلى جماعة ذكية. وكان قد اجتمع له بالملاحظة والقراءة ذخيرة خارقة وتنوع مدهش من المعرفة بشئون البشر، وقد حمل الكثير من هذه المعرفة في مخزن ذاكرته وكان يرحب بفرصة التخفف منها. ومع ذلك فلما كان البادئ بأي نقاش جاد، وما كان يفصح عن رأيه إلا حين يثير بعضهم موضوعاً أو تحدياً. وكان يجد دائماً إغراء بأن يعارض رأي غيره، وكان على استعداد للدفاع عن أي قضية أو عكسها، يلتذ بالجدل لعلمه بأنه لا يقهر، ويصمم أنه أذها. وكان على علم بأن هذا لم يكن أرقى ضروب الحديث، ولكنه كان واثقاً أنه أذها، وكان إذا حمى وطيس المعركة واشتد استمتاعه بها لا يعرف المجاملة. يقول بوزويل "لم يكن يرحم أحداً منا. مرة قال لأحد مجادليه: لقد عثرت لك على حجة، ولكني لست ملزماً بالعثور لك على فهم" (85). يقول جولد سمث "لا سبيل للجدل مع جونسن، فهو إن أخطأك رصاص طينجته صر عك بمقبضها" (86) ويروي بوزويل هذه القصة عنه، "حين ألممت بالدكتور جونسن صبيحة الغد وجدته راضياً كل الرضى عن قدراته الكلامية في البارحة. فقد قال بحسناً، لقد استمتعتنا بحديث طيب". بوزويل "أجل يا سيدي، لقد قذفت بالكثيرين واثختهم بالجرار" (87). وقد وصفه توماس شريدان بأنه "بلطجي" (88). وجبون بأنه متعصب تعصباً

صفحة رقم : 14294

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الدب الأكبر

أعمى (89). وقال عنه اللورد مونبودو أنه "أشر وأخبث رجل عرفته في حياتي، لا يثني على كاتب أو كتاب أثنى عليه غيره (ولكنه أثنى على قصة فاني بيرني "أفلينا")... ولا طاقة له على سماع أي شخص غيره يشد انتباه الجماعة، ولو لوقت قصير جداً" (90) أما هوراس ولبول، الأمن في وظائفه الشرفية، فكان يرتعد حين يخطر جونسن بباله، وقد أجمل وصفه على النحو الذي يراه ابن رئيس وزراء من حزب الأحرار. "كان جونسن بما ملك من سقط الثقافة وبعض الجوانب القوية شخصية كريهة خسيصة. فهو من حيث المبدأ استبورتي، مزهو، مكتف بذاته، متعطر... ولقد ابتدل قلمه وسخره للحزبية حتى في معجمه، ثم ناقض تعريفاته بعد ذلك لقاء معاش يتلقاه. وكانت عادته قذرة متعالية وحشية، وأسلوبه خبيثاً طناناً إلى حد مضحك، وباختصار كان فيه رغم كل حدلته وتطعه تلك التفاهة الهائلة التي تجدها في المعلم الريفي.. فليت شعري ماذا يحسبنا الخلف حين يقر عون أي صنم عبدنا؟" (91).

وخير الحديث من الوجهة المثالية بالطبع هو ذلك الذي يجري في جماعة صغيرة مستأنية كل أفرادها مثقفون مهذبون، أو كما أعرب جونسن في فاصل لطيف: "أن خير الحديث ما خلا من المنافسة أو الغرور، وكان تبادلاً هادئاً مطمئناً للعواطف" (92)، ولكن متى كانت له هذه التجربة؟ لقد قال لبوزويل وعيناه على الأرجح تومضان، "إن معاملة خصمك بالاحترام معناها إعطاؤه ميزة لا حق له فيها" (93)، ونحن الذين لم نحس قط ضرباته نعتقر له كل تلك اللطمات والإهانات والأحكام المتحيفة لأن نكاهه وفكاهته ونظرة الثاقب، وإيثاره الواقعية على الإدعاءات الكاذبة، والصراحة على الرياء، وقدرته على حشد الحكمة في عبارة، كل هذا يجعله شخصية من أشد الشخصيات سيطرة في التاريخ الإنجليزي.

صفحة رقم : 14295

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الفكر المحافظ

5- الفكر المحافظ

أترا نستمع إليه يتكلم؟ لقد كان لديه الطريف الذي يقوله في كل شيء تقريباً تحت الشمس. لقد رأى الحياة خطباً لا رغبة لإنسان في تكراره،

صفحة رقم : 14296

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الفكر المحافظ

أكثر الناس "يطبقونه بصبر نافذ ويرحلون عنه كارهين" (94). وحين سألته الليدي مكليود "أليس هناك إنسان صالح بطبعه؟" أجاب "بلى يا سيدتي، ليس أكثر صلاحاً من الذئب" (95). "واضح أن الناس... فاسدون فساداً لا تكفي معه كل قوانين السماء والأرض لكفهم عن الجرائم... (96) والناس يكرهون بأقوى مما يحبون، وإذا كنت قد قلت شيئاً لأوجع إنساناً مرة، فلن أفسد هذا بقول أشياء كثيرة لأسرة" (97).
وقلما كان يناقش الاقتصاد. وقد ندد باستغلال شعوب المستعمرات (98)، وأدان الرق بشدة؛ ومرة أذهل بعض الأساتذة باقتراحه شرب نخب في صحة "ثورة الزنوج في جزر الهند الغربية" (99). ولكنه ذهب إلى أن "زيادة أجور العمال اليوميين خطأ، لأنها لا تعينهم على عيش أفضل، إنما (في رأي "المتبطل") تجعلهم أكثر كسلاً، والكسل مفسدة للطبيعة البشرية" (100). وكان كبلاكستون يؤمن بقداسة حقوق الملكية، وكنقيضه فولتير يدافع عن الترف لأنه يتيح عملاً للفقراء بدلاً من إفسادهم بالصدقات (101). وقد سبق آدم سميث في الدعوة للمشروعات الحرة (102)، ولكن

تكاثر التجار كان يثيره. "أخشى ألا تنتج زيادة التجارة، والصراع المتصل على الثروة الذي تثيره التجارة، أي أمل في نهاية نتوقعها سريعاً للخداع والغش... أن العنف يخلي مكانه للمكر" (103). ولم يتظاهر قط باحتقار المال بعد أن عانى من الفاقة، وقال "إن أحداً من الناس لم يكتب قط إلا طلباً للمال، اللهم إلا إذا كان أحمق" (104). وفي هذا الرأي بخس لغرور الإنسان.

وقد أحس أننا نغالي في أهمية السياسة (ولنذكر الأبيات التي أضافها لقصيدة جولد سمث "الرحالة") لست أبالي مثقال ذرة أن أعيش في ظل شكل دون آخر من أشكال الحكومة" (105)، وإن "فمعظم خطط الإصلاح السياسي أشياء مضحكة جداً" (106)، ومع ذلك سخط على "كلاب الهويجز"، واقتضى رضاه عن الهانوفريين منحه معاشاً. ووصف الوطنية بأنها "آخر ملاذ يحتتمي به الأوغاد" (107). ولكنه دافع بحرارة الوطنيين الغيورين عن حق بريطانيا في جزر فوكلند (1771). وكان يحس باحتقار للاسكتلنديين والفرنسيين يكاد يكون شوفينياً.

صفحة رقم : 14297

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الفكر المحافظ

وكان السباق، في 1763، في الدفاع عن النزعة المحافظة قبل بريك "أن التجربة البشرية، التي تناقض النظرية باستمرار، هي المحك الأعظم للحقيقة. وإن نظاماً قام على كشف عدد كبير من العقول لهو دائماً أقوى مما يتمحض عنه تفكير عقل واحد" (108). وبعد عام 1762 كان قانعاً تماماً بالوضع الراهن، وأثنى على الحكومة البريطانية لأنها "أدنى إلى الكمال من أي شيء عرفناه بالتجربة أو وعاه التاريخ" (109). وأعجب بالأرستقراطية والفوارق والامتيازات الطبقية باعتبارها ضرورية للنظام الاجتماعي والتشريع الحنيف (110). "إنني صديق للطاعة، فهي جد مفضية إلى سعادة المجتمع... والخضوع واجب الجهاد، والقناعة فضيلة للفقراء" (111). وأحزنه كما يحزن كل جيل: "أن الطاعة إنهارت بشكل مؤسف في هذا العصر. فما من رجل له اليوم السلطة التي كانت لأبيه-إلا السجن. وما من سيد يملكها على خدمه؛ وقد تقلصت في كلياتنا، أجل، بل في مدارسنا الثانوية. ولهذا أسباب كثيرة، أهمها في رأيي تكاثر المال تكاثراً شديداً.. فالذهب والفضة يدمران الطاعة الاقتصادية. ولكن هناك إلى هذا تراخ عام في الاحترام. فلم يعد ابن يعتمد على أبيه الآن كما كانت الحال فيما مضى... وأملني أن يتمخض هذا التراخي الشديد عن إحكام الزمام كما تتمخض الفوضى عن الطغيان" (112).

وحكم جونسن من واقع تأمله لجماهير لندن بأن الديموقراطية ستكون وبالاً. وسخر من الحرية والمساواة باعتبارهما شعارات غير عملية (113). "ليس صحيحاً على الإطلاق أن الناس متساوون بالطبيعة، فما من شخصين يجتمعان معاً نصف ساعة إلا اكتسب أحدهما تفوقاً واضحاً على الآخر" (114). وفي 1770 كتب كراسة عنوانها "الإنذار الكاذب"، أدان فيها الراديكالية وبرر إقصاء ولكس عن البرلمان.

وفي كراسة أخرى عنوانها "الوطني" (1774) جدد جونسن هجومه على ولكس، وانتقل إلى ما وصفه بوزويل بأنه "محاولة التسليم غير المشروط على إخواننا الرعايا في أمريكا" (115). وكان جونسن قد

صفحة رقم : 14298

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الفكر المحافظ

تحدث في كتابات سابقة عن المستعمرات الأمريكية بحياد عرضي، فرأى أنها "اختطفت دون استناد إلى مبادئ سياسية عادلة جداً"، وذلك إلى حد كبير راجع إلى أن دولاً أوروبية أخرى كانت تختطف المستعمرات بأفراط (116)، ولأن إنجلترا أرادت حماية نفسها من بلدين فرنسا وأسبانيا-أصبحتا قوتين إلى حد يهدد بالخطر بسبب التهامهما لأمریکا. وكان قد امتدح المستعمرين الفرنسيين على معاملتهم الهنود معاملة رحيمة وعلى التزاوج منهم، وأدان المستعمرين البريطانيين لغشهم للهنود وظلمهم للزواج (117). ولكن حين راح المستعمرون يتحدثون عن الحرية، والعدالة، والحقوق الطبيعية، احتقر جونسن دعاوهم لأنها رياء خداع، وتساءل "ما بالناس نسمع أعلى نباح عن الحرية بين جلابي العبيد الزوج؟" (118). ثم بسط الرأي المعارض لتحرير المستعمرات في كراسة قوية عنوانها "فرض الضرائب ليس طغياناً" (1775)، والظاهر أنها كتبت بناء على طلب الوزارة، لأن جونسن اشتكى (فيما يروي بوزويل) من أن معاشه منح له "بوصفه شخصية أدبية"، وها هو الآن "تطلب إليه الحكومة أن يكتب كراسات سياسية" (119).

وكانت حجة جونسن أن المستعمرين يقبولهم حماية بريطانيا العظمى قد أقرها ضمناً بحق الحكومة البريطانية في فرض الضرائب عليهم. وفرض الضرائب، إذا توخينا الإنصاف، لا يقتضي تمثيل الأشخاص المفروضة عليهم تمثيلاً مباشراً في الحكومة؛ ونصف سكان إنجلترا لا ممثلون لهم في البرلمان، ومع ذلك قبلوا فرض الضرائب عليهم مقابل عادلاً لما توفره الحكومة من نظام اجتماعي وحماية قانونية. وقد ذهب هوكنز -وهو الذي أمد جونسن بحججه (120)- إلى أن هذه الكراسة "فرض الضرائب ليس طغياناً" "لم تتلق رداً" (121)، أما بوزويل، الذي تذكر كورسيكا، فقد إنحاز إلى وصف الأمريكيين، وأسف على ما في قلم جونسن من "عنف بالغ"، وقال "لست أشك في أن هذه الكراسة كتبت بناء على رغبة أولئك الذين كانوا يومها يتقلدون زمام الحكم، والحق أنه اعتراف لي بأن بعض هؤلاء راجعها واختصرها" (122). وقد تتبأت فقرة حذفها الوزارة بأن

صفحة رقم : 14299

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الفكر المحافظ

الأمريكان "سوف يموتون بعد قرن وربع أكثر من أعداد لسكان أوروبا (الغربية)" (123). وكان في فلسفته السياسية بعض العناصر الليبرالية. وقد أثر فوكس على بت الثاني، وأقنعه بعضهم بتناول العشاء مع ولكس، الذي تغلب على مبادئ جونسن السياسية بإعطائه قدرًا من لحم العجل اللذيذ (124). وداعب المحافظ العجوز الثورة في إحدى فقراته فقال:

"إذا تأملنا بالنظر المجردة التوزيع غير المتكافئ لمباهج الحياة... وإذا وضح لنا أن الكثيرين تعوزهم ضروريات الطبيعة، وأكثر منهم ما تنتيحه الحياة من أسباب الراحة والدعة، ورأينا الكسالى يعيشون في رغد على متاعب الكادحين، والمترفين ينعمون بأطياب لا يذوقها من يوفرونها، وإذا كان السواد الأعظم لا بد مفترق دائماً إلى ما تستمع به القلة وتبدده دون نفع، بدالنا من المستحيل أن نتصور أن سلام المجتمع يمكن أن يطول أمده، وأدنى إلى الطبيعة أن نتوقع ألا يدرك إنسان طويلاً وفي حوزته مباحج فائضة عن حاجته بينما يفترق هؤلاء الكثيرون إلى الضروريات الحقيقية" (125).

على أن نزعة المحافظة كانت ترند بكل عنفوانها حين يتكلم على الدين. فيعد أن أنفق سنة من التشكك في شبابه (126)، راح يؤيد عقائد الكنيسة الرسمية وامتيازاتها تأييداً متزايداً الحرارة؛ وكان أحياناً يميل نحو الكاثوليكية:

فقد أعجبتة فكرة المطهر، وحين سمع أن قسيساً أنجليكانياً تحول إلى كنيسة روما قال "ليباركه الله" (127). ويقول بوزويل إنه "دافع عن ديوان التفتيش، وذهب إلى أن العقيدة الزائفة يجب أن توقف بمجرد ظهورها، وأن على السلطة الدينية أن تتحد مع الكنيسة في عقاب من يجرون على مهاجمة الدين المقرر، وأن أمثال هؤلاء دون غيرهم هم الذين كان ديوان التفتيش يعاقبهم" (128). وكان يكره المنشقين على الكنيسة الأنجليكانية، ورحب بطرد المثوديين من أكسفورد (129). وقد رفض أن يتحدث إلى سيده هجرت الكنيسة الرسمية لتتضم إلى طائفة الكويكر (130). ووبخ بوزويل على صداقته المعتدلة لهيوم "الملحد". وحين أخبره آدم سمث أن هيوم يحيا حياة بضرب بها المثل، صاح به جونسن "أنت تكذب:" ورد

صفحة رقم : 14300

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الفكر المحافظ

عليه سمث فوراً "أنت أبن قحبة" (131). وقد أحس جونسن أن الدين أمر لا غنى عنه للنظام الاجتماعي والأخلاق، وأن الرجاء المنعقد على خلود سعيد هو وحده الذي يستطيع حمل الإنسان على تقبل شدائد الحياة الدنيوية. وقد آمن بالملائكة والشياطين، وذهب إلى "أننا جميعاً كتب لنا أن نسكن في الآخرة أما في مواطن الهول أو السعادة" (132). ثم قبل الوجود الحقيقي للساحرات والعفاريت، وأعتقد أن زوجته المتوفاة قد ظهرت له في المنام (133). ولم يكن يهتم بالعلم، وقد امتدح سقراط على محاولته نقل البحث من النجوم إلى الإنسان (134). وكان يستقطع تشريح الحيوان الحي. ولم يثر الارتياح الجغرافي اهتمامه، فاكتشف الأراضي المجهولة لن يفضي إلا إلى الغزو واللصوصية" (135). وذهب إلى أن الفلسفة متاهة عقلية تؤدي إما إلى الشك الديني أو إلى الهراء الميتافيزيقي. ومن ثم فند مثالية باركلي برفس حجر، ودافع عن حرية الإرادة بقوله لبوزويل "نحن عليمون بأن إرادتنا حرة، وهذا يكفي لإنهاء المسألة... أن النظرية كلها ضد حرية الإرادة، والتجربة كلها معها" (136). وقد رفض باشمنزاز فلسفته التنوير الفرنسي بأسرها. وأنكر حق العقل الفرد مهما عظم ذكائه في أن ينصب نفسه حكماً على أنظمة أنشأتها شيئاً فشيئاً تجربة المحاولة والخطأ التي خاضها النوع الإنساني حماية للنظام الاجتماعي من دوافع البشر غير الاجتماعية. وأحس أن الكنيسة الكاثوليكية مع كل مأخذها تؤدي وظيفة حيوية في صيانة الحضارة الفرنسية، وحكم بالغفلة والضلل على جماعة الفلاسفة الفرنسيين الذين يوهنون الركائز الدينية للناموس الأخلاقي. وقد بدا له فولتير وروسو نوعين من البلهاء: ففولتير مغفل عقلي، وروسو مغفل عاطفي، غير أن الفرق بينهما من الضالة بحيث "يعسر تقرير نسبة الإثم فيما بينهما" (137). وقد وبخ بوزويل على تودده لروسو في سويسرا، وأسف لكرم الضيافة الذي بذلته إنجلترا المؤلف "إميل" (1766). "إن روسو يا سيدي رجل شرير جداً. وإنني لن أتردد في أن أوقع على حكم بنفيه بأسرع مما أوقعه على أي جان أدانته

صفحة رقم : 14301

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الفكر المحافظ

محكمة الجنايات على مدى هذه السنين الكثيرة. أجل يا سيدي، أود لو أكره على الشغل في المزارع الكبيرة" (138). على أن جونسن لم يكن محافظاً في حياته بقدر ما كان في آرائه. فكان يخرج في مرح على عشرات التقاليد في السلوك، والحديث، واللباس. ولم يكن منزهاً؛ ضحك على البيورتنان، وحبذ الرقص؛ ولعب الورق، والمسرح. ولكنه أدان قصة فيلدنج "توم جونسن، وصدمة أن يسمع أن حنه مور المحتشمة قرأتها (139). وكان يخشى النزعة الحسية في الأدب لأنه وجد مشقة في كبت خياله ودوافعه الحسية. وربما كان يخيل للناس من واقع عقائده أنه لم يستمتع بالحياة، ولكن في استطاعتنا أن نرى في بوزويل أنه استمتع بـ "ملء الوجود البشري". لقد حكم على الحياة بأنها مؤلمة حقيرة، ولكنه كمعظمنا طاولها ما استطاع، وواجه سنيه الأخيرة في كرهه غاضب.

صفحة رقم : 14302

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الخريف

6- الخريف

وفي عام 1756 انتقل من الأثر تمبل إلى بيت ذي طوابق ثلاثة في رقم 7 بجونسنز كورت بفليت ستريت، وكان قد أطلق عليه اسم ساكن قبله هناك وجده بوزويل بعد أن عاد من أوربا. وفي يوليو منحتة جامعة دبلن درجة الدكتوراه الفخرية في القانون، فأصبح الآن لأول مرة "الدكتور جونسن"، ولكنه لم يلحق هذا اللقب باسمه قط (140). وفي أكتوبر 1765 أصدر، في مجلدات ثمانية، مسرحيات شكسبير التي تحمل تحقيقاته وتعليقاته، بعد أن انقضت ثمانية أعوام على الموعد الذي وعد به المكتبيين فيها. وقد جرؤ على بيان ما في مسرحيات الشاعر من أخطاء وسخافات وآراء طنانة صبيانية، ولأمله لافتقاره إلى الهدف الأخلاقي، وذهب إلى أن شكسبير "ربما لم يخلف مسرحية واحدة لو عرضت الآن على أنها من تأليف معاصر لما استمع إليها جمهور النظارة إلى نهايتها" (141). ولكنه امتدح الشاعر على تحكمه في عنصر الحب المشوق في الدرامات الكبرى، وعلى جعله كبار شخصه ناساً لا أبطالاً، ودافع في قوة عن إهمال شكسبير لوحدي الزمان والمكان، وذلك الإهمال الذي أخذه

صفحة رقم : 14303

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الخريف

فولتير على شكسبير (142). وقد تحدى النقاد الكثير من تعليقاته وتصويباته، وحل محل هذه طبعة أصدرها إدموند مالون في 1790؛ ولكن مالون اعترف بأن طبعته مبنية على طبعة جونسن، وغالى في تقدير مقدمة جونسن فقال إنها "ربما كانت أروع التأليف في لغتنا" (143).

وفي 1767، بينما كان جونسن يزور قصر بكنجهام، التقى مصادفة بجورج الثالث، فتبادل الرجلان عبارات المجاملة. ثم أصبحت صداقته ببوزويل أثناء ذلك حميمة، فقبل جونسن في 1773 دعوة الرجل المعجب ليصحبه في رحلة إلى جزر الهبريد. وكانت مغامرة شجاعة لرجل في الرابعة والستين. وبدأت بسفرة طويلة شاقة في مركبة بريد من لندن إلى إدنبرة. وهناك التقى بروبرتسن، ولكنه أبى أن يقابل هبوم.. وفي 18 أغسطس بدأ هو وبوزويل وخادم لهما الرحلة شمالاً في مركبة أجرة على الساحل الشرقي إلى أبردين، ومن هناك شقوا طريقهم عبر إقليم المرتفعات الوعر مخترقين بأنف إلى انفرنس، ثم على ظهور الخيل أكثر الرحلة مروراً بأنوخ إلى جلينيلج على الساحل الغربي. وهناك استقلا قارباً إلى جزيرة سكاي، التي جابا أوجاهها كلها تقريباً من 2 سبتمبر إلى 3 أكتوبر. وقد كابدوا مشاق كثيرة قبلها جونسن في شجاعة صارمة، فنام فوق الرئيس في الأجران، ودب عنه الهوام، وتسلق فوق الصخور، وركب في وقار قلق أفراساً لا تكاد تقوقه حجماً. وفي إحدى وقفاتها جلست سيدة من قبيلة مكدونلد على ركبته وقبلته فقال لها "أعدي، ولنرى من منا يتعب قبل الآخر" (144). وفي 3 أكتوبر ركب كلاهما قارباً مكشوفاً مسافة أربعين ميلاً إلى جزيرة كول، ومنها إلى جزيرة مل. ثم عبرا رجوعاً إلى البر الأم في 22 أكتوبر، ثم سافرا مخترقين أرجلشير بطريق دميرتن وجلاسجو إلى أوخلنك (2 نوفمبر). هناك التقى جونسن بوالد بوزويل، الذي احتفى به احتفاء كبيراً، وإن أسف لتحامله على الاسكتلنديين، وخاصاً في جدل بلغ من العنف حداً رفض معه بوزويل أن يسجله. وبعدها لقب بوزويل الأب جونسن "الدب الأكبر" وهو لقب فسره الابن في لياقة بأنه لا يعني

صفحة رقم : 14304

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترة جونسن -> صموئيل جونسن -> الخريف

الدب الأكبر بل "برجاً للعبقرية والعلم" (145). ووصل المسافران إلى إدنبرة في 9 نوفمبر، وبعد أن رحلا عنها بثلاثة وثمانين يوماً. فلما تذكرا المشاق التي لقيهاها، "ضحكا من قلبيهما على هذيان أولئك الحالمين السخفاء الذين حاولوا إقناعنا بما نتيجته الحالة الطبيعية من منافع خداعة". "و غادر جونسن إدنبرة في 22 نوفمبر، فبلغ لندن في السادسة والعشرين. وفي 1775 نشر كتاب "رحلة إلى جزر إسكتلندة الغربية"، ولم يكن بالكتاب النابض بالحياة، حتى إذا قورن بالوصف المهدب، الذي أصدره بوزويل في 1785 بعنوان "يوميات جولة في الهبيريد مع صموئيل جونسن"، وذلك لأن الفلسفة أقل إمتاعاً من الترجمة، ولكن في بعض الفقرات (146) جمالاً هادئاً يبدي لنا جونسن مرة أخرى رياً للنثر الإنجليزي.

وفي أبريل 1775 اقتنعت أكسفورد أخيراً بمنح جونسن درجة الدكتوراه الفخرية في القانون المدني. وفي مارس 1776 غير مسكنه لآخر مرة، فانتقل إلى المنزل رقم 8 ببولت كورت مصطحباً معه أسرته المختلطة. ثم كتب إلى كبير أمناء الملك (11 أبريل 1776) في حالة نفسية غريبة من المرح يطلب شقة في قصر هامتن كورت فقال "أرجو ألا يكون الاعتكاف في أحد بيوت جلالته تجاوزاً في غير موضعه أو دون استحقاق لرجل شرف بالدفاع عن حكومة جلالته" (147). ورد كبير الأمناء أسفاً لكثرة عدد الطلاب.

وبقي إنجاز أخير للأديب. ذلك أن أربعين كتيباً لندنياً اشتركوا في إعداد طبعة متعددة الأجزاء موضوعها الشعراء الإنجليز، وطلبوا إلى جونسن أن يقدم لكل شاعر بترجمة له. وتركوا له تحديد شروطه، فطلب مائتي جنيه. قال مالون طلو أنه طلب ألفاً أو حتى ألفاً وخمسمائة من الجنيهات لما تردد الكتابيون في العطاء وهم العليمون بقيمة اسمه" (148). وكان جونسن قد فكر في كتابه "سير قصيرة"، وفاته أن من أصول الكتبة أن القلم الجاري، كالمادة في

قانون نيوتن الأول، يواصل جريانه ما لم تكرهه على تغيير تلك الحالة قوى مفروضة عليه من الخارج. ولقد كتب عن صغار الشعراء بإيجاز

صفحة رقم : 14305

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الخريف

محمود، أما عن ملتن، وأديسن، وبوب، فقد أطلق لقلمه العنان، وأنشأ مقالات من ستين صفحة واثنين وأربعين ومائة واثنين-تعد من اروع نماذج النقد الأدبي في الإنجليزية. وقد تلون حكمه على ملتن بكرهيته للبيورتن وسياستهم وقتلهم للملك. وقرأ نثر ملتن كما قرأ شعره، ووصفه بأنه "جمهوري قاس فظ" (149). أما مقاله عن بوب (الذي بلغ في الطبعة الأصلية 373 صفحة) فكان آخر، ضربة في الدفاع عن الأسلوب الكلاسيكي في الشعر الإنجليزي يضربها أعظم وريث لذلك الأسلوب في النثر الإنجليزي. لقد رأى، وهو الملك لناصرية اليونانية أن ترجمة للألياذة تفضل هومر. وامتدح مرثية جراي، ولكنه رفض قصائده الغنائية لاكتناظها في غير نظام بالأرباب الأسطوريين. وحين نشرت المجلدات العشر من "حياة الشعراء" (1779-81)، صدمت بعض القراء أحكام جونسن التي كانت غير تقليدية ولكنها متعالية قاطعة، وعدم إحساسه بلطائف الشعر الرهيفة، وميله لتقدير الشعراء أو الحط من أقدارهم تبعاً للاتجاه الأخلاقي الذي تنحو إليه قصائدهم وحياتهم. وقد صرح ولبول بأن "الدكتور جونسن لا يملك ولا ريب من الذوق ولا السمع ولا معيار النقد إلا ميوله المغرضة العجائزية" (150). وسخر من "هذا الهيكل الثقيل القائم على طولتين"، والذي يبدو أنه قرأ القدامى دون هدف إلا سرقة الألفاظ المتعدد المقاطع (151). فلم إذن فاقت هذه "السير" في ذبوعها وشغف القراء بها أي ثمرة أخرى من ثمرات قلم جونسن؟ ربما السبب تلك الميول المغرضة والصراحة في الإعراب عنها. فلقد جعل النقد الأدبي قوة نابضة بالحياة، وأوشك أن يبعث الموتى من قبورهم بضرباته القاسية.

صفحة رقم : 14306

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الإفراج

نحن نحس بالفخر بيننا وبين أنفسنا حين يمتد بنا العمر بعد موت معاصرنا، ولكننا نعاقب بشعور الوحدة، وهكذا كان موت هنري ثريل (4 أبريل 1781) البداية لنهاية جونسن. وقد قام بمهمته بصفته أحد أربعة كانوا منفذين لوصية صانع الجعة. ولكن زيارته لأسرة ثريل قلت بعد ذلك.

صفحة رقم : 14307

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الإفراج

وكانت السيدة ثريل قد بدأت قبل موت زوجها بأمد طويل تضيق بالضغوط التي تفرضها عليها حاجة جونسن للرعاية والأذان الصاغية. وكان ثريل قد أفلح في جعل دبه الأسير يسلك سلوكاً مهذباً إلى حد معقول، ولكن (وهذه شكوى الأرملة) "إذا لم يوجد من يردعه (أي جونسن) عن التماذي في إيداء مكارهه أصبح عسيراً جداً أن تجد إنساناً يستطيع التحدث إليه دون العيش دائماً على شفا الشجار... وقد وقعت أمثال هذه الحوادث مراراً وتكراراً، فاضطرت... إلى الاعتكاف في بات، حيث كنت أعلم أن المستر جونسن لن يتبعني" (152). وزادت صحيفة المورننج بوست الطين بلة بإعلانها أن معاهدة زواج بين جونسن والمسز ثريل "جاهزة" (153). وكتب بروزويل نشيداً هزلياً (برلسك) عنوانه "نشيد بقلم جونسن إلى مسز ثريل بمناسبة زفافهما القريب المزعوم" (154). ولكن في 1782 كان جونسن في الثالثة والسبعين والمسز ثريل في الحادية والأربعين. ولم تكن قد تزوجت ثريل بإرادتها هي، وكثيراً ما كان يهملها، ولم تتعلم قط أنها تحبه. ومن ثم فقد طالبت الآن بحقها في أن تحب وأن تحب، وفي أن تجد زوجاً في نصف عمرها الأخير، وكانت في تلك السن التي يشند فيه الشوق المرأة لنوع من الصحة البدنية المتقدمة. وكانت حتى قبل موت زوجها قد تعلقت بجابرييل بيوتري الذي كان يعطي بنتها دروساً في الموسيقى. وكان وهو الإيطالي مولداً قد اتخذ إنجلترا له مقاماً في 1776، وناهز الآن الثانية والأربعين. ويوم لقيته أول مرة في حفلة أقامها الدكتور بيرني، راحت تقلد لأزماته تقليداً ساخرأ وهو يعزف على البيان. بيد أن سلوكه الأنيق، وطبعه اللطيف، ومهارته الموسيقية، جعلت منه تقيضاً مريحاً للدكتور جونسن. وأرخت الآن العنان لغرامها بعد أن تحررت. واعترفت لبناتها الأربع الباقيات على قيد الحياة برغبتها في الزواج. فهاهن النبأ، ذلك أن هذا الزواج الثاني سيؤثر في مستقبلهن المالي، والزواج من موسيقي-أسوأ من ذلك كاثوليكي روماني-سينال من مكانتهن في المجتمع. لذلك توسلن إلى أمهن أن تتروى في الأمر، فحاولت ولكنها فشلت. وسلك بيوتري مسلك الرجل المهذب، فرحل إلى إيطاليا

صفحة رقم : 14308

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الإفراج

(أبريل 1783) وغاب قرابة عام. فلما عاد (مارس 1784) ووجد أن المسز ثريل ما زالت توافقه للزواج منه استسلم للأمر. ورفض البنات الموافقة، وانتقلن إلى برايتن. وفي 30 يونيو أرسلت مسز ثريل إلى جونسن إعلاناً يبنه بأنها وبيوتزي قررا الزواج. فأرسل إليها هذا الرد (2 يوليو 1784).

سيدتي:

لو أنني أصبت في تفسير رسالتك لقلت إنك تتزوجين زواجاً شائناً، فإذا كان لم يعقد بعد، فدعينا نقلب الأمور معاً مرة أخرى. ولو كنت قد تخليت عن بنائك وعن دينك، فليغفر الله لك شرك؛ ولو كنت قد خسرت سمعتك ووطنك، فأرجو ألا تأتي حماقتك مزيداً من الشر. وإذا كنت لم تتخذي بعد آخر خطوة، فإنني-أنا الذي أحببتك، وقدرتك، واحترمتك، وخدمتك، أنا الذي طالما رأيتك الأولى بين جنس النساء-أتوسل إليك أن أراك مرة أخرى قبل أن يصبح مصيرك لا رجعة فيه.

لقد كنت، ذات مرة يا سيدتي، المخلص لك جداً

صموئيل جونسن(155)

وساعت المسز ثريل كلمة "شائن" لأنها رأتها وصمة لخطيبتها، فردت على جونسن في 4 يوليو تقول: "لنكف عن التحدث حتى تغير رأيك في مستر بيوتزي" ثم تزوجت بيوتزي في 23 يوليو. ووافقت لندن كلها جونسن على إيدانتها. وفي 11 نوفمبر قال جونسن لفاني بيرني، "أنني لا أتحدث عنها أبداً، ولا رغبة لي مطلقاً في سماع المزيد عنها"(156).

ولا بد أن هذه الأحداث هدت من حيوية جونسن المتهافئة. فاشتد أرقه، ولجأ إلى الأفيون ليخفف آلامه ويهدئ أعصابه. وفي 16 يناير 1782 مات طبيبه روبرت ليفت. وتساءل جونسن: على من يكون الدور بعده؟ لقد كان يهرب الموت دائماً، ومن ثم أحال هذا الخوف وإيمانه بالجحيم سنيه الأخيرة خليطاً من وجبات العشاء الثقيلة والمخاوف اللاهوتية. وقال للدكتور وليم آدمز عميد كليو بمبورك "أخاف أن أكون واحداً من

صفحة رقم : 14309

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الإفراج

الهالكين". فلما سأله آدمز ماذا يعني بكلمة "الهالكين" صاح "الذين مآلهم إلى النار والعقاب لأبدي يا سيدي"(157). ولم يملك بوزويل إلا المقارنة بين هذه الحال وبين السكنية التي كان هيوم الملحد قد دنا بها من منيته(158). وفي 17 يونيو 1783 أصيب جونسن بنقطة خفيفة "تشوش وخط، في رأسي أظنه دام نصف دقيقة.. وقد احتبس لساني. ولم أشعر بالم"(159). وبعد أسبوع تماثل للشفاء تماثلاً أتاح له تناول العشاء في النادي، وفي يوليو أذهل أخصاه بالقيام برحلات إلى روتشستر وسلزيري. قال لهوكنز "أي رجل أنا، رجل قهر ثلاثة أمراض-الشلل، والنقرس، والربو-ويستطيع الآن الاستمتاع بحديث الأصدقاء!"(160)ولكن في 6 سبتمبر ماتت مسز وليمز، وباتت وحدته لا تطاق. فلما وجد "النادي" غير كاف-لأن العديد من أعضائه القدامى (جولدسمث، وجاريك، وبوكلارك) ماتوا، ولأن بعض أعضائه الجدد كانوا كرهيين في نظره، أنشأ (ديسمبر 1783)، "نادي المساء" الذي كان يعقد اجتماعاته في مشرب للجنة بشارع أسكس. هناك في وسع أي شخص مهذب، إذا دفع ثلاثة بنسات، أن يدخل ويستمتع إليه يتحدث ثلاث ليال كل أسبوع. ودعا رينولدز للانضمام، ولكن السر جوشوا رفض. ورأى هوكنز وغيره في النادي الجديد "تدهوراً في تلك القدرات التي كانت تبهج"أشخاصاً أكثر مهابة"(161).

وفي 3 يونيو 1784 كان في عافية أتاحت له الرحلة مع بوزويل إلى لتشفيلد وأكسفورد. فلما عاد بوزويل إلى لندن أقنع رينولدز وأصدقاء آخرين بأن يطلبوا إلى وزير الخزانة توفير مبلغ من المال يمكن جونسن من القيام برحلة إلى إيطاليا ليسترد صحته، وقال جونسن إنه يفضل مضاعفة معاشه. ولكن وزير الخزانة رفض. وفي 2 يوليو رحل بوزويل إلى إسكتلندا. ولم ير جونسن بعدها قط. ذلك أن الربو الذي كان قد تغلب عليه عاوده وزاد عليه الاستسقاء. كتب إلى بوزويل في نوفمبر 1784 "إن نفسي قصير جداً، والماء يتزايد

صفحة رقم : 14310

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الإفراج

الآن علي" (162). وتوافد عليه رينولدز، وبيرك، ولانجتن، وفاني بيرني وغيرهم ليلقوا عليه تحية وداع أخيرة. ثم كتب وصيته، وقد خلف 2.000 جنيه، أوصى منها بمبلغ 1.500 لخادمه الزنجي (163). وعالجه عدة أطباء، ورفضوا تقاضي أي أجر. وتوسل إليهم أن يشقوا ساقيه شقاً أعمق، فأبوا، فلما انصرفوا دفع مبضعاً أو مقصاً في عمق ربلتيه أملاً في فراغ مزيد من الماء والتخفيف من الورم المؤلم، وانطلق بعض الماء، ولكن انطلقت معه أيضاً عشر أوقيات من الدم. وفي تلك الليلة، ليلو 13 ديسمبر 1784، قضى نحبه. وبعد أسبوع دفن في كنيسة وستمنستر. لقد كان أغرب شخصية في تاريخ الأدب، أغرب حتى من سكارون أو بوب. ومن العسير أن نحبه لأول وهلة، فقد ستر رفته خلف ستار من الوحشية، وناقست خشونة عاداته لياقة كتبه. ولم ينل أحد قط مثل هذا الإعجاب الكثير ولا بذل مثل هذا الثناء الضنين. ولكنه كلما تقدم به العمر ازدادت الحكمة في كلامه. وقد أحاط حكمته بالتقاهات، ولكنه رفع هذه التقاهات إلى مستوى جوامع الكلم بقوة حديثه أو تلوينه. ولنا أن نشبهه بسقراط، الذي كان يتكلم أيضاً لأقل إثارة أو استفزاز، والذي يذكره الناس بكلامه المنطوق. وكان كلاهما أشبه بذباب الخيل المنبه، ولكن سقراط كان يلقي أسئلة ولا يعطي جواباً، أما جونسن فلم يلق سؤالاً وقد أجاب عن كل الأسئلة. ولم يكن سقراط على يقين من شيء، أما جونسن فكان على يقين من كل شيء. وقد ناشد كلاهما العلم أن يدع النجوم وشأنها ويدرس الإنسان. وواجه سقراط الموت مواجهة فيلسوف وباتسام، أما جونسن فواجهه بارتجافات دينية تنافس أوجاعه الموهنة. ولن تجد إنساناً يراه في صورة الكمال. وفي وسعنا أن نعرف لم تجتنبه الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية وتجاهلت إماراته خلا لانجتن وبوكلارك. ونحن ندرك أي "جون بول" كان يمكن لأن يكون لو جال في "متحف خزف" النبلاء، أو وسط تحف قصر "ستروبري هل" النفسية، إنه لم يخلق للحال، ولكنه أدى مهمة، هي تخويف البعض ليكفوا عن الرياء والكذب والنفاق والمبالغة في إظهار العاطفة، وليجعلنا ننظر إلى أنفسنا بأوهام أقل

صفحة رقم : 14311

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> الإفراج

عن طبيعة البشر أو نشوات الحرية. ولا بد إن كان هناك شيء محبب في رجل استطاع رينولدز وبيرك وجولدسمث الاستماع إليه ألف ليلو وليلة، شيء ساحر في إنسان استطاع أن يوحى بكتابة سيرة عظيمة، ويملاً صفحاتها الألف والمائتين بحياة لا يبليها الزمن.

صفحة رقم : 14312

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسون -> صموئيل جونسون -> بوزويل في أيامه الأخيرة

8- بوزويل في أيامه الأخيرة

لما مات الدب الكبير حام حوله قطيع الأدباء ليلتقطوا من جثمانه بعض قوتهم. أما بوزويل نفسه فلم يتعجل، فقد عكف على "السيرة" سبعة أعوام، ولكنه أصدر في 1785 "يومية جولة في جزر الهبريد مع صموئيل جونسون"، وقد طبعت ثلاث طبعات في سنة واحدة. وكانت هستر ثريل بيوتري قد جمعت مادة عن أحاديث جونسون وعاداته، فصنفت الآن من هذه "الثريليات" "نوادير عن المرجوم الدكتور صموئيل جونسون، خلال سنه العشرين الأخيرة" (1786). وقد عرض الكتيب صورة لضييفها أقل إشراقاً مما سجلته في يوميتها يوماً بيوم، ولا ريب في أن رسائل جونسون الأخيرة لها قد خلفت فيها جرحاً لا يندمل.

ويلى ذلك في الحلبه-إذا خلىنا أكثر من عشرة أسماء طواها النسيان الآن-"سيرة صموئيل جونسون" التي نشرها في خمسة مجلدات فاخرة السر جون هوكنز عام 1787. وكان هوكنز قد لقي من التوفيق في عمله محامياً عاماً ما برز منحه لقب الفروسية (1772) وحصل من الثقافة ما أتاح له تأليف كتاب جيد في "تاريخ الموسيقى" (1776). وقد شارك جونسون في تنظيم نادي "أيفي لين" (1749)، وكان أحد الأعضاء الأصليين في "النادي". ولكنه تركه عقب جدال مع بيرك فلقبه جونسون بـ "الرجل الذي لا يصلح للأندية"، ولكن جونسون ظل صديقه، وكثيراً ما التمس مشورته، وقد عينه واحداً من منقذي وصيته. وبعد وفاة جونسون بقليل طلب جماعة من الكتبية إلى هوكنز أن يعلق على طبعة تضم آثار الدكتور ويقدم لها بترجمة للأديب. وقد أخذ على هذه الترجمة أنها كشفت عن عيوب جونسون في غير رحمة، وتشكك بوزويل في دقتها فيما بعد، ولكن

صفحة رقم : 14313

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسون -> صموئيل جونسون -> بوزويل في أيامه الأخيرة

"التهم الموجهة للترجمة لا يمكن إثباتها في تحقيق منصف" (164). ومعظم العيوب التي أخذها هوكنز على جونسن لاحظها غيره من معاصريه. ثم عادت المسز بيوتزي إلى المأدبة بكتاب عنوانه "رسائل متبادلة مع المغفور له صموئيل جونسن" (1788)، وكلها ساحر، لأن رسائل جونسن (فيما خلا الأخيرة التي كتبها لسيدته الضالة) كانت تفوق حديثه كثيراً في إنسانيتها. وكان بوزويل خلال ذلك عاكفاً بصير فيما بين قضاياه ومجالس خمرة على تأليف سيرة عقد العزم على أن يجعلها نسيج وحدها. وكان قد بدد في التسجيل مذكرات بأحاديث جونسن عقب لقائهما الأول (1763)، ثم خطط للسيرة في تاريخ مبكر (1772). غير أن الحبل بهذا الجنين كان غاية في الطول والمشقة. ذلك أنه قلما كان يدون الملاحظات من فوره، ولم يكن يعرف الاختزال، ولكنه اتخذ مبدأ هو أن يدون على عجل وباختصار بمجرد عودته إلى حجرته ما يذكره عما حدث أو قيل. وبدأ كتابة "سيرة صموئيل جونسن" بلندن في 9 يوليو 1786 وتنتقل بين أرجاء المدينة باحثاً عن المعلومات يستقيها ممن بقي على قيد الحياة من أصحاب جونسن. وأعانه إدموند مالون، الأديب المتخصص في شكسبير، على فرز وتصنيف ذلك الحشد الضخم المضطرب من المذكرات، وشد أزره ودعم شجاعته حين بدأ أنه يوشك أن يستسلم للنساء والشراب بعد أن هذه الفجور والحزن وموت زوجته. كتب بوزويل في 1789 - "لن تستطيع أن تتصور أي عناء، وأي حيرة، وأي غيظ تحملته في ترتيب عدد هائل من المواد، وفي ملء الفراغات، وفي البحث عن أوراق مدفونة بين أشتات من الأكداص، وكل هذا بالإضافة إلى عناء التأليف والتهديب. وكثيراً ما فكرت في التخلي عن هذه المهمة" (165). وقد اقتبس من كتاب وليام ميسن "سيرة جراي ورسائله" (1774) فكرة بث رسائل بطله في ثنايا القصة. وقد كدس التفاصيل عمداً، لشعوره بأنها تضيف إلى الصورة الكاملة الحية. ثم نسجت من هذه الأشتات سلسلة التواريخ وكل متكامل. فهل كان دقيقاً؟ هذا ما زعمه. "لقد توخيت الدقة البالغة في التسجيل

صفحة رقم : 14314

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> بوزويل في أيامه الأخيرة

بحيث لا بد أن تكون كل صغيرة أو تافهة صادقة" (166). وأينما استطعنا مقارنة روايته عن كلام جونسن بغيره من الروايات بدا أنها صحيحة من حيث الوقائع، وأن لم تكن كذلك من حيث حرفيتها. والمقارنة بين كتابي بوزويل "المذكرات" و "السيرة" تدل على أنه حول تلخيصه لأحاديث جونسن إلى اقتباسات مباشرة، قد يطيلها أحياناً، أو يقصرها، أو يحسنها (167)، أو ينفقها، مع تمديد الألفاظ الصغيرة (الرباعية الحروف) إلى أطوال محترمة، وكان أحياناً يحذف الوقائع التي لا تخدم مصلحته (168). ولم يدع أنه قال كل الحقيقة عن جونسن (169)، ولكن حين توسلت إليه حنه مور "أن يطف من بعض خشونة جونسن وغلظته"، رد بأنه "لن يقلم أظافر جونسن، أو يحيل البيرقطة ليسر أي إنسان" (170). والواقع أنه كشف عن عيوب أستاذه كاملاً كما فعل غيره، ولكن في منظور أوسع خفف من بروزها. وقد حاول أن يظهر من الرجل في صورته الكاملة ذلك القدر الذي تسمح به المحبة واللياقة. قال "إنني على يقين تام أن النهج الذي انتهجته في كتابة السيرة، والذي لا يكتفي بسرد تاريخ لـ "مسيرة" جونسن في الحياة، ولمؤلفاته، بل يضيف نظرة إلى فكره المتمثل في رسائله وأحاديثه، هذا المنهج هو اكمل منهج يمكن تصوره، وسيكون أقرب إلى تصوير "حياة" جونسن من أي كتاب ظهر إلى الآن" (171).

وأخيراً خرجت السيرة من المطبعة إلى النور في مجلدين كبيرين في مايو 1791 ولم يقدره القراء لتوهم كنزاً فريداً في بابه. وساء كثيرين أن يقص بوزويل وأحاديثهم الخاصة، ولم تكن دائماً مما يستحق الإعجاب، فقد كان في وسع الليدي ديانا بوكلاك مثلاً أن تقرأ كيف نعتها جونسن بأنها عاهر، ورأى رينولدز أين وبخه جونسن على الإفراط في الشراب، وعرف ببيرك أن جونسن يتشكك في نزاهته السياسية ويرى أنه لا يتورع عن التقاط مومس من عرض

الطريق، وجفلت المسز بيوتزي والمسز اليزابث مونتجيو مما قرأنا. وكتب هوراس ولبول يقول "أن الدكتور بلاجنن يقول بحق إن هذا ضرب جديد من القذف، تستطيع به أن تسب أي إنسان

صفحة رقم : 14315

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> بوزويل في أيامه الأخيرة

بقولك أن مبيتاً ما قال كذا وكذا عن شخص حي" (172). ووجد آخرون أن التفاصيل مسرفة، وأن كثيراً من الرسائل تافهة، وأن بعض الصفحات مملّة. ولم تدرك إنجلترا إلا شيئاً فشيئاً أن بوزويل قد أبدع رائعة من الروائع، وأنه أسبغ على حياته شيئاً من النبل والسمو.

وكان أبوه قد مات في 1782 مخلفاً إياه سيدياً على أوخنك بدخل بلغ 1.600 جنيه في العام وقد أثبت أنه سيد عطوف رقيق الفؤاد، ولكنه كان قد ألف حياة الحضر إلفاً إبطائه المكث في أوخنك. وفي 1786 صرح له باحتراف المحاماة في إنجلترا، وبعدها أنفق معظم وقته في لندن. وقد صورته رينولدز في ذلك العام رجلاً واثقاً من نفسه، متغرساً، له أنف كفيل بأن يستل أي سر من صاحبه. وكانت زوجته تصحبه أحياناً إلى لندن، ولكنها كانت تقيم في أوخنك عادة. وفيها ماتت عام 1789 بالغة الحادية والخمسين، بعد أن أضنتها العناية التي بذلها لبوزويل وأبنائه. وقد عمر بعدها ست سنين - كانت سني انحلال متعاطم. فلقد حاول مراراً وتكراراً أن يقهر حاجته إلى الشراب ولكنه أخفق. ومات بلندن في 19 مايو 1795، بالغاً السادسة والخمسين، ونقل جثمانه إلى أوخنك ليدفن فيها. وأوزاره ماثلة اليوم في أذهان جماهير الناس. ولكننا سننساها حين نقرأ مرة أخرى السيرة التي هي أعظم السير طراً.

هذا لول رجعتنا البصر إلى هذا القرن الثامن عشر في الأدب الإنجليزي، لأدركنا أنه قبل كل شيء قرن النثر، من أديسن، وسويفت، وديفو، إلى ستيرن، وجبون، وجونسن، تماماً كما كان القرن السابع عشر قرن الشعر، من "هاملت" ودين إلى درادين والفردوس المفقود. وكان صعود العلم والفلسفة، وهبوط الدين والغيبيات، وإحياء الوحدات والقيود الكلاسيكية، كل هذا يرد من حرارة الخيال والأمال، وعطل من تدفقهما، وكان انتصار العقل هزيمة للشعر، في فرنسا وفي إنجلترا على حد سواء. بيد أن ما اتسم به أدب إنجلترا النثري في القرن الثامن عشر من حيوية وتنوع عوض تعويضاً وافياً عن الشكلية الجامدة التي سادت شعره. وبفضل

صفحة رقم : 14316

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> صموئيل جونسن -> بوزويل في أيامه الأخيرة

رتشاردسن وفيلدنغ أصبحت الرواية، التي كانت قبلهما سلسلة إبيزودية من مغامرات المتشردين والسطار، وصفاً للحياة ونقداً لها، ودراسة للعادات، والأخلاق، والشخصيات، هي أكثر إثارة من سجلات المؤرخين، الذين تاه منهم

الناس وسط الدولة. ثم أي تأثير أدبي يمكن أن يضارع في ذلك الأثر تأثير رنشاردسن على بريفو، وروسو، وديدرو، وجوته؟
وإذا كان أدب إنجلترا في القرن الثامن عشر لم يستطع مطاولة أدب القرن السابع عشر، أو منافسة الخيال الأليزابيثي المطلق، فإن حياة إنجلترا بجمالها استعادت حركتها صعوداً بعد إخفاق الشجاعة والسياسة القوميتين في عهد عودة الملكية. فلم تشعر إنجلترا منذ هزيمة الأرمادا بمثل هذا التدفق في المغامرة السياسية، وقد شهدت الأعوام الواقعة بين صعود شاتام وامت ابنه الثورة الصناعية تحل إنجلترا مكاناً أسبق كثيراً من منافسيها في روح الابتكار والقوة الاقتصادية، وشهدت البرلمان الإنجليزي يغزو القارات وهو يكبح أثناء ذلك جماح ملوكه. فالآن بنيت الإمبراطورية البريطانية المترامية، والآن تجاوزت قاعات مجلس العموم بالخطب البليغة التي لم تسمعها أوربا منذ أيام شيشرون. وبينها كانت فرنسا تنزح خزائنها لتحرر أمريكا، وتضرب عنقها لتحقق أحلامها، وشحذت إنجلترا كل مواردها من فكر وإرادة لتتطور دون ثورة، وتلج أبواب القرن التاسع عشر في الاقتصاد والحكم مكللة بالنصر متبوءة أسمى مكان.

صفحة رقم : 14317

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> ورثة العرش

الكتاب السابع

انهيار فرنسا الإقطاعية

1774-1789

الفصل الرابع والثلاثون

1783-1774

1- ورثة العرش

1774-1754

كان لويس السادس عشر الابن الثالث للدوفن لوي دفرانس، الذي كان الإبن الشرعي الوحيد للويس الخامس عرش. وقد لقب الدوفن بلويس البدين لأنه كان أكلًا. وقد حاول التغلب على سمنته بلبصيد، والسباحة، وقطع الأشجار، ونشر الخشب، واشتغال بالحرف اليدوية(1). واحتفظ طول حياته باحترامه للكنيسة، وكان أعز أصدقائه هم القساوسة، وكان شديد الخجل من فسق أبيه. وقد أدمن القراءة، وقرأ فيما قرأ مونتسكيو وروسو، وآمن بالرأي القائل "إن الملك ليس إلا الوكيل على موارد الدولة"(2). وضمن على نفسه برحلة خلال فرنسا، لأن "شخص بجملته لا يساوي ما تكلفه الرحلة للشعب الفقير"(3). ومما يجدر بالملاحظة أن الكثير من خلقه وعاداته وأفكاره تنحدر إلى ولده لويس السادس عشر.

أما زوجته، ماري-جوزيف السكسونية، المرأة الفاضل الخلق، القوية البدن، فقد ولدت ثمانية أطفال، ومنهم لوي-جوزيف، ودوق برجنديه، الذي قتل في حادث عام 1761، ولوي-أوجست، ودوق بيري، المولود في 23 أغسطس 1754، والذي سيصبح لويس السادس عشر، ولوي-ستانسلاس، كونت بورفانوس، المولود في 1755، والذي سيصبح لويس الثامن عشر، ثم شارل-فيليب، كونت دارتوا، والمولود في 1757، والذي سيصبح شارل العاشر. فلما مات أبوه عام 1765 أصبح لوي-أوجست، البالغ أحد عشر عاماً، وارثاً للعرش.

صفحة رقم : 14318

وكان غلاماً عليلاً، جباناً خجولاً، ولكنه اكتسب الصحة والعافية بفضل سنوات الحياة الريفية والطعام البسيط. وكان كآببه فيه من الطيبة أكثر مما فيه من الذكاء. وكان يحسد أخوته على ذكائهم المتفوق، وكانوا يتجاهلون تماماً كبر سنه. وإذا كان فيه من الحياء ما يمنعه من الرد على الهجوم فقد أغرق نفسه في الرياضة والحرف. فتعلم الرماية بمنتهى الدقة، ومناقسة الصناعات في استعمال يديه وأدواته. وقد أعجب بمهارات الصناعات الذين يخدمون القصر، وأحب التحدث إليهم والعمل معهم، واتخذ شيئاً من طباعهم وحديثهم. ولكنه أحب الكتب أيضاً. واستهواه فنليون بنوع خاص؛ وحين بلغ الثانية عشرة ركب مطبعة في قصر فرساي، وبمساعدة أخويه (وكانا في التاسعة والحادية عشرة) جمع حروف مجلد صغير نشره في 1766 بعنوان "حكم أخلاقية وسياسية مستقاه من تليماك" ولم يحب جده لويس الخامس عشر هذه الحكم وقال "انظر إلى ذلك الولد الكبير، سوف يكون القاضي على فرنسا وعلى نفسه، ولكنني على أية حال لن أعيش حتى أرى ذلك" (4).

فكيف السبيل إلى تحويل هذا الأمير الصانع ملكاً؟ أيمن العثور على زوجة منبهة له تهبه الشجاعة والأباء، وتلد له ملوكاً من البوربون للمستقبل؟ وأما الحاكم الحالي فكان في شغل عن هذا بمدام دوباري، ولكن شوازيل وزير الخارجية تذكر أيامه التي قضاها قفي بلاط فيينا، وتذكر أرشيدوقة مرحة تدعى ماريا أنطونيا يوزيفا، كانت آنذاك (1758) في الثالثة من عمرها، فلعل زواجها من لوي-أوجست ينفخ روحاً جديدة في ذلك الحلف النمساوي الذي أضعفه الصلح المفرد بين فرنسا وإنجلترا (1762)، وكان الأمير فون مانتور قد أسر بمثل هذه الأفكار للكونت فلوريموند مرسي دارجنتو، وهو نبيل من لياج ذو ثراء عريض وقلب طيب، وكان سفيراً للنمسا في فرساي. واستمع لويس الخامس عشر للنصيحة التي أجمعا عليها، وأرسل (1769) رسمياً إلى ماريا تريزا يطلب يد ماريا أنطونيا للوي-أوجست وأسعد الإمبراطور أن تبارك اتحاداً كانت هي نفسها قد خططت له منذ أمد بعيد. وأما الدوقن الذي لم يؤخذ رأيه في الأمر، فقد

صفحة رقم : 14319

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وريثة العرش

قبل طائعاً هذا الاختيار الذي رتب له. وحين أنبئ بأن خطيبته أميرة حسناء، قال في هدوء "ليتها حسنة الخلال" (5). ولدت بفيينا في 2 نوفمبر 1755. ولم تكن بالطفلة الوسيمة. فجبينها مفرط الارتفاع، وأنفها مسرف في الطول والتدبيب، وأسنانها غير منتظمة، وشفثها السفلى غليظة. ولكن سرعان ما عرفت أن دمها أزرق، فتعلمت أن تمشي مشية من ولدت لكي تكون ملكة، وأعدت الطبيعة بأكسير الشباب العجيب حين أدركت سن البلوغ لف جسمها لفاً ساحراً، حتى غدت بشعرها الأشقر الحريري، وبشرتها الزنبقية الوردية، وعينيها الزرقاوين العابتين المتألفتين، و"عنقها الإغريقي" على الأقل لقمة لذيدة لولي العهد، إن لم تكن طبقاً شهياً للملك. وكان ثلاث من شقيقاتها الخمس اللاتي يكبرنها قد هيأت لهن الإمبراطورة بدعائها زيجات لينة: فماريا كريستينا تزوجت الأمير ألبرت السكسوني، الذي

أصبح دوق ساكسي-تيشن، وتزوجت ماريا أماليا فرديناند دوق بارما، وأصبحت ماريا كارولينا ملكة على نابلي. أما أخوهن يوزف فكان شريكاً في حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكان أخوهن ليوبولد غراندوقاً لتسكانيا. فلم يبق لماريا أنطونيا غير أن تصبح ملكة على فرنسا. ولقد أهملت بعض الشيء بوصفها أصغر أطفال ماريا تريزا الأحياء، فلما بلغت الثالثة عشرة تعلمت بعض الإيطالية، ولكنها لم تكن تحسن كتابة الألمانية ولا الفرنسية. أما التاريخ فلم تعرف منه شيئاً تقريباً، ولم تحرز في الموسيقى غير تقدم متواضع مع أن جلوك كان معلمها. وحين قرر لويس الخامس عشر قبولها زوجة لحفيده أصر على أن تطعم ضد الجدري، وبعث بالأب فرمون ليعجل لتعليمها. وكان تقرير فرمون عنها أن "خلقها وقلبها ممتازان" وأنها "أذكى مما كان يظن عموماً" ولكنها "على شيء من الكسل، طائشة للغاية، عسيرة التعليم... فهي لا ترغب في التعليم إلا إذا سليت" (7) ولكنها أحببت الرقص، والعدو مع كلابها في الغابات.

صفحة رقم : 14320

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وريثة العرش

وكانت الإمبراطورة التي أضنتها الهموم عليمه بأنها تكل مصير الحلف لأيد أوهن من أن تضطلع بتبعية كهذه. وظلت طوال شهرين قبل إبرام الزواج المرتقب تأتي بماريا أنطونيا لتنام معها في حجرتها، حتى تبث في ابنتها في جو أمسياتها الحميم شيئاً من حكمة الحياة وفن الملك. وقد وضعت لها قائمة قواعد لتهدئ سلوكها في الأخلاق والسياسة. وكتبت للويس الخامس عشر ترجموه أن يغضى عن مآخذ العروس العزيرة التي ستبعث بها لحفيده، أما ولي العهد فقد وجهت إليه رسالة تفيض باهتمام الأم المفرط ومخاوفها:

"أن لأمل أن تكون مبعث سعادة لك كما كانت مبعث بهجة لي. لقد نشأتها لهذا، لأنني توقعت منذ أمد بعيد أنها ستشاركك حظك في الحياة. لقد بثت فيها حباً لواجباتها نحوك.. ومودة رقيقة، وقدرة على أن تعرف وتمارس وسائل إدخال السرور على قلبك. إن ابنتي ستحبك، وأنا وثقة من هذا، لأنني أعرفها.. وداعاً يا دوفيني العزيز، كن سعيداً، وأسعدها... أن الدموع تفيض مني... أمك الحنون" (8).

وفي 19 ابريل 1770، في كنيسة الأوغسطينيين بفيينا، عقد بالوكالة قران الفتاة المتألقة الحسن، الخلية البال، البالغة أربعة عشر عاماً، على لوي-أوجست ولي عهد فرنسا، واتخذ أخوها فرديناند مكان الدوفن.

وبعد يومين قادت قافلة من سبع وخمسين مركبة و366 جواداً ولية العهد مروراً بقصر شونبرون، وودعتها الإمبراطورة الوداع الأخير، هامسة لها أن "تكوني كريمة جداً مع الفرنسيين حتى يستطيعوا القول بأنني أرسلت لهم ملاكاً" (9). وضم الموكب 132 شخصاً-وصيفات ومصصفات للشعر، وخياطات. وأتباعاً، وكهنة للقصر، وجراحين، وصيدلة، وطباخين، وخداماً، وخمسة وثلاثين رجلاً ليعنوا بالخيل التي كانت تبدل أربع مرات أو خمساً في اليوم خلال الرحلة الطويلة إلى فرنسا. وبعد ستة عشر يوماً وصل الموكب إلى كيل على الرين قبالة ستراسبورج. وعلى جزيرة في النهر استبدلت ماريا بثيابها النمساوية ثياباً فرنسية، وتركتها أتباعها النمساويين قافلين إلى فيينا، وحل محلهم حاشية من السيدات والخدم الفرنسيين، وأصبحت ماريا

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وريثة العرش

أنطونيا منذ الآن ماري أنطوانيت. وبعد الكثير من المراسم أدخلت خنتراسبورج بين قصف المدافع ورنين أجراس الكنائس وهتاف الشعب وبكت وابتسمت واحتملت المراسم الطويلة في صبر، فلما بدأ العمدة خطاباً بالألمانية قاطعته قائلة: "لا تتكلموا بالألمانية أيها السادة، فمنذ الآن لا أفهم لغة غير الفرنسية" وبعد أن سمح لها الموكب بالراحة يوماً بدأ رحلته عبر فرنسا.

وكان الترتيب أن يذهب الملك وولي العهد مع كثير من الحاشية إلى كومبين على اثنين وخمسين ميلاً شمال شارقي باريس ليقابلوا موكب ولية العهد. ووصل الموكب في 14 مايو. وقفزت العروس من مركبتها، وجرت نحو لويس الخامس عشر، وانحنى إلى الأرض، وظلت كذلك حتى أقامها الملك وهدأها وطمأنها بعبارة كريمة "لقد أصبحت عضواً في الأسرة يا سيدي، لأن لوالدتك روح لويس الرابع عشر" (10). وبعد أن قبلها على وجنتيها قدمها إلى ولي العهد، الذي قبلها بالمثل ولكن ربما بلذة أقل. وفي 15 مايو بدأ الموكبان المجتمعان الرحلة إلى فرساي، وهناك، في 16 مايو، أكد زفاف رسمي ذلك الزفاف بالوكالة الذي عقد قبل شهر. في تلك الليلة أقيمت مأدبة عظيمة في دار الأوبرا الجديدة، ونبه الملك ولي العهد إلى أنه يفرط في الأكل. فأجاب "إنني دائماً يحسن نومي بعد عشاء طيب". وهذا ما حدث إذ أنه استغرق في النوم بمجرد دخوله فراش الزوجية.

وقد نام بهذه السرعة في ليال متعاقبة، وفي أصبح متعاقبة كان يستيقظ مبكراً لينطلق إلى صيده. وألمع مرسي دارجنتو إلى النمو السريع الحديث الذي طرأ على لوي-أوجست قد أضر تطوره الجنسي، وأنه لا حيلة في الأمر إلا الانتظار. وكتبت ماري تريزا إلى ابنتها بعد أن أنبئت بالموقف تقول "كلاكما صغيراً جداً! أما أثر هذا على صحتكما فكله يعمل للخير. وسيكسبكما مزيداً مكن القوة" (11). وزاد بعض أطباء ولي العهد الطين بلة بأنباءه بأن الرياضة والطعام الطيب سيحفزان نموه الجنسي، ولكن حدث العكس، فقد جعله أكثر بدانة وميلاً للنعاس. وأخيراً، وفي أواخر عام

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وريثة العرش

1770، حاول ولي العهد أن يحقق اكتمال الزواج بالدخول على زوجته. ولكنه فشل، وكانت النتيجة الوحيدة للمحاولة ألماً مخيباً للأمل. وأبلغ كونت أرناء، السفير الأسباني، ملكه بالاتي "يقولون إن عائناً تحت القلعة يجعل محاولة الجماع مؤلمة جداً" أو "أن القلعة سميكة جداً بحيث لا تستطيع التمديد بمرونة اللازمة للانتصاب" (12). واقترح الجراحون إزالة العائق بجراحة شبيهة بالختان، ولكن ولي العهد رفض (13) وكرر محاولاته، دون أن يبلغ من ورائها إلا الإثارة والإذلال له ولزوجته. وظل الموقف على هذا الحال. وعمق إحساس ولي العهد بقصوره الزوجي شعوره بالنقص، ولعل هذا الشعور شارك في جعله ملكاً كثير التردد عديم الثقة بنفسه.

وأغلب الظن أن سني الإحباط الزوجي السبع هذه أثرت في خلق ماري أنطوانيت وسلوكها. وذلك أنها كانت عليمة بأن رجال البلاط ونساءه يسخرون من سوء طالعها، وأن أكثر فرنسا ترميها بالعقم وهي تجهل السبب. ومن ثم فقد آست بزيارات للأوبرا أو المسرح في باريس، وأسرفت في لبس الثياب الفاخرة الغالية، وتمردت على الاختلاط الكثير بالبلاط بكل مراسمه وبروتوكوله، وأثرت الصداقات الحميمة مع نفوس متعاطفة مثل الأميرال لامبال. وظلت طويلاً تأبى الحديث إلى مدام دباري، إما لاشمئزازها من أخلاقها وإما بدافع الحسد لأن امرأة أخرى تظفر بالحب هذا الظفر الكبير ويكون لها هذا النفوذ القوي على الملك.

وفي 10 مايو 1774 مات لويس الخامس عشر. واندفعت الحاشية إلى مسكن ولي العهد. فوجدوه هو وولوية العهد راكعين وهما يبكيان ويصليان. وقال الفتى ذو التسعة عشر ربيعاً وهو يبكي "اللهم احمنا! فنحن أصغر من أن نحكم!" وقال لصديق، "يا له من عبء! إنني لم أتعلم شيئاً، وإنني لأشعر كأن الكون سيسقط فوقي" (14). وفي جميع أرجاء فرساي وباريس، ثم إلى أبعد ما سرى النبا في فرنسا، هتف الرجال والنساء "مات الملك، يحيى الملك!" وكتب باريسي متفائل على تمثال لهنري الرابع هذه الكلمة "قام" (15)، لقد قام الملك العظيم من بين الأموات لينفذ فرنسا مرة أخرى من الفوضى والفساد والإفلاس والهزيمة.

صفحة رقم : 14323

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الحكومة

2- الحكومة

ترى ماذا كان خطب الحكومة؟ إنها لم تبلغ في استبدادها ما بلغت حكومة بروسيا، ولا في فسادها ما بلغت حكومة إنجلترا، وكان جهازها البيروقراطي وإدارتها الإقليمية يضمنان نفاً من الرجال الأفاضل وكثيراً من الرجال الأكفاء. ومع ذلك أخفقت ملكية البوربون في أن تلاحق تطور الشعب الاقتصادي والفكري. ونشبت الثورة الفرنسية بأسرع مما

نشبت في غيرها لأن الطبقات الوسطى كانت قد بلغت شأناً من الذكاء أبعد مما بلغته في أي أمة معاصرة أخرى، وفرض فكر مواطنيها اليقظ المنتبه مطالب على الدولة أكثر حدة مما كان على أي حكومة في ذلك العصر أن تلبيه. وكان فردريك الثاني ويوزف الثاني، وكلاهما نصير متحمس للفلسفة والملكية المطلقة، قد أدخلوا في الإدارة السياسية لبروسيا والنمسا قدرًا من النظام والكفاية لم يكن وقتها متوافراً في بلد كفرنسا يحب الاسترخاء واليسر اللاتينيين. "واستشرى الاضطراب والفوضى في كل مكان" (16)، ففي فرساي تنازع مجلس الملك في اختصاصه مع الوزراء، الذين تنازعوا فيما بينهم لأن وظائفهم تداخلت ولأنهم تنافسوا على الأموال العامة ذاتها، ولأنه لم تفرض عليهم من فوق سلطة توفيق بين سياساتهم. وانقسمت الأمة في ناحية إلى دوائر Baillages أو Senechausses في مجال القضاء، وفي أخرى إلى أقسام مالية (Geanéralités) في المالية، وفي ناحية ثالثة إلى إدارات (Gouvernements) في الجيش، وفي رابعة إلى أبرشيات Paroisses وأقاليم Provinces في الكنيسة. وفي كل قسم مالي كان الناظر الملكي يصطدم بالحاكم و"البرلمان" الإقليمي. وفي جميع أرجاء فرنسا اصطدمت مصالح المنتجين الريفيين مع مصالح المستهلكين الحضريين والأغنياء مع الفقراء، والنبلاء مع البرجوازيين، والبرلمانت مع الملك، ومست الحاجة إلى قضية موحدة للصفوف وإرادة أمرة، ولم تتوفر القضية إلا في 1792، ولا الإرادة إلا في 1799.

صفحة رقم : 14324

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الحكومة

وكان القانون من أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية، ومع ذلك كان القضاء من أفضلها. واتبع جنوب فرنسا القانون الروماني، وشملها القانون العام والإقطاعي. يقول دتوكفيل "إن العدالة كانت معقدة، مكلفة، بطيئة" (18) -رغم أن هذه شكوى عامة في جميع البلاد. وكانت السجون قذرة، والعقوبات وحشية، والتعذيب القضائي ظل مسموحاً به في 1774. وكان القضاء غير قابلين للعزل، منصفين غير قابلين للرشوة عادة. وقد ذهب السر هنري مين إلى أن رجال القضاء في فرنسا "من حيث جميع الصفات المطلوبة في المحامي، والقاضي، والمشرع، يبرزون كثيراً نظراً لهم في طول أوريا وعرضها" (19). وكانوا يشغلون مناصبهم مدى الحياة، ومن حقهم توريثها لأحد الأبناء. ووجد أكفأهم طريقه إلى البرلمانات الإقليمية، واختير أغناهم وأعظمهم نفوذاً أعضاء في برلمان باريس. وما وافى عام 1774 حتى كانت طبقة "نبلاء الرداء القضائي" -أي القضاء الوارثيون قد انتهت إلى اعتبار نفسها مساوية إلا أقل قليلاً لطبقة "نبلاء السيف" في الكرامة والاستحقاق. ولم تسمح بعضوية البرلمانات إلا لمن ولدوا في إحدى الطبقتين الأرستقراطيتين.

كان من رأي مونتسكيو أن "الهيئات الوسيطة" بين الملك والشعب هي كوابح مفيدة على السلطة الأوتوقراطية، وحدد قوتين من هذه الهيئات هما النبلاء ملاك الأراضي والقضاة ولكي تقوم البرلمانات بهذه الوظيفة الكابحة طالبت بسلطة التصديق (أو التسجيل) على أي مرسوم ملكي، أو رفضه حسبما يتفق في رأيها أو يتعارض مع القوانين والحقوق الراسخة. وأعربت عدة برلمانات إقليمية، خصوصاً برلمانات جرينوبل، وروان، وربن، عن مبادئ شبه ديموقراطية، أحياناً بعبارة مقتبسة من روسو عن "الإرادة العامة" و"الموافقة الحرة للأمة"، من ذلك أن برلمان رين أعلن في 1788 "أن الإنسان ولد حراً، وأن الناس في الأصل متساوون؛ و"أن هذه الحقائق ليست في حاجة إلى إثبات" (20)،

على أن البرلمان كانت بوجه عام المدافع القوي عن فوارق الطبقات وامتيازاتها. وقد شاركت نزاعاتها مع السلطة الملكية في الإعداد للثورة، ولكن حين اقتربت الثورة انحازت إلى النظام القديم، وسقطت بسقوطه.

صفحة رقم : 14325

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الحكومة

وكانت السلطة الملكية من الناحية النظرية مطلقة. فالملك وفقاً للتقليد البوربوني هو المشرع الأوحد، وهو السلطة التنفيذية الرئيسية، وهو المحكمة العليا، وفي استطاعته أن يأمر بالقبض على أي شخص في فرنسا وحبسه إلى أجل غير مسمى دون إبداء السبب أو السماح بمحاكمته، وحتى لويس السادس عشر الرقيق القلب كان يرسل من قصره أوامر الاعتقال المختومة هذه. وكان الملك قد ورث مؤسسة غالية التكلفة، تعد نفسها هيئة لا غنى عنها لإدارة الحكومة وهيبتها. ففي 1774 كان بلاط فرساي يضم الأسرة المالكة و886 نبيلاً، هم ونسأؤهم وأبنائهم، يضاف إليهم 295 طاهياً، و56 صياداً، و47 موسيقياً وثمانية معماريين، وأشتات من السكرتيرين، وكهنة القصر، والأطباء والسعاة والحراس...، يبلغون في مجموعتهم ستة آلاف شخص، مع عشرة آلاف جندي يرابطون عن كئيب. وكان لكل عضو في الأسرة المالكة بلاطه أو بلاطها الخاص، وكذلك كان لبعض النبلاء الممتازين، أمثال أمير كونديه وأمير كونتي ودوق أورليان ودوق بوربون. واحتفظ الملك بعدة قصور في فرساي، ومارلي، ولامويت، ومودون، وشوازي، وسان-أوبير، وسان-جرمان، وفونتبليو، وكومبيين، ورامبوييه. وكان من المألوف أن ينتقل من قصر إلى آخر، بعض الحاشية الذين يحتاجون إلى المسكن والطعام، وفي 1780 بلغت نفقات مائدة الملك 3.660.491 جنيهاً(21). وكانت رواتب موظفي البلاط معتدلة، ولكن المنح والعلاوات كانت مطاطة؛ من ذلك أن المسيو أوجار-وكان سكرتيراً في إحدى الوزارات لم يجاوز راتبه تسعمائة جنيه في العام، ولكنه اعترف بأن الوظيفة غلت له كل عام 200.000 جنيه خالصة. وغلت عشرات الوظائف الشرفية المال لأعضاء الحاشية بينما كان العمل يؤديه مرعوسوهم، مثال ذلك أن مسيو ماشو كان يقبض ثمانية عشر ألف جنيه نظير التوقيع بإسمه مرتين في العام(22). وأجريت عشرات المعاشات التي بلغت جملتها 28.000.000 جنيه كل عام على النبلاء ذوي النفوذ أو محاسبهم(23). وكانت عشرات الدسائس تدبر لتقرير المحظوظ الذي سيظفر بكرم الملك وسخائه الطائش. وكان يتوقع منه

صفحة رقم : 14326

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الحكومة

أن يعين الأسر النبيلة القديمة التي أعسرت، وأن يقدم المهور لبنات النبلاء عند زواجهن. وكان كل من أبناء لويس الخامس عشر الأحياء يتلقى ما يقرب من 150.000 جنيه في العام. وكان راتب كل وزير دولة يرقى إلى 150.000 جنيه في العام، إذ كان المفروض فيه أن يفتح باب الضيافة على مصراعيه. كل هذا السفه في الإنفاق، وكل هذه المعاشات، والهبات، والواتب، والمناصب الشرفية، كانت تدفع من إيرادات تؤخذ من حياة الأمة الاقتصادية. وقد كلف البلاط فرنسا مبلغاً جملة خمسون مليون جنيه في العام وهو عشر مجموع إيرادات الحكومة (24).

صفحة رقم : 14327

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الملكة العذراء

3- الملكة العذراء

وكانت ماري أنطوانيت أكثر أعضاء البلاط إسرافاً. ذلك أنها وقد ارتبطت بزواج عنين، وحرمت الرومانس، ولم تشغلها علاقات غرامية، راحت تتسلى حتى عام 1778 بالغالي من الثياب، والجواهر، والقصور، والأوبرات، والمسرحيات، والمراقص. وكانت تخسر الثروات في القمار، وتهب الثروات للمحاسبين في كرم متهور. وقد أنفقت 252.000 جنيه على ثيابها في عام واحد (1783)(25)، وأتاهها مصمم الأزياء بالغريب الطريف من الأثواب المسماة "المباهج الطائشة" أو "العلامات المكتوبة" أو "المرغبات المقنعة" (26). وكان مصنفات الشعر يعكفن الساعات فوق رأسها يصعدن شعرها حتى يبلغ ارتفاعات يبدو ذقتها فيها وقد توسط قامتها، وقد قررت هذه "التسريحة العالية"، كما قررت معظم الأشياء التي ابتدعتها، زي نبيلات البلاط، فزي باريس، فزي عواصم الأقاليم. أما شغفها بالحلي والمجوهرات فقد أوشك أن يكون هوساً. ففي 1774 ابتاعت من بومر، وهو الجواهري الرسمي للتاج، أحجاراً كريمة قيمتها 360.000 جنيه (27). وأهداها لويس السادس عشر طقماً من العقيق، والماس والأساور، وثمانه 200.000 جنيه (28). وفي 1776 كتب مرسي دارجننو إلى ماري تريزا يقول: "مع أن الملك أعطى الملكة في سنى المناسبات ما يساوي أكثر من 100.000 "أيكو" من الماس، ومع أن جلالتها تملك

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الملكة العذراء

الآن مجموعة هائلة، إلا أنها مصممة على شراء حلق على شكل الثريا من بومر. ولم أخف عن جلالتها أنه كان أحكم في الظروف الاقتصادية الراهنة لو تجنبت هذا الإنفاق الباهظ، ولكنها لم تستطع مقاومة رغبتها وإن أجرت الصفقة في حذر مخفية أمرها عن الملك" (29).

وبعث ماريا تريزا إلى ابنتها بتوبيخ صارم، واكتفت الملكة بالتزين بحليها في المناسبات الرسمية فقط، ولكن الشعب لم يفتقر لها قط هذا التبذير المفرط في ضرائبه، وبعد حين سيصدق أنها وافقت على شراء القلادة الماسية الشهيرة. أما الملك فقد أغضى عن مواطن الضعف في زوجته لأنه كان يعجب بها ويحبها، ولأنه كان شاكراً لها صبرها على عجزه الجنسي. فدفع لها ديون القمار التي استدانتها من جيبه الخاص وشجع زياراتها لأوبرا باريس، وإن علم أن مرحها المعلن على الملأ يزعج شعباً ألف في ملوكه الوفار والحشمة. ودفعت الحكومة نفقات ثلاث حفلات مسرحية، وحفلي رقص، وعشائين رسميين في البلاط مرتين كل أسبوع تقريباً، يضاف إلى هذا أن الملكة كانت تحضر المراقص المقنعة في باريس أو في البيوت الخاصة. لقد كانت هذه السنوات 1774-77 فترة تبديد وإسراف على حد قول أمها بصراحة. وإذ كانت الملكة لا تجني من وراء مغازلات زوجها في الليل سوى الرغبة توقظ دون إشباع، فقد شجعت على النوم مبكراً (مقدمة ساعة الحائط أحياناً لتعجيل ذهابه للفراش) حتى تستطيع مشاركة الأصحاب ألعاباً قد تمتد الليل بطوله. وكانت زاهدة في الأدب، واهتمامها بالفن قليل، وأكثر منه اهتمامها بالدراما والموسيقى، وكانت تجيد الغناء والتمثيل وتعزف على الهارب، وتؤدي بعض صوناتات موتسارت على الكلافيكورد (30).

وبين هذه العيوب جميعها كان واحد فقط عيباً جوهرياً - ذلك هو التبذير نتيجة للسأم والإحباط، ولطفولة وصبي ألفا الترف وجهلا الفقر. وقد زعم الأمير لين (الذي ربما كان فيه من صفات الجنتلمان أكثر

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الملكة العذراء

مما فيه من صفات المؤرخ) أنها ما لبثت أن تخلصت من شغفها بالثياب الغالية، وأن خسائرها في القمار بولغ فيها، وأن ديونها ترجع إلى سخائها غير الحكيم بقدر ما ترجع إلى إنفاقها الطائش(31). وناصبها البلاط والصالونات العداء لأنها نمساوية، ولم يكن الحلف مع النمسا من قبل محبوباً على الإطلاق. وكانت ماري أنطوانيت، التي لقبت بـ "النمساوية" تجسيدا لذلك الحلف، وقد اشتبه الفرنسيون، ولهم بعض الحق، في أنها تخدم المصالح النمساوية، على حساب فرنسا أحياناً. ولكن حتى مع هذا، فإن حيويتها الشابة، ومرحها ورقة قلبها، كلها كسبت قلوباً كثيرة. حدث مرة أن جاءت مدام فيجيه-ليرون، الحبلى منذ شهور كثيرة، لتصورها (1779)، وبينما كانت المصورة عاكفة على رسمها أسقطت بعض أنابيب الألوان، وللتو قالت لها الملكة لا تتحني، "لأنك بعيدة جداً عنها" ثم التقطت بنفسها الأنابيب(32). وكانت أنطوانيت ترعى مشاعر غيرها عادة. ولكنها أحياناً، في مرحها الطائش كانت تضحك من لأزمات غيرها أو عيوبهم. وكانت تستجيب بغاية السرعة لكل رجاء، "أنها لم تعرف بعد خطر الاستسلام لكل دافع كريم"(33).

مثل هذه المخلوقة المفعمة بالحياة، والتي كانت الحياة والحركة عندها مرادفين، لم تخلق لخطو مراسم البلاط، ذلك الخطو البطيء والحذر. وسرعان ما تمردت عليه، و التمسّت البساطة واليسر في البتي تريانون وحوله، وكان على ميل من قصر فرساي. وفي 1778 أهدى لويس السادس عشر الملكة هذا الملتقى ملكاً خالصاً لها، تستطيع أن تخلو فيه مع أخصائها، ووعد لويس أنه لن يتطفل عليهم إلا إذا دعى. ولما لم يكن في المبنى غير غرف ثمان، فقد أمرت الملكة ببناء بعض الأكواخ بقربه لأصحابها وخططت لها الحدائق المحيطة به على النمط "الطبيعي" بممرات ملتفة، وأشجار متنوعة، ومخابئ، وجداول حمل إليه الماء في أنابيب من مارلي بتكلفة غالية. ولاستكمال حلم روسو في العودة إلى الطبيعة أمرت بإقامة ثماني مزارع صغيرة في الحديقة الملاصقة، ولكل منها كوخها الريفي، وأسرتها الفلاحة، وكوم سباخها، وأبقارها. هناك كانت تقلد راعي الغنم فتلبس عباءة بيضاء،

صفحة رقم : 14330

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الملكة العنراء

ومندبلاً لن الشاش، وقبعة من الخوص، وكانت تحب أن ترى اللبن يحلب بالملاطفة من خير الضروع في أنية من برسلان سيفر. وكانت هي وأصدقائها يعزفون أو يلعبون ألعاباً داخل البيتي تريانون، وعلى الخمائيل يولمون الولايم للملك أو لكبار الزوار. وهناك وفي القصر الملكي أيضاً. وكانت الملكة تخرج المسرحيات التي تلعب أدواراً هامة في بعضها كدور سوزان في "زواج فيجارو"، ودور كوليت في "عراف القرية" فتبهج الملك بتنوع مواهبها وجاذبيتها. فلما خشيت تقول المتقولين إن هي أسرفت في حرية الاختلاط بالرجال، كونت مع بعض النساء صداقات حميمة بلغت من الوثاقاة ما وجه النميمة وجهة أخرى. فجاءت أولاً ماري-تريز وسافواكارنيان، أميرة لامبال، الرقيقة، الحزينة، الهشة. وكان قد انقضى عليها سنتان في ترملةا مع أنها لم تتجاوز الحادية والعشرين. وكان زوجها هو ابن دوق بنتيفر حفيد لويس الرابع عشر يعاشر الخليلات ويختلف إلى المومسات بعد زواجه بقليل، فأصيب بالزهرى ومات به بعد أن اعترف بآثامه لزوجته في تفصيل مقرر. ولم تقف قط من المحنة الطويلة التي ابتلاها بها ذلك الزواج، وظلت

تعاني من التقلصات العصبية ونوبات الإغماء حتى مزقتها إرباً جمهور من غوغاء الثورة في 1792 وانعظت ماري أنطوانيت نحوها بدافع الشفقة أول الأمر، ثم تعلمت أن تحبها حباً حاراً، فتلقاها كل يوم، وتكتب لها رسائل الإعزاز مرتين في اليوم أحياناً. وفي أكتوبر 1775 عينت الأميرة مشرفة على بيت الملكة، وأقنعت الملك رغم اعتراضات طورجو بأن يقرر لها راتباً سنوياً قدره 150.000 جنيه. ثم كان للأميرة أقباء وأصدقاء، التمسوا منها أن تستخدم نفوذها لدى الملكة، وعن طريقها لدى الملك، لنيل المناصب أو الهبات. وبعد عام تركت أنطوانيت محبتها لها تذبذب واتخذت صديقة أخرى.

وكانت هذه الصديقة الجديدة، واسمها يولند دبولاسترون زوجة الكونت جول ديولينك، عريقة المنبت رقيقة الحال؛ كانت خلوة، صغيرة الجسم، طبيعية، وما كان أحد ليخامره الظن إذا رآها بأن فيها هذا الشره

صفحة رقم : 14331

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الملكة العذراء

للمال الذي أياس طورجو من موازنة الميزانية ما دامت الملكة تجد متعة في صحبتها الظريفة. فلما قاربت الكونتيسة موعد الوضع أقنعتها الملكة بأن تنتقل إلى لاموييت، وهي فيلا ملكية بقرب قصر فرساي، وهناك كانت تزورها كل يوم حاملة إليها الهدايا دائماً تقريباً. فلما أصبحت الكونتيسة أمماً لم تضن عليها الملكة بشيء،: 400.000 جنيه لتسوية ديونها، ومهر لابنتها قدره 800.000 جنيه، وسفارة لأبيها، ومال، وحلي، وفراء، وتحف فنية لشخصها، وأخيراً (1780) دوقية وضيعة بينتش، لأن الكونت كان تواقاً لأن يصبح دوقاً. وقال مرسي دارجنتو للملكة آخر الأمر أنها تستغل، وأن الدوقة الجديدة لا تبادلها محبتها، واقترح على الملكة، التي وافقت على اقتراحه، أن تطلب إلى مدام ديولينك على سبيل الامتحان أن تطرد من بطانتها الكونت دفودروي الذي كانت أنطوانيت تمقتة، فأبت المدام، وانصرفت أنطوانيت عنها إلى صداقات أخرى. وهكذا انضم آل بولنيك إلى صفوف أعدائها، واصبحوا مصدرراً للافتراءات التي لوئت بها الحاشية وكتاب الكراريس اسم الملكة.

وكان كل شيء تقريباً تأتية يخلق لها الأعداء. فأفرد الحاشية يتحسرون على الهبات التي تغدقها على محاسبيها، لأن هذا معناه أن يقل عطاؤهم، وشكوا من أنها أكثر الغياب عن مهامها في البلاط حتى فقدت هذه المهام بهاءها وقل الإقبال على حضورها. ولأمها الآن كثيرون ممن عابوا من قبل غرامهما القديم بالثياب الغالية، لأنها قررت زياً جديداً تميز ببساطة الملابس. وقالوا أن هذا نذير بإفلاس نجار الحرير في ليون وخطاطي باريس (34). وكانت قد أقنعت الملكة بإقالة الدوق ديجيون (1775) الذي تزعم أنصار مدام دوباري، وكان للدوق متعاطفون كثيرون، كونوا نواة أخرى من الأعداء. وبعد عام 1776 شن كتاب الكراريس الباريسيون على الملكة حملة قدح قاس لا هوادة فيه (35) وكان كثير منهم يتلقون المعلومات والمال من بعض الحاشية (36)، فوصفها بعض الكتاب بأنها الخليفة، وفي وقت أو آخر، لكل ذكر موجود في فرساي (37). وقد تساءلت كراسة عنوانها "تأنيب للملكة". كم مرة تركت فراش الزوجية وقبالات زوجك لتسلمي نفسك للباحوسيات أو السواطير ولتندمجي معهم في متعتهم الوحشية؟" (38).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الملكة العذراء

وصورت كراسه أخرى تذيبها بوصف الحائط في البتي تريانون زعمته مكسواً بالماس(39). واتهمتها الشائعات بأنها قالت خلال حوادث الشغب التي وقعت بسبب شح الخبز عام 1788 "إذا لم يكن لديهم خبز فليأكلوا كعكاً"، ويجمع المؤرخون على أنها لم تذنب قط بقول تلك الملاحظة القاسية(40)، فهي على العكس أسهمت بسخاء من جيبها الخاص في التخفيف عن الشعب. وأشد وأكى حتى من هذا كله ما شاع وذاع بين الجماهير من أنها عاقر. تقول مدام كمان الوصيفة الأولى لمخدع الملكة:

"حين ولد ابن للكونت دارتوا عام 1777، تبع نساء السوق وبائعات السمك الملكة حتى باب مسكنها ذاته، مؤكدات حقهن في الدخول إلى القصر الملكي في مناسبات الولادات الملكية، وطفقن يصحن بأشد العبارات غلظة وسوقية قائلات أن من واجبها هي، لا سلفتها، أن تأتي بورثة للتاج الفرنسي. وعجلت الملكة بإغلاق بابها دون هؤلاء العجائز الشكسات الوقحات. واعتكفت في حجرتها معي تندب حظها التعس"(41). فأنى لها أن تشرح للشعب أن الملك عنين؟

وانتظرت فرنسا إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ليأتي ويزيل هذه العقدة. وفي أبريل 1777 وصل يوزف الثاني فرساي متخفياً تحت اسم الكونت فون فالكنشتين. ووقع في غرام الملكة، وقال لها "لو لم تكوني أختي لما ترددت في أن أتزوج ثانية ليكون لي رفيق ساحر مثلك"(42). ثم كتب لشقيقتيها ليوبولد يقول: "لقد أنفقت معها الساعة تلو الساعة، دون أن الحظ مرور الزمن... أنها امرأة ساحرة نبيلة، ما زالت صغيرة بعض الشيء، طائشة قلباً، ولكنه في صميمها كيسة فاضلة.. كذلك فيها جرأة ورهافة أدهشاني، واستجابتها الأولى صائبة دائماً، ولو أنها أطاعتها... واهنمت اهتماماً أقل بالقليل والقال... لبلغت مرتبة الكمال. ولها رغبة قوية في متع الحياة، ولما كانت ميولها معروفة، فإن ضعفها يستغل..

"ولكنها لا تفكر إلا في متعتها، ولا تحب الملك، وقد ثملت بإسراف

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الملكة العذراء

هذا البلد... وهي تسوق الملك بالقوة لأشياء لا يريد فعلها... فهي باختصار لا تؤدي واجبات الزوجة أو الملكة" (43). وقد أضحت السبب في أنها والملك ينامان في حجرتين منفصلتين، فهو يحب النوم مبكراً، وقد وجد كلاهما من الحكمة تجنب الإثارة الجنسية. وزار يوزف الملك وأحبه كثيراً. وكتب لليوبولد يقول "هذا الرجل فيه ضعف ولكنه ليس أبله. فله أفكار وحكم سديد، ولكن عقله وجسمه ضعف فاتران. وهو يتحدث بشكل معقول، ولكن ليس به رغبة في التعليم ولا حب للاستطلاع. والواقع أن لحظة "انطلاق النور" لم تأت بعد، والأمر لا زال مفتقراً إلى الشكل" (44). وتحدث الإمبراطور إلى لويس حديثاً لم يجرؤ أحد من قبل على مصارحته به، فأشار إلى أن العائق في قلعة الملك يمكن إزالته بجراحة بسيطة وإن كانت مؤلمة، وأن على الملك لوطنه ديناً هو أن ينجب أبناء، ووعد لويس بأن يستسلم لمبضع الجراح.

وقبل أن يغادر يوزف فرساي كتب ورقة "تعليمات" للملكة. وهي وثيقة جديرة بالتنويه. "إنك تكبرين، ولم يعد لك عذر من صغر السن. فما مصيرك إذا أخرجت (صلاح أمرك) أكثر من هذا؟.. فحين يعانقك الملك، وحين يتحدث إليك، ألا تبدين الضيق، بل حتى النفور؟ هل خطر ببالك يوماً أي أثر لا بد أن تخلفه في الشعب... علاقاتك الحميمة وصدقاتك؟... هل وزنت النتائج الرهيب لألعاب الحظ، وما تجمع من أصحاب وما يضر بونه من مثل؟...".

وقال عن ولعها بالمراقص التنكرية في باريس: لم الاختلاط بحشد من الفاسقين، والمومسات، والأغراب، تستمعين إلى ملاحظاتهم، وربما تبدين مثلها؟ يا له من تبذل؟... إنك تتركين الملك وحيداً الليل كله في فرساي بينما تندمجين في المجتمع وتخالطين أوشاب الباريسيين؟ إنني في الحق أرتعد خوفاً على سعادتك، لأن هذا لا يمكن أن

صفحة رقم : 14334

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الملكة العذراء

يؤول إلى خبيرك المدى الطويل، وستنشأ ثورة قاسية ما لم تتخذي الخطوات لتجنبها" (45). وتأثرت الملكة من لومه. فكتبت إلى أمها بعد رحيله: "لقد ترك رحيل الإمبراطور فراغاً لا أستطيع ملاءه، ولقد كنت سعيدة جداً خلال تلك الفترة القصيرة حتى ليبدو الأمر كله وكأنه حلم من الأحلام. ولكن الشيء الذي لن يكون حلاً عندي هو كل النصيحة الحكيمة... التي بذلها لي، والتي نقشت على صفحة قلبي إلى الأبد" (46). على أن الذي أصلحها حقاً لم تكن النصيحة بل الأمومة. ذلك أن لويس استسلم في ذلك الصيف من عام 1777، دون مخدر من أي نوع فيما يبدو، لجراحة نجحت نجاحاً تاماً. واحتفل بعيد ميلاده الثالث والعشرين (23 أغسطس 1777) باستكمال علاقته الزوجية في النهاية. وكان فخوراً سعيداً. وأسر لعمة عذراء قائلاً "أنني أستمع كثيراً بهذه اللذة ويوسفني حرمانها منها هذا الزمن الطويل" (47). على أن الملكة لم تحبل إلا في أبريل 1778. وأنهت النبا إلى الملك بطريقتها المرحة: "مولاي، لقد جئت أشكو إليك أحد رعاياك الذي بلغت به الجرة أن يرفسني في بطني" (48). فلما أدرك

لويس المعنى الذي ترمي إليه ضمها بين ذراعيه. وراح الآن أكثر من أي وقت مضى يستجيب لنزواتها ويمنحها كل سؤال لها. وكان يزور مسكنها عشر مرات في اليوم ليطلع على آخر بلاغ عن سير الوريث المرتقب. وقالت ماري أنطوانيت للملك وقد طرأ عليها تحول جسدي ونفسي غامض "منذ الآن أريد أن أعيش حياة غير التي عشتها من قبل. أريد أن أحيا حياة أم، وأرضع طفلي، وأكرس نفسي لتربيته"(49). وبعد معاناة شديدة، زادت شدة قابلية تفنن إلى المهارة، وضعت الملكة في 19 ديسمبر 1778 وأسف الوالدان على أن الولي بنت، ولكن أسعد الملك أن مغاليق الحياة فتحت، وكان على ثقة من أن الابن قادم في الوقت المناسب. أما الأم الشابة فقد اغتبطت لأنها حققت ذاتها في نهاية المطاف. وكتبت لماريا تريزا في 1779 (وكانت الأم في بداية عامها الأخير) تقول: "الماما العزيزة أن ترضى كل الرضى عن سلوكي. وإذا

صفحة رقم : 14335

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الملكة العذراء

كنت ملومة في الماضي، فالسبب أنني كنت غرة طائشة. أما الآن فإنني أكثر تعقلاً، وأنا شديدة الوعي بواجبي"(50). ولم يصدق البلاط ولا الشعب، ولكن كما كتب الكونت سيجور "من الحقائق المسلم بها أنها بعد مولد طفلها الأول بدأت شيئاً فشيئاً تعيش حياة أكثر انتظاماً، وتشغل نفسها على نحو جاد. وهي أشد حرصاً على تجنب أي شيء من شأنه أن يثير القيل والقال... وحفلاتها المرححة أقل عدداً، وأقل صخباً... والإسراف يخلي مكانه لللباسطة، والأرواب الفاخرة تحل محلها الفساتين التيلية الصغيرة"(51). ولقد كان جزءاً من العقاب الطويل الذي عوقبت به ماري أنطوانيت أن شعب فرنسا أبقى أن يدرك أن الفتاة المدللة المستهتره قد غدت أما حنوناً حية الضمير. فلا شيء يضيع هباء، ولكن كل شيء لا بد أن يدفع ثمنه.

وكانت عليمة بأن القانون الفرنسي يحرم النساء من العرش. لذلك رحبت بالحمل الثاني، وتمنت على الله ولداً. ولكنها عانت من سقط بلغ من شدته أنه أفقدها معظم شعرها(52). ولكنها كررت المحاولة، وفي 22 أكتوبر 1781 ولدت غلاماً سمي لوي- جوزف- زافير. وتشكك الساخرون في نسب الطفل، ولكن الملك السعيد شرب عنهم صفحاً وصاح "ولدي الدوفن! ولدي!!".

صفحة رقم : 14336

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الملك الطيب

4- الملك الطيب

كان لويس النقيض لزوجته في كل شيء إلا السن. وكانت رشيقة، سريعة الخاطر، خفيفة الحركة، لعوباً، مندفعة، جياشة، طائشة، مسرفة، مؤكدة لذاتها، متكبرة، ملكة دائماً؛ وكان بطيء الحركة، بليداً، متردداً، رزيناً، هادئاً، كادحاً، مقتصداً، متواضعاً، عديم الثقة بنفسه، كل ما فيه ينطق بأنه ليس ملكاً. كان يحب النهار، وعمله، وصيده، وكانت تهوى الليل، ومائدة القنار، والمرقص. ومع ذلك لم يكن زواجهما بالزواج النعس بعد سنوات التجربة الأولى تلك، فقد كانت الملكة وفيه لزوجها، والملك شغوفاً بزوجته، وحين جاء الحزن أحكم الجمع بينهما في شخص واحد.

صفحة رقم : 14337

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الملك الطيب

كانت قسماته سوية، ولعله كان يكتسب الوسامة لو حد من وزنه. وكان طويل القامة، خليقاً بأن يكون له سمات الملوك لولا أن شاب مشيته كتفان متأرجحتان وخطوة ثقيلة. وكان يشكو ضعفاً في بصره زاده ارتباكاً وثقل الحركة، وندر أن كان شعره منتظماً. ذكرت مدام كمبان أن "شخصه كان مهملاً جداً" (54) وكان مفتول العضل قوي البدن، وقد رفع مرة أحد أتباعه بذراع واحدة. وكان نهماً، معتدلاً في شرايه، ولكنه كان أحياناً يثمل بالطعام، فيقتضي الأمر إعانتته على الذهاب إلى فراشه (55). وكان له هوايات قليلة، ونشوات طرب قليلة، وساعات ألم مفرط قليلة.

ولم يكن شعوره شعور الراحة واليسر مع الفرنسيين المحيطين به، الذين دربوا على يقظة الذهن وسرعة البديهة في الحديث؛ على أنه في أحاديثه الخاصة وقع موقفاً طيباً من رجال كيزوف الثاني بفضل سعة معرفته وسداد حكمه. استمع إلى الأمير هنري البروسي، شقيق فردريك الأكبر يقول:
"إن الملك أدشنني... فلقد أنبئت أن تعليمه قد أهمل، وأنه لا يعرف شيئاً، وأنه قليل الذكاء. ولكنني ذهلت أن أرى وأنا أتحدث معه أنه يعرف الجغرافيا معرفة جيدة جداً، وأن له أفكاراً صائبة في السياسة، وأن سعادة شعبه كانت دائماً ماثلة في فكره، وأنه يفيض بالإدراك السليم الذي هو في الملك أعظم قيمة من الذكاء اللامع، ولكنه كان مسرفاً في عدم الثقة بنفسه" (56).

وكان لويس يقتني مكتبة حسنة أفاد منها، فقرأ وترجم جزءاً من كتاب جيون "الضمحلالات الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" (57)، ولكنه نحاه عنه حين تبين نزعة المعارضة للمسيحية. وقرأ وأعاد قراءة كتاب كلارندون "تاريخ التمرد" كأنه يحس في دخيلة نفسه بأنه سيكرر مصير تشارلز الأول. قال "لو كنت في مكانه لما امتشقت الحسام قط في وجه شعبي" (58). ولكي يرشد رحلة بيروز الباسفيكية (1785) كتب تعليمات مفصلة نسبها وزراؤه إلى علماء أكاديمية العلوم (59). وكان على صلة وثيقة بمختلف وزرائه

صفحة رقم : 14338

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الملك الطيب

لا سيما في الشؤون الخارجية. وأعجب واشنطن وفرانكلين بسداد حكمه (60). وكانت نواحي ضعفه في الإرادة في الفكر، ولعلها ارتبطت بثقل غذائه ووزنه. ومن أهم صفاته عجزه عن مقاومة الإلحاح أو الخلوص من التفكير إلى التنفيذ. وكان هو نفسه يمارس الاقتصاد، ولكن كان فيه من اللطف ما منعه من فرضه على الآخرين، وكان يوقع بالموافقة على صرف مئات اللوف من الفرنكات استجابة لأمر زوجته. على أن الفضائل لم تعوزه. فهو لن يتخذ خليفة، وكان فيه وفاء لأصدقائه ربما باستثناء تورجو "أغلب الظن أنه لم يفقه غير تورجو من رجال جيله في حب الشعب أعظم حب" (61). ففي يوم اعتلائه العرش أمر المراقب العام للمالية بتوزيع 200.000 فرنك على الفقراء، وأضاف "إن وجدت هذا أكثر مما تسمح به حاجات الدولة فخذ من راتبي" (62). وقد منع جمع "ضريبة التتويج" التي كانت تجعل من استهلال حكم الملك عبئاً جديداً على الأمة. وفي 1784 حين كانت باريس تعاني من الفيضانات والأوبئة، خصص ثلاثة ملايين من الفرنكات لإعانة الشعب. وخلال شتاء قارس البرد للفقراء يوماً بعد يوم بأن يغيروا على مطبخه ويصيبوا منه طعاماً. وكان مسيحياً لقباً، وواقعاً، والتزاماً بالشعائر، فكان يتبع كل الطقوس الكنسية وقواعدها بحذافيرها، ويصوم الصيام الكبير كله رغم ولعه بالطعام. وكان متديناً دون التعصب أو إعلان عن النفس، فهو الذي منح الحقوق المدنية لبروتستانت فرنسا رغم سنيته وتدينه. وقد حاول التوفيق بين المسيحية والحكم، وذلك أمر ليس في الدنيا أصعب منه. وكان عليه أن يعيش عيشة الملك مظهراً رغم حبه البساطة، فيجوز مراسم استيقاظ الملك Levée ويدع الاتباع والحاشية يلبسونه ثيابه، ويتلو صلوات الصباح في حضرتهم، ويستقبل الناس، ويرأس المجلس الملكي، ويصدر المراسم، ويحضر حفلات الغداء أو العشاء، والاستقبال، والرقص مع أنه لم يكن يرقص. ولكنه عاش كأبي مواطن صالح على قدر ما سمح به منصبه وشهيته. وقد وافق روسو على أن من واجب كل إنسان أن يتعلم حرفة يدوية، فتعلم عدة حرف، من صناعة الأقفال إلى البناء. وتخبرنا

صفحة رقم : 14339

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> الملك الطيب

مدام كمبان أنه "سمح لصانع أقفال من عامة الشعب بدخول مسكنه الخاص، وكان يصنع معه المفاتيح والأقفال، وكثيراً ما كانت يداه اللتان اسودتا من هذا الضرب من العمل مثار لوم بل توبيخ حاد من الملكة في حضرتي" (63). وكان يستهويه كل شيء يتصل بالبناء، فيعين عمال القصر على نقل المواد، والعوارض، وبلاط الرصف. وكان يحب أن يقوم بترميم ما يحتاج إلى ترميم في مسكنه بيديه هو، وكان زوجاً صالحاً كأزواج أوساط الناس. وقد احتوت إحدى حجراته على أدوات الجغرافيا، والكرات الأرضية، والخرائط الجغرافية-التي رسم بعضها بنفسه؛ واحتوت حجرة أخرى أدوات للشغل في الخشب، وجهزت ثلاثة بكير وسندان، وأشتات كثيرة من الأدوات الحديدية. وقد عكف شهوراً على صنع ساعة حائط ضخمة تسجل الشهور وأوجه القمر والفصول والسنين. وشغلت مكتبته عدة حجرات. وقد أحبته فرنسا، حتى إلى موته وبعد موته، لأن الذي أعدمه بالجليوتين في 1793 لم تكن فرنسا بل باريس. وفي تلك السنين الأولى كان الترحيب به عاماً تقريباً. كتب فرديريك الأكبر لدامبير "أن لديكم ملكاً طيباً جداً، وأنا أهنئكم عليه من كل قلبي. فالملك الحكيم الفاضل خليك بأن يخشاه منافسوه أكثر من ملك لا يملك من الفضائل غير الشجاعة". وأجاب دامبير "أنه يحب طيبة القلب، والإنصاف، والاقتصاد، والسلام... أنه بالضبط ما كان ينبغي أن نصبوا إليه في ملكنا لو لم يمنحنا إياه قدر كريم" (64). ووافق فولتير على هذا الرأي: "كل ما صنعه لويس منذ توليه العرش حبه لفرنسا" (65). وقد استعاد جوته في شيخوخته ذكر هذا الاستهلال الميمون: "في فرنسا أبدى ملك جديد خيراً أحسن النوايا. لتكريس نفسه للقضاء على مفاسد كثيرة، ولتحقيق أنبل الأهداف، وهي إدخال أسلوب في الاقتصاد السياسي من تظن وكفاء، والاستغناء عن كل سلطة تعسفية، والحكم بالقانون والعدالة وحدهما. وقد عمدت الدنيا أبهج الأمال، ووعد الشباب الواثق نفسه والنوع الإنساني كله بمستقبل زاهر مشرق" (66).

صفحة رقم : 14340

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة طورجو

كان اول هم للويس السادس عشر أن يعثر على وزراء أكفاء أمناء يصلحون الفوضى التي استشرت في الإدارة والمالية. وكان الشعب يطالب في إلحاح بعودة "البرلمانات" التي أقيمت، فأعادها، وأقال موبيو الذي حاول من قبل لأن يحل محلها هيئة أخرى، ورد إلى فرساي لرأسه وزارته جان- فرديريك فليو، كونت موريبا، الذي كان وزيراً للدولة من 1738 إلى 1749، وأقيل لأنه عرض في أهجوة ساخرة بمدام ديومبادور، فعاد الآن إلى السلطة بعد أن بلغ الثالثة والسبعين. وكان اختياراً كريماً ولكنه غير موفق، لأن موريبا بعد أن عاش عقداً على وضعيته الريفية، كان قد فقد صلته بتطور فرنسا في اقتصادها وفكرها، وكان فيه من الظرف أكثر مما فيه من الحكمة. أما للشئون الخارجية فقد اختار الملك ذو العشرين شارل جرافيه، كونت ديفرجين، ولوزارة الحربية الكون كلود- لوي دسان- جرمان، ولوزارة البحرية أن- روبير- جاك تورجو، بارون دلولن.

وقد رأيناه في صفحات سابقة لاهوتياً، ومحاضراً في المسيحية والتقدم، وصديقاً للفيروقرطيين وجماعة الفلاسفة الفرنسيين، وناظراً ملكياً مقداماً خيراً في ليموج. وقد حذر أتقياء القصر لويس من استخدام تورجو لأنه كافر سبق أن شارك في "الموسوعة" بمقالاته(67)، ومع ذلك ففي 24 أغسطس 1774 رفعه الملك إلى أدق مناصب الحكومة- وهو منصب المراقب العام للمالية وحل محل تورجو في البحرية جابرييل دسارتين، الذي أنفق في خفة على بناء أساطيل ستساعد على تحرير أمريكا، والذي أعتد على تورجو في تدبير المال اللازم لبنائها. وكان تورجو رجلاً فرنسياً من معدن شبيهه بالذي وجدته لويس الرابع عشر في كولبير، كرس نفسه لخدمة وطنه، واتسم ببعد النظر، والعكوف على العمل بغير ملل، ونقاء اليد وطهارتها. وكان فارح الطول حسن الصورة، ولكن اعوزته رقة آداب الرجال الذين صقلتهم الصالونات- وإن رحبت

صفحة رقم : 14341

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة تورجو

به الأنسة لسبيناس ترحيباً حاراً. وكان قد ضحى بصحته في سبيل عمله، وفي كثير من الوقت الذي كان عاكفاً فيه على إعادة صنع اقتصاد فرنسا كان يلزم مسكنه بسبب النقرس.. وقد حاول أن يضغط ربع قرن من الإصلاحات في وزارة واحدة قصيرة الأجل لأنه أحس بأن أستزاره قلق مزعزع. وكان في السابعة والأربعين حين تقلد وزارته، وفي التاسعة والأربعين حين فقدها، وفي الرابعة والخمسين حين ودع الحياة. وقد آمن مع الفيروقرطيين بتحرير الصناعة والتجارة ما أمكن من التنظيم الحكومي أو النقابي، وبأن الأرض مصدر الثروة الوحيد، وبأن ضريبة واحدة على الأرض هي أعدل الطرق وأكثرها عملية لجمع إيراد الدولة، وبأنه ينبغي

إلغاء جميع الضرائب غير المباشرة. ثم أنه أخذ عن جماعة الفلاسفة تشككهم الديني وتسامحهم، وثقتهم في العقل والتقدم، وأملهم في إصلاح الأمور عن طريق ملك متتور. فإذا كان الملك صاحب ذكاء وإرادة صالحة، يقبل الفلسفة مرشداً وهادياً له، كان هذا ثورة سلمية، تفضل كثيراً الثورة العنيفة الفوضوية التي لا تكتفي بالقضاء على المفاصد بل تطيح بالنظام الاجتماعي ذاته، فالآن إذن حان وقت وضع نظرية فولتير، "النظرية الملكية" هذه موضع الاختبار. ومن ثم نرى جماعة الفلاسفة يشاركون الفزوقراطيين ابتهاجهم بتقلد طورجو زمام الأمور. وذهب طورجو إلى كومبيين في 24 أغسطس 1774 ليشكر لويس السادس عشر على تعيينه وزيراً للمالية. وقال له "إنني لا أبذل نفسي للملك بل للرجل الأمين". وأجاب لويس وهو يأخذ يدي طورجو في يديه "لن يخيب ظنك" (68). وفي مساء ذلك اليوم بعث الوزير إلى الملك رسالة بينت النقاط الأساسية في برنامجه قال:

"لا إفلاس، معلناً كان أو مقنعاً.

لا زيادة في الضرائب، والسبب حالة شعبيك...

صفحة رقم : 14342

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة طورجو

لا قروض،... لأن كل قرض يقتضي في نهاية أجل مسمى إما

الإفلاس وإما زيادة الضرائب..."

ولتلبية هذه النقاط الثلاث لا يوجد غير سبيل واحد وهو خفض الإنفاق عن الإيراد، وخفضه بقدر يكفي ضمان وفر في كل عام مقداره عشرون مليوناً تخصص لاستهلاك الديون القديمة. وبغير هذا ستدفع أول طلقة نار بالدولة إلى هاوية الإفلاس(69).

(وقد التجأ نكير فيما بعد إلى القروض، وأفضت حرب 1778 بفرنسا إلى الإفلاس). وبعد أن تبين تورجو أن إيرادات الحكومة السنوية 213.500.000 فرنك، ومصروفاتها 235.000.000 فرنك، أمر بشتى ضروب الوفرة، وأصدر تعليمات بالألا يصرف مبلغ من الخزانة لأي غرض دون علمه أو موافقته، وكان هدفه تنشيط الاقتصاد بإرساء دعائم حرية المشروعات، والإنتاج، والتجارة، خطوة خطوة. وبدأ بمحاولة لإصلاح الزراعة. وكانت الحكومة قد أشرفت على التجارة في الغلال تجنباً لتذمر أهل المدن، فنظمت بيعها من المزارع لتاجر الجملة، ومن تاجر الجملة لتاجر التجزئة، وحددت سعر الخبز. ولكن انخفاض الأسعار التي دفعت للفلاح ثبطت همته عن زرع المزيد من الغلال، وثبت غيره عن الاشتغال بالزراعة، فظلت مناطق شاسعة من أرض فرنسا صالحة للزراعة دون زرع، وعطلت ثروة الأمم الممكنة عند منبعها. وبدأ إصلاح الزراعة في نظر تورجو أول خطوة في إحياء فرنسا. ذلك أن إطلاق يد المزارع في بيع غلته بأي سعر يستطيع الحصول عليه سيرفع من دخله ويحسن وضعه الاجتماعي، ويزيد قوته الشرائية، وينهض به من الحياة البدائية الوحشية التي وصفها من قبل لابروبير في عصر لويس الرابع عشر الذهبي(70).

ومن ثم ففي 13 سبتمبر 1774 استصدر تورجو من المجلس الملكي مرسوماً أطلق تجارة الغلال في كل مكان عدا باريس حيث قدر أن رد فعل أهل المدينة سيكون محرماً. وكان ديون دنمور قد قدم للمرسوم بديباجة

صفحة رقم : 1434

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة تورجو

تشرح الهدف منه، وهو "تنشيط وتوسيع زراعة الأرض، التي تعد غلتها أكثر ثروات الدولة حقيقة وضمناً، والاحتفاظ بوفرة في الغلال عن طريق مخازنها واستيراد الغلال ممن الخارج... والقضاء على الاحتكار... وإيثارة للمنافسة الحرة" وهذه المقدمة التفسيرية كانت هي ذاتها تجديداً يعكس ظهور الرأي العام كقوة سياسية. ورحب فولتير بالمرسوم فاتحة لعصر اقتصادي جديد، وتنبأ بأنه سيزيد بعد قليل من رخاء الأمة(71). ثم أرسل مذكرة إلى تورجو قال فيها: "أن عليل فرنیه العجوز يشكر الطبيعة لأنها مدت في أجله حتى يرى مرسوم 13 سبتمبر 1774. وهو يقدم احترامه لوضعه، ويرجو له التوفيق"(72).

على أن هذا الترحيب خرج عليه رأي معارض ينذر بالسوء. ففي ربيع 1775 جاء مصرفي سويسري يعيش في باريس ويدعى جاك نكير إلى تورجو يحمل مخطوطاً "عن قانون الغلال وتجاراتها"، وسأل إن كان من الممكن نشره دون إضرار بالحكومة. وقد زعم نكير في كراسته أن قدراً من الإشراف الحكومي على الاقتصاد لا بد من أن أريد ألا يفضي حذق الفائق إلى تركيز الثروة في طرف وتكثيف الفقر في الطرف الآخر، واقترح أن تستأنف الحكومة الإشراف والتنظيم إذا رفعت حرية التجارة من سعر الخبز فوق رقم معين. أما تورجو، الوائق من نظريات، والمحبذ لحرية النشر، فقد أخبر نكير بأن ينشر المخطوط ويدع الشعب يحكم(73). فنشره نكير.

ولم تقراه جماهير المدن ولكنها اتفقت نعه في الرأي. فحين ارتفع سعر الخبز في ربيع 1775 اندلعت حوادث الشغب في عدة مدن. ففي الأقاليم المحيطة بباريس، والتي تتحكم في انسياب الغلال إلى العاصمة، راح بعض الرجال ينتقلون بين المدن ويحرضون الناس على التمرد. وأحرقت العصابات المسلحة مزارع المزارعين والتجار وقذفت بالمخزون من الغلال في نهر السين، ثم حاولت منع الغلال المستوردة من إكمال طريقها من هافر إلى باريس، وفي 2 مايو قادت جمعاً محتشداً إلى أبواب القصر في فرساي.

صفحة رقم : 14344

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة تورجو

واعتقد تورجو أن هذه العصابات يستخدمها الموظفون البلديون أو الأقليميون الذين نقدوا وظائفهم بانتهاج الإشراف الحكومي والذين كان هدفهم أن يخلقوا في باريس أزمة غلال ترفع سعر الخبز وتكره الحكومة على العودة إلى التجارة الخاضعة لهيمنتها(74). وظهر الملك على شرفة من شرفات القصر وحاول الكلام، ولكن ضجة الجمع طغت على كلامه. على أنه منع جنوده من إطلاق النار على الشعب، وأمر بخفض سعر الخبز. ولكن تورجو أكد أن هذا التدخل في قوانين العرض والطلب سيفسد محاولة اختبارها؛ وكان واثقاً من أنه إذا تركت لها حرية العمل فإن المنافسة بين التجار وأصحاب المخازن ستهبط بأسعار الخبز عما قليل. وألغى الملك أمره بخفض السعر. وفي 3 مايو تجمعت حشود غاضبة في باريس وبدأت تنهب المخازن. وأمر تورجو مليشيا باريس بحماية المخازن ومخازن الغلال، وبإطلاق النار على أي شخص يحاول القيام بأعمال عنف. ثم حرص في الوقت نفسه على وصول الغلال الأجنبية إلى باريس والأسواق. وأكرهت هذه المنافسة المستوردة المحتكرين الذين حبسوا غلالهم توقعاً لارتفاع الأسعار على الإفراج عن مخزونهم، فانخفض سعر الخبز، وهذا النمر. وقبض على نفر من زعمائه، وشنق اثنان منهم بأمر البوليس. وخرج تورجو ظافراً من "حرب الدقيق" هذه. ولكن إيمان الملك بمبدأ عدم التدخل اهتز، وأحزنه شنق هذين الشخصين في ميدان جريف.

ولكن سرته الإصلاحات التي يجريها تورجو في مالىو الحكومة. فلم يمض يوم على مرسوم الغلال بدأ الوزير العجول إصدار الأوامر للوفر في مصروفات الدولة، ولتحصيل الضرائب تحصيلاً أكثر كفاءة، وللإشراف إشرافاً أدق على الملتزمين العموميين، ثم ينقل الاحتكارات الأهلية في المركبات العامة، ومركبات البريد، وصنع البارود، إلى الدولة. واقترح، ولكن لم يتح له الوقت لإنشاء "بنك للخصم" وهو مصرف لخصم الأوراق التجارية، وتلقي الودائع، وإعطاء القروض، وإصدار البنكنوت الذي تدفع قيمته عند إبرازه، وقد اتخذ هذا البنك نموذجاً لبنك فرنسا الذي نظمه نابليون في 1800. فلم تحل نهاية عام 1775

صفحة رقم : 14345

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة تورجو

حتى كان تورجو قد خفض المصروفات 66.000.000 جنيه، وأنقص الفائدة على الدين الأهلي من 8.700.000 إلى 3.000.000 جنيه. واستعيدت الثقة بالحكومة حتى استطاع أن يقرض 60.000.000 جنيه من الماليين الهولنديين بفائدة أربعة في المائة، ويسدد بهذه الطريقة ديوناً كانت الحظانة تدفع عنها فائدة من سبعة إلى اثنتي عشرة في المائة. وأوشك أن يوازن الميزانية، ولكنه لم يفعل هذا بزيادة الضرائب بل بالحد من الفساد، والإسراف، وعدم الكفاءة، وكثرة الفاقد.

وفي هذه الإصلاحات وغيرها لم يلق تورجو كبير عون من موريبا، ولكنه لقي العون الكثير من كرتيان وماليرب، الذي التقينا به من قبل حامياً للموسوعة ولروسو. فقد أرسل، بوصفه الآن رئيساً لمحكمة المعونات (التي تختص بالضرائب غير المباشرة)، إلى لويس السادس عشر (6 مايو 1775)، مذكرة تشرح المظالم التي ينطوي عليها جمع الضرائب بواسطة الملتزمين العموميين، وتحذر الملك من الكراهية التي يولدها استخدامهم. وأشار بتبسيط القوانين وتوضيحها، وقال "ليس هناك قوانين حسنة غير القوانين البسيطة" وتعلق قلب الملك بماليرب، فعينه وزيراً لبيت الملك (يوليو 1775) وحث هذا اللبرالي المسن لويس على تأييد تورجو، ولكنه نصح تورجو بألا يحاول الإسراف في إصلاحاته في وقت واحد، لأن كل إصلاح سيخلق له أعداء جدد. وأجاب مراقب المالية العام. وماذا تريدني أن أفعل؟ أن حاجات الشعب هائلة، ونحن في أسرتي نموت بالنقرس في الخمسين" (75). وفي يناير 1776 فاجأ تورجو فرنسا بستة مراسيم صدرت باسم الملك، قرر إحداها أن تشمل حرية التجارة في الغلال باريس، وألغى العدو الكبير من المناصب المتصلة بتلك التجارة، وانضم الموظفون المطرودون على هذا النحو إلى صفوف أعدائه. وألغى مرسومان أو عدلا الضرائب المفروضة على الماشية والشحوم، فاغتبط الفلاحون. وألغى الرابع السخرة- وهي أيام اثنا عشر أو خمسة عشر يفرض فيها الشغل المجاني على الفلاحين كل عام

صفحة رقم : 14346

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة تورجو

لصيانة الكباري، والقنوت، والطرق؛ وتقرر أن يتقاضى الفلاحون منذ الآن أجراً عن هذا العمل من حصيلة ضريبة تفرض على جميع الأملاك غير الكنسية؛ واعتبط الفلاحون، وشكا النبلاء. وأثار طورجو المزيد من الاستياء بالديباجة التي وضعها في فم الملك.

"إننا لو استثنينا عدداً قليلاً من الأقاليم... لوجدنا أن كل طرق المملكة تقريباً شقت بتسخير أفقر شطر من رعايانا. فالعبء كله وقع إذن على أولئك الذين لا يملكون غير أيديهم ولا تهمهم هذه الطرق إلا بدرجة ثانوية جداً. أما الذين يهتمون بها حقاً فهم ملاك الأرض، وكلهم تقريباً أشخاص يتمتعون بامتيازات، وأملاكهم تزداد قيمتها بشق الطرق. فإذا أكره الفقير دون سواه على صيانة هذه الطرق، وإذا أكره على بذل وقته وجهده دون أجر، كان ذلك معناه أن عدته الوحيدة ضد الفقر والجوع انتزعت منه لإلزامه بالعمل لمنفعة الأغنياء" (76).

فلما أوضح برلمان باريس أنه سيرفض تسجيل هذا المرسوم، كاد طورجو يعلن الحرب الطبقية". "إنني رغم عدائي للاستبدادية الآن كما كنت دائماً، فإني لن أني عن أن أقول للملك، وللبرلمان، وللأمة بأسرها إن لزم الأمر، أن هذا أمر من تلك الأمور التي يجب أن تقرها إرادة الملك المطلقة، ولهذا السبب: وهو أن هذه القضية هي في صميمها قضية بين الأغنياء والفقراء. والآن ممن يتألف البرلمان؟ من رجال أغنياء إذا قورنوا بالسواد الأعظم من الشعب، وكلهم نبلاء لأن مناصبهم تحمل النبالة. ثم البلاط، الذي يشتد في احتجاجه- ممن يتألف؟ من كبار النبلاء، الذين يملك أغلبهم ضياعاً ستخضع للضريبة... ونتيجة لذلك فلا اعتراض البرلمان... ولا حتى تذمر الحاشية يجب أن ينال من القضية على أي وجه... وما دام الشعب لا صوت له في البرلمان، فإنه لا بد أن يرى الملك في القضية رأيه هو بعد الاستماع إلى هذه البرلمان، ولا بد أن يحكم لصالح الشعب، لأن هذه الطبقة أتعس طبقاته" (77). أما آخر المراسيم الستة فقد ألغى الطوائف الحرفية. وكانت قد أصبحت

صفحة رقم : 14347

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة طورجو

أرستقراطية عمالة، لأنها أشرفت على جميع الحرف تقريباً، وحدث من الدخول في عضويتها بإشتراطها رسوم التحاق عالية، ثم قيدت فوق ذلك الصلاحية لاختيار معلمي الحرف. وقد عطلت الاختراع، وعرقلت التجارة بالمكوس أو بحظر المنتجات المتنافسة التي تدخل في نطاقها. وقد نددت طبقة المتعهدين أو المقاولين الصاعدة- وهم رجال يوفرون المبادأة، ورأس المال، والتنظيم، ولكنهم يطالبون بحرية استئجار أي عامل، سواء من المنتمين للوظائف الحرفية أو غيرهم، وبيع سلعهم في أي سوق في متناولهم- هذه الطبقة نددت بالطوائف الحرفية لأنها احتكرات تقيد التجارة. أما طورجو، التواق إلى دعم التنمية الصناعية بإطلاق حرية الاختراع، والمشروعات، والتجارة، فقد شعر أن الاقتصاد القومي سيفيد من إلغاء الطوائف المالية. وقد جاء في ديباجة هذا المرسوم:

"كانت ممارسة الحرف والصنائع في جميع المدن تقريباً مركزة في أيدي عدد قليل من المعلمين المتحدين في نقابات، والذين كان لهم وحدهم حرية صنع وبيع سلع الصناعة الخاصة التي ينفردون دون غيرهم بامتيازهم. فالذي كرس نفسه لأي صناعة أو حرفة لم يكن في استطاعته ممارستها بحرية إلا بعد وصوله إلى مرتبة معلم الحرفة، التي لا سبيل له إليها إلا بعد الخضوع لواجبات طويلة ممللة لا حاجة إليها، وبعد أداء إبتزازات متكاثرة تحرمه من جزء من رأس المال الضروري لإنشاء تجارة أو تجهيز ورشة. أما العاجزون عن توفير هذه النفقات فمصيرهم العيش القلق

تحت سلطان المعلمين، ولا خيار أمامهم إلا الحياة في ضنك... أو نقل صناعة قد تكون ذات نفع لوطنهم إلى بلد أجنبي" (78). وكان لهذه التهم الموجهة إلى النقابات الحرفية ما يبررها على قدر علمنا ولكن طورجو استرسل في إجراءاته فحظر على جميع معلمي الحرف وعمال المياومة والتلاميذ الصناعيين تكوين أي اتحاد أو جمعية (79). لقد آمن إيماناً مطلقاً بحرية المشروعات والتجارة، ولم يتوقع أن يكون حق التنظيم هو الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها الصناع أن يجمعوا ضعفهم كأفراد في قوة جماعية للمساومة مع أصحاب العمل المنظمين. وقد أحس أن كل الطبقات

صفحة رقم : 14348

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة طورجو

ستفيد في المدى الطويل بتحرير رجال الأعمال من القيود الإقطاعية والنقابية والحكومية المفروضة على المشروعات. وأعلن أن جميع الأشخاص في فرنسا- حتى الأجانب- أحراراً في الاشتغال بأي صناعة أو تجارة. وفي 9 فبراير 1776 رفعت المراسيم الستة إلى برلمان باريس. فلم يوافق إلا على واحد منها ألغى المناصب الصغيرة، ورفض الموافقة على تسجيل الباقي، وخص بمعارضته إنهاء السخرة باعتباره افتئاتاً على الحقوق الإقطاعية (80). وبهذا القرار الذي اتخذ بالتصويت جهر البرلمان بأنه حليف طبقة النبلاء والصوت المعبر عنهم، وهو الذي زعم من قبل أنه حامي الشعب من الملك. ودخل فولنير المعمرة بكراسة هاجمت السخرة والبرلمان وأيدت طورجو، فأمر البرلمان بمصادرة الكراسة. ودافع بعض وزراء الملك عن البرلمان، فوبخهم لويس في لحظة ثبات وجدل قائلاً "أرى جيداً أنه ليس هنا من يحب الشعب غيري وغير مسيو طورجو" (81). وفي 12 مارس دعا البرلمان إلى "سرير عدالة" (وهو المجلس القضائي العالي) في فرساي، وأمره بتسجيل المراسيم. واحتفلت مواكب من العمال بانتصار طورجو.

وأبطأ المراقب العام خطوته بعد أن أرفقته الأزمات المتكررة. فلما طبق حرية التجارة الداخلية على صناعة النبيذ (أبريل 1776) لم يشك غير المحنكرين. ثم حث الملك على إرساء دعائم الحرية الدينية. وأصدر تعليماته إلى ديون دنيومور بأن يضع خطة لتكوين مجالس انتخابية في كل أبرشية، يختارها كل من ملك أرضاً قيمتها ستمائة جنيه أو يزيد، وهذه المجالس المحلية تنتخب ممثلين في مجلس كنتوني، تنتخب ممثلين في مجلس إقليم، ينتخب نواباً في مجلس الأمة. وكان طورجو مؤمناً بأن فرنسا ليست على استعداد للديموقراطية، فاقترح ألا تعطى هذه المجالس إلا وظائف عن طريق هذه المجالس يحاط الملك علماً بحال المملكة وحاجاتها. كذلك قدم طورجو للملك تخطيطاً للتعليم العام بصفته المدخل الذي لا بد منه للمواطنة المستنيرة. وقال: "مولاي، إنني أجرؤ على التأكيد بأنه لن تمضي سنتان حتى تتبدل أمتك فلا تتعرف عليها الأمم، وبفضل التنوير والأخلاق الطيبة..."

صفحة رقم : 14349

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة تورجو

ستسمو فوق جميع الدول الأخرى" (82) ولكن الوزير أعوزه الوقت. والملك أعوزه المال، لإخراج هذه الأفكار إلى حيز الوجود.

وكانت مراسيم تورجو- وديباجتها- قد ألهمت غضب جميع الطبقات ذات النفوذ عليه خلا التجار ورجال الصناعة، الذين زكوا في ظل الحرية الجديدة. والواقع أنه كان يحاول أن يحدث بطريق سلمي تحرير رجال الأعمال، وهو النتيجة الاقتصادية الأساسية التي أسفرت عنها الثورة الفرنسية. ومع ذلك عارضه بعض التجار سراً لأنه تدخل في احتكاراتهم. وعارضه الأشراف لأنه أراد أن يفرض كل الضرائب على الأرض، ولأنه يستعدي الفقراء على الأغنياء. وأبغضه البرلمان لأنه أقنع الملك بإبطال قرارات نقضه. ولم يثق به رجال الدين زاعمينه كافرأ ينذر أن يختلف عن القداس، ويدافع عن الحرية الدينية. وحاربه الملتزمون العموميون لأنه حاول أن يحل محلهم موظفون حكوميين في جمع الضرائب غير المباشرة. وساء الماليين حصوله على القروض من الخارج بفائدة 4%. وكرهته بطانة الملك لأنه سخط على إسرأفهم، ومعاشاتهم، ووظائفهم الفخرية. أما موريبا، وهو الأعلى منه منصباً في الوزارة، فلم يغتبط بسطان المراقب العام للمالية واستقلاله المتزايدين. وكتب السفير السويدي يقول "إن تورجو يجد نفسه الهدف لحلف رهيب جداً" (83).

أما ماري أنطوانيت فقد رضيت عن تورجو أول الأمر، وحاولت أن توفق بين نفقاتها واقتصادياته. ولكن سرعان ما استأنفت (حتى 1777) إسرأفها في الثياب والعطايا. ولم يخف تورجو فزعه من مطالبهم من الخزنة، وكانت الملكة إرضاء لأن بولنيك قد حصلت على تعيين صديقهم الكونت دجين سفيراً لفرنسا في لندن؛ وهناك دخل في معاملات مالية مشبوهة. وانضم تورجو إلى فرجين في الإشارة على الملك باستدعائه؛ وأقسمت الملكة لتنتقم منه. وكان للويس السادس عشر أسبابه الخاصة لفقد الثقة في الوزير الثوري. ذلك أن الملك كان يحترم الكنيسة، وطبقة النبلاء، وحتى البرلمانات،

صفحة رقم : 14350

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة تورجو

وكانت هذه المؤسسات قد رسخت في التقاليد وتقدست بمرور الزمن، فإطلاقها معناه خلخلة ركائز الدولة؛ ولكن طورجو كان قد أقصاها كلها. فهل تراه على حق وكل هؤلاء على ضلال؟ وشكا لويس سرّاً من وزيره: "إن أصدقاء فقط هم الأكفاء، وأفكارهم فقط هي الصائبة" (84). وفي كل يوم تقريباً كانت الملكة أو أحد أفراد الحاشية يحاول إثارتها على المراقب العام. فلما رجاه طورجو أن يقاوم هذه الضغوط ولم يجب لويس، عاد إلى منزله وكتب إلى الملك (30 أبريل 1776) رسالة كانت الفاصلة في مصيره:

"مولاي: لن أخفي عنكم أن قلبي مجروح جرحاً عميقاً بسبب صمت جلالتم يوم الأحد الماضي... ذلك أنني ما كنت لاستصعب أمراً من الأمور ما دمت أوّمل الاحتفاظ بتقدير جلالتم لصواب ما أفعل. واليوم أي جزاء ألقى؟ أن جلالتم ترون كم يستحيل عليّ المضي في طريقي قدماً ضد من يؤذونني بالشر الذي يصنعونه بي، وبالخير الذي يمنعونني من فعله بتعطيل جميع إجراءاتي، ومع ذلك فإن جلالتم لا تمنحوني عوناً ولا عزاء. وأنا أجرؤ يا مولاي على القول بأنني لا أستحق هذا الجزاء...

"إن جلالتم... قد دفعتم بافتقاركم إلى الخبرة. وأنا أعلم بأنكم وأنتم في الثانية والعشرين، وفي منصبكم هذا، لا تملكون المرونة على الحكم على الرجال، وهي مرونة يحصل عليها الأفراد العاديون بفضل الاختلاط المعتاد مع نظائرهم؛ ولكن هل سيتاح لكم مزيد من الخبرة بعد أسبوع، بعد شهر؟ وألا يمكن أن تتخذوا القرار الحاسم حتى تتوافر لكم هذه الخبرة البطينة؟"

"مولاي، إنني مدين لمسيو موريبا الذي قلدتموني إياه، ولن أنسى له هذه اليد ما حبيت، ولن أقصر أبداً في الاحترام الواجب له. ولكن أتعلمون يا مولاي مبلغ ضعف شخصية المسيو دموريبا؟- وكم تسيطر عليه أفكار من يلتقون حوله. إن الناس كلهم يعرفون أن مدام دموريبا، بتفكيرها الأضعف كثيراً من شخصيتها، توحى إليه دائماً

صفحة رقم : 14351

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة طورجو

بارادتها... وهذا الضعف هو الذي يدفعه إلى الموافقة دون تردد على سخط الحاشية علي، والذي يجردني من كل سلطة تقريباً في إدارتي...

"مولاي، لا تنس أن الضعف هو الذي أطاح برأس تشارلز الأول على المقصلة... والذي جعل من لويس الثالث عشر عبداً متوجاً... والذي جر على الحكم السالف كل ويلاته.. مولاي، إنهم يعدونك ضعيفاً، وقد أتى وقت خشيت فيه أن يكون في خلقك هذا العيب، ومع ذلك رأيته في مناسبات أكثر من هذه عسيراً تبدي شجاعة أصيلة... أن جلالتم لن تستطيع الاستسلام إرضاء لمسيو دموريب دون لأن تكون غير صادق مع نفسك..." (85).

ولم يرد الملك على هذه الرسالة. فقد أحس أن عليه الآن أن يختار بين موريبا وطورجو، وأن طورجو يطلب خضوع الحكومة التام تقريباً لإرادته. وعليه ففي 12 مايو 1776 أرسل إلى طورجو أمراً بأن يستقبل. وفي اليوم ذاته، وخضوعاً لإرادة الملكة وآل بوليناك، رفع الكونت دجبن إلى مرتبة الدوقية. فلما سمع ماليرب بإقالة طورجو قدم استقالته. وقال له لويس "إنك رجل محظوظ. ليبتني أنا أيضاً أستطيع ترك منصبتي" (86). وما لبث معظم من عينهم طورجو أن طردوا من مناصبهم. وصعقت ماريا تريزا لهذه التطورات، ووافقت فردريك وفولتير على أن سقوط

طورجو نذير بانهييار فرنسا(87)، وقد أجزنها الدور الذي لعبته ابنتها في الأمر، وأبت أن تصدق تتصل الملكة من التبعية، وكتب فولتير إلى لاهارب يقول: "لم يبق لي إلا أن أموت بعد أن ذهب مسيو طورجو"(88). أما طورجو فقد عاش بعد إقالته عيشة هادئة في باريس، يدرس الرياضة، والفيزياء، والكيمياء، والتشريح. وكان يلتقي كثيراً بفرانكلين، وقد كتب له "مذكرة في الرسوم" ثم اشتدت عليه وطأة النقرس حتى أكرهه بعد 1778 على الاستعانة بعكازين في شمييه. ومات في 18 مارس 1781 بعد سنوات حفلت بالألم وخيبة الأمل. ولم يدر بخلده أن القرن التاسع عشر سيقبل معظم أفكاره ويطبّقها. وقد أجمل ماليرب وصفه في حب فقال: "كان له رأس فرانسيس بيكن، وقلب لوبيتال"(89).

صفحة رقم : 14352

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة نكير الأولى

6- وزارة نكير الأولى

1776-1781

خلف طورجو في رقابة مالية كلوني دنوي، الذي رد السخرة والكثير من النقابات الحرفية، ولم ينفذ مراسيم الغلال.. وألغى المصرفيون الهولنديون موافقتهم على إقراض فرنسا ستمين مليوناً من الجنيهات بسعر أربعة في المائة، ولم يكشف الوزير الجديد طريقة لاجتذاب المال إلى خزانة الدولة خيراً من إنشاء يانصيب قومي (30 يونيو 1776). فلما مات كلوني (أكتوبر)، أقنع مصرفيو باريس الملك بأن يستدعي إلى خدمته الرجل الذي كان أكفاء نقاد طورجو. كان جاك نكير بروتستانتياً، ولد في جنيف عام 1732 وأرسله أبوه-وكان أستاذاً للقانون في أكاديمية جنيف-إلى باريس ليعمل كاتباً في مصرف اسحاق فرنيه. فلما تقاعد فرنيه أقرض نكير المال ليفتتح مصرفاً خاصاً به. وضم نكير ماله إلى مال رجل سويسري آخر، فأصابا نجاحاً بتقديم القروض للحكومة والمضاربة في الغلال. وحين ناهز نكير الثلاثين كان غنياً، محترماً، أعزباً. ولم يتمن الآن مزيداً من الثراء بل منصباً رفيعاً، وفرصة للخدمة الممتازة والشهرة القومية، وهذا يقتضيه زوجة وبنياً يكون نقطة ارتكاز، أو قاعدة عمليات. ومن ثم تودد إلى المركزية فرمنو الأرملة، فرفضته، ولكننا جاءت من جنيف بسوزان كورشوا الجميلة الموهوبة التي كانت قبيل ذلك قد أفلتت من الزواج بأدوارد جبون. ووقع نكير في غرام سوزان، وتزوجها في 1764. وبعد وفاؤهما المتبادل طوال الحياة حافلة بالأحداث من ألمع الأضواء في مشكال ذلك العصر المضطرب. وأقاما بيتاً فوق مصرفه، وهناك افتتحت صالوناً (1765) ودعت إليه الكتاب ورجال العمال، أملاً في أن تعيد هذه الصداقات طريق زوجها وتثيره.

وكان نكير نفسه يتحرق شوقاً للتأليف، فبدأ بكتابة "مديح لكولبير" الذي توجهت الأكاديمية الفرنسية. واعتزل الآن عمله ودخل المعتزك السياسي بذلك المقال "في قانون الغلال" الذي عارض سياسة طورجو في

صفحة رقم : 14353

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة نكير الأولى

عدم التدخل الحكومي. وظفر الكتيب بثناء ديرو، الذي لعله استمتع بفقرة تكلم فيها المؤلف كما يتكلم الاشتراكيون، وكانت قد قرأ رويو. وقد هاجم نكير:

"قوة الطبقة المالكة التي تمكنها من أن تدفع نظير جهد العامل أبخس أجر لا يكاد يكفي لغير الحاجات الماسة... إن كل المؤسسات المدنية تقريباً أقامها الملاك. ولنا أن نقول إن قلة من الناس بعد أن قسموا الأرض فيما بينهم شرعوا القوانين تكتلاً وضمناً لهم ضد الكثرة... ولهؤلاء أن يتساءلوا. "أي معنى تعنيه لها قوانين الملكية التي شرعتموها؟- فنحن لا نملك أملاكاً؛ أو قوانينكم في العدالة؟ فنحن لا نملك شيئاً ندافع عنه. أو قوانينكم في الحرية؟ فإننا سنموت جوعاً إن لن نعمل غداً"(90).

وفي 22 أكتوبر 1776 عين لويس السادس عشر نكير "مديراً للخزانة الملكية" بناء على تزكية موريبا. وكان تعييناً يشوبه الاعتذار. فقد احتج بعض الأساقفة على السماح لبروتستانتني سويسري بأن يتحكم في مال الأمة، فأجاب موريبا، "في وسع رجال الدين أن يشاركوا في اختيار الوزراء إذا هم دفعوا ديون الدولة"(91). وستراً لهذا الواقع عين كاثوليكي فرنسي يدعى تابور دريو مر اقياً عاماً للمالية له الرئاسة الاسمية على نكير. وتضاءلت معارضة الأكليروس حين جعل نكير تدينه واضحاً جلياً. وفي 29 يونيو 1777 استقال تابور، وعين نكير مديراً عاماً للمالية. وقد رفض أن يتقاضى راتباً، بل أقرض مليوني جنيه من ماله الخاص(92). ولكنه ظل محروماً من لقب الوزير، ولم يسمح له بعضوية المجلس الملكي.

وقد وفق في حدود خلقه وسلطته. ذلك أنه درب على علاج مشكلات الصيرفة لا مشكلات الدولة، وكان في قدرته تكثير المال بنجاح أكثر من سياسة الرجال. وقد أرسى في الإدارة المالية نظاماً وحسابات ووفراً أفضل، وألغى أكثر من خمسمائة وظيفة شرفية ومنصب زائد عن الحاجة. وإذا كان حائزاً على ثقة المجتمع المالي، فقد استطاع طرح أسهم بقروض أكسبت

صفحة رقم : 14354

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة نكير الأولى

الخرزاة 148.000.000 جنيه خلال عام واحد. ثم دعم بعض الإصلاحات الصغيرة، فخفف من المظالم في فرض الضرائب، وحسن المستشفيات، ونظم بنوك الرهونات لتقترض الفقراء المال بفائدة منخفضة، وواصل جهود طورجو للحد من نفقات البلاط، والبيت الملكي، والملكة. ورد إلى الملتزمين العموميين جميع الضرائب غير المباشرة (1780)، غير أنه اختزل عددهم وأخضعهم لفحص ورقابة أدق. وقد أقنع لويس السادس عشر بأن يسمح بإنشاء المجالس الإقليمية في بري، وجرينوبل، ومونتوبان، ووضع سابقة هامة إذ اتخذ التدابير لجعل ممثلي الطبقة الثالثة (التي تنتظم الطبقتين الوسطى والدنيا) في هذه المجالس مساوين لمتلي النبلاء والأكليروس مجتمعين. على أن الملك كان يختار أعضاء هذه المجالس، ولم يسمح بأي سلطة تشريعية. وقد ظفر نكير بنصر هام حين أقنع الملك بأن يعتق من بقي من الأقدان على الأراضي الملكية، وأن يهيب بجميع السادة الإقطاعيين أن يحذو حذوه. فلما رفضوا أشار نكير عليه بغلاء القنية كلها في فرنسا، مع دفع التعويضات للسادة، ولكن الملك الذي كان حبيس تقاليد أجداد أجاب بأن حقوق الملكية نظام بلغ من الرسخ مبلغاً يعسر معه إلغاء بمرسوم (93). وفي 1780، وتحت إلهام نكير أيضاً، أمر الملك بإنهاء التعذيب القضائي، وإلغاء السجون السلفية، وفصل السجناء الذين جرموا فعلاً عن أولئك الذين لم يحاكموا بعد، وفصل كلتا الفئتين عن الأشخاص المقبوض عليهم بسبب الدين. هذه وغيرها من إنجازات وزارة نكير الأولى تستحق عرفاناً أكثر مما ناله عموماً. فإذا سألنا لم لم يعمل مبضعه بأعمق وأسرع مما عمله، وجب أن نتذكر أن طورجو قد لقي اللوم على تعجله والاستكثار من الأعداء في وقت واحد. وقد انتقد نكير على طرحه القروض بدلاً من جمع الضرائب، ولكنه أحس بأن الشعب قد فرض عليه من الضرائب ما يكفي. وقد أحسنت مدام كمبران تلخيص موقف الملك من وزارته، وهي اللصيقة دائماً بهذه الدراما المتطورة "لقد حكم طورجو، ماليرب، ونكير، بأن هذا الملك المتواضع البسيط في عاداته، لن يتردد في التضحية بحقه الملكي في سبيل عظمة شعبه الحقيقية؛ لقد كان قلبه ينعطف به نحو

صفحة رقم : 14355

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> وزارة نكير الأولى

الإصلاح، ولكن تحيزاته ومخاوفه، ومطالب الأشخاص الأتقياء وأصحاب الامتيازات الملحة جعلته جباناً، وأكرهته على التخلي عن خطط أوحى بها إليه حبه للشعب" (94). ومع ذلك فقد جرؤ على أن يقول في إعلان عام (1780) لعل نكير كان قد أعد له، إن "الضرائب المفروضة على أفقر شطر من رعايانا.. وقد زادت بنسبة تفوق كثيراً سائر

الرعايا الباقين. "وأعرب عن أماله ألا يحسب الأغنياء أنفسهم مظلومين إذا وجب عليهم، بعد أن يردوا إلى المستوى العام (الضرائب)، أن يؤدوا الفروض التي كان لا بد أن يشاركوا فيها غيرهم منذ زمان بقدر أكبر من المساواة" (95). وكان يرتعد إذا خطر بباله فولتير، ولكن روحه التحررية شكلها على غير وعي منه ذلك العمل الذي قام به فولتير، وروسو، وجماعة الفلاسفة بوجه عام لفضح المفاصد القديمة ولبعث الحياة الجديدة في المشاعر الإنسانية التي ارتبطت من قبل بالمسيحية. ففي هذا النصف الأول من حكمه بدأ لويس السادس عشر إصلاحات كان خليفاً بها لو اتصلت واتسعت شيئاً فشيئاً أن تتفادى الثورة. ثم إنه في عهد هذا الملك الضعيف نرى فرنسا التي سلبتها إنجلترا ممتلكاتها وأذلتها في عهد أسلافه-تكيل الضربات بجرأة وبنجاح لبريطانيا الفخور، وتعين بعملها هذا على تحرير أمريكا.

صفحة رقم : 14356

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> فرنسا وأمريكا

7- فرنسا وأمريكا

اتفتت الفلسفة هذه المرة مع الدبلوماسية. فمؤلفات فولتير، وروسو، وديدرو، ورينال، وعشرات غيرهم أعدت الذهن الفرنسي لمناصرة تحرير المستعمرات كما ناصر التحرير الفكري، وكان الكثيرون من الزعماء الأمريكيين-كواشنطن، وفرانكلين، وجفرسن-أبناء للتتوير الفرنسي. ومن ثم فحين قدم سيلاس دين إلى فرنسا (مارس 1776) ملتماً قرصاً للمستعمرات النائرة، كان الرأي العام الفرنسي شديد التعاطف معه، وراح بومارشيه في تحمسه يرسل المذكرة تلو المذكرة إلى فرجين يحثه فيها على مد يد المعونة لأمريكا. وكان فرجين نبيلاً يؤمن بالملكية والأرستقراطية، وليس بينه وبين

صفحة رقم : 14357

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> فرنسا وأمريكا

الجمهوريات أو الثورات ود، ولكنه كان تواقاً للثأر من إنجلترا لفرنسا. غير أنه لم يرض بالموافقة على أي معونة سافرة لأمريكا، لأن البحرية البريطانية كانت لا تزال أقوى من الفرنسية رغم ما أنفقته عليها سارتين، وكان في مقدورها تدمير السفن الفرنسية إذا كانت الحرب سافرة إلا أنه أشار الملم بالإذن ببعض المعونة السرية، وحثه لها في أمريكا أو قربها أسطول قادر على الاستيلاء متى شاء على الممتلكات الفرنسية والأسبانية في البحر الكاريبي. أما إذا أمكن المطاولة في الثورة، فإن فرنسا ستقوى، وإنجلترا تضعف، وتستطيع البحرية الفرنسية استكمال تجديدها. أما لويس فكان يرتعد فرقا لفكرة تقديم المعونة لثورة ما، وحذر فرجين من أي عمل سافر قد يفضي إلى حرب مع إنجلترا(96).

وفي أبريل كتب فرجين إلى بومارشيه يقول:

"سنعطيك سراً مليوناً من الجنيهات، وسنحاول الحصول على مبلغ مماثل من أسبانيا. (وقد حصلوا على هذا المبلغ) وبهذين المليونين عليك أن تؤلف شركة تجارية، وتزود الأمريكيين على مسؤوليتك بالسلح والذخيرة والأجهزة، وسائر الأشياء التي يحتاجون إليها لمواصلة الحرب. وستسلمك ترسانتنا السلح والذخيرة، ولكنك ستعوضها أو تدفع ثمنها. وإياك أن تطلب مالا من الأمريكيين، لأنهم لا يملكون المال، ولكن أطلب مقابلاً غلات أرضهم، التي سنساعدك على بيعها في هذا البلد"(97).

وبهذا المال اشترى بومارشيه المدافع والبنادق والبارود والثياب والأجهزة اللازمة لخمسة وعشرين ألف رجل، ثم أرسل هذه البضائع إلى ميناء كان دين قد جمع فيه عدة قرصنة أمريكيين وأعاد تجهيزهم. وقد شجع وصول هذه المعونة أو الوعد الوثيق بها المستعمرين على إصدار إعلان الاستقلال (4 يوليو 1776). فلما ترجم الإعلان إلى الفرنسية، وتداوله الناس بموافقة الحكومة الفرنسية الضمنية، استقبلته جماعة الفلاسفة بحماسة وفرح، وكذلك تلاميذ روسو الذين تبينوا فيه أصداء من "العقد الاجتماعي".

صفحة رقم : 14358

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> فرنسا وأمريكا

وفي سبتمبر عين الكونجرس الأمريكي. بنيامين فرانكلين وأرثر لي-ليمضيا إلى فرنسا مندوبين، وينضم إلى دين، ويلتمسا لا المزيد من الإمداد فحسب، بل التحالف السافر إن أمكن. ولم تكن هذه أول مرة ظهر فيها فرانكلين في أوروبا. ذلك أنه في 1774 ذهب إلى إنجلترا ولم يكن قد بلغ التاسعة عشرة، وقد اشتغل طباعاً، ونشر دفاعاً عن الإلحاد(98)، وعاد إلى فيلادلفيا والريوبية، وتزوج، وانضم إلى جماعة الماسون، وظفر بشهرة دولية بوصفه مخترعاً وعالمياً. وفي 1757 أوفد إلى إنجلترا ممثلاً لمجلس بنسلفانيا في نزاع ضرائبي. ومكث في إنجلترا خمس سنين، والتقى بجونسون وغيره من وجوه القوم، وزار إسكتلندا، والتقى بهيوم

وروبرتسن، ونال درجة عالية من جامعة سانت أندروز، وأصبح منذ الآن الدكتور فرانكلين. ثم عاد إلى إنجلترا من 1766 إلى 1776، وخطب في مجلس العموم معارضاً ضريبة الدمغة، وحاول المصالحة، ثم عاد إلى أمريكا حين رأى أن الحرب واقعة. وقد شارك في صياغة إعلان الاستقلال.

وصل فرانكلين إلى فرنسا في ديسمبر 1776 ومعه حفيدان له، وكان الآن في السبعين، ويبدو وكأنه الحكمة ذاتها مجسمة، والعالم كله يعرف ذلك الرأس الضخم والشعر المشتعل الخفيف، والوجه الشبيه بالبدر عند بزوغه المشرق. وأهال عليه العلماء أسباب التكريم، وادعى الفلاسفة والفزيوقراطيين أنه واحد منهم، ورأى المعجبون بروما القديمة فيه سنسناطوس، وسكيبو الأفريقي، والكاتوين، وقد بعثوا من مراقدهم، وصفت نبيلات باريس شعورهن في لمة مجعدة تقليداً لقبعته المصنوعة من فرو القندس؛ ولا ريب أنهن سمعن بغرامياته الكثيرة. وأذهلت الحاشية بساطة عاداته، ولباسه، وحديثه، ولكن بدلاً من أن يبدو مضحكاً في زيه القريب من زي الريفيين، كان اختياليهم في المخمل والحريم والمخزم هو الذي تبدى الآن كأنه محاولة فاشلة لإخفاء الواقع وراء مظهر كاذب. ومع ذلك قبلوه هم أيضاً، لأنه لم يستعرض أحلاماً لحكومات مثالية، بل تكلم بتعقل وإدراك سليم، وأظهر

صفحة رقم : 14359

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> فرنسا وأمريكا

الوعي الكامل بالمصاعب والحقائق كان يدرك أنه بروتستانت، ربوبي، جمهوري، يطلب العون من بلد كاثوليكي وملك تقي.

وقد باشر مهمته في حذر وحيطة. فلم يغضب أحداً، وأهيج كل إنسان. وقدم فروض الاحترام لا لفرجين فقط بل لميرباو الأب ولمدام دودفان، ولمع رأسه الأصلع في الصالونات وفي أكاديمية العلوم. وشرف نبيلاً شاباً هو الدوق دلا روشوكو أن يكون سكرتيره. وكانت الجموع تجري وراءه حين يظهر في الشوارع. ولقيت كتبه ترحيباً واسعاً حين ترجمت ونشرت "أعمالاً كاملة" وطبع من كتاب واحد "تقويم وتشرد المسكين" ثمانى طبعات في ثلاثة أعوام. واختلف فرانكلين إلى محفل "النوف سير" الماسوني ومنح العضوية الفخرية، وإعانة الرجال الذين التقى بهم هناك على كسب فرنسا في حلف مع أميركا. ولكنه لم يستطع أن يطلب للتو المعونة السافرة من الحكومة. وكان جيش واشنطن يتقهقر أمام السر وليم هاو، وبدا أن معنوية الجيش تحطمت. وبينما كان فرانكلين ينتظر أحداثاً أكثر يمناً أقام في باسي، وهي إحدى ضواحي باريس اللطيفة، وراح يدرس slash ويفاوض، ويكتب نشرات الدعاية تحت أسماء مستعارة، ويستضيف طورجو، ولافوازييه، وموريليه، وكاباني، ويغازل مدام دودتو في سانوا ومدام هلفتيوس في أوتوى، ولا عجب فقد كان في هاتين المرأتين فتنة جعلتهما جذابتين بغض النظر عن تقدمهما في العمر.

وكان بومارشيه وغيره أثناء ذلك يرسلون الإمداد إلى المستعمرات، وضباط الجيش الفرنسيون يتطوعون للقتال تحت إمرة واشنطن. كتب سيلاس دين في 1776 "تتكاثر علي تكاثراً رهيباً طلبات الضباط الراغبين في الذهاب إلى أمريكا... ولو كان لدي عشر سفن هنا لمألتها كلها بركاب لأمريكا" (99). والعالم كله يعرف كيف ترك المريكز لافاييت، البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، زوجة مخلصه حبلى ليرحل (ابريل 1777) ويقاثل بلا راتب جيش المستعمرات. وقد اعترف لواشنطن قائلاً "إن الشيء الوحيد الذي أتعتش إليه هو المجد" (100)، وفي سبيل المجد

أقتحم كثيراً من المخاطر وألوانا من الهوان، وجرح في براند يواين، وشارك في أهوال فالي فورج، وظفر بالمحبة الحارة من واشنطن رغم تحفظه المعهود.

صفحة رقم : 14360

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> فرنسا وأمريكا

وفي 17 أكتوبر 1777 هزم جيش للمستعمرين عدته عشرون ألف مقاتل قوة مؤلفة من خمسة آلاف جندي بريطاني وثلاثة آلاف مرتزق ألماني قادمين من كندا في ساراتوجا وأكرهها على الاستسلام. فلما بلغ نبأ هذا الانتصار الأمريكي فرنسا وجدت مطالبة فرانكلين، ودين، ولي، ببايرام حلف قبولاً بين مشيري الملك. غير أن نكير عارض إذ كره أن يرى ميزانيته التي قاربت التوازن تقلبها نفقات الحرب رأساً على عقب. إلا أن فرجين وموريبا ظفرا بموافقة لويس السادس عشر التي بذلها على مضض حين حذراه من أن إنجلترا-التي كانت عليمه منذ زمن طويل بالعون الفرنسي لأمريكا ومستاءة منه قد تبرم صلحاً مع مستعمراتها وتوجه كامل قوتها الحربية ضد فرنسا. وعليه ففي 6 فبراير 1778 وقعت الحكومة الفرنسية معاهدة مع "ولايات أمريكا المتحدة" أرست إحداهما علاقات التجارة، والمعونة، واشترطت الأخرى سراً أن ينضم الموقعان في الدفاع عن فرنسا إذا أعلنت عليها إنجلترا الحرب، ولا يبرم طرف صلحاً دون موافقة الآخر، ويواصل كلاهما قتال إنجلترا حتى يتحقق استقلال أمريكا. وفي 20 مارس استقبل لويس المبعوثين الأمريكيين، ولبس فرانكلين جوارب حريرية طويلة لهذه المناسبة. وفي أبريل وصل جون آدمز ليحل محل دين، وأقام مع فرانكلين في باسي، ولكنه وجد الفيلسوف العجوز في شغل بالنساء عن مهامه الرسمية. فنتشاجر معه، وحاول العمل على استدعائه لأمريكا، ففشل، وعاد إلى أمريكا. وعين فرانكلين وزيراً مفوضاً لدى فرنسا (سبتمبر 1779). وفي 1780، حين كان يبلغ الرابعة والسبعين، عرض الزواج دون جدوى على مدام هلفتيوس البالغة إحدى وستين سنة.

وأحب الفرنسيون كلهم تقريباً هذه الحرب عدا نكير. فقد كان عليه أن يجمع الأموال الطائلة التي أقرضتها فرنسا لأمريكا: مليون جنيه في 1776، وثلاثة ملايين أخرى في 1778، ومليوناً آخر في 1779، وأربعة في 1780، وأربعة في 1781، وستة في 1782 (101). وبدأ مفاوضات

صفحة رقم : 14361

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> فرنسا وأمريكا

سرية مع اللورد نورث (أول ديسمبر 1779) أملاً في العثور على صيغة للصلح (102). وكان عليه بالإضافة إلى هذه القروض أن يجمع المال لتمويل حكومة فرنسا وجيشها، وبحريتها، وبلاطها. وبلغت جملة ما اقترضه من المصرفيين والشعب 530.000.000 جنيه (103). وقد لاطف الأكليروس حين أقرضوه أربعة عشر مليوناً، ترد أقساطاً قيمتها مليون جنيه كل عام. وظل يرفض فرض الضرائب، مع أن ثراء الطبقات العليا كان يمكن أن يجعل هذا الإجراء غير مؤلم نسبياً، وسيشكو من خلفه في منصبه من أنه ألقى على عاتقهم هذه الضرورة التي لا محيص عنها. وقد حاباه المليون لأنه منحهم على قروضهم معدلات الفائدة العالية التي طالبوا بها بحجة أنهم إنما يغامرون بأخطار متزايدة، أخطار عدم استرداد قروضهم على الإطلاق. ورغبة في تنمية الثقة في المجتمع المالي، نشر نكير بموافقة الملك في يناير 1781 "تقريراً مقدماً للملك" هدفه إطلاع الملك والأمة على إيرادات الحكومة ومصروفاتها، وقد أضفى على الصورة إشراقاً بإسقاطه النفقات الحربية وغيرها من المصروفات "غير العادية"، وإغفاله الدين القومي. وأقبل الجمهور على شراء "التقرير" بمعدل ثلاثين ألف نسخة في اثني عشر شهراً. وحيأ الناس نكير ساحراً للمالية أنقذ الحكومة من الإفلاس. وطلبت كاترين الكبرى من جريم أن يؤكد لنكير "إعجابها الذي لا حد له بكتابه وبمواهبه" (104). غير أن البلاط غضب لأن "التقرير المقدم للملك" فضح الكثير جداً من مفاصد الماضي المالية، وكشف عن الكثير جداً من المعاشات التي تدفعها الخزانة. وهاجم بعضهم الوثيقة زاعماً أنها ليست إلا مديحاً للوزير بقلمه، وغار موريا من نكير غيرته من طورجو من قبل وانضم إلى غيره في التوصية بإقالته. أما الملكة فدافعت عنه وإن ساءت إجراءات الوفر التي اتخذها، ولكن فرجين سماه ثائراً (105). واشترك النظار الملكيون في اتهام نكير ومحاولة إسقاطه مخافة أن يحفظ التقويض سلطتهم بإنشاء المزيد من المجالس الإقليمية. وعمل نكير ذاته على سقوطه بأنه سيستقبل ما لم يمنح لقب الوزير وسلطته كاملين مع كرسي في المجلس الملكي، وقال موريا للملك أنه لو أوجب نكير إلى طلبه هذا

صفحة رقم : 14362

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> فرنسا وأمريكا

لتحلى جميع الوزراء الآخرين عن مناصبهم. واستسلم لويس، وأخلى سبيل نكير (19 مايو 1781) وحزنت باريس كلها لسقوطه إلا البلاط. وبعث يوزف الثاني بعزائه، ودعته كاترين الثانية للحضور وإدارة مالية روسيا (106). وفي 12 أكتوبر 1779 انضمت أسبانيا إلى فرنسا ضد إنجلترا. وأوشك الأسطولان الفرنسي والأسباني المجتمعان، ببوارج مجموعها 140، أن يعدلا بوارج البحرية البريطانية وعددها 150 (107)، وقطعا على بريطانيا سطوتها على

البحار. وقد أثر هذا التغيير في ميزان القوة البحرية تأثيراً حيوياً في الحرب الأمريكية. ذلك أن الجيش البريطاني الرئيسي في أمريكا، وعدته سبعة آلاف مقاتل يقودهم اللورد كورنواليس، احتل موقعاً حصيناً في يوركتون على نهر يورك قرب خليج تشيزابيك. وكان لافاييت برجاله الخمسة آلاف وواشنطن برجاله الأحد عشر ألفاً (بما فيهم ثلاثة آلاف فرنسي تحت إمرة الكونت روشامبو) قد التقيا عند يوركتون واستوليا على كل المداخل البرية الميسورة. وفي 5 سبتمبر 1781 هزم أسطول فرنسي بقيادة الكونت دجراس أسطولاً إنجليزياً صغيراً في الخليج، ثم أغلق كل مهرب مائي على قوة كورنواليس الأقل عدداً. فلما استنفد كورنواليس ذخيره استسلم هو وجميع رجاله (19 أكتوبر 1781). واستطاعت فرنسا أن تزعم أن دجراس، لافاييت، ورشامبو قد لعبوا أدواراً كبرى في ذلك الحدث الذي تبين أنه الفاصل في الحرب.

وطالبت إنجلترا الصلح. وأوفد شلبيرن بعثتين منفصلتين إلى الحكومة الفرنسية والمبعوثين الأمريكيين في فرنسا، أملاً أن يثير أحد الحليفين على الآخر. وكان فرجين (1781) قد فكر من قبل في الصلح مع إنجلترا على أساس اقتسام معظم أمريكا الشمالية بين إنجلترا وفرنسا وأسبانيا (108)، وبدأ نقاشاً مع أسبانيا ليبقي وادي المسيسيبي تحت السيطرة الأوروبية (109). وفي نوفمبر 1782 اقترح تأييد الإنجليز في سعيهم لإقضاء الولايات الأمريكية من مصائد الأسماك النيوفونلندية (110). كانت هذه المفاوضات متقنة تماماً مع السوابق الدبلوماسية، ولكن المبعوثين الأمريكيين أحسوا حين

صفحة رقم : 14363

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> فرنسا وأمريكا

علموا بها أن الوضع يبرر عملهم بمثل هذه السرية. واتفق فرجين وفرانكلين على أن لكل حلف أن يتعامل مع إنجلترا مستقلاً عن الآخر، على أن يوقع طرف أي معاهدة صلح دون موافقة الطرف الآخر (111). أما المفاوضون الأمريكيون خصوصاً جون جاي وفرانكلين فقد لعبوا اللعبة الدبلوماسية بمهارة فائقة، فلم يكسبا للولايات المتحدة الاستقلال فحسب، بل حق استعمال المصائد النيوفونلندية، ونصف البحيرات العظمى، وكل المنطقة الشاسعة الغنية الواقعة بين جبال الياجاني والمسيسيبي، وكانت هذه الشروط أفضل كثيراً مما توقع الكونجرس الأمريكي الحصول عليه. وفي 30 نوفمبر 1782 وقع جاي، وفرانكلين، وأدمز، معاهدة تمهيدية مع إنجلترا، كانت من الناحية الرسمية انتهاكاً للاتفاق المبرم مع فرجين، ولكنها اشترطت ألا يكون لها صلاحية حتى تبرم إنجلترا الصلح مع فرنسا. وشكا فرجين، ثم قبل الوضع. وفي 3 سبتمبر 1783 وقعت المعاهدة النهائية "باسم الثالث الأقدس غير المنقسم" (112) بين إنجلترا وأمريكا في باريس، وبين إنجلترا وفرنسا وأسبانيا في فرساي. وبقي فرانكلين في فرنسا سفيراً للولايات المتحدة حتى 1785. فلما قضى نحبه في فيلادفيا (17 أبريل 1790) لبست الجمعية التأسيسية الفرنسية الحداد عليه ثلاثة أيام.

وقد أفلست الحكومة الفرنسية نتيجة للحرب وأفضى ذلك الإفلاس إلى الثورة. فقد بلغ مجموع ما أنفقته فرنسا على الصراع بليوناً من الجنيهات، وكانت الفائدة على الدين القومي تجر الخزانة يوماً فيوماً إلى هاوية العجز عن السداد. على أن ذلك الدين كان مشكلة ببين الحكومة والأغنياء لا تكاد تؤثر في الشعب، الذي أثرى كثير من أفرادها بفضل

تنشيط الصناعة وقد أوديت الملكية-لا الأمة-أذى بليغاً، وإلا فكيف يستطيع التاريخ تعليل النجاح الذي ثبت به اقتصاد فرنسا الثائرة وجيوشها لنصف أوروبا من 1792 إلى 1815؟ لا ريب في أن روح فرنسا قد رفعت. فقد رأى رجال الدولة في صلح

صفحة رقم : 14364

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> البهاء الأخير -> فرنسا وأمريكا

1783 بعثاً ظافراً أقامها من كبوتها عام 1763. أما جماعة الفلاسفة فقد هللوا للنتيجة ورأوا انتصاراً لأرائهم، والحق، كما قال توكفيل "أن الأمريكيين بدوا كأنهم نفذوا ما حلم به كتابنا" (113). ورأى الكثير من الفرنسيين في الإنجاز الذي حققته المستعمرات إرهاباً يبشر بانتشار الديمقراطية في أوروبا كلها. وسرت الأفكار الديمقراطية حتى إلى الطبقة الأرستوقراطية والبرلمانات. وأصبح إعلان الحقوق الذي أصدره مؤتمر فرجينيا الدستوري في 12 يونيو 1776، وقانون الحقوق الذي ألحق بالدستور الأمريكي، من بعض الوجوه نموذجين حدا حدوهما إعلان حقوق الإنسان الذي أعلنته الجمعية التأسيسية الفرنسية في 26 أغسطس 1789. ولقد كان البهاء الأخير لفرنسا الإقطاعي، وأوج فروسيته، أن تموت وهي تعين على إرساء دعائم الديمقراطية في أمريكا. صحيح أن معظم رجال الدولة الفرنسيين كانوا يفكرون بلغة بعث قوة فرنسا وحيويتها. غير أن حماسة النبلاء من أمثال لافاييت وروكامبو كانت الحقيقة لأمرأء فيها. فلقد خاطروا بحياتهم غير مرة في سبيل الدولة الوليدة. كتب الكونت سيجور الشاب يقول "لم أكن قط الوحيد الذي خفق قلبه لصوت استيقاظ الحرية وهي تكافح للتخلص من السلطة الاستبدادية" (114). ونزل النبلاء الشهير عن حقوقهم الإقطاعية في الجمعية التأسيسية (4 أغسطس 1789) صور ومهد له هنا سلفاً. لقد كان ضرباً بأسلاً من الهاراكيري، بذلت فيه فرنسا المال والدم لأمريكا، ونالت لقاء ذلك دفعة جديدة قوية للحرية.

صفحة رقم : 14365

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> نهاية فولتير

الفصل الخامس والثلاثون

الموت والفلسفة

1774 - 1807

1 - نهاية فولتير

أ - الشفق في فرنیه

كان يناهز الثمانين في 1774، وكانت تغشاه نوبات إغماء في هذه السنين ونحن نسميها حالات بسيطة من النقطة، وقد سماها هو إنذارات صغيرة ولم يعبأ بها، لأنه وطن نفسه على الموت منذ أمد بعيد، ولكنه عمر واستمتع بإعجاب الملوك والملكات. فقد وصفته كاترين الكبرى بأنه "أشهر رجال عصرنا" (1). وكتب فرديريك الأكبر في 1775 "أن الناس يتزاحمون ويتجادون على شراء تماثيل فولتير النصفية بمصنع البرسلان" في برلين "حيث لا ينتجون التماثيل بسرعة تكفي لتلبية الطلب عليها" (2). وكانت فرنیه قد أصبحت منذ زمان كعبة يحج إليها المتقفون الأوربيين، أما الآن فكانت مزاراً دينياً تقريباً. فاستمع إلى مدام سوار عقب زيارتها لها في 1775 نقول: "لقد رأيت مسيو فولتير، أن نشوات القديسة تريزا لم تفوق قط تلك التي استشعرها وأنا أرى هذا الرجال العظيم. فقد بدا أنني في حضرة إله، إله محبوب معبود، استطعت في خاتمة المطاف أن أعرب له عن كل عرفني وكل احترامي" (3). وحين مر بجنيف عام 1776 كاد يخنقه المتحمس الذي التقف حوله (4). وقد واصل اهتمامه بالسياسة والأدب حتى في ثمانيناته. فحيا ارتقاء

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> نهاية فولتير

لويس السادس العرش بمديح تاريخي للعقل، اقترح فيه بأسلوب التنبؤ بعض الإصلاحات التي تحبب الأجيال القادمة في الحاكم الجديد:

"سوف توحد القوانين... وستلغي الوظائف المتعددة (التي يجمع بينها كنسي واحد) والإنفاق الذي لا حاجة إليه... وسيعطي للفقراء الكادحين تلك الثروة الضخمة التي يمتلكها فريق من الكسالى كانوا قد نذروا حياة الفقر من قبل. ولن تعد الزيجات التي تبرمها مائة ألف من الأسر (البروتستانتية) النافعة للدولة نوعاً من التسري، ولا أطفالها أبناء غير شرعيين.. ولن تعاقب الذنوب الصغيرة على أنها جرائم جسيمة.. ولن يستخدم التعذيب... ولن يكون هناك بعد سلطتان (الدولة والكنيسة)، لأنه لا يمكن أن يكون غير واحدة وهي سلطة قانون الملك في الملكية، وسلطة الأمة في الجمهورية... وأخيراً، سنجرؤ على أن نفوذه بكلمة التسامح"(5).

وقد أنجز لويس الكثير من هذه الإصلاحات، فيما عدا الكنيسة منها. وكان لتقواه الصادقة، ولاقتناعه بأن ولاء الكنيسة سند لا غنى عنه اعرضه، يأسف على تأثير فولتير. ففي يوليو 1774 أصدر حكومته تعليماتها لناظر برجنديه الملكي بمراقبة المهترق العجوز مراقبة يقطعة، ومصادرة أوراقه جميعها فور وفاته، وكانت ماري أنطوانيت تتعاطف مع فولتير، وقد بكت حين شهدت تمثيل مسرحية "تانكريد"، وقالت أنها تود أن "تعانق مؤلفها"(6)، فأرسل لها أبياتاً لطيفة.

وقد غمرته نوبة من التفاؤل يوم عين صديقه طورجو مراقباً عاماً للمالية، ولكن حين أقبل طورجو أصابه تشاؤم بسكالي قاتم حول أحوال البشر. ثم استعاد السعادة بتبنيه ابنة، وهي رين فليبرت دفاريكور التي قدمها إليه في 1775 على أنها فتاة تنوي أسرتها إدخالها أحد الأديرة لأنها تشكو فقراً يمنعها من تدبير مهر لها. وقد أذفاً جمالها البريء عظام الشيخ، فأخذها في بيته، وسماها "جميلة وطيبة" ووجد لها زوجاً-هو المركز دفلت الشاب الموسر. وتزوجا في 1777، وقضيا شهر العسل في فرنیه. كتب

صفحة رقم : 14367

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> نهاية فولتير

يقول "أن العاشقين الشابين بهجة للناظرين، وهما يعكفان على العمل ليل نهار ليصنعا فيلسوفاً صغيراً لي"(7)، ذلك أن الثمانين الأبترا اغتبط لفكرة الأبوة ولو بالأنابة.

وكتب أثناء ذلك آخر دراماته "بيرين" ودفعها إلى الكوميدي-فرانسيز. وقد أحدث قبولها (يناير 1778) مشكلة. ذلك أن الفرقة درجت على أن تقدم كل مسرحية حسب تاريخ قبولها، وكانت الفرقة قد تلقت مسرحيتين أخريين ووافقت عليهما قبل مسرحية فولتير-أحدهما بقلم جان فونسوا دلاهارب، والأخرى بقلم نيقولا بارت. وتنازل المؤلفان كلاهما للتو عن حقيهما المقدمين في التمثيل. وكتب بارت إلى الفرقة يقول:

"لقد قرأت عليكم تمثيلية جديدة بquam مسيو فولتير وكنتم على وشك النظر في تمثيل مسرحيتي "الرجل ذاته". وليس أمامكم الآن غير شيء واحد، هو ألا تفكروا في مسرحيتي أكثر من ذلك. وأنا عليم بالإجراء المتبع في هذه الأحوال، ولكن أي كاتب يجرؤ على المطالبة بالالتزام القاعدة في حالة كهذه؟ أن مسيو فولتير يقف فوق القانون كأنه ملك. وإذا لم يكن في الإمكان أن أنتشر بتقديم إسهامي في إمتاع الجمهور، فلا أقل من التثني عن طريق إبهاج الجمهور بمسرحية جديدة من القلم الذي أنشأ "زائير" و "ميروب". أني لأرجو أن تعرضوا هذه المسرحية بأسرع ما تستطيعون وأتمنى لو واصل مؤلفها، مثل سوفوكليس، تأليف التراجيديات حتى يبلغ المائة سنًا، ثم يموت كما تحيون أيها السادة مكللاً بفيض غامر من التصفيق" (8).

فلما بلغ النبا فولتير داعب في حب الذهاب إلى باريس ليشراف على إخراج مسرحيته. ذلك أنه لم يكن هناك على أية حال حذر رسمي أو صريح على دخوله باريس. وأي بأس في أن يهاجمه رجال الدين من فوق منابرهم؟ أنه ألف ذلك. وماذا لو أقنعوا الملك بزجه في الباستيل؟ حسناً، أنه ألف ذلك أيضاً. فيالها من فرحة أن يرى المدينة الكبرى مرة أخرى بعد أن غدت قسبة التتوير! لكم تغيرت طبعاً منذ فراره الأخير منها قبل

صفحة رقم : 14368

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> نهاية فولتير

ثمانية وعشرين عاماً! التي ملت فرنیه منذ زمن طويل، كثيراً ما توسلت إليه أن يعود بها إلى باريس. وعرض المركيز دفيليت أن يهيئ له أسباب الإقامة المريحة في قصره في شارع بون. وأقبلت الرسائل تترى من باريس صانحة: تعال!

فقرر أن يذهب. فإذا أجهزت عليه الرحلة فإنها لن تفعل أكثر من تقديم نهاية لا مفر منها زماناً يسيراً، فالآن حان وقت الموت. واعترض على الكفرة وحزن خدام بيته، ومشرفو مزرعته، وفلاحو أرضه، والعمال في مستعمرته الصناعية، فوعدهم بأن يعود بعد سبعة أسابيع، ولكنهم كانوا واثقين في حزن أنهم لن يروه بعدها أبداً، وأي خلف له سيعطف عليهم عطفه؟ فلما غادرت القافلة فرنیه (5 فبراير 1778) النف اتباعه من حوله، وبكى الكثير منهم، ولم يستطع هو ذاته أن يملك دموعه. وبعد خمسة أيام، ورحلة ثلاثمائة ميل، وقع بصره على باريس.

ب - تمجيد فولتير

حين بلغت المركبة أبواب باريس فتشها الموظفون بحثاً عن الممنوعات. وقال لهم فولتير مؤكداً "و ديني أيها السادة أنني أعتقد أن ليس هنا من ممنوع غير شخصي" (9). ويؤكد لنا سكرتيره فانيير أن سيده "تمتع طوال الرحلة بصحبة سابعة. فلم أره قط أروق مزاجاً، وكان مرحة مبهجاً" (10) للناظرين. وأعد له جناح في بيت مسيو دفلت في زاوية شارع بون والكي دي تياتر على الضفة اليسرى لنهر تاسين. وفور ترجله من مركبته سار على الرصيف قاصداً بيت صديقه دارجنثال القريب، وكان قد ناهز الثامنة والسبعين. ولم يكن الكونت في بيته، ولكن سرعان ما ظهر في قصر فيليب. وقال فولتير "توقفت عن الموت لآتي واراك". وبعثت إليه صديقة قديمة أخرى بكلمات ترحيب، فرد عليها بتأنقه المألوف في نعي نفسه "لقد وصلت ميتاً، ولا أريد أن أبعث حياً إلا لأرتمي تحت قدمي المركيزة دودفان" (11). وأبلغه المركيز جوكور أن لويس السادس عشر ثائر لمجيئه إلى باريس، ولكن

صفحة رقم : 14369

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> نهاية فولتير

مدام دبولنيك جاءت لتؤكد له أن ماري أنطوانيت ستحميه (12). ورغب الأكليروس في طرده، ولكن لم يوجد في السجلات أي حظر رسمي يحرم زيارة فولتير لباريس، واكتفى لويس برفض رجاء الملكة السماح للكاتب الذي أطبقت شهرته الآفاق بالمثول في البلاط (13). وحين ذاع في باريس نبأ خروج الرجل الذي حدد الطابع الفكري للقرن الثامن عشر من منفاه الطويل الأمد، تحولت قاعة الأوتيل فيليب إلى بلاط و عرض حقيقيين. وقد قيل أنه في 11 فبراير زاره ثلاثمائة شخص، منهم جلوك، وبلتيني، وطورجو، وتاليران، ومارمونتيل، والسيدات نكير، ودوباري، ودودفان. وأتى فرانكلين في صحبة حفيد له في السابعة عشرة، طالباً بركوة الشيخ الجليل عليه، ورفع فولتير يديه فوق رأس الصبي، وقال بالإنجليزية "يا بني، الله والحرية، تذكر هاتين الكلمتين" (14). فلما استمر سيل الزوار يتدفق يوماً بعد يوم كتب الدكتور ترونشان إلى المركيز دقيليت يقول: "أن فولتير يعيش الآن على رأسماله لا على الفائدة، ولن تلبث عافيته أن تتبدد من جراء أسلوب عيشه هذا. ونشرت هذه الرسالة القصيرة في "الجورنال دباري" في 19 فبراير، لمنع الفضوليين فيما يبدو من الزيارة" (15). أما فولتير نفسه فكان قد تنبأ في فرنيه بما سيكلفه انتصاره: "سأموت بعد أربعة أيام إن كان علي أن أحيى حياة أهل الدنيا" (16). وخطر لبعض رجال الدين أنهم قد يحققون نصراً كبيراً لو اصلحوا بينه وبين الكنيسة الكاثوليكية. وكان نصف راغب في هذا الصلح، لأنه كان عليماً بأن الذين ماتوا في أحضان الكنيسة هم وحدهم الذين يمكن دفنهم في أرض مقدسة، وكل المقابر في فرنسا كانت أرضها مقدسة. ومن ثم فقد رحب بخطاب ورد له في 20 فبراير من الأبيه جولتنيه يطلب مقابلته. وجاء الأبيه في اليوم الواحد والعشرين، وتحديثاً برهه، دون نتيجة لاهوتية معروفة. ثم رجعت مدام دني الأبيه أن ينصرف، وقال له فولتير أن له أن يحضر ثانية. وفي اليوم الخامس والعشرين أصيب فولتير بنزيف شديد،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> نهاية فولتير

ففتحت الدم من فمه وأنفه حين سعل. وأمر سكرتيرته بأن يستدعي جولتييه. ويقول فاجنبيير معترفاً: "لقد أمسكت رسالتي لأنني كرهت أن يقال أن مسيو فولتير قد تخاذل، فأكدت له أن الأبييه لم يمكن العثور عليه" (17). وكان فاجنبيير عليماً بأن الشكاك في باريس يعللون أنفسهم بأن فولتير لن يستسلم للكنيسة في اللحظة الأخيرة، ولعله سمع بنبوءة فردريك الأكبر، "أنه سيخزيينا جميعاً" (18).

وعاده ترونشان وأوقف النزيف، ولكن فولتير ظل يبصق الدم في الأيام الاثنتين والعشرين التالية. وفي اليوم السادس عشر كتب إلى جولتييه يقول: "أرجو أن توافيني بأسرع ما تستطيع" (19). وجاء جولتييه في صباح الغد فوجد فولتير نائماً، فانصرف. وفي اليوم الثامن والعشرين سلم فولتير فاجنبيير اعترافاً بالإيمان نصه: "إني أموت وأنا أعبد الله، وأحب أصدقائي، ولا أبغض أعدائي، وأكره الاضطهاد" (20). وعاد جولتييه في 2 مارس، وطلب فولتير الاعتراف على يديه، وأجاب الأبييه بأن جان دترساك كاهن سان-سولبيس اشترط عليه أن يحصل على عدول عن آرائه قبل أن يستمع إلى الاعتراف. واعترض فاجنبيير. وطلب فولتير قلماً وورقاً، وكتب بخطه:

"أنا الموقع أدناه، نظراً إلى إصابتي في الشهور الأربعة الماضية بتقيؤ الدم، ولما كنت عاجزاً وأنا في الرابعة والثمانين عن جر نفسي إلى الكنيسة، ولما كان كاهن سان سولبيس يريد أن يضيف إلى حسناته حسنة بإيفاد الأبييه جولتييه إلي، فقد اعترفت على يديه، (وأعلن) أنه إذا قبضني الله إليه، فإني أموت على الدين الكاثوليكي الذي ولدت، مؤملاً في رحمة الله أن تغفر لي كل أخطائي، وإذا كنت قد صدمت الكنيسة في يوم ما، فإني أطلب المغفرة من الله ومنها. التوقيع، فولتير، في الثاني من مارس 1778، في بيت المركز فيليب (21).

ووقع المسيو فيبيليفل والأبييه منيو (ابن أخت فولتير) الإقرار بوصفهما شاهدين. وحمله جولتييه إلى رئيس الأساقفة في ضاحية كونفلانس وإلى

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> نهاية فولتير

كاهن سان-سولبيس، فأعلن كلاهما أنه غير كاف(22). ومع ذلك استعد جولتييه لمناولة القربان لفولتير، ولكن فولتير اقترح تأجيل المناولة قائلاً "أنني أبصق الدم في سعالي باستمرار، ويجب أن نحذر من اختلاط دمي بدم الإله الصالح"(23). ولسنا ندري بأي روح قال هذه الكلمات-أبروح التقوى الصادقة أم بروح النزوة العارضة. وفي 3 مارس حضر دييرو، ودالامبير، ومامرونيتيل، ليعودوا المريض. فلما جاءه جولتييه في ذلك اليوم يحمل تعليمات من رئيسه بأن يحصل على اعتراف "أقل لبساً وأكثر تفصيلاً" قيل له أن فولتير ليس في حال تسمح له باستقباله. وعاد جولتييه عدة مرات، ولكنه في كل مرة كان يصرفه الحارس السويسري الواقف بالباب. وفي 4 مارس كتب فولتير إلى كاهن سان-سولبيس يعتذر لتعامله مع مرعوس له. وفي 13 مارس استقبل الكاهن، ولكن يبدو أن الزيارة لم تسفر إلا عن تبادل المجاملات(24). ثم توقفت نوبات النزيف أثناء ذلك.. فشعر فولتير بأنه يستعيد عافيته، وفترت تقواه.

وفي 16 مارس مثلت "أيرين" على مسرح التياتر-فرانسويه. وحضر الحفلة كل البلاط تقريباً بما فيهم الملكة. ولم تكن المسرحية مما يرقى إلى مستوى فولتير العادي، ولكنها ظفرت مع ذلك بالثناء باعتبارها إنتاجاً رائعاً لرجل في الرابعة والثمانين. أما فولتير الذي حالت شدة المرض بينه وبين حضور الحفلة فقد كان يحاط علماً باستجابة النظارة فصلاً، وفي اليوم السابع عشر جاءه وفد من الأكاديمية الفرنسية يحمل إليه تهنئتها. وفي 21 مارس شعر بأن فيه من العافية ما يسمح له بالخروج ركباً عربته، فزار سوزان دلفري، مركيزة جوفرتيه، التي كانت خليلته. قبل ثلاثة وستين عاماً. وفي الثامن والعشرين زار طورجو. وكان يوم 30 مارس يومه الأغر. فقد ذهب بعد ظهره إلى اللوفر ليحضر اجتماعاً للأكاديمية. قال دني فون فيزن، وهو كاتب روسي كان يومها في باريس "حين خرج ركباً عربته من بيته رافقها حتى الأكاديمية

صفحة رقم : 14372

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> نهاية فولتير

حشد لا آخر له من الناس الذين لم يكفوا عن التصفيق. وخرج جميع الأكاديميين للقائه"(25). ورحب دالامبير بمقدمة ب خطاب اغرورقت له عينا الشيخ. وأجلس فولتير في كرسي الرئاسة، وانتخب وسط التصفيق رئيساً لدورة أبريل الربيعية. فلما انتهت الجلسة ودعوه حتى مركبته، التي سارت من هناك بمشقة إلى التياتر-فرانسويه مخترفة حشداً ضخماً يردد الهتاف "يحيى فولتير".

فلما دخل المسرح قام النظارة والممثلون جميعاً لتحياه. وشق طريقه إلى المقصورة التي كانت تنتظره فيها مدام دني والمركيزة دفيليت. فجلس خلفها، ورجاه النظارة أن يبسر لهم رؤيته، فاتخذ مقعداً بين السيدتين. وجاء ممثل إلى المقصورة ووضع إكليلاً من الغار على هامة فولتير، فرفعه ووضع على رأس المركيزة، ولكنها أصرت على أن يقبله. وارتفعت أصوات بين النظارة تهتف "مرحباً بفولتير!" "مرحباً بسوفوكليس!" "الإجلال للفيلسوف الذي يعلم الناس أن يفكروا!" "المجد للمدافع عن كلاس!"(26) قال جريم، وكان شاهد عيان، "استمرت هذه الحماسة، هذا الهذيان الشامل، أكثر من عشرين دقيقة"(27). ثم عرضت "أيرين" للمرة السادسة. وفي ختام الحفلة طالب النظارة

بكلمة من المؤلف، فاستجاب فولتير. ورفع الستارة ثانية، وكان الممثلون قد أخذوا تمثالاً نصفياً لفولتير من البهو ووضعوه على خشبة المسرح، فكلله الآن بالغار، وقرأت مدام فستريس التي لعبت دور أيرين على فولتير أبياتاً في مديحه:

أمام عيون باريس المفتونة بك

تقبل اليوم تحية إجلال

سوف تؤكد لها الأجيال الصارمة

من عصر إلى عصر.

كلا، فما من حاجة بك

إلى بلوغ الشاطئ المظلم

صفحة رقم : 14373

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> نهاية فولتير

لتحظى بشرف الخلود.

فتقبل يا فولتير التاج

الذي قدم إليك،

فما أجمل أن تكون جديراً به

حين تكون فرنساً هي التي تقدمه (28).

وطلب النظارة إعادة الأبيات، فأعيدت. وخلال التصفيق غادر فولتير كرسيه، وأفسح له الجمع الطريق، وقاده إلى مركبته وسط جمهور يفيض حماسة. وجئ بالمشاعل، وأقنعوا السائق بأن يبسط السير بالمركبة، وصاحبها جمع حتى الأوتيل دفيليت (29). أن تاريخ الأدب الفرنسي بأسره لم يحو قط فيما نعلم مشهداً كهذا. كتبت مدام فيجيه لبرون التي شهدت هذا كله تقول: "كان الشيخ الذائع قد شف وهزل حتى لقد خشيت أن تؤذيه هذه العواطف الجياشة أذى مميتاً" (30). ونصح ترونشان بالعودة إلى فرنیه بأسرع ما يستطيع، ولكن مدام دني رجت خالها أن يجعل في باريس مقامه الدائم. فوافقها بعد أن أسكرته حرارة استقباله. وامتدح شعب باريس لأنهم أكثر شعوب الأرض مرحاً، وأدباً، واستنارة، وتسامحاً، ولأن لهم أرفع الأذواق، والملاهي، والفنون (31)، ونسي "الرعاع" لحظة، وراح يجوب باريس في مركبته باحثاً عن بيت يسكنه، وفي 27 أبريل اشترى بيتاً. واستشاط ترونشان غيظاً وقال "لقد رأيت حمقى كثيرين في حياتي، ولكن لم أر قط أكثر منه جنوناً. فهو يحسب سيعمر مائة عام" (32). وفي 7 أبريل أخذ فولتير إلى محفل "الأخوات التسع" الماسوني فقبل عضواً دون أن يلزم باجتياز المراحل التمهيديّة المألوفة. وكلل رأسه بأكليل من الغار، وألقى رئيس المحفل خطاباً قال فيه: "إننا نقسم بأن نساعد اخوتنا، ولكنك كنت المؤسس لمستعمرة كاملة تعبدك وتقض باحساناتك... لقد

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> نهاية فولتير

كنت أيها الأخ المحبوب جداً ماسونياً قبل أن تتال الرتبة، وقد حققت التزامات عضو الماسونية قبل أن تتعهد بالوفاء بها" (33). وفي اليوم الحادي عشر رد زيارة مدام دودفان فذهب ليراها في شقتها بدير سان-جوزيف، وتحسست وجهه بيديها الميصرتين. فلم تجد غير العظام، ولكنها كتبت في اليوم الثاني عشر إلى هوراس ولبول تقول: "أنه يفرض حيوية كالعهد به دائماً. وهو في الرابعة والثمانين، والحق أنني أحسبه لن يموت أبداً. وهو يستمع بجميع حواسه، ولم تضعف منها واحدة. أنه مخلوق فذ، وأسمى في الحقيقة بكثير من سائر الخلق" (34). فلما سمع الراهبات بزيارته نددن بالمركيزة لتدنيستها ديرهن بحضور رجل أدانت الكنيسة والدولة جميعاً (35). وفي 27 أبريل ذهب إلى الأكاديمية مرة أخرى. ودارت المناقشة حول ترجمة الأبييه دليل لكتاب بوب "رسالة إلى الدكتور أريثوت"، وكان فولتير قد قرأ الأصل، فهناً الأبييه على ترجمته، واغتنم الفرصة ليقتراح مراجعة "قاموس" الأكاديمية إثراء للغة المعتمدة بمئات الألفاظ الجديدة التي شفت طريقها إلى الاستعمال المهدب. وفي 7 مايو عاد إلى الأكاديمية بخطة للقاموس الجديد. وتطوع بأن يضطلع بجميع الألفاظ المبتدئة بالحرف أ، واقتراح أن يتكفل كل عضو بحرف، وعند رفع الجلسة شطهم "باسم الأبجدية"، ورد المركز رشاستلوكس "ونحن نشكر باسم الآداب" (36). وفي ذلك المساء حضر متكرراً حفلة تمثيل لمسرحيته "الزير". وفي ختام الفصل الرابع صفق النظارة للممثل لاريف، وشارك فولتير في الأعراب عن استحسانه "آه ما أروع هذا الأداء!" وتعرف عليه الجمهور، فتجددت مظاهر الحماسة العارمة التي شهدها 30 مارس مرة أخرى. ولعله خيراً فعل بالاستمتاع بتلك الأسابيع الأخيرة من حياته على حساب صحته، بدلاً من الانزواء في عقر داره وحيداً ليضيف إلى عمره بضعة أيام مؤلمة. وقد عكف بهمة عظيمة على خطته التي اقترحها لوضع قاموس جديد، وأسرف في تعاطي القهوة فقد بلغ ما شربه من أقداحها في اليوم أحياناً خمسة وعشرين حتى لقد جفاه النوم ليلاً. وساء حصره أثناء ذلك، وبات التبول أشد إيلاًماً وقصوراً، وسرت إلى دمه العناصر السامة التي

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> نهاية فولتير

كان يجب التخلص منها، فأحدثت بولينا في الدم. وأرسل له الدوق رثليو محلولاً من الأفيون أوصى به مسكناً ولكن فولتير أساء فهم الإرشادات فشرب قنينة كاملة منه مرة واحدة (11 مايو)، فأصابه هذيان دام ثماني وأربعين ساعة، وشوه الألم وجهه. واستدعي ترونشان، فأعطاه ما خفف عنه بعض الشيء، ولكن فولتير ظل عدة أيام لا ينطق بكلمة ولا يمسك طعاماً. والتمس أن يعيدوه إلى فرنیه، ولكن أوان ذلك كان قد فات.

وفي 30 مايو قدم الأبیه جولتييه وكاهن سان-سوليبس، مستعدين لمناولته سر الكنيسة المقدس إذا أضاف لاعترافه السابق بالإيمان إيمانه باللاهوت المسيح. وزعمت قصة لم يؤيدها مصدر آخر، وقد رواها كوندورسيه (37)، أن فولتير صاح "بالله لا تكلمني عن ذلك الإنسان!".

أما لاهارب فروى أن جواب فولتير كان "دعوني أموت في سلام". أما دنواريستير فقد قبل الرواية العادية: هي أن الكاهنين وجدا فولتير محمومًا يهذي، فانصرفا دون أن يناولاه القربان (38). وزعم ترونشان أن ساعات احتضار الفيلسوف اتسمت بالعذاب الشديد وبصيحات الغضب الشديد (39). ثم هدأت نامته أخيراً في الحادية عشرة من تلك الليلة.

ووضع الأبیه منيو جثمان خاله قائماً في مركبة، وكان قد توقع أن دفته في مقبرة باريسية سيرفض، وانطلق بها 110 ميلاً إلى دير سكلير في قرية رومي-على-السين هناك قام كاهن محلي بمراسم الصلاة التقليدية على الجثمان ورتل قداساً مطولاً فوقه، وسمح بدفنه في قبو الكنيسة.

وحظر أمر من لويس السادس عشر على الصحف نشر نبأ موت فولتير (40)، وطلبت الأكاديمية الفرنسية إلى الرهبان الفرنسيين إقامة قداس على روح الميت، ولكن لم يمكن الحصول على إذن بذلك. ورتب فردريك الأكبر، تحية من شك إلى شك، أن يقام قداس على روح فولتير في كنيسة كاثوليكية ببرلين، ونظم تأبيناً حاراً لصديقه وعدوه، قرئ على أكاديمية برلين في 26 نوفمبر 1778. وكتبت كاترين الكبرى لجريم تقول:

صفحة رقم : 14376

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> نهاية فولتير

"فقدت رجلين لم أرهما قط، أحبائي، وبجملتهما فولتير واللورد شاتام. وسيظل القوم زمناً طويلاً جداً، وربما إلى الأبد، يفتقدون من يعدلانهما، ولن يجدوا أبداً من يفوقانهما-خصوصاً أول الرجلين. منذ أسابيع كرم فولتير علانية، والآن لا يجرؤن على دفنه. يا له من رجل! أعظم رجل في أمته، لم تأخذ جثمانه باسمي؟ كان ينبغي أن ترسله إلى محنطاً... وكان سيحظى بأفخم مثوى... اشترى مكتبته وأوراقه بما فيها رسائله إن أمكن. وسادف لورثته ثمناً مجزياً" (41).

وتلقت مدام دني 135.000 جنيه نظير المكتبة التي نقلت إلى أرميثاج سانت بطرسبرج. وفي يوليو 1791، وبأمر الجمعية التأسيسية للثورة، نقل رفات فولتير من دير سكلير إلى باريس، وطافوا به المدينة في موكب نصر، ثم ووري في كنيسة سانت جنيفيف (التي ستسمى بعد قليل بالبانتيون). في ذلك العام أطلق على الكي دي تباتان رسمياً اسم جديد هو الكي د فولتير. وفي مايو 1814 خلال عودة الملكة البوربونيه، نقلت جماعة من

الغيلان الأتقياء رفات فولتير وروسو من الباتيون خفية، وأودعته غرارة ودفنته في مقلب بأطراف باريس. ولم يعثر للرفات بعد ذلك على أثر.

ج - تأثير فولتير

أنه يبدأ بلحظات العداء للأكليروس في "أوديب" (1718)، وهو تأثير فعال اليوم على نطاق عالمي تقريباً. وقد رأينا هذا التأثير يحرك الملوك: فرديريك الثاني، وكاترين الثانية، ويوزف الثاني، وجويفاف الثالث، وبدرجة أقل شارل الثالث ملك أسبانيا من خلال أراندا، وجوزف الثاني ملك البرتغال من خلال بومبال. ولم يعد له في العالم الفكري في المائتي سنة الأخيرة غير تأثير روسو وداروين. وبينما كان تأثير روسو الأخلاقي ينحو إلى الحنان، والعاطفة، وإعادة الحياة الأسرية والوفاء الزوجي، وكان تأثير فولتير الأخلاقي ينحو إلى

صفحة رقم : 14377

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> نهاية فولتير

الإنسانية والعدالة، وإلى تطهير القانون والعادات الفرنسية من المفاصد القانونية وألوان القسوة البربرية، فلقد حفز فولتير أكثر من أي فرد آخر تلك الحركة الإنسانية التي أصبحت من مفاخر القرن التاسع عشر. ولا حاجة بنا أن أردنا الإحساس بتأثير فولتير في الأدب إلا لتذكر فيلاند، وكلجرين، وجوته، وبابرون، وشلي، وهيني، وجوتيه، وريمان، وأناتول فرانس. ولولا فولتير لاستحال ظهور جيون؛ ويعترف المؤرخون بقيادته وإلهامه في التقليل من التركيز على جرائم الناس والحكومات وزيادة الاهتمام بتنميته المعرفة، والأخلاق، والسلوك، والأدب، والفن. وقد شارك فولتير في إنداب الثورة الفرنسية بإضعاف احترام الطبقات المثقفة للكنيسة وإيمان الطبقة الأرستقراطية بحقوقها الإقطاعية. ولكن تأثير فولتير السياسي بعد عام 1789 طغى عليه تأثير روسو. فقد بدأ فولتير شديد المحافظة، شديد الازدراء لجماهير الشعب، شديد الإلتسام بطابع السادة الإقطاعيين؛ وقد رفضه روبسبير. أما بونايرت فأحس التأثيرين في تعاقبهما العادي. قال منذراً تلك الحقبة "كنت حتى عامي السادس عشر على استعداد لمقاتلة أصدقاء فولتير دفاعاً عن روسو، أما اليوم فقد انعكس موقفي.. فكلما أمعنت في قراءة فولتير ازددت شغفاً به. فهو رجل معقول دائماً، لا بالمهرج ولا بالمتعصب أبداً" (42). وبعد عودة ملوك البوربون أصبحت مؤلفات فولتير أداة للفكر البورجوازي ضد النبلاء والأكليروس المنبعثين من جديد. وقد صدرت بين عامي 1718 و1829 اثنتا عشرة طبعة من مجموعة أعماله. في تلك السنوات الإثنتي عشرة بيع من كتب فولتير نيف وثلاثة ملايين مجلد (43). ثم أسلمت الحرب الشيوعية التي تزعمها ماركس وإنجلترا القيادة مرة أخرى لروسو. ويمكن القول بوجه عام أن الحركات الثورية منذ 1848 تبعت روسو أكثر من فولتير في السياسة، وتبعت فولتير أكثر من روسو في الدين.

وكان عمق تأثير فولتير وأبقاه على الزمن تأثيره على الإيمان الديني. ففضله وبفضل شركائه تجنبت فرنسا حركة الإصلاح الديني البروتستانتي،

صفحة رقم : 14378

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> نهاية فولتير

وانتقل رأساً من النهضة إلى التنوير، وربما كان هذا أحد أسباب العنف الشديد التي رافق التغيير، إذ لم يكن هناك فترة توقف عند البروتستانتية. وقد شعر بعض المتحمسين أن حركة التنوير في جملتها كانت إصلاحاً أعمق من ذلك الذي أحدثه لوثر وكلفن، لأنها لم تكف بتحدى مغالاة الكهانة والخرافة فقط، بل تحدث صميم أسس المسيحية، لا بل كل العقائد فوق الطبيعية. وقد جمع فولتير في صوت واحد كل ضروب الفكر المناهض للكاثوليكية، وأضفى عليها مزيداً من القوة بفضل الوضوح والتكرار وخفة الروح، حتى لقد بدا حيناً كأنه قد هدم الهيكل الذي ربي فيه. وقد حركت جماعة الفلاسفة الطبقات المفكرة في العالم المسيحي كله صوب ريبوية مهذبة أو إلحاد مستتر. وتأثير جيل جوته من الشباب في ألمانيا بفولتير تأثراً عميقاً وذهب جوته إلى أن "فولتير سيعد دائماً أعظم رجل في أدب العصور الجديدة، بل ربما جميع العصور" (44). وفي إنجلترا أحست أقلية لامعة بتأثير فولتير-جودوين، وبين، وماري وولستونكرافت، وبنجام، وباريون، وشلي؛ ولكن يمكن القول عموماً إن الربوبية الإنجليزية سبقته فقللت من حدة تأثيره، ثم أن السادة الإنجليز شعروا بأنه ليس هناك عقل مثقف يرضى بالهجوم على دين يهب مثل هذا العزاء المهدئ للطبقات الأضعف والجنس الأضعف. أما في أمريكا فإن الآباء المؤسسين كانوا كلهم تقريباً تلاميذ لفولتير. وهناك وفي إنجلترا غطى تأثير داروين والبيولوجيا الحديثة على تأثير فولتير في إضعاف الإيمان الديني، وفي عصرنا هذا يعاني اللاهوت المسيحي أكثر ما يعاني من وحشية حروبنا التي لا نظير لها، واقتحامات العلوم الطافرة التي تغزو تلك السماوات التي كانت يوماً ما مسكن الآلهة والقديسين.

ونحن مدينون لفولتير أكثر من أي إنسان آخر بذلك التسامح الديني الذي يسود الآن أوروبا وأمريكا الشمالية سيادة فلكة. ولقد رأى فيه أهل باريس لا مؤلف الكتب الفاصلة بين جيلين، بل المدافع عن كالاس وسرفان، ولم تجرؤ محكمة في أوروبا بعده على تحطيم جسد رجل على دولاب التعذيب لتهم وأدلة كتلك التي أدانت جان كالاس. صحيح أن كتباً مثل

صفحة رقم : 14379

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> نهاية فولتير

"أميل" ظلت تحظر وتحرق، ولكن رمادها أعان على بث أفكارها. وتقلصا الرقابة الدينية حتى انتهى بها الأمر إلى الإقاراً بالهزيمة في صمت. وإذا اضطر أبناؤنا يوماً إلى خوض معركة تحرير الفكر من جديد، وهو أمر يبدو جانزاً، فليلتسوا الإلهام والتشجيع في كتب فولتير التسعة والتسعين. ولن يجدوا فيها صفحة واحدة تبعث على الملل.

صفحة رقم : 14380

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

2- خاتمة روسو

1778 - 1767

أ - روح المعذب

حين وصل روسو إلى فرنسا في 22 مايو 1767 بعد مقامه التعس في إنجلترا، وبعد أن أشرف على الجنون، وجد بعض العزاء في الترحيب الذي لقيه من المدن التي اجتاز بها هو وتريز. ومع أنه سافر متخفياً تحت اسم جان-جوزف رينو، وكان لا يزال من الناحية القانونية خاضعاً للحظر الذي صدر ضده في 1762، إلا أن القوم تبيينوه وكرموه، واستقبله أميان استقبال الظافرين، وأرسلت له مدن أخرى "تبيذ المدينة".

وعرض عليه كثير من الفرنسيين- وكلهم من النبلاء- بيتاً يقيم فيه. أولهم ميرابو الأب، الذي خيره بين عشرين ضيعة، فاختار روسو فلوري- سو- مودون، القريبة من باريس. ولكن المركز ألح عليه إلحاحاً مزعجاً ليقرأ كتبه، فهرب روسو، ولجأ إلى لوي- فرانسوا البوربوني، أمير كونتي، في تربييه- لو- شاتو، القريبة من جيزور (21 يونيو 1767). ووضع الأمير القلعة بأسرها تحت تصرف جان- جاك، بل إنه أوفد الموسيقيين ليشنفوا أذنيه بالموسيقى الهادئة؛ وفسر روسو هذا بأنه اتهام له بالجنون، وخامره الظن بأن شوازيل والكونتيسة بوفليه (خليلة الأمير) انضموا إلى فولتير، وديدرو، وجريم، في التآمر عليه؛ والواقع أن فولتير كان قد اتهمه بإشعال النار في المسرح بجنيف، الذي احترق وأصبح أنقاضاً في 29 يناير 1768 (45). واعتقد روسو أن كل من في جيزور ينظر إليه كأنه مجرم. وتآق إلى العودة لجنيف، وكتب إلى شوازيل يرجوه إقناع مجلس جنيف بأن يكفر لروسو عن الإساءات الماضية التي ألحقها به (46).

صفحة رقم : 14381

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

وأرسل إليه شوازيل تصريحاً رسمياً بالسفر إلى أي بقعة يريدتها في فرنسا، وبأن يبرحها ويعود إليها متى شاء (47). وخطر لروسو الآن أن يعود إلى إنجلترا، فكتب إلى ديفنبروت يسأله أن كان يسمح له بأن يشغل ثانية بيت ووتن، وأجاب ديفنبروت بأنه يسمح بكل تأكيد. ثم هرب روسو من تري في يونيو 1768 خوفاً على حياته فيها، وترك تريز في القصر الريفى ضماناً لسلامتها. واستقل مركبة عامة إلى ليون، وأقام حيناً مع أقرباء دانييل روجن الذي كان قد وفر له الملجأ في 1762 في سويسرة. على أنه ما لبث أن اعتزل في فندق الجولدن فونتن في بوجوان- أن- دوفينه. وعلى باب حجرته كتب قائمة بالأشخاص الذين يعتقد أنهم يأترون به. ثم أرسل في طلب تريز، واستقبلها بالفرح والدموع، وقرر آخر الأمر أن يتزوجها. وقد تم هذا القران في حفل مدني بالفندق في 30 أغسطس 1768. وفي يناير 1769 انتقلا إلى بيت بمزرعة في موكان، قرب جربنوتل. وهناك كتب آخر صفحات، "الاعترافات"، وهي صفحات نصف مجنونة، وراح يهدئ أعصابه بدراسة علم النبات. ووجدت تريز أن طبعه يزداد حدة، وكانت هي ذاتها تعاني من الروماتزم والأوصاب الغامضة التي تصاحب أحياناً "تغيير المعيشة". وتشاجر الزوجان الحديثان مشاجرة بلغ من شدتها أن حملت روسو على الرحيل في رحلة طويلة لجمع النبات ودراسته بعد أن ترك لها خطاباً ينصحها بدخول الدير (12 أغسطس 1769) (48). فلما عاد ووجدها تنتظره تجدد حبهما. وندم الآن على انه تخلص من أطفالها. وأحس "أن الرجل الذي يستطيع تربية أولاده تحت بصره رجل سعيد جداً" (49). وكتب إلى أم شابة يقول: إن أجمل أسلوب في الحياة يمكن أن يوجد هو أسلوب الأسرة.. فما من شيء يندمج معنا بأشد وأثبت من أسرتنا وأبنائنا... ولكن أنا الذي يتكلم على الأسرة والأبناء-... سيدتي، أرثي لأولئك الذين يحرمهم قدرهم القاسي من هذه السعادة، أرثي لهم إن كانوا عاثرى الحظ فقط، ومزيداً من الرثاء لهم إن كانوا مذنبين!" (50).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

وكان الشتاء الذي قضته الأسرة في موكان شاقاً في بيت ريفي يقع في مهيب الرياح كلها. والتمست تريز منه الرحيل إلى باريس. وهكذا استأنف الزوجان أسفارهما الطويلة في 10 أبريل 1770 وأنفقنا شهراً لطيفاً في ليون، حيث مثلت أوبريت روسو عراف القرية، جزءاً من احتفال أقيم تكريماً له. ثم سافرا في مراحل بطيئة مخترقين ديجون، ومونبار، وأوجيز ثم بلغا باريس في خاتمة المطاف في 24 يونيو 1770. وأقاما في الطابق الرابع من نزله القديم في الأوتيل سانت اسبري، بشارع بلاتريير - واسمه الآن شارع جان - جاك روسو في حي من أشد أحياء المدينة ضجيجاً. وعاش عيشة متواضعة هادئة، يتكسب بنسخ الموسيقى ويدرس النبات، وكتب الآن (21 سبتمبر 1771) إلى ليناياوس رسالة يعرب فيها عن إجلاله (51). فلما ذاع أنه يقيم في باريس خف لزيارته قدامى الأصدقاء ومريده الجدد: الأمير لين (الذي عرض عليه بيتاً في ضيعته قرب بروكسل)، وجريترى، وجلوك (الذي حاء ليناياوس الموسيقى معه). والمسرح جولدوني، والمغنية صوفي أرنو، وجوستاف ولي عهد السويد، وشباب المؤلفين من أمثال جان - جوزف دوزو، وجاك - هنري برناردان دسان - بيير. وفي 1777 نال ما اشتهاه فولتير ولم ينله - وهو زيارة من الإمبراطور يوزف الثاني (52). ورد إليه تصريح الدخول إلى دار الأوبرا مجاناً، فكان يختلف إليها من حين لحين، ليسمع جلوك على الأخص. ووصفه برناردان دسان - بيير في هذه الحقبة (وكان الآن في الستين) بأنه رقيق البدن، متناسب الأعضاء، وله "جبين عال، وعينان متقدمتان. وفي غضون الجبين حزن عميق، ومرح حاد بل كاو" (53). وقد استفزه للعودة إلى القلم - رغم وعده عام 1762 بالكف عن التأليف - اتصال هجوم أعدائه عليه. وكان في سبيل الرد عليهم، وعلى كل ما دار حوله من شائعات معادية في باريس وجنيف، وقد اضطلع بكتابه "الاعترافات" (1765) ومن ثم أتم الكتاب الآن (نوفمبر 1770)، ومع أن روسو كان حتى ذلك الحين عازفاً عن نشره كاملاً، إلا أنه صمم على أن تطلع باريس على أجزاءه المتصلة لهذه الهجمات. وهكذا قرأ في

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

ديسمبر على مسامح دوزو وغيره، وفي حجرته، فقرات طويلة من أعظم كتاب ألفه، واستمرت القراءة سبع عشرة ساعة قطعها وجبتان خفيفتان عاجلتان(54). وفي مايو 1771 قام بتلاوة أخرى أمام الكونت والكونتيسة أجمون، والأمير بيناتلي أجمون، والمركيزة دميم، والمركيز جوينيه، واختتم بتحد من نار: "لقد كتبت الحقيقة. فإذا سمع أي شخص أشياء مناقضة لما قررته الآن، حتى إذا أثبتت ألف مرة، فهو لم يسمع سوى تشهير وافتراء، وإذا رفض بتاتاً أن يمحصها ويراجعها معي وأنا حي فهو ليس صديقاً للعدالة أو الحق. أما عن نفسي فأني أعلنها صريحة دون أدنى خوف أن كل من دقق النظر في بعينه- طبعي، وخليقي، وسلوكي، وميولي، ولذاتي، وعاداتي- حتى بغير قراءة كتابي، ثم حكم علي بأنني رجل غير شريف إنما يستحق أن يشنق"(55). والذين استمعوا إليه استنتجوا من شدة انفعاله أن عقله يوشك أن يختلط. وقال دوزو أن شكوك روسو واتهاماته لا تليق "بجان جاك الرجل السامح الفاضل"، فكان هذا النقد نهاية صداقتهما(56). وحمل غيره من المستمعين أصداء هذه القراءات إلى صالونات باريس، وأحس بعض ذوي النفوس الحساسة أن روسو قد افتري عليهم. وكتبت مدام ديبينيه إلى مفتش عام الشرطة تقول:

"يجب أن أحيطك علماً مرة أخرى بأن الشخص الذي حدثتك عنه صباح أمس قد قرأ كتابه على السادة دورا، وبيزيه، ودوز. ومدام يستخدم هؤلاء الرجال ليأتمنهم على القذف والتشهير فإن لك الحق في أن تحيطه برأيك في هذا الأمر. ويخيل إلي أنه ينبغي أن تكلمه بما يكفي من التلطف حتى لا يشكو، ولكن بحزم يثنيه عن العودة إلى خطئه. فإذا حصلت على كلمة شرف منه فأني أعتقد أنه لن يحنث بها. معذرة ألف مرة، ولكن سلامي النفسي كان في خطر"(57).

وطلبت الشرطة إلى روسو أن يكف عن قراءات، فوافق، وخلص إلى أنه لم يستطع قط أن يظفر بالاستماع المنصف إليه في حياته، وأعان

صفحة رقم : 14384

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

شعور الإحباط هذا على اختلاط عقله. وبعد عام 1772 أغلق بابيه دون الزوار كافة تقريباً عدا برناردان دسان-بيير. وكان في جولاته منفرداً يخامرهم الظن بأن كل من يمر به تقريباً عدو له. وفيما عدا أشباح العدا هذه فإنه احتفظ بطبيعته الطيبة الأصلية. فاكتتب رغم مقاومة فولتير في المال المجموع لإقامة تمثال له. وحين أرسل إليه أحد الأبناء الروحيين كراسه تندد بفولتير وبخ الكاتب قائلاً: "لا ريب في أن فولتير رجل رديء وليس في نيتي أن أثني عليه، ولكنه قال وفعل أشياء طيبة كثيرة جداً بحيث ينبغي أن نرخي الستار على أخطائه"(58). وحين كان ينصرف فكره عن "المؤامرة" التي يتخيلها من حوله، كان في استطاعته أن يكتب بوضوح كالعهد به من قبل، وبروح مدهشة من المحافظة والواقعية وقد رأينا كيف التمس المؤتمر البولندي المنعقد عام 1769 اقتراحاته بشأن دستور جديد. وقد بدأ كتابه "آراء حول حكومة بولندا" وفي أكتوبر 1771، انتهى منه في أبريل 1772. وأول انطباعاتنا عنه أنه يخرق جميع المبادئ التي دافع عنها من قبل دفاعاً مشوباً. فإذا أعدنا قراءته في شيوختنا كان عزاء لنا أن نرى أن روسو (وقد بلغ الستين) يمكن أن يشيخ هو أيضاً، وأن ينضج- كما يحب الشيوخ أن يقولوا.

فالرجل الذي صرخ قائلاً "ولد الإنسان حراً، وهو في كل مكان يرسف في الأغلال" هذا الرجل بعينه نبه الآن البولنديين، الذين حكم عليهم "حق النقض المطلق" بالفوضى، إلى أن الحرية امتحان عسير كما أنها عطية إلهية، وأنها تحتاج إلى مجاهدة للنفس أشق كثيراً من طاعة الأوامر الخارجية. قال:
"إن الحرية طعام قوي، ولكنه طعام يحتاج إلى هضم متين.. إنني أضحك من تلك الشعوب المنحطة التي تنثور لمجرد كلمة من متأمر دساس، والتي تجرؤ على التحدث عن الحرية وهي تجهل كل الجهل ما تعنيه، والتي تتصور أنه لكي يتحرر الإنسان يكفي أن يكون ثائراً متمرداً. أيتها الحرية المقدسة السامية! لبيت هؤلاء المساكين يعرفونك حق المعرفة، لبتهم يتعلمون أي

صفحة رقم : 14385

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> خاتمة روسو

ثمن يبذل للظفر بك ولصيانتك، وليت في الإمكان تعليمهم أن قوانينك أشد صرامة من نير الطغاة الثقيل!"(59). لقد علمت الحياة ومونتسكيو روسو أن مناقشات مثل "عقده الاجتماعي" إنما هي أحلام تعوم في الفراغ ونظريات مجردة لا تركز على الواقع. لذلك سلم الآن بأن جميع الدول تضرب جذورها في التاريخ والظروف، وأن مصيرها الفناء أن هي قطعت جذورها دون تمييز. ومن ثم فقد نصح البولنديين بالألا يدخلوا تغييرات فجائية على دستورهم، وبأن يحتفظوا بملكهم المنتخب على ان يقيدوا حق النقض المطلق، وبالكاثوليكية ديناً رسمياً للدولة مع تطوير نظام تعليمي مستقل عن الكنيسة(60). وقد بدت له بولنדה بحال مواصلاتها ووسائل نقلها الراهنة أوسع من أن تحكم من مركز واحد، فمن الخير إذن تقسيمها إلى ثلاث دول تتحد فقط في الاتصالات المشتركة والشئون الخارجية. ومن عجب أن الرجل الذي ندد من قبل بالملكية الخاصة أصلاً لكل الشرور، كرس الآن الإقطاعية البولندية، واقترح فرض الضرائب على جميع الأراضي، على أن تترك حقوق الملكية الراهنة دون مساس بها، ثم أعرب عن أمله في أن تلغى القنينة يوماً ما، ولكنه لم يدع إلى إنهاؤها في وقت قريب، فهذا في رأيه يجب أن يؤجل إلى أن يتاح للفقن مزيد من التعليم. وقد أكد أن كل شيء رهن بنشر التعليم، وتعزيز الحرية بأسرع من تعزيز الذكاء والأخلاق معناه فتح الباب على مصراعيه للفوضى وتقسيم البلاد.

غير أن التقسيم تم قبل أن يتمكن روسو من إنهاء مقاله، فالسياسة العملية تجاهلت تشريعه الفلسفي في بولنדה كما تجاهلته في كورسيكا. وقد شارك هذا الإحباط المزدوج في تكدير سنيه الأخيرة، وزاد من حدة احتقاره لجماعة الفلاسفة الذين أثنوا من قبل على أولئك الحكام- فردريك الثاني، وكاترين الثانية، ويوزف الثاني- الذين يقطعون الآن أوصال بولنדה، وامتدحهم باعتبارهم حكاماً مستبدين مستبشرين وملوكاً فلاسفة. وفي 1772 بدأ محاولة أخرى للرد على خصومه وسمي الكتاب "حوارات:

صفحة رقم : 14386

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

روسو يحاكم جان جاك". وقد عكف على هذا الكتاب الذي بلغت صفحاته 450 فترات متقطعة على مدى سنين أربع، وكان الظلام يغشى عقله أكثر فأكثر كلما مضى فيه. وقد رجحت المقدمة القارئ أن يقرأ الحوارات الثالثة قراءة دقيقة شاملة، "انظر إلى هذا التفضل الذي يطلبه منك قلب أثقله الحزن على أنه دين إنصاف تفرضه السماء عليك" (61). وقد اعترف بما يشوب الكتاب من "إسهاب مفرط وتكرار، وحشو، وفوضى" (62)، غير أن مؤامرة اتصلت خمسة عشر عاماً - فيما زعم - للنيل من سمعته، ولا بد أن يبرئ نفسه قبل أن يموت. وقد نفى وجود أي تضارب بين الفردية "الأحاديث وجماعية العقد الاجتماعي"، وذكر قراءه أن لم يرغب قط في أن يقضي على العلوم والفنون ويرتد إلى الهمجية. ووصف مؤلفاته - لا يما "جولي" و "أميل" - بأنها غنية في الفضيلة والحنان، وتساعل كيف يمكن أن يؤلف مثل هذه الكتب فاسق أنهكه المرض كما صوره المنتقصون من قدره (63). واتهم أعداءه بأنهم أحرقوا دمية تصوره، وبأنهم ألفوا السرينات عنه للهزاء به (64) وشكا من أنهم، حتى الآن، يراقبون كل زواره ويجرضون جيرانه على إهانته (65). ثم كرر قصة ميلاده، وأسراه، وصباه، ووصف رقة خلقه ونزاهته، ولكنه اعترف بما فيه من كسل، و "ميل إلى أحلام اليقظة" (66)، ونزوع إلى أن يخلق في جولاته منفرداً عالماً وهمياً يستطيع أن يسعد فيه ولو للحظة. وعزى نفسه بهذه النبوءة "أنا واثق من أنه سيأتي يوم يبارك فيه الناس الطيبون الشرفاء ذكراي ويكون على مصيري" (67).

ثم أضاف إلى الحوار الأخير فصلاً عنوانه "تاريخ هذا الكتاب" ذكر فيه كيف أنه لكي يلفت نظر باريس وفرساي لكتابه اعتزم أن يودع نسخة من المخطوط، موجهة إلى العناية الإلهية، على المذبح الأعلى في كاتدرائية نوتردام. وقد حاول هذا في 24 فبراير 1776، فلما وجد المذبح مسدوداً بدرابزين، حاول الدخول إليه من جانبه، فلما وجدهما مقفلين أصابه دوار، وخرج عدواً من الكنيسة، وراح يضرب على غير هدى ساعات

صفحة رقم : 14387

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

في الشوارع في شبه هذيان قبل أن يبلغ مسكنه" (68). ثم كتب نداء للشعب الفرنسي عنوانه "إلى جميع الفرنسيين الذين مازالوا يعشقون العدل والحق" ونسخ صوراً منه على إعلانات وزعها على المارة في الشوارع. وقد رفضها العديد منهم قائلين أنه ليس موجهاً إليهم (69). فأقلع عن محاولاته. واستسلم للهزيمة. وهدأت الآن ثائرته بعد أن راض نفسه على الإذعان. وكتب في هذه الفترة (1777-78) أجمل كتبه "أحلام جواب منفرد" فروى كيف أن أهل مونتبييه رفضوه وحصبوا بيته، وكيف اعتكف في الأيل دسان تببير في بحيرة بيبين. وهناك وجد السعادة، ثم راح- بعد أن استرجع ذكرى تلك الخلوة- يصور المياه الهادئة، والجدول المندفقة، والجزيرة تغطيها الخضرة، والسماء الكثيرة الصور والأشكال. وقد عزف على نغمة رومانسية جديدة بإلماعه إلى أن الروح المتألمة قد تجد دائماً في الطبيعة شيئاً يستجيب لمزاجها. ونحن نسأل أنفسنا حين نقرأ تلك الصفحات، أيستطيع رجل نصف مجنون أن يكتب بهذا الإقتان، وبهذا الوضوح، وأحياناً بهذا الهدوء والصفاء. ولكن الشكاوي القديمة تعود إلى الظهور، وينوح روسو من جديد لأنه نبذ أطفاله، وأنه لم يؤت الشجاعة البسيطة التي تمكنه من تربية أبنائه. وقد رأى طفلاً يلعب، فعاد إلى حجرته و"بكى وكفر عن ذنبه" (70).

وفي تلك السنين الأخيرة التي قضاها في باريس كان ينظر بعين الحسد إلى ذلك الإيمان الديني الذي سماه بحياة العامة من الناس المحيطين به إلى مسرحية من الموت والبعث. وكان أحياناً يختلف إلى خدمات الصلاة الكاثوليكية. وقد زار ديراً مع برناردان دسان- بيبير، وسمع الرهبان يتلون ابتهاً فقال "آه؛ ما أسعد الإنسان الذي يستطيع أن يؤمن" (71). إنه لم يستطع أن يؤمن (72)، ولكنه حاول أن يسلك كمسيحي، ويتصدق، ويفتقد المرضى ويواسيهم (73). وقد قرأ وكتب حواشي على كتاب توماس أكيميس "الاقتداء بالمسيح".

ثم خف إحساسه بالمرارة في نفسه بدنو أجله. وحين وصل فولتير

صفحة رقم : 14388

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

إلى باريس فانهاالت عليه أسباب التكريم، شعر روسو بالغيرة منه ولكنه تكلم بخير عن عدوه القديم. ووبخ أحد معارفه الذي سخر من تويج فولتير في التياتر- فرانسيه فقال: "كيف تجرؤ على السخرية من التكريم الذي بذل لفولتير في الهيكل الذي هو ربه، وبيد الكهان الذين ظلوا خمسين سنة يعيشون على روائعه؟" (74). ولما سمع بأن فولتير يحتضر قال متنبهاً "كانت حياتانا مرتبطين الواحدة بالأخرى، ولن يطول عمري بعده" (75).

وحين بدأ ربيع 1778 يزهر طلب بيتاً في الريف، فدعاه المريكيز رينيه دجيراردان ليسكن كوخاً على مقربة من قصره الريفى في ارمينونفيل، على نحو ثلاثين ميلاً من باريس. وذهب إليه جان- جاك وتريز في 20 مايو، وهناك راح يجمع العينات النباتية ويعلم النبات لابن المريكيز البالغ من العمر عشر سنين. وفي أول يوليو تعشى بشهية مع أسرة مضيفة. وفي صباح الغد أصيب بالنقطة ووقع على الأرض. فرفعته تريز إلى فراشه، ولكنه وقع منه، واصطدم بالأرض المبلطة صدمة حادة أحدثت قطعاً في رأسه تدفق منه الدم، وصرخت تريز مستغيثة، فحضر المريكيز، ووجد أن روسو قد فاضت روحه.

ولاحقته الافتراءات إلى النهاية. فأذاع جريم وغيره القصة التي زعمت أن روسو انتحر. وأضافت مدام دستال فيما بعد أنه قتل نفسه حزناً حين اكتشف خيانة تريز. وفاقت هذه القصة غيرها قسوة، لأن تعقيب تريز عقب موته بقليل

كشفت عن حبها له. قالت "إن لم يكن زوجي قديماً فمن يستطيع أن يكون؟" ووصف غير ذلك من الشائعات روسو بأنه مات مجنوناً، ولكن كل الذين كانوا معه في أيامه الأخيرة تلك وصفوه بالهدوء والصفاء. وفي 4 يوليو 1778 ووري الثرى في جزيرة الحور في بركة صغيرة على ضيعة جيرا ردان. وظلت جزيرة الحور هذه طويلاً كعبة يحج إليها الأتقياء، فأما المجتمع العصري كله - حتى الملكة - للصلاة على قبر روسو. وفي 11 أكتوبر 1794 نقل رفاته إلى البانتيون حيث ثوى إلى جوار رفات فولتير.

صفحة رقم : 14389

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> خاتمة روسو

ومن ذلك المرفأ الذي نعما فيه بسلام الجوار نهضت روحاهما لتجددا حربهما في سبيل الثورة، وفرنسا، والإنسان الغربي.

ب - تأثير روسو

وهكذا ننتهي كما بدأنا بالتأمل المعزز بالدليل الآن، في ذلك الأثر الذي لا يصدق، والذي خلفه روسو في أدب القرن الذي بدأ بموته، وفي بيداجوجيته وفلسفته، ودينه، وأخلاقه، وعاداته، وفنه، وسياسته. والكثير مما كتب يبدو اليوم أن فيه غلواً، أو إسرافاً في العاطفة، أو سخفاً، و "الاعترافات" و "أحلام اليقظة" فقط هما اللذان يحركان مشاعرنا، ولكن حتى أمس كانت كل كلمة من كلماته تسمع في ميدان أو آخر من ميادين الفكر الأوربي أو الأمريكي. إن روسو كما قالت مدام دستال "لم يخترع شيئاً، ولكنه أشعل النار في كل شيء" (76). فأول شيء بالطبع هو أنه كان بمكانة الأم من الحركة الرومانتيكية. وقد رأينا غيره كثيرين يبذرون بذرتها. "طومسون، وكولنز، وجراي، ورتشردسن، وبريفو، والمسيحية ذاتها، التي يعد لاهوتها وفنها أعجب ضروب الرومانسية قاطبة. ولكن روسو أنضح البذار في مستنبت عواطفه الدافئ، وأسلم لنا الثمرة مكتملة النمو خصبة منذ مولدها، وفي "الأحاديث" و "العقد الاجتماعي" و "أميل" و "الاعترافات". ولكن ما الذي سننيه بالحركة الرومانتيكية؟ تمرد الزجدان على الفكر، والغريزة على العقل، والعاطفة على الحكم، والذات على الموضوع، والنزعة الذاتية على الموضوعية، والوحدة على التجمع، والخيال على الواقع، والخرافة والأسطورة على التاريخ، والدين على العلم، والتصوف على الشعائر، والشعر والنثر الشعري على النثر والشعر النثري، والفن القوطي المحدث على الكلاسيكي المحدث، والأنثوي على الرجولي، والحب الرومانسي على زواج المصلحة، و "الطبيعة" و "الطبيعي" على المدنية والتكلف، والتعبير العاطفي على الضوابط العرفية، والحرية الفردية على النظام الاجتماعي، وتمرد الشباب على السلطة، والديموقراطية على الأرستقراطية، والإنسان في

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

مواجهة الدولة- وباختصار، تمرد القرن التاسع عشر على الثامن عشر، أو بعبارة أكثر تحديداً، الفترة 1760-1859 على 1648-1760: هذه كلها أمواج للمد الرومانتيكي العظيم الذي اكتسح أوروبا فيما بين روسو وداروين. ولقد وجد كل من هذه العناصر تقريباً في روسو تعبيراً وتأيداً، ووجد بعض الدعم في حاجات العصر وروحه. ذلك أن فرنسا كانت قد ملت الفكر الكلاسيكي والانضباط الأرستقراطي. فأتاح تمجيد روسو للوجدان تحرراً للغرائز المكبوتة، والعاطفة المكظومة، والأفراد والطبقات المظلومة. وأصبحت "الاعترافات" كتاب الوجدان المقدس كما كانت "الموسوعة" العهد الجديد لعصر العقل. ولا يعني هذا أن روسو رفض العقل، فهو على العكس وصفه بأنه عطية إلهية، وقبله حكماً نهائياً (77)، ولكنه أحس أن نوره البارد في حاجة إلى دفء القلب ليلهم العمل والعظمة والفضيلة. وأصبحت "الحساسية" شعار النساء والرجال.. وتعلم النساء الإغماء، والرجال البكاء، بأسرع من ذي قبل، وتذبذبوا بين الفرح والحزن، ومزجوا الاثنين في دموعهم. وقد بدأت الثورة "الروسوية" على صدور الأمهات، هاتيك الصدور التي آن الآن أوان تحريرها من عقاب المشدات؛ على أن هذا الجانب من الثورة كان أصعب جوانبها، ولم يعقد له النصر إلا بعد أكثر من قرن تراوح فيه الحبس والإفراج. وبعد نشر "أميل" أرضعت الأمهات الفرنسيات أطفالهن، حتى في دار الأوبرا، وفيما بين الألحان (78). وأطلق الطفل من سجن أقمطته، وقام أبواه على تربيته بأنفسهم. فإذا التحق بالمدرسة حظي بالتعليم "على طريقة روسو" في سويسرا أكثر منه في فرنسا، ولما كانت النظرة للإنسان الآن تعده خيراً بطبيعته، فإن التلميذ يجب أن ينظر إليه لا على أنه عفريت صغير مشاكس بل ملاك رغبته هي صوت الله. ولم تعد حواسه تدان لأنها أدوات الشيطان، بل تعد أبواباً للخبرات المنيرة ولمنات المباهج البريئة. ووفقاً للنظرة الجديدة لا تعود حجرات الدرس سجوناً. أما التعليم فيجب أن يجعل طبيعياً وساراً بتقنيح حب الاستطلاع

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

والقوى الفطرية وتشجيعها. واما حشو الذاكرة بالحقائق، وخلق الفكر بالعقائد القطعية، فيجب أن يحل محلها التدريب على فنون الإدراك الحسي، والحساب، والتفكير. ويجب أن يتعلم الأطفال من الأشياء لا من الكتب كلما أمكن. من النبات في الحقل، والصخور في التربة، والغيوم والنجوم في السماء. وقد حفز التحمس لأفكار روسو التربوية بستلوتزي ولافاتير في سويسرا، وبازدوف في ألمانيا، وماريا مونتسوري في إيطاليا، وجون ديوي في أمريكا؛ و "التربية التقدمية" هي جزء من تراث روسو، وقد نشأ فريدرش فروبل نظام رياض الأطفال في ألمانيا، ومنها انتشر في العالم الغربي طويلاً وعرضاً.

ثم أدركت الفن نفحة من الإلهام الروسي. فقد أثر تمجيد الطفولة في جروز ودمام فيجيه- لبرون، وعكست لوحات الفنانين من المدرسة السابقة- للرفائيلين في إنجلترا تمجيد العاطفة والغموض. وأعمق من هذا أثر روسو في الأخلاق والسلوك. فطراً المزيد من دفء الصداقة ووفائها، ومن التضحيات والاهتمامات المتبادلة. واقتنص الحب الرومانسي الأدب وشق طريقه إلى الحياة. واستطاع الأزواج الآن أن يحبوا زوجاتهم دون هزء بالتقاليد؛ واستطاع الآباء أن يحبوا أبناءهم، وأصلح ما فسد من الأسرة، "كان الناس يعضون عن الخيانة الزوجية، أما روسو فقد جرؤ على اعتبارها جريمة" (79). صحيح أنها استمرت، ولكنها لم تعد أمراً لا غنى عنه. وحل محل الإعجاب الأعمى بالمحظيات الشفقة على المومسات. وقاوم احتقار العرف طغيان الأتيكيت. وارتفعت سمعة الفضائل البورجوازية، كالاجتهاد، والاقتصاد، وبساطة العادات واللباس. واما قليل ستطيل فرنسا "الكيلوت" (السرراويل القصيرة) إلى سراويل طويلة وتصبح "صان- كيلوت" (متطرفة) في زيها كما هي في سياستها. وقد ساهم روسو مع البستنة الإنجليزية في تغيير الحدائق الفرنسية من رتابة طراز النهضة إلى المنحنيات الرومانتيكية والأركان الفجائية، وأحياناً إلى فوضى برية و "طبيعية". وانطلق الرجال والنساء من المدينة إلى الريف، وزوجوا

صفحة رقم : 14392

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

بين حالات الطبيعة وحالاتهم النفسية وتسلق الرجال الجبال، والتمس الرجال منهم الوحدة ودلل "أنا". واستسلم الأدب بجملته تقريباً لروسو والموجة الرومانتيكية، فغمر جوته بطله "فوتر" فيفيض من الحب، والطبيعة، والعبرات (1774)، وجعل بطله فاوست يختزل نصف روسو في كلمات ثلاث "الوجدان هو الكل". قال في 1787 مسترجعاً ذكرياته "كان لكتاب أميل وما حوى من عواطف تأثير شامل على العقل المثقف" (80) وأكد شيلر التمرد على القانون في "الصوص" (1781)، وحباً روسو محرراً وشهيداً، وقران بينه وبين سقراط (81) "تعالى يا روسو وكن لي مرشداً" (82). وأعانت بلاغة روسو على تحرير الشعر والمسرحية الفرنسيين من قواعد بوالو، وتقليد كورنيي وراسين، وقيود الأسلوب الكلاسيكي الصارمة. وقد أبدع برناردان دسان- بيير، وهو تلميذ منحمس لروسو، رائعة رومانسية في "بول وفرجينى" (1784). وانتصر تأثير جان- جاك الأدبي بعد الفاصل النابليوني في أشخاص شاتوبريان، ولامارتين، وموسيه، وفيني، وهوجر، وجوتيه، وميشليه، وجورج صاند. وقد أنجب هذا التأثير جيلاً من

الاعترافات، وأحلام اليقظة، وقصص العاطفة أو الغرام، وحبذا تصور العبقريّة على أنها فطرية لا تعرف قانوناً، وأنها القاهرة لتقليد والتقييد، فحرك في إيطاليا ليوباردي، وفي روسيا بوشكين وتولستوي، وفي إنجلترا وردزورث، وصدي، وكولردج، وبابرين، وشلي، وكيتس، وفي أمريكا هو ثورن وثورو.

ونصف فلسفة القرن المحصورين "هوليز الجديدة" (1761) وكتاب داروين "أصل الأنواع" (1859) يلونه تمرد روسو على عقلانية حركة التنوير. والواقع أن روسو كان قد أعرب من قبل في رسالة وجهها عام 1751 إلى بورد عن احتقاره للفلسفة (83)، وأقام احتقاره هذا على عجز العقل في زعمه عن تعليم الفضيلة للناس. فالعقل يبدو أنه بغير حس أخلاقي، وهو يناضل للدفاع عن أي رغبة مهما كانت فاسدة إذن فالحاجة إلى شيء

صفحة رقم : 14393

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

آخر - إلى وعي فطري بالصواب والخطأ، حتى هذا الوعي لا بد من أن يدفعه الوجدان إن أريد منه أن يولد الفضيلة، وأن ينجب رجلاً فاضلاً لا آلة حسابية ماهرة.

وهذا بالطبع كلام قاله بسكال من قبل، ولكن بسكال كان قد رفضه فولتير، وفي ألمانيا كانت "عقلانية" فولف في صعود في الجامعات. وحين أصبح إيمانويل كانت أستاذاً في كونجزبرج كان قد اقتنع بما قاله هيوم وجماعة الفلاسفة الفرنسيين من أن العقل وحده لا يمكنه أن يقدم الدفاع الكافي حتى عن أساسيات اللاهوت المسيحي. ولكنه وجد في روسو سبيلاً لإنقاذ تلك الأساسيات: وهي أن تنكر مفعول العقل في العالم فوق الحسي، وتؤكد استقلال الفكر، وأولية الإرادة، والقوة المطلقة للضمير الفطري؛ وتستتبط حرية الإرادة، وخلود النفس، ووجود الله، من شعور الإنسان بالتزام غير مشروط بالقانون الأخلاقي. وقد أقر كانت ببذنه لروسو، وعلق صورته على جدار مكتبه، ونادى به "نيوتنا" للعالم الأخلاقي (84). وشعر ألمان آخرون بروح روسو تنتقمصهم: ياكوبي في فلسفة الوجدان، وشلايتر ماخر في تصوفه الدقيق النسيج، وشوبنهاور في تمجيده للإرادة. وتاريخ الفلسفة منذ كانت صراع بين روسو وفولتير.

أما الدين فقد بدأ بتحريم روسو، ثم انتقل إلى استخدامه منقذاً له. وأجمع القادة البروتستانت والكاثوليك على تكفيره، ووضع على صعيد واحد مع فولتير وبيل بوصفهم رجالاً "يبثون سموم الضلالة والفسوق" (85). ومع ذلك فحتى في حياة روسو وجد نفر من رجال الدين والعلمانيين راحة وعزاء حين سمعوا أن قسيس سافوا قد قبل بتحمس العقائد الجوهرية للمسيحية، وأنه نصح الشكاك بأن يثوبوا إلى إيمانهم الأصيل. وحين فر روسو من سويسرا عام 1765 رحب به أسقف ستراسبورج، وبعد أن عاد من إنجلترا وجد بعض الكاثوليك الفرنسيين يستشهدون بأقواله شاكرين في ردهم على غير المؤمنين، وترأوهم الآمال في هدايته الطاهرة.

وقد حاول منظرو الثورة الفرنسية إقامة أخلاقية مستقلة عن العقائد

صفحة رقم : 14394

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

الدينية؛ على أن روبسبير في إقتدائه بروسو أفلح عن هذه المحاولة لفشلها، والتمس قوة تأييد المعتقدات الدينية في صيانة النظام الأخلاقي والمضمون الاجتماعي. وأدان جماعة الفلاسفة لأنهم رفضوا الله وأبقوا على الملوك؛ أما روسو (في رأي روبسبير) فقد ارتفع فوق هامات هؤلاء الجبناء، وهاجم جميع الملوك بشجاعة وجاهر بالدفاع عن الله والخلود(86).

وفي 1793 بلغ تراثا فوليتير وروسو المتنافسان مرحلة الحسم في الصراع بين جان-رينيه إيبير ومكسليان روبسبير. فأما إيبير، أحد قادة كومون باريس، فقد اتبع العقلانية الفولتيرية، وشجع انتهاك حرمت الكنائس، وأقام العبادة العلنية للآلهة العقل (1793). وأما روبسبير فكان قد رأى روسو أثناء مقام هذا الفيلسوف آخر مرة في باريس. وقال مناجياً جان-جاك "إيه أيها القديس!.. لقد تطلعت إلى محياك المهيب... وفهمت كل أحزان حياة نبيلة كرسست نفسها لعبادة الحق"(87). وحين تقلد روبسبير زمام السلطة أقتنع المؤتمر الوطني بتبني "إعلان الإيمان" الذي دان به قسيس سافوا دينياً رسمياً للأمة الفرنسية، وفي مايو 1794 افتتح مهرجان الكائن الأعظم إحياء لذكرى روسو. وحين أرسل إيبير وغيره إلى الجيلوتين بتهمة الإلحاد، شعر بأنه يتبع نصائح روسو بحذافيرها. ووافق نابليون اللأدري روبسبير على الحاجة إلى الدين، وأعاد وضع الحكومة الفرنسية في جانب الله (1802). ثم أعيدت الكنيسة الكاثوليكية إعادة كاملة بعودة الملكية البوربونية الفرنسية (1814) وكسبت أقلام شاتوبريان، ودميتر، ولامارتين، ولامنية القوية، ولكن الإيمان القديم اتكأ الآن أكثر فأكثر على حقوق الوجدان لا على جح اللاهوت، فحارب فولتير وديدرو ببسكال وروسو. وازدهرت من جديد تلك المسيحية التي بدت محتضرة في 1760- في إنجلترا الفكتورية وفرنسا في عهد عودة الملكية.

ونحن الآن فقط- من الناحية السياسية- نخرج من عصر روسو، وأول علامة على تأثيره السياسي كانت في موجة التعاطف العام الذي أيد المعونة الفرنسية الفعالة للثورة الفرنسية. وقد اقتبس جفرسن إعلان الاستقلال من روسو كما اقتبسه من لوك ومونتسكيو، واستوعب الكثير من كل من

صفحة رقم : 14395

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

فولتير وروسو حين كان سفيراً لدى فرنسا (1785-89)، وردد صدى جان-جاك في افتراضه أن هنود أمريكا الشمالية "يتمتعون في جملتهم بقدر من السعادة يفوق بمراحل أولئك الذين يعيشون في ظل الحكومات الأوروبية" (88). وقد رفع نجاح الثورة الأمريكية مكانة فلسفة روسو السياسية.

وتزعم مدام دستال أن نابليون عزا الثورة الفرنسية إلى روسو أكثر من أي كاتب آخر (89). وقد ذهب إدمند بيرك إلى أن في الجمعية التأسيسية للثورة الفرنسية (1789-91) خلافاً كبيراً بين زعمائهم على أيهم أقرب شبيهاً بروسو. والحق أنهم جميعاً يشبهونه... فإياه يدرسون، وإياه يتأملون، وإليه يرجعون في كل الوقت الذي يستطيعون اقتناصه من شروهم المجهد نهاراً أو فجورهم وعربدتهم ليلاً. فروسو هو كاهن كتابهم المقدس... وله يقيمون أول تماثيلهم (90). وفي 1799 استعاد مالميه دويان إلى الأذهان أن "روسو كان له قراء من الطبقتين الوسطى والدنيا أكثر مائة مرة مما لفولتير. فهو وحده الذي لفق الفرنسيين بعقيدة سيادة الشعب... ومن الصعب ذكر ثوري واحد لم ينتشي بهذه النظريات الفوضوية ولم يشتعل بغيرة تحقيقها... وقد سمعت مارا في 1788 يقرأ "العقد الاجتماعي" ويعلق عليه في الشوارع العامة، فيقابله السامعون المتحمسون بالتصفيق"... (91).

واستشهد الخطاب في طول فرنسا وعرضها بأقوال روسو في التبشير بسيادة الشعب؛ وبعض الفضل في استطاعة الثورة أن تعيش عقداً من الزمان رغم خصومها وشططها راجع إلى الترحيب العام الذي لقبته هذه العقيدة. وقد اتصل تأثير روسو في السياسة طوال تقلبات الثورات والرجعية. وبسبب تناقضاته، وبسبب القوة والحماسة اللتين بشر بهذه التناقضات بهما، وجد فيه الفوضويون والاشتراكيون على السواء نبياً وقديساً؛ ذلك لأن كلنا

صفحة رقم : 14396

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتمة روسو

الدعوتين المتعارضتين وجدنا غذاء في إدانته الأغنياء وعطفه على الفقراء. وقد ألهمت النزعة الفردية التي اتسمت بها أول "الأحاديث" ورفضته "المدينة" الثوار من بين، وجودوين، وشلي، إلى تولستوي وكرويويتكين وإدوارد كاربنتر. قال تولستوي "كنا أنا في الخامسة عشرة أحيط عنقي بميدالية عليها صورة روسو بدلاً من الصليب المعنّاد" (92). وقد وفرت عقيدة المساواة، التي بشر بها ثاني "الأحاديث" موضوعاً أساسياً لضروب متنوعة من النظرية الاشتراكية، من "جراكوس" بابوف وشارل فورييه وكارل ماركس إلى نيقولا لينين. ويقول جوستاف لانسون "كان كل تقدم أحرز طوال قرن من الزمان في الديمقراطية، والمساواة، وحق التصويت للجميع، وكل دعاوى الأحزاب المتطرفة التي قد تكون موجة المستقبل، والحرب على الثراء والملكية، وكل الحركات المحرصة للجماهير الكادحة المعانية، كل أولئك كان، من بعض النواحي، من عمل روسو" (93) أنه لم يخاطب المتفقين والكبار بالمنطق والحجة، بل تكلم إلى الشعب كله بشعور وحماسة في لغة يستطيعون فهمها، وكانت حرارة بيانه، في السياسة كما في الأدب، أقوى من سلطان قلم فولتير.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> لحن سير جنائزي

3- لحن سير جنائزي

بعد أن رأى ديدرو عام 1778 سأل صديقاً "لم يتحتم أن يموت؟" (94). ولقد بدا لحن السير الجنائزي الذي شيعت به جماعة الفلاسفة، من موت هلفنيوس في 1771 إلى موت موريلية في 1819، كأنه تعليق ساخر على الغرور والخيلاء، ولكن قد نتساءل أيضاً لم طال عمر بعض هؤلاء الرجال طولاً جر معه كل الآم الشيخوخة وهوانها. وقد مات المحظوظون منهم قبل الثورة، تعزيهم مائة أمارة على أن أفكارهم وشيكة الانتصار ففضى كوندياك في 1789، وطورجو في 1781. أما دالامبير فقد مد في أجله على كره منه بعد موت الأنسة دلسبيناس. وكانت قد أودعته أوراها، ووضح منها أنها في السنين الإثنى عشرة الأخيرة من حياتها منحت حبها لمورا أوجيبير، ولم تترك له غير

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> لحن سير جنائزي

صداقة يشوبها الضيق أحياناً. قال كوندورسيه لطورجو "أن دالامبير مطعون طعنه نجلاء، وكل ما أرجوه له الآن أن تكون حياته محتملة" (95). وقد عاد إلى دراساته، ولكنه لم يكتب بعدها شيئاً ذا بال. وكان يختلف إلى بعض الصالونات ولكن الحياة انطفت من حديثه الذي كان يوماً ما المعياً، وقد رفض الاستجابة لدعوة فردريك إلى بوتسدام،

ودعوة كاترين إلى سانت بطرسبورج. وكتب إلى فردريك يقول: "أنني أشعر كأنني رجل تتبسط أمامه صحراء شاسعة تنتهي بهاوية الموت، ولا أمل له في لقاء إنسان واحد إن رآه يسقط فيها، أو يفكر فيه مرة أخرى بعد أن يختفي" (96).

وكان في هذا مخطئاً، فقد اهتم به الكثيرون، ولو أولئك الذين كان يمدهم ببعض دخله المنتظم. ذلك أن هيوم أوصى لدامبر بمائتي جنيه (97) وهو واثق أنه سيوزع هذا المبلغ. ومع أنه كان يتقاضى مختلف المعاشات، فقد عاش عيشة بسيطة إلى النهاية، و1783 أصيب هو وديدرو بأمراض خطيرة-فأصيب ديدرو بذات الجنب، ودامبير باضطراب في المثانة. وشفي ديدرو، أما دامبير فقضى نحبه (29 أكتوبر 1783) بالغاً من العمر سبعة وستين عاماً. وكان ديدرو قد عاد من مغامراته الروسية في أكتوبر 1774. وقد أضناه طول السفر في مركبة حبست حركته، ولكنه تنبأ صادقاً بأن "القدر يخبئ له عشر سنين أخر في جرابه" (98). ثم عكف على "خطة لإنشاء جامعة لحكومة روسيا" (لن تنشر حتى 1803)، وقد دعا للاهتمام الأشد بالعلم والتكنولوجيا، ووضع اليونانية واللاتينية والأدب في نهاية القائمة تقريباً، وبين الطائفتين الفلسفة فسبق بذلك التطورات التربوية مائة وخمسين عاماً. وفي 1778 بدأ "مقالاً عن عهدي كلوكبوس ونبرون، وعن حياة سنكا ومؤلفاته". واستطرد في هذا المقال ليرجو الأمريكيين المنتصرين في جمهوريتهم الجديدة أن "يمنعوا الزيادة الهائلة والتوزيع غير المتكافئ للثروة والترف، والتبطل وفساد الأخلاق" (99). وفي القسم المخصص لسنكا

صفحة رقم : 14399

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> لحن سير جنازي

أفسح مكاناً للدفاع الحار عن جريم ومدام ديبنيه وعن نفسه ضد التهم التي رماهم بها روسو في قراءاته العلنية لاعتزافاته، قال:

"إذا صدر يوماً ما، نتيجة جنوح المؤلف دائماً للأغراب والشذوذ، كتاب يمزق فيه الشرفاء إرباً بالقلم وغد خبيث... فانظروا إلى الأمام واسألوا أنفسكم هل... يجدر بنا لأن نصدق رجلاً وقحاً... اعترف بألف فعل شرير. فماذا يكلف الافتراء رجلاً كهذا-وماذا تضيف جريمة كثيراً أو قليلاً من الفساد الخلقي المستتر لمياه تتخفى طوال أكثر من خمسين عاماً وراء أصفق أفنعة الرياء؟... فسحقاً للعاق الذي يذم من أحسنوا إليه؛ سحقاً للرجل الأثيم الذي لا يحجم عن تشويه سمعة أصدقائه القدامى؛ وسحقاً للجان الذي يخلف فوق قبره كشف الأسرار التي أوتمن عليها... أما عن شخصي، فأقسم أن عيني لن تتلوثاً أبداً بقراءة كتابه، وأني أؤكد أني أؤثر أن يسبني عن أن يمدحني (100). وفي 1783 ماتت مدام ديبنيه. وأحس ديدرو بهذه الخسارة إحساساً عميقاً، لأنه كان يستمتع بصداقتها وندوتها. وكان جريم ودولباخ على قيد الحياة، ولكن علاقته بهما كانت فاترة، وكان الثالث ينحدرون إلى الأنانية الضيقة التي تصحب الشيخوخة، وكل ما كان في استطاعتهم تبادلها من حديث كان الأهم. أما تشكيلة الأمراض التي شكا منها ديدرو فكان منها التهاب الكلية والتهاب المعدة، وحصى المرارة، والتهاب الرئتين؛ ولم يعد في قدرته صعود السلم من مسكنه في الطابق الرابع إلى مكتبته في الطابق الخامس، وشعر الآن أنه محظوظ لأن له زوجة، وكان قد اختزل خياناته الزوجية إلى ذكريات حزينة، وأبلى هي حصيلتها من الكلام، وهكذا عاشا في سلام الإعياء المشترك.

وفي 1784 مرض مرضاً خطيراً. وحاول كاهن سان-سولبيس الذي فشل من قبل مع فولتير أن يكفر عن تقصيره برد ديدرو إلى حظيرة الإيمان، فزاره، وتوسل إليه أن يرجع إلى الكنيسة، وأنذره بأنه ما لم يتناول الأسرار المقدسة فإنه لن يحظى بدفنه في جبانة عامة. فأجاب ديدرو،

صفحة رقم : 14400

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> لحن سير جنازي

"إني أفهمك يا سيدي الكاهن. فلقد رفضتم دفن فولتير لأنه لم يؤمن بلاهوت الإبن. حسناً، إنهم يستطيعون دفني حين أموت في أي مكان يشاءون، ولكني أعلن أنني لا أؤمن لا بالأب ولا بالروح القدس ولا بأي واحد في الأسرة" (101). وحين سمعت الإمبراطورة كاترين بأوصابه، وفرت للي ولزوجته جناحاً فاخراً في شارع ريشليو. وانتقلا إليه حوالي 18 يوليو. وابتسم حين رأى الأثاث الجديد يحمل إليه، وقال إن في استطاعته أن يستعمله بضعة أيام لا أكثر. وقد استعمله أقل من أسبوعين. وفي 31 يوليو 1784 تناول وجبه شهية، فأصابته جلطة تاجية، ومات وهو على المائدة بالغاً الحادية والسبعين. وأقنعت زوجته وصهره كاهناً محلياً بالصلاة في الكنيسة على جنمائه رغم إلحاده المشهور. ودفن في كنيسة سان-روش، ثم اختفى منها على نحو غامض في تاريخ غير معروف. وواصل الموكب سيرته. فمات مابليه في 1785، وبوفون في 1788، ودولباخ في 1789 أما رينال فقد عمر إلى ما بعد الثورة كما رأينا، وأدان جرائمها الوحشية، وفاجأ نفسه بالموت ميتة طبيعية (1796). وأما جريم فقد قابل كل لطمات الحظ بصبر تيوتوني. ففي 1775 رماه يوزف الثاني باروناً من بارونات الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وفي 1776 عينه دوق ساكسي-جوتا سفيراً لدى فرنسا. وأكثر "الرسائل الأدبية" كان يقوم بتحريرها بعد 1772 سكرتيرته ياكوب مايستر، ولكن جريم شارك بمقالات لاذعة في الأدب، والفن، والدين، والأخلاق، والسياسة، والفلسفة. وكان الشاك الوحيد المعين في شكوكيته بين جماعة الفلاسفة، لأنه تشكك أيضاً في الفلسفة والعقل والتقدم. وبينما كان ديدرو ونفر من فريق المؤمنين يتطلعون إلى الأجيال القادمة بأحلام الطوبى تتعكس في أعينهم، قال جريم أن هذا سراب قديم العهد جداً، "وهم تحدر من جيل إلى جيل"، وقد لاحظنا نبوعته عام 1757 بنشوب "ثورة قاضية" (102) وشيكاً فلما جاءت الثورة وكانت سفاكة للدماء، عاد إلى وطنه الأصلي ألمانيا وأقام في جوتا

صفحة رقم : 14401

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> لحن سير جنازي

(1793) وخفت كاترين من فقره وعينته سفيراً لها في همبورج (1796) فلما ماتت ولية نعمته الإمبراطورة ذهب مع أملي بلزونس، حفيده حبيبته مدام دبينييه. وعمر حتى 1807، وعاش هذه الحقبة أولاً على ذكريات تلك الأيام المثيرة التي كان فيها فكر فرنسا يقود أوروبا إلى حافة شاهقة هي حافة الحرية.

صفحة رقم : 14402

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتم الفلاسفة الفرنسيين

4- خاتم الفلاسفة الفرنسيين

ولد جان-أنطوان نيقولا كاريتا، مركيز كوندورسيه، حفيد أسرة عريقة في دوفينييه، في بيكاردي (1743)، وتلقى تعليمه على اليسوعيين في رامس وباريس، وظل سنين طويلة لا يفكر إلا في أن يكون رياضياً كبيراً. وحين بلغ السادسة والعشرين أنتخب عضواً في أكاديمية العلوم. وحين أصبح فيما بعد سكرتيراً دائماً لها، كتب التأبينات للأعضاء الراحلين، كما فعل فونتينييل للأكاديمية الفرنسية، وقد أحب فولتير هذه التأبينات التذكارية كثيراً حتى أنه قال لكوندورسيه: "إن الجمهور يتمنى أن يموت أكاديمي كل أسبوع أو نحوه حتى تتاح لك فرصة الكتابة عنه" (103). وقد زار فولتير في فرنيه (1770)، وعلق على طبعة تنظم أعمال فولتير نشرها بومارشيه، وكتب لها مقدمة حارة بعنوان "حياة فولتير" وأقنعه دالامبير بأن يكتب مقالات للموسوعة، وقدمه لجولي دلسيبناس، التي أصبح في حفلات استقبالها قطباً من الأقطاب رغم خجله. لا بل أنه كان في نظر جولي لا يفضلها غير دالامبير من حيث سعة عقله، وربما كان يفوقه في حرارة حبه للخير. وكان أحد الرعيل الأول ممن انضموا للحملة التي شنت على تجارة الرقيق (1781). وقد أعانت جولي على تحريره من ربة عشقه البائس للأنسة دوسي، وهي فتاة لعبت استغلت حبه لها دون أن تبادلها أباه. وقد عزى نفسه بصداقة جان-باتست سيوار ومدام سيوار، وعاش معهم في شركة ثلاثية قاعة. وفي 1785 أصدر "مقالاً في تطبيق التحليل على الاحتمالات" وفيه سبق نظرية مالتوس إذ قال إن نمو السكان ينحو إلى تجاوز إنتاج الطعام، ولكنه لم يدع إلى العفة الجنسية علاجاً، بل أقترح تحديد النسل (104).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> خاتم الفلاسفة الفرنسيين

وقد رحب بالثورة فاتحة لمستقبل التعليم الجامعي، والعدالة، والرخاء. وفي 1790 اختير للمجلس البلدي الذي كان قد تسلم إدارة باريس. ثم أنتخب عضواً في الجمعية التشريعية التي حكمت فرنسا من أول أكتوبر 1791 إلى 20 سبتمبر 1792، ووضع بوصفه رئيساً للجنة التعليم العام تقريراً يدعو إلى نظام قومي للتعليم الابتدائي والثانوي، العام، المجاني، الشامل للجنسين على السواء، والبعيد عن النفوذ الكنسي، ويخطط التقرير لهذا التعليم تخطيطاً عاماً (105)، وقد وضع مبدأ "دولة الرفاهية" قال: "يجب أن يكون هدف جميع المؤسسات الاجتماعية تحسين الأحوال البدنية والفكرية والأخلاقية لأكثر طبقات السكان عدداً وأشدّها فقراً" (106). وقدم التقرير إلى الجمعية في 21 أبريل 1792، ثم عطلت حروب الثورة اتخاذ إجراءات تنفيذه، ولكن وطد نابليون سلطته جعل تقرير كوندورسيه الأساس الذي أرسى فوقه تنظيمه للتعليم من جديد في فرنسا تنظيمياً بدأ به عهداً حاسماً.

ولم يتح لكوندورسيه مثل هذه المكانة المرموقة في المؤتمر القومي الذي حل محل الجمعية التشريعية، لأن الجيرونديين المحافظين تشككوا فيه بوصفه جمهورياً، وارتاب اليعاقبة المتطرفون في نواياه بوصفه أرستقراطياً يحاول أن يخضع الثورة لسيطرة الطبقة الوسطى (107). وقد صوت في صف الذين أدانوا لويس السادس مذنباً بالخيانة، ولكنه صوت ضد إعدامه. فلما عين مع ثمانية آخرين أعضاء في لجنة وكل إليها صياغة دستور جديد، قدم مشروعاً رفض بدعوى إسرافه في محاباة البورجوازية فلما تبني المؤتمر الذي سيطر عليه اليعاقبة دستوراً أكثر تطرفاً، كتب كوندورسيه نشرة غفلاً من التوقيع ينصح فيها المواطنين أن يرفضوه. وفي 8 يوليو 1793 أمر المؤتمر بالقبض عليه.

وظل تسعة أشهر مختبئاً في منزل لأرملة المصور كلود-جوزف فرنيه. ولكي يصرف ذهنه عن خوف القبض عليه ألف كتباً يصلح تلخيصاً لحركة التنوير، و "كتاباً أزرق" (أي مخطوطاً) للمجتمع المثالي القادم. وعنوان المخطوط "نشرة تمهيدية لجدول تاريخي بمرآة تقدم العقل البشري" (108).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> خاتم الفلاسفة الفرنسيين

كذلك سماه Esquisse أي تخطيط، ويبدو أنه كان يؤمل أن يكتب يوماً ما عرضاً أكثر تفصيلاً لفلسفته. وقد استوحى مخطوطه من المحاضرة التي أجمّل فيها طوجو، يوم كان لاهوتياً، (11 ديسمبر 1750) "المراحل المتعاقبة لتقدم الفكر البشري" (109) وقسم كوندورسيه التاريخ إلى عشر مراحل: (1) اتحاد الأسر في قبائل. (2) الرعي والزراعة؛ (3) اختراع الكتابة؛ (4) ازدهار الثقافة اليونانية حتى عهد الاسكندر؛ (5) تطور المعرفة خلال صعود روما وازمحلها؛ (6) العصور المظلمة، من 476م. إلى الحروب الصليبية؛ (7) نمو العلم بين الحروب الصليبية واختراع الطباعة؛ (8) من جوتنبرج إلى بيكن، وجاليليو، وديكارت، "الذين خلّعوا نير السلطة؛ (9) من ديكارت حتى تأسيس الجمهوريتين الأمريكية والفرنسية؛ (10) عصر الفكر المحرر (110). وكان كوندورسيه لا يعترف للعصور الوسطى بقدر، شأنه في ذلك شأن فولتير، فقد تمثل فيها تسلط الكنيسة على الفكر الأوروبي، وتخذر الشعب بسحر القدا، وانبعث الشرك نتيجة لعبادة القديسين (111). ومع أنه احتفظ فولتير أيضاً- بإيمان ربوبي بالله، فإنه اعتمد على تقدم المعرفة وانتشارها لتقويض سلطان الكنيسة، وتوسيع الديموقراطية، بل والارتقاء بالأخلاق، فقد شعر بأن الخطيئة والجريمة هما إلى حد كبير نتيجة للجهل (112). "سيأتي الوقت الذي تشرق الشمس فقط على أحرار الرجال الذين لا يعرفون لهم سيداً غير عقلم" (113). وقد اتنى على فولتير لإطلاقه الفكر من عقاله، وعلى روسو لإهماله الناس بأن يقيموا نظاماً اجتماعياً عادلاً. وصور الخير العميم الذي سيفيضي بهما القرنان التاسع عشر والعشرين بفضل جهود القرن الثامن عشر: التعليم العام، وحرية الفكر والتعبير، وتحرير المستعمرات، والمساواة أما القانون. وإعادة توزيع الثروة. وقد تذبذب بعض الشيء في أمر حق التصويت للجميع: فهو يريد بصفة عامة أن يقصر التصويت على أصحاب الأملاك أو الثروة مهما قلت (114)، وكان أحياناً يخشى أن تمكن سداجة الجماهير قلة غنية من أن تلقنهم آراءهم متى

صفحة رقم : 14405

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلسفة -> خاتم الفلسفة الفرنسيين

شاعت، وهكذا تخلق أولجركية بوجوازية، مستنرة وراء واجهة ديموقراطية (115)، ولكن هروب لويس السادس وماري أنطوانيت إلى فارين، والخوف من أن تحاول الدول إعادة الملكية الديموقراطية في فرنسا، ودعاه إلى الدعوة لحق التصويت للجميع بما فيهم النساء (116). وقد تطلع في الخيال من عزلته المطاردة إلى مستقبل ملؤه جلائل الأعمال. فتنبأ بصعود الصحافة ضابطاً لطغيان الحكومة؛ وبتطور دولة الرفاهية بفضل التأمين والمعاشات الاجتماعية؛ وبحفز الثقافة نتيجة لتحرير المرأة؛ وبإطالة عمر الإنسان بفضل تقدم الطب؛ وبانتشار النظام الاتحادي بين الدول؛ وبانقلاب الاستعمارية إلى معونة أجنبية تقدمها البلاد المتقدمة للمتخلفة؛ وبخفة التعصب القومي نتيجة لانتشار المعرفة؛ وبتطبيق البحوث الإحصائية على إنارة السياسات وصياغتها؛ وبازدياد ارتباط العلم بالحكومة (117). وإذ رأى كل عصر مضيئاً أهدافاً جديدة لإنجازاته، فلا

يمكن إذن أن تكون هناك نهاية متطورة للتقدم. ولا يعني هذا أن الإنسان سيغدو كاملاً في أي وقت، بل أنه سيسعى أبداً إلى الكمال. "أن الطبيعة لم تحدد زماناً لكمال الملكات البشرية، وقابلية الإنسان للكمال لا حدود لها، وتقدم هذه القابلية- التي ستكون منذ الآن مستقلة عن أي قوة قد تبغي تعطيلها- لا حد له غير عمر هذا الكوكب الذي ألقننا الطبيعة على سطحه(118)".

وقرب الختام هذا التخطيط تصدى كوندورسيه للمشكلة التي سيعرضها بعد أربع سنين في "مقال عن مبدأ السكان" (1798):

"ألا يجوز أن تأتي لحظة... يترتب فيها على زيادة سكان العالم عن أسباب العيش تناقص مستمر لسعادتهم،... أو على أفضل تقدير تذبذب بين النفع والضرر؟ وألا يدل ذلك على أن العالم قد وصل إلى نقطة يستحيل تحقيق المزيد من التحسين بعدها- وأن قبول النوع الإنساني للكمال قد بلغ بعد سنين طويلة مرحلة يعجز عن تجاوزها؟ ومندا الذي يستطيع التنبؤ بالحالة التي يمكن أن يوصل إليها فن تسخير عناصر الطبيعة لحيز الإنسان في الوقت المناسب؟... وحتى لو اتقنا على

صفحة رقم : 14406

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> خاتم الفلاسفة الفرنسيين

أننا سنصل يوماً ما إلى ذلك الحد... فإنه قبل أن يقع هذا كله سيكون تقدم العقل قد واكب تقدم العلوم، وتعصب الخرافة السخيف قد كف عن إفساد القانون الأخلاقي والحط منه بتعاليمه المنكرة... ولنا أن نفترض أنه إذا جاء ذلك الوقت فإن الناس سيعرفون أن عليهم واجباً قبل أولئك الذين لم يولدوا بعد، هو واجب تيسير السعادة لهم، لا مجرد العيش وكفى" (119).

ولم يكن تقاؤل كوندورسيه تقاؤل أعمى تماماً. "ما زلنا نرى قوى التنوير لا تملك أكثر من جزء صغير جداً من العالم، والمنتورين حقاً وصدقاً تطغى عليهم كثرة جماهير الناس الذين مازالت تسيطر عليهم الجهالة والتعصب. ومازلنا نرى مناطق شاسعة يرزح فيها البشر تحت نير العبودية" (120). ولكن "صديق الإنسانية" يجب ألا يفقد الأمل أمام هذه المصاعب، فانظر إلى الكثير من الأشياء النبيلة التي أنجزت فعلاً، أنظر إلى التطور الهائل للمعرفة وحب المغامرة، فأني شيء يستعصي على هذه الإنجازات إذا اتصلت وانتشرت؟ وهكذا أختتم كوندورسيه كتابه برويا كانت سنداً له في الشدة، وبديلاً له ولآلاف غيره عن إيمان فوق طبيعي. وإلى القارئ الكلمة الأخيرة والمتوجة لحركة التنوير: "كم تعزى الفيلسوف الذي يرثى للأخطاء والجرائم والمظالم التي ما زالت تلوث الأرض، والتي كثيراً ما يكون هو نفسه ضحيتها- لكم تعزيه هذه النظرة للنوع الإنساني، وقد تحرر من أغلاله،... يسير قدماً بخطى ثابتة مطمئنة على طريق الحق، والفضيلة، والسعادة. أن تأمل هذا المشهد هو الذي يجزيه عن الجميع ما بذل من جهود في إعانة تقدم العقل والدفاع عن الحرية.. وهذا التأمل ملاذ له لا تستطيع ذكرى مضطهديه أن تتبعه إليه. فهناك يجبا بالفكر مع الإنسان وقد رد له حقه وكرامته الطبيعيتين، وينسى الإنسان الذي عذبه وأفسده الجشع، أو الخوف، أو الحسد؛ هناك يحيا مع أترابه في جنة خلقها العقل، وجملتها أظهر اللذات التي عرفها حب البشر" (121). ولقد أوشك اعتراف الإيمان هذا أن يكون صرخة رجل شاعر بأن

صفحة رقم : 14407

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> خاتم الفلاسفة الفرنسيين

الموت يبحث عنه. فلما خشي كوندورسيه أن يلحق الضرر بمدام فرنيه إذا اكتشفت أنها تؤويه، أودعها مخطوطة وغادر بيتها متكرراً رغم اعتراضاتها. وبعد أن تشرّد أياماً على أطراف باريس طلب طعاماً في فندق. وأثار الشبهة مظهره وعدم وجود أوراق تعرف بهويته. وسرعان ما تبينه القوم أرستقراطياً. وقبض عليه، وزج في سجن بمدينة بور-لا-رين (7 أبريل 1794). وفي صبيحة الغد وجد ميتاً في زنارته. وقد ذهب أول كاتب لسيرته إلى أنه حمل السم في خاتم، وابتلع هذا السم، غير أن تقرير الطبيب الذي فحص الجثة عزا موته إلى جلطة في أحد عروقه (122). أما المؤتمر فقد أمر بعد حصوله على تخطيطه وقراءته بأن تطبع الدولة ثلاثة آلاف نسخة منه وتوزعها في جميع أنحاء فرنسا.

صفحة رقم : 14408

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> الفلاسفة والثورة

5- الفلاسفة والثورة

اتفق بيرك، وتوكفيل (123)، وتين (124)، على أن فلاسفة فرنسا، من بيل إلى مابلي، كانوا عاملاً كبيراً في أحداث الثورة. فهل نستطيع قبول النتيجة التي خلص إليها جهابذة المحافظين أولئك؟

لقد كان جميع الفلاسفة المرموقين معارضين للثورة على حكومات أوروبا القائمة آنذاك، لا بل إن منهم من وضعوا إيمانهم في الملوك لأنهم أكثر أدوات الإصلاح عملية؛ واحتفظ فولتير، وديدرو، وجريم بعلاقات صداقة، إن لم يكن إعجاب شديد، بواحد أو آخر من أشد الحكام المعاصرين استبداداً فرديريك الثاني، كاترين الثانية، جستاناف الثالث؛ وأسعد روسو أن يستقبل يوزف الثاني إمبراطور النمسا. أما ديدرو، وهلفتيوس، ودولباخ، فقد وجهوا النقد العنيف للملوك بصفة عامة، ولكنهم لم يدعوا قط في كتبهم التي بين أيدينا إلى الإطاحة بالملكية الفرنسية (125). وعارض مارمونتيل وموريلليه الثورة في غير موارد (126)، وجهر مابلي، الإشتراكي بأنه ملكي (127)، أما طورجو معبود جماعة الفلاسفة، فقد جاهد لإنقاذ لويس السادس عشر لا للقضاء عليه. ودعم روسو الأقطار الجمهورية، ولكن لصغار الدول فقط، وقبلت الثورة نظرياته وأغفلت تحذيره. وحين

صفحة رقم : 14409

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> الفلاسفة والثورة

أقام الثوار نظاماً جمهورياً في فرنسا لم يقيموه على طريقة الفلاسفة الفرنسيين بل أبطال بلوتارخ من اليونان والرومان. ولم تكن قبلتهم فرنيه، بل إسبارطة وروما الجمهورية. أن الفلاسفة وفروا الإعداد الأيدولوجي للثورة. وكانت أسبابها اقتصادية أو سياسية، وعباراتها فلسفية، وقد تيسر للأسباب الأساسية للثورة أن تفعل فعلها بفضل عمل الهدم الذي قام به الفلاسفة لإزالة العقبات القائمة في طريق التغيير، مثل الإيمان بالامتيازات الإقطاعية والسلطة الكنسية، وحق الملوك الإلهي. فقد كانت كل الدول الأوروبية حتى عام 1789 تعتمد على معونة الدين في غرس قدسية الحكومات في النفوس، وحكمة التقاليد، وعادات الطاعة، ومبادئ الأخلاق؛ وكانت بعض جذور السلطة الأرضية مغروسة في السماء، واعتبرت الدولة الله رئيس شرطتها السرية. كتب شامفور والثورة تدور رحاها يقول إن "الكهانة كانت أول معقل للسلطة المطلقة، وقد أطاح به فولتير" (128). وذهب توكفيل في 1856 إلى أن "سوء السمعة العام الذي انحدر إليه الإيمان الديني كله في نهاية القرن الثامن عشر كان له ولا ريب أعظم الأثر في سير الثورة برمته" (129). ثم انتقلت الشكوك التي مزقت اللاهوت القديم شيئاً فشيئاً إلى نقد المؤسسات والشؤون العلمانية. وقد ندد الفلاسفة بالفقر والقتية كما نددوا بالتعصب والخرافة، وكافحوا ليقلصوا سلطان أمراء الإقطاع على طبقة الفلاحين. واعترف بعض النبلاء بقوة الانتقادات اللاذعة التي وجهت إليهم، وفقد الكثير منهم الثقة في تفوقهم الطبيعي وحقوقهم المتوارثة. استمع إلى الكونت لوي-فيليب د سيجور "كنا نقاداً شديدي الاحتقار للعادات القديمة، وكبرياء آبائنا الإقطاعية ومراسمهم المتمتمة... وشعرنا بالميل إلى أن نتبع في تحمس العقائد الفلسفية التي يجهر بها الكتاب الأذكاء الجسورون. واجتذب فولتير انتباهنا، ومس روسو قلوبنا... ولذنا خفية أن نراهم يهاجمون النظام القديم... فاستمتعنا في وقت واحد بمزايا طبقة النبلاء وتمتع الفلسفة الشعبية" (130).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> الفلاسفة والثورة

وكان من هؤلاء الأشراف الذين وخزهم ضميرهم أشخاص ذوو نفوذ كميرابو الأب والإبن، ولاروشغوكو-لينانكور، ولافاييت، والفيكونت لوي-ماري دنواي، و "فيليب إيجليته" (مساواة)، والدوق أورليان؛ ثم لنذكر المعونة والمساواة اللتين قدمهما لروسو المرشال لكسبورج ولوي فرانسوا البوربوني أمير كونتي. وقد قادت الأقلية الليبرالية التي حفزتها غارات الفلاحين على الملكة الإقطاعية لقاء تعويضات (4 أغسطس 1789). لا بل إن الأسرة المالكة تأثرت بالأفكار شبه الجمهورية التي أعان الفلاسفة على نشرها. وكان أبو لويس السادس عشر يحفظ عن ظهر قلب فقرات كثيرة من كتاب مونتسكيو "روح القوانين"، وقد قرأ كتاب روسو "العقد الاجتماعي" وحكم بأنه "سليم إلى حد كبير" فيما خلا نقده للمسيحية. و علم أبنائه (الذين أصبح ثلاثة منهم ملوكاً) أن "أسباب الامتياز التي تحظون بها لم تعطكم إياها الطبيعة، التي خلقت الناس كلهم سواسية" (131). واعترف لويس السادس عشر في مواسيمه بـ "القانون الطبيعي" و "حقوق الإنسان" (132). المترتبة على طبيعة الإنسان بوصفه كائناً عاقلاً.

وأضافت الثورة الأمريكية مزيداً من المكانة والقدرة للأفكار الجمهورية. ولقد استمدت تلك الثورة هي أيضاً قوتها من وقائع الحال الاقتصادية كنظام الضرائب والتجارة، وكان "إعلان استقلالها" مديناً للمفكرين الإنجليز دينه للمفكرين الفرنسيين، ولكن لوحظ أن واشنطن، وفرانكلين وجفرسن، قد تهيأوا القبول الفكري الحر بفضل جماعة الفلاسفة الفرنسيين. وعن طريق أولئك الأبناء الأمريكيين للتتوير الفرنسي، تدرجت النظريات الجمهورية حتى تمثلت حكومة ظافرة في السلاح، يعترف بها ملك فرنسي، وتمضي في إرساء يدين ببعض الفضل لمونتسكيو.

ولقد مرت الثورة الفرنسية بثلاث مراحل. ففي الأولى حاول النبلاء عن طريق البرلمان، أن يستردوا من الملكية ذلك السلطان الذي انتزع منه لويس الرابع عشر، وهؤلاء النبلاء لم يستلهموا جماعة الفلاسفة. وفي

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الموت والفلاسفة -> الفلاسفة والثورة

المرحلة الثانية ظفرت الطبقات الوسطى بالتحكم في الثورة، وكانت عميقة التشرب بأفكار الفلاسفة، ولكن المعنى الذي فهمته من "المساواة" كان مساواة البورجوازي بالأرستقراطي. وفي المرحلة الثالثة انتزع الرياسة زعماء غوغاء المدينة. وظلت جماهير الشعب متمسكة بالدين، ولكن زعماءهم كانوا قد فقدوا احترامهم للقساوسة والملوك؛ وأحبت الجماهير لويس السادس عشر إلى النهاية، ولكن زعماءهم ضربوا عنقه. وبعد 6 أكتوبر 1789، سيطر اليعاقبة على باريس، وكان روسو إلههم. وفي 10 نوفمبر 1793 احتفل المتطرفون الظافرون بعيد العقل في كاتدرائية نوتردام. وفي تور أحل الثوار تماثيل جديدة تسمى مابليه، وروسو، وفولتير محل تماثيل القديسين. وفي شارتر عام 1795، في الكاتدرائية الشهيرة، افتتح عيد العقل بدراما أظهر فيها فولتير وروسو متحدين في حملة على التعصب (133). لا سبيل إلى الشك إذن في أن الفلاسفة أثروا تأثيراً عميقاً في أيديولوجية الثورة ودرامتها السياسية. أنهم لم يقصدوا إلى العنف، أو التقتيل، أو الحيلوتين؛ ولو قد شهدوا هذه المناظر الدموية لأقشعروا رعباً، ولربما قالوا بحق إنه قد أسئ فهمهم على نحو قاس، ولكنهم كانوا مسئولين بقدر ما استخفوا بأثر الدين والتقاليد في ضبط الغرائز الحيوانية للبشر. وكانت الثورة الحقيقية أثناء ذلك ماضية في طريقها في ظل تلك الآراء الأخاذة والأحداث المرئية، إذ انتزعت الطبقات الوسطى من الأرستقراطية والملك التسلط على الاقتصاد والدولة، متذرة بالفلسفة أداة من مائة أداة أخرى في بلوغ غايتها تلك.

صفحة رقم : 14412

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الدين والثورة

الفصل السادس والثلاثون

عشية الثورة

1789-1774

كانت الكنيسة الكاثوليكية من الناحية المالية أسلم مؤسسة في البلاد، تملك نحو 6% من الأرض، وأملاكاً أخرى تقدر قيمتها في مجموعها بمبلغ يتفاوت بين بليونين جنيه وأربعة بلايين، وتغل دخلاً سنوياً قدره 120.000.000 جنيه(1). يضاف إلى هذا 123.000.000 جنيه من العشور التي تجبى على غلات الأرض وماشيتها(2). وكانت هذه الدخول في نظر الكنيسة لازمة لأداء مختلف وظائفها وهي دعم الحياة الأسرية، وتنظيم التعليم (قبل 1762)، وتربية الأخلاق، وتأييد النظام الاجتماعي، وتوزيع الصدقات، ورعاية المرضى، وتوفير الأديرة

صفحة رقم : 14413

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الدين والثورة

ملاذاً للنفوس النزاعة للتأمل أو العازفة عن السياسة يحميها من الفوضى الزحام واستبداد الدولة، وغرس مزيج حكيم من الخوف، والرجاء، والتسليم، في نفوس ضرب عليها الفقر أو المشقة أو الحزن نتيجة لعد المساواة الطبيعية بين البشر.

كل أولئك زعمت أنها تفعله بواسطة أكليروسها الذي كان قوامه نحو نصف في المائة من السكان. وكان عدد رجاله قد تقلص منذ عام 1779(3)، وأصاب الأديرة اضمحلال خطير. ويروون إن "رهبان كثيرين كانوا يجذبون الأفكار الجديدة، ويقرأون مؤلفات الفلاسفة"(4). وهجر مئات الرهبان حياة الرهينة ولم يحل محلها جدد، وتقلص عددهم في فرنسا بين 1766 و1789 من 26.000 إلى 17.000، وفي أحد الأديرة من ثمانين إلى تسعة عشر، وفي آخر من خمسين إلى أربعة(5). وقد أعلق مرسوم ملكي صادر عام 1766 جميع الأديرة التي تضم أقل من تسعة نزل، ورفع السن المسموح بها لنذر الرهينة من ست عشرة سنة إلى إحدى وعشرين سنة للرجال، وإلى ثماني عشرة للنساء. وكانت أخلاق الرهبان منحلّة. كتب رئيس أساقفة تور في 1778: "أن الأخوة الرماديين (الفرنسيسكان) في حالة انحطاط في هذا الإقليم، ويشكو الأساقفة من خلائعهم وما في حياتهم من فوضى"(6). أما أديرة الراهبات فكانت في حالة طيبة. وكان هناك 37.000 راهبة يضمنهن 1.500 دير في فرنسا عام 1774(7)، وكانت أخلاقهن فاضلة، وقد نشطن لمهامهن في تعليم الفتيات، والخدمة في المستشفيات، وتقديم المأوى للأرامل، والعوانس، والنساء اللاتي تحطمن في معركة الحياة.

وحسن حال الأكليروس من غير الرهبان مادياً في مقار الأسقفيات وساء في الأبرشيات. وقد كان هناك الكثير من الأساقفة المخلصين المجتهدين، وبعض الكسالى المتشبثين بمتع الحياة الدنيا. وقد وجد بيرك أثناء زيارته لفرنسا عام 1773 بعض الأساقفة ممن يعيبهم الجشع، ولكن السواد الأعظم منهم وقعوا من نفسه خير الموقع بعلمهم ونزاهتهم(8). وقد خلص مؤرخ ألم بكتب الفصائح إلى هذا الحكم "يمكن القول بصفة عامة أن الرذائل التي استشرت في جسم الأكليروس كله خلال القرن السادس عشر قد اختفت في القرن الثامن عشر. وكان قساوسة الريف عادة رجالاً ذوي أخلاق كريمة، متقشفين، فضلاء(9) رغم قانون التبئيل"، وقد شكّا كهنة الأبرشيات هؤلاء من الكبرياء

الطبقية في الأساقفة، كانوا كلهم نبلاء، ومن إلزامهم بتحويل الجزء الأكبر من العشور إلى الأسقف، وما ترتب على ذلك من فقر ألجأ القساوسة إلى أن يفلحوا الأرض كما يخدمون الكنيسة. وقد تأثر لويس السادس عشر من احتجاجاتهم، وأمر برفع رواتبهم من خمسمائة جنيه في العام إلى سبعمائة. فلما أقيمت الثورة أيد كثيرون من صغار الكهنة الطبقة الثالثة. كذلك ظاهر بعض الأساقفة الإصلاح السياسي والاقتصادي، ولكن أكثرهم ظل صلباً لا يلين في عدائه لأي تغييرات في الكنيسة أو الدولة(10).

صفحة رقم : 14414

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الدين والثورة

وحين أشرفت خزانة فرنسا على الإفلاس ظهر ثراء الكنيسة مناقضاً لفقر الدولة تناقضاً مغريباً بالعدوان عليه، وبدأ أصحاب الصكوك الذين تشككوا في قدرة الحكومة على دفع فائدة قروضهم أو أصولها يرون في نزاع أكلاك الكنيسة السبيل الأوح لإصلاح مالية البلاد. والتقى رفض العقيدة المسيحية المنتشر مع هذا الدافع الاقتصادية. وزكا الإيمان الديني في القرى، وخبا في المدن؛ وفي المدن احتفظت نساء الطبقتين الوسطى والدنيا بتدينهن التقليدي. قالت مدام فيجيه-ليرون مسترجعة ذكرى ماضيها "كانت أمي تقية جداً. وكنت أنا أيضاً تقية في قرارة نفسي. وقد ألفنا دائماً أن نستمع إلى القديس المطول ونختلف إلى خدمات الكنيسة"(11). وكانت الكنائس تكتظ بالمصلين في الأحاد والأعياد الدينية(12). ولكن عدم الإيمان بين الرجال كان قد تسلط على نصف العقول القاندة. وفي أوساط النبلاء أصبحت الشكوكية المرحلة زياً راج حتى بين النساء. كتب مرسبييه في كتابه "صورة باريس" في 1783 يقول: "ولم يحضر أفراد المجتمع العصري القديس طوال السنوات العشر الماضية، فإذا حضروا فلكيلا يصدموا شعور أتباعهم الذين يعرفون أنهم يفعلون هذا إرضاء لهم"(13)، وحذا القطاع الأعلى من الطبقة الوسطى حذو الأرستقراطيين. أما في المدارس "فإن مدرسين كثيرين سرت إليهم عدوى الإلحاد بعد عام 1771"(14)، وأهمل كثير من الطلاب حضور القديس وقرأوا كتب الفلاسفة. وفي 1789 صرح الأب بونفاكس بأن "أخطر فضيحة، والفضيحة التي ستجر أوخم العواقب، هي الهجر التام تقريباً للتعليم الديني في المدارس العامة"(15). وقد قيل عن إحدى الكليات أن "ثلاثة من البلهاء فقط" هم الذين يؤمنون بالله(16). أما بين الأكليروس فقد اختلف الإيمان عكسياً باختلاف الدخول. فالأساقفة "قبلوا المبادئ النفعية التي قال بها جماعة الفلاسفة، واحتفظوا بالمسيح واجهة ساترة فقط"(17). وكان مئات من رؤساء الأديرة مثل مايليه،

صفحة رقم : 14415

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الدين والثورة

وكوندياك، وموريلليه، ورينال، هم أنفسهم "فلاسفة"، أو معتنقين للشكوك السارية. ثم أساقفة كتاليران لم يتظاهروا بالإيمان المسيحي إلا قليلاً؛ ورؤساء أساقفة مثل لومنيه دبربين، شكوا لويس السادس عشر من عدم إيمانهم بالله (18). وقد رفض لويس أن يكلف قسيساً بتعليم ولده مخافة أن يفقد الغلام إيمانه الديني (19). وواصلت الكنيسة مطالبتها بالرقابة على المطبوعات. ففي عام 1770 أرسل الأساقفة إلى الملك مذكرة تناولت "العواقب الخطيرة لحرية التفكير والنشر" (20). وكانت الحكومة في عهد لويس الخامس عشر قد تساهلت في تطبيق القوانين التي منعت دخول البروتستانت إلى فرنسا، فكان منهم الآن مئات في المملكة، يحيون في ظل قيود سياسية، وفي زيجات لا تعترف بها لدولة، وفي خوف كل يوم من أن تطبق عليهم في أي لحظة قوانين لويس الرابع عشر القديمة. وفي يوليو 1775 التمس مؤتمر من رجال الدين الكاثوليك من الملك أن يحظر اجتماعات البروتستانت، وزيجاتهم، وتعليمهم، وأن يحرم البروتستانت من جميع المناصب العامة؛ كذلك طلب خفض السن التي يسمح فيها بنذر الرهينة إلى السادسة عشرة (21). وناشد طورجو لويس السادس عشر أن يغفل هذه المقترحات، وأن يخفف إن البروتستانت قيودهم، فشارك الكهنة في الحملة لإقصائه. وفي 1781 أحرقت الطبعة الثانية من كتاب رينال "التاريخ الفلسفي لجزر الهند الشرقية والغربية" بأمر من برلمان باريس، ونفي المؤلف من فرنسا. وهاجمت السوربون بوفون لأنه وصف تطوراً طبيعياً للحياة. وفي 1785 طالب الأكليروس بالحكم بالسجن المؤبد على الأشخاص الذين يدانون ثلاث مرات بالإلحاد (22). غير أن الكنيسة التي أوهن بأسها قرن من الهجمات لم تعد قادرة على الهيمنة على الرأي العام، ولا على الاعتماد على "الذراع العلمانية" في تنفيذ أوامرها. فبعد أن ظل لويس السادس عشر شديد القلق بسبب التتويج التي اقسماها لمحق الهرطقة، أذعن لضغط الأفكار الليبرالية وأصدر في 1787 مرسوماً للتسامح أعده ماليرب: "أن عدالتنا لا تسمح لنا بأن نحرم بعد اليوم

صفحة رقم : 14416

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الدين والثورة

من حقوق الدولة المتحضرة رعايانا الذين لا يعترفون بالكاثوليكية" (23). وقد أبقى المرسوم على حرمان غير الكاثوليك من المناصب العامة، ولكنه أعطاهم جميع الحقوق المهنية الأخرى، وسمح لهم بالمهنة الحرة، وأضفى

الشرعية على زيجاتهم الماضية والمستقبلية، وأباح لهم الاحتفال بخدماتهم الدينية في منازل الخاصة. ويجب أن نضيف أن أسقفاً كاثوليكياً هو لالوزرن أيد بقوة تحرير البروتستانت وإطلاق الحرية الكاملة للعبادة الدينية" (24). ولم تكن هناك طبقة في مدن فرنسا أبغض إلى أقلية الذكور المتعلمة من الأكليروس الكاثوليك. يقول توكفيل أن الكنيسة كانت مكروهة "لا لأن المساوسة زعموا أنهم ينظمون شئون العالم الآخر، لا لأنهم كانوا ملاكاً للأرض، وأصحاب ضياع وعشور وحكاماً في هذا العالم" (25) وكتب فلاح إلى نكير في 1788 يقول: "إن الفقراء يقاسون البرد والجوع بينما يرتع كهنة الكاتدرائيات في رغد من العيش ولا يفكرون إلا في تسمين أنفسهم كأنهم خنازير ستذبح للفصح" (26). وغازط الطبقات الوسطى إعفاء ثروة الكنيسة من الضرائب. ولقد كانت معظم الثورات السابقة ثورات أما على الدولة وإما على الكنيسة، وندر أن نشبت ضدّها معاً في وقت واحد. فالقبائل الهمجية أطاحت بروما، ولكنها قبلت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. والسوفسطانيون في اليونان القديمة ودعاة الإصلاح البروتستانت في أوروبا القرن السادس عشر، رفضوا الدين السائد، ولكنهم قبلوا الحكومة القائمة. أما الثورة الفرنسية فإنها هاجمت الملكية والكنيسة جميعاً، واضطلعت بمهمة ومخاطرة مزدوجة، هي مهمة الإطاحة بالركيزتين الدينية والدينيوية للنظام الاجتماعي القائم. فهل من عجب أن يركب فرنسا الجنون عقداً من الزمان؟

صفحة رقم : 14417

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الحياة على شفا الثورة

2- الحياة على شفا الثورة

أدرك الفلاسفة أنهم قد رفضوا الأسس اللاهوتية للأخلاق ملتزمون أدبيياً بالعثور على أساس آخر، على نسق آخر يحمل الناس على السلوك الكريم بوصفهم مواطنين، وأزواجاً، وأباء، وأبناء (27). ولكنهم لم

صفحة رقم : 14418

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الحياة على شفا الثورة

يكونوا إطلاقاً واثقين من إمكان السيطرة على هذا الحيوان البشري دون ناموس أخلاقي مكرس تكريساً فوق طبيعي. وانتهى فولتير وروسو إلى الاعتراف بالضرورة للأخلاق لإيمان ديني شعبي. وكتب مابليه إلى جون آدمز في 1783 في "ملاحظات على حكومة... الولايات المتحدة الأمريكية" عام 1783 منبهاً إلى أن عدم المبالاة بأمور الدين، مهما كان غير ضار بالأفراد المتتورين العقلانيين، إلا أنه وببيل على أخلاق الجماهير. ورأى أن على الحكومة أن تضبط وتوجه فكر هؤلاء "الأطفال" كما يفعل الآباء مع أبنائهم الصغار (28). أما ديرو في النصف الثاني من حياته فكر ملياً في وضع أخلاقيات طبيعية، ثم اعترف بفشله: "بل أنني لم أجرؤ على أن أخط أول سطر... ولست أخالني كفنأ لهذا العمل الجليل" (29).

ولنسأل الآن أي ضرب من الأخلاق ساد فرنسا بعد أربعين عاماً حفلت بالهجمات على المعتقدات فوق الطبيعية؟ وفي جواينا على هذا السؤال يجب ألا نصور النصف الأول من القرن الثامن عشر في صورة مثالية. ولقد قال فونتيل قبيل موته في 1757 إنه يتمنى لو مد في أجله ستون سنة أخرى "لأرى النهاية التي تنتهي إليه الخيانة الزوجية المستشرية والخلاعة وتحلل جميع الروابط" (30). فإذا كانت تلك العبارة (التي لعلها لم تنصف الطبقتين الوسطى والدينية) تعطي صورة صادقة لأخلاق الطبقة العليا في فرنسا قبل "الموسوعة" (1751)، فلن نكون محقين إذا عزونا إلى جماعة الفلاسفة العيوب التي شابته الأخلاق في النصف الثاني من القرن. ذلك أن عوامل أخرى غير اضمحلال الإيمان الديني كانت توهن قوة الناموس الأخلاقي القديم. فتكاثر الثروة مكن الناموس من الإنفاق على أثار كانت من قبل غالية التكاليف. وقد صور لنا رستيف دلابريتون بورجوازيماً فاضلاً يتحسر على تدهور الخلق الفرنسي بانتقال السكان من القرى والمزارع إلى المدن (31)؛ وكان الشبان يهربون من النظام المفروض عليهم في الأسرة، والمزرعة، والناحية، إلى حياة المدن بما فيها من اتصالات وفرص مؤذية، واختفاء للشخصية بين حشود المدينة. وفي كتابه "اليالي باريس" وصف رستيف باريس الثمانينات كأنها درجور هائل عنيف يعج بالأحداث المنحرفين، وصغار اللصوص،

صفحة رقم : 14419

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الحياة على شفا الثورة

ومحترفي الإجرام، والبيغايا إنثاءً وذكوراً. وذهب تين إلى أن فرنسا في 1756-88 ابتليت "بالمتشردين" والمتسولين، وبكل ضروب النفوس العنيدة... الكريهة، القذرة، الشرسة، المتوحشة، التي ولدها النظام؛ وقد تجمعت كالحشرات على كل قرحة اجتماعية" (32). وكانت حثالة الكائن الاجتماعي هذه نتائج الطبيعة البشرية وحكم البوربون، ولا يمكن أن تعزى إلى الفلسفة أو انطفاء شعلة الإيمان.

وربما كان بعض القمار الذي ازدهر في باريس (كما في لندن) مرتبطاً بعد الإيمان، ولكن الجميع شاركوا فيه، أتقيا وعصاة على حد سواء. وفي 1776 ألغيت جميع ألوان اليانصيب الخاص لتدمج في "اليانصيب الملكي". ومع ذلك يجوز أن نعزو إلى حد معقول شطراً من الفوضى الجنسية في الطبقات العليا إلى الإلحاد. ففي كتاب شودرلو دلاكلو "العلاقات الغرامية الخطرة" (1782) نجد أشرافاً وهميين يتبادلون الملاحظات في فن الإغواء، ويضعون الخطط لفض بكارة فتاة في الخامسة عشرة بمجرد تركها الدير، ويعتقون فلسفة العدمية الأخلاقية. وحجة البطل، الفيكونت فالمون، أن جميع الناس أشرار في رغباتهم على السواء، ولكن أكثرهم يخفون في تحقيقها لأنهم يسمحون للتقاليد الأخلاقية أن تخوفهم. ويقول فالمون أن الرجل العاقل يسعى إلى إشباع أي أحاسيس تعده بأعظم لذة، ويحتقره كل النواهي الأخلاقية (33). ويحضرنا في هذا المقام أن بعض السوفسطائيين اليونان توصلوا إلى مثل هذه النتائج بعد أن نبذوا الهتهم (34).

وفلسفة انعدام الحس الأخلاقي هذه، كما يعرف العالم كله الآن غلا فيها غلواً مقززاً الكونت دساد-الذي يسمى خطأ عادة بالمركز دساد. وقد لود في باريس عام 1740، وخدم في الجيش اثنتي عشرة سنة، وقبض عليه وحكم عليه بالإعدام بتهم اللواط (1772)، ثم فر، وقبض عليه، وفر ثانية، وقبض عليه من جديد، ثم حكم عليه بالسجن في الباستيل. وهناك ألف عدة قصص وتمثيلات، فيها من الفحش والبذاءة ما أتسع خياله: وأهمها "جوستين" (1791)، و"قصة جوليت، أو أزدهار

صفحة رقم : 14420

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الحياة على شفا الثورة

الرديلة" (1792). وهو يزعم أنه ما دام أفله غير موجود، فإن العاقل من سعى إلى إشباع كل رغبة ما استطاع دون أن يجر عليه عقوبة أرضية. وكل الرغبات خيرة على السواء، وكل الفوارق الأخلاقية أوهام؛ والعلاقات الجنسية الشاذة مشروعة؛ وهي ليست في حقيقتها شاذة؛ والجريمة ممتعة لو تجنبت افتضاح أمرك؛ وقل أن تجد شيئاً أذ من ضربك فتاة جميلة. ولم يصدم القراء بانعدام الحس الأخلاقي عند دساد كما صدموا بالماعه إلى أن القضاء المبرم على النوع الإنساني لن يصيب الكون بأي أذى يذكر حتى أنه "لن يقف مسيره أكثر مما لو باد نوع الأرانب البرية أو البيئية كله" (35). وفي 1789 نقل دساد إلى مستشفى للأمراض العقلية في شارنتون، ثم أفرج عنه في 1790، وحكم عليه بالعودة في 1803 لاستعصاء شغائه، ومات في 1814.

وقد يدفع الفلاسفة بأن هذا الانعدام للحس الأخلاقي هو استنتاج خلقي لنقدهم اللاهوت المسيحي، وأن العقل السليم يقر الالتزامات الأدبية سواء دان أو لم يدين بالإيمان الديني، وقد أفرها كثيرون. وكان بين سكان فرانسابل سكان باريس-الأسوياء في تلك السنين عناصر كثيرة للتجدد الأخلاقي: ازدياد رقة العاطفة والحنان، وانتصارات الحب الرومانسي على زيجات المصلحة، والأم الشاببة ترضع طفلها بفخر، والزواج يتودد إلى زوجته، والأسرة ترد إلى سابق وحدتها باعتبارها أسلم منبع للنظام الاجتماعي. وكثيراً ما كانت هذه التطورات ممتزجة ببقايا من العقيدة المسيحية، أو بفلسفة روسو نصف المسيحية، ولكن دييرو الملحد أيدها تأييداً حماسياً.

وقد أعقب موت لويس الخامس عشر انتفاض على إباحيته الجنسية. وضرب لويس السادس عشر المثل الطيب ببساطة لباسه وحياته، وبوفائه لزوجته، وبإدانتته للقمار. وشاركت الملكة ذاتها في زي البساطة، وقادت حركة إحياء الحساسية

ورقة العواطف. وجرت الأكاديمية الفرنسية على منح جائزة كل سنة للفضيلة البارزة(36). وكان أكثر الأدب مذهباً، ونحيت قصص كريببون الابن جانباً، وقررت قصة برناردان دسن-ببيري "بول وفرجينى" طابع الطهارة الخلقية في الحب. وعكس الفن الأخلاق الجديدة، ومجد جروز ومدام فيجيه لبرون الأطفال والأمومة.

صفحة رقم : 14421

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الحياة على شفا الثورة

وغدت المسيحية والفلسفة معاً نزعاً إنسانية بثت المئات من أعمال البر والخير. وفي شتاء 1784 القارس خصص لويس السادس عشر ثلاثة ملايين من الجنيهات لإغاثة الفقراء؛ وشاركت ماري أنطوانيت بمانتي ألف من جيبيها الخاص، وحذا الكثيرون حذوها. وساعد الملك والملكة على تمويل مدرسة الصم والبكم التي أسسها الأبيه دلبيه في 1788 لتعليم أبجديته الجديدة التي ابتكرها للصم والبكم، ومدرسة الأطفال المكفوفين التي افتتحها فالنتان هاوي في 1784. وأسست مدام نكير (1778) ملجأ ومستشفى للفقراء، ظلت تشرف عليهما بشخصها عشرة أعوام. ووزعت الكنائس، وأديرة الرهبان والراهبات، الطعام والدواء. وفي هذا العهد تشكلت حملة لإلغاء الرق. كذلك كانت آداب السلوك كالأخلاق انعكاساً لعصر روسو. فهي لم تبلغ قط في عهد ملوك البوربون هذا المبلغ من الديموقراطية. صحيح أن الفوارق الطبقيّة ظلت قائمة، ولكن خفف منها لطف أعظم ومجاملة أوسع. وكان الموهوبون من الرجال، الذين لا يحملون ألقاب شرف، يلقون الترحيب في أعرق البيوت محتدماً. ومرة قفزت الملكة من مركبتها لتعين حوذاً جريحاً، ورفع الملك وأخوه الكونت دارتوا بكتفيهما العجلة ليساعداً عاملاً على تخليص عربته من الوحل. وأصبح اللباس أبسط: فاخترت البواريك، وتخلّى السادة، إلا في البلاط، من مطرراتهم، ومخرماتهم، وسيوفهم، بحيث كان من العسير في عام 1789 أن ينبئ المرء عن طبقة رجل من زيه. وحين استهوى فرانكلين فرنسا استسلم له حتى الخياطون؛ وظهر الناس في الشوارع "يلبسون على الطريقة الفرانكلينية قماشاً خشناً، وحذاء سميكا" (37). أما سيدات الطبقة البورجوازية فتزين في لباسهن تزين سيدات البلاط. وبعد 1780 نبذت النساء الطوق الحديدي الثقيل، ولكنهن حصن قوامهن بتنانير قاسية يلبسها متراكبة كالأحجية الصينية المعقدة. وقصرت الصدرات من أمام، ولكن الصدر كان عادة يغطى بمنديل مثلث يسمونه (رباط)،

صفحة رقم : 14422

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الحياة على شفا الثورة

وفي الإمكان تكثيف هذه المناديل لستر النهود الصغيرة، ومن ثم سماها الفرنسيون المناديل "الغشاشة" أو "الكاذبة" (38). وظلت تسريحات الشعر عالية، ولكن حين فقدت ماري أنطوانيت معظم شعرها أثناء حمل لها أحلت العقاص محل تسريحة "البرج"، وانتشرت هذه الموضة الجديدة من البلاط إلى باريس. وكان هناك مائتا طراز لقبعات النساء؛ وكان بعضها هياكل ضعيفة من السلك، والریش، والأشرطة، والأزهار، والخضر الاصطناعية، ولكن النساء اتبعن في أوقاتهن الأكثر دعة واسترخاء الطراز الذي ابتدعته الملكة في البيتي اربانون، والذي يغطي الرأس بوشاح بسيط. وفي أعظم الثورات قاطبة لبس بعض النساء الأحذية الواطئة أو الإخفاف المريحة (39). ورافق هذا التغيير إلى لباس أروح وأيسر أسلوب في العيش أصبح. وأقبلت قلة متزايدة على "العيشة الطبيعية": فلا مشدات، ولا خدم، ومزيد من الحياة في الهواء الطلق، وهروب من المدن إلى الريف كلما أمكن. كتب آرثر ينج يقول "كل من يملك بيتاً في الريف يهرع إليه، ومن لا يملك يزور من يملك. والثورة التي قلبت آداب السلوك الفرنسية هي ولا ريب من أفضل الملامح التي أخذوها عن إنجلترا. وقد زاد ادخالها يسراً سحر مؤلفات روسو" (40). غير أن الكثير من هذا "الرجوع إلى الطبيعة" كان كلاماً أو عاطفة أكثر منه عملاً أو واقعاً، وظلت الحياة في باريس تجري في سباق مجنون مع الحفلات الموسيقية، والأوبرات، والتمثيلات، وسباقات الخيل، ورياضات الماء، وألعاب الورق، والرقص، والحفلات الراقصة، والدردشة، والصالونات.

صفحة رقم : 14423

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الصالونات

3- الصالونات

Salonnières

جملت النساء الفرنسيات اضمحلال الإقطاعية لا بمفاتيح أشخاصهن وأزيائهن فحسب، بل بقدرتهن التي لا تبارى على جعل المجتمع الفرنسي جزءاً حيوياً من الحياة الفكرية للأمة، لا مجرد اجتماعات للثرثرة والقبل والقال. كتب جيون بعد أن وصل في 1777 ما انقطع بينه وبين صالونات باريس يقول:

صفحة رقم : 14424

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الصالونات

"لو أتيت ليوليانوس الآن أن يلم من جديد بعاصمة فرنسا (حيث ولد عام 331م). لاستطاع أن يتبادل الحديث مع علماء وعباقره قادرين على فهم تلميذ من تلاميذ اليونان وعلى تعليمه، ولعله مغتفر تلك الحماقات اللطيفة التي تند عن أمة يوهن روحها الحربية قط حبها للترف، وهو لا بد مصفق لكمال ذلك الفن الرفيع الذي يرقق ويهذب ويجمال علاقات الحياة الاجتماعية" (41).

ثم أضاف في إحدى رسائله "لقد بدا لي دائماً أن النساء في لوزان، كما في باريس، أرقى كثيراً من الرجال" (42). وكانت قدامى الصالونيات يخيلن المسرح على كرهه. فمدام جوفران ماتت عام 1777 كما سبق القول. أما مدام دودفان فقد أوشكت أن تتم عبور القرن من أوله لآخره، فقد دخلت التاريخ بوصفها إحدى خليلات الوصي على العرش (43). وافتتحت صالوناً اتصل نشاطه من 1739 إلى 1780، وكانت قد خسرت معظم سباع الأدب، إذ ظفرت بهم جولي دلسبيناس والصالونات الجديدة، وقد وجد هوراس وليبول-الذي قدم إليها لأول مرة في 1765-تشكيلتها من الشيوخ الأرستقراطيين مملة لا تثير اهتمامه. "إنني أتناول عشائي هناك مرتين كل أسبوع، وأحتفل عشراًها المملين كلهم لأجل خاطر الوصي على العرش" (44)، وهو يعني ذكرياتها المرححة لفترة الوصاية الرائعة تلك التي قررت طابع المجتمع الفرنسي والأخلاق الفرنسية طوال الستين عاماً التالية. أما هي ذاتها (في عبارة هوراس) "فلاذبة (في الثامنة والستين)، تواقفة لمعرفة ما يجري كل يوم توقّي لما جرى في القرن الماضي".

وقد أعجب بفكرها إعجاباً مفرطاً-لأنه لم يلق قط بمثل هذا الذكاء اللامع في نساء إنجلترا مازلن مقهورات مكبوتات- حتى لقد أُلّف أن يلم بها كل يوم، وقدم لها من التحية والإطراء ما بدا معيداً شبابها الذهبي. وأفردت هي له مقعداً خاصاً يحجز له دائماً، ووفرت له التدليل بكل لون من ألوان اهتمام المرأة ورعايتها. وإذا كان في طبيعتها بعض الذكورة، فإن

صفحة رقم : 14425

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الصالونات

رقته الأنوثية تقريباً لم تسوءها. واستطاعت وهي عاجزة عن رؤيته أن تشكل صورتها عنه كما يشتهيها قلبها ثم أحبت تلك الصورة. أما هو فلم يستطع قط وهو المبصر أن ينسى شيخوختها وعجزها البدني. وحين عاد إلى إنجلترا راحت تدبج له رسائل فيها من حرارة الحب ما يقرب مما في رسائل جولي دلسبيناس إلى جيبير، مكتوبة بأروع ما أبداه ذلك العصر من نثر. وقد حاولت ردوده على رسائلها أن تكبح فرحتها، وكان يقشعر فرقاً إذا خطر له ما قد يفعله كتاب إنجلترا الهجاءون (مثل سلوين) بمثل هذه الأكلة المثيرة لشهية الهجاء. واحتملت لومه، وأكدت حبها من جديد، ووافقت على أن تسميه صداقة، ولكنها أكدت له ان الصداقة في فرنسا كثيراً ما تكون أعمق وأقوى من الحب. "أنني ملكك أكثر مني ملك نفسي... وددت لو استطعت أن أبعث إليك بروحي بدلاً من رسالة. وأني لأبذل السنين من عمري عن طيب خاطر لأضمن وجودي على قيد الحياة حين تعود إلى باريس" وقد شبهته بمونتينني "وهذا أسمى مديح في وسعي أن أخصك به، لأني لا أجد فكراً يعدل فكره إنصافاً ونصوعاً" (45).

ثم عاد إلى باريس في أغسطس 1767. وانتظرتة في انفعال العذارى "أخيراً، أخيراً، لم يعد يفرقنا بحر. لا أستطيع أن أحمل نفسي على أن أصدق أن رجلاً له شأنك في الحياة، ويدها على عجلة حكومة عظمى، وإذن على عجلة أوربا، وفي وسعه.. أن يترك كل شيء ليحضر ويرى عرافة عجوزاً في ركن دير. أنه حقاً لأمر بالغ السخف، ولكنني مسحورة... فتعال يا معلمي! ليس هذا حلماً فأنا أعلم إنني صاحبة سارك اليوم!" وأرسلت مركبتها ليستقلها، فوافها على الفور. وظل ستة أسابيع يطربها بحضوره ويحزنها بتحذيراته. فلما عاد إلى إنجلترا لم تستطع أن تفكر إلا في رجوعه إلى باريس، "ستجعل غروبي أجمل وأسعد كثيراً من ظهيري أو فجري. أن تلميذتك، المطيعة طاعة طفل، لا أمنية لها إلا أن تراك" (46).

وفي 30 مارس 1773 طلب إليها أن تكف عن الكتابة (47). ثم لانت قناته واستؤنفت الرسائل بينهما. وفي فبراير 1775 طلب إليها أن ترد إليه جميع رسائله، فامتنلت، مع إلماعة رقيقة إلى رغبتها في أن يرد إليها رسائلها

صفحة رقم : 14426

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الصالونات

"سيكون لديك ما يكفي لإنارة أحاسيسك الحارة مدى طويلاً أن أضفت إلى رسائلك كل الرسائل التي تلقيتها مني وسيكون هذا إنصافاً ولا ريب، ولكنني أترك هذا الأمر لحكمتك" (48). ولم يبق من رسائله الثمانمائة إليها غير تسع عشرة، أما رسائلها فقد احتفظ بها كلها، ونشرت بعد موت ولبول. وحين سمع أن معاشها توقف عرض أن يعوضه من إيرادها الخاص، ولكنها لم تر ضرورة لهذا.

وقد زاد انهيار غرامها من قتامة ذلك التشاؤم الطبيعي لامرأة فقدت ألوان الحياة ولكنها عرفت أموالها الضحلة والعميقة. فقد استطاعت حتى في عامها، أن أتتفد ببصيرتها خلال الظاهر الأنيق لتصل إلى أنانية البشر التي لا يدركها التعب. وقد سألت ولبول "يا معلمي المسكين، ألم تلق غير الوحوش، والتماسيح، والضباع؟ أما أنا فلا أرى غير الحمقى، والبله، والكذابين، والقوم الحاسدين، والغادرين أحياناً.. أن كل من أراه هنا يذبل روحي. فلست أجد في أحد فضيلة، ولا إخلاصاً، ولا بساطة" (49). ولم يبق لها غير إثارة من إيمان ديني يعزيها. ومع ذلك فقد واصلت حفلات عشائها، مرتين في الأسبوع عادة، وكثيراً ما كانت تتغذى خارج مسكنها، ولو هروباً من سأم أيام مظلمة كالليالي. وأخيراً كفت عن التشبث بالحياة بعد أن تعلمت أن تكرهها، وراضت نفسها على تقبل الموت. وكانت الأمراض التي تبتلي بها الشيخوخة قد تفاقمت واصطلحت عليها، فشعرت وهي في الثالثة والثمانين بأنها أضعف من أن تقاومها. واستدعت كاهناً وأسلمت نفسها للأمل دون كبير إيمان. وفي أغسطس 1780 بعثت بأخر رسالة إلى ولبول تقول: "إنني اليوم أسوأ حالاً... ولست أخال لهذه الحال معنى إلا النهائية. وليس في من القوة ما يكفي للإحساس بالخوف، وبما أنه قدر على ألا أراك مرة أخرى فليس لدي ما أسف عليه... فسل نفسك يا صديقي ما استطعت. ولا تبتس لحالتي... وسوف تأسف علي، لأن المرء يطيب له أن يعرف أنه محبوب" (50).

صفحة رقم : 14427

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الصالونات

وماتت في 23 سبتمبر تاركة لولبول أوراها وكلبها. وواصلت الكثيرات غيرها من الصالونيات هذا التقليد الجليل: السيدات دودتو، ودينيه، ودني، ودجنليس، ولكسمبور، وكوندورسيه وبوفليه، وشوازيل، وجرامون، وبوهارنيه (زوجة عم لجوزفين)، يضاف إليهن جمعاً آخر صالونات ما قبل الثورة، وهو صالون مدام نكير العظيم. وقد بدأت حوالي 1770 حفلات استقبالها في الجمعة من كل أسبوع، ثم أضافت الثلاثاء بعد ذلك وفيه كانت الموسيقى هي الغالبة على الندوة؛ وهناك قسمت المدعوين للعشاء حرب جلوك-بلنتيني حزين، ثم وحدت بينهم الأنسة كليرون بتلاوتها فقرات من أحب أدوارها التمثيلية إليها. وفي الجمع كان رواد الصالون يلتقون بديرو، ومارمونتيل، وموريليه، ودالامبير (بعد موت جولي)، وسان-لامبير، وجريم (بعد موت مدام ديبنيه)، وجبون، وزينال، وبوفون، وجوبيير، وجالياني، وبيجال، وأنطوان توما صديق سوزان الأديب الأثير لديها. وفي أحد هذه الاجتماعات (أبريل 1770) طرقت فكرة إقامة تمثال لفولتير. هناك كان ديدرو يكتت هرطقاته، وهناك كاد يصبح رجلاً مهذباً مصقولاً. وكتب إلى مدام نكير يقول "مما يؤسفني أن الحظ لم يواتني بمعرفتك في وقت أسبق، وإلا لكنت بلا ريب بعثت في إحساساً بالنقاء والرفقة يسري من نفسي إلى كتبي" (51). ولم يبد غيره رأيهم فيها بمثل هذا النشاء. فمارمونتيل مثلاً، وهو الذي ظل صديقاً لها خمسة وعشرين عاماً، وصف سوزان في مذكراته بهذه العبارات: "لم تؤت شيئاً من مفاذن الشبابات الفرنسيات لجهلها بأداب باريس وعاداتها.. فلا ذوق في لباسها، ولا يسر في حركاتها، ولا سحر في أدبها، وكان ذهنها، كما كان تعبير وجهها، ثابتين ثباتاً مفرطاً بحيث أفتقد الخفة والرشاقة. وكان أكثر صفاتها جاذبية هي المجاملة، والإخلاص، ورقة الفؤاد" (52). ولم تحبها نساء الطبقة الأرستقراطية. مثال ذلك أن البارونة دوبركيرش التي زارت آل نكير مع الغراندوق بول في 1782 لم تر فيها "ببساطة أكثر من

مربية" (53)، أما المركزية دكريكي فقد مزقتها إرباً في صفحات مشحونة بالغل الظريف (54)، ولا بد أن مدام نكير أوتيت الكثير من الخصال

صفحة رقم : 14428

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الصالونات

الطيبة حتى ظفرت بحب جيون الدائم، ولكنها لم تتغلب تماماً على تراثها الكلفني إطلاقاً، فظلت متمتمة صارمة التدين رغم ثرائها، ولم تكتسب قط ذلك المرح الراقى الذي توقعه الرجال الفرنسيون من النساء. وفي 1766 أنجبت الفتاة التي أصبحت فيما بعد مدام دستال. وقد غدت هذه الفتاة جرمين تكير-التي شبت وترعرعت بين الفلاسفة والحكام-عالمة وهي في العاشرة. وجعلها نبوغها المبكر مفخرة لأبويها إلى أن أرق مزاجها العنيد العصبي أعصاب أمها. وقد أخضعت سوزان ابنتها لنظام صارم لأن الأم كانت تزداد غلواً في المحافظة كل يوم، فتمردت الفتاة، وأصبح الشقاق في هذا البيت الأنيق منافساً للفوضى الضاربة في مالية الدولة. وأضافت إلى تعاسة الأم تلك المصاعب التي لقيها نكير في محاولته تفادي إفلاس الحكومة رغم الحرب الأمريكية، وكرهها لكل نقد توجهه إليه الصحافة، حتى بدأت سوزان تحن إلى الحياة الهادئة التي كانت تحياها في سويسرا. وفي 1786 تزوجت جرمين، واضطلعت ببعض واجبات المضيفة في صالون أمها. غير أن الصالون الفرنسي كان أخذاً في الأضمحلال فالنقاش الأدبي كان يخلي مكانه للسياسة المتحمسة المتحزبة. كتبت سوزان إلى صديقة في 1786 تقول "ليس عندي أنباء أدبية أسوقها إليك، فحديث الأدب لم يعد الآن موضحة العصر، والأزمة بالغة الشدة، والناس لا يهتمون بلعب الشطرنج وهم على شفا جرف هار" (56). وفي 1790 انتقلت الأسرة إلى كوبييه، وهو قصر ريفي اشتراه نكير على سواحل بحيرة جنيف الشمالية. وهناك ملكت مدام دستال، وعانت مدام نكير سنوات من مرض عصبي أليم على حياتها في 1794.

صفحة رقم : 14429

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الموسيقى

كتب موتسارت من باريس في أول مايو 1778: "من حيث الموسيقى أراني محاطاً بوحوش ضارية لا أكثر... سل أي شخص شئت شريطة ألا يكون فرنسي المولد فإذا كان له أي علم بالموضوع أجاب بهذا الجواب بالضبط.. سأكون شاكرًا للإله القدير إذا هربت دون أن يفسد ذوقي" (56).

صفحة رقم : 14430

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الموسيقى

وهذا الحكم صارم ولكن جريم وجولدوني وافقا عليه (57). إلا أن هؤلاء النقاد الثالثة كانوا كلهم أجنب. وقد عكس الذوق الموسيقي للباريسيين من علية القوم آدابهم، فمال إلى القصد في التعبير والرتابة في الشكل، وظل يردد أصداء عصر لويس الرابع عشر. ومع ذلك ففي هذه السنوات الأولى للحكم الجديد بالضبط فقد نصف الباريس قصدهم، وربما آدابهم، في وطيس المعركة الدائرة حول بكيني وجلوك. تأمل رسالة جولي ليسبيناس المؤرخة 22 سبتمبر 1774، "أنني أشاهد باستمرار "أورفي وأوريديتشي" وأنا تواقفة إلى الاستماع مراراً وتكراراً في اليوم لذلك اللحن الذي يمزق نياط قلبي "لقد فقدت حبيبتي أوريديتشي" (58). أن باريس لم تكن صماء لا تستطيب الموسيقى، وإن زاد ما استوردته منها على ما أنتجته.

وفي 1751 قدم فرانسوا جوزف جوسيك، البالغ سبعة عشر ربيعاً، من موطنه هاينو إلى باريس يحمل خطاب تقديم إلى رامو. وحصل له الفنان العجوز على وظيفة قائد للأوركسترا الخاص الذي يديره الكسندر جوزف دلابولينير. وألف جوسيك لهذه "الفرقة" (1754 وما بعدها) سمفونيات سبقت سمفونية هيدن الأولى بخمس سنوات، وفي 1754 نشر رباعيات سبقت رباعية هيدن بسنة. وفي 1760 قدم في كنيسة سان روش "قداس الموتى" الذي استحدث فكرة العزف على آلات نفخ "التوبا" خارج الكنيسة. ولم يكن لإقدام جوسيك وتعدد مواهبه نهاية. ففي 1784 أسس "مدرسة الغناء الملكية"، التي أصبحت نواة كونسرفتوار باريس الموسيقي الذائع الصيت. وقد حقق نجاحاً متواضعاً في الأوبرا، الهازلة منها والجادة. ثم تكيف مع الثورة، وألف بعضاً من أشهر أغانيها، ومنها "ترنيمة للكانن الأعلى" لاحتفال روبسبير (8 يونيو 1794). وعمر بعد انحسار جميع الموجات السياسية، ومات في 1829 بالغاً من العمر خمسة وثمانين عاماً.

أما أبرز شخصية في أوبرا ذلك العهد الفرنسية فهو أندريه جريتر. وكان أجنبياً ككثيرين غيره من أقطاب الموسيقى الفرنسية في القرن الثامن

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الموسيقى

عشر، فقد ولد في لبيج عام 1741 لعازف كمان. ويروى أنه في ألو مرة تناول القربان طلب إلى الله أن يدعه يموت لتوه ما لم يكتب له أن يكون رجلاً صالحاً وموسيقياً عظيماً. في ذلك اليوم سقطت عارضة خشبية على رأسه وجرحته جرحاً خطيراً، ثم تماثل للشفاء، واستنتج أن السماء تعده بمستقبل سام(59). وكان منذ عامه السادس عشر يعاني دورياً من نزيف داخلي، يتقياً فيه ستة أقداح من الدم في اليوم، وكان عرضة للإصابة بالحمى وبالهذيان ينتابه بين الحين والحين، وكاد أحياناً يجن لعجزه عن وقف نغمة موسيقية من التردد في رأسه دون توقف. ولعلنا نغتنق حتى الموسيقى الرديئة لرجل لقي كل هذا العذاب واحتفظ رغم ذلك بابتهاجه طوال اثنتين وسبعين سنة.

وحين كان في السابعة عشرة ألف ست سموفنيات كانت من الجودة بحيث حصلت له من كاهن إحدى الكاتدرائيات على المال اللازم لسفره إلى روما. وقطع الطريق كله على قدميه فيما روته "المذكرات" الجذابة التي نشرها عام 1797(60)، وخلال الأعوام الثمانية التي أقام فيها بروما حمله نجاح برجوليزي على تأليف الأوبرات الهائلة. فلما جاء باريس (1767) لقي التشجيع من ديدرو، وجريم وروسو. ودرس فن الأنسة كليرون المسرحي، واكتسب مهارة غير عادية في موامة موسيقاه لنبرات الحديث الدرامي وتغييراته، وحقق في أوبراته رقة ونعومة غنائيين كأنهما انعكاس لروح روسو، وللعودة إلى البساطة ورقة العاطفة في الحياة الفرنسية. وظل محتفظاً بشعبيته طوال الثورة، التي أمرت بنشر مؤلفاته على نفقة الحكومة، وكانت الجموع الثورية تتغنى بألحان من أوبراته. وقد منحه نابليون معاشاً. وقد أحبه الجميع لأن حظه من وصمات العبقرية كان ضئيلاً؛ فهو رقيق القلب، ودود، أنيس، متواضع، يذكر منافسيه بالخير، ويؤدي ديونه. وقد أحب روسو مع أن روسو أساء إليه، واشترى الإرميتاج في شيخوخته، وهو الكوخ الذي أقام فيه روسو من قبل. في ذلك الكوخ، في 24 سبتمبر 1813، بينما كان نابليون يحارب أوروبا كلها، مات جريتر.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الفن في عصر لويس السادس عشر

5- الفن في عصر لويس السادس عشر

واصل "طراز لويس السادس عشر"، الذي بدأ تقريباً مع مولد لويس السادس عشر (1754)، انتقاضه على شذوذات الباروك المعقدة ورقائق الروكوكو الأنثوية، وتحرك صوب الخطوط الرجولية والنسب السمترية لفن كلاسيكي محدث ألهمته حفائر هر كولانيوم وحماسة فنكلمان للفن اليوناني-الروماني. وأشهر مثال على الطراز الجديد في العمارة هوا لبتي تريانو، ومن الطريف المسلي أن تتفق مدام دوباري وماري أنطوانيت، على ما بينهما من عزوف عن المخالطة، في الاستمتاع بهذا التقدير المتواضع للنظام والبساطة الكلاسيكيتين. ومثال جميل آخر هو "قصر اللجيون دونور" الحالي، والذي بناه باسم "الأوتيل سالم" (1782) ببيير روسو على ضفة السين اليسرى. وهناك نتاج أضخم لهذا الطراز هو "قصر العدالة" الذي أعيد بناؤه في 1776؛ بمصبعاته الفاخرة من الحديد المشغول في واجهة "الكوردمية". أما "مسرح الأوديون القومي" (1779) فقد اتخذ نمطاً دورياً قاتماً؛ وأطف منه المسرح الذي شاده في أميان (1778) جاك روسو بطراز جمع بين الطراز الكلاسيكي وطراز النهضة. وقد بنى فكتور لوي في بوردو (1775) على النمط الكلاسيكي مسرحاً ضخماً وصفه آرثر ينج بأنه "إلى حد كبير أفخم مسرح في فرنسا، ولم أر مسرحاً يدانيه" (61).

أما الزخرف الداخلي فقط احتفظ بالأناقة الفرنسية. وكان زي النسيج المزدان بالرسوم في طريقه إلى الزوال إلا لتغطية الكراسي ذات الذراعين والأرائك؛ وكان ورق الجدران المرسوم يصل من الصين، ولكنه استعمل أساساً في المخادع، وقسمت جدران الصالونات عادة إلى حشوات من الخشب المشغول، والمنقوش أو المزين بأشكال أو زخارف نباتية عربية تضارع خير نظائرها في إيطاليا. وأبدع الأثاث المصنوع في فرنسا في عهد لويس السادس عشر صممه ونفذه ألمانيان هما جان-هنري رينزير ودافيد رونتجن؛ وتحوي مجموعة وألسن نماذج رائعة صنعت لماري أنطوانيت والبيتي تريانون. وازدهر فن النحت، وامتد العمر ببيجال، وفالكونيه، وجان-

صفحة رقم : 14433

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الفن في عصر لويس السادس عشر

جاك كافيري من أيام لويس الخامس. أما أوجستن باجو، الذي كان قد بدأ العمل في ذلك العهد، فقد نال الآن ما يستحقه من تقدير. وقام بتكليف من لويس السادس عشر بنقش الزخارف للباليه-روبال. وللباليه-جوربون. وفي تمثاله "هجران بسيسي" (62) حاول التوفيق بين عنصرين في العهد الجديد-العاطفة الرقيقة والشكل الكلاسيكي. ثم نقل فنه-وزوج ابنته-لكلوديون، واسمه الحقيقي كلود ميشيل. وقد شق كلوديون طريقاً إلى الثراء بمجموعات من التيرا-كوتا (الطين التضيح) فيه شائبة من الشهوانية، وبلغ أوجه بتمثال لمونتسكيو (63). وكل نشوة الجسد تعني في تمثاله "الحورية والسايطر" المحفوظ بمتحف المتروبوليتان للفنون في نيويورك.

على أن أعظم نحاتي العصر هو جان-أنطوان أودون. وكان أبوه بواباً، ولكن في مدرسة للفن. وإذا كانت فرساي مسقط رأس جان، فقد تنفس النحت من التماثيل التي بثها لويس الرابع عشر في حدائق لنوتر. وبعد أن درس على بيجال فاز بجائزة روما وهو في العشرين، فانطلق إلى إيطاليا (1760). وقد اغتبط الباكلمنت الرابع عشر بتمثال "القديس برونو" الذي نحته في روما اغتباطاً شديداً فعلق عليه بقوله "إن القديس بود أن ينطق لولا أن قواعد رهيئته تفرض الصمت" (64). وفي باريس نحت أو صب سلسلة متعاقبة من تماثيل ديانا. وتمثال برونزي منها في مجموعة هنتجتن يعد آية في القسامات الكلاسيكية والرشاقة الفرنسية. وأشهر منه تمثال "ديانا العارية" البرونزي المحفوظ الآن بالوفر، وقد صن عليه بمكان في "صالون" 1785، ربما (كما قال ناقد) "لأنها كانت أكثر جمالاً وعرياً من أن تعرض على الجماهير" (65)، وأرجح من هذا السبب أن التمثال انتهك الفكرة التقليدية عن ديانا التي تصفها بالعفّة. وقد وجد أودون ككثيرين غيره من فناني القرن الثامن عشر في تصوير معاصريه ربحاً يفوق تصوير الرباط اللاني لا تنتهك حرمتهم. على أنه قرر أن يكون منصفاً للحقائق وأن يظهر الشخصية لا الوجه. وكان ينفق ساعات كثيرة في حبرات التشريح بمدارس الطب لدراسة التشريح، وكان يقيس

صفحة رقم : 14434

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الفن في عصر لويس السادس عشر

رأس من يصوره بعناية كلما استطاع، ثم ينحت تمثاله أو يصبه وفق هذه المقاييس، وحين أثير سؤال عن جثة نيشت في باريس وهل هي حقيقة جثة جون بول جونز كما قيل، قورن شكل الجمجمة ومقاييسها بشكل الصورة التي صباها أودون في 1781 ومقاييسها، وبلغ من توافق الشكلين أن عد التتابع مؤكداً (66). وقد نحت من رخام التمثال الذي صنعه لميرابو كل غارات الجدرى، وأبرز كل الظلال والتجاعيد، بل توقد العينين وعمقها، والشفتين تتفرجان استعداداً للكلام.

وسرعان ما أسعد الجابرة الثورة أن يجلسوا إليه ليصنع تماثيلهم، فنقلهم إلينا بأمانة أحالت الرخام والبرونز إلى لحم التاريخ وروحه. وهكذا نستطيع الآن أن نرى فولتير، وروسو، وديدرو، ودالامبير، وبوفون، وطورجو، ولويس السادس عشر، وكاترين الثانية، وكاليوسترو، ولافاييت، ونابليون، وناي. وحين قدم فولتير إلى باريس عام 1778 صنع له أودون عدة تماثيل تصوره: منها تمثال نصفي برونزي محفوظ الآن في اللوفر، ويبدو فيه الإرهاق والكلال، وتمثال نصفي شبيه به في متحف فكتوريا وألبرت، وآخر في مجموعة ولس، ثم رأس مبتسم مهذب مثالي الشكل طلبه

فردريك الأكبر، وأشهر الكل ذلك التمثال الذي قدمته مدام دني إلى الكوميدي-فرانسيز: تمثال فولتير جالساً في روب فضفاض، أصابع نحيلة تمسك بذراعي المقعد، وشفاه رقيقة، وفم أهتم، وفي العينين الحزنتين ما زالت آثاره من مرح-أنه واحد من التماثيل العظيمة في تاريخ الفن. وفي ذلك العام، حين سمع أودون بوفاة روسو، هرع إلى أرمنون-فيل وصب قناعاً لغريم فولتير الميت، ومنه صنع التمثال النصفي المحفوظ الآن باللوفر، وهو أيضاً آية من آيات الفن. وكان هناك أبطال أمريكيون أيضاً، وقد صنع أودون رسوماً تمثلهم نابضة بالحياة حتى أن قطع العملة المسكوكة في الولايات المتحدة ما زالت تحمل صورة لوشنطن، وفرانكلين، وجفرسن. وحين عاد فرانكلين إلى أمريكا عام 1785 ذهب أودون معه؛ وأسرع إلى مونت فرنون وأقنع

صفحة رقم : 14435

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الفن في عصر لويس السادس عشر

واشنطن، الرجل المشغول النافذ الصبر، بأن يجلس إليه في فترات متقطعة على مدى أسبوعين، وهكذا صنع التمثال الذي يزدان به مبنى برلمان الدولة في رتشموند بفرجينيا-رجل من الجرانيت، تجلله انتصارات غالية وأعباء باقية. هنا أيضاً نجد ذلك الاتحاد بين الجسد والروح الذي هو علامة فن أودون وخاتمه. مثل هذا النحت كان من الجائز أن يجعل التصوير بالقياس إليه ترفاً صغيراً لولا أو حروز وفرجونار واصلا العمل هذا العهد وخلال الثورة، لولا أن المصور جاك-لوي دافيد صعد إلى مقام الدكتاتورية على جميع الفنون في فرنسا في انطلاقة نيزكيه كانطلاقة نابليون. وقد تعلم تقنيته من عمه البعيد فرانسوا بوشيه، وأصبح رساماً من الطراز الأول، وأستاذاً أتقن الخط والتأليف أكثر من إتقانه اللون. وقد أدرك بوشيه أن تغير الأخلاق من بومبادور ودوباري إلى ماري أنطوانيت كان يقلص الطلب على الصور التي تبرز النهود والأرداف، ف نصح دافيد بأن يذهب ويلتقط الأسلوب الكلاسيكي المحدث البسيط في مرسوم جوزف فيان، الذي كان يرسم الجند الرومان والنساء الأبطال. وفي 1775 وافق دافيد فيان إلى روما. وهناك أحس بتأثير فنكلمان ومنجز، والمنحوتات القديمة في متحف الفاتيكان، والأطلال التي كشفت عنها في هر كولانيوم وبومبي. وقد قبل مبادئ الكلاسيكية المحدث، واتخذ النحت اليوناني نموذجاً يحتذيه في تصويره.

فلما قفل إلى باريس عرض سلسلة من الموضوعات الكلاسيكية المرسومة بصرامة: أندروماك تيكي على جثمان هكتور (1783)، وقسم الهوارتيين (1785)، وموت سقراط (1787)، وبروتس عائداً من الحكم بالموت على أبنائه (1789)(67). (وتقول الأسطورة التي رواها ليفي أن لوشياس جونيوس بروتس، حين كان بريطوراً لجمهورية روما الفتية (509 ق.م)، حكم على أبنائه بالإعدام لتأمرهم على إعادة الملوك إلى عرش روما)، وكان دافيد قد رسم هذه الصرة الأخيرة في روما، فلما عرضها على الأكاديمية في باريس حظر عرضها، ولكن جمهور الفن احتج،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الفن في عصر لويس السادس عشر

وأخيراً عرضت اللوحة، فزادت من حمى العصر الثورية. ورأت باريس في هذه الرسوم، وفي الأخلاقيات الصارمة التي عبرت عنها، ثورة مزدوجة-على الروكوك الأرسقراطية والطغيان الملكي. وأصبح دافيد البطل الراديكالي لأستوديوهات باريس.

وقد أنتخب أثناء الثورة عضواً في المؤتمر، وفي يناير 1793 صوت بالموافق على إعدام الملك. ثم قتل أحد المنتشيعين للملكية عضواً آخر من نواب المؤتمر صوت بالموافقة مثل دافيد (20 يناير 1793)، فعرض جثمانه على الجماهير شهيداً جمهورياً، ورسم دافيد "آخر لحظات ليوليتيه". وعلق المؤتمر اللوحة في قاعته. وحين قتلت شارلوت كورداي مارا (13 يوليو 1793) صور جافيد الميت راقداً في حمامه نصف مغمور في الماء، وندر أن كان التصوير ممعناً في تصويره للواقع إلى هذا الحد، أو في تعمده إثارة المشاعر. وقد أرسق اللوحتان سجل شهداء الثورة. وعمل دافيد بحماسة لدانتون وروبسبير، ومكافأة له عين مديراً لجميع ضروب الفن في باريس.

فلما أن تقلد نابليون زمام السلطة بلقب "القنصل" الروماني، رسم دافيد له بالذات الحماسة التي رسم بها لزعماء الإرهاب. فرأى في بونابرت ابن الثورة، الذي يقاقل ليمنع ملوك أوربا من رد ملك نظيرهم إلى عرش فرنسا. وحين نصب نابليون نفس إمبراطوراً (1804) لم يفتر إعجاب دافيد به، وعينه نابليون مصوراً للبلاط الإمبراطوري فرسم له المصور عدة صور مشهورة: نابليون يعبر الألب؛ نابليون يتوج جوزفين؛ وتوزيع النسور؛ وقد علقت هذه اللوحات الضخمة بعد ذلك على جدران قصر فرساي. وأظهر دافيد أثناء ذلك تعدد مواهبه بلوحتين رائعتين رسم فيهما مدام ريكاميه والبابا بيوس السادس (68). فلما رد آل بوريون نفي دافيد باعتباره من قتل الملك، فاعتكف في بروكسل، حيث وافته زوجته لتشاركه منفاه (وكانت قد هجرت في 1791 لتحمسه للثورة). وعاد الآن إلى المواضيع الكلاسيكية، وإلى أسلوب التصوير النحتي الذي حبذه منجز.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الفن في عصر لويس السادس عشر

وفي 1825 أختتم وهو في السابعة والسبعين حياة من أروع ما عرف تاريخ الفن. ومن لوحاته لوحة تصور مدام فيجييه-لبرون، التي رفضت الثورة وأثرت الملوك والملكات. وقد نشرت وهو تدنو من عامها السابع والثمانين (1755-1842) مذكرات تروي وصفاً لطيفاً لشبابها، وتذكر قصة محزنة لزواجها، ويوميات برحلتها الفنية الطويلة، وصورة لامرأة فاضلة يصددها عنف التاريخ. وقد مات أبوها وهي في الثالثة عشرة، وكان مصور أشخاص، ولم يترك لها مالاً، ولكن إليزابيث كانت تلميذة شديدة الذكاء، فاستطاعت وهي بعد في السادسة عشرة أن تكسب دخلاً طيباً من صورها. وفي 1776 تزوجت مصوراً آخر اسمه بيير البرون، وكان ابن أخ بعيد لشارل لبرون الذي كان مدير الفنون للويس الرابع عشر. وبدد زوجها ثروتها وثورته (كما تقول) "بشغفه الجامح بالنساء السيئات الخلق، وبولعه بالقمار" (69). وقد ولدت له ابنة، ثم هجرته بعد ذلك بقليل. وفي 1779 رسمت صورة لماري أنطوانيت، التي بلغ إعجابها بها أن جلست لها لترسمها في عشرين لوحة. وتوثقت الصداقة بين المرأتين فكانتا تشتركان في غناء الألحان الرقيقة التي كان جريترى يستدر بها العبرات من عيون باريس. وقد فتح كل الأبواب أمام المصورة الجذابة هذا العطف الملكي وما تميز بها عملها من أناقة مهذبة، وما لبثت كل سيده ثرية أن اشتاقت للجلوس إليها لتصويرها. وكانت تتقاضى أتعاباً يسر لها ارتفاعها الاحتفاظ بشقة عالية وصالون يختلف إليه خيرة موسيقيي باريس. وقد ذهبت ثلاث مرات لتصور مدام دوباري في لوفسبيين رغم صداقتها للملكة. وفي المرة الثالثة (14 يوليو 1789) سمعت قصف المدافع في باريس. فعادت إلى المدينة لتجد أن الباستيل سقط، وأن جماهير الغوغاء الطافرة تحمل الرعوس النبيلة على أسنة الرماح المملوطة بالدماء. وفي 5 أكتوبر بينما كان حشد آخر من الغوغاء يسير صوب فرساي ليأسر الملك والملكة، جمعت

صفحة رقم : 14438

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الفن في عصر لويس السادس عشر

ما استطاعت جمعه من متاعها وبدأت ثلاثة عشر عاماً من النفي الاختياري. وقد رسمت في روما لوحتها المعروفة التي تصورها وتصور ابنتها (70). وفي نابلي رسمت الليدي هاملتن في صورة باخوسية (71). ورسمت في فيينا، وبرلين، وسانت بطرسبرج، وحين أنهت الثورة شوطها قفلت إلى فرنسا (1802). وهناك عمرت أربعين سنة أخرى بعد أن انتصرت على غير الدهر كلها، وأحسنت صنعاً بموتها قبل أن تندلع الثورة من جديد.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الأدب

6- الأدب

أنجب الأدب الفرنسي في الحقبة القصيرة الواقعة بين 1774، 1789 بعض الآثار المذكورة التي مازالت تجد القراء وتحرك العقول: منها "الحكم" لشمفور، وبول وفرجيني لبرناردان دسان-بيير، والعلاقات الغرامية لثودرلو دلاكلو (التي تكلمنا عنها بما فيه الكفاية)، ومجلدات رستيف دلابريتون الكاشفة على مل فيها من فوضى. تلك كانت جزراً انبعثت من بحر أدبي يموج بالمدارس والمكتبات، ومجموعات القراء، والمحاضرات، والصحف، والمجلات، والنشرات، والكتب، فيض من المداد فيه الزبد وفيه الخمير لم يعرف العالم له نظيراً من قبل. ولم يكن يلم بالقراءة من الشعب الفرنسي غير قلة قليلة (72)، ومع ذلك كان الملايين منهم متعطشين للمعرفة جياشين بالأفكار. واتسع الطلاب على الموسوعات، وخلصات العلم الوافية، وملخصات المعرفة، وكان جماعة الفلاسفة والمصلحون يعلقون الآمال العراض على نشر التعليم. وكان أكثر التعليم لا يزال في أيدي رجال الدين رغم إقصاء اليسوعيين وإشراف الدولة على المدارس. أما الجامعات المتصلة في تقاليدھا الدينية والسياسية فكانت قد تبدلت وساعت سمعتها، وكانت في نهاية القرن بادئة لتوها في الالتفاف إلى العلوم. غير أن المحاضرات العامة في العلم كانت تجد رواداً حريصين عليها، وكانت المدارس التقنية في ازدياد. وكان كل تلاميذ الكليات تقريباً من الطبقة الوسطى، أما شباب النبلاء فأثروا إحدى

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الأدب

الأكاديميات الحربية الأتنتي عشرة التي أنشأها سان-جرمان عام 1776 أو بعده (وفي واحدة منها بمدينة بريين-كان نابليون بونابرت يتلقى دروسه). ويروون أن طلبة الكليات "كثيراً ما ألفوا التنظيمات لتأييد المظاهرات السياسية" (73)، ولما كان عدد خريجي الكليات في تلك الفترة يجاوز طاقة الاقتصاد الفرنسي على استخدامهم، فقد بات الخريجون العاطلون مصدراً للسخط والتذمر، وألف هؤلاء الرجال نشرات أوجت نيران الثورة. وكان للأغنياء مكنتبات خاصة في مقار تحسد عليها، تضم كتباً تجلد تجليداً فاخراً وتقرأ أحياناً. أما أفراد الطبقتين الوسطى والدنيا فكانوا ينتفعون بالمكنتبات المتنقلة، أو يشتركون كتبهم وكلها تقريباً ورقية الغلاف-من الأكشاك أو الحوانيت. وفي 1774 قدر المبيع من الكتب في باريس بأربعة أمثال المبيع في لندن الأهلة بعدد أكثر كثيراً من السكان (74)، وذكر رستيف دلابريتون أن القراءة قد جعلت عمال باريس "عنيدين" (75). أما الصحف فكانت تنمو عدداً وحجماً وتأثيراً. وكانت صحيفة "الجازيت دفرانس" القديمة، التي أنشئت في 1631، لا تزال الأداة الرسمية-وغير الموثوق بها-في نقل الأنباء السياسية. وكانت صحيفة "المركز دفرانس" التي بدأت في 1672 باسم "المركز جالان" توزع في 1790 ثلاثة عشر ألف نسخة، وهو توزيع كان يعد ممتازاً؛ وقد وصفها ميرابو بأنها أكفأ الصحف الفرنسية (76). وفي 1777 صدرت "الجورنال دباري"-وهي أول الصحف اليومية الفرنسية، أما صحيفة "المونيتور" الأوسع شهرة فلم تصدر إلا في 24 نوفمبر 1789. وكان هناك الكثير من الصحف الإقليمية، مثل "الكوربيه دبروفانس" التي كان يحررها ميرابو الابن. وكانت النشرات أو الكراريس فيضاً غامراً اكتسح في النهاية كل شيء أمامه. ففي الشهور الأخيرة من عام 1788 صدر منها نحو 2.500 في فرنسا (77).

صفحة رقم : 14441

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الأدب

وكان لبعضها تأثير تاريخي، مثل كراسه الأبييه سيبس "ما الطبقة الثالثة" أو كراسه كامي دمولان "فرنسا الحرة". حتى إذا جاء يوليو من عام 1789 وجدنا الصحافة أعظم قوة في فرنسا. وقد وصفها نكير في 1784 بأنها "قوة غير مرئية تملئ أومرها على المدن والمحاكم على السواء، وحتى في قصور الملوك، رغم أنها بلا مال، وبلا سلاح، وبلا جيش" (78). ولعبت الأغاني دوراً في الدعوة والتحرير، وقد وصف شامفور الحكومة بأنها ملكية مقيدة بالأغاني الشعبية (79).

وطوى تيار الثورة شامفور نفسه فانقل من كونه "شخصاً مرضياً عنه" في البلاط إلى المشاركة في اقتحام الباستيل. وقد ولد لبدال ريفي (1741)، وقدم إلى باريس وكسب قوته بالحيلة والظرف. وكانت النساء يسكنه ويطعمنه لا شيء إلا للاستمتاع بإثارة حديثه، وقد كتب عدة مسرحيات، أبهجت إحداها ماري أنطوانيت كثيراً فأقنعت الملك بأن يمنحه معاشاً قدره ألف ومائتا جنيه. وعين سكرتيراً لأخت اللويس السادس عشر، وتلقى راتباً إضافياً قدره ألفاً جنيه في العام. وبدا أن كل شيء يربطه بالفضية الملكية، ولكن في 1783 التقى بميرابو، فما لبث أن انقلب لاذعاً للحكومة. وهو الذي اقترح على سيبس العنوان اللافت الذي وضعه على كراسه الشهيرة.

وفي هذه الأثناء، ويوحى من لارشفوكو، وفوفنارج، وفولنير، دون بايجاز وعلى عجلة "حكماً" أفصحت عن نظرتة الساخرة إلى العالم. وقد قالت مدام هلفتيوس التي ظلت تستضيفه في بيتها بسيفر طوال سنين أربع "كلما جرى حديث

بيني وبين شامفور في الصباح، كان الحزن يغمرنى بقية اليوم" (80). وقد رأى الحياة خدمة يندفع بها الأمل "أن الأمل دجال لا يفتأ، يحتال علينا، أما أنا فإن سعادتني لم تبدأ إلا يوم طلقت الأمل" (81). "لو أن الحقائق القاسية، والاكتشافات المحزنة، وأسرار المجتمع-التي تتألف منها معرفة رجل الدنيا الذي بلغ الأربعين-عرفها هذا الإنسان نفسه وهو في العشرين، لأصابه اليأس، أو لبات إنساناً فاسداً عن عمد" (82).

صفحة رقم : 14442

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الأدب

وقد سخر شامفور من العقل، وهو الذي جاء في ختام عصر العقل، ورأى فيه سيئاً على العاطفة أقل منه أداة للشر. "أن الإنسان في حالة المجتمع الراهنة يبدو أكثر فساداً بسبب عقله منه بسبب عواطفه المشبوبة" (83). أما عن النساء "فمهما بلغ سوء أي رأي الرجل فيهن، فما من امرأة لا يسوء رأيها فيهن على رأيه" (84). والزواج فخ، "أن الزواج والعزوبة كليهما مجلبة للعناء: وينبغي أن نفضل منهما ما ليست متاعه بغير دواء" (85). "أن النساء لا يمنحن للصدقة إلا ما يقترضنه من الحب" (86). و "الحب الذي يوجد في المجتمع ليس إلا تبادل أو هام واحتكاك بشرتين" (87).

فلما خرج شامفور من القصور والبيوت الفاخرة إلى شوارع باريس اشتد تشاؤمه. "باريس، مدينة اللهو واللذة، حيث يموت أربعة أخماس الناس حزناً... المكان الذي تفوح ننته وليس فيه إنسان ينبض قلبه بالحب" (88). والعلاج الوحيد لهذه الأحياء الفقيرة هو العقم. "من سوء حظ النوع الإنساني، وحسن حظ الطغاة، أن الفقراء والتعساء لا يملكون غريزة الكبرياء التي يملكها الفيل، فهو لا يتوالد وهو أسير" (89).

وكان أحياناً يسترسل في الحلم بمثل أعلى "من الضروري الجمع بين النقيض: حب الفضيلة دون اكتراث للرأي العام، والميل للعمل دون اكتراث للشهرة، وحب المرء لصحته دون اكتراث للحياة" (90). وقد خطر له في بضع سنين أن يضفي على الحياة معنى بتكريس نفسه للثورة، ولكن خمس سنين من التعامل مع ميرابو، ودانتون، ومارا، وروبسبير، أحبت يأسه من جديد وبدا له يومها أن شعار الثورة "الحربية، والمساواة، والإخاء" أصبح معناه "كن أخي وإلا قتلتك" (91). واختار الانضمام إلى صفوف الجبروند، وراح يسوط الزعماء الأكثر تطرفاً بدعابته المتهورة. فقبض عليه، ثم أفرج عنه بعد قليل. فلما رأى نفسه مهدداً بالقبض عليه ثانية، ضرب نفسه بالرصاص وطعن نفسه. ومد في أجله حتى 13 أبريل 1794 ثم مات بعد أن قال لسيسيس، "أني منطلق في النهاية من هذا العالم الذي لا بد فيه للقلب أما أن ينكسر أو ينقسي".

صفحة رقم : 14443

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الأدب

وإذا كان تأثير فولتير هو الغالب عند شامفور، فإن تأثير روسو كان كاملاً وسافراً في جاك-هنري برناردان دسان-بيير. ففي الحادية والثلاثين (1768) كلف بوصفه مهندساً بمهمة حكومية في الأيل دفرانس، المسماة الآن موريتيوس. وفي تلك الجزيرة الجبيلة، المطيرة، الكثيرة الثمر، وجد ما خاله "حالة طبيعية" التي تخيلها روسو-رحالاً ونساء يعيشون ملتصقين بالأرض لم تلوثهم رذائل المدينة. فلما عاد إلى فرنسا (1771) أصبح صديقاً مخلصاً لجان-جاك، وتعلم أن يحتل غضباته، وأن يرى فيه مخلصاً ثانياً للبشرية. وفي كتابه "رحلة إلى الأيل دفرانس" (1773) وصف حياة سكان الجزيرة البسيطة وإيمانهم الديني الذي يشدهم. وقد رأى أسقف أكس في هذا الكتاب انتقاصاً سليماً على فولتير، وحصل للمؤلف على معاش ملكي قدره ألف جنيه. واستجاب برناردان بكتاب عنوانه "دراسات للطبيعة" (1784)، وآخر عنوانه "توافقات الطبيعة" (1796)، وصف فيهما عجائب حياة النبات والحيوان، وزعم أن الأمثلة الكثيرة للتوفيق، والهدف، والخطة، تثبت وجود عقل أعلى. وفاق روسو في تمجيده للوجدان فوق العقل. "كما تقدم العقل أتنا بالدليل على تفاهتنا، وبدلاً من أن يهدئ أجزاننا بأبحاثه، فهو كثيراً ما يزيدنا بنوره.. أما الوجدان... فيعطينا دافعاً سامياً، وهو إذ يخضع عقولنا يصبح أنبل الغرائز وأكثرها إشباعاً في حياة البشر" (93).

وقد ألحق برناردان بالطبعة الثانية من "الدراسات" (1788) رواية سماها "بول وفرجينى" ظلت واحدة من عيون الأدب الفرنسي خلال الثقلبات الكثيرة التي اعتزت الذوق الأدبي، وخلصتها أن امرأتين فرنسيتين حبليين تنزلان موريتيوس، إحداهما ماتت زوجها، والأخرى هجرها حبيبها. وتلد الواحدة بول والأخرى فرجينى. ويشب الطفلان ويترعرعان في واد في الجبل، وسط مناظر رائعة ينتشر فيها أريج الأزهار الطبيعية. ويشكل أخلاقهما حب الأم وتعاليم الدين. حتى إذا بلغا الحلم أحب أحدهما الآخر.

صفحة رقم : 14444

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الأدب

إذ ليس حولهما أحد غيرهما. وتبعث فرجينى إلى فرنسا لتتسلم إرثاً، وهو أمر لا يحدث كثيراً في الحالة الطبيعية. فيعرض عليها هناك الزواج والثراء العريض إن أقامت في فرنسا، ولكنها ترفضهما لتعود إلى موريتيوس وبول. ويعدو بلو هابطاً إلى الشاطئ ليرى سفينتهما وهي تدنو من البر، وتغمره الفرحة بخواطر الحب والسعادة، ولكن

السفينة تجنح إلى مياه ضحلة فترطم بالقاع وتحطمها عاصفة. وتغرق فرجينى وهي تحاول الوصول إلى البر، ويموت بول حزناً عليها. والكتيب قصيدة منثورة، رواها المؤلف ببساطة في الأسلوب، ونقاء وموسيقى في اللغة لا يفوقها كتاب في الأدب الفرنسي. ووافقت تقواه ورقة عاطفته مزاج الجبل، ولم يزعج أحداً أن لهاتين المرأتين الفاضلتين ولطفليهما عبيداً (94). وهلل القوم لبرناردان خلفاً أصيلاً لروسو، وكتبت إليه النساء بنغمة الإعجاب الحار التي طيبت من قبل خاطر مؤلف "أميل". وحذا برناردان حذو روسو فلم يستغل شهرته، بل تجنب مخالطة المجتمع، وعاش عيشة هادئة بين الفقراء. وتركته الثورة دون أن تمسه بسوء. وفي إبان عنفها تزوج وهو في الخامسة والخمسين من فيليستيه ديدو، البالغة اثنتين وعشرين ربيعاً، فولدت له طفلين سميا بول وفرجينى. وبعد أن ماتت فيليستيه تزوج ثانية وهو في الثالثة والستين من شبابه تدعى ديزيريه وببليو، رعته في حب حتى مات في 1714. وقبل رحيله شهد بزوغ نجم شاتوبريان الذي تلقى من يديه مشعل الرومانسية والتقوى الفرنسيتين وحمله إلى القرن التاسع عشر. هذت وقد ظهرت في هذا العصر كتب أقل شأناً لم يعد الناس يقرعونها اليوم، ولكنها شاركت في إعطاء الجيل صوته ولونه. ومن ذلك أن الأبييه جان-جاك بارتملي أصدر وهو في الثانية والسبعين (1788) كتاباً سماه "رحلة الفتى أناخارسس في اليونان" بعد أن عكف على تأليفه ثلاثين عاماً، وقد زعم الكتاب أنه وصف لطبيعة اليونان وأثارها ومؤسساتها وعاداتها وعملياتها في القرن الرابع قبل المسيح، كما رآها رحالة سكوذي. وقد صعد الكتاب إلى قمة الموجة الكلاسيكية، وكان من أبرز الكتب الكلاسيكية الناجحة في ذلك العصر، وكاد يرسي أصول علم العملات في فرنسا.

صفحة رقم : 14445

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الأدب

ونافس شعبيته كتاب آخر هو "الأطلال، أو تأملات في ثورات الإمبراطوريات" الذي أصدره الكونت كونستانتان دفولني في 1791 بعد أن قضى أربع سنوات من الرحلة في مصر والشام. وحين رأى حطام الحضارات القديمة تساءل "من يستطيع أن يؤكد لنا أن مثل هذا الخراب لن يكون يوماً ما مصير بلادنا؟" وقد نتردد الآن في إعطاء جواب متفائل عن هذا السؤال، ولكن فولني الذي جاء في ختام عصر العقل، والذي ورث كما ورث كوندوريسيه كل آماله البشرية، أخبر قراءه أن سقوط تلك الإمبراطوريات القديمة مرده جهل شعوبها الذي نجم عن صعوبة نقل المعرفة من إنسان إلى آخر ومن جيل إلى جيل. أما الآن فقد ذلت هذه الصعوبات باختراع الطباعة. فكل ما يلزم منذ الآن لتقادي تدمير الحضارة هو بث المعرفة على نطاق واسع، الأمر الذي يفضي بالناس والدول إلى المواعمة بين دوافعهم غير الاجتماعية والصالح العام. وفي هذا التوازن بين القوى ستخلي الحرب مكانها للتحكيم، "وسيصبح النوع الإنساني بأسره مجتمعاً عظيماً واحداً، أسرة واحدة تحكمها روح وقوانين عامة، وتتمتع بكل السعادة التي في مقدور الطبيعة البشرية" (95).

والآن نصل إلى سيرة عجيبة هي سيرة نيقولا-إدمون رستيف دلابريتون، الذي لقبه بعض معاصريه "روسو البالوعات" و"فولتير خادمات المخادع"، وهو مؤلف نحو مائتي كتاب، طبع الكثير منها ببديه وبمطبعته، وبعضها فيه فحش متعمد، وكلها يؤلف صورة تفصيلية لأخلاق وعادات الطبقات الدنيا في عهد لويس السادس عشر.

ففي كتاب "حياة أبي" (1779) أعطانا وصفاً صور فيه أباه إدمون في صورة مثالية مشربة بالحنان، هذا الأب تذكر أن له "طلعة هرقول ورقة صبية" (96). أما الإبن فقد سجل حياته هو في سنة عشر كتاباً مستقبضة عنوانها "مسيبو نيقولا" (1794-97)، اختلطت فيها الحقيقة بالخيال عن تقلبات حياته وغمامياته وأفكاره. وقد ولد في بيت بمزرعة (1737) في ساسيه "التي سمي قسم منها لابريتون"، على عشرين ميلاً من أوكسير، ويروي أنه حين بلغ الحادية عشرة أصبح أباً لأول مرة (97). وفي الرابعة

صفحة رقم : 14446

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الأدب

عشرة أحب جانيت روسو، وكان في السابع عشرة، وبدأ إعجابه الذي امتد طوال حياته بأقدام الأنتي "مان شعوري نحوها رقيقاً كما كان حاداً.. وكانت قدمها الجميلة شيئاً لا أستطيع مقاومته" (98). ولعل الرغبة في تخليصه من شرك كهذه هي التي أوحى بإيفاده إلى أوكسير (1751) ليعمل تلميذاً لطابع. وسرعان ما أغوى زوجة معلمه، ولكن لا سند لنا لهذه الواقعة غيره. ثم يقول إنه في الخامسة عشرة كان له خمس عشرة "خليلة". وبعد أربع سنين من هذه الرواية انتقل إلى باريس، وهناك استخدم طابعاً باليومية يكسب فرنكلين ونصفاً في اليوم، وهو أجر مكنه من الحصول على طعامه ودفع أجر مومس بين الحين والحين، وكان إذا قلت موارده نام مع الخادمت (99). وفي 1760 حين كان في السادسة والعشرين تزوج امرأة تكاد تقاربه خبرة، واسمها أجنيس لوبيك، ثم تبين أن كليهما غير وفي لصاحبه. وتم طلاقهما في 1784، لا بسبب هذه الزلات، بل لأن كليهما وقع في شرك التأليف، وكانا يتنافسان على الورق والمداد والشهرة.

وكان نيقولا قد بدأ حياته كاتباً في 1767 بقصته "قدم فانثيت" التي كانت قدم الصبية هي "أبرز ملامحها Pièce De Résistance" وكان أول عمل أدبي ناجح له هو "الفلاح المنحرف" (1775) وهو يقص بالرسائل كيف انحرف الفلاح إدمون بعد انتقاله إلى باريس متأثراً بحياة المدينة فسوقها. فليعلمه ملحد يدعى جودي داراس أن الله أسطورة وأن الأخلاق أذنوبة، وأن كل اللذات مشروعة، وأن الفضيلة عبء ثقيل لا مبرر له على الحقوق الطبيعية لرغباتنا، وأن أول واجباتنا أن نعيش ملء حياتنا ما استطعنا العيش (100). وقبض على أراس، فيقول له إدمون "يوجد إله"، ويشنق أراس غير نادم ولا تائب. وقد سمي أحد معاصري المؤلف هذا الكتاب "علاقات الناس الغرامية الخطرة" (101)، وذهب رستيف إلى أنه سيعيش ما عاشت اللغة الفرنسية (102) وفي كتاب مرافق سماه "الفلاحة المنحرفة" (1784) وأصل الهجوم على انعدام المسؤولية الأخلاقية ومفاسد حياة المدينة. وقد استعمل حصيلته من كتبه ليرفع مقامه درجة أو اثنتين على السلم الاجتماعي الفاسق.

صفحة رقم : 14447

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الأدب

أما أهم أعمال رستيف فهو "المعاصرات" الذي طال حتى بلغ خمسة وستين مجلداً (1780-91). وكان لهذه القصص القصيرة عنوان فرعي جذاب هو "مغامرات أجمل نساء عصرنا" - وفيه وصف لحياة و غراميات و آداب بائعات الزهر، وبائعات القسطل، وبائعات الفحم، والخياطات، والحلاقات، بلغ من الواقعية والدقة مبلغاً أتاح للنساء الحقيقيات أن يتبين أنفسهن فيه وبلعن المؤلف حين يلقينه في الشوارع (103). ومثل هذا المشهد العريض من الحياة البشرية لم يقدمه كاتب في الأدب الفرنسي حتى جاء بلزاك. وقد أدان النقاد إيمان رستيف على "الموضوعات المنحطة"، ولكن سياستيان مرسبييه، الذي كان كتابه "الوحدة بباريس" (1781-90) يعرض مسحاً للمدينة أفضل ترتيباً، حكم بأنه "أعظم قصاصينا غير منازع" (104).

وقبيل نشوب الثورة بدأ رستيف يسجل في "ليالي باريس" (1788-94) الأحداث التي شهدها (أو تخيلها) في جولاته الليلية. وهنا أيضاً كان أهم ما لاحظته الأعماق السفلى لباريس - الشحاذين، والحمالين، والنشالين، والمهريين، والمقامرين، والسكران، وخاطفي الأطفال، واللصوص، والمنحرفين، والبغايا، والقوادين، والمنتحرين. وقد زعم أن حظه من السعادة كان ضئيلاً، ومن الشقاء موفوراً، وصور نفسه بطلاً منقذاً في حالات كثيرة. وقد ألم بالمقاهي القريبة من الباليه-روبال، ورأى الثورة تتشكل، وسمع كامى ديمولان يدعو الناس دعوته المشهورة إلى حمل السلاح، ورأى الدهماء الظافرين يجوبون المدينة عرضين رأس دلوني مأمور سجن الباستيل المفصول عن جسده، ورأى النساء يزحفن على فرساي لأسر الملك (105). ثم لم يلبث أن مل العنف والإرهاب وعدم الأمان. وتعرض غير مرة لخطر القبض عليه، ولكنه نجا بإعلانه الولاء للثورة. أما في مجالسه الخاصة فكان يندد بهذا كله ويتمنى لو أمكن "رد لويس السادس عشر الطيب إلى مكان السلطة" (106). وقد عنف في لوم روسو لأنه أطلق العنان لانفعالات الشباب والجهال والعاطفيين، "أن كتابه أميل هو الذي

صفحة رقم : 14448

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> الأدب

رمانا بهذا الجيل المغرور، العنيد، الوقح، المتصلب، الذي يعلو صوته على من هم أكبر منه سناً فيسكتهم" (107).

وهكذا تقدم به العمر وندم على أفكار شبابه لا على خطاياهم. وفي 1794 عاد فقيراً كما كان، غنياً في ذكرياته وحفدته فقط؛ وقد وضع في المجلد الثامن من "المسيو نيقولا" "تقويماً" بالرجال والنساء الذين عرفهم في حياته ومنهم عدة مئات من العشيقات، وأكد من جديد إيمانه بالله. وفي 1800 أخبرت الكونتيسة بوهارنيه نابليون بأن رستيف يعاني شظف العيش وأن حجرته ليس بها نار تدفئها، فبعث إليه نقوداً وخادماً وحارساً، ثم عينه (1805) في وظيفة بوزارة الشرطة. وفي 8 فبراير 1806 مات رستيف وقد بلغ الثانية والسبعين. واشتركت الكونتيسة وعدة أعضاء من المجمع الفرنسي (الذي كان قد رفض انضمامه إليه) مع جمع العامة البالغين ألفاً وثمانمائة في تشييعه إلى مثواه الأخير.

صفحة رقم : 14449

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> بومارشيه

7- بومارشيه

كتب آرثر ينج في 1788 يقول "كلما خبرت المسرح الفرنسي وجدتني مضطراً إلى الاعتراف بتفوقه على مسرحنا، سواء في عدد ممثليه الأكفاء، أو في نوعية الراقصين والمغنين والأشخاص الذين تعتمد عليهم صناعة المسرح، وكلهم راسخ القدم على نحو رائع" (108). وكانت الحفلات التمثيلية تحيا كل ليلة، بما فيها ليالي الأحد، في التياتر-فرانسيه الذي أعيد بناؤه في 1782، وفي كثير من المسارح الإقليمية. وجاءت الآن فترة خلت فيها خشبة المسرح من فحول الممثلين فقد مات لوكان، وتقاعدت صوفي أرنو في 1778؛ ثم استهل تالما الذي سيصبح أثير نابليون حياته المسرحية مع الكوميدي-فرانسيز في 1787، وحقق أول انتصار له في مسرحية ماري-جوزف شنييه "شارل التاسع" في 1789. وكان أحب كتاب العصر المسرحيين إلى الشعب ميشيل جان سيدين الذي ألف كوميديات عاطفية استأثرت بالمسرح الفرنسي طوال قرن من الزمان. ونحن نحبيه وننتقل إلى الرجل الذي نفخ الحياة في "فيجارو" بمساعدة موتسارت وروسيني، وأعطى الحرية لأمريكا (في زعمه).

صفحة رقم : 14450

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> بومارشيه

وقد عاش هذا الرجل، وهو بيبير-أوجستن كارون، كما عاش فولتير، أربعة وعشرين عاماً دون أن يعرف اسمه التاريخي. وكان أبوه صانع ساعات في ضاحية سان-ديني الباريسية. وبعد أن تمرد قليلاً راض نفسه على احترام حرفة أبيه. فلما بلغ الحادية والعشرين اخترع ضرباً جديداً من الهروب مكنه من أن يصنع "ساعات ممتازة بلغت غاية ما يناسب من الصغر والتسطح" (109). وقد أبهج لويس الخامس عشر بعينة منها، وصنع لمدام بومبادور ساعة كانت من الصغر بحيث أمكن إدخالها في خاتمها، وزعم أن هذه أصغر ما صنعه الصانعون من الساعات إطلاقاً. وفي 1755 اشترى من مسيو فرانكيه المسن وظيفته التي كان يشغلها بوصفه أحد المشرفين على المائدة الملكية الذين كانوا يقومون على خدمة الملك خلال تناوله الطعام؛ ولم تكن بالوظيفة المرموقة، ولكنها أتاحت لبيبير مدخلاً إلى البلاط. وبعد عام مات فرانكيه، فتزوج بيبير أرملته (1756) وكانت تكبره بخمس سنين. وإذا كانت تلك تملك لإقطاعية صغيرة، فقد أضاف بيبير اسم الإقطاعية إلى اسمه، فأصبح بومارشيه، فلما ماتت زوجته (1757) ورث أملاكها. ولم يكن قد حظي بأي تعليم ثانوي على الإطلاق، ولكن الجميع حتى الأرستقراطيين الذين ساءهم تسلقه السريع-أقروا بتيقظ ذهنه وسرعة خاطره. والتقى في الصالونات والمقاهي بديدرو، ودالامبير، وغيرهما من جماعة الفلاسفة، فنهل من التنوير. وقد استرعى انتباه بنات لويس الخامس عشر العوانس تحسين أدخله في نظام دواسة الهارب، وفي 1759 بدأ يعطيهن دروساً في الهارب. وطلب المصرفي جوزف باري-دوفرينه إلى بومارشيه أن يستعين بالأنسات الملكيات في الحصول على تأييد لويس الخامس عشر للمدرسة الحربية التي كان رجل المال يدبرها، وأفلح بيبير في الأمر، فأعطاه باري-دوفرينه أسهماً قيمتها ستون ألف فرنك. يقول بومارشيه "لقد أطلعني على أسرار عالم المال... وبدأت أجمع ثروتي بإرشاده، وعملاً بنصيحته دخلت في مضاربات عديدة، أعانني في بعضها بماله أو باسمه" (110). وهكذا أصبح بومارشيه فيلسوفاً من أصحاب الملايين، مقتدياً في هذا وفي كثير غيره بالسوابق التي وضعها فولتير. فما وافى عام

صفحة رقم : 14451

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> بومارشيه

1771 حتى بلغ من الثراء ما أتاح له شراء وظيفة سكرتارية شرفية لدى الملك، جاءت بلقب النبالة. وسكن منزلاً رائعاً في شارع كوندية أنزل فيه أباه وأخوته الفخوريين. وكان له أختان أخريان تعيشان في مدريد-إحداهما متزوجة والأخرى-واسمها ليزيت-مخطوبة لخوزيه كالايفجو أي فخاردو المحرر المؤلف الذي ظل ست سنوات يؤجل الزواج غير مرة. وفي مايو 1764 خرج بومارشيه في رحلة

طويلة ركباً عربة البريد نهاراً وليلاً إلى العاصمة الأسبانية. فعثر على كلافيجو، ووعد هذا بأنه سيتزوج ليزيت عما قليل، ولكنه زاع متوقفاً من مكان إلى مكان. وأخيراً أدركه بيير، وطالبه بالتوقيع على عقد الزواج، فاعتذر خوزيه بحجة أنه تناول لتوه مسهلاً، وكان القانون الأسباني يعتبر أي عقد يوقع في ظرف كهذا باطلاً. فهدده بومارشيه، فاستعدى عليه كلافيجو قوى الحكومة، وهزم الفرنسي الذكي بسلاح التسويف والمماطلة. فلما أفلح عن المطاردة، حول جهوده إلى ميدان التجارة وكون عدة شركات، إحداهما لإمداد المستعمرات الأسبانية بالعبيد الزوج. (ونسي أنه قبل سنة واحدة فقط كتب قصة ذم فيها الرق)"(111). وتحطمت هذه الخطط جميعها على صخرة الموهبة الأسبانية، موهبة التسويف والتأجيل. على أن بيير استمتع أثناء ذلك بالصحة الطيبة وبخليفة تحم لقب النبالة، وخبر من العادات الأسبانية ما أعانه على تأليف تمثلياته عن حلاق أشبيلي. أما ليزيت فقد وجدت حبيباً آخر، وقفل بومارشيه إلى فرنسا خاوي الوفاض إلا من الخبرة. وقد كتب مذكرات رائعة عن رحلته، وألف منها جوثه مسرحيته "كلافيجو" كما أسلفنا. وفي 1770 مات باري-دوفرنيه تاركاً وصية أقر فيها بأنه مدين لبومارشيه بخمسة عشر ألف فرنك. ونازع أهم الورثة وهو الكونت دلابلاش على صحة هذه الفقرة مدعياً أنها مزورة. وأحيل النزاع على برلمان باريس، فعين المستشار لوي-فالنتن جوزمان ليبيدي رأيه فيه. في هذا الظرف الحرج كان بومارشيه نزيل السجن نتيجة شجار عنيف مع الدوق دشولن على خليفة. فلما أفرج عنه مؤقتاً، أرسل "هدية" من مائة جنيه ذهبي (لوي

صفحة رقم : 14452

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> بومارشيه

دور)، وساعة مرصعة بالماس، إلى السيدة جوزمان أغراء لها على أن تمهد السبيل لاستماع زوجها إليه، فطلبت خمسة عشر جنيهاً ذهبياً أخرى أجر "سكرتير"، فأرسلها. وظفر بالمقابلة، ولكن المستشار اتخذ قراراً ضده، فأعدت السيدة جوزمان كل شيء إلا الخمسة عشر جنيهاً ذهبياً، وأصر بومارشيه على ردها هذا المبلغ أيضاً، واتهمه جوزمان بتقديم الرشوة. فعرض بيير الأمر على الشعب في سلسلة من "المذكرات" فيها من الحيوية والظرف ما أكسبه ثناء عريضاً باعتباره مجادلاً بارعاً إن لم يكن رجلاً أميناً كل الأمانة. وقد قال فولتير عنها: لم أر قط شيئاً أقوى ولا أجراً ولا أفكه ولا أطرف ولا أشد إذلالاً لخصومه. فهو يحارب "دستة" منهم في وقت واحد ويحصدهم حصداً"(112). وأصدر البرلمان حكماً برفض دعواه في حقه في الميراث (6 أبريل 1773)، واتهمه في الواقع بالتزوير، وحكم عليه بدفع 56.300 جنيه نظير التعويض والديون. فلما أفرج عن بومارشيه (8 مايو 1773) استخدمه لويس الخامس عشر جاسوساً في بعثة إلى إنجلترا ليمنع تداول نشرة فاضحة في حق مدام دوباري. فنجح في مهمته، وواصل اشتغاله عميلاً في عهد لويس السادس عشر الذي كلفه بأن يعود إلى لندن وبرشو جوليلمو انجيلوتشي كي يمتنع عن إصدار نشرة في حق ماري أنطوانيت. وسلم انجيلوتشي المخطوطة نظير 35.000 فرنك ورحل إلى نورمبرج؛ واشتبه بومارشيه في حيازته نسخة ثانية، فنتبعه عبر ألمانيا، وأدركه قرب نويشتات، وأكرهه على تسليمه النسخة، ثم هاجمه قاطعاً الطريق، فدفعهما عنه، ولكنه جرح، وشق طريقه إلى فيينا، حيث قبض عليه بوصف جاسوساً، وقضى في السجن شهراً، ثم أطلق سراحه، فركب قافلاً إلى فرنسا.

ولكن مغامرته الجريئة التالية أحق بمكان في التاريخ. ذلك أن فرجين أوفده في 1775 إلى لندن ليستطلع له حقيقة الأزمة المتصاعدة بين إنجلترا وأمريكا. وفي سبتمبر بعث بومارشيه إلى لويس السادس عشر بتقرير تنبأ بنجاح الثورة الأمريكية، وأكد وجود أقلية مناصرة للأمريكيين في إنجلترا.

صفحة رقم : 14453

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> بومارشيه

وفي 29 فبراير 1776 وجه إلى الملك رسالة أخرى، أوصى فيها بإرسال المعونة الفرنسية سراً إلى أمريكا، بحجة أنه لا سبيل أمام فرنسا لحماية نفسها من التبعية إلا بإضعاف شوكة إنجلترا (113). ووافق فرجين على هذا الرأي، ورتب كما رأينا أن يمول بومارشيه لتزويد المستعمرات الإنجليزية بالعتاد الحربي. وفرغ بومارشيه بحملته لهذه المغامرة. فنظم شركة "رودريج هورتاليه وشركائه". وراح ينتقل بين الثغور الفرنسية ويشترى السفن ويجهزها ويشحنها بالمؤونة والعتاد، ويجند الضباط الفرنسيين المدربين للجيش الأمريكي، وينفق (في زعمه) عدة ملايين من الجنيهات من ماله الخاص فوق المليونين اللذين أمدته بهما الحكومتان الفرنسية والأسبانية. وقد أبلغ سايلاس دين الكونجرس الأمريكي (29 نوفمبر 1776) "أنني ما كنت لأستطيع إنجاز مهمتي لولا جهود مسيو بومارشيه الذكية السخية التي يعترها الكلال، هذا الرجل الذي تدين له الولايات المتحدة من جميع الوجوه، أكثر من دينها لأي رجل آخر على هذا الجانب من المحيط" (114). وفي نهاية الحرب قدر سايلاس أن أمريكا تدين لبومارشيه بمبلغ 3.600.000 فرنك. أما الكونجرس الذي افترض أن كل العتاد كان منحة من الحلفاء، فقد رفض الطلب، ولكنه في 1835 دفع 800.000 جنيه لورثة بومارشيه.

ثم وجد أنه خلال هذا النشاط المحموم وقتاً لكتابة المزيد من المذكرات الموجهة إلى الشعب والتي يحتج فيها على مرسوم البرلمان الصادر في 6 أبريل 1773. وفي 6 سبتمبر 1776 ألغى ذلك المرسوم، وردت إلى بومارشيه كل حقوقه المدنية. وفي يوليو 1778 أصدرت محكمة في اكس-أن-بروفانس حكماً لصالحه في النزاع على وصية باري-دوفرنيه، واستطاع بومارشيه أن يحس أنه في النهاية برأ اسمه.

ولم تكفه كل هذه المغامرات في الحب، والحرب، والتجارة، والقضاء، فقد بقي عالم لم يغزه بعد، هو عالم الكلام، والأفكار، والطباعة، وعليه ففي 1767 قدم للكوميدي-فرانسيز أولى تمثيلياته "أوجني"، وقد عرضت في 29 يناير 1769، واستقبلها النظارة استقبلاً حسناً، ولكن

صفحة رقم : 14454

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> بومارشيه

النقاد رفضوها. ثم سقطت تمثيلية أخرى هي "الصديقان" (13 يناير 1770) رغم الأعداد المألوف، "لقد ملأت الصالة بأفضل العمال، بأيد كالمجاديف، ولكن جهود العصابة المتآمرة" غلبته (115). ذلك أن جمعية الأدباء التي يتزعمها فريرون قاومته باعتباره دخيلاً، ومجرماً مزماً انقلب كاتباً مسرحياً، تماماً كما ناصبه بلاط فرساي العداء لأنه صانع ساعات انقلب نبيلاً. ومن ثم نراه في مسرحيته التالية يجعل فيجارو يصف "جمهورية الأدب" بأنها "جمهورية الذئاب، الذين لا يفتأ بعضهم ينشب مخالفه في رقاب البعض الآخر... كل الحشرات، والبعوض الصغير والكبير، والنقاد، وكل الحاسدين من الصحفيين، والكتابين، والرقباء" (116).

ولقي بومارشيه في المسرح كما لقي في الحياة جيشاً من الأعداء فهزمهم جميعاً. وفي أروع لحظات الإبداع التي جادت بها عبقريته المتعددة المناحي تصور شخصية فيجارو الحلاق، والجراح، والفيلسوف، اللابس صدريّة من السنان وسراويل ركوب، وقيثارته المعلق على كتفه، وذهنه المتوقد على استعداد لتذليل أي صعوبة، وذكاؤه يخترق حجب النفاق والأكاذيب والمظالم التي تلوث عصره. ويمكن القول أن فيجارو من ناحية لم يكن خلقاً جديداً، إنما هو اسم وشكل جديداً لشخصية مألوفة هي شخصية الخادم الذكي في الكوميديا اليونانية والرومانية، وفي الكوميديا ديلارتي الإيطالية، وفي شخصية موليير "سجاناريل" ولكنه كله كما عرفناه من صنع بومارشيه إلا الموسيقى، لا بل حتى الموسيقى كانت أصلاً من صنعه. فقد ألف أول الأمر "حلاق أشبيلية" أوبرا هازلة عرضها على الكوميدي-ايتاليين في 1772 فرفضت، ولكن مونتسارت تعرف إلى هذه الموسيقى حين كان في باريس (117). وعدل بومارشيه الأوبرا إلى كوميديا، فقبلها الكوميدي-فرانسيز وحدد تاريخاً لإخراجها ولكن سجن المؤلف (24 فبراير 1773) اضطر الفرقة لتأجيل عرضها. فلما أفرج عنه إستونف إعادها للعرض ولكنها أجلت لأن مؤلفها وجهت إليه التهمة من البرلمان. غير أن النجاح الذي لقيه دفاع بومارشيه عن نفسه في "مذكراته" حدا بالمسرح مرة أخرى إلى ترتيب إخراجها، فأعلن أنها ستعرض في 12 فبراير 1774. ويقول

صفحة رقم : 14455

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> بومارشيه

جريم "نفدت كل المقاصير حتى الحفلة الخامسة" (118). ولكن حظرت التمثيلية في اللحظة الأخيرة بحجة أنها قد تحت تأثيراً ضاراً بالقضية المعلقة في البرلمان.

ومضت سنة أخرى، وجاء ملك جديد خدمه بومارشيه ببسالة معرضاً حياته للخطر غير مرة، فأعطى الإذن، وفي 23 فبراير 1775 وصلت "حلاق أشبيليه" آخر الأمر إلى خشبة المسرح. غير أن الحظ لم يحالفها، فقد كانت مفرطة الطول، وكانت الإثارة التي مهدت لها قد جعلت جمهور النظارة يتوقع منها فوق ما ينبغي. وعليه ففي يوم واحد راجعها بومارشيه واختصرها في عملية جراحية رائعة، فنقبت الكوميديا من التعقيدات المشوشة، وأخلبت الفكاهة من الإسهاب في الحديث، وأزال بومارشيه العجلة الخامسة من العربة على حد قوله وحققت التمثيلية انتصاراً في المساء الثاني ووصفتها مدام دودفان التي كانت تحضر الحفل بأنها "نجحت نجاحاً مفرطاً.. ولقيت من الاستحسان والتصفيق ما جاوز كل الحدود" (119).

ثم تحداه الأمير كونتي أن يكتب تنمة للمسرحية يبدو فيها فيجارو شخصية أكثر تطوراً ونضجاً. وكان المؤلف مستغرقاً الآن في دور المنقذ لأمريكا، فلما أنجز تلك المهمة عاد إلى المسرح وأخرج كوميديا خلقت تاريخاً أكثر درامية حتى من "طرطوف" موليير. ففي هذه الكوميديا زواج فيجارو ونرى الكونت المايفيا وروزينا، وهما شخصيتا حلاق أشبيلية يقضيان عدة سنين في حياتهما الزوجية، وكان قد مل المفاتن التي سحرته خلال الكثير من المواقف المعقدة، وانصرف الآن إلى مغامرة هي إغواء سوزان، خادمة الكونتيسة وخطيبة فيجارو الذي أصبح كبير خدم الكونت وقهرمان القصر الريف. ويقوم تابع في الثالثة عشرة يدعى شيروبان بدور أشبه باللحن الرشيق المصاحب للموضوع الرئيسي وذلك بعشقه الغرير للكونتيسة التي يبلغ عمرها ضعف عمره. أما فيجارو فقد تحول فيلسوفاً، ويصفه بومارشيه بأنه "العقل موشحاً بالمرح والملح" (120). ويكاد هذا أن يكون تعريفاً للروح العالية ولحركة التنوير.

صفحة رقم : 14456

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> بومارشيه

يقول لسوزان "ولدت لأكون رجل بلاط"، فإذا رأت في هذه الوظيفة "حرفة عسيرة" أجابها "مطلقاً. الاستقبال، والأخذ، والطلب-هذا هو السر في كلمات ثلاث" (121). وفي المناجاة التي جعلها روسيني تدوي في جنبات العالم كله يخاطب نبلاء أسبانيا (فرنسا) باحتقار يوشك أن يكون ثورياً، "ما الذي صنعتموه لتناولوا هذا الحظ الوفير؟ لقد كلفتم أنفسكم مشقة أن تولدوا، لا أكثر، وفيما عدا ذلك فأنتم قوم عاديون تماماً، في حين أنني أنا، التائه وسط الجماهير، كما علي في سبيل تحصيل قوتي فقط أن أستعين بقدر من العلم والحساب يفوق ما أنفق في حكم أسبانيا كلها هذه السنين المائة المنقضية" (122). وهو يهزأ بالجنود الذين "يقتلون ويقتلون في سبيل مصالح يجهلون تماماً". "أما أنا فأريد أن أعرف لماذا يشتد غضبي" (123)، وحتى النوع الإنساني ينال ما يستحقه من قصاص: "أن يشرب وهو غير عطشان، وأن يمارس الحب في جميع المواسم-هذا وحده ما يميزنا عن سائر الحيوان" (124). ثم يكيل شتى الضربات لبيع الوظائف العامة، وسلطة الوزراء التعسفية، واخفاقات العدالة، وحالة السجون، والرقابة على الفكر واضطهاده "مسموح لي أن أنشر ما أشاء، شريطة ألا أذكر في كتاباتي لا الحكام، ولا دين الدولة، ولا السياسة، ولا الأخلاق، ولا الموظفين، ولا المالية، ولا الأوبرا، ولا... أي شخص ذي خطر، على أن أخضع لتفتيش رقيبين أو ثلاثة" (125). واتهمت فقرة جنس الذكور بأنهم مسئولون عن البغاة-وهي فقرة حذفها الممثلون، وربما لأنها اقتربت قريباً شديداً من أسباب ترفيهم:- أن الرجال يخلقون العرض بطلباتهم، ثم يعاقبون بقوانينهم النساء اللائي يلبين هذا الطلب" (126).

أما حبكة التمثيلية فلم تكثف بإظهار الخادم أنكى من سيده فهذا تقليد مألوف جداً بحيث لا يسيء لأحد بل أنها فضحت الكونت النبيل فأظهرته رجلاً زانياً بكل ما في الكلمة من معنى. وقيل الكوميدي-فرانسيز "زواج فيجارو" في 1781، ولكن لم يتيسر إخراجها حتى 1784. ذلك أنها حين تليت على مسامع لويس السادس

صفحة رقم : 14457

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> بومارشيه

عشر احتمال بروح الفكاهة المتسامحة ما تخللها من هجاء عارض، ولكن حين سمع المناجاة وما اشتملت عليه من هزء بطبقة النبلاء وبالرقابة، أحس أنه لا يسعه السماح بأن تهان هذه المؤسسات الأساسية علانية، فصاح قائلاً "هذا شيء بغيبض، ويجب ألا يمثل أبداً. أن السماح بعرضه ليعدل تدمير الباستيل. فهذا الرجل يسخر من كل شيء يجب احترامه في أي حكومة" (127). ثم حضر تمثيل المسرحية. وقرأ بومارشيه أجزاء منها في بيوت خاصة، فأثار هذا فضول القوم، ورتب بعض الحاشية أن تمثل أما البلاط، ولكن هذا أيضاً حضر في اللحظة الأخيرة. وأخيراً أذعن الملك للاحتجاجات والالتماسات، ووافق على اعتماد تمثيلها علناً بعد أن ينقي الرقباء النص بعناية. وكانت حفلة العرض الأولى (27 أبريل 1784) حدثاً تاريخياً. وبدت باريس كلها مصممة على حضور هذه الحفلة الأولى. واقتتل الأشراف والعامّة على دخول المسرح، وحطمت البوابات الحديدية، وهشمت الأبواب، واختنق ثلاثة أشخاص. وكان بومارشيه موجوداً، وقد سعد بهذا الشجار. وبلغ من نجاح المسرحية أنها مثلت ستين مرة دون انقطاع، وكان المسرح يغض بالنظارة في كل حفلة تقريباً. أما الحصيلة فلم يسبق لها نظير، وتصدق بومارشيه بنصيبه كله-البالغ 41.999 جنيهاً (128). ولقد رأى التاريخ في "زواج فيجارو" إرهاباً بالثورة، ووصفها نابليون بأنها "الثورة وقد أخذت تفعل فعلها" (129). ودخلت بعض عباراتها في خميرة العصر. وقد أنكر بومارشيه في المقدمة التي صدمت بها بعد ذلك المسرحية المنشورة أي قصد ثوري، واستشهد بفقرات من كتاباته دافع فيها عن الملكية والأرستقراطية. فهو لم يطلب هدم المؤسسات القائمة بل القضاء على المظالم المتصلة بها، وتوفير العدالة المتكافئة لجميع الطبقات، ومزيداً من حرية الفكر والنشر، وحماية الفرد من أوامر القبض المختومة

صفحة رقم : 14458

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> بومارشيه

وغيرهما من ضروب شطط السلطة الملكية. وقد رفض الثورة كما رفضها معبوده فولتير لأنها دعوة إلى الفوضى وطغيان الرعايا.

وواصل دراسة أعمال فولتير طوال شتى الاضطرابات العارمة التي اكتتفتها. وأدرك أزجه الشبه بينه وبين الشيخ- ولكن لعله لم يدرك البعد- ذلك المركب الذي يجمع بين النشاط الذهني المحموم والدراية البارعة بأمور المال، وذلك الاحتقار للشكوك والوساوس الخلقية، وتلك الشجاعة في محاربة الظلم والمحن والشدائد. واعتزم أن يحفظ أعمال فولتير وينشرها طبعة جامعة كاملة. وكان على يقين من أن هذا غير ميسور في فرنسا حيث حظر الكثير من مؤلفات فولتير. لذلك ذهب إلى موريا وأخبره أن كاترين الثانية مزعة إصدار طبعة فرنسية في سانت بطرسبيرج. وقال إن هذا سيكون وصمة عار على فرنسا، وأدرك الوزير المعنى المراد، ووعد بالإذن بتداول طبعة كاملة. وكان كتيبي باريبي يدعى شارل-جوزف بانكوك قد حصل على حقوق طبع مخطوطات فولتير التي لم تنتشر، فاشتراها بومارشيه بمبلغ 160.000 فرنك. ثم جمع كل ما وجده من مؤلفات فولتير المنشورة، واستورد حروف باسكرفيل الطباعية من إنجلترا، واشترى مصانع للورق من الفوج. وظفر بكوندورسيه معلقاً ومترجماً لفولتير. واستأجر حصناً قديماً في كيل، عبر الرين من ستراسبورج، وركب المطابع، وأخرج طبعيتين رغم منات المحن والشدائد، إحداهما في سبعين مجلداً من قطع الثمن، والأخرى في اثنتين وتسعين مجلداً من القطع الإثني عشري (1783-90). وهذا أضخم مشروع طباعي حاوله إنسان حتى ذلك التاريخ في أوروبا، بما في ذلك "الموسوعة". وطبع بومارشيه خمسة عشر ألف مجموعة وهو يتوقع بيعاً عاجلاً لها، فلم يبع منها غير ألفين، ومن جهة بسبب الحملات التي شنّها البرلمان والأكليروس على المشروع (130)، ومن جهة ثانية بسبب الاضطرابات السياسية في 1788-90، ومن جهة ثالثة لأن قلقة مركز الناس المالي منعته من شراء المجموعة الغالية الثمن-وزعم بومارشيه أنه خسر في هذه المغامرة مليوناً من الجنيهات. على أنه أخرج أيضاً طبعة من أعمال روسو.

صفحة رقم : 14459

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> عشية الثورة -> بومارشيه

أما الثورة التي أعان على الإعداد لها فكانت نكبة عليه. ذلك أنه في 1789 بنى لنفسه ولزوجته الثالثة قصرًا غالي التكلفة تجاه الباستيل، ملاءه بالبديع من الأثاث والرياش وأحاطه بفدانين من الأرض. ونظر الرعايا الذين أثاروا الشغب مراراً في المنطقة شزراً إلى هذا الترف، فأغاروا على بيته مرتين، وأصبح بومارشيه الذي اكتمل الآن صممه وشاخ

قبل الأوان مهدداً باعتباره أرسقراطياً. لذلك بعث بملتمس إلى كومون باريس يعلن فيه إيمانه بالثورة، غير أنه قبض عليه رغم ذلك (23 أغسطس 1792) ثم أفرج عنه بعد قليل. إلا أنه عاش في خوف من الاغتيال لا يفتأ يؤرقه. ثم دارت عجلة الخطر فكلفتة حكومة الثورة (1792) بالسفر إلى هولندا وشراء المدافع للجمهورية. على أن المفاوضات أخفقت وصودرت أملاكه في غيابه، وقبض على زوجته وابنته (5 يوليو 1794)، فهرع قافلاً إلى باريس، وحصل على الإفراج عنهما، وسمح له باسترداد أملاكه. وعاش بعد ذلك ثلاث سنين محطم الجسد لا الروح، ورحب بصعود نجم نابليون. ثم مات في 18 مايو 1799 بالنقطة وقد بلغ السادسة والسبعين. وندر حتى في تاريخ فرنسا أن عاش رجل الحياة يمثل هذا المثلء والتنوع والمغامرة.

صفحة رقم : 14460

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> مقدمة

الفصل السابع والثلاثون

تشريح الثورة

1774-1789

لقد فحصنا فكر فرنسا عشية الثورة-فحصنا فلسفتها، ودينها، وأخلاقها، وسلوكها، وأدبها، وفنها. ولكن هذه كانت أزهاراً هشّة نبتت من أرض اقتصادية، ولا قدرة لنا على فهمها إن لم نلم بجذورها، لا لب إننا لن نفهم حقيقة ذلك الزلزال الأساسي الذي أطاح بـ "النظام القديم" دون أن نفحص كل جهاز كم أجهزة الاقتصاد الفرنسي، كل بدوره ولو في إيجاز، ونرى كيف عاوتت حالته على مجيء هذه القارعة الكبرى.

وعلينا ونحن نعود مرة أخرى إلى تناول الزراعة والصناعة والمالية أن نتذكر أنها ليست لوحات تجريدية قابضة للصدر بل كائنات بشرية حية حساسة. نبلاء وفلاحون ينظمون إنتاج الطعام؛ وميرون وعمال يصنعون السلع؛ ومخترعون وعلماء يصوغون طرائق وأدوات جديدة؛ ومدن تشغى بالمتاجر والمصانع، وربات بيوت مهمومات وجماهير رعا متمرّدة؛ وثغور ومراكب تزخر بالتجار، والملاحين، والبحارة، والرجال المغمرين؛ ومصرفيون

يغامرون بالمال ويكسبونه ويخسرونه مثل نكير، وبالحياء مثل لافوازييه؛ ثم تدفق الأفكار والسخط الثوريين وضغطهما خلال هذا الكل الهائج المضطرب، أنها لصورة معقدة رهيبة.

صفحة رقم : 14461

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> مقدمة

صفحة رقم : 14462

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> النبلاء والثورة

1- النبلاء والثورة

كان عدد الفرنسيين 24.670.000 رجل وامرأة وطفل، وهكذا قدر نكير عدد السكان في 1784(1). فقد تصاعد عددهم من 17.000.000

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> النبلاء والثورة

في 1715 بفضل زيادة إنتاج الطعام وتحسين وسائل حفظ الصحة وانعدام الغزو الأجنبي والحرب الهلية، وحظيت الأمة في مجملها بازدياد الرخاء خلال القرن الثامن عشر، ولكن أكثر الثراء الطارئ انحصر في الطبقة الوسطى (2). وكان الفرنسيين ريفيين فيما عدا مليونيين من الأنفس، والحياة الزراعية يديرها النظار الملكيون، والمديرون الأقليميون، وكهنة الأبرشيات، والسادة-أي أمراء الإقطاع-الذين قدر عددهم في 1789 بنحو 26.000. هؤلاء وأبنائهم خدموا وطنهم في الحرب بأسلوبهم الأنيق العتيق (وقد أصبحت السيوف الآن حلية أكثر منها سلاحاً). ولم تنق إلا قلة من النبلاء في البلاط، أما السواد الأعظم فعاشوا في ضياعهم. وزعموا أنهم يكسبون دخولهم بتوفير الإدارة الزراعية، والرقابة البوليسية، والمحاكم، والمدارس، والمستشفيات، والإحسانات. على أن معظم هذه المهام كانت قد تتلقاها عمال للحكومة المركزية، وكان الملاك من الفلاحين يطورون نظمهم الهادفة إلى الإدارة المحلية، وهكذا باتت طبقة النبلاء عضواً أثيراً، يأخذ الدم الكثير من الكائن الاجتماعي، ولا يعطيه لقاء ذلك إلا القليل بخلاف الخدمة العسكرية. وحتى هذه الخدمة أثارت شكوى عامة، لأن النبلاء أقنعوا لويس السادس عشر (1781) بأن يحرم من جميع المناصب الكبرى في الجيش والبحرية والحكومة كل من لا يظهريه أربعة أجيال من الأرستقراطية. ثم رمى النبلاء فوق هذا بأنهم تركوا مساحات شاسعة من ضياعهم بوراً في الوقت الذي يجوع فيه للخبز الآلاف من سكان المدن. ويصدق على الكثير من بقاع فرنسا هذا الوصف الذي كتبه آرثر ينج عن قطاعي اللوار ونهر شير: "أن الحقول مسرح للإدارة المهلهلة، كما أن البيوت شاهد على الفقر المدقع. ومع ذلك فإن هذه البلاد كلها قابلة جداً للتحسين لو عرفوا ما ينبغي أن يصنعوه بها" (3) وكان عدد غير قليل من النبلاء فقراء،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> النبلاء والثورة

بعضهم لتقص كفايتهم، وبعضهم لسوء طالعهم، وبعضهم لإرهاق أرضهم. وقد التمس كثير من هؤلاء المعونة من الملك، وتلقى العديد منهم منحاً من خزانة الدولة.

أما القنبة بمعنى ارتباط الشخص قانوناً بقطعة الأرض وخضوعه بصفة دائمة لمالكها في أداء الرسم والخدمات، فكانت قد اختفت من فرنسا إلى حد كبير في 1789، وبقي نحو مليون من الأبقان أكثرهم على الأملاك الديرية. فلما حرر لويس السادس عشر الأبقان العاملين على الأراضي الملكية (1779)، سوف برلمان فرانس-كوننتيه (في شرقي فرنسا) تسعة أشهر حتى سجل مرسومه. ورفض الاقتداء بالملك كنيسة لوكسوي ودير فونتين، ومجموع ما لديهما أحد عشر ألف فن، ودير سان-كلود في مديريةية الجورا الخالية، وكان لديه عشرون ألف فن، وذلك رغم عدة نداءات انضم فيها إلى فولتير عدد من الكنيستيين (5). على أن هؤلاء الأبقان اشتروا حريتهم شيئاً فشيئاً، أو نالوها بالهروب ثم ألغى لويس السادس عشر في 1779 حق المالك في مطاردة الأبقان الأبقين خارج أملاكهم.

ومع أن 95% من الفلاحين كانوا أحراراً في 1789، إلا أن السواد الأعظم منهم ظلوا خاضعين لحق أو أكثر من الحقوق الإقطاعية التي تختلف في الدرجة من إقليم لآخر. وكانت تشمل إيجاراً سنوياً (ضوعف في القرن الثامن عشر)، ورسماً نظير حق التوريث، وأجراً عن استعمال مطحن السيد وأقرانه ومعاصره وبرك سمكه-التي كانت كلها حكرأ له. وقد احتفظ بحق مطاردة طرائده حتى داخل محاصيل الفلاح، وسيج مساحات متزايدة من الأرض المشاع التي كان الفلاح يحتطب منها ويطلق فيها ماشيته لترعى. أما السخرة فقد خففت في معظم أرجاء فرنسا إلى ضريبة تدفع نقداً، ولكن ظل الفلاح في أوقرن، وشمبانيا، وأرتوا، واللورين، مطالباً بأن يبذل للإقطاعي المحلي كل سنة ثلاثة أيام أو أربعة من العمل الذي لا يتقاضى عنه أجراً، وذلك لصيانة الطرق البرية والجسور والطرق المائية (6). ويمكن القول أن الحقوق الإقطاعية الباقية اقتطعت في جملتها ومتوسطها

صفحة رقم : 14465

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> النبلاء والثورة

عشرة في المائة من إنتاج الفلاح أو دخله، ثم اقتطعت ضريبة العشور الكنسية نسبة أخرى تتفاوت بين ثمانية وعشرة في المائة. فإذا أضيف إلى هذا الضرائب المدفوعة للدولة، وضرائب السوق والبيع، والرسم المدفوعة لكاهن الأبرشية نظير مراسم العماد والزواج والدفن، ولم يبق للفلاح إلا نحو نصف ثمرات كده.

ولما كانت قيمة المبالغ النقدية التي يتسلمها السادة الإقطاعيون تتناقص بهبوط قيمة العملة، فقد حاولوا حماية دخلهم بزيادة الرسوم، وإحياء رسوم عفا عليها الدهر، وتسبيح المزيد من الأرض المشاع. وكانت جباية الرسوم تعهد عادة إلى ملتزمين محترفين كثيراً ما لا يعرفون الرحمة في أداء عملهم. فإذا تشكك الفلاح في حق السيد في رسوم معينة قيل له أنها مدرجة في قوائم الضياع أو سجلاتها. فإذا تحدى صحة هذه القوائم رفع الأمر إلى محكمة الإقطاعية أو إلى البرلمان الإقليمي الذي كان سادة الإقطاع يهيمنون عليهم (7). وحين نشر بونسير، بتشجيع طور جو سرا، (1776) كراسة عنوانها "مساوى الحقوق الإقطاعية" أوصى فيها باختزال هذه الحقوق، لامة برلمان باريس. وانبرى فولتير لخوض المعركة من جديد وقد بلغ الثانية والثمانين. فكتب يقول: إن اقتراح إلغاء الحقوق الإقطاعية يعدل مهاجمة أملاك السادة أعضاء البرلمان أنفسهم، الذين يمتلك معظمهم إقطاعات... أنها قضية الكنيسة، والنبلاء، وأعضاء البرلمان... متضافرين ضد العدو المشترك-أي الشعب" (8).

على ان هناك ما يمكن أن يقال دفاعاً عن الحقوق الإقطاعية فهي من وجهة نظر النبيل رهن عقاري قبله الفلاح بمحض حريته كجزء من الثمن الذي اشترى به قطعة أرض من مالكاها الشرعي-الذي كان في كثير من الحالات قد

اشتراها بحسن نية مالکها السابق. وكان بعض النبلاء الفقراء يعتمدون في قوتهم على هذه الرسوم. وكان الفلاح يعاني من شر الضرائب، والعشور، ومطالب الحرب وغاراتها أكثر كثيراً مما يعاني من الرسوم الإقطاعية. استمع إلى أعظم وأشرف الاشرافيين الفرنسيين وهو جان-

صفحة رقم : 14466

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> النبلاء والثورة

جوریه يقول "لو لم يكن في المجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر مساوئ غير تلك البقايا التافهة لذلك النظام (الإقطاعي)، لما دعت الحاجة لثورة تشفي هذا الجرح المتقرح، وكان اختزال الحقوق الإقطاعية تدريجياً وتحرير الفلاحين كفيلاً بإحداث التغيير بطريقة سلمية(9). وكان أبرز ملامح طبقة النبلاء الفرنسيين اعترافها بالذنب، إذ لم يقتصر الأمر على انضمام الكثير من النبلاء إلى جماعة الفلاسفة في رفض اللاهوت القديم، بل أن بعضهم كما رأينا سخر من امتيازات طبقتهم التي عفا عليها الزمن(10). وقبل الثورة بسنة عرض ثلاثون نبيلاً أن يتنازلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية المالية(11). وكلنا يعرف مثالية الشاب لافاييت الذي لم يكتف بالقتال دفاعاً عن أمريكا بل حال عودته إلى فرنسا خاض بقوة ذلك الكفاح في سبيل الإصلاح السلمي. وقد ندد بالرق، ورصد جانباً من ثروته ليعتق العبيد في جيانا الفرنسية(12). وفشا الجهر بالمبادئ اللبرالية، والدفاع عن الإصلاح، في شطر من الأرسقراطيين لاسيما حاملات الألقاب مثل النبيلات لا مارك، ودبوفليه، ودبريين، ودلكسمبور. ولعب مئات من الأشراف والأساقفة دوراً نشيطاً في الحملات التي شنت لتحقيق المساواة في الضرائب، والحد من الإسراف الحكومي، وتنظيم أعمال البر، وإنهاء السخرة(13). وبذل بعض الأشراف، كدوق بوربون، معظم ثروتهم للفقراء(14).

على ان هذا كله لم يكن إلا حيلة لطيفة فوق الواقع الواضح للعيان، وه وأن طبقة النبلاء الفرنسيين لم تعد تستأهل قوتها. صحيح أن كثيرين منهم حاولوا الاضطلاع بمسئولياتهم التقليدية، غير أن المفارقة بين التبطل المترف الذي يرتع فيه الإقطاعيون الأثرياء وبين شطف العيش الذي تعانيه الجماهير أشرفت غير مرة على المجاعة، أثارت العداء والاحتقار. وقبل ذلك بزمن مديد أصدر رجل، كان هو نفسه نبيلاً عظيماً، حكم الإعدام على طبقتهم، فلنستمع إلى رينيه لوي دفواييه، مركز دارجنسون، وزير الدولة (1744-47) يكتب حوالي 1752:

صفحة رقم : 14467

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> النبلاء والثورة

"لا بد من القضاء على سلالة السادة العظام قضاء مبرماً. وأعني بالعظام أصحاب الألقاب والأملك والعشور والمناصب والوظائف، الذين يتبوأون المقام الرفيع رغم أنهم بلا كفايات وأنهم ليسوا بالضرورة راشدين، فهم لذلك عديمو القيمة في كثير من الأحيان... وإنني ألاحظ أن الناس يحافظون على سلالة من كلاب الصيد الأصيل، ولكن متى تدهورت السلالة قضا عليها" (15).

هؤلاء السادة بعينهم، والأغنياء، والمتكبرون، الذين لا وظيفة لهم في الغالب، هم بدأوا الثورة. ذلك أنهم كانوا ينظرون بحسرة إلى العهد الذي سبق ريشليو، يوم كان طبقتهم هي السلطة الحاكمة في فرنسا. وحين أكدت البرلمانات حقها في إبطال المراسم الملكية، انضم نبلاء الدم والسيوف إلى نبلاء الرداء وهم القضاة الوراثيون-في محاولة لإخضاع الملك. وهلّلوا لخطباء البرلمان الذي رددوا صيحة "الحرية" وشجعوا الشعب وكتاب الكراريس على التنديد بسلطة لويس السادس عشر المطلقة. وليس في وسعنا أن نلومهم على هذا، غير أنهم بإضعافهم سلطة الملك مكنوا 1789 الجمعية التشريعية التي تهيم عليها الطبقة البرجوازية من أن تستحوذ على السادة في فرنسا. وهكذا دق النبلاء أول مسمار في نعشهم.

صفحة رقم : 14468

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> الفلاحون والثورة

2- الفلاحون والثورة

كان أكثر العمل الزراعي المؤدي على الخمسة والخمسين في المائة من أرض فرنسا الذي يمتلكه النبلاء ورجال الدين والملك، يؤديه محصسون يأخذون المواشي والأدوات والبزاز من المالك ويدفعون له نصف المحصول عادة. وكان هؤلاء المحاصصون بوجه عام فقراء معدمين حتى لقد حكم آرثر بينج على هذا النظام بأنه "العنة البلاد بأسرها وخرابها" (16)، ومرد ذلك ضعف الحوافز أكثر من قسوة الملاك.

أما أغلبية الملاك الفلاحين الذين زرعو خمسة وأربعين في المائة من الأرض فقد قضى عليهم بالفقر صغر مساحة أراضيهم، الأمر الذي حد

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> الفلاحون والثورة

من استعمال الآلات الزراعية استعمالاً رابحاً. وتخلفت التكنولوجيا الزراعية في فرنسا عن نظيرتها في إنجلترا. صحيح كان هناك مدارس زراعية ومزارع نموذجية، ولكن لم يفد منها غير قلة من المزارعين. ولعل ستين في المائة من الملاك الفلاحين كانوا يملكون أقل من الهكتارات الخمسة (نحو ثلاثة عشر فدانا) اللازمة لإعاشة الأسرة، واضطر الرجال للعمل فعلة أجراً على المزارع الكبيرة. وقد ارتفعت أجور فعلة المزارع اثني عشر في المائة بين 1771 و1789، ولكن الأسعار ارتفعت في الفترة ذاتها خمسة وستين في المائة أو أكثر (17). ومع أن الإنتاج الزراعي ارتفع خلال حكم لويس السادس عشر، فإن الأجراء من الفلاحين ازدادوا فقراً، وألغوا بروتارياً ريفية كان في فترات العمالة الراكدة بمثابة معمل تقريخ ينتج حشوداً من المتسولين والمنتشدين. وقد ذهب شامفور إلى أنه "لا جدال في أن بفرنسا سبعة ملايين رجل يتسولون، واثني عشر يعجزون عن التصدق" (18). ولعل فقر الفلاحين قد بالغ الرحالة في وصفه لأن أول ما استرعى ملاحظتهم كان الأحوال الظاهرة؛ فهم لم يروا العملة والسلع المخبأة هرباً من عين مقدر الضريبة. وتتضارب التقديرات المعاصرة لهذه الفترة. فقد وجد آرثر بينج مناطق يعمرها الفقر والتوحش والقدارة كما في بريتانى، ومناطق فيها الثراء والكبرياء كما في بيارن (19). ويمكن القول عموماً أن الفقر في ريف فرنسا عام 1789 لم يكن مدقعاً كما كان في إيرلندا، ولا أسوأ منه في أوروبا الشرقية أو في بعض الأحيان الفقيرة المزدهمة في المدن "الغنية" في وقتنا الحاضر، ولكنه كان أسوأ منه في إنجلترا أو في وادي بو المعطاء أبداً. وتشير أحدث الدراسات إلى أنه "كان هناك أزمة زراعية في نهاية النظام القديم" (20). فإذا جاء القحط والمجاعة، كما حدث في 1788-89 بلغت معاناة الفلاحين لا سيما في جنوبي فرنسا مبلغاً لم ينج فيه نصف السكان من التضور جوعاً إلا بفضل الصداقات التي وزعتها الحكومة والكهنة. وكان على الفلاح أن يدفع ما يفرض عليه أدأوه للدولة والكنيسة والنبلاء. ووقعت ضريبة الناي-أي ضريبة الأرض- كلها تقريباً على كاهله. وكان يقدم كل الرجال اللازمين لمشاة الجيش أو جلهم. وقد تحمل عبء

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> الفلاحون والثورة

احتكار الحكومة للملح. وكان الفضل لجهده في صيانة الطرق والجسور والقنوات. ولعله كان مؤدياً العشور برضى أكثر فهو رجل "يخاف الله" والعشور تجبى جباية رحيمة، ونذر أن اقتضته عشر دخله بالضبط(21)، ولكنه رأى أكثرها يترك الأبرشية ليعول أسقفاً في بلد ناء، أو كنسياً عاطلاً في البلاط، بل حتى علمانياً اشترى حصة في العشور المستقبلية. وقد خفف لويس السادس عشر عبء الضريبة المباشرة على الفلاح، ولكن الضرائب غير المباشرة زيدت في كثير من الأقاليم(22).

فهل كان فقر الفلاح سبب الثورة؟ لقد كان فقره عاملاً درامياً في مركب من أسباب عدة. كان أفقر الفقراء أعجز من أن يثوروا؛ في استطاعتهم أن يرفعوا أصواتهم طلباً للغوث، ولكنهم لا يملكون الوسيلة ولا المهمة لتنظيم الثورة، إلى أن استنفروهم المزارعون الأكثر ثراء وعملاء الطبقة الوسطى، وانتفاضات رعاع باريس. على أنه حين وهنت قوى الدولة نتيجة تطور الشعب الفكري، وحين سرت عدوى الأفكار الراديكالية إلى الجيش سرعاناً خطراً، وحين لم تعد السلطات المحلية قادرة على الاعتماد على التأييد الحربي يأتيها من فرساي-عندها أصبح الفلاحون قوة ثورية، فتجمعوا، وتبادلوا الشكاوي والعهود، وتسلحوا، وهاجموا القصور الريفية، وأحرقوا بيوت الإقطاعيين المتعطسين، ودمروا السجلات الإقطاعية التي استشهدوا بها على صحة الحقوق الإقطاعية، هذا العمل المباشر، الذي هدد بتدمير شامل لأملأ الإقطاعيين، هو الذي روع النبلاء فنزلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية (4 أغسطس 1789). ووضعوا بذلك نهاية شرعية للنظام القديم.

صفحة رقم : 14471

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> الصناعة والثورة

3- الصناعة والثورة

في موضوع الصناعة على الأخص تغيم الصورة السابقة للثورة وتتعدد(1). فالصناعة ليبيئية-صناعة الرجال والنساء والأبناء في البيت-كانت تخدم التجار الذين يوفرون المادة ويشتررون الناتج(2)، والطوائف الحرفية-المعلمون، وعمال اليومية، والصبية-كانت تنتج السلع اليدوية لتلبية الاحتياجات المحلية بنوع خاص. وقد عمرت هذه الطوائف حتى الثورة، ولكن في

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> الصناعة والثورة

1789 كان قد أوهنها غايو الوهن نمو (3) المشروعات الحرة الرأسمالية وهي شركات كان لها لأن تجمع رأس المال من أي مصدر، وأن تستأجر أي إنسان. وأن تبتكر وتطبق أساليب جديدة في الإنتاج والتوزيع، وأن تتنافس مع أي إنسان، وأن تباع في أي مكان. وكانت هذه المؤسسات عادة صغيرة ولكنها أخذت تتكاثر، فكان في مرسيليا وحدها عام 1789 ثمانية وثلاثون مصنعاً للصابون، وثمانية وأربعون للقبعات، وثمانية للزجاج، واثنان عشر لتكرير السكر وعشر مدابغ (23). أما في المنسوجات، والبناء، والتعدين، وتصنيع المعادن، فقد اتسعت الرأسمالية وغدت مشروعات واسعة النطاق، وكان كل هذا عادة بفضل شركات المحاصة.

وكانت فرنسا بطيئة في الأخذ بالآلات النسيج التي كانت آنذ تفتتح الثورة الصناعية في إنجلترا، ولكن مصانع نسيج كبيرة كانت تدور دوليبها في أيفيل، وأميان، ورامس، وباريس، ولوفيه، وأورليان، وازدهرت صناعة الحرير في ليون. وكانت صناعات المعمار تقيم تلك العمائر الضخمة ذات الشقق، التي ما زالت تضي على المدن الفرنسية ملامحها المميزة. وكانت صناعة السفن تشغل آلاف العمال في ناننت، وبدرو، ومرسيليا، أما التعدين فكان أكثر الصناعات الفرنسية تقدماً. وقد احتفظت الدولة بجميع الحقوق في التربة السفلية، وأجرت المناجم لأصحاب الامتياز، وفرضت قانون أمن للمعدنين (24)، وحفرت الشركات مداخل للمناجم وصل عمقها إلى ثلاثمائة قدم، وركبت أجهزة غالية للتهوية، والصرف، والنقل، وخلقت أصحاب الملايين. وكان لشركة انزان (1790) أربعة آلاف عامل، وستمائة حسان، واثنان عشرة آلة بخاري، وكانت تستخرج 310.000 طن من الفحم في العام. وقد وفر استخراج الحديد وغيره من المعادن لصناعة معدنية متسعة. وفي 1787 جمعت شركة كرزور المساهمة رأسمال قدره عشرة ملايين جنيه لاستخدام أحدث الآلات في إنتاج المصنوعات الحديدية، وكانت الآلات البخارية تشغل المنافيخ، والمطارق، والمثاقب، ومكنت السكك الحديدية الجواد الواحد من أن يجر ما كان يحتاج جره من قبل إلى خمسة جياذ.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> الصناعة والثورة

وقد ابتكر الفرنسيون بعض الاختراعات المذهلة في هذه السنين. ففي 1776 رفه المركيز جوفروا عن الجماهير المحتشدة على نهر دوب بمنظر قارب تحركه آلة بخارية، وذلك قبل أن يبهر زورق فولتن "كليرمونت" التجارية في نهر هدسن ذهاباً وإياباً. بل أدهش من هذا كانت الخطوات الولي في غزو الفضاء. ففي 1766 أثبت هنري كافندش أن للهيدروجين كثافة أقل من الهواء، واستنتج جوزف بلاك أن كيساً مملأاً بالهيدروجين يستطيع الصعود إلى الجو. وعكف جوزف وإتيين مونجولفييه على تجاربهما على هدى المبدأ القائل بأن الهواء نقل كثافته إذا سخن؛ وفي 5 يونيو 1783، في انونيه قرب ليون، ملأ بالوناً بالهواء المسخن، فارتفع إلى علو ألف وستمئة قدم، ثم هبط بعد عشر دقائق حين برد هواؤه. وصعد بالون مملوء بالهيدروجين صممه جاك-الكسندر شارل من باريس في 27 أغسطس 1783 على مشهد من 300.000 متفرج يهتفون له، فلما هبط على بعد خمسة عشر ميلاً مزقه حشد من القرويين إرباً زاعمين أنه عدو مغير من الجو (25). وفي 15 أكتوبر قام جان-فرانسوا بيلاتر دروزييه بأول طيران مدون للإنسان، مستخدماً بالوناً كبالون مونجولفييه به هواء مسخن، واستمر صعوده أربع دقائق. وفي 7 يناير 1785 طار الفرنسي فرانسوا بلانشار، والفيزيائي الأمريكي جون جفريز، في بالون من إنجلترا إلى فرنسا. وبدأ الناس يتحدثون عن الطيران إلى أمريكا (26).

وزكت مدن فرنسا خلال هذا العهد الحاسم بعد أن غذتها الصناعة والتجارة. فكانت ليون تشغى بالحوانيت والمصانع والمشروعات. وذهل آرثر ينج لفخامة بوردو. وأصبحت باريس الآن مركزاً تجارياً أكثر منه سياسياً، فكانت بمثابة القلب لمجمع اقتصادي يهيمن على نصف عاصمة فرنسا، ومن ثم على نصف اقتصادها. وكان يسكنها عام 1789 نحو 600.000 نسمة (27). ولم تكن وقتها مدينة ذات جمال رائع، وقد وصف فولتير الكثير منها بأنه جدير بالقوط والفندال (28). وقال بريستلي الذي زارها في 1774: "لا أستطيع الزعم بأنه قد راعني شيء منها غير اتساع

صفحة رقم : 14474

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> الصناعة والثورة

العمائر العامة وبهائها، وفي مقابل هذا ساعني كثيراً ضيق أكثر الشوارع وقذارتها وننتها" (29). ومثل هذا الوصف كئبه ينح:

أن تسعة أعشار الشوارع قذر، وكلها خلو من أرصفة المشاة. والمشي-الذي تجده في لندن غاية في الإمتاع والنظافة بحيث تمارسه السيدات يومياً- هو هنا كد وعناء للرجل، وضرب من المحال على المرأة الأنيقة الثياب.. وعربات الركوب كثيرة، وأسوأ من ذلك كثيراً ذلك العدد الهائل من "الكبريلات" التي يجرها حصان واحد ويسوقها الفتيان العصريون ومقلدوهم. بسرعة فائقة... تجعل الشوارع بالغة الخطر... وقد لطحني أنا نفسي رشاش الوحل غير مرة" (30).

وأخذت طبقة من العمال الكادحين "برولتاريا: تتشكل في المدن كبيرها وصغيرها، رجال ونساء، وأطفال لقاء أجر بأدوات ومواد ليست ملكاً لهم. ولا يتوافر لدينا إحصاء عنهم، ولكن قدر عددهم في باريس عام 1789 بـ 75.000 أسرة، أو 300.000 فرد(31). وكان هناك أعداد كبيرة بهذه النسبة في أبفيل، وليون، ومرسيليا. وكانت ساعات العمل طويلة والأجور ضئيلة، لأن حكماً أصدره برلمان باريس (12 نوفمبر 1778) حظر على العمال تنظيم أنفسهم. وقد ارتفعت الأجور ما بين عامي 1741 و1789 اثنين وعشرين في المائة، وارتفعت الأسعار خمسة وستين في المائة(32)، ويبدو أن حال العمال تدهور في عهد لويس السادس عشر(33)، فلما قل الطلب، أو اشتدت المنافسة الأجنبية (كما حدث في 1786)، طردت أعداد كبيرة من العمال فأصبحوا كلا على البر والإحسان. وكادت آلاف الأسر تموت جوعاً عندما ارتفع ثمن الخبز، الذي كان قوام نصف طعام الجماهير الباريسية(34). وكان ثلاثون ألف شخص ينتفون الإغاثة العامة في ليون عام 1787، واشتد فقر ثلثي سكان رامس في 1788 عقب أحد الفيضانات، وفي باريس عام 1791 قيدت مائة ألف أسرة على أنها معوزة(35). وكتب مرسييه حوالي 1785 يقول "أن عامة الشعب في باريس ضعاف الأبدان صفر الوجوه صغار الأجسام معوق النمو وكأنهم طبقة تفردت عن سائر الطبقات في الدولة(36).

صفحة رقم : 14475

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> الصناعة والثورة

وألف العمال الاتحادات وأضربوا في تحد لأوامر الحظر ففي 1774 توقفوا عن العمل لارتفاع تكاليف المعيشة بأسرع من الأجور. ودفع الإحباط الكثير من العمال إلى الرحيل عن ليون قاصدين مدناً أخرى، بل مهاجرين إلى سويسرا أو إيطاليا، ولكنهم أوقفوا على الحدود وأعيدوا إلى موطنهم قسراً. وثار العمال، واستولوا على مكاتب البلدية، وأقاموا دكتاتورية قصيرة الأجل من البرولتاريا على الكومون. فاستدعت الحومة الجيش الذي أخمده التمرد، ثم شنق اثنان من زعماء العمال، وعاد المضربون وأرباب العمل على السواء(37). وفي 1786 عادوا إلى الإضراب، مؤكدين أنهم عاجزون عن إعالة أسرهم حتى بمواصلة العمل ثماني عشرة ساعة في اليوم، شاكين من أنهم يعاملون "بأقسى مما تعامل به الحيوانات المنزلية، فحتى هذه تعطي من الطعام ما يكفي لحفظها سليمة قوية"(38). ووافقت سلطات المدينة على منحهم علاوة، ولكنها حظرت أي اجتماع يضم أكثر من أربعة أشخاص. واضطلعت كتيبة مدفعية بتنفيذ هذا الخطر، وأطلق الجند الرصاص على المضربين فقتلوا عدة أشخاص، وعاد المضربون إلى العمل وسحبت العلاوة منهم بعد ذلك(39). وقد نشبت حوادث الشعب احتجاجاً على ارتفاع تكاليف المعيشة، متفرقة طوال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ف وقعت منها ستة في نورمندي بين عامي 1752، و1768؛ وفي 1768 سيطر القائمون بالشعب مماثلة على روان، ونهبوا مخازن الغلال الحكومية، وسلبوا المتاجر، ووقعت أحداث مماثلة في رامس عام 1770، وفي بواتيه عام 1772، وفي ديجون وفرساي وباريس ويونتوار عام 1775، وفي اكس-أن-بروفانس عام 1785، ثم في باريس عامي 1788، 1789(40).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> الصناعة والثورة

فأي دور إذن لعبه فقر البرولتاريا، أو فقر المدن عموماً، في إحداث الثورة؟ لقد كان في ظاهر سبباً مباشراً، فالعجز في الخبز وما ترتب عليه من شغب في باريس في 1788-89 رفع حمى الشعب إلى درجة كان فيها أفراد على استعداد للمغامرة بحياتهم في تحدي الجيش والهجوم على الباستيل على أن الجوع والغضب يستطيعان إعطاء القوة المحركة، ولكنهما لا يعطيان القيادة، ومن المحتمل أن جوادث الشغب كان يمكن تهدئتها بخفض سعر الخبز لو كان توجه القيادة من الطبقات الأعلى المتمردين للاستيلاء على الباستيل والزحف على فرساي. ثم أن الجماهير لم يكن لديها إلى ذلك الحين أي فكرة عن قلب الحكومة، أو خلع الملك، أو إقامة جمهورية. وكانت طبقة البرولتاريا تتحدث عن المساواة الطبيعية حديثاً يملؤه الأمل، ولكنها لم تحلم بالاستيلاء على الدولة. لقد طالبت بتنظيم الدولة للاقتصاد. بينما عارضته البورجوازية-أو على الأقل بتحديد سعر الخبز، ولكن هذا كان عودة للنظام القديم، لا تقدماً نحو اقتصاد تهيمن عليه الطبقة العاملة. صحيح. أنه حين جد الجد كان رعا ع باريس المدافعون بالجوع والمعرضون من الخطباء والعملاء هم الذين استولوا على الباستيل ومنعوا بذلك الملك من استخدام الجيش ضد الجمعية الوطنية، ولكن حين أعادت الجمعية تنظيم فرنسا كان ذلك بإرشاد البورجوازيين وتحقيقاً لأهدافهم.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> البرجوازية والثورة

كان الملمح البارز للحياة الاقتصادية الفرنسية في القرن الثامن عشر هو صعود طبقة التجار ورجال الأعمال. وكانت قد بدأت تزكو أيام لويس الرابع عشر وكولبير، وأفادت أعظم فائدة من الطرق والتقنيات الممتازة التي يسرت التجارة، وأثرت على الاتجار مع المستعمرات، وارتفعت إلى مكان مرموق في الوظائف الإدارية (حتى 1781)، وهيمنت على مالية الدولة. ولكن أزعتها إلى حد التمرد تلك المكوس التي فرضت لصالح

صفحة رقم : 14478

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> البرجوازية والثورة

الإقطاعيين أو الحكومة على الطرق والترع، وذلك الفحص المضيق للوقت للشحنات عند كل محطة للمكوس وكان هناك ثلاثون إلى أربعين من هذه المكوس يجب أن يدفعها المركب الذي يحمل بضاعة من جنوبي فرنسا إلى باريس (41). وطالب رجال الأعمال بحرية التجارة داخل الحدود، ولكنهم لم يكونوا واثقين من رغبته في هذه الحرية بين الأمم.

ومع ذلك دعم خفض التعريفات التجارية الخارجية وملاً خزائن طبقة التجار. وتضاعفت التجارة تقريباً بين عامي 1763 و1787، ونيفت على بليون فرنك في 1780 (42). واكتظت مدن الثغور الفرنسية بالتجار، والشاحنين، والملاحين، والمتاجر، ومعامل التحرير، ومصانع التقطير، وفي تلك المدن كانت طبقة التجار ورجال الأعمال هي الغالبة قبل أن تكرر الثورة تفوقها القومي بزمان. وجاء شطر من الثروة التجارية من قنص العبيد الأفارقة أو شرائهم ونقلهم إلى أمريكا وبيعهم هناك ليعملوا على المزارع الكبيرة، وهو ما كانت عليه الحال في إنجلترا. ففي 1788 شحن تجار الرقيق الفرنسيون 29.506 زنجياً إلى سان-دومنج (هايتي) وحدها (43). وكان المستثمرون الفرنسيون يمتلكون معظم الأرض والصناعات هناك وفي جواد لوب ومارتنيك. وفي سان-دومنج كان ثلاثون ألفاً من البيض يستخدمون 480.000 عبد (44). وفي 1789 صرحت غرفة بورديو التجارية بالآتي: "أن فرنسا تحتاج إلى مستعمراتها

صفحة رقم : 14479

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> البرجوازية والثورة

لصيانة تجارتها، ومن ثم تحتاج إلى عبيد حتى تصبح التجارة مجزية في هذا الجزء من العالم، على الأقل إلى أن يعثر على وسيلة أخرى" (45).

واحتاجت المشروعات الصناعية والاستعمارية وغيرها إلى رأس المال، وولدت سلالة متكاثرة من المصرفيين، وعرضت شركات المحاصة السندات، وطرحت الحكومة أسهم القروض، وتطورت المضاربة في بيع وشراء السندات المالية، واستأجر المضاربون صحفيين ليثب الشائعات المقصود بها رفع أسعار الأسهم أو خفضها (46). وحظي بعض المصرفيون بثقة شخصية تفوق الثقة في الحكومة، ومن ثم استطاعوا أن يقترضوا بفائدة منخفضة، ويقوضوا الحكومة بفائدة أعلى، ويزيدوا ثروتهم بإمسك دفاترهم لا أكثر ما دام حكمهم صائباً وما دامت الدولة تدفع ديونها.

وتعاضم ثراء الملتزمين العاميين (وهم المليون الذين كانوا يشترون حق جباية الضرائب غير المباشرة بتقديمهم قرصاً للحكومة) واشتد كره الناس لهم، وذلك لأن الضرائب غير المباشرة، كضرائب البيوع عموماً، كانت أفدح ما تكون على من يضطرون لإنفاق الكثير من دخلهم على ضروريات الحياة اليومية. وكان بعض هؤلاء الملتزمين مثل هلفتيوس ولا فوازييه، رجالاً ذوي نزاهة نسبية وروح وطنية، أسخياء في مساهمتهم في البر والآداب والفنون (47). وتبينت الحكومة مساوئ نظام الائتزام هذا، وخفضت عدد الملتزمين من سنتين إلى أربعين في 1780، ولكن عداء الشعب لهم استمر. وقد ألغت الثورة النظام، وكان رأس لافوازييه أحد الرعوس التي تهاوت في هذه العملية. ولما كان نظام الضرائب قد لعب دوراً قيادياً بين أسباب الثورة، فلا بد لنا من أن نذكر القارئ مرة أخرى الضرائب التي كان الفرنسيون يدفعونها. (1) كانت التاي ضريبة على الأرض والأموال الشخصية. وقد

صفحة رقم : 14480

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> البرجوازية والثورة

أعفى الأشراف منها لما يؤدونه من خدمة حربية، وأعفى الأكليروس لأنهم يحفظون النظام الاجتماعي ويصلون من أجل الدولة، وأعفى القضاة وكبار الإداريين، وموظفو الجامعات، ووقع كل الضريبة تقريباً على كاهل ملاك الأرض من الطبقة الثالثة-ومن ثم على الفلاحين في المقام الأول. (2) ضريبة الرعوس وكانت تفرض على كل رأس في الأسرة، ولم يعف منها غير الأكليروس (3) الضريبة العشرينية وكانت ضريبة على الملكية كلها عقارية أو شخصية، ولكن النبلاء تهربوا من شطر كبير منها ومن ضريبة الرعوس باستخدام النفوذ الخاص، أو استخدام المحامين ليعثروا على ثغرات في القانون، وتفادى الأكليروس الضريبة العشرينية بعباء اختياري دوري للدولة (4) كانت كل مدينة

تدفع ضريبة للحكومة وتقرضها على مواطنيها. (5) فرضت الضرائب غير المباشرة بهذه الوسائل: (أ) مكوس النقل. (ب) مكوس الاستيراد والتصدير. (ج) رسوم الإنتاج على الأنبذة والمسكرات والصابون والجلد والحديد وورق اللعب الخ. (د) الاحتكارات الحكومية لبيع التبغ والملح، فكان على كل فرد أن يشتري كل عام حداً أدنى مقررأ من الملح من الحكومة بالسعر الذي تحدده، وكان دائماً أعلى من سعر السوق. وكانت ضريبة الملح (الجايل) هذه من أكبر أسباب شقاء الفلاح (6) كان الفلاح يدفع ضريبة لينجو من السخرة. وبلغت جملة ما يدفعه الفرد من الطبقة الثالثة في المتوسط من الضرائب اثنين وأربعين إلى ثلاثة وأربعين في المائة من دخله (48).

فإذا أخذنا التجار وأصحاب المصانع ورجال المال والمخترعين والمهندسين والعلماء وصغار البيروقراطيين والكتبة وأصحاب الحوانيت والكيميائيين والفنانين والكتبية والمعلمين والمؤلفين والفيزيائيين والمحامين والقضاء من غير نوي الألقاب- إذ أخذنا هؤلاء جملة باعتبارهم المؤلفين للطبقة البورجوازية، أمكننا أن نفهم كيف أنها في 1789 كانت قد أصبحت أغنى وأنشط شطر من الأمة. ولعلها كانت تملك من الأرض الريفية قدر ما تملك طبقة النبلاء (49)، وكان في استطاعتها اكتساب النبالة بمجرد شراء إقطاعة نبيلة

صفحة رقم : 14481

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> البرجوازية والثورة

أو وظيفة من وظائف "السكرتيرين" الكثيرة للملك. وبينما خسرت الطبقة النبيلة النفر والمال بفعل البطالة والإسراف والتحلل البيولوجي، وخسر الأكليروس والأرض الصلبة بصعود العلم والفلسفة، والحياة والناموس الأبيقوريين الحضريين، ازدادت الطبقات الوسطى مالا وقوة بفضل تطور الصناعة والتكنولوجيا والتجارة والمالية، فمالت بغلاتها أو وارداتها الحوانيت (البوتيكات) التي أدهش بهاؤها الزوار الأجانب الذين ألموا ببباريس أولون أورامس أو بوردو (50). وبينما كانت الحروب تفقر الحكومة كانت تغني الطبقة البورجوازية التي قدمت النقل والمواد. وقد انحصرت أكثر الثروة المتعاطمة في المدن؛ وهربت من الفلاحين والعمال وظهرت أوضح ما تكون في التجار والماليين. فكان أربعون تاجراً فرنسياً يملكون في 1789 ثروة جملتها ستون مليون جنيه (51)، وجمع مصرفي واحد هو باري-مونمارتل مائه مليون (52).

أما السبب الأساسي في الثورة فهو تلك المفارقة بين الواقع الاقتصادي والنظم السياسية، وبين أهمية الطبقة البورجوازية في إنتاج الثروة وتملكها وبين إقصائها عن القوة السياسية. وكانت الطبقة الوسطى الراقية على وعي بقدراتها وحساسة للاستخفاف بها. وأحفظها انغلاق طبقة النبلاء الاجتماعي ووقاحتها كما حدث لامرأة ألمعية هي مدام رولان حين دعيت للمكث حتى تتناول العشاء في بيت أرستقراطي، ثم وجدت الطعام يقدم لها في جناح الخدم (53).

ولم يكن بالطبقات الوسطى رغبة في الإطاحة بالملكية، ولكنها تطلعت إلى الهيمنة عليها. ولم يكن بها رغبة قط في الديموقراطية، ولكنها أرادت

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> البرجوازية والثورة

حكومة دستورية، يمكن أن يحشد فيه ذكاء جميع الطبقات للتأثير في التشريع والإدارة والسياسة. وقد طالبت بالتححر من هيمنة الدولة أو الطوائف النقابية على الصناعة أو التجارة، ولكنها لم تكره الإعانات المالية الحكومية، أو التأييد من الفلاحين وجماهير المدن لتحقيق أهدافها. وكان لب الثورة الفرنسية هو إطاحة البورجوازية بالنبلء والأكليروس، وهي بورجوازية استخدمت سخط الفلاحين للقضاء على الإقطاعية، وسخط جماهير المدن لشل جيوش الملك. فلما عقد اللواء للجمعية التأسيسية بعد عامين من الثورة، ألغت نظام الإقطاع، وصادرت أملاك الكنيسة، وأجازت تنظيم التجار، ولكنها حظرت جميع تنظيمات العمال أو تجمعاتهم (14 يونيو 1791)(54).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> احتشاد القوى

5- احتشاد القوى

كانت هذه القوى الثورية كلها خاضعة لتأثير الأفكار، وقد استخدمتها قناعاً للرغبات ومؤججاً لها. وكان يوجد بالإضافة إلى الدعوة لتي نشرها الفلاسفة الفزيوقراطيين شيوعيون مبعثرون واصلوا ووسعوا الاشتراكية التي فصلها في الجيل الماضي موريللي، ومابلي، ولنجهيه(56). فسبق بريسو دفار فيل بكتابه "مباحث فلسفية حول حق الملكية" (1780) كتاب بيير برودون "ليست الملكية إلا لصوبية"، إذ زعم أن الملكية الخاصة إنما هي سرقة للممتلكات العامة، فليس هناك "حق مقدس... يبيح أكل طعام عشرين رجلاً بينما يكون نصيب الرجل الواحد غير كاف

"القوانين" مؤامرة الأقباء على الضعفاء، والأغنياء على الفقراء" (57). وقد اعتذر بريسو فيما بعد عن كتبه الأولى باعتبارها فورات طالب، وأصبح من زعماء الجيروندي، وأعدم بالجليوتين لاعتداله (1793). وفي 1789 قبيل الاستيلاء عنوة على الباستيل، أصدر فرانسوا بواسيل "كتاب" تعليم النوع الإنساني بالسؤال والجواب"، قطع الشوط كله إلى الشيوعية، فزعم أن كل الشرور مردها الطبقة المرتزقة، القاتلة للبشر، والمعادية للمجتمع، التي ظلت إلى الآن تحكم الناس وتذلهم وتدمرهم" (58). ولقد استرق الأقباء الضعفاء، ووضعوا القوانين ليحكموا. واخترعت

صفحة رقم : 14484

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> احتشاد القوى

الملكية، والزواج، والدين، لإضفاء الشرعية على الغضب، والعنف والخداع، وكانت النتيجة أن قلة قليلة هي التي تملك الأرض، بينما تكابد الأغلبية الجوع والبرد. وما الزواج إلا ملكية خاصة في النساء، وليس لإنسان حق في أكثر مما يحتاج إليه، وكل ما زاد على ذلك يجب أن يوزع على كل إنسان حسب حاجته. وعلى العاطلين الأغنياء أن يعملوا أو يجوعوا. ويجب أن تحول الأديرة إلى مدارس (59). أما أطراف هؤلاء الراديكاليين وأبعدهم أثراً فهم فرانسوا-أميل بابيف. فبعد أن أعان النبلاء والأكليروس في تأكيدهم للحقوق الإقطاعية ضد الفلاحين (60)، أرسل إلى أكاديمية آراس (21 مارس 1787) اقتراحاً بأن تقدم جائزة لأفضل مقال يكتب في هذا الموضوع "إذا أخذنا في الاعتبار مجموع المعرفة التي حصلناها الآن، فماذا يكون حال شعب بلغت غرائزهم الاجتماعية حالة تستوجب أن تسود بينهم المساواة الكاملة... التي يكون فيها كل شيء مشتركاً بينهم" (61). غير أن الأكاديمية لم تستجب لاقتراحه، فبين جراكوس بابيف (كما سمي نفسه فيما بعد) في رسالة بتاريخ 8 يوليو 1787 أم كل الناس متساوون بالطبيعة، وأن كل الأشياء مشتركة في الحالة الطبيعية، أما كل التاريخ التالي لهذه الحالة فهو انحطاط وخداع. وقد جمع خلال الثورة أتباعاً كثيرين، وكان على وشك تزعّم تمرد على حكومة الإدارة، ولكن عملاءها قبضوا عليه فحكم عليه بالإعدام (1797). ثم هل كان البناعون الأحرار (الماسون) عاملاً في الثورة؟ لقد سبق ذكر صعود هذه الجمعية السرية في إنجلترا (1717) وأول ظهورها في فرنسا (1734)، وقد انتشرت سريعاً في أوروبا البروتستانتية، وأيدها

صفحة رقم : 14485

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> احتشاد القوى

فردريك الثاني في ألمانيا، وجوستاف الثالث في السويد. وحظر البابا كلمنت الثاني عشر (1738) على السلطات الكنسية أو العلمانية الانضمام إلى الماسون أو مساعدتهم، ولكن برلمان باريس رفض تسجيل هذا الأمر البابوي، فجرده بذلك من مفعوله القانوني في فرنسا. وفي 1789 كان هناك 629 محفلاً ماسونياً في باريس، كل منها يضم عادة خمسين عضواً إلى مائة (62)، وبين هؤلاء كثير من النبلاء، وبعض الكهنة، وأخوة لويس السادس عشر، وأكثر زعماء حركة التنوير (63)، وفي 1760 أسس هلفتيوس محفل العلوم، وفي 1770 وسعة الفلكي لالاند إلى "محفل الأخوات التسع" (ربات الفنون). هنا التقى برتوليبه، وفرانكلين، وكوندروسيه، وشامفور، وجرور، وأدمون، ثم سييس، وبريسو، وديمولان، ودانتون (64).

وكان الماسون من الناحية النظرية يستبعدون من عضويتهم كل "فاسق كافر" وكل "ملحد غبي" (65)، وكان على كل عضو أن يعلن إيمانه بـ "مهندس الكون الأعظم" ولم تشترط في العضو عقيدة دينية غير هذه، وبذلك قصر الماسون بوجه عام لاهوتهم على الربوبية. ويبدو أنهم كانوا أصحاب نفوذ في الحركة التي قامت لطرد اليسوعيين من فرنسا (66). وكان هدفهم المعلن أن ينشئوا جماعة إخوان دولية سرية يترايطون فيها بالاجتماع والطقوس ويتعهدون بتبادل العون وبالتسامح الديني والإصلاح السياسي. وفي عهد لويس السادس عشر دخلوا ميدان السياسة بنشاط، وأصبح عدد من الأعضاء الأرسنقراطيين زعماء متحررين في الجمعية الوطنية-لافاييت، وميرابو الأب والإبن، والفيكونت دنواي، ودوق لارشفوكوليانكور ودوق أورليان (67).

وأخيراً جاءت الأندية ذات الطابع السياسي الواضح. وقد نظمت أول الأمر على غرار الأندية الإنجليزية-للتناول الطعام، والسمر، والقراءة ثم أصبحت حوالي عام 1784 مراكز للدعوة شبه الثورة. قال معاصر إنهم في هذه الأندية "يبدون آراءهم بصوت عال ودون قيد في حقوق الإنسان، ومزايا الحرية، والشور الكبرى الناجمة عن عدم المساواة في ظروف الحياة" (68). وبعد تجمع مجلس الطبقات كون المندوبون عن

صفحة رقم : 14486

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> احتشاد القوى

إقليم برنتي "نادي برتن"، ولم يلبث النادي أن وسع عضويته فشملت غير البرنتيين كميرابو الإبن، وسييس، وبروسبير. وفي أكتوبر 1789 نقل مقره إلى باريس، وأصبح "جمعية اليعاقبة".

وهكذا تضافرت عشرات القوى المتنوعة لأحداث الثورة الفرنسية، وهو ما يحدث في معظم الأحداث البالغة الأهمية في التاريخ. وكان من العوامل الأساسية نمو الطبقات الوسطى عدداً وتعليماً وطموحاً وثراء وسلطاناً اقتصادياً، ومطالبتها بوضع سياسي واجتماعي يتناسب وإسهامها في حياة الأمة ومالية الدولة، وخشيتها من أن تجعل الخزانة سندات الحكومة عديمة القيمة بإعلانها الإفلاس. ومما لحق بهذا العامل واستخدامه مساعداً ومهدداً فقر ملايين الفلاحين الذين يستصرون طلباً للتخفيف من الرسوم والضرائب والعشور، ورخاء عدة ملايين من الفلاحين لهم من القوة ما يكفي لتحدي الإقطاعيين وجباة الضرائب والأساقفة وأفواج الجند، والسخط المنظم الذي استشعرته جماهير المدن التي عانت من التلاعب في إمدادات الخبز، ومن تخلف الأجور عن الأسعار في التصاعد التاريخي للتضخم. أضف إلى هذا أشتاتاً متشابهة من العوامل المساعدة: إسراف البلاط المكلف، وعجز الحكومة وفسادها، وإضعاف الملكية نتيجة لصراعها الطويل مع البرلمانات وطبقة النبلاء، وانعدام المؤسسات السياسية التي يمكن عن طريقها التعبير عن المظالم على نحو قانوني وبناء، ومستويات الإدارة الرفيعة التي يتوقعها مواطنون شحذت عقولهم المدارس والكتب والصالونات والعلم والفلسفة وحركة التنوير أكثر من أي شعب من الشعوب المعاصرة. هذا فضلاً عن انهيار الرقابة على المطبوعات أيام لويس السادس عشر، وبحث أفكار الإصلاح أو الأفكار الثورية على يد فولتير، وروسو، وديدرو، ودالامبير، ودولباخ وهلفتيوس، وموريلليه، وموريللي، ومابلي، ولنجيه، ميرابو الأب، وطورجو، وكوندورسيه، وبومارشيه، وميرابو الابن، ومئات غير هؤلاء من الكتاب الذين لم يكن لهم قط نظير من قبل عدداً والمعبة وقوة، والذين تغلغلت دعوتهم في كل طبقة باستثناء

صفحة رقم : 14487

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> تشريح الثورة -> احتشاد القوى

طبقة الفلاحين في تكتات الجيش، وصوامع الرهبان، وقصور الأشراف، وحجرات الانتظار الملكية. يضاف إلى هذا كله ذلك التقلص المدمر الذي أصاب الإيمان في صدق كنيسة كانت قد ساندت الأوضاع الراهنة وحق الملوك الإلهي، وبشرت بفضائل الطاعة والاستسلام، وكدست قدراً هائلاً من الثروة المحسودة في الوقت الذي لا تستطيع الحكومة أن تعثر فيه على وسيلة لتمويل واجباتها المتسعة. ثن انتشار الإيمان بـ "قانون طبيعي" يتطلب عدالة إنسانية لكل عاقل دون نظر للمولد أو اللون أو العقيدة أو الطبقة، وبـ "حالة طبيعية" معطاءة كل الناس فيها متساوون، فضلاء أحرار، سقطوا منها نتيجة لنمو الملكية الخاصة، والحرب، والقانون الذي يزجه لخدمة الطبقة المميزة، أضف إلى هذا ظهور وتكاثر المحامين والخطباء المستعدين للدفاع عن الوضع الراهن أو مهاجمته، وإثارة مشاعر الشعب وتنظيمها، وتكاثر كتاب النشرات وضراوتهم، والنشاط السري للأندية السياسية، وطموح الدوق أورليان إلى التربع على عرش فرنسا مكان ابن عمه.

ثم أجمع هذه العوامل كلها معاً في حكم ملك لطيف خير ضعيف متردد حيره تشابك الصراعات من حوله، والدوافع المتضاربة في داخله، وتركها تفعل فعلها في شعب أشد وعياً بمظالمه، وأحر عاطفة وأقبل للإثارة وأخصب خيالاً من أي شعب آخر تقريباً وعاه التاريخ، ثم لا يلزم لضم هذه القوى وتأجيجها لتحديث انفجاراً ممزقاً لإحداث يمس الجماهير، ويتغلغل تغلغلاً أعمق من الفكر في أقوى غرائز البشر. وربما كانت هذه هي وظيفة قحط عام 1788 ومجاعته، وشتاء 1788-89 القاسي. لقد تنبأ المركز دجيريدان في 1781 بأن "الجوع وحده سيولد هذه الثورة

الكبرى" (69). وقد وصل الجوع إلى الريف، وإلى لندن، وإلى باريس، وأنشبت في الجماهير أظافره في ضراوة تكفي للتغلب على التقاليد، والاحترام، والخوف، ولتوفير مطية لتحقيق أهداف وأفكار رجال ينعمون بالغذاء الطيب. وهكذا تحطمت سدود القانون والعرف والتدين، واندلع لهيب الثورة.

صفحة رقم : 14488

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> القلادة الماسية

الفصل الثامن والثلاثون

الانهيار السياسي

1783-1789

1- القلادة الماسية

1785

في يونيو 1783 عاد أكسيل فون فرسن إلى فرنسا بعد أن أبلى بلاء حسناً في الدفاع عن أمريكا وكسب الفخار في يوركتون، فوجد ماري أنطوانيت في روعة حسنها الذي تركها عليه قبل ثلاث سنين. وحتى في 1787، حين كانت في

الثانية والثلاثين، وجدها آرثر ينج "أجمل امرأة" رآها في البلاط ذلك اليوم(1). ولم تتردد في تأييد طلب جوستاف الثالث إلى لويس السادس عشر أن يعين فرسن الوسيم كولونياً للفوج السويدي الملكي في الجيش الفرنسي- مما سيبيح له قضاء وقت غير قصير في فرساي. واعترف أكسيل لأخته صوفي بأنه يحب الملكة، وأنه يتعقد أن حبه يلقي استجابة منها. وما من شك في أنها كانت تحس الود الحار نحوه، وقد تبادلوا الرسائل الرقيقة بعد ثمانية أعوام عقب المحاولة الباسلة التي بذلها لتهريبها هي والملك من فرنسا، غير لأن دعوتها لصوفي أن تأتي وتعيش بقربه توحى بعزمها على أن تحتفظ بشعورها نحوه في نطاق الحدود اللائقة(2). ولم يكذب يؤمن ببراءتها أحد في البلاط غير زوجها. وأكدت علاقتها الأثمة أغنية ذاعت بين عامة الشعب تقول:

إن شئت أن تعرف

ديوثاً، وابن زنا، وامرأة فاجرة،

فانظر إلى الملك، والملكة.

والأمير ولي العهد(3).

صفحة رقم : 14489

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> القلادة الماسية

ولقد لخص لوي- فيليب د سيجور الأمر في هذه العبارة: "لقد فقدت سمعتها ولكنها صانت فضيلتها"(4). وفي 25 مارس 1785 ولدت ماري أنطوانيت ابناً ثانياً سمي لوي- شارل. وسر الملك سروراً عظيماً فوهبها قصر سان- كلو الذي كان قد اشتراه من الدوق أورليان بستة ملايين من الجنيهات. وأدان البلاط غلو تقديره للملكة، ولقبتها باريس على سبيل التهكم (السيدة العجز)(5). وقد استخدمت نفوذها على زوجها لتوجيه تعيينه للوزراء والسفراء وغيرهم من كبار القوم وحاولت دون جدوى أن تغير من كراهيته للتحالف مع النمسا، وزادت جهودها هذه من كره الشعب لها.

وفي هذا الجو من عداء الشعب لـ "النمساوية" L, Autrichienne كما كانوا يلقبونها نستطيع أن نفهم تصديق الناس لقصة القلادة الماسية. وكانت هذه القلادة ذاتها أمراً لا يصدق، فهي خيط من 647 ماسة قيل أنها تزن 2.800 قيراط (6) وكان اثنان من جواهرية البلاط هما شارل بومر وبول باسانج- قد اشترى ماساً من نصف العالم ليصنعاً قلادة لمدام دوباري، واثقين من أن لويس الخامس عشر سيبتاعها لها. ولكن لويس الخامس عشر مات، فمن تراه يشتري الآن حلية باهظة الثمن كهذه؟ وعرضها الجوهريان على ماري أنطوانيت لقاء 1.600.000 جنيه، فرفضتها لغلوها الشديد (7) وهنا تصدر الصورة الكاردينال برنس لوي- ريبنه- إدوارد دروهان. وكان الكاردينال ثمر ناضجة لأسرة من أعرق الأسر الفرنسية وأغناها، قيل أن دخله بلغ 1.200.000 جنيه في لعام. رسم قسيساً في 1760، وعين مساعداً لعمه رئيس أساقفة ستراسبورج، وبصفته هذه رحب رسمياً بماري أنطوانيت أول مرة دخلت فيها فرنسا (1770). فلما وجد ستراسبورج ميداناً يضيق به الطموح، عاش أكثر وقته في باريس، حيث أنضم إلى

صفحة رقم : 14490

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> القلادة الماسية

الحزب المناوي للنمسا والملكة. وفي 1771 أوفده لويس السادس عشر إلى فيينا مبعوثاً خاصاً لاستطلاع المناورات النمساوية لتقسيم بولندا. وابتاعت ماري تيريزا ممن الولايم الباذخة التي كان يولمها ومن بثه الشائعات الفاضحة عن ولي العهد الجديد. واستدعاه لويس السادس عشر إلى باريس، ولكن الأقارب الأقوياء أقتنعوا الملك بأن يعينه كبير المتصرفين في المبرات الملكي (1777). وبعد عام رقي القس المرح الوسيم إلى رتبة الكاردينالية، وفي 1779 أصبح رئيساً لأساقفة ستراسبورج وهناك التقى بكاليوسترو فوق تحت تأثير سحر المشعوذ وانطلقت عليه دعاواه. وإذ كان روهان قد ارتفع إلى هذا المقام العالي بهذه السرعة الكبيرة، فقد خيل إليه أن في وسعه الطموح إلى تقلد منصب كبير وزراء لويس السادس عشر، شريطة أن يكفر عن سنوات معارضته للملكة. وكان من أسباب لهوه في باريس مدام دلاموت- قالوا، المرأة الجذابة الذكية. وكانت جان دسان- ريمي دفالوا هذه تدعي أنها تحدرت من هنري الثامن ملك فرنسا وإحدى خليلاته. ولكن أسرتها فقدت ثروتها، فاضطرت جان إلى الاستجداء في الشوارع. وفي 1775 أكدت الحكومة نسبها الملكي، ومنحتها معاشاً قدره ثمانمائة فرنك. وفي 1780 تزوجت أنطوان دلاموت، وكان ضابطاً في الجيش يهوى الدس والتآمر، خدعها في أمر دخله، فكان زواجهما على حد قولها رباطاً بين القحط والمجاعة (8). وقد انتحل لقب كونت، فأصبحت جان مونتيسة دلاموت، وبهذه الصفة راحت ترف حول باريس وفراساي، وتغزو قلوب الرجال بما سمته "مظهر العافية والشباب (الذي سميه الرجال التائق)، وبشخصية غاية في الحيوية والمرح" (9). فلما أصبحت خليفة للكاردينال (1784) (10)، ادعت أن لها صلات وثيقة جداً في البلاط، وعرضت أن تنال له موافقة الملكة على أهدافه. فكلفت ريتو دفيليت تقليد خط جلالتها، وجاءت الكاردينال برسائل حب زعمت أنها من ماري أنطوانيت، وأخيراً وعدت بأن ترتب له لقاء مع الملكة. ثم دربت مومساً تدعى "البارونة" أوليفيا على انتحال شخصية الملكة، وفي "بستان فينوس"

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> القلادة الماسية

بفرساي، في جوف الليل البهيم، التقى الكاردينال فترة قصيرة بهذه المرأة، وحسبها أنطوانيت، ولثم قدمها، وتلقى منها ورده عربوناً للتصالح (أغسطس 1784)، أو هكذا تروي "الكونتيسة" (11).
ثم غامرت مدام دلاموت الآن بخطة أكثر جرأة لو نجحت لوضعت حداً لفقرها. ذلك أنها زورت خطاباً من الملكة يخول لروهان شراء القلادة باسمها، وقدم الكاردينال الخطاب إلى بومر، فسلمه هذا الجوهر (14 يناير 1785) بعد تعهد كتابي منه بدفع 1.600.000 فرنك منجمة. وأخذ روهان الماسات إلى الكونتيسة، وبناء على طلبها إلى ممثل مزعوم للملكة. أما تاريخ الماسات بعد ذلك فغير مؤكد، ويبدو أن الكونت دلاموت أخذها إلى إنجلترا وباعها قطعة قطعة (12).

أورسل بومر فاتورة بالقلادة إلى الملكة فردت بأنها لم تطلبها قط وأنها لم تكتب قط الخطاب الذي يحمل اسمها. فلما وافى القسط الأول (30 يوليو 1785) ولم يعرض روهان غير ثلاثين ألف فرنك من المبلغ المستحق وقدره 400.000 عرض بومر الأمر على البارون دبروتوي وزير البيت الملكي. فأناباً بروتوي به الملك. فاستدعى لويس الكاردينال ودعا لتفسير تصرفاته، فأراه روهان بعض خطابات زعم أنها من الملكة. وفطن الملك للتو إلى أنها مزورة وقال "ليس هذا خط الملكة، والتوقيع ليس له حتى الشكل المميز" (13)، واشتبته في أن روهان وغيره من الحزب المناوئ لزوجته قد بيتوا هذه المؤامرة لتشويه سمعتها. فأمر بزج الكاردينال في الباستيل (15 أغسطس) وطلب إلى الشرطة البحث عن مدام دلاموت وكانت قد هربت إلى المخبأ تلو المخبأ، ولكن أمكن القبض عليها، فزجت هي أيضاً في الباستيل. كذلك قبض على "البارونة" أوليفيا، وريتو دفيليت، وكاليوسترو، الذي اشتبته خطأ في أنه مدبر المؤامرة، مع أنه في الواقع فعل قصاراه ليشبطها (14).
وأعتقد لويس أنه لا بد من محاكمة علنية لإقناع الشعب ببراءة الملكة، فعرض القضية على أعدائه، وهم برلمان باريس. وكانت المحاكمة أشد قضايا

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> القلادة الماسية

القرن في فرنسا إثارة لاهتمام الرأي العام، كما أصبحت قضية وارن هيسستجز في إنجلترا بعدها بثلاث سنين. وصدر حكم البرلمان في 31 مايو 1786. فأعلنت براءة الكردينال روهان، باعتباره مخدوعاً أكثر منه خادعاً، ولكن الملك حرمه مناصبه الرسمية ونفاه إلى دير لاشيز-ديو. وحكم على اثنين من الشركاء في الجريمة بالسجن، وبرئت ساحة كاليوسترو. أما مدام دلاموت فقد جردت من ملابسها علانية وضربت بالسوط في "الكوردمي" أمام قصر العدالة، ورسمت بحرف V (اختصاراً للكلمة Voleur أي اللص) وحكم عليها بالسجن مدى الحياة في سجن سالبترير، وهو سجن النساء سيئي السمعة. وبعد أن قضت عاماً في هذا المحبس الذي يورث الجنون فرت، ولحقت بزوجها في لندن، وكتبت ترجمة لحياتها شرحت فيها كل شيء، ثم ماتت في 1791. واغتبط النبلاء وجماهير الباريسيين بتبرئة ساحة الكردينال وانتقدوا الملكة لإيصالها الأمر إلى محاكمة علنية، وكان الشعور العام أن شرها المعروف للجواهر هو عذر الكردينال في تصديق الرسائل المزورة. وغالت الشائعات والأقويل إلى حد اتهامها بمخللة روهان(15)، مع أنها لم تكن رآته خلال السنوات العشر السابقة للقبض عليه. ومرة أخرى صانت الملكة عرضها ولحق الأذى بسمعتها. قال نابليون "إن موت الملكة يجب أن يؤرخ من محاكمة القلادة الماسية"(16).

صفحة رقم : 14493

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> كالون

2- كالون

1783-1787

في 10 نوفمبر 1783 عين الملك شارل-ألكسندر دكالون مراقباً عاماً للمالية. وكان كالون قد أصاب نجاحاً في منصب الناظر الملكي بمتز وليل، واشتهر بأدابه الساحرة، وروحه المرحة، وبراعته في أمور المال-رغم أنه هو ذات كان غارقاً في الدين شأنه شأن الحكومة التي دعي لإتقاذها(17). ولم يجد غير 360.000 فرنك في الخزانة، مع دين

قصير الأجل قدره 646.000.000، يزيد خمسين مليوناً من الفرنكات كل سنة. وقد رفض كما رفض نكير من قبل فرض المزيد من الضرائب مخافة أن يثير الأمر التمرد

صفحة رقم : 14494

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> كالون

ويضعف الاقتصاد، وبدلاً من الضرائب قرر عمل يانصيب بعد المفاوضات، جاء بمائة مليون من الجنيهات. ثم لجأ إلى الأكليروس وظفر منهم بمنحة قدرها ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات بعد أن تعهد بمصادرة الطبعة التي أصدرها بومارشيه من أعمال فولتير. ثم أعاد سك العملة الذهبية فربح للخزانة بذلك خمسين مليوناً. واقترض 125.000.000 من المصرفيين. وحده الأمل في حفز التجارة إلى تخصيص مبالغ كبيرة للمشروعات الصحية العامة في المدن ولتحسين الطرق والترع والثغور، واستقادت موانئ الهافر ودنكرك ودييب ولاوشيل، وبدأت الأرصفة الكبرى في شربورج. وعملاً بالنظرية التي تزعم أنه لا بد للحكومة من أن تتخذ لها دائماً واجهة من الثراء، وخصص الاعتمادات دون تردد للحاشية، ولم تسأل أسئلة حول نفقات أخوة الملك أو الملكة. أما الملك نفسه، فإنه برغم نواياه الطيبة سمح بزيادة نفقات بيته من 4.600.000 جنيه في 1775 إلى 6.300.000 في 1787(18).

وكان كالون كلما يقترض كلما زاد إنفاقه، وكلما اقترض ازدادت الفائدة التي يتعين دفعها على الدين. وفي أغسطس 1786 اعترف للملك المذهول أن كل الوسائل قد استنفدت، وأن الدين القومي والعجز السنوي زادا زيادة لن يسبق لها نظير، وأنه لا نجاة للحكومة من الخراب المالي إلا بتوسيع الضرائب لتشمل النبلاء الأكليروس. وكان كالون عليماً بأن برلمان باريس الذي كان آنذاك مرتبطاً بنبلاء السيف في حلف سافر سيقاوم هذا الاقتراح، ومن ثم اقترح أن يدعى لفيق من الرجال البارزين يختارهم بمعرفته من الطبقات الثلاث كلها في جميع أنحاء فرنسا إلى فرساي للتشاور إنقاذاً لمالية الدول، فوافق الملك.

والتأم شمل "مجلس الأعيان" وفي 22 فبراير 1787، وكان يضم 46 نبيلاً، و 11 كنسياً، و 12 عضواً من مجلس الملك، و 38 قاضياً، و 12 نائباً من "أقطار الدولة" (وهي أقاليم تتمتع بامتيازات خاصة)، و 25 موظفاً بلدياً، وجملتهم 144. ووجه كالون إليهم الخطاب بصراحة تتطوي على الشجاعة، وأفاض في الحديث عن المساوي التي لا بد من القضاء عليها

صفحة رقم : 14495

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> كالون

أيًا كان رسوخها في الزمن والميول المغرضة، لأنها "ثقيلة الوطأة على أكثر الطبقات إنتاجاً وكداً". وأدان عدم المساواة العام في منح الإعانات المالية، و" عدم التناسب الهائل في النصيب الذي تسهم به مختلف الأقاليم والرعايا الذين يدينون ي بالتبعية لملك واحد" (19). ثم عرض اقتراحات أكثر راديكالية من اقتراحات تورجو، وقدمها على أن الملك قد وافق عليها، ولو أنها نفذت لربما تقادت الثورة، وقيل الأعبان بعضها مما تحدر من عهد تورجو كخفض ضريبة الملح، وإلغاء المكوس على التجارة الداخلية، وإعادة حرية الاتجار في الغلال وإنشاء المجالس الإقليمية، وإنهاء السخرة، أما طلبه فرفض ضريبة جديدة وعامة على الأرض فقد رفض، وكانت حجة الأعضاء الأشراف والأكليروس لأن "إعانة الأرض" تقتضي مسحا لجميع الأرض، وإحصاء لكل ملاك الأرض، في فرنسا؛ وهذا يستغرق سنة، ولن يكون له أثر في الأزمة الراهنة.

ولجأ كالون إلى الشعب بنشر خطبه، ولم يستطع النبلاء ولا الأكليروس هذا الالتجاء للرأي العام. ورد المجلس بأن طالب كالون بتقديم حساب كامل عن الإيرادات والمصروفات أثناء وزارته. فرفض الامتثال للطلب، لأنه عرف أن الكشف عن وسائله ونفقاته سيكون فيه القضاء عليه. وأصر المجلس على أن الحاجة إلى القصد في النفقات أمس منها إلى تعديل هيكل الضرائب، ثم تشكك في سلطته في وضع نظام جديد للضرائب، فمثل هذه السلطة لا يملكها إلا مجلس طبقات الأمة (Etats Généraux) وهو مؤتمر قومي من نواب تختارهم الطبقات الثلاث (états) ولم يدع مجلس كهذا منذ عام 1714.

ووافق أحد الأعيان، وهو لافاييت، على معظم مقترحات كالون، ولكنه كان عديم الثقة بالرجل-فأتمهه ببيع بعض الأراضي الملكية دون علم الملك، وتحداه كالون أن يثبت التهمة، فأثبتها (20). وكان لويس السادس عشر قد ساءه التجاء كالون للشعب متخطياً بذلك رجال الحكومة، فأدرك

صفحة رقم : 14496

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> كالون

الآن بعد أن تكشفنا له الأمور تباعاً أن كالون قد غشه في حالة الخزينة، ووضح له أنه لن يستطيع الحصول على أي تعاون ما دام كالون مراقباً للمالية. فلما طلب كالون إقالة ناقدة البارون دبرتوي الذي كان صديقاً شخصياً لماري أنطوانيت، أشارت على الملك بأن يقبل كالون بدلاً منه. فاتبع النصيحة بعد أن أرفقته هذه الضجة الشديدة (8 أبريل 1787). أما كالون فقد هرب سراً إلى إنجلترا بعد أن علم بأن برلمان باريس يخطط للتحقيق في إدانته وفحص شؤونه

الخاصة. وفي 23 أبريل حاول لويس تهدئة الأعيان بالوعد بالوفر الحكومي ونشر مالية الدولة. وفي أول مايو، وبناء على نصيحة الملكة أيضاً، عين أحد الأعيان رئيساً لمجلس فرنسا.

صفحة رقم : 14497

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> لوميني دبربين

3- لوميني دبربين

1788-1787

كان رئيساً لأساقفة تولوز، ولكنه كان حر الفكر حرية اشتهر بها حتى أن جماعة الفلاسفة رحبوا بتقلده السلطة. وقبل ست سنوات، حين زكى ليخلف كرستوف دبومون رئيساً لأساقفة العاصمة، اعترض لويس السادس عشر قائلاً "يجب على الأقل أن يكون لنا رئيس أساقفة لباريس مؤمن بالله" (21). وكان من أعظم ضرباته الموافقة وهو وزير للمالية أنه حصل على نقله لرأسه أساقفة سانس، وهو منصب أغنى كثيراً من منصب رئيس أساقفة تولوز. وقد أفتع الأعيان بالموافقة على خطته الرامية إلى جمع ثمانين مليوناً من الفرنكات، ولكن حين طلب إليهم الموافقة على ضريبة الأرض الجديدة عادوا يعتذرون بأنهم لا يملكون سلطة هذه الموافقة. فلما رأى لويس أن الأعيان لن يزيدوا على ذلك أقاله في لطف (25 مايو 1787).

وقد حاول برين تحقيق الوفور بطلبه الخفض في نفقات كل مصلحة حكومية، فقاومه رؤساء المصالح، ولم يؤيد الملك وزيره. وخفض لويس نفقات بيته بمليون فرنك، وارتضت الملكة خفضاً كهذا (11 أغسطس) وقد أوتي برين من الشجاعة ما جعله يرفض المطالب التي طالب بها البلاط، وأصدقاء الملكة، وأخ الملك. ومما يشره أنه استصدر من

صفحة رقم : 14498

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> لوميني دبربين

البرلمان الكاره (يناير 1788) وفي وجه مقاومة معظم زملائه الأساقفة المرسوم الملكي الذي بسط مظلة الحقوق المدنية على البروتستانت.
وكان من سوء طالع أنه تقلد السلطة في فترة انتشر فيها انكماش اقتصادي استمر حتى الثورة، نتيجة لنقصان المحاصيل مراراً ولمنافسة الواردات البريطانية. وفي أغسطس 1787 تصايحت جماهير المشاغبين الجائعة في باريس بالنداءات الثورية وأحرقت الدمى التي تمثلت بعض الوزراء. وكتب آرثر بينج في 13 أكتوبر يقول "يبدو أن الناس جميعاً يشعرون بأن الأساقفة لن يقوى على تخليص الدولة من عبء موقفها الراهن،... وأن شيئاً خارقاً للعادة سيقع، وأن إشهار الدولة لإفلاسها فكرة ليست بعيدة الذبوع إطلاقاً" (2) ثم أضاف في اليوم السابع عشر "إن رأياً واحداً غلب على الجماعة كلها، وهو أنهم على شفا ثورة عظيمة في الحكومة... وغلين شديد في جميع صفوف الناس، الذين يتوقون إلى تغيير ما،... وخميرة قوية من الحرية، تكبر كل ساعة منذ الثورة الأمريكية" (23).
وكانت الإصلاحات التي دعا كالون وبريين، وقبلها الملك، تنتظر تسجيل البرلمان لها وإقرارها قانوناً للدولة، أبا برلمان باريس فقد وافق على إطلاق حرية تجارة الغلال وتحويل السخرة إلى مبلغ نقدي، ولكنه رفض التصديق على ضريبة دمغة. وفي 19 يوليو 1787 أرسل إلى لويس السادس عشر تصريحاً بأن "الأمة، ممثلة في مجلس الطبقات، هي وحدها صاحبة الحق في أن تمنح الملك الموارد التي قد تبين أنه لا غنى عنها" (24). ووافقت جماهير باريس على هذا الحكم، وفاتها أن مجلس الطبقات، كما هو معلوم إلى ذلك الحين في التاريخ الفرنسي، ليس إلا مؤسسة إقطاعية شديدة الانحياز إلى الطبقات المميزة. أما نبلاء السيف، الذين لم تغيب عنهم هذه الحقيقة، فقد وافقوا على التصريح، ومنذ ذلك الحين انضموا إلى البرلمان ونبلاء الرداء في هذا "التمرد النبيل" الذي مهد للثورة. وأما لويس فقد تردد في دعوة مجلس الطبقات أن ينهي المجلس استبدادية الملكية البوربونيه بتأكيده للسلطات التشريعية.

صفحة رقم : 14499

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> لوميني دبربين

وفي أغسطس 1787 قدم البرلمان مرسوماً بضريبة على جميع الأراضي في جميع الطبقات. فرفض البرلمان تسجيلها. فدعا لويس الأعضاء إلى مجلس قضائي أعلى "سرير عدالة" في فرساي، وأمرهم بالتسجيل، فلما عاد الأعضاء إلى باريس أعلنوا أن التسجيل باطل، وعادوا يطالبون بعقد مجلس الطبقات. فنفاهم الملك إلى ترويه (14)

أغسطس) وثارت البرلمانات الإقليمية احتجاجاً، واندلعت حوادث الشغب في باريس، وأذعن بريين و الملك، فاستدعى البرلمان (24 سبتمبر) وسط مظاهر ابتهاج الشعب.
ثم جدد الصراع حين رفض البرلمان التصديق على اقتراح بريين جمع قرض قدره 120.000.000 جنيه. ودعا الملك لعقد "جلسة ملكية" للبرلمان (11 نوفمبر 1787) قدم فيها وزراء الحجج المؤيدة لتسجيل القانون. ولكن البرلمان أصر على الرفض، وصاح الدوق ورليان "مولاي، هذا غير قانوني!" وأجاب لويس في نوبة غضب طائشة على غير العادة "هذا لا يغير من الأمر شيئاً! أنه قانوني لأنني أريده" -وهكذا أكد مبدأ الحكم الاستبدادي في غير موارد. ثم أمر بتسجيل المرسوم، فسجل، ولكنه ما أن غادر القاعة حتى ألغى البرلمان التسجيل. فلما سمع لويس بهذا نفى الدوق أورليان إلى فيلليه كوترية، وزج باثنين من أعضاء البرلمان في الباستيل (20 نوفمبر). واحتجاجاً على هذين الأمرين وغيرهما من أوامر القبض دون محاكمة، بعث البرلمان إلى الملك (1 مارس 1788) "اعتراضات" اشتملت كلاماً سر النبلاء والعامّة على السواء: "أن القوانين التعسفية تنتهك الحقوق التي لا يمكن انتزاعها... أن الملوك يحكمون إما بالقهر أو بالقانون... ولأمة تطلب من جلالتهم أعظم خير يمكن لأي ملك أن يعطيه لرعاياه -وهو الحرية" (25). ورأت الوزارة أن تهديئاً ثائرة البرلمان بالإذعان لما طالب به من نشر بيان بإيرادات الحكومة ومصروفاتها. فزاد هذا النشر الطين بله لأنه كشف عن عجز مقداره 160.000.000 جنيه. ورفض المصرفيون أن يقرضوا الدولة مزيداً من المال ما لم يصدق البرلمان على القرض، وأقسم البرلمان أنه

صفحة رقم : 14500

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> لوميني دبريين

لن يفعل. وفي 3 مايو 1788 أصدر "إعلاناً للحقوق" ذكر لويس السادس عشر وزراءه بأن فرنسا "ملكية يحكمها ملك، طبقاً للقوانين"، وأن على البرلمان ألا يتخطى عن حقه القديم في تسجيل المراسيم الملكية قبل أن تصبح قوانين. ثم عاود المطالبة بعقد مجلس الطبقات. وأمر الوزراء باعتقال عضوين من زعماء البرلمان هما ديمرنيل وجوابلار (4 مايو)، وتم هذا وسط فوضى واضطراب في القاعة واحتجاجات غاضبة في الشوارع. وفي 8 مايو أعلن بريين عزم الحكومة على إنشاء محاكم جديدة، ترأسها "محكمة مطلقة السلطة" يكون لها وحدها منذ الآن سلطة تسجيل المراسيم الملكية، أما البرلمانات فتقتصر سلطتها على أداء الوظائف القضائية البحتة، ثم يصلح هيكل القانون الفرنسي بجملة. ومنح برلمان باريس أثناء ذلك "أجازة" -أي أنه من الناحية الفعلية أوقف عمله.
وعليه لجأ البرلمان إلى النبلاء، والأكليروس، والبرلمانات الإقليمية، فحفف الجميع لتأييده. وأرسل الأدواق والأشراف إلى الملك احتجاجات على إلغاء حقوق البرلمان التقليدية. وأدان مؤتمر للاكليروس (15 يونيو) "المحكمة المطلقة السلطة" الجديدة، وخفض "منحته" من اثني عشر مليون جنيه في المتوسط إلى 1.800.000، ورفض أي معونة أخرى حتى يعاد البرلمان (26). ثم شقت البرلمانات الواحد تلو الآخر عصا الطاعة على الملك. وأعلن برلمان بو (عاصمة بيارن) أنه لن يسجل مراسيم رفضها برلمان باريس؛ وحين هددت الحكومة أعضاءه باستعمال القوة تسلح الشعب ليحميهم. أما برلمان روان (عاصمة نورماندية) فقد شهر بوزراء الملك باعتبارهم خونة، وحرّم من حماية القانون كل الأشخاص الذين يستخدمون المحاكم الجديدة. وأصدر برلمان رين (عاصمة برنتي) قوانين مماثلة، فلما أرسلت الحكومة الجند لفضه تصدى لهم موظفو النبلاء المحليون المسلحون (27). وحين أذاع الحاكم العسكري في

جرينوبل (عاصمة الدوفنيه) مرسوماً ملكياً بحل البرلمان المحلي، هبت جماهير المدينة التي عززها الفلاحون الذين دعاهم ناقوس الخطر، فقدت الجند الكارهين لمهتهم ببلاط من الأسطح،

صفحة رقم : 14501

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> لوميني دبربين

وأكرهت المحاكم على سحب مرسوم الملك (7 يونيو 1787، "يوم البلاط") وإلا شنقوه على ثريا ردهته. ولكن القضاة امتثلوا لأمر ملكي بنفيهم.

ولقد صنع مجتمع جرينوبل التاريخ بانتفاضه هذا. وصمم النبلاء الأكليروس والعامية على إعادة مجلس الطبقات الدوفينية ليلتئم في 21 يوليو ولما كانت الطبقة الثالثة قد قادت النصر في "يوم البلاط" فقد منحت تمثيلاً مكافئاً لتمثيل الطبقتين الأخيرين مجتمعين، واتفق على أن يكون التصويت في المجلس الجديد بالأفراد لا بالطبقات، وقد وضعت هذه الاتفاقات سوابق لعبت دوراً في تنظيم مجلس الطبقات القومي. فلما حضر على المجلس طبقات الدوفنيه أن يجتمع في جرنوبل، اجتمع في فيزيل على بضعة أميال، وهناك، بقيادة محام شاب يدعى جان-جوزيف مونييه، وخطيب شاب يدهى انطوان بارناف، وضع النواب الخمسمائة قرارات (أغسطس 1788) أيدت حقوق البرلمان في التسجيل، وطالبت بإلغاء أوامر القبض الملكية، ودعت إلى عقد مجلس لطبقات الأمة، وتعهدت بعدم الموافقة إطلاقاً على ضرائب جديدة ما لم يصدق عليها مجلس الطبقات. هنا كانت إحدى بدايات الثورة الفرنسية: فإن إقليمياً بأسره تحدى الملك، وطالب في واقع الأمر بملكية دستورية.

واستسلم الملك بعد أن قهره هذا التمرد الذي شمل الأمة كلها تقريباً على السلطة الملكية، فقرر أن يدعو مجلس الطبقات، ولما كان آخر اجتماع لهذه الهيئة قد انقضى عليه 174 عاماً، ولما كان نمو الطبقة الثالثة قد استحال معه إتباع الإجراءات القديمة، فقد أصدر لويس السادس عشر (5 يوليو 1788) نداء غير عادي على أنه أمر من أوامر مجلس الملك:

"سيحاول جلالته العمل بما يقرب من الإجراءات القديمة، ولكن إذا لم يتيسر التحقق من هذه الإجراءات فإنه يريد أن يسد الثغرة بالتأكد من مشيئة رعاياه... وعليه فقد قرر الملك أن يأمر بإجراء كل البحوث الممكنة الخاصة بالأمور سالفة الذكر في جميع محافظات كل إقليم، وأن تبلغ نتائج هذه البحوث إلى مجالس الطبقات الإقليمية ومؤتمراتها،... التي بدورها

صفحة رقم : 14502

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> لوميني دبريين

تبلغ جلالته برغباتها... ويدعو جلالته جميع الدارسين والأشخاص المتعلمين في مملكته.. أن يوافقوا حامل الأختام بجميع المعلومات والمذكرات المتصلة بالشئون التي يتضمنها هذا المرسوم" (28). وفي 8 أغسطس دعا لويس طبقات فرنسا الثلاث أن توفد مندوبين إلى دورة لمجلس الطبقات تجتمع بفرساي في أول مايو 1789. ثم عطل في اليوم ذاته "المحكمة المطلقة السلطة" التي ما طواها التاريخ في زوايا النسيان. وفي 16 أغسطس اعترفت الحكومة بإفلاسها في الواقع، إذ أعلنت أن التزامات الدولة ابتداء من 31 ديسمبر 1789 لن تدفع كلها عملة بل يدفع بعضها ورقاً على المواطنين جميعاً أن يقبلوه عملة قانونية. وفي 25 أغسطس استقال بريين محمل بالرضا والثراء في الوقت الذي أحرقت فيه جماهير باريس دمية تصوره. ثم اعتكف في سانس، وهناك انتحر في 1794.

صفحة رقم : 14503

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> عودة نكير

4- عودة نكير

1789-1788

وطلب الملك إلى نكير على مضض أن يعود إلى الحكومة (25 أغسطس) ومنحه الآن لقب وزير ومقعداً في المجلس الملكي. وهلل الجميع لهذا التعيين من الملكة والأكليروس إلى المصرفيين وعامة الشعب. وتجمع حشد في فناء قصر

فرساي ليرحبوا به، فخرج إليهم وقال لهم "نعم يا أبنائي، أنا باق، فاطمنوا" ووقع بعضهم على ركبهم وقبلوا يديه(29) فبكى على طريقة ذلك العصر.
على أن الذي استشرى في الإدارة، وفي الشوارع، وفي الفكر الحكومي والشعبي، وكان قد قارب جداً حالة التحلل السياسي بحيث كان قصارى ما استطاعه كبير هو الاحتفاظ بالاستقرار حتى يجتمع مجلس الطبقات. ثم بلفتة كريمة منه لاستعادة الثقة بالحكومة وضع ملوني فرنك من ماله في الخزنة، وارثه ثروته الخاصة ضماناً جزئياً للالتزامات الدولة(30). ثم ألقى الأمر الذي صدر في 16 أغسطس بإلزام حملة السندات بقبول

صفحة رقم : 14504

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> عودة نكير

البنكنوت بدلاً من النقود، وارتفعت أسعار السندات الحكومية ثلاثين في المائة في السوق، وقدم المصرفيون من المال للخزانة ما يكفي لتجاوز الأزمة عاماً.
وعملاً بنصيحة نكير دعا الملك البرلمان ثانية (23 سبتمبر). واقترف البرلمان في نشوة انتصاره خطأ التصريح بأن مجلس الطبقات القادم ينبغي أن يعمل كما عمل سابقه في 1714-أي منعقداً بطبقات منفصلة ومصوتاً في وحدات طبقية، وهذا كفيل بأن يصيب الطبقة الثالثة أوتوماتيكياً بالعجز السياسي. أما جماهير العامة التي كانت قد صدقت دعوى البرلمان بأنه يدافع عن الحرية ضد الطغيان، فقد أدركت أن الحرية المقصودة هي حرية الطبقتين المميزتين في التسيد على الملك. وهكذا حرم البرلمان نفسه، بانضمامه على هذا النحو إلى وصف النظام الإقطاعي، من تأييد الطبقة الوسطى القوية، ولم بعد منذ الآن عاملاً مؤثراً في تشكيل الأحداث. وبلغ "التمرد النبيل" وبهذا حدوده وأنهى شوطه، ثم أخلى الآن مكانه للثورة البورجوازية.
وقد زاد مهمة نكير عسراً ما حل بالبلاد عام 1788 من قحط انتهى بعواصف ثلجية أتلفت المحاصيل الهزيلة. وكان شتاء 1788-89 من أقسى ما غفره تاريخ فرنسا، ففي باريس هبط الترمومتر إلى 018 تحت الصفر الفارنهي، وتجمد السيخ تماماً من باريس إلى الهافر. وارتفع سعر الخبز من تسعة سنتات في أغسطس 1788 إلى أربعة عشر في فبراير 1789. وبذلت الطبقات العليا قصارى جهدها للتخفيف عن الشعب، وأنفق بعض النبلاء، كالدوق أورليان، مئات الألوف من الجنيهات في إطعام الفقراء وتدفئتهم، وتبرع رئيس الأساقفة بأربعمائة ألف جنيه، وظل دير للرهبان يطعم ألفاً ومائتي يوماً على مدى ستة أسابيع(32). وحظر نكير تصدير الغلال، واستورد منها ما قيمته سبعون مليون جنيه، فأمكن تفادي المجاعة، ولكنه ترك لخلفائه أو لمجلس الطبقات مهمة سد القروض التي اقترضها.

صفحة رقم : 14505

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> عودة نكير

ثم اقنع الملك أثناء ذلك (27 ديسمبر 1788) بأنه يجب في مجلس الطبقات القادم أن يكون نواب الطبقة الثالثة مساوين في العدد لنواب الطبقتين الأخيرتين مجتمعتين، وذلك رغم النصيحة المضادة التي أشار بها النبلاء الأقوياء. وفي 24 يونيو 1789 أذاع على جميع فرنسي في الطبقة الثالثة يزيد عمره على أربعة وعشرين عاماً ويدفع أي ضريبة، ومن حقه بل أنه مأمور بأن يدلي بصوته، وكذلك جميع المهنيين، ورجال الأعمال، وأعضاء الطوائف الحرفية، أي أن جميع العامة باستثناء المعدمين وأقفر العمال كان عليهم أن يدلوا بأصواتهم (32). واجتمع المرشحون الناجحون على هيئة لجنة انتخابية اختارت نائباً عن القسم. أما في الطبقة الأولى (الأكليروس) فكان كل كاهن أو خوري، وكل دير للراهبان أو الراهبات، يدلي بصوته لاختيار ممثل في الجمعية الانتخابية للقسم، وكان رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورؤساء الأديرة، أعضاء في تلك الجمعية بحكم وظائفهم، واختارت الجمعية مندوباً في مجلس الطبقات. أما في الطبقة الثانية (الأشراف) فقد كان كل نبيل فوق الرابعة والعشرين تلقائياً عضواً في الجمعية الانتخابية التي اختارت مندوباً يمثل نبلاء قسمه. وفي باريس وحدها قصر حق التصويت على من يدفعون فريضة رؤوس قدرها جنيهاً أو أكثر، وقد أسقط بذلك معظم أفراد الطبقة العاملة (33).

ودعت الحكومة كل جمعية انتخابية في كل طبقة لوضع "كراسة بالشكاوى والمظالم" لإرشاد ممثلها. ولخصت كراسات الأقسام لكل طبقة في كراسات إقليمية، ثم قدمت هذه للملك، كاملة أو مختصرة، وأجمعت الكراسات كلها على إدانة الحكم المطلق، والمطالبة بملكية دستورية تنقيد فيه سلطات الملك ووزرائه بالقانون وبمجلس منتخب على نطاق قومي يجتمع دورياً وله وحده حق تقرير الضرائب الجديدة واعتماد القوانين الجديدة. وطلب إلى جميع النواب تقريباً عدم الموافقة على اعتماد أموال للحكومة حتى تحصل في شئون المال، والمظالم المقترنة بالضرائب غير

صفحة رقم : 14506

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> عودة نكير

المباشرة، وشطط السلطة الملكية كما يتمثل في أوامر القبض الملكية. وطالب الجميع بالمحاكمة وفق نظام المحلفين، وبسرية الرسائل، وبإصلاح القانون. ودعا الجميع للحرية، ولكن على طريقته الخاصة: فالنبلاء لاستعادة السلطات التي كانت لهم قبل حكم ريشليو، والأكليروس والبرجوازيون للتحرر من كل تدخل للدولة، والفلاحون لتحرر من

الضرائب الظالمة والرسوم الإقطاعية. وقبل الجميع من حيث المبدأ المساواة في الضرائب على جميع أنواع الملكية. وأعرب الجميع عن الولاء للملك، ولكن أحداً لم يذكر "الحق الإلهي" في الحكم(34)، فقد كان هذا الحق بإجماع الآراء في عداد الموتى.

واشترطت كراسات النبلاء أن تجتمع كل طبقة من الطبقات الثلاث في مجلس الطبقات منفصلة وتصوت بوصفها طبقة متحدة. أما كراسات الأكليروس فقد رفضت التسامح الديني، وطلبت إلغاء الحقوق المدنية الممنوحة للبروتستانت مؤخراً. وطالبت بعض الكراسات بترك شطر أكبر من ضريبة العشور للأبرشية، وافتح المناصب في السلم الكهنوتي أمام جميع القساوسة على السواء. وأسلفت معظم الكراسات الكنسية على ما شاب العصر من فساد أخلاقي في الفن والأدب والمسرح، وعزت هذا التدهور إلى حرية النشر المفرطة، وطلبت بقصر الأشراف على التعليم على الأكليروس الكاثوليكي دون سواه.

أما كراسات الطبقة الثالثة فأعربت أكثر ما أعربت عن آراء الطبقة الوسطى والفلاحين الملاك. فطلبت بإلغاء الحقوق الإقطاعية ومكوس النقل، وفتح الطريق للمواهب لجميع الطبقات ولجميع المناصب. ونددت بثناء الكنيسة وتبطل الرهبان الغالي التكلفة. واقترحت إحدى الكراسات على الملك إن أراد تغطية العجز أن يبيع أراضي الأكليروس وبيعهم، واقترحت كراسة أخرى مصادرة جميع الأملاك الديرية(35). وشكت كراسات كثيرة من العبث المنكر الذي تحدثه بالمزارع حيوانات النبلاء ومطاردتها لصيدهم. وطلبت التعليم المجاني للجميع، وإصلاح المستشفيات والسجون، والقضاء المبرم على القنبة وتجارة الرقيق. وأكدت كراسة

صفحة رقم : 14507

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> عودة نكير

نموذجية للفلاحين "أنا ركيزة العرش الرئيسية، وسند الجيوش الصادق... إننا مصدر الثراء للآخرين، بينما نظل فقراء"(36).

لقد كان انتخاب مجلس الطبقات هذا، وفي جملته، لحظة نبيلة باعثة على الفخر في تاريخ فرنسا. وكادت فرنسا البوربونية، ولو للحظة، أن تصبح ديموقراطية، على الأرجح بنسبة من السكان تدلي بأصواتها تفوق نسبة من يدلون لأصواتهم في انتخاب أمريكي يجري اليوم. وكان انتخاباً عادلاً، لا يشوبه الخلل الذي قد يتوقع في عملية بهذه الجودة، وواضح أنه كان أقل فساداً من معظم الانتخابات التي أجريت في ديموقراطيات أوروبا اللاحقة(37). ولم يحدث قط من قبل، على قدر علمنا، أن أصدرت حكومة من الحومات دعة عريضة كهذه لشعبها لتحيطه علماً بالإجراءات، ولتتعرف إلى شكاوى الشعب ورغباته، وقد أتاحت هذه الكراسات في جملتها للحكومة نظرة للأحوال في فرنسا أشمل من أي نظرة أتاحت لها في أي عهد قبل ذلك. فالآن امتلكت فرنسا، إن كانت قد امتلكت في أي عهد، لمواد المؤهلة لفن الحكم، والآن اختارت خيرة رجالها بمحض حريتها من كل طبقة، ليلتقوا بملك كان قد قام فعلاً بمقدمات شجاعة للتغيير. وملاً الأمل فرنسا كلها حين اتخذ هؤلاء الرجال القادمون من كل فج الدولة سمتهم إلى باريس وفرساي.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> يدخل ميرابو

5- يدخل ميرابو

وكان أحدهم نبيلاً انتخبه العامة عن إكس-أن-برفانس ومرسيليا. وقد أصبح هذا الرجل، أنوريه-جابريل-فكتور ركيبي، كونت ميرابو-الدميم الوجه الساحر الشخصية، والذي تقرد بهذا الشاذ المزدوج، علماً مسيطراً من أعلام الثورة منذ وصوله إلى باريس "أبريل 1789) حتى موته السابق لأوانه (1791). ولقد نوهنا من قبل بأبيه-فكتور ركيبي، مركز ميرابو-غزيوقراطياً و "صديقاً للإنسان"، أي لكل إنسان عدا زوجته وأبنائه، وقد وصف

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> يدخل ميرابو

فوانج "صديق الإنسان" هذا بأنه "ذو طبع ناري مكتئب، أشد عتواً وتقلباً... من البحر، يتسلط عليه نهم دائم للذة والمعرفة والمجد" (38). وقد اعترف المركز بهذا كله، وأضاف إليه أن "الفساد الخلقي طبيعة ثانية فيه". وحين بلغ الثامنة والعشرين صمم على أن يكتشف إن كان ممكناً أن يكتفي بامرأة واحدة، فطلب يد ماري دقيسان، التي لم يرها قط، ولكنها كانت الوريثة غير المنازعة لثروة كبيرة. وبعد أن تزوجها وجد أنها امرأة سليطة رثة عاجزة، ولكنها أنجبت له في إحدى عشرة سنة أحد عشر طفلاً، تخطف الطفولة منهم خمسة. وفي 1760 زج المركز في "الشاتو دفانسين" بتهمة الكتابات المهيجة، ولكن أفرج عنه بعد أسبوع. وفي 1762 هجرته وعادت إلى أهلها.

وشب ابنه البكر، أونوريه-جابريل- وسط هذه الدراما العائلية. وقد ماتت إحدى جدتيه مجنونة، وتعرضت إحدى شقيقاته وأحد إخوته للجنون بين الحين والحين، ومن المعجزات أن ينجو جابريل نفسه من الجنون وهو يصارع الكارثة تلو الكارثة. وقد ولد وله سنان، وكأنهما تحذير للعالم. وحين بلغ الثالثة أصيب بالجذري الذي خلف في وجهه ندوباً ونقرأ أنه ساحة قتال. وكان غلاماً شديد الحيوية، مشاكساً، عنيداً، وكان أبوه، الشديد الحيوية، المشاكس، العنيد، يكثر من ضربه، فربى فيه كراهية أبيه، وسر التركيز أن يتخلص منه بإرساله حين بلغ الخامسة عشرة (1764) إلى أكاديمية حربية في باريس. وهناك تعلم جابريل الرياضيات والألمانية والإنجليزية، وقرأ بنهم إذ تسلطت عليه رغبة عارمة في الإتيان بجلائل الأعمال. وقرأ فولتير ففقد دينه، وقرأ روسو فتعلم أن يتعاطف مع عامة الشعب وفي الجيش سرق خلية قائده، واشتبك في مبارزة، وشارك في الغزو الفرنسي لكورسيكا، وظفر بقدر من الثناء على بسالته أشعر أباه بحبه ولو لحظة.

وحين بلغ الثالثة والعشرين تزوج ابتغاء المال بصراحة من إميلي مارنيك، وكانت تتوقع أن تترك 500.000 فرنك. فولدت لجابريل ولداً، ثم اتخذت عشيقاً، وأخفى خيانتها، ثم غفر لها. وتشاجر

صفحة رقم : 14510

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> يدخل ميرابو

مع رجل يدعى فلانيف، وحطم شمسية فوق ظهره، فاتهم بتعمد القتل. ورغبة في تقادي القبض عليه حصل أبوه على أمر ملكي مختوم زج بمقتضاه جابريل في الشاتوديف، القائم على جزيرة حيال مرسيليا، وطلب إلى زوجته أن تلحق به، ولكنها رفضت، وتبادلا رسائل فيها حنق متصاعد، انتهت بأن أقرأها "الوداع إلى الأبد" (14 ديسمبر 1774).

واستدفاً أثناء ذلك بمضاجعة زوجة مأمور السجن بين الحين والحين.

وفي مايو 1775 نقل بمسعى أبيه إلى سجن أرخي في الشاتودجو، قرب بونتارلييه والحدود السويسرية. ودعا سجاناه المسيو دسانموري إلى حفلة التقى فيها بصوفي دروفيه، الزوجة ذات التسعة عشر ربيعاً للماركيز ديمونيه السبعيني. وقد وجدت ميرابو أكثر إشباعاً من زوجها؛ صحيح أن وجهه كان منفراً، وشعره صوفي القوام، وأنفه ضخماً، ولكن عينيه كانتا متقدتين، وطبعه كان "نارياً" وكان في استطاعته أن يغوي بحديثه أي امرأة. واستسلمت له صوفي كلية. وفر من بونتارلييه، ثم هرب إلى تونون في إقليم سافوا، وهناك أغوى ابنة عم له. وفي أغسطس 1776 لحقت به صوفي في فريير بسويسرا بأن العيش بعيداً عنه كما قالت معناه "الموت ألف مرة كل يوم" (39). وأقسمت الآن "أما جابريل أو الموت!" واقترحت أن تشتغل، بأن جابريل كان مفلساً.

فصحبها إلى أمستردام حيث استخدمه مارك ريه ناشر كتب روسو، مترجماً، وعملت صوفي سكرتيرة له، واشتغلت بتدريس الإيطالية. وقد كتبت عدة كتب صغيرة تحدث في أحدها عن أبيه فقال "أنه يعظ بالفضيلة، والبر، والقصد، في حين أنه أسوأ الأزواج، وأقسى الأباء وأكثرهم إسرافاً" (40). ورأى ميرابو الأب في هذا خروجاً على أصول اللياقة. فاتفق مع والدي صوفي على تدبير إعادة الزوجين من هولندا، فقبض عليهما (14 مايو 1777) وجئ بهما إلى باريس. وبعد أن فشلت صوفي في محاولة الانتحار، أرسلت إلى إصلاحية، أما جابريل الساخط فقد زج في الشاتو دفانسين، مقتضياً في ذلك خطى أبيه وديدرو. وهناك ظل

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> يدخل ميرابو

يضني في السجن اثنتين وأربعين شهراً. وبعد أن قضى فيه عامين سمح له بالكتب والورق والقلم والمداد، فراح يبعث لصوفي برسائل ملؤها الإخلاص المشبوب. وفي 7 يناير 1778 ولدت بنتاً لعلها كانت ابنته. وفي شهر يونيو نقلت الأم وطفلتها إلى دير في جيان قرب أورليان.

والتمس ميرابو من أبيه أن يصفح عنه ويعمل على إطلاق سراحه. وقال متوسلاً "دعني" أرى الشمس، دعني أنتسم هواء أكثر حرية، دعني أرى وجه أخواني البشر!؟ أنني لا أبصر غير الجدران المظلمة. وأبتاه سأموت من آلام التهاب الكلي!" ولكي يخفف من شقائه ويكسب بعض المال لصوفي، ويتقي الجنون، ألف عدة كتب، بعضها جنسي. وكان أهمها هو "الأوامر الملكية المختومة" الذي وصف مظالم القبض دون إذن والسجون دون محاكمة، وطلب بإصلاح السجون والقانون فلما نشر هذا الكتيب في 1782 بلغ تأثر لويس السادس عشر به مبلغاً حمله على أن يأمر في 1784 بالإفراج عن جميع السجناء المعتقلين في فانسين(42).

وقد ترافق سجانو ميرابو به، ويعد 1779 سمح له بالتمشي في حدائق الشاتو ولقاء الزوار، ووجد في بعض زائريه منصرفات لطافته الجنسية العارمة(43). ووافق أبوه على أن يعمل على الإفراج عنه إذا اعتذر لزوجته واستأنف معاشرتها، لأن المركز العجوز كان تواقاً لحفيد يواصل بقاء الأسرة. فكتب جابرييل إلى زوجته يطلب الصفح. وفي 13 ديسمبر 1780 أطلق سراحه بكفالة أبيه، الذي دعاه إلى قصر الأسرة في لوبنيون. وكانت له بعض العلاقات الغرامية في باريس، وزار صوفي في ديرها، والظاهر أنه أخبرها أنه ينوي العودة إلى زوجته. ثم مضى إلى لوبنيون، وأبهج قلب أبيه. وتلقت صوفي مآلاً من زوجها، وانتقلت إلى بيت قريب من الدير، وانهمكت في أعمال البر، ووافقت على الزواج من كبتن سابق في الخيالة. ولكنه مات قبل أن يزف إليها، فأقام في الغد(9 سبتمبر 1789)(44). أما زوجة ميرابو فقد رفضت لقاءه، فأقام عليها دعوى اتهمها فيها بهجرها ل، وخسر دعواه، ولكنه أدهش الأصدقاء والأعداء

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> يدخل ميرابو

ببلاغته مرافعته التي استغرقت خمس ساعات دفاعاً عن قضية استحليل الدفاع عنها. وتبرأ منه أبوه، فقاضاه، وحصل منه على راتب قدره ثلاثة آلاف فرنك في السنة، وراح يقترض المال ويحيا حياة مترفة. وفي 1784 اتخذ خليفة جديدة تدعى هنرييت نيرا. واصطحبها في رحلة إلى إنجلترا وألمانيا (1785-87). وفي الطريق كانت له مغامرات غرامية عارضة، غفرتها له هنرييت لأنه كما قالت- "ما أن نتوود إليه امرأة أقل توود حتى يلتهب لفوره" (45). والتقى بفردريك مرتين، وعرف عن بروسيا ما يكفي لتأليف كتابه "في الملكية البروسية" (1788) (من مادة زوده بها ضابط بروسي)، وقد أهدى الكتاب لأبيه، الذي وصفه بأنه "مصنف ضخم لعامل هائج". وكلفه كالون برسائل سرية عن الشؤون الألمانية، فأرسل منها سبعين أدهشت الوزير بإدراكها المرهف وأسلوبها القوي.

فما عاد إلى باريس رأى أن سخط الشعب قارب الحماسة الثورة. وفي رسالة إلى الوزير مونوران حذر من نشوب الثورة ما لم يجتمع مجلس طبقات الأمة قبيل عام 1786 "أنني أسأل هل حسبتم حساب قوة الجوع المزلزلة إذا تفاعلت مع روح اليأس. أنني أسأل من سيجرؤ على أن يكون مسئولاً عن سلامة جميع من يلتقون حول العرش، أجل، بل سلامة الملك نفسه؟" (46). وقد طواه خضم هذا الهياج فاندفع فيه ووفق في مصالحة هشة مع أبيه (الذي مات في 1789). ثم رشح نفسه في أكس-أن-بروفانس لمجلس طبقات الأمة ودعا نبلاء القسم لاختياره، فرفضوا، فاتجه إلى الطبقة الثالثة، التي رحبت به. وانبعث الآن من شرقتين المحافظة واتخذ له أجنحة بوصفه ديموقراطياً "أن حق السيادة كامن في الشعب وحده، والملك لا يمكن أن يكون أكثر من القاضي الأول للشعب" (47). وقد أراد الاحتفاظ بالملكية، إنما حماية للشعب من الأرستقراطية، ثم دعا بإلحاح أثناء ذلك إلى إعطاء حق التصويت لجميع الذكور البالغين (48). وفي خطاب موجه لمجلس طبقات إقليم بروفانس هدد الطبقات المميزة بإضرار كل شيء، وهذا الشعب الذي لا يحتاج إلا لفرض الجمود عليه حتى يصبح رهيباً جباراً" (49).

صفحة رقم : 14513

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> يدخل ميرابو

ثم اندلع شغب بسبب الخبز في مرسيليا (مارس 1789)، وأرسل أولوا الأمر في طلب ميرابو ليهدئ ثائرة الشعب لأنهم كانوا على بينة من شعبيته، وتجمعت الجماهير في حشد من 120.000 للتهاتف له (50). فنظم دورية لمنع حوادث العنف. وفي "بيان لشعب مرسيليا" نصح العامة الصبر حتى يتاح لمجلس طبقات الأمة الوقت للموازنة بين المنتجين الذين يريدون أسعاراً عالية والمستهلكين الذين يريدون أسعاراً منخفضة. وأطاعه القائمون بالشغب. وبقوة الإقناع ذاتها هدأ تمرداً في إكس. وانتخبه إكس ومرسيليا نائباً عنهما، فشكر الناخبين، وقرر أن يمثل إكس. وفي إبريل 1789 اتخذ سمته إلى باريس ومجلس الطبقات.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> التجربة الأخيرة للدراما

6- التجربة الأخيرة للدراما

1789

واخترق بلداً يواجه المجاعة ويجرب الثورة. ففي ربيع عام 1789 نشبت في أقسام عديدة تمرد على الضرائب وغلاء الخبز. وفي ذلك أن الجماهير في ليون أغاروا على مكاتب جابي الضرائب وأتلفوا سجلاته. وفي آجده، قرب مونبلييه، هدد الشعب بعمليات سلب ونهب شاملة ما لم تخفض أسعار السلع. ومنعت القرى التي خشيت عجز الغلال عن تصديرها من الأقسام. وتحدث بعض الفلاحين عن إحراق جميع القصور الريفية وقتل أمراء الإقطاع (مايو 1789)(51). وفي مونليري قادت النساء حشداً من الغوغاء في حملة على مخازن الغلال والمخابز حين نمت إليهن أن سعر الخبز قد زيد، واستولين على كل ما وصلت إليه لأيديهن من الخبز والدقيق. ومثل هذا حدث في بريه- سير- سين" وبانول، وأميان، وفي كل مكان بفرنسا تقريباً. وفي المدينة تلو المدينة أثار الخطباء الشعب بأبنائهم بأن الملك أجل دفع الضرائب كلها(52). وسرى خلال إقليم بروفانس في شهري مارس وإبريل نبأ يقول أن "خير الملوك يريد المساواة في الضرائب، وألا يكون بعد اليوم أساقفة، ولا إقطاعيون، ولا عشور، ولا مكوس، ولا ألقاب، ولا امتيازات"(53). وبعد أول إبريل 1789 كف الناس دفع الرسوم الإقطاعية، وهكذا لم يكن نزول النبلاء "التطوعي" عن

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> التجربة الأخيرة للدراما

حقوقهم الإقطاعية في 4 أغسطس عملاً من أعمال التضحية، بل إقراراً بالأمر الواقع. وازداد الانفعال والإثارة في باريس كل يوم تقريباً باقتراب موعد انعقاد مجلس طبقات الأمة. فتدفقت النشرات مع المطابع ورفع الخطباء عقائرهم في المقاهي والأندية وصدرت أشهر وأقوى نشرة في التاريخ بأسره في يناير 1789، وبقلم رجل من أحرار الفكر هو الأبيه إيمانويل- جوزف سيبس، الوكيل العام لأسقفية شارتر. وكان شامفور قد كتب متسائلاً "ما الطبقة الثالثة؟- إنها كل شيء. وماذا تملك؟ لا شيء". فصاغ سيبس هذا "الأبجرام" المتفجر عنواناً جذاباً وحوله إلى ثلاثة أسئلة سرعان ما رددتها نصف فرنسا:

"ما الطبقة الثالثة؟ كل شيء

ماذا كانت إلى اليوم في النظام السياسي؟ لا شيء.

ماذا تطلب؟ أن تصبح شيئاً(54).

وذكر سيبس أنه من بين سكان فرنسا البالغين 26.000.000 نسمة، ينتمي إلى الطبقة الثالثة - العلمانية المجردة من الألقاب- على الأقل 25.000.000 وهذا معناه في الحقيقة الأمر أن الطبقة الثالثة هي الأمة. فإذا أبت الطبقتان الأخريان الجلوس معها في مجلس الطبقات، كان لها العذر في أن تؤلف بنفسها "الجمعية الوطنية". وقد حفظ التاريخ تلك العبارة فيما حفظ.

على أن الجوع كان أبلغ حتى من الكلام. فتقاطر الشحاذون والمجرون على مراكز الإغاثة كلما أقامتها في باريس الحكومة والكهنة والأغنياء، وافدين من دخل البلاد ليأكلوا ويغامروا بفقرهم في أفعال يائسة. وكانت الجماهير هنا وهناك تنفذ إرادتها بنفسها دون إعداد بالقانون، فهددت بشنق أي تاجر يخفي الغلال أو يغالي في سعرها على أقرب عمود نور، وكثيراً

صفحة رقم : 14516

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> التجربة الأخيرة للدراما

ما اعترضت قوافل الغلال نهبتها قبل أن تستطیع هذه القوافل الوصول إلى السوق؛ وكانت أحياناً تطبق على الأسواق بالغوءاء وتستولي عنوة ودون دفع الثمن على الغلة التي أتى بها الفلاحون ليبيعوها (55). وفي 23 إبريل استصدر نكير من المجلس الملكي مرسوماً يخول للقضاة والشرطة جرد مخازن الغلال الخاصة وإلزامها حينئذٍ عز الخبز بإرسال غلالها للسوق، ولكن هذا الأمر نفذ ي تراخ. كذلك كانت صورة باريس في ربيع ذلك العام. وفي هذه الجماهير الغاضبة من الدهماء تبين الدوق أورليان أداة قد تحقق له مأربه. وكان الحفيد البعيد لفليب أورليان الذي كان وصياً على عرش فرنسا (1751- 23). وقد ولد في 1747، ولقب بدوق شارتر في الخامسة من عمره، ثم تزوج في الثانية والعشرين بلويز - ماري دبوربون بنتيفر، التي جعلته ثروتها أغنى رجل في فرنسا (56). وفي 1785 ورث لقب دوق أورليان، وبعد 1789، وبفضل دفاعه عن القضايا الشعبية، وعرف بفليب إيجالتيه (المساواة). وقد رأيناه يتحدى الملك إلى البرلمان وينفي إلى فيليليه - كوربه. فلما عاد بعد قليل إلى باريس صمم على أن يجعل من نفسه معبود الشعب، مؤملاً أن يختار خلفاً لابن عمه لويس السادس عشر أن اعتزل أو خلع هذا الملك الذي أزعجته الخطوب، فسحا في عطائه للشعب، وأوصى بتأمين أملاك الكنيسة (57)، وفتح للجماهير حديقة البالية - رويال وبعض حجراته في قلب باريس، وكذلك له شمائل الأرسقراطي الجواد وأخلاق سلفه الوصي على العرش. وقامت مربية أبنائه مدام جنليس، همزة وصل بينه وبين ميرابو، وكوندورسيه، ولافاييت، وتاليران، ولافوازبييه، وفولني، وسييس، وديمولان. وقد بذل له زملاؤه من الماسون الأحرار التأييد الكبير (58). وقام الروائي شويرلو دلاكلو، وكان سكرتيره يدور العميل له في تنظيم المظاهرات والانتفاضات الشعبية. وفي الحدائق والمقاهي. وبيوت القمار، والمواخير القريبة من قصره كان كتاب النشرات يتبادلون الأفكار ويضعون الخط، هنا شارك آلاف الناس من جميع الطبقات في اضطرابات لساعة وانفجالاتها، وأصبح البالية - رويال، بوصفه اسماً على هذا المركب كله، قلب الثورة النابض.

صفحة رقم : 14517

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> التجربة الأخيرة للدراما

ويزعمون، وهو زعم محتمل ولكنه ليس مؤكداً، أن مال الدوق، ونشاط شويرلو دلاكلو، لعباً دوراً في تنظيم لهجوم على مصنع ريفيون في شارع سانت - أنطوان. أما ريفيون هذا فكان يترجم ثورته الخاصة: يحل محل الرسوم والنسيجات الجدارية ورقاً رقيقاً رسمه فنانون بتقنية طورها بنفسه، وينتج ما وصفه حجة إنجليزي بأنه "أجمل ما صنع على الإطلاق من ورق الحائط بغير جدال" (59). وقد استخدم مصنعه ثلاثمائة عامل، كان الحد الأدنى لأجر العامل منهم خمسة وعشرين سوياً (1.56 دولار؟) في اليوم. وفي اجتماع لجمعية الناخبين في حي سانت - مارجريت

نشبت نزاع بين ناخبي الطبقة الوسطى والعمال، وخيف أو تخفض الأجور (61). وسرى نبأ كاذب بأن ريفيون قال "أن العامل الذي له زوجة وأولاد في استطاعته أن يعيش على خمسة عشر سوأ في اليوم". وفي 27 إبريل احتشد جمع أمام منزل صاحب المصنع، فلما لم يجدوه أحرقوا دمية تمثله. وفي اليوم الثامن والعشرين، أغار الغوغاء بعد أن عززوا قوتهم وتسلموا على بيته، ونهبوه، وأشعلوا النار في أثاثه، وشربوا الخمر من مخزن خموره، واستولوا على النقود والأنية الفضية، ثم انتقل القائمون بالشغب إلى المصنع ونهبوه. وجرى الجنود لقتالهم، فدافعوا عن أنفسهم في معركة اتصفت عدة ساعات، لقي فيها اثنا عشر جندياً ونيف ومائتا مشاغب مصرعهم. وأغلق ريفيون مصنعه وشد رحاله إلى إنجلترا.

كذلك كان مزاج باريس حين وصل النواب النواب ومناوبوهم لحضور مجلس طبقات الأمة في فرساي.

صفحة رقم : 14518

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> مجلس طبقات الأمة

7- مجلس طبقات الأمة

1789

في 4 مايو تحرك النواب في موكب مهيب للاستماع إلى القديس في كنيسة القديس لويس: يتقدمهم كهنة فرساي، ويليهم ممثلو الطبقة الثالثة في ثياب سوداء، ثم نواب الأشراف في ثيابهم الواهية وقبعاتهم المزينة بالريش، ثم النواب الكنسيون، ثم الملك والملكة يحيط بهما أفراد الأسرة الملكية. وازدحم أهل المدينة في الشوارع والشرفات وأسطح المنازل، ووقفوا

صفحة رقم : 14519

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> مجلس طبقات الأمة

لممثلي العامة، وللملك ولدوق أورليان، واستقبلوا بالصفحة النبلاء، ورجال الأكليروس، والملكة، وكان كل إنسان (عدا الملكة) سعيداً ذلك اليوم، لأن الأمل الذي تطلع إليه الكثيرون قد تحقق. وبكى الكثيرون، من بين النبلاء، ولمرأى الأمة المنقسمة وقد بدت متحدة.

وفي 5 مايو اجتمع النواب في "قاعة الملاهي الصغير الضخمة، الواقعة على نحو أربعمئة ياردة من القصر الملكي. وبلغ عددهم 621 من العامة، و308 من الأكليروس، و285 من النبلاء (وفيهم عشرون من نبلاء الرداء. أما النواب الكنسيون فكان نحو ثلثيهم من أصل شعبي، وقد اختار كثيرون من هؤلاء الوقوف في صفة العامة. وكان نص النواب الطبقة الثالثة تقريباً من المحامين، وخمسة في المائة من أرباب المهن، وثلاثة عشر في المائة من رجال العمال، وثمانية في المائة يمثلون الفلاحين (63). ومن رجال الأكليروس أسقف أوتان، شارل-موريس دتاليران-بيريجو، الذي وصفه ميرابو وصفاً سبق بعبارة نابليون "الوحل في جوارب حريرية" فقال عنه "رجل خسيس، جشع، سافل، دساس، لا يشتهي غير الوحل والمال، يبيع روحه في سبيل المال، وهو إن فعل كان على حق، لأنه عندها سيأخذ الذهب بدل كومة من الروث" (64)، ولم يكن في هذا الوصف إنصاف لذكاء تاليران الطبع. وكان بين النبلاء عدة رجال دعوا إلى الإصلاحات الجوهرية: لافاييت، وكوندرسيه، ولاللي-ولندال، وفيكونت نواي، وأدواق أورليان، وايجيون، ولاروشفوكوليانكور. وقد انضم معظمهم إلى سيبس، وميرابو، وغيرهم من نواب الطبقة الثالثة في جمعية الثلاثين" التي قامت بدور الجماعة المنظمة للإجراءات اللبرالية" ومن أبرز نواب الطبقة الثالثة ميرابو، وسيبس، ومننيه، وبارناف، والفلكي جان بابي، ومكسمليان روبسبير. وكان هذا الجمع في مجموعته أبرز تجمع سياسي في التاريخ الفرنسي، وربما في التاريخ الحديث بأسره. وتطلعت النفوس الكريمة في طول أوربا وعرضها لهذا الحشد عساه أن يرفع لواء ينضوي تحته المظلومون في كل أمة.

صفحة رقم : 14520

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> مجلس طبقات الأمة

وافتتح الملك الجلسة الأولى بخطاب موجز اعترف فيه صراحة بما تعانیه حكومته من كرب مالي نسبه إلى "حرب غالية التكلفة ولكنها شريفة" وطلب "زيادة في الضرائب" وأبدى الأسف على "الرغبة المغالية في التجديد". ثم تبعه تكبير بخطاب استغرق ثلاث ساعات واعترف فيه بعجز بلغ 65.150.000 جنيه (حقيقة الأمر أنه بلغ

150.000.000) وطلب الموافقة على قرض قدره 80.000.000 جنيه. وتلمل النواب من الإحصاءات المرهقة للذهن، وكان أكثرهم يتوقع من الوزير اللبرالي أن يبسط برنامجاً للإصلاح. ثم بدأ صراع الطبقات في الغد، حين انفرد كل من طبقة النبلاء والأكليروس بقاعة منفصلة وشق جمهور الشعب الآن طريقه عنوة إلى قاعة الملاهي الصغيرة، وسرعان ما أخذ يؤثر في أصوات النواب بإعرايه القوي-المنظم عادة-عن الاستحسان أو الاعتراض. ورفضت الطبقة الثالثة أن تعترف بنفسها هيئة منفصلة، وانتظرت في تصميم أن تنضم إليها الطبقتان الأخريان ويتم التصويت بالطبقات-أي بصوت لكل طبقة-جزء من الدستور الملكي لا يمكن تغييره "ذلك أن إدماج الطبقات الثلاث في طبقة واحدة والسماح بالتصويت الفردي، في جمعية تؤلف الطبقة الثالثة الآن نصف مجموعها وفي استطاعتها دون عناء أن تكسب التأييد من صغار الأكليروس هذا كله معناه تسليم عقل فرنسا وخلقها لمجرد الكثرة العددية والإرادة البرجوازية. أما مندوبو الأكليروس المنقسمون بين محافظين وأحرار، فلم يتخذوا موقفاً من الطرفين، منتظرين أن تهديهم الأحداث إلى أفضل. ومضى شهر على هذه الحال. وكان سعر الخبز أثناء ذلك يواصل ارتفاعه برغم محاولات نكير لضبطه، وخطر العنف الجماهيري يتزايد. وتدفق فيض من النشرات، فكتب آرثر بنج في 9 يونيو يقول: "أن الحركة التجارية المتزايدة الآن في حوانيت باريس التي تتبع النشرات لا تصدق. ولقد ذهبت إلى الباليه رويال لأرى

صفحة رقم : 14521

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> مجلس طبقات الأمة

ما جد نشره ولأحصل على قائمة بكل ما نشر ووجدت أن كل ساعة تلد جديداً. فقد صدر من النشرات اليوم ثلاث عشرة، وأمس ست عشرة، وفي الأسبوع الماضي اثنتان وتسعون.. وتسع عشرة من عشرين من هذه النشرات يناصر الحرية، ويناوي الأكليروس والنبلاء عادة... ولا يصدر أي رد عليه" (65). وفي 10 يونيو أوفد نواب الطبقة الثالثة لجنة إلى النبلاء والأكليروس تكرر دعوتهم إلى اجتماع موحد، وتصرح بأنه إذا واصلت الطبقتان لاجتماع منفصلتين فإن الطبقة الثالثة ستأخذ في تشريع للأمة بدونهم. ووقع التصدع في صراع الإرادات الجماعية في 14 يونيو، حين انضم تسعة من كهنة الأبرشيات إلى نواب العامة. وفي ذلك اليوم انتخبت الطبقة الثالثة، بأي رئيساً لها، ووضعت لنفسها نظاماً للمناقشة والتشريع. وفي اليوم الخامس عشر اقترح سيبس أن يطلق النواب المجتمعون في قاعة الملاهي الصغير-الذين يمثلون ستة وتسعين في المائة من الأمة-على أنفسهم اسم "جمعية نواب الأمة الفرنسية المعترف بهم ولثابتة صحة عضويتهم. ورأى ميرابو أن العبارة فضفاضة ولا بد أن الملك سيرفضها. وبدلاً من أن يتراجع سيبس، بسط الاسم المقترح فجعله "الجمعية الوطنية"، وكذلك تمت الموافقة على الاسم الجديد بأغلبية 491 مقابل 89 صوتاً (66). وقد غير هذا الإعلان الملكية المطلقة تلقائياً إلى ملكية مقيدة، وأنهى السلطات التي امتيازاتها الطبقات العليا، وشكل من الناحية السياسية بداية الثورة. ولكن هل يقبل الملك هذا الغرض من سلطته؟ ولكي تعطفه الجمعية الوطنية للقبول قررت أن جميع الضرائب القائمة ينبغي دفعها كالسابق إلى أن تحل الجمعية، وبعدها لا تدفع ضرائب إلا ما أذنت به الجمعية؛ وأن الجمعية ستنتظر بأسرع ما تستطيع في أسباب عجز الخبز وعلاجه؛ وأنها بعد قبول دستور جديد ستتكفل بديون الدولة وتوافق على سدادها، وقد استهدف أحد هذه القرارات تهدئة القائمين بالشغب، وسعى آخر

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> مجلس طبقات الأمة

كسب تأييد حاملي السندات الحكومية، وقد وضعت كلها بمهارة لتقلل من مقاومة الملك. واستشار لويس مجلسه. فحذره نكير من أن مجلس الطبقات سينهار ما لم تدعن الطبقتان المميزتان، وأن الضرائب لن تدفع، وأن الحكومة ستصبح مفلسة لا حول لها ولا قوة. واعترض وزراء آخرون بأن التصويت الفردي سيكون معناه دكتاتورية الطبقة الثالثة وإصابة طبقة النبلاء بالعجز السياسي. وقرر لويس أن يقاوم الجمعية الوطنية لأنه شعر أن عرشه يعتمد على النبلاء والأكليروس. وقدم نكير استقالته بعد أن هزم. ولكن الملك أقنعه بالبقاء لعلمه بأن الشعب سيقاوم خطوة كهذه.

واقترضت "الجلسة الملكية" المقررة تجهيز قاعة الملاهي الصغيرة بترتيبات مادية جديدة فأرسلت الأوامر بإجراء هذه الترتيبات إلى مهرة صناع القصر دون إشعار الجمعية. فلما حاول نواب الطبقة الثالثة دخول القاعة في 20 يونيو وجدوا أبوابها مغلقة مشغولاً بالصناع. واعتقد النواب أن الملك يخطط لطردهم. فانتقلوا إلى ملعب للتنس مجاور (وصلة ملعب التنس وأقسموا يمينا صنعت التاريخ.

"حيث أن الجمعية الوطنية دعيت لوضع دستور المملكة، ولإحداث التجديد في النظام العام، ولصيانة المبادئ الصحيحة للنظام الملكي، وحيث أنه ما من شيء يقوى على منعها من مواصلة مداولاتها في أي مكان تضطر إلى الاجتماع فيه؛ وأخيراً، بما أنه حيثما اجتمع أعضاؤها فهناك تكون الجمعية الوطنية، لذلك تقرر الجمعية أن يقسم جميع أعضائها يمينا مغلظة بالألا يتقروا، وأن يعاودوا الاجتماع كلما دعت الظروف، حتى يستقر حال المملكة، ويرسى على أسس مكيفة، وأنه بعد حلف اليمين المذكورة سيصدق جميع الأعضاء، وكل منهم بمفرده، على هذا القرار الثابت بالتوقيع عليه" (67).

وقد وقع جميع النواب الحاضرين وعددهم 557 نائباً وعشرون مناباً إلا اثنين، ثم وقع في تاريخ لاحق خمسة وخمسون آخر وخمسة قساوسة. فلما

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> مجلس طبقات الأمة

أن ترمى نبأ هذه الأحداث إلى باريس احتشد جمع غاضب حول الباليه-رويال وأقسموا على الدفاع عن الجمعية لوطنية أياً كان الثمن. وفي فرساي بات من الخطر على أي شريف أو أسقف أن يظهر في الشوارع، وقد لقي عدد منهم معاملة خسنة، ولم ينج رئيس أساقفة باريس بجلده إلا حين وعد بأن ينضم إلى الجمعية. وفي 22 يونيو اجتمع النواب الذي أقسموا اليمين في كنيسة سان لوي، وهنا انضم إليهم بعض النبلاء و149 من النواب الكنسيين البالغ عددهم 308.

وفي 23 يونيو اجتمع نواب الطبقات الثلاث في قاعة الملاهي الصغيرة ليستمعوا إلى الملك وطوق الجنود القاعة. وتخلف نكير عن الحضور مع الحاشية الملكية على النحو واضح. وتكلم لويس فأوجز، ثم أناب وزيراً في قراءة قراره. وقد رفض القرار دعوى النواب الذين أعلنوا أنفسهم جمعية وطنية باعتبارها غير قانونية وباطلة. وسمح باجتماع موحد للطبقات الثلاث، وبالتصويت الفردي على المسائل التي لا تؤثر في هيكل فرنسا الطبقي، ولكن يحظر أي عمل يمس "الحقوق القديمة والدستورية... للملكية، أو الامتيازات التشريعية... للطبقتين الأوليين"، أما الأمور المتصلة بالدين أو لكنيسة فلا بد من أن يوافق عليها الأكليروس. وسمح الملك لمجلس الطبقات بحق الاعتراض على الضرائب والقروض الجديدة، ووعد بالمساواة في فرض الضرائب إذا وافقت عليها الطبقتان المميزتان، وعرض أن تلقي توصيات بالإصلاح. وينشئ مجالس إقليمية يكون التصويت فيها فردياً. ووافق على إنهاء السخرة، والأوامر الملكية المختومة، والمكوس على التجارة الداخلية، وكل آثار القنية في فرنسا. ثم ختم الجلسة بمظهر وجيز للسلطة؛ "لو أنكم تركتموني وحدي في هذه المغامرة الكبرى فسأعمل وحيداً لرفاهية شعبي... وسوف أعد نفسي دون سواي الممثل الحقيقي لهم... ولن تصبح خطة من خططكم أو إجراء من إجراءاتكم قانوناً ما لم أوافق عليه صراحة... وأني أمركم بالتفوق فوراً، وبمضي كل نائب إلى قاعة طبقته صباح غد لتستأنفوا مناقشاتكم" (68).

صفحة رقم : 14524

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> مجلس طبقات الأمة

فلما انصرف الملك رحل معظم النبلاء وقلّة من الأكليروس. وأعلن المركزيز بريزيه، كبير التشريعات، على النواب الذين بقوا أن الملك يريد الجميع أن يبرحوا القاعة. ورد ميرابو رداً مشهوراً: "سيدي... ليس لك هنا مكان ولا صوت ولا حق في الكلام... فإذا كنت قد كلفت بارغامنا على مبارحة هذه القاعة، فلا بد لك من طلب الأوامر باستعمال القوة... لأننا لن نبرح أماكننا إلا على أسنة الرماح" (69). وظهرت هذا التصريح صيحة هتف بها الجميع "هذه

إرادة الجمعية" فانسحب بريزيه. وصدرت الأوامر للجند المحليين بإخلاء القاعة، ولكن بعض النبلاء الأحرار أقنعوهم بالابتعاد أي إجراء. فلما أنبئ الملك بالموقف قال "تباً لهم، فليمكثوا إذن" (70). وفي 24 يونيو كتب ينج في يوميته: "أن الغليان في باريس لا يمكن تصوره، فقد كان عشرة آلاف شخص طوال اليوم في الباليه رويال... والاجتماعات المستمرة هناك تتصل وتبلغ من التهور. وسورة الحرية درجة لا تكاد تصده" (71). وعجزت السلطات البلدية عن حفظ النظام، لأنها لم تستطع الاعتماد على "الحرس الفرنسيين" المحليين؛ ذلك أن كثيرين من هؤلاء كان لهم أقرباء شرحوا لهم قضية الشعب، وتأخى بعض هؤلاء الجند مع الحشد المحيط بالباليه- رويال؛ وفي فوج في باريس كانت هناك جمعية سرية أقسمت ألا تطيع أوامر منوئة للجمعية الوطنية. وفي 25 يونيو اجتمع الرجال الذين انتخبوا من قبل نواب الطبقة الثالثة عن باريس، وعدد هؤلاء الرجال 407- وأحلوا أنفسهم محل الحكومة الملكية للعاصمة، فاختاروا مجلساً بلدياً جديداً، وكله تقريباً من الطبقة الوسطى، وترك لهم المجلس القديم مهمة حماية الحياة وأملك. وفي ذلك اليوم نفسه انتقل سبعة وأربعون نبيلاً يتقدمهم دون أورليان إلى قاعة الملاهي الصغرى. وبدا أن انتصار الجمعية أصبح الآن أكيداً، وأن القوة وحدها هي التي تستطيع زعزعة. وفي 26 يونيو، بالرغم معارضة نكير، أخبر الأعضاء المحافظون في الوزارة الملك أن الجنود المحليين في فرساي وباريس لا يمكن بعد الآن الركون

صفحة رقم : 14525

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> مجلس طبقات الأمة

إلى طاعتهم للأوامر، وأقنعوا بأن يرسل في طلب ستة أفواج من الأقاليم. وفي السابع والعشرين، وتحولاً إلى نصيحة نكير، أمر لويس وفود النبلاء والأكليروس بالانضمام إلى باقي النواب. ففعلوا، ولكن النبلاء أبو المشاركة في التصويت بحجة أن تفويضهم عن دوائرهم الانتخابية يمنعهم من التصويت الفردي في مجلس الطبقات. وخلال الأيام الثلاثين التالية عاد أكثرهم إلى ضياعهم. وفي أول يوليو استدعى الملك إلى باريس عشرة أفواج، معظمهم من الألمان والسويسريين. وفي الأسابيع الأولى من يوليو احتل آلاف جندي بقيادة المشال برولي فرساي، واتخذ عشرة آلاف أخر بقيادة البارون بزيفال مواقعه حول باريس، ولا سيما في الشان دمارس. واعتقدت الجمعية والشعب أن الملك يخط لتفريقهم أو تخويقهم. وبلغ الخوف من القبض ببعض النواب مبلغاً جعلهم يبيتون في قاعة لملاهي الصغرى بدلاً من العودة إلى بيوتهم ليلاً (72). في جو الإرهاب هذا عينت الجمعية لجنة لوضع مخططات لدستور جديد. وقدمت اللجنة للجمعية تقريراً تمهيدياً 9 يوليو، ومن ذلك اليوم أطلق النواب على أنفسهم اسم "الجمعية التأسيسية الوطنية". وكان الميل السائد بين الأعضاء في جانب الملكية الدستورية. وكان من رأي ميرابو المطالبة بـ "حكومة شبيهة بحكومة إنجلترا بوجه عام" تكون فيها الجمعية الهيئة التشريعية، ولكنه واصل في السنتين اللتين أفسحتا له في أجله الإلحاح على الاحتفاظ بملك لفرنسا. وأثنى على لويس السادس عشر لما أنصف به من طيبة قلب وسماحة مقصد يشوش عليهما أحياناً مشيروه قصار النظر، ثم تساءل:

"هل درس هؤلاء الرجال، في تاريخ أي شعب من الشعوب، كيف تبدأ الثورات وكيف تنفذ؟ وهل لاحظوا بأي سلسلة رهيبية من الظروف يكره أعقل الرجال على إثبات أفعال تتجاوز كثيراً حدود الاعتدال، وبأي دوافع مخيفة يقذف بشعب غاضب إلى ألوان من الشطط لو فكروا فيها بمجرد تفكير لارتعدت فرائصهم فرقا؟" (73).

صفحة رقم : 14526

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> مجلس طبقات الأمة

وخامراً الجمعية الشك في أن ميرابو ماجور من الملك أو الملكة ليدافع عن الملكية، ولكنها أساساً اتبعت نصيحته. وأحس النواب، الذين كان العنصر السائد فيهم الآن رجالاً من الطبقة الوسطى، أن جماهير الشعب أخذت تصبح عسيرة القيادة إلى حد خطر، وأن السبيل الوحيد للحيلولة دون التحلل الشامل للنظام الاجتماعي هو الإبقاء فترة على الهيكل التنفيذي الراهن للدولة.

على أنهم لم يشعروا يمثل هذا الانعطاف نحو الملكة. فقد علم أنها شاركت إيجابياً في تأييد الحزب المحافظ في مجلس الملك، وأنها تمارس سلطة سياسية تفوق كفايتها كثيراً. وكانت خلال هذه الأشهر الحرجة قد تجلّدت لتكلم ربما نال من أي قدرة أوتيتها على الحكم الهادئ المتعقل. ذلك أن ابنها البكر، ولي عهد لويس، كان شديد المعاناة من الكساح واعوجاج العمود الفقري إلى درجة أعجزته عن المشي بغير معونة (74). وفي 4 يونيو مات. ولم تعد ماري أنطوانيت التي حطمها الحزن والخوف تلك المرأة الفاتنة التي كانت تمرح طوال سني الحكم الأولى. وياتت وجنتها شاحبتين نحيلتين، وأخذ الشيب يتسلل إلى شعرها، وشاب الحزن بسماتها وهي تذكر أياماً أسعد، ثم أرق مضجعها وعيها بحشود الدهماء تلعن اسمها في باريس وتحمي الجمعية في فرساي وترهبها.

وفي 8 يوليو وافقت الجمعية إلى اقتراح لميرابو يطلب إلى الملك أن ينقل فرساي جنود الإقليميين الذين جعلوا من حدائق لنوتر معسكراً مسلحاً. ورد لويس بأنه ليس هناك أذى مقصود بالجمعية، ولكن في 11 يوليو أفصح عن سطوته بإقالته نكير وأمره بمغادرة باريس فوراً. تقول مدام دستال مستحضره ذلك الحدث "وتقاطرت باريس كلها لتزوره في الساعات الأربع والعشرين التي سمح له بها للاستعداد لرحلته... وأحال الرأي العام عاره انتصاراً" (75). ثم رحل هو وأسرتة في هدوء إلى الأراضي المنخفضة. أما الذين أيدوه في الوزارة فأقبلوا معه. وفي 12 يوليو، وفي استسلام كامل لدعاة استخدام القوة، عين لويس صديق الملكة، البارون دبروتوي، خلفاً لنكير، وعين دبرولي وزيراً للحربية. وبدأ أن الجمعية وثروتها الوليدة مقضي عليهما قضاء مبرماً.

صفحة رقم : 14527

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> مجلس طبقات الأمة

ولكن الإنقاذ جاءهما من شعب باريس.

صفحة رقم : 14528

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> إلى الباستيل

8- إلى الباستيل

كانت عوامل كثيرة تحمل الجماهير على الانتقال من الغليان إلى مرحلة العمل. فقد كان سعر الخبز قضية مثيرة لحفيظة ربات البيوت، وانتشرت الشبهة في أن بعض تجار لجملة يحبسون الغلال عن السوق طمعاً في أسعار أعلى حتى مما وصلت إليه (76). وأرسلت السلطات البلدية الجديدة الجند لحماية المخابز مخافة أن يفضي الجوع إلى النهب العشوائي. وكانت القضية التي توترق الباريسيين علمهم بأن الأفواج التي في خارج المدينة، والتي لم يتسن بعد كسب تأييدها لقضية الشعب، تهدد الجمعية والثورة. وقد بلغ غضب الجماهير وخوفهم أثر سقوط نكير المفاجئ -وهو الرجل الوحيد في الحكومة الذي كان الشعب قد وثق به- نقطة كفت عندها كلمة واحدة لتثير رداً عنيفاً. ففي 12 يوليو وثب كامي ديمولان، وكان أحد خريجي مدارس اليسوعيين ولكنه أصبح الآن محامياً متطرفاً في التاسعة والعشرين من عمره، فوق مائدة خارج "الكافية دافوا" على مقربة من الباليه-رويال وندد بإقالة نكير باعتبارها خذلاناً للشعب، وصاح "إن الألمان (الجند) في الشان دمارس سيدخلون باريس الليلة ليذبحوا سكانها!" ثم لوح بطبنجة وسيف وهنق "إلى السلاح!" (77). وللتو تبعه فريق من السامعين إلى ميدان فاندوم يحملون تماثيل نصفية لنكير والدوق أورليان، وهناك أكرههم بعض الجند على الفرار، ثم تجمع في المساء حشد في حدائق التويلري، فهاجمهم فوج من الجند الألمان، فقاوموهم بالقوارير والحجارة، فأطلق الجنود النار عليهم وجرحوا كثيرين، وبعد أن تفرقوا عادوا إلى التجمع في الأوتيل وانضم الشحاذون والمجرمون إلى القائمين بالشغب، ثم انقض الجميع على عدة بيوت ونهبوها. وفي 13 يوليو تجمع الحشد مرة أخرى، ودخلوا دير سان-لازار، واستولوا على مخزونه من الغلال وحملوه إلى السوق في لي هال، وفتح

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> إلى الباستيل

حشد آخر سجن لافورس وأطلق سراح السجناء وكان أكثرهم من المدنيين وراح أفراد الشعب يفتشون عن البنادق في كل مكان، فلما لم يجدوا منها إلا القليل، صنعوا خمسين ألف حربة(78). وخافت الطبقات الوسطى في باريس على بيوتها وممتلكاتها، فألفت مليشيا خاصة بها وسلحتها، وفي الوقت نفسه واصل الأغنياء تشجيع الجماهير الثائرة وتمويلها وتسليحها لعل هذا أن يثني الملك عن استعمال القوة مع الجمعية(79).

وفي صباح 14 يوليو الباكر أغار حشد من ثمانية آلاف رجل على الأوتيل ديزنفايد، واستولوا على 23.000 بندقية، وبعض البارود، واثنى عشرة قطعة من المدفعية. وفجأة صاح لأحدهم "إلى الباستيل". ولكن لم الباستيل بالذات؟ لا لإطلاق سراح سجنائه، الذين لم يتعدوا السبعة، فضلاً عن أنه كان بوجه عام منذ 1715 يستعمل مكاناً لحبس راق لسراة القوم. غير أن هذه القلعة الضخمة التي بلغ ارتفاعها مائة قدم وسمك أسوارها ثلاثين قدماً والتي أحاط بها خندق عرضه خمسة وسبعون قدماً ظلت أمداً طويلاً رمزاً للاستبداد. وكانت ترمز في ضمير الشعب إلى مئات السجون والزنايات الخفية، وكان بعض الكراسيات قد طالب بتدميرها. ولعل ما أثار الجمع علمهم بأن الباستيل قد صوب بعض المدافع إلى شارع وضاحية سانت-أنطوان، وهي حي يغلي بالمشاعر الثورية. وربما كان أهم من هذا كله ما قيل من أن الباستيل احتوى مخزناً ضخماً من السلاح والذخيرة، لا سيما البارود، ولم يملك الثوار منه إلا القليل. وكان في القلعة حامية قوامها اثنان وثمانون جندياً فرنسياً واثنان وثلاثون من الحرس السويسري، بقيادة المركز دلوني، وكان رجلاً لين الطبع(80). ولكن ذاع عنه بين الجماهير أنه وحش غليظ القلب(81).

وبينما كان الجمع الذي أكثره من الباعة والصناع يتجه صوب الباستيل استقبل دلوني وفداً من المجلس البلدي، طلب إليه سحب المدافع المهددة من مواقعها، وألا يتخذ أي إجراء عدائي نحو الشعب، ووعده نظير ذلك باستخدام نفوذه لثني الجمع عن مهاجمة الحصن. ووافق القائد، واستضاف الوفد لتناول طعام الغداء، وتلقت لجنة أخرى أوفدها المحاصرون

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> إلى الباستيل

أنفسهم تعهداً من دلوني بألا يطلق جنوده النار على الشعب ما لم تكن هناك محاولة الحصن عنوة. ولكن هذا لم يرض الجمع الهائج، فقد كان مصمماً إلى الاستيلاء على الذخيرة التي لا تستطيع بنادقه بدونها أن تقاوم الزحف المنتظر من جنود بيزنغال الأجانب على المدينة. على أن بيزنغال لم يكن حريصاً على الزحف إلى داخل باريس إذ خامره الظن بأن جنوده سيرفضون إطلاق النار على شعب. لذلك انتظر الأوامر من دبرولي، ولكن شيئاً منها لم يصله. وحوالي الواحدة بعد الظهر تسلق ثمانية عشر من الثوار سور بناء مجاور، ووثبوا إلى داخل الفناء الأمامي للباستيل، وأنزلوا كوبريين متحركين، فعبر المئات فوق الخندق، وأنزل كوبريان آخران، وسرعان ما امتلأ الفناء بجمع متحفز واثق من نفسه. فأمرهم دلوني بالانسحاب، فأبوا، وعليه فقد أصدره أمره لجنوده بإطلاق النار عليهم. ورد المهاجمون على النار وأشعلوا النيران في بعض الأبنية الخشبية والملاحقة للأسوار الحجرية. وحوالي الثالثة انضم أفراد من الحرس الفرنسيين المتطرفين إلى المحاصرين، وأخذوا يقصفون الحصن بخمسة من المدافع التي استولت عليها الجماهير ذلك الصباح من الأوتيل ديزنغاليد. وبعد أربع ساعات من القتال لقي ثمانية وتسعون من المهاجمين وواحد من المدافعين مصرعهم. أما دلوني فحين رأى الجمع لا يفتأ يزداد عدداً بوصول إمداد جديدة، وإذ لم تصله كلمة عده بالعون من بزيغال، ولم يكن لديه مؤونة من الطعام تثبت للحصار، فقد أمر جنده بالكف عن إطلاق النار ورفع علم أبيض. ثم عرض الاستسلام إذا سمح لجنوده بالخروج بسلاحهم آمنين، فرفض الجمع الذي هاجمه منظر قتلاه النظر في أي شيء غير التسليم دون قيد أو شرط (82). وأراد دلوني نفس الحصن فمنعه رجاله. وعليه أرسل إلى المهاجمين أسفاً الحصن مفتاح لمدخل الرئيسي. واندفع الجمع، وجردوا الجنود من سلاحهم، وقتلوا ستة منهم، وقبضوا على دلوني، وأطلقوا سراح السجناء المذهولين. وبينما كان كثير من المنتصرين يستولون على ما وصلت إليه أيديهم من سلاح وذخيرة، وقاد فريق من الجمع دلوني إلى الأوتيل دفيل توطئه لمحاكمته

صفحة رقم : 14531

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> انهيار فرنسا الإقطاعية -> الانهيار السياسي -> إلى الباستيل

فيما يبدو على جريمة القتل. وفي الطريق أوقفه المتحمسون منهم وأوقعوه أرضاً، وأوسعوه ضرباً حتى مات، ثم قطعوا رأسه، واخترقوا شوارع باريس في عرض ظافر وهم يحملون هذه الغنيمة الدامية مرفوعة عالياً فوق حربة. في عصر ذلك اليوم عاد لويس السادس عشر إلى فرساي من رحلة صيد قضى فيها نهاره، ودون في يوميته هذه الملاحظة "14 يوليو: لا شيء" فلما وصل الدوق دلاروشكوكو-لانكور قادماً من باريس أنبأه نبأ الهجوم الناجح على الباستيل. وقال الملك مندهشاً "ماذا، هذا تمرد" وأجاب الدوق "لا يا مولاي، إنها ثورة".

وفي 15 يوليو ذهب الملك إلى الجمعية في تواضع وأكدها أن الجنود الإقليميين والأجانب سيبعدون عن فرساي وباريس، وفي 16 يوليو أقال يروتوي واستدعى نكير لوزارة الثالثة وبدأ يروتوي وأرتوا ودبرولي وغيرهم من النبلاء حركة نزوح المهاجرين عن فرنسا، ودمرت لجماهير أثناء ذلك الباستيل بعد أن تسلحت بالمعاول والبارود. وفي 17 يوليو ذهب لويس إلى باريس يرافقه خمسون من الجمعية، واستقبله المجلس البلدي والشعب في الأوتيل دقيل، وثبت على قبعته شارة الثورة الحمراء البيضاء والزرقة.

صفحة رقم : 14532

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الختام

الختام

وهكذا نختم في هذين المجلدين الأخيرين مسحنا للقرن الذي مازالت صراعاته وإنجازاته فعالة اليوم في حياة البشر. لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم أفضل للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شؤون البشر الدنيوية. ولقد تتبعنا باهتمام حي محاولة تحرير الدين من الشعوذة والتعصب وعدم التسامح، وتنظيم الأخلاقية

صفحة رقم : 14533

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الختام

دون الاستعانة بالثواب والعقاب السماويين؛ ولقد علمتنا جهود الساسة والفلاسفة أن نقيم حكومة عادلة قادرة، وأن نوفق بين الديمقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك، والفن الكلاسيكي المحدث، وانتصارات الموسيقى في باخ، وهندل، وفيفالدي وفي جلوك، وهيدن، وموتسارت. ولقد شهدنا ازدهار الأدب في ألمانيا على يد شيلر وجوته، وفي إنجلترا على يد فحول الروائيين وأعظم المؤرخين، وفي إسكتلندا على يد بوزويل وبيرنز، وفي السويد بتفجر الأغنية في عهد جوستاف الثالث؛ وفي فرنسا ترددنا بين فولتير منافحاً عن العقل والذكاء وبين روسو مدافعاً بالدموع عن حقوق الوجدان. ولقد سمنا التصفيق الذي عاش عليه جاريك وكليرون، وأعجبنا بسلسلة من النساء الفاتنات في صالونات فرنسا وإنجلترا، وبملك النساء المتألق

في النمسا وروسيا. ثم راقبنا الملوك الفلاسفة.

وقد يبدو من السخف أن ننهي قصتنا في اللحظة التي أوشك الكثير جداً من الأحداث على بث الحياة ونفخ الروح في هذه الصفحات. وما كان أسعدنا لو أتيح لنا الزحف خلال ضجيج الثورة وعجيجها، ثم فحصنا ذلك التقجير البركاني للطاقة المعروف بنابليون، واستمتعنا أيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب، والعلم، والفلسفة، والموسيقى، والفن، والتكنولوجيا، والحكم. وكان يبهجنا أكثر لو عدنا إلى وطننا أمريكا، جنوبها وشمالها، وحاولنا أن ننسج قطعة النسيج المعقدة، ونسج الحياة والتاريخ الأمريكيين في صورة واحدة متماسكة متحركة. بيد أنه لا بد لنا أن نروض أنفسنا على تقبل فكرة الفناء، وأن نترك لعقول أنصر القيام بمهمة ومغامرة، هما إضافة تجارب في التأليف والتركيب إلى البحوث الأساسية التي قام بها الأخصائيون التاريخيون والعلميون.

لقد أتمنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه، ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل، فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ، وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين

صفحة رقم : 14534

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الختام

يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن، ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً، وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً، كما كان يعاش، في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة.

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم فإننا سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع.

صفحة رقم : 14535

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> مقدمة -> مقدمة الترجمة

المجلد الحادي عشر

ترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه يتناول موضوعاً حياً مع أنه تاريخي، فلا زالت أصدائه تترى، ومثل هذه الموضوعات التي لا تزال متفاعلة مؤثرة في حياة إلى كاتب عركته الأيام، وتأمل فأغرق في التأمل ليخلص بالعبر والنتائج الصحيحة، وقد بدأ ول ديورانت - وزوجته - تأليف هذا الكتاب وقد تجاوز السبعين من عمره، بعد أن لاحظ - على حد تعبيره - أن الحصادة التي تحصد الناس قد تأخرت فلم " تحصده"، وأن من غير الحكمة أن يجلس عاطلاً مكتئباً بلا عمل، فعكف مع زوجته على تأليف هذا الكتاب عن عصر نابليون، وجعل قسمه الأول عن الثورة الفرنسية، وهذا بعينه ما يضيف قيمة أخرى للكتاب ففي هذه المرحلة من العمر لا يكون المرء مثهوراً متسرعاً، وإلا فمن غير ول ديورانت يقول لنا إن المساواة المطلقة بين الناس حلم غير قابل للتحقيق، وأقصى ما يمكن أن نصل إليه هو "مساواتهم أمام القانون"؟ وهل نتوقع من ديورانت ابن السبعين إلا أن يقول إن مبدأَي الحرية والمساواة، مبداءان متناقضان بحكم الضرورة، فيمجرد إطلاق العنان للحرية، سيكون هناك " السابق " و " المتخلف " ومن يقع مغشياً عليه في أثناء السباق، ومن سيستطيع بالجهد والعرق أو بالغش والخداع أو بكل ذلك أن يصبح ثرياً، ومن ستعوزه القدرة فيكون دون ذلك، وإذا كان لا بد من التطبيق الحرفي للمساواة، فإن هذا يعنى قمع الحرية ويضرب أمثلة بالنظم الفاشستية التي قمعت الحرية ولم تستطع - مع ذلك - فرض المساواة المطلقة، لكنه مع هذا يشير إلى وقائع تاريخية تحتم ضرورة التكافل الاجتماعي وإحداث التوازن من خلال نظم ضريبية عادلة. إنه يشير إلى ملكيات دستورية، وحركات ديمقراطية، ومحاولات شيوعية، ويرى - بحق - أن الثورة الفرنسية كانت عدّة ثورات متداخلة وليست ثورة واحدة مما يطالعه القارئ في ثنايا هذا التاريخ الممتع. ومن غير ديورانت الذي نيف على السبعين وهو يكتب سطور هذا الكتاب، يقول لنا: إن كل محاولات إبعاد الدين، وإحلال " عناصر طبيعية" مكانه لضبط السلوك البشرى قد باءت - عبر التاريخ - بالفشل، فالقانون وحده لا يكفي لضبط هذا الحيوان الناطق، وإنما لا بد من يقين إيماني بوجود إله يرى كل شيء ويسمع كل شيء، ويعاقب على السيئة، ويثيب على الحسنة، وهو الأمر الذي انتهى إليه ثوار فرنسا الذين لم ينكر غالبهم وجود الله سبحانه، رغم ما يتردد في بعض الكتب من نسبة الإلحاد إليهم. ومن غير ديورانت ابن السبعين يعكف على نتائج الثورة الفرنسية بتؤدة وترو فلا ينكر جوانبها الإيجابية، ولكنه يقول: إن جزءاً كبيراً من هذه النتائج الإيجابية كان سيتحقق - بدون ثورة - من خلال التطور الطبيعي للأمر، والمسار المنضبط للتاريخ، وبذا تكون النتائج الطيبة قد تحققت بغير هذا القدر الهائل من الدماء المراقبة. وسيجد القراء والمتخصصون أن ديورانت وزوجته أضافاً جديداً إلى معلوماتنا عن الثورة الفرنسية، وصحاحاً كثيراً من الأخطاء، ونشراً كثيراً من الوثائق المهمة خاصة مراسلات نابليون لزوجته جوزفين التي أثرت كثيراً في حياته، بل وفي وقع خطواته في المعارك، حتى إن المؤلف أورد لنا خطاباً أرسله نابليون إلى أخيه نفهم منه أنه كان قد اعتزم ترك مصر والعودة إلى فرنسا حتى قبل

أن تطلب منه حكومة الإدارة العود، وقبل أن يتأزم وضع الحملة في مصر بعد هزيمة الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية على يد الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسن، لا لشيء إلا لعلمه أن جوزفين قد اتخذت في غيابه عشيقاً. وحتى تحقق الترجمة - في أي مجال - غرضها لا بد أن تركز على نقل المفاهيم إلى القارئ العربي، وليس مجرد الألفاظ مجردة من مفاهيمها، وسيجد القارئ فيما ترجم وكتب عن الثورة الفرنسية ترجمة قد تكون حرفية أو دقيقة من الناحية اللفظية، لكنها - وهذا مؤكد - تبعد القارئ العربي تماماً عن المعنى المقصود، فالترجمة ليست من لغة إلى لغة فقط ولكنها في الأساس من ثقافة إلى ثقافة. ولنبدأ بمصطلح السانس كولوت Sans Culotts الوارد في هذا الكتاب والذي يعنى حرفياً "الذين هم بغير [بناطيل] أو سراويل قصار" فالكلمة Sans تعنى (بغير) والكلمة Culotts تعنى "السروال" أو [البنطلون] القصير أي الذي يصل إلى الركبة فقط، والكلمة مستخدمة في عامية بعض البلاد العربية (الكولت والجمع كلوتات)، ومن المعروف أن المجتمع الفرنسي قبل الثورة كان ينقسم إلى طبقة النبلاء وطبقة الإكليروس، وطبقة عامة الشعب أي الذي ليسوا نبلاء وليسوا إكليروس (رجال دين)، فلما قامت الثورة حقت شرائح من الطبقة الثالثة بعض طموحاتها خاصة طبقة البورجوازية العليا (رجال البنوك والوسطاء والتجار والصناع والمديرون والمحامون والأطباء والعلماء والمدرسون والحرفيون والصحفيون) أما طبقة عامة الشعب (وهم مثل البورجوازية ليسوا نبلاء ولا إكليروس) فكانت تشمل الفلاحين وعمال النقل البري والبحري وبعض الحرفيين، ثم أصبحت تعنى خليطاً غير متناسق فيما يقول ديورانت: الجزارين والطباخين والبانعين الجوالين والحلاقين وأصحاب المحلات والعاملين في الفنادق وتجار الخمور وصانعيها والنجارين والبنائين، والحذائين، والخياطين..... الخ.

وكان هؤلاء يلبسون سراويل طويلة تصل إلى كعوب أقدامهم لأنهم عرضة لقسوة المناخ أكثر من غيرهم، ولطبيعة أعمالهم، وهم بلباسهم هذا يختلفون عن النبلاء الذين يرتدون السراويل القصيرة والجوارب العالية. فعندما يقال: الذين لا يرتدون السراويل القصيرة فهذا لا يعني أكثر من أنهم ليسوا نبلاء، الكلمة لا تعنى أكثر ولا أقل من ذلك، فإذا ترجمنا الكلمة (سانس كولوت) بقولنا (اللامتسولون) أو الذين لا يرتدون سراويل) كما ترجمتها المعاجم المتداولة (إنجليزي - عربي)، فليس على القارئ العربي جناح إن هو تصور هذه الشريحة من طبقة الشعب، تهتف صارخة في شوارع باريس، وأيديها تلوح مهددة، بينما تتأرجح أعضاؤها الأخرى مشاركة في الانفعال، ظاهرة لا تغطيها سراويل! وليس الأمر كذلك، ولدينا في التراث العربي الحديث أمثلة، فالمصريون كانوا حتى مطلع الخمسينات يقولون هذا مطربش (أي من لا يسي الطرابيش) وهذا ليس مطربشا، وهذا لا يعني أنه لا يغطي رأسه بالضرورة وإنما المعنى أنه ليس (أفندي) أو ليس متعلماً أو أنه جاهل، وفي العامية أيضاً نصف فلاناً بأنه (حافي) وهذا يعني أنه همل رقيق الحال، ولا يعني بالضرورة أن الرجل بغير خف أو نعال، وفي ثقافات أخرى كانوا يقولون حتى وقت غير بعيد: هذا لا يليق به "بشت" أو أنه يرتدي "بشتاً" فأفسح له الطريق، وليس المعنى أن من لا يلبس بشتاً عارياً بالضرورة. وترجم بعض المترجمين الكلمة (سانس كولوت) بما هو أسوأ إذ وصفهم بأنهم (العراة) كما في النص التالي:

"ولفت بعض المؤرخين، حديثاً، الانتباه إلى ثورة أكثر تقدماً وأكثر أصالة، قادها المسعورون Les enrages وهم فرقة متطرفة أكثر إلى اليسار من العراة Sans culottes ومن اليعاقبة، كانت تحلم باعادة صنع شاملة للنظام الاجتماعي، وبالغاء كل تفاوت. وتقع حركة بابوف، وان كانت مختلفة، ضمن نفس الامتداد" (1)(ü). وهذا بطبيعة الحال خطأ صراح رغم أنها الترجمة اللفظية - وليس الحضارية - الدقيقة. وطائفة أخرى اكتفت بكتابة الكلمة كما هي لكن بحروف عربية أي (السانس كولوت) فماذا يفهم العربي؟ لا بد إذن من مقابل عربي لهذه الكلمة (الذين يرتدون السراويل الطويلة) مع عبارة شارحة توضح وضعهم الطبقي. 0 عبارة أخرى تردت في ثنايا هذا الكتاب، وفي الكتب الأخرى التي تعرضت للثورة الفرنسية وهي Hotel de la ville والعبارة تعنى دار البلدية أو دار المجلس البلدي.

حقيقة إن من بين معاني "أوتل Hotel" (فندق)، لكن لها معاني أخرى، والأهم من ذلك أن هناك لغة اصطلاحية اصطلح عليها أصحاب كل لغة. نقرأ في بعض الترجمات العربية على سبيل المثال مثل هذا: "تشكلت في باريس سلطة مدينة جديدة في فندق "دي فيل". وكانت تتألف من الناخبين الثانويين الذين التقوا في الأصل لانتخاب ممثلي باريس بالطبقة الثالثة من مجلس الطبقات. وكان العمدة الجديد هو "بيلي" الذي أشرف على قسم ملعب التنس. وفي اليوم التالي لسقوط "الباستيل" تم الاعتراف بالمليشيا البرجوازية كحرس قومي،..... الخ" (2). وهكذا وجدنا الثورة الفرنسية تجرى أحداثها في فنادق، خاصة أن كلمة (أوتيل Hotel) وجدت في سياقات أخرى مختلفة، وبهذا أحضر نابليون المدافع من فندق، واجتمعت سلطة باريس في فندق، وهذا طبعاً غير صحيح. والحقيقة أن اللغة الإنجليزية قد دخلتها ألفاظ فرنسية كثيرة منذ القرن الحادي عشر للميلاد، وزادت هذه الألفاظ بشكل ملحوظ بعد الثورة الفرنسية. سنجد في المعاجم الإنجليزية Corvee بمعنى السخرة، و Coup d'etat بمعنى انقلاب،

وسنجد في القصر الملكي صالة للمسرات البريئة Hotel des Menu Plaisirs ، وفي المعاجم الإنجليزية كذلك سانس كولوت Sans Colotts ، وكلمة emigrés أي الذين هاجروا من فرنسا بعد أحداث الثورة الفرنسية، وغير ذلك كثير .

\ أما الكلمتان المضللتان اللتان نود التوقف أمامهما كثيرا فهما كلمة heresy وترجمتها الحرفية هرطقة وكلمة atheist وترجمتها الحرفية ملحد . فمن المفهوم أن شخصا ما عندما يصف آخر بالكفر فإنه يعنى أنه غير مؤمن بما يؤمن به هو . وهكذا فالبوذي بالنسبة للزرادشتي كافر أو ملحد، والزرادشتي بالنسبة للبوذي كافر أو ملحد، والهندوسي بالنسبة للمانوي كافر أو ملحد، والعكس بالعكس، وهكذا يتحدث كل شخص من خندقه أو من منطلقه أو من خلفيته الثقافية هو، وعلى ذلك فعندما أقرأ في كتاب أوروبي أن جماعة ما أو شخصا ما من الملحدون أو من الهرطقة فإن هذا يتطلب مني أن أعرف خلفية المؤلف الدينية والثقافية ولا أكتفي بنقل الكلمة حرفيا، وانتهى الأمر . فمن هم الهرطقة الذين نقرأ عنهم في التاريخ الأوربي؟ إنهم الذين أنكروا التثليث، وقالوا إن الله واحد أحد One Sole وليس ثالث ثلاثة، فاعتبرتهم المذاهب المسيحية الأخرى كلها هرطقة، بينما اعتبروا هم أنفسهم من المسيحيين الحقيقيين، وجرى العرف في كتب التاريخ الأوربي كلها على أنهم "هرطقة"، وأن مذهبهم هو الهرطقة herecy بعينها، وترجم المترجمون العرب هذه الكلمة على علاقتها . فهل هذا بالنسبة لي أنا كمسلم صحيح؟ أم يقول إن الله واحد مسيحي مهرطق ومن يقول إن الله ثالث ثلاثة مسيحي صحيح المسيحية؟ الترجمة ليست نقلا من حرف إلى حرف أو من كلمة إلى كلمة أو حتى من لغة إلى لغة، وإنما هي نقل من ثقافة إلى ثقافة، وإلا أدى الأمر إلى أن يفهم القارئ العربي عكس المطلوب . المهم أن هؤلاء المناهضين للتثليث تعرضوا لأذى شديد فتشتتوا ودخلوا في المذاهب المسيحية الأخرى، وظلوا محتفظين بعقيدتهم سرا، وظل وجودهم مستمرا منذ القرن السادس عشر، وها نحن نقابلهم مرة أخرى في أثناء الثورة الفرنسية، فوصفهم مسيحيون آخرون بأنهم هرطقة، ووصفت الثورة الفرنسية بأنها ثورة هرطقة، وليس الأمر كذلك، ولجدة هذه الأفكار ربما حتى بالنسبة لبعض المثقفين، نورد فيما يلي المبحث التالي الذي نشرته إحدى الدوريات المتخصصة:

<... اتهم الكاثوليك لوثر ورفاقه بالخروج على المسيحية واتهم البروتستنت الكاثوليك بأنهم ليسوا على المسيحية الصحيحة، ولكن الطرفين - الكاثوليك والبروتستنت - تعاونوا معا في إحراق جماعة أخرى واضطهادها، هي الجماعة المناهضة للتثليث . وهي تشكل حركة بكل معاني الكلمة في التاريخ الأوربي، وتشير لها مراجع التاريخ الأوربي العام، وتاريخ الأديان التي كتبها أوروبيون تحت عنوان شامل، هو الهرطقة والهرطقة . وتشير الكتب العربية التي تناولت التاريخ الأوربي إلى هذه الحركة بالتسمية نفسها التي تسميها بها المراجع الأوروبية، وهذا خطأ واضح . وقد اعتمد في هذا البحث على وثائق منشورة ومصادر أصلية . ولعل هذا البحث يكون فاتحة لبحوث أخرى عن هذه الحركة المجهولة، مكتوبة من وجهة نظر عربية إسلامية .

المعروف أن القرن السادس عشر في أوروبا قد شهد حركة شهيرة عرفت بحركة الإصلاح الديني، نتج عنها مذهب جديد، عرف بالمذهب البروتستنتي، منشقا عن كنيسة روما الكاثوليكية . وكان الكاثوليك وكنيستهم يسمون هؤلاء المعترضين البروتستنت هرطقة أو مبتدعين . وقد شغل هذا الصراع بين البروتستنت والكاثوليك مساحة كبيرة في كتب التاريخ الأوربي، وهو جدير بهذه المساحة وأكثر . فقد شارك هذا الصراع في صياغة خريطة أوروبا المعاصرة . فالصراع بين الكاثوليك والبروتستنت كان أحد أسس ثورة الأراضي المنخفضة التي نتج عنها قيام كيانين: هولندا فيلجيا . وهذا الصراع نفسه هو الذي أصل وعمق استقلال سويسرا، مما أدى إلى اعتراف مجتمع الدول الأوروبية بها في النهاية كدولة مستقلة سنة 1648م في صلح وستاليا . وهذا الصراع نفسه هو الذي صاغ تاريخ إنجلترا (بريطانيا فيما بعد)، فلا أحد إذن يقلل من أهمية حركة الإصلاح الديني التي تزعمها لوثر أولا وتلاه زونجلي فكلفن . تلك العصبية التي أطلق عليها الكاثوليك اسم الهرطقة أو المبتدعين .

وهذه الحركة الإصلاحية التي تزعمها لوثر، فزونجلي وكلفن بعده اختلطت فيها العوامل الاقتصادية والسياسية الاجتماعية والدينية، فقد أركاها رغبة الأمراء الألمان في الاستيلاء على أملاك الكنيسة الكاثوليكية في مقاطعاتهم . كما أركاها رغبة الإمبراطور في عدم تدخل البابا في شؤونه . كما أن رغبة الملك الإنجليزي هنري الثامن في طلاق زوجته، كانت أحد العوامل في تبنيه منهاج إصلاحيا وخروجه على البابا، لكن الباحثين في التاريخ الأوربي يغفلون أو يشيرون على استحياء إلى حركة إصلاحية دينية من نوع آخر زامت وواكبت حركة مارتن لوثر، تلك هي حركة الموحدين Unitarians أو المناهضين للتثليث . ولقد حظي هؤلاء الموحدون باتهامات من الكاثوليك والبروتستنت معا . وحركة الموحدين الأوربيين تلك حركة دينية خالصة، وإصلاح ديني خالص لم تختلط فيها الأطماع السياسية والاقتصادية والاجتماعية . بدليل أن هذه الحركة اتخذت شكل المناظرات والمناقشات الفكرية في الغالب الأعم، ولم يلجأ القائمون عليها إلى عقد محالقات مع أمراء أوروبا، أو لم ينجحوا في ذلك . كما أنهم اتخذوا إنشاء المدارس والكلليات طريقا لبيت دعوتهم كما سيتضح من ثنايا هذا البحث . كما أن عددا كبيرا من المنخرطين في سلك هذه الدعوة

كانوا من العلماء الأفاضل في مختلف المجالات. وتلك الحركة هي موضوع هذا البحث الذي أرجو أن يكون بداية تعقبها بحوث أخرى.

إرازم والبداية

كانت بداية إثارة الأفكار المناهضة للتثليث في التاريخ الأوروبي الحديث على يد أحد رواد الحركة الإنسانية في القرن السادس عشر، ونعني به إرازم Erasmus. لقد أقدم إرازم على الرجوع إلى نسخ عديدة من الإنجيل باللغة اليونانية ولم يكتف بالرجوع إلى الترجمات اللاتينية المتاحة. وشرع يترجم من اليونانية مباشرة إلى اللاتينية. وقرر إرازم أنه وجد في النص الإنجيلي الشائع على أيامه كثيرا من الأخطاء الواضحة. والأهم من هذا أنه عندما أصدر الإنجيل الذي ترجمه، والإنجيل اليوناني الذي حققه من نسخ عديدة سنة 1516م أسقط منه العبارات المتعلقة بالتثليث أو على حد تعبير " دائرة معارف الدين والأخلاق "

كانت بداية إثارة الأفكار المناهضة للتثليث في التاريخ الأوروبي الحديث على يد أحد رواد الحركة الإنسانية في القرن السادس عشر، ونعني به إرازم Erasmus. لقد أقدم إرازم على الرجوع إلى نسخ عديدة من الإنجيل باللغة اليونانية ولم يكتف بالرجوع إلى الترجمات اللاتينية المتاحة. وشرع يترجم من اليونانية مباشرة إلى اللاتينية. وقرر إرازم أنه وجد في النص الإنجيلي الشائع على أيامه كثيرا من الأخطاء الواضحة. والأهم من هذا أنه عندما أصدر الإنجيل الذي ترجمه، والإنجيل اليوناني الذي حققه من نسخ عديدة سنة 1516م أسقط منه العبارات المتعلقة بالتثليث أو على حد تعبير " دائرة معارف الدين والأخلاق "

Encyclopedia of Religion and Ethic " His omission of the famous Trinitarian verse" ولم يكن من الممكن للرأي العام المسيحي وقتها أن يعتبر هذا خطأ غير مقصود أو سهوا أو خلا طبايعا، خاصة وأن من جملة الأفكار الأساسية التي كان يرددها الإنسانيون ومن بينهم إرازم في ذلك الوقت أنه ينبغي أن ينفذ العالم المسيحي كل ما يظن أنه دخيل على المسيحية. وأنه من الضروري الرجوع للأصول الأولى قدر الممكن. كما كان من الآراء التي يرددها إرازم أن الإنجيل (العهد الجديد) الشائع على أيامه زاحر بالأخطاء اللغوية والأخطاء في المعاني الناتجة عن عدم فهم فيلولوجية اللغتين اليونانية واللاتينية. ورغم أن إرازم قد خاطب البابا ليو العاشر بشأن التناقض في الترجمة الإنجيلية المعتمدة عند الكنيسة الكاثوليكية Vulagate's discrepancies بركة وأدب شديدين، إلا أن هذا لم يقلل من خطورة ما أقدم عليه بنشر نص يوناني للإنجيل يختلف في بعض معانيه مع النص اللاتيني المعتمد. ورغم أن إرازم لم يهاجم عقيدة التثليث، إلا أن نشره لنص إنجيلي خال من الإشارة إليها جعل الأعمال التي راحت تتكرر فكرة التثليث بشكل مباشر تتوالى تباعا، حتى اتخذت شكل حركة بكل معاني الكلمة، تفاعلت بها أوروبا كلها، حتى أنها في تأثيرها الديني لم تكن تقل خطرا وأهمية عن حركة مارتن لوثر ورفاقه وإن كانت آثارها السياسية أقل قيمة.

لقد كتب مارتن سيلاريوس (Martin Cellarius 1499-1564) الذي كان تلميذا ليوحنا رخلن Reuchlin، وكان أيضا تابعا وصديقا لمارتن لوثر، مهاجما فكرة التثليث. وفي 1527م أيد آراءه هذه بكتاب نشره في ستراسبورج Strasbourg أسماه De Operibus Dei.

ظهور سيرفيتوس وإحراقه

على أن المفكر الأكثر أهمية وشهرة ووضوحا في هذه الحركة المناهضة للتثليث هو سيرفيتوس (1151 - 3551) Servetus الذي أصدر كتابه الشهير " خرافة التثليث " De Trinitatis Erroribus سنة 1531م. وعلى إثر ذلك "بدأ هياج ولغط كبير بين المعلمين ورجال الدين والمحامين وعلماء الطبيعة والرياضيات ورجال العلم والأدب... لقد أصيب الجميع بحالة عدم توازن فكري were all astire. لقد رحلوا من مكان إلى مكان بحثا عن الحقيقة وانخرطوا في مناقشات صاخبة. وذهبت أفكارهم كل مذهب. ففي نابلي Naples كان الشاب الإسباني يوحنا فالديز John Voldes قد كون جماعة دينية ضم إليها النبيلات لدراسة الكتاب المقدس وإعادة النظر فيه. وظلت الجمعية قائمة حتى وفاته سنة 1541م". وفي 1539م وجد ميلانشتون Melanchthon أنه من الضروري أن يحذر من انتشار أفكار سيرفيتوس على نطاق واسع في شمال إيطاليا. ثم ظهر برنارد أوشينو Bernard Ochino (1487-1565) الذي عبر سويسرا واتجه إلى لندن، وكان يحارب فكرة التثليث بكل قواه. وفي 1539م تم إحراق كاترين فوجيل Catherine Vogel وكانت زوجة جواهرى، وكانت في الثمانين من عمرها وذلك لاعتقادها كما جاء في قرار الاتهام "بوجود إله واحد لا شريك له، خالق كل شيء، ما نراه وما لا نراه ولا يمكن للعقل البشري أن يحيط به".

ولما كان سيرفيتوس Miguel Servetus أكثر أفراد الحركة المناهضة للتثليث صخباً في هذه الفترة وكان له من النقل العلمي ما يجعله جديراً بالاهتمام، لذلك لا بد أن نتوقف لاستعراض ظروفه وأهم أفكاره خاصة وأن كتب تاريخ الهرطقة قد أفردت له فصولاً مستقلة. ورغم أن مؤلف كتاب "حق الهرطقة" يصفه بأنه شخص لم يكن على قدر فائق من الذكاء وأنه كان مضطرب الشخصية سييء التنظيم، إلا أنه يعود فيقول عنه إنه كان ذا عقل قوي. وبزعم مؤلف كتاب "حق الهرطقة" أن سيرفيتوس لم يتفوق في علم من العلوم مع أنه درسها جميعاً. فقد درس الفلسفة والطب واللاهوت؛ إلا أن المؤلف يعود فيقول إن له ملاحظات واكتشافات طبية رائدة.

لقد كان سيرفيتوس يعتقد أن لوثر وكلفن وزونجلي لم يكونوا حاسمين بما في الكفاية فيما يتعلّق بعقيدة التثليث the dogma of the trinity كما أنهم لم يطهروا الإنجيل cleansing على حد قوله من هذه الفكرة الخاطئة. بل لقد أعلن سيرفيتوس أن مجمع نيقية Council of Nicaea قد قرر عقيدة التثليث على نحو خاطيء وقد أكد سيرفيتوس إنكاره لفكرة التثليث في عدة كتب أصدرها تباعاً، وترجمت للإنجليزية حاملة العناوين التالية:

(- Seven Books on the Errors of the Trinity (1531).

(- Two Dialogues on the Trinity (1532).

(- The Restoration of Christianity (1535).

لقد تملك الأفكار المناهضة للتثليث عقل سيرفيتوس وقلبه فلم يكتف بدعوة الناس العاديين لها، وإنما راح ببراءة يزور كل رجال الدين ليقدّم لهم برأيه. كما راح يزور كل علماء عصره لهذا الغرض. ففي ستراسبورج Strasbourg زار كلا من رجال الدين المشهورين: مارتن بوسر Bucer وكابيتو Capito الخ، وفي بازل Basle زار أوكلامباديوس Oecolampadius ليحثه على إصدار بيان أو كتاب عن تهافت عقيدة التثليث وخطئها وأنها مفحمة على المسيحية الحقّة. وكان رد فعل رجال الدين المسيحي من الكاثوليك والبروتستانت على السواء عنيفاً ضد سيرفيتوس ووصفوه جميعاً بأنه (مبعوث الشيطان) ويذكر تسايغج Zweig مؤلف كتاب الهرطقة أن أوكلامباديوس Oecolampadius قد طرد سيرفيتوس على نحو ما "يطرد كلب أجرب" وقد قرر أوكلامباديوس بأن سيرفيتوس ما هو إلا "يهودي أو تركي (ii)". وهو كافر يجذف على الله. وحذر ونجلي أتباعه من أفكار سيرفيتوس ذكراً أن أتباعه سيخسرون عقيدتهم المسيحية. أما بوسر Bucer فقد أعلن أن سيرفيتوس هو "ظل الشيطان" ولما يش سيرفيتوس من إفتناع الخاصة من رجال الدين توجه بدعوته إلى الجماهير فأصدر كتابه الذي سبق أن أشير إليه وهو "خرافة التثليث" بعد أن أنفق كل ما يملك لطبعه. وأعلن سيرفيتوس بوضوح أن الكاثوليكية والبروتستانتية كلاهما هراء. وظن سيرفيتوس أنه سيد خيراً عند كالفن فراح يرسله مراسلات ضافية زاخرة بالمسائل اللاهوتية. ولكن كالفن حقد عليه حقداً شديداً، لا لأسباب دينية فحسب وإنما لأسباب شخصية أيضاً. فلم يكن سيرفيتوس يخاطبه على أنه زعيم ديني كبير. كما أنه وجه نقداً لكتابات كالفن واصفاً إياها بأنها كموضوعات الإنشاء التي يكتبها الصبية. وفي آخر خطاب من سيرفيتوس لكالفن ذكر له ما نصه: "أنا شيطان؟ أنا أقترح ألا تكون بيننا مكاتبات بعد الآن. أعد إلي مخطوطاتي وكل مالي طرفك. ولكن إذا كنت تعتقد بصدق أن البابا ليس مسيحياً حقيقياً، فيجب أن تعرف أيضاً أن التثليث وتعميد الأطفال هراء... إنها عقائد فاسدة".

ورغم أن سيرفيتوس ظل هادناً بعد ذلك لبضع سنوات إلا أن حقد كالفن عليه لم ينته وراح يدبر لاستدراجه لجنيف ذاكراً أنه لو دخلها فلن يخرج منها حياً. وراسل كالفن البروتستانت بعض الكاثوليك في فرنسا حيث كان يقيم سيرفيتوس مذكراً إياهم بهرطقته، وتأمّر رجال الدين في ليون مع رجال الدين البروتستانت في جنيف على هذا "الطبيب المجدف" على حد تعبيرهم. وقد تم سجن سيرفيتوس في فرنسا، ولكنه فر من سجنه متوجهاً إلى جنيف وكأنه يسعى إلى حتفه بنفسه. ودخلها في 13 أغسطس 1553م. وتوجه إلى كاتدرائية سانت بيير St. Pierre فأصدر كالفن أمره بالقبض عليه. وسجن سيرفيتوس ولاقى في سجنه كل أنواع العنت، ويبدو أن آراء سيرفيتوس كانت قد بدأت تنتشر مما أفرغ كالفن لدرجة أنه كان في حاجة إلى مراسلات يرسلها في كل اتجاه ليحصل على دمج لآراء سيرفيتوس قبل إحقاقه. وفي 26 أكتوبر 1553م قرر مجلس مدينة جنيف بالإجماع وبترخيص من كالفن إحراق سيرفيتوس حياً. وتقدم بعض أصدقائه منه وهو على المحرقة طالبا منه العدول عن آرائه في رفض التثليث، ولكنه أبى. وهكذا تناقض البروتستانت مع أنفسهم. ووقعت الحركة الإصلاحية في الأخطاء نفسها التي وقع فيها أعداؤهم الكاثوليك. لقد كان الإصلاحيون البروتستانت ينظرون للمسألة الدينية من وجهة نظر أساسية وهي أن العلاقة بين الإنسان وربّه يجب أن تكون حرة ومباشرة إذ يجب أن يكون الإنسان حراً ومسؤولاً ومسؤولية مباشرة أمام ربّه وحده ودون وساطة من بشر. "إلا أنهم بإحراقهم الجماعات المناهضة للتثليث يكونون قد تدخلوا بين الإنسان وربّه". ورغم أن الحركة الإصلاحية البروتستانتية كانت تعيب على الكنيسة الكاثوليكية عدم تسامحها وإجبارها الناس على معتقدات لا يريدونها واتخاذها أساليب العنف والإحراق ضد مخالفيها، إلا أن البروتستانت أنفسهم كما رأينا سرعان ما اتخذوا الأساليب نفسها التي كانوا يمجونها من قبل. خاصة ضد الموحدين أو المناهضين للتثليث.

وقد لاحظ بعض الباحثين في مقارنة الأديان أن " نظرة الإسلام السني تشبه على نحو ما نظرة أتباع الحركة المناهضة للتثليث Unitarianism ورغم أن سيرفيتوس كان واحداً من كثيرين قالوا بعدم التثليث إذ أن القائلين بهذه الأفكار كانوا يشكلون حركة - إلا أن شهرته واحترافه المراجع به ترجع إلى أن الرجل لم يكن نكرة في عالم الدين والعلم. فهو عالم وطبيب ولاهوتي من أصل إسباني ودارس متعمق للقانون. لقد كان قمة من قمم العلم في القرن السادس عشر. ولا يخلو كتاب من كتب تاريخ العلوم من الإشارة إليه، فقد ترجم كتاب الجغرافيا لبطليموس Ptolemy's Geography وهو أحد المكتشفين الكبار لتركيب الدم وحركة الدم في الرئة the pulmonary circuiation of the blood كما كان عالماً في مجال التشريح ووظائف الأعضاء، ورغم إحراق سيرفيتوس فإن أفكاره لم تمت. فسرعان ما دافع عن أفكاره صديقه عالم النبات ليونارد فوكس Leonard Fucks ولعل كون سيرفيتوس من أصل إسباني، بالإضافة لاتهام أعدائه له بأنه تركي أو متأثر بالترك، لا يجعلنا نستبعد تأثيرات إسلامية على تفكيره كما لا نستبعد بالقدر نفسه أن تكون أفكاره هذه مستقاة من أصول إنجيلية صحيحة، خاصة وأن وجهة النظر الإسلامية تشير من خلال القرآن الكريم إلى أن المسيحية في بدايتها كانت من أديان التوحيد الخالص. والواقع أنه عندما أحرق أهل جنيف سيرفيتوس أحرقوا معه كل طبعات كتبه فيما عدا نسخاً قليلة وتكفلت محاكم التفتيش بإحراق النسخ التي كان بعض الناس يحتفظون بها لأنفسهم، لهذا وجدنا المراجع تختلف اختلافاً شديداً فيما ذهب إليه سيرفيتوس. ففي حين نجد بعض الباحثين يذكرون أن سيرفيتوس لم يجعل المسيح (عليه السلام) إلهاً، وأنه قد وضعه في مرتبة أقل مما يضعه سائر المسيحيين، نجد مراجع أخرى تذكر غير ذلك. إذ نجد أن مور Moore يذكر أن سيرفيتوس كان يعتقد أن المسيح نفسه هو الله، ثم يعود الكاتب نفسه فيورد نصاً لاتينياً يستخلص منه أن سيرفيتوس قد وضع المسيح (عليه السلام) في مرتبة أقل، ويذكر باحث آخر أن سيرفيتوس كان باختصار ينكر قدسية المسيح. ولسنا نجد تفسيراً للموقف الذين قالوا إن سيرفيتوس ذكر أن المسيح نفسه هو الله، إلا أنهم بعد إحراق الرجل أرادوا أن يخففوا التهمة الموجه إليه، على اعتبار أن إنكار ألوهية المسيح، هو أقصى درجات الكفر بالنسبة للمجتمع المسيحي، سواء كان كاثوليكياً أم بروتستانتياً. ولما كان سيرفيتوس أحد علماء عصره، ومخافة أن يتأثر بأفكاره الدينية قوم آخرون، لذا جرى تشويه هذه الآراء. وتلك مسألة معروفة في التاريخ الكنسي خاصة، وتاريخ الفكر عامة، ولا نعدم شبيهاً لهذا في تاريخ الفكر الإسلامي إذ كثيراً ما شوه أعداء الإسلام أفكار بعض مفكريه بعد مماتهم. على كل حال، لقد كان ميلانشتون، مساعد مارتن لوثر الأيمن، قد كتب إلى كالفن ذاكرة أن سيرفيتوس يستحق كل عقاب، وأنه - أي ميلانشتون - يوافق على أي عقاب ينزل به. والواقع أن كالفن لم يكن يطبق المختلفين معه في الرأي، فقد أجبر على سبيل المثال لاهوتياً آخر على مغادرة جنيف وهو كاستيليو Sebastian Castellio فتركها له سنة 1544م. ومهما يكن من أمر فقد رفضت الكنائس الأوروبية اعتبار المناهضين للتثليث مسيحيين بينما اعتبروا هم أنفسهم المسيحيين الحقيقيين، ورأى عدد كبير من المسيحيين وهو عدد ليس بالقليل أن المسيح مجرد شخص مميز ورفضت الكنائس الأوروبية الرسمية ذلك.

تبلور حركة المناهضة بالتسامح الديني نتيجة اضطهاد المناهضين للتثليث. يجمع الباحثون في تاريخ الأديان من الأوروبيين أن الاضطهاد الذي لاقاه المناهضون للتثليث من قبل الكاثوليك والبروتستانت على السواء هو الذي بلور المناهضة بالتسامح الديني toleration ففي سنة 1551م أعلن كاستيليو Sebastian Castellio أنه لا ينبغي أن ترتكب الجرائم لفرض عقيدة ما فيجب أن تكون حرية الاعتقاد مكفولة. لقد اهتز الضمير الأوروبي نتيجة إحراق سيرفيتوس، وإحراق مسيحيين آخرين لا يدخلون تحت حصر بتهمة الهرطقة التي كانت تعني في المقام الأول إنكار التثليث. فرغم كلمات لوثر التي تنص على أنه " لا يجب استخدام العنف ضد الهرطقة وإنما علينا أن نهديهم بكلمات الله، فالهرطقة مسألة معنوية روحية لا يمكن أن نغسلها بنار الأرض ومائها". ورغم هذه الكلمات فقد تم إحراق ما لا يقل عن عشرة آلاف مسيحي في قرن واحد تحت شعار العقيدة الحقبة. رغم أن لوثر نفسه كان قد اتهم بالهرطقة. ورغم هذا فإن البروتستانت لم يأخذوا العبرة من ذلك فشاركوا في إحراق كثيرين من بينهم نساء بل وأسراً كاملة حيث كان يساق للحرق كل من الزوج والزوجة والأبناء وأبدي بعض المحرقين تمسكاً وشجاعة فقد ذهبت امرأة للمحرقة كأنما هي "ذاهبة لعرسها" وأحضروا زوجة رجل وأولاده بالقرب منه قبيل احتراقه ليعود عن معتقده فرفض حتى ولو جعلوا له "ملء الأرض ذهباً" على حد قوله. وصرخ رجل وهو يحترق قائلاً، "لقد أخفيتم حقيقة الانجيل فترة طويلة" وقد أورد براندت تفاصيل مذهلة عن حفلات النار هذه استغرقت من كتابه ذي القطع الكبير حوالي 40 صفحة، وكان يدخل ضمن الهرطقة الذين أحرقوا أولئك الذين يعارضون "سلطة البابا والمناهضون لتعميد الأطفال".

ومن أقطاب الحركة المناهضة للتتليث برنارد أوشينو Bernard Ochino الذي حارب عقيدة التتليث بكل قواه على أساس أنه لم يجد لها سنداً في الأصول الإنجيلية. ومن الأمور التي قال إنه لم يجد لها في الأصول الإنجيلية سنداً مسألة تحريم تعدد الزوجات. إذ قال إنه مباح وإن العبارات الإنجيلية التي فهم خطأ منها المنع، يجب أن تحمل على سبيل المجاز وأن من فهم أن تعدد الزوجات ممنوع لا يفهم اللغتين اليونانية واللاتينية. ولقد اعتمد أوشينو في تفسيراته تلك على ترجمة كازيليو Casellio الإيطالية للإنجيل والتي رفضها كالفن. وبطبيعة الحال فقد حارب كل من الكاثوليك والبروتستنت آراء أوشينو عن تعدد الزوجات كما حاربوا إنكاره لفكرة التتليث.

ولم يكن برنارد أوشينو شخصاً عادياً بعيداً عن علوم الدين المسيحي وإنما كان من أكثر رجال الدين شهرة في عصره مشهوداً له "بطاقته الروحية وبركاته" على حد قول مؤلف كتاب "الإصلاح الكاثوليكي" بير جانيل. وقد ترقى في السلك الكنسي إلى رتبة كاردينال سنة 1538م ولكنه سرعان ما فتن بالبروتستنتية فاعتنقها وظل فترة حائراً "بين العقيدة الصحيحة والهرطقة"، وكان له اتصالات بالحركة الإصلاحية الدينية في إنجلترا. أما دافيد جوريس (David Joris 1501-1556) فقد ذكر في كتابة الموسوم باسم Wonder Book والصادر سنة 1542م أنه لا يوجد إلا "إله واحد أحد sole لا يرى. وأنه لمن الحمق أن نتصوره في ثلاثة أشخاص أو ثلاثة ذوات أو نتصوره على هيئة ثلاثية".

لقد هاجر آلاف من معتقي فكرة الإله الواحد من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا هروبا بعقيدتهم إلى إنجلترا خلال حكم هنري الثامن وكونوا كنائس أسموها كنائس الغرباء. وبهذه الهجرة دخلت الحركة في مرحلة أخرى إذ بدأت أفكارهم تتفاعل في شمال أوروبا وزاد من قوة الحركة دخول قسس معترف بهم من عامة المسيحيين فيها. ففي 28 ديسمبر 1548م طلع علينا القس الإنجليزي جون اشيتون John Assheton بقوله: "إن الروح القدس ليس هو الله وإنما هو قوة أرسلها الله وإن عيسى المسيح الذي تلقته مريم العذراء هو نبي مرسل مبارك. ولكنه أبداً لا يمكن أن يكون الإله الحي".

ولكن حظ المناهضين للتتليث في إنجلترا لم يكن أفضل من حظهم في سواها، ففي إبريل 1548م عينت لجنة لبحث أمور الهرطقة، وقد مثل كثيرون من التجار وأصحاب الحرف أمام هذه الهيئة في شهر مايو من العام نفسه. وكانت التهمة الموجهة إليهم هي أنهم يقولون "لا تتليث وأن المسيح نبي وليس إلهاً البتة. وأن كل ما قدمه لنا المسيح هو أنه علمنا الطريق إلى السماء"، وقد نفذت فيهم أحكام قضائية تصل إلى السجن مدى الحياة.

الحركة السوسينية

ثم تمركز المناهضون للتتليث في بولندا خاصة منذ عام 1579م حيث كان لاستقرار سوسينوس Faustus Socinus الذي تحلق حوله الأتباع وعرف تفكيرهم في أوروبا بالتفكير السوسيني. وهو يعود في الأصل إلى أسرة إيطالية هي أسرة Sozini. وقد ذكر سوسيني في كتبه التي نشرها أن المسيح لا يمكن أن يكون إلهاً على الحقيقة. وقد حوربت السوسينية بصرامة وتم إغلاق كليتهم التي افتتحوها في بولندا وأجبرهم الكاثوليك على الرحيل فنتشتوا. وفي إنجلترا كان يحرم من الكنيسة كل من يعتقد هذه الأفكار كما صدر قرار بمنع جلب الكتب التي تحمل هذه الأفكار أو طبعتها أو نشرها. هذا هو الموقف الرسمي من هذه الحركة في كل أنحاء أوروبا طوال القرن السادس عشر وفي مطلع القرن السابع عشر للميلاد. وقد حاول سوسينوس التوفيق بين الفرق المتنازعة داخل الحركة المناهضة للتتليث. وأهم أعمال سوسينوس والتي توضح فكره، كتابه The Racovian Cateckism الذي نشر سنة 1605م. وكانت راکو Rakow في بولندا هي مركز الحركة التي انتشرت انتشاراً كبيراً، وأسس أصحابها مدرسة لهم ضمت في وقت من الأوقات ألف طالب، كما أسس مطبعة وأنشأوا مجمعا كنسياً يحضره السوسينيون في بولندا وترنسلفانيا يعقد سنوياً. وفي القرن السابع عشر كان للحركة أتباع في ألمانيا نفسها، وكانت جامعة ألتدروف Altdrof University مركزاً لنشاطهم العلمي. ولكن منذ 1632م نشط الكاثوليك في بولندا وأصبح لهم اليد العليا، خاصة بعد أن تولى الحكم الملك جون كازيمير John Casimir سنة 1648م، وهو كاثوليكي يسوعي وكان كاردينالاً في الوقت نفسه فأجهز على السوسينيين وألغى مؤسساتهم، فهربوا إلى الأراضي المنخفضة وبروسيا. وفي سنة 1648م صدر تشريع

برلماني في إنجلترا باعتبار أفكار السوسيين جريمة كبرى. ولم يعتبر مؤرخو الكنيسة الإنجليزية كنائس الحركات المناهضة للتثليث ضمن الكنائس الإنجليزية ولا حتى الكنائس المنفصلة عن الكنيسة الإنجليزية. أي أنهم لم يعتبروهم مسيحيين على الإطلاق.

ويرجع بعض الباحثين أصول هذه الحركة للنهضة في إيطاليا ممثلة في إحياء التراث والعودة إلى المصادر والمنابع الأولى. ويوجز واحد من الباحثين في تاريخ الأديان الخطوط العامة لتفكير السوسيين فيقول: إنهم يعتقدون أن المسيح (عليه السلام) إنسان مميز وغير عادي أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وهو نبي قدم لنا المعاني الحقيقية للتشريع والحياة الموعودة، وهم يؤمنون بمبدأ حرية الإرادة البشرية.

ورغم انحسار المد السوسيني نتيجة التشريعات المناهضة لهم، وحل مؤسساتهم إلا أن بعض الباحثين يذكر أنهم كانوا يعتقدون اجتماعات على نحو سري، والتحق عدد منهم بالكنائس الكالفينية وراحوا يبتون عقائدهم سرا وبحذر شديد.

ورغم قمع هذه الحركة فقد ظلت الكنيسة الكاثوليكية الأوروبية تخشى من انتشار أفكارها. لذلك بدأ بالنص على فكرة التثليث بعد ذلك في أسماء التجمعات الكنسية وركز الجهود الكنسية نشاطها بين المسيحيين التابعين للدولة العثمانية. وظل هذا واضحا حتى القرن الثامن عشر، بل والقرن التاسع عشر. ففي سنة 1807م تم إنشاء كاتدرائية الثالوث الأقدس Holy Trinity Cathedral وكان فوننتو Battista Fonto Giovanni يتخذ من اسطنبول مقرا دائما ويعمل بحرية شبيهة كاملة بين كاثوليك الدولة العثمانية.

ورغم كل هذه الاحتياطات التي اتخذتها كنائس أوروبا ضد الأفكار السوسينية، فإنها لم تندثر، فقد اعتنق المفكرون الإنجليز: جون بدل (1616-1662م) وجون لوك (1632-1704م) وبرستلي (1733-1804م) وبلشام (1750-1829م) أفكارا لا تبعد كثيرا عن أفكار السوسينية.

وإذا كانت حركة الإصلاح الديني التي قادها مارتن لوثر ورفاقه في القرن السادس عشر، كانت فيما يرى لامبرت امتدادا لما كان يسمى بحركات الهرطقة في العصور الوسطى فهل يمكننا القول إن الحركة المناهضة للتثليث ستتحض عن حركة إصلاح جديدة في المسيحية؟ هذا ما ستبديه الأيام.

لقد كان القرن السادس عشر هو قرن تفجر الصراعات الدينية في أوروبا، لذا كان من الطبيعي أن تظهر الحركة المناهضة للتثليث بمثل هذه القوة في هذا القرن بالذات، رغم وجود جذور لها في المسيحية. فالإسلام يقدم المسيحية من خلال القرآن الكريم على أنها ديانة توحيد، وأن ما اعترأها من فساد كان نتيجة الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله لبيتغوا به ثمنا قليلا. كما شهد تاريخ المسيحية الباكر خلافات مذهبية حادة حول طبيعة المسيح عليه السلام، لا تزال أصدائها حتى اليوم، ولعل أشهر هذه الخلافات الأولى تلك التي كانت بين أريوس وأثناسيوس، لكننا بصدد بحث تاريخي في المقام الأول كما أن تفاصيل ما حدث في القرون الأولى للمسيحية تخرج عن نطاق هذا البحث.

فإذا ما عدنا للتحليل الاجتماعي للبيئة الأوروبية لمعرفة مبررات ظهور هذه الحركة المناهضة للتثليث، بمثل هذا التجلي والوضوح في هذا القرن بالذات، فإننا نجد عدة عوامل قد تقدم لنا بعض التفسير لذلك:

أولاً: أن النهضة الأوروبية كانت - في كثير من جوانبها - مراجعة للأفكار التي كانت مألوفة وسائدة في مختلف مجالات الحياة، فقد تأكد الأوروبيون على سبيل المثال من كروية الأرض بعد تمام رحلة ماجلان 1522م، وكانت هذه الفكرة تحاربها الكنيسة الكاثوليكية، وثبت أن الأرض هي التي تدور حول نفسها فينشأ عن دورانها الليل والنهار، وما هكذا كانت تقول الكنيسة. كل هذا ومثله كثير جعل الأوروبيين يعيدون التفكير في أمور كانت تبدو في وقت من الأوقات في حكم المسلمات. ولم يكن الإنجيل استثناء من هذه القاعدة، فقد وجدنا إرازم كما أشرنا في هذا البحث يعود للنسخ الإنجيلية القديمة غير مكتف بالنسخة التي اعتمدها الكنيسة، ووجدنا ترجمات جديدة للإنجيل كثر عددها وفهم منها مارتن لوثر على سبيل المثال في مرحلة من مراحل تفكيره تحريم الربا، وفهم منها أوشينو جواز تعدد الزوجات. فلم يكن بدعا إذن أن يظهر من يفهموا منها خرافة التثليث. وقد أفاضت الكتب الأجنبية والعربية التي تناولت تاريخ أوروبا الحديث منذ عصر النهضة في الحديث عن التحرر الفكري وانتشار مبدأ أفكار لأعتقد، وليس العكس بمعنى أعتقد لأفكر، وظهر حركة إحياء العلوم وتطور الروح الفردية وما إلى ذلك. كل هذا وغيره هيا ومهد لظهور حركات إصلاحية دينية. وإذا كان الأوروبيون ينظرون لحركة لوثر كحركة إصلاح ديني، وإلى الحركة المناهضة للتثليث كحركة دينية يصفونها بالكفر والهرطقة ويضعونها في مكان أقل أهمية من الناحية الدينية فمن السخرية أن ننظر نحن المسلمون لهذه الحركة نظرهم نفسها إليها.

ثانياً: أنه منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر، والقارة الأوروبية كلها عرضة لتأثيرات إسلامية واضحة، في مختلف المجالات لم تحظ بدراسة كافية، فقد وجدنا لورد أكتون يقرر بوضوح أن التاريخ الأوروبي الحديث يبدأ تحت مطارق العثمانيين. وقد أظهرت الوثائق الأوروبية التي راجع الكثير منها بعض الباحثين الأوروبيين أن كثيراً من المناطق الأوروبية كانت تستجد بالعثمانيين إذ كان يطلب أهلها بأنفسهم الفتح العثماني تخلصاً من حكم مسيحيين

يخالفونهم في المذهب، أو مسيحيين يسومونهم سوء العذاب، فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن أهل كريت توسلوا إلى العثمانيين لفتح ديارهم، كما يؤكد ذلك الباحث الغربي كولز. كما نظر أهل المورة للعثمانيين كمخلصين، بعد أن سُموا سيطرة البنادقة الكاثوليك. وقد كان وصول العثمانيين لساحل دلماشيا واستقرارهم فيه منذ القرن الخامس عشر، حدثاً جليلاً أثر على سائر أنحاء أوروبا.

وكانت أوروبا كلها منذ منتصف القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السابع عشر، وربما بعد ذلك تتابع الصراع بين المسلمين والكاثوليك، في البحر المتوسط خاصة، مع اختلاف وجهات نظرهم إزاء هذا الصراع بطبيعة الحال. فبينما كان عدد من البروتستنت (بعد ظهور البروتستنتية) يرى في إسبانيا الكاثوليكية حامية للمسيحية بمذاهبها المختلفة، أو على الأقل لا يتمنى هزيمتها أمام العثمانيين، ومجاهدي البحر المتوسط. كان هناك عدد آخر من البروتستنت يرى في الصراع بين المسلمين والكاثوليك الإسبان، صراعاً بين شيطانين، ويتمنى أن يذهب كلاهما - المسلمون والكاثوليك - إلى حيث لا عودة. وفي وقت من الأوقات كان البروتستنت يجدون في مناطق أوروبا الشرقية الخاضعة للعثمانيين ملجأً وملاذاً لهم هرباً من الاضطهاد الديني.

فإذا ما تركنا شرق أوروبا وانتقلنا إلى غربها، وجدنا حقائق أخرى مذهلة، أثبتتها الوثائق التي كشف عنها الباحثون الغربيون، وهي أن الشعب الإسباني كان معارضاً لإخراج المسلمين بعد سقوط غرناطة، وأن أصحاب الأراضي والأعمال ظلوا متمسكين بالعمال المسلمين لديهم، حتى مطلع القرن السابع عشر، وأن طرد المسلمين كان عملاً كنسياً خالصاً، وأن الشعب الإسباني كان متعاطفاً فقط مع إخراج اليهود لاشتغالهم بالربا وامتصاصهم دماء الشعب الإسباني. ويهمننا في هذا الصدد أن عدد كبيراً من المسلمين الإسبان قد خرجوا عبر البرانس إلى الأراضي الفرنسية ولاقوا في سفرهم هذا نصيباً، وقد تركزوا في سواحل فرنسا الجنوبية حيث رحلوا بعد ذلك إلى الشمال الإفريقي، وانضم عدد كبير منهم إلى حركة مجاهدي البحر المتوسط.

أبقي بعد هذا شك في أن أوروبا في مطلع العصور الحديثة لا بد أن تكون تأثرت بالفكر الإسلامي، أو على الأقل اطلعت عليه، بشكل أكثر وضوحاً؟ فقد غدا الإسلام بالنسبة لأوروبا بعد سقوط القسطنطينية وتمركز المسلمين في شرق أوروبا، أقرب إليها من حبل الوريد، كما أن طبيعة العصر أتاحت لأكثر عدد ممكن من الباحثين والمتقنين، بل والناس العاديين، معرفة أمور عن الإسلام، ما كانت لتتاح لهم معرفتها قبل ذلك. كل هذا يجعلنا لا نستبعد وجود تأثيرات إسلامية على الحركات الإصلاحية الدينية الأوروبية عامة، والحركة الأوروبية المناهضة للتثليث خاصة. بقي القول إن أحد الباحثين العرب المتخصصين في تاريخ أوروبا الحديث قد أشار إلى وجوب أن يكتب التاريخ الأوروبي الحديث من وجهة نظر إسلامية عربية تماماً كما يكتب الأوروبيون تاريخنا الإسلامي من وجهة نظرهم. فمن غير المنطقي أن نسمي بالهرطقة ما يسمونه هرطقة ففي هذا تبعية، وبعد عن الأصالة. ولو أخذنا بهذا المنطق، لباركنا حركة الاستعمار لأنهم يباركونها، ولأسمينا المسلمين الأوروبيين كفرّة. لأنهم يسمونهم كذلك، فهذا البحث رغم تواضعه دعوة للأصالة في كتابة التاريخ" (1).

ü ü ü

وفولتير، الذي وصفه لويس السادس عشر بأنه زعيم الهرطقة، ونسبت إليه الثورة الفرنسية لفرط تأثرها به، كان يؤمن بوجود الله سبحانه، لكنه لم يكن مقتنعاً بالكنيسة.

<...وحين اقتنع باني لست ادري ما أنا، ولا استطيع أن اعرف من خالقي، اجد جهلي يضلني، واسلي نفسي اذ أفكر، دون انقطاع، بأنه لا يهمني أن اعرف ما اذا كان خالقي موجوداً في المتسع ام لا، اذا انا لم افعل شيئاً يناقض الوجدان الذي منحني اياه. واذا سئلت: من بين جميع الانظمة الالهية التي اخترعها الانسان، ايها سأعتق؟ اجبت: لن اعتق اياً منها، بل سأعبد الله...> (2)(ü)

الأنة لا يؤمن بالتثليث أسميه مهرطقاً! إنه مهرطق من وجهة نظر كاتب لا يؤمن بافكاره، فما دخلي أنا؟ ولم أجعل القارئ العربي يفهم أن الرجل لا يؤمن بالله؟.

والعالم لا بأس عندما ألف بحثاً عن نظام الكون سأله نابليون: من فعل كل هذا؟ وهو سؤال يعني أنه لا بد من فاعل، فالكلمة *atheist* وإن كانت تعني الملحد حرفياً أي غير المؤمن بوجود إله إلا أنها في عبارة شارحة في كل جملة ترد فيها. وفي هذه العجالة نورد نبذة عن أثر الإسلام في العقيدة المسيحية الأوروبية:

<...ثم إن انتشار روح عصر التنوير في أوروبا راح يطرد شبح الأحكام السلبيّة، المسبقة والجذرية المرتكزة على كليشيات الدفاعات الدينية المبتورة والباطرة. فقد أصبح الدين الإسلامي بالنسبة للفلاسفة عمل مشروع فطن. ويمكن للإسلام أن يقارن نفسه بالمسيحية دون أي عقدة نقص. على العكس. فهو يتميز على المسيحية بأنه يلجأ أقل منها إلى عالم الأسرار والعجيب الخلاب. كما ويتميز بأنه يعترف بالعقائد الأخرى ومشروعيتها. ولكنه على الرغم من كل ذلك مطبوع بطابع التعصب كبقية الأديان. وفولتير، بعد أن جعل من مؤسس الإسلام المثال النموذجي على الرجل الدنيوي الذي استغل بساطة معاصرة (انظر مأساة، محمد (1741)، راح يقارن بين تسامح المسلمين وتعصب

المسيحيين. (انظر كتابه مقالة في الأخلاق 1756) وهو بذلك يضرب أكبر مثل على الغموض والازدواجية فيما يخص الموقف من الإسلام. وبعد صدور كتاب مونتسكيو "روح القوانين" (1748) صورت الدولة التركية على أساس أنها تُجسّد نموذج الاستبداد بالذات. وأما فيما يخص رجال الممارسة والانخراط فإنهم لا يهتمون بالطبع كثيراً بعملية الفهم بقدر ما يهتمون بمعرفة المصادر المادية ونقاط القوة والضعف لهذه البلاد. فهي لا تبدو مواضيع للمعرفة بقدر ما تبدو مصدراً محتملاً للفائدة والقوة. ثم تبدو كأرض للمغامرة. وهنا نلتقي بذلك الجزء من الحلم الذي طالما هيمن على روح بونابرت شاباً... (1)

وتشير بعض المراجع التي كتبها فرنسيون إلى هجرة إسلامية إلى جنوب فرنسا بعد سقوط غرناطة، وأن هؤلاء المسلمين "تقية" منهم اعتنقوا المسيحية، لكن ها نحن نرى جيرونديين في الثورة الفرنسية يسعون إلى إغلاق نوادي القمار ويسعون لتحريم الميسر، وأصدرت الثورة بالفعل مرسوماً بذلك، لكنه سرعان ما أصبح حبراً على ورق. وعن هذه الهجرة الإسلامية الباكورة إلى فرنسا نقراً:

"...وكانت الهجرة الرابعة التي نحن بصدد الحديث عنها على شكل موجة جماعية هامة العدد نتجت عن طرد العرب المسلمين والإسبان المسلمين من إسبانيا. يبدو أن هؤلاء كانوا قد تحولوا إلى المسيحية منذ قرنين خشية العذاب والتكيل والقمع، ولكنهم استمروا على دينهم الإسلامي بسرية اعتماداً على مبدأ التقية.

علم ملك إسبانيا، فيليب الثالث، أن هؤلاء يمارسون الدين الإسلامي بسرية، وأنهم يحتفلون بالأعياد الإسلامية. وفي العاشر من كانون الثاني 1610، أصدر مرسوماً ملكياً يمنحهم مهلة 30 يوماً، ثم خفضها إلى 20، لمغادرة إسبانيا. هاجر خمسة ألف منهم إلى بلاد المغرب العربي، وشغلوا بصورة فورية مناصب هامة، ذلك لأنهم شكلوا، بسبب ثقافتهم ومعرفتهم تياراً جديداً في البرجوازية المحلية. وتوجه مئة وخمسون ألفاً نحو الشمال، إلى فرنسا. عاد ثلاثون ألفاً منهم، فقط، إلى بلاد المغرب العربي أو إيطاليا عن طريق البحر، وكان هؤلاء من الأغنياء الذين يملكون نفقات السفر. أما الباقون، مئة وعشرين ألفاً، فقد استقروا في الجنوب الفرنسي. توجد الكثير من المخطوطات التي تتحدث عن هذه الحلقة من التاريخ الإسلامي، الفرنسي. كتب الماركيز فوسل إلى ملك فرنسا: "يعلم جلالتم أن جميع لاجئي إسبانيا المسلمين قد عبروا الحدود، يصل عددهم إلى مئة وثلاثة وثلاثين ألفاً". وفي مذكرة أرسلها الماركيز فيزيو إلى الملك، نستطيع أن نقراً: "اليوم، 28 كانون الأول 1610، وصلتني رسالة من الماركيز دوسان جيرمان الذي يبحث عن وسائل لنقل عدد المسلمين الأندلسيين الذين يتمنون اللجوء إلى فرنسا". وفوراً، أصدر الملك أوامره باستقبال هؤلاء القادمين، كلاجئين وليس كغزاة، استقبلاً حسناً... (1) ويلاحظ القارئ أن الثورة الفرنسية كانت حريصة على أن يكون لها ثلاثة شعارات (حرية وإخاء ومساواة) وكان ذلك لإحلالها محل الأقانيم المسيحية الثلاثة (آب وابن روح قدس) وكانت حريصة على التخلص من التقويم المرتبط بميلاد المسيح عليه السلام، فابتدعت تقويماً جديداً، كما كانت حريصة على إقامة مهرجانات لتوقير الكائن الأسمى أو الموجد الأعلى Supreme being، وبعض الثوار مزقوا الأناجيل. وتحدثوا عن "خرافات" العهدين القديم والجديد، وبالغ بعضهم في ذلك، وفي وقت من الأوقات شكلت لجان لضبط السلوك، وجرت محاولة لإغلاق بيوت الدعارة... لقد كانت لجاناً شبيهة بلجان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنها لم تستمر فقد كانت هناك قوى أخرى ذات بأس أشد. نخلص من هذا إلى أن الثورة الفرنسية كانت في جانب من جوانبها استمرار الحركة الإصلاح الديني التي انطلقت في أوروبا منذ القرن السادس عشر، وأن عداوة الثوار للكنيسة كانت أكثر بكثير من عداوتهم للملكية، وقد عادت الملكية بالفعل، وطالب بها كثيرون، لكن الكنيسة لم تعد أبداً لسابق هيمنتها، ولم تسترد أبداً أموالها وأوقافها. وركز الباحثون العرب على معاداة الثوار للملكية، لكنهم أغفلوا الشق الثاني والأهم وهو امتعاضها من الإنكليروس أو رجال الدين المسيحي، وبسبب هذا التركيز لم تحظ الثورة الفرنسية بالدراسة المتأنية الشاملة الحصيفة في عالمنا العربي، لأسباب لا تخفى، وهذا الكتاب يسد هذه الثغرة. وإذا كان مما زاد من أهمية الكتاب أن مؤلفه قد كتبه وهو في السبعينيات من عمره، فعملٌ مما يزيد من أهمية هذه الترجمة أن المترجم قد أنجزها وهو في الخامسة والخمسين من عمره، وأظنه سنا يسمح بالبحث عن المعاني وعدم الاكتفاء بظاهر الحرف أو الكلمة.

بقي الحديث عن مصطلح آخر أسىء نقله إلى العربية أيضاً، ذلك أن الفرنسيين في هذه الفترة كانوا يطلقون لفظ philosophes أو الفلاسفة تجاوزاً، على طائفة من الخطباء والمثقفين والأدباء ليسوا بالضرورة "فلاسفة" بالمعنى الضيق للكلمة philosophes، ومن هنا فترجمة المصطلح philosophes في هذه الفترة بالذات لا يعني أكثر مما نعنيه بقولنا "مفكرين" أو "مثقفين"... الخ.

وقد نبه إلى هذا بعض من كتب عن الفلسفة الفرنسية، وهاك قبسٌ ممن نبهوا على ذلك:

<< ينبغي أن يقال في مبدأ الأمر أنه لا الفلسفة تتفصل عن ضروب النشاط الإنساني الأخرى، ولا فرنسا تتفصل عن غيرها من الأمم. والواقع أن القرن الثامن عشر الفرنسي حين أطلق اسم الفلاسفة على رجال كانوا في حقيقة الأمر

أدباء أكثر منهم فلاسفة، فإنه جعلنا نشعر - عن حق تماما - بأن الفلسفة ليست مجالا مقصورا على أشخاص محترفين. وعلى هذا ينبغي أن يحسب أي تاريخ للفلسفة الفرنسية حسابا لأدباء عظام من أمثال مونتاني وروسو. وتاريخ الفلسفة الفرنسية لا يفصل - بخاصة - عن تاريخ العلم، فديكارت - مثلا - لا يمكن أن يفهم دون الرجوع إلى العلم في عصره، وإلى جاليليو، كما لا يمكن أن يفهم فولتير دون نيوتن، أو بوترو Boutroux دون هنري بوانكاريه (Henri Poincare..). <

ü ü ü

ومن الطبيعي أن نخصص عدة فقرات في هذه المقدمة للحديث عن المؤلفين: إنهما ول ديورانت Will Durant وزوجته أرييل Ariel Durant. ولد ول في نورث آدمز North Adams في ولاية ماساشوستس Massachusetts بالولايات المتحدة الأمريكية في 5 نوفمبر سنة 1885 وتلقى تعليمه في المدارس الأبرشية الكاثوليكية هناك، ثم في كيرني Kearny فينيويورك، ثم التحق بكلية القديس بطرس (بيتر Peter) وهي كلية جزويتية (ومعناها أنصار يسوع أو اليسوعيون) في مدينة جيرسي Jersey بولاية نيوجيرسي ثم التحق بجامعة كولومبيا. وكان يعمل في أثناء الصيف مراسلا مبتدئا لصحيفة نيويورك New York Journal لكن هذا العمل لم يكن متمشيا مع طبيعته فالتحق بكلية سيتون هول Seton Hall في سوث أورانج South Orange في ولاية نيوجيرسي مدرسا للاتينية والفرنسية والإنجليزية والهندسة المستوية في الفترة من 1907 إلى 1911. وفي سنة 1909 التحق بالمعهد اللاهوتي في سيتون هول لكنه انسحب منه في سنة 1911. وفي الفترة من 1911 إلى 1913 عمل مدرسا في إحدى مدارس الفرير الحديثة. وفي سنة 1912 قام بجولة في أنحاء أوروبا على نفقة صديقه ألدن فريمان Alden Freeman فلما عاد إلى مدرسة الفرير الأنف ذكرها أحب إحدى تلميذاته فتزوجها في سنة 1913، وهي من موليد روسيا في 10 مايو سنة 1898. درس ول أيضا علم الأحياء (البيولوجيا) في جامعة كولومبيا كما درس الفلسفة وفي سنة 1917 حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة وعين في جامعة كولومبيا فدرس فيها الفلسفة لمدة عام واحد. وفي سنة 1914 كان قد بدأ في إلقاء سلسلة من المحاضرات في التاريخ والأدب والفلسفة مرتين في الأسبوع طوال ثلاثة عشر عاما، وذلك في الكنيسة البروتستانتية المسيحية في نيويورك. وقد شكلت هذه المحاضرات نواة كتبه الأخيرة ومنها كتابنا هذا.

وفي سنة 1926 صدر كتابه "قصة الفلسفة" فلاقى نجاحا لم يكن يتوقعه، فخصص هو وزوجته أرييل ما بين ثماني ساعات وأربع عشرة ساعة يوميا لتأليف كتاب "قصة الحضارة" وهو الكتاب الذي يمثل الحادي عشر الذي بين أيدينا. ولم يكتب المؤلفان بالاعتماد على المراجع والكتب وإنما هياها نفسيهما بزيارة أوروبا والتجول فيها سنة 1927، وقاما بجولة حول العالم في سنة 1930 لدراسة مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان، وقاما بجولة أخرى حول العالم في سنة 1932 زارا خلالها اليابان ومنتشوريا وسبيرييا وروسيا وبولندا، وكانت هذه الزيارات العلمية بالإضافة إلى المصادر المكتوبة هي أساس كتاب (تراثنا الشرقي Our Oriental heritage) الصادر سنة 1935 كمجلد أول لكتاب قصة الحضارة الذي بين أيدينا. وقاما بزيارات أخرى لأوروبا تمهيدا لإصدار (حياة اليونانيين The Life of Greece) في سنة 1939، و (قيصر والمسيح Caesar & Christ) في سنة 1944. وفي سنة 1948 قضيا سنة أشهر في تركيا والعراق وإيران ومصر وأوربا لتجهيز مادة حية لكتاب (عصر الإيمان The Age of Faith) الذي صدر سنة 1950 ثم زارا إيطاليا تمهيدا لإصدار كتاب (عصر النهضة The Renaissance) في سنة 1953، ثم كتاب (عصر الإصلاح الديني The Reformation) في سنة 1957. وعند تأليف كتاب (عصر العقل The Age of Reason) وجد ول أنه من العدل أن يكتب اسم زوجته معه على صفحة العنوان، وهكذا استمر اسمها إلى جوار اسمه في كتاب (عصر لويس الرابع عشر The Age of Louis XIV) الصادر في سنة 1963 و (عصر فولتير The Age of Voltaire) الصادر في سنة 1965 وكتاب (روسو والثورة Rousseau & revolution) و (عصر نابليون) وهو الكتاب الذي بين أيدينا، والذي صدر في سنة 1975. وماتت أرييل في 25 أكتوبر سنة 1981 وهي في الثالثة والثمانين من عمرها ولم يعيش بعدها ول كثيرا فقد مات بعد موتها بثلاثة عشر يوما في 7 نوفمبر وقد بلغ من العمر ستا وتسعين عاما. وكان قد نشر كتابا عن قصة حياتهما في 1977.

بقي القول إنني استعنت بطائفة من القواميس للتحقق من بعض المصطلحات من اللغات الأوروبية الأخرى غير الانجليزية، فرجعت إلى معجم Hamlyn Italian dictionary إيطالي - إنجليزي، وإنجليزي - إيطالي، للتحقق من كلمة أو كلمتين ومعجم يوسف رضا "الكامل الوسيط" فرنسي عربي لمطابقة المصطلح الفرنسي الذي دخل الإنجليزية رغم وروده في المعجم الإنجليزية، وإلى بعض كتب القانون للتحقق من الفهم القانوني لبعض المصطلحات التي لم ترد في القواميس، وقد نقلت عن هذه الكتب ما يراه القارئ مدرجا في الحواشي، وأفادني معجم الفاروقي كثيرا في مجال المصطلح القانوني والسياسي، أما ما ورد من مصطلحات علمية قليلة فقد اعتمدت فيها المقابل العربي كما ورد في معجم الخطيب للمصطلحات العلمية.

وأخيراً فإنني أشكر المجمع الثقافي (بأبوظبي) وأمينه العام الأستاذ محمد السويدي، لحسن اختيارهم هذا المرجع الناضج المهم، لإكمال هذه الموسوعة التي سبقني إلى ترجمة أجزائها السابقة إخوة أفاضل.
والله من وراء القصد.
د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ

صفحة رقم : 14536

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> مقدمة -> توطئة

إلى ابنتنا إثل

To Ethel

توطئة

ورد في الموسوعة البريطانية (16/10) أن "ما كتب عن نابليون حتى منتصف القرن العشرين زاد على مائة ألف مجلد" فلم إذن نضيف إلى هذا الكم الهائل كتاباً آخر؟ ولا نجد سبباً نقدمه خيراً من القول بأن الموت reaper قد تحاشانا، فصرنا بعد سنة 1968 نعيش حياة سلبية، ونقرأ قراءات غير موجهة فاعترانا القلق من هذا الفراغ التافه الذي لم نعتد عليه. ولكي نجعل لأيامنا هدفاً ونخضعها لبرنامج قررنا أن نعكف على عصر نابليون (1789-1815) بمنهجنا الأثير الذي ندرس به التاريخ بشكل متكامل - فرحناً ننسج في سياق واحد الجوانب المهمة كلها في الحضارة الأوروبية في هذه السنوات السبع والعشرين: الحكم والحرب والاقتصاد والأخلاق والعادات والدين والعلم والطب والفلسفة والأدب والدراما والموسيقا والفن، لتظهر جميعاً كعناصر في صورة واحدة حية، وكأجزاء متفاعلة في كل واحد متكامل متحد. سنرى رئيس الوزراء وليم بت William Pitt يأمر بالقبض على المؤلف توم بين Tom paine وسنعرف عن الكيميائي لافوازيه Lavoisier وعن شارلوت كورادي Charlotte Corday وهي تعطي المفصلة، وعن الأدميرال نيلسون Nelson وهو يتخذ لادي هاميلتون Lady Hamilton خلية له، وسنعلم كيف تتبأ جونه Goethe بأحداث قرن بعد معركة فالمي Valmey، وحماس ورسورث Wordsworth للثورة الفرنسية، وحماس بايرون Byron لليونانيين، وسنرى كيف راح شيلي Shelly يعلم التعاليم المخالفة للكاثوليكية (النص: الإلحاد (ü)) لأساقفة أكسفورد. ومدرسي الكليات الإكليريكية، وسنطالع عن نابليون وهو يحارب الملوك ويسجن البابا، ويضايق الأطباء والفلاسفة ويصحب خمسين عالماً وباحثاً ليغزو مصر أو يستكشفها ويستلهمها فاقداً الهداء بيتهوفن للإيرويك(Eroica) (ü) من أجل الإمبراطورية. لقد راح يتحدث في الدراما مع تالما Talma وفي الرسم مع ديفيد

وفي النحت مع كالوفا وفي التاريخ مع ويلاند Wieland وفي الأدب والفكر مع جوته وخاض الحروب طوال خمسة عشر عاما مع مدام ستيل Stael تلك المرأة التي يمكن الوصول إليها بسهولة لكنها لا تقهر (ii). لقد أيقظتنا هذه الرؤية من الكسل والخمول اللذين اعتريانا وقد تجاوزت السبعين لنعود بتهور إلى دراساتنا التي نتخذها هوية ولنصور هذا العصر المثير الحافل بالأحداث ونتناوله ككل حي. أسوف نعتزف بذلك؟ - لقد تعلمنا منذ مرحلة المراهقة رأيا حكيما بعيد النظر وهو أن نابليون ليس مجرد مثير حرب طاغية لكنه أيضا فيلسوف قلما يخدعه التظاهر، وسيكولوجي لم يتوقف عن دراسة الطبيعة البشرية، سواء طبيعة الأفراد أم طبيعة الجموع. وكان أحدنا من الجسارة بمكان بحيث ألقى عشر محاضرات عن نابليون في سنة 1921، وطوال ستين عاما رحنا نجتمع ما كتب عنه حتى إن بعض مراجعنا كانت في وقت من الأوقات مفيدة، وأصبحت الآن في حكم الميتة. والآن فهذا جهد خمس سنوات عددا لكنه جهد كفيل بملء عمره بأكمله. إنه كتاب طويل جدا في مجمله، لكن كل جزء من أجزائه مختصر وغير كاف. فلم يجعلنا نعلن عن هذا الكتاب سوى الخوف أن يدهمنا الموت المتربص (النص: الحصاد المتربص أو آلة الحصد المتربص). ونحن لا نوجه هذا الكتاب للمتخصصين الذين لن يجدوا فيه جديدا لكن لأصدقائنا أينما كان مكانهم والذين صبروا معنا أعواما كثيرة، قد يجدون فيه بعض اللحظات التلوينية أو الفانتازيا المبهجة.

ول ديورانت
أريل ديورانت

صفحة رقم : 14537

قصة الحضارة - عصر نابليون - الثورة الفرنسية - مقدمة - شكر و عرفان

شكر و عرفان بفضل

نوجه الشكر أولاً لابنتنا إيثل ديورانت كي Ethel Durant Kay التي لم تكتف بطباعة المخطوط على الآلة الكاتبة بدقة، وإنما غالبا ما كانت تحسنه بتصويباتها واقتراحاتها. لقد كانت صبورة وشريكا مساعدا لنا في كل مرحلة من مراحل مشروعنا. وإلى صديقينا العزيزين آرثر يونج Arthur Yong وجالا كورليف Gala Kourlaeff اللذين أعارانا كتبنا قيمة من مجموعتيهما الخاصة. وإلى مكتبة لوس أنجلوس العامة خاصة فرع هوليفود Holly wood والعاملات في غرفة المراجع ونخص منهم السيدة إديث كروكشانك والسيدة إليزابيث فنتون. وإلى ج كريستوفر هيرولد، فإن كتبه عن نابليون و مدام دي ستيل Stael كانت بالنسبة لنا كنزا أنار لنا الطريق ولي ليزلي أ. ماشاند؛ فمجلداته الثلاثة عن بايرون Byron قد خفت بما حوته من ثروة معلوماتية من الإدمان البايروني الذي كان بالفعل مستعرا في سنة 1905 عندما دعا ول ديورانت ربه أن يطلق سراح الشاعر الأعرج ويخرجه من الجحيم. وإلى فيرا شنيدر التي استفاد كتابنا كثيرا من جهدها، لأنها طوال شهور طوال استغرقتها عملية التحرير استحضرت دقتها الدراسية ومجالات اختصاصها كلها.

وإلى صديقنا العزيز فيرناند كونت دي سان سيمون الذي أعطانا كثيراً جداً من وقته لإرشادنا في باريس في زيارتنا لنابوليوناي و فرساي ومالميزو Malmaison .
وفي الأحوال كلها فقد وجدنا في الحياة وفي التاريخ كثيراً من الرجال الطيبين والنساء الطيبات حتى إننا طرحنا جانباً أي قول عن مكر البشر .

ملحوظة

في النصوص المقتبسة الحروف المائلة التي يقصد بها التأكيد ليست من عندنا ما لم ينص على ذلك. الفقرات الفاترة غير الأساسية في مسار الكتاب كتبت بحروف صغيرة.

مقارنة قيمة العملات

من غير الممكن إيجاد صيغة متماسكة: العملات التي تحمل الأسماء نفسها الموجودة الآن، والتي كانت موجودة منذ مائتي عام كان لها قيمة شرائية أكثر كثيراً من قيمتها الحالية، لكن في بعض الأحيان كانت قيمتها أقل. التاريخ تضخمي (من التضخم أي كثرة النقود على قلة قيمتها) على الأقل من ناحية تخفيض قيمة العملة بشكل متكرر كطريقة قديمة لسداد ديون الحكومة، لكن فكرة أن البضائع (المنتجات) كانت تكلفتها في الماضي أقل من تكلفتها الآن ربما تقرب المسافة (تسحر المسافة على وفق النص (the enchantment of distance). وبلغت العمل من المطلوب تحصيل (أو كسب) المال (النقود) لنشتري بها ما هو أعلى منها (ما يكلف أكثر من قيمتها). وعلى العموم، فمع كثير من الاستثناءات والاختلافات بين الدول، سنقدم ما يوازي قيمة بعض العملات الأوروبية في سنة 1789 من عملة الولايات المتحدة في سنة 1970، كالتالي:

الكرون 6.25 دولار، الدوكات 12.50 دولار، الفلورين 2.50 دولار، الفرنك 1.25 دولار، الجروشن 4 slash 1 groschen سنت، الجلد 5.25 guilder دولار، الجينيا 26.25 guinea دولار، الجولدن 5 gulden دولار. الكروزر 1 slash 2 kreuzer سنت، الليرا 125 Lira دولار، الليفر 1.25 Livre دولار، لويس دور 1.25 Louis d'or دولار. المارك 1.25 دولار، البوند 25 pound دولار، الشلن 1.25 دولار، السو 5 Sou سنتات، التالر 5.25 thaler دولار.

صفحة رقم : 14538

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> خلفية الثورة -> الشعب الفرنسي

الكتاب الأول

الثورة الفرنسية

1799-1789

الفصل الأول

خلفية الثورة

أو

أحوال فرنسا قبيل الثورة

1- الشعب الفرنسي

كانت فرنسا هي أكثر أمم أوروبا سكاناً وأشدّها ازدهاراً، فقد كان عدد سكان روسيا في سنة 1780 هو 24 مليون نفس، وإيطاليا 17 مليوناً، وأسبانيا 10 ملايين وبريطانيا العظمى 9 ملايين، وبروسيا 8.6 ملايين، والنمسا 7.9 ملايين، وأيرلندا 4 ملايين، وبلجيكا، 2.2 مليون، والبرتغال 2.1 مليون، والسويد 2 مليون، وهولندا 1.9 مليون، وسويسرا 1.4 مليون، والدنمرك 800.000، والنرويج 700.000 بينما كان عدد سكان فرنسا 25 مليوناً (1). وكانت باريس هي أكبر مدن أوروبا إذ بلغ عدد سكانها حوالي 650.000 نفساً، كانوا هم الأفضل تعليماً في أوروبا كلها، كما كانوا أكثر أهل أوروبا قابلية للهياج والثورة.

وكان الشعب الفرنسي مقسماً إلى ثلاث طبقات: طبقة الإكليروس أو رجال الدين وكان عددهم يبلغ نحو 130.000 نفساً (2)، وطبقة النبلاء (ii) وكان عددهم يبلغ نحو 400.000، وطبقة العامة وهي الطبقة التي لا ينتمي أفرادها لواحدة من الطبقتين الأخرى. وكانت الثورة الفرنسية هي المحاولة التي بذلتها هذه الطبقة الثالثة (العوام) التي كانت مغموطة الحقوق السياسية رغم ازدهارها الاقتصادي، بغية الوصول إلى ما يتلاءم مع ثروتها النامية من سلطان سياسي وقبول اجتماعي. وكانت كل طبقة من هذه الطبقات الأخرى منقسمة بدورها إلى طبقات أو شرائح يعلو

بعضها الآخر حتى إن كل فردٍ تقريباً كان يمكنه أن ينعم بالنظر إلى من هم دونه، أو بتعبير آخر كان في مكنة كل شخص تقريباً أن ينظر من علٍ إلى أشخاص هم دونه.

وكانت طبقة الهيئة الكهنوتية الكنسية - من كاردينالات ورؤساء أساقفة وأساقفة ورؤساء أديرة - هي أغنى الطبقات جميعاً، بينما كان القسس ومساعدوهم Pastors & Curates في الريف الفرنسي من بين أفقر خلق الله. ومن هنا وجدنا أنه في أثناء الثورة انضم الإكليروس من الرتب الأدنى درجة (كالقسس والرعاة الأتف ذكرهم) إلى عامة الشعب ضد سادتهم، وبدا طغى العامل الاقتصادي على العامل الديني (ii). وكانت الحياة في الأديرة (حياة الرهبنة) قد فقدت بريقها، فطائفة الرهبان البنيديكتيين Benedictines الذين بلغوا في فرنسا في سنة 1770م، 6434 راهبا قد تقلص عددهم في سنة 1790 ليصبح 4300، وفي سنة 1773 كان جماعة الجزويت (جماعة يسوع) قد تفككت وتدهورت أحوال الدين على أسس دينية) قد حلت، وفي سنة 1773 كان جماعة الجزويت (جماعة يسوع) قد تفككت وتدهورت أحوال الدين بشكل عام في المدن الفرنسية، فكانت الكنائس في كثير من المدن نصف خاوية، وفي الريف زاحمت العادات الوثنية والخرافات القديمة عقائد الكنيسة وطقوسها (3)، مزاحمة فعالة. وعلى أية حال فقد كانت الراهبات لا يزالن يكرسن أنفسهن لتعليم الدين والتمريض بحماس، وكن يحظين بتقدير الأغنياء والفقراء على سواء. وحتى في هذا العصر المتسم بالنزوع للشك والاتجاهات العملية كان هناك الآلاف من النسوة والأطفال والرجال الذين استعانوا على قسوة الحياة بالتقوى فراحو يعزرون أنفسهم بحكايات القديسين (ii) وراحو يخفون من حدة أيامهم الرتيبة المرهقة بممارسة الشعائر في الأعياد الدينية، وفي الاسترخاء، ووجدوا في الآمال الدينية ملاذاً يلوذون به ضد ما اعتراهم من ارتباك وقنوط.

وكانت الدولة تدعم الكنيسة لأن رجال الحكم بشكل عام كانوا متقنين على أن رجال الدين (الإكليروس) إنما يقدمون لهم عوناً لا غنى عنه لحفظ النظام الاجتماعي. فقد كان رجال الدين (الإكليروس) يرون أن الاختلاف الخلفي Natural بين الناس فيما يتمتعون به من مواهب، يجعل مما لا مناص منه أن تختلف حظوظهم من حيث الثراء، فقد بدا مهما لطبقة الملاك أن يستمر رجال الدين في تقديم نصائحهم للفقراء، تلك النصائح التي تحثهم على الإذعان المسالم لقاء دخول الفerdوس تعويضاً لهم عما يلاقون. وكان مما يعني كثيراً لفرنسا أن نظام الأسرة - وهو النظام الذي يدعمه الدين ويكثف أهميته - ظل كمرتكز للاستقرار الوطني في أثناء التقلبات كلها التي شهدتها الدولة. وأكثر من هذا فقد جرى الحث على الطاعة باستخدام عقيدة الحق الإلهي للملوك - سواء في تعيينهم ملوكاً أم في مباشرتهم لسلطاتهم. وكان رجال الدين يفرسون هذه العقيدة في نفوس الناس، وشعر الملوك أن هذه الخرافة (الحق الإلهي للملوك) كانت عوناً ذا قيمة غالية لهم لضمان سلامتهم الشخصية ولاستقرار حكمهم. لذا فقد تركوا لرجال الدين الكاثوليك معظم مؤسسات التعليم العامة، وعندما هدد ازدهار البروتستانتية في فرنسا، بإضعاف سلطان الكنيسة الكاثوليكية وما يتمخض عنه من فوائد، جرى طرد الهوجونوت (البروتستانت الفرنسيين) بلا رحمة.

وعرفناً من الدولة بأهمية هذه الخدمات التي تقدمها الكنيسة، سمحت لها بجمع العشور وسمحت لها بدخول مالية أخرى تجيبها من أبناء كل أبرشية وسمحت لها بتقديم الوعود بتحقيق الأمان التي يرنو إليها العصاة الغافلون بتشجيعهم على شراء نعيم الأخرة لقاء تنازلهم عن ممتلكاتهم في الدنيا لصالح الكنيسة.

وأعفت الحكومة رجال الدين من الضرائب واكتفت بالحصول من الكنيسة بين الحين والآخر على منحة كبيرة بلا مقابل. ونظراً لهذه المزايا المختلفة فقد جمعت الكنيسة مقاطعات شاسعة قدرها البعض بأنها تبلغ خمس الأراضي الزراعية في فرنسا (4). وكانت الكنيسة تدير هذه الأراضي باعتبارها ممتلكات إقطاعية وراحت تجمع منها العوائد الإقطاعية. لقد حولت الكنيسة إيمان المؤمنين إلى حلي من ذهب وفضة - كجواهر التاج الملكي - أصبحت كحاجز أو كمنطقة محرمة ذات مناعة، وقداسة وتخصيص لمواجهة أي ادعاء أو تطاول فبدت هذه المكاسب الكنسية راسخة عبر التاريخ عميقة الجذور.

وتلاعب كثير من الكهنة والقسس في عوائد العشور واحتالوا ليحصلوا منها على شيء، وعاشوا في فقر تغلفه التقوى بينما كان كثيرون من الأساقفة يعيشون عيشة مترفة فخمة وكان رؤساء الأساقفة يعيشون بعيداً عن مقارهم الأسقفية وراحو يحومون حول البلاط الملكي. وفي وقت كانت الحكومة على حافة الإفلاس وجدنا الكنيسة الفرنسية (على وفق تقديرات تاليران Talleyrand) تنعم بدخل سنوي مقداره 150 مليون ليفر (فرنك) (ii)، وكانت طبقة العوام التي أنهكت الضرائب كاهلها في حالة عجب لعدم إرغام الكنيسة على إشراك الدولة معها في ثروتها. وعندما انتشرت كتابات غير المؤمنين (غير المتمسكين بتعاليم الكنيسة) (ii) تخلى الآلاف من أفراد الطبقة الوسطى والمئات من أفراد الطبقة الأرستقراطية - عن العقيدة المسيحية، وكانوا مستعدين لأن ينظروا بهدوء فلسفي إلى غارات الثورة على الموروثات المقدسة والمصونة.

وكان النبلاء على وعي يشوبه غموض أن النبالة قد فقدت كثيراً من أسباب وجودها أو بتعبير آخر قد ظلت باقية رغم أن المهام المنوطة بها والتي كانت سبب وجودها قد انتهت. فعنصر الفخر في هذه النبالة (أو الشرف) متمثلاً في القيام

بدور الحماية العسكرية للمجتمعات الزراعية، أو التوجيه الاقتصادي لها أو الرياسة القضائية، لم يعد قائما كما كان، فكثير من هذه الخدمات قد حلت محلها السلطة المركزية والإدارية القوية في ظل ريشليو Richelieu ولويس الرابع عشر. لقد أصبح كثيرون من السادة الإقطاعيين الآن يعيشون في البلاط الملكي وأهملوا إقطاعاتهم، وفي سنة 1789 بدا أن أتواهم الفخمة ورقتهم في التعامل ولطفهم(5) لم تعد أمورا كافية لتبرير امتلاكهم لربع الأرض الزراعية وابتزازهم للعوائد الإقطاعية .

واعتد الأسر الأقدم من بين أسر النبلاء أنها من جنس أكثر نبالة (نبالة الجنس La Nablesse de race أو أصالة العرق) إذ أرجعت هذه الأسر أصولها إلى الفرنجة الجرمان (الفرنك الجرمانيين) الغزاة الذين تسماوا في القرن الخامس باسم الغال Gaul لكن كاميل ديمولين Camile Desmoulins أحال فخرهم إلى منقصة في سنة 1789 باعتبارهم غزاة أجنب، عندما دعا إلى الثورة باعتبارها ثارا تأخر كثيرا من أعراق وأفدة. ومن الناحية الفعلية كان نحو 95% من طبقة النبلاء الفرنسية قد أصبحوا بشكل متزايد بورجوازيين وسلتيين Celtic قد تركوا أفراد الطبقة الوسطى - ذوي العقول الذكية والثروة التي حازوها مؤخرا - يشاركونهم أراضيهم وألقابهم .

وكان ثمة قسم من الأرستقراطية - عرفوا بنبلاء <الروب> أو النبلاء بحكم المنصب Noblesse de robe وكانوا يكونون نحو أربعة آلاف أسرة شغل أربابها مناصب قضائية أو إدارية رفعت شأغليها - تلقائيا - إلى مرتبة النبالة. ولأن معظم مثل هذه المناصب كان يمكن الحصول عليها بشرائها من الملك أو وزرائه الذين كانوا يبيعونها لزيادة دخل الدولة، فقد شعر كثيرون من المشترين لهذه المناصب بأحقيتهم في استرداد ما دفعوه فأصبحوا أكثر ميلا إلى قبول الرشوة(6). لذا فقد انتشر الفساد (عدم طهارة اليد) بين شاغلي المناصب في فرنسا بشكل غير عادي(7) وكان هذا واحدة من منات الشكاوى والأسباب الداعية إلى التذمر من نظام حكم يموت. وكانت بعض هذه المناصب والرتب وراثية، ولأن شأغليها والحائزين عليها قد تضاعف عددهم خاصة في البرلمانات أو المحاكم القانونية في مختلف المديرية districts (أو المحافظات أو الدوائر) فقد تنافى شعورهم بالقوة والفخر حتى إن برلمان باريس في سنة 1787 ادعى لنفسه الحق في الاعتراض على المراسيم الملكية (التي لها قوة القانون). لقد بدأت الثورة قرب القمة. وفي نشرة بعنوان "ما هي طبقة العوام أو الطبقة الثالثة؟" صدرت في شهر يناير سنة 1789 طرح الراهب الفرنسي عمانوئيل جوزيف سيبيز Emmanael Joseph Sieyès ثلاثة أسئلة وأجاب عنها: ما هي الطبقة الثالثة أو طبقة العوام؟ إنها كل شيء. ما حالها حتى الآن؟ لا شيء. ماذا تود هذه الطبقة أن تكون؟ تريد أن تكون شيئا ما (8) - أو على وفق لصحيح شامفورت Chamfort - كل شيء. لقد كانت تقريبا كل شيء فقد ضمت البرجوازية أو الطبقة الوسطى التي تتكون من 100.000 أسرة(9) وطبقاتها (شرائحها) layers العديدة - رجال البنوك والسامسة والرسطاء والصناع والتجار والمديرون والمحامون والأطباء والعلماء والمدرسون والحرفيون والصحفيون (تشكل الصحافة السلطة الرابعة) وطبقة عامة الشعب Menu peuple والعبارة تعني قلبي الأهمية (وأحيانا يطلق عليهم لفظ عام هو الشعب) ويقصد بهم البروليتاريا وحرفيي المدن وعمال النقل البري والبحري والفلاحين .

وكانت الطبقة الوسطى العليا تقبض على زمام السلطة الصاعدة متسعة المدى وتديرها: كان لها السلطان على عملية انتقال الأموال وحركتها ورؤوس الأموال، وكانت تمارس هذه العملية بشدة وجرأة تتسم بالمغامرة، وكانت - في ذلك - تدخل في منافسة واسعة المدى مع الذين يمتلكون السلطان على الاقتصاد الزراعي الإستاناتيكي (المتسم بالسكون Static) ومع العقيدة الأقلية. لقد دخلوا في مضاربات تجارية في أسواق الأوراق المالية في باريس ولندن وأمستردام، فتحكموا - على وفق لتقديرات نيكر Necker - في نصف أموال أوروبا(10). وكانوا يمدون الحكومة الفرنسية بالقروض ذوات الفوائد وكانوا يهددون بإسقاطها في حالة عدم سداد هذه الديون وعدم سداد ما اشترته الحكومة بالديون. وكانوا يمتلكون - أو يديرون - صناعة استخراج المعادن وتعدينها في شمال فرنسا، وصناعة النسيج في ليون Lyons وتروي Troyes وأبيفيل Abbeville وليل Lille ورون Rouen ، وأعمال استخراج الحديد والملح في اللورين Lorraine ومصانع الصابون في مارسيليا Marseilles ومدابغ الجلود في باريس.

لقد أداروا الصناعة الرأسمالية التي حلت محل دكاكين الحرف والنقابات الحرفية التي كانت سائدة في الماضي، وكانوا من أنصار المذهب الفزيوقراطي(11)(ii) المنادي بأن المشروع الحر (غير المرتبط بالدولة) أكثر إنتاجية ولدى القائمين عليه حوافز أقوى ودوافع أشد من المشروع التقليدي المرتبط بالتنظيمات والقواعد التقليدية التي تفرضها الدولة؛ سواء كان مشروعاً صناعياً أم تجارياً. لقد مولوا ونظموا الصناعات التحويلية (تحويل المواد الخام إلى بضائع) وراحوا ينقلون هذه البضائع من المنتج إلى المستهلك ليحققوا من كليهما ربحاً. لقد استفادوا من ثلاثين ألف ميل من أفضل الطرق في أوروبا لكنهم اعترضوا على الرسوم المعوقة التي كانت تفرض على استخدام طرق فرنسا وقنواتها، كما اعترضوا على اختلاف الموازين والمقاييس نتيجة تمسك بعض الولايات (المقاطعات Provinces) بها بسبب عوامل الغيرة. لقد تحكموا في التجارة التي كانت سبب ثراء بوردو Bordoaux ومارسيليا ونانت Nantes، وكونوا شركات مساهمة كشركتي : Compagnie des Eaux , Compagnie des Indes ووسعوا مجال سوقهم

ومدوه. فلم يعد قاصرا على المدينة وإنما شمل العالم، وعن طريق مثل هذه التجارة جعلوا فرنسا إمبراطورية فيما وراء البحار لا يبيها في المضمار سوى إنجلترا. لقد شعر أفراد هذه الطبقة أنهم - وليس طبقة الأشراف - هم صانعو الثروة الفرنسية النامية، ومن ثم صمموا على مشاركة النبلاء ورجال الدين في المزايا التي تُسبغها الحكومة عليهم وفي التعيينات وصمموا على أن يكون لهم الوضعية نفسها التي للنبلاء أمام القانون وفي البلاط الملكي وأن يستمتعوا بالمزايا كلها ويتسمنوا مراتب الشرف كلها في المجتمع الفرنسي، فعندما دعيت مانون رولاند Manon Roland وهي سيدة رفيقة كيسة - لكنها بورجوازية - لزيارة سيدة من النبيلات، وطلب منها أن تأكل مع الخدم وألا تجلس إلى المائدة مع الضيوف النبلاء صاحبت محتجة وتغلغلت صيحتها في قلوب أفراد الطبقة الوسطى (12). لقد كان هذا الامتعاض وذلك الطموح منغرساً في أفكار هذه الطبقة عندما رفعوا مع الثورة الفرنسية شعارها "حرية ومساواة وإخاء"، إنهم لم يكونوا يعنون بهذا "دونية" أو "رفعة" لكن هذا الشعار خدم أغراض هذه الطبقة حتى يجري تصحيح الأمور. وفي هذه الأثناء أصبحت الطبقة البورجوازية هي أقوى القوى التي تعمل على قيام الثورة.

لقد كان أفراد الطبقة الوسطى هم الذين يملأون المسارح وهم الذي يصفقون لقصائد بومارشيه Beaumarchais التي يهجو فيها الأرستقراطيين. لقد كان أفراد الطبقة الوسطى هم الذين التحقوا - أكثر من أفراد طبقة النبلاء - بالمحافل الماسونية ليعملوا على تحقيق الحرية في الحياة والفكر، لقد كانوا هم الذين يقرأون فولتير Voltaire ويستطيبون سخريته اللاذعة، ويتفقون مع جيبون Gibbon فيما ذهب إليه من أن الأديان كلها - بالنسبة للفيلسوف - زانفة (ii)، وهي - أي الأديان بالنسبة للحكومات (رجال الدولة) مفيدة. وكانوا في السر يبديون إعجاباً بالمذهب المادي الذي قال به دولباش وهيلفيتيوس d' Holbach and Helvétius وقد لا يكون هذا المذهب صحيحاً تماماً أمام أسرار الحياة والنفس البشرية، لكنه كان سلاحاً جاهزاً يمكن شهره في وجه الكنيسة التي تتحكم في عقول ونفوس معظم الفرنسيين وفي نصف ثروة فرنسا. وكانوا متفقين مع ديدرو Diderot، ولم يكونوا مولعين بروسو Rousseau الذي يشتم منه طعم الاشتراكية ويفوح منه معنى اليقين لكنهم هم - أكثر من أي شريحة أخرى في المجتمع الفرنسي - الذين شعروا بتأثير الآداب والفلسفة وعملوا على نشرهما.

وكان الفلاسفة (ii) بشكل عام معتدلين في سياساتهم. لقد قبلوا الملكية ولم يرفضوا عطايا الملك، ولوا وجوههم شطر الحكام المنتورين مثل فريدريك الثاني Frederick II في بروسيا، وجوزيف الثاني Joseph II في النمسا بل وحتى كاترين الثانية Catherine II في روسيا، أكثر مما ولوا وجوههم شطر الجماهير الأمية العاطفية، واعتبر الفلاسفة (المفكرون) هؤلاء الحكام المنتورين هم مهندسي الإصلاح. ووضع الفلاسفة ثققتهم في العقل رغم إدراكهم قصوره. لقد كسر هؤلاء الفلاسفة (المفكرون عامة) وصاية الكنيسة والدولة ورقابتهما على الفكر وفتحوا ملايين العقول وسعوا من آفاقها، لقد مهدوا لانتصارات العلم في القرن التاسع عشر، رغم أن لافوازيه Lavoisier ولابلاس Laplace ولامارك Lamarck شهدوا الهياج في أثناء الثورة وما صاحبها من حروب.

أما روسو Rousseau فقد فك ارتباطه بالفلاسفة. لقد كان يحترم العقل، ولكنه احتقى بالمشاعر وبالعقيدة (الإيمان) المريح. وقد طرح كتابه Savoyard Vicar's Profession of Faith الموقف الديني لروبيسبير Robespierre، وأدى إصراره على توحيد العقيدة الوطنية إلى أن اعتبرت لجنة الأمن العام الهرطقة السياسية جريمة عقوبتها الإعدام - خاصة في زمن الحرب. وقد قبل يعاقبة الثورة مبادئ العقد الاجتماعي التي مؤداها أن الإنسان خير بطبعه وما جعله شريراً سوى تبعيته لمؤسسات فاسدة منحرفة وقوانين جائرة، وأن الناس قد خلقوا أحراراً ولم يستعبدهم سوى الحضارة الزانفة. وعندما كان القادة الثوريون في السلطة تبنوا أفكار روسو Rousseau التي مؤداها أن المواطن بتلقيه حماية الدولة يصبح مطيعاً لها ضمناً. وقد كتب مالي دي بان Mallet du Pan "لقد سمعت مارا Marat في سنة 1788 يقرأ العقد الاجتماعي ويعلق عليه في الطرقات العامة وسط تصفيق المستمعين المتحمسين" (13). لقد تحولت سيادة الشعب العليا التي نادى بها روسو إلى سيادة لجنة الأمن العام التي لا معقب عليها بعد الثورة، ثم أصبحت سيادة عليا لرجل واحد.

وكان "الشعب" في مصطلح الثورة يعني الفلاحين وعمال المدن، فحتى موظفي المصانع في المدن كانوا أقلية سكانية. لقد كانت الصورة هناك بعيدة عن صورة المنشآت أو المؤسسات الصناعية، إذ كان مصطلح الشعب أقرب ما يكون إلى معنى الخليط غير المتناسق الذي يضم الجزائريين والخبازين وصانعي الجعة (البيرة) والبقالين والطباخين والبائعين الجوالين والحلاقين وأصحاب المحلات والعمال في الفنادق وتجار الخمر وصانعيها والنجارين والبنائين والذين يطلون البيوت والعمال في مجال الزجاج وصانعي الجص وصانعي الأجر وصانعي الأحذية والخياطين والصباعين وعمال النظافة وصانعي الثياب والحدادين والخدم وصانعي الأثاث وصانعي السروج وصانعي العجلات والعربات والصاغة وصانعي السكاكين والنساجين والدباغين والعمال في مجال الطباعة وبنائعي الكتب والعاهرات (المومسات) واللصوص. وكان هؤلاء العمال يلبسون سراويل طويلة تصل إلى كعوب أقدامهم أكثر مما يرتدون السراويل القصيرة التي تصل إلى الركبة والمعروفة باسم الكلتات Culottes والجوارب كما يفعل أبناء الطبقات

العليا لذا فقد أطلق على هؤلاء العمال اسم "الطبقة التي لا ترتدي كلوتات Sans Culottes" وقد لعبت هذه الطبقة دورا فعالا (دراماتيا) في الثورة الفرنسية. وقد أدى تدفق الذهب والفضة من العالم الجديد وإصدار النقود الورقية بشكل متكرر إلى ارتفاع الأسعار في أنحاء أوروبا كلها، ففي فرنسا ارتفعت الأسعار فيما بين عامي 1741 و 1789 بمقدار 65% بينما لم ترتفع الأجور سوى 22%(14)، وفي ليون Lyons كان هناك 30.000 شخص معفون من الخدمة في سنة 1787، وكان في باريس 100.000 أسرة مدرجة باعتبارها في حالة عوز في سنة 1791. وكان من الممنوع إنشاء اتحادات عمال ذوات أهداف اقتصادية ومن هنا تتألت الإضرابات. وكلما اقترب ميعاد الثورة كان مزاج العمال وحالتهم النفسية يزدادان توترا واكتئابا وميلا إلى الثورة والتمرد، ولم يكن ينقصهم سوى بندقية وزعيم ليستولوا على الباستيل ويغزوا قصر التوليرى Tuileries ويعزلوا الملك.

ومن المسلم به أن الفلاحين في فرنسا في سنة 1789 كانت حالهم أفضل مما كانت عليه قبل قرن من الزمان عندما بالغ لابرويير La Bruyère قائلا: إنه لا يكاد يميز بينهم وبين البهائم(15). وكان حال الفلاحين الفرنسيين في سنة 1789 أفضل من حال الفلاحين في سائر أنحاء أوروبا، ربما باستثناء فلاحى شمال إيطاليا. وكان نحو ثلث الأراضي الزراعية مملوكا للفلاحين، وكان ثلث آخر تتم زراعته بتأجير الأرض من النبلاء والإكليروس (رجال الدين) وأفراد الطبقة البورجوازية، أو بنظام المزارعة (المشاركة في المحصول، هذا لقاء ملكيته للأرض وذلك لقاء عمله فيها) أما ثلث الأرض الزراعية الباقى فكان يقوم على زراعته إجراء تحت إشراف الملاك أو من ينوب عنهم. وشيئا فشيئا أصبح عدد الملاك محصوراً فلم يكن أمامهم سوى الزراعة أو الرعي، بينما تكاليفهما غدت مرهقة، وأصبحت المنافسة حادة بينهم خاصة مع وجود الأرض العامة (المشاع) Common Land التي كان من حق الفلاحين - سابقا - أن يرعوا فيها وأن يجمعوا منها الحطب .

وكان حائزو الأرض من الفلاحين كلهم ملزمين بدفع رسوم إقطاعية فيما عدا قلة قليلة كانوا يمتلكون أراضي معفاة من أي التزام أو واجب أمام السيد الإقطاعي، إذ كان الفلاحون - خلا هذه القلة الأتف ذكرها- ملزمين ببناء على عقد بينهم وبين صاحب العزبة بأن يعملوا لديه عدة أيام كل عام بدون أجر (بنظام السخرة Corvee) لمساعدته في زراعة أرضه وإصلاح الطرق في عزبته، ومع هذا فقد كانوا يدفعون له رسوم مرور عند استخدامهم هذه الطرق. وكانوا يدفعون له بدلية (رسما بدليا لقاء الإعفاء من أداء خدمات معينة) وكانت قيمة هذه البدلية معتدلة وكانوا يدفعونها كل سنة نقدا أو عينا، وإذا باع الواحد منهم ممتلكاته طالبه السيد الإقطاعي بمبلغ يساوي 10% أو 15% من الثمن الذي تقاضاه(16). وكانوا يدفعون له لقاء صيدهم الأسماك من المياه التابعة له، وإذا رعو أنعامهم في حقله، وكانوا يدفعون له رسما في كل مرة يستخدمون فيه طاحونته أو مخبزه أو معصرته التي تستخدم في استخراج الزيت أو إعداد عصير العنب ليصير نبيذا.

ولأن هذه الرسوم كانت محددة على وفق القانون، فقد أصبحت قيمتها متدنية بسبب التضخم فشرع المالك أن لديه مسوغا في استنزاف هؤلاء الفلاحين بقسوة كلما ارتفعت الأسعار(17). وكان على الفلاح أن يدعم الكنيسة التي تبارك محصوله وتبني أطفاله للطاعة والإيمان وتشرف حياته بالطقوس والأسرار المقدسة، بأن يدفع لها سنويا العشور (Tith) وإن كانت عادة ما تكون أقل من العشر) من محصوله وما ينتجه. وكانت الضرائب التي تفرضها الدولة عليه أشد وطأة من العشور والمستحقات الإقطاعية، فقد فرضت الدولة ضريبة الرأس كما فرضت عليه نصف العشر Vingtieme عن دخله السنوي، وفرضت عليه ضريبة المبيعات عن كل ما يشتريه من مشغولات ذهبية وفضية أو منتجات معدنية أو كحول أو ورق أو نشا..... وفرضت عليه مصلحة الملح أن يشتري كل عام كمية محددة من الملح من الحكومة بالسعر الذي تحدده (أي تحده الحكومة). وعلى هذا فقد كان العبء الأساسي لدعم الدولة والكنيسة - زمن الحرب وزمن السلم - يقع على كاهل الفلاحين، أما النبلاء والإكليروس فقد كانوا يجدون طرائق قانونية أو غير قانونية للتخلص من كثير من هذه الضرائب وكان الشباب الأثرياء يمكنهم زمن الحرب أن يدفعوا "البدلية" (مبلغ لقاء عدم التحاقهم بالقوات المقاتلة) . وكان من الممكن تحمل هذه الضرائب والعشور والمستحقات الإقطاعية طالما كان المحصول طيباً، لكن حالهم يصبح بانسأ في أثناء الخراب الذي تسببه الحروب أو تقلبات المناخ فيصبح المحصول غير مجز ويضيع شقاء العام هباء، ساعتها يبيع الفلاحون الملاك أراضيهم أو عملهم أو كليهما للمغامرين المحظوظين المغرمين بشراء الأراضي الزراعية.

واتسم عام 1788 بكثرة مصائبه التي انهالت عليهم بلا رحمة، فقد أدى الجفاف الشديد إلى نقص شديد في المحصول ودمرت العواصف المصحوبة بالبرد 180 ميلا من الأراضي الزراعية الخصبة عادة من نورماندي Normandy إلى شامبني Champagne، وكان شتاء 1788/1789 هو أفسى شتاء مر بالبلاد منذ ثمانين عاما، فنفتت آلاف من أشجار الفاكهة، وشهد ربيع سنة 1789 فيضانات مدمرة، أما الصيف فكان مصحوبا بمجاعة في المقاطعات تقريبا كلها.

وبسبب الأعمال الخيرية التي قدمتها الدولة والكنيسة والأفراد حصل الجوعى على الطعام فلم يميت من الجوع إلا عدد قليل، لكن الملايين أنفقوا في هذه المجاعة كل ما يملكون، وشهدت كان Caen ورون Rouen وأورليان Orle`ans ونانسي Nancy وليون Lyons جماعات تتقاتل كالحوانات للحصول على القمح، وشهدت مارسيليا 8000 جائع عند بواباتها يهددون بغزو المدينة وسلبها. وفي باريس شهد حي سان (القديس) أنطوان St.Antoine - حي الطبقة العاملة 30.000 معوز في حاجة إلى إعانة(81).

وفي هذه الأثناء أدت اتفاقية تيسير التجارة مع بريطانيا العظمى (1786) إلى إغراق فرنسا بالمنتجات الصناعية البريطانية الأرخص سعرا من المنتجات الفرنسية فأدى هذا إلى تعطل آلاف العمال الفرنسيين عن العمل - لقد فقد 25.000 عامل فرنسي عملهم في ليون، و 46.000 في إميان Amiens و 80.000 في باريس(91). وفي مارس سنة 1789 رفض الفلاحون دفع الضرائب بالإضافة إلى المخاوف من إفلاس الدولة .

وقد قابل آرثر يونج Arthur Young الذي كان يقوم برحلة في مقاطعات فرنسا في يوليو سنة 1789 - فلاحه فرنسية كانت تشكو من الضرائب والمستحقات الإقطاعية اللتين تجعلانها دوما على حافة الإملاق ، لكنها أضافت قائلة إنها تعلم "أنه لا بد أن يقوم عدد كبير من الناس بعمل شيء من أجل هؤلاء اليوساء ... لأن الضرائب والرسوم تسحقنا"(20) لقد سمعوا أن الملك لويس السادس عشر Louis كان رجلاً طيباً راغباً في إصلاح الفساد وحماية الفقراء. لقد كانوا يتطلعون بأمل إلى فرساي Versailles ويدعون بطول العمر للملك.

صفحة رقم : 14539

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> خلفية الثورة -> الحكومة

2- الحكومة

كان لويس السادس عشر رجلاً طيباً، لكنه يصعب - إلا قليلاً - اعتباره ملكاً صالحاً، فلم يكن الرجل يتوقع أن يصبح حاكماً(ملكاً)، فقد كان هو الابن البكر لأبيه الذي مات مبكراً 1795، وقد جعله موت جده لويس الخامس عشر 1774 سيداً لفرنسا وهو على حافة العشرين. ولم يكن لديه رغبة في حكم الرجال فقد كان بارعاً في استخدام الأدوات والآلات وكان صانعاً للأقفال ويجيد إصلاحها بشكل ممتاز، وكان يفضل الصيد على الحكم، فلم يكن يعتبر اليوم الذي لا يصطاد فيه أيلاً إلا يوماً ضائعاً غير محسوب من عمره ففي الفترة من سنة 1774 إلى سنة 1789 طارد 1.247 أيلاً، وقتل 189.251 طريدة، ومع هذا فقد كان لا يحب إصدار أوامر بإعدام البشر، وربما يكون قد فقد عرشه لأنه منع حرسه السويسري من إطلاق النار في 10 أغسطس سنة 1792 وكان بعد أن يعود من رحلات الصيد يأكل بشراهة حتى يملأ معدته عن آخرها، وكانت طاقة معدته لتحمل مزيد من الطعام في ازدياد مستمر، وأصبح نتيجة لذلك بديناً لكنه كان قوياً، وقد أصابت ماري أنطوانيت Marie Antoinette في حكمها على زوجها عندما قالت: "الملك ليس جباناً، بل يتحلى بقدر كبير جداً من الشجاعة الكامنة لكن الخجل يريكه وتعوزه الثقة بالنفس .. وهو يخاف من القيادة .. لقد عاش كالطفل وفي حالة قلق دائم وهو تحت رعاية لويس الخامس عشر، وظلت هذه حاله حتى بلغ الواحدة والعشرين. لقد عمقت هذه القيود المفروضة عليه جيبه"(12).

وكان حبه لمليكتته جزءاً من الأسباب التي ألحقت الدمار به لقد كانت جميلة فخمة تزين بلاطه بجاذبيتها ومرحها، وغفرت له تباطؤه في عقد قرانه بها. لقد كان الملك ذا عضو تناسلي محكم الإغلاق بمعنى أن قلفته أو غرلته(ü) كانت ملتصقة التصاقاً شديداً بعضوه وكان هذا يسبب له ألماً لا يحتمل إذا ما أنعظ. وقد حاول مرات عدة طوال سبع سنوات،

وكان يتحاشى العملية الجراحية البسيطة التي يمكن أن تحل مشكلته إلى أن حثه في سنة 1777 أخو الملكة جوزيف الثاني Joseph النمساوي على إسلام ذكره للسكين وما أن فعل حتى صارت أمور ذكره على ما يرام. وربما كان الشعور بالذنب الذي يعتريه عنيفا حيناً، وهوناً حيناً هو الذي جعله متسامحاً جداً مع زوجته؛ متسامحاً إزاء مقامرتها ومغامرتها في لعب الورق (الكوتشينة)، متسامحاً إزاء مبالغتها في اقتناء الثياب، متسامحاً إزاء رحلاتها المتكررة إلى باريس لحضور الأوبرا، وتحمل صداقتها الأفلاطونية بالكونت فون فيرسن Count Von Fersen وصداقتها للأميرة دي لامبل de Lamballe وممارستها السحاق معها في ظل هذه الصداقة. لقد كان الملك بتكريسه نفسه لزوجته بشكل واضح يسلي حاشيته ويسعد لها لكن هذا كان مدعاة لخبول أجداده. وكان الملك يقدم لها الجواهر الغالية، لكنها - وكذلك فرنسا - كانت أكثر حاجة إلى طفل. وعندما أتى الأطفال أثبتت أنها أم صالحة وانشغلت بمتاعهم وقللت من غلوائها، واعتدلت في أمورها كلها خلا كبريائها، وتدخلها المتكرر في أمور الدولة (شئون الحكم)، وفي هذه كان لها بعض العذر لأن لويس كان قلماً يحسم الأمور أو يحدد المسار أو يختار بين البدائل بل كان غالباً ينتظر الملكة لتنظم له تفكيره، وكان بعض أفراد الحاشية يتمنون لو كان له قدرتها على تقدير الأمور بسرعة واستعدادها للقيادة.

لقد فعل الملك كل ما استطاع لمواجهة المصائب والأزمات التي سببها له سوء الأحوال الجوية والمجاعة والشغب بسبب عدم توفر الخبز، والثورات ضد الضرائب، ومطالب النبلاء والبرلمان، ونفقات البلاط والإدارة وزيادة العجز في الخزنة. وظل طوال عامين (1774-1776) يسمح لتورجو Turgot بتطبيق نظرية الفيزيوقراط (الطبيعيين) والتي مؤداها أن إطلاق الحرية للمشروعات الخاصة والمنافسة وعدم إعاقة قوانين السوق المتحركة - قانون العرض والطلب - سينعش الاقتصاد الفرنسي ويضيف عوائد جديدة للدولة، وأنه من الضروري تطبيق هذه النظرية على أجور العمال وأسعار البضائع. لكن أهل باريس قد اعتادوا التفكير في أن الحكومة هي الملاذ الوحيد الذي يحميهم من جشع المضاربين في السوق، لذا فقد عارضوا إجراءات تورجو Turgot وقاموا بأعمال شغب، واعتزتهم بالهجة عند سقوطه (أي سقوط حكومة تورجو).

وبعد أن لبث الملك عدة شهور متردداً مشوش الفكر استدعى جاك نيكير Jacques Necker وهو خبير مال سويسري يدين بالذهب البروتستانتي ومقيم في باريس ليكون مشرفاً على أمور الخزنة (1777-1781). وفي ظل هذا الغريب غير الكاثوليكي (ii) نفذ الملك لويس برنامجاً شجاعاً لإصلاحات صغرى؛ فقد سمح بتشكيل مجالس (جمعيات) منتخبة على المستوى المحلي ومستوى المقاطعات لتعبر عن أهالي هذه المناطق لتكون كجسر يسد الفجوة بين الشعب والحكومة. وأعلن الملك رفضه لنظام السخرة Corvée، وكان إعلانه هذا صدمة لطبقة النبلاء، بل لقد أعلن في بيان أمام الجمهور (1780) "أن الضرائب المفروضة على القطاعات الأشد فقراً من رعايانا قد زادت زيادة كبيرة أكثر بكثير مما زادت فيه الضرائب على القطاعات الأخرى جميعاً" وعبر عن "أمله في أن يفكر الأغنياء في تحمل الأعباء التي كان يجب أن يشاركوا الآخرين في حملها منذ مدة طويلة" (22) وقام الملك بتحرير الأفتان (عبيد الأرض) في ممتلكاته ولكنه قاوم ما حثه نيكير عليه بتطبيق ذلك على الأفتان في أراضي النبلاء والإكليروس. وأسس الملك مراكز للرهن (مرهن) لتقرض الأموال للفقراء (بعد إيداع رهن) بنسبة ربح 3%، ومنع استخدام أساليب التعذيب مع الشهود ومرتكبي الجرائم. ووعد بالغاء الزنانات في فينسين Vincennes وأن يدمر الباستيل Bastille ضمن برنامج إصلاح السجون.

ورغم أن الملك كان تقياً متمسكاً بكاثوليكيته (ii) إلا أنه سمح بقدر كبير من الحرية الدينية للبروتستانت واليهود. ورفض أن ينزل العقاب بأصحاب الأفكار الحرة، بل لقد سمح لمؤلفي الكتيبات (مصدري النشرات) الغلاظ الذي لا يرحمون أن يصفوه بأنه ديوث، ويصفوا زوجته بأنها بغي ويصفوا أولاده بأنهم أولاد زنا. ومنع حكومته من التجسس على مراسلات المواطنين الخاصة.

وأرسل لويس مساعدات مالية ومادية بلغ إجمالي قيمتها 240.000 دولار للمستعمرات الأمريكية دعماً لها في نضالها من أجل الاستقلال، وقد أيدته في هذا بحماس بومارشيه Boamarchais والفلاسفة (Philosophes) (iii)، بينما كان نيكير معارضاً (بحجة أن ذلك سيعجل بإفلاس فرنسا وإفلاساً كاملاً). لقد كان الأسطول الفرنسي وكتائب لافايت Lafayette وروشامبو Rochambeau هي التي ساعدت واشنطن Washington على حصار كورنوليز Cornwallis في يوركتون York town وإرغامه على التسليم ومن ثم كانت القوات الفرنسية سبباً في إنهاء الحرب. لكن الأفكار الديمقراطية عبرت المحيط الأطلنطي إلى فرنسا، وبينما كانت خزانتها تنن من وطأة الديون الجديدة، جرى طرد نيكير Necker من الحكومة عام 1781 وراح حاملاً السندات من الطبقة البورجوازية يصرخون مذبذبين مطالبين بضبط مالية الحكومة.

وفي هذه الأثناء راح برلمان باريس يضغط على دعواه بحقه في الاعتراض على المراسيم الملكية. وغالباً ما كان لويس - فيليب - جوزيف - Louis - Philippe - Joseph دوق أورليان Orleans - ابن عمه فهو منحدر مباشرة من

الأخ الأصغر للويس الرابع عشر - يخطط علنا للاستيلاء على العرش - وراح لويس - فيليب - جوزيف يوزع عن طريق كوديرلو دي لاكلو Choderlos de Laclos وغيره من الوكلاء عنه النقود والوعود على السياسيين وكتاب النشرات (الكتيبات) والخطباء والعاشرات (المومسات).

لقد أباح لأتباعه التسهيلات والبلاط وحدائق قصره الملكي والمقاهي والحانات ومخازن الكتب ونوادي القمار لتكون في خدمة الجماهير التي تجمعت هناك نهارا وليلا ووصلت الأخبار من فرساي Versailles بسرعة. حملها بعض أفراد الحاشية. فظهرت النشرات (الكتيبات) هناك في كل ساعة ودوى الخطباء بخطبهم من فوق المنصات والمناضد والكراسي، وحبكت المؤامرات لعزل الملك.

وانزعج الملك من فكرة عزله فاستدعى نيكر Necker وولاه وزارة المالية (1788)، وأصدر بناء على حث نيكر له دعوة للفرنسيين بأن ينتخبوا ممثلهم من النبلاء ورجال الدين والعوام ويرسلوهم إلى فرساي ليشكلوا مجلس طبقات الأمة (لم ينعقد مجلس طبقات الأمة منذ سنة 1614) ليقدم له المشورة والدعم لمواجهة مشاكل المملكة. وكانت دعوة الملك لعقد مجلس طبقات الأمة هي الملاذ الأخير والخطير الذي اضطر للجوء إليه والذي قد يؤدي إلى إنقاذ عرشه أو الإطاحة به. وقد أصدر الملك دعوته هذه في 8 أغسطس سنة 1788.

وثمة بعض الملامح الجديرة بالملاحظة حول هذه الدعوة التاريخية التي وجهتها الحكومة لأنها طوال نحو قرنين من الزمان لم تكن تفكر في طبقة العوام إلا باعتبارهم مجرد دافعي ضرائب وموردي طعام، و- دوريا- وقود حرب. وقد أعلن الملك في البداية بناء على حث نيكر له أن طبقة العوام لا بد أن يكون لها ممثلون (نواب) بقدر عدد نواب الطبقتين الأخرين (طبقة النبلاء وطبقة الأكليروس)، في هذا الاجتماع القادم. وكانت طبقة النبلاء معترضة على هذا الإعلان الملكي. أما الأمر الثاني: أن تكون الانتخابات في فرنسا أقرب ما تكون إلى نظم الانتخابات العالمية بالنسبة للبالغين؛ فأى رجل يبلغ السابعة والعشرين من عمره أو أكثر، يكون قد دفع في العام الماضي أي ضرائب للحكومة مهما قلت قيمتها، له حق التصويت في المجالس المحلية Local assemblies التي ستنتخب ممثلها لتمثيل المنطقة في باريس. والأمر الثالث أن الملك أضاف إلى دعوته طلبا من المجالس المنتخبة كلها أن تقدم له تقارير (Cahiers) لتحديد المشكلات وطلبات كل طبقة في كل مقاطعة (أو إقليم district) مع اقتراحات وتوصيات لعلاج هذه المشكلات ورسم سبل للإصلاح. ولم يحدث أبدا قبل ذلك - فيما تعي ذاكرة الفرنسيين - أن طلب أي من ملوكهم مشورة شعبه.

ومن بين 615 تقريرا حملها النواب للملك، بقي منها 545. وكلها تقريبا تعبر عن ولائها للملك بل وتعاطفها معه باعتباره رجلا حسن النوايا بشكل ظاهر، لكن هذه التقارير كلها أو العرائض تقريبا قد اقترحت عليه أن يشرك معه في مشاكله وسلطاته مجلسا منتخبا ليكون معه ملكية دستورية. ولم يرد في تقرير واحد من هذه التقارير أي ذكر لحق الملوك الإلهي في الحكم. وطلبت التقارير جميعا بنظام قضائي قائم على المحاكمة أمام هيئة محلفين، وطلبت بخصوصية الرسائل (عدم جواز اطلاع السلطات عليها) وتخفيف الضرائب وإصلاح القانون. أما التقارير التي كتبها النبلاء فقد اشترطت أن يجلس أفراد كل طبقة بمعزل عن الطبقتين الأخرين في مجلس طبقات الأمة القادم، وأن تصوت كل طبقة على حدة، وألا يصبح أي إجراء قانونيا إلا بعد موافقة الطبقات الثلاث. أما تقارير (عرائض) الإكليروس فدعت إلى نبذ التسامح الديني وأن تشرف الكنيسة - وبمفردها - على التعليم. وعكست تقارير الطبقة الثالثة (طبقة العوام) - مع اختلاف في درجة التركيز على عنصر أو آخر - مطالب الفلاحين في تخفيض الضرائب، وإلغاء القنانة (عبودية الأرض) والعوائد الإقطاعية وتعميم التعليم الحر وحماية المزارع من الدمار الذي تلحقه أنواع السادة وممارستهم الصيد فيها، وطلب أفراد الطبقة الوسطى بإتاحة الفرص للموهوبين بصرف النظر عن الأصل وبالغاء رسوم الانتقال، وبامتداد نظام الضرائب ليشمل النبلاء والإكليروس، واقترح بعضهم أنه يجب على الملك أن ينهي العجز المالي بمصادرة الأملاك الكنسية وبيعها. لقد ظهرت الخطوط العريضة للمراحل الأولى للثورة الفرنسية - بالفعل - في هذه التقارير (العرائض Cahiers).

وقد ظهر في هذه الدعوة المتواضعة التي وجهها الملك لمواطنيه بعد ملحوظ عن التجرد والحياد، فبينما كان من حق كل مواطن خارج باريس أن يدلي بصوته ما دام قد دفع ضرائب، فلم يكن من حق الباريسي أن يدلي بصوته إلا إذا كان قد دفع ضريبة رأس قيمتها ست ليفرات (Livres) أو يزيد. ربما تردد الملك ومستشاروه في أن يتركوا للخمسمائة الف عامل "الطبقة التي لا يرتدى أفرادها كلوات قصيرة وإنما سراويلات (بناطيل) تصل إلى كواحل الأقدام) Sans Culottes) (انتخاب رجال يمثلون في مجلس طبقات الأمة أفضل مصدر للمعلومات للعاصمة (يكونون كاستخبارات داخل المجلس). فمشكلة الديمقراطية المتمثلة في أن الكيف إنما هو ضد الكم والمتمثلة في الحصول على الكفاءات العقول الذكية (brains) بالتسليم المحسوب (باستخدام الجواسيس) قد ظهرت هنا في الفترة التي سبقت الثورة مباشرة، قبل إعلان الديمقراطية في سنة 1791م. وعلى هذا فقد ترك أولئك الذين لا يرتدون كلوات (iii) (العمال) خارج الحركة الشرعية للأحداث، وأدى هذا إلى أن تشعر هذه الطبقة أنه بالعنف وحده - ذلك العنف الذي يستطيعونه بسبب عددهم الكبير - يمكنهم أن يكونوا قاسما مشتركا في كل ما ترغب الإرادة العامة للشعب

التعبير عنه. كانوا هم الذين استولوا على الباستيل في سنة 1789، وهم الذين أطاحوا بالملك في سنة 1792، وهم الذين شكلوا حكومة فرنسا سنة 1793 .

صفحة رقم : 14540

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الجمعية الوطنية -> مجلس طبقات الأمة

الفصل الثاني

الجمعية الوطنية

من 4 مايو 1789 إلى 30 سبتمبر 1791

1- مجلس طبقات الأمة

في 4 مايو سنة 1789 اتجه ممثلو الطبقة الثالثة (طبقة العوام) وعددهم 621 وكيلا، وكانوا يلبسون الملابس البورجوازية السوداء، يتبعهم 285 من النبلاء وقد وضع الواحد منهم قبعته المزدانة بالريش فوق رأسه وارندى ثيابا محلاة بالأشرطة والذهب، ثم 308 من رجال الدين، وقد امتاز الأساقفة عنهم بعباءات من قطيفة، ثم وزراء الملك وأفراد عائلته، ثم لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت Marie Antoinette، وكان الجند يحيطون بالركب كله وراحت الأعلام ترفرف وكذلك الشارات، واتجهوا جميعا إلى المكان المخصص لاجتماعهم وهو صالة المسرات البريئة Hotel des Menus Plaisirs التي لا تبعد إلا قليلا عن القصر الملكي في فرساي. وحفت الجماهير الفخورة والسعيدة بالموكب، وراح بعضهم يبكي فرحا وأملا(1) وهو يرى في هذا المنظر الذي ينم عن وحدة الطبقات المتنافسة، وعدا بالتماسك والتضامن والعدل في ظل ملك خير. وخطب لويس في الوفود المجتمعة معا معترفاً بأن الخزانة على شفا الإفلاس، وعزا ذلك إلى "الحرب المكلفة والمشرفة في أن" وطلب منهم أن يفكروا في وسائل جديدة لزيادة دخل الدولة وأن يصدقوا على المراسيم التي تصدر بهذا الشأن. ثم جاء نيكير Necker فاستمر ثلاث ساعات يقرأ إحصاءات جعلت حتى الثورة نفسها، كنيبة ينقصها الحماس. وفي اليوم التالي خبا نألق الوحدة بين الطبقات الثلاث، فوجدنا الإكليروس (طبقة رجال الدين) يتقابلون في صالة ملحقة أصغر من الصالة التي ضمت الطبقات الثلاث، وراح النبلاء يتقابلون ويجتمعون في صالة أخرى ملحقة

وشعر أفراد الطبقتين (النبلاء والإكليروس) أنه يجب عليهم أن يتدارسوا الأمر في نطاق طبقتهم كما يجب عليهم أن يصوتوا بمعزل عن الطبقتين الأخرين كما حدث في آخر مجلس طبقات أمة انعقد منذ 175 عاما مضت، وكان من رأي أفراد الطبقتين أنه لا يجوز إقرار أي اقتراح واعتباره قانونا إلا إذا وافقت عليه الطبقات الثلاث والملك، أما ترك الأمور للانتخابات الفردية أي أن يحسب صوت كل فرد بصرف النظر عن طبقة بين هؤلاء المندوبين المجتمعين فإن هذا يعني تسليم كل شيء لطبقة العوام.

وقد حدث بالفعل أن انضم رجال الدين الأشد فقرا من سواهم إلى جانب طبقة العوام "بل إن بعض النبلاء مثل لافييت Lafayette وفيليب دورليان Philippe d'Orleans ودوق لا روشيفوكو La Rochefoucauld، وليانكو Liancourt أضمرُوا مشاعر ليبرالية خطيرة.

وبسبب هذا بدأت حرب أعصاب لفترة طويلة، وكان يمكن لطبقة العوام أن تنتظر لأن إقرار ضرائب جديدة يستلزم موافقتهم العلنية بينما كان الملك ينتظر إقرار هذه الضرائب الجديدة بصبر فارغ. وكانت طبقة العامة (ii) تتحلى بالشباب والحيوية والفصاحة والتصميم. لقد كان هناك أونوري Honoré - جابريل Gabriel - فيكتور تيكيوتي Victor Riquiti الذي قدم لهم الكونت دي ميرابو Conte de Mirabeau خبرته وشجاعته وقوة فكرة وصوته الجمهوري، وقدم بيير - صامويل دي بو دي نيمور Pierre - Samuel du Pont de Nemours لهم معلومات عن طبيعة اقتصاد الفيزيو قراطيين (الطبيعيين) وعن الاستراتيجية، أما جان بيلي Jean Bailly فقد حقق بالفعل شهرة في مجال الفلك، وقد هدأ من حدة الانفعال ليصلوا إلى حكم هادئ بعد دراسة الأمور وتقليبها. أما مكسيميليان دي روبيسبير Maximilien de Robespierre فظل يتحدث بانفعال وباستمرار كرجل عقد عزمه ألا يسكت حتى يجد طريقته.

لم يبق من عمر روبيسبير الذي ولد في أراس Arras في سنة 1758 سوى خمسة أعوام، لكنه كان في غالب هذه الفترة هو محور الأحداث أو يتحرك بالقرب من قلبها. وكان روبيسبير قد فقد أمه وهو في السابعة من عمره، أما أبوه فقد اختفى في ألمانيا. وقام الأقرباء بتربية الأيتام الأربعة وفاز مكسيميليان الطالب الدؤوب بمنحة دراسية في كلية لويس لي جراند Louis - le - Grand في باريس، ونال درجة جامعية في القانون ومارس المحاماة في أراس Arras وحقق شهرة كمدافع عن الإصلاح حتى إنه كان من بين الذين تم إرسالهم من إقليم أرتوا Artios لحضور مجلس طبقات الأمة State - General.

ولم يكن مظهر روبيسبير يدعم دورة كخطيب فقد كان طوله لا يزيد على خمسة أقدام وثلاث بوصات، وكان وجهه عريضا ومسطحا شوهه الجدي، وكانت عيناه ضعيفتين محاطتين بدائرتين، وكان لونهما أزرق مخضرا حتى إن كارليل Carlyle أطلق عليه اسم "روبيسبير البحر الأخضر" وله بعض العذر في ذلك. وكان روبيسبير يدعو إلى الديمقراطية ويدافع عن حق الذكور البالغين في الانتخاب رغم أن ذلك قد يجعل من أدنى الطبقات (ii) شركاء في الحكم بل ويجعل رايتهم ترتفع فوق الجميع. لقد عاش عيشة بسيطة كعيشة أحد أفراد طبقة العمال لكن لم يقلد ذوى السراويلات (النباطيل) الطويلة المعروفين باسم السانس كلوت (أي الذين لا يرتدون الشورتات "الكلوتات" القصيرة) لقد كان يلبس سترة خطافية (فراك) زرقاء غامقة نظيفة، وسروالاً (بنوطلونا) قصيرا يصل إلى الركبة وجورباً حريريا، ولما كان يغادر بيته قبل أن ينثر المساحيق على شعره وكان يسكن مع نجار اسمه موريس دبلي Maurice Duplay في شارع سانت أونري Rue St-Honore وكان يتغذى على مائدة الأسرة وكان يدفع لقاء ذلك ثمانية عشر فرنكا في اليوم. وكان ينطلق من هذا المستوى المتدني (مستوى الحضيض) ليتحرك في معظم أنحاء باريس، وبعد ذلك في معظم أنحاء فرنسا. لقد كان يتحدث بشكل متتابع تتابعا ملحوظا عن الفضيلة، وكان يطبقها بقسوة وصرامة وعناد أمام الجماهير، أما في علاقاته الخاصة فقد كان "كريما عطوفا بل وكان مستعدا لتقديم الخدمات" على حد قول فيليبو بوناروتي Filippo Bunoarrotti الذي كان يعرفه جيدا (2).

لقد كان يبدو محصنا تماما ضد مفاتن النساء، فقد صرف طاقة الحب التي لديه لأخيه الأصغر أو غسطين Augustin وسان - جوست Saint - just ولم يتهمه أحد أبداً بأي انحراف جنسي، ولم يكن من الممكن إغواؤه برشوة مهما بلغ قدرها، وعندما عرض أحد الفنانين صورة شخصية لروبيسبير في سنة 1791 لم يكتب إزاءها سوى فقرة واحدة "غير قابل للرشوة (3) The incorruptible" ولم يبد أن هناك من تجرأ على الاعتراض على ذلك. وكان روبيسبير يؤمن بأفكار منتسكيو Montesquieu باعتبارها أساسا لازما لجمهورية ناجحة، فمن غير ناخبين لا يمكن شراء أصواتهم الانتخابية ومن غير موظفين لا يمكن رشوتهم تصبح الديمقراطية كذبا ورياء. وقد آمن روبيسبير كما آمن روسو بأن الإنسان خير بالطبيعة أو بتعبير آخر خلقه الله خيرا، بحيث يجب أن تكون "الإرادة العامة" هي قانون الدولة وأن أي معارض مصر على مواجهة الإرادة العامة يستحق بلا ريب الإدانة التي تقضي به إلى ساحة الإعدام. وكان روبيسبير متقفا مع روسو في أن بعض أشكال المعتقدات الدينية لا بد منها لضمان السلام النفسي والانضباط الاجتماعي ولأمان الدولة وبقائها.

ولم يبد أنه بدأ يشك في اتقائه التام مع الإرادة العامة "الإرادة الجماهيرية" إلا قرب نهاية حياته. لقد كانت نفسه أضعف من إرادته، وكانت معظم أفكاره مستقاة من قراءاته أو من الشعارات التي ملأت الجو الثوري المحيط. لقد مات في عمر باكر جدا مما لم يتيح له فرصة سبر أغوار الحياة بعمق أو تحصيل قدر كبير من المعرفة التاريخية يتيح له أن يقارن بين أفكاره المجردة أو العامة وواقع الأمر من خلال تأمل محايد. لقد عانى بشدة مما حاق بنا من فشل عام، ولم يكن يستطيع أن يناهى بذاته بعيداً عن عينيه. لقد كان مقتنعاً بما يتقوه به مشوباً بالحماس والعاطفة. لقد كان على يقين خطر، وكان يصرخ عبثاً بشكل يدعو للسخرية، قال عنه ميرابو Mirabeau " هذا الرجل سيشتت كثيراً وسيذهب بعيداً. إنه مؤمن بكل كلمة يقولها" (4) وكانت نهايته إلى المقصلة.

وقد ألقى روبيسيير على مدار عامين ونصف العام في الجمعية الوطنية نحو خمسمائة خطبة (5) عادة ما كانت الخطبة منها طويلة طولاً يبعدها عن تحقيق الإقناع، وعادة ما كانت جدلية خلافية مما يجعلها غير بليغة، ومع هذا فإن جماهير باريس فهمت مغزاها وتعلمت منها وأحبته من أجلها. لقد عارض روبيسيير التفرفة القائمة على أسس عرقية أو دينية واقترح تحرير السود (6) وظل حتى شهور حياته الأخيرة مدافعاً عن الشعب. لقد قبل مبدأ الملكية الخاصة، لكنه رغب في تعميم الملكية الصغيرة لتكون هي الأساس الاقتصادي لديمقراطية قوية. وقد اعتبر التفاوت في الثروة شراً لا بد منه (7) راجع إلى التفاوت الطبيعي بين قدرات البشر. وفي هذه الفترة وجدناه يؤيد الإبقاء على الملكية فقد كان يرى أن الإطاحة بلويس السادس عشر قد تؤدي إلى فوضى وسفك دماء تفضيان في النهاية إلى دكتاتورية أكثر من طغيان الملكية (8).

واستمع كل عضو من أعضاء الجمعية الوطنية - تقريباً - لخطب هذا الخطيب الشاب بحياد فيما عدا ميرابو Mirabeau الذي احترم حجج روبيسيير التي أعدها إعداداً متقناً وبسط شرحها بوضوح. ومن ناحية أخرى (9) لاحظنا ميرابو الذي نشأ في ظل والد عبقرى رغم دقته الشديدة الصارمة راح يتشرب بنوق شديد كل تأثير متاح في الحياة مما تهيؤه فرص الرحلة والمغامرة والخطبة، وراح يطالع مظاهر الضعف البشري والظلم والفقر والمعاناة في اثنتي عشرة مدينة، وسجنه الملك بناء على طلب والده وشهره بأعدائه في نشرات هجائية واتهامات غاضبة، وأخيراً انتخبته طبقة العوام في كل من مرسيليا Marseilles وايزنبروفنس Aix-en- Provence لمجلس طبقات الأمة فحقق انتصاراً مزودجاً فعالاً، وأتى إلى باريس وقد أصبح بالفعل أحد المشاهير اللامعين الذين تحوم حولهم الشكوك في بلد كانت الأزمة تدفع بالنايغين والعباقرة إلى الصدارة في ظروف قلما شهد لها التاريخ مثيلاً. لقد رحب به متعلمو باريس كلهم، وأطلقت الرؤوس من النوافذ لمشاهدة عربته وهي تمر، وكانت النسوة مشتاقات لمعرفة حقيقة الإشاعات المثارة حول غرامياته كما كن مفتونات بما في وجهه من ندوب وتنشوه، فنته لا يعادلها سوى الاشمئزاز من قبح هذه الندوب وهذا التنشوه.

لقد استمع الأعضاء باستسلام لخطابه رغم أنهم كانوا شاكين في طبقته وأخلاقه ونواياه، فقد سبق أن سمعوا أنه كان يعيش عيشة تفوق إمكاناته، وأنه كان يشرب حتى يفقد عقله، وأنه لم يكن يتورع عن استخدام بلاغته وفصاحته للتخفيف من وطأة ديونه، لكنهم علموا أنه لام أفراد طبقته دفاعاً عن العوام الذين قدروا فيه شجاعته لأنهم تشككوا في أن يجودوا لهذا البركان من الطاقة المعتدل في نفسه مثيلاً آخر.

لقد انتشرت الخطابة في هذه الأيام المحمومة وازدادت المناورات السياسية أكثر بكثير مما شهده قصر (صالة) المسرات البريئة (مينو بلازير Hotel des Menus Plaisirs) وطغت بها الصحف والنشرات والإعلانات المعلقة على الجدران والنوادي؛ فبعض المندوبين القادمين من بريتاني Brittany كونوا نادي البريتون Club Breton الذي سرعان ما فتح باب عضويته للأعضاء الآخرين وللخطباء والكتاب، وجعل منه كل من سيبيز Sieyes وروبيسيير، وميرابو منصة يعرضون عليها أفكارهم ويجربون وقع مشاريعهم على المستمعين، وشهد هذا النادي التشكيل الأول للتنظيم القوي الذي عرف بعد ذلك باسم اليعاقبة. وكانت المحافل الماسونية نشيطة أيضاً، وكانت عادة مؤيدة للملكية الدستورية، لكن ليس لدينا دليل عن مؤامرة ماسونية سرية (10).

وربما كان نادي البريتون هو الذي شهد خطة سيبيز Sieyes وآخرين القاضية بأن يتحرك النبلاء والإكليروس في خطوة واحدة مع طبقة العوام. وقد ذكر سيبيز طبقة العوام بأن عددهم 24 مليوناً من بين 25 مليون هم سكان فرنسا، فلم طال تردددهم في الحديث باسم فرنسا؟ وفي 16 يونيو اقترح على المندوبين في المينو بلازير (صالة المسرات البريئة) Menu Plaisirs ضرورة أن يرسلوا دعوة أخيرة للطبقتين الأخريين للانضمام إليهم فإن كانت الإجابة بالرفض فما على مندوبي الطبقة الثالثة إلا أن يعلنوا أنهم هم ممثلو الأمة الفرنسية وأن يشرعوا في سن القوانين. واعترض ميرابو في بادئ الأمر بأن الملك على رأس مجلس طبقات الأمة وبالتالي فهو - من الناحية القانونية - تابع له، ومن ثم يمكن فض المجلس بناء على رغبة الملك. وبعد أن قضى المجتمعون ليلة في النقاش وسوق الحجج والتشابك بالأيدي تم طرح القضية للتصويت: أسوف يعلن المجتمعون أنفسهم جمعية وطنية؟ وتمت الموافقة على ذلك

بأربعمائة وتسعين صوتاً مقابل تسعين كانوا هم المعترضين فقط. وتعهد النواب بالالتزام بحكم دستوري. ومن الناحية السياسية تكون الثورة قد بدأت في 17 يونيو سنة 1789.

وبعد ذلك بيومين اجتمع ممثلو الإكليروس بشكل منفصل وصوتوا لصالح الانضمام لطبقة العوام (الطبقة الثالثة)، وكان عدد الأصوات الموافقة 149، مقابل 137 اعترضوا وألقى الإكليروس الأدنى درجة بتقلهم لصالح طبقة العوام وفزع ذوو الرتب الكنسية العليا من الإكليروس من هذا الانشقاق فانضموا للنبلاء ولجأوا إلى الملك لمنع اتحاد الطبقات معا حتى لو اقتضى الأمر حل مجلس طبقات الأمة وصرفه، فأمر الملك في مساء يوم 19 يونيو بإغلاق صالة المسرات البريئة (مينو بلازير Hotel des Menus Plaisirs) لإعدادها لجلوس ممثلي الطبقات الثلاث في الدورة الملكية التي ستعقد في 22 يونيو. وعندما ظهر نواب الطبقة الثالثة في اليوم العشرين وجدوا الأبواب موصدة فاعتقدوا أن الملك يريد صرفهم فاجتمعوا في ملعب تنس مجاور Salle du Jeu de Paume واقترح مونييه Mounier على النواب وعددهم 577 المتجمعين أن يقسم كل واحد منهم ألا يفصل عن المجموع وأن يواجه الظروف مهما كانت حتى يتم وضع الدستور بشكل نهائي" وبالفعل أقسموا جميعاً ما عدا واحداً، وقد سجل الفنان جاك لويس ديفيد Jacques - Louis David هذا المشهد التاريخي في واحدة من أهم اللوحات الفنية الكبرى في هذا العصر. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجمعية الوطنية هي أيضاً الجمعية التأسيسية التي تتولى صياغة الدستور.

وتم افتتاح الدورة الملكية في 23 يونيو أي بعد الميعاد المقرر لها بيوم، وتلى خطاب للملك في حضوره، وكان الخطاب يعكس اقتناعه أنه بغير حماية النبلاء والكنسية ستتضاءل أهميته السياسية، ورفض في خطابه هذا دعوى الطبقة الثالثة بأنها هي الأمة، باعتبار ذلك أمراً غير قانوني. ووافق الملك في خطابه هذا على إلغاء السخرة، وإبطال إصدار المراسيم الملكية القاضية بالسجن من غير محاكمة وإلغاء رسوم الانتقال داخل فرنسا وكل ما يترتب على نظام القنانة (عبودية الأرض) لكنه أكد على اعتراضه على كل ما يفسد "الحقوق الدستورية القديمة،.. فيما يتعلق بالملكية أو المزايا الشرفية لطبقتي النبلاء والإكليروس" ووعده بالمساواة في الضرائب في حالة موافقة هاتين الطبقتين. كما قال إن كل ما يتعلق بالدين أو الكنسية لا بد أن يتم بموافقة الإكليروس، وأنهى خطابه بإعادة تأكيده على النظام الملكي المطلق:

"وإذا شاءت الأقدار أن تخليتم عني في هذا المشروع العظيم، فإنني وحدي سأعمل على رفاهية شعبي، وأنا وحدي الذي يجب أن ينظر في أمر ممثليه الحقيقيين.. اعتبروا أيها السادة ولتعلموا أن أي مشروع عاتكم وخطمكم لن يكون له قوة القانون بغير موافقتي.. إنني أمركم أيها السادة أن تنفضوا فوراً، وأن تجتمعوا غداً كل واحد منكم في الصالة المخصصة لطبقته"(11).

وغادر الملك ومعظم النبلاء وعدد قليل من الإكليروس صالة الاجتماع، وأعلن المركزي دي بريزي de Breze عن رغبة الملك في إخلاء الصالة. وأجاب باييه Bailly - رئيس الجمعية - بأن الأمة المجتمعة لا يمكنها أن تقبل مثل هذا الترتيب، ودوى صوت ميرابو كالرعد معلناً لدى بريزي de Breze : "أذهب وقل لمن أرسلوك إننا هنا بإرادة الشعب ولن نغادر إلا إذا أجبرتمونا على ذلك بالقوة المسلحة"(12). ولم يكن ما قاله صحيحاً فقد أتوا إلى هنا بناء على دعوة الملك ومع هذا فقد عبر المجتمعون عن هذا المعنى نفسه بالصياح قائلين "تلك إرادة الجمعية" وعندما حاول الحرس الملكي دخول القاعة سدت مجموعة من النبلاء الليبراليين - وكان من بينهم - لافاييت Lafayette - المداخل بسيفهم المشهورة، وعندما سئل الملك عما يجب عمله أجاب بضجر "دعوهم يبقون".

وفي 25 يناير انضم دوق أورليان Duc d'orleans مع سبعة وأربعين نبيلاً للجمعية الوطنية فاستقبلهم أعضاءها بعاصفة من الفرح وتردد صدى صياحهم المتحمس في أرجاء القصر الملكي Palais - Royal وحوله، وتأخى الحرس الفرنسي مع الحشود الثائرة، وفي اليوم نفسه شهدت العاصمة ثورتها السلمية فقد التقى الرجال الذين كان قد تم اختيارهم (وكان عددهم 407) من أقسام باريس لاختيار مندوبي باريس في دار البلدية Hotel de Ville وقاموا بتعيين مجلس بلدي جديد، ولما رأى المجلس الذي عينه الملك أنه لا يجد دعماً عسكرياً يؤازره تخلى - سلمياً - عن دار البلدية.

وفي 27 يونيو استسلم الملك لحكم الظروف وتوجهات نيكر Necker وأمر طبقتي النبلاء والإكليروس بالانضمام إلى الجمعية الوطنية الطائفة، وبالفعل ذهب النبلاء إليها لكنهم رفضوا المشاركة في التصويت ومن ثم عاد كثيرون منهم إلى ضياعهم.

وفي أول يوليو استدعى لويس عشرة أفواج - معظمهم من الألمان والسويسريين - لمساعدته، وفي العاشر من يوليو احتلت قوات قوامها ستة آلاف جندي بقيادة المارشال دي بروجلي Marechal de Broglie فرساي، واتخذ عشرة آلاف جندي بقيادة البارون دي بيسينفال Baron de Besenval مواقع حول باريس. وفي أجواء مألها الهياج والرعب شرعت الجمعية في اعتبار التقرير الذي سبق تقديمه في 9 يوليو بمثابة دستور جديد. وتوسل ميرابو إلى

الأعضاء أن يحتفظوا بالملك كدرع ضد الفوضى الاجتماعية وحكم الغوغاء، ووصف لويس السادس عشر بأنه رجل طيب القلب ذو نوايا حسنة لكن مستشاريه قصيري النظر يضلونه وقال لهم وكأنه يتنبأ: "أدرَسَ هؤلاء الناس في تاريخ أي شعب كيف تبدأ الثورات، وكيف يجري تنفيذها؟ ألم يلاحظوا كيف أن سلسلة من الظروف التي يفرضها القدر تبعد أحكم الرجال عن حدود الاعتدال، وكيف أن الشعب الساخط تدفعه الأحداث المرعبة لتورده موارد الإسفاف؟" (13).

وانصاع أعضاء الجمعية لنصيحته لأنهم شعروا أيضا بتطور الأحداث السريع في شوارع باريس. لكن الملك لويس بدلا من أن يكافئ الطبقة الثالثة بتنازلات جوهرية لتهديتها، فإنه أثار غضب الراديكاليين والليبراليين بطرده نيكر Necker للمرة الثانية (في 11 يوليو) ليضع في منصبه صديق الملكة العنيد المتشدد البارون دي برينيل (Baron de Breteuil) وفي 12 يوليو جعل المقاتل دي بروجلي de Broglie وزيرا للحرب، وتأزمت الأمور وحان وقت الجد.

صفحة رقم : 14541

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الجمعية الوطنية -> الباستيل

2- الباستيل

في 12 يوليو اعتلى كاميل ديمولين Camille Demoulin (اليسوعي) المتخرج، منضدة خارج مقهى دي فوي Caf  de Foy بالقرب من القصر الملكي وأعلن خير طرد نيكر واستدعاء القوات الأجنبية وراح يصرخ "إن الألمان سيدخلون باريس هذه الليلة ليذبحوا سكانها" وراح يحث مستمعيه على تسليح أنفسهم وقد نفذوا ما أشار به لأن المجلس البلدي الجديد لم يبد إلا مقاومة واهية عندما كسروا الأبواب وصادروا الأسلحة المخزونة في دار البلدية. لقد أصبح الثوار المسلحون يستعرضون الآن قوتهم في الشوارع رافعين تماثيل نصفية لنيكر ودوق أورليان Duc d'Orl ans مزينين قبعتهم بأشرطة نوات عقد خضراء. وعندما أصبح معروفا أن هذا اللون هو أيضا لون ملابس خدم الكونت المكروه (كونت درتوا Conte d'Artois) الأخ الأصغر للملك وكذلك حرسه، فإنهم سرعان ما غيروا ألوان عقد أشرطة قبعتهم ليجعلوها حمراء وبيضاء وزرقاء - الألوان التي تمثل العلم الوطني. وأغلق رجال البنوك البورصة وكونت الطبقة الوسطى ميليشيا خاصة بها أصبحت هي نواة الحرس الوطني بقيادة لافاييت Lafayette؛ كل ذلك خوفاً من عنف طائش لا يميز وتدمير للممتلكات وذعر مالي. ومع هذا فإن بعض الوكلاء البورجوازيين - رغبة منهم في حماية الطبقة الوسطى التي أصبحت آمنة الآن - أسهموا في تمويل المقاومة الشعبية للملكية المطلقة وجذب الحرس الفرنسي من أحضان الملكية صوب المشاعر الديمقراطية (14). وفي 13 يوليو أعيد تشكيل الجماهير فانضم إليهم عدد كبير من أحياء الفقراء وأتاهم مدد جديد من الجنود الجدد من كل حذب وصوب، وغزت هذه الجماهير المتزايد عددها مخزن السلاح في مستشفى المحاربين القدماء Hotel des Invalides واستولت على 28.000 بندقية (مسكت) وبعض المدافع، وخشي بيسينفال Besenval أن تطلق هذه الكتائب الشعبية النار على الشعب فاحتفظ بهم في الأحياء الجانبية، وعلى أية حال فقد أصبحت الجماهير المسلحة تسيطر الآن على العاصمة.

كيف يتم تصريف طاقات هذه القوى؟ لقد اقترح كثيرون توجيهها في محاولة للاستيلاء على الباستيل، ذلك الحصن القديم الواقع في الجانب الشرقي من باريس والذي شرع في بنائه منذ سنة 1370 وجرت توسعته شيئا فشيئا في

السنوات اللاحقة بقصد احتجاز وسجن من يحيق بهم غضب الملك أو النبلاء، وعادة ما كان ذلك يتم من خلال أوامر سجن تصدر بشكل سري من الملك Letters de Cachet، وفي سنة 1784 طلب من المهندس المعماري وضع خطط لتدمير الزنانات الكنيبية (15) من غير أن يعلم الناس بهذه الأوامر فقد كانوا يظنون أن الباستيل يضم زنانات يقبع بها ضحايا الحكم الاستبدادي.

بل إنه لم يكن لدى الثوار نوايا - كما هو ظاهر - بتحطيم حصن الباستيل لكنهم بعد أن قضوا ليلة استراحوا فيها تقاربت آراؤهم حول فكرة التدمير في 14 يوليو، ذلك اليوم الذي سيصبح عيداً وطنياً لفرنسا. لقد كان هدفهم هو أن يطلبوا من محافظ السجن أن يسمح لهم بالدخول ويتناولوا البارود والأسلحة النارية التي ذكرت التقارير أنها موجودة خلف جدرانه، ولم يجدوا حتى الآن إلا القليل من البارود ولم تكن بنادقهم الكثيرة ومدافعهم القليلة - بلا مزيد من البارود - قادرة على منعهما إذا وجه ببسينفال Besenval كتائبه إليهم. وعلى أية حال فإن هذه الجدران نوات السماكة البالغة ثلاثين قدماً والارتفاع البالغ مائة قدم التي تحميها أبراج مزودة بالمدافع، والمحاطة بخندق يبلغ عرضه ثمانين قدماً - كانت كتحذير كافٍ. وانضم أعضاء المجلس البلدي الجديد للجماهير وعرضوا التدخل لدى محافظ الباستيل لعقد ترتيبات سلام.

وكان محافظ الباستيل هو برنارد - رينيه جوردان Bernard - Rene` Jordan, Marquis de Lavnay رجلًا من المؤكد أنه مثقف ولطيف المعشر (16)، فقد استقبل المفوضين من الجماهير بترحاب، وعرض المفوضون أن يضموا أن يتصرف الثوار بشكل سلمي إذا هو أراح المدافع من مواقع الإطلاق. وإذا أمر جنوده وكان عددهم 114 جندياً بعدم إطلاق النار، ووافق المحافظ واستضاف الزوار لتناول الغداء.

وتلقت لجنة أخرى ضمناً مشابهاً، ولكن المحاصرون راحوا يصيحون قائلين إنهم يريدون ذخيرة لا وعوداً وكلمات. وبينما الطرفان يتفاوضان تسلق بعض العمال النشيطين إلى مراكز التحكم ودلوا الجسرين المتحركين فاندفع المهاجمون عبر هذين الجسرين إلى ساحة الباستيل، فأمرهم دي لوني de Launay المحافظ الأتف ذكره بالتراجع لكنهم رفضوا، فأطلق عسكره النار عليهم، وتغلب الثائرون المقتحمون عندما قام الحرس الفرنسي بإحضار خمسة مدافع وبدأ في تدمير أسوار الحصن، فتحت هذا الغطاء من النيران اندفع جمهور الثائرين إلى داخل السجن واشتبكوا في معركة مع جنود الحرس، وتلاحم الطرفان فسقط من المهاجمين ثمانية وتسعون. كما قتل واحد من المدافعين، وازداد المهاجمون عدداً وشراسة وعرض دي لوني De Launay محافظ السجن أن يسلم إذا سمح الثوار لرجاله بالخروج سالمين بأسلحتهم، لكن قادة الجماهير الثائرة رفضوا ذلك، فاستسلم قتل المنتصرون ستة عساكر آخرين وحرروا سبعة سجناء واستولوا على الذخائر والأسلحة وأسروا محافظ السجن دي لوني واتجهوا مظفرين إلى دار البلدية. وفي الطريق كان جانب من الجماهير مغيباً محققاً بسبب ما مر بهم من كوارث فضرّبوا رجلاً أرسنقراطياً اعتراه الارتباك والذهول وأجهزوا عليه وقطعوا رأسه ورفعوه على رمح، وقطع رأس جاك دي فليسيل Jacques de Flesselles شهيندر التجار والذي كان قد ضلل الناخبين عن موضع الأسلحة، وأضيف رأسه المقطوع إلى موكب الثوار، وكان قد جرى قطعه في بلاس دي جريف Place de Greve (ميدان الرمال).

وفي 15 يوليو جعل ناخبو الجمعيات المحلية من بابيه Bailly محافظاً لباريس (رئيساً لبلديتها Mayor) واختاروا لافاييت Lafayette رئيساً للحرس الوطني الجديد، وبدأ العوام السعداء (السانس كولوت أي الذين لا يرتدون سراويل بناطيل) قصيرة) في تدمير أحجار الباستيل حجراً حجراً، أما الملك الذي اعترته الصدمة وأصابه الرعب فقد ذهب إلى الجمعية الوطنية وأعلن أنه طرد الكتائب العسكرية التي سبق أن جلبها إلى فرساي وباريس. وفي 16 يوليو نصحه مؤتمر من النبلاء بمغادرة البلاد تحت حماية الكتائب المغادرة وأن يجد لنفسه ملاذاً في إحدى عواصم المقاطعات أو في بلاط أجنبي، وأيدت ماري أنطوانيت بحرارة هذا الاقتراح وجمعت جواهرها وما غلا ثمنه وسهل حمله استعداداً للرحلة (17) أما لويس فقد استدعى نيكير في 17 يوليو، وابتهج لذلك رجال المال والعامّة، وفي 18 من الشهر نفسه اتجه إلى باريس وزار دار البلدية ووقع بقبوله المجلس البلدي الجديد وثبت على قبعته الشريط ذا الألوان: الأحمر والأبيض والأزرق، وهي التي ترمز للثورة، وعاد إلى فرساي وعانق زوجته وأخته وأطفاله وقال لهم: "يسعدني ألا يسفك مزيد من الدماء، وإنني أقسم ألا تسفك قطرة دماء فرنسية بأمرى" (18) أما أخوه الأصغر كونت درتوا Comte d'Artios فقد أخذ معه زوجته ورئيسة الخدم (19) وقاد أول مجموعة من اللاجئين السياسيين emigres خارج فرنسا.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الجمعية الوطنية -> دخول مارا

3- دخول مارا

Marat

1789

لم يكن الاستيلاء على الباستيل مجرد عمل رمزي ومجرد سهم ضد الحكم الاستبدادي، وإنما كان عملاً أنقذ الجمعية الوطنية من الخضوع لجيش الملك في فرساي كما أنقذ حكومة باريس الجديدة من أن تحكم الكتائب العسكرية التي تطوق باريس سيطرتها عليها. لقد حافظت هذه العملية - بشكل غير مقصود تماماً - على الثورة البورجوازية، لكنها أتاحت لأهل باريس السلاح والذخيرة، وسمحت بذلك لتطورات أبعد مدى للقوى البرولتارية. لقد أدى سقوط الباستيل إلى إعطاء دفعة جديدة، للصحف التي زاد ولع الباريسيين بها فزاد عدد قرائها. وكانت صحيفة فرنسا (Gazette de France) جازيت دي فرانس) ومؤشر فرنسا (Mercure de France) مركير دي فرانس) وجريدة باريس (Journal de Paris) جرنال باريس) من الصحف القديمة التي ظلت محافظة على مستواها بعد أحداث الثورة، أما الآن فقد أصدر لوستالو Loustalot صحيفة ثورات باريس Les Revolutions de Pris في 17 يوليو 1789 وأصدر بريسو Brissot الوطني الفرنسي (لوباتريوت فرانسيس) (LePatriote Francais) في 28 يوليو، وأصدر مارا Marat صديق الشعب (لامى دي بيبيل (L' Ami du peuple) في 12 سبتمبر، وأصدر دى موليه Desmoulin صحيفة ثورات فرنسا Revolutions de France في 28 نوفمبر..... وبالإضافة لهذه الصحف كانت اثنتا عشرة نشرة تظهر كل يوم تصفق لحرية الصحافة، وترفع صوراً جديدة. وقيماً جديدة، وتحطم ما جرى العرف على توقيره.

ويمكننا أن نتخيل محتوى هذه النشرات بملاحظة أصل الكلمة Libel والذي يعنى "يطعن أو يقذف أو يشهر" فمن هذه الكلمة كان المسمى الفرنسي لهذه النشرات وهو ليبل Libelles أي الكتب الصغيرة المخصصة للسب والهجاء. وكان جان - بول مارا Jean - Paul Marat هو أكثر هؤلاء الصحفيين الجدد راديكالية وتهورا وقسوة وكان هو أقواهم وأكثرهم تأثيراً. ولد في نوشاتل Neuchatel في سويسرا في 24 مايو سنة 1743 من أم ملكية وأب سرديني (Sardinian) من سردينيا) ولم يكف أبداً عن تبجيل روسو Rousseau وهو وطني آخر اغترب عن بلده. درس مارا الطب في بوردو Bordeaux وباريس، ومارسه في لندن (1765-1777) وحقق قدراً معقولاً من النجاح في هذه المهنة. أما القصاص التي رويت بعد ذلك عن الجرائم والسخافات التي ارتكبها فربما كانت من تدبير أعدائه في جو الحرية الصحفية التي أسبىء استخدامها في ذلك الوقت (20). ومنحته جامعة سانت أندرو St. Andrews درجة فخرية (شرفية)، وعلى أية حال فهي درجة كما قيمها جونسون Johnson كانت أهميتها تزداد على وفق الدرجات العلمية السابقة عليها (21). وقد كتب مارا بالإنجليزية ونشر في لندن (1774) كتابه قيود العبودية The Chains of Slavery وهو شجب عنيف للحكومات الأوروبية باعتبارها مجموعة من المتآمرين من الملوك واللوردات

و الإكليريوس لخداع الشعوب و الاحتفاظ بولائها و تبعيتها. و عاد مارا إلى فرنسا في سنة 1777 و عمل طبيبياً بيطرياً في إسطنبول كونت درتوا Comte d` Artois ثم رقي طبيباً لحرس مخافر الكونت. و حقق بعض الشهرة في علاج الرئة و في طب العيون. و نشر بحثاً في الكهرباء و الضوء و البصريات و النار، و ترجمت بعض بحوثه إلى الألمانية. و ظن مارا أنه جرى تعيينه لعضوية أكاديمية العلوم Academic des Sciences ولكن هجومه على نيوتون Newton جعله موضع شك الأكاديميين.

وكان مارا Marat رجلاً شديد الكبرياء، وكانت العلال الجسدية تتناوب عليه فتعوقه وتجعله نزقاً سريع الغضب إلى حد الهياج الشديد. وكان مصاباً بالتهابات جلدية جعلته يجد راحة لبعض الوقت في الجلوس في الماء الساخن، وكان يكتب وهو بالفعل جالس في هذا الماء الساخن (22) وكان ذا رأس ضخم جداً إذا قورن بطوله الذي لا يزيد عن خمسة أقدام، وكانت إحدى عينيه أعلى من العين الأخرى. من المفهوم إذن لم كان يفضل العزلة. وكان الأطباء يعالجونه بفصد دمه بين الحين والحين لتخفيف آلامه. وكان يعمل بجد شديد وكان يقول عن نفسه إنني لا أقضي في النوم سوى ساعتين. إنني لم أستمتع بخمس عشرة دقيقة من اللعب طوال أكثر من ثلاث سنين (23). وفي سنة 1793 أصيب بداء الرئة وشعر أنه لن يعيش طويلاً، وربما كانت إصابته هذه بسبب طوال مكوثه في البيت. وكانت هذه الحقائق غير معروفة لشارلوت كورداي Charlotte Corday.

لقد تأثرت شخصيته بعلة الجسدية، فعوض نقصه بالخيلاء والغرور وعمل تقلب مزاجه وادعائه العظمة وشجبه الضاري لكل من نيكر Necker و لافاييت Latayette و لافوازيه Lavoisier ودعوته المجنونة للعنف الجماهيري. كل أولئك زاد من وطأته قدر من الشجاعة والحرقية والتكريس.

ولا يرجع نجاح جريده لمجرد المبالغات المثيرة التي يتسم بها أسلوبه فحسب وإنما يرجع في الأساس إلى تأييده المتواصل والمتحمس للبروليتاريا الذين لا أصوات لهم، ذلك التأييد الذي كان لا ينطوي على أي نوع من الرشوة. ومع هذا فهو لم يكن يبالي في تقدير ذكاء الشعب. لقد كان يرى الفوضى ضاربة أطنابها، وأضاف إليها فوضى جديدة من عنده لكنه على الأقل في ذلك الوقت لم يكن يدعو إلى الديمقراطية وإنما إلى الديكتاتورية والثورة والاعتقال تماماً كما كان يحدث في أيام روما الجمهورية، بل إنه قد اقترح أن يكون نفسه هو هذا الديكتاتور المطلوب (42). وفي بعض الأوقات كان يرى أن الحكومة يجب أن تكون في قبضة الملاك (أصحاب الثروة) طالما أن لديهم العصا الطولى التي تستخدم لصالح الجمهور (52). وكان يعتبر تركيز الثروة أمرًا طبيعياً لكنه اقترح موازنة ذلك بالدعوة إلى أن الرفاهية أمر ينطوي على الفسق، وإلى الحق المقدس للجائع والمحتاج.

"لا شيء فائض عن الحاجة يمكن أن يكون من وجهة نظرنا شرعياً طالما أن الآخرين يعانون من نقص الضروريات... فمعظم الثروات الكنسية يجب أن يتم توزيعها على الفقراء، ولا بد من إنشاء المدارس المجانية في كل مكان" (62) "إن المجتمع يضم أولئك الذين لا يملكون شيئاً والذين قلما يكفي حصاد عملهم لإعاشتهم، والمجتمع ملزم بالنسبة لهؤلاء أن يبدي لهم مورد رزق لتمكينهم من إطعام أنفسهم والسكنى واللباس بشكل مناسب، وعلى المجتمع أن يبدي الوسائل لعلاج المرضى منهم ورعاية كبار السن وتدبير وسائل تنشئة أطفالهم. وهؤلاء الذين يتمرغون في الثروة والنعيم لا بد لهم من إمداد المعوزين بضروريات الحياة" وإن لم يفعلوا يصبح من حق الفقراء أن يحصلوا بالقوة على ما يحتاجونه (72).

وقد ارتاب معظم أعضاء الجمعيات المنتابغة في مارا وخافوا من أفكاره، لكن السانس كولوت Sans culottes (الذين لا يرتدون سراويل <بناطيل> قصيرة (ii)) من بينهم كانوا يتسامحون مع أخطائه بسبب فلسفته، بل وكانوا يخاطرون بإخفائه إذا ما جدت الشرطة في البحث عنه. ولا بد أن مارا Mara كان يتحلى ببعض الصفات المحبوبة لأن رفيقته (زوجته التي تزوجها عرفياً أي بمجرد اتفاق الطرفين دون طقوس كنسية) ظلت مخلصه له إلى النهاية.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الجمعية الوطنية -> تخلي النبلاء عن امتيازاتهم

4- تخلي النبلاء عن امتيازاتهم

في 4 و5 أغسطس 1971

في 13 يوليو سنة 1971 كتب الحاكم موريس Gouverneur Morris من فرنسا "إن هذه البلاد أقرب ما تكون في الوقت الحاضر إلى فوضوية لا ضابط لها" (82) فالتجار ينحسمون في السوق وتسببوا في نقص الحبوب لصالحهم ورفعوا الأسعار، والعربات التي تنقل الطعام إلى المدن تتعرض للنهب في أثناء الطريق، وعمت الفوضى واختل الأمن وتهدد النقل. وضجت باريس من كثرة المجرمين. وكان الريف الفرنسي أيضا مرتعا للصوص الطوافين حتى إن الفلاحين في كثير من المقاطعات سلحوا أنفسهم في ذلك الجو من الرعب الهائل الذي سببته هذه الجموع التي لا يحكمها قانون، ففي غضون ستة أشهر اقتنى المواطنون 004.000 بندقية، وعندما انتهت فترة الرعب الهائل Great Fear هذه قرر الفلاحون استخدام أسلحتهم ضد جامعي الضرائب والاحتكاريين والسادة الإقطاعيين، فهاجموا قصور الإقطاعيين بالبنادق (المسكت) والمداري والمناجل (المحشات) وراحوا يطالبون بإظهار الوثائق والمستندات التي تثبت حقوق السادة، ومدى تقو يرضهم في جمع الرسوم الإقطاعية، فإذا ما أطلعهم عليها السادة، قاموا بحرقها، وإذا رفضوا إطلاعهم وقاوموهم، أحرق الفلاحون قصر السيد الإقطاعي وحدث في عدة حالات أن قتلوا المالك (السيد الإقطاعي) واستمر الحال على هذا المنوال منذ بداية شهر يوليو سنة 1971 وانتشر حتى عم أنحاء فرنسا كلها. وفي بعض الأماكن حمل المتمردون إعلانات يزعمون بمقتضاها أن الملك قد خولهم كل الصلاحيات في مقاطعاتهم (92). وغالبا ما كان التدمير يجري بغير ضابط ويعنف شديد حتى إن الفلاحين التابعين لأراضي دير مورباش Murbach أحرقوا مكتبة الدير، وحملوا معهم الطبق الذي يدار به على المتعبدين لجمع التبرعات واستولوا على ستائر الكتان وفتحوا براميل النبيذ وشربوا كل ما استطاعوا شربه وأرقوا الباقي. وفي ثمانية كومونات Communes (بلديات) اجتاح السكان الأديرة واستولوا على الحجج القانونية ومستندات الملكية بها وأعلنوا للرهبان أن رجال الدين (الإكليروس) أصبحوا الآن تابعين للشعب، وورد في تقرير مقدم للجمعية الوطنية أنه في كونتيه فرانش Franche Comte تم إحراق أو نهب نحو أربعين قصرا إقطاعيا، وفي لانجر Langers جرى نهب وإحراق ثلاثة قصور من خمسة، وفي دوفيني Dauphine جرى إحراق وتدمير سبعة وعشرين قصرا وفي فينوا Viennois تم نهب الأديرة كلها. وتم اغتيال من لا حصر لهم من السادة الإقطاعيين والبورجوازيين الأثرياء (03). أما المسؤولون الرسميون في المدن الذين حاولوا إيقاف ثورة الفلاحين (ثورة الجاكبين Jacqueries) فقد جرى عزلهم، بل لقد جرى إعدام بعضهم. وهجر الأرستقراطيون بيوتهم وراحوا يبحثون عن الأمان في أماكن أخرى لكنهم كانوا يواجهون هذه الفوضوية التلقائية التي لا ضابط لها أينما ذهبوا، ثم بدأت موجة الهجرة الثانية (النزوح عن فرنسا).

وفي ليلة 4 أغسطس سنة 1971 ذكر مندوب للجمعية الوطنية في فرساي في تقرير له أن "الخطابات الواردة من المقاطعات كلها تشير إلى أن مختلف الممتلكات عرضة للنهب يعنف إجرامي لا حد له، ففي أنحاء البلاد كلها جرى إحراق القصور الإقطاعية وتدمير الأديرة وتركت المزارع للناهبين. وتم إلغاء الرسوم الإقطاعية، وأصبح القانون بلا قوة تحميه وأصبح المسؤولون بلا سلطة ولا صلاحيات" (13). لقد أدرك من تبقى من النبلاء أن الثورة التي كانوا يأملون أن تكون قصرا على باريس وأن تهدأ ببعض التنازلات الصغرى التي تقدمها الحكومة قد أصبحت الآن على مستوى فرنسا كلها وأنه لم يعد من الممكن الاستمرار في تحصيل الرسوم الإقطاعية، فاقترح الفيكونت دي نوال "The Vicomte de Noailles" أنه لم يعد من الممكن فرض الرسوم الإقطاعية... إذ يجب إلغاء القناتنة (عبودية الأرض) وغيرها من أشكال العبودية الشخصية بلا تعويض، وأنه لا بد من أن تكون المبالغ المدفوعة مقننة على أسس عادلة" وأنهى حديثه معلنا نهاية التمايز الطبقي "لا بد أن يدفع كل فرد في المملكة ضرائب بما يتناسب مع دخله".

لقد كان الفيكونت دي نوال Noailles فقيراً وبالتالي كان يمكنه تحمل هذه الإجراءات تماماً، لكن دوق ديجلون the Duc d` Aiguillon كان من بين أغنى البارونات ثنى على الاقتراح وأعلن قبوله ذا الوقع الشديد قائلاً: "إن الناس قد حاولوا أخيراً أن ينفصوا عن كاهلهم نير العبودية الجاثم عليهم طوال قرون طويلة مضت، ويجب أن نعترف - رغم ضرورة شجب هذا العصيان المسلح - أن من الضروري أن نلتمس للثائرين عذراً فقد كانوا ضحايا بشكل مثير" (23) وقد دفع هذا الاعتراف النبلاء الليبراليين إلى تأييده بحماس، فتراحموا واحداً إثر الآخر لإعلان تخليهم عن امتيازاتهم التي كانوا يطالبون بها، وبعد ساعات من التخلي ذي الطابع الحماسي أعلنت الجمعية الوطنية في الساعة الثانية من صباح 5 أغسطس تحرير الفلاحين، وجرى إضافة بعض التحفظات بعد ذلك تطالب الفلاحين بدفع مبالغ على أقساط دورية لاسترداد رسوم معينة، لكن مقاومة هذه الفكرة جعلت تحصيلها غير عملي، وبذلك كان في هذا القرار إنهاء حقيقي للنظام الإقطاعي. وكان توقيع الملك على تخلي النبلاء عن امتيازاتهم مدعاة إلى اعتباره كما سجل في المادة 61 "معيد الحرية الفرنسية" (33).

واستمرت موجة المشاعر الإنسانية مدة طويلة تكفي لإبراز وثيقة تاريخية أخرى هي "إعلان حقوق الإنسان" والمواطن (72 أغسطس 1987) وقد اقترح هذه الوثيقة لافاييت Lafayette الذي كان لا يزال متحمساً لتأثيره بإعلان الاستقلال ووثائق الحقوق التي أعلنتها عدة ولايات أمريكية، وأيد النبلاء الأصغر سنأ في الجمعية مبدأ المساواة لأنهم كانوا قد عانوا من المزايا الوراثية التي كان يتمتع بها أكبر الأبناء، وبعضهم مثل ميرابو Mirabeau كان قد عانى من السجن التعسفي.

وشجب المندوبون البورجوازيون تفرد الأرسقراطيين بالوضعية الاجتماعية واحتكار النبلاء المناصب العليا في المجالين المدني والعسكري. وكان معظم الأعضاء قد قرأوا ما كتبه روسو Rousseau عن الإرادة العامة وقبلوا ما اعتقده هذا الفيلسوف من أن لكل إنسان حقوقاً أساسية بمقتضى القانون الطبيعي. لكل هذا لم تكن هناك سوى معارضة قليلة لأن يتصدر الدستور الجديد إعلاناً بدأ مكملاً للثورة. وكانت بعض المواد تتضمن تكراراً:

مادة 1: ولد الناس أحراراً ويظلون أحراراً ومتساويين في الحقوق.....
مادة 2: هدف التنظيمات السياسية لكها هو ضمان الحقوق الطبيعية التي لا يمكن انتزاعها بحكم القانون أو العادة للإنسان (الحقوق الأساسية) وهذه الحقوق هي الحرية والملكية والأمن ومقاومة الجور.
مادة 4: الحرية هي أن يمارس الفرد كل ما يحلو له شريطة ألا يكون في ذلك ضرر للآخرين، ومن هنا فإن ممارسة كل إنسان لحقوقه الطبيعية لا حد لها إذا عاقت أفراد المجتمع الآخرين عن التمتع بالحقوق نفسها. ومن ثم فهذه الحدود لا يرسما إلا القانون.....

مادة 6: القانون هو تعبير عن الإرادة العامة، ولكل مواطن الحق في المشاركة شخصياً أو من خلال ممثل له في صياغته أي القانون... والمواطنين كلهم سواء في نظر القانون، ولهم حقوق متساوية في شغل المناصب والوظائف العامة على وفق قدراتهم.....

مادة 7: لا يجوز اتهام أي شخص أو القبض عليه أو سجنه إلا على وفق الطرائق التي يحددها القانون....
مادة 9: الأفراد كلهم أبرياء إلى أن تثبت إدانتهم، وإذا حتمت الضرورة القبض على أي شخص فإن القانون يمنع بشدة استخدام العنف مع السجنين أو المعتقل.
مادة 10: لا يضار أحد بسبب آرائه بما في ذلك معتقداته الدينية طالما أن إظهار هذه الآراء والمعتقدات لا يخل بالنظام العام كما يحدده القانون.

مادة 11: حرية تداول الأفكار والآراء مكفولة وهي من أهم حقوق الإنسان، فكل مواطن له حق الكلام والكتابة وله أن ينشر ما يريد بحرية لكنه سيكون مسؤولاً إذا أساء استخدام هذه الحرية مسنولية سيحددها القانون.
مادة 17: ما دامت الملكية حقاً مقدساً لا يجب انتهاكه فلن يسلب أحد ممتلكاته أو يجردها منها إلا على وفق ما تمليه المصلحة العامة وهو الأمر الذي يحدده القانون بوضوح، وفي حالة نزاعها - أي الملكية - لا بد من تقديم تعويض عادل ومنصف للمنزوع ملكيته (43).

ومع تأكيد هذه المثاليات الديمقراطية ظل هناك بعض القصور فقد ظل الرق مستمراً ومسموحاً به في مستعمرات فرنسا في الكاريبي حتى أبطها ميثاق إبطال الرق في سنة 3971، وقصر الدستور الجديد حق الاقتراح وشغل المناصب العامة على دافعي الحد الأدنى من الضرائب. وظلت الحقوق المدنية غير كاملة بالنسبة للممثلين actors والبروتستانت واليهود. وامتتع لويس السادس عشر عن الموافقة على الإعلان على أساس أنه سيؤدي إلى مزيد من الفوضى وعدم الاستقرار. ولم يبق أمام الباريسيين سوى إجباره على القبول.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الجمعية الوطنية -> إلى فرساي

5- إلى فرساي

5 أكتوبر 1987

ظل الشغب في باريس طوال شهري أغسطس وسبتمبر، وتزايد نقص الخبز وراحت ربوات البيوت يناضلن للحصول عليه من المخازن، وفي إحدى نوبات الشغب هذه أعدم العامة خبازاً وأحد مسؤولي البلدية. ودعا مارا Marat إلى مسيرة للجمعية الوطنية والقصر الملكي في فرساي:

"عندما يكون الأمن العام في خطر لا بد للشعب أن يستولي على السلطة من أيدي أولئك الذين يقبضون عليها... ضعوا هذه المرأة النمساوية (الملكة) وأخي زوجها (أرتوا Artios) في السجن... اقبضوا على الوزراء ومساعدتهم وكبلوهم بالحديد... تأكدوا من وجود المحافظ (رئيس البلدية) [ذلك البائس الدمث المستغرق في أحلام اليقظة] والقادة التابعين له، لا تدعوا الجنرال [لافاييت] يبتعد عن نواظركم و اقبضوا على مساعديه... فلا حق لوريث العرش في الغداء طالما أنكم لا تجدون الخبز. نظموا صفوفكم المسلحة... هيا إلى الجمعية الوطنية لنطالب معا وجميعاً بالطعام... طالبوهم أن يكون لفقراء الأمة مستقبل آمن من خلال تضامننا. إنكم إن رفضتم الالتحاق بالتشكيلات المسلحة فليس أمامكم إلا الاستيلاء على الأراضي والذهب الذي يمتلكه الأوغاد الذين يريدون إجباركم على شروطهم في ظل الجوع، اقتسموا فيما بينكم ذهبهم وممتلكاتهم. هيا حملوا رؤوس الوزراء وتابعيهم التفاهين. هيا إنه الوقت المناسب!" (53).

وركن لويس إلى نصائح وزرائه القاضية بضرورة استدعاء جنود لم يتأثروا بالأفكار الثورية لحمايته وحماية أسرته وبلاطه، وذلك خوفاً من تحريض الصحافة الباريسية وخوفاً من الفوضى الضاربة أطنابها في باريس ومظاهرات الجماهير في فرساي. فأرسل في أواخر شهر سبتمبر إلى دواي Douai مستدعياً أفواج الفلاندر العسكرية Flanders Regiment، فلما وصلت رحب بها حرس الملك الذي أقام لأفرادها مأدبة في دار الأوبرا بالقصر، وعندما ظهر لويس وماري أنطوانيت علا تصفيق الجنود بشدة، فقد كانوا نصف سكارى لفرط ما شربوا من النبيذ، كما أن جلال المشهد الملكي زادهم حماساً، لذا سرعان ما أراحوا الشارات الوطنية مثلثة الألوان من على بزاتهم العسكرية ووضعوا الشارات الملكية (الأبيض والأسود) على قبعاتهم، وورد في التقارير أن الألوان التي ترمز للثورة قد طرحت أرضاً لتدوسها أقدام الراقصين (63) (وقد أنكرت مدام كامبا Mme Campan الوصيفة الأولى للملكة والتي كانت شاهدة عيان حدوث هذا) (73).

وتضخمت القصة عند وصولها إلى باريس، وتأكدت بسبب تقرير مؤداه أن جيشاً يتجمع بالقرب من متز Metz بنية التوجه إلى فرساي لفض الجمعية الوطنية. واستنكر ميرابو Mirabeau والمندوبون الآخرون هذا التهديد العسكري الجديد. وطالب مارا Marat ولوزتالو Loustalot وصحفيون آخرون بضرورة أن يرغم الشعب كلا من أفراد الأسرة المالكة والجمعية الوطنية على الانتقال إلى باريس حتى يكونوا تحت مراقبة الجماهير. وفي 5 أكتوبر أخذ النسوة في سوق المدينة ممن يعلمن بنقص الطعام على عاتقهن تكوين فرقة للتوجه إلى فرساي على بعد عشرة أميال من باريس. وكان ينضم إليهن في مسيرتهن رجال ونساء وكثيرون بلغوا الألاف. ولم يكن الموكب تراجيدياً أو كنيئاً،

فقد لظفت منه حيوية الفرنسيين، فقد راح جميعهم يصيح "سنحضر معنا الخباز وزوجته" وسنستمع بالاستماع إلى ميرابو" (83).

ووصل الموكب إلى فرساي بينما المطر ينهمر بكثافة، وتجمعوا في صفوف كيفما اتفق أمام بوابات القصر الملكي العالية وأسواره وطالبوا بمقابلة الملك، وتوجه وفد إلى الجمعية الوطنية وأصر على ضرورة أن يدبر المندوبون في الجمعية الخبز للحشود المتجمعة. واتجه مونييه Mounier - القائم بالحراسة في ذلك الوقت مع إحدى المندوبات وهي سيدة لطيفة اسمها لويسون شابري Louison Chabry لمقابلة لويس. فلما رأته تأثرت كثيرا حتى إنها لم تستطع أن تتطرق سوى بكلمة واحدة (خبز) ومن ثم سقطت مغشيا عليها. فلما أفاق وعدها لويس بتدبير خبز للجموع الجائعة التي بللها المطر. وعندما همت بالمغادرة أرادت أن تقبل يده لكنه عانقها عنقا أوبيا. وفي هذه الأثناء اختلطت كثيرات من الباريسيات الجذابات بجنود الفلمنكية (كتائب الفلاندر الأنف ذكرها) وأقنعنهم بعدم إطلاق النار على النسوة العزل. فتعاطف معهن الجنود واصطحب كثيرون من الجنود هؤلاء الجميلات الجائعات إلى تكتاتهم وقدموا لهم الطعام والدفء. وفي الساعة الحادية عشرة من هذه الليلة وصل لافاييت Lafayette على رأس خمسة عشر ألف من الحرس الوطني، فاستقبله الملك، وتعهد له لافاييت بحمايته، لكنه أي لافاييت - انضم إلى نكر Necker بتوجيه النصح للملك بقبول مطالب الشعب بالتوجه مع الملكة ليعيش في باريس. وكان لافاييت مرهقا فاتجه إلى هوتيل (ii) دي نوال

· Hotel de Noailles

وفي الصباح الباكر في يوم السادس من أكتوبر اندفعت الجماهير الغاضبة المرهقة إلى ساحة القصر الملكي من خلال بوابة تصادف فتحها وشق بعض الرجال المسلحين طريقهم إلى السلم ومنه إلى غرفة نوم الملكة التي هربت بلباس نومها وابنها على ذراعيها إلى غرفة الملك. وقاوم حرس القصر هذا الاقتحام ولاقى ثلاثة منهم حتوفهم، وهب لافاييت متباطئا لكنه كان راغبا في تقديم العون - لتهدئة هذا الشعب، مؤكدا الموافقة على مطالب الثائرين. واتجه الملك إلى الشرفة ووعد الجموع بالانتقال إلى باريس، فصاحت "عاش الملك!" لكن هذه الجموع عادت فطلبت ظهور الملكة أمامهم، فظهرت الملكة وانتصبت واقفة وفي هذه الأثناء صوب واحد من الجماهير المحتشدة بندقيته (من نوع المسكت) إليها، لكن القريبين منه كسروا بندقيته وفي هذه الأثناء تقدم لافاييت ليقبل يد الملكة في إشارة منه للولاء فهدأت الجماهير التي هتفت بحبها للملكة إن هي أنت لتعيش في باريس.

وكلما اقترب وقت الظهيرة تجمع موكب لا نظير له في التاريخ أمام الحرس الوطني وكتائب الحرس الملكي، ثم أنتت العربية الملكية التي تحمل الملك وأخته مدام إليزابيث والملكة وطفليها، وتلا ذلك صف طويل من العربات التي تجرها خيول حاملة أكياس الدقيق ثم الباريسيون المنتصرون وجنمت بعض النسوة فوق مدفع، ورفع بعض الرجال عاليا رؤوس من جرى إعدامهم من حرس الملك على أسنة الرماح، وفي سيفر Se vres توقفوا لنثر المساحيق فوق هذه الرؤوس وعقص شعورها (93). وكانت الملكة تشك في إمكان أن تصل إلى باريس وهي على قيد الحياة، لكنها في هذه الليلة نامت وكذلك أفراد الأسرة المالكة على أسرة أعدت على عجل في قصر التوليري Tuileries حيث سبق للملوك الفرنسيين أن ناموا قبل أن يجعل عصيان المقاليع (الفروند Fronde) من باريس مكانا كريها بالنسبة للويس الرابع عشر · Louis XIV. وبعد ذلك بأيام قلائل تبعتهم الجمعية الوطنية حيث أقاموا في مسرح القصر نفسه. ومرة أخرى فرض الباريسيون رأيهم بلي ذراع الملك والآن انصاع الملك لرعاياه وقبل إعلان حقوق الإنسان كأمر واقع. وهكذا بدأت الهجرة الثالثة (هجر فرنسا).

صفحة رقم : 14545

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الجمعية الوطنية -> الدستور الثوري

وشرعت الجمعية الوطنية في كتابة الدستور الذي يحدد ويقتن منجزات الثورة، وكانت في عملها هذا متحررة من الضغوط الملكية، لكنها كانت واعية بشكل قلق للمدينة (باريس) التي تراقب أفعالها. بادىء ذي بدء، أوجب الإبقاء على الملكية؟ لقد أبقّت الجمعية عليها وسمحت أن تكون وراثية، لأنها أي الجمعية خشيت من انتقال الولاء ومشاعر الانتماء من العرش للأمة، فالهالة المحيطة بالملكية كانت أمراً ضرورياً للانضباط الاجتماعي، ويمكن أن يكون حق انتقال الملك ضمناً يمنع نشوب حروب الوراثة ومثل هذه المشروعات المتعلقة بضبط وراثة العرش كانت بالفعل تختمر في ذلك الوقت في القصر الملكي. لكن سلطات الملك لا بد من تحديدها بصراحة، فستقدم له الجمعية الوطنية في كل سنة قائمة "بالمخصصات الملكية" لإنفاقه، وسيحتاج أي إنفاق يزيد عن هذه "المخصصات" إلى إصدار تشريع جديد.

وإذا غادر الملك المملكة الفرنسية بلا إذن الجمعية الوطنية أمكن عزله عن العرش. ومن حق الملك أن يختار وزراءه وعزلهم لكن على كل وزير أن يقدم تقريراً شهرياً عن تصرفاته المالية في نطاق الميزانية المنوطة به ويمكن استجوابه في أي وقت أمام المحكمة العليا. والملك هو الرئيس الأعلى للجيش والبحرية لكنه لا يستطيع إعلان الحرب أو توقيع معاهدة بلا موافقة مسبقة من المجلس التشريعي، ومن حقه أن يعترض على أي تشريع يقدم له لكن إذا أقرت ثلاثة مجالس تشريعية متوالية هذا التشريع الذي اعترض عليه اعتبر هذا التشريع قانوناً (بصرف النظر عن اعتراضه).

والمسألة الثانية: أوجب أن يكون المجلس التشريعي مكوناً من هينتين كما هو الحال في إنجلترا وأمريكا؟ ويمكن للهيئة العليا أن تبت في الأمور المستعجلة، لكنها يجب ألا تكون مكونة من أفراد الطبقة الأرستقراطية أو كبار السن. وقد رفضت الجمعية الوطنية ذلك فباعتبارها حارساً على منجزات الثورة أعلنت إبطال المزاي والألقاب الوراثية كلها فيما عدا تلك الخاصة بالملك.

ويقوم "المواطنون الفعالون" ويقصد بهم فقط أولئك الذكور البالغون ذوو الممتلكات الذين يدفع الواحد منهم ضريبة مباشرة تبلغ ما يساوي قيمة عمل ثلاثة أيام، وهذا التعريف يشمل الفلاحين الأثرياء لكنه لا يشمل الأجراء والبروليتاريا، إذ جرى اعتبار هؤلاء "مواطنين سلبين" لأنه يسهل على سادتهم وعلى الصحفيين التأثير فيهم ليصبحوا أداة للفوضى والعنف والتراجع. وعلى وفق هذا الترتيب تمتع 4.982.063 رجلاً (من بين 52 مليون نفس) بحق الانتخاب في فرنسا في سنة 1971، وأصبح ثلاثة ملايين بالغ لا حق لهم في التصويت. لقد أقرت الجمعية الوطنية البورجوازية ثورة البورجوازيين خوفاً من جماهير المدينة (باريس).

وقسم الدستور فرنسا على وفق أغراض انتخابية وإدارية إلى ثلاث وثمانين دائرة (محافظة أو قسم إداري كبير) تنقسم كل دائرة منها إلى بلديات (كومونات Communes) بلغت 34.063 كومون (بلدية). لقد أصبحت فرنسا للمرة الأولى أمة موحدة بلا أقاليم أو مناطق نوات امتيازات وبلا رسوم انتقال داخلي، وأصبحت مناطق فرنسا جميعاً تستخدم نظاماً واحداً للمقاييس والمكاييل وتخضع للقوانين نفسها. والعقوبات حددها القانون ولم تعد على وفق تقدير القاضي، وتم إبطال التعذيب والتشهير والكي بالنار، ومع هذا فقد تم الإبقاء على عقوبة الإعدام، وكان هذا مثار سخط روبيسبير Robespierre، وأصبح المتهمون بارتكاب جرائم يمكنهم أن يختاروا المحاكمة أمام هيئة محلفين من "المواطنين الفعالين" تختارهم الهيئة القضائية، ويكفي أن يؤيد ثلاثة من اثني عشر عضواً في هذه الهيئة تبرئة المتهم، لاعتماد برأته. ويقضي القضاة في القضايا المدنية.

أما البرلمانات القديمة التي كانت سبباً في ظهور أرستقراطية ثانية فقد حلت محلها نظم قضائية جديدة تقوم جمعيات منتخبة بتعيين أفرادها. أما المحكمة العليا فيتم اختيارها من ممثلي العدالة في المحاكم الجنائية الأدنى درجة، بحيث يكون في هذه المحكمة العليا عضوان من كل محافظة (دائرة).

بقيت مسألتان مهمتان مرتبطتان معاً: كيف يتم تجنب إفلاس المملكة؟ وكيف يتم تنظيم العلاقة بين الكنيسة والدولة؟ لقد فشلت الضرائب في تمويل الحكومة بينما الكنيسة تقبض بيديها على ثروة تحسد عليها ولا تدفع عنها ضرائب.

وقد أخذت الجمعية برأي شارلز موريس دي تاليران بيريجور Charles Maurice de Talleyrand Perigord أسقف أوتون Autun الذي اقترح في 11 أكتوبر سنة 1987 الاستقادة من ممتلكات الكنيسة لدفع الدين الوطني. وتاليران Talleyrand هذا واحد من الشخصيات التي ثارت حولها الشكوك في التاريخ إذ يرجع أصله إلى أسرة عريقة معروفة بخدماتها العسكرية وربما كان من الممكن أن ينهج نهج أسرته لو لم تتخلع قدمه إثر سقطة وهو في الرابعة من عمره وكان عليه أن يشق حياته بدم عرجاء لكنه كان مصمما على اجتياز كل عقبة تواجهه، وقد عهد به والده إلى الكنيسة، وقد قرأ في مرحلة الدراسة فولتير ومنتسكيو وكان يحتفظ دائما بخليعة، ومن الواضح أنه طرد من المدرسة اللاهوتية التي كان بها في سنة 5771 لكن في تلك السنة وكان في الواحدة والعشرين من عمره عينه لوييس السادس عشر مسئولاً عن دير القديس (سان) دينيس St- Denis في رايم Reims وقد جرى ترسيمه قسيساً في سنة 9771 وفي اليوم التالي أصبح هو النائب الأسقفي العام لعمارة رئيس أساقفة رايم Reims ، وظل مع هذا ينعم بصحبة السيدات ذوات الأصول الراقية وأنجب من إحداهن غلاماً أصبح ضابطاً تحت قيادة نابليون. وفي سنة 8871 تم تعيينه أسقفاً لأوتون Autun رغم معارضة أمه التقية التي كانت تعلم أنه رجل قليل الإيمان (رقيق العقيدة). ومع هذا فقد رتب أمر تقديم برنامج إصلاحى لمجلس طبقات الأمة مما دفع رجال الدين (الإكليروس) التابعين له لجعله مندوباً عنهم(04).

وقد وافقت الجمعية الوطنية في 2 نوفمبر سنة 1987 بأغلبية 805 ضد 643 على تأميم الممتلكات الكنسية التي كانت تصل قيمتها وقتئذٍ إلى ثلاثة بلايين فرنك(14) رغم المعارضة اليائسة لممثلي الإكليروس بها. وقد عهدت الجمعية للحكومة "بتقديم مصاريف إقامة العبادات العامة وتقديم الإعانات لرجال الدين وما يفرج عن الفقراء، وذلك بالطريقة المناسبة" وفي 91 ديسمبر خولت صندوق الأمور غير العادية Cousse de L extraordinaire صبيع 004 مليون فرنك مقابل أسينات assignats وهي أوراق نقدية تعطى لحائزها الحق في مبلغ مقرر (معلوم) من الممتلكات الكنسية بفائدة قدرها 5% عند إتمام البيع ودفعت الحكومة من هذه الأسينات assignates الديون العاجلة وبذا ضمنت دعم الجماعات المالية لنظام الحكم الجديد.

لكن الذين اشتروا هذه الأسينات وجدوا صعوبة في القيام بعمليات شراء على نحو مرض، فاستخدموها أي الأسينات كعملة، ولأن الدولة كانت قد أصدرت كثيراً من هذه الأسينات فقد استمر التضخم المالي، وفقدت الأسينات قيمتها إلا في دفع الضرائب حيث كانت الخزائنة مرغمة على قبولها بقيمتها المدونة عليها، وبالتالي وجدت الخزائنة نفسها مرة أخرى تعاني عجزاً مالياً يتزايد عاماً بعد عام.

وبعد أن اتخذت الجمعية الوطنية هذه القرارات الخطيرة التي لا رجعة فيها، في 31 فبراير سنة 0971 كانت كأنها قد اجتازت نهر الربيكون (Rubicon) (ti) أوقفت الأديرة، وسمحت بصرف معاشات تقاعد للرهبان المطرودين(24) أما الرهبان فقد تركن وشأنهن نظراً لقيامهن بخدمات قيمة في مجالي التعليم والإحسان. وفي 21 يوليو تم إعلان "الدستور المدني للإكليروس" الذي اعتبر القسس موظفين في الدولة يتقاضون منها رواتب، والذي اعتبر الكاثوليكية هي الدين الرسمي للدولة، أما بالنسبة للبروتستانت واليهود فلمهم أن يتعبدوا بحرية على وفق عقائدهم في أماكن عبادتهم الخاصة لكن لا تقدم لهم الحكومة دعماً. وتقوم الجمعيات المنتخبة في الدوائر (المحافظات) باختيار الأساقفة الكاثوليك، على أن يعفى من التصويت في هذه الحالة غير الكاثوليك أي البروتستانت واليهود واللاأدريين agnostic (34). وكان على كل القسس أن يتعهدوا بالامتنال الكامل للدستور الجديد كشرط لتسلمهم رواتبهم وقد رفض 031 أسقفاً في فرنسا من بين 431 أن يقسموا يمين الولاء كما رفض 64.000 قس من بين 07.000 من قسس الأبرشيات أداء هذا القسم أيضاً(44) واتخذت الغالبية العظمى من السكان جانب أولئك الإكليروس الراضين بتقديم قسم الولاء للدستور الجديد وقاطعوا الطقوس الدينية التي يقوم عليها رجال الدين الذين أدوا القسم. لقد أصبح هذا الصراع المتنامي بين الكنيسة المحافظة التي يؤيدها الشعب والجمعيات اللاأدرية السائدة التي تؤيدها الشرائع العليا من الطبقة الوسطى- عاملاً جوهرياً في إضعاف الثورة. وبسبب عدم شعبية هذا الإجراء ظل الملك الفرنسي طويلاً يرفض توقيع الدستور الجديد.

وكان لأخرين أسبابهم أيضاً لرفضه، فقد قاد روبيسبير Robespierre أقلية قوية للاعتراض على قصر حق الانتخاب على الملاك باعتبار أن ذلك انتهاك لإعلان حقوق الإنسان، وباعتباره أيضاً إهانة مثيرة لبروليتاريا باريس التي سبق لها أن أنقذت الجمعية الوطنية مراراً من القوات المسلحة الملكية.

واتفق الفلاحون وأهل المدن في استيائهم من التخلي عن الإجراءات والقوانين الحكومية التي كانت على نحو ما تحمي المنتجين والمستهلكين من (ضراوة) السوق الحرة التي يتلاعب فيها الموزعون.

ومع هذا فقد شعرت الجمعية وكان لها بعض الحق في هذا. أن الدستور كان وثيقة مهمة تعطي للثورة المنتصرة شكلاً قانونياً محدداً. واعتبر مندوبو الطبقة الوسطى الذين لهم السيادة الآن أن العوام- وكانت غالبيتهم أميين ليسوا مؤهلين للمشاركة بنسبة أعدادهم في قرارات الحكومة ومداولاتها. وبالإضافة لهذا- وقد هرب النبلاء الآن - ألم يحن الآن دور

البورجوازية في توجيه الدولة معتمدة بشكل متزايد على كبار السن الحكماء المجريين، وعلى اقتصاد متقدم فعال؟ لذا فإن الجمعية أعلنت فرنسا ملكية دستورية بلا اعتبار لتردد الملك، وفي 5 يونيو سنة 0971 دعت المحافظات (الدوائر) الثلاث والثمانين لأن ترسل كل محافظة (دائرة) حرسها الوطني الفدرالي لينضم لشعب باريس وحكومة فرنسا في ساحة دي مارس (شامب دي - مارس Champ de Mars) للاحتفال بإنجاز الثورة بمناسبة مرور عام على استيلاء الثوار على الباستيل. وفي أثناء انتشار نأب هذه الدعوة وما صاحبها من حماس دخل ثلاثون أجنبيا على رأسهم الهولندي الثري المعروف في التاريخ "أنا شارزيس كلوتس (Anacharsis Cloots) الجمعية في 91 يونيو وطلبوا أن يحوزوا شرف المواطنة الفرنسية وطلبوا حق التقدم "العيد" الفدرالية باعتبارهم "سفارة" تمثل الجنس البشري". وصدرت الأوامر بتنفيذ طلبهم.

لكن ساحة مارس الثلثة الأنف ذكرها كانت في حاجة إلى تسوية لتكون صالحة لهذه المناسبة إذ كان يجب تسوية مساحة تبلغ 3000-1000 قدم وإعداد شرفات بها لتستوعب 003.000 رجل وامرأة وطفل، وكان لا بد من الارتفاع بالرابية الوسطى ليكون مذبحاً يعتليه الملك والأمراء والأساقفة وأعضاء الجمعية وأصحاب الحق في الوقوف هذا الموقف لأداء يمين الولاء للأمة التي تولد ميلادا شرعيا جديدا الآن. وخصص لإعداد الساحة على هذا النحو خمسة عشر يوما فقط. من الآن يستطيع أن يناقش الصفحات الأربع عشرة (54) التي بين فيها كارليل Carlyle كيف أن أهل باريس رجالا ونساء، شبيا وشباناً قد أقبلوا جميعا حاملين معاولهم ومجارفهم ودافعين أمامهم عربات الواحدة منها ذات عجلة واحدة لنقل الركاب، وراحوا يغنون "ستسير الأمور على ما يرام" وسوا الأرض الواسعة وشيدوا الشرفات ومذبح قسم الولاء للوطن Autel de la Patrie من منا اليوم يجسر اليوم أن يكتب بمثل هذه الجرأة نافخا في أروق البلاغة معلنا هذا الانجذاب وذلك الفرح ذي الطابع التنبئي خاصة إذا علمنا أن نصف مخطوطاتنا قد أحرقتها خادمة متعجلة، وكان علينا أن نجمع ما تبعثر من جواهرنا مرة أخرى لتعيد ترتيبها وصدقها؟ أي نار كان يجب كبتها في هذا الاسكتلندي القاسي لإحياء مثل هذه المحرقة (الهولوكوست)!

وعلى هذا فإنه طوال الأسبوع السابق على هذا العيد الديني Holyday راح جنود من مختلف أنحاء فرنسا يتجهون إلى باريس وراح الحرس الوطني الباريسي في بعض الأحيان يقطع من باريس أميالاً كثيرة للقائهم ومرافقتهم. وفي 41 يوليو سنة 0971 دخلوا ساحة دي مارس الأنف ذكرها في موكب مهيب؛ خمسون ألفا من الأقوياء (64) أعلامهم ترفرف وفرقهم الموسيقية تعزف وحناجرهم تدوي بالأغاني القوية، وثلاثمائة ألف من الباريسيين المثيرين للخيال يصاحبونهم. ورتل الأسقف تاليران بيريجور Talleyrand pe`rigord ولم يكن قد طرد من رحمة الكنيسة بعد القداس، واعتلى منئذ من الأساقفة والقسس المذبح وأقسموا اليمين، وتعهد الملك بطاعة القوانين الجديدة بكل ما وسعه من جهد وصاحت الجموع "عاش الملك" وعندما أطلق المدفع طلقات التحية رفع آلاف الباريسيين ممن لم يتمكنوا من الحضور - أيديهم في اتجاه ساحة دي مارس Champ de Mars وأقسموا يمين الولاء. وجرت في كل مدينة فرنسية تقريرا مهرجانات مشابهة وشارك الجميع في تناول النبيذ والطعام وتعانق القسس الكاثوليك والبروتستانت كما لو كانوا مسيحيين على مذهب واحد. كيف يمكن لأي فرنسي أن يتشكك في أن عصرا جديداً مجيداً قد بزغ فجره؟

صفحة رقم : 14546

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الجمعية الوطنية -> ميرابو يدفع ديونه

7- ميرابو يدفع ديونه

كان رجل واحد وامرأة واحدة يمكنهما التشكك في بزوغ هذا الفجر الجديد. فبالنسبة للويس وزوجته الملكة بدا التولييري The Tuileries منزلاً زجاجياً ترصد من خلاله الجماهير كل حركة بأنيان بها بموافقة صامتة أو إدانة طال أمدها. وفي 13 أغسطس سنة 1791 تمرد فوج سويسري كان في خدمة الملك في نانسي Nancy بسبب تأخر الرواتب والمعاملة المتسمة بالاستبداد. وأطلق الحرس الوطني النار على بعض المتمردين وتم إرسال بعضهم إلى السفن، كما جرى شنق بعضهم. وتجمع أربعون ألف باريسي عند سماعهم بذلك وهددوا القصر الملكي واتهموا لافاييت Lafayette ولأموا الملك بسبب ما أسموه "مذبحة نانسي" وطالبوه بإقالة وزرائه. وبهوء غادر نكر Necker في 81 سبتمبر سنة 1791 ليعيش مع أسرته في كوبيت Coppet على ضفاف بحيرة جنيف، ونصح لافاييت الملك بتهنئة باريس بقبولة للدستور (74). وعلى أية حال فقد كانت الملكة مرتابة في مبدأ التخطيط لجعلها سلطة محررة للعرش، لذا فقد عبرت بوضوح عن بغضها بأن يترك البلاط ويترك لميرابو Mirabeau مهمة إنقاذ الملكية (84).

ورحب ميرابو. وكان في حاجة إلى المال ليكفي أسلوب حياته المتمسك بالإسراف. وشعر أن التضامن أو الائتلاف بين الملك والجمعية هو الخيار الوحيد لحكم يقوم عليه زعماء جماهيريون، ولم يكن يرى تناقضا في متابعة هذه السياسة وسد النقص (العجز) ثانية في موارده المالية. وكان قد كتب في 82 سبتمبر 1791 لصديقة لامارك La Marck : "لقد ضاع كل شيء فسيتم إبعاد الملك والملكة وسترى الجماهير المنتصرة ترقص فوق جثتيهما" (94) وكتب لصديقه هذا نفسه في 7 أكتوبر: "إن كان لك أي تأثير في الملك والملكة فلتحثهما على ترك باريس لأنهما إن لم يفعلا ضاعا وضاعت فرنسا. إنني مشغول بخطة لإبعادهما" (05) وقد رفض لويس هذه الخطة لكنه وافق على تمويل خطة ميرابو للدفاع عن الملكية. وفي أوائل شهر مايو سنة 1791 وافق على أن يدفع ديون المغامر الكبير بالسماح له بمبلغ ألف دولار في الشهر بالإضافة إلى مكافأة مقدارها 291.000 دولار إن هو نجح في إزالة الخلافات بين الملك والجمعية (15). وفي أغسطس منحه الملكة شرف اللقاء بها لقاء خاصا في حدائقها في سان كلود St. Cloud. وكان تأثير الملكة هائلا حتى أن تنين الثورة الصارم اهتز لفرط إخلاصه لها عندما قيل يدها. وتحدث ميرابو لأصدقائه المقربين عن جاذبيتها وسحرها "أنتم لا تعرفون الملكة.. إن لعقلها قوة مدهشة، وهي رجل إذا كان مقياس الرجولة هو الشجاعة" (25).

وكان ميرابو يعتبر نفسه "شخصا يقبض أو يتسلم أموالا لكنه لا يشتري" فعلى وفق ما ذكره لامارك La Marck فإنه يقبل أموالا تدفع له للاحتفاظ بأرائه أو للتمسك بأرائه (35). ولم تكن لديه نية للدفاع عن الحكم المطلق (الاستبدادي) بل على العكس فقد كانت الأفكار التي تقدم بها لوزراء الملك في 32 ديسمبر 1791 تشكل برنامجا للتوفيق بين الحرية العامة (حرية الجماهير) والسلطات الملكية: "إننا نخطيء الهدف إذا هاجمنا الثورة فهي حركة أعطت لشعب عظيم قوانين أفضل تستحق أن ندعمها... وإنما يجب قبول روح الثورة وكثير من العناصر في دستورها... إنني أقدر نتائج الثورة كلها... باعتبارها فتوحات لا يمكن الانسحاب منها فلا مجال لتدمير هذه النتائج تحت أي ظروف" (45). لقد راح ميرابو يعمل على إنقاذ ما تبقى من السلطات الملكية، يدفعه لذلك إيمانه وإخلاصه من ناحية، وما تلقاه من رشاو من ناحية أخرى. وقد تشكلت الجمعية في أمر ذمته لكنها احترمت عبقريته، ففي 4 يناير سنة 1791 اختارته رئيساً لها لدورة عادية مدتها أسبوعان، فأدهش الجميع بانضباطه الإداري وحياد قراراته. وكان يعمل طول النهار ويظل يأكل ويشرب طول المساء، وكان يرافق النساء. وفي 52 مارس استضاف راقصتين من الأوبرا، وفي صباح اليوم التالي أصيب بتقلص معوي حاد، وحضر اجتماع الجمعية في 72 من الشهر نفسه لكنه سرعان ما عاد إلى مقر إقامته منهكا يرتجف.

وانتشر خبر مرضه في باريس فتم إغلاق المسارح احتراماً له وحاصر الناس منزله يسألون عن أحواله وتقدم شباب عارضاً نقل دمه إليه (55) وقال تاليران Talleyrand له (لميرابو): "إنه من الصعب الوصول إليك فنصف أهل باريس يقيمون بشكل دائم خارج باب منزلك" (65) وفي 2 أبريل 1971 مات ميرابو بعد أن عانى في مرضه كثيراً. في 3 أبريل طلبت وفود من ناخبي باريس من الجمعية تحويل كنيسة القديس جنيفيف St. Genevieve إلى ضريح ومقبرة لأبطال فرنسا، وهذا البانثيون (Panthéon) كما أطلق عليه لا بد أن ينقش على مدخله "إلى عظماء الأمة، فبلاد أجدادهم ممتدة لهم"، وتم تنفيذ ذلك وتم دفن ميرابو في هذا المثوى في 4 أبريل وحضر جنازته فيما يقول ميشيل Michelet عدد غفير فكانت أكبر الجنازات التي شهدها العالم وأكثرها شعبية (75) وقدر المؤرخون عدد من حضرها ما بين 003.000 و 004.000 ملأوا الشوارع وتسلقوا الأشجار وأطلقوا النوافذ ومن فوق أسطح المنازل وحضرها كل أعضاء الجمعية الوطنية كلهم ما عدا بيتيو Petion (الذي كان لديه دليل سري على أن ميرابو تلقى أموالاً من الملك) وحضرها كل أعضاء نادى اليقافة كلهم وعشرون ألفاً من الحرس الوطني، لكنما ينقلون رفات فولتير أو رفات واحد من أولئك الذين لا يموتون أبداً (85). وفي 01 أغسطس ظهرت أدلة من بين أوراق الملك تشير إلى دفعه مبالغ لميرابو، وفي 22 سبتمبر سنة 1791 صدرت الأوامر في اجتماع للجمعية بنقل رفات البطل الملوث من البانثيون (مقبرة الخالدين).

صفحة رقم : 14547

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الجمعية الوطنية -> إلى فارين

8- إلى فارين

Varennes

02 يونيو 1971

لقد قاوم الملك إلهام النبلاء والملكة بضرورة الهرب من باريس وربما من فرنسا كلها ليعود مزوداً بجيش قوي فرنسي أو أجنبي يمكنه من إعادة ترسيخ وضعه على العرش، ومع أن الملك كان غير راض عن تجريد النبلاء والإكليروس والملكية من صلاحياتهم القديمة ومع أنه كان مقتنعاً أن شعباً كالشعب الفرنسي يتسم بالعنف والطيش والفردية سينصاع لغياب الحكم ولن يسمح بفرض القيود وصدور المراسيم التي تتأصل بمرور الوقت، فإنه - أي الملك - راح يعلق الآمال على السلطات والصلاحيات غير المؤثرة التي لا تزال في حوزته، ووقع في 12 يناير سنة 1971 الدستور المدني للإكلير و س (رجال الدين) لكنه شعر أنه يخون العقيدة التي كانت ملاذه الأثير ضد ما حاق به

في الحياة من خيبة أمل. لقد صدم بعمق بسبب قرار الجمعية الصادر في 03 مايو سنة 1971 بنقل رفات فولتير إلى مقبرة الخالدين (البانثيون Pantheon) لقد بدا له أمراً لا يحتمل أن تحمل رفاة كبير كفرقة القرن (ii) في موكب نصر لتودع بشرف وتكريم في مقبرة كانت حتى أمس فقط كنيسة للتكريس (موقوفة لغرض ديني نبيل) ووافق الملك أخيراً وبعد طول تردد على رأي الملكة وطلب منها أن تستعد للهرب خارج الحدود فجهز صديقها المخلص كونت أكسيل فون فيرسن Axel Von Fersen الأموال اللازمة للهرب ودبر تفاصيل الخطة، وكان الملك بالتأكيد رجلاً مهذباً gentleman وربما لم يكن ديوثاً (قواداً) لذا فقد شكره بحرارة (95).

والعالم كله يعرف القصة التالية: كيف تنكر الملك والملكة في زي رجل وزوجته. وغادر كورف Korff مع أطفالهم وخدمهم ومرافقيهم قصر التوليرير Tuileries خلسة في منتصف ليلة 12/02 يونيه سنة 1971 وظل راكباً طوال اليوم التالي بفرح مشوب بالخوف وقطع 051 ميلاً إلى فارين Varennes بالقرب من حدود ما يعرف اليوم باسم بلجيكا (كانت وقتها الأراضي المنخفضة النمساوية أي التابعة للنمسا) ومعروف كيف أوقفهم فلاحون مسلحون بالمداري والهراوات، وكيف قادهم جان بابتست دروت Jean- Baptiste Drouet مدير محطة البريد في ستي مينيهولد Ste Menhould، وأرسل أي مدير المحطة للجمعية طالباً التعليمات وسرعان ما وافاه بارنيف Barnave وبيتيو Petion بالإجابة: أحضر أسراك ولا تمسهم بسوء إلى باريس. والآن لقد مضت ثلاثة أيام لا عمل فيها قضاها ستون ألفاً من الحرس الوطني في مرافقة الأسرى الملكيين. وفي الطريق جلس بارنيف Barnave في العربة الملكية قبالة الملكة، وكان قد سبق تدريبه وفقاً لنظام الفروسية الذي تم إحيائه في عهد الحكم البائد. وقد تأثر بفتنة الجمال الملكي وراح يتأسى متحسراً، وراح يعجب متسائلاً في سريره عما يكون مصيرها ومصير أطفالها. وعندما وصل الركب إلى باريس كان قد أصبح عبداً Slave لها (أسيراً لها).

وبسبب جهوده بالإضافة إلى محاذير أخرى رفضت الجمعية طلب الذين لا يرتدون كلوتات (الشريحة الدنيا من طبقة العوام /slasans السانس كولوت) عزل الملك فوراً. فلا أحد يستطيع أن يخبر بنوع الفوضوية التي ستنشأ عن ذلك. أتكون الجمعية البورجوازية والممتلكات كلها تحت رحمة الجماهير الباريسية الذين ليس لهم حق دستوري في الانتخاب؟ لذا فقد سرى القول بأن الملك كان قد خطف أو أبعده قسراً عن مقر إقامته، لذا فلا بد من السماح له بالاحتفاظ برأسه (عدم إعدامه) على الأقل لفترة، واعترض الزعماء الراديكاليون ودعت النوادي والصحف الشعب للجمع في ساحة دي مارس في 71 يوليو سنة 1971 فاجتمع خمسون ألفاً ووقع ستة آلاف طلباً بتنازل الملك عن العرش (06) وأصدرت الجمعية أمرها للافاييت Lafayette والحرس الوطني لتفريق المشاغبين الذي رفضوا التفريق بل وحصب بعضهم أفراد الحرس وقتل الجنود الغاضبون خمسين رجلاً وامرأة، كان قتل بعضهم حرقاً، وبذا انتهت الأخوة العامة التي تعاهدوا عليها هناك منذ عام مضى. وطارد البوليس مارا Marat الذي كان يعيش في قبو رطب وراح يدعو لثورة جديدة، أما لافاييت فقد انتهت شعبيته وعاد إلى الجبهة وراح ينتظر بصبر فارغ الفرصة المناسبة ليهرب من الفوضى التي بلغت ذروتها في فرنسا.

وكلما اقترب الشهر من نهايته كثفت الجمعية جهودها لإنهاء أعمالها، وربما كان أعضاء الجمعية قد اعتراهم التعب وشعروا أنهم أنجزوا ما يكفي إنجازاً على مدى حياة الواحد منهم.

وحقيقة كانوا قد أنجزوا الكثير من وجهة نظرهم، فقد أشرفوا على القضاء على النظام الإقطاعي، وأبطلوا الامتيازات الوراثية وحرروا الناس من الاستبداد الملكي والأرستقراطية المتعجرفة التي لا عمل لأفرادها، ووضعوا أسس المساواة أمام القانون

وأنهوا مبدأ السجن بلا محاكمة وأعادوا تنظيم البلاد إدارياً سواء على المستوى المحلي أم على مستوى الدوائر (المديريات أو المحافظات) وهدبوا الكنيسة التي كانت ذات يوم مستقلة لها القدرة على توجيه النقد القاسي، بمصادرة ثروتها، وإعلان مبدأ حرية العبادة وحرية الفكر، وثأروا لجان كالا Jean Calas وفولتير Voltaire وشهدوا بسرور هجرة النبلاء الرجعيين، وجعلوا من الشرائح العليا للطبقة الوسطى حكماً للبلاد. وأنهم ضمنوا هذه التغييرات كلها في دستور استطاعوا الحصول على موافقة الملك عليه، وكذلك موافقة الغالبية العظمى من السكان باعتباره - أي هذا الدستور - أملاً في وحدة وسلام وطنيين.

وأكملت الجمعية الوطنية والتأسيسية (المنوط بها صوغ الدستور) أعمالها بالترتيب لانتخابات جمعية تشريعية لتضع قوانين محددة على هدى الدستور، ولتواجه بالدراسة المتأنية قضايا المستقبل. وحث روبيسبير Robespierre أعضاء الجمعية الوطنية على ألا يرشح أحد منهم نفسه لانتخابات الجمعية التشريعية، أملاً في أن يؤدي الاقتراع الجديد إلى دفع مزيد من الممثلين الشعبيين إلى السلطة. وفي 03 سبتمبر سنة 1971 أعلنت الجمعية الوطنية أشهر الجمعيات السياسية جميعاً حل نفسها (16).

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الجمعية التشريعية -> شخصيات الأحداث

الفصل الثالث

الجمعية التشريعية

أول أكتوبر 1971 - 02 سبتمبر 1971

1- شخصيات الأحداث

كانت انتخابات المؤسسة الثورية الثانية يراقبها الصحفيون بحماس وتشرف عليها الأندية بقوة فعالة. لقد أصبح للصحفيين تأثير جديد في السياسة العامة منذ كادت الرقابة على المطبوعات تختفي، فقد كان لكل من بريسو (Brissot) ولوزتالو (Loustalot) ومارا (Marat) وديمولين (Desmoulins) وفريرو (Fréron) ولاكلو (Laclos)، دورية (صحيفة) كمنبر له يعبر من خلالها عن آرائه في الدفاع عن حقوق الشعب.

وفي سنة 0971 كان في باريس وحدها 331 صحيفة بالإضافة إلى مئات الصحف في الدوائر (المحافظات أو المديرية)، وكانت هذه الصحف كلها تقريباً تؤيد الخط الراديكالي. وكان ميرابو (Mirabeau) قد نصح الملك بضرورة شراء بعض الصحفيين ذوي الشعبية إن أراد الاحتفاظ بعرشه أو برأسه. ومما قاله نابليون إنه "كان من الممكن أن يبقى نظام النبالة القديم لو عرف النبلاء بقدر كاف أن يسيطروا على المطبوعات... لقد أدى ظهور المدافع إلى قتل النظام الإقطاعي، أما الحبر فسيقتل النظام الحديث" (1).

وكادت النوادي أن يكون لها تأثير الصحف نفسه، فنادي البريتون (The Breton Club) الذي تبع الملك والجمعية إلى باريس أعاد تسمية نفسه بجمعية أصدقاء الدستور (Society of Friends the Constitution) وأجرت حجرة في الدير اليعقوبي السابق بالقرب من التوليري (Tuileries) ليعقد الأعضاء فيها اجتماعاتهم، وفيما بعد توسعوا في المكان فضموا المكتبة بل وحتى المصلى (2). وكان اليعاقبة كما أطلق عليهم التاريخ في البداية يمثلون كل أعضاء هذا النادي أو الجمعية لكنهم سرعان ما أثروا جماعاتهم بضم أشخاص مبرزين في العلوم والآداب والسياسة أو إدارة الأعمال. وهنا وجد الأعضاء السابقون (في الجمعية الوطنية) مثل روببسيير الذي نحى نفسه عن عضوية الجمعية التشريعية منطلقاً جديداً يمارسون منه السلطة. وكانت الديون مرتفعة فحتى سنة 3971 كان معظم الأعضاء من أفراد الطبقة الوسطى (3).

وتضاعف تأثير اليقوبيين بفعل منظمة النوادي المنتسبة إليهم في كثير من كومونات فرنسا (الكومون هنا تنظيم إداري أصغر من الدائرة أو المحافظة) والتي اتفقت جميعا على الاعتراف بالنادي الأم وبقيادته في مجالي الفكر والاستراتيجية. وفي سنة 1971 كان هناك نحو 6000 ناد يقووبي تضم جميعا نصف مليون عضو (4). وكان اليقوبيون يشكلون أقلية منظمة وسط جماهير (أغلبية) غير منظمة. وعندما أيدت الصحف سياساتهم أصبح تأثيرهم في المحل الثاني لا يسبقه سوى تأثير الكومونات (البلديات) التي تتحكم في التشكيلات المحلية للحرس الوطني من خلال مجالسها البلدية وأقسامها التأسيسية. وعندما كانت هذه القوى كلها تعمل بتناسق، كان على الجمعية أن تعمل حسابها أو تحسب أمر مواجهة جماهير غير مدركة لا يضيظها ضابط أو حتى مواجهة عصيان مسلح. لقد كتب رجل إنجليزي كان في باريس في سنة 1971 "إن النوادي متوفرة في كل شارع" (5). لقد كانت هناك جمعيات أدبية ورياضية ومحافل ماسونية وجمعيات عمالية. ولما وجد بعض الزعماء الراديكاليين أن اليقوبية بورجوازيون غلاة أسسوا في سنة 1971 "جمعية أصدقاء الإنسان والمواطن" التي سرعان ما أطلق عليها أهل باريس نادي الرهبان الفرنسيين (نادي الكوردليير) (Cordeliers Club) لأن أعضاءه كانوا يجتمعون في مبنى كان فيما سبق ديراً للفرنسيسكان، وقد أتاح هذا النادي لكل من مارا Marat وهربير Herbert وديمولين Desmoulins ودانتون Danton عرض أفكارهم فيه. وقد أسس كل من لافاييت Lafayette وباييه Bailly وتاليران Talleyrand ولافوازيه Lavoisier وأندريه Andre وماري جوزيف دي شينييه Marie Joseph de Che`nier ودو بونت دي نيمور Du pont de Nemours جمعية عرفت "بجمعية 1971" كان هدفها هو دعم الملكية المترنحة، وقد بدأت هذه الجمعية اجتماعاتها بشكل منتظم في القصر الملكي في سنة 1971، وكان تأسيسها بهدف الحد من غلواء اليقوبية، إذ رأى مؤسسو هذه الجمعية (جمعية 1971) أن اليقوبية راديكاليون مغالون (مفرطون في راديكالييتهم)، وظهرت جماعات أخرى ملكية (ذات توجه ملكي) بقيادة أنتوني بارنييف Antone` Barnave واسكندر دي لاميت Alexandre de Lameth اللذين كونا ناديا عرف في التاريخ باسمه المختصر الفويان (Feuillants) لأنهم كانوا يعقدون اجتماعاتهم في دير بندكتي عرف بهذا الاسم.

إن هذا كله علامة على علمنة الحياة الباريسية بسرعة فقد أصبح كثير من الأديرة السابقة الآن مراكز للإثارة السياسية.

وقد ظهرت التيارات (الاتجاهات) المختلفة للأندية في أثناء الانتخابات التي استوعبت ببطء أوراق الاقتراع السري على الجمعية الجديدة (التشريعية) إذ تم الاقتراع في شهري يونيو وسبتمبر سنة 1971، فالموالون Loyalists الذين هذبهم التسامح والتعليم عولوا على حث الناخبين وعلى تقديم الرشاوي لجمع الأصوات لصالحهم، أما اليقوبية وأعضاء النادي الفرنسيين (الكوردليير) الذين عرقتهم الأسواق والشوارع فقد زأجوا في دعائهم الانتخابية بين الرشوة واستخدام القوة (الإرغام) لقد فسروا القانون تفسيراً مفضلاً إلى أبعد مدى ومنعوا أي شخص رفض أن يقسم يمين الولاء للدستور الجديد من الإلقاء بصوته، ومن هنا فإن غالب الكاثوليك المتدينين قد جرى استبعادهم تلقائياً. وتم تنظيم الجموع للإغارة على الاجتماعات التي يعقدها الموالون Loyalists وتشتيت المجتمعين فيها، كما حدث في جرينوبل Grenoble، وفي بعض المدن مثل بوردو Bordeaux منعت السلطات البلدية كل اجتماعات النوادي ما عدا نادي اليقوبية وحدث في مدينة واحدة أن أحرقت اليقوبية وأنصارهم صندوق اقتراع كانوا يشكون أنه يضم أصواتاً غالبها محافظ (6).

ورغم هذه المظاهر الديمقراطية فلم تؤد الانتخابات إلى وصول أقلية أساسية تسعى للحفاظ على الملكية إلى الجمعية التشريعية. وشغل الفويان Feuillants وعددهم 462 عضواً القسم الأيمن من القاعة، لذا فقد أعطوا اسمهم (المحافظون) في كل مكان لكل من اتخذ مجلسه إلى اليمين. وجلس اليقوبية والكوردليير (جماعة أصدقاء الإنسان والمواطن) إلى اليسار في القسم المرتفع الذي أطلق عليه اسم الجبل وبالتالي فقد عرفوا باسم الجبلين Montagnards وفي الوسط جلس 553 عضواً رفضوا تصنيف أنفسهم ومن ثم فقد أطلق عليهم اسم أهل السهل Plain. ومن بين 557 عضواً كان هناك 004 قانوني كانوا ملائمين لطبيعة الجمعية التشريعية. والآن فقد خلف القانونيون رجال الدين في السيطرة على البلاد. وكان أعضاء الجمعية التشريعية كلهم تقريباً من الطبقة الوسطى، فلا زالت الثورة إذن عيداً للبرجوازية.

وحتى 02 يونيو سنة 1971 كان أكثر الجماعات نشاطاً في الجمعية التشريعية هم أولئك المنتمون إلى دائرة (محافظة) جيروندي Gironde. إنهم لم يكونوا حزبا منظما (ولم يكونوا من الجبلين) (ü) Montagnards) ولكنهم كانوا جميعاً تقريباً من مناطق نوات نشاط صناعي وتجاري - كان Caen ونانت Nantes وليون Lyons وليموج Limoges ومرسيليا Marseilles وبوردو Bordeaux، فسكان هذه المراكز النشيطة كانوا قد تعودوا على الحكم الذاتي Self-rule وكانوا يتحكمون في كثير من أموال المملكة وتجاريتها الداخلية والخارجية، وكانت بوردو Bordeaux عاصمة الجيروندي تتذكر بفخر أنها هي التي نشأت مونتاني

Montaigne ومنتسكيو Montesquieu ، وكان زعماء الجبرونديين كلهم تقريبا أعضاء في نادي اليعاقبة وكانوا متفقين مع معظم اليعاقبة الآخرين في معارضة الملكية والكنيسة لكنهم كانوا ممتعضين من أن تحكم باريس وجماهيرها بلاد فرنسا، واقترحوا بدلا من ذلك أن تكون فرنسا جمهورية فدرالية تتمتع دوائرها (محافظاتها) بقدر كبير من الحكم الذاتي.

وكان منظرهم هو كوندرسيه Condorcet وكان فيلسوفا ومتخصصا في التربية والمالية واليوتوبيا Utopia (المدينة الفاضلة أو المثالية). لقد مضى وقت طويل قبل أن ندفع له ما علينا من دين. وكان خطيبهم المفوه هو بيير فيرجنيو Pierre Vergniaud الذي ولد في ليموج Limoges من رجل أعمال وقد ترك بيير المعهد اللاهوتي ودرس القانون ومارس المحاماة في بوردو وتم انتخابه فيها للجمعية التشريعية التي جعلته رئيسا لها أكثر من مرة. وكان جاك بيير بريسو Jacques- Pierre Brissot لا يزال من أكثر أعضاء الجمعية التشريعية تأثيرا وهو من مواطني شارتر Chartres وكان أقرب إلى المغامر، شغل عدة وظائف، وخبر مجموعات القوانين في أوروبا وأمريكا وعاش في مناحات مختلفة، وباختصار فقد تم سجنه في الباستيل في سنة 4871، وأسس في سنة 8871 جمعية الأصدقاء السود Societé de Noirs Amis وعمل بجد على تحرير العبيد.

وكان واحداً من مندوبي باريس في الجمعية التشريعية وأخذ على عاتقه مهمة السياسة الخارجية، وقد قاد الاتحاض المنادي بالحرب. وقدمه كوندرسيه Condercet مع فيرجنيو Vergniaud إلى مدام دي ستيل de Stael فأصبحت من المداميين بإخلاص على الحضور إلى صالونها وساعدا عشيقها الكونت دي ناربون لارا - Comte de Narbonne Lara كي يعينه لويس السادس عشر وزيرا للحرب(7). وظل الجبرونديون لفترة طويلة يطلق عليهم اسم البريسوتيين Brissotins نسبة إليه.

ويذكر التاريخ جيدا جان ماري رولاند دي لا بلاتير Jean- Marie Roland de La Platière لسبب رئيسي وهو أنه تزوج لامعة ألهمة الأفكار والأسلوب وخدمته واحتقت بذكراه، ومجد صعودها إلى المقصلة على وفق رواية شهيرة وقد تكون خرافية. وعندما كانت جين مانون فليبو Jeanne Manon Phlipon في الخامسة والعشرين من عمرها تقابلت مع جان ماري Jean- Marie الأنف ذكره في روان Rouen في سنة 9771، وكان وقتها في الخامسة والأربعين من عمره، برأسه بداية صلع وكانت الاهتمامات التجارية والتأملات الفلسفية قد أرهقت، وكان ذا ابتسامه أبوية جميلة، وكان يدعو لرواقية نبيلة فتنت مانون التي كانت بالفعل متألفة مع الكلاسيكيات القديمة وأبطالها فقد قرأت بلوتارخ Plutarch وهي في الثامنة من عمرها، وكانت أحيانا تفضله على كتاب الصلوات عندما تكون في الكنيسة ومن أقوالها "إن بلوتارخ قد مهد الطريق لأكون جمهورية"(8).

وكانت ذات روح عالية وهي طفلة، فمن أقوالها "في مناسبتين أو ثلاث عندما ضربني أبي عضضت فخذة الذي كان يجلسني عليه"(9) ولم تفقد عضتها أبدا، لكنها قرأت أيضا حيوات القديسين، وتطلعت - وكأنها تنتبأ - إلى الاستشهاد (الموت في سبيل المبدأ) وشعرت بالجمال وأحست بجلال الطقوس الكاثوليكية واحتفظت باحترامها للدين وبعض الكتابات التي تناولت العقيدة المسيحية حتى بعد استمتاعها بكتابات فولتير Voltaire وديدرو Diderot ودلباش d'Alambert وديلمبير d'Holbach ولم تهتم كثيرا بروسو Rousseau وكانت صارمة جدا إزاء مشاعره، وبدلاً من ذلك فقد أضاعت قلبها لبروتس Brutus (شخص آخر) ومن كليهما أصبحت هي والجبرونديون يؤمنون بالمثل السياسية نفسها(ü)، وقد قرأت أيضا خطابات مدام سيفني Sevine لأنها كانت تتطلع إلى كتابة نثر كامل الأوصاف.

وكان هناك من طلب يدها للزواج لكنها كانت واعية بمآثرها فلم تكن لتقبل أي عشيق عادي، وربما وجدت أنه من الأفضل أن تجد حلا وسطا، وكان هذا عندما بلغت الخامسة والعشرين من عمرها فوجدت في رولان Roland الأنف ذكره "عقلا قويا وأمانة واستقامة ومعلومات وكياسة.... فقد جعلني وقاره أنظر إليه بتقدير كما هو بدون أي اعتبار للجنس"(01). وبعد زواجهما في سنة 0871 عاشا في ليون Lyons التي وصفتها بأنها "مدينة جرى تشييدها بفخامة بالإضافة إلى موقعها المهم، انتعشت فيها التجارة والصناعة... مشهورة بأثريائها الذين يحسدهم على ثرائهم حتى الإمبراطور جوزيف(11) Joseph". وفي فبراير سنة 1971 تم إرسال رولان Roland إلى باريس ليدافع عن مصالح تجارة ليون وأشغالها أمام لجان الجمعية التأسيسية، وحضر اجتماعات نادي اليعاقبة وكون صداقة قوية مع بريسو Brissot ، وفي سنة 1971 أقنع زوجته بالانتقال معه إلى باريس.

وفي باريس لم تعد سكرتيرته وإنما تحولت إلى مستشارة له. إنها لم تكن ترتب تقاريره بأناقة وإنما بدت توجه سياسته. وفي 01 مارس سنة 2971 عين وزيراً لداخلية الملك بوساطة بريسو Brissot . وفي هذه الأثناء أصبح لمانو Manon صالونا كان يلتقي فيه بانتظام بريسو Brissot وبيتيو Pe'tion وكوندرسيه Condorcet وبوزو Buzot وغيرهم من الجبرونديين، ليضعوا خططهم(21). وكانت تقدم لهم الطعام والمشورة، كما كانت تقدم لبوزو Buzot حياها بشكل سري (كانت على علاقة عشق به)، وقد تبعتهم أو سبقتهم بشجاعة إلى الموت.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الجمعية التشريعية -> حرب 1792

2- حرب 1792

لقد كانت فترة عصيبة للثورة، فالمهاجرون (الذين تركوا فرنسا بسبب الثورة) كانوا قد جمعوا بحلول عام 1791 عشرين ألف فرقة في كوبلنز Coblenz وراحوا يتقدمون مع منجديهم لتقديم العون. واستجاب فريدريك وليم الثاني Frederick William II في بروسيا لأنه وجد إمكانية انتهاز الفرصة لتوسيع مملكته على طول الراين Rhine ، وجوزيف الثاني Joseph II إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد يكون السبب الوجيه بالنسبة له لخوض حرب ضد فرنسا هو مساعدة أخته لكن شعبه أيضا كان في حالة ثورة، وما لبث أن مات ولم يكن أخوه ليوبولد الثاني Leopold الذي خلفه على عرش الإمبراطورية في سنة 0971 ميالاً للحرب، ومع هذا فقد أصدر هو وملك بروسيا "إعلان بيلننتس Pillnitz " التحذيري في 72 أغسطس سنة 1971 دعيا فيه حكام أوروبا الآخرين للانضمام إليهما في جهودهما ليعيدوا إلى فرنسا "الشكل الملكي لحكومتها لتكون مرة أخرى متمشية مع ما للملوك من حقوق ولتحسين أوضاع الأمة الفرنسية وازدهارها".

ومن الغريب أن نقول إن كلا من أنصار الملكية وأنصار الجمهورية كانوا يفضلون الحرب، فملكة فرنسا طالما حثت إخوتها على القدوم لإنقاذها، وكان الملك قد طلب صراحة من حكام بروسيا وروسيا وإسبانيا والسويد والإمبراطورية الثنائية (النمسا المجر) جمع قوات مسلحة لإعادة السلطان الملكي إلى ملك فرنسا (31) وفي 7 فبراير سنة 2971 وقعت النمسا وبروسيا حلفا عسكريا ضد فرنسا، فقد كانت النمسا في ترق شديد للاستيلاء على الفلاندر Flanders ، وكانت بروسيا لا تقل عنها توقا للاستيلاء على الألزاس Alsace .

وفي أول مارس توفي ليوبولد الثاني Leopold وخلفه ابنه فرنسيس الثاني Francis الذي كان مثلهما لخوض الحرب بسبب تفويضه بخوضها، ولرغبته في تحقيق مجد شخصي. أما في فرنسا فقد كان لافاييت Lafayette يجذب الحرب على أمل أن يكون هو القائد العام للقوات المسلحة الفرنسية وبذا يكون في وضع يمكنه من السيطرة على الجمعية والملك معا. أما الجنرال دوموربيه Dumouriez وزير الشؤون الخارجية فكان أيضا يفضل الحرب على أمل أن ترحب الأراضي المنخفضة (نذرلاند Netherlands) به باعتباره محررا لها من النمسا وقد تكافئه بتاج صغير، ولم يكن هناك حديث عن التجنيد الإلزامي لكن الفلاحين والبروليتاريا قبلوا الحرب باعتبارها شرا لا بد منه فإن عاد المهاجرون بلا عوائق فإن هذا قد يؤدي إلى عودة الظلم الذي كان سائدا في ظل الحكم القديم Old Regime وربما كانت عودتهم مصحوبة بالرغبة في الانتقام. وكان الجبرونديون يفضلون الحرب لأنهم توقعوا أن تهاجم النمسا وبروسيا معا فرنسا وبالتالي فإن الهجوم المضاد من قبل فرنسا هو خير طريق للدفاع. وعارض روبيسبير الحرب خوفا من إرافة دم البروليتاريا الذي لن يحصد ثمنه سوى الطبقة الوسطى، ورد عليه بريسو Brissot قائلا "لقد أتى الوقت المناسب لحرب (ii) جديدة حرب لتحقيق الحرية للعالم (41)". وفي 02 أبريل سنة 2971 أعلنت الجمعية التشريعية (ولم يعترض سوى سبعة) الحرب على النمسا وحدها أملا في فك حلف الدولتين المتحالفتين ضد فرنسا. وهكذا بدأت الحرب الثورية والنابليونية التي استمرت ثلاثة وعشرين عاما. وفي 62 أبريل ألف روج دي ليس Rouget de Lisle في ستراسبورج Strasbourg النشيد الوطني الفرنسي (المارسييز The Marseillaise) . لكن الجبرونديين لم يكونوا قد حسبوا حساب أوضاع الجيش الفرنسي، فقد كان عدد أفراده في الجبهة الشرقية 001-000 رجل يواجهون 54-000 مقاتل نمساوي، لكن كان على رأس هذه القوات الفرنسية رجال تمرغوا في نعيم

الحكم القديم Old Regime (العهد البائد)، فعندما أمر الجنرال دومورييه Dumouriez هؤلاء الضباط بقيادة جنودهم لخوض الحرب أجابوا بأن هؤلاء المتطوعين الغفل (غير المدربين) ليسوا مستعدين لخوض القتال ضد قوات مدرية، فأسلحتهم وتنظيمهم لا يؤهلهم لذلك. ومع هذا فعندما تكرر صدور الأمر بالتقدم تخلى عدد من الضباط عن مناصبهم، واتخذت ثلاثة أفواج من الخيالة طريقها إلى العدو (لنكون في جانبه).

وأرسل لافاييت Lafayette للحاكم النمساوي في بروكسل Brussels عرضاً بأن يقود حرسه الوطني إلى باريس ويعيد الصلاحيات للملك الفرنسي، إذا وافقت النمسا على عدم دخول الأراضي الفرنسية ولم ينتج عن اقتراح لافاييت هذا شيء سوى ما حدث بعد ذلك من اتهامه - أي لافاييت - بالخيانة (في 02 أغسطس 1791) وهروبه إلى العدو. ووصلت الأمور إلى حد الأزمة عندما أرسلت الجمعية التشريعية لوزارة الجيرونديين المسيطرة طالبة توقيع الملك للموافقة على إنشاء معسكرات دفاعية مسلحة حول باريس ووقف الرواتب الحكومية للقسس والراهبات الذين لم يؤدوا اليمين للدستور. وفي قرار عجول غاضب لم يرفض الملك التوقيع فحسب بل وطرد الوزراء كلهم فيما عدا دومورييه Dumouriez الذي سرعان ما تخلى عن قيادة قوات الثورة على الجبهة البلجيكية. وعندما تناقل الناس في باريس أخبار هذا الاعتراض الملكي فسروا الأمر على أنه علامة على أن لويس كان يتوقع وصول جيش من الفرنسيين أو الأجانب إلى باريس في وقت قريب لوضع نهاية للثورة. فجرى وضع خطط غير متأنية لإخلاء العاصمة وتكوين جيش ثوري جديد في الجانب الأبعد للوار of the Loire، ونشر الجيرونديون في أنحاء باريس الدعوة إلى مظاهرات جماهيرية حاشدة أمام قصر التوليري Tuileries.

وعلى هذا ففي 02 يونيو سنة 1791 تجمعت الجموع المستثارة رجالاً ونساءً وطنين منفعلين وغوغاء ومغامرين من الأتباع المتحمسين لروبيسيير، وبريسو، ومارا، وشقت هذه الجموع طريقها عنوة إلى ساحة قصر التوليري Tuileries وهي تصيح ساخرة مصرة على رؤية "السيد فيتو ومدام فيتو Monsieur et Madame Veto أي رؤية الملك والملكة اللذين اعترضوا ((Veto)). وأمر الملك حرسه بإدخال عدد منهم، فتم إدخال خمسين شخصاً وهم يلوحون بأسلحتهم المختلفة، وجلس لويس إزاء المنضدة وسمع التماسهم بسحب اعتراضاته، فأجاب أنه لا هذا المكان ولا هذه الظروف تسمح بالبت في هذه الأمور المعقدة، وظل طوال ساعات ثلاث يصغي إلى حجج وطلبات وتهديدات، وصاح واحد من الثوار قائلًا: "إنني أطلب بالتصديق على مرسوم ضد القسس.. إما أن تصدق وإما ستموت!" ووجه آخر سيفه تجاه لويس الذي ظل ثابتاً بشكل واضح ولم يتحرك، وقدم له بعضهم غطاء رأس أحمر red cap فوضعه الملك بسرور فوق رأسه، فصاح هؤلاء "الغزة": تحيا الأمة! تحيا الحرية! وأخيراً "يحيا الملك". وغادر الملتمسون وذكروا أنهم أعطوا الملك درساً مفزعاً، وانسلت الجموع عائدة إلى المدينة مرهقة لكنها غير راضية، وتم فرض مرسوم على الإكليروس (رجال الدين) الذين لم يقسموا يمين الولاء للدستور الجديد رغم الاعتراضات، لكن الجمعية التشريعية رغبة منها في ألا تبدو متعاطفة مع التمرد الجماهيري الأنف ذكره استقبلت الملك استقبالا حماسيا عندما أتى بناء على دعوتها لتلقي عهدها باستمرار الولاء (51).

ولم يستطع الراديكاليون هذا التوافق الرسمي بين البرجوازية والملكية، فقد كانوا يشكون في إخلاص الملك وامتعضوا لاستعداد الجمعية التشريعية إيقاف الثورة الآن لأن الطبقة الوسطى قد ضمنت مكاسبها الاقتصادية والسياسية.

وتحول روبيسيير ومارا تدريجيا إلى نادي اليعاقبة تاركين مشاعرهم البورجوازية متعاطفين مع الجماهير العريضة. وتحركت البروليتاريا في المدن الصناعية لتتعاون مع عمال باريس. وعندما طلبت الجمعية التشريعية من كل دائرة (محافظة) من الدوائر إرسال فصيل من حرسها الوطني، ليشارك في الاحتفال بالذكرى السنوية الثالثة لسقوط الباستيل، تم اختيار هؤلاء الممثلين الفدراليين Fe`deres في غالبهم من قبل بلديات المدن (الكومونات) ممن يفضلون السياسات الراديكالية. وكان هناك فوج ثوري على نحو خاص مكون من 615 جندياً، وهو ذلك الفوج الذي خرج من مارسيليا في 5 يوليو، وكان يطالب بعزل الملك، وراح هذا الفوج في أثناء مسيرته عبر فرنسا ينشد النشيد الجديد الذي وضعه روج دي ليسل Rouget de Lisle وقد أخذ هذا النشيد اسمه نسبة إلى أهل مارسيليا وهو أمر لم يكن مقصوداً عند تأليف النشيد الذي أصبح اسمه المارسييز (The Marseillaise) (ü).

ووصل فوج مارسيليا وعدد آخر من أفواج الممثلين الفدراليين (الفيدر Fe`deres) إلى باريس بعد 41 يوليو لكن كومون باريس طلب منهم تأخير عودتهم إلى ديارهم فقد تتطلب مجريات الأمور وجودهم. وكان يسيطر على كومون باريس - وهو المكتب المركزي الذي يضم ممثلين من ثمانية وأربعين حيا Sections هي أحياء المدينة - زعماء راديكاليون - وكان يوماً بعد يوم يحول الموظفين في دار البلدية إلى تشكيل حكومي لحكم المدينة، فجعل من دار البلدية تشكيلاً حكومياً.

وفي 82 يوليو ارتعدت المدينة خوفاً وغضباً عندما علمت بالبيان الرسمي الذي أصدره من كوبلنز Coblenz دوق برونسفيك Duke of Brunswick <عهد إلي صاحب الجلالة الإمبراطور وملك بروسيا بقيادة قواتهما المسلحة

الموحدة التي جرى حشد لها على حدود فرنسا. إنني راغب في أن أعلن لسكان هذه المملكة (فرنسا) الدوافع الكامنة وراء تصميم هذين العاهلين والأغراض التي يضعانها نصب عيونهما. بعد الافتتاح الصارخ على حقوق الأمراء الألمان في الألزاس لورين Alsace Loraine والإطاحة بنظام طيب وحكومة شرعية في داخل المملكة (فرنسا).... فإن أولئك الذين اغتصبوا صلاحيات الحكومة قد وصل بهم الأمر في النهاية إلى إعلان حرب غير عادلة على جلالة الإمبراطور وهاجموا محافظات (مديرياته أو دوائره) في الأراضي المنخفضة

وبالإضافة إلى هذه المصالح المهمة لا بد أن نضيف أمراً آخر مهما يسبب القلق... وأعني به ضرورة وضع نهاية لهذا الحكم الفوضوي في داخل فرنسا لوقف الاعتداء على العرش والمذبح Altar (المقصود الكنيسة).... ولنعيد... للملك أمنه وحرية اللذين سلبهما ولجعله يمارس مرة أخرى سلطته الشرعية. واقتناعاً منا بأن العقلاء في الأمة الفرنسية يمقتون الزمرة النزاعة للشقاق التي تسيطر عليها وأن أغلب الفرنسيين يتطلع بصبر نافذ إلى الوقت الذي يستطيعون فيه أن يعلنوا صراحة أنهم ضد المشروعات البغيضة التي يخطط لها أعداؤهم، فإن صاحب الجلالة الإمبراطور وصاحب الجلالة ملك بروسيا يدعونهم إلى العودة بدون توار إلى طريق العقل والعدل والسلام. وبناءً عليه فإنني أنا.... أعلن:

1- أن..... العاهلين المتحالفين ليس من هدف لهما سوى ازدهار فرنسا، وهما - العاهلان المتحالفان - لا يبغيان الإثراء من وراء فتح البلاد الأخرى

7- كل من يجسر من سكان المدن والقرى على الدفاع ضد قوات صاحب الجلالة الإمبراطور وصاحب الجلالة الملك أو يطلق النار عليها.... سيعاقب على الفور وفقاً لأشد قوانين الحرب صرامة وسيتم تدمير بيته.....
8- سيكون مطلوباً من مدينة باريس - وكل سكانها - أن تدعن فوراً وبلا إبطاء للملك.... والعاهلان المتحالفان يعلنان... أنه إذا تم اقتحام قصر التوليري أو مهاجمته أو جرى تعريض الملك والملكة والأسرة المالكة لأي إزعاج، وإذا لم يتم ضمان أمنهم على الفور، فسيتعرض أهل باريس للانتقام لا ينسى على مدى الدهر إذ سيتم إعدام أهلها على وفق القانون العسكري وسيتم تدميرها تماماً.....

لكل هذه الأسباب فإنني أدعو وأحض بالباح سكان المملكة كلهم ألا يواجهوا تحركات القوات التي أقودها ولا عملياتها بل الأدعى أن يتحوا لها مروراً آمناً وأن يساعدها.... بالنوايا الصادقة كلها.
كتب في مركز القيادة في كوبلنز Coblenz في 52 يوليو سنة 2971.
شارلز وليم فرديناند

Charles William Ferdinand

دوق برونسفيك - لونبرج (61)

Duke of Brunswick - Luneburg

وكانت الفقرة الثامنة الكنيية (ربما قدمها للدوق المعروف بدمائه أحد المهاجرين الحاقدين _ التاركين فرنسا بسبب أحداث الثورة) (71) مثار تحد للجمعية التشريعية والكمون (حكومة باريس) ولأهل باريس، فإما أن يبطلوا الثورة أو يقاوموا الغزاة بالوسائل كلها ومهما كانت التكاليف.

وفي 92 يوليو خطب روبيسير في نادي البيعاقية مطالباً - تحدياً لدوق برونسفيك Brunswick - بسرعة الإطاحة بالملكية وتأسيس الجمهورية باتاحة حق التصويت لجميع الرجال. وفي 03 يوليو انضم الممثلون الفدراليون القادمون من مارسييا إلى وفود من دوائر (محافظات) أخرى لتقديم العون لعزل الملك. وفي 4 أغسطس وما تلاه أرسلت أحياء باريس، الحي إثر الحي Section مذكرات للجمعية التشريعية تفيد أنهم لم يعودوا يعترفون بالملك، وفي 6 أغسطس تم تقديم ملتمس لأعضاء الجمعية بضرورة عزل لويس عن العرش، لكن الجمعية التشريعية لم تتخذ إجراء ما، وفي 9 أغسطس نشر مارا Marat مناشدة للشعب بطالبه باجتياح قصر التوليري Tuileries والقبض على الملك وأسرته والموظفين الملكيين الكبار كلهم باعتبارهم "خونة لا بد أن تضحي بهم الأمة أو لا لتحقيق رفاهية الجماهير" (81) وفي تلك الليلة قام الكومون (المجلس البلدي أو حكومة باريس) وكذلك مسئولو الأحياء بدق ناقوس الخطر لدعوة الجماهير إلى التجمع حول قصر التوليري في صباح اليوم التالي.

وحضر بعض الجماهير مبكراً جداً في الساعة الثالثة صباحاً، وقبل الساعة السابعة كان خمسة وعشرون حياً (قسماً) قد أرسلت العدد الذي سبق تحديده لها من الرجال المسلحين بالبنادق (المسكت) والرماح والسيوف، وأتى بعضهم بمدافع وانضم إليهم 008 من الممثلين الفدراليين Fédérés وسرعان ما وصل عدد المحتشدين إلى تسعة آلاف، وكان يدافع عن القصر تسعمائه سويسري ومائتين من الحراس الآخرين، ورغبة من لويس في تهدئة الهياج فإنه قاد أسرته

من الغرف الملكية إلى مسرح القصر حيث كانت الجمعية التشريعية في دورة انعقاد مضطربة، وقال الملك: "لقد أتيت إلى هنا لأمنع جريمة كبرى" (91).
وسمح للمتطرفين بدخول ساحة القصر، وعند بداية الدرج المؤدي إلى غرف النوم الملكية منع الحرس السويسري المتطرفين من التقدم إلا أن الجماهير الحاشدة ضغطت، فأطلق السويسريون النار فقتلوا أكثر من مائة رجل وامرأة، فأرسل الملك أوامره إلى الحرس السويسري بوقف إطلاق النار والانسحاب، فنفذوا الأوامر لكن المحتشدين وعلى رأسهم الممثلون الفدراليون لمارسيليا اجتاحوهم وتم ذبح معظم أفراد هذا الحرس السويسري كما جرى القبض على كثيرين منهم تم اقتيادهم إلى دار البلدية حيث أعدموا (02).
وجرى ذبح الخدم - بمن فيهم العاملون في المطبخ - في مهرجان دموي مجنون. وأنشد أهل مرسيليا نشيد المرسيين بمصاحبة عزف على البيانو القيثاري (الهاربسكورد) الخاص بالملكة، واستراحت العاهرات اللاني اعترهن التعب فوق سرير الملكة، وأحرق المتطرفون الأثاث وأراقوا النبيذ، وبالقرب من ساحة الفروسية أشعل الجمهور السعيد النار في تسعمائة مبنى وأطلقوا النار على رجال الإطفاء الذين أتوا لإخماد النيران (12). واستعرض بعض المنتصرين بأعلامهم التي صنعوها من السترات الحمراء لأفراد الحرس السويسري المقتول - وبذلك كانت هذه أول حالة معروفة لاستخدام العلم الأحمر رمزاً للثورة (22).
وحاولت الجمعية التشريعية إنقاذ الأسرة المالكة، لكن مقتل عدد من أعضائها على أيدي الجماهير الغازية، أقنع الباقين بتسليم اللاجئين إليها من الأسرة المالكة لكومون باريس ليكونوا تحت تصرفه، فجرى التحفظ عليهم بعناية تحت حراسة صارمة في المعبد the Temple - وهو دير قديم حصين لجماعة الفرسان الداويين (رهبان وجنود في الوقت نفسه) واستسلم لويس بلا مقاومة حزينا على زوجته التي وخط الشيب - الآن - مفرقها، وعلى ابنه المريض، وراح ينتظر النهاية بصبر.

صفحة رقم : 14550

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الجمعية التشريعية -> دانتون

3- دانتون

خلال هذه الأسابيع المتشنجة امتنع غالب أعضاء الجمعية التشريعية (ممثلو الحقوق Rights) عن الحضور إلى مقر الجمعية فبعد العاشر من أغسطس لم يعد يحضر إلا 582 عضوا من مجموع الأعضاء البالغ عددهم 547. وصوت هذا المجلس التشريعي المبتور (الناقص) على أن يجعل الأمور في يد مجلس تنفيذي به ممثلون للدوائر (المحافظات) المختلفة ليحل محل الملك ومستشاريه، واختارت الأغلبية جورج دانتون Georges Danton ليرأس هذا المجلس وزيراً للعدل، وأن يكون رولان Roland وزيراً للدخالية وجوزيف سيرفان Joseph Servan وزيراً للحرب. وكان اختيار دانتون في جانب منه محاولة لتهنئة أهل باريس إذ كان له شعبية بينهم بالإضافة إلى أنه كان في ذلك الوقت أقوى شخصيات الحركة الثورية وأكثرهم قدرة.
وكان في الثالثة والثلاثين من عمره وسيموت في سن الخامسة والثلاثين، فالثورة امتياز للشباب. ولد دانتون في أرسى - سير - أوب Arcis - Sur - Aube في شامباني Champagne وحذا حذو أبيه في الاشتغال بالقانون، وازدهرت أحواله محامياً في باريس لكنه فضل أن يعيش في المبنى نفسه مع صديقه كاميل ديمولين Camille Desmoulins في حي الطبقة العاملة المنتمة لتنظيم الكوردليير (ii) (نادي الرهبان الفرنسيين أو نادي جمعية أصدقاء الإنسان والمواطن) وسرعان ما أصبح هو وصديقه أعضاء بارزين في هذا النادي الأتف ذكره (الكوردليير). وكانت شفتاه

وأفنه مشوهة بسبب حادثة وقعت له في مرحلة الطفولة، وكان بجلده آثار الجدري لكن قليلين كانوا يدركون ذلك نظراً لطوله الفارع ورأسه الكبير ولشعورهم بقوة أفكاره الحاسمة الحادة المتبصرة خاصة عند سماعهم خطبه العاصفة وهو يهدر كالرعد في الاجتماعات الثورية لنادي اليعاقة أو الحشود البرولتارية، وغالبا ما كان يتعرض في خطبه تلك لما يمس المقدسات.

ولم تكن شخصيته قاسية وحشية أو مستبدة كوجهه أو صوته. وكان قادراً على التجرد من مشاعره ليكون فظاً غليظ القلب في أحكامه كما تدل على ذلك مذابح سبتمبر ومع هذا فقد كانت به بعض الرقة الكامنة ولم يكن حقوداً كامناً الحقد، فقد كان سريع العطاء سريع الصفح، وكان معاونوه يدهشون عندما يجدونه يتراجع عن أوامره الظالمة أو يحمي ضحايا تعليماته القاسية، وسرعان ما فقد حياته لأنه جسر على القول بأن الإرهاب قد أمعن وتطرف كثيراً وأنه قد حان وقت الرحمة. وكان على عكس روبيسبير الرزين، فقد كان يستطيع الفكاهات Rabelaisian humour ويحب المباهج الدنيوية، كما كان مقامراً عاشقاً للنسوة الحسان وقد كون ثروة وأقرض واشترى منزلاً جميلاً في أرسى Arcis كما اشترى جزءاً كبيراً من ممتلكات الكنيسة، وقد تعجب أناس كثيرون كيف حصل مبالغ تفوق حاجاته الضرورية وشكوا في أنه تقاضى مبالغ مالية كرشوة لحماية الملك. وكانت البراهين التي تؤكد ذلك هي السائدة ولم تكن في غير صالحه (32). ومع هذا فقد كان ثورياً من الطراز الأول وبدا كأنه لم يخن أبداً أياً من مصالح الثورة الحيوية، لقد أخذ أموال الملك ومع هذا فقد عمل لصالح البرولتارياء، ومع هذا فقد كان يعلم أن دكتاتورية البرولتارياء أمر ينطوي على التناقض ولا يمكن أن يكون إلا للحظة في التاريخ السياسي (غير مستمر).

وقد تلقى تعليماً كثيراً جعلته يوتوبياً (يوطوبياً - أي من أنصار المدن أو الحكومات المثالية)، وكانت مكتبته (التي كان يأمل أن يعود إليها بسرعة بعد خلاصه من مهامه السياسية) تضم 175 مجلداً باللغة الفرنسية و 27 بالإنجليزية و 25 بالإيطالية إذ كان يستطيع قراءة الإنجليزية والإيطالية بلا عناء، وكان لديه من مؤلفات فولتير 19 مجلداً و 61 لروسو، كما كان لديه موسوعة ديدرو كاملة (42) Diderot's Encyclopedie وكان ملحداً (ü) لكنه كان متعاطفاً على نحو ما مع فكرة أن الدين إنما هو للفقراء. فلنقرأه وهو يقول في سنة 1791 ما قاله موسى (Musset 52) بعد ذلك بجيل:

"من ناحيتي، أعتزف أنني لا أعرف إلا إلهاً واحداً - إلهاً لكل الكون والعدالة... لكن الرجل في الحقول يضيف إلى هذا أو هاماً... لأنه في شبابه ومرحلة رجولته ومرحلة كهولته مدين للكاهن (القسيس) بلحظات السعادة القليلة التي تمر به... لندعه لهذا الوهم.

علمه أيها القس إن شئت... لكن لا تجعل الفقير يخشى فقدان الشيء الوحيد الذي يربطه بالحياة" (62). وهو - دانتون - كزعيم ضحى بكل شيء حتى النهاية لحماية الثورة من الهجوم الأجنبي ومن الفوضى الداخلية. ولهذه الأغراض كان مستعداً للتعاون مع أي شخص - مع روبيسبير، ومارا Marat والملك، والجيرونديين، لكن روبيسبير كان يحقد عليه، وكان مارا Mara يتهمه، وكان الملك لا يثق به وكان الجيرونديون حذرين منه بسبب وجهه وصوته وكانوا يرتجفون من تعبيراته المنطوية على الازدراء. ومع هذا فلم يكن أي من هؤلاء بقادر على أن يتجاهل وجوده فقد نظم أمور الحرب وتفاوض من أجل السلم وكان يزرأ كالأسد وهو يتحدث عن الرحمة وحارب من أجل الثورة وساعد بعض الملكيين على الهرب خارج فرنسا (72).

وكوزير للعدل عمل على توحيد كل الفصائل الثورية كلها لرد الغزاة، وتحمل مسؤولية إثارة الجماهير في 01 أغسطس فالحرب في حاجة لدعم هذه الأرواح المثمرة فمنهم يمكن تجنيد جنود متوقدين حماسة، لكنه لم يشجع المحاولات غير الناضجة لدعم الثورات على الملوك الأجانب (الملوك خارج فرنسا) فهذا قد يؤدي إلى اتحاد الملكيات في عدائها ضد فرنسا. وقاوم اقتراح الجيرونديين بانسحاب الحكومة والجمعية إلى ما وراء اللوار The Loire فمثل هذا التراجع لا بد أن يحطم معنويات الشعب. لقد انقضى وقت المناقشات وحان وقت العمل لبناء قوات مسلحة جديدة وتحصين أفرادها بالروح العالية والثقة، وفي 2 سبتمبر سنة 1791 ألقى خطاباً مشحوناً بالعواطف والأنفعالات وردت فيه فقرة حركت المشاعر في فرنسا ودوت في هذا القرن العاشر بالاضطرابات. ودخلت القوات البروسية النمساوية فرنسا وحقق نصرًا ثلوثي نصر، واضطربت باريس وترددت بين الاستجابة العازمة المصممة والخوف المربك. وتحدث دانتون للمجلس التنفيذي وذهب إلى الجمعية لبث الحماس في أعضائها وفي الأمة كلها كي يتشجعوا ويتحركوا:

"إنه لأمر مرض لوزير في دولة حرة أن يعلن لهم أن بلادهم قد نجت فالكلمة مستثارة والكل متحمس، والكل تواق للنضال... فجانب من شعبنا سيحرس حدودنا وجانب آخر سيقم الحصون ويسلحها، وجانب سيدافع عن داخل مدننا بالرمح... إنني أطلبكم بإعدام أي شخص يرفض تقديم ما يقدر عليه سواء خدماته الشخصية أم تزويد القوات المسلحة بما يحتاجه....

إن ناقوس الإنذار الذي سنسمعه ليس إشارة إلى الخطر وإنما هو يأمر بالهجوم على أعداء فرنسا. لا بد أن نكون قادرين على التصدي للهجوم... لا بد أن نجسر على ذلك، لا بد دائماً أن نجسر على ذلك - عندها يكون قد تم إنقاذ فرنسا".

لقد كان خطاباً قويا وتاريخيا لكن في اليوم نفسه بدأت أكثر الأحداث مأسوية في فرنسا بشكل غير متوقع.

صفحة رقم : 14551

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الجمعية التشريعية -> المذبحة

4- المذبحة

من 2 إلى 6 سبتمبر 1792

يعود الهياج العاطفي الذي بلغ ذروته في 2 سبتمبر في بعض أصوله البعيدة التي أعطته حرارته إلى الصراع المتزايد بين الدين والدولة والجهود التي بذلت لإحلال عبادة الدولة بديلاً للدين أو بتعبير آخر إزاحة الدين لتكون عبادة الدولة عوضاً عنه.

وكانت الجمعية التشريعية قد قبلت الكاثوليكية ديناً رسمياً، وتعهدت بدفع رواتب للقسس كموظفي الدولة، لكن الراديكاليين الذين كانت لهم السيادة في كمون باريس لم يجدوا سبباً لتمويل الحكومة أفكاراً يعتبرونها من خرافات الشرق (يقصدون المسيحية) طالما تحالفت مع الإقطاع والملكية. ووجدت وجهات نظر هؤلاء الراديكاليين قبولاً في النوادي كما وجدت قبولاً آخر الأمر في الجمعية التشريعية. وكان نتيجة ذلك سلسلة من الإجراءات جعلت العداوة بين الكنيسة والدولة تمثل تهديداً متكرراً للثورة.

فبعد ساعات قليلة من عزل الملك عن عرشه أرسل كمون باريس إلى الأحياء المختلفة فيها Sections قائمة بالقسس المشكوك في أهدافهم والمشكوك في أن لديهم مشاعر معادية للثورة، وكان عدد كبير منهم - كما يفهم - قد أرسلوا إلى السجون المختلفة لذا فقد كانوا ضحية أساسية في أثناء المذبحة.

وفي 11 أغسطس أنهت الجمعية التشريعية أي إشراف للكنيسة على التعليم، وفي 21 أغسطس منع الكومون ارتداء الثياب الكنسية علناً، وفي 81 أغسطس جددت الجمعية التشريعية هذا الأمر بإصدار مرسوم لمنع ارتداء هذه الملابس الدينية على مستوى فرنسا كلها، وحلت التنظيمات الدينية الباقية كلها، وفي 82 أغسطس دعت لترحيل كل القسس الذين لم يقسموا يمين الولاء للدستور المدني للإكليروس على أن يمنحوا مهلة أسبوعين لمغادرة فرنسا، وبالفعل فقد هرب 52.000 قسيس إلى بلاد أخرى وراحوا يساندون هناك دعايات المهاجرين (الذين تركوا فرنسا بسبب وقائع الثورة)، ولأن الإكليروس كانوا حتى الآن يحتفظون بسجلات المواليد وحالات الزواج والوفيات في الدوائر المختلفة، فقد كان على الجمعية أن تنقل هذه المهمة إلى سلطات علمانية (غير إكليريكية). ولأن معظم السكان كان يؤمن بارتباط حالات الولادة والزواج والوفيات بطقوس دينية، فإن محاولة استبعاد هذه الطقوس القديمة قد وسعت الخرق (الثغرة) بين إيمان الناس من ناحية، وعلمانية الدولة من ناحية أخرى (82). وقد اتفق الكوميون واليعاقبة والجبرونديون والجبليون (Montagnards) بالمعنى السياسي السابق الإشارة إليه) على أنهم يأملون أن يكون الإخلاص للجمهورية

الشابة سيصبح هو دين الشعب، فستحل مبادئ: الحرية والمساواة والإخاء محل الآب والابن والروح القدس وأن تعزيز هذا الثالوث الجديد يمكن أن يكون هو الهدف المهيمن للنظام الاجتماعي والمعياري النهائي للأخلاق. وأجل الافتتاح الرسمي للجمهورية الجديدة إلى 22 سبتمبر أول يوم من العام الجديد. وفي هذه الأثناء التمس بعض المستقبلين المتطلعين من الجمعية أن تمنح الجمعية لقب "مواطن فرنسي" لكل الفلاسفة غير الفرنسيين الذين أبدوا بشجاعة قضية الحرية فاستحقوا عن جدارة "رضا البشرية" وذلك كإيماءة إلى أحلامهم في تحقيق الديمقراطية العالمية. وفي 62 أغسطس استجابت الجمعية فأعطت المواطنة الفرنسية لكل من جوزيف بريستلي Joseph Priestley وجيرمي بنتام Jeremy Bentham، ووليم ولبرفورس William Wilberforce وأنا كارسيس كلوتس Anachasis Cloots وجوهان بيستالوزي Johann Pestalozzi وثاديسوس كوسكيوسكو Thaddeus Kosciusko وفريدريش شيلر Friedrich Schiller وجورج واشنطن George Washington، وتوماس بين Thomas Paine وجيمس ماديسون James Madison والكسندر هاميلتون (92) Alexander Hamilton. وقدم الكسندر فون همبولدت Alexander Von Humboldt إلى فرنسا، وكان من بين ما قاله: "لقد أثبت إلى فرنسا لأنتسّم نسيم الحرية ولأعاون في طعن الحكم المطلق الاستبدادي" (03) وبدا أن الدين الجديد ينشر فروعه بمجرد وضع جذوره.

وفي 2 سبتمبر ارتدت فرنسا أبهى حللها (وكانها في يوم أحد Sunday Clothes) وعبرت عن ولائها (للدين الجديد) بطرق مختلفة، فقد تجمع الشباب ومن هم في منتصف العمر في نقاط التجنيد ليتطوعوا للخدمة في الجيش، وراحت النسوة يخطن لهم عبايات تتفئهم، ويعددن الضمادات لمن قد يصاب بجروح منهم في المعارك، وأقبل الرجال والنساء والأطفال إلى مراكز أحيانهم لتقديم الأسلحة والجواهر والنقود لإيفاقها لأغراض الحرب. وتبنت الأمهات الأطفال الذين يعولهم جنود أو ممرضات سيغادرون إلى جبهة القتال، وذهب بعض الرجال إلى السجون لقتل القسس وغيرهم من أعداء العقيدة الجديدة.

ومنذ إعلان الدوق برونسفيك (Brunswick 52 يوليو سنة 1791) كان القادة الثوريون يعملون كرجال يميلون إلى العمل عندما تكون حياتهم مهددة. ففي 11 أغسطس أرسل أعضاء اللجنة العامة في دار البلدية ملاحظة غريبة إلى أنطوني سانتيير Antonie Santerre الذي كان وقتئذ هو القائد العسكري لقوات أحياء باريس: "لقد علمنا أن خطة توضع للمرور على سجون باريس لنقل السجناء كلهم لتنفيذ حكم العدالة فوراً فيهم. إننا نرجو أن يشمل إشرافك الحصون الصغيرة والبوابات وقوات الشرطة" - والمقصود مراكز الحجز الثلاثة الرئيسية في باريس (13). ولا ندري كيف فسّر سانتيير هذه الرسالة، ففي 41 أغسطس عينت الجمعية أعضاء "محكمة استثنائية" لمحكمة أعداء الثورة كلهم لكن ما ورد في المرسوم كان أقل بكثير من أن يرضي مارا Marat، ففي جريدته "صديق الشعب" في عدده الصادر في 91 أغسطس قال لقرائه: "إن أفضل طريق ننهجه وأحكمه هو أن نذهب مسلحين إلى الأباي Abbaye (الكلمة تعني الدير، وقد استخدم كسجن فالمقصود إذن هو التوجه لهذا السجن) لنجرر الخونة خاصة الضباط السويسريين [من أفراد الحرس الملكي] وشركاءهم ونعمل السيف في رقابهم فما أغنى أن نحاكمهم!" (23) وانجرافاً مع هذا الحماس جعل الكومون من مارا Marat المحرر الرسمي لنشراته وجعل له مكاناً في غرفة اجتماعاته وضمه إلى لجنة الرقابة التابعة له (للكومون) (33).

وإذا أصاغت الجماهير السمع إلى مارا Marat وأطاعته بكل طاقاتها فما ذلك إلا لأنها كانت بدورها مرتجفة مرعوبة ممثلة كرها وخوفاً. وفي 91 أغسطس عبر البروس الحدود بقيادة الملك فريدريك وليام الثاني Frederick William ودوق برونسفيك Brunswick بصحبة قوات صغيرة من المهاجرين (الفرنسيين الذين تركوا فرنسا بسبب أحداث الثورة) الذين يطالبون بالانتقام من الثوار. وفي 32 أغسطس استولى الغزاة على حصن لونجواي Longway، وكان هناك ادعاء أن ذلك ما كان ليحدث لولا ضلوع ضباط الحصن الأرستقراطيين في هذا الأمر. وفي 2 سبتمبر وصلوا إلى فيردو Verdun ووصل إلى باريس خير مبتسر (قبل الأوان) بسقوط هذا الحصن المنيع في الصباح لكنه في الحقيقة لم يسقط إلا بعد الظهر، والآن لقد أصبح الطريق إلى باريس مفتوحاً للعدو فلم يكن هناك أي جيش فرنسي في هذا الطريق لإيقافه، وبدت العاصمة تحت رحمة الغزاة وتوقع الدوق برونسفيك Brunswick أن يتناول عشاءه بعد قليل في باريس (43).

وفي هذه الأثناء اندلعت ثورة مضادة (ثورة على الثورة) في المناطق النائية في فرنسا مثل الفيندي Vendee والدوفيني Dauphine، وكانت باريس نفسها تضم آلاف البشر المتعاطفين مع الملك المخلوع؛ ومنذ أول سبتمبر كانت توزع نشرة تحذر من مؤامرة لإطلاق سراح السجناء وقتلهم على يد الثوريين (53). ودعت الجمعية والكومون كل الرجال القادرين للالتحاق بالجيش لملاقاة قوات العدو المتقدمة، لكن كيف يستطيع هؤلاء الرجال أن يخرجوا للقتال تاركين نساءهم وأطفالهم تحت رحمة الملكيين والقسس ومعنادي الإجرام ممن هم في سجون باريس، فقد

يتمكنون من الخروج بأعداد كبيرة؟ فصوتت بعض أحياء باريس على حل مؤداة ضرورة قتل كل القسس والأشخاص المشكوك في ولائهم للثورة قبل خروج المتطوعين لقتال العدو(63).

وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم الأحد الموافق 2 سبتمبر اقتربت ست عربات حاملة القسس الذين لم يؤدوا يمين الولاء للدستور الجديد من سجن أباي Abbaye (الكلمة تعني دير، ذلك أن هذا السجن كان في أصله ديورا)، فصاحت بهم الجموع مستهزئة وقفز رجل من الجموع إلى سلم العربة فضربه قس بعضا فسببت الجموع القس وتزاحمت وتضاعف عددها وراحت تهاجم السجناء عند توقف العربات عند اليوابة بل وانضم حراس السجناء إلى المهاجمين، فتم قتل ثلاثين سجيناً، واندفعت الحشود - منتشية بمنظر الدماء ونشوة القتل غير المنسوب إلى أحد بعينه - إلى مبنى دير الكرمل وقتلوا القسس المحتجزين هناك، وفي المساء، بعد قضاء فترة راحة، كانت الحشود قد تزيد عددها الآن فانضم إليها كثير من المجرمين وغلاظ الأكياد وجنود الأفواج الفدرالية القادمة من مارسيليا وأفينون Avignon وبريتاني Brittany وعادوا إلى أباي Abbaye (الكلمة تعني ديورا لكن المقصود سجن يحمل هذا الاسم لأنه كان في الأصل ديورا) وأجبروا السجناء كلهم على الخروج والجلوس لسماع الحكم عليهم، وأسلموا الغالبية العظمى منهم، - أي سويسري أو قس أو ملكي أو أي شخص كان في خدمة الملك أو الملكة - إلى رجال متعطشين لقتلهم، فقتلهم بالسيوف والسكاكين والرماح والهرات.

وفي البداية كان القتلة مثاليين فكانوا يكتفون بالقتل ولا يسرقون المقتولين فقد كانوا يجردون الضحايا من مقتنياتهم القيمة لنقلها إلى السلطات الثورية في الكمون لكن في آخر الأمر راح هؤلاء القتلة الذين اعتراهم التعب يحتفظون من قتلاهم بتذكارات، وكان كل قاتل يتلقى سنة فرنكات في اليوم لقاء عمله بالإضافة إلى ثلاث وجبات وكل ما يريده من النبيذ، وأظهر بعضهم شيئاً من الرحمة فهناً أولئك الذين تمت تبرئتهم واستضافوا المميزين منهم في بيوتهم(73)، وكان بعضهم متوحشاً قاسياً فأطالوا من معاناة المتهمين بتعريضهم للسخرية أمام المشاهدين، وقام واحد من المتحمسين بعد أن نزع السيف من صدر الجنرال لالو General Laleu بدس يده في الجرح وانتزع القلب ووضع في فمه كما لو كان يريد أن يأكله(83) - وهي عادة كانت شائعة وفي وقت من الأوقات في أيام الهجمة - وكان كل قاتل، عندما يعترية التعب يأخذ قسطاً من الراحة ويتجرع خمراً ثم يواصل عمله حتى تم القضاء في أمر سجناء الأباي كلهم The Abbaye إما إلى الموت وإما إلى الأمان.

وفي 3 سبتمبر انتقل الجلادون (منفذو القتل) والقضاة إلى سجون أخرى - سجن ثكنات الشرطة La Force وسجن البوابة Conciergerie. حيث استمرت المذبحة في ضحايا جدد وبجلادين جدد.

وهنا كانت توجد سيدة مشهورة، إنها الأميرة دي لامبل de Lamballe التي كانت ذات يوم ثرية ورائعة الجمال وكانت محبوباً لماري أنطوانيت Marie Antoinette وأثيرة لديها، وكانت قد اشتركت في مؤامرة لإنقاذ الأسرة الملكية. إنها الآن في الثالثة والأربعين من عمرها عندما قطعت رأسها وبترت أطرافها ونزع قلبها من جسدها وأكله الجمهوريون المتحمسون(93)، ورفعوا رأسها على رمح ولوحوا به عارضين إياه من نافذة زنزانة الملكة في سجن تمبل(04) (المعبد The Temple).

وفي 4 سبتمبر تحرك القتلة إلى سجون تور سانت بيرنار Tour St.- Bernard، وسانت فيرمي St.- Firmin والحصن الصغير the Chalelet سجن مخزن ملح البارود the Salpetriere وهناك كانت النسوة الشابات يخبرن بين إتيانهن أو قتلهن، فكن يؤتين. وكان من بين نزلاء سجن بيستر Bicetre ملجأ للمجانين والمختلين عقلياً تنراوح أعمارهم بين سبعة عشر عاماً وتسعة عشر عاماً، وعددهم ثلاثة وأربعون شاباً أنزلهم - في غالبهم - أبأؤهم في هذا المكان لتلقى العلاج، وقد قتلهم الثوار جميعاً(14).

واستمرت المذبحة يومين آخرين في باريس حتى وصل عدد الضحايا بين 7421(24) و 8631(34)، وانقسم الناس في الحكم على الأحداث: فالكاثوليك والملكيون اعتراهم رعب شديد لكن الثوريين حاجوا بأنه كان لا بد من هذه الاستجابة العنيفة بسبب تهديدات برونسفيك Brunswick ولضرورات الحرب، واستقبل بيتيو Petion رئيس بلدية باريس الجديد الجلادين كوطنيين بذلوا جهداً كبيراً وأنعشهم بتقديم النبيذ لهم(44). وأرسلت الجمعية التشريعية بعض الأعضاء إلى سجن الإباي (سجن الدير) Abbaye ليوصوا بالترام القانون وعادوا ليقرروا أن المذبحة لا يمكن إيقافها، وأخيراً وافق زعماء الجمعية - من الجيرونديين والجليليين (Montagnards) (ü - أن هذا الاتجاه الأكثر أمناً واحتياطاً (المذبحة) أصبح محل موافقة(54). وأرسل كميون باريس ممثلين عنه للمشاركة في منح الحصانة للقضاة، وكان بيلو - فارين - Billaud Varenne المحامي المندوب عن الكوميون ممن شهدوا ما حدث في سجن أباي Abbaye وقد هنا القتلة: "إنكم مواطنون زملاء، إنكم تدمرون أعداءكم، إنكم تؤدون واجبكم"(64) وبارك مارا Marat بفخر العملية برمتها. وعند محاكمة شارلوت كورداي Charlotte Corday بعد ذلك بعام، سئلت: "لماذا قتلت مارا؟" فأجابت "لأنه كان هو السبب في مذبحة سبتمبر" ولما طالبها بالدليل أجابت: "ليس لدي دليل، انه رأي فرنسا كلها"(74).

وعندما طلب من دانتون Danton أن يوقف المذبحة هز كتفيه: "سيكون هذا مستحيلاً ثم أردف معللاً" ثم لماذا نوقفها؟ هل أزعج نفسي بسبب هؤلاء الملكيين والقسس الذين كانوا لا ينتظرون سوى اقتراب الأجناب الغزاة لذبحنا؟... لا بد أن نزع أعدائنا" (84) ومع هذا فقد سحب دانتون سراً أكثر من واحد من أصدقائه وأخرجهم من السجن، بل إنه أخرج حتى بعض أعدائه الشخصيين (94). وعندما اعترض عضو من زملاء دانتون في المجلس التنفيذي على عمليات القتل، قال له دانتون: "إجلس، فهذا أمر ضروري" (05). وعندما سأله شاب: "كيف تستطيع أن تساعد ما يسمى إرهاباً؟" أجابه: "إنك أصغر من أن تفهم هذه الأمور... انه لا بد أن يفيض نهر الدم بين أهل باريس والمهاجرين (الذين تركوا فرنسا بسبب أحداث الثورة)" (15).

فقد كان يعتبر أن أهل باريس قد أصبحوا الآن عاهدوا الثورة، وأن المتطوعين للحرب الذين كانوا يغادرون لملاقاة الغزاة يعرفون الآن أنهم لن يرحمهم العدو إن هم استسلموا، إنهم سيحاربون دفاعاً عن حياتهم بكل ما في الكلمة من معنى.

وكان يوم 2 سبتمبر أيضاً هو اليوم الذي صوتت الجمعية التشريعية للدعوة إلى انتخاب عام لمؤتمر وطني Convention لتضع دستوراً جديداً يتلاءم مع ظروف فرنسا الجديدة ومع متطلبات الحرب، ذلك لأن الجمعية أحست أن مسيرة الأحداث قد أحدثت دماراً في الدستور الحالي الذي جرى اختيار أعضائها لتنفيذه، ولأنه منذ دعي الفلاحون والبروليتارياء والبورجوازية - على سواء - للدفاع عن وطنهم فقد بدا من غير المقبول أن أياً مهماً كان سواء أكان دافعاً وكرهاً حقاً روبيبير أول انتصار كبير له، فالمؤتمر الوطني الذي سيلعب فيه دوراً كبيراً جرى انتخابه من الراشدين الرجال كلهم أي أنه كان انتخاباً عاماً.

وفي 02 سبتمبر أنهت الجمعية التشريعية دورتها الأخيرة ولم يكن أعضاؤها يعلمون أنه في اليوم نفسه التقى الجيش الفرنسي بقيادة دوموريه Dumouriez وفرنسا - كريستوف كيلرمان Francois-Christophe Kellermann بالجيش المحترفة البروسية والنمساوية بقيادة دوق برونسفيك Brunswick ، عند قرية يقال لها فالمي Valmey بين فردو Verdun وباريس، وأن الجيش الفرنسي أرغم أعداءه على الانسحاب - لقد كان نصراً مؤثراً حتى إن ملك بروسيا أمر قواته المهاجمة بعد المعركة بالتراجع وتخلي عن فردو Verdun ولونجواي Longway وترك الحدود الفرنسية - أما فريدريك وليام الثاني Frederick William فلم يكن يتحمل الإزعاج الذي تسببه له فرنسا البعيدة الآن فقد كان يتنافس مع جارتيه ؛ روسيا والنمسا للاستيلاء على أكبر جزء عند تقسيم بولندا، وأكثر من هذا فقد كان جنوده يعانون من الإسهال الذي أصابهم نتيجة تناولهم أعناب شامباني(25) Champagne .

وكان حاضراً في هذه المعركة جوته Goethe ضمن العاملين مع دوق ساكس - فيمار Saxe-Weimar فقال (كما أخبرت) ملاحظة شهيرة: "منذ الآن ومن هذا المكان تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ العالم" (35).

صفحة رقم : 14552

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> المؤتمر الوطني -> الجمهورية الجديدة

الفصل الرابع

المؤتمر الوطني

1- الجمهورية الجديدة

أدار اليعاقة بحذق ومهارة انتخابات هذه الجمعية الثالثة (المؤتمر الوطني) التي تعتبر ذروة المد الثوري وانحداره في الوقت نفسه، وكانت مهارتهم في هذه الانتخابات تفوق حتى مهارتهم في انتخابات سنة 1971. لقد وجهوا الأمور بعناية بشكل غير مباشر: فالمصوتون يختارون الناخبين الذين يلتقون في جمعية انتخابية تختار بدورها النواب أو الوكلاء الذين يمثلون دوائهم الانتخابية في المؤتمر الوطني، وكان الانتخاب في المرحلتين علناً وبالتعبير الصوتي عن الرأي، وكان الناخب - في كل مرحلة - يتعرض للأذى إن هو أغضب الزعماء المحليين (1). وفي المدن رفض المحافظون التصويت "فقد كان عدد الممتنعين كبيراً" (2) فمن بين سبعة ملايين شخص مؤهلين للتصويت امتنع 6,3 (3). وفي باريس بدأ التصويت في 2 سبتمبر واستمر لعدة أيام، بينما كانت المذبحة عند بوابات السجن ترسل الإشارات وتعطي التلميحات للناس: كيف تصوتون وكيف تقفون على قيد الحياة. وفي كثير من المناطق أحجم الكاثوليك الأتقياء عن التصويت وانتخب منطقة فيندي Vendee المعروفة بانتمائها الملكي القوي تسعة نواب سيصوت ستة منهم بالموافقة على إعدام الملك (4). وفي باريس اجتمعت الجمعية الانتخابية في نادي اليعاقة وانتهوا إلى أن الأربعة والعشرين نائباً المختارين لتمثيل العاصمة لا بد أن يكونوا مقتنعين بالجمهورية وأن يكونوا مؤيدين للكمون:

دانتون Danton، وروببسيير Robespierre ومارا Marat وديمولين Desmoulins وبلو-فان Billaud-Varenne وكولو دربوا Collot d'Herbois وفريرون Freron وديفد David (الرسام) ... وفي المحافظات قام الجيروندي Girondins ببعض الاستعدادات الخاصة بهم، ومن ثم فإن بريسو Brissot ورولان Roland وكوندرسيه Condorcet وبيتيو Pétion وجود Goudet وباربارو Barbaroux وبوزو Buzot ربخوا حق الخدمة والموت. ومن بين الأجانب الذين جرى انتخابهم بريستلي Priestley وكلوتر Cloots وبين Paine، وتم اختيار دوق أورليان Duc d'Orleans الذي أعاد تسمية نفسه باسم المواطن فيليب المحب للمساواة (Citizen) (u) Philippe Egalité لتمثيل الحي (القسم) الراديكالي في باريس.

وكانوا جميعاً - فيما عدا عضوين - من الطبقة الوسطى وعندما اجتمع المؤتمر الوطني في التوليرى في 21 سبتمبر سنة 1792 كان يضم 750 عضواً، وكان هذان العضوان من العمال، وكان الأعضاء كلهم تقريباً من المحامين، وكان الجيرونديون وعددهم 180 عضواً منظمين ومتعلمين وفصحاء وبلغاء هم الذين تولوا القيادة في مجال التشريع. وكان هناك استرخاء في إصدار القوانين ضد المشكوك في ولائهم والمهاجرين (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة) والقس كما كان هناك تحرر من السيطرة على الاقتصاد، على أساس أنه لم يعد هناك خوف الآن من الغزو الأجنبي، لكن سرعان ما ظهرت الشكايات من الاستغلال والتلاعب بالأسعار. ولإسكات حركة ظهرت بين الراديكاليين بمصادرة الملكيات الكبيرة وتوزيعها على الشعب، أعلن الجيرونديون في اليوم الأول للمؤتمر احترام الملكية الخاصة. وهكذا هدأت الأمور فاتفق الجيرونديون مع أعضاء الجبل (اليسار) وأعضاء السهل (المعتدلون) على إعلان الجمهورية الفرنسية الأولى في 22 سبتمبر سنة 1792 وفي اليوم نفسه أصدر المؤتمر الوطني مرسوماً، بعد عام من الدراسة والضغط والتعديل بإبطال التقويم المسيحي (الميلادي) في فرنسا وممتلكاتها ليحل محله تقويم ثوري تبدأ فيه السنة الأولى (من 22 سبتمبر 1792 إلى 21 سبتمبر 1973) ثم السنة الثانية فالثالثة وهكذا وأن تسمى الشهور على وفق الحالة المناخية المعتادة (المنطوية) شهر قطف العنب (فيبرمينير Vendémiaire) وشهر الضباب (برومير Brumaire) وشهر الصقيع (فريمير Rrimaire) بالنسبة للخريف، وشهر تساقط الثلج (نيفوز Nivose)، شهر المطر (بلوفبوز Pluviose)، شهر الرياح (فينتوز Ventose) بالنسبة للشتاء، وشهر التبرعم (جيرمينال Germinal) وشهر الإزهار (فلوريال Floréal) وشهر المروج الخضر (بريريال Prairial) بالنسبة للربيع، وشهر

الحصاد (مسيبور) Massidor وشهر الدفء (ثيرميدور) Thermidor وشهر الفواكه (فركيتور) Fructidor بالنسبة للصيف، وقد تم تقسيم الشهر إلى ثلاثة أقسام Décades كل قسم عشرة أيام وينتهي كل قسم بيوم يقال له ديكادي décadi هو يوم الراحة بدلاً من يوم الأحد الذي كان يوم راحة في التقويم الميلادي، وخمسة الأيام الباقيات في السنة تسمى (السانس كولوتيد) Sans - Culottides يكون فيها مهرجان وطني، وكان المؤتمر الوطني يأمل أن يذكر هذا التقويم الفرنسيين بالأرض والعمل الذي يجعلها مثمرة لا بالقدسيين religious saints والمواسم. فستحل الطبيعة محل الرب God وتم استخدام هذا التقويم الجديد في 24 نوفمبر سنة 1793 وانتهى استخدامه في نهاية سنة 1805 للميلاد.

لقد وافق الجيرونديون وأعضاء الجبل (اليسار) على إقرار الملكية الخاصة وعلى الجمهورية وعلى الحرب على المسيحية، لكنهم اختلفوا اختلافاً شديداً جداً في قضايا أخرى مختلفة، فالجيرونديون شجبوا بشدة النفوذ الجغرافي لباريس، باعتباره غير متوازن مع بقية المحافظات، فأهل باريس بنواهم وجماهيرهم يؤثرون بأجرائهم التي يتخذونها في كل فرنسا، وامتعض الجبلون (Montagnards) (ii) من تأثير التجار وأصحاب الملايين في تكديس الجيرونديين لأصوات الناخبين. واستقال دانتون (الذي حصل في دائرته الانتخابية على 638 صوتاً من مجموع أصوات الناخبين وعددهم 700) من منصبه كوزير للعدل ليقوم بمهمة التوحيد بين الجيرونديين وأهل الجبل (اليسار) في سياسة العمل على إقرار السلام مع بروسيا والنمسا لكن الجيرونديين لم يكونوا يثقون به باعتباره معبود باريس الراديكالية وطالبوا ببيان بمصر وفاته كوزير ولم يقدم لهم تفسيراً يقتنعهم بالمبالغ التي أنفقها (كان دانتون من المؤمنين الكبار بجدوى الرشاوى) ولم يقدم لهم أيضاً تفسيراً يقتنعهم بكيفية حصوله على الأموال التي مكنته من شراء ثلاث منازل في باريس وضواحيها والعقارات الكبيرة في محافظة أوب Aube، فالذي لا ينكر أنه كان يعيش حياة مترفة، واتهم مستجوبيه بالعقوق ووجه جهده للتوفيق والمصالحة في الداخل والخارج وضم جهوده إلى جهود روببسيير. ورغم أن روببسيير كان هو الشخصية الثانية بعد دانتون من حيث الشعبية في أحياء (أقسام) باريس إلا أنه كان لا يزال حتى الآن شخصية ثانوية بين نواب المؤتمر الوطني، فعند التصويت على رئاسة المؤتمر لم يحز إلا على ستة أصوات، بينما حصل رولان Roland على 235. وكان معظم النواب يعتبرونه متعظراً ساغارقاً في العموميات والتقاهاات الافتراضية نهائياً للفرص يتحين الوقت المناسب بصبر ليستحوذ على سلطات إضافية، لكن ما تنطوي عليه اقتراحاته من وضوح واستقامة قد جعلت نفوذه يزداد - ببطء - شيئاً فشيئاً، فقد نأى بنفسه عن التورط المباشر في الهجوم على التوليري وفي أحداث مذبحه سبتمبر، ومنذ البداية كان يدافع عن حق الانتخاب العام للذكور الراشدين كلهم رغم أنه من الناحية العملية، تغاضى عن مسألة إبعاد الملكيين والكاثوليك عن المشاركة في الاقتراع والإدلاء بأصواتهم ودافع عن الملكية الخاصة ولم يشجع دعوى مصادرة الممتلكات وتوزيعها، وعلى أية حال فقد اقترح ضريبة على المواريث وضرائب أخرى بالإضافة إلى إجراءات أخرى مهذبة لكنها فعالة لمعالجة التقاوت الشديد في الثروات (5).

وفي هذه الأثناء راح ينتظر الفرصة المناسبة وسمح لمنافسيه بارهاق أنفسهم حماسة وتطرفاً، وبدأ مقتنعا أنه سيحكم يوماً وتنبأ أنه سيقتل ذات يوم (6). "لقد كان يعرف - كما يعرف هؤلاء الرجال كلهم أنه يكاد يحمل ساعة بعد ساعة روحه في كفه" (7).

لقد كان مارا Marat - وليس دانتون ولا روببسيير - هو الذي ناصر البروليتاريا وناضل من أجلها، وقد غير مارا عنوان جريدته ليصبح "جريدة الجمهورية الفرنسية Journal de la République Francaise". لقد بلغ الآن التاسعة والأربعين من عمره (كان عمره روببسيير في الرابعة والثلاثين، وكان دانتون في الثالثة والثلاثين) ولم يبق له لينتهي حياته سوى أقل من عام لكنه ملاً هذه الفترة بانشغاله بمعركة عنيدة وصلبة ضد الجيرونديين باعتبارهم أعداء للشعب وباعتبارهم ممثلين للبورجوازية التجارية الصاعدة التي ظهر أنها تعمل على استخدام الثورة سلاحاً سياسياً لصالح "المشروعات والنشاطات الاقتصادية الحرة" التي يتسم بها الاقتصاد الحر، وكان نقده الساخر وخطبه اللاذعة تتردد في باريس ومنها وتثير الأحياء (الأقسام) وتحرضها على التمرد وتشيع في المؤتمر الوطني روح العداوة العامة، وقد شجب الجيرونديون ما أسماه "بحكومة الثلاثة" ويقصدون دانتون وروببسيير ومارا، لكن دانتون تبرأ منه وتكرر له، وتحاشاه روببسيير فجلس مارا مع الجبلين (اليسار) لكنه كان عادة منفرداً وحيداً بلا أصدقاء. وفي 25 سبتمبر سنة 1792 قرأ فيرغنيو Vergniaud وآخرون في المؤتمر الوطني وثيقة تقيد أن مارا Marat كان قد دعا إلى دكتاتورية وأنه كان قد تسبب في الإثارة التي أدت إلى المذبحة، وعندما هب مارا (نصير الشعب) للدفاع عن نفسه، هوجم بغير هواده بصيحات "اجلس!!" فقال "يبدو أن هناك أعداء كثيرين لي في هذا المؤتمر" فصرخ الجيرونديون: "كلنا أعداؤك". وعمل مارا على تكرار طلبه بقيام دكتاتورية على النمط الروماني المحدود واعترف بتحريضه على العنف لكنه برأ دانتون وروببسيير من أي مشاركة في خططه، واقترح واحد من النواب القبض عليه

ومحاكمته بتهمة الخيانة لكن هذه الحركة لم تتجج، وأخذ مارا مسدسه من جيبه وصوبه إلى رأسه وأعلن: "إذا صدر مرسوم باتهامي فسأنتثر مخي عند أقدام الشعب" (8). وكان موقف الجيرونديين الذين قادوا فرنسا في الحرب على الأعداء - قويا في هذه الشهور بسبب انتصارات جيش فرنسا وانتشار القوات الفرنسية والأفكار الثورية.

في 21 سبتمبر سنة 1791 قاد الجنرال أني - بيير دي منتسكيو - فيز نزاك - Anne - Pierre - Montesquieu - Fezensac قواته محققا فتحا سهلا لسافوي Savoy (كانت وقتها جزءاً من سردينيا) وذكر في تقرير له إلى المؤتمر الوطني أن "تقدم جيشي إنما هو نصر، فقد كان الناس في الريف والمدينة يخرجون لاستقبالنا وكان الناس في الأنحاء كلها يضعون الشارة الثلاثية ألوانها" (9) وفي 27 سبتمبر دخل قسم آخر من الجيش الفرنسي نيس Nice بلا مقاومة، وفي 29 سبتمبر فيلفرانش Villedafranche وفي 27 نوفمبر تم إدماج سافوي Savoy في فرنسا بناء على طلب زعمائها السياسيين المحليين.

أما فتح بلاد الراين Rhineland فكان أمراً أكثر صعوبة. ففي 25 سبتمبر قاد الجنرال آدم - فيليب دي كوستين Adam - Philippe de Custine المتطوعين التابعين له للاستيلاء على سبير Speyer وأخذ ثلاثة آلاف أسير وفي 5 أكتوبر دخل فورمز Worms وفي 19 أكتوبر مينز Mainz وفي 21 أكتوبر فرانكفورت - أم - مين Frankfurt - am - Main . ولكسب بلجيكا (التابعة للنمسا) إلى صف الثورة حارب ديمورييه Dumouriez في جيمابز (6 نوفمبر) إحدى أكبر المعارك في الحرب، فقد تراجع النمساويون بعد مقاومة طويلة مخلفين وراءهم أربعة آلاف قتيل في ساحة المعركة، وسقطت بروكسل في 14 نوفمبر وليج Liège في 24 نوفمبر وأنتورب Antwerp في الثلاثين من الشهر نفسه، وفي هذه المدن كلها استقبل السكان الفرنسيين كمحررين. وقد تأخر ديمورييه في بلجيكا، وأثرى نفسه بالتعامل مع المضاربيين في تمويل الجيش بالمون، بدلا من إطاعة أوامر المؤتمر الوطني بالتحرك جنوبا وضم قواته إلى قوات كوستين Custine، وعندما أنب على ذلك هدد بالاستقاله تم إرسال دانتون لاسترضائه فنجح في مهمته، لكن عندما تراجع ديمورييه Dumouriez أمام العدو في 5 أبريل سنة 1793 عانى دانتون من الشعور بالذنب.

وقد تبنى المؤتمر الوطني اتجاهين سياسيين يكمل أحدهما الآخر بعد أن أُنشئ أعضاؤه بسبب هذه الانتصارات: الاتجاه الأول هو مد فرنسا إلى "حدودها الطبيعية" الراين والألب والبيرنيس (البرانس) Pyrenees والبحار - والثاني هو مساعدة سكان الحدود بتقديم مساعدات عسكرية لهم ليتمكنوا من تحقيق الحرية الاقتصادية والسياسية. ومن هنا كان هذا المرسوم الجسور الصادر في 15 ديسمبر سنة 1792 .

"من هذه اللحظة تعلن الأمة الفرنسية سيادة الشعب [في المناطق المتعاونة كلها]، وقمع كل السلطات العسكرية والمدنية التي حكمتكم حتى الآن كلها، وإبطال كل الضرائب التي ينوء بها كاهلكم، وإلغاء العشور التي تنقاضها الكنيسة وكذلك الرسوم الإقطاعية... وإلغاء القنانة (رق الأرض)... وتعلن الأمة الفرنسية أيضا إبطال المؤسسات (التشكيلات) التي تضم النبلاء والإكليروس كلها، وإبطال الامتيازات كلها لتعارضها مع مبدأ المساواة. انكم الآن منذ هذه اللحظة إخوة وأصدقاء، فالكل مواطنون متساوون في الحقوق ويمكن لأي منكم أن يتولى أمور الحكم وأن يقدم الخدمات وأن يدافع عن بلاده" (10).

وأدى هذا المرسوم "مرسوم الأخوة" إلى عدد من المشاكل للجمهورية الشابية. فعندما فرضت الضرائب على المناطق المفتوحة "أو المحررة بتعبير رجال الثورة" لدعم الاحتلال الفرنسي جأر الناس بالشكوى قائلين إن سيديا حل محل سيد آخر وإن ضريبة حلت محل أخرى. وعندما رأت الهيئة الكنسية في كل من بلجيكا وليج Liege وبلاد الراين Rhineland التي ألقت أن تسيطر على السلطات الحاكمة أو تشاركها - أنها مهددة في سلطانتها وعقيدتها، مدت أيديها إلى ما وراء الحدود لمقاومة الثورة الفرنسية وتحطيمها إذا أمكن. وفي 16 نوفمبر 1792 أصدر المؤتمر الوطني مرسوما يفتح نهر شيلدت Scheldt للملاحة كلها.

وكان الهدف من هذا القرار هو جذب تجار أنتورب Antwerp إلى قضية الثورة الفرنسية - طالما أن صلح وستفاليا (Peace of Westphalia 1648) كان قد منع الملاحة في هذا النهر إلا للهولنديين، (لأنها سحبت منها هذا الامتياز) وفسر ملوك أوروبا إعلان المؤتمر الوطني (السابق لإيراد مقتطفات منه) بأنه إعلان للحرب عليهم جميعا وعلى السادة الإقطاعيين، فبدأ تشكيل أو تحالف ضد فرنسا.

وقرر المؤتمر الوطني قراره (حتى لا يكون أمامه سبيل للتراجع) بمحاكمة لويس السادس عشر بتهمة الخيانة. فمذ 10 أغسطس راح المسؤولون في التمل Temple يقدمون لمعظم أفراد الأسرة المالكة معاملة نصف إنسانية: للملك وكان في الثامنة والثلاثين من عمره، والملكة كانت في السابعة والثلاثين من عمرها، وأخت الملك "مدام إليزابيت" وكانت في الثامنة والعشرين، وابنة الملك (ماري تيريز Marie - Therese) مدام روال (Madame Royale) وكانت في الرابعة عشرة، وابن الملك ولي العهد لويس - شارلز Dauphin Louis - Charles وكان في السابعة

من عمره. وبذل الجيرونديون كل ما في وسعهم لتأجيل المحاكمة لأنهم كانوا يعلمون أن الأدلة ستؤدي بالضرورة إلى الإدانة وتنفيذ حكم الإعدام وهذا سيؤدي إلى تكثيف القوى الخارجية جهودها للهجوم على فرنسا، واتفق معهم دانتون في هذا الرأي لكن ظهر شخص آخر في المؤتمر الوطني، إنه لويس - أنطوان سان - جوست - Louis - Antoine - Saint - Just، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وقد لفت نظر المؤتمر الوطني بدعوته لقتل الملك: "لويس قتل الشعب وحاقت به الهزيمة ... انه همجي (بربري) سجين حرب أجنبي. لقد رأيت خطه وتصميماته الغادرة ... إنه هو القاتل في الباستيل وفي نانسي Nancy وساحة دي مارس Champ-de - Mars .. في التوليري. فأى عدو وأي أجنبي قد ألحق بكم الضرر أكثر منه؟" (11) وكان من الممكن أن يتوقف هذا الهجوم بسبب الحكمة والتدبر، لكن حدث في 20 نوفمبر أن تم اكتشاف صندوق حديدي في جدار الغرفة الملكية في قصر التوليري فأحضره رولان Roland إلى المؤتمر الوطني، وكان به دليل يؤكد بقوة تهمة الخيانة، لقد كان الصندوق يضم 625 وثيقة سرية توضح تعاملات الملك مع لافاييت Lafayette وميرابو Mirabeau وتاليران Talleyrand، وبرنيف Barnave وعدد من المهاجرين (الذين تركوا فرنسا إثر قيام الثورة) والصحفيين المحافظين. كان من الواضح أن لويس رغم تأكيده ولاءه للدستور، يتأمر للقضاء على الثورة. وأصدر المؤتمر الوطني أوامره بكشف النقاب عن ميرابو، وحطم اليعاقبة تمثالا في ناديهم كانوا قد أقاموه إحياء لذكراه، وتم القبض على بارنيف Barnave في جرينوبل Grenoble وهرب لافاييت إلى جيشه، أما تاليران فهرب كما يفعل دائما. وفي 2 ديسمبر ظهر بعض الوفود من أحياء (أقسام) باريس أمام المؤتمر الوطني وطالبوا بالتعجيل بمحاكمة الملك، وسرعان ما أرسل كومون باريس توصيات شديدة للعرض نفسه، وفي 3 ديسمبر انضم روبيسير للمطالبين بهذا الأمر. وحمل مارا Marat لواء المطالبة بأن يكون التصويت على المحاكمة علنا by voice & in public حتى يضع الجيرونديين المترددين تحت رحمة السانس كولوت (الذين لا يرتدون سراويل <بناطيل> قصيرة) في الممرات والشوارع.

وبدأت محاكمة الملك في 11 ديسمبر سنة 1792 أمام أعضاء المؤتمر الوطني جميعا. على وفق ما ذكره سيباستين ميرسييه Sebastien Mercier أحد النواب في المؤتمر الوطني فإن "خلفية الصالة تحولت إلى مقصورات وكأنها مسرح، حيث كانت النسوة يرتدين أكثر ملابسهن أناقة ورحن يلعبن المتلجات ويأكلن البرتقال ويشربن المسكرات المعطرة والمحلاة ... ويمكن للمرء أن يرى الساعة والحجاب ... يرافقون خلية دوق أورليان" (12) وتم إطلاع الملك على الوثائق التي وجدت في الصندوق فأنكر توقيعه وأنكر أي علم له بالصندوق. وواجه الأسئلة بالتعلل بعدم التذكر ليعين لنفسه محامين، فعرض شريتين دي ماليشيرب Chrétien de Malesherbes الذي دافع عن الفلاسفة (Philosophes) (ü) والأنسيكلوبيدي (الموسوعي) في عهد لويس الخامس - Louis XV الدفاع عن الملك، فوافق لويس السادس عشر وهو حزين وقال له: "إن تضحيتك عظيمة لأنك تعرض حياتك للخطر ومع هذا فلن يمكنك إنقاذ حياتي" (31). (وبالفعل فقد أعدم ماليشيرب بالمقصلة في أبريل سنة 1794) وفي هذه الأثناء اقترح ممثلو القوى الأجنبية شراء بعض الأصوات لصالح الملك ووافق دانتون أن يكون وكيلًا للمشتريين لكن المبلغ المطلوب كان أكثر مما يريد أصحاب الجلالة استثماره (14).

وفي 26 ديسمبر قدم رومين سيز Romain de Sèze القضية للدفاع، وساق رومين الحجة بأن الدستور لم يعط لأعضاء المؤتمر الوطني الحق في محاكمة الملك، وأن للملك الحقوق الإنسانية للدفاع عن حياته، فقد كان واحدا من أكثر الرجال إنسانية وأرقهم حاشية ومن أكثر الحكام ليبرالية ممن تبوأوا عرش فرنسا. هل نسي نواب المؤتمر الوطني إصلاحاته العديدة؟ ألم يكن هو الذي بدأ الثورة بدعوته مجلس طبقات الأمة للاعقاد ودعوته الفرنسيين كلهم ليقولوا له عن الأخطاء الحادثة وعن رغباتهم؟

وأجاب المدعي العام بأن الملك قد تفاوض مع القوى الأجنبية للقضاء على الثورة، فلم نستثنى وارث العرش إذا كان خائنا من إيقاع القصاص عليه؟ فطالما ظل على قيد الحياة ستحاك المؤامرات لإعادته إلى سلطانه كما كان قبل الثورة. فليكن عبرة للملوك كلهم حتى يرعوا ويتفكروا قبل أن يخونوا آمال شعوبهم.

وبدأ التصويت على جرم (إدانة) الملك في 15 يناير سنة 1793. فصوت 683 - بمن فيهم ابن عم الملك فيليب دورليان Philippe d'Orléans من بين 749 نائبا على إدانة الملك (15). وقد عارض روبيسير ومارا وسان - جوست Saint - Just حركة طرح هذا القرار (الحكم) للتصديق أو دعوة الشعب الفرنسي للاقتراع عليه من خلال جمعيات القاعدة Primary assemblies، ولم يحظ هذا الاقتراح بالقبول فقد عارضه 424 ولم يوافق عليه سوى 287، لأن دعوة الشعب إلى مثل هذا الاقتراع تعني استفتاءهم على عودة الملكية، كما قال سان جوست. أما روبيسير الذي طالما دافع عن الديمقراطية وحق الذكور جميعهم في الانتخاب فقد تردد الآن وقال إن "الفضيلة (وتعني الحماسة الجمهورية) كانت دائما في الأقلية على هذه الأرض" (16) وعندما وضع السؤال التالي في صياغته الأخيرة في 16 يناير: "ما هو الحكم الذي سيتعرض له ملك فرنسا؟" فإن الفريقين دخلا في نزاع شهدته الشوارع حيث صاحت الجموع مطالبة بحكم الإعدام وهددوا حياة كل من يصوت لحكم أقل من الإعدام، حتى إن النواب الذين كانوا حتى

الأمس يطالبون بعدم إعدامه أصبحوا خوفاً على حيواتهم يصوتون لصالح الحكم عليه بالإعدام، وأذعن دانتون، وثبت بين Paine على موقفه، أما فيليب دورليان الذي كان مستعداً للحاق بابن عمه فقد صوت لإقصائه (لإعدامه) أما مارا Marat فقد صوت لإعدامه في ظرف أربع وعشرين ساعة أما روبيسبير الذي كان دائماً يعارض العقوبات الغليظة (الإعدام) فقد أصبح الآن يقدم الحجج ليبرهن على أن بقاء الملك حياً سيكون خطراً على الجمهورية (17)، أما كوندرسيه فطالب بإبطال العقوبات الغليظة (الإعدام) الآن وإلى الأبد، وحذر بريسو Brissot من أن الحكم بالإعدام سيؤدي إلى دخول ملوك أوروبا كلهم الحرب ضد فرنسا. وبعض النواب في المؤتمر الوطني أضافوا إلى تصويتهم شروحا (تعليقات) فقد قال باجانل Paganel : الموت! - إن الملك لا يصلح إلا له، أو لا فائدة منه إلا له "وقال ميلو Millaud اليوم إذا لم يكن الموت موجوداً لوجب اختراعه". هكذا اقترح فولتير على الرب echoing voltaire on God أما دوشاتل Duchatel - وكان قد مات - فكأن يود أن ترد إليه الحياة ليصوت ضد قتل الملك أمام المحكمة ثم يموت مرة أخرى (18). وكانت النتيجة النهائية هي موافقة 361 على موت الملك عاجلاً، وصوت 334 لتأجيل هذا الأمر.

وفي 20 يناير قتل العضو السابق في فيلق حراسة الملك، لويس - ميشيل ليبلتييه دي سان فارجو Louis - Michel Lepeletier de Saint - Fargeau الذي كان قد صوت لصالح قتل الملك. وفي 21 يناير حملت عربة يحيط بها حرس مسلح، سارت على طول الشوارع التي حددها الحرس الوطني، لويس السادس عشر إلى ميدان الثورة (الآن ميدان الكونكورد Concorde أي ميدان الوفاق والوئام). وقبل أن تهوي عليه المقصلة حاول أن يتحدث إلى الجموع: "أيها الفرنسيون، إنني أموت بريئاً .. إنني أقول ذلك وأنا على سقالة المقصلة وسأمثل قريباً أمام الرب. إنني أعذر أعدائي، وأمل أن فرنسا - " لكن عند هذه الكلمة أشار سانتيير Santerre رئيس حرس باريس الوطني وقال: فلندق الطبول Tambours " فدقت الطبول، وراحت الجماهير تنتظر في صمت كنيب والنصل الثقيل يسقط، وراحوا يبكون حتى النخاع، وفي وقت لاحق قال واحد ممن حضروا هذا المشهد " في ذلك اليوم راح كل واحد يسير ببطء ولم يكن الواحد منا يجسر على النظر إلى الآخر" (19).

صفحة رقم : 14553

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> المؤتمر الوطني -> الثورة الثانية

2- الثورة الثانية

1793

لقد كان إعدام الملك نصراً بالنسبة للجبلين (اليسار) والكمون وسياسة الحرب، كما أنه وحد المشتركين في قتل الملك والمتسببين فيه فارتبطوا ارتباطاً مصيرياً بالثورة فقد يقع عليهم الاختيار للتضحية بهم عند إعادة عرش البوربون. وقد أدى هذا الحدث إلى انقسام الجيرونديين وعزلتهم، فقد انشقوا عند التصويت وهم الآن يتحركون في باريس وهم في حالة خوف على حيواتهم وتطلعوا إلى المحافظات حيث السلام والنظام موجودان بشكل نسبي، واستقال رولان

Roland - مريضاً محبطاً - من المجلس التنفيذي بعد يوم من إعدام الملك، والسلام الذي كان ممكناً بانتهال النمسا وبروسيا بتقسيم بولندا، غداً مستحيلاً الآن بسبب غضب ملوك أوروبا لقطع رأس واحد من إخوانهم.

وفي إنجلترا وجد وليام بيت Willam Pitt رئيس الوزراء الذي كان يفكر في شن الحرب على فرنسا، أنه لم يعد هناك كبير أثر لأي معارضة برلمانية لسياسته، وصدّم جماهير الإنجليز لأخبار إعدام الملك الفرنسي كما لو أن الملكية نفسها هي التي وضعت تحت المقصلة، كما لو أنهم هم أنفسهم (الإنجليز) ليسوا سلالة من نفاذ الإعدام في شارلز الأول Charles I، وكان هدف بيت Pitt الحقيقي - بطبيعة الحال - هو أن سيطرة فرنسا على أنتورب ستعطي لها - وهي عدوة بريطانيا القديمة - مفتاح الراين Rhine - وهو الطريق الرئيسي لتجارة بريطانيا مع وسط أوروبا. وأصبح هذا الخطر أكثر حدة عندما أعلن المؤتمر الوطني في 15 ديسمبر سنة 1792 ضم بلجيكا إلى فرنسا. والآن لقد فتح الطريق للسيطرة الفرنسية على هولندا وبلاد الراين Rhineland، فكل وادي الراين الخصب والمعمور بالسكان يمكن أن يغلق في وجه بريطانيا التي تعيش على تصدير منتجات صناعتها المنتشرة.

وفي 24 يناير سنة 1793 طرد بيت Pitt السفير الفرنسي وفي أول فبراير أعلن المؤتمر الوطني الحرب على كل من إنجلترا وهولندا. وفي 7 مارس انضمت إليهما أسبانيا وبدأ التحالف الأوربي الأول (المكون من بروسيا والنمسا وسردينيا وإنجلترا وهولندا وإسبانيا) المرحلة الثانية في العمل على كبح الثورة الفرنسية.

لقد تولت الكوارث بسرعة جعلت المؤتمر الوطني غير قادر على ملاحقتها، فالجيوش الثورية قد خملت بعد انتصاراتها المبدئية وترك آلاف المتطوعين الخدمة بعد انقضاء الفترة المحددة وتناقص عدد الجنود في الجبهة الشرقية من 400.00 إلى 225.000، وحتى هؤلاء كانوا ذوي ثياب رثة طعامهم الكفاف بسبب عدم كفاءة الممولين (المتعاقدين لتمويل الجيش) وفسادهم وارتشائهم، هؤلاء الممولين الذين كان يحميهم دومورييه Dumouriez ويستغلهم.

وفي 24 فبراير لجأ المؤتمر الوطني إلى التجنيد الإلزامي لإنشاء جيوش جديدة لكنه حابى الأثر بإعطاء السماح لهم بدفع البدلية لمن يقاوم عنهم (النص: شراء من يقوم مقامهم)، وانفجر التمرد على التجنيد الإلزامي في محافظات مختلفة، ففي الفيندي Vendée كان السخط على التجنيد الإلزامي وارتفاع تكاليف المعيشة وندرة الطعام، بالإضافة للسخط على التشريع المضاد للكاثوليكية، كل أولئك تضافر معا ليسبب تمرداً حقيقياً اتسع مده حتى استلزم الأمر استدعاء جيش من الجبهة للسيطرة على الأمور. وفي 16 فبراير قاد دومورييه Dumouriez 000,02 جندي لغزو هولندا، فهاجمت قوة نمساوية بقيادة الأمير ساكس - كوبرج Saxe - Coburg الحامية التي تركها دومورييه في بلجيكا، وكان هجومه مفاجئاً مما تسبب في إبادة الحامية الفرنسية، أما دومورييه نفسه فقد هزم في نيرفندن Neerwinden (81 مارس)، وفي 5 أبريل انضم إلى النمساويين ومعه ألف رجل (تخلّى عن الثورة لصالح أعدائها). وفي ذلك الشهر التقى مندوبون من إنجلترا وبروسيا والنمسا لوضع الخطط لإخضاع فرنسا.

لقد هددت المصاعب الداخلية والنكسات الخارجية بانتهال الحكومة الفرنسية، فرغم مصادرة أملاك الكنسية وممتلكات المهاجرين (الذين تركوا فرنسا بسبب أحداث الثورة) فإن الأسينات assignats (العملة التي أصدرتها حكومة الثورة) كادت تفقد قيمتها فجأة، إذ أصبحت لا تساوي سوى 47% من قيمتها الاسمية في أبريل سنة 1793 وفي غضون ثلاثة أشهر بعد ذلك تدنت قيمتها إلى 33% (أي أصبحت لا تساوي سوى 33% من القيمة المكتوبة عليها) (20) واتسع مدى المقاومة للضرائب الجديدة حتى أصبحت تكاليف جمعها تكاد تساوي قيمتها.

وأدت القروض الجبرية (اقترضت الحكومة بتوجيه الأوامر لمن تقترض منهم) - كما في حدث في الفترة من 20 - 25 مايو 1793 - إلى سلب البورجوازية المساعدة، وعندما حاولت هذه الطبقة استخدام الجيرونديين لحماية مصالحهم في الحكومة، أدى هذا إلى تعميق الصراع بين الجيرونديين والجبليين (اليسار) في المؤتمر الوطني. واستطاع دانتون وروبسبير ومارا نزع نادي البيعاقبة من سياساته البورجوازية الأصلية لجعله أقرب إلى الأفكار الراديكالية. أما الكوميون الذي يقوده الآن بيير شومت Pierre Chaumette وجاك هيبرت Jacques Hébert فقد استخدم الجريدة الضارية (العنيفة) التي يمتلكها هذا الأخير (جاك) والتي تحمل اسم Père Duchesne لإثارة المدينة (باريس) ومحاصرة المؤتمر الوطني بوابل من المطالب والإلحاح على مصادرة الثروات، وراح مارا Marat يوماً بعد يوم يشن الحرب ضد الجيرونديين باعتبارهم حماة للأثر. وفي فبراير سنة 1793 قاد جاك رو Jacques Roux وجان فارلت Jean Varlet مجموعة من البرولتاريات (الذئاب المسعورة) Enragés لمهاجمة ارتفاع أسعار الخبز والإصرار على أن يقوم المؤتمر الوطني بتحديد أسعار كل ما هو ضروري للحياة. ولأن المؤتمر الوطني قد أزعجته عاصفة المشاكل فقد عهد بأعماله المنوطة به في عام 1793 إلى لجان تتم الموافقة على قراراتها بأقل قدر من النقاش. وتم تعيين معظم اللجان لتكون مخصصة لمجال معين من مجالات النشاط والإدارة: الزراعة، الصناعة، التجارة، المحاسبة، المالية، التعليم، الخدمة الاجتماعية، شئون المستعمرات.

وعادة ما كانت كل لجنة تضم اختصاصيين في مجالها، وقد أدت هذه اللجان أعمالاً طيبة جداً، بل إنها وسط الأزمات التي بلغت ذروتها، أعدت دستوراً جديداً وتركت تراثاً تشريعياً بناء راق لنابليون فكون على هديه "المدونة القانونية النابليونية" Code Napoléon.

ولحماية الثورة من الوكالات الأجنبية (غير الفرنسية) والتخريب الداخلي والإزعاج السياسي عين المؤتمر الوطني في 10 مارس 1793 لجنة الرقابة العامة (ii) كوزارة وطنية للبوليس ذات صلاحيات عملية مطلقة للقيام بزيارات مفاجئة للأماكن كلها بما فيها البيوت دون تحذير للقبض على أي شخص يشك في عدم ولائه أو في ارتكابه جريمة وقد تم إنشاء لجان أخرى للمراقبة في الكوميون وأحياء (أقسام) المدن.

وأنشأ المجلس الوطني أيضاً في 10 مارس محكمة ثورية (ii) لمحكمة من يرسل إليها من المشكوك فيهم الذين سمح لهم بمحاميين للدفاع عنهم لكن الحكم الذي يصدره المحلفون Jorors لا يمكن استئنافه أو إعادة النظر فيه. وفي 15 أبريل عين المؤتمر الوطني أنطوان - كوينتن فوكير - تينفيل Antoine - Quentin Fouquier - Tinville مدعياً عاماً رئيسياً أمام هذه المحكمة الثورية الأنف ذكرها وهو محام حقق شهرة بسبب إتقانه التحقيق ولعدم رحمته لكنه كفاء، وإن كان لا يخلو من المشاعر الإنسانية بين الحين والآخر، (21) وعلى أية حال فإننا عرفناه من خلال رسم محفور يظهره بوجه كالصقر وأنف كالسيف. وبدأت هذه المحكمة الثورية جلساتها في 6 أبريل في قصر العدل، وكلما سارت الحرب قدماً، وزاد عدد المتهمين المقدمين للمحكمة زيادة يصعب على المحكمة السيطرة عليها، اختزلت إجراءاتها القانونية وراحت تصدر الحكم بالإدانة في القضايا كلها تقريباً التي أحالتها لجنة الأمن العام (ii) Committee of Public Safety.

وهذه اللجنة الأخيرة (لجنة الأمن العام) Comité de Salut Public أنشئت في 6 أبريل سنة 1793 لتحل محل المجلس التنفيذي Executive Council وأصبحت هي ذراع الدولة الفعال (الرئيسي). لقد كانت مجلس حرب. إنه لا يجب النظر إليها كحكومة مدنية تعترف بالقيود الدستورية (المقصود تتمتع عما يمنعه الدستور) وإنما كجهاز مخول تشريعياً بقيادة أمه تحارب من أجل وجودها، وبالتالي توجيه الأوامر لها. ولم تكن لسلطاته حدود إلا بمسئوليته أمام المؤتمر الوطني، ولا بد من تقديم قراراته لهذا المؤتمر الوطني الذي أحالها كلها تقريباً إلى مراسيم ملزمة. لقد كانت هذه اللجنة تدير السياسة الخارجية وتتحكم في الجيوش وجنراتها وفي الموظفين المدنيين ولجان الفنون والدين، والخدمات السرية للدولة، وكان يمكنها أن توجه الرسائل الخاصة (للأفراد والهيئات) والعامية (للجماهير)، وكانت ذات ميزات سرية ومن خلال "ممثلها المبعوثين" أو المرسلين في مهام كانت تتحكم في الموت والحياة في المحافظات وكانت تجتمع في حدائق (قسم النباتات) في التوليري (بافيلون دي فلور Povillon de Flore بين القصر (التوليري) والسين Seine وكان أعضاؤها يجتمعون حول منضدة اجتماعات مغطاة بقماش أخضر، أصبحت - أي هذه المنضدة - لمدة عام مجلساً للحكومة الفرنسية.

وكان يجلس في صدر اللجنة حتى 10 يوليو دانتون الذي تم اختياره للمرة الثانية ليقود الأمة وهي في حالة خطر، وبدأ دانتون على الفور بحث زملائه في اللجنة - وبالتالي المجلس الوطني - على ضرورة أن تتراجع الحكومة علناً عن عزمها التدخل في الشؤون الداخلية لأي أمة أخرى (22). وأرسل المؤتمر الوطني بسبب حث دانتون ورغم اعتراضات روبيسبير مبعوثها لجس النبض طلباً للسلام لكل دولة من الدول التي شكلت تحالفاً ضدها. وحث دوق بونسفيك Duke of Brunswick لإيقاف تقدمه، ونجح في ترتيب حلف مع السويد (23). وحاول مرة أخرى التوفيق بين الجبليين (اليسار) والجيرونديين لكن الخلافات بينهما كانت عميقة جداً.

وكتف مارا Marat هجومه على الجيرونديين حتى إنهم في ثورة غضبهم استصدروا في 14 أبريل سنة 1793 مرسوماً من المؤتمر الوطني بإحالة إلى المحكمة الثورية لدفاعه عن القتل ودعوته إلى الدكتاتورية. وعند محاكمته تجمع عدد كبير من السانس كولوت (الذين لا يرتدون سراويل قصيرة أي الشريحة الدنيا من الطبقة الثالثة) في قصر العدل والشوارع المفضية إليه يطالبون "بالانتقام من أي حماقة ترتكب ضد حاميتهم الأثير لديهم"، وعندما خاف المحلفون أطلقوا سراحه فحمله أتباعه في موكب نصر على أكتافهم إلى المؤتمر الوطني وهناك هدد بالانتقام من متهميه، ومن هناك حملته الجماهير المبتهجة إلى نادي اليعاقبة وهناك جعلوه على مقعد الرئاسة (24). وواصل مارا معركته مطالب بطرد الجيرونديين من المجلس الوطني باعتبارهم خونة الثورة البورجوازيين bourgeois belvayers of the revolution.

وحقق مارا Marat مكسباً خطيراً عندما أصدر المؤتمر الوطني - رغم اعتراض الجيرونديين وتحذيرهم - مرسوماً بوضع حد أقصى لأسعار الحبوب في كل مرحلة من مراحل انتقالها من المنتج إلى المستهلك وأمر الجهات الحكومية بأن يصادروا من الزراع الإنتاج كله اللازم لمواجهة الاحتياجات (25).

وفي 29 سبتمبر امتدت هذه الإجراءات لتحديد أسعار البضائع الأساسية كلها، فدخلت تحت سياسة "تحديد سقف أعلى للأسعار" (26) لقد برزت الآن الحرب الداخلية بين المنتج والمستهلك، فثار الفلاحون على مصادر محاصيلهم (27)

وقل الإنتاج للشعور بأن القوانين الجديدة عاقت الدوافع للربح واتسعت السوق السوداء، عارضة بأسعار عالية البضائع للقادر على الدفع، والأسواق التي نفذت قوانين تحديد الأسعار خلت من الحبوب والخبز، ومرة أخرى سارت مظاهرات الجوع خلال شوارع المدينة.

وفزع الجيرونديون إلى ناخبهم من الطبقة الوسطى في المحافظات لإنقاذهم من استبداد الجماهير، بعد أن امتعضوا بشدة ومراره من الضغط الذي تمارسه الطبقات الدنيا في باريس على المجلس الوطني. وكتب فرجنيو Vergniaud إلى ناخبه في بوردو Bordeaux في 4 مايو سنة 1793: "إنني أدعوكم إلى منبر الدفاع عن حقوق الشعب لتدافعوا عنا إن كان هناك وقت باق للنثار للحرية، بإبادة الطغاة" (28) وكتب باربارو Barbaroux على النحو نفسه إلى مؤيديه في مرسيليا، وفيها - أي في مرسيليا - كما في ليون Lyons تحالفت الأقلية البورجوازية مع النبلاء السابقين لطرده رئيس البلدية الراديكاليين في كلتيها.

وفي 18 مايو حث النواب الجيرونديون المؤتمر الوطني لتعيين لجنة للتفتيش على علميات كومون باريس وأحيائه (أقسام باريس) لكشف المخالفات القانونية. وكان أعضاء هذه اللجنة كلهم من الجيرونديين. وفي 24 مايو أمر المؤتمر الوطني بالقبض على هيبيير Hèbert وفارلت Varlet باعتبارهما محرصين (مثيرين للفتنة)، وطالب الكومون والستة عشر قسما التابعة له - في الوقت نفسه - بالإفراج عنهما، لكن المؤتمر الوطني رفض. وحرص روبيسيير في نادي اليعاقبة في 26 مايو المواطنين على الثورة: "عندما تظلم الجماهير، وعندما لا يكون لها ملجأ إلا إلى نفسها، فمن الجبن حقا ألا ندعوها إلى الثورة. فعندما تنتهك القوانين كلها وعندما يبلغ الاستبداد ذروته، وعندما تداس العقيدة الطيبة واللياقة فلا بد أن يقوم الشعب بحركة مقاومة شعبية. لقد أن الأوان لذلك" (29) وفي 27 مايو طالب مارا Marat في المؤتمر الوطني بقمع اللجنة (لجنة الجيرونديين الأنف ذكرها) "لأنها معادية للحرية ولأنها تميل إلى الحد على معارضة الشعب ومقاومته، وهذا التهديد وصلت فوق الرأس قريب الحدوث بسبب الإهمال الذي وقعت فيه بالسماح بارتفاع أسعار البضائع ارتفاعا فظيحا". وفي تلك الليلة مهد الجبليون (اليسار) الطريق لاتخاذ إجراء بإلغاء اللجنة (لجنة الجيرونديين الأنف ذكرها) وجرى التصويت الذي كانت نتيجته هذا الإلغاء، بأغلبية 279 ضد 238. وفي 30 مايو انضم دانتون إلى روبيسيير ومارا للدعوة إلى "نشاط ثوري أو هبة ثورية Revolutionay Vigor".

وفي 31 مايو قرعت الأحياء أجراس التنبيه للخطر ليهب المواطنون - عند سماعها، وتجمعت الجماهير عند دار البلدية Hotel de ville وكونوا مجلس مقاومة، وضمنوا دعم حرس باريس الوطني بقيادة قائده الراديكالي هانريوت Hanriot، ودخل هذا المجلس الجديد - بحميه هانريوت بحرسه والجماهير المترابطة العدد - إلى صالة المؤتمر الوطني وطالب بمثول الجيرونديين ليحاكموا أمام محكمة الثورة، وتحديد سعر الخبز عند ثلاثة جنيهات في أنحاء فرنسا كلها، وأي عجز ينتج عن ذلك يعالج بفرض ضريبة على الأثرياء، وأن يكون حق الانتخاب مقتصرًا مؤقتًا على السانس كولوت (03) (الذين لا يرتدون سراويل <بناطيل> قصيرة - الطبقة الثالثة)، وأقر المؤتمر الوطني الاعتراض الثاني فقط لهذه اللجنة البيغضة، وتراجعت الفصائل المسلحة لحلول الليل.

وعاد مجلس المقاومة الأنف ذكره إلى المؤتمر الوطني في أول يوليو مطالبًا بالقبض على رولان Rolan الذي اتهمه السانس كولوت (الطبقة الدنيا) بارتباط مصالحه بالمصالح البورجوازية. وفر رولان هاربا إلى الجنوب حيث لاقى ترحيبًا. أما زوجته مدام رولان فقد تأخرت ولم تلحق به لأنها خططت للدفاع عنه أمام المؤتمر الوطني لكن قبض عليها وأودعت في سجن أباي Abbaye (الكلمة تعني، الدير لأن هذا السجن كان في أصله ديرا) ولم يتح لها أن ترى زوجها بعد ذلك أبداً، وفي 2 يونيو احتشد ثمانون ألف رجل وامرأة - كان كثيرون منهم مسلحين - حول مقر المؤتمر الوطني، ووجه الحرس مدفعه للمبنى، وأخبر مجلس المقاومة الأنف ذكره نواب المؤتمر الوطني أن أحداً منهم لن يسمح له بالخروج حتى تتم الاستجابة لطلبات المجلس (مجلس المقاومة) كلها. وذكر مارا Marat بصوت عال أسماء الجيرونديين الذين يوصي بالقبض عليهم، وكان مارا قد سيطر على المنصة (المنبر) التي يتحدث متحدثو المؤتمر من فوقها ودبر بعض نواب المؤتمر أمر تملصهم من الحرس والجماهير وهربوا إلى المحافظات، وجرى القبض على اثنين وعشرين وفرضت عليهم الإقامة الجبرية في منازلهم بباريس. ومنذ هذا اليوم وحتى 26 يوليو أصبح المؤتمر الوطني خادماً مطيعاً للجبليين (اليسار) ولجنة الأمن العام وجماهير باريس. لقد هزمت الثورة الثانية البورجوازية وأسست مؤقتاً دكتاتورية البرولتاريات.

وأعطى المنتصرون للنظام الجديد شكلاً بتكليف كل من هيرول دي سيشل Hérault de Séchelles وسان - جوس Saint - Jus بصياغة الدستور الجديد الذي كان قد صدر في 11 أكتوبر 1792. وقد أعاد حق الانتخاب للذكور البالغين كلهم وأضاف حق كل مواطن في مورد رزق، والتعليم والمقاومة، وقصر حقوق الملكية بحيث لا تتعارض مع المصلحة العامة، وأعلن حرية العبادة واعترف بكرم ولطف بوجود الله (سبحانه) a Supreme being كموجود أسمى وأعلن الأخلاق كأمر لازم للمجتمع، وقد أطلق كارليل Carlyle الذي لم يكن يستطيع أن يهضم (يستسيغ)

الديمقراطية هذا بأنه " أكثر الدساتير - التي حبرت على الورق - ديمقراطية (31) وقبله المؤتمر الوطني (في 4 يونيو سنة 1793) وأقره ربع الناخبين 1.801.918 واعترض عليه 11.610. وظل دستور 1793 على الورق فقط لأنه في 10 يوليو جدد المؤتمر الوطني للجنة الأمن العام Committee of Public Safety صلاحياتها كسلطة حاکمة فوق الدستور حتى يعود السلام.

صفحة رقم : 14554

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> المؤتمر الوطني -> مصرع مارا

3- مصرع مارا

13 يوليو 1793

ولجأ ثلاثة من الجيرونديين هم بتيو Pétion وباربارو Barbaroux وبوزو Buzot إلى كان Caen حيث وجدوا الحماية، وكانت هي الحصن الشمالي "الفدراليين Federalist" الذين يعارضون هيمنة أهل باريس على الحكومة الوطنية. وراحوا يلقون الخطب ليشرحوا السانس كولوت (ذوي السراويل > البناطيل > الطوال) والمتحدثين باسمهم خاصة مارا Marat ونظموا مظاهرات عسكرية للاعتراض ونظموا جيشا للتقدم صوب العاصمة. وكانت شارلوت كورداي Charlotte Corday من بين أكثر المستمعين إليهم حماسة وتعاطفا، وهي تنحدر من سلالة المسرحي بيير كورنيل Pierre Corneille سليلة أسرة مؤيدة للنظام الملكي بشدة، وكانت أسرتها قد أصابها الفقر فتعلمت شارلوت في دير للراهبات وخدمت مدة عامين كراهبة وأتاحت لها الظروف قراءة بلوتارخ Plutarch وروسو Rousseau بل وحتى فولتير Voltaire، وقد تركت إيمانها (تشككت في المسيحية) وفتنت بأبطال روما القديمة. وقد صدمت عندما سمعت بقتل الملك الفرنسي (لويس السادس عشر) وكانت ممتعضة بسبب ما أثاره مارا Marat من سخط على الجيرونديين. وفي 20 يونيو سنة 1793 زارت باربارو Barbaroux وكان وقتها في السادسة والعشرين وكان وسيما جدا حتى أن مدام رولان Mme - Roland شبهته بأنطونيوس محبوب الإمبراطور هدریان. وكانت شارلوت تقترب من الخامسة والعشرين، وكان عقلها مشغولا بأمر أخرى بالإضافة إلى الحب، وكل ما طلبته هو خطاب تعريف لنانب في المؤتمر الوطني ليرتب لها لقاء مع المؤتمر، فكتب لها باربارو خطاب تقديم إلى لوز دوبري Lauze Duperret، وفي 9 يوليو استقلت مركبة عمومية إلى باريس فوصلتها في 11 يوليو واشترت سكين مطبخ يبلغ طول نصلها ست بوصات، ودبرت أن تدخل قاعة اجتماع المؤتمر الوطني وتقتل مارا Marat على مقعده لكنها علمت أن مارا مريض ومقيم في منزله، فحصلت على عنوانه وذهبت إليه لكن لم يسمح لها بالدخول إذ قيل لها "السيد في الحمام" فعادت إلى محل إقامتها.

لقد كان الحمام الآن هو "المكتب الأثير" لدى مارا Marat، فقد تقاوم مرضه الذي يظهر أنه كان نوعا من الدرن الجلدي (السلية الجلدية) أو الاسكروفولا Scrofula وكان يجد راحة من آلامه بالجلوس مغمورا في الماء الدافئ حتى وسطه، وكانوا يضيفون له في هذا الماء المواد المعدنية والأدوية، وكان يضع قطعة قماش للتجفيف (منديلا)

فوق كتفيه، ويلف حول رأسه منديلا كبيرا مبللاً بالخل، وكان يحتفظ بالأوراق والقلم والمحبرة فوق متسع على حافة الحوض، وكان يكتب يوماً بعد يوم المادة المطلوبة لصحيفته على هذه الحافة وهو في هذا الحوض (32). وكانت أخته ألبرتine تتولى العناية به، ومنذ سنة 1790 أصبح موضع رعاية من خادمته سيمون إيفارد Simone Evard التي تزوجها زوجها غير موثق كنسيا (لم يعقد أمام الإكليروس) وانما "أمام الله Supreme being أو الموجود الاسمي، ... في معبد الطبيعة الواسع" (33).

وأرسلت شارلوت Charlotte من مقر إقامتها طلباً لمقابلته: "لقد قدمت من كان Caen، إن حبك لأمتك يجب أن يجعلك متنبها للمؤمرات التي تحاك هناك. إنني في إنتظار إجابتك" (43). ولم تطق شارلوت صبرا حتى تتلقى الإجابة، ففي مساء 13 يوليو طرقت باب داره مرة أخرى، فلم يسمح لها بالدخول ولكن مارا Marat سمع صوتها فطلب السماح لها بالدخول واستقبلها بترحيب وأمر لها بمقعد فجلست فقربت مقعدها منه، فسألها: "ماذا يجري في كان Caen؟" (أو هكذا روت شارلوت فيما بعد هذا الحوار الغريب) فأجابت: "ثمانية عشر نائباً من المجلس الوطني يحكمون هناك بالتأمر مع مسؤولي المحافظة" فسألها: ما أسماؤهم، "فذكرتها له، فكتبها، وأصدر حكمه التالي: ستجز المقصلة رقابهم" وعندئذ سحبت شارلوت سكينها وطعنته في صدره بكل قوتها حتى أن نصل السكين اخترق الأورطي aorta وتجر الدم أثر الطعنة، فصرخ مناديا سيمون Simonne "أسرعي إلى ..أسرعي إلى يا صديقتي العزيزة" فأقبلت سيمون فمات بين ذراعيها، واندفعت شارلوت خارجة من الحجرة فاعترضها رجل وكف مقاومتها مستخدماً كرسيها، وتم استدعاء البوليس فقبض عليها، فقالت: "لقد أدبت واجبي فلندعهم - أي رجال الشرطة - يؤدون واجبهم" (35).

ولا بد أن مارا Marat كان يتمتع ببعض الصفات الطيبة فقد اجتمعت على حبه امرأتان تنافستا في ذلك ونذرت أخته نفسها فيما تبقى من عمرها لتوفير ذكراه.

وكان مارا في وقت من الأوقات طبيباً ناجحاً، ولم يترك عند مماته شيئاً سوى بعض المخطوطات العلمية وخمسة وعشرين سو (36) Sous وكان مارا Marat متعصباً لكنه أخلص للجماهير الذين نسبتهم الطبيعة والتاريخ، واحتفظ نادي الكوردليير (نسبة إلى مقرهم في دير فرسكاني) بقلبه كأثر مقدس (ذي طابع ديني كرفات القديسين)، وأقبل الآلاف لإلقاء نظرة عليه "بتوفير صامت وقد كنتموا أنفاسهم" (37) وفي 16 يوليو تبع جثمانه أعضاء المجلس الوطني المتبقون كلهم وخلق كثير من رجال ونساء أتوا من الأحياء (الأقسام) الثورية، إلى مثواه في بساتين الكوردليير (نسبة إلى دير فرسكاني جعلوه مقراً لهم) ونصب تمثاله الذي نحته دافيد David في قاعة المؤتمر الوطني وفي 21 سبتمبر سنة 1794 نقل رفاته إلى البانثيون Panthéon (مدفن العظماء).

وكانت محاكمة شارلوت قصيرة فقد اعترفت بفعاليتها لكنها لم تعترف بأنها مذنبية، فقد قالت إنها لم تفعل سوى الانتقام لضحايا مذبحه سبتمبر، وقالت لقد قتلت "رجلاً لأنقذ مائة ألف رجل" (38) وكتبت في خطاب إلى باربارو Barbaroux بصراحة قائلة "إن الغاية تبرر الوسيلة" (39) وبعد ساعات قليلة من اعترافها تم إعدامها في ميدان الثورة، وواجهت بزهو لعنات الجماهير التي حضرت تنفيذ الحكم فيها ورفضت عرض أحد القسس تلقينها العبارات التي يقولها الكاثوليك عند الموت ورفضت قيامه بطقوس دينية قبل إعدامها (40).

لقد ماتت شارلوت قبل أن تتحقق من أن فعلتها (قتل مارا) فيها هلاك الجير ونديين الذين كانت تظن أنها تخدمهم بفعلتها هذه. وقال فيرنيو Vergniaud للجير ونديين مسامحاً إياها ومدركاً لأبعاد فعلتها: "لقد قتلتنا، لكنها علمتنا كيف نموت" (14).

احتفظ المؤتمر الوطني لنفسه بحق المراجعة الشهرية لعضوية لجنة الأمن العام، وفي 10 يوليو كانت سياسة السلام التي تبنتها اللجنة وكذلك سياستها الخارجية والداخلية قد فشلت، فأزاح المؤتمر دانتون، وفي 25 يوليو انتخبه المؤتمر رئيساً له لدورة عادية لمدة أسبوعين (وربما كان هذا كي يظهر المؤتمر استمرار تقديره له)، وماتت زوجة دانتون في فبراير وتركت له طفلين، وفي 17 يونيو تزوج من فتاة في السادسة عشرة، وفي 10 يوليو استقر في بيته كزوج مرة أخرى.

وفي 27 يوليو تم تعيين روبيسبير في لجنة الأمن العام ولم يهتم دانتون به وقال: "هذا الرجل ليس لديه من الدهاء ما يكفي لسلق بيضة" (24) ومع هذا ففي أول أغسطس حث المؤتمر الوطني على تحويل لجنة الأمن العام لصلاحيات وسلطات كاملة. وربما اعتذاراً منه عن هذه المشورة، ذكر لديمولان Desmoulins وهما يراقبان غروب الشمس على نهر السين، وكانت أشعة الشمس الغارية قد جعلت مياهه حمراء قانية: "إن النهر يجرى دماً". وفي سبتمبر اقترح المؤتمر الوطني عليه العودة إلى لجنة الأمن العام لكنه رفض (43) وغادر باريس في 12 أكتوبر مرهقاً مريضاً ونشد الراحة في البيت الذي كان قد اشتراه في موطنه الأصلي أرسى - سير أوب Arcis - Sur - Aube في وادي ميرن Marne، وعندما عاد إلى باريس في 21 نوفمبر كان السين يجرى دماً بالفعل.

وخلال الصيف أخذت "اللجنة الكبرى" كما أصبحت تسمى شكلها التاريخي. إنها الآن تتكون من اثني عشر رجلاً كلهم من الطبقة الوسطى وكلهم نالوا قسطاً طيباً من التعليم، وكلهم ذوو دخول جيدة وكلهم يعرفون الفلاسفة Philosophes وروسو Rousseau، لقد كان ثمانية منهم محامين واثان مهندسين، ولم يكن منهم من اشتغل بيديه سوى كولوت دربوا Collot d'Herbois إن دكتاتورية البرولتارياء إذن ليست على الإطلاق برولتارية، ولنراجع السجلات:

1- برتران بارير Bertrand Barère ، في الثامنة والثلاثين، أوكل إليه بالإضافة إلى واجباته المختلفة مهمة الحضور أمام المؤتمر الوطني والدفاع عن القرارات التي تصل إليها اللجنة (لجنة الأمن العام) والعمل على صدور مراسيم بشأنها. كان ودوداً مقنعاً، فقد كان يصوغ الإحصاءات شعراً ويزف أحكام الموت ببلاغة ولم يكن له أعداء كثيرون على قيد الحياة وكان يتلون بلون السياسة القائمة وعاش حتى سن السادسة والثمانين، وهي فترة طويلة ليتعلم منها أن الحكومات تموت وكذلك الأفكار.

2- جان - نيكولاس - بيلو - فارين Jean - Nicolas Billaud Varenne ، في السابعة والثلاثين قدم البراهين على أن الكنسية الكاثوليكية هي أخطر أعداء الثورة على الإطلاق ولا بد من تدميرها. وقد احتفظ بصلاته مع أحياء باريس والكومون في تناغم تام، واتباع سياسات تتسم بالعناد والإلحاح مما جعل رفاقه في اللجنة (لجنة الأمن العام) يخافونه، وحمل مسئولية مرسله المحافظات ورأس الجهاز الإداري الجديد، وكان في وقت من الأوقات "أقوى أعضاء اللجنة" (44).

3- لازار كارنو Lazare Carnot ، في الأربعين من عمره كان معروفًا كعالم رياضيات ومهندس عسكري، أخذ على عاتقه الجيوش الفرنسية ورسم خرائط المعارك، وعلم الجنرالات ودرّبهم وكسب احتراماً عاماً لمقدرته واستقامته وهو الوحيد من بين أعضاء هذه اللجنة الذي لا يزال اسمه يحظى بالتكريم والتشريف في فرنسا كلها حتى اليوم.

4- جان - ماري كولوت دربوا Jean- Marie Collot d'Herbois ، في الثالثة والأربعين، كان ممثلاً سابقاً، وقد عانى من موقف الثورة التي كانت تعتبر المهن المسرحية لا تعطيه الأهلية الشرعية للترقي في مدارجها. ولم ينس أبداً أن البورجوازيين كانوا يغلقون أبوابهم في وجهه وأن الكنيسة قد أصدرت قرار الحرمان ضده بسبب مهنته، وكان أقسى أعضاء اللجنة الاثني عشر في التعامل مع أرسنقراطية التجار aristocracy of merchants واقترح ذات مرة - كإجراء اقتصادي - نسف سجون باريس - المزدهمة بالمشكوك فيهم والمحتكرين والمتربحين - بالألغام (بمن فيها) (54).

- 5- جورج كوتو George Couthon، في الثامنة والثلاثين، أقعده التهاب السحايا فكان لا بد من حمله على مقعد أينما ذهب، وكان قد أفرط في الممارسات الجنسية في شبابه فأدى هذا إلى إصابته بالعلل لكن زوجته كانت تحبه، وكان طبيب القلب حديدي الإرادة عرف عنه إدارته الإنسانية للمحافظات المحورية في أثناء عهد الإرهاب.
- 6- ماري - جان هيرول دي سيشل Jean Hérault de Séchelles، في الرابعة والثلاثين وكان يبدو في غير موضعه ودرجته بين هؤلاء الاثني عشر (لجنة الاثني عشر أي لجنة الأمن العام التي نحن بصددنا الآن) فقد كان أحد نبلاء <الأرواب> (نبيل بحكم المنصب الذي شغله) ومحامياً ثرياً، كان مرموقاً لأناقته وسلوكه المهذب وعقله ذي النزعة الفولتيرية (كان متأثراً بفكر فولتير). وعندما شعر بالمد الثوري يزداد انضم مع الذين هاجموا الباستيل وكتب معظم دستور سنة 1793 وعمل منفذاً لسياسات اللجنة في الألزاس فنفذها بصرامة، وعاش حياة مريحة مع خلييلة نبيلة حتى قصت المقصلة رقبته في 5 أبريل سنة 1794.
- 7- روبرت لند Robert Lindet، في السابعة والأربعين تولى أمر إنتاج الطعام وتوزيعه في ظل سياسة التوجيه الاقتصادي المتزايدة، وحاز إعجاباً لجهوده في إطعام الجيوش الفرنسية وتقديم الكساء لها.
- 8- كلود - أنطوان برييز - دوفيرنوا Claude Antoine Prieur - Duvernois، كان يسمى برييز ساحل الذهب the Cote d'or، عمره ثلاثون سنة بذل جهوداً مميزة - مثل روبرت لند - في تزويد الجيوش بالأغذية وغيرها من المواد اللازمة.
- 9- بيبير - لويس Pierre - Louis المعروف ببيير المارن The Marne (الكلمة في المعاجم الفرنسية العربية تعني المرن أو السجيل أي خليط من جملة مواد)، كان في السابعة والعشرين من عمره، بذل كل جهده في محاولة كسب الكاثوليك والملكيين في محافظة بريتاني Brittany إلى جانب الثورة.
- 10- أندريه جانيون سان أندريه - Andre - Jeanbon Saint - Andre. في الرابعة والأربعين. من ذرية بروتستانتية ولكنه تلقى تعليماً يسوعياً (جزويتياً). أصبح قائداً (قبطاناً) لسفينة تجارية ثم كاهناً بروتستانتياً وتولى مسؤولية الأسطول الفرنسي في بريست Brest وخاض به معركة مع الأسطول البريطاني.
- 11- لويس - أنطوان سان - جوست - Louis - Antoine Saint - Just، في السادسة والعشرين. وكان أكثر أعضاء اللجنة The Twelve شباباً وغرابية، فهو الابن الإرهابي لعصر الإرهاب، إذ كان شديد الإيمان بالثورة إيماناً ثورياً انفعالياً غالباً لا يقهر. ربه في بيكاردي Picardy أم مطلقة فكان مدلاً مطلقاً للعنان لرغباته فرفض أي حكم أو ضوابط وهرب إلى باريس وأخذ معه فضة أمه وأنفقها على العاهرات (46) وقبض عليه وأودع السجن ودرس القانون وكتب قصيدة جنسية من عشرين قصماً (مكونة من عشرين مقطوعة) وكان مولعاً باغتصاب النساء خاصة الرهبانيات منهن، وكان يمجّد اللهو واللذة باعتبارهما حقاً مقدساً (47). وقد وجد في الثورة، في البداية تبريراً شرعياً ظاهراً لمذهبه في المتعة واللذة لكن مثلها العليا وغياتها جعلته يسمو بفرديته ليتمسك بالفضائل الرومانية Roman Virtus بطريقة جعلته على استعداد للتضحية بكل شيء لجعل هذه المثل العليا على أرض الواقع (48). لقد تحول من الأبيقورية (مذهب اللذة) إلى الرواقية (مذهب مجارة الضرورة) لكنه ظل رومانسياً حتى النهاية. لقد كتب: "عندما يأتي اليوم الذي لا أستطيع فيه أن أهدي الشعب الفرنسي إلى طرق مناسبة وقوية وعقلية لا تنتهي أمام الطغيان والظلم .. ساعة تبين عجزني عن هذا سأطعن نفسي" (94) وفي "المؤسسات الجمهورية Republican Institutions" (1791) قدم البراهين على أن تركيز الثروة إنما هو سخرية من مبدأ المساواة والحرية من الناحية السياسية والقانونية، فلا بد من تحديد الثروات وتوزيعها، ولا بد أن تقوم الحكومة على ملاك فلاحين وحرفيين مستقلين، ولا بد أن تمول الحكومة التعليم للجميع وتقدم إعانات للفقراء. ولا بد أن تكون القوانين قليلة ومختصرة ومفهومة "فالقوانين الطويلة مثل كوارث ومصائب عامة" (50)، ولا بد أن تتولى الدولة تربية الأطفال كلهم بعد سن الخامسة ببساطة إمبرطية (لتعليمهم البساطة والجد) ولتطعمهم الخضراوات ولتدربهم على القتال. والديمقراطية أمر طيب لكن الدكتاتورية أمر لازم وقت الحرب (51). وعندما تم انتخابه للجنة الأمن العام في 10 مايو سنة 1793 نذر نفسه للعمل الجاد المضني ورد على الشائعات التي ترددت باتخاذ عشيقته مع الزعم "بأنه مشغول جداً ولا وقت لديه لمثل هذه الرفاهية. وأصبح الشاب العنيد سريع الهياج متجهماً صارماً منضبطاً ومنظماً قديراً وجنرالاً لا يهاب ومحققاً للنصر. وعندما عاد منتصراً إلى باريس تم اختياره رئيساً للمؤتمر الوطني (19 فبراير 1794) ومع أنه كان فخوراً معترفاً بنفسه واثقاً بها متسوفاً على الآخرين إلا أنه قبل بتواضع قيادة روبيسبير ودافع عنه في هزيمته وصحبه إلى الموت وهو - أي سان جوست - في سن السادسة والعشرين وأحد عشر شهراً.
- 12- روبيسبير لم يحل محل دانتون تماماً كعقل حاكم مدبر وكشخص فارض إرادته على لجنة الأمن العام The Twelve فقد كان كل من كارنو Carnot وبيلو Billaud وكولو Collo لديهم من الصرامة والشدة مما يعسر معه حكمهم، فلم يصبح روبيسبير أبداً دكتاتوراً. لقد كان يعمل من خلال دراسة متأنية صبورة واستراتيجية مراوغة لا من خلال أوامر مباشرة (زعامة واضحة) وحافظ على شعبيته بين أفراد الطبقة الثالثة (السانس كولوت) فقد عاش عيشة

بسيطة وراح يمدح الجماهير ويمجدها ويدافع عن مصالحها، وفي 4 أبريل 1793 قدم للمؤتمر الوطني "الإعلان المقترح لحقوق الإنسان والمواطن":

"المجتمع ملزم بتقديم ما يقيم أود كل فرد فيه، سواء بإتاحة فرص العمل لهم أم بضمان وسائل العيش لغير القادرين على العمل... فمن كان عنده فضل مال فليعد به على من لا مال له... إنه لدين على القادرين أن يساعدوا من تنقصهم الضروريات. إن التخلص النهائي من الاستبداد يكون بمقاومة الظلم الذي يلبس لبوساً قانونياً (يأخذ شكلاً شرعياً)... والهيئات والمؤسسات التي لا تؤمن بأن الناس كلهم صالحون طيبون وأن الحكام والقضاة مرتشون فاسدون، هي هيئات أو مؤسسات كلها باطلة... فالناس في كل البلاد سواسية (إخوة)" (25).

بالتأكيد لم يكن أعضاء لجنة الأمن العام الاثنا عشر كلهم مجرد قتلة أو غاد كما توحى بذلك النظرة السطحية. حقيقة أنهم اتبعوا باستعداد تام تراث الإرهاب وحنو ذلك التراث الذي كان قد وصل إليهم من الحروب الدينية ومذبحة 1572 فترة القديس بارثولوميو Bartholomew وكان معظمهم قد تعلم أن يعدم أعداءه من غير أن يتحرك ضميره بل وفي بعض الأحيان بلا وازع من فضيلة لكنهم كانوا يتذرعون بضرورات الحرب وأعرافها. وكانوا هم أنفسهم عرضة لهذا الحظ العاثر، فقد كان كل واحد منهم مهددا بالعزل وجز رقبته بالمقصلة، وبالفعل فقد حدث لعدد منهم هذا. وكانوا في كل لحظة عرضه لسخط جماهير باريس أو الحرس الأهلي (الوطني) أو جنرال طموح، وكانت أي هزيمة كبرى على الحدود أو في المحافظات (الدوائر) المتمردة كفيلة بالإطاحة بهم. وفي الوقت نفسه فإنهم كانوا يعملون ليل نهار لإنجاز المهام الموكلة إليهم، فكان الواحد منهم يواظب من الثامنة صباحاً حتى الظهر في مكتبه أو لجنته الفرعية (المنبثقة من اللجنة الأم - لجنة الأمن العام) ومن الساعة الواحدة حتى الرابعة يحضر جلسات المؤتمر الوطني، ومن الساعة الثامنة حتى وقت متأخر يدخل في مناقشات ومشاورات حول المنضدة الخضراء في غرفة اجتماعاتهم.

وعندما تولوا أمر فرنسا كانت البلاد تمزقها الحروب الأهلية بسبب الرأسمالية الطارئة في ليون Lyons وبسبب اضطرابات الجيرونديين في الجنوب وحروب الكاثوليك والملكيين في الغرب، وكانت الجيوش الأجنبية تهددها من الشمال الشرقي والشرق والجنوب الغربي، وكانت تعاني الهزيمة برا وبحرا وكانت موائلها كلها محاصرة، وعندما سقطت هذه اللجنة العظمى (الكبرى) كانت فرنسا قد أصبحت وحدة سياسية تحت مطارق الدكتاتورية والإرهاب وظهر جيل جديد من الجنرالات الشبان مدربين قادوا المعارك أحيانا فقد أحرز كارنو Carnot وسان جوست Saint - Just انتصارات حاسمة أجبرت الأعداء على التراجع، ووقفت فرنسا وحدها ضد أوروبا كلها تقريبا وظهرت منتصرة على كل شيء لكنها لم تنتصر على نفسها.

صفحة رقم : 14556

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> المؤتمر الوطني -> عهد الإرهاب

5- عهد الإرهاب

17 سبتمبر 1793 - 28 يوليو 1794

أ- الأرياب عطاش

كان الإرهاب هو السمة العامة المتكررة (منذ ظهور الثورة الفرنسية) وارتبط أيضا بفترة زمنية بعينها. وعهد الإرهاب يطلق اصطلاحا على الفترة الممتدة من صدور قانون المشتبه فيهم في 17 سبتمبر 1793 حتى إعدام روبيسير في 28 يوليو 1794 لكن هناك قبل ذلك إرهاب سبتمبر 1792 وكان هناك ما يمكن تسميته "الإرهاب الأبيض White Terror" في مايو سنة 1795 وثمة إرهاب آخر سجنده بعد سقوط نابليون.

وكانت أسباب عهد الإرهاب الشهير (الفترة التي نتحدث عنها متمثلة في الأخطار الخارجية والفضى الداخلية، مما أدى إلى خوف عام وشغب فظهرت الأحكام العرفية (قانون الطوارئ) فالتحالف الأوربي الأول كان قد أدى إلى إعادة الاستيلاء على مينز (Mainz 32 يوليو) وغزو الألزاس، ودخول فالينسين Valenciennes على بعد مائة ميل من باريس، واستولت القوات الإسبانية على بيربينان Perpignan وبايون Bayonne وكانت القوات الفرنسية في حالة فوضى وكان جنرالها يجهلون أوامر حكومتهم. وفي 29 أغسطس سلم الملكيون للبريطانيين الأسطول الفرنسي وكذلك سلموهم القاعدة البحرية المهمة والترسانة في طولون Toulon، وحكمت بريطانيا الأمواج (تحكمت في البحار) واستولت بلا جهد على المستعمرات الفرنسية في قارات ثلاث، وتداول الحلفاء المنتصرون في "تقطيع أوصل فرنسا وأعدوا الحقوق الإقطاعية للمناطق التي تقدموا فيها(53).

وعلى الصعيد الداخلي بدت الثورة وقد انفرد عقدها فأهل فاندني Vendée كانوا يعملون بحماسة منقطعة النظر إلى جانب المناهضين للثورة، وهزم المتمردون الكاثوليك قوات الدولة في فيير (Vihiers 81 يوليو) وراح الأرسقراطيون في الداخل والأرسقراطيون المهاجرون يخططون بثقة لإعادة الوضع كما كان قبل الثورة. وأيدت

ليون Lyons وبورج Bourges ونيم Nimes ومارسيليا Marseilles وبوردو Bordeaux ونانت Nante وبريست Brest الجيرونديين الثوار (ضد الثورة)، وكانت الحرب الطبقيّة مُستعرة بين الأغنياء والفقراء. وكان الاقتصاد نفسه ساحة حرب. فالنظام الذي تم وضعه لضبط الأسعار في 4 مايو و 29 سبتمبر فشل بسبب براعة الجشعين، وفقراء المدن كانوا من أنصار التطرف الشديد (الاستيلاء على أموال الآخرين) وعارضهم الفلاحون والتجار، وشيئا فشيئا رفضوا - بشكل متزايد - إنتاج البضائع التي حددت أسعارها أو توزيعها، فراح ما يرد لمخازن المدن من الأسواق أو الحقول يتضاعف شيئا فشيئا ولم يعد يكفي سوى الأقلية التي تقف صفوفاً يومياً أمام أبواب هذه المخازن. واجتاح الخوف من المجاعة باريس والمدن الفرنسية الأخرى. ففي باريس وسينلي Senlis وأميان

Amiens وروان Rouen كادت الجماهير تطيح بالسلطات الحاكمة اعتراضاً منها على نقص الغذاء. وفي 25 يونيو قاد جاك رو Jacques Roux جماعته من الهائجين Enragés (والترجمة الحرفية للكلمة هي الكلاب المسعورة) إلى المؤتمر الوطني وطالبوا بالقبض على المستغلين كلهم - الذين ذكر جاك رو من بينهم بعض أعضاء المؤتمر الوطني - وإجبارهم على التخلي عن ثرواتهم الجديدة (التي جمعوها باستغلال الموقف الاقتصادي في فرنسا).

"هذه الديمقراطية التي تدعوها ليست ديمقراطية لأنكم تسمعون بتكوين الثروات، فلم يكن سوى الأثرياء - خلال السنوات الأربع الأخيرة - ثمار الثورة. إنها الأرسقراطية التجارية التي هي أكثر ظلماً لنا من النبلاء. إننا لا نرى حدا لاستغلالهم، فأسعار البضائع تزداد بشكل يثير الذعر.

لقد أن الأوان لمعركة حتى الموت بين المستغلين والعمال هل ممتلكات الأوغاد (السفلة) أكثر قداسة من حياة الإنسان؟ لا بد من إتاحة ضرورات الحياة وتوزيعها من قبل أجهزة إدارية تحت إشرافكم، تماماً كما أن القوات المسلحة تحت إشرافكم، فلن يكون كافياً تحصيل ضريبة من الأثرياء طالما أن النظام لم يتغير، لأن الرأسماليين والتجار سيقفون في اليوم التالي الأسعار ليستردوا المبلغ الذي دفعوه كضريبة من السانس كولوت (الشريحة الدنيا من الطبقة الثالثة) ... إذا لم يتم تدمير الاحتكاريين وقوى الاستغلال فلا حل"(45).

وأدان جاك هيبير Jacques Hébert البورجوازيين باعتبارهم المخططين للثورة - بعبارات أقل جنوحاً نحو الشيوعية - وحث العمال على الاستيلاء على السلطة من الحكومة المهملة أو المتسمة بالجبن. وفي 30 أغسطس نطق واحد من النواب بالعبارة السحرية "فليكن الإرهاب هو نظام هذه الأيام"(55). وفي 5 سبتمبر أنتت جماهير من الأحياء تهتف "الحرب على الطغاة وخازني البضائع (لمنعها عن الناس) والأرسقراطيين" واتجهت إلى مقر الكومون في دار البلدية، فصحب رئيس البلدية - جان جولوم بيش Jean - Guillaume Pache - ووكيل المدينة - بيير شومت Pierre Chaumette - مفوضين عن الجماهير المتظاهرة واتجهوا جميعاً إلى المؤتمر الوطني وطالبوا بجيش ثوري

يطوف فرنسا ومعه مقصلة للقبض على الجيرونديين وإجبار كل فلاح لتسليم منتجاته المخزونة وإلا جرى إعدامه في المكان نفسه(56).

وفي هذا الجو الذي يخيم فيه شبح الغزو الأجنبي، وشبح الثورة داخل الثورة - كونت لجنة الأمن العام الجيوش الفرنسية وقادتها للنصر، وكانت هي آلة الإرهاب (جهاز الرعب) التي كوت بنارها أمة شديدة الاضطراب فوحدتها. وفي 23 أغسطس، وبناء على خطط جسورة وضعها كارنو Carnot وبارير Barère - أمر المؤتمر الوطني بتجنيد جيش شعبي بطريقة عفوية ينضم إليه الفرنسيون Levy en masse، لا نظير له في تاريخ فرنسا: "من الآن وحتى يتم طرد أعداء الجمهورية الفرنسية من أراضيها، الفرنسيون كلهم مطلوبون بشكل دائم للخدمة في قواتها المسلحة، فالشباب سيذهبون للقتال والمتزوجون سوف يعدون السلاح وينقلون الطعام والنسوة سيعددن الخيام والملابس ويخدمن في المستشفيات، وكبار السن سينقلون إلى أماكن التجمع لئلا يتسببوا في القتال ويدعون لكرامية الملوك ويحتون على وحدة الأمة".

كل غير المتزوجين من سن الثامنة عشرة إلى الخامسة والعشرين تم تنظيمهم في كتائب ترفرف عليها أعلام كتب عليها "الشعب الفرنسي يتصدى للطغاة".

وسرعان ما تحولت باريس إلى مؤسسة نابضة لصناعة السلاح، وامتألت حدائق قصر التوليري ولكسمبرج Luxembourg بالمحلات التي تنتج نحو 650 بندقيّة في اليوم بالإضافة إلى مواد أخرى. وانتهت البطالة وصودرت الأسلحة الشخصية والمعادن والملابس الزائدة عن الحاجة، ووضعت آلاف المطاحن تحت إشراف الدولة. لقد صودرت رؤوس الأموال والعمل، واقتضت الحكومة - بالضغط من الموسرين بليون جنييه (ليفير Livres)، وحددت الحكومة الأسعار وحددت للمتعاقدين معها ما ينتجون. وهكذا أصبحت فرنسا بين عشية وضحاها دولة شمولية totalitarian state.

وكان لا بد من الحصول من تربة فرنسا المحاصرة من كل ناحية وفي كل ميناء - على النحاس والحديد والملح الصخري (نترات البوتاسيوم والصوديوم) والبوتاس والصودا والكبريت، وكان الاعتماد جزئياً فيما سبق على الاستيراد للحصول على بعض هذه المواد. ومن حسن الحظ أن قام الكيميائي لافوازييه Lavoisier (الذي سرعان ما قصت المقصلة رقبته) في سنة 1775 بتحسين نوعية البارود وزيادة إنتاجه، فكان لدى الجيوش الفرنسية بارود من نوعية أفضل مما لدى أعدائهم وتم استدعاء علماء مثل مونج Monge وبيرتوليه Bertholet وفوركرروي Fourcroy لتدبير إمدادات من المواد التي دعت الحاجة إليها أو اختراع بدائل لها، وكان هؤلاء العلماء هم الأعلام في مجال دراساتهم في ذلك الوقت وقد أدوا خدمات جيدة لبلادهم.

وفي نهاية سبتمبر كان لدى فرنسا 500.000 مجند كانت معداتهم غير كافية، وكان تنظيمهم بائساً وكانت روحهم يعترها التردد فلا أحد يتحمس وهو مقبل على الموت سوى القديسين. والآن ولأول مرة أصبحت الدعاية (البروباجندا) صناعة حكومية (صناعة من صناعات الدولة) تكاد تكون حكرًا عليها، فدفع وزير الحرب جان - بابتيست بورشوت Jean - Baptiste Bourchotte أموالاً للصحف لتقدم موضوعات عن حالة الأمة وأوصى القائمين عليها بتوزيع نسخ من هذه الصحف في معسكرات الجيش، فلم يكن هناك - إلا القليل - من يقرأها في أي مكان آخر (غير معسكرات الجيش) وذهب أعضاء من اللجنة أو ممثلون عنهم إلى جبهة القتال لإلقاء الخطب الرنانة في الجنود ولمراقبة الجنرالات.

وفي أول اشتباك مهم في المعركة الجديدة - في هوندشوت Hondschoote في 6-8 سبتمبر - مع قوات بريطانية ونمساوية كان ديبرل Debrel مبعوث اللجنة هو الذي حول الهزيمة إلى نصر بعد أن كان الجنرال هوشار (أوشار Houchard) قد اقترح انسحاب القوات الفرنسية. ولهذا، ولأخطاء أخرى جرى إرسال هذا المقاتل العجوز لتجز المقصلة رقبته في 14 نوفمبر سنة 1793. وسجن اثنان وعشرون جنرالاً - كلهم تقريباً من بقايا النظام القديم - لأخطاء وقعوا فيها أو لعدم مبالاتهم أو لإهمالهم تعليمات اللجنة. أما الشباب الذين نشأوا في الثورة فقد تبوأوا مكانتهم - رجال مثل هوش Hoche وبيشجرو Pichegru وجوردا Jourdan ومورو Moreau الذي كان أهم من نفذ سياسة كارنو Carnot القاضية بالهجوم المتواصل، ففي واتجنز Wattignies في 16 أكتوبر عندما واجه 50.000 مجند فرنسي جديد 65.000 نمساوي حمل كارنو Carnot ذو الأربعين عاماً بندقيته على كتفه وخاض هو ورجال جوردا Jourdan المعركة. حقيقة إن النصر الذي حققه لم يكن حاسماً لكنه رفع من معنويات جيوش الثورة ودعم من سلطة اللجنة (لجنة الأمن العام).

وفي 17 سبتمبر أقر المؤتمر الوطني المطيع (المقصود المذعن للجنة الأمن العام) قانون الاشتباه مخولاً للجنة أو من ينوب عنها القبض على أي مهاجر عائد إلى فرنسا (المهاجرون هم الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة) وأي قريب لهذا المهاجر وأي موظف عام موضع شك ولا يعاد إلى وظيفته مرة أخرى، وأي شخص تبدر منه أية إشارة تقيد مقاومة الثورة أو معارضة الحق، ويحق للجنة أو من تنبيه عنها أن يقبض على أي من المذكورين آنفاً دون سابق

إنذار أو تحذير. لقد كان هذا (قانون الاشتباه) قانونا قاسيا فقد فرض على الجميع - باستثناء الثوريين المعروفين - أن يعيشوا في خوف دائم من القبض عليهم أو حتى من قتلهم، وكان من بين هؤلاء الذين أصابهم الرعب الكاثوليك كلهم تقريبا والبورجوازيون كلهم.

ووافق بعض المهاجرين (الذين كانوا قد تركوا فرنسا عقب أحداث الثورة) لجنة الأمن العام The Twelve على أن استخدام الرعب والخوف من الأمور الشرعية المباحة التي يحق لنظام الحكم استخدامها في الظروف الحرجة. وفي سنة 1792 كتب الكونت مونتورين Montmorin وزير الخارجية السابق في ظل حكم لويس السادس عشر: "أعتقد أنه من الضروري معاقبة أهل باريس بالإرهاب" وقدم الكونت فلاشلاندر Flachslander الأدلة على أن المقاومة الفرنسية للحلفاء "ستستمر حتى يتم ذبح المؤتمر الوطني" وعلق واحد من سكرتارية ملك بروسيا على موقف المهاجرين: "إن لغتهم مرعبة. فإذا كنا مستعدين للتخيلية بينهم وبين مواطنيهم ليتأروا منهم، فسرعان ما ستصبح فرنسا مقبرة رهيبة لا أكثر" (57).

لقد واجه المؤتمر الوطني خيارا بين الإرهاب والرحمة في قضية ملكة فرنسا. لقد نحى جانبا تذبذبا وإسرافا في المرحلة الأولى، وتدخلها في شؤون الدولة وعدم استساغتها لجمهور باريس وكان هذا معروفاً عنها (وهي إهانة تستحق عليها الإعدام بجدارة)، فبصرف النظر عن ذلك كله فقد كان من المؤكد أنها اتصلت بالمهاجرين والحكومات الأجنبية لإيقاف الثورة وإعادة السلطات التقليدية إلى العرش الفرنسي، وكان رأيها أنها بفعلها هذا إنما هي تمارس حقا إنسانيا في الدفاع عن النفس، أما متهموها فاعتبروا أنها بفعلها هذا انتهكت القوانين التي أقرها نواب الأمة المنتخبون، وبذا فهي قد اقترفت خيانة. وكان من الواضح أنها أفتت لأعداء فرنسا بالمشاورات التي جرت في المجلس الملكي بل وأفتت لهم الخطط الحربية لجيوش فرنسا.

وقد أنجبت من لويس السادس عشر أربعة أطفال ماري تيريز Marie-Thérèse وهي الآن في الخامسة عشرة من عمرها، وابن مات في مرحلة الطفولة، وابن ثان مات في سنة 1789، وطفل ثالث هو لويس - شارلز - Louis Charles هو الآن في الثامنة من عمره واعتبر هو لويس السابع عشر Louis XVII، وكانت ابنة الملكة وأخت زوجها (البيزابيث) تعاوناتها في العناية بالطفل الذي راحت تنتظر إليه بقلق ومن ثم بياس لتدهور صحته وحالته المعنوية، بسبب طول فترة احتجازه. وفي مارس سنة 1793 عرضت عليها خطة للهروب لكنها رفضت لأن الخطة تتطلب ترك أطفالها (58). وعندما علمت الحكومة بهذه الخطة التي لم تنفذ نقلت ابن الملكة ونزعته منها رغم مقاومتها وأبعدته عن أقربائه، وفي أغسطس سنة 1793 - بعد عام من السجن في سجن التميل Temple تم نقل الملكة وابنتها وأخت زوجها إلى غرفة في مسكن البواب (الكونسيرجييري) ذلك القسم من قصر العدل الذين كان يشغله قبل ذلك مشرف المبنى. وهناك راحوا يعاملون هذه الأرملة Widow Capet - كما كانوا يسمونها - برقة أفضل من ذي قبل بل إنهم أرسلوا لها قسا ليرتل القداس في زنازنتها. وفي آخر هذا الشهر وافقت على محاولة أخرى لتهربها، وفشلت المحاولة فنقلوها إلى غرفة أخرى ووضعوها تحت مراقبة وحراسة مشددتين.

وفي 2 سبتمبر اجتمعت اللجنة لتقرير مصيرها، وكان بعض الأعضاء إلى جانب الاحتفاظ بحياتها للمساومة عليها مع النمسا مقابل سلام مقبول، أما بارير Barère وسان أندرية Saint - André فدعوا إلى إعدامها لأن هذا وسيلة لتوحيد الموقعين على الحكم وربطهم بميثاق الدم. أما هيرب Hébert عضو الكومون، فقال للجنة The Twelve: "إنني باسمكم وعدت العامة (السانس كولوت) برأس ماري أنطوانيت، وهم (العامة) غاضبون ساخطون يطالبون بها، وأنتم لا تستطيعون الاحتفاظ بمقاعدكم بل ووجودكم دون دعم منهم.. إنني سأذهب وأقطع رأسها بنفسي إذا كان علي أن انتظر كثيرا التسلم هذا الرأس" (59).

وفي 12 أكتوبر جرى تحقيق مبدئي مطول مع الملكة، وفي 14 و 15 أكتوبر حوكت أمام المحكمة الثورية، وكان المدعي العام هو فوكييه - تينفيل Fouquier - Tinville، وظلت الأسئلة توجه لها من الساعة الثامنة صباحا حتى الرابعة، ومن الساعة الخامسة حتى الحادية عشر مساء، وذلك في اليوم الأول للمحاكمة ومن الساعة التاسعة صباحا إلى الثالثة، في اليوم الثاني من المحاكمة. لقد أتهمت بتحويل ملايين الفرنكات من الخزانة الفرنسية لأخيها جوزيف الثاني إمبراطور النمسا ودعوة القوات الأجنبية لغزو فرنسا، وكان هناك افتراض - أكد إلى بعيد - أنها حاولت أن تفسد "ابنها جنسيا". وكان هذا الاتهام الأخير هو الاتهام الوحيد الذي لم يثرها فقد أجابت: "إن الطبيعة ذاتها ترفض أن ترد على مثل هذه التهمة (تعبيرها اهتماما) الموجهة إلى أم، إنني أستغيث بكل الأمهات الموجودات هنا". لقد تأثر الجمهور الحاضر بمنظر هذه المرأة التي كان جمالها وشبابها ومرحها في وقت من الأوقات حديث أوروبا، أما الآن فقد اشتعل رأسها شيبا وهي في الثامنة والثلاثين من عمرها مرتدية ملابس الحداد بعد إعدام زوجها، وراحت تتنازل دفاعاً عن حياتها أمام رجال كانوا قد انتهوا - كما هو واضح - إلى قرار بتحطيم روحها وتعذيبها بإطالة فترة المحاكمة بلا رحمة لتذهب نفسها حسرات قبل تدمير جسدها. وعندما انتهت المحاكمة أصابها العمى لفرط الإرهاق وكان لا بد من مساعدتها لتتخذ طريقها إلى زنازنتها، وهناك علمت أن قرار المحلفين هو الحكم عليها بالموت.

والآن فإنها كتبت في محبسها الانفرادي خطاب وداع لمدام إليزابيث طالبة منها أن تنقل لابنها وابنتها التوجيهات التي تركها أبوها الملك. لقد كتبت: "إن ابني يجب ألا ينسى كلمات أبيه الأخيرة والتي طالما كررتها على مسامعه وهي قوله: لا تعمل أبداً على الثأر لمقتلي" (60).

ولم يسلم الخطاب إلى مدام إليزابيث فقد سلمه - بعد أن استولى عليه - فوكييه - تينفيل Fouquier - Tinville إلى روبيسبير، وتم العثور عليه ضمن أوراقه السرية بعد موته. وفي صباح 16 أكتوبر 1793 أقبل المنفذ (الجلاد) هنري سانسون Henry Sanson إلى زنزانتها وعقد يديها خلف ظهرها وفض شعرها الذي يغطي رقبتها وحملها في عربة مرت على طول شارع يحفه الجنود والجموع التي كانت قبل ذلك معادية لها هازئة بها إلى أن وصلت إلى ميدان الثورة. وعند الظهر عرض سانسون Sanson على الجموع رأسها العنيد.

إن المحكمة الثورية الآن قد أنست إلى عملها، راحت تصدر أحكام الموت بمعدل سبعة أحكام في اليوم (61)، لقد تم القبض على الأرستقراطيين الذين تيسر القبض عليهم وتم إعدام كثيرين منهم، وفي 24 أكتوبر أحيل الواحد والعشرون جيرونديا الذين كانوا تحت الحراسة منذ 2 يونيو، إلى المحاكمة، فلم تغن عنهم بلاغة فيرنيو وبيسو Vergniaud & Brissot شيئاً، وطعن واحد منهم نفسه بينما هو يغادر المحكمة فوضعت جثته بين المتهمين وحملت في عربة إلى سقالة المقصلة حيث هوى النصل المحايد (الذي لا يميز بين حي وميت) على رقبتها (رقبة الجثة). إن الثورة - فيما قال فيرنيو Vergniaud " مثل ساتورن Saturn تقترس أبناءها" (62).

لنضع في اعتبارنا هذا الحق وذلك الرعب اللذين سببتهما هذه الأحداث والتي لا بد أنها قد تغلغت في أعماق مانون رولا Manon Rolan التي تنتظر مصيرها في غرفة البواب (الكونسيرجيري) التي أصبحت هي المنطلق أو العتبة الأخيرة إلى المقصلة. وقد كانت تلاقى في سجنها بعض المتع والكياسة فقد كان أصدقائها يحضرون لها الكتب والزهور، فجمعت في زنزانتها مكتبة تدور في غالبها حول بلوتارخ تاسيوس Tacius (الخطيب والمؤرخ الروماني)، ولأن موقفها كان أقوى فقد راحت تشغل نفسها بكتابة مذكراتها التي أطلقت عليها "دعوة لأجيال غير منحازة" كما لو أن الأجيال أيضاً لا يمكن تقسيمها، وبينما كانت تكتب ذكريات شبابها في أيام السعادة tempi felici تعمق لديها الشعور بمرارة حاضرها. لقد كتبت في 82 أغسطس سنة 1793:

"أشعر أنني فقدت الرغبة في متابعة هذه المذكرات. فالبؤس الذي يعانیه وطني يعذبني، إن كآبة تغلغل في روحي رغم إرادتي فتشل خيالي، فقد أصبحت فرنسا جلجئة واسعة (ساحة إعدام) (üü) .. لقد أصبحت ميدانا للارهاب وأصبح أطفالها يبيكون ويدمر بعضهم بعضاً ... لا يستطيع التاريخ أن يصور هذه الأيام المرعبة، ولا الغيلان التي تملأها ومن معها (مع الغيلان) من برابرة ... أكانت باريس يوماً مثل روما أو بابل؟" (36). وتتبأت أن دورها سيحين حالاً فقد كتبت في مذكراتها المخطوطة كلمة وداع لزوجها وعشيقها اللذين هربا من الشرك الذي أعد لهما:

"أه يا صديقي، ربما قادمك قدركما الملائم السماح إلى الولايات المتحدة الملاذ الوحيد للحرية .. وأنت يا زوجي وصديقي قد اعتراك الضعف فقد صرت عجوزاً قبل الأوان وتملصت من القنلة بصعوبة، أيسمح لي أن أراك مرة أخرى؟ ... إلى متى يجب أن أبقى شاهدة على خراب بلادي وانحطاط مواطني؟" (46).

ولم يطل الانتظار ففي 8 نوفمبر سنة 1793 مثلت أمام المحكمة الثورية ووجهت إليها تهمة الاشتراك مع رولان Roland في إساءة استخدام الميزانية العامة وإرسالها خطابات من زنزانتها لتشجيع باربارو Barbaroux وبوزو Buzot اللذين كانا في ذلك الوقت يثيران التمرد على سيطرة اليعاوية على المؤتمر الوطني، وعندما تحدثت مدافعة عن نفسها اتهمها الحضور (المشاهدون) الذين تم اختيارهم بعناية بأنها خائنة. وصدر الحكم بأنها مذنبية وتم إعدامها بالمقصلة في اليوم نفسه في ميدان الثورة. وثمة رواية غير مؤكدة تفيد أنها نظرت إلى تمثال الحرية الذي أقامه ديفد David في الميدان المهيب، وصاحت: "أه أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك!" (56).

وتبعها إلى المقصلة موكب من الثوريين، ففي 01 نوفمبر أتى دور بابيه Bailly رئيس البلدية والفلكي الذي كان قد قدم شارة الثورة الحمراء للملك وكان قد أمر الحرس الوطني بإطلاق النار على مقدمي الالتماسات في غير الوقت المحدد في معسكر دي مارس - Champ - de - Mars. وفي 21 نوفمبر هوت المقصلة على فيليب مساواه

Philippé Egalité، ولم يفهم لم رغب الجلبون Montagnards (اليسار) في إرسال مثل هذا الحليف المخلص إلى المقصلة! إن السبب هو أن الدماء الملكية تجرى في عروقه وأنه كان يتلطف للوصول للعرش. من الذي يستطيع أن يقول إن هذه الرغبة الملحة يمكن أن تعتريه مرة أخرى؟، وفي 92 نوفمبر أتى دور أنطوان بارنيف Antoine Barnave الذي سبق له أن حاول حماية الملكة ثم أتى دور الجنرالات كوستين Cistine وهوشار (أوشار) Houchard وبيرو Biron ... الخ.

وبعد أن شكر رولان Roland أصدقاءه الذين خاطرُوا بحياتهم لحمايته تابع مسيرته وحيدا، وفي 61 نوفمبر جلس إزاء شجرة وكتب كلمة وداع: "ليس الخوف هو الذي دفعني للتراجع وإنما هي السخط والنقمة، فعندما علمت بقتل زوجتي لم أعد أرغب في البقاء أكثر من ذلك على أرض لوئتها الجرائم" (66). ثم طعن نفسه بسيفه، أما كوندرسيه Condorcet فبعد أن كتب أنشودة الشكر أو التسبيح (دعاء ديني) ليواصل طريقه تناول السم (82 مارس سنة 1793) أما باربارو Barbaroux فأطلق النار على نفسه فلم يفلح في قتل نفسه فقامت المقصلة بما عجز عنه في 51 يونيو . أما بتيو Pétion وبوزو Buzot فقد جد ممثلو الحكومة في إثرهما، فانتحرا في حقل بالقرب من بوردو Bordeaux، وتم العثور على جثتيهما في 81 يونيو، وقد نهشتها الذئاب فلم يبق من كل جثة إلا نصفها .

ب- الإرهاب في الدوائر (المحافظات)

كان هناك جيرونديون آخرون لا يزال كل واحد منهم يحمل رأسه، وحققوا في بعض المدن مثل بوردو Bordeaux وليون Lyons مكانة عالية وأصبح لهم اليد الطولى، فشعر اليعاقبة بضرورة استئصالهم لتكون فرنسا موحدة One ويعقوبية وهذا يتطلب مد حركتهم إلى الدوائر (المحافظات) المكتفية ذاتيا . ولهذا الغرض وأغراض أخرى، أرسلت لجنة الأمن العام ممثلين مبعوثين عنها وتكاد تكون قد خولتهم بكل الصلاحيات والسلطات المطلقة المخولة إليها في كل المناطق المحددة لهم، فلم الحق في عزل المسؤولين المنتخبين وتعيين آخرين محلهم، والقبض على المشتبه فيهم، وإعداد الرجال للالتحاق بالجيش وفرض الضرائب وضبط الأسعار وتحديد مبلغ القروض المطلوبة ومصادرة المؤن والملابس وغيرها من المواد وتشكيل لجان محلية للأمن العام أو إقرارها لتكون كوكيل للجنة الكبرى (لجنة الأمن العام المركزية في باريس) وحقق ممثلو اللجنة هؤلاء معجزة التنظيم الثوري والعسكري، في وسط شبه معاد أو لا مبال . لقد قمع هؤلاء الممثلون المعارضة بلا رحمة بل بإفراط في الحماس في بعض الأحيان .

وكان أكثر هؤلاء الممثلين نجاحا هو سان جوست Saint - Just، ففي 71 أكتوبر سنة 1793 تم إرساله مع جوزيف ليباس Joseph Lebas (الذي ترك له القيادة عن رضى) لإنقاذ الألزاس Alsace من الغزو النمساوي الذي اجتاح بسرعة منطقة ذات طبيعة ألمانية إذا تسود فيها اللغة الألمانية والآداب الألمانية ونمط الحياة الألماني، وأجبر الجيش الفرنسي المعروف بجيش الراين Rhine على التراجع إلى ستراسبورج Strasbourg وسادت فيه روح الهزيمة والتمرد . وعلم سان - جوست Saint - Just أن القوات الفرنسية كانت تعامل معاملة سيئة متممة بروح الاستبداد وأن قيادتها كانت سيئة وربما ضللتها ضباط غير متحمسين للثورة بما فيه الكفاية، فأمر بإعدام سبعة من هؤلاء الضباط أمام القوات العسكرية المتجمعة، واستمع إلى المظالم باهتمام وأزال أسبابها بحسم مميز، وصادر من الطبقات الموسرة كل ما هو فائض عن حاجتها من الأحذية والسترات والمعاطف والقبعات ومن 391 ثري من أثرياء المدينة جبي تسعة ملايين جنيه Livres وطرد من الخدمة الموظفين غير الأكفاء أو اللامبالين، وأمر بإطلاق النار على المستغلين الذين ثبت استغلالهم . وعندما التقى الجيش الفرنسي بالنمساويين مرة أخرى تم طرد الغزاة (النمساويين) من الألزاس Alsace الذي أعيد إلى السيطرة الفرنسية . وعاد سان - جوست إلى باريس راغبا في أداء أعمال أخرى والقيام بمهام جديدة وكاد ينسى أنه كان قد ارتبط بأخت ليباس Labas .

أما جوزيف لوبون Joseph Le bon فلم يسلك السلوك الذي يتطلبه عمله كمندوب ممثل للجنة الأمن العام، فحذره موظفوه ليحذر من "الطبيعة البشرية الزائفة والمعرضة للخطأ"، وظن الرجل ذو العينين الزرقاوين أنه يسعدهم بتقليص عدد 051 كمبري Cambrai مرموق في غضون ستة أسابيع، و 293 في آراس Arras، وكتبت السكرتارية التابعة له تقريرا ذكرت فيه أن لوبون قتلهم بطريقة محمومة وعندما وصل إلى منزله راح يقلد تقلصات الوجه التي كانت تبدر من الموتى ليسلي زوجته (76). وسرعان ما قصت المقصلة رقبته بعد ذلك بقليل في سنة 1793 .

وفي يوليو سنة 1793 انتدب جان - بابتيست كارييه Jean - Baptiste Carrier لقمع التمرد الكاثوليكي في الفندي the Vendée وليؤمن ناننت Nantes حتى لا يحدث فيها مزيد من التمرد وشرح له عضو اللجنة الكبرى (لجنة الأمن العام) هيرول دي سيشل Hérault de Séchelles مهمته قائلا: "يمكننا أن نكون إنسانيين عندما نتأكد من النصر" (86) فكان هذا القول ملهما لهيرول . ففي لحظة حماس فرضتها ظروف فرنسا البيئية، أعلن أن فرنسا لا تستطيع أن تطعم سكانها الذين يتزايد عددهم بسرعة لذا فمن المطلوب تقليص هذه الزيادة بقطع رقاب النبلاء والقسس والتجار والحكام magistrates كلهم .

وفي ناننت Nantes اعترض على المحاكمات باعتبارها من قبيل تضييع الوقت فأمر القاضي بضرورة إعدام المشتبه فيهم كلهم في ظرف ساعتين وإلا أمرت بإطلاق الرصاص عليك وعلى زملائك" (96). ولأن السجون في ناننت

Nantes كانت في غالبها مزدحمة إلى حد الاختناق بالمقبوض عليهم والمدانين وكان هناك نقص في الطعام فقد أمر مساعديه بملء البوارج (السفن الكبيرة) والطوافات (نوع من السفن) وغيرها من السفن بخمسة رجل وامرأة وطفل - معطيا الأولوية للقسس - وإغراقهم في نهر اللوار Loire. وبهذه الوسيلة وغيرها قرر مصير أربعة آلاف من غير المرغوب فيهم في غضون أربعة أشهر (07). وأقنع نفسه بأن هذا ضروري على وفق قوانين الحرب. وكان الفيديين (أهل الفيدي في the vendéans) في حالة تمرد مصممين على معاداة الثورة حتى الموت، فقال: "سنجعل من فرنسا مقبرة إذا لم نستمر في طريقنا" (17) وكان على اللجنة الكبرى (لجنة الأمن العام في باريس) أن تكبح جماحه فهددته بالقبض عليه لكنه لم يخف وقال "على أية حال فإننا جميعا سندبحنا المقصلة واحدا إثر الآخر".

وفي نوفمبر سنة 4971 قدم للمحكمة الثورية، وفي 61 ديسمبر تحققت نبوءته فجرت المقصلة رقبته. وصبح ستانيسلاس فريرو Stanislas Fréron (ابن عدو فولتير المفضل) وغيره من ممثلي اللجنة نهري الرون Rhone والفار Var بدماء غير الموالين للثورة. 021 في مرسيليا، 282 في طولون و 233 في أورانج (27) Orange. وعلى النقيض من ذلك كان جورج كوثر Georges Cothon قد تجلت صفة الرحمة في بعثته لجمع متطوعين للجيش في دائرة (محافظة) ببي - دي - دوم Puy - de - Dome. وفي كليرمونت - فران - Clermont Ferrand أعاد تنظيم الصناعات من خلال التركيز على إنتاج المواد للأفواج الجديدة. وعندما رأى المواطنون أنه يمارس سلطاته بعدل وإنسانية أحبوه حتى أنهم راحوا - بالتناوب - يحملونه وهو فوق كرسيه. وفي أثناء بعثته لم يعد أحد على وفق "العدالة الثورية" (37).

أما جوزيف فوشي Joseph Fouche الذي كان في وقت من الاوقات أستاذا للغة اللاتينية والفيزياء، فهو يبلغ الآن الرابعة والثلاثين من عمره، ولم يكن حتى الآن "أمهر الرجال الذين قابلتهم أبدا" (47) على حد تعبير بلزك Balzac. لقد بدا كرجل خلق للتأمر والخداع. هزيل بارز العظام مزوم الشفتين حاد العينين، مدبب الأنف كتوم صامت رزين صارم. وكان عليه أن ينافس تاليران Talleyrand في سرعة التحول والمراوغة من أجل البقاء. ومن خلال الملاحظات الظاهرية، فهو رب أسرة ملتزم معتدل في عاداته ومسلكه كما كان في الوقت نفسه جسورا في أفكاره. وفي سنة 2971 تم انتخابه للمؤتمر الوطني عن نانت Nantes. وفي البداية جلس مع الجيرونديين وصوت معهم، ثم انتقل إلى الجبليين (اليساريين) بعد أن تنبأ في نفسه بسقوط الجيرونديين وسيادة باريس وأصدر نشرة يدعو فيها الثورة للانتقال من مرحلة البورجوازية إلى المرحلة البروليتارية. ولتطوير الحرب والسير بها قدما قدم البراهين على ضرورة أن تقوم الحكومة "بالاستيلاء على كل شيء يزيد عن حاجة المواطنين، لأن ما هو زائد عن الضرورة (الفضل) إن هو إلا انتهاك واضح غير مسوغ لحقوق الشعب" فلا بد من مصادرة كل الذهب والفضة حتى تنتهي الحرب. "إننا سنكون مزعجين قاصرين في ملء السلطة المخولة لنا. فلا وقت لأنصاف الحلول ساعدونا لتوجيه لكمات قوية" (57).

وباعتباره ممثلا للجنة الأمن العام في محافظة لوار الأدنى Loir Inférieure خاصة في نيفير Nevers ومولين Moulins - فتح النار على الملكية الخاصة، فاستطاع بمصادرة الأموال والمعادن النفيسة والأسلحة والملابس والطعام أن يجهز عشرة آلاف متطوع كان قد أدرجه في قوائم المجندين الجدد. لقد نهب الكنائس وجردها مما بها من أوعية القربان المقدس المصنوعة من الذهب والفضة ومن الشمعدانات والأواني وأرسلها إلى المؤتمر الوطني ووجدت اللجنة (لجنة الأمن العام) أنه من غير المفيد معارضة حماسته واعتبرته الرجل المناسب لمساعدة كولو دربوا Collot d Herbois في إعادة ليون Lyons إلى حظيرة العقيدة الثورية.

لقد كانت ليون تكاد تكون عاصمة الرأسمالية الفرنسية فمن بين سكانها البالغ عددهم 031.000 كان هناك مليون ذوو صلات بأحاء فرنسا كلها وتجار يتعاملون مع أسواق أوروبا كلها وأصحاب صناعات يتحكمون في مئات المصانع، وعدد كبير من البروليتاريا، كانوا يحسدون بروليتارية باريس التي كادت تستولى على الحكم. وفي بداية سنة 3971 وتحت قيادة القس السابق (المطرود من رحمة الكنيسة) ماري جوزيف كالييه Marie - Joseph Chalier حققوا نصرا مشابها، لكن الدين أثبت أنه أقوى من الطبقة (الانتماء للدين أقوى من الانتماء للطبقة) فقد ظل نصف العمال على الأقل كاثوليكاً واعترضوا بامتعاض على سياسة اليعاقبة المناهضة للمسيحية وعندما عبأت البورجوازية قواها المختلفة ضد دكتاتورية البروليتاريا انقسم العمال وطرد تحالف رجال الأعمال والملكيين والجيرونديين الحكومة الراديكالية وتم إعدام كالييه Chalier ومائتين من أتباعه (في 6 يوليو سنة 3971) وغادر آلاف العاملين المدينة واستقروا في الضواحي والمناطق المحيطة بها وراحوا ينتظرون التحول الثوري التالي.

وأرسلت لجنة الأمن العام جيشا للإطاحة بالرأسماليين المنتصرين وأقبل كوثر Couthon مقطوع الساق من كليرمونت Clermont لقيادة هذا الجيش. وفي 9 أكتوبر شق طريقه إليها وأعاد تأسيس الحكم اليعقوبي بها. وظن كوثر Cothotn أن سياسة الرحمة مطلوبة في مدينة يعتمد سكانها إلى حد كبير على التشغيل المستمر للمصانع والمحلات لكن لجنة الأمن العام في باريس كان لها رأي مخالف، فطرح الأمر في المؤتمر الوطني في 21 أكتوبر وتم

إرسال توجيهه إلى كوثنو Couthon · توجيهه صاعه روبيسيير مطالباً بالتأثر لمقتل كالييه Chalier والمائتين من الراديكاليين الذين جرى قتلهم. نقرأ في جزء من هذا التوجيه: "ستدمر مدينة ليون Lyons. لا بد من تدمير سكانها الأثرياء كلهم... وسيبقى اسم ليون من قائمة المدن الجمهورية... وما سيبقى من منازلها سيطلق عليها اسم المدينة المحررة Ville Affranchisée، وسيقام بين أطلال ليون عمود ليذكر الأجيال القادمة بالجرائم التي ارتكبت بالعقاب الذي حاق بالملكيين" (67).

ولم يستسغ كوثنو Couthon المهمة التي أوكلت إليه لقد أدان تدمير المباني التي تكلف بناؤها الكثير، فنقل لممارسة أنشطة أكثر ملاءمة له في كليمنت فران Clemont - Ferrand وحل محله في ليون في 4 نوفمبر كولو دربوا Collot d'Herbois الذي سرعان ما لحق به فوشي Fouche `وبدأ مع حفلاً شعائرياً دينياً هازلاً في ذكرى كالييه Chalier باعتباره "رباً مخلصاً مات ليخلص الشعب" وقاد الموكب حمار ألبسوه زي الأسقف ووضعوا فوق رأس التاج الكنسي (تاج الأسقف) وربطوا في ذيله صليباً ونسخة من الكتاب المقدس، وفي ميدان عام تم تشريف "الشهيد Martyr" بمدائح لتأبينه وأعدت المشاعر من الإنجيل والكتب الدينية (كتب القديس) وخبز العشاء الرباني وتمثيل القديسين المختلفة المصنوعة من الخشب (77) وأنشأ كولو Collon وفوشي Fouche `لجنة مؤقتة من عشرين عضواً ومحكمة من سبعة أعضاء لتحقيق الطهارة الثورية في ليون، بالتحقيق مع المشتبه فيهم وأصدرت هذه اللجنة المؤقتة إعلاناً بالمبادئ التي أطلق عليها "المانيفستو الشيوعي الأول" في التاريخ الحديث (87). واقتراح المانيفستو (البليان) أن تعتمد الثورة على الغالبية الفقيرة" وانتقد النبلاء والبورجوازية وخاطب المانيفستو العمال: "إنكم ظلمتم ولا بد أن تقوموا من ظلمكم" فكل ما تنتجه أرض فرنسا ملك لفرنسا والثروات الخاصة كلها لا بد أن تكون في خدمة الجمهورية، وكخطوة أولى نحو العدالة الاجتماعية لا بد من تحصيل ضريبة مقدارها ثلاثون ألف جنيه Liver من كل من لديه دخل يصل إلى عشرة آلاف جنيه في السنة. وتم تحصيل مزيد من المبالغ من السجناء من النبلاء والقسس وغيرهم وبمصادرة ممتلكاتهم.

ولم يستقبل أهل ليون هذا الإعلان الشيوعي استقبالا حسنا فقد كانت قلة لها وزنها منهم قد ارتفعت إلى مستوى الطبقة الوسطى. وفي 01 نوفمبر قدم طلب موقع من عشرة آلاف امرأة يطالبن فيه بالرحمة لآلاف الرجال والنساء الذين تزدحم بهم السجناء، فأجاب مبعوثو لجنة الأمن العام بصرامة: "قرن في بيوتكن وانشغلن بأعمالكن المنزلية... وكفى دموا فهذا لا يليق بكن" (97). وفي 4 ديسمبر - ربما لجعل الأمور واضحة - أدانت المحكمة الجديدة ستين سجيناً فتم إخراجهم من السجن إلى ساحة مكشوفة عبر الرون Rhone ووضعوا بين خندقين وأطلقت عليهم المتريولوزات زخات الرصاص، وفي اليوم التالي، وفي البقعة نفسها تم ربط سجناء عددهم 902 معا (بحبل واحد) وتم حصدهم بالمتريولوز (المدفع) نفسه.

وفي 7 ديسمبر تم إعدام مائتين بالطريقة نفسها وبعد ذلك وجد أن الذبح بالمقصلة أكثر متعة كما أن الجثث التي امتلأ بها الخندق كانت قد بدأت تسمم هواء المدينة. وبحلول شهر مارس 4971 بلغ عدد المعدمين في ليون 10766 ثلثاهم من الطبقتين الوسطى والعلوية (08) وتم تدمير مئات البيوت الغالية تدميراً شديداً (18).

وفي 02 ديسمبر 3971 ظهر وفد من مواطني ليون أمام المؤتمر الوطني يطالبون بإنهاء عمليات الانتقام، لكن كولو Collot ردهم إلى باريس ودافع عن سياسته بنجاح، وترك فوشي ليرعى أمور ليون فواصل سياسة الإرهاب. ولما علم بأن طولون قد تم الاستيلاء عليها مجدداً كتب إلى كولو Collot: "ليس أمامنا للاحتفال بالنصر سوى طريق واحد. لقد أرسلنا هذا المساء 312 متمرداً تحت نار السهام النارية المشتعلة" (28) وفي 3 أبريل 4971 تم استدعاء فوشي Fouche `ليقدم تقريراً عن نفسه أمام المؤتمر الوطني. لقد أفلت من العقاب لكن لم يسامح أبداً روبيسيير لاتهامه له بالبربرية. وسيأخذ منه ثأره يوماً.

واعترفت لجنة الأمن العام شيئاً فشيئاً أن الإرهاب في المحافظات قد زاد زيادة مفرطة. وفي هذا الصدد كان روبيسيير ذا تأثير ملطف (مهدىء) فأخذ على عاتقه دعوة كارييه Carrier وفريرو Fréron وتاييه Tallien وطلب تقارير عن أعمالهم. لقد انتهى الإرهاب في المحافظات (الدوائر) في مايو سنة 4971 بينما كان يزداد في باريس. وفي ذلك الوقت أصبح روبيسيير نفسه ضحية له (72-82 يوليو 4971)، لقد بلغ ضحايا الإرهاب 0072 في باريس و 00081 في سائر أنحاء فرنسا الأخرى (38). وهناك من يرفع إجمالي الرقم إلى 0004000 (48) وبلغ عدد المسجونين المشتبه فيهم حوالي 003000. وكان الإرهاب مربحاً للدولة إذا نظرنا إلى أموال وممتلكات من جرى إعدامهم والتي عادت إلى الدولة.

ج- الحرب ضد الدين

والآن، فقد كان هناك انقسام حاد بين أولئك الذين يعتبرون العقيدة الدينية هي سندهم النهائي في الدينا التي - بغيره - تغدو بلا غاية ولا معنى ومأسوية، وأولئك الذين يعتبرون الدين - على وفق تفكيرهم، خرافات مكلفة ومحبوكة لسد الطريق أمام العقل والحرية، وهذا الخلاف كان حادا في الفندي the vendée وهي منطقة ساحلية بين اللوار Loire ولاروشيل La Rochelle حيث المناخ القاسي والأرض الصخرية الجدبة، وحيث الولادات والوفيات تجري بشكل روتيني مكرر، مما جعل السكان في غالبهم محصنين ضد أفكار فولتير ورياح التنوير. حقيقة إن أهل المدن والفلاحين قبلوا الثورة لكن عندما أعلنت الجمعية التأسيسية الدستور المدني للإكليروس - مصادرة ممتلكات الكنيسة محوثة القسس كلهم إلى موظفين في الدولة - أيد الفلاحون قسسهم في رفضهم الموافقة على هذا الدستور، فتحولت دعوة شبابهم للتطوع في الجيش أو التجنيد الإلزامي فيه، إلى دعوة لإشعال النار في الثورة. فلم يقدم أولادهم حياتهم لحماية حكومة كافرة؟، فالأولى هو أن يدافعوا عن قسسهم ومذابح كنائسهم ومعبودات أسرهم .

وعلى هذا ففي 4 مارس 1793 انفجر التمرد في الفندي وبعد ذلك بتسعة أيام انتشرت في الإقليم، وبحلول أول مايو أصبح هناك 03.000 متمرّد مسلح، وشارك عدد من الموالين للملكية الزعماء القرويين في تنظيم هؤلاء المتطوعين في كتائب منظمة، وقبل أن يتحقق المؤتمر الوطني من قوتهم كانوا قد استولوا على توار Thouars وفوننتي Fontenay وسومور Saumur وأنجر Angers وفي أغسطس أرسلت لجنة الأمن العام إلى الفندي جيشا بقيادة الجنرال كليبر (كلييه) Kléber مزودا بتعليمات بتدمير قوات الفلاحين وتدمير المناطق التي تؤيدهم كلها. وهزم كليبر جيش الكاثوليك في شولت Cholet في 71 أكتوبر ولاحقه حتى سافيني Savenay في 32 ديسمبر، وجرى تعيين مندوبين عسكريين من لجنة الأمن العام في أنجر Angers ونانت Nantes وريزن Rennes وتور Tours وزودتهم بأوامر بإعدام أي واحد من أهل فندي يحمل السلاح . وفي غضون عشرين يوما تم إعدام 364 في أنجر Angers أو بالقرب منها . وقبل إخضاع الفنديين على يد المارشال هوش Hoche (في يوليو 1793) كان نصف مليون شخص قد فقدوا حياتهم في هذه الحرب الدينية الجديدة .

وفي باريس كان عدد كبير من السكان غير مبالين بأمر الدين ولهذا سهل الاتفاق بين الجبلين (the Mountain اليسار) والجبرونديين، فقد تعاونوا معا في تقليص قوة الإكليروس وعملا معا على إنشاء تقويم وثني Pagan Calendar (*)، وشجعت الثورة زواج القسس بل وصدر مرسوم بإبعاد (نفي) كل أسقف امتنع عن الزواج . وفي حماية الثورة تم تزويج ألفي قس وخمسمائة راهبة(58). وكان ممثلو لجنة الأمن العام يعمدون إلى بعض الإجراءات المناهضة للمسيحية في عملهم، وقد أمر أحدهم بسجن قس وألا يفرج عنه حتى يتزوج . وفي نيفر Nevers أصدر فوشي Fouché أحكاما صارمة فيما يتعلق بالقسس: لا بد أن يتزوجوا، ولا بد أن يعيشوا ببساطة حياة غير مترفة . لكن حياتهم كحياة الرسل (Apostles) (üü) ولا بد أن يمتنعوا عن ارتداء ثياب الكهنوت وأن يمتنعوا عن ممارسة الطقوس الدينية خارج الكنائس، وتم إبطال الطقوس الكنسية في أثناء الجناز ولا بد أن تنقش على المقابر عبارة "الموت نوم أبدي" وأمر (فوشي) رئيس الأساقفة وثلاثين قسا أن يطرحوا قلنسواتهم الدالة على هويتهم الدينية ليضعوا فوق رؤوسهم غطاء الرأس الثوري الأحمر . وفي مولين Moulin ركب (فوشي) على رأس موكب ليحطم في طريقه الصليبان المجردة كلها "+" والصليبان التي تمثل المسيح مصلوبا والصور والتمائيل الدينية كلها(68). وفي كليرمونت - فران Clermont - Ferran أعلن كوثن Couthon أن دين المسيح قد تحول إلى دجل مالي (خداة للحصول على المال)، واستأجر طبيبا لإجراء تجارب أمام الجماهير ليثبت أن ظهور "دم المسيح" بشكل إعجازي في الزجاج التي تقدمها الكنيسة ليس سوى زيت التربنتينة مصبوغا باللون الأحمر (Colored Turpentine) (üü). وألغى المرتبات التي تدفعها الحكومة للقسس وصادر ما في الكنائس من أنية ذهبية وفضية، وأعلن أن الكنائس التي لا يمكن أن تتحول إلى مدارس يمكن - بموافقة - أن تهدم لبينى مكانها مساكن للفقراء، وأعلن لاهوتا جديدا (نظرية دينية جديدة) تحل فيها الطبيعة محل الرب God، وتصبح السماء (المقصود الأخرى أو ما بعد الموت) مكانا لجمهورية مثالية (دولة مثالية - يوطوبيا) يصبح بها الناس كلهم صالحين(78).

وكان زعماء المعركة ضد الدين هم هيبير Hébert في مجلس مدينة باريس وشوميت Chaumette في كومون باريس . وبسبب الحماس الذي أثارته خطب شوميت وصحافة هيبير اقتحمت جموع من الطبقة الثالثة الدنيا (السانس كولوت) دير القديس دينيس (سان ديني) Abbey of St. Denis في 61 أكتوبر سنة 1793 وأفرغوا توابيت أفراد الأسرة المالكة المدفونين فيها، وصهروا معادن هذه التوابيت لاستخدامها في صنع أسلحة للحرب، وفي 6 نوفمبر وافق المؤتمر الوطني رسميا على إعطاء كومونات فرنسا الحق في نقد الكنسية المسيحية، وفي 01 نوفمبر راح رجال ونساء قادمون من أحياء الطبقة العاملة ومن النوادي (المراكز الأيديولوجية) في باريس يلوحون في الشوارع بطريقة هزلية بالملايس التي يرتديها رجال الدين الكاثوليك ويسخرون من طقوسهم، ودخلت جموعهم المؤتمر الوطني وفرضوا على أعضائه الحضور في المهرجان المسائي في كاتدرائية نوتر - دام Notre - Dam التي أصبح اسمها

"معبد العقل the Temple of Reason" وهناك تم تنظيم طقوس جديدة حيث ارتدت الأنسة كاندل Mile. Candeille ممثلة الأوبرا علم الثورة الثلاثي الألوان ووضعت فوق رأسها الكاب الأحمر، ووقفت باعتبارها ربة الحرية وراحت نسوة مقنعات يحطن بها ويغنن "نشيد الحرية" الذي ألفه لهذه المناسبة ماري جوزيف دي شينيه Marie - Joseph de Chénier . ورقص المتعبدون وغنوا في صحن الكنيسة، بينما راح المستقيدون من الحرية يحتفلون بممارسة الحب (الجنس) في المصلات الجانبية في الكنيسة، كما ذكر كتاب التقارير المعادون للثورة (88) . وفي 71 نوفمبر تم إحضار جان - بابستت جوبل Jean - Baptiste Gopel أسقف باريس، بناء على طلب الجماهير، ليمثل أمام المؤتمر الوطني ليشجب منصبه ويتنكر له ويسلم لرئيس المؤتمر صولجانه (صولجان الأسقف ذا الدلالة الدينية Crozier وجرسه ring وأن يضع فوق رأسه الكاب الأحمر الدال على الحرية(98) . وفي 32 نوفمبر أمر الكومون بإغلاق الكنائس كلها في باريس(09) .

ومن ناحية أخرى كان المؤتمر الوطني يرى أنه لا يجب المغالاة في تأكيد دوره في العمل ضد المسيحية . وكان أعضاء المؤتمر جميعا - تقريبا - من اللادريين agnostics والمؤمنين بوحدة الوجود أو من الملحدن (المقصود كما سبق القول غير المؤمنين بالثالوث والطقوس المسيحية) ومع هذا فإن كثيرين منهم تشككوا في مدى حكمة إثارة الكاثوليك المخلصين الذين كانوا يشكلون الأغلبية، وكان كثيرون منهم مستعدين لحمل السلاح ضد الثورة . وكان بعض الأعضاء مثل روبيسبير وكارنو Carnot قد شعروا أن الدين هو القوة الوحيدة التي يمكن أن تمنع تكرار حدوث التمرد الاجتماعي ضد عدم المساواة المبدأ عميق الجذور جدا في الطبيعة لدرجة يصعب معها إزالتها بالثريعات . واعتقد روبيسبير أن الكاثوليكية كانت استثمارا منظما للخرافة(19) لكنه رفض الإلحاد باعتباره افتراضاً مغروراً وقحاً باستحالة المعرفة، وفي 8 مايو سنة 3971 كان قد أدان الفلاسفة Philosophes باعتبارهم منافقين احتقروا العامة وراحوا يلتمسون المنح من لدن الملوك . وفي 12 نوفمبر قال أمام المؤتمر الوطني وكانت مهرجانات معاداة المسيحية قد بلغت ذروتها في هذا الوقت .

"كل فيلسوف وكل شخص يمكنه أن يعتقد من أفكار الإلحاد ما يحلو له . وأي شخص يرغب في أن يجعل هذا الفكر جريمة متهم، لكن الرجل العام (صاحب المسؤولية) أو المشرع إذا ما تبنى هذه الأفكار الإلحادية فإنه غبي بل إن غباءه يتضاعف مائة مرة عن غيره

فالإلحاد أرسقراطي؛ ففكرة الموجود الأعظم (الله) الذي يرى ويعلم كل شيء والمطلع على كل ما يناقض الطهارة، ويعاقب على الجرائم الكبرى هي فكرة الشعب في الأساس (فكرة شعبية) إن هذه الفكرة هي التي تمثل شعور أوربا بل والعالم . إنها فكرة الشعب الفرنسي التي تمثل مشاعره وإحساسه . إن هذه الفكرة (وجود موجود أعظم) لا علاقة لها بالقسس ولا بالخرافة ولا بالطقوس . إنها فقط مرتبطة بقوة لا يدركها أحد (مبهمة لا يمكن سبر أغوارها) . إنها فكرة مرهبة للثمنين وراحة واستقرار للمتمسكين بالفضيلة(29) .

وهنا كان دانتون متفقا مع روبيسبير : "إننا لا ننوي هدم صروح الخرافة لنقيم حكم الإلحاد .. إنني أطلب بإنهاء هذه الحفلة التنكرية ضد الدين في هذا المؤتمر الوطني"(39) .

وفي 6 ديسمبر سنة 3971 أعاد المؤتمر الوطني تأكيده على حرية العبادة وضمن حماية الطقوس الدينية التي يقوم عليها قسس موالون، واعترض هوبير Hobert ذاكر أنه هو أيضا يشجب الإلحاد لكنه انضم للقوى التي تهدف إلى تقليص شعبية روبيسبير . لقد أصبح روبيسبير الآن يعتبره عدوا للدودا وراح ينتهز الفرص لتدميره .

د- الثورة تأكل أبناءها

كانت قوة هوبير تعتمد على شريحة العوام من السانس - كولوت التي يمكن تنظيمها وحشدها عن طريق إدارات الأحياء في باريس وعن طريق الصحافة الراديكالية لاجتياح المؤتمر الوطني واستعادة حكم باريس على سائر الجمهورية الفرنسية أما قوة روبيسبير التي كانت تعتمد سابقا على جماهير باريس فقد أصبحت الآن تعتمد على لجنة الأمن العام التي سيطرت على المؤتمر الوطني من خلال تسهيلات كبرى في المعلومات والقرارات والإنجاز . وفي نوفمبر سنة 3971 كانت لجنة الأمن العام في ذروة شهرتها ومجدها، وكان هذا يعود في جانب منه إلى نجاحها في حشد الجماهير وتجنيدهم، لكن السبب الأساسي لهذه الشهرة والمجد كان يرجع على نحو خاص للانتصارات العسكرية على مختلف الجبهات، فالجنرالات الجدد - جوردان Jourdan وكلمان Kellermann وكليبر (او كلييه) Kléber وهوش Hoche وبيشرجو Pichergu - كانوا أبناء للثورة غير مقيدن بالنظم والتكتيكات القديمة، ولم تكن ولاياتهم قد تناقصت بمرور الوقت، وكانوا يقودون مائة مقاتل كانوا - رغم كونهم ناقصي السلاح والتدريب - مفعمين

حماسا وشجاعة فماذا يمكن أن يحدث لهم ولأسرهم إن اخترق العدو خطوط القتال الفرنسية؟ حقيقة لقد جرى صدهم عند كيزرسكوتيرن Kaiserslautern لكنهم استعادوا تقدمهم واستولوا على لاندو Landau وسبير Speyer . وقد أجزوا الإسبان على التراجع عبر جبال البرانس وأعادوا الاستيلاء على طولون Toulon بمساعدة الشاب نابليون . ومنذ 62 أغسطس استولت على طولون ذلك الميناء المهم ذو الموقع الاستراتيجي على ساحل البحر المتوسط قوات متعددة إنجليزية وإسبانية ونابلي (قادمة من نابلي في إيطاليا) يحميها أسطول إنجليزي إسباني مشترك ويؤازرها المحافظون المحليون (غير المؤازرين للثورة)، وظل جيش الثوار يحاصرها ثلاثة أشهر بلا جدوى، وكان هناك رأس هو كشريط محدد للطرفين (رأس أوجوليت Cap L'Aiguillette) والكلمة في القواميس الفرنسية تعني الرأس أو الشريط أو الفتحة الداخلة في البحر) يقسم الميناء ويشرف (من عل) على الترسانة، والقوات التي تستولي على هذا الموقع تتحكم في الميناء لكن البريطانيين كانوا قد أغلقوا الطريق إلى هذا الرأس من ناحية البر بحصن جيد التسليح ومئين جدا حتى إنهم أطلقوا عليه جبل طارق الصغير . وكان من رأي بونابرت Bonaparte وكان عمره 42 سنة أنه إذا أمكن إجبار الأسطول المعادي على مغادرة الميناء، فإن الحامية التي تحتل المدينة ستفقد المؤن والمدد اللذين يأتيانها من البحر، مما يجبرها على التخلي عن المدينة . ووجد نابليون - بعد عملية استطلاع تتطوي على المخاطرة والتصميم - داخل دغل موقعا يمكنه منه - بشيء من الأمن - أن يطلق مدافعه على الحصن الذي يتحصن به الأعداء، وعندما دمرت قذائق المدافع جدرانه شنت القوات الفرنسية هجوما عاصفا على الحصن، فقتلت المدافعين عنه واستولت على ما به من بنادق وحولت القوات الفرنسية المهاجمة جهودها لضرب أسطول العدو، فأمر اللورد Hood الحامية بمغادرة المدينة وأمر سفنه بمغادرة الميناء . وفي 91 ديسمبر سنة 1793 استرد الجيش الفرنسي مدينة طولون . وكتب أوغسطين روبيسبير Augustin Robespierre المبعوث المفوض المحلي من لجنة الأمن العام إلى أخيه مادحا جهود نابليون مبينا "الجدارة التي تفوق الحد" لقائد المدفعية الشاب . وبدأت ملحمة جديدة .

هذه الانتصارات الأنف ذكرها وانتصارات كليبر Kléber في الفندي the Vendée أطلقت يد لجنة الأمن العام في التعامل مع المشاكل الداخلية . لقد كان هناك زعم بوجود "مؤامرة أجنبية" لاغتيال قادة الثورة وإن لم يوجد دليل على ذلك . وانتشر الفساد (خراب الذمم) في مجال إنتاج المؤن للجيش وتسليمها له "ففي جيش الجنوب فقد 03-000 زوج من السراويل (البناطيل) - فكانت أكثر الفضائح خزيا" (59) وساعدت المضاربات على عمليات التلاعب في السوق مما أدى إلى ارتفاع الأسعار بشدة . ولم تعد الأسعار التي حددتها الحكومة (حددت لها سقفا Maximum تسري إلا على المنتجات المهمة، ولكن المنتجين اشتكوا من أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بهذا السقف (الحد الأقصى للأسعار كما حددته الحكومة) إذا لم يتم ضبط أجور العمال أيضا .

وجرت مواجهة التضخم لفترة، ولكن الفلاحين والصناع والتجار خفضوا الإنتاج وزادت البطالة بينما الأسعار ترتفع وراحت المؤن تقل وراحت ربوات البيوت يقفن في الصفوف للحصول على الخبز والحليب واللحم والزبد والزيت والصابون والشموع وخشب التدفئة . وراحت الصفوف تبدأ منذ منتصف الليل ليكون لمن فيها السبق في الحصول على المواد المطلوبة، فراح الرجال والنساء ينظرون عند مداخل المحلات على الممرات انتظارا لفتح المحلات لأبوابها، وتحرك الصفوف للحصول على المؤن . وهنا وهناك راحت المومسات الجائعات يعرضن بضاعتهم على الواقفين في <الطابور> (69) . وفي حالات كثيرة كانت جماعات قوية مسلحة تقتحم المخازن لتحمل معها ما تريد من بضائع وتدنت الخدمات البلدية وانتشرت الجرائم وكان عدد أفراد البوليس قليلا، وامتألت الشوارع بالقمامة، وأفسدت جو المدن، واعتزت ظروف مشابهة روان Rouen وليون Lyons ومارسيليا ووردو Bordeaux .

ونقل عوام باريس (السانس كولوت) ولاءهم من روبيسبير إلى هيبير Hébert وشومت Chaumette لأنهم اعتبروا أن لجنة الأمن العام قد أساءت إدارة الاقتصاد وأن المستغلين والمتربحين قد حاصروا "سفينة" الدولة وراح عوام باريس يصغون بشغف ورغبة إلى اقتراحات بتأميم الثروات والممتلكات كلها أو - على الأقل - الأراضي . واقترح أحد زعماء الأحياء (أقسام باريس) معالجة المحنة الاقتصادية بقتل الأثرياء كلهم (79) . وبحلول عام 1793 كانت هناك شكوى عامة بين العمال من أن البورجوازية قد سرقت الثورة (جعلتها لصالحها) .

وفي نهاية 1793 ظهرت تحديات جديدة للجنة الأمن العام سببها زعيم ثوري قوي وصحفي لامع . فرغم الشراسة الظاهرة التي يبديها دانتون Danton فقد كان به لمسة محببة لدرجة أنه جفل عند إعدام الملكة وبسبب العنف الشديد في فترة الإرهاب، فعند عودته من أرسيز Arcis حكم بأن طرد الغزاة من فرنسا وإعدام معظم أعداء الثورة النشيطين لم يعد يترك مسوغا معقولا للحرب أو الإرهاب وعندما عرضت بريطانيا السلام أوصى بقبوله، أما روبيسبير فقد رفض وكثف من الإرهاب على أساس أن الحكومة ما تزال تواجه العقبات التي يضعها غير الموالين والمتأمرين والمفسدين . أما كامبل ديمولان Camille Desmoulins الذي كان في وقت من الأوقات سكرتيرا لدانتون وصديقه المعجب به وقد كان مثله ينعم بزواج سعيد، فقد أسس جريدة هي "الكوردليري العجوز Le Vieux Cordelier" (الكلمة كوردليير تعني الراهب الفرنسي لكن هذا ليس هو المعنى المقصود فقد تم إنشاء ناد ثوري

كما ذكرنا في سياقات سابقة في مقر دير للرهبان الفرنسيين بعد طرد الرهبان منه، فعرف بنايدي الكوردليير) جعلها المتحدث الناطق باسم المتسامحين أو دعاة السلام، ودعا من خلالها إلى إنهاء حكم الإرهاب:
"الحرية ليست إحدى عذرات الأساطير اللائي يشاهدن في الأوبرا، وليست غطاء رأس (كاب) أحمر وليست قميصاً قذراً أو أسماًلاً . إنما الحرية هي السعادة والعقل والمساواة والعدالة، وإعلان حقوق الإنسان الذي هو دستوركم الأعلى الذي لا يزال يدعو إلى التحرر .

أتريدونني أن أعترف بهذه الحرية (بمعناها الثاني الذي أقره) وأخر عند قدميها وأسفك دمي من أجلها؟ إذن أفتح السجون وأخرج منها من بلغ عددهم 002.000 ممن تسمونهم المشتبه فيهم ... لا تظنوا أن في هذا الإجراء نهاية للجمهورية . إن العكس هو الصحيح. إنه إجراء أكثر ثورية مما تظنون . أتريدون إياداً أعدائكم كلهم بقطع رقابهم بالمقصلة؟ هناك جنون أكثر من هذا؟ أيمنكنم أن تنهوا حياة شخص من غير أن توجدوا لأنفسكم عدوين من بين أسرته وأصدقائه؟

إنني مختلف تماماً مع أولئك القائلين بضرورة الإبقاء على الإرهاب كنظام لهذه الفترة، إنني على ثقة من أن الحرية ستأكد وأن فرنسا ستفتح أوربا حالما تصبح لجننتكم لجنة للرحمة والاعتدال (89) Committee of Clemency .
وانزعج روبيسيير - الذي كان حتى الآن صديقاً لديمولان Desmoulins - من دعوته لفتح السجون، فهو لاء الارستقراطيون والقسس والمضاربون والبورجوازيون المنتقون، أن يواصلوا - إذا ما أطلق سراحهم - بغير تردد مشروعاتهم لاستغلال الجمهورية وتدميرها؟ لقد كان روبيسيير مقتنعاً أن خوفهم من القبض عليهم وإدانتهم إدانة سريعة، وشبح الموت المتراقص أمامهم، هي وحدها القوة التي تبعدهم (أعداء الجمهورية) عن حيك المؤامرات ضدها والعمل على إسقاطها .

لقد شك روبيسيير في أن تحول دانتون المفاجيء إلى سياسة الرحمة إنما هو خدعة لينقذ من نصل المقصلة بعض الذين قبض عليهم مؤخراً لقيامهم بأعمال محظورة ممن لهم علاقة به، ولحماية نفسه (دانتون) إذا افتضحت علاقته (أي دانتون) بهم . وكان بعضهم - فابر دجلانتين Fabre d'Eglantine وفرنسوا شابو Francois Chabot - قد حوكموا في 71 يناير سنة 4971 واتضح أنهما مذنبان . وانتهى روبيسيير إلى أن دانتون وديمولان يميلان إلى التخلي عن مقعديهما وإنهاء أعمال لجنة الأمن العام . وخلص روبيسيير إلى أنه لن يكون آمناً أبداً طالما ظل صديقه القديمان هذان على قيد الحياة .

وعمل (روبيسيير) على ألا يتحد أعداؤه وعمل على تحويل معارضتهما له إلى معارضة كل واحد منهم للأخر فقد شجع هجوم دانتون وديمولان Desmoulin على هيبير (يبيير) Hébert ورحب بمساعدتهما في شجب الحرب على الدين، وعول هيبير Hébert على شغب أهل المدن بسبب غلاء أسعار الطعام وندرته . ووجه النقد لكل من الحكومة وجناح المتساهلين المطالبين بالتسامح وإنهاء الإرهاب Indulgents، وفي 4 مارس 4971 أدان روبيسيير وذكره بالاسم، وفي 11 مارس هدد أتباعه في نادي الكوردليير (لأن هذا النادي أصبح أعضاؤه يجتمعون في مقر دير سابق للرهبان الفرنسيين) صراحة بعضيان مسلح . واتفقت غالبية لجنة الأمن العام مع روبيسيير على أن الوقت قد حان لاتخاذ إجراء، فتم القبض على هيبير Hébert وكلوت Cloots وعدد آخر غيرهما وحوكموا بتهمة ارتكاب أعمال محظورة عند توزيع المؤن على الناس، وكانت تهمة مأكرة لأنها جعلت العوام من السانس كولوت يتشككون في قادتهم الجدد، وقبل أن يستطيع هؤلاء المتهمون إثارة الناس، جرى اتهامهم واقتيادهم بسرعة إلى المقصلة (في 42 مارس)، وانهار هيبير Hébert وبكى، أما كلوت Cloots، فبقى بارداً هادئاً - بطريقة تيوتونية منتظراً دوره ليموت، وخاطب الجماهير قائلاً: "يا أصدقائي لا تخطوا بيني وبين هؤلاء الأندال" (99).

ولا بد أن دانتون قد تحقق أنه كان قد استخدم كأداة ضد هيبير Hébert وأنه أصبح الآن قليل القيمة بالنسبة للجنة (لجنة الأمن العام)، ومع هذا فقد استمر في محاولاته في تحويل اتجاه اللجنة إلى الرحمة والسلام . وهي سياسة تتطلب من الأعضاء نبذ الإرهاب الذي حافظوا من خلاله على مقاعدتهم، ونبذ الحرب التي بررت دكتاتوريتهم .
وحدث دانتون على إنهاء عمليات القتل فقال: "دعونا نترك شيئاً لذبح الآراء (بدلاً من البشر)" وظل يخطط لمشروعات تعليمية وإصلاحات قضائية . وظل جريئاً متحدياً إذ قال له أحدهم إن روبيسيير يخطط للقبض عليه، فأجابته "إذا ظننت أن مجرد فكرة كهذه في رأسه فسأجعل قلبه يذوب حسرات" (001) فحكم الإرهاب قد حول فرنسا في غالبها إلى دولة من دول الطبيعة (State Nature) (tū) فغداً معظم الناس يشعرون أنه يجب عليهم أن "يأكلوا قبل أن يؤكلوا". وحثه أصدقاؤه أن يأخذ المبادرة ويهاجم لجنة الأمن العام أمام المؤتمر الوطني، لكنه كان مرهقاً جداً معتلاً الإرادة فلم يشأ أن يعقب اجتماعاته التاريخية بحماقة . لقد استنفدت مقاومة أمواج الثورة طوال أربع سنوات طاقته وقد ترك الآن الأمواج التحتية (غير الظاهرة) تحمله بعيداً دون مقاومة . لقد قال "لأن تقطع المقصلة رقبتي أفضل عندي من أن أقطع رقاب الآخرين" (لم يكن أمره كذلك دائماً) "بالإضافة إلى أنني سئمت البشر" (101).

وكان من الواضح أن بيلو - فارين - Billaud Varenne هو الذي أخذ المبادرة بالتوصية بالقضاء على حياة دانتون، واتفق معه كثيرون من أعضاء لجنة الأمن العام لأن معنى السماح باستمرار سياسة المتسامحين Indulgents هو تسليم الثورة لأعدائها في الداخل والخارج .

وكان روبيسبير لفترة يعارض فكرة "اختصار" حياة دانتون، لكنه شارك أعضاء اللجنة الآخرين الاعتقاد بأنه - أي دانتون - سمح لجزء من أموال الدولة بالتسرب بين أصابعه، لكنه أدى خدمات للثورة، وكان روبيسبير يخشى أن يؤدي الحكم بالإعدام على واحد من أكبر زعماء الثورة إلى عصيان مسلح في أحياء باريس وفي الحرس الوطني . وخلال فترة تردد روبيسبير هذه كان دانتون يزوره لمرتين أو ثلاثة لا يدافع عن ذمته المالية فحسب، وإنما ليحول هذا الوطني العنيد (روبيسبير) إلى سياسة السلام وإنهاء حكم الإرهاب، لكن روبيسبير ظل غير مقتنع بذلك بل وزادت شراسته، فساعد سان - جوست Saint - Just (الذي كان دانتون كثيراً ما يسخر منه) في إعداد التهمة ضد منافسه الكبير (دانتون) . وفي 03 مارس جمع لجنة الأمن العام ولجنة الضمان العام لاتخاذ قرار مشترك (واحد) ليضمن إصدار المحكمة الثورية حكماً بالإعدام على دانتون وديمولان Desmoulins واثني عشر شخصاً أُدينوا مؤخراً بالاختلاس . ونقل واحد من أصدقاء هذا الجبار (التيان Titan) الأخبار إليه وحثه على مغادرة باريس والاختباء في إحدى المحافظات، لكن "الجبار" (المقصود دانتون) رفض العرض . وفي صباح اليوم التالي قبض عليه البوليس الذي قبض أيضاً على ديمولان Desmoulins الذي يعيش في طابق فوق الطابق الذي يسكن فيه دانتون في البناية نفسها . وسجن دانتون ومن معه في الكونسير جيرى (غرفة البواب في قصر التوليري) فأبدى ملاحظة "ذات يوم مثل يومنا هذا نظمت المحكمة الثورية إنني أسأل الله والبشرية أن يسامحاني على هذا ... في الثورات يظل قابضاً على السلطة من هو أكثر ندالة" (201).

وفي أول أبريل اقترح لويس ليجندر Louis Legendre على النواب أن يسمح لدانتون بالدفاع عن نفسه أمام المؤتمر الوطني فقد أرسل يطلب ذلك من سجنه وأنه - لويس ليجندر الذي كان معيناً حديثاً مبعوثاً مفوضاً للجنة الأمن العام - قد وافق، لكن روبيسبير أوقفه عن مواصلة حديثه بحملة مشنومة منذرة بسوء وصاح قائلاً: "دانتون غير مميز ... سوف نرى هذا اليوم ما إذا كان كان المؤتمر الوطني قادراً على تدمير وثن (إله زائف) ... (301) عندئذ قرأ سان - جوست قائمة الاتهامات التي كان قد أعدها سلفاً فأمر النواب - وكان كل واحد منهم منتبهاً لسلامته الشخصية - بتحويل دانتون وديمولان للمحاكمة فوراً .

وفي 2 أبريل قيد دانتون وديمولان ليمثلا أمام المحكمة . وربما لخلط الأمور، كانا ضمن دفعة من المتهمين بمن فيهم فابر ديجلانتين Fabre d' Eglantine ومتامرون أو مختلسون آخرين، وهيرول دي سيشل Hérault de Séchelles (وقد أدى هذا إلى دهشة عامة ودهشة دانتون) وكان هيرول هذا عضواً مهذباً دمثاً في لجنة الأمن العام لكنه متهم الآن بالتعاون مع أتباع هيبيير Hébertists وبالتورط في مؤامرة خارجية ودافع دانتون عن نفسه بقوة وأمعن في السب وتوجيه التهم مما أثر في اللجنة والحاضرين لمشاهدة المحاكمة وسماعها (401) . لدرجة أن فوكييه تينفيل Fouquier - Tinville أرسل يطلب من لجنة الأمن العام قراراً بإسكات الدفاع واضطرت اللجنة لأن ترسل للمؤتمر الوطني تتهم أتباع دانتون وديمولان - وفقاً على ما وصلها من معلومات - بأنهم يتآمرون لإطلاق سراحهما بالقوة، وعلى هذا الأساس أعلن المؤتمر الوطني أن كلا الرجلين لم يعودا تحت حماية القانون وهذا يعني أنه يمكن إعدامهما دون إجراءات قانونية . وعندما تلقى أعضاء المحكمة هذا القرار أعلنوا أنه قد أصبح لديهم أدلة كافية وأنهم مستعدون لإصدار الحكم . وأعيد المسجونان إلى سجنهما وتم صرف من حضروا لمتابعة المحاكمة . وفي 5 أبريل صدر حكم بإجماع أعضاء المحكمة بإعدام المتهمين كلهم، وعندما سمع دانتون بالحكم تنبأ قائلاً: "قبل أن تتقضي هذه الشهور سيمزق الشعب أعدائي إرباً" (501) . وقال: "حقير أنت يا روبيسبير ! إن المقصلة تتأديك أنت أيضاً . إنك ستبتعني" (601) . وكتب ديمولان من سجنه إلى زوجته: "حبيبتي لوسيل! لقد ولدت لأقرض القوائد وأدافع عن سيئي الحظ... يا عزيزتي اهتمي بصغيرك . عيشي لحبيبي هوراس Horace، وحدثه عني... يداي المقيدتان تعانقانك" (701) .

وبعد ظهر الخامس من أبريل حمل المتهمان في عربة إلى ميدان الثورة، وفي أثناء الطريق تنبأ دانتون مرة أخرى قائلاً: "إنني أترك الأمور مشوشة متخبطة . ليس من رجل فيهم لديه فكرة عن الحكم، إن روبيسبير سينتبعني إلى المقصلة . لقد جروه إلى المقصلة وجعلوني أسبقه" (801) . وعلى سفالة المقصلة كان ديمولان هو الثالث في طاوور من ينفذ فيهم حكم الإعدام وكانت أعصابه تكاد تتحطم، وكان دانتون في آخر الطاوور وفكر دانتون أيضاً في زوجته الشابة وراح يتمتم ببعض الكلمات ذكرها فيها ثم أمسك وقال لنفسه: "أقبل دانتون، لا تضعف" وبينما كان يقترب من نصل المقصلة، قال لجلاده (منفذ الحكم) "اعرض رأسي على الشعب . إنه جدير به" (901) . لقد كان وقت إعدامه في الرابعة والثلاثين من عمره و كذلك ديمولان، لكنهما عاشا أعماراً كثيرة منذ ذلك اليوم في شهر يوليو الذي دعا فيه

كاميل Camille أهل باريس للاستيلاء على الباستيل. وبعد موتها بثمانية أيام تم إعدام لوسيل ديمولان مع أرمله هيبير Hébert وشومت Chamette.

لقد بدت الساحة ممهدة فكل الجماعات التي كانت قد تحدث لجنة الأمن العام قد تم التخلص منها أو قمعها، فالجيريونديون إما ماتوا أو تفرقوا، والعامية من السانس كولوت إما قسموا أو أرغموا على الصمت، وتم إغلاق النوادي ما عدا نادي اليعاقبة وأخضعت الصحافة والمسارح لرقابة صارمة، وتخلّى المؤتمر الوطني خوفاً منه وجبنا عن القرارات الكبرى كلها للجنة الأمن العام. وأقر المؤتمر الوطني - بتوصية من لجانه الأخرى - قوانين ضد المضاربين والمحتكرين (خازني البضائع Hoarders) وقوانين لمجانبة التعليم الابتدائي وإتاحته للجميع، وإنهاء القنانة (عبودية الأرض) في المستعمرات الفرنسية وتأسيس دولة الرفاهية مع الأمن الاجتماعي (الضمان الاجتماعي) وقوانين تنص على تقديم إعانة لغير العاملين (إعانة بطالة) ومساعدات طبية للفقراء ومساعدات لكبار السن. وقد أدت الحرب والفوضى الداخلية إلى حد كبير بالإسراع في هذه القرارات لكنها بقيت كإفكار تلهم الأجيال اللمتتالية. أما روبيسبير الذي كانت يده مخصبتين بالدم لكنهما طليقتان - فإنه الآن يعمل على إرجاع "الله" إلى فرنسا، فمحاولة إحلال "المذهب العقلي rationalism" محل المسيحية أثارت الفرنسيين ضد الثورة، ففي باريس كان الكاثوليك ثائرون لإغلاق الكنائس وإزجاج القسس بالغايات المستمرة عليهم، وشيئا فشيئا بدأت تزداد أعداد أفراد طبقة العوام والطبقة الوسطى التي تذهب لحضور قداس الأحد. وقدم روبيسبير البراهين في إحدى خطبه البليغة (7 مايو 1971) على أن الوقت قد حان لعقد وفاق بين الثورة وجدها الأعلى روسو Rousseau الذي نقلت رفاته إلى البانثيون Panthéon - (مدفن العظماء) في 4 أبريل فلا بد للدولة أن تدعم الدين النقي البسيط - خاصة ذلك الذي اعتنقه Savoyard Vicar في كتاب إميل Emile - القائم على الإيمان بالله واليوم الآخر، والدعوة إلى الفضائل المدنية والاجتماعية كأساس لقيام الجمهورية. ووافق المؤتمر الوطني على ذلك على أمل إرضاء الأتقياء والتخفيف من حدة الإرهاب، وفي 4 يونيو انتخب روبيسبير رئيساً له.

وترأس روبيسبير في 8 يونيو 1971 في سياق هذا التوجه الرسمي مهرجاناً للاحتفاء "بالموجود الأسمى Fast of the superme Being" حضره مائة ألف رجل وامرأة وطفل في ساحة دي مار Champ - de - Mars وعلى رأس موكب كبير (يضم النواب المنتسكين) امتد مسافة طويلة كان هذا المستقيم غير القابل للفساد أو الرشوة (المقصود روبيسبير) وقد حمل في يده الورود وسنابل القمح. وكانت هناك عربة محملة بحزم القمح يجرها ثور أبيض بلون الحليب، وخلفها سار الرعاة من رجال ونساء يمثلون الطبيعة (في فطرتها الأولى) باعتبارها - أي الطبيعة - هي تركيبة واحدة وهي صوت الله Voice of God، وفي حوض يزين ساحة دي مار، أقام ديفيد David الفنان الفرنسي الرائد في هذا العصر تمثالاً من خشب يمثل الإلحاد وقد قام على الرذيلة وتوج بالجنون، وإلى الأعلى في مواجهة هذا التمثال جعل الحكمة المنتصرة ترفع إصبعها في مواجهة الإلحاد والرذيلة والجنون. ووضع روبيسبير - الذي هو تجسيد للفضيلة - المشعل ناحية الإلحاد (ليحرقه) لكن ريحا تعسه حولت اللهب إلى "الحكمة". ووضع نقش يشير إلى المبادئ الجديدة ويتسم معناه بالسماحة: "إن الشعب الفرنسي يؤمن بالموجود الأسمى وخلود الروح" (011) وجرى إقامة احتفالات مشابهة في مختلف أنحاء فرنسا.

وكان روبيسبير سعيداً لكن بيلو فارين - Varenne - Billaud قال له: "لقد بدأت تضجرتني مع موجودك الأسمى". وبعد ذلك بيومين حث روبيسبير المؤتمر الوطني على إصدار مرسوم يدعم - بشكل مثير للدهشة - حكم الإرهاب، لقد بدا روبيسبير وكأنه يجيب دانتون ويتحداه (رغم أن دانتون كان قد أعدم بالمقصلة) عندما أقام مهرجاناً لتكريم "الموجود الأسمى" كما بدا وكأنه يوبخ هيبير Hébert، فالقانون الصادر في 01 يونيو 1971 (22 بريرال Prairial بالتقويم الجمهوري) نص بهدف شجب الملكية والدفاع عن الجمهورية والرفي بها - على إعدام كل من يسيء للأخلاق أو يروج أخباراً كاذبة أو يسرق المال العام أو يتربح ويستغل أو يختلس أو يعوق نقل الطعام أو يعوق بأي شكل مسار الحرب، وأكثر من هذا فإن هذا القانون خول المحاكم أن تقرر ما إذا كان المتهم في حاجة إلى محام أو مستشار أو شهود، إذا ظهر برهان إدانته (111). وقال واحد من المحلفين: "بالنسبة لي شخصياً، فإنني مقتنع بذلك دائماً ففي ظل الثورة، يعد كل من يمثل أمام هذه المحكمة Tribunal مداناً" (211).

وكان ثمة تبريرات لهذا الإرهاب المكثف. ففي 22 مايو جرت محاولة للاعتداء على حياة كولو دربوا Collot d'Herbois، وفي 32 مايو جرى وقف شاب حاول - بشكل واضح - اغتيال روبيسبير. وأدى الاعتقاد في وجود مؤامرة أجنبية إلى أن أصدر المؤتمر الوطني مرسوماً بالتعامل بغير رحمة مع أسرى الحرب البريطانيين والهانوفرين Hanoverian. وكان في سجون باريس نحو ثمانية آلاف من المشكوك في ولائهم، وكان لا بد من إرهابهم حتى لا يفكروا في إثارة الاضطرابات أو الهروب.

لهذا ظهر على نحو خاص ما يسمى "الإرهاب الأعظم Great Terror" واستمر من 01 يونيو إلى 72 يوليو سنة 1971، ففي أقل من سبعة أسابيع قطعت المقصلة رقاب 1.683 رجل وامرأة، هذا بالإضافة إلى 551 كان قد جرى

إعدامهم خلال الواحد والسنتين أسبوعاً، بين مارس 3971 و 01 يونيو 4971(311). ولاحظ فوكييه تينفيل Fouquier - Tinville أن الرؤوس تتدلى من السقف كألواح الازدواج " (411). ولم يعد الناس يذهبون لمشاهدة تنفيذ أحكام الإعدام فقد أصبح المشهد معاداً مكرراً، وإنما راحوا يعكفون في منازلهم يتحسسون أي كلمة ينطقون بها. وتوقفت الحياة الاجتماعية تقريباً، وكادت المواخير وبيوت الدعارة والحانات تكون خاوية على عروشها. بل وتقلص عدد الحضور في المؤتمر الوطني نفسه، فمن بين 057 عضواً لم يعد يحضر - الآن - سوى 711، وحتى هؤلاء امتنع كثيرون منهم عن التصويت حتى لا يورطوا أنفسهم، وحتى أعضاء اللجنة عاشوا في رعب من أن يقعوا تحت نصل هؤلاء الثلاثة (المتحكمين الجدد) روبيسبير، وكوثو Couthon وسان جوست Saint - just. وربما كانت الحرب هي التي أدت إلى أن يتبوأ الصدارة أفراد أقوياء عمدوا إلى تركيز السلطة في أيديهم بشكل مثير. وفي أبريل سنة 4971 كان الأمير ساكس كوبرج Sax - Coburg قد قاد جيشاً آخر داخل فرنسا، وكانت أي هزيمة تلحق بالدفاعات الفرنسية كفيلاً بإثارة الفوضى والخوف في باريس، وحاول البريطانيون من خلال فرض الحصار البحري منع الإمدادات الأمريكية عن فرنسا ولولا نجاح الدفاعات الفرنسية في إلحاق الهزيمة بالأسطول البريطاني في أول يونيو ما وصلت الحمولات الغالية الثمن إلى برست Brest واستطاع الجيش الفرنسي أن يصد الغزاة بالقرب من شارلروي (Charleroi 52 يونيو) وبعد ذلك بيوم قاد سان جوست Saint - Just قوة فرنسية لإحراز نصر حاسم في فلورس Fleurus. وانسحب كوبرج Coburg من فرنسا، وفي 72 يوليو عبر جوردا Jourdan وبيشجرو Pichegru الحدود لإقامة الحكم الفرنسي في أنتورب Antwerp وليج Liège وقد يكون الانتصار الذي تحقق بصد الغزوة الكبيرة، مما ساهم في تدمير روبيسبير، فأعداؤه الكثيرون كانوا يشعرون أن الدولة والجيش قد يعملان على تججير صراع مكشوف في قلب الحكومة، صراع لا هوادة فيه.

فلجنة الأمن العام كانت على خلاف مع لجنة الضمان العام Committee of public Safety بسبب التنازع على السلطة السياسية. وفي هذه اللجنة الأخيرة كان بيو فارين Billaud - varenne وكولو دربوا Collot d'Herbois وكارنو Carnot في حالة ثورة متزايدة ضد روبيسبير وسان - جوست. فلما شعر روبيسبير بعداوتهم الشديدة له تحاشى حضور اجتماعات اللجنة في الفترة من أول يوليو إلى 32 من الشهر نفسه لعل هذا يؤدي إلى تخفيف حساسيتهم من زعامته، لكن غيابه هذا أعطاهم الفرصة ليخططوا لإسقاطه. وأكثر من هذا فإن استراتيجيته راحت تضطرب وتترنح: ففي 32 يوليو أحال المؤيدين له إلى أعداء بتسليمه لنواب السهل (المعتدلين) من رجال الأعمال بتوقيعه مرسوماً بتحديد سقف الأجور (الحد الأقصى للأجور)، ومن الناحية الفعلية، وبسبب انخفاض قيمة العملة، خفض المرسوم بعض الأجور إلى النصف (511).

وكان هناك الإرهابيون الذين عادوا من الدوائر أو المحافظات - فوشي Fouche وفريرو Fréron وتاييه Tallien وكاريه Carrier- الذين وجدوا أن حياتهم متوقفة على إقصاء روبيسبير، فقد كان هو الذي استدعاهم إلى باريس طالباً منهم تقارير عن مهامهم لقد قال متسائلاً: "تعال يا فوشي Fouche وأخبرنا من الذي فوضك لتقول للناس إن الله غير موجود؟" (611) وفي نادي اليعاقبة اقترح روبيسبير التحقيق مع فوشي فيما يتعلق بعملياته في طولون وليون أو سحب العضوية منه، ورفض فوشي أن يجيب عن مثل هذا الاستجواب، وانتقم لنفسه بإشاعة قائمة بأسماء أشخاص زعم أن روبيسبير اعترم إعدامهم بالمقصلة. أما بالنسبة لتاييه Tallien فلم يكن في حاجة إلى من يحرضه ضد روبيسبير فقد كان هذا الأخير قد أمر بالقبض على خليلته الجذابة في 22 مايو. وتقول الإشاعات أنها أرسلت إلى تاييه خنجراً، فأقسم أن يحررها (يخرجها من المعتقل) مهما كلفه ذلك.

وفي 62 يوليو ألقى روبيسبير آخر خطاب له أمام المؤتمر الوطني الذي كان نوابه معادين له لأن كثيرين منهم كانوا معارضين للتسرع في إعدام دانتون ولام كثيرون منهم روبيسبير لتقليله من شأن المؤتمر الوطني. وحاول روبيسبير أن يدفع هذه التهم عن نفسه:

"أيها المواطنون... أريد أن أفتح قلبي، وأنتم في حاجة إلى سماع الحقيقة... لقد أتيت إلى هنا لأصحح أخطاء فظيعة. لقد أتيت لأبطل الأيمان المغلظة التي أقسمها بعض الرجال بقصد العصيان والتي راحوا يملأون بها معبد الحرية هذا... أي أساس لما هو موجود من نظام إرهابي بغيض؟ وأي أساس لهذا القذف والتشهير بالسمعة؟ ألكم أنتم نبدي أنفسنا مرعبين؟ إنهم الطغاة والأنذال هم الذين يخشون بأسنا لا الوطنيون وذوو النوايا الطيبة. ألم نضرب الإرهاب في المؤتمر الوطني؟ لكن من نكون نحن بغير المؤتمر الوطني؟ إننا نحن الذين دافعنا عن المؤتمر الوطني مخاطرين بحياتنا. نحن الذين وقفنا أنفسنا للحفاظ عليه، بينما يعمل فرقاء بغيضون على التآمر لتدميره كما ترون جميعاً... إلى من توجه سهام التآمر في المقام الأول؟ إننا نحن المقصودون. إننا نحن الذين يطلقون علينا سوط فرنسا أو سبب نكها... منذ فترة أعلنوا الحرب على بعض أعضاء لجنة الضمان العام (تسميها بعض المراجع العربية أيضاً لجنة السلامة العامة).

وأخيرا بدوا يعملون على تحطيم رجل واحد ... إنهم يسمونني طاغية، إنهم يودون على نحو خاص أن يثبتوا أن محكمة الثورة إنما هي محكمة دم أنشأتها أنا وحدي وأسيطر عليها وحدي سيطرة مطلقة لقتل ذوي النوايا الطيبة كلهم....

إنني لا أجسر على تسمية هؤلاء المتهمين هنا والآن . إنني لا أستطيع وحدي أن أزيح بشكل كامل الحجاب الذي يغطي الألغاز العميقة لهذه الجرائم . لكنني أؤكد بشكل جازم أن من بين حابكي هذه المؤامرات ممثلين لجهاز فاسد مرتش يدفعه الأجانب لتدمير الجمهورية ... إن الخونة موجودون هنا مختبئون تحت مظهرهم الكاذب الزائف . إنهم سيتهمون من يوجه لهم الاتهامات وسيضاعفون خداعهم .. ليضربوا وجه الحقيقة . إن هذا جزء من مؤامرة . وأريد أن أنهى حديثي هنا بأن الطغيان يحكم بيننا، لكن ليس لهذا يجب أن أصمت . كيف يمكن لأي شخص أن يلوم رجلاً الحق بجانبه، ويعرف كيف يموت في سبيل وطنه"(711).

وثمة بعض الاضطراب في هذا الخطاب التاريخي فقد كان روبيسبير حتى لحظة إلقاء خطابه يشق طريقة بحذر بين أشرار السياسة، والسلطة تفقد العقل أكثر مما تسبب الفساد، والاحتفاظ بالسلطة يتطلب العمل السريع (اتخاذ إجراءات سريعة أكثر مما يتطلب تأملاً). إن لهجة الخطاب التي لا تكتفي بالدلالة على البراءة وسلامة الطوية فقط، وإنما تشير إلى أنه "رجل يقف الحق بجانبه".... مثل هذا الكلام لا يصلح إلا أن يكون على لسان سقراط بعد أن قطع نصف الطريق فعلاً إلى الموت .

إنه لمن الصعب أن ندخل في باب الحكمة ما قام به من حث لأعدائه على معاداته، وإثارة غيظهم وحقنهم بتهديدهم بفضح أخطائهم وكشفها - وهذا يعني الحكم عليهم بالإعدام . لقد كان من غير الحكمة أن يؤكد أن المؤتمر الوطني متحرر من الخوف والإرهاب، عندما يكون معروفاً أن هذا غير صحيح . والأسوأ من كل هذا رفضه أن يسمي الأشخاص الذين سيتهممهم (يقدمهم للمحاكمة) مما ضاعف من أعداء الأعضاء الذين قد يعتبرون أنفسهم ضحايا في المستقبل لغضبه . لقد تلقى المؤتمر الوطني اتهامه ببرود وأحبط حركة ناديت بطبع خطابه وكرر روبيسبير خطابه هذا المساء في نادي اليعاقبة فقبول بتصفيق حاد، وفي النادي أضاف لخطابه الأنف ذكره هجوماً واضحاً على بيلو - فارين Billaud - Varenne وكولو دربوا Collot d'Herbois اللذين كانا حاضرين فخرجا من النادي إلى حجرة لجنة الأمن العام حيث وجدا سان - جوست Saint - Just يكتب ما ذكره لهما بجسارة وهو قرار توجيه الاتهام لهما(811).

وفي صباح اليوم التالي 72 يوليو (التاسع من شهر ثيرميدور حسب التقويم الجمهوري) هب سان - جوست - Saint Just ليقدم هذا الاتهام المكتوب إلى المؤتمر الوطني الذي أعمت العدوانية بصائر أعضائه وأرعبهم الخوف . وكان روبيسبير يجلس أمام منصة الخطابة مباشرة . وكان دبلي Dupaly وضيغه المخلص قد حذره من توقع اضطرابات، لكن روبيسبير أعاد من جديد تأكيده لمن تتبأ بذلك (دبلي) بأن "المؤتمر الوطني سائر على خط الأمانة والإخلاص، والجماهير مخلصه كلها"(911). ولسوء الحظ كان الضابط الرئيسي (رئيس الضباط) في هذا اليوم من أعدائه (أي أعداء روبيسبير) الذين أقسموا أن يتخلصوا منه - إنه كولو دربوا Collot d'Herbois . وعندما بدأ سان جوست Saint - Just يقرأ قائمة الاتهامات، توقع تاييه Tallien أن يكون من بينهم، فاندفع إلى المنصة وأزاح الخطيب الشاب جانبا، وصاح قائلاً: "إنني أطالب بازاحة الستارة" يقصد كشف حقيقة الأمور . وحاول جوزيف ليباس Joseph Lebas الموالي لسان - جوست أن يأتي لنجدته لكن كلماته ضاعت إذ أسكتته مئات الأصوات، وطلب روبيسبير الفرصة ليمسعه، فرفع تاييه Tallien السلاح الذي أرسل إليه عالياً وأعلن: لقد سلحت نفسي بخنجر سيغلغل في جسده إذا لم يكن لدى المؤتمر الوطني الشجاعة الكافية لإصدار قرار باتهامه"(021).

وسلم كولو Collon المقعد لثريو Thuriot الذي كان من أنصار دانتون، واقترب روبيسبير من المنصة صانحاً، لكن جرس ثريو Thuriot بعثر معظم كلمات روبيسبير، واعتلى أحدهم موجة الفتنة وقال: "لآخر مرة يا زعيم الحشاشين Assassins سيكون كلامي بالإذن منك" وارتفعت أصوات أعضاء المجلس الوطني معبرة عن عدم رضائها عن هذه الطريقة في الخطاب، ونطق أحد الأعضاء بكلمات كأنها قدر نزل: "إنني أطالب بالقبض على روبيسبير" فقام أوغسطين روبيسبير يتحدث كرجل روماني "إذا كان أخي مذنباً فإنني مذنب معه، إنني أشترك معه في فضائله، فليكن اسمي مدرجا في قراركم بالقبض عليه" وطلب ليباس Lebas الطلب نفسه، وبالفعل فقد ناله . وجرى التصويت على القرار فقبض البوليس على الروبيسبيرين (روبيسبير وأخيه) وسان - جوست، وليباس Lebas وكوثون Couthon وأسرع بهم إلى سجن لكسمبرج Luxembourg .

وأمر محافظ باريس (رئيس بلديتها) فلوريو - ليكو Fleuriot Lescot بنقل السجناء إلى دار البلدية فتلقاهم كضيوف مكرمين وبسط عليهم حمايته، وأمر رؤوس الكومون (أولو الأمر فيه) هانريو Hanriot رئيس الحرس الوطني في العاصمة - أن يأخذ جنوداً وأسلحة من التوليري Tuileries وأن يحاصر أعضاء المؤتمر الوطني حتى يسحبوا قرارهم بالقبض على روبيسبير والآخرين الذين قبض عليهم معه لكن هانريو Hanriot كان ثملاً لإفراطه في

الشراب فلم ينفذ هذه المهمة. وعين نواب المؤتمر الوطني بول بارا Barras ليكون على رأس قوة من قوات الدرك (الجندرية) والتوجه إلى دار البلدية ليعيد القبض على السجناء، ودعا رئيس المجلس البلدي هانريو Hanriot مرة ثانية فوجده قد جمع بشكل ارتجالي مجموعة من عوام السانس كولوت، بدلا من رجال الحرس الوطني (الأهلي) الذين لم يستطع جمعهم، وكان أفراد الطبقة الدنيا قد أصبحوا الآن لا يحبون كثيرا الرجل (روبيسيير) الذي خفض أجورهم وقتل هيبير Hébert وشومت Chaumette ودانتون وديمولان، وثمة سبب آخر وهو أن الأمطار كانت قد بدأت تسقط فانصرفوا إلى منازلهم وأعمالهم، واستطاع بارا Barras - وجنود الدرك الذين معه - أن يحاصر دار البلدية بسهولة .

وحاول روبيسيير الانتحار عندما رآهم، لكن الطلقة التي أطلقها بيده غير الثابتة اخترقت وجنته ولم تحطم غير فكه(121). أما ليباس Lebas فقد كانت يده أكثر ثباتا فقد أطلق النار على رأسه فشقها وخرج مخه، أما أوغسطين روبيسيير فقفز من النافذة في محاولة لم تتجح للهروب فكسرت ساقه أما كوثنون المشلول (الذي لا يحس بساقيه) فقد دفع تحت السلام وظل هناك لا أحد يقدم له مساعدة حتى حمله الجنود إلى السجن فأودعوه إياه مع روبيسيير وأخيه وسان - جوست Saint - Just .

وبعد ظهيرة اليوم التالي (82 يوليو 1794) نقلت أربع عربات هؤلاء السجناء الأربعة بصحبة فلوريو Fleuriot وهانريو Hanriot (وكان لا يزال ثملا) وستة عشر آخرين إلى المقصلة التي نصبت فيما يعرف الآن - ويا للعجب - بميدان الوائم Place de La Concorde، وفي الطريق سمعوا من المت

صفحة رقم : 14557

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> المؤتمر الوطني -> التيرميدوريون نسبة إلى شهر الدفاء

6- التيرميدوريون (نسبة إلى شهر الدفاء)

أو التيرميدور في التقويم الجمهوري الفرنسي

92 يوليو 4971 - 62 أكتوبر 5971

في 92 يوليو أرسل الذين انتصروا في التاسع من تيرميدور (شهر الدفاء في التقويم الجمهوري) سبعين من أعضاء كومون باريس إلى المقصلة وبعدها أصبح الكومون تابعا للمؤتمر الوطني، وتم إلغاء قانون يوم 22 من شهر المروج الخضر وهو الشهر التاسع من التقويم الجمهوري (تم الإلغاء في أول أغسطس)، وتم إطلاق سراح من سجنهم روبيسيير وتم سجن بعض أعوانه(321). وتم إصلاح المحكمة الثورية لضمان محاكمات عادلة. وتم استدعاء فوكييه

- تينفيل Fouquier Tinville للدفاع عن أعماله فاستطاع بسبب براعته الاحتفاظ برأسه حتى 7 مايو سنة 1797 وظلت لجنة الأمن العام ولجنة المراقبة العامة (لجنة الضمان العام) لكن مخالبيهما كان قد قصت، وازدهرت الدوريات المحافظة وماتت الصحف الراديكالية لانفتقارها للدعم الجماهيري. ووجد تالييه Tallien وفوشيه Fouché وفريرون Fréron أنه يمكنهم أن يشاركوا في القيادة الجديدة بالتأثير في المؤتمر الوطني لتجاهل أدوارهم في فترة حكم الإرهاب، وتم إغلاق نوادي اليعاقبة في أنحاء فرنسا كلها (21 نوفمبر)، وانتقل نواب المؤتمر الوطني ممن كانوا في السهل Plain (نواب الوسط) الذين طالما عانوا من التخويف والإرهاب إلى اليمين، أما الجبليون The Mountain فقد أزيحوا عن السلطة، وفي 8 ديسمبر استعاد ثلاثة وسبعون عضوا من الجيرونديين ممن ظلوا على قيد الحياة مقاعدهم. وهكذا أعادت البورجوازية قبضتها على "الثورة".

وسمح استرخاء الحكومة بإعادة إحياء الدين. لقد كان معظم الرجال الفرنسيين، والنساء الفرنسيات كلهن تقريبا يفضلون الاحتفال بالقدسيين والطقوس الدينية على وفق التقويم الكاثوليكي على مهرجانات الاحتفاء بالموجود الأسمى Supreme being ولم يكن على خلاف هذا الاتجاه الشعبي سوى قلة صغيرة ممن تلقوا تعليما عاليا وأفراد الشريحة العليا من الطبقة الوسطى التي تأثرت بحركة التنوير. وفي 51 فبراير سنة 1797 تم توقيع معاهدة سلام مع متمردي الفندي Vendéae يضمن لهم حرية العبادة، وبعد أسبوع واحد امتد هذا الحق ليشمل فرنسا كلها؛ وتعهدت الحكومة بالفصل بين الكنيسة والدولة.

أما المشكلة الأكثر صعوبة واستعصاءً على الحل الدائم المرضي فهي مشكلة العلاقة بين المنتج والمستهلك، فالمنتجون يطالبون ويلحون في المطالبة بإلغاء سقف الأسعار (الحد الأقصى الذي حددته الحكومة لأسعار السلع) والمستهلكون يطالبون بإلغاء الحد الأعلى للأجور، وقد استمع المؤتمر الوطني إلى طلبات الطرفين وألغى الحد الأقصى في الحاليتين (في 42 ديسمبر سنة 1797) فقد كان يسيطر على المؤتمر في ذلك الوقت أعضاء متحمسون يؤمنون بالاقتصاد الحر والمنافسة وحرية التجارة، فأصبح العمال الآن أحرارا في البحث عن الأجور العليا، وأصبح الفلاحون والتجار أحرارا في التصرف على وفق الحركة التجارية.

وارتفعت الأسعار على الجانبين (أسعار البضائع وأسعار العمالة) وأصدرت الحكومة أسينات assignates جديدة كعملة ورقية لكن قيمتها تدنت أكثر من ذي قبل: فبشل الدقيق الذي كان يكلف أهل باريس أسينين اثنين في سنة 1797 أصبح يكلفهم 522 أسينا في سنة 1797 وارتفع سعر الحذاء من خمسة أسينات إلى مائتين، وارتفع سعر الاثنتي عشرة بيضة من 67 إلى 421)0052).

وفي أول أبريل سنة 1797 انفجرت في أحياء مختلفة في باريس مرة أخرى اضطرابات بسبب أسعار الخبز واقترحت جماهير غير مسلحة مقر المؤتمر الوطني مطالبة بالغذاء وإنهاء اضطهاد الراديكاليين، وقد أيدهم عدد من الأعضاء ممن أصبحوا الآن ضمن الجبليين Mountain (üü) ، ووعد المؤتمر الوطني بإيجاد حل عاجل لكنه في الوقت نفسه دعا الحرس الوطني لتفريق المشاغبيين. وفي تلك الليلة أصدر المؤتمر الوطني قرارا بترحيل (نفي) الزعماء الراديكاليين بيلو فارين Billaud Varenne وكولو دربو Collot d'Herbois وبارير Barère وفادييه Valdier إلى غيانا Guiana ، وتملص بارير وفادييه من القبض أما كولو وبيلو Billaud فقد نفيا إلى مستعمرة أمريكا الجنوبية حيث الحياة القاسية، وهناك مرض هذان المعاديان للاكليروس فاعتنت الراهبات بهما ومرضتهما. واستسلم كولو للموت أما بيلو Billaud فعاش وتزوج من جارية مخلطة وأصبح فلاحا قانعا، ومات في هايتي Haiti في سنة 1819(521).

وأصبحت المعارضة العامة شرسة فقد ظهر بلاكار Placards داعيا للعصيان المسلح، وفي 02 مايو غزا حشد من النساء والرجال المسلحين المؤتمر الوطني مطالبين بالخبز ومطالبين بإطلاق سراح الراديكاليين المقبوض عليهم وبحل abdication الحكومة، وقتل أحد النواب بطلقة مسدس ورفع قاتلوه رأسه اليابس (إشارة لعناده) على رمح أمام رئيس المؤتمر بوينسي دنجلا Boissy d'Anglas الذي أدى له (للرأس) التحية الرسمية، وأجبرت القوات الحكومية والمطر الهاطل المتمردين على العودة لبيوتهم. وفي 22 مايو حاصرت قوة بقيادة بيشجرو Pechegru عمال فابورج سان أنطوان Fabourg St. Antoine وأجبرت المتمردين المسلحين الآخرين على الاستسلام وقبض على اثني عشر نائبا من النواب الجبليين (أي اليساريين) بتهمة المشاركة في الاضطرابات وقد هرب منهم اثنان وانتحر أربعة وكان خمسة على وشك الموت من جراء جروح أحدثوها بأنفسهم فأسرعوا بهم إلى المقصلة حيث جرت رقابهم. وطالب عضو محافظ بالقبض على كارنو Carnot فاعترض صوت: "لقد خطط لانتصاراتنا ونظم أمرها" وهكذا احتفظ كارنو برأسه.

والآن (مايو ويونيه 1797) استعر الإرهاب الأبيض White Terror الذي كان ضحاياه هم اليعاقبة وقضاته هم البورجوازية (المعتدلون Moderates) المتحالفة مع الروابط الدينية: "جماعة يسوع Companies of Juis" و "جماعة يهوه Companies of Jehu" وجماعة الشمس Companies of Sun. وفي ليون (5 مايو) جرى ذبح

97 إرهابيا سابقا في السجن وفي إيكس إن بروفنس (Aix-en-Provence 71 مايو) جرى ذبح ثلاثين آخرين "للتخلص من البربرية" وحدث أمر كهذا في أرل Arles أفينون Avignon ومارسيليا. وفي تاراسون Tarascon (52 مايو) حاصر مائتا رجل ملثم الحصن الملىء بالمسجونين وقذفوا بهم إلى الرون Rhon . وفي طولون Toulon ثار العمال على الإرهاب الجديد، فقام إسناد Isnard أحد الجيرونديين الذين عادوا إلى وضعهم السابق بقيادة كتيبة جند وقضى على هذا الاضطراب العمالي (13 مايو) (621). إن الإرهاب إذن لم ينته، وإنما غير يديه (حل إرهابيون جدد محل إرهابين قدامى).

لم يعد البورجوازيون المنتصرون في حاجة لحلفاء من البروليتاريا لأنهم - البورجوازيين - قد كسبوا دعم الجنرالات وأولئك الذين أحرزوا الانتصارات التي رفعت من مركز البورجوازيين حتى بين طبقة العوام (السانس كولوت) ففي 91 يناير سنة 5971 استولى بيشجرو Pichegrn على أمستردام وهرب ستادولدر وليم الرابع Stadtholder IV إلى إنجلترا وأصبحت هولندا طوال عقد من الزمن هي جمهورية "باتافيا Batavian Republic" تحت الوصاية tutelage الفرنسية. وقامت جيوش فرنسية أخرى بإعادة الاستيلاء على الشاطئ الأيسر لنهر الراين Rhine واحتفظت بمواقعها فيه. أما المتحالفون ضد فرنسا Allies فإنهم بعد أن هزموا واختلوا تركوا فرنسا واتجهوا إلى فريسة أسهل في بولندا، فيروسيا رغبة منها في منع روسيا من الاستيلاء على أي شيء في التقسيم الثالث Thrid (5971 Partition) أرسلت مبعوثيها إلى باريس ومن ثم إلى بازل Basel للتفاوض لعقد سلام منفصل (أي بغير مشاركة حلفائها) مع فرنسا. وما كان المؤتمر الوطني ليستطيع تحمل هذا الطلب لأنه نظر بذهر إلى سلام يمكن أن يعيد إلى باريس أو أي مكان آخر في فرنسا آلاف الجنود نصف المتوحشين يعيشون الآن من موارد البلاد التي فتحوها، ولو عادوا لكانوا إضافة جديدة للمجرمين والمرضى والمشاعبين في المدن الفرنسية التي يصرخ ساكنوها الآن طالبين فرص عمل وخبز. كما أن الجنرالات الذين لم يستريحوا من متاعب الحروب والذين أثملتهم الانتصارات - بيشجرو Pichegru وجوردا Jourdan وهوش Hoche ومورو Moreau - ربما لا يقاومون الإغراء بالقيام بانقلاب عسكري ضد الحكومة إن هم عادوا من جبهات القتال. لكل هذا أرسل المؤتمر الوطني إلى بازل، مارك فرنسوا دي بارتليمي Marquis Francois de Barthélemy مزودا بتعليمات بالتمسك بالملك بالملككات الفرنسية على الشاطئ الأيسر للراين، ورغم اعتراض بروسيا إلا أنها استسلمت للواقع، ولحقت ساكسوني Saxony وهانوفر Hanover وهيس كاسيل Hesse Cassel بالمناطق الأخرى، وفي 22 يونيو تخلت إسبانيا لفرنسا عن الجزء الشرقي (سانتو دومنجو Santo Domingo من جزيرة هسبانيولا Hispaniola . واستمرت الحرب مع النمسا وإنجلترا السبب بدا كافيًا وهو إبقاء الجنود الفرنسيين على جبهات القتال.

وفي 72 يونيو جلبت السفن البريطانية 0063 مهاجرا (من الذين كانوا قد تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة) من بورنسموث Portsmouth وأنزلتهم عند قنة كيبورن Quiberon (قنة الجبل الداخلة في البحر) من بريتاني Brittany لينضموا إلى كئائب شوا Chouan الملكية لإحياء تمرد أهالي فندي، وقد هزمهم تاييه في معركة عبقرية (12 يوليو) وفي حركة قادها تاييه Tallien قبض المؤتمر الوطني على 847 وأمر بقتلهم. وفي 8 يونيو سنة 5971 مات ابن لويس السادس عشر (ولي العهد) البالغ من العمر عشر سنوات. مات في السجن وليس من دليل على أن ذلك كان لسوء المعاملة، وربما كان موته بسبب درن العقد الليمفية العنقية (الاسكروفولا Scrofula) والاكنتاب despondency . ومن ثم اعترف الملكيون بالأكبر من أخوي لويس السادس عشر ملكا وهو المهاجر كومت (كونت) دي بروفنس Comte de Provence باعتباره لويس الثامن عشر Louis XVIII وأقسموا أن يجعلوه ملكا لفرنسا، وأعلن هذا البوربون غير الإصلاحية (في أول يوليو 5971) أنه إن عاد للعرش أعاد نظام الحكم القديم على حاله كما كان بلا تغيير بما في ذلك الحق المطلق للملك والحقوق الإقطاعية، ومن هنا كان الدعم المشترك الذي قدمه البورجوازيون والفلاحون والعامّة من السانس كولوت لنابليون خلال اثنتي عشرة معركة. لقد أرفقت الثورة فرنسا فبدأ التسامح مع المشاعر الملكية التي تظهر في بعض الصحف والصالونات والأسر الثرية. فلا يستطيع سوى ملك شرعي يتولى الملك بالوراثه وعلى وفق التقاليد المتبعة أن يعيد النظام والأمن لشعب خائف وتعس بعد سنوات من التمزق السياسي والاقتصادي والانقسام الديني والحرب والمستمرة، وعدم ضمان فرصة عمل أو طعام أو حتى حياة. وكان نصف سكان جنوب فرنسا أو أكثر نافرين بعمق من باريس وسياسيها. وفي باريس وجدنا اجتماعات الأحياء التي كان يسيطر عليها العامة (السانس كولوت) في وقت من الأوقات أصبحت الآن بشكل متزايد يسودها رجال الأعمال، بل وقبض على زمام الأمور فيها الملكيون وكانت صالات المسارح تضج بالتصفيق استحسانا عندما يرد في سياق المسرحية حديث عن "أيام زمان الطيبة" قبل سنة 9871 وأصبح الشباب الذين كانوا في حالة ثورة دائمة يشاغبون أو يتمردون على الثورة فنظموا أنفسهم في روابط كرابطة الشباب الأنيق (الترجمة الحرفية: الشباب المموه بالذهب) Jeunesse Dore ` ورابطة الهوى Merveilleux (أو العجيب كما تقيد الكلمة في القواميس الفرنسية) ورابطة الشباب الغندو أو الأنيق Muscadins (أو شباب الثمار أو الفاكهة على وفق المقابل

الإنجليزي الذي - وضعه المؤلف لها (Fruits) وراحوا يتباهون بملابسهم الغالية الغربية وشعورهم الطويلة المعقوفة يجوبون الشوارع حاملين الهراوات الخطرة معبرين بجسارة عن مشاعرهم الملكية. لقد أصبح من غير الملائم (مما لا يتمشى مع المودة) أن يؤيدوا الحكومة الثورية بدليل أنه عندما سرى خير مبتسر عن حل المؤتمر الوطني قوبل ذلك بالفرح حتى إن بعض الباريسيين رقصوا في الشوارع.

لكن المؤتمر الوطني استمات للاستفادة مما بقي له من وقت، ففي يونيو سنة 5971 بدأ في وضع دستور جديد مختلف كثيراً عن الدستور الديمقراطي غير العملي الصادر في سنة 3971 والآن فقد تبنى المؤتمر الوطني نظاماً توجدهم بمقتضاه هيتان تشريعتان إحداهما عليا مكونة من النواب الأكبرين سنا والأكثرين خبرة، وموافقة هذه الهيئة العليا Upper Chamber يعد ضرورياً لإقرار أي إجراء تتبناه الهيئة الأخرى (الأدنى درجة Lower Chambre) الأكثر انفتاحاً واتصالاً مباشراً بالحركات الشعبية والأفكار الجديدة. فالشعب كما قال بويسي دنجلا Boissy d'Anglas ليس على الدرجة الكافية من الحكمة والتوازن ليقرر سياسة الدولة (721). وعلى هذا كان دستور السنة الثالثة Constitution of the year III (تبدأ السنة الثالثة من 22 سبتمبر سنة 4971) كمرجعة لإعلان حقوق الإنسان (9871) لحذف ما به من تضليل وخداع فيما يتعلق بالفضائل والسلطة. لقد جرى حذف الافتراض القائل إن "الناس يولدون أحراراً، ويظلون أحراراً متساوين في الحقوق" وعرف المساواة بأنها لا تعني أكثر من أن "القانون ينطبق على الجميع" وجعل الانتخابات غير مباشرة بمعنى أن يقوم المصوتون Voters (من كان لهم حق الانتخاب وأدلو بأصواتهم) بانتخاب مندوبين (أو مفوضين delegates) ليكونوا أعضاء في هيئة المنتخبين (يكسر الخاء) electoral College في كل دائرة (محافظة) ويقوم هؤلاء الناخبون بدورهم باختيار أعضاء الهيئة التشريعية الوطنية (على مستوى فرنسا) وأفراد السلطة القضائية Judiciary والهيئات الإدارية. واقتصرت عضوية هيئة المنتخبين على أصحاب الملكيات وبذا يكون اختيار الحكومة الوطنية منوطاً بثلاثين ألف فرنسي. وقدم واحد من الأعضاء اقتراحاً للمؤتمر الوطني بإتاحة حق الانتخاب للنساء لكن عضواً آخر أقنعه بسؤال وجهه: "أين هي الزوجة الصالحة التي تجسر على القول بأن رغبة زوجها غير رغبتها؟" (821) ورفض مبدأ سيطرة الدولة على الاقتصاد باعتباره غير عملي لأنه يعوق الإبداع والمشروعات ويبطئ من نمو ثروة البلاد.

وضم هذا الدستور بعض الأفكار الليبرالية: لقد أكد على الحرية الدينية، وكذلك حرية الصحافة " لكن في حدود أمانة" (وكانت الصحف في ذلك الوقت في غالبها تديرها الطبقة الوسطى) وأكثر من هذا فإن التصديق على الدستور ترك للناخبين الذكور الراشدين، مع إضافة شرط يدعو للدهشة: أن يكون ثلثا النواب في الهيئات الجديدة أعضاء في المؤتمر وإذا لم ينجح عضو المؤتمر في الانتخابات ملأ الأعضاء (من المؤتمر الوطني) الذين أعيد انتخابهم الفراغ (في الثلثين) باختيار زملاء لهم ممن هم أعضاء في المؤتمر الحالي، وكان تعليق ذلك هو ضرورته لاستمرار السياسات والخبرات.

وكان المصوتون طبعين (متجاوبين) فمن بين 859.622 أدلوا بأصواتهم في صناديق الاقتراع وافق على الدستور 419.358، ومن بين 362.131 صوت كانت مطلوبة للثلثين (الشرط الأنف ذكره) وافق 761.857 (921). وفي 32 سبتمبر سنة 5971 جعل المؤتمر الوطني الدستور الجديد هو قانون فرنسا وجهد لانسحابه (أي المؤتمر) بنظام. لقد كان من الممكن أن يزعم بقيامه ببعض الإنجازات رغم شهره التي قضاها في التشوش والإرهاب والخضوع للجان التابعة له وخوف أعضائه من الطرد (من المؤتمر الوطني) بناء على طلب السانس كولوت (عوام الطبقة الثالثة). لقد حافظ المؤتمر على شيء من القانون في المدينة في وقت فقد فيه القانون هالته وجذوره. كما أن المؤتمر دعم تفويض السلطة للبورجوازيين لكنه حاول السيطرة على جشع التجار بدرجة تكفي لمنع حدوث مجاعة تسبب شغب العامة وكان قد نظم الجيوش الفرنسية ودرّبها، ورفع من شأن الجنرالات الأكفاء المخلصين، وصد التحالف القوي ضد فرنسا وحقق السلام بأن جعل فرنسا تحميها حدود طبيعية (الراين وجبال الألب وجبال البرانس) ومياه المحيط، وبالإضافة إلى هذه الجهود كلها المكلفة أسس النظام المترى، وأسس أو أعاد تأسيس متحف التاريخ الطبيعي ومدرسة البوليتقنية (البولينتك) ومدرسة الطب. وافتتح معهد فرنسا Institute of France، لقد بات المؤتمر الوطني الآن بعد ثلاثة أعوام ظل فيها باقياً بما يشبه المعجزة يستحق موتاً هادناً على أن يبعث ثلثاً أعضاؤه (بانضمامهم للهيئات الجديدة).

لكن ما حدث هو أن موته لم يكن بسلام وإنما ملطخاً بالدم كما هو المألوف في ذلك الوقت فالبلوتوقراط (ذوو النفوذ الناشئ عن ثرواتهم Plutocrates) والملكيون الذين كانوا قد استولوا على قسم (حي) الليبليتيير Le Lepeletière في باريس حول البورصة، قاموا بحركة تمرد على التشريعات التي ولدت من جديد، وانضمت إليهم أحياء أخرى لأسباب مختلفة تخصها، وكونوا جميعاً قوة قوامها 52.000 رجل وتقدموا إلى عدة مواقع فتحكموا في التوليري ومن ثم في المؤتمر الوطني (5 أكتوبر، 31/2971 فينديمير بالتقويم الجمهوري) فعين نواب المؤتمر المرعوبون بارا Barras لتولى أمور الدفاع كيفما اتفق فعين بدوره بونابرت وكان في السادسة والعشرين من عمره، وكان وقتها

عاطلا في باريس (أي بلا عمل) ليجمع الرجال والمؤمن والأهم من ذلك المدفعية. وكان بطل طولون يعرف مكان المدافع فأرسل مورا Murat مع قوة لتأمينها فأحضرها ووضعها في مراكز تشرف على المتمردين المتقدمين، وصدرت النداءات للمتمردين بالتفرق، فاحتقروها، فأمر نابليون بإطلاق المدافع فسقط ما بين مائتي قتيل وثلاثمائة جريح وفر الباقون، وأحيا المؤتمر الوطني بذلك آخر محاكماته المصحوبة بالتعذيب ودخل نابليون الحاسم القاسي لتكون أعماله وسيرته من أكثر المشاهد دراماتيكية في التاريخ الحديث.

وفي 62 أكتوبر حل المؤتمر الوطني نفسه وفي الثاني من نوفمبر سنة 5971 بدأ الطور الأخير للثورة الفرنسية. وفي هذه الأثناء قاد نابليون رجاله ليخوض بهم اثنتي عشرة معركة للفوز بدرة لمبارديا مدينة ميلان الغنية المتحضرة. وعند لودي Lodi على الشاطئ الغربي للأدا Adda لحقت قواته الرئيسية بالقوة الرئيسية في الجيش النمساوي بقيادة بوليو Beaulieu، فترجع بوليو وعبر النهر فوق جسر خشبي طوله 002 متر تم نصب مدافعه في مواقع تسمح له بمنع الفرنسيين من القيام بعبور مماثل، فأمر نابليون فرسانه بالاتجاه شمالا حتى يجدوا مخابضة يعبرون المجرى منها، ومن ثم يتجهون جنوبا لمهاجمة مؤخرة الجيش النمساوي. واحتفظ نابليون بمشاته خلف أسوار المدينة ومنزلها، وشارك بفعالية في توجيه نيران مدافعه إلى المدافع النمساوية التي تحمي الجسر. وعندما وصل فرسانه فجأة إلى الشاطئ الشرقي للنهر وهاجموا القوات النمساوية، أمر نابليون الرماة (رماة القنابل اليدوية) أن يشقوا الطريق عبر الجسر فحاولوا لكن المدافع النمساوية أوقفت تقدمهم، فاندفع نابليون متقدما وانضم إلى كل من لان Lannes وبيرتيه Berthier في قيادة المجموعة فهزم النمساويون وأسر منهم ألفان، فانسحب بوليو Beaulieu إلى مانتوا Mantua واستراح الجيش الفرنسي مدة يوم ثم دخل ميلان وبسبب هذه الواقعة وهي اندفاع القوات الفرنسية بقيادة بونابرت بشكل انتحاري وبروح عالية في الوقت نفسه معرضا نفسه لنيران العدو أطلق عليه تديل محبب وهو "العريف الصغير Le petit Caporal".

وبعد هذا الانتصار بفترة وجيزة تلقى نابليون من حكومة الإدارة اقتراحاً مهيناً له حتى إنه نص في رده لهم عن تخليه عن مهامه مضحياً بما وصل إليه من مجد. فهؤلاء الرجال الخمسة (حكومة الإدارة) الذين كانوا ينعمون بالمهرجانات الاحتفالية عندما تصل أخبار انتصارات نابليون إلى باريس، أخبروه (7 مايو) بضرورة أن ينقسم جيشه الآن إلى قسمين؛ قسم يقوده الجنرال فرانسوا إيتين كيلرمان Francois- Etienne Kellermann (ابن محقق نصر فالمي Valmy) ليعهد إليه حماية الفرنسيين في شمال إيطاليا من هجمات النمساويين، وقسم بقيادة بونابرت ليتجه به جنوباً ليضم الولايات الباباوية Papal States ومملكة نابلي إلى الحكم الفرنسي. ولم ير نابليون في هذا الاقتراح حيفاً أو ظلماً لشخصه فحسب وإنما رأى فيه خطأ إستراتيجياً أساسياً، فالهجوم على الباباوية Papacy لن يثير فحسب كاثوليك أوروبا بلهم بمن فيهم كاثوليك فرنسا على الثورة الفرنسية، وإنما سيكون كاثوليك النمسا مستعدين بالفعل لإرسال جيش قوي بقيادة الفيلد مارشال كونت داجوبيرت فون فيرمسر (فورمسر Wurmser) لطرده (أي طرد نابليون) إلى فرنسا. لذا فقد أجاب نابليون بأن الجيش الفرنسي في إيطاليا Army of Italy في حاجة لأن يكون موحداً مزوداً بما يلزمه ليحافظ على مكاسبه ولا يمكن أن تتم قيادته بنجاح إلا بقيادة واحدة، لذا فهو - أي نابليون - سيعتزم موقعه القيادي للجنرال كيلرمان Kellermann وسيقدم استقالته.

وتلقت حكومة الإدارة رسالة نابليون في الوقت الذي تلقت فيه تقارير عن نجاحاته الأخيرة في المجالين الحربي والدبلوماسي. ذلك أن الجنرال الشاب (نابليون) كان قد أعطى لنفسه الحق في عقد معاهدات السلام تماماً كحقه في شن الحرب، كما أعطى لنفسه الحق في أن يقدر الثمن الذي يجب أن تدفعه كل مدينة أو دولة إيطالية لتتعم بالحماية الفرنسية بدلاً من أن يتركها نهياً لطمع عساكره، ولم يعط نابليون لنفسه هذه الحقوق إلا اعتراضاً منه بما حققه من نصر ولشعوره بأن هؤلاء السياسيين القابعين بعيداً في باريس (حكومة الإدارة) ليسوا في موقف يمكنهم من التفاوض لعقد المعاهدات بما يتناسب مع موارد العدو وظروف الجيش الفرنسي. وإنما وجد نفسه هو الأقدر بحكم قربيه من الحقائق الموجودة على أرض الواقع. لكل هذا فإنه بعد دخوله ميلان Milan منتصراً (51 مايو 6971) رتب هدنة مع دوق بارما Duke of Parma ودوق مودينا Modena وملك نابلي Naples، ضمن - من ناحيته - لهم السلام مع فرنسا وحمايتهم من النمسا، وحدد لكل منهم قيمة ما يدفعه لقاء هذا التقاهم، فدفعوا مبالغ طائلة وتحملوا - عاجزين عن فعل أي شيء - سرقة الأعمال الفنية الخالدة من متاحفهم وقصورهم وميادينهم العامة.

لقد رحبت به ميلان، فطوال ما يقرب من قرن كانت تنتظر للتحرر من حكم النمسا، وكان هذا القائد الحربي الشاب - على غير العادة - كريماً - إذا قيس بالفاتحين الآخرين، وكان متألماً مع أسلوب الحياة الإيطالي ومع اللغة الإيطالية مقدراً للنساء الإيطاليات، حفيماً بموسيقا الإيطاليين وفنهم. ولم يكن ذلك غريباً على الإيطاليين فلم يكن إدراكهم لشغفه بالفن الإيطالي مفاجئاً. وعلى أية حال فهو لم يكن إيطالياً إلا لشهر أو نحو ذلك (المقصود أنه لم يظل ودوداً بهذا الشكل إلا لفترة شهر أو نحو ذلك). لقد جمع حوله فناني إيطاليا وشعراءها ومؤرخيها وفلاسفتها وعلماءها وراح يتحدث معهم بألفة. لقد بدا له لفترة وكان لودوفيكو سفورزا Lodovico Sforza وليوناردو دا فنشي Leonardo da

Vinci بعثا معا من جديد وصارا كيانا واحدا. أي شيء يمكن أن يكون أكثر جاذبية وتشويقا من خطابه إلى عالم الفلك بارنابا أورياني Barnaba Oriani ؟

"المتقنون والعلماء في ميلان لم يعتادوا أن ينعموا بما يستحقونه من تقدير . فهم مختبئون في معاملهم يظنون أنه إذا لم ينلهم من الملوك والقسس أذى، إنهم إذن لفي نعيم. إن الأمر ليس كذلك الآن. لقد أصبح الفكر في إيطاليا حرا. لا مكان لمحاكم التفتيش بعد الآن. لا مكان للتعصب وعدم التسامح. لا مكان للظلم والطغيان. إنني أدعو المثقفين والعلماء كلهم أن يجتمعوا معا وأن يدلوني على ما يجب عمله أو الاحتياجات المطلوبة حتى نبث حياة جديدة في العلوم والفنون الجميلة... أرجوكم أبلغ هذه المشاعر عني للرجال المميزين من قاطني ميلان المثقفين والعلماء" (05).

قد أدمج نابليون مدينة ميلان ومدناً أخرى في جمهورية لومبارديا التي كان على سكانها أن يشاركوا الفرنسيين في "الحرية" و "المساواة" و "الإخاء" و "الضرائب".

وفي إعلان للمواطنين الجدد (صدر في 91 مايو 1797) وضح أنه ما دام الجيش المحرر قد دفع ثمنا باهظا لتحرير لومبارديا، فإن على المحررين أن يشاركوا بدفع نحو عشرين مليون فرنك لإنفاقها على جنوده (جنود نابليون)، وهذا - بالتأكيد - مجرد إسهام صغير بالنسبة لبلاد يمثل هذا الخصب، وأكثر من هذا فإن الضرائب ستفرض على "الأثرياء... وعلى المؤسسات الكنسية حتى يتم إعفاء الفقراء" (15). ولم يحظ النظام الذي فرض في الأيام الألف ذكرها بكثير من الشعبية، ذلك النظام القاضي بأن يصبح مندوب إيطالي الجيش الفرنسي ليدله على الأعمال الفنية والمستلزمات العلمية وما إلى ذلك الموجودة في المدن المفتوحة لتحويلها إلى الجمهورية (25). ولم يستطع الإيطاليون الثأر لأنفسهم وإنما عللوا أنفسهم ببعض التوريات اللفظية كقولهم: "ليس الفرنسيون كلهم لصوصا وإنما منهم عدد كبير من الصالحين". وعلى أية حال فقد كان نابليون يتبع في هذا النظم التي وضعها المؤتمر الوطني وحكومة الإدارة، وكان سلب الأعمال الفنية في المدن المفتوحة عملاً ليس له سوابق إلا فيما ندر، أثار السخط في كل مكان ما عدا فرنسا، وكان نموذجا احتذاه المحاربون بعد ذلك. وتم إرسال كل ما سلب إلى حكومة الإدارة فتلقتها بسرور ووجدت هذه المسلوبات طريقها إلى اللوفر Louvre حيث توجهت لوحة الموناليزا Mona Lisa التي لم تقف ابتسامتها رغم ما تعرضت له من اغتصاب (المقصود أن نقل اللوحة من إيطاليا إلى فرنسا نوع من الاغتصاب) واحتفظ نابليون لنفسه بقليل من العوائد الإيطالية (35) استثمر بعضها في تقديم الرشاوي بحكمة وتدبير، واستخدم كثيرا منها في الدفع لجنوده ليخفف من حماسهم للسرقة.

وبعد أن جهز نابليون عشا لعروسه أرسل يلح على جوزفين (81 مايو) لتأتي إليه: "ميلان... لا بد أن تعجبك فهي جميلة جداً... سأطير من الفرح... أكاد أموت شوقاً لأراك وأنت تحملين طفلك... Addio, mio dolce amor تعالي بسرعة لتسمعي الموسيقى اللطيفة ولتري إيطاليا الجميلة" (45). وبينما كان خطابه في الطريق إليها عاد لينهمك في طرد النمساويين من إيطاليا. وفي 02 مايو كان مرة أخرى مع جنوده ولأنه كان يعلم أنهم سيواجهون بعد فترة وجيزة كثيرا من المصاعب وقوات العدو، فقد خاطبهم في بلاغ آخر من بلاغاته البليغة:

"أيها الجنود

لقد اندفعتم كالسيل من جبال أبينين Apennines وهزتم كل قوة اعترضت مسيرتكم وشتتم شملها... فبو Po وتيسينو Ticino وأدا Adda لا يمكنها أن توقف تقدمكم... نعم، أيها الجنود، لقد قمتم بالكثير لكن أحقا ما عاد مطلوباً منكم شيئا آخر؟ لا! إنني أراكم بالفعل وقد طرتم لتقبضوا على أسلحتكم... فأنتم لا تحبون الاستجابة الكسلى... فكل يوم يمر دون أن تحققوا أمراً جليلاً، إنما هو يوم ضائع لا يحسب من أعماركم... وهو ضائع أيضاً لأنكم لم تحققوا فيه سعادتكم... دعونا نتحرك بسرعة، فما زال أمامنا مسيرة شاقة، وما زال أمامنا عدو يتحتم علينا الانتصار عليه، ولا زالت أمامنا أكاليل الغار نحوزها، ومن الخطأ أن تحركنا روح الانتقام... لا تقزعوا الشعوب التي نمر بها، فنحن أصدقاء للشعوب كلها... ستحوزون العظمة الخالدة لتغييركم وجه الحياة في أجمل بقاع أوروبا... فالأمة الفرنسية الحرة... ستقدم لأوروبا سلاماً مجيداً... عندها ستعودون إلى بيوتكم ومواطنكم الذين سيميزونكم عن سواكم... سيقول قائلهم عن الواحد منكم " إنه كان مع الجيش الفرنسي المقاتل في إيطاليا" (55).

وفي 72 مايو واصلت القوات الفرنسية تقدمها في لومبارديا واحتل نابليون بريشيا Brescia - متجاهلاً أنها تابعة للبندقية - وجعلها المركز الأول للمعركة القادمة، وعندما أرسلت البندقية مبعوثيها إليه للاحتجاج، تظاهر بالغضب وأثار الرعب فيهم بقوله لهم إن البندقية - بالفعل - تسمح للقوات النمساوية باستخدام طرقها ومدنها، فاعتذر البنادقة له ووافقوا على أن يكون له الحق نفسه في استخدام أراضي البندقية (65).

وأدى جد القوات الفرنسية في المسير إلى وصولها إلى بشيرا Peschiera، فهربت الحامية النمساوية التي تركها النمساويون فيها، وتملك نابليون الحصن الاستراتيجي ودعمه ليحمي طرق مواصلاته، واندفع إلى مانتوا Mantua حيث كانت بقايا جيوش بوليو Beaulieu الثلاثة قد اتخذت لنفسها مواقع دفاعية حصينة. وترك نابليون جزءاً من قواته لمحاصرة الحصن، وأرسل جزءاً آخر إلى الجنوب لطرده البريطانيين من ليجورن Leghorn، وتم ذلك فعلاً،

وسرعان ما قامت ثورة شعبية أرغمتهم على مغادرة كورسيكا. ووجد مور Murat أن طرد المبعوث (السفير) النمساوي من جنوا مسألة بسيطة، وعمل على ضم هذا الجزء الثاني في البحر المتوسط في الجمهورية الليجورية تحت الحكم الفرنسي. ولا تكاد تكون إيطاليا قد شهدت مثل هذه التغييرات في القوى في فترة قصيرة كما شهدتها في هذه الفترة.

وعاد نابليون إلى ميلان وانتظر جوزفين التي وصلت في 31 يوليو، فعانق القائد المنتصر (نابليون) هازمه (جوزفين). وفي اليوم التالي حيتها المدينة بإقامة عروض خاصة في لاسكالا La Scala أعقبها حفل راقص قدم لها فيه الشخصيات المحلية البارزة كلهم - وبعد ثلاثة أيام من النشوة كان على الجنرال (نابليون) أن يعود إلى جنوده في مارميلورو Marmiloro، ومن هناك بثها أنشودة حب وإعجاب وفتنة لا تصدر إلا عن شاب :

"منذ فارقتك وأنا حزين الفؤاد. عندما أكون معك لا أستطيع ادخار شيء من السعادة... فمفانن جوزفيني (حبيبتي جوزفين) التي لا مثيل لها تشعل النار التي تحرق قلبي باستمرار وتلهب مشاعري. وعندما أتخلص من مشغولياتي ومسؤولياتي، وأكون حرا في قضاء وقتي كله معك، فلن أفعل شيئا سوى أن أحبك. منذ أيام قليلة مضت ظننت أنني أحبك، لكن الآن وقد رأيتك مرة ثانية فإنني أحبك أكثر من ذي قبل آلاف المرات.... أه ! إنني أتوسل إليك، دعيني أرى أن فيك عيوباً. كوني أقل جمالا، أقل لطفاً، أقل رقة، أقل طراوة. وفوق كل هذا لا تكوني غيوراً. لا تبكي، فدموعك تفقدني عقلي، تجعل دماي تغلي.. تعالي بسرعة إلي، على الأقل لنستطيع القول قبل الممات : لقد قضينا ساعات كثيرة طيبة معاً..." (75).

وأطاعت جوزفين رغم خطر شرك العدو في الطريق فلحقت به في بريشيا Brescia وصحبته إلى فيرونا Verona وهناك حمل له جواسيسه أخبارا مفادها أن جيشا نمساويا جديدا كان قد دخل إيطاليا بقيادة الكونت فون فيرمسر Von Wurmser كان قد طرد مؤخرا الفرنسيين من مانهيم Mannheim وقدر أن عدد أفراد هذا الجيش المعادي يفوق عدد قوات نابليون بنسبة 3 إلى 1.

وتحسبا لكارثة محتملة أعاد جوزفين إلى بيشيرا Peschiera ودبر أمر نقلها من هناك إلى فلورنسا. وفي هذه الأثناء أصدر أوامره للفصائل الفرنسية بضرورة أن تغادر إلى مانتوا Mantua لملك الحصار عنها، وأن تأتي من طرق ملنوية (غير مباشرة) لتنضم إلى قوات جيشه الرئيسية. ووصلت القوات الفرنسية في وقت ممكنها من المشاركة في معركة كاستيجليون (Castiglione 5 أغسطس 1797). ولم يكن فيرمسر Wurmser يتوقع هذا الهجوم الفرنسي المبكر، فقد كان يقود كتائبه صوب الجنوب في صفوف طويلة ليس لها عرض كثيف، فانقض نابليون على القوات النمساوية غير المستعدة وشتتها وأسر خمسة عشر ألف أسير، وتراجع فيرمسر Wurmser إلى روفيريتو Rovereto فتبعته القوات الفرنسية وألحقت به الهزيمة هناك، كما ألحقت به هزيمة أخرى في باسانو Bassano، وهرب القائد العجوز الحزين مع من تبقى من جيشه ليجد له ملجأ خلف أسوار مانتوا Mantua، فترك نابليون بعض فصائل قواته للتعامل معه هناك.

لكن - الآن - وصلت قوات نمساوية إضافية عددها 06.000 مقاتل بقيادة بارون ألفتري Alvinczy عبر جبال الألب لتحوض حربا مع 54.000 مقاتل فرنسي هم من بقي الآن مع نابليون. والتقى الجيشان في أركول Arcole، لكن هذه القوات النمساوية كانت على الجانب الآخر من نهر أدجي Adige ولم يكن يمكنها العبور إلا على جسر في ظل وابل من النيران. ومرة أخرى - كما حدث في لودي Lodi في الأدا the Adda كان نابليون من بين أول العابرين. وقد حكى نابليون بعد ذلك : " عندما كنت في معمة المعركة، ألقى مساعدي الكولونيل مويرو Muiron بنفسه ناحيتي وغطاني بجسده وتلقى عني قذيفة كانت موجهة لي، وغرق عند قدمي" (85). وفي معركة الأيام الثلاثة التي تلت ذلك (51-71 نوفمبر 1797) تراجع النمساويون - بعد قتال شرس - تراجعاً منظماً. وأعاد ألفنتسي Alvinczy ترتيب قواته في ريفولي Rivoli لكنه لاقى هناك هزيمة أخرى، فقاد ألفنتسي ما تبقى من قواته - بعد أن فقد 03.000 مقاتل، وعاد متراجعا إلى النمسا. أما فيرمسر Wurmser فبعد أن فقد الأمل في استرجاع شيء وبعد أن عانت قواته من الجوع بشكل يدعو للشفقة - استسلم في 2 فبراير سنة 1797، وبذلك يكون قد تم استيلاء الفرنسيين على لومبارديا. وبعد ذلك استدار نابليون - النهم - بقواته إلى الجنوب في اتجاه الولايات الباباوية، وطلب - بأدب - من البابا بيوس

السادس Pius VI أن يتنازل عن بولونيا Bologna وفرارا Ferrara ورافنا Ravenna وأنكونا Ancona والأراضي التابعة لهذه المدن جميعا. وبالفعل سلم البابا هذه المدن إلى نابليون على وفق معاهدة تولينتينو Tolentino (91 فبراير 1797)، ودفع البابا مبلغ خمسة عشر مليون فرنك "تعويضاً indemnity" عما لحق الجيش الفرنسي من خسائر. لقد أصبح نابليون الآن هو سيد الشمال الإيطالي كله فيما عدا بيدمونت Piedmont والبندقية (فينيسيا)، فأعاد تنظيم قواته وأضاف إليها بعض الكتائب كونها في إيطاليا بالإضافة إلى دفعة جديدة وصلته من فرنسا بقيادة الجنرال برنادوت Bernadotte فبلغ عدد أفراد القوات تحت إمرته 57.000 مقاتل قادهم عبر الألب في طرق ارتفع فيها الجليد ثلاثة أقدام، ليهاجم فينا نفسها، المركز الإمبراطوري للهجوم على الثورة الفرنسية.

وأرسل الامبراطور فرانسيس الثاني Francis II جيشا قوامه 04.000 مقاتل لمواجهة بقيادة الأرشيدوق كارل لودفيج Karl Ludwig الذي عاد لتوه ثملاً بما حققه من انتصارات على جبهة الراين Rhine لكنه عندما علم بأعداد القوات الفرنسية المتقدمة، وهالته شهرة نابليون المقرونة بالاحترام اتخذ استراتيجية تراجعية (خطأً للانسحاب)، فتعقبه نابليون حتى أصبح على مسافة ستين ميلاً من العاصمة النمساوية، وكان يمكنه حتى بلا جيش أن يستولي على المدينة فيحلو له عند ذلك أن يترنم مع هايدن العجوز Haydn وبيتهوفن الشاب. لكن لو أن ذلك حدث لتراجعت حكومة فينا إلى المجر وساعتها قد تطول مدة الحرب وتتسع رقعتها، وفي وسط الشتاء، وسيكون الجيش الفرنسي في وسط معادٍ عرضة في كل لحظة للهجوم على جناحيه. وفي لحظة نادرة من لحظات الاعتدال وبالقدر الذي استفاد منه كثيراً في سنواته اللاحقة - أرسل نابليون إلى الأرشيدوق دعوة للتفاوض لعقد هدنة، لكن الأرشيدوق رفض العرض، فألحق به نابليون هزائم منكرة في نو ماركت Neumarkt وفي أومستماركت Umzmarkt فوافق كارل على التباحث، وفي 81 ابريل في لوبن Leoben عقد القائدان الشابان معاهدة سلام مبدئية يتوقف إقرارها على موافقة حكومتيهما.

وكان الطريق إلى التصديق على المعاهدة مغلقاً يعترضه رفض النمسا التسليم من ناحية، وإصرار نابليون على الاحتفاظ بفتحاته في لمبارديا من ناحية أخرى. لكن حدثاً بدا قليل الشأن أعطى لنابليون فرصة - كفرصة لاجب القمار - ليتخلص من هذا المأزق. لقد كان نابليون قد احتل عدة مدن تابعة للبندقية (فينيسيا)، وقد سرى عصيان مسلح في بعض هذه المدن ضد الحاميات الفرنسية. ولأن مجلس الشيوخ (السينات Senate) في البندقية كان متورطاً في إثارة هذا العصيان، فقد عزله نابليون وأحل محله سلطات بلدية (جهاز إداري على نمط المجالس البلدية) تابعة للسيطرة الفرنسية وجردها (أي البندقية) من الأراضي التابعة لها في البر الإيطالي. وعندما حان الوقت لتحويل الاتفاق المبدئي في لوبن Leoben ليصبح معاهدة كامبوفورميو (71Campoformio أكتوبر 1797) عرض نابليون على النمسا أن تكون حرة في ضم البندقية إلى إمبراطوريتها مقابل تنازلها عن لمبارديا وبلجيكا واعترافها بالحقوق الفرنسية على الشاطئ الأيسر لنهر الراين Rhine. لقد اعترى أوروبا كلها تقريباً رعب شديد بسبب دبلوماسية التبرع بأراضي الآخرين هذه (إعطاء من لا يملك لمن لا يستحق)، ونسبت آلاف المعاهدات. وعلى أية حال فإن مكيفيللي الجديد أصر على الاحتفاظ لفرنسا بالجزر التابعة للبندقية في البحر الأدرياتي وهي كورفو Corfu ووظانطه Zante وسيفالونيا Cephalonia. فقد كتب نابليون إلى حكومة الإدارة في 61 أغسطس 1797 "إن هذه الجزر بالنسبة لنا أكثر فائدة لنا من إيطاليا كلها مجتمعة. إنها حيوية لإنعاش تجارتنا وازدهارها وإذا كان علينا أن ندمر إنجلترا بفاعلية فلا بد لنا من الاستيلاء على مصر. فالإمبراطورية العثمانية تنوي يوماً بعد يوم، وهذا يرغمنا على استباق الأحداث وأن نتخذ خطوات مبكرة للحفاظ على تجارتنا في الشرق (95) Levant". لم يكن لدى الشيوخ إلا القليل ليعلموه لهذا الشاب ابن الثامنة والعشرين (نابليون). وأعاد نابليون تنظيم المناطق التي فتحها فحول لنفسه صلاحيات سياسية واضحة، فجعل من ميلان مركزاً للجمهورية سيزالينية Cisalpine وجعل من جنوا مركزاً للجمهورية ليجورية، يحكم كل منهما حكومة ديمقراطية محلية تحت الحماية الفرنسية وأيضاً تحت السيادة الفرنسية. والآن وقد انتقم من الفتح القيصري الروماني لبلاد الغال، عاد العريف الصغير Little Corporal (عبارة تدليل أطلقها عليه جنوده) مكللاً بغار المجد محملاً بالأسلاب - إلى باريس لاعتماد معاهداته التي أبرمها من حكومة إدارة انتقالية كان هو - بانتصاراته - قد ساعد أعضائها على البقاء في مناصبهم.

صفحة رقم : 14558

قصة الحضارة - عصر نابليون - الثورة الفرنسية - حكومة الإدارة - الحكومة الجديدة

1- الحكومة الجديدة

كونت هذه الحكومة من خمسة أجهزة (هيئات) أولها مجلس الخمسمائة Les Cinq Cents وخول لها اقتراح الإجراءات ومناقشتها لكنها غير مخولة بتحويلها إلى قوانين. وثانيها مجلس الشيوخ Ancients وهو مكون من 052 عضوا لا بد أن يكون الواحد منهم متزوجا وفي الأربعين من عمره على الأقل وهم ليسوا مخولين بوضع التشريعات أو اقتراحها وإنما الاعتراض عليها أو إقرارها (التصديق عليها) وتأنيهم (الاقتراحات resolution) من المجلس (الجهاز) السابق (مجلس الخمسمائة). ويكون هذان المجلسان أنفا الذكر (الهيئة التشريعية Corps Legislatif) وبعبر ثلثا أعضاءها سنويا على وفق تصويت هيئات المنتخبين (بكرس الخاء) الأنف ذكرها. ويمثل مجلس الإدارة أو حكومة المديرين Directoire السلطة التنفيذية في الحكومة ويتكون من خمسة أعضاء لا يقل عمر الواحد منهم عن أربعين عاما ويتم اختيارهم لمدة خمس سنوات ويقوم على اختيارهم مجلس الشيوخ Ancients من بين خمسين اسماً يقدمهم إليه مجلس الخمسمائة. وفي كل عام يتم اختيار عضو جديد ليحل محل واحد من الأعضاء الخمسة. وتقوم هيئات المنتخبين (بكرس الخاء) في الدوائر (المحافظات) باختيار السلطات القضائية ومسئولي الخزنة وهما سلطتان مستقلتان عن الهيئات (المجالس) الثلاث الأنف ذكرها "مجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ وحكومة (مجلس) الإدارة". إنها حكومة مراجعات وموازنات صمم نظامها لحماية البورجوازية المنتصرة من العوام غير المنضبطين.

واتخذ مجلس الإدارة (حكومة الإدارة أو الخمسة) مقراً له قصر لوكسمبورج Luxembourg وسرعان ما أصبح فرعاً دائماً للحكومة سيطر على الجيش والأسطول ورسم السياسة الخارجية وأشرف على وزراء الداخلية والخارجية والبحرية والمستعمرات والحرب والمالية. وأصبح مجلس الإدارة (حكومة الإدارة) تقريباً مستقلاً عن الهيئات الأخرى كما كان الحال بالنسبة للجنة الأمن العام، وذلك بفعل الجاذبية الطبيعية التي تنساب بها السلطة إلى القيادة أو بتعبير آخر بفعل الميل للمركزية.

وكان أول مجلس إدارة تم اختياره مكوناً من الخمسة الآتية أسماؤهم: بول بارا Paul Barras ولويس ماري دي لاريفيلليير ليو Louis Mari de Larevellier Lépaux وجان فرانسوا ريبيل Jean Francois Lewbell وشارل ليتورنييه Charles Letourneur ولازار كارنو Lazare Carnot. وكانوا جميعاً ممن اشتركوا في قتل الملك (بمعنى وافقوا عليه وعلمو له) وكان أربعة منهم يعاقبة وواحد منهم وهو بارا Barras فيكونت (الفيكونت دون الكونت وفوق البارون)، وهم الآن قد كيفوا أنفسهم مع الحكم البورجوازي. وكان جميعهم رجالاً ذوي كفاءة لكنهم باستثناء كارنو Carnot لم يكونوا معروفين بالاستقامة الشديدة (لم يكونوا فوق الشبهات). وإذا كان الاستمرار في الساحة السياسية أو البقاء فيها مقياساً للجدارة فإن بارا Barras هو أكثرهم مهارة وقدرة، فقد خدم لويس السادس عشر ثم روبيسبير وساعد كليهما حتى آخر دقيقة في حياة كل منهما وناور من أجل سلامته بنجاح فاجتاز الأزمة إثر الأزمة من خلال علاقته بالنساء، فقد اتخذ خليفة إثر خليفة، وجمع الثروة وحقق النفوذ في كل فترة وأعطى نابليون

جيشاً وزوجه وقد عاش بعدهما وعمر حتى مات بهدوء في باريس في وقت عادت فيه لحكم البوربون Bourbonized وقد بلغ من العمر أربعاً وسبعين سنة (1928) (1). لقد عاش تسع حيوات بأعها جميعاً. والصعوبات التي واجهتها حكومة الإدارة في سنة 5971 ربما كانت بسبب تعدد المشاكل وكثرتها وتنوعها، مما يعطي حكومة الإدارة عذراً في بعض الأمور التي عجزت عن حلها. فجماهير باريس كانت تواجه دائماً المجاعة، والحصار البريطاني قوى من حدة الصراع الاقتصادي لإعاقة حركة نقل الطعام والبضائع وخفض التضخم من قيمة العملة فقد أصبح مطلوباً دفع خمسة آلاف من الأسينات assignates في سنة 5971 لشراء ما كان ثمنه مائة من الأسينات في سنة 0971 وكانت الخزنة تدفع فائدة (أرباحاً) على سنداتنا بالأسينات على وفق قيمتها الاسمية Face value، مما أدى إلى انضمام أصحاب الدخول الذين كانوا يستثمرون أموالهم في "سندات الحكومة وأسهمها Securities" إلى الفقراء الثائرين (2). واشترى آلاف الفرنسيين بضائع و مواد غذائية بكميات كبيرة، وبسباق محموم، ليستفيدوا من التضخم بالغش والخداع، فعندما ترتفع الأسعار وتبلغ ذروتها يطرح المضاربون بضائعهم في السوق، وجرى سباق محموم لبيع مخزونات البضائع الرخيصة (التي انهارت أسعارها)، ووجد الأبرياء (غير المضاربين) أن مدخراتهم قد حصدتها قلة نشيطة. لقد واجهت الخزنة الإفلاس مراراً وأعلنته في سنة 5971 مما أفقدها الثقة العامة، وأدى القرض الذي أخذته الحكومة من الأثرياء إلى قيام التجار برفع الأسعار وإلى دمار تجارة الكماليات، وارتفعت نسبة البطالة، واستمرت الحرب ومعها استمر التضخم.

ووسط هذا الفقر وهذا التشوش استمر الحلم الشيوعي الذي كان قد داعب خيال مابلي Mably في سنة 8471 ومورلي Morelly في سنة 5571 ولنح Linguet في سنة 7771، استمر في قلوب الفقراء الليائسين، ووجد هذا الحلم الشيوعي من يعبر عنه في جاك رو Jacques Roux في سنة 3971، وفي 11 أبريل وجدت أحياء الطبقة العاملة في باريس ملصقات تقدم "تحليلاً لعقيدة بابيف Babeuf" نقرأ بعض موادها كالتالي:

- 1- لقد جعلت الطبيعة لكل الناس حقوقاً متساوية في الاستمتاع بالسلع كلها.....
- 3- فرضت الطبيعة على الإنسان العمل، فلا يمكن منع أي إنسان (لم يرتكب جريمة) عن العمل.
- 7- في المجتمع الحر لا يجب أن يكون هناك غني وفقير.
- 8- الثري الذي لا يساهم بما لديه من فائض لمساعدة الفقراء هو عدو للشعب.....
- 01- هدف الثورة هو القضاء على التفاوت (عدم المساواة) وتحقيق السعادة العامة.
- 11- الثورة لم تنته لأن الأثرياء يمتصون السلع كلها من كل نوع ويسيطرون وهدمهم [على السوق] لا يشاركونهم أحد، بينما العمال الفقراء كعبيد حقيقيين.. ولا تعتبرهم الدولة شيئاً مذكوراً.
- 21- دستور 3971 هو قانون فرنسا الحقيقي... وقد أطلق المؤتمر الوطني النار على الشعب الذي طالب بالإبقاء على هذا الدستور وأيدوه.. فدستور 3971 أقر الحق الثابت لكل مواطن لممارسة حقوقه السياسية وحقه في الاجتماع والمطالبة بما يعتقد أنه مفيد، وحقه في تعليم نفسه وحقه في ألا يموت من الجوع، وهي جميعاً حقوق عارضها بشكل كامل وبصراحة دستور 5971 الذي يمثل الثورة المضادة أو بتعبير آخر المناهض للثورة

(Counterrevolutionary 3).

وقد ولد صاحب هذا المنشور وهو فرنسوا إميل ببببف "Gracchus" Bebeuf "Franscois Emile" في سنة 0671 وذكر التاريخ اسمه للمرة الأولى في سنة 5871 كمنسوب عينه ملاك الأراضي لدعم حقوقهم الإقطاعية على الفلاحين. وفي سنة 9871 غير اتجاهاته فوزع نشرة Cahier يطالب بإلغاء العوائد الإقطاعية. وفي سنة 4971 استقر في باريس فدافع عن الثيرميدوريين (نسبة لشهر ثيرميدور أي شهر الدفء في التقويم الجمهوري) ثم ما لبث أن هاجمهم، فقبض عليه وظهر في سنة 5971 كشيوعي منحوس، ونظم بسرعة "رابطة المساواة" أو رابطة الأنداد "Société des Egaux" وقد أتبع تحليله "الذي أوردنا فقرات منه أنفا بإعلان جعل عنواناً له: "قرار العصيان المسلح" موقع باسم لجنة العصيان المسلح للأمن العام. ومن مواد القليله:

"01- المجلس (المقصود مجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ) وحكومة الإدارة اغتصبا السلطة، وسوف يتم حلها، وسيحاكم الشعب أعضاها فوراً.

81- وضع الممتلكات العامة والخاصة تحت رعاية الشعب.

91- سيكون من مهام الجمعية الوطنية National assembly المكونة من ديمقراطي عن كل دائرة (محافظة) معين من قبل المتمرددين (الخارجين عن السياسة والتنظيمات الحالية) والتي تحمل اسم لجنة العصيان المسلح واجب إنهاء الثورة وفرض الحرية والمساواة ودستور 3971 على الجمهورية. وسيكون هذا الحق قصراً عليها (على لجنة العصيان المسلح).

وستبقى هذه اللجنة بشكل دائم حتى يتم إنجاز العصيان المسلح بشكل شامل (4).

لقد كانت هذه الدعوة المشنومة كدعوة لدكتاتورية جديدة. إنها مجرد تغيير روبيسيير بروبيسيير آخر، وبالغ بيبيف Bebeuf في حلمة هذا، فكتب في صحيفته التي تحمل عنوان "منصة (أو منبر) الشعب Tribune du peuple". "لا بد أن يكون ما يملكه الفرد متناسبا مع دوره في [إنتاج] سلع المجتمع، وأي ممتلكات تزيد عن هذا الدور، تم تحصيلها بالسرقة والاعتصاب، فمن العدالة إذن سلبهم هذه الممتلكات (أو الثروات). والشخص الذي يبرهن أنه يستطيع بقوته (بطاقته) الشخصية أن يكسب أو يعمل ما يكسبه أو يعمله أربعة أشخاص إنما هو برغم ذلك يتأمر على المجتمع لأنه يدمر مبدأ المساواة الغالي... لا بد للتمرد الاجتماعي المسلح أن يستمر حتى يزيج أي شخص لديه أمل أن يكون أغنى من الآخرين أو أقوى منهم أو أكثر تميزا منهم بحكم تنوره ومواهبه. إن الخلاف والتنافر أفضل من الوئام البشع الذي يموت المرء في ظلاله جوعا. دعونا نعود إلى الفوضى والاضطراب، ومن خلاله دعوا خلقاً جديدا يظهر للوجود" (5).

وأخبر أحد العملاء المحرضين agent Provocateur حكومة الإدارة أن أعدادا متزايدة من أهل باريس يقرأون ملصقات بابيف Babeuf وصحفه وأنه يجري الإعداد لثورة مسلحة في 11 مايو 6971 وفي 01 مايو صدر أمر بالقبض على بابيف والزمرة ذات الموقع القيادي المرتبطة به: فيلبو بوناروتي Filippo Buonarroti و أ. دارثي A. Darthe و م. ج. فادييه M. G. Vadier و ج. ب. درو J. - B. Drouet. وتمت محاكمتهم في فيندوم Vendome في 72 مايو سنة 7971 بعد سجن دام عاما فشلت فيه مساعي إطلاق سراحهم. وصدر الحكم بسجن بوناروتي وهرب درو Drouet أما بابيف ودارثي Darthe فحكّم عليهما بالإعدام فحاولا الانتحار لكن الجلادين أسرعوا بهما إلى المقصلة قبل أن تقيض روحاهما. وبطبيعة الحال كانت خطتهما غير عملية تبسط طبيعة الإنسان تبسيطا شديدا لدرجة أنه حتى بروتياريا باريس لم يأخذوا أفكاره على محمل الجد، بالإضافة إلى أن فرنسا بأغنيائها وفقرائها وجدوا في سنة 7971 بطلا جديدا. إنه أكثر الحالمين سحرا وأكثر المنفذين مدعاة للإبهار في التاريخ السياسي للبشرية.

صفحة رقم : 14559

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> حكومة الإدارة -> نابليون الشاب

2- نابليون الشاب

9671 - 5971

قال اللورد أكتون Acton : "لا يمكن أن تكون هناك تدريبات عقلية يمكن أن تكون أكثر فعالية ونشاطا من ملاحظة كيف يعمل عقل نابليون المعروف تماما بأنه أقدر رجل في تاريخ البشرية" (6) لكن من الآن يمكن أن يشعر أنه عرف بصدق وبشكل كامل رجلا قدمه لنا مئات المؤرخين المثقفين كبطل ناضل لتوحيد أوروبا وسيادة القانون بها، ومئات المؤرخين المثقفين قدموه أيضا كغول Ogre استنزف دماء فرنسا وخرّب أوروبا ونهبها ليشبع نهمه للسلطة والحرب؟ من منا يستطيع الزعم بالإحاطة بكل أبعاد نابليون في ظل هذا السؤال الأتف ذكره رغم أن 002.000 كتاب ونشرة قد

صدرت عنه "الثورة الفرنسية" كما يقول نيتشه Nietzsche " جعلت نابليون ممكنا بمعنى أنها جعلت من الممكن ظهور نابليون فهو تسويغ أو تبرير لها" (7) وقد استغرق نابليون في التأمل وهو واقف أمام قبر روسو Rousseau وتمتم قائلا: "ربما كانت الأمور على نحو أفضل لو لم يولد كلانا أبداً" (8).

ولد نابليون في أجاسيو Ajaccio في 51 أغسطس سنة 1769، قبل أن تتبع جنوا Genoa كورسيكا لفرنسا بخمسة عشر شهرا، وقبل أن تؤكد فرنسا تبعيتها (كورسيكا) لها بإخماد ثورة باولي Paoli. ولمثل هذه الأمور التافهة يلتفت التاريخ. ولقد كتب نابليون بعد بعشرين عاما لباولي قائلا: "لقد ولدت عندما كان وطني يموت. ثلاثون ألف فرنسي يتقيأون disgorged على شواطئنا، يغرقون تاج الحرية في بحر من الدم. لقد كان هذا منظرًا كريها أزعج عيني في مرحلة الطفولة" (9).

وذكر ليفي Livy أن "كورسيكا جزيرة وعرة جبلية معظمها غير مأهول بالسكان. وأهلها يشبهون طبيعة بلادهم فهم متردون كالوحوش لا يحكمون" (10) لكن احتكاكها بإيطاليا قد هذب نوعا ما من هذه الوحشية، ولكن جذب الأرض والحياة القاسية، البدائية غالبا والعداوات الأسرية الشديدة والدفاع الضاري ضد الغزاة، كل ذلك جعل أهل كورسيكا على أيام باولي Paoli صالحين لحرب العصابات أكثر من صلاحيتهم للتنزلات التي يتحتم على ذوي الطباع العنيفة أن يقوموا بها للخضوع للنظام وهو أمر مطلوب لتشكيل الحضارة. لقد كانت الحياة المدنية تتطور في عاصمة

كورسيكا، لكن خلال معظم الفترة التي كانت فيها لينييزيا رامولينو بونابرت Letizia Ramolino Buonaparte (أم نابليون) تحمل بونابرت، كانت تتبع زوجها من معسكر إلى معسكر مع باولي Paoli، وعاشت في خيام أو أكواخ في الجبال وتنفست هواء المعركة. ويبدو أن طفلها (نابليون) يتذكر كل ذلك ويسري فيه مسرى الدم فلم يكن لديه بعد ذلك مقدار من السعادة كتلك التي يحس بها وهو يخوض غمار الحروب. لقد ظل إلى النهاية كورسيكيا. وفي كل شيء كان إيطاليا فيما عدا الفترة الزمنية والتعليم -، إيطاليا سلمه عصر النهضة لكورسيكا، فعندما استولى على إيطاليا وضمها لفرنسا استقبله الفرنسيون بترحيب باعتباره إيطاليا غزا فرنسا.

وكان أبوه كارلو بونابرت Carlo Buonaparte يمكنه أن يرجع سلالة نسبه إلى أفراد كان لهم وجود في التاريخ الإيطالي: من سلالة نشيطة كانت تعيش في غالبا في تسكانيا Tuscany ثم انتقلت إلى جنوا Genoa ثم هاجرت في القرن السادس عشر إلى كورسيكا، واحتفظت الأسرة بسلالة نسب نبيلة اعترفت بها الحكومة الفرنسية، وعلى أية حال، فعندما أصبحت النبالة في عهد الثورة الفرنسية تمثل خطوة نحو المفصلة طرح نابليون ذكر هذا النسب (غير وضع زهر النرد the de) وكان كارلو (والد نابليون) ذا موهبة في القدرة على التكيف، فقد حارب في جانب باولي Paoli من أجل تحرير كورسيكا فلما فشلت المحاولة سالم الفرنسيين وعمل في الإدارة الفرنسية الكورسيكية وأمن دخول اثنين من أبنائه في الأكاديميات الفرنسية وكان من بين النواب الذين أرسلهم نواب كورسيكا إلى مجلس طبقات الأمة (الذي دعا إليه الملك لويس السادس عشر) وقد أخذ نابليون عن أبيه عينيه الرماديتين وربما أخذ عنه أيضا سرطان المعدة المميت" (11).

وقد أخذ عن أمه ما هو أكثر "إنني مدين بنجاحاتي وبكل عمل طيب قمت به لأمي ومبادئها الممتازة. إنني لا أترد في التأكيد على أن مستقبل الطفل يعتمد على أمه" (21).

وقد كان نابليون يشبه أمه في طاقتها ونشاطها وشجاعتها وثباتها الشديد (المجنون mad) وحتى في إخلاصها لآل بونابرت كثري الذرية. ولدت أم نابليون لينييزيا رامولينو سنة 1711 وتزوجت وهي في الرابعة عشرة من عمرها وأصبحت أرملة وهي في الخامسة والثلاثين وأنجبت ثلاثة عشر مولودا في الفترة من 1761 إلى 1781 وشهدت موت خمسة من أولادها وهم في سن الطفولة ورفعت الباقيين بعزم صارم وسعدت بنجاحهم وعانت بسقوطهم.

وكان نابليون هو ابنها الرابع، والثاني بالنسبة لمن بقوا على قيد الحياة من أبنائها. أما الابن الأكبر فهو جوزيف بونابرت (1761 - 1781) فكان لطيف المعشر مغرقا في الشهوات (أبيقوريا) ونصب ملكا على نابلي ثم على إسبانيا، وكان يأمل أن يكون هو الإمبراطور الثاني لفرنسا، وبعد نابليون في ترتيب أفراد أسرته يأتي لوسيا Lucien (1757 - 1781) الذي ساعده في القبض على زمام الحكومة الفرنسية في سنة 1791، وأصبح عدوه اللدود، لكنه وقف بجانبه في المائة يوم Hundred days المتسمة بالعبث البطولي heroic futlity، ثم تأتي ماريا أنا إليزا

Maria Anna Elisa التي أصبحت دوقة لتوسكانيا وكانت معتزة بنفسها ومقتدرة وعارضت أخاها في سنة 1781 وسبقته إلى الموت، ثم يأتي من أفراد أسرته لويس (1771 - 1781) الذي تزوج الرقيقة هورتييز دي بوهارنيه Hortense de Beauharnais فقد أصبح ملكا على هولندا وقد أنجب نابليون الثالث. وأخته الأخرى هي بولين (1781 - 1781) Pauline الجميلة الخليعة التي تزوجت الأمير كاميلو بورجيز Camillo Porghese وقد حكى نابليون قائلا: "إنني وبولين كنا الأثريين عند أمي هي لأنها كانت لطف أخواتي وأظرفهن، وأنا لأن إحساسها الفطري جعلها تعتقد أنني ساكون مؤسس عظمة الأسرة" (31). أما أختها ماريا كارولينا (1781 - 1781) Maria Carolina جعلها تعتقد أنني ساكون مؤسس عظمة الأسرة" (31).

فتروجت، جوشيم مورا Joachim Murat وأصبحت أميرة نابلي، وأخيراً (Jérôme 4871- 0681) الذي أسس الأسرة اليونانبارتية في بلتيمور Baltimore وأصبح ملكاً لوستفاليا Westphalia . وفي سنة 1771 حصل كارلو (والد نابليون) من الحكومة الفرنسية على امتياز إرسال ابنه نابليون إلى الأكاديمية (المدرسة) العسكرية في بريين Brienne التي تبعد نحو تسعين ميلاً جنوب شرق باريس. وكان هذا حدثاً أساسياً في حياة الفتى، لأنه ربط مصيره بالمجال العسكري، كما جعله حتى نهاية حياته تقريباً يفكر في الحياة والقضاء والقدر بمفاهيم الحرب ومصطلحاتها. لقد أصبحت بريين بالنسبة لابن العاشرة محنة أثرت في تكوينه فقد ابتعد عن داره بعيداً وعاش في بيئة غريبة وصارمة. ولم يستطع الطلبة الآخرون أن يغفروا له كبريائه وحدة مزاجه اللذين يبدوان غير متجانسين مع نبالته الغامضة (غير الواضحة بالنسبة لهم). وقد عبر نابليون عن ذلك قائلاً: "لقد عانيت كثيراً جداً من سخريه زملاء الدراسة الذين كانوا يعتبرونني غريباً". وانسحب الفتى الذي لم يتألف مع أقرانه وتوقع على نفسه واستغرق في الدراسة والكتب والأحلام. وكان ميله للعزلة عميقاً، فقد كان قليل الكلام لا يتق في أحد وجعل نفسه بعيداً عن عالم بدأ قد صمم لتعذيبه. ومع هذا فقد كان هناك استثناء واحد ذلك أنه صادق لويس أنطوان فيفيليت دي بورين Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne الذي ولد أيضاً في سنة 1761 وقد تحمس كل منهما للآخر ودافع عنه، وحارب كل منهما الآخر وبعد انفصال طال بينهما أصبح سكرتيراً له في 1791 وظل قريباً منه حتى سنة 1801.

ومكنت العزلة هذا الشاب الكورسيكي من التفوق في دراسته التي أشبعت عطشه للسمو والتفوق. لقد نفر من دراسة اللاتينية ومن كل الدراسات الميتة فلم يكن ثمة فائدة له من دراسة فضائل فيرجيل virgilian graces ومحكماته الصامتة. وتلقى دراسات قليلة في الأدب أو الفن لأن المعلمين (في هذه المدرسة الحربية) غير ملمين كثيراً بهذه الأمور. لكنه كان شغوفاً منذ البداية بالرياضيات فيها وجد ما يصبو إليه من دقة ووضوح بعيداً عن الأحكام المسبقة والجدال بالإضافة إلى ضرورتها الدائمة لمهندس عسكري. وفي هذا المجال تفوق نابليون على كل طلبة فصله، كما أنه كان يستيق الجغرافيا فهذه الأراضي المختلفة لا بد من دراستها، ودراسة الشعوب التي تعيش عليها، وفي الأرض الطعام وهو لازم للأحلام وكان التاريخ فيما يرى (وهو كذلك رأي كارليل) هو عبادة الأبطال خاصة الذين يقودون الأمم ويشكلون الإمبراطوريات وأحب بلوتارك Plutarch حتى أكثر من حبه لإقليدس Euclid. لقد تنفس التعاطف مع هؤلاء الوطنيين القدماء وشرب من دم هذه المعارك التاريخية، فقد قال له باولي Paoli ذات يوم "ليس من شيء جديد فيك فأنت تنتمي إلى بلوتارك تماماً" (41). ولا بد أنه كان يفهم هاين Heine الذي قال إنه عندما قرأ بلوتارك تطلع إلى ركوب حصان والانطلاق لفتح باريس. وقد حقق نابليون هذا الهدف من خلال غزوه لإيطاليا ومصر، لكن نقطة قوته (مجال تميزه) كانت تبدو واضحة في هجماته الجانبية (هجماته على جناحي الجيش المعادي).

وبعد أن قضى خمس سنوات في بريين Brienne وقد أصبحت سنة الآن خمس عشرة سنة، أصبح من بين الطلبة الذين تم اختيارهم من اثنتي عشرة مدرسة عسكرية في فرنسا ليحضروا برامج دراسية متقدمة في مدرسة باريس العسكرية (ليكول ميليتير Ecole Militaire). وفي أكتوبر سنة 1781 تم تعيينه قائماً مقاماً ثانياً (ليفيتانانت ثاني Second Lieutenant) للمدفعية في فوج لا فير La Fere Regiment المتمركز في فالنس Valence على الرون Rhone. وكان إجمالي راتبه هناك 1021 جنيه (ليفر) في السنة (51). ومن هذا المبلغ كان فيما يظهر يرسل جانباً لمساعدة أمه في تربية أخيه الأصغر، ولأن أباه قد مات في فبراير ولم يكن جوزيف (الابن الأكبر) يملك بعد موارد للمعيشة فقد أصبح نابليون هو رأس الأسرة the clan الفعال. وفي أثناء إجازته كان يقوم بعدة زيارات إلى كورسيكا وحيداً حتى يشم ترابها "حبا في جروفها وجبالها العاليات ووديانها العميقة" (61) وذلك على حد تعبيره.

وفي فالنس Valence (وكذلك في أوكسن Auxonne سنة 1781) كسب احترام زملائه الضباط بتقدمه السريع في الفنون العسكرية وبسرعة استيعابه وما لديه من خصوبة فكرية تتمثل في اقتراحاته العملية واستعداده للمشاركة في الأعمال التي تتطلب جهداً بدنياً للتحكم في المدافع. وقد درس بعناية كتاباً في التكتيك الحربي هو Essai de tactique générale (1771) بالإضافة إلى كتابات عسكرية أخرى ألفها جاك أنطوان هيبوليت دي جوبير Jacques Antoine Hippolyte de Guibert الرجل الذي أهملته عشيقته جولي دي ليسبيناس Julie de Lespinasse ولم يعد نابليون منبؤداً الآن فقد كون صداقات وارتاد المسارح وسمع الكونشرتات وتلقى دروساً في الرقص واكتشف مباحج النساء. وفي إجازة له قضاها في باريس (22 يناير سنة 1781) راح يحدث نفسه مجهداً عن مغامرة جنسية مع إحدى البغايا. لقد أكد لنا ذلك قائلاً: "هذه الليلة باشرت امرأة للمرة الأولى في حياتي" (71) ومع ذلك ظل بعض الاكتئاب يروده، فكان أحياناً عندما يكون في غرفته البسيطة منفرداً يتساءل بمنطق صرف لم ينبغي أن تستمر حياته؟ "ليس من المحتم أن أموت في وقت ما؟، فربما كان من الأفضل أن أقتل نفسي" (81). لكنه لم يكن يستطيع أن يفكر في طريقة يتم فيها ذلك بسرور لقد وجد لنفسه وقتاً متاحاً في ساعات الفراغ ليوسع مجال تعليمه الذاتي بدراسة الأدب والتاريخ، وقد ظننته مدام دي ريموزا Mme de Rémusat آخر وصيفة لجوزفين أنه "جاهل

لا يقرأ إلا قليلا، ومتسرع" (91). والحقيقة أننا وجدنا أنه حتى في فالنس وأوكسون Valence & Auxonne كان يقرأ الأعمال الدرامية التي ألفها كورنيل Corneille وموليير Moliere وراسين Racine وفولتير (02) Voltaire ، وكان يتلو من الذاكرة فقرات مما قرأ. وأعاد قراءة ترجمة أميوت Amyot لبلوتارك ودرس كتاب الأمير لميكيلا فيلي، وروح القوانين Esprit des lois لمنتسكيو وكتاب رينال Raynal وعنوانه: Histoire Philosophique des deux Indes وكتاب ماريني Marigny عن تاريخ العرب Histoire des arabes وكتاب هوسي عن تاريخ حكومة البندقية Histoire du gouvernement de venise وكتاب بارو Barrow الموسوم باسم: Histoire des Angletterre وغيرها كثير. وكان يكتب مذكرات أو تعليقات في أثناء القراءة ويقوم بتلخيص الكتب المهمة ولا زالت توجد 863 صفحة من مذكراته وتعليقاته هذه منذ أيام شبابه (12). وكانت شخصيته متأثرة بالنهضة الإيطالية كما كانت عقليته متأثرة بالتأثير الفرنسي. ولكن شعاعا من الرومانسية تغلغل فيه استجابته لنثر روسو Rousseau العاطفي والقصائد المنسوبة إلى أوسيا Ossian " التي كان يستطبخها "للسبب نفسه الذي جعلني ابتهج لتلاطم الموج وهفيف الريح" (22).

وعندما قامت الثورة الفرنسية رحب بها وقضى إجازة أخرى في سنة 0971 يعمل بتواؤم كامل مع حكم الثورة. وفي سنة 1971 قدم نابليون لأكاديمية ليون مقالا دخل بها مسابقة لنيل جائزة قدمها رانيال Raynal حول "ما هي الفضائل أو المشاعر التي يجب أن يتحلى بها الشخص ليحقق مزيدا من السعادة؟ وربما كان مقال نابليون بهذا الشأن متأثرا بما كتبه روسو (Rousseau's Julie , ou la Nouvelle Héloïse) (32). يقول نابليون إجابة عن هذا السؤال: علمهم أن أفضل حياة هي أسطها. ليلفح الآباء والأبناء التربة وينعموا بثمارها بعيدا عن ضوضاء المدينة وفسادها. فكل ما يحتاجه الإنسان ليكون سعيدا هو الطعام واللباس وكوخ وزوجة. دعه يعمل ويأكل وينجب وينام وسيكون أسعد من أمير. فحياة أهل أسبرطة وفلسفتهم هما الفضليان "والفضيلة شجاعة وقوة... والطاقة حياة الروح... والرجل القوي صالح والرجل الضعيف هو وحده السوء" (42). هنا كان الشاب نابليون صدى لبترا سيماكوس (52) Thrasymachus ومقدمة لنيثشه الذي رد المديح بأن جعل نابليون بطلا للإرادة والقوة (62). ومن بين آرائه التي ساق لها الأدلة إدانته للملكية والامتيازات الطبقيّة وقاهاة الإكليروس. وقد رفضت أكاديمية ليون مقالة نابليون تلك باعتبارها فجة.

وفي سبتمبر سنة 1971 زار نابليون مرة أخرى بلده الأصلي [كورسيكا] وابتهج بقرار الجمعية التأسيسية الفرنسية بجعل كورسيكا دائرة (محافظة) تابعة لفرنسا، وحدث شعبيها عن مزايا المواطنة الفرنسية كلها. لقد سحب رغبته في الانتقال من الأمة التي جعلته فرنسيا رغم أنه شعر أن الثورة كانت تخلق وطنيا فرنسيا جديدا المعيا، وفي حوار متخيل بعنوان (Le Souper de Beaucaire) نشره على نفقته الخاصة في خريف سنة 3971 دافع عن الثورة باعتبارها "تضالا حتى الموت بين الوطنيين والحكام المستبدين في أوربا" (72). وحث المعارضين كلهم لينضموا للنضال من أجل حقوق الإنسان وعلى أية حال فقد شعر بطله القديم (مثله الأعلى القديم) باولي Paoli أن انضمام كورسيكا للأمة الفرنسية لن يكون مقبولا منه إلا إذا حولته الثورة سيادة كاملة على الجزيرة، وتقديم دعم مالي له وإلا تم طرد القوات الفرنسية من كورسيكا وكان من رأي نابليون أن هذا اقتراح منطرف واختلف مع مثله الأعلى السابق (باولي Paoli) وعارض طلباته في انتخابات المجلس البلدي في أجاكسيو Ajaccio في أول ابريل سنة 2971، وفاز باولي وعاد نابليون إلى فرنسا.

وشاهد في باريس في 02 يونيو اجتياح الجماهير لقصر التوليري وعجب لأن الملك لم يفرق هؤلاء "الوحوش" بوابل من طلقات حرسه السويسري. وفي 01 أغسطس رأى العوام (السانس كولوت) والاتحاديين Federes يسوقون الأسرة الملكية من القصر، فوصف المتجمهرين بأنهم "حنثالة" .. إنهم لا ينتمون للطبقة العاملة أبدا" (82). واستمر في دعم الثورة مع اتخاذ الحذر والاحتياط بشكل متزايد، وأصبح الآن ضابطا في جيشها. وفي ديسمبر سنة 3971 كما ذكرنا في مناسبة سابقة وجد نفسه في عملية الاستيلاء على طولون ونتيجة للتوصيات التي أرسلت إلى روبيسير بشأنه تم تعيينه عميدا (بريجاديير جنرال) brigadier general وهو في الرابعة والعشرين من عمره. لكن هذا أدى إلى القبض عليه بعد سقوط روبيسير، فسجن في أنتيب Antibes ووضع اسمه في قائمة المحالين للمحاكمة وكان من الممكن أن يعدم إلا أنه تم إطلاق سراحه بعد أسبوعين، وأعيد لخدمة في مواقع غير فعالة براتب مخفض. وفي ربيع سنة 5971 (كما أخبرنا) كان يتجول على طول نهر السين تراوده فكرة الانتحار عندما التقى به صديق وجعل الحياة تسري في عروقه إذ منحه ثلاثين ألف فرنك (92) وأعاد نابليون المبلغ في وقت لاحق مضاعفا. وفي شهر يونيو وصفه بويسي دنجلا Boissy d'Anglas بأنه "إيطالي صغير شاحب ونحيل وسقيم لكن وجهات نظره جريئة بشكل لا نظير له" (03). وقد فكر في وقت من الأوقات في الذهاب إلى تركيا لإعادة تنظيم جيش السلطان (العثماني) وليخلص لنفسه بمملكة شرقية على نحو ما. وعندما كان في حالة مزاجية أكثر انتحاء نحو ما هو عملي قدم لوزارة الحرب خطة معركة لطرد النمساويين من إيطاليا.

وفي واحدة من نزوات التاريخ حيث تفتح الأبواب التي لا مناص من فتحها تم تعيين بارا Barras لتنظيم الدفاع عن المؤتمر الوطني عندما حاصره الملكيون وغيرهم في 5 أكتوبر سنة 1793، فقرر بارا أن تطلق المدافع قد تحقق الغرض لكن لم تكن هذه المدافع تحت يده، وكان قد تذكر ما فعله نابليون في طولون فأرسل إليه وأوكل له مهمة تدبير المدافع وإطلاقها، فأدى المهمة وأصبح نابليون فجأة مشهوراً وسيء السمعة. وعندما احتاجت وزارة الحرب قائداً جسوراً مجرباً لقيادة الجيش الفرنسي المتوجه إلى إيطاليا زكى كارنو Carnot (أو بارا) (13 Barras) تعييناً بونايرت (2 مارس 1791) وبعد ذلك بسبعة أيام تزوج الجنرال السعيد من جوزفين التي كانت لا تزال جميلة.

صفحة رقم : 14560

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> حكومة الإدارة -> جوزفين دي بوهارنيه

3- جوزفين دي بوهارنيه

كانت جوزفين كرواليّة Creole (وهي كلمة تطلق على من كان من سلالة فرنسية أو إسبانية ولكنه ولد في المستعمرات الاستوائية وترعرع فيها). وقد كانت جزيرة مارتينيك Martinique الواقعة في البحر الكاريبي فرنسية طوال 821 عاماً عندما ولدت ماري جوزيف روز تاسكر دي لا باجيري Marie Josephe Rose Tascher de la Pagerie هناك في سنة 1767 من أسرة أورليان Orléans العريقة. وكان عمها البارون دي تاسكر de Tascher حاكماً للميناء، وكان أبوها وصيفاً في مقر أم لويس السادس عشر ماري جوزيف Marie Josephe. وتلقت جوزفين تعليمها في دير سيدات العناية الإلهية في فورت رويال Fort Royal (الآن فورت دي فرانس Fort de France) عاصمة الحكومة الاستعمارية. وكان المنهج الدراسي في ذلك الوقت يتكون من تعليم مبادئ العقيدة الدينية بطريقة السؤال والجواب وتعليم السلوك (اللاتيكية) وفن الخط والرسم والتطريز والرقص والموسيقى إذ كانت الراهبات المعلمات يعتقدن أن هذا أجدى نفعاً للمرأة من تعليمهن اللاتينية واليونانية والتاريخ والفلسفة. وقد أثبتت جوزفين أنهن كن على صواب. فقد أصبحت - أي جوزفين - فيما تقول مدام دي بومبادر de Pompadour "كطبق شهى مقدم لملك".

وفي السادسة عشرة من عمرها جيء بها إلى فرنسا وزوجت من الفيكونت (دون الكونت وفوق البارون) الكسندر دي بوهارنيه وهي في التاسعة عشرة من عمرها ومع صغر سنها فإنها كانت بالفعل قد خبرت فن الغزل وطرائقه في المجتمع الأرستقراطي الفرنسي. لكن سرعان ما كشفت غياب زوجها الطويل والمتكرر انخراطه في ممارسة الرذيلة مما جعل جوزفين الحساسة تقتنع أن القائد السادس Sixth Commandant لم يخلق ليكون من الطبقات العليا، فوفقت حياتها بإخلاص لطفليها: يوجين (Eugene 1771- 1828) وهورتنس (Hortense 1771- 1808) وقد ظلّا وفيين لها طول حياتهما.

وعندما قامت الثورة مال الفيكونت إليها وكيف سياساته معها وظل محتفظاً برأسه طوال خمس سنوات، لكن كلما تقدم الإرهاب أصبح أي لقب من ألقاب النبالة يعرض حامله للقبض عليه، وبالفعل ففي سنة 1793 تم القبض على الكسندر وجوزفين وأودع كل منهما في سجن منفصل وفي 42 يوليو قصت المقصلة رقبة زوجها. وبينما هي تنتظر المصير نفسه عرض عليها الجنرال لازار هوش General Lazare Hoche حبه فلبت بهيب لك (23)، فكانت من بين النبلاء كثيرى العدد الذين تم الإفراج عنهم بعد سقوط روببسيير.

ولما أصبحت تقريباً معدمة لمصادرة ثروة زوجها وكانت في الوقت نفسه حريصة على تعليم أبنائها، استغلت عينيها الزرقاوين المغريتين وجمالها الهاديء الجاذب لعقد صداقة مع تاييه Tallien وأصبحت عشيقة لبارا Barras الصاعد نجمه (33)، وبذا عاد إليها كثير من أموال بوهارنيه المصادرة بما فيها عربية أنيقة ومجموعة خيول سوداء (43). وأصبحت الآن في المرتبة الثانية بعد مدام تاييه مباشرة تأثيراً في مجتمع حكومة الإدارة وقد وصف نابليون صالونها بأنه "أكثر صالونات باريس تميزاً" (53).

وكان نابليون يحضر بعض الأمسيات في صالونها، وكان مفتوناً بمفاتنها الناضجة ودلالها السهل وتصرفاتها الحلوة بشكل يفوق الوصف "على وفق وصف أبيها المتسامح" (63). ولم تكن جوزفين معجبة بيونابرت الذي بدا لها شاباً نهما ذا نظرة جائعة تنادي "بالإضافة إلى أن دخله غير قابل للزيادة. وأرسلت ابنها وكان في ذلك الوقت في الرابعة عشرة من عمره ليلتمس مساعدته لاستعادة سيف زوجها المصادر. وكان يوجين (ابن جوزفين) فتى وسيما بسيطاً حتى أن نابليون وافق مباشرة على التدخل في الأمر، وأعاد لها السيف بالفعل، فدعته جوزفين لتشكره ودعته لتناول الغداء عندها في 92 أكتوبر، فأتى إليها وأصبح راغبا فيها أو بتعبير آخر لقد غزته he was Conquered وفي أوائل شهر ديسمبر سنة 5971 لم تكف بالخضوع بالقول لهذا الذي أصاب قلبه مرض العشق، وإنما خضعت بالفعل فقدمته لسريرها (73)، لكنهما عزفا عن الزواج. وفيما راح نابليون يستغرق في سرد ذكرياته في جزيرة سانت هيلينا St. He lina فقال: "إن بارا Barras أسدى إليّ خدمة عندما نصحني بالزواج من جوزفين. لقد أكد لي أنها تنتمي إلى المجتمعين؛ القديم والجديد معاً، وأن هذه الحقيقة ستكون مزيداً من الدعم لي، فقد كان منزلها هو أفضل منازل باريس، وستخلصني من اسمي الكورسيكي، وأخيراً فبالزواج منها يمكنني أن أصبح فرنسياً تماماً" (83). وقام بارا Barras أيضاً بتوجيه النصح لجوزفين لتحقيق الغرض نفسه (زواجها من نابليون) لأسباب لا تزال موضع خلاف (93). إذ قال لها إنه رجل تشير الدلائل كلها أنه سيحقق لنفسه مركزاً عالياً في العالم. ولم يهتم نابليون بأمر عشقها السابق لأخرين ولم يكن ذلك عائقاً أمامه للزواج منها إذ كتب لها: "كل شيء فيك يعجبني.. حتى عندما أتذكر ما ارتكبتينه من أخطاء... فالفضيلة بالنسبة لي هي ما قمت به" (04).

وقد تزوجا في 9 مارس سنة 6971 على وفق إجراءات مدنية (وليس كنسية)، وشهد على وثيقة الزواج كل من تاييه Tallien وبارا Barras ولم يحضر أحد من أقارب العروسين. وليخففاً من حدة فارق العمر بينهما إذ كان نابليون في السابعة والعشرين من عمره، بينما هي في الثالثة والثلاثين، سجل نابليون أن سنه ثمانية وعشرون عاماً، وسجلت جوزفين أن سنها تسعة وعشرون عاماً (14). وقضى العروسان ليلة الزواج الأولى في منزل العروس، لكن جوزفين أبدت مقاومة حاسمة لا تراجع فيها فيما يتعلق بكلها المدلل المسمى بالمحفوظ Fortune، إذ قال لها نابليون (كما روى لنا): "هذا السيد (يقصد الكلب) أسىظل شاغلاً سرير المدام... إنني أريد منه أن يغادر السرير. لكن لم تكن هناك جدوى من مطالباتي فقد قيل لي إما أن أشارك الكلب في النوم فوق السرير، أو أن أنام في أي مكان آخر. لقد كان عليّ أن أقبل هذا الأمر لكن هذا الكلب المدلل كان أقل مجاملة مني". ففي أسوأ لحظة ممكنة عقر ساقى عقرة شديدة خلفت ندبة ظلت فترة طويلة (24).

وفي 11 مارس كان نابليون ممزقاً بين هذه البهجة الجديدة، وعاطفته الطاغية للسلطة والعظمة، فترك البهجة الجديدة ليقود جيشاً لغزو إيطاليا في إحدى أكثر المعارك عبقرية في التاريخ.

صفحة رقم : 14561

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> حكومة الإدارة -> الزوبعة الإيطالية

لقد بسَّط الموقف العسكري بعقد معاهدات مع كل من بروسيا وإسبانيا، أما النمسا فقد رفضت السلام طالما فرنسا متمسكة بفتحها في الأراضي المنخفضة (النذر لاندز Netherlands) وعلى طول نهر الراين. وواصلت انجلترا حروبها في البحر وقدمت للنمسا إعانة مالية قيمتها 006.000 جنيه استرليني لتمويل حروبها البرية على فرنسا. وكانت النمسا تحكم لومبارديا Lombardy منذ سنة 3171، وهي الآن متحالفة مع شارل عمانويل الرابع Charles Emmanuel IV ملك سردينيا وبيدمونت Piedmont الذي كان يأمل في استعادة سافوي Savoy ونيس Nice اللتين استولى عليهما الفرنسيون في سنة 2971.

وكانت حكومة الإدارة قد تركت أمر التخطيط لعملياتها العسكرية في سنة 6971 لكارنو Carnot، فخططها بحيث تشن فرنسا ثلاث هجمات اختراقية على النمسا. فكان على جيش يقوده جوردا Jourdan أن يهاجم النمساويين عند الحدود الشمالية الشرقية على طول سامبر Sambre والميز Meuse وعلى جيش آخر بقيادة مورو Moreau أن يتقدم ضد النمساويين على طول الموسيل Moselle والراين Rhine وعلى جيش ثالث بقيادة نابليون أن يحاول طرد النمساويين والسردينيين من إيطاليا. أما جوردا فبعد أن حقق بعض الانتصارات، واجه القوات المتفوقة للأرشيدوق كارل لودفيج Archduke Karl Ludwig فعانى من الهزائم في أمبرج Amberg وفيرتسبرج Wurzburg وترجع إلى الشاطئ الغربي للراين. أما مورو فتقدم بجيشه في بافاريا Bavaria وكاد يصل إلى ميونخ Munich ثم علم أن الأرشيدوق المنتصر يمكن أن يقطع خطوط مواصلاته أو أن يهاجمه عند مؤخرة جيشه فانسحب إلى الألزاس. وكامل أخير لجأت حكومة الإدارة إلى نابليون.

وعندما وصل إلى نيس Nice في 72 مارس وجد أن "الجيش المعد لغزو إيطاليا Army of Italy" ليس على حال يسمح له بمواجهة القوات النمساوية والسردينية التي تسد المدخل الضيق في إيطاليا بين البحر المتوسط وجبال الألب الشاهقة. وكانت قواته مكونة من 34.000 مقاتل شجاع اعتادوا على الحروب في الجبال لكن ملابسهم بانسة ونعالهم بانسة، وطعامهم الكفاف حتى إنهم كانوا يضطرون للسرقة ليظلوا على قيد الحياة (34)، ويكاد لا يصلح منهم لخوض معارك شاقة سوى 03.000، خيولهم قليلة جداً، ويكادون يكونون بلا مدافع. كما أن الجنرالات الذين وضع على رأسهم نابليون ابن السبع والعشرين سنة كانوا مستائين لتعيينه قائداً لهم وأرادوا أن يشعروهم بأنهم أعلى خبرة (هؤلاء الجنرالات هم أوجيرو Augereau وماسينا Masséna ولاهارب Laharpe سيسورييه Sèsurier) لكن عند أول اجتماع عقده لهم نابليون راعهم شرحه لخطته بوضوح واثق، وإصداره أوامره جلية فسرعان ما أصبحوا له طوعاً. لقد استطاع نابليون أن يفرض نفسه على جنرالاته لكنه لم يستطع أن يحرر نفسه من سحر جوزفين، فبعد أربعة أيام من وصوله إلى نيس نحى خرائطه ومعاونيه وكتب لها خطاباً حاراً فيه عاطفة مشبوبة لشاب قد اكتشف لتوه عمق عواطفه الكامنة تحت أحلامه بالسلطة:

"نيس في 13 مارس 6971

لا يمر يوم دون أن أتدله في حبك، ولا تمر ليلة إلا وأنا أضملك بذراعي. أنا لا أستطيع أن أشرب كوباً من الشاي دون أن ألعن الطموح المادي (الذنيوي) الذي أبعدني عن روح حياتي. لكن مهما كنت مشغولاً بالأعمال أو قيادة جنودي أو التفتيش على المعسكرات، فإن جوزفين حبيبتي تملأ جوانحي....

إن روحي حزينه وقلبي في الأغلال، وإني أتحيل أشياء ترعبي، فأنت لا تحبينني كما أحبك، فأنت ستسليين نفسك في مكان آخر.....

إلى اللقاء يا زوجتي يا معذبتي يا سعادتي.... فأنت أنت التي أحبها، وأنت التي أحشاها، إنك مصدر المشاعر التي تجعلني مهذباً كالطبيعة Nature نفسها، ومصدر الدفع الذي يجعلني مفاجئاً كالصاعقة.... إنني لا أطلب منك أن تحبينني للابد أو أن تكوني مخلصه لي، لكنني أطلب منك ببساطة.... أن تقولي لي الصدق.... لقد وهبتي الطبيعة Nature روحاً مصممة قوية، بينما روحك رقيقة كونت من شرائط زينة وشاش.... عقلي منشغل بالخطط الواسعة، بينما قلبي مستغرق فيك منشغل بك تماماً....

إلى اللقاء ! أه لو أنك تحبينني أقل مما يجب، ذلك أنك لم تحبينني أبداً، لذا فقد كنت أهلاً للشقة.

بونابارت (44)

وكتب لها مرة أخرى مرتين في يومي 3 و7 أبريل، وسط معمعة الحرب. وقد درس المعلومات كلها التي أمكنه الحصول عليها عن قوات العدو التي يتحتم عليه هزيمته: جيش نمساوي بقيادة بوليو Beaulieu في فولتري Voltri بالقرب من جنوا، وجيش آخر بقيادة أرجنتاو Argentau في مونتوتوت Montenotte إلى الغرب من الجيش الأنف ذكره (جيش بوليو) وجيش سرديني بقيادة كولي Colli عند سيفا Ceva أبعد إلى الجنوب. وقد افترض بوليو Beaulieu أن خطوط مواصلاته هي التي ستملي عليه أي جيش من جيوشه سيكون في حاجة لنجدة طارئة. وعلى هذا الأساس كان يتوقع بناء على أسباب معقولة أن يصد الهجوم الفرنسي نظراً لقواته المشتركة (المتحدة) التي تفوق القوات الفرنسية عدداً بنسبة 2 إلى 1 أي أن قواته ضعف القوات الفرنسية، أما إستراتيجية نابليون فهي أن يتحرك بأكبر عدد من جنوده بأقصى سرعة ممكنة وبسريرة ليواجه واحداً من الجيوش المدافعة ويسحقه قبل أن ينجده أي جيش من الجيشين الآخرين. لقد كانت خطة نابليون تتطوي على الإسراع بالقوات الفرنسية في طرق جبلية وعرة، وكان هذا يتطلب مقاتلين شديدي البأس ذوي عزم. وعمد نابليون إلى إثارة حماسهم ورفع روحهم المعنوية بأول بيان من بياناته المشهورة التي كانت إحدى عُدّه - غير قليلة الشأن - في معاركه: "أيها الجنود. إنكم جائعون عريانون. إن الجمهورية مدينة لكم بالكثير، لكنها تفتقد الوسائل لرد ديوننا لكم. لقد أتيت لأفودكم إلى أخصب سهول عليها الشمس. فالمدريات الغنية والمدن الوافر ثراؤها.. كلها ستكون تحت أمركم. أيها الجنود، أياكم هذا الرخاء أمامكم ثم تعوزكم الشجاعة والثبات؟" (54).

لقد كان ذلك دعوة واضحة للسلب والنهب. وكان هذا ضرورياً وإلا بآية وسيلة كان يستطيع هؤلاء الرجال الذين لم يتقاضوا مرتباتهم تحمل المسيرة الطويلة ثم مواجهة الموت؟ فما كان نابليون مثل معظم الحكام والثوريين ليسمح للاعتبارات الأخلاقية أن تعوق النصر، وكان وثقاً أن نجاحه سيمحو خطاياها. ألا يجب أن تساهم إيطاليا في تكاليف تحريرها؟

لقد كان الهدف الأول لاستراتيجيته هو أن يحطم الجيش السرديني ويدفع ملك سردينيا للتراجع إلى تورين Turin عاصمة بيدمونت التابعة له his Piedmont Capital ودخل نابليون في سلسلة مواجهات عسكرية حسمها لصالحه بنجاح: في مونتوتوت (11 أبريل) وميليسيمو (31 أبريل) وديجو (51 أبريل) وموندوفي (22 أبريل) وأدى هذا إلى بعثرة القوات السردينية وتدميرها مما أرغم شارلز عمانونيل على توقيع هدنة في شيراسكو (82 أبريل) تنازل بمقتضاها عن سافوي ونيس لفرنسا، ومن ثم انسحب من الحرب. وفي هذه المعارك أثر القائد الشاب في المحاربين التابعين له بأوامره الواضحة الحاسمة، وتكتيكاته المنطقية الناجحة التي تكمل حكمة استراتيجيته التي كانت مبنية في غالبها على مهاجمة جناحي العدو ومؤخرته. وتعلم الجنرال الأقدمون أن يطيعوه ثقة منهم في رؤيته وحكمه، أما الضباط الأصغر سنًا (مثل جونو Junot) ولان Lannes ومورا Murat ومارمون Marmont وبيرتييه Berthier) فكانوا مخلصين له حتى أنهم واجهوا الموت مرارا بسببه. وعندما وصل الجنود الباقون على قيد الحياة بعد هذه الانتصارات إلى مرتفعات مونت زيموتو Monte Zemoto التي يمكن أن يروا منها سهول لمبارديا المشمسة انخرط كثيرون منهم في تحية تلقائية للقائد الشاب الذي قادهم بعبقرية.

والآن لم يعد يتحتم عليهم أن يسلبوا وينهبوا كي يعيشوا، فحيثما أقام نابليون الحكم الفرنسي فرض على الأثرياء والإكليروس الضرائب وحث المدن (أو أمراها) على الإسهام في ضبط سلوك جنوده. وفي 62 أبريل، في شيراسكو Cherasco خاطب جيشه مادحاً إياه ومحدراً من قيام الجنود بعمليات سلب أو نهب: "أيها الجنود

لقد حققتم في أسبوعين ستة انتصارات، واستوليتم على واحد وعشرين علماً، وخمسة وخمسين مدفعاً، وفتحتم أعلى جزء في بيدمونت... كل ذلك بدون أية موارد تزودكم بما هو ضروري. لقد حققتم النصر بلا مدفع، وعبرتم الأنهار بلا جسور، وسرتم سيراً حثيثاً بلا نعال، وعسكرتم بلا براندي بل وغالباً بلا خبز... إن وطنكم المقدر للجميل والمعترف به سيكون مديناً برخائه لكم....

لكن أيها الجنود، إن كل ما فعلتموه لا يساوي شيئاً إذا قيس بما ستعملونه. لا تورين Torin ولا ميلان صارت لكم... أئمة واحد فيكم تنقصه الشجاعة؟ هناك من سيفضل العودة عبر قمم جبال أبنين والألب ليتحمل بصبر ندالة جندي حقير؟ لا ليس من شخص كهذا بين فاتحي مونتوتوت وفاتحي ديجو، وفاتحي موندوفي. فلكم تحترقون لزيادة عظمة الشعب الفرنسي....

أيها الأصدقاء إنني أعدكم بهذا الفتح شريطة أن تقسموا (وتنفذوا ما أقسمتم عليه) أن تحترموا الشعوب التي تحررونها، وأن تكفوا عن السلب الذي يفتقره بعض الأوغاد بتحريض من أعدائنا. وإذا لم تكفوا عن هذا السلب فما أنتم محررون للشعوب بل أنتم إذن جلاؤها لو استمر النهب لضاعت ثمار انتصاركم وشجاعتكم ونجاحاتكم ودم إخوانكم الذين ماتوا في المعركة، بل وضاع أيضاً شرفكم وعظمتكم. ذلك أنه بالنسبة لي وللجنرال الذين حازوا

ثقتكم لا بد أن نستحي من قيادة جيش بلا نظام وضوابط... إن أي شخص سيقوم بعملية نهب أو سلب سيتم إعدامه رمياً بالرصاص بلا رحمة.
أيها الشعب الإيطالي إن الجيش الفرنسي أتى ليحطم أغلالكم، فالشعب الفرنسي صديق لكل الشعوب، فلتستقبلوا الجيش الفرنسي بثقة، فممتلكاتكم ودينكم وعاداتكم كلها موضع احترام، فلسنا نحقد على أحد سوى على الطغاة الذين يظلمونكم".
بونابرت

لقد شهدت المعركة الأولى عمليات سلب كثيرة، وظل شيء منها رغم هذا الطلب وذاك التهديد، وقد أمر نابليون بإطلاق النار على بعض السلايين وعفا عن آخرين منهم قائلاً:
"هؤلاء البؤساء لا بد من التماس الأعداء لهم، لقد ظلوا طوال ثلاث سنوات يتطلعون للأرض الموعودة... والآن وقد دخلوها فإنهم يريدون الاستمتاع بها"(64). وقد هداهم بأن جعلهم يشاركون في المؤن والأموال التي تم جمعها من المدن "المحررة".

ووسط هذا الهياج العظيم كله بسبب طول المسيرة، والمعارك ورغم انشغاله بالأمر الدبلوماسي، فقد كان نابليون في كل ساعة تقريباً يفكر في الزوجة التي كان قد تركها بسرعة بعد ليلة العرس. والآن وقد أصبح يمكنها أن تمر بأمان في السيفن Cévennes فقد أرسل لها خطاباً في 71 أبريل يتوسل إليها فيه أن تحضر إليه. وكتب لها في خطاب آخر في 42 أبريل سنة 1797 قائلاً: "تعالى بسرعة. إنني أحذرك فإن زاد تأخرتك، فستجديني مريضاً. فهذه المتاعب التي أواجهها الآن، أضيف إليها غيابك عني؟! لا أطيق هذا... فليكن لك جناحان، ولتطيري إلي... قبله مني على قلبك... وقبله أخرى تحت قلبك بقليل... وقبله ثالثة تحت القبلة السابقة... وأخرى تحت... تحت... أبعد تحت؟!"(74).
أكانت جوزفين مخلصاً؟ أكان يمكنها، وهي التي تعودت على المسرات أن تكتفي طوال عدة شهور برسائل التملق التي كان يرسلها إليها؟ وفي الشهر نفسه الأنف ذكره (أبريل) وجد ضابط وسيم في الرابعة والعشرين من عمره هو هيبوليت شارل Hippolyte Charle طريقه إليها. وفي شهر مايو دعت تاليران Tallyrand للقائه. "ستكونين عاصفة معه، فمدام ريسامبييه Récamier ومدام تالييه Tallien ومدام هاميليا Hamilin كلهن يتقن إليه أو بتعبير آخر فقدن اتزانهن من أجله"(84). وشغفت به جوزفين حبا، حتى إنه عندما أتى مورا Murat قادماً من طرف نابليون محملاً بالأموال ومعه تعليمات لها بأن تلحق به في إيطاليا، فإنها تلكأت متعللة بالمرض وقالت لمورا أن يبلغ نابليون (رئيسه) أنه قد ظهرت عليها دلائل الحمل. وكتب لها نابليون في 31 مايو: "أحقاً ما قاله مورا من أنك حامل!... إن مورا يقول إنك متوعدة وهذا ما جعله يعتقد أنه ليس من التدبير السليم أن تتحملي مشاق هذه الرحلة الطويلة. وعلى هذا فإن عليّ أن أظل فترة أطول دون أن أسعد بضمك بين ذراعي! أمن الممكن أن أحرم من رؤية بطنك وقد ارتفع قليلاً من جراء الحمل؟"(94) لكن فرحته لم تدم فلم تكن جوزفين أبداً لتلد له طفلاً.

صفحة رقم : 14562

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> حكومة الإدارة -> انقلاب فروكتيدور سبتمبر

7- انقلاب 18 فروكتيدور

لم تكن باريس التي وصلها هي باريس نفسها التي ألفها في أيام عامي 1797 و 1797 حيث حكم الجماهير والحشود. بل إنه حتى منذ سقوط روببسيير سنة 1797 كانت العاصمة (باريس) تتبع خطى أهل الريف فزادت معارضتها للثورة؛ معارضة ذات بعد ديني وبعد سياسي أيضا. فالكاثوليكية - بقيادة القسس الذين لم يقسموا يمين الولاء للدستور المدني - استعادوا نفوذهم على شعب كان قد فقد تصديقه للبدل الدنيوي عوضا عن الآمال المعقودة على حياة أخرى فيها العزاء وزاد حنينه إلى الطقوس الدينية والمناسبات المرتبطة بالقدسين، فزاد إهماله للنظام العشري لتقسيم الأيام الذي ابتدعه الثورة The décade واعتبار اليوم العاشر هو يوم الراحة، وعادوا للاحتفاء بيوم الأحد من كل أسبوع وتوقيره. إن فرنسا تصوت الآن لصالح الرب God.

أما بالنسبة للملك، ففي البيوت والصالونات والشوارع بل وفي تنظيمات الأحياء التي كان العوام (السانس كولوت) يسيطرون عليها - راح الرجال والنساء يتحسرون على أيام الرجل الطبيب لويس السادس عشر bonhomme Louis XVI وراحوا يلتمسون الأعداء لما وقع فيه البوربون من أخطاء وراحوا يتساءلون أيمن يمكن لأي حكومة أخرى غير الملكية الشرعية أن تعيد النظام والأمان والرخاء والسلام وتخرج فرنسا من حالة الفوضى والجريمة التي دمرت فرنسا؟ والمهاجرون العائدون (الذين كانوا قد تركوا فرنسا إثر قيام الثورة) كثر عددهم حتى إن الطرفاء منهم أطلقوا على مقار إقامتهم في باريس اسم "كوبلينز الصغيرة Le petit Coblenz" (إشارة إلى مكان إقامتهم في ألمانيا بعد مغادرتهم فرنسا)، وفي مقارهم في باريس بعد عودتهم كان يمكن للمرء أن يسمع الفلسفات الملكية التي كان يدعوهم إليها خارج فرنسا بونالد Banald وميستر Masitre. والجمعيات المنتخبة التي كان يسودها البورجوازيون كانت ترسل إلى مجلس الشيوخ ومجلس الخمسمائة مزيدا من النواب المستعدين لمغازلة النظام الملكي شريطة ضمان الممتلكات. وبحلول سنة 1797 كان أنصار النظام الملكي في المجلسين من القوة بمكان حتى إنهم انتخبوا لحكومة الإدارة الماركيز دي بارثيليمي de Barthélemy ووجدنا لازار كارنو Lazare Carnot عضو حكومة الإدارة منذ سنة 1797 يعود مرة أخرى إلى اليمين ويتخذ موقفا معارضا من دعايات بابيف Babeuf وراح ينظر بعين الرضا إلى الدين باعتباره طعما (تطعيم) ضد الشيوعية.

وشعر الجمهوريون الراسخون من أعضاء حكومة الإدارة - بارا Barras ولارفيلير - ليبو - Larevelliere Lépaux وروبل Rewbell، بالخطر على مناصبهم وحياتهم بسبب الحركة الملكية، فقرروا المخاطرة بكل شيء والقيام بانقلاب يمكن أن يخلصهم من الزعماء الملكيين في كلا المجلسين وفي حكومة الإدارة. وراحوا يطلبون الدعم الجماهيري من اليعاقبة الراديكاليين الذين اختفوا عن الساحة والمرارة في حلوقهم في أثناء حركة المحافظين (المطالبيين بالعودة إلى الماضي الملكي)، كما طلبوا الدعم العسكري من نابليون ليرسل لهم من إيطاليا جنرا لا ذا كفاءة لتنظيم جنود باريس للدفاع عن الجمهورية. وكان نابليون راغبا في مساعدتهم، فأحياء مطالبات أسرة البوربون بالعرش قد تحبط خطته، إذ كان راغبا في ترك الطريق مفتوحا لوصوله هو للسلطة السياسية، فالوقت لم يصبح مناسباً بعد لهذه المغامرة. فأرسل إليهم قائدا حازما هو ببيير أوجرو Pierre Augerau وهو رجل محنك عركته المعارك. فقام أوجرو بضم بعض جنود هوش Hoche للعمل معه، وبهؤلاء الجنود اقتحم في 81 فروكتيدور (شهر الفواكه) المجلسين التشريعيين وقبض على 35 نائبا وكثير من الوكلاء الملكيين كما قبض على عضوي حكومة الإدارة : بارثيليمي Barthélemy وكارنو Carnot، وهرب كارنو إلى سويسرا وتم ترحيل معظم الباقين إلى جويانا (غياناه) Guiana في أمريكا الجنوبية حيث الكدح والعمل وحيث لا يعرف بهم أحد. وفي انتخابات سنة 1797 سيطر الراديكاليون على المجلسين وضموا كلا من ميرلي Merlin الدوى of Ldouai وجان بابنتست تريهار Jean Baptiste Treihard - إلى الثلاثة الآخرين في حكومة الإدارة التي تم تعديلها على هذا النحو، وخولوها سلطة تكاد تكون مطلقة (06).

وعندما وصل نابليون إلى باريس في 5 ديسمبر 1797 وجد إرهابا جديدا موجها إلى المحافظين كالم، وكل ما كان يفرق بين هذا الإرهاب الجديد والإرهاب القديم، أن الإرهاب الجديد استخدم نفي المعارضين إلى جويانا (غياناه) Guiana بدلا من قطع رقابهم بالمقصلة. ومع هذا فقد بدت الطبقات كلها متفقة على كفاءة هذا الشاب (نابليون) الذي أضاف نصف إيطاليا إلى فرنسا. وقد نحى نابليون جانبا الآن تطلعه إلى القيادة الصارمة، وراح يظهر بمظهر التواضع والاعتدال، وراح يعمل على إرضاء الجميع بطرق مختلفة؛ إرضاء المحافظين بتمجيد النظام، وإرضاء اليعاقبة بإظهار دوره في نقل إيطاليا من مرحلة العبودية الإقطاعية إلى مرحلة الحرية، وإرضاء المثقفين بكتابته "إن الفتوح الحقيقية تتمثل في القضاء على الجهل، ولا عذر لنا في التواني في القضاء عليه" (16). وفي 01 ديسمبر قام

أصحاب المقام الرفيع في الحكومة الوطنية بتكريمه بشكل رسمي. وكانت مدام دي ستيل Mme . de Stael حاضرة، وقد حفظت لنا مذكراتها هذا المشهد:

"استقبلت حكومة الإدارة الجنرال بونايرت استقبالا مهيبا كان في بعض جوانبه علامة مميزة في تاريخ الثورة وقد اختاروا قصر لوكسمبرج Luxembourg لإقامة هذه المراسم، فلم تكن هناك قاعة من السعة بحيث تتسع لمثل هذا الحشد؛ وتجمع الناس لمشاهدته فوق كل سطح. وقد وقف أعضاء حكومة الإدارة الخمسة - وقد ارتدوا ملابس رومانية - على منصة، وبالقرب منهم كان نواب مجلس الشيوخ ومجلس الخمسمائة وأعضاء المعهد العلمي..

ووصل نابليون وهو يلبس ملابس بسيطة جدا ويتبعه مساعده، وكانوا جميعا أطول منه لكنهم كانوا يحترمونه جدا وينحون له، وشملت النخبة - المتجمعة هناك - الجنرال المنتصر بالتحية والتصفيق. لقد كان نابليون هو أمل الجميع من جمهوريين ومكبيين، فالجميع رأوا الحاضر والمستقبل في قبضته" (26).

وفي هذه المناسبة سلم أعضاء حكومة الإدارة معاهدة كامبوفورميو Campoformio، فتم اعتمادها رسميا وأصبح نابليون قادرا على قضاء فترة راحة من المشاغل الدبلوماسية ومن الحرب.

وبعد أن حضر نابليون هذا الاحتفال الفخم الذي أقامه تاليران Talleyrand على شرفه (تاليران كان في ذلك الوقت هو وزير الخارجية أو عضو حكومة الإدارة للشئون الخارجية) انسحب نابليون إلى بيته في شارع شانترين Chantierine وقبع فيه يستجم مع جوزفين وأبنائها وكان يسمح لنفسه بالظهور أمام الجمهور فامتدح المعجبون به تواضعه، وراح المقلدون من شأنه يبديون سعادتهم بانتهاء دوره، وعلى أية حال فقد دأب على زيارة المعهد العلمي، وراح يتحدث في الرياضيات مع لاجرانج Lagrange وفي الفلك مع لابلاس Laplace وفي نظم الحكم مع سيبز Sieyès وفي الأدب مع ماري - جوزيف دي شنبيه Marie - Joseph de Chénier وفي الفن مع ديفيد David وربما كان بنشاطه هذا يعد بالفعل للحملة على مصر، ويفكر في أن يصحب معه مجموعة من الدارسين والعلماء.

ورأت حكومة الإدارة في مسلكه المتواضع هذا شيئا غير واضح المعالم يدعو إلى الريبة، فهذا الشاب الذي كان في إيطاليا والنمسا يتصرف وكأنه هو الحكومة، كيف يتخذ قرارا بالتصرف على النحو (المتواضع) في باريس؟ فأرادوا أن يشغلوه ويبعدوه فعرضوا عليه أن يقود خمسين ألف جندي وبحار جمعوهم في برست Brest لغزو إنجلترا. ودرس نابليون المشروع ورفضه وحذر حكومة الإدارة في خطاب بتاريخ 32 فبراير 1801:

"لا بد أن نتخلوا عن محاولة حقيقية لغزو إنجلترا وأن تقنعوا أنفسكم بالاكتماء بالظهور أمامها (بمظهر القوة) فالأولى هو أن نركز انتباهنا لمواردنا ناحية الراين Rhine ... ويجب ألا نبعث الجيش الكبير عن ألمانيا ... أو يمكننا إرسال حملة إلى الشرق Levant ونهدد تجارة (إنجلترا) مع الهند" (36).

فهناك في الشرق كان حلمه، فحتى عندما كان وسط معامع المعارك في إيطاليا كان يفكر في إمكانيات القيام بغزوة في الشرق: ففي ظل الانهيار التدريجي للدولة العثمانية، فإنه يروح جسور ورجال شجعان جوعى يمكن تشكيل الأمور، وتكوين إمبراطورية. إن إنجلترا تحكم المحيطات ولكن قبضتها على البحر المتوسط يمكن خلخلتها بالاستيلاء على مالطة، وقبضتها على الهند يمكن إضعافها بالاستيلاء على مصر، ففي مصر حيث العمالة رخيصة يمكن بالفرنكات والتكبير السليم بناء أسطول، ويمكن بالشجاعة والخيال الخصب دفع هذا الأسطول عبر البحر والمحيط ليصل إلى الهند والاستيلاء من النظام الاستعماري البريطاني على أعلى ممتلكاته. وقد اعترف نابليون في سنة 1801 لمدام دي ريموسا Rémusat:

" لا أدري ما كان يحدث لي لو لم تواتني الفكرة السعيدة بالذهاب إلى مصر. فعندما غادرت السفن إلى شواطئها لم أكن أعرف سوى أنني قد ودعت فرنسا إلى الأبد، وإن اعتراني قليل من الشك أن فرنسا ستستدعيني. إن سحر فتح بلاد الشرق قد أبعد أفكارني عن أوروبا أكثر مما كنت أتصور" (46).

ووافقت حكومة الإدارة على اقتراحاته، وكان أحد أسباب موافقتها هو اعتقادها أنه سيكون أكثر أمانا (لها) أن يكون هو بعيدا عن فرنسا، ووافق أيضا تاليران Talleyrand لأسباب لا تزال محل خلاف، فمشرفة بيته مدام جراند Mme Grand تفسر ذلك بأنه اتخذ هذا الموقف "لمصلحة أصدقائه الإنجليز" بتحويل مسار الجيش الذي يهدد بغزو إنجلترا إلى مصر (56). وأخرت حكومة الإدارة موافقتها لأن الحملة مكلفة وتتطلب من الرجال والعتاد ما تحتاجه فرنسا لحماية أراضيها من إنجلترا والنمسا وربما أيضا من تركيا التي قد تنظم في حلف جديد ضد فرنسا (وكانت السلطة التركية - العثمانية - على مصر مترامية) لكن التقدم السريع للقوات الفرنسية في إيطاليا - ضم الولايات الباباوية ومملكة نابلي - أدى إلى وصول أسلاب متتالية إلى حكومة الإدارة، وفي أبريل سنة 1801 غزا جيش فرنسي آخر - بموافقة نابليون - سويسرا وأقام فيها الجمهورية الهيليفيتية Helvetic وتم جمع "التعويضات" منها، وتم إرسالها إلى باريس. والآن أصبح يمكن الإنفاق على تحقيق حلم الاستيلاء على مصر.

وبدأ نابليون فوراً في إصدار أوامر مفصلة لإعداد أسطول فرنسي جديد (استخدم المؤلف عبارة new armada أي أسطول قوي على نمط الأساطيل الإسبانية والبرتغالية في عصورها الزاهرة)، فكان لا بد من تجميع القوات والمواد

التالية في طولون وجنوا وأجاسيو أو سيفيتا فيشيا: Civitavecchia 31 سفينة حربية وسبع فرقاطات و 53 سفينة قتال أخرى و 031 سفينة نقل، 61.000 بحار و 83.000 جندي (كثيرون منهم كان مع الجيش الفرنسي الذي حارب في إيطاليا) بالإضافة إلى المواد والعتاد الضروري، ومكتبة مكونة من 782 مجلداً. وكان العلماء والباحثون والفنانون سعداء بقبول الدعوة للانضمام إلى ما وصف بأنه اتحاد مثير وتاريخي بين المغامرة (العسكرية) والبحث. وكان من بين هؤلاء العلماء: مونج Monge الرياضي وفورييه Fourier الفيزيائي، وبيرتولي Bertholet الكيميائي. وجيوفري سان هيلار Geoffroy Saint - Hilaire البيولوجي (عالم الأحياء). وقام تالييه Tallien بالتنازل عن زوجته لبارا Barras واتخذ سبيله بين العلماء. وقد لاحظ العلماء وقد اعتراهم الفخر أن نابليون أصبح الآن يوقع خطاباته مشفوعة بعبارة "يونابرت عضو المجمع العلمي الفرنسي والقائد العام" (66). وبورين Bourrienne الذي كان قد رافق نابليون كسكرتير له في كومبوفورميو في سنة 7971، صحبه أيضا في هذه الرحلة (إلى مصر) وقدم لنا رواية مفصلة عن مصيرها. وأرادت جوزفين أيضا أن تواصل الرحلة، فسمح نابليون لها بمرافقته حتى طولون لكنه منعها من ركوب السفن، وعلى أية حال فقد أخذ معه ابنها يوجين بوهارنيه Eugène Beauharnais الذي كان نابليون قد أحبه لتواضعه وكفاءته وولائه وقوة إخلاصه، وقد حزن جوزفين حزنا مضاعفا لهذا الفراق؟ أيمكنها أن ترى ابنها أو زوجها مرة أخرى بعد هذا الفراق؟ ومن طولون اتجهت جوزفين إلى بلومبيير Plombières لتتناول "مياه الخصوبة Fertility waters" لأنها أصبحت الآن - وكذلك نابليون - تريد طفلا.

وفي 91 مايو سنة 8971 أبحر الأسطول الأساسي من طولون ليكرر في التاريخ الحديث إحدى روايات تاريخ العصور الوسطى.

صفحة رقم : 14563

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> حكومة الإدارة -> الحملة الفرنسية على مصر

8- الفانتازيا الشرقية (الحملة الفرنسية على مصر)

19 مايو 1798 - 8 أكتوبر 1799

لقد تمت التعمية على الجهة التي يقصدها الأسطول حتى إن الرجال كلهم - تقريبا - والبالغ عددهم 45.000 لم يكونوا يعلمون وجهة الأسطول، وفي بيان له سمات خاصة وجهه نابليون "الجيش الشرق" الجديد أشار إليه بأنه مجرد "جناح" للجيش الفرنسي المعد لغزو إنجلترا، وطلب من البحارة والجنود أن يتقوا به رغم أنه لا يستطيع حتى الآن أن يحدد المهام الموكلة إليهم. وقد حققت هذه السرية بعض الأغراض: فالحكومة البريطانية كانت مضطربة الفكر بشكل ظاهر بناء على معلومات وصلتها عن أسطول فرنسي صغير يجري إعداده ليشق طريقه عبر مضيق جبل طارق ليشارك في غزو إنجلترا. وكانت سفن نلسون Nelson غير دقيقة في مراقبة البحر المتوسط، وكانت السفن التجارية وسفن النقل تروغ منها في البحر المتوسط.

وفي 9 يونيو ظهر الأسطول الفرنسي إزاء سواحل مالطا، وكانت حكومة الإدارة قد قدمت رشوة لرئيس جماعة فرسان مالطا وذوي الشأن فيهم لتكون مقاومتهم شكلية (76)، ونتيجة لهذا استولى الفرنسيون على الحصن المنيع الممول جيدا في هذه الجزيرة بسهولة ولم يفقدوا في سبيله سوى ثلاثة رجال. وتأخر نابليون في الجزيرة أسبوعا ليعيد تنظيم إدارة الجزيرة على نمط الإدارة الفرنسية Gaulward وكان ألفريد دي فيني Alfred de Vigne - الذي سيصبح شاعرا فيما بعد - يومئذ في الثانية من عمره، وقد قدموه لنابليون، فرفعه وقبله، وقال ألفريد - فيما بعد - "عندما أنزلني بعناية إلى سطح السفينة، كان قد كسب إلى جانبه، عبداً آخر يضاف إلى عبيده" (86). وعلى أية حال فإن نابليون ذلك الرجل الشبيه بالإله عانى دوار البحر طوال فترة الإبحار إلى الإسكندرية تقريبا، وفي هذه الأثناء درس القرآن.

ووصل الأسطول إلى الإسكندرية في أول يونيو سنة 8971 وكان في الميناء حامية، ومعنى هذا أن رسوه بالأسطول قد يكلفه كثيرا، ومع هذا فقد كانت عملية إنزال القوات مسألة لا بد منها حتى لو لم يكن الأسطول الفرنسي موضع مراقبة من أسطول نلسون، وكانت الأمواج تتكسر على الساحل بعنف ومع هذا فإن نابليون شخصيا قاد مجموعة من خمسة آلاف مقاتل ونزل بهم على جزء من الساحل غير محمي (ليس به قوات مدافعة)، وتقدم بقواته ليلاً بلا فرسان ولا مدفعية وانقض على الحامية وهزمها ولم يكلفه ذلك سوى مائتين من رجاله بين قتيل وجريح، واستولى على المدينة (الإسكندرية) وقدم الحماية لبقية سفن الأسطول الفرنسي فتم إنزال بقية الجنود وأسلحتهم على أرض مصر. وحث نابليون القادة المحليين في المدينة على الاجتماع به، وكان عماده في هذه الدعوة هو ما حققه من انتصار بإنزال جنود على البر المصري، وكلمات قليلة أتقنها باللغة العربية. وراح نابليون يسلبهم - ومن ثم يؤثر فيهم - بمعلوماته عن القرآن (الكريم) واستخدامه الماهر لأياته وأفكاره، وتعهد لهم نيابة عن نفسه وباسم جيشه أن يحترم دينهم وقوانينهم وممتلكاتهم، ووعدهم - إن هم ساعدوه بالعمال والعتاد - أن يعيد لهم البلاد (مصر) التي استولى عليها المرتزقة المماليك الذين جعلوا من أنفسهم حكاما لمصر في ظل أسر حاكمة مترخية. ووافق العرب نصف موافقة (كانت موافقتهم غير حاسمة)، وفي 7 يوليو أمر نابليون جيشه الذي تملكه العجب بالتقدم معه لقطع 051 ميلاً في الصحراء للوصول إلى القاهرة.

لم يسبق للعسكر الفرنسيين أن خبروا مثل هذه الحرارة وهذا العطش، وتلك الرمال التي تعمي البصر، والحشرات التي لا تعرف التعب أو هذه الدوسنتاريا (الزحار والإسهال) المنهك. وراح يونابرت يخفف من حدة شكوايهم بمشاركة المتعاقب في صمت. وفي 01 يوليو وصلوا إلى نهر النيل، فشربوا حتى الامتلاء وأنعشوا أجسادهم. وبعد مسيرة أخرى استمرت خمسة أيام، شاهدت طليعة الجيش بالقرب من قرية شبراخيت Kobrakit جيشا قوامه ثلاثة آلاف مملوك "تشكيل عسكري مبهر من الفرسان" على حد تعبير نابليون الذي قال أيضا: "كلهم يومضون بفعل بريق الذهب والفضة ومسلحون بأفضل البنادق اللندنية القصار Carbines & Pistols وبأفضل سيوف الشرق، وكانوا يركبون - ربما - أفضل خيول في القارة" (96) وانقض الفرسان المماليك سراعا على الجيش الفرنسي من الأمام ومن ناحية الجناحين فلم يكن لهجومهم نتيجة سوى أنهم سقطوا بقذائف مدافع الفرنسيين وبنادقهم، ففروا هاربين وقد جرحوا في أبدانهم وكرامتهم.

وفي 02 يوليو وكان لا زال باقيا على القاهرة مسافة ثمانية عشر ميلا شاهد المنتصرون الهرم. وفي مساء هذا اليوم علم نابليون أن جيشا من ستة آلاف مملوك بقيادة ثلاثة وعشرين بك من البكوات حكام الأقاليم - قد تجمع في إمبابه، وأن هذا الجيش قد اتخذ أهبطه لمواجهة الغزاة الكفار. وبعد ظهيرة اليوم التالي انقضوا بكل قواتهم على الفرنسيين في معركة حاسمة عرفت بمعركة الأهرام. وهناك قال لجنوده (إن كان لنا أن نتق في ذاكرة نابليون):

"إن أربعين قرنا نتطلع إليكم" (07) ومرة أخرى واجه الفرنسيون هذا الهجوم بطلقات المدافع والبنادق والحرايب المثبتة فقتل سبعون فرنسيا وألف وخمسمائة مملوك، وغرق كثيرون منهم في النيل في أثناء هروبهم الطائش. وفي 22 يوليو أرسلت السلطات التركية (العثمانية) في القاهرة مفاتيح المدينة إلى نابليون مما يعني الاستسلام. وفي 32 يوليو دخل نابليون المدينة البهية من غير أن يواجه مقاومة.

ومن القاهرة أصدر أوامره بأن تدار أمور مصر عن طريق دواوين عربية Arab divans (لجان) تابعة لسيطرته. ومنع جنوده من السلب والنهب وحمى حقوق الملكية الموجودة لكنه استمر في تحصيل الضرائب التي فرضها المماليك الغزاة على أهل البلاد لتمويل جيشه، وجلس مع الزعماء المحليين واعترف باحترامه للشعائر الإسلامية وإعجابهم بالفن الإسلامي، وشهد ألا إله إلا الله، وطلب مساعدة المسلمين له ليعم الرخاء والازدهار مصر. وعقد اجتماعا مع علماء الحملة لوضع الخطط للقضاء على الطاعون وإدخال صناعات جديدة وتطوير نظم التعليم المصري وتحسين القوانين المعمول بها، وإنشاء خدمات بريدية ونظام مواصلات، وإصلاح النزوع وضبط الري وربط النيل بالبحر الأحمر. وفي يوليو سنة 9971 نظم المعهد العلمي المصري من علماء مصر وعلماء الحملة، وكان العلماء هم الذين أعدوا الأربعة والعشرين مجلداً الضخاما التي مولتها ونشرتها الحكومة الفرنسية

بعنوان وصف مصر (Description de L'Egypte (8281-9081) وأحد هؤلاء العلماء لا نعرف إلا أن اسمه بوشار Bouchard وجد في سنة 9971 في مدينة تبعد عن الاسكندرية ثلاثين ميلا حجر رشيد Rosetta عليه نقوش بلغتين وثلاثة خطوط (الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية) وقد مكنت هذه الكتابات توما يونج Thomas Young (1814) وجان - فرنسوا شامبليون (Jean - Francois Champolion - 1821) من وضع أسس منهج ترجمة النصوص الهيروغليفية ففتحوا بذلك أمام أوروبا "الحديثة" أبواب حضارة مصر القديمة المركبة والناضجة بشكل يدعو إلى الدهشة. وكان هذا هو النتيجة الرئيسية لحملة نابليون على مصر، أو النتيجة الوحيدة المهمة. لكن فتح مصر كان - لفترة - مدعاة لفخره، كذلك كان مدعاة لمباهاته إدخال نظم الإدارة فيها. لقد قال لمدام دي ريموسا de Rémusat في وقت لاحق وهو يستدعي ذكرياته:

"لقد كانت الفترة التي قضيتها في مصر هي أكثر الفترات بهجة في حياتي ... لقد وجدت نفسي في مصر متحررا من قيود الحضارة وإزعاجها. لقد رحلت أحلم بأمر كثيرة ورأيت كيف أن كل ما حلمت به يمكن أن يتحقق . لقد خلقت دينا (المقصود ابتدعت دينا) وتصورت نفسي في الطريق إلى آسيا راكبا فيلا وعلى رأسي عمامة وفي يدي قرآن جديد كان علي أن أصيغه على وفق أفكارى... وكان علي أن أهاجم القوات الإنجليزية في الهند وتجديد علاقاتي بأوروبا القديمة بفتحها... لكن القدر كان ضد أحلامي"(17).

وكان أول سهام القدر ضده هو معلومات نقلها إليه أندوش جونو Andoche Junot الضابط المعاون مؤداها أن جوزفين اتخذت لها في باريس عشيقا. لكن الحالم الكبير (نابليون) بكل تألقه العقلي أهمل أن يضع في اعتباره أنه من الصعب على نبات استوائي كجوزفين أن تظل لشهور عديدة دون أن تمتع مفاتها بشكل حسي. لقد ظل نابليون لعدة أيام حزينا ساخطا، وكتب في 62 يوليو سنة 8971 خطابا يظهر فيه الاكتئاب والفتور إلى أخيه جوزيف: "في غضون شهرين سأكون في فرنسا مرة أخرى... فهناك أمور كثيرة تزعجني في بلادي ... إن صداقتك تعني لي الكثير، أكنت لأفقدتها أو أظنك تخدعني . إنه لا بد لي أن أكون صالحا تماما مبعضا للشر إنني أريدك أن تهنيء لي مكانا في الريف أستقر فيه عندما أعود، إما في برجاندى Burgundy أو بالقرب من باريس. إنني أفكر في قضاء الشتاء فيه بحيث لا أرى أحدا. لقد سئمت المجتمع. إنني أحتاج أن أنفرد بنفسي. مشاعري متبلدة. لقد سئمت الشهرة. إنني متعب من تحقيقي هذا المجد وأنا في سن التاسعة والعشرين. لقد فقد ذلك جاذبيته بالنسبة لي، فلم يعد لي سوى الأناية الكاملة...."

إلى اللقاء يا صديقي الوحيد الذي لا صديق لي سواه حبي لزوجتك ولجبروم Jerome". ووجد بعض العزاء عندما جعل من امرأة فرنسية شابة قيمة لمسكنه، وكانت هذه المرأة الشابة قد تبعت زوجها الضابط إلى مصر . إنها بولين فورى Pouline Fouré التي لم تستطع مقاومة اهتمام نابليون بجمالها المرح فبادلته الابتسام ولم تبذ مقاومة جادة عندما أرسل زوجها السيد فورى في مهمة في باريس، ليوسع لنفسه الطريق . وعندما علم زوجها سبب مكرمة نابليون وتمييزه بإرساله إلى باريس عاد إلى القاهرة وطلق بولين Pouline. وفكر نابليون أيضا في الطلاق وشغلته فكرة الزواج من بولين وإنجاب وريث لكنه وضع في اعتباره دموع جوزفين وعمل لها حسابا.

وقد سعدت بولين بهدية حقيقية، وعاشت بعد ما نالته من حظ عاثر تسعا وستين سنة. وبعد أسبوع من أخبار جوزفين المحبطة التي أتى بها جونو Junot حدثت كارثة كبرى قوضت نصر جيش الشرق. فإن نابليون عندما ترك أسطوله في الإسكندرية متجها إلى القاهرة كان قد أمر (على وفق رواية نابليون) نائب الأدميرال (اللواء البحري) فرنسوا - بول بروى Francois-Paul Brueys أن يفرغ كل حمولته من المواد اللازمة للجنود ومن ثم يبحر بأقصى سرعة ممكنة إلى كورفير Corfu التي كان الفرنسيون قد استولوا عليها. كما أمره بضرورة اتخاذ الإجراءات كلها لتجنب تدخل البريطانيين، لكن سوء الاحوال الجوية أخر إبحار بروى Brueys، وفي أثناء فترة التأخير هذه رسا بأسطوله في خليج أبي قير القريب، وهناك في 13 يوليو سنة 8971 راه نيلسون وهاجمه بسرعة. وبدت القوات البحريتان المتواجهتان متكافئتين: فالقوات البحرية الإنجليزية قوامها 41 سفينة حربية وسفينة بصاريين، والقوات البحرية الفرنسية قوامها 31 سفينة حربية وأربع فرقاطات. لكن البحارة الفرنسيين كان الحنين إلى العودة إلى بلادهم قد ازداد ولم يكونوا متدربين بما فيه الكفاية، أما البحارة البريطانيون فقد كان البحر هو وطنهم الثاني ألفهم ولفوه، والآن فإن تنظيمهم (البريطانيين) الأكثر تفوقا وبراعتهم البحرية وشجاعتهم سادت طوال النهار والليل لأن المعركة الدامية استمرت حتى فجر الأول من أغسطس. ففي الساعة العاشرة من يوم 13 يوليو انفجرت، سفينة القيادة (التي بها بروى Brueys) التي بها 021 بندقية، وقتل كل من كان على متنها تقريبا بمن فيهم اللواء بحري نفسه، وكان يبلغ من العمر خمسة وأربعين عاما. ولم تستطع الهروب سوى سفينتين فرنسيتين، وبلغت خسائر الفرنسيين ما يزيد على 0571 قتيلًا و 0051 جريح، أما خسائر البريطانيين فكانت 812 قتيلًا و 276 جريحاً

(بمن فيهم نيلسون). وهذه المعركة (أبو قير) بالإضافة إلى معركة الطرف الأغر (Trafalgar 1805) هما آخر محاولتين قامت بهما فرنسا النابليونية لتحدي السيادة الإنجليزية على البحار. وعندما وصلت أخبار هذه النكسة الكاسحة إلى نابليون في القاهرة أبقن أن فتحه لمصر غدا بلا معنى. فالمغامرون المرافقون له قد أحبط بهم الآن برا وبحرا وما من سبيل لوصول العون الفرنسي إليهم، وأنهم سرعان ما سيصبحون تحت رحمة أهل البلاد المعادين، والبيئة غير المواتية ومن الأمور التي تذكر لهذا القائد الشاب، أنه وجد الوقت في ظروفه العصيبة هذه ليعزي أرملة اللواء البحري المتوفى في مصابها:

"القاهرة، 91 أغسطس 8971

لقد قتل زوجك بطلقة مدفع بينما كان يحارب على سطح سفينته، لقد مات بشرف كما يتمنى أن يموت كل جندي. (ولم يعان زوجك حال وفاته).

إن أساك يوتر في كثير. إنها لحظة قاسية عندما نفارق من نحب... وإذا لم يكن من سبب للحياة فقد يكون من الأفضل أن نموت، لكن هناك جانب آخر للأمور عندما تضمين أطفالك لقلبك فستحبي الدموع والعطف رغبتك في الحياة، لتعيشي من أجل أو لادك. نعم يا مدام ستبكين معهم وستتشنينهم وسترعين طفولتهم وستعلمينهم في شبابهم وستحدثينهم عن أبيهم وما حدث له، وعن حبهم وجمهوريتهم. وعندما تربطين روحك بهذا العالم ثانية من خلال التفاعل المتبادل مع أطفالك، أريدك أن تجعلي لصداقتي بعض القيمة ولتضعي في اعتبارك اهتمامي الصادق الذي سأوليه دوما لزوجة صديقي. كوني متأكدة أن هناك رجالا... يمكنهم أن يحولوا الأسى إلى أمل لأنهم يشعرون بشكل واضح تماما بعدايات القلب" (27).

وتضاعفت المحن، فلا يكاد يمر يوم بلا هجمات يشنها العرب أو الترك أو المماليك غير المؤتلفين مع ساداتهم الجدد - على القوات الفرنسية. وفي 61 أكتوبر قامت جماهير القاهرة بثورة على الفرنسيين الذين قمعوا الثائرين، وتخلي نابليون لفترة عن دور الفاتح المتسامح وأمر بقطع أعناق كل ثائر مسلح (37).

وعندما سمع نابليون أن الأتراك (العثمانيين) يعدون جيشا لاستعادة مصر صمم على مواجهة التحدي فأعد ثلاثة عشر ألفا من رجاله إلى سوريا، وانطلق في 01 فبراير سنة 9971 واستولى على العريش وأتم عبور صحراء سيناء. وبيبين لنا خطاب كتبه نابليون في 72 فبراير بعض جوانب هذه المحنة: حرارة وعطش "وماء غير عذب تعزيره ملححة، وأحيانا لا ماء أبداً لقد أكلنا الكلاب والحمر والجمال" ووجدوا في غزة - ويا لسعادتهم - بعد معركة قاسية - خضراوات طازجة وبساتين ذوات فواكه لا مثيل لها.

وفي يافا (Jaffa 3 مارس) توقفوا أمام مدينة ذات أسوار وسكان معادين وحصن يدافع عنه 2007 مقاتل تركي من ذوي البأس، فأرسل نابليون يعرض عليهم شروطا، لكنهم رفضوها، وفي 7 مارس أحدث المهندسون العسكريون الفرنسيون في أسوار المدينة ثغرة اندفع الجنود خلالها فقتلوا من قاومهم من السكان وسلبوا المدينة، وأرسل نابليون، يوجين دي بوهارنيه لإعادة النظام في المدينة فعرض حق الخروج الآمن لكل من يستسلم، وسلم جنود الحصن أسلحتهم حتى لا يلحق الفرنسيون مزيدا من الدمار في المدينة، وسبقوا أسرى إلى نابليون، فرفع يديه فزعا وتساءل: "ماذا يمكنني أن أعمل معهم؟" فلم يكن نابليون يستطيع أن يأخذ 0072 أسير معه في مسيرته تلك فالرجال الفرنسيون بذلوا قصارى جهدهم ليجدوا الطعام والشراب لأنفسهم، ولا يمكنه تدبير عدد كاف من الحراس لاصطحاب هؤلاء الأسرى ليسجنوا في القاهرة، وإذا هو أطلق سراحهم فما الذي يمنهم من حرب الفرنسيين ثانية فعقد نابليون اجتماعا عسكريا وسألهم عن رأيهم في هذه المشكلة، فكان رأيهم أن أفضل حل هو قتل هؤلاء الأسرى، فتم الصفع عن نحو ثلاثمائة منهم، وقتل 1442 طعنا بالحرايب لتوفير الذخيرة (47).

وواصل الغزاة مسيرتهم، وفي 81 مارس وصلوا إلى مدينة عكا Acra شديدة التحصين، وكان يقود المقاومة الجزائر باشا Djeddar يساعده أنطوان دي فيليبو Phélippeaux - الذي كان زميلا لنابليون في الدراسة في بريين Brienne، وحاصر الفرنسيون المدينة دون مدافع حصار ذلك أن مدافع الحصار التي كان قد تم إرسالها من الإسكندرية بحرا استولى عليها أسطول إنجليزي بقيادة سيروليم سدني Sir William Sidney وسلمها إلى حصن المدينة (عكا) وراح يزود حاميتها بالطعام والمواد اللازمة في أثناء الحصار. وفي 02 مايو بعد أن قضى الفرنسيون شهرين أمام أسوار المدينة وتكبدوا خسائر فادحة أمر نابليون بالعودة إلى مصر، وقد ذكر نابليون بعد ذلك متجعجا: "إن فيليبو Phélippeau جعلني أترجع عن عكا Acre، فلولا لأصبحت سيد مفتاح الشرق ولأمكنني الذهاب إلى القسطنطينية واستعادة الإمبراطورية الشرقية" (57). وفي سنة 3081 (غير متوقع أحداث سنة 2181) ذكر لمدام دي ريموسا Rémusat "لقد مات خيالي عند عكا. لن أسمح لها أبدا بالتدخل معي مرة أخرى" (67).

كانت العودة على طول الساحل في أيام نحسات متوالية، لقد كان الجيش أحيانا يقطع مسيرة تصل إلى إحدى عشرة ساعة يوميا بين أبار لا يشرب مأوها في معظم الحالات يسمم البدن ولا يكاد يطفىء عطشا. وطلب نابليون من أطباء الحملة تدبير جرعات مميتة من الأفيون للقضاء على المصابين بأمراض لا شفاء لها، لكن الأطباء رفضوا وسحب

نابليون اقتراحه(77)، وأمر بالتخلي عن ركوب الخيل وتركها للمرضى وجعل من نفسه قدوة لضباطه بسيره على قدميه تاركا حصانه المريض(87). وفي 41 يونيو دخل الجيش الفرنسي المنهك مدينة القاهرة دخول المنتصر وعرض سبعة عشر علما من أعلام الأعداء وستة عشر أسيرا تركيا، كدليل أن الحملة قد حققت نصرا يدعو للفخر. وكان دخولهم القاهرة بعد رحلة شاقة قطعوا فيها 003 ميل في ستة وعشرين يوما.

وفي 11 يوليو أنزلت مائة سفينة على ساحل خليج أبي قير جيشا تركيا لطرد الفرنسيين من مصر فخرج نابليون من القاهرة متجها شمالا على رأس أفضل جنوده وانقض على الجيش التركي فألحق به هزيمة منكرة (في 52 يوليو) حتى إن كثيرين من الترك فضلوا الاندفاع إلى البحر ليموتوا غرقى بدلا من مواجهة الفرسان الفرنسيين المنذفين بعنف.

ومن الصحف الإنجليزية التي أرسلها سيدني سميث Sidney Smith إلى نابليون علم - وبالدهشة - أن التحالف الأوربي الثاني قد طرد الفرنسيين من ألمانيا، وأعاد الاستيلاء على إيطاليا كلها (تقريبا) من الألب إلى كالابريا(97) Calabria. إن صروح انتصاراته كلها قد انهارت عبر سلسلة من الكوارث من الراين وبو Po إلى أبي قير وعكا، والآن من خلال هزائم مخزية وجد نفسه وجيشه الذي هلك جانب كبير منه وقد حوصروا في ممر يحيط به الأعداء، حيث يمكنهم محق الفرنسيين في غضون وقت قليل.

وفي نحو منتصف شهر يوليو تلقى من حكومة الإدارة أمرا كان قد أرسل له في 62 مايو، مؤداه أن يعود إلى باريس فور(08). فصمم على العودة إلى فرنسا بطريقة ما رغم الحصار البريطاني، ليشق طريقه إلى السلطة، وليعزل القادة المخطئين الذين سمحوا بضياح مكاسبه كلها في إيطاليا بهذه السرعة السريعة. ونظم نابليون الأمور العسكرية والإدارية في القاهرة وعين كليبر Kléber المعارض ليكون على رأس ما تبقى من حلم فرنسا ضم مصر إليها. وكانت الخزانة خاوية بالإضافة إلى كونها مدينة بستة ملايين فرنك، فقد كانت هناك متأخرات للجنود وصلت قيمتها إلى أربعة ملايين فرنك، وكان عدد الجنود الفرنسيين يتناقص يوما بعد يوم وكذلك معنوياتهم، بينما أهل البلاد المقاومون يزدادون قوة ويتحنون الفرصة للقيام بثورة أخرى. وكان من الممكن في أي وقت أن ترسل تركيا وبريطانيا العظمى قوات عسكرية إلى مصر يمكنها - بمساعدة أهل البلاد - عاجلا أم آجلا إجبار الفرنسيين على التسليم. وكان نابليون يعلم ذلك كله ولم يكن يستطيع تبرير مغادرته مصر إلا بالقول إنه مطلوب في باريس ولديه أمر بالعودة. وعندما كان يودع جنوده رفع صوته قائلا: "إذا حالفني الحظ ووصلت إلى فرنسا فلا بد أن ينتهي حكم هؤلاء الثرثارين الحمقى"(18). ولا بد من إرسال الدعم لهؤلاء الفاتحين المحاصرين. ولم يصل هذا الدعم أبدا (ومما يذكر أن نابليون كان قد وعد - في وقت سابق - أن يقدم لكل جندي من جنوده ستة هكتارات من الأرض بعد أن يعودوا ظافرين إلى بلادهم).

وكانت الفرقاطتان مويرو Muiron وكارير Carre`re قد أفلتتا من الإبادة التي ألحقها الأسطول البريطاني بالأسطول الفرنسي في أبي قير، فأرسل نابليون أمرا بتجهيزهما في محاولة منه للوصول إلى فرنسا. وفي 32 أغسطس سنة 9971 ركب السفينة مويرو Muiron ومعه كل من بورين Bourrienne وبرثولي Berthollet ومونج Monge، وتبعهم الجنرالات لان Lannes ومورا Murat ودينو Denon وغيرهم السفينة كارير(28) Carrère وبسبب الضباب وحسن الحظ أفلتت السفينتان من مراقبة جواسيس نلسون وأسطوله. ولم يستطع نابليون ومن معه التوقف في مالطا لأن البريطانيين المنتصرين كانوا قد استولوا على هذا الموقع الحصين في 9 فبراير. وفي 9 أكتوبر رست السفن إزاء فريجو Fréjus وجدف نابليون ومساعدوه حتى الشاطئ عند سان رافائيل St.Raphael والآن إما أن يكون "القيصر أو لا أحد" "aut Caesar aut nullus".

4 سبتمبر 1791 - 9 نوفمبر 1791

أدت نجاحات الجيوش الفرنسية - والتي بلغت ذروتها في إخضاع بروسيا في بازل Basel في سنة 1791، والنمسا في كومبوفورميو Compoformio في سنة 1791، ونابلي وسويسرا في سنة 1791 - إلى تراخي الحكومة الفرنسية التي تكاد تكون قد أصيبت بالكسل الشرقي (الكسل والتراخي السائدين في بلاد الشرق) فقد خضع المجلسان التشريعيان لحكومة الإدارة (حكومة المديرين) واعترف هؤلاء (أعضاء حكومة الإدارة) بدورهم بزعامة كل من بارا Barras وروبل Rewbell ولارفيليه Larevellie`re. ويبدو أن هؤلاء الثلاثة قد اتخذوا من الشاعر الذي تتسبه الروايات إلى البابا ليو العاشر Leo X ، ذلك الشاعر القائل: إنه "ما دام الرب قد أعطانا هذا المنصب فدعونا نستمتع به". لقد كانوا سعداء فيما يبدو بفترة السلام النسبي التي أتاحت لفرنسا أمنا من الناحية الظاهرية، وكانوا قد تعلموا بالخبرة أن المناصب الحكومية غير مضمونة خاصة في أثناء الثورات، فراحوا يستعدون للإطاحة بهم بفرض أعشاشهم (المقصود راحوا يجمعون الأموال ليؤمنوا حياتهم إذا ما تركوا الحكم)، فعندما عرضت إنجلترا المعزولة عليهم السلام في يوليو سنة 1791 قيل لها إن ذلك أمر يمكن ترتيبه إذا دفعت مبلغ 005.000 جنية إسترليني لكل من بارا Barras وروبل Rewbell واستطاع هؤلاء الأشخاص الأنف ذكرهم الحصول على رشوة - فيما يظهر - من البرتغال، كان مقدارها 004.000 جنية إسترليني، لقاء السلام الذي حصلت عليه من فرنسا في أغسطس من العام نفسه (38). وكان روبل Rewbell جشعا وكان بارا يحتاج إلى دخل متحرك (غير ثابت كالمرتبات الحكومية) ليحفظ بالمدام. أما تالييه Tallien والمرتبون به فكانوا ذوي نزوات ومتسمين بالمرح، وكانوا في حاجة إلى الأموال للاحتفاظ بمساكنهم الفاخرة في قصر لكسمبرج (48) Luxembourg أما تاليران Talleyrand وزير الشؤون الخارجية فقلما كان يفلت فرصة ليجعل الثورة تمول ما يشبع ذوقه الأرستقراطي، وقد أحصى بارا العمولات tips التي يحصل عليها، فوجدوا - غالبا - تزيد عن 001.000 جنية (ليفير) في السنة (58). وفي أكتوبر سنة 1791 حضر إلى باريس ثلاثة مندوبين أمريكيين لفض نزاع حول سفن أمريكية استولى عليها قرصنة فرنسيون مفوضون من الحكومة، على وفقا ما ذكره الرئيس جون آدمز John Adams فقد قيل لهم أنه يمكنهم الوصول إلى اتفاق بتقديم قرض قيمته 23 مليون فلورين Flourins لحكومة الإدارة و "حلاوه" douceur (المقصود رشوة) قيمتها 05.000 جنية إسترليني لتاليران (68).

لقد واجه هؤلاء الثلاثة (أعضاء حكومة الإدارة الأنف ذكرهم) كثيرا من المشاكل فقد يجوز لنا التاسمح مهم في معظم أخطائهم - على الأقل فيما يتعلق بإنعاش أنفسهم مساء بابتسامات الغيد الحسان. لقد تجنبوا انهيارا ماليا آخر بجمع الضرائب التقليدية بجدية أكثر من ذي قبل، واستردوا الضرائب التي كانت في حكم الميتة كضريبة الانتقال، وفرضوا ضرائب جديدة - كتلك التي فرضوها على الرخص، والأختام والدمغات وطوابع البريد، وعلى النوافذ والأبواب. لقد ترأسوا أمة ممزقة الجسد والروح، ممزقة في الدوائر (المحافظات) وممزقة حتى على مستوى الطبقة الواحدة، ممزقة لتصارع أغراضها:

النبل والبلوتوقراط (الذين حازوا النفوذ بسبب ثروتهم)، أهالي فيندي الكاثوليك واليعاقبة غير المؤمنين بالكاثوليكية (النص: الملاحدة .atheists).- الاثتراكيون أتباع بابيف Babeuvian Socialists والتجار المطالبون بالحرية، والعوام الحالون بالمساواة والذين يعيشون على حافة المجاعة. ولحسن الحظ فقد أدت وفرة المحاصيل في عامي 6971 و 8971 إلى تقليل أعداد الواقفين في الصفوف للحصول على الخبز.

لقد كان انتصار الليبراليين على أعضاء حكومة الإدارة ذوي الاتجاه الملكي في سنة 1791، من إنجاز الراديكاليين الذين قدموا دعما ضد ذوي الاتجاهات الملكية في ذلك الوقت.

وعن طريق الدفع إلى حد ما (تقديم الرشاوي) استطاع هؤلاء الثلاثة - على أية حال - فرض الرقابة على الصحافة ذات الميول البورجوازية والمسارح والانتخابات غير النزوية والقبض على المعارضين بلا سابق انذار، وجددوا معركة هيبير Hébertist Campaign ضد الدين.

وتم إبعاد الراهبات عن مهمة تعليم النشء، وعهد به إلى معلمين صدرت إليهم الأوامر بنزع الأفكار الغيبية كلها من المقررات التي يدرسونها(78). وفي غضون اثني عشر شهرا في عامي 7971 و 8971 تم ترحيل 391 إكليريكيًا على السفينة ديكاذ decade لم يبق منهم على قيد الحياة بعد ترحيلهم بعامين سوى تسع وثلاثين(88). وبينما كان الصراع الداخلي يشتد كان الخطر الخارجي يزداد، ففي هولندا وبلاد الراين أدى جشع حكومة الإدارة إلى خلق أعداء لفرنسا بدلا من الأصدقاء، فقد كانت الضرائب باهظة، وعارض الشباب التجنيد الإلزامي، وزاد الحق بسبب القروض الإجبارية (الاقتراض بدون رغبة المقرض - بكسر الراء)، والاستيلاء على الذهب والفضة والقطع الفنية من الكنائس ورجال الدين المبعدين، والناس العاديين على سواء. وفي غضون ثلاث سنوات جمعت حكومة الإدارة من بلجيكا ومناطق الراين وإيطاليا بليونين من الجنيهات(98) Livres. وبعد مغادرة بونابرت مصر "واصلت حكومة الإدارة سياسة الفتح أو بمعنى أوضح سياسة السلب، فاحتلت مناطق جديدة بقصد تحصيل الأموال وسلبت السكان وفرضت "التعويضات" على الحكومات المحلية (التعويض هو مبلغ تقدمه الحكومة المحلية لقاء قيام الثورة بتحريرها). كل ذلك جعل فرنسا ملعونة مكروهة"(09) فقد قال مالي دي با Mallet du Pa وهو موال للنظام الملكي " إن فرنسا تأكل أوروبا ورقة ورقة وكأنها - أي أوروبا - رأس خرشوفة. إنها - أي فرنسا تحرض الشعوب على الثورة حتى تسلبها، وهي تسلبها حتى تتمكن هي من الاستمرار"(19) لقد أصبحت الحرب مربعة أما السلام فقد يكون مدمرا لها. وقد وجد تاليران أن سفينة الدولة غير ثابتة وتبحر في جو عاصف فقدم استقالته من منصبه الوزاري(02) يوليو (8971) وانسحب ليستمتع بما سلبه(29).

وكان نابليون قد قدم مثالا حفز غيره على تقليده، يجعل الحرب وسيلة لجمع الأموال، كما أن عملياته الطائشة كانت إلى حد ما مسئولة عن ويلات الحرب التي أوقعت فرنسا في برائن حكومة الإدارة المنهارة. لقد تسرع نابليون كثيرا - وبشكل سطحي - بإخضاع إيطاليا للحماية الفرنسية وترك المناطق التي فتحها في أيدي أتباع ينقصهم ما كان يتصف به هو من حدة ذهن ومهارة دبلوماسية. وكان نابليون قد عول - بشكل متفائل جدا - على رغبة الجمهوريات الإيطالية الجديدة في دفع مبالغ لفرنسا لقاء تحريرها من النمسا، وأساء تقدير موقف إنجلترا العنيف من احتلاله لمالطا ومصر، فما كان يظن أن موقف إنجلترا إزاء هذا الاحتلال سيكون يمثل هذه الشدة، وإلى أي مدى ستقاوم تركيا الخاملة دعوة عدوتيهما القديمتين: روسيا والنمسا إلى الانضمام إليهما لتأديب هؤلاء الثوار محدثي النعمة وإلى أي مدى سيؤدي اهتمام روسيا وبروسيا والنمسا بتقسيم بولندا في شرق أوروبا إلى انشغالهم عن إعادة الحق الإلهي إلى الملوك في غرب أوروبا.

لقد كانت عروش أوروبا تقريبا تتحين الفرصة للانقضاض على فرنسا مرة أخرى. وقد أدرك الملوك أن هذه الفرصة قد سنحت عندما أخذ نابليون معه 53.000 من خيرة جنود فرنسا ورجالها إلى مصر، فحاصروا فرنسا بمجرد انتصار نلسون في معركة أبي قير البحرية، وما نتج عن ذلك من عدم قدرة الجيش الفرنسي في مصر على العودة سريعا إلى فرنسا. وقبل القيصر بول الأول Czar Paul I نتيجة انتخاب ليكون الرئيس الأعلى لفرسان مالطا Knights of Malta وأخذ على عاتقه طرد الفرنسيين من هذه الجزيرة بالغة الأهمية وعرض مساعدته على فرديناند الرابع Ferdinand IV لاستعادة نابلي Naples، وكان يحلم بأن تكون لروسيا موانئ صديقة في نابلي ومالطا والإسكندرية، وبالتالي يجعل روسيا قوة من قوى البحر المتوسط. وفي 92 ديسمبر سنة 8971 عقد حلفا مع إنجلترا، وعندما سمح الإمبراطور فرانسيس الثاني Francis II بالمرور الآمن في الأراضي النمساوية للجيش الروسي ليمر إلى الراين، أعلنت فرنسا الحرب على النمسا (21 مارس 9971)، فانضمت النمسا - إثر هذا - إلى كل من روسيا وتركيا ونابلي والبرتغال وإنجلترا في الحلف الثاني ضد فرنسا.

وتجلى ضعف حكومة الإدارة في هذا الصراع الذي كانت هي السبب في إثارته، وعجزت عن التنبؤ به. لقد كانت بطيئة كسلى فلم تستعد له بما فيه الكفاية، وكانت غير ناجحة في إعداد ميزانية الحرب، وكانت خرقاء في تطبيق سياسة التجنيد الإجباري. لقد جندت 002.000 رجل لم يكن صالحا منهم للخدمة سوى 341.000 وقد مثل من هؤلاء للأوامر 79.000 وفر منهم آلاف في أثناء المسيرة فلم يصل منهم إلى وحداتهم العسكرية المحددة لهم سوى 47.000، وفي معسكراتهم وجدوا الفوضى ضاربة أطنابها ووجدوا نقصا في الملابس والمعدات والأسلحة. وكانت روح الحماسة التي كانت في وقت من الأوقات تغمر الجيش الجمهوري شجاعة ورغبة في القتال، قد اختفت من هؤلاء الرجال الذين عاشوا سنين محبطين حيث الفوضى وخيبة الأمل. لم يكن هناك في ظل حكومة الإدارة الآن (8971) ذلك العزم والنظام الذي ساد في حرب 3971 في ظل لجنة الأمن العام.

لقد كانت هناك بعض النجاحات الأولية والمضللة فقد فتح الفرنسيون بيدمونت Piedmont وتسكانيا Tuscany وجمعوا منهما الضرائب. وانتصار الملك فرديناند الرابع بطرد الفرنسيين من روما، سرعان ما محقه الفرنسيون باستعادة روما بقيادة جان - اتين شامبيون Jean - Etienne Championnet الذي دخل المدينة (روما) في 51 ديسمبر، وتراجع فرديناند بحاشيته مع لادي هاميلتون Lady Hamilton وعشرين مليون دوكات ducat إلى

باليرمو Palermo في ظل حماية أسطول نلسون. واستولى شامبيون على نابلي وأقام فيها الجمهورية البارثينوبية Parthenopean Republic تحت حماية فرنسا. وكلما تقدمت الحرب كانت تنضم فرق عسكرية جديدة للقوات الروسية النمساوية الإنجليزية فوجد الفرنسيون أنفسهم أمام قوات تفوق قواتهم عددا (071.000 مقاتل فرنسي مقابل 023.000 من قوات الحلفاء). وكان الجنرال الفرنسيون - رغم براعة عمليات مسينا Masséna في سويسرا - تنقصهم قدرة بونابرت على هزيمة قوات أكثر عددا باستخدام استراتيجيات أكثر براعة وتكتيكات ونظم متقدمة. لقد هزم جوردا Jourdan في ستوكاش (Stockach 52 مارس 1971) وتراجع إلى ستراسبورج Strasbourg وتخلّى عن منصب القائد. وهزم شيريه Sjérer في ماجنانو (Magnono 5 أبريل) وانسحب بقواته بغير نظام ففقد قواته كلها تقريبا وتخلّى عن منصبه تاركا إياه لمورو Moreau ، عندئذ أقبل "شيطان الإنس" حقا الإكسندر سفورف Aleksandr Suvorov على رأس ثمانية عشر ألف روسي وقادهم مع بعض الفصائل النمساوية في معركة شرسة فاستعاد من الفرنسيين المناطق التي كان نابليون قد فتحها في عامي 6971 و7971، منطقة إتر منطقة، ودخل ميلان منتصرا في 72 أبريل فتراجع مورو Moreau إلى جنوا، وانتهت جمهورية سيزالين Cisalpine النابليونية نهاية مبكرة. ولما وجد ماسينا Masséna نفسه وحيدا بجيش صغير في سويسرا تخلّى عن فتوحاته هناك وانسحب إلى الراين.

ولما وجد سوفورف Suvorov مدى سهولة استرجاع لمبارديا إلى حوزة النمسا انطلق من ميلان لمقابلة القوات الفرنسية القادمة من نابلي وروما وألحق بها الهزيمة في تريبييا (Trebbia 71-91 يونيو 1971) فلم يبق منها إلا بقايا وصلت جنوا. وبذا انتهت الجمهورية البارثينوبية نهاية مبكرة. واستعاد فرديناند عرشه Neapolitan throne وأقام حكم إرهاب حكم في ظلالة بالإعدام على مئات الديمقراطيين. وقاد جوبير Joubert الذي تولى منصبه مؤخرا بقايا القوات الفرنسية في إيطاليا ضد سوفورف Suvorov في نوفي: (Novi 51 أغسطس) وتصرف بتهور شديد فلاقى حتفه في مستهل المعركة. لقد حارب الفرنسيون بشجاعة لكن من غير أن يحققوا نتائج طيبة. لقد سقط منهم في ساحة المعركة 21.000، وعندما علمت الحكومة الفرنسية بهذه النكبة التي بلغت ذروتها تحققت أن فتوحاتها التي حصلت عليها بصعوبة شديدة قد ضاعت، وأنه قد يصبح الروس بقيادة سوفوروف حلالاً على الأرض الفرنسية. وكان خيال العامة في الأزراس وبروفنس Provence يصور هذا القائد الروسي ورجاله وكأنهم "برابرة عماليق" كموجات عاتية من السلاف المتوحشين تجوس خلال مدن فرنسا وقراها.

إن فرنسا التي كانت إلى عهد قريب فخورة بقوتها وانتصاراتها أصبحت الآن في حالة فوضى وفزع لا تقل عن حالة الفوضى والفزع التي سادتها سنة 2971 والتي أدت إلى مذابح سبتمبر. لقد ثار أهل إقليم فيندي Vendée مرة أخرى وتمردت بلجيكا على حكومتها الفرنسية، وأصبح خمس وأربعون دائرة (محافظة) من ست وثمانين محافظة - تقريبا بلا حكومة ولا ضوابط، لقد قاتل الشباب الضباط الذين أتوا لتجنيدهم إجباريا، وجرى قتل موظفي البلديات وجامعي الضرائب وأثار مئات اللصوص وقطاع الطرق الذعر في قلوب التجار والمسافرين سواء في شوارع المدن أم على الطرق الزراعية (المارة بالريف) وفاقت قوة المجرمين رجال الشرطة، ففتحو السجون وأطلقوا سراح المسجونين وضمومهم في تنظيمات شكلوها، وتعرضت المساكن ودور العبادة كلها للنهب. لقد عاد "الرعب الكبير" الذي ساد في سنة 4971 مرة أخرى.

وتطلعت الأمة بأمل طالبة الحماية من نوابها الذين أرسلتهم إلى باريس لكن المجلسين كانا قد استسلمتا لحكومة الإدارة، وحكومة الإدارة بدورها لم تبد سوى أنها أوليغاركية مغتصبة (حكومة أقلية مغتصبة) تحكم بالرشوة والمغالطة والقهر.

وفي مايو سنة 9971 وجدنا سيبيز Sieyès - الذي كان راهبا في وقت من الأوقات، والذي راح طوال عشر سنوات مضت يغازل الثورة بتوجيه هذا السؤال: ماهي الطبقة الثالثة؟ وكان يجيب عن السؤال الذي طرحه بقوله إنها الأمة ويجب أن يسمى أبناؤها أنفسهم بذلك (الأمة) سيبيز هذا خرج من ثوب الغموض الذي كان يتدثر به، فتم انتخابه عضوا في حكومة الإدارة وذلك لأنه كصانع دساتير أصبح متفاعلا مع القانون والنظام ووافق سيبيز على الخدمة شريطة استقالة روبل Rewbell ، فاستقال روبل بعد أن حصل على ترضية باهظة: 001.000 فرنك (39). وفي 81 يونيو أرغمت أقلية قوية من اليعاقبة في المجلسين حكومة الإدارة على إبعاد لاريفليير Larevelliere وتريهار Treihard ومرلي Merlin على أن يحل محلهم لويس جيروم جوهيه Louis-Jérôme Gohier وجان فرنسوا مولي Jean-Francois Moulin وروجر دوكو Roger Ducos. وأصبح فوشي Fouche وزيرا للشرطة وروبرت ليند Robert Lindt رئيسا للخزانة، وكان كلاهما في لجنة الأمن العام المنحلة وأعيد فتح نادي اليعاقبة في باريس، وراح الناس يسمعون ثناء على روبيسبير وبابيف (49) Babeuf.

وفي 82 يونيو فرضت الهيئة التشريعية Legislature بتأثير اليعاقبة تحصيل فرض مقداره مئة مليون جنيه (ليفير) على شكل ضريبة تراوح بين 03% و 57% على الدخل العالية، فاستأجر المواطنون الأثرياء محامين لإيجاد

ثغرات في القانون لتحاشي هذا القرض الإجباري وراحوا يصيخون السمع برغبة لحبك مؤامرات للإطاحة بالحكومة. وفي 21 يوليو مهد اليقافية لإصدار "قانون الرهائن a law of Hostages" والذي بمقتضاه صدرت الأوامر إلى كل كومون في فرنسا أن يعد قوائم المواطنين من النبلاء الذين لا يحميهم القانون في دائرته والتحفظ عليهم وإخضاعهم للمراقبة فإذا حدثت سرقة اتهم فيها واحد منهم تحتم إرغامه على إعادة المسروقات وإن قتل واحد من الوطنيين (المقصود هم الموالون للحكم القائم) تم نفي أربعة من هؤلاء الرهائن. وقد قوبل هذا القرار بصيحات الفزع من الطبقات العليا ولم يرحب به العامة ترحيبا كافيا .

وبعد عقد من الهياج والنزاع بين الطبقات والحروب الخارجية والقلقل السياسية والمحاکمات غير القانونية والسلب والنهب والإعدامات والمذابح أصبح أهل فرنسا كلها من ضحايا الثورة فراحوا يتحسرون على الأيام الطبية التي خلت، أيام لويس السادس عشر وشعروا أنه لا يستطيع أحد أن يعيد إلى فرنسا النظام والسلامة سوى ملك. وأولئك الذين ظلوا على كاثوليكيتهم راحوا يصلون مبتهلين طالبين أن يحل اليوم الذي يتخلصون فيه من حكم الملاحدة atheists ، بل إن بعض المتشككين الذين تخلوا عن المعتقدات الغيبية كلها راحوا الآن يتشككون الآن في إمكانية أن يستطيع نظام أخلاقي لا يدعمه دين مقاومة العواطف والانفعالات غير المنضبطة والدوافع غير الاجتماعية التي ترسخت في قرون انعدم فيها الأمان وسادت فيها الوحشية والقتل، وراح كثيرون من الأباء غير المتمسكين بعقيدة يرسلون أبناءهم إلى الكنائس لأداء الصلوات، وتأدية طقس الاعتراف وتناول العشاء الرباني حتى يعين ذلك كله على تحليهم بالتواضع ولتقوية عرى الروابط الأسرية وتحقيق السلام مع النفس. والفلاحون والبورجوازيون الذين يدينون للثورة بأراضيهم ويريدون الاحتفاظ بهذه الأراضي قد بغضوا الحكومة رغم هذا، فهي ترسل لهم غالبا من يفرض الضرائب على محصولاتهم أو يجند أبناءهم قسراً. وكان عمال المدن صاخبين في مطالبتهم بالخبز بدرجة أكثر يأساً عن ذي قبل حتى عن فترة ما قبل سقوط الباستيل، لقد رأوا التجار والصناع والسياسيين وأعضاء حكومة الإدارة يعيشون في رغد من العيش فراحوا ينظرون إلى الثورة باعتبارها أخلت البورجوازيين سادةً ومستغلين للدولة بدلا من النبلاء، ومع هذا فقد كان سادتهم البورجوازيون ساخطين بدورهم فالطرق غير الآمنة والتي اعتراها الإهمال جعلت التجارة عملية مرهقة ومنطوية على المخاطرة، وأحبطت القروض القسرية (على غير رغبة المقرض بكسر الرأى) والضرائب المرتفعة الراغبين في الاستثمار وإقامة المشروعات، ففي ليون Lyons أغلق ثلاثة عشر محلا تجارياً أبوابها من بين خمسة عشر ألفاً، باعتبارها غير مربحة، وكان هناك الألوف من العاطلين رجالا ونساء، وكان لي هافر Le Havre وبوردو ومرسيليا قد اعتراها الخراب بسبب الحرب وبسبب الحصار البحري البريطاني. ولم تكن الأقلية التي يزيد تناقصها تستطيع إلا بجهد شاق أن تعقد رباطا بين الثورة والحربة، فقد حطمت الثورة كثيرا من الحريات وأجازت كثيرا من القوانين الإرهابية وأرسلت خلقاً كثيرا رجالا ونساء- إلى السجن أو المقصلة. وراحت النسوة خلا الزوجات ومشرفات البيوت وبنات الأثرياء الجدد وكبار السن ينتقلن من صف إلى صف باضطراب أمام المحلات مخافة أن ينفذ المعروف من البضائع ورحن يتساءلن متى يعود أبنائهن وإخوانهن وأزواجهن من الحرب؟ أما لهذه الحرب من نهاية؟ وكان الجنود الذين اعتادوا على العنف والسرقة لا يعانون فقط من الهزيمة وإنما أيضا من نقص المؤن ورداءة الطعام، وكان مما يثير غضبهم ما يصل إلى علمهم مرارا بشأن فساد الرجال الذين يقودونهم وأولئك الذين يقدمون لهم الغذاء واللباس، وعندما كان هؤلاء الجنود يعودون إلى باريس أو إلى مدنهم كانوا يجدون أيضا عدم الأمانة سائدة في المجتمع وفي التجارة والصناعة والمالية والحكومة. لقد كان سراب إيجاد عالم بهيج جديد يتراجع ويتلاشى كلما زادت أيام الثورة .

وارتفعت الروح المعنوية شيئا ما ولفترة قصيرة عندما وصلت أنباء بأن الحلفاء قد تنازعا وانقسموا على أنفسهم، وأنهم قد هزموا وترجعوا في سويسرا والأراضي المنخفضة، ذلك لأن ماسينا Masséna استعاد المبادرة وقسم الجيش الروسي إلى قسمين في زيورخ (Zurich 62 أغسطس 1971) ذلك أن هؤلاء السلاف المرعبين كانوا في حالة تراجع لأن روسيا كانت قد خرجت من التحالف ضد فرنسا وبدأ الفرنسيون يأملون في أن يعود بعض الجنرالات الأكفاء مثل ماسينا Masse`na أو مورو Moreau ، وحبذا بونابرت الذي عاد من مصر سالما ويقود جماعة منظمة في باريس ويطيح بالسياسيين ويمنح فرنسا الانضباط والأمان حتى لو كان هذا على حساب الحرية. لقد انتهى الفرنسيون إلى نتيجة مؤداها أنه لا يقدر على إنهاء فوضى الثورة، وفرض النظام في فرنسا وإحلال الأمن بها مما هو ضروري لحياة متحضرة سوى حكومة مركزية يقودها زعيم واحد متمتع بالصلاحيات اللازمة .

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> حكومة الإدارة -> نابليون يتولى المسؤولية

10- نابليون يتولى المسؤولية

81 برومير (9 نوفمبر) 9971

ووافق سيييز Sieyès ، لكنه عندما درس زملاءه في حكومة الإدارة رأى أنه لا أحد منهم (ولا حتى بارا Barras البارخ) يشاركه الفكر والرؤية اللازمتين لفرنسا موحدة سوية وكان الرجل متشربا بفكرة الدستور لكن يحتاج إلى جنرال ليكون عوناً على إصدار الدستور وليكون ذراعاً له (أي لسيييز). وفكر في جوبير Joubert لكن جوبير كان قد مات، فأرسل في طلب مورو Moreau وراح يحثه أن يكون "فارس الحلبة a man on horse back لكنهما عندما علما بعودة نابليون من مصر، قال مورو: "جاء رجلك إنه يستطيع أن يقوم بالانقلاب الذي تفكر فيه أفضل مما أستطيع أنا" (59) وتفكر سيييز ملياً، فنابليون يمكن أن يكون هو الرجل المطلوب، لكن أيقبل أن يوجهه سيييز والدستور الجديد؟

وفي 31 أكتوبر أحاطت حكومة الإدارة المجلسين علماً بأن بونابرت قد رسا بالقرب من فريجو Frejus فهب النواب وقوفاً وهللاً. وظل أهل باريس طوال ثلاثة أيام يحتفلون ليلاً ونهاراً بهذه الأخبار بالشرب في الحانات والغناء في الطرقات. وفي كل مدينة تقع على الطريق من الساحل إلى العاصمة (باريس) هبت الجموع شعباً وقادة لتحية الرجل الذي بدا لهم رمزاً للنصر وتأكيداً له. حتى إنهم لم يسمعوا بالنكبة التي حدثت للفرنسيين في مصر، ففي المراكز والتجمعات المختلفة ذكر المراقبون أن "الجموع المتجمعة كثيرة جداً مما عطل حركة المرور فلا يستطيع أحد أن يتقدم إلا بصعوبة" (69) وفي ليون جرى عرض مسرحية تكريماً له، ووجه الخطيب الحديث إليه قائلاً: "اذهب وحارب العدو واهزمه وسننصبك ملكاً" (79) لكن الجنرال الصغير (نابليون) كان صامتاً مكتئباً، لقد كان يفكر في كيفية التصرف مع جوزفين.

وعندما وصل باريس (61 أكتوبر) اتجه مباشرة إلى المنزل الذي كان قد اشتراه في الشارع الذي كان اسمه قد تغير تكريماً له ليصبح اسمه "شارع النصر Rue de la victoire". لقد كان يأمل أن يجد زوجته المنحرفة هناك ليطردها من حياته، لكنها لم تكن هناك لسببين، أولهما أنه في 12 من أبريل سنة 9971، بينما كان يحاصر عكا، اشترت هي 003 أكر على نهر السين على نحو عشرة أميال من باريس وشيدت في هذه المساحة بيتاً Malmaison (بيت الضرار أو بيت السوء) قدم لها بارا Barras 05·000 فرنك كدفعة أولى من تكلفته البالغة 003·000 فرنك، وكان الكابتن هيبوليت شارل Hippolyte Charles هو أول ضيوفها في هذا القصر الرحب (89). والسبب الثاني أنها هي وابنتها كانتا قد غادرتا باريس قبل أربعة أيام لتتجها إلى ليون Lyons على أمل مقابلة بونابرت في الطريق، وعندما اكتشفت جوزفين وهورتينز Hortense أن نابليون كان قد اختار طريقاً مغايراً عادا وقد اعتراهما التعب وشملهما المرض حفا بسبب الرحلة وقطعا مائتي ميل إلى العاصمة، وفي هذه الفترة أتاه والد زوجها الراحل، الرجل الهرم الماركيز دي بوهارنيه de Beauharnais وراح يبرر له وبحثه على مسامحتها :
"مهما تكن أخطاؤها فلتنسها، لا تلوث لحبتي التي اشتعلت شبيهاً ولا تلوث الأسرة التي منحتك التشريف" (99). أما إخوة بونابرت فقد حثوه على طلاقها وقد كانت أسرته مستاءة من سلطانها عليه، لكن بارا Barras حذره من أن الفضيحة العامة تضر بمركزه السياسي.

وعندما وصلت الأم المنهكة (جوزفين) وابنتها إلى 3 شارع النصر (81 أكتوبر) قابلهما يوجين Eugene عند نزولهما من العربة وحذرهما من عاصفة متوقعة، فتركت جوزفين، يوجين يحتفي بأخته، وأسرعت بصعود السلم قفزاً

وطرقت باب غرفة نابليون الذي أجابها بأنه قرر ألا يراها ثانية، فخرت على السلم وراحت تتشجج بالبكاء حتى أتى يوجين وهورتنس Hortense فساعدوها على النهوض، وعادا معها ليتوسلا إلى نابليون معا، وفي وقت لاحق قال نابليون: "لقد تأثرت بشدة فلم أكن أستطيع أن أتحمل بكاء ابنتها وبناتها، وسألت نفسي: أيجب أن يكونا ضحية سقوط أمهما؟ فبسطت يدي وأمسكت بذراع يوجين وأردفته خلفي. عندئذ أتت هورتنس ومعها أمها... ماذا يمكن أن يقال؟! إن المرء لا يكون إنسانا دون أن يرث الضعف البشري" (001).

في هذه الأيام التي نزرع فيها إلى السكون والتأمل تجنب فيها أن يظهر أمام العامة، فقد كان يعرف أن الرجل العام (موضع اهتمام العامة) لا يجب أن يكون عاما جدا. وفي البيت وعندما يخرج، كان لباسه مدنيا حتى يحبط الشائعات القائلة بأن الجيش كان يخطط للاستيلاء على الحكم. وقام بزيارتين: زيارة ليقدم احترامه لمدام هيلفيتيوس Helvétius البالغة من العمر ثلاثة وثمانين عاما، وذلك في أوتيل Auteuil، والزيارة الثانية للمعهد العلمي حيث تحدث عن الحملة الفرنسية على مصر باعتبارها في جانب كبير منها ذات أبعاد علمية (لصالح العلم) وقد أيدته في هذا بيرثولت Berthollet ومونج Monge وراح لابلاس Laplace ولاجرانج Lagrange وكابانيه Cabanis وكثيرون غيرهم يستمعون إليه كعالم وفيلسوف (101). وفي هذا الاجتماع قابل سبيزر Seiyès وكسبه إلى جانبه بملاحظة واحدة: "ليس لدينا حكومة لأنه ليس لدينا دستور أو على الأقل ليس لدينا الدستور الذي نحتاج لا بد أن تقدم لنا بعقبريتك هذا الدستور المطلوب" (201).

وسرعان ما أصبح بيته مركزا للمفاوضات سرية. لقد استقبل زوارا من "اليسار" ومن "اليمين" (يساريين ويمينيين)، ووعد اليعاقبة بالمحافظة على الجمهورية ودافع عن مصالح الجمهور، لكنه أعلن أخيرا وبصراحة أنه "قابل ممثلي البوربون" (301 Bourbons) وعلى أية حال فقد جعل نفسه بعيدا عن أي فريق، خاصة الجيش. ونصحه الجنرال بيرنادوت Bernadotte الذي كان يأمل أن يتولى الحكومة بنفسه ألا يقم نفسه في السياسة ويكتفي بمنصب قيادي عسكري. واستمع نابليون بمزيد من الرضا لمدنيين مثل سبيزر الذي نصحه بتولي أمر الحكومة وتدشين دستور جديد. وكان هذا يتطلب تعديل أو خرق قانون أو قانونين، ولكن مجلس الشيوخ خوفاً من إحياء حركة اليعاقبة قد يتغاضى عن شيء من التجاوز للقانون (بتغاضى عن خروج قليل عن القانون)، أما مجلس الخمسمائة فرغم أن به أقلية يعقوبية قوية، فإنه قد انتخب مؤخراً لوسين بونابرت Lucien Bonaparte رئيساً له. ومن بين أعضاء حكومة الإدارة الخمسة كان سبيزر Sieyès ودوكو Ducos إلى جانب نابليون، وكان تاليران Talleyrand يحث بارا Barras على الانسحاب بما حققه من مجد ومكاسب (غنائم) أما جوهيه Gohier رئيس حكومة الإدارة فكان على علاقة نصف غرامية بجوزفين ويمكن شل حركته بابتسامة منها (401). وقد يكون بعض المصرفيين قد أرسلوا فرنكات لتأكيد صداقتهم (501).

وفي الأسبوع الأول من شهر نوفمبر سرت إشاعة في باريس مؤداها أن اليعاقبة كانوا يجهزون لقيام الجماهير بتمرد، واعتبرت مدام دي ستيل Mme de Stael هذه الأخبار صحيحة فجهزت نفسها للخروج السريع من باريس إذا انفجرت الاضطرابات (601). وفي 9 نوفمبر (اليوم الثامن عشر من شهر برومير (شهر الضباب) الذي سيصبح يوما شهيرا من الآن فصاعدا) أمر مجلس الشيوخ مستخدما حقوقا كفلها له الدستور بنقل اجتماعاته وكذلك اجتماعات مجلس الخمسمائة إلى القصر الملكي في ضاحية سان كلود St. Cloud اعتبارا من اليوم التالي، وتوسع في استخدام حقه الدستوري فقام بتعيين بونابرت قائداً لحامية باريس وأمره بالقدوم فوراً إلى مقر مجلس الشيوخ في التوليري Tuileries لأداء القسم، فأتى نابليون يرافقه ستون ضابطا والتزم بشروط فضفاضة بما فيه الكفاية ليسمح لنفسه بشيء من حرية العمل والاختيار فيما بعد، واستخدم عبارات عامة تتيح له تفسيرها فيما بعد: "إننا نريد جمهورية قائمة على الحرية والمساواة والمبادئ المقدسة لتمثيل الأمة، وسنصل إلى هذه الجمهورية، إنني أقسم" (701). وعندما خرج من القاعة قال للجنود المتجمعين: "الجيش متحد معي ثانية، وأنا أتحدث ثانية مع المجلسين". وفي هذه الأثناء أحضر بوتو Bottot سكرتير بارا Barras إلى نابليون رسالة من بارا عضو حكومة الإدارة الذي كان قويا وناظرا في وقت من الأوقات، يطلب فيها ضمانا بالخروج الآمن من باريس لأنه ينوي الخروج منها. فهب نابليون صارخاً في بوتو Bottot - البائس الذي لا ذنب له إلا أنه حامل رسالة - وراح يقول له بصوت عال يريد أن يسمعه الجند والمدنيون، كلمات كانت كحكم بالإعدام على حكومة الإدارة، لقد قال له بطريقة إياك أعني واسمعي يا جارة: "ماذا فعلتم بفرنسا التي تركتها لكم مزدهرة؟ لقد تركتكم تتعمون بالسلام، فوجدتكم - عندما عدت - في حرب، لقد تركت لكم انتصارات فوجدتها هزائم! لقد تركت لكم الملايين من إيطاليا فوجدت السلب والبؤس. ماذا فعلتم بمئات الآلاف من الفرنسيين الذين أعرف أنهم زملائي وشركائي في النصر والعظمة؟ لقد ماتوا!"

ولم يكن المستعمون إليه يعلمون أنه استعار بعضا من هذه السطور من جرينوبل اليعقوبي Grenoble Jacobin فأحسوا بقوتهم إذ كان قد جرى اختزانهم في الذاكرة فترة طويلة كمبرر للانقلاب الذي سيحدث. ومخافة أن تثير كلماته

هذه سخط بارا فقد انتحى جانبا ببوتو وأكد له أن مشاعره الشخصية عن عضو حكومة الإدارة (بارا) لم تتغير (801). ثم ركب حصانه واستعرض جنوده وعاد إلى جوزفين سعيدا بنجاحه كخطيب.

وفي 01 نوفمبر قاد الجنرال ليفيفر Lefebvre خمسمائة من حامية باريس إلى سان كلو St.-Cloud وعسكر بالقرب من القصر الملكي، وتبعهم نابليون وعدد من ضباطه المقربين، ثم لحق بهم سيز، ودوكو Ducos ، وتاليران ، وبوريين Bourrienne . وراحوا يراقبون اجتماع مجلس الشيوخ في بهو مارس Mars واجتماع مجلس الخمسمائة في حديقة البرتقال المجاورة للبهو (الأورانجيرى Orangerie) وحالما دعا لوسين بونايرت الخمسمائة للجلوس والنظام حتى تعالت الاحتجاجات على وجود العساكر حول القصر . لقد تعالت الصيحات: "لا للدكتاتورية.. فليسقط كل دكتاتور! إننا أحرار ولن تخيفنا الحراب" وكان هناك اقتراح مؤده أن على كل نائب أن يتقدم إلى المنصة وأن يحدد بصوت مسموع قسمه بحماية الدستور، وجرى تنفيذ ذلك بهدوء حتى الساعة الرابعة بعد الظهر .

وتباطأ مجلس الشيوخ أيضا على أساس أنه من الضروري انتظار ما يتقدم به الخمسمائة من اقتراحات، وكان نابليون في غرفة جانبية مغيظا محققا مخافة أن يضيع هدفه إذا لم يتم اتخاذ عمل حاسم حالا. وشق نابليون طريقة بين بيرتييه Berthier وبوريين Burrienne واتجه إلى منصة مجلس الشيوخ وحاول أن يثير هؤلاء الرجال كبار السن ليتحركوا للقيام بعمل ما، لكنه رغم ما كان معروفا عنه من بلاغة في بياناته وحسم في مناقشاته كان في هذه المرة يكظم غيظا ويكتم أفكاره مما جعله غير قادر على ارتجال خطبة منسقة أمام هذا المجلس التشريعي. لقد تحدثت بحدة وعنف وطريقة مشوشة:

" إنكم فوق بركان!... اسمحوا لي أن أتحدث بحرية كجندي (كمقاتل).. لقد كنت أعيش في سلام في باريس عندما استدعيتوني لتنفيذ أوامركم... إنني أجمع رفاق السلاح... لقد هبنا لنجذتكم... بينما الناس يغمرونني باقتراءاتهم.. لقد قالوا إنني مثل قيصر، كرومويل Cromwell وتحدثوا عن حكومة عسكرية... إن الوقت يمضي بسرعة.. إنه من الضروري أن تتخذوا إجراءات حاسمة فورية... إن الجمهورية بلا حكومة، فلم يبق إلا مجلس الشيوخ، فليتخذ المجلس إجراءات، فليناطق، وسأكون أداة التنفيذ. دعونا ننقذ الحرية! دعونا ننقذ المساواة!" (901).

وقاطعة أحد الأعضاء: "وننقذ الدستور أيضا!"

فأجاب نابليون بانفعال غاضب: "دستور!؟ إنكم أنفسكم قد دمرتموه. أنتم انتهكتتموه في 81 فروكتيدور! أنتم انتهكتتموه في 22 فلوريل Floreal . أنتم انتهكتتموه في 31 بريريال Prairial . إنه لم يعد جديرا باحترام من أي إنسان". وعندما طالبوه بأن يسمى الذي وقفوا وراء مؤامرة اليعاقبة، ذكر اسم بارا Barras ومولا Moulin ، فلما طلبوا منه دليلا تلعثم ولم يجد ما هو أكثر إقناعا من توجيه حديثه للجنود الواقفين عند المدخل: "أنتم ، يا رفاقي الشجعان الذي تصحبونني، يا رماة القنابل الشجعان.. إذا تجاسر أي خطيب من هؤلاء، مدفوعا من أحد الأجانب وأعلن إباحة دمي(أنني لست تحت حماية القانون Hors La Loi)، فدعوا بريق الحرب يمحقه فوراً" (011) وغمرت الأسئلة والاعتراضات المتحدث (نابليون) فأصبحت كلماته أكثر اضطرابا وتشوشا، فهب مساعدوه لإنقاذه من هذه الورطة ورافقوه إلى خارج الغرفة(111). لقد بدأ أنه دمر مشروعه.

لكنه قرر أن يحاول مرة أخرى، لكنه في هذه المرة سيواجه عدوه مباشرة، أولئك الخمسمائة الذين تلونوا بلون اليعاقبة، فاتخذ سبيله إلى حديقة البرتقال المجاورة (الأورانجيرى) يرافقه أربعة من رماة البنادق. وكان النواب مستائين من العرض العسكري فضجت القاعة بالصياح: "يسقط الدكتاتور.. يسقط الطغيان! دمه حلال... إنه ليس تحت حماية القانون Hors La Loi". لقد كانت هذه العبارة الأخيرة هي التي تسببت فيما سبق في إسقاط روبيسيير وموته. لقد طرحت فكرة "إهدار دم نابليون" بالفعل فرفض لوسين بونايرت رئيس المجلس طرح الفكرة للتصويت وترك مقعد الرئاسة ليعتلي المنصة ويدافع عن نابليون (أخيه). وأحاط النواب المستقرون (بضم الميم) بنابليون: "إنه من أجل هذا حققت انتصارائك؟! هكذا سأل أحدهم، وتكالب آخرون عليه وتزاحموا حوله حتى كاد يغمى عليه، فأفسح له العسكريون المصاحبون له الطريق وخرجوا به خارج القاعة، فأنعشه الهواء الطلق، فركب حصانه ولجأ الجنود الذين وقفوا مندهشين لرؤية ثيابه ممزقة وشعره مهوشا، فخاطبهم: "أيها الجنود. أيمكنني أن أعتد عليكم؟" فرد كثيرون منهم بنعم وتردد آخرون. لقد كان نابليون مرة أخرى في الغاية من التشوش، فخطته الكبرى تبدو قد تعثرت.

لقد أنقذه أخوه الذي أسرع خارج القاعة الكائنة في حديقة البرتقال(الأورانجيرى) وامتطى أقرب حصان وجعل حصانه إلى جانب حصان نابليون وخاطب الحرس غير المنظم بحسم وبلاغة ولوى الحقائق بشدة:

"إنني كرئيس لمجلس الخمسمائة أعلن لكم أن الغالبية العظمى في المجلس في هذه اللحظة قد اعترأهم الرعب بسبب الخناجر التي يحملها بعض النواب والذين حاصروا المنصة وهددوا زملاءهم بالموت... إنني أعلن أن هؤلاء المجرمين الوقحين لا شك قد تلقوا أموالا من إنجلترا وأنهم ضد إرادة مجلس الشيوخ وأنهم تجرأوا على اقتراح إهدار

دم الجنرال الذي أخذ على عاتقه تنفيذ قرار مجلس الشيوخ.. إنني أعهد إلى المقاتلين بمسئولية تحرير الأغلبية من ممثليهم. أيها الجنرالات والجنود والمواطنون أنتم يجب ألا تعترفوا بمشرعين لفرنسا إلا بالنسبة لهؤلاء الذين يتبعونني أما الذين سيظلون في قاعة حديقة البرتقال (الأور انجيري) فليتم طردهم بالقوة (211).
وشهر لوسين Lucien سيفه ووجهه لصدر نابليون وأقسم أنه إذا تصدى أخوه (نابليون) لحرية الشعب الفرنسي فسيقتله بسيفه هذا.
وعندئذ أمر نابليون بقرع الطبول وأمر الجنود باجتياح الأور انجيري (قاعة اجتماع مجلس الخمسمائة في حديقة البرتقال) وتفريق النواب غير الممثلين للأوامر، فشق مورا Murat وليفييفر Lefebvre ليكونا في المقدمة وتبعهما رماة القنابل وهم يصيحون: "برافو (حسناً) يسقط اليعاقبة! يسقط من كان لهم من دور في سنة 3971... هذا هو القرار الحاسم... إننا الآن نعبّر الروبيكون Rubicon".
وعندما رأى النواب الحراب مشرعة هرب معظمهم وقفز بعضهم من النوافذ وتجمعت أقلية حول لوسين Lucein. وتقدم هذا المنتصر الذي حيك هذه الأفاعيل إلى مجلس الشيوخ وشرح لأعضائه أن مجلس الخمسمائة قد تخلص من أعضائه غير المرغوب فيهم، عندئذ وافق مجلس الشيوخ الذي سعد أعضاؤه بعدم إبعادهم على مرسوم يقضي بأن يحل ثلاثة قناصل بشكل مؤقت Provisional Consuls محل حكومة الإدارة، وهؤلاء القناصل الثلاثة هم: بونابرت وسييز ودوكو Ducos. وتم تنظيم نحو مائة من بين الخمسمائة في مجلس ثان (بدلاً من مجلس الخمسمائة)، وتم إرجاء اجتماعات المجلسين حتى 02 فبراير سنة 0081 وتقرّد القناصل الثلاثة لكتابة الدستور الجديد وحكم فرنسا. وقال نابليون لبورين Bourrienne: "غداً سننام في لكسمبورج (311) Luxembourg".

صفحة رقم : 14566

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الحياة في ظل الثورة -> الطبقات الجديدة

الفصل السادس

الحياة في ظل الثورة

1798-1799

1- الطبقات الجديدة

هنا نوقف الزمن (نتوقف عن سرد الوقائع التاريخية المتتابعة سراعاً) لننظر إلى شعب يعاني من كثافة التجارب التاريخية التي مرت به. فالست والعشرون سنة الكائنة بين سقوط الباستيل، حتى تنازل نابليون نهائياً (1987 - 5181) كانت حافلة بالأحداث التي لا تنسى، مثلها في ذلك مثل العشرين سنة الكائنة بين عبور قيصر للربيكون Rubicon ووصول أغسطس Augustus للسلطة (94-92 ق.م). لقد كانت هذه الفترة التي مر بها الشعب الفرنسي حافلة بالأحداث الخصبية فإنها أكدت كفاي لتشغل قروناً قد تشتمل على وقائع أقل تشنجا وتحولاً. ومع ذلك فقد واصلت الحضارة مسيرتها رغم العقبات، ففي ظل حكومات مرتعشة غير ثابتة الأيدي ظلت المؤسسات وزاد عددها ومجدت العبقرية وتواصلت عناصر الحضارة وفضائلها: إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها، والعمل على الوصول إلى المعرفة ونقلها، ورعاية المواهب والشخصية، وتبادل التأثير والتأثر، وتلطيف حدة الكدح من أجل الحياة، والنضال من أجل الارتقاء بالفنون والآداب والأعمال الخيرية والألعاب الرياضية والأغاني، وإحداث تحولات في الخيال والعقائد والأمال. حقيقة ألم يكن ذلك هو جوهر التاريخ واستمراره، إذا قورن بهياج الحكومات السطحي وفوران الأبطال؟! فهذه الظواهر الأخيرة إن هي إلا عرضية سريعة الزوال، لا تمثل جوهر الحلم.

1 - الفلاحون

كان كثيرون منهم في سنة 1987 لا يزالون إما عمال يومية (عمال مياومة يتلقى الواحد منهم أجراً عن عمل أداه في أثناء اليوم) أو يعملون في الأرض لقاء المشاركة في المحصول (نظام المزارعة)، وكانوا يعملون في أراض يمتلكها الآخرون، لكن ما أن حل عام 13971 إلا وكان الفلاحون يمتلكون نصف الأراضي الزراعية في فرنسا، إذ كان معظمهم قد اشترى أكراتهم (فدادينهم Acres) بأسعار خفضت للمساومة bargain price من ممتلكات الكنيسة التي صادرتها الثورة. وتحرر معظم الفلاحين إلا قليلاً منهم من الرسوم الإقطاعية. فدوافع الملكية حولت العمل من كونه جهداً شاقاً وكدحاً مرهقاً إلى نوع من العبادة أو الحب الشديد، إذ أدى ذلك كل يوم إلى زيادة الفائض الذي يتحول إلى بناء المنازل وأماكن الاستجمام والكنائس والمدارس، وهذا يحدث فقط إذا تم التحايل على جامع الضرائب أو تضليله أو استرضائه. وكان يمكن دفع الضرائب بالأسينات assignats (العملة النقدية الورقية الحكومية) على وفق قيمتها الاسمية (المكتوبة عليها) بينما كانت المنتجات تباع بأسينات مضاعفة مائة مرة حتى يضمن البائع أن المبلغ الذي باع به أصبح يساوي قيمة ما باعه. ولم يحدث أبداً أن كانت زراعة الأرض الفرنسية تتم في أي وقت مضى بمثل هذا الحماس وهذه الطريقة المثمرة، وكان تحرير أكبر الطبقات في مجتمع أصبح الآن بلا طبقات هو أهم نتائج الثورة وأكثر ديمومة وأشدّها وضوحاً. فهؤلاء الممولون الأشداء أصبحوا أقوى المدافعين عن الثورة لأنها أعطتهم الأرض التي سيأخذها منهم البوربون إن هم عادوا ملوكاً لفرنسا. وللسبب نفسه أيد الفلاحون نابليون وقدموا طوال خمسة عشر عاماً نصف إبنائهم. وباعتبارهم (أي الفلاحين) ملاكاً - وكان هذا مدعاة لفخرهم - فقد صنّفوا أنفسهم سياسياً مع البورجوازية، وعملوا خلال القرن التاسع عشر ككتل محافظ يحفظ توازن الدولة التي كانت تعترضها نوبات تغيير مفاجيء.

وليضمن المؤتمر الوطني (13971) المساواة في الحقوق، منع نظام اليكورة في الميراث (حق الابن الأكبر في أن يرث الميراث كله) وأصدر أوامره بأن يوصى للأبناء بأسهم متساوية بمن في ذلك الأبناء غير الشرعيين (المولودين خارج نطاق الزوجية) إذا اعترف الأب ببنتهم له. وكان لهذا التشريع نتائج مهمة على المستويين الأخلاقي (المعنوي) والاقتصادي. وقد عارضه معارضون لأن هذا النظام الجديد يفضي بالورثة إلى الفقر نتيجة تقسيم الميراث على التوالي بين أبناء كثيرين، لذا فقد رسخ الفرنسيون وسائل تحديد النسل القديمة. لقد ظل الفلاحون مزدهري الأحوال لكن عدد سكان فرنسا راح ينمو ببطء خلال القرن التاسع عشر إذ ارتفع من 82 مليون نفس سنة 10081 إلى 93 مليون نفس في سنة 4191، بينما ارتفع سكان ألمانيا في الفترة نفسها من 12 مليوناً إلى 76 مليوناً (1). ونظراً لخصوبة الأرض ووفرة ثمرها تباطأ الفلاحون الفرنسيون في الانتقال والحركة إلى المدن والمصانع، لذا بقيت فرنسا دولة زراعية في الأساس، بينما تطورت إنجلترا وألمانيا صناعياً وتكنولوجياً، فأدى هذا لتفوقها في الحرب وسادت أوروبا.

فقدت الأرسنقراطية سلطانها كله في توجيه الاقتصاد والحكم. فقد كان معظم الأرسنقراطيين ما زالوا خارج فرنسا (مهاجرين منها) يعيشون عيشة مذلة، فقد صودرت أملاكهم في فرنسا وتوقف دخلهم. وكان منهم النبلاء الذين بقي بعضهم في فرنسا، وعاد بعضهم الآخر من مهجره، وقد قصت المقصلة رقاب كثيرين منهم وانضم بعضهم للثورة، وظل الباقيون حتى سنة 4971 مختبئين بشكل غامض وكانت السلطات تزعمهم بتكرار الإغارة على عقاراتهم. وفي ظل حكومة الإدارة قُلت المعوقات فعاد كثيرون من هؤلاء المهاجرين واستعاد بعضهم جزءاً من ممتلكاته، وفي سنة 7971 راحت أصوات كثيرة تهمس بأن الملكية وحدها تدعمها (أو تراجعها) أرسنقراطية نشيطة هي وحدها التي يمكن أن تعيد النظام والأمان للحياة الفرنسية، واتفق نابليون معهم لكن على وفق طريقته وتمشياً مع مقتضيات زمنه.

عرف الدين في فرنسا كيف يشق طريقه دون عون من الدولة، بعد أن اقتربت الثورة من التخلص منه. وتحرر البروتستانت الذين كانوا يشكلون 5% من السكان من المعوقات التي اعترضت سبيل عقيدتهم، فحقهم في العبادة الذي أقرهم على قليل منه لويس السادس عشر في سنة 7871 أصبح الآن حقا كاملا على وفق دستور سنة 1971، وامتدت الحقوق المدنية إلى يهود فرنسا ليصبحوا ذوي حقوق قانونية مساوية للمواطنين الآخرين، على وفق مرسوم 82 سبتمبر سنة 1971.

أما الإكليروس الكاثوليك الذين كانوا فيما مضى من الطبقة الأولى فقد أصبحوا الآن يعانون من عنف حكومة فولتيرية مناهضة للإكليروس. وفقدت الطبقات العليا معتقداتها (إيمانها) بالكنيسة، وحصلت الطبقة الوسطى على معظم أراضي الكنيسة وفي سنة 3971 بيعت ممتلكات الكنيسة لأعدائها، تلك الممتلكات التي قدرت قيمتها بمليوني ونصف مليون ليفر (5 Livres) وفي إيطاليا جردت الباباوية من ولاياتها وعوائدها، وأصبح بيوس السادس Pius VI أسيراً، وفر آلاف الفرنسيين إلى البلاد الأخرى، وعاش كثيرون منهم على إحسان البروتستانت (6) وأغلقت مئات الكنائس أو صودرت أموالها وتحفها، وصممت أجراس الكنائس أو راحت تدق على استحياء. لقد كسب فولتير وديدرو Diderot ، وهلفيتيوس Helvétius ودلباش d'Ildbach معركتهم مع الكنيسة فيما يظهر.

لكن هذا النصر لم يكن واضحاً. حقيقة لقد فقدت الكنيسة ثرواتها وسلطانها السياسي لكن جذورها الحية ظلت متمثلة في الولاء للإكليروس وفي حاجات الناس وأما لهم، فكثيرون من الرجال في المدن الكبيرة ممن كانوا قد شردوا بعيداً عن معتقداتهم أصبحوا جميعاً تقريباً من رواد الكنائس في عيدي الكريسماس والفصح، وفي ذروة أحداث الثورة (مايو 3971) كان أهل باريس (على وفق رؤية شاهد عيان) رجالاً ونساء وأطفالاً يخرون على ركبهم توفيراً واحتراماً عندما يمر القس حاملاً خبز القربان المقدس في شوارع باريس (7) بل وحتى المتشككون لا بد أنهم شعروا بالتأثير "المغناطيسي" للشعائر الدينية، وما توحيه من جمال لا يذوي، ولا بد أنهم تأملوا ما كتبه بسكال في الرهان Wager " من أنه من الحكمة أن يكون المرء مؤمناً، ففي خاتمة المطاف لن يفقد المؤمن شيئاً، بينما يفقد غير المؤمن كل شيء إن ثبت خطؤه (أو بتعبير آخر: المصدق لن يفقد شيئاً والمكذب سيفقد كل شيء إن ثبت خطؤه). وفي ظل حكومة الإدارة انقسمت الأمة الفرنسية إلى قسمين: شعب عاد ببطء إلى العقيدة التقليديه، وحكومة عمدت إلى تأسيس مجتمع علماني خالص اعتماداً على القانون والتعليم، ففي 8 أكتوبر 8971 أرسلت حكومة الإدارة الجديدة (بعد طرد الأعضاء غير المرغوب فيهم منها) لكل المعلمين في مدارس الدوائر (المحافظات) التعليمات التالية:

"يجب أن تحذفوا من مقرراتكم الدراسية كل ما يتعلق بعقائد أي دين وشعائره (أو طقوسه) من أي مذهب كان. إن الدستور يكفل حرية العبادة، لكن تدريسها ليس جزءاً من المقررات الدراسية العامة (الحكومية Public) ولا يمكن أن تكون أبداً مجالاً للتدريس. لقد قام الدستور على قاعدة الأخلاق العامة (غير المرتبطة بدين) وهي أخلاق (مبادئ أخلاقية) صالحة لكل زمان وكل مكان وكل الأديان فهذا القانون (الأخلاقي) محفور في ألواح الأسرة البشرية - إنها - أي هذه الأخلاق الصالحة لكل زمان ومكان ودين - هي ما يجب أن تكون روح دروسكم وهدف وصاياكم والرابط بين مجالات الموضوعات التي تدرسونها كما أنها الرابط الذي يربط بين أفراد المجتمع" (8).

وهنا نجد هذا المبدأ الذي جرى النص عليه بوضوح كان واحداً من أكثر مشروعات الثورة صعوبة، فتلك قضية من أصعب قضايا عصرنا: أن تبني نظاماً اجتماعياً اعتماداً على نظام أخلاقي قائم على عقيدة دينية. وقد اعتبر نابليون ذلك اقتراحاً غير عملي، وكان على أمريكا أن تلتصق به حتى عصرنا هذا.

1 / 6- التعليم

تولت الدولة الإشراف على التعليم بدلاً من الكنيسة، وعمدت الدولة إلى أن تجعل من هذه المدارس مراكز تربوية لتتمية الذكاء وتعميق الأخلاق، وترسيخ الوطنية. وفي 12 أبريل سنة 1791 قدم كوندرسيه Condorcet مسئول التعليم العام للجمعية التشريعية تقريراً تاريخياً داعياً إلى إعادة تنظيم التعليم حتى يحدث "التقدم الدائم المستمر في مجال التنوير مما قد يفتح موارد لا نهاية لها لسد احتياجاتنا ومداواة عللنا ولتحقيق السعادة للفرد والرخاء للجميع" (9). وقد عوّقت الحرب تحقيق هذا التصور المثالي، لكن في 4 مايو سنة 1791 جدد كوندرسيه عرضه لكن على أساس أضيّق مما سبق. لقد قال: "البلاد (فرنسا) لها حق تربية أبنائها وتنشئتهم، ولا يمكن أن نعهد بهذه المهمة إلى طموح الأسرة، ولا إلى أفراد مفسدين... فالتعليم لا بد أن يكون مباحاً للفرنسيين كلهم وعلى قدم المساواة... إننا نعول عليه كثيراً ليكون متمشياً مع طبيعة حكومتنا ومبادئ جمهوريتنا الراقية" (10) وهذه الصياغة كما هو واضح تحمل عقيدة محل أخرى - الوطني بدلاً من الكاثوليكي -، وتبشر "بالوطنية" كدين رسمي. وفي 82 أكتوبر سنة 1791 أصدر المؤتمر الوطني مرسوماً بمنع تعيين أي إكليريكي مدرساً في مدارس الحكومة، وفي 91 ديسمبر صدر بيان بجعل التعليم الابتدائي مجانياً وإلزامياً للأولاد كلهم. أما البنات فكان من المتوقع أن تعلمن أمهاتهن أو يتلقون التعليم في الأديرة أو على يد معلمين خصوصيين.

وكان من الضروري إرجاء تنظيم المدارس الثانوية إلى ما بعد الحرب، وعلى هذا ففي 22 فبراير سنة 1791 بدأ المؤتمر الوطني في تأسيس "المدارس المركزية Ecoles Centrales" التي أصبحت هي مدارس المحافظات أو الدوائر Lycees الثانوية. وتم افتتاح مدارس خصوصية Special للتعبدين والأشغال العامة والفلك والموسيقا والفنون والحرف، وفي 82 سبتمبر سنة 1791 بدأت مدرسة البوليتقنية E`cole Polytechnique التدريس في مجالها المميز. وتم إغلاق الأكاديمية الفرنسية في 8 أغسطس سنة 1791 باعتبارها مركزاً للمعارضين القدماء، لكن في 52 أكتوبر سنة 1791 دشّن المؤتمر الوطني أكاديمية أخرى هي المعهد القومي الفرنسي الذي ضم أكاديميين مختلفين لتشجيع كل العلوم والفنون، وتجمع في هذا المعهد العلماء والباحثون الذين أخذوا على عاتقهم إنجاز التراث الفكري التنويري، وهم الذين أعطوا حملة نابليون على مصر أهمية دائمة (بفضل إنجازاتهم العلمية).

1 / 7- السلطة الرابعة

الصحفيون والصحافة: قد يكون لها أهمية تفوق المدارس من حيث تأثيرها في تشكيل عقل فرنسا وحالتها النفسية في هذه السنوات المفعمة هياجاً. فأهل باريس وعلى نحو أقل أهل فرنسا عامة كانوا يلتهمون ورق الصحف التهاماً بشغف شديد (المقصود يقرأونه برغبة عارمة) كل يوم. لقد ازدهرت صحف الشباب (صحف الهجاء أو الفضائح) التي راحت تجرح السياسيين والعلماء وتقلل من أقدارهم أمام العامة. وقد التزمت الثورة في (إعلان حقوق الإنسان) بالمحافظة على حرية الصحافة، وقد جرى تنفيذ ذلك خلال فترة حكم الجمعية الوطنية فالتأسيسية (1791 - 1792) لكن نتيجة اشتداد حدة النزاع بين الفرقاء عمد كل جانب إلى التقليل من عدد منشورات أعدائه، لكن الواقع أن حرية الصحافة قد ماتت بإعدام الملك (12 يناير 1791)، وفي 81 مارس أصدر المؤتمر الوطني قراراً بإعدام كل "من يقترح قوانين بتقسيم الأراضي وتوزيعها أو أية قوانين تؤدي إلى تدمير الملكية الخاصة أو التجارية أو الصناعية" وفي 92 مارس حث قنلة الملك والمؤيدون لقتله المؤتمر الوطني على إصدار قرار بإعدام كل من "يدان بطبع أو كتابة ما يحث على... إعادة الملكية أو إعادة أي سلطات أخرى في عودتها ضرر بسيادة الشعب" (11). ودافع روبيسبير طويلاً عن حرية الصحافة، لكنه بعد أن أرسل إلى المقصلة كلا من هيبير Hébert ودانتون وديمولين Desououlines وضع بإعدامهم حداً لظهور الصحف التي كانوا يدعونها. وخلال فترة حكم الإرهاب اختقت حرية التعبير حتى في المؤتمر الوطني، وأعدت حكومة الإدارة حرية الصحافة في سنة 1791 لكنها ألغتها بعد ذلك بعام

واحد بعد انقلاب 81 فروكتيدور ونفت محرري 24 جريدة(21). ولم يدمر نابليون حرية التعبير وحرية الصحافة لأنه عندما وصل إلى السلطة كانت مدمرة بالفعل(31).

صفحة رقم : 14567

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الحياة في ظل الثورة -> الأخلاق الجديدة

2- الأخلاق الجديدة

1 slash 2 الأخلاق والقانون

أما وقد تم استبعاد الدين أساساً للأخلاق (أي حب الرب المراقب العليم المكافئ المعاقب والخوف منه، وطاعة شريعته والتزام أو امره واجتناب نواهيه)، فإن الأرواح المتحررة في فرنسا وجدت نفسها بلا دفاع (إلا من خلال الأصداء الأخلاقية للعقائد التي هجرتها) ضد غرانزها الأقدم والأقوى والأشد فردية التي غرست وتأصلت بفعل قرون بدائية ساد فيها الجوع والجشع والصراع وانعدم فيها الأمان. لقد راح الفرنسيون يبحثون عن فكرة جديدة لتكون مرساة في بحر هائج، أفرادهم متمردون، لا يخشون إلا القوة (لا يدعونون إلا إذا كان هناك ما يخيفهم)، أما الأخلاق المسيحية فتركها لزوجاتهم وبناتهم. لقد انعقدت آمالهم على أن تكون هذه الفكرة الجديدة (التي هي عوض عن القيم الدينية) في حقوق المواطنة وواجباتها (Civisme (Citizenship) بمعنى قبول الواجبات التي تفرضها هذه المواطنة، وتحصيل المزايا الناتجة عن الانتماء إلى مجتمع منظم يحظى بالحماية، وفي مقابل هذه الحماية وكثير من الخدمات العامة (التي تقدم للجميع) لا بد أن يراعى الفرد في كل اختيار معنوي (أخلاقي) يقدم عليه مصالح المجتمع باعتبارها القانون الأعلى *Salus Populi Suprema Lex*. لقد كان ترسيخ "أخلاق طبيعية" محاولة نبيلة وقد اكتشف النواب الفلاسفة ميرابو *Mirabeau* وكوندرسيه *Condorcet* وفيرجنيو *Vergniaud* ورولان *Roland* وسان جوست *St-Just* وروبيبير من خلال مراجعاتهم للقرون المسيحية الماضية أن التاريخ الكلاسي أو المرويات التاريخية للنماذج التي يبحثون عنها: فليونيداس *Leonidas* وإيبا مينونداس *Epaminondas* وأرستيدس *Aristides* والبروتسيون *Brutuses* وكاتوس *Catos* وسكيبوس *Scipios* كل أولئك كانت "الوطنية" بالنسبة لهم إلزاماً حاكماً حتى إن الرجل قد يقتل استقامة منه وتمسكاً بالخلق أبناءه أو والديه إذا اعتقد أن هذا ضروري لصالح الدولة. لقد أصابت المجموعة الأولى من الثوار نجاحاً معقولاً مع هذه الأخلاقيات الجديدة. والمرحلة الثانية بدأت من 01 أغسطس سنة 2971: جمهور باريس الذي خلع لويس السادس عشر وزعم أن السلطة التي قد قامت بذلك مغفور لها (لها عذرها). وفي ظل الحكم القديم كانت بعض فضائل الأرستقراطية وبعض لمسات الإنسانيين التي بشر بها الفلاسفة والقدسيون قد لطفت من ميل الناس الطبيعي للنهب والسلب وهجوم بعضهم على بعضهم الآخر، لكن - الآن - وجدنا أنه قد تبع هذا في موكب الموت، مذابح سبتمبر وإعدام الملك والملكة وانتشار حكم الإرهاب والمقتلة مما وصفته مدام رولان (التي كانت إحدى ضحايا الإرهاب): "ساحة إعدام موسعة مليئة بالأشلاء مثل الجلجثة" (41) وأصبح زعماء الثورة متربحين مستغلين ظروف الحرب وفرضوا على المناطق "المحررة" أن يدفعوا ثمننا لحقوق الإنسان، وقيل للجيش الفرنسية أن تعيش في المناطق المفتوحة، وأصبحت كنوز الفن في المناطق المحررة أو

المهزومة ملكا لفرنسا، وفي هذه الأثناء تأمر أعضاء المجلسين وضباط الجيش مع الموردين لخداع الحكومة والجنود. وفي ظل الاقتصاد الحر Laissez Faire economy عمد المنتجون والموزعون والمستهلكون إلى الخداع وراح كل طرف يخدع الطرف الآخر أو يعمد إلى التهرب من سقف الأسعار المسموح به (الحد الأقصى لسعر البضاعة المطروحة) أو الأجور، أو ممارسة الأعمال الأخرى المشابهة والتي تتسم بعدم الانضباط، وكل هذا بطبيعة الحال كان موجودا لألاف السنين قبل الثورة، لكن في محاولة لضبط كل هذا بدت القيم الأخلاقية الجديدة- أخلاق المواطنة- أنها ليست بقوة تأثير الخوف من الآلهة- أو بتعبير آخر بدت فكرة التركيز على واجبات المواطن وحقوقه أنها ليست بنفس قوة "الخوف من الآلهة".

لقد زادت الثورة من عدم الأمان في الحياة، ومن عدم الاستقرار في القوانين، فكان أن عبر الناس عن توترهم الشديد بارتكاب الجرائم، كما راحوا يبحثون عن وسيلة يلهون بها أنفسهم فوجدوا طريق القمار، واستمرت المبارزات لكنها قلت عما كانت عليه قبل الثورة. وقد منع القمار بمراسيم صدرت سنة 1971 و 2971 ومع هذا فقد تضاعفت بيوت القمار السرية Maisons de Jeu ففي سنة 4971 كان هناك ثلاثة آلاف محل قمار في باريس (51). وخلال فترة بحبوحة الطبقة العليا في سنوات حكومة الإدارة راح الرجال يراهنون بمبالغ ضخمة فخربت بيوت أسر كثيرة مع دوران العجلة (عجلة القمار) لكن في سنة 6971 دخلت حكومة الإدارة مجال القمار بإعادة "اللوترية الوطنية" أو "اليانصيب الوطني أي على مستوى الدولة". وفي التماس طالب حي (قسم) التوليري التابع لكومون باريس المؤتمر الوطني بإصدار قانون بمنع كل بيوت القمار والمواخير كلها (بيوت الدعارة) وسأقت لذلك برهانا هو أنه "بلا أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون أو نظام، وبدون أمان شخصي لن تكون حرية" (61).

لقد أقامت الحكومات الثورية نظاما قانونيا جديدا لشعب مستثار ومضطرب، وتركت له الحبل على غاربه، فانفلت من القيم الأخلاقية والضوابط القانونية كلها بعد انهيار المعتقد الديني وموت الملك. وكان فولتير في وقت سابق قد دعا إلى إعادة النظر في القوانين الفرنسية بشكل عام وجمع قوانين الولايات الفرنسية كلها، وعددها 63_ أي القوانين 063 مجموعة وضمها معا في خلاصة واحدة محكمة لتطبيقها على فرنسا كلها. ولم يستجب أحد لهذه الدعوة فقد كانت الثورة على أشدها، وكان لا بد لهذه الدعوة أن تنتظر نابليون لتحقيقها. وفي سنة 0871 قدمت أكاديمية شالون سير مارن Chalons sur Marne جائزة لأحسن مقال عن "أحسن طريقة لتخفيف حدة قانون العقوبات الفرنسي دون الإضرار بالأمن العام" (71).

واستجاب لويس السادس عشر بمنع التعذيب (0871) وأعلن عن عزمه بمراجعة القوانين الجنائية الفرنسية كلها وصياغتها في مدونة قانونية مقومة، وأكثر من هذا "سوف نبحث الوسائل كلها للتخفيف من حدة العقاب دون الإخلال بالنظام" وعارض القانونيون المحافظون الذين كانوا وقتها يسيطرون على "برلمانات Parlements" باريس ومنتيز Metz وبيسانسون Besancson الخطة، واضطر الملك للتخلي عنها اضطرارا.

وعرضت المذكرات والعرائض التي تم تقديمها لمجلس طبقات الأمة في سنة 9871 عدة إصلاحات قانونية: المحاكمة لا بد أن تكون علنية. ضرورة أن يكون للمتهم محام أو مجموعة تقدم له المشورة القانونية. إلغاء المراسيم الملكية بالسجن دون محاكمة Lettres de Cachet. لابد من ترسيخ قواعد المحاكمة أمام محلفين. وفي يونيو أعلن الملك إبطال المراسيم الملكية بالسجن بلا محاكمة، وسرعان ما تبنت الجمعية التأسيسية هذه المطالب الإصلاحية وصاغت قوانين، وأعيد نظام المحاكمة أمام محلفين الذي عرفته فرنسا في العصور الوسطى مرة أخرى. لقد أصبح المشرعون الآن محصنين ضد التأثيرات الإكليريكية (المسيحية) بما فيه الكفاية، وواعين لاحتياجات الأعمال (التجارية) ليعلنوا في 3 أكتوبر سنة 9871 (بعد قرون من وجود هذا الأمر على أرض الواقع) أن تحصيل فائدة ليس جريمة؟

Charging of interest was not a crime وصدر قانونان في سنة 4971 لتحرير العبيد في فرنسا ومستعمراتها، وإعطاء الزوج حقوق المواطنين الفرنسيين. وعلى أساس أن "الدولة الحرّة بمعنى الكلمة لا يمكن أن تسمح بأي نتوءات مفتعلة في صدرها" ومنعت قوانين مختلفة كل <الأخويات> (المقصود الجمعيات أو التكتلات المكونة من جماعة ذات اتجاهات معينة تربط أعضائها) والجمعيات العلمية والأدبية والتنظيمات الدينية وروابط الأشغال business (الجمعيات الحرفية أو المهنية). وكان أمراً مستغرباً تماماً أن نوادي اليعاقبة تم استنباؤها من هذا الحظر بينما حظرت اتحادات العمال. والواقع أن الثورة سرعان ما أحلت "الدولة كلية السلطة أو الدولة الشمولية Omnipotent State" محل الملكية.

والحقيقة أن تباين التشريعات القديمة، وإقرار قوانين جديدة وازدياد تعقد علاقات الأعمال كل هذا أدى إلى زيادة أعداد القانونيين زيادة كبيرة، فهم _ الآن قد حلوا محل الإكليروس كطبقة أولى. ومنذ حل "البرلمانات Parlements" لم يكونوا تابعين لتنظيم رسمي، لكن معرفتهم بكل ثغرات القانون، وبالإجراءات القانونية بكل حيلها، ووسائل التسوية فيها، قد أعطتهم قوة وجدت الدولة نفسها صعوبة في السيطرة عليها (مع أن الحكومة نفسها كانت تضم مجموعة من القانونيين) وبدأ المواطنون يحتجون على التسوية في ظل القانون (التسوية القانوني) وعلى حيل المحامين،

وتكاليف التقاضي المرتفعة مما جعل - ويا للسخط - المواطنين حقيقة غير متساوين أمام المحاكم (81). وحاولت الجمعيات المتتالية خلال اختزال إجراءات التقاضي، والتقليل من حدة سلطان المحامين، وفي إجراء عنيف صدرت مراسيم بإبطال وظيفة الموثق العام (كاتب العدل) في 32 سبتمبر سنة 3971. وتم إلغاء مدارس القانون (51 سبتمبر 3971) وصدر مرسوم في 42 أكتوبر 3971 بإلغاء وظيفة الوكيل القانوني attorney at Law وإنما يقوم المتقاضون (المتخاصمون) بتقويض مندوبين عنهم ليمثلوهم أمام المحاكم بلا مقابل ("Mandatories 91) وهذه الإجراءات غالباً ما كان يتم الالتفاف حولها وظلت مجرد قوانين في الكتب حتى أعاد نابليون نظام المحامين أو الوكلاء القانونيين attorneys في 81 مارس سنة 0081.

وقد أحرزت الثورة تقدماً في إصلاح القوانين الجنائية فأصبحت الإجراءات أقرب إلى فهم العامة، فقد انتهت لفترة سرية الاستجوابات، والأخذ بشهادة أشخاص لا تذكر أسماؤهم، ولم يعد السجن وسيلة للتعذيب، فقد سمح لكثيرين من المساجين بإحضار الكتب والأثاث، وأن يدفعوا لشراء وجبات لهم من خارج السجن، وسمح للمساجين الذين سجنوا للاشتباه فيهم ولم يدانوا بعد بالترزاور معا وممارسة الألعاب الرياضية (02) أو على الأقل ممارسة العشق، وقد سمعنا عن بعض الأمور الدافئة كالتي حدثت بين السجينة جوزفين بوهارنيه والسجين الجنرال هوش Hoche والمؤتمر الوطني الذي نفذ في عهده مئات من أحكام الإعدام، أعلن في دورته الأخيرة (62 أكتوبر سنة 5971) أن "أحكام الإعدام ستمنع في أنحاء الجمهورية كلها بمجرد إعلان السلام".

وفي هذه الأثناء استطاعت الثورة أن تزعم أنها قد حسنت طريقة الإعدام Capital punishment وفي سنة 9871 اقترح الدكتور جوزيف إيجناس جليوتين Dr. Joseph Ignace Guillotin عضو مجلس طبقات الأمة إحلال الشقاق وحامل البلطة (منفذ حكم الإعدام باستخدام البلطة) بحيث تكون بلطته حادة النصل بحيث تقصل رأس المحكوم عليه بالإعدام عن جسده بسرعة فلا يتألم كثيراً قبل الموت. ولم تكن هذه الفكرة جديدة، فقد سبق استخدامها في إيطاليا وألمانيا منذ القرن الثالث عشر (12). وبعد بعض التجارب التي أجراها الطبيب بسكينته (مشرطه) على جثث الموتى، تم نصب المقصلة (52 إبريل 2971) في ميدان الرملة Place de Gréve (الآن ميدان دار البلدية) ثم توالى نصبها في كل مكان، وتوالى تنفيذ أحكام الإعدام بها. وظلت مشاهدة المقصلة وهي تهوي على رقاب الضحايا تجذب اهتمام الجماهير، وكان بعضهم يبدو سعيداً بمن فيهم النساء والأطفال (22)، ولما تكررت المشهد كثيراً أصبح أمراً عادياً مألوفاً لا يجذب الجماهير، فقد ذكر الناس المعاصرون لهذه الأحداث أن "عربات نقل السجناء المحكوم عليهم بالإعدام بالمقصلة، كانت تمر وهم يعملون في محلاتهم، فلا تؤثر فيهم ولا يكفون أنفسهم حتى رفع رؤوسهم لمشاهدتها (32)" فالرؤوس المطأطئة تبقى أكثر من الرؤوس المرفوعة.

2\الأخلاق الجنسية

بين عربات نقل المسجونين إلى المقصلة، وبين الخراب لم يتوقف العشق ولا توقفت الممارسات الجنسية. وكانت الثورة قد أهملت المستشفيات، لكن هناك وفي ميادين المعارك، وأحياء الفقراء كان الإحسان يخفف الألم والحزن، والصالح يواجه الشر، والمشاعر الأبوية تفوق نزوع الأبناء إلى الاستقلال. وراح أبناء كثيرون يعجبون من عدم استطاعة آبائهم فهم طابعهم الثوري وطرائقهم الجديدة، وتخلّى بعضهم بشدة عن الكوايح الأخلاقية القديمة وأصبحوا أبيقوريين غير مبالين (أي مبالغين إلى المتع والملذات) فانتعش الاتصال الجنسي غير الشرعي وانتشرت الأمراض التناسلية، وتضاعف عدد اللقطاء، واستمر الانحراف.

والكونت دوناتين ألفونس فرانسوا دي ساد (0471 - 4181) سليل أسرة عريقة بروفنسية، وارتقى فأصبح حاكماً عاماً لمحافظة (دائرتي) Bresse وبوجي Bugey وبدأ قاصداً للعيش كمدير من مديري المحافظات (الأقاليم غير العاصمة) لكنه كان مولعاً مهتاجاً بالخيالات والرغبات الجنسية وراح يبحث عن فلسفة ليبرر بها هذا الولع. وبعد علاقة جنسية غير شرعية مع أربع فتيات حكم عليه بالموت في إيكس إن بروفنس (Aix en Provence 2771) لجرائم "دس السم وممارسة اللواط" (42). لكنه هرب، وأعيد القبض عليه، فهرب مرة أخرى، وارتكب مزيداً من الأمور الشنيعة القبيحة، وفر إلى إيطاليا ثم عاد إلى فرنسا، وقبض عليه في باريس وسجن في فينسن Vincennes (8771-4871) وفي الباستيل وفي شارنتون (Charenton 9871)، وأطلق سراحه سنة 0971 وأيد الثورة، وفي سنة 2971 أصبح سكرتيراً لحي (قسم) دي بك des Piques .

وخلال فترة حكم الإرهاب قبض عليه بناء على افتراض زائف وهو أنه أحد المهاجرين (المعادين للثورة) العائدين، وتم إطلاق سراحه بعد عام، لكن في سنة 1081 في ظل حكم نابليون تعرض للسجن بسبب نشره لقصة بعنوان

جوستين (Justin 1971) وجوليت (Jullitte 2971)، فقد تعرضت هاتان الروائيتان لتجربة جنسية سوية وشاذة، وكان المؤلف يفضل الشاذة واستغل مهارته الأدبية في الدفاع عن هذا الشذوذ (العلاقات الجنسية غير الطبيعية أو السوية)، ودلل على أن كل الرغبات الجنسية طبيعية لا شذوذ فيها ولا بد من ممارستها والضمير مرتاح حتى لو تم تحصيل اللذة الجنسية بإحداث الألم، وبهذا المعنى الأخير حقق شهرته فأصبح خالدا بكل معنى الكلمة، وقد قضى سنوات حياته الأخيرة في سجون مختلفة وكتب مسرحيات جيدة ومات في مصحة للأمراض العقلية في شارينتون Charenton وفي أثناء الثورة رحنا نسمع عن الشذوذ الجنسي بين طلبة المدارس (52)، وربما كان لنا أن نسلم بانتشاره في السجون، فالمومسات والعاهرات كان عددهن كبيراً خاصة بالقرب من القصر الملكي وحدائق التوليري وفي شارع سان هيلير St. Hilaire وشارع الساحات الصغيرة (بيتيت شامب Petits Champs) ، ويمكن أن يوجدوا أيضاً في المسارح ودار الأوبرا بل وحتى في طرقات المجلس التشريعي و المؤتمر الوطني. وكانت النشرات توزع حاوية عناوين بيوت الدعارة والرسوم المطلوبة وكذلك أسماء النسوة وعناوينهن. وفي 42 أبريل أصدر حي (قسم) المعبد Temple أمراً: "الجمعية العامة... رغبة منها في إيقاف ما لا يحصى من كوارث (سوء حظ) سببها تدهور الأخلاق العامة، وانزلاق النسوة للفسق وقله احتشامهن،... بموجب هذا قامت بتعيين مأمورين أو مندوبين... الخ" (62).

وراحت أحياء (أقسام) أخرى تشن الحرب (على الفساد) فجرى تشكيل فرق من الخفر أو العسس، وتم القبض على بعض المستهترين. وأيد روبيسبير هذه الجهود، لكن بعد موته تراخت قبضة هؤلاء المراقبين، فظهرت فتيات المتعة Filles مرة أخرى وازدهر حالهن في ظل حكومة الإدارة حتى أن النسوة ذوات الخبرات الجنسية الواسعة أصبحن زعيمات (سيدات مجتمع) ورائدات "المودة" (أي تقلدهن النسوة في لباسهن). وكان من الممكن مواجهة هذا الشر بتيسير الزواج المبكر، فلم يعد وجود قس مسألة ضرورية لإتمام الزواج بعد 02 سبتمبر 2971، فالزواج المدني كان كافياً من الناحية القانونية، وهذا لا يتطلب سوى موافقة الطرفين وأن يوقع الطرفان أمام السلطات المدنية. وبين أفراد الطبقة الدنيا، كانت هناك حالات كثيرة لنساء ورجال يعيش كل رجل وأليفته معا دون عقد زواج وبلا إزعاج. وكثر عدد أبناء الزنا، ففي سنة 6971 دلت الإحصاءات الرسمية على وجود 44.000 لقيط (72). وبين عامي 9871 و 9381 كان 42% من إجمالي عدد النسوة (العروسات) في مدينة نمطية هي مولان Meulan حبالى (حوامل) عندما أتوا إلى مذبح الكنيسة (82). وكما كان الحال في عهد الحكم السابق على الثورة كان الزنا بين المتزوجين مغفور، وكان الرجال متوسطو الحال يفضلون اتخاذ مدبرة لشئون المنزل (لا زوجة شرعية) وفي ظل حكومة الإدارة كانت مديرات المنازل هؤلاء يظهرن في المجتمع كزوجات. وأبيح الطلاق بمرسوم صدر في 02 سبتمبر سنة 2971، ومنذ صدور هذا المرسوم أصبح يمكن الحصول على الطلاق بموافقة الطرفين أمام مسئول المجلس البلدي .

وتضاءلت السلطة الأبوية مع التطور الهادي في حقوق المرأة القانونية، وتفاقم الأمر بزيادة ثقة الشباب (الأبناء) في أنفسهم، والنظر إلى أنفسهم باعتبارهم قد تحرروا من سلطة الوالدين. وقد عرضت لنا أن بلمبتر Anne Plumptre التي تجولت في فرنسا سنة 2081 ما ذكره بستاني :

"خلال فترة الثورة لم تكن نجس على توبيخ أبنائنا إذا ارتكبوا خطأ، فقد كان أولئك الذين يسمون أنفسهم بالوطنيين يعتبرون قيامنا بتصحيح سلوك أبنائنا، مما يتناقض مع مبادئ الحرية، وقد اعتبر الأبناء مسألة تقويمهم مما يتناقض مع القانون، فغالبا ما كان الواحد من هؤلاء الأبناء يقول لأبيه إذا ما وبخه "التقت لعملك. فأنا وأنت والناس كلهم أحرار ومتساوون. إن الثورة هي أبي، ولا أب لي سواها ثم يستطرد البستاني قائلاً: "سيستغرق الأمر سنوات طويلة حتى نعيد هؤلاء الأبناء إلى صوابهم" (92).

وانتشر الأدب الإباحي (وفقا لما ذكرته الصحف المعاصرة) وكان هو الأثير المفضل لدى الشباب (03). وراح بعض الأباء الذين كانوا راديكاليين في وقت سابق يرسلون أبناءهم في سنة 5971 (كما حدث سنة 1781 بعد ذلك) إلى مدارس يديرها قسس، بغية إنقاذهم من التفسخ الخلقي والتسيب الذي ساد المجتمع (13). وظلت هناك لفترة فكرة مؤداها أن نظام الأسرة لا بد أن يكون كارثة على الثورة الفرنسية، لكن استعادة النظام في ظل حكم نابليون أرجأ التفسخ الأسري حتى أتت الثورة الصناعية .

والنساء اللاتي كن قد حققن مكانة رفيعة في ظل حكم ما قبل الثورة إنما كان ذلك بفضل تأثير سلوكهن الراقى المهذب وترقية تفكيرهن وتنقيف أنفسهن، لكن هذا في غالبه كان قصرا على الطبقة الأرستقراطية والشرائح العليا من الطبقة المتوسطة. وعلى أية حال فقبيل عام 9871 انخرطت نسوة طبقة العوام بشكل واضح في الأمور السياسية. لقد كدن يكن هن صانعات الثورة بمسيرتهن إلى فرساي، وإحضارهن الملك والملكة إلى باريس ليكونا أسيرين تحت إشراف الكومون، فاكنتشن - أي نساء العوام - مدى قوتهن، فزاددت ثورتهن شراسة. وفي يوليو سنة 0971 نشر كوندرسيه Condorcet مقالا بعنوان "إعطاء الدولة الحقوق للنساء"، وفي شهر ديسمبر قامت مدام إيلدر Aelders بمحاولة

لتأسيس ناد مخصص لحركة تحرير المرأة (23). وكان صوت النساء مسموعا في ممرات الجمعيات المختلفة (الوطنية، فالتأسيسية، فالمؤتمر الوطني...) لكن محاولات تنظيم أنفسهن للحصول على حقوقهن السياسية ضاعت بسبب الانشغال بالحرب وعنف الإرهاب، ورد فعل المحافظين بعد شهر ثيرميدور Thermidor. ومع هذا فقد حققت النساء بعض المكاسب: أصبح للزوجة مثل الزوج حق طلب الطلاق، وأصبح رضى الأم تماما كموافقة الأب - مطلوباً لزواج الأبناء الذين لم يبلغوا الرشد (33). وفي ظل حكومة الإدارة، أصبح النساء رغم أنه لا حق لهن في التصويت، نفوذ سياسي واضح، يرقين الوزراء والجنرالات ويمارسن بفخر حريتهن الجديدة في السلوك والأخلاق والثياب، وقد وصفهن نابليون البالغ من العمر ستة وعشرين عاما في 5971: "النساء في كل مكان؛ في المسرحيات، وفي الطرقات العامة، وفي المكتبات. وأنت ترى نساء لطيفات جدا في غرفة دراسة الدارس. هنا فقط (في باريس) من بين بلاد المعمورة كلها تستحق النساء هذا النفوذ كله (التأثير)، وحقيقة فإن الرجال مجنونون بهن، لا يفكرون إلا فيهن، ولا يعيشون إلا عن طريقهن ومن أجلهن. وعلى المرأة كي تعرف ما لها من سلطان أن تعيش في باريس ستة أشهر" (43).

صفحة رقم : 14568

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الحياة في ظل الثورة -> أساليب الحياة

3- أساليب الحياة

عادات الشعوب وأساليب حياتها تكاد تكون مثل أي شيء آخر تتأثر بحركة البندول جيئة وذهابا، تمرد وعودة عن التمرد. لقد أخذت الأرستقراطية معها وهي تفر قبل العاصفة التي ساوت الجميع - ألقابها الفخمة، وملابس البلاط، ولغتها المعطرة، وتوقعاتها الزهرية، وتحررها الوثائق، ونعمتها وترويتها. وسرعان ما أصبح لطف الصالونات واللباقة في الرقص، وأسلوب المتعلمين من نقائص النبلاء التي قد تؤدي إلى احتجاجهم باعتبارهم عناصر مشكوك فيها متمسكة بالتقاليد البالية، وكانهم مخلوقات عاشت في عصر ما قبل الطوفان ونجت منه (53). وفي نهاية سنة 2971 أصبح الفرنسيون كلهم في فرنسا "مواطنين" وأصبحت الفرنسيات كلهن "مواطنات". الكل على قدم المساواة فلا أحد "سيد Monsieur" ولا "سيدة Madame"، وأصبح الخطاب بأنثى وأنت بدلا من "أنتم" أو "سيادتكم" سواء في المنزل أم في الشارع. وعلى أية حال فمع بواكير عام 5971 انتهى هذا الأسلوب في التخاطب (التخاطب بصيغة الفرد) وعاد التخاطب بأسلوب التوقير أو الجمع Vous وحل "السيد" و "السيدة" محل المواطن "والمواطنة" (63). وفي ظل حكومة نابليون عادت الألقاب ثانية بل وزاد استخدام الألقاب بحلول سنة 0181 عن ذي قبل.

وتغيرت طرز الثياب ببطء أكثر من تغير الظاهرة السابقة، فالرجال الأثرياء رفضوا أن يتخلوا عما اعتادوا عليه منذ مدة طويلة من ملابس النبلاء؛ القبعة المرتفعة ذات الزوايا الثلاث في أعلاها، والقميص الحريري، والرباط المنساب، والصدريّة الملونة المشغولة (المطرزة)، والمعطف الكامل الذي يصل إلى الركبة، والسروال القصير الذي ينتهي أدنى الركبة بدرجات متفاوتة، والجورب الحريري والحذاء ذو الأبزيم مربع المقدمة. وفي سنة 3971 حاولت لجنة الأمن العام "تطيف الزي الوطني الحالي لتجعله متمشيا مع العادات الجمهورية وروح الثورة" (73) لكن لم يلتزم سوى الطبقات الوسطى بسروال <بنطلون> العمال والحرفيين الطويل. واستمر روبيسبير نفسه يلبس كاللوردات، ولم يكن هناك ما يفوق بهاء الثياب الرسمية التي كان يرتديها أعضاء حكومة الإدارة التي كان بارا Barras يمشى بها

متبخرًا . ولم يكسب السروال (الطويل) معركته ضد السروال <البنطلون> الذي يصل إلى الركبة (الكلوت أو السروال القصير) إلا منذ سنة 0381 وكان العوام فقط (السانس كولوت) هم الذين يرتدون قلنسوات الثورة ذات اللون الأحمر والكارمانول Carmagnole .

وتأثرت ملابس النساء بالثورة التي كان رجالها يرون أنهم يسيرون في نهجهم كروما الجمهورية، وكبلاد الإغريق البيريكسية. وقد اتخذ جاك لويس ديفيد Jacques Louis David الذي ساد الفن الفرنسي من 9871 إلى 5181 من الأبطال الكلاسيين موضوعات لأعماله الفنية الأولى وجعل لباسهم على النمط الكلاسي. وعلى هذا فإن النسوة الباريسيات الأنثيات (الحريصات على ارتداء الأزياء الحديثة أو المتمشية مع <الموضة>)، قد تحلين بعد سقط البيوريتاني (المتطهر) روبيسبير عن <التتورة> Petticoat والبلوزة (القميص)، وأصبح لباس الواحدة منهن في الأساس عباءة فضفاضة بسيطة شفافة (تشف وتصف) بلغ من شفائيتها أنها توحى بالخطوط الداخلية الناعمة (توحى بالأجزاء المنبجعة والمنقعرة في الجسم Contours) حتى أنها لتثير الرجل الذي لم يستتر في حياته فخط الخصر في هذا الزي مرتفع ارتفاعا غير معتاد ليدعم الثديين، وخط الرقبة في هذا الزي منخفض بما فيه الكفاية ليقدّم للرأى مساحة واسعة مكشوفة، والكمان قصيران قصرا يكفى لإظهار الذراعين الجذابين. واستبدل (الكاب) بعصاية الجبين، واستبدل الحذاء ذو الكعب العالي، بصندل بلا كعب (شيشب أو خف) وكتب الأطباء عن الوفيات بين النساء اللاتي يرتدين هذه الملابس البهيجة ويذهبن بها إلى المسارح والمنتزهات، بسبب الهبوط الحاد في درجة الحرارة في باريس مساء (83). وفي هذه الأثناء، عمل الرجال، والنساء الغندورات المثيرات للإعجاب على جذب انتباه الطرف الآخر بالملابس اللافنة للنظر بشكل مبالغ فيه. وفي سنة 2971 ظهرت مجموعة من النساء بزي الرجال أمام اجتماع كومونات باريس، فوجه إليهن شوميت Chaumette تأنيبا مهذبا: "أنتن أيتها النسوة الطائشات اللاتي تردن أن تكن رجالات. ألسنن قانعات بنصبيكن كما هو؟ ماذا تردن أكثر من هذا؟ إنكن تسيطنرن على مشاعرنا، المشرع والرئيس تحت أقدامكن . فسحركن هو وحده الذي لا نستطيع مقاومته، لأنه سحر الحب، وبالتالي فهو عمل الطبيعة، فباسم الطبيعة، كن كما أردت الطبيعة لتحققن الهدف الذي قصدته الطبيعة بوجودكن" (93).

وعلى أية حال فقد كانت النسوة متأكدات أنهن قادرات على إدخال تحسينات على الطبيعة. ففي إعلان في المونيتير Moniteur في 51 أغسطس سنة 2971 أعلنت مدام بروكين Broquin أنها " لم تستنفد مسحوقها الشهير، ذلك المسحوق الذي يصبغ الشعر الأحمر أو الأبيض ليحوله كستائيا (بنيا مشوبا بحمرة) أو أسود، وهي تعرضه لمن يطلبه" وعند الضرورة كان الشعر الذي لا يرضى عنه صاحبه يغطي بالباروكات (الشعر المستعار) والذي كان في حالات كثيرة مقطوعا من صفائر النسوة الشابات اللاتي قصت المقصلة رقابهن (14). وفي سنة 6971 اعتاد الرجال من الطبقتين الوسطى والعليا أن يضفر الواحد منهم شعره الطويل في ضفيرة (24).

وخلال العاميين الأوليين من الثورة راح الثمانمائة ألف (سكان باريس) يمارسون أعمالهم المفيدة، ولا يلتفتون إلا بين الحين والحين لما يجري في الجمعية الوطنية والسجون. لقد كانت الحياة مبهجة بما فيه الكفاية في ذلك الوقت بالنسبة للطبقات العليا؛ فقد استمرت الأسر في تبادل الزيارات والدعوة إلى الولائم، واستمر حضور الحفلات الراقصة، وغير الراقصة، والمسرحيات والذهاب لسماح الكونشرتات حتى خلال فترات العنف بين مذابح سبتمبر سنة 2971 وسقوط روبيسبير في يوليو سنة 4971 عندما جرى في هذه الفترة إعدام 0082، كانت الحياة التي يحيها - تقريبا - كل من بقوا على قيد الحياة تسير سيرها المعتاد في العمل واللاهو، والممارسات الجنسية والحب الأبوي. لقد كتب سيباستيان ميرسييه Sébastien Mercier في سنة 4971:

"الأجانب الذين يقرأون صحفنا يتصورون أننا جميعا قد غرقنا في الدم وغطتنا الأسماك البالية، ونعيش حياة ملوها البؤس. لكنهم سيدهشون عندما يعرفون أن الطريق الرائع الذي تحفه الأشجار في الشامب إليزيه (ميادين الإليزيه) حيث توجد في الجانب المقابل منه المركبات الخفيفة الأنيقة التي تجرها الجياد (الحناطير) والنسوة الجذابات الجميلات.. هذه الحدائق الباهرة، أصبحت الآن أكثر بهاء وأجمل من ذي قبل" (34).

وكانت هناك مباريات رياضية في الكرة والتنس والركوب، وسباق الخيل، وألعاب القوى... وكان هناك متنزهات شانقة مثل حدائق النيفولي Tivoli حيث يمكنك التمتع، وشراء الكماليات من (البوتيكات) ومشاهدة الألعاب النارية والبهلوانات وهم يمشون على الحبال، أو إطلاق البالونات، وسماح (الكونشرتات) أو أن تضع صغيرك في الحلقة الدوارة (الأرجوحة الدوارة Jeu de bagues)، وستجد معك في هذه المتع اثني عشر ألفا آخرين في أيام المرح. ويمكن أن تجلس في مقهى أقيم في الهواء الطلق أو تحت سرادق مقهى دي فوي Café de foy أو في إحدى مقاهي الطبقة الراقية مثل مقهى تورتوني Tortoni أو مقهى فراسكاتي Frascati أو تتبع السائحين إلى النوادي الليلية مثل السافو Caveau (القبو) والسوفاج (الوحشي) Sauvage ومقهى العميان Les Aveugles حيث يلتقى الموسيقيون العميان. ويمكن أن تذهب إلى ناد لتقرأ أو تتحدث أو تستمع إلى المناقشات السياسية. ويمكنك أن تحضر إحدى المهرجانات المرحلة المتنوعة التي نظمتها الدولة والتي نسفها فنانون مشاهير مثل ديفيد David، وإذا أردت

أن تجرب رقصة جديدة كرقصة الوالتس waltz التي وصلت من ألمانيا لتوها يمكنك أن تجد شريكة تراقصك في إحدى قاعات الرقص التي بلغ عددها في باريس في عهد حكومة الإدارة ثلاثمائة قاعة (44).

والآن (5971) في السنوات التي خمدت فيها حدة الثورة، سمح لبعض المهاجرين (الذين كانوا قد فروا من فرنسا بسبب أحداث الثورة) بالعودة إلى فرنسا، وبرز النبلاء المختبئون من مخابئهم التي كانوا يتوارون فيها، وأظهر البورجوازيون ثروتهم فشيّدوا البيوت الغالية وأثّروها بالأثاث الفاخر وحلوا نساءهم بالجواهر الثمينة وأقاموا الحفلات المسرفة. وظهر أهل باريس من شفقهم ومنازلهم للتمتع بقسط من الشمس نهاراً أو ليستمعوا بالنسيم ليلاً في حدائق التوليري أو لكسمبورج أو على طول شوارع الإليزيه التي تحفها الأشجار، وخرجت النسوة متفتحات كالزهور في أثوابهن الجذابة الطائشة (العريضة) ورحن بحركن مراوحن بطريقة معبرة تعجز عنها الكلمات. وأحذيتن الأنيقة التي تظهر ما خفى من القدمين بشكل فاتن. لقد بعثت الحياة في المجتمع من جديد.

لكن مئات الأسر (أو نحو ذلك) التي تكوّن الآن المجتمع لم تكن من الأسر عريقة النسب والفلاسفة الذين حققوا شهرة عالمية والذين كانوا متآلقين في الصالونات في ليالي ما قبل الثورة، وإنما كانت هذه الأسر في الغالب من محدثي النعمة (الأثرياء الجدد) الذين كدسوا الليفرات Livres من (شراء) العقارات الكنسية، أو من التعاقدات مع الجيش أو الاحتكارات التجارية أو البراعة المالية أو الصداقات السياسية. وراح بعض من عاشوا أيام البوربون وظلوا على قيد الحياة يترددون على منازل مدام دي جينلي Genlis أو أرملتي كوندورسيه Condorcet وهيلفييتيوس Helvétius، لكن معظم الصالونات التي فتحت بعد موت روبيسبير (باستثناء حلقة مدام دي ستيل Stael) لم تكن عامرة بالمناقشات الذكية وكان ينقصها جو الراحة والطمأنينة، ذلك الجو الذي كان يسودها في الماضي (قبل الثورة) نتيجة الأمن الذي طال أمره والثراء الراسخ. وصالون القمة الآن هو ذلك الذي يعقد في الغرفات المريحة في قصر بارا عضو مجلس الإدارة في لكسومبرج أو في قصر جروسبوا Chateau Grosbois الذي يمتلكه أيضاً. ولم تكن جاذبية صالون بارا هذا ناتجة عن معارف الفلاسفة (المثقفين) الذين يرتادونه وإنما كانت جاذبيته تكمن في ابتسامات مدام تاييه Tallien وجوزفين دي بوهارنيه.

ولم تكن جوزفين قد تزوجت نابليون بعد، كما أن مدام تاييه Tallien لم تعد بعد (في ذلك الوقت) زوجة له (لتاييه)، لقد تم تزويج هذه المدام الأخيرة منه في 62 ديسمبر 4971، ونودي بها فترة سيده تيرميدور Notre Dam de Thermidor لكنها هجرت هذا الإرهابي الذي أقل نجمه بعد فترة وجيزة من زواجها منه وأصبحت خليعة (راعية شؤون منزله) لبارا Barras، وغمزها بعض الصحفيين في أخلاقها ومع هذا فقد بادلوا جميعاً الإبتسام لأنه لم يكن في جمالها شيء من الكبر أو التغطرس، وكانت معروفة برفقتها الشديدة مع النساء والرجال على السواء. وقد وصفها في وقت لاحق الدوقة دبرانت D' Abrantés بأنها: "فينوس الكابيتول وأنها أجمل من العمل الفني الذي أنجزه فيدياس Pheidias، لأنك تترك فيها اكتمال الملامح كما في عمل فيدياس، وتترك فيها التناسق نفسه في الذراعين واليدين والقدمين، كل هذا تعبير كريم حي" (54). وكان من فضائل بارا Barras أنه كان كريماً معها ومع جوزفين، وقدر جمالهما تقديراً يفوق مجرد الإعجاب الجنسي، ذلك التقدير الذي اشترك معه فيه مئات المنافسين الذين كانوا من الممكن أن يفوزوا بهما، لكنه بارك فوز نابليون بجوزفين.

صفحة رقم : 14569

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الحياة في ظل الثورة -> الموسيقى والدراما

انتعشت أنواع الموسيقى كلها، وكان يمكنك أن تجعل أحد المغنين في الشوارع يعيد لك أغنية مقابل قطعة عملة أو يمكنك أن تنظم لمجموعة مغنين لتخيف البورجوازيين بأغنية الكارمانول (Carmagnol or Ca Ira) أو أن تهز الحدود بنشيد المارشيليز الذي كان روج دي ليزل Rouget de Lisle قد ألف معظمه. وفي كونسرتو فيديو Concert Feydeau يمكنك أن تعجب مع دومينيك جارا Dominique Garat الذي يعتبر كاروز عصره Caruso of his time الذي يحرك صوته مشاعر القلوب، بل ويحرك حتى الألواح وكان مشهورا في أنحاء أوروبا كلها لطبقة صوته. ووسط الرعب الذي ساد في سنة 3971 افتتح المؤتمر الوطني المعهد الوطني للموسيقا وبعد ذلك بعامين أصبح اسمه الكونسرفتوار، ومنح المؤتمر الوطني المعهد مبلغ 042.000 جنية كل عام للتدريب لستمائة طالب بدون أن يدفعوا رسوما دراسية. وفي الليلة التي أطلق فيها الرصاص على روبيبير، كان الباريسيون يستطيعون سماع "أرميد Armide" في الأوبرا أو بول وفرجينى Poul et Virginie في الأوبرا كوميك (64) (الأوبرا التي يتم فيها الغناء والحوار غير الملحن وليس من الضروري أن تكون هزلية).

وانتعشت الأوبرا في عهد الثورة. ففيما عدا وضع بيرناردين دي سان بيير Bernardin de Saint Pierre للألحان الرعوية (مقطوعات موسيقية ذات طابع رعوي أو رومانسي) في سنة 4971، فإن جان فرانسوا لوزير Jean Francois Leuseur (1738- 1806) قد حقق نجاحا آخر في هذا المجال في العام نفسه فمقطوعاته الموسيقية بالإضافة إلى مقطوعة تيلماك Télémaque التي وضعها فينيلون Fénelon كانت تنهج النهج الموسيقي نفسه. لقد أثار فرنسا كلها وحرك مشاعر الإرهاب فيها بمقطوعته لا كافيرن (الكهف La Caverne) التي عرضت سبعمائة مرة، وقد استمر في الإنتاج خلال فترة صعود نابليون، وعاش عمرا مديدا فدرس على يديه بيرليو Berlioz وجونو Gounod. وقد كتب إيتين ميهول (Etienne Méhul 1761- 1817) في عمره القصير جدا مقارنة بعمر لوزير أكثر من أربعين أوبرا من نوع الأوبرا كوميك Opéra Comique (المصطلح لا يعني بالضرورة الأوبرا الهزلية كما ذكرنا في تعليق سابق) بينما كانت كورالاته الغزيرة: أنشودة إلى العقل (Hymne à La raison 1791)، ونشيد الرحيل (Chant du départ 1794) هي السبب في جعله رب الموسيقى في عهد الثورة.

وكان ماريا لويجي كارلو سالفاتور شيروبيني Maria Luigi Carlo Salvatore Cherubini هو أعظم مؤلف موسيقى في فرنسا الثورة. ولد في فلورنسا في سنة 1761 يقول: "لقد بدأت في تعلم الموسيقى وأنا في السادسة من عمري، وألفت مقطوعات موسيقية وأنا في التاسعة" (84). وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره كان قد ألف ثلاثة أعمال كبيرة؛ رائعته a Te Deum وهي موشحة دينية وثلاث كنتاجات Cantatas (الكنائس قصة تتشدها المجموعة على أنغام الموسيقى بلا تمثيل). وفي سنة 1777 وجدنا ليوبولد Leopold دوق تسكاني Tuscany الكبير الخير يمنحه منحة للدراسة مع جيوسيب سارتي Giuseppe Sarti في بولوجنا Bologna فأصبح شيروبيني في غضون أربعة أعوام سيديا يشار إليه بالبنان في مجال التأليف الطباقى الموسيقى Contrapuntal Composituion وفي سنة 1781 دعى إلى لندن لكن سوقه لم يرح فيها، وفي سنة 1781 انتقل إلى باريس التي ظلت موطنه الدائم لم يغادرها إلا لفترات قصيرة حتى مات في سنة 1824، وفي أولى أعماله الأوبرالية في باريس (ديموفون Démophon) التي وضعها في سنة 1788 نحاشى روح الجزالة والخلو من اجترار الهوم تلك الروح السائدة في الإنتاج النابولي Neapolitan بإخضاع القصة والأوركسترا للألحان، وإنما هذا حذو جلوك Gluck في الأوبرا العظيمة grand opera " والتي كانت الأنغام (الألحان) تحتل فيها المرتبة الثانية من حيث الأهمية. وكانت أهم الأعمال التي حققت له نجاحا في باريس في عهد الثورة هي: لودويسكا (Lodoiska 1791) وميدي (Médie 1791). ومع العمل الذي لا زال مشهورا (يومان) (Les deux Journées 1801) بدأ مرحلة مضطربة في حياته في ظل حكومة نابليون ويمكننا تشبيهه بشهاب.

لقد كان في باريس في أثناء الثورة أكثر من ثلاثين مسرحا، وكانت جميعها مزدحمة ليلة بعد ليلة حتى أيام حكم الإرهاب، وتحرر الممثلون في ظل الثورة من العراقل التي كانت تضعها الكنسية أمامهم، وكان يمكنهم الابتسام عند صدور قرار الحرمان الكنسي (ضدهم) أو قرار بعدم دفن جثثهم (بعد الوفاة) في مقابر المسيحيين، لكن الحكومة أخضعتهم (1791 - 1795) لرقابة أشد صرامة، وكان عليهم على وفق توجيهات المؤتمر الوطني ألا يجعلوا في كوميدياتهم أي "بطل" أرستقراطي، أو أية مشاعر أرستقراطية وأصبحت المسارح أداة للدعاية الحكومية، وأسفت الكوميديا وهبطت إلى مستوى منحن، واتبعت التراجميات الخط الثوري (من حيث المضمون) والوحدات الكلاسية (من حيث الشكل).

وجرت العادة أن يكون الممثلون الكبار أكثر شهرة من رجال الدولة، بل إن بعضهم مثل فرانسوا جوزيف Francois Joseph Talma كان محبوبا من الناس أكثر من رجال الدولة بكثير. وكان أبوه مستخدما في فندق ثم أصبح طبيب أسنان، وذهب إلى لندن وانتعشت حالته فيها فأرسل ابنه إلى فرنسا ليتلقى تعليمه فيها، وبعد التخرج عاد فرانسوا

ليعمل مساعداً لأبيه، فتعلم الإنجليزية، وقرأ شكسبير ورأى أن تمثيل مسرحياته أمر شائق، وانضم إلى فرقة من الممثلين الفرنسيين كانت تقدم عروضها في إنجلترا، ولما عاد إلى فرنسا فُدم للكوميدي فرانسيز Comédie Francaise وظهر على المسرح لأول مرة سنة 7871 في شخصية سعيد Seide في مسرحية فولتير (محمد) وساعده على التقدم في مجال التمثيل المسرحي شكله المتناسق وملامحه الكلاسيكية الواضحة وكأنما نحتت بإزميل، وشعره الكثيف وعينه المتألفتان لكن تأييده للثورة ودعمه لها صرف عنه معظم أفراد الفرقة الذين كانوا يدينون بوجودهم لعطف الملك.

وفي سنة 5871 شاهد تالما Talma الصورة التي رسمها ديفيد David والتي جعل لها عنوانا هو "قسم الهوراتي the Oath of Horatii" وتأثر كثيرا لا بما في الصورة من قوة درامية وإنما أيضا بالتزامها الشديد الممتن بالزى القديم. فقرر أن يظهر على المسرح بهذا الزي نفسه، وأدهش زملاءه عندما ظهر بهذا التتك (الرداء الروماني ذو الحزام المشدود حول الخصر) والصندل بذراعيين وساقين مكشوفين، ليلعب دور بروكولوس proculus في مسرحية فولتير التي تحمل عنوان بروتس Brutus.

وأصبح صديقا لديفيد David الذي نصح عليه من ثوريتيه. وعندما قام بدور ماري جوزيف دي شينبير في مسرحية شارل التاسع (4 نوفمبر 9871) أدى دوره بشحنة عاطفية بثها في مشاهدته في الفقرات المعارضة للملكية تلك الفقرات التي تصور الملك الشاب كأمر بمذابح ليلة القديس بارثولومو St. Bartholomew's eve ، وقد صدم هذا مشاعر معظم مشاهديه وكثيرين من زملائه الذين كانوا لا يزالون يشعرون بالولاء للملك لويس السادس عشر. وكلما تطورت أحداث الثورة زاد الصراع حدة بين "الحمرة Reds" و "السود Blacks" في الفرقة وبين المشاهدين حتى إن تالما Talma ومدام فيستري Vestris (التراجيديان الرئيسية) وغيرهما من الممثلين انشقوا عن فرقة الكوميدي فرانسيز ذات الامتيازات الملكية وأقاموا فرقة أخرى خاصة بهم في مسرح الجمهورية الفرنسية بالقرب من القصر الملكي. وهناك طور تالما منه بدراسته للتاريخ والشخصية ولباس كل شخصية على وفق الفترة الزمنية التي كانت فيها، وذلك في المسرحيات والأدوار كلها التي أدتها الفرقة ومارس تحكما في ملامحه لتتمشى مع كل تغيير في المشاعر أو الأفكار (في أثناء التمثيل)، وقل من نبرته الخطابية، والمبالغة الانفعالية فوق المسرح، حتى أصبح متمكنا تماما من فنه.

وفي سنة 3971 غيرت الفرقة القديمة اسمها ليصبح مسرح الأمة Théâtre de la Nation الذي أنتج مسرحية "أحباء القانون L` Ami des Lois" وهي المسرحية التي تضمنت هجاء وسخرية من زعماء الثورة. وفي ليلة 3 و4 سبتمبر تم القبض على أعضاء الفرقة كلهم. وقبلت فرقة تالما فرض الرقابة الصارمة عليها، فأصبحت مسرحيات راسين Racine محرمة وتعرضت مسرحيات موليير Molière للتغيير وحذف أجزاء منها، وحذفت الألقاب الأرستقراطية من المسرحيات المسموح بها (مثل سيد "مسيو" وسيدة "مدام")، وفرض هذا في مسارح فرنسا كلها (59). وبعد سقوط روبيسبير تم الإفراج عن الممثلين الذين كان قد قبض عليهم، وفي 13 مايو 9971 وكما اقتربت الثورة من نهايتها وجدنا الفرقة القديمة والأخرى الجديدة تتحدان معا لتصبحا فرقة واحدة هي "الكوميدي فرانسيز Comédie Francaise" وجعلت مقرها في المسرح الفرنسي في القصر الملكي حيث هي موجودة ومزدهرة اليوم.

صفحة رقم : 14570

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الحياة في ظل الثورة -> الفنانون

تأثر الفن في فرنسا الثورة بثلاثة أحداث خارجية: خلع الأرسطراطية وهجرتها (عقب أحداث الثورة) والحفائر الأثرية التي كشفت عن آثار قديمة في هيركيو لانيوم وبمبي (Herculaneum and Pompeii 8371 وما بعدها)، واستيلاء نابليون على ذخائر الفن الإيطالي، وقد أدت هجرة الأرسطراطية بعد الثورة إلى أن نزح عن فرنسا أكثر الطبقات امتلاكاً للثروة وتمتعاً بالذوق مما يمكنهم من شراء الأعمال الفنية، وفي بعض الأحيان هاجر الفنانون مع هؤلاء المهاجرين، ومن أمثلة هؤلاء الفنانين المهاجرين مدام فيجي ليبرون Lebrun Vigeo ، أما الفنان فراجونار Fragonard فرغم أنه كان قبل الثورة يعتمد في حياته كلية على أموال الطبقات الموسرة (التي لا عمل لها) إلا أنه أيد الثورة وعاش حياة بانسة على حافة المجاعة. وهناك فنانون آخرون أيدوا الثورة لأنهم تذكروا أن النبلاء كانوا يعاملونهم كعبيد ومأجورين مرتزقة، وكيف أن أكاديمية الفنون الجميلة لم تسمح إلا لأعضائها لعرض أعمالهم في صالوناتها. وفي سنة 1971 أتاحت الجمعية التشريعية الأكاديمية للفنانين الأكفاء كلهم سواء كانوا فرنسيين أم أجانب لخلق مجال للتنافس. وقد ألقى المؤتمر الوطني الأكاديمية باعتبارها مؤسسة أرسطراطية في الأساس. وفي سنة 5971 أعادتها حكومة الإدارة باسم أكاديمية الفنون الجميلة وجعلت مقرها اللوفر Louvre الذي كان منذ سنة 2971 قد أصبح متحفا عاما، وسمح للفنانين الفرنسيين بدراسة ونسخ أعمال رافائيل Raphael وحيورجيون Giorgione وكوريجيو Correggio وليوناردو Leonardo ، وفيرونيس Veronese ... بل وحتى خيول القديس مرقس St. Mark ، ولم تحدث سرقات، وتمت الاستعادة من هذه الأعمال بشكل يدعو إلى التفاء. وفي سنة 3971 جدد المؤتمر الوطني دعمه للأكاديمية الفرنسية في روما وكذلك للمؤسسة المعروفة باسم Prix de Rome . وشيئا فشيئا حلت الطبقة الوسطى الصاعدة محل النبلاء كمشتريين للأعمال الفنية. وازدهم صالون سنة 5971 بالمشاهدين، وقد عمر هذا الصالون بخمسمائة وخمس وثلاثين لوحة. لقد ارتفعت أسعار الأعمال الفنية.

من المستغرب أن نقول إن الثورة لم تحدث أية حركة راديكالية في مجال الفن. بل العكس، فالإلهام الذي قدمه للكلاسية الجديدة هو النباش والتتقيب عن التماثيل والعمائر القديمة في نابلي، وكتابات ونكلمان (Winckelmann 5571 وما بعدها) وليسنج (Lessing 6671) قد عملت على إحياء الأسلوب الكلاسي بكل ما فيه من مضامين أرسطراطية. وردة الفعل هذه ثبت أنها من القوة بحيث تنصدي للتأثيرات الرومانسية، والديمقراطية المنبعثة من الثورة. لقد قبل الفنانون في هذه الفترة المترنة (باستثناء برودون Prud'hon) نظرية وتطبيقا الصيغ الكلاسية والنبيلة كلها التي تشير للنظام والشكل والاتساق والفكر والعقل باعتبارها حارسا يحول بين التعبير الفني، واعتماده على الانفعال والعاطفة والحماسة والفوضى. وقد راعى الفن في ظل لويس الرابع عشر هذه القواعد القديمة التي توخاها كونتيليان Quintilian وفيتروفيوس Vitruvius وتوخاها كورنيل Corneille وبويو Boileau ، لكن في ظل لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر وجد الفنانون راحتهم في الباروك وأنسوا إلى الروكو rococo ومع مشاعر روسو Rousseau المتحفظة ومشاعر ديدرو Diderot المؤيدة بدأ أن عصر الرومانسية أصبح قريب التناول. لقد كان هذا في المجالين السياسي والأدبي، لكنه لم يكن في مجال الفن.

وفي سنة 4771 اتجه جوزيف ماري فين Joseph Marie Vien إلى إيطاليا بعد أن زاد شوقه للاطلاع على حفائر هيركيو لانيوم وبمبي Herculaneum and Pompeii بعد أن وصلته تقارير عنها، وقد اصطحب جوزيف معه تلميذه جاك لويس ديفيد Jacques Louis David لكن الشاب (ديفيد) وقد وقف نفسه لفكر الثورة عزم على ألا يجعل الفن المحافظ والأرسطراطي الذي يتجلى في الآثار الكلاسية، يضل أو يبعده عن هدفه (05). لكن شيئا ما في داخله كان يتحكم فيه جعله يستجيب لعظمة التكوين ومنطق البناء وقوة الخط ووضوحه، كما تتجلى في الفن الإغريقي والروماني. لقد قاوم لفترة رسالتها الموحية بالرجولة والقوة، لكنه استسلم لها بالتدريج، وحمل هذا التأثير معه عند عودته إلى باريس، وجعله يتناسق مع مناهضة الثورة للمسيحية وتمثلها بالجمهورية الرومانية ولكاتوس Catos وسكيبوس Scipios بل إن هذا الاتجاه كان متفقاً مع عباءة مدام تاييه Tallien الإغريقية. والآن لقد حان الوقت المناسب لطرح استلهاام الفن القومي ذي النزعات العلوية (السماوية) وما يوحيه الباروك من يفاعه مدهشة، وما يتجلى في الروكو rococo من زخارف بهيجة، والصور الزيتية العارية والمتفائلة التي انتجها بوشيه Boucher ولوحة الفتيات وهن يقفن، التي انتجها فراجونار Fragonard . الآن يجب أن يكون الخط الكلاسي والمنطق الكلاسي، والمنطق المجرد Cold reason والقيد الأرسطراطي والشكل الرواقي هو هدف الفن وعليه تقوم دعائمه في فرنسا الثورة الرومانسية، الديمقراطية، العاطفية، الزاخرة بالمشاعر.

وقد ولد ديفيد الذي كان عليه أن يتبوا الصدارة في الفن في فرنسا الثورة وإمبراطوريتها، في باريس في سنة 8471 من أسرة بورجوازية ثرية كانت تقيه العوز دوما. وقد التحق وهو في سن السادسة عشرة بأكاديمية الفنون الجميلة Academie des Beaux Arts ودرس على يد فين Vien وحاول مرتين من أجل الحصول على الجائزة المعروفة

بجائزة روما Prix de Rome وفشل في المرتين، فحبس نفسه وحاول أن يموت جوعاً لكن جاره الشاعر افتقده فبحث عنه فوجده وراح يتوسل إليه حتى تناول طعامه، ودخل ديفيد المسابقة مرة أخرى في سنة 4771 وفاز برسم من نوع الروكوكو rococo جعل له عنواناً هو (Antiochus Dying for the love of Stratonice أنتيوشس تموت حياً في ستراتيونيوس)

وفي روما أصبح مفتوناً برافائيل ثم تخلى عن افتتانه به لرقعة خطوطه رقة شديدة ووجد في أعمال ليوناردو ما هو أقوى، ووجد في بوسين Possin انضباطاً أشد في الفكرة والتكوين، وانتقل من صور العذراء في عصر النهضة إلى الأعلام القدامى في عالم الفلسفة والأساطير والحرب، وفي عاصمة المسيحية تخلى عن عقيدته المسيحية. وعاد إلى باريس في سنة 0871 وتزوج من ثرية وعرض في صالونات الأكاديمية سلسلة متتابعة من أعماله الكلاسية (بليزاريوس Belisarius وأندروماك Andromache) وبعض البورتريهات (رسوم لأشخاص). وفي سنة 4871 ذهب إلى روما ليرسم صورة بتكليف من لويس السادس عشر فخرج فيها عما ألفه الرسامون في روما. إنها اللوحة التي جعل لها عنواناً (The Oath of the Horatii). وعندما عرضت للوحة في روما، قال له الفنان الإيطالي العجوز بومبيو باتوني Pompeo Batoni: "أنت وأنا وحدنا رسامان، أما الباقيون فلا يستطيعون القفز في النهر (15) Tu ed io soli, siamo pittori; Pel rimanente Si puo gettarlo nel fume".

ولما عاد إلى باريس قدم عمله الموسوم باسم (قسم الهوراتيين Serment des Horaces) في صالون سنة 5871 (25). وهنا في تاريخ ليفي الأسطوري وجد ديفيد في "الوطنية" الدين الحقيقي لروما القديمة: ثلاثة إخوة من أسرة هوراتية Horatii Family يقسمون أن يشعروا بالحرب بين روما وألبالونجا Alba Longa (القرن السابع قبل الميلاد) وأن يقتلوا حتى الموت مع ثلاثة إخوة من عشيرة كورياتي Curiatii لقد صور ديفيد الهوراتيين Horatii وهم يقسمون ويتسلمون السيوف من أبيهم بينما أخواتهم يندبن، وكان واحدٌ منهم خطيباً لفتاة كورياتية Curiatii. وكان الفرنسيون يعلمون القصة من كتاب كورنيل Corneille's Horace وفسروا فحوى اللوحة على أن "الوطنية" تجعل الأمة فوق الفرد، بل وحتى فوق الأسرة.

لقد كان الملك (لويس السادس عشر) راغباً وبإخلاص في القيام بإصلاحات، وكانت المدينة (باريس) معبأة بالفعل للثورة، وكان أهلها متفقين على استحسان إنجازات الفنانين، وكان منافسو ديفيد يعلمون مهارته في استيحاء الشجاعة البطولية والتضحية الأبوية وأحزان النساء، لقد كان النجاح الذي حققته لوحته (قسم الهوراتيين) إحدى العلامات البارزة في حويليات الفنون، لأنها كانت تعني نجاح الأسلوب الكلاسي.

ولاقى ديفيد تشجيعاً لأسلوبه الفني ولاختياره لموضوعاته فعاد إلى التراث الإغريقي وقدم في سنة 7871 عمله "موت سقراط" ولما رأى السير جوشوا رينولد Joshua Reynold هذه اللوحة في باريس وصفها بأنها "أعظم إنجاز فني منذ ميكيل (ميشيل) أنجلو ورافائيل. إنها يمكن أن تكون امتيازاً لأثينا في عصر بريكلينس (35Pericles). وبعد ذلك بعامين عاد ديفيد إلى التراث الروماني بلوحته (الليكتور أي الموكلون بإفساح الطريق للحاكم الروماني يعيدون إلى بروتس في بيته جثث أبنائه" وكانت هذه اللوحة تصور حكاية أوردها ليفي Livy عن القنصل الروماني (905 ق م) ذلك القنصل الذي حكم على اثنين من أبنائه بالموت من أجل تأمرهما لعودة الملكية. وقد كانت هذه اللوحة قبل سقوط الباستيل ولم يكن لدى الرسام فيما يظهر أية فكرة عن الثورة المرتقبة، وقد منع وزير الفنون عرضها لكن الجلبة التي سببتها الجماهير ضمنت له عرضها في صالون سنة 9871، واعتبرتها الجماهير التي أتت لرؤيتها جزءاً من الثورة، وهكذا وجد ديفيد نفسه الناطق الفني باسم عصره.

وعلى هذا فقد قدم ديفيد نفسه للثورة في زواج نادر بين السياسة والفن. لقد قبل ديفيد مبادئها ووضح أحداثها ونظم مهرجاناتها وزينها وأحيا ذكرى "شهادتها"، وعندما قتل واحد من الملكيين النائب الراديكالي لليبيلتييه دي سان فارجو Lepeletier de Saint Fargeau (في 02 يناير 3971) نذر ديفيد نفسه لإحياء ذكرى هذا المشهد، ففي غضون شهرين قدم صورة المشهد للمؤتمر الوطني الذي علقها على جدران مقره. وعندما قتل مارا (31Marat يوليو 3971) دخلت جموع الحزاني إلى ممرات المؤتمر الوطني، وانطلق صوت من بينهم "أين أنت يا ديفيد؟ لا بد أن تنقل للأجيال القادمة ما حدث كما فعلت بالنسبة لليبيلتييه، فهو ومارا قد ماتا من أجل الوطن. إن عليك أن ترسم لوحة أخرى".

فوقف ديفيد وقال: "سأرسمها" وبالفعل قدم لوحة مكتملة للمؤتمر الوطني في 11 أكتوبر. وقد أظهرت هذه اللوحة مارا وقد غطت مياه حوض الاستحمام الخاص به نصفه وقد تدلى رأسه إلى الخلف فاقداً الحياة وإحدى يديه تقبض على مخطوط وذرعه متدلّية إلى الأرض، وقطعة الخشب إلى جانب الحوض موضوع عليها مخطوطة تدعو للفخر "إلى مارا ديفيد". لقد كانت اللوحة نقلة ترك فيها ديفيد أسلوبه الفني المميز. فقد حلت الحماسة المتوهجة محل الكلاسية الجديدة مع الواقعية. وأكثر من هذا فهذه اللوحة بالإضافة إلى اللوحة التي رسمها لليبيلتييه قد كسرتا المنحى الكلاسي باتخاذهما الأحداث الجارية موضوعاً لهما. لقد جعلت هاتان اللوحتان الفن مشاركاً في الثورة.

وبحلول عام 1471 كان ديفيد مشهورا سياسيا حتى إنه قد تم انتخابه عضواً في لجنة الأمن العام. وقد كان من أتباع روبيسبير، ونظم ديفيد موكب مهرجان الموجود الأعظم Supreme being وقدم فيه ديكراته وروحه الفنية. وبعد سقوط روبيسبير قبض عليه باعتباره واحداً من أتباعه وقضى في السجن ثلاثة أشهر قبل أن يفرج عنه بسبب ضجيج تلاميذه. وفي 1471 عكف في مرسمه لكنه عاد إلى الظهور في سنة 1471 فقدم "البانوراما الكبيرة The Rape of the Sabine". وفي العاشر من نوفمبر استولى نابليون على السلطة، فبدأ ديفيد الذي بلغ الواحدة والخمسين من عمره مرحلة فنية جديدة منتصرة.

صفحة رقم : 14571

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الحياة في ظل الثورة -> العلم والفلسفة

6- العلم والفلسفة

الثورات لا تتعاطف مع العلوم البحتة، وإنما هي تحفز العلوم التطبيقية على مواجهة احتياجات مجتمع يناضل من أجل حريته. لقد ساعد لافوازيه Lavoiseur الكيميائي المالي الثورتين الأمريكية والفرنسية بتحسين نوعية البارود، وزيادة كمية انتاجه. وبيرتوليه Bertholet وكيميائيون آخرون حفزهم الحصار البريطاني على إيجاد بدائل للسكر المستورد وكذلك بدائل لما يستورد من صودا ونيله (صبغة زرقاء)، وقد تم إعدام لافوازيه بتهمة أنه مستغل متربح لجانته وقبل خططهم فيما يتعلق بالنظام المتري Metric System. وبوات حكومة الإدارة العلماء مكانا حفيا في المعهد الفرنسي الجديد. ولا زالت أسماء لاجرانج Lagrange ولاپلاس Laplace وأدريان ماري ليجيندر Adrien Marie Legendre وديلامبر Delambre وبيرتوليه Bertholet ولامارك Lamarck وكوفيه Cuvier، شهباً تلمع في تاريخ العلم، وكانوا جميعاً من بين أعضائها الأول. لقد أصبح العلم لفترة هو عماد التعليم الفرنسي حالاً محل الدين، وعرفت عودة البوربون هذه الحركة لكن سقوطهم (1815) كان مصحوباً برفع شأن العلم متمثلاً في الفلسفة الإيجابية Positive Philosophy التي نادى بها أوغست كونت Auguste Comte. وترك لاجرانج وليجندر علامتهما الأخيرة على الرياضيات، فصاغ لاجرانج حساب التفاضل والتكامل الذي لا تزال معادلاته جزءاً من علم الميكانيكا. وظل ليجندر يدرس التكامل الإهليجي (ناقص المقطع) من سنة 1687 إلى سنة 1728 عندما نشر نتائج بحثه في إحدى الدوريات المتخصصة Traité des fonctions أما جاسبار مونج Gaspard Monge وهو ابن بائع جوال فقد ابتدع الهندسة الوصفية وهي طريقة أو منهج لتقديم أبعاد ثلاثة للأشياء على مستوى ذى بعدين، وقد نظم أمور استخلاص النحاس والقصدير على مستوى الدولة، وكتب نصاً شهيراً عن الفن الدقيق لصناعة المدافع وخدم الحكومة الثورية ونابليون فترة طويلة في مجال اختصاصه رياضياً وإدارياً. وأثار لاپلاس أهل الفكر في أوروبا بمبحثه "عرض لنظام الكون" (Exposition du Systeme du Monde 1697) صاغ من خلال النظرية السديمية (كون النظام الشمسي نشأ من سديم غازي) وحاول أن يشرح الكون من خلال ميكانيك خالص (مجرد) وعندما سأله نابليون: "من الذي فعل كل هذا النظام (الميكانيك)؟ أجاب لاپلاس: "إنني لست في حاجة إلى هذه الفرضية". أما لافوازيه مؤسس الكيمياء الحديثة فقد ترأس اللجنة التي صاغت النظام المتري (1807) وطور بيرتوليه Bertholet كلا من الكيمياء النظرية والعملية وساعد لافوازيه في وضع مصطلحات ورموز كيميائية جديدة.

وساعد وطنه الذي كان يخوض الحرب بطريقته في تحويل خام الحديد إلى حديد، وتحويل الحديد إلى صلب. وكان زافييه بيشا Xavier Bichat رائدا في مجال علم الأنسجة (الهيستولوجيا) بدراساته الميكروسكوبية للأنسجة. وفي سنة 1797 بدأ سلسلة محاضراته الشهيرة في علم الفيسيولوجيا والجراحة ولخص نتائج بحوثه في دورية علمية هي (1081 Anatomie generale). وفي سنة 1797 وكان سنه وقتها ثمانية وعشرين عاماً عين طبيباً في مصح الرّب Hotel Dieu وعكف على دراسة التغيرات العضوية الناتجة عن المرض في مرحلة الاحتضار (1781) وكان عمره وقتها واحداً وثلاثين عاماً.

وربما يمثل بيير كاباني Pierre Cabanis مرحلة انتقال في مجال الفلسفة رغم أنه كان معروفاً في عصره كطبيب في الأساس، إلا أن الأجيال التالية اعتبرته فيلسوفاً. وفي سنة 1791 كان يرعى ميرابو Mirabeau في مرضه الأخير. وحاضر في مدرسة الطب عن الصحة والطب الشرعي وتاريخ الطب، وكان لفترة رئيساً لكل مستشفيات باريس. وكان واحداً من كثيرين من الرجال المشهورين الذين أحبوا حبا عاقلاً مكتوماً أرملة المتفك (الفيلسوف) هيفيتيوس Helvétius التي كانت دائماً جديرة بأن تحب. وقد قابل في صالونها كلاً من: ديدرو Diderot ودلمبير d'Alembert ودولباش d'holbach وكوندرسيه Condorcet وكونديلاس Condillac وفرانكين Franklin وجيفرسون Jefferson، وباعتباره دارساً للطب فقد كان على نحو خاص منجذباً إلى كونديلاس الذي كان معروفاً تماماً في المجال الفلسفي في فرنسا باعتقاده أن كل المعارف أساسها الحس (أو الإحساس Sensation). وقد رافقت هذه الفلسفة الحسية (التي مؤداها أن الحس هو أساس المعرفة) لكاباني Cabanis، فاتفقا اتفاقاً تاماً على ما وجده من علاقة ارتباط بين العمليات الجسدية والنفسية. ولقد صدم حتى المفكرين الذي بلغوا مرتبة كبيرة في عصره بقوله: "لنكون فكرة صحيحة عن العمليات التي ينتج عنها الفكر، من الضروري أن ننظر للمخ brain كعضو خاص مهمته المحددة هي إنتاج الفكر، تماماً كما للمعدة والأمعاء وظيفة هي هضم الطعام، وكما أن للكبد وظيفة هي فلتر الصفراء،..... الخ" (55).

ومع هذا فإن كاباني Cabanis عدل من تحليلات كونديلاس Condillac (كما فعل كانت Kant مؤخراً في كتابه نقد العقل الخالص) فقال بأن الحس يدخل التكوين العضوي (الكائن العضوي) الذي يكون قد تكوّن على نحو ما (نصف تكوّن) عند الميلاد، لكنه يعدل بعد ذلك من خلال كل تجربة يخوضها، ويحمل معه ماضيه في خلاياه وذاكرته ليشكل جزءاً من الشخصية المتغيرة بما في ذلك الأحاسيس الداخلية والأفعال الانعكاسية والغرائز والمشاعر والرغبات. فالكلية السيكولوجية تنتج كذلك نماذج لكل بنية (تكوين) وتجعل لكل حس (محسوس) تستقبله غرضاً. وبهذا المعنى يكون كاباني Cabanis قد اتفق مع كانت Kant على أن العقل (أو النفس) ليست غفلاً قبل التعليم (أو ليست كصفحة بيضاء خالية) بحيث يطبع عليها الحس ما يشاء. إنها "منظمة" لتحويل الأحاسيس إلى أفكار وأعمال. وعلى كل حال فقد أصر كاباني على أن "العقل" الذي يرجع إليه كانت Kant ليس منفصلاً انفصالاً تاماً عن الأنسجة والأعصاب.

هذا النظام (أو النسق) المادي ظهر للمرة الأولى (1791) في المذكرات الاثنتي عشرة التي نشرها كاباني معاً في سنة 1781 بعنوان "حصار دراسة فيزيقية الإنسان وأخلاقه

" Rappots du Physique et du moral de L'homme

وهذه المذكرات تجعل العقل (أو المخ) القوي فعالاً وبشكل نشيط على منطقة واسعة من حب الاستطلاع والتأمل. والمقالة الأولى تكاد تكون مسحا للسيكولوجيا الفيسيولوجية وتدرس الأعصاب ذات الصلة بالحالة النفسية. والمقالة الثالثة تحلل "الاشعور": فذكرياتنا المتجمعة (أو العلامات التي تحدثها الأعصاب) قد تتداخل مع المثيرات الحسية الداخلية والخارجية لتنتج أحلاماً، وربما على نحو لا شعوري تؤثر في أفكارنا حتى ونحن في حالة يقظة وانتباه. والمقال الرابع يربط العقل بالعمر وأفكار الشخص نفسه وشخصيته قد تختلف تماماً في سن السبعين عنها في سن العشرين. أما المقال الرابع فيتناول كيف أن إفرازات الغدد خاصة الجنسية قد تؤثر في مشاعرنا وأفكارنا. والمقال العاشر يؤكد أن الإنسان عرضة لتغير يتم مصادفة أو تبدل، ثم إن هذه الصفات المتغيرة تورث.

وفي كتاب نسب إلى كاباني بعنوان "خطابات في العلة الأولى (1781) Letters sur les causes premières) نشر بعد موته بسنة عشر عاماً يظهر أنه تراجع عن مذهبه المادي وأرجع العلة الأولى للذكاء والإرادة (65). والمادي قد يذكرنا بأن الجراح الكبير قد حذرنا من تأثير الجسم الهرم (الذي اعترضته الشبخوخة) على عقله المرتبط به (أي المرتبط بهذا الجسم). وربما افترض الشوكي (النزاع إلى الشك خاصة في مبادئ الدين) أن غموض الوعي (الشعور) هو الذي دفع كاباني Cabanis إلى الشك في قدرة المذهب المادي على تبسيط الحقيقة المعقدة جداً والمباشرة. وعلى أية حال فإنه لأمر طيب أن يذكر فيلسوف نفسه بين الحين والحين أنه مجرد ذرة يتحدث إلينا عن اللامتأهي.

وثمة رجالان عاصرا عهد الفلاسفة (المفكر ون Philosophes) عاشا حتى يلتقيا بالثورة التي كانت حلما مرغوباً فيه. فعندما رأى الأب الراهب رينال Abbé Raynal الذي أصبح اسمه لأمعا في سنة 0771 بإصداره كتابا عن التاريخ الفلسفي Histoire philosophique ...des deux Indes - نور الحركة التنويرية يخبو بسبب إسفاف الجماهير (العوام)، أرسل إلى الجمعية التأسيسية خطابا في 13 مايو سنة 1971، يعترض فيه ويتنبأ: "لقد كانت لدي الجسارة مدة طويلة لأذكر الملوك بواجباتهم، فدعوني اليوم أن أقول للشعب أخطاءه". لقد حذر هذا الأب الراهب من أن طغيان العامة يمكن أن يكون ظالما و طاغيا كالحكم المطلق للملوك. لقد دافع عن حق الإكليروس في الدعوة للدين، ما دام المناوئون للدين أو رجاله يتمتعون بحرية الكلام. وأدان كذلك التمويل المالي الحكومي لأي دين (كانت الدولة في ذلك الوقت تدفع رواتب القسس) كما أدان هجوم الغوغاء المعادين للدين على رجال الدين. وحث روبيسبير أعضاء الجمعية الغاضبين على التسامح مع هذا الفيلسوف (المتقف) الهرم البالغ من العمر ثماني وسبعين سنة، وبدا نجا من القبض عليه، ومع هذا فقد صودرت ممتلكاته ومات فقيرا محبطا في سنة 6971.

وعاش كونستانتيل شاسبيف دي فولني Constantin Chassebeuf de Volney في معمعة أحداث الثورة وعرف الشخصيات البارزة كلها في باريس من دولباش d'Holbach إلى نابليون. وبعد أعوام من الترحال في مصر والشام تم انتخابه لمجلس طبقات الأمة كما كان عضوا في الجمعية التأسيسية (الوطنية قبل ذلك) حتى حلها سنة 1971. وفي هذا العام نشر الأصداء الفلسفية لرحلاته وجولاته في كتابه:

· Les Ruines, Ou Méditations sur les révolutions des empires

ما سبب انهيار هذه الحضارات القديمة الكثيرة؟ وقد أجاب فولني على هذا السؤال بقوله إنها انهارت بسبب الجهل المبعوث في شعوب هذه الحضارات بفعل الأديان الغيبية التي تدعمها حكومات استبدادية، وبسبب صعوبة نقل المعرفة من جيل إلى جيل. والآن وقد فقدت هذه العقائد الخرافية أساسها، ويسرت الطباعة حفظ المعرفة وانتقال العناصر الحضارية، فإن على البشر أن يأملوا في بناء ثقافات (حضارات) دائمة قائمة على نظم أخلاقية تقضى إلى امتداد سيطرة الإنسان على نزعاته غير الاجتماعية وتساعد على التعاون والوحدة خاصة وأن المعرفة قادرة الآن على التطور والانتشار وقد قبض عليه في سنة 3971 باعتباره جبرونديا وقضى في السجن تسعة أشهر، فلما أطلق سراحه أبحر إلى أمريكا ورحب به جورج واشنطن، لكن الرئيس آدمز (Adams 8971) اتهمه بأنه جاسوس فرنسي فكرر عانداً إلى فرنسا. وعمل كسيناتور Senator في ظل حكم نابليون وعارض الانتقال من "القنصلية" إلى الإمبراطورية وعكف على الدراسة منعزلا حتى عهد لويس الثامن عشر الذي جعله شريفا (نبيل) في سنة 4181 ومات في سنة 0281، وقد شارك في تنحية البوربون عن العرش كما شارك في إعادتهم للعرش.

صفحة رقم : 14572

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الحياة في ظل الثورة -> الكتب والمؤلفون

7- الكتب والمؤلفون

رغم المقصلة ظل الناشرون ينشرون، وظل الشعراء يقرضون، وظل الخطباء يخطبون وظل المسرحيون يستوحون التاريخ والعشق، وراجع المؤرخون أحداث الماضي، وهذب الفلاسفة الحاضر، وناقست امرأتان الرجال في مجال التأليف من حيث عمق المشاعر والشجاعة السياسية وعمق الفكرة. وإحدى هاتين المرأتين هي مدام رولان Roland التي سجت وجزت المقصلة رقيبها.

واستمرت أسرة ديدو Didot أكثر الأسر شهرة في مجال النشر، في تحسين صب الحروف وإتقان تجليد الكتب وكان فرانسوا ديدو Francois- Didot قد أسس الشركة - للطباعة وبيع الكتب - في باريس في سنة 1713 وأجرى ابنه فرانسوا أمبروز Francois- Ambrose وبيير فرانسوا Pierre- Francois تجارب في مجال فن الطباعة، وأصدرا مجموعة من الأعمال الكلاسيكية الفرنسية برعاية لويس السادس عشر. ونشر بيير - ابن فرانسوا - أمبروز طبعاات فيرجيل (8971) وهوراس (Horace 9971) وراسين (1081)، وكانت هذه الطبعاات فائقة ولانقة حتى إن الأثرياء كان يمكنهم شراءها للاستمتاع باقتنائها من قراءتها. وحقق فيرمين ديدو (Firmin Didot 4671-6381) شهرة بابتداعه حروفا طباعية جديدة، كما حاز قصب السبق في اختراع الاستريوتيب (الصفحة الطباعية التي تصنع بصب المعدن في قالب من الجص أو الورق المعجن مأخوذ عن حروف منضدة) وقد نشرت شركة فيرمين ديدو في سنة 4881 الطبعة الفاخرة لكتاب بول لاكروا Poul Lacroix الموسوم بالعنوان "حكومة الإدارة و القنصلية والإمبراطورية Directoire, Consulat et Empire وهو الكتاب الذي رجعنا إليه في هذا الموضوع عدة مرات، فمنه على سبيل المثال علمنا أنه على طول فترة الحقبة الثورية كانت مبيعاات كتب فولتير وروسو بمئات الألوف من النسخ. وقد أصدر المؤتمر الوطني مرسوما (91 يوليو 3971) لضمان الملكية الفكرية للمؤلف في مطبوعاته حتى بعد وفاته بعشر سنوات(75).

وأشهر شاعرين في العقد الثوري بدأ متفردين في طريقة التعبير والأسلوب، وانتهت حياتهما بنصل المقصلة نفسها. لقد ألف فيليب فرانسوا فابر Philippe Francois Fabre أشعارا جميلة ومسرحيات ناجحة، وأصبح رئيسا لنادي الكورديير (تجمع سياسي يساري سبقت الإشارة إليه) وسكرتيرا لدانتون وعضوا في المؤتمر الوطني وفيه صوت لصالح طرد الجبرونديين وإعدام الملك وعين في اللجنة المنوط بها وضع تقويم جديد (التقويم الجمهوري بدلا من التقويم الميلادي). وابتدع كثيرا من أسماء شهوره الفصلية، تلك الأسماء المتسمة بجمال التعبير وحسن التصوير، وفي 21 يناير سنة 4971 قبض عليه بتهمة الفساد والتزوير والتعامل مع الوكلاء الأجانب والتربح والاستغلال، وفي أثناء محاكمته غنى قصيدته القصصية الجذابة :

"Il pleut temper"

الدنيا تمطر bergere

bergere

" rentre tes blancs moutons اجمع غنمك البيضاء "

لكن القضاة لم تكن لهم آذان لسماع هذه الأغنية الرعوية (المعنى: لم تجده قصائده شيئا) وفي طريقة إلى المقصلة (5 أبريل 4971) راح يوزع نسخاً من أشعاره على الناس. أما أندرية ماري دي شينييه Andre - Marie de Chénier فكان أفضل شعرا وأفضل أخلاقا، لكنه لم يكن أفضل مصيرا. ولد في القسطنطينية سنة 2671 من أب فرنسي وأم يونانية وقد قسم حبه الأدبي بين الشعر الإغريقي والفلسفة الفرنسية. تلقى تعليمه في نافار Navarre وأتى إلى باريس في سنة 4871، وعقد صداقات مع ديفيد ولافوازيه وقبل الثورة بتحفظ. وعارض الدستور المدني للإكليروس الذي ربط الكنيسة الكاثوليكية بالدولة، وأوصى

في الجمعية الوطنية بالفصل الكامل بين الكنيسة والدولة، وبإطلاق حرية العبادة لكل الأديان والمذاهب وأدان مذابح سبتمبر وامتدح شارلوت كورداي Charlotte Corday لقتلها مارا Marat وكتب خطابا من أجل لويس السادس عشر إلى المؤتمر الوطني طالبا استئناف حكم الإعدام أمام الشعب، وأدى هذا إلى أن أصبح موضع شك من اليعاقبة الحاكمين، فتم سجنه باعتباره جيرونديا، وقد أحب سجينته جميلة هي الأنسة دي كواني de Coigny التي وجه إليها "الفتاة الأسيرة La Jeune- Captive" التي أكد لامارتين Lamartine أنها "أكثر التتهيدات التي خرجت من زنانات السجون شجنا" (85) وعندما مثل للمحاكمة رفض الدفاع عن نفسه وذهب في طريقه إلى الموت تخلصا من عصر تسوده البربرية والطغيان. ولم ينشر سوى قصيدتين طوال حياته لكن أصدقاؤه أصدروا بعد إعدامه بخمسة وعشرين عاما طبعة جمعا فيها أشعاره جعلته مثل كيتس Keats بالنسبة للأدب الفرنسي. ولا بد أن يكون تفجعه لمأساته ومأساتها هو ما عبر عنه في المقطع الشعري الأخير من قصيدته "الفتاة الأسيرة".

"آه أيها الموت لست في حاجة للعجلة !

انصرف! انصرف!

أذهب لتواسي قلوبا عرفت العار والخوف

حيث النواح والعيويل بلا أمل

بالنسبة لي فإن بالز Pales إلهة القطعان سيظل أمامها طرقها المعشوشبة

إن للحب قبلاته، وللربة موزيه Muze راعية الشعر والفنون والعلوم أناشيدها

وأنا أيضا لا أرغب الموت." (95)

وكان أخو أندريه الأصغر جوزيف دي شينييه (Joseph de Chénier 1797- 1836) مسرحيا ناجحا، وأعاد للأذهان الهياج الذي سببه تمثيل تالما Talma لمسرحية شارل التاسع Charles IX. وكتب كلمات الأنشودة

العسكرية "نشيد الرحيل Chant du départ" وأغنية للحرية Humne a` La Liberté " وقد غنيتا في "مهرجان العقل Fast of reason " وقدم لفرنسا ترجمة بارعة لكتاب جرای Gray :
Elegy Written in a Country Churchyard وتم انتخابه للمؤتمر الوطني، وأصبح بمعنى الكلمة هو الشاعر الرسمي للثورة. وفي آخر ع مره كلفه المعهد الفرنسي بإعداد حصر تاريخي بحالة الفكر الفرنسي وتطوره منذ سنة 9871، لكنه مات قبل أن يتمه، ومع هذا فهو سجل واسع للكتاب الذين حققوا شهرة في هذه الفترة والذين نسي الناس معظمهم حتى المتعلمون الفرنسيون. وقد مات أعضاء الأكاديمية الفرنسية الملقبين بالخالدين بعد موته بفترات بسيرة. وكان الأدب الفرنسي قد استعاد عافيته في ظل حكومة الإدارة بعد أن تحكمت فيه السياسة في عهد المؤتمر الوطني. لقد تكونت مئات من الجمعيات الأدبية وكثرت نوادي القراءة، وانتشرت عادة القراءة وازدهرت. وكانت معظم القراءات في مجال الر و ايات والقصص الرومانسي والشعر، فهذه القراءات بدأت تحل محل الولع بقراءة الأعمال التراجيدية. وترجم كتاب ماسفير سون (Ossain) Machpherson إلى الفرنسية وأقبل عليه القراء على اختلاف ميولهم من خادمت غرف النوم إلى نابليون.

صفحة رقم : 14573

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الحياة في ظل الثورة -> مداد دي ستيل و الثورة

8- مدام دي ستيل و الثورة

كان ثمة امرأة تقف بمعزل عن صائغي الكلمات التي يفرضونها بقوة الصوت أو بقوة شخصياتهم، لقد قبلت هذه المرأة الثورة في الوقت الذي كانت فيه معشوقة من عشاق كثيرين أتى الواحد منهم إثر الآخر، لكنها شجبت الغوغاء وحكم الإرهاب وتصدت لنابليون في كل خطوة وظلت حية حتى النصر، بينما كان هو يذوي حيا كالميت. لقد تمتعت جيرمين نيكر Germaine Necker بمزايا هيأت لها الشهرة والحظ الحسن: فأبواها الذي سرعان ما أصبح مليونيرا أصبح وزيرا لمالية فرنسا، وأمها التي كان إدوارد جيبون Edward Gibbon يلاحقها في وقت من الأوقات، جمعت في صالونها عابرة باريس المشهورين، ليؤدي ذلك إلى تعليم ابنتها، سواء كانت هذه النتيجة مقصودة مدبرة أم أنت بغير قصد ولا تدبير.

ولدت في باريس في 22 أبريل سنة 6671. وقد ملأها نيكر Necker - باعتباره مرشدها الرئيسي - بمزيج متفجر من التاريخ والأدب والفلسفة، وكتابات راسين وريتشاردسون وكالفن Calvin وروسو. ولقد تجاوبت في رقة الشعور مع كلاريسا هارلو Clarissa Harlow وفي حماس الشباب مع دعوة روسو إلى الحرية لكنها أثبتت حساسيتها بشكل مؤلم مع الكالفينية Calvinism وقاومت النظام واللاهوت اللذين كانا هما طعامها اليومي. وشينا فشيئا نفرت بسرعة مما يزعجها - سيطرة أمها - وأحبت أبها الفاضل المعين رغم تسامحه. تلك هي العلاقة الوحيدة التي حافظت عليها وتمسكت بها بإخلاص كامل، أما علاقاتها الأخرى فكانت عرضية لا تتسم بالاستمرار. لقد كتبت: "قدر انا كانا سيكونان قدرا واحدا يوحدنا للأبد لو كان القدر قد شاء أن يجعلنا في الفترة الزمنية نفسها"(06). وفي هذه الأثناء سمح لها من سن البلوغ فصاعدا أن تحضر اجتماعات أمها الدورية مع المفكرين، وكان الهدف من السماح لها بذلك هو مزج عواطفها بالفكر، وفي صالون أمها أسعدت العلماء بسرعة فهمها وحضور بديتها. وبمرور الوقت أصبحت وهي في السابعة عشرة نجمة الصالون.

والآن حان وقت البحث لها عن زوج موافق لعقليتها ومناسب لمكانة أسرتها الثرية. وشرح لها والداها ولیم بت William Pitt النجم الصاعد في سماء السياسة الإنجليزية لكن جيرمين رفضت الفكرة للسبب نفسه الذي جعل أمها ترفض جيبون Gibbon وهو أن الشمس لا تكون مشرقة فترة كافية في إنجلترا كما أن الإنجليزيةات جميلات لكنهن مقموعات (لا يسمعهن أحد). وتقدم لها البارون إريك ماجنوس ستيل فون هولشتين Eric Magnus Stael Von Holstein الذي كان قد أصبح مفلساً، وأرجأ آل نيكر طلبه حتى أصبح هو السفير السويدي لدى فرنسا. فما أن حدث هذا حتى وافقت جيرمين على الزواج منه لأنها توقعت أن تكون وهي زوجة أكثر استقلالاً منها وهي ابنة. وفي 41 يناير في سنة 6871 أصبحت هي البارونة دي ستيل هولشتين de Stael Holstein وكانت في العشرين من عمرها، بينما كان البارون (زوجها) في السابعة والثلاثين من عمره. وكان هناك تأكيد أنها "لم تكن تعرف شيئاً عن الاتصال الجنسي حتى زواجها" (16) لكنها كانت سريعة التعلم في مختلف المجالات. وقد وصفتها الكونتيسة دي بوفلر de Boufflers التي كانت في مقدمة الحاضرين في حفل العرس بأنها "معجبة بعقلها وذكائها بشكل زائد حتى إنه من الصعب أن يجعلها ذلك تتحقق من عيوبها. إنها متعطرة وذات إرادة قوية بشكل يفوق الوصف، واثقة من نفسها حتى إنني لم أر لها في هذا نظيراً ممن هم في مثل عمرها" (26) لم تكن جميلة فبينانها رجولى كعقلها لكن عينيها تتلألأ بالحيوية أما عند النقاش فليس لها كفاء.

وقد ذهبت لتعيش في السفارة السويدية في شارع دوباك Rue du Bac وسرعان ما أسست لها صالونها هناك، لكن أيضاً - تخلصاً من إزعاج أمها - اتخذت لصالونها مقراً في شقة فوق بنك أبيها. وطرد نيكر من وزارة المالية في سنة 1871 ولكنه استدعى مرة أخرى ليشغل المنصب نفسه في سنة 8871 لتحاكي تهديد الثورة. إنه الآن رغم ملايين المثل الأعلى في باريس، وكانت جيرمين تؤيده بشدة بلسانها وقلمها، وكان لديها بعض الأسباب التي تجعلها فخورة به، وأصبحت السياسة والحب غير المشروع هما طعامها وشرابها (لا هم لها سواهما).

وبناء على نصيحة نيكر دعا لويس السادس عشر مجلس طبقات الأمة للانعقاد، وأمر الملك متجاوزاً اعتراض نيكر أن تجتمع كل طبقة في مكان منفصل محافظاً بذلك على الفصل بين الطبقات. وفي 21 يوليو سنة 9871 طرد الملك نيكر للمرة الثانية وأمره بمغادرة فرنسا فوراً. فأسرع نيكر وزوجته بالتوجه إلى بروكسل وتبعتهما جيرمين وقد ملأها الغضب فسنى ستيل Stael مهام منصبه وصحبها وربط مصيره بمصيرها. وفي 41 يوليو اجتاحت الباريسيون سجن الباستيل وهددوا العرش. فأرسل الملك الذي تملكه الرعب لاستدعاء نيكر إلى باريس ليشغل منصبه فعد نيكر وصفق له الشعب، واندفعت جيرمين عائداً إلى باريس وراحت تحس كل يوم برياح الثورة الساخنة حتى مذابح سبتمبر. وأيدت مجلس طبقات الأمة لكنها دافعت عن فكرة وجود مجلسين تشريعيين في ظل ملكية دستورية مؤكدة أفكار الحكومة النيابية والحريات المدنية وحماية الملكية. وكلما تقدمت الثورة في مسارها كانت هي تبذل قصارى جهدها للتخفيف من أفكار اليقافية. وكانت تشجع الجبرونديين.

وعلى أية حال فقد بزت اليقافية في فلسفتها الأخلاقية وكل من قابلتهم من الرجال تقريباً كان الواحد منهم يرى أنه من المعقول أن يكون زواجه قائماً على اتحاد الثروات (ثروته وثروة زوجته) لا على اتحاد القلوب، إذ يمكن لمحظية أو محظيتين أن تنتج له الإثارة والرومانسية، لكن الواحد من هؤلاء الرجال لم يكن يظن أن هذا الامتياز يمكن أن يمتد ليشمل الزوجة لأن عدم إخلاصها قد يؤدي إلى إنجاب أولاد ليسوا من صلبه وبالتالي تضيع الثروة (تذهب لغير أبنائه أي تقسد عملية التوريث) ولم تكن جيرمين تشعر بهذه الحجة لأنها وهي الابنة الوحيدة يكاد يكون الميراث كله لها، لذا فقد انتهت إلى نتيجة مؤداها أن عليها أن تبحث عن الرومانسية متحررة من القيود كلها حتى في اختيار أسرة أخرى (التعامل في غير مخدع الزوجية).

وكانت قد فقدت احترامها لزوجها سريعاً، فقد كان مطيعاً جداً بطريقة لا تجعله مثيراً، وكان غير كفاء بطريقة تجعله غير قادر على تسديد ديونه، ولم تكن معترضة على اتخاذها من الأنسة كليرون Clairon محظية، لكنه كان ينفق دخله الحكومي على ممثلة مسرحية عمرها إحدى وسبعون سنة وكان يهمل واجباته كسفير وكان يقامر ويخسر وترامت عليه الديون مراراً، فكان يدفعها عنه زوجته وأبواها مكرهين، ومن هنا فقد شقت طريقها بين موكب العشاق لأنه كما قالت في "دلفين Delphine" "بين الله والحب لا أعترف بوسيط سوى ضميري" والضمير يمكن التحكم فيه Could be managed وكان من بين أول من تعاون معها تاليران Talleyrand أسقف أوتون Autun المطرود الذي اتفق معها في مسألة مرونة النذر أو القسم (اتخاذ المرء على نفسه عهداً Flexibility of vows) تم أتى بعده الكونت جاك أنطوان دي جوبير Jacques Antoine de Guibert الذي أصبح فيما بعد "المثل الأعلى الجميل beau Idéal" لجولي دي ليسبيناس Julie de Lespinasse لكنه على أية حال مات في سنة 0971 وهو في السابعة والأربعين. وقبل موته بعام كون علاقة أعمق وأكثر استمراراً مع لويس دي ناربون لارا Louis de Narbonne Lara، وكان ابناً غير شرعي، وكان لديه هو نفسه عندما بلغ الثالثة والثلاثين من عمره عدداً من الأبناء غير الشرعيين (أولاد الزنا) لكنه كان وسيماً بشكل ملحوظ، ويتحلى بدمائة وفضائل قلما يتحلى بها شاب وضيع

الأصل (ليس له شجرة نسب). وكان بحكم ميراثه الاجتماعي يقف إلى جانب الأرستقراطية ضد البورجوازية (محدثي النعمة) لكن جيرمين جذبته إلى أفكارها وجعلته من أنصار الملكية الدستورية التي يمكن في ظلها للطبقة التي تمتلك أن تشارك النبلاء والملك في الحكم. وإذا كان لنا أن نصدقها فإن ناربون Narbonne "غير قدره من أجلي، وتخلي عن ارتباطاته ووقف حياته لي. باختصار... لقد أقتعني أنه سيعتبر نفسه سعيدا بامتلاكه قلبي، وأنه إذا لم يجد لذلك سبيلا فقد لا يستطيع البقاء على قيد الحياة" (36). وفي 4 سبتمبر سنة 0971 استقال نيكر، لعدم رضا النبلاء المحيطين بالملك عن سياسته، واتجه هو وزوجته ليعيشا حياة هادئة في قصره في كوبيت Coppet، ولحقت بهما جيرمين في أكتوبر لكنها سرعان ما سئمت الهدوء في سويسرا، وأسرت عائدة لما أسمته - بالمقارنة - باسم شارع دو باك اللذيذ (46) Rue du Bac فهناك كان صالونها تتردد فيه أصوات لافاييت Lafayette وكوندرسية Condorcet وبريسو Brissot وبارنيف Barnave وتاليران وناربون، وصوتها. ولم تكن راضية عن اكتفائها بالمناقشات الأملية، فقد كانت تتطلع للقيام بدور سياسي. وأطلقت العنان لأحلامها بتحويل فرنسا من الكاثوليكية إلى البروتستانتية وكانت تأمل من خلال عش النبلاء الذي بنته أن تنهي الثورة بملكية دستورية تحقق فرنسا في ظلها السلام. وبمساعدة لافاييت Larayette وبارنيف Barnave ضمنت تعيين ناربون Narbonne وزيرا للحرب (6 ديسمبر 1971). وقد أيدت ماري أنطوانيت هذا التعيين مكرهة، فقد علفت قائلة:

"يا للمجد الذي حازته مدام دستيل de Stael "يا لسعادتها أن يكون الجيش كله تحت تصرفها!!" (56). لقد اشتط ناربون كثيرا، ففي 42 فيرا ير قدم للويس السادس عشر مذكرة يشير عليه فيها أن يولي ظهره للأرستقراطية، وأن يعطي ثقته ودعمه لبورجوازية الملاك التي تأخذ على عاتقها المحافظة على القانون والنظام والملكية المقيدة، وقد اعترض بقية الوزراء غاضبين، ورضخ لويس لمعارضتهم وطرده ناربون Narbonne، فسقط بيت جيرمين غير الراسخ أو غير القائم على أساس، وقامت مدام رولان بوضع الملح على جروح منافستها بأن عملت من خلال بريسو Brissot على تعيين زوجها (زوج مدام رولان) وزيرا للداخلية. لقد عاشت جيرمين في باريس خلال معظم عام 2971، هذا العام المتمسم بالاضطراب، وفي 02 يونيو سنة 2971 شاهدت اجتياح الجموع لقصر التوليري، ورغم أنها رأت المشهد عبر نهر السين إلا أن طريقة الجماهير غير المتحضرة سببت لها الرعب.

"لقد كانت صباحاتهم المرعبة وتهديداتهم المصحوبة بالقسم وإيماءاتهم وأسلحتهم الغدارة القائلة، كل ذلك كان يشكل مشهدا مرعبا يمكن أن يدمر وإلى الأبد الاحترام الذي يجب أن يتطلع إليه الجنس البشري" (66). لكن هؤلاء الجوري Jouree (كما اعتاد الفرنسيون تسميتهم بعد ذلك) أصبحوا هادئين بعد أن استرضاهم الملك بوضع <كاب> الثورة الأحمر فوق رأسه. وعلى أية حال ففي 01 أغسطس شاهدت من مكمنها الأمن استيلاء الغوغاء على التوليري وإراقة الدماء في أثناء عملية الاستيلاء وكيف أن الغوغاء لم يهدأوا حتى فر الملك والملكة ليكونا تحت حماية الجمعية التشريعية. وبدأ الثوار في القبض على كل أرستقراطي وقعت عيونهم عليه، واستغلت جرمين وضعها الأمن في حماية أصدقائها من الأرستقراطيين، فخبأت ناربون في موضع منعزل في السفارة السويدية، وصمدت بعناد وأخيرا اتفقت مع جماعة من خفر السواحل، وفي 02 أغسطس كان ناربون أمنا في إنجلترا. وكان بعد ذلك ما هو أسوأ، ذلك أنه في 2 سبتمبر قاد لابسو السراويل <البناطيل> الطويلة (الذين لا يرتدون سراويل قصيرة أو الساناس كولوت) النبلاء ومؤيديهم وقتلوهم ولم تنج مدام دي ستيل من هذا المصير إلا بشق الأنفس. فبعد أن ساعدت كثيرين من أصدقائها على الخروج من باريس بل ومن فرنسا كلها بدأت هي نفسها في يوم 2 سبتمبر الساطع هذا رحلتها في عربة من عربات الدولة تجرها ستة خيول ومعها خدم ذوو ثياب مميزة واتجهت إلى بوابات المدينة، ووضعت بنزوة إشارة السفراء وعلاماتهم على أمل أن يستقبلها موفدون دبلوماسيون، وما كادت العربة تتطلق حتى أوقفها "سرب من النسوة العجائز، وكأنهن خرجن من الجحيم" وأمرت جماعة من العمال الحوذيين بالتوجه إلى مركز الحي (القسم) وهناك أفرغ الحراس المجموعة بتوجيههم العربة ومن فيها إلى دار البلدية. "وهناك خرجت من العربة وأحاط بي غوغاء مسلحون وشققن طريقي بين أسنة الرماح، وبينما كنت أصعد السلم الذي كان أيضا غاصا بحاملي الرماح وجه أحدهم رمحا إلى قلبي. لكن رجل الشرطة المصاحب لي أبعدني بسيفه. لو أن قدمي زلت في هذه اللحظة لكان في ذلك نهايتي" (76). وفي مقر الكومون وجدت صديقا عمل على إطلاق سراحها ورافقها إلى السفارة وسلمها جواز سفر مكنها في صباح اليوم التالي من مغادرة باريس بأمان إلى كوبيت Coppet. لقد كان هذا هو اليوم الذي رفع فيه رأس الأميرة ديلامبل de Lamballe على سن رمح وطيف به لتراه الملكة السجينة.

ووصلت جيرمين إلى أحضان والديها في 7 سبتمبر وعندما سمعوا بثورة في جنيف اتجهوا شرقا إلى رول Rolle بالقرب من لوزان Lousanne. وفي 02 نوفمبر سنة 2971 أنجبت جيرمين ابنا ألبرت وكان سنها وقتئذ ستة وعشرين عاما والذي كانت تحمله معها خلال مغامراتها مع الموت. وربما تكون قد أنجبت من خلال علاقتها مع

ناربون لكن زوجها (دي ستيل) أقنع بأنه أبوه، فاقتنع أو تظاهر بالافتناع. وفي رول Rolle وبعد ذلك في كوبت Coppet أوت إليها عددا من الرجال والنساء المشاهير وغير المشاهير الهاربين من فرنسا قبل حكم الإرهاب في طريقهم إلى بلاد أخرى. "ولم تعبأ هي ولا أبوها بأن هذا قد يسبب المتاعب لهما" (86). وعندما علمت أن ناربون عرض أن يغادر ملجأه في إنجلترا ويعود ليدافع عن لويس السادس عشر، لم تستطع تحمل فكرة أن يعرض نفسه للخطر، فوجدت أنه يجب عليها التوجه إلى إنجلترا لإثباته عن عزمه، فاتخذت طريقها عبر فرنسا وعبرت القناة والتقت بناربون في صالة جونيبير Jouniper Hall في ميكلمهام Mickelham بالقرب من لندن، وفي 12 يناير سنة 3971 أي اليوم نفسه الذي قدم فيه الملك لويس السادس عشر للمقصلة. وكان عشيقها السابق مستثارا جدا بالأخبار التي وصلته، فلم يرحب بها الترحيب الكافي. لقد غلب عليه أصله الأرستقراطي، وضاع حبه لخليلته وسط أحرانه لمقتل الملك، وراح تاليران المقيم بالقرب من لندن يزورهما تباعا للتخفيف عنهما بفكاهاته. وانضمت إليهما فاني بورني Fanny Burney وذكرت في تقريرها (in Macaulay's Summary) أنها "لم تكن قد سمعت أبدا مثل هذه المناقشة قبل ذلك. لقد تجمعت أمور كثيرة لتقتنها: بلاغة تنسم بالحيوية وملاحظات حادة كأشد ما تكون الحدة، وعقل متألق كأشد ما يكون التألق، ولطف وكياسة وعاطفة جياشة، كأشد ما يكون ذلك كله". ورفضت فاني أن تصدق الإشاعات القائلة بأن ناربون وجيرمين يعيشان في الحرام (بممارسان الزنا معا). لقد كتبت إلى أبيها المؤرخ الموسيقى الشهير :

"لقد كانت هذه المشاركة الحميمة... جديدة تماما لي، وإنني أعتقد اعتقادا راسخا أن ما يقال عنها محض افتراء. إنها تحبه حبا حنونا، لكن بشكل واضح جدا وبسيط جدا... خال تماما من كل غنج أو عبث. إنها متسامحة جدا، وسهلة جدا، وهو وسيم جدا، ولا بد أن موهبتها العقلية هي مصدر جاذبيتها له، ولا شيء آخر... أظن أنك لا تستطيع أن تقضي يوما معهما من غير أن تدرك أن تجاوبهما الفكري من النوع الخالص رغم سموه وهو أي هذا التجاوب عماد صداقتهما" (96).

لكن عندما تأكدت فاني أنهما يمارسان الرذيلة تخلت أسفة عن زيارتهما في صالة جونيبير. بل إن المهاجرين (الذين تركوا فرنسا بسبب أحداث الثورة) قد ابتعدوا عن هذه المجموعة الصغيرة باعتبار أنهم دافعوا عن الثورة مدة طويلة. وفي 52 مايو سنة 3971 عبرت جيرمين إلى أوستند Ostend واتخذت طريقها بأمن إلى بيرن Bern باعتبارها لا تزال زوجة للسفير السويدي، وفي بيرن التقت بزوجها الموسمي (الذي لا يلقاها إلا بين الحين والحين أو بتعبير آخر زوج المناسبات) وذهبت معه إلى كوبت Coppet. وهناك نشرت كتابها: تأملات في محاكمة الملكة بقلم امرأة" دعت فيه بحرارة للنظر إلى ماري أنطوانيت بعين الرحمة، لكن المقصلة سرعان ما قطعت رقبة الملكة في 61 أكتوبر سنة 3971.

وماتت مدام نيكير في 51 مايو سنة 4971 وحزن عليها زوجها حزنا عميقا لا ينتج إلا عن طول العشرة " أما جيرمين فلم تتأثر كثيرا، وانتقلت إلى قصر ميزيري Mézery لتكون صالونا جديدا ولتنسى كل شيء آخر في أحضان كونت ريبينج Ribbing، ووصل ناربون متأخرا فوجد أحضانها مشغولة بغيره فعاد إلى خليلته السابقة، وأحيانا في أثناء سقوط سنة 4971 كان بنيامين كونستانت (قسطنطين) Benjamin Constant يلتقى بها في نيون Nyon، ليندمجا معا في علاقة طويلة قوامها الفكر والعشق، وكان بنيامين هذا سويديا في نحو السابعة والعشرين من عمره، طويلا بوجهه نمش و كان أحمر الشعر.

وفي هذه الأثناء سقط روبيسير ووصل المعتدلون إلى السلطة فأن لها أن تعود إلى باريس فعادت في مايو سنة 5971 وتصلحت مع زوجها وأحييت صالونها في السفارة النمساوية ودعت إليه الزعماء الجدد للمؤتمر الوطني المحتضر : بارا، وتاييه Tallein وبويسى دنجلا Boissy d` Anglas وأسود الأدب مثل ماري جوزيف شينييه Marie Joseph de Che'nier. واقتحمت مجال السياسة بشوق شديد حتى إن أحد أعضاء المؤتمر الوطني اتهمها بأنها تدبر مؤامرة ملكية واتهم زوجها بأنه ديوث (يقبل الخنا في أهله). وأصدرت لجنة الأمن العام الجديدة قرارا بإبعادها عن فرنسا، وفي أول يناير سنة 6971 عادت مرة أخرى إلى كوبت Coppet، وهناك بين كونستانت (قسطنطين) وكتبها كتبت دراسة كئيبة بعنوان: De L`influence des Passions " أي "أثر الهوى" استوتحت فيه روسو وشعورها، وكانت فيه صدق لكتاب The Sorrows of Werther وقد امتدحت في كتابها هذا الانتحار، ورتب أصدقاؤها في باريس طلبات مفعمة حماسا وعاطفة لإعادة النظر في أمرها، فأعلمتها حكومة الإدارة أنه في مقدورها أن تعود إلى فرنسا على أن تكون في مكان يبعد عن العاصمة عشرين ميلا على الأقل، فعادت مع كونستانت (قسطنطين) لتستقر في دير سابق في هيريفو Hérviaux، وفي ربيع سنة 7971 سمح لها بالانضمام لزوجها في باريس، وفي 8 يونيو انجبت ابنتها ألبرتine لا يعرف أبوها على وجه اليقين. وخلال هذه التعقيدات استطاعت عن طريق بارا - Barras أن تتوسط لاستدعاء تاليران من منفاه وتعيينه (في 81 يوليو 7971) وزيرا للخارجية. وفي سنة 8971 فقد البارون دي ستيل de Stael منصبه كسفير، فمنح جيرمين انفصالا وديا

(اتفق معها على الانفصال بشكل ودي) مقابل حصة ماله، وعاد إلى منزله الذي يعرف الآن باسم قصر الكونكورد Concorde وظل به حتى وجدناه ميتا في سنة 2081.

وفي 6 ديسمبر سنة 6971 قابلت نابليون لأول مرة في استقبال أعده تاليران لاستقبال فاتح إيطاليا عند عودته لفرنسا. وتحدث إليها نابليون مادحا والدها في عبارات موجزة. ولأول مرة في حياتها لم تكن جاهزة للرد (للتجاوب في الحديث). لقد قالت بعد ذلك: "لقد اعتراني الاضطراب إعجابا به ورهبة منه" (07) وقد سألته سؤالا غيبيا: "من هي أعظم امرأة بين الأحياء والأموات؟" فأجابها إجابة ملتوية شيطانية: "إنها المرأة التي أنجبت أكبر عدد من الأبناء" (17) وبعد ذلك بأربعة أيام رآته مرة أخرى وأعضاء حكومة الإدارة يستقبلونه مصفقين في قصر لكسمبورج. لقد كانت مرتبكة إزاء شخصية نابليون التي جمع فيها مزاج من الكبرياء والتواضع، وهنا شعرت أن نابليون هو الرجل الذي يحمل معه قدر فرنسا. وظلت طويلاً تواقفة لكسب ثقته والاشتراف معه في مشروعات كبيرة، ربما ليكون ذلك نصراً لها يضاف إلى انتصاراتها السابقة، وقد سعدت كثيراً كعاشقة تكتم عشقها في 01 نوفمبر سنة 9971 عندما أخبرها لوسين بونابرت أن نابليون خرج منتصراً في سان كلود St.- Cloud وحمل لقب القنصل الأول وهذا يعني عملياً أنه حاكم فرنسا. لقد شعرت عندئذ أن عصر الفوضى والنشوش والمثاليات الكاذبة قد انتهى وأن عصراً جديداً للأبطال والعظمة قد بدأ.

صفحة رقم : 14574

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> الثورة الفرنسية -> الحياة في ظل الثورة -> النتائج وتأملات الأحداث

9- النتائج، وتأملات في الأحداث

أما وقد قصصنا قصة الثورة الفرنسية بحياد بقدر ما سمح بعدها عن زماننا. لقد بقي أن نواجه الأسئلة التي أثارها الفلاسفة: أكان للثورة مبرراتها المعقولة في أسباب قيامها وما تمخضت عنه؟ هل حققت مكاسب مهمة للشعب الفرنسي أو البشرية؟ أكان من الممكن الوصول إلى هذه المكاسب بغير ما جرى من فوضى ومعاناة؟ أيمكن أن نخلص من أحداثها بنتائج يمكن تعميمها على الثورات عامة؟ أتلقى أضواء على طبيعة الإنسان؟ إننا نتحدث هنا - فقط عن الثورات السياسية أي التغييرات السريعة والعنيفة لتغيير الحكومات سواء تغيير الحكام أم تغيير السياسة أما التطور بلا عنف فسنتطرق عليه "التحول أو النمو والتقدم evolution ، أما التغيير السريع والعنيف أو التغيير غير الشرعي الذي يشمل الأشخاص بلا أحداث تغيير في شكل الحكومة فسنسماه انقلاباً Coup d`etat ، أما أي مقاومة عنيفة للسلطة القائمة فسنسماها عصياناً rebellion .

إن أسباب الثورة الفرنسية باختصار هي:

(1) عصيان برلمانات الدوائر (المحافظات) مما أدى إلى إضعاف سلطة الملك وإضعاف الولاء لنبلأء <الأرواب> of the robe .

(2) طموح فيليب دورليان Philippe d`Orleans للوصول إلى العرش ليحل محل لويس السادس عشر .

(3) عصيان البورجوازية وتمرداها على تخلي الدولة عن مسئوليتها المالية وتدخل الدولة في الاقتصاد، وعدم مشاركة الكنيسة بثروتها لمواجهة الإفلاس المالي للدولة، واعتراض البورجوازية أيضاً على امتيازات الأرستقراطية في أموال الدولة، وفي الحياة الاجتماعية.

(4) عصيان الفلاحين وتمردهم بسبب العوائد والمراسيم الإقطاعية والضرائب والعشور الكنسية.

(5) عصيان جماهير باريس ضد الظلم الطبقي والمعوقات القانونية والعجز الاقتصادي والأسعار المرتفعة والتهديد العسكري. وقد مول البورجوازيون وفيليب دورليان الدعاية التي بثتها الصحف وأججها الخطباء، وتوجيه الجماهير، وإعادة تنظيم الطبقة الثالثة في جمعية وطنية تمكنت من فرض دستور ثوري. وأدت شجاعة العوام وصلابتهم وعنفهم وما بذلوه من دماء إلى إرهاب الملك وإرغامه على قبول الجمعية والدستور كما أرغموا الأرستقراطية على التخلي عن عوائدها الإقطاعية وأرغموا الكنيسة على التخلي عن العشور، وربما وجب أن نضيف كعامل ثانوي إنسانية الملك ورغبته في تحاشي إراقة الدماء.

أما نتائج الثورة الفرنسية فعديدة ومعقدة ومتنوعة ودائمة تماما حتى إنها تجعل من المحتم تناولها عند كتابة تاريخ القرن التاسع عشر.

1- النتائج السياسية

وهي نتائج واضحة: انتهاء النظام الإقطاعي، ليصبح الفلاحون أحراراً، ويصبح جانب منهم ملاكاً. وحلت المحاكم المدنية محل المحاكم الإقطاعية وحلت ديمقراطية الملاك محدودي الملكية محل الملكية المطلقة، وحل بورجوازيو الأعمال Business محل الأرستقراطية كطبقة ذات سيادة تتولى أمور الإدارة. ومع الديمقراطية أتت المساواة أمام القانون وإتاحة الفرص للجميع على سواء وحرية إبداء الرأي وحرية العبادة وحرية الصحافة (على الأقل تم الإعلان عن هذا كامل) لكن سرعان ما قلت مقادير الحرية المتاحة بسبب التباين الطبيعي بين الناس في القدرات، والتباين بين بيئاتهم في البيوت والمدارس والثروات. ويلاحظ أن هذا التحرر السياسي والاقتصادي والتشريعي قد امتد إلى شمال إيطاليا وبلاد الراين وبلجيكا وهولندا بفضل جيوش الثورة، ففي هذه المناطق أيضا أزيح النظام الإقطاعي ولم يعد حتى بعد سقوط نابليون. ومن هنا كان الفاتحون محررين وإن لوثوا عطاياهم بما مارسوه من ابتزاز في أثناء حكم هذه المناطق.

وأكملت الثورة توحيد ولايات (محافظات) فرنسا نصف الموحدة وجعلوا منها دولة فرنسية ذات حكومة مركزية وجيش وطني وقانون يسري في جميع الولايات جميعها. وكانت وحدة هذه المحافظات في كيان واحد ناقصة قبل الثورة بسبب البارونات الإقطاعيين وضرائب الانتقال من محافظة إلى أخرى واختلاف أصول (أعراق) سكانها واختلاف تقاليدها وعملتها وقوانينها. لكن هذا التغيير فيما يشير توكفيل Tocqueville كان يسير سيرا حثيثا في ظل البوربون، فكان من المحتمل انجاز وحدة فرنسا بغير الثورة لأن التجارة على مستوى فرنسا كلها كانت بشكل متزايد تتجاهل الحدود بين المحافظات، تماما كما فرض الاقتصاد الوطني في الولايات المتحدة تقليص حقوق (الولايات) بإيجاد حكومة فدرالية كان لا بد أن تكون قوية.

وعلى النحو نفسه فإن تحرير الفلاح وصعود البورجوازية للسلطة السياسية والهيمنة الاقتصادية، كان من الممكن أن يحدث بغير الثورة، وإن كان حدوثه في هذه الحال سيكون بشكل أبطأ. وكانت الثورة في ظل الجمعية الوطنية (1971-1971) معقولة ولها ما يبرر تصرفاتها فيما وصلت إليه من نتائج دائمة، لكن الثورة في ظل حكومات الفترة من 2971 إلى 5971 كانت تمثل فترة بربرية تمثل فيها القتل والإرهاب والانهيار الخلفي بطريقة لا يمكن تبريرها بشكل كاف بوجود مؤامرات خارجية وهجوم خارجي. وفي سنة 0381 عندما أنهت ثورة أخرى الأمور بتأسيس ملكية دستورية، كانت النتيجة هي تقريبا مثل النتيجة التي تم التوصل إليها في سنة 1971.

وما حققته الثورة من مكسب بتوحيد فرنسا جرت موازنته بتطور "الوطنية" لتصبح مصدرا جديدا للعداوة بين الجماعات، فالقرن الثامن عشر كان ينحو عند الطبقات المتعلمة إلى التحرر من الأحقاد الوطنية باضعاف الفروق بين الأوطان في الثقافة واللباس واللغة، لقد كانت الجيوش نفسها في غالبيتها تنحو نحو العالمية جنوداً وقادة. وقد غيرت الثورة هذا الاتجاه باتخاذها التجنيد الإلزامي نظاما، وأصبح الولاء للأمة بدلا من الولاء للأسرات المالكة هو الأساس وهو دافع الحرب وينبوعه. ونجح التأخي (الرفقة) بين الجنرالات في أن يحل محل التكتل الأرستقراطي بين الضباط، وطغت وطنية الجنود المفعمة حماسا على برود موظفي الحكم القديم وممارستهم أعمالهم بلا روح. وعندما طور الجيش الفرنسي نظامه وازداد كبرياؤه أصبح القوة الوحيدة المنظمة في دولة مشوشة، وأصبح الملجأ الوحيد من بلبلة حكومات لا تتسم بالكفاءة وجماهير متمردة.

لا شك أن الثورة قد أتاحت الحريات بشكل أفضل في فرنسا وما وراءها، ومدتها لفترة إلى المستعمرات الفرنسية، بل وحررت عبيد هذه المستعمرات. لكن الحرية الفردية كانت تتطوى على مثالب. لقد ظلت هذه الحرية الفردية تزداد حتى تجاوزت الحدود الضرورية لنظام اجتماعي والضرورية لبقاء المجتمع على قيد الحياة، فالحرية التي لا حدود لها

هي الفوضى كاملة، وأكثر من هذا فإن القدرات المطلوبة لإشعال ثورة تختلف تماما عن القدرات المطلوبة لبناء نظام جديد، فإشعال ثورة يتطلب - ليتم بسرعة - سخطا وعاطفة وانفعالا وشجاعة ولا مبالاة بالقانون، وبناء نظام جديد يتطلب صبورا وعقلا وتقديرا للأمور بشكل عملي واحتراما للقانون. وما دامت القوانين الجديدة لا يدعمها تراث وعادات، فإنها عادة ما تفرض بالقوة. وأصبح دعاة الحرية هم القابضين على السلطة أو الذين أفسحوا المجال للقابضين على السلطة ولم يعودوا هم زعماء الغوغاء المدمرين وإنما قادة البناء المنظمين في ظل دولة عسكرية تحميهم وتشرف عليهم. ولحسن الحظ، فإن الثورة استطاعت أن تتخلص من الدكتاتورية أو تقصر أمدها، فحافظت على مكاسبها من الحرية للأجيال التالية.

2- النتائج الاقتصادية

وتتمثل في ملكية الفلاحين وفي الرأسمالية وقد نتج عن كل منهما آثار لا نهاية لها، فبعد أن أصبح الفلاحون ملاكا صاروا قوة محافظة شديدة، أبطلوا الاتجاه الاشتراكي للبروليتاريا الذين لا يملكون، وعملوا - أي الفلاحون - كمرساة أمان لاستقرار الدولة التي كانت تعاني من صدمات ما بعد الثورة، وظل دورهم هذا قائما عبر قرن من الزمان. وعلى هذا فقد تطورت الرأسمالية التي تلقى الحماية في الريف كما تطورت في المدن، وحلت النقود السائلة (السيولة النقدية) محل الثروة العقارية كقوة اقتصادية وسياسية، وتخلص الاستثمار الحر من السيطرة الحكومية.

وحقق الفيزيوقراط نصرا في معركتهم، أي أن يتركوا الحركة السوق تحديد الأسعار والأجور والإنتاج، فيكون "النجاح" أو "الفشل" محكوما بالمنافسة في "السوق" فيجب ألا تعوق القوانين حركة السوق. وتحركت البضائع من محافظة إلى محافظة بلا إزعاج أو تعويق بعد إلغاء ضرائب الانتقال الداخلية (من محافظة إلى أخرى) ونمت الثروة الصناعية وزاد تركزها عند القمة.

وعملت الثورة أو تشريعات الثورة بشكل متكرر على إعادة توزيع الثروة التي تركزت في جانب دون الجوانب الأخرى وأدى تفاوت القدرات أو الامتيازات إلى تركزها مرة أخرى (في جانب أو طبقة). لقد حتم تفاوت قدرات الأفراد حصول كل منهم على ما يكافئ جهده، فكان من الضروري أن تتفاوت حظوظهم في الحياة. فكل تفوق "طبيعي" يؤدي إلى مزايا في البيئة أو في الفرص. وحاولت الثورة أن تقلل من هذا التفاوت المتكلف (المصطنع)، لكنه سرعان ما عاد مرة أخرى وبشكل أسرع في ظل الحرية، فالحرية والمساواة لا يجتمعان (الحرية والمساواة عدوان لا يلتقيان Liberty and equality are enemies) فالناس تسعد بمزيد من الحرية لا لشيء إلا ليحصوا نتائج تفوقهم "الطبيعي" و "البيئي" ومن هنا فإن التفاوت (عدم المساواة) يزداد كثيرا في ظل الحكومات التي تؤيد الاقتصاد الحر وتدعم حقوق الملكية. فالمساواة مبدأ مزعزع غير مستقر (توازنه غير ثابت) أي أن المساواة (بفرض وجودها) سرعان ما تنتهي إن حدث تغيير في المواريث أو الصحة أو الذكاء أو الشخصية. وقد وجدت معظم الثورات أنه لا سبيل لمواجهة التفاوت "عدم المساواة" إلا بالحد من الحرية، كما في نظم الحكم الشمولية. وفي فرنسا الديمقراطية كان التفاوت (عدم المساواة) مطلق السراح ليزداد، أما المساواة فقد ذبحتها الجبلوتين (المقصلة) وفي الوقت المحدد أصبحت اتفاقا على ارتداء السراويل (يقصد المساواة من الناحية الشكلية كون الناس جميعا في فرنسا يرتدون زيا واحدا - السراويل - أو أن من حقهم ذلك).

3- النتائج الثقافية

لا تزال النتائج الثقافية للثورة الفرنسية تؤثر في حياتنا. لقد أعلنت الثورة حرية الحديث والصحافة والاجتماع، حقيقة لقد جرى تقليص هذه الحريات بشدة، بل وانتهت على يد نابليون تحت ضغط الحرب، لكن المبادئ نفسها ظلت باقية وخاضت معارك متتالية لإثبات وجودها خلال القرن التاسع عشر لتصبح قابلة للتطبيق (أو إدعاء تطبيقها) في ديمقراطيات القرن العشرين. وخططت الثورة لقيام نظام وطني للمدارس ونفذت ذلك بالفعل. وشجعت العلم ليكون بديلا للاهوت على مستوى العالم كله. وفي سنة 1971 عينت الحكومة الثورية لجنة جعلت على رأسها لاجرانج Lagrange لتضع لفرنسا الجديدة الموحدة نظاما جديدا للموازين والمقاييس فتم اعتماد النظام المترى الذي أوصت به رسميا في سنة 1971، وصدر به قانون في سنة 1971. وكان على هذا النظام المترى أن يناضل ليشق طريقه في

المحافظات الفرنسية إذ لم يكن قد حقق النصر الكامل حتى سنة 0481 وقد ألغى في بريطانيا العظمى الآن ليحل محله النظام الاثني عشري duodecimal system .

وبدأت الثورة بفصل الكنيسة عن الدولة لكن هذا ثبت أنه أمر صعب في دولة كفرنسا تهيمن عليها الكاثوليكية وتعتمد تقليدياً على الكنيسة في تهذيب شعبيها. ولم يكن هذا الفصل كاملاً حتى سنة 5091 وعاد ليضعف مرة أخرى هذه الأيام تحت ضغط أسطورة مؤازرة الحياة a life sustaining myth . وفي محاولتها إحداث طلاق بين الدولة والكنيسة ناضلت الثورة لنشر "الأخلاق الطبيعية". ووجدنا أن هذه المحاولة لم تنجح. فمن ناحية نجد أن تاريخ فرنسا في القرن التاسع عشر كان يمثل محاولات متشعبة دورية طال أمدها للخروج من كهف الانهيار الأخلاقي الذي سببته الثورة. وما هو القرن العشرون على مشارف النهاية من غير أن تجد البشرية حتى الآن بديلاً طبيعياً للدين في حث هذا الحيوان الناطق (الإنسان) على الالتزام بمبادئ الأخلاق.

وتركت لنا الثورة بعض الدروس في الفلسفة السياسية لقد بدأت بالأقلية التي راح عددها يزداد إلى التحقق من أن الإنسان هو الإنسان بصرف النظر عن طبقتة، فهو لاء الثوار الذين وصلوا إلى السلطة راحوا يتصرفون كما تصرف من سبقوهم بل وفي بعض الحالات راحوا يتصرفون بشكل أشد فظاعة. قارن تصرفات روبيسير بتصرفات لويس السادس عشر. لقد أصبح الناس نزاعين للشك في دعاوى الثورة فما عادوا يتوقعون شرطة لا يعترها الفساد وسيناتورات يراعون الفضائل، وعلموا أن الثورة لا يمكن أن تحقق أكثر مما يمكن أن يحققه التحول والتطور التدريجي، وتسمح به الطبيعة البشرية، وما كانت هذه الفكرة لترسخ في الأذهان لولا ما عاينه الناس في نفوسهم من جذور البربرية الراسخة التي تمتد لتعمل خلاف ضوابط الحضارة.

ورغم نواقص الثورة وعيوبها - وربما بسبب بتجاوزاتها وإسفافها - فقد تركت تأثيراً قوياً في آداب فرنسا وفنونها وتطلعاتها وانفعالاتها وذاكرتها.

بل وتركت التأثيرات نفسها في أمم أخرى من روسيا إلى البرازيل. فحتى سنة 8481 كان كبار السن يحكون لابنائهم عن أبطال هذه الفترة المثيرة، وما سادها من إرهاب اتسم بالطيش والقسوة بشكل يناقض القيم المتوارثة كلها. أكان عجباً أن يتحرك الخيال وتجيش العواطف على نحو قلما كان يحدث قبل قيام هذه الثورة؟ أكان عجباً أن يدفع التفكير في قيام دول يعيش فيها الناس على نحو أسعد، الرجال والنساء لتكرار محاولات تحقيق الأحلام النبيلة لهذه الحقبة التاريخية؟ إن قصص الوحشية والفظاعة التي سادت في أثناء الثورة الفرنسية دفعت الأرواح إلى التشاؤم والتخلي عن كل عقيدة. لقد ظهر شوبنهاور Schopenhauers وليوباردز Leopardis وبايرون Byrons وموسيت (موسى) Mossets ، وشوبرت a Schubert وكيبتس a Keats في الجيل الثاني. لكن كانت هناك أيضاً أرواح يملؤها الأمل والانتعاش: هوجو، وبلزك، وجوتير Gautier وديلاكروا Delacroix وببرليوز Berlioz وبلاك Blake وشيلي Shelley وشيلر Schiller وبيتهوفن الذين سيشاركون بشكل مكثف في الصحة الرومانسية للمشاعر والخيال والرغبة في التخلص من التقاليد والمحظورات والعوائق. وكان على فرنسا طوال ستة وعشرين عاماً أن تظل مندهشة حائرة - تحت تأثير الثورة ونابليون - أعظم قصة على الإطلاق! إنها الأكثر رومانسية من بين الرومانسيات كلها، ومنذ حدوثها أصبح نصف العالم مستثاراً خوفاً أو تطلعا وانبهاراً بهذا القرن العاشر بالأحداث الذي لمست فيه أمة عانت الكثير مثل هذه الذرى وتلك الأغوار بطريقة قلما عرفها التاريخ قبل ذلك، ولم يعرف لها مثيلاً منذ حدوثها (حتى الآن).

صفحة رقم : 14575

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> مقدمة الترجمة

الكتاب الثاني

في هذا الكتاب الثاني من المجلد الحادي عشر لموسوعة قصة الحضارة يُواصل المؤلفان حديثهما عن التطورات التي حدثت في أعقاب الثورة الفرنسية، وكان بعض هذه التطورات استمراراً لأفكار الثورة، وكان بعضها الآخر تصحيحاً لها. وهذا الكتاب كما هو واضح من عنوانه يتناول السياسة والاقتصاد والدين والفن والأدب والعلم ومختلف مظاهر الحياة في سياق واحد يُفسّر بعضه بعضه الآخر فتأتي النظرة شاملة عميقة، بالإضافة إلى أنّ هذا المنهج يُوضح تزاوج الحضارات ولقاء الأفكار.

نفهم من هذا الكتاب أنّ التقسيم النظري للمذاهب السياسية والاقتصادية والاجتماعية لا وجود له بشكل واضح على أرض الواقع فثمة تقسيم نظري (وهذا مجرد مثال) تبيّن فصول الكتاب أنه مجرد تقسيم لا يخرج عن رؤوس من سماهم نابليون بالأيديولوجيين أي المنظرين، وكانت الكلمة - حين استخدمها - تنطوي على شيء من السخرية، ونعني به تقسيم النظم إلى علمانية ودينية، فليس هناك نظام واحد يستطيع حتى لو أراد أن يُغفل عقائد الشعب حتى لو كانت عقائد خرافية. من المؤكد أنّ الكنيسة الكاثوليكية في روما لم تكن تعتبر نابليون مسيحياً أو على الأقل لم تكن تعتبره كذلك من وجهة نظرها، ولم يحضر الرجل للصلاة في كنيسة، ولم يحضر تسبيحه شكر وفقاً للطقس المسيحي، ولم يؤمن في يوم من الأيام بفكرة التثليث في المسيحية، وتزوج ماري لويز النمساوية في الوقت الذي لم يكن البابا قد أقرّ طلاقاً من جورفين (أي أنه جمع بين زوجتين) ولم يؤمن يوماً بعصمة البابا (وهو مُعتقد في صلب العقيدة الكاثوليكية) بل لقد أهانه بعد ذلك كما نقرأ في فصول هذا الكتاب وسجّنه وجرّده من ممتلكاته... نابليون إذن من وجهة نظر معاصريه الأوروبيين كافر أو ملحد أو علماني بل إن السلطات الكنسية لم تكن مُقتنعة أن اعتناقه للإسلام في مصر كان مجرد خدعة فوصفته بالمرتد عن المسيحية. ومع كل هذه العلمانية إن صحّ التعبير، وجدنا نابليون نفسه عندما أراد أن يضبط ما انفلت في فرنسا: ضياع، وتمرد وتفسخ في الأسرة وفي الحياة العامة، وافتقاد لجو الرخاء الاقتصادي والاستثمار لم يجد إلا الدين وسيلة لذلك، وعندما أراد أن يُتوج نفسه ملكاً كان لابد أن يتعرّز بالدين أمام غالبية شعبه، رغم أنّ هذا أثار سخرية أهل باريس الساخرين بطبعهم من الكنيسة، فاسترضى البابا ونقحه جُعلًا ليتوجه ويباركه (أي يمسه بالزيت)، ومع هذا كانت هناك إشارات تُنم عن حقيقة ما بداخله ففي حفل تتويجه وضع هو نفسه التاج على رأسه بعد أن تناوله من فوق منضدة مُعدّة لذلك ولم يسمح للبابا بأن يضع التاج فوق رأسه (رأس نابليون)، والمعنى واضح، وشجع نابليون نشر كتاب عن (عبقريّة المسيحية)، ومؤلف الكتاب نفسه اعترف في آخر حياته أنه لم يقصد إلا إيجاد وسيلة (هي هنا المسيحية) لإسكات الفقراء ومنع الثورات. ليست هناك إذن علمانية خالصة ولا يمكن أن تكون.

فإذا ما انتقلنا إلى النظم الدينية وجدنا البابا يناور ويتحالف ويطالب بممتلكات دينوية (الولايات الباباوية) ووجدنا الأساقفة يطالبون بممتلكات الكنيسة، بل ووجدنا مثلاً طريفاً قد يكون من المفيد ذكره في هذا السياق، فعندما وصل نابليون إلى بولندا المقسّمة وقتها بين روسيا وبروسيا والنمسا راقت له امرأة جميلة من نساتها النبيلات، فاستقصت عليه ورفضت ما أراد، فترجّأها نبلاء بولندا بمن فيهم رجال الدين المسيحي أن تُضحّي بنفسها وترضخ له وترضيه حتى يُخلص بولندا من أعدائها الذين اقتسموها وقسموها وليعيد بولندا موحدة كما كانت، فتكون (أي هذه المرأة) بذلك

قديسة مثل أستير وساقوا لها آيات من الكتاب المقدس (العهد القديم - سفر أستير) فمن هي أستير هذه؟ إنها فتاة يهودية جميلة تراعت للإمبراطور أحشويروش الذي ملك من الهند إلى كوش ففتروها بعد أن أوصاها قريباها مردخاي ألا تذكر للإمبراطور عن شعبيها اليهودي، وسلبت أستير لب الملك واستطاعت أن تثير حفيظته ضد وزيره هامان إذ دبرت إجلاس الوزير على سريرها فهاج الإمبراطور وقال أيكبس في بيتي وأعدمه، وكان هامان عدوا لليهود. المهم أن أستير استطاعت بفضل حب الإمبراطور لها حماية شعبيها اليهودي ومكنته من قتل منات من أهل البلاد. نعود إلى حكاية نابليون، لنجد أن هذه المرأة البولندية بعد أن افتتعت بهذا الشاهد الديني أتاحت نفسها لنابليون فدأق عسيلتها وأمعن، لكنه والحق يقال كان أذكى كثيراً من الإمبراطور أحشويرش فلا هو وحده بولندا لأن هذا كان سيكلفه الكثير، ولا أخرج منها روسيا لأن هذا كان سيفقده حليفاً محتملاً وهذا ما تحقق لكن إلى حين.

ولعلّ الفصل الرابع عشر (عن العلم والفلسفة في عصر نابليون) يكون من أمتع فصول الكتاب، فهو يقدم لنا في عرض بسيط وواضح جهود العلماء الفرنسيين في الرياضيات والفيزياء والبيولوجيا (علم الأحياء) وما تمخض عنها من آراء فلسفية تبني منها كل حزب سياسي ما يُدعم اتجاهه السياسي، وهذا أمر طريف، كما استثمر السياسيون النظريات العلمية الخالصة لدعم أفكار سياسية، وهذا بطبيعة الحال لا ينفي فضل العلماء وإن كان يعيب إنحراف السياسيين.

ولم يدع نابليون - على سبيل امثال - مبادئ الثورة الفرنسية وحرية الأديان وما إلى ذلك تعوقه عن النظر للأمور من خلال المنظور العملي الذي يؤكده الواقع وتدعمه الإحصاءات. لقد أقر حرية الدين للجميع بمن فيهم اليهود لكنه أرسل لبيسال حاخاماتهم عن موقف الشريعة اليهودية من الربا فأجابوه أن هذه الشريعة كما جاء بها موسى تحرّم الربا، وسألهم عن موقفهم من غير اليهود فقالوا قولا حسناً، فأتاح لهم حرية العبادة أسوة بغيرهم لكنه أمرهم بعدم التركيز في منطقة بعينها وأن ينتشروا في أنحاء فرنسا، وأمرهم ألا يقتصروا على مهنة الصرافة والعمل في المعادن النفيسة وإنما عليهم توجيه أبنائهم للعمل في مختلف المهن، والأهم من هذا أنه أسقط الفوائد الربوية التي فرضها اليهود على رعاياه، وهذا نابليون من ثائرة فلاحه الالزاس الذين كانوا على وشك الهجوم على البنوك التي يمتلكها يهود ألمان بأن أمر ألا تحصل هذه البنوك المبالغ التي أقرضتها (بالربا) للفلاحين قبل عام (راجع تفاصيل هذا في الفصل الحادي عشر).

والفصول؛ السابع والثامن والتاسع تحوي صفحات شائقة في التاريخ العسكري وفن إدارة المعارك: معركة مارنجو، وأوسترليتز، وأولم وغيرها،... لقد تناول المؤلف بالتفصيل معارك فرنسا في عهد القنصلية (عندما كان نابليون هو القنصل الأول) وفي عهد الإمبراطورية (بعد تتويجه إمبراطوراً)، ولم يكن عرضه جافاً وإنما تخلله جانب من أقوال نابليون وتوجيهاته بل ونصوص نشراته التي كان يوزعها على جنوده مما أعطى العرض حيوية فائقة.

وفيما يتعلق بالأعلام الواردة في الكتاب بذلت كل الجهد لتقديم الاسم كما ينطقه أهله إلا في حالات قليلة، بالإضافة لإثبات الاسم كما هو متداول في الكتابات العربية نقلاً عن الصيغة الانجليزية التي غلبت في بلادنا العربية لظروف تاريخية، وعلى هذا فقد كتبت قبالة الاسم وارسو Warsaw الصيغة (فرسافا) فهكذا ينطقون وارسو في شرق أوروبا، أما معركة وارنر فكتبتها أيضاً بنطقها الألماني فارنر، ومدينة ويمار وضحت أيضاً أنها فيمار، وجعلت حرف الوار لها في الأعلام الألمانية (ف 7) في أسماء المدن والأشخاص ليكون الاسم كما ينطقه أهله مع عدم إغفال الإشارة للاسم كما هو متداول في الكتب العربية. وفي حالتين أو ثلاث أغفلت ذلك لاستقرار الاسم في الاستعمال العربي استقراراً راسخاً، وعلى هذا فقد كتبت باريس Paris وليس باري كما ينطقها الفرنسيون، واستقر الاستعمال عندنا على الاسم لويس وليس لوي كما ينطقه الفرنسيون، والكتب العربية تذكر الجنرال كليبر بإثبات الراء فلم أجد مبرراً لكتابته (كليب). وهناك بعض الأسماء الأوروبية مألوفة لنا بصيغ عربية، فأثبت الصيغة العربية أيضاً مدّاً للجسور بين الحضارات، كالاسم جوزيف الذي هو يوسف وكونستانت الذي ينطقه الفرنسيون كونستان وأوردته الكتب التراثية العربية قسطنطين، أما الفيلسوف الألماني جوته أو جيته والصيغتان إردتان في الكتب العربية - فقد اعتمدت الصيغتين وأشرت لهما معاً، فالألمان ينطقون ما بعد الجيم واوا يُميلونها حتى تكاد تكون ياء، أو واوا يُميلونها حتى تكون ياء على نحو ما تُميل الياء المتطرفة في بعض القراءات فنقول (والضحى) مع إمالة الياء لتكون عواناً بين الألف والياء. وقد راجعت المواضيع والأماكن التي وردت في الكتاب على الأطالس التاريخية وضبطتها وأذلت بعض اللبس الذي وقع فيه سهواً آخرون، فمنطة نهر إلب Elbe تُطل على بحر الشمال ولا علاقة لها بمنطقة جبال الألب أو الجمهورية السيزلية (جمهورية الألب الشمالية).

ومن المصطلحات التي قمت بتصويبها في هذه الترجمة ما ورد في مجال التعليم عن نشر كليات المعلمين أو كليات التربية، والمصطلح المستخدم هو Ecole Normale الذي يعني كلية المعلمين أو مدرسة المعلمين العليا، ولا يعني أبداً المدارس العادية وأخيراً فالكلمال لله وحده سبحانه وتعالى، ندعوه أن يُلهمنا الصواب ويُقِلنا من العثرات، وأكرر

شكري للأستاذ محمد السويدي الأمين العام لاختياره - للترجمة - هذه الأعمال الكبيرة، فالمجمع الثقافي في (أبوظبي) أصبح بذلك صرحاً ثقافياً موجهاً للضمير العربي - وعلى الله قصد السبيل.
د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ

صفحة رقم : 14576

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> التفصيلية -> الدستور الجديد

الفصل السابع

التفصيلية

من 11 نوفمبر 1971 إلى 81 مايو 1981

1- الدستور الجديد

1 slash1 القناصل (الحكام القناصل)

في 21 نوفمبر سنة 1971 اجتمع القناصل المؤقتون في قصر لكسومبورج لإعادة بناء فرنسا من جديد. وكان هؤلاء القناصل المؤقتون هم نابليون وسييز Sieyès وروجر (روجيه) دوكو Roger Ducos، وساعدهم في مهمتهم لجنتان تضمان أفراداً من المجالس والجمعيات القديمة، وكان كل من سييز ودوكو لديهما بالفعل مقر إقامة في لكسمبورج باعتبارهما كانا عضوين في حكومة الإدارة السابقة، وقد انتقل نابليون وجوزفين ويوجين Eugene وهورتنس Hortense والعاملون معهم إلى لكسومبورج في 11 نوفمبر 1971. وقد واجه المنتصرون في هذا الانقلاب أمة نهشت الفوضى في بثبتها الاقتصادية والسياسية والدينية والأخلاقية. وكان الفلاحون يخشون إذا ما عادت أسرة البوربون المالكة أن تُلعن سندات الملكية التي بحوزتهم. وكان التجار والحرفيون

يرون أن رفاهيتهم مهددة بسبب الموانئ المحاصرة، والطرق التي اعترها الإهمال وأعمال اللصوصية وتردد أصحاب الأموال في استثمار أموالهم بضمان الحكومة التي سبق أن اجتاحتها الانقلابات عدة مرّات. والآن وقد أصبحت الحاجة ملحة لقوة القانون وتنفيذ المشروعات العامة، وتقديم العوْث للفقراء، لم يكن تحت تصرف الخزانة إلا 0021 فرنك. وكان رجال الدين في حالة معارضة دائمة: فمن بين ثمانية آلاف قس كاثوليكي في فرنسا، رفض ستة آلاف منهم التوقيع على الدستور المدني لرجال الدين (الإكليروس) وراحوا يعملون ضد الدولة في عداة سافر أو مقنّع، أما التعليم العام فقد تدهور حاله - بعد إبعاد الكنيسة عن تولّي أمره - رغم البيانات الرسمية الفخمة ورغم الخطط الحكومية الطموحة. أما الأسرة الدعامية الأساسية للنظام الاجتماعي فكانت قد اهتزت بسبب حرية الطلاق مما أدى لاننتشاره، وبسبب كثرة الزواج الاعتباطي (غير المدروس) وبسبب تمرّد الأبناء. أما الروح العامة للشعب فقد كانت تحتضر خوفاً من الثورة والحرب وبسبب الشك في كل زعيم وبسبب التشاؤم لعدم تحقق الآمال، بينما كانت هذه الروح في سنة 1987 قد بلغت ذرى الوطنية والشجاعة. لقد كان مثل هذا الموقف يتطلب فن إدارة شؤون الدولة، لا دهاءً سياسياً، ويتطلب حسماً دكتاتورياً (كما تنبأ مارا Marat وحث من قبل) لا مناقشات ديمقراطية تتسم بالتلف في جمعيات فارغة - لقد كان المطلوب مزاجية بين الرؤية الرحيبة والفكر الهادف والعمل المضني والبراعة مع البصيرة وإرادة أمره. وقد انطبق كل هذا على نابليون.

وفي أول اجتماع لهؤلاء القناصل المؤقتين اقترح سيبز أن يكون نابليون - ذلك الجنرال ذو الثلاثين عاماً - هو الرئيس (القنصل الأول) لكن نابليون استرضى سيبز Sieyès بترتيب الأمر بحيث يتولّى الرئاسة كل واحد منهم على التعاقب، واقترح - أي نابليون - أن يكون سيبز هو المسؤول الأول عن صياغة الدستور الجديد. وعكف هذا المنظر القديم على دراسته وترك نابليون (مع دوكو Ducos اللطيف المسالم) لإصدار المراسيم لضمان حسن سير الإدارة، وتحسين أداء الخزانة بتطوير قدرتها على الوفاء بديونها، وتهذبة النزاعات واكتساب ثقة الشعب الذي أزعجه اغتصاب السلطة بالقوة.

وكان أول ما قام به القنصل الأول The ruling Consul أنه ارتدى زيّاً مدنياً متواضعاً مُحْتشماً وطرح لباسه العسكري. لقد كان عليه أن يكون هو الفتى الأول فوق خشبة مسرح الأحداث. لقد أعلن عن نواياه بمجرد تأسيس الحكومة الجديدة مقترحاً شروط السلام مع إنجلترا والنمسا. وكان طموحه في بواكير فترة حكمه هذه هو طمأننة فرنسا وتقويتها لا إجبار إنجلترا على التسليم. لقد كان نابليون في هذا الوقت هو من أسماه بت Pitt ابن الثورة ومضمد جراح فرنسا الناتجة عن النزاعات الداخلية، ومخطط رخائها الساعي لاستتباب السلام. ابن الثورة الذي هو إفراز من إفرازاتها، وحاميتها، والعامل على الاحتفاظ بما حققته من مكاسب اقتصادية، لكنه أيضاً كان واضحاً في إبداء رغبته في إنهاء الثورة.

لقد أسعد البورجوازية عندما أصدر في 71 نوفمبر سنة 1997 قراراً بنفي ثمانية وثلاثين شخصاً كانوا مصدر خطر على الأمن العام (وكان نابليون لا يستغني عن الدعم الاقتصادي الذي تقدّمه البورجوازية له، فقد كان هذا أمراً ضرورياً لسلطته) وقد كان قراره هذا يمثل الدكتاتورية المفرطة إذ جلب من السخط أكثر مما جلب من الاستحسان، لذا فإنه سرعان ما عدّل القرار ليحمله نفيّاً إلى المحافظات (المديريات الفرنسية) بدلاً من النفي خارج فرنسا وألغى ضريبة المصادرة التي تتراوح قيمتها من 02% إلى 03% والتي كانت حكومة الإدارة قد فرضتها على كل الدخول (1) التي تزيد على المستوى العادي. والغى القانون الذي كانت الحكومة تعمل بمقتضاه على احتجاز المواطنين البارزين كرهائن يتم تغريمهم أو نفيهم إذا ارتكب مواطنوهم أية جرائم ضد الحكومة. وهذا الكاثوليك في إقليم الفندي Vendée بدعوة زعمائهم إلى مؤتمر وأكد لهم نواياه الحسنة ووقع معهم في 42 ديسمبر هدنة أنهت الحروب الدينية في فرنسا لفترة. وأمر أن تعاود كل الكنائس الكاثوليكية - التي سبق أن كُرست قبل سنة 3971 - ممارسة العبادات الكاثوليكية في كل الأيام ما عدا يوم الديكادي (2) décadi (اليوم العاشر) وفي 62 ديسمبر أو بعد ذلك بقليل أعاد من المنفى ضحايا أجنحة الثورة التي حققت انتصارات على الأجنحة الثورية الأخرى في وقت من الأوقات: الليبراليون السابقون في الجمعية الوطنية National Assembly بمن فيهم لافاييت Lafayette، ولطف من حدة أعضاء لجنة الأمن العام Committee of Public Safety، مثل بارير Bayère ولازار كارنو Lazare Carnot الذي عاد إلى ممارسة مهامه في وزارة الحرب. وأعاد بونايرت الحقوق المدنية للنبلاء غير المشاغبيين، وللمسالمة من أقارب الذين تركوا فرنسا بسبب أحداث الثورة émigrés. وأبطل المهرجانات التي كان وقودها الحقد والكرهية، كمهرجان الاحتفال بذكرى مقتل الملك لويس السادس عشر، ونفى الجيرونديين Girondins وذكرى سقوط روببسيير. وأعلن نابليون أنه لن يحكم فرنسا لصالح أية فئة من الفئات المنتصرة - اليعاقبة أو البورجوازية أو الملكيين - وإنما سيحكمها كمثل للأمة كلها. لقد أعلن أنه إن حكم لصالح أي فريق فمعنى هذا أنه سيعتمد عليه (دون سواه) عاجلاً أم آجلاً. ولن يسمح لي الفرقاء الآخرون بذلك أبداً. إنني وطني فرنسي(3).

وعلى النحو نفسه نظر الشعب الفرنسي له - حقاً لقد نظر إليه الفرنسيون جميعاً باعتبارهم وطنياً فرنسياً فيما عدا بعض الجنرالات الحاقدين، واليعاقبة الجامدين. لقد تحول الرأي العام الفرنسي منذ 31 نوفمبر بشكل حاسم لصالحه. لقد كتب السفير البروسي لحكومته في ذلك اليوم قائلاً: كل ثورة سابقة اعترافاً كثير من الخوف والريبة، أما هذه الثورة الفرنسية، فعلى العكس، فقد أبهجت أرواح الجميع وأيقظت أكثر الآمال حيوية، كما شهدت ذلك بنفسه (4). وفي 71 نوفمبر بلغ الهبوط في البورصة أحد عشر فرنك، وفي 02 من الشهر نفسه ارتفع إلى 41، وفي 12 من الشهر نفسه، ارتفع إلى 02(5).

وعندما قدم سبيز Sieyès للفصلين الآخرين خطته فيما يتعلق بدستور السنة الثامنة (9971) فإنهما سرعان ما أدركا أن المولد السابق الذي ولدت الثورة على يديه قد فقد كثيراً من ذلك الإعجاب الذي كان يُكنه للطبقة الثالثة أي طبقة العوام، ذلك الإعجاب الذي كان يُركى أوار لهيب نشراته أو دفتاره الدعائية المثسمة بروح التحدي خلال العقد الماضي. لقد أصبح الآن متأكداً تماماً أنه ليس في مقدور أي دستور أن يحفظ الدولة لفترة طويلة إذا امتدت جذوره - وجذور الدولة معه - في إرادة غير ثابتة الاتجاه تحركها عواطف الجماهير غير المدركة لأبعاد الأمور - لقد كادت فرنسا في هذه الفترة تكون خالية من المدارس الثانوية، وكانت صحافتها ممثلة للتحزب والتشيع لفئة أو أخرى مما جعلها مصدر تعمية على العقل العام أكثر منها مصدر إخبار صحيح. وقد قصد الدستور الجديد لحماية الدولة من الجهل المنتشر من ناحية ومن الحكم الاستبدادي من ناحية أخرى. وقد تحقق نصف نجاح في هذا السبيل.

وقام نابليون بمراجعة سبيز Sieyès في بعض أفكاره التي أوردها في الدستور الجديد، لكنه بشكل عام قیل معظمها لأنه - أي نابليون - كان بدوره غير ميال للديمقراطية. ولم يغير رأيه الذي مؤذاه أن الشعب (الفرنسي) غير مؤهل لاتخاذ قرارات حكيمة بشأن انتخاب ممثلهم أو بشأن الأمور السياسية؛ فهم أناس تأسروهم الجاذبية الشخصية، وتخدعهم البلاغة الخطابية والكتابات الصحفية، ويؤثر فيهم الفسوس الذين ترفرف قلوبهم حول روما. واعتقد نابليون أن الشعب الفرنسي نفسه لا بد أنه معترف بعدم قدرته (أي مقدرته الشعب) على مواجهة مشاكل الحكومة. وسيكون الشعب راضياً إذا حول لهم الدستور الجديد حق الموافقة أو الاعتراض على قضايا تطرح عليهم في استفتاء عام. لقد أعاد سبيز Sieyès الآن تشكيل فلسفته السياسية وفقاً للمبدأ الأساسي التالي: لا بد أن تأتي السلطة من أعلى، وأن تأتي الثقة من أدنى (6) وبتعبير آخر فلتحكم الحكومة وليثق الشعب.

لقد بدأ بانحناء احترام موجزة للديمقراطية. فقد كان على كل فرنسي بلغ العشرين أو أكثر أن يصوت لاختيار عشر هذه الفئة العمرية ليصبح المنتخبون (بفتح الخاء) وجهاء محليين (في الكوميونات) Communal notables ويقوم هؤلاء المنتخبون (بضم الميم وفتح الخاء) بدورهم بانتخاب عشر عددهم ليكونوا وجهاء على مستوى المحافظات (الأقسام أو الدوائر) departmental notables وهؤلاء بدورهم ينتخبون عشر عددهم ليكونوا وجهاء على مستوى فرنسا National notables. وهنا تمخضت العملية الديمقراطية عن: موظفين محليين كان لا بد أن يعينهم (لا ينتخبهم) الوجهاء الكوميونيين (المنتخبون على مستوى الكوميونات)، وموظفين محليين على مستوى الدوائر أو المحافظات يتم تعيينهم من قبل المنتخبين على المستوى نفسه، وموظفين كبار على مستوى الدولة الفرنسية يتم تعيينهم من قبل المنتخبين (بضم الميم وفتح التاء) على هذا المستوى الثالث (الوطني). وكان لا بد أن تتم كل التعيينات من قبل الحكومة المركزية.

وأسفرت هذه الانتخابات عن تأسيس:

(1) مجلس الدولة الذي كان عادة ما يضم خمسة وعشرين عضواً يعينهم رأس الدولة The chief of state مخولين باقتراح القوانين الجديدة.

(2) مجلس التربيون Tribonat أو مجلس المدافعين عن حقوق الشعب (وهو ما تعنيه الكلمة) ويتكون من مائة عضو Tribunes (والمعنى المباشر للكلمة هو: حامي حمى الشعب) مخولين بمناقشة الإجراءات المقترحة ولهم الحق في تقديم توصياتهم إلى الهيئة التشريعية.

(3) الهيئة التشريعية A corps Législatif وهي مكونة من ثلاثمائة عضو من حقهم رفض الإجراءات المقدمّة أو تكيفها مع القانون (وليس مناقشتها).

(4) السينات Sénat أو مجلس الشيوخ وعادة ما يضم ثمانين عضواً من ذوي العقول الناضجة مخولين بإلغاء القوانين التي يحكمون بأنها غير دستورية، وهم مخولون أيضاً بتعيين أعضاء مجلس التربيون (مجلس المدافعين عن حقوق الشعب) وأعضاء الهيئة التشريعية، كما أنهم مخولون بإضافة أعضاء جدد إلى مجلسهم (مجلس الشيوخ أو السينات) من بين وجهاء الأمة National notables كما أن عليهم قبول الأعضاء الجدد الذين يعينهم الناخب العظيم grand elector.

(5) الناخب العظيم: ومصطلح الناخب العظيم هو المصطلح الذي أطلقه سيبيز Sieyès على رأس الدولة لكن نابليون رفض المصطلح وتوصيفه، لأنه رأى في هذا المنصب (كما يدل عليه المصطلح الذي وصفه سيبيز sieyès) مجرد وكيل تنفيذي لقوانين تمت إجازتها دون مشاركته أو موافقته، وتجعله مجرد رئيس شكلي (صوري) ليس له من الأمر شيء سوى استقبال الوفود والدبلوماسيين، وتصدر الحفلات الرسمية. وشعر نابليون أن هذه الأمور لا تحتاج إلى موهبة، وكان على عكس ذلك يتطلع إلى أن يصل بأقصى سرعة ممكنة - عن طريق القوانين - إلى تحقيق أمل أمة تصرخ مطالبة بالنظام والتوجيه، ومصرّة على البقاء (الاستمرار)، لذا فقد قال لسبيز Sieyès إن ناخبكم العظيم هذا Grand Elector مجرد ملك عاطل وقد ولى الآن زمن هؤلاء الملوك الكسالى. إن أي رجل ذي قلب وعقل لا يمكنه أن يقبل هذه الحياة البليدة مقابل ستة ملايين فرنك ومسكن في التوليري؟ ما هذا؟ أيمن جالساً يُعَيّن من يعملون بينما يظل هو بلا عمل! هذا غير مقبول(7). لقد طلب الحق في أن يبادر بالتشريع، وإصدار المراسيم وأن يعين في مناصب الحكومة المركزية من يراه كقوّاً حتى ولو لم يكن من بين الوجوه المنتخبين (بفتح الخاء). لقد كان برنامجه لإعادة البناء في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية يتطلب استحواداً مضموناً على السلطة طوال سنوات عشر. لذا فإن نابليون لم يرغب في أن يكون الناخب العظيم - ذلك اللقب ذو المذاق الروسي - وإنما أراد أن يكون القنصل الأول ذلك اللقب الذي يحمل عبق روما القديمة. وهكذا رأى سبيز Sieyès دستوراً يسقط ليصبح ملكياً إلا أنه ملكي معدّل نظراً للمهمة الإشرافية لمجلس الشيوخ (السينات) وتم تعيين سبيز Sieyès ودوكو Ducos قنصلين وفي 21 ديسمبر 1971 أحلّ نابليون محلّهما كلا من: جان - جاك كامباسير Jean - Jacques Cambacérés كقنصل ثان، وشارك فرانسوا ليبرون Charles Francois Lebrun كقنصل ثالث.

ومن الخطأ تصنيف هذين القنصلين باعتبارهما مجرد موظّين مُطيعين. فقد كان لكل منهما خبراته وتجاربه. لقد أصبح كامباسير Cambacérés الآن هو المستشار القانوني لنابليون، وكان كامباسير قد شغل سابقاً في حكومة الإدارة منصب وزير العدل. وكان يترأس مجلس الشيوخ، كما كان في حالة غياب القنصل الأول - يترأس مجلس الدولة (Conseil d) Council of State) Etat) وقام بدور قيادي في تشكيل مدوّنة نابليون القانونية Code Napoléon. وقد كان شخصاً هادئاً وكان معتزاً بالولائم الفخمة التي يُقيّمها، لكن هدوءه هذا وكذلك ميله للتأمل مكّناه - غالباً - من إنقاذ القنصل الأول (نابليون) من أخطاء طانثشة. لقد قام بتحذير نابليون من معاداة أسبانيا وحذّره من التورط مع روسيا، أما شارل - فرنسوا ليبرون Lebrun فقد كان فيما مضى أمين سر لريني دي موبو Rene de Maupeou في مهمته الساعية لإنقاذ فرنسا البوربونية من الإفلاس (أي أنه قام بهذه المهمة يوم كانت فرنسا تحت حكم أسرة البوربون الحاكمة) وسبق له أن شارك في إعداد التشريعات المالية التي أصدرتها الجمعية الوطنية National Assembly وحكومة الإدارة، والآن فقد بدأ مهمته في حكومة القناصل مع نابليون بخزانة خاوية فعمل على تنظيم مالية الحكومة الجديدة. لقد قرّر نابليون كفاءة هذين الرجلين فعندما أصبح إمبراطوراً جعل من ليبرو Lebrun مسؤولاً أول عن الخزانة، كما جعل من كامباسير Cambacérés مستشاره الأول، وقد ظلّا وقيّين له حتى النهاية.

ورغم إيمان نابليون الراسخ بأن ظروف فرنسا تتطلب قرارات عاجلة وتنفيذ سياسات سريعة إلا أنه قدّم مقترحاته. في عامه الأوّل في الحاكم - إلى مجلس الدولة وسمع أعضائه وهم يُهاجمون ويدافعون واشترك هو نفسه في المناقشات الدائرة بشكل إيجابي. وكان هذا دوراً جديداً له، فقد اعتاد أن يقود أكثر من اعتياده الاشتراك في المناقشات، وقد أصبحت أفكاره الآن تتجاوز كلماته (تسبق كلماته): لكنه تعلم بسرعة وعمل بكل جهده داخل مجلس الدولة وخارجه وبذل كل ما يستطيع لتحليل المشكلات وإيجاد الحلول. لقد كان حتّى الآن مجرد مواطن قنصل Citoyen - Consul وسمح لأخرين بفرض آرائهم عليه(8) وكان أعضاء مجلس الدولة من أمثال بورتالي Portalis وروديريه Roederer وثيباودو Thibaudeau من ذوي الكفاءة العالية، ولم يكونوا من النوع المنساق، ومع هذا فإنّ مذكراتهم تُعصّ بالثناء على رغبة نابليون الشديدة في الإصلاح وبذله فصارى جهده في العمل. لنستمع إلى روديريه Roederer وهو يقول: أنه دقيق في كلّ موقف، يُطيل الجلسة لخمس ساعات أو ست... ودائماً يعود إلى هذا السؤال: أهذا عدل؟ أهذا مفيد؟... وهو دائماً يربط كل مشكلة بظروفها التي يعمد إلى تحليلها تحليلاً دقيقاً والحصول على معلومات بشأن فلسفة التشريعات السابقة الصادرة في أيام الملك لويس الرابع عشر وفرديريك العظيم Frederick the Great... ولم يحدث أبداً أن تم تأجيل المجلس دون أن يكون أعضاؤه أكثر علماً بالأمور من ذي قبل - إذا لم يكن ذلك من خلال المعلومات التي يحصلون عليها منه، فمن خلال البحوث التي يُجبرهم على القيام بها... وما كان يُميزه عنهم جميعاً هو قوة ملاحظته ومرونته ودأبه إنني لم أره أبداً وقد اعتراه النعيب. ولم أجده أبداً وقد فقد عقله تألقه حتّى ولو كان بدنه متعباً... أنه لا يوجد أبداً من يُكرّس نفسه كلياً للعمل الذي هو عاكف عليه مثله، ولم أر أفضل منه في استثمار وقته وتخصيصه لإنجاز ما يتحمّ عليه عمله(9).

في تلك الأيام كان في مقدور المرء أن يُحب نابليون.

وبالإضافة إلى تنظيم أمور التشريعات اللازمة لحكم فرنسا، فقد انخرط في العمل الأصعب ونعني به إدارة البلاد، لقد قسّم هذه المهام الإدارية بين ثمانى وزارات جعل على رأس كل منها أكفأ من وجد من الرجال بصرف النظر عن انتماءاتهم الحزبية وماضيهم. لقد كان بعضهم يعاقبه وبعضهم من الجيرونديين وبعضهم الآخر من الملكيين وفي حالة أو حالتين سمح نابليون لميوله الشخصية بتجاوز الحد فتطغى على الاعتبارات العملية، ومن ذلك أنه عين لابلاس Laplace وزيراً للداخلية، لكنه سرعان ما وجد الفلكي والرياضي الكبير وقد نقل روح التفاصيل الرياضية الدقيقة إلى الإدارة (01) فنقله إلى السينات (مجلس الشيوخ) وأوكل وزارة الداخلية لأخيه لوسين (لوسيان) بونابرت Lucien.

لقد كان العمل الأساسي، والذي يكاد يكون متعزراً، لوزارة الداخلية هو إعادة الحيوية للكميونات أو المجالس البلدية، وتطويرها لإعادة قدرتها على الوفاء بديونها، باعتبارها - أي هذه الكميونات أو المجالس البلدية - هي الخلايا المكونة للجهاز السياسي. وقد عبر نابليون بنفسه عن هذه الحال في خطاب وجهه إلى لوسين (لوسيان) في 25 ديسمبر سنة 9971.

منذ سنة 0971 وهذه الكيانات المحلية (الكميونات أو المجالس البلدية) البالغ عددها 63،000 تشبه البنات اليتيمات. لقد كانت هذه الكيانات هي وارثة الحقوق الاقطاعية القديمة، وقد أهملها وسلبها إرادتها الأمعاء المفوضون الذين كانت حكومة المؤتمر الوطني وحكومة الإدارة ترسلهم. إن مناصب: رئيس البلدية والخبير التابع له. والمستشار البلدي، أصبحت بالترجيح لا تعني بشكل عام سوى أنها نوع جديد من اللصوصية. فشاغلو هذه المناصب يقطعون الطريق ويسرقون المشاة ويستولون على الأخشاب وينهبون الكنائس ويختلسون ممتلكات الكميونات. وإذا كان لا بد أن يستمر هذا النظام عشر سنوات أخرى فماذا سيحدث لمؤسسات الإدارة المحلية هذه؟ إن هذه المؤسسات لم تثر شيئاً سوى الانخراط في المناقشات، وسوى الإفلاس حتى أنها ستطلب الإحسان من السكان (11).

هكذا كان نابليون في نوبات غضبه، لقد كان مبالغاً بمرارة. وإن كان ما قاله صحيحاً لجاز الاقتراح بأن يُسمح (بضم الياء) للكميونات باختيار موظفيها، كما هو الحال في كوميون باريس. لكن نابليون لم يكن راغباً للوصول الأمور فيها إلى ما وصلت إليه في باريس. فالثورة الفرنسية - فيما يرى مؤرخ أتى بعد انقضاء أحداثها، لم تكتشف في الكميونات الأصغر (من كموميون باريس) سوى عدد قليل من الفلاحين كانوا متعلمين بدرجة كافية وكانوا متقنين لدرجة تمكنهم من الإحساس بمعنى التكامل والصالح العام (21). وغالباً ما كان هؤلاء الحكام الذين تم اختيارهم محلياً - مثلهم مثل الحكام الذين بعثت بهم باريس - إما أنهم غير أكفاء، وإما فاسدون، وإما غير أكفاء وفاسدون معاً. لذا فقد أصم نابليون أذنيه عن المطالبات بالحكم الذاتي المحلي Communal self-rule. لقد فضل - بعد أن رجع للنظام الروماني القنصلي أو لنظام المحافظين intendants في أواخر حكم أسرة البوربون - أن يُعيّن (أو يجعل وزارة الداخلية تعين) لكل دائرة أو محافظة أو مديرية أو قسم مأموراً prefect (منوطاً به تنفيذ القوانين)، ونائب مأمور (أو مأموراً مساعداً) في الوحدات الإدارية الفرعية، وأن يعين لكل كميون مديراً أو محافظاً أو رئيساً mayor ويكون كل معيّن (بتشديد الياء وفتحها) مسؤولاً أمام من هو أعلى منه وأخيراً أمام الحكومة المركزية. وعلى هذا فقد كان كل المأمورين المعيّنين من الرجال ذوي الخبرة الواسعة، وكان معظمهم من الأكفاء جداً (31). وفي كل الأحوال وجدناهم يمكنون نابليون من القبض على زمام السلطة إلى حد كبير.

وكانت الخدمة المدنية (الجهاز الإداري ككل) في فرنسا في عهد نابليون هي الأكثر كفاءة والأقل ديموقراطية من بين كل ما عرفه التاريخ، ربما فيما عدا روما القديمة. وقاوم الشعب هذا النظام، الذي أثبت مع ذلك أنه تريباق يمكن تبرير استخدامه لعلاج نزعتهم الفردية المنطوية على تحقيق مكاسب، وقد احتفظ البوربون عندما عادوا للسلطة بهذا النظام كما احتفظت به الجمهوريات الفرنسية المتعاقبة. لقد أعطى هذا النظام لفرنسا استقراراً واستمرارية طوال قرن اجتاحتها الاضطرابات السياسية والثقافية فقد كتب فاندال Vandal سنة 3091 إن فرنسا تعيش اليوم في ظل التشكيل الإداري والقوانين المدنية التي أورتها لها نابليون.

وكانت المشكلة الأكثر إلحاحاً هي إعادة ملء الخزانة. لقد عرض نابليون وزارة المالية على مارتن - ميشيل جودين Martin - Michel Gaudin بناء على توصية من القنصل ليبرو Lebrun وكان جودين قد رفض في وقت سابق هذا المنصب في ظل حكومة الإدارة، وكان مشهوراً بالكفاءة والأمانة. وكان توليه لهذا المنصب في ظل حكومة

التفاصيل ضماناً لتأييد المالىين وثقتهم في هذه الحكومة الجديدة. فوصلت للخزانه قروض لانقاذ الدولة وقدم أحد المالىين (البنكيين) للخزانه قرضاً مقداره 000,005 فرنك ذهباً ولم يطلب فوائد. وسرعان ما أصبح في الخزانه 21 مليون فرنك تُغطى بها نفقاتها الجارية وتقدم منها للجيش طعامه كساءه، فقد عانى أفراد الجيش طويلاً من الملابس الرثة كما أنّ رواتبهم لم تكن قد دفعت منذ فترة طويلة. (وكان نابليون يضع دائماً الجيش في المحل الأول من اعتباره) وسرعان ما نقل جودين Gaudin سلطة تقدير الضرائب وجمعها من المسؤولين المحليين إلى الحكومة المركزية، نظراً للسمعة السيئة للسلطات المحلية في هذا الشأن. وفي 31 فبراير سنة 0081 وحد جودين الوكالات المالية المختلفة في بنك واحد هو بنك فرنسا Bank of France وطُرحت أسهمه للبيع وأصبح له حق إصدار العملة الورقية. وسرعان ما استطاعت الإدارة الدقيقة للبنك أن تُصدر أوراقاً نقدية محل ثقة انتشر استخدامها بين الناس. وكان هذا في حد ذاته ثورة. ولم يكن البنك مؤسسة حكومية وإنما بقي قطاعاً خاصاً (in private hands) لكن الحكومة دعمته، وأشرفت عليه جزئياً عن طريق العوائد الحكومية المودعة به، وأصبح على وزير الخزانه باربي ماربوا Barbe - Marbois بالإضافة إلى وزير المالية إدارة ميزانية الدولة والحفاظ عليها في البنك. وكانت أكثر الأمور في هذا النظام الإداري مدعاة للسخط هي: الحظر، وأعمال البوليس السري والعقاب على الجرائم، وإجراءات حماية المسؤولين الحكوميين من الاغتيال. وكان جوزيف فوشي (فوشيه) Fuaché هو رجل هذه المهام. لقد سبق أن تمرس بكثير من أشكال الخداع والتكرار، وباعتباره كان من المشتركين في قتل الملك، فقد كان الملكيون يضعونه نصب أعينهم كهدف للانتقام، لذا فقد كان يمكن لنابليون أن يعتمد عليه كحاجز يمنع تحول بين البوربون Bourbon والاستيلاء على العرش. فبينما دلت جودين Gaudin المالىين ورجال البنوك وروّضهم، وجدنا فوشيه Fouché يُشرك العاقبة في آمال الفتنل الأول باعتباره ابناً مخلصاً للثورة - يحمي العامة من الارستقراطية والإكليروس (رجال الدين) ويحمي فرنسا من القوى الرجعية. وكان نابليون يخشى فوشيه ولا يثق به، وظل محتقظاً بطاقت منفصل من المخبرين السريين من بين مهامهم مراقبة وزير البوليس، ولكنه لم يبعده عن منصبه إلا في سنة 2081 وكان هذا بحذر شديد، وأعادته سنة 4081 وظل محتقظاً به إلى سنة 0181. لقد كان نابليون يقدر في فوشيه اعتداله في طلب الدعم المالي، وأوحى لهذا الوزير اللمّاح بأن يمولّ قواته - جزئياً - بمصادرة أموال نوادي القمار بالإضافة إلى الحصول على أموال من المباغي والمواخير (41).

وكُلّفت قوات درك خاصة (جندرمة) لمراقبة الشوارع والمخازن والمكاتب والمنازل التي من المفترض أنها تشارك في دخل الأحياء أو الدوائر (داخل المدن).

أما دفاع الفرد حتى لو كان مجرمًا عن نفسه أمام البوليس والقانون والدولة فلم يحظ بالعناية الكافية في فرنسا على النحو الذي حظي به في إنجلترا في تلك الأيام، لكن شيئاً من ذلك قد كلفه قضاة أكفاء. وعند اسناد هذا الفرع من فروع الإدارة للفقهاء القانوني أنديه - جوزيف أبريمال André - Joseph Abrimal قال له نابليون: أيها المواطن. إنني لا أعرفك، لكن هناك من أخبرني أنك أكثر الرجال أمانة عندما تتولى أمراً من أمور الحكم، وهذا هو السبب الذي جعلني أعينك وزيراً للعدالة (51) وسرعان ما امتلأت فرنسا بالمحاكم المختلفة التي غصت بهيئات المحلفين Juries التي تضم الكبار والشباب وقضاة الصلح Justices of Peace والمحضرين bailiffs والمدعين العموم (المفرد: مدّعي عام Prosecutor) والمدعين (مقدمي الدعاوى Plaintiffs) وكتاب العدل (محرري العقود notaries) والمحامين....

أما حماية الدولة الفرنسية من الدول الأخرى فتلك هي مهمة وزارة الحرب التي تولاهها الجنرال لويس - اسكندر بيرثيه Louis - Alexander Berthier ووزارة البحرية التي تولاهها دينيس ديكر Denis Decres ووزارة الخارجية Ministère des Relations Exterieures التي تولاهها تاليران Talleyrand المستعصي على الفساد. وكان قد بلغ من العمر عند توليه هذا المنصب خمسة وأربعين عاماً، وقد حقق شهرة عريضة كشخص مهذب رقيق الحاشية عميق الفكر فاسد الأخلاق (عاهر) with moral depravtiy لقد رأيناه أخيراً (في 41 يوليو سنة 0971) يقيم قداساً مقدساً في مهرجان معسكر دي مار de - Mars Champ، وبعد ذلك بفترة قصيرة كتب لآخر محظية من محظياته أدليد دي فيلول، كونتيسة فلاهوت Adelaide de Filleul, Comtesse de Flahaut : إنني أمل أن تكوني قد أحسست لأي إلهٍ وجهت صلواتي بالأمس، ولمن أقسمت قسم الولاء والاخلاص في هذه الصلوات. لقد كان ذلك موجهاً لك. فأنتِ الموجود الأسمى Supreme being الذي أعبدته وسأظل أعبدته دوماً (61) وقد أنجب من الكونتيسة ابناً لكنه حضر عرسها بهدوء كواهب خفي للعرس (71) وكان ضعفه أمام جمال النساء مصحوباً بطبيعة الحال بشغفه بالفرنكات فيها يعيش الجمال (المقصود أن النساء الجميلات في حاجة إلى المال الوفير). ومنذ رفض الأخلاق المسيحية واللاهوت الكاثوليكي وجدناه يوظف بلاغته وفصاحه لسانه لتحقيق المكاسب، وتلقى باقة ورد - لهذا - من كارنو Carnot الذي قال عنه:

لقد حمل تاليران معه كل رذائل الحكم القديم دون أن يكون قادراً على اكتساب فضائل الحكم الجديد. إنه شخص بلا مبادئ ثابتة. إنه يغير مبادئه كما يغير ملابسه، ويغير اتجاهه وفقاً للريح، فهو فيلسوف إن كانت الفلسفة هي الصرعة السائدة، وهو جمهوري الآن لأن ذلك ضروري ليكون أي شيء، وسيعلن غداً أنه ملكي تماماً إن كان سيحصل من جراء هذا الإعلان على أي شيء. إنني لا أشتريه بشروى نقيير أو بتعبير آخر أنا لا أريده بأي ثمن مهما كان بخساً. ووافق ميرابو Mirabeau على أن تاليران سيبيع روحه من أجل المال، وسيكون على حق لأنه في هذه الحال إنما يبيع الفذارة بالذهب(81).

وعلى أية حال فقد كانت هناك حدود لدوران تاليران وعبثه، فعندما طردت الجماهير الملك والملكة من قصر التوليري وأقامت دكتاتورية البروليتاريا، فإنه لم يُحَنِّ للسادة الجدد وإنما استقل قارباً واتجه إلى إنجلترا في 71 سبتمبر سنة 1791، وهناك قُوبِلَ بمشاعر مختلفة ومتباينة، فقد استقبله بحرارة كل من جوزيف يرسنتي Joseph Priestley وجيرمي بنتام Jeremy Bentham وجورج كاننج Geroge Canning وشارلز جيمس فوكس (Fox) (91)، أما من استقبلوه ببرود فهم الارستقراطية الإنجليزية الذين لم ينسوا دوره في الثورة الفرنسية. وفي مارس سنة 1791 انتهى التسامح الإنجليزي معه وصدرت الأوامر له بمغادرة إنجلترا في غضون أربع وعشرين ساعة، فأبحر إلى الولايات المتحدة وعاش هناك بارتياح من عوائد ممتلكاته واستثماراته، وعاد إلى فرنسا (أغسطس 1791). وأصبح وزيراً للخارجية (يوليو 1791) في ظل حكومة الإدارة. وبمثل هذه الطاقة والقدرة استطاع أن يضيف لثروته الكثير بأساليب شتى حتى أنه كان قادراً على إيداع مبلغ ثلاثة ملايين فرنك في البنوك الإنجليزية والألمانية. وعندما علم أن حكومة الإدارة ستسقط استقال منها في 02 يوليو سنة 1791 وراح ينتظر مطمئناً مترقياً وصول نابليون للحكم ليستدعيه لشغل منصبه من جديد، ولم يطل انتظاره فقد استدعاه القنصل (نابليون) في 22 نوفمبر سنة 1791 ليصبح - من جديد - وزيراً للخارجية.

لقد اعتبره نابليون شخصاً ذا قيمة باعتباره حلقة وسطى بين الحاكم (المقصود متولي المنصب) المُحدَث (أي الذي لم يتول شؤون الحكم من قبل) والملوك المنحلين. لقد ظل تاليران - خلال كل ثوراته وتقلباته - محافظاً على ملابس الارستقراطية القديمة وعاداتها وطريقتها في التفكير وأسلوبها في الحديث: فقد كان حسن المنظر مقبولاً (رغم قدمه المعوجة) كما كان هادئاً رابط الجأش حاد الذهن لماحا حتى أنه إذا لزم الأمر استطاع أن يقتل بعبارة ساخرة. وكان نائب العمل ودبلوماسياً ذاهية قادراً على إعادة صياغة تصريحات سيده (نابليون) الطائشة الفظة ليغلفها بغلاف ودي أنيق. وكان مبدأه لا تتعجل في اتخاذ القرار (02) - وهو شعار طيب يتناسب مع رجل أعرج، وفي حالات مختلفة أدى تأخره في إرسال بريد الدولة إلى تراجع نابليون عن قرارات غير صائبة.

لقد أراد - مهما كان العلم الذي يرفرف فوقه - أن يعيش مبذراً في بحبوحة دائمة، مهتبلاً فرص المسرات بترو، جامعاً ثمار أي شجرة يلقاها. وعندما سأله القنصل (نابليون) كيف تمكن من جمع هذه الثروة الضخمة؟ أجابه مبتسماً ودون مواردية لقد اشتريت بضائع في السابغ عشر من شهر برومير Brumaire (الجمهوري) وبعثتها بعد ذلك بثلاثة أيام (12). ولم يكن ما قاله لنابليون سوى البداية، ففي غضون أربعة عشر شهراً من استعادته لمنصبه كوزير للخارجية أضاف لحساباته البنكية خمسة عشر مليون فرنك أخرى. لقد كان يلعب في السوق بناء على معلومات يحصل عليها من داخل الحكومة، كما أنه تلقى عمولات tidbits من القوى الأجنبية التي بالغت في تقدير تأثيره على سياسات نابليون. وفي نهاية فترة القنصلية قُدرت ثروته بأربعين مليون فرنك (22). وكان رأي نابليون فيه أنه شخص مقرف وليس هناك من يحل محله (لا يمكن الاستغناء عنه). لقد وصفه مستوحياً ذكرى ميرابو Mirabeau بأنه الأعرج أنه بُراز (غائط) في جورب حريري (32) مستخدماً عبارات أقل إيحاء في الفرنسية من نظيراتها لدى الإنجلوسكسون. وكان نابليون نفسه الذي استحوذ على الخزانة الفرنسية وفرنسا كلها - فوق مستوى الرشوة.

3\ كيف استقبل الفرنسيون الدستور الجديد؟

واجه الدستور الجديد عند نشره في 51 ديسمبر 1791 كثيراً من النقد رغم ما ورد به من دعوى أنه إنما قام على المبادئ الحقبة لحكومة تمثيل نيابي، وعلى احترام حقوق الملكية والمساواة والحرية. وأن السلطات التي رسخها ستكون قوية راسخة كما ينبغي أن تكون لضمان حقوق المواطنين ومصالح الدولة. أيها المواطنون لقد قطعت الثورة شوطاً بعيد المدى في سبيل تحقيق المبادئ التي انطلقت منها. لقد انتهت الآن هذه الثورة (it is finished 42). لقد كانت هذه كلمات مطاطة لكن نابليون اعتبرها كافية لأن الدستور سمح لكل الذكور البالغين بالادلاء بأصواتهم في المراحل الأولى للانتخابات. وأنه - أي الدستور - نص على ألا يكون هناك تعيين جديد إلا من بين الممثلين

notables الذين انتخبهم الشعب بطريق مباشر أو غير مباشر، وأتة - أي الدستور - أقر ملكية الفلاحين والبورجوازية التي استحوذوا عليها بالشراء نتيجة قيام الثورة، وأقر إلغاء الرسوم الاقطاعية وإلغاء العشور التي كانت تجمعها السلطات الكنسية. ومن الناحية النظرية أكد مساواة كل المواطنين أمام القانون وأهليتهم لشغل أي موقع في المجال السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي، ورسخ - أي الدستور - حكومة مركزية قوية للقضاء على الجريمة والفوضى السياسية والفساد والتسيب الإداري، وللدفاع عن فرنسا ضد القوى الأجنبية، وأتة - أي الدستور - قد أنهى الثورة بأن جعلها أمراً واقعا (أي حقق ما كانت تعمل على تحقيقه) إذ حقق غرضها في نطاق حدود طبيعية وشكل شكلاً جديداً من التنظيم الاجتماعي يمتد بجذوره في حكومة ثابتة الأركان، وإدارة ذات كفاءة وحرية على مستوى الأمة كلها، وقانون دائم.

ومع هذا كان هناك مندمرون، فقد شعر اليعاقبة أن دستور السنة الثامنة قد تجاهلهم ذلك أن الحكومة النيابية (حكومة التمثيل الوطني representative government) التي أخذ بها الدستور إنما هي حكومة تُسلم الثورة بشكل متملق للبورجوازية. وكان العديد من الجنرالات في حالة دهشة قلم لم يختر القدر واحداً منهم ليتسلم الذروة السياسية بدلاً من هذا الكورسيكي التافه (نابليون) ومن أقوال نابليون أنه ليس من جنرال من هؤلاء الجنرالات إلا وتأمّر ضدي (52) وحزن الكاثوليك لأن الدستور أقر مصادرة الثورة لممتلكات الكنيسة، وعم الاضطراب مرة أخرى منطقة الفندي (Louis Vendee 0081) والملكيون تملكهم الغيظ لأن نابليون قد رسخ وضعه بدلاً من أن يدعو لويس الثامن عشر Louis XVIII ليعتلي عرش البوربون. وبدأ الملكييون في شن حملات صحفية رافضين الحكم الجديد وساعدهم على ذلك أنهم كانوا يسيطرون على معظم الصحف (62). وقد رد نابليون على هذه الحملات (71 يناير سنة 0081) بوقف ستين صحيفة من ثلاث وسبعين صحيفة كانت تصدر في فرنسا في ذلك الوقت بحجة أنها تتلقى أموالاً من دول أجنبية. وتم تقليص الصحافة الراديكالية أيضاً وأصبحت جريدة المونيتور (المرشد أو المعلم Moniteur) هي الجريدة الرسمية الناطقة باسم الحكومة. وأدان الصحفيون والكتاب والفلاسفة هذا التعدي على حرية الصحافة، والآن تحقق أمل مدام دي ستيل de Stael لتلعب دور إيجيريا Egeria (الناصحة) فبدأت هجوماً ضارياً استمر طوال حياتها ضد نابليون واصفة إياه بأنه دكتاتور وأد الحرية في فرنسا.

وكانت صحيفة المونيتور هي اللسان الناطق بالدفاع عن نابليون. لقد قالت أنه لم يدمر الحرية، وإنما كان هذا أمراً قائماً بالفعل بسبب الحاجة إلى حكومة مركزية لأغراض الحرب، وبسبب تلاعب اليعاقبة بالانتخابات، ودكتاتورية الجماهير المشاغبة، وتوالي الانقلابات في الأعوام التي تولت فيها حكومة المديرين الحكم، وما كان قد تبقى منها (الحرية) تمرغ في أوحال الرشوة الساسية والفساد الأخلاقي. إن الحرية التي وأدها (صلبها) نابليون كانت هي حرية الجماهير بعدم الالتزام بالقانون، حريتهم في ارتكاب الجرائم والسرقة والقتل، حرية الدعاية الغوغائية في الكذب وحرية القضاة في تقاضي الرشاوي وحرية رجال المال في الاختلاس، وحرية رجال الاعمال في الاحتكار. ألم يدافع مارا Marat عن الدكتاتورية باعتبارها العلاج الوحيد لفوضى المجتمع التي ضربت أطنابها فجأة بسبب وصاية الدين والهيمنة الطبقية والأوتوقراطية الملكية، وأوصى بترك الأمور تحت رحمة إلحاح الغرائز وطغيان العامة؟ ألم تمارس لجنة الأمن العام هذه الدكتاتورية ممارسة فعلية؟ لقد أن الأوان لفرض شيء من النظام لإعادة ضبط الأمور، فهذا أمر لازم لنقوم الحرية على أساس (72).

أما الفلاحون فلم يكونوا بحاجة لمثل هذه الحجج ليؤيدوا الدستور الجديد، فهم يمتلكون الأراضي وقد أيدوا سراً كل حكومة تقمع اليعاقبة. وهنا وجدنا البروليتاريا في المدن يتفقون مع الفلاحين - رغم المصالح الاقتصادية المتعارضة. أما ساكنو الشقق - عمال المصانع والكتبة في المحلات والبائعون الجوالون - الذين هم مثل السانسان كولت (الذين يرتدون البناتيل الطويلة أي الذين ليسوا نبلاء ولا إكليروس) وكانوا يكافحون طلباً للخبز والسلطة، فقد وجدناهم يفقدون إيمانهم بالثورة التي حلقت بهم في عنان السماء ثم هوت بهم من حلق، تاركة إياهم وقد تمزقت آمالهم، ولم يبق هناك سحر يثيرهم سوى بطل الحرب وهازم إيطاليا فهو في رأيهم لن يكون أسوأ من السياسيين في حكومة الإدارة. أما البورجوازيون - رجال البنوك والتجار ورجال الأعمال - فكيف يرفضون رجلاً احترام الملكية (بكسر الميم) احتراماً كاملاً وأقر مبدأ الحرية الاقتصادية؟ إنهم به (أي بنابليون) ربحوا الثورة وورثوا فرنسا. لقد كان هو رجلهم حتى سنة 0181.

وعندما أصبح نابليون واثقاً من تأييد الغالبية العظمى له طرح الدستور الجديد للاستفتاء العام في 42 ديسمبر سنة 9971 ولا ندري إن كان هذا الاستفتاء قد جرى التلاعب فيه مثل كثير من الاستفتاءات المشابهة قبل ذلك وبعده أم لا، لك الإحصاء الرسمي للأصوات يشير إلى موافقة 3،110،701 على الدستور الجديد، واعتراض 1،265،82). ولما أدرك نابليون كثرة المؤيدين له، انتقل مع أسرته ومعاونيه من لكسومبرج المزدهمة إلى قصر التوليري الرحب وكان ذلك في 91 فبراير سنة 0081. وكان انتقاله مصحوباً بموكب فخم يضم ثلاثة آلاف تشكيل من الجنود، وجنرالات يركبون خيولاً، والوزراء في العربات وأعضاء مجلس الدولة في مركبات كبيرة، أما القنصل الأول

(نابليون) فكان في مركبة فخمة تجرها ستة خيول بيض. لقد كان هذا الموكب أول نموذج للعروض التي كان نابليون يأمل عن طريقها في التأثير في جماهير باريس. وقد شرح ذلك لسكرتيره: بورين Bourrienne سنببت أخيراً هذه الليلة في قصر التوليري. إنك في حال أفضل مني: فأنت لست مضطراً لإظهار نفسك، لكنك قد تأخذ طريقك إلى هناك. وعلى أية حال فلا بد أن أذهب إلى التوليري في موكب، وهذا يُرْعِجني لكنه ضروري للحديث إلى عيون الناس... في الجيش تتجلى البساطة لكن في مدينة كبيرة وفي القصر لا بد أن يجذب رئيس الحكومة الانتباه بكل طريقة ممكنة مع الحذر (92).

واكتلمت طقوس النصر بملاحظة مزعجة: على أحد مراكز الحراسة في ساحة قصر التوليري قرأ نابليون: العاشر من أغسطس 2971 - تم إلغاء الملكية في فرنسا ولن تعود مرة أخرى أبداً (03) وأثناء تجواله في غرف القصر التي سبق أن شهدت يوماً ما ثراء البوربون، أبدى مستشار مجلس الدولية - روديريه Roederer - الملاحظة التالية: أيها الجنرال هذا محزن فأجاب نابليون نعم، محزن مثل العظمة (13) واختار نابليون غرفة واسعة لا يزينها سوى الكتب ليعمل بها مع سكرتيره بورين Bourrienne وعندما أطلعه مساعدوه على السرير الملكي وغرفة النوم الملكية رفض استخدامهما مفضلاً النوم بشكل معتاد مع جوزفين إلا أنه على أية حال قال لزوجته بطريقة لا تخلو من فخر تعالي يا صغيرتي كرول Creole ونامي في سرير سادتك (23).

صفحة رقم : 14577

قصة الحضارة - < عصر نابليون - < تاريخ الحضارة الأوروبية - < القنصلية - < معارك الحكومة القنصلية

2- معارك الحكومة القنصلية

لقد أسس نابليون نظاماً داخلياً وهياً ظروفاً تؤدي إلى ازدهار اقتصادي لكن بقي أن فرنسا كانت محاطة بالأعداء بسبب الحروب التي بدأتها (أي فرنسا) في 02 أبريل سنة 2971. لقد كان الشعب الفرنسي يتطلع للسلام لكنه كان يرفض التخلي عن المناطق التي سبق أن ألحقها الثورة بفرنسا: أفينون Avignon وبلجيكا والشاطئ الشمالي للراين Rhine وبازل، وجنيف Geneva وسافوي Savoy والنيس Nice. وكانت كل هذه المناطق تقريباً داخلية فيما أطلقت فرنسا عليه اسم سحدوها الطبيعية وقد تعهد نابليون في قَسَمِهِ عند تولي السلطة بحماية هذه الحدود - الراين والألب والبيرينيز Pyrenees والحدود البحرية - باعتبارها مناطق كانت تابعة لبلاد الغال Gaul القديمة وبالتالي فهي فرنسية. وأكثر من هذا فقد كانت فرنسا قد استولت على هولندا وإيطاليا ومالطا ومصر. أكانت فرنسا راغبة في التنازل عن هذه البلاد التي فتحتها مقابل السلام أم أنها سرعان ما سترفض أي زعيم يتفاوض للتخلي عن هذه المكاسب المربحة؟ إن شخصية فرنسا قد التحمت مع شخصية نابليون في سياسة فخورة ملؤها الوطنية والرغبة في الحرب.

وقد تلقى نابليون في 02 فبراير سنة 0081 خطاباً يضم اقتراحاً هو بمثابة مخرج من هذا القدر المحتوم. إنه خطاب من لويس الثامن عشر الذي يعترف به - تقريباً - كل الذين تركوا فرنسا مهاجرين بسبب أحداث الثورة، وكل أنصار النظام الملكي. يقول فيه:

سيدي

إن الرجال من أمثالك، مهما كان مسلحهم الظاهر لا بد أنهم لا يرومون الأذى. لقد حققت مكانة عظيمة، وإنني أشكرك لهذا. إنك تعلم أكثر من أي شخص آخر مدى القوة والسلطة المطلوبتين لضمان السعادة لأمة عظيمة. انفذ فرنسا من

العنف فإن فعلت حققت أهم ما يصبو إليه قلبي. أعد لفرنسا ملكها، وستحيي الأجيال القادمة ذكرك وتباركها. وستكون دائما ضرورياً جداً للدولة فيشغلك للمناصب المهمة ساكون قادراً على رد أفضالك على أسرتي وعلي شخصياً.
لويس (33)

وترك نابليون هذا الطلب بلا إجابة. فكيف يستطيع أن يعيد إلى العرش رجلاً وعد رجاله المخلصين أن يعيد الحال في فرنسا إلى ما كان عليه قبل الثورة بمجرد عودته للعرش؟ وماذا يمكن أن يحدث للفلاحين المحررين الذين أصبح لهم حق الاقتراع؟ وماذا سيحدث لمن اشتروا ممتلكات الكنيسة؟ بل وماذا سيحدث لنابليون؟ فالملكيون الذين كانوا يتأمرن عليه يومياً، كانوا يعلنون ما يجب أن يفعلوه مع هذا الدّعي (نابليون) الذي تجرأ على تسنم منصب الملك دون أن يكون له مسوِّغ أو أصل نبيل (43).

وفي يوم عيد الميلاد (الكريسماس) في سنة 9971 (وهو اليوم التالي لاعتماد نتيجة الاستفتاء الذي أقر حكمه لفرنسا) كتب نابليون إلى ملك إنجلترا جورج الثالث:

... أظن أنه من الملائم أن أخير جلالتك بالحقيقة وأكتبها لكم بخط يدي، وفقاً لما تمليه عليّ مسؤولياتي، بعد أن دعيت وفقاً لإرادة الشعب الفرنسي لشغل أعلى منصب في الجمهورية.

أليست هناك نهاية للحرب التي أشاعت الاضطراب في مختلف انحاء المعمورة طوال السنوات الثماني الماضية؟ أليست هناك وسائل نصل بها إلى تفاهم؟ كيف لأمتين هما الأكثر تنوراً في أوروبا، وهما الأكثر قوة حتى أن قوة أي منهما تفوق ما يتطلبه أمنها واستقلالها - كيف لهما أن يقتعا بالتضحية بنجاحاتهما التجارية ورخائهما الداخليين وسعادة شعبيهما من أجل أحلام العظمة الخيالية؟ كيف لا تدرک أمتانا أن السلام محقق لعظمة كل منهما بالإضافة لكونهما في أمس الحاجة إليه؟

إن مثل هذه المشاعر لا يمكن أن تكون بعيدة عن قلب جلالكم لأنكم تحكمون أمة حرة ولا هدف لكم إلا أن تكون أمة سعيدة.

إنني أتوسل من جلالكم أن تصدقوا أنه عند تناولكم هذا الموضوع، فإنني ساكون مخلصاً وراغباً في المشاركة العملية لتحقيق هذا الأمر... أي العمل من أجل تحقيق سلام كريم... إن قدر كل أمة متحضرة يقوم على إنهاء الحرب التي أزجعت العالم كله (53).

ووجد جورج الثالث أنه لا يليق بملك أن يجيب فرداً من العامة (يقصد نابليون) فعهد إلى اللورد جرنفيل Grenville بهذه المهمة، فأرسل جرنفيل إلى تاليران (في 1 يناير سنة 0081) ملاحظات حادة تشير إلى اعتداءات فرنسا وأن إنجلترا لا تستطيع التفاوض مع فرنسا إلا إذا عادت أسرة البوربون إلى الملك فعودتها شرط لإحلال السلام. وتلقى نابليون الرد نفسه من المستشار النمساوي بارون فرانتس فون توجوت Baron Franz von Thugut على خطاب أرسله إلى الإمبراطور فرانسيس الثاني. وربما لم يضع نابليون في اعتباره أن تكون الردود على هذا النحو. إنها على عكس ما كان يتوقع. فلم يُخبر أحد نابليون أن رجال الدولة يزنون كلماتهم وفقاً لعدد ما لديهم من بنادق ومدافع فقد ظلت الحقيقة الواقعة تتمثل في أن الجيش النمساوي قد استعاد شمال إيطاليا ووصل إلى نيس Nice وأن الجيش الفرنسي حبيس في مصر يحاصره البريطانيون والأتراك (العثمانيون) وقد اقترب وقت استسلامه أو تدميره.

لقد كان الجنرال كلييه (كليبير) قائداً شجاعاً وذكياً، لكنه كان دبلوماسياً غير ناجح، ذلك أنه عندما لم يتوقع وصول نجدة شارك رجاله القنوط والجزع، إذ أصدر أوامره للجنرال ديزيه Desix بتوقيع اتفاق في العريش (42 يناير سنة

0081) مع الترك (العثمانيين) والقائد الإنجليزي المحلي يقضي بمغادرة القوات الفرنسية أراضي مصر بسلام بأسلحتهم وأمتعتهم محتفظين بشرفهم العسكري على سفن تركية تنقلهم لفرنسا، في هذه الأثناء كان الفرنسيون (في

مصر) يسلمون للترك (العثمانيين) الحصون التي كان يحتمي بها الأوروبيون (المقصود هنا: الفرنسيون) من هجمات المصريين، وعندما تم التسليم وصلت تعليمات من الحكومة البريطانية برفض شروط الإخلاء (وفقاً لاتفاق العريش

الأنف ذكره) مصرّة على أن يُلقى الفرنسيون (في مصر) أسلحتهم ويسلموا أنفسهم كأسرى حرب. ورفض كليبير ذلك وطالب بإعادة الحصون التي كان قد سلمها، وما كان الترك (العثمانيون) ليقبلوا ذلك وتقدموا نحو القاهرة، فقاد كليبير

رجالها البالغ عددهم عشرة آلاف ليووجه القوات التركية البالغ عددها عشرين ألف مقاتل قوي في سهول هليوبولس (عين شمس) ورفع من الروح المعنوية لرجالها بخطاب بسيط إنكم لا تملكون من مصر سوى الأرض التي تحت

أقدامكم، فإن لم تتراجعوا سوى خطوة واحدة لضاع كل شيء (63) وبعد معركة استمرت يومين (12slas02 مارس 0081) استسلمت الشجاعة التركية (العثمانية) أمام التكتيكات الفرنسية المنظمة وعاد من بقي من المنتصرين إلى

القاهرة لينتظروا مرة أخرى المدد من فرنسا.

ولم يستطع نابليون أن يرسل لهم عوناً لأن بريطانيا كانت تتحكم في البحر المتوسط. لكنه كان يستطيع أن يفعل شيئاً ما إزاء التقدم الناجح الذي أحرزه الجنرال النمساوي الذي نُبِّه على السبعين بعام (بارون فون ميلاس) على رأس مائة

ألف من خيرة الجنود النمساويين عبر شمال إيطاليا إلى ميلان. لقد أرسل نابليون القائد ميسينا Messina لوقف تقدمه

لكنه هُزم ولجأ بقواته إلى حصن جنوة فترك ميلاس Melas قوة لمحاصرته وعيّن فصائل إضافية لحراسة ممرات الألب تحسباً لهجوم قادم من فرنسا وتقدم على طول الريفيرا الإيطالية حتى وصلت طلائع قواته إلى نيس Nice في أبريل سنة 0081. لقد قُلبت (بضم القاف) الموائد على رأس نابليون أو بتعبير آخر صار موقفه حرجاً: فالمدينة التي كان قد بدأ منها هجومه لفتح سهل لومبارديا في سنة 6971 أصبحت الآن في أيدي أمة كانت قد ذقت الهزيمة على يديه - في الوقت الذي كان فيه أفضل جزء من جيشه المشهور الذي عُرف بالجيش الفرنسي فاتح إيطاليا Army of Italy مقسماً ضائعاً في مكان ناء بلا أمل هناك في مصر - لقد كان هذا أكبر تحد واجهه نابليون حتى الآن.

لقد ترك نابليون أمور إدارة فرنسا و طرحها جانباً، وعاد مرة أخرى قائداً عاماً يجمع المال ويحشد الجنود والعتاد ويرفع المعنويات وينظم الإمدادات ويدرس الخرائط ويرسل التوجيهات لجنرالاته. وعهد إلى مورو Moreau وهو الأكثر صراحة في إظهار عدائه لأعداء نابليون بجيش الراين Army of Rhine وزوده بتعليمات حاسمة لا رحمة فيها: اعبّر الراين وشق طريقك عبر الأقسام النمساوية تحت قيادة المارشال كروج Krug ثم أرسل 000،52 من رجالك عبر ممر القديس جوتهارد St. Gotthard في إيطاليا لدعم جيش الصمود Army of Reserve الذي وعده نابليون بانتظاره قرب ميلان. وقد نفذ مورو Moreau معظم هذه الأعمال البطولية، ولكنه شعر - وربما كان على حق - أنه في موقفه هذا المنطوي على المخاطرة لن يعود لقائده (نابليون) إلا بخمسة عشر ألف رجل.

ومن بين كل معارك التاريخ العظمى، كانت معركة سنة 0081 هذه أحكمها تخطيطاً وأكثرها دهاءً وفي الوقت نفسه أسوأها تنفيذاً. لقد كان تحت قيادته المباشرة أربعة آلاف مقاتل فقط معظمهم من المجندين الإزمياً الذين لم يألوا مشاق الحرب. تمركزت القوات بالقرب من ديجون Dijon وكان من الممكن أن تتحرك فوق الألب بالقرب من البحر إلى نيس لتتقض في هجوم مواجه (أمامي) على قوات ميلاس Melas، لكن عدد القوات كان قليلاً جداً، بالإضافة إلى أن الجنود لم يكونوا متمرسين بالحرب جيداً، وحتى لو أنهم انقضوا عليه (ميلاس) وهزموه في مثل هذه المواجهة فقد كان يمكنه الانسحاب بأمان عبر شمال إيطاليا إلى مانتوا Mantua الحصينة. وبدلاً من ذلك اقترح نابليون أن يقود قواته عبر ممر القديس برنار St. Bernard في لومبارديا ليُتحد مع الرجال المتوقع وصولهم مع مورو Moreau ويقطع خطوط مواصلات ميلاس Melas ويقتح الفصائل العسكرية النمساوية التي تحرس هذه الخطوط لينقض على جيش هذا البطل الهرم (العجوز) أثناء تراجعها السريع من الريفيرا Rivera الإيطالية وجنوة في اتجاه ميلان. ومن ثم يواجهه فإما هزمه وإم انهزم أمامه، وفي أفضل الحالات فإنه (أي نابليون) سيحاصره ويمنعه من التراجع ويجبر جنراله على تسليم كل الشمال الإيطالي.

و ذات يوم (71 مارس سنة 0081) أمر نابليون سكرتيره بورين Bourienne أن يبسط خريطة كبيرة لإيطاليا فوق الأرض. يقول بورين ثم انبطح أرضاً ليطالعها، ورغب إليّ أن أفعل الشيء نفسه وفوق نقاط معينة على الخريطة تَبَّت دبائيس ذوات رؤوس حمر، وفوق نقاط أخرى تَبَّت دبائيس لونها أسود. وبعد تحريك الدبائيس حول مواقع مختلفة على الخريطة سألت سكرتيره: أين سأضرب ميلاس Melas فيما تظن؟... هنا في سهول نهر سكريفا the River Scrivia وأشار إلى سان جيليانو (73) San Giuliano. لقد كان يعلم أنه يخاطر بكل شيء من أجل معركة واحدة. يخاطر بكل انتصاراته العسكرية والسياسية التي سبق أن أحرزها، لكن كبرياءه كان معه يسانده ويشد أزره. لقد ذكر سكرتيره بورين قائلاً: منذ أربع سنوات مضت ألم أسق أمامي بجيشي الضعيف قطعان السردينيين (جيش سردينيا) والنمساويين وطففت بجيشي على وجه إيطاليا؟ إننا سنفعل الشيء نفسه مرة أخرى، فالشمس التي تشرق فوقنا الآن هي الشمس ذاتها التي كانت تشرق في أركول Arcole ولودي Lodi. إنني أعول على القائد ماسينا Massena. إنني أمل أن يصمد في جنوا، لكن إن أجبرته المجاعة على الاستسلام فاستبعد جنوا مرة أخرى وكذلك سهول السكريفيا the Scrivia. ساعتها سأعود مسروراً إلى عزيزتي فرنسا، ويا له من سرور! (83).

لقد أضاف استعدادات لكل ما هو متوقع ببصيرة نافذة ولم يهمل التفاصيل البسيطة. لقد خطط للطريق الذي ستسلكه القوات ولوسائل النقل: من ديجون Dijon إلى جنيف، وبالقوارب عبر البحيرة إلي فيلينيف Villeneuve وبالخبول والبغال والمركبات أو سيراً على الأقدام إلى مارتيني Martigny، ومن هناك إلى سان بيير St. - Pierre عند قاعدة الممر ومن ثم فوق الجبال مسافة ثلاثين ميلاً في طريق لا يتجاوز عرضه في بعض الأحيان ثلاثة أقدام عرضاً، غالباً ما يكون على طول جروف (جمع جرف - بضم الحيم) عادة ما تغطيها الثلوج ومعرضة في أي لحظة لانهيار جليدي أو صخري أو أرضي، ومن ثم إلى التوغل في وادي دوستا (فال دوستا Valle d'Aosta). ورثب نابليون في كل مرحلة من مراحل هذا الطريق أمر الطعام واللباس والنقل ليكون في انتظار الرجال، وفي مراكز عديدة دبر أمر النجارين وصانعي السروج وغيرهم من العمال لإصلاح ما أفسدته المسيرة، كما دبر أن يجري التفيتيش على كل جندي مرتين أثناء الطريق للتأكد من سلامة معداته. وأرسل للرهبان الذين يعيشون في صوامع على قمم الجبال أموالاً لشراء الخبز والجبن والنبذ لإنعاش الجنود المارين بهم. ورغم كل هذه الاستعدادات فقد ظهر كثير من أوجه القصور،

لكن هؤلاء الجنود الشبان المجندين إزامياً بدوا وكأنهم على استعداد لتحمل هذه المشاق بصبر بسبب التشجيع الصامت الذي أبداه لهم المحاربون المخضرمون.

وغادر نابليون مدينة باريس في السادس من مايو سنة 0081. وما كان يغادر حتى شرع الملكيون والبياقية وآل بوناپرت في التدبير لشغل مكانه إذا لم يعد منتصراً وناقش سيبيز Siegés وآخرون مدى أحقية أي من كارنو Carnot ولافاييت Lafayette ومورو Moreau لشغل منصب القنصل الأول الجديد (الذي سيحل محل نابليون) وعرض أخوا نابليون: جوزيف ولوسيان Lucien كورثة للعرش. وعاد جورج كادودال Cadoudal من إنجلترا في الثالث من يوليو ليجرض الثوار الملكيين Chouans. لقد بدأت المواجهة الفعلية مع ممر سان بيرنار St. Bernard في 41 مايو. لقد تذكر السكرتير بورين قائلاً: لقد تقدمنا جميعاً على طول ممرات الماعز رجلاً في إثر رجل وحصاناً في إثر حصان. وتم انزال المدفعية والبنادق وتم وضعها في جنوع أشجار جرى حفرها، وتم سحبها بالحبال. وعندما وصلنا للقمة. مركزنا أنفسنا في الجليد وأنزلنا فوق السفوح (93). وترجل الخيالة حتى لا يؤدي انزلاق الخيول غير المدربة إلى هلاكها وهلاك راكبيها. وفي كل يوم كان قسم آخر من القوات يكمل العبور، وبحلول اليوم العشرين من شهر مايو اكتمل العبور وأصبح جيش الاحتياط (الانقاذ) آمناً في إيطاليا.

وبقي نابليون في مارتيني Martigny، وهو موقع جميل في منتصف الطريق بين بحيرة جنيف والممر - حتى رأى نفسه آخر شحنة امدادات. وبعدها ركب إلى القمة وهناك توقف ليشكر الرهبان لتقديمهم ما أنعش جنوده، ثم انزل فوق المنحدر في معطفه وانضم لجيش في أوستا Aosta في 12 مايو. وكان لانز Lannes قد اجتاح بالفعل الفصائل النمساوية التي واجهته في الطريق. وفي اليوم الثاني من شهر مايو دخل نابليون مدينة ميلان Milan منتصراً - للمرة الثانية - على الحامية النمساوية. ورحب به السكان الإيطاليون كما فعلوا في المرة السابقة. لقد استعاد نابليون الجمهورية السيزبية (جمهورية الألف الشمالية Cisalpine) وسط مظاهر الفرحة الغامرة. وكان نابليون قد ارتد عن دين محمد (الذي سبق أن اعتنقه في مصر) فدعا إلى اجتماع عقده هيئة أساقفة ميلان وأكد لهم إخلاصه للكنيسة وأخبرهم أنه عند عودته لباريس سيجري صلحاً بين فرنسا والكنيسة. أما وقد آمن ظهره على هذا النحو فقد أصبح حراً في رسم استراتيجية معركته بالتفصيل.

لقد انتهك القائدان مبدءاً استراتيجياً أساسياً - لا تقسم القوات المتاحة تقسيماً لا يُمكنها من إعادة لم شملها بسرعة. فالبارون فون ميلاس Melas تمركز بالجزء الأساسي من جيشه في اليساندريا Alessandria (بين ميلان وجنوة) وترك حاميات في كل من جنوة وسافونا Savona وجافي Gavi وأكوي Acqui وتورين Turin وتورتونا Tortona وغيرها من النقاط التي قد تكون عرضة لهجوم فرنسي. وتعرضت مؤخرة قواته التي كانت تزحف عائداً من نيس Nice لتتضم إليه لهجوم 000،002 جندي فرنسي بقيادة شوش Suchet وماسينا Masséna - الذي قد تمكن من الهرب من جنوة. ولم يعد متبقياً من 000،070 نمساوي كانوا قد عبروا الأبينين Apennines من لومبارديا إلى ليجوريا Liguria (جنوة) سوى 000،040، كان على ميلاس أن يواجه بهم نابليون وقواته. لقد أرسل جزءاً من هذه القوات المتبقية (الأربعين ألف مقاتل) لإعادة الاستيلاء على اليسانزا Piacenza باعتبارها طريقاً لا بديل له للهروب إلى مانتوا Mantua إذا حاقت بقوات جيشه الرئيسي الهزيمة. أما نابليون فقسّم جيشه بطريقة محفوفة بالمخاطر: لقد ترك 000،230 مقاتل في ستراديللا Stradella لحراسة بياسنزا Piacenza و 000،900 في تيسينو Tessino و 0003 في ميلان، و 000،010 على طول مجرى البو Po والأدا Adda. لقد ضحى ببقاء جيشه موحداً رغبة منه في سد كل طرق الهرب في وجه رجال ميلاس Melas.

وتعاون جنرالاته في انقاذ سياسة الطريق المسدود هذه بعدم ترك نابليون يدخل المعركة الرئيسية بلا استعداد. ففي 9 يوليو قاد لانز Lannes ثمانمائة مقاتل من ستراديللا Stradella ليواجه بهم 000،810 مقاتل نمساوي كانوا في طريقهم إلى بياسنزا Piacenza، وتراجع الفرنسيون في مواجهة كلفتهم الكثير عند كاستيجيو Casteggio رغم صمود لانز Lannes الذي ظل يقاتل وهو متسربل بالدماء في طليعة قواته، لكن مدداً من ستة آلاف مقاتل فرنسي وصل في الوقت المناسب ليحوّل الهزيمة إلى نصر بالقرب من مونتبلو Montebello. وبعد ذلك بيومين سعد نابليون بوصول واحد من أقرب جنرالاته إلى نفسه قادماً من مصر. إنه لويس ديزيه Louis Desix الذي ربما كان يعادل مورو Moreau وماسينا Masséna وكليبر (كليب) ولانز في مواهبه العسكرية، وإن كان يفوقهم جميعاً في رزائنه الشخصية رزانة تصل إلى حد الكمال (04)، وفي 31 يونيو أرسله نابليون إلى جنوب نوفي Novi على رأس 0005 رجل ليتأكد من الإشاعة التي مؤداها أن ميلاس Melas ورجاله يهربون إلى جنوا حيث يمكن للأسطول البريطاني مساعدتهم على إتمام الهروب أو يقدم لهم دعماً من الغذاء والسلاح. وعلى هذا فقد ظل التشكيل الرئيسي لجيش نابليون يتناقص حتى حلول المعركة الفاصلة في 41 يونيو.

لقد كان ميلاس Melas هو الذي اختار موقع المعركة الفاصلة، بالقرب من مارينجو Marengo وهي قرية على طريق اليساندريا - بياسنزا حيث لاحظ سهلاً فسيحاً يمكنه فيه حشد قواته البالغ عددها 000،530 مقاتل الذين لايزالون

متاحين له مع مانتى قطعة مدفعية. وعلى أية حال، فعندما وصل نابليون إلى هذا السهل في 31 يونيو لم يجد دليلاً يشير إلى أن ميلاس كان يخطط للمغامرة بالخروج من أليساندريا Alessandria فترك عند مارينجو Marengo فصليين عسكريين بقيادة الجنرال فكتور، وفصيلاً آخر بقيادة لانز Lannes مع خيالة بقيادة مورا Mural وأربعة وعشرين مدفعاً فقط. وعاد هو نفسه (نابليون) بحراسة القنصلي في اتجاه فوجيرا Voghera حيث رتب للقاء مع ضباط من جيوشه المتناثرة. وعندما وصل لنهر السكريفيا Scirivia وجد مياهه وقد فاضت بدرجة كبيرة بسبب مياه الربيع، حتى أنه أجل عبور النهر وبات ليلته في تور دي جارو فولو Torre di Garofolo. وكان هذا التأخير من حسن حظه فلو أنه واصل طريقه إلى فوجيرا Voghera لكان من المحتمل ألا يصل إلى مارينجو في الوقت المناسب لإصدار الأمر الذي يؤقّر يوماً.

وفي وقت باكر من يوم 41 يونيو أمر ميلاس جيشه بالتقدم في سهل مارينجو وأن يشق طريقه إلى بياسنزا Piacenza ففاجأت قوات نمساوية قوامها 03،000 مقاتل القوات الفرنسية بقيادة فكتور ولانز ومورو البالغ عددها 02،000 مقاتل، وتراجع الفرنسيون رغم بطولتهم المعتادة أمام وابل قذائف المدفعية التي أهلكت منهم عدداً كبيراً، واستيقظ نابليون في جاروفولو Garofolo على صوت المدافع التي وصلت إلى أسماعه من مكانها البعيد فأرسل مبعوثاً لاستدعاء ديزييه Desaix من نوفي Novi واندفع هو نفسه إلى مارينجو وهناك خاضت قواته المكونة من 008 مقاتل من حرسه معركة شرسة لكنها لم تستطع وقف النمساويين، وواصل الفرنسيون تراجعهم إلى سان جوليانو Guliano. وكان ميلاس متعجلاً لطمأنة الإمبراطور فأرسل رسالة إلى فيينا يعلن فيها أنه حقق النصر، وانتشر التقرير نفسه في باريس مما سبب ذعراً للعامة وفرحاً لأنصار الملكية.

لقد جرى ما جرى بدون ديزييه Desaix الذي لم يعمل النمساويون له حساباً، وسمع ديزييه أيضاً وهو في الطرق إلى نوفي Novi دمدمة المدافع فعاد فجأة على رأس قواته البالغ عددها 005 مقاتل في اتجاه أصوات الدمدمة ووصل إلى سان جوليانو Giuliano في الثالثة بعد الظهر فوجد اخوانه الجنرالات ينصحون نابليون بالتراجع أكثر فأكثر فاحتج فقالوا له لقد خسرتنا المعركة فقال هذا صحيح، لكن الساعة الآن الثالثة بعد الظهر فقط وهناك وقت لكسب معركة أخرى (14) فوافقه ونظم نابليون خط هجوم جديد وركب حصانه بين الجنود لرفع روحهم المعنوية وقاد ديزييه Desaix العملية فتعرض لطلقة من نيران العدو وخر من فوق حصانه وأوصى وهو يموت من يديه في القيادة اخف خبر مماتي، حتى لا يؤثر في معنويات الجنود (24) ومع أن الجنود قد علموا بموته إلا أن ذلك لم يؤثر فيهم سلباً بل جعلهم يندفعون صائحين أنهم سيثأرون لمقتل قائدهم. ومع هذا فقد واجهوا مقاومة لا تكاد تلين. فلما رأى نابليون ذلك أرسل إلى كيلرمان Kellermann تعليمات بالتوجه بكل قوة الخيالة التي معه لإنقاذ الرجال، فانقض بقواته بشراسة على جناح الجيش النمساوي فشقه قسمين واستسلم 0002 منهم وتم أسر الجنرال فون تساخ Von Zach الذي كان يقود الجيش بدلاً من ميلاس الغائب، وسلم تساخ سيفه إلى نابليون، واستدعي ميلاس من أليساندريا ليأتي متأخراً بحيث لا يستطيع تغيير نتيجة المعركة فعاد منكسر القلب حزينا إلى مقره.

ولم يكن نابليون ليستطيع أن يسعد تماماً بهذا النصر لقد خسر خسارة شخصية أثرت فيه تأثيراً عميقاً بموت ديزييه Desaix المخلص بالإضافة إلى كثيرين من الضباط الآخرين الذين لا قوا حتوفهم مع ستة آلاف فرنسي في سهل مارينجو Maringo Plain ولم يشف غليله موت ثمانية آلاف نمساوي هناك في اليوم نفسه، فنسبة القتلى النمساويين إلى إجمالي عدد القوات النمساوية كانت أقل من نسبة القتلى الفرنسيين إلى إجمالي عدد القوات الفرنسية. وفي 51 يونيو طلب البارون فون ميلاس من نابليون عقد هدنة بعد أن أدرك أن ما تبقى من قواته في حالة لا تسمح له بخوض معركة جديدة. وكانت شروط الهدنة قاسية إذ كان على النمساويين إخلاء كل ليجوريا Liguria وبيدمونت Piedmont، وكل لمبارديا إلى الغرب من منشيو Mincio ومانتوا Mantua وأن يعيدوا للفرنسيين كل الحصون في المناطق المسلحة. ويُسمح في مقابل ذلك بمغادرة القوات النمساوية محتفظة بشرفها العسكري كله، ووافق ميلاس على هذه الشروط التي ألغت حصاد كل فتوحاته في يوم واحد وأرسل إلى إمبراطور النمسا ملتسماً منه إبرام هذا الاتفاق. وفي 61 يونيو أرسل نابليون رسالة إلى فرانسيس الثاني يطلب منه السلام على كل الجبهات. وبعض فقرات ذلك الخطاب لا يمكن أن تأتي إلا من داعية للسلام:

.. لقد كانت هناك حرب بيننا. آلاف من النمساويين والفرنسيين قضاوا نحبهم.. آلاف من الأسر المحرومة تدعو أن يعود الآباء والأزواج والأبناء!.. الشر لا علاج له، لكن عساه - على الأقل - يُعلمنا أن نتجنب كل ما قد يُطيل فترة العداة. لقد أثرت هذه المشاهد في قلبي لدرجة جعلتني أرفض قبول ما أحرزته من تقدم في السابق لأخذ على عاتقي الكتابة إلى جلالكم مرة أخرى متوسلاً إليكم أن تضع نهاية لمأسي أوروبا.

في ميدان معركة مارينجو Marengo حيث يحيط بي الذين عانوا ويلات المعركة، وأنا في وسط 000،51 جثة، أتوسل إلى جلالكم أن تسمع نداء الإنسانية وألا تسمح لأبناء أمتين قويتين يتسمون بالشجاعة، أن يذبح بعضهم بعضهم الآخر من أجل مكاسب أنتم تعلمون أنها لا تعني شيئاً...

إن المعركة الحالية هي خير برهان على أن فرنسا ليست هي التي تهدد ميزان القوى. فكل يوم يؤكد أن إنجلترا هي التي تهدد ميزان القوى. إنجلترا التي احتكرت تجارة العالم وإمبراطورية البحار التي تستطيع منفردة التصدي لأساطيل روسيا والسويد والدنمرك وفرنسا وأسبانيا وهولندا متحدة.

إن اقتراحاتي التي أظن من الصواب توجيهاً لجلالكم هي:

1- أن تمتد الهدنة لتشمل كل الجيوش.

2- أن يتم إرسال مفوضين من الطرفين إما للتفاوض سراً أم علناً، وفقاً لما تفضلونه، وأن تكون المفاوضات في مكان ما بين منيشو Mincio والشيزر Chiese للموافقة على وسائل ضمان الاحتفاظ بأقل عدد من القوات ولتوضيح مواد معاهدة كامبو فورميو Campofornio التي أظهرت التجربة أنها مواد غامضة... (34).

ولم يبد أن الإمبراطور قد تأثر، فمن الواضح أن الفاتح الشاب كان راغباً في ضمان مكاسبه التي حققها ولم يكن هناك ما يشير إلى أنه راعي الحياة الإنسانية عند خوضه معاركه. وربما لم يتوقف كل من الإمبراطور والقنصل الأول (نابليون) عن التساؤل عن كيفية تصرف النمساويين والفرنسيين في إيطاليا. ووضع البارون فون توجوت Von Thugut حداً واضحاً لهذا الأمر بتوقيعه في 02 يونيو سنة 0081 معاهدة مع إنجلترا تضمن هذه الأخيرة تقديم عون مالي جديد للنمسا مقابل تعهداتها بعدم التوقيع على معاهدة صلح منفرد مع فرنسا (44).

وفي هذه الأثناء كان نابليون يلعب بكل أوراقه فحضر قداساً مهيباً (قداس تسيحة الشكر) عبّر فيه رجال الدين في ميلان عن شكرهم الله لخروج النمساويين من بلادهم. واحتفلت الجماهير بإقامة الاستعراضات على شرف محقق النصر (نابليون) وسأل نابليون سكرتيره بورين: هل سمعت يا بورين التهليل والبهجة؟ إن أصداءها لا تزال تدرى. إن هذه الأصوات عندي في مثل حلاوة صوت جوزفين. كم أنا سعيد وفخور أن يحبني مثل هؤلاء الناس! (54). لقد كان لا يزال في إيطاليا عاشقاً للغتها مفتوناً بالجمال والعاطفة والبساتين المزدانة والدين المرن المتساهل والطقوس الشجية والألحان الغامضة. لكن ما حرك مشاعره أيضاً هو تصفيق الجماهير التي تجمعت أمام قصر التوليري في 3 يوليو في الصباح الذي أعقب عودته ليلاً إلى باريس، فقد بدأ الشعب الفرنسي يعتقد أن الله يختصه، فشرخوا بشغف حتى الثمالة من كأس العظمة.

أما لويس الثامن عشر الذي ورث قروناً من العداء بين بوربون فرنسا، وهابسبرج النمسا، فلم يستطع أن يكون محايداً - إلا بالكاد - إزاء هذا النصر الجديد الذي حققه نابليون على أعداء البوربون القدماء، وربما أيضاً رغبة منه في أن يكون نابليون هو صانع الملك، لا الملك نفسه، لذا فقد كتب (لويس الثامن عشر) مرة أخرى إلى نابليون في يوم غير معروف من صيف سنة 0081:

لا بد أنك مقتنع أيها الجنرال منذ فترة طويلة أنني أكن لك تقديرًا كبيراً. وإن شككت في تقديري لفضلك وعرفاني بجميلك، فحدد جائزتك التي تريدها وحدد نصيب أصدقائك. فأنا فرنسي بمبادئ، رحيم بحكم شخصيتي، وبحكم ما يملئه العقل أيضاً.

لا، فمحقق النصر في لودي Lodie وكاستليون Castiglione وأركول Arcole وفتح إيطاليا ومصر، لا يمكن أن يفضل الشهرة الزائفة على المجد الحقيقي. لكنك تضيع وقتاً ثميناً. إنه يمكننا أن نؤكد عظمة فرنسا، وأنا أحدث بضمير جمع المتكلمين وأقول يمكننا لأنني في حاجة إلى عون بونابرت، وبونابرت لا يستطيع أن يفعل شيئاً بدوني. أيها الجنرال إن أوروبا تنظر إليك والعظمة في انتظارك وإني في شوق شديد لإعادة السلام لشعبي لويس (64)

وقد أجاب نابليون على هذا الخطاب بعد فترة طويلة في 7 سبتمبر:

سيدي
لقد تلقيت خطابك. وأشكرك على ملاحظتك الرقيقة فيما يختص بشخصي. يجب أن تتخلى عن أي أمل في عودتك لفرنسا. فأنت إن عدت فسيكون ذلك على جثث مئات الألوف. ضحّ إذن بمصالحك الشخصية من أجل سعادة فرنسا وتحقيق السلام لها. إن التاريخ لن ينسى. ولا أقول أنني لم أتأثر بمحنة أسرتك. وسيسعدي أن أفعل ما أستطيع لأجعل حياتك في معتزلك (مكان تقاعدك) سعيدة ليس بها ما ينغص (74).

وكان لويس الثامن عشر قد أرسل خطابه من ملجئه المؤقت في روسيا، وربما كان هناك عندما تلقى القيصر بولس الأول في يوليو سنة 0081 من نابليون هدية تكاد تكون قد غيرت مسيرة التاريخ. ففي خلال حرب سنة 9971 وقع حوالي ستة آلاف عسكري روسي في قبضة الفرنسيين فعرض نابليون على إنجلترا والنمسا (حلفاء روسيا) أن يُبادل بهم الأسرى الفرنسيين، فرفضتا (84). ولم تكن فرنسا بقادرة على الاستعادة منهم بطريقة شرعية، كما أن احتفاظها بهم سيكلفها الكثير من النفقات، فأمر نابليون بإلباسهم ملابس جديدة وتسليحهم وإرسالهم إلى القيصر دون أن يطلب أي مقابل لفعله هذا (94). فأجاب القيصر بول بعدد أوامر الصداقة مع فرنسا، وشكل في 81 مارس سنة 0081 ضد

إنجلترا العصبة الثانية للحياد المسلح the Second League of Armed neutrality. وفي 32 مارس سنة 1081 تم اغتيال القيصر بول فعادت الأمور سيرتها الأولى أي كما كانت قبل الهدية. وفي هذه الأثناء رفض الإمبراطور النمساوي هدنة أليساندريا Alessandria وأرسل ثمانية آلاف مسلح بقيادة الجنرال فون بيليجارد Bellegarde ليُحكم قبضته على طول مينشيو Mincio، فأجاب الفرنسيون بطرد النمساويين من توسكانيا Tuscany ومهاجمتهم في بافاريا Bavaria. في 3 ديسمبر سنة 0081 هزمت القوات الفرنسية بقيادة مورو Moreau والبالغ عددها 0006 مقاتل القوات النمساوية البالغ عددها 000،56 في هوهنليندن Hohenlinden بالقرب من ميونخ Munich، هزيمة منكرة وأسرت 000،52 نمساوي حتى أن الحكومة النمساوية وقد أدركت أن عاصمتها فيينا باتت تحت رحمة مورو، اضطرت لتوقيع هدنة شاملة في 52 ديسمبر سنة 0081 ووافقت على الدخول في مفاوضات مع الحكومة الفرنسية للوصول إلى سلام منفصل (منفرد) بعيداً عن القوى الأوروبية الأخرى المناوئة لفرنسا. وعند عودة مورو إلى باريس لاقى استقبالا حافلاً وهتافات مدوية بدرجة ربما أثارت بعض المشاعر المضادة لدى نابليون، لأن مورو Moreau كان أثيراً لدى الملكيين واليعاقبة على سواء وكانوا يفضلون أن يكون رأساً للدولة.

واستمرت المؤامرات ضد حياة نابليون لا ترعى، ففي بواكير سنة 0081، تم العثور على صندوق نشوق يُشبه صندوق النشوق الذي اعتاد القنصل الأول على استخدامه، في درج مكتبه في مالميزون Malmaison، وكان هذا الصندوق يحوي سماً مخلوطاً بالنشوق (05). وفي 41 سبتمبر و 01 أكتوبر تم القبض على عدد من اليعاقبة المشتركين في مؤامرة لقتل نابليون. وفي 42 ديسمبر قاد ثلاثة من الثوار الملكيين - أرسلهم جورج كادودال Cadoudal من بريطانيا - آلة مفخخة محملة بالمتفجرات وافتحموا بها الجموع التي كانت تحمل نابليون وأسرته إلى دار الأوبرا، فقتلوا اثنين وعشرين شخصاً وجرحوا ستة وخمسين ولم يُصب نابليون ولا أحد من حاشيته، وواصل نابليون طريقه إلى الأوبرا بهدوء ظاهر لكنه أمر عند عودته لقصر التوليري بإجراء تحريات دقيقة وبإعدام اليعاقبة المسجونين بالإضافة إلى نفي أو اعتقال 031 آخرين، كانوا موضع شك، أما فوشيه Fouché الذي كان يعتقد أن الملكيين - وليس اليعاقبة - هم المجرمون فقد اعتقال مائة منهم وأرسل للمقصلة اثنين في أول أبريل سنة 1081. لقد تجاوز نابليون القانون وتخطاه، لكنه كان يشعر أنه يخوض حرباً وأن عليه أن يبيث شيئاً من الرعب في قلوب رجال كانوا هم أنفسهم يحقرون القانون. لقد زاد عداؤه تدريجياً لليعاقبة وأصبح شيئاً فشيئاً متساهلاً مع الملكيين. وفي 02 أكتوبر سنة 0081 أوعز إلى مساعديه بأن يشطبوا من قائمة المهاجرين إثر أحداث الثورة الفرنسية أسماء المسموح لهم بالعودة إلى فرنسا وأن يستردوا ما صادرتهم الدولة منهم إذا لم تكن الحكومة قد باعته أو خصصته للاستعمال الحكومي. لقد كان هناك الآن حوالي 000،001 مهاجر كان كثيرون منهم قد طلبوا الإذن بالعودة إلى فرنسا. ورغم احتجاج المعارضين الذين سبق لهم أن اشتروا الممتلكات المصادرة سمح نابليون لعدد بلغ 000،94 من هؤلاء المهاجرين بالعودة. وأكثر من هذا فقد كان يجري شطب أسماء أخرى من قائمة الممنوعين من العودة بين الحين والآخر أملاً في تقليص العداء الخارجي ضد فرنسا، وأملاً في إحلال السلام العام في أوروبا. وابتهج الملكيون لذلك، أما اليعاقبة فازدادوا كمداً.

وكانت الخطوة الأولى في برنامج السلام هذا هو اجتماع المفاوضين الفرنسيين والنمساويين في لوفيفل Luneville (بالقرب من نانسي Nancy). وأرسل نابليون أخاه جوزيف لعرض حُجج فرنسا هناك، ولم يُرسل تاليران، وقد قام جوزيف بمهمته خير قيام. وكان نابليون يؤيده في كل خطوة تأييداً راسخاً ينطوي على التصميم، فكانت طلباته من الجانب النمساوي تزداد إذا لمس منه أي تأخير. وأخيراً استسلم النمساويون ووقعوا على ما أسموه - بسوء فهم - سلام لوفيفل المرعب في 9 فبراير سنة 1081 بعد أن رأوا جيوش فرنسا تنتزع كل إيطاليا تقريباً ورأوا تدق أبواب فيينا. واعترفت النمسا بتبعية بلجيكا ولوكسمبورج والأراضي الواقعة على طول الضفة الغربية للراين من بحر الشمال إلى بازل لفرنسا. وأقرت ما سبق أن ورد في معاهدة كامبو فورميو Campoformio واعترفت بسيادة فرنسا على إيطاليا فيما بين جبال الألب ونابلي وما بين الأديج Adige ونيس Nice كما اعترفت بالحماية الفرنسية على جمهورية باتافيا (هولندا) وجمهورية هيلفينيا (سويسرا). لقد كتب الوزير البروسي هوجفنز Haugwitz: لقد اتفقت النمسا الآن اتفاقاً منفرداً مع فرنسا لإقرار السلام في أوروبا (15) وارتفعت بورصة باريس عشرين نقطة في يوم واحد وراح عمال باريس يفضلون الانتصارات أكثر من تفضيلهم للتصويت في الانتخابات، يهتفون لإنجازات نابليون على الصعيدين السياسي والحربي، عاش نابليون. وعلى أية حال فرما كانت لوفيفل معركة حربية أكثر منها انتصارات دبلوماسية. لقد كانت لوفيفل انتصاراً للكبرياء على التدبر والتعقل ففيها كمننت بذور حروب كثيرة انتهت بواترلو Waterloo.

وثمة مفاوضات أخرى جلبت لفرنسا مزيداً من القوة فبناء على الاتفاق مع أسبانيا في أول أكتوبر سنة 0081 أصبحت لويزيانا Louisiana تابعة لفرنسا. وأدت معاهدة فلورنسا (81 مارس سنة 0081) مع ملك نابلي إلى أن أصبحت

جزيرة إلبا Elba وممتلكات نابلي في وسط إيطاليا تابعة لفرنسا، وأدت المعاهدة نفسها إلى اغلاق موانئ نابلي في وجه التجارة البريطانية والتركية. وأدى الإدعاء الفرنسي القديم في سان دومينجو St. Domingue - القسم الغربي من هسبانيولا Hispanida - إلى دخول نابليون في صراع مع رجل يكاد لا يقل عنه في قوة الشخصية. إنه فرانسوا دومينيك توسين Francois Dominique Toussaint الذي ولد كعبد زنجي في سنة 1747 وقاد عبداً سان دومينجو وهو في سن الثامنة والأربعين - وهي سن يفترض أن بالغها يتسم بالحذر - في ثورة ناجحة، واستولى على الجانب الفرنسي من الجزيرة ثم على الجانب الإسباني منها. وحكم الجزيرة باقتدار لكنه وجد صعوبة في ضبط النظام المؤدي لكثرة الإنتاج بين العبيد المحررين الذين كانوا يفضلون حياة البطالة ويبدو أن ذلك بسبب الحرارة. وسمح توسين Toussaint لكثير من الملاك السابقين بالعودة إلى مزارعهم وأسس نظام عمل يكاد يكون قائماً على العبودية. وقد اعترف من الناحية النظرية بالسيادة الفرنسية على سان دومينجو St. Domingue أما من الناحية العملية فإنه - على أية حال - احتفظ بلقب الحاكم العام طوال حياته كما احتفظ بحقه في توليه من خلفه، تماماً - إلى حد كبير - كما سيفعل نابليون بعد فترة وجيزة في فرنسا. وفي سنة 1801 أرسل القنصل الأول (نابليون) عشرين ألف عسكري بقيادة الجنرال شارل لكليير Leclere لإعادة بسط السيادة الفرنسية في سان دومينجو St. Domingue، لكن توسين واجه هذه القوات بشراسة ومع هذا فقد لاقى الهزيمة ومات في جيل Jail في فرنسا (سنة 1803). وفي سنة 1801 وقعت الجزيرة كلها في يد بريطانيا.

وقد ظل الأسطول البريطاني - يدعمه التفوق البريطاني في مجال التجارة والصناعة - هو العقبة الكأداء التي تعوق نجاح نابليون طوال فترة حكمه فيما خلال عامين اثنين. لقد كانت بريطانيا تستطيع أن تزود بالأموال جيوش حلفائها في أوروبا في محاولاتهم المتكررة للإطاحة بنابليون، فقد كانت إنجلترا قابضة وراء القتال الإنجليزي غير معرضة للدمار الذي تسببه الحرب، ثرية بفضل تجارتها البحرية التي لا ينافسها فيها أحد وعواند مستعمراتها وسبقها في الثورة الصناعية. لقد اتفق التجار والصناع مع الملك جورج الثالث والتوريين Tories (حزب المحافظين البريطاني) والمهاجرين الفرنسيين الذين اضطروا لترك فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية وإدموند بورك Burke - على أن عودة أسرة البوربون إلى عرش فرنسا هي الطريقة المثلى لإعادة الاستقرار إلى نظم الحكم القديمة (غير الثورية) ومع هذا فإن الجناح المعارض للتوريين (المحافظين) وكان يشكل في إنجلترا أقلية قوية بقيادة شارلز جيمس فوكس Charles James Fox وكان يمثل الاتجاه الليبرالي الراديكالي ويضم رجالاً يتسمون بالبلاغة وحسن البيان - اعترض على أساس أن الحرب المستمرة ستنتشر الفقر وتحرض على الثورة، وعلى أساس أن نابليون أصبح الآن أمراً واقعاً، وعلى أساس أن الوقت قد حان لإيجاد تسوية مؤقتة مع قائد المرتزقة الذي لا يقهر (المقصود بنابليون). وأكثر من هذا فقد راحوا يسوقون الأدلة على أن مسلح بريطانيا كسيدة للبحار قد خلق لها أعداء أصبحوا أصدقاء لفرنسا. وادعى الأدميرالات البريطانيون أن حصارهم لفرنسا يعطيهم - ومن معهم من بحارة - الحق في تقتيش السفن المحايدة ومصادرة البضائع المتجهة إلى فرنسا، وقد امتعضت كل من روسيا والسويد والدنمرك وبروسيا من هذا التصرف واعتبرته انتهاكاً لسيادتها وكوّنت في ديسمبر سنة 1801 عصبة الحيادة العسكري الثانية Secand Laege of Armed Neutrality واقترحت مقاومة أي تعرض بريطاني لسفنها من الآن فصاعداً. أما وقد ازدادت حدة الخلاف، فقد استولى الدنمركيون على هامبورج Hamburg (التي كانت قد أصبحت الباب الرئيسي لبريطانيا المفضي إلى وسط أوروبا)، واستولى البروسيون على هانوفر Hanover التابعة لجورج الثالث. وأخيراً أصبح نصف أوروبا الذي كان معادياً لفرنسا، معادياً لانجلترا الآن. ولأن فرنسا كانت بالفعل تسيطر على مصبات الراين وشاطئه الشمالي، فقد أصبحت البضائع البريطانية لا تجد سبيلها - إلى حد كبير جداً - لأسواق فرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والدنمرك ودول البلطيق وروسيا. وأغلقت إيطاليا موانئها في وجه التجارة البريطانية. وكانت إسبانيا متدمرة بسبب جبل طارق، وكان نابليون يكوّن جيشاً ويني أسطولاً لغزو إنجلترا.

وحاربت إنجلترا عن مؤخرتها، وربحت من تغير اتجاه الأحداث، لقد دمر أسطول بريطانيا أسطولاً دنماركياً في ميناء كوبنهاجن (في 2 أبريل سنة 1801). وخلف القيصر بول الأول، القيصر اسكندر الأول Alexander I الذي غير سياسة سلفه نحو فرنسا، وأدان غزو نابليون لمصر واعترف بالسيادة الإنجليزية على مالطة بعد أن كانت في يد الفرنسيين. ووقع مع إنجلترا معاهدة في 71 يونيو سنة 1801، وهكذا انهارت العصبة الثانية للحياد العسكري، ومع هذا فإن توقف الازدهار الاقتصادي في بريطانيا وتضخم الجيش الفرنسي في بولونيا وانهيار النمسا رغم المعونات المالية الباهظة التي قُدمت لها - كل ذلك جعل إنجلترا تنجح للسلم. ففي أول أكتوبر سنة 1801 وقّع مغابروها اتفاقاً مبدئياً تتعهد فيه فرنسا بتسليم مصر إلى تركيا (الدولة العثمانية)، وأن تُسلم بريطانيا جزيرة مالطة في ظرف ثلاثة أشهر لفرسان القديس يوحنا Knights of St. John وكان لا بد أن تستعيد كل من فرنسا وهولندا وأسبانيا معظم مستعمراتها التي سُلبت منها، وكان على فرنسا أن تسحب كل قواتها من وسط إيطاليا وجنوبها. وبعد سبعة أسابيع من المناقشات وقعت بريطانيا العظمى وفرنسا معاهدة السلام في إميان - تلك المعاهدة التي طال انتظارها - في 72

مارس سنة 2081. وعندما وصل ممثل نابليون إلى لندن بالوثائق مصدقة أخذت الجماهير السعيدة بأجمة خيوله وسحبت العربة إلى وزارة الخارجية وسط هتافات عاشت الجمهورية الفرنسية! عاش نابليون (25). وكانت الجماهير الفرنسية مفعمة حماساً شاكراً وممتنة للرجل الشاب (نابليون) الذي لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره، والذي وضع - بالمعنى - نهاية لحرب استمرت عشر سنين. لقد سبق أن اعترفت أوروبا كلها بمقدرته كجنرال، وهاهي ترى الآن أن هذا العقل الصافي نفسه، وهذه الإرادة الراسخة، تتألقان في مضمار الدبلوماسية أيضاً. ولم تكن إميان Amieus سوى البداية، ففي 32 مايو سنة 2081 وقّع نابليون معاهدة مع بروسيا وفي اليوم التالي مع بافاريا وفي 9 أكتوبر مع تركيا (الدولة العثمانية) وفي 11 أكتوبر مع روسيا، وعندما اقترب التاسع من نوفمبر - الذكرى السنوية للثامن عشر من الشهر الجمهوري برومير Brumaire - رتبّ الأمور للاحتفال به كمهرجان للسلام. وفي هذا اليوم أعلن بسعادة هدف جهوده: إن الحكومة إيماناً منها بطموحاتها وتنفيذاً لوعودها لن تستسلم للمشروعات المنطوية على المخاطرة. إن واجبها كان هو استعادة الهدوء، لتعمل على ترسيخ العلاقات القوية والأبدية بين الأسرة الأوروبية الكبيرة لتشكيل أقدار العالم (35) وربما كانت هذه اللحظة هي أرق لحظة في تاريخه.

صفحة رقم : 14578

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> الفصلية -> فرنسا المرموقة

3- فرنسا المرموقة

2081 - 3081

قال نابليون في جزيرة سانت هيلانة: لقد اعتقدت بكل الاخلاص أن قدرتي وقدر فرنسا قد استقرا في إميان. لقد كنت بصدد تكريس نفسي تماماً لإدارة فرنسا، واعتقدت أنني سأتي بالأعاجيب (45). لقد كان هذا القول بمثابة محاولة لإزالة أثار اثنتي عشرة معركة، لكن في اليوم التالي لتوقيع سلام إميان كتب جيرو لاملو لوشيسيني Girolamo Lucchesini السفير البروسي في باريس لمليكه تقريراً مفاده أن نابليون قرر الالتفات للزراعة والصناعة والتجارة والفنون وكل ما يُدرّ عائداً مالياً والتي كانت الحرب قد استنزفتها واستمر جيرو لاملو قائلاً إن نابليون سيتحدث بحرارة عن افتتاح النزع والقنوت وإكمالها وإصلاح الطرق وتطهير الموانئ والمرافئ وإنشاء المدن، وإقامة المؤسسات الدينية وأماكن العبادة،... كما يتحدث عن مقررات دراسية (55) والحقيقة إن قدراً كبيراً من التقدم في هذا المجال كان قد تحقق قبل أن تحل الحرب - مرة أخرى - مكانة الاهتمام الأولى (61 مايو سنة 3081). وكانت الضرائب معقولة وكان يتم جمعها بأقل قدر من الخداع والقوة، وقد غمرت عوائدها الحكومة فساعدت على بقاء الصناعة منتعشة وعلى تشغيل العمالة. وتوسعت التجارة بسرعة عقب رفع إنجلترا للحصار البحري، وانتعش الدين من جديد في ظل الكونكوردات Concordat (المعاهدة الباباوية) الذي عقده نابليون مع البابا. وبدأ المعهد العلمي في وضع نظام للتعليم على مستوى الأمة الفرنسية. وجرى تقنين القوانين، وأصبح للقانون مكانته، وبلغت الإدارة درجة الامتياز وجنحت للأمانة.

وأصبحت باريس مرة أخرى - كما كانت في عهد لويس الرابع عشر - عاصمة السياحة في أوروبا، ونسي مئات من الإنجليز الرسوم الكاريكاتيرية الكثيرة التي كانت تهزأ بنابليون وتسخر منه في الصحف البريطانية فقطعوا الطرق الوعرة وعبروا القنال لإلقاء نظرة على التمثال ضئيل الحجم (المقصود بنابليون) الذي تحدى القوى العظمى وفرض عليها السلام. وأتى إليه عدد من أعضاء البرلمان الإنجليزي من مختلف الاتجاهات، ليس أقلهم رئيس الوزراء السابق والذي شغل المنصب بعد ذلك مرة أخرى: شارلز جيمس فوكس Charles James Fox الذي زاره في أغسطس سنة 2081، والذي سبق له أن بذل جهوداً مضمّنية لفترة طويلة لتحقيق السلام بين الإنجليز والفرنسيين. واعتبرت الدهشة الأجانب للرءاء الذي حظّ على فرنسا بهذه السرعة بعد وصول نابليون للحكم. وقد وصف دوق بروجلي Broglie الأعوام من 0081 إلى 3081 بأنها أفضل صفحات الحوليات الفرنسية وأكثرها نبلاً (65).

1slash3 المدونة القانونية النابليونية

1081 - 4081

استغرق نابليون في ذكرياته فقال إن عظمتي الحقيقية ليست في المعارك الأربعين التي خضتها وأحرزتُ فيها النصر، ذلك لأن هزيمتي في واترلو Waterloo ستمحق ذكرى هذه الانتصارات.. أما ما لا يمكن محقه، وما سيبقى أبد الدهر فهو مدوّنتي القانونية (75). إن كلمة أبد الدهر ليست ذات طابع فلسفي، فهذه المدونة هي بالفعل أعظم إنجازاته. لقد أجبر الطيشُ والفسادُ اللذان لا ينضب معينهما المجتمع - بشكل دوري - على تحسين طرائقه لحماية نفسه من العنف والسرقة والغش والخداع، واقتضى هذا إعادة صياغة هذه الطرائق. وكان جستينيان قد حاول ذلك في سنة 825 للميلاد، لكن مجموعة قوانينه المدنية التي سجلها رجال القانون في عهده كانت موجودة بالفعل ولم يتعد عملهم تنسيقها ولم تكن في غالبيتها قانونياً جديداً يهدف إلى تغيير المجتمع واجتثاث سلبيات كانت فيه. أما المشكلة بالنسبة لفرنسا فكانت مضاعفة لأن كل محافظة (دائرة) كان لها قوانينها الخاصة حتى أن القانون في منطقة (أو محافظة أو ولاية) لم يكن ليسود في المنطقة التي تليها. وكان مرلين الدوي Merlin of Douai وكامباسير Cambaceres قد قدّمَا الخطوط العريضة لمدونة قانونية جديدة موحدة لحكومة المؤتمر الوطني في سنة 5971 لكن الثورة لم يكن لديها الوقت الكافي لإنجاز هذا العمل، ولأن الحكومة في ذلك الوقت كانت تواجه فوضى مريبة فقد أضافت آلافاً من القرارات والمراسيم المتسرّعة اقتضى الأمر فترةً من الوقت لتُصاغ بشكل متسق.

وأدى اقرار نابليون للسلام مع النمسا وبريطانيا إلى إتاحة الفرصة له لإنجاز مدوّنته. ففي 21 أغسطس سنة 0081 فوّض القناصل الثلاثة كلا من فرانسوا ترونش Francois Tronchet وجان بورتالي Jean Portalis وفيلبي بيجو دي بريمينو Felix Bigot de Preameneu وجاك دي مالفيل Jacques de Maleville لوضع مخطط جديد لمدونة وطنية متسقة تضم القوانين المدنية وأرسل نابليون مشروع المدونة كما أعدوه وقدموه في أول يناير سنة 1081 إلى رؤساء المحاكم القانونية لإبداء تعليقاتهم وملاحظاتهم، فقدموه بدورهم بعد ابداء الملاحظات إلى نابليون بعد ثلاثة أشهر من إحالته لهم، فأحاله إلى اللجنة التشريعية في مجلس الدول لإعادة النظر فيه، وكان على رأس هذه اللجنة التشريعية كل من بورتالي Portalis وانطوان ثيبودو Antoine Thibaudeau وبعد أن مرّت المدونة القانونية بكل هذه الفحوص تدارسها المجلس كله بنداً بنداً خلال سبعة وثمانين دورة قضائية.

وكان نابليون هو رئيس المجلس في خمس وثلاثين دورة منها. ولم يكن نابليون خبيراً بالقانون لكنه استفاد من فطنة زميله في القنصلية كامباسير Cambaceres وتعليمه القانوني. لقد اشترك نابليون في المناقشات بتواضع لدرجة حُببته إلى أعضاء المجلس وجعلته موضع إعجابهم. ولقد تأثر أعضاء المجلس بحرارته وحماسه وتصميمه فوافقوا برضا على مد فترة كل جلسة من الجلسات لتمتد من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة الخامسة بعد الظهر، لكنهم لم يتحمسوا عندما دعاهم للاجتماع مرة أخرى مساء، فقد حدث أن اعتري النعاسُ بعض الأعضاء من جراء التعب في هذه الاجتماعات المسائية فنبههم نابليون - بكياسة ولطف - إلى ضرورة الانتباه. هيا أيها السادة فنحن لم ننقأض رواتبنا بعد (85) وفي رأى فاندال Vandal أن هذه المدونة ما كانت لتتم أبداً لو لا حث نابليون الدُعوب وتشجيعه الودّي (95).

وغالبا ما كان القضاة وأعضاء المجلس يتوقفون عندما تتناول المدونة أمراً مرتبطاً بالترابيونية (Tribunate محامي الشعب). لقد أدان المجتمعون الذين كانوا لا يزالون متفاعلين مع الثورة المدونة لأن بنودها قمعت الاتجاهات التي تبنتها الثورة - باعتبارها أعادت تسلط الزوج على زوجته وتسلط الأب على أبنائه، وتوجت البورجوازية ليكونوا على رأس الاقتصاد الفرنسي. لقد تم إقرار هذه التوجهات إلى حد كبير. وقيلت بنود المدونة المبادئ الأساسية للثورة وطبقتها: حرية الحديث والعبادة والعمل التجاري ومساواة الجميع أمام القانون وحق الجميع في محاكمة علنية أمام القاضي، وإبطال الرسوم الاقطاعية وإلغاء العشور الكنسية وأقرت عمليات الشراء التي تمت بالنسبة لمن اشترى جانبا من الممتلكات المصادرة للكنائس أو الاقطاعات أو الدولة، ولكن المدونة حذت حذو القانون الروماني فقبلت الأسرة كوحدة أساسية للنظام الاجتماعي وكحصن للنسق الأخلاقي وأعطتها أساساً بإحياء السلطة الأبوية على النحو الذي كان سائداً في الحكم القديم (العهد البائد) فأصبح للأب الحق في التحكم في ممتلكات زوجته وأصبح له السلطة الكاملة على أبنائه حتى يبلغوا سن الرشد ويمكنه أن يطلب سجنهم فيتم ذلك بناء على طلبه هو وحده وأصبح يمكنه منع زواج الابن فيما دون السادسة والعشرين والابنة فيما دون الواحدة والعشرين. وانتهكت المدونة مبدأ المساواة أمام القانون بنصها على أنه في حالة المنازعات حول الأجور فإن القول الفصل لصاحب العمل (وفيما عدا ذلك فالجميع أمام القانون سواء) ومن 21 أبريل سنة 3081 تجدد حظر الروابط العمالية (إلا ذات الأغراض الاجتماعية الخالصة) وبعد الأول من ديسمبر من العام نفسه (3081) أصبح على كل عامل أن يحمل معه بطاقة عمل مدون بها مهنته، وأعدت المدونة - بموافقة نابليون - نظام الرق في المستعمرات الفرنسية (06).

لقد كانت المدونة تمثل ردة فعل تاريخية فقد كان توجهها العام هو الانتقال من مجتمع يكثر فيه ما هو مباح إلى مجتمع منضبط على مستوى الأسرة والدولة. وكان واضعوا التشريع هم رجال هذه الأعوام، إذ نبههم إفراط الثورة وإسفافها، ورفض التراث والتقاليد بطيش وبلا روية، وسهولة الطلاق وتفسخ الروابط الأسرية والسماح بالانحلال الأخلاقي بين النساء، والسماح بممارستهن للشغب السياسي، وتشجيع دكتاتورية البرولتاريات والتستر على مذابح سبتمبر والارهاب باسم الشعب. لقد قرر هؤلاء الرجال أن يوقفوا ما بدا لهم مدمراً للمجتمع والحكومة. وقد أيد نابليون تأييداً مطلقاً اتجاه هؤلاء الرجال رغبة منه في استقرار فرنسا في ظل حكمه. لقد اتفق معه مجلس الدولة على ضرورة إغلاق باب المناقشة على المستوى العام في مواد المدونة البالغة 182،2 مادة، وفي 12 مارس أصبحت هذه المدونة - واسمها الرسمي المدونة القانونية المدنية لفرنسا - هي قانون فرنسا.

3\2 الكونكوردات (الاتفاق مع البابا)

1081

ولم يقنع الشاب نابليون the young Lycurgus بهذا فقد كان يعرف بطبيعته القوية أن روح الإنسان لا تميل للقانون إلا قليلاً. لقد سبق له أن رأى في إيطاليا ومصر كيف أن الإنسان لا يزال في رغباته قريباً من ماضيه الأول قنصاً حيواناً متمرداً متحرراً. ومن عجائب التاريخ أن هذه الكائنات الحية المتفجرة (سريعة الانفعال) ظلت بمنأى عن التفسخ الاجتماعي أو بتعبير آخر لم تحطم الهيكل الاجتماعي الذي تعيش خلاله حتى الآن. أكان هذا بفضل رجال الشرطة؟ لا يمكن أن يكون الأمر كذلك لأن عدد رجال الشرطة قليل كما أنهم متباعدون (بمعنى أنهم لا يتجمعون في مكان واحد لضبطه) كما أن الميل للفوضى السياسية كامن في نصف أفراد المجتمع. فما الذي كبح انهيار البناء الاجتماعي؟

لقد انتهى نابليون نفسه - مع أنه من المتشككين في الدين - إلى أن النظام الاجتماعي قد استقر أخيراً على طبيعة هي مزاج من الحيوانية والانسانية عُرس فيها بدقة خوف من القوى غير المنظورة (القوى الغيبية أو الفوقطبيعية) ومن ثم فقد راح نابليون ينظر للكنيسة الكاثوليكية كأداة مفيدة الفائدة كلها لضبط سلوك الرجال والنساء. إنها - أي الكنيسة الكاثوليكية - تعد أداة لضبط السلوك الإنساني في مواجهة تآرجحه ما بين الموافقة والسخط إزاء التفاوت الاقتصادي والاجتماعي والجنسي. وهي - أي الكنيسة الكاثوليكية - أداة لضمان الالتزام بالوصايا الدينية التي تقاوم متطلبات

الجسد. فإذا كان يستحيل وضع رجل بوليس في كل مكان، فالآلهة موجودة في كل مكان، وكل ما هو أكثر مدعاة للرعب (من البوليس) موجود، وهو أكثر مدعاة للرعب لأنه غير مرئي ويمكن مضاعفة كم الرعب عند الرغبة أو الحاجة عن طريق الموجودات الغامضة وبالوعظ العنيف والتهديد الشديد بالثبور وعظائم الأمور التي ستصيها الآلهة أو قوى الرهبان القابعين في الصحراء أو الأماكن النائية والقادرين على توجيه طلباتهم إلى الأمر النهائي المبقي على النجوم والبشر والقادر على تدميرهم. يا له من تصور سام! يا له من تنظيم لا يُضاهى بمدى انتشاره ومدى مفعوله! يا له من نظام يدعم - بلا مقابل - المعلمين والأزواج والآباء ورجال الدين والملوك! لقد انتهى نابليون إلى أن الفوضى والعنف اللذين سببتهما الثورة قد أن وضع حد لهما وما عاد هناك مجال للحديث عن رفض الدولة للكنيسة. لقد قرر إعادة الارتباط بين الدولة والكنيسة بقدر ما يستطيع أن ينتزع ذلك من مخالب اليعاقبة المرعبين والفلاسفة المستميتين. لقد كان الدين في فرنسا في سنة 0081 في حالة تسيب مضطربة ولم يكن هذا بعيداً عن التسيب الأخلاقي الذي خلفته الثورة. لقد أصبح هناك أقلية كبيرة في المحافظات - وربما أغلبية أهل باريس - غير مباشرين بمواظبات القسس (16). وكان هناك آلاف من الفرنسيين - فلاحين ومليونيرات - قد اشتروا من الدولة ممتلكات الكنيسة المصادرة. وكان هؤلاء المشترون قد جرى حرمانهم من رحمة الكنيسة، وكان الناس الذين يرون فيهم مشترين لممتلكات مسروقة ينظرون إليهم بعيون غير راضية. وكان في فرنسا في ذلك الوقت ثمانية آلاف قس نشط، منهم ألفان دستوريون أي من الذين أقسموا بيمين الولاء لدستور سنة 1971 الذي أقر مصادرة ممتلكات الكنيسة، أما الستة آلاف فكانوا قسماً غير معتمدين أو بتعبير آخر غير دستوريين لرفضهم الثورة وعلمهم على إبطال إجراءاتها، وكانوا قد احرزوا تقدماً في مسارهم هذا. فقد عمل النبلاء الذين لم يغادروا فرنسا إثر أحداث الثورة وكذلك كثيرون من أفراد الطبقة البورجوازية على إعادة المكانة للدين كحصن لضمان الملكية (بكسر الميم) والنظام الاجتماعي. وكثيرون من هؤلاء - رغم أن بعضهم كان سليل الثورة ومنتقياً إليها - أرسلوا أولادهم إلى مدارس يديرها - أو يُدرّس فيها - قسس وراهبات فهم (وفقاً لما يعتقدونه) يعلمون أكثر مما يعلم المدرسون الذين لا يرتدون الطيلسانات (عباءات رجال الدين) وهم الأقدر على تنشئة أبنائهم ليكونوا محترمين وبناتهم ليتصفن بالحياء (26). لقد أصبح الدين سائداً في المجتمع وفي الآداب، وسرعان ما أصبح كتاب شاتوبريان (2081Chaleaubriand) المرسوم باسم عبقرية المسيحية والذي يكيل فيه المديح للمسيحية - حديث الناس في هذا الوقت.

وقرر نابليون - في مسعاه لتدعيم حكمه الذي لا جذور له - الاستعانة بدعم الكنيسة الكاثوليكية الروحية والتنظيمي، وقد أدى هذا الاتجاه إلى تهدئة منطقة الفندي Vendee الثائرة وأسعد القاطنين في الدوائر (المحافظات) والستة آلاف قس الأنف ذكرهم. إن نابليون بهذا يمكنه أن يضيف لرصيده تأييد البابا الأخلاقي (المعنوي) والروحي، وهو - بهذا - إنما يسحب البساط من تحت أقدام المطالبين بعودة أسرة البوربون، وهو أيضاً - بهذا - يحفظ العداء المستحکم بين فرنسا - وبينه شخصياً - وكل من بلجيكا وبافاريا والنمسا وإيطاليا وأسبانيا وهي كيانات كاثوليكية. لذا فإنني بكل ما لدي من سلطة.. أعيد ترسيخ الدين. إنني أجعل منه الأرضية والأساس للذين أبنى فوقهما. لقد اعتبرته دعماً للمبادئ الصحيحة والأخلاق الصالحة (36).

وقد قاوم اللادريون في باريس (القائلون بأن أمور الغيب لا سبيل للتيقن منها) وكاردينالات روما خطة نابليون هذه، فكثيرون من رجال الدين قاوموا التصديق على أي اتفاق، يتساهل بشأن الطلاق أو يُبطل دعاوى الكنيسة الفرنسية في أحقيتها في أملاكها المصادرة. واعترض كثيرون من اليعاقبة على جعل الكاثوليكية ديناً رسمياً للأمة تحميه الحكومة وتتفق عليه، وكان من رأيهم أن مثل هذا القرار إنما هو تخلٍ عما اعتبروه أهم إنجازات الثورة الفرنسية، ألا وهو فصل الدولة عن الكنيسة. أما بالنسبة للكاردينالات ورجال الدين الذين عارضوا مشروعه فقد أُرهبهم مُهدداً أنهم إذا رفضوا مشروعه فإنه سيحذو حذو هنري الثامن Henry VIII في إنجلترا وسيفصل الكنيسة الفرنسية فصلاً كاملاً عن روما. أما بالنسبة للادريين (المتشككين) فحاول نابليون تهدئتهم بأن شرح لهم أنه إنما يريد أن يجعل الكنيسة أداة حكومية لاستمرار السلام الداخلي. لكنهم خشوا أن يكون اقتراحه خطوة أخرى في طريق التراجع من الثورة إلى الملكية (بفتح الميم). ولم يغفر نابليون أبداً للاند Lalande (الفلكي) رغبته في إدراج اسم نابليون في قاموس الملحنين في اللحظة ذاتها التي فتح فيها - أي نابليون - باب المفاوضات مع بلاط روما البابوي وذلك على حد ما ذكره بورين Bourrienne سكرتير نابليون (46).

وقد بدأت هذه المفاوضات في باريس في 6 نوفمبر سنة 0081 واستمرت عامرة بالمناورات طوال ثمانية أشهر، فقد كان الكاردينالات دبلوماسيين متمرسين لكن نابليون كان يعلم رغبة البابا الشديدة في الوصول إلى اتفاق ورغبته في تقديم كل ما هو في صالح سلطته على الكنيسة. لقد قدم البابا بيوس السابع Pius VII تنازلاً لا يُتر تنازل لأن الخطة المقترحة عرضت إنهاء عقد من الكنابات التي أملت بالكنيسة الفرنسية. ولأن هذه اللحظة نتيج له عزل كثيرين من الأساقفة الذين سبق وهزأوا بالسلطة الباباوية، وستمكته - بمساعدة التدخل الفرنسي - من التخلص من الجيش النابولي الذي يحتل عاصمته، واستعيد للبابوية المفوضيات Legations (فرارا Ferrara وبولونيا Bologna ورافينا

Ravenna - التي عادة ما كان يحكمها سفراء باباويون (Legates) التي انتقل حكمها إلى فرنسا في سنة 7971. وأخيراً بعد جلسة استمرت حتى الساعة الثانية صباحاً وقع ممثلو كنيسة روما، وممثلو الدولة الفرنسية في 61 يوليو 1081 الاتفاق (الكونكوردات) الذي حكم العلاقات بين فرنسا و الباباوية طوال قرن من الزمان. وصدّق نابليون على الاتفاق في شهر سبتمبر، وصدّق عليه البابا بيوس السابع في ديسمبر. وعلى أية حال فإن نابليون وقع مع النص the Proriso ما يفيد أنه قد يُقر فيما بعد بعض الإجراءات لمنع ما قد ينشأ من تفسير حرفي متعنّت لهذا الاتفاق (الكونكوردات)(56).

وهذه الوثيقة التاريخية ألزمت الحكومة الفرنسية بالاعتراف بالكاثوليكية كدين للقناصل الحاكمين وكدين لأغلبية الشعب الفرنسي (وبالتالي ألزمتها بتمويلها أي الانفاق على مؤسساتها) ولكنها - أي هذه الوثيقة التاريخية - لم تجعل الكاثوليكية دين الدولة وأكدت على حرية العبادة لكل الفرنسيين بمن فيهم البروتستانت واليهود. وسحبت الكنيسة دعاويها بأحققتها في ممتلكات الكنيسة التي صادرتها الدولة، ووافقت الدولة - على سبيل التعويض - أن تدفع للأساقفة راتباً سنوياً، خمسة عشر ألف فرنك لكل أسقف وأن تدفع رواتب أقل لقسس الأبرشيات. وكان للحكومة - كما كان الحال زمن لويس الرابع عشر - أن تُعيّن الأساقفة، الذين يقسمون بيمين الولاء للدولة على ألا يصبح تعيينهم سارياً إلا بعد موافقة البابا. ويُعد قرار تعيين الأساقفة الدستوريين (أي الذين أقسموا بيمين الولاء لدستور الثورة الأول) صحيحاً، ويُعاد كل الأساقفة التقليديون orthodox (ولا علاقة لهذا المصطلح في هذا السياق بالمذهب الأورثوذكسي المعروف)، وتفتح الكنائس رسمياً للعبادة الصحيحة (وكانت قد فتحت عملياً بالفعل). وبعد مناقشات طويلة سلّم نابليون للكنيسة في مسألة مهمة وهي حقها في قبول الأوقاف (الأموال التي يوقفها المتبرعون للكنيسة بوصية bequests). وليهدئ نابليون منتقديه من المتشككين في أمور الدين ممن هم أكثر كياسة من غيرهم من المتشككين الآخرين، فإنه أضاف من جانبه إلى الاتفاق 121 slash مواد أساسية لضمان تفوق وضع الدولة على الكنيسة في فرنسا فمنع دخول أي مرسوم أو وثيقة بابوية أو موفد بابوي أو مرسوم للمجمع العام أو المؤتمر الكنسي إلى البلاد دون موافقة واضحة من الحكومة. وأصبحت الإجراءات المدنية للزواج شرطاً مسبقاً لإتمام الزواج من الناحية الدينية. وأصبح على كل الذين يدرسون ليصبحوا قسماً كاثوليك أن يدرسوا المواد الغاللية Gallcan Artietes (نسبة إلى بلاد الغال) الصادرة سنة 2861 التي تؤكد الاستقلال الشرعي للكنيسة الكاثوليكية الفرنسية عن السيادة الباباوية المطلقة.

وفي 8 أبريل سنة 2081 تم تقديم هذا الاتفاق البابوي (الكونكوردات) المعدّل إلى مجلس الدولة والتريبيونيت Tribunate (أو التربيون وهو مجلس الدفاع عن حقوق الشعب) والهيئة التشريعية، فهاجمه أعضاء هذه المؤسسات بضراوة باعتباره اتفاقاً مناهضاً للتوير والثورة (فقد كان من الضروري أن يكون متنسقاً مع دستور سنة 1971) ولم يكن هذا ليثير الرعب لدى نابليون. وفي التربيون دخل كونت فولني Volney المتقف في مناقشة جريئة مع القنصل الأول (نابليون) حول هذا الاتفاق البابوي (الكونكوردات) وانتخب الهيئة التشريعية شارل - فرنسوا دوبوي Charles Francois Dupuis - رئيساً لها، وهو مؤلف رسالة قوية مناهضة للإكليروس بعنوان أصول كل العبادات Lاص (4971 Origine de tous les Cultes). وسحب نابليون الاتفاق البابوي (الكونكوردات) من المناقشة وراح ينتظر الوقت المناسب.

وعند التسمية الجديدة لأعضاء التربيون (مجلس الدفاع عن حقوق الشعب Tribunate) والهيئة التشريعية لم يعين مجلس الشيوخ كثيرين مم انتقدوا الاتفاق البابوي (الكونكوردات). وفي هذه الأثناء كان نابليون قد نشر بين العامة قصة الاتفاق البابوي ومحتواه لأنه كان يتوقع أن الناس ستطالب بإقراره. وفي 52 ماسر سنة 2081 حقق نابليون أمل الغالبية العظمى بتوقيعه اتفاق سلام مع إنجلترا، فزاده هذا قوة مما جعله يقدم الاتفاق البابوي (الكونكوردات) مرة ثانية للهيئات الأنف ذكرها، فأقره التربيون ولم يزد عدد المعارضين عن سبعة، وصوتت الهيئة التشريعية لصالحه بواقع 822 ضد 12. وفي 81 أبريل أصبح الاتفاق البابوي قانوناً، وفي يوم أحد الفصح Easter Sunday تم إعلان سلام إيمان والاتفاق البابوي في حفل وقور في نوتردام Notre - Dame وسط أنين الثوريين، وضحك العسكريين وبهجة الشعب. وانتشر رسم كاريكاتيري يُظهر نابليون وقد غمر نفسه في مياه المعمودية (رمزاً يشير إلى أنه مسيحي كاثوليكي) مع عبارة ساخرة: عندما كان ملكاً لمصر آمن بالقرآن وعندما كان ملكاً لفرنسا آمن بالإنجيل.

وقد عزّى نابليون نفسه بإقناعها أنه إنما كان يعبر عنه إرادة الغالبية العظمى من الفرنسيين وأن ما قام به يقوّي سلطانه على مستوى القاعدة رغم أنه أضعفها على مستوى القمة. لقد أعاد الأساقفة لكن منذ أن عيّن الأساقفة ودفع لهم أجورهم، وأجور حوالي ثلاثة آلاف قس، وضع في اعتباره أنه يمكنه أن يسيطر عليهم بهذا المقود الاقتصادي. لقد ظن أن الكنيسة يمكن أن تكون إحدى أدواته تُعني لعظمته وتؤيد سياساته. فبعد ذلك بفترة وجيزة نظر إليها (أي إلى الكنيسة) باعتبارها وسيلة لتعليم الأطفال الفرنسيين أن توقيير الإمبراطور يعني توقيير الرب ذاته وأنهم إن فشلوا في أداء واجبهم نحو الإمبراطور... إنما هم بذلك يعصون الله، وأن هذا (عصيانهم للإمبراطور) يجعلهم يستحقون اللعنة

الأبدية(66) وعبر نابليون عن امتنانه لرجال الدين (الإكليروس) بحضور القديس مبدياً الطاعة، لكنه أوصى أن يكون القديس موجزاً بقدر الإمكان.
لقد كان مقتنعاً في هذه اللحظات المفعمة بنشوة الانتصارات أنه قد كسب العالم الكاثوليكي كله إلى جانبه. ومن الناحية الفعلية فإن الإكليروس الفرنسيين لم يكونوا قد نسوا أبداً فقدانهم أراضيهم وكانوا ممتعضين لربطهم بالدولة بقيد الراتب (الأموال التي يتقاضونها من الدولة)، وكانوا ينظرون - أكثر فأكثر - للبابا لتأييدهم ضد حاكم كانوا يعتبرونه كافراً فيما بينهم وبين أنفسهم. إنهم وإن كانوا غالبيين Gallican (نسبة إلى بلاد الغال) وفقاً للقانون إلا أن مشاعرهم كانت متجهة نحو البابا فعندما نزع الإمبراطور من البابا بيوس السابع الأراضي التي كانت في حوزة الباباوية لألاف السنين (وأكثر من هذا عندما تم انتزاع البابا من روما وسجنه في سافونا Savona وفونتينبلو Fontainebleau) - هبّ الإكليروس وجماهير فرنسا للدفاع عن حبرهم (البابا) وعقيدتهم، واكتشف نابليون متأخراً أن قوة الخرافة والكلمة أشد من قوة القانون والسيوف.

صفحة رقم : 14579

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> القنصلية -> طريق المجد

4- طريق المجد

وسط مشروعاته وانتصاراته، كان عليه دائماً أن يكون حذراً لمواجهة التحديات لسلطانه وللحفاظ على حياته. وكان الملكيون في فرنسا هادئين نسبياً لأنهم كانوا يأملون في إقناعه أن أكثر الطرق التي عليه أن يسلكها أمناً هي إعادة البوربون وأن يقبل منصباً شرفياً مقابل هذا. وشجعوا كتاباً مثل مدام دي جينلي de Genlis على الكتابة في هذا الموضوع، وقد صورت روايتها مدموازيل دي لا فاليري Modmoiselle de la Valliève فرنسا في صورة مبهجة في ظل حكم لويس الرابع عشر. ولعبوا على الميول الملكية السرية لبوربون، سكرتير بوناپرت وعملوا من خلاله على كسب جوزفين إلى صفهم. لقد كان لهذه المعشوقة تطلعات سياسية مفرطة، لقد كانت تخشى إذا أصبح نابليون ملكاً أن يطلقها ليتزوج أخرى تستطيع أن تلد له وريثاً، وحاول نابليون أن يهدئ مخاوفها ببعض لحظات العشق والدلال ولكنه منعها من التدخل في السياسات.
لقد كان نابليون يعتقد أن من يهددون سلطانه ليسوا هم الملكيين أو اليعاقبة وإنما الجنرالات الغيورين الذين يفقدون الجيش الذي يعتمد عليه في المقام الأول لدعم سلطانه. لقد عبر هؤلاء الجنرالات علناً عن سخطهم: مورو Moreau وبيشجرو Pichegru، وبيرنادوت Bernadotte ومورا Murat وماسينا Masséna، ففي مأدبة غداء دعا إليها مورو أدان بعض الضباط نابليون واصفين إياه بأنه مغتصب ووصفه الجنرال دلما Delmas بأنه غول مجرم وكتب كل من مورو، وماسينا، وبيرنادوت طلباً لرفعه إلى نابليون مفاده أن يكتفي بحكم باريس وضواحيها، وأن يقسم بقية فرنسا بينهم مخلوفاً كل واحد منهم سلطة مطلقة على المنطقة (أو الإقليم) الذي يحكمه (76) وعلى أية حال فإن أياً منهم لم يأخذ على عاتقه تسليم هذا الاقتراح للقنصل الأول. وكان بيرنادوت قائد جيش الغرب في رين Rennes على شفا التمرد أكثر من مرة وقد أعصابه(86). وقد قال بوناپرت إذا حاقت بي هزيمة فسيكون الجنرالات هم أول من يتخلى عني(96).

ويجب أن نفسر خطاب نابليون الذي لا يحمل طابعاً حربياً أمام مجلس الدولة في الرابع من مايو سنة 2081 دون أن نضع هذه الخلفية العسكرية التأميرية في اعتبارنا، بمعنى أنه في خطابه هذا لم يكن يشير بشكل أو بآخر إلى تأمر العسكريين عليه:

في كل البلاد تتحني القوة أمام الحضارة: تتحني الحربة أمام القس... وأمام من هو أكثر علماً... فما كانت الحكومة العسكرية لتقبض على زمام الأمور في فرنسا لولا أن الأمة قد عانت من الجهل طوال خمسين عاماً مما جعلها متوحشة قاسية الفؤاد... وإذا كان لنا أن نستخلص من علاقات أخرى لأدركنا أن الرجل العسكري لا يعرف قانوناً غير القوة ولا شيء سواها... أما الرجل المدني (المتمدن) فعلى العكس لا يرى سوى ما هو صالح. أن شخصية الرجل العسكري تجعله يُملي إرادته أو بتعبير آخر إذا أراد إذا أراد طغى بغية تحقيق إرادته، أما الرجل المتمدن فهو يطرح كل الأمور للمناقشة ويعرضها على العقل ويبسطها بين يدي الحقيقة، غالباً ما يغلف الخداع ذلك كله، ولكنه يُلقى مع ذلك ضوءاً... إنني لا أتردد في أن أعزو السمو والفضل للرجل المتمدن بشكل لا يقبل الجدل... إن الجنود هم أبناء المواطنين، والجيش الحقيقي إنما هو الأمة(07).

اقترح نابليون على رفاقه الحميمين أن خططه لتأسيس فرنسا وتطويرها ستتطلب فترة حكم أطول من العُقد الذي حصل عليه بالفعل، فقد كان نابليون مستاء من القلاقل ساعياً دوماً لمزيد من السلطة. وفي الرابع من شهر أغسطس سنة 2081 أعلن مجلس الشيوخ دستوراً جديداً للسنة العاشرة من الثورة (1081) وزاد هذا الدستور عدد أعضاء مجلس الشيوخ من أربعين إلى ثمانين - وقد عيّن القنصل الأول كل الأعضاء الجدد، وصوّت أعضاء المجلس على جعل نابليون قنصلاً أول مدى الحياة. وعندما اقترح المعجبون به تخويله حق تعيين خليفته اعترض مبدئياً تواضعا غير معتاد تعيين من يخلفني أمر متناقض مع مبدأ سيادة الشعب وهو أمر غير ممكن في فرنسا(17) لكن عندما وافق مجلس الشيوخ - بعد المناقشة - على الاقتراح بواقع 72 (موافقون) و 7 (معارضون)، وجد هؤلاء المعارضون السبعة أن يسحبوا خطأهم فجعلوا القرار بالإجماع، وعندها قبل نابليون متفضلاً باعتبار هذا الأمر (تعيين من يليه في المنصب) قد حظي بموافقة عامة. وفي 71 أغسطس كان على كل الذكور البالغين المسجلين كمواطنين فرنسيين أن يُدلووا بأصواتهم للإجابة عن سؤالين: أيجب أن يكون نابليون قنصلاً (أول) مدى الحياة؟ أيجب أن يُسمح له باختيار من يخلفه؟ وكانت نتيجة الاستفتاء 588,805,3 موافقون و 473,8 معارضون(27). ومن المفترض - كما في استفتاءات أخرى - أنه كان للحكومة أساليبها للتشجيع على الموافقة. وتعاظت البورصة مع نتيجة الاستفتاء مما أنعش الطبقات المالكة: لقد كان الرقم القياسي للأسهم لا يتعدى النقاط السبع قبل تولي نابليون للسلطة وقد ارتفع الآن بسرعة ليصل إلى اثنين وخمسين(37).

أما وقد أوى نابليون إلى ركن متين فقد أحدث بعض التغييرات في حاشيته. لقد تخيّر مجموعة قليلة العدد من الرجال ليكون منهم مجلسه الخاص Privy Council يستطيع من خلالها - بعد أن أصبحت سلطته لا تحتمل الجدل - إصدار المراسيم بالإضافة إلى مهامهم الاستشارية، واختصر أعضاء التريبون Tribune (مجلس الدفاع عن حقوق الشعب) من مائة إلى خمسين وجعل مناقشاته من الآن فصاعداً سرية. وأقصى وزير الشرطة (الداخلية) فوشيه Fouche النشيط إلا أنه منقلب. ودمج وزارة الداخلية مع وزارة العدل وجعل على رأسها كلود رجنبيه Cloude Regnier وطرد سكرتيره بورين Bourriene في 02 أكتوبر سنة 2081 بعد أن اكتشف أنه يستغل مكانته لتحقيق ثروة، وراح من الآن فصاعداً يعول على الخدمات المخلصة التي يقدمها له كلود مينيفال Claude Meneval. بعد ذلك أصبحت مذكرات بورين لا يعول عليها لفرط عدائها لنابليون وأصبحت مذكرات مينيفال لا يعول عليها لفرط محاباتها لنابليون. وعلى أية حال - فبتناولهما بحيطه - لا يزالان أكثر الروايات تعاطفاً عن نابليون الذي شاء قدره أن يمتطي صهوة أوروبا في العشر سنوات القادمة.

وربما كان هذا الاستفتاء الذي جرى سنة 2081 - بالإضافة إلى ما حققه نابليون من انتصار في مارينجو Marengo وإميان - هو الذي دمر في نابليون النزعة إلى الاعتدال والقدرة على رؤية العلاقات الصحيحة بين الأشياء، وبدونهما تصبح العبقرية على شفا الجنون. لقد وجد براهين قوية وحافزة تبرز له اتخاذ كل الخطوات التي تُفضي به إلى السلطة التي تُصيبه بالدوار، فعندما طلب منه زعماء الجمهورية السيزبية (جمهورية الألب الشمالية Cisalpine) المتمركزون في ميلان أن يساعدهم في وضع دستور قدم لهم واحداً ينص على اختيار ثلاثة منتخبين (بفتح التاء) يختارون لجنة من صلاحياتها تعيين أعضاء الهيئة التشريعية ومجلس الشيوخ ومجلس الدولة الذين يختارون بدورهم الرئيس (ويتم اختيار المنتخبين الثلاثة من ملاك الأراضي ورجال الأعمال والفنيين على التوالي). وبالفعل اجتمع المنسوبون في ليون في يناير سنة 2081 وأقروا هذا الدستور ودعوا نابليون الذي كانوا ينظرون إليه كإيطالي في فرنسا - ليكون أول رئيس للدولة الجديدة. فقدم من باريس ليخطب فيهم بالإيطالية، وفي 62 يناير أصبح قنصل فرنسا الأول هو رئيس الجمهورية الإيطالية Repubblica Italiana وسط مظاهر الفرحة والابتهاج. واعتزى الذهول كل أوروبا فماذا بعد، وماذا سيفعل هذا الساحر المنوم في خطوته التالية(47).

وزاد الحذر عندما ألحق بيدمونت Piedmont بفرنسا. لقد احتل الفرنسيون قدم الجبل في سنة 8971. لقد كانت تقع وراء الحدود الطبيعية لفرنسا والتي تعهد نابليون بحمايتها. وعلى أية حال فلو استعادها ملك سردينيا لأصبحت عازلاً معادياً بين فرنسا ومحمياتها الإيطالية في ليجوريا Liguria ولومباردي Lombardy، وفي الرابع من سبتمبر سنة 2081 أعلن نابليون أن بيدمونت جزء من فرنسا.

وفي سويسرا حيث سبق أن وجد طرقاً كثيرة تؤدي إلى إيطاليا لم يستطع أن يتقدم بمثل هذه الثقة، فقد كانت كانتوناتها (ولاياتها) القوية تعص برجال اعتبروا - عبر القرون - الحرية أثنى من الحياة نفسها، وكانوا على استعداد لتكبيد أي غاز خسائر فادحة. وعلى أية حال فقد رحب غالب السويسريين بالممثل العليا الفرنسية المعلنه في سنة 9871، وفي سنة 8971 كوّنوا الجمهورية السويسرية (الهلفتية helvetic) تحت حماية فرنسا. وقام ملاك الأراضي الشاسعة هذا الاجراء وجنّدوا فلاحهم وكوّنوا حكومة منفصلة في بيرن Bern وتحذوا الجمهورية الخاضعة للحماية الفرنسية والتي اتخذت عاصمة لها لوزان Lousanne. وأرسل كل من الطرفين مندوباً مفوضاً إلى نابليون لطلب تأييده، فرفض نابليون مقابلة مندوب بيرن الذي اتخذ طريقه بعد ذلك لطلب العون من إنجلترا، فأرسلت أموالاً وأسلحة لهؤلاء الأوليجاركيين Oligarchs وأرسل نابليون جنوداً للجمهوريين (في نوفمبر سنة 2081) فاستطاعوا بهم قمع تمرد بيرن (ملاك الأراضي) وسوى نابليون النزاع بين الطرفين وفقاً لإعلان تسوية (في 91 فبراير سنة 3081) الذي نشأت بمقتضاه كونفدرالية سويسرية من تسعة عشر كانتون (ولاية) مستقل لكل واحد منها دستوره الخاص به، وكلها تحت الحماية الفرنسية ومُلزمة بإرسال عدد معين من الجنود للجيش الفرنسي. ورغم هذه المادة، فإن إعلان التسوية - بشهادة إنجلترا - قد لاقى قبولاً من كثير من الجهات وأصبح بلا شك حائزاً على القبول في الكونتونات (الولايات السويسرية) (57).

ومع ذلك فإن الحكومة الإنجليزية نظرت إلى التحركات الفرنسية المتواليه - في لمبارديا وبيدمونت وسويسرا - كتوسع خطير للنفوذ الفرنسي يدمر توازن القوى في أوروبا، ذلك التوازن الذي كان قد أصبح حجر الزاوية للسياسة البريطانية في القارة. ومما سبب لبريطانيا مزيداً من القلق، ما نشرته جريدة المونيتور Moniteur في عددها الصادر في 03 يناير سنة 3081 عن تقرير رسمي قدمه للحكومة الفرنسية الكونت هوراس سيباستياني Horace Sébastiani الذي كان نابليون قد أرسله لدراسة دفاعات القاهرة والقدس وبافا وعكا، وذكر التقرير أن ستة آلاف جندي كافين.. لفتح مصر (67) وأثارت هذه الوثيقة شكوك بريطانيا مخافة أن يكون نابليون يفكر في إعداد حملة أخرى لغزو مصر. وشعرت الحكومة البريطانية أنها لا يجب أن تفكر بعد الآن في إخلاء مالطة والإسكندرية فهما الآن ضروريان للدفاع عن السيادة البريطانية في البحر المتوسط.

ولازال هناك ازدياد آخر لنفوذ نابليون أثار بريطانيا. فمعاهدة لونيفيل Lunéville اشترطت ضرورة تعويض حكام المديرات الألمان غرب الرين الذين تخلّوا عن 573,4 ميل مربع من الأراض ذات العائد الضرائبي باعتبارهم بالسيادة الفرنسية على المنطقة، اشترطت تعويضهم بمديريات أخرى شرق النهر. وأرسل عشرون نبيلاً ألمانياً ممثلين إلى باريس للبحث على تنفيذ مطالبهم. واشتركت بروسيا وروسيا في الصيد، وجمع تاليران مبالغ أخرى كيقشيش (حلوان Pourboires) وأخيراً تم التوزيع بإقامة مدن دول City - States واضفاء الطابع العلماني عليها بعد أن كان يحكمها طوال قرون أساقفة كاثوليك. وكان هدف نابليون من هذا إقامة كونفدرالية الراين كدولة عازلة بين فرنسا من ناحية والنمسا وبروسيا من ناحية أخرى. واحتجت النمسا على أساس أن قلب هذه الدويلات قد يكون دليلاً على خطورة أخرى لتفكيك الامبراطورية الرومانية المقدسة، وكان الأمر كذلك بالفعل.

وتساءل العسكريون الإنجليز وقد أغضبهم اتساع الرقعة التي تسيطر عليها جيوش نابليون، ما إذا كانت الحرب أقل تكلفة من مثل هذا السلام. واعترض رجال الصناعة البريطانيون على سيطرة فرنسا على الراين (77) مما يجعلها وسيطاً بين التجارة البريطانية ومعظم الأسواق الأوروبية المربحة. واشتكى التجار من أنه بينما أنهى صلح إميان حصار بريطانيا للسواحل الفرنسية فإن الفرنسيين فرضوا حظراً على استيراد المنتجات البريطانية التي تنافس مثيلاتها الفرنسية.

وأدانت الارستقراطية البريطانية السلام باعتباره استسلاماً مخزياً للثورة الفرنسية. واتفقت كل الأحزاب البريطانية تقريباً على ضرورة التمسك بمالطة، وفي هذه الأثناء راحت الصحف البريطانية تُسبب نابليون قصصاً ومقالات ورسوماً، فاشتكى نابليون للحكومة البريطانية التي أجابته بأن الصحافة فيها حرة. فأمر (أي نابليون) الصحف الفرنسية أن تكيل لبريطانيا من السلعة نفسها (87).

وأصبحت العلاقة بين الحكومتين تقترب شيئاً فشيئاً من الحرب، فقد أخبر السفير البريطاني اللورد هوتبورث Whitworth نابليون - بجفاء - أن بريطانيا لن تترك مالطة حتى تقدم الحكومة الفرنسية تفسيراً مُرضياً لحركاتها التوسعية منذ عقد صلح إميان. وفي 31 مارس سنة 3081، واجه نابليون السفير البريطاني هورتورث وسط جمع غير من أصحاب المقام الرفيع من فرنسيين وأجانب كما لو كان في معركة مُتّهماً بريطانيا بانتهاك معاهدة السلام

والاستعداد للحرب، وأصيب هوريتورث بالرعب لهذا الانتهاك الصارخ للأصول الدبلوماسية ففضّل التعامل مع تاليران الذي يعرف كيف يُلبس الحقائق لبوساً يجعلها تبدو ودية. وفي 52 أبريل تلقى هوريتورث تعليمات من حكومته بتوجيه إنذار مؤداه أنه لا بد أن توافق فرنسا على احتفاظ إنجلترا بجزيرة مالطة لمدة عشر سنوات على الأقل، ويجب أن تتسحب (أي فرنسا) من هولندا وسويسرا وإيطاليا ويجب أن تعوّض ملك سردينيا عن ضياع بيدمونت منه في الحرب التي جرت مؤخراً. وسخر نابليون من هذه المقترحات فطلب هوريتورث جواز سفره فحصل عليه، وراح الطرفان يستعدان للحرب.

ولأن نابليون قد تحقق من سيطرة إنجلترا على البحار وأنه يمكنها الاستيلاء على أية مستعمرة فرنسية فقد باع لويزيانا Louisiana للولايات المتحدة بمبلغ ثمانين مليون فرنك في 3 مايو سنة 3081 وزوّدت إنجلترا قواتها البحرية بتعليمات - مع أنها رسمياً لازالت في سلام مع فرنسا - للاستيلاء أي سفينة فرنسية تلقاها. وتم إعلان الحرب رسمياً في 61 مايو سنة 3081 واستمرت اثني عشر عاماً.

ومنذ هذه اللحظة المريعة انسحب نابليون كإداري من التاريخ، واسترد نابليون الجنرال ابن الرابعة والثلاثين روحه الحربي، فأمر بالقبض على كل البريتون Briton الذين لازالوا موجودين على الأرض الفرنسية. وأمر فجأة جنرالاه مورتييه Mortier بالاستيلاء على هانوفر Hanover قبل أن تتحوّل إلى قاعدة عسكرية على يد جورج الثالث الهانوفرى Hanoverian. وما أحقّه انه خلال عقد من الصراع مع إنجلترا مولت فيها جويش أوروبا ضد فرنسا وحاصرت الموانئ الفرنسية واستولت على السفن الفرنسية، وظلت - مع ذلك - هي نفسها بمنأى عن الهجوم. وقد أن الآن أو ان ما يرفضه في اللحظات التي كان فيها أكثر هدوءاً باعتباره حليماً غير عملي، لقد قرّر أن يحاول عبور هذه القناة اللعينة ليذيق هؤلاء التجار ورجال المال ويلات الحرب على أرضهم، ويكوى بها جلودهم.

لقد أمر جنرالاته بجمع 000،051 رجل و 000،01 حصان على طول الساحل عند بولوني Boulogne ودنكيرك Dunkirk وأوستند Ostend، وأمر أدميرالاته بإعداد أسطول قوي في بريست Brest وركفورت Rochefort وطولون Toulon، وأن يُبحر بعد تجهيزه ويحارب ليشق طريقه بين شبكة السفن البريطانية المتناثرة إلى الموانئ حيث سيكون ملايين العمال مستعدين في انتظارهم حولي بولوني Boulogne، وفي هذه الموانئ سيقوم الرجال ببناء منارات من سفن النقل مختلفة الأنواع. وراح نابليون نفسه يغادر باريس بشكل متكرر لتفقد المعسكرات وأحواض السفن ليطمئن على تقدم مشروعه وليرفع من روح الجنود والبحارة والعمال.

وراحت السفن الحربية البريطانية تُحكم الرقابة في القناة وعلى طول الساحل الإنجليزي - في دوفر Dover وديل Deal وفي كل مكان - راح آلاف الوطنيين يُحكمون المراقبة ليل نهار مُصرين على المقاومة حتى الموت لمحق أية محاولة لغزو سواحلهم التي لا تُنتهك حرمتها.

صفحة رقم : 14580

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> القنصلية -> المؤامرة الكبرى

5- المؤامرة الكبرى

في ليلة 12 أغسطس سنة 3081 أحضرت فرقاطة بريطانية يقودها القبطان ريت Wright عبّر القتال الإنجليزي من إنجلترا ثمانية فرنسيين على رأسهم جورج كادودال George Cadoudal الثائر العنيد الذي يقود الثوار الملكيين

الذين لم تُفَلح الثورة الفرنسية في ترويضهم. لقد أنزلتهم الفرقاطة على منحدر صخري بالقرب من بيفيل Biville في نورماندي Normandy حيث سحبتهم عُصبة من الرجال كانوا على اتفاق سابق معهم - بالحبال - وفي العاشر من ديسمبر أحضر القبطان ريت Wright من إنجلترا إلى بيفيل مجموعة ثانية من المتأمريين بمن فيهم النبيل الذي هاجر من فرنسا عقب أحداث الثورة أرمان دي بوليناك Armand de Polignac، وفي العبور الثالث في 61 يناير سنة 4081 أحضر القبطان جول دي بوليناك Jules de Polignac والجنرالين الفرنسيين المهاجرين ببشجر Pichegru ولاجولي Lagolais، وكان ببشجر قد تأمر - بعد أن أحرز انتصارات مع جيوش الثورة - مع البوربون لإعادتهم للعرش فلما افْتُضِح أمره وأُي مُدبراً إلى إنجلترا. وكان هذا في سنة 1081. واتخذت المجموعات الثلاث طريقها إلى باريس حيث اختبأوا في بيوت أنصار الملكية (بفتح الميم) واعترف كادودال Cadoudal في وقت لاحق أنه كان يخطط لاختطاف نابليون فإن قاوم قتله (97). وربما جاز لنا تصديق أن الحكومة البريطانية قد زوّدت كادودال بمبلغ مليون فرنك لتمكينه من تنظيم عصيان مسلح في العاصمة باريس (08) لكن ليس هناك دليل على أن الحكومة البريطانية قد وافقت على الاعتقال.

وأخّر المتأمرون تنفيذ الخطة متوقعين أن ينضم إليهم في باريس الكونت درتوا Conte d Artois أخو لويس السادس عشر الأصغر (18) لأنه كان مستعداً لتولي أمر فرنسا بعد نابليون، لكنه لم يأت. وفي هذه الأثناء (82 يناير سنة 4081) زار ببشجر والجنرال مورو Moreau وطلب منه التعاون مع المتأمريين. لكن مورو رفض أن يشترك في أية محاولة لإعادة البوربون وإنما عرض نفسه كحاكم لفرنسا إذا تمت إزاحة نابليون (28). وفي حوالي هذا التاريخ قدّم بيرنادوت Bernadotte لجنوليت ريساميه Juliette Récamier أسماء عشرين جنراً الأقاليم منهم مخلصون له ومستعدون بتوق شديد لإعادة الجمهورية الحقيقية (38ture Republic) وقد استدعى نابليون إلى ذاكرته عندما كان في سانت هيلانة هذه الأيام فقال: لا أبالغ إن قلت أنني خلال الشهر من سبتمبر سنة 3081 إلى يناير سنة 4081 كنت جالساً فوق بركان (48).

وفي 62 يناير أدلى نائير ملكي اسمه كوريل Querell - كان قد قبض عليه منذ ثلاثة أشهر وحُك عليه بالاعدام - بتفاصيل عن المؤامرة مقابل تخفيف الحكم عليه. واسترشاداً باعترافه تمكّنت شرطة كلود ريجنيه Clude Regnier بطيئة الحركة من العثور على مورو Moreau وألقت القبض عليه في 51 فبراير كما قبضت على ببشجر في السادس والعشرين من الشهر نفسه، وعلى الأخوين بوليناك Polignac في 72 فبراير، وعلى كادودال في 92 مارس. وقد اعترف كادودال بفخر أنه كان يُخطط لإزاحة نابليون من السلطة وأنه كان يتوقع أن يقابله أمير فرنسي في باريس، لكنه رفض أن يدلي باسم أي ممن شركائه في المؤامرة (58).

وفي هذه الأثناء كان مفوض بريطاني يدير مجموعة أخرى من المتأمريين في ميونخ وبالقرب منها وقد وضع خطة لبث دعاية ضد نابليون في المناطق الفرنسية الجديدة على الشاطئ الغربي للراين. وإذا كان لنا أن نُصدّق مينيفال Meneval فقد صدر أمر مجلس الملك البريطاني بأن يُفرض على المنفيين الفرنسيين التعامل مالياً مع بنوك الراين ومن لم يمتلك صودر معاشه (راتبه)، ووضعت الإجراءات لتحديد المبالغ المخصصة لكل ضابط وكل جندي (68) وعندما علم نابليون عن طريق جواسيسه بهذه التطورات استنتج أن أمير أسرة البوربون الذي كان متأمراً ولندن ينتظرونه إنما كان من بين هؤلاء المهاجرين. ولم يكن ممكناً أن يكون الكونت درتوا Conte d Artois بينهم وإنما كان في مدينة إتنهيم Ettenheim الصغيرة التي تقع على بعد حوالي ستة أميال شرق الراين في مقاطعة بادن Baden، واكتشف رجال نابليون أنه كان يعيش حياة هادئة إلا أنه كان يزور في المناسبات - لكن بطريقة تدعو للشك - لويس أنطوان هنري دي بوربون - كوندي Louis - Antoine - Henri de Bourbon Conde ودوق دنجهين (وتكتب دنجيان) Enghein ابن دوق دي بوربون وحفيد الأمير دي كوندي de Conde وجميعهم في ستراسبورج (78).

وعندما وصل هذا التقرير إلى نابليون خلّص بأن هذا الدوق البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً هو قائد مؤامرة إقصائه عن الحكم. فاعترافات كوريل Querelle وعمليات القبض التي جرت مؤخراً في باريس أوقعت الجنرال المتسم دوماً بالجسارة في حالة من الذهول حتى أنه - ربما نتيجة الخوف والحنق - تعجّل في قراراته التي دافع عنها دوماً (88) وربما كان يأسف لها بينه وبين نفسه. لقد أصدر تعليماته للجنرال أورديني Ordener بأن يتجه على رأس قوة مسلحة إلى إتنهيم Ettenheim ويقبض على الدوق ويحضره إلى باريس، وبالفعل تم القبض على الدوق في ليلة 41 مارس سنة 4081 وفي 81 مارس أودع سجن حصن فيسين Vincennes إلى الشرق من باريس بخمسة أميال. وفي 02 مارس أمر نابليون محكمة عسكرية من خمسة كولونيلات وماجور major بالتوجه إلى فيسين لمحكمة الدوق بتهمة تقاضي أموال من إنجلترا للتأمر عسكرياً على وطنه. وفي الوقت نفسه تقريباً أرسل الجنرال سافاري Sarvary - رئيس شرطته الخاصة - لمراقبة السجن وإجراءات محاكمته. لقد اعترف إنجهين (دنجيان Enghein) بأن كان قد تلقى أموالاً من السلطات الإنجليزية وأنه كان يأمل في قيادة قوة عسكرية في الألاس (98)، وأعلنت

المحكمة أنها وجدته مذنباً بتهمة الخيانة وحكمت عليه بالإعدام. فطلب الإذن بروية نابليون فرضت المحكمة طلبه لكنها اقترحت أن يرسل له رسالة يطلب فيها الرأفة، وتخطى سافاري Savary هذا الاقتراح وأمر بتنفيذ حكم الإعدام(09).

وفي هذه الأثناء كان نابليون والمقربون منه في المقر الذي تقيم فيه جوزفين يناقشون مصير الدوق. لقد استنتجوا أنه سيكون مُدانا - لكن هل يمكن العفو عنه كإشارة سلام للملكيين؟ أما تاليران - الذي أيد في سنة 4181 عودة البوربون - فقد كان رأيه التعجيل بإعدامه كوسيلة سريعة لإنهاء آمال الملكيين ومؤامراتهم، بعد أن تذكر أدواره (أي أدوار تاليران) في الثورة وخوفاً على ثروته وربما حياته إذا عاد البوربون للسلطة. لقد كتب باراً Barras إن تاليران كان راعياً في حفر نهر من الدم بين نابليون والبوربون(19) أما كامباسير Cambaceres - أهدأ القنصلية الثلاثة وأكثرهم ميلاً للشرعية - فكان يفضل التريث. أما جوزفين فقد خرت عند قدمي نابليون مدافعة عن حياة إنجهين (انجيان)، وتضرع إلى نابليون أيضاً للعفو عنه ابنة جوزفين (هورتس Hottense) وأخت نابليون كارولين. وأرسل نابليون ليلاً هوج مار Hugues Maret إلى باريس برسالة إلى بيير ريل Pierre Real عضو مجلس الدولة يأمره بالتوجه إلى فينسين ليستجوب الدوق شخصياً ويرسل النتيجة إليه، وتلقى ريل الرسالة ولكنه خراً نائماً في غرفته بسبب الإنهاك في العمل طوال النهار ولم يصل إلى فينسين حتى الساعة الخامسة عصراً في 12 مارس، وكان حكم الإعدام قد نُفذ في دنجهين (دنجان) رمياً بالرصاص في ساحة السجن في الساعة الثالثة عصراً. وظن سافاري أنه قد خدم سيده (نابليون) خدمة جليلة فاتجه إلى مقر نابليون عند جوزفين ليزف إليه الأخبار فترجع نابليون إلى غرفته وأغلق على نفسه الباب ورفض توصلات زوجته لدخولها غرفته.

وانتقد المناصرون للملكية وأفراد الأسرة المالكة ما حدث انتقاداً مريراً. لقد روعتهم فكرة أن يقتل واحد من العامة فرداً من أفراد أسرة البوربون. وأرسل مجلس الوزراء في كل من روسيا والسويد احتجاجاً إلى ديت Diet الإمبراطورية الرومانية المقدسة في راتيسبون Ratisbon مع اقتراح بأن يكون غزو القوات الفرنسية لبادن Baden موضوعاً لتحقيق دولي. ولم يُجب الديت Diet ورفض ناخب Elector بادن إدانة فرنسا. وزوّد القصر الإكسندر (اسكندر) الأول سفيره بباريس بتعليمات لطلب تفسير لهذا الإعدام، فأجاب تاليران بحجة مفحمة: لو كانت إنجلترا تدبر لاغتيال بول الأول، وعُرف أن مدبري المؤامرة على مرمى حجر من الحدود، ألم يكن العمل يجري على قدم وساق للقبض عليهم بأقصى سرعة؟(29) أما وليم بت Bitt، فقد كان أكثر ما يكون ارتياحاً عندما وصلته أخبار الإعدام إذ قال لقد أحق بونايرت من الأذى بنفسه أكثر مما ألحقناه به منذ إعلان الحرب الأخيرة(39).

أما رد الفعل في فرنسا نفسها فكان أكثر اعتدالاً مما توقع كثيرون، فقد استقال شاتوبريان Chateaubriand من منصب قليل الشأن في وزارة الخارجية، لكن أصبحت الكرة في ملعب تاليران وزير الخارجية رابط الجأش في 42 مارس (بعد إعدام إنجهين دنجيان بثلاثة أيام) حضر إليه عشرون من نبلاء فرنسا القدامى وممثلون من كل بلاطات أوروبا(49). وبعد الحادث بثلاثة أشهر بدا أنه لم يعد محل اهتمام من الرأي العام الفرنسي، إلا أن فوشيه Fouché الذي كان يُراقب الأمور بذكاء علق على الإعدام قائلاً: إنه ليس جريمة. إنه أكثر من جريمة. أنه خطأ فادح(59). وربما شعر نابليون ببعض الندم لكنه لم يعترف بذلك أبداً، لقد قال: هؤلاء الناس أرادوا أن يوقعوا الفوضى في فرنسا وأن يدمروا الثورة بتدميري. لقد كان من واجبي أن أدافع عن الثورة وأن أثار لها... لقد كان إنجهين (دنجيان Enghien) متآمراً كأى متآمر آخر وكان لابد من معاملته على هذا الأساس.. لقد كان علينا أن نختار بين اضطهاده واضطهادا دائما وتوجيه ضربة قاضية. ولم يكن قرارى موضع شك لقد أسكت إلى الأبد أنصار الملكية واليعاقبة(69). لقد أظهر لهم ألا أحد بقادر على بث الرعب في قلبه(79) وأن دمه ليس رخيصاً (ليس مجرد ماء خندق)(89). لقد ظن - وله بعض الحق - أنه بث الرعب بعقوبة الإعدام في قلوب أنصار الملكية المتآمرين الذين رأوا الآن رأى العين انه حتى لو كانت دماء البوربون تسري في عروقهم فإن ذلك لن يعصمهم من الإعدام. ومن الناحية الفعلية فقد كُفّت المؤامرات الملكية الهادفة لقتل نابليون.

وفيما يتعلق بالمتآمرين الذين سبق أن قبض عليهم في باريس فقد التزم مزيداً من الحذر. فقد جرت المحاكمات علناً وسمح للصحف بالكتابة عنها بتفصيل. ورغم أن بورين Bourrienne كان معارضاً لإعدام إنجهين (دنجيان Enghien) إلا أن نابليون طلب منه حضور المحاكمات ليقدّم له تقريراً عن سير الأمور فيها. ولم ينتظر بيشرجو Pichegru حتى يتم تقديمه للمحاكمة ففي الرابع من شهر أبريل عُثر عليه ميتاً في زنزانته خنقاً برباط عنقه (كرافنته) وفي حالات أخرى اعترف المذنب أو قدم البراهين الدالة على براءته أما بالنسبة لمورو Moreau فلم يكن هناك أدنى شك أنه معاد لنابليون بشكل واضح وأنه أخفى عن السلطات الفرنسية معلوماته التي مؤداها أن بيشرجو Pichegru وآخرين كانوا يُدبرون للإطاحة به (بنابليون) بالقوة. وفي العاشر من يونيو سنة 4081 أعلنت المحكمة الأحكام: تسعة عشر متآمراً حُكّم عليهم بالموت، وحُكّم على مورو بالسجن لمدة عامين. ولم يندم كادودال Cadoudal على تأمره وأعدم في 82 يونيو. ومن بين المتآمرين الباقين البالغ عددهم ثمانية عشر متآمراً عفا نابليون عن اثني عشر منهم بمن

فيهم الأخوين بوليناك Polignneces· والتمس مورو Moreau نفيه بدلاً من سجنه ووافق نابليون على ذلك رغم أنه تنبأ بأن مورو سيواصل التآمر عليه(99)· واستقل مورو سفينة إلى أميركا ومكث بها حتى سنة 2181 ثم عاد للخدمة في الجيش الروسي وحارب ضد نابليون في دريسدن (Dresden 92 أغسطس 3181) ومات متأثراً بجروجه في الثاني من سبتمبر ودُفن في روسيا·

صفحة رقم : 14581

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> القنصلية -> الطريق إلى الإمبراطورية

6- الطريق إلى الإمبراطورية

1804

وبينما نابليون يتأمل في أمر المؤامرة اعترته الدهشة لم يتحتم عليه أن يمارس عمله في ظل تهديد دائم باغتياله، بينما الحكام الذين تحالفوا ضده مراراً - جورج الثالث في إنجلترا وفرنسوا الثاني في النمسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة وفريدريك وليام الثالث في بروسيا واسكندر الأول في روسيا - يمكن للواحد منهم أن يواصل حكمه حتى يوافيه الموت بشكل طبيعي، كما يمكن للواحد منهم أن يُعَوَّل على نقل سلطته إلى وريثه الطبيعي أو المُعَيَّن. ووجد أن هذا لا يمكن أن يكون بسبب أخذهم بأساليب الحكم الديمقراطي سياسة وتعييناً. لقد ظهر له أن السر الكامن في استقرار أوضاعهم يكمن في شرعيتهم - أي رسوخ مبدأ الوراثة في الحكم في الرأي العام بسبب اعتيادهم عليه طوال أجيال وقرون·

لقد كان نابليون يحلم بينه وبين نفسه بالحكم المطلق الخالص بل وأن يكون مؤسس أسرة حاكمة تكتسب شرعيتها بمرور الزمن وتكتسب عبير العراقة· لقد شعر أن الأعمال التي يتطلع لإنجازها تتطلب استقراراً واستمرارية كالتى يتسم بهما الحكم المطلق· لقد وضع في اعتباره كيف أن قيصر أدخل القوانين الرومانية والحضارة الرومانية إلى بلاد الغال Gaul وأبعد الجرمان إلى ما وراء الراين واكتسب لقب إمبراطور والقائد العام - حسناً، ألم يفعل نابليون هذا؟ وفكر نابليون كيف أن أغسطس Augustus أنجز الكثير خلال فترة حكمه الإمبراطوري الذي دام واحداً وأربعين عاماً بعد أن أنهى الفوضى التي سببها العامة مُتلقياً دعم أعضاء السينات (مجلس الشيوخ) الذين كانوا على درجة كافية من الحكمة تجعلهم يتخلون عن المناقشات الطويلة واللغو مُخْلِين الطريق أمام العبقريّة· وان نابليون ابن إيطاليا والذي يُكْنَى إعجاباً بالرومان القدماء يتطلع إلى مثل هذا الاستمرار في الحكم الذي لا يُعكّر صفوه شيء وإلى الحق في تعيين من يَخْلُفه على نحو ما كان يفعل أباطرة القرن الثاني·

وكان يفكر أيضاً في شرلمان وغالباً ما كان يتحدث عنه· شرلمان الذي استمر حكمه سنة وأربعين عاماً (867 - 418) ففرض النظام على بلاد الغال وجلب لها الرخاء ونشر قوانين الفرنكيين (الفرنج Franks) - كقوة متحضرة - في ألمانيا وإيطاليا، ونال مباركة البابا، ألم يفعل نابليون كل ذلك؟ ألم يُعد لفرنسا دينها الذي قمع الشغب الوثني الذي أطلقته الثورة من عقاله؟ ألا يستحق - مثل شارلمان - التاج مدى الحياة؟

لم يكن أغسطس ولا شرلمان يؤمنان بالديمقراطية ولم يكونا ليُخضعاً أحكامهما المصقولة الحكيمة وسياساتهما بعيدة النظر وخططهما المستقبلية لنقد ممثلي الجماهير الساذجة المتسم بالميل للأسفاف ومناقشاتهم غير المجدية لكونهم عرضة لقبول الرشاوى. لقد عرف قيصر وأغسطس الديمقراطية الرومانية في أيام شراء أصوات الناخبين مع أيام ميلو Milo وكلوديوس Clodius، وما كان لهما أن يحكما توصية من جماهير لا عقل لها. لقد شهد نابليون الديمقراطية الباريسية في سنة 1792 وشعر أنه لا يستطيع أن يقرر (ويعمل) باسم الجماهير الملتهبة عواطفها. لقد آن الأوان لطي صفحة الثورة وتعزيز مكاسبها الأساسية وإنهاء الفوضى والقلق والحرب بين الطبقات. والآن بعد أن طارد أنصار الملكية بأحكام الإعدام، أصبح مستعداً لقبول دعواهم الرئيسية التي مؤداها أن فرنسا ليست مستعدة - عاطفياً أو عقلياً - لحكم نفسها بنفسها (المقصود ليست مستعدة للحكم الديمقراطي) وأن شكلاً من أشكال الحكم الفاشستي أمرٌ لا مفر منه. وفي سنة 1804 - وفقاً لما ذكرته مدام دي ريموزا Remusat بدأ أشخاص مُعيّنون مُرتبطون على نحو ما بالأمر السياسي يؤكدون أن فرنسا تشعر بضرورة حق السلطة في الحكم المطلق. ورأى السياسيون من الحاشية والمؤيدون للثورة أن استتباب الهدوء في البلاد يعتمد على حياة فرد واحد وراحوا يناقشون عدم استقرار نظام القنصلية. لقد مالت آراء الجميع شيئاً فشيئاً إلى الملكية (1804). واتفق نابليون معهم، فقد ذكر لمدام ريموزا Remusat أن الفرنسيين يحبون الملكية وكل زخارفها (1804).

وعلى هذا، فإنه ليبدأ الطريق إليها، قدّم للفرنسيين كل زخارف الملكية (بهاجها الخارجية) فأمر القناصل بارتداء زي رسمي وكذلك الوزراء وأفراد الحكومة الآخرين. وشاع استخدام المخمل في صنع هذه الملابس، وكان هذا في جانب منه لتشجيع صنّاع المخمل في ليون. وجعل نابليون في خدمته الشخصية أربعة جنرالات وثمانية معاونين وأربعة مديرين للشرطة واثنتين من السكرتيرين. وشهدت المحكمة القنصلية بروتوكولات معقدة، وفُرض فيها نمط سلوك خاص (اتيكيت) يضارع ما كان في العهد الملكي. وعيّن الكونت أوغسط دي ريموزا Auguste de Remusat قيماً على المراسم، بينما أصبحت زوجته كلير Claire على رأس أربع سيدات لمرافقة جوزفين. وأضاف الخدم ذوو الملابس المزركشة والمركبات المزدانة مزيداً من التعقيد للحياة الرسمية. وقد راعى نابليون كل هذه المراسم أمام الجماهير أما عندما يكن بعيداً عن عيون العامة فإنه يجنح إلى بساطته التي اعتاد عليها. وعلى أية حال، فإنه كان يبتسم ابتسامة الرضا والموافقة في مهرجانات البلاط وعندما يرى الملابس التنكرية في الكرنفالات وعند قيامه بزيارات رسمية للأوبرا حيث تعرض زوجته عباؤها (الغالية) مذكرةً بأميرة أخرى مسرفة ماتت مؤخراً ميتةً تنثر الشفقة. لقد دلّته باريس كما دلل هو جوزفين، ومع ذلك فلم يكن نابليون هذا الحاكم الشاب لينخرط في الأناقة المتكفئة والمظاهر الكاذبة فما كان لمن جمع بين إهابة روح أغسطس الإدارية وانتصارات قيصر ليفعل ذلك. لقد بدا من الطبيعي أن يصبح نابليون إمبراطوراً.

ومن الغريب أن نقول أن كثيراً من الجماعات سمعت - بلا امتعاض - الإشاعات التي مؤداها أنه على وشك أن يتوّج. لقد كان هناك حوالي 1,002,000 فرنسي قد اشتروا من الدولة ممتلكات صادرتها من الكنيسة أو من المهاجرين الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة. وهؤلاء كانوا يرون أنه لا ضمان لسندات ملكيتهم خير من منع عودة البوربون ورأوا في استمرار سلطة نابليون خير ضمان لمنع وقوع كارثة بسلبهم ما اشتروه. وكان الفلاحون يفكرون على النحو نفسه، أما البروليتاريا فكانت منقسمة إذ كانت لا تزال مغرمة بالثورة باعتبارها - إلى حد كبير - من عملها لكنها أيضاً كانت مرتاحة للتوظيف الثابت والأجور الطيبة الذين أتاحهما الحكم القنصلي. بالإضافة إلى أن أفرادها لم يكونوا بعيدين عن الإحساس بالعظمة أو مستثنين من الإحساس بفتنة الإمبراطورية وسحرها، وربما كانوا في هذا يفوقون كل أولئك الذين ناضلوا من أجل فرنسا. أما البورجوازية فكانت متشككة في الأباطرة إلا أن هذا الإمبراطور المرتقب (نابليون) كان هو رجلهم المخلص والنشط. وكان المحامون الذين نشأوا في أحضان القانون الروماني في غالبهم ميّالين إلى تحويل فرنسا إمبراطورية لتواصل عمل أغسطس والأباطرة الفلاسفة من نيرفا Nera إلى ماركوس أوريليوس Aurelius، بل أن الملكيين كانوا يرون أنه حتى لو لم يستطيعوا إعادة سلالة البوربون فإنه خطوة للأمام إن عادت الملكية لفرنسا. أما الإكليروس فإنهم رغم معرفتهم أن تقوى نابليون ما هي إلا غطاء سياسي فقد كانوا ممتنين لإعادة الكنيسة. وكادت كل الطبقات خارج باريس تؤمن بأن الحكومة الملكية المستقرة هي وحدها التي تستطيع ضبط التزق الفردي والانقسام الطبقي الذي يدمم تحت قشرة الحضارة أو بتعبير آخر الكامن في الحضارة التي لا تشكل سوى قرشة خارجية.

ومع هذا فقد كانت هناك أصواتٌ معارضة في باريس التي سبق أن قامت بالثورة وعانت من أجلها ما كان لها أن تتخلى عنها بكل دساتيرها التي تُتيح قدراً من الديمقراطية كثر هذا القدر أم قل - دون أسف عليها جهراً أم سراً. والزعماء اليعاقبة الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة رأوا في التغيير المتوقع نهاية لدورهم في توجيه فرنسا، وربما نهاية لحياتهم. والذين كانوا قد صوتوا لإعدام لويس السادس عشر قد علموا الآن أن نابليون قد استثمر اشتراكهم في قتل الملك، وكان عليهم أن يعتمدوا على فوشيه Fouché لحبيهم لكن فوشيه كان يمكن أن يُطرد مرة أخرى. والجنرالات

الذين كانوا يأملون في اقتسام فرنسا معه ومشاركته السلطة لعنوا الحركة التي كانت تُعد لإلباس الثياب الملكية الأورجوانية لهذا التافه القادم من كورسيكا(201). أما الفلاسفة والعلماء في المعهد الفرنسي فحزنوا لأن واحداً من أعضاء معهدهم (نابليون) كان يخطط لإسقاط الديمقراطية في استفتاء إمبراطوري. حتى بين أفراد الأسرة المالكة كانت هناك مشاعر متضاربة. فقد كانت جوزفين تُعارض بخوفٍ أيَّ اتجاه نحو الإمبراطورية فإذا أصبح نابليون إمبراطوراً صار أكثر توقفاً لوريث، وبالتالي مال لتطبيقها فهو لا يتوقع أن تتجلب له ولياً للعهد، وإذا ما تم طلاقها فقدت في لحظات عالمها المتألق العامر بالملابس الغالية والمجوهرات. وكان اخوة نابليون وأخواته يحثونه منذ زمن طويل على طلاقها. لقد كانوا يكرهون هذه الكرول Creole العاهرة اللعوب كعقبة في سبيل أحلامهم لتحقيق السلطة. والآن فإنهم يؤيدون الاتجاه للإمبراطورية كخطوة لإزاحة جوزفين، وقد صاغ جوزيف أخو نابليون القضية كالتالي: مؤامرة كادودال ومورو حتمت إعلان مبدأ الوراثة كأساس للحكم. فقد تؤدي حركة مفاجئة إلى الإطاحة بنابليون كقنصل (أول) ومن ثم فإن مبدأ الوراثة يُعد بمثابة ترس حماية فإن قتلها في هذه الحال لا يُحقق الغرض المطلوب وهو الإطاحة بنظام الحكم كله. والحقيقة أن طبيعة الأشياء تجعلنا نميل إلى تحقيق مبدأ الوراثة في الحكم. إنها مسألة ضرورة(301).

وتحرك أعضاء مجلس الدولة ومجلس الشيوخ (السينات) والتريبون (مجلس الدفاع عن حقوق الشعب) وغيرهم في الحكومة بكياسة لتحقيق رغبات نابليون لأسباب بسيطة فموافقتهم لن تؤدي إلا إلى التقليل من حريتهم في المناقشة، تلك الحرية التي كانت قد قُيدت بالفعل بالإضافة إلى أن معارضتهم قد أنهت أدوارهم السياسية، كما أن الموافقة في وقت باكر قد تُحقق لهم مكافآت سخية. وفي الثاني من شهر مايو سنة 4081 أقرت الهيئات التشريعية ثلاثة اقتراحات. 1- سيتم تعيين نابليون بونابرت إمبراطوراً للجمهورية الفرنسية، 2- لقب إمبراطور والسلطات الإمبراطورية ستكون وراثية في أسرته. 3- الحرص على حماية مبادئ المساواة والحرية وحقوق الشعب ككل وفي 81 مايو أعلن مجلس الشيوخ (السينات) نابليون إمبراطوراً. وفي 22 مايو أقرت نتيجة الاستفتاء (من خلال الأصوات المسجلة والتي وقع فيها كل منتخب على قراره) هذا الأمر الواقع بواقع 923،275،3 موافقون و 965،2 معارضون، فقال جورج كادودال في سجنه بعد أن وصلته هذه الأخبار: لقد أتينا هنا - أي إلى السجن - لنجعل لفرنسا ملكاً، أما الآن فقد جعلنا لها إمبراطوراً(401).

صفحة رقم : 14582

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> الإمبراطورية الجديدة -> التتويج

الفصل الثامن

الإمبراطورية الجديدة

1807 - 1804

وراح نابليون يسير على درّب الأباطرة برضا حتى قبل الاستفتاء، إذ كان قد بدأ منذ مايو سنة 4081 يوقع خطباته ووثائقه باسمه الأول فقط، وسرعان ما أصبح يكتب الحرف الأول من اسمه ببساطة هكذا (N) فيما عدا الوثائق الرسمية ومنذ ظهر هذا الحرف الفخور (N) على النُصب التذكارية والمباني والعربات، لم يعد نابليون يتحدث عن الفرنسيين كمواطنين Citizens وإنما راح يتحدث عنهم ولهم بقوله رعاباي(1). وراح يتوقع من أفراد حاشيته مزيداً من الإذعان والاحترام، ومن وزرائه مزيداً من التبعية وسلاسة القيادة، وعلى أية حال فقد حدّو أساليب تاليران الارستقراطية بصمت صارم وقيل بشيء من الاستمتاع سخريّة فوشيه غير الوفرة. وتقديراً منه لما قدّمه فوشيه من مساعدة في تعقب المتآمرين، أعاده لمنصبه كوزير للداخلية في 11 يوليو سنة 4081 وعندما فكّر نابليون في قمع حرية فوشيه في التفكير المستقل والكلام بتذكيره أنه صوتت بالموافقة على قتل لويس السادس عشر، أجاب فوشيه: هذا صحيح تماماً. لقد كانت هذه أول خدمة أؤديها لجلالتكم(2).

بقي شيء واحد ينقص هذه الجلالة: إنها لم تحظ بالاعتراف ولا الإقرار الديني من أعلى ممثل لعقيدة الأمة الدينية، على النحو الذي حظيت به التيجان الأخرى. لقد كان هناك شيء لازال باقياً - على أية حال - من نظرية الحق الإلهي الوسيطة للملوك: فبالنسبة لشعب تسود فيه العقيدة الكاثوليكية، فإن قيام البابا بتكريس الحاكم ومسحه بالزيت يعني أن هذا الحاكم قد أصبح - بالفعل - مختاراً من الربّ لأن البابا بدوره يزعم أنه لم يشغل منصبه (منصب الباباوية) إلا من قبل الربّ، ومعنى هذا أن الحاكم الذي يكرسه البابا بمسحه بالزيت إن تحدث فغالبا ما يكون حديثه باسم الربّ. أي فكرة تساعد على تسهيل مهمة الحاكم أكثر من هذه؟ ثم أليس هذا المسح بالزيت سيضع نابليون في مصاف الحكام الأوروبيين حتى ولو كان لهم جذور عميقة في السلطة تمتد من الماضي حقياً؟ لهذا فقد أوكل إلى دبلوماسيه مهمة حث البابا بيوس السابع Pius VII للقيام بخطوة غير مسبوقه لباريس بنتويج ابن الثورة والتتوير باعتبار هذا نصراً للكنيسة الكاثوليكية على الثورة والتتوير. ثم ألن يكون مفيداً لقداسته (قداسة البابا) أن يستحوذ على أفضل القادة الحربيين في أوروبا وأكثرهم ألمعية ليكون مدافعاً عن المؤمنين؟ وعارض بعض الكاردينالات هذا العرض باعتباره تدنيّاً للمقدسات، لكن بعض الايطاليين الماكربين اعتقدوا أن هذا سيكون نصراً كاملاً ليس للدين فحسب وإنما لإيطاليا أيضاً إننا بهذا سنضع أسرة حاكمة إيطالية على عرش فرنسا لتحكم البرابرة، إننا بهذا سننتقم لأنفسنا من الغال (3Gauls) وربما كان البابا أكثر عملية: إنه سيوافق على أمل إعادة أمة تائبة مرة أخرى إلى طاعة البابا واستعادة المناطق التي كانت تابعة للباباوية والتي استولت عليها جيوش فرنسا.

وراح نابليون يستعد لهذا النصر المشترك كما لو كان يستعد لحرب كبرى، فكلف من يقومون بدراسة مراسم الحكم القديم (الملكي) وتعديلها وإضفاء مزيد من التفاصيل والمبالغات عليها. وتم التخطيط للمواكب والمسيرات كما لو أن المخطط لها مدير فرقة راقصة وتم تحديد وقت كل تحرك. وتم تصميم أزياء جديدة لسيدات الحاشية وتجمع أفضل المصممين للقبعات النسائية حول جوزفين وأمر نابليون بإحضار المجوهرات من الخزنة لها بالإضافة لما لديها من مجوهرات. ورغم اعتراض أمه وإخوته وأخوانه قرّر أن يتوجها معه. وقام جاك - لويس ديفد (داود) Jacques - Louis David - الذي كان عليه أن يخدّ الحدث في أعظم لوحات ذلك الوقت - بتدريج جوزفين وحاشيتها على كل حركة وكل وضع. وتم الاغداق على الشعراء للاحقفاء بالحدث. وصدرت التعليمات لدار الأوبرا بإعداد رقصات الباليه التي تشرح صدر البابا. وجرت الترتيبات لحماية الشوارع الكبرى بالجنود، وأن يكون الحرس القنصلي مصطفاً في صحن نوتردام كما لو كان في حفل زواج حقيقي بين القيصر والكنيسة averitable marriage of Caesar & Christ ودُعِيَ الأمراء وذوو المقام الرفيع من الدول الأخرى فلبوا الدعوة. ووصلت الجموع من المدينة والأحياء والمحافظات ومن الخارج وساموا للحصول على أفضل الأماكن في الكاتدرائية

أو في الطرقات، وراح أصحاب المحال يأملون في الحصول على ربح وفير، وقد كان ورصي الناس عن الأعمال والمشاهد رضاء مُفعماً بالسعادة ربما بطريقة لم تحدث منذ مهرجانات روما أيام الإمبراطورية. واتخذ البابا بيوس السابع الدّمث طريقه بتؤدة في الفترة من 2 نوفمبر إلى 52 من الشهر نفسه عبّر مدن إيطاليا وفرنسا محاطاً بمراسم التشریفات وقابله نابليون في فونتينبلو Fontainebleau. ومنذ هذه اللحظة حتى التتويج قَدّم الإمبراطور (نابليون) للبابا كل مظاهر الود فيما عدا الإذعان، فلم يكن نابليون (الإمبراطور) ليتصرّف على أساس أنه يخشى قوّة أعلى ممثلة في البابا. ورحب أهل باريس - أكثر الناس تشككاً في الكاثوليكية على ظهر البسيطة في تلك الأيام - بالحَبْر (البابا) باعتباره يمثل مشهداً جديراً بالرؤية، وقادت ثلّة من الجنود والقسس هذا البابا في قصر التوليري حيث تمّ إيصاله إلى مقرّ إقامته في جناح دي فلور Pavillon de Flore. ورَحّبت به جوزفين وانتهزت هذه الفرصة لتُخبره أنها لم تكن مُرتبطة بنابليون من خلال زواج ديني، فَوَعَدَها بيوس Pius بعلاج هذا الخطأ قبل التتويج، وفي ليلتي 82 و 03 نوفمبر أعاد تزويجهما وأحست جوزفين أن عقبة مُباركة وُضعت لتمنع نابليون من تطبيقها(4).

وفي بواكير يوم بارد (الثاني من ديسمبر) غادر اثنا عشر موكبا من نقاط مُختلفة لتتجمّع في نوتردام: مفوضون من مدن فرنسا ومن الجيش والبحرية والجمعيات التشريعية والهيئات القضائية والإدارات، وجوقة الشرف، والمعهد العلمي وغرف التجارة. فوجدوا الكاتدرائية تكاد تكون مُمتلئة عن آخرها بالمدعوين من المدنيين إلا أن الجنود تمكنوا من إفساح الطريق لهم للوصول إلى أماكنهم المخصّصة سلفاً. وفي التاسعة صباحاً تحرك موكب البابا من جناح دي فلور في قصر التوليري: البابا بيوس السابع وخَدَمُه والكاردينالات وكبار معاونيه، في عربات فخمة مُزدانة بزينات مُبهجة تجرّها خيول جرى اختيارها بعناية، جميلة ونشطة، وأمام الموكب أسقف يمتطي بغلاً ويحمل الصليب البابوي ويرفَعُه عالياً. وعند الكاتدرائية ترَجَل الجمْعُ الجميع وساروا في صف وصعدوا الدرجات إلى صحن الكاتدرائية وتوجّهوا بين صفوف الجنود الشداد إلى أماكنهم المحدّدة - البابا على عرشه إلى يسار مذبح الكاتدرائية. وفي هذه الأثناء ومن مكان آخر من قصر التوليري انطلق موكب المركبات الإمبراطورية: في البداية، مارشال مورا Murat محافظ باريس، والعالمون معه، ثم بعض الأفواج العسكرية المميزة، ثم مركبات تجرّ كلّ واحدة منها ستة خيول، فيها: المسؤولون القياديون في الحكومة، ثم مركبة أخوة نابليون وأخواته ثم المركبة الإمبراطورية مزركشة بشعار النبالة الحرف N تجرّها ثمانية خيول وتحمل الإمبراطور (نابليون) في حلة مخملية أرجوانية مطرزة بالجواهر والذهب، والإمبراطورة (جوزفين) في قمة تألقها وجمالها (غير القائم على أساس متين) في فستان من حرير وهي تضوي بالجواهر، وقد أتقنت تجميل وجهها فبدت في الرابعة والعشرين بينما هي في الواحدة والأربعين(5)، ثم عربات ثمان أخرى تحملن سيدات البلاط وموظفيه. واستغرق وصول هذه المركبات جميعاً للكاتدرائية ساعة، وهناك غيّر نابليون وجوزفين ملبسهما ولبسا ملابس التتويج واتخذا مكانهما على يمين المذبح، وجلس هو على عرش، وهي على عرش أصغر من عرشه وأدى مكانة منه بثمانية درجات Steps.

وصعد البابا إلى المذبح وركع نابليون وجوزفين على رُكبتهم أمامه، فقام البابا بدهنهما بالزيت وباركهما. ونزل الإمبراطور والإمبراطورة الدرجات حيث الجنرال كلرمان Kellermann واقفاً حاملاً صينية عليها تاج، فنتاوله نابليون ووضع فوق رأسه، ثم ركعت جوزفين أمامه بتواضع وولاء فوضع تاجاً من ماس فوق شعرها المحلّى بالجواهر - برقة واضحة(6). ولم يثر كل هذا دهشة البابا لأنه كان مرتباً سلفاً، عندئذ قَبِلَ الحَبْرُ (البابا) نابليون فوق خَدّه وأعلن الصبيغة التقليدية التي تفيد أن الكنيسة قبلته إمبراطوراً Vivat Imperator in aeternum ورتل البابا القدّاس، وأحضر مساعده الأناجيل إليه ووضع نابليون يده عليها وتلى القسم الذي لا زال يؤكد أنه ابن الثورة: إنني أقسم أن أحافظ على حدود الجمهورية كاملة وأن أحترم بنود الكونوردات (الاتفاق البابوي) وأدعمه وأن أقر حرية العبادة وأن أحترم - وأدعم - مبدأ المساواة أمام القانون، والحرية السياسية والمدنية وألا ألغي ما تم من مبيعات ممتلكات الدولة وألا أفرض التزامات أو ضرائب إلا وفقاً للقانون وأن أحافظ على وسام الشرف، وألا أحكم إلا وفقاً لما يحقق مصالح الشعب الفرنسي وسعادته وعظمته(8).

وانتهت المراسم في الساعة الثالثة، وعادت الموكب من حيث أنت وسط مظاهر الحفاوة والفرحة بينما التلوج تتساقط وبقي البابا اللطيف في باريس أو بالقرب منها طوال أربعة شهور مفتوناً ببهاء باريس أملاً في مفاوضات مثمرة، وكان يظهر كثيراً في شرفته ليبارك الجموع التي تركع احتراماً له. ووجد أن نابليون جامد الشعور رغم ما يُبديه من أدب، وتحمل (أي البابا) بصبر تصرّف مضيفه (نابليون) العلماني وعدم التزامه بالمسلك ذي الطابع الديني في تعامله معه (البابا). وفي 51 أبريل سنة 5081 غادر إلى روما. وواصل نابليون مشروعاته الإمبراطورية واثقاً من أنه الآن أصبح حاكماً مقدساً holy كأي حاكم (أوروبي) آخر وأصبح يمكنه أن يواجهه - وهو مطمئن - القوى التي ستتحذّ حالاً لتدميره.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> الإمبراطورية الجديدة -> الائتلاف الثالث ضد فرنسا

2- الائتلاف الثالث ضد فرنسا

1805

بحلول سنة 4081 كانت كل الحكومات الأوروبية - باستثناء إنجلترا والسويد وروسيا - قد اعترفت بنابليون كإمبراطور للفرنسيين وخاطبه بعض الملوك بكلمة أخي(9) وفي الثاني من شهر يناير سنة 5081 عرض نابليون - مرة أخرى - السلام على جورج الثالث وخاطبه هذه المرة بعبارة (أخي):

سيدي وأخي
أما وقد دعاني الله وأصوات مجلس الشيوخ والشعب والجيش لأتبعوا عرش فرنسا فقد تأكد لي شعوري بالرغبة في السلام.

إن فرنسا وإنجلترا تُهدران ثرواتها. ربما ناضلا طوال قرون، لكن هل أدت حكوماتهما - بشكل صحيح - واجباتهما الأكثر فداية لكف هذه الدماء الغزيرة التي أريقنا عينا بغير هدف محدد؟ إنني لا أجد حرجاً في أن أخذ بزمam المبادأة في هذا الأمر (طلب السلام) ولديّ فيما أظن براهين كافية.. فأنا لا أخاف الحرب إذا حلت.. لكن السّلام هو رغبتي الكامنة في قلبي ولم تكن أبداً بعيدة عن شهرتي. إنني أناشد جلالكم ألا تحرموا أنفسكم من السعادة بإقرار السلام في العالم.. ولن تكون هناك فرصة أفضل لكبح الغضب والاستماع لصوت الإنسانية والعقل، فإذا ضاعت هذه الفرصة فأى أجل يمكن أن يُحدّد لحرب قد لا أستطيع وقفها بكل مساعي؟..

ماذا تأمل أن تكسب من الحرب؟ تكوين ائتلاف من بعض القوى في القارة (الأوروبية)؟ انتزاع مستعمرات من فرنسا؟ إن المستعمرات هدف لفرنسا، لكنه هدف ثانوي ثم ألا تحتفظ جلالكم بالفعل بمستعمرات أكثر مما تستطيع الاحتفاظ به؟

إنّ العالم رحب واسع بدرجة تكفي لتعيش أمتانا فيه. وقوة العقل كافية لتمكيننا من تجاوز كل الصّعاب إذا توفرت الإرادة من الجانبين. وعلى أية حال فقد فُمت بواجبي لما أعتقد فيه الصّلاح وما هو قريب إلى قلبي. إنني واثق من أن جلالكم سنصدّقون إخلاص مشاعري التي عبرت عنها وعن توقي الشديد لتقديم ما يُثبتها لكم.

نابليون(01)

ولا ندري ما هي التأكيدات الخاصة لنوايا السلام والتي ربما تم إرفاقها بهذا الاقتراح. وعلى أية حال فإن ذلك لم يُثن إنجلترا عن إقامة أمنها على مبدأ توازن القوى في القارة، والحفاظ على هذا المبدأ بتشجيع الضعيف ضد القوى. بل إن

جورج الثالث لم يقبل مخاطبة نابليون له بكلمة أخي فلم يُرسل له رداً، لكن في 41 يناير سنة 5081 أرسل وزير الخارجية للورد ملجريف Mulgrave إلى تاليران خطاباً ذكر له فيه بشكل ودي شروط إنجلترا للسلام: ليس لدي صاحب الجلالة رغبة أعز من انتهاء أول فرصة تُتيح لرعاياه مزايا السلام الذي سيُقام على أسس غير مزعزعة لأمن دائم ولتحقيق المصالح لطبقات الأمة، إن جلالته مُقتنع أنه لا يمكن الوصول لهذه النتيجة إلا بترتيبات تُؤدّي أيضاً إلى مستقبل آمن وهدوء واستقرار في أوروبا لمنع تجدد الأخطار والكوارث التي أقلقّت القارة. وعلى هذا فصاحب الجلالة يرى أنه من غير الممكن أن يجيب بشكل حاسم على الأسئلة التي طرحت عليه إلا بعد أن يتصل بالقوى الأوروبية المُتحالفة معه خاصة إمبراطور روسيا الذي قدّم أقوى الأدلة على حكمته ومشاعره الطيبة واهتمامه العميق بأمن أوروبا واستقلالها(11).

وتولى وليم بت Pitt الأصغر رئاسة وزراء إنجلترا في الفترة من (مايو 4081 إلى يناير 6081) وكان يُمثّل - كمُعقل مالي جديد لبريطانيا - طبقة أصحاب المصالح التجارية التي كادت تكون هي الراح الوحيد من الحرب. وقد عانت الطبقة ذات المصالح التجارية خسائر حقيقية من سيطرة الفرنسيين على مصبّات الراين ومجره لكنها استفادت من السيطرة البريطانية على البحار. ولم يخفق هذا غالب الجهد الحربي الفرنسي فحسب بل مكّن بريطانيا من الاستيلاء على المستعمرات الفرنسية والهولندية ساعة نشاء، وعلى السفن الفرنسية حيثما وُجدت. وفي الخامس من أكتوبر سنة 4081 استولت السفن الإنجليزية على عدّة سفن إسبانية (شراعية حربية من نوع الغليون) متجهة إلى إسبانيا محملة بالفضة التي قد تمكنها من دفع كثير من ديونها لفرنسا. وفي ديسمبر سنة 4081 أعلنت إنجلترا الحرب على إسبانيا ووضعت إسبانيا أسطولها تحت أمر فرنسا. وبصرف النظر عن هذا الاستثناء فإن البريطانيين استطاعوا بالترديج عن طريق دبلوماسيهم البارعين وإعاناتهم المالية التي تقدم بحكمة - أن تكسب إلى جانبها القوى الأوروبية الأعلى بالرجال وإن كانت أقل حظاً في الذهب (المال).

ولم يستطع اسكندر الأول أن يحسم أمره: أيكون مصلاً لليبالياً وقائداً خيراً أم فاتحاً عسكرياً دعاه القدر للسيطرة على أوروبا؟. وعلى أية حال فإنه كان واضحاً في عدة نقاط: لقد أراد أن يمدّ حدوده الغربية بضم فاليشيا Wallachia ومولدافيا Moldavia التابعتين لتركيا. ورنا بالتالي - مثل كاترين المتوسّعة - إلى اجتياح تركيا (الدولة العثمانية) أن يستولى على البسفور والدرنديل جاعلاً قدماً في آسيا وأخرى في أوروبا، ليسيّط في الوقت المناسب على البحر المتوسط، وكان بالفعل قد استولى على الجزر الأيونية Ionias Isles لكن نابليون كان قد استولى فجأة على هذه الجزر وهي الآن تابعة له. ولا زال - أي نابليون - يتوق شوقاً للاستيلاء على مصر وهو ضمان للسيطرة على البحر المتوسط، بل كان قد تحدث بشأن ابتلاع تركيا ونصف الشرق Orient. هنا كان يوجد منافس نهم، ولا بد أن يستسلم واحدٌ منهما (اسكندر الأول أو نابليون): لكل هذا ولأسباب أخرى لم يكن اسكندر الأول راغباً في أن يرى إنجلترا تُقيم مع فرنسا سلاماً. ففي يناير سنة 5081 وقع معاهدة تحالف مع السويد التي كانت بتوّرها متحالفة مع إنجلترا. وفي 11 يوليو أكمل أمره بعقد تحالف مع إنجلترا التي تعهدت أن تدفع لروسيا إعانة مالية سنوية مقدارها 1,052,000 جنيه استرليني لقاء كل 000,001 مُقاتل يشتركون في المعارك ضد فرنسا(21).

وتفاوض فريديريك وليم الثالث البروسي مع نابليون طوال عام على أمل أن يُضيف إلى مملكته مقاطعة هانوفر Hanover التي كان الفرنسيون قد استولوا عليها في سنة 3081. وعرضها نابليون بشرط عقد تحالف تتعهد فيه بروسيا بدعم فرنسا في إقرار الوضع الجديد. ولم يستغ فريديريك الفكرة خوفاً من الأسطول الحربي البريطاني الغاضب على طوال سواحلها، وفي 42 مايو سنة 4081 وقّعت بروسيا تحالفاً مع روسيا للقيام بعمل مشترك ضد أي تقدم فرنسي إلى الشرق من وِزر Weser.

وترددت النمسا أيضاً. إنها إن انضمت للانقلاب الجديد فستكون أول من يُكوى بنيران الهجوم الفرنسي. لكن النمسا - وهي الأقرب إلى فرنسا من إنجلترا - كانت قد شعرت بالاندفاعات المتوالية للقوات الفرنسية المتوسّعة: توجيهها وإشرافها على الجمهورية الإيطالية في يناير سنة 2081، وإحاقها لبيدمونت في سبتمبر سنة 2081، وإخضاع سويسرا كمحمية فرنسية في فبراير سنة 3081، وادعاؤها (أي فرنسا) لقباً إمبراطورياً في مايو سنة 3081، واستمرت الاندفاعات الفرنسية: في 62 مايو 5081 تلقى نابليون في ميلان التاج الحديدي من لومبارديا وفي 6 يونيو قبل طلب دوق جنوا بدمج الجمهورية الليجورية في فرنسا. وتساعل النمساويون متى سيتوقّف شارلمان الجديد هذا؟ ليس هو بقادر بسهولة - إذا لم تتحد معظم أوروبا لإيقافه - على ابتلاع الولايات الباباوية Papal Stutes أولاً ثم مملكة نابلي؟ ما الذي يمنعه من الاستيلاء على فينيسيا (البندقية) وكل زمامها المغربي الذي كان يُسهم بعوائد مالية في دخل النمسا؟ لقد كان هذا هو تفكير النمسا القلق عندما عرضت إنجلترا عليها مساعدات مالية ووعدتها روسيا بمئة ألف مقاتل شديد المراس في حالة هجوم فرنسا عليها. وفي 71 يونيو سنة 5081 انضمت النمسا إلى كل من إنجلترا وروسيا والسويد وبروسيا، وبذا اكتمل الائتلاف الثالث ضد فرنسا.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> الإمبراطورية الجديدة -> أوسترليتز

3- أوسترليتز

2 ديسمبر 5081

وفي مواجهة هذا التحالف الخماسي كانت فرنسا تتلقى دعماً متريداً من هس Hesse وفيرتمبرج Wurtemberg وتعاوناً من أسطولي هولندا وأسبانيا. وسحب نابليون من مختلف أنحاء مملكته الأموال والمجندين إلزامياً ونظم ثلاثة جيوش: (1) جيش الراين بقيادة دافو Davaut ومورا Murat وصولاً Soult ونيقي Nevy، ليواجه به القوة النمساوية الرئيسية بقيادة الجنرال ماك (Mack 2) جيش إيطاليا بقيادة ماسينا Massena لمواجهة الهجوم النمساوي الغربي الذي قوامه جيش على رأسه الأرشوق كارل لودفيج (Karl Ludwig 3) وجيش نابليون العظيم الذي تجمع حديثاً حول بولوني Boulogne ولكنه قادر على الانقضاض انقضاضاً مفاجئاً على النمسا. وكان أمل نابليون يكمن في الاستيلاء - سرياً - على فيينا ليُجبر النمسا على توقيع اتفاق سلام منفصل ويجمد - بذلك - تحالفاتها في القارة ويجعل - بذلك - إنجلترا مُحاصرة دون عون.

وكان الإمبراطور الشاب يُكنّ كراهية شديدة لإنجلترا باعتبار لعنة أصابت حياته والعقبة الرئيسية أمام تحقيق أحلامه. لقد كان يُسميها إنجلترا الغادرة وأعلن أن أموالها كانت هي السبب الأساسي لويلات فرنسا. لقد راح ليل نهار يُخطط - بالإضافة لمئات المشروعات الأخرى - لبناء أسطول يُنهى سيادة بريطانيا على البحار. لقد أغرق الأموال وجلب العمال إلى مراكز صناعة السفن مثل طولون وبريست وأخضع للاختبار اثني عشر قائداً ليختار منهم أدميرالاً (أمير بحر) يمكن أن يقود إلى النصر البحرية الفرنسية النامية. وظنّ أنه عثر على بعينه في شخص لويس دي لا توش تريفييل Louis de la Touche - Treville وبذل كل جهده ليبثّ في روعه أنه يمكن غزو إنجلترا واجتياحها إذا استطعنا السيطرة على القنال (الفاصلة بين فرنسا وإنجلترا) لمدة ست ساعات، فساعتها سنكون سادة العالم (31) لكن لاتوش تريفييل مات في سنة 4081 فارتكب نابليون غلطة بأن جعل على رأس البحرية الفرنسية بيير دي فيلينييف Pierre de Villeneuve.

لقد كان فيلينييف قد أسهم في إخفاق الحملة الفرنسية على مصر، وصفحته الماضية تُشير إلى جُبنة وميله للعصبان، ولم يكن مؤمناً بإمكانية السيطرة على القنال الإنجليزي لست ساعات، وقد تلاكأ في باريس حتى أمره نابليون بالتوجه لشغل منصبه في طولون. وكانت تعليمات (أي تعليمات نابليون) مكررة ومعقدة: فليُفد أسطوله في عرض البحر وليترك نلسون يتتبعه بالأسطول البريطاني الرئيسي ويغريه بتتبعه في الأطلنطي إلى جزر الهند الغربية، ثم يتملص منه بين هذه الجزر ويعود بأقصى سرعة إلى القنال الإنجليزي حيث تتضم إليه الأساطيل الفرنسية والهولندية والإسبانية في الالتحام بالسفن البريطانية فترة تكفي لعبور الجيش الفرنسي بقواربه التي تُعد بالآلاف إلى الأرض الإنجليزية قبل أن يتمكن نلسون من العودة من البحر الكاريبي. ونفذ فيلينييف Villeneuve الجزء الأول من مهمته بطريقة حسنة. لقد أغوى نلسون بتتبعه إلى أمريكا، وراغ منه وكرّ عائداً إلى أوروبا. لكنه عند وصوله إلى أسبانيا لم يجعل سفنه ورجاله

في حالة استعداد لاجتياح السفن الإنجليزية التي تحرس القنال، وبدلاً من ذلك بحث عن الحماية في مرفأ آمن وصديق في كاديذ (قادش) Cadiz. وفُجع نابليون في خطته فأصدر أوامره إلى فيلينييف ليخرج باحثاً عن أسطول نلسون وأن يخاطر بكل شيء في تحد متهور للقضاء على السيادة البريطانية على البحار.

وفي قرار عصبي مفاجئ ابتعد الإمبراطور عن القتال الإنجليزي ودار بألاف الرجال ليسير جنوباً وشرقاً إلى الراين وما وراءه. وراحت قلوب الفرنسيين جميعاً تخفق أملاً وقلقاً مع هذا الجيش العظيم (وفقاً لتسمية نابليون) وراح الناس في كل مدينة يمر بها يدعون له بالنصر لتحقيق مشروعه. وفي كل كنيسة تقريباً راح رجال الدين يحثون شباب الأمة على الانضمام إليه ليخدموا تحت رايته وراحوا يتلون من فقرات الأناجيل ما يفسرونه على أساس أن نابليون قد أصبح الآن في رعاية الله وتحت توجيهه المباشر (41). ما أسرع ما أتى الكونكوردات (الاتفاق البابوي) بالثمار! وتعاونوا مع نابليون لترتيب أمر تمويل هذه العشرين ألف مركبة على طول الطريق، وعمد نابليون إلى الإسراع وإراحة الجند أثناء مرورهم عبر فرنسا (51). وركب هو نفسه مع جوزفين إلى ستراسبورج التي أصبحت الآن مفعمة عاطفة وتلهفاً وحباً، فقد كانت ثروتها معلقة أيضاً بكل رمية نرد (زهر). ووعد نابليون أنه خلال أسابيع قليلة سيكون سيداً فينا (61). وفي ستراسبورج ترك جوزفين في رعاية ريموزا Remusat وأسرع إلى الجبهة.

وكانت استراتيجيته - كالعادة - هي أن يُقسّم جيش عدوه ويغزوه: أن يمنع الجيش النمساوي من التوحّد (من أن يشكل كتلة مقاتلة واحدة)، وأن يُدمر أو يُجمّد القوات النمساوية قبل وصول القطيع الروسي (الجنود الروس) الذي يتوقع النمساويون وصوله لتقديم المساعدة، ثم يجتاز الجيش الروسي القادم مُحققاً النصر عليه مما سيجبر أعداءه الأوروبيين على توقيع سلام مؤقت على الأقل. ورغم الأيام الكثيب نهارها الحالك سواد سواد ليلها الممغن مطرها الغزير طينها وجليدها - نفذ جيش الراين ما أوكل إليه في المعركة على نحو شامل وأرسل من التوضيحات ما يدل على أن نابليون مدين لمارشالاته ديناً كبيراً. وبعد أسبوع من المناورة وجد الخمسون ألف مقاتل التابعون للجنرال مارك أنفسهم في أولم Ulm محاصرون من ثلاث جهات بالمدفعية والفرسان والمشاة بقيادة دافو Davaout وسول Soult ومورا Murat وني Ney واستحال عليهم التراجع عبر الدانوب خلفهم، وكانوا جوعى ينقصهم الطعام كما كانوا يعانون عجزاً في الذخيرة، وهدد الجنود النمساويون بالتمرد إذا لم يُسمح لهم بالاستسلام، فاستسلم ماك Mack بالفعل أخيراً في 71 أكتوبر سنة 5081 فأسر الفرنسيون ثلاثين ألفاً من رجاله وأرسلوهم إلى فرنسا. لقد كان النصر الذي أحرزه الفرنسيون في هذه المعركة هو الأقل تكلفة والأكثر حسماً وأثراً في تاريخ الحرب. وانسل الإمبراطور فرانسيس الثاني وبعض النمساويين ممن بقوا على قيد الحياة بعد معركة أولم Ulm إلى الشمال لينضموا للروس الذي اقترب ميعاد وصولهم، بينما دخل نابليون فيينا في 21 نوفمبر دون مقاومة وأيضاً دون تباه.

وسرعان ما تعكر مزاج الفرنسيين وفسدت عليهم نكهة النصر بوصول أخبار مفادها أن فيلينييف - تنفيذاً للتعليمات - انطلق لمقابلة نلسون ليُصاره حتى الموت، فقد كانت نهاية هذه المواجهة موتاً لكليهما، وانتصر نلسون في الطرف الأعز لكنه جرح جرحاً مميتاً، أما فيلينييف فقد خسر وانتحر. ونحى نابليون جانباً - وهو حزين مكتئب - أمه في التصدي للسيادة البريطانية على البحار ولم يعد أمامه إلا كسب أكبر عدد من المعارك على البر الأوروبي حتى يجبر القوى الأوروبية على السير في ركاب فرنسا بإغلاق أسواقها في وجه البضائع البريطانية حتى يجبر تجار إنجلترا حكومتهم على عقد معاهدة سلام مع فرنسا.

وترك نابليون الجنرال مورتييه Mortier وخمسة عشر ألف مقاتل للسيطرة على فيينا وانطلق في 71 نوفمبر لينضم إلى جنوده لإعدادهم لمواجهة جيشين روسيين يتجهان نحو الجنوب؛ جيش بقيادة كوتوزوف Kutuzov الصارم وجيش آخر على رأسه القيصر اسكندر نفسه. وتقابل الدب الروسي مع النسر الفرنسي في أوسترليتز (قرية في مورافيا Moravia) في الثاني من شهر ديسمبر سنة 5081. وقبل المعركة أصدر نابليون لفيالق جيشه البيان التالي:

أيها الجنود

الجيش الروسي أمامكم ليثأر لهزيمة الجيش النمساوي في أولم Ulm... إن المواقع التي نشغلها هائلة بينما هم يسبرون ليكونوا عن يميني وبذا سيعرضون جناح جيشهم لي...

إنني شخصياً سأوجه كتابكم. إنني سأجنب النيران إن أنتم - بشجاعتكم المعتادة - أحدثتم الفوضى والاضطراب في صفوف العدو. لكن إذا أصبح النصر في أي لحظة غير مؤكد فسئرون إمبراطوركم أول من يعرض نفسه للخطر لأن النصر لا يجب أن يكون موضع شك هذا اليوم بالذات فشرّف الجيش الفرنسي الذي يعني - وبعمق - شرف الأمة الفرنسية كلها معلق على هذه المعركة... إنه ينبغي علينا أن نهزم هؤلاء الذين استأجرتهم إنجلترا التي تُكن مثل هذه الكراهية المريرة لأمتنا...

إن هذا النصر سيضع نهاية للمعركة وسنكون بعد النصر قادرين على العودة إلى مقرنا الشتوي حيث سننضم إلى الجيوش الجديدة التي يجري إعدادها في فرنسا وعندئذ سيكون السلام الذي ساعده جديراً بشعبي وبكم وبني (71).

وكان أول تكتيك هو استيلاؤه على تل يسمح لمدفعيته بإطلاق نيرانها على الجيش الروسي (المشاة) المتحرك إلى يمين قواته لكن هذا التل استولى عليه عدد من رجال كوتوزوف Kutuzov الأكثر شجاعة. لقد تركوا طريقاً للقوات الفرنسية وأعادوا تشكيل قواتهم وحاربوا مرة ثانية لكن قوات نابليون الاحتياطية اجتاحتهم. وسرعان ما أصبحت المدفعية الفرنسية تحصدُ الروس وهم يتقدمون في السهل الأدنى من التل، فانكسر قلب جيشهم رُعباً وأمعن في الفرار وانقسم جيشهم إلى قسمين عمّت الفوضى فيهما؛ واجه القسم الأول مشاة دافو Cavout وسول Soult وواجهت القسم الثاني كتائب لان Lannes ومورا Mutat وبيرنادوت Bernadotte، أما بالنسبة للقلب المُبعثر فقد أرسل إليه نابليون عساكره الاحتياطيين ليجتثوه اجتثاثاً. ومن بين المغالين الروس والنمساويين البالغ عددهم 000,78 استسلم 000,02 واستولى الفرنسيون على كل مدفعية العدو تقريباً، وبينما انطرح على أرض المعركة من جيش أعداء فرنسا 000,51 قتيلاً. وهرب اسكندر وفرانسيس بمن تبقى إلى هنجاريا (المجر) بينما راح حليفهم الذي ملئ رعباً فريدريك وليم الثالثي يتوسل السلام بذلة.

وفي هذه المذبحة فقدت القوات الفرنسية البالغ عددها 000,37 وحلفاؤها 0008 ما بين قتيلاً وجريحاً. وهتف من بقي على الحياة من الجيش الفرنسي - وقد أنهكهم التعب، بعد أن تعبوا كثيراً من رؤية الموت - بحماسة وحشية بحياة نابليون. وفي بلاغ (نشرة توزع في الجيش) 3 ديسمبر وُعددهم نابليون انه سيتوقف عن الحرب بعد أن يتم انجاز كل ما هو ضروري لتأمين سعادة ورخاء بلدنا، ساعتها سأعودُ بكم إلى فرنسا. وهناك ستكونون موضع عنايةي وحبي. وسيرحب بكم شعبي بفرح وما على الواحد منكم إلا أن يقول: لقد كنتُ في معركة أوسترليتز ليهتف الناس انظر إلى البطل(81).

صفحة رقم : 14585

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> الإمبراطورية الجديدة -> صانع الخرائط

4- صانع الخرائط

6081 - 7081

عندما تلقى وليم بت Pitt أخبار أوسترليتز كان يقترب من الموت، ولما رأى خريطة أوروبا معلقة على الحائط طلب إذاحتها من أمامه وقال أطوا هذه الخريطة، فلن نحتاج إليها في هذه السنوات العشر(91). ووافق نابليون وأعاد رسم الخريطة.

لقد بدأ نابليون في إعادة رسم بروسيا والنمسا. ونصحه تاليران الذي خلفه نابليون على فيينا لصياغة الإرادة الإمبراطورية بلغة دبلوماسية - أن يفرض على النمسا شروطاً مُعتدلة مقابل عقد تحالف بينها وبين فرنسا على أساس أن هذا قد يفتح الارتباط بين المساعدات المالية الإنجليزية والسياسات النمساوية وقد تحصل فرنسا من جراء ذلك على بعض الدعم في صراعها مع بروسيا وروسيا (حتى لو كان هذا الدعم لا يعدو مزايا جغرافية) لكن نابليون الذي كان يعتقد أن تحالف أعدائه يتسم بالهشاشة كان من رأيه إضعاف النمسا بحيث لا يمكنها تحدي فرنسا مرة أخرى، وأن

يكسب بروسيا ويُبْعدها عن روسيا بأن يعرض عليها سلاماً سهلاً. وفي هذه الأثناء سمح لاسكندر بأن يقود الروس الذين لازالوا على قيد الحياة عائداً إلى روسيا دون أن يتعقبه.

وبناء على معاهدة وُقِّعت في حجرة ماريا تريزا في القصر الملكي النمساوي في شونبرن Schonbrunn في الخامس من ديسمبر سنة 5081 طلب نابليون من بروسيا تسريح جيشها، والتنازل عن مرجفية أنسباخ Ansbach (المرجفية هي محافظة حدودية في المناطق الناطقة بالألمانية) لبافاريا Bavaria وأن تتنازل عن إمارة (مديرية أو محافظة) نيو شاتل Neuchatel لفرنسا وأن تقبل تحالفاً وثيقاً مع غازيها (نابليون). وتوقع فريدريك وليم الثالث أن يحصل في مقابل ذلك على ولاية هانوفر Hanover وكان نابليون سعيداً بوعده بتحقيق ذلك ليكون في ضمها لروسيا حائلاً يمنع أية مشاعر مُتعاطفة مع الإنجليز في بروسيا.

لقد كانت معاهدة بريسبرج Pressburg مع النمسا (والتي اكتملت - في غياب نابليون - في 62 ديسمبر سنة 5081) معاهدة قاسية لم ترحم. لقد كانت النمسا قد بدأت فيما مضى الأعمال العدائية ضد بافاريا، وأصبح عليها الآن أن تتنازل لها (لبافاريا) ولبادن Baden ولفيرتمبرج Wurttemberg عن كل أراضيها (أراضي النمسا) في التيرول Tirol وفورارلبرج Vorarlberg وجنوب ألمانيا، وبهذا اتسعت كل من بافاريا Bavaria وفيرتمبرج فصارتا مملكتين وأصبحت بادن دوقية كبيرة متحالفة مع فرنسا. ولتعويض فرنسا عن انفاقها الاموال في الحرب و عما فقدته من رجال ومعدات تعين على النمسا أن تجعل كل ممتلكاتها في ايطاليا بما في ذلك البندقية وظهيرها تحت الحماية الفرنسية، ووافقت - أي النمسا - على أن تدفع لفرنسا تعويضاً مقداره أربعون مليون فرنك، وبالسعادة نابليون عندما علم أن جزءاً من هذا المبلغ كان قد وصل حديثاً للنمسا من إنجلترا (02). وبالإضافة لهذا أمر نابليون خيراؤه الاختصاصيين في الفنون أن يرسلوا إلى باريس بعض اللوحات المختارة والتمائيل من القصور والمتاحف النمساوية. واعتبر نابليون كل ذلك - استيلاءه على الأراضي والاموال والأعمال الفنية - أسلاباً مشروعاً، وفقاً لطريقته الزومانية. وأخيراً أمر بإقامة نُصْب النصر في ميدان فيندوم Vendome في باريس وأمر بتغطيته بمعادن مأخوذة من مدافع العدو التي استولى عليها في أوسترليتز.

ووقع تاليران هذه الاتفاقات ولكنه لم يكن مرتاحاً بسبب رفض اقتراحاته، فبدأ يستخدم نفوذه - ولم يكن دائماً خائناً لنابليون - للحد من المزيد من امتداد سلطان نابليون، وقد برَّر ذلك في وقت لاحق بأنه كان يخدم مصالح فرنسا بإساعته لمن يعمل في خدمته (نابليون).

وفي 51 ديسمبر سنة 5081 غادر نابليون فيينا ليكون مع جوزفين في ميونخ، وهناك ساعداً في زواج يوجين Eugene (الذي كان قد تمَّ تعيينه نائباً ملكياً في إيطاليا) من الأميرة أوجستا Augusta الابنة الكبرى لملك بافاريا. وقبل الزفاف تبنى نابليون - رسمياً - يوجين ووعده بتاج إيطاليا كوريث له. لقد كان زواجاً سياسياً لتوثيق التحالف بين بافاريا وفرنسا، وقد أحبَّت أوجستا زوجها وساعدت في إنفاذه بعد سقوط أبيه الذي تبناه (نابليون). وذهب الإمبراطور والإمبراطورة (نابليون وجوزفين) إلى باريس، فنلقته بالمهرجانات الرسمية والاحتفاء الشعبي حتى أنَّ مدام دي ريموزا Remusat تساءلت مندهشة أيمن لراس بشري الأ تدبيرها هذه المبالغة في المديح (12) لكن الحقائق أيقظته من سكرته. لقد وجد أن الخزانة الفرنسية قد أصبحت - أثناء غيابه خارج فرنسا - على وشك الإفلاس بسبب سوء الإدارة، وأتى التعويض الذي قدمته النمسا لإنقاذها. وكان عليه أن يُناضل محاولاً الحفاظ على حياته؛ ففي 02 فبراير سنة 6081 تلقى معلومات من شارل جيمس فوكس Charles James Fox - رئيس وزراء إنجلترا في ذل الوقت - تُحذره من أن قاتلاً مُدْعياً عرض قتله (أي قتل نابليون) مقابل مبلغ معقول (22). وكان فوكس قد اعتقل هذا الشخص لكن ربما كان هناك أشخاص آخرون وطنيون مستعدين لقتل نابليون لقاء مبالغ مالية. لقد كانت إنجلترا وقتئذ في حرب مع فرنسا، وكان تصرف رئيس الوزراء البريطاني الأنف ذكره ينطوي على معانٍ خَلقية مسيحية مُضافاً إليها روح الفروسية. ووسط أجواء القتل الفردي والجماعي عادت فرنسا في أول يناير سنة 6018 للتقويم المسيحي الجريجوري (التقويم الميلادي المعروف).

وفي الثاني من شهر مايو - بعد أربعة أشهر قضاه نابليون في إعادة الأمور الإدارية إلى سيرتها الأولى، قرأ أمام الهيئات التشريعية تقريره عن أحوال الإمبراطورية في سنة 6081 لقد سرد - مرة أخرى - باختصار انتصارات الجيش واكتساب الحلفاء والأراضي، ووصف انتعاش أحوال فرنسا في المجالين الزراعي والصناعي، وأعلن عن المعرض الصناعي - وهو أمر جديد على نحو ما في تاريخ فرنسا - وأمر بافتتاحه في اللوفر Louvre في الخريف، وأشار التقرير إلى بناء - وإصلاح - الموانئ والترع والجسور و 005،33 ميل من الطرق - كان عدد من هذه الطرق عبْر الألب، وتحديث التقرير أيضاً عن مشروعات عظيمة يجري العمل فيها - معبّد النصر (الآن: لا ماديلين La Madeleine) والبورصة وقوس النصر.. وانتهى التقرير بالتأكيد على أنَّ فتوح مزيد من البلاد ليس هو ما يشغل بال الإمبراطور، فقد استنفذ أهدافه في المجد العسكري.. وإنما ما يشغله هو الوصول بالإدارة إلى درجة الكمال ليجعلها مصدرراً لسعادة دائمة ورخاء مُتزايد لشعبه.. إنَّ ما يقصد إليه الآن هو تحقيق هذا المجد (32).

وواصل نابليون مهمته في صنع الخرائط، ففي 12 مايو سنة 6081 قَبْلَ الإمبراطور - الذي بلغ التُّهَى - إمبراطورية أخرى - كهديّة - تتكوّن من ممالك، بافاريا وسكسونيا Saxony وفيرتمبرج Wurttemberg ووستفاليا Westphalia والدوقيات الكبيرة التالية: بادن Baden، وبرج Berg وفرنكفورت، وهس - دارمستادت Hesse - Darmstadt وفيرتنسبورج وأرنبرج Arenberg ومكلنبورج - شفيرين Macklenbug - Schwerin ونساو Nassau وأولدنبورج Oldenburg وساكس - كوبورج Saxe - Coburg وساكس - جوثا Saxe - Gotha وساكس فيمار Saxe - Weimar وست إمارات صغيرة. لقد كانت المبادرة في هذا الاتحاد الوثيق بين الصديق والعدو على يد الأمير الأسقفي كارل تيودور فون دالبرج (وفقاً لما قال مينيفال) (42Meneval) الذي كان فيما مضى رئيساً لأساقفة مينز Mainz. فبسبب توجهاته طلبت هذه الكيانات (الدول) المختلفة من نابليون أن تكون تحت حمايته متعهّدة بتقديم فرق عسكرية لجبوشه (يبلغ عدد أفرادها 36،000 مقاتل) مُعلنة انفصالها عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة (التي كان شارلمان قد أسسها في سنة 008 للميلاد)، وكونت كونفدرالية الراين. وربما كان هذا التوجّه الجديد للمناطق التيتونية Teutonic راجعاً لانتشار اللغة والأدب الفرنسيين فيها. فقد كاد مجتمع المثقفين والمفكرين يكون ذا طابع عالمي. ومن الطبيعي أن تعترض بروسيا على كل ما يجعل من فرنسا قوة هائلة، لكن النمسا التي أفقدتها الهزيمة كلّ أمل قبلت هذا التغيير. ومنذ انسحاب ستة عشر أميراً بوحداتهم السياسية من الإمبراطورية الرومانية المقدسة حتى تقلّصت هذه الإمبراطورية إلى مُزقّ تافهة فتخلّى فرانسيس الثاني (في 6 أغسطس سنة 6081) عن لقبه وامتيازاته كرأس لما كان ذات يوم كياناً كبيراً أي الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي وصفها فولتير ذات يوم بأنها ليست مقدسة، وليست رومانية وليست إمبراطورية وأقنع نفسه بلقب فرانسيس الأول إمبراطور النمسا.

والآن فإن الإمبراطورية الفرنسية وفي ركابها مدوّنة نابليون القانونية قد امتدت من ساحل الاطلنطي إلى نهر إلب Elbe، واشتملت هذه الإمبراطورية على فرنسا وبلجيكا وهولندا والدول الحدودية غرب الراين وجنيف، وكل إيطاليا تقريباً إلى الشمال من الولايات البابوية، إن الرجل الذي حسّد شارلمان قد كرر - بشكل واضح - إنجاز شارلمان بتقديم القوانين للغرب - المقصود غرب أوروبا. لكن من الاطلنطي إلى نهر إلب Elbe كان الناس يتساءلون: إلى متى تستمر هذه الأخوة بين التيتون Teuton والغال Gaul؟

صفحة رقم : 14586

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> الإمبراطورية الجديدة -> جينا (بيننا) وإيلو وفريدلاندا

5- جينا (بيننا) وإيلو وفريدلاندا

1806-1807

في 51 أغسطس سنة 6081 احتفلت فرنسا بيوم القديس نابليون وبعيد ميلاده السابع والثلاثين. وكتبت مدام دي ريموزا Remusat (المنتقدة عادة) أصبحت الدولة في حالة هدوء عميق، وقُلت المعارضة يوماً فيوم، فقد نظّمت

الإدارة الحازمة الرصينة المستقيمة طريقة ممارسة السلطة وأساليب دعمها. فتم دعم نظام التجنيد الإجباري بشدة لكن الآن أصبحت ثرثرة الفرنسيين وشائعاتهم واهنة ضعيفة، فالفرنسيون لم يكونوا قد استنفذوا بعد مشاعر العظمة (52) والأهم من كل هذا أن فوكس رئيس وزراء إنجلترا والكونت بطرس أوبريل Peter Oubril قد فتحا باب المفاوضات من أجل السلام.

وعلى أية حال، فإن بروسيا كانت مترددة ترنو إلى الحرب، فاتحدها القسري مع فرنسا كان مكافئاً لها كما ثبت: فانجلترا والسويد كانتا قد أعلنتا الحرب عليها، والأسطول البريطاني حاصر سواحلها واستولى على سفنها في البحار، وكان اقتصادها يعاني، وكان شعبها في حالة دهشة لم أقام ملكهم هذا التحالف المدمر؟ وأخير رجل الدولة البروسي العجوز فريدريك وليم الثالث المتردد أن التحالف الدائم مع روسيا هو الطريق البديل الوحيد لمنع نابليون من ابتلاع بروسيا، ولم يقدم هذا السياسي العجوز اقتراحه إلا بعد أن لمس أن عظمة الجيش البروسي لا تزال قائمة بفعل الذكريات الداعية للفخر التي تتداعى للأذهان عن أيام فريدريك العظيم Frederick the Great، كما أنه وضع في اعتباره القوى البشرية الهائلة التي يجندها القيصر اسكندر استعداداً لجولة أخرى مع فرنسا. كما أن الأميرة لوسي (لويزا Louise) الجميلة المؤثرة التي كانت تحب زوجها الوسيم العطوف اسكندر، راحت تزدي خوف زوجها من حثالة الجحيم (62) (تقصد نابليون)، وحثها الفوج العسكري الذي يحمل اسمها على ارتداء زي الكولونيل لأنها تبدو فيه جميلة، وركبت حصانها وسارت أمامهم في ساحة العرض العسكري. وراح الأمير لويس فرديناند ابن عم الملك يبحث على الحرب باعتبارها طريقاً لمجد العرش البروسي.

وفي 03 يونيو سنة 6081 أرسل فريدريك وليم إلى اسكندر تأكيداً مفاده أن معاهدة بروسيا مع فرنسا لن تكون حائلاً في سبيل تنفيذ معاهدة بروسيا مع روسيا والتي سبق توقيعها في سنة 0081. وفي شهر يوليو صدمه أن يعلم أن نابليون قد قبل تحت حمايته كونفدرالية الراين Confederation of Rhine، تلك الكونفدرالية التي شملت عدة مناطق كانت فيما قبل تابعة لبروسيا، والمفترض أنها لازالت داخلة في مجال نفوذها. وأكثر من هذا فإن السفير البروسي في فرنسا كتب لسيدة أن بونابرت اقترح بشكل سرّي عودة هانوفر Hanover لإنجلترا كجزء من ثمن السلام. وكان نابليون سبق أن وعد بضم هانوفر إلى بروسيا فشعر ملكها (أي ملك بروسيا) بالاحباط وأنه قد غرر به. وفي 9 أغسطس أمر بتعبئة الجيش البروسي، وفي 62 أغسطس أثار نابليون بروسيا أكثر من ذي قبل بأن أصدر أوامره - أو سمح - بإعدام بالم Palm وهو بائع كتب في نورمبرج Nuremberg لإصداره كتيباً يُحرض على الثورة ضد فرنسا. وفي 6 سبتمبر تعهد فريدريك وليم في خطاب أرسله إلى القيصر بالإنضمام إلى أي هجوم على مزعج العالم (72) وفي 31 سبتمبر مات فوكس الشجاع وقد ذكر نابليون عنه في وقت لاحق أنه كان من بين فعاليات قذري فلو أنه عاش لأمكن إبرام السلام (82) وبعد موته عادت الوزارة البريطانية إلى سياسة النضال ضد نابليون حتى الموت وتخلّى اسكندر عن الاتفاقية المؤقتة التي سبق أن وقعها أوبريل Oubril مع فرنسا. وفي 9 سبتمبر أرسلت بروسيا إلى فرنسا إنذاراً أنه إذا لم تتحرك القوات الفرنسية في غضون أسبوعين إلى غرب الراين فإن بروسيا ستعلن الحرب، وعرض جودوي Goday الوزير الماكر الذي كان يحكم أسبانيا في ذلك الوقت، صداقته على بروسيا، ودعا الأسبان لحمل السلاح ولم ينس له نابليون ذلك، وقرر أنه إذا ما أُتيحت الفرصة فسيقوم في أسبانيا حكومة تكون أكثر صداقة لفرنسا. وغادر نابليون باريس على مضض واتجه مع جوزفين وتاليران إلى مينز Mainz لمواجهة أخطار الحرب مرة أخرى.

ولابد أنه كان قد فقد شهيته لخوض معركة لأنه عندما كان يتعيّن عليه مفارقة جوزفين في مينز Mainz اعتراه انهيار عصبي، وربما كان قد أتى للتحقق أنه ليس هناك من أمر يستحق أن يخاطر من أجله بعرشه وحياته بخوض حرب، فلم يكن أي نصر ليحقق له سلاماً مقبولاً. وقد وصفت مدام دي ريموزا Remusat المشهد كما رواه لها زوجها: أرسل الإمبراطور زوجي ليدعو الإمبراطورة للاجتماع به فعاد بها إليه في غضون لحظات. لقد كانت تبكي، وحركت دموعها مشاعر الإمبراطور فضمّها لفترة طويلة بين ذراعيه وكاد يبدو غير قادر على وداعها. لقد كان متأثراً بشدة وتأثرت مدام دي تاليران بدورها كثيراً، وقرب نابليون بيده الممدودة مدام دي تاليران - وهو لا يزال يضم إلى قلبه جوزفين، ثم ضمّ المرأتين معاً في الوقت نفسه وقال لمدام دي ريموزا Remusat: يصعبُ على المرء كثيراً أن يفارق اثنين، يُكنُّ لهما أعماق الحب، وبينما كان ينطق بتلك الكلمات اعترته نوبة من الهياج العصبي زادت حتى أنه بكى فاقداً السيطرة على نفسه وأعقب ذلك نوبة تشنّج ثم تقيّاً. فتمّ رفعه وإجلاسه على الكرسي وشرب بعض ماء زهر اليرقان لكنه استمر يبكي بشكل متواصل زهاء ربع ساعة. وأخيراً سيطر على نفسه وقام فجأة فصافح مدام دي تاليران، واحتضن زوجته للمرة الأخيرة قبل الوداع، وقال للسيد دي ريموزا Remusat: هل المركبات جاهزة؟ استدع الحاشية، ولنطلق (92).

لقد كان عليه أن يُسرع لأن استراتيجيته كانت تقوم على مواجهة بروسيا بأفضل قواته قبل أن يتمكن الروس من الوصول إلى الجبهة. ولم يكن البروس قد وحدوا قواتهم بعد: ففي المقدمة كان هناك 000,05 مقاتل بقيادة الأمير

فريدريك لودفيج الهوهنلو هي of Hohenlohe وفي الخلف - إلى الأبعد - كان هناك 000,06 مقاتل بقيادة فريدريك ولیم ودوق برونسفيك Brunswick الذي كان قد أقسم منذ خمسة عشر عاماً أن يدمر باريس؛ بالإضافة إلى حوالي 000,03 من جنود هانوفر الذين أقبلوا دون رغبة شديدة لمساعدة مليكهم الجديد. وكان مجموع المقاتلين على الجبهة البروسية 000,041 مقاتل بينما بلغ عدد جنود نابليون 000,031 تم تجميعهم بسرعة لكنهم كانوا ماهرين في المناورة، وكانت الهزيمة غريبة عليهم، وكانوا واثقين في قادتهم: لين Lannes دافو Davout وأوجيرو Augereau وسول Soult ومورا Murat ونيي Ney. واستولت قوات لين Lannes وأوجيرو على فرقة عسكرية بروسية في سالفيلد Saalfeld وهو سهل بين سال Saale والـ Ilm رافدي نهري إلب the Elbe، وتعرض البروس لهزيمة أمام الفرنسيين لعدم ثرتهم على المناورات السريعة التي يجيدها الفرنسيون وفي هذه المعركة قُتل الأمير لويس فرديناند (01 أكتوبر 6081).

واندفع الفرنسيون بسنة وخمسين ألف مقاتل وانقضوا على جيش هوهنلو هي Hohenlohe بالقرب من بينا (جينا Jena) مقر الجامعة المشهورة التي كان شيلر Schiller قد درّس فيها مؤخرًا، وحيث كان على هيجل Hegel - بعد ذلك بعام - أن يُربك العالم بفلسفة جديدة. ونشر نابليون قواته في شبكة معقدة لتمكين فرق لين Lannes وسول Soult من التعامل مع قلب جيش العدو وجناحه الأيسر، بينما هاجمت فرقة أوجيرو Augereau الميمنة واندفعت خيالة مورا Murat بعنف بين صفوف البروس الذين اجتاحتهم الفوضى وافقدوا كل تنظيم فولوا مديري تاركين ساحة المعركة. وأثناء هروبهم مروا بين كتائب دوق برونسفيك المنكسرة التي كانت قد لاقت الهزيمة في أورستدت Auerstedt على يد الجيش الفرنسي الذي كان يفوقه باقتدار دافو Davout، وفي هذه المعركة جرح دوق برونسفيك جرحاً مميتاً. وفي هذا اليوم (41 أكتوبر سنة 6081) فقد البروس 000,72 بين قتيل وجريح و 000,81 أسير كما فقدوا كل مدفعيتهم تقريباً. وفي هذا المساء أرسل نابليون تقريراً سريعاً إلى جوزفين: لقد التقينا بالجيش البروسي ولم يعد له وجود. إنني على مايرام وأضمك إلى قلبي (03). وفي الأيام التالية تعقب نبي Ney وسول ومورا الهاربين وأسروا منهم 000,02 وتوجهت قوات وأوجيرو مباشرة إلى برلين فاستسلمت المدينة سريعاً وفي 72 أكتوبر دخل نابليون العاصمة البروسية.

وكان من بين مهامه الأولى أن يجبي من البروس وحلفائهم 061 مليون فرنك ليدفع للجيش الفرنسي (13) وبالإضافة لهذا فقد كان على برلين أن تمد القوات الفرنسية المحتلة بالغذاء والملابس والدواء. وأصدر أمراً بإرسال الأعمال الفنية (أفضل الرسوم والتماثيل) من برلين وبوتسدام Potsdam إلى باريس، وحصل نابليون نفسه - بدوره - على سيف فريدريك العظيم.

وأصدر من برلين في 12 نوفمبر سنة 6081 قراره: من الآن فصاعداً لا يُسمح لأي سفينة قادمة من بريطانيا العظمى، ومستعمراتها بدخول أي ميناء من موانئ الإمبراطورية الفرنسية التي تضم الآن المدن الهانزييتية Hanseatic towns، ولا يُسمح لأية بضائع من بريطانيا العظمى أو ممتلكاتها بدخول الأراضي التي تحكمها فرنسا أو المتحالفة مع فرنسا، ولا يُسمح لبريتوني Briton بدخول أراضي الإمبراطورية الفرنسية وأراضي المناطق المتحالفة معها. إن نابليون لمّا وجد كل انتصاراته الحربية غير مُجدية لحت إنجلترا على السلام، بالإضافة إلى علمه أنها (إنجلترا) ستفرض الحصار البحري على كل المناطق التي تحكمها فرنسا، كما سبق لها أن مدت حصارها (في مايو سنة 6081) على كل الساحل من بريست Brest إلى إلب (23) Elbe - أراد أن يحول هذا السلاح نفسه (الحصار البحري) إلى صدر عدوه بمعنى أن يتم إبعاد بريطانيا عن القارة الأوروبية أو بتعبير آخر غلق القارة الأوروبية في وجه إنجلترا، تماماً كما أن الأسطول البريطاني كان منذ فترة يغلق أبواب التجارة البحرية في وجه فرنسا وحلفائها. وربما بهذه الطريقة كما كان يأمل - يدفع تجار بريطانيا وصناعها للحركة مطالبين حكومتهم بالسلام.

وكانت هذه الخطة تتطوي على كثير من نقاط الضعف. فالصنّاع في القارة الأوروبية - بعد أن تخلّصوا من منافسة الصنّاع الإنجليزي - رفعوا أسعار منتجاتهم، وحزن المستهلكون لافتقارهم المنتجات البريطانية التي اعتادوا عليها. وكثرت الرشاوى وعمليات تهريب البضائع (وقد جمع بورين Bourrienne بالفعل ثروة ببيع استثناءات من هذا الحصار، وكان نابليون قد عينه وزيرا في هامبورج Hamburg، فاضطر نابليون لطرده مرة أخرى). وكانت روسيا لاتزال متحالفة مع إنجلترا، وكان يمكن للبضائع البريطانية أن تجد طريقها إلى بروسيا والنمسا عبر الحدود الروسية. وكانت البضائع البريطانية تُصَبُّ يومياً في ميناء داننستج Danzig الذي كان العساكر البروس لا يزالون يسيطرون عليه.

ورغم أن الجيش البروسي كان قد تحطّم وأصبح نابليون دكتاتوراً في برلين إلا أن موقفه العسكري سرعان ما أصبح مُزعزعا بشكل أكثر من موقفه الاقتصادي. وكانت معظم أراضي بولندا واقعا في أيدي الروسي والبروس، وكان الوطنيون البولنديون قد أرسلوا يناشدون نابليون القدوم لتحرير بلادهم التي كانت في وقت من الأوقات ذات سيادة -

تحريرها من العبودية المخزية. وعلى أية حال، فقد كان هناك جيش روسي جيد التسليح مكون من 000,08 مقاتل يتمركز غرب فيستولا Vistula بقيادة كونت ليفين بنجسن Levin Bennigsen وكان يستعد لتحدي أي تدخل فرنسي في بولندا. وكان الجيش الفرنسي الذي لم يكن قد تخلص تماماً من آثار معركة بينا (جينا Jena) غير شغوف بخوض غمار معركة من أجل بولندا لأن رجاله لم يكونوا معتادين على البرودة الكئيبة في منطقة البلطيق فقد كانوا يرتجفون لاقتراب الشتاء ويتوقون العودة إلى بلادهم. وفي هذه الأثناء قديم من باريس إلى برلين وفد مفوض هدفه الظاهري هو تهنئة نابليون لانتصاراته الباهرة، لكن الحقيقة أنه أتى ليتوسل إليه ليعقد سلاماً ويعود لفرنسا التي بدأت ترى في كل انتصار نابليون ما يحتم مزيداً من الحروب الكثيرة التي قد يكون في أحدها مخاطرة بكل ما تم تحقيقه من انتصارات، فأخبر الوفد أنه لا يستطيع أن يتوقف الآن، فلا بد من مواجهة التحدي الروسي، وأن حصار إنجلترا (المقصود هنا حصار فرنسا لإنجلترا) سيفشل إذا لم تتضمن روسيا للخطة الفرنسية مُجرّة أو مُداهنة. وأمر نابليون جيشه بالانقاص في المناطق البولندية التي تسيطر عليها بروسيا ولم يلق في تقدمه مقاومة عاجلة، وفي 91 ديسمبر سنة 6081 دخل نابليون وارسو Warsaw (فرسافا) دون عائق وسط مظاهر الترحيب.

كل الطبقات في بولندا من النبلاء الذين كانوا لا يزالون تواقين للتحرك، إلى الفلاحين الذين كانوا لا يزالون يعانون من مآسي عبودية الأرض (القنانة) كلهم اتفقوا في النظر إلى نابليون كأعجوبة سيُبطّل تقسيم دولتهم إلى ثلاثة أقسام قسم لروسيا وآخر لبروسيا وثالث للنمسا، وسيجعل بولندا مرة أخرى دولة ذات سيادة، ورد نابليون استحسن البولنديين له بالثناء على الأمة البولندية وامتحها وبالثناء على أبطالهم ونسائهم (اللائي كن يتحدث الفرنسية بلكنة جذابة فيها صغير) وقد انتقى نابليون منهن واحدة هي الكونتيسة ماري لاکزينسكا Marie Laczynska Walewska ودعاها لسريه وقلبه. وكانت مُناشدته إياها - قبل أن يذوق عسيلتها وبعد أن ذاقها - مُعممة بالعاطفة ومتسمة بالتواضع تماماً كما كان واضحاً في خطاباته الأولى إلى جوزفين. لقد رفضته فالفسكا Walewska (كما قيل لنا) حتى طلبت منها مجموعة من النبلاء البولنديين في وثيقة وقّعها جميعاً بأسمائهم الأولى في بولندا أن تضحى بنفسها على أمل أن يقوم نابليون من أجل خاطرها بتوحيد بولندا وإعادة سيادتها (تخليصها من التقسيم بين ثلاث دول) وذكّرتها هذه الوثيقة بأن أستير Esther قد أعطت نفسها لأحشوبروش Ahasuerus لا حباً فيه وإنما لتنفذ شعبها وإن كان لنا أن نقول الأمر نفسه، فإنما أنت تعطين ذلك لتحققى المجد لنفسك والسعادة لنا! (33) وعندما توسلت جوزفين أن يُسمح لها بالقدم إليه من مينز Mainz منعها نابليون بحجة أن الطرق سيئة (غير مهدة) فأنلأ لها عودي إلى باريس. وكوني مُبتهجة وسعيدة، وربما سألق بك حالاً هناك (43).

وبينما كان كامنا مع فالفسكا Walewska طوال الشتاء راح يأمل أن ينتظر الروس حتى حلول الربيع ولا يسببون له إزعاجاً قبل ذلك. لكنه عندما أرسل قوات بقيادة المارشال فرانسوا - جوزيف ليفيفير Lefebvre للاستيلاء على داننيسج Danzig، قاد بنجسن Bennigsen كل قواته تقريباً، والبالغ عددها 000,08 مقاتل عبر الفيستولا Vistula في هجوم كاسح على قوات ليفيفير عند اقترابهم من ثورت Thorn، وعاد المرسلون تواقاً لإحاطة نابليون علماً بما جرى فأسرع (نابليون) شمالاً على رأس 000,56 مقاتل في 8 فبراير سنة 7081 وحارب عند إيلاان Eylan (جنوب كونيغسبرج Königsberg) معركة من أكثر معاركه قسوة إذ كلفته أكثر بكثير مما كان يتكلفه في المعارك السابقة إذ كانت المدفعية الروسية متفوقة على المدفعية الفرنسية، وكان أوجيرو Augereau قد كبر في السن وأصبح يُصاب بالدوار فطلب من قائده (نابليون) إعفاه بحجة أنه لم يعد قادراً على التفكير بصفاء ذهن، واجتاحت خيالة موراً Murat صفوف الأعداء، لكنهم استطاعوا الاحتفاظ بتشكيلاتهم وصمدوا حتى المساء. ثم أمر بينجسن Bennigsen قواته بالتراجع تاركاً في ساحة المعركة 000,03 بين قتيل وجريح، إلا أنه - على أية حال - كتب إلى القيصر أنه حقق نصراً مجيداً، واحتفى به القيصر بإقامة قدّاس تسيبحة الشكر Te Deum Mass في سان بطرسبرج St. Petersburg.

لقد انتصر الفرنسيون في هذه المعركة لقاء 000,01 ما بين قتيل وجريح، وراح من بقي على قيد الحياة يُبدون عدم رضاهم فكيف سيستطيعون مقاومة هجوم آخر يقوم به هؤلاء السلاف Slaves الشداد كثير العدد. وأيضاً أصبح نابليون الآن مكتئباً اكتئاباً غير عادي، فالأم المعدة اشتدت عليه، تلك الآلام التي قضت عليه فيما بعد. ولم ينس أبدأ ما أولته ماري فالفسكا من رعاية مُخلصة أثناء هذا الشتاء القاسي في معسكر الجيش في فينكنشتين Finkenstein. ومع هذه الآلام فقد كان يواصل العمل يومياً أمراً بالطعام واللباس والدواء لجنوده، مُشرفاً على الأمور العسكرية، مُجتمعاً بالمجندين إلزامياً من شعبه المرهق وحلفائه الكارهين، مُصدرراً المراسيم والأوامر للحكومة الفرنسية. وفي الوقت نفسه اجتمع القيصر اسكندر الأول والملك فريدريك وليام الثالث في بارتنشتين Bartenstein في 62 أبريل سنة 7081 ووقعوا اتفاقية لتقسيم أوروبا غير الفرنسية (المناطق الأوروبية التي لم تستول عليها فرنسا) بينهما بعد المعركة القادمة مع نابليون والتي توقعا أن يحطما فيها الجيش الفرنسي.

وعندما تم تدعيم هذا الجيش الفرنسي المتعدد الجوانب وانتعش الجنود بحلول الربيع أرسل نابليون قوة للاستيلاء على داننسيج Danzig فتم الاستيلاء عليها فعلاً. وتلقى بينجنسن Bennisen - الذي كان بدوره يعيد بناء كتائبه - أوامر من اسكندر بالتوجه إلى كونيسبرج Königsberg حيث سيتقوى بأربعة وعشرين ألف مقاتل بروسي شديد البأس. وانطلق بينجنسن لكنه أثناء الطريق سمح لقواته البالغ عددها 64,000 بأخذ قسط من الراحة في فريد لاند Friedland. وهناك في الساعة الثالثة من صباح 41 يونيو سنة 7081 (الذكرى السنوية لمارينجو Marengo) استيقظوا على وابل من النيران صبّه فوق رؤوسهم 21,000 فرنسي يفودهم لان Lannes القائد المتهور لكنه مستعص على الهزيمة. ورد الروس على نيرانه فوراً، وكان من الممكن أن تنتهي مغامرته بكارثة لو لم يأتته الدعم. اندفع نابليون بكل قواته وحاصر الروس من كل جانب خلا من ناحية نهر آل Alle لأن النهر سيعوق تراجعهم، وفي الخامسة عصرأ ساد الفرنسيون وولى الروس الأديار فاستقل بعضهم قوارب لعبور النهر، وألقى بعضهم الآخر بأنفسهم في النهر يأساً وخلقوا في ميدان المعركة 52,000 قتيل وجريح. وفقد الفرنسيون في هذه المعركة 8,000 لكنهم أحرزوا نصراً حاسماً على الجيش الروسي المتيقني لمواجهة غزو خارجي. وهرب الروس والبروس إلى تيلست Tilsit وفقدوا المنات أثناء الهروب بسبب تقعب الفرنسيين لهم حتى أن جنرالاتهم سألوا اسكندر ان يطلب الهدنة ووافق نابليون وترك جنرالهم سافاري Savary ليحكم كونيسبرج Königsberg ويدبر أمورها، وتوجه هو نفسه إلى تيلست ليعقد سلاماً مع ملك منكرس، وقيصر مقصوص الجناح.

صفحة رقم : 14587

قصة الحضارة - < عصر نابليون - > تاريخ الحضارة الأوروبية - < الإمبراطورية الجديدة - > تيلست

6- تيلست

25 يونيو - 9 يوليو 1807

وفي تيلست الواقعة على بعد حوالي ستين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من كونيسبرج Königsberg تواجه الجيشان المتنافسان تواجهاً سليماً، جيش على شاطئ نهر نيمن Niemen والآخر على الشاطئ المقابل، وزاد بينهما التقاهم وروح الصداقة (63) وعلى أية حال فإن الأباطرة المتنافسين - بناء على اقتراح اسكندر - التقوا باحتراس - في خيمة أقيمت على طوافة جرى تثبيتها في وسط مجرى النهر. وكان على كل حاكم منهم أن يستقل قارباً ليصل إلى الطوافة، فوصل نابليون إلى الطوافة أولاً (كما كان يتوقع كل جندي فرنسي) واستغرق وقتاً في تفقد الخيمة ورحب باسكندر على الجانب الآخر، وتعانقا وواجهتا جيشيهما الذي راح أفراداه يهتفون بحيوية وابتهاج. لقد كان مشهداً جميلاً على حد تعبير مينيفال Meneval الذي كان شاهد عيان.

لقد كان لدى كل واحد من هؤلاء الحكام أسبابه ليكون ودوداً: فجيش نابليون لم يكن في حالة تسمح له بغزو أرض مجهولة لا حد لشساعتها وكثرة رجالها (لم يكن جيش نابليون عدّة وعداداً مستعداً لمثل هذا الغزو ولم تكن مؤخرته محمية وكان الدعم المتوقع وصوله من فرنسا - التي تصرخ طالبة السلام - غير مضمون الوصول)، أما اسكندر فكان

سعيًا لحصوله على فترة لالتقاط الأنفاس قبل أن يأخذ على عاتقه هزيمة رجل لم تعرف الهزيمة إليه سببًا (فيما عدا هزيمته في عكا Acre)، وكان اسكندر مشمئزًا من ضعف حلفائه وهشاشته جنودهم، وكان يخشى قيام عصيان مسلح في الدوائر التابعة له في بولندا أوليتوانيا، كما كان مشوشًا بسبب علاقته السيئة بتركيا (الدولة العثمانية) وحالة جنوده. وإلى جانب هذا فلم يكن نابليون هذا الرجل الفرنسي الذي كان يتعامل مع خريطة أوروبا وكأنها رقعة شطرنج، لم يكن غولاً و بربرياً كما وصفته القيصرية والكونيغ Konigen وإنما كان رقيقاً لطيفاً جذاباً، كرمه كامل، وإن كان غير مفرط. وبعد هذا اللقاء الأول كان اسكندر قد وافق بالفعل على أن يكون مؤتمرهم القادم في مدينة تيلست في مقر ملانم يديره نابليون بالقرب من مقره (مقر نابليون). وكانوا غالباً ما يتناولون عداهم على مائدته وأحياناً مع ملك بروسيا وفي وقت لاحق مع مليكتها. ولفترة جعل القيصر من نفسه تلميذاً فسأل الكورسيكي (نابليون) أن يعلمه شيئاً من فن الحكم واتفق معه على أن لويس الثامن عشر (الذي كان يعيش وقتئذ في كورلاند Courland) تتقصه كل المواصفات اللازمة للحاكم وأنه أكثر من أي شخص آخر في أوروبا تفاهة وشرعية (73).

وعمد كل إمبراطور منهما إلى إبهاج الآخر ومداهنته. وبعد مفاوضات ودية بشكل واضح لم يوقعاً معاهدة فحسب وإنما تحالفوا. وأصبح لروسيا أن تحتفظ بممتلكاتها كما هي لم يُفقد نابليون منها شيئاً لكن كان عليها أن تُتهدى تعاونها مع إنجلترا وأن تنضم إلى فرنسا للحفاظ على السلام في أوروبا. وبناءً على اتفاق سرّي أصبحت روسيا حرة في ضم فنلندا والاستيلاء عليها من السويد (التي كانت معادية لفرنسا منذ سنة 1791) كما أصبح من حق فرنسا أن تغزو البرتغال التي كانت قاعدة أمامية لإنجلترا في الحرب. وتعد اسكندر بالتوسط لإقامة سلام مرض بين إنجلترا وفرنسا وإن فشل في تحقيق ذلك أن ينضم إلى فرنسا في مواجهة إنجلترا حصاراً وحرباً. وقد أبهج هذا التعهد نابليون لأنه قدر أن التعاون مع روسيا في حصار إنجلترا أهم بكثير من استحواده على مزيد من الأراضي.

ولأن نابليون لم يكن مستعداً للتضحية بهذه الاتفاقات ولم يكن مستعداً لخوض حرب حتى النهاية ضد روسيا وبروسيا والنمسا - فقد نحى جانباً فكرة إعادة بولندا لوضعها السابق قبل تقسيمها بين هذه الدول الثلاثة، باعتبار أنها فكرة غير عملية، وإنما اقتنع نفسه بتأسيس دوقية وارسو (فرسافا) تحت الحماية الفرنسية مقطوعاً إياها من المناطق البولندية التي تحتلها بروسيا. ولهذه الدولة (الدوقية) الجديدة التي تضم مليوني نفس، وضع - في 22 يوليو سنة 1808 - دستوراً يمنع القنانة (عبودية الأرض) ويجعل كل المواطنين أمام القانون سواء ويجعل المحاكما عنلية أمام القضاء ويجعل مدونة نابليون القانونية أساساً للتشريع والعدالة. وألغى حق النبلاء في الاعتراض على القرارات والعوائد الإقطاعية وألغى الدايت الخامل Faineant Diet، وحوّل السلطة التشريعية لمجلس شيوخ من الأعيان ومجلس house من مئة نائب، أما السلطة التنفيذية فأوكلها لملك سكسونيا Saxony الذي كان سلباً لحكام بولندا السابقين. لقد كان هذا الدستور دستوراً متتوراً متنعاً مع ظروف مكانه وزمانه.

ومع أن نابليون كان كريماً مع القيصر، فإنه كان قاسياً لا يرحم مع ملك بروسيا الذي سبق أن نقض تحالفه مع فرنسا لينضم إلى أعدائها. لقد طالب (نابليون) فريدريك وليم الثالث بتسليم كل المناطق البروسية غرب نهر إلب Elbe. وكان معظمها قد جرى إعادة تكوينها كدوقية بيرج Berg الكبيرة ومملكة وستفاليا Westphalia. وكل بولندا البروسية تقريباً أصبحت دوقية وارسو (فرسافا) الكبيرة ما عدا داننستج Danzig التي أصبحت مدينة حرة في ظل حماية فرنسية. وكان على نصف بروسيا الباقي أن يُغلق أبوابه في وجه التجارة البريطانية وأن يشترك في الحرب ضد إنجلترا إن دُعي لذلك وأن تظل القوات الفرنسية تحتله حتى يتم دفع التعويض المالي الكبير كاملاً. وصُوق فريدريك وليم - الذي لم يكن يريد الحرب - لقسوة هذه الشروط. واندفعت الملكة لوسي (لويزا) Louise - التي تكاد تكون هي السبب في دخول بلادها الحرب - من برلين (في 6 يوليو) وطلبت من نابليون متوددة له بالحجج والعتور والابتسامات والدموع كي يُخفف من مطالبه. فبرّد نابليون من فيض فصاحتها وأثر عطرها وسحر ابتسامتها بأن قدم لها كرسيًا لتجلس فيصعب عليها - وهي جالسة - بث سحرها، وشرح لها أنه لا بد أن يدفع أحد الطرفين بسبب الحرب. ولماذا لا تكون الحكومة التي خرقت المعاهدة - بناءً على وصيتها - هي التي تدفع؟ وأبعدها بعد أن رفض طلباتها بأدب، وفي اليوم التالي أمر تاليران بإبرام الاتفاقات كما سبقت صباغتها قبل قدوم الملكة لوسي (لويزا Louise) وعادت الملكة إلى برلين مكسورة القلب وماتت في غضون ثلاثة أعوام وهي في الرابعة والثلاثين من عمرها.

وفي 9 يوليو غادر الإمبراطوران وقد وفر في شعور كل منهما أنه حقق صفقة طيبة: الاسكندر آمن روسيا من الغرب وأصبح مطلق اليد في فنلندا وتركيا. ونابليون حصل على بيرج Berg وستفاليا Westphalia وهندة غير قائمة على أساس متين. وقد عرف نابليون في سنوات لاحقة مؤتمر القوى Congress of Powers هذا بأنه خدعة وافق عليها دبلوماسيون. لقد كان بمثابة قلم مكيفيلي وسيف محمد (83) وفي اليوم التالي غادر إلى باريس حيث استقبلته الجماهير الشاكرة الممتنة بصيحات التهليل لإقراره السلام أولاً ولتحقيقه الانتصارات ثانياً. وكان التقرير الذي قدّمه للمجلس التشريعي عن حالة الأمة في سنة 1808 من بين أكثر تقاريره فخراً: فالنمسا قد عُوقبت، وبروسيا قد أدبت

وروسيا أصبحت متحالفة مع فرنسا بعد أن كانت عدوة لها. وثمة أراضٍ جديدة أُضيفت للإمبراطورية بالإضافة إلى 321,000 أسير - ودفع المعتدون المهزومون كل التكاليف ولم يضطر لأي زيادة في الضرائب في فرنسا (93). وأعلن نابليون ترقية تاليران ليجعله أميراً لبنيونتو Benevento بالإضافة لترقيته آخرين. وقد أدت هذه الترقية لزيادة دخل هذا الأب (الراهب) الفرنسي التَّهَم بمقدار 021,000 فرنك، لكن هذه الترقية كانت تعني استقالته من منصبه كوزير للخارجية، مادام البروتوكول يقضي بأن الوزير أقل رتبة من الأمير.

وبهذه الطريقة أصبح الموقف الصعب سهلاً لأن نابليون كان قد بدأ يرتاب في أنه مختلس رغم عبقريته الدبلوماسية، لكنه (أي نابليون) تردّد في فلم يطرده، والحقيقة أيضاً أن نابليون استمر في استخدامه في عدة مفاوضات كبرى. وبعد أن درّب تاليران خليفته في وزارة الخارجية جان - بابتيست دي شامباني Jean - Baptiste de Champagne على طريق وأساليب وألاعب منصبه الجديد، أصبح (أي تاليران) حراً في الاستمتاع بحياته في قصره الفخم الذي سبق أن اشتراه في فالينساي Valencay بمبلغ مالي كان جزء منه من الأموال التي أعطاه إياها نابليون.

وفي 51 أغسطس احتفل البلاط بانتصار نابليون بإقامة مهرجان يُعيد للأذهان بهاء الملك العظيم Grand Monarque: عُزفت الكونشرتات، ورقصت الباليرينات وعُرِضت الأوبرات، وحضر الملوك والوزراء بملايسهم الرسمية، وحضرت النسوة وقد تزيّن بثروة من الجواهر، وارتدين العباءات النسائية الجميلة. وبعد ذلك بأربعة أيام ألغى التريبون Tribune (المجلس المدافع عن حقوق الشعب) ففي هذا المجلس كانت هناك أقلية جسّرت لسنوات على معارضة قراراته ووجهات نظره، فأراد أن يستكمل أهبته الملكية بالغائه. وحَقَف من وقع القرار بتعيين عدد من أعضائه الذين لا خطر منهم في مناصب إدارية، وبإلحاق معظم الأعضاء الآخرين في الهيئات التشريعية التي أصبح لها الآن الحق في أن تناقش أن تُناقش الإجراءات، والحق في التصويت. أما الذين كانوا قد تركوا فرنسا بسبب أحداث الثورة الفرنسية ممن عادوا ولا زالوا على قيد الحياة، والذين كانوا في قصور ضاحية سان - جرمان Germain التي غدت - من جديد - مُفعمّة بالحياة، فقد صتّقوا لنابليون استحساناً وتقديراً كشخص يكاد يكون نبيل المولد. لقد راح كل واحد منهم يسأل الآخر: لم لا يكون مُلْكُه شرعياً؟ إذن لأصبحت فرنسا به كاملة. لكن نادراً ما أصبح نابليون - بعد ذلك - يحظى بمثل هذه الشعبية والقوة والرّضا.

صفحة رقم : 14588

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> المملكة الميتة -> آل بوناپرت

الفصل التاسع

المملكة الميتة

1811 - 1807

لقد زاد نابليون من أعبائه بمضاعفة ممتلكاته، لأن المناطق العديدة التي أضافها لإمبراطوريته والتي كان أهلها مختلفين عرقاً ولغةً وديناً وعادات وشخصية - لا يمكن أن يتوقع أحد أن تكون مُطيعه طاعةً مطلقةً لحكم أجنبي يُرسل الضرائب التي يتم جمعها منهم إلى باريس ويُرسل أبناءهم إلى الحروب. ومن ذا الذي يستطيع نابليون اختياره ليحكم هذه البلاد بحكمة وإخلاص، بينما هو (أي نابليون) منشغل بأمور فرنسا غير المنضبطة؟ لقد كان بإمكان نابليون أن يثق في عدد قليل من جنرالاته لإدارة بعض الأقاليم الصغيرة وعلى هذا فقد جعل من بيرثيه Berthier أميراً لنيوشاتل Neuchatel وجعل مورا Murat الدوق الكبير لبيرج Berg وكليف Cleves لكن معظم جنرالاته كانوا ذوي أرواح متمرسة على القيادة العسكرية ولم يكونوا مَلْمَينَ بفن الحكم وما يتطلبه من دهاء وكان عدد منهم - مثل بيرنادوت Bernadotte الطموح لا يرضون بغير الوصول للعرش.

لذا فقد لجأ نابليون إلى الاستعانة بأخوته فصلة الدم تضمن ولاءهم كما كانوا - وفقاً لبعض المقاييس من القوى الوطنية التي أدت دوراً في القنصلية والإمبراطورية. وربما يكون نابليون قد بالغ في قدراتهم وإمكاناتهم - بسبب مفهومه القومي لمعنى الأسرة - لأنه بذل قصارى جهده - لمواجهة تطلعاتهم لمشاركته الثروة والسلطة - لقد كافأهم جيداً لكنه أيضاً كان يتوقع مشاركتهم له في سياساته. خاصة في إحكام إغلاق القارة الأوروبية في وجه التجارة البريطانية، التي كان يأمل أن تُجبر إنجلترا على السير في طريق السلام. وربما أيضاً كان يأمل في أن يستطيع بمشاركتهم أن يخطو خطوة نحو توحيد أوروبا كلها في ظلّ قانون واحد ورياسة واحدة (كلاهما من عنده) وأن يعمل على انتشار الرخاء العام وإنهاء الحروب الوطنية - والحروب بين الأسرات الحاكمة - في أوروبا.

وبدأ مع أخيه الأكبر جوزيف (يوسف) الذي كان قد أدى له خدمات معقولة في مفاوضاته مع النمسا وإنجلترا. وكان كورنويل Cornwallis - بعد أن تعامل معه في إيمان - قد وصفه بأنه حسن النية، لكنه لا يتمتع بقدرات كبيرة.. إنه حساس ومتواضع ولطيف.. ومُتَفَتِّحٌ.. وربما أدت قرابته بالقتل الأول بجعله - إلى حد ما - بعيداً عن روح المكر والخداع، تلك الروح التي تمكنت من وزير الداخلية (تاليران) بشكل واضح(1). وكان جوزيف يحب المال بالقدر نفسه الذي كان فيه نابليون يحب السلطة، ففي بواكير سنة 8971 كان جوزيف قادراً على شراء عقار مُتَرَفٍ في مورفونتين Mortefontaine بالقرب من باريس، كان يدعو فيه أصدقاءه والمؤلفين والفنانين وذوي المقام الرفيع حيث يُحْتَفَى بهم احتفاءً سخياً. وكان جوزيف مُتَلَهِّفاً كي يُعَيِّنَه أخاه وريثاً للعرش الإمبراطوري، ولم يكن قانعاً بقناعة كاملة عندما عيَّنه نابليون (في 03 مارس سنة 6081) ملكاً على نابلي - أي جنوب إيطاليا. ووصل فرديناند الرابع البوربوني الذي أُبعدت أسرته عن العرش إلى صقلية Sicily بمساعدة الأسطول البريطاني، وقادت زوجته الملكة تمرداً عسكرياً لإعادته لعرش بلاده، فأرسل نابليون أربعين ألف مقاتل بقيادة ماسينا Massena وريجنييه Regnier لقمع التمرد مهما كانت التكاليف، وقد كان إذ تم القمع بضراوة شديدة تركت ذكريات مريرة عبر الأجيال. وحاول جوزيف (يوسف) أن يكسب ولاء رعاياه بالاعتدال واللطف والكياسة ولكن نابليون حذره قائلاً: على الحاكم - كي يدعم مركزه - أن يعمل على أن يكون مُهَاباً أكثر من عمله ليكون محبوباً. وكان حُكْمُ نابليون النهائي على جوزيف متعاطفاً: إن جوزيف لم يقدّم لي مساعدة، لكنه كان رجلاً طيباً جداً.. إنه يُحِبُّني بإخلاص شديد، وأنا لا أشك في أنه يريد أن يفعل كل شيء من أجلي. لكن صفاته الشخصية ومزايه لا تصلح إلا للحياة الخاصة، إنه لطيف رقيق في تصرفه ولديه مواهب ومعلومات، وهو بشكل عام رجل لطيف. وقد بذل قصارى جهده في تنفيذ المهام الكبيرة التي أوكلتها إليه. لقد كانت نواياه طيبة، لذا فإن الخطأ إنما هو خطئي أنا فقد وضعته في المكان غير المناسب له(2).

أما أخوه لوسين (لوسيان) Lucien المولود في سنة 5771 فكان متقلباً تماماً كأخيه نابليون، ذلك التقلب الذي لم يكن له ضابط سوى الطموح المهيمن. وبمعنى من المعاني فإن نابليون مدين له بالوصول إلى منصب القنصل الأول، فقد كان رفض لوسين Lucien - باعتباره رئيساً لمجلس الخمسمائة - ما اقترحه البعض من التصويت على خروج مغتصب العرش من تحت مظلة القانون (إهدار دمه)، بالإضافة إلى دعوته (أي دعوة لوسين) الجنود لتثبيت المجلس (مجلس الخمسمائة) فأنتهى اليوم لصالح نابليون. وفي وقت لاحق اقترح سلطات ملكية لأخيه قبل الأوان، فأبعده أخوه (نابليون) عن مسرح الأحداث بإرساله سفيراً له في أسبانيا. وهناك استخدم كل الوسائل المتاحة له لزيادة ثروته وبمرور الوقت صار أغنى من نابليون(3) ولما عاد إلى باريس رفض الزواج السياسي الذي رتبّه له أخوه

وتزوج وفقاً لاختياره وذهب ليعيش في إيطاليا. وعاد إلى باريس ليقيم إلى جوار أخيه خلال أخطار المئة يوم the Hundred Days لقد خلق لوسين للشعر وبالفعل فقد كتب ملحمة طويلة عن شارلمان.

أما أخوه لويس فقد كان أيضاً له عقل أخيه ومزاجه مع قدر من القناعة والمقدرة مما جعله قلقاً أو غير مستقر في ظل أمر أخيه (نابليون) وسيطرته. وقد أنفق نابليون على تعليمه وأخذه معه إلى مصر وجعله معاوناً له، وهناك استغل منصبه العسكري في الانخراط في علاقات جنسية أدت لإصابته بمرض السيلا، ومن ثم لم يصبر حتى يُشفى من هذا المرض تماماً(4). وفي سنة 2081 - وبناء على تشجيع جوزفين - حثّ نابليون أخاه اللامع لويس للزواج من هورتينز دي بوهارنيه، وكانت شخصية نسائية لامعة Hortense de Beauharnais. وكان لويس زوجاً جلفاً boorish (المقصود لا يجيد فنّ الجماع) وكانت هورتينز زوجة غير سعيدة وغير مخلصه(5)، ومما ساهم في إفسادها تأثير متبنيها. وعندما أنجبت طفلاً (51 ديسمبر سنة 2081) هو نابليون - شارل Napoleon - Charles، تم تسجيل نابليون كأب له في العمد، وقد أدى هذا إلى إلقاء ظلال من الشك على علاقة نابليون بزوجة أخيه، وظل هذا الشك يطارهما إلى آخر حياتهما. ومما أعطى لهذه الشائعات بعض التسويغ أن نابليون اقترح تبني الطفل، وكان يُدعى بشغف ويُطلق عليه لفظ ولي عهدنا أو وريث العرش(6)، لكن هذا الطفل مات وهو في الخامسة من عمره، فأصبحت هورتينز Hortense بجنون مؤقت. وفي سنة 4081 أنجبت مولوداً آخر هو نابليون - لويس Napoleon Louis وفي سنة 8081 أنجبت آخر هو شارل - لويس - نابليون بونابرت Charles - Louis - Napoleon Bonaparte الذي أصبح فيما بعد نابليون الثالث Napoleon III.

وفي 5 يونيو سنة 6081 جعل الإمبراطور (نابليون) من أخيه صعب المراس (لويس) ملكاً على هولندا، فكان مستعداً لعشق الشعب الهولندي أكثر من استعداده لعشق زوجته. لقد أدرك إلى أي مدى يعتمد رخاء هولندا على تجارتها مع إنجلترا ومستعمراتها، وعندما وجد الهولنديون سبيلاً لاختراق المنع المفروض على التجارة البريطانية لم يترددوا في اختراقه ورفض لويس (أخو نابليون) أن يُدينهم، ولكن نابليون قاوم هذا التصرف فأصر لويس (أخو نابليون) عليه، ووجه القوات الفرنسية إلى هولندا فتنازل لويس (أخو نابليون) عن عرش هولندا في أول يوليو سنة 0181 فألحقها نابليون بفرنسا وجعلها تحت حكمه المباشر. وترجع لويس (أخو نابليون) إلى جراز Graz وأصبح مؤلفاً يكتب الشعر والنثر ومات في ليفورنو Livorno في سنة 6481.

وانفصلت هورتينز Hortense عن لويس (أخي نابليون) في سنة 0181 وتلقت من نابليون منحة مقدارها مليوني فرنك سنوياً للعناية بابنيها، وفي سنة 1181 أنجبت طفلاً آخر نتيجة علاقة مع الكونت شارل دي فلاهوت Charls de Flahaut إلا أن مدام دي ريموزا Remusat تخبرنا - على أية حال - أن هورتينز كانت امرأة ذات تصرفات ملانكية... وأنها صادقة جداً وطيبة القلب جداً، ولا تعرف الشر أبداً(8). وبعد ترك نابليون العرش للمرة الأولى التحقت بأما حيث اهتم بها القيصر اسكندر وأولاهها رعايته. وقد اجتمعت مع لويس الثامن عشر مما أفرع البونابرتيين. وعندما عاد نابليون من إلبا Elba عملت كمضيفه له، وعندما تنازل عن العرش للمرة الثانية أعطته - سرّاً - قلايتها الماسية التي كانت قد اشترتها بمبلغ 000،008 فرنك، وقد تم العثور عليها تحت وسادته عندما مات في سانت هيلانة وأعادها الجنرال دي مونثولو de Montholon إلى هورتينز، فأخذها - بذلك - من الفقر. وماتت في سنة 7381 ودُفنت بجوار رفاة أمها في رويل(9) Rueil. لقد عاشت حياة حافلة بالمفارقات في تلك الأيام العصيبة. أما جيروم بونابرت Jerome أصغر إخوة نابليون فقد قسّم حياته وزوجاته بين نصف الكرة الأرضية. وُلد جيروم في سنة 4781 وتم استدعاؤه وهو في السادسة عشرة من عمره للخدمة في الحرس القنصلي، ودخل في مبارزة فجفح فتمّ إبعاده إلى البحرية فارتكب كثيراً من حماقات الشباب الطائشة ودفع من جراء ذلك غرامات اقترض قيمتها من بورين Bourrienne الذي قدم إيصالاً لنابليون بقيمة هذه الديون غير المستردة، وعندما كان جيروم في بريست Berst كتب لنابليون يطلب 000،71 فرنك فأجابته نابليون بالتالي:

تلقيت خطابك يا سيدي الملازم، وإنني في انتظار أن أسمع أنك تدرس - على متن سفينتك الحربية - مهنة أرجو أن تضع في اعتبارك أنها هي طريقك للمجد إنك لو مت شاباً لكان في موتك بعض العزاء لي، لكن إن عشت حتى الستين من عمرك دون أن تخدم وطنك ودون أن تُخلف ذكراً مشرفاً، فتلك حياة كان من الأفضل لك ألا تحياها(01).

وترك جيروم البحرية في جزر الهند الغربية ورحل إلى بلتيمور Baltimore وتزوج هناك وهو في سن التاسعة عشرة (سنة 3081) من إليزابيث بترسون Patterson وهي ابنة تاجر محلي، وعندما عاد بها إلى أوروبا رفض البلاط الفرنسي الاعتراف بهذا الزواج على أساس أن كليهما (الزوج والزوجة) لم يبلغا سن الرشد. ورفض نابليون دخول العروس إلى فرنسا، فأتجهت إلى إنجلترا وهناك أنجبت ابناً هو جيروم نابليون بونابرت وعادت إلى أمريكا فتلقت هناك موافقة نابليون على قدومها إلى فرنسا، وأصبحت بعد ذلك هي جدة شارل جوزيف بونابرت الذي شغل منصب وزير البحرية الاميركية في عهد تيودور روزفلت.

وعُيِّنَ جيروم قائداً في الجيش الفرنسي، وأحرز مكانة حَفِيَّة في معارك 6081 - 7081 باستيلائه على عدة حصون بروسية، وكافأه نابليون بأن جعله ملكاً على وستفاليا Westphalia، وهي منطقة مؤلفة من مناطق بروسية بالإضافة إلى هانوفر وهس - كاسل Hesse - Cassel، وكي يُهيئ له شذاً ملكياً عمل على تزويجه من الأميرة كاترين ابنة ملك فيرتمبرج Whrttemberg. وفي 51 نوفمبر سنة 7081 أرسل نابليون إلى أخيه جيروم خطاباً يتجلى فيه بشكل جلي أنَّه لا زال حاكماً ملتزماً بالدستور:

إنني أرفق لك دستور مملكتك. إنه يضم الشروط التي أعلنتُ فيها كل حقوقي على المناطق التي فتحتها، وكل مالي من حقوق على دولتك. لا بد أن تُراعيها بإخلاص... لا تُنصت لألئك الذين يقولون إن رعاياك قد اعتادوا العبودية وأنهم لن يشعروا بالامتنان لما تُقدمه لهم. ففي مملكة وستفاليا من الذكاء والوعي أكثر مما تظن، ولن يكون عرشك راسخ الأركان إلا بثقة الشعب وحبه. إن ما يُطالب به الرأي العام الألماني بالِحاح هو أن الناس ليسوا برتبهم المتوارثة وإنما بقدراتهم - وهذا الرأي سيكون لصالحك، فعليك أن تُزيل كل أثر للقنائة (عبودية الأرض) والمواريث الاقطاعية بين السلطة والطبقات الأدنى درجة من رعيك. إن مزايا مدونة نابليون القانونية، والمحاکمات العلنية، وأحكام القضاء ستكون ملامح بارزة في حكومتك... لأن امتداد حكمك وترسيخه يعتمد في الأساس عليها أكثر من اعتماده على الانتصارات المدوية. أريد أن يسعد رعاياك بدرجة من الحرية والمساواة والرخاء لم يعرفها الشعب الألماني حتى الآن... إن هذه الطريقة في الحكم ستكون أقوى مانع حصين بينك وبين بروسيا. إنه مانع أقوى من الألب والحصون وحماية فرنسا(11).

وكان جيروم لا يزال شاباً لم يتجاوز الثالثة والعشرين فلم يُقدّر هذه النصيحة حق قدرها، فكان يُعوزه ضبط النفس والرزانة اللذان يتطلبهما الحكم، وانغمس في الرفاهية وحرص على الأبهة والمظاهر وعامل وزراءه كتابعين قليلي القيمة وجعل لنفسه سياسة خارجية خاصة به، مما ضايق أخاه الذي كان عليه أن يُفكر واضعاً في اعتباره القارة كلها. وعندما خسر أخوه (نابليون) معركة ليبتسج Leipzig الحويوية (3181) لم يستطع جيروم أن يجعل رعاياه موالين لقضية الإمبراطورية، فانهارت مملكته وفرَّ هو (جيروم) إلى فرنسا. وساعد أخاه بشجاعة في معركة واترلو Waterloo ثم فرَّ إلى حمية طالباً حمايته في فيرتمبرج Wurtemberg، وعاش عمراً مديداً حتى أصبح رئيساً لمجلس الشيوخ (السينات) في عهد ابن أخيه نابليون الثالث وأسعده الحظ بموته في سنة 0681 في أوج مملكة ميته أخرى.

أما يوجين دي بوهارنيه Eugene de Beauharnais فكان تلميذاً أفضل. لقد كان فتى محبوباً في الخامسة عشر من عمره عندما تزوجت أمه من نابليون، وقد امتعض في بداية الأمر من هذا الجنرال الشاب اللفظ كمتطفل دخل أسرته وتزوج أمه، لكنه سرعان ما أنس إلى نابليون الذي أولاه عاطفة وعناية. وكان يوجين سعيداً يكاد يطير فرحاً لأن نابليون - ذلك الغازي الشبيه بالإعصار - قد اصطحبه معه إلى إيطاليا ومصر كمعاون له. وتمزقت مشاعره بين نابليون وأمّه عندما علم بخيانتها، لكن الدموع التي ذرفها أعادت ارتباط أمّه بزوجها (نابليون)، وبعد ذلك لم تتحطم أبداً الرابطة بينه (يوجين) وبين زوج أمّه. وفي السابع من شهر يونيه عيّن نابليون ابن زوجته هذا (يوجين) في منصب نائب ملك في إيطاليا، لكن نابليون قدّر مدى ثقل المسؤولية التي ألقاها على عاتق شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره، فغمره بقدر كبير من النصائح:

بعهدنا إليك حُكم مملكتنا الإيطالية، إنما نقدم لك برهاناً على احترامنا لمسلكتك. لكنك لازلت في سن لا تسمح لك بالتحقق من سوء طوية الناس أو ما يُضمرونه من سوء. وعلى هذا فإنني لا أستطيع أن أشدّد عليك كثيراً بضرورة الحرص والحذر، فرعايانا الإيطاليون أكثر لؤماً وخداعاً بطبيعتهم من مواطنينا الفرنسيين، والطريقة الوحيدة التي تستطيع بها أن تحتفظ باحترامهم وتحقق سعادتهم هي ألا تُولي أحداً منهم ثقلاً الكاملة والأل تُخبر أياً من الوزراء وذوي المراتب العليا في بلاطك بحقيقة ما تفكر فيه. إنني يجب أن أركّز لك على ضرورة الاحتياط لأمرك بإخفاء قصدك، وهو أمر يأتي للمرء - طبيعياً - في سن النضج..

قد يُحِقُّ لك أن تفخر لكونك فرنسياً، إلا في حالة واحدة وهي عندما تكون في منصب نائب الملك في إيطاليا، ففي هذا المنصب يجب أن تنسى أنك فرنسي واعتبر نفسك قد فشلت إذا لم يصدق الإيطاليون أنك تُحبهم. إنهم يعرفون أنه لا حُب دون احترام، تعلم لغتهم، ولا تكن غريباً عن مجتمعهم وخصّمهم باهتمام خاص في الحفلات والمناسبات. قلل من كلامك، هذا أفضل لك فأنت لم تتلق قدر كبيراً من التعليم وليس لديك معلومات كافية تتيح لك أن تشترك في مناقشات عامة. تعلم كيف تستمع، وتذكر أن الصمت لا يقل تأثيراً عن استعراض المعلومات. لا تُقلدني في كل مجال، فأنت تحتاج أن تكون متحفظاً بشكل أكثر. لا تتراأس - غالباً - مجلس الدولة، فخيرتك لا توهلك للنجاح في هذا الموقع... وعلى أية حال لا تُلق خطاباً في مجلس الدولة... فقد يكتشفون فجأة أنك غير كفؤ لمناقشة مجريات الأمور... فطالما أن الأمير (الملك) يمسك لسانه، فإن سلطاته تكون كثيرة كثرة تفوق الحصر، إذ يجب على الأمير (الملك) ألا يتحدث إلا إذا علم أنه هو الأكثر قدرة من بين كل مستمعيه.

كلمة واحدة أخيرة: اجعل لعدم الأمانة عقاباً غليظاً..(21).

وقد أنجز يوجين ما كان يأمله منه الإمبراطور (نابليون) بمعاونة وزرائه أعاد تنظيم المالية وحسن الخدمة المدنية وشيّد الطرق وطبق قوانين مدوّنة نابليون القانونية، وقاد الجيش الإيطالي بشجاعته المعهودة ومهارته المتزايدة، وزاره الإمبراطور المسرور من فعّاله في سنة 7081، وانتهاز الفرصة (بواسطة إعلان ميلان Milan Decree) بأن يرُدّ - بإجراءات صارمة - على الأمر البريطاني British Order in Council الذي يُطالب السفن المحايدة أن ترسو في ميناء بريطاني قبل التوجه للقارة الأوروبية. وبذل يوجين فُصارى جهده لتنفيذ الحصار القاري المثير. وظل موالياً لنابليون خلال الحروب وأثناء فترة تنازله عن العرش، وتوفي في سنة 4281 بعد موت نابليون (زوج أمه) بثلاث سنوات فقط. وقد كرر ستند هول Steendhal في أكثر من موضع ما يفيد حب الإيطاليين لذكرى حُكمه المتتور (31).

ولأن نابليون كان يمتلك أراضي أكثر من إخوته، فقد أوقف على أخواته الكثير، فقد أعطى إليزا Elisa (ماريا آنا Maria Anna) وزوجها اللطيف فليس باكويكوش Felice Bacciocchi مقاطعات بيومينو Piombino ولوشا Lucca، فحكمتها بطريقة جيدة - موّلت المشروعات العامة، ورعت الآداب والفنون وشجعت باجانييني Paganini - حتى أن نابليون جعلها في سنة 9081 دوقة توسكانيا الكبيرة Tuscany حيث واصلت أعمالها الخيرة her dictatorial beneficence.

أما بولين بونايرت Pauline التي اعتبرها نابليون أجمل نساء عصرها فقد وجدت أن إبداء مفاتها على سرير واحد (المقصود لرجل واحد) أمر لا يُحتمل - ففي السابعة عشرة من عمرها تزوجت الجنرال شارل لكليير Leclere، وبعد ذلك بأربع سنوات أمرها نابليون بمرافقة زوجها إلى سان دومنجو St. Domingue لخوض معركة ضد توسان لوفرتور Toussaint L'Ouverture، وربما كان نابليون يقصد بهذا إبعادها عن جو العبت الذي يعلم أنها ستخطف فيه بمجرد غياب زوجها. على كل حال فقد مات لكليير هناك بالحمى الصفراء، فعدت بولين إلى أوروبا مع جثمانه، وقد زوى جمالها بفعل المرض. وفي سنة 3081 تزوجت الأمير كاميلو بورجيز Camillo Borghese لكنها سرعان ما راحت تمارس الزنا وراح كاميلو يبحث عن المتعة مع مشرفة البيت (القيّمة على الخدمة) وطلب نابليون من خاله الكاردينال فش Fesh أن يوبخها أخبرها على لساني أنها لطيفة كما كانت وأنه في غضون أعوام قليلة ستغدو مرتبته أذى عندي بينما هي تستطيع أن تكون صالحة ومحترمة في كل أوجه حياتها(41) وانفصلت بولين غير الطاهرة عن الأمير وفتحت بيتها العامر لجماعة الأُنس. وجعلها نابليون دوقة لجوستالا Guastalla (في مقاطعة ريجيو إميليا Reggio Emilia في إيطاليا) لكنها فضّلت أن يكون لها بلاط في باريس. وقد تجاوز نابليون عن آثامها لافتتانه بنظراتها وطريفتها، وطباعها الطيبة حتى رآها - في المرأة - تسخر من إمبراطورته الجديدة ماري لويز Louise فنفاها إلى إيطاليا وسرعان ما أدارت صالونها في روما. وفي وقت لاحق (كما سنرى) هيّت لمساعدته عندما أصابته الكوارث. وفي سنة 5281 عادت لزوجها مرة أخرى وماتت بين ذراعيه، فقال رغم كل هذا فقد كانت أرق مخلوق في العالم(51).

أما كارولين Caroline فكانت جميلة أيضاً، وكانت في أيامها الأخيرة أكثر تأثيراً وقد قيل لنا إنها كانت ناعمة الجلد مشربة بحمرة، وكان جلدتها قطعة من الساتان الأحمر، وكانت ذراعاها ويداها وقدمها متناسفة الخلق سوية كما هو الحال في آل بونايرت. وفي سن السابعة عشرة (9971) تزوجت جوشيم مورا Joachim Mura الذي كان قد حقق بالفعل شهرة في الحروب في إيطاليا ومصر. ولهذه الخدمات التي أداها وإنجازه الحيوي في مارينجو Marengo تم تعيينه دوقاً لكل من بيرج Berg وكليف Cleves. وبينما كان منشغلاً في عاصمته دوسلدورف Dusseldorf بقيت كارولين في باريس وسمحت لنفسها بإقامة علاقات جنسية غير شرعية مع الجنرال جونو Junot الذي أرسله نابليون إلى بوردو Bordeaux، وعاد مورا إلى باريس ليرد زوجته إلى طريق الصواب، لكنه كان يهوى المعارك والتعرض للأخطار. وفي أثناء غيابه المتتابع في ساحات الحرب أخذت كارولين على عاتقها إدارة دوقيتهما، وكانت إدارتها حسنة حتى أن الناس لم يفتقدوا مورا الذي لم يكن يلفت نظرهم إلا بزيه الجميل.

وفوق كل هذه العصبية من الإخوة والأخوات تتربع الأم لينيزيا Letizia صارمة لا يخذعها شيء مستقيمة لا يُفسدها شيء. لقد شاركت ابنها فخاره لانتصاراته وشاركته الحزن العميق لما حلت به من كوارث. وفي سنة 6081 جعلها نابليون - وقد بلغت السادسة والخمسين من عمرها - الإمبراطورة الأم وسمح بصرف مبلغ 000،005 فرنك لها كل عام. وقدم لها بيتاً جميلاً في باريس وخدمها كثيراً لكنها عاشت العيشة المقتصدّة التي اعتادتها قائلة إنها توفّر تحسباً لظروف صعبة تلم به (بابنها نابليون)(61). وكانوا يخاطبونها بالأم Madame Mere لكن لم يكن لها نفوذ سياسي ولم تحاول ذلك. وصحبت ابنها (نابليون) إلى إلبا Elba كما صحبته في عودته، وراحت تراقب أحواله بقلق أثناء دراما المائة يوم، وكانت تُصلي من أجله. وفي سنة 8181 قدّمت طلباً للقوى الأوروبية بإطلاق سراحه من سانت هيلانة، مستعطفة من أجله لما ألمّ به من أمراض خطيرة فلم يرُدّ أحد على طلبها، وتحملت باستسلام قدرتي كعادتها موت

نابليون وإليزا وبولين وعدد من أحفادها، وماتت في سنة 6381 عن عمر يناهز السادسة والثمانين. آه يا لها من

امرأة! Voila une femme!

ولم توت خطة أسرة بوناپرت مفعولها وهذا يرجع في جانب منه أنها لم تلب حاجة الشعوب التي حكمتها ويرجع في جانب آخر إلى أن كل واحد من أفراد هذه الأسرة (فيما عدا يوجين) كان ذا نزعة فردية وله أفكاره الخاصة ورغباته - وكان نابليون أيضاً كذلك فقد كان يفكر في سلطته أولاً، ووضع قوانين ممتازة إذا قورنت بالنظام الإقطاعي الذي كان قد أصبح عديم الجدوى، لكنه - أي نابليون - تجنّب فحوى هذه القوانين وخفف من وطأتها بمزايا عسكرية ومالية فرغم أنه حطم الإقطاع إلا أنه أقام إقطاعاً آخر خاصاً به - ظناً منه أن بمنحه اقطاعات لإخوته وأخواته أصبحوا تابعين مُطيعين له يقدمون له المجندين إلزاماً وفقاً لحاجته في الحروب، ويقدمون له الضرائب في السلم. وقد دافع عن فكرته شارحاً أن كل المناطق - تقريباً - التي يحكمها بهذه الطريقة قد فُتحت عُتوة (تم إخضاعها بالقوة العسكرية) ومن ثم فأهلها رعايا لقانون الحرب وهم سعداء لخضوعهم لقوانين فرنسية حديثة وإمبراطور منتور هو بالنسبة لهم بمثابة أب. أما بالنسبة لأسرته فقد لخص الأمر بطريقة حزينة عندما كان في سانت هيلانة:

إنه لمن المؤكد أنني بانس فليس هناك من يخلفني في أسرتي، أو بتعبير آخر ليس لي ظهير منهم... لقد قيل الكثير عن قوة شخصيتي، لكنني ضعيف وأستحق التوبيخ بسبب أسرتي، وكل أفرادها واعون بذلك. فبعد انتهاء العاصفة الأولى ضدي، كان إلحاحهم عليّ لا ينتهي وفعّلوا معي ما يشتهون (تصرفوا وفقاً لأمزجتهم). لقد أخطأت خطأ كبيراً بسماحي لهم بذلك. لقد كنتُ أتق في أحكامهم، وكان يمكننا أن نسير سوياً حتى إلى القطبين فتهاوى كل شيء أمامنا. لقد كان علينا أن نُغيّر وجه البسيطة. لم يكن لدي حظ جنكيز خان فقد كان لديه أربعة أبناء لا همّ لهم إلا خدمته بإخلاص. إنني إذا ما جعلتُ من واحد من إخوتي ملكاً فإنه سرعان ما يظن أن العناية الإلهية هي التي جعلته ملكاً، وتنتقل هذه العبارة على نحو مرضى للأخرين. فلا يعود هذا الذي عينته ملكاً قائداً يمكنني أن أوليه تقتي وإنما يصبح عدواً جديداً عليّ أن أخذ حذري منه إذ تغدو أعماله وجهوده سائرة في طريق تأكيد استقلاله، لا لدعم أعماله... ثم إنهم بالفعل راحوا ينظرون لي بعد ذلك كعقبة في سبيلهم... يا لليؤس! وعندما استسلمتُ كان عزّ لهم عن عروشهم مسألة تلقائية، لم يعمل لها الأعداء حساباً بل ولم يشغلوا بها فكرهم، ولم يستطع واحد منهم إثارة حركة شعبية، لقد كانوا محتمين بجهودي، لقد ذاقوا حلاوة الملك، أما الأعباء فقد تحملتها وحدي(71).

ولأن نابليون فتح كثيراً من المناطق والمقاطعات فلم يكن هناك العدد الذي يكفيها من الأمراء من أسرته فقد عيّن بعض جنرالاته وأفراد حاشيته على بعض البلاد dependencies الصغيرة ذات الأهمية الاستراتيجية القليلة، وعلى هذا فقد تولى المارشال بيرثيه Berthier مقاطعة نيوشاتل Neuchatel وأصبح كامباسير Cambaceres أمير بارما Parma وأصبح ليبرون Lebrun دوق بياسنزا Piacenza. وتم اقتطاع اثنتي عشرة دوقية صغيرة من مناطق إيطالية أخرى: وأصبح فوشيه Fouche دوقاً على أوترانتو Otranto وسفاري Savary دوقاً على روفيجو Rovigo. وأخيراً كان أمل نابليون هو أن يجعل من إيطاليا دولة واحدة ويجعلها وحدة في اتحاد فيدرالي أوروبي بقيادة فرنسا وأسرته الحاكمة. وكان من الممكن حدوث هذا، فقط إذا كانت هذه الوحدات المتنافسة والمختلفة والمعترزة بخصوصيتها على استعداد لتكون جزءاً من كل، وعلى شيء من الاستعداد للتخلي لسلطة بعيدة منها وأجنبية عنها عن حق كتابة قوانينها وتنظيم تجارتها!

صفحة رقم : 14589

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> المملكة الميتة -> الحرب الأولى في شبه جزيرة أيبيريا

2- الحرب الأولى في شبه جزيرة أيبيريا

(81 أكتوبر 7081 - 12 أغسطس 8081)

بحلول عام 7081 كان غالب البر الأوروبي ممثلاً لبيان برلين Berlin Decree، فالنمسا انضمت للحصار القاري المضاد في 81 أكتوبر سنة 7081، ومع أن الباباوية اعترضت إلا أنها وقعت في 21 ديسمبر. أما تركيا (الدولة العثمانية) فكانت معارضة للانضمام إليه لكنها امتثلت بسبب التعاون المستمر بين روسيا وفرنسا. وكانت البرتغال متحالفة مع إنجلترا لكن كان بعدها من الشرق أسبانيا التي ربطتها أسرة البوربون تاريخياً بفرنسا، مما جعلها تتعهد بالالتزام بالحصار إذ بدت من الناحية العسكرية تحت رحمة نابليون وربما فكر الإمبراطور (نابليون) في أمر يمكنه تنفيذه ولو حتى بقيادة جيوشه عبر أسبانيا لإجبار البرتغال على الامتثال رغم السفن الحربية البريطانية التي تتحكم في موانئها ورغم الوكلاء التجاريين البريطانيين الذين يتحكمون في تجارتها.

وفي 81 يوليو سنة 7081 أخبر نابليون الحكومة البرتغالية أن عليها إغلاق موانئها في وجه البضائع البريطانية فرفضت. وفي 81 أكتوبر عبر جيش فرنسي من عشرين ألف مقاتل معظمهم من المجندين إلزامياً في غير موسم التجنيد الإلزامي - البيداسوا Bidassoe في أسبانيا، وكان على رأس هذا الجيش أندوش جونو Andoche Junot فرحبت به الدولة الإسبانية والشعب الإسباني الذي كان يأمل أن يحرر نابليون ملك أسبانيا من قبضة وزيره الخائن، كما كان هذا الوزير يأمل أن يكافئه نابليون لتعاونه معه بتركه يشارك في تقطيع أوصال البرتغال.

لقد كان عهد التنوير الإسباني المتألق قد انتهى بموت شارل الثالث (Charles III 8871) فرغم أن ابنه الذي بلغ الآن من العمر سنين عاماً كان ذا نوايا طيبة إلا أنه كان مفتقداً الحيوية والذكاء، ففي اللوحة الشهيرة التي رسمها الفنان جويا Goya والتي جعل لها عنواناً (شارل الرابع وأسرته) يبدو الملك فيها مولعاً بالتهام الطعام أكثر من ولعه بالتفكير وبدت الملكة مارييا لويزا Maria Luisa وكأنها هي الرجل، لكنها كانت امرأة أيضاً فلم تكف بزوجها المطيع وإنما فتحت ذراعها لمانويل دي جودوي Manuel de Godoy الذي رفعته من ضابط في الحرس الملكي إلى رئيس للوزراء Chief minister. وكان الشعب الإسباني أكثر شعوب أوروبا التزاماً بالأخلاق في أمور الجنس، لذا فقد استاء كثيراً من هذه العلاقة الجنسية غير الشرعية لكن جودوي Godoy العاهر كان يحلم بفتح البرتغال ليحصل لنفسه على الأقل على دوقية، إن لم يكن مملكة. فهبّ لمساعدة نابليون وحاول أن ينسى ما كان منه في سنة 6081 حين عرض صداقته المصحوبة بالعمل على بروسيا للتخطيط لشن حرب ضد فرنسا. وشجّع نابليون آمال جودوي ووقع في فونتينبلو Fontainebleau 72 أكتوبر سنة 7081 اتفاقاً لفتح البرتغال واحتلالها على أن يكون شمالها الغربي مع أوبورتو Oporto من نصيب الملكة الإسبانية، ومقاطعات الجارف Algarve وألينتيجو Alentejo في الجنوب من نصيب جودوي Godoy، وما تبقى في الوسط مع لشبونة يوضع تحت الحماية الفرنسية حتى صدور تعليمات أخرى. وأضافت المادة الثالثة من المعاهدة أنه من المفهوم أن الأطراف المتعاقدة سيُسمون بالتساوي - بين أنفسهم - جزر البرتغال ومستعمراتها وسائر ممتلكاتها البحرية (81) ونصت بنود سرية على تعهد أسبانيا بالحقاق 0008 مقاتل من المشاة و 0003 مقاتل من الخيالة بجيش جونو Junot أثناء مروره باسبانيا.

ووجدت الأسرة المالكة البرتغالية ألاً طاقة لها بمقاومة هذه القوات المشتركة الفرنسية الإسبانية، فاستقلت سفينة إلى البرازيل. وفي 03 نوفمبر دخل جونو Junot لشبونة، وبدا أن فتح البرتغال قد اكتمل. ولكي يدفع نابليون تكاليف عملياته فرض على رعاياه الجدد دفع تعويض مقداره مائة مليون فرنك، جزء من منه لمساعدة جونو Junot إذا ما أرسلت بريطانيا حملة عسكرية إلى البرتغال، وربما لتحقيق أغراض أكبر، وأرسل نابليون إلى أسبانيا ثلاثة جيوش إضافية جعل قادتها تحت قيادة مورا Mura الموحدة وأمره باحتلال بعض المراكز الاستراتيجية قرب مدريد. وكانت الخلافات في الحكومة الإسبانية بين يدي نابليون يُكفيها كيف شاء. لقد خشي فرديناند Ferdinand ذو الثلاثة والعشرين عاماً وهو الوريث الظاهر لعرش أسبانيا أن يعوق جودوي Godoy طريقة إلى العرش فقاد نفسه مؤامرة للإطاحة به، واكتشف جودوي المؤامرة فأمر بالقبض على فرديناند ومؤيديه في 72 أكتوبر واقتراح محاكمتهم بتهمة الخيانة. وبعد ذلك بشهرين علم أن مورا Mura الذي يقدم بجيوشه قد يعمل على إطلاق سراحهم، فبادر هو بإطلاق سراح فرديناند ومعاونيه واستعد للهرب إلى أمريكا مع الملك والملكة، فهاجت جماهير المدينة في 71 مارس سنة 8081 وقيضت على جودوي Godoy وأودعته في زنزانه بأحد السجون، وتنازل الملك الذي اعتراه الذهول عن

العرش لابنه، وبناء على أوامر نابليون قاد مورا Murat جنوده إلى مدريد (32 مارس) وأطلق سراح جودوي ورفض الاعتراف بفرديناند ملكاً فترجع شارل عن تنازله عن العرش وسادت الفوضى. وحث تاليران، الإمبراطور نابليون للاستيلاء على عرش اسبانيا أي أن يجعل من نفسه ملكاً على أسبانيا أيضاً (91).

وانتهز نابليون الفرصة - وربما كان هو الذي دبّر لها، فدعا كلا من شارلز الرابع Charles IV وفريناند السابع Ferdinand VII للالتقاء به في بايون Bayonne (على بعد حوالي عشرين ميلاً شمال الحدود الأسبانية الفرنسية) للنظر في إعادة الاستقرار والنظام للحكومة الأسبانية. ووصل الإمبراطور في 41 أبريل ووصل فرديناند في 02 من الشهر نفسه واستضاف نابليون الشاب ومستشاره كانون جوان إسكواكيز Canon Juon Escoiquiz على الغداء، وخلص نابليون إلى أن هذا الشاب غير ناضج انفعالياً وعتقياً وأن مهمة قيادة اسبانيا وجعلها في تحالف مفيد مع فرنسا، مهمة لا يقدر عليها، وأفضى نابليون بهذه النتيجة إلى إسكواكيز الذي نقلها إلى فرديناند معترضاً عليها، واعترض الشاب بدوره على أساس أن العرش انتقل إليه بتنازل أبيه عنه، وأرسل جواسيس إلى مدريد يُخبر مؤيديه بأنه أصبح ولا مُعين له لمواجهة قوات نابليون، لكن الفرنسيين عاقوا هؤلاء الجواسيس فتَمَّت إعادتهم وما معهم من رسائل إلى الإمبراطور (نابليون) ومع هذا فقد وصلت أخبار موقف فرديناند إلى العاصمة فاعتري الجماهير شكٌّ في أن نابليون يعتزم إنهاء حكم أسرة البوربون في أسبانيا ومما زاد من شكوكهم ما انتشر من أخبار مُفادها أن شارل الرابع Charles IV والملكة وجودوي كانوا قد وصلوا إلى بايون Bagonne في 03 أبريل، وأن مورا Murat الذي يحكم مدريد الآن تلقى أوامر من نابليون بإرسال أخي الملك وابنه الأصغر وابنته إلى بايون. وفي الثاني من شهر مايو سنة 8081 - وهو اليوم الذي ظل مشهوراً فترة طويلة في التاريخ الأسباني باسم Dos de mayo - تجمعت جماهير غاضبة أمام القصر الملكي الأسباني وحاولت منع الأمراء والأميرات من مغادرة القصر وقذفوا الجنود الفرنسيين بالحجارة، بل وقيل إنهم مزقوا بعض الجنود - ممن كانوا يحرسون العربة الملكية - إرباً، فأمر مورا Murat جنوده بإطلاق النيران على الجماهير حتى تتفرق.

وتم ذلك بالفعل وقد سجل الفنان جويبا Goya هذا المشهد بتعبير فني قوي وخذ بعمله هذا ذكرى الحدث، وتم إخماد التمرد في مدريد لكنه انتشر في سائر أنحاء أسبانيا الأخرى.

وعندما وصلت هذه الأنباء إلى نابليون في بيون (5Gagnne مايو) دعا كلا من شارل فرناند للمثول عنده وفي إدى فورات غضبه المحسوبة أدانها لسماحهما للأسبان بالإنخراط في أعمال الفوضى مما جعلها - بشكل خطير - لا يمكن الاعتماد عليها كحليف لفرنسا، وما هذا إلا بسبب عدم كفاءتهما. ولأم الوالدان ابنهما وكالا له الانتقادات متهمانه بأنه كان قد اعتزم قتل والديه (المقصود غالباً أنه بفعله هذا سيورد والديه موارد التهلكة)، واعطى نابليون الشاب المرتعد خفاً مهلة حتى الساعة الحادية عشرة مساءً ليتنازل عن العرش، فإن رفض فسيعتبر مدبّر انقلاب ضد والديه ومن ثم يُسجن ويحال للمحاكمة بتهمة الخيانة، واستسلم الشاب فرديناند وأعاد التاج لوالده ولما كان شارل يتطلع للأمن والسلام أكثر مما يتطلع إلى السلطة والقوة فقد قدم الصولجان (العرش) لنابليون الذي عرضه بدوره على أخيه لويس فرفضه ومن ثم عرضه على أخيه جيروم Jerome الذي شعر أنه ليس ملائماً لمثل هذا المنصب الخطير، وأخيراً عرضه على أخيه جوزيف (يوسف) الذي تلقى بالفعل أمراً بقبوله وتم إرسال شارل Charles ولويزا Laisa وجودي Godoy ليعيشوا في منتجع في مارسيليا تحت الحراسة. أما فيرديناند وأخوه فقد هُذنا وجرى إرضاءهما بتهينة مصدر دخل يُدرُ عليهما عائداً مالياً كبيراً وعُهد إلى تاليران بإسكانهما في مكان مريح وأمن في قصره في فالنسي Valency. وأحسن نابليون أنه عقد صفقة رابحة فركب عائداً مراتح البال إلى باريس وتلقته الجموع بحفاوة في كل خطوة باعتبارها سيّد أوروبا الغلاب.

وذهب مورا Mura - الذي كان يأمل أن يكون ملكاً على اسبانيا - ممتعضاً ليحل محل جوزيف (يوسف) كملك على نابلي. أما جوزيف - فبعد أن توقف في بيون Bagonne - دخل مدريد في 01 يونيو سنة 8081. لقد كان قد اعتاد على نابلي التي كان ملكاً عليها وسرعان ما أوحشته حياة المرح والسرور في إيطاليا، تلك الروح المرحية التي يتسم بها أهل جنوب إيطاليا والتي تُلطف قسوة الحياة، فهو لم يأنس ذلك في الإسبان الصارمين المتدينين. وقد جلب معه إلى أسبانيا دستوراً نصف ليبرالي كَيْفَه نابليون على عجل، يضم كثيراً من بنود مدونة نابليون القانونية لكنه قَبِل الكاثوليكية باعتبارها الدين المعتمد الوحيد في اسبانيا (نظراً لإصرار شارل الرابع على ذلك)، وحاول جوزيف ما وسعته المحاولة أن يكون حاكماً محبوباً من الشعب وأيده عدد كبير من الليبراليين الأسبان، ولكن النبلاء ظلوا بعيدين عنه متحفظين ازاءه، وأدانه الإكليروس (رجال الدين الأسبان) على أساس أنه متحرر التفكير (المقصود غير متمسك بأهداف الكاثوليكية) يتظاهر بما لا يُكِنه، وصُدِم العامة لأن نابليون قد أحل محل أسرته الحاكمة التي باركتها الكنيسة رجالاً لا يكاد يعرف كلمة من اللغة الأسبانية، ويفتقد تماماً الكارزما أو مقومات الشخصية المحبوبة كما هي في ذلك العصر.

وإزداد الانتعاش ببطء ثم بسرعة، وتطور من مجرد التجهم والعبوس إلى اللعن جهراً إلى التمرد. وظهرت روابط الفلاحين في كثير من بلاد أسبانيا وسلحوا أنفسهم بالأسلحة القديمة والسكاكين الحادة فصارت كل البيوت مصانع للسلاح وصارت كل عباءة شركاً يُخفي سلاحاً وراحوا يقتتصون كل فرنسي يشرد من معسكره أو يبتعد عن فرقته ورفع الإكليروس الأسبان (رجال الدين) الصليبان في مواجهة البنادق الفرنسية واتهموا جوزيف بأنه لوثري وماسوني ومهرطق وحرّضوا جماهيرهم على العصيان المسلح باسم الرب وأمّه الطاهرة والقديس جوزيف (02) وتقجّر الحماس ضد الفرنسيين مما أدى إلى عمليات بتر أعضاء وإخفاء وصلب وقطع رؤوس وشنق وإجلاس على الخوازيق (خوزقة) كما صورّ لنا الفنان جويّا Goya. وأعاد الجيش الأسباني تشكيلاته وانضم للثوار واجتاحت كتائبهم الموحدّة الحاميات الفرنسية المتناثرة والتي ينقصها العتاد والرجال. وفي بعض الأحيان تمكنت القوات الأسبانية من التفوق على قوات الفرنسيين الذين لم يألفوا الأرض الأسبانية كما كانوا يعانون نقصاً في الرجال والعتاد، ففي بيلا Beulen (شمال شرق قرطبة) توهمت فرقتان عسكريتان فرنسيتان أنهما محاصرتان بقوات كثيرة العدد والعدّد فاستسلمتا في واحدة من أكثر الهزائم خزيّاً في التاريخ وأسر الأسبان 008,22 وتم اقتيادهم إلى جزيرة كابريرا Cabrera الصغيرة فمات مئات منهم جوعاً ومرصاً. وقد حدثت هذه الواقعة في 02 يوليو سنة 8081. ولما تم تجريد جوزيف (أخو نابليون) من قواته العسكرية الرئيسية انسحب مع ما تبقى من قواته من مدريد إلى خط دفاعي على طول الإبرو Ebro على بعد 071 ميلاً شمال شرق العاصمة.

وفي هذه الأثناء أرسلت الحكومة الإنجليزية - بعد أن صارت واثقة من تناقص قوات جونو Junot في لشبونة وأن لم يعد ممكناً أن تتلقى دعماً إسبانياً - أرسلت السير آرثر ولسلي (يُكتب أيضاً ولزلي) Arthur Wellesey (دوق ولنجتون فيما بعد) بأسطول وجيش إلى البرتغال. فأنزل رجاله عند مصب نهر مونديجو Mondego في أول يوليو سنة 8081 وسرعان ما انضمت إليه فرق مشاة برتغالية. وقاد جونو Junot - الذي كان قد أيس إلى الراحة بدلاً من جعل قواته في حالة استعداد - قواته البالغ عددها 000,31 مقاتل من المجندين إلزامياً من لشبونة لمواجهة قوات ولسلي (ولزلي) البالغ عددها 000,91 في فيميرو Vimeiro في 12 أغسطس سنة 8081 فمني بهزيمة نكراء، وعادت البرتغال للتحالف مع إنجلترا، وبدا الغزو الفرنسي لشبه جزيرة أيبيريا وقد تحول لكارثة بالنسبة للفرنسيين. وعندما وصل نابليون إلى باريس في 41 أغسطس سنة 8081 بعد جولته الاحتفالية في محافظات (دوائره) الغربية وجد أعداءه التقليديين سعيدين للنكسة التي ألمت بالجيش الفرنسي في شبه جزيرة أيبيريا، وشرعوا بالفعل في تكوين تحالف ضد نابليون الذي أصبح الآن قابلاً للهزيمة. وكان مترنيخ Metternich سفير النمسا لدى فرنسا يتحدث مع نابليون عن السلام بينما يُخطط للحرب. وكتب فريهر فوم أوند تسوم شتين Freiherr vom und zum Stein رئيس الوزراء البروسي اللامع التوافق للتحرر من الاحتلال الفرنسي - إلى صديق له في شهر أغسطس من العام الأنف ذكره قائلاً: هنا تبدو الحرب بين النمسا وفرنسا مسألة لا مفر منها، وهذه الحرب ستقرر مصير أوروبا (12) ووافق نابليون الذي استولى وكلاؤه (جواسيسه) على هذا الخطاب، على ما ورد به، فالحرب كما كتب إلى أخيه لويس مؤجلة حتى الربيع (22).

وتأمل نابليون في خياراته، أوجب عليه أن يقود جيشه الكبير الذي لم يعرف الهزيمة إلى أسبانيا ويقمع تمرداها ويطارد ولسلي (ولزلي) ليعود إلى سفنه، ويسد الفجوة البرتغالية ليحكم الحصار المضاد ضد بريطانيا ويخاطر بالجبهة الشرقية على أساس أن النمسا وبروسيا ستضربان بينما أفضل جنوده على بعد ألف ميل - هناك في البرتغال؟ إن اسكندر في تليست Tilsit كان قد وعد بمنع مثل هذا الهجوم بينما كانت أسبانيا معه، لكن أيصمد القيصر ويحافظ على وعده امام الضغوط الواقعة عليه؟ ناهيك عن إمكان رشوته. وبعد أن تفكّر نابليون في الأمر دعا القيصر إلى مؤتمر في إيرفورت Erfurt حيث يمكنه أن يحيطه بكوكبة لأمعة من السياسيين لجعله يلتزم بما كان قد تعهّد به.

27 سبتمبر - 14 أكتوبر 1808

لقد أعد نابليون لهذا المؤتمر بعناية فائقة كما لو كان يُعد لخوض حرب، فقد دعا كل الملوك والدوقات التابعين له للحضور مع حاشياتهم بأبهة ملكية فخمة، فأتى عدد كبير منهم حتى أن مذكرات تاليران المطبوعة ضمت ثلاث صفحات تحوي قوائم بهؤلاء الذين لبوا الدعوة (32). واصطحب نابليون معه كل أفراد أسرته، وليس هذا فحسب وإنما معظم جنراته وطلب من تاليران أن يترك معتزله وأن يساعد شامباني Champagne في توجيه المفاوضات وصياغة النتائج، وأصدر تعليماته للكونت دي ريموزا Remusat أن ينقل إلى إيرفورت Erfurt أفضل ممثلي المسرح الفرنسي بمن فيهم تالما Talma، وكل ما يلزم لإخراج التراجيديات الكلاسيكية في الدراما الفرنسية، وقال نابليون أريد أن أبهر إمبراطور روسيا بمشاهد قوتي وسلطاني، فليس هناك مفاوضات أكثر عرضة للفشل من تلك المفاوضات التي نحن مقبلون عليها (42).

ووصل نابليون إلى إيرفورت Erfurt في 72 سبتمبر، وفي اليوم التالي خرج لتحية إسكندر وحاشيته باستقبالهم على بعد خمسة أميال من المدينة، وجرى إعداد كل الترتيبات لبعث المسرة في نفس القيصر باستثناء شيء واحد وهو أن نابليون تصرف على أنه المضيف (صاحب الدار) في مدينة ألمانية كانت قد أصبحت جزءاً من الإمبراطورية الفرنسية. ولم يندفع إسكندر بالهدايا التي تلقاها والإطراء الذي كِيلَ له كِيلًا، فتظاهر هو أيضاً بكل ما يوحي بالصدقة أو بتعبير آخر كال لهم من الكيل نفسه، وقاوم محاولاً ألا يقع في شباك هذه المظاهر النابليونية ومما ساعده على ذلك أن تاليران نصحه سراً أن يدعم النمسا وأن يكون إليها أقرب منه إلى فرنسا، مقدماً له الدليل على أن النمسا - وليس فرنسا هي مرتكز الحضارة الأوروبية (فيما يرى تاليران) التي دمرها نابليون، وقال له تاليران أيضاً إن فرنسا متحصرة ولكن السلطة فيها ليست كذلك (52) وأكثر من هذا فكيف يكون من صالح روسيا دعم فرنسا والشد من أزرها؟ وعندما سعى نابليون لتوثيق التحالف بأن يتزوج من أخت إسكندر - الدوقة الكبيرة أنا Anna، أشار تاليران على القيصر بعدم القبول وأجل الروسي الماركر الإجابة عن هذا الاقتراح متحججاً بأن القيصر هي صاحبة الرأي في هذه الأمور (62). وقد كافأ إسكندر، تاليران بترتيب زواج ابن أخيه (أو ابن أخته) من دوقة دينو Dino وارثة دوقة كورلاند Courland، ودافع تاليران - في وقت لاحق - عن خيانتته ذاكراً أن شهية نابليون لا يتلذذ إلا بالأمم لن تتوقف باستنزاف أوروبا بالحروب فحسب وإنما ستؤدي إلى انهيار فرنسا وتقطيع أوصالها، وعلى هذا فخيانته لنابليون - فيما يقول - كانت وفاء لفرنسا وإخلاصاً لها (72). لكن من الآن فصاعداً ستترك تصرفاته الكيسة انطباعاً سيئاً (سُمعة رديئة) في كل مكان.

وخلال هذا المؤتمر دعا دوق ساكس - فيمار Saxe - Weimar أشهر رعاياه للحضور إلى إيرفورت Erfurt، ففي 92 سبتمبر، طلب نابليون من الدوق - بعد أن رأى اسم جوته (تكتب أيضاً جيته) في قائمة الذين سيصلون - ترتيب لقاء مع هذا الفيلسوف الشاعر، فجاء جوته (جيته) سعيداً (في 2 أكتوبر) فقد كان من رأيه أن العالم لم يشهد عقلية أعظم من عقلية نابليون (82) وكان موافقاً تماماً (أي جوته) على توحيد أوروبا في ظل حكمه. والتقى جوته (جيته) بالإمبراطور نابليون على مائدة إفطار مع تاليران وبيير ثيبه Berthier وسافاري Savary والجنرال دارو Daru، وقد كتب تاليران في مذكراته، ما زعم أنه تسجيل دقيق لهذه المحادثة الشهيرة (فيلكس ميلر Felix Muler قاضي فيمار الذي كان مصاحباً لجوته قدم تقريراً عن هذه المحادثة مختلفاً قليلاً عن رواية تاليران):

قال نابليون: السيد جوته انني متبهج لرؤيتك.. إنني أعلم أنك على رأس الشعراء المسرحيين في ألمانيا.

- سيدي أنت تظلم بلدنا.. فلا بد أن عظمتكم تعرفون شيلر Schiller ولسنج Lessing وفيلاند Wieland.

- اعترف أنني لا أعرفهم إلا بالكاد. لقد رأيت عمل شيلر (حرب الثلاثين عاماً).. أنت بشكل عام تعبش في فيمار Weimar.. انه المكان الذي يلتقي فيه معظم مشاهير أدباء ومفكري ألمانيا.

- إنهم يتمتعون بحماية في فيمار أكثر من سواها، لكن بالنسبة للوقت الحالي فليس هناك إلا رجل واحد في فيمار حقق شهرة على مستوى أوروبا، إنه فيلاند Wieland.
- ساكون مبهجاً لرؤية السيد فيلاند Wieland.
- ان سمحتم لي عظيمكم أن أطلب منه الحضور، فعلت، فأنا متأكد من أنه سيحضر فوراً...
- هل أنت مُعجب بتاسيتوس Tacitus؟
- نعم يا سيدي أنا معجب به جداً.
- حسناً إنني لستُ معجباً به، لكننا سنتحدث في هذا الموضوع في وقت آخر. اكتب إلى السيد فيلاند ليأتي هنا. وسأرد له الزيارة في فيمار لأن دوقها دعاني (92).
- وبينما كان جوته يغادر الغرفة قيل أن نابليون أبدى ملاحظة لبيرثيه Berthier ودارو Daru بشأن جوته قائلاً: هذا هو الرجل حقاً! (03) Voila un homme!
- وبعد أيام قليلة استضاف نابليون جوته وفيلاند مع رهط من ذوي المكانة. وربما قد أُنعشَ ذاكرته بالمعلومات في هذه الأيام لأنه راح يتحدث كناقذ أدبي واثق من معلوماته:
- السيد فيلاند، إننا نحب كتاباتك جداً في فرنسا. فأنت مؤلف أجاثون وأوبيرون Agathon and Oberon إننا نسميك فولتير ألمانيا.
- سيدي إن الإطراء يسعد المرء إن كان يستحقه...
- أخبرني أيها السيد فيلاند، لماذا كتبت أعمالك ديوجنز Diogenes و أجاثون Agathon و بيريجرينوس Peregrinus بأسلوب رمزي يحتمل أكثر من معنى تخلط فيه السرد الروائي بالتاريخ والتاريخ بالسرد الروائي. إن رجلاً متقوفاً مثلك يجب أن يفصل بين هذين النوعين من الكتابة. لكنني أخشى أن أتحدث كثيراً في هذا الموضوع لأنني أتحدث مع شخص أكثر خبرة في هذه الأمور مني (13).

وفي 5 أكتوبر قطع نابليون حوالي خمسة عشر ميلاً إلى فيمار، وبعد أن مارس رياضة القنص في بينا (جينا Jena) ومشاهدة مسرحية موت قيصر la Morte de Cesar في مسرح فيمار، حضر الداعون والمدعون حفلاً راقصاً فأنستهم النسوة الجميلات المتألفات ذكر أشعار فولتير. وعلى أية حال فقد انسحب نابليون إلى أحد الأركان وطلب جوته وفيلاند Wieland، فحضرا ومعهما ثلثة من رجال الأدب، فتحدث نابليون موجه حديثه على نحو خاص إلى فيلاند، وكان موضوع حديثه يدور حول المجالين الأثيريين عنده: التاريخ وتاسيتوس Tacitus:
لا بد من اعتبار المسرح التراجيدي الجيد مجالاً لا يجدر إلا بالرجال المتقوين. إنه فوق التاريخ إذا نظرنا إليه من وجهة نظر معينة. ففي أفضل وقائع التاريخ لا يمكن أن يحدث إلا أثرٌ قليلاً، فالإنسان إذا كان وحيداً لا يتأثر إلا قليلاً، ويختلف الحال إن كان في جمْع، فهنا يكون التأثير أقوى وأكثر ديمونة.

إنني أؤكد لك أن المؤرخ تاسيتوس Tacitus الذي تستشهد دائماً بفقرات من كتاباته لم يعلمني أي شيء أيمكنك أن تجد كاتباً ينقص من قدر الجنس البشري مثله؟ بالإضافة إلى أن أحكامه في بعض الأحيان غير عادلة فهو يجد في كل فعل - ولو كان بسيطاً - دافعاً إيجابياً. لقد أظهر الأباطرة كأجلاف أنذال، وعمق هذه المعاني في نفس قارئه... إن حولياته ليست تاريخاً للإمبراطورية وإنما ملخصاً لسجلات سجن روما، إن هذه الحوليات تتعامل دائماً مع تُهم وإدانات، ومع أناس يقطعون أوردهم في الحمامات... يا له من أسلوب ملتو! يا له من غموض!... ألسنتُ على حق أيها السيد فيلاند؟ لكن... إننا لسنا هنا لنتحدث عن تاسيتوس. انظر، إلى أي حد يُتقن القيصر إسكندر فن الرقص... (23)
ولم يقتنع فيلاند فقد دافع عن تاسيتوس بشجاعة وتعاطف، فقد أشار إلى أن سوتونيوس Suetonius وديوكاسيوس Dio Cassius قد روايا من الجرائم أكثر بكثير مما روى تاسيتوس لكن أسلوبهما تعوزه الحيوية، أما تاسيتوس فما أشد تأثير أسلوبه وفي غمزة جسورة قال لنابليون: إنه بلمسة عبقريته، يمكن للمرء أن يعتقد أنه لا مجال لأن يحب سوى الجمهورية... لكنه عندما يتحدث عنهم من الأباطرة، والحربية والإمبراطورية، فإن المرء يشعر أن فن الحكم يبدو له أجمل اكتشاف على ظهر البسيطة... يا سيدي إن كان حقاً قولنا أن تاسيتوس يُعاقب الأباطرة بتصويرهم على هذا النحو فحقاً أيضاً قولنا أنه كافياً الأمراء (الملوك) الصالحين عندما تتبّع أعمالهم وصورهم وأهداهم لمن يصنعون المجد في الزمن الآتي.

وكان المنصتون المتجمعون مبهجين بهذا الجواب اللاذع والخطرة السريعة، وحاد نابليون جواباً وقال: إن لديّ حججاً قوية جداً لمناقشتك والاختلاف معك أيها السيد فيلاند... وأنت لم تُغفل أي عنصر مما يدعّم رأيك... لا أحب أن أقول أنني هُزمت في هذه المناقشة... فمن الصعب أن أتفق مع هذا الرأي. غداً أعود إلى إيرفورت، وسنواصل مناقشاتنا (33) وليس لدينا كتابات عن هذه المناقشات التي تمت بعد ذلك.

وفي 7 أكتوبر عاد معظم الزوّار إلى إيرفورت، وحث نابليون جوته على الإقامة في باريس قائلاً له هناك في باريس ستجد دائرة أوسع لتنتشر فيها أفكار.. ومادة هائلة لادعاءاتك الشعرية(43). وفي 41 أكتوبر منح نابليون وسام صليب فيلق الشرف لكل من جوته وفيلاند.

وفي هذه الأثناء وقّع وزراء خارجية فرنسا وروسيا اتفاقية تُجدد التحالف بينهما ويتعهد كل طرف بتقديم المساعدة للطرف الآخر في حال تعرضه لهجوم وأصبح إسكندر - بناء على الاتفاق - مُطلق اليد في الاستيلاء على فاليشيا Wallachia ومولدافيا Moldava، لكن ليس تركيا. وأصبح نابليون يستطيع التوجه إلى أسبانيا بمباركة قيصر روسيا وفي 21 أكتوبر تم توقيع وثيقة الاتفاق. وبعد ذلك بيومين غادر الإمبراطور ان إيرفورت Erfurt، وقبل أن يفترقا سارا للحظات جنبا إلى جنب وتعانقا وتعاهدا أن يلتقيا ثانية. (لكن هذا لم يحدث) وعاد نابليون إلى باريس أقل تعطشاً للدماء لكنه قرر أن يتوجه بجيش الأساسي (الجيش العظيم) إلى أسبانيا ليفرض أخاه جوزيف مرة أخرى على عرش اسبانيا رغم إرادة الأسبان.

صفحة رقم : 14591

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> المملكة الميتة -> الحرب الثانية في شبه جزيرة أيبيريا

4- الحرب الثانية في شبه جزيرة أيبيريا

29 أكتوبر 1808 - 16 يناير 1809

لقد كانت هذه الحرب معركة نابليونية تقليدية: انقضاض سريع، وانتصار، ثم لاجدوى. لقد أحس الإمبراطور بازدياد معارضة الشعب الفرنسي لسلسلة حروبه التي لا تنتهي. لقد كانوا قد وافقوه على أن حروبه في الجبهة الشرقية كانت حروبا سببت حكومات تتأمر لمحق الثورة وإبطال نتائجها لكنهم شعروا أن دماءهم قد استنزفت، واستاءوا على نحو خاص من الأموال التي تم انفاقها في حرب البرتغال وأسبانيا. لقد فهم نابليون هذه المشاعر وخشي أن يكون بصدد فقدان سيطرته على الأمة الفرنسية لكنه كما برّر في وقت لاحق لم يكن من الممكن ترك شبه جزيرة أيبيريا فريسة لكيد الإنجليز ومطامع البوربون ومؤامراتهم وطموحاتهم(53) فإذا لم ترتبط أسبانيا بفرنسا رباطاً وثيقاً يؤمّنها لأصبحت تحت رحمة الجيوش البريطانية القادمة عبر البرتغال أو كادير (قادش) Cadiz، وسرعان ما تجمع إنجلترا الذهب والفضة المجلوبة من المستعمرات البرتغالية والأسبانية في أمريكا لتقدم منها بسخاء معونات لتمويل تحالف جديد ضد فرنسا، مما يقتضي مزيداً من المعارك، مارينجو أخرى وأوسترليتز Austerlitzes أخرى وجينا (بيننا Jena) أخرى.. إن إحكام الحصار الأوروبي المضاد على البضائع البريطانية هو وحده الذي يجعل تجار لندن يطلبون السلام.

وترك نابليون حاميات على بعض الحصون تحسباً لأية مفاجآت نمساوية أو بروسية، وأمر 000،051 مقاتل من جيشه الأساسي (الجيش العظيم) بعبور جبال البرانس والانضمام إلى قوات أخيه جوزيف البالغ عددها 000،56 كانت

تتجمع في هذه الأثناء في فيتوريا Vitoria. وغادر هو نفسه (نابليون) باريس في 92 أكتوبر ومعه خطة المعركة التي كان قد رسمها فعلاً. وكان الجيش الأسباني يحاول تطويق قوات جوزيف، فأرسل نابليون تعليمات إلى أخيه (جوزيف) أن يتجنب خوض معركة وأن يترك العدو يتقدم منتشراً في نصف دائرة حتى تكون قواته غير ذات عمق. وعندما اقترب نابليون من فيتوريا Vitoria نشر جانباً من قواته في جبهة مستعرضة لمهاجمة قلب الجيش الأسباني، فانكسر وولّى الأديبار واستولت فرقة فرنسية أخرى على بورجوز (Burgos 01 نوفمبر) واجتاحت فرق فرنسية أخرى بقيادة نبي Ney ولان Lannes وتوديلّا Tudela جيشاً إسبانياً بقيادة جوزي دي بالافوكس إي ميلزي Jose de Palafox y Melzi ولما أرك قاده الجيش الأسباني أنه لا قبيل لهم بنابليون وجنوده تفرقوا ثانية في ولايات إسبانيا وفي 4 ديسمبر دخل الإمبراطور مدريد، وعندما بدأ بعض جنوده في نهبها أمر بإعدام اثنين من الناهبين علناً فتوقفت عمليات السلب والنهب(63).

وترك المدينة (مدريد) تحت حماية عسكرية قوية وفرض فيها الأحكام العسكرية واتجه بقواته إلى شامارتين Chamartin على بعد ثلاثة أميال، وهناك وكأنه واحد من الأرباب خالقة الكون أصدر في 4 ديسمبر سلسلة من المراسيم ودستوراً جديداً لأسبانيا. وبعض بنود هذا الدستور تبين أنه لازال ابناً للثورة الفرنسية: منذ نشر هذا المرسوم يتم إبطال الحقوق الإقطاعية في أسبانيا. ويتم إبطال كل الامتيازات وكل الاحتكارات الإقطاعية وكل الإلزامات المفروضة على الأشخاص، وكل من سيلتزم بالقوانين سيكون حراً في تطوير عمله وصناعته وحرقة دون معوق. إبطال محاكم التفتيش لأنها لا تتماشى مع السيادة المدينة، وتؤول ممتلكاتها إلى الدولة الإسبانية لتسدد منها الديون التي التزمت بسدادها...

نظراً لزيادة أعداد أعضاء الطوائف الديرية المختلفة زيادة مفرطة... وكذلك بيوت العبادة، فسيتم تقليص أعدادها إلى الثلث... بتوحيد أعضاء البيوت المختلفة (المقصود بيوت العبادة أو الطوائف الديرية) الخاصة بطائفة واحدة في تشكيل واحد...

ستزال الحواجز بين ولايات أسبانيا وهذا يعني من بين ما يعني إزالة الجمارك الداخلية لأنها أمر يقف حائلاً في سبيل رخاء أسبانيا(73).

ولم يكن هناك ما يمكن ان يدعم هذا الدستور في مواجهة المعارضة الفعالة للنبلاء الذين ترسخت أوضاعهم ورجال الدين والرهبان والسكان الذين ألفوا بمرور الوقت الزعامة الإقطاعية و عقيدة المواساة (الصبر على مكاراة الدنيا لدخول الفردوس في الآخرة Consolatory Creed) - سوى السيطرة العسكرية. وكان ولسلي (ولزلي Wellesley) لا يزال منتصراً في البرتغال واضعاً في اعتباره غزو أسبانيا حالما يعود الجيش الفرنسي الأساسي (العظيم) لمواجهة تحدي النمسا. وأكثر من هذا فقد غادر جيش بريطاني مكون من 02،000 مقاتل بقيادة سير جون مور Moore، سالامانكا Salamanca في 31 ديسمبر وبدأ يزحف في اتجاه الشمال الشرقي أملاً في اجتياح فرق سول Soult بالقرب من برجوز Burgos. ورد نابليون بسرعة على هذا التحدي فقاد قوة فرنسية رئيسية شمالاً عبر سيراً دي جوداراما Sierra de Guadarrama أملاً في مهاجمة مؤخرة مور Moore والآن سيواجه - أخيراً - بمواجهته العسكرية وجنوده هؤلاء الإنجليز المحتممين وراء البحر. وكان المرور عبر ممر جوداراما Guadarrama في عز الشتاء محنة قاسية لرجالهم أشد وطأة من عبور الألب سنة 0081. لقد عانوا وتذمروا وكادوا يقومون بتمرد عسكري لكن نابليون لم يوقف المطاردة. ولما علم مور Moore بقدم نابليون خاف أن تقع قواته بين جيشين فرنسيين، فتوجه بقواته غرباً بسرعة قاطعاً 052 ميلاً على أراض وعرة غطتها الثلوج حتى وصل كورونا Corunna ليستطيع مع قواته أن يلودوا بالأسطول البريطاني.

وفي 2 يناير أصبح نابليون قريباً من مؤخرة هذا الجيش الإنجليزي عند أستورجا Astorga لكنه - أي نابليون - اضطر للتوقف بسبب أنباء مزعجة أنه من مصدرين: ففي النمسا كان الأرشيدوق كارل لودفيج يستعد استعداداً حقيقياً لخوض حرب ضد فرنسا، وفي باريس كان تاليران وفوشيه يؤيدان خطة للإطاحة بنابولين وإجلال مورا Murat مكانه. فترك نابليون مهمة تعقب قوات مور Moore لسول Soult وأسرع عائداً إلى فرنسا. أما وقد غادر السيد (نابليون) فقد تباطأ سول Soult ولم يصل إلى كورونا Corunna حتى كان معظم القوات البريطانية قد أوى إلى سفن الأسطول. وقد قاد مور مؤخرة قواته ببطولة لحماية آخر مراحل ركوب السفن فأصيب بجرح مميت لكنه لم يلفظ أنفاسه الأخيرة إلا بعد اكتمال ركوب قواته سفن الأسطول البريطاني. وتحسّر نابليون أنه لو كان لدي وقت لتعقب الإنجليز، لما أقلت مني واحد منهم(83). إنهم لم يهربوا فحسب، بل لقد عادوا ثانية.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> المملكة الميتة -> فوشيه وتاليران والنمسا

5- فوشيه وتاليران والنمسا

1809

عندما وصل نابليون إلى باريس (32 يناير) وجد المؤامرات تختمر وسط استياء عام. فقد وصلت خطابات من الجنود من الجبهة إلى مئات من الأسر الفرنسية تُفيد أن المقاومة الإسبانية أعادت تشكيل قواها وأنها موطدة العزم علي طرد الفرنسيين، وأن ولسلي (أو ولزلي) Wellesely الذي تزداد قواته سيتحرك حالاً لطرده جوزيف (أخي نابليون) من مدريد مرة أخرى. ومن الواضح أن الحرب ستستمر وأن الصبية الفرنسيين سيجندون إلزامياً عاماً إثر عام ليفرضوا على الأسبان حكومة معادية لكنيستهم القوية وغريبة عنهم ومجرد وجودها يحطم كبرياءهم. وواصل الملكيون في فرنسا مؤامراتهم للإطاحة بنابليون رغم تحركاته لاسترضائهم، وتم القبض على ستة متآمرين منهم فأعدموا رمياً بالرصاص في سنة 8081، وتم إعدام آخر هو أرمان دي شاتوبريان Armand de Chateaubriand في فبراير سنة 9081 رغم توسلات أخيه رينيه Rene الذي كان وقتها أحب كتاب فرنسا للجماهير، وكان مصير عدد من اليعاقبة - لأسباب أخرى مختلفة - الموت أيضاً. وحتى في دوائر الحكومة الإمبراطورية بلغ السخط ذروته فقد راح فونتان Fontanes يردد لدى معارفه الكتومين أن الإمبراطور مجنون، مجنون تماماً، سيدمر نفسه ويدمرنا جميعاً وقال القول نفسه ديكري Decres لكن بشكل علني(93).

أما فوشيه وزير الشرطة فكان قد اكتسب تعاطف نابليون ومديحة لاكتشافه مؤامرات اغتياله لكن فوشيه كان قد بدأ يتشكك على نحو متزايد في سياسات سيده (نابليون) وفي أن مستقبله الشخصي سينتهي إلى انهيار لا مفر منه، لقد شعر فوشيه أن حكومتي النمسا وبروسيا المهزومتين واللتين رغم هزيمتهما لازالتا تحسان بالكبرياء، وحكومة روسيا المؤيدة تأييداً سطحياً (ظاهرياً) لفرنسا - سوف تتحد من جديد، عاجلاً أم آجلاً، يمولها الذهب البريطاني للقيام بانتفاضة أخرى ضد السيطرة الفرنسية غير المريحة. وأكثر من هذا فإن نابليون قد يفقد حياته في واحدة من المعارك القادمة. فليس من المستبعد أن تصيبه طلقة تقضي عليه كذلك الطلقة التي انتهت - منذ وقت غير بعيد - حياة جنرال كان يقف إلى جانبه. إنه لا يجب أن يُوقع موته المفاجئ - ولا وريث له - فرنسا في فوضى تجعلها غير مهية للدفاع ضد أعدائها. وربما كان ميتران يحدث على الانضمام لمن يهينون مورا Murat للعرش إذا ما خلا بموت نابليون. وفي 02 ديسمبر سنة 8081 اتفق تاليران وفوشيه على أن مورا Murat هو رجلهم المنشود، وكان مورا مجنناً. ولما تشمَّ يوجين (ابن زوجة نابليون) أخبار المؤامرة وأخبر بها أم نابليون أرسلت سريعاً من ينقلها له في أسبانيا(04). وكان نابليون على استعداد لمسامحة فوشيه أكثر من استعداده لمسامحة تاليران، فنصيحة فوشيه كانت غالباً في الجانب الأمن لكن تاليران كان قد أوصى بإعدام دون دنجهين (يكتب أيضاً دنجان) من Enghien كما كان قد شجع الاستيلاء على أسبانيا، وربما كان شريكاً في مسؤولية عدم تجاوب أسكندر بالقدر الكافي. وفي 42 يناير سنة 9081 أعرب نابليون عن استيائه الشديد من تاليران بعد أن كان قد كظم غيظه فترة طويلة، وذلك عندما رآه في مجلس الدولة. لقد انفجر نابليون موبخاً إياه علناً: أتجرؤ أيها السيد أن تقول أنك لم تكن تدري شيئاً عن موت إنجهين (دنجان)!! أتجرؤ على مواصلة القول أنك لا تدري شيئاً عن الحرب الأسبانية!! أنسيت أنك نصحتني كتابة بإعدام إنجهين (دنجان)؟ أنسيت أنك نصحتني في خطاباتك بإحياء سياسة لويس الرابع عشر (أي بترسيخ أفراد أسرته على

عرش أسبانيا) ومن ثم لَوْح بقبضته في وجه تاليران وصاح فلتفهم هذا: إذا كان لا بد أن تنفجر الثورة، فستكون أول من يُسحق، مهما كان الدور الذي لعبته فيها.. إنك قدارة في جورب حريري. وما أن قال نابليون ذلك حتى سارع بمغادرة القاعة، وسار تاليران مترنحاً وراءه وقال لمستشاريه يا للأسف أيتصرف مثل هذا الرجل العظيم على هذا النحو السيئ! (14) وفي صباح اليوم التالي أنهى نابليون كل المهام الموكلة إلى تاليران وأوقف راتبه الذي كان يتقاضاه كموظف كبير في البلاط. لكن نابليون سرعان ما اعتذر عن نوبة انفعاله - كما هي عادته - ولم يُبدِ اعتراضاً على استمرار تاليران في الحضور إلى البلاط. وفي سنة 2181 كان نابليون لا يزال يقول: لقد كان تاليران أفضل وزير عندي على الإطلاق (24). ولم يترك تاليران أية فرصة للإسراع بسقوط نابليون.

وكانت النمسا تقوم بدورها، فقد كان كل أهلها من فقراء إلى أغنياء تواقين للقيام بمحاولة للتحرر من هذا السلام الثقيل (المفروض) الذي فرضه نابليون على النمسا. وكان الإمبراطور فرانسيس الأول هو وحده المتردد بحجة أن مستلزمات إعداد الجيش ستؤدي بالدولة إلى الإفلاس. وأرسل إليه تاليران كلمات تشجيع: إن الجيش الفرنسي العظيم متورط في المستقبل الأسباني والرأي العام الفرنسي يعارض الحرب بشدة، ووضع نابليون قلق ومشكوك فيه (34). وكان مترنيخ Metternich حتى الآن متردداً، وحذر نابليون الحكومة النمساوية من أنها إذا استمرت في التسليح فإنه سيبنى في فرنسا جيشاً آخر مهما كانت التكاليف، ولن يكون أمامه سوى هذا الاختيار. لكن النمساويين واصلوا تسليح أنفسهم فطلب نابليون من اسكندر تحذيرهم، فأرسل القيصر لهم كلمة تحذير يمكن تفسيرها على أنها متأخرة تأخرراً مقصوداً. واستدعى نابليون فرقتين من أسبانيا وجمع 000,001 مجند إلزامي وأتاه بناء على أوامره 000,001 جندي من كوفندرية الراين، وكان أهل هذه الكوفندرية خانقين على حياتهم إذا اجتاحت النمسا فرنسا، وبحلول أبريل سنة 9081 كان تحت إمرة نابليون 000,013 مقاتل، وتم تنظيم قوات منفصلة قوامها 000,27 مقاتل فرنسي و 000,02 مقاتل إيطالي لحماية يوجين (ابن زوجة نابليون) والمُعَيَّن في منصب نائب الملك في إيطاليا من جيش نمساوي أرسل إلى إيطاليا بقيادة الأرشيدوق جوهان (يوهان Johann) وفي 9 أبريل غزا الأرشيدوق كارل لودفيج Ludwig بافاريا على رأس قوة من 000,02 مقاتل، وفي 21 أبريل وقعت إنجلترا تحالفاً جديداً مع النمسا وتعهدت بتقديم معونات جديدة لها. وفي 31 أبريل غادر نابليون باريس قاصداً ستراسبورج Strasbourg بعد أن أعلن لموظفي قصره المرتاعين في غضون شهرين سأجبر النمسا على نزع السلاح وفي 71 أبريل وصل إلى جيشه الرئيسي في دوناو فوث Donauworth على الدانوب وأصدر أوامره النهائية بنشر قواته (تكوين جبهة مستعرضة) وانتصر الفرنسيون في بعض المواجهات الصغيرة في أبنسبرج Abensberg ولاندشت Landshut 91 و 02 أبريل) وقاد المارشال دافو Davout في إكموهل (Eckmuhl 22 أبريل) هجوماً لا يُقاوم على الجناح الأيسر لقوات الأرشيدوق كارل لودفيج Ludwig بينما هاجمت القوات التي على رأسها نابليون القلب ولم يترجع كارل إلا بعد أن فقد 000,03 من رجاله، وكان تراجعاً إلى بوهيميا. وزحف نابليون بقواته إلى فيينا فدخلها في 21 مايو بعد أن عبرت قواته إلى الشاطئ الأيمن للدانوب، وكان عبوراً شاقاً استلزم جهداً فائقاً اتسم بالشجاعة إذ كان عرض النهر عن نقاط العبور ثلاثة آلاف قدم. وفي الوقت نفسه أعاد كارل تنظيم قواته وقادها إلى الشاطئ الأيسر للنهر عند إسسلنج Essling. وحاول نابليون أن يعبر النهر من جديد ليلتقي به أملاً في أن يهزمه في معركة حاسمة، لكن فيضان النهر كان مرتفعاً فأزاح ماؤه الجسور الرئيسية التي أقامها الفرنسيون وكان يتعين عليهم ترك جزء من الجيش الفرنسي وكثير من الذخيرة إذا كان لا بد من العبور، وفي 22 مايو وجدت قوات نابليون البالغ عددها 000,06 (التي تمكنت من العبور) نفسها تستعد لخوض معركة مع 000,511 نمساوي، وبعد أن فقد الفرنسيون 02,000 قتيل - كان لان Lannes المحبوب منهم - أمر نابليون من تبقى 000,04 بالعودة (الرجوع عبر النهر) بأية وسائل ممكنة. وقد النمساويون 000,32 ومع هذا فإن هذه المواجهة اعتبرت في سائر أنحاء أوروبا هزيمة ماحقة ألمت بنابليون. وراحت بروسيا وروسيا ترقبان نتائج الموقف بشغف، وهما على استعداد - عند أي بارقة أمل - للانقضاض على هذا المدعي المزعج الذي أقلت مرات عديدة من قبضة سادة الاقطاع.

وفي إيطاليا أصبح مصير يوجين (الذي عينه نابليون في منصب نائب الملك) متأرجحاً مع الأحداث، فقد أصبحت Milan - قاعة حكمه - غير آمنة بسبب ازدياد سخط الناس من طريقة معاملة نابليون للبابا، رغم حكم يوجين المعتدل. لقد قاد يوجين جيشه وهو في حالة ذعر بيّنة ليووجه الأرشيدوق جوهان Hohann، وهزم في تاجليامنتو Tagliamento في 61 أبريل وكان من الممكن أن يتعرّض لما هو أسوأ لولا أن جوهان (يوهان Johann) - عند سماعه انتصار نابليون في إكموهل Eckmuhl استدار عائداً بحدوه أمل يائس أن يُنقذ فيينا، وترك يوجين إيطاليا مجازفاً بملكه كي يدعم بقواته جيش زوج أمه، فتحرك بقواته أيضاً إلى الشمال ووصل بقواته إليه وخاض معه معركة فاجرام Wagram.

وعمد نابليون - بعد الخيبة التي ألمت به في اسلنج Essling إلى تدعيم قواته ومدفعيته وأمر بتشبيد الجسور على الدانوب، وحصن جزيرة لوباي Lobay تحصيناً جيداً وجعل منها معسكراً حصيناً، ومركزاً لإصلاح السفن، وإعداد

الذخيرة، ولا تبعد هذه الجزيرة سوى ثلاثمائة قدم عن الشاطئ الأيسر للنهر. وفي الرابع من يوليو أمر قواته بالعبور مرة زحري، وأدرك نابليون أن قواته كثيرة العدد وأن كارل لودفيج Ludwig يتراجع للشمال، فتعقبه والتقى الجمعان في فارجام (وارجام Wargam) التي تعد واحدة من أعنف المعارك في التاريخ إذ أريقت فيها دماء غزيرة، وكان عدد القوات الفرنسية والحليفة لها 000،781 بينما كان عدد القوات النمساوية والمتحالفة معها 000،631. لقد حارب النمساويون ببسالة وكانوا في وقت من أوقات المعركة قريبين من النصر، لكن نابليون كان متوقفاً في عدد جنده وفي براعة تكتيكاته، فغيّر اتجاه المعركة فبعد يومين (5 و 6 يوليو 9081) استحر فيهما القتل من الطرفين أمر كارل قواته بالانسحاب بعد أن فقد 000،05 من رجاله. وفقد نابليون في هذه المعركة 000،43 وبقي معه 000،351، بينما كان المتبقي مع كارل 000،68. لقد أصبحت النسبة بينهما لصالح الفرنسيين تكاد تكون 2:1، وطلب الأرشيدوق الذي اعتراه الجزع الهدنة وأسعد هذا الطلب نابليون فوافق عليه.

وتركز نابليون في شونبرون Schongrunn مع مدام فالفسكا Walewska وأسعده أن يعلم أنها حامل. إنه يستطيع الآن أن يقول إن عدم إنجاب جوزفين إنما كان بسببها لا بسببه. وكان زوج ماري Marie الهرم متسامحاً بما فيه الكفاية حتى أنه عفا عن خيانتها الزوجية ودعاها للعودة إلى مقره في بولندا، واستعد للاعتراف بالطفل الوليد باعتباره ابناً له (44).

وتباطأت مفاوضات السلام طوال ثلاثة أشهر وكان هذا - في جانب منه - لأن كارل لودفيج Ludwig لم يستطع أن يقنع أخاه فرانسيس الأول باستحالة تنظيم مزيد من المقاومة، بالإضافة إلى أن فرانسيس الأول كان يأمل أن تهب بروسيا وروسيا لمساعدته. وساعد نابليون القيصر اسكندر على مقاومة هذا العرض بأن قدّم له جزءاً من جاليسيا Galicia ووعده بعدم استرداد مملكة بولندا، وفي أول سبتمبر أخبر القيصر النمسا أنه ليس مستعداً لنقض تعهداته مع فرنسا. وظلت المفاوضات النمساوية متعثرة فأصدر نابليون إنذاراً، وفي 41 زكتوبر وقع الطرفان معاهدة شونبرون Schonbrunn أملتتها فرنسا في القصر الملكي على أعدائها القدامى من الهابسبرج. وتنازلت النمسا - بمقتضى هذه المعاهدة - عن إنفيرتل Innvertel وسالزبورج (سالستبورج Salzburg) لبافاريا، وأصبح جزء من جاليسيا تابعاً لروسيا، وجزء آخر لدوقية وارسو (فرسافا) الكبيرة في مقابل ما بيد النمسا من بولندا المقسّمة. واستولت فرنسا على فيوم Fiume وإستريا Isteria وتريست Triest والبندقية (فينيسيا Venezia) وجزء من كرواتيا ومعظم كارينثيا Carinthia وكارينولا Carniola، وبدا يكون قد انسلخ من النمسا 000،005،3 مواطن من دافعي الضرائب وكان عليها أن تدفع 58 مليون فرنك كتعويض حرب لفرنسا، لقد استولى نابليون على كل ذلك باعتباره حقاً له، وبعد ذلك بستة أشهر توّج أسلابه بتزوجه من أرشدوقة (أميرة) نمساوية.

صفحة رقم : 14593

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> المملكة الميثة -> الزواج والسياسة

6- الزواج والسياسة

1809-1811

غادر نابليون فيينا في 51 أكتوبر سنة 9081 ووصل إلى فونتينبلو Fontainebleau في 62 من الشهر نفسه، وشرح لأقاربه الحميمين ومستشاريه قراره بطلب الطلاق، فأجمع جميعهم - تقريباً - على الموافقة، لكن نابليون لم تواته الشجاعة على الإفضاء بعزمه إلى جوزفين إلا في 03 نوفمبر، فرغم إفراطه في المعاشرة الجنسية واللهو - وهو الأمر الذي كان يراه حقاً مشروعاً للمقاتل البعيد عن وطنه - إلا أنه كان لا يزال يحب جوزفين وقد أدى انفصاله عنها إلى معاناة عاطفية استمرت عدة شهور.

لقد كان نابليون يعرف عيوبها - كسلها، وفتورها، ومبالغتها في التبرج، وإسرافها في استخدام الثياب والجواهر، وضعفها الشديد أمام بائعي القبعات النسائية ومصمميها الذين يأتون لعرض بضاعتهم عليها لقد اشترت كل ما أحضروه إليها دون أي اعتبار للسعر (54) وأكثر من مرة زادت ديونها زيادة أدت إلى امتعاض زوجها امتعاضاً شديداً فطرد البائعات المتجمعات عند مقرها وعقها ودفع ديونها. وقد اعتمد نابليون لها 000,006 فرنك سنوياً لنفقاتها الشخصية و 000,021 فرنك سنوياً لتبهد منها من تشاء لأنه كان يعلم أنها ملزمة بتقديم الصدقات والهبات (64). وكان نابليون يتساهل مع عشقها للألماس ربما لأن التحلي به يجعلها فاتنة رغم بلوغها الثانية والأربعين، لقد كانت كلها مشاعر وأحاسيس ولا تملك من العقل شيئاً اللهم إلا الحكمة التي وهبتها الطبيعة للنساء والتي بها يقدرن على اللعب بالرجال. لقد قال لها نابليون يا جوزفين إن لك قلباً ممتازاً وعقلاً فارغاً (74) وقلما كان يسمح لها بالحديث في السياسة وعندما كانت تقاومه وتتحدث في الأمور السياسية فإنه سرعان ما كان ينسى وجهات نظرها. لكنه كان شاكراً ممتناً لأحضانها الدافئة الحارة وجسدها المؤثر، وحلاوتها التي لا تخف تدريجياً عند اللقاء، وبراعة تخلصها (84) كما كان شاكراً ممتناً لاعتدالها وامتيازها في ممارسة كثير من مهامها كإمبراطورة. لقد أحبته حباً شديداً، وأحبها هو بعد السلطة، وعندما اتهمته مدام دي ستيل Stael بأنه لا يحب النساء أجاب ببساطة أنا أحب زوجتي (94) ويعجب أنطوان أرنول Antoine Arnault من إمبراطورية تديرها جميلات لطيفات واهنات يحكمن رجالاً مستبدين منشددين كأشد ما يكون الاستبداد والتشدد. لقد كان كل الرجال يجبنون أمام تصميمه ومع ذلك لم يكن بمستطيع مقاومة دموع امرأة (05) فكما قرر نابليون - بعد ذلك - في سانت هيلانه إنني بشكل عام كنت مستسلماً أمامها (15).

لقد كانت جوزفين تعرف منذ وقت طويل أن نابليون في توك شديد لوريث من صلبه ليرث الحكم بشكل شرعي ومقبول، وكانت تعلم خوفه من أن يؤدي موته أو أسرته أو إصابته بمرض عضال إلى نزاع مجنون على السلطة بين الفرقاء المتنازعين والجنرالات، وأن تتحول فرنسا المنظمة والمزدهرة والقوية التي بناها إلى حطام وأن تعود للإرهاب - الدموي أو الأبيض - كما كانت على الحالة التي أنقذها هو نفسه منها في سنة 9971، وكان من رأيه أن وريثاً شرعياً من صلبه تنتقل إليه السلطة بشكل تقليدي سيعفي فرنسا من ذلك كله.

وعندما أخبر نابليون زوجته جوزفين أخيراً بأن عليهما أن يفصلا وهنت وغابت عن الوعي لعدة دقائق، فحملها نابليون إلى غرفتها واستدعى طبيبه جان - نيقولا كورفيزار دي مارت Jean - Nicolas Corvisart des Marets وطلب مساعدة هورتنيز Hortense لتهديئة أمها، وظلت جوزفين طوال أسبوع مصرّة على رفض الطلاق، وفي 7 ديسمبر وصل يوجين Eugene من إيطاليا وأقنع أمه بالموافقة. قطيب نابليون خاطرها بكل وسيلة وقال لها: سأظل على حبك دائماً لكن السياسة لا قلب لها، ففي السياسة لا مجال إلا للعقل (25) وقال لها انها ستظل دائماً محقظة بلقب سيدة القصر الملكي وملحقاته ولقب إمبراطورة وبراتب سنوي كبير، وأكد لأبنائها أنه سيظل دائماً وحتى آخر حياته كأب محب.

وفي 61 ديسمبر أصدر مجلس الشيوخ - بعد أن سمع رغبة كل من الإمبراطور والإمبراطورة في الطلاق - مرسوم الطلاق، وفي 21 يناير أعلن رئيس أساقفة باريس فصل عرى زواجهما، وتساءل عدد كبير من الكاثوليك عن مدى شرعية هذا الطلاق، ولم يوافق معظم سكان فرنسا على هذا الانفصال، وتنبأ كثيرون أنه من الآن فصاعداً سيتخلى الحظ الحسن عن نابليون، ذلك الحظ الحسن الذي كان يتبعه دائماً كظله (35).

لقد طغت السياسة على الحب وراح نابليون يبحث عن شريكة لحياته ليس فقط على أمل أن تكون أمماً (لولي عهده) وإنما أيضاً ليكون عن طريقها بعض الروابط والصلات التي تُعين على تحقيق السلامة لفرنسا، وتشد من أزر حكمه. ففي 22 نوفمبر (قبل إفضائه لجوزفين برغبته في الطلاق بثمانية أيام) أرسل نابليون بتعليمات إلى كولينكور Caulaincourt سفيره في سان بيترسبورج St. Petersburg (بطرسبرج) أن يقدم طلباً رسمياً لاسكندر طالباً يد أخته البالغة من العمر ستة عشر عاماً - أناً بافلوفا Anna Pavlova: وكان القيصر يعلم أن أمه التي كانت تطلق على نابليون اسم الملحد لن توافق أبداً على مثل هذا الارتباط فأرجأ الإجابة على الطلب أملاً في أن يحصل من نابليون على مقابل مُثل في حصوله على بعض المناطق (الأخرى) في بولندا. لكن نابليون بعد أن نفذ صبره لطول المفاوضات في هذا الأمر ولخوفه أيضاً من الرفض - أرسل يوعز إلى مترنيخ Metternich أن النمسا ستتلقى اقتراحاً لطيفاً

بشأن الأرشيدوقة (الأميرة) ماري لويز Marie Louise وعارض كامباسير Cambaceres الخطة متنبأ أن هذا الارتباط سيؤدي إلى إنهاء التحالف الروسي مع فرنسا وسيؤدي للحرب (45). ولم تكن ماري لويز Marie Louise البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً - جميلة، لكن كان يكفي نابليون أن عينها زرقاوتان، وخديها متوردان وشعرها كستنائي وطبعها هادئ وذوقها بسيط، وكانت كل الأدلة تؤكد عذريتها (لم يطمسها قبله إنس) وخصوبتها (إمكان انجابها). وقد تلقت قدراً طيباً من التعليم وتعرف عدة لغات وكانت بارعة في الموسيقى والرسم، وقد تعلمت منذ طفولتها أن تكره طالب يدها (نابليون) باعتباره شريكاً بل أكثر أهل أوروبا امتلاء بالشر، لكنها تعلمت أيضاً أن الأميرة بضاعة سياسية يرتبط فهمها للرجال بصالح الدولة. ومع هذا فلا بد أن هذا الغول سيئ السمعة (المقصود نابليون) يمثل تغييراً مثيراً لفتاة محكومة تخضع لإشراف دقيق طال شوقها لعالم أكثر رحابة. وعلى هذا ففي 11 مارس سنة 0181، وفي فيينا تم زواجها رسمياً من نابليون الذي لم يكن حاضراً وإنما مثله المارشال بيرثيه Berthier. وتحرك ركب الأميرة المكوّن من ثلاث وثمانين عربة ومركبة طوال خمسة عشر نهارة وليلة مصحوبة بالاحتفالات والترحيبات ليصل الركب إلى كومبيين Compiègne في 72 مارس. لقد كان موكبها كموكب زفاف ماري أنطوانيت في سنة 0771. وكان نابليون قد رتب أمور اللقائين في كومبيين هذه لكن - فضولاً منه أو لطفاً - انطلق ليقابلها مرحباً بالقرب من كورسيل Courcelles وعندما رآها... لكن دعنا نتركه هو يروي لنا ما حدث: لقد خرجت من المركبة بسرعة وقبّلت ماري لويز Maire Louise. لقد كانت الطفلة الساذجة قد حفظت عن ظهر قلب حديثاً طويلاً كان عليها أن تردده على مسامعي وهي راكعة... وكنت قد سألت مترنيخ وأسقف نانث Nantes عما إذا كان يمكنني الليلة أن أكون تحت سقف واحد مع ماري لويز فأزاحوا كل شك علق بي وأكدوا أنها الآن الإمبراطورة، وليس الأميرة (الأرشيدوقة)... وعكفتُ عليها في غرفة نومها لا أبرحها إلا إلى المكتبة، وسألتهما عما قالوه لها عندما غادرت فيينا، فأجابتنني بسذاجة شديدة أن أباهما وفرأوا لاتسانسكي Lazansky قد وجهها بأن قالاً لها: حالما تصبحين مع الإمبراطور ولا ثالث معكما عليك أن تعلمي كل ما يطلبه منك تماماً، عليك أن توافقي على كل شيء يطلبه منك لقد كانت مبهجة.

وقد أراد السيد سيجو Segur مئياً ألا أظهره لها (!) مراعاة للتقاليد، لكنني بعد أن تزوجتها فعلاً أصبح كل شيء على ما يرام، وقلت له: اذهب إلى الشيطان (55).

في أول أبريل أصبح الاثنان زوجين وفقاً للإجراءات المدنية وذلك في سان كلود St. Cloud وفي اليوم التالي أصبح زواجا دينياً في الصالة الكبرى في اللوفر Louvre، ورفض كل الكاردينالات تقريباً حضور المراسم الدينية للزواج على أساس أن البابا لم يبلغ زواج جوزفين، فطردهم نابليون إلى الأقاليم (المحافظات أو الدوائر) لكن هذا لم يعكر صفوه فقد كان مغموراً بالسعادة من نواح أخرى. لقد وجد عروسه باعثة على المسرة حسيماً واجتماعياً - متواضعة ومطبعة وكريمة ورفيقة. إنها لم تعرف أبداً أن تحبه لكنها كانت رفيقة جذابة. وهي كإمبراطورة لم تحقق جماهيرية كالتى حققتها جوزفين، لكن صارت مقبولة كرمز لانتصار فرنسا على ملكيات أوروبا العدوانية.

ولم ينس نابليون جوزفين فكان يزورها تبعاً في مقرها حتى أن ماري بدأت في الاستياء، فاضطر للتوقف عن زيارتها لكنه راح يرسل لها خطابات دافئة، جميعها تقريباً تبدأ بعبارة يا حبيبي (65) وقد أجابت جوزفين على أحد هذه الخطابات من نافار Navarre في نورماندي Normandy في 12 أبريل سنة 0181: ألف ألف شكر لك لأنك لم تنسني. لقد أحضر إليّ ابني خطابك توأ... لقد اعتراني الضعف عند قراءته. وأي ضعف! فلم يكن به أي كلمة إلا وجعلتني أبكي، لكنها كانت دموعاً حلوة....

لقد كتبتُ إليك عند مغادرة مقر إقامتي في باريس Malmaison، وبعد مغادرتي رغبت كثيراً في الكتابة إليك أكثر من مرة، لكنني أحسست بأسباب سكوتك وخشيت أن أكون مزعجة... كن سعيداً، كن سعيداً فأنت تستحق السعادة، إنني أحدهك بكل قلبي. لقد أعطيتني أيضاً نصيبي من السعادة، وهو نصيب أحس به إحساساً قوياً... وداعاً يا صديقي، وأشكرك بكل الحب فسأحبك دائماً (75).

وراحت جوزفين تُسلي نفسها باشباع هو ايتها في ارتداء الملابس والحلي واستقبال الضيوف. وكان نابليون قد اعتمد لها ثلاثة ملايين فرنك سنوياً لكنها كانت تنفق أربعة ملايين، وبعد وفاتها في سنة 4181 لاحقته بعض فواتير مُسترواتها التي لم تُدفع في إلبا (85) Elba لقد جمعت جوزفين في مقر إقامتها Malmaison أعمالاً فنية كثيرة هيأت لها صالة عرض وكانت تُنفق على الولايم ببذخ. وكانت قيمة تكاليف دعواتها تلي مباشرة تكاليف زوجة نابليون (ماري لويز) وراحت تاليا Tallien الأميرة الأربعة عشر لشيماي Chimay - تزور جوزفين ويتذكران معاً أيام حكومة الإدارة ونفوذهما القوي الذي جعلهما كملكيتين، وزارتها الكونتيسة فالفسكا Walewska فاستقبلتها جوزفين بحفاوة وراحتا معاً يندبن حظمها لضياح حبيبهما (نابليون).

لقد قضى نابليون عامين كان فيهما سعيداً وفي سلام نسبي، فقد وسّعت معاهدة شونبرون Schonbrunn مملكته وأثرت خزانته وفتحت شهيته، فقد ضمّ إلى ملكه الولايات الباباوية (71 مايو 9081) وأعاد أخاه جوزيف (يوسف)

إلى عرشه في مدريد، وفي سنة 0181 وقعت السويد - التي طال عدواؤها له - معاهدة سلام مع فرنسا وانضمت للحصار القاري المضاد (المقصود منع التعامل مع البضائع البريطانية) وفي شهر يونيو قبلت - بناء على إلحاحه - أن يكون وريثاً للعرش السويدي. وفي ديسمبر ابتلع هامبورج وبريمن ولوبك Lubeck وبرج وأولدنبورج Oldenburg وضمها للإمبراطورية الفرنسية. وأدت رغبته الشديدة في اغلاق كل موانئ القارة الأوروبية في وجه التجارة البريطانية إلى أن أصبح في نظر أعدائه غازياً نهماً لا يشبع يجمع الديون لأرباب الحقد والحسد. وكانت الأمور الداخلية هادئة ومستتبة، فكانت أحوال فرنسا مزدهرة، وكان شعبها يحس بالفخار، ولم يكن هناك ما يعكر صفو أنسياب الماء في النهر سوى ما أحدثه طرد فوشيه Fouche نهائياً لازدياد نفوذه زيادة كبيرة. وقد تم تعيين سافاري Savary بدلاً منه كوزير للشرطة وعاد فوشيه إلى اكس - ان - بروفنس Aix - en - Provence ليديبر للانتقام لنفسه. أما الأمور الخارجية فلم تكن بمثل هذه السهولة؛ فهولندا كانت في الغاية من الاستياء لفرض الحظر على السفن البريطانية. وفقدت إيطاليا صبرها لسوء معاملة نابليون للباباوية، وكان الإيطاليون يفخرون بأنهم مقر الباباوية، وكان ولينجتون Wellington يبني جيشاً في البرتغال ليفزو به أسبانيا. وفيما وراء الراين Rhine كانت الدول الألمانية الخاضعة لحكم بونايرت مندمرة من الأعباء الضريبية في انتظار بعض الحماقات الإمبراطورية لتعود مرة أخرى لحكم سادتها السابقين الأكثر ملاءمة لها.

ومع هذا فقد كانت ماري لوييز Marie Louise حاملاً وكان الإمبراطور السعيد يعد الأيام لوضعها هذا المولود. وعندما اقترب الحدث أحاطه بكل الطقوس الاحتفالية ذوات المهابة التي كانت تصاحب - تقليدياً - ميلاد طفل من البوربون، فجرى الإعلان إنه إن كان المولود طفلة فستسمع واحداً وعشرين طلقة مدفع تحية للمولودة أما إن كان المولود ذكراً فستستمر الطلقات إلى مئة وواحد. وكانت عملية الوضع شاقة جداً، فقد (أراد) الجنين أن يأتي للعالم بقدميه أولاً، وقال الدكتور كورفيزار Corvisart لنابليون إنه إما أن يضحي بحياة الأم أو بحياة الوليد، فقيل له أن ينقذ الأم مهما كان الأمر (95). واستخدم طبيب آخر أدوات ليعكس وضع الجنين، وأصبحت ماري لوييز لعدة دقائق قريبة من الموت. وأخيراً (وافق) الجنين على الظهور برأسه أولاً، وعاش الطفل والأم (02 مارس 1181) ودوت مائة طلقة وطلقة معلنه ليباريس ميلاد ذكر، وانتقل الخبر سريعاً في سائر أنحاء فرنسا، ولم يكن في أوروبا كثيرون يستكثرون على الإمبراطور هذه السعادة. فقد أرسل كل حكام أوروبا تهانيهم للأب الذي طال انتظاره لوليد ولمن تم إعلانه بالفعل ملك روما (06) والآن ولأول مرة منذ بدأ مهامه أصبح يمكن لنابليون أن يحس بالطمأنينة بدرجة معقولة فقد أسس أسرة حاكمة يأمل أن تكون عظيمة مفيدة كالأسرار الحاكمة المعروفة بهذه الصفات في التاريخ، وربما أمكنها أن تجعل من أوروبا كياناً واحداً.

صفحة رقم : 14594

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> عن نابليون -> الصفات البدنية

الفصل العاشر

عن نابليون

يجب ألا ننسى نابلليون كما رسمه جروس Gros في سنة 6971 - يحملُ علماً في إحدى يديه وسيفاً مشهوراً في يده الأخرى بزيه المزخرف بالأحزمة الملونة والشارة الرسمية للسلطة، وشعره الكستنائي الهائج بفعل الرياح، وعينيه وحاجبيه وشفثيه المضمومتين بما توحيه هيئة كل هذه الأعضاء من عزم وتصميم. إن هذا التصور أبعد ما يكون عن الحقيقة. ويُقال إن جروس قد رآه - عندما كان أصغر بعامين من بطله (نابلليون) البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً - يغرس العلم على جسر أركول (1) Arcole، لكن ربما كانت اللوحة التي رسمها تمثل حبا شديداً مفعماً بالحماسة. إنه الفنان عندما يتعبد في محراب رجل الانجازات. ومع هذا فإن جوري Guerin عندما رسم نابلليون بعد ذلك بعامين مبرزاً في الأساس الملامح نفسها: شعرٌ متدلّ على الجبهة والكتفين، حاجبان مقوّسان على عينين داكنتين ثابتتين، وأنف مستقيم مدبّب حاد كإرادته، وشفثان مزومتان عازمتان كعقله. هذا التصور - أيضاً - ليس إلا جانباً واحداً من جوانب شخصية الرجل (نابلليون) - شخصية الرجل العسكري، فهناك جوانب أخرى كثيرة يمكن أن تُخفف من حدة هذه القسمات - كصورته وهو يشدُّ أذني سكرتيره مداعباً أو صورته وهو ينحني بشوق أبوي على الطفل ملك روما King of Rome. وبحلول سنة 2081 قص خصلات الشعر الطويلة هذه (2) كلها فيما عدا خصلة واحدة تركها تتدلى على جبهته غير البارزة، وبعد الأربعين بدأ متناقلاً واعتاد أحياناً أن يضع يده على كرشه، وعادة ما كان يعقد يديه خلف ظهره خاصة أثناء المشي، وقد ترسخت فيه هذه العادة حتى أنها كانت تكشف شخصيته في الحفلات التنكرية. وطوال حياته كانت يده تجذب الانتباه بجمال بشرتها واكتمالهما وأصابعهما المستدقة، والحق أنه كان فخوراً تماماً بأطرافه الأربعة، وعلى أية حال فإن لاكاس Las Cases الذي كان يظنه واحداً من الأرباب لم يستطع أن يمنعنا من الابتسام سخرية عند رؤية هاتين اليدين الواسعتين (3).

لقد كان بشكل عام قصيراً بشكل مفرط إذ لا يزيد طوله عن خمسة أقدام وست بوصات (4)، أما روح القيادة فتجلى في عينيه، فالكاردينال كابرارا Caprara الذي أتى للتفاوض بشأن الاتفاق البابوي (الكونكوردات) وضع على عينيه عدستين خضراوتين كبيرتين ليخفف بهما وهج عيني نابلليون وحملته. والجنرال فاندام Vandamme يعترف بخوفه من أثر عيني نابلليون الشبيه بأثر التنويم المغناطيسي. يقول هذا الشيطان الأدمي يمارس معي سحراً يجعلني غير قادر على التعبير عما في نفس، ورغم أنني لا أخاف الله ولا الشيطان، فإنني أخشاه (نابلليون) لدرجة أنني أرتعد كالطفل عندما أكون في حضرته وهو يستطيع أن يجعلني أمرق من سَمّ الخياط (من ثقب الإبرة) لألقي نفسي في النار (5) وكانت بشرة الإمبراطور شاحبة، إلا أنها - على أية حال - كانت تتألق بسبب حركات عضلات وجهه التي تعكس - إن أراد - أي خلجة من مشاعره أو فكرة من أفكاره. وكان رأس نابلليون كبيراً بالنسبة لجسمه، لكنه كان ذا تكوين حسن، وكانت كتفاه عريضتين، وصدرة بارزاً يئم عن بنية قوية. وكان لباسه بسيطاً تاركاً أبهة الملابس لمارشالاته، ولم يكن في قبعته المعقدة التكوين والمنشرة كالعكة المطوية أية زينات خلا الشريط المثلث الألوان. وعادة ما كان يلبس معطفاً رمادياً فوق الزي الرسمي لكوننيل من حراسه. وكان يحمل صندوق نشوق يضعه في حزامه (النطاق الذي يلفه حول وسطه) ويستعمل ما به من نشوق (سعوط) بين الحين والآخر، وكان يفضل ارتداء البنطلون القصير (الشورت) والجوارب الحريرية الطويلة على البنطلون الطويل. ولم يتحلّ أبداً بالجواهر، لكن حذاءه كان محفوفاً بالحرير وإبريم من ذهب. لقد كان في ملبسه ينتمي إلى ما كان سائداً أثناء حكم ما قبل الثورة، تماماً كما جنحت فلسفته السياسية الأخيرة إلى المنحى نفسه (منحى ما كان سائداً قبل الثورة).

لقد كان نابلليون منظماً دقيقاً إلى درجة الوسوسة (7). وكان يحب كثيراً الاستحمام بالماء الدافئ وأحياناً كانت تستغرق فترة استحمامه ساعتين، وربما كان يجد في هذا راحة له من التوتر العصبي وآلام العضلات، وراحة لجلده بعد إصابته بداء الحكة أو الهرش الذي انتقلت إليه عدواه في طولون (8) وكان يضع الكولونيا (العطر الكحولي المعروف) على رقبته وجذعه كما كان يضعه على وجهه (9). وكان معتدلاً بدرجة كبيرة في طعامه وشرابه إذ كان يخلط النبيذ بالماء (01) كالإغريق القدماء وكان غذاؤه يستغرق عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة لا غير. وفي المعارك كان يأكل إذا سنحت الظروف، وغالباً ما كان يلتهم طعامه في هذه الظروف بعجلة، وكان هذا يسبب له أحياناً عُس هضم، وكان هذا غالباً ما يحدث في أكثر اللحظات حرجاً كما حدث له في معركة بورودينو Borodino وليبيتسج (11) Leipzig. وكان يعاني من الإمساك وصحب ذلك في سنة 7971 داء البواسير الذي زعم أنه داواه بإجراء عملية نزع (21). لقد قال مينيفال Meneval إنني لم أره مريضاً أبداً ولكنه أضاف إلا أنه فقط، كان عرضة بين الحين والحين لنوبة قيء Vomiting bile لا تترك أبداً أثراً بعيدة المدى... وكان يخشى - لفترة - أن يكون قد أصيب بداء

وهن المثانة bladder لأن هواء الجبال الشديد سبب له نوعاً من عُسر البول لكن اتضح أن هذا الخوف بلا أساس(31). وعلى أية حال، فهناك أدلة قوية على أن نابليون أُصيب في أواخر حياته بالتهاب في جهازه البولي(41). وكانت أعصابه ذوات الحساسية المفرطة تتهاجر (كما حدث في مينز Mainz في سنة 6081) ليصير في حالة تشنج يشبه نوبات الصرع، لكن هناك اتفاقاً عاماً الآن أنه لم يكن مصاباً بداء الصرع(51).

لكن ليس هناك اتفاق كهذا فيما يتعلق بمعدته، فقد أخبر لوكاس Las Cases في 61 سبتمبر سنة 6181 إنني لم أصب أبداً بالصداع ولا بالآلام في معدتي وقد أيده مينيغال Meneral في قوله هذا لم أسمع أبداً يشكو من الآلام في معدته(61) وعلى أية حال فقد قرّر بورين Bourrienne أنه رأى نابليون أكثر من مرة يشكو من الآلام في المعدة حتى أنني كنت أصطحبه إذا ما اعترته نوبة آلام المعدة إلى غرفة نومه، وكنت غالباً ما أضطر لمعاونته وسنده مخافة وقوعه. وفي وارسو (فارسافا) في سنة 6081 بعد أن اجتاحت آلام عينية في المعدة، تنبأ بأنه سيموت بالمرض نفسه الذي مات به أبوه - سرطان المعدة(71). ولقد اتفق الأطباء الذين شرحوا جثته في سنة 1281 أنه كان مصاباً بمرض في المعدة يبدو ذا طبيعة سرطانية. وأضاف بعض الدارسين إصابته بالسيلان والزهري (السيفلس) ذاكرين أن آثار المرضين ظلت معه حتى آخر حياته(81).

وقد رفض نابليون أن يعالج اعتلاله الجسدي بالدواء وكان يؤمن بالحاجة إلى الجراحة فهي السبيل التي عادة ما كانت تستخدم مع الجنود الجرحى، أما الأدوية (العقاقير) فكان لا يثق فيها لأثارها الجانبية (لما تحدثه من ضرر يفوق ما تقدمه من شفاء) وكان يفضل إذا ما مرض أن يعالج نفسه بالصوم وشرب ماء الشعير وعصير الليمون والماء الذي نعت به أوراق البرتقال وممارسة رياضة عنيفة تؤدي لإفراز العرق، ثم يترك بدنه يشفي نفسه بنفسه. وقد ذكر لوكاس Las Cases أن الإمبراطور لا يذكر أنه تداوى في أي وقت بالعقاقير(91) لكن ذاكرة الإمبراطور كانت في هذا الوقت تجنح للنسيان (كان النسيان يريحه). وقد تحدث نابليون للطبيب نورثمبرلاند S. S. Northumberland وهو في الطريق إلى سانت هيلانه قائلاً: اسمع يا دكتور - إن الجسد البشري كآلة مهتأة لتحقيق أغراض الحياة، لقد نُظِم لتحقيق هذه الغاية - تلك هي طبيعته. اترك الحياة على سجيبتها واترك هذا الجسد يعتني بنفسه، فهذا أفضل من أن تشلّه بتحميله أعباء الأدوية(02). ولم يتعب نابليون من ازعاج طبيبه الأثير كورفيزار Corvisart بحديثه عن عدم جدوى الأدوية حتى استطاع أخيراً أن يجعله يتفق معه على أن الأدوية تحدث من الأضرار أكثر مما تحدث من الفائدة(12). ومازح نابليون طبيبه الأخير فرانسيسكو أنتومارشي Antomarchi بأنه سأله عما سيحاسب يوم القيامة عن قتل أكبر عدد من البشر أهم الجنرالات أم الأطباء. ورغم اعتلاله الجسدي فقد كان لديه طاقة هائلة لم تتخل عنه أبداً. وكان العمل معه لا يعني أبداً البطالة المقنعة، فلا مجال لبيروقراطية زائفة ومناصب بلا عمل، بل لقد كان العمل معه غالباً ما يؤدي إلى الموت البطيء (لكثرة الإرهاق) فكم من موظف (مسؤول) فخور استنفذ كل طاقته وغدا مرهقاً تماماً بعد خمس أو ست سنوات من ملازمة الإمبراطور الذي تتطلب ملازمته أن يكون المرء لاهثاً دوماً. وقد اعتبر أحد موظفيه نفسه أنه محظوظ لعدم وجود مقر عمله في باريس لو كنت في باريس لوافقتي المنية قبل انصرام الشهر بسبب الإرهاق. لقد قتل نابليون بالفعل بورتالي Portalis وكريت Cretet (المقصود قتلهم لكثرة ما أوكل إليهم من أعمال ومهمات) ويكاد يكون قد قتل أيضاً تريلهار Terilhard - رغم قوة بنيته - لقد كان تريلهار - كالأخرين - لا يستطيع التبول(22) وقد قال نابليون إن الرجل المحظوظ هو الذي اختفي بعيداً عن عيني في عمق إحدى المحافظات(32) وعندما سأل نابليون لويس - فليبي دي سيجو Louis - Philippe de Segur عما سيقوله الناس عنه بعد موته أجاب سيجو قائلاً إن العالم كله سيعبّر عن أسفه، لكن نابليون أجاب مصححاً: عفواً، إنهم سيقولون: أف، لقد ارتحنا سيقولونها بارتياح عميق وعلى مستوى العالم(42).

لقد أرق نفسه كما أرق غيره فقد كانت طاقته أقوى من بدنه. لقد ملأ في عشرين سنة أحداثاً تكفي لقرن لأنه كان يكثف عمل الأسبوع ليجمعه في يوم واحد. لقد كان يأتي إلى مكتبه في حوالي الساعة السابعة صباحاً، ويتوقع أن يكون سكرتيره مستعداً للحضور في أي وقت. لقد كان يقول لبورين Bourrienne تعال، دعنا نذهب للعمل(52) وقال لمينيغال Meneval كن هنا في الساعة الواحدة ليلاً أو الرابعة صباحاً، لنعمل معاً(62) وكان يحضر اجتماعات مجلس الدولة ثلاثة أيام أو أربعة كل الأسبوع، وقال للمستشار روديرييه Roederer إنني - دائماً - أعمل. إنني أعمل وأنا أتناول غدائي، وأنا في المسرح، بل إنني أقوم في منتصف الليل لأعمل.

وقد نتصور أنه لم يكن يجد وقتاً للنوم في ظل هذه الأيام الممتلئة عملاً وإثارة، لكن هذا غير صحيح فيورين Bourrienne يؤكد لنا أن الإمبراطور كان ينام جيداً، ولمدة كافية - سبع ساعات أو ثمان ليلاً بالإضافة إلى اغفائه بعد الظهر(72) وكان يفخر قائلاً للاكاس Las Cases إنني أستطيع النوم في أي ساعة وفي أي مكان إذا دعت الحاجة وقد وضّح نابليون شارحاً أنه يحتفظ بأمور كثيرة مختلفة مرتبة في عقله أو ذاكرته كما لو كانت في أدراج خزانة فعندما أُرغب في ترك موضوع أغلق الدُرَج الذي به هذا الموضوع لأفتح آخر به موضوع آخر... وإذا أردت النوم أغلقت كل الأدراج عندها أنام حالاً(82).

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> عن نابليون -> عقله

2- عقله

كان جوته Goethe يظن أن عقل نابليون هو أعظم عقل أنجبته البشرية (92). واتفق معه لورد أكتون Acton في ذلك الرأي. أما مينيفال Meneval الذي كان متأثراً بقربه من السلطان والشهرة فقد نسب إلى سيده (نابليون) أرقى فكر مُنحَهُ بشر على الإطلاق (03). أما تين Taine المعارض الشديد للمبالغين في الإعجاب بنابليون، والذي لا يكل ولا يمل من شجب موقفهم، فإنه رغم هذا يُبدي دهشة شديدة من قدرة الإمبراطور على العمل الفعلي المكتف لفترة طويلة: ليس هناك أبدأ عقل كعقله من حيث التنظيم والإنضباط (13) دعونا نوافق على أن عقل نابليون كان من بين عقول كل من نبواً منصباً تنفيذياً هو العقل الأكثر إدراكاً ووعياً وحدة وقدرة على التذكر وبراعة في استخدام المنطق. لقد أحب أن يُشير لنفسه كعضو في المجمع العلمي الفرنسي وقد عبّر ذات مرةً لابلاس Laplace عن أسفه لأن الظروف قد أبعدته كثيراً عن مجال العلم فقد كان يؤد أن يشتغل به ليكون عالماً (23) ففي تلك اللحظة كان نابليون يقدر الرجل الذي يضيف للفهم البشري تقديراً يفوق تقديره لمن يستحوذ على مزيد من السلطة وعلى أية حال، يمكننا أن نسامحه لاحتقاره أيديولوجية المعهد العلمي الفرنسي الذي أساء فهم الأفكار فظّنها هي نفسها الحقائق الموجودة على أرض الواقع، وراح (أعضاؤه) يشرحون أوضاع العالم (أو الكون) واقترحوا أن يعرضوا عليه كيفية حكم فرنسا. لقد كان عقل نابليون يُعاني من عيوب الخيال الرومانسي، لكنه أيضاً كان يتعامل مع حقائق حية من لحم ودم من خلال احتكاكه اليومي بمثيرات واقعية. لقد كان نشاطه العقلي الدائم على أعلى مستوى يمكن أن يكون عليه رجل الدولة وقد وظّف هذا النشاط العقلي لتحقيق أهدافه بشكل دائم فأصبح جزءاً لاغنى عنه في أي عمل يقوم به. لقد كان نابليون - في المقام الأول - حاد الحواس، بل لقد كان يعاني من هذه الحدة، فقد كانت أذناه تلتقط كل شاردة وواردة أو بتعبير آخر كانتا تسمعان حتى الأصوات الخافتة، وكان أنفه حساساً يجيد الشم (كان شمّاماً) وكانت عيناه تخترقان ما هو ظاهر لتتغلغل للأعماق، وتستبعد ما هو عارض لتستجلي المعنى واضحاً لا شياً فيه. وكان محباً للاستطلاع وجّه آلاف الأسئلة، وقرأ مئات الكتب ودرس الخرائط والتواريخ وزار المصانع والمزارع، واندشش لأكاس Las Cases لا تتسع دائرة اهتماماته واتساع مجالات معرفته عن البلدان والقرون. لقد كان يمتلك ذاكرة قوية أخضعها لطبيعة أغراضه فتخيّر لها ما يفيد. لقد كان يعلم ما يجب عليه نسيانه وما يجب عليه إبقائه حياً في ذاكرته. لقد كان منظماً؛ إذا كان يرتب رغباته بشكل موحد وطبقي (نظامي) بشكل واضح ومباشر ليجعل أفكاره وسياساته وطريقة حكمه تسير في كّل متكامل لتحقيق هذه الأغراض. لقد كان يطلب من مساعديه تقارير وتوصيات تتضمن أهدافاً محددة ومعلومات حقيقية وإجراءات تنفيذية ونتائج محسوبة لا مجرد كتابات بليغة وأفكار مثالية تدعو للإعجاب. وكان يدرس هذه المادة التي تقدمها التقارير والتوصيات في ضوء خبرته وأهدافه ومن ثم يُصدر تعليمات قاطعة ودقيقة. ولا نعلم لحكومته نظيراً في التاريخ من حيث الإعداد الدقيق المنظم لمثل هذه الإدارة الدقيقة المنظمة. فمع نابليون أسلمت الحرية قيادها لدكتاتورية النظام.

وكان بتحويله مذكراته إلى توقعات ماهرة في حساب نتائج الاستجابات المحتملة، وفي التنبؤ بخطط أعدائه وتحركاتهم، فمن أقواله: إنني أقضي وقتاً طويلاً في التأمل والتفكير، فإذا كنت نداءً لموقف مستعداً لمواجهة إذا حل وقت المواجهة، فما هذا إلا لأنني قد فكرت في الأمر كثيراً قبل حدوثه... لقد كنتُ أعد لكل احتمال عدته واضعاً في

الاعتبار كل ما يمكن أن يحدث. لم يكن الجنّي هو الذي يُلهمني فجأة بما يجب عليّ فعله أو قوله... وإنما هو تفكيري(43) ومن ثم فقد وجدناه يستعد - واضعاً في اعتباره التفاصيل - لمعركة مارنجو Marengo وأوسترليتس Austerlitz وتنبأً لا بالنتائج فحسب وإنما بالوقت الذي ستستغرقه كل معركة منهما. وفي قمة ازدهاره (7081) كان قادراً على الاحتفاظ برؤيته واضحة لا نشوّس عليها رغباته. لقد حاول أن يدرس الصعوبات المتوقعة والمفاجآت التي يمكن حدوثها، وما قد يقوم به أعداؤه من مجازفات، وذلك ليستعد لمواجهتها: عندما أخطت لمعركة فلا يمكن أن يكون هناك من هو أكثر جُبناً مني. إنني أضخّم أمام عيني كل خطر يمكن أن يحدث في ظل ظروف المعركة(53). لقد كان مبدأه الأول في حالة حدوث أمور طارئة غير متوقعة هو مواجهة العدو حالاً وبأقصى سرعة مهما كان الوقت؛ نهراً أم ليلاً. وكانت تعليماته الدائمة لبورين Bourrienne (سكرتيره): لا توقظني من نومي إن كان لديك أخبار طيبة تريد أن تُقضي بها إليّ، ففي هذه الحال لا مبرر للعجلة، لكن إن كان لديك أخبار سيئة فأيقظني على الفور، ففي حال الأخبار السيئة يجب ألا تُضَيّع لحظة واحدة(63) وقد اعترف نابليون أنه رغم كل هذا الاحتياط وبعُد النظر إلا أنه فوجئ ببعض الأحداث غير المتوقعة لكنه كان يتباهى بقدرته على التفكير الواضح والعمل الحاسم والمؤثر عقب استيقاظه من نومه فجأة(73) وقد حاول أن يُحصّن نفسه ضد المفاجأة وأن ينتهز المناسبة بسرعة، وكان يكرر دوماً قوله: ليس هناك إلا خطوة واحدة بين النصر والهزيمة(83).

وكان حكمه على الرجال عادة عميقاً كحساباته للوقائع والأحداث، فلم يكن ينخدع بالظواهر أو الاحتجاجات، فشخصية المرء - فيما يرى - لا تظهر على وجهه إلا إذا صار كبير السن، وغالباً ما يُخفي الحديث بالقدر الذي يُفصح. لقد أخضع نابليون نفسه للدراسة على نحو متواصل وخلص إلى أن كل الرجال وكل النساء تحرك مصالِحهم الذاتية أفعالهم الواعية. ومع أنه - أي نابليون - قد حظي بإخلاص شديد مجرد من المصالح الذاتية (من ديزيه Desaix ولان Lannes ومينيفال Meneval ولا كاس Las Cases... ومن أولئك الجنود الذين كانوا يهتفون وهم يحضرون: عاش الإمبراطور) إلا أنه لم يستطع أن يتخيّل وجود هذا النوع من الإخلاص الذي لا ينطوي على مصالح ذاتية أو بتعبير آخر لم يستطع أن يُفنع نفسه بوجود شيء اسمه إنكار الذات فورا كل كلمة وخلف كل فعل مَدْرُوس مقصود لم يكن يرى سوى سيطرة الأنا سيطرة لا تهمد - طموح الرجال الأقوياء وخوف الرجال الضعفاء، وتفاهة النساء أو خداعهن. لقد كان نابليون يبحث في كل شخص عن العاطفة المتحكمة فيه أو نقطة ضعفه، ليلعب على أوتارها ويطوّعها لأغراضه الإمبراطورية.

ورغم كل حيظته وحذره وتوقعاته إلا أنه وقع في أخطاء متباينة تبايناً شديداً (لم يدرك فحوى بعض الأحداث إلا بعد وقوعها) سواء فيما يتعلق بحُكمه على الرجال أم بتقويم النتائج وحسابها. وربما كان يعرف أن جوزفين لا يمكن أن تتحمل شهراً من العقّة (لا يمكن أن تصون عقبتها لمدة شهر) وإن ماري لوييز Marie Louise لا يمكن أن تُشدّ النمسا إلى السلام. وكان يظن أنه أسعد القيصر اسكندر في تليست Tilsit وإيرفورت Erfurt بينما كان القيصر يخدعه ببراعة بمساعدة تاليران. لقد أخطأ بتوسيع نطاق العداوة لبريطانيا في سنة 2081 بمد سلطانه - بجسارة - على بيدمونت ولومبارديا وسويسرا. وقد أخطأ عندما نصّب إخوته على عروش أكبر بكثير من عقولهم، وأخطأ عندما تصوّر أن الدول الألمانية في كونفدرالية الراين ستخضع للسلطة الفرنسية ولن تغتلب منها إذا انتهت الفرصة، وأخطأ بنشره وثيقة تُظهر نواياه في غزو تركيا، وأخطأ (كما اعترف في وقت لاحق) بتشتيت جيشه الأساسي (الجيش العظيم Grand Army) في أسبانيا. وأخطأ بغزوه روسيا الشاسعة أو ببقائه فيها حتى اقتراب الشتاء. ومع أنه كان متقوفاً على كثيرين إلا أنه كان كطبيعة الأشياء - كما قال - عرضة للمفاجآت ولأوهان المرض وتناقص السلطة. لقد قال: لقد فكرت في كثير من الخطط لكنني لم أكن أبدأ حراً مطلق اليد في تنفيذ واحدة منها. فكل ما في الأمر أنني كنت أمسك الموقد (الموجه) بيد ثابتة قوية، لكن الأمواج كانت أقوى، الحقيقة أنني لم أكن أبدأ سيّد نفسي my own master، لقد كانت الظروف دائماً هي التي تحكمني(93).

وعلى سبيل التخيّل أذكر الآتي. لقد كانت روح نابليون ساحة معركة بين ملاحظة حادة تضيء طريق العقل وتبث الحياة في خيال تتوجه الرومانسية أو حتى الخرافة(04). فعندما ذهب بحملته إلى مصر أخذ معه كثيراً من كتب العلوم وكثيراً من الكتب العاطفية أو الخيالية ومنها كتاب روسو La Nouvelle Heloise وكتاب جوته Werther وكتاب ماكفرسون (Ossian 14) وقد اعترف نابليون - في وقت لاحق - أنه قرأ كتاب جوته (Werther) سبع مرّات(24)، وفي خاتمة المطاف خلص بأن الخيال يحكم العالم(34) وعندما أوصلته الظروف إلى مصر استغرق في أحلام الاستيلاء على الهند وخوض الحروب في الشام، وتصور نفسه يغزو القسطنطينية بحفنة رجال ومن ثم يتجه إلى فيينا وكأنه سليمان الذي لا يُقهر (القانوني) بُعث من جديد ولأن القوة والسلطة قد طردتا الحذر من دمه، فقد تجاهل تحذير جوته (التحذير المعروف بالتوقف في الوقت المناسب Entsagen): لقد كانت نجاحاته المتوالية تتحدّى الأرباب، وتتمرد على أي حدود، وفي خاتمة المطاف وجد نفسه منبذاً بلا عون مقيداً إلى صخرة في المحيط.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> عن نابليون -> شخصيته

3- شخصيته

لقد بدأ كبرياؤه أو اعتداده بنفسه من اكتفائه بذاته أو بتعبير آخر باعتماده على نفسه ، كان من الطبيعي أن يرتبط هذا بكل أعضائه، ففي شبابه تضخم هذا الشعور متخذاً شكلاً دفاعياً أثناء الصدمات التي جرت بينه وبين أفراد أو أسرته في كورسيكا، وبعد ذلك تجلّى ضد عجرفة طلبة بريين Brienne الذين كانوا يتكبرون عليه بحكم انتماءاتهم الطبقية أو العرقية. ولم يكن اعتداده بنفسه على أية حال خالياً من الأنانية، لكن هذا لم يمنع إخلاصه وتكريمه لأمه ولجوزفين وأبنائها ولم يمنع حبه لابنه من ماري لويز ذلك الوليد الذي أطلق عليه اسم ملك روما وحبه الشديد لإخوته وأخواته الذي كانوا أيضاً ذوي نفوس تواقّة. لكن كلما اتسعت دائرة نجاحاته في السلطة والمسؤوليات، ازداد اعتزازه بنفسه واستغرفته ذاته، وبدأ يميل لنسبة كل انتصارات جيوشه لنفسه، لكنه مع هذا كان يمتدح ديزيه Desaix ولان Lannes، وقد أحبهما حقاً وحزن من أجلهما. وأخيراً فقد اعتبر نفسه هو فرنسا ذاتها وتضخمت ذاته مع كل اتساع حدودها.

وأحياناً كان كبرياؤه ووعيه بقدرته يتدبّيان إلى مستوى من التقاهة أو الخواء، أو استعراض ما أنجزه. لقد قال يوماً لسكرتيره بورين: حسناً يا بورين، أنت أيضاً ستكون خالداً فلما سأله بورين: لماذا يا جنرال قال نابليون ألسنت سكرتيري؟. أخبرني عن اسم سكرتير الاسكندر أليس هو هم Hm، هذا ليس أمراً سيئاً يا بورين(44). وكتب نابليون ليوجين (حامل لقب نائب الملك في إيطاليا) في 41 أبريل سنة 6081: إن شعبي الإيطالي يجب أن يعرفني جيداً بشكل كاف ويجب ألا ينسى أن في إصبعي الصغير من الفهم أكثر مما في عقولهم جميعاً(54) وكان الحرف الأول من اسمه (N) يتألق في آلاف الأماكن وكان أحياناً يفتن بالحرف الأول من اسم زوجته جوزفين (J). لقد شعر الإمبراطور أن الاستعراض مسألة ضرورية كدعامة من دعائم الحكم.

لقد أعلن لروديريه Roederer في سنة 4081 عندما كان جوزيف (يوسف) يحتال ليكون وريثاً (ولياً لعهد نابليون): إن السلطة هي خيلتي أو رفيقتي. لقد بذلت جهوداً فائقة في هذه الفتوحات، جهوداً تجعلني لا أسمح لأبي مهما كان أن يأخذها مني أو يُبعدها عني أو حتى يرنو إليها أو يشتهيها... منذ أسبوعين لم أكن مصمماً على معاملته بظلم. أما الآن فإنني غير متسامح. سوف ابتسم له بشفتي (ابتساماً ظاهرياً) - لكنه نام مع رفيقتي أو خيلتي (يقصد السلطة)(64) (هنا أظهر نابليون نفسه غير عادل. لقد كان عاشقاً غيوراً لكنه كان رجلاً متسامحاً) ومن أقواله إنني أحب السلطة كما يحب الموسيقي كمانه لذا فإن طموحه قد أدى به إلى وثبات متتالية من منطقة إلى أخرى. لقد كان يحلم بمنافسة شارلمان في توحيد أوروبا الغربية بما في ذلك الولايات البابوية - بالقوة، ومن ثم يتتبع خطى قسطنطين فيخرج من فرنسا إلى ميلان ومنها إلى القسطنطينية (اسطنبول) ليستولي عليها، ويشيد أقواس النصر التقليدية لإحياء ذكرى انتصاراته، ويستمر في أحلامه فيجد أوروبا صغيرة جداً، وأنها مجرد نل من تراب(84)، فيشرع في منافسة الإسكندر الأكبر فيغزو الهند، قد يكون هذا عملاً شاقاً له وللمليون جندي التابعين له، لكن العظمة ستكون عوضاً كافياً له ولهم عن هذا التعب، وإن أدركهم الموت فلا بأس فهذا ليس ثمناً باهظاً فالموت ليس مأساة، وإنما المأساة أن تعيش مهزوماً تافهاً، فتلك حياة تعني أنك تموت كل يوم(94) إنني لا أعيش إلا للأجيال القادمة(05). لقد أصبح المجد La gloire هو حبه المهيم، لذا فقد قبلته فرنسا كلها - تقريباً - كمرشد (باعتباره نجماً هادياً) طوال عقد من الزمن، وكأنها مسوقة بقوى التتويم المغناطيسي.

لقد تابع تحقيق أهدافه بإرادة لا تلين إلا لتقفز من جديد - حتى استنفذ طاقاته في بلوغ الذروة وأصبح بعدها جديراً بالشفقة. لقد توحد طموحه الذي لا يهدم مع إرادته وتوجهاته ليتفاعل مع جوهر أيامه، ففي بريين Brienne قال: حتى عندما لم يكن أمامي شيء محدد لأقوم به، فإنني كنت أشعر دائماً أنني لا يجب أن أضيع الوقت (15) وإلى جيروم Jerome في سنة 5081 وجه حديثه قائلاً: إنني لا أدين إلا لقوة الإرادة والشخصية والقدرة على التنفيذ والجرأة (25) فالجراحة كانت جزءاً من استراتيجيته، وكان يستغل عامل الوقت فكان يواجه عدوه بسرعة إجراءاته، وأفعاله الحاسمة في وقت لا يتوقعونه وفي مكان لا يتصورون حدوث المواجهة فيه. لقد كان يقول: إن هدفي هو الوصول للهدف مباشرة دون أن أسمح لأي اعتبار أن يوقفني (35)، لكنه استغرق عقداً من الزمن ليتعلم الحكمة القديمة التي مؤداها أنه في السياسة يعتبر الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين.

وفي بعض الأحيان كان الهوى يفسد أحكامه ومسلكه ويشكل حاجزاً بينه وبين الرؤية الصحيحة. وكان نفاذ الصبر (قصير البال كما أنه قصير البدن)، وكلما اتسع سلطانه زاد نفاذ صبره (قلّ طول باله). لقد كانت ضراوة أهل كورسيكا وحرارتهم تسري فيه مسرى الدم، ورغم أنه عادة ما كان يتحكم في نفسه إذا ما اعتراه الغضب إلا أن أولئك المحيطين به بدءاً من جوزفين إلى حارسه الشخصي القوي روستام Roustam كانوا يتحوطون في كل كلمة وكل حركة مخافة إثارة سخطه. وكان نفاذ الصبر إذا ما ظهر له تتقاضى أو توان أو عدم كفاءة أو غباء. وعندما ينفذ صبره لأمكن أن يوبّخ علناً أحد السفراء، وأن يسبب أحد الأساقفة وأن يركل فيلسوفاً في بطنه، وإذا لم يتوفر له ما هو أفضل ركل الأخشاب في المدفأة (45). ومع هذا فقد كان غضبه يخمد بمجرد تفرغ شحنته، وغالباً ما كان هذا الغضب غطاءً أو حركة من حركات السياسة، وفي معظم الحالات كان يقوم بعملية استرضاء لمن صبّ عليهم غضبه بعد يوم أو حتى بعد دقيقة (55). ولقماً كان فظاً إلى حد مؤلم، فهو في غالب أحواله رقيق مداعب فكّه (حاضر الكنتنة) (65) لكن روح الفكاهة عنده قد أضعفتها المعارك وما تعرض له من مواقف صعبة، ولم يُتَح له وقت كثير لمسرات أوقات الفراغ أو الانهماك في القيل والقال، أو ظُرف الصالونات. لقد كان رجلاً في عجلة دوماً تحيط به ثلّة من الأعداء، ويمسك بزمام إمبراطورية، ومن الصعب علي رجل في عجلة من أمره أن يكون متمديناً.

لقد استنفذ كثيراً جداً من طاقته في فتح نصف أوروبا، وتبقى منها - أي من هذه الطاقة - شطر كثير للانهماك في الأمور الجنسية على نحو منافٍ للعقل، وكان من رأيه أن كثيراً من أشكال الرغبة الجنسية يتم تعلمها من خلال المعاشية البيئية أكثر من كونها مسألة مورثة فنجده يقول: كل شيء بين الناس اصطلاحى أو متفق عليه حتى فيما يتعلق بالمشاعر التي قد يظن المرء أن الطبيعة وحدها هي التي فرضتها (75) لقد أمكنه أن يكون له باقة من المحظيات على النسق البوربوني بمعنى الكلمة لكنه تعامل أيضاً مع ستة خليلات أخريات على فترات بين المعارك، وكانت كل امرأة تُسعد له الليلة تعتبر نفسها قد دخلت التاريخ، وعادة ما كان يُفشي أسرار لقاءاته الجنسية بفظاظة ويتحدث عن آخر شريكاته في الفراش ليس بامتنان وإنما بقسوة (85). وقد تسبّب عدم إخلاصه في إزعاج جوزفين لساعات طوال قضتها في كآبة وحزن، لكنه شرح لها الأمر (إن جاز لنا أن نصدّق مدام دي ريموزا Remusat) قائلاً إن هذه النسالي وهذا الترويح عن النفس أمر طبيعي وضروري ومعتاد ولا بد أن تتفهمه الزوجة، وكانت تبكي، وكان يُطَيّب خاطرها، وكانت تسامحه (95). وفيما عدا ذلك فقد كان زوجاً صالحاً بقدر ما تسمح به مهامه وما تحتمه من تنقلات كثيرة.

وعندما أنته Marie Louise قبل بمبدأ الاكتفاء بزوجة واحدة (على حد علمنا) ولو حتى يكون الزنا قد يتسبب في فقدانه النساء، وتضاعف إخلاصه لها (لماري لويوز) عندما أدرك ما تعانيه من الأم مبرحة وهي تضع له طفلاً. لقد كان دائماً يُظهر حبه الشديد للأطفال وسجلت المدونة القانونية النابليونية لهم ما ينم عن عناية خاصة (06). والآن فقد أصبح ابنه الذي سماه ملك روما معبوده ومحبوبه ومَعَقِدْ آماله، فراح يعتني به لتوريثه حكم فرنسا واهية القوانين لأوروبا الموحدة ليحكمها بحكمة. وبذا تضخمت ذاته المتضخمة أصلاً بالانغماس في حب الزوجة والحب الأبوي (حبه لابنه).

لقد كان نابليون منشغلاً بالأمور السياسية انغماساً هائلاً لا يجعل له وقتاً لأصدقاء. بالإضافة إلى أن الصداقة تعني أخذاً وعتاء على قدم المساواة وقد وجد نابليون أنه من الصعوبة أن يُدْعن لمساواته وقد وجد نابليون أنه من الصعوبة أن يُدْعن لمساواته مع آخرين في أي شكل من أشكال المساواة. لقد كان هناك مخلصون أوفياء له ضحى بعضهم بحياته فداء لمجده ومجدهم ومع هذا لم يكن أحدهم يفكر في أن يدعوه صديقاً. لقد أحبّه يوجين لكن حبه له كان كحب الأبن لأبيه أكثر منه كحب الصديق لصديقه، ويحكي لنا بورين Bourrienne (وهو لم يكن جديراً بالتصديق تماماً) أنه سمع مراراً من نابليون في سنة 0081 قوله:

الصداقة ليست إلا اسماً بلا مضمون. أنا لا أحبُّ أحداً. إنني حتى لا أحبُّ إخوتي، ربما أحب جوزيف (يوسف) قليلاً بحكم التعود ولأنه أخي الكبير. وأنا أيضاً أحب دوروك Duroc... اعلم جيداً أنه لا أصدقاء حقيقيين لي. فطالما أنني مستمر على ما أنا عليه، فإنه يمكنني أن احتفظ بعدد كبير من الأصدقاء الظاهريين (غير الحقيقيين) كما أشتهي. دع

رقة الشعور للنساء، فتلك مهمتهن. لكن الرجال يجب أن يكونوا رابطي الجأش ذوي أهداف محددة، وإلا تخلوا عن مهامهم في الحرب والحكم(16).

تلك هي الحلقة النابليونية الرواقية لكن ليس من السهل أن نوقِّق بين هذا وإخلاص رجال مثل ديزيه Desaix ودوروك Duroc ولان Lannes ولاكاس Las Cases وآخرين كثيرين دام إخلاصهم له طوال حياتهم. بل أن بورين نفسه يصدِّق على أن نابليون كان رقيقاً رقيق المشاعر خارج نطاق المعارك(26) ويوافق مينيفال Meneval الذي كان قريباً من نابليون طوال ثلاثة عشر عاماً على ذلك فيقول:

لقد توقعت أن أجدّه فظاً متقلب المزاج، لكنني - على العكس من ذلك - وجدته صبوراً متسامحاً من السهل بعث المسرة في نفسه، وهو بلا شك منضبط كما أنه مرح وكثيراً ما يتخذ مرحة طابع الجلبة وروح السخرية، وأحياناً يتخذ طابع الوداعة الجذابة.. فلم أعد خائفاً منه، ومما جعلني أستمر في حالة الاطمئنان إليه كل ما رأيته من أساليب مؤثرة وداعية للمسرة كان يتبعها في تعامله مع جوزفين وحرصه على الاخلاص لضباطه ورفقته مع ذوي قرابته ومع مسشاريه ووزرائه وألفته مع جنوده(36).

ومن الواضح أنه كان يستطيع أن يكون شديد البأس إذا ما رأى أن السياسة تتطلب هذا، كما كان يغدو لطيفاً رقيقاً إن سمحت السياسة بذلك، فالسياسة عنده تأتي في المقام الأول. لقد أمر بسجن رجال كثيرين ومع هذا فقد سجل التاريخ له كثيراً من مظاهر التسامح أوردها فريديريك ماسون Frederic Masson في مجلده. واتخذ إجراءات لتحسين أحوال سجون بروكسل لكن أحوال السجون الفرنسية في سنة 4181 كانت سيئة لا تتناسب مع الكفاءة العامة التي اتسم بها حكمه. لقد رأى آلاف القتلى في ساحة المعركة ومع هذا لم يتردد في خوض معارك أخرى، ومع هذا فقد سمعنا أنه غالباً ما كان يتوقف لإتاحة فترة راحة لجندي جريح ورأه فيري كونستان (قستطين) Very Constant يبكي أثناء تناول إفطاره بعد عودته من عند سرير المارشال لان (46Lannes) الذي أصيب بجروح مميتة في إسلنج Essling في سنة 9081.

ولا جدال في سخائه واستعداده للعفو. لقد عفا كثيراً عن بيرنادوت Bernadotte وبورين Bourrienne وعندما طلب منه كارنو Carnot وشينييه Chennier - بعد أن ظلّا يعارضانه سنوات - أن ينقذهما من الفقر أرسل لهما - على الفور - ما يُعينهما. وفي سانت هيلانة التمس الأعداء لمن تخلوا عنه في سنة 3181 أو سنة 5181. ولم يكن هناك إلا البريطانيون الذين ظلّ ممتعضاً منهم حتى النهاية بسبب عداوتهم المتواصلة له، فلم يكن يرى في بت Pitt سوى أنه مرتزق قاس، وكان غير منصف على نحو أبعد في رأيه في سير هدسون لو Hudson Lowe وكان من المحال عليه أن يرى ميزة في ولنتجتون(56) Wellington وكان عادلاً بدرجة كبيرة في تقويمه لنفسه: إنني اعتبر نفسي رجلاً طيب القلب(66) لقد قيل لنا إن الرجل مهما كان شأنه لا يمكن أن يعتبر بطلاً في نظر خادمه الخصوصي لكن فيري كونستان Very Constant الذي ظل طوال أربعة عشر عاماً يعمل مع نابليون بهذه الصفة يسجل لنا في مذكراته التي شغلت عدة مجلدات إعجاباً يفوق الحد(76).

ولم يكن الذين نشأوا في رحاب الحكم القديم (ملكية ما قبل الثورة) وتشرّبوا عاداته الأنيقة ليحملوا طريقة نابليون المباشرة الفظة في الحركة واللباس. لقد أثار سخريته مثل هؤلاء بمركبته التي يريد أن يؤكد بها ذاته على نحو أخرق، وبطريقته الخشنة في الحديث في بعض المناسبات. ولم يكن يعرف كيف يُرضي هؤلاء الناس ويبدو أنه لم يكن مهتماً بذلك فقد كان أكثر حرصاً على الجوهر منه على الشكليات. إنني لا أحب الغموض والإبهام وهذه العبارة السطحية التي تشير إلى الأيتكيت أو آداب المجتمع.. إن هذا إلا وسيلة الأغبياء ليرفعوا أنفسهم لمستوى رجال الفكر.. وعبارة الكياسة أو الذوق الحسن هي الأخرى من التعبيرات التقليدية التي لا تعني لي شيئاً.. أما ما يُقال له زئ أو مؤدّة سواء كان حسناً أم سيئاً فلا يؤثر في. إنني لا أهتم إلا بقوة الفكر(86) وعلى أية حال فإنه كان يبدي إعجابه - على نحو سرّي بهدوء الرجال المهذّبين ودمائتهم، وكان يتطلع لقبول الارستقراطيين له، أولئك الارستقراطيين الذين كانوا يسخرون منه في صالونات فابورج سان جرمن Fabourg St - Germain. ومن ناحية فإنه بطريقته الخاصة كان يستطيع أن يكون جذاباً فاتناً عندما يريد(96).

وربما يرجع رأيه السخيف في النساء إلى تسرعه في عدم الاهتمام بمشاعرهن، لقد أبدى ملاحظة لمدام شاربنتييه Charpentier قائلاً: يالبشاعة منظرك في هذا الرداد الأحمر! (07) وجعل من مدام دي ستيل Stael عدوّه له عندما ذكر لها أنه يُقدّر النساء وفقاً لدرجة خصوبتهن (قدرتهن على الإنجاب) وقد وبّخته بعض النسوة لفظاً بلطف أنثوي، فعندما قال لمدام دي شيفريز Chevreuse صدقيني ما أشد حُمره شعرك! أجابته قائلة: ربما كان الأمر كذلك يا سيدي، لكن هذه هي المرة الأولى على الإطلاق يقول لي رجل هذا القول(17) وعندما قال لذات الجمال المشهور: مدام إنني لا أحب أن تتدخل النساء في السياسة. أجابته إجابة مفحمة قائلة: أنت على حق أيها الجنرال، لكن في بلد تُقطع فيه رؤوسهن، من الطبيعي أن يُردن معرفة السبب(27) ومع هذا فإن مينيفال Meneval الذي - غالباً - ما كان يراه كل يوم لاحظ جاذبية نابليون التي لا تُقام(37).

وكان نابليون يحب في بعض الأحيان أن يكون حديثه على سبيل المزاح، وغالباً ما يكون ذلك مفيداً وموجهاً. وكان يدعو العلماء والفنانين والممثلين والكتاب لمائدته ويدهشهم بدمائته وسعة معلوماته في مجالات تخصصهم وبراعة ملاحظاته، وقد ترك لنا إيزابي Isabey رسام المنمنمات ومونج Monge العالم الرياضي وفونتين المعماري وتالما الممثل مذكرات عن هذه اللقاءات، وجميعهم يشهدون بأن مناقشات نابليون معهم كانت ممتازة وودودة ومرحة (47). وكان كثيراً ما يُفضّل الحديث على الكتابة، فقد كانت أفكاره تسبق كلامه لذا فعندما كان يريد كتابة أفكاره فإنه كان يكتبها بسرعة شديدة حتى أن أحداً - بمن في ذلك هو نفسه - لا يستطيع فك مغاليقها (57). لذا فقد كان يُملي، وقد تم نشر 14،000 خطاب من خطابه ولا شك أن آلاف أخرى لم تنشر، وهذا يجعلنا نفهم مدى المعاناة التي كان يعانها سكرتيره. لقد نجا بورين الذي عُيّن سكرتيراً له في سنة 7971 وكان حسن الحظ إذ تم فصله من عمله في سنة 2081 وبذا تمكن من العيش حتى سنة 4381، لقد كان بورين يتوقع أن يستدعيه نابليون في السابعة صباحاً ليظل يعمل معه طوال النهار كما كان يستدعيه ليلاً. وكان بورين يتقن عدة لغات حديثاً وكتابة كما كان يعرف القانون الدولي، وكان له طريقته في الاختزال مما مكّنه عادة من الكتابة أسرع مما يُملي نابليون.

أما مينيفال Meneval الذي خلف بورين في سنة 2081 فقد كان يعاني من العمل مع نابليون أكثر من معاناة بورين فهو يقول: إنني لم أكن أعرف أي نوع من أنواع الاختزال وكان نابليون يحبه وغالباً ما كان يمزح معه لكنه كان يرهقه كل يوم غالباً وبعدها يطلب منه أن ينصرف ليأخذ حماماً (67). وقد ذكر الإمبراطور وهو في سانت هيلانة: إنني مسؤول تقريباً عن موت مينيفال. لقد كنت ملزماً بإعفائه لفترة من واجبات وظيفته وجعله بالقرب من ماري لويز للاستشفاء وكان منصبه الجديد هذا لا ينطوي على مهام عمل حقيقية (77) وفي سنة 6081 حوّل نابليون في اختيار مساعد له أي مساعد لمينيفال، فرشح فرانسوا فان Francois Fain الذي عمل مع نابليون للنهاية وفي كل المعارك. ومع هذا فقد كان مينيفال قد تعب تماماً فهرب من إمبراطوره المحب له في سنة 3181. لقد كان حُب مينيفال له من نوع الحب الذي يزدهر في ظل الاعتراف بعدم المساواة بين المحبين، وهو حب غير مذموم.

صفحة رقم : 14597

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> عن نابليون -> الجنرال

4- الجنرال

لقد صاغ تعليمه العسكري في بريين Brienne - إلى حد ما - بدنه وعقله وشخصيته ومجال اهتمامه، فهناك تعلم كيف يكون لائقاً لكل طقس أو مكان، وأن يفكر بوضوح في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل وأن يميز بين الواقع والرغبة وأن يُطيع الأوامر وينفذها دون تردد وأن ينظر لتضاريس المنطقة من حيث إمكانية حركة الجماعات فيها، هل الأصلح أن تكون حركتها مكشوفة أم من وراء ستار وأن يتوقع ما يُزعم العدو القيام به من مناورات وأن يستعد لمواجهة ما سيحدث فلا يُفاجأ وأن يلتقي بالعدو لقاءً محسوباً لالقاء الفُجاءة وأن يرفع الروح المعنوية لرجاله بالخطابة فيهم وأن يعوّض الأهم بيت روح العظمة والمجد فيهم وأن يحبب إليهم الموت في سبيل الوطن وكل هذا بدا لنابليون علم العلوم، فما دامت حياة الأمة تقوم على اصرارها وقدرتها على الدفاع عن نفسها عن طريق الحرب كحكم نهائي لا خيار سواه إن فشلت الوسائل الأخرى. لقد أعلن نابليون أن فن الحرب دراسة هائلة تضم بين جنبها كل الدراسات الأخرى (87).

وعلى هذا فقد تتفَق بمعظم هذه العلوم التي تُسهم في تكوين علم الدفاع عن الوطن. لقد قرأ التاريخ ليتعلم طبيعة الإنسان وسلوك الدول. ولقد أدهش العلماء في وقت لاحق بمعلوماته عن الإغريق والرومان ومعلوماته عن أوروبا الوسيطة والحديثة. لقد درس وأعاد دراسة معارك الإسكندر، وهانيبال، وقيصر وجوستافوس أدولفوس Gustavus Adolphus وتورين Turenne ويوجين السافوي Eugene of Savoy وفريدريك الأكبر، وقال لضباطه سيروا على نهجهم وارضوا الاقتداء بغير هؤلاء الرجال العظماء(97).

وانتقل من الأكاديمية العسكرية إلى المعسكر، ومن المعسكر للحكم، وربما أخذ عن أمه الرواقية (غير العاطفية) موهبة القيادة وعرف أسرارها، وكان لديه الشجاعة لتحمل المسؤولية وللمخاطرة بأمرٍ مجرى حياته مرةً ومرةً معتمداً على تقديره للأمر، وقام بالمغامرة إثر المغامرة مستهزئاً - غالباً - بالمحاذير. لقد خسر الرهان الأخير، لكن بعد أن فرض نفسه كأبرع جنرال في التاريخ.

وبدأت استراتيجيته العسكرية باتخاذ إجراءات لكسب عقول رجاله وقلوبهم. لقد شغل نفسه بخلفية كل ضابط تحت قيادته المباشرة وشخصيته وأماله. وكان يختلط بين الحين والآخر بالجنود العاديين مذكراً إياهم بانتصاراتهم سائلاً عن أحوال أسرهم مستمعاً لشكاياتهم. وقد كان يحشد حرسه الإمبراطوري ويسميه المدممون لكثرة دمدتهم، وقد حاربوا من أجله حتى الموت. وفي بعض الأحيان كان يتحدث إليهم ساخراً من سذاجة جندي المشاة، فعلى سبيل المثال عندما كان في سانت هيلانة أبدى ملاحظة مؤداها أن الجنود جعلوا ليثقوا بأنفسهم إلى التهلكة (08) ولكنه تبتى - وأعان - كل أطفال المقاتلين الفرنسيين الذين ماتوا في أوسترليتز (18) Austerlitz. لقد كان جنوده يحبونه حباً يفوق حب أي طائفة أخرى من الشعب الفرنسي له، لذا فقد كان حضوره في ميدان المعركة - وفقاً لرأي ولنجتون Wellington يعادل حضور أربعين ألف مقاتل(28).

وكانت خطاباته لجيشه جزءاً مهماً من استراتيجيته، فمن أقوال أنه في الحرب تعتبر المعنويات والرأي تعادلان ما هو أكثر من نصف المعركة(38). فمنذ معركة قيصر على نهر الروبيكون Rubican لم يكن لقائد مثل هذا التأثير الذي كان نابليون يُحدثه في جنوده. ويخبرنا بورين الذي كتب بعض هذه البيانات الشهيرة من املاء نابليون أن الجنود في حالات كثيرة لم يكونوا يستطيعون فهم ما يقوله نابليون لكن هذا لم يكن مهماً فقد كانوا على استعداد لتنفيذ أوامره راغبين غير مكرهين حتى لو كانوا خُفاة وبلا مؤن(48) وفي كثير من خطبه شرح لهم خطط عملياته وعادة ما كانوا يفهمون ما يعنيه، وكانوا يحملون المسيرات الطويلة الشاقة بصبر مما كان يمكنهم من مفاجأة العدو أو اجتياحه بالتفوق العددي عليه. ومن أقوال نابليون أن أفضل الجنود هو الذي يسير بلا تعب، فهذا أفضل من مقاتل لا يجيد المسيرات الطويلة(58) وفي اعلان سنة 9971 قال للمستمعين إليه: إن فضائل الجندي تتمثل في الجِدِّ والتحمل والنظام، وتأتي الشجاعة في المقام الثاني(68) وغالباً ما كان يبدي رحمة ولكنه لم يكن يتردد في اتخاذ قرارات قاسية إذا كان الانضباط في خطر. وبعد انتصاراته الأولى في إيطاليا عندما سمح لجنوده - بعد تروء - بشيء من السلب لتعويض تقصير حكومة الإدارة في إمداد الجنود بالطعام واللباس والرواتب، عاد فمنع مثل هذه المسلك (السلب) وفرض النظام بشدة ومنع السلب وسرعان ما وُضعت أوامره موضع التنفيذ. يقول مينيفال لقد شهدت فيينا وبرلين ومدريد وغيرها من المدن حالات إدامة جنود وإعدامهم بمن فيهم جنود تابعون للحرس الإمبراطوري لارتكابهم أعمال سلب ونهب(78).

وقد عبّر نابليون عن جانب من استراتيجيته في صيغة رياضية كالتالي: قوة الجيش كالقوة الدافعة في الآلة تُقَدَّر بمدى السرعة التي تم تحقيقها في اجمالي مدة زمنية محدّدة. فالسرعة في المسير (الزحف أو الحركة) تزيد من الروح المعنوية للجيش، وتزيد من قوته لتحقيق النصر(88) وليس هناك مصدر موثق لتأكيد قول من ينسب إليه قوله: إن الجيوش تزحف على أمعائها والمقصود امداداتها من الطعام(98). بل إن رأيه أقرب ما يكون إلى القول بأنها تزحف على أقدامها فقد كان شعاره القوة، النشاط، السرعة(09) وعلى هذا فهو لم يكن يعول على التحصينات كوسائل للدفاع فقد كان سيضحك ساخراً من خط ماجينو Maginot الذي أقيم سنة 9391، فقد قال في سنة 3971 (أي قبل إنشاء خط ماجينو الدفاعي بحوالي قرن ونصف): إنه لمن البديهي أن الجانب الذي سيبقى خلف خط محصّن سيظل دائماً مهزوماً وكرر قوله هذا في سنة 6081(19). لقد كانت عناصر استراتيجية نابليون تقوم على: ترقُب قيام العدو بتقسيم قواته أو نشرها، واستخدام الجبال والأنهار كسائر لحماية تحركات قواته (أي قوات نابليون)، والاستيلاء على المرتفعات الاستراتيجية التي تستطيع منها المدافع أن تدك ساحة المعركة، واختيار ساحة معركة تُتيح المناورة للمشاة وقوات المدفعية والفرسان، والتركيز على جانب من القوات - عادة ما يكون ذلك بالحث على سرعة الحركة - لمواجهة الكتلة الأكثر عدداً من قوات العدو التي بعدت عن القلب بعداً يجعل من الصعب قدام قوات أخرى لدعمها في الوقت المناسب.

والمحك الأخير للجنرال (نابليون) هو تكتيكاته - تنظيم قواته والمناورة بها من أجل المعركة وأثناءها - وكان نابليون يتخذ لنفسه موقعاً يستطيع منه أن يُشرف منه على أكبر مساحة من ساحة العمليات بحيث يكون آمناً له بقدر

المستطاع. وطالما كانت خطة العمليات قد بدأت في الدخول إلى حيز التنفيذ - بما يتطلبه ذلك من تغيير سريع في مسار وقائعهما - فإن هذا يستلزم تركيزاً ومتابعة شديدين منه، وفي هذه الحال يكون لسلامته (أمنه الشخصي أو عدم إصابته أو وقوعه في يد العدو) الاعتبار الأول، وحتى هذا كان بناء على تقدير جنوده للموقف أكثر من كونه إجراء عملياً يتم تنفيذه فعلاً، ذلك أنه إن خطر في باله أنه من الضروري أن يعرض نفسه للخطر فإنه لم يكن يتردد في ذلك كما حدث في أركول Arcole وأكثر من هذا فقد قرأنا عن مقاتلين قد قُتلوا وهم إلى جواره في موقعه الذي يشرف منه على المعركة. لذا فقد كان يُرسل التعليمات لقيادات قواته في المشاة والمدفعية والفرسان عن طريق عاسكر المراسلة الراكبين، ليعودوا إليه سراً لإخباره بمجريات الأمور في كل جانب من جوانب مسرح العمليات، فقد كان نابليون يعتقد أن الجنود لا تكون لهم قيمة بشكل أساسي في المعركة إلا من خلال مواقعهم، والمناورة بهم. هنا - أيضاً - كان هدفه هو التركيز بزخم جنوده وكثافة نيرانه على نقطة بعينها، وكان يفضل أن تكون هذه النقطة هي جناح جيش العدو على أمل بث الفوضى في صفوف قوات جيش العدو في هذا الجزء (الجناح) مما يؤدي لانتشاره (تشتته). فمن أقواله: في المعارك تأتي لحظة يشعر فيها أشجع الجنود - بعد أن يكونوا قد بذلوا أقصى المجهود - بالرغبة في الجري (ترك ساحة القتال) فالجيشان المتحاربان كيانان يلتقيان ويناور كل واحد منهما ليخيف الآخر، وتحدث لحظة الرعب، ولا بد من استغلال هذه اللحظة والاستفادة منها. وعندما يكون الإنسان قد اعتاد حضور العمليات العسكرية، يمكنه أن يتعرف على هذه اللحظة ويحددها دون مشقة (29). وكان نابليون سريعاً - على نحو خاص - في انتهاء مزايا هذه الفرص في تطور المعارك أو أنه إذا اعتري رجاله التردد، يقوم بإرسال التعزيزات، أو يغير خط العمليات أثناء المعركة، وقد أدى هذا إلى توفير يوم لصالحه في معركة مارينجو Marengo. لم يكن التراجع لفظاً معروفاً في قاموسه قبل سنة 2181.

وكان من الطبيعي أن رجلاً طوّرت مثل هذه المهارة القيادية العسكرية أصبح يجد إثارة مُرعبة في الحرب. لقد سمعنا أنه يجعل المدنيين (غير العسكريين) في المحل الأول قبل الجنود، فقد كان يُعطي الأسبقية في بلاطه لرجال الدولة (المدنيين) ليأتي المارشالات بعدهم (في المقام الثاني) وعندما كان ينشأ صراع بين السكان المدنيين والعسكريين، فإنه كان يأخذ تلقائياً جانب المدنيين (39). لكنه لم يستطع أن يُزيل من نفسه أو من الآخرين الإحساس بأنه كان يجد في ساحة المعركة سعادة أكثر من أي سعادة أخرى في مجال الإدارة. لقد قال، واعترف لجوميني Jomini أن هناك مرحاً أو متعة في الخطر وأنه يحب جو الإثارة في المعركة (49) لقد كان أسعد ما يكون عندما يرى جموع المقاتلين يتحركون وفقاً لمشيبته في العمليات العسكرية التي غيرت الخريطة وكتبت التاريخ. لقد كان ينظر لمعاركه على أنها استجابة لهجوم (رداً على هجوم) لكنه كان يؤمن بما ذكره لبورين - على حد رواية هذا الأخير: إن سلطاني يقوم على مجدي، ومجدي يعتمد على انتصاراتي. وسيضيع سلطاني إذا لم أدمع بمجد جديد وانتصارات جديدة. فالفتح (الغزو) هو الذي جعلني على ما أنا عليه الآن، والفتح وحده هو الذي سيبقيني (59) ولا نستطيع ان نثق تماماً في نسبة هذا الاعتراف بالغ الأهمية لنابليون، فقد رواه بورين غير المحب لنابليون (في فترة كتابته عنه) لكن لا كاس Las Cases الذي كان نابليون بالنسبة له يأتي في المحل الثاني مباشرة بعد الرب نسب إليه قوله (في 21 ماسر سنة 1818): لقد تطلعت أن أكون إمبراطوراً للعالم، وأن أؤمن ذلك لنفسي، فالسلطة التي لا تحدها حدود مسألة ضرورية لي (69). أكان نابليون - كما قال أعداؤه عنه - جزراً؟ لقد قيل إنه جند في جيوشه عدداً يبلغ إجماليه 2,316,000 فرنسي (79)، مات منهم حوالي مليون في سبيل خدمته (89). أكان يُزعجه القتل؟ لقد ذكرَ القتل الجماعي (مُندداً) في مناشدته للقوى المعادية له طلباً للسلام، وقبل أنه بكى عندما رأى جثث القتلى في إيلاو (99) Eylau، بل إنه قال للاكاس Las Cases بعد أن انتهى كل شيء، وراح يسترجع ما كان: لقد كنت أقود المعارك التي أخوضها واضعاً في اعتباري مصير الجيش ككل (برمته) دون أن أضع العواطف في اعتبار. لقد كنت أرقب تنفيذ المناورات التي يقتضي تنفيذها كثيراً من القتلى يسقطون بين صفوفنا، ومع هذا تظل عيناوي جافيتين (بلا دموع) (001). ومن المحتمل أنه كان علي الجنرال (نابليون) أن يعزّي نفسه بفكرة أن موت هؤلاء الشباب صغار السن لم يكن أمراً مهماً بالنسبة للمكان والزمان اللذين لاقوا حتوفهم فيهما، فعلى أية حال، أليست هذه هي النهاية الطبيعية لهم، فمن لم يمته بالحرب مات بغيرها، وإن كان - أي نابليون - يؤمن بشكل غامض أن موتهم في غير الحرب أقل مجداً لهم كما أن موتهم في غير الحرب ربما سبب لهم ألاماً أكثر ففي الحرب يكون المرء مخدراً مستعداً للموت، كما أن الموت في الحرب يُعطي المرء تعويضاً عن موته متمثلاً في بريق الشهرة!

ومع هذا فقد شعر كما شعر كثيرون من العلماء (رانكه Ranke وسورل Sorel وفاندال Vandal...) أنه إن كان مذنباً فإنما ارتكب أثماته ضد من هم أشد منه إثماً ذلك أنه حارب ومارس القتل دفاعاً عن النفس ذلك لأن المتحالفين ضده قد صمّموا على عزله باعتباره ابناً للثورة ومغتصباً لعرش البوربون. لقد طالب مراراً بالسلام، فلم تلق طلباته بهذا الشأن إلا إعراساً. ومن أقواله: إنني ما غزوت إلا دفاعاً عن النفس. فأوروبا لم تكف عن شن الحرب ضد فرنسا ومبادئها وضدي شخصياً. وظل التحالف الأوروبي قائماً ضد فرنسا إما سراً وإما جهراً (101) وكان نابليون قد تعهد

عند تنويجه بالحفاظ على الحدود الطبيعية لفرنسا، فماذا كانت ستقول فرنسا لو أنه تخلى عن هذه الحدود؟ فمن أقواله إن السُّوقة لم يتوقفوا عن لومي على أساس أن كل حروبنا إنما كانت لتحقيق طموحي. لكن أكانت هذه الحروب من اختيارنا؟ ألم تكن دائماً مفروضة يتعذر اجتنابها؟ ألم تكن نضالاً بين الماضي والمستقبل (201). وكان نابليون دائماً مثقلاً - بعد الأعوام الأولى النشطة المفعمة أحداثاً - بمشاعر مؤداهما أنه مهما كان عدد انتصاراته فإن هزيمة واحدة حاسمة ستحقه ليغدو تحت رحمة أعدائه. لقد كان مستعداً للتنازل عن نصف العالم مقابل السلام لكن وفقاً لشروطه.

ويمكننا أن نُنهي حديثنا بالحديث عن نابليون كجنرال، أنه كان حتى في تيلست (7081Tilsit) وفي غزوه لأسبانيا، في حالة دفاع، ومن ثمّ فإن محاولته لضم النمسا ثم بروسيا فأسبانيا فروسيا وإحكام الحصار القاريّ (المضاد) إنما فرض حروباً إضافية على فرنسا المنهكة وأوروبا الممتعضة. ورغم أنه كان قد برهن على أنه إداري متفوق من الطراز الأول إلا أنه تخلى عن الاهتمام بأمور الدولة في سبيل تحقيق المجد في مضمار مباحج الحرب. لقد ربح فرنسا كجنرال، لكنه أيضاً ضيّعها كجنرال. لقد أصبح موطن قوته هو حتفه.

صفحة رقم : 14598

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> عن نابليون -> نابليون الحاكم

5- نابليون الحاكم

لم ينس نابليون تماماً وهو حاكم مدني أنه كان قد نشأ في رحاب الجنرالية. لم يرغب ذلك عنه أبداً، فقد ظلت عادات القيادة باقية فيه لكنها مقموعة مثبّطة إلا في مجلس الدولة وفي الاعتراض أو المناقشات. لنسمعه يقول: منذ دخولي الحياة العامة (المقصود غير العسكرية) للمرة الأولى كنتُ معتاداً على ممارسة القيادة (إصدار الأوامر) فتكوين شخصيتي وقوتها كانتا من النوع الذي يجعلني إذا ما أصبحت السلطة في يدي لا اعترف بأيّ سيّد إلا ما هو نتيجة فكري ولا أي قانون إلا إذا كان من وضعي أو بتعبير آخر إلا إذا كان منبثقاً من قناعتني (301) لقد رأيناه في سنة 0081 يؤكد على الصيغة المدنية (غير العسكرية) لحكمه - عندما كان الجنرالات يتأمرون عليه لعزله، لكن في سنة 6181 دافع عن وجهة النظر التي مؤداهما أنه في خاتمة المطاف، فإن التحليل الصحيح يعني أنه إن أردت أن تحكم فمن الضروري أن تكون رجلاً عسكرياً، فالمرء لا يمكن أن يحكم إلا ملوحاً بغنيمة ومستخدماً مهمازاً (401) لذا فإنه بنظرته الثاقبة لمثل الشعب الفرنسي ما ظهر منها وما بطن، ما هو سوي منها وما متناقض - أعلن أنه رجل السلام وعبقري الحرب. ومن هنا فإن الديمقراطية النسبية التي شهدتها عهد القنصلية ذابت في ظل النظام الملكي في عهد الإمبراطورية، ثم ذابت أخيراً. في عهد السلطة المطلقة. لقد كان مصير مدونات نابليون القانونية - فيما يتعلق بقانون العقوبات (0181) - أن أصبحت قاسية مثلت في قسوتها أساليب العقاب البربرية في العصور الوسطى. ومع هذا فقد ظل نابليون متألقاً ذكياً في أمور الحكم كما كان في أمور المعارك. ولقد تنبأ نابليون أن إنجازاته في أمور الإدارة ستبزي انتصاراته العسكرية وستكون أكثر خلوداً في التاريخ، وأن مدونته القانونية ستكون أثراً أكثر خلوداً من استراتيجيته وتكتيكية (التي لم تصبح ذات صلة بالحروب الجارية). لقد كان نابليون يرنو لأن يكون جستنجان عصره بالإضافة إلى كونه قيصره Caesar.

ولم يقض نابليون في باريس سوى 559 يوماً من إجمالي أيامه التي كان فيها إمبراطوراً، والبالغة 0863 يوماً (4081 - 4181)، ومع هذا فقد أعاد صياغة فرنسا في هذه الأيام البالغة 559 يوماً (501)، ففي هذه الأيام كان قبل

8081 يرأس بانتظام مرتان في الأسبوع - مجلس الدولة، وقال لا كاس Las Cases في ذلك الوقت (وكان هو عضواً في المجلس): ولم يكن أحد منا يغيب مهما كان السبب (601) وكان يعمل بجد شديد فنظراً لرغبته الشديدة في إنجاز الأمور، كان يستيقظ أحياناً في الساعة الثالثة صباحاً ويظل يواصل العمل طوال النهار. وغالباً ما كان يتوقع أن يبذل مساعده الجهد نفسه. وكانوا دائماً جاهزين لتقديم معلومات حديثة جداً عن أي أمر واقع في دائرة اختصاصهم، وكان يحكم عليهم وفقاً لدرجة دقة تقاريرهم ونظامها ووفائها بالمراد، وسرعة تقديمها حاوية آخر التطورات حتى آخر ساعة. ولم يكن يعتبر يومه منتهياً حتى يقرأ المذكرات والوثائق التي غالباً ما كانت تأتيه يومياً من دوائر الحكومة المختلفة. وربما كان نابليون هو صاحب أفضل جهاز للتزويد بالمعلومات في التاريخ.

وقد اختار للوزارات الكبرى (المهمة) رجالاً ذوي قدرات عالية من الطراز الأول مثل تاليران Talleyrand وجودين Gaudin وفوشيه Fouche رغم اعتزازهم الشديد بأنفسهم مما كان يسبب له بعض المتاعب، وكان يفضل - بشكل عام - للمناصب الأخرى خاصة الإدارية رجالاً من الطبقة الثانية ممن لا يوجهون أسئلة له أو يقترحون عليه إجراءات من عند أنفسهم، فلم يكن لديه الوقت أو الصبر لمثل هذه المناقشات، فقد كان ينتهز الفرص وفقاً لتقديره هو، كما كان يتحمل المسؤولية والمخاطرة. وكان يطلب من العاملين معه أن يُقسموا يمين الإخلاص ليس فقط لفرنسا وإنما الإخلاص له شخصياً. وفي معظم الحالات كانوا علي استعداد للموافقة على أداء هذا القسم مسوقين بتأثير شخصيته وكانهم منوّمون مغناطيسياً وتأثير عظمة مخططاته. لقد كنت أثير المنافسة وأكافئ كل مستحق وأزيح للخلف حدود المجد لأجعل مجالها أرحب (701). لكنه دفع ثمن منهجه في اختبار مساعديه ذلك المنهج الذي سار بالتدرج نحو إحاطة نفسه بتابعين قلماً كانوا يجسرون على مناقشة وجهات نظره حتى أن الأمر انتهى بإزاحة كل اعتراض في سبيل تسرعه أو كبريائه إلا ما تمثله الدول الأجنبية المعادية له، إلا أن كولينكور Coulanicourt يُعد استثناء من هؤلاء المحيطين به في سنة 2181.

لقد كان نابليون قاسياً مع مرؤوسيه، صارماً إذا وُجِّح، بطيئاً إذا امتدح، لكنه كان مستعداً للمكافأة على الخدمات الباهرة (غير العادية) ولم يكن يؤمن بوضع مرؤوسيه في وضع يكونون فيه مطمئنين مرتاحي البال، فشيء من الوعد غير المؤكدة بمنصب أو ولاية قد يدفع لمزيد من العمل الجاد، ولم يكن نابليون يعترض على اتصالاتهم وتكوين علاقات وثيقة بينهم، بل ولم يكن يعترض على وجود أمور غامضة مشبوهة في ماضي الواحد منهم فذلك يتيح له ممسكاً يضمن به حسن سلوكهم (801). وكان يستخدم مساعديه إلى أقصى درجة، ثم يترك الواحد منهم ليعود مترجعاً مستمتعاً بمعاش سخي، وربما ببعض الثبالة كمفاجأة سارة. ولم يعيش بعضهم حتى يتلقوا هذه المكافأة أو حتى يصلوا إلى هذه النتيجة المرجوة، فقد فضل فيلينييف Villeneuve الذي هُزم في الطرف الأغر - الانتحار علي مواجهة لومه، ولم تُهزّ الاعتراضات مشاعره القاسية، فمن أقواله: يجب أن يكون قلب رجل الدولة في رأسه (901) ولا يجب أن يُدخل مشاعره في الأمور السياسية، وفي عملية إدارة إمبراطورية، لا يساوي الفرد إلا قليلاً إلا إذا كان هذا الفرد هو نابليون. وربما بالغ نابليون في عدم إحساسه بأهمية الجاذبية الشخصية عندما قال: أنا لا أحب إلا المفيد لي، وطالما هم مفيدون (011) وقد استمر نابليون في حبه لجوزفين فترة طويلة بعد أن أصبحت مُعوّقة لخطته. وبالطبع فإنه كمعظم البشر كان في هذا راضياً لرغبته فيها. وكان يعتدل في نشراته الحربية - كما تفعل معظم الحكومات - ليحتفظ بالروح المعنوية العامة مرتفعة. وقد درس ميكافيلي Machiavelli وقلمه الرصاص في يده (كناية عن الاهتمام ليخط به تحت السطور الحاوية على فكرة مهمة) وثمة نسخة من كتاب الأمير (لميكافيلي) عليها بعض التعليقات تم العثور عليها في مركبته في واترلو Waterloo. لقد كان نابليون يعتبر أن كل شيء يُعجّل بتحقيق أهدافه شيء طيب أو بتعبير آخر كان يعتبر الغاية تبرر الوسيلة. إنه لم ينتظر نيتشه Nietzsche ليُرشد به بقوله أن الرغبة في القوة كامنّة وراء الخير والشر على سواء لذا فإن نيتشه اعتبره الناتج الطيب الوحيد للثورة الفرنسية وأطلق عليه Ens realissimum وقد قال نابليون القوة خير والضعف شر (111) وقد حزن من أجل أخيه جوزيف (يوسف) قائلاً إنه أطيب من أن يكون رجلاً عظيماً ومع هذا فقد كان نابليون يحبه.

وقريب من آرائه هذه - التي تعلمها في كورسيكا وفي ميادين القتال - ما كان يكرره كثيراً أن الناس لا يمكن دفعهم أو حكمهم إلا بالتلويح بمصالحهم أو بإخافتهم أو بتعبير آخر لا يرضخون إلا خوفاً أو طمعاً (211). لذا فإنه عاماً بعد عام أصبحت مشاعره هذه هي أساس حكومته وعمدتها. ففي سنة 0081 نصح الجنرال هيدوفيل Hedouville أنه ليقمع الاضطرابات في إقليم فندي Vendee عليه أن يحرق مدينتين كبيرتين - أو ثلاث - ويسويها بالأرض، على أن تكون هذه المدن في المناطق الأكثر إثارة للاضطراب، وذلك لتكون عبرة لغيرها. لقد علمته خبرته (كفصل أول) أن القسوة المروعة هي أكثر الوسائل إنسانية ورحمة في ظل هذه الظروف التي تواجهها، فالضعف هو وحده القاسي وغير الإنساني (311). وكان يوجه تعليمات لقضاته بإصدار أحكام قاسية. وقال لفوشيه Fouche إن فنّ الشرطة يعني أن نعاقب قليلاً لكن إن عاقبت فكن قاسياً (411) ولم يكف نابليون بالاعتماد على قوات كبيرة من الشرطة والمخبرين السريين تحت إدارة فوشيه أو ريجنييه Regnier، وإنما نظم هيئة إضافية للشرطة السرية، مهمتها مساعدة فوشيه

وريجنييه والتجسس عليهما، وأن يكتب أفرادها تقارير له عن أية مشاعر معادية ضده (ضد نابليون) في الصحف أو المسارح أو الصالونات أو الكتب. ومن أقوال نابليون إن الحاكم عليه أن يشك في كل شيء (511). وبحلول عام 4081 كانت فرنسا دولة بوليسية. وبحلول عام 0181 أصبح فيها نماذج مصغرة لسجن الباسيتل - سجون الدولة التي كان يمكن فيها احتجاز المعارضين السياسيين بناء على أوامر إمبراطورية دون أن يتم ذلك من خلال إجراءات قضائية نظامية (611). وعلى أية حال فلا بد أن الإمبراطور كانت تبدر منه مبادرات الرحمة والعفو في عدة مناسبات. فقد أصدر كثيراً من مراسيم العفو حتى بالنسبة للذين تأمروا ليقتلوه (711)، وأحياناً كان يخفف الأحكام الشديدة التي تصدرها المحاكم (811). لقد قال - وهو مستغرق في التأمل - لكولينكور Coulaincourt في ديسمبر سنة 2181:

إنهم يظنونني صارماً أو حتى متصلب الفؤاد. هذا أفضل كثيراً، فهذا يجعل من غير الضروري أن أثبت لهم ذلك. إنهم يظنون ثباتي (تصميمي) قسوة قلب. إنني لن أشكو ما دامت هذه الفكرة عني هي السبب في الانضباط وحسن النظام الذين أصبحا سائدين. انظر هنا يا كولكينكور، إنني بشر، فمهما كان ما يقوله بعض الناس فإن لدي مثلهم أحشاء [أحشاء الرحمة] وقلب - لكنه قلب حاكم. إن دموع أرسدوقة لا تحركني. وإنما تحركني معاناة الناس (911). ولا جدال أنه كان إمبراطوراً وأنه في غالب أحواله كان متتوراً، وفي غالب أحواله كان في عجلة مطلقاً. لقد اعترف للاكاس Las Cases: الدولة أنا (021). وربما كان علينا أن نغفر له شيئاً من استبداده باعتباره إجراء معتاداً تقوم به الحكومات لضبط الاقتصاد الوطني والمسارح والمنشورات زمن الحرب. وقد شرح نابليون إكهامه الهيمنة على أمور البلاد باعتبارها أمراً ضرورياً في مرحلة الانتقال الصعبة من الحرية المتسببة بعد سنة 1971 نتيجة وقائع الثورة، والنظام البناء في عهدي حكومي الفصلي والإمبراطورية. وقد استدعى نابليون لذاكرة الناس أن روبيسير - وكذلك مارا Marat - كان قد أوصى بالديكتاتورية كضرورة لإعادة النظام والاستقرار لفرنسا التي أشرفت على الانحلال والتفكك على صعيد الأسرة وعلى صعيد الدولة. ولم يشعر نابليون أنه دمر الديمقراطية، فما أزاله في سنة 9971 كان هو أوليغاركية الفساد (جمهورية تسيطر عليها مجموعة فاسدة) والقسوة وعصبة من رجال لا ضمير لهم. لقد قضى على حرية الجماهير (الجموع) لكن هذه الحرية كانت تدمر فرنسا بالاضطرابات التي كان يثيرها العامة، وبالتسيب الأخلاقي، ولم يكن يمكن لفرنسا أن تستعيد قوتها كدولة متحضرة ومستقلة إلا بإعادة السلطة المركزية.

وحتى سنة 0181 لم يكن نابليون بمستطيع أن يتسامح مع نفسه لعدم صدقه في ادعائه الإيمان بالهدف الثاني للثورة الفرنسية وأعني به المساواة، لكنه آمن بمبدأ مساواة الجميع أمام القانون وعمل على نشر هذا المبدأ. فهو لم يفرض مساواة مستحيلة تجعل كل قدرات الناس واستحقاقاتهم على نحو سواء، وإنما أسس نسقاً من المساواة قوامه إتاحة الفرص - على نحو سواء - لكل الموهوبين وذوي القدرات بصرف النظر عن مكان مولدهم ليطوروا أنفسهم في مجتمع يُقدّم للجميع دون مفاضلة فرص التعليم، والفرص الاقتصادية والحقوق السياسية، وربما كان فتحه المجال لكل ذي موهبة ومقدرة هو أكثر عطايه لفرنسا بقاءً. وكان نابليون يقضي على الفساد في الحياة العامة (121). وهذا وحده يكفي لتخليد ذكراه. لقد أعطى المثل - بكل معنى الكلمة - لرجل يكرس نفسه للإدارة إذا لم تدعه الحرب لميادينها. لقد أعاد صياغة فرنسا.

لماذا فشل إذن؟ ذلك لأن ما كان في حوزته فاق إمكاناته (استطاعته)، وخياله سيطر على طموحه، وطموحه تحكم في بدنه ونفسه وعقله وشخصيته. لقد كان عليه أن يعرف أن القوى المناوئة له لم تكن لترضى أبداً بترك فرنسا تحكم نصف أوروبا. لقد نجح - بشكل يمكن تحديده - في تخليص بلاد الراين الألمانية من اقطاع القرن التاسع عشر لكنه لم يكن بمستطيع - لا هو ولا أي رجل في عصره - أن يدمج في فيدرالية دائمة منطقة طال عليها العهد وهي مقسمة إلى دول، كل دولة منها لها تراثها الحريصة عليه، ولها لهجتها الخاصة وعاداتها وعقيدتها وحكوماتها. وكفي أن نذكر هذه الممالك المختلفة من الراين إلى فستولا Vistula ومن بروكسل لنابلي لنحس بحجم المشكلة: ممالك أو إمارات مثل هولندا، وهانوفر، وستفاليا Westphalia والمدن الهانسياتية Hanseatic، وبادن Baden وبافاريا، وفيرتمبرج Wurttemberg وإيليريا Illyria والبنديقية (فينيسيا) ولبارديا والولايات الباباوية والصلقيتين - من أين له رجال أقوياء بالقدر الذي يكفي لحكم هذه المناطق، وفرض الضرائب على أهلها، وأخيراً لتجنيد أبنائهم لشن حروب ضد أمم أقرب إليهم من فرنسا؟ كيف يستطيع أن يفرض الوحدة بين هذه الدوائر الإضافية البالغ عددها أربعة وأربعين ودوائر فرنسا البالغ عددها ستاً وثمانون؟ أو كيف يستطيع أن يوحد قسراً ستة عشر مليوناً من الأقوياء المعتزين بأنفسهم مع ستة وعشرين مليوناً من الفرنسيين المتقلبين والمعتزين بأنفسهم أيضاً؟ ربما كان أمراً رائعاً أن يحاول ذلك لكن كان لابد أن يحالفه الفشل في هذه المحاولة. وفي خاتمة المطاف أطاح الخيال بالعقل. لقد تفرق شمل هذا الكيان غير المستقر، وهزمت القوة الراسخة للشخصية الوطنية إرادة الدكتاتور الكبير.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> عن نابليون -> نابليون الفيلسوف

6- نابليون الفيلسوف

وعندما طوى الخيال جناحيه، أصبح نابليون قادراً على استخدام عقله على نحو ما يفعل أفضل العلماء وأكثرهم مقدرة في المعهد العلمي الفرنسي، ومعهد دراسة مصر. ورغم أنه لم يستتبط نظاماً محدداً من الفكر يتحتم سجن الكون داخله بحيث لا تقلت منه شاردة ولا واردة، إلا أن عقله الواقعي قد أظهر القصورَ في أعمال المفكرين الذين يسيئون استخدام الأفكار ويبنون قلاعاً في الهواء لا أساس لها من البيولوجيا (علوم الأحياء) أو التاريخ. فبعد أن جرّب (أي نابليون) لابلاس Laplace وغيره من العلماء في المناصب الإدارية، خلص إلى أنك لا تستطيع أن تتجر أي عمل مع فيلسوف (221) وعلى أية حال فإنه شجع العلوم وأوصى بدراسة التاريخ فمن أقواله لا بد ان يدرس ابني كثيرا من علم التاريخ وأن يستغرق في تأمله، فالتاريخ هو الفلسفة الوحيدة الحقيقية (321).

وكان الدين واحداً من المجالات التي روّج لها المفكرون بدلاً من ترسيخ أنفسهم في مجال التاريخ. وقد شعر نابليون أن عالم المنطق وحده هو الذي يمكن أن يفلح طويلاً أمام هذا السؤال: هل الله موجود؟ أما الفيلسوف الحقيقي الذي تعلم في مدرسة التاريخ فيجب أن يسأل لماذا يظل الدين حياً دائماً ويلعب دوراً مهماً في كل حضارة، رغم أنه - أي الدين - كان في أغلب الحالات تنقصه الحجة ويدعو للسخرية؟ لماذا قال فوليتز الفيلسوف المتشكك إن الله لو لم يكن موجوداً لكان من الضروري أن نخترعه أو بتعبير آخر نتخيل وجوده؟.

لم يكن نابليون نفسه يؤمن بعقيدته الدينية منذ كان في الثالثة عشرة من عمره. وفي بعض الأحيان كان يتمنى لو كان قد احتفظ بها. إنني أتخيل أنها (أي العقيدة) لا بد أن تؤدي إلى سعادة كبيرة حقيقية (421) وكلنا يعرف القصة التي حدثت في مصر عندما سمع بعض العلماء (الفرنسيين) يتحدثون عن (الخالق) بغير وقار، إذ تحداهم مشيراً إلى النجوم: تحدثوا كما تشاءون، وأطيلوا الحديث كما يحلو لكم أيها السادة من خلق كل هذه النجوم؟ (521) ومن الممكن أن نقتبس من أقواله ما يؤيد وما يعارض مقالته هذه وموضوعات أخرى كثيرة، لأنه غير وجهات نظره بمرور الوقت، كما تغيرت حالته النفسية أيضاً ونحن نميل لتجاهل تواريخ حدوث هذا التغير، فحتى بالنسبة للمفكر الذي لم يبلغ الخمسين من عمره نجده يتخلى عن عقائد أقسم في شبابه ألا يتخلى عنها، ومن في الثمانين من عمره لا يبتسم ساخراً من وجهات النظر الناضجة التي قال بها في أوسط عمره؟ وبشكل عام فإن نابليون ظل محتفظاً باعتقاده في وجود عقل كامن وراء العالم المادي أو كامن فيه (621) لكنه ينكر معرفته بأية معلومات عن طبيعة هذا العقل وهدفه. لقد استقر رأيه وهو في سانت هيلانة على أن كل شيء يشهد بوجود الله (721) لكن أن تقول من أين جئت؟ ومن أكون، وإلى أي مصير أنا صائر، فتلك كلها مسائل فوق مستوى الفهم (821) وفي بعض الأوقات نجده يتحدث كالتطوريين الماديين materialistic evolutionist المادة كل شيء (921) فالإنسان ليس إلا موجوداً أكثر اكتمالاً من الحيوان، وأفضل منه تفكيراً (031) ومن أقواله أن الروح ليست خالدة، وإذا كان لا بد أن نقول بشأنها قولاً فقد وجدت قبل أن نولد (131) ومن أقواله أيضاً: إن كان لا بد أن أتخذ ديناً لعبدت الشمس لأنها السبب في خصوبة كل شيء إنها الرب الحقيقي للأرض (231) ومن أقواله لقد كان يتحتم عليّ أن أتخذ ديناً لو أنه وُجد مع بداية الكون. لكنني عندما أقرأ سقراط أو أفلاطون أو موسى أو محمد (المترجم؛ عليهما السلام) فإنني لا أزداد إيماناً، فكلها عقائد ابتدعتها الناس (331).

لكن لماذا ابتدع الناس الأديان؟ يجيب نابليون: لقد ابتدعوا ليريحوا الفقراء وليمنعواهم من قتل الأغنياء. ذلك لأن الناس قد ولدوا غير متساوين وزادت الفروق بينهم مع كل تقدم في مجال التكنولوجيا والتخصص، ولا بد للحضارة أن تستنبط وسائل لمكافأة ذوي القدرات المتفوقة والاستفادة منهم وتطويرهم، ولا بد أن تُنقذ الأقل حظاً بأن يقبلوا بسلام هذا التفاوت في العوائد والممتلكات باعتباره أمراً طبيعياً وضرورياً. كيف يمكن أن يتم هذا؟ يجيب نابليون: بالقول أن ما حدث إنما هو إرادة الله ومشيئته، إنني لا أرى في الدين سر التجسد بل سر النظام الاجتماعي. إن المجتمع لا يمكن أن يقوم إلا في ظل التفاوت (عدم المساواة) في الرواتب أو المكافآت أو الدخل، ومن ثم في الممتلكات هذا التفاوت (عدم المساواة) لا يمكن الإبقاء عليه إلا بالدين... لا بد أن يكون في مقدورنا أن نقول للفقير: تلك إرادة الله. لا بد أن يكون هناك غني وفقير في هذا العالم لكن في الآخرة حيث الخلود، سيكون هناك توزيع مختلف (431) ومن أقواله إن الدين ينسب إلى (فكر) الله فكرة المساواة التي تنتقد الأغنياء من مذبح يقيمها لهم الفقراء (531).

وإذا كان هذا صحيحاً فقد أخطأت حركة التنوير في مهاجمتها للمسيحية وأخطأت الثورة الفرنسية في وضع العراقل في سبيل الدعوة للكاتوليكية. فانهدام الحكومة على المستوى الفعلي والخلقي [؟] الذي قاسينا منه نتيجة الفوضى العقلية الأخلاقية [؟] - انهيار الإيمان وإنكار العقيدة كانا استهلالاً له أو سبباً فكان انهزام الحكومة نتيجة لهما (631) وربما لهذا السبب ولأغراض سياسية أعاد نابليون الكنيسة الكاثوليكية لتكون حارساً مقدساً للأمة الفرنسية وهو - أي نابليون - لم يفسر هذا التحالف الجديد مع الكنيسة بمعنى ارتباطه بالوصايا العشر (tütüü)، وإنما كان يطوف حولها - أي هذه الوصايا - بين الحين والحين ومع هذا فقد دفع رواتب القسس ليبشروا بها لجيل مرتعب من الفوضى ومستعد للعودة إلى النظام. وكان معظم الآباء والمعلمين سعداء بالحصول على عون العقيدة الدينية لتتشنه أبنائهم وتربيتهم - لمواجهة النزوع الطبيعي للشباب إلى الفوضى - بالقوانين الأخلاقية القائمة على أسس من التقوى الدينية وأسس من حب الآباء لأبنائهم وولاء الأبناء لأبائهم، باعتبارها - أي هذه الأسس - من عند الله المطلع على كل شيء والذي يعاقب المخطئ عقاباً أبدياً، ويثيب المصيب ثواباً أبدياً، وكان معظم أفراد الطبقة الحاكمة متمتتين لعملية تعليمية تفرز رأياً عاماً يقبل بمبدأي التفاوت (عدم المساواة) في القدرات والممتلكات باعتبار هذا من الأمور الطبيعية التي لا مفر منها. فأبناء الأرسطراطية القديمة قد جرى إيجاد المبررات لهم بالقول أنهم ظهروا ثرواتهم بما لهم من أفضال وبأسلوب حياتهم، أما أبناء الأرسطراطية الجديدة فقد ترسخت ارسطاطيتهم كما أن الثورة - طوال جيل - قد كفت صوتها وأخفت بناذقتها.

في هذا المجتمع الذي ثبعت فيه الحياة من جديد لزم أن يُعاد للزواج أهميته وقداسته وشرعيته مرة أخرى، وكذلك لزم الأمر نفسه بالنسبة للأمومة، وكذلك الملكية - وليس الحب الرومانسي، لزم لهذا كله أن يُرسخ لتحقيق غاياته. فالحب الذي ينشأ نتيجة المفاتن البدنية بين الفتى والفتاة إنما هو بسبب الهرمونات وتقارب العمر والاقتراب المكاني. وأن توجد زواجا دائماً اعتماداً على هذه الظروف القائمة على المصادفة والظروف العابرة إنما هو تفكير يدعو للسخرية. إنه حماقة مزدوجة (831). إن كثيراً من هذا الحب تنيره - بشكل غير طبيعي - الكتابات الرومانسية. وربما اختفى لو أن الناس كانوا أميين. يقول نابليون إنني اعتقد جازماً أن الحب الرومانسي له من الأضرار أكثر مما له من الحسنات. وربما كان من الخير إقصاؤه كسبب لتوحد رجل وامرأة في مشروع دائم لتتشنه الأطفال وأساس لنقل الملكية (المقصود التوريث أو انتقال الثروة بالميراث) ويقول نابليون لا بد من منع الزواج بين ذكر وأنثى يعرف كل منهما الآخر لفترة تقل عن ستة أشهر (931).

وكان نابليون يؤمن بنظر محمد (صلى الله عليه وسلم: المترجم) للزواج: إن هدفه هو إنجاب عدد كبير من الذرية في ظل ظروف يتمتع فيها الرجل بالحرية، وتتمتع فيها الزوجة المخلصة بالمطبعة بالحماية. وشعيرة الزواج - رغم إمكان عقد القران مديناً - لا بد أن تكون ذات طابع مقدس وقور يتم التأكيد خلالها على التزامات الطرفين (041). ولا بد أن ينال الزوج والزوجة معاً، فهذا يقصي الفردية من الحياة الزوجية ويضمن وضع المرأة وارتباط الزوج بها، ويجعل بينهما مودة ورحمة intimacy ويضمن الفضيلة (141) وقد اتبع نابليون هذه العادات القديمة حتى استقر رأيه على الطلاق.

وعلى أية حال فإن كانت الزوجة المخلصة الواحدة غير كافية للرجل فإنني أجد أنه من السخرية ألا يكون قادراً على أن يكون له أكثر من زوجة شرعية، ذلك أن المرء إذا كان لديه زوجة واحدة حُبلى، أصبح وكأنه لا زوجة له (241) فتعدد الزوجات أفضل من الطلاق أو الزنا. ويجب ألا يُسمح بالطلاق بعد عشرة زوجية استمرت عشر سنوات. ويجب ألا يُسمح للزوجة بالطلاق إلا مرة واحدة وألا يُسمح لها بالزواج - إن طُلق - إلا بعد خمس سنوات (341) ولا يعتبر زنا الزوج مبرراً كافياً للطلاق إذا لم تكن هناك ظروف أخرى كاحتفاظ الزوج بخليته في مكان إقامة الزوجة (441) وإذا اقترف الزوج عملاً من أعمال الخيانة الزوجية وجب عليه أن يعترف لزوجه ويبيد ندمه فيمحو باعترافه وندمه كل أثر من آثار جرمه. تغضب الزوجة وتغفو فتتصلح الأمور بينهما. لكن الأمر يختلف إن كانت الزوجة غير مخلصة لزوجها. شيء طيب أن تعترف وتعتذر لكن من الذي يضمن ما إذا كان قد بقي - نتيجة خيانتها - شيء من

رَحمها أو في عقلها؟ لذا فالزوجة بعد خيانتها لا يجب (ولا يمكن) أبداً أن تنتهي مع زوجها إلي تفاهم (541) (المؤلف: ولكنه سامح جوزفين على خيانتها له مرتين).

وقد حصّن نابليون نفسه ضد فتنة النساء بأخذه بالنظرة الإسلامية (النص: نظرة محمد صلى الله عليه وسلم) للمرأة: إننا نعامل النساء معاملة جيدة جداً، وبهذه الطريقة نفقد كل شيء. إننا نخطئ خطأ كبيراً في رفعهن إلى مستوانا. حقاً إن شعوب الشرق أكثر منا عقلاً وإحساناً بإعلانهم أن الزوجة ملكية حقيقية لزوجها. فالحقيقة أن الطبيعة قد جعلت المرأة جارية للرجل. فالمرأة تضع الأطفال للرجل.. وعلى هذا فهي من ممتلكاته تماماً كما أن فاكهة الشجر ملك لصاحب البستان (641).

كل هذه الأفكار تنتم بالبدائية (السذاجة) وهي تناقض البيولوجيا (أي علم الأحياء) الذي عادة ما يُظهر الأنثى جنساً مسيطراً أو سائداً بينما الرجل مجرد تابع يقدم الطعام، وأحياناً ما يؤكل هو نفسه أي تأكله الأنثى، لذا سنكون سعداء بقبول تأكيد لا كاس Las Cases إن كثيراً من أكفار نابليون المتعلقة بالنساء إن هي إلا تظاهر بالشجاعة أو تتجج ومزاح أو أحلام رجل عسكري تواق لعدد لا نهاية له من المجتدين الإزمياً الذين تنتجهم أرحام النساء، لكن نظرة نابليون هذه متسقة تماماً مع أفكار أي قائد من قواد المرتزة في كورسيكا. وقد أصرت المدونة القانونية النابليونية على أن الرجال قوامون على النساء قواماً مطلقة، بل وقوامون على ممتلكاتهم، واعتبرت ذلك (أي مدونة نابليون) مسألة ضرورية لتحقيق الانضباط الاجتماعي. لقد كتب نابليون إلى جوزفين في سنة 7081 لقد كنت دائماً أعتقد أن المرأة خلقت للرجل، والرجل للوطن والأسرة والمجد والشرف (741) وبعد معركة فريدلاند (Friedland 41 يونيو 7081) التي شهدت مذبحه مروءة على الجانبين وضع نابليون برنامجاً دراسياً لمدرسة بُني في إكويين (Ecouen للبنات اللاتي فقدن أمهاتهن واللاتي ليس لهن أهل قادرون على إعالتهن).

ماذا يجب أن تتعلم البنات في إكويين (Ecouen)؟ يجب أن نبدأ بتعليمهن الدين بكل صرامته.. فما نطلبه من تعليم البنات هو أن يجعلهن مؤمنات لا مفكرات، فضعف عقول النساء وكونهن غير مستقرات في أفكارهن (يحرken الهوى) يجعلهن في حاجة إلى الإذعان الدائم.. ولا يمكن الوصول لكل هذا إلا من خلال الدين.. إنني لا أريد لهذه المدرسة أن تُخرَج نساء ذوات فتنة وإنما نساء ذوات فضيلة ولا بد أن يكن جذابات بحكم مبادئهن السامية وقولهن الدافئة لا بحكم ظرفهن وكونهن مُسليات.. وبالإضافة لهذا لا بد أن نعلم البنات الكتابة والحساب ومبادئ اللغة الفرنسية.. ولا ضرورة لتدريس اللاتينية لهن.. ولا بد من تعليمهن إجادة كل أعمال المرأة.. ولا مجال لأن يقوم الرجال بالتدريس للبنات، فلا يجب أن يكون في المدرسة رجل إلا الناظر.. حتى أمور حديقة المدرسة يجب أن يقوم عليها النساء (841).

وكانت فلسفة نابليون السياسية غير متسقة بالقدر نفسه. فما دام كل الناس قد وُلدوا غير متساوين فلا مناص من أن الأقلية وهي التي تمتلك العقول الأقوى هي التي ستحكم الأغلبية بقوة السلاح والفكر (الكلمة)، ومن ثم فإن يوتوبيا المساواة ما هي إلا خرافة مسلية (أو بتعبير آخر إن هي إلا أساطير) يقول بها الضعفاء، فالصياحات الفوضوية المطالبة بالتححرر من القوانين والحكومات، إنما هي تضليل فج يدل على عدم النضوج كما يدل على عقول مستبدة. والديمقراطية لعبة يستخدمها الأقوياء ليُخفوا بها حكمهم الأوليجاركي (الأوليجاركية تعني حكم الأقلية التي تعمل لصالحها في ظل نظام ظاهره جمهوري) (941) ومن الناحية الفعلية فقد كان على فرنسا أن تختار بين حُكم النبلاء الوراثي وحكم طبقة رجال الأعمال business class. وعلى هذا فالأرستقراطية دائماً موجودة بين الأمم وفي أثناء الثورات، وإذا حاولت التخلص منها بتدمير نظام النبالة فإنها سرعان ما تعيد تكوين نفسها بين الأسر الغنية والقوية من الطبقة الثالثة Third Estate فإن دمرتها في موقعها الجديد هذا، اتخذت لنفسها ملاذاً بين زعماء العمال وزعماء الشعب (051) فالديمقراطية - إن كانت معقولة - يجب أن تقتصر على إتاحة فرص متساوية أمام الجميع ليتنافسوا ويتملكوا (151) ويزعم نابليون أنه حقق هذا بكسر الحواجز أمام المتفوقين والموهوبين في كل المجالات، ولكنه سمح بكثير من الانحرافات التي أخرجت مسار حكمه عن هذه القاعدة.

لقد كان رأيه غير واضح فيما يتعلق بالثورات. فهي تُطلق العنان لمشاعر الجماهير المتقدمة مادامت الجرائم الجماعية لا تُوقع المسؤولية الجنائية على أحد (251) ولا يمكن أن تكون هناك ثورة بدون إرهاب (351) و الثورات هي السبب الحقيقي لبعث الأعراف العامة وبث الروح فيها من جديد (451) لكنه انتهى بشكل عام (في سنة 6181) إلى أن الثورة واحدة من أكثر الشرور التي يمكن أن يُبتلى بها البشر. إنها كارثة حلت بجيل ومهما كانت المزايا الناتجة عنها، فإنها لا يمكن أن تكون تعويضاً عن اليأس الذي نَعَصت به حياة الذين قاموا بدور فيها (551).

لقد كان نابليون يفضل النظام الملكي على كل أشكال الحكم الأخرى ولو من قبيل الدفاع عن التوريث في الحكم (يعني توريث ذريته وقرابته هو) ضد الشكوك التي أثارها القيصر اسكندر (651) إن فرص تأمين الحكم الصالح في النظام الوراثي أكثر منها في النظام الانتخابي (751) فالناس يكونون أكثر سعادة في ظل مثل هذه الحكومة الراسخة الدائمة منهم في ظل ديمقراطية تجعل كل الأمور متاحة للجميع بلا ضابط فيستولى الشيطان في خاتمة المطاف على مقدراتها

ففي الأزمنة التي يسودها الهدوء والنظام ينعم كل فرد بنصيبه من السعادة فيصبح عامل الاسطبل سعيدا في اسطبله سعادة لا تقل عن سعادة الملك على عرشه، ويسعد الجندي العادي سعادة لا تقل عن سعادة الجنرال(851). وكان حلمه السياسي المثالي هو توحيد أوروبا في فيدرالية واحدة أو جعل باريس عاصمة العالم التي تحكم القارات والدول من خلال علاقاتها الخارجية. وفي هذا الكيان الأوروبي المشترك تلغي الحواجز السياسية وتكفل حرية السفر والنقل والتجارة، ويتم توحيد العملة والموازين والمكاييل والمقاييس(951). وعندما وصل نابليون إلى موسكو في سنة 2191 ظن أن تحقيق سلام عادل - فقط - مع اسكندر هو الأمر الوحيد الباقي لتحقيق حلمه في توحيد أوروبا. لقد أساء نابليون تقدير القوى الطاردة المركزية الممثلة في الفروق بين الوطنيات المختلفة (الاختلاف بين الأمم)، لكن ربما كان نابليون على حق في الاعتقاد في أن أوروبا إذا ما حققت الوحدة فلن يكون ذلك بالاقناع أو بالاحتكام إلى أحكام العقل وإنما رضوخا لقوة متفوقة تستمر طوال جيل. ومع هذا فقد تستمر الحرب، لكنها - على الأقل - ستصبح مدنية (أقرب ما تكون للمنافسة).

وكلما اقترب نابليون من نهايته راحت فكرة عجيبة تلح عليه أكان حُر الإرادة مُدعياً فيما أتاه أم أنه كان أداة لا حَوْل لها في يد قوى كونية معينة. ولم يكن نابليون قديراً (جبرياً)، ينزع من الإنسان قدرته على العمل الحر، والجبري هو ذلك الشخص الذي يعتقد أن نجاحه وفشله، وصحته ومرضه، وطبيعته حياته ولحظة مماته قد حدّتها - سلفاً - قوى غير منظورة بصرف النظر عما يختاره هو بإرادته(061)، ولم يكن نابليون يؤمن بالحمية على نحو واضح، والحمية هو الشخص الذي يعتقد أن كل ما يجري - بما في ذلك خياراته وأفكاره وأفعاله - إنما هو محكوم سلفاً بتوليفة من كل القوى أو العوامل بالإضافة لما حدث في الماضي (أحداث التاريخ)، لكنه كان يتحدث كثيراً عن القضاء والقدر أو القسمة والنصيب destiny - المجرى الرئيسي للأحداث الذي يمكن تطويعه جزئياً عن طريق الإرادة البشرية لكنه يسير في مساره لا يمكن مقاومته بشكل أساسي، وكأنه ينساب من طبيعة الأشياء ملازماً لها لا يبغي عنها حولاً. وفي بعض الأوقات كان يحدثنا عن إرادته القوية قوة تكفي لاعتراض المجرى أو تحويله - لقد كُنْتُ دوماً قادراً على فرض إرادتي على القدر(161) وينسب إليه قول يتعدّر التعويل عليه لأنه غير مؤكد: إنني اعتمد على مجريات الأحداث، فلا إرادة لي. إنني أترقب كل الأمور عند صدورها(261) - أي من مصادرها. فالأعظم والأعلى سلطة هو الذي يمتلك قدراً أقل من حرية الإرادة فثمة قوى أكثر وأعظم إرادة تفرض نفسها عليه وترتطم بإرادته فالمرء يعتمد على الظروف والأحداث. إنني العبد Slave الأعظم بين الرجال فسدي هو طبيعة الأشياء(361). لقد مرّج بين أمرجته المتقلبة وحالاته النفسية المتباينة والفكرة المنطوية على كبرياء والتي مؤداها أنه كان أداة في يد القدر، وهو يقصد بالقدر طبيعة الأشياء التي تفرض مجرى الأحداث ونهاياتها. إن القدر يدفعني لهدف أجهله، وحتى يتحقق هذا الهدف فأنا منيع حصين لا يستطيع أحد مواجهتي فإذا ما تحقق هذا الهدف أصبحت ذبابة واحدة كافية لتدمير(461). لقد شعر بنفسه مقيداً بقدر محتوم، قدر رائع لكنه خطير. لقد كان المجد والظروف يسوقانه سوّفاً فلا بد من إنجاز ما يريد القدر(561).

وكان نابليون يفكر مراراً - مثلنا جميعاً - في الموت، وكان تكوينه النفسي يجعله ميالاً للدفاع عن الانتحار أو التأمل فيه. وفي شبابه شعر أن الانتحار هو الحق النهائي لكل إنسان لكنه عندما بلغ الواحدة والخمسين أضاف لذلك إذا لم يضر بموته أحداً(661) وكان لا يؤمن بالخلود ليس هناك خلود وإنما الذكرى التي يتركها المرء في عقول الناس ونفوسهم... أن تعيش بلاد مجد، ودون أن تترك أثراً لوجودك، فكأنك لم تعيش على الإطلاق(761).

أكان فرنسياً؟ لقد كان فرنسياً بالصدفة وبمرور الوقت، وإلا فهو ليس فيه من الفرنسيين شيء لا في تكوينه الجسماني ولا في عقله ولا في شخصيته. إنه قصير وأصبح في وقت لاحق بديناً، وكانت ملامحه أقرب ما تكون إلى الصرامة الرومانية منها إلى الملامح الغالية الوضاعة وكان ينقصه ما يتمتع به المثقفون الفرنسيون من مرح وتسامح وروح فكاهة وأناقة. لقد كان ميالاً للسيطرة على العالم أكثر من ميله للاستمتاع به. وكان يعاني من بعض الصعوبات في نطق اللغة الفرنسية فقد ظل حتى سنة 7081 يشوب نطقه لها لكنة أجنبية (861) وكان يتحدث الإيطالية بطلاقة وكان يبدو في ميلان أكثر التصاقاً بها وألفة معها مما هو في باريس. وقد عبّر في مناسبات مختلفة عن عدم حبه للشخصية الفرنسية. قال لا كاس Las Cases إن الامبراطور يتحدث بأسهاب عن تقلبنا وتغير مواقفنا بسرعة فهو يقول إن كل الفرنسيين متمرّدون ميّالون لتوجيه اللوم... فرنسا تحب التغيير ولا تُطبق بقاء أي حكومة لفترة طويلة (961). وتحدث غالباً - بإلحاح شديد لا يُح مثله إلا من كان غير واثق - عن حبه لفرنسا، وكان يكره أن يُقال له يا كورسيكي فمن أقواله أريد أن أكون فرنسياً خالصاً (071) وأنه لئب ما بعده يُبل أن يكون المرء قد وُلد فرنسياً (171) لكنه في سنة 9081 أفضى إلى روديرييه Roderer بما يعنيه بهذا الحب: ليس له إلا عاطفة حب واحدة وخليقة واحدة. إنها فرنسا. إنني أنام معها، فلم تخذلني أبداً. لقد ضحّت بدمائها وأمواها من أجلي، فإن طلبت منها 000,005 مقاتل قدمتهم لي (271) لقد أحبّتها على نحو ما يحب عازف الكمان كمانه، كأداة سريعة الاستجابة لقوسه وإرادته. لقد شد على أوتارها حتى قطعها، قطعها جميعاً تقريباً وفجأة.

أكان نابليون هو ابن الثورة الفرنسية؟ هكذا كان يطلق عليه المتحالفون الأوروبيون ضدّه لكنهم كانوا يقصدون بذلك أنه ورث كل أثمها وجرائمها وأنه واصل مهمتها في إبعاد أسرة البوربون التي كانت حاكمة. أما هو نفسه فقال مراراً إنه قد كان سبباً في إنهاء الثورة الفرنسية أو بتعبير آخر أوصلها إلى النهاية - انه لم يُنه ما سبّبته من فوضى وعنف فحسب، وإنما أنهى أيضاً دعاويها الديمقراطية (غير الحقيقية). لقد كان ابناً للثورة إلى الحد الذي احتفظ فيه بانعتاق الفلاحين وتحررهم، وحرية التجارة والقيام بالمشروعات وإلى الحد الذي جعل فيه الناس سواسية أمام القانون وإلى الحد الذي فتح فيه أبواب المناصب على مصاريعها أمام الموهوبين والقادرين كما كان ابناً للثورة في إرادته المعقودة على الدفاع عن حدود فرنسا الطبيعية، لكنه عندما جعل من نفسه قنصلاً مدى الحياة فإمبراطوراً وعندما قضى على حرية الحديث وحرية الصحافة وأنهى شراكة الكنيسة الكاثوليكية في الحكم وأقام سجوناً جديدة وشجع الأرستقراطية القديمة والجديدة - فإنه - بالتأكيد - يكون قد أصبح بعيداً عن كونه ابناً للثورة. وكان نابليون يمكث أيضاً في البلاد المفتوحة، وفيها أنهى الإقطاع ومحاكم التفتيش وسيطرة رجال الدين على مناحي الحياة، وأدخل لهذه البلاد مواد مدونته القانونية وشيئاً من التنوير، لكنه أيضاً ربط هذه الدول المفتوحة به فعين عليها ملوكاً. أكان حقاً - رغم إرادته - كورسيكياً؟ هذا غير صحيح إلا فيما يتعلق بولائه لأسرته، وميله للقتال، وعاطفته الجياشة في الدفاع عن فرنسا ضد أعدائها، لكنه لم يكن كورسيكياً إذا نظرنا لعدم ميله للإقطاع كما ان قراءاته للمفكرين الفرنسيين أبعدته عن كاثوليكية العصور الوسطى التي كان عليها أهل جزيرته (كورسيكا). لقد كان كورسيكي الدم، فرنسي التعليم، إيطالياً في كل شيء خلال ذلك.

نعم فبعد كل محاولاتنا للإجابة عن هذه الأسئلة يجب أن نرجع إلى ما قاله ستندال Stendhal وتين Taine من أن نابليون كان كأحد قادة الجنود المرتزقة في إيطاليا في عصر النهضة، وساعد على بقائه محتفظاً بهذه الخاصية، انعزال كورسيكا وحروبها ونظامها الإقطاعي. لقد كان هو كفيصر بورجيا Cesare Borgia لكنه ضيّع عقله، وكان كمكافيللي لكن حذره بمقدار النصف، وإرادته تزيد على ما أوصى به ميكافيللي مئة مرة. لقد كان إيطالياً لكن فولتير جعله شكاكاً، كما جعلته الثورة الفرنسية التي شهد وقائعها حاذق الذهن محتالاً، وأصبح لماًحاً حاد الذهن بدخوله في مناقشات يومية مع المفكرين الفرنسيين اللامعين. لقد ظهرت فيه كل صفات إيطاليا في عصر النهضة: الفنان والمقاتل والفيلسوف والقائد وحدثهم جميعاً - في شخصه - مواهبه وأهدافه وفكره المتغلغل الثاقب للمّاح، واتجاهه المباشر للانجاز والهيمنة، لكنه لم يكن قادراً على التوقف. وباستثناء هذا الخطأ الحيوي، فقد كان هو أبرع من شاهده التاريخ تحكماً في الأمور المعقدة وأبرع من شاهده التاريخ تنسيقاً للطاقة البشرية. لقد أحسن توكوفيل Tocqueville عندما قال: لقد كان كأفضل ما يكون الرجال لكن دون فضيلة، وكأحكم ما يكون الرجال لكن دون تواضع. ومع هذا فقد كان نابليون في نطاق ما هو معقول محتمل عندما توقع أن العالم قد لا يشهد نظيراً له لقرون كثيرة قادمة.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> فرنسا في عهد نابليون -> الاقتصاد

الفصل الحادي عشر

فرنسا في عهد نابليون

1805 - 1800

1- الاقتصاد

رغم أن نابليون نشأ ليكون رجلاً عسكرياً إلا أنه كان ذا حِس صائب إزاء الحقائق الاقتصادية باعتبارها أساس تحديد مصائر الأسر وباعتبارها ركيزة للحضارة، وبها يكون الحكم على قوة الدولة أو ضعفها. وبشكل عام فإنه رغم ميله الشديد للتنظيم كان مناصراً للحرية الاقتصادية، وفتح أبواب المنافسة، وحقوق الملكية الخاصة. فلم يهتم كثيراً بالخطط الاشتراكية التي قال بها شارل فوريه Charles Fourier وغيره والمتعلقة بالانتاج الجماعي وتوزيع الناتج توزيعاً متساوياً. فقد كان يشعر شعوراً أكيداً أن الأقلية الأكثر مقدرة - في أي مجتمع - سرعان ما تحكم الأكتريية وتستوعب - أي هذه الأقلية النشطة - القدر الأكبر من الثروة، وأكثر من هذا فإن المثل الشيوعية لا تستطيع على المدى الطويل بأساليبها المتباينة في تقديم الحوافز في حفز الناس على الكدح، ففي تحليل جانبي ورد أن الجوع هو الذي يجعل العالم يتحرك (1) وأكثر من هذا فإن الملكية الجماعية تمثل إغراء مستمراً باللامبالاة. فبينما الملكية الفردية بما فيها من مصالح شخصية للمالك في ثروته - تدفع لليقظة الدائمة والانتباه المستمر مما يجعل خطته مثمرة محققة لأهدافها، فإن الملكية الجماعية تؤدي للخمول وعدم الانتاجية، لأن المشروع الفردي مسألة موهبة ومهارة بينما المشروع الجماعي مسألة روح عامة، وتوفر الروح العامة العالية لا يكون إلا نادراً (2). ومن هنا فقد فتح نابليون كل الأبواب وأتاح كل الفرص لكل الناس بصرف النظر عن ثروتهم وأنسابهم. وقد نعمت فرنسا حتى سنوات حكمه الأخيرة بالرخاء الذي حقق السلام الاجتماعي بين كل الطبقات ولم تعد هناك بطالة (3) ولا اضطرابات سياسية. ولم يعد أحد مهتماً بالإطاحة بحكومة وظفت أو أتاحت فرصة عمل لكل محتاج (4).

لقد كان نابليون يؤمن بمبدأ أساسي هو أن دولة تقوم ماليتها على نظام زراعي جيد لا تسقط أبداً (5). لقد أدرك أنه بإشرافه على كل شيء وعدم إغفاله أي شيء أن التعريفات الحامية Protective tariffs والتمويل المالي الموثوق به وصيانة الطرق والقنوات بشكل جيد، كل ذلك لا بد أن يشجع الفلاحين على العمل الجاد المتواصل وعلى شراء

الأراضي واستصلاح المزيد منها، وتزويد جيوشه بالشباب الأقوياء. لقد كان عدد كبير جداً من الفلاحين الفرنسيين يعملون بنظام المزارعة (أي العمل في مزارع الآخرين لقاء المشاركة في المحصول) أو في أراضٍ مستأجرة لكن نصف مليون منهم أصبحوا بحلول عام 1814 يمتلكون الفدادين (الأكرات acres) التي يزرعونها. وقد وصفت سيدة إنجليزية قامت برحلة إلى فرنسا في هذا العام الفلاحين الفرنسيين بأنهم يتمتعون بدرجة من الرخاء لم يصل إليها الفلاحون في أي مكان في أوروبا (6). وقد نظر هؤلاء الزرّاع إلى نابليون باعتباره الضمان الحي لحُجج ملكياتهم وظلوا موالين له حتى وهنت أراضيهم نتيجة غياب أبنائهم المجندين في جيوشه.

واهتم نابليون أيضاً بالصناعة اهتماماً أساسياً. فجعل من مهامه زيارة المصانع وإظهار اهتمامه بعمليات الإنتاج والمنتجات، وبالعمال والحرفيين والمديرين. وتطلّع إلى وضع العلم في خدمة الصناعة. لقد أقام المعارض الصناعية - ففي سنة 1810 أقام معرضاً في اللوفر Louvre، وآخر في سنة 1811 في خيمة هائلة في ميدان الجنود المتقاعدين ومشوّهي الحرب Place des Invalides ونظم مدرسة الفنون والحرف، وكافأ المخترعين والعلماء. وأجريت التجارب في سنة 1810 لاستخدام طاقة البخار وبالفعل فقد تم تجريب آلة غير مُتقنة تعمل بالبخار لتسيير بارجة نقل بضائع في ترعة قرب باريس، لكن أمر استخدام الطاقة البخارية كان في حاجة إلى مزيد من الجهود. وفي سنة 1810 قدّم روبرت فلتون Robert Fulton خطة لاستخدام الطاقة البخارية في الملاحة، فأحالها نابليون إلى المعهد الوطني الفرنسي Institute National الذي رفضها بعد شهرين من التجارب لكونها غير عملية. لقد كانت الصناعة الفرنسية تتقدم على نحو أبطأ من الصناعة البريطانية، فقد كانت أسواق تصريف منتجاتها أقل ورؤوس أموالها أقل، واستخدام الآلات فيها أقل. وعلى أية حال ففي سنة 1810 عرض جوزيف - ماري جكار Joseph - Marie Jacquard آلة جديدة للنسج وفي سنة 1810 اشترت الحكومة الفرنسية اختراعه هذا ونشرته فأصبحت صناعة النسيج الفرنسية تتنافس نظيرتها البريطانية. وزاد عدد الأنوال (جمع نول) المستخدمة في صناعة الحرير في ليون Lyons من 1810 إلى 1811، وفي سنة 1810 كان يعمل في مصانع مورّد نسيج واحد أحد عشر ألف عامل (8). وفي هذه الأثناء كان الكيميائيون الفرنسيون يواصلون جهودهم لمواجهة منع المنتجات البريطانية من السكر والقطن والأصباغ (النيلة أو الأصباغ الزرقاء) فصنعوا السكر من البنجر والأصباغ الزرقاء من نباتات الوَسْمَة Woad، وطوّروا الكتان فجعلوا منسوجاته أفضل من المنسوجات القطنية (9)، وصنعوا البراندي (نوعاً من الخمر) من البطاطس.

وساعد نابليون الصناعة الفرنسية بالتعريفات الحامية Protective tariffs والحصار القاري المضاد وعاونها لتجاوز الصعاب المالية بالقروض بشروط ميسرة وفتح أسواقاً جديدة للمنتجات الفرنسية في إمبراطوريته الواسعة، وكان يستوعب العمال في أشغال عامة على نطاق واسع إن شهدت البلاد ركوداً في عمليات التشغيل أو التوظيف. وكان بعضها شاهداً على عظمة نابليون وجيوشه مثل عمود فيندوم Vendome Column (ü) والمادلين Madeleine (الكلمة تعني حرفياً فواكه الصيف) وقوس النصر المرصع بالنجوم وقوس نصر ميدان الفروسية، وشغّل الشباب في بعض الأعمال الأخرى مثل إقامة تحصينات عسكرية أو أعمال تهدف لتسهيل التحركات العسكرية وغيرها كالأشغال التي جرت في ميناء شيربورج Cherbourg وحصنه وقناته، وبعض هذه الإنشاءات ذات النفع كانت مصممة بحيث يكون لها أبعاد فنية جمالية، كمينى البورصة وبنك فرنسا ومبنى مكتب البريد العام ومسرح الأوديون Odeon (الكلمة تعني حرفياً مسرح إغريقي للموسيقى والغناء)، بل وحتى سوق القمح Bels أو سوق النبيذ (1810) وبعض هذه الأشغال العامة كانت لتسهيل العمل الزراعي، كتجفيف المستنقعات بالإضافة لأعمال أخرى تُيسر النقل والتجارة. وتم افتتاح شوارع جديدة في باريس مثل طرق ريفولي Rivoli وكاستينجليون Castiglione والبو Paix (السلام) وميلين من الأرصفة على طول نهر السين ومقر وزارة الخارجية الفرنسية المطل على هذا النهر ذاته، والأكثر أهمية إنشاء 33،005 ميل من الطرق الجديدة في فرنسا، وما لا حصر له من الجسور بما في ذلك جسر أوسترليتز في باريس وجسر لينا Lena في باريس أيضاً، أضف إلى هذا تطهير النهر ومد شبكة رائعة من الترعة والقنوات. لقد تم حفر ترعة كبرى لتربط باريس بليون Lyons وليون بستراسبورج Strasbourg وبوردو Bordeaux. وسقط نابليون قبل أن يستطيع إكمال مشروعين آخرين: قنوات تربط الراين بالدانوب والرون، وقنوات أخرى تربط البندقية (فينيسيا) بجنوة (01).

ولم يكن مسموحاً للعمال الذين يعملون في حفر القنوات وإقامة أقواس النصر وتشغيل المصانع بالاشتراك في أي إضراب أو تكوين اتحادات للمطالبة بتحسين ظروف العمل أو رفع الأجور. وعلى أية حال فإن حكومة نابليون عملت على أن تكون الأجور متمشية مع الأسعار وأن يخضع الخبّازون والجزارون (اللحّامون) والمنتجون لتنظيم الدولة وأن تتوفّر ضروريات الحياة خاصة في باريس. وحتى الأعوام الأخيرة من حكم نابليون كانت الأجور تزداد بمعدل أسرع من ازدياد الأسعار وشاركت البروليتاريا (الطبقة العاملة) على نحو معتدل في الرخاء العام وفي مجد

انتصارات نابليون، فأصبحوا أكثر وطنية من البورجوازية. فأعطوا أدناً غير مصغية للبورجوازيين الليبراليين مثل مدام دي ستيل Stael وبنيامين كونستانت (قستطين) Benjamin Constant في تبشيرهم بالحرية. ومع هذا كانت هناك أصوات مستاءة، وأسباب للاحتجاج. فلأن الاقتصاد الحر كلما تقدّم أصبح النشيطون أثرياء، فقد أدرك بعض الناس أن المساواة تتدهور في ظل الحرية، وعلى هذا فقد كان رأيهم أن الحكومة تقوم بعمل مُنكر بسماعها بتركيز الثروة لتستتفي بذلك نصف السكان من ثمار الاختراعات ومزايا الحضارة، ففي سنة 8081 أصدر فرانسوا - ماري فورييه Fourier كتابه نظرية الحركات الأربع ومصير العامة الذي يمثل أول مثال تقليدي للاستراكية المالية Utopian. لقد اقترح على غير الراضين بأوضاعهم في ظل النظام الصناعي القائم أن يُحدوا في كتائب تعاونية Phalanges بمعنى أن تعيش حوالي أربعمئة أسرة معاً في مستعمرات تعاونية (تستخدم بعض الكتب والقواميس العربية مصطلح كتائب تعاونية أو كتائبية تعاونية) أو مبنى واحداً مُشاعاً بينهم بحيث يقضي كل الأعضاء جزءاً من العمل اليومي في مجال الزراعة (بحيث يكون هذا العمل منظماً تنظيمياً جماعياً) وجزءاً آخر في الصناعة الجماعية أو المنزلية، ويقضون الجزء الثالث في الترفيه أو التثقيف، وفي نظامه هذا يتحتم أن يقوم الفرد بمهام مختلفة وأن يُغير موقعه في العمل بين الحين والحين، بمعنى أن يساهم كل فرد على قدم المساواة في إنتاج أو أرباح هذه المستعمرة التعاونية (أو الكتيبة التعاونية Phalanx) ووفقاً لهذا النظام يكون في كل مستعمرة تعاونية مركز اجتماعي ومدرسة ومكتبة وفندق وبنك. وسرعان ما كانت هذه الخطة مصدر إلهام في شطري الكرة الأرضية وكانت مزرعة بروك Brook Farm بالقرب من بوسطن Boston هي الوحيدة التي تكوّنت من عدة مجتمعات مثالية (يوتوبية Utopian) سرعان ما تناقص عددها نتيجة النزعات الفردية الطبيعية للبشر.

ولم يكن نابليون نفسه مولعاً ولعاً شديداً بالرأسمالية. فقد كان يقول عن الأمريكيين أنهم مجرد تجار فهم يكرسون كل همهم لجمع المال الذي هو مجدهم (11) وقد شجّع نابليون التجارة الفرنسية بمضاعفة وسائل النقل وصيانة الطرق بشكل مستمر، وبالتمويل المالي وضخ الأموال بشكل ثابت لكنه عوقها بألف مرسوم ومرسوم لإحكام الحصار القاري المضاد، وأخيراً اضطر للتسليم نتيجة شكاوى التجار (181 - 1181) وسمح بتصدير بضائع معينة لبريطانيا وباستيراد السكر والبن ومنتجات أجنبية أخرى. لقد أرقته هذه التراخيص (بالاستيراد أو بالتصدير) فقد عملت المحسوبة عملها وظهر الفساد من خلالها (21). فكلما نمت الصناعة في فرنسا كانت استفاضة التجارة والحرفيين الصغار أكبر من استفاضة تجارة الجملة فكلما توسعت الزراعة والصناعة ووسائل النقل أصبحت بضائع المخازن غير متاحة لتجار الجملة الفرنسيين. حقاً إن عدداً كبيراً من الشوارع قد انتعش باليوتيكات (المحلات) العامرة، لكن الموانئ الكبرى - مارسيليا وبوردو ونانت Nantes ولا هافر La Havre وأنتورب Antwerp وأمستردام - كلها كانت تعاني الكساد الذي أرجع التجار سببه لنابليون وحصاره القاري (المضاد).

وكان أعظم نجاحات نابليون كإداري في مجال المالية. ومن الغريب أن نقول إن حروبه حتى سنة 2181 عادة ما كانت تدر عائداً أكثر من تكاليفها. لقد حمل أعداءه مسؤولية بدء الحرب وعندما هزمهم فرض عليهم وعلى حكامهم السابقين دفع مبالغ طائلة تاديباً لهم، وكان نابليون يحتفظ بجانب من هذه الغرامات تحت إشرافه الشخصي كملك استثنائي Domaine extraordinaire وقد تباهى في سنة 1181 أن لديه 000,000,003 فرنك ذهبي في أقبية (جمع قبو) قصر التوليري (31) وكان يستخدم هذه الميزانية في تذليل صعوبات الخزنة الفرنسية، وفي تصحيح التحويلات الخطرة في سوق الأوراق المالية وتمويل الأشغال العامة أو التحسينات البلدية والقروية، وللمكافأة على الخدمات البارزة ولتميز الفنانين والكتاب ولإنقاذ الصناعات المتعثرة ولرشوة صديق أو عدو، ولتنفيذ سياساته السريّة. ويتبقى جزء كافٍ للاستعداد للحرب التالية وليجعل الضرائب أقل بكثير مما كانت عليه في ظل لويس السادس عشر أو أثناء الثورة الفرنسية (41).

يقول تين Taine قبل سنة 9871 كان الفلاح الفرنسي يدفع من كل مئة فرنك يكسبها 41 فرنكاً للسيد الإقطاعي و 41 فرنكاً للإكليروس (رجال الدين) و 35 فرنكاً للدولة ولا يبقى له سوى 81 أو 91 فرنكاً. وبعد سنة 0081 لم يعد يدفع للسيد الإقطاعي أو للإكليروس وإنما أصبح يدفع قدرأ قليلاً للدولة و 52 فرنكاً لمجلس الدائرة أو المحافظة ويحتفظ لنفسه بسبعين فرنكاً من مئة لنفسه (51). وقبل سنة 9871 كان العامل اليدوي يدفع ما يعادل أجر أيام عمل تتراوح ما بين عشرين يوماً إلى تسعة وثلاثين يوماً ليسدّد ما عليه من ضرائب كل عام، وبعد سنة 0081 أصبحت هذه الفترة تتراوح ما بين ستة أيام إلى تسعة عشر يوماً. وكاد عبء الضرائب المباشرة يقع كله على كاهل من يملكون مقابل الاعفاء شبه الكامل (من الضرائب) لمن لا يملكون (61) وعلى أية حال فقد كانت هناك ضرائب كثيرة معتدلة تماماً غير مباشرة أو ضرائب مبيعات كان يتحملها كل الناس على نحو سواء ومن ثم كان الفقراء يعانون منها أكثر من الأثرياء. وقرب نهاية الحكم الإمبراطوري زادت تكاليف الحرب عن عوائدها فارتفعت الضرائب والأسعار وعمّ السخط. ودفعت الأزمة المالية في سنة 5081 نابليون إلى إعادة تنظيم بنك فرنسا الذي كان قد أنشئ في سنة 0081 في ظل إدارة خاصة. وبينما كان نابليون يحارب دفاعاً عن وجوده السياسي في مارنجو Marengo أحكمت مجموعة

من المضاربين سيطرتها على إمدادات Supplies القوات المسلحة وكان على رأس هؤلاء المضاربين جابريل جوليان أوفرار Gabriel - Julien Ouvrard وقد طلب هؤلاء المضاربون - أثناء مرورهم بمصاعب - من البنك قرضاً كبيراً، ولكي يقدم البنك هذه المبالغ أصدر - بعد استئذان وزارة الخزانة - عملته النقدية كعملة رسمية معترف بها، وفشل هذا الإجراء فلم تُقبل هذه الأوراق النقدية عند إجراء الصفقات وتدنّت قيمتها الفعلية إلى نحو 09% من قيمتها المدونة عليها (الاسمية). وواجه البنك وجماعة المضاربين الإفلاس. وعند عودة نابليون إلى باريس أنقذ البنك بجزء من التعويضات التي تسلمها من النمسا، لكنه أصر - أي نابليون - أن يصبح البنك من الآن فصاعداً تحت إشراف الدولة لكن على الدولة ألا تتجاوز الحد في هذا الإشراف وفي 22 أبريل سنة 6081 وضعه تحت إشراف محافظ gouverner واثنتين من المساعدين تُعينهم الحكومة، وخمسة عشر وصى يختارهم المساهمون، وافتتح هذا البنك الجديد (المقصود بنظامه الجديد) فروعاً له في ليون Lyons وروان Rouen وليل Lille وبدأ مهمته التي طال أمداها في خدمة الاقتصاد الفرنسي والدولة. وظلت الحكومة لا تمتلك إلا القليل من أسهم هذا البنك.

ولم يكن نابليون يحترم كثيراً أولئك الذين يبيعون المؤن لجيشه ووزارته. فقد كان كل متعاقد من المتعاقدين يحشو فوائده وكان بعضهم يُقدم مواد زائفة (مغشوشة) مقرونة بأسعار تشير إلى أنها (أي هذه المواد) ممتازة. وأصدر تعليماته لموظفيه ليراجعوا بحزم كل الفوائير المقدمة لهم بل لقد كان يراجعها بنفسه في بعض الأحيان. لقد قال لبورين إن كل المتعاقدين (الموردّين) وكل وكلاء التمويل محتالون... إنهم يمتلكون الملايين وينتمون في النعمة، بينما جنودي ليس لديهم خبز ولا أحذية... (71) وفي فيينا تلقى سنة 9081 شكايات من رداءة الملابس والمعدات التي بيعت لجيشه، فأمر بإجراء تحقيق تبيّن منه أن المتعاقدين حققوا أرباحاً طائلة من هذه المبيعات بغير وجه حق، فأمر بتشكيل محكمة عسكرية حكمت على المختلسين بالإعدام، وتم تنفيذ الحكم رغم كل الوساطات التي بُذلت لإنقاذهم والتي رفضها نابليون (81).

وعلى العموم فحتى ناقدو نابليون المعادون يعترفون (91) أنه في السنوات الثلاث عشرة الأولى من حكم نابليون شهدت فرنسا أقصى درجات الرخاء والازدهار لم تعرفه قبل ذلك أبداً. وعندما عاد لا كاس Las Cases إلى فرنسا سنة 5081 من جولة في ستين دائرة (محافظة) ذكر في تقرير له أن فرنسا لم تكن في أي فترة في تاريخها أكثر قوة وانتعاشاً وسعادة، وأفضل حكماً مما هي عليه الآن (02) وكان لا كاس أحد الذين هاجروا من فرنسا عقب أحداث الثورة الفرنسية لكنه عاد إليها بعد العفو عنه. وفي سنة 3181 زعم وزير الداخلية الكونت دي مونتاليف Montalivet أن هذا الرخاء المستمر راجع إلى القضاء على النظام الإقطاعي، والنظام الطبقي والنظم الدّيرية... والاتجاه بشكل أكثر نحو توزيع أكثر عدالة للثروة وتبسيط القوانين وجعلها أكثر وضوحاً (12) وفي سنة 0081 كان تعداد سكان فرنسا حوالي 82 مليون، أصبحوا في سنة 3181 ثلاثين مليوناً. ولا تبدو هذه الزيارة مروّعة لكن لو كانت هذه النسبة في الزيادة قد استمرت حتى سنة 0781 (حتى بدون حساب الزيادة المركبة) لكان على ابن أخي نابليون أن يحكم خمسين مليوناً ليوواجه بهم تحدي ألمانيا بزعامه بسمارك.

صفحة رقم : 14602

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> فرنسا في عهد نابليون -> المعلمون

لقد لاحظنا أن نابليون خلال فترة القنصلية (الفترة التي كان يحكم فيها فرنسا كقنصل أول) يحاول أن يقدم لفرنسا في فترة ما بعد الثورة نظاماً جديداً ويُعيد إليها الاستقرار بمدونة القانون المدني، وكونكوردات السلام (الاتفاق مع البابا) والتعاون بين حكومته والدين التقليدي للشعب الفرنسي.

وبالإضافة إلى هذه القوى المكوّنة للوجدان الفرنسي، رأى نابليون أن يضيف قوةً أخرى ثالثة بإعادة تنظيمه التعليم في فرنسا. من بين كل الآليات الاجتماعية، ربما كانت المدرسة هي الأكثر فعالية وتأثيراً، لأنها تمارس على الأطفال والشباب ثلاثة أنواع من التأثيرات بشكل مباشر وغير مباشر: تأثير الناظر والمدرسين، وتأثير من خلال الدراسة المشتركة، وتأثير أخير من خلال القواعد المتبعة والإجراءات المرعية (22). لقد كان نابليون مقتنعاً أن سبباً واحداً كان كامناً وراء انهيار القانون والنظام أثناء الثورة الفرنسية هو عدم قدرتها على ترسيخ نظام تعليمي جديد يكفي ليحل محل النظام التعليمي الذي كانت تديره الكنيسة قبل الثورة. لقد نسيت الثورة هذا المشروع في خضم صراع الموت أو الحياة في هذه الفترة. لقد تم وضع خطط رائعة، لكنها لم توضع موضع التنفيذ بسبب نقص المال، كما أن الوقت الكافي لتنفيذها لم يكن متاحاً أثناء الثورة. وكان التعليم الابتدائي قد تركز للقسس والراهبات أو في أيدي معلمين ونظار تركهم الآباء والمجالس البلدية (الكوميونات) يعيشون فوق خط الجوع بقليل. وكانت المدارس الثانوية موجودة بالكاد في مؤسسات تعليمية Lycées تقدم مقررات دراسية في العلوم والتاريخ دون أن تهتم - إلا قليلاً - بتكوين شخصية الطالب. لقد فكر نابليون في التعليم العام من منظور سياسي: إن وظيفته هي تخريج مواطنين أذكياء لكن مطيعين. لقد قال بصراحة غير معهودة في الحكومات: عند تكوين هيئات التدريس، فإن هدفه الأساسي هو تأمين وسائل توجيه الرأي السياسي والأخلاقي... فطالما أن المرء ينشأ دون أن يعرف ما إذا كان جمهورياً أم ملكياً، كاثوليكياً أو لادنياً، فإن الدولة لن تستطيع أبداً تكوين أمة، وإنما ستقوم على أسس غامضة وغير أكيدة، وستكون دائماً عرضة للفضى والتغيير (32).

وبعد أن أعاد الارتباط بين الكنيسة والدولة سمح لمنظمات نصف ديرية مثل جماعة إخوة المدارس المسيحية Freres des Ecoles Chretiennes بتقديم مناهج دراسية في المرحلة الابتدائية، كما سمح للراهبات بتعليم البنات الموسرات. لكنه رفض أن يدخل الجزويت Jesuits (اليسوعيين) فرنسا من جديد. ومع هذا فقد كان معجباً بهم لتنظيمهم المنضبط كقنابة مكرّسة للمدرسين. لقد كتب نابليون (61 فبراير سنة 5081) أن الأمر الأساسي هو تعليم الأطفال على نسق الجزويت الأوائل (42) وتذكر بورين قائلاً: عندما كنت معه (نابليون) كان كثيراً ما يقول لي أنه من الضروري أن تكون كل المدارس والكليات وغيرهما من مؤسسات التعليم العام خاضعة للنظام العسكري (52) وفي ملاحظة أبداها نابليون في سنة 5081 قال لا يمكن تكوين نظام للتدريس إلا إذا خضع كل مديري المدارس وموجهيها ومعلميها في الإمبراطورية لرئيس واحد أو عدة رؤساء على نسق رؤساء عموم الرهبنة ومسؤوليها المحليين... عند الجزويت (اليسوعيين) وإلا إذا كانت القاعدة هي ألا يشغل أي شخص منصباً أعلى في المؤسسة التعليمية إلا إذا كان قد سبق له وشغل المناصب والمراكز الأخرى الأدنى درجة. ومن المستحب أيضاً ألا يتزوج المدرس أو أن يؤجل زواجه حتى يؤمن لنفسه مركزاً ودخلاً... كافياً لإعالة أسرة (62).

وبعد عام (01 مايو سنة 6081) ضمّن أنطوان فرنسوا دي فوركروي Antoine - Francois de Fourcroy - الموجّه العام للتعليم العام من المجلس التشريعي مرسوماً مؤقتاً مفاده تأسيس الجامعة الإمبراطورية لتكون جهازاً مختصاً دون سواه بالتدريس على مستوى الإمبراطورية (أسست جامعة باريس حوالي سنة 0511 وألغتها الثورة الفرنسية في سنة 0971). وكان على هذه الجامعة الجديدة ألا تكون مجرد مجموعة كليات - كلية للاهوت، وأخرى للقانون وثالثة للطب ورابعة للعلوم وخامسة للآداب، وإنما أن تكون المؤسسة الوحيدة لتخريج مدرّسي المرحلة الثانوية في فرنسا، وأصبح يتعين تأسيس مدارس ثانوية في مدينة أو أكثر في كل محافظة لتقدم لطلبتها مناهج دراسية تزوج بين اللغات الكلاسيكية والآداب والعلوم وأن تقوم المجالس البلدية بتمويلها، لكن كل مدرسيها لابد أن يكونوا من خريجي الجامعة، وألا يرقى أي منهم إلى منصب أعلى إلا إذا سبق له شغل المنصب الأدنى منه (72)، وأن يُطبع رؤساءه على نحو ما يطبع الجندي الضابط. ولحث الشباب الفرنسي على الالتحاق بهذه الطاحونة الشاقة Treadmill قدّم نابليون 004،6 منحة دراسية تعهد الذين حصلوا عليها بالتفرغ لمهنة التدريس وأن يؤجلوا زواجهم حتى بلوغهم سن الخامسة والعشرين على الأقل. وسيكون أمامهم في النهاية فرص الترقى لأعلى المناصب في الدولة (82). وقال نابليون لفوركروي Fourcroy إن كل هذا مجرد بداية، فشيئاً فشيئاً ستقوم بتحقيق ما هو أكثر وما هو أفضل (92). وبالفعل فقد فعل ما هو أفضل - من وجهة نظره - بأن أعاد (في سنة 0181) دار المعلمين Ecole Normale لتكون فرعاً من فروع الجامعة، وفي هذه الدار يعيشون معاً في ظل نظام عسكري ويتلقون تعليماً خاصاً على يد هيئة تدريس ذات تقدير واحترام تضم أساتذة مثل لابلاس Laplace ولاجرانج Lagrange وبيرثول Berthollet ومونج Monge وبحلول عام 3181 كان من المتوقع أن يكون كل معلمي الكليات من خريجي دار المعلمين، وبدأ العلم يسود على حساب الدراسات الكلاسيكية في مناهج الكليات وأصبح هو الذي يسمّ الروح العامة لفرنسا المتعلمة. وتحولت

مدرسة البوليتيخنة Ecole Polytechnique التي أسست خلال الثورة إلى الأكاديمية العسكرية حيث وُضعت العلوم الفيزيائية في خدمة الحرب، وبقيت عدة جامعات في المحافظات حتى بعد انتهاء انتصارات الإمبراطور العسكرية، وسمح بإقامة كليات خاصة بعد الترخيص لها من الجامعة وعلى أساس خضوعها للتفتيش الدوري. وبعد استتباب الأمور سُمح لأفراد من المحاضرين باستخدام قاعات الجامعة لتقديم برامج دراسية خاصة وسمح للطلبة بحضور هذه البرامج وفقاً لرغباتهم.

وكان على رأس الهرم الفكري المعهد الوطني الفرنسي. وأعيدت الأكاديمية الفرنسية التي كانت قد ألغيت في سنة 3971 لتكون في سنة 5971 بمثابة القسم الثاني Class II للمعهد الجديد. وكان نابليون فخوراً بعضويته في المعهد لكن عندما تجرأ قسم السياسة والأخلاق في المعهد في سنة 1081 على تقديم محاضرات عن كيفية إدارة دفة الحكم، أمر نابليون الكونت لويس - فيليب دي سيجور de Segur أن يخبر القسم الثاني في المعهد أنني لا أسمح أن يناقش الأعضاء في اجتماعاتهم موضوعات سياسية (03) وكان المعهد يضم في ذلك الوقت كثيراً من الثوار القدامى المؤمنين بالثورة و قد عبّروا عن سخطهم بالضحك أو البكاء لإعادة الكنيسة الكاثوليكية بشكل رسمي. واستخدم كاباني Cabanis وديستوت دي تراسي Destutt de Tracy كلمة أيديولوجية للتعبير عن دراسة تكوين الأفكار. وقد أطلق نابليون على هؤلاء السيكلوجيين والفلاسفة اسم الأيديولوجيين ideologues وقال عنهم إنهم إناس غارقون في الأفكار ويعربدون بالمنطق والعقل لدرجة تجعلهم غير قادرين على فهم حقائق الحياة والتاريخ وكان نابليون يرى أن المفكرين الذين ينشرون أفكارهم عبر مشورات لا يُحصى عددها يشكلون عقبة في سبيل الحكومة الصالحة. ومن أقواله: إن من يجيدون الكتابة ويتمتعون بالفصاحة ليس لديهم القدرة الحاسمة على الفصل في الأمور (13) وقد حذر نابليون أخاه جوزيف الذي كان يحكم وقتها نابلي (81 يوليو سنة 7081) قائلاً: أنت تقضي وقتاً طويلاً مع رجال الأدب إنهم مثل المنقذين والمفكرين الذين يثرثرون وينشرون الإشاعات في الصالونات إنني أعتبر العلماء والمفكرين كالثسوة المغناجيات الحثانات لا بد أن يتابعهم المرء ويتحدث معهم لكنه أبداً لا يختار من بينهم زوجة له كما أنه لا يختار من بين هؤلاء الناس وزراءه (23).

وفي 32 يناير سنة 3081 أعاد تنظيم المعهد وقسمه إلى أربعة أقسام، وألغى منه قسم السياسة والأخلاق. القسم الأول وهو القسم الذي كان يقدره تقديراً شديداً مختص بدراسة العلوم. وكان من بين أعضائه الستين ادريان ليجندر Adrien Legendre ومونج Monge وبيوت Biot وبيرتول Bertholet وجاي - لوساك Gay - Lussac ولابلان Laplace ولامارك Lamarck وجيوفري سان - هيلير Geoffroy وكوفيه Cuvier والقسم الثاني ويضم أربعين عضواً مختصاً بدراسة اللغة الفرنسية وأدبها وقد حلّ هذا القسم محل الأكاديمية الفرنسية القديمة، وواصل العمل في القاموس Dictionnaire وكان هذا القسم يضم الشاعر المخضرم ديليل Delille والدرامي الشهير ماري - جوزيف دي شينييه Marie Joseph de Chenier والمؤرخ الشاب جيزو Guizot والكاتب الرومانسي شاتوبريان، والفلاسفة: فولني Volney وديستوت دي تراسي Destutt de Tracy ومين دي بيررا Maine de Biran. أما القسم الثالث الذي يضم أيضاً أربعين عضواً فمختص بدراسة التاريخ القديم وتاريخ الشرق سواء التاريخ العام أم تاريخ الآداب والفنون، وفي هذا القسم تابع لويس لانجلي Langles تلك الدراسات عن فارس والهند التي أدت بالفعل إلى ظهور مدرسة اللغات الشرقية (Ecole des Langues Orientales 5971) واكتشف جان بابتيست دنس دي فيلوسو Jan - Baptiste d ولف F.A. Wolf التي مؤداها أن أعمال هوميروس اشترك في كتابتها عدد كبير. والقسم الرابع - أكاديمية الفنون الجميلة - يضم عشرة رسامين وستة نحائين وستة معماريين وثلاثة حفارين (مشتغلين بفن الحفر) وثلاثة ملحنين، وفي هذا القسم تألق ديفد (داود David) وانجر Ingres وهودو Houdon.

ورغم نفور نابولين من الأيدولوجيين فقد دعم المعهد بإخلاص وكان تواقاً لجعله حلية يتحلى بها حكمه. وكان كل عضو من أعضاء المعهد يتلقى من الحكومة 0051 فرنك كراتب سنوي، وكان كل فرد من أفراد السكرتارية الدائمة يتلقى راتباً سنوياً مقداره ستة آلاف فرنك. ويقدم كل قسم في شهري فبراير ومارس، للإمبراطور تقريراً بانجازاته، وكان نابليون مسروراً من الصورة العامة، فقد زعم مينيفال Meneval أنه قال إن هذه المتابعة العامة للآداب والعلوم والفنون... تظهر أن الذكاء البشري أبعد ما يكون عن الارتداد والتراجع وأنه لم يتوقف أثناء مسيرته المتواصلة نحو التقدم (33) وقد نتشكك في كلمة المسيرة المتواصلة لكن الذي لا شك فيه أن إعادة تنظيم المؤسسات العلمية، وتقديم المنح الدراسية في ظل حكم نابليون جعل المشتغلين في الحقول العلمية والأدبية والفنية في فرنسا على رأس قرائنهم الأوروبيين طوال نصف قرن.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> فرنسا في عهد نابليون -> المحاربون

3- المحاربون

لقد أدى قيام الثورة الفرنسية إلى أن أصبحت الحرب هي الأكثر تتابعاً والأكثر مدعاة للقتل والأكثر تكلفة، وقد أدى التجنيد العفوي العام (تسليح الشعب بشكل عام لمواجهة عدو لم تجر الاستعدادات العسكرية المعتادة لمواجهة) في سنة 1793 إلى فتنة بأن الحرب لم تعد (ولا يجب أن تكون) مباراة بين الملوك يستخدمون فيها المرتزقة وإنما نضال أمم تشترك فيه كل الطبقات - رغم أن الحكومات الأخرى حذت حذو فرنسا قبل ذلك ببعض الوقت بسماحها للعوام أن يصبحوا ضباطاً بل وحتى مارشالات. وكان روسو Rousseau قد وضع بالفعل القاعدة العامة التي مؤداها أن الخدمة العامة هي اللازمة للمنطقة للاستراك في التصويت (في الانتخابات)، فيجب على من سيصوّت أن يخدم (وطنه) ففرنسا بمواجهتها للملكيات الأوروبية دفاعاً عن نظامها الجمهوري، فرنسا تلك التي كانت قبل لويس الرابع عشر تضم خليطاً من مناطق لكل منطقة مقوماتها الخاصة ولا تربطها معها روح وطنية عامة، وهذا الآن (1793) الخوف العام. لقد كانت استجابتها للتهديد حاسمة وذات طابع وطني عام. لقد أصبح من الضروري تكوين جيش كبير يضم كل الرجال، وبدأ التجنيد الإلزامي وعندما بدأت جماهير الفرنسيين (من غير العسكريين) في هزيمة القوات العسكرية المحترفة للملكيات الإقطاعية - فإن هذه الدول الملكية المهزومة فرضت هي الأخرى التجنيد الإلزامي، وبذا أصبحت الحرب صراع جماهير تتنافس في مضمار القتال. لقد أصبحت الحرب في الأساس صراعاً على المجد بين القوميات (الوطنيات) بعد أن كانت صراعاً بين الأسرات الحاكمة التي تبغي كل منها تحقيق ذاتها على حساب الأخرى.

وفي سنة 1803 أصدر نابليون قانوناً جديداً للتجنيد الإلزامي لمواجهة انهيار سلام معاهدة إميان Amiens وتحسباً لحرب ضد تحالف أوروبي آخر ضده. ونص هذا القانون الجديد على تجنيد كل الذكور من الشريحة العمرية ما بين عشرين وخمسة وعشرين، مع استثناءات كثيرة كاستثناء المتزوجين حديثاً وطلبة المعاهدة اللاهوتية والذين فقدوا زوجاتهم أو طلقوهن ويقومون بإعالة أطفال، كما تم إعفاء من كان له أخ مجتهد والأخ الأكبر من بين ثلاثة أيتام. وأكثر من هذا فقد كان يمكن للمجتهد أن يقدم بديلاً يحل محله. وقد بدا هذا - في البداية - أمراً غير عادل في نظر نابليون لكنه عاد فسمح به، وكان هذا في الأساس لاقتناعه بأن الطلبة الذين قطعوا شوطاً متقدماً في الدراسة لا بد من تركهم لمواصلة دراساتهم لتهيئوا أنفسهم لشغل المناصب الإدارية (43).

لقد تحمل الشعب الفرنسي بصبر هذا الاستنزاف السنوي للملح للقوي البشرية في نشوة الابتهاج بانتصارات نابليون، لكن عندما بدأت الهزائم (1808) مخلّفة آلاف الأسر الحزينة، نمت المقاومة وتضاعفت أعداد المتهربين والفارين. وبحلول عام 1814 كان نابليون قد جند في جيوشه 2,316,000 فرنسي (53). مات منهم حوالي مليون بسبب جروح شديدة ألمت بهم أو بسبب الأمراض (63). وبالإضافة لهؤلاء فقد ضمّ لجيوشه نصف مليون من الدول الأجنبية المتحالفة مع فرنسا أو التابعة لها. وفي سنة 1808 طلب نابليون من القيصر اسكندر أن يتوسط بين فرنسا وإنجلترا ذاكراً له أن تحقيق السلام العام سيُتيح الفرصة لوضع نهاية للتجنيد الإلزامي. لكن هذا الأمل لم يتحقق. وطالما كان أعداء فرنسا المهزومون يفتقون من أحزانهم ليكونوا تحالفات جديدة وليخوضوا معارك جديدة فقد جند نابليون كثيرين قبل حلول دورهم في التجنيد بخمس سنوات، وكان يستدعي للتجنيد كل عام دفعات قبل حلول دورها وفي سنة 1813 جند دفعة سنة 1815 (73). وأخيراً نفذ صبر الأباء الفرنسيين وتعاليت صيحات يسقط التجنيد الإلزامي في كل مكان في فرنسا.

وبهذه الطريقة كان الجيش العظيم ينمو ويزداد عدده، ذلك الجيش الذي كان حُب نابليون ومصدر فخره. وقد عمل نابليون على رفع الروح المعنوية لهذا الجيش فجعل لكل كتيبة من كتائبه علماً خاصاً بها ذا لون محدد كان يحمله أحد الشبان الشجعان أثناء المعركة ليقود أفراد الكتيبة ويبيت العزم فيهم فإن سقط اندفع شاب آخر ليرفعه. وعادة ما كان هذا العلم يمثل روح الكتيبة وعلامتها الظاهرة. وعادة ما كان يُحتفظ بهذا العلم ليتم عرض ما بقي منه في الاستعراضات العسكرية احتفاء بالنصر، وأخيراً يتم تعليقه كشارة مقدسة للنصر رغم تمزقه واهترائه في كنيسة ضحايا الحرب. وكان لكل كتيبة تقريباً لباسها المحدد الخاص بها واسمها، وكانت هذه الكتائب مشهورة في وقت من الأوقات من بريست Brest إلى نيس Nice ومن أنتورب Antwerp إلى بوردو Bordeaux: رُماة القنابل اليدوية (الرماتات) Gerendiers الهوصار Hussars (سلاح الفرسان الخفيف)، القناصة Chasseurs حاملو الرماح Lancers الفرسان Dragoons. إلخ والأهم من كل هؤلاء الحرس الإمبراطوري البالغ عدده 29،000 مقاتل كاحتياطي دفاعي حول الإمبراطور حين يظهر موقف متأزم يقتضي منهم التضحية بحياتهم. وكان من الممكن لأي مجنّد أن يترقى ليصبح عضواً في هذا الحرس الإمبراطوري أو حتى يحمل عصا المارشالية كواحد من الثمانية عشر مارشالاً في فرنسا النابليونية.

لقد كانت نتائج الحروب لا حد لها - بيولوجياً واقتصادياً وسياسياً وأخلاقياً. والرقم القديم الدال على عدد القتلى الفرنسيين في هذه الحروب هو 1،007،000 (83) إلا أن الحسابات اللاحقة قد قلّصته ليصبح مليوناً (93). وحتى لو كان هذا الرقم الأخير صحيحاً فإنه كفيلاً بإضعاف فرنسا طوال جيل حتى تستطيع أرحام نساها تعويض هذه الخسارة. ومن الناحية الاقتصادية فإن هذه الحروب والاحتياجات العسكرية وظروف الموانئ المحاصرة - قد عجّلت بتقدم الصناعة وازدهارها. ومن الناحية السياسية فإنها قوّت الوحدة بين الحكومات الإقليمية (في فرنسا) وعمّقت الولاء للحكم المركزي. ومن الناحية الأخلاقية فإن الصراع المستمر عوّد أوروبا على توسيع نطاقات الحروب وعودها على تقنين المذابح البشرية على نحو لم يشهده العالم منذ غزوات البرابرة، فعلى جبهات القتال ومن ثم في العواصم تخلى الحكام عن الوصايا العشر. فقد كتب نابليون إلى الجنرال بيرثيه Berthier في سنة 1908 (04) الحرب تبرّر كل شيء، فلم يحدث أن استقر شيء - مطلقاً - إلا بالسيف (14) وأن التحليل الأخير يشير إلى أن الحكومة لا بد أن تتحلّى بالصفات العسكرية (24) فبدون الجيش لا تكون دولة.

ولتعويد الشعب الفرنسي على هذه الأخلاقيات العسكرية عمد نابليون إلى استثارة جبههم للمجد. فالمجد la gloire أصبح حمى وطنية يغمر الجميع بالونام والحماس والطاعة. ومن هنا كان يحق لنابليون أن يقول إن حروب الثورة قد جعلت من كل الأمة الفرنسية نبلاء (34)، وطوال عشر سنوات وبمساعدة حلفائه كان الشعب الفرنسي كأنه منوم تنويماً مغناطيسياً وراح نابليون يوحى إليه بنشوة المجد. ولندع ألفرد دي موس Alfred de Musset الذي كان شاهداً للأحداث، يصف لنا الروح العامة في فرنسا في سنة 181: 01

لقد كان شباب هذا العصر ينتفسون هواء في جو لا يعكس صفوه شيء، حيث يتألق المجد. كثير من المجد، وحيث تترك السيوف. كثير من السيوف. لقد كانوا يعرفون جيداً أن قدرهم أن يكونوا ضحايا في مجزرة لكنهم كانوا ينظرون إلى مورا Murat كقائد لا يُغلب وللإمبراطور على أنه عبر الجسر والقذائف الكثيرة تتهمر من حوله مدوية فراحوا يعجبون: أهو محصن ضد الموت؟ وحتى الموت نفسه كان يبدو لهم جميلاً نبيلاً متألّقاً في معركته المخضبة بالدماء. لقد استعار الموت لون الأمل. لقد حصد كثيراً من المحاصيل التي حان قطافها فأصبح شاباً. لقد ماتت الشيخوخة، فكل أسيرة الأطفال في فرنسا وكل القبور كانت مسلحة بالتروس، ولم يعد هناك شيوخ (عجائز) وإنما هناك جنث لأنصاف أهلة (44demi - gods) وفي هذه الأثناء كان جنود نابليون على الجبهة يسرقون وقامرون ويبتلعون مخاوفهم ليتمكنوا من النوم، وكان ضباطه يسرقون بالقدر المتلائم مع مواقعهم: جمع ماسينا Massena الملايين. ولم يكن ما جمعه سول Soult أقل كثيراً مما جمعه ماسينا، وجوزفين اللطيفة وجوزيف الرحيم ولوسيان Lucien الشجاع والعم الكاردينال فش Fesch، كل هؤلاء تربّحوا بتوظيف أموالهم في الشركات التي كانت تتبع البضائع المغشوشة للجنود الفرنسيين. وقد زين نابليون نشرات الحرب التي كان يوزعها داخل جيشه بالمبالغات وإخفاء الحقائق، واستنزف ثروات الأمم المهزومة وسلب أعمالها الفنية بغير حق وراح يتفكّر ملياً في بعض الأخلاق والقيم الفرنسية من جديد.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> فرنسا في عهد نابليون -> الأخلاق والسلوك

4- الأخلاق والسلوك

إن الثورة الفرنسية - بتحطيمها للسلطة السياسية والسلطة الأبوية (قوامة الآباء على الأبناء) وبتدميرها للمعتقد الديني (الكاثوليكي) قد أطلقت غرائز أفراد الشعب الفرنسي من عقالها وتركتها بلا ضابط، وكان هذا الانفلات فاجعاً مأسوياً في العاصمة وإن اُتسم بالاعتدال في الدوائر (المحافظات)، فوجد القانون ورجاله أنفسهم يناضلون ضد الفوضى والجريمة. وصمّ نابليون - الذي كان هو نفسه مارقاً غير ملتزم بالقانون - أن يعيد ترسيخ القيم الأخلاقية والانضباط السلوكي كأمر حيوي لإعادة بعث فرنسا والرضا لشعبها والنجاح لحكمه. لقد أوضح بجلاء أنه سيراقب بعين يقظة كل العلاقات والارتباطات التجارية في الحكومة ومعها، وسيعاقب بشدة كل من يثبت عدم أمانته. والتقت نابليون معترضاً على الملابس غير المحتشمة في المجتمع وفي المسرح، ووَبَّخ - رسمياً - أخاه لوسيان Lucien وأخته إليزا Elisa لكشفهما جانباً كبيراً من جسميهما عند حضورهما العروض المسرحية الخاصة. وفي إحدى الحفلات المسائية عندما وجد نفسه في مواجهة مدام دي ستيل de Stael وقد ارتدت فستاناً واسع الصدر يكشف عن جانب كبير من صدرها وظهرها وكنتيها (فستان ديكونتيه) انتقدها بحدة قائلاً: إنني أفترض أنك تربين أطفالك بنفسك (54) وأصرّ نابليون على أن يتزوج تاليران من خليلته. ومام تاليا Tallien التي كانت توجه أخلاقيات حكومة الإدارة باستدارة وركيها (مُتتى ورك) اضطرت إلى التواري في الأقاليم (الدوائر أو المحافظات) وقالت جوزفين للزنا وداعاً وابتعد بانعو القبعات النسائية عنها وشقوا فواتيرهم. لقد كادت قوانين مدونة نابليون تعطي للزوج كل السلطات التي كان يتمتع بها الزوج الروماني على زوجته وأطفاله، فواصلت الأسرة وظيفتها لتحويل الحيوانات (المقصود الأطفال) إلى مواطنين، مهما كان هذا على حساب الحرية الشخصية.

لقد كانت الحالة النفسية للعصر تعترجها معاناة من بعض الكآبة كجزء من ثمن (كان لابد من دفعه) لقاء النظام الجديد. فالمسرات الطائشة بين الجنسين وبين الطبقات في ظل الثورة قد استسلمت لأداب المجتمع البرجورزية. ومتاعب البروليتاريا. والحوازر الطبقة التي كانت تفصل السكان بشكل صارم إلى طبقات في عهد البرجوربون قد انهارت لتفتح الطريق لحمة المنافسة التي لا تهدم في ظل فتح أبواب المناصب ومجالات العمل للكفاءات مما أدى إلى بناء جسور بين كل الطبقات (64)، وجعلت شباباً لا أصول لهم يتسلقون الأهرام الزلقة إلى ذرى السلطة. لقد كان معنى هذا أن لنابليون الحق في أن يشعر أنه في ظل حكمه، عادت الأخلاق إلى فرنسا واستعادت السلوكيات شيئاً من الاحترام واللفظ الذين كانا يميزان حياة المتعلمين في فرنسا قبل الثورة. وقد شعر أنه رغم كل الجهود لإتاحة فرص متساوية للجميع فإن شيئاً من التمييز الطبقي لا بد أن يظهر كأمر لا مناص منه نتيجة الاختلافات الطبيعية natural في القدرات وظروف النشأة. وليجعل نابليون هذه النتيجة غير مقتصرة على مجرد الأرستقراطية الناشئة عن استحواذ الثروة، فقد أنشأ في سنة 2081 جوقة الشرف Legion of Honor لتتكون من رجال تختارهم الحكومة من المميزين تميزاً خاصاً في مجالاتهم: الحرب، القانون، الدين، العلوم، الدراسات الأكاديمية الفن... إلخ على أن يكون هذا الجهاز نصف ديمقراطي كما هي الحياة إذ جعله قسراً على الرجال دون النساء. وكان الأعضاء يقسمون عند انضمامهم أن يؤيدوا مبدأ الحرية والمساواة لكن سرعان ما تم تصنيفهم في ثلاثة رُتب وفقاً للجدارة أو التقسيم أو الأقدمية. وكان كل واحد منهم يتقاضى من الحكومة الفرنسية راتباً سنوياً، فإن كان من رتبة مسؤول مهيب Grand officer استحق 0005 فرنك وإن كان من رتبة قائد Commander استحق 0002 وإن كان من رتبة مسؤول officer استحق 001 أما الفارس (Chevalier) 74 فيستحق 052، وللتمييز بينهم كان على كل واحد منهم أن يضع شريطاً خاصاً (وشاحاً) أو صليباً يرمز لرتبته وعندما ابتسم بعض المستشارين لمثل هذه الامتيازات الشكلية البسيطة (النص: الدمي baubles) قال لهم نابليون إن قيادة الرجال تكون أسهل بالأوسمة (التكريم) منها بالقوة أو السلطة، أو على حد قوله إن المرء يحصل على كل شيء من الرجال باستنهاض معاني الشرف لديهم (84).

واتخذ الإمبراطور خطوة أخرى نحو إيجاد ارستقراطية جديدة بإنشائه في سنة 7081 النبالة الإمبراطورية فأعطى الألقاب لأقربائه ومارشالاته وبعض العاملين في الإدارة والعلماء المبرزين، ونتيجة لهذا وجدنا أنه في السنوات السبع التالية قد أوجد: 13 دوق و 254 كونت و 0051 بارون و 474،1 فارسا (بالمعنى التشريفي لا العسكري)، وأصبح تاليران يحمل لقب أمير بينيفيننو Benevento وفوشيه أمير دوترانت d Otrante و جوزيف بونايرت أصبح فجأة هو الناخب الأعظم، ولويس بونايرت الكونستابل الكبير (النبيل الكبير Grand Constable) ومورا Murat قائد الفرسان اعترته الدهشة عندما وجد نفسه الأدميرال الكبير grand admiral وتم الإنعام على المارشال دافو Davout بلقب دوق دورستت Duc d Auerstedt ولان Lannes بلقب دوق دي مونتبلو Duc de Montebello وسافاري Savary بلقب دوق دي روفيجو Duc de Rovigo وليفيقر Lefebvre بلقب دوق دي داننسيج Duc de Dantzig. وأصبح لابلاس Laplace كونتا وكذلك فولني Volney أما أخوات نابليون فأصبحن أميرات. وخصص لكل لقب زي رسمي خاص بألوان بهيجة وراتب سنوي وأحياناً كان يُخصص لحامل اللقب ممتلكات كعقار أو مزارع أو أراض. وأكثر من هذا فإن معظم هذه الألقاب أضحى وراثياً، وهنا نجد نابليون يدير ظهره بشكل صريح للمبادئ الجمهورية. لقد كان نابليون يرى أنه لا يمكن لأرستقراطيته الجديدة أن تحتفظ بوضعها وقوتها إلا بانتقال الملكية (وراثياً) وبالتالي يمكن استخدامها كدعامة للحاكم. بل إن الإمبراطور نفسه رغبة منه في الاقتراب أكثر فأكثر نحو الأرستقراطية الجديدة التي سرعان ما راحت تتباهى بألقابها وملابسها الرسمية المميزة ونفوذها - أحاط نفسه بالحجاب والياورات ومسؤولي البلاط ومسؤولي القصر ومئات من الخدم، وأحيطت جوزفين بالوصيفات اللاتي يحملن ألقاباً تعود إلى زمن البوربون وما قبل البوربون.

والتقت نابليون إلى من ظل على قيد الحياة من النبلاء القدماء (نبلاء ما قبل الثورة) وعمل على إغرائهم بشتى الطرق لضمهم لبلاطه، واستدعى كثيرين منهم من خارج فرنسا ليبارز بهم اليعاقبة الذين كانوا لايزالون متشبعين بروح الثورة، وأملاً منه في مد جسور التواصل والاستمرار بين فرنسا ما قبل الثورة وفرنسا الجديدة. وبدا هذا مستحيلاً لأن هؤلاء المهاجرين (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية) العائدين كانوا يحتقرون نابليون باعتباره مُحدث نعمة ومغتصب عرش فشجبوا سياساته وهجوا مسلكه ونظراته وأحاديثه وسخروا من أرستقراطيته الجديدة. وعلى أية حال، فبالنتيجة زاد مكانته بانتصاراته وكما ارتفع شأن فرنسا حتى وصلت من حيث الثروة والقوة درجة لم تصلها حتى في أيام لويس الرابع عشر - تضاعف هذا الاتجاه المتعالي للأرستقراطية القديمة، فقبل أبناء المهاجرين emigres بسعادة تعينهم في مناصب أو ألقاب شرفية (تلك المناصب التي كان أبائهم يصفونها بأنها مناصب أو ألقاب مُحدثي النعمة) (94) وأقبلت السيدات العظيمات ليلتحقن ببلاط جوزفين، وأخيراً وجدنا بعض النبلاء القدامى ينضمون إلى البلاط الإمبراطوري ليُكسبوه عبير البلاط القديم، ومن هؤلاء النبلاء القدامى: مونتورنسي Montmorencys ومونتسكيو Montesquious وسيجور Segurs وجرامونت Gramonts وتوال Noailles وتورين Turennes وقد كافاهم نابليون بأن أعاد لهم بعضاً من ممتلكاتهم المصادرة. وبعد أن تزوج نابليون من ماري لويز Marie Louise بدت المواعمة كاملة. لكن كثيراً من مظاهر هذه المواعمة كان سطحياً فأبناء الثورة وبناتها الأكثر حداثة لم يستسيغوا ملكيات ذوي الأصول (المنتمين إلى أسرات عريقة) ولا أوضاعهم المتعالية. والجيش الذي كان لايزال يتغنى بالمثل الثورية مغرماً بها تدمر لرؤيته مثله الثورية تتبادل الانحناء مع الأعداء القدامى الذين كانوا يتعالون على الجنرالات الطوال والعلماء العصبيين وآل بونايرت الطموحين الذين تجرأوا على شغل أماكنهم.

ولتجنب حرب بالكلمات أو السيوف مع عرين الأسود هذا، أصدر نابليون على إصدار مدونة لقواعد السلوك (كود للاتيكيك Code of etiquette) فعهد إلى بعض الاختصاصيين بكتابتها بتخيار أفضل النماذج من تراث البوربون، على أن تكون دليلاً للسلوك يمكن اتباعه ويلبي حاجات المواقف المختلفة، بحيث يبدو مسلك المرء ودوداً. وبالفعل فقد تم إنجاز هذا العمل في ثمانمائة صفحة (05) ودرسة الفلاسفة ورماء القنابل اليدوية grenadiers وأصبح البلاط الإمبراطوري نموذجاً يتجلى فيه اللباس المتأنق والخطب الجوفاء أو الكلام الفارغ. وراح رجال الحاشية يلعبون الورق وفقدت اللعبة قيمتها لأن نابليون منع الميسر forbade plying for money، وأخرجت المسرحيات وعُزفت الكونشرتات وأقيمت المراسم والتشريفات والحفلات التكرية، وعندما تضاعف ما تسببه الأزياء والمراشقات الفكرية من إثارة، وجد أفراد الحاشية الأساسيين متعتهم في الانتقال مع الإمبراطور والإمبراطورة إلى سان كلو St. Cloud أو رامبول Rambouillel أو تريانو Trianon أو - وهذا أكثر مدعاة للسعادة - إلى فونتينبلو Fontainebleau حيث تتلاشى الرسميات وتؤدي ممارسة القنص إلى تدفئة الدماء.

ولم يكن أحد أكثر ضيقاً بهذه الطقوس الملكية كنابليون فقد تجنبها بقدر ما يستطيع. وقد قال: إن الاتيكيك (قواعد السلوك) هي سجن الملوك (15) وقال للاكاس Las Cases: الضرورة تجبرني على مراعاة درجة من الأبهة (أو التكلف State) وأن أتبع نظاماً معيناً يجعلني وقوراً - أو بعبارة أخرى أن ألتزم بالاتيكيك. وإلا كنت عرضة للضرب على كتفي يوماً (25) وكان للمراسم والتشريفات أيضاً أساسها المنطقي فالحكومة التي تم تأسيسها حديثاً لا بد أن تكون

مُبهره مثيرة للدهشة، فإذا فقدت تألقها سقطت (35) فالاستعراض للسلطة كالطقوس للدين (45) أليس صحيحاً أن الدين الكاثوليكي يروق بشكل أفضل للخيال بأبهة طقوسه أكثر مما يروق بسمو عقائده؟! فإن أردت أن تثير الحماسة في الجماهير فلتنبد في نواظرهم مقبولاً أو بتعبير آخر اعمل على أن تروق لعبونهم (55).

وكما جرت العادة في التاريخ فقد تدهورت سلوكيات البلاط، وتدنّت تدريجياً في محيط المتعلمين. قال بول لacroix Paul Lacroix جامع الكتب المتعلم لتجعل غالب مجتمع حكومة الإدارة راقياً مهذباً حسن التربية فإن هذا يستغرق ما بين عشر سنوات واثنى عشرة سنة (65) وهذا حقيقي على نحو خاص بالنسبة لليون Lyons وبوردو، لكننا لا نتحدث عن باريس التي قالت عنها مدام دي ستيل Stael أنه يتلاقى فيها كثيرون من رجال الفكر .. واعتاد عدد كبير منهم أن يزواجوا بين مسرات النقاش والقضايا الفكرية الجادة (75) وقد ذكر نابليون للاكاس Las Cases نقول الحق إن أشرنا للحساسية والذوق الرفيع اللذين يميزان سكان العاصمة الفرنسية؛ فلن تجد في مكان آخر غير باريس مثل هذه الفطنة وتلك الألمعية ومثل هذا الذوق (85). مئات المقاهي يتجمع الناس فيها بروح اجتماعية فيجلسون ويرتشفون مشروباتهم ويتبادلون الأخبار والنكات والقشاش الذكية السريعة، بينما العالم يتحرك أمامهم في استعراض عنيد، وكل حيوان ميكروسكوبي يجعل من نفسه محور الكون. وكانت المطاعم الجميلة قد اختفت في فترة الإرهاب إلا أنها عادت لنشاطها في ظل حكومة الإدارة وأصبحت الآن خير شاهد على أدواق الفرنسيين ومدى امتلاء جيوبهم بالنقود. وحدث خلال فترة حكم القنصلية والإمبراطورية أن أنثيلم بريلا - سافارين Antheme Brillat Savarin - جمع الحقائق والأساطير المتعلقة بعلم الأكل أو فن تذوق الطعام (الجاسترو نوميا) والتي ضمّتها عمله الكلاسي فيسيولوجيا تذوق العظام La physiologie du gout الذي لم يمثّل للطبع إلا سنة 6281 أي قبل وفاته بعام واحد.

وكان أسلوب الحديث ونمط اللباس في حالة تغيير. فقد حلت كلمتا مواطن و مواطنة محل كلمتي سيدي (مسيو) و مدام اللتين كانتا سائدتين قبل الثورة. وتراجع الرجال الملتزمون بقواعد اللباس والسلوك عن ارتداء السراويل التي تصل للركبة (البناطيل القصار) والجوارب الحريرية الطويلة، فاستعادت البناطيل الطوال سيادتها كلما شحبت الإمبراطورية. أي راحت تزوي. وهجرت السيدات نمط اللباس الإغريقي الذي كان سائداً في عهد حكومة الإدارة وعُدن إلى التنورة (الجيبية) والقميص (البلوزة)، وظل الديكولتية Decollete واسعاً سخياً في إظهار لحم المرأة حيث تكون الأكتاف مكشوفة وكذلك الذراعين، وعارض نابليون هذا الطراز في اللباس (الديكولتية) لكن جوزفين وافقت عليه وأقرته، فانتصرت (على نابليون) بذراعها الجميلتين وكنتفها وتديها الناتئين (95).

ووافق الإمبراطور على إقامة الحفلات التنكرية لسروره بازدهار الحياة الاجتماعية. ولم يهتم بالصالونات التي كانت تنتعش في باريس، فقد أصبحت موقلاً للسياسيين والمولفين والأيدولوجيين (المنظرين) ومنتقدي حكمه الذي يتجه أكثر فأكثر نحو الدكتاتورية. ونظم أخواه جوزيف ولوسين حفلات استقبال متتالية كان الكلام يجري فيهما - بالضرورة - لصالح الإمبراطور، لكن فحواه - بشكل عام - كان موجهاً ضد جوزفين. وأقام كل من تاليران وفوشيه بلاطاً خاصاً لنفسه حيث كانت الانتقادات مهذبة. وشجب المهاجرون العائدون كل تصرفات آل بونايرت في حفلات مسائية كنيية في فابورج سان جيرمين Fabourg St. Germain وواصلت مدام دي ستيل الإبقاء على صالونها الشهير كجزء من حربها ضد نابليون طوال خمسة عشر عاماً، وكرّست مدام جلني Gelnis - التي عادت إلى فرنسا بعد سبع سنوات قضتها كمهاجرة خارجها - صالونها وكتاباتها للدفاع عن نابليون ضد البوربون و مدام دي ستيل و مدام ريساميه.

يعود نجاح صالون ريساميهيه إلى جمالها الأخاذ وثروة زوجها المطّواعة. وُلدت في ليون Lyons في سنة 7771 وسامها الحقيقي هو جين - فرانسوا - جولي أديلادي برنار Jeanne - Francoise - Julie - Adeloude Bernard وعُرفت بين أصدقائها باسم جولي أو جوليت، وكانت تتمتع بوجه محبوب وقوام جذاب، وظلت تتحلّى بهاتين الميزتين حتى بعد أن بلغت السبعين وأصابها العمى، لقد كادت تجمع في شخصها كل ما تتحلّى به الأنثى من جاذبية - لطف وعطف وميل للخدمة أو المساعدة وذوق وكياسة وحساسية وبراعة... وقد أضافت إلى هذه المرونة والحساسية أنها جذبت إليها مئة ذكر males (رجل فحل) دون أن يتركوا أي أثر معروف علي عذريتها (أي أنها ظلت عذراء رغم هؤلاء الرجال المئة). وفي سنة 3971 وكان عمرها ستة عشر عاماً تزوّجت من جاك روز ريساميهيه Jacques - Rose - Recamier وكان في الثانية والأربعين من عمره لكنه كان صاحب بنك. وكان سعيداً جداً بتأمل جمالها وسماع غنائها وملاحظة يديها الدقيقتين الجميلتين وهي تعزف البيانو أو الهارب (الفيثارة) فكان يُجلسها على وسائد ليريحها في جلستها تماماً وكان يُنفق على صالونها، وتحمل بتسامح أبوي استعصاءها عليه فلم تسمح له بغزوها ولم تمكنه من الوصول إلى المُرّام وإن كان هو - فيما يظهر - لم يكن مصرّاً على حقوقه الزوجية(06).

وفي سنة 8971 اشترى منزل جاك نيكر Jacques Necker في شارع مونت بلانك Mont - Blanc في باريس. وأثناء إجراءات اتمام الصفقة تقابلت جوليت التي كانت قد بلغت واحداً وعشرين عاماً مع مدام دي ستيل البالغة اثنين وثلاثين عاماً. لقد كان لقاءً بالصدفة لكن هذا اللقاء كان بداية صداقة استمرت طوال العمر لم يستطع أن ينهيها حتى التناقص في مضمّار الحب. وحذت جوليت حذو مدام دي ستيل (الأكبر منها سناً) والتي جمعت في صالونها الرجال المشاهير والبارزين في عصرها من رجال دولة ومؤلفين، فاقتتحت - أي جوليت - صالونها في منزلها الجديد لتعقد فيه اجتماعات دورية للرجال والنساء البارزين في المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية في باريس، وقضى لوسين بونابرت وزير الداخلية وقتاً قصيراً يبيتها فيه حبّة الذي لا نهاية له، فأظهرت له خطابات زوجها الملتهية التي ينصحها فيها بمعاملة لوسين بصبر خشية أن يتعرض بنك ريساميهيه لعداء من الأسرة الحاكمة الصاعدة، وأطفاً نابليون النيران المتأججة حباً في صدر لوسين بأن أرسله كسفير في أسبانيا. وربما كان نابليون نفسه قد صوّب عينيه على جوليت وليمة جديرة بملك(16) لكن اتجاهاتها كانت مختلفة تماماً، فرغم تحذيرات زوجها ومنصب أبيها المتقلقل (غير المستقر) كمسؤول للبريد في الحكومة القنصلية، فإنها رحبت في صالونها بالموالين للملكية مثل ماثيو دي مونتورنسي Mathieu de Montmorency، والجنرال المعادين لنابليون مثل برنادوت ومورو وغيرهما ممن امتنعوا من الاتجاهات الإمبراطورية المتزايدة للقتل الأول (نابليون).

لقد كانت الآن في ذروة جمالها وكان الرسامون الرواد يسعدون بجلوسها أمامهم. وقد رسم لها دافيد (داود David) لوحة في الوضع الأثير لربّات الجمال وهن متكئات على الحشّيات - وقد ارتدت ثوباً على التّسق اليوناني فضفاضاً، وقد ظهر ذراعها عاريان، وكذلك قدميها. وقد شعر السيد ريساميهيه (زوجها) أن الرسام ديفيد لم يثر زوجته أو بتعبير آخر لم يحرك مشاعر حبها الوقور، فتحدّى فرانسوا جيرار Gerard - تلميذ ديفيد - أن ينافس استاذة فنجح جيرار في رسمها بشكل رائع ولم يغفر له ديفيد ذلك أبداً(26).

وفي سنة 2081 زارت جوليت وأنها إنجلترا فاستقبلها ذوو المكانة كأمر ويلز والجميلات كدوقة ديفونشير Devonshire بكل مظاهر التكريم بسبب جمالها ومشاعرها المناهضة لنابليون. وسرعان ما قبض على أبيها بعد عودتها من إنجلترا لتواطئه في مفاوضات سرية بين الباريسيين والموالين للملكية والتمردين الملكيين في إقليم الفندي the Vendee، وأصبح أبوها عرضة للحكم عليه بالإعدام، إلا أن ابنته الذاهلة حثت بيرونادوت على التوسط لدى نابليون لإطلاق سراح والدها. ووافق نابليون لكنه طرده من منصبه، فقالت جوليت لقد كانت الحكومة على حق تماماً في إبعاده(36).

وفي سنة 6081 لجأ زوجها لبنك فرنسا لإنقاذه من الإفلاس بإقراضه مليون فرنك. وأحال مدير البنك طلبه إلى نابليون الذي كان قد وجد بنك فرنسا نفسه - بعد عودة نابليون من مارينجو Marengo - يعاني مصاعب مالية، فرفض تقديم هذا القرض. وباع ريساميهيه البيت الكائن في شارع مونت بلانك، وباعت جوليت فضتها ومجوهراتها وقبلت - دون تدمّر - أن تعيش عيشة أكثر بساطة. لكنها كانت على حافة الانهيار عندما ماتت أمها في 02 يناير سنة 7081. فلما علمت مدام دي ستيل بما كان من أمرها دعته للإقامة في قصر نيكر Necker chateau في كوبت

Coppet في سويسرا. وكان السيد ريساميه متنسغراً حتى أذنيه في العمل على سداد ديونه فأذن لها بالذهاب إلى سويسرا. وفي 01 يوليو وصلت إلى كويت وهناك بدأت أهم مرحلة من مراحل عمرها من حيث ممارسة العشق. وتتابع الراغبون فيها في الوصول إلى هناك بمن فيهم عاشق مدام دي ستيل وهو بنيامين كونستانت (قستنتين). وقد سعدت جوليت (مدام ريساميه) بهم وشجعتهم وقد قيل إنهم كانوا يحرسون قلعتها طوال الوقت، وقد اتهمها بعض ناقدتها أنها كانت تتعامل بتهور مع قلوب الرجال (المقصود بعدم اهتمام) وقد كتبت كونستانت بمرارة: لقد لعبت بسعادتي وحياتي، عليها اللعنة! (46) لكن كونستانت هو أيضاً لعب بقلوب وحيوات. وتذكر دوقه أبرانتس Duchesse d Abrantes جوليت (مدام ريساميه) كإنسانة مبرأة من العيوب تماماً: إن المرء لا يتوقع أن يوجد لها نظير في المستقبل. إنها امرأة راودها عن صداقتها (خطب ودها) ألمع رجال العصر. امرأة ذات جمال فائق طرح تحت قدمها كل الرجال الذين وقعت نواظرهم عليها. لقد كان الفوز بحبها هدفاً عاماً، ومع هذا فإن فضائلها ظلت نفية (لا شائبة فيها). وفي أيام مسراتها وبهائتها كانت مستعدة دائماً للتضحية بمسراتها لتقدم مواساتها. لأي صديق ألت به بلوى أو مرض. إن مدام ريساميه بالنسبة للعالم امرأة مشهورة، وهي بالنسبة لمن أسعدهم الحظ بمعرفتها ومعرفة قدرها مخلوق كريم مميّز جعلته الطبيعة نموذجاً كاملاً للطباع الخيرة الرحيمة (56).

وفي أكتوبر سنة 7081 دخلت جوليت في علاقة حميمة مع الأمير أوجست البروسي وهو ابن أخ فريدريك الكبير، حتى أنها كتبت لزوجها طالبة منه الطلاق، فذكرها ريساميه بأنه شاركها في ثروته طوال أربعة عشر عاماً وأنه لتي لها كل رغبة، ألا يبدو بعد هذا أنه من الخطأ أن تهجره وهو يبذل قصارى جهده لإقالة عثرته المالية؟ فعدت لباريس ولزوجها وراح الأمير أوجست يعزي نفسه بخطاباتها.

وبعد أن أصبح زوجها غنياً مرة أخرى وبعد أن ورثت من أمها ثروة، افتتحت صالونها من جديد وواصلت معارضتها لنابليون. وفي سنة 1181 - عندما كانت مدام دي ستيل تتبادل الكراهية والازدراء الشديدين مع نابليون. تجرأت جوليت وأصرت على قضاء يوم على الأقل مع مدام دي ستيل في كويت رغم تحذيرات جيرمين Germaine فما كان من نابليون الذي أزعجته الأخبار السيئة التي أتته من أسبانيا وروسيا - إلا أن منعها من الاقتراب من باريس وأن تكون على بعد 021 ميلاً على الأقل من العاصمة (باريس). وبعد تنازله الأول (11 أبريل سنة 4181) عادت لباريس وأعدت افتتاح صالونها ودعت إليه ولنجتون Wellington وغيره من قادة الحلفاء المنتصرين. وعندما عاد نابليون من إلبا Elba واستعاد فرنسا بلاضجة استعدت لمغادرة العاصمة لكن هورتنس Hortense وعدت بحمايتها فبقيت مقهورة لفترة، وبعد اعتزال نابليون للمرة الثانية (22 يونيو سنة 5181) واصلت استقبال ضيوفها. لقد عاد شاتوبريان Chateaubriand فدخل حياتها من جديد - وكان قد سبق لها الالتقاء به سنة 1081 - فأعاد لها شبابها في قصة رومانسية غريبة وتاريخية.

صفحة رقم : 14606

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> فرنسا في عهد نابليون -> اليهود في فرنسا

6- اليهود في فرنسا

بدأ اعتناق اليهود الأوروبيين أول ما بدأ في فرنسا لأنها كانت رائدة في تحرير العقول ولأن حركة التنوير قد عوّدت نسبة كبيرة من الراشدين على تفسير التاريخ تفسيراً غير ديني (تفسيراً علمانياً Secular). والبحوث المتعلقة بالكتاب المقدس تظهر المسيح (عليه السلام) كداعية محبوب مؤمن باليهودية لكن الفريسيين هم الذين عادوه. والأنجيل نفسها

تظهر آلاف اليهود يستمعون إليه بسرور وأن الآلاف منهم قد استقبلوه بترحاب عند دخول القدس. فكيف إذن يُعاقب شعب كامل عبر آلاف السنين لجريمة حُبْر كبير وحقنة مختلطة من الناس طالبوا بموته؟ لقد بقيت عدوات وخصومات اقتصادية عدّت قلقاً طبيعياً وخوفاً مرتقباً في وجود أحاديث غريبة وأزياء أو ملابس غير مألوفة، بل لقد انهار هذا الاتجاه المناهض لليهودية فلويس السادس عشر لم يواجه مقاومة شعبية في ازاحته الضرائب التي كانت تنقل كاهل اليهود على نحو خاص، وميرابو في مقاله الذي زوج فيه بين المنطق والأسلوب اللاذع قد دعا إلى انعقاد اليهود انعقاداً كاملاً (7871) وفاز الراهب الفرنسي جريجوار Abbe Gregoire بجائزة من الجمعية الملكية للعلوم والآداب في ميتز Metz في سنة 9871 لمبخته الذي حمل عنوان البعث اليهودي المادي والأخلاق والسياسي. وبدا أن النتيجة المنطقية الوحيدة لإعلان حقوق الإنسان قد تحققت عندما مدّت الجمعية التأسيسية في 72 سبتمبر سنة 1971 مظلة الحقوق المدنية كاملة لتشمل كل يهود فرنسا. وأعطت جيوش الثورة الحرية السياسية لليهود هولندا في سنة 6971 ويهود البندقية (فينيسيا) سنة 7971 ويهود مينز Mainz في سنة 8971 وسرعان ما أقرت المدوّنة القانونية النابليونية ذلك بشكل تلقائي وجرى تطبيقها في كل المناطق التي فتحها نابليون.

وقد تعامل نابليون نفسه مع القضية بالروح المعتادة للجندي الذي يحتقر التجار، فعندما توقف في ستراسبورج في يناير سنة 6081 أثناء عودته بعد خوضه معركة أوسترليتز Austerlitz تلقى طلبات لمساعدة فلاحي الإلزام وإقالتهم من عثراتهم المالية، لأنهم بعد أن تحرروا فجأة من عبوديتهم للاقطاع وجدوا أنفسهم بلا وظائف أو أرض يحصلون منها على مصدر لرزقهم. وكانوا قد طلبوا من رجال البنوك المحليين - وكان معظمهم من اليهود الألمان - أن يُقرضهم المبالغ المالية التي يحتاجونها لشراء أكرات Acres (أفدنة) وأدوات وبذور ليرسّحوا أوضاعهم كفلاحين ملائك، وقد قدّم اليهود من أصحاب البنوك هذه المبالغ لكن بفائدة تصل إلى 61% وقد اعتبر المقرضون (بضم الميم وكسر الراء) أن هذا عدلاً نظراً للمخاطرة التي تتطوي عليها عملية الإقراض (ملحوظة: المقرضون في أميركا الآن يدفعون النسبة نفسها) والآن فإن بعض الفلاحين لم يستطيعوا الوفاء بدفع هذه النسبة ولم يستطيعوا تخصيص جزء من عوائدهم ليستنزّلوا تدريجياً ما عليهم من ديون. وعلم نابليون أنّه إذا لم يتدخل في الأمر تعرّض فلاحون كثيرون لضياح أراضيهم، وحُرّ نابليون من أن كل مسيحي الأزراس ساخطون بشدة بسبب هذا الوضع وأنهم على وشك القيام بهجوم على اليهود.

وعندما وصل نابليون إلى باريس تداول الأمر مع مستشاريه فنصحه بعضهم باتخاذ إجراءات عنيفة، وذكر بعضهم الآخر أن يهود مرسيليا وبوردو وميلان وأمستردام كانوا يعيشون في سلام واحترام في مجتمعاتهم ولا يجب معاقبتهم في ظل أي إلغاء للحقوق التي يتمتعون بها في المناطق التي تحكمها فرنسا. ووقف نابليون موقفاً وسطاً (موقفاً توفيقياً) فحكم ألا يجمع الدائنون اليهود أية مبالغ يطالبون دائنيهم بها في ولايات (محافظات) بعينها قبل مرور عام(66). لكنه في الوقت نفسه (03 مايو 6081) دعا أولي الشأن من اليهود في مختلف أنحاء فرنسا للاجتماع في باريس للتباحث في أمور العلاقات بين المسيحيين واليهود ولتقترح توزيع اليهود على فرنسا (بمعنى عدم تركزهم في مكان واحد) وتوزيعهم أيضاً على المهن والوظائف المختلفة (بمعنى عدم استنثارهم بمهنة بعينها). وكان على مديري الشرطة الفرنسية في الدوائر المختلفة (المحافظات) أن يختاروا هؤلاء اليهود المهمين الذين سيجمعون في باريس، فكان اختيارهم بشكل عام موقفاً(76).

فجمع اليهود من الرابينين (الحاخامات) وغيرهم في باريس في يوليو سنة 6081 وحظوا باحترام كبير وبلغ عدد المجتمعين منهم 111 وقدم لهم المجلس البلدي قاعة يتداولون فيها. وقدّم نابليون - أو مستشاروه - للمجتمعين بعض الأسئلة يود الإمبراطور معرفة إجابتها: هل يُقر اليهود تعدد الزوجات؟ أيسمحون بالتزاوج بين اليهود والمسيحيين؟ أيزعم الرابينون (الحاخامات) الحق في إبرام الطلاق بعيداً عن السلطان المدنية؟ أيعتبر اليهود الرّبّاً شرعياً Lawful؟ وصاغ الرابينون إجابات عملوا على أن تكون مدعاة لسرور نابليون تعدد الزوجات ممنوع في المجتمعات اليهودية. ولا يُسمح بالطلاق إلا إذا أقرته المحاكم المدنية، والتزاوج بين اليهود والمسيحيين مسموح به، والرّبّا معارض للشريعة الموسوية(86). فأرسل نابليون الكونت لويس مولي Louis Mole ليعبّر لهم عن رضاه. والكونت لويس مولي الذي كان معارضاً لليهود قبل ذلك أصبح الآن يخاطبهم ببلاغة تلقائية قائلاً: من الذي لا تعتريه الدهشة لرؤية هذا الجمع من الرجال المتتورين الذين تم اختيارهم من سلالة أقدم الأمم؟ أنه إذا بُعث للحياة شخص ممن عاشوا في القرون الخوالي وشاهد هذا المنظر، ألا يظن أنه قد انتقل إلى داخل أسوار المدينة المقدسة؟(96) وعلى أية حالة، فقد أضاف قائلاً إن الإمبراطور يضيف على المبادئ الغالبة على هذا الاجتماع مزيداً من المصادقية واليقين ويقترح ضرورة دعوة هؤلاء اليهود من أولي الشأن للحضور إلى باريس فيما بعد لهذا الغرض ولأغراض أخرى وأن هذا الاجتماع الرابي (الحاخامي) الأعلى (السنهديم العظيم) الذي لم ينعقد بعد تشنت اليهود عقب دمار الهيكل منذ سنة 66 قبل الميلاد. وكان الرابينون سعداء وأبدوا رغبتهم في التعاون. وفي السادس من أكتوبر أرسلوا إلى كل المعابد اليهودية الأساسية في أوروبا دعوة الإمبراطور لانتخاب مندوبين يهود لحضور السنهديم (الاجتماع اليهودي

والسنهديم مشتقة من الكلمة اليونانية سينيدريون (Synedrion) لدراسة وسائل تخفيف الصعوبات الناشئة بين المسيحيين واليهود ولتسهيل تمتع اليهود الفرنسيين بكل الحقوق والمزايا في الحضارة الفرنسية. وأرفق هؤلاء اليهود ذوو الشأن دعوتهم بإعلان سعيد بنم عن الفخر:

إن حدثاً عظيماً على وشك أن يصبح أمراً واقعاً. حدث لم يتوقعه أباًؤنا طوال قرون متوالية، بل لم نكن نتوقعه نحن في أيامنا هذه. إن العشرين من أكتوبر قد أصبح هو اليوم المقرر لافتتاح السنهديم الكبير (الاجتماع اليهودي) في عاصمة إحدى أقوى الأمم المسيحية وبحماية مليكها الخالد. إن باريس ستظهر للعالم مشهداً جديراً بالملاحظة، وإن هذا الحديث التاريخي (السنهديم) سيفتح للبقايا المشتتة من سلالة إبراهيم عصراً من التحرر والرخاء (07).

ولم يستطع السنهديم الكبير (الاجتماع اليهودي) أن يستمر وفقاً لهذه التوقعات الحماسية، فبعد إرسال هذه الدعوات بثمانية أيام حارب نابليون وجنوده البروس في بينا (جينا Jena)، وظل طوال هذا الخريف في ألمانيا أو بولندا ويقطع أوصال بروسيا وينشئ دوقية وارسو (فيسافا) الكبيرة، ويعزف على أوتار السياسة أو الحرب، وظل طوال الشتاء في بولندا يعيد تنظيم جيشه ويحارب الروس ليتعادل معهم في إيلاو Eylau ويهزمهم في فريدلانند Friedland ويعقد سلاماً مع القيصر اسكندر في تيلست (7081) ولم يعد لديه وقت للسنهديم الكبير إلا بشق النفس. واجتمع السنهديم الكبير في 9 فبراير سنة 7081. وتباحث فيه 54 من الرابين (الحاخامات) و 62 من اليهود العاديين (غير ذوي المراتب الدينية) واستمعوا إلى الخطب وأقروا الإجابات التي قدّمها اخوانهم من ذوي الشأن (في اجتماعهم السابق) لنابليون. وخلصوا بإصدار توصيات لليهود: أن ينهوا عداوتهم للمسيحيين، وأن يحبوا البلاد التي يقيمون فيها باعتبارها أصبحت الآن بلادهم وأن يقبلوا الخدمة العسكرية للدفاع عنها وأن يتجنبوا الربا وأن ينخضروا أكثر فأكثر في أعمال الزراعة والحرف والفنون. وفي مارس أرسل السنهديم تقريره إلى نابليون البعيد عن فرنسا، فتم إرجاؤه. وفي 81 مارس سنة 8081 أي بعد حوالي عام أصدر نابليون قراراته النهائية التي قضت بإقرار الحرية الدينية لليهود وإقرار حقوقهم السياسية في كل أنحاء فرنسا ما عدا في منطقتي الإلزاس واللورين، ففيهما وضعت - طوال العشر أعوام التالية - فيود على رجال البنوك لتقليل عدد المفلسين ولتخفيف العداوة العرقية، وتم إلغاء ديون النساء والفصّر والجنود، وحوّلت المحاكم في إلغاء أو تخفيض الديون المتأخرة التي قوامها الفوائد بالإضافة إلى فترة سماح (تأخير مواعيد السداد)، ولم يكن مسموحاً لأي يهودي بالعمل في التجارة قبل الحصول على إذن من مدير الشرطة ومُنع مزيد من هجرة اليهود إلى الإلزاس (17) وفي سنة 0181 أضاف الإمبراطور طلباً آخر وهو ضرورة أن يُصبح لكل يهودي اسم أسرة Family name لأنه كان يأمل في أن يساعد هذا على تسهيل الاندماج العرقي.

وكان هذا غير ملزم من الناحية القانونية ولكن لايد من التماس بعض العذر لحاكم أصرّ على السيطرة على كل شيء ومن ثم وجد نفسه مراراً غارقاً في المشاكل والتفاصيل. وشعر يهود الإلزاس بأنهم أضيروا بهذه التنظيمات الإمبراطورية ولم يكونوا على حق في ذلك، لكن معظم الجماعات اليهودية في فرنسا وفي غيرها قبلت هذه التنظيمات كمحاولة معقولة لتلطيف الوضع المتقجر (27). وفي هذه الأثناء، أعلن نابليون من خلال الدستور الذي وضعه لوستفاليا Westphalia أن كل يهود هذه المملكة الجديدة لايد أن ينعموا بكل حقوق المواطنة مثلهم في ذلك مثل أي مواطن من مواطنيها (37). ومرّة الأزيمة في فرنسا بسلام وأصبح لليهود دور مثمر وخلاق في آداب فرنسا وعلومها وفلسفتها وموسيقاها وفنونها.

صفحة رقم : 14607

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> نابليون والفنون -> الموسيقى

الفصل الثاني عشر

1- الموسيقى

كان على نابليون أن يُدير قارة، لذا لم يكن لديه كثير من الوقت للموسيقا. إنّه لمن الصعب أن نتصوّرّه جالساً صامتاً يستمع إلى كونشرت في مسرح فيدو Theatre-feydeau، ومع هذا فقد سمعنا عن كونشرتات تُعرف في قصر التوليري وهناك من أكد لنا أنّه كان يستمتع علي نحو ما بحفلات موسيقية يُحيتها عازف واحد، كانت جوزفين تقيمها في جناحها بالقصر (1). وعلى أيّة حال فقد كان سيّاسيّان إيرار Sebastien Erard وإجنّاز بليل Ignaz pleyel يصنعون بيانوات pianos جميلة ولم يكن يخلو بيت من بيوت الطبقة الراقية من بيانو. ورثب كثيرون من المُضيفين سهرات موسيقية خاصة حيث كان الضيوف - كما يقول الجونكورت Goncourts - يتكلّفون الاستماع بينما هم في الحقيقة يُفضّلون الحوار الهامس أو المناجاة (2). فالألمان مادبهم الموسيقا بلا كلمات، والفرنسيون يعيشون على كلمات بلا موسيقا.

وكان نابليون يُفضّل الأوبرا على الكونشرتات فلم يكن يستسيخ الغناء إلا قليلاً ولم يكن صوته ليساعده على الغناء، لكن كان من متطلبات المظاهر الملكية ضرورة حضور الحاكم للأوبرا في المناسبات، ليراه الناس، وليتأمل. وقد أسف نابليون لأنّ باريس ينقصها دار أوبرا جديدة بمكانتها العالية كعاصمة للحضارة (3)، لكن اقتضى الأمر الانتظار حتى استطاع ابن أخيه وشارل جارنييه Charles Garnier أن يُقيما في الفترة من 1681 إلى 5781 الدرّة المتألّثة التي كللت شارع الأوبرا Avenue de l'opra إلا أنّ مئات الأعمال الأوبرالية جرى تأليفها وإخراجها أثناء فترة حكم نابليون، وأوبرا السيدة الشقراء (لا دام بلانش La Dame blanche) التي وضعها فرنسوا أريان بويلديو Francois - adrien Boieldien سيّد الأوبرا الكوميدية (الهزليّة) عُرضت ألف مرة في أربعين عاماً (4). وكانت طبيعة نابليون الإيطالية تميل أكثر للأوبرات الإيطالية بما تتميز به من ألحان شجية وحبكات درامية. ولحماس نابليون لمؤلفات جيوفاني بيزيللو Giovanni Paisiello دعاه لتولّي إدارة أوبرا باريس والكونسرتوار (المعهد الموسيقي) وأتى بيزيللو لباريس في سنة 2081 وقد بلغ من العمر خمسة وستين عاماً، ولم يؤلف فيها سوى أوبرا واحدة هي بروسربينا Proserpina في سنة 3081 وتضايق من الاستقبال الفاتر الذي فُوبل به، فعاد إلى إيطاليا سنة 4081 وقدّم أعماله لجمهور أكثر تجانساً وملاءمة في نابلي حيث كان جوزيف بونابرت وجوشيم مورا Joachim Murat.

وكان نابليون أكثر حظاً مع جاسبارو سبوننتيني Gasparo Spontini الذي قدّم إلى فرنسا في سنة 3081 إذ حظي بتأييد الإمبراطور ودعمه بمعالجته موضوعات تاريخية بطريقة تُضفي الجلال والعظمة على الامبراطورية الجديدة، وأشهر أوبرا قام بوضعها هي أوبرا كاهنة الإلهة الرومانية فسنا أو قيّمة النار المقدّسة (لا فيستيل La Vestale) إلا أنه واجه صعوبات في إيجاد مسرح لعرضها، فتدخّلت جوزفين فتم إخراج هذه الأوبرا، وقد أدّى ما بها من غرابة وضوضاء بالإضافة إلى قصة الحب التي تتخلّق حولها إلى تحقيقها نجاحاً فائقاً سجّله تاريخ الأوبرا. وعندما أطيح بنابليون ألف سبوننتيني Spontini مقطوعة موسيقية احتفاءً بعودة البوربون إلى العرش. واستمر شيروبيني Cherubini الذي كان مُهيمناً على الأوبرا الباريسية أثناء الثورة مُهيمناً عليها أيضاً في ظل حكم نابليون. وعلى أية حال فإن الإمبراطور كان يُفضّل الموسيقا المرحّة على أعمال شيروبيني الجادة لذا لم يُقدّم له جوائز أو مكافآت، وكان هذا أمراً ملحوظاً. وقد قيل شيروبيني دعوة للحضور إلى فينا (يوليو 5081) لكن نابليون استولى عليها في شهر نوفمبر من العام نفسه. ولم يكن شيروبيني سعيداً تماماً عندما دُعي لقيادة فرقة موسيقية تعزف في حفلات مسائية تكريماً لنابليون في قصر شونبرون Schonbrunn، وعاد لفرنسا ووجد تكريماً في قصر أمير دي شيمي de Chimay الذي أضحى الاحترام على مدام تالييه Tallien بتزوّجه منها.

وعندما عاد نابليون من إلبا Elba ورغم مشاغله الكثيرة فإنه وجد من الوقت، ما يجعله يمنح شيروبيني رتبة فارس في جوقة الشرف، لكن لم يحدث إلا في عهد لويس الثامن عشر أن تلقى هذا الإيطالي الكئيب اعترافاً

بفضله ودخلاً كافياً. وفي الفترة من 1281 إلى 1481 وهي الفترة التي كان فيها مديراً للكونسرفتوار في باريس (معهد باريس للموسيقى) أثر في جيل كامل من الموسيقيين الفرنسيين. ووافته منيته في سنة 2481 عن عمر يناهز الثانية والثمانين، وكاد يطويه النسيان في مشكاة الزمن المتغيرة (اللامبالية).

صفحة رقم : 14608

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> نابليون والفنون -> متنوعات

2- متنوعات

يشبه نابليون تماماً لويس الرابع عشر في رعايته للفنون فهو - مثله - كان راغباً في ترسيخ مجد فرنسا وعظمتها، وكان يأمل أن يجعله الفنانون حياً في ذاكرة البشر. ولم يكن ذوقه الخاص على أحسن ما يكون فقد كان ملتقناً دائماً للأمور العسكرية لكنه قام بما يستطيع ليُثَمِّمَ فنَّاني فرنسا بالأصول التاريخية والمثيرات الشخصية، لقد نهب الأعمال الفنية الكبيرة ليس فقط باعتبارها ثروة قابلة للنقل وقابلة للتفاوض بشأنها (على نحو ما تُشترى في أيامنا هذه) وكأوسمة وشواهد على انتصاراته، وإنما أيضاً كنماذج (موديلات) يحتذيها طلبة الفنون في متاحف فرنسا. لقد نقل فينوس وهي من أعمال دي ميديتشي من medici من الفاتيكان، والقديسون المتسامحون وهي من عمل كوريجيو Correggio من بارما، وزواج كانا وهي من أعمال فيريير Vermeer من البندقية (فينيسيا) وسلالة الصليب وهي من أعمال روبنز Rubens من أنتورب وصعود العذراء وهي من أعمال موريلو Murilo من مدريد... وحتى تماثيل خيول القديس مرقس الصغيرة وجدت طريقها المحفوف بالمخاطر إلى باريس. وفي الفترة من 6971 إلى 4181 أرسل نابليون إلى باريس 605 من الأعمال الفنية الإيطالية عاد منها - بعد سقوطه - 942، وبقي 842 وضاع تسعة أعمال (5). وعن طريق النهب حلَّت باريس محل روما كعاصمة للفن في غرب أوروبا. وكلُّ ما زادت فتوح نابليون زادت الأسلاب حتى فاضت على أقاليم (محافظات) فرنسا وأُنشئت المتاحف لاستيعابها في نانسي Nancy وليل Lille وتولوز ونانت Nantes ورون Rouen وليون وستراسبورج وبوردو ومارسيليا وجنيف وبروكسل ومونتبلييه Montpellier وجرينوبل Grenoble وإميان Amiens... وعيَّن نابليون دينون الدومنيكاني كمسؤول عن كل هذه المجموعات الفنية خاصة متحف اللوفر، وكان دينون قد خدمه في بلاد كثيرة ولم ينس دينون أنَّ الامبراطور قد ذهب بنفسه ليمكِّنه من الانسحاب بأمان من هضبة كان العدو قد غمرها بنيرانه خلال معركة إيلاو Eulau. وقد رصد نابليون الجوائز المادية وأقام المسابقات في مجالات فنية مختلفة، فجدَّد جائزة روما وأعاد الأكاديمية الفرنسية في روما. ودعا الفنانين إلى مائدته وتحدث في النقد الفني حتى أثناء خوضه المعارك وقدَّر أعمال معظم الرسَّامين الذين بذلوا كل طاقتهم لتخليد أعماله وكذلك المعماريين الذين استطاعوا مساعدته في أن يجعل باريس أجمل المدن وحكمة ذروة تاريخية وعَهْدَ للمثاليين والنحاتين بتزيين خمس عشرة نافورة جديدة في ميادين باريس. ولأن ذوقه في الرسم والعمارة كان ينحو نحواً كلاسيكياً فإنه كان معجباً بالأسلوب التذكاري الذي ساد في روما القديمة، وكان هذا الأسلوب يهدف لإظهار القوة والسمو أكثر من الحسن المريح وجاذبية التفاصيل. لذا فقد عَهْدَ إلى بارثيليمي فينون Barthélemy vignon لتصميم معبد المجد على شرف جيشه الأساسي (الجيش العظيم) وأمر بُنائه ألا يستخدمون في تشييد هذا المعبد سوى الرخام والحديد والذهب. وقد أثبتت الأيام أن هذا المعبد (معبد المجد) كان مكلفاً جداً وكان العمل فيه صعباً حتى أنه رغم أنَّ بداية العمل فيه كانت في سنة 9081 إلا أنه ظلَّ غير مكتمل حتى سقوط نابليون، فأكمَّله خلفاؤه في سنة 2481 لكنهم جعلوه كنيسة إحياء لذكرى القديسة ماري ماجدالين Magdalen-

لاماديلين La Madeleine. ولم تتعم به فرنسا أبداً سواء لتحقيق أغراض التقوى (المقصود العبادة) أو لجلب المسرات نظراً لواجهته الكالحة ولأعمدته الأكثر تعبيراً عن جيش متقدم منها عن آثم واهن نادم تواق لحبها (حب المكان الذي أصبح كنيسة). ومن المباني التذكارية أيضاً مبنى البورصة الذي بدأ اسكندر تيودور برونجنيار Alexandre Théodore Brangniard العمل به في سنة 8081 وواصل إيتين دي لا بار E Barre إكماله في سنة 3181، ولا يوجد في أي مكان آخر للشيطان الجشع وحب المال Mammon مثل هذا المبنى الفخم ذي الأبهة.

وكان المعماريان المُفضَّلان في فترة حكم نابليون هما بيرسييه Percier والمعماري المرتبط به عادة بيير فرانسوا ليونار فونتين Pierre- Francois - Léonard Fontaine وقد عملا معاً للربط بين اللوفر وقصر التوليري رغم تفاوت خطوطهما المعمارية ومن ثم فقد بنيا الجناح الشمالي (كور كاري Cour Carrée) للوفر (6081) وأصلحا وجدداً السطح الخارجي وربطاً الأرضيات بسلام قوية (المقصود أن الأرضيات لم تكن في مستوى واحد فاضطرا لإقامة سلام لمواصله الطريق أو الممر). وصمما قوس النصر في ميدان الفروسية Arcde Triomphe du Carrousel على نمط - وبالنسب نفسها - قوس سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus في روما. وبدأ جان فرنسوا شالجرين Chalgrin في سنة 6081 في إقامة قوس النصر المرصعه بالنجوم - وهو القوس الأكثر فخامة - في الطرف الأقصى لرحبة الإليزيه، لكنه ما كاد يرفع قواعده حتى سقط نابليون ولم ينته العمل به حتى سنة 7381 أي قبل ثلاث سنوات من مرور رفاته تحته في طريقه إلى مئااه الأخير في مقبرته بدار ضحايا الحرب Hotel des Invalids ولا ريب أن هذا القوس يُحاكي قوس قسطنطين في روما إلا أنه يتفوق عليه - وعلى أي قوس نصر روماني آخر - في جماله، ويرجع هذا - في جانب منه - إلى نقوشه الدقيقة على الرخام. فإلى اليسار حفر جان - بيير كورتو Jean- Pierre Cartot نتويج نابليون، وإلى اليمين فرانسوا رودي Rudé وهو يعزف النشيد الوطني الفرنسي (6381-3381) معبراً عن النشوة العسكرية في ظلال الثورة، إن هذا العمل يُعد واحداً من روائع فن النحت في القرن التاسع عشر.

لقد قام هذا الفن الصعب في ظل نابليون على الأمجاد التي حققها قبل وصوله للحكم. وقد عاش هودو Houdon حتى سنة 8281 ونحت له تمثالاً نصفياً (موجود الآن في متحف ديجو Dijon) وقد ضمن هذا التمثال للفنان مكاناً بين جوقة الشرف. ولأن نابليون كان لا يزال يتذكر الأباطرة الرومان خاصة من خلال الأعمال النحتية المتعلقة بتراجان، فقد عُهد إلى جان بابتست الأب Jean- Baptiste le Pere وجاك جوثوي Jaques Gandouin بتخليد ذكرى معركة أوسترليتز Austerlitz في أعمال من النحت البارز للصلق طبقة طبقة بشكل تصاعدي حول العمود الذي سيثغل مكاناً بارزاً في ميدان فيندوم Vendome وتم هذا بالفعل (6081-0181)، وفي سنة 8081 توج أنطوان شود Antoine Chaudet اسطوانة العمود بتمثال لنابليون نحته من مدفع كان - أي نابليون - قد استولى عليه من الأعداء. وقلما وصل الفخر بالانتصارات إلى هذا المستوى العالمي.

وكادت الفنون الصغرى - كصناعة الأثاث الفاخر، والزخرفة الداخلية (الديكور) والتطريز وأشغال الإبرة والفخار والخزف والمجوهرات والزجاج والتمائيل الصغيرة - تموت أثناء الثورة لكنها بدأت تنتعش في ظل حكومة الإدارة (حكومة المديرين) وانتعشت في عهد نابليون، فقد أنتج سيفر Sèvres مرة أخرى أعمال خزف جميلة. واتخذ الأثاث النمط الإمبراطوري بصرامة. وتُعد المصغرات التي صور فيها إيزابي Isabey الشخصيات القيادية في هذا العصر من بين أجمل المصغرات الفنية في التاريخ. وأبدع جوزيف شينار Chinard تماثيل نصفية جميلة من طين نضيج لجوزفين ومدام ريسامبييه، وكانت تماثيل مدام ريسامبييه على نحو خاص تتسم بالجمال وقد عرَى أحد نُهَيْها ليظهرها كنموذج للمرأة المثلى التي قررت أن تبقى نصف عذراء حتى آخر حياتها.

لقد انتعش فن الرسم الآن مع انتعاش البلاد ممّا مكن رعاة الفنون من الدفع. وكان نابليون يدفع بسخاء لأنه كان يرنو للخلود عبر القرون وكان يرنو للفت الأنظار لإنجازاته بالتقرب إلى أهل الأدب والفن. لقد جعله اعجابه بأوغسطس روما Augustus ولويس الرابع عشر الباريسي يميل للإعجاب بالمعايير الفنية الكلاسيّة - في الخط والانضباط والمنطق والنسب والتصميم والعقلانية والتحفّظ، لكن حدّة أحاسيسه، ومدى خياله وقوة عاطفته، كل ذلك جعله يتفهم على نحو ما الحركة الرومانسية التي قامت لإطلاق الفردية والمشاعر والخيال والأصالة والإبداع والتأمل الباطني والألوان وتحريرها من أسر التقاليد والشكليات. لذا فإن نابليون جعل من ديفد (داود David) الرسّام الرسمي في بلاطه، لكنه أولى أيضاً شيئاً من رعايته لوجدان جيرار Gerard ورعوية برودون Prudhon وألوان جروس Gros المتفجّرة الصاخبة.

وقد كان جاك لويس ديفد (داود) مولعاً ولعاً طبيعياً بهذا الرّاعي النّصير (المقصود نابليون) الذي اتخذ لنفسه لقب قنصل والذي كان لفترة حامي حمى المدافعين عن حقوق العامة والذي تحقّى وراء قراراته ومراسيمه الشبيهة بقرارات مجلس الشيوخ الروماني ومراسيمه وسرعان ما زار ديفيد هذا الكورسيكي المنتصر (المقصود نابليون) بعد الثامن عشر من شهر بروير Brumaire (وفقاً للتقويم الجمهوري الذي وضعته الثورة الفرنسية)، وكسبه نابليون إلى جانبه بأن حياة ذات مرة كفرنسي مقدّم لكنه وبخه بكياسة لاستنزافه كثيراً من موهبته في التاريخ القديم، أليست هناك أحداث تستحق الخلود في تاريخنا الحديث بل والمعاصر؟! وعلى أية حال فقد أضاف نابليون قائلاً افعل ما يسرّك، فقلّمك الرصاص سيحقّق الشهرة لأيّ موضوع تختاره، لأنّ أي صورة تاريخية ترسمها ستلتقى مقابلها 000,001 فرنك (6). وكان هذا مُتّعاً. وصدّق ديفيد على الاتفاق بأن رسم لوحة لبونابرت وهو يعبر الألب (1081) تلك اللوحة التي تظهر المقاتل الوسيم بساق جذابة فوق حصان رائع يعدو بسرعة فوق المنحدر الصخري للجبل - إنها إحدى أجمل الصور في هذا العصر.

وكان ديفيد قد صوّت إلى جانب قرار إعدام لويس السادس عشر ولائد أنه جفل عندما جعل نابليون من نفسه إمبراطوراً وأعاد للملكية كل أبهتها وسلطانها، ومع هذا فقد ذهب (أي ديفيد) ليرى سيده الجديد (المقصود نابليون) وهو يضع التاج فوق رأسه، وكان افتتاحه بالمشهد يفوق توجّهاته السياسية، وبعد ثلاث سنوات من الإخلاص المتردّد لسيدّه (الذي أصبح ملكاً)، خلّد هذا الحدث في لوحة زيتية تُعد من روائع هذه الفترة. ويكاد يكون قد صوّر مائة شخصية في لوحة تتويج نابليون (7081) بل إنه رسم فيها مدام ليتيزيا (الأم) Mme Mère Letizia التي لم تكن حاضرة أثناء التتويج. وكان معظمهم راضين عن اللوحة ما عدا الكاردينال كابرارا Caprara الذي اشتكى ديفيد لأنه رسمه أصلع بدون شعره المستعار الذي اعتاد وضعه فوق رأسه. وبعد أن تأمل نابليون اللوحة لمدة نصف ساعة رفع قبعته للفنان (ديفيد) وقال له: هذا حسن، حسن جداً يا ديفيد، إنني أحييك (7).

ولم يكن ديفيد مجرد رسّام رسمي للبلاط، وإنما كان زعيم الفن الفرنسي في هذه الفترة بلا منازع. لقد سعى إليه كلّ ذوي الحيثية يجلسون أمامه طمعاً في لوحة منه - نابليون، بيوس السابع، مورا Murat، وحتى الكاردينال كابريرا بعد أن وضع باروكته (شعره المستعار) فوق رأسه (8). وقد نشر تلاميذ ديفيد - خاصة جيرار وجروس وإيزابي وإنجر Ingres - تأثيره حتى عندما انحرفوا عن أسلوبه. وفي وقت متأخر زمناً حتى سنة 4181 كان زوّار اللوفر الانجليز يندهبون لوجود فنّانين شبان ينسخون لوحات ديفيد - لا لوحات عصر النهضة (9). وبعد عام تم نفيه بعد عودة البوربون، فذهب إلى بروكسل حيث انتعشت أحواله نتيجة عمله في رسم اللوحات الشخصية خاصة. ومات ديفيد في سنة 5281 عن عمر يناهز السابعة والسبعين بعد أن عاش حياة حافلة.

ومن بين تلاميذه انجر (Ingres 0771- 7681) الذي عاش بعده سنوات طوال. وعرّجنا أثناء حديثنا عن جيرار وجيرين Guerin على رسومهما الشخصية ذات الطابع التتويري، وتوقفنا أكثر إزاء انطوان - جان جروس بسبب تنقله الشائق بين الأساليب المختلفة. لقد لاحظناه في ميلان يرسم أو يتخيّل نابليون على جسر أركول ففي هذه اللوحة، سرعان ما ندرك ميراث ديفيد الفني يعانق الرومانسية. وقد كافأ نابليون الفنان جروس الذي كان معجباً به اعجاباً أعمى، بأن أرسله ليشهد إحدى المعارك حتى يتمكن الفنان الشاب من رؤية الحرب عن قرب، وبعد ذلك بسنوات قلائل أصبح مثل جويا Goya لا يرى أن الحرب تسبب معاناة شديدة، ففي لوحته طاعون يافا (4081) أظهر نابليون يلمس قروح الضحية، لكنه أظهر أيضاً الفزع واليأس باديين على الرجال والنساء والأطفال وقد أصابهم قدرهم

الأعمى القاسي. ولم يصوّر في لوحته معركة إيلاو (8081) مجريات الحرب وإنما صوّر ميدانها وقد غصّ بالمُحترّبين والموتى. وقد أحس بدفء ألوان روبين Ruben وأغرق رسومه بحيوية الدم واللحم التي رفعت الروح الرومانسية لفرنسا بعد عصر نابليون. لكن شعوره بأنه يخون سيده المنفي (نابليون) جعله يحاول العودة في أعماله للأسلوب الكلاسي بما فيه من هدوء وسكون. وفشل واستسلم للاكتئاب (المانخوليا) وجفت فيه منابع الحيوية وحب الحياة. لقد تاه وأصبح عرضة للنسيان في عصر يُمور بهوجو Hugo وبييرليوز Berlioz وجيريكول Géricault وديلاكروا Delacroix. وفي 51 يونيو سنة 5381 غادر بيته وهو في الرابعة والسنتين من عمره وانطلق إلى ميدون Meudon حيث أغرق نفسه في رافد نهر السين.

أما بيير - بول برودن Pierre- Paul Prud (ص) hon (3281-8571) فطوّر الفوران الرومانسي بتفضيله الجمال المثالي على الحقيقة والنسوة الفاتنات على الأرباب وفضل كوريجيو Correggio على رافائيل Raphael. وأعاد مع ديفيد الأهمية الأولى للخط لكنه شعر أنّ الخط يموت بلا ألوان. وكان دقيقاً إلا في حبه للنساء، (النص: لم يكن رجلاً إلا عندما يتعامل مع النساء) فولعه بالتأمل وحاسيته الشديدة للحب والعشق يمكن أن يغفرا كل أخطائه التي تأتي في سياق مهذب، ولأنه كان الأخ الأصغر لثلاثة عشر طفلاً فقد عانى الفقر في كلوني Cluny لكنه تطور على نحو متردد، وعلى أية حال فإن رجال الدين عندما رأوه وهو يخطّط ويرسم حثوا الأسقف على تمويل دراسته للفن في ديجون Dijon، فكان طالباً جيداً، لكنه في سن العشرين تزوّج من امرأة فاتنة إلا أنها سرعان ما تحولت إلى امرأة فظة سليطة اللسان. وحصل على منحة دراسية فذهب إلى روما دون أن يصحب زوجته معه، ففتن برافائيل ثم ليوناردو وأخيراً استسلم لتأثير كوريجيو Correggio.

وفي سنة 9871 عاد لزوجته وانتقل معها إلى باريس وسرعان ما وجد نفسه منساقاً في الفوضى الثورية ولم يعد لديه وقت أو تنوع لكيوبيد his Cupids ولا ببسيشيه his Psyche، لكنه بعناد وأصل رسمهما وبدا رقيقاً محباً في رسمه حتى لقد بدا كأن فرشاته تعانق الأجساد البشرية التي يصورها. وكان يتكسّب عيشه من تصميم أوراق الشركات والمؤسسات التي يكتب في رأسها اسم الشركة أو المؤسسة وعنوانها، ورسم المصعّرات والإعلانات التجارية، وبعد عشر سنوات من العذاب فاز بتكليف من حكومة الإدارة برسم صورة الحكمة تهبط للأرض التي لفتت إليها نظر الجنرال بونابرت، وفي وقت لاحق كان نابليون يركّز على ديفيد وكان أحياناً يعتمد بشكل عابر على برودون Prud ص hon وعلى أية حال فقد جلست جوزفين أمامه ليرسمها فكانت لوحة علّقت في اللوفر، وفي هذه الأثناء كان يُعاني من زواجه بوحدة، فاتفق مع زوجته على الانفصال.

ولم يلفت النظر ويحظى بالتصفيق إلا وهو في الخمسين من عمره أي من حوالي سنة 8081 ففي هذا العام صبّ أحلامه الشهوانية في لوحته اغتصاب بسوخي (ببسيشي) ثم أوزنها بلوحته العدالة والانتقام يلاحقان الجريمة وتأثر نابليون بجمال لوحاته فعينه في جوقه الشرف ومنحه مكاناً لإقامته في السوربون، وفي المكان المجاور لهذا الفنان الجائع للحب كانت تُقيم فنانة أخرى، إنها كونستانس ماييه Constance Mayer التي أصبحت خليلته ومديرة شؤون بيته وعزاء له في شيخوخته. وفي سنة 1281 اعترى كونستانس ماييه وخز ضمير مفاجئ ومشاعر دينية عارمة وانتحرت. وتأثر برودون Prud ص hon بهذا الحدث تأثراً كبيراً عصف به. وفي سنة 3281 وافته منيته ولم يُحدث موته - إلا بالكاد - تأثيراً كبيراً في الحركة الرومانسية التي سبق له أن عزّزها بالرجوع إلى أعمال الفنانين من ديفيد إلى واتو Watteau، فأعاد للفرنسيين من جديد حبهم للجمال والحسن.

كان نابليون مُلمّاً تماماً بالدراما الكلاسيّة في فرنسا، وكان إمامه بأدب الدراما في بلاد الإغريق القديمة أقل. وكان نابليون يفضّل كورنيل Corneille لأنه وجد فيه ما شعر أنه فهم دقيق للبطولة والنبالة، وقد عبّر كورنيل عنهما - فيما أحسن نابليون - بشكل أفضل كثيراً مما فعل راسين Racine قال نابليون في سانت هيلانة إن التراجيديا الجيدة تقترب منا اقتراباً شديداً كل يوم والتراجيدا من النوع الأرقى هي مدرسة العظماء: إنه لمن واجب الحكام تشجيعها والعمل على تشجيع الناس على تذوقها.. أه لو أنّ كورنيل عاش في زمني لجعلته أميراً (01) ولم يكن الإمبراطور يهتم بالكوميديا فلم يكن في حاجة للتسلية والترفيه، وكان تاليران يُشفق على السيّد دي ريموزا de Rémusat لأنه كمسؤول عن الحفلات والترفيه في البلاط الإمبراطوري. كان يتوقع أن يقوم بترتيب أمور الترفيه والتسلية لهؤلاء المسؤولين المرهقين (11) لكن هؤلاء المسؤولين أنفقوا الأموال على الكوميديا الفرنسية Comédie-Francaise (المصطلح يعني المسرح الفرنسي وليس مرتبطاً بالكوميديا بالضرورة - المترجم) ونجمه. وقد رحّب نابليون بتالما Talma على مائدته كما رحب بالأنسة (المدموازيل) جورج Mlle. George على فراشه.

وفي سنة 7081 قلّص نابليون عدد مسارح باريس إلى تسعة مسارح وأعاد تأسيس المسرح الفرنسي Theatre Francais (وهو غير الكوميديا الفرنسية ذكره) كما كان يهتم بين الحين والآخر بدار الكوميديا الفرنسية - وكان لها حقوق - مقصورة عليها - لإخراج الدراما الكلاسيّة. وفي 51 أكتوبر سنة 2181 - وبين خرائب موسكو المحترقة - وجد الوقت الكافي ليصوغ للمسرح الفرنسي Theatre Francais - مجموعة قواعد وإجراءات دقيقة ظلت تحكم هذا المسرح حتى اليوم (21) وفي ظل هذا التشجيع قدّم الكوميديا الفرنسية خلال فترة الإمبراطورية أجمل مسرحيات شهدتها التاريخ الفرنسي. ولإضافة نشاطات أخرى لهذه النشاطات أعيد بناء مسرح لودون Theatre de l'Odéon - الذي كان شُيّد في سنة 9771 ودمّر حريق في سنة 9971 - في سنة 8081 وكانت خطوط معماره كلاسيّة كما أراد لها المعماري شالجرين Chalgrin. وأنشئ مسرح البلاط في قصر التوليري، كما أنشئت منصات خاصة للتمثيل المسرحي تميزت بقدر كبير من الامتياز في كثير من الدور التي يتمتع أهلها بالثراء.

وقد وصل تالما Talma بعد أن لعب أدواره في الثورة الفرنسية - إلى ذروة مجده في ظل حكم نابليون. وكان معتزاً بنفسه وكان انفعالياً مميّزاً فلا بُدّ أنه كان يجد صعوبة في السيطرة على مكوات شخصيته الحقيقية عند أداء أدواره التمثيلية. لقد أصبح هو سيّد الفن البارع بتعلمه كيف يضبط وينسق كل حركة من حركات أطرافه، وكل خَلْجة من خلجات وجهه، وكل نبرة من نبرات صوته، ليجعلها ملائمة لأية أحاسيس ومشاعر أو أفكار للشخصية التي يمثلها، وليجعلها ملائمة للتعبير عن أية دهشة أو معنى أو مغزى... تريد هذه الشخصية أن توصلها للمشاهدين، وكان بعض المولعين بمشاهدة المسرحيات يذهبون عدّة مرّات لمشاهدة العرض الواحد ليروّه في الدّور نفسه ليستمتعوا ببراعة فنه ولبدرسوه. ولم يكن أسلوبه في الأداء خطابياً على نحو ما كان عليه أسلوب الأداء التمثيلي في ظل الحكم القديم (قبل الثورة). لقد كان يلقي الأشعار سداسية التفاعيل كما لو كان يقرأ نثراً (غير منظوم) وكان يعارض المبالغة غير الطبيعية في إظهار المشاعر ومع هذا فقد كان بمقدوره أن يكون حالماً كأبي عاشق انفعالياً كأبي مجرم. وكادت مدام دي ستيل تصل إلى حد الرّعب عندما شاهدت تالما يؤدي دور أوثيلو (31) Othello فكتبت له في سنة 7081: إنك في مجال فنك فريد في العالم (ليس لك نظير) ولم يصل أحد قبلك إلى هذه الدرجة من الاتقان حيث وحدّ الفن في شخصك بين الإثارة والإلهام والتفكير من ناحية والتلقائية من ناحية أخرى، وبين العقل والسجّية (41).

وكان نابليون أيضاً مفتوناً بهذا التراجيدي (تالما) فقدّم له مبالغ عينية ودفع ديونه ودعاها مراراً على مائدة الإفطار وكان الإمبراطور يستطيع أن يظل مستغرقاً في الحديث عن الدراما والدبلوماسيون والجنرالات ينتظرون لقاءه بينما هو يشرح تفاصيل تاريخية يجب مراعاتها عند تقديم الشخصية. وذات صباح بعد أن شاهد مسرحية موت بومي La Mart de Pompée قال لتالما: إنني لست براض تماماً. إنك تستخدم ذراعيك كثيراً. إن الملوك لا يُكثرون هكذا من الإشارات والإيماءات. إنهم يعرفون أنّ الحركة أمر amotion is an order وأن النظرة موت، لذا فهم يقتصدون في الإشارات والحركات والنظرات وقد تأكدنا أنّ تالما قد استفاد من هذه النصيحة (51). وعلى أية حال فقد ظل تالما حتى آخر حياته سيّداً للمسرح الفرنسي.

وكان للمسرح الفرنسي أميراته (ممثلاته البارعات) أيضاً فقد كانت الأنسة (المدموازيل) دوشسنوا Duchesnois ذات وجه عادي لكنها متناسقة القوام. لذا فقد كانت - على حد ما ذكر دوماس الأب Dumas Père - معجبة على نحو خاص بدور الزير Alzire حيث كانت تستطيع عرض دورها وهي شبه عارية وكان صوتها أيضاً ذا نغمات شجيّة عميقة ويُعبّر عن الأسى الميلودي (يتسم بأنه صوت رخيم) حتى أنه في يوم عرض هذه المسرحية فضّلها معظم من شاهدوها في دور مارييا ستورات Maria Stuart على الأنسة راشيل (61) Mlle. Rachel لقد كانت أكثر ما تكون

إبداعاً عندما تؤدي أدواراً تراجيدية إذ كانت تنافس تالما Talma في أداء هذه الأدوار، وعادة ما كان يتم اختيارها لتلعب أدوارها معه. أما الأنسة جورج Mlle. George فكانت ذات جمال يُحَرِّضُ على الإثم ولا بد أن المسرح الفرنسي تردّد عند توزيعه الأدوار في أن يعهد إليها بدور كلبتمسترا Clutemnestra في مسرحية راسين Iphigénie. لقد جذب صوتها وقوامها القنصل الأول (نابليون) وكأى سيد إقطاعي يتمتع بحق السيد droit de seigneur راح يزورها زيارات قصيرة بين الحين والحين وكان عليها أن تستجيب لطلبه (71). ورغم أن هذه العلاقة قد انتهت بعد عام إلا أنها - مثل تالما - ظلت مخلصاً لنابليون طوال انتصاراته وهزائمه على سواء، ومن ثم فقد فقدت مكانها في المسرح الذي كانت تعمل به عندما سقط نابليون، لكنها عادت بعد ذلك لتشارك في حركة المسرح الرومانسي بما في هذه الحركة من إثارة. واعتقد نابليون - وله بعض الحق - أن المسرح الفرنسي Comedie - Francaise في عهده رفع من شأن المسرح عموماً إلى درجة من الامتياز لم يحققها من قبل. وأمر نابليون فرقة هذا المسرح عدة مرات بتقديم عروضها على نفقة الدولة إظهاراً لتفوقها ودليلاً على عظمتها - في ميونخ Mainz أو كومبني Compiegne أو فونتينيلو Fontainebleau في مسرح البلاط أو - كما حدث في إيرفورت Erfurt ودريسدن Dresden - لعرض مسرحية قبل لقاء الملوك (81).

صفحة رقم : 14611

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> الكتابات المناهضة لنابليون -> الرقيب

الفصل الثالث عشر

الكتابات المناهضة لنابليون

1- الرقيب

كان نابليون مهتماً بالمسرح أكثر من اهتمامه بالكتابات الأدبية. لقد راقب بعناية برامج المسرح الفرنسي -Théatre Francais وأبدى حكمه عليها، وكان إلى حد كبير - مسؤولاً عن استبعاد (مسرحيات) فولتير وإحياء مسرحيات كورنيل وراسين. ولم يكن ذوقه في الأعمال الأدبية راقياً على هذا النحو. وكان يقرأ الروايات بشغف بل كان يأخذ معه كثيراً من الروايات - معظمها ذوات طابع رومانسي - عند ذهابه للمعارك. وكانت مائدة حديثه في سانت هيلانه تضم بعض كتب النقد الأدبي الجيدة التي تحوي معلومات عن هومر وفرجيل وكورنيل وراسين ولا فونتين ومام دي سيفيني Sévigne وفولتير ورتشاردسون Richardson ورسو لكنه كان لا يستسيغ شكسبير على الإطلاق. انه لمن

المحال أن يُنهى المرءُ أيّاً من مسرحياته. إنها هزيلة يُرثى لها، فليس فيها شيء يجعلها تقترب - في أي موضع فيها - من أعمال كورنيل أو راسين(1) (كانت الترجمات الفرنسية لأعمال شكسبير غير كافية وغير جيدة).
وكمعظم رجال الأعمال لم يكن نابليون يُكن احتراماً للكاتب في مجال الاقتصاد أو الحكم، إذ كان يعتبرهم بائعي كلام ليس لديهم إلا القليل من الحسّ الصائب لفهم الحقيقة والطبيعة وحدود القدرة البشرية. وكان متأكدًا أنه يعرف أفضل منهم ما يُريده الشعب الفرنسي وما يجب أن يكون: كفاءة الحكومة وتكاملها، والاعتدال في الضرائب، وحرية السوق، وانضباط الإجراءات، وانتظام التمويل، وضمان توفر فرص العمل بشكل يعادل العمالة المطروحة في مجال الصناعة، والأراضي الزراعية المُتاح ملكيتها للفلاحين، وتهيئة مكانه عريضة لفرنسا بين الدول، فإن تحقق ذلك فلن يصر الشعب على تدابير (إجراءات) محدّدة ولن يهتم الشعب بمسألة شغل المناصب بحفنة من المخبرين بعد نزاع كلامي. ولم يكن نابليون في سعيه الدؤوب للوصول لهذه الغايات يُطبق كثيراً تدخل لوردات الكلام من رجال القلم والخطباء. وكان نابليون إذا وجد أن تهديئة هذه الطائفة (لوردات الكلام من كتاب وخطباء) يستلزم تقديم جوائز أو مكافآت أو معاشات فإنه لم يكن يتوانى في تقديمها، وإلا فإنه يعمل على الحيلولة بين مسببي الإزعاج لحكمه الفعلي أو الإمبراطوري والنشر، أو العمل على إبعادهم عن باريس أو فرنسا. وقد كتب نابليون في سنة 2081 إن حرية الصحافة التي لا تحدّها حدود سُرعان ما تُسبب الفوضى وترسخها في دولة كل شيء فيها مهياً لذلك بالفعل(2).
وكما كان يحدث في عهد حكومة الإدارة، فإن نابليون رغبة منه في متابعة الرأي العام، عمد إلى إصدار الأوامر لمديري البريد بفضّ بعض الخطابات الخاصّة، وكتابة تقارير له فيما يتعلق بالفقرات المعادية له، وأن يُعيدوا إغلاق الأظرف، وأن يُرسلوا نسخاً من المقتطفات التي يجمعونها من هذه الخطابات إليه شخصياً أو إلى الغرفة السوداء في مكتب البريد العام في باريس(3). وأصدر تعليمات لأمين مكتبته الخاصة أن يُعد تقريراً ملخصاً يعرضه عليه كل يوم فيما بين الساعة الخامسة والسادسة يتضمن ما ورد في الدوريات الجارية متعلقاً بالأمر السياسي، وأن يُقدّم هذا التقرير كل عشرة أيام، وأن يتضمن هذا التقرير أيضاً تحليلاً لما ورد في الكتب والنشرات والأبحاث التي نُشرت في غضون العشرة أيام السابقة على تقدير التقرير وأمر نابليون أمين مكتبته الخاصّة أن يقدم له في اليوم الأول والسادس من كل أسبوع (أسبوع الثورة الفرنسية عشرة أيام) فيما بين الساعة الخامسة والسادسة نشرة بالمُصقّات والإعلانات التي قد تُلقت الانتباه وأن يكتب في تقريره أيضاً ما يكون قد نما إلى علمه من أقوال أو أفعال في المدارس المختلفة والتجمّعات الأدبية والخطب والمواعظ. مما قد يكون ذا أهمية من منظور سياسي أو خلقي(4).
وفي 71 يناير سنة 0081 أمر نابليون بوقف ستين صحيفة من بين ثلاث وسبعين صحيفة كانت تصدر في فرنسا في ذلك الوقت. وكان نابليون يُواصل بذلك السياسة التي سارت عليها حكومة الإدارة. وفي نهاية هذا العام المذكور أنفأ لم يُعد باقياً من هذه الصحف إلا تسع، لم تكن واحدة منها ذات طابع نقدي راديكالي. قال نابليون إن هذه الصحف المعادية تسبب الرعب أكثر مما تسببه ألف حرب(5) ودأبت صحيفة لي مونيتير يونيفيرسال Le Moniteur universel على الدفاع عن سياسة نابليون، وكان في بعض الأحيان يكتب لها المقالات بل وحتى مستخلصات الكتب، لكنه لم يكن يوقع هذه المقالات، لكن أسلوبها المؤثّق كان يُعشى بسرّ كاتبها. وقد سمّي المفكرون الظرفاء هذه الصحيفة الحكومية باسم ساخر محرّف يعني الصحيفة الكذّابية(6) منيتير يونيفيرسال Menteur universel.
إنني أريد منك أن تكتب لمحرّر (جورنال دي ديبات bats) Journal de de وبيليسيزت Le Publiciste وغازيت دي فرانس La Gazette de France فهي الأكثر إنتشاراً، كما أعتقد. أمراً تُعلن لهم فيه. أن عصر الثورة قد انتهى وأنه ليس في فرنسا الآن إلا حزب واحد، وأنني لن أتسامح مطلقاً مع الصحف التي تكتب - أو تفعل - أيّ شيء ضدّ مصالحنا، فإن نشرت هذه الصحف مقالات قليلة تحوي قدراً من السم مهما كان قليلاً، فإنها ستجد ذات صباح جميل من يُغلق أفواه كتّابها(7).
وفي 5 أبريل سنة 0081 امتدت الرقابة لتشمل الدراما. وكانت حجة الحكومة في إجرائها هذا أنّ الآراء التي يتم التعبير عنها على مستوى الأفراد وبشكل خاص قد لا تُحدث إلا أضراراً قليلة، لكن هذه الآراء نفسها إذا ما تم وضعها على لسان شخصية تاريخية شهيرة فإنها ستُحدث تأثيراً انفجارياً مُضاعفاً عند عرضها على المسرح بسبب بلاغة ممثل محبوب جماهيرياً وقوة أدائه، إنها - أي هذه الأفكار - في هذه الحال ستُثير المشاعر بشكل مُضاعف بين جمهور المشاهدين(8). وقد استتنت الرقابة من ذلك نقد الملكيّة، وامتداح الديمقراطية. وقد تمّ استبعاد مسرحية موت قيصر La Mort de César من المسارح بسبب تصفيق جماهير النظارة لحطب بروتس ضد الدكتاتورية(9).
وأخيراً أحكمت الدولة السيطرة. على كلّ المطبوعات. انه لمن المهم جداً ألا يُسمح بالنشر إلا لمن تثق بهم الحكومة. فمن يُخاطب الجماهير من خلال مطبوعات هو كمن يتحدث إليهم في اجتماع عام (01)، في مقدوره أن يعرض موادّ مثيرة ولا بد من مراقبته باعتباره محرّضاً مُحتملاً أو مُسبباً مُحتملاً للحرائق. وعلى هذا فكلّ طابع لا بد أن يُقدّم للرقيب كلّ نصّ قبل طبعه، سواء قبل أن يطبعه أو أثناء طبعه ولا يُدّ من الحصول على موافقة الدولة على الطبع، ولا بد أن يُوافق الطابع (الناشر) على حذف المادة التي تعترض عليها الرقابة أو إحلال البديل عنها كما

تقترحه الحكومة. وحتى بعد أن يُوافق الرقيبُ وبعد طباعة الكتاب أو الصحيفة أو النشرة، فمن حقّ وزير الشرطة (الداخلية) أن يُصادر المادة المنشورة أو حتى يُثلفها تماماً، دون اعتبار لخسارة المؤلف أو الناشر (11). وكان على الأدب والفكر في ظل هذه القيود على الفكر أن يُناضلاً ليظلاً على قيّد الحياة في ظلّ نابليون. وقد وقع هذا النضال بأشجع معانيه على كاهل امرأة.

صفحة رقم : 14612

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> الكتابات المناهضة لنابليون -> مدام دي سنّيل

2- مدام دي سنّيل

1799- 1917

2 slash خَصْمُ نابليون اللُدود

سبق للجنة الأمن العام أن أبعدت مدام دي سنّيل عن فرنسا وخضت حكومة الإدارة هذه العقوبة فاكتفت بإقصائها عن باريس، وبعد سقوط حكومة الإدارة أُسرعت عائدة إلى العاصمة (21 نوفمبر 1971) وسكنت شقة في شارع دي جرينل de Grenelle في حي فوبورج سان جيرمين Faubourg ST. Germain الرّاقِي. ولم تعترض الحكومة القنصلية - أعنى نابليون - على عودتها - وسرعان ما افتتحت صالوناً جديداً لأسباب منها أن المناقشات في باريس كانت دائماً أكثر فتنةً وسحراً من كل المسرّات (21) وأنها كانت قد صمّمت على أن تلعب دوراً في توجيه الأحداث، ولم تضع في اعتبارها أن مثل هذا الدور لا يليق بامرأة. لقد بدّأها أنّ هذا أمر لائق تماماً لامرأة مثلها ذات مال وذكاء، خاصة إن كانت وريثة جاك نيكِر Jacques Necker (والدها) الذي كانت تعتبره بطل الثورة الفرنسية الذي لم يُفترّ حق قدره. وبالإضافة لهذا فقد كانت الحكومة الفرنسية لا تزال مدينة له بمبلغ عشرين مليون فرنك كان قد أقرضها لها (للحكومة) في سنة 1987، وكان أحد أهداف مدام دي سنّيل هو استعادة هذا المبلغ. وكان نموذج الحكومة الأمثل من وجهة نظرها هو الملكية الدستورية التي تسمح بحرية الصحافة والعبادة والخطابة، والتي تحمي ملكية الأثرياء ضد حسد الفقراء، تماماً كما كان رأي أبيها. وبهذا المعنى كانت تشعّر أنها كانت مُخلصة للثورة كما عرفتها الجمعية الوطنية 1987 - 1971. لقد كانت تحنقر المشتريين في قتل الملك ورحبت في صالونها بجيرانها من ذوي الرُتب والألقاب في فوبورج Faubourg الذين كانوا يدعون كل يوم طالبين من الرب عودة البوربون إلى الحكم. ومع هذا فقد حلقت المتجمعين في صالونها حول بنيامين كونستانت (قستنتين) Benjamin Constant الذي نذر حياته للدفاع عن الجمهورية والذي كان - كعضو في التريبونيت Tribune - يُعارض كل حركات نابليون من

مرحلة الفصلية إلى مرحلة السلطة الإمبراطورية، ورحبت في صالونها أيضاً بأخوة القنصل الأول (نابليون) لأنهم كانوا هم أيضاً غير مرتاحين في ظل سلطته المتزايدة.

وحقيقة الأمر أن كل ذوي الشأن في المجالين السياسي والفكري في باريس - وجدوا طريقهم إلى اجتماعات المساء في صالونها، شغفاً منهم في معرفة آخر الأقاويل في المجال السياسي وليسمعوا مدام دي ستيل تحوُّض غمار الحوار والمناقشات على نحو لم تشهده باريس من امرأة منذ مدام دي ديفان Mme de Deffand. وقد أعلنت مدام دي تيسي Tesse: لو كنت ملكة لأمرت مدام دي ستيل بالحديث معي طوال الوقت (31). وقد كتبت جيرمين Germaine نفسها أن كل طبقات فرنسا كانت تشعر بضرورة النقاش، فلم يكن الكلام (الحوار) هنا كما هو في أي مكان آخر - مجرد وسيلة للتعرف والاتصال بين الناس... وإنما كان كآلة موسيقية تُشغف الناس بالعزف عليها (41).

ولم تكن دوماً معارضة لنابليون إن كان لنا - حقيقة - أن نُصدِّق بورين Bourienne، فقد كتبت له خطابات إطراء وتملق في بداية الفترة الفصلية لتعرض خدماتها عليه (51). ولكن قراره بتجاهل عروضاها، وتوسيع دائرة الرقابة واحتقاره للمكفرين السياسيين، وفكرته عن المرأة التي مؤداها أنها مجرد أداة للإنجاب، ووسيلة للذة، وأنه لا يُوثق في فكرها، كان بمثابة لدغة (قرصة) لها دفعتها للرد عليه. وعندما أُطلق على ضيوفها اسم الأيديولوجيين ideologues أطلقت عليه بدورها عدو الفكر slash أيديو فوب ideophobe، ولأن غضبها منه (من نابليون) كان يزداد، فقد وصفته بأنه روبيسبير فوق صهوة جواد (61) أو هذا البورجوازي الذي اعتلى العرش (71).

وفي السابع من مايو سنة 0081 انتقلت بزوجها وبطانة صغيرة من المخلصين إلى كوبت Coppet في فترة الصيف. وكان نابليون قد غادر باريس في اليوم السابق ليعبر جبال الألب ويواجه النمساويين في مارينجو Marengo، واعترفت جيرمين Germaine (مدام دي ستيل) في وقت لاحق: لم أستطع أن أمنع نفسي من تمني أن تحيق الهزيمة بنابليون إذ بدت هزيمته هي الطريق الوحيدة لوقف الطغيان (81). وفي خريف هذا العام عادت إلى باريس بعد أن صُجرت من الإقامة في كوبت ومونت بلانك Mont Blanc، فقد كانت لا تستطيع العيش دون مناقشات ولم تكن المناقشات مزدهرة في أي مكان ازدهارها في باريس (91). وسرعان ما جمعت في صالونها جماعة من العباقرة والنوابغ راحوا يتحاورون في موضوعهم الأثير وهو دكتاتورية نابليون. واشتكى نابليون من هذا الوضع قائلاً: لقد حملت كنانتها المليئة بالسهم. إن الجماعة المتحلقة حولها تتظاهر بأنها (مدام دي ستيل) لا تتحدث في السياسة ولا تتحدث عني لكن كيف - إذن - أفسر أن كل من رآها، قلَّ حُب لي؟ (02) وقال بعد ذلك في سانت هيلانه إن بيتها أصبح حقاً ترسانة توجَّه أسلحتها ضدي. لقد كان الناس يذهبون إلى هذا البيت ليكونوا فرساناً زائفين في حرب صليبية تشنها ضدي (12). بل أنه ذهب إلى حد القول: إن تلك المرأة علّمت الناس أن يفكروا فيما لم يتعودوا التفكير فيه قبل ذلك، وما كانوا قد نسوا كيفية التفكير فيه (22).

لقد شعر نابليون أنه كقائد يعمل على إخراج فرنسا من حالة الفوضى بفرض نظام إداري يتسم بالكفاءة، وبتحقيق جيوشها انتصارات - في الوقت نفسه - ضد التحالفات المعادية، أن من حقه أن يتوقع - أو يفرض عند الضرورة - معنويات عامة وأخلاقاً عامة على الجماهير، وأن يفرض تنسيقاً بين الروح الوطنية والإرادة الوطنية للدفاع عن جمهورية فرنسا الجديد وحدودها الطبيعية - لكن هذه المرأة (مدام دي ستيل) جمعت حولها كلا من الموالين للملكية واليعاقبة ووحّدتهم ضده، ووالت أعداءه. وكان والد جرمين Germaine متفقاً مع نابليون. لقد أثبها (أي أثبت ابنته) لهجومها المتواصل على الدكتاتور الشاب (نابليون) وقال لها إن شيئاً من الدكتاتورية ضروري أثناء الحرب (32). لكنها أجابته قائلة إن الحرية أهم من النصر. وشجعت مدام دي ستيل، بيرنادوت Bernadotte في معارضته لنابليون، وكتبت بعض الخطب التي ألقاها كونستانت Constant (قسطنطين) في التريبيونيت Trebunate (مجلس الدفاع عن حقوق الشعب) ضد انتهاكات نابليون لاختصاصات وصلاحيات المجلس التشريعي (الهيئة التشريعية). لقد كانت هي (مدام دي ستيل) وبونابرت سريعي الغضب مُتسمين بالغرور، ولم تكن فرنسا لتتسع لكليهما، ليكون كل منهما حراً يتصرف كما يشاء.

وفي ربيع سنة 1081 كتب نابليون لأخيه جوزيف (يوسف): إن السيد دي ستيل في بؤس شديد، ومع هذا فإن زوجته تُقيم الولائم والحفلات الراقصة (42) ونقل جوزيف إليها هذا التوبيخ، فانتقلت إلى مقر إقامة زوجها في ميدان الكونكورد (الكلمة تعني الوفاق) فوجدته وقد أخذ به الشَّلل كل مأخذ، فراحت تُمرّضه وتعتني به، وفي شهر مايو سنة 2081 أخذته معها عندما غادرت باريس إلى سويسرا، ومات في الطريق وتمّ دفنه في مقبرة كوبت Coppet. وفي العام نفسه بدأت مدام دي ستيل في تعاطي الأفيون لأن نوبات الهياج كانت تعترِبها.

كانت مد دي ستيل أعظم مؤلفة في أوروبا في زمانها وكانت أعظم كتاب فرنسا باستثناء شاتوبريان
Chateaubriand لقد كتبت خمسة عشر كتاباً قبل سنة 0081 (أصبحت هذه الكتب منسوبة الآن)، وفي ذلك العام
(0081) قدّمت عملاً كبيراً عن الأدب De la Litterature ثم ألّفت روايتين (دلفين Delphine في سنة 3081
وكورين Corrine في سنة 7081) وقد حقّقت هاتان الروايتان لها الشهرة في أنحاء أوروبا. وفي الفترة من 0181
إلى 3181 خاضت معركة حياتها لنشر عملها المهم (عن ألمانيا De L صAllemagne)، وتركت بعد موتها كتاباً
آخر مهماً وكبيراً (أفكار وتفسيرات حول... الثورة الفرنسية Considerations Sur... La Revolution Francaise)
(عشر سنوات في المنفى Les dix Annees d exil) لقد اشتهت كتاباتها التي أشرنا إليها هنا
بالصدق، كما أنها كانت أعمالاً أساسية، وبعضها بلغ 008 صفحة. وكانت مدام دي ستيل تبدل جُهداً شاقاً في
العمل. لقد كانت تعمل بجد وتمارس الحب بجد ومواظبة، وتكتب بعاطفة جيّاشة وحماس. لقد حاربت حتى النهاية
أقوى رجال العصر (نابليون) وكان سقوطه نصراً لها، مع أنها كانت تعاني ظروفاً حزينة.

لقد تناول عملها الموسوم باسم (De la litterature Considered dans ses rapports avec institutions sociales)
موضوعاً كبيراً ومهماً: إنني أريد أن أفحص أثر الدين والأخلاق والقوانين على الأدب (والفكر) وأثر
الأدب (والفكر) على الدين والأخلاق والقانون. لقد كانت لاتزال تنتفس روح القرن الثامن عشر - حرية الفكر، الفرد
في مواجهة الدولة، تطور المعرفة والأخلاق، هنا لا مجال للميثولوجيا (الأساطير) الفوقطبيعية (التي لا تتسجم مع
قوانين الطبيعة)، فقد كانت مدام دي ستيل تؤمن بنشر التعليم والعلم والمعرفة. وكان المطلب المسبق - في رأيها -
لإحداث أي تطور هو تحرير العقل من سطوة السيطرة السياسية. فبالعقول المتحررة على هذا النحو، سينتجس الأدب
(والفكر) ويتضمّن أفكاراً مفيدة، وسينتشر لينتقل لنا تراث الجنس البشري. لا يجب أن نتوقع أن يزدهر الفن والشعر
على نحو ما يتقدم العلم والفلسفة لأنهما (الفن والشعر) يعتمدان بشكل أساسي على الخيال الذي اشتهم بالخصوبة والتوقد
في الأزمنة المتأخرة كما كان في الأزمنة الباكورة في التاريخ. وفي التطور الحضاري يسبق الفن والشعر العلم
والفلسفة، ومن هنا فإن عصر بيريكليس Pericles سبق عصر أرسطو، والعصور الوسطى سبقت جاليليو Galileo،
والفن في عهد لويس الرابع عشر سبق عصر التنوير العقلي. والتطور العقلي لا يتسم بالاستمرار، فهناك تفهقر أو
تراجع أو نكوص بسبب اضطرابات في الطبيعة أو تقلبات السياسة، لكن حتى في العصور الوسطى كان العلم والمنهج
العلمي يتقدمان مما مهد لظهور كوبرنيكس وجاليليو وبيكون وديكارت. وفي كل العصور تمثل الفلسفة تجميعاً تراكمياً
للتراث الفكري وجوهراً. وتاملت مدام دي ستيل وتنبأت قائلة أنه ربما أصبحت الفلسفة في بعض حقب المستقبل
مفهومة وناضجة بشكل كاف بحيث تحل محل العقيدة المسيحية أو بتعبير آخر تغنيها عن العقيدة المسيحية التي كنا
نعتمدها في الماضي (52). وقد عرّفت التنوير الفلسفي Les Lumieres Philosophiques بأنه الحكم على الأشياء
بمعيار العقل (62) ولم تفقد مدام دي ستيل إيمانها بحياة العقل إلا عند حديثها عن الموت. إن انتصار التنوير الفلسفي
(العقلي) كان دوماً ملائماً لعظمة الجنس البشري وإصلاح حاله (72).

لكنها استمرت تقول (وكانت قد قرأت روستو كما قرأت فوليتير) إن تطور العقل (الفكر) ليس كافياً فالمعرفة ليست إلا
عنصراً واحداً في عملية الفهم. أما العنصر الآخر فهو الشعور، فلا بد أن تكون الروح حساسة مرهفة كما لا بد أن
تكون الحواس كذلك. فبدونها (الحواس) تصبح الروح كلوح ميت غير قابل للتلقي أو تصبح كمثل ميت للمثيرات
المادية (الفيزيائية)، فبالحواس تدخل الروح في حياة الموجودات الحية الأخرى وتشاركها إعجابها ومعاناتها، فيشعر
الروح من خلال الجسد يكون الشعور بوجود الله وراء العالم المادي. ومن خلال وجهة النظر هذه تصبح الآداب
الرومانسية التي ظهرت في الشمال الضبابي (ألمانيا وسكاندينافيا وبريطانيا العظمى) على الدرجة نفسها من الأهمية
التي لآداب الجنوب المشمس (اليونان وإيطاليا) وتصبح قصائد أوسيان Ossian في أهمية ملاحم هوميروس
Homer.

وكان من الممكن أن يوافق نابليون في فترة شبابه على هذا التقويم لكن كان لا بد أن ينزعج من وجه نظر المؤلفة عن
العلاقة بين الأدب (والفكر) والحكومة. فالديمقراطيات (كما اعتقدت مدام دي ستيل) تجنح إلى جعل الكُتاب والفنانين
يجنحون إلى إرضاء أذواق الجماهير بينما تعمد الارستقراطيات إلى جعل الكتاب والفنانين يعملون على إرضاء أذواق
الثّخينة (الخاصة) وتشجيع الفكر المصقول المحكم ورصانة الصياغة والشكل (82). فنظام الحكم الاستبدادي يعمل على
ترقية الفنون والعلوم ليُظهر نفسه - أي هذا الحكم الاستبدادي - من خلال البهاء والقوة، ولكنه - أي النظام الاستبدادي
- لا يشجع الفلسفة والدراسات التاريخية لأنها خطر على الدكتاتورية بسبب تناولها للأمور بعمق وسعة،
والديمقراطية تحفز الآداب وتؤخر الفن، والارستقراطيات تفرض الذوق لكنها تعمد إلى إطفاء الحماسة والجدة
والإبداع، والحكومة المطلقة (الاستبدادية) تكبت الحريات والإبداع والفكر. فلو أمكن أن يكون لفرنسا حكومة

دستورية تُزاج ما بين النظام والحرية لأنها أن تزاج بين تشجيع الديمقراطية والقيود المفروضة بحكمة في ظل حكم القانون.

نقول الحق تماماً إن هذا الكتاب كان كتاباً جديراً بالاهتمام بالنسبة لامرأة في الرابعة والثلاثين من عمرها، وتمتلك سبعة ملايين من الفرنكات. وبطبيعة الحال كانت هناك أخطاء في هذا الكتاب ذي الستمائة صفحة لأن العقل عندما يفلت يكون عرضة للزلل بشكل أكيد رغم أنه قد يُسقط بعض الثمار التي يتعدّر الإمساك بها (المرأوة). لقد كانت مدام دي سنيل شخصية غامضة في مجالي التاريخ والأدب، لقد كانت ترى أن الأيرلنديين ألمان وأن دانتي شاعر صغير (قليل القيمة) بل لقد دافعت بشجاعة عن الحكومة الليبرالية وعن المسيحية القائمة على أسس عقلية فأسقطت في طريقها مئات من المُسلمات. وتنبأت بأن تطوّر الاحصاءات قد يجعل الحكومة أكثر وعياً وأن التعليم السياسي قد يساعد في إعداد مرشحين للوظائف العامة. ولاحظت وكأنها تتنبأ أن التقدم العلمي سيجعل التقدم الخلفي أمراً لا مناص منه لأنه إذا زادت قوة الإنسان زادت قوة وسائل منعه من اساءة استخدامها (92) وقلما كانت هناك فكرة من أفكار القرن الثامن عشر لم يتناولها هذا الكتاب، وقلما كانت هناك فكرة من أفكار القرن العشرين لم يبذر هذا الكتاب بذرتها (03).

لقد كتبت في هذا المجلد حياتها بطولها بما فيها من آلام وحسرات ذلك أن النظام الاجتماعي بكامله... قد حشد حشوده ضد امرأة أرادت أن تُحقق شهرة لم يُحققها الرجال في عالم الأدب والفكر (13). والآن فقد كان عليها أن تكون استثناء لأنها كما كتبت بعد ذلك بواحد وعشرين عاماً في ربيع سنة 0081 نشرت كتابي في الأدب وأدى نجاحه إلى استعادتي ثقتي كاملة بالمجتمع، وامتألت - مرة أخرى - غرفة الاستقبال عندي بالزائرين (23). وكانت قلوب كثيرين قد انخلعت فابتعدت عن صالونها من كان يتردد عليه بعد هجوم كونستانت (قسطنطين) العنيف على الدكتاتورية إلا أنهم بعد صدور كتابها هذا عادوا إليها نادمين وراحوا يتملقونها ووجد العريف الصغير Little Corporal (المقصود نابليون) في قصر التوليري أن عليه أن يعترف بوجود عدو له يُباريه في همته وطباعه.

وفي أغسطس سنة 2081 أرسل جاك نيكر Jacques Necker للقتل ليبرون Lebrun نظرات أخيرة في السياسة والمالية Les Dernieres Vues de politique et de Finance - الذي عرض فيه آخر أفكاره في السياسة والاقتصاد. وفي هذا الكتاب التمس الأعداء لدكتاتورية نابليون لكن باعتبارها شراً لا بُد منه، وافترض أن هذه الدكتاتورية مؤقتة وحذر من استمرار ترك السلطة في أيدي العسكريين وعبر عن أسفه لأن مالية الحكومة الجديدة تعتمد اعتماداً كبيراً على تعويضات الحرب، واقترح دستوراً أكثر ليبرالية يكون نابليون حارساً Aguardian عليه. وقد أطلع ليبرون Lebrun نابليون على هذا الكتاب وكان نابليون وقتها قد أصبح بالفعل نصف إمبراطور (على وشك أن يكون إمبراطوراً) فامتعض - أي نابليون - من فكرة تقليص سلطاته. ولأن نابليون كان مُتعتعاً أن مدام دي سنيل هي التي وجهت أفكار أبيها، فقد أصدر أمراً بإبعادها عن باريس مما يعني إغلاق صالونها المزعج ونسي نابليون أنها كانت تستطيع الكتابة بالمهارة نفسها التي تتحدث بها. وقضت شتاء 2081 / 3081 في جنيف لكنها أصبحت في ديسمبر حديث باريس بنشرها روايتها دلفين Delphine. لا أحد يقرأ هذه الرواية الآن، لكن عند صدورها لفتت نظر كل المهتمين بالأدب والسياسية لأنها كانت جزءاً من نضال قوي بين امرأة وعصرها.

ودلفين (بطلة القصة) فتاة فاضلة قوية تتوق إلى الاستسلام (الإذعان) وتخشاه (ويُقصد بها مدام دي سنيل) وأحب ليونس Leonce (= ناربون Narbonne) الأرستقراطي الوسيم الفتاة دلفين لكنه جعل منها (ابتعد عنها) بسبب إشاعة تنمهما بعلاقات جنسية غير شرعية affairs فلم يستطع أن يُقامر بوضعه الاجتماعي باتخاذها زوجة له، فتزوج من ماتيلدا دي فيرنون Matilde de Vernon التي كانت أمها تمارس السحر وتغطي أكاذيبها بالطرف والذكاء، ونظر أهل باريس لهذه السيدة (الواردة في الرواية) على أنها تاليران Talleyrand رغم أنها امرأة بينما تاليران رجل، وقد انتقم تاليران لنفسه بأن ذكر أن هذه المؤلفة المسترجلة (المرأة الذكر) قد تنكرت وكذلك هو في زي النساء. (يقصد أنه ليس فيها من الأنوثة شيء). وثواصل القصة ذاكراً أن دلفين - بعد رفضها - عادت للدير حيث قادتها رئيسة الدير لعالم العفة طوال الحياة. وعندما اكتشف ليونس Leonce طهارتها فكر في تطليق زوجته غير الحساسة وأن يتزوج دلفين لكنه خشي تدمير مصالحه بخرقه قانون الكنيسة القاضي بالزواج الأحادي (الزواج مرة واحدة في العمر)، وماتت ماتيلدا Matilde - ضحية، وكان موتها مناسبة درامية (في القصة) مناسبة ليحث ليونس Leonce دلفين على الفرار معه لتستسلم لعواطفه، وجرها وانطلق ليلاحق بالمهاجرين emigres (الذين غادروا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية) إلا أن السلطات قبضت عليه وحكم عليه بالإعدام. واندفعت دلفين - التي كانت تحب قسوته - لإنقاذه، إلا أنها لم تصل إلا لترات صريعاً بعد إطلاق النار عليه، وعندئذ خرت هي أيضاً وفارقتها روحها. واستخدمت المؤلفة هذه الأحداث الدرامية السخيفة أو المناقبة للعقل، وهذه الحكمة الرومانسية النمطية لتجعل منها منصة خطابة تناقش من خلالها شرعية الطلاق، وتعصب الكاثوليكية (وكانت قد ورثت عن أسرتها المذهب البروتستنتي)، والحقوق المعنوية للمرأة بدلاً من المعايير المزدوجة، ومشروعية الوعي الفردي (تصرف الفرد بما يميله عليه ضميره) بدلاً من شرف

الانتماء إلى طبقة. وقد تلقى المثقفون في باريس حججها بقبول حسن، لكن نابليون لم يكن سعيداً بها، فقد كان في ذلك الوقت قد ولى وجهه شطر الكاثوليكية كعلاج للتفكك الخُلقي، والاضطراب الفكري في فرنسا، وفي 31 أكتوبر سنة 3081 أصدر أمراً يمنع مدام دي ستيل من الاقتراب من باريس مسافة أربعين فرسخاً. وظننت مدام دي ستيل أن الوقت الملائم قد حان لزيارة ألمانيا. وكانت قد تعلمت قدراً كافياً من الألمانية يُتيح لها قراءة ما هو مكتوب بهذه اللغة، إلا أنها لم تكن تجيد الحديث بها، فلم لا تتعم الآن بموسيقا فينا، ومفكري فيمار Weimar والمجتمع الملكي في برلين؟ وفي 8 نوفمبر عبرت الراين عند منتر Metz إلى ألمانيا مع أوجست وابنة ألبرتين Albertine وخادمين وكونستانت (قسطنطين) الذي أصبح بالنسبة لها عشيقاً أفلاطونياً أو بتعبير آخر فارساً أقل رتبة في خدمة فارس كبير Caovaliere Servente.

السَّائِحَة 3\slash2

وكان انطباعها الأول - في فرانكفورت - غير سار، فقد بدا الرجال في ناظرها ذوي بدانة، وكأنهم يعيشون لياكلوا، وياكلون ليدخنوا، وكانت تجد صعوبة في التنفس عندما يقترّبون منها. وكان الألمان مندهشين من هذه المرأة المعتزة بنفسها التي لا تستطيع أن تُقدّر ما تُسببه ببيلاهم pipes من جور مريح، وكتبت أم جوتة Goethe قائلة لابنها. إنها تكبس على نفسي كحجر الرحي. إنني اتحاشاها قدر استطاعتي وأرفض أي دعوة لحضور أي مكان هي فيه، إنني أنتفس بحرية أكثر عندما تكون غير موجودة(33).

وأسرعت جيرمين Germaine مع حاشيتها إلى فيمار Weimar حيث وجدت الشّعْر قد نقى الجو المحيط بها. لقد كانت المدينة (فيمار) يسودها الكتابُ والفنانون والموسيقيون والفلاسفة، وكان البلاط يقوده بتسامح وحكمة الدوق شارل أوجستس Charles Augustus وزوجته الدوقة لوزير Luise وأمه الدوقة دواجر أنا أمالي Dowager Anna Amalie. وكان هؤلاء الناس على درجة عالية من التعليم، ويتسمون بحسن التمييز والحصافة، وكانوا جميعاً - تقريباً - يتحدثون الفرنسية. وأكثر من هذا فقد قرأ كثيرون منهم رواية دلفين Pelpine وكان عدد أكثر بكثير قد سمع عن حربها ضد نابليون ولاحظ كثيرون أنها كانت ذات مال وأنها أنفقته. وقد أكرموا بالعودة على الغذاء والمسرح والحفلات الراقصة، ودعوا شيلر Schiller ليقرأ مشاهد من فيلهيلم تل Wilhelm Tell واستمعوا إليها وهي تقرأ فقرات طوال من كتابات راسين Racine، وحاول جوتة Goethe - الذي كان وقتئذ في بينا Jena - أن يتهرّب من واجبه بادعاء إصابته بالبرد، لكن الدوق حثّه على المجئ إلى فيمار رغم هذا، فأتى وتناقش مع مدام دي ستيل بغير ارتياح. ولكنه غدا حذراً بسبب تهديدها الصريح بأنها تنوي طبع تقرير عن ملاحظاته(43). وكانت مستاءة خائبة الرجاء لأنها وجدت جوتة على غير ما توقعت فلم يعد هو فيرتر Werther وأنه تحول من عاشق إلي حُرّ (كبير كهنة). وحاول جوتة أن يُربكها بالمتناقضات وبالآراء المتضاربة لقد أدى تناقضي ومشاكستي بشكل عنيد إلى إصابتها باليأس في غالب الأحوال، لكنها كانت في ذلك الوقت ودودة جداً وأظهرت على نحو متآلق ذكاءها وفصاحتها(53) وقد ذكرت هي في وقت لاحق أنه كان من حسن حظي أن جوتة وفيلاند Wieland كانا يتحدثان الفرنسية بطلاقة، أما شيلر فكان يناضل من أجل ذلك(63) وقد كتبت لشيلر بود، وكتبت لجوتة باحترام، فهو أي جوتة بالإضافة إلى نابليون هما الرجلان الوحيدان اللذان قابلتهما وأجبراها على التزام حدودها (عرقاها حدودها أو أوقفاها عند حدودها أو جعلها تتحقق من إمكاناتها المحدودة) ولم يكن شيلر مرتاحاً لسرعتها في الحديث وتوالي أفكارها بشكل سريع، لكنه انتهى متأثراً، فقد كتب إلى أحد أصدقائه لقد قادني الشيطان إلى امرأة فرنسية فيلسوفة هي من بين كل مخلوقات الحية، الأكثر حيوية والأكثر استعداداً للجدال والنضال دفاعاً عن رأيها، والأكثر امتلاكاً لنواصي الكلمات، وهي أيضاً الأكثر ثقافة والأكثر نقاداً ذهنياً من بين نساء العالمين، وإذا لم تكن شائقة حكيمة وممتعة، لما سببت لي ازعاجاً(73). وتنفست فيمار الصعداء عندما غادرت مدام دي ستيل برلين بعد إقامة استمرت ثلاثة أشهر. لقد وجدت ضباب برلين محبباً مسبباً للكآبة، بعد أن شهدت التآلق في فيمار، وكان سادة الحركة الرومانسية غير موجودين بها أو وافتهم منيهم، وكان الفلاسفة قد انشغلوا في جامعات بعيدة. هيجل في بينا، وشيلنج في فيرستبورج Wurzburg، فكان على جيرمين أن تقنع بما عند الملكة والملكة وأوجست فلهيلم فون شلجل August Wilhelm Von Schlegel من معارف لغوية وثقافية أبهجتها. وقد اتفقت معه أن يصحبها إلى كوبت Coppet ليكون معلماً ومرشداً لابنها أوجست Auguste فوافق وأحبها في أسوأ فترة في حياتها.

وفي برلين تلقت أخباراً تُفيد أن أباه مريض بشكل خطير فأسرت عائدة إلى كوبت لكنها تلقت خبر وفاته (9 أبريل 4081) قبل وصولها (إلى كوبت). فكان هذا الحدثُ لطمّة لها سببت لها حزناً أكثر من أي نزاع بينها وبين

نابليون· لقد كان أبوها يمثل لها دعماً معنوياً ومالياً، وكانت تراه دوماً على حق وصلاح، وما كان أيُّ من عشاقها ليحل محله· ووجدت عزاءً بعد موته في كتابة نصر أدبي يُعصُّ بتوقيره وحبه (السيد نيكر، شخصيته وحياته الخاصة Monsieur Necker s Character & Private Life) كما كتبت عنه في مقدمة عملها الكبير (عن ألمانيا De As Allemgne) وقد ورثت معظم ثروة أبيها وأصبح دخلها الآن 021،000 فرنك في السنة· وفي شهر ديسمبر ذهبت لتتمس الدفء في إيطاليا وأخذت معها ثلاثة أطفال - أوجست وألبرت وألبرت - وشليجل Schlegel الذي أصبح معلماً ومرشداً لها أيضاً (وليس لأطفالها فحسب) لأنه وجد معلوماتها قليلة جداً عن الفن الإيطالي· وفي ميلان انضم إليهم بيدكر دي سيسموني Baedeker Jean Charies leonard de Sismondi الذي كان قد شرع في كتابة كتابه التعليمي: تاريخ الجمهوريات الإيطالية· وقد وقع هو أيضاً في حب جيرمين - أو بالأحرى وقع في حب عقلها ومالها - حتى اكتشف كما اكتشف شليجل من قبله أنها لم تأخذ الأمر على محمل الجد· واتجهوا معاً عبر بارما Parma ومودينا Modena وبولونيا Bologna (مدينة إيطالية) وأنكونا Ancona إلى روما· وكان جوزيف بونابرت مولعاً بها أيضاً فزودها بخطابات تُقدِّمها إلى أفضل المجتمعات الإيطالية، واحتفت بها الطبقات الأرستقراطية لكنها وجدت الأمراء والأميرات أقل احتفاءً بها من الكاردينالات الودودين الذين عرفوا كتبها وثروتها وعاءها لنابليون ولم تزعجهم عقيدتها البرونستتبية، لقد تم استقبالها بشكل رسمي ووافقت ترحاباً وألقيت أمامها القصائد وعُزفت الموسيقى في أكاديمية أركاديا Accademia dell Arcadia وقد سجلت هذه التجربة في روايتها كورين Corinne·

وفي يونيو سنة 0581 كانت في كويت مرة أخرى وسرعان ما أحاط بها العشاق والأصدقاء والدارسون والدبلوماسيون (الأمير استر هازي الفيني Esterhazy of Vienna وكلود هوشي Cloude Hochet من مجلس الدولة شكله نابليون) بل وحتى الحاكم (منتخب بفتح الخاء بافاريًا)· لقد أصبح صالونها في كويت الآن أكثر شهرة من أي صالون في باريس· لقد كتبت شارل فكتور دي بونستين Charles - Victor de Bonstetten: لقد عُدت لثوي من كويت· إنني أشعر بالذهول الكامل.. وأشعر بالإنيك والارتباك الكاملين بسبب هذه المفاصد العقلية (الفكر الضار)· فمزيد من المتقين والمفكرين يُنفق الواحد منهم في كويت في يوم واحد أكثر مما يُنفقه واحد منهم في أي بلد آخر طوال عام(83)· إن الحشد المجتمع كثيرُ العدد متعدد المواهب بحيث يكفي لتمثيل العديد من المسرحيات· وجيرمين نفسها في دور البطلة في أندروماك Andromaque وفيدر Phedre واعتبر بعض الضيوف أداءها رائعاً لا يفضلها سوى بطلات (نجمات) مسرح باريس· وفي مناسبات أخرى عُزفت الموسيقى، وتم إحياء الاجتماعات بقراءة أشعار واحد من الشعراء· وكانت مائدتها عامرة ثلاث مرات في اليوم يتخلق حولها الضيوف الذين يبلغ عددهم أحياناً ثلاثين شخصاً، وهناك دوماً خمسة عشر خادماً لا يكفون عن العمل، وفي الحدائق ترى العشاق يتجولون وفي هذا الجو قد تُعقد صداقات جديدة·

وكان محبِّي (عشاق) جيرمين الذين تتخذ منهم أداة للتسلية أو بتعبير آخر الذين تضيّع بهم الوقت (بمعنى أنها لم تكن تعتبر جيبهم إلا وسيلة للتسلية ولا تعتبره من نوع الحب الجاد) وهم مونت مورنسي Montmorency وكونستانت Constant (قسطنطين) وشليجل وسيمسدي - سرعان ما يفتنر حبهم لها لأنها كانت ترهقهم بمطابقتهم بطاعتها والإخلاص لها في الوقت الذي كانت تستحوذ على الدفء لنفسها مع بروسبر دي بارانت Prosper de Barante الذي كان في الثالثة والعشرين من عمره بينما هي في التاسعة والثلاثين ولكنه لم يستطع أن يُلاحقها فأر هفتته (والمعنى مفهوم) فولى مديراً طالبا ملاذاً منها في البُعد عنها، وقد هجته في قصتها كورين، وقد أسمته في هذه القصة باسم أوزوالد Oswald· هذه الرواية (التي كانت شهيرة في وقت من الأوقات) أصبحت الآن على وشك الاكتمال فراحت المؤلفة تبحث عن ناشر فرنسي، وكان الأمر يتطلب موافقة على الطبع من وزارة الداخلية، وأكد بروسبير Prosper - مدير شرطة ليمان Leman - لفوشي أن مدام دي ستيل قد أصبحت متحفظة وحذرة طوال العام الماضي، وبناء على هذا سُمح لها بقضاء صيف سنة 6081 في أوكزير Auxerre (على بعد 021 ميلاً من باريس) فاتخذت لها فيلا هناك، وفي الخريف سُمح لها بالانتقال إلى روان Rouen لقضاء الشتاء، وزارها أصدقاء كثيرون في المدينتين وعبر بعضهم عن أمله في أن تحيق الهزيمة أخيراً بنابليون في معركة شرسة تجبره على قضاء الشتاء مع جيشه في الشمال المتجمد(93) وفضَّ البوليس السري التابع لنابليون مراسلات جيرمين (مدام دي ستيل) وعلم نابليون بمشاعرهما· فكتب غاضباً إلى فوشيه Fouche في 13 ديسمبر لا تترك هذه البغي bitch مدام دي ستيل تقترب من باريس إنني أعلم أنها ليست بعيدة عنها(04) (وكانت قد انسلت بشكل سري إلى باريس وقضت فيها فترة وجيزة في ربيع سنة 7081) وأثناء الاستعداد لمعركة فريدلاند Friedland كتب نابليون إلى فوشيه في 91 أبريل: من بين ألف أمر وأمر وصلني بشأن مدام دي ستيل يوجد خطاب يمكن أن يظهر لك كم هي لطيفة هذه المرأة الفرنسية الموجودة هناك.. حقيقة أنه من الصعب أن يكبح المرء سخطه ونقمته عند رؤية كل هذه المسوخ عند هذه البغي· لن

أقول لك عن المشروعات التي أعددتها بالفعل هذه الزمرة السخيفة في حالة وقوع الحدث السعيد الممثل في مقتلي، مدام وزير الداخلية لابد أن يكون قد علم بذلك.

وفي 11 مايو كتب إلى فوشيه مرة أخرى:

لقد كتبت لي هذه المرأة المجنونة خطاباً من ست صفحات زادت فيه الخلاف إلى الضعف.. إنها تقول لي إنها اشترت عقاراً في وادي مونتورنسي Montmorency وخلّصت إلى أن هذا يخولها حق الإقامة في باريس. إنني أكرر لك أن معنى أن تترك هذا الأمل يُداعب خيال هذه المرأة هو أنك تُعذبها دون مبرر. إنني لو أظهرت لك الأدلة التفصيلية على كل ما فعلته في محل إقامتها خلال شهرين لأصابتك الدهشة. حقيقة رغم بُعدي عن فرنسا بخمسماية فرسخ، فإنني أعلم ما يحدث هناك بشكل أفضل من وزير داخليتي(14).

وعلى هذا فقد عادت جيرمين (مدام دي ستيل) على غير رغبتها إلى كوبت Coppet في 52 أبريل سنة 7081. وقد صاحبها كونستانت Constant (الثابت رغم التقلبات) لكنه فارقتها عند دول Dole ليقيم مع والده المريض. فلما وصلت إلى كوبت أرسلت شليجل إلى كونستانت (قستطين) ليقول له أنه إذا لم يُعد إليها فإنها ستقتل نفسها. وكان بنيامين يعلم أن هذا تهديد خيالي (تهديد سيرانه أو بتعبير آخر تهديد امرأة فانتة لعب، والسيرانه كان أسطوري عند الإغريق له رأس امرأة وجسد طائر) وليس تهديد أوزة عراقية Swang (أي ليس تهديداً حقيقياً) ومع هذا فقد عاد إليها وتحمل صامتاً توبيخها. كان قد كفّ عن حبها منذ وقت طويل لكن كيف يقول المرء الحقيقة لامرأة لا إجابة عندها سوى ابتلاع الأفيون وفي العاشر من يوليو أنت جوليت ريساميه Recamire في زيارة طويلة فأحبتها جيرمين (مدام دي ستيل) وقررت أن تعيش.

وسمحت وزارة الداخلية بطبع روايتها كورين، وتم نشرها في ربيع سنة 7081 فأعطى المؤلفة انتصاراً يُعزيها عن انتصار نابليون في فريدلاند Friedland في 41 يونيو. وكانت الكتابات التي مولتها الحكومة معادية للرواية لكن آلاف القراء عبروا عن رضاهم وسعادتهم بهذه الرواية. إننا اليوم غير مفتونين بشكل (بناء) هذه الرواية - إنها رواية عاطفية تخللتها مقالات كئيبة مؤرخة عن مشاهد وشخصيات وأحوال دينية وآداب وفنون في إيطاليا، ولم يؤثر بطل الرواية ذو الوجه الرجولي في أي من القراء (فقد تحول إلى شخصية ضعيفة) أو إحياء سماوي تُوجّح (بضم التاء) في عيني بطلة القصة(24). لكن في سنة 7081 لم تكن إيطاليا قد أصبحت بعد بلداً انتشر فيه التأليف، كانت بلاداً أكثر شهرة في نواظرنا في مجالي التاريخ والفنون، وكان فن الرواية فَرخاً ينشر جناحيه وكان الحب الرومانسي يناضل للتححرر من سلطان الوالدين والروابط الاقتصادية والمحرمات، وبدأت حقوق المرأة تجد من يُعبر عنها. وكان في رواية كورين كل هذه الأمور الفاتنة تجرى على لسان شخصيات تُغني الأشعار بشكل تلقائي وتداعب أوتار الفيثارات الفاتنة، وكورين في شبابها (كشخصية في الرواية) هي نفسها - كما هو واضح جيرمين، بشال هندي حول خصلات شعرها الأسود الصقيل... وذراعاها جميلان جمالاً فائقاً.. وقوامها الذي ينم عن قوة ونشاط. وأكثر من هذا فإن حوارها وطريقة كلامها، يجتمع فيهما كل ما هو طبيعي وخيالي ودقيق وسام وقوي وحلو(34) انه لأمر غريب أن نقول إن الإمبراطور (نابليون) الذي لم يكن يُطيق مدام دي ستيل، عندما وصلت السفينة التي نقله إلى سانت هيلانه، تناول الكتاب (كورين) ولم يستطع أن يضعه جانباً إلا بعد أن قرأه حتى آخر سطر فيه(44).

4slash2 عندما تصبح ألمانيا مفهومة

لقد أضافت الآن مدام دي ستيل إلى مهامها (الإطاحة بنابليون والإنغماس في الملذات الحسية والمعنوية) مهمة أخرى وهو مشروع حساس يهدف إلى توضيح ألمانيا وشرحها للفرنسيين. وحتى عندما كانت روايتها الوليدة (كورين) تناضل دفاعاً عن نفسها ضد الصحافة الخاضعة لسلطة نابليون، كانت مدام دي ستيل تُخفي في نفسها معزوفة جَسورة مفعمة في بلاد ما وراء الراين. ولإعداد نفسها لهذه المهمة (المعزوفة) ولتكون على وعي كامل بما هي مقدمة عليه شرعت في القيام بجولة سياحية أخرى في أوروبا الوسطى.

وفي 03 نوفمبر سنة 7081 غادرت كوبت مع ألبرت والبرتين وشليجل وخدامها الخاص (راعي ملابسها) يوجين Eugene (جوزيف أجينت Uginet). وفي فينا استمعت إلى موسيقا هايدن Haydn وجلوك Gulck وموزار Muzart لكنها لم تُعرب بيتهوفن التقاتاً. وخلال ثلاثة أسابيع من بين الأسابيع الخمسة التي قضتها في النمسا راحت تمارس الحب مع الضابط النمساوي موريتس (موريس) أودونيل Moritz O Donnell وعرضت عليه المال والزواج لكنها فقدته فكتبت إلى كونستانت خطابات مفعمة بالإخلاص الذي لا حدود له - قلبي وحياتي وكل ما عندي ملكك كما تشاء وكيف تشاء(54) لكنه اكتفى باقتراض بعض من أموالها. وفي تبلتس Teplitz وبيرنا Pirna أجرت

مباحثات مع فريدريش فون جينتس Friedrich Von Genz الناشر (النص وكيل الدعاية والإعلان Publicist) المعادي لنابليون عداء شديداً، وعندما علم نابليون بهذا اللقاء خلص بأنها تعمل على تدمير اتفاق السلام الذي عقده مؤخراً في تيليسيت Tilsit في شهر يوليو. وفي فيمار لم تجد شيلر (كان قد مات سنة 5081) ولا جوته، فواصلت طريقها إلى جوثا Gotha وفرانكفورت، وفجأة اعترأها المرض والإحباط فأسرت عائدة إلى كوبت. وربما ساهمت أخبار الموت التي تلقتها، في اتجاهها نحو التأمل الباطني (التصوف)، وقد أسهم شليجل في ذلك أيضاً، لكن التأثير الأقوى كان من الزاهد جولي فون كرونر Julie Von Krudener والدرامي الداعر زكاريا (زكريا) فيرنر Zacharias Werner وقد جال كلاهما في كوبت في سنة 8081. وبحلول شهر أكتوبر من هذا العام كان معظم ضيوفها بين الألمان وسادت اللغة الألمانية في صالونها واستسلم التنويريون لتأثير الدين الصوفي (ذي المنحى الباطني). لقد كتبت جيرمين (مدام دي سنيل) إلى أونل Donnell صO لا حقيقة على هذه الأرض إلا الدين وسلطان الحب، وكل شيء آخر فان، بل إنه أكثر فناء من الحياة نفسها(64).

وفي هذا الجو كتبت كتابها عن ألمانيا De L الصAllemagne. وفي سنة 0181 قرُب كتابها من الاكتمال وتطلعت إلى باريس لتطبعه فيها. وكتبت بتواضع إلى نابليون قائلة له إن ثمانية أعوام من النفي والبؤس قد غيرت كل الشخصيات والقدر يعلم الاستسلام. واقترحت أن تذهب للولايات المتحدة وطلبت منه جواز سفر كما طلبت أن تقضي فترة انتقالية في باريس. فمنحها نابليون جواز السفر لكنه لم يوافق على دخولها باريس(74). ومع هذا ففي أبريل سنة 0181 تحركت بأسرتها ومعها شليجل إلى شومونت Chaumont (بالقرب من بلوا Blois) ومنها أشرقت على طبع كتابها المخطوط ذي المجلدات الثلاثة في تور Tours. وفي شهر أغسطس انتقلت إلى فوسي Fosse المجاورة. وسلم الطابع نيكول Nicolle بروفات (التجارب الطباعية) للمجلدين الأولين إلى الرقابة في باريس، فوافقت على الطباعة بعد حذف جمل قليلة غير مهمة. وطبع نيكول خمسة آلاف نسخة وأرسل نسخاً للأشخاص ذوي الحيثية، وفي 3 يونيو أزيح فوشيه وزير الداخلية المتعاطف، وحل محله الصارم رينيه سافاري (دوق دي روفيجو). وفي 52 سبتمبر أحضرت جوليت ريساميه J. Recamier للرقيب بروفات (التجارب الطباعية) المجلد الثالث، وبروفات المجلدات كلها مع خطاب من المؤلفة للأميرة هورتس Hortense لتسليمها لنابليون. وقرر سافاري أن الكتاب ليس في صالح فرنسا ولا حاكمها وبالتالي فلا يمكن السماح بتوزيعه، ومن الواضح أن نابليون كان موافقاً على هذا المنع. وأمر وزير الداخلية الطابع بوقف النشر، وفي 3 أكتوبر أرسل إلى مدام دي سنيل ملحوظة صارمة مؤداها أن تُنفذ ما كانت قد عقدت العزم عليه وأن تغادر إلى أمريكا فوراً. وفي 1 أكتوبر هاجمت فرقة من الجنود دار الطباعة وحطمت ألواح الطباعة وحملت معها ما استطاعت الوصول إليه من مجلدات الكتاب، وفي وقت لاحق جرى قرْمها، وطالب ضباط آخرون بمخطوط الكتاب فأعطتهم جيرمين (مدا دي سنيل) الأصل، لكن ابنها أوجست Auguste أخفى نسخة احتياطية. وعوّضت المؤلفة الطابع عن خسارته وانسلت عائدة إلى كوبت. وهذا الكتاب (عن ألمانيا) كما نُشر في سنة 3181 هو محاولة جادة لتناول كل جوانب الحضارة الألمانية في عصر نابليون بإيجاز وتعاطف. إن امرأة لها هذه الاهتمامات الكثيرة والعشاق الكثيرون ثم بعد هذا الوقت الكافي لإنجاز هذا العمل، والطاقة والكفاءة اللتين تُعينانها على إتمامه، لهما حقاً إحدى عجائب هذه الفترة المتسمة بالهيجان والاضطراب. فمن خلال خلفيتها السويسرية العالمية وزواجها من واحد من بارونات الهولشتين Holestein وتراثها البروتستنتي وكرهيتها لنابليون كانت مؤهلة لإعطاء ألمانيا كل مزية وأن تجعل - تقريباً - كل ارتباط لها فيها في صالحها، وكانت تستخدم الفضائل الألمانية كوسيلة توجه بها نقداً غير مباشر لنابليون وطغيانه، ولتقدم الثقافة الألمانية للفرنسيين كثقافة غنية بالمشاعر والعواطف والدين وبالتالي كثقافة مناسبة بشكل جيد لتصحيح ما ساد بين مثقفي فرنسا من شكوكية ومصالحية وميل للسخرية.

ومن الغريب أن نقول أنها لم تهتم بفيينا رغم أن فيينا كانت مثلها مرحة وحزينة في آن واحد - مرحة بسبب النبيذ والكلام (المناقشات والأحاديث) وحزينة بسبب موت الحب، وبسبب توالي انتصارات نابليون. كانت فيينا كاتوليكية وجنوبية (لها مزاج أهل الجنوب) في موسيقاها وفنّها وعقيدتها التي تكاد تكون عقيدة طفولية ساذجة، أما هي (مدام دي سنيل) فكانت بروتستنتية شمالية (لها مزاج أهل الشمال) مثقلة بالطعام والمشاعر تتقدم متعثرة في الفلسفة، لم يكن هنا ثمة كانط Kant وإنما موزار Mozart، فلا خلافات حادة ولا مناقشات ملتبهة، ولا كتابات للمفكرين تشبه الألعاب النارية فليس هناك إلا المسرات البسيطة التي نعم بها الأصدقاء والعشاق، والآباء والأبناء، والنزهات في الممتنزهات والتسكع على نهر الدانوب.

حتى الألمان أذلهما وضعهم مدفأة وبيرة (جعة) وتدخين التوباكو حول كل تجمع شعبي، فيصبح الجو ثقيلاً حاراً مع هذا فهم لا يميلون أبداً إلى التخلي عنه(84) وكانت تترثي لللباسة الريفية التي يتصف بها اللباس الألماني، ويميل الرجال الألمان للمسالمة (كونهم مروضين أو داجنين) واستعدادهم للتخلي عن السلطة. والانفصال بين الطبقات... أكثر ما يكون وضوحاً في ألمانيا منه في أي مكان آخر... فكل شخص محتفظ برتبته (المقصود وضعه

الطبيقي) ومكانه... كما لو كان منصباً أو وظيفة مخصصة له منذ زمن طويل(94) لقد افتقدت في ألمانيا هذا التلاحم الخصب بين الارستقراطية والمؤلفين والفنانين والجنرالات والسياسيين، ذلك التلاحم الذي وجدته في المجتمع الفرنسي، فهنا في هذا المكان ليس لدى النبلاء سوى القليل من الأفكار، وليس لرجال الأدب خبرة عملية كثيرة بالأمور العامة(05). والطبقة الحاكمة ظلت اقطاعية والمفكرون أضاعوا أنفسهم في أحلام لا أساس لها على أرض الواقع (أحلام في الهواء). وهنا اقتبست مدام دي ستيل القول المأثور الشهير الذي قال به جان بول ريشتر Jean Paul Richter: إمبراطورية البحار لإنجلترا، وإمبراطورية البر لفرنسا، أما ألمانيا فلها إمبراطورية الهواء(15) وأضاف قائلة (وهو قول مرتبط بالموضوع الأنف ذكره): إن انتشار المعارف في العصر الحديث يؤدي إلى إضعاف الشخصية إذا لم يتم تدعيم هذا الانتشار بعادة العمل في المجالات المختلفة وتحقيق الإرادة(25). وأعجبت مدام دي ستيل بالجامعات الألمانية كأفضل جامعات في العالم في ذلك الوقت، لكنها كانت تأسى للغة الألمانية بما فيها من حروف صامتة متوالية، كما بغضت تركيب الجملة الألمانية وطولها، تلك الجملة التي تجعل الفعل الحاسم في آخرها (أي الفعل الأساسي الذي يحدد المعنى)، وبذا تكون المقاطعة أو المداخلة أثناء الحوار أمراً صعباً(35)، وكانت تشعر أن المداخلة أو المقاطعة إنما هي حياة المناقشات. كما أنها وجدت في ألمانيا القليل جداً من المناقشات المُفعمة بالحيوية والمهذبة في الوقت نفسه(45). تلك المناقشات التي تعد خاصية من خواص الصالونات الباريسية. وهذا فيما ترى كان يرجع إلى عدم وجود عاصمة وطنية (واحدة) لألمانيا يمكنها - أي العاصمة - أن تجمع مفكري البلاد (ألمانيا)، بالإضافة إلى العادة الألمانية المتمثلة في إبعاد الألمان للنساء عن مائدة العشاء أو الغداء عندما يشرعون في التدخين أو الحديث. في برلين قلما يتحدث الرجال إلا مع بعضهم، فالجو العسكري (المقصود الروح العسكرية) يجعلهم يتسمون بشيء من الخشونة والغلظة ينأى بهم عن مشاكل مجتمع النساء(55) وعلى أية حال ففي فيمار نجد السيدات مثقفات وميالات للحب والعشق ونجد الجنود وقد هذبوا من عاداتهم وسلوكياتهم، ونجد الدوق وقد تحقق من أن شعراءه قد خلدوا له مكاناً لائقاً في التاريخ. ورجال الأدب في ألمانيا.. كوتوا - في نواح كثيرة - أكثر التجمعات المتنورة تميزاً في العالم(65).

لهذا السبب رحبت مدام دي ستيل بالفلسفة الألمانية رغم صعوبتها لأنها - مثلها في ذلك مثل مدام دي ستيل - تركز على الذات. إنها - أي الفلسفة الألمانية - ترى في الشعور (الوعي) معجزة أعظم من ثورات العلم. لقد رفضت سيكولوجيا لوك Locke وكونديلاس Condillace التي قصرت كل المعارف على الحواس، وبالتالي جعلت الأفكار آثاراً لأشياء خارجية، وهذا - فيما شعرت - يؤدي ولا مناص إلى المادية والإلحاد (إنكار وجود الله). وفي واحد من أطول فصول كتابها حاولت - بتواضع - أن تحدثنا عن جوهر الديالكتيك الكانطي (فلسفة كانط فيما يتعلق بالديالكتيك): إنه - أي هذا الديالكتيك - يُعيد العقل إلى مكانه كمشارك فعال في البحث عن الحقيقة، والإرادة الحرة (حرية الاختيار) كعنصر فعلا في تقرير الأفعال، والالتزام الخلقي الذي يمليه المضير كمقوم (بتشديد الواو كرسها) أساسي للأخلاق. لقد شعرت أنه بهذه النظريات فصل كانط Kant بيد ثابتة إمبراطورية الروح عن إمبراطورية الحواس(75) وعلى هذا فقد أقام الأساس الفلسفي للمسيحية كبناء خلقي فعّال.

ورغم أنها كانت قد جعلت من الوصية السادسة من الوصايا العشر ساحة مخضبة بالدماء إلا أنها اقتنعت أنه لا حضارة تبقى بلا أخلاق، ولا أخلاق بلا عقيدة دينية. ودلت على أن تدخل العقل في الدين إجراء خائن فالعقل لا يعطي السعادة لمن فقدوها(85) فالدين سلوى البؤساء وثروة الفقراء ومستقبل الأموات(95) وفي هذا وافقها الإمبراطور والبارونات. وعلى هذا فقد كانت تُفضل بروتستانتية ألمانيا على الكاثوليكية التي تدعيها الطبقة العليا الفرنسية. واهتزت مشاعرها عند سماع الترانيم الدينية الرائعة منطلقاً من حناجر الألمان في الأماكن المخصصة للتراتيل في الكنائس وفي المنازل والشوارع، واشمأت لأن أثرياء الفرنسيين يفضلون حضور البورصة (سوق الأوراق المالية) تاركين الفقراء ليلتقوا بالرب (المقصود لينفردوا بالتعبّد)(06). وكان لديها كلمة طيبة تقولها للإخرة الموراقبين، فالفصل الأخير في كتابها يمثل دعوة للحماسة الصوفية (الوجد الديني الباطني) - إنه المعنى الباطني للدعوة إلى الله كُلي الوجود (سبحانه).

لقد كان كتاب (عن ألمانيا) واحداً من رز الكتب في عصره، لقد كان بالنسبة لها يُمثل قفزة هائلة من كورين (الرواية) إلى كانط (الفيلسوف) مع ما فيه من بعض القصور لظروف العصر، ونزوع كاتبته إلى التمرد. وكان نابليون حكيماً عندما قلص تأثيره بالاقبال من امتداحه. لقد كان كتاباً رائعاً من سيّدة غير متعاطفة مع توجهات الحكومة. لقد انتقدت الرقابة على المطبوعات بشدة، لكن كان عليها أن توضح قضيتها وتدعمها. لقد امتدحت ألمانيا في كثير من الصفحات على حساب فرنسا، لكنها غالباً ما كانت تمتدح فرنسا على حساب ألمانيا، ويحوي الكتاب مئات الفقرات تبث فيها حبها لوطنها (فرنسا) المحرم عليها. وتناولت بخفة وحساسية الموضوعات الغامضة (غير الواضحة) لكنها كانت تهدف إلى جذب اهتمام قطاع عريض من القراء في فرنسا، وبذلك الوسيلة تحقق تقاهماً عالمياً. لقد طالبت بتزواج خصب بين الثقافتين الفرنسية والألمانية مما قد يُساعد نابليون في توحيد اتحاد الراين Rhenish Confederation مع

فرنسا(16). لقد كتبت بنكاء - وأحياناً بالمعوية - مزينة صفحات كتابها بالأفكار والملاحظات التنويرية. وأخيراً لقد قدمت ألمانيا إلى فرنسا، كما سرعان ما قدمها (ألمانيا) كوليردج Coleridge و كارليل Carlyle لإنجلترا. يقول جوته: إن هذا الكتاب لا بد من اعتباره صدعا في سور الصين العظيم الذي فصل الأمتين الفرنسية والألمانية، نتيجة سوء الفهم والاحكام المسبقة، لقد أصبح الألمان الآن معروفين بشكل أفضل فيما وراء الراين وفيما وراء القتال (يقصد بحر المانش) - الأمر الذي لن نعدم بسببه تحقيق نفوذ كبير في كل غرب أوروبا(26). لقد كانت امرأة أوروبية جيدة.

2\5slash نَصْرُ لم يكتمل

مؤلف آخر - ولا غيره - كان يمكن أن يفهم ماذا يعني لجيرمين دي ستيل أن يبقى انتاجها المترام فكرها غير منشور، وقابع في معتزلات كويت، كوليد وأدوه عند مولده. لقد اكتشف أن بيتها محاط بجواسيس الإمبراطور، وأن بعض خدمها تلقوا الرشاوى لكتابة تقارير عنها، وأن أي صديق يجسر على زيارتها سيتعرض لانتقام الإمبراطور وأحيط ذوو الحيثية - الذي أنقذتهم واثرواتهم أثناء الثورة الفرنسية - علماً بالآلا يقتربوا منها الآن(36). ومع هذا فقد كان هناك موقفان مُرضيان لها. في سنة 1181 قابلت ألبير جان روكا Albert - Jean Rocca وكان عند التقائه بها في الثالثة والعشرين من عمره، وكان ليفتئات ثاني، أصيب بجرح في إحدى المعارك وأصبح أعرج، ومصاباً بالسل، وقد أحبها وكانت وقتها في الخامسة والأربعين ولم يعد جسدها على ما يرام وما عاد مزاجها في التمام إلا أنها كانت متألقة فكرياً، ولم تكن بغير جاذبية مالية.

وحاصرها جون وأنجب منها طفلاً، ورحبت جيرمين بالحب الجديد متحدية الشبخوخة ملتزمة تأخيرها - وكان أملها الثاني هو أنها إن استطاعت أن تتخذ طريقها إلى السويد أو إنجلترا فربما تجد ناشراً لمخطوط كتابها الذي أخفته (عن ألمانيا)، لكنها لم تكن تستطيع أن تلتمس طريقاً إلى السويد خلال أي من المناطق الخاضعة لسلطة نابليون، فقررت أن تأخذ مخطوطها سراً عبر النمسا ومن ثم عبر روسيا إلى سان بطرسبرج ومنها إلى ستوكهولم حيث سيساعدها الأمير بيرنادوت. ولم يكن يسيراً عليها أن تترك الوطن الذي حققت فيه شهرتها، وفيه قبر أمها التي لم تستطع - الآن - نسيانها وقبر أبيها الذي كان لا يزال يبدو لها حكيم السياسة وقديس المال - وفي 7 أبريل سنة 2181 أنجبت ابنها من روكا Rocca وأرسلته إلى مربية تعنتي به، وفي 32 مايو سنة 2181 استطاعت أن تفلت من مراقبة كل جواسيس نابليون فصحبت ابنتها ألبرتين وابنيها وعشيقها العجوز شليجل وعشيقها الجديد روكا Rocca أو أنها سبقتهم ثم تبعوها هم، قاصدة فيينا على أمل أن تدبر هناك جواز سفر إلى روسيا ومن ثم تجد طريقها إلى سان بطرسبرج وقيصر الوسيم المتحرر المتحلي بروح الفروسية. وفي 22 يونيو عبر نابليون بخمسائة ألف جندي النيمن Neimen في روسيا على أمل أن يجد هناك قيصر المهزوم النادم.

وقد روت جيرمين قصة رحلتها هذه في كتابها عشر سنوات في المنفى Ten Years of Exile. إن المرء وهو يتأمل الآن هذه الإرادات والأحداث المتشابهة، ليدهش للشجاعة التي دفعت هذه المرأة المنهكة عبر آلاف العوائق والمشاكل لتصل - عبر شعب كان التصور أنه بربري - إلى زيتومير (تسيتومير Zhitomir) في بولندا الروسية (المناطق البولندية التابعة لروسيا) قبل وصول جيوش نابليون بثمانية أيام فقط(46) لقد أسرعت إلى كييف Kiev ومنها إلى موسكو حيث - ويا للقدر - تلبثت لزيارة الكرملين Kremlin لتستمع إلى موسيقا الكنيسة وتزور المبرزين المحليين في العلم والأدب. وقبل وصول نابليون بشهر غادرت موسكو عن طريق نوفجورود Novgorod إلى سان بطرسبرج، وفي كل مكان في المدن التي مرت عليها تلقاها الناس كحليف مميز في الحرب ضد الغازي (نابليون). وتملقت القيصر وامتدحته كامل للحرية الأوروبية (الليبرالية الأوروبية European Liberalism) وخطت معه لتتصيب بيرنادوت Bernadotte ملكاً على فرنسا.

وفي سبتمبر وصلت إلى ستوكهولم وساعدت في إدخال بيرنادوت في تحالف ضد نابليون(56) وبعد أن أقامت في السويد ثمانية أشهر عبرت إلى إنجلترا، فنادت بها لندن كسيدة أوروبا الأولى، وأتى بايرون Byron وغيره من ذوي الحيثيات لتقديم احترامهم لها، ولم تجد صعوبة في ترتيب نشر مجلدات كتابها (عن ألمانيا) مع ناشر كتب بايرون وهو جون مري Murray (كان هذا في أكتوبر سنة 3181)، وبقيت في إنجلترا بينما الحلفاء يهزمون نابليون في ليبستج Leipzig، ويتجهون إلى باريس ويضعون لويس الثامن عشر Louis XVIII على العرش. وعندها (في 21 مايو سنة 4181) أسرعت بعبور القتال الإنجليزي (المانش) واستعادت صالونها في باريس بعد عشر سنوات في المنفى واستضافت ذوي الحيثية من اثني عشر بلداً - الاسكندر، وولنجتون Wellington وبيرنادوت، وكانج Canning وتاليران، ولافاييت Lafayette. ولحق بها كونستانت Constant وتألقت مدام ريساميه Recamier مرة

أخرى. ودعت جيرمين (مدام دي ستيل) أكسندر Alexander إلى تنكر اعلاناته (بياناته) الليبرالية، وحث الإسكندر وتاليران الملك لويس الثامن عشر أن (يمنح to grant) رعاياه الذين استعادهم دستوراً ينص على وجود مجلسين تشريعيين على النسق البريطاني، وأخيراً أصبح لمونتسكيو Montesquieu طريقه. لكن مدام دي ستيل لم تكن تحب كلمة (يمنح to grant) هذه فقد أرادت أن يعترف الملك بسيادة الشعب وسلطته المطلقة. وفي يوليو سنة 1781 اتخذت طريقها عائدة إلى كوبت Coppet منتصرة فخوراً، لكنها كانت تحس باقتراب أجلها. إن مغامراتها ومعاركها وحتى انتصاراتها استنزفت حيويتها المذهلة. ومع هذا فقد اهتمت بروكا Rocca أثناء موته، ورتبت لزواج ابنتها من الدوق دي بروجلي Broglie وبدأت تكتب تحفتها ملاحظات على الأحداث الرئيسية للثورة الفرنسية *Considerations sur les principaux evenement de la Revolution Francaise* في 006 صفحة. وكان الجزء الأول من هذا الكتاب مخصصاً للدفاع عن نيكر Necker (أبيها) في كل سياساته، والثاني تشجب فيه بقوة حكم نابليون الاستبدادي. فهو - أي نابليون - بعد استيلائه على السلطة بدت كل حركة من حركاته في نظريتها خطوة نحو الدكتاتورية، وكانت حروبه - في نظريتها - دعوات ومبررات لممارسة الحكم المطلق، وقبل ستندال Stendhal - قبل تين Taine بكثير - كانت تُشبه نابليون بالقادة العسكريين الإيطاليين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (66) لقد قرأ مبادئ ميكافيلي في الحكم واقتنع بها دون أن يشعر بحب لوطنه يمكن مقارنته بحبه لهذه المبادئ. لم تكن فرنسا حقيقة بلاد آباءه وإنما كانت حجراً يعتليه ليعلو فوقه. ولم يكن الدين بالنسبة له قبولاً متواضعاً بوجود الموجود الأعظم وإنما أداة للفتح والغزو والسلطة، فالرجال والنساء لم يكونوا في نظرية أرواحاً وإنما مجرد أدوات (76). لم يكن سفاحاً متعطشاً للدماء ولكنه كان دوماً غير مبال بالقتلى مدام النصر قد تحقق. لقد كانت فيه غلظة قائد العساكر المرتزة وليس خلق الإنسان المهذب (الجنتمان) وأدى هذا إلى ترويج سوقي جعل من نفسه قاضياً ورقياً على كل حديث وكل فكر، وعلى كل الصحافة التي كانت هي الملاذ الأخير للحرية، وعلى الصالونات التي كانت قلاعاً للعقول المتحررة في فرنسا. إنه لم يكن ابن الثورة، وإن كان ابناً لها فهو أيضاً قاتلها (86).

وعندما علمت مدام دي ستيل بخطة تُحبك لقتل نابليون ذلك الإمبراطور المعزول عن العرش أسرعت بإخبار أخيه جوزيف بذلك وعرضت أن تذهب إلى إلبا Elba لتحمي عدوّها المخلوع، فأرسل نابليون يشكرها على موقفها، وعندما عاد من إلبا Elba واستعاد حكم فرنسا دون تقاخر، لم تستطع أن تكتم إعجابها بشجاعته: إنني لن أكف عن معارضة نابليون لقد فعل ما هو طبيعي لاستعادة عرشه، وكانت مسيرته من كان Cannes إلى باريس واحدة من أعظم مظاهر الجرأة والجرارة في التاريخ (96).

وبعد واترلو Waterloo انسحبت أخيراً من ميدان الصراع السياسي. ولم تستسغ احتلال قوات اجنبية لفرنسا كما لم تستسغ اندفاع النبلاء القدامى لاستعادة الأرض والثروة والسلطان. وعلى أية حال فقد كانت سعيدة بأن يرسل لها لويس الثامن عشر العشرين مليون فرنك التي كانت الخزنة الفرنسية مدينة بها لأبيها نيكر Necker أو لورثته. وفي العاشر من أكتوبر سنة 1801 تزوجت روكا Rocca بشكل شخصي (دون مراسم زواج) وفي 61 أكتوبر رغم أن كليهما كان مريضاً، اتجها إلى باريس وأعدت جيرمين (مدام دي ستيل) افتتاح صالونها. وكان هذا آخر نصر حققته. وحضر لصالونها أشهر قاطني باريس: وحضر ولنتجتون من إنجلترا، بلوشر Blucher وفلهلم فون همبولدت Wilhelm Van Humboldt من بروسيا، وكانوفا Canova من إيطاليا، وهنا بدأ شاتوبريان حكايته الرومانسية مع مدام ريساميه. لكن صحة جيرمين كانت قد تدهورت كثيراً وخاب أملها في الذين استعادوا العرش وراحت هذه الخيبة تزداد عندما بدأ الملكيون يعملون على إزالة كل أثر للثورة الفرنسية من الحياة السياسية. ولم يكن هذا هو حلمها الذي حلمت به لقد عرّفت في كتابها (ملاحظات عن الوقائع الرئيسية للثورة الفرنسية) الطغيان (الحكم المطلق) بأنه تجمع السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية في شخص واحد، وأصرّت على وجود جمعية وطنية ينتخبها الشعب المخول، لا مجال للتعيين فيها.

ولم تعش مدام دي ستيل حتى ترى كتابها هذا منشوراً لقد ضعف جسدها لفرط ما أفرطت في ممارسة العواطف والجنس، وتسمّم لفرط ما تناولت من مخدرات، ولم تكن تستطيع النوم إلا إذا زادت من جرعات الأفيون، وفشل جسدها في محاولاته لدعم عقلها. وفي 12 فبراير سنة 1817 وبينما هي تصعد السلم لحضور استقبال دعاها إليه أحد وزراء لويس الثامن عشر، ترنحت وسقطت إذا أصابها شلل دماغي، وظلت طوال ثلاثة أشهر منطرحة على ظهرها لا تستطيع حراكاً لكنها كانت قادرة على الكلام وشاعرة بالألم. وحثت ابنتها على القيام بدورها كمضيفة في صالونها. قالت لشاتوبريان لقد أحببتُ الله وأبي والحرية (07) وماتت في 41 يوليو سنة 1817 (الذكرى السنوية لسقوط الباستيل) ولم تكن قد بلغت عند موتها الواحدة والخمسين وبعد أربعة أعوام مات عدوها العظيم (نابليون) ولم يبلغ الثانية والخمسين.

وقد نتفق مع ماكولي Macaulay أنها كانت أعظم امرأة في زمانها (17) وأعظم اسم في عالم الأدب والفكر بين روسو وشاتوبريان. وكانت أعمالها (كتاباتهما) ذوات أهمية من حيث الهدف والمدى أكثر من أهميتها من حيث كونها أعمالاً أدبية خالصة وكان فكرها أكثر انتشاراً (يشغل رقعة واسعة) أكثر من كونه عميقاً. وكانت تشترك مع عدوها الذي اختارته (نابليون) في كثير من الصفات: شخصية قوية: طاغية، شجاعة عند النزاع، روح مهيمنة وثابة، تعصب للرأي، لكن كان ينقصها عقله الواقعي فكان خيالها - كما يبدو في رواياتها - طفولياً رومانسياً، إذ ما قورن بأحلامها السياسية. لنتركه (أي نابليون) يلخصها لنا من خلال منظوره في جزيرته المنعزلة: لقد أصبح بيت مدام دي سنيل ترسانة حقيقية تصوّب أسلحتها ضدي. لقد كان يأتيها كثيرون ليتسلحوا كما لو كانوا فرسانها في حرب يشنونها ضدي... ومع هذا فمن الحق أن نقول إنها كانت امرأة ذات موهبة عظيمة وتمييز فائق وشخصية قوية. إنها ستتحمل وتثبت (27):

صفحة رقم : 14613

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> الكتابات المناهضة لنابليون -> قسطنطين

3- بنيامين كونستانت (قسطنطين)

1816-1767

هناك اثنان، اسم كل منهما كونستانت (قسطنطين) - في حياة نابليون العاصفة: فيري كونستانت، خادمة المعنى بشؤون ملايسه الذي كتب عن الحياة الخاصة للدكتاتور الكبير (نابليون) مذكرات طويلة، وبنيامين كونستانت دي ريبك Benjamin Constant de Rebeque الذي ولد في سويسرا وتعلم في عدة مدن (اثنى عشرة مدينة) وأخيراً أعد للمعركة في فرنسا وضيق حياته في ديون لم يسددها وخلايلات منبذات وتقلبات سياسية حتى أصبح التعامل معه لا يكاد يكون مريحاً هنا إلا إذا اقترب من التاريخ بالدخول في كثير من المنازعات فأحبته امرأة ذات حيثية لتلهو به، وكان قادراً على وصف أخطائه ببلاغة وحدة ذهن وموضوعية وتجرد وربما يكون قد ساعدنا بعمله هذا على فهم أنفسنا.

لقد أرخ للعشرين سنة الأولى في حياته في كتاب سماه المذكرة الحمراء Cahier rouge وكتب عن العشرين سنة التالية من حياته في رواية قصيرة بعنوان أدولف Adolphe وكتب عن الأعوام من 4081 إلى 6181 مؤلفاً بعنوان اليوميات Journal intime تنتقل فيه من باريس إلى كوبت إلى فيمار إلى لندن وذكر فيه ثغراً من التاريخ والأدب والسيكولوجيا والفلسفة وروايته أدولف هي المؤلف الوحيد الذي تم نشره أثناء حياته (لندن 6181)، أما اليوميات Journal فظلّت مخطوطاً حتى سنة 7881، والمذكرة الحمراء حتى سنة 7091، وهذه المؤلفات المتناثرة بالإضافة لآلاف المراجع المعاصرة هي التي تكون فكرتنا عن كونستانت (قسطنطين) هذه الأيام: أنه سليل أسرة سويسرية عريقة ترجع بها شجرة نسبها إلى ثمانمائة سنة، لكننا لن نحتاج إلا لتناول حياة والده في هذا الصدد، فقد كان أبوه أيضاً منشغلاً بأثامه لدرجة أنه لم يكن لديه وقت لرعاية ابنه. وكان البارون أرنولد جوست

كونستانت دي ريببيك ضابطاً في فرقة عسكرية سويسرية في خدمة برلمان الأراضي المنخفضة (نذر لاند slash هولندا) وكان وسيماً قارئاً جيداً لفولتير وصديقاً له.

وفي بواكير سنة 1767 تزوج من بروتستانتية (هوجونوت) فرنسية هي هنرييت دي شاندييه (كاندييه) Henriette de Chandieu، وكان هو في الأربعين من عمره بينما كانت هي في الخامسة والعشرين، وفي 52 أكتوبر أنجبت له بنيامين في لوزان Lausanne ثم ماتت بعد الإنجاب بأسبوع، فكانت هي الأولى من بين نساء كثيرات عانين من عدم انضباطه، وعهد الأب بابنه لمشرفين كثيرين لم يكن يدقق عند اختيارهم، حاول أحدهم بالضرب تارة والتدليل أخرى أن يجعل منه طفلاً أعجوبة في اليونانية وعندما أضرَّ الضرب بصحة بنيامين تمَّ نقله إلى مشرف (معلم) ثان فأخذه إلى ماخور في بروكسيل، أما مشرفه (معلمه) الثالث فعلمه قديماً طيباً من المعلومات الموسيقية، أما المعلمون الآخرون فعولوا على أن يُعلم نفسه بنفسه بتدريبه على القراءة، فكان بنيامين يقرأ من ثماني ساعات إلى عشر يوماً، فأضر ذلك - بشكل دائم - بعينه وإيمانه (37) وقضى عاماً في جامعة ارلانجن Erlangen ثم نُقل إلى إدينبورج (أدنبره Edinburgh)، حيث شعر بالهبة الأخيرة للتتوير الاسكتلندي لكن هناك أيضاً بدأ في المقامرة، فأصبح القمار (الميسر) في المحل الثاني بعد ممارسة الجنس في حياته المضطربة. وبعد مغامرات في باريس وبروكسل استقر في سويسرا وبدأ يكتب تاريخ الدين من وجهة نظر تُظهر تقوق الوثنية على المسيحية.

وراح ينتقل من امرأة إلى امرأة ومن كازينو (نادي قمار) إلى كازينو حتى رثب أبوه أخيراً (5871) أمر إقامته في باريس مع أسرة جان - بابتست سوار Jean - Baptiste Suard الناقد الأدبي الوكود. لقد تلقيتي جماعته بقبول تام، وكان يثقني في ذلك الوقت السلامة والانضباط نقصاً معيباً، لكن حدث تغير مُحكم بشكل مضحك في حياتي. فقد بدا تعليمي - الذي كان منقطعاً غير منهجي، لكنه أرقى من تعليم معظم أدباء الجيل الصاعد - وأصالة شخصيتي أمراً جديداً وشائعاً... وعندما أتذكر نوعية الموضوعات التي اعتدت تناولها في ذلك الوقت والأزراء المُقنع الذي كنتُ أبدو لكل الناس، أحتار في معرفة كيفية تسامح الآخرين معي (47).

وفي سنة 1781 قابل أول امرأة ذات ذكاء فائق عرفتها حتى الآن زليدا Zélide أو إيزابيلا فان تويل Van Tuyll - إذ كانت فيما مضى صعبة المراس مُستعصية في بوزويل Boswell أثناء الفترة التي قضيتها في هولندا. لقد سبق لها أن رفضت آخرين للتزوج من معلم أخيها وأصبحت تعيش الآن معه ساخطة مستاءة في مدينة كولومبييه Colombier بالقرب من بحيرة نيوشاتل Neuchatel وعندما التقى بها كونستانت Constant كانت في باريس تتابع روايتها كالست Caliste في المطبعة وكانت في السابعة والأربعين لكنها بدت كعاشقة في التاسعة عشرة من عمرها، فانتة لا يزال جسدها ينادي ولازال عقلها متألقاً، كما كانت نافرةً لدرجة أظهرته فتى مغروراً ذا ثقافة سطحية. لقد كنتُ لأزال أتذكر بعاطفة تلك الأيام والليالي التي قضيناها معاً نشرب الشاي ونتحدث بحرارة لا تتضب في كل موضوع ممكن. وعندما عادت إلى كولومبييه Colombier اتخذ له مسكناً بالقرب من لوزان واعتقد زوجها - وكان مخطئاً في اعتقاده - أن فارق السن بين كونستانت (قسطنطين) وزوجته (زليدا) سيحد من العلاقة بينهما، لكنها راحت تعلم بنيامين كونستانت بحماسة غواية النساء وأكاذيب الرجال. لقد أسكر كلُّ منا الآخر بسخريتنا من الجنس البشري واحتقاره (57).

وقطع أبوه عليه هذا اللُهو شبه الفكري بإرساله إلى برونسفيك Brunswick ليعمل كمراقب للدوق الذي كان عليه - حالاً - أن يقود جيشاً ضد الثورة الفرنسية. وأثناء مراسم التشريفات وقع في فخ (شرك) سهل نصبت له البارونة فيلهلمينا فون كرام Withelmina Von Cramm فتزوجها (في 8 مايو سنة 1781) ووجد أن الزواج أسوأ من العشق وخلص إلى أن مينا Mina أحببت قططاً وكلاباً وطيوراً وأصدقاء وعشيقاً أكثر من حبها لزوجها الشرعي، وتسعى للطلاق. وعندما شعر أن قلبه أصبح خالياً تودد لشارلوت فون هارندبرج زوجة البارون فون مارينهولتس Marenholz، فرفضت إرضاءه بممارسة الزنا معه لكنها عرضت عليه أن يتزوجها حالماً تستطيع الحصول على الطلاق من البارون، ، خاف كونستانت من فكرة الزواج مرة ثانية فأنسل إلى لوزان (1791) وكولومبييه Colombier حيث واصلت زليدا Zelida تعليمه. لقد أصبح الآن في السادسة والعشرين من عمره وشعرت هي أن عليه أن يضحي ببلدة التنوبع (مضاجعة نساء مختلفات) ليستقر معها ويرتبط بها. لقد قالت له: لو أنني أعرف امرأة أخرى شابة ونشيطة تحبك كما أحبك وليست أكثر غياباً مني، لكان لدي من الكرم ما يجعلني أقول لك: اذهب إليها (67) ويا لدهشتها ونفمتها، إذ وجدت أنه سرعان ما عثر على امرأة غيرها شابة ونشيطة.

في 82 سبتمبر سنة 1791 وفي الطريق بين نيو Nyon وكوبت Coppet قابل بنيامين كونستانت جيرمين دي ستيل وكانت في الثامنة والعشرين من عمرها، فقفز داخل مركبتها وبدأ كوميدياً (مهزلة) استمرت خمسة عشر عاماً من العهود والوعود والدموع والكلمات. لم يسبق له أن عرف أبداً امرأة ذات فكر بهذه الخصوبة وإرادة بهذه القوة وعواطف ومشاعر بهذه الحرارة وفي مقابل هذه القوى، كان هو يُمثل الضعف كله فقد كان قد فقد شخصيته خلال فترة شبابه الإباحية الممزقة وقلص حيويته الطبيعية (الجنسية) بسبب معاركه البدنية (الفسولوجية) (المفهوم مع

أجساد النساء) دون وقار وقبل الزواج. وهنا أيضاً كان انتصاره الفعلي هزيمة فرغم أنها (جيرمين دي ستيل) قبلته كعشيق وجعلته يعتقد أنه كان والدًا للبيرتين (أن ألبرتتين من نطفته) إلا أنها حثته على أن يوقع معها - في تاريخ لا نعلمه - قسم ولاء يجعله مرتبطاً بها ارتباطاً معنوياً (النص: سيكولوجيا) حتى بعد أن اصطحبت جيرمين غيره إلى مخدعها، واصطحب هو غيرها إلى مخدعه، وقد استغلت جيرمين كوئنه مديناً لها لإجباره على التوقيع على هذا العهد (القسم).

إننا نقسم على أن يكرس كل منا حياته للآخر. إننا نعلن أننا نعتبر شخصينا وقد ارتبطنا رباطاً لا يقبل الانفصال. قدرنا واحد للأبد وفي كل الظروف ولن يدخل أي منا إطلاقاً في أي رباط آخر، وأنا سنقوي الرباط الذي يوحد بيننا الآن بكل ما لدينا من طاقة.

إنني أعلن أنني أفررت بهذا الاتفاق بقلب مخلص وأنني أعرف الأ شيء في العالم يستحق مني كما يستحق حب مدام دي ستيل، وأنني كنت أسعد الرجال خلال الأشهر الأربعة التي قضيتها معها، وأنني أعتبر أن أعظم سعادة في حياتي هي أن أجعلها سعيدة في فترة شبابها، وأن أكون إلى جانبها مسالماً مع تقدمنا في العمر وأن أقضي عمري (أجلى term) معها (مع الروح التي تهمني) والتي بدون وجودها تصبح الحياة على الأرض (في هذه الدنيا) لا قيمة لها بالنسبة لي التوقيع بنيامين كونستانت (77).

وتبعها إلى باريس في سنة 5971 فكانت لهما سياسات مشتركة فأيدت حكومة الإدارة (حكومة المديرين) وقبل انقلاب نابليون كضرورة ثمليها ظروف فرنسا وكان متحدثاً رسمياً باسمها، كما كان يتحدث بالأصالة عن نفسه عندما أصبح عضواً في التريبونيت (مجلس الدفاع عن حقوق الشعب) بعد تعيين نابليون له. ولكن حالما ظهرت علامات من القنصل الأول (نابليون) تشير لرغبته في الحكم المطلق عارضه العاشقان معاً: هي في صالونها وهو في خطبته غير المسبوقة (5 يناير سنة 0081) والتي طالب فيها بحق التريبونيت (مجلس الدفاع عن حقوق الشعب) في إطلاق حرية النقاش والحوار دون قيد أو شرط، وقد حقق شهرة كخطيب موهوب، لكنه وُضع في اعتبار الحكومة بحيث يتم عزله من هذا المجلس حالما يأتي ميعاد تغيير أعضائه (2081) وعلى أية حال فعندما استمر العاشقان في حربهما ضد نابليون، تم إبعادهما - عقاباً لهما - عن باريس.

وذهب كونستانت (قسطنطين) معها إلى كويت، رغم أن أقاربهما كانوا - فيما ظهر - غير متحمسين لهذا الهدوء الأفلاطوني. لقد قال لنفسه: إنني أريد امرأة، وجيرمين غير شهوانية (والمعنى لا تُشبعني) (87) وعرض أن يتزوجها ولكنها رفضت قائلة إن هذا الزواج قد يجعلها تضحي بمكانتها الاجتماعية ويضيع فرص الزواج المشرف أمام ابنتها، وفي سبتمبر سنة 2081 أحبت كاميل جوردان Camile Jordan ودعته لصحبته إلى إيطاليا وتم دفع كل النفقات ونذرت نفسها أمامه أن أنسى كل شيء معك، فأنا أحبك بعمق (97) ورفض جوردان العرض. وفي إبريل سنة 3081 غادر كونستانت (قسطنطين) كويت إلى عمار كان قد اشتراه بالقرب من مافليير Mafliers على بعد حوالي ثلاثين ميلاً من باريس، وفي الخريف خاطرت بإثارة غضب نابليون بانتقالها مع أسرته لمنزل ريفي في مافليير، وعندما علم نابليون أمرها بإطاعة أو امره بالابتعاد 021 ميلاً عن باريس، فضلت أن تزور ألمانيا، وقرر كونستانت (قسطنطين) - لامتعاضه من قسوة نابليون وتأثره بحزن جرمن - أن يصحبها.

وساعدها وأطفالها على تحمل مشاق الرحلة وابتهج عند وصوله إلى فيمار فأقام فيها ليؤلف كتابه عن تاريخ الدين. وفي 22 يناير سنة 4081 بدأ يدون كتابه (اليوميات Journal Intime) بادئاً إياه بمدخل مرح: لقد وصلت لتوي إلى فيمار إنني أنوي البقاء هنا بعض الوقت ففي هذا المكان سأجد المكتبات والمناقشات الجادة التي تتمشى مع ذوقني، والأهم من هذا الهدوء الذي يساعدي على العمل (08) وبعض الفقرات الأخرى في يومياته هذه تشير إلى تطوره العقلي والنفسي: 32 يناير: إنني أعمل قليلاً وبشكل سيء، لكن عوضني عن ذلك أنني رأيت جوته Goethe! صفاء وعزة وحساسية مفرطة لدرجة المعاناة. روح فياض وملامح وسمية وجسد اعتراه الوهن شيئاً ما... وبعد العشاء تحدثت بغير كلفة مع فيلاند Wieland - روح فرنسية، بارد كفيلسوف رقيق كشاعر... هيدر Heder كسيرير دافئ ناعم حيث يمكن للمرء أن يرى أحلاماً طيبة...

72 يناير: شرح لي المؤرخ السويسري جوهان فون ميلر Jonannes Von Muller خطته في كتابة تاريخ العالم... ومعه ثار سؤال شائق: هل العالم مخلوق أم غير مخلوق. وفقاً لكيفية الإجابة عن هذا السؤال، فإن مسار التاريخ البشري سيطهر لنا نتيجة متناقضة (متعارضة) بمعنى الكلمة: فإن كان العالم مخلوقاً فلا محالة من فئاته وإن كان غير مخلوق فلا محالة من تحسنه (تطوره)...

21 فبراير: أعدت قراءة فاوست Faust لجوته (الجزء الأول). إنها تسخر من الجنس البشري وكل العلوم. لقد وجد الألمان فيها عمق تفكير غير مسبوق، لكنني أفضل كانديد Candide.

62 فبراير: زيارة لجوته...

72 فبراير: أمسية مع شيلر...

82 فبراير: عشاء مع شيلر وجوته. لا أعرف من العالم ما هو أكثر مرحاً وفكاهة ورقة وقوة وسعة صدر من جوته...
92 فبراير: ... غدا سأغادر قاصداً لليبتيج Leipzig وسأكون حزيناَ لتركي فيمار. لقد قضيت هنا ثلاثة أشهر كنت فيها سعيداً جداً. لقد درست، وعشت في أمان ولم أعان إلا قليلاً.. لم أطلب أكثر من هذا...
3 مارس: زرت المتحف في ليبتيج.. المكتبة تحوي 000،08 مجلد.. لم لا أبقى هنا وأعمل؟...
01 مارس: لقد اشتريت بسنة لوبيسيات (جنيهاً ذهبية فرنسية slash حوالي 051 دولار) كتباً ألمانية(18).
لقد ترك مدام دي ستيل في ليبتيج واتخذ طريقه إلى لوزان لزيارة أقاربه، وبمجرد وصوله علم بموت والد جيرمين (نيكر) - هذا السيد الطيب نيكر كم هو نبيل وكم هو كفاء وكم هو نقي: لقد أحبني. من الآن سيُرشد ابنته؟(28) واندفع عائداً إلى ألمانيا على أمل أن يُخفف وطأة الخبر عليها فقد كان يعلم أن هذه الخسارة ستجتاحها. وعاد معها إلى كوبت ومكث معها حتى أفقت من هَوَل الصدمة.

لقد كانت في ميسس الحاجة إليه في تلك الأيام التي كان يتطلع فيها لفرقها ليكون حراً في متابعة أموره السياسية وأعماله دون أن يربط نفسه بمصالحها. لقد شعر أنه كان قد دمر مصالحه السياسية عندما أصبح ليفتانت في حربها ضد نابليون. وفي أبريل سنة 6081 دون في يومياته تحليلاً يبين اختلال إرادته: إنني دائماً أميل إلى قطع علاقتي بدمام دي ستيل، لكن في كل مرة أحس فيها بضرورة السير في هذا الطريق أجد نفسي في صباح اليوم التالي على خلاف ما كنتُ عقدت عليه العزم. وفي هذه الأثناء أجد أن اندفاعها وطيشها يجعلاني في عذاب وخطر دائم. يجب أن نفترق... إنها فرصتي الوحيدة لحياة آمنة(38) وبعد ذلك بشهر نقرأ في يومياته: في المساء كان المشهد مرعباً - ألفاظ شنيعة لا مبالية ومرعبة. إنها مجنونة أو أنني مخبول. فكيف تكون النهاية؟(48).

ومثل كثيرين من المؤلفين الذين لا يستطيعون أن يسوسوا حياتهم، عمد إلى كتابة حكاياته من وجهة نظره في رواية أخفى فيها الشخصيات الحقيقية والوقائع الحقيقية بعناية، لكنها كانت اعترافات صريحة. لقد كتب في خمسة عشر يوماً (يناير 7081) وهو ممتعض بحرارة من سيطرة جيرمين وتوبيخها له، غاضب من نفسه لتردده وضعف إرادته - مائة صفحة أصبحت هي أول رواية نفسية (سيكولوجية) في القرن التاسع عشر. لقد كانت أكثر سبياً لأغوار النفس البشرية وكانت طريقة تناوله أكثر ذكاءً وألمعية من معظم الروايات. لقد حلل شخصية الرجل والمرأة بطريقة لا ترحم.

لقد تابعت هذه الرواية التي جعل عنوانها (أدولف) شبابه الضائع (الذي لا هدف له) وتعليمه المتقطع غير المنتظم وغير المنهجي، وعلاقاته العاطفية السطحية والمتسرعة، وشغفه بالقراءة الذي جعل إيمانه يُشاب بالسخرية (الكليّة Cynicism) مما أثر في حياته فجعلها بلا معنى. وقد حكى تطوفاً في مجال العشق غير المسؤول ووصل بأحداثه إلى ذروة الأمساءة في حكاية قصة إلينور Ellenore - وهي قصة امرأة من النبلاء ضحّت بأسرتها وشرها ومستقبلها لتكون خلية للكونت ب... ولاحظ أدولف (بطل القصة) أن المجتمع يعاقب المرأة التي تخرج عن القواعد المرعية بالقليل والقال والازدراء (أكثر بكثير مما يفعل مع الرجل)، ذلك لأن المجتمع يقيم نظامه واستقراره على القوانين والأعراف التي تكبح الرغبات التي لا تتمشى مع صالح المجتمع. وكان سهلاً أن يتحول عطفه على إلينور Ellenore (إحدى شخصيات القصة) المنبوذة، وإعجابه بشجاعته إلى حب، وربما لرغبة سرية (مكبوتة) في انتزاع حب امرأة ترضى غروره. وبمجرد أن بردت حرارة حبه استسلمت له وتركت الكونت وأمواله واتخذت له مسكناً متواضعاً وحاولت أن تعيش على زيارات أدولف وأمواله، وكلما زاد إخلاصها قل اهتمامه بها. لقد حاول أن يبتعد عنها لكنها وبخته وأخيراً تشاجرا وانفصلا. لقد تركته وتاهت في غياهب الفقر وفقدان الإرادة فلم تستطع العيش، ولم يلحق بها إلا لتموت بين ذراعيه.

وعمد كونستانت إلى التعمية على شخصياته في الرواية حتى لا يُدرك أحد أنه يقصد شخصيات مقيمة في كوبت، فجعل بطلة القصة بولندية، وجعلها خاضعة لسلسلة غير متحركة وجعلها تموت يأساً، ومع هذا فإن كل من قرأ الكتاب وكان يعرف مؤلفه قرّن بين المؤلف وشخصية أدولف وبين مدام دي ستيل وشخصية إلينور. وأحجم كونستانت (قسطنطين) تسع سنوات عن نشر كتابه، لكن الخيلاء انتصر على الحذر فراح يقرأ مقاطع منه وأحياناً يقرأه كله لأصدقائه، وأخيراً لجيرمين نفسها التي فُجعت بنهاية القصة.

وبعودة شارلوت فون هاردينبرج انتعشت حياة كونستانت شيئاً ما. لقد كانت طَلقت زوجها الأول وعانت مع زوجها الثاني الفيكونت دي ترتر Tertre، وهي الآن تواصل ما انقطع من علاقتها الغرامية بكونستانت، وتزوجا في 5 يونيو سنة 8081 لكن عندما عاد بنيامين كونستانت إلى عبوديته في كوبت، ارضاءً لدمام دي ستيل، عادت شارلوت إلى ألمانيا. ولم يشعر كونستانت أنه أصبح حراً إلا بعد أن اكتشفت جيرمين عشيقاً جديداً هو جون روكا Rocca (1181)، عندها ذهب كونستانت مع شارلوت ليعيشا بالقرب من جوتنجن Gottingen وأعانته مكتبة جامعتها فواصل عمله في كتابه عن تاريخ الأديان. وربما كان العامان التاليان هما أسعد عامين مرّاً في حياته.

لكن السعادة لم تكن ملائمة له أو بتعبير آخر لم تكن متفقة مع طبعه، فعندما سمع (في يناير سنة 3181) من الكونت دي ناربوت de Narbonne لأول مرة عن قصة الكارثة التي حلت بنابليون في روسيا، أحس بقرب سقوط نابليون، فعاد إليه قلقه القديم فسأل نفسه - كما كتب في يومياته، أيجب أن أكون دائماً مجرد متفرج؟ وأثناء تراجع نابليون إلى الراين أمام قوات الحلفاء المنتصرة، اتجه كونستانت إلى هانوفر، وقابل بيرنادوت هناك، فحثه على كتابة نشرة روح الغزو Esprit de Congete يعزو فيها انهيار فرنسا إلى دكتاتورية نابليون واستبداده. وتم نشر هذا الكتيب (النشرة) في هانوفر في يناير سنة 4181 في ذروة اندفاع قوات الحلفاء داخل فرنسا، وقد أدى هذا إلى اعتباره أي (كونستانت) شخصاً مهماً كقادة القوات المتحالفة وتبع كونستانت جيوشهم إلى باريس (أبريل 4181) على أمل أن يتلقى تعويضاً شخصياً (على أمل أن يستعيد مكانته).

وزار صالون مدام دي ستيل الذي تم افتتاحه من جديد فوجدها غير عابئة به بالمرّة. ولأن شارلوت كانت لا تزال في ألمانيا فقد صرّح في يومياته (13 أغسطس 4181) أنه قد وقع في حب مدام ريساميه وكان كونستانت (قسطنطين) يسخر منذ زمن طويل من استراتيجية مدام ريساميه التي تجعلها تتيج عسيلتها مع الحفاظ على عزبيتها (أو بتعبير آخر تتيج لمن تحبه أن يظهرها لكنها لا تمكنه من نقيها، وبالفعل فقد استطاع كثيرون أن يعلوها ولكنهم ما استطاعوا لها نقبا) وقد اعترف للدوق بروجلي Broglie أنه حاول أن يبيع روحه للشيطان مقابل الاستمتاع بجسد جوليت ريساميه (58). وكانت مدام ريساميه من المؤيدين المتحمسين للبربون وهاقت على حياتها عندما علمت أن نابليون هرب من إلبا Elba ووصل إلى كان Cannes، فطلبت من كونستانت أن ينشر في جريدة باريس Journal de Paris (6 مارس 5181) نداء لشعب فرنسا ليهب ضد معتصب العرش (تقصد نابليون) إن نابليون يعدّ بالسلام لكن مجرد ذكر اسمه يشير إلى الحرب. انه يعدّ بالنصر ومع هذا تخلى عن جيوشه كجبان ثلاث مرات - في مصر، وفي اسبانيا وفي روسيا (68). لقد أجمت ريساميه نيران كونستانت - وكان لهوياً بطبعه - حتى بدا وكأنه يحرق كل الجسور وراءه أو بتعبير آخر يقطع على نفسه طريق التراجع. وفي 91 مارس أعلن في جريدة الحوار slash جرنال دي ديبات Journal des debats أنه مستعد للموت في سبيل الملك الذي عزلوه (لويس 81) وفي هذه الليلة هرب لويس الثامن عشر إلى جنت Ghent وفي اليوم التالي دخل نابليون باريس فاختماً كونستانت في سفارة الولايات المتحدة، وأصدر نابليون عفواً عاماً فظهر كونستانت من مخبئه، وفي 03 مارس أكد له جوزيف بوناپرت أن أخاه الإمبراطور في مزاج معتدل يميل للعفو. وفي 41 أبريل استقبله نابليون وطلب منه أن يصيغ مشروع دستور ليبرالي، وراجع نابليون مشروع الدستور بعناية وأعلنه كعهد أو ميثاق للحكومة الفرنسية. فأدار الإحساس بالمجد رأس كونستانت.

وفي 02 يونيو - بينما كان يقرأ روايته أدولف للأميرة هورتنس، دخل الدوق دي روفيجو Rovigo ليخبرها أن نابليون قد لاقى الهزيمة في واترلو Waterloo منذ يومين. وفي 8 يوليو عاد لويس إلى قصر التوليري، فأرسل له كونستانت اعتذاراً متذللاً فأصدر الملك عفواً عنه، أثار استغراب الجميع، لأن الملك اعتبره مراهقاً غير مسؤول تمرّد، وأنه يكتب الفرنسية بامتياز. وتجنّب كل أهل باريس وراحوا يحكون التوريات (جمع تورية) والكتابات (جمع كناية) حول اسمه. وكتب كونستانت إلى مدام ريساميه يُسامحها لأنها دمرت مجال عمله ومستقبله وسمعته وسعادته (78) وفي أكتوبر غادر قاصداً بروكسل حيث التحق بشارلوت الصبورة، وفي أوائل سنة 6181 عبراً معاً إلى إنجلترا حيث كانت روايته أدولف قد نشرت. وفي سبتمبر عاد مع زوجته إلى باريس، واشتغل بالسياسة وبدأ مرحلة جديدة من عمره.

كان فرانسوا رينيه دي شاتوبريان أعظم كتاب فرنسا المعاصرين له. قال سانت بيف Saint Beuve في سنة 9481 أنه الأكثر شهرة بين كتابنا المعاصرين (88) وثمة لؤلؤة كبيرة (دانة) أخرى من لآلي الأدب هو إميل فاج Emile Faguet، كتب في سنة 7881 (ناسيا فولتير): شاتوبريان هو أعظم معلم في تاريخ الأدب الفرنسي منذ بلياد Peliade (حوالي 0551)(98)، ومن المؤكد أن سيادته للأدب الفرنسي لاتضار عنها إلا سيادة فولتير. وترجع مكانة شاتوبريان أنه انتصر للدين على حساب الفلسفة تماما كما انتصر فولتير للفلسفة على حساب الدين، وقد عاش عمراً طويلاً يكفي ليبر الكفر بالدين يُبعث من جديد. وعلى هذا فإن اتجاهاً ما رغم أنه يلقى ترحاباً في وقت من الأوقات نقل الحماسة له بمرور الوقت، ليولد من رحيمة اتجاه آخر مناهض له عبر الأجيال، خلال المعركة الدائرة في نفوس البشر بين الفكرة ونقيضها بحيث لا يكون للاعتدال (الموقف الوسط) وجود.

لقد كتاب إن حياتي والدراما تنقسم إلى ثلاثة فصول (أو مشاهد): من شبابي الباكر حتى سنة 0081 كنت جندياً ورحالة، ومن 0081 حتى 4181 في ظل الحكومة القنصلية والإمبراطورية، كرست حياتي للأدب والفكر، ومنذ عودة الملكية حتى اليوم [3381] اشتغلت بالسياسة (09). وثمة فصل رابع غائر (4381 - 8481) كان على بطلنا الثلاثي هذا the triple hero أن يعيشه وقد وهنت ذاكرته ترعاه امرأة حنون. إنها فترة ضبابية ضاعت مع الزمن. كان اسمي في البداية يكتب هكذا: بريان Briand ... ثم بريان Briand ... ذلك أنه في بداية القرن الحادي عشر كان آل بريان (بريان Briand فيما بعد) قد أطلقوا اسمهم على قصر فرنسي في بريتاني Brittany في فرنسا، وأصبح هذا القصر مقراً لبارونية شاتوبريان (19). وعندما فقدت الأسرة العتيدة كل شيء تقريباً سوى قصرها وكبرياءها، ذهب الأب إلى أمريكا وكون ثروة متواضعة. وعندما عاد إلى فرنسا تزوج أبولين دي بيديه Appoline de Bedee التي أنجبت له بنين وبنات عدداً حتى أنه انطوى على نفسه في كآبة استمرت حتى انجاب ابنه الأخير وهو الوحيد - من بين أبنائه - الذي بقيت ذكراه. وعمدت الأم إلى العبادة واستغرقت فيها لتخفف عن نفسها متاعب العمل وما ألم بها من مرض. ومات لهذا الأب أربعة من أبنائه قبل مولد رينيه Rene في 4 سبتمبر سنة 8671 في سانت مالو St. Malo على الشاطئ الفرنسي الشمالي. وقد ذكر فيما بعد ما أسوأ أن يُرزق المرء بمولود (29) وكانت أخته لوسي Lucie متوعدة دائماً فدمجت متاعبها مع متاعبه ودخلا معا في علاقة مُغرقة جعلت كليهما غير راغبين في الزواج. لقد أضاف ضباب الشمال، والرياح التي تضرب جزيرتهم وبيتهم إلى كآبة روحهما كآبات أخرى، لكنها أصبحت فيما بعد ذكريات عزيزة.

وعندما بلغ التاسعة من عمره انتقلت أسرته إلى عقار في كومبورج Combourg الأمر الذي جلب للأسرة لقب كونت Comte وأصبح رينيه فيكونت Vicomte (شريف فوق البارون ودون الكونت) لقد تم إرساله الآن إلى مدرسة بالقرب من دول Dol وتلقى تعليمه على يد قسس، حثتهم أمه لإعداده ليكون قساً، فتلقى على يديهم تعليماً طيباً في الآداب الكلاسيكية، وسرعان ما شرع في الترجمة عن هو ميروس وزينوفون Xenophon. في عامي الثالث في دول Dol وضعت الصدفة في يدي... هو راس Horace غير المهذبة.. فألقيت نظرة على مباحج الجنس غير المعروفة، ذلك الجنس الذي لم أعرفه إلا من خلال أم وأخوات ... إن رعي من ظلال الشياطين و نار جهنم... أثر في معنوياتي وبدنياً، فظلت على براعتي متمسكاً بطهري أحارب ضد عواصف عواطف غير ناضجة، ورعب لا عقلائي من المجهول (39) وأدت طاقته الجنسية - دون أية اتصالات جنسية نعرفها - إلى أن تطورت في خياله صورة امرأة

نموذجية أخلص لها (أي لهذه الصورة المتخيلة) إخلاصاً باطنياً (ينحو نحواً صوفياً) شديداً، مما انحرف به وعاقه عن التطور المعتاد.

وكلما اقترب موعد حضوره أول طقس للعشاء الرباني (جزء من القداس) يقام له، اعترافه خوف من أن يُدلي لقس الاعتراف بهواجسه الداخلية، وممارساته السرية، وعندما وجد الشجاعة واعترف لقس الاعتراف هذه القس وأراحه وأحله من تبعاته (غفر له)، عندها شعر بفرح الملائكة. وفي اليوم التالي أقاموا لي طقوساً سامية محرّكة للمشاعر، حاولت عبثاً أن أصفها في كتابي عبقرية المسيحية Le Genie du christianisme. إن الحضور الحقيقي للفادي Victim (يقصد المسيح) في القربان المقدس على مذبح الكنيسة كان واضحاً لي كحضور أمي إلى جانبي. لقد شعرت كما لو أن نوراً قد انبثق في داخلي. فارتعد إجلالاً (49) وبعد ثلاثة أشهر غادر كلية (مدرسة) دول Collège de Dol. إن ذكرى هؤلاء المعلمين الجادين ستبقى دائماً عزيزة إلى نفسي (59).

هذا السمو (المقصود هذه المشاعر الدينية) راح يقل كلما أمعن في القراءة مما أدى إلى ظهور قضايا أو أسئلة في حاجة لإجابة في أمور العقيدة. واعترف لوالديه أنه لا يريد أن يكون قساً. فتم إرساله وهو في السابعة عشر من عمره إلى كلية رن Collège de Rennes لمدة عامين لتؤهله لوظيفة في الحراسة البحرية Naval Guard في بريست Brest. وفي سنة 8871 (كان قد بلغ العشرين) تم تعيينه تحت الاختبار لكن حياته التي اعتاد عليها قبل ذلك بالإضافة إلى الانضباط في البحرية الفرنسية جعله خائفاً جداً من العمل في البحرية حتى أنه عاد إلى والديه في كومبورج Combourc ووافق على الالتحاق بكلية دي دينان de Dinan ليكون قساً، وربما قال هذا رغبة في أن يخفف والده من حدة توبيخهما له. يقول الحقيقة أنني لم أكن أريد إلا كسب الوقت لأنني لم أكن أعرف ما أريد (69)، وأخيراً التحق بالجيش برتبة ملازم، وتم تقديمه للملك لويس السادس عرش، وكان يمارس الصيد معه، وشهد الاستيلاء على الباستيل، وتعاطف مع الثورة إلى أن قامت في سنة 0971 بإلغاء الرتب والألقاب والحقوق الاقطاعية. وعندما نذرت كتيبتيه نفسها للانضمام لجيش الثورة استقال من مهامه واكتفى بدخول متواضع من ميراث تركه له أبوه عند مماته. وفي أبريل سنة 1981 غادر فرنسا قاصداً الولايات المتحدة، وأعلن أنه سيحاول اكتشاف طريق شمالي غربي عبر القطب الشمالي (شمال أمريكا). لقد كنتُ مفكراً حراً متحمساً في ذلك الوقت (79).

ووصل إلى بلتيمور Baltimore في 11 يوليو سنة 1971 ومنها إلى فيلادلفيا، وتناول الغداء مع الرئيس وشنجطن ورقه عنه بخططه المتسمة بالمبالغة واتخذ طريقه إلى ألباني Albany واستأجر دليلاً واشترى حصانين وركب مزهواً إلى الغرب، وكان معجباً بجلال المشاهد التي رآها حيث الجبال والبحريات والمجاري المائية تتلألأ تحت شمس الصيف. لقد وجد متعة بالغة في هذه المساحات الواسعة المكشوفة وهذا الفن الذي خطته يد الطبيعة، ليكون ملجأ يلجأ إليه المرء هرباً من الحضارة وتكلفتها. وقد سجل تجربته في يوميات نَقَحَها في وقت لاحق ونشرها بعنوان: رحلات في أمريكا Voyages en Amerique وظهر في هذه الرحلات بالفعل جمال أسلوبه: أيتها الحرية البدائية (حرية الفطرة الأولى) لقد استعدتكم أخيراً! إنني انطلق مثلما ينطلق الطير، أتنتقل كالذبابه فيهي تقود نفسها لا عوائق أمامها، ولا تعرف إرباكاً ولا حيرة إلا في اختيارها للمكان الظليل. هنا أنا بطبيعتي كما خلقتي الله جل جلالاً؛ سيد الطبيعة، منتصر أنا إذ يحملني الماء، بينما قاطنو المجاري المائية يصحبونني في طريقي وقاطنو الهواء يغنون أغنياتهم لي، وحيوانات الأرض البرية تحييني وأشجار الغابات تحني ذراها لي كلما مرت، أليست أصولنا الأولى حُفرت (سُجّلت) على جبين الإنسان في مجتمعه أو على جبينني؟ اجر إذن لثُخرس أنفاسك في مدتك! اذهب لتكون عبداً لقوانينك النافهة، احصل على خبزك بعرق جبينك أو التهم خبز الفقراء. ليقتل بعضنا بعضاً من أجل كلمة، من أجل السيد؛ فننتسكك في وجود الله أو نعبده بصيغ عبادة خرافية، أما أنا فسأذهب أنجول في فقري المنعزل ففيه لن يفتح أحد فكري ولن يُدمي أحد قلبي، فسأكون حراً كالطبيعة، ولن أعترف بسطان أحد سوى سلطانه (الله) الذي أبقى لنا الشمس، والذي بإشارة واحدة من يده قادر على اشعال الثورة (المقصود إحداهن الاضطراب) في كل العوالم (جمع عالم يفتح اللام) (89).

هنا كل ميراث الحركة الرومانسية: الحرية والطبيعة والصدافة، لكل الكائنات الحية، احتقار للمدن واحتقار لمحاربة الإنسان لأخيه الإنسان من أجل الخبز أو السلطان، هنا رفض للإلحاد والخرافة، هنا نعبد الله بتأمل الطبيعة، هنا يكون الهرب من كل قانون خلا قانون الله. لا يهم - من وجهة نظر أدبية - أن يكون شاتوبريان قد فقد إيمانه الديني، أو أن كثيراً من أوصافه كان أقرب للخيال منه للحقيقة، أو أن النقاد الفرنسيين والأمريكيين سرعان ما اكتشفوا مئات المبالغات والمستحيلات والمواضع التي اتسم فيها بعدم الدقة (99)، وإنما المهم أن أسلوبه النثري هنا قد أثر تأثيراً كبيراً في مشاعر كل النساء وكثير من الرجال. لم يشهد النثر الفرنسي منذ روسو Rousseau أو بيرناردين دي سانت بيير Bernardin de Sant - Pierre مثل هذا البهاء والخصوبة، ولم تقدم الطبيعة بهذا الاشراق، ولم يُظهر أحد الحضارة بهذا السخف. إن كل ما تنتظره الحركة الرومانسية هو أن تقدم بشكل مقنع الهنود الحمر (الهنود الأمريكيين) كسادة يتجولون في الفردوس يتربعون على عروش الحكمة، وأن تقدم بشكل مقنع الدين كأساس للأخلاق

والفنون والخلاص Salvation. وسرعان ما قدّم شاتوبريان مثلاً على هذا في قصته أتالا Atala ورينيه Rene، وقدّم مثالا ثالثاً في كتابه عبقرية المسيحية The Genus of Christianity. لقد تجول مكتشف الشاعر راكباً خلال ولاية نيويورك واستقبله بعض الأونونداجا Onondago الهنود وأكرموه ونام بشكل بدائي على الثرى (الأرض الأم) بالقرب من نياجارا Niagara وسمع الأصوات المكبوتة لخرير مياه الشلالات. وفي اليوم التالي جلس بشكل تلقائي على شاطئ النهر الذي يسرع في جريانه ليصل إلى مصبه. لكم نُقْتُ لإلقاء نفسي فيه (001) ولأنه كان شغوفاً لرؤية الشلالات من أدنى فقد هبط المنحدر الصخري فزلت قدمه وكُسِر ذراعه، ورفع الهنود (الحمز) إلى حيث الموضع الآمن. وتخلّى عن حلمه بالاتجاه نحو الشمال الغربي فاتجه جنوباً ووصل إلى الأوهايو Ohio. وعند هذه النقطة تصبح روايته للوقائع والمشاهد مُلتبسةً مشكوكاً فيها. إنه يخبرنا أنه تابع الأوهايو إلى المسيسيبي ومنه إلى خليج المكسيك ومن هناك عبّر آلاف الأميال ومئات الجبال إلى فلوريدا. وقرّان النقاد المسافات ووسيلة الانتقال بزمّن الرحلة وانتهوا إلى أن روايته مشكوك فيها. كما أنه وظف حيوانات المنطقة وغطاءها النباتي بما لا يتفق أبداً مع طبيعة هذه المنطقة وغطائها النباتي بعد رحلته بمئة سنة (101)، وعلى أية حال فإن قرناً من الزمان يكفي لتغيير الحياة البرية في المنطقة تغييراً حاداً، ولو حتى من خلال انتشار الزراعة والتعدين وارتقاعات الأرض وانخفاضاتها.

وبعد أن مكث مع الهنود الحمز من جماعات السمينول Seminole اتخذ طريقه نحو الشمال الغربي إلى شيليكوت Chillicothe وهي الآن إينوي Illinois. وهناك قرأ في صحيفة إنجليزية أخبار هروب لويس السادس عشر إلى فارن (Varennes 22 يوليو 1971) فأصابه الرعب فمعنى القبض على الملك تعرض حياته - يوماً - للخطر. قلت لنفسى: عدّ لفرنسا وقطعت رحلتي فجأة (201) وفي 2 يناير سنة 2971 وصل فرنسا بعد غياب دام تسعة أشهر، وكان عمره عند عودته لا يتجاوز الثالثة والعشرين.

4\2 تطوره

لقد كان قد أنفق تقريباً كل ما لديه من مال، وكان لا يزال غير متيقن ولا آمن في وطن يُعادي الفيكونتات (المقصود النبلاء عامة) ويسير نحو الحرب ومذابح سبتمبر. ونصحته أخواته أن يتزوَّج المال ودبّر له عروساً في السابعة عشرة من عمرها قبلت مهراً (دوطة) معتدلة هي سيليست بوسو دي لا فيني Celeste Buisson de La Vigne فتزوجها في 12 فبراير سنة 2971. وظلت سيليست المتواضعة مُخلصة له خلال كل التقلبات التي مرت به وتحملت خليلاته وتحملته خلال فترة صراعه مع نابليون مع أنها كانت معجبة به (بنابليون) وبعد سنوات طوال تعلم شاتوبريان أن يحبها. وذهب للعيش في باريس معاً بالقرب من أختيه لوسيل Lucile وجولي Julie. وضاع جزء من ثروة زوجته كان يتم استثماره في سندات تصدرها الكنيسة عقب مُصادرة حكومة الثورة للممتلكات الكنسية وخسر رينيه Rene جزءاً آخر على موائد القمار.

وفي 02 أبريل أعلنت الجمعية التشريعية الحرب على النمسا، فكوّن المهاجرون الفرنسيون (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية) كتيبة لتتضم إلى النمسا للإطاحة بالثورة. وشعر شاتوبريان أن عليه أن ينضم لزملائه النبلاء رغم أنه لم يكن على يقين من رغبته في الإطاحة بالثورة. ترك شاتوبريان زوجته وأخواته في باريس وسرعان ما قرر ثوار باريس سجن (وإعدام) مئات من أفراد الطبقة الأرستقراطية. واندفع إلى كوبلنتز Coblenz وانضم لجيش المهاجرين واشترك في حصار ثيونفيل Thionville الفاشل (أول سبتمبر 2971) وجرح في فخذه، وفي لفئة كريمة تم إطلاق سراحه. ولمّا لم يكن قادراً على العودة لزوجته عبر فرنسا المعبّأة، اتخذ طريقه إلى أوستند Ostend قاطعاً المسافة في غالبها على قدميه، وهناك وجد طريقاً إلى جزيرة جيرسي Jerser فاعتنى به خاله، وفي مايو سنة 3971 عبر إلى إنجلترا.

وفي إنجلترا عرف حياة الفقر وتحملها رغم صحتي المعتلة ورغم تلاشي الأحلام الرومانسية في الحرية (301). ورفض شاتوبريان الإعانة المالية التي كانت الحكومة البريطانية تقدمها للنبلاء الفرنسيين المهاجرين وراح يتكسّب بتعليم الفرنسية لمن يريد، كما راح يتكسّب من التدريس في مدرسة داخلية. وأحب إحدى تلميذاته وهي شارلوت إيفز Ives وبادلته الحب واقترح والدها أن يتزوجها فاعترف لهما أنه متزوَّج بالفعل. وفي هذه الأثناء سُجنت زوجته وأخواته في فرنسا، وقطعت مقصلة الثوار رأس أخيه الأكبر وزوجته (أي

زوجة أخيه) وجدّها البطل مالليشيرب Malesherbes في 22 أبريل 1791. أما زوجة شاتوبريان وأخواته فلم يُطلق سراهن حتى انتهاء فترة الارهاب بسقوط روبيسير . وكانت أخته لوسيل قد لاحظت كثيراً سهولة تعامله مع الكلمات فحثته ليكون كاتباً ومؤلفاً. وخلال السنوات التي قضاها في إنجلترا بدأ في كتابة ملحمة النثرية الطويلة (ناتشز Natchez) راح يصب في صفحاتها البالغة 383,2 صفحة أحلامه الرومانسية معتبراً حياة الهنود الحمر (الهنود الأمريكيين) حياة مثالية. ولرغبته الشديدة في تحقيق الشهرة كفيلسوف نشر في لندن في سنة 1791 كتابه الثورات قديماً وحديثاً، دراسة تاريخية وسياسية وأخلاقية Essia historique, Polilique et moral Sur les revolutions anciennes et modernes. وكان هذا عملاً جديراً بالالتفات من شباب لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره ينقصه انضباط حياته وإن كان غنياً بالأفكار. لقد برهن شاتوبريان على أن الثورات هيجان يحدث بشكل دوري، وما يتبعها يتخذ دوماً شكل منحني يبدأ بالثورة ويمر بالأضطراب والفوضى وينتهي بالديكتاتورية. ومن هنا وجدنا الإغريق يخلعون ملوكهم ويُقيمون الجمهوريات ثم يرضخون للأسكندر، ووجدنا الرومان يخلعون ملوكهم ويُقيمون جمهورية ثم يرضخون للقيصرية (401) وهنا نجد أن شاتوبريان يتنبأ بنابليون قبل الثامن عشر من برومير Brumaire بعامين. إن التاريخ دائرة أو أنه دوران متكرر على الدائرة نفسها، مع ظهور أهداب من هذه الدائرة تجعل القديم يبدو جديداً، ومع هذه الانقلابات العظيمة الواضحة يسقط البشر في الشرور نفسها، ويكررون أيضاً ما هو خير. وليس هناك في التاريخ تطور حقيقي، حقيقة إن المعلومات تزداد، وإنما - فقط - لتكون في خدمة الموهوبين الذين لا يتغيرون. والإيمان بالنتوير كوسيلة للوصول بالإنسان إلى كمال لا حد له، هذه الفكرة وهم طفولي. ومع هذا فقد نجح النتوير في تقويض دعائم المسيحية (وهذه النتيجة أذهلت معظم القراء) وليس هناك احتمال راجح أن يستعيد الدين مكانته في نفوس شبابنا في هذه القرن حيث السلام السياسي والحرب الفكرية. فأى دين سيحل - إذن محل المسيحية؟ أو بتعبير آخر ما هو الدين الآخر الذي سيحلّه المسيحي محل دينه؟ ربما لا دين آخر (هكذا انتهى الشاب المنشكك). فالنزاعات الفكرية والسياسية ستقوّض الحضارة الأوروبية وستعود بأوروبا إلى بربريتها الأولى (501).

لقد حقق هذا الكتاب لشاتوبريان شهرة في أوساط المهاجرين الفرنسيين لكنه صدم أولئك الذين شعروا أن الارستقراطية والدين يجب أن يقفا معاً ويصمدا معاً، أو أن يموتا منفصلين. وقد ترك هذا النقد أثره في شاتوبريان، فقد كانت كتبه التي صدرت بعد ذلك - في جانب كبير منها - اعتذاراً عن هذه الفكرة، لكنه الآن قد غدا متأثراً تأثراً عميقاً بخطاب أرسلته له من فرنسا أخته جولي Julie في أول يوليو سنة 1791: صديقي، لقد فقدنا لتونا أفضل الأمهات. لو عرفت كثرة الدموع التي ذرفت أماً العزيرة بسبب أخطائك، وكم هي هذه الأخطاء الباعثة على الأسى تبدو للجميع واضحة سواء من منظور التقوى والتدين أو العقل. أما وقد عرفت هذا فافتح عينيك وتخلّ عن الكتابة، وإذا استحباب الله لدعائنا واجتمعنا ثانية فستجد بيننا كل السعادة التي يمكن أن تكون على ظهر هذه الأرض (601).

وعندما تلقى شاتوبريان هذا الخطاب، كان معه خطاب آخر يفيد أن أخته جولي هذه قد ماتت أيضاً. وفي مقدمة كتابه عبقرية المسيحية La Genie du Christianisme عزا إلى هذين الخطابين تحوله الكامل الذي ظهر في كتابه هذا الأنف ذكره. إن هذين الصوتين المنبعثين من القبر (صوت أمه وصوت أخته) كانا يطئنان في أذني، فأصبحت مسيحياً.. بكيّت وأمنت، فقد فسّر لي موتها ما يعنيه الموت.

إن مثل هذا التعبير المفاجئ والمبهر (الدرامي) يُعري بالمشكك، لكنه لم يكن تشككاً بمعناه الحرفي، وربما أرجع شاتوبريان - الذي لم ينفصل الفيلسوف في شخصه أبداً عن الشاعر - للحظة واحدة، عملية تحوله من عدم الإيمان إلى الإيمان (بالمسيحية) التي رآها أو لأ جميلة ثم رآها مفيدة خيرة، ثم - أخيراً - اعتقد أنها - أي المسيحية - رغم أخطائها - تستحق التعاطف معها على المستوى الشخصي كما تستحق دعمها على المستوى العام (بين الناس)، لقد تأثر في الأعوام الأخيرة من القرن الثامن عشر بخطابات وصلته من صديقه لويس دي فونتنان de Fontanes يصف فيها التفسخ الأخلاقي والانحلال الخلقي الذي حاق بفرنسا، ورغبة الناس المتزايدة في العودة إلى كنائسهم وفسسهم. وخلص فونتنان إلى أن هذا التوق الشديد سيجبر الدولة في وقت قريب جداً على العودة للعبادة الكاثوليكية. وقرر شاتوبريان أن يكون هو الصوت المعبر عن هذه الحركة (حركة العودة للكاثوليكية) فكتب دفاعاً عن المسيحية ليس من خلال المفاهيم العلمية والفلسفية وإنما من خلال الأخلاق والأدب والفن. لا جناح إن كانت هذه القصص الفاتنة التي قصّوها علينا في شبابنا خرافات أكثر من كونها تاريخاً حقيقياً. إنها أبهجتنا وأوحت لنا بالكثير، وجعلتنا إلى حد ما متآلفين مع الوصايا العشر التي قام عليها نظامنا الاجتماعي وبالتالي الحضارة المسيحية. أليست جريمة كبرى أن تنزع من الناس العقائد التي ساعدتهم في السيطرة على الفوضى الاجتماعية وتحمل الظلم والنشر والمعاناة، والمصير المحتوم الذي لا مهرب منه - الموت؟ وعلى هذا فإن شاتوبريان قد عبّر في مذكراته الأخيرة Memoires عن إيمانه وشكّه في الوقت نفسه. إن روعي لا تميل للاعتقاد في شيء حتى في نفسي، وتميل إلى ازدرأ كل شيء - الفخامة

والعظمة والبؤس والشعوب والملوك، ومع هذا فإن روعي يهيمن عليها العقل الذي يطالبها بالتسليم بكل ما هو جميل: الدين والعدالة والإنسانية والمساواة والحرية والمجد(701).

وفي سنة 0081 دعا فونتين Fontanes شاتوبريان للعودة إلى فرنسا، وكان فونتين شخصاً مقبولاً للفنصّل الأول (نابليون) وفي مقدوره أن يضمن ألا يتعرض هذا الشاب المهاجر (شاتوبريان) للأذى. وكان نابليون يفكر بالفعل في إعادة الكاثوليكية، وقد يساعده كتاب جيّد عن فضائل المسيحية في مواجهة سخرية اليعاقبة، تلك السخرية التي لا مناص من مواجهتها إن هو (نابليون) أعاد الكاثوليكية.

وفي 61 مايو سنة 0081 عاد شاتوبريان إلى زوجته وأخته لوسيل Lucile في باريس، وقدمه فونتين للدوائر الأدبية التي تجمع أفرادها في بيت الكونتيسة بولين دي بومونت Pauline de Beaumont التي كانت سهلة الانقياد نحو الإثم لكنها جميلة، وهي ابنة الكونت أرمان - مارك دي مونتوري Armand - Mare de Montmorin الذي كان في وقت من الأوقات وزيراً للخارجية في عهد الملك لويس السادس عشر، وقطع الثوار رأسه بالمقصلة بعد ذلك، سرعان ما أصبحت بولين خليفة شاتوبريان. وفي بيتها الريفي وبشجيعها انتهى كتابه عبقرية المسيحية. ولم يكن يعتقد أن الوقت المناسب قد حان لنشر كتاب يعارض بشدّة الحركة المتشككة في المسيحية السائدة في دوائر الفكر والأدب، لكن في سنة 1081 قدم لباريس مئة صفحة مستخلصة منه على شكل نص نثري ذي طابع شعري يقدم الفضائل المسيحية والحب الرومانسي بشكل بسيط تغمره الطمأنينة دون لهجة خطابية أو وعظية. وجعله هذا الكتاب - فجأة - حديث المتعلمين في فرنسا ومحبوب النساء وابن الكنيسة الحبيب - تلك الكنيسة التي جرى أحيائها من جديد. لقد أطلق على كتابه (قصته) هذا اسم اتالا Atala أو حب اثنين من البدائيين في الصحراء. والمشهد الافتتاحي في لويزيانا Louisiana التي يقطنها الهنود الحمر (الأمريكيين) من جماعة ناتشز Natchez Indians والراوي هو شيخ الجماعة أو القبيلة وهو أعمى واسمه شاكاتاس Chactas. إنه يقص علينا كيف أسرت في شبابه قبيلة معادية وحكمت عليه بالموت حرقاً لكن أنقذته أتالا Atala وهي عذراء هندية (من الهنود الحمر) وهربت معه عبر المستنقعات والغابات والجبال والمجاري المائية وأحب كل منهما الآخر لاقتراهما واشترآهما في مواجهة الأخطار، وطلب منها إكمال الحب بالتواصل الجنسي لكنها رفضت لأنها كانت قد تعهدت أمام أمها التي ماتت أن تظل عذراء طوال عمرها، والتقى بمبشر مسيحي عجوز أيد تقواها لاعتنا الحب كشكل من أشكال السكر والزواج كقدر أسوأ من الموت (801)، وتمزقت اتالا Atala بين الدين والجنس (كما في التاريخ) وخرجت من المأزق بتناول السم. وغدا شاكاتاس Chactas وحيداً معزولاً لكن الميشر شرح له الموت باعتباره خلاصاً مباركاً من هذه الحياة: رغم ازدحام رأسي بذكريات أيام كثيرة... فلم يحدث أبداً أن التقيت برجل لم يبدع في حلمه بالسعادة، فليس هناك قلب إلا وانطوى على جرح داخلي.. فالروح في صفائها الظاهري تشبه الأبار الطبيعية بين الحشائش الطوال (السفانا) في فلوريدا: إن سطحها يبدو هادئاً رائعاً، ولكن عند النظر إلى قيعانها.. تُدرك وجود التماسيح الكبيرة..(901).

لقد أصبح وصف شاتوبريان لجنازة أتالا Atala حيث تعاون القس والوثني في مواراة جسدها الثرى، وصفاً مشهوراً في الأدب الرومانسي، كما ألهم الفنان جيرود - تريوزن Girodet - Triosen فرسم إحدى أعظم اللوحات في فترة حكم نابليون. إنها لوحة دفن أتالا التي بكى عند رؤيتها نصف سكان باريس في سنة 8081، لكن التراث الكلاسيكي كان قوياً في فرنسا في سنة 1081 لدرجة تمنع ترحيب النقاد جميعاً بالقصة وابتسم منهم كثيرون (ساخرين) عند قراءة الفقرات المنمقة (المصاغة بعناية) وعند إدراكهم توظيف الحب والدين والموت (وهو توظيف قديم) لإنعاش القلوب وإيقاظها من غفوتها، وحشد مكونات الطبيعة بمختلف مظاهرها وأحوالها لتكون لحناً إلزامياً مصاحباً لأفراح الإنسان وأثره. لكن كان هناك أيضاً نقاد آخرون وعدد كبير من القراء امتدحوا بساطة استخدامه للكلمات والموسيقا الهادئة في أسلوبه ووصفه للحياة الحيوانية والنباتية والجبال والغابات والمجاري المائية معبراً عن الأصوات والأشكال والألوان بأزهي عبارة، مما شكّل خلفية مفعمة بالحياة لأحداث القصة. لقد كان المزاج العام في فرنسا على استعداد لسماع كلمات طيبة عن الدين والطهارة. وكان نابليون يخطط لتصالح مع الكنيسة. لقد حان الآن الوقت المناسبة لنشر كتاب (عبقرية المسيحية).

3slash4 كتاب عبقرية المسيحية

لقد ظهر هذا الكتاب في خمسة مجلدات في 41 أبريل سنة 2081 في الأسبوع نفسه الذي شهد إعلان الوفاق البابوي (الكونكوردات) وقد كتب جول ليميتير Jules Lemaitre في سنة 5681 إن كتاب عبقرية المسيحية هو أعظم إنجاز

في تاريخ الأدب والفكر الفرنسيين (011) وقد امتدح فونتين Fontanes الكتاب في مقال بصحيفة المونيتور Moniteur مستخدماً صيغ التفضيل بشكل ينم عن احتقائه الشديد. وقد ظهرت الطبعة الثانية في سنة 3081 مصدرة بإهداء إلى نابليون. ومنذ هذا الوقت شعر المؤلف أن نابليون هو الشخص الوحيد الذي يتفوق عليه (والمعنى أن المؤلف اعترى بنفسه اعتزازاً شديداً، فقد أصبح يحس أنه يلي نابليون مباشرة في الأهمية).

وكلمة genie الفرنسية التي تظهر في عنوان الكتاب لا تعني بالضبط كلمة genius الإنجليزية (عبرقية أو نبوغ) رغم أنها تنطوي على ذلك المعنى أيضاً. إنها تعني الشخصية المميزة والروح الخلاق الكامن في صلب الدين، تلك الشخصية وهذه الروح التي انجبت وغدّت الحضارة الأوروبية بعد الفترة الكلاسيكية. لقد اقترح شاتوبريان أبطال تنوير القرن الثامن عشر أي الحركة التنويرية Enlightenment المعروفة في ذلك القرن مُظهراً أن في المسيحية ما يُعني عنها ففي المسيحية - على حد قوله - فهم متعاطف أو تعاطف فاهم مع حاجات الإنسان وفيها بلّسم لأحزانه، وفيها إلهام متعدد الجوانب للفن ودعم قوي للنظام الاجتماعي والأخلاق، وهذا يكفي أما مصداقية العقائد والمرويات الكنسية فهي مسألة قليلة الأهمية. فالسؤال الحقيقي هو: هل المسيحية تمثل دعماً للحضارة الأوروبية؟ وهل هو دعم لا يُبارى ولا يُجارى ولا يَعوّض ولا يمكن فصله عنها؟ - أي عن هذه الحضارة.

لقد كانت صورة التفسخ الأخلاقي والاجتماعي والسياسي في فرنسا الثورة التي طُلقت نفسها من مسيحيتها الكاثوليكية تمثل برهاناً أقوى وأكثر منطقية من حُجج شاتوبريان. لكن شاتوبريان كان رجل مشاعر وأحاسيس وربما كان على حق في تأكيده أن معظم الفرنسيين هم أقرب إليه منهم إلى فولتير وغيره من المفكرين الذين عملوا بحماس على إبعاد عار هيمنة الدين المطلقة. لقد أطلق على نفسه اسم المعادي للمفكرين anti - philosophe. لقد اشتط كثيراً - أكثر من روسو بكثير في حملته ضد المنهج العقلي ووبّخ مدام دي ستيل لدفاعها عن التنوير. وعلى هذا فقد بدأ بالدعوة إلى الإحساس والشعور، وترك العقل في المحل الثاني.

لقد أعلن في البداية إيمانه بالسّر الأساسي للعقيدة الكاثوليكية وهو التثليث: الرب باعتبار الآب الخالق، والرب باعتباره الابن المخلص أو الفادي، والرب باعتباره الروح القدس الذي يُبْرِز الطريق ويبارك. إن المسألة ليست مصداقية هذا الأمر، فالمهم أنه دون عقيدة في وجود إله مدبّر تُصبح الحياة معركة لا رحمة فيها وصراعاً وحشياً، وتُصبح الخطايا لا غافر لها ويُصبح الزواج رباطاً ممزقاً هشاً غير قائم على أساس وطيء، وتُصبح الشيخوخة انفصاماً كئيباً وتُصبح الموت شيئاً قبيحاً، وإن كان كرباً لا يمكن اجتنابه. أما الطقوس (الشعائر) الكنسية من تعميده (أو عماد) واعتراف وعشاء مقدس وتثبيت التعميد ومسح المحتضر بالزيت المقدس والسيامة الكهنوتية (مراسم تعيين الكهنة) - فتحيل الأمانة وانهبنا المخزي إلى تطور روحي متقدم يتم تعميده بإرشاد القسس والكهنة وتوجيهاتهم وبالطقوس (الشعائر) المؤثرة، وتقوي موقف الفرد الضعيف بمفرده ليكون كثيراً بإخوانه من المؤمنين بالمسيح المحبوب المخلص وأمه العذراء الشفيعة التي بلا خطيئة، والله الحكيم الكلي القدرة المراقب المعاقب المسامح والمجازي. بهذا الإيمان يتم خلاص الإنسان من أعظم لعنة يمكن أن تحيق به - أن يكون بلا معنى في عالم بلا معنى.

وراح شاتوبريان يُعارض الفضائل التي أوصى بها الفلاسفة الوثنيون بتلك التي دعت إليها المسيحية: فمن ناحية نجد الجَد (الثبات) والاعتدال (ضبط النفس) والتدبير (العقل) - كل هذه الفضائل تنجّه نحو هدف تقدم الفرد، ومن ناحية أخرى نجد الإيمان والأمل وعمل الخير وهي - أي هذه الفضائل الأخيرة تجعل الحياة نبيلة وتقوي الروابط الاجتماعية وتحيل الموت إلى حياة (من خلال فكرة البعث). وقارن وجهة نظر الفيلسوف فيما يتعلق بالتاريخ باعتباره نضالاً وهزائم تلحق بالأفراد والجماعات بالنظرة المسيحية للتاريخ باعتباره جهداً إنسانياً للسمو فوق الخطيئة المتأصلة في طبيعته ولتحقيق آفاق أوسع. إنه لمن الأفضل أن تعتقد أن السماوات تمجد عظمة الرب من أن تعتقد أنها ركام عارض من صخور وتراب، خالدة لكن بلا معنى، جميلة لكنها كئيبة. وكيف نستطيع أن نتفكر في جمال معظم الطيور وكثير من ذوات الأربع دون شعور بأن بعض القداسة كامن في نموّها المرّن (التدرجي) وأشكالها الفاتنة؟

وبالنسبة للأخلاق فقد بدأ الأمر لشاتوبريان واضحاً بشكل مؤلم: إن دستورنا الأخلاقي لا بد أن يباركه الرب وإلا تردى ليكون ضد طبيعة الإنسان (الطبيعة البشرية)، فليس هناك دستور أخلاقي من وضع البشر يمكن أن تكون له القوة الكافية للسيطرة على غرائز البشر المناقضة للحياة الاجتماعية. لكن الخوف من الله هو بداية الحضارة وحب الله هو هدف الأخلاق، وأكثر من هذا فإن هذا الخوف (من الله) والحب له لا بد أن ينتقل من جيل إلى جيل على أيدي الآباء والمعلمين ورجال الدين. فأبء بلا إله ومعلمون دون دعم من عقيدة دينية ورداء كهنوتي سيجدون الأناثية مستشرية وسيجدون أن الهوي والانفعال والجشع أقوى من كلماتهم غير المؤثرة. وأخيراً لا يمكن أن تكون هناك أخلاق إن لم يكن هناك عالم آخر (111) لا بد أن تكون هناك حياة أخرى لتعوضنا عن محنة الفضائل في عالمنا الأرضي.

ودلل شاتوبريان على أن الحضارة الأوروبية تكاد تكون مدينة كلية للكنيسة الكاثوليكية - بدعمها للأسرة والمدرسة، ودعوتها للفضائل المسيحية، ولمعارضتها للخرافات والخوف اللاعقلاني والممارسات الخاطئة والقضاء عليها، وإلهامها للأداب والفنون وتشجيعها. إن العصور الوسطى قد منعت بحكمة السعي غير الموجه للوصول للحقيقة، وكان

منعها هذا لصالح الجمال فقد تجلى فن العمارة في الكاتدرائيات القوطية بشكل يفوق تجليه في الباتينون
Pathenon. والآداب الوثنية فيها الكثير مما هو متعة للعقل والكثير مما هو مفسد للأخلاق. والكتاب المقدس المسيحي
أعظم من كتابات هوميروس، والأنبياء أكثر تأثيراً في الناس من الفلاسفة، فأى رواية يمكن مقارنتها في رقتها
وتأثيرها بحياة المسيح وتعاليمه؟!

إنه لمن الواضح أن كتاباً مثل عبقرية المسيحية لا يمكن أن يكون مقبولاً إلا من أولئك الذين كانوا مستعدين عاطفياً
للاعتماد (للإيمان) بسبب تجاوزات الثورة الفرنسية أو بسبب محن الحياة. ومن هنا قال الفيلسوف جوبير Joubert
صديق شاتوبريان أنه بحث عن ملجأ في الكاثوليكية هرباً من عالم ثوري مُرعب بدرجة لا تُحتمل (211). وقد يبتسم
بعض القراء لتفسيره الطفولي لغاية أو غرض بعض مظاهر الطبيعة عندما يقول إن شذو الطيور قد صُمم ليتمشي مع
آذاننا... فرغم قسوتنا عليها (أي على هذه الطيور) فهي لا تستطيع أن تكف عن امتاعنا كما لو كانت مضطرة لتنفيذ
أوامر إلهية (311). لكن هؤلاء القراء كانوا دوماً منبهرين بركة موسيقا اللفظ والأسلوب حتى أنهم لم يتوقفوا كثيراً لفهم
ما ذكره عن التعم الثلاث لشرح فكرة التثليث في العقيدة المسيحية أو الخوف المالتوسي (الذي أثاره مالتوس) من
زيادة عدد السكان زيادة هائلة للدفاع عن فكرة التبتل أو البقاء بلا زواج، تلك الفكرة ذات الأبعاد الكنسية
(الإكليريكية). وإذا كانت الحجج التي ساقها ضعيفة في بعض الأحيان إلا أن جاذبية أسلوبه غطت على هذا
الضعف. إن الطبيعة نفسها ليعتريها المرح إذا سمعت ابتهالات شاتوبريان وتدلّيه في حبها، بعد أن تكون ساخطة
معبرة عن سخطها بالزلزال والبراكين والفيضانات والأعاصير المصحوبة بمطر ورعد وبرق.
والسؤال الآن: هل كان شاتوبريان حقاً مؤمناً؟ بدءاً من سنة 1081 إلى آخر حياته سمعنا (411) أنه كف عن صلاة
عيد الفصح Easter فلم يعد يشترك في العشاء الرباني ولم يعد يتقدم للكاهن لأداء طقس الاعتراف - وهو الحد الأدنى
الذي تطلبه الكنيسة من الأطفال. وقد ذكر سيسمونيدي Sismondi حوراً معه في سنة 3181:
إن شاتوبريان قد لاحظ تدهور الدين في العالم على مستوى أوروبا وآسيا، وقارن علامات التدهور هذه بتعدد الآلهة
على أيام جوليان Julian... وانتهى إلى أن أمم أوروبا قد تخنقي مع دياناتها. لقد صُعقت لروحه المتحررة هذه... لقد
تحدث شاتوبريان عن الدين... أنه يعتقد أن الدين ضروري لمساندة الدولة. إنه يعتقد أنه والآخرين ملزمون أو مقيدون
بالإيمان بدين أو بتعبير آخر لا فكك من ذلك (511).
إننا مندهشون لكتمانه شكه في الدين (الكاثوليكي) طوال سنتين عاماً، يا له من عبء ثقيل حمله! إنه لم يتخلص أبداً من
التشاؤم الذي ألمّ به في شبابه والذي وصفه في كتابه رينيه Rene. وفي أواخر حياته قال كان يجب ألا أُولد (611).

Rene رينيه 4slash4

كان كتاب شاتوبريان (عبقرية المسيحية) ملمحاً مهماً للتعبير عن الحركة الرومانسية في مجال الدين. لقد شكل عودة
للإيمان والأمل إن لم نقل أيضاً الخيرية أو النزوع لعمل الخير. لقد رفع من شأن شعر العصور الوسطى وفنونها
وحدث على إحياء فن العمارة القوطي في فرنسا. فخلال مجلداته الخمسة ضمّ ليس فقط أتالا Atala (القصة الأنف
ذكرها) بل أيضاً رينيه Rene حتى سنة 5081. هذه الصفحات الأربعون (التي تكوّن رينيه) المفعمّة تشاؤماً تعكس
قنوط المهاجرين واكتئابهم (المهاجرون الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة) ومعاشرته لأخواته أثناء فترة
الشباب. لقد أصبحت هذه الصفحات الأربعون ينبوعاً لآلاف الفواجع (والعويل والنواح) من اليأس والأحزان التي
تستدر الدموع.

لقد كان رينيه (شخصية القصة) من الأرستقراطية الفرنسية التي هرب أفرادها من فرنسا والتحق بقبيلة ناتشز
Natchez وهي قبيلة من الهنود الحمر على أمل أن ينسى حبه المحرم (ممارسته الجنس مع محارمه). وكان أبوه
الذي تبناه شاكاتس قد قص عليه قصة أتالا Atala وحثه على أن يحكي حكايته هو (أي حكاية رينيه). لقد كنت خائفاً
مخلوع الفؤاد مقيداً أمام أبي. لكنني كنت أحس باليسر والسهولة والرضا - فقط - مع أختي أميلي Amelie. وعندما
تحقق أن حبه لها قد اقترب من امكانية غشيانه لها، بحث عن خلاصه بالضياح وسط زحام باريس أو بالجلوس
ساعات في كنيسة مهجورة طالبا من الله أن يخلصه من جريمة حبه أو من حياته التي تمثّل كابوساً. وراح يبحث عن
العزلة بين الجبال والحقول. لكنه في كل الأماكن التي هرب إليها لم يستطع أن يطرد أفكاره عن أميلي Amelie
ووجده لها وعشقه إياها. يا للعار، لقد كان معذباً بسبب رغبته في الذهاب إليها والاعتراف لها بحبه، فقرر أن يقتل
نفسه. وأسست أميلي بقراره (حدثها قلبها بقراره هذا) فأسرت إلى باريس ووجدته وعانقته بشدة وضمته إليها،

وغطت جبهته بالقبلات. وأعقب ذلك ثلاثة أشهر من الرفقة والصدقة والسعادة المنضبطة (المقيّدة)، ثم غلبها الندم فهربت إلى أحد الأديرة وتركت له كلمة تريح بها مشاعره، كما تركت له كل ثروتها، وبحث عنها وتوسل للحديث معها ولم تُرد أن تُرثه. وعندما كانت على وشك أن تُوفي نذرها ذهب إليها في مصلاها في الكنيسة ورُكع إلى جوارها وسمعها وهي ساجدة أمام مذبح الكنيسة، تتوسل إلى الله قائل: يا رحيم لا تدعني أقوم من هذا السرير الكئيب واشمل برحمتك أخي الذي لم يشاركني أبداً في عواطف الأئمة ولم ير أي منهما الآخر مرة أخرى. وواصل تفكيره في الانتحار لكنه قرر أن يتحمل الأثمة بأن يعيش. لقد وجدتُ في المعاناة نوعاً من التكفير. لقد اكتشفتُ أن الأسي (الندم) ليس شعوراً ينتهي انه في هذا ليس كالسورور.. إن نزوعي إلى الحزن والانقباض أصبح يملأ كل لحظات حياتي. لقد انغمس قلبي تماماً وبشكل طبيعي في السأم والضجر والملل والبؤس (711) وقد أصبحت عباراته هذه شاهداً تقليدياً يتم الاستشهاد به عند الحديث عن الحزن الرومانسي. لقد قرر أن يضيع في أمريكا ويعيش حياة بسيطة كالتي تعيشها إحدى القبائل الهندية الأمريكية، هروباً من أمراض الحضارة. ووبخه أحد المبشرين لتفوقه وانعزاله ودوام تفكيره في نفسه وأمره بالعودة إلى فرنسا ليظهر نفسه بخدمة الجنس البشري. وعلى أية حال فقد مات بعد ذلك كل من رينيه Rene وشاكتاس Chactas في مذابح جرت في كل من فرنسا (حيث قُتل رينيه) وفي لوزيانا بالولايات المتحدة (حيث قُتل أفراد قبيلة ناتشز Natchea التي منها شاكتاس الهندي الأمريكي).

إنها قصة جيدة لولا أن أحداثها وطريقة التعبير عن المشاعر والعواطف فيها تتسم بالمبالغة. لكن المشاعر كانت قد ماتت منذ عقد من الزمان كما كان الحزن خطيراً وعميقاً فجعت الدموع، أما الآن فقد انتهت الثورة وتم استعادة الأمن، فأصبحت المشاعر حرة وأن للدموع أن تنهمر. إن أحزان رينيه - كرجع لصدى ويرثر Werther عبر جيل - أصبحت من سمات رينيه دي شاتوبريان، وانعكس تأثيرها في أوبرمان Obermann التي وضعها سيناكور Senacour في سنة 4081، وظهر أثرها أيضاً في رحلة شيلد هارولد إلى الديار المقدسة Childe Harold ص (3181 Pilgrimage) وويخ شاتوبريان الكاتب بايرون Byron لعدم اعترافه بما هو مدين به (811). لقد أصاب هذا الكتيب جيلاً كاملاً بمرض العصر mal de siecle. لقد أصبح نموذجاً تحتذيه آلاف وربما مئات الآلاف من الحكايات الحزينة التي يطلق على بطلها (الشخصية الرئيسية فيها) اسم الراوي (رومانسيير romancier) وربما كان اسم الحركة الرومانسية مشتقاً منها. وقد سادت هذه الحركة الفنون والآداب في فرنسا مدة نصف قرن.

4\5 شاتوبريان و نابليون

قال نابليون إن كتاب عيرقية المسيحية عمل من رصاص وذهب، وإن كان الذهب فيه أكثر.. إن كل ما هو عظيم ووطني في شخصية الإنسان لا بد أن يعترف بعيرقية شاتوبريان (911) وقد رحب نابليون من جانبه بالكتاب باعتباره متفقاً بشكل يدعو للعجب مع الكونكوردات البابوي (الاتفاق مع البابا)، ورتب نابليون لقاء مع المؤلف واعترف به كشخص مهم ذي قيمة وعينه في سنة 3081 كسكرتير أول في السفارة الفرنسية في روما. وقد كتب المؤلف عن هذا اللقاء بتواضع وفخر: لم يكن بهم نابليون كثيراً ألا يكون لدي خبرة في الشؤون العامة، فأنا لم أتمرس إطلاقاً في الشؤون السياسية العملية، لكنه - أي نابليون - كان يعتقد أن بعض العقول قادرة على الفهم وليست في حاجة للتدريب (021) وسرعان ما لحفته خليلته إلى روما إلا أنها - على أية حال - سرعان ما ماتت (5 نوفمبر) وشاتوبريان إلى جوارها، وكانت قد طلبت منه العودة إلى زوجته قبيل وفاتها. وسرعان ما أصبح شاتوبريان شخصاً مقبولاً لدى البابا، وشخصاً مزعجاً لدى السفير كاردينال فيش Cardinal Fesch خال نابليون الذي اشتكى من أن المؤلف الألمعي يتعدى على صلاحيات السفير. ولم يكن الكاردينال بالرجل الذي يسمح بذلك وطلب اعفائه، فاستدعى نابليون الفيكونت وعينه متابعاً للأمر في جمهوري فالي Valais السويسرية الصغيرة. وذهب شاتوبريان إلى باريس لكن عند سماع خبر إعدام دوق دينين Duc d'Enghien أرسل لنابليون استقالته من الخدمة في السلك الدبلوماسي: عندما جرؤت على التخلي عن نابليون (ترك العمل معه) وضعت نفسي في مكان المساوي له (جعلتُ نفسي كُفواً له) فتوجه نحو بكل قوة غدره... وكنت في بعض الأحيان منجذباً إليه للمناصب الإدارية التي كان يغرني بها وبفكرة أنني شاهد على تحول في المجتمع وليس مجرد تغيير في الأسرات الحاكمة، لكن طبيعة كل منا المختلفة عن طبيعة الآخر في جوانب كثيرة كان لها دوماً اليد العليا. وإذا كان هو (نابليون) سيكون سعيداً إن جعلني أعدم بإطلاق النار علي، فإنني أيضاً لم أكن لأشعر بوخز شديد في ضميري إن رأيتُه مقتولاً (121).

ولم يلحق بشاتوبريان ضرر عاجل. لقد انشغل عن السياسة بمرض زوجته (التي أحبها فترات علاقته الغرامية) وبموت أخته لوسيل (4081). وفي هذه الأثناء اتخذ من دلفين دي كوستين Delphine de Custine خليلته له. وفي سنة 6081 سعى ليُحل محلها ناتالي دي نوال Natalie de Noailles التي اشترطت قيامه برحلة للأماكن المقدسة في فلسطين (221). فترك زوجته في البندقية (فينيسيا) وذهب إلى كورفو Corfu فأثينا فسميرنا Smyrna فالقسطنطينية (استانبول) فالقدس، وعاد عن طريق الاسكندرية، فقرطاجة فأسبانيا ووصل إلى باريس في يونيو 7081. ولقد أظهر شجاعة وقوة احتمال في جولته الشاقة، وكان أثناء الطريق يجمع بجد ومثابرة مواد لكتابين عزّرا شهرته الأدبية: الكتاب الأول عن الشهداء (Les Martyrs de Diocletien 9081) والكتاب الثاني عن رحلته للقدس (Itineraire de Paris a Jerusalem 1181).

وبينما كان يُعد لهذين المجلدين أظهر عداءه لنابليون (الذي كان يتفاوض في تيلست Tilist للوصول إلى سلام) بكتابة مقال في جريدة Mercure de France (ميركيور دي فرانس، والعبارة تعني المؤشر الزئبقي لفرنسا) وفي 4 يوليو سنة 7081. حقيقة أن هذا المقال كان عن نيرون Nero وتاكيوتوس Tacitus لكنه كان ينطبق بالفعل على نابليون وشاتوبريان:

في الصمت الدليل عندما لا تسمع تهديداً فلتنفك أغلال العبد، ولتطلق حجرة الراوي (المؤرخ)، وعندما تكون الرجفة من الطاغية، ويصبح رضاه وسخطه خطراً على نحو سواء، هنا يظهر المؤرخ ويصبح مؤتمناً على مهمة الانتقام للأمة. لقد كان ازدهار نيرون ونجاحه عبثاً (بلا جدوى) لأن تاكيوتوس Tacitus كان بالفعل موجوداً في أنحاء الإمبراطورية (المقصود موجوداً بفكره وكتابه). لقد نشأ مغموراً (غير معروف) إلى جانب بقايا جيرمانيكوس Germanicus وكان الله العادل قد سلم بالفعل لطفل غامض (المقصود نيرون) مجد سيادة العالم. إذا كان دور المؤرخ دوراً عادلاً، فغالباً ما يتعرض للأخطار، لكن هناك مذابح altars (أي أماكن للعبادة) كما أن هناك ميادين للمجد، ومع أن هذه المذابح (أماكن العبادة) مهجورة (لا يرتادها كثيرون) إلا أنها تحتاج لمزيد من التضحيات. فحيثما توجد فرصة الثروة لا تجد مؤرخاً يحاول الاستحواذ عليها. فالأعمال التي تتسم برحابة الصدر وسعة التفكير هي الأعمال التي نتيجتها التي يمكن التنبؤ بها هي المحنة والموت. ومع ذلك ماذا لو سبب ذكر اسمنا - الذي تردده الأجيال - طعنة في قلب كريم واحد، بعد ألفي عام من موتنا؟ (321).

وعند عودة دنابليون من تيلسيت Tilsit أمر تاكيوتوس (المقصود شاتوبريان) بمغادرة باريس وتم تحذير صحيفة الميركيور Mecure من نشر مقالات أخرى له، وأصبح شاتوبريان مدافعاً متحمساً عن حرية الصحافة. وعاد إلى عقار كان قد اشتراه في وادي لوب Valee - aux Loups في شاتيني Chatenay وعكف على إعداد كتابه عن الشهداء للنشر، وشطب من مخطوطة الكتاب الفقرات التي قد تُفسر على أنها تحط من قدر نابليون. وفي سنة 9081 تم القبض على أخيه أمان Armand لنقله رسائل من أمراء البوربون خارج فرنسا لأعوانهم في الداخل. وكتب شاتوبريان إلى نابليون طالباً الرحمة لأخيه، ووجد نابليون أن الخطاب ينم عند اعتداد شديد بالنفس فألقاه في النار، وحُكِمَ أمان وأدين وأعدم بإطلاق النار عليه في 13 مارس. ووصل شاتوبريان بعد لحظات قليلة من إعدامه، ولم ينس أبداً المشهد: أمان الميت وقد مزقت الرصاصات جمجمته ووجهه وقلب الجزار يلحق دمه ومخه (421). لقد كان هذا هو يوم الجمعة الحزينة Good Friday في سنة 9081.

ودفن شاتوبريان أحزانه بانعزاله والإعداد لكتابه مذكرات من القبر Memoirs d lutre - tombe، وقد بدأ في كتابة مذكراته هذه في سنة 1181، وكان يكتب هذا العمل بشكل متقطع ليأنس إلى نفسه ويستريح من عناء الرحلة والسياسة، وكتب آخر صفحة منها سنة 1481 ومنع نشرها إلا بعد موته ليصبح عنوانها مذكرات القبر. لقد كانت مذكرات جسورة الفكر، طفولية المشاعر، رائعة الأسلوب. وهنا - على سبيل المثال - نجد اسراع حشود من عينهم نابليون إلى لويس الثامن عشر ليُقسموا يمين الولاء الأبدى له، بعد سقوط نابليون دخلت الرذيلة مستندة إلى ذراع الجريمة - السيد تاليران يسير متسنداً إلى السيد فوشيه (Fouche 521)، إننا نجد هنا في هذه الصفحات المكتوبة بروية وصفاً للطبيعة البشرية يضارع ما هو مكتوب في قصته أتالا Atala وقصة رينيه Rene، نجد فيها أحداثاً زخرة كأحداث حرق موسكو (621). إنها صفحات عامرة بوصف المشاعر:

الأرض أمنا الحنون. لقد أتينا من رحمها. في طفولتنا ضممتنا إلى صدرها الذي يفيض لبناً وعسلاً، وفي شبابتنا ورجولتنا أفاضت علينا بالماء البارد والمحاصيل والفاكهة... وعندما نموت تفتح صدرها لنا مرة أخرى وتلقي علينا غطاء من حشائش وورود، بينما هي تحول أجسادنا بشكل سرى إلى تراب لنكون من جوهرها، فنتمو من جديد بشكل آخر جميل (721).

وبين الحين والحين تومض الفلسفة في كتاباته، لكنها عادة ما تكون متشائمة: التاريخ يعيد نفسه فهو ليس إلا تكراراً للحقائق نفسها وإن اختلف الناس والزمن (821) إن مذكرات من القبر هو أكثر أعمال شاتوبريان بقاءً.

لقد ظل حتى سنة 4181 يعيش في الريف إلى أن أعادته القوات المتحالفة ضد نابليون - بعد انتصارها - إلى فرنسا. هل سيؤدي تقدمهم - كما حدث في سنة 2971 - إلى ثورة الشعب الفرنسي ومقاومته البطولية؟ في الذكرى السنوية الخامسة لإعدام أمان Armand أصدر شاتوبريان نشرة قويّة تحمل عنوان عن بونايرت والبوربون De Bunaparte et des Bourbons انتشرت في فرنسا أثناء تراجع نابليون. وقد أكد المؤلف للأمة أن الرب نفسه يسير على رأس قوات الجيوش المتحالفة ضد نابليون ويجلس في مجلس (اجتماع) الملوك Concil of the Kings(921). لقد عرض اساءات نابليون - إعدام انجهين Enghein وكادودال Cadoudal و تعذيب بيشجرو Pichegru واغتياه وسجن البابا... وهذه الأخلاق التي جلبها بونايرت (كتب بونايرت بالهجاء الإيطالي Buchjaparte) غريبة على الطبيعة الفرنسية(031). إن حكماً كثيرين قد قمعوا حرية الصحافة وحرية الكلام، لكن نابليون تمادى إلى أبعد من ذلك فأمر الصحافة بامتداحه مهما كان هذا على حساب الحقيقة. إن الضرائب التي جمعها لم يكن يستحقها فقد جعل من الاستبداد علماً ومن الضرائب مصادرة ومن التجنيد الاجباري مجزرة. لقد مات في معركة روسيا وحدها 342,006 مقاتل بعد معاناة شديدة بينما كان قائدهم (نابليون) في مأمن يأكل أحسن الطعام وتخلّى عن جيشه هارباً إلى باريس(131). كم كان لويس السادس عشر نبيلاً وإنساناً بالمقارنة به!! وكما سأل نابليون أعضاء حكومة الإدارة في سنة 9971: ماذا فعلتم بفرنسا التي كانت متألّفة يوم تركتها؟ فكذلك الآن يوجه كل البشر السؤال نفسه لنابليون:

إن البشر جميعاً يتهمونك (أي يتهمون نابليون)، طالبين الثأر منك باسم الدين والأخلاق والحرية. أي مكان لم تنشر فيه الخراب؟ في أي بقعة من بقاع العالم نجت أسرة من دمارك وسلبك ونهبك؟ إن اسبانيا وإيطاليا والنمسا وألمانيا وروسيا تطالبك بأبنائها الذين نحرتهم وبصورها ومعابدها وخيامها التي أضمرت فيها النار، إن العالم كله يُعلن أنك أكبر مجرم على ظهر البسيطة... إنك أنت الذي أردت في عصرك الحضارة والتتوير أن تحكم بسيف أتيليا Attila وحكمة نيرون. فلتسلّم الآن صولجانك الحديدي ولتنزل الآن من فوق ركام الخراب الذي جعلته عرشاً لك! إننا نظردك كما طردت حكومة الإدارة. اذهب - إن استطعت - فعقابك الوحيد هو أن ترى الفرحة لسقوطك تعم فرنسا، وأن تتأمل وأنت تذرف دموع الغيظ - مدى سعادة الناس.

والآن من الذي سيحل محله؟ إنه ملك أتى من أسرة نبيلة، نبيل مقدّس بالمولد، نبيل في شخصيته - إنه لويس الثامن عشر، ملك معروف بتتوّره وتحرره من الأحكام المُسبّقة (الظلم) وعدم اعترافه بالانتقام أي أنه متسامح إنه ملك أتى يحمل في يده عهداً بالعفو عن كل أعدائه. يا له من أمر رائع أن نرتاح أخيراً بعد كثير من الفوضى والإزعاج وسوء الطالع في ظل السلطة الأبوية لملك شرعي.. أيها الفرنسيون.. أيها الأصدقاء.. أيها الشركاء في المعاناة، دعونا ننسى معاركنا وكرهيتنا وأخطأنا لننقذ أرض الآباء. دعونا نتعانق فوق أطلال بلدنا العزيز.. وليساعدنا على ذلك وريث هنري الرابع Henry IV ولويس الرابع عشر.. عاش الملك(231) وليس غريباً أن يقول لويس الثامن عشر بعد ذلك أن هذه الصفحات الخمسين كانت تساوي عنده 000,001 جندي(331).

دعونا الآن نترك شاتوبريان للحظة. لقد كان قد انتهى دوره مع أنه بقي له من العمر 43 سنة كان عليه أن يعيشها بعد ذلك. وإن عليه أن يلعب دوراً فعالاً في سياسات ما بعد عودة الملكية، وكان أمامه وقت لجمع مزيد من الخيالات وانتهى أخيراً بين ذراعي مدام ريساميه التي ودّعت الجمال واشتغلت بأعمال الخير وراح يقضي وقتاً يتزايد شيئاً فشيئاً في كتابة مذكراته. والآن فإن عدوّ نابليون سجين في جزيرة بعيدة وهي نفسها - أي الجزيرة - سجيناً مياها المحيط، لذا فقد كتب عنه كتابات أكثر اعتدالاً ساعد على اعتدالها مرور الوقت وما حققه (أي شاتوبريان) من انتصار. لقد كتب عنه 654 صفحة. وعاش شاتوبريان حتى سنة 8481 وشهد ثلاث ثورات فرنسية.

صفحة رقم : 14615

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> العلوم والفلسفة في ظل حكم نابليون -> الرياضيات والفيزياء

شهدت العلوم عصرًا من أزهى عصورها في عصر نابليون لقد كان هو نفسه أول حاكم في التاريخ الحديث تلقى تعليماً علمياً، وربما لم يتلق الاسكندر تلميذ أرسطو مثل هذه الخلفية العلمية العميقة التي تلقاها نابليون. لقد كان الفرنسيون الذين علموه في المدرس العسكرية في برين Brenne يعلمون ان العلم أكثر فائدة من اللاهوت لكسب المعارك، فدرّسوا للكورسيكي الشاب كل ما كانوا يعلمونه في الرياضيات و الفيزياء و الكيمياء و الجيولوجيا و الجغرافيا. وعندما وصل للسلطة أعاد التقليد الذي كان على أيام لويس الرابع عشر، بتقديم جوائز مالية و عينية لمن حققوا إنجازات ثقافية و قد قدم معظم هذه الجوائز للعلماء مستوحياً بذلك خلفيته العلمية، و مرة أخرى هذا حذو من سبقه فوسع مجال عطايه ليشمل غير الفرنسيين، ففي سنة 1081 دعا المعهد العلمي الفرنسي باسمه العالم أليساندرو فولتا Alessandro Volta للحضور إلى باريس ليعرض نظرياته عن التيار الكهربائي، و حضر فولتا بالفعل و حضر نابليون ثلاث محاضرات من محاضراته و قدّم لهذا الفيزيائي الإيطالي ميدالية ذهبية (1). وفي سنة 8081 أعطى جائزة الاكتشافات في مجال الكيمياء الكهربائية لهمفري ديفي Humphry Davy الذي حضر إلى باريس لتسلمها رغم أن فرنسا و إنجلترا كانا في حالة حرب (2). وكان نابليون يدعو بشكل دوري علماء المعهد العلمي الفرنسي ليجتمعوا به ليقدموا له تقريراً عن الأعمال التي قاموا بها أو الجاري العمل فيها في مختلف مجالات تخصصهم. وفي أحد هذه الاجتماعات، في 62 فبراير سنة 8081 تحدث سكرتير المعهد كوفيه Cuvier ببلاغة كلاسية رصينة كبلغة بوفون Buffon وكان يحق لنابليون أن يشعر أن العصر الذهبي للنشر الفرنسي قد عاد من جديد.

لقد تفوق الفرنسيون في العلوم البحتة مما جعل فرنسا أكثر الأمم عقلانية و تشككاً، أما الإنجليز فشجعوا العلوم التطبيقية و طوروا الصناعة و التجارة و الثروة. مما جعلهم سادة العالم في القرن التاسع عشر. وفي الحقبة الأولى من هذا القرن التاسع عشر خطا في الرياضيات خطوات واسعة كلٌّ من لاجرانج Lagrange وليجندر Legendre و لابلاس Laplace و مونج Monge و هذا الأخير كان صديقاً حميماً لنابليون و استمرت صداقتهما حتى الموت. لقد أسف لتحوّل القنصل إلى إمبراطور ولكنه تحمل ذلك بتسامح بل لقد سعد عندما جعله نابليون كونت بلوز Conte de Péluse، وربما كان بينهما سرٌّ أن البيلوزيوم Pelusium كان خرائب قديمة في مصر. وقد حزن عندما نفى نابليون إلى إلبا Elba و أظهر فرحه و سعادته علناً عند عودته. وقد أمر البوربونى العائد إلى ملكه المعهد الفرنسي بطرد مونج، فاستجاب المعهد للطلب، و عندما مات مونج في سنة 8181 أراد تلاميذه في مدرسة البوليتقنية [Ecole Polytechnique (التي ساعد في انشائها) في حضور جنازته لكنهم مُنعوا من ذلك، وفي اليوم التالي ذهبوا متجمّعين إلى قبره و وضعوا باقة من الزهور.

و قد تأثر لازار كارنو Lazare Carno بمونج عندما كان يدرس في الأكاديمية العسكرية في ميزيير Mezieres. و بعد أن عمل كمنسّق للنصر Organzer of Victroy في لجنة الأمن العام و هروبه مع زوجته من الانقلاب الراديكالي في 4 سبتمبر 7971، وجد أمنه و سلواه في الرياضيات. وفي سنة 3081 نشر كتابه انعكاسات على ميتافيزيقية حساب التفاضل و التكامل Reflexion sur la métaphysique du Calcul infinitesimal و بعد ذلك كتب مقالين آخرين وضع فيهما أسس علم الهندسة التركيبية Synthetic geometry. وفي سنة 6081 أحدث فرانسوا موليه Molein ثورة في مجاله بإدخاله نظام المدخلين في علم مسك الدفاتر إلى بنك فرنسا - وفي سنة

2181 التحق جان فيكتور بونسيل Jean Victor Poncelet - تلميذ مونج - بالجيش العظيم لغزو روسيا، فتم أسرُه، فشغل وقته في فترة حبسه في صياغة النظريات الأساسية في الهندسة الإسقاطية (الإسقاط الهندسي) Projective Geometry وكان وقتاً في الرابعة والعشرين من عمره.

الرياضيات هي أم العلوم ونموذجها الأمثل: فقد بدأت بالحساب وارتفعت إلى مستوى المعادلات. ومن خلال مثل هذه التقديرات الكمية دلت الفيزياء والكيمياء المهندس على ملاحظة العالم وفهمه، وفي بعض الأحيان - كما في حالة تصميم معبد أو جسر - قد تُثمرُ الرياضيات قنناً. ولم يكن جوزيف (يوسف) فورييه Fourire راضياً بطريقة أيرز (1081Isere) فأراد أيضاً تسجيل المعلومات عن توصيل الحرارة في صياغات رياضية دقيقة. فأجرى على مراحل، تجارب في جرينوبل Grenoble وطور، بل واستخدم ما يعرف الآن باسم متتاليات فورييه Fourier Series في المعادلات التفاضلية - ولا زالت معادلات فورييه التفاضلية هذه فعالة في مجال الرياضيات ولا تزال سرا غامضاً بالنسبة للمؤرخين. وقد أعلن اكتشافاته في سنة 7081 لكنه لم يعرض منهجه ونتائج بحثه في هذا المجال في كتابه نظرية تحليلية في الحرارة (2281Therorie Analytique de la Chaleur) الذي يعد واحداً من أكثر الكتب أهمية في القرن التاسع عشر (3) لقد كتب فورييه:

أثر الحرار موضوع لقوانين ظهرت باستمرار، ولا يمكن اكتشاف هذا الأثر دون الاستعانة بالتحليل الرياضي. وهدف النظرية التي علينا أن نشرحها هو عرض هذه القوانين وإظهارها. إن التحليل الرياضي يختصر كل البحوث الفيزيائية عن انتشار (امتداد) الحرارة في مسائل متعلقة بحساب النكامل، بعد اخضاع الانتشار الحراري للتجارب... وهذه الاعتبارات تقدم لنا مثلاً فريداً للعلاقة الموجودة بين الرياضيات، والقضايا (أو المسائل) الطبيعية (4).

والأكثر إثارة هي التجارب التي أجراها جوزيف لويس جاي لوزاك Lussac بهدف قياس أثر الارتفاع عن سطح البحر على المغناطيسية الأرضية وانتشار الغازات، ففي 61 سبتمبر صعد في بالون إلى ارتفاع 210,32 قدم، وأدت اكتشافاته التي كتب عنها تقريراً إلى المعهد العلمي الفرنسي في الفترة من 5081 إلى 9081 إلى وضعه بين مؤسسي علم الأرصاد الجوية (الميتيورولوجيا) كما أن دراساته (التي أتت بعد ذلك) عن البوتاسيوم والكلور والسيانوجين كانت تعد استمراراً لأبحاث لافوازييه وبيرثول Berthollet في جعل الكيمياء النظرية في خدمة الصناعة والحياة اليومية.

وكان الأكثر تأثيراً في العلوم الفيزيائية في عهد نابليون هو لابلاس Pierre Simon Laplace انه لم يكن يدري أنه كان أوسم رجل في مجلس الشيوخ الذي تم تعيينه فيه بعد فشله كوزير للداخلية. وفي سنة 6971 قَدَّم بأسلوب متأنق لكن ليفهمه العامة كتابة عن نظام الكون Exposition du Systeme du Monde تناول فيه نظريته السديمية (نظرية السديم الأعظم) عن أصل الكون. أما العمل الذي بذل فيه جهوداً أكثر روية فهو كتابه الصادر في خمسة مجلدات معالجة للميكانيكا الفلكية (9971Traite de mecanique Celeste - 5281). لقد وظف التطورات في مجال الرياضيات والفيزياء لتطبيقها على النظام الشمسي - وبالتالي أخضع كل الأجسام السماوية الأخرى لقوانين الحركة ومبدأ الجاذبية.

وكان نيوتن Newton قد ذكر ان بعض ما يبدو وكأنه عدم انضباط (عدم انتظام أو عدم خضوع لقاعدة) في حركة الكواكب السيارة - قد تحدى كل محاولاته لشرحها. فعلى سبيل المثال فإن مدار زُحل يتسع باستمرار وإن كان ببطء أو تمهل - حتى أنه إذا لم يتم وقف هذا الاتساع في المدار، فلابد أن يضيع (أي زُحل) في الفضاء اللانهائي. كما ان مدار المشتري (جوبيتر) ومدار القمر ينكمشان (يضيقان) ببطء، لذا فإنه - على المدى البعيد - لابد أن تمتص (تستوعب) الشمس كوكب المشتري، ولا بد ان تحدث مأساة بارتطاء القمر بالأرض. واستنتج نيوتن أن الله نفسه لابد أن يتدخل بين الحين والحين لتصحيح مثل هذا الخلل، لكن كثيرين من الفلكيين رفضوا هذا الفرض الباعث على اليأس باعتباره مناقضاً لمبادئ العلم والطبيعة، وذهب لابلاس إلى أن هذا التفاوت (عدم الانتظام) راجع إلى تأثيرات تُصحح نفسها بنفسها بشكل دوري وأن قليلاً من الصبر (في حالة المشتري 929 سنة) لازم لتعود الأمور لمسارها المنضبط. وانتهى إلى أنه ليس من سبب يدعونا للقول أن النظام الشمسي والنظام النجمي لن يستمرا حتى النهاية وفقاً للقوانين التي اكتشفها نيوتن ولا بلاس.

لقد كانت فكرة مهيبه مرعبة، تلك الفكرة القائلة بأن الكون آلة محكوم عليها أن تستمر وفقاً لرسم بياني لا يتغير، في حركة دائمة في السماء وإلى الأبد. لقد كان لهذه الفكرة أثر هائل في تطوير النظرة الميكانيكية للعقل (النفس) وللمادة على سواء وساهمت مع أفكار داروين Darwin في تقويض أساس اللاهوت المسيحي واضعافه. فالله - كما قال لابلاس لنابليون - لم يكن رغم كل شئ لازماً (أو لابد من وجوده كضرورة) واعتقد نابليون أن هذا الافتراض غير واضح أو أنه غائم أو غامض بعض الشيء، بل أن لابلاس نفسه أتى عليه حين بدأ فيه يتشكك فيما كان هو نفسه قد قال به في وقت من الأوقات (تراجع عن رأيه). وكان يتوقف بين الحين والحين عن بحثه عن النظام الشمسي والنجمي ليكتب نظرية تحليلية عن الاحتمالات (2181Theorie analytique des probabilities - 0281). وفي نهاية عمره ذكر زملاءه العلماء أن ما نعرفه قليل وأن ما لا نعرفه هائل (5).

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> العلوم والفلسفة في ظل حكم نابليون -> الطب

2- الطب

ويمكن للأطباء أن يتحدثوا أيضاً عن نابليون برضاً تام. وهو لم يتخلّ أبداً عن أمله في اقناع طبيبه أن العقاقير (الأدوية) ضررها أكثر من نفعها وأنهم سيعذبون يوم القيامة لأن أعداد من تسببوا في قتلهم تفوق أعداد من راحوا ضحية حروب الجنرالات. وكان الدكتور كورفيزار Corvisart الذي أحب نابليون يسمع مزاحه صابراً، وقد انتقم الدكتور أنتومارشى Antommarchi من سخرية نابليون بأن راح يعطيه حقنه شرجية إثر أخرى، وكان نابليون حال تلقيه هذه الحقن الشرجية قد اقترب من الموت، وكان الدكتور الأنف ذكره يعتقد أنه يستحق (يستاهل) هذه الحقن. ويتضح مدى تقدير نابليون لعمل الأطباء المخلصين الأكفاء من أنه أوصى بمئة ألف فرنك للجراح الدومينيكاني الفاضل لريّ (Larrey 6671- 2481) الذي صحب الجيش الفرنسي إلى مصر وروسيا وواترلو والذي كان يسارع لتقديم المساعدة السريعة للجرحى، وأنجز مئتي عملية بتر في يوم واحد في بورودينو Borodino وترك لنا أربعة مجلدات عن العمليات الجراحية أثناء الحروب والمعارك Memoires de Chirurgie militaire (1781- 7181) (15).

ولم يخطئ نابليون عندما اختار جان - نيكولا كورفيزار كطبيب خاص له. فقد كان استاذاً للطب التطبيقي في الكوليج دي فرانس Collège de France حريصاً عند التشخيص حذراً عند وصف الدواء. لقد كان هو أول طبيب فرنسي يفحص مرضاه بدق الأصابع Percussion (طريقه في التشخيص) - بزل الصدر - كوسيلة تشخيصية معينة في حالة أمراض القلب أو الرئتين. وكان قد قرأ عن هذه الطريقة في كتاب ليوبولد أونبرجر Leopold Auenbrugger من أهل فيينا بعنوان طريقة جديدة للتشخيص بقرع الأصابع (Inventum novum ex Percussione 9971) وترجم كورفيزار إلى الفرنسية هذه الدراسة المكونة من 59 صفحة وأضاف إليها خبراته وشرحها في كتاب تعليمي في 044 صفحة (6). وأدى نشر مقاله عن الأمراض والأفاق العضوية في القلب... إلخ Essai sur les maladies et les

lesions Organiques du Coeur et des gros Vaisseaux إلى اعتباره أحد المؤسسين الكبار لعلم التشريح الباثولوجي (المرضي) وبعد ذلك بعام انتقل إلى المقر الإمبراطوري كطبيب مقيم، واعتاد الإمبراطور الصعب أن يقول أنه لا يؤمن بالطب لكنه يعتقد في كفاءة كورفيزار (7). وعندما نفى نابليون في سانت هيلانة انسحب كورفيزار ليعيش مغموراً في الريف، ومات وهو باق على إخلاصه في العام نفسه الذي مات فيه نابليون (1281). وأجرى تلميذه رينيه - نيوفيل لينك Rene Theophile laennec مزيد من التجارب على طريقة الفحص بالتسمّع auscultation (الكلمة حرفياً تعني الإصغاء) وقد استخدم في محاولته الأولى اسطوانتين يوضع طرف كل منهما على جسد المريض وطرف كل منهما الآخر عند أذن الطبيب الذي يفحص بهذه الطريقة الصدر (Seeing the Chest) والمقصود يتسمّع الصدر Stethos بأذنيه، فالأصوات الصادرة عن الأعضاء الداخلية - كما في حالة التنفس والكحة والهضم يمكن سماعها واضحة غير مختلطة بأصوات أخرى تتوشّش على معناها، ولمساعدة هذه الأداة واصل لينيّ Laennec أبحاثه ولخص نتائجها في بحث عن استخدام طريقة التسمّع في التشخيص - Traite a Laus (9181) Cutation mediate الذي طبع طبعة ثانية في سنة 6281 ووصف هذا المبحث في طبعته الجديدة بأنه

أهم بحث كُتب في أعضاء الصدر (8) وظل وصفه لمرض التهاب الرئة (ذات الرئة) مصدراً تقليدياً حتى القرن العشرين (9). وكان الانجاز البارز للطب الفرنسي في هذه الفترة هو الطريقة الإنسانية في معالجة المجانين وطريقة معاملتهم. وفي سنة 1971 عندما تم تعيين فيليب بينل Philippe Pinel مشرفاً طبياً على اليمارستان (مستشفى الأمراض العقلية) الذي كان ريشيليو Richelieu قد أسسه في ضاحية بيكتر Bictre - صدم عندما وجد أن حقوق الانسان التي اعلنتها الثورة بثقة لا وجود لها بالنسبة للمرضى العقليين المحجوزين هنا أو في اليمارستان الآخر - سالبترييه Salpetriere، فكثير من النزلاء كانوا مقيدون بالسلاسل حتى لا يؤذوا الآخرين أو أنفسهم كما كان يتم تهدئة كثيرين منهم بقصد دمانهم بشكل متتابع أو بتقديم أدوية منومة لهم، وأي نزيل جديد (ليس من الضروري أن يكون مجنوناً) ربما كان مزعجاً - لا غير - لأهله أو للحكومة) يُزج به في المارستان ويُترك عرضة للتلف البدني بتعرضه للعدوى أو المرض العقلي (النفسي) كمدأ وحنناً. والنتيجة جمع من غريبي الأطوار المحققين بغباء اليائسين يظهرون في المناسبات للتسول من العامة. وقد ذهب بينل Pinel بنفسه للمؤتمر الوطني ليطلب الصلاحيات لمحاولة تخفيف الوضع. لقد فك القيود، وقلل عدد مرات فصد الدم وعدد جرعات الأدوية (المهدئة)، وأطلق صراح المرضى في الهواء المنعش وأمر الحراس ألا يعاملوا المجانين كمجرمين ارتكبوا جرائم سرية حقت عليهم بسببها لعنة الله وإنما كمرضى يمكن شفواؤهم بتحسين أحوالهم ورعايتهم بصبر. وقد صاغ وجهات نظره ونظامه هذا في مبحث كُتب له البقاء بعنوان () (1081 Traite medico - philosophique sur alienation mentale)، وكان لهذا العنوان أكثر من دلالة، إذ كان يقصد ما ذهب إليه أبقراط من أن الطبيب إذا جمع بين علم العالم والفهم السوي الذي يتحلى به الفيلسوف أصبح هو النموذج والمثال. قال أبقراط الطبيب محب الحكمة مساوياً للأرباب (01).

صفحة رقم : 14617

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> العلوم والفلسفة في ظل حكم نابليون -> البيولوجيا

3- البيولوجيا

(علم الأحياء)

3 slash كوفيه

بلغ كوفيه النهى وأصبح على رأس أفرانه رغم انه كان بروستنتنيا في بلد كاثوليكي، وقد شغل منصباً سياسياً رفيعاً بل وأصبح عضواً في مجلس الدولة (4181) فقد رفع نابليون من شأن كثير من العلماء في عهده، واحتفظ كوفيه بمكانه في مجلس الدولة في عهد البوريون العائدين للحكم وأصبح رئيساً للمجلس ونائب فرنسا (apeer of France) في سنة 0381. وعندما مات (2381) كان قد حاز الشرف في كل أنحاء أوروبا باعتباره مؤسساً لعلم البالونتولوجيا (علم أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة) وعلم التشريح المقارن كما أنه جعل البيولوجيا (علم الأحياء) مفهومة للعقل الأوروبي وقادرة على التغيير.

وكان أبوه ضابطاً في كتيبة سويسرية فازت بوسام الاستحقاق (الجدارة) وتزوج أبوه في الخمسين من عمره من زوجة شابة رعت بحب واهتمام ابنه من الناحيتين البدنية والعقلية (النفسية) وكان ابنه هذا هو جورج - ليوبولد - شريتي (Georges Leopold - Chretien)، لقد كانت تراجع واجباته المدرسية وهو طالب وتجعله يقرأ لها كلاسيات الأدب والتاريخ، فتعلم كوفيه ان يكون فصيحاً إذا كان الحديث عن الرخويات (كالمحار والبسديج والحلزونات) والديدان. وكان لديه من المال ليقدمه للأكاديمية التي كان شارلز يوجين Charles Eugene دوق فيرتمبرج Wurttemberg قد أسسها في ستوتجارت Stuttgart حيث يقوم ثمانون معلماً بتعليم أربعمئة طالب مختار. وفي هذه الأكاديمية قُتِنَ لفترة بكتابات لينوس Linnaeus وقُتِنَ بشكل دائم بكتاب بُو Buffon: التاريخ الطبيعي Histoire naturelle. وتخرّج من الأكاديمية وحصل منها على كثير من الجوائز لكن لم يكن لديه أي إرث يُتيح له تموين مزيد من الدراسة فعمل معلماً خصوصياً لدى أسرة تعيش بالقرب من فيكامب Fecamp على القنال الإنجليزي. وجذب اهتمامه بعض الأحفورات (البقايا المتحجرة من عصور جيولوجية سالفة) قد ظهرت عليها - بكل معنى الكلمة - بقايا حياة نباتية وحيوانية لعصور ما قبل التاريخ. كما فتنته بعض الأصداف (المحارات) المتجمعة من البحر بتباين تكوينها الداخلي وأشكالها الخارجية حتى أنه اقترح من خلالها تصنيفاً جديداً للكائنات الحية وفقاً لتركيبتها واختلافها أو بتعبير آخر وفقاً لطبيعة تكوينها واختلاف كل نوع منها عن النوع الآخر. ومن هذه البداية طُوِّرَ معلومات عن الأحفورات وأشكال الحياة لم يكن لها نظير قبله وربما لم يحدث بعده أن ظهرت معلومات على الدرجة نفسها من القيمة. لقد عكف بشغف وحب استطلاع ودأب لا يكل ولا يمل.

ووصلت أخبار عن علمه وتطبيقاته إلى باريس وحظي بتوصيات مفيدة من أولئك الذين سينافسونه مستقبلاً، سانت هيلار Saint - Hilaire ولامارك Lamarck وجعلته هذه التوصيات ينال استاذية علم التشريح المقارن وهو في سن السابعة والعشرين (6971) في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي. ونشر وهو في الواحدة والثلاثين كتاباً يُعد واحداً من كلاسيات العلوم في فرنسا دروس في علم التشريح المقارن Lecons d'anatomie Comparee وحتى الثالثة والثلاثين أصبح أستاذاً أساسياً (باحثاً معترفاً به) في حديقة النباتات (جاردين دي بلانت Jardin des Plants)، وفي الرابعة والثلاثين أصبح سكرتيراً دائماً (أي مديراً تنفيذياً) لقسم العلوم الفيزيائية والطبيعية في المعهد الوطني. وفي هذه الأثناء (2081) كثرت أسفاره كمنسوب للمعهد في مهمة إعادة تنظيم التعليم الثانوي. ورغم واجباته كمعلم وإداري فقد واصل أبحاثه مستعيناً ببعض المتعاونين معه لدراسة وتصنيف كل أنواع النبات والحيوان التي حفظت الأحفورات بقاياها أو التي لا تزال حية تدب على الأرض أو تعيش في البحر. وكتابه التاريخ الطبيعي للأسماك (Histoire naturelle des Poissons 8281-1381) يصف لنا خمسة آلاف نوع من السمك. وأبحاثه عن أحفورات ذوات الأربع (Recherches sur assewents des quadrupedes 2181 - 5281) تكاد تكون قد أوجدت علم أحفورات الثدييات. إن هذا البحث يضم وصف كوفيه للليل الأول الغامض وقد أسماه الماموث mammoth والذي تم العثور على بقاياه (2081) مدفونة تحت كتل جليدية ظلت متجمدة بشكل دائم في سيبيريا وظلت محفوظة بشكل جيد حتى أن الكلاب أكلت من لحمها بعد إذابة الجليد الذي فوقها (11). وفي واحد من مجلداته هذه شرح كوفيه مبدأه العلمي عن اتصال الأجزاء وعن طريق هذا المبدأ فكر في إعادة بناء نوع محدد بدراسة عظمة واحدة تكون باقية من أحد أفرادها (أي أفراد هذا النوع).

كل فرد سوي (المقصود فرد من النوع أي كان هذا النوع) يكون نظاماً (نسفاً) كاملاً، فكل أجزائه تتواصل بشكل طبيعي، وتعمل في الوقت نفسه لتحقيق هدف محدد بعينه عن طريق ردود فعل تبادلية، أو عن طريق العمل المشترك الذي يصل إلى غاية واحدة. ومن هنا فإن أيّاً من هذه الأجزاء المنفصلة لا يمكن أن يُعَيَّرَ شكله دون تغيير يتم بالاتفاق مع الأجزاء الأخرى في الكائن الحي نفسه (الحيوان) وعلى هذا فإن كل جزء من هذه الأجزاء - إذا تمت دراسته بشكل منفصل - يشير إلى كل الأجزاء الأخرى في الكيان (الفرد) الذي ينتمي إليه. وعلى هذا... إذا كانت أمعاء حيوان منضبطة لتكون ملائمة فقط لهضم اللحوم الطازجة، فإن هذا يتطلب أن يكون الفكك مهياً لالتهام الفريسة وأن تكون الأسنان مهياً لتقطيع لحمها، وأن يكون نظام الأطراف كله، أو سائر أعضاء الحركة مهياً لنتبع الفريسة وإدراكها، وأن تكون الحواس مهياً لاكتشافها - أي الفريسة - عن بُعد... وإذا كنا قد استنتجنا كل ذلك من دراستنا للأمعاء، فالأمر

أيضاً ينطبق على المخالب والعظام الكتفية والنتوءات المفصالية وعظم الذراع أو أي عظام منفصلة، فكل هذه الأجزاء تمكننا من اكتشاف وصف الأسنان في الحيوان الذي تنتمي إليه، وعلى نحو تبادلي يمكننا أن نعرف عن عظام هذا الكائن بدراسة أسنانه. وعلى هذا فإن بدأنا دراستنا بتمعن عظمة واحدة من الكائن الحي أمكننا أن كنا على قدر كافٍ من العلم بالتكوين العضوي للحيوان، إعادة تشكيل أو تكون (أو تصور) هذا الكائن الحي - الذي أتت منه هذه العظمة - بشكل كامل(21).

وفي سنة 1781 ومن خلال عمله في ماموث آخر قدّم لنا كوفييه في مبحثه *La Regne animal distribue* ص *apres son organization* تصنيفه للحيوانات في فقاريات، ورخويات ومفصليات واشعاعيات *radiates* وعمد إلى شرح تعاقب طبقات الأحفورات بإرجاعها إلى انقراض منات الأنواع بسبب اضطرابات أرضية شديدة. أما عن أصل الأنواع فقد قبل النظرة التقليدية السائدة وقتئذ والتي مؤداها أن الله خلق كل نوع على حدة (أي لم يتطور نوع من نوع آخر) لأن تباينها ناتج عن التوجيه الإلهي لئلا يعم كل كائن عضوي مع بيئته، وأن هذا التباين بين الأنواع لا يمكن أن يُنتج أنواعاً جديدة. ولقد انشغل كوفييه في مناقشة هذه الأمور وغيرها طوال عامين قبل وفاته، وكانت مناقشاته قد حققت شهرة كبيرة بدت لجوته أهم أحداث التاريخ الأوروبي في سنة 1831. وكان إيتين جيوفروي سانت هيلار *Etienne Geoffroy Saint Hilaire* هو مناوئته ممن بقوا على قيد الحياة قد بنى نظريته على تحوّل العضو الحي وتطور الأنواع معارضاً بذلك كافييه الذي لا يزال أعظم علماء البيولوجيا (علم الأحياء).

3\2 لامارك

من السهل أن نحب لامارك لنضاله ضد الفقر في شبابه، ولنضاله في فترة نضجه ضد كافييه الذي حقق شهرة عالمية، ولنضاله ضد العمى والفقر في شيخوخته، وأكثر من هذا لأنه ترك لنا نظريته عن أسباب التطور وطرقه، تلك النظرية الأكثر قبولا لرقبتها وتخلصها الرفيق من نظرية الاختيار الطبيعي القاسية التي قدمها لنا دارون المهذب. ومثل معظم الفرنسيين حمل لامارك جيشاً من الأسماء. انه جان - بابتيست - بيير - أنطوان دي مونت - فارس لامارك *Jean - Baptiste - Pierre - Antoine de Monet, Chavelier de Lamarck* وكان الابن الحادي عشر لأب عسكري استطاع تدبير مناصب عسكرية لكل أبنائه ما عدا الأخير الذي أرسله إلى كلية من كليات الجزويتيين (اليسوعيين) في اميان *Ameiens*... وغار من اخوته بأسلحتهم وخيولهم فترك الكلية فأنفق مخصصاته في شراء حصان هرم وانطلق إلى أسانيا محارباً. لقد حارب ببسالة، لكن مجاله البطولي انتهى بجرح في رقبته أثناء مباريات في المعسكر، وكانت هزيمته في المباراة مخزية، فذهب ليعمل ككاتب في بنك ودرس الطب وقابل روسو واهتم بالنباتات وراح يتتبعها ويدرسها طوال تسع سنين ونشر في سنة 1771 كتابه عن النباتات في فرنسا *Flore francaise* وقيل بعد أن أوشكت موارده الاقتصادية على النفاد أن يعمل كمعلم خصوصي لأولاد بّو *Buffon*، ولو حتى مقابل انتهاء فرصة مقابلة هذا العجوز المخضرم. وعندما مات بّو (1781) قبل لامارك عملاً متواضعاً كأمين لمخزن الأعشاب في الحديقة الملكية *Jardin du roi* (جاردين دي روي) في باريس وبعد اقالة الملك تحول اسمها بناء على اقتراح لامارك إلى حديقة النباتات. ولأن الحديقة كانت تضم أيضاً مجموعات حيوانية فقد أطلق لامارك مصطلح البيولوجيا على العلم الذي يدرس كل الأحياء من نبات وحيوان. وكلما اتسعت دائرة اهتمامه لتشمل الحيوانات إلى جانب النباتات، ترك دراسة الفقاريات لكوفييه وأخذ على عاتقه دراسة الحيوانات التي ليس لها عمود فقري وأطلق عليها اسم اللافقاريات *invertebres*. وبحلول عام 1781 توصل لأفكار أصلية فشرحها في مبحثيه: نظام اللافقاريات *Systeme des animaux sans vertebres* وفلسفة عالم الحيوان *Philosophie Zoologique*. ورغم تدهور قدرته على الإبصار، فقد واصل دراساته وكتاباته مستعيناً باخته الكبرى وبيير أندريه لاتريل *Pierre Andre Latreille*. وفي الفترة من 1781 إلى 1781 أصدر تصنيفه النهائي والنتائج التي توصل إليها في كتابه الضخم: التاريخ الطبيعي لللافقاريات *Histoire natarelle des animaux sans vertebres* وبعد ذلك أصابه العمى تماماً وأصبح عاطلاً عن العمل يكاد يكون معدوماً. لقد كانت حياته ضريبة ثقيلة دفعها لقاء شجاعته، وكانت حاله في شيخوخته عاراً لحكومته. وبدأت فلسفته في علم الحيوان (أو بتعبير آخر إقامته على أسس عقلية) بتأمله التغيّر الدائم (الذي لا ينتهي) والغامض في أشكال الحياة. فكل فرد يختلف عن كل الأفراد الأخرى (فرد بمعنى واحد من جنس أو نوع من الكائنات الحية)، ومن بين أي نوع يمكن أن نجد فروقاً دقيقة تجعل من الصعب - وربما من عدم الدقة - أن نفصل النوع عن جيرانه الأقرب إليه شبيهاً ونسباً سواء من حيث الشكل أو الوظيفة، وانتهى لامارك إلى أن النوع هو فكرة مجردة أو مجرد

مفهوم، أما في الحقيقة فليس هناك إلا موجودات فردية أو أشياء فردية أما الأقسام والفروع والأنواع التي نجعلها اطرا نجمع تحتها الأفراد أو نصنفهم من خلالها فما هي إلا أدوات فكرية (عقلية) تساعدنا على التفكير فيما هو متشابه.

لكن كيف ظهرت هذه الأنواع المختلفة من نبات وحيوان؟ هنا يجيبنا لامارك بالقانونين التاليين:
القانون الأول: في كل حيوان مازال في حالة تطور نجد أن العضو الأكثر استخداماً والأكثر اعتماداً عليه، يقوى تدريجياً ويتطور وينمو بمرور الوقت، بينما العضو الذي لا يستخدم باستمرار يضعف وينقلص تدريجياً وينتهي الأمر باختفائه. (قانون الاستعمال والإهمال).

القانون الثاني: كل شيء أرادته الطبيعة أفراداً كي يكتسب بتأثير الظروف التي يمر بها جنس أو نوع هؤلاء الأفراد صفات بطول التعرض لهذه الظروف، أو يفقد بتأثير هذه الظروف نفسها صفات أخرى، وعلى هذا فتأثير الاستخدام السائد (المهيمن أو الغالب) للعضو أو بتأثير عدم استخدامه ينتقل بالوراثة إلى أفراد جديدين ينحدرون منه، والتغيرات الحادثة نتيجة الظروف السابقة تشمل الذكر والأنثى أو بتعبير آخر تشمل أولئك الأفراد الناتجين من أصلاب السابقين (31).

وكان القانون الأول واضحاً. فنزاع الحداد تنمو لتصير أكبر وأقوى بسبب كثرة الاستخدام، ورقبة الزرافة تطول بسبب جهدها في الوصول إلى الأوراق العلوية للأشجار، وحيوان الخلد mole أعمى لأن حياته بشكل مستمر في الجحور تجعل عينيه لا تستخدمان. وفي كتاباته الأخيرة قسم لامارك قانونه الأول إلى عنصرين مكملين: الظروف البيئية أو (التحدي) وحاجة الكائن الحي ورغبته التي تحث جهوده لتحقيق الاستجابة المطلوبة كتدفق الدم في الحيوان أو العصاراة في النبات إلى العضو المستخدم. وهنا حاول لامارك أن يجد إجابة للسؤال الصعب التالي: كيف تنشأ هذه الاختلافات؟ لقد أجاب كوفييه Cuvier عند هذا السؤال قائلاً أن الله سبحانه يتدخل بشكل مباشر لإحداث هذا التغيير، أما دارون فذهب إلى أن هذا يتم من خلال اختلافات تصادفية أي تتم بالصدفة، ولا نعرف سببها. أما لامارك فقال بأن التغيرات تنشأ من حاجة الكائن الحي ورغبته وجهده الدائم لمواجهة الظروف البيئية. وقد لاقى هذا التفسير ترحيباً من علماء النفس المعاصرين الذين ركزوا على الفعل الإبداعي للإرادة.

لكن قانون لامارك الثاني ووجهه بالآلاف من الاعتراضات. فقد رفضه البعض على أساس أن الختان عند الشعوب السامية وهو عادة تُمارس منذ القديم لم تؤد إلى ظهور مواليد مختونين بالطبيعة، والأمر نفسه بالنسبة لضغط القدم عند الصينيين لم تؤد إلى ظهور مواليد ذوي أقدام صغيرة (رغم أن العادة تُمارس من قديم)، وهذا يفني وراثته الصفات المكتسبة التي قال بها لامارك، لكن مثل هذه الاعتراضات التافهة فشلت - بطبيعة الحال - في إدراك أن هذه العمليات كانت ذات أبعاد خارجية متعددة الجوانب وليست بأية حال منطوية منطوية على حاجة داخلية أو نتيجة جهد داخلي مبذول. وفشلت بعض الاعتراضات الأخرى لفشلها في إدراك معنى المدى الزمني الطويل المطلوب لكي تحدث الظروف البيئية أثرها بإحداث تغيير في (الجنس) أو (النوع) وقد وافق كل من دارون، وهربرت سبنسر - وفقاً لهذه الشروط: طول المدى الزمني، والجهد الداخلي المبذول - على إمكانية توريث الصفات المكتسبة، وكان هذا لصالح نظرية التطور، والمقصود بالصفات المكتسبة العادات أو التغيرات العضوية التي تتطور بعد الميلاد. واتخذ ماركس وانجلز موقفاً مؤيداً لمبدأ التوريث (البيولوجي) هذا وعلواً على بيئة أفضل لانتاج إنسان أفضل، وظل الاتحاد السوفييتي لفترة طويلة يعتبر اللاماركية جزءاً من عقيدته المحددة. وفي حوالي سنة 5881 صفع أوجست فيسمان August Weisman نظرية لامارك صفة قوية بأن أعلن أن البلازما germ plasm (الخلايا التي تحمل الصفات الوراثية) محصنة ضد التغيرات في الجسد المحمي (المغطى enveloping body) فهذا الجسد وفقاً للتعبير العلمي سوما بلازم Somaplasm وبالتالي لا يمكن أن يتأثر (بتغير) بالخبرات الحادثة بعد الولادة. لكن هذا الزعم أصبح غير صحيح عندما وجدت بعض الكروموزومات Chromosomes (المورثات) في الخلايا البدنية، وخلايا البلازما، لقد أعادت التجارب - بشكل عام - التشكيك في نظرية لامارك (41)، لكن أخيراً ظهرت بعض الأدلة في الباراميسيوم Paramecium وبروتوزوا Protosoa أخرى تؤيد التغير أو التحول الذي قال به لامارك (51). وربما ظهرت أمثلة أخرى تؤيد نظريته إذا أمكن أن تستمر التجارب على مدى الأجيال المتعاقبة، فمعاملنا تعاني من عدم إمكانية استمرار التجربة لفترة طويلة، وليس الأمر كذلك بالنسبة للطبيعة.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> تاريخ الحضارة الأوروبية -> العلوم والفلسفة في ظل حكم نابليون -> ما هو العقل

4- ما هو العقل؟

كان تركيز لامارك على الشعور بالحاجة وعلى الجهد المتواصل كعوامل لرد الفعل العضوي متناسقاً مع تراجع علماء السيكولوجيا (علم النفس) في المعهد العلمي الفرنسي عن النظر للعقل كآلة ليس لها حق المبادرة وإنما هو استجابة لأحاسيس خارجية وداخلية. وقد استخدم علماء النفس كلمة فلسفة عند تلخيص ما توصلوا إليه. فالفلسفة لم تتفصل بعد تماماً عن العلم، والحقيقة أن الفلسفة قد تكون - بالضبط - هي خلاصة العلم إذا نجح العلم في أن يكون مطابقاً للعقل (المنطقية) وكان واعياً لصياغة مناهج فروضه، وتطبيق ملاحظاته (مشاهداته) وإحكام تجاربه وصياغاته الرياضية ذات النتائج التي يمكن اثباتها والتحقق منها لكن هذا الوقت لم يكن قد أتى بعد واعتبر سيكولوجيو (علماء نفس) القرن التاسع عشر أنفسهم هم الذين عليهم أن يجدوا المبررات المنطقية أو الأسس الفعلية للأمور التي لازالت بعيدة عن مطال العلم وأدواته.

ورغم معارضة نابليون، استمر الأيديولوجيون ideologues طوال عقد من الزمان يهيمنون من خلال تدريس الفلسفة و علم النفس في المعهد العلمي الفرنسي. وكان عدوّه اللدود his bete noire في المعهد العلمي هو أنتوان ديستوت دي تراسي Antoine Destutt De Tracy المهيج حامل شعلة حسيّة كونديللاس Condillac ص 9871 sensationism طوال سنوات الحكم الإمبراطوري. وتم إرساله كمنسوب جماهيري إلى مجلس الدولة في سنة 1971، لكن في سنة 3971 اعتراه سخط وخوف فعمل على إصدار دستور ليبرالي وهو الذي صدر بالفعل في سنة 1971، وهناك تعرض للتأثيرات الراديكالية بسبب وحشية الجماهير وإرهاب اللجنة الكبرى فابتعد عن السياسة واشتغل بالفلسفة. ففي ضاحية أوتيل Auteuil انضم لمجموعة جذابة متحلقة حول مدام هيلفينيوس Helvetius الجميلة أبداً، وهناك تعرض للتأثيرات الراديكالية لكل من كوندرسيه Condercet وكاباني Cabanis. وأصبح عضواً في المعهد العلمي فكانت له السيادة في القسم الثاني المخصص للفلسفة و علم النفس وفي سنة 1081 بدأ في نشر أجزاء من كتابه عناصر الأيديولوجية Elements de ideologie وأتم نشره في سنة 5181. وقد عرّف الأيديولوجية بأنها دراسة الأفكار على أساس حسيّة كونديللاس... أو المذهب الحسي القائل بأن كل الأفكار نابعة من الحواس أو مشتقة منها. وهذا - فيما اعتقد - قد يبدو غير حقيقي فيما يتعلق بالأفكار العامة والمجردة كالفضيلة والدين والجمال أو الإنسان، لكن عند التعامل مع مثل هذه الأفكار يجب أن نفحص الأفكار الأساسية التي تم استخلاصها منها، وأن نعود إلى الإدراك الحسي البسيط الذي انبثقت منه (61) وظن ديستوت Destutt أن هذه الدراسة الموضوعية يمكن أن تُزيح الميثاقين (ما وراء الطبيعية) من مكانها، وتُنهى حكم كانط Kant. وإذا لم نستطع أن نصل إلى نتيجة محددة بهذه الطريقة علينا أن ننتظر وأن نُرجى الحكم وأن نحاول توضيح أننا - حقيقة - لا ندري (71). هذه اللاأدرية المحكمة لم تُعجب نابليون اللاأدري ذلك أن نابليون في هذا الوقت كان يرتب أمور الوفاق (الكونكوردات) مع الكنيسة. وصنّف ديستوت - دون أن يأبه لاعتراض - الأيديولوجيا (ويقصد السيكولوجيا) باعتبارها أحد أقسام علم الحيوان Zoology، وعرّف الوعي بأنه إدراك الحواس (إدراك حسي) وعرّف الحكم Judgement (أي التمييز الإدراكي) بأنه الاحساس بالعلاقات، وعرّف الإرادة بأنها حاسة الرغبة. فكما أن المثاليين (أصحاب المذهب المثالي) نافحوا عن فكرة أن الحواس لا تثبت بطريق لا تحتل الشك وجود العالم الخارجي، فإن ديستوت كان يعني المشاهد والأصوات والروائح والطعم لكنه أصرّ على أنها قد تترك على سبيل اليقين وجود العالم الخارجي عن طريق اللمس والوجود والحركة، فكما سبق أن قال الدكتور جونسون Johnson أننا نستطيع أن نحسم هذه المسألة بركل حجر.

وفي سنة 3081 ألغى نابليون القسم الثاني في المعهد العلمي فوجد ديستوت دي تراسي نفسه بلا مدرّج يلقي فيه محاضراته وبلا طابع ولم يكن قادراً على الحصول على تصريح لنشر كتابه ملاحظاته على روح القوانين لمنتسكيو فأرسل مخطوطة الكتاب إلى توماس جيفرسون Thomas Jefferson رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذي أمر

بترجمته للإنجليزية وطُبع في سنة 1181 دون الإشارة لاسم مؤلفة (81). وعاش ديستوت حتى بلغ الثانية والثمانين، وأصدر في أواخر عمره بحثاً عن الحب (De L'Amour) (6281).

بدأ مين دي بيران (Maine de Biran (Marie - Francois - Pierre Gonthier de Biran) عمله في مجال الفلسفة بعرض فلسفته الحسية Sensationism بغموض ضَمِن له الشهرة. لقد بدأ عسكرياً وانتهى صوفياً (باطنيا). في سنة 4871 التحق بالحرس الملكي للويس السادس عشر وساعد في الدفاع عنه ضد كتيبة النساء الرهيبة (02) التي حاصرت الملك والملكة في فرساي في الخامس والسادس من أكتوبر سنة 9871. ولما أصابه الرعب من الثورة عاد إلى عقار له بالقرب من برجراك Bergerac. وتم انتخابه للمجلس التشريعي في سنة 9081 وعارض نابليون في سنة 3181 وأصبح مسؤولاً عن خزانة مجلس النواب في عهد لويس الثامن عشر. وكانت كتاباته عملاً إضافياً إلى جانب مهمته السياسية، ولكنها رفعت شأنه بين الفلاسفة الفرنسيين في عصره وجعلته في مكان الصدارة، وحقق شهرة سنة 2081 بفوزه بالجائزة الأولى في مسابقة مولها المعهد العلمي. وبدت مقالاته أثر العادة في القدرة على التفكير L'influence de L'habitude Sur les facultes de penser تنهج نهج وهات النظر الحسية التي قال بها كونديلاس Condillac بل وحتى السيكولوجيا الفسيولوجية (علم النفس الفسيولوجي) التي قال بها ديستوت دي تراسي Destutt de Tracy. لقد كتب أن طبيعة الفهم ليست أكثر من مجموع العادات الرئيسية للعضو المركزي الذي لا بد من اعتباره الحاسة الجامعة للإدراك (12) وفكر في أن المرء قد يفترض أن أي تأثير (انفعال) في الحقيقة ممثل في المخ بحركة عن طريق الألياف العصبية (22) لكن مع الاستطراد ابتعد عن هذه الفكرة التي تعني أن العقل ليس أكثر من جامع لحواس الجسم، فقد بدا له أنه عند بذل الجهد للانتباه أو جمع الإرادة يصبح العقل فعّالاً، وفعالاً أصيلاً وليس مجرد اختصار لأي تجميع لإشارات الحواس.

وانتسعت هوة الخلاف مع الأيدولوجيين في سنة 5081 بنشر مبحث مذكرات عن تحليل التفكير Memoire sur la decomposition de la pensee الذي يتفق مع رجوع نابليون للدين. لقد برهن مين دي بيران على أن الجهد المبذول لتحقيق الإرادة يُظهر أن روح الإنسان ليست مجرد ترداد سلبي لحواسه وإنما هي إيجابية وذات قوة إرادية كاملة. إنها الجوهر الحقيقي للنفس، فالإرادة والذات (الأنا ego) شيء واحد. (شوبنهاور سيرر على هذه الإرادية Voluntarism في سنة 9081 وستستمر في الفلسفة الفرنسية لتأخذ شكلاً متألفاً عبقرياً على يد بيرجسون (Bergson). هذه الإرادة المبذولة بجهد بالإضافة للعوامل الأخرى هي التي تقرر الفعل، فيصبح الإنسان حر الإرادة Ferr will (قضاؤه وقدره في يده) وبالتالي لا يصبح مجرد آلة لا معنى لها. هذه القوة الداخلية هي حقيقة روحية وليست مجرد تجميع لخبرات الحواس والذكريات. وليس هناك شيء مادي عنها، ولا نعرف لها حيزاً أو مكاناً. حقيقة - كما يقول مين دي بيران - ربما كانت كل القوى - على هذا النحو - غير مادية ولا يمكن فهمها إلا - بالقياس التمثيلي - للإرادة نفسها. وانطلاقاً من وجهة النظر هذه كان ليبنتز Leibniz على حق في وصف العالم (الكون) بأنه مجموعة من عناصر الوجود الأولية monads مركبة ومتصارعة، وكل منها يمثل محوراً أو مركزاً لقوة Force وإرادة Will وذاتية individuality.

وربما كانت حياة مين دي بيران الموزعة بين السياسة والفلسفة بالإضافة إلى المشاركات الحية في اللقاءات الأسبوعية في المعهد العلمي مع كل من كوفييه، وروبيه كولار Rouer - Collar وأمبير Ampere وجيزو Guizot وفكتور كوزي Victor Cosin، قد أصبحت حياة خصبة وشاقة، فتدهور صحته وقربت حياته القصيرة البالغة ثمانية وخمسين عاماً من الانتهاء، فتحول من التفكير العقلي الواسع المدى إلى الإيمان الديني الهادئ وأخيراً إلى الصوفية (التأمل الباطني) التي انتشلتها من آلام العالم. لقد قال إن الإنسان لا بد أن يترقى من المرحلة الحيوانية الحسية إلى المرحلة الإنسانية حيث الإرادة الحرة الواعية ليذوب في الوعي بالله وحبه.

لقد أضعف مفكرو القرن الثامن عشر الحكومة الفرنسية بنشكيكهم في مصداقية الكنيسة وموقفها الأخلاقي وبدعوتهم إلى الاستبداد المنتور (فكرة المستبد العادل) للتخفيف من شرور الجهل، وعدم الكفاءة والفساد والظلم والفقر والحرب. وقد أجاب فلاسفة بواكير القرن التاسع عشر على هؤلاء الحالمين بالدفاع عن ضرورة الدين وحكمة التراث وسلطة الأسرة ومزايا الملكية (بفتح الميم واللام) الشرعية والحاجة الدائمة لأسبجة (حدود سياسية) وأخلاقية واقتصادية لمواجهة طوفان الجهل والطمع والعنف والبربرية وزيادة السكان عن المعدل المطلوب.

هناك رجالان في هذه الفترة أدانا بغضب دعوة القرن الثامن عشر للتحوّل من الإيمان إلى العقل ومن التراث للتنوير. ولد الفيكونت لويس جبريل امبرواز دي بونال Vicomte Louis - Gabriel - Ambroise de Bonald (4571) في أسرة تنعم بالرخاء ودرس في ظل الأمن والطاعة والتقوى. واعتزته الدهشة لأحداث الثورة الفرنسية وأصبح مهتداً فهاجر إلى ألمانيا وانضم لفترة إلى جيش الأمير كوندي Conde المعادي للثورة لكنه امتعض من فوضاه الانتحارية، فترجع إلى هيدلبرج Heidelberg ليواصل حربه بقلمه المتحفظ (المنضبط) ففي كتابه الذي تناول فيه إمكانات السياسة والدين (Théorie du pouvoir Politique et religieux 6971) دافع عن الملكية المطلقة وعن الأرستقراطية المتوارثة ومن السلطة الأبوية في الأسرة وعن سلطان الباباوات الديني والمعنوي على كل ملوك العالم المسيحي وأدانت حكومة الإدارة هذا الكتاب لكنها سمحت للمؤلف بالعودة إلى فرنسا (7971). وبعد فترة التزم فيها الحذر واصل هجومه الفلسفي بنشره مقالاً بعنوان: مقال تحليلي عن القوانين الطبيعية للنظام الاجتماعي (0081) ورحب نابليون بدفاعه عن الدين كضرورة للحكومة، وعرض عليه عضوية مجلس الدولة فرفضها، ثم قبل في سنة 6081 قائلاً إن الله هو الذي عين نابليون ليُعيد الإيمان الحق(32).

وبعد عودة الملكية شغل سلسلة من الوظائف العامة، وأصدر سلسلة من البيانات المتحفظة، المتوهجة حماساً إلا أنها كانت غيبية. لقد عارض الطلاق وعارض حقوق المرأة باعتبارها مدمرة للأسرة والنظام الاجتماعي وأدان حرية الصحافة باعتبارها تشكل تهديداً لاستقرار الحكومة ودافع عن الرقابة وعقوبة الإعدام واقترح الحكم بالإعدام على كل من يجتف (يسخر من) الأواني (الكنوس) المستخدمة في طقوس العبادة الكاثوليكية(42). وابتسم المحافظون لإمعانه في الحماسة وتمسكه الشديد بالأصولية (المفهوم انهم ابتسموا ساخرين)، لكنه لقي ترضية بمراسلاته مع جوزيف (يوسف) دي ميستر de Maistre الذي أرسل له من سال بطرسبورج St. Petersburg ما يفيد تأييده الكامل له، ونشر هذا الأخير بعد ذلك مجلدات لا بد أنها أسعدت بونال Bonald وأهاجت فيه ميلهما الكامل للمحافظة، والتزام الأسلوب المتألق.

ولد ميستر Maistre في سنة 3571 في شامبري Chambéry التي علمت فيها مدام دي وارن de Warens روسو فن الحب قبل ذلك بعشرين عاماً. وباعتبار شامبري عاصمة لدوقية سافوي فقد كانت تابعة لملوك سردينيا، وعلى أية حال فإن أهل سافوي كانوا يتكلمون الفرنسية كلغة وطنية وتعلم جوزيف أن يكتب الفرنسية بحبوية وقوة بشكل جعل أسلوبه قريباً من أسلوب فولتير. وكان أبوه رئيساً لمجلس شيوخ سافوي وأصبح هو نفسه عضواً في هذا المجلس في سنة 7871، إذن لقد كان لديه هو وأبوه أسباب تجعلهما يدافعان عن الوضع الراهن، أسباب أكثر من كونها فلسفية. وإذا كان جوزيف ابناً لأبيه سياسياً (المقصود بذهب مذهب أبيه في السياسة) فقد كان ابناً لأمه عاطفياً فقد نقلت إليه الولاء الحار للكنيسة الكاثوليكية. لقد كتب في فترة لاحقة لا شيء يمكن أن يحل محل ما يتلقاه المرء من تعليم على يد أمه(52) وتلقى تعليمه على يد الرهبان والقسس ثم في الكلية الجزوتية (اليسوعية) في تورين Turin، ولم يفقد حبه أبداً لهؤلاء القسس والرهبان، وبعد مغازلة - لم تطل - للماسونيين Freemasonry قبل بشكل تام نظرة الجزويت (اليسوعيين) والتي مؤداها أن الدولة يجب أن تكون تابعة للكنيسة وأن الكنيسة يجب أن تكون تابعة للبابا. وفي سبتمبر سنة 2971 دخل جيش الثورة الفرنسية سافوي Savoy وفي نوفمبر من العام نفسه تم إلحاق الدوقية بفرنسا. لقد تركت هذه الصدمة التي أعادت تقديم كل الأمور على أسس جديدة - القيم والكلاسيات والسلطات والعقائد - ميستر Maistre، في حالة من البعوض والكراهية عكّرت مزاجه وجعلت حياته قاتمة، وأثر ذلك في كتبه وجعل أسلوبه حاراً مُعَمِّماً، لقد هرب مع زوجته إلى لوزان وأصبح مراسلاً رسمياً لملك سردينيا شارلز عمانوئيل الرابع

Charles Emmanuel وكان يجد بعض السلوى في تردده على صالون مدام دي ستيل بالقرب من كوبيت Coppet، لكن المفكرين الذين قابلهم عندها - مثل بنيامين كونستانت (قسطنطين) بدوآله وقد أصابتهم عدوى التشكك المخزي الذي ساد فرنسا في القرن الثامن عشر - حتى المهاجرين (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية) المحشدين في لوزان كانوا مدمنين على قراءة فولتير، واعتزت الدهشة ميستر Maistre لعدم وعيهم فقد كان يرى أن معاداة الكاثوليكية ستقوض كل أساسات الحياة في فرنسا بإضعافها السند الديني للقيم والأخلاق والأسرة والدولة. ولأنه قد غدا كبير السن لا يستطيع حمل السلاح ضد الثورة فقد قرر أن يحارب بقلمه غير المؤمنين (بالكاثوليكية) والثوريين. لقد مزج النقد اللاذع بحبر قلمه وترك أثره كعلامة في هذا القرن. ولم يتفوق عليه - في عصره - في نزعه المحافظة تلك سوى إدmond Burke

وعلى هذا فقد أصدرت له إحدى مطابع نيوشاتل Neuchatel ملاحظات حول فرنسا *Considérations sur la France* ذكر فيه أن حكومة لويس السادس عشر كانت متذبذبة مترددة تُعوزها الكفاءة وأن الكنيسة الفرنسية تحتاج اصلاحاً (62). لكن أن تُغيّر شكل الدولة وسياساتها ونهجها يمثل هذه السرعة وهذا التهور يعني أن نُضلل جهل المراهق (غير الناضج) الذي لا يفهم الأسس العميقة لفن الحكم. لقد اعتقد أنه لا يمكن أن يكون للأخلاق مكان إذا لم يكن لها جذور في التراث والزمن أو إذا لم تجد لها سنداً من دين وقيم، والثورة الفرنسية م أغلقت كل هذه الأبواب المُفضية للأخلاق بإعدامها الملك وتجريدها الكنيسة من ممتلكاتها. أبداً لم يحدث أن كان لمثل هذه الجريمة البشعة كل هؤلاء المشاركين الكثيرين فيها.. إن كل قطرة نزفت من الملك لويس السادس عشر سنكلف فرنسا سيلاً من الدماء. ربما سيدفع أربعة ملايين فرنسي حياتهم بسبب هذه الجريمة الوطنية البشعة.. جريمة العصيان المسلح ضد الدين و ضد النظام الاجتماعي، تلك الجريمة التي بلغت ذروتها بقتل الملك (82).

وفي سنة 7971 دعاه الملك شارل عمانوئيل ليعمل في تورين كتابه له، لكن سرعان ما استولى نابليون على تورين فهرب الفيلسوف إلى البندقية (فينيسيا). وفي سنة 2081 تم تعيينه مفوضاً سردينيا كامل الصلاحيات في بلاط القيصر اسكندر الأول. ولأنه كان يتوقع ألا تطول مدة مهمته فقد ترك أسرته ولم يصحبها معه لكن خدمة مليكه اقتضت منه البقاء في سانت بطرسبورج حتى سنة 7181. وتحمل بعده عن وطنه بصبر نافذ.

وأهم أعماله هو مبحثه عن المبادئ الدستورية *Essai Sur le Principe generateur des Constitutions* (0181) وقد استخلص مثل هذه الدساتير التي تناولها من الصراع البشري بين الخير والشر (بين ما هو اجتماعي وما هو غير اجتماعي)، ومن الانفاعات (الاضطرابات) ومن الحاجة لسلطة منظمة ودائمة لحفظ النظام العام ولحفظ الجماعة بدغم روح التعاون في مواجهة الفردية والأهواء. إن كل إنسان يتطلع وهذا طبيعي للسلطة والتملك وهو إذا لم يروض تحول إلى دكتاتور مجرم مغتصب. إن بعض القديسين يتحكمون في جشع البشر، وعدد قليل من الفلاسفة قد يمكنهم تحقيق ذلك (التحكم في أطماع البشر) عن طريق العقل لكن ما هو كامن في معظمنا لا يمكن الفضيلة من السيطرة على غرائزنا الأساسية. وأن نترك كل من نفترض أنه ناضج ليحكم على الأمور وفقاً لعقله هو (وهو عقل ضعيف بسبب عدم الخبرة وبسبب العبودية للرغبة) فإن معنى هذا أن نضحّي بالانضباط (النظام) لصالح الحرية. ومثل هذه الحرية غير المنضبطة تصبح فوضى اجتماعية تهدد سلطة الجماعة التي من حقها أن تتحدّ ضدّ هجوم يأتيها من الخارج أو فوضى تنشب في الداخل.

وعلى هذا فقد كانت حركة التنوير المغالية فيما يرى ميستر Maistre خطأ هائلاً. لقد قارنها بالشباب الذي تبيّن لنفسه وهو في الثامنة عشرة من عمره خطأ راديكالية لإعادة البناء في مجالات التعليم والأسرة والدين والمجتمع والحكم. واعتبر ميستر أن فولتير مثلاً اختاره لمثل هؤلاء التافهين الذين ادّعوا الإحاطة بكل شيء علماً أنه حدثنا عن كل شيء في كل العصور دون أن يتوغل مرة واحدة إلى ما تحت السطح، لقد كان مشغولاً دائماً بتعليم العالم أنه قلما يكون لديه وقت للتفكير (92) لو أنه درس التاريخ بتواضع كفر د زائل (مجرد فرد في مرحلة تاريخية) يبحث عن العلم من خيرات الجنس البشري، وكان قد عرف أن الزمن نفسه مُعلم أفضل من التفكير الشخصي، وكان عرف أن أصحّ اختبار لفكرة هو تأثيراتها العملية (البرجمانية) في الحياة والتاريخ والجنس البشري، وكان عرف أن المؤسسات العريقة في تراث القرون الخوالي لا يجب رفضها دون حساب دقيق للخسائر في مقابل المكاسب، وكان عرف أن المعركة التي شنت لتدمير الكنيسة وإحاق الخزي بها ستؤدي إلى إنهيار الأخلاق والأسرة والمجتمع والدولة فالكنيسة هي التي صاغت النظام الاجتماعي في غرب أوروبا (يقصد الكنيسة الكاثوليكية). إن الثورة القائلة المغتالة هي النتيجة المنطقية لحركة التنوير العمياء. إن الفلسفة قوة مخربة أساسية لأنها وضعت كل ثقنها في العقل، والعقل فردي، والعقل يمثل الفكر الفردي، وتحرر الفرد من التراث السياسي والديني وتحرره من قبضة السلطة، يهدد الدولة بل والحضارة نفسها. ومن هنا فإن الجيل الحالي يشهد واحداً من أكثر الصراعات حدة لم تشهد لها البشرية مثيلاً: الحرب حتى الموت بين المسيحية وعقيدة الفلاسفة (03).

وما دام عمر الفرد قصيراً جداً لا يمكنه من سبّر حكمة التراث فيجب أن يتعلم القبول به (أي بالتراث) كمرشد له ودليل حتى يبلغ من العمر مبلغاً كبيراً يمكنه من فهمه (أي هذا التراث). انه - بطبيعة الحال - لن يكون قادراً على فهمه فهماً كاملاً. ولا بد أن يتشكك في أي تغيير مقترح في الدستور أو الأعراف الأخلاقية. ويجب أن يكرّم السلطة الشرعية باعتبارها رأي التراث وتوجهه، وباعتبارها خبرة بشرية وباعتبارها بالتالي صوت الله (13). الملكية الوراثية والمطلقة سلطتها هي من رايه أفضل أنواع الحكم لأنها تمثل التراث الأعرض والأعمق والأطول وهي تعمل على تحقيق الانضباط والاستمرارية والاستقرار والقوة، بينما الديمقراطية بدوام التغيير فيها - سواء تغيير القادة والزعماء أو تغيير الأفكار - وجنوحها بشكل دوري لارضاء نزوات العوام و جهلهم تؤدي إلى الفوضى وعدم الرضى والطيش، وتنتهي سريعاً. إن فن الحكم يعني من بين ما يعني تسكين العوام، أمّا إن أطاعتهم الحكومة فهي - بذلك - تنتحر.

وبتؤدة (2081-6181) عرض في أكثر مؤلفاته شهرة: أمسيات في سان بطرسبرج Les Soirees de Saint petersbourg (نشر سنة 1281) بعض الجوانب الثانوية لفلسفته. لقد كان يؤمن أن العلم يثبت وجود الله، لأن الله قد أوحى للطبيعة انضباطها العظيم الذي هو جزء من عبقرية النظام الكوني (23) لا يجب أن ننزعج والأ تهتر عقائدنا بالنجاحات المؤقتة للشر، أو للإحباطات التي يواجهها الخير، فإله يتيح للخير والشر أن يهبطا على القديس والمجرم على سواء كما يتيح الشمس أن تشرق على كليهما، ويتيح للمطر أيضاً أن يهطل عليهما لا يمنعه عن أحدهما، لأنه - أي الله - يكره أن يعطل قوانين الطبيعة (33)، وعلى أية حال فإن الله قد يستجيب لدعاء الداعين لتغيير تأثير هذه القوانين الطبيعية (43). بالإضافة إلى أن معظم الشرور تعد عقاباً على أخطاء أو خطايا، وربما كان كل مرض وكل ألم عقاباً على بعض الفساد الكامن في نفوسنا أو نفوس أسلافنا أو نفوس مجموعتنا التي نعيش بينها. وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن ندافع عن العقاب البدني، والإعدام كعقاب لبعض الجرائم بل وندافع حتى عن التعذيب الذي تقوم به محاكم التفتيش، ويجب أن نبارك الجلال (منفذ حكم الإعدام) بدلاً من جعله منبوذاً، فهو يقوم أيضاً بعمل الله (المهمة التي كلفه بها الله) وهي مهمة حيوية للانضباط الاجتماعي (53). فاستمرار الشر ومثابرتة يتطلب استمرار العقاب ومثابرتة، فإن تواني العقاب نمت الجريمة. وأكثر من هذا فليس هناك عقاب لا يؤدي إلى تطهير وليس ثمة اعتلال جسدي أو عقلي يحدثه الحبيب الباقي (الله Eternal love) إلا ويتحول إلى سهم في صدر مبدأ الشر (63) والحرب مقدّسة ما دامت هي قانون العالم وما دام الله قد سمح بها عبر التاريخ (73). إن الحيوانات المفترسة تطيع هذه القاعدة وتتقدّها. ويأتي الملاك الفاني (كذا: exterminating) بشكل دوري ليقتل الأفاً من هذه الحيوانات (83). ويمكن اعتبار البشرية كشجرة، وأن هناك بدأ غير منظورة تشدّبها باستمرار، وغالباً ما يكون هذا التشذيب لصالحها... والدماء الغزيرة التي تُراق غالباً ما يمكن ربطها بزيادة عدد السكان (93) فابتداء من الديدان بل وحتى الإنسان نجد القانون الكبير - وهو قانون التدمير العنيف للأحياء - يفعل فعله. فالأرض جميعاً التي تشرب الدماء ليست إلا مذبحاً كبيراً (المقصود بالمذبح مكان تقديم القرابين في الكنائس والمعابد) حيث لا بد من التضحية بكل موجود حي، فالوقت بلا نهاية، بلا حدود، بلا توقف بل وحتى فناء كل شيء وحتى موت الموت نفسه (04). وإذا كنا نعارض أن مثل هذا الكون يدفعنا بشدة لعبادة خالقه. فإن ميستر Maistre يجب بأننا لا بد أن نعبده رغم كل شيء لأن كل الشعوب وكل الأجيال عبدته، وأن مثل هذا التراث الباقي والعالمي لا بد أن يحتوي حقيقة تفوق قدرة العقل الإنساني على الفهم وتستعصي على الدحض أو التقنيد. في خاتمة المطاف فإن الفلسفة - إن كانت حقيقة تحب الحكمة - ستستسلم للدين، والعقل سيستسلم للإيمان.

وفي سنة 7181 استدعى ملك سردينيا - وكان قد استعاد عرش تورين Turin - ميستر Maistre من روسيا، وفي سنة 8181 عينه في منصب كبير وجعله مستشاراً للدولة. وفي هذين العامين ألف هذا الفيلسوف الشرس grim كتابه الأخير عن البابا Du Pape نُشر سنة 1281 بعد موته مباشرة. والكتاب إجابة عنيدة عن الأسئلة التي أثيرت حول تمجيده للملكية كحماية للمجتمع ضد فردية المواطن: ماذا لو أن الملك كان هو أيضاً - كقيصر أو نابليون - متسماً بالفردية والاهتمام بذاته كأي مواطن، وكان عاشقاً للسلطة عشقاً يفوق عشقه لسواها؟

هنا يجيب ميستر Maistre بغير تردد أن كل الحكام يجب أن يقبلوا بتبعيتهم وخضوعهم لسلطة أعرق من سلطتهم وأعظم منها وأحكم: لا بد أن يخضعوا في كل الأمور الدينية والأخلاقية لحكم الحبر الجليل (البابا) الذي ورث سلطانه من القديس بطرس (النص الرسول بطرس، وكلمة الرسول يُطلقها المسيحيون على الدعاة الأوائل للمسيحية والمسيحيون يُلقون بالأنجيل الأربعة ما يُسمى أعمال الرسل Apostles أي الدعاة الأوائل، وفضلنا كلمة القديس على الرسول لأنها توفي بالمعنى وحتى لا يختلط الأمر على القارئ العربي) الذي ورثه بدوره عن المسيح (النص: Son of God). وفي هذا الوقت (1281) ودول أوروبا تكافح لتتخلص من وحشية الثورة واستبداد نابليون، لزم أن يتذكر قادة أوروبا كيف أن الكنيسة الكاثوليكية قد أنقذت بقايا الحضارة الرومانية بتصدّيتها للبرابرة كثيري العدد وترويضهم، وكيف أنها أسست - من خلال اسقفيّاتها - نظاماً اجتماعياً منضبطاً وتعليمياً نظامياً أنجب - بيضاء - خلال

الظلمة والعصور الوسطى، حضارة قائمة على موافقة الملوك على الاعتراف بالسلطة الروحية للبابا. فالأمم لا تتحضر أبداً إلا بالدين لأن الخوف من الله الذي يرى كل شيء والقادر على كل شيء هو وحده - أي هذا الخوف - الذي يسيطر النزعات الفردية المتمثلة في الرغبات البشرية والدين مصاحب لمولد كل الحضارات، وغياب الدين نذير بموتها(14). وعلى هذا فلا بد أن يقبل ملوك أوروبا مرة أخرى البابا كسيد أعلى لهم في كل الأمور الأخلاقية والروحية. يجب أن يُبعدوا التعليم عن أيدي العلماء ويعيدوه للقسس لأن ارتقاء العلم سيُقسى قلوب الناس(24) بينما استعادة الدين لمكانته ستؤدي إلى سلام للأمة وأرواح أفرادها.

لكن ماذا لو كان البابا أيضاً أنانياً ويعمل على تحويل كل مسألة وقضية لتحقيق مكاسب دنيوية للباباوية؟ هنا نجد ميستر Maistre حاضر الإجابة: ما دام البابا يُرشده الرب - فإنه معصوم إذا تحدث في أمور العقيدة والأخلاق لأنه الرأس الرسمي للكنيسة التي أسسها المسيح. وعلى هذا فقد أعلن ميستر عصمة البابا قبل أن تعلنها الكنيسة نفسها كجزء من الإيمان الكاثوليكي بنصف قرن. لقد اعترت الدهشة البابا نفسه ووجد الفاتيكان من الحكمة أن يعارض المبالغين في سيادة البابا Ultramontanists الذين يعلنون مزاعم مُربكة عن السيادة السياسية للباباوية. وباستثناء هذه النقطة الأخيرة وبعض المبالغات الأخرى التي يمكن أن تدعو للابتسام (المقصود السخرية) فإن المحافظين في أوروبا رحبوا بدفاعه العنيد عن وجهات نظرهم، وأثنى عليه كل من شاتوبريان وبونال Bonald ولاميني Lamennais ولامارتين بل وحتى نابليون اتفق معه في بعض المسائل - نزوع الملك لويس السادس عشر للخير وخسة قاتليه، وتجاوزات الثورة، وضعف العقل وسهولة وقوعه في الخطأ وتهافت الفلاسفة، وضرورة الدين، وقيمة التراث وأهمية السلطة، وضعف الديمقراطية، وكون الملكية المطلقة والوراثية أمراً مرغوباً فيه، وكون الحرب مفيدة للتقليل من عدد السكان (الخدمات البيولوجية للحرب)...

وكان الأمر بالنسبة لأعداء نابليون الذين لا يزالون في الحكم أنهم شعروا أن في فلسفة ميستر Maistre المستقيمة بعض الأسباب المعقولة تحتم عليهم الإطاحة بهذا الكورسيكي مُحدث النعمة (نابليون) وريث الثورة التي هدّدت كل ملكيات العالم. لقد كانوا يؤمنون في قرارة أنفسهم أنهم لم يكونوا أبداً قادرين (ولن يقدرُوا) على أن يبرروا لرعاياهم: لماذا قبلوا وهم الملوك الذين ورثوا الملك كابرًا عن كابر، وهم أباطرة أوروبا وراستقراطييها - أعباء الحكم وأخطاره وطقوسه بينما كان مارا Marat وروبيبير وبابيف Babeufs يتهمونهم بعدم الرحمة باستغلال العوام الأبرياء بدعوى الحق الإلهي للملوك، مستغلين كل المزايا (محققين كل المكاسب) من النظام الاجتماعي (الساند) مبتلعين كل خيرات الأرض، وكيف كانوا يقتلون رعاياهم ويذبحونهم بدعوى هذا الحق نفسه (حق الملوك الإلهي).

أما الآن وبعد كتابات ميستر Maistre فقد ظهرت عقيدة يستطيع في ظلها أن يتحد كل حكام أوروبا الشرعيون لإعادة النظام القديم في بلدهم ولشعوبهم، بل وحتى لفرنسا البربرية غير المتسامحة قاتلة الملوك خائنة ربه المتخلى عنه.

صفحة رقم : 14620

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> مقدمة الترجمة

مقدمة الترجمة العربية

يقدم لنا المؤلفان كعهدنا بهما في الكتب السابقة فيضاً من الوقائع التاريخية، وفيضاً من الأفكار الجديدة التي لا نلتقي بها في كتب التاريخ التقليدية. إنه يسوق لنا عبر فصوله أسباباً مقنعة لعدم قيام ثورة في إنجلترا ومن ثم بريطانيا بكياناتها المختلفة (اسكتلندا، وإنجلترا وويلز وأيرلندا)، كذلك التي قامت في فرنسا.

إنه يربط ذلك بطبيعة الشعب الإنجليزي لا تقلل ما هو مُستقر كما يربطه بطبيعة الأرستقراطية الحاكمة التي لا ترى في نظام الطبقات قيماً على الحريات، ويؤكد لنا أنه نظام طبقي غير جامد شتان بينه وبين النظام الطبقي الديني في الهند مثلاً، حيث يستحيل الانتقال من طبقة إلى أخرى، وحيث طبقة البراهمة المقدسة، ويشير إلى علاقات صداقة ودودة بين الفلاحين واللوردات.. إلخ. كما يشير إلى أن إنجلترا كانت قد شهدت ثورة دموية في القرن السابع عشر، ومن ثمّ لم تكن في حاجة إلى ثورة جديدة.

ولعل من أطرف الأفكار وأكثرها جدّة أن الشعب البريطاني في هذه الفترة على الأقل، بمليكه وبرلمانه ومتفقيه وعلمائه وشعرائه، كانوا متفقين - اتفاقاً غير مكتوب - على أن كثيراً من المسائل الدينية في المسيحية غير واضحة وغير مؤكدة، بل وفي كثير من الأحيان غير موثوق بها، وعلى هذا فليعتقد كل واحد ما يشاء، وليتصور الرب أو الإله كما يشاء، وليقم بأية طقوس يراها مناسبة بشرط واحد وهو أن يُعلن أنه مسيحي. ولا نكاد نجد من بين الشخصيات اللامعة التي أوردتها المؤلف، مسيحياً حقيقياً بالمعنى الدارج للكلمة، لقد كان بعضهم ربانياً يؤمن بالله وحده ويُنكر تماماً ألوهية المسيح، كما ينكر أي نبوّات أخرى، ووجدنا الموحدين Unitarians أو المناهضين للتثليث الذين لم يعترض عليهم التاج البريطاني شريطة أن يدرجوا أنفسهم تحت المسمّى العام (المسيحية)، ووجدنا الحلوليين (الشاعر وردزورث) الذي يرى الله غير منفصل عن الطبيعة، ورأينا المصلح أوين Owen الذي حارب الميسر، وطالب بتحريمه وتجريمه، وطالب الدولة بمنع اللوثرية (اليانصيب) وأوصل صوته إلى البرلمان وعبر عنه في كتبه، وطالب بتحريم الخمر، ومنع استيرادها، بل وطالب بعدم إصدار تراخيص للحانات والخمارات، ليبقى السكر في أضيق الحدود لينفق فيه الأثرياء الأغنياء أموالهم وأقام أوين مدارس لم تحجّر عليها الدولة يُعلّم فيها الناشئة كل شيء مفيد إلا الخرافات - وهو يقصد اللاهوت المسيحي، ومع هذا فقد كان المسمّى الرسمي للرجل أنه مسيحي.

أما موقف الدولة من الكاثوليكية فلم يكن مسألة خلاف عقائد في المقام الأول، وإنما كان مسألة - في الأساس - ذات بُعد وطني، فكيف يكون ولاء الكاثوليكي لملك بريطانيا بينما هو يقسم يمين الولاء لملك آخر هو الحبرّ الجليل في روما وكان هذا البابا صاحب سلطة زمنية إلى جانب سلطانه الديني؟!!

والؤلف يربط فصول كتابه كلها بمجريات الأمور في فرنسا، فهو عندما يتناول في الفصل الثاني والعشرين، الشعراء المتمردين وعلى رأسهم لورد بايرون يبيّن لنا تعاطف هؤلاء الشعراء في فترة من الفترات مع مبادئ الثورة الفرنسية ودستورها، ولكنه يُبيّن لنا أيضاً كيف تراجعوا عن هذا التأييد عندما أكلت الثورة أبناءها، وأقامت المذابح. وقد أورد المؤلف تفاصيل حياة الشخصيات التي يُترجم لها مما قطع في بعض الأحيان لتسلسل العرض التاريخي، لكن هذا قد يكون مفيداً للراغبين في تتبع حياة هؤلاء المشاهير، فقراءة هذا الكتاب تحتاج إذن إلى صبر وجهد إن أراد القارئ العام متابعتها، لكنه لا يخلو من أفكار طريفة تتخلل عرضه الرتيب أحياناً.

وقد ركزت عند ترجمة هذا الكتاب على المعاني وأضفت بعض التعليقات البسيطة الشارحة، ففي التعليقات التي أوردتها عند ترجمة الكتابين السابقين ما لا داعي لتكراره هنا. ومن العدل والصدق أن أؤوه هنا مرة أخرى، بفضل المجمع الثقافي، وعلى رأسه الأستاذ محمد السويدي باختيار هذه الكتب المفيدة لتقديمها إلى القارئ العربي. وعلى الله قصد السبيل.

د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ

صفحة رقم : 14621

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> تأثير إنجلترا في مسيرة الأحداث -> مقدمة

الكتاب الثالث

مقدمة الترجمة العربية

يقدم لنا المؤلفان كعهدنا بهما في الكتب السابقة فيضاً من الوقائع التاريخية، وفيضاً من الأفكار الجديدة التي لا نلتقي بها في كتب التاريخ التقليدية. إنه يسوق لنا عبر فصوله أسباباً مقنعة لعدم قيام ثورة في إنجلترا ومن ثم بريطانيا بكياناتها المختلفة (اسكتلندا، وإنجلترا وويلز وأيرلندا)، كذلك التي قامت في فرنسا. إنه يربط ذلك بطبيعة الشعب الإنجليزي لا تقلق ما هو مُستقر كما يربطه بطبيعة الأرستقراطية الحاكمة التي لا ترى في نظام الطبقات قيماً على الحريات، ويؤكد لنا أنه نظام طبقي غير جامد شتان بينه وبين النظام الطبقي الديني في الهند مثلاً، حيث يستحيل الانتقال من طبقة إلى أخرى، وحيث طبقة البراهمة المقدسة، ويشير إلى علاقات صداقة ودودة بين الفلاحين واللوردات.. إلخ. كما يشير إلى أن إنجلترا كانت قد شهدت ثورة دموية في القرن السابع عشر، ومن ثم لم تكن في حاجة إلى ثورة جديدة.

ولعل من أطرف الأفكار وأكثرها جدّة أن الشعب البريطاني في هذه الفترة على الأقل، بمليكه وبرلمانته ومثقفيه وعلماؤه وشعرائه، كانوا مثقفين - اتفاقاً غير مكتوب - على أن كثيراً من المسائل الدينية في المسيحية غير واضحة وغير مؤكدة، بل وفي كثير من الأحيان غير موثوق بها، وعلى هذا فليعتقد كل واحد ما يشاء، وليتصور الرب أو الإله كما يشاء، وليقم بأية طقوس يراها مناسبة بشرط واحد وهو أن يُعلن أنه مسيحي. ولا نكاد نجد من بين الشخصيات اللامعة التي أوردها المؤلف، مسيحياً حقيقياً بالمعنى الدارج للكلمة، لقد كان بعضهم ربانياً يؤمن بالله وحده ويُنكر تماماً ألوهية المسيح، كما ينكر أي نبوات أخرى، ووجدنا الموحدين Uniterians أو المناهضين للتثليث الذين لم يعترض عليهم التاج البريطاني شريطة أن يدرجوا أنفسهم تحت المسمى العام (المسيحية)، ووجدنا الحلوليين (الشاعر وردزورث) الذي يرى الله غير منفصل عن الطبيعة، ورأينا المصلح أوين Owen الذي حارب الميسر، وطالب بتحريره وتجريمه، وطالب الدولة بمنع اللوثرية (اليانصيب) وأوصل صوته إلى البرلمان وعبر عنه في كتبه، وطالب بتحرير الخمر، ومنع استيرادها، بل وطالب بعدم إصدار تراخيص للحانات والخمارات، ليبقى السكر في أضيق الحدود لينفق فيه الأثرياء الأغنياء أموالهم وأقام أوين مدارس لم تحجر عليها الدولة يُعلم فيها الناشئة كل شيء مفيد إلا الخرافات - وهو يقصد اللاهوت المسيحي، ومع هذا فقد كان المسمى الرسمي للرجل أنه مسيحي.

أما موقف الدولة من الكاثوليكية فلم يكن مسألة خلاف عقائد في المقام الأول، وإنما كان مسألة - في الأساس - ذات بُعد وطني، فكيف يكون ولاء الكاثوليكي لملك بريطانيا بينما هو يقسم يمين الولاء لملك آخر هو الحبر الجليل في روما وكان هذا البابا صاحب سلطة زمنية إلى جانب سلطانه الديني؟!!

والؤلف يربط فصول كتابه كلها بمجريات الأمور في فرنسا، فهو عندما يتناول في الفصل الثاني والعشرين، الشعراء المتمردين وعلى رأسهم لورد بايرون يبين لنا تعاطف هؤلاء الشعراء في فترة من الفترات مع مبادئ الثورة الفرنسية ودستورها، ولكنه يبين لنا أيضاً كيف تراجعوا عن هذا التأييد عندما أكلت الثورة أبناءها، وأقامت المذابح. وقد أورد المؤلف تفاصيل حياة الشخصيات التي يُترجم لها مما قطع في بعض الأحيان تسلسل العرض التاريخي، لكن هذا قد يكون مفيداً للراغبين في تتبع حياة هؤلاء المشاهير، فقراءة هذا الكتاب تحتاج إذن إلى صبر وجهد إن أراد القارئ العام متابعتها، لكنه لا يخلو من أفكار طريفة تتخلل عرضه الرتيب أحياناً.

وقد ركزت عند ترجمة هذا الكتاب على المعاني وأضفتُ بعض التعليقات البسيطة الشارحة، ففي التعليقات التي أوردتها عند ترجمة الكتابين السابقين ما لا داعي لتكراره هنا. ومن العدل والصدق أن أنوه هنا مرة أخرى، بفضل المجمع الثقافي، وعلى رأسه الأستاذ محمد السويدي باختيار هذه الكتب المفيدة لتقديمها إلى القارئ العربي. وعلى الله قصد السبيل.

د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ

الفصل الخامس عشر تأثير إنجلترا في مسيرة الأحداث

كانت إنجلترا، حكومةً وشعباً، بانتشار صناعتها واتساع تجارتها وبأسطولها وعلى رأسه نيلسون، وبعلقتها وإرادتها - كانت على رأس المعارضين للثورة الفرنسية بعد سنة 1791. كانت على رأس المقاومة ضد نابليون في الوقت الذي تهاوى فيه أعداء الثورة الآخرون نتيجة الهزائم المدمرة التي حاقت بهم أو نتيجة انهيار تحالفاتهم. لكن هذا الموقف الذي اتخذته إنجلترا لم يكن مفاجئاً كما لم تكن كل القوى فيها متفقة عليه منذ البداية، ففي بداية اندلاع الحريق الهائل (الثورة الفرنسية) كانت مواقف زعماء إنجلترا والرسامين فيها غير محددة، وظهر الانقسام بينهم، وتباينت المشاعر ما بين الخوف واستلهاهم أفكار الثورة، لقد تجاوز الشعراء والفلاسفة بحماس مع المثاليات الأولى للثورة، ومع حماسة جيوشها وشجاعتها، ولكنهم سرعان ما تأثروا ببلاغة بورك Burke الغاضبة، وسرعان ما فُجِعُوا بأخبار المذابح والإرهاب في هذه اليوتوبيا Utopia (فرنسا)، ولأن هؤلاء المحررين (يقصد الثوار الفرنسيين) أصبحوا غزاة ضموا نصف - طموحاً منهم - لفرنسا، فقد رأت إنجلترا أن توازن القوى في القارة الأوروبية يتوقف على نتيجة هذا الصراع بين فرنسا والقوى الأوروبية الأخرى، ذلك التوازن الذي ظلت إنجلترا - تلك الجزيرة الصغيرة - تعتمد عليه لضمان سلامتها وحريتها طوال قرون. وشيئاً فشيئاً أصبحت الأمة الإنجليزية على قلب رجل واحد، فرغم استسلام حلفائها، فإن التحدي الأكبر الذي لم تشهده إنجلترا منذ سنة 6601 متمثلاً في تعويق تجارتها وإفلاس شركاتها ومالييها واستنزاف صانعي الأقمشة، والإغراء اليومي بقبول شروط هذا الكورسيكي العبقري المرعب (نابليون) الذي يمتطي الآن القارة الأوروبية ويهدد بعبور القتال الإنجليزي بنصف مليون مقاتل لم يعرفوا الهزيمة - كل هذا جعل الملك الإنجليزي وبرلمانها يقفان بحزم، وجعل النبلاء والتجار يدفعون الضرائب الباهظة وجعل الإنجليزي العادي يؤدي خدمته الإلزامية في الجيش أو الأسطول، وجعل البحار الإنجليزي الذي لا مثيل له يجتاز مرحلة التمرد إلى مرحلة تحقيق الانتصارات، وجعل هذه البقعة الصغيرة الحبيبة (إنجلترا) تتطلق خارجة من العوز والمجاعة التي كادت تحيق بها في سنة 1181/0181 لتبني خلال نصف قرن أكثر الإمبراطوريات قوة وتحضراً منذ سقوط روما.

لا بد لنا أن نتوقف هنيهة عن متابعة هذه الدراما وهذا الصراع لندرس الأمور التي جعلت انتصار إنجلترا ممكناً - هذا الانتصار الذي يعد تحولاً. لا بد من التوقف لدراسة موارد التربة والعمل والعلم والأدب والفن والعقل والعقيدة والشخصية.

صفحة رقم : 14622

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> تأثير إنجلترا في مسيرة الأحداث -> ثورة مختلفة

لقد لعبت الجغرافيا دوراً، فلم يكن مناخ إنجلترا مثالياً، فالرياح الدافئة التي يسببها تيار الخليج شمال الأطلنطي تواجه بشكل مستمر الرياح القطبية الشمالية، ويؤدي هذا الصراع (المواجهة) إلى تتابع نشوء الضباب وتتابع هطول المطر فوق أيرلندا وإسكتلندا وإنجلترا مما يجعل التربة خصبة، والحدائق خضراء والأشجار ضخاماً رائعة، والشوارع مبتلة، ومن هنا كانت السخرية السخيفة التي مؤداها أن الشمس لا تهاجم بعنف الكومنولث البريطاني، لكنها أيضاً لا تشرق في إنجلترا أبداً، وقد وقع نابليون في هذه المبالغة إذ قال ذات مرة لطبيبه البريطاني أرنوت Arnott ليس لديكم شمس في إنجلترا، فصَحَّ له معلوماته قائلاً: هذا صحيح.. لكن الشمس تشرق دافئة في إنجلترا في شهري يوليو وأغسطس (1). هذا الضباب الذي يغلف البيئة الحيوانية والنباتية قد يكون ظلة استظل بها شعر بليك Blake وغلافاً تغلف به تيرنر Turner، وربما يكون قد أسهم في تقوية شخصية الشعب الإنجليزي وتقوية مؤسساته. لقد جعلتهم هذه الجزيرة (البريطانية) معزولين (متفردين) لكنها كانت لهم درعاً يحميهم من التقلبات العقائدية التي كانت تهب كرياح عاصفة بين الحين والحين، وضد بدع الفن، وضد هوس الثورات وجنونها، وضد فظائع الحرب التي غالباً ما كانت تشوه وجه القارة الأوروبية. لقد وقفت الأمة الإنجليزية بقدمين راسختين فوق الأرض الإنجليزية.

وإذا كانت جزيرتهم صغيرة، فقد كانت البحار بأموها التي تلطم شواطئها حيناً وتداعبها حانية مقبلة حيناً آخر - تدعوهم إلى القيام بمغامرات للوصول إلى أماكن بعيدة. لقد أغرت آلاف الطرق السلسلة الميسرة الرجال القادرين على الحل والترحال ليكونوا دائماً شامخين. لقد كانت آلاف المناطق Lands في انتظارهم بمنتجاتها وأسواقها، لتتحول إنجلترا - بسببها - من الزراعة إلى الصناعة والتجارة والمالية الواسعة على مستوى العالم. لقد أدت كثرة تعاريج سواحلها كثرة هائلة إلى وجود مداخل كثيرة وخلجان صغيرة كثيرة تقدم مرافئ آمنة للسفن من كل أنحاء العالم. وكان في الجزيرة البريطانية نفسها اثنا عشر نهراً صالحاً للملاحة النهرية ومئة قناة تُفضي إلى نهر أو آخر من هذه الأنهار. فليس هناك إنجليزي واحد يبعد أكثر من خمسة وسبعين ميلاً عن المياه التي يمكن - عن طريقها - أن يصل إلى البحر. لقد واجهت بريطانيا التحدي الجغرافي بقيامها بالثورة الصناعية وحمل تبعاتها على عواقبهم. لقد شيد البريطانيون سفناً ذات أحجام كبار لم يُعرف لها من قبل مثل، وكان بعضها مصمماً للقيام برحلات تستغرق الرحلة منها نصف عام إلى الهند والصين. لقد أحببت إنجلترا البحر كأحد ممتلكاتها تعتبره امتداداً لها، وحاربت بلا هوادة للسيطرة على هذا الامتداد البحري ضد الإسبان، والفهلنديين، والآن ضد الفرنسيين. لقد مخرت عباب طرق بحرية جديدة حول القارات وإليها؛ إلى موارد وأسواق أفريقية والهند والشرق الأقصى وأستراليا وجنوب المحيط الهادي (الباسيفيكي) والأمريكيتين، وكان الإنجليز - سواء كأجانب (غرباء) أو كمتبردين - تواقين للتجارة مع الآخرين. ولم يتحد هؤلاء البريتون النهمون سوى الطريق (الممر) الشمالي الغربي فقد صدهم وعادوا منه فرادى متفرقين، لكن غير مقهورين. وعلى أية حال فإن هذه الأساطيل التجارية والأساطيل البحرية الطوافة التي تحميها كان لابد من بنائها - غالباً - من أخشاب منشورة مستوردة وكان لابد أن تحصل هذه المستعمرات وهؤلاء العملاء على مقابل لموادهم الخامة وفضتهم وذهبهم وبهاراتهم ومؤونهم وفاكهتهم الغربية، فكان هذا المقابل هو المنتجات الصناعية البريطانية. وكان لابد للثورة الصناعية من تمويل هذه التجارة المنتعشة ونقلها. وشيئاً فشيئاً راحت إنجلترا - خاصة المناطق الوسطى والشمالية منها، وإسكتلندا - خاصة منطقتها الشمالية - تعيد تنظيم حياتها الاقتصادية بسحب المزيد من سكانها من الحقول والقرى إلى المصانع والمدن، ومن العمل البطيء في مجال الحرف المنزلية وفي نطاق الطوائف المهنية (الحرفية) إلى العمل في نطاق مجموعات محددة منظمة ومدربة من رجال ونساء وأطفال دربوا على المكنة والآلات لإنتاج منتجات مصنعة للعالم.

لقد ساعدت العزلة (كون بريطانيا جزراً تحيطها البحار) على إحداث هذا الانتقال. فمنذ وقت باكر يعود إلى القرن الثاني عشر للميلاد كان الإنجليز النشطون قد قر في عقولهم أن بإمكانهم الاستفادة من الأراضي إن كانت شاسعة أكثر من استفادتهم منها إن كانت مجزأة في قطع صغيرة. لقد اشتروا مزارع كبيرة وكونوا مشاعا Commons وكانت هذه المشاعا حقولاً ومحاطب حيث يقوم الفلاحون - تقليدياً - برعي مواشهم وجمع حطب الوقود، وكان الإنجليز يشغلون في ممتلكاتهم الواسعة أجراء hired hands يعملون تحت إشراف مشرفين (نظار). وفي القرن الخامس عشر أدركوا أنه يمكنهم الحصول على مزيد من الأرباح بتربية الماشية والدواجن أو - وهذا هو الأفضل - برعي الخراف، فهذا أفضل من حرث الأرض وزراعتها، فهم بذلك يكونون أقل حاجة إلى الأيدي العاملة، كما أنهم قد وجدوا بالفعل أسواقاً للذبائح والصوف لدى البريطانيين الذين يعانون من البرد والمحبين لأكل اللحوم، وأيضاً لدى الشعوب الأخرى خارج بريطانيا، وشيئاً فشيئاً راح مزيد من الفلاحين يبيعون ممتلكاتهم أو يهجرون مزارعهم إلى

المدن. واختفى - ببطء - صغار مالكي الأرض من الطبقة الوسطى آخذين معهم شيئاً من قوة الشخصية الإنجليزية وكبريائها. وبحلول سنة 0081 كان عدد السكان في بريطانيا 51 مليون نفس، بينما كان عدد الخراف 91 مليون، فقال الطرفاء إن الخراف قد التهمت الناس. وحتى اليوم يفاجأ المرء عند ترحاله في وسط إنجلترا وشمالها بندرة المزارع والأراضي المعدة للزراعة، بينما يكثر عدد المسجات (الأراضي المسيجة) الخضراء التي لا يرى فيها إلا الخراف التي تحول العشب إلى صوف وتكافئ التربة الممتنة بإفرازاتها (تسمدها).

يجب ألا نبالغ، فخلال هذه الفترة (باستثناء الأزمة التي اقتربت في أثنائها بريطانيا من المجاعة في سنة 1181 بسبب الحصار القاري الذي فرضه نابليون) نجحت الزراعة في إنجلترا - تلك الزراعة التي راحت بشكل متزايد تعتمد على الميكنة ورأس المال - في إطعام إنجلترا دون حاجة لعون خارجي (2). لقد كان الزراع واثقين من أنفسهم لدرجة أنهم حثوا البرلمان على اعتماد (تمرير) وقف (مرجعة) قوانين الغلال (الحبوب) بفرض تعريفة عالية (رسوم جمركية قاسية) على استيراد الغلال (الحبوب grain) المنافسة (كانت الكلمة الإنجليزية Corn تعني أي حبوب، وفي إنجلترا كانت هذه الكلمة Corn تعني عادة القمح، بينما كانت تعني في إسكتلندا الشوفان Oats ومع هذا فحتى سنة 0971 كانت هجرة الفلاحين المرحلين إلى المدن بالإضافة إلى المهاجرين الذين اعتراهم الفقر من إسكتلندا وأيرلندا - هي التي قدمت القوى العاملة التي جعلت حركة التصنيع ممكنة.

لقد كانت الصناعة لا تزال في غالبيتها في البيوت والدكاكين لكن معظمها كان مصمماً محلياً ويتم استهلاك منتجاتها محلياً أيضاً. إن الصناعة في هذه المرحلة لم تكن منظمة للإنتاج بكميات كبيرة (للبيع بالجملة) فلم تكن تستطيع تمويل الأسواق المختلفة المنتشرة عبر الحدود. وكان العامل في المنزل أو الدكان تحت رحمة الوطاء (السماسة) الذي يبيعون له المواد الخام ويشترون منه منتجاته. وكان ما يحصل عليه من مال لقاء منتجاته محكوماً بالعرض والطلب، وكذلك بمنافسيه الذين هم أشد منه جوعاً، وعادة ما كان على زوجته وأطفاله أن يعملوا معه من الفجر حتى حلول الظلام (3)، لإبعاد الذئب عن باب الدار (المقصود لإبعاد شبح الفقر) وكان لابد من إيجاد طريقة ما أكثر كفاءة لتمويل الصناعة وتنظيمها إن كان عليها مواجهة احتياجات سكان المدن المتزايدين أو ملء مخازن التجار الراغبين في البضائع الأجنبية أو الذهب (المقصود التجار العاملين في مجال التصدير).

لقد دُعيت الصناعة في إنجلترا نحو التخصص (المشروعات الخاصة) حيث الحافز لتحقيق الربح واضح، وحيث التحرر إلى حد كبير من التنظيمات أو الترتيبات الحكومية، وكان الاندفاع في هذا الطريق بتأثير من فكر آدم سميث Adam Smith مع تجاهل تحذيراته. لقد حصلت الصناعة الإنجليزية على رأس المال مما توفر لها من عوائدها ومن التجار الأثرياء ومن ملاك الأراضي الذين يجمعون العوائد الزراعية (الربح) ومن الإيجارات في المناطق الحضرية، ومن رجال المال (البنكيين bankers) الذين عرفوا كيف يؤثرون المال من المال، والذين أقرضوا الأموال نظير نسبة من الفوائد أقل من النسبة التي كان يحصل عليها نظراؤهم الفرنسيون. وعلى هذا فإن الأفراد والمؤسسات قدموا الأموال للمقاولين الذين عملوا على تدعيم منتجات المزرعة والحقل بخدمات الآلات (الماكينات) والعمل والمهارة اللذين يقدمهما العمال رجالاً ونساءً وأطفالاً فيكون مقدار الإنتاج أكبر، إذ حقق لإنجلترا عوائد مالية لم تعرفها من قبل أبداً، وراح الممولون (مقدمو الأموال) يراقبون كيفية استخدام أموالهم، وحمل النظام الاقتصادي الذي كان على وشك إعادة تشكيل العالم الغربي أسماءهم.

لقد كانت لعبة تطوي على المخاطرة، فقد تدمر الإدارة السيئة أي استثمار، وقد تدمره أيضاً تقلبات الأسعار والأسواق وتغير الأذواق وزيادة الإنتاج بما يفوق طاقة المستهلكين أو بسبب اكتشاف جديد يُخفيه أحد المنافسين.

لقد جعل الخوف من الخسارة الطمع والرغبة الشديدة في الكسب أكثر حدة. لقد كان لابد من الإبقاء على أجور العمل في حدها الأدنى وكان لابد من تقديم المكافآت على الاختراعات الجديدة، وكان لابد أن تحل الآلة محل القوى العاملة البشرية كلما أمكن ذلك. وكان لابد من استخراج الحديد أو استيراده لصنع الآلات والسفن الحربية المدرعة والجسور والمدافع والبنادق، وكان لابد من استخراج الفحم (وكان متوفراً في إنجلترا لحسن الحظ) لتزويد المصاهر التي تصهر المعادن بالوقود اللازم ولتنقية المعادن الخامة ولتحويل الحديد إلى صلب فيصير أشد وأمتن، وكان لابد من ربط أكبر عدد ممكن من الآلات بمصدر طاقة واحد قوي، وقد يكون مصدر الطاقة هذا رياحاً أو ماءً أو حيوانات تنور بشكل مستمر أو تحرك لولباً (قلاموظ)، لكن أفضل منتج للطاقة لابد أن يكون ماكينة (محرك) بخارية كتلك المحركات

(الآلات) التي أقامها جيمس وات Watt في مصنع مٹی بولتون Matthew Boulton بالقرب من برمنجهام (4771م). وإذا كان هناك رأس مال كاف، وإدارة دقيقة أمكن تشغيل أي عدد من الآلات بمحرك واحد (أو عدد قليل من المحركات)، ويمكن أن يرتبط بكل آلة رجل أو امرأة أو طفل يراقبها ويهتم بأمرها طوال ساعات تنراوح ما بين 21 و 41 ساعة في اليوم مقابل أجر يقيم أوده.

وسرعان ما راحت آلاف المداخن تقذف بدخانها في سموات المراكز الصناعية الناشئة - منستر، وبيرمينجهام، وشيفيلد، وليدز، وجلاسجو، وأدنبره (ادنبورج) وكان في بريطانيا في سنة 0571 مدينتان سكان كل منهما 000،05،

وفي سنة 1081 بلغ عدد مثل هذه المدن ثمانى، ستصبح في سنة 1581 تسعاً وعشرين مدينة. وتم تمهيد الطرق لتسهيل نقل المواد الخامة والوقود والمنتجات للمصانع والأسواق والموانئ، وتم تشييد مركبات الجياد العمومية التي تسع الواحدة منها ثمانية ركاب ولتقطع عشرة أميال في الساعة(4). وفي نحو سنة 8081 قام توماس تالفورد Thomas Telford بابتكار أسطح جديدة للطرق تشبه بشكل أساسي الطرق السريعة المرصوفة بالحصباء هذه الأيام، وفعل الشيء نفسه جون مكادم John McAdam في نحو سنة 1181، وكلاهما من المهندسين الإسكتلنديين. وفي سنة 1081 شيّد جورج تريفيثك Trevithick أول محرك بخاري لسحب عربة المسافرين فوق قضبان، وفي سنة 3181 شيّد جورج ستيفنسون Stephenson محركاً أفضل، وفي سنة 5281 افتتح أول سكة حديدية نظامية تجري عليها قاطرات بخارية بين سنكتون Stockton ودارلنغتون Darlington. وفي سنة 1081 بدأ تشغيل أول قارب بخاري في القناة الإسكتلندية، وفي سنة 7081 شيّد مصنع بولتون ووات Boulton & Watt قارباً بخارياً لنقل الركاب هذا فيه حذو أنموذج قدمه روبرت فلتون Robert Fulton الذي أطلق قاربه (كليرمونت Clermont) من نيويورك إلى ألباني Albany في أغسطس من العام نفسه. وفي هذه الأثناء كانت لندن وهارفتش ونيوكاسل وليفربول وجلاسجو موانئ متطورة وبها تسهيلات للتجارة عبر المحيط، وكان نيلسون قد انتصر في أبي قير وفي الطرف الأغر، محققاً لإنجلترا السيادة على البحار.

وفي سنة 1081 أجرت الحكومة أول إحصاء مبني على أسس علمية في بريطانيا العظمى (إنجلترا، وويلز، وسكوتلندا) وأدى هذا إلى فزع المواطنين الذين استأثروا من انتهاك خصوصياتهم كمقدمة لإخضاعهم لتنظيم صارم(5). وأظهرت نتيجة الإحصاء المسجلة أن عدد سكان بريطانيا العظمى في ذلك الوقت كان 646,249,01 (كان عدد سكان الولايات المتحدة في ذلك الوقت نحو 6,000,000) وبحلول عام 1181 كان عدد سكان بريطانيا العظمى قد ازداد ليصبح 441,255,21(6). وربما تعكس الزيادة زيادة كميات الطعام المتاحة وتحسن الخدمات الطبية وانخفاض نسبة الوفيات بين كبار السن والأطفال. لقد زاد سكان لندن في سنة 1181 ليصبح 645,900,1 لكن التوسع الأكثر أهمية والأكثر ضخامة كان في الشمال والغرب الصناعيين، وفي سنة 1181 كان عدد السكان العاملين في مجال الزراعة والرعي هو: 899,598 على وفق ما هو وارد في السجلات بينما كان العاملون في مجال الصناعة والتجارة 1,940,821 وفي أعمال أخرى 7,861,915 (لقد ضيّقت الحكومة على الزراعة بإقرارها نظام الحظائر المسيجة (التي ترفع فيها الأغنام...) وشجعت الصناعة بالعمل لصالح المشروعات الخاصة (الحرّة) وبالحماية الجمركية وبمنع اتحادات العمال من المطالبة بأجور أفضل (0081)، كما عملت على تحسين أحوال التجارة بتحسين الطرق والمجاري المائية، وبتشديد أسطول بحري بريطاني لا يُقهر. لقد حقق التجار والصناع والماليون ثروات كبيرة وفاز بعضهم بمقاعد في البرلمان أو اشتروها (حصلوا عليها لقاء مال دفعوه).

تُظهر الصورة الاقتصادية لبريطانيا في سنة 0081 أنه يوجد في القمة - كانت الأرستقراطية لا تزال موجودة وإن كانت في تناقص - سادة الاقتصاد الذين تسوّدوا خلال ملكيتهم للأراضي، وكان يتعاون معهم نبلاء البرلمان والأرستقراطية المهيمنة (الحاكمة)، وحولهم أو أدنى منهم التجار والصناع البورجوازيون أصحاب المشاريع الذين لا يرحمون، وهم يُظهرون ثراءهم الجديد ومسلّكهم السيء، ويصخبون مطالبين بمزيد من السلطة السياسية، وإلى الأدنى منهم أصحاب المهن المحترمة بدءاً من أكثر الأطباء علماً إلى أكثر الصحفيين شجاعة ودهاء، وإلى الأدنى من هؤلاء جميعاً الفلاحون الذين يفقدون ملكياتهم بشكل متزايد منتظرين العون والنجدة، وعمال المناجم الذين لا يرون الشمس والذين يعيشون في أحشاء الأرض، والعمال غير المهرة الذين يسفلتون الطرق ويحفرون الترع وعمال المصانع الذين يشكلون بركة أو مجمعاً للجوع وعدم الانضباط وانهيار المعنويات، والذين راحوا يكتبون مأساتهم على صفحات سماوات ملوثة (لوثها دخان المصانع).

وإذا كان لنا أن نعيد النظر في أحوال عمال المصانع في بريطانيا في سنة 0081 يجب علينا ألا نبالغ في أهميتهم في نطاق الصورة العامة في ذلك الوقت، إذ يمكن أن نفترض وجود كثير من المشاهد الباعثة على السرور في إنجلترا السعيدة Merrie England. فلم يكن العمل في المصانع في حد ذاته في ذلك الوقت هو المعلم الرئيسي للصناعة البريطانية، فقد كان معظم الإنتاج الصناعي لا يزال يجري إنجازه في البيوت في الريف والحضر على أنوال أو مخارط، أو على يد حرفيين في محلات (دكاكين) مستقلة. وكان التصنيع من خلال نظام المصانع مقتصرًا على عمليات إعداد القطن والكتان والصوف، ورغم محدودية هذا النظام، فإن دوره في بانوراما العصر (المشهد العام للعصر) كان واحداً من أشد الأدوار مدعاة للحزن في التاريخ الإنجليزي.

لقد كانت المصانع نفسها قائمة في الأحياء القذرة أي أحياء الفقراء مكفنة بالروائح الكريهة المنبعثة من الماء الآسن والدخان الناتج عن المصانع ذاتها التي كانت من الداخل متربة بشكل عام وقذرة وسيئة التهوية والإضاءة حتى عام 5081 حين بدأت الإضاءة بغاز الاستصباح. وكان يتم تشغيل الماكينات بسرعتها القصوى مما كان يتطلب من العاملين عليها مراقبتها بعيون حذرة وتظل أيديهم مشغولة طوال اثنتي عشرة أو أربع عشرة ساعة في اليوم. لقد حدث وقتها كما حدث في وقت لاحق أن أدت المخترعات الآلية إلى إنقاذ العمل واستهلاك الإنسان. وكان مسموحاً للعمال بساعة لتناول الغداء وبعدها يستمر الكدح حتى الساعة الثامنة مساءً في معظم الحالات (8). وعند الحاجة كان يتم دعم القوى العاملة من المخزون البشري المتمثل في الفلاحين المرشحين والنسوة الضائعات.

وكان أصحاب المصانع يفضلون النساء على الرجال، والأطفال على النساء لقلّة أجورهم. وفي سنة 6191 كان من بين 000،01 من العاملين في 14 طاحونة إسكتلندية: 3، 641 رجلاً و 6، 458 امرأة و 4، 185 طفلاً دون الثامنة عشرة من العمر (9). وكان أصحاب المصانع يفضلون تشغيل الأطفال الأيتام والمعوزين الذين يُرسلهم مقاولو تشغيل الفقراء لنجدتهم، وذلك لانخفاض أجورهم. وحاول مرسوم المصانع The Factory Act الصادر في سنة 2081 أن يضع حدوداً دنياً لاستخدام مثل هؤلاء العمال المهنيين بمنع تشغيلهم أكثر من 21 ساعة يومياً، ولكن البرلمان قد رفض الدفع للمفوضين (مندوبي الحكومة) لوضع المرسوم موضع التطبيق (01) وبشكل عام ظل تشغيل الأطفال ساري المفعول في المصانع البريطانية حتى سنة 2491 (11).

وفي سنة 0081 كان متوسط أجر العامل البالغ في لندن هو 81 شلن في الأسبوع (نحو 32 دولاراً في الولايات المتحدة سنة 0691) أما في الريف فكان المتوسط ينقص بنحو الثلث (21). وبالجملة فإن أجور الأسرة كان يتحكم فيها العدد المطلوب لاستمرار العمل لكن هذا كان يتوقف على انضمام الزوجة والابن إلى القوى العاملة في المصنع (31). وكان أصحاب العمل يدافعون عن مبدأ بقاء الأجور منخفضة لضمان عودة العمال إلى العمل، وكان بعض العمال يحصلون على إجازة أسبوعية لمدة يومين أو ثلاثة وعندما يعودون للعمل يكونون في حالة غير يقظة لفرط ما تناولوه من كحول في أثناء الإجازة (41) ولم يكن يدفع العامل للعودة للعمل في المصنع بين الآلات سوى الجوع.

وكانت هناك بعض الميزات المعينة التي تُلطف عناء العمال، فبعض أصحاب الأعمال كانوا يدفعون قيمة الإيجار وتكاليف الوقود للعاملين لديهم. وكانت أسعار السلع منخفضة - كانت أرخص بنحو الثلث من الأسعار التي سادت في بريطانيا العظمى سنة 0691 (51). وكانت الأجور - بشكل عام - تتناسب طردياً مع الأسعار، فكلما ارتفعت الأسعار زادت الأجور وكلما انخفضت الأسعار قلت الأجور، وظل الحال على هذا النحو حتى سنة 3971 عندما بدأت الحرب مع فرنسا فعانت الطبقات كلها من نقص دخولها، وإن كانت معاناة العمال هي الأشد لأن أجورهم كانت منخفضة انخفاضاً لا يمكنهم من العيش إلا بشق الأنفس.

لقد كان العمال يعيشون في المدن حيث الهواء الملوّث (المسمّم) في أحياء منعزلة تعميها الأمراض، في مساكن مزدحمة - وأحياناً في غرف رطبة ضيقة كالتقوير لا يصلها نور الشمس إلا لماماً، ولا مكان فيها للتنظف، وحيث النزاعات بين المقيمين فيها تتلف الأعصاب المرهقة ولم يكن هناك مجال للاحتفاظ الفرد بخصوصيته ولم يكن ثمة ملجأ أمام المرأة سوى التقوى، ولم يكن أمام الرجل سوى الخمارة. وكان السكر (تناول الخمر) يتم كل أسبوع. وكان سكان البيوت يحصلون على المياه من الآبار و الطلمبات العامة فإذا ما قلّ معين الماء في هذين المصدرين راحت النسوة يحملن الماء من أقرب نهر أو ترعة، وكانت هذه المياه ملوثة بالمخلفات الصناعية أو المنزلية أو

البشرية(61). وكان الصرف الصحي بدائياً وكانت البالوعات نادرة الوجود. وكتب ثورولد روجرز Thorolde Rogers في سنة 0981 عندما كان أستاذاً للاقتصاد السياسي في أكسفورد: إنني مُوقن أن التاريخ الإنجليزي الموثق لم يسجل في أي فترة من فتراته ظروفاً أسوأ للعمل اليدوي من تلك الظروف التي كانت موجودة في الأربعين سنة الممتدة من 2871 إلى 1281 وهي الفترة التي جمع فيها أصحاب المصانع ثروتهم بسرعة، وهي الفترة التي تضاعفت فيها أجور الأرض الزراعية(71). وقد استمرت هذه الأحوال حتى سني الأربعين من القرن التاسع عشر (0481 - 9481). وقد لخص كارليل Carlyle الذي نشأ في إسكتلندا وإنجلترا ما بين سنتي 5971 و 0481 حال عامل المصنع البريطاني في تلك الفترة بأن قال: إن البريتون Briton كانوا في حالة أفضل منه عندما كانوا أقتانا (عبيداً للأرض) في العصور الوسطى. فالتقدم الصناعي جعل للبروليتاري نصيباً تافهاً جداً من الثروة المتنامية، حتى إنها جعلته يرتد إلى مرحلة البربرية في مسلكه ولباسه وطريقة حديثه والأسلوب الذي يتبعه للترفيه عن نفسه. وقد كتب أليكسيس دي توكفيل Alexis de Tocqueville بعد زيارته لمانشستر: لقد كاد الإنسان المتحضر يتحول إلى همجي بدائي(81). ويرجع الفضل إلى هذه الأيام المريرة فيما حققته مانشستر والمدن الصناعية البريطانية الأخرى من تقدم.

وقدم قانون الفقراء الذي سنّ في سنة 1061 (وجرت عليه تعديلات في فترات لاحقة) بعض المساعدة للمعدين والعاطلين. وكان العاملون على تنفيذ مسؤولين إداريين في الوحدات الإدارية المختلفة وكانوا عادة ما يسلمون المبالغ المجمعة للملاجئ وإصلاحات الأحداث. ولتمويل تنفيذ هذا القانون كان لابد من ضريبة خاصة مفروضة على أبواب البيوت الذين كانوا متدمرين من هذه الضريبة لأنها - على حد رأيهم - تُنفق على العاطلين وعديمي النفع وتساعد على تفريخ الطائشين والمهملين، وكان من رأيهم أن ضريبة المبيعات (المكوس) على ما يُباع أو يُتاجر به محلياً هي خير ضمان ضد الفوضى الاجتماعية. وفي كثير من المديریات (الوحدات الإدارية) - بعد سنة 5971 - كان يتم تنظيم المساعدات (الإعانات) ليحصل عليها أصحاب الأجور المتدنية (التي لا تكفي لإقامة أود العمال الحاصلين عليها)، وكان بعض أصحاب العمل ينتهزون فرصة تقديم هذه الإعانات للإبقاء على الأجور التي يدفعونها للعمال متدنية. ورغم هذه الإعانات المتواضعة، فقد وصلت الحالة البائسة للعمال إلى منعطف خطير مع بداية القرن التاسع عشر. فحتى سنة 4281 كان محظوراً تشكيل تنظيمات للمطالبة بأجور أفضل، ومع هذا فقد كانت هناك تنظيمات سرية، وكان محظوراً القيام بإضرابات ومع هذا فقد أُضرب العمال وجرى قمعهم، فأضربوا ثانية(91). وحرر الإصلاحيون مثل روبرت أوين Robert Owen البرلمان أنه إذا لم تتحسن أحوال المصانع، فسيزداد العنف مما سيكلف كثيراً. وواجهت الحكومة السخط المتزايد بتجديد الأعمال العدائية مع فرنسا (3081) وراحت حالة السخط تزداد كلما ابتعد شبخ الحرب حتى انفجرت في ثورة علنية في سنة 1181، ولم يكن في طبيعة هذه الثورة عمال المصانع وإنما نساجو الجوارب والربط الذين يقومون بعملهم على ماكينات في البيوت والمحلات الصغيرة في نوتنجهام Nottingham أو بالقرب منها. وهؤلاء النساجون رجالاً ونساء كانوا لا يزالون قادرين على الاستمتاع بحياة في الهواء الطلق في الحقول والمزارع، وربما تحققوا من أن حياتهم ذات الطبيعة المنطلقة تتناقض - من الناحية المثالية مع انكفائهم على أنوالهم. لقد امتعضوا من تبعيتهم لأصحاب الأنوال (آلات نسج الجوارب) الذين أجروا لهم هذه الأنوال، وباعوا لهم المواد الخام واشتروا منهم منتجاتهم ولم يتركوا لهم ربحاً إلا بالنسب التي يحددونها هم (أصحاب الأنوال) أو يحددها الذين مولوه بالخامات أو برأس المال. وأكثر من هذا فقد كانوا يخشون أن يفقدوا أعمالهم الحالية لصالح المصانع المنتشرة ذات الأنوال الآلية التي تحركها الطاقة (البخارية) ذات الإنتاج المضاعف، وفي فورة غضبهم قرروا أن يدمروا كل ما يستطيعون تدميره من الآلات والماكينات التي اعتبروها رمزا للعبوديتهم. ونظم ند Ned أو الملك لود King Ludd - وهو شخصية غامضة وربما كان شخصاً أسطورياً - النساجين الغاضبين ووضع الخطط لغارتهم. وفي خريف سنة 1181 راحت جماعات منفصلة من هؤلاء النساجين الثائرين (اللوديين Luddites) يغزون مديرية إثر مديرية وحطموا كل ما وجدوه من آلات النسيج. وامتدت الحركة من نوتنجهامشير Nottinghamshire إلى لانكشير Lancashire ودربيشير Derbyshire وليزبيشير Leicestershire واستمرت الحركة خلال عام 2181. وامتنع محطمو الآلات (اللوديون) عن إلحاق الأذى بالأشخاص إلا في حالة صاحب مصنع أمر رجاله بإطلاق النار عليهم، فقد أخرجه المضربون وقتلوه. وارتعد نصف إنجلترا خوفاً وهدلاً متذكراً الثورة الفرنسية. وكتب روبرت سوئي R. Southey في هذه اللحظات لشيء ينقذنا سوى الجيش. إنه الذي سينقذنا من أكثر النكبات والكوارث ضراوة. سينقذنا من عصيان الفقراء المسلح ضد الأثرياء، لكن إلى أي مدى يمكن الاعتماد على الجيش في هذا الأمر؟ فهذا موضع سؤال قلما أجروا أن أوجهه إلى نفسي. إن البلاد ملغمة تسيخ تحت أقدامنا(02). ودافع وليم كويت W. Cobbett الصحفي المفعم حيوية عن هؤلاء المغيرين في مجلس العموم البريطاني وألقى الشاعر بيرون Byron خطاباً حاراً لصالحهم في مجلس اللوردات، وقدم اللورد ليفربول Liverpool رئيس الوزراء بعض التشريعات القاسية التي أجازها البرلمان وأرسل كتيبة عسكرية لقمع الثوار وتم

القبض على قادة الثوار وأدينوا بسرعة في محاكمة جماعية في يورك (3181) ونفى بعضهم وشنق آخرون. وتضاعف عدد الآلات والماكينات ولم يصدر تشريع يرحم العامل البريطاني البالغ حتى سنة 4281.

صفحة رقم : 14624

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> تأثير إنجلترا في مسيرة الأحداث -> قسوة العلم

3- قسوة العلم

لم يقدم الاقتصاديون سوى القليل لإراحة العمال والتخفيف من معاناتهم. وشرح توماس مالتوس Thomas Malthus في مبحثه (مقال عن السكان) صدر سنة 8971 أن زيادة الأجور تؤدي إلى ظهور أسرة أكثر عدداً مما يؤدي بدوره إلى زيادة الضغط على موارد الطعام وهذا يؤدي بدوره إلى عودة الفقر حالاً لأن الفقر هو النتيجة الدائمة لعدم كفاية الموارد الطبيعية لحاجة الإنسان (12). وقد راجع مالتوس نظريته هذه سنة 3081 لكن دون تراجع عن أفكارها الأساسية وازعاً بذلك قانونه الحديدي للأجور والقاضي بأن أجره العامل ينبغي ألا تتجاوز الحد اللازم لعيش الكفاف أو بتعبير آخر ستنزل أجور العمل دائماً تتحكم فيها نسبة إمداد العمل للحاجة (22). وفي مبحثه مبادئ الاقتصاد السياسي (0281) حذر من أن النمو الاقتصادي قد يؤدي إلى التجاوز مادام سيؤدي إلى تقليص الاستثمار والإنتاج، ودافع عن الربيع rent (العوائد عن استثمار الممتلكات) باعتبارها مكافأة عن الشجاعة والحكمة في الوقت الحالي، وعن قوة أوبراعة كانتا في الماضي (32)، واتفق مع فولتير في أن حياة الترف التي يحياها الأثرياء لها أثر طيب إذ تتيح للحرفيين الفنيين المهرة فرصاً للعمل. وفي لحظة ليبرالية أوصى بإقامة الأعمال العامة (الأشغال العامة) وفي فترات نقص الإنتاج كإعانة للعاطلين وتخفيفاً من معاناتهم.

واتفق ريكاردو Ricardo مع نظريات صديقه مالتوس وأقام عليها مبحثه أسس الاقتصاد السياسي والضرائب (7181) الذي ظل طوال نصف قرن هو النص الكلاسي لما أطلق عليه كارليل العلم الباراد أو القاسي (42). لقد كان (ريكاردو) ابناً ليهودي هولندي كانت أحواله قد انتعشت في سوق لندن للصرافة والأوراق المالية، وكان قد تحول إلى المسيحية على مذهب الموحدين وتزوج من فتاة على مذهب الكواكر Quaker (جماعة مسيحية) وأسست شركة سمسرة وكون ثروة كبيرة وانسحب من عالم الأعمال سنة 5181 وكتب عدة مباحث عميقة خاصة في المالية. وفي سنة 9181 تم انتخابه لمجلس العموم البريطاني حيث حارب المفاصد البرلمانية ودافع عن الاتحادات العمالية وحذر الرأسماليين كي ينتهبوا مخافة أن يجني ملاك الأراضي في بريطانيا - عاجلاً أم آجلاً - حصاد الصناعة ومكاسبها بما لهم من حق في رفع الإيجارات. ودلل في بحث له في هذه الفترة على أن رفع الأجور لم يكن أبداً أمراً حقيقياً بسبب ارتفاع الأسعار الناتج عن زيادة تكاليف الإنتاج، لأن الأجر الخالص للعامل هو ذلك الذي يمكّنه من العيش والإبقاء على نوعه (دون زيادة) ولم يترك ريكاردو إلا القليل لكارل ماركس بتعريفه لقيمة value (وليس سعر price) البضاعة بكمية العمل المبذول اللازم لإنتاجها.

ولم يكن هو نفسه قاسياً (بارداً) كعلمه، فقد ظل هو ومالتوس صديقين إلى النهاية رغم أنهما كانا يختلفان غالباً في أمور خاصة وفي أمور الطباعة، وعندما ماتا (ريكاردو في سنة 3281 ومالتوس في سنة 4281) قال عنهما سير جيمس ماكينتوش Mackintosh (الومضة الباقية من التنوير الإسكتلندي): لقد عرفت آدم سميث معرفة سطحية، وعرفت ريكاردو جيداً وعرفت مالتوس بعمق فقد كانت علاقتي به حميمة. وبصرف النظر عما يُقال عن العلم الذي كان هؤلاء الثلاثة هم سادته ورجاله الأساسيين، فإن ثلاثتهم كانوا من أفضل من عرفت على الإطلاق (52).

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> تأثير إنجلترا في مسيرة الأحداث -> روبرت أوين

4- روبرت أوين

نعود الآن بسرور إلى روبرت أوين، رجل الصناعة الناجح الذي حاول أن يجعل الاقتصاد البريطاني شأنا بهيجا يجعله عوانا بين الرأسمالية والاشتراكية. وُلد روبرت في نيوتون Newtown في ويلز Wales حيث كان أبوه صانع سروج وصاحب محطة تزويد المسافرين بجياد البريد، وصاحب مصنع حديد، وكان ناجحا في كل هذه الأعمال. وكان روبرت في صباه ضعيف البدن ولكنه تعلم كيف يحافظ على صحته وعاش حتى بلغ السابعة والثمانين. وقد جعله أهله يمارس العمل وهو في التاسعة من عمره، وفي العاشرة تمّ تدريبه ليمتحن تجارة الأجاخ والألبسة في ستامفورد Stamford وفي الرابعة عشرة من عمره أصبح مساعدا للتاجر أجاخ وألبسة في مانشستر Manchester، وفي التاسعة عشرة من عمره أصبح مديرا لإحدى أكبر المصانع في لانكشير براتب سنوي قدره ثلاثمائة جنيه (بوند) (نحو 7,005 دولار؟) وظل في عمله هذا ثمانية أعوام حقق خلالها شهرة لكفاءته واستقامته. لقد راح يوقر ويدرس ويقراً بشغف يفوق الحد، وكون صداقات مثيرة للانتباه مع كل من: جون دالتون Dalton المعروف بكيميائه الجزيئية atomic Chemstry وروبرت فلتون Fulton المعروف بقواربه البخارية وصموئيل (صامويل) كولردج Coilrdge المعروف بأفكاره الراديكالية وأشعاره المعروفة. وفي سنة 9971 وكان قد بلغ الثامنة والعشرين اشترى من ديفد ديل David dale لنفسه واثنين من شركائه مجموعة مصانع نسيج في نيو لانارك New Lanark بالقرب من جلاسجو Glasgow وحظي - مكافأة له - بابنة ديل Dale التي أصبحت زوجته المحبوبة التي أنجب منها سبعة أبناء.

وكانت نيو لانارك تضم نحو 0002 نفس بمن فيهم نحو 005 طفل أرسلوا إليها من البيوت الفقيرة في جلاسجو وأدنبره (أدنبرج Edinburgh)، وكما تذكر أوين فيما بعد كان السكان يعيشون في بطالة وفقر وسادت تقريبا كل أنواع الجرائم، وكانوا مدينين مرارا غير أصحاء وفي حالة بؤس... وأدى الجهل وقلة التدريب إلى اعتيادهم السكر والسرقة والكذب والغش والقدارة... وكانوا مجحفين في حق الأمة سياسيا ودينيا يتصدون لأية محاولة لتحسين أوضاعهم(62). وكانت المدن الصناعية الصغيرة تكاد تخلو من وسائل الصحة العامة ووسائل منع تقشي الأمراض. وكانت المساكن مظلمة قذرة، وبدت ممارسة الجريمة عملا ترفيهيا من عناء العمل، وكانت الحانات ملاذاً دافئا وباعثا على المسرة من مشاكل البيوت. وكان أوين Owen قد فقد إيمانه بالغيبات تماما لكنه تعلّق بإخلاص بالمثالية الأخلاقية للمسيح، لكنه صُدم بالمزج بين العبودية الصناعية الجديدة واللاهوت المسيحي القديم (المقصود التوفيق بينهما)، وإنما راح يبحث عن سبيل للتوفيق بين الرأسمالية الناجحة والأخلاق المسيحية. وأقنع نفسه - رغم تحذير والديه - بعائد قدره 5% من رأس المال المستثمر، ورفع الأجور ومنع تشغيل الأطفال تحت سن العاشرة، ورفض حجة مالتوس التي مؤداها أن زيادة الأجور ستزيد ضغط (استهلاك) السكان على الطعام المتاح مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار مما يجعل الأجر الذي يتلقاه العامل وكأنه لم يزد (بمعنى أن قيمته الشرائية رغم الزيادة تظل كما هي) وساق الحجة على أن ما هو صالح للأكل مما يوجد به البحر لا حد له، كما أن زيادة السكان تؤدي إلى زيادة الأراضي المزروعة وأن زيادة الإنتاج ستقترن بظهور المزيد من الاختراعات والمزيد من العمالة، كل ذلك سيساعد على توفير الطعام وتحقيق الازدهار للسكان، إذا أخذت الحكومة بالبرنامج الإصلاحي الذي

يقترحه(72). وافتتح في نيو لانارك New lanark محلاً يبيع فيه مستلزمات الحياة بسعر التكلفة تقريباً، ودرّب - بصبر - العاملين معه ليس فقط على تقنيات الإنتاج بل أيضاً على فن الحياة ، وأكد لهم أنهم إذا تعاونوا وراعى بعضهم بعضاً سينعمون بسلام ورضا لم يألفوهما من قبل . ويبدو أنه كسب كثيراً من العمال إلى جانب النظام والنظافة والاعتدال، وعندما تدمر والداه من أنه ينفق على أعمال الإحسان والتعليم أموالاً كان يمكن أن تحقق أرباحاً وافرة، كوّن لنفسه شركة خاصة به (3181) بعد أن فسخ شركته معهما، ورحب شركاؤه الجدد (كان من بينهم جيرمي بنتام) بتجربته وكانوا راضين بنسبة الخمسة في المائة كعائد لاستثماراتهم.

وحققت مصانعه ومشروعاته في نيو لامارك شهرة على مستوى الوطن إن لم يكن على مستوى العالم. وكانت مدينة نيو لامارك تبعد عن الطريق الرئيسي مسافة تستغرق ركوب يوم كامل من جلاسجو عبر جبالٍ وضباب، ومع هذا كان آلاف الزائرين يأتون لفهم هذه الظاهرة التي لاتصدق - مصنع يُدار على وفق للمبادئ المسيحية، ووقع عشرون ألفاً في دفتر الزيارات فيما بين عامي 5181 و 5281 ، كان منهم كتاب ومصليون ورجال أعمال وأمرأ مثل الأرشيدوق جوهان (يوهان) ومكسمليان النمساوي، وفي سنة 5181 كان الدوق الكبير نيكولاس (الذي سرعان ما أصبح قيصرًا) قد اقتنع بمشروع أوين وبننائه فدعا أوين Owen إلى لتأسيس مصانع ومشروعات مماثلة في روسيا(82).

وبعد أربعة عشر عاماً من التجربة شعر أوين Owen بضرورة تأكيد تجربته وإعلانها للعالم لأنه كان واثقاً من أن انتشارها في أنحاء العالم سيضمن السعادة لكل البشر عبر الأجيال(92) لذا فقد أصدر في سنة 3151 أول مقال من مقالات أربع كان لها عنوان شامل (نظرة جديدة للمجتمع) أصبحت من الكلاسيكات الكبرى في الإنتاج الفكري الذي يتناول الإصلاح. ولم يقدم اقتراحاته بشكل مُستقر وكأنه مستعد للقتال، فقد أكد لحكام بريطانيا ورجال الصناعة فيها أنه لايرغب في إحداث أي تغيير ثوري، ولا يؤمن به وأن خطته لا تهدف إلى إلحاق الخسارة بأي أحد بل إنها حقاً قد تزيد من دخل صاحب العمل، وأنها - أي خطته - قد تجتّب إنجلترا الثورة. لقد بدأ باقتراح وجده أساسياً لأي إصلاح جذري - وهو ضرورة تعديل شخصية الإنسان منذ الطفولة بيث معتقدات وتجارب مفيدة تُغير ما يبدو أنه قد عُرس فيه من خلال موروثات ثابتة تذكي فيه التنافس والصراع. إن أكبر أخطائنا تتمثل في فكرة مؤداها أن الأفراد يشكلون شخصياتهم(03) لكن العكس هو الصحيح، فالآلاف المؤثرات التي تؤثر في الشخص قبل ميلاده ومن ميلاده إلى موته هي التي تكون شخصيته(13). وانتهى أوين Owen بحماس رافضاً أي معدل أو ملطف لأي شخصية سواء كانت من أفضل الشخصيات أم من أسوأها، ومن أكثرها جهلاً أو أكثرها تنوراً لا بد أن تكون موجودة في أي مجتمع، بل وفي العالم كله وذلك من خلال وسائل خاصة هي إلى حد كبير تحت سيطرة من يملكون زمام الأمر في الحكومات(23). ومن هذا المبدأ خلص أوين بافتراضين: الأول؛ أن الطبقات المالكة الحالية لا لوم عليها في ممارساتها وأفكارها طالما أن أفراد هذه الطبقات هم نتاج ماضيهم والبيئات التي هم فيها الآن، والثاني أن الإصلاح لا بد أن يبدأ بالأطفال وبتحسين أحوال المدارس وزيادة أعدادها. لا بد من بذل كل جهد لتنشئة الأطفال بحيث يفهمون أنه لا بد أن يحترم كل فرد الأفراد الآخرين طالما أن أي فرد غير ملوم لصفاته (شخصيته) وغير ملوم بسبب ظروف المجتمع الذي نشأ فيه: لا بد من تعليم الأطفال كيف يتعاونون بإرادتهم وأن يكونوا شجعاناً. ولذا وجدناه عندما كانت المدارس المتاحة للعوام في إنجلترا قليلة جداً يقترح على الحكومات في كل البلاد وضع خطة وطنية (على مستوى الأمة) للتعليم وإعادة تشكيل الشخصية.. دون نظر إلى وطن أو مذهب ديني أو حزب(23).

وكان ديفد ديل Dale قد أنجز بالفعل الكثير لتعليم الأطفال في نيو لانارك، وزاد أوين على ذلك بأن أقام في إحدى المباني من ممتلكاته المعهد الجديد 6181 لتحويل الملائكة والمتبررين إلى مسحيين بدون لاهوت. لقد راح يبحث عن تلاميذ لمعهد من بين الأطفال الذين يستطيعون المشي(33) فقد كان يخشى (مثل أفلاطون) أن ينقل الآباء الذين تكونوا بالفعل (تشكلت عقولهم ونفوسهم بالفعل) أو فسدت طباعهم بالفعل - إلى أطفالهم روح التنافس في الحكم الموجود (القائم)، واستسلم للأمهات اللاتي أصررن على أن الأطفال في أعمارهم الأولى يحتجن إلى عطف الأم ورعايتها، وعادة ما كان يُلحق بمدرسه الأطفال في سن الثالثة ويتركهم - إن سمح الطقس - يتعلمون ويلعبون في الهواء الطلق، وكان الأطفال ذكوراً وإناثاً يلعبون ويتدربون معاً، وكان عليهم أيضاً أن يتدربوا في دار الفنون (الصناعات)، وكان الأولاد يتلقون تدريبات عسكرية، لكن كان عليهم أن يتعلموا أيضاً الغناء والرقص والعزف على بعض الآلات الموسيقية كالبيانو. وكان كل هذا البرنامج التعليمي لخدمة تكوين الشخصية الأخلاقية مع تركيز على الاحترام واللفظ والكياسة والرفق والتعاون. ولم يكن هنا عقاب(43) وعند نهاية كل يوم دراسي يعود الأطفال إلى آبائهم ولا يكون مسموحاً لهم بالعمل في المصانع قبل العاشرة.

ولم تقدم مدرسة أوين أي مقرر ديني، ولا حتى في المحاضرات المسائية التي يحضرها الكبار، فقد كان أوين Owen مقتنعاً أن الدين سيفسد عقل الطفل بخرافاته ومن ثم وجب النأي بطفل التنوير عن الدين، فالذكاء هو الفضيلة العليا وانتشار التعليم هو الحل الوحيد للمشاكل الاجتماعية، وأن التقدم - إذا ما أُتيح التعليم - حتمي ولا حدود له(53). ولم

تكن هناك في مصانعه ومدرسته أي فصل عرقي أو ديني. فقد كان يُقدم الإحسان والرفق للجميع على سواء (63) وكان يؤمن أن المناهج التي يقدمها هي محاولة للتحرك في اتجاه أخلاق المسيح وراح يتطلع بحماس ليوطوبيا أخلاقية!

وفي مقاله الرابع (6181) وهو المقال الذي أهداه للوصي على العرش قدم بعض المقترحات في مجال التشريع. لقد طالب البرلمان بالإسراع في إصدار مرسوم بتقليل المستورد من الخمر، ورفع الضرائب على المباع منها، وأخيراً إنهاء تراخيص محلات الجن gin (شراب مُسكر قوي) وحانات البيرة (الجعة) وتضييق الخناق على السكر حتى يقتصر في النهاية على الأغنياء من ذوي المال. وأوصى بنشر التعليم الابتدائي وتمويله لتحسين أخلاق الأجيال القادمة. ودافع عن صدور تشريع المصانع الذي يمنع تشغيل الأطفال دون العاشرة ومنع العمل الليلي لمن هم دون الثامنة عشرة كما أوصى بتحسين ظروف العمل وتنظيم ساعاته، وتدبير نُظم للتفتيش الدوري على المصانع. وأوصى بضرورة أن يقوم المكتب الحكومي للعمل (الإدارة الحكومية المنوط بها أمور العمل) بجمع الإحصاءات بشكل دوري عن الحاجة للعمالة وغير ذلك من أمور العمل لاستخدامها للتخفيف من حدة البطالة (73). ودعا إلى إلغاء اللواتية (البانصيب) التي تنظمها الدولة باعتبارها وسيلة للإيقاع بغير الوعي، وسرقة الجاهل (83). واتفق مع مالتوس أن (قوانين الفقراء Poor laws) التي تُبقي العاطلين والفقراء على قيد الحياة بالكاد ليست إلا خطوة واحدة من المجاعة، وهي تترك الذين يتلقون العون على وفق هذه القوانين نهياً للجريمة، وتجعلهم يتفرغون للتنازل، واقتراح أوين (7181) بدلا من بيوت التشغيل Work houses التي تُدار في ظل هذه القوانين أن تقيم الدولة مجتمعات كل منها يتكوّن من 005 أو 0051 نفس، وتنظم كل منها نفسها تنظيمًا داخليًا ويقسمون العمل فيما بينهم لإنتاج طعامهم وملابسهم وليديروا مدرستهم (93).

ولم تلق دعوته إلا استجابة قليلة الشأن من البرلمان، فتوجه في سنة 8181 إلى أصحاب المصانع البريطانيين (04) يصف لهم نجاح النظام الذي اتبعه في نيو لانارك ويحثهم أن يكفوا عن تشغيل الأطفال دون الثانية عشرة من أعمارهم، لكنهم لم يجدوا ذلك متفقاً معهم وامتعضوا من تحليل أوين للركود الاقتصادي باعتباره راجعا إلى كون الإنتاج inventive productivity يتجاوز القدرة الشرائية للسكان. لقد رفضوه باعتباره حالما ملحدا لا يفهم فهمًا حقيقيا حقيقة المشاكل التي يواجهها أصحاب العمل، ولا الحاجات البشرية التي لا يستطيع أن يشبعها إلا الدين. وأخيراً عاد أوين Owen إلى العمال أنفسهم فتوجه إليهم بخطاب إلى الطبقة العاملة (9181)، ولقد أسعدهم بإعلانه أن العمل اليدوي إذا تم توجيهه بشكل صحيح هو مصدر الثروة كلها ومصدر الرخاء والازدهار للأمة (14) ولكنه حذرهم من أن إنجلترا وطبقاتها العاملة ليست مستعدة للاشتراكية، وأنكر أي نية يُضمرها لتقديم اقتراح للحكومة البريطانية بضرورة تعيين كل القادرين على العمل في البلاد، تعيينا مباشرا (24). ورفض قيام الحكومة بأية إجراءات متطرفة كما رفض القيام بثورة لأنها ستثير الأحقاد والكراهية والثأر (34) وعلى أية حال فقد أعلن في سنة 0281 في (تقرير إلى أصحاب الأراضي في لانارك) أن إنجلترا الآن لا تحتاج إلى إصلاحات تدريجية وإنما إلى تغيير جذري في نظامها الاجتماعي (44).

وعندما لاقى إحباطاً في إنجلترا وجه وجهه أملاً شطر الولايات المتحدة الأمريكية حيث كان أصحاب فرق دينية مختلفة قد أقاموا بعض التجارب الاشتراكية. ففي سنة 4181 قامت جماعة من التقويين الألمان الأمريكيين بشراء ثلاثين ألف فدان (أكر) على طول نهر وابش Wabash في جنوب غرب إنديانا وشيدوا مدينة طوروها أطلقوا عليها اسم هارموني Harmanie، وبحلول عام 5281 حل بهم الإفلاس فأسعفهم أوين، ودمر ماليته بأن قدم لهم أربعين ألف جنيه من أجل الأكرات (الفدادين) والمدينة التي أعاد تسميتها لتصبح هارموني الجديدة New Harmony ودعا الرجال والنساء من ذوي النوايا الحسنة للانضمام إليه لتكوين مجتمع تعاوني. ودفع كل التكاليف ماعدا تكاليف المدرسة إذ دفعها وليم ماكلور Maclure وأتى إليه آلاف المتحمسين راحوا يأكلون طوال عام على نفقة أوين وتكفوا ببطء مع العمل المنظم واختلّفوا في أمور الدين والسياسة، وفي 7281 كان قد خسر معظم الأربعين ألف جنيه (54) فأحال أمور هذه المستعمرة إلى ماكلور وعاد إلى بريطانيا.

ومع هذا لم يكن قد أنهى ما في جُعبته تماماً، فقد قاد حركة لتطوير نقابات العمال لتكوّن روابط صناعية وتجارية تنافس المشروعات الخاصة في الإنتاج الصناعي. وقبل الاتحاد الوطني للبنانيين عقوداً. وفعلت الاتحادات الأخرى ما يناسبها وفي سنة 3381 نظمها أوين في المنظمة الوطنية الكبرى للنقابات العمالية وكان يأمل أن تستأصل هذه المنظمة - بالتدريج - شأفة الرأسمالية وتحل أخيراً محل الدولة. وتدخل البرلمان بقوانين تكبح هذا الاتجاه لكنها لقيت مقاومة شديدة فرضت البنوك تقديم قروض له وفي سنة 4381 اعترف أوين بالهزيمة.

إن حياته التي شهدت نجاحاً كبيراً في مضمار الصناعة، يبدو أنها وصلت الآن أو كادت إلى مرحلة الفشل الكامل، وأدت الاختلافات الدينية إلى تكبير صفو زواجه، فقد كانت زوجته كالفنية متحمسة عندما اكتشفت أنه (لا أدري)، وفي وقت لاحق حثت ابنها روبرت على إعادة أبيه إلى حظيرة الكالفنية، فكانت النتيجة أن تشكك الولد في دينه بدلا

من أن يُقنع أباه(64). وبعد أن عاد أوين من أمريكا عاش منفصلاً عن زوجته رغم أنه ظل على علاقة صداقة بها. وكان يؤمن بالطلاق ولكنه لم يسع إليه واستغرق في مهمته (رسالته) استغرافاً كاملاً. وقدّم تشجيعاً فعالاً للجماعات المختلفة التي حاولت تطبيق مبادئه: في أوربستون Orbiston في إسكتلندا، وفي رالاهين Ralahine في أيرلندا وفي كوينوود Queenwood في إنجلترا. وقد حلت الجماعة الأولى نفسها في غضون عامين والثانية في غضون ثلاثة أعوام والثالثة في غضون ستة أعوام. وظل ينشر أفكاره بالخطب والتأليف وعاش حتى رأى كثيراً من تعاونيات المستهلكين في الجزر البريطانية. وظل مشغولاً بكتابة توصيات بالإصلاح للهيئات التعليمية والمسؤولين الحكوميين والملكة فكتوريا. وأخيراً - في سنة 3581 - عاد إلى الاتجاه الروحي Spiritualism وأغرق في التأمل الذاتي، وراح يجري حوارات حميمة (باطنية) مع فرانكلن وجيفرسون وشكسبير وشيلي ونابليون والنبى دانيال(74). وفي سنة 8581 كان قد تخلّى منذ زمن عن مجال اهتمامه بل وعن نفسه فعاد إلى بلدته تيوتون ومات فيها وهو في الثامنة والثمانين.

لقد كان رجلاً طيباً، وكان غيرياً يفكر في غيره أكثر من أي شخص آخر، ولم يستطع أن يسمو فوق ذاته كلية، فقد كان فخوراً في طيِّات نفسه بسلطانه ونجاحه وفكره، وكان على حق عندما قرر أن التعاون السليم الذي يحقق الغرض في حاجة إلى نظام وسلطة. إنه أفضل من استطاع تضخيم ذاته لتضم بين جنباتها أقرابه وبلده وجنسه، ووجد - لهذا - رضا في توسيع نطاق الرحمة والعطاء. وهذا هو ما فعله روبرت أوين بعد كل شيء وقبل كل شيء، بشجاعة، وهذا وحده يكفي لنجعله بين الدعاة prophets الملهمين الداعيين إلى حياة أفضل.

صفحة رقم : 14626

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الحياة الإنجليزية -> الطبقات

الفصل السادس عشر

الحياة الإنجليزية

4081 - 7081

1- الطبقات

الحضارة شعب له نظام اجتماعي قامت عليه حكومة وقانون ودين وأخلاق وعادات وتقاليده ونظام تعليمي، مع إتاحة قدر كاف من الحرية للإبداع والتجربة وقدر كاف من الحرية لتكوين الصداقات وعلاقات الحب وأعمال الخير وتطويرها، وقدر كاف من الحرية يُتيح إبداع فن وأدب وعلم وفلسفة. والآن كيف كان حال هذه النظم والحريات في إنجلترا في الفترة من 9871 إلى 5181 وكيف كان شكلهما (تكوينهما) وماذا نتج عنهما؟

في البداية نجد أن الفروق التي فرضتها الطبيعة بين الناس - فيما هو موروث، وفي الفرص والمهارات - جعلتهم يندرجون في طبقات تُسهم كل طبقة منها بنصيب في الحياة المشتركة. ولم يكن في إنجلترا نظام الطبقات المغلقة (أو المتحجرة) لأن الفرد ذا الثروة الكبيرة أو التفوق قد يترقى (يصعد) من طبقة إلى أخرى بل يصل حتى إلى مرتبة النبالة، وغالباً ما كانت العلاقة بين النبيل والفلاح تنسم بروح الصداقة ولما تكون ذات طابع برهمني of Brahmin (أو علاقة لا تسمح بأن يمس (يلمس) الفلاح النبيل). وكانت القنائة (عبودية الأرض) قد اختفت رغم أنه لم تكن هناك إلا أقلية تمتلك الأرض التي تزرعها. وكان النبلاء يدفعون الضرائب مثل غيرهم وفي بعض الأحيان (على عكس نظرائهم الفرنسيين) كانوا يعملون في مجال التجارة أو الصناعة. ولم يكن يرث لقب النبالة إلا الابن الأكبر أما بقية الأبناء فكانوا من الناحية القانونية (وليس الاجتماعية) من العوام.

وظلت كثير من مظاهر عدم المساواة (الفوارق) غير الطبيعية باقية. وكان تركُّز الثروة شديداً بشكل غير عادي. وكانت المساواة أمام القانون غير ذات معنى بسبب ارتفاع تكاليف التقاضي. ولم يكن ممكناً محاكمة اللوردات المتهمين إلا في مجلس اللوردات (الشيوخ)، وظلت مزايا النبالة هذه مستمرة حتى سنة 1481. وكان من الممكن إجبار من لا شجرة نسب لهم على الخدمة في البحرية. ولما كان العوام يصلون إلى رتبٍ عليا في البحرية أو الجيش أو الخدمة المدنية أو الجامعات أو القضاء. ولما كانت طبقة النبلاء الحاكم تسمح للجماهير التي لا تنتمي لطبقة معينة بأي دور في تقرير سياسات الحكومة أو اختيار القائمين عليها.

وربما كان الوعي الطبقي أكثر حدّة ووضوحاً لدى البورجوازية التي ظلت متعالية بكبرياء بعيدة عن الفلاحين والبروليتاريا، وكان أفرادها يحملون بمراتب النبالة. وفي داخل الطبقة البورجوازية نفسها كانت هناك قطاعات متنافسة؛ فكان الرأسمالي العامل في المجال الصناعي يتعالى على جاره صاحب المحل التجاري، والتاجر الكبير الذي تحلّى بالأموال نتيجة مغامراته التجارية يقف متباهياً إزاء رجل الصناعة. وكان ذوو المكانة أو الثروة العظيمة يطلون ما جمعوه من المستعمرات بطلاء الوطنية وكوتوا طبقة خاصة بهم.

وكما في فرنسا، كذلك في إنجلترا لم يكن أي فرد راضياً بما فيه الكفاية بقسمته التي قسمها الله له، أتاحتها له قدراته، أو فرضتها الظروف. لقد كان كل شخص منشغلاً بالصعود أو التزدي. لقد كان قلق العصر الحديث قد بدأ. وكانت المعركة الأساسية هي معركة الرأسمالي كي يحل محل الأرستقراطي في توجيه أمور الدولة. وكان هذا قد استغرق جيلاً كاملاً في فرنسا، أما في إنجلترا فاستغرق قرناً.

وعلى هذا، وحتى سنة 2381 كان لطبقة النبلاء الغلبة، وكانوا يبتسمون ساخرين من متحديهم. وبالمعنى الضيق فقد كانت طبقة النبلاء هذه في سنة 1081 تتكوّن من 782 نبيلاً أو نبيلةً زمنياً (أي ليس من الإكليروس أو رجال الدين) و 62 أسقفاً إنجيلياً هم النبلاء أو اللوردات الروحيون (أي من رجال الدين) وهم الذين يشكلون مجلس الشيوخ (مجلس اللوردات). وكان النبلاء الزمنيون (من غير رجال الدين) مرتبين طبقياً فيما بينهم ترتيباً تنازلياً: أمراء من دماء ملكية، دوقات، ماركيزات، إيرلات earls، فيكونتات Viscount وبارونات. وكان يمكن أن يُطلق على الواحد من كل هؤلاء - ما عدا الأمراء ذوي الدماء الملكية - لقب لورد، وكان اللقب يُورث جيلاً بعد جيلٍ للابن الأكبر. وكان الواحد منهم يمتلك أراضي شاسعة يزرعها فلاحون مقيمون وعمال مستأجرون، وكان لها بطبيعة الحال ريع بلغ في حالة دوق نيوكاسل Newcastle 000,021 جنيه إسترليني (2) في السنة أو نحو 000,21 جنيه عادة كما في حالة الفيكونت بالمرستون. وكانت مزارع دوق بدفورد، ودوق نورفولك ودوق ديفونشير يمكن أن تغطي كونتية (مقاطعة) (3). وإلى الأدنى من هؤلاء اللوردات الزمنيين (من غير رجال الدين) واللوردات الروحانيين (من رجال الدين) نجد 045 بويرين! (تصغير بارون، وتكتب أحياناً بارونت) وزوجاتهم (الواحدة منهن بويرينه، وتكتب أحياناً بارونيته) ويشفع الاسم المسيحي للواحد منهم باللفظ (سير Sir) إن كان بويرينا، وباللفظ (ليدي Lady) إن كانت بويرينه وتُتوارث هذا اللقب (سير أو ليدي) من هذه الأسرات. ويلي ذلك 053 فارساً Knights (لقب وليس له علاقة بالضرورة بركوب الخيل) وزوجاتهم، ويُسبق الاسم المسيحي للواحد منهم باللفظ (سير) أو (ليدي) أيضاً، لكن اللقب هنا لا يتوارث، ويلي حامل لقب فارس نحو ستة آلاف من حاملي لقب حامل الدرع Squire أو شريف المحتد gentry وهم من ملاك الأراضي الذين وُلدوا في أسرات قديمة حازت قبولاً اجتماعياً ومن حق الواحد منهم أن يحمل شعار النبالة. كل هذه المجموعات الأنف ذكرها من حملة الألقاب تقع دون اللوردات وهم يكوّنون النبالة الدنيا أو النبالة الأقل درجة لكنهم بشكل عام من بين الأرستقراطية التي تحكم إنجلترا.

لم يكن أحد يشعر بأن حكم الأقلية ينطوي على شيء من الخطأ. فقد كان هناك رضاً متزنًا قانعاً رواقياً (متسم بقبول الواقع) يبرر فقر الفلاحين وتدني أوضاع عمال المصانع واستغلال أيرلندا. لقد كانت هناك قناعة أن الفقر هو عقاب ضروري وطبيعي لعدم الكفاءة أو الكسل ويجب ألا يُسمح للمنظرين الخوَّارين بتحويل بريطانيا إلى ديموقراطية تقوم على تقديم الإعانات المالية (للكسالى وغير الأكفاء) ورغم الحالمين باختفاء أشكال الحكومة مثل وليم جودون أو بيرسي شيلي، فإن شكلاً من أشكال الحكومة يُعد أمراً ضرورياً فمن غير الحكومة يصبح الشعب غوغاء يهددون كل فرد وكل حرية، ولم يكن نابليون ظالماً في حكمه لصالح الأرستقراطية الإنجليزية، بل إنه قال في سانت هيلانه: ستكون مأساة (أو كارثة) أوروبية إذا اختفت الأرستقراطية الإنجليزية وثركت الأمور لغوغاء لندن(4) فكل الحكومات تقوم إما على حكم الأقلية أو حكم الطغاة (الحكم الفردي المستبد) والأقلية الحاكمة إما أن تكون بأرستقراطية المولد أو بلوقراطية الثروة (حكومة الأثرياء slash أو حكم الطبقة الثرية) وبطبيعة الحال فإن الديموقراطية كانت في هذا الاتجاه الأخير (البلوقراطي) لأن الثروة وحدها هي التي يمكنها تمويل المعارك أو دفع تكاليف حث الناس على التصويت لصالح المرشحين الأغنياء والذين يتم انتخابهم بطريقة ديموقراطية وهم قلما يكونون - بحكم المولد أو الخبرات - قادرين على التعامل بنجاح مع قضايا الحكم، أما تعاملهم مع الشؤون الخارجية فنجاحهم فيها أقل بكثير. فأرستقراطية المولد هي مدرسة لأجل الدولة. حقيقة إن بعض من تخرجوا في هذه المدرسة (أرستقراطية المولد) قد يصبحون عاطلين لا يصلحون لعمل، لكن هؤلاء قلة، فأرستقراطيو المولد بحكم طول ارتباطهم بقضايا الحكم والأشخاص الحاكمين يكتسبون القدرة على التعامل مع الأمور الحرجة دون تعريض الأمة للخطر بحماقاتهم (تصرفاتهم غير المنضبطة). وأكثر من هذا فإن الأرستقراطية الموظفة توظيفا صحيحاً تستطيع أن تُلزم الناس بعبادة الطاعة واحترام السلطة اللذين هما منحة للنظام العام والأمن. وبدت هذه الحجج التي صيغت ببراعة وتغلغت في الشعور بشكل غامض مقنعة لغالب الشعب البريطاني. لكنها لم تكن مقنعة للبورجوازية الصاعدة التي كان أفرادها ممتعضين من الثروة التي حققها ملاك الأراضي فسيطروا على الوزارات والبرلمانات، كما كان العمال المتمردون ينكرون على الأرستقراطية - بغضب - دورها، كما تعرضت الأرستقراطية للمساءلة من المثقفين الذين هالتهم الوسائل التي توظفها الأرستقراطية التي تحكم إنجلترا لخدمة مصالحها.

صفحة رقم : 14627

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الحياة الإنجليزية -> الحكومة

2- الحكومة

2\ الهيئة التشريعية

دستور إنجلترا هو الكيان الكامل للتشريعات غير المُلغاة التي أصدرها البرلمان، والقرارات غير المُبطللة (بضم الميم) للمحاكم. فمثل هذه السوابق القانونية تُسند كل السلطات الحكومية إلى الناتج (سواء أكان صاحبه ملكاً أو ملكة)

والبرلمان اللذين يعملان بتوافق. وعادة ما كان الملك منذ سنة 8861 يقبل ما يشرّعه البرلمان ويوافق عليه. وليست هناك وثيقة مكتوبة تحد من سلطة البرلمان في إجازة أيّ قانون يُرضي مجلسيه (مجلس العموم ومجلس اللوردات) (النص: غرفتا مشورته two chambers) وتتكون الغرفة العليا (مجلس اللوردات) من اللوردات الزمانيين (من غير رجال الدين) واللوردات الروحانيين (من رجال الدين) الذين يجلسون بترتيب على وفق الميلاد والتقليد، ومن سلطتهم رفض أي إجراء يصوت عليه مجلس العموم وهم كمحكمة عليا تُستأنف (بضم التاء) القرارات القضائية لديها، ومحاكمة عليا عند تولي مجلس العموم محاكمة أحد أعضائه بسبب جنائية أو جنحة أو عند محاكمة أحد أعضاء الحكومة كما أنه مختص بالنظر في الأمر عند اتهام أحد أعضائه من غير الإكليروس في جريمة كبرى. لقد كان هو حصن الأرسقراطية تقوم من خلاله بنضال يعوق تقدم البورجوازية المتقدمة.

وكان عدد أعضاء مجلس العموم 855 عضواً: اثنان من جامعة أكسفورد واثنان من جامعة كامبردج، وواحد من كلية التلثيث في دبلن، و 54 من إسكتلندا، والباقيون يتم انتخابهم في أربعين كونتية (مقاطعة) وعشرين مدينة تمثل كل منها دائرة انتخابية من قبل ناخبين لهم امتيازات محدودة مختلفة اختلافاً كبيراً مما يجعل من غير الممكن النص عليها بالتفصيل في هذا السياق(5). ويُستثنى من المنتخبين (بكسر الخاء) النساء والذين يتلقون إعانات، والأروام الكاثوليك والكوكرا (أصحاب مذهب ديني) واليهود واللاأدريين، وبشكل عام كل من لا يؤدي قسم الولاء والطاعة لكنيسة إنجلترا وعقائدها. وفي المجموع كان في إنجلترا ذات التسعة ملايين نفس 542,000 ناخباً. وطالما كان التصويت علنياً فإن قلة من المصوتين (الناخبين) هم الذين كانوا يجسرون على انتخاب مرشح غير مالك الأرض. وكان كثيرون من أهل المدن ممن لهم حق الانتخاب لا يُزعجون أنفسهم بالإدلاء بأصواتهم، وكانت بعض الانتخابات تجري بترتيبات بين الزعماء دون أي تصويت. وكان عدد الممثلين البرلمانيين المسموح بهم لكل مدينة borough قد تحدد بحكم التقاليد المتوارثة دون أن يوضع في الاعتبار زيادة عدد السكان أو نقصهم في هذه المدينة التي تمثل دائرة انتخابية، إذ كان لبعض المدن التي لا يتجاوز عدد المصوتين فيها أصابع اليد ممثل أو أكثر، بينما لم يكن مسموحاً للندن سوى بأربعة ممثلين رغم أن عدد المصوتين فيها ستة آلاف. وكانت المراكز الصناعية قليلة التمثيل في البرلمان إن لم تكن غير ذات ممثلين برلمانيين أبداً. فمشتستر وبيرمينجهام وشيفلد لم يكن لها ممثلون في البرلمان، بينما كانت كونتية (مقاطعة) كورنوال Cornwall القديمة) تتمتع بأربعين نائباً. وعلى أية حال يجب أن نضيف أن كثيراً من المدن والقرى كانت محققة بقدر كبير من الحكم الذاتي فيما يتعلق بأمورها الداخلية، وعلى هذا فمدينة لندن كانت تختار حكومتها عن طريق أصحاب الأملاك فيها (فهم وحدهم لهم حق التصويت). وكان نحو نصف مقاعد مجلس العموم يتم شغلها عن طريق انتخابات نصف جماهيرية، أما النصف الثاني فيتم شغله من خلال تعيينات الملاك المحليين أو المقيمين في مناطق نائية، ولا معقّب على تعيينهم. وكان الراغبون في مثل هذه التعيينات يدفعون للمجالس المحلية في كثير من الحالات، وكانت هذه المجالس تعين من يدفع أكثر من غيره أو بعبارة أخرى كانت مجالس المدن تبيع وتشتري مقاعدها في مجلس العموم بشكل علني واضح كما يجري التعامل في أية بضاعة(6).

وكان الأعضاء المختارون يقسمون بشكل مرّن بين الحزبين: التوري (المحافظون) والهويج (الأحرار)، وكان هذان الحزبان قد نسيا إلى حد كبير القضايا التي اختلفا عليها في الماضي والتي كانت سبباً في انقسامهما إلى حزبين. وكان زعيمهما من بين الأسرات الأرسقراطية القديمة لكن الهويج (الأحرار) كانوا أكثر ميلاً من التوري (المحافظين) للاستماع إلى لوردات التجارة والصناعة الأثرياء، بينما كان التوري (المحافظون) يدافعون عن الحقوق المقصورة على السلطة الملكية، وكان الهويج (الأحرار) يتحدونها. لقد كان عصب الصراع هو السلطة لا المبدأ؛ أي حزب عليه تشكيل الوزارة الحاكمة واقتسام المناصب الرابحة والإشراف على التطور. ورغم الأساس الأرسقراطي للحكومة البرلنانية فإنها كانت - بشكل ملحوظ - أكثر ديموقراطية في سنّ القوانين من حكومات معظم دول القارة الأوروبية، ففي هذه الدول (بما في ذلك فرنسا بعد سنة 4081) كان الإمبراطور أو الملك هو الذي يقبض على زمام السلطة، أما في بريطانيا فقد كان الحاكم الحقيقي منذ سنة 8861 هو البرلمان وليس الملك، وفي هذا البرلمان ذي المجلسين (مجلس اللوردات ومجلس العموم) كانت السلطة في الأساس في يد مجلس العموم من خلال سلطته على الميزانية Power of the purse: إذ لم يكن ممكناً إنفاق أي مبلغ من الميزانية العامة دون موافقته، ومن الناحية النظرية كان يمكن للملك أن يعترض على أي إجراء يُقرّه البرلمان، لكن جورج الثالث - من الناحية الفعلية - لم يمد هذا الحق المقصور عليه إلى هذه النقطة الحساسة. وعلى أية حال، كان في مقدور الملك أن يحل البرلمان، و يلجأ إلى أهل البلاد go to the Country لإجراء انتخابات جديدة.

وفي هذه الحال يكون لدى المرشحين الذين يؤيدهم ويمولهم فرصة طيبة للفوز بالمقاعد لأن الملك الطبيعي المؤلف من شعبه قد أصبح مرة أخرى تجسيدا للامة ومحور الولاء لها والفخر بها.

2\النظام القضائي

كان النظام القضائي في إنجلترا - مثله مثل النظام التشريعي - كافياً بالغرض، وكان قد تم مصادفة (أي بدون قصد)، وكان مشوشاً غير محدد المعالم. لقد كان لا بد بادئ ذي بدء من السيطرة على مجموعة القوانين التي كانت تكاد تصدر يوماً خلال مئات السنين فظلت طويلاً غير منظمة ولا متسقة وكانت تنص على عقوبات قاسية جداً حتى إن القضاة كانوا غالباً ما يعدلون أو يتجاهلونهم. لقد كان القانون مثقلاً ببقايا أصوله الإقطاعية وتنقيحاته المسيحية: فاللوردات المتهمون كان لا يزال من الضروري أن يُحاكمهم لوردات، وحتى سنة 7281 كان القسس الأنجليكان مُستثنون من المثول أمام المحاكم المدنية. وظلت مئات القوانين (التي تنص على منع المقامرة ووسائل الترفيه الليلية والاجتماعات غير المصرح بها) مثبتة ومنصوصاً عليها، رغم عدم تطبيقها إلا فيما ندر. وجرت بعض التحسينات في هذه الفترة: فعدد الجرائم (نحو مائتين) التي كان (في سنة 0081) عقابها الموت، جرى تخفيف عقوبتها مراراً. وأصبح من الممكن تقادي السجن لعدم وفاء الدين بالحصص الدقيق للموجودات والديون والعوائق التي تعوق المدين عن سداد ديته. لكن قانون الإفلاس ظل ثقيل الوطأة حتى إن رجال الأعمال نحاشوه باعتباره طريقاً إلى إفلاس مضاعف. وقانون الإحضار لأغراض التحقيق الصادر في سنة 9761 والذي كان يهدف إلى منع سجن المتهم قبل المحاكمة، غالباً ما عُلّق (لم يُنقذ) حتى فقد قوته في أثناء أزمات مرّت بها البلاد مثل فترة الحروب الثورية الفرنسية. واستمرت التناقضات والمعوقات والتشوش سمة من سمات القانون البريطاني حتى عكف بنثام Bentham عليها وأخضعها لمنابرته ودقته ومتابعته للتفاصيل بُغية إصلاحها.

ومما زاد من صعوبة القبض على المجرمين قلة عدد رجال الشرطة في المدن وانعدامهم - تقريباً - في القرى. وكان المواطنون مضطرون إلى تكوين مجموعات تطوعية لحماية حياتهم وممتلكاتهم، وحتى عندما كان يتم القبض على المجرم، فإن يستطيع أن يؤخّر سجنه أو يُفلت منه باستئجار المحامين ليجدوا له أسباباً لاستئناف الدعوى أو ليفتعلوها له أو ليبحثوا له عن ثغرات في القانون فقد كان مجالاً لفخر المحامين أنه لا يوجد قانون إلا واستطاعوا اختراقه وتوسيع رفته ليسيروا خلاله بعربة بل وستة خيول(7).

وكان أفضل لمحة في القانون الإنجليزي هو حق المتهم في المحاكمة أمام هيئة محلفين. ومن الواضح أن هذه المؤسسة من مؤسسات الفرنك الكارولنجيين Carolingian Franks قد دخلت إنجلترا بشكلها الأولي مع الفتح النورماني. ولم يكن عدد هيئة المحلفين قد حُدّد بعد باثني عشر عضواً حتى سنة 7631، وفي نحو ذلك الوقت فقط كانت الموافقة الاجتماعية للمحلفين على قرار واحد أمراً مطلوباً. وكان يتم اختيار المحلفين (عادة كانوا من الطبقة الوسطى) من بين قائمة تضم من ثمانية وأربعين إلى واحد وسبعين رجلاً بعد جدال بين الحزبين المتصارعين. وكان فضاء الصلح يعينون بشكل دوري بواسطة هيئة محلفين كبرى في كل كونتية (إقليم)، وكان من المتوقع أن تأخذ المحاكم بتوصياتهم. وفي أثناء نظر القضايا كان المحلفون يسمعون الأدلة والمرافعات المختلفة ويقوم القاضي بتلخيص كل ذلك، وبعد ذلك ينسحبون إلى غرفة مجاورة ويُمنع عنهم الطعام والشراب والتدفئة والشموع (إلا بإذن القاضي) لتجنب أي تأخير غير مُبرّر أو إسراف، إلى أن يصدروا حكمهم بالإجماع(8).

3\السلطة التنفيذية

من الناحية النظرية فإن الملك هو المخوّل بالسلطة التنفيذية، ومن الناحية الفعلية فإنها مسؤولية مجلس وزرائه الذين لا بد أن يكونوا أعضاء في البرلمان ومسؤولين أمامه عن أعمالهم ومعتمدين عليه في إقرار ميزانيات وزاراتهم. ومن الناحية النظرية فإن الملك هو الذي يُعيّن هؤلاء الوزراء، ومن الناحية العملية كان من المتوقع أن يختار الملك رئيس الوزراء زعيم الحزب الفائز في آخر انتخابات، ويقوم رئيس الوزراء هذا مع البارزين من حزبه بتعيين الوزراء. وكان وليم بت Pitt في ولايته Administration الأولى (3871 - 1081) قد قام بدور مزدوج كمستشار لوزارة المالية ومسؤول أول first Lord للخزانة وكانت هاتان المهمتان اللتان يقوم بهما مرهونتين بموافقة البرلمان فكل ما يتعلق بجمع الأموال المكونة للدخل الوطني وإنفاقها مرهونة بموافقة البرلمان. وفي مجلس الوزراء - والحكومة بشكل عام - كانت السلطة المالية هي الأداة الرئيسية للنظام والحكم.

ولم يقر الملك جورج الثالث بتبعية اللبرلمان فمنذ توليه العرش في سنة 0671 وهو في الثانية والعشرين من عمره عمل على تقوية الهيمنة الملكية، لكن الانهيار المكثف لقيادته في حرب الاستقلال الأمريكية وتعرضه بشكل متكرر لنوبات خلل عقلي (5671، 8871، 4081، 0181 - 0281) أو هن جسده وروحه وإرادته وبعد سنة 8871 سمح لوليم بت بالحكم بشروط ثلاثة: عدم تجريم الرق وعدم السماح للكاثوليك البريطانيين بالتصويت (حق الانتخاب) وعدم إبرام سلام مع فرنسا حتى يعود لويس الثامن عشر إلى عرشه الذي هو حق له.

وكان جورج الثالث رجلاً طيباً ولكنه كان قصير النظر ضيق الأفق من الناحية الدينية. وقد وصفه نابليون في أثناء أسره وفي معرض تذكره للأحداث الماضية بأنه - أي جورج الثالث أكثر الناس أمانة في بلاده (9) وكان يمتاز عن أسلافه الهانوفرين بالتزامه بكل الوصايا العشر ما عدا الوصية الخامسة وقصر كثيراً في الوصية اللاوية أحب جارك كحبك لنفسك لكنه أحب الشعب الإنجليزي. ورغم أخطائه فقد أحبه شعبه بدوره (يادله حباً بحب) بسبب ما حل به من نكبات - لأنه أحب دينه الذي ورثه عن أسلافه وأحب زوجته وبناته ولأنه أعطى الأمة مثلاً ملهماً لحياة البساطة والإخلاص. لقد تقطعت قلوب شعبه من أجله حباً له وحداً عليه عندما لوّث معظم أبنائه ألقابهم الأميرية بعدم انضباطهم عسكرياً وانعدام وعيهم وممارستهم المقامرة وغلوهم الطائش الذي أدى إلى انهيارهم جسدياً وتدهور شخصياتهم، رغم أن أباهم كان رجلاً طيباً. لقد وصفهم ولنجتون: إنهم أكبر لعنة يمكن تصورها تحيط برقبة حكومة (01).

لقد كان أكبرهم - جورج أمير ويلز مزعجاً بشكل لا يمكن تصوّره. لقد كان جذاباً وسيماً وكان على وعي بذلك. وكان قد تلقى قدرأ طيباً من التعليم ويستطيع التحدث بالفرنسية والألمانية والإيطالية بطلاقة وكان يُحسن الغناء ويعزف على الفيولونسيلو Violencello (آلة موسيقية إيطالية) ويكتب الشعر كما كان ملماً بالأدب الإنجليزي المعاصر، وكان يُعد من بين أصدقائه الحميمين ريتشارد شريدان وتوماس مور كما كان راعياً ذكياً للفنون وأقام في دار كارلتون Carlton House مؤسسة أميرية جعل فيها أثاثاً أنيقاً من أموال الأمة واشتغل بالسياسة ونافس شارلز جيمس فوكس في اهتمامه الشديد بالسياسة، وأصاب والده بالذعر عندما أصبح معبوداً لحزب الهويج (الأحرار) وكان أيضاً يحب الشباب المتأنقين الذين أنفقوا ثرواتهم على الملابس الأنيقة والنساء والخيول والكلاب (11). هذا حذو هؤلاء البريتون في إقامة مباريات تكسبية ولم يكن له نظير في إنفاقه وديونه. وخصّص البرلمان مرات عديدة مئة ألف جنيه لسداد ديونه (21).

وفي السابعة عشرة من عمره اعترف أنه مغرم بالنساء والنيبذ أكثر من أي شيء آخر وكان من بين خليلاته الأوليات - ماري روبنسون التي فتنته بقيامها بدور بيرديتا Perdita في حكاية شتاء A Winter Tale، وظل ينفق عليها ببذخ طوال ثلاث سنوات. ثم كوّن علاقة أكثر جدية مع ماريا أن فينتسهيربرت Maria Anne Fitzherbert التي ترمّلت مرتين (مات عنها زوجها فتزوجت غيره ومات بدوره) وكانت كاثوليكية وأكبر منه بست سنوات، وكانت رقيقة لطيفة متحررة وقد رفضت أن تكون خليلته لكنها لم تمنع في الزواج منه. وكان قانون وراثه العرش الذي كان قد أعطى عرش إنجلترا للأسرة هانوفر قد استثنى من حق الملك كل من يتزوج كاثوليكية أو تتزوج كاثوليكية، كما منع قانون 2771 أي فرد في الأسرة المالكة دون الخامسة والعشرين من الزواج دون موافقة الحاكم. ومع هذا فقد تزوج الأمير من السيدة ماريا فينتزهيربرت (5871) بعد أن دفع لراعي أبرشية شاب خمسمائة جنيه ليفوم بإجراءات (طقوس) الزواج غير الشرعي، مما أدى إلى احتفاظه بحق وراثه العرش إذ ادعى هذا الحق في سنة 8871 عندما انتابت والده نوبة خبل فراح يترقب موت والده بصبر نافذ، وقلما كان الابن وأبوه على وفاق.

وعلى كل حال فقد كان هناك اتفاق أنه إذا دفع الملك (عملياً البرلمان) ديون الأمير (011، 000 جنيه إسترليني) قام الوريث الظاهر بتريك زوجته الأدنى منه منزلة وتزوج قريبة والده الأميرة كارولين البرونسوكية of Brunswick. لقد بدت في عينيه دميمة غير مشجعة، وبدا في عينها سميناً مقرفاً، لكنهما تزوجا في 8 أبريل 5971، وقد أكدت كارولين فيما بعد أنه قضى ليلة العرس (الدُّخلة) وقد أضع الشراب همته (31). وعلى أية حال فقد أنجبت له بنتاً في 7 يناير 6971 (الأميرة شارلوت Charlotte) وسرعان ما فارقتها وعاد لفترة إلى زوجته السابقة السيدة فينتزهيربرت التي كانت فيما يبدو المرأة الوحيدة التي أحبها بعمق. (عندما مات وجدوا صورتها معلقة على صدره) (41).

وفي نوفمبر سنة 0181 أصبح جورج الثالث مجنوناً تماماً بعد إنكساره أمام المعارضة البرلمانية، وخجلاً من تصرفات ابنه وحنناً على وفاة ابنته أميليا Amelia. وطوال تسع سنين بعد ذلك أصبح ملك إنجلترا مقيداً كمجنون يرتدي سترة المجانين وأشفق عليه شعبه وأحبه، بينما تولى الوصي على العرش (الابن الأنف ذكره) مكانه مدعياً السلطة الملكية والأبهة، وكان وقتها قد أصبح سميناً محطماً رقيقاً ديوناً Cuckolded مكروهاً محترقاً.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الحياة الإنجليزية -> الدين

3- الدين

كانت الحكومة وأهل الفكر في إنجلترا قد وصلوا إلى اتفاق شرف (اتفاق يسري بمراعاة الشرف لا بقوة القانون) بخصوص الدين. فالهجوم الذي شنه الراديكاليون على العقيدة التقليدية orthodox لا بد أن تخف وطأته مادام المتشككون في الدين (المسيحي) ليس لديهم ما يحل محل الدين لتحقيق السلام بين الناس وضبط سلوك الأفراد. لقد كان وليام جودون، وروبرت أوين Owen، وجيرمي بنتام وجيمس مل أمثلة حية لعدم الإيمان (بالمسيحية) لكنهم لم يقوموا بدعاية ضد الدين. وكان توم بين Paine استثناء منهم. وكانت الأرستقراطية الإنجليزية - التي وجدت في فولتير الشاب ما يجذبها - تراعي الآن حرمة السبت بوضوح. لقد لاحظ مؤرخ حولي في سنة 8971 دهشة الطبقات الدنيا في كل أنحاء إنجلترا لرؤيتها الطرق إلى الكنائس غاصة بالعربات التي تجرها الخيول في أيام الأحاد (51). وفي سنة 8381 لاحظ جون ستيوارت مل: يوجد في العقل الإنجليزي سواء من ناحية التفكير والتأمل أو الممارسة بُعد صحي على درجة عالية من البعد عن التطرف... لا تزج الهدوء أو بتعبير آخر لا تغير ما هو مستقر Quieta non movere وكانت هذه هي العقيدة الأثرية في تلك الأيام... وعلى هذا، ففي حالة عدم إثارة ضوضاء كثيرة حول الدين أو عدم تناوله بجديّة شديدة فلم يكن لدى الناس حتى الفلاسفة مانع من تأييد الكنيسة باعتبارها حصناً ضد التعصب ومسكناً للروح الدينية لمنعها من إفساد هارمونية المجتمع (اتساقه) أو تعكير صفو الدولة. ووجد الإكبروس أنهم حققوا صفقة طيبة بهذا الاتفاق والتزموا بشروطه بإخلاص (61).

لقد كانت الكنيسة من الناحية الرسمية هي الكنيسة المتحدة لإنجلترا وأيرلندا. ورغم أنها قبلت تسعاً وثلاثين مادة من العقيدة الكلفينية إلا أنها احتفظت بكثير من ملامح الطقوس الكاثوليكية. لقد كانت تضم رؤساء أساقفة وأساقفة لكنهم عادة ما كانوا يتزوجون، وكان تعيينهم يتم عن طريق التاج. وبشكل عام كان كبار ملاك الأراضي المحليون هم الذين يختارون الكهنة والقسس البروتستانت، وكان هؤلاء الكهنة والقسس يساعدونهم في حفظ النظام الاجتماعي. واعترف الإكبروس الإنجليكان بالملك باعتباره رأس كنيستهم وباعتباره حاكماً، واعتمدوا على الدولة في جمع العشور للكنيسة من أسر إنجلترا. وقد وصف بورك Burke بريطانيا بأنها كومنولث مسيحي كانت فيه الكنيسة والدولة كياناً واحداً بل إنهما الشيء نفسه. إن كلا منهما جزء مختلف عن الآخر لكنه مكمل له ووصف جون ولسون كروكر كنيسة وستمنستر Westminster Abbey بأنها جزء من الكومنولث البريطاني (81). لقد كانت العلاقة بينهما تشبه العلاقة التي بين الكنيسة الكاثوليكية وحكومة فرنسا في أثناء حكم لويس الرابع عشر مع فارق وهو أن إنجلترا لم تشهد - غالباً - اضطهادات أو مضايقات بسبب تهمة الهرطقة (الإلحاد).

وسُمح للفرق (أصحاب المذاهب) المنشقة - الميثوديين (المنهجيين) والمشيخيين Persbyterians والمعمدانين Baptists والإندبندنت (المستقلين) والابريشيون congregation alists والكوكر Quakers والموحدين (المناهضين للتثليث) Unitarians - بالدعوة لعقائدهم بشرط واحد: أن يُعلنوا أنهم مسيحيون (91) وكان هناك بعض من هؤلاء المنشقين في مجلس اللوردات. وتحلق عدد كبير من المستمعين حول الميثرين (الدعاة) الميثوديين لما عُرفوا به من بلاغة رائعة. ولجأ عمال المدن المعارضون بعد أن ينسوا من تحقيق آمالهم في الدنيا إلى عقيدتهم البسيطة (عقيدة الطفولة) وبهذه العقيدة البسيطة قاوموا كل الجهود لتحريضهم على الثورة عندما تسللت الأفكار الثورية عبر القنال الإنجليزي من فرنسا. وفي سنة 2971 طلب القادة الدينيون لجماعة الوزليان الميثوديين من كل عضو من أعضائهم أن يقسم يمين الولاء والطاعة للملك (02).

وفي نطاق الكنيسة الرسمية نفسها وجدنا تأثير الميثودية الحركة الإنجيلية Evangelical؛ كثير من رجال الدين صغار السن وكذلك كثير من جمهور المؤمنين (بالمذهب) قرروا إحياء العقيدة الإنجيلية بتناول الإنجيل بحماسة وعاطفة (وضعه في القلب)، وتكريس أنفسهم لحياة البساطة والتقوى والإحسان وإصلاح الكنيسة. وكان أحدهم هو وليم ويلبرفورس هو الذي قاد معركة الإنجليز ضد الرق، وهناك أيضاً حنا مور Hannah More التي نشرت حماساً مسيحياً جديداً بمحاضراتها وكتبها ومدارس الأحد التي أسستها.

وظلت جماعتان دينيتان خارج دائرة التسامح الكامل: الكاثوليك واليهود. لم يكن البروتستانت الإنجليز قد نسوا جاي فوكس Guy Fowkes ومحاولته نسف البرلمان (5061) ولا مغازلات ملوك ستيوارت Stuart - شارلز الأول وشارلز الثاني وجيمس الثاني - للقوى الكاثوليكية والأفكار الكاثوليكية والخليلات الكاثوليكية، ومال الإنجليز إلى النظر للكاثوليكي كشخص يوالي حاكماً أجنبياً (كان الباباوات يمثلون سلطة زمنية كحكام للولايات البابوية)، وكان الإنجليز يندشون كيف سينصرف الكاثوليكي في حالة حدوث صراع بين الحبر الروحاني (البابا) والملك البريطاني. وكان في إنجلترا في سنة 0081 نحو ستين ألف كاثوليكي. كان معظمهم من أصول أيرلندية لكن بعضهم كان ينحدر من سلالة كاثوليكية متوطنة قبل حركة الإصلاح الكاثوليكية في بريطانيا Pre-Reformation British Catholics. وفي الفترة الزمنية التي نتناولها كانت القوانين المناهضة لهم قد خفّت وطأتها، فثمة مراسيم مختلفة صدرت فيما بين 4771 و 3971 أعادت لهم حق تملك الأراضي وحق العمل في مجال الخدمة المدنية وحق الدعوة لعقيدهم من خلال مدارسهم الخاصة بهم، وحقهم - على نحو خاص في ترديد قسم الولاء للملك والحكومة دون التبرؤ من البابا أو جده. إلا أنه لم يكن لهم - على أية حال - حق التصويت، ولم يكن لهم حق ترشيح أنفسهم لعضوية البرلمان.

وفي نحو نهاية القرن الثامن عشر بدت حركة إعطاء الكاثوليك كل حقوق المواطنة على وشك النجاح، وأيدها بروتستانت بارزون - وزلي، وكاننج، وولبر فورس، ولورد جراي Grey. وقد أدت الثورة الفرنسية إلى موقف مضاد لفولنتير في إنجلترا بل وموقف مضاد لحركة التنوير، كما أدت إلى شيء من التعاطف مع الدين (المسيحي) الذي تعارضه الحكومة الثورية (الفرنسية)، وبعد سنة 2981 تلقى المهاجرون الفرنسيون (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية) استقبالا حاراً ومساعدات مالية من الدولة البريطانية وكان بينهم رجال دين كاثوليك. وسمحت الدولة البريطانية لهؤلاء المهاجرين بإقامة أديرة، وحلقات بحثية. إن إنجلترا تبدو الآن في موقف سخي (مناف للعقل) فقد كان الاتجاه أن الكنيسة الكاثوليكية يمكن أن تكون حليفاً ذا قيمة في حربها ضد فرنسا. وفي سنة 0081 قدم بيت Pitt مشروع قانون لمنح كاثوليك إنجلترا حقوقهم كاملة. وعارض التوري (المحافظون) والكنائس والإنجيلية العليا هذا القانون وأيدهم جورج الثالث بعزم، فسحب بيت مشروع قانونه واستقال، وكان على تحقيق الكاثوليك للمساواة الكاملة في إنجلترا أن ينتظر حتى سنة 9281.

أما مساواة اليهود في إنجلترا فتأخرت حتى سنة 8581. كان عددهم في سنة 0081 نحو 62،000؛ معظمهم في لندن وكان بعضهم في المدن الكبرى ولم يكن منهم - تقريباً - أحد في الريف. وقد أوقفت الحرب الطويلة مزيداً من عمليات التهجير وسمحت لليهود بمواعة أنفسهم مع أساليب الحياة البريطانية وإزالة بعض الحواجز العرقية. وظل القانون الإنجليز ي حول بينهم وبين حق الانتخاب وتولي المناصب الكبرى ذلك كان يتطلب قسماً بالإخلاص للعقيدة المسيحية وإقامة الشعائر على وفق لطقوس الكنيسة الرسمية في إنجلترا. وفيما عدا ذلك فقد كان اليهود أحراراً ولهم حق العبادة في منازلهم ومعابدهم دون خفاء، وقيل عدد من اليهود البارزين التحول إلى المسيحية - صامويل (صموئيل) جidon رجل المال، وديفيد ريكاردو Ricardo الاقتصادي وإيزاك (إسحق) المؤلف. وهذا الأخير نشر فيما بين 1971 و 4381 نواذر الأدب دون أن يسجل اسمه عليه (تركه مجهول المؤلف)، وقد كان يكتبه بشكل عرّضي أو مصادفة (أي كلما أتاحت له الظروف)، ولا زال هذا الكتاب ممتعاً لأصحاب العقول المتعلمة التي تأنس للمتعة والراحة.

إن خبرات اليهود الطويلة في أعمال البنوك وارتباطاتهم العائلية والأسرية عبر الحدود مكنتهم من مساعدة الحكومة البريطانية في حرب السنوات السبع وفي نزاعها الطويل مع فرنسا. وساعد الأخوان ابراهام (إبراهيم) جولدمسد، وبنيامين جولدمسد، بت، في كسر طوق السماسرة المبتزين الذين كانوا قد احتكروا التعاملات مع الخزنة. وفي سنة 0181 أسس ناثان روتشيد (Rothschid 7771-6381) في لندن فرعاً للشركة التي كان أبوه - مير أمشيل روتشيد - قد أسسها في فرانكفورت - أم - مين Frankfurt - am - Main وبدأ ناثان أكثر المالبين عبقرياً - تلك العبقريّة التي مازت الأسرة خلال عدة قرون في عدة دول. وأصبح هو الوسيط الأثير للحكومة البريطانية في علاقاتها المالية مع القوى الأجنبية، وكان هو - أو وكلاؤه - الذي نقل من إنجلترا إلى النمسا وبروسيا المساعدات التي مكنتهما من حرب نابليون، وقام بدور رائد في التوسع التجاري والتطور الصناعي في إنجلترا بعد سنة 5181(12).

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الحياة الإنجليزية -> التعليم

4- التعليم

بدأت إنجلترا وكأنها اعترفت أن تعرض قضية عدم إرسال أطفالها إلى المدارس، فكيف تستمر الحكومة دون الالتزام بهذا الواجب؟ ولم يكن الأرسقراطيون مهتمين بالتعليم إلا بالنسبة إلى أبنائهم. لقد بدأ من الأفضل بالنسبة إلى الوقت الراهن (في ذلك الوقت) ألا يستطيع الفلاحون والبروليتاريا - بل وربما البورجوازيون - أن يقرأوا خاصة وأن جودون، وأوين Dwen Owen وكوبت Cobbett وبين Paine وكولردج وشيلي كانوا يطبعون في هذا الوقت هذا الهراء عن الأرسقراطية الاستكشافية (التمهيدية) والكميونات الزراعية ورق المصانع وضرورة الإلحاد. لقد كتب جودون نحو سنة 3971: المصممون على الدفاع عن النظام القديم ليس لديهم بصيرة نافذة. إنهم يعارضون بخسة توصيل المعرفة للناس باعتباره بدعة تدعو إلى الحذر. ففي ملاحظتهم المشهورة إن الخادم الذي يعرف القراءة والكتابة لا يصبح بعد تعلمهما هو الأداة التي يطلبونها نجد الجنين أو البذرة التي يسهل علينا من خلالها شرح كل فلسفة المجتمع الأوروبي (22). بالإضافة إلى أن الطبقات الدنيا فيما ترى الطبقات الأعلى غير قادرة على الحكم بحذر وحكمة على الأفكار التي تُطرح عليهم في المحاضرات أو الصحف أو الكتب، وقد تكون أفكاراً مثيرة تخرج من المدارس على مستوى الأمة أفاعاً من غير الأسوياء السذج الحالمين الذين قد يحاولون تحطيم السلطات (القوى) والامتيازات الطبقية هي الوحيدة التي يمكنها حفظ النظام الاجتماعي والحضارة. وكان أصحاب الصناعات قد اعتراهم الفزع من منافسيهم فكانوا يتطلعون إلى العمالة الرخيصة ولم يروا جدوى من تعليم الأطفال العاملين حقوق الإنسان وفخامة اليوطوبيا وبهائها (اليوطوبيا هي المدينة المثالية). لقد قال واحد من المحافظين غير المعروفين، اقتبس منه جودون قوله: إن هذه المبادئ سوف تتور بلا شك في عقول السوقة محدثة هياجاً.. أو محاولة وضعها موضع التنفيذ (أي هذه المبادئ) مما سيؤدي إلى كل أنواع الكوارث... فالمعرفة والذوق وتطوير الفكر واكتشافات الحكماء وجمال الشعر والفن كل ذلك سيتم سحبه تحت أقدم البرابرة (32).

وفي سنة 6081 قدر باتريك كولكهون Colquhoun القاضي البوليسي في لندن - أن عدد الأطفال الذين لم يتلقوا أي قدر من التعليم في إنجلترا وويلز بلغ مليونين، وفي سنة 0181 ذكر إسكندر مري Murray عالم فقه اللغة أن ثلاثة أرباع العمال الزراعيين أميون، وفي سنة 9181 ذكرت الإحصاءات الرسمية أن 388،476 طفلاً ملحقون بالمدارس في إنجلترا وويلز - 51% من السكان (42). وعندما اقترح بيت Pitt في سنة 6971 على الحكومة إنشاء مدارس للتعليم الصناعي، لم يُقدّم مشروعه للتصويت، وعندما قدم صمويل (صموئيل) هويتبريد whitbread في سنة 6081 مشروع قانون بإقامة مدرسة ابتدائية في كل دائرة (كما كان موجوداً بالفعل في إسكتلندا) أقره مجلس العموم، لكن مجلس اللوردات رفضه على أساس أن هذا المشروع لا يجعل التعليم قائماً على أسس دينية.

وكانت الجماعات الدينية تفرض رسوماً على نفسها لإتاحة بعض التعليم لأطفالها، وواظب المجتمع على إقامة مدارس خيرية لتقديم المعارف المتعلقة بالدين المسيحي، لكن عدد التلاميذ في هذه المدارس لم يكن يتجاوز 000،051 (52). وكانت مدارس حنا مور Hannah More تكاد تكون مقتصرة على التعليم الديني. وبناء على قانون الفقراء Poor Law تم إنشاء المدارس الصناعية لتستوعب 006،12 طفل لتأهيلهم للعمل، وكانت هناك إدارة منوط بها تنفيذ هذا القانون يتبعها 419،491 طفلاً. وفي المدارس الدينية لم يكن الأطفال يتعلمون إلا شيئاً واحداً بإتقان ألا

وهو الكتاب المسيحي المقدس. لقد أصبح عقيدتهم وأدبهم وحكومتهم ومُعِيناً له وزنه وقيمتهم يُعِينهم في حياة لا تخلو من سوء حظ وظلم وارتباك.

وفي سنة 1797 أسس الدكتور أندرو بل Beel نظام العرّفين أو المعيّدين لمواجهة نقص المدرسين، وذلك بالاستعانة بالطلاب الأكبر سناً كمدرسين مساعدين في المدارس الابتدائية المرتبطة بنظم العبادة الإنجليكانية. وبعد ذلك بعام قَدّم جوزيف لانكاستر Lancaster مشروعاً شبيهاً على أسس قبلها كل المسيحيين ورفض رجال الكنيسة العمل من خلال هذه الخطة غير الطائفية (المفهوم غير الملتزم بعقائد فرقة مسيحية بعينها) فقد كان لانكاستر متهماً بأنه ربوي Deist (مؤمن بالله مع عدم اعترافه بأديان منزلة) مُرتد (عن دينة) وأداة للشيطان (62) وفي سنة 1811 أسس جيمس مل، ولورد بروهام Brougham وفرانسيس بلاس Place، وصمويل (صموئيل) روجرز المؤسسة الملكية اللانكسترية لنشر المدارس غير الطائفية. وأسس الأساقفة الإنجليكان جمعية تعليم الفقراء على أسس المبادئ الدينية للكنيسة الرسمية وذلك خوفاً من انتشار التعليم غير الطائفي المشار إليه آنفاً. ولم يُؤسس في إنجلترا نظام وطني للمدارس الابتدائية على أسس غير طائفية إلا في سنة 1871.

وكان التعليم العالي متاحاً أيضاً لمن يقدر على تكاليفه، وذلك من خلال الأساتذة الذين يعلمون في المنازل، ومن خلال المدارس العامة والمحاضرين وجامعتين. فالمدارس العامة - في إتون Eton وهارو Harrow ورجبي Rugby ووينشستر Winchester ووستمنستر، وشارترهوس، كانت مفتوحة مقابل مصروفات لأولاد النبلاء والطبقات العليا وكان يُسمح بها في بعض المناسبات للبورجوازية الثرية. وكانت برامج الدراسة في هذه المدارس كلاسية في الأساس - لغة وأدب الإغريق القدماء والرومان، وفي بعض الأحيان كان يتم إضافة بعض العلوم Sciencos لكن أهالي الطلبة كانوا يريدون تدريب أو لادهم على فن الحكم والصحة الرفيعة، وكانوا مقتنعين أن الشاب إذا تعلم أدب الإغريق والرومان وتاريخهما وفن الخطابة كان ذلك أجدى لتحقيق الغرض من تعلم الفيزياء والكيمياء والشعر الإنجليزي. وعلى أية حال فإن هذه المدارس كانت تقدم ملتون الذي كان يكتب اللاتينية بكفاءة تقارب كفاءته في كتابة الإنجليزية - كمؤلف لا يقل كفاءة عن الرومان.

وكان النظام في المدارس الثانوية (الداخلية) الأهلية Public Schools قائماً على الجلد والانتقاد القاسي flogging والتكدير أو إلزام التلاميذ الصغار على خدمة الطلاب الآخرين ممن هم أكبر سناً. وكان نظار المدارس يجلدون الذين يرتكبون مخالفات كبيرة، أما إجبار التلاميذ الصغار على خدمة من هم أكبر فتعني أن يقوم التلاميذ في الصفوف الدنيا بأداء خدمات صغيرة لطلاب الصفوف الأعلى: ينقلون رسائلهم، وينظفون أحذيتهم ويعتدون لهم الشاي، ويحملون كراتهم ومضارب الكريكت الخاصة بهم، ويتمولون تتمرهم صابرين، وكانت النظرية الكامنة وراء هذا الأسلوب هي أن على المرء أن يتعلم كيف يُطبع حتى يكون صالحاً لإصدار الأوامر.

وكانت النظرية السائدة في الجيش والبحرية أيضاً قائمة على الجلد والانتقاد الشديد وقيام من هم أدنى رتبة بخدمة من هم أعلى رتبة وتنفيذ الأوامر دون اعتراض الطاعة الصامتة (وعلى هذا فإن الانتصار الذي تحقق في الطرف الأغر وفي اترلو لم يكن نتيجة الجهود في ميدان القتال فحسب وإنما أيضاً نتيجة ما كان يجري في قاعات وفصول المدارس الثانوية الأهلية)، وإذا ما وصل طالب الصفوف الدنيا الذي كان يخدم طالب الصفوف العليا أصبح مستعداً للدفاع عن هذا النظام. وكان هناك بعض الديموقراطية في حضانات الأرسنقراطية هذه (أو بتعبير آخر في معامل تفرخ متعلمي الطبقة الأرسنقراطية: لقد كان كل الخدم fags (الطلاب الذين يخدمون من هم في الصفوف الأعلى) متساوين بصرف النظر عن الثروة والنسب، وكان كل المتخرجين (إذا تحاشوا التجارة) يعتبرون أنفسهم سواء، ويعتبرون غيرهم أدنى منهم درجة مهما كانت مواهبهم.

ومن مثل هذه المدارس التي يتخرج فيها الطالب وهو عادة في الثامنة عشرة من عمره، يلتحق بأكسفورد أو كامبردج. وكانت هاتان الجامعتان قد انحدرتا عن وضعهما الممتاز في أواخر العصور الوسطى وعصر النهضة، ولم يكن جيبون Gibbon هو وحده الذي تأسف على الأيام التي قضاها في أكسفورد باعتبارها أياماً ضاعت في دراسات غير مجدية (رغم أنه استفاد كثيراً من من دراسته للغتين؛ اللاتينية واليونانية) وتنافس بين الطلاب في المقامرة وشرب الخمر ومعاشرة البغايا. وكانت موافقة الكنيسة الرسمية شرطاً للتقدم لإحدى هاتين الجامعتين. وكان المعلمون أو العمداء يقومون بالتدريس، وكان كل واحد يأخذ على عاتقه طالباً أو أكثر وينقل إليهم معارفه وخبراته العلمية بأسلوب المحاضرة أو التوجيه والإرشاد، وهنا أيضاً كانت الدراسات الكلاسيكية تسود المنهج الدراسي، لكن كان هناك أيضاً مكاناً للرياضيات والقانون والفلسفة والتاريخ الحديث، وكانت هناك أيضاً محاضرات في الفلك والفيزياء والنبات والكيمياء لكنها كانت قليلة.

وكانت جامعة أكسفورد من التوري (الاتجاه السائد فيها محافظ) أما كامبردج فكانت هويج (الأفكار السائدة فيها كأفكار حزب الأحرار أو الهويج). وفي كامبردج لم يكن يحصل على الدرجة العلمية إلا التابعون لكنيسة إنجلترا، رغم أن القيود المفروضة كشرط للالتحاق بهذه الجامعة وعددها تسعة وثلاثون قد أزيلت. وكانت كامبردج هي التي سنت

الحرب على الرق منذ سنة 5871. ووجد العلم Science في كامبردج معلمين أكثر وطلبة أكثر مما وجد في أكسفورد، وكانت كلتا الجامعتين متخلفة عن جامعات ألمانيا وفرنسا. وكانت أكسفورد تدرّس لطلبتها الفلسفة من كتب أرسطو، وأضافت كامبردج كتابات لوك Locke وهارتلي Hartley وهيوم Hume، وكانت كامبردج تخرّج باحثين ذوي شهرة عالمية، أما أكسفورد فكانت أكثر اهتماماً بتخريج أفراد على قدر من الفصاحة، وملمّين بالاستراتيجية في البرلمان كي يصبحوا - بعد تجارب وخبرات، ومن خلال ارتباطات صحيحة - أصحاب أدوار في حكومة بريطانيا.

صفحة رقم : 14630

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الحياة الإنجليزية -> المبادئ الأخلاقية

5- المبادئ الأخلاقية

5\1- الرجل والمرأة

أي نوع من الأخلاق يمكن أن ينبثق عن هذه الحكومة التطبيقية، وهذا الاقتصاد المتغير، وهذه الوحدة بين الدولة والكنيسة، وهذا التعليم المحدود انتشاره، والمحدود في محتواه، وهذا التراث الوطني الذي كان في وقت من الأوقات قويا مؤثراً بسبب العزلة التي تحدّتها الآن الاتصالات بالعالم الخارجي والثورة والحرب؟ ليس الرجال والنساء من الناحية الطبيعية naturally ملتزمين بالمبادئ الأخلاقية لأن مواهبهم الاجتماعية التي تُؤثر التعاون والعمل المشترك ليست في قوّة بواعثهم الفردية ورغبتهم في تحقيق مصالحهم الذاتية، ومن هنا كان لا بد من تقوية الباعث الاجتماعي وإضعاف الباعث الفردي بسن القوانين المعبّرة عن قوّة الجماعة ورغبتها، وبالمواثيق الأخلاقية التي يتم بثّ محتواها من خلال الأسرة والكنيسة والمدرسة والرأي العام والعادات وتحديد المحرمات (الطابو أو taboos). من الطبيعي إذن أن تكثّر الجرائم في إنجلترا في الفترة من 9871 إلى 5181 وأن تكثّر حالات عدم الأمانة، وأن يكون هناك ما لاحصر له من العلاقات الجنسية قبل الزواج، وإذا كان لنا أن نصدّق هوجارث Hogarth وبوزول Boswell فقد كانت بيوت الدعارة والمومسات تملأ لندن والمدن الصناعية. وكان أفراد الأرستقراطية يجدون البغايا أقل تكلفة من الخليلات مديرات شؤون المنزل، فاللورد إجريمونت Egremont الذي كان يفيض بكرمه على تيرنر Turner وغيره من الفنانين، يقال إنه استمتع بسلسلة من الخليلات أنجب منهن أطفالاً كثيرين.. وعلى أية حال فد زادت الشائعات أخباراً عن علاقة أصدقائه الدافئة به (72) ويمكننا أن نحكم على أخلاق الطبقات العليا من خلال محاكاتهم لأمير ويلز واستئناسهم بأخلاقه، وكان هذا الأمير قد نشأ وسط أكثر الأرستقراطيين فجوراً وانحلالاً. لقد كانوا ثلّة لم تشهد إنجلترا مثيلاً في فجورها وانحلالها منذ العصور الوسطى (82). وربما كان الفلاحون يحترمون القيم الأخلاقية القديمة، لأن تنظيم الأسرة بما يخدم أغراض الزراعة يستلزم سلطة أبوية قوية، وقلما يسمح للشباب بالإفلات من سلطة من هم أكبر سناً. وعلى أية حال، فقد كانت البروليتاريا النامية قد تحررت من مثل هذه الهيمنة مقدّمة مستغليها في حدود ما تسمح به دخولهم (أي دخول البروليتاريا)، وقد كانت الأجور

المتدنية في المصانع الصغيرة غير المنضبطة تمثل دافعاً قوياً للفسق(92) بالنسبة إلى النسوة العاملات في المصانع ليعين أجسادهن بثمان بخص ليُضفنه (أي هذا الثمن) إلى أجورهن المتدنية.

وحتى سنة 9291 كان العمر القانوني الذي يُسمح فيه بالزواج هو 41 سنة للذكور و 21 للإناث. وكان الزواج العادي ارتزاقاً أو مصدر تَعيش وكسب. فالرجل (الزوج) كان مرغوباً بقدر ما لديه من مال فعلي أو متوقع، وكذلك كانت المرأة (الزوجة) مرغوب فيها بقدر مالها الموجود فعلاً أو المتوقع الحصول عليه، وكانت الأمهات يخططن ليل نهار (كما في روايات جين أوستن Austen) لتزويج بناتهن بغيره الحصول على المال. ومع أن الأعمال الأدبية تُعلي من شأن الزواج عن حب، إلا أن مثل هذا الزواج كان استثناء لا قاعدة. وكان الزواج على وفق للقانون العام مُعترفاً به رغم عدم عقده بواسطة رجال الدين وكان عدد أفراد الأسرة كبيراً لأن الأطفال كانوا يُعينون الأسرة من الناحية الاقتصادية، وكان عددهم (الأطفال) في المصانع أقل بقليل من عددهم في المزارع. وكان منع الحمل يتم بطرق بدائية. وكان عدد السكان يزداد لكنها كانت زيادة بطيئة بسبب وفيات الأطفال والشيوخ، وبسبب نقص الغذاء ونقص الرعاية الطبية وعدم مراعاة قواعد الصحة العامة. وانتشر الزنا، وكان يمكن أن يطلب الزوج الطلاق، وكذلك المرأة (بعد سنة 1081)، لكن هذا لم يكن ليتم دون إذن من البرلمان، وكان هذا يكلف كثيراً جداً، لدرجة أنه لم يحصل على الطلاق إلا 713 شخص قبل أن يصطبغ القانون بطابع ليبرالي في سنة 9581. وحتى سنة 9581 كانت الممتلكات المنقولة للزوجة تصبح ملكاً للزوج عند الزواج، بالإضافة إلى أنه كان يحصل تلقائياً على كل مال يأتيها بعد الزواج، لكنها كانت تحتفظ بملكية الأرض الخاصة بها أما الريع فلزوجها وإن ماتت قبله ورث كل ممتلكاتها(93).

وسمعنا عن نسوة ثريات لكنهن كن قليلات العدد. وجرى العرف أن يقوم الأب الذي ليس له ولد (ذكر) بوقف ثروته على أحد أقربائه الذكور، تاركاً بناته دون مال يرثه وإنما يعيش على إعانات الأصدقاء ومن يتلطف عليهن. إنه عالم الرجال.

2/slash5- ماري ولستونكرافت

لقد تعود معظم النساء البريطانيات على هذا الجور بحكم ما اعتدنّ عليه، لكن الرياح الآن تهب من فرنسا الثورية، فدفعت بعض اللاتي يعانين إلى الاحتجاج، وقد أحسّت ماري ولستونكرافت Wollstonecraft بهذه الرياح فرفعت عقيرتها مطالبة بتحرير المرأة، وكانت مطالبتها من أقوى المطالبات التي شهدتها حركة تحرير المرأة.

وكان أبوها من أهل لندن وقرر أن يجرب العمل في مجال الزراعة ففشل وفقد ثروته وزوجته فعكف على الشراب وتخلي عن بناته الثلاث فتركهن يدبرن أمور معيشتهم بأنفسهن، فافتتحت مدرسة فامندجهن صامويل (صموئيل) جونسون لكنهم أفلسوا وأصبحت ماري مربية أطفال لكنها طردت من عملها بعد عام لأن الأطفال أحبوا مربيتهم أكثر من حُبهم لأمهم(13) وفي هذه الأثناء كتبت عدة كتب من بينها دفاع عن حقوق المرأة الذي كتبته في سنة 2971 وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها.

وقد أهدت كتابها إلى م. تاليران - بيريجورد M. Talleyrand Perigord أسقف أوتون Auten الراحل مع إشارة إلى أنه ما دامت الهيئة التأسيسية قد أعلنت حقوق الإنسان فهي ملزمة أخلاقياً بإعلان حقوق المرأة. وربما رغبة منها في تسهيل طريقها وتحقيق أهدافها تحدثت بنبرة أخلاقية عالية معترفة بولائها لبلادها وتمسكها بالفضلية، وإيمانها بالله. ولم تتحدث إلا قليلاً عن حق النساء في التصويت لأن نظام التمثيل النيابي كله الآن في هذه البلاد ليس إلا أداة في يد الحكم الاستبدادي (حكم الفرد) فلا مجال لشكوى النساء لأنهن معدودات كطبقة ذات عدد للعمل الشاق وكأنهن آلات، يدفعن لدعم الملكية عندما يصبحن قادرات بشق النفس على إسكات أصوات أطفالهن بحشوها خبزاً ومع هذا فإنني حقا أعتقد أنه من الضروري أن يمثل النساء في البرلمان بدلاً من أن يُسَلَبن حقهن في أي مشاركة مباشرة في تفكير الحكومة وتخطيطها(23). وأشارت كمثل على انحياز القانون للرجل إلى قانون حق الابن البكر في ميراث أبيه، وحق الأب في وقف ممتلكاته على نسله أو أقاربه من الذكور، وذكرت أن الأعراف والعادات أشد قسوة على المرأة من القوانين فهي تُدين - وتُعاقب - المرأة للحظة واحدة فقدت فيها طهارتها، رغم أن الرجال يظنون محترمين بينما هم منغمسون في الرذيلة(33).

وربما صدم بعض القراء بإعلان ماري حق المرأة بالإحساس بالإشباع عند اللقاء الجنسي(43)، لكنها حذرت الجنسيتين قائلة إن الحب (المقصود هنا المتعة الجنسية) شهوة حيوانية لها نهاية(53) فالحب (المقصود هنا المتعة الجنسية) كعلاقة مادية لا بد أن تحل محله الصداقة بالترتيب(63)، وهذا يتطلب احتراماً متبادلاً، والاحترام يتطلب أن يجد كل طرف (الزوج أو الزوجة) في الطرف الآخر شخصية متطورة (يعتبر الطرف الآخر كياناً له ذاته)(73) وهنا

فإن أفضل طريق لتحرر المرأة هو اعترافها بأخطائها والتحقق من أن حريتها تعتمد على تنقيف عقلها وسلوكها.

وراحت المؤلفة في كتابها تعدد أخطاء النساء في زمانها: نزوعها إلى الضعف والجبن مما يغذي دعوى الرجل في التفوق والسيطرة ويُسعده، وإدمان لعب الورق والترثرة والقيل والقال والتنجيم والتأثر العاطفي والتفاهة والاهتمام الزائد بالملبس والغرور.

الطبيعة والموسيقا والشعر والكياسة، كل ذلك يميل إلى جعل النساء مخلوقات للإحساس... وهذا الإحساس أو الشعور إذا ما زاد عن حده أضعف - بشكل طبيعي - قوى النفس الأخرى ومنع الفكر من الوصول إلى المرتبة التي يجب أن يشغلها... لأن التدرّب على الفهم والاستيعاب - كما تشير لنا الحياة - هو الطريق الوحيد الذي قدّمته لنا الطبيعة لتهدئة عواطفنا وانفعالاتنا وورغباتنا الجنسية(83).

وقد شعرت ماري أن كل هذه الأخطاء تقريباً راجعة إلى عدم المساواة مع الرجل في التعليم، وإلى نجاح الرجل في اقتناعها بأن أفضل إمبراطورية لها وأحلاها هي أن تُمتنع(93) (كما قالت لهن إحدى المؤلفات). لقد امتعضت ماري من الأناقة المتكلفة ومن التصنّع وراحت تنظر بحسد إلى النسوة الفرنسيات اللاتي أصررن على تحصيل العلم واللاتي تعلّمن كيف يكتبن خطابات تعد من أجمل ما أنتجه العقل الفرنسي. في فرنسا تنتشر المعرفة أكثر من أي جزء آخر من العالم الأوروبي، وأنا أعزو ذلك في جانب منه إلى العلاقات بين الجنسين على المستوى الاجتماعي، تلك العلاقات التي كانت مستمرة منذ فترة طويلة(04). لقد لاحظت ماري ولستونكرافت قبل بلزك بجيل أن:

الفرنسي الذي يحكم عقله في أمور الجمال أكثر من غيره، يفضل المرأة في الثلاثين من عمرها... والفرنسيون يسمحون للنساء أن يكنّ في أكمل أوضاعهن عندما تنتازل الحيويّة لتعطي مكانها للعقل ولجدية الشخصية الدالة على النضوج... وفي مرحلة الشباب - حتى العشرين - يقذف الجسم خارج نفسه، وحتى الثلاثين تحقق الصلابة درجة من الكثافة، وتصبح عضلات الوجه المرنة يوماً بعد يوم أكثر حدة فتعطي شخصية للملاحج - هذا يعني أنها تعبر عما يعتمل في النفس، فلا تخبرنا فقط عن القوى الكامنة فيها وإنما كيف يتم توظيفها(14).

لقد اعتقدت ماري أن أخطاء النساء راجعة كلها - تقريباً - إلى إنكار حق المرأة في تعليم مساوٍ لتعليم الرجل، وإلى نجاح الرجل في اقتناع المرأة بأنها لعبة جنسية قبل الزواج وحبلى للزينة وخادمة مطيعة وآلة للإنجاب بعد الزواج. ولكي تُعطي الجنسين فرصاً متساوية لتنمية عقولهم وأجسادهم لا بُدّ أن يتعلم الأولاد والبنات معاً (حتى مرحلة الإعداد للوظيفة أو المهنة) وأن يتلقوا المناهج الدراسية نفسها، بل وأن يشتركوا في الألعاب الرياضية نفسها، في حالة إمكانية ذلك. ولا بد أن تجعل كل امرأة من نفسها إنسانة قوية البدن وذات كفاءة عقلية لتتمكن من كسب عيشها بنفسها عند الضرورة(24). وعلى أية حال فعاجلاً أو آجلاً ستلعب الوظائف البيولوجية والفروق الفسيولوجية بين الجنسين دورها(34). إن قيام المرأة بدورها كأم مفيد لصحتها، وقد يؤدي ما ذكرنا آنفاً إلى أن تصبح الأسر أقل عدداً وأقوى صحّة(44). إن تحرير المرأة بشكل مثالي يعني اتحاداً - على قدم المساواة - بين أم متعلمة وزوج متعلم(54). وبعد أن رأت المؤلفة الشابة اللامعة كتابها في المطبعة عبرت القنال الإنجليزي إلى فرنسا، وقد كانت مفتونة بالسنوات الخلاقة التي عاشتها الثورة الفرنسية، لكنها الآن - أي الثورة - قد تردت في المذابح والإرهاب. وأحبّت في باريس أمريكياً هو القبطان جيلبرت إملي Imlay ووافقت على الحياة معه دون ارتباط رسمي. وبعد أن أصبحت حبلى غاب عنها إملي لعدّة شهور منشغلاً بأعماله أو أية أمور أخرى، فكتبت له خطابات تتوسل فيها له أن يعود(64) وكانت خطاباتنا بليغة لكنها كانت بغير جدوى تماماً كخطابات جولي دي لبيناسا Lespinasse قبلها بجيل. وفي سنة 4971 حملت طفلها الذي بغير أب، وعرض إملي أن يرسل لها مبلغاً سنوياً لكنها رفضت وعادت إلى إنجلترا(5971) وحاولت إغراق نفسها في نهر التيمز لكن بعض المراكبية أنقذوها.

وبعد ذلك بعام قابلت وليم جودون Godwin الذي تزوجها على وفق القانون العام (دون حضور رجل دين)، ولم يكن أي منهما يؤمن بحق الدولة في تنظيم الزواج. وعلى أية حال فقد عقدا قرانهما على وفق الطقوس الدينية في 92 مارس 7971 تحسباً لطفلها المرتقب. وتألقت - لفترة - بين الجماعة الثورية التي تحلقت حول الناشر جوزيف جونسون وهم: جودون، وتوماس هولكروفت، وتوم بين، ووليم وردزورث، ووليم بليك Blake (الذي رسم رسوماً لبعض كتاباتها) وفي 03 أغسطس 7971 وضعت طفلة بعد معاناة شديدة، وبعد ذلك بسنوات عشر ماتت.

وعلى العموم فإن كل طبقات إنجلترا في هذه الفترة قد أسهمت في التفسخ الخلفي الذي عمّ البلاد، رغم ما أوردناه آنفاً عن حياة أشخاص عاشوا حياة مستقيمة ومحتشمة أهلها التاريخ. لقد كانت المقامرة شائعة تماماً، بل إن الحكومة نفسها (حتى سنة 6281) أسهمت فيها بإصدار اللوترية الوطنية (اليانصيب الوطني) وكان الإغراق في شرب الخمر أمراً متوطناً كوسيلة للهروب من الضباب البارد والأمطار والفقر المدقع والنزاعات الأسرية والتوترات السياسية واليأس الفلسفي (المقصود تبرير الواقع على نحو يانس) وقد اتفق بيت Pitt وفوكس - رغم ما بينهما من فروق - على تشجيع هذا السكر (المهدئ أو المخدر) كعامل مسكن. وسُمح للحنات أن تبقى مفتوحة في مساء السبت وحتى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأحد (74). لأن يوم السبت هو يوم استلام الأجور وبذلك يُتاح للحنات أن تكون أول من يحصل على نصيبها من هذه الأجور الأسبوعية، وكان أفراد الطبقة الوسطى يشربون باعتدال، أما أفراد الطبقات العليا فيسرفون في الشراب لكن كان عليهم أن يتعلموا حمل مُسكرهم بثبات كحوض يرشح بما فيه. وكان الانغماس في الشراب يُتيح الفساد والرشوة في كل مستوى من مستويات الحكم. وفي حالات كثيرة - كما لاحظنا آنفاً - كانت الأصوات الانتخابية وعضوية المجالس المحلية والتعيينات والوظائف - وفي بعض الأحيان رُتب النبالة - تُشتري وتُباع علناً كما تباع الأسهم والسندات في سوق الأوراق المالية. ولم يكن جورج الثالث - وكانت فضائله متأتلة - لا يرى بأساً في تخصيص أموال للحصول على أصوات الناخبين لأعضاء البرلمان أو توزيع الوظائف طلباً للدعم السياسي. وفي سنة 9081 كان ستة وسبعون عضواً في البرلمان يشغلون وظائف عاطلة مجموعة قليلة من المقربين الأثريين بحكم القرابة أو المصلحة التي تربطهم بالأثرياء وذوي النفوذ - تتلقى رواتب ضخمة دون عمل يؤدونه بينما الذين يعملون بالفعل يتلقون في حالات كثيرة رواتب أقل مما يستحقون (84) وكان القضاء يبيعون المراكز التابعة (الملحقة) لزمّام مناطقهم القضائية وينتزعون من شاغليها حصّة من الرسوم التي يدفعها الناس لقضاء مصالحهم لدى الجهات الرسمية.

والحكومة قد تكون قاسية، كما قد تكون فاسدة قابلة للرشوة. لقد ذكرنا قسوة تشريعاتها العقابية. لقد كان إلقاء القبض على عابري السبيل لتجنيدهم إجبارياً في البحرية مقدمة لدفع رواتب متدنية وتقديم طعام سيء لهم، وضبطهم بقسوة وصرامة لا ترحم (94) وفي عدة مناسبات تمرّدت طواقم السفن، وأدى أحد هذه الإضرابات إلى تعويق ميناء لندن طوال شهر. ومع هذا كان البحارة الإنجليز هم أفضل رجال بحر وأفضل مقاتلين في الأساطيل عرفهم التاريخ. وكان هناك سعي وجهود كثيرة للإصلاح الأخلاقي، ففي سنة 7871 أصدر جورج الثالث إداة لكسر أحكام السبت، والتجديف على الله، والسكر، والأدب الفاحش، ووسائل الترفيه اللاأخلاقية، ولم يسجل التاريخ أثراً لهذه الإدانة. وقد دلنا جيرمي بنتام Bentham التعاليم الإصلاحية البرلمانية (9081 Parliamentary Reform Catechism) على انثني عشرة وسيلة لكشف الفساد السياسي وعدم الكفاءة السياسية. وكان لعظات الميثوديين، (طائفة دينية بروتستنتية) والإنجيليين (طائفة دينية بروتستنتية) بعض الأثر، وتضاعف تأثيرها عندما أثارت الثورة الفرنسية المخاوف، فقد أكد هؤلاء الدعاة أن أمة منضبطة أخلاقياً يمكنها أن تواجه بنجاح غزواً فرنسياً أو ثورة داخلية. وحاربت جمعية القضاء على الرذائل ضد المبارزة والمواخير وبيوت الدعارة والكتابات الداعرة (الأدب الإباحي). وهاجم إصلاحيون آخرون تشغيل الأطفال، واستخدامهم في تنظيف المداخل وقسوة أحوال السجون، ووحشية القوانين العقابية. وقد كان لموجة الاتجاه الإنساني (الحركة الإنسانية) التي انبثقت في جانب منها من ناحية، ومن حركة التنوير من ناحية أخرى أثر في نشر الأعمال التطوعية والخيرية والميل للإحسان وعمل الخير. وكان وليم ولبرفورس أكثر المصلحين الإنجليز دأباً. لقد ولد في هل (9571 Hull) في أسرة ثرية تعمل في التجارة وتمتلك الضياع، وكان زميلاً لوليم بيت Pitt في كامبردج، ولم يجد صعوبة يُذكر ليحرز النجاح في انتخابات أوصلته للبرلمان (4771) بعد عام من نبوّ وليم بيت منصب رئيس الوزراء. وعندما شعر بتأثير الحركة الإنجيلية Evangelical ساعد في تأسيس جمعية إصلاح عادات الشعب وأسلوب حياته (7871). والأهم من كل هذا أنه عارض أن تتسامح أمة تعتنق الديانة المسيحية رسمياً مع التجارة في الرقيق الإفريقي (تجارة العبيد). وكانت إنجلترا الآن (في ذلك الوقت) رائدة في هذا المجال. وفي سنة 0971 نقلت السفن البريطانية 83000 عبد إلى أمريكا ونقلت السفن الفرنسية 02000 والبرتغالية 000،01 والهولندية 000،04 والدنماركية 0002. لقد أسهمت كل أمة أوروبية في هذه التجارة على وفق قدراتها، تلك التجارة التي ربما كانت أفضع الأفعال إجرامية في التاريخ. ومن ليفربول Liverpool وبريستول Bristol حملت السفن الخمر والأسلحة النارية والمنسوجات الفظنية والأشياء التافهة إلى ساحل العبيد في إفريقية. وهناك - أي في إفريقية - غالباً ما كان الزعماء من أهل إفريقية يساعدون الزعماء المسيحيين في تسلّم عبيد أو زنوج Negros مقابل ما جلبوه من بضاعة، ويتم نقل هؤلاء العبيد (الزنوج) بعد ذلك إلى جزر الهند الغربية والمستعمرات الجنوبية في أمريكا الشمالية. وكان هؤلاء الأسرى (العبيد من الزنوج) يوضعون في جوف السفينة وفي أحيان كثيرة كانوا يُقيّدون بالسلاسل لمنعهم من التمرد أو الانتحار. وكانوا يُزودون

بالماء والطعام بالقدر الذي يكفي - بالكاد - لإبقائهم على قيد الحياة، وكانت التهوية بانسة كما كانت وسائل التخلص من الإفرازات والفضلات في حدها الأدنى، وإذا ما هبت عاصفة شديدة وكان لابد من تخفيف حمولة السفينة تم - أحياناً - إلقاء العبيد المرضى في عرض البحر لتخفيف الحمولة، وفي بعض الأحيان كان يتم إلقاء غير المرضى أيضاً. فمن بين عشرين مليون زنجي كانوا يُنقلون إلى جزر الهند الغربية البريطانية لم يصل منهم على قيد الحياة سوى 02% (05) وفي رحلة العودة كانت السفن تحمل ديس السكر (المولاس) الذي كان يستقطر في بريطانيا لصنع الرُم (نوع من الخمور) الذي كان يستخدم بدوره كثمن لشراء العبيد في الرحلة التالية (إلى إفريقيا).

وكان الكوكر (صحاب مذهب ديني منشق) هم أصحاب الريادة في القارتين في مهاجمة هذه التجارة باعتبارها الخطوة الأولى لإلغاء الرق. وانضم ما لاحصر لهم من الكتاب الإنجليز لمحاربة هذه التجارة: جون لوك، إسكندر بوب، جيمس طومسون، ريتشارد سافاج Savage، وليم كوبر، ولا ننس أن السيدة أفرا بهن Behn قد قدمت لنا في روايتها أرونوكو (8761 Oroonoko) وصفاً للأحوال في جزر الهند الغربية يثير التقزز. وفي سنة 2771 استصدر جرانفل شارب (من الكوكر - جماعة دينية) من إيرل مانسفيلد رئيس مجلس الملكة مرسوماً بمنع استيراد العبيد في بريطانيا، وكل عبد يصبح حراً بمجرد أن تطأ قدمه أرض بريطانيا. وفي سنة 6781 نشر توماس كلاركسون (وهو أيضاً من جماعة الكوكر) مبحثاً بعنوان (مقال عن الرق والتجارة في البشر) قدم فيه خلاصة مؤثرة لنتائج الرق والتجارة في العبيد، تكاد تكون حصاد عُمره بأكمله. وفي سنة 7871 كوّن كل من كلاركسون شارب، ويلبر فورس، جوزياه ودجود، زاكاري Zachary ماكولاي (والد المؤرخ) جمعية منع تجارة الرق. وفي سنة 9871 قدّم ويلبر فورس إلى مجلس العموم مشروع قانون لإنهاء هذا الشر. ولم يحصل المشروع على الأصوات المطلوبة بسبب أموال التجار، وفي سنة 2971 دافع بيت في واحد من أعظم خطبه عن إجراء مماثل (منع تجارة الرقيق) لكنه أيضاً لم يوفق في تحقيق غرضه. وحاول ويلبر فورس مرات أخرى في سنة 8971 و 2081 و 4081 و 5081 لكنه مُني بالفشل في محاولاته تلك. وبقي على شارلز جيمس فوكس في فترة وزارته القصيرة (6081 slash 7081) أن يضغط على هذا الأمر حتى حقق النصر، إذ استسلم البرلمان ومنع التجار البريطانيين من أي مشاركة في تجارة الرقيق. وكان ويلبر فورس والقديسون الذي ساندوه يعلمون أن هذا النصر الذي حققه ليس سوى البداية، فواصلوا نضالهم لتحرير (عتق) كل الرقيق على الأرض البريطانية. ومات ويلبر فورس في سنة 3381 وبعد موته بشهر جرى منع الرق في كل البلاد الخاضعة للحكم البريطاني، وكان هذا في 82 أغسطس سنة 3381.

صفحة رقم : 14631

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الحياة الإنجليزية -> العادات وأسلوب الحياة

6- العادات وأسلوب الحياة

من بين أكثر الأحداث إثارة في سنة 7971 ظهور القبعة الحريرية العالية Silktophat لأول مرة، ويظهر أن خردواتياً لندنياً وضعها فوق رأسه زاعماً أن الحق الفطري (الموروث) للرجل الإنجليزي أن يكون متقرداً، وتجمهر الناس حوله وقيل إن بعض السنة بُهتَ لهذا المنظر المُرعب alarming sight ، لكن لم يكن هناك ما هو منافٍ للعقل يمنع مصممي الأزياء النسائية والخردواتية haberdashers من تعميم هذه القليعة (المودة)، فسرعان ما وضع الذكور من أبناء الطبقات العليا هذه القبعات الحريرية فوق رؤوسهم.

واختفت السيوف الموضوعة على سنام تصفيفة الشعر وعلى الشعر المستعار . وحلق الناس لحاهم، وترك معظم الذكور شعرهم ينمو حتى الكتفين، لكن بعض الشباب عبروا عن تحديهم وفردتهم بقص شعورهم (15) وكسبت السراويل (البنطلونات) المعركة على سيقان الرجال، فيحلول سنة 5871 كان السروال (البنطلون) يصل إلى منتصف بطة الساق (الربطة)، وبحلول عام 3971 وصل إلى الكعب (رسغ القدم)، وحل رباط الحذاء محل الحلية المعدنية، وبدا بدأت (أربطة الأحذية) دورها في مضايقة لابس الأذية وإزعاجهم. وكانت المعاطف طويلة خالية من التطريز والزخارف، لكن الصدرية الصادر كانت موضع اهتمام إذ كان الواحد منهم يُنفق عليها كثيراً من دخله ويتقن في تطريزها. لقد أدى التنافس بين النبلاء وأعضاء مجلس العموم إلى ظهور المتأنقين bucks (المعنى الحرفي ذكر الوعل أو الطيبي، والمعنى لا يتضح تماماً هنا إلا باللهجات العربية العامية إنه كاشخ أو كشخة كما يُقال عادة في دول الخليج، أو إنه كالهامور وما إلى ذلك، وفي مصر عادة يقولون نافش ريشه أو محلفط... إلخ) وظهور النمقين أو الذين يلبسون ملابس تروق للنساء beau. لقد كان جورج بريان متأنقا (beau) برومل (8771-0481) معروفا بشدة التأنق وتزيين نفسه فقد كان يقضي نصف النهار في ارتداء ملابس وخلعها. وفي أتون Aton حيث كان الطلبة يسمونه بكُ duck وأصبح صديقاً حميماً لأمير ويلز الذي شعر أن التأنق في الملابس هو نصف الحكم. ولأن برومل كان قد ورث ثلاثين ألف جنيه فقد استأجر حانكاً لكل جزء من بدنه وجعل من نفسه حكماً للأناقة بين رجال لندن، وكان حسن الفكاهة رقيقاً، وكان يهتم بنفسه ورباط عنقه اهتماماً شديداً، لكنه كان يحب المغامرة ربما أكثر من التأنق فركبته الديون وفرّ عبر القنال الإنجليزي تخلصاً من دائنيه وعاش عشرين سنة في فقر مُدقع وملابس رثة ومات في الثانية والستين من عمره في مصحة فرنسية للمجانين.

وتخلت النساء عن الطوق الموسع (بتشديد السين وكسرha slash وهو طوق من مادة لدنة لتوسيع أطراف التنورة أو الجيبة وتستخدم النسوة في بعض البلاد العربية الكلمة الأجنبية الدالة عليه: الهوب hoop ويجمعه على هوبات) لكنهن ظللن المشدات (الكورسيهات، والمفرد كورسيه) لصدورهن، ليبدو ثديا المرأة ممثلين متوازنين وكان خط الوسط في الفساتين مرفوعاً إلى أعلى (أي أعلى من مستوى الخصر) وثمة ديكولتيه (تقوية واسعة قد تشمل الصدر والظهر والكتفين) تكشف ما فوق خط الوسط، وخلال فترة الوصاية على العرش (1181 - 0281) تغيرت أساليب اللباس (المودة) تغيراً شديداً، فاخفت المشدات (الكورسيهات) ولم يُعدن يستخدم التنورات (الجيبيات)، واستخدمت العباءات الشفافة بما يكفي للإيحاء بخطوط الفخذين والساقين أو بتغير آخر أصبحت العباءات النسائية شفافة وصّافة، وكان من رأي بايرون أن هذا الأسلوب في اللباس يقلل من فتنة النساء وراح يشكو - على غير عادته - مدافعاً عن الأخلاق:

- لقد ضلّت نساؤنا السبيل كأمتنا حواء

- فهن عرايا

- لكنهن غير حَجَلات من عُرْيهن(25)

ومع هذا فقد كان هناك اعتدال في اللباس أكثر منه في تناول الطعام. لقد كانت الوجبات هائلة، لأن المناخ كان يحث على تناول اللحوم ذات الدهن طلباً للدفاء وليس نهماً تماماً وإن كان التهم أيضاً سبباً وارداً. وكان الفقراء يتناولون في الأساس خبزاً وحبناً ويشربون شايًا أو مزارا (نوع من الجعة)، أما الطبقات ذوات المال فكانت الوجبة الرئيسية عندها تمتد أحياناً من الساعة التاسعة إلى منتصف الليل، وكان يكن أن تمر بمراحل مختلفة: حساء، سمك، دجاج أو غيره من الطيور، لحم، لحم غزال أو غيره من لحوم الطرائد، حلوى أو فاكهة، ونبيذ معدّل حسب الرغبة. وبعد تناول الحلوى أو الفاكهة تقارق النسوة المائدة حتى يتناقش الرجال بحرية في أمور السياسة والخيل والنساء. وكانت مدام دي ستيل de Stael تعترض على هذا الفصل بين الرجال والنساء بعد تناول الحلوى أو الفاكهة لأن هذا يزيل الباعث إلى الاحتشام وإلى العادات والتصرفات المهذبة، كما أنه يُقلل من سعادة الجماعة. ولم تكن آداب المائدة (الإتيكيت) في إنجلترا بالأناقة نفسها التي هي عليها في فرنسا.

وكانت العادات بشكل عام حميمة وخالية من التصنع (مباشرة) وكان الحديث يُنَبَّل بكلمات لا تتناول الذات الإلهية بوقار (كلمات ذات طابع تجديفي). لقد اشتكى رئيس أساقفة كانتربري قائلاً إن الكلمات المنطوية على التجديف تزداد يوماً بعد يوم بسرعة (35) وكان التلاكم Fisticuffs منتشرًا بين الطبقات الدنيا، وكانت الملاكمة boxing رياضة أثيرة، وكانت الملاكمة بقصد الحصول على جائزة (الملاكمة التكبسية) تجذب المنظمين الطامعين من كل الطبقات. ولقد وصلنا وصف مكثف لمعاصر لهذه المباريات من روبرت سوئي (7081Southey):

عندما يتم الإعداد لمباراة بين اثنين كل منهما يبغى الحصول على الجائزة سرعان ما تصل الأخبار للناس عن طريق الصحف، فتظهر فقرات فيها في مناسبات مختلفة متتالية المتنافسين وكيف يتدربون، وما هي التمارين التي يقومون بها، وكيف أن أحدهم يتناول اللحم النيئ استعداداً للمباراة. وفي هذه الأثناء يختار الهواة والمقامرون أحد الطرفين

لينحازوا إليه أو يقامروا على فوزه أو إخفاقه، وتظهر المراهانات في الصحف أيضاً، وفي حالات غير قليلة ينخرط الجميع في المراهانات حتى إن عدداً قليلاً من المحتالين الأوغاد قد يخدعون أعداداً كبيرة من الأغبياء(45). ويتجمع جمهور غفير يصل أحياناً إلى عشرين ألفاً وكان هذا التجمع ولهذا الغرض بديلاً عن الثورة والتمرد (أو بتعبير أدق تسام بهذه الرغبة) وقد أوصى اللورد ألثورب Althorp بممارسة الألعاب الرياضية للتسامي بالغرائز العدوانية السائدة بين الناس، لكن منظمي هذه المباريات يعتبرونها تطهيراً لحيوب المرئيين (أي وسيلة لتجريد الناس من أموالهم).

أما الأفقرون حالاً فيبحثون عن التنفيس عن مكنونات صدورهم بتقييد ثور أو دُب، ثم يظنون يزجونه بالعصي ويغرون به الكلاب، وأحياناً يظل هذا طوال ثلاثة أيام حتى تأتي لحظة الرحمة فيقتلون ضحيتهم أو يرسلونها إلى دار الذبح (أو القتل slash المسلخ أو السلخانة)(55)، واستمرت مباريات صراع الديوك حتى مُنعت في سنة 2281. أما الكريكت Cricket الذي عرفته إنجلترا منذ سنة 0551 فقد جرى تقنين قواعده في القرن الثامن عشر، وكانت مبارياته في إنجلترا هي الأكثر إثارة إذ كان يحضرها عدد غفير، وتكون المراهانات على أشدها، ويكون مشجعو كل في حالة سعار. وكان سباق الخيول يمثل ميداناً آخر للمقامرة لكنه أيضاً كان يُحبي العشق القديم للخيول والاهتمام اللذيذ بتدريبها ومتابعة سلالاتها. أما الصيد فكان رياضة تمثل ذروة المتعة إذ يركب الصيادون في عربات أنيقة، وتطير العظاءات Swifts محلقة فوق الحقول ويعبر الصيادون المحاصيل والقنوات المائية والأسوجة (جمع سياج) فوق ظهور الخيول التي تبدو عليها - بعد الكلاب - السعادة بهذه المهمة.

وكان لكل طبقة مناسباتها التي يتجمع فيها أفرادها بدءاً من المقاهي - حيث يجتمع البسطاء لشرب البيرة (الجمعة) وتدخين البايب (الغليون) وقرأة الصحف والحديث في السياسة والفلسفة - حتى الأجنحة الملكية الفخمة Roual Pavition (البافليون الملكي) في بريتون Brighton حيث يشترك الأثرياء في مهرجانات غالباً ما كانت باعثة على المسرة في الشتاء والصيف على سواء(65) وعندما يتجمع الناس في منازلهم يلعبون الورق أو غيره من الألعاب المناسبة أو يستمعون للموسيقا أو يرقصون، وقد وصلت رقصة الفالس Walz قادمة من ألمانيا واسمها مشتق من الفعل الألماني Walzen بمعنى يدور، وقد علم المتمسكون بالأخلاق على انتشارها بوصفها بأنها ألفة أو مودة أئمة (المعنى يكاد يكون: لقاء جنسياً أئماً Sinful intimacy)، وقد شكى كولردج عن قناعة في سنة 8971 لقد أزعجوني بدعوتي للرقص في كل حفلة رقص ليلية، وقد رفضت بتواضع. إنهم يرقصون رقصة شائنة تسمى الفالس Waltzen. ربما بلغ عددهم عشرين راقصاً وعشرين راقصة - لقد كان كل راقص يحتضن مرأسته وهي أيضاً تحتضنه، فتتلامس الأذرع والركب يلف بها وتلف به، وهكذا دواليك.. على موسيقا داعرة(75). وكان أفراد الطبقات العليا يستطيعون إقامة حفلات راقصة أو حفلات من أي نوع كانت في واحدة من النوادي الأنيقة: ألك Almack، والهويت White والبروك Brook وهناك أيضاً يمكنهم المقامرة على مبالغ ضخمة ومناقشة آخر إنجازات السيدة سيدون Siddons وحفلات سمر الأمير وروايات جين أوستن ونقوش بليك Blake وأعمال تيرنر Turner وصور كونستابل. وكانت ذروة اللقاءات الاجتماعية عند الهويج (الأحرار) تتمثل في دار هولاند Holland House حيث كانت الليدي هولاند تعقد اجتماعات مسائية كان يمكن للمرء أن يلتقي فيها بذوي المكانة مثل اللورد بروهام Brougham أو فيليب دوق أورليان، أو تاليران، أو ميتزنيخ، أو جرتان Grattan أو مدام دي سنيل أو بايرون أو توماس مور، أو أكثر من الهويج (الأحرار) نبالة - شارلز جيمس فوكس(85). ولم يكن في فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر صالوناً يضارع صالون هولاند.

أضيف إلى كل هذه الحياة المتعددة الأوجه، عشق الإنجليز للمسرح ولا يزالون مولعين به حتى اليوم. وكان الوضع كما هو عليه الآن حيث كان الناس ينظرون للمسرحية من خلال ممثليها ولا يعاونون كثيراً بمؤلفي هذه المسرحيات. ويبدو أن المؤلفين المسرحيين خشوا أن يكتبوا التراجيديات مخافة أن يبدوا قليلي الشأن في نظر الناس الذين سيعقدون بينهم وبين شيكسبير مقارنة لن تكون في صالحهم، وبعد ذروة شريدان Sheridan وجولد سمث Goldsmith كانت الكوميديات (الملهة) تمثل أعمالاً لا بقاء لها مثل (الطريق إلى رون) (Ruin 2971) التي ألفها توماس هولكروفت Holcroft و (تعاهد العشاق) (8971) التي ألفتها إليزابيث إنشبالد Inchbald، فمثل تلك الأعمال تشبثت بالاتجاه الضعيف ولعبت على أوتار سهولة الانقياد إلى الإثم مداعبة بذلك الطبقة الوسطى، وأين هذا من فكاهاة شكسبير المنطوية على معان فلسفية، والأثر الرجولي الذي تحدثه مسرحيات بن جونسون في المشاهدين؟ ولم يبق في عالم المسرح من ظل متبوناً مكانه سوى الممثلين.

لقد بدا الممثلون - من النظرة الأولى - وكأنهم جميعاً من أسرة (واحدة) من روجر كمبل Roger Kemble الذي توفي في سنة 2081 إلى هنري كمبل الذي توفي سنة 7091، وروجر كمبل أنجب سارة كمبل (التي أصبحت مدام سيدونز Siddons) وجون فيليب كمبل الذي انضم لفرقة دروري لين Drury Lane وفي سنة 3871 وأصبح مديراً للفرقة في سنة 8871، وستيفن كمبل الذي أدار مسرح أذنبرة من سنة 2971 إلى سنة 0081. ولدت سارة في سنة 5571 في فندق شولدر أف متون في بريكون Brecon، وفي ويلز في أثناء جولة فرقة أبيها. وأسند إليها دور بمجرد أن أصبحت قادرة على التمثيل، وأصبحت ممثلة موسمية وهي في العاشرة من عمرها. وقد دبرت أمرها لتحصل على قسط غير قليل من التعليم في أثناء حياتها غير المستقرة هذه، فأصبحت امرأة ذات نضج أنثوي، وذات عقل واع مثقف، واحتفظت بجاذبيتها دوماً، وتزوجت وهي في الثامنة عشر من عمرها وليم سيدونز Siddons أصغر أعضاء فرقتها. وبعد ذلك بعامين أرسل جارك Garrick - بعد أن سمع بنجاحاتها - وكيلاً عنه لمراقبة أدائها التمثيلي، فكتب تقريراً لصالحها تعرض عليها جارك الارتباط بفرقة دروري لين Drury Lane فظهرت هناك في دور بورتيا Portia في 92 ديسمبر 5771. ولم تؤد الدور جيداً لسببين أحدهما عصبيتها وربما كان ثانيهما أنها كانت قد وضعت مولوداً منذ فترة وجيزة. لقد كانت نحيلة طويلة رزينة ذات ملامح كلاسية وكان صوتها ملائماً للمسارح الصغيرة، إذ كانت تقبل في موامة صوتها مع المسارح الواسعة. وبعد موسم غير ناجح عادت إلى جولاتها في المنطقة (المقاطعة) وظلت طوال سبع سنوات تعمل صابرة على الرقي بفنها. وفي سنة 2871 حدثها شريدان - الذي خلف جارك كمدير للفرقة - على العودة إلى لندن. وفي 01 أكتوبر 2871 أخذت دور البطولة في مسرحية (الزواج القدرى) لتوماس سوثرن Southerne فأدت دورها بإتقان تام حتى إنها أصبحت منذ هذه الأهمية تسير بخطى حثيثة لتصبح أفضل ممثلة مأساة (تراجيدية) في التاريخ البريطاني. وظلت طوال واحد وعشرين عاماً تحكم دروري لين، وأصبحت لعشر سنوات بعدها ملكة كوفنت جاردن Covent Garden بلا منازع. وأدت دور الليدي مكبث بإتقان صبّت فيه كل خبراتها المسرحية. وعندما اعتزلت خشبة المسرح في 92 يونيو 2181 وهي في السابعة والخمسين من عمرها بعد أن أدت هذا الدور (الليدي مكبث) تأثر جمهور المسرح تأثراً شديداً بأدائها لمشهد (السير نانما) حتى أنه فضل أن يظل يصفق لها على متابعة العرض المسرحي (95). وظلت طوال تسعة عشر عاماً بعد ذلك تعيش في عزلة هادئة، وقطعت ألسن مروجي الشائعات في المدينة، بوفائها لزوجها. وفاز جينسبورو

Gainsborough برسم صورة لها لازالت حتى اليوم في المتحف الوطني للصور الشخصية. وكان أخوها جون فيليب كمبل الذي ولد مثلها في إحدى فنادق (خانات) الأقاليم، قد نذر والداه ليكون قساً كاثوليكياً وربما كان هذا (النذر) تمثيلاً مع الفكر الشعبي الذي مؤداه أن وجود أحد أفراد الأسرة في المؤسسة الدينية قد يضمن الفردوس لسائر أفراد الأسرة، فأرسله والداه إلى دواي Douai ليدرس في كليتها الكاثوليكية فتلقى هناك قدراً طيباً من التعليم الكلاسيكي كما اكتسب الرزانة والوقار اللذين مازا بعد ذلك كل أدواره تقريباً، وظل مفتوناً في طوايا نفسه بمهنة والده (التمثيل) فغادر وهو في الثامنة عشرة من عمره دواي Douai وعاد إلى إنجلترا. وبعد عودته بعام انضم لفرقة مسرحية، وبحلول عام 1871 كان يؤدي دور هاملت في دبلن، وانضمت إليه أخته سارة لفترة ثم ألحقت معها في فرقة دروري لين (06) Drury Lane فكان ظهوره للمرة الأولى على هذا المسرح كظهوره في هاملت (3871) مصحوباً بنجاح متواضع. لقد وجده جمهور لندن رزينا رزانة شديدة لا تتفق مع الدور وأدانه النقاد لأنه عدل في نص شكسبير واختصره. وعلى أية حال فإنه عندما انضم إلى مدام سيدونز Siddons في مكبث (5871) كان أدائهما رائعاً حتى إنه أصبح حدثاً مهماً في تاريخ المسرح الإنجليزي.

وفي سنة 8871 عيّن شريدان - الذين كان في ذلك الوقت هو المالك الرئيسي لمسرح دروري لين - كمبل مديراً للفرقة، فواصل القيام بأدوار البطولة لكن الممثل الحساس لم يكن مرتاحاً بسبب تحكّات شريديان وبسبب قلة العائد المالي. وفي سنة 3081 قبل إدارة مسرح كوفنت جاردن واشترى سدس الأسهم في هذا المسرح بمبلغ 32,000 جنيه إسترليني، وفي سنة 8081 احترق المبنى، وبعد فترة بطالة سببت له خسائر جسيمة أخذ كمبل على عاتقه إدارة المسرح بعد أن يعيد بناءه. ولكنه عندما حاول أن يوازن التكاليف الهائلة غير المتوقعة للمبنى الجديد برفع أسعار دخول المسرح أوقف الجمهور عرضه التالي بصياحهم محتجين عُذ إلى الأسعار القديمة ولم يسمح له الجمهور بالاستمرار في عروضه حتى يعد بذلك (16). وأنقذ دوق نورثمبر لاند Northumberland الفرقة بمنحة مقدارها 01,000 جنيه إسترليني وواصل كمبل كفاحه لكن ظهر ممثلون شبان مثلوا تحدياً له. وكان آخر نجاحاته في (كوربولاموس Coriolamus) عندما هز الجمهور المسرح تصفيقاً لفرط إعجابه، وكان هو الجمهور نفسه الذي سبق أن صاح في وجهه محتجاً في سنة 9081. واعتزل كمبل المسرح البريطاني مسلماً تاجه لإدموند كين Kean واختفى الأسلوب الكلاسي في التمثيل من إنجلترا باعتزاله، تماماً كما اختفى في فرنسا بانتهاج دور صديقه تالما Talma، وانتصرت الحركة الرومانسية في المسرح كما انتصرت في الرسم والموسيقا والشعر والنثر. تضم حياة كين Kean بين جنباتها كل التقلبات التي حاقت بمهنته شديدة الحساسية - بما فيها من ملهات ومأساة. وُلد في حي الفقراء بلندن في سنة 7871 نتيجة لقاء في نزهة ليلية بين آرون Aaron (أو إدموند Edmund) كين Kean وهو عامل (فراش) في مسرح وأن كاري Ann Carey التي كانت تكسب مالاً قليلاً من المسرح والشارع، وقد طرده أبواه في طفولته الباكراة فرباه عمه موسى كين المغني المشهور، وتولته على نحو خاص خليفة موسى واسمها شارلوت تدسويل Tidswell وهي ممثلة قليلة الشأن في مسرح دروري لين. لقد دربته على الفن المسرحي والخدع المسرحية، وحثه موسى على دراسة الأدوار الشكسبيرية، فتعلم الفتى يجلب إليه النظارة بدءاً من الأكروبات (الألعاب البهلوانية) وإصدار الأصوات من بطنه (دون تحريك شفثيه) والملاكمة إلى هاملت وماكبث. لكنه كان متمرداً في أعماقه، ففر مراراً، وأخيراً وضعت شارلوت الطوق المقيد للكلب حول عنقه ونقشت عليه مسرح دروري لين (المقصد ضبطته وربطته بهذا المسرح) لكنه نزع الطوق وهو في الخامسة عشرة من عمره، وشرد وراح يعمل ممثلاً بشكل مستقل يؤدي أي دور، مقابل 51 شلناً في الأسبوع.

وظل طوال عشر سنين يعيش حياة قلق غير مستقرة ممثلاً جوالاً، يكاد يكون معدماً محترقاً في كل الأوقات، لكنه كان وانقاً تماماً من أنه يستطيع أن يبيز الجميع على خشبة المسرح. وسرعان ما عكف على الكحول لينسى تعبه وعذابه وليغذي أحلامه وتمنياته بأن يكون نبيل الأصل، وليتصور انتصاراته المرتقبة. وفي سنة 8081 تزوج ماري شامبرز زميلته في إحدى الفرق التي كان يعمل بها، فأنجبت له ولدين والتصقت به لم تقارقه في أثناء كل استبعاده لنفسه أمام الويسكي (الخمور) والنساء. وأخيراً بعد سنوات عديدة قضاها وهو يمثل الأدوار الشكسبيرية، وبخاكي الشمبانزي الذكي تلقى دعوة من مسرح دروري لين ليقوم بدور تجريبي (ممثل تحت الاختبار). وقد اختار دور شيلوك Shylock الصعب ليؤديه في أول صعود له على خشبة الدروري لين في 62 يناير 4181. لقد صبّ في هذا الدور بعض الإهانات التي تلقاها في هذه الحياة. فعندما قال شيلوك - باحتقار وسخرية - لتاجر البندقية المسيحي الذي طلب منه قرصاً:

- ألدى الكلب مال؟ محال

- ألكسيس يستطيع أن يقرضك ثلاثة آلاف دوكة؟

لقد بدا أن كين قد تقمّص تماماً شخصية شيلوك ونسى أنه شخص آخر. لقد وضعت العواطف والمشاعر والانفعالات التي صبّها في دوره هذا نهاية للحقبة الكلاسيكية لفن التمثيل الإنجليزي (مع أن الدور الذي أدّاه كادت كلماته لا تتجاوز السطرين، وهكذا بدأت على مسارح لندن حقبة جديدة في التمثيل قوامها المشاعر والخيال والرومانسية. وبالتدريج راح جمهور المسرح يتفاعل مع هذا الممثل غير المعروف. لقد بدا المتحمسون له في البداية فرادى متشككين، لكن الجمهور سرعان ما تفاعل معه لفرط تفاعله واستغراقه في دوره. وسارع وليم هازلت Hazlitt أبرع النقاد في عصره بكتابة عرض تحمس فيه كثيراً لهذا الممثل، واندفع كين عائداً إلى أسرته فعانق زوجته قائلاً لها: الآن يا ماري ستركيين مركبتك الأنيقة وعانق ابنه قائلاً: يا ابني سوف تدرس في إيتون (Eton 26).

وامتلاً للمسرح عند عرض مسرحية تاجر البندقية التي كان يؤدي فيها دوره للمرة الثانية (في العرض الثاني) وبعد العرض الثالث قدم صامويل (صموئيل) هويتبيرد Whitebeard له عقداً للعمل في هذا المسرح لمدة ثلاث سنوات مقابل ثمانية جنيهات أسبوعياً فوقه كين، لكن هويتبيرد غيرّه بعد التوقيع فجعل الجنيهات الثمانية، عشرين جنيهاً مع أن كين كان قد وافق على الثمانية. وأتى وقت دُعي فيه كين لأداء دور ليلة واحدة بخمسين جنيهاً. لقد أدى تقريباً كل الأدوار المشهورة في مسرحيات شكسبير - هاملت، ريتشارد الثالث، ريتشارد الثاني، هنري الخامس، ماكبث، أوثيلو Othello، ياغو Iago، روميو. وقد نجح في كل هذه الأدوار باستثناء الأخير (روميو).

وعندما حان الوقت ليرى الممثلين الشبان ينتظرون بتوق ليلحوا محله، بدد عوائده المالية في الشراب، وراح يرضي نفسه بما يتلقاه من حب شديد من مرثادي الحانات التي يرتادها (36) وانضم إلى حركة سرية لإدانة كل اللوردات وذوي المكانة ونجح في إقامة علاقة آثمة مع زوجة أحد أعضاء المجلس التشريعي بالمدينة (5281) (46) وعمل على استعادة مكانته في المسرح، لكن ذاكرته لم تعد قوية كما كانت فصعُب عليه حفظ أدواره فقد كان ينسى السطور الموكل به أدائها. لقد حدث هذا أكثر من مرة. ومع أن الجمهور كان معجباً به إعجاباً شديداً، إلا أنه عندما قصر لم يرحمه وصب عليه الإهانات صباً، وسأله لم يُغرق في الشراب دون اهتمام أو حذر؟ فغادر إنجلترا، وقام برحلة في أمريكا أدى فيها أدواراً تمثيلية فحققت انتصاراً في فنه وكوّنت ثروة بدلاً من التي بددها، وبدد الثروة الجديدة التي حققها، وعاد إلى لندن ووافق على القيام بتمثيل دور أوثلو Othello أمام ابنه الذي كان عليه القيام بدور ياجو Iago على مسرح كوفنت جاردن (3381 Covent Garden) وصفق الجمهور لياجو، واستقبلوا أوثلو صامتين. وكان هذا شديد الوقع على كين الذي لم يلق التصفيق الكافي، فانهارت قواه وأصبح على شفا الانهيار وبعد أن نطق بعبارة وداعاً، لقد انتهت مهمة أوثلو سقط بين ذراعي ابنه وهمس له: إنني أحتصر يا شارلز تحدث لهم نيابة عني (56) فحملوه إلى بيته لترعاه زوجته التي كان قد هجرها ذات مرة، وبعد شهرين مات في 51 مايو 3381 ولم يتجاوز السادسة والأربعين. لقد اختطف الموت أعظم الممثلين في التاريخ الإنجليزي - باستثناء جارك - وهو في منتصف العمر.

صفحة رقم : 14633

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الحياة الإنجليزية -> خلاصة

8- خلاصة

الحق أن الحياة في إنجلترا كانت ناشطة مثمرة، والحق أيضاً أن الصورة لم تكن خالية من عيوب كثيرة، وهذا أمر طبيعي في الحياة. لقد اختفى صغار ملاك الأراضي من الطبقة الوسطى، وتعرضت البروليتاريا للاستعباد وخرّب القمار بيوتاً ودمر ثروات، وكانت الحكومة قائمة على الامتيازات الطبقية، وكان هذا أمراً معلناً واضحاً، وكانت قلة قليلة من الرجال هي التي تشرع لرجال آخرين ولكل النساء، ومع هذا ففي وسط الأخطاء والجرائم، كان العلم يتطور، وكانت الفلسفة تترعرع، وكان كونستابل يستوحي مناظر الريف الإنجليزي، وكان تيرنر Turner يقيد الشمس وينبت العاصفة (المقصود يرسمهما) وكان وردزورث وكولردج وبايرون وشيلي يقدمون لإنجلترا مهرجاناً من الشعر لا نظير له في أي مكان منذ إليزابيث الأولى. وكان التمرد والاضطراب كقشرة خارجية إذ كان النظام والاستقرار هما العصب الأصيل الذي أتاح كثيراً من الحريات لم تكن متاحة في أي دولة أوروبية أخرى خلا فرنسا التي كان الإفراط في الحرية فيها مؤدياً إلى الانتحار. لقد كانت حرية الحركة والانتقال والسفن مكفولة بغير قيود إلا في أوقات الحروب، وكانت حرية العبادة مكفولة فيما عدا التجديف على الله، وكانت حرية الصحافة مكفولة أيضاً فيما عدا الخيانة العظمى، وكانت حرية الرأي مكفولة فيما عدا الدفاع عن الثورة والتمرد فهذا على وفق لكل الشواهد والسوابق سيؤدي إلى عقد أو أكثر من الخطر حيث يختفي الأمن ومن الفوضى حيث يختفي القانون.

ولم يكن الرأي العام راقياً جداً فقد كان يتمسك بالمحاذير taboos البالية وغالباً ما كان يدافع عن القديم لكن كانت لديه الشجاعة لإطلاق أصوات الازدراء نقداً للأمير منحط، واستحساناً لموقف زوجته التي طردها بقسوة (66)، وعبر الرأي العام عن نفسه أيضاً في منات التجمعات والجمعيات التي وقفت نفسها لأغراض التعليم والعلم والفلسفة

و الإصلاح. وكان الرأي العام يظهر واضحاً في القضايا الحرجة إذ يعبر الناس عن آرائهم في اجتماعات عامة، ويمارسون حق تقديم العرائض (الاحتجاجات) الذي كفله القانون الإنجليزي، فالإنجليز الصبورون لا يعمدون إلى المقاومة إلا كحل أخير إزاء هذه الدولة الأوليغارشية. لقد حدث أكثر من مرة أن قام تمرّد ناجح (حقوق غرضه) في شوارع القرى والمدن. لقد كانت الحكومة أرستقراطية ومع أرستقراطيتها فقد كان أقل ما تتصف به هو أنها مهذبة فهذبت العادات وتصدّت للمستحدثات الضارة، وحافظت على الذوق السليم في الآداب والفنون وحمته من البربرية، كما تصدّت للخرافات، وأيدت العديد من القضايا الطبية (الصالحة) ولم تترك شعراءها الكبار نهياً لمجاعة. حقيقة لقد مر بها في بعض الأحيان ملك مجنون، لكن الحكومة كانت تُغلّ يده، ليظل ملكاً محبوباً يمثل رمزاً للوحدة الوطنية ومحوراً لكبرياء الأمة وحماسها ولم يجد الإنجليز معنى في قتل مليون شخص لعزل ملك له كل هذه الفائدة كرأس للتشريعات. فبعد انحراف لمرّة أو مرتين يعود الإنجليز إلى طبيعته غير مُصر على أن ماسح الأحذية والبويرن البارون الصغير (البارونت) لهما الحقوق نفسها في اقتراح بنود قانون الأراضي. وقد ذكرت مدام دي ستيل أن الإبداع في إنجلترا مُتاح للأفراد، ومن هناك كان يمكن تنظيم الجموع (76). إن النظام الهيراركي في إنجلترا - حيث لكل طبقة مكانتها فوق الأخرى - هو الذي سمح بانتشار الحرية.

دعونا الآن نرى كيف تفاعل الفن والعلم والفلسفة، ونظام الحكم حتى تكتمل صورة الحياة في إنجلترا في سنة 0081. إننا سنعرض لذلك في الفصول التالية بقدر جهدنا.

صفحة رقم : 14634

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> العلم في إنجلترا -> سبل التقدم

الفصل الثامن عشر

العلم في إنجلترا

1- سبل التقدم

لقد كانت إنجلترا تقود النّقلة من الزراعة إلى الصناعة، وكان طبيعياً أن تشجع تلك العلوم التي تقدم إمكانيات عملية، تاركة الدراسات النظرية للفرنسيين، وكان من المتوقع أن يكون فلاسفتها في هذه الفترة - بورك Burke ومالتوس وجودوين Godwin وبنثام Bentham وبين Paine - رجال دنيا يواجهون المشاكل أو القضايا الحية، والأخلاقية والدينية والسكانية والحكومية والثورية، تاركين للفلاسفة الألمان التحليق في أجواء المنطق والميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) والدراسات الفلسفية لتطور العقل (فينومينو لوجيا العقل). وقد أعلنت جمعية لندن الملكية لزيادة المعلومات في مجال العلوم الطبيعية Natural عند تشكيلها في سنة 0661 أنها تعمل على تأسيس كلية لتحسين التعليم التجريبي

الفيزيائي الرياضي. لكنها لم تصبح كلية بمعنى أنها لم تصبح مؤسسة أو منظمة لتخريج معلمي الشباب في المرحلة الثانوية وإنما تطورت لتصبح ناديا مقتصر على خمسة وخمسين عالما، يجتمعون بشكل دوري للتشاور وتكوين مكتبة تضم كتب العلوم والفلسفة ويقدمون للجمهور المهتم المحاضرات والتجارب، ويقدمون الأوسمة لذوي الإسهامات العلمية، وينشرون في المناسبات مطبوعا بعنوان المدونات الفلسفية *Transactians Philosophical*. وكانت الفلسفة لاتزال تضم العلم بين جنبهها وقد تبرعت العلوم وانبثقت منها علما في إثر علم نتيجة لإحلال الصياغات الكمية والتجارب اليقينية محل المنطق والنظر المجرد. ونظمت الجمعية الملكية - بدعم حكومي عادة - مشروعات ومهام علمية. وفي سنة 0871 خصصت الحكومة لها مقراً أنيقاً في دار سومرست *Somerest House* ظلت به حتى سنة 7581 حيث انتقلت إلى مقرها الحالي في دار بيرلنجتون *Burlington House* في بيكادلي *Piccadilly* وأنفق السير جوزيف بانكس *Banks* - رئيسها في الفترة من 8771 إلى 0281 - كثيراً من أمواله للارتقاء بالعلم ورعاية العلماء. وكانت مؤسسة لندن الملكية - الأقل شهرة من الجمعية الملكية، وإن كانت أهدافها أكثر وضوحاً من حيث كونها مؤسسة تهتم بالتعليم - قد أسسها الكونت رمفورد *Rumford* في سنة 0081 لتوجيه الاكتشافات الجديدة في مجال العلوم لخدمة الفنون والصناعات، وذلك عن طريق تقديم دراسات نظامية - محاضرات فلسفية وتجارب (معملية أو ميدانية) وأتاحت مبنى شاسعاً في شارع البمارل *Albemarle* لتقديم برامجها التعليمية فألقى فيه جون دلتون *Dalton* وسير همفري ديفي *Davy* محاضرات في الكيمياء، وتوماس يونج *Young* محاضرات في الطبيعة *nature* وانتشار الضوء، وكولردج *Coleridge* محاضرات في الفكر والأدب وسير إوين لاندسير *Edwin Landseer* محاضرات في الفنون... وكانت هناك جمعيات أكثر تخصصاً كجمعيات الشلالات التي اندمجت في سنة 2081 في جمعية للنبات، والجمعية الجغرافية (7081) وسرعان ما ظهرت بعد ذلك جمعية لعلم الحيوان وأخرى للنباتات وثالثة للكيمياء الحيوية ورابعة للفلك، وأسست مانستستر وبريمنجهم جمعياتها الفلسفية رغبة منها في تطبيق العلم على صناعاتها، وأقامت بريستول معهد دراسة الغازات، وتم تكوين أكاديميات لشرح العلوم وتبسيطها للجمهور العام. وقدم ميشيل فارادي *Michael Faraday* في إحدى هذه الأكاديميات وهو في الخامسة والعشرين من عمره سلسلة محاضرات أسهمت طوال نصف قرن في حفز البحوث في مجال الكهرباء. وقد ألقى ميشيل محاضراته هذه سنة 6181، وبشكل عام، ففي التعليم العلمي، كان مجتمع رجال الأعمال في طليعة الجامعات كما جرى كثير من التقدم العلمي في مجال العلوم على أيدي أفراد مستقلين (غير تابعين لمؤسسات علمية أو تعليمية) يدعمهم أو يمولهم أصدقاؤهم. لقد تخلى البريطانيون عن الرياضيات للفرنسيين، وراح العلم البريطاني يركز على الفلك والجيولوجيا والجغرافيا والفيزياء والكيمياء.

لقد اهتم التاج البريطاني بعلم الفلك ووضع تحت حمايته وقدم لبحوثه الإعانات المالية، لأنه علم حيوي للملاحة ويساعد في السيطرة على البحار. واعترف بمرصد جرينوتش *Greenwich* بما فيه من أدق المعدات التي أمكن شراؤها بالأموال التي أقر البرلمان صرفها - بأنه على قمة المرصد الأخرى. ونشر جيمس هوتون *Hutton* سنة 5971 قبل موته بعامين مبحثه نظرية الأرض وهو مبحث جيولوجي كلاسي. يلخص الحياة العامة لكوننا من خلال عمليات دورية يقوم المطر في كل دور منها بجرف سطح الأرض فتنشأ الأنهار نتيجة التحات الذي تسببه الأمطار أو تحمل الأنهار بدورها نتيجة التحات إلى البحر، وتتبخر المياه والرطوبة من فوق سطح الأرض فتصير سحباً، وينتثف المياه في السحب تنزل مرة أخرى مطراً... وعند الطرف الآخر لهذا العصر (5181) حقق وليم سميث *W. Smith* - الملقب بسترانا سميث أو سميث طبقات جيولوجية *Strata Smith* - شهرة لبحثه المركز الذي لا يزيد عن خمس عشرة صفحة والذي يحمل عنوان خريطة جيولوجية لإنجلترا وويلز ويظهر هذا البحث أن طبقات جيولوجية تتجه تدريجياً نحو الشرق صاعدة حتى تصل في النهاية إلى سطح الأرض، وتقدم لنا في أثناء اتجاهها الصاعد أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السابقة كما تظهر في المتحجرات الحيوانية والنباتية في العصور الجيولوجية المختلفة، وقد قدمت له الحكومة البريطانية راتباً سنوياً مقداره مائة جنيه إسترليني مدى الحياة بدءاً من عام 1381 كمكافأة له لكشفه عن أسرار باطن الأرض، وتوفي وليم سميث سنة 9381.

واستمر الملاحون البريطانيون في شرح زوايا الأرض والبحر وشقوقها. وفيما بين عامي 1971 و 4971 رسم جورج فانكوفر *G. Vancouver* خريطة لسواحل أستراليا ونيوزيلندا وهاواي والباسيفيكي شمال غرب أمريكا، وهناك دار مبحراً حول الجزيرة الفاتنة التي تحمل اسمه.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> العلم في إنجلترا -> الفيزياء رمفورد ويونج

2- الفيزياء: رمفورد، ويونج

من الصعب أن تحدد جنسية بنيامين طومسون Thompson الذي ولد سنة 3571 وأقام في أمريكا وحصل على رتبة فارس في إنجلترا وأصبح هو الكونت رمفورد Rumford في بارفاريا ومات في فرنسا سنة 4181. واتخذ جانب بريطانيا في أثناء حرب الاستقلال الأمريكية وانتقل إلى لندن في سنة 6771. وأعادته بريطانيا كوزير في مستعمرة جورجيا، وقد امتد اهتمامه ليشمل العلوم إلى جانب اهتمامه السياسية وقام بأبحاث علمية ضمنت له زمالة الجمعية الملكية. وفي سنة 4871 دخل - بإذن من الحكومة البريطانية - في خدمة بافاريا التي كان يحكمها الأمير مكسيميليان جوزيف - Maxi milian Joseph وفي غضون الأحد عشر عاما التي قضاها وزيراً للحرب والشرطة في بافاريا أعاد تنظيم الجيش وحسن أحوال الطبقة العاملة وقضى على التسول ومع هذا فقد وجد لديه من الوقت لكتابة أبحاث لدورية الجمعية الملكية المدونة الفلسفية وقد جعله مكسميليان - اعترافاً منه بفضل - كونت الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1971)، ويظن أن لقبه هو اسم مكان ميلاد زوجته (الآن كونكورد) في ماساشوستس. وفي غضون عام قضاه في بريطانيا (5971) عمل على تنظيم وسائل التدفئة والطهي بقصد تخفيف حدة التلوث في الهواء، وبعد عام آخر قضاه في الخدمة في بافاريا عاد إلى إنجلترا وأسس مع السير جوزيف بانكس Banks المؤسسة الملكية Royal Institution، وأسس نظام تكريم العلماء المعروف باسم وسام رمفورد الذي تمنحه الجمعية الملكية وكان هو نفسه أول من حصل عليه. وقدم أموالاً لجوائز وأوسمة مماثلة تقدمها أكاديميات الفنون والعلوم في بافاريا وأمريكا ولأستاذية رمفورد في جامعة هارفارد. وبعد وفاة زوجته انتقل إلى باريس (2081) واتخذ لنفسه مسكناً في أوتيل Auteuil وتزوج من أرملة لافوازييه Lavoisier ظل في فرنسا رغم تجدد حربها مع إنجلترا. وظل نشيطاً إلى آخر حياته وعمل في آخر أعوامه على إطعام العامة المعوزين من فرنسيين حساء رمفورد Rumford Soup وكان نابليون قد أخذ معه كل أبنائهم (جندهم) وانطلق إلى قدره.

كانت إسهامات رمفورد في العلوم متبانية وعرضية بدرجة لا تجعلها دراماتية مذهلة، لكن إذا جمعناها معاً وجدناها تمثل مجموعة عناصر مؤتلفة جديرة بالملاحظة نظراً لانشغاله بالأعمال الإدارية، وبينما كان يراقب تجويف مدفع في ميونخ فوجى بالحرارة الشديدة الناتجة من العملية. ولقياس هذه الحرارة رتب الحصول على أسطوانة معدنية دوارة ورأسها في مواجهة منقب من الصلب وكلاهما الأسطوانة والمنقب في صندوق محكم يحتوي على ثمانية عشر رطلاً وثلاثة أرباع الرطل من المياه. وفي غضون ساعتين وثلاثة أرباع ساعة ارتفعت حرارة الماء من ستين درجة فهرنهايت إلى 212 - درجة الغليان. وقد ذكر رمفورد في وقت لاحق كان من الصعب أن نصف الدهشة التي اعترت المشاهدين عند رؤيتهم هذا القدر الكبير من المياه يصل إلى درجة الغليان دون استخدام نيران (1) وقد أثبتت هذه التجربة أن الحرارة ليست جوهرًا أو مادة وإنما هي أسلوب للحركة الجزيئية تتناسب في الدرجة مع كمية الجهد المبذول لإنتاجها. وكان هذا الاعتقاد سائداً منذ فترة طويلة لكن تجربة رمفورد كانت هي الدليل التجريبي الأول، كما أنها كانت طريقة (منهجاً) لقياس المعادل الميكانيكي للحرارة - أي كمية العمل المطلوبة لتسخين رطل من المياه درجة حرارية واحدة.

ويكاد يكون توماس يونج Young مثل ومونتاني Montaigne في تباين اهتماماته. ولد في سنة 3771 من أسرة على مذهب الكوكر Quaker في سومرست. لقد بدأ متعلقاً بالدين وانتهى مخلصاً بالإخلاص كله للعلم. وهناك ما يؤكد لنا أنه كان قد قرأ الكتاب المقدس المسيحي وهو في الرابعة من عمره وكان يستطيع الكتابة بأربع عشرة لغة وهو في الرابعة عشر من عمره (2) وتم انتخابه وهو في الواحدة والعشرين من عمره كزميل في الجمعية الملكية، وفي الثمانية والعشرين كان يقوم بتدريس الفيزياء في المؤسسة الملكية، وفي سنة 1081 بدأ هناك التجارب التي أكدت -طورت- فكرة هويجنز Huyghens عن الضوء كموجات لأثير افتراضي. وبعد مناقشات طويلة أزاحت هذه النظرية بشكل

عام - وليس على مستوى العالم - نظرية نيوتن Newton عن الضوء كإشعاع لجسيمات مادية، وقدم يونج أيضا فرضا مؤداه أن إدراك اللون يعتمد على وجود ثلاثة أنواع من الألياف العصبية في شبكية العين حساسة - على التوالي - للأحمر والبنفسجي والأخضر، وقد طور هيلمهولتز Helmholtz هذا الفرض فيما بعد. وقدم لنا أول وصف لـ حرج البصر (اللابؤية أو اللا استجمية) وضغط الدم والجاذبية الشعرية والمد والجزر وشارك بنشاط (4181) في فك رموز حجر رشيد. وقال مؤرخ طبي متفقد إنه كان أكثر الأطباء ثقافة وعلماء في عصره وأضاف هيلمهولتز قائلاً إنه كان أوضح الناس بصيرة (3).

صفحة رقم : 14636

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> العلم في إنجلترا -> الكيمياء (دالتون وديفي)

3- الكيمياء: دالتون وديفي

في العقد نفسه، وأيضا في المؤسسة الملكية نفسها أحدث دالتون Dalton ثورة في مجال الكيمياء بنظريته الذرية (4081 atomic theory) لقد كان ابنا لنساج من طائفة الكويكر. ولد في سنة 6671 في إيجلسفيلد Eaglesfield بالقرب من كوكرموث Cockermonth في الطرف الشمالي لمنطقة البحيرة الضبابية الراحعة Lake District التي أنجبت الشعراء: وردسورت Wordsworth وكولردج Coleridge وسوثي Southey. وفي وقت لاحق كتب على لسان شخص ثالث ملخصاً اهتماماته الأولى في عرض زمني مجرد لم يخف طموحه الحار الذي أضاء أمامه طريق الإنجاز:

كاتب هذه ... درس في مدرسة القرية ... حتى سن الحادية عشرة. وفي هذه الفترة قطع شوطا في دراسة حساب المساحات والحجوم، والمساحة والملاحة ... الخ، وبدأ في سن الثانية عشرة في التدريس في مدرسة القرية ... وكان يعمل في المناسبات لمدة عام أو أكثر في مجال الزراعة وتربية الحيوانات الداجنة، وانتقل إلى كندال Kendal وهو في الخامسة عشرة من عمره مساعداً في مدرسة مؤقتة (مشيدة من الألواح الخشبية) وظل في هذا العمل مدة ثلاث سنوات أو أربع، ثم أخذ على عاتقه إقامة مدرسة على نسق هذه المدرسة وقضى ثماني سنوات فيها وبينما كان في كندال كان يقضي وقت فراغه في دراسة اللاتينية واليونانية والفرنسية، والرياضيات مع الفلسفة الطبيعية natural، وفي سنة 3971 انتقل إلى مانشستر معلماً للرياضيات والفلسفة (العلوم) الطبيعية في الكلية الجديدة (4) وكان يواصل - إذا سمح الوقت والمال - ملاحظاته ومشاهداته وتجاربه التي كان يقوم هو شخصياً بكثير منها رغم أنه كان مصاباً بعمى الألوان ورغم الأدوات المعملية البسيطة (البداية) ووسط اهتماماته الكثيرة وجد الوقت الكافي لتدوين سجل بالأرصاد الجوية منذ كان في الواحدة والعشرين من عمره إلى اليوم الذي سبق وفاته مباشرة (5). وعادة ما كان يقضي إجازاته طوفاً باحثاً عن الحقائق في الجبال نفسها التي كان الشاعر وردسورت Wordsworth يجول فيها بعد ذلك بأعوام قلائل، وعلى أية حال فبينما كان وردسورت Wordsworth يطوف بحثاً عن الله مصغياً له فإن دالتون كان يرصد الأحوال الجوية عند الارتفاعات المختلفة (فوق سطح البحر)، وكان عمله هذا يشبه إلى حد كبير عمل بسكال Pascal قبل ذلك بقرن ونصف قرن. وقد قبل في تجاربه نظرية أن المادة مكونة من ذرات غير قابلة للانقسام تلك النظرية التي قال بها كل من ليوسيوس Leucippus (حوالي 054 ق م) وديموقريطوس Democritus (حوالي 004 ق م) وواصل فرضية روبرت بويل (Boyle 7261-1961) التي مؤداها أن كل الذرات تنتمي إلى

واحد أو آخر من عناصر معينة لا تتحلل إلى عناصر أخرى أساسية - هذه العناصر المعينة التي لا تتحلل هي: الهيدروجين والأكسوجين والكالسيوم... وقد دلل دالتون في كتابه نظام جديد لفلسفة الكيمياء (1808) A New System of Chmical Philosophy على أن وزن أي ذرة من ذرات عنصر إذا قورنت بأي ذرة من عنصر آخر، يجب أن يكون هو نفسه تماما كما أن وزن إجمالي العنصر الأول هو نفسه وزن إجمالي العنصر الآخر. وبعد العديد من التجارب والحسابات أخذ دالتون وزن ذرة الهيدروجين كوحدة واحدة وراح يراوح بين كل ذرة من ذرات العناصر الأخرى بالوزن النسبي لأي واحدة من ذراتها من ناحية وذرة الهيدروجين من ناحية أخرى، ومن ثم كوّن قائمة بالأوزان الذرية للثلاثين عنصرا التي كانت معروفة لديه. وكان لابد من أن تصحّح أبحاث لاحقة ما وصل إليه دالتون من نتائج، لكن نتائجه وكذلك قانونه المعقد المعروف باسم قانون النسب المتضاعفة Law of multiple proportions ثبت أنها ساهمت إسهاما كبيرا في تطور العلم في القرن التاسع عشر. كان السير همفري ديفي Humphry Davy بحياته وتعليمه واكتشافاته أكثر إثارة كما أنه كان نمطاً مختلفاً. ولد في بنزانس Penzance (1771) من أسرة ثرية من الطبقة الوسطى وتلقى تعليماً وزاد عليه بدراسات في الجيولوجيا وصيد الأسماك Fishing ورسم الاسكتشات sketching والشعر. وأكسبته طبيعته المرحلة أصدقاء مختلفين بدءاً من كولردج Coleridge وسوثي Southey والدكتور بيتر روجت Peter Roget (الذي أعد قاموساً بمفردات الإنجليزية وعباراتها، والذي اتسم بالجد والاجتهاد والعبقرية، وأطلق على عمله هذا الذي صدر في سنة 1825 اسم: Thesaurus of English words & phrases) - حتى نابليون. وكان له صديق آخر أتاح له استخدام معمله الكيميائي مما جعل ديفي يعبر عن امتنانه له في صيغة الإهداء التي وجهها له. وقد نظم ديفي مكتبته الخاصة وكان يصنف الغازات بنشتمها وحث كولردج وسوثي على مشاركته في تشتم الغازات كاد يقتل نفسه بنشتمه أبخرة الغازات شديدة السمية.

ونشر وهو في الثانية والعشرين مبحثاً عن تجاربه بعنوان مباحث كيميائية وفلسفية Researches Chemical and Philo sophical في سنة 1808. ودعا الكونت رمفورد وجوزيف بانكس Banks إلى لندن لإلقاء محاضرات عن عجائب المرحم (البطارية) (عمود فولتا Voltas pile) وعرض لبعض إمكاناتها، فحقق شهرة جديدة في المعهد الملكي Royal Institution لقد استخدم بطارية مكونة من 52 زوج من الرقائق المعدنية كوسيلة للتحليل الكيميائي بالكهرباء واستطاع - بهذه الطريقة - تحليل المواد المختلفة إلى عناصرها، فاكتشف - وعزل - الصوديوم والبوتاسيوم، وواصل تجاربه فاستطاع عزل الباريوم barium واليورون bo ron والسترونتيوم strontium والكالسيوم والمغنيسيوم وأضافها إلى قائمة العناصر. لقد وضعت اكتشافاته وإنجازاته أسس علم الكيمياء الكهربائية، كعلم له إمكانات نظرية وعملية لا حد لها. ووصلت أخبار أعماله إلى نابليون فأرسل له في سنة 1808 عبر جبهة القتال جائزة المعهد الوطني الفرنسي Institute Nationale.

وكان بيرثوليه Berthollet قد شرح في سنة 1771 لجيمس وات Watt ما في الكلور chlorine من طاقة تبييض bleaching power وتوانت إنجلترا في الأخذ بهذه الفكرة إلا أن ديفي جدد الأخذ بها وكانت جهوده فعالة. لقد تطور العلم والصناعة من خلاله فقد كانت اكتشافاته وتجاربه ذوات دور رائد في التحول الاقتصادي لبريطانيا العظمى. وفي سنة 1810 أجرى ديفي تجارب لإظهار قوة التيار الكهربائي بتمريره من سلك كربوني دقيق إلى سلك آخر، لإنتاج ضوء وحراره، وكان ذلك أمام جمهور المعهد الملكي. وقد وصف هذه العملية كالتالي:

عند تقريب قطع من الفحم النباتي يبلغ طول القطعة الواحدة منها بوصة واحدة ويبلغ قطرها سدس بوصة - بعضها من بعضها الآخر (بحيث تكون كل قطعة على بعد: واحد على أربعين أو واحد على ثلاثين من البوصة) ينتج عن هذا شرارة فيحترق أكثر من نصف حجم الفحم النباتي ليصبح رمادا أبيض، وبسحب مأخذ التيار points وإبعادها بعضها عن بعضها الآخر يحدث تقريباً خلال الهواء الساخن في مساحة تبلغ أربع بوصات على الأقل فينتج عن هذا قوس من النور صاعد متألق... وعند إدخال أي مادة في هذا القوس الضوئي فإنها تشتعل (تحترق) فوراً، فكل المواد في هذه الحال تنصهر وتتحد سواء البلاتين أو الشمع المعتاد أو الكوارتز أو الياقوت الأزرق أو المغنيسيوم أو الجير (أكسيد الكالسيوم)(6):

إن إمكانات توليد الضوء والحرارة الأنف ذكرها لم تتطور حتى تم اختراع وسائل أخص لإنتاج التيار الكهربائي، لكن في هذه التجربة الألمعية كان أساس الأفران الكهربائية التي أحالت الليل إلى نهار لنصف سكان المعمورة. وفي سنة 1813 ارتحل ديفي بصحبة مساعده الشاب ميشيل فارادي Faraday عبر فرنسا وإيطاليا في وقت كانت فيه كل أوروبا تقريباً تخوض الحرب، لكنه استطاع التنقل بفضل حق المرور الآمن الذي أصدره له نابليون. وراح يزور المعامل ويجرب التجارب واكتشف خواص اليود (عنصر لافلزي) وأثبت أن الألماس هو نوع من الكربون. ولما عاد إلى إنجلترا درس أسباب انفجارات المناجم واخترع مصباح أمان للعاملين في المناجم. وفي سنة 1818 منحه الوصي على العرش Regent رتبة البارونية (وهي رتبة دون البارون) وفي سنة 1820 خلف بانكس

Banks كرئيس للجمعية الملكية Royal Society. وفي سنة 7281 بدأت صحته في التدهور فترك العلم ليمارس صيد السمك وكتب كتابا في هذا الموضوع وجعل فيه رسوم إيضاح من رسمه. وفي سنة 9281 - وكان مصابا بشلل جزئي - ذهب إلى روما ليكون حطاما بين الخرائب (7) أو بتعبير آخر ليكون أثرا بين الأثار لكنه مات قبل انصرام العام. إنه لم يعيش سوى 15 سنة لكن سنواته هذه كانت تساوي حيوات كثيرة. لقد كان رجلاً عظيماً طيباً وكان واحداً من البشر المخلصين (بتشديد اللام وكسرهما) الذين عملوا على تخليصنا من الجهل والخطايا (الآثام).

صفحة رقم : 14637

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> العلم في إنجلترا -> البيولوجيا (إرازموس داروين)

4- البيولوجيا (علم الأحياء)

إرازموس داروين

حتى الآن لم تكن البيولوجيا (علم الأحياء) في إنجلترا تسير سيرا حسنا كسير الفيزياء والكيمياء والجغرافيا، فقد كانت هذه العلوم ذوات صلات وثيقة بالعمل على تحسين الصناعة والتجارة وتطويرهما، أما البيولوجيا فقد كانت توحى بتراجيدية (مأساوية) الحياة وبهائنها وكانت تهز العقيدة الدينية.

لقد كان إرازموس داروين - جد شارلز - قد تلقى بالفعل تقديرنا وثناءنا فقد كان شرارة وضآة وسط ألمعية هذا العصر الذي شهد نشر أعماله: الحديقة النباتية (2971 Botanic Garden) وعلم أصول الحياة الحيوانية (4971 Zoonomia - 6971) ومعبد الطبيعة (The Temple of Nature 3081). لقد كتبت هذه الكتب جميعا من وجهة نظر تطورية. وقد اتفقت هذه الدراسات مع لامارك Lamarck في إقامة النظرية على أمل تكيف العادات والأعضاء على وفق للرغبة والمجهود والعزم فإذا ما استمر ذلك وقويت خلال أجيال كثيرة لأمكن انتقال (هذه الصفات الجديدة والمرغوب فيها) إلى العصب والجسم. هذا الأستاذ العبقري الذي أصبح اسمه كبيرا على طول المدى عمد إلى التوفيق بين التطور والدين بافتراض أن كل الحياة الحيوانية (بما فيها البشرية) كانت قد بدأت من مستودع لقاح حي واحد كان هو العلة الأولى الكبيرة المتضمنة لكل الكائنات الحية ثم خُلِّي سبيلها لتتحسن على وفق لنشاطها الداخلي الخاص بها، ولتسلم مالحق بها من تطورات وتحسنات للأجيال اللاحقة جيلا بعد جيل وبلا نهاية (8).

لقد دخل الحوار الدائم بين الدين والعلم - رغم خفوته في هذا العصر - في مملكة (عالم) السيكلوجيا الذي أصبح مجالا يحظى بالرعاية في وقت من الأوقات، عندما قام هارتلي Hartley وبريستلي Priestly بإعداد تفسير فسيولوجي للربط بين الأفكار وعندما استوحى علماء التشريح - بشكل متزايد - فكرة العلاقة بين الجسد والعقل (النفس). وفي سنة 1181 نشر شارلز بل Bell مبحثه فكرة جديدة عن تشريح المخ Anew Idea of the Anatomy of the Brain وبدأ في هذا المبحث يبرهن على أن أجزاء مخصوصة في الجهاز العصبي تحول انطباعات الحواس إلى أجزاء مخصوصة في المخ، وأن أعصابا مخصوصة تحمل أوامر الحركة إلى أعضاء الاستجابة المنوط بها التنفيذ. وبدت ظاهرة التنويم المغاطيسي - التي زاد انتشارها - تشير إلى تحول فسيولوجي

للإحساس إلى أفكار ومن ثم إلى أعمال ، وقد تم تناول تأثير الأفيون من حيث جلبه للنوم وتأثيره في الأحلام وحفزه للخيال وإضعافه للإرادة (كما ذكر كولردج Coleridge ودي كوينسي De Quincey) في سياق الحديث عن حرية الإرادة، وتم تقليص هذه القضية الكبيرة (حرية الإرادة) إلى مقادير جبرية تصوغ الدوافع والمحركات والخيالات المختلفة المتصارعة. وبدا الوضع المزدهر الصاعد للمناقشات العلمية والمركز الاجتماعي المرموق لمهنة الطب مقارنة بالمركز المتدني للإكليريوس الأنجليكاني (رجال الدين الأنجليكان) الذي قلت فعاليته كثيرا - يعكس اللامبالاة الدينية التي كانت قد بدأت تنتشر بشكل سري، بل وتعكس ماحاق بالدين من شك لدرجة وجود من أنكره تماما.

صفحة رقم : 14638

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> العلم في إنجلترا -> الطب (جنر)

5- الطب: جنر

Jenner

لايكاد الإخاء الطبي (تمتع الجميع بالرعاية الطبية) يستحق هذا الاسم الذي أطلق عليه لأن الرعاية الطبية تعكس تماما الولع البريطاني بالتمييز بين الطبقات، فكلية الأطباء الملكية Royal College of physicians - الفخورة بتأسيسها في عهد هنري الثامن في سنة 1518 - تقصر زمامتها على نحو خمسين كانوا قد حصلوا على درجاتهم العلمية من أكسفورد أو كامبردج، كما تقصر إجازاتها Licentiate على نحو خمسين من الممارسين المميزين. ويكون هؤلاء المائة نوعاً من المجالس أقرب ما يكون إلى مجلس لوردات الأطباء ودارسي الطب House of Lords to medicos في إنجلترا. ويحصل هؤلاء الأعضاء على دخول كبيرة فأحيانا ما يصل دخل الواحد منهم إلى عشرين ألف جنيه في السنة. ولا يمكن للواحد منهم أن يكون نبيلاً أو أميراً، وإن كان يمكن أن يصبح في رتبة فارس وقد يطمح للبارونية (درجة دون البارون) والكلية الملكية للجراحين التي أسست سنة 1700 من بين المؤسسات الأدنى درجة. ويلي تلك الدرجة الأطباء القائمون بتوليد النساء (الذين يقومون بعمل القابلات male midwives) الذين تخصصوا في سحب الأجنة من الأرحام (حيث الدفء والأمان) إلى العالم الخارجي حيث المنافسة والصراع. وفي قاع السلم الاجتماعي للعاملين في المهن الطبية يأتي الصيادلة الذين يقدمون كل الرعاية الطبية تقريبا في المناطق الريفية. ولا تقدم أي كلية من هذه الكليات الأنف ذكرها أي نوع من التعليم الطبي فيما عدا بعض المحاضرات التي يلقيها مشاهير الأطباء في المناسبات. ولم يكن في أكسفورد ولا كامبردج مدرسة للطب فالطلاب الذين كانوا يرغبون في الحصول على تعليم وتدريب طبيين كان عليهم أن يلتبسوه في إسكتلندا وفيما عدا ذلك فإن تدريب الأطباء الإنجليز ترك للمدارس الخاصة التي أقيمت بالقرب من المستشفيات الكبرى بأموال المؤسسات الخيرية وتبرعات المحسنين. وقد أنفق السير توماس برنارد Thomas Bernard كثيرا من ثروته في إصلاح مستشفى اللقطاء الشهيرة في شمال لندن وشارك غيره من الأثرياء في تمويل مستوصفات (عيادات Clinics) لعلاج السرطان والرمم والفتق،

في لندن وأماكن أخرى. لكن وسائل منع انتشار الأمراض كانت هزيلة في المدن مما أدى إلى انتشار الأمراض بل وظهور أمراض جديدة، وكانت سرعة انتشار الأمراض تفوق إمكانيات العلاج.

وفي سنة 6081 سجلت لندن حدثاً فريداً: لقد مضى أسبوع كامل دون أن يتوفى أحد بمرض الجدري - ذلك المرض المسبب للبثور والحمى والمشوه للوجه والمعدى والذي كان في وقت من الأوقات متوطناً في إنجلترا وقد ينتشر في أي وقت مرة أخرى ليصبح طاعوناً مميتاً (المقصود كارثة مسببة للموت).

وقد أعاد أسبوع المعجزات طبيب إنجليزي بسيط هو إدوارد جنر كان مدمناً على الصيد (القنص) وعلم النبات وقرض الشعر، وعزف الفلوت والضرب على الكمان (العثوليين)، بنشر التطعيم ضد هذا المرض طوال عقد من الزمان منهيًا بذلك موقف المجتمع البريطاني المتحفظ ضد كل ما هو جديد. لقد كانت الوقاية من مرض الجدري عن طريق التطعيم بفيروس المرض بعد إضعافه طريقة يمارسها الصينيون القدماء ووجدت الليدي ماري وورتلّي مونتاجو Mary Wortley Montagu هذه الطريقة معتادة في القسطنطينية (إسطنبول أو استانبول) في سنة 1717 وقد أوصت عند عودتها إلى إنجلترا باستخدام هذه الطريقة. وقد جرب نظام التطعيم هذا على المجرمين ومن ثم على الأيتام وحقق نجاحاً ملحوظاً. وفي سنة 1761 قرر الدكتور روبرت ستون sutton والدكتور دانيال ستون أنه من بين ثلاثين ألف حالة طعمت ضد الجدري لم يصب بهذا المرض سوى 0021 (ألف ومائتي حالة). أي يمكن أن تكون هناك طريقة أفضل لمنع الجدري؟

لقد اهتدى جنر إلى طريقة أفضل عندما لاحظ أن كثيرات من العاملات في حلب ما شية اللبن في بلده جلوسسترشير Gloucestershire يصابون بجدري البقر من خلال ملامستهم لحلمات الأبقار المصابة وبالتالي يصبحون ذوات مناعة ضد مرض الجدري (الذي يصيب البشر)، وتراءى له أنه يمكن تكوين مناعة شبيهة باستخدام طعم (لقاح) (الكلمة الإنجليزية Vaccine من الكلمة اللاتينية Vacca وتعني بقرة) من فيروس جدري البقر الذي يمكن الحصول عليه من الأبقار المصابة. وفي بحث نشر في سنة 1797 ذكر جنر الإجراءات المغاير لما هو متبع والذي وضع به أسس الطب التجريبي وعلم الطب الوقائي (علم المناعة):

.. لقد تخبرت صبيًا صحيحًا في نحو الثامنة من عمره بغرض تجريب تطعيمه بجدري البقر، وتم الحصول على القيح من قرحة من يد إحدى العاملات في حلب ألبان البقر وحقن الصبي بهذا القيح في 41 مايو سنة 1797 في ذراعه ... وفي اليوم السابع اشتكى متوعكاً ... وفي اليوم التاسع أصبح يرتعد وفقد شهيته وأصيب بصداع خفيف ... وفي اليوم التالي كان في حالة جيدة تماماً...

وكي أتأكد مما إذا كان الصبي بعد تعريضه لإصابة خفيفة من فيروس جدري البقر، أصبح أمناً (اكتسب مناعة) ضد الجدري (الذي يصيب البشر)، فقد تم حقنه في أول يوليو التالي بقيح الجدري الذي يصيب البشر Variolous matter (الكلمة اللاتينية Variola تعني الجدري Smallpox) ثم أخذها مباشرة من بثرة مصاب بالجدري ... فلم تظهر على الصبي أعراض الجدري وبعد عدة أشهر تم حقنه مرة أخرى بقيح الجدري الذي يصيب البشر لكن لم يظهر على بدنه أي عرض من أعراض الجدري (9) واستمر جنر Jenner يصف حالات أخرى بلغت اثنتين وعشرين حالة اتخذ معها الإجراءات نفسه فكانت النتائج مرضية تماماً. وقد تعرض لاتهامات بإجراء التجارب على الأحياء وبدا للذين اتهموه وكأنه يقوم بتشريح الأحياء وحاول الاستفادة من الأقلية الموافقة ببناء بيت صغير له، وإنشاء حديقة زهور يزرعها بيديه (10) وفي عامي 1781 و 1781 وافق البرلمان على منح جنر 300,000 جنيه إسترليني لتحسين طرائقه لمقاومة الجدري ونشرها. وكاد الجدري يختفي من أوروبا وأمريكا خلال القرن التاسع عشر، وإذا حدث وأصيب به شخص فإن هذا الشخص يكون غير مطعم (لم يتلق التطعيم ضد المرض). وتم تطبيق نظام التطعيمات الوقائية ضد أمراض أخرى وأسهم علم المناعة الجديد بالإضافة للوسائل الجديدة التي أحرزها الطب وبالإضافة لتحسن الظروف الصحية والبيئية العامة في تحسين الأحوال الصحية في المجتمعات الحديثة التي نهشها الفقر وترعرع فيها الجهل وازداد فيها الجشع وثابر فيها المرض بأساليب شتى.

لم يكن للعلم في بريطانيا في الفترة من 1871 إلى 1815 سوى تأثير ضئيل في الفلسفة. أعني أن العلوم الطبيعية Physical يمكن أن تتوافق مع اللاهوت (النيولوجيا) الليبرالي (المتحرر) بل وحتى فكرة التطور يمكن. مواامتها مع تفسير الخلق في ستة أيام باعتبار كل يوم يمثل فترة من فترات التطور تتسم بالطول. لقد أصبح أفراد الطبقات العليا الآن بعد أن أنهت الثورة الفرنسية تعاطفهم مع فولتير والموسوعيين Encyclopedists، لايتقون في الأفكار (الجديدة) باعتبارها أمراضاً معدية تصيب الشباب. لقد اعتبروا العبادة الأسبوعية استثماراً حكيماً يؤدي إلى الانضباط الاجتماعي والاستقرار السياسي واشتكوا لأن رئيس الوزراء بت Pitt لا يجد وقتاً للذهاب إلى الكنيسة وكان هناك بعض الأساقفة الذين تشككوا في أمور الدين فيما بينهم وبين أنفسهم لكنهم عرفوا بين العامة بنقواهم ومع هذا استمر الصراع القديم. وفي عام 1847 ظهر صوتان معبران عن الفكرتين المتناقضتين: توماس بين Paine في كتابه عصر العقل The Age of Reason ووليم بيلي Paley في كتابه نظرة في البراهين على المسيحية Aview of the Evidences of Christianity

صفحة رقم : 14639

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الفنون في إنجلترا -> الفنانون

الفصل السابع عشر

الفنون في إنجلترا

1- الفنانون

كانت كلمة (فن) تُطلق في العصور الوسطى (أيام نظام الطوائف التجارية والصناعية) على أية حرفة، كما كانت كلمة (فنان) تطلق على أي حرفي وقد تغير معنى الكلمتين في القرن الثامن عشر لأن الحرف ونظام الطوائف الحرفية قد حل محلها صناعات وعمال صناعة، لقد أصبحت كلمة (فن) تطلق على الموسيقى والديكور وأعمال السيراميك (الخزف) والرسم والحفر والتصوير والنحت والعمارة، وأصبحت كلمة فنان تطلق على كل من يمارس واحداً أو أكثر من هذه الأعمال. وقد تغير أيضاً معنى كلمة العبقرية أو النبوغ genius، فقد كانت تعني شيئاً من التميُّز الفطري، أو روحاً متفوقة بشكل غير طبيعي، أما الآن فقد أصبحت بشكل متزايد تشير إلى القدرة الوطنية الفائقة أو المتعالية (والمُتَّسمة بشيء من الغموض بمعنى أن أسبابها غير واضحة تماماً) أو يوصف بها مالكو هذه المقدره. إنها كالمعجزة

أو لنقل هبة من الله أو هي فعل من أفعاله. لقد أصبحت هذه الكلمة (العبقرية) أو (النبوغ) بديلاً مناسباً لوصف (شخص) أو (حدث) متفرد أو غير عادي

لقد أدّى الانتقال إلى الصناعة (الحديثة) والتجارة وحياء المدن إلى مزيد من التدهور فيما يتعلق برعاية الأرستقراطية للفن. وعلى أية حال لا بد لنا أن نذكر رعاية الأثرياء للشاعر وردزورث والشاعر كولردج، وأن لورد إجر يمونت فتح بيته المحاط بمزرعة، في بتورث Petworth للرسم تيرنر Turner ليلجأ إليه هروبا من ضوضاء لندن. وكان جورج الثالث قد عاون في تأسيس أكاديمية الفنون الملكية (8671) بخمسة آلاف جنيه ومقار (جمع مقر) أنيقة في دار سوميرست. ولم يكن أعضاؤها الأربعون ليصبحوا خالدين بمجرد عضويتهم بها كنظرائهم الفرنسيين وإنما كان الواحد منهم يرقى إلى مرتبة النبالة (الأرستقراطية) بحصوله على لقب اسكوير (معناها الحرفي حامل الدرع Squire أو المبجل المحترم) ورغم أن هذا اللقب لم يكن يرثه أبناؤهم، فقد ساعد على تحسين الوضع الاجتماعي للفنانين الكبار في بريطانيا ونظمت الأكاديمية فصولا لتعليم التشريح والرسم والتصوير والنحت والعمارة ومن الطبيعي أن تصبح قلعة للتراث والتقاليد والوقار مادام يدعمها عرش محافظ. وقد عارضها الفنانون المجددون الذين كثر عددهم وحازوا الإعجاب حتى إن بعض النبلاء والماليين مولوهم لتأسيس المعهد البريطاني لتطوير الفنون الجميلة الذي أقام معارض دورية وحصل على جوائز وأصبح منافسا - بشكل حيوي - للأكاديمية الملكية. وأدت هذه المنافسة إلى ظهور أعمال ممتازة في مختلف مجالات الفنون في بريطانيا.

عفا، لقد كانت الموسيقى مستثناءً من هذا، ففي هذه الفترة لم تظهر أعمال موسيقية خالدة. وكان الإنجليز على وعي شديد بهذا النقص، وتجلّى هذا في تقديرهم الوافر للمؤلفين الموسيقيين الذين كانوا يأتون إليهم من القارة الأوروبية. لقد احتقوا بهيدن Haudn احتقاً حاراً في سنة 0971 وفي سنة 4971. وتم تأسيس الجمعية الملكية لعشاق الموسيقى في سنة 3181 وظلت باقية بعد الثورة الصناعية، والثورة الفرنسية، وبعد النابوليونيين، وبعد قيام حربين عالميتين، ولا زالت موجودة كعنصر دوام واستمرار في فيض غير منقطع. وانتعشت الفنون الصغرى دون أن يكون لها خصائص خاصة. لقد واصل الإنجليز إنتاجهم للأثاث الأنيق - رغم صرامته، وأشغال المعادن المتسمة بالقوة والجمال وأعمال السيرميك (الخزف) البديعة تماماً. وقد طوع بنيامين سميث Smith الحديد فشكل منه شمعدانا ذا شعب لتقدمه مدينة لندن لدوق ولنجتون (1). أما جون فلاكسمان فبالإضافة إلى قيامه بتصميمات كلاسيّة لمصنع ودجود Wedgwood للفخار فإنه صمّم كأس الطرف الأعز الشهير لتخليد ذكرى انتصار نلسون (2)، وكان نحاتاً ومعماريًا في أن عندما أقام النصب التذكري لنلسون في كنيسة القديس بول.

وعلى أية حال فإن فن النحت أوشك أن يكون من الفنون الصغرى في إنجلترا، وربما كان هذا لأن فن النحت بفضل العري غير الملائم للمناخ أو للأخلاق السائدة. وفي سنة 1081 - بينما كان توماس بروس إيرل إلجن Elgin السابع، مبعوثاً لبريطانيا لدى الباب العالي (الدولة العثمانية) طلب من السلطات التركية (العثمانية) في أثينا السماح له بأن ينقل من الأكروبولس أية أحجار عليها نقوش قديمة أو رسوم، وقد وجّه طلبه هذا باعتباره لورداً، وبالفعل نقل اللورد الإفريز الضخم للبارثيون (معبداً إغريقي) وكثيراً من التماثيل النصفية في سفينة إثر سفينة إلى إنجلترا في الفترة من 3081 إلى 2181. وقد وصفه بايرون وآخرون - احتجاجاً على هذا العمل - بأنه وندالي سلاب، لكن لجنة برلمانية برأته، وبيعت رخامات إلجن بمبلغ 000،53 جنيه إسترليني دفعها الشعب البريطاني وتم إيداعها في المتحف البريطاني والمبلغ الذي دفعته الحكومة للورد إلجن كان أقل بكثير مما دفعه هو للحصول عليها (3).

لقد أسهمت هذه الرخامات (المقصود الأعمال النحتية التي جلبها من اليونان اللورد إجن والآنف ذكرها) في دعم الاتجاه الكلاسي، في مواجهة الاتجاه القوطي، وأنهى الصراع بينهما لصالح الاتجاه الأول في مضممار الأساليب المعمارية. لقد أدت آلاف الأعمدة

- من الطراز الاغريقي: الدوري Doric أو الأيوني Ionic أو الكورنثي - إلى تحدي جهود الهواة مثل والبول Walpole وبكفورد Beckford لإعادة الأقواس المستدقة (التي انتهت من الجانبين بنقطة واحدة Poited arches) والشرفات أو الأسوار المفرجة (ذات الفرج أسوة بأسوار قلاع العصور الوسطى حيث كانت هذه الفرج تستخدم لإطلاق السهام وغيرها على العدو). تلك الشرفات والفرج التي كانت عزيزة على فرسان العصور الوسطى وقديسيها. وحتى في المباني المدنية (غير الدينية) ربحت الأعمدة الجولة، فدار سومرست للسير وليم شاميرز (5771وما بعدها) كانت مثل باراثون واسع، وكان الكثير من بيوت الريف يبدو كالأروقة الإغريقية المعمدة (ذات الأعمدة) التي تحيط بقصر روماني، ولندع قصر حديقة أشردج Ashridge Parkmansian لجيمس ويات (Wyatt 6081- 3181) يعطينا مثالا راسخا على هذا النوع. وفي سنة 2971 بدأ من سيعرف باسم السير جون سون Soane وهو ابن أحد البنائين بالأجر - بدأ في إعادة بناء بنك إنجلترا خلف رواق كورنثي (على النسق الإغريقي الكورنثي) مازجا بين قوس قسطنطين ومعبد الشمس أو القمر. وبدأت المنافسة القوطية. بمبني هوراس ولبول Horace Wapole لستروبري هل (Strawberry Hill 8471- 3771) ولم تستطع (أي هذه المنافسة القوطية) أن تصمد في وجه طوفان الأعمدة والقباب والقواصر (جمع قوصرة وهي مثلث في أعلى واجهة المبنى). وكان وليم بكفورد W. Beckford هو البطل الرومانسي لهذه النشوة الوسيطة (نشوة العصور الوسطى) لقد ولد ثريا، فقد شغل أبوه منصب رئيس بلدية لندن لمرتين وتلقى تعليما مكثفا؛ تلقى دراسات في البيانو من الشاب موزارت وتدريبات معمارية على يد سير وليم شاميرز ومدرس التاريخ من خلال جولات واسعة زار خلالها المتاحف والمواقع الأثرية. وفي لوزان اشترى مكتبة إدوارد جيبون Gibbon، وبعد إشاعات جنسية مخزية تزوج الليدي مارجرت جوردون التي ماتت في أثناء الولادة. وفي هذه الأثناء كتب رواية (فاتك Vathek) التي تعد أقوى الروايات التي استوحيت أحداثها من أساطير الشرق، والتي كان لها فضل كبير على الحركة الرومانسية وقد نشرت بالإنجليزية والفرنسية (6871 - 7871) وأنتى عليها اللورد بايرون ثناء عاطرا. وبدأ في سنة 6971 بمعاونة ويات Wyatt وبكفورد في تشييد مبنى على الطراز القوطي (على شكل كنيسة) في مزرعته في ولشير Wilshire، وملاءه بالقطع الفنية والكتب وعاش فيها حياة النساك في الفترة من 7081 إلى 2281 ثم باعها، وتبين أن بالمبنى عيوباً في الأساسات والتصميم أدى إلى انهياره. ومات في باث Bath في سنة 4481 وهو في الخامسة والثمانين من عمره. وقد رسم له جون هوبنر Hoppner صورة شخصية أظهر فيها حبه له (رسمها حوالي سنة 0081). والصورة تنطق بروحه الشاعر وإنسانيته وتأمله الباطني.

وقد أضاف جون ناش Nash إلى العمارة البريطانية المتجهمة لمسة من مرح الروكوكو (لمسة من الزخارف ذات الطابع المرح) وأتى ول Well وأعقبه همفري ربتون Repton ليقوم بدور بستاني فصم القصور والمباني الواقعة في المزارع الريفية واضعاً في اعتباره توزيع الأكواخ والعرائش والزرائب على الطراز الفرنسي والهندي والصيني. وقد أمتعت هذه التصميمات النبلاء الذين كانوا قد برموا بحياتهم، وأفراد الطبقة العليا. وأصبح ناش Nash ثريا ورعاه الأمير السخي. وفي سنة 1181 عهد إليه إعادة تشييد ميل من شارع الوصي على العرش (ريجنت ستريت Regent st. بدءاً من دار كارلتون ثم في قوس كبير (شامل) إلى المناطق الريفية. ونوع ناش في خطوط مشروعه مستخدماً الأهلة والشرفات جاعلاً مساحات مكشوفة من الحشائش والأشجار بين مجموعات المباني واستخدم الأعمدة ذوات الطرز الأيونية لاضفاء البهجة على قوس الطريق (في وقت لاحق تم تدمير معظم هذا العمل للسماح بمزيد من المباني على حساب الحشائش والأشجار)، لقد كان مشروعا عبقريا في تخطيط المدن لكن تكاليفه صدمت الشعب الذي كان صابراً على الجوع أملاً في إلحاق الهزيمة بنابليون.

ومع هذا فإن الوصي على العرش كان مبهتجاً بعمل ناش فعهد إليه بتجديد الجناح الملكي في برينتون Brighton الذي كان مكاناً أثيراً للأمير وأصدقائه، فأنجز ناش العمل فيما بين عامي 5181 و 3281 بتكلفة بلغت 000,061 جنيه إسترليني لقد أعاد بناء الجناح على الطراز الهندي الإسلامي بمآذن ذات اليمين وأخرى ذات الشمال. ومبان أخرى ذوات قباب وكانت صالة المآدب ذات سقف محدب وزخارف صينية، وبها تزيات على هيئة اللوتس والتين، وتكلفت هذه الصالة 092,4 جنيه إسترليني(4). وكان الانطباع الأول الذي يأخذه المرء عند رؤيتها هو الفخافة الغربية، وكان الحكم النهائي عليها أنها عمل مسرف سواء في النفقات أم في الزينات والزخارف .

وفي سنة 0281 أصبح الوصي على العرش ملكاً. إنه جورج الرابع. وسرعان ما عهد هذا الملك الجديد إلى ناش إعادة بناء دار بكنجهام لتكون قصراً ملكياً. ووسط هذا الفقر والافتقار من الإفلاس الذي أعقب الانتصار على نابليون، راح ناش يعمل حتى مات الملك المبتدّر (0381) فاستدعت الحكومة ناش ذلك المعماري الوافر الإنتاج ليوضح لها ما صرفه ويفسّر بعض الأخطاء التي نسبت إليه. قلما كانت إنجلترا في مثل هذا السناء العظيم أو البؤس الشديد.

صفحة رقم : 14641

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الفنون في إنجلترا -> من الكارتون إلى كونستابل

3- من الكارتون إلى كونستابل

كان على آلاف الفنانين البريطانيين - طوال عشرين عاما من الحروب - أن يكافحوا لإطعام أسرهم وتحقيق أحلامهم. ولم يكن أسوأهم حالا من حيث العائد المالي والشهرة رسامو الكاريكاتير الذين ملأوا الصحف برسومهم عن الأحداث الجارية. وكان نابليون هو الموضوع الأثير لدى هؤلاء العباقرة الشياطين. فقد راحوا يهجون كل يوم هذا الضئيل الحجم نائى العظام أو هذا الخلاسي المولّد كما كانت تسميه صحيفة المورننج بوست (5) Marnig Post ويخزونه لإضعاف جهوده الحربية والحط من كبريائه كإمبراطور. وكان أعظم هؤلاء الرسامين الكاريكاتيريين الذين ظلوا يخزون نابليون وخزا مؤلما هو توماس رولاندسون (6571 - 7281) الذي ولد لأب تاجر غني مولع بالمضاربة شجعه تشجيعا كبيرا لتنمية مواهبه في الرسم، وبعد أن درس في الأكاديمية الملكية قيد نفسه في أكاديمية باريس وعاد إلى إنجلترا فحازت رسومه الإعجاب، وفجأة اعتراه الفقر بسبب خسائر أبيه في القمار، وأقيل من عثرته عندما أرسلت له إحدى قريباته (aunt) الفرنسيات 53،000 جنيه إسترليني. وكان متحررا في هجاء ما في عصره من سخافات ورياء. لقد رسم كاريكاتيرات عن دوقة تقبل يد جزار طمعا في صوته الانتخابي، وشخصا سميئا يتلقى خنزيرا كضريبة عشر من فلاح على وشك الموت جوعا، ومجموعة من ضباط البحرية تصطاد البغايا من الشاطئ. وواصل رسم صور مركبة وشاملة: حدائق فوكسهول، مباحث باث Bath، وسلسلة رسوم مرحة صاخبة حققت شهرة على مستوى بريطانيا - رحلات الدكتور سينتاكس Syntax. وأدى غضبه من السياسيين والمهرجين (الصخابين) والأغبياء إلى رسم رسوم كاريكاتيرية فيها مبالغة شديدة، لكنها كانت مبالغة يمكن غفرانها. وكثير من رسومه تحتاج إلى تنقيتها مما فيها من بذاءات، وقد فقد هجائه (البحث عن المثالب) كل تعاطف. وإنجازته الفني الأخير ينضح احتقارا للجنس البشري كما لو أن البشرية لم تشهد أما عطوفا ولا رجلا كريما. وكانت رسوم جيمس جيلراي (7571 Gillray - 5181) الكاريكاتيرية أكثر شعبية، فكان الناس يتزاحمون على محلات بيع الكتب للحصول على الطبقات الأولى لرسومه (6). وقد درس جيمس جيلراي - مثل رولاندسون - في الأكاديمية الملكية وأصبح فنانا مصقولا خصب الخيال وإن كانت خطوطه صارمة. وكاد يضع كل فنه في خدمة الحرب: لقد صور نابليون كقزم وصور جوزفين كامرأة بذيئة، ورسم فوكس وشريديان وهورن توك Tooke (مؤيدي الثورة الفرنسية) ينتظرون في نادي لندن حضور الجنرال الثوري المنتصر. وقد انتشرت رسومه الهجائية ذات الأفكار البسيطة والخطوط المصقولة في مختلف أنحاء أوربا وأسهمت في خلع نابليون من فوق عرشه (7). وقد مات قبل معركة واترلو بسبعة عشر يوما. وشهد هذا الجيل كثيرا من الحفارين (النقاشين على الأخشاب أو المعادن) لكن أعمال وليم بليك Blake كانت هي الأكثر خلودا. لقد طور لنفسه طريقة خاصة في الحفر، بل إنه حاول أن يحل الحفر محل الطباعة، بحفر نصوص إلى

جوارها رسوماها التوضيحية على ألواح نحاسية، لكن قلمه سبق حفره، إذ راح يعبر عن نفسه في خاتمة المطاف بالشعر. وكان متمردا لأنه امتعض من فقره ويرجع هذا إلى كون الأكاديمية رفضت الاعتراف بالحفارين كفنانيين ورفضت أن يقدموا أعمالهم في معارضها. ولأنه كان يرفض بشدة وصاياها بضرورة الالتزام بقواعد معينة وبالتقاليد الفنية التي فرضتها. لقد صرح في نحو سنة 1808 بأن القضية في إنجلترا ليست مسألة رجل موهوب وبعقري، وإنما لا بد أن يكون خاضعا مشتغلا بالسياسة وثورا قويا، ومطيعا لأوامر النبلاء فيما ينتجه من فن، فإن كان كذلك فهو رجل طيب، والإفعلية أن يموت جوعاً (8). وكان بالفعل قد اقترب من الموت جوعاً في أوقات عدة لأنه لم يكن يتلقى سوى أجر زهيد لرسوم وأعمال حفر قدر ثمنها في لندن في سنة 8191 بمبلغ 000,011 دولار (9)، ومكنته أعمال الحفر على المعادن التي قام بها لسفر أيوب والتي بلغت 22 لوحة، من العيش بما مقداره جنيهان في الأسبوع في الفترة من 3281 إلى 5281، وقد بيعت هذه اللوحات في سنة 7091 إلى ج. بيربونت مورجان Pierpont Morgan. J بمبلغ 006,5 جنيه إسترليني وهذه اللوحات التي حفرها لسفر أيوب من بين أجمل أعمال الحفر في التاريخ. وكان بليك Blake في موقف عوان بين البيوريتانية (النظيرية - مذهب ديني مسيحي متشدد - وإنكار المسيحية)، كما كان في موقف عوان بين الكلاسيكية والرومانسية، وكان مفتونا بمجموعة تماثيل ميشيل أنجلو (ميكيل أنجلو) والرسوم التي رسمها على سقف الكنيسة وأحس أيضاً ببهاء الجسم الإنساني السليم ورمز له بتجسيد بارز (1871) في عمل جعل عنوانه يوم سعيد بشاب يرتدي ملابس شفافة يعرف الحيوية المنضبطة، ولم يكن للجنس (العلاقة بين الرجل والمرأة سوى مكان متواضع في أعماله) فقد كانت زوجته مطيعة متعاونة محبة فجعلت الإخلاص لها ممكناً، وكانت خطوطه في البداية كلاسيكية صارمة يجعل الخط أهم من اللون والشكل أهم من الصورة الذهبية، لكنه كان كلما تقدمت به السنون وازداد حبه للعهد القديم (الجزء الأول من الكتاب المقدس عند المسيحيين)، ترك قلمه يجول في شخوص خيالية يغمرها بالملابس الكاسية، ووجوه تعبر عن أغاز الحياة وغموضها (10).

وفي أحواله الأخيرة حفر سبع لوحات لطبعة من طبعت دانتى وحفر وهو على فراش الموت (7281) لوحة أخرى للرب يخلق العالم في قديم الزمان. ومن خلال خياله الراقي وتصويراته لما فوق الطبيعة، وكذلك من خلال دقة خطوطه وبراعتها، أصبح - طوال جيل بعد موته - السلف المعين لمدرسة ما قبل الراقية. وسنلتقي به مرة أخرى في هذه الصفحات.

لقد كان السؤال الحيوي بين الرسامين (وهو سؤال ينطوي أحياناً على طلب الخبز والزبد) هو: إلى أي مدى هم متوافقون مع نصيحة الأكاديمية وذوقها؟ لقد كان بعض أساتذة هذه الأكاديمية يوافقون موافقة تنطوي على التشجيع على الموضوعات التاريخية باعتبارها تذكر بالشخصيات المشهورة في الأحداث الخالدة. وكان أساتذة آخرون يمتدحون رسم الشخصيات باعتباره فناً يسير أغوار الشخصية، وباعتباره فناً يسعد المشاهير الراغبين في تخليد أنفسهم في صور زينية. وكان عدد قليل جداً من أساتذة الأكاديمية يهتم بالرسوم التي تصور مشاهد من الحياة اليومية لأنها تبدو عامية، أو بتعبير آخر فيها ربح العامة. وكانت رسوم المناظر الريفية تحظى بأدنى موافقة. لقد كان على كونسابل أن يظل يعمل فاقد الأمل في رسم لوحات فن الريف وهو خامل الذكر، ولم تمنحه الأكاديمية عضويتها الكاملة إلا وهو في الثالثة والخمسين.

وفي سنة 2971 مات السير جوشوا رينولدز Joshua Reynolds فاختارت الأكاديمية رئيساً لها أمريكياً مقيماً في إنجلترا إقامة دائمة. إنه بنيامين وست West الذي ولد في سبرنجفيلد في بنسلفانيا من سنة 8371. وقد أظهر في شبابه موهبة فنية عظيمة حتى إن جيرانه الكرماء أرسلوه للدراسة في فيلا دلفيا وبعد ذلك إلى إيطاليا. وبعد أن تشرب التراث الكلاسيكي هناك في الصالات الفنية والمتاحف والمواقع الأثرية انتقل إلى لندن (3671) حيث رسم بعض الصور الشخصية التي جلبت له الأموال، وأعجبت جورج الثالث، فتقدم بعدها لتناول الموضوعات التاريخية. لقد صدمت الأكاديمية بلوحته (موت ولف Wolfe) الذي انتزع كندا من مونتالم Montcalm وفرنسا - صدمت لأنه صور شخوصاً معاصرة بملابس حديثة، لكن كبار السن ذكروا أن نصف قارة أوروبا تتحنن احتراماً للسر اويل (البنطلونات).

وثمة أمريكي آخر هو جون سنجلتون كوبلي Copley ولد بالقرب من بوسطن في سنة 8371 حقق شهرة برسمه جون هانوك، وصامويل آدمز وأسرته كوبلي. وفي سنة 5771 انتقل إلى لندن وسرعان ما وصل إلى لذوة بلوحته (موت شاثام) (9771). وليهرب من مثالية الكلاسيكية الجديدة في رسم الشخوص التاريخية رسم المشهد الواقعية شجاعة، أحدثت - رغم أنها أزعجت الأكاديمية - ثورة في فن الرسم الإنجليزي.

واستمر التعليم في الأكاديمية على أكتاف جوهان هينريتش فوسلي Fussli (من زيورخ) الذي أصبح اسمه في سنة 4671 هنري فوسيلي اللندني (من لندن) وكان وقتها في الثالثة والعشرين من عمره. وبشجيع من رينولدز غادر إنجلترا في سنة 0771 ليدرس لمدة ثماني سنوات في إيطاليا. وكان نزوعه إلى التحليق الخيالي ذي الطابع الهرطقي غير متفق تماماً مع النماذج والأساليب الكلاسيكية، وعندما عاد إلى لندن أيقظ الجمال النائم بلوحته الكابوس (1871)

التي صور فيها امرأة جميلة تحلم باقتراب عفريت مرعب منها. (ارتبطت هذه اللوحة بدراسة لسيجموند فرويد)، ورغم اتجاهه الساحر أصبح (فوسيلي) أستاذا في الأكاديمية ويسرت محاضراته فيها الانتقال من الرومانسية إلى ما قبل الرافئيلية (اتجاه فني إنجليزي ذو طابع صوفي).

وقد وضحت أحوال جون هوبنر (8571Hoppner - 0181) وجون كروم (8671Crome - 1281) صعوبة حصول الفنانين على مايمكنهم من العيش برسم الطبيعة، فـهوبنر عانى شظف العيش كعاشق للمناظر الطبيعية لكن أحواله انتعشت كرسام للصور الشخصية، وكاد ينافس لورنس في زبائنه وأجره. لقد جلس نلسون أمامه وكذلك فعل ولنجتون و والترسكوت وعدد من اللوردات. وقصرُ القديس جيمس غني بلوحات هوبنر، وظل كروم Crome في مسقط رأسه نورثس Norwich طوال ثلاثة وخمسين عاما هي كل عمره، ودرس صور هوبنر Hobbema وغيره من الرسامين الهولنديين الكبار وتعلم أن يجعل المشاهد البسيطة المألوفة في حياة العامة ساغمة، ولأنه كان ملازما لبلدته لا يكاد يفارقها فقد بحث عن موضوعات للوحاته في المناطق الريفية المحيطة بنوروثس Norwich. لقد وجد هناك منظرا سجله في إحدى أجمل لوحاته (مرج موسهولد). لقد كانت هذه اللوحة ذروة فنية بالإضافة لما تنطوي عليه من معادن فلسفية ليس هناك ما هو أرقى منها.

أما السير توماس لورنس (9671 - 0381) فاتخذ طريق رسم الصور الشخصية (البورتريهات) وهو طريق معترف به ولا يحتاج إلى مقاومة. وكان السير توماس ابنا لصاحب فندق، ولم يتلق قدرا كبيرا من التعليم ولم يتلق إلا قدرا قليلا من التدريب الفني. وكان لابد أن تحار الأكاديمية عندما لاحظ أساتذتها أنه نجح في الالتزام بما يريدهون. لقد كان لديه حاسة التقاط الشبه بسرعة، وبسرعة كان يرسمه - في صباحه في بريستول كان يرسمه بقلمه الرصاص، وفي شبابه في باث Bath كان يرسمه بالألوان البستل Pastel ولم يستخدم الألوان الزيتية إلا عندما انتقل إلى لندن (6871) وربما كانت جاذبيته وروحه المرحة هما اللذين فتحا له القلوب والأبواب. وقد كلف وهو لم يتجاوز العشرين بالذهاب إلى وندسور لرسم صورة شخصية للأميرة شارلوت سوفي Charlotte Sophia. وتصرف بدبلوماسية شديدة انطبعت على لوحته (ذلك لأن الأميرة لم تكن جميلة) وأدت به دبلوماسيته هذه إلى أن انتخب عضوا مشاركا في الأكاديمية وهو في الثانية والعشرين، ومنح العضوية الكاملة فيها وهو في الخامسة والعشرين. وتتنافس ذوو الحثيات على الجلوس أمامه لرسمهم، ورفض نصيحة كرومويل Cromwell برسم البقع والبثور والتجاعيد كما يرسم الخال والغمازة (المقصود أن يرسم مظاهر القبح ومظاهر الجمال فيمن يرسمهم) ورفض لورنس الأخذ بهذه النصيحة فليس في البثور ذهب (المقصود أن ذلك قد لايرضي من يرسمه فلا يدفع له مالا كثيرا). لقد كان يحسن من ملامح من يرسمه، ولم يكن المرسوم ليعترض على ذلك. فإذا كانت المرأة أو الفتاة التي يصورها يعوزها الجمال، عمد إلى رسمها بملابس رقيقة شفافة جميلة، ورسم يديها جميلتين دقيقتين، وجعل عينيها فانتيتين، وجعلها في وضع (بوز Pose) درامي (مثير). وتعد لوحته (بورتريهه) للوصي على العرش التي أظهره فيها وسيما جميلا نموذجا نمطيا للوحاته. وقد رسم هذه اللوحة الأنف ذكرها في سنة 5181. وفي بعض الأحيان كان يضيف شيئا من الغرابة الباعثة على السعادة في صورته كما في صورته (Pinkie) في جلري (رواق) هنتجتون Huntington Gallery، لكن لوحاته التي رسم فيها الرجال كانت تقتقد الطبيعة القوية التي نجدها في رسوم رينولدز Reynolds. لقد كسب لورنس الكثير وأنفق الكثير وأصبح محبوب عصره. وعندما مات حفه موكب جنازي فخم إلى مثواه الأخير في كنيسة القديس بول. وأصر جون كونستابل (6771 - 7381) على رسم المناظر الطبيعية، ولم يتزوج حتى الأربعين. وكان والده هو طحان Sussex سوسكس، وقد قدم الدعم المالي لابنه لدراسة الفن في لندن لمدة عامين عندما لمس مواهبه، لكن تطور جون كان بطيئا، فعاد في سنة 7971 إلى سوسكس ليعمل في طاحونة أبيه، وظل يواصل الرسم في أوقات فراغه، وأرسل بعض أعماله إلى الأكاديمية فأتاحت له فرصة الالتحاق بمدرستها، فعاد إلى لندن في سنة 9971 بموافقة أبيه بتشجيع من بنيامين ويست West، ورسم له ريتشارد ريناجل Reinagle - وهو فنان زميل له - صورة شخصية في العام نفسه.

وربما قرأ أشعار وردزورث عن المناظر حول بحيرة وندرمير، لأنه كان يرى الله في كل ورقة شجر. وفي سنة 6081 قام برحلة في أنحاء منطقة (دائرة) البحيرة فدرس الجبال يحتضنها الهضاب، والحقول تهطل عليها الأمطار الهادئة، وعاد إلى لندن وقد قوي عزمه على وقف فنه للطبيعة.

لقد قال عن لوحته التي عالج فيها الطبيعة أنه يأمل أن يخلد لحظة قصيرة أمسك بها من زمن سريع الزوال ليجعل لها وجودا دائما (11) وفي هذه الأثناء كان يتلقى تكليفات عرضية مكنته من تدبير أمر طعامه وسكنه. وأخيرا في سنة 1181 رسم لوحته العظيمة التي حازت الإعجاب - وادي ددهام Dedham Vale وهي بانوراما (مشهد عام) لإسكس Essex في شمس منتصف النهار.

وفي ذلك العام فيما يبدو وقع في حب ماريابكل Maria Bickell التي رحبت باهتمامها بها لكن أباه منعها كي لاتتحط بقبول شخص ذي دخل منقط مثل كونستابل، ولم تكن تنقضي خمس سنوات حتى مات والده فأورثه دخلا ثابتا فعاد

التقدم لطلب ماريا فوافق أبوها فانطلق كونستابل بعروسه واحتفى بها برسم صورة (بورتريه) لها لا زالت تزين حدار تيت جلري (رواق تيت Tate Gallery) وبعد ذلك راح يرسم أجمل لوحات المناظر الطبيعية، التي لم تكن إنجلترا قد شهدت مثيلا لجمالها قبله. لم تكن لوحاته مثيرة مدهشة كلوحات تيرنر Turner لكنها كانت تحتفي بأدق التفاصيل حتى ورقة الشجرة كما كانت تركز على الهدوء والسلام والثروة الخضراء في الريف الانجليزي. وفي هذه الفترة السعيدة قدم للأكاديمية (طاحونة فلا تفورد) (7181Flatford Mill) والحصان الأبيض (9181) والهاي وين Hay (1281Wain) وكاتدرائية سالسبوري (3281) وحقول القمح (6281) وكانت كل لوحة من هذه اللوحات حدثا فنيا وحازت الإعجاب وكثيرا من الإطراء.

وفي سنة 4281 قدم الهاي وين (اسم لعربة تجرها الخيول) لتعرض في صالون باريس، وفي 5281 عرض (الحصان الأبيض) في ليل Lille وفازت كلتا اللوحتين بالميدالية الذهبية واحتفى الفرنسيون بكونستابل كأستاذ في فنه. وأحست أكاديمية لندن بتقصيرها في حقه فمنحته أخيرا عضويتها الكاملة (9281). لقد أتى التكريم متأخرا فلم يكن له عنده معنى كبير، لأن زوجته ماتت في هذا العام نفسه بالسل الذي تقاوم ربما بسبب تلوث جو لندن بالسخام. وواصل كونستابل رسم المناظر مثل (مزرعة الوادي) و (جسر واترلو) لكن تكاد تكون كل أعماله الأخيرة تعكس ما يتحمله من أحزان، إذ ظل يلبس ملابس الحداد حتى موته المفاجئ.

صفحة رقم : 14642

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الفنون في إنجلترا -> تيرنر

4- تيرنر

1581 - 5771

كان جوزيف وليم تيرنر معتزاً بنفسه وباسمه ولم يسمح أبداً لنقد معاد أوجب عنيف محطم بتعويق مسيرته نحو التفوق المطلق في مجاله. ولد في 32 أبريل سنة 5771، وربما شارك شكسبير في يوم الميلاد وكذلك الشهر. وكان أبوه صاحب محل حلقة في ميدن لين Maiden Lane خلف الكوفنت جاردن Covent Garden، وهو مكان لا يكاد يكون ملائماً لفنان المناظر (الطبيعة)، فعلى وفق لكاتب سيرة ذاتية متقدم زما (21) كانت ميدن لين منطقة كنيية مسواة بالطين، مزدحمة تعج بصيحات البائعين. وكان بالقرب من محل الحلقة خان يغني المترددون عليه بأصوات منكرة. أضف إلى هذا أن أخت وليم سرعان ما ماتت وأصبحت أمها مجنونة لكن الطبيعة والظروف عوضا الصبي شيئاً ما فجعلته قوي البدن الإرادة، واقعي العقل، لا تهترئ ثقته بنفسه فاستعان بهذا كله ليقاوم طوال ست وسبعين سنة الأزمات والنكبات والنقاد والجراثيم:

ورأى فيه والده علامات الموهبة، كما رأى أن مكانه ليس في ميدن لين، فأرسله وهو في العاشرة ليعيش مع عمه، وليلتحق بالمدرسة في برنتوود في مدلسكس Middlesex. وفي غضون عامين رسم الصبي لوحات فنية حتى إن والده الفخور علق بعضها في محل الحلقة وعلق بعضها الآخر حول المحل، وعرضها للبيع. وذكر رجل دين كان

يخلق عند أبيه بعض هذه اللوحات بخير عند صديق له في الأكاديمية، وسرعان ما أُجري له اختبار في الأكاديمية فاجتازه بنجاح فقبل طالبا في مدرستها وهو في الرابعة عشرة من عمره، وبعد ذلك بعام سمح له بعرض لوحات بالألوان المائية في معرض الأكاديمية.

وفيما بين عام 9871 و 2971 كان يقضي فترة الإجازة متجولا في الريف ومعه دفتر الرسم (دفتر الإسكتشات). لقد ذهب بعيدا حتى أكسفورد وبريستول وويلز، ولا زالت هذه الإسكتشات الشائقة التي سجل فيها الأرض والشمس والبحر موجودة في المتحف البريطاني. وكان يبيع رسومه وهو في التاسعة عشرة من عمره للمجلات، وفي الحادية والعشرين بدأ يعرض لوحاته الزيتية في الأكاديمية، وفي الرابعة والعشرين ثم اختياره عضوا مشاركا، وفي السابعة والعشرين أصبح عضوا كامل العضوية (في الأكاديمية) وبعد أن أصبح مستقلا من الناحية المالية بفضل ما باعه من لوحات افتتح في سنة 0081 مرسماً ستوديو واسعاً في 46 شارع هرلي Hurly وأتى أبوه ليعيش معه كمساعد وممثل تجاري له. وكان هذا الحب المتبادل بين الوالد وابنه متمشياً مع عزوف الفنان الابن عن الزواج، فلم يكن جذاباً من الناحية البدنية ولم يكن مليح الوجه، وكان ذا طابع فيها القليل من الجاذبية. لقد كان رجلاً منشغلاً ظل نحو نصف قرن يسيطر على الفن في إنجلترا ويسوده بأعماله الرائعة الكثيرة.

وعمد كتاب السير إلى تقسيم حياته إلى ثلاث مراحل لتيسير دراستها ومحاولة فهمها: المرحلة الأولى (7871 - 0281) كان يميل فيها إلى الموضوعات التاريخية لكنه حولها إلى دراسات للشمس والبحر. وفي سنة 9971 كان من بين الرسامين الأربعة الذين احتقوا في معرض الأكاديمية بانتصار نلسون وتحطيم أسطول نابليون في (أبوقير)، وفي سنة 2081 قام بأول رحلة له خارج بلاده، وعندما اقتربت السفينة التي نقله من كاليه Calais ارتفعت الأمواج عالية وهبت العاصفة الشديدة، فدير تيرنر وبعض الركاب أمر الوصول إلى الشاطئ بقارب تجديف، وتناول - على الشاطئ - كراسة الرسم (الإسكتشات) وراح يخطط المنظر المعقد لسفينة تناضل ضد العاصفة، وبعد ذلك بعام عرض في لندن لوحته القماشية الضخمة (رصيف كاليه Cslais Pier) قدم فيها تفاعله مع مناظر السحب السوداء والبحار الغاضبة والرجال الشجعان ومن فرنسا أسرع إلى سويسرا ليرسم 004 لوحة للجبال وهي تتحدى السماء بشموخها. لقد أصبحت رسومه (إسكتشاته) كذاكرة ثانية له.

وعندما عاد إلى لندن وجد النقاد الأكاديميين يشكون من أنه وضع ألوانه ثقيلة وباضطراب وبشكل طائش وخطها بشكل ينافي كل السوابق المعقولة، ذلك أن طريقته تجاهلت التعاليم التي علمها الراحل سير جوشوا رينولدز للأساتذة Masters القدامى الذين خلفوه كما تتجاهل القواعد التقليدية المرعية. وقد احترم تيرنر ذكرى الدكتاتور الرفيق (المقصود رينولدز) ولكنه أطاع ما تملبه عليه شخصيته. ومن الآن فصاعداً أصبح هو أوضح الأصوات المعبرة عن الثورة الرومانسية في مواجهة الموضوعات القديمة والقواعد العتيقة، والمحاكاة الحرفية للواقع والالتزام بما هو معتاد مما يخفق التجربة ويقيد الخيال. وقد واجه ناقديه بعرض لوحة (سفينة جانحة أوجنوح سفينة) في الاستوديو الخاص به في سنة 4081 وكانت اللوحة توضح قسوة الطبيعة وهيبتها على الإنسان. وحظيت اللوحة بالإعجاب، وبعد ذلك بعام أحبه البريطانيون كثيراً لاحتفائه بانتصار نلسون في معركة الطرف الأغر.

لقد كانت لوحته فوضى من السفن والرجال والعناصر الأخرى لكن هكذا تكون المعارك. ومع هذا فقد أحس النقاد إزاءها بالارتباك:

لقد كان كل ما يستخدمه تيرنر هو الألوان، وليس هناك خط واحد، وحتى الألوان بدت وكأنها شرشها دون أن يقصد تكوين شكل محدد، بل وجعلها موضوعاً في حد ذاتها. لقد كانت القصور والصور والمبانى والبشر في لوحاته (المرسومة على كانافاه) بقعاً غير محددة ونقطة تشير إلى المعنى كما لو كان الفنان قد سلم بعجز الإنسان في مواجهة الطبيعة الساخطة. وهذا لا يمنع من وجود استثناءات مبهجة كما في لوحة الشمس تشرق من خلال الضباب (7081) لكن في لوحته هانيبال يعبر الألب (2181) نجد كل معاني البطولة البشرية يضيع وسط السحب السوداء والصفراء التي تمثل دوامة فوق جنود يرتعدون خوفاً. أكان هذا الفنان الجامح عدواً للجنس البشري؟

لقد واصل تيرنر منهجه مُعملاً فرشاته بقوة وحيوية عاز ما فيما يظهر على محق الحياة والبشر من فوق الأرض، مُخْلِياً إياها إلا من الشمس والسحب والجبال والبحار الهائجة. لكنه لم يكن عدواً للبشرية تماماً فقد كان قادراً على تكوين علاقات دافئة وطور صداقات هادئة مع السير توماس لورنس المناقض له في أسلوبه الفني وفي نظرياته الفنية. ولم يكن تيرنر يعترف بأية نبالة سوى نبالة العبقريّة، وكان مخدوعاً شيئاً ما من العوام، وكان يحب عمله وخصوصيته، وكان يشعر - مثل ليوناردو Leonardo - أنه إذا كنت متفرداً كلية فستكون كلية نفسك أي خير معبر عن نفسك ولم يكن له عقيدة إيمانية يمكن التأكد منها فيما يتعلق بأي وجود فوق الطبيعة (غيبية)، فقد كان إلهه هو الطبيعة وقد وجه إليها نوعاً من العبادة خاصاً به - عبادة ليست من نوع عبادة وردودت الذي بحث في حكمته وجمالها، وإنما راح تيرنر يركز على بقائها وإحاحها وسطوتها، وكان يعلم أنها ستغمره أيضاً وستغمر الإنسان في

زمنها الشرس المروع. ولم يزعج نفسه كثيرا بشأن الأخلاق. لقد كان لديه خلية أو خليتان، وجعلهما - بشكل رقيق - مقتصرتين عليه، ورسم بعض الصور الزيتية العارية ذات طابع جنس فتم تدميرها ذات مرة عندما وقعا في يد رسكين Ruskin وكان يحب المال ويتقاضى أثمانا باهظة وخلف ثروة. لقد كان ألماسا خاما - سوليتير - . وبدأ في المرحلة الثانية (0281 - 3381) رحلة إلى إيطاليا بحثا عن دفء الشمس، وخلال هذه الرحلة التي استغرقت ستة أشهر رسم خمسة عشر إسكتشا، وبعد عودته إلى إنجلترا حول بعضها إلى لوحات حاول فيها استخدام أساليب جديدة في اللون والضوء والظلال مثل (خليج بايبي) 3281 جعل كل شيء فيها ينطق - حتى الظل - ومرة أخرى في فرنسا استخدم الألوان المائية في رسم نهر السين وجعله يتألق منيرا. في 5281 - 6281 تحول في بلجيكا وهولندا وأحضر إلى بلاده إسكتشات حول بعضها إلى لوحات مثل (كولوني Cologne) و (ديبي Dieppe) وهي الآن في مجموعة الفريك Frick في نيويورك. وفي سني الثلاثين من هذا القرن كان بين الحين والحين ينعم بضيافة اللورد إجريمونت Egermont في بتورث Petworth وكان كعادته ينشغل بعمله لكنه أعطى لمضيفه لحظة خالدة بلوحته (البحيرة عند الغروب)

وفي مرحلته الأخيرة (4381 - 5481) راح يستسلم أكثر فأكثر لإغراء الضوء، فغالبا ما كانت تختفي في لوحاته الأشياء فلا يتبقى إلا دراسة فائقة للألوان والتألق والظلال، وفي بعض الأحيان كان يترك الأشياء تلعب دورا أساسيا كما في لوحته (Fighting temeraire towed to her Last berth) (9381) أو لوحته (المطر والبخار والسرعة) (4481) التي تمثل إعلانا حركيا فخورا لقرن من الخيول الحديدية. وعندما احترق مبنى البرلمان في سنة 4381 جلس تيرنر بالقرب منه يرسم إسكتشات لآخر لوحاته عن هذا المشهد. وعندما كان يعبر من هاروتش Harwich تعرضت سفينة لريح مجنونة وهطل عليها الجليد فاندفع الفنان الهرم نحو الدقل وظل عنده طوال أربع ساعات حتى يحفر في ذاكرته تفاصيل المشهد وما فيه من رعب (31) ورسمه بعد ذلك مستخدما اللون الأبيض بكثرة في لوحته عاصفة ثلجية (2481)، وفي سنة 3481 حقق نصره الأخير بلوحته (شمس البندقية تتجه للبحر). واسودت سنوات عمره الأخيرة بذروة الإجماع على إدانته، وإن خفف وطأة ذلك عنه ما كاله له سيد النثر الإنجليزي من مديح. لقد انتقد أحد النقاد لوحة (العاصفة الثلجية) باعتبارها مجرد رغاوى صابون ودهان أبيض (41) ولخص آخر أعمال الفنان في حقبة الأخيرة بأنها نتاج عين مريضة ويد طائشة واقتراح شرابا مخلصا من عناصر شتى كعنوان عام لأي لوحة من لوحات تيرنر (إعصار استوائي) يضرب (برياح سمومه) (دومة) محدثا (اضطرابا عظيما) و (سفينة تحترق) وقت (الكسوف)، وتأثير (قوس قزح القمري) (51) - لقد بدت الأعمال الكاملة لهذا الفنان الكبير المتألق بعد نصف قرن من العمل - حقيرة مرفوضة في نظر أصحاب الاتجاه المحافظ.

وفي مايو 3481 أصدر جون رسكين Ruskin وكان في الرابعة والعشرين المجلد الأول من كتابه (رسامون معاصرون)، ألح فيه بحماس على تفوق تيرنر على كل رسامي المناظر المحدثين، والحيوية البالغة التي عبر فيها تيرنر عن العالم (الوجود) الخارجي (خارج ذاته) حتى إنها تعد أفضل تقرير عن هذا العالم (الوجود)، ووجد تيرنر نفسه في درجة أعلى من كلود لورين Claude Laurain الذي كان يستلهم رسومه من مطلع شبابه، ولم يكن هذا غريبا بالنسبة إليه، لكنه كلما واصل قراءة كتاب رسكين راح يتساءل: ألن يضره هذا المديح المبالغ فيه؟ لقد أضره فعلا ولكن لفترة. لقد راح النقاد يثنون على كتاب رسكين Ruskin لكنهم راحوا يناقشون أحكامه طالبيين حكما أكثر توازنا، ولم يتقيد رسكين بهذا النقد فراح يكرر في مجلد إثر مجلد دفاعه عن تيرنر وتمجيده له حتى كاد يخصص لتيرنر ثلث كتابه ذي الألفي صفحة. وأخيرا كسب معركته وعاش حتى رأى فنانه المحبوب وقد اعترف به الجميع كواحد من أعظم المبدعين في الفن الحديث.

وفي هذه الأثناء مات تيرنر (92 ديسمبر 1581) وتم دفنه في مقبرة كنيسة القديس بول، وكان قد أوصى بأن تكون أعماله الفنية للأمة - 003 سكتش، 003 لوحة بالألوان المائية، 91,000 تخطيط (رسوم تخطيطية) وترك 000,041 جنيه إسترليني لإنفاقها على الفنانين الفقراء (حصل أقرباؤه الأحياء بعد موته على قرار ببطلان الوصية وقسموا الأموال بين أنفسهم ومحاميهم) وربما كان أعظم تراثه هو اكتشافه للضوئية (نزعة في التصوير الحديث)، وفي هذا الجيل نفسه صاغ توماس يونج Young نظريته عن الأمواج الضوئية، لقد نشر تيرنر عبر أوروبا رسومه التي طبق فيها هذا الأسلوب (الضوئي) وكذلك لوحاته بالألوان المائية، معلنا أن الضوء هو (موضوع) للرسم كما أنه (وسيلة) للرسم أو (وسط) يرسم فيه الأشياء، وبالتالي فهو يستحق أن يمثل بأشكاله المختلفة وألوانه وتشكيلاته وتأثيراته. تلك هي الانطباعية impressionism ظهرت على يد تيرنر قبل ظهور الانطباعيين Impressionists. وربما كان مانيت Manet وبيسارو Pissarro قد رأوا بعض أعمال تيرنر التي استخدم فيها هذا الأسلوب عند زيارتهم للندن في سنة 1871 (61). وبعد ذلك بسبع سنين أرسل ديجاس Degas، ومونت (مونييه) Monet وبيسارو، ورينوار Renoir، خطابا إلى تاجر أعمال فنية، ذكروا فيه أنه في دراساتهم للظاهرة الهائمة للضوء لم ينسوا أنه قد سبقهم في هذا الاتجاه أستاذ عظيم لمدرسة فنية إنجليزية - إنه الفنان الشهير - تيرنر (71).

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الفلسفة الإنجليزية -> توم بين عن المسيحية

1- توم بين: عن المسيحية

لقد كان توم بين - الذي عرف بهذا الاسم توم في قارتين - رجلاً إنجليزياً ولد في أسرة من الكوكر Quaker في ثتفورد في نورفولك Norfolk في سنة 7371، وهاجر إلى أمريكا في سنة 4771 بناء على نصيحة بنيامين فرانكلين، وقام بدور ناشط في الثورة الأمريكية. وأثنى الجنرال واشنطن على كتيب بين Paine الموسوم باسم الحصافة أو الفطرة السليمة Common Sense (يناير 6771) لأنه أحدث تغييراً قوياً في عقول أناس كثيرين (1) وفي أثناء حروب الثورة الأمريكية أصدر سلسلة من نشرات الدعاية باعتباره معاوناً للجنرال ناثانيل جرين Nathanael Greene بعنوان الأزيمة لرفع الروح المعنوية لجيش الثوار وللمواطنين. وقد بدأت إحدى هذه النشرات بالعبارة الشهيرة في هذه الأوقات تعرف معادن الرجال أو بتعبير آخر تلك هي الأوقات التي تختبر فيها أرواح الرجال. وفي الفترة من 7871 إلى 2081 كان يعيش معظم الوقت في أوربا عاملاً لصالح الثورة الفرنسية في كل من فرنسا وإنجلترا. ووجدناه يخاطر برأسه عند تصويته لصالح تخفيف عقوبة الإعدام الصادرة ضد لويس السادس عشر إلى النفي. وفي ديسمبر من هذا العام (3971) - بتحريض ظاهر من روبيسبير (2) - أصدرت الجمعية الوطنية مرسوماً بطرد كل الأجانب من عضويتها ولم يبق فيها إلا اثنان: أناكارزيس كلوتس Anacharsis Cloots وتوماس بين Paine. وعندما توقع بين Paine أن يقبض عليه سارع بكتابة ما يعرف الآن بالجزء الأول من عصر العقل The Age of Reason، وأرسل مخطوطة الكتاب إلى أمريكا مشفوعة بالإهداء التالي:

إلى رفاقي أهل بلدي في الولايات المتحدة الأمريكية: إنني أضع العمل التالي تحت حمايتكم. إنه يضم آرائي في الدين. إنكم ستسدون إليّ عدلاً إن تذكرتم أنني كنت دائماً أؤيد بشدة حق كل إنسان في إبداء رأيه مهما كان مختلفاً مع ما قد يكون رأيي. إن من ينكر على الآخرين حقهم في إبداء رأيهم إنما هو عبد لرأيه الحالي لأنه يسلب نفسه حق تغيير هذا الرأي.

إن العقل هو أمضى سلاح ضد كل أنواع الخطأ ولم يحدث أبداً أن استخدمت سواه وإني واثق أنني لن أثق - مستقبلاً - في سواه .

صديقكم المخلص ومواطنكم
توماس بين
باريس، 72 يناير 4971.

ويقدم لنا بين Paine في مستهل كتابه هذا سبباً غير متوقع لتأليف كتابه فيقول: إنه لا يهدف إلى تدمير الدين وإنما يهدف إلى منع الفساد الناتج عن أشكاله (أشكال الدين) غير العقلية (اللاعقلانية) من أن يقوض النظام الاجتماعي ويدمره خوفاً من الخراب العام الذي تسببه الخرافة، والذي تسببه النظم الحكومية الزائفة واللاهوت الزائف، فهذه النظم الزائفة تفقدنا الأخلاق والإنسانية واللاهوت الحق ويضيف قائلاً ومؤكداً مجدداً: إنني أؤمن بالله الواحد الأحد لا رب سواه One and no more، وإنني أمل في تحقيق السعادة بعد هذه الحياة أي بعد الموت (3).
ثم يستل موسى أكام Occam يقول: إنني لا أؤمن بعقائد اليهود ولا عقائد كنيسة روما ولا كنيسة الأورثوذكسية الشرقية (الكنيسة اليونانية) ولا عقائد المسلمين (النص: الكنيسة التركية Turkish Church) ولا الكنيسة

البروتستانتية ولا أي كنيسة (مؤسسة دينية) أعرفها. فعقلي هو كنيستي. فكل الكنائس كمؤسسات وطنية... لا تبدو لي أكثر من كونها بدع بشرية أقيمت لإرهاب البشر واسترقاقهم ولاحتكار السلطة وتحقيق المكاسب (4). وكان معجبا بالمسيح كرجل فاضل ودود وكان مقتنعا أن الأخلاق والقيم اللتين بشر بهما وطبقهما كانتا خيرتين إلى أقصى حد لكن حكاية كونه ابن الله ليست سوى خرافة مشتقة من خرافة شائعة بين الوثنيين. إذ يكاد كل الرجال المميزين الذين عاشوا في ظل الميثولوجيا الوثنية قد كرروا الزعم بأنهم أبناء الآلهة... لقد كان اتصال الأرباب (الآلهة) اتصالا جنسيا بالنساء رأيا شائعا بين الناس. فالرب جوبيتر Jubiter في زعمهم قد تعايش مع كثيرات عيشة الأزواج. وعلى هذا فحكاية أن المسيح ابن الله ليست جديدة ولا غريبة ولا مدهشة ولا فاحشة وإنما هي مجرد فكرة كانت موجودة بالفعل ومريحة ومتشعبة مع آراء وعقول غير اليهود Gentiles، ولأنها كانت منتشرة بينهم فهم وحدهم الذين آمنوا بها. أما اليهود الذين احتفظوا بالإيمان بإله واحد ولا سواه (لا شريك له) فكانوا يرفضون دائما الميثولوجيا الوثنية ولم يوافقوا أبدا على هذه الحكاية (على أن المسيح هو ابن الله) (5). وعلى هذا فالميثولوجيا المسيحية ليست سوى الميثولوجيا الوثنية في شكل جديد. إنها لا تعدو كونها تكراراً للميثولوجيا الوثنية:

فكرة التثليث أو وجود أرباب (أفانيم) ثلاثة التي ظهرت بعد ذلك ليست سوى تخفيض أو تنقيص للتعددية السابقة التي كانت تقول بوجود نحو عشرين ألف أو ثلاثين ألف رب. وقد حل تمثال مريم (العذراء) محل تمثال ديانا الإفسوسية Diane of Ephesus، وحل تطويب القديسين (المصطلح المسيحي تطويب يعني ضم شخص ما إلى قائمة القديسين) محل تأليه (أو تعظيم) الأبطال. فالمؤمنون بالأساطير (الميثولوجيون) لديهم آلهة (أرباب) لكل شيء، والمسيحيون المؤمنون بالأساطير عندهم قديسون لكل شيء، وأصبحت الكنيسة مزدحمة بهم كما كان البانثيون Pantheon مزدحما بالآلهة. فالنظرية (العقيدة) المسيحية لا تختلف إلا قليلا عن وثنية الميثولوجيين القدماء بعد تحويلها (أي العقيدة المسيحية) لتخدم أغراض السلطة والدخل (الاقتصاد) وبقي على العقل والفلسفة أن يبتلا هذا الدجل المبهم (6). ثم راح بين Paine يلقي أضواءه البحثية مستخدما العقل في سفر التكوين (السفر الأول في التوراة) ولم يطق صبورا على حكاياته الرمزية وأمثاله فهو بمعوله على حواء والتفاحة. وكان مثل ميلتون Milton مفتونا بالشیطان أول التأثيرين لقد كان الشيطان (إبليس) ملكاً أدخل جهنم لمحاولته الإطاحة بالعرش، وفي جهنم ظل يعاني طول الوقت بلا نهاية. ومع هذا فلا بد أن يهرب من هذه النار التي لاتخمد (جهنم) في وقت أو آخر لأنه كان قد وجد طريقه إلى جنة عدن، ولأنه استطاع غواية (الناس) بأكثر الطرق التواء. لقد استطاع أن يقدم المعرفة لحواء ونصف عالم المسيح. ويعجب بين Paine من أن الميثولوجيا المسيحية قد أضفت على الشيطان (إبليس) شرفاً كبيراً. إنها تقترض أنه أجبر الله (عز وجل) على إرسال ابنه (المقصود المسيح) لبلاد اليهودية Judea ليُصلب، وذلك ليعيد له (المقصود لله سبحانه) على الأقل جزءاً من أهل الأرض كانوا على علاقة حب - بشكل واضح - مع الشيطان. ورغم صلب المسيح فلازال الشيطان يحتفظ لنفسه بكل الممالك غير المسيحية بل وله ملايين من الأتباع في الممالك المسيحية نفسها.

كل هذا - كما يقول مفكرنا المنتسكك توماس - نُقدمه لنا بوقار شديد - على لسان الله جل جلاله - سلسلة من الأقوال منسوبة إلى موسى وحتى القديس بول (بولس). ورفض بين Paine كل هذه الأقوال (الحكايات) باعتبارها حكايات تصلح لأطفال الحضارة ولل كبار الذين أنهكهم البحث عن الخبز والزبد وأعيانهم المرض وأرهبهم الموت فباع لهم اللاهوتيون أو هام الوعود الموعودة. وقدم بين Paine لذوي الأرواح الأقوى الله بصورة لا تشبه الإنسان وإنما باعتباره حياة الكون (الروح الحي في الكون).

لا يمكننا أن نوحده كل أفكارنا عن الله إلا من خلال الخلق... إن الخلق (الكون) يتحدث لغة عالمية (كونية) ... إنه كلمة الله (الكون) التي توحى للبشر كل ما هو ضروري لمعرفة الله. أتريد أن تتأمل قوته؟ إنها تتجلى في عظمة خلقه. أتريد أن تتأمل حكمته؟ إنها تتجلى في سنن الكون التي لا يعترئها تبديل والتي تحكم الكل الذي لا يحيط به أحد. أتريد أن تتأمل كرمه؟ إنها تتجلى في تلك الوفرة التي تملأ الأرض. أتريد أن تتأمل رحمته؟ إنها تتجلى في كونه لايمسك فضله حتى عن العصاة. باختصار أتريد أن تعرف الله؟ ابحث عنه في الخلق لا في الكتاب المقدس المسيحي (7Scripture).

وقد سُجن في الفترة من 82 ديسمبر 3971 حتى سقوط روبيسبير في 72 يوليو سنة 4971. وفي 4 نوفمبر دعنتي الجمعية الوطنية Convention علناً وبالإجماع للعودة إليها (الجمعية الوطنية)... وقبلت (8). وفي أثناء الاضطراب العظيم لرد الثيرموديريين Thermidorean reaction ألف الجزء الثاني من كتابه (عصر العقل The Age of Reason) وكرسه لتوجيه نقد حاد للكتاب المقدس Bible وأضاف قليلا لنقد أفكار وردت في دراسات أكاديمية كان معظمها من تأليف رجال الدين. لقد ضاعت سدى - في إنجلترا وأمريكا - اعتراضاته على الإيمان بالرب (المقصود هنا يسوع المسيح) بسبب اعتراضه وعدم تعاطفه مع الكتاب المقدس الذي كان عزيزا على الشعوب والحكومات،

فوجد نفسه بلا تكريم في وطنه الأصلي ووطنه الجديد ، وعندما عاد في سنة 1802 إلى نيويورك (التي سبق لها أن قدرت خدماته لجمهور الأمريكيين بمنحه 003 أكر (فدان) في نيوروشل (New Rochelle) ووجه باستقبال بارد. وأدمن الشرب في السنوات السبع الأخيرة من عمره ومات في نيويورك سنة 9081 وبعد موته بعشرة أعوام عمل وليم كوبت William Cobbett على نقل رفاته إلى إنجلترا، حيث لعبت روحه غير الواهنة - من خلال كتبه - دورا في المعارك الطوال التي تمخض عنها صدور مرسوم الإصلاح Reform Act في سنة 2381. ورغم أن بين Paine كان من القائلين بوجود إله (دون إيمان بأديان منزلة) ولم يكن ملحدا إلا أن كثيرين من المؤمنين بالمسيحية شعروا أن إيمانه بوجود إله لم يكن إلا غطاء مهذبا لعدم إيمانه برب متجسد (المسيح كرب) وقدم وليم بالي William Paley كاهن أسقفية ويرموث Wearmouth دفاعا مقننا عن عقيدته في كتابه نظرة في البراهين على المسيحية (4971) لدرجة أن قراءة هذا الكتاب ظلت حتى سنة 0091 شرطا للقبول في جامعة كيمبردج وكان كتابه لاهوت الطبيعة (Natural history 2081) لا يزال هو الأكثر شهرة فهو كتاب يبحث في البرهنة على وجود قوة ذكية علوية بتجميع براهين وأدلة من العلوم المختلفة. لقد قال: برهنا إذا رأى إنسان ساعة ولم يكن قد سبق له رؤية ساعة من قبل، ألن يتقحص ماكينتها، ويضع في اعتباره أن كائنا ذكيا صممها؟! ثم أليس في الطبيعة مئات العمليات تشير إلى تنظيم الوسائل لتحقيق الأثر المطلوب؟! فمن ناحية نحن نرى قوة ذكية ترتب نظام الكواكب... ومن ناحية أخرى فإنها - أي هذه القوة الذكية تقدم العملية (الميكانيكية) المناسبة لحركة جناحي الطائر الطنان وحركة ريشه... فكل جسم طبيعي متسق، بما ينطوي عليه من إمكانية حفظ نوعه وكيانه وإمكانية تكاثره يشهد بعناية الخالق وتوجيهه لتحقيق أهدافه(9).

وبدأ نصف المتعلمين في إنجلترا بمناقشة كتب بالي Paley وساعته ، وتحدث كولردج Coleridge ووردسورث Wordsworth وهازلت Hazlitt عنها في مناقشة حية في كزويك Keswick. لقد عاش كتاب اللاهوت الطبيعي Natural Theology طويلا، بل إن دارون العظيم نفسه درسه بعناية(01) قبل صياغة نظريته المنافسة عن تكيف الأعضاء وتطورها لتحقيق الغايات المطلوبة وأن البقاء للأصلح من خلال الانتخاب الطبيعي. وبعد بالي Paley بقرون جاء هنري بيرجسون Bergson ليفيد - ببلاغة - صياغة برهان من تصميم الكون في كتابه Evolution Creatrice الصادر في سنة 6091. واستمر الجدل.

صفحة رقم : 14644

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الفلسفة الإنجليزية -> جودون عن العدالة

2- جودون: عن العدالة

رغم أن الجميع قد نسوا وليم جودون (6571 - 6381) الآن إلا أنه كان أكثر الفلاسفة الإنجليز تأثيرا في جيله. لقد كتب هازلت Hazlitt في نحو سنة 3281: ليس ثمة عمل في زماننا وجه لطمة للتفكير الفلسفي في هذه البلاد مثل العمل الشهير أسئلة حول العدالة السياسية (Enquiry Concerning Political Justice 11) لقد قال وردسورث لطالب شاب القى بكتب الكيمياء الخاصة بك وقرأ كتاب جودون عن الضرورة (On Necessity 21) وعندما كبر جودون في السن وراح يشك في نفسه رأى أفكاره تنتشر على جناحي أغنية تغنى بها الشاعر شيلي Chelley زوج ابنته وكان أبواه مسيحيين متمسكين بمذهب كالفن مؤمنين بالقضاء والقدر خيره وشره من الله (الجبرية) وقد أصبح

جودون مثلثهما قدريا (جبريا) وكان أبوه منشقا عن كنيسة إنجلترا وتلقى هو نفسه تعليماً ليكون واعظاً وعمل كرجل دين في مدن كثيرة، وبينما كان في ستوماركت Stowmarket قدمه شاب جمهوري للمفكرين الفرنسيين الذين سرعان ما قلبوا عقيدته رأساً على عقب. لقد أخذ الإلحاد عن دولباش d, Holbach رغم أنه في سنوات لاحقة جعل الله مكاناً - بشكل مهذب - في مجلده الحاشد. لقد أخذ من هلفيتيوس Helvetius الإيمان بالتعليم والعقل باعتبارهما أساس اليوتوبيا (المدينة الفاضلة) وحذا حذو روسو في قبول مبدأ صلاح البشر لكنه كان يفضل إقامة مجتمع قائم على التعاون الطوعي بين الأفراد والجماعات - يفضل على دولة روسو ذات السلطة المطلقة. لقد تخلى عن منصبه في الكهنوت المسيحي وشرع في دهن خبزه بالأحبار والقلم. وانضم إلى لورد ستانهورب Stanhope وتوماس هولكروفت Holcroft في نادي الثوريين لكنه أسلم نفسه معظم الوقت للدراسة الشاقة والكتابة الصعبة، وفي سنة 3971- وكان قد بلغ السابعة والثلاثين - أصدر أكثر الأعمال (الكتب) راديكالية في زمانه.

وقد جعل لكتابه عنواناً هو سؤال عن العدل السياسي وتأثيره في الفضائل العامة والسعادة Enquiry Concerning Political Justice & its influence on General virtue & Happiness وواضح أنه كتابا عن الحكومة يعطي تقريباً كل قضايا الفلسفة من الإدراك إلى فن الحكم (فن إدارة شؤون الدولة) ويتوقف غير بعيد عن تناول الرب (الله). لقد احتقر خرافات الجنة والجحيم كأدوات (وسائل) واضحة لتسهيل أمور الحكم وفرض الطاعة (31). وأدان الإكليروس (رجال الدين) الذين يقسمون على قبولهم الإيمان الرسمي المصاغ في تسع وثلاثين مادة (قانون الإيمان) بينما هم يتخلون عنه فيما بينهم وبين أنفسهم (41). لقد رفض حرية الإرادة free will والإرادة نفسها إذا جرى فهمها كسلطة أو صلاحية أو مقدر مميّزة أو استثنائية. إنها بالنسبة إليه مجرد مصطلح مجرد للاستجابات الواعية للمواقف والرغبات والحوافز أو المثبرات (51). وما دامت الأفعال مقررة سلفاً بفعل الوراثة والخبرة الفردية والظروف الحالية فلا بد أن نواجه أخطاء الآخرين بدون غضب أو اتهام مضاد وإنما لا بد من إصلاح نظامنا العقابي ليكون مبنياً على الإصلاح أو إعادة التأهيل أكثر من أن يكون مبنياً على العقاب، وعلى أية حال، فإنه قد يكون من الضروري أن نستخدم المديح واللوم والعقاب كوسائل معينة على الإصلاح مستقبلاً (61).

ما هو الذي ستمتدحه وما هو الذي سنديه؟ ستمتدح ما هو حسن وسندي ما هو قبيح، فما هو الحسن؟ لقد سار جودون على خطى هيلفيتيوس (8571 Helvetius) وبنثام (9871 Bentham) فعرف الحسن (الخير) بأنه ما يزيد سعادة الفرد والجماعة وعرف السعادة بأنها بهجة الجسد والنفس والعقل والمشاعر، بهجة سوية، وهذه الفلسفة الأخلاقية ليست حسية جسدية (شهوانية) وليست هي فلسفة اللذة لأنها تجعل المباح العقلي فوق مباح الحواس. إنها ليست أنانية (ذاتية تتحلق حول الأنا) لأنها تقول بأن الفرد جزء من جماعة لأن صلاح الجماعة شرط لأمان الأفراد الذين يكوّنون هذه الجماعة، ولأن من بين أرقى أنواع المباح إساهام الأفراد في إسعاد رفاقهم في الجماعة. فغرا نرنا الاجتماعية تؤدي إلى قيامنا بأفعال غير أنانية (منطوية على حب الغير) وهذه الأفعال يمكن أن تمنحنا مسرة تفوق أي بهجة حسية أو عقلية وأكثر دواماً منها (71). فإن تكون شفوفاً رحيماً يعني أن تكون سعيداً، وأن تنزع منك الرحمة يعني أن تكون بانساً. فالأخلاق - علم السعادة البشرية - هي المبدأ الذي يربط الفرد بجنسه البشري وهي الدوافع التي تعمل على حثنا على تعديل سلوكنا وجعله على نحو أمثل لتحصيل مزايا يجنيها الجميع (81).

فالعادلة إذن هي تنظيم سلوك الفرد والجماعة لتحقيق أقصى قدر من السعادة لأكثر عدد من الناس. فالهدف العاجل للحكومة هو أمن الجماعة والفرد وما دام الفرد يرغب في أكبر قدر من الحرية مما ينسجم مع أمنه، فإن أفضل وضع للبشر هو الوضع الذي يحافظ على الأمن العام مع أقل انتهاك ممكن لاستقلال الفرد (91). وعلى هذا فليست هناك حاجة لمراسيم حكومية أو دينية للزواج، فاتفق اثنين من البالغين على العيش معا يجب أن يكون كافياً، ويجب فسخ الارتباط (الاتفاق على العيش معا) إذا رغب في ذلك أحد الطرفين (02). وقد أعجب الشاعر شيلي Shelley بهذا الاتجاه على نحو خاص).

ولم يكن جودون يحب الحكومات. فمهما كانت أشكالها ومهما كانت النظريات التي تقوم عليها، فإنها لاتعدو أن تكون سيطرة الأقلية على الأغلبية. لقد كان دوماً يتبرأ من دعوى المحافظين أن الجماهير مفسورة على الدونية وأنها دائماً تميل للقتل، ولهذا فلا بد من حكمها إما بالكذب عليها أو إرهابها أو إجبارها (بالكذب أو الإرهاب أو القوة). وكان - مثل أوين Owen - يعتقد أن هذه الصفات الدونية ترجع إلى نقص التعليم أو قلة الفرص أو فساد البيئة (12). وسخر من المساواة أمام القانون لأنه كان يرى كل يوم الذين يحصلون الأموال الطائلة بطرق ملتوية وغير سليمة يفلتون من العقاب بحيل قانونية أو بسبب محاباة القضاة لهم (22). ولم يكن اشتراكياً فقد قبل مبدأ توريث الثروة ومبدأ تعيين أوصياء لإدارتها (32). وعارض السيطرة الحكومية على الإنتاج والتوزيع (42)، لكنه أصر على ضرورة أن تكون الملكية الشخصية في خدمة الصالح العام (52)، وحذر من أن تركيز الثروة ما هو إلا دعوة إلى الثورة (62). وعلى أية حال، لم يكن ميّالاً إلى الثورة. فحين تتغير طبائع الأجناس البشرية تغيراً جوهرياً فإن الإطاحة بالنظام القائم بالقوة، وأية محاولة ثورية لإعادة توزيع الثروة، ستسبب فوضى اجتماعية تلحق ضرراً بالرخاء العام أكثر

من الضرر الذي يلحقه عدم المساواة (التفاوت في الثروة) الذي تحاول إزالته (72). فالثورة في الفكر (تغيير الآراء) هي السبيل الوحيد للوصول لتوزيع أفضل للثروة (82). وهذا يتطلب تعليماً يستغرق فترة طويلة ويتطلب صبراً... تعليماً تتلقاه الأجيال من خلال المدارس والإنتاج الأدبي والفكري.

ومع هذا فسيكون من الخطأ أن نقدم تعليماً عاماً من خلال نظام وطني للمدارس (المقصود نظام حكومي تتبناه الدولة) لأنه سيكون في هذه الحال أداة من أدوات الشوفينية (الغلو في الوطنية) مما يؤدي إلى قيام الحروب، وأداة من أدوات البروباغندا (الدعاية) الحكومية التي تهدف إلى ترسيخ قيم الطاعة العمياء (92). إذ لا بد من ترك التعليم في أيدي القطاع الخاص الذي يجب دائماً أن يقول الحق والذي يجب أن يعود الطالب على استخدام العقل. فالعقل ليس مبدأً مستقلاً أو ملكة أو قدرة كلية وليس لديه ميل لحثنا على الفعل. فهو من الناحية العملية مجرد أداة للمقارنة - والموازنة - بين المشاعر المختلفة. فالعقل... قد صُمِّم (بضم الصاد) لتنظيم سلوكنا على وفق القيمة المقارنة للمثيرات أو المنبهات أو الدوافع. فالأخلاق ليست إلا حساب النتائج أو العواقب (03) بما في ذلك النتائج أو العواقب التي تعود على المجتمع. وعلى هذا فتحسين العقل يعني تحسين أحوالنا الاجتماعية (13).

إن الطريق إلى المدينة المثالية (اليوتوبيا) عن طريق التعليم طريق طويل وشاق لكن الإنسان قد حقق بعض التقدم في السير في هذا الطريق، وليس هناك حد لمزيد من التقدم فيه. إن الهدف أن تتلقى البشرية تعليماً كافياً متبصراً يتيح لها إعمال العقل بحرية (دون قيود). إن إلغاء الحكومة (الأنارشية) هدف بعيد لكنه سيظل مع هذا هدفاً لكثير من الأجيال القادمة وطبيعة الإنسان ستحتّم شكلاً أو آخر من أشكال الحكومة. دعونا نواصل آمالنا في أن يتطور الذكاء - عبر أجيالنا القادمة - ليصبح حرية منضبطة.

ولا بد أن جدون كان يمتلك نبعاً ثراً من الذكاء لأنه في سنة 4971 أصدر - بعد عام واحد من نشرة كتابه الحاشد (أسئلة عن العدالة السياسية...) - أصدر رواية حكم عليها كثيرون بأنها الرواية الرائعة البارزة في ذلك العصر. إنها رواية كالب وليامز Caleb Williams التي أظهرت روح الحكومة وطبيعتها من حيث كونها تقحم نفسها في حياة كل طبقات المجتمع وقد أضاف المؤلف إلى هذه الرواية قصة حياته: لقد تزوج ماري ولستونكرافت (7971 Wollstonecraft) وتبنى ابنتها فاني إمالي Fanny Imaly التي أنجبته نتيجة اتصالها الجنسي بشخص دون زواج (نتيجة علاقة زنا) وعاش مع ماري مدة عام في عشرة مثيرة. يقول: لقد قدرت فيها طاقاتها العقلية، ونزوعها النبيل إلى الكرم، ولم تكن الرقة وحدها كافية لتحقيق السعادة التي جربناها (23) وقد ماتت - كما رأينا - بعد فترة قصيرة من إنجابها ماري جدون شلي Mary Godwin Shelley وفي سنة 1081 تزوج من مدام ماري جين كليرمونت Mary Jane Clairmont التي كانت ابنتها (من زوجها الأول) واحدة من مديرات منزل بايرون Byron. وقد دعم الزوج والزوجة حياتهما المعقدة بنشر الكتب التي كان من بينها حكايات من شكسبير (7081) الذي ألفه شارلز لامب وماري لامب Charles & Mary Lamb. ونتيجة تخلي وردسورث Wordsworth وكولردج Coleridge عنه وابتعادهما عن صداقته واجه أياً ما عصبية، وساعده شيلي Shelley الذي كان هو نفسه معسراً، وفي سنة 3381 - وبالسخريه التاريخ - عينته الحكومة - التي كان يعتبرها شرا لا بد منه - موظفاً في الخزانة براتب متواضع كان يكفي طعامه حتى مات في سنة 6381.

صفحة رقم : 14645

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الفلسفة الإنجليزية -> مالتوس عن السكان

3- مالتوس: عن السكان

لقد عمل كتاب جودون الأنف ذكره (أسئلة حول العدالة السياسية) على دفع كتاب آخر إلى المطبعة وقد أصبح هذا الكتاب الآخر أكثر شهرة من كتاب جودون نفسه. وساعد على ذلك رد فعل غير عادي من ابن ضد فلسفة أبيه اللبير الية. لقد كان دانيال مالتوس Daniel Malthus (توفي سنة 0081) شخصاً لطيفاً غريب الأطوار وكان صديقاً شخصياً لديد هيوام (تكتب أيضا دافد slash الصيغة العربية لاسم هي داود) وجان جاك روسو. وشارك الإسكتلندي شكوكيتة والسويسري تشاؤمه، حول الحضارة. وقد كان هو شخصياً مشرفاً على تعليم ابنه فيما قبل دخوله الكلية، وكان وثاقاً من أن توماس مالتوس (6671 - 4381) سيكون راديكالياً ممثلاً للقانون مثله (أي مثل أبيه دانيال مالتوس) مثل جودون. وواصل مالتوس في كامبردج ودخل في سنة 7971 سلك الكهنوت الإنجليكاني، وعندما ظهر كتاب جودون (3971) راح الأب والأبن يتناقشان بشغف فيما ورد به من أفكار، ولم يشارك الابن أباه في حماسه لأفكار الكتاب. لقد شعر الابن بأنّ هذا الولوج المثالي (اليوطوبي) بالعقل المنتصر (بانتصار العقل) لامبرر له، لأنه قد جرى تسفيهه مراراً بالحقيقة البسيطة التي مؤداها أنه كلما زاد الطعام وتحقق الرخاء سرعان ما يؤدي تزايد السكان إلى محق هذا الرخاء، وقد عبر سطر الجامعة في التوراة عن هذا ببلاغة. فمادامت خصوبة الأرض محدودة ولا سبيل لوقف الشهوة الجنسية فهذا يؤدي إلى تضاعف عدد الأفواه بسبب الزواج المبكر والإنجاب الكثير وانخفاض نسبة الوفيات بين الأطفال والشيوخ، وهذا بدوره يؤدي إلى استهلاك أية زيادة في الطعام بسرعة. ولم يتفق الأب مع ابنه في هذا النتيجة ولكنه كان معجباً بالطريقة التي دافع بها ابنه عن آرائه فطلب من ابنه أن يكتب وجهات نظره وبالفعل كتبها توماس ونشرها في سنة 8971 في كتاب بعنوان: مقال عن مبادئ السكان وتأثيرها في مستقبل المجتمع An Essay on the principle of population as it affects the future improvement of Society وقد بدأ كتابه باعتذار يسترضي فيه الكاتبين اللذين يتحدى في كتابه نزعتهم التفاؤلية:

لا أستطيع أن أشك في مواهب رجال مثل جودون، وكوندورسيه Condcorcet... لقد قرأت - وبسرور شديد - بعضاً من آرائهما عن طرائق الوصول بالإنسان والمجتمع إلى حد الكمال، ولقد ابتهجت وتفاعلت بحرارة مع الصورة البهيجة التي رسمها. إنني أرغب بشدة في تحقيق هذه التحسينات. إلا أنني - على وفق ما يهديني إليه تفكيري - أرى صعوبات شديدة لا تقهر أمام ما ذكره. وهدفي هو تبيان هذه الصعوبات، لكنني أعلن في الوقت نفسه أنني أبعد ما يكون عن السعادة لوجود هذه الصعوبات، وأني لم أتخذها سبباً يسعدني للانتصار على أصدقاء الفكر، فلا شيء يسعدني أكثر من أن أرى هذه الصعوبات وقد تلاشت (33). وحاول مالتوس أن يصيغ حججه بشكل رياضي. فافتراض أن الطعام يزيد كل 52 عاماً بمتوالية حسابية (من 1 إلى 2 إلى 3 إلى 4 إلى 5 إلى 6 وهكذا) أما السكان فيزيدون - إذا لم تكن هناك عوائق تمنع الزيادة - بمتوالية هندسية (1، 2، 3، 4، 8، 61، 23... وهكذا) مفترضا أن كل زوج وزوجة سينجبان 4 أبناء يظلون على قيد الحياة. وعلى وفق هذه النسبة فإنه في غضون قرنين سيصبح (عدد السكان) بالنسبة إلى موارد الرزق 52 إلى 9، وفي غضون ثلاثة قرون 690،4 إلى 31، وفي غضون ألفي سنة سيصبح الفارق مهولاً (43) والسبب في أن عدد السكان لا يرتفع بمثل هذه السرعة هو أن الناس يواجهون بعوامل سلبية أو إيجابية تحول بينهم وبين التنازل. فالعوامل السلبية مانعة (وقائية): تأجيل الزواج بسبب الفقر أو غيره من الأسباب، الرذيلة (وبعنى بها مالتوس العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية) والعلاقات غير الطبيعية (كالتشذوذ الجنسي... الخ) واستخدام وسائل منع الحمل أو تمديد النسل داخل نطاق الزوجية أو خارجها. وإذا قُشلت هذه العوامل السلبية في حفظ التوازن بين السكان والطعام المتاح فإن الطبيعة nature والتاريخ يقدمان لنا عوامل إيجابية تؤدي مفعولها مع الأفراد الموجودين بالفعل: قتل الأطفال، الأمراض، المجاعات، الحروب، وبذلك تتم الموازنة بين المواليد والوفيات. وخلص مالتوس من هذا التحليل الكئيب بنتائج غريبة. أولاً، لا يوصي بزيادة أجور العمال لأنه إن زادت أجورهم تزوجوا مبكراً وأنجبوا مزيداً من الأطفال مما سيؤدي إلى زيادة السكان زيادة تفوق الزيادة المتاحة في الطعام فيعود الفقر من جديد. وعلى النحو نفسه لا داعي لزيادة الضرائب المخصصة للإنفاق على العاطلين فهذا سيؤدي إلى التشجيع على الكسل وسيجعل عدد أفراد الأسرة يزداد فتتضاعف الأفواه بسرعة أكثر من تضاعف الطعام المتاح، وسيؤدي التنافس بين المشتريين لأن يرفع البائعون أسعار بضائعهم المتناقصة، وسرعان ما يعود الفقراء الذين كانوا قد نعموا بشيء من الرخاء إلى الفقر من جديد (53).

وليواصل تدمير (أفكار) جودون، استمر مالتوس متناولاً حلم فلسفة اختفاء الحكومة (الاستغناء عنها) فإذا اختفت الحكومة تعين على كل فرد أن يحرس مخزونه القليل بالقوة كما نحكم اغلاق أبوابنا ونوافذنا إذا ضاع القانون وعمت الفوضى. وستنتصر الأنانية وسيصبح النزاع أبدياً (63) وبإزالة كل العوائق أمام الاتصال الجنسي سيزيد عدد السكان زيادة تفوق زيادة الإنتاج مما سيؤدي إلى تقليص نصيب الفرد وستضيع المدينة الفاضلة (اليوطوبيا) في خضم منافسة يائسة وستحل فوضى لا سبيل إلى تجنبها وسينتشر البؤس (73). فلا يكون هناك حل إلا إعادة الحكومة وحماية الملكية الخاصة وتشجيع الإنتاج والاستثمار وإن حدث تمرد قامت عليه جماعة مخصصة تحتم قمعه بالقوة وسيعود التاريخ

إلى صيغته التقليدية: منتجات الطبيعة nature تقتسمها طبيعة الإنسان، أو طبيعة الإنسان هي التي تقسم نتجات الطبيعة. وفي صياغة جديدة موسعة ومراجعة لكتابه وضّح مالتوس بشكل أكثر حدة وتفصيلاً العلاجات الوقائية التي تحول بيننا وبين الكوارث التي يلحقها بنا التاريخ والطبيعة كعلاج لمشكلاتنا (عدم التوازن بين عدد السكان والطعام المتاحة). لقد اقترح وقف الإعانات عن الفقراء وعدم التصدي للمشروعات الخاصة (الحرّة) واقترح ترك قانون العرض والطلب ليفوم بدوره في العلاقات بين المنتجين والمستهلكين وبين العاملين وأصحاب العمل. واقترح وضع العوائق أمام الزواج المبكر لخفض نسبة المواليد. إن التزامنا هو إلا نتزوج إلا بعد أن نكون إكفاننا في حالة تسمح لنا بدعم (رعاية) أبنائنا (83) وفوق هذا يجب أن يتعلم الناس كيف يكبحون شهواتهم قبل الزواج وبعده ولا بد أن نتسم الفترة الواقعة بين سن البلوغ والزواج، بالعفة والتزام الفضيلة (93) فإذا ما تم الزواج لا بد أن يمنع الحمل بأي طريقة وبأي صورة من الصور. وإذا لم نلتزم بهذه التدابير أو تدابير مماثلة، فلا بد أن نوطن أنفسنا على مجاعات أو أوبئة أو حروب تقوم بدورها في إنقاص عدد السكان. وتلقى المحافظون البريطانيون ما ورد في كتاب مالتوس كوحى مقدس (إلهي)، وشعر البرلمان وأصحاب الأعمال بأن لديهم ما يبرر موقفهم في مقاومة مطالب الليبراليين - مثل روبرت أوين Robert Owen - التي تتادي بالتخفيف من وطأة قانون العرض والطلب بإصدار قوانين لتخفيف آلام المحتاجين. وسحب وليم بت Pitt المرسوم الذي كان قد قدمه لتوسيع نطاق قوانين إعانة الفقراء (04). وبدت الإجراءات التي كانت الحكومة قد اتخذتها بالفعل ضد الراديكاليين البريطانيين عادلة بفعل مبررات مالتوس واتهاماته لهؤلاء الباعة الجوالين الذين يسوقون المدينة الفاضلة (اليوطوبيا) والذين يصلون البسطاء تضليلاً مأسوياً. واشتد إيمان أصحاب الصناعة البريطانيين في جدوى خفض الأجور لتحقيق الطاعة والانضباط في العمل. وجعل ريكاردو Ricardo من نظرية مالتوس أساساً لعلمه الكئيب his dismal Science (أطلق كارليل Carlyle هذا الاسم العلم الكئيب على الاقتصاد بعد قراءته لكتابات مالتوس). والآن أصبحت كل الشرور تقريباً تعزى إلى خصوبة الفقراء الطائشة أو بتعبير آخر تعزى إلى كثرة إجابهم بشكل غير محسوب - لقد أحدث كتاب مالتوس الاضطراب والفرع في صفوف الليبراليين، فاستغرق جودون عشرين عاماً لإعداد رده وأخيراً أصدر كتابه عن السكان، رد على مالتوس (0281) وكان في غالبه تكراراً لأماله وشكوى من أن مالتوس حول أصدقاء التقدم إلى رجعيين (14). وكان وليم هازلت Hazlitt استثناء: ففي مقال عن مالتوس في كتاب روح العصر (The spirit of the Age 4281) هاجم هذه القدسية التي لاتعرف الرحمة أو بتعبير آخر هاجم نسبة الفسوة إلى الله بكل ما أوتي من طاقة عقلية وحدة في الذهن. لقد ذكر أن خصوبة النبات تفوق كثيراً خصوبة النساء فالحبوب تنتكاث وتتضاعف أسرع بكثير جداً من زيادة الجنس البشري، فمقدار بوشل bushel (مكيال للحبوب يساوي ثمانية جالونات أو نحو 23 لتراً ونصف اللتر) يزرع حقلاً، وهذا الحقل سيثمر حبوباً تكفي لزراعة عشرين حقلاً آخر. ستكون هناك ثورات خضراء green revolutions (24).

وفي أوقات لاحقة راح الكتاب يجمعون الحقائق لإبطال مخاوف مالتوس وتسكينها. ففي أوروبا والصين والهند زاد السكان لأكثر من الضعف بعد مالتوس، ومع هذا كان لديهم من موارد الطعام أكثر من ذي قبل. وفي الولايات المتحدة الأمريكية تضاعف السكان عدة مرات منذ سنة 0081 ومع ذلك زاد الإنتاج الزراعي عن الحاجة وتبقى فائض وفير للتصدير. وعلى العكس مما قاله مالتوس أدى ارتفاع الأجور إلى انخفاض نسبة المواليد. فلم تعد المشكلة نقصاً في البذور أو الحقول وإنما نقصاً في الطاقة غير البشرية (الآلية) لاستخدامها في الزراعة والصناعة، وإمداد القرى والمدن.

وبطبيعة الحال فإن الإجابة الحقيقية بالنسبة إلى مالتوس كانت هي منع الحمل - لقبوله على المستوى الأخلاقي، ولانتشاره وكفايته وقلة تكلفته. لقد حطمت علمانية الفكر الحواجز اللاهوتية التي وضعها رجال الدين في وجه ضبط النسل. لقد حولت الثورة الصناعية الأطفال من موجودات اقتصادية ذات نفع كما كان الحال عند عملهم في المزارع إلى موجودات معوقة اقتصادياً في المدن إذ راح تشغيل الأطفال ينقص تدريجياً، وارتفعت تكاليف التعليم وزاد ازدحام المناطق الحضرية. وانتشر الوعي (الذكاء) فقد تحقق الرجال والنساء أن الأحوال التي تغيرت لم تعد تتطلب أسرة كبيرة العدد. وحتى الحروب لم تعد تتطلب حشوداً من الشباب ينتشرون في مواجهة حشود أخرى ليلقوا مصرعهم بقدر ما أصبحت في حاجة إلى الابتكار التقني لتحقيق التدمير المادي. وعلى هذا فالرد على مالتوس لم يكن متمثلاً في نظريات جودون وإنما من المالتوسيين الجدد Neo Malthusians ودعوتهم إلى ضبط النسل. وفي سنة 2281 نشر فرانسيس بلاس Place كتابه توضيحات وبراهين حول قضية السكان. لقد وافق على المبدأ الذي وضعه مالتوس والذي مؤداه أن السكان يزدون بمعدل أسرع من زيادة مقادير الطعام. ووافق على ضرورة وضع قيود على الزواج لكن ليس بتأجيله وإنما الأفضل قبول منع الحمل كبدل شرعي ومقبول - نسبياً - من الناحية الأخلاقية لمواجهة الخصوبة الطبيعية العمياء (غير الموجهة) والتدمير الجماعي الذي تسببه الحروب.

(وكان هو نفسه قد أنجب خمسة عشر طفلا مات منهم خمسة في مرحلة الطفولة) وقد وزع في لندن نشرات طبعها على نفقته الخاصة يدعو فيها لضبط النسل وواصل معركته (دعوته) هذه حتى موته وهو في الثالثة والثمانين من عمره (مات سنة 4581). ولقد عاش مالتوس عمرا طويلا يسمح له بالشعور بمدى قوة حجج بلاس Place. وفي سنة 4281 ساهم في دائرة المعارف البريطانية بمقال راجع فيه نظريته وتراجع عن نسبه الرياضية المرعبة، وركز - بشكل جديد - على زيادة عدد السكان كعامل في النضال من أجل الوجود. وبعد ذلك بسنوات طوال كتب شارلز دارون في سيرته الذاتية:

في أكتوبر سنة 8381 بعد أن بدأت بحثي النظامي بخمسة عشر شهرا، حدث أن قرأت - ترفيها عن نفسي - كتاب مالتوس عن السكان وكنت مهيا لتقدير قيمة الصراع من أجل البقاء ... من خلال ملاحظاتي المستمرة الطويلة لعادات الحيوانات والنباتات. لقد أذهلني ذات مرة أنه في ظل هذه الظروف فإن التغييرات الملائمة (المناسبة) ستسبب حفظ النوع، والتغييرات غير الملائمة ستؤدي إلى التدمير. ونتيجة هذه العملية هو ظهور أجناس جديدة. وهنا أمسكت بنواصي نظرية البقاء للأصلح

وعلى هذا وبعد نحو جيل استمر فيه المزيد من البحوث والتأمل والتفكير نشر دارون في سنة 9581 كتابه أصل الأنواع The Origin of species وهو الكتاب الأكثر تأثيرا في القرن التاسع عشر. إن سلسلة من الأفكار تزين السلسلة الكبرى للوجود وتشكل تاريخ الحضارة.

صفحة رقم : 14646

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الفلسفة الإنجليزية -> بنثام عن القانون

4- بنثام: عن القانون

استخلاص أفكار جرمي بنثام أصعب من استخلاص أفكار جودون ومالتوس، لأن جودون قدم مثاليات مغربية، ومالتوس قدم بعض الرعب الفاتن أما بنثام (8471 - 2381) فكتب في الاقتصاد والربا والمنفعة والقانون والعدالة والسجون - بالإضافة إلى أنه كان ماردا انعزاليا ظل يتعلم بلا نهاية، دائم التفكير في الأمور التي يصعب تحديدها، وكان لا ينشر إلا قليلا وفكر في إصلاح كل شيء، وتذمر من اقتران العملاقين (العوليين): المنطق والقانون، واستمر تأثيره يزداد في أثناء حياته (بلغ من العمر 48 عاما) وساد طوال قرن.

لقد كان ابنا لمحام ثري كاد يسحقه من كثرة التعليم. وقيل إنه قرأ في الثالثة من عمره كتاب تاريخ إنجلترا ذي الثمانية مجلدات الذي ألفه بول دي رابين Paul de Rapin وكان قد بدأ تعلم اللغة اللاتينية وهو في هذه السن (كانت هذه التربية القاسية الخائفة قد انتقلت إلى جيمس ميل Mill تلميذ بنثام وطبقها على ابنه جون). وفي مدرسة وستمنستر Westminster تفوق جيرمي في كتابة الشعر باليونانية واللاتينية.

وفي أكسفورد تخصص في المنطق وحصل على درجته العلمية وهو في الخامسة عشرة من عمره. وواصل دراسة القانون في لينكولن Lincoln لكن اضطراب كتب القانون أثار سخطه وانتهى إلى إدخال المنطق والنظام للتشريعات البريطانية وعلم القانون في بريطانيا مهما كلفه ذلك. وفي ديسمبر سنة 3671 وكان في الخامسة عشرة من عمره سمع مديح وليم بلاكستون William Blackstone للقانون البريطاني فاعتزته الدهشة والسخط لهذا النفاق الصّدّاح الذي سيؤخر الإصلاح التشريعي ولا شيء غير ذلك ويكاد يكون قد قضى عمره منذ ذلك الوقت حتى وفاته في إدخال المنطق والاتساق والروح الإنسانية للقانون الإنجليزي. لقد سأل نفسه: أدي عبقرية في أي شيء؟ ماذا أستطيع أن

أنجز؟ ما هو الأكثر أهمية في هذه الحياة؟ التشريع. ألدني عبقرية في التشريع (سن القوانين)؟ لقد أحببت نفسي خائفا مرتجفا: نعم(34) إن هذه الثقة وهذا الاعتزاز المصحوب بالخوف يمكن أن يكون ينبوعا للإنجاز .
لقد جلب إلى عمله الروح العملية (الواقعية) وسيف النظام والمنطق (العقل). لقد امتنع من التجريبات شديدة الوطأة، امتنع من المجردات كالواجب والشرف والسلطة والحق. لقد أراد أن يحولها إلى حقائق مشخصة (محددة) وأن يفحص كل جزء ليعرضه على الحقيقة من خلال وجهة نظر ثاقبة مثابرة. فما هو الحق - على سبيل المثال؟ أهو طبيعي natural - شيء مرتبط بنا منذ الميلاد كما افترض إعلان حقوق الإنسان الذي أصدرته الثورة الفرنسية؟ أم أنه مجرد حرية فردية تابعة للصالح العام أو في إطار الصالح العام؟ ما هي المساواة؟ أئمة شيء اسمه المساواة خارج نطاق المفاهيم الرياضية المجردة؟ هل التفاوت (عدم المساواة) قدر لا فكاك منه لكل كائن حي سواء عدم المساواة في القدرات أو الممتلكات أو السلطان؟ - ما هو القانون الطبيعي؟ وما هي الحصافة أو الفطرة السليمة Common sense؟ كل هذه المجردات - في رأي بنتام هراء(44) تضلل به الجامعات والبرلمانات والمحاكم .
وقد يمكننا أن نتخيل ما أحدثه هذا الواقعي realist في اللاهوت السائد في عصره وفي بلاده. إنه لم يجد جدوى في الألوهية التقليدية عند محاولته النظر بتجرد إلى عالم العلم أو التاريخ أو الاقتصاد أو الحكم(54). لقد حاول أن يمسخ لسانه الحاد الدرب عن هذه الأمور لأنه شعر أن الكنيسة الإنجليكانية تعد كنيسة عقلية (تحتزم العقل) بالنسبة إلى غيرها من الكنائس، وقد تكون خيرة، لكن الإكليروس (رجال الدين) شعروا بخصومته الصامتة وشجبوا مذهبه النفعي his utilitarianism تماما باعتباره فلسفة إحادية (godless philosophy) 64) لقد بدأ بمحاولة عزل بلاكستون Blackstone كاقنصادي يقوم بدور في نسج الدستور البريطاني، لقد بدا له هذا الوجود الباطني (الغامض) كخليط وناتج عتيق (عفا عليه الزمن) لمصادفات وأمور عارضة يتسم بالتناقض والتناقضات المتعجلة غير قائم على منطق ولا أساس، وعلى هذا أصدر بنتام واحدة من الشرارات من سندانه، إنه كتابه Afragment on government (6771) - كأول سهم تطلقه الراديكالية الفلسفية philosophical radicalism التي كان عليها أن تناضل طوال نصف قرن قبل أن تحرز نصف انتصار في سنة 2381.

وفي الوقت الذي قام فيه هذا المتحدي البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاما بامتداح بلاكستون Blackstom لأنه علم القانون أن ينطق لغة الباحثين والسادة الأماجد gentlemen إلا أنه لامه لانه فقص الدستور فجعله لا ينص إلا على سلطة الملك المطلقة. وعلى العكس من ذلك فالدستور السليم (الذي يميز الخطأ من الصواب) هو الذي يوزع سلطات الحكومة بين أجزائها (مكوناتها) المختلفة، ويسهل تعاونها وفرضاها للتقيد المتبادلة - فالمبدأ الهادي للمشرعين يجب ألا يكون هو الرغبة في الهيمنة وإنما تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكثر عدد من الناس فهؤلاء الناس هم هدف التشريع والتشريع لم يوضع إلا لهم، والاختبار الصحيح لأي قانون مقترح هو مدى نفعه لتحقيق هذه الغاية (إسعاد أكبر عدد من الناس)(74) هنا نجد أن مبدأ النفعية الشهير كان هو جوهر تعاليم بنتام التشريعية والأخلاقية. لقد كان هناك ارتباط ملحوظ بينه وبين إعلان الاستقلال الذي أصدره توماس جيفرسون في هذا العام نفسه. باختصار لقد تعانق التاريخ والفلسفة وعمل التراث المسيحي - بغير قصد من بنتام - على توثيق عرى هذه الوحدة (المقصود هذا التلازم) ومباركتها. لقد كتب بنتام كتابه الصغير الذي عرض فيه أفكاره هذه بأسلوب أكثر وضوحا وبروح أكثر جاذبية من مباحثه اللاحقة. والآن راح يقضي بعض الوقت في السفر والترحال. ومن روسيا أرسل في سنة 7871 إلى إنجلترا مبحثه دفاع عن الربا Defence of usury - أي الفائدة. لقد عارض الإدانة اللاهوتية للفائدة interest، ففي مجال الاقتصاد ومجال السياسة يجب أن يترك الفرد حرا في تنفيذ ما يراه على وفق لأحكامه على أن يكون هذا في صالح المجتمع. لقد كان بنتام ليبراليا ولكن الكلمة (ليبرالي) في المفهوم السائد في القرن الثامن عشر كانت تعني المدافع عن الحرية. لقد اتفق مع الفزيوقراط Physiocrates ومع جيفرسون على أن يكون تدخل الدولة في حرية الفرد في حده الأدنى. لقد كان راديكاليا - يحب الوصول إلى جذور الأمور، ولكنه لم يكن مؤيدا لتأميم الصناعة. وفي سنة 7871 لم تكن الصناعة منتشرة انتشارا كبيرا ليطالب بتأميمها.

وعند عودته من روسيا أعد لنشر كتابه المهم: مبادئ الأخلاق والتشريع The Principles of Morals & Legislation (9871)، ارتبط طبعه بالتواريخ الثورية). لقد كان كتابا صعبا مدعما بصرامة التعريفات لدرجة تترك القارئ غير المختص مشوشا لكن بنتام كان يأخذ على عاتقه عملا عقليا مجهدا: لقد كان يهدف إلى إحلال الأخلاق الطبيعية محل اللاهوت، وإقامة السلوك والقانون على أسس قوامها صالح المجموع أو الوطن أكثر من إقامتها على أسس قوامها إرادة السلطة التنفيذية أو مصالح طبقة من الطبقات، وتحرير القانون والسلوك من فروض الدين من ناحية ومن الأحلام الثورية من ناحية أخرى.

إن هذه الأسس الجديدة - لكل من الأخلاق والقانون - قامت على مبدأ النفعية - فائدة الفعل act للفرد، وفائدة العادة للجماعة، وفائدة القانون للشعب وفائدة الاتفاقات الدولية للجنس البشري. وذهب بنتام إلى أن كل النظم تسعى لتحقيق المسرة وإبعاد الألم. وعرّف السرور بأنه أي ترضية وعرّف الألم بأنه أي إزعاج سواء للبدن أو النفس. والنفعية هي

ميزة تحقيق السعادة أو اجتناب الألم، والسعادة هي استمرار السرور. والنفعية لا تحتاج لقصرها على الفرد فقد تكون - جزئياً أو أساساً - للأسرة أو المجتمع أو الدولة أو الجنس البشري. وقد يجد الفرد (من خلال غرائزه الاجتماعية) السعادة أو تجنب الألم في ربط ما يرضيه بما يرضي الجماعة التي ينتمي إليها (84) وعلى هذا فعلاوة على تحقيق الهدف العاجل، فإن الهدف النهائي والمحك الأخلاقي لكل الأعمال والقوانين هو مدى إسهامها في تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكثر عدد. قد يكون لدى صديق هو أعز الأصدقاء لكنني إن عرفت أن مصالحه تتعارض مع مصالح المجموع، فإنني لن أضع مصالحه في اعتباري. إنني سأخدم أصدقائي وأتوقع أن يخدموني (94) ولم يدع بنتام أنه أصل هذه الصيغة النفعية. لقد أعلن بصراحته المعتادة - أنه وجد أساسها في كتاب جوزيف بريستلي Joseph Prestly مقال عن المبادئ الأساسية للحكم (Essay on the first principles of Government (8671) وكان يمكن أن يجده في كتاب فرانسيس هنتسون Hutcheson عن الخير والشر في الأخلاق Enquiring Concerning (5271 Moral Good & Evil) حيث عرف المواطن الصالح بأنه الذي يقدم أقصى قدر من السعادة لأكثر عدد من الناس (05) أو في كتاب بيكاريا Beccaria الموسوم باسم: (Trattato dei delitti e delle pene (4671) الذي وصف لنا محك الأخلاق وهدفها La massima felicità divisa nel maggior numero أو كما أورد هيلفييتيوس Helvetius - بشكل أوضح - في كتابه عن الروح 8571 De L'Esprit... النفعية هي أساس كل الفضائل البشرية وأساس كل التشريعات ... فكل القوانين يجب أن تتبع مبدأ واحدا - منفعة العامة - أي أكبر عدد من الناس يعيشون في ظل الحكومة نفسها (15) إن بنتام لم يفعل أكثر من تقديم صيغة كمية لوصية الكتاب المقدس أحب لبارك ما تحب لنفسك (25) لقد كان إنجازهم هو تطبيق مبدأ السعادة القصوى على قوانين إنجلترا. لقد أصبح لديه الآن حقيقة أخلاقية فكرتها واضحة وأصبح لديه معيار يمكن به الحكم على وصايا المبشرين وتحذيرات المعلمين ومبادئ الأحزاب وقوانين المشرعين ومراسيم الملوك. فلا يجب أن يقدم القانون كليات غامضة (باطنية) كالحقوق الطبيعية أو جماهيرية أو مقدسة (الهيبة) ولا يجب عليه أن يقدم وحيا أو حاه الله إلى موسى أو محمد أو عيسى، ولا عقوبات بقصد الثأر. فكل اقتراح تشريعي يجب أن يجيب عن هذا السؤال: ما هو الأفضل أو ما هو الأصح؟ ما هو الأصح للفرد أو للأقلية أو للكثرة أو للجميع؟ فالقانون يجب أن يكيف نفسه مع الطبيعة البشرية التي لا سبيل لتغييرها ومع القدرات المحدودة للبشر ومع الحاجات العلمية للمجتمع، ولا بد أن يكون واضحا ويسمح بالتنفيذ أو التطبيق العملي والمحكمة العاجلة والحكم الحازم والعقوبات الصحيحة والإنسانية. ولهذه الغايات كرس بنتام الفصول العشرة الأخيرة من كتابه والسنوات الأخيرة من حياته.

وفي هذه الأثناء راح يطبق معياره هذا على القضايا المثارة في أيامه. لقد أيد آراء الفريزر في مبدأ عدم التدخل الحكومي في الشؤون الصناعية وإدارة الشؤون العامة Politics إلا في الحدود الدنيا، فالفرد هو - بشكل عام - أفضل من يجيد الحكم فيما يحقق سعاده ولا بد من تركه حرا في نطاق ما هو مقبول اجتماعيا، وعلى أية حال لا بد أن يشجع المجتمع المؤسسات الخيرية التي يتنازل أعضاؤها عن جانب من حريتهم لتوحيد الجهود لخدمة قضية عامة. وانطلاقا من المبادئ نفسها دافع بنتام عن حكومة التمثيل الغيابي فهي الأفضل مع كل أخطائها ومفاسدها. وقد لاقى كتاب مبادئ الأخلاق والتشريع ترحيبا وثناء على نطاق واسع أكثر مما كان متوقعا فقد كان الكتاب صعبا في صياغته ذا روح انتقادية وذا منحى علماني. وكان الترحيب به خارج البلاد أشد حرارة من الترحيب به داخلها. لقد ترجم في فرنسا التي جعلت مؤلفه مواطنا فرنسيا (منحته حق المواطنة الفرنسية) في سنة 2971. وراسله القادة السياسيون والمفكرون وأنته الرسائل من العواصم المختلفة ومن جامعات أوروبا. وفي إنجلترا أدان المحافظون Tories مبدأ النفعية باعتباره مبدأ غير وطني وغير مسيحي وأنه مبدأ مادي. ودافع بعض الكتاب ذاكرين أن أفعالا كثيرة - مثل الحب الرومانسي والأبوي والتضحية بالنفس وتبادل المساعدة - لا تتطوي على حسابات واعية بارضاء الذات (أو إشباع رغبات الذات)، واعتري الفنانون الإحباط للحكم على أعمالهم الفنية بمقياس المنفعة. لكن الجميع فيما عدا الموظفين الحكوميين وافقوا على أن النفع الذاتي هو خلق كل الحكومات وسياساتها إذا نحينا جانبا الادعاء والخداع.

لقد عاش بنتام لفلسفته وجعل أعوامه مفيدة بشكل متواصل. لقد ناضل في كتابه عن العقلانية في الدليل القضائي (Rationale of Judicial Evidence (5281) وفي مواضع أخرى ليوضح القوانين القديمة والحالات المعاصرة ونجح في تحديث (التخفيف من وطأة) المبالغات البربرية في أساليب إدارة السجون ومعاملة المجرمين. وبدأ في سنة 7281 - وكان قد بلغ التاسعة والسبعين من عمره - في تقنين Codify القوانين الإنجليزية لكن المنية وافته بين المجلد الأول والثاني. وقد ساهم في تأسيس (The Westminster Review (3281) كمسبر للأفكار الليبرالية. وجمع حوله جماعة من التلاميذ والمريدين اعترفوا بحرارة قلبه وطيبته رغم فظاظته الخارجية. وكان بيير إيتين دومون - Pierre Etienne Dumont داعيا لأفكاره في فرنسا، وجيمس ميل Mill - المفكر البارز - حرر بنفسه المخطوطة التي كتبها بنتام، ورفع جون ستيوارت مل Mill الدافع أو السبب من مرحلة الحساب إلى مرحلة الإنسانية.

لقد عمل هؤلاء الفلاسفة الراديكاليون بقيادة بنتام على حق التصويت للذكور البالغين والاقتراع السري وحرية التجارة وتحسين الصحة العامة وتطوير السجون وتطهير القضاء و عفة مجلس اللوردات وتطوير القانون الدولي. وحتى سني الستين من القرن التاسع عشر أكد أتباع بنتام فلسفته المنطوية على الفردية والحرية. وفيما بعد ترصدت الاشتراكية لمقولة سعادة أكثر لأكثر عدد من الناس وحولت تيار الإصلاح نحو استخدام كمثل لإرادة العامة في مهاجمة الأمراض الاجتماعية. وبينما كان بنتام يحتضر كان يفكر في أن يجعل جنته مفيدة تماماً لأكثر عدد من الناس فأوصى بتشريح جنته في حضور أصدقائه. وحدث هذا بالفعل وبعد تشريحها ملئت جمجمته بالشمع - وطلبت به وتم لباس هيكله العظمي الملابس الداكنة التي اعتاد (بنتام) ارتداها، ووضع بشكل منتصب في صندوق زجاجي في الكلية الجامعية في كيمبردج ولازال موجوداً حتى الآن.

صفحة رقم : 14647

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الأدب والفكر في مرحلة انتقال -> الصحافة

الفصل العشرون

الأدب والفكر في مرحلة انتقال

1- الصحافة

إن كانت فرنسا قد هيمنت على المسرح السياسي في هذه الحقبة، فقد كانت إنجلترا هي قائدة الأدب والحركة الفكرية. فإذا استثنينا شاتوبريان فَمَنْ لفرنسا في هذه الفترة يمكن مقارنته بورذورث Wordsworth وكولردج Coleridge وبابرون Byron وشلي؟ ولم تُدرج كيتسي (Keats 1795-1821) في هذه القائمة فأعماله الكبرى لا تدخل في مجال مقارنتنا الحالية، فقد كانت أزهى الورود في الشعر الإنجليزي طوال أربعة قرون بعد عصر إليزابيث الأولى.

فحتى الرسائل المتبادلة كان يمكن اعتبارها في ذلك العصر أدباً، فخطابات بابرون وكولردج تبدو أقرب إلى روحنا من أشعارهما. وفي تلك الأيام عندما جرت العادة أن يدفع المرسل إليه ثمن طابع البريد، فإنه كان يطلب لقاء ما دفعه ثروة أو أسلوباً (المقصود أنه كان يتوقع نظير دفعه لتكاليف البريد أن يكون الخطاب مشتملاً على أموال أو أن يكون على الأقل ذا أسلوب جميل) وكان معنى أن يتلقى خطاباً من هذه الأرواح المتوهجة (المقصود الشعراء المشاهير) أنه حصل على جواز سفر يخلد ذكره بعد الوفاة.

ولم تكن الصحف على أية حال تمثل أدبا وفكراً. فعادة ما كانت الصحيفة صفحة كبيرة مطوية لتصبح أربع صفحات؛ الأولى والرابعة للإعلانات، والصفحة الثانية تتناول السياسة بما في ذلك ملخص للأعمال البرلمانية في اليوم

السابق . وكان يصدر في لندن عدة صحف يومية: خاصة التايمز Times (الأزمنة) التي أسست في سنة 8871 وكانت تباع نحو خمسة آلاف نسخة ، والكوريير Courier (الوقائع) التي تباع عشرة آلاف نسخة، وصحيفة مورننج بوست Morning Post وهي صحيفة حزب الأحرار Whigs (حزب الهويج الذي عُرف فيما بعد بحزب الأحرار) والمرقب Examiner صوت الليبراليين من أمثال لاي هنت Leigh Hunt. وكان لكل مركز من المراكز التي لها ممثلون في البرلمان ولكل كونتية (إقليم أو مقاطعة) صحيفته الخاصة وأحياناً صحيفتان، واحدة للضالعين في السلطة، وأخرى لغير الضالعين فيها. وكانت هناك صحف أسبوعية مختلفة كان أشهرها بولينيكال ريجستر (المسجل السياسي) التي يصدرها وليام كوبيت William Cobbet وكان هناك عدة دوريات سياسية واجتماعية وأدبية. كان أقواها مراجعات أدنبره Edinburah Review التي تصدر أربع مرات في السنة (فصلية) وكان قد أسسها في سنة 2081 كل من فرانسيس جفري Francis Jeffery وهنرى بروهام Brougham وسدني سميث Sydney Smith للدفاع عن الأفكار التقدمية والمراجعات الفصلية Quarterly Review التي أسسها في 7081 جون مري Murry وروبرت سوثي Sauthy والتر سكوت Scott للدفاع عن أفكار حزب المحافظين (التوري Tory) وكانت سلطة الصحافة عنصراً مهيمناً على الساحة البريطانية. فلم تعد أداة للتعبير الأدبي كما كانت في الأيام المتمهلة التي عاشها أديسون وستيل Addison & Steele وإنما أصبحت منفذاً للمعلنين ولساناً ناطقاً باسم الجماعات السياسية . وما دام المعلنون يدفعون على وفق مدى انتشار الصحيفة فقد كان على المحرر والناشرين أن يضعوا في اعتبارهم الرأي العام حتى لو كان هذا على حساب الحزب في السلطة ، وعلى هذا راحت الصحافة تسخر من أبناء الملك الذين لا عمل لهم رغم كل جهود الحكومة لحمايتهم، وبالتدريج وكلما تقدمت أعوام القرن التاسع عشر، أصبحت الصحافة أداة - أصبحت أخيراً أداة لا مفر منها - للديمقراطية الصاعدة

صفحة رقم : 14648

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الأدب والفكر في مرحلة انتقال -> الكتب

2- الكتب

تضاعف عدد الكتب مع نمو الطبقة الوسطى وزيادة عدد القراء وأصبح النشر عملاً مربحاً بشكل كاف حتى إنه أصبح مهنة مستقلة، منفصلة عن بيع الكتب - لقد تنافس الناشر للتعاقد مع المؤلفين ودفعوا لهم مبالغ جيدة وكرمهم في الصالونات الأدبية ومن هنا وجدنا الناشر جوزيف جونسون Joseph Johnson يفوز بالنشر لجدون Godwin وبين Paine وبلايك Blake، ووجدنا الناشر أرشيبالد كونستابل Archibald Constable يشرك والتر سكوت في ديونه، ووجدنا توماس نورتون لونجمان Longman ينشر لوردزورث Words worth وجوزيف كوتل Cottle - في بريستول Pristol - ينشر لكولردج وسوثي. ووجدنا جون مري Murry - من لندن- يستأثر ببايرون Byron ويتحكم في تجواله. وفي هذه الأثناء راحت شركة آل لونجمان العريقة تتفق ثلاثمائة ألف جنيه لنشر طبعة جديدة (9181) من موسوعة شامبرز Chamber Cyclopoedia s في 93 مجلداً، وصدر من الموسوعة البريطانية ثلاث طبعات جديدة في فترة وجيزة - الطبعة الثالثة في 81 مجلداً (8871 - 7971)، والطبعة الرابعة في 02 مجلداً في سنة 0181 والطبعة الخامسة في 52 مجلداً في سنة 5181. وكان الناشر يدفع مبلغاً إجمالياً (دفعه واحدة) عند تسلمه مخطوط الكتاب من المؤلف، ولا يتحدد المبلغ بنسبة من سعر كل نسخة مبيعة، كما كان الناشر يدفع بعض المال بالإضافة إلى هذا المبلغ الإجمالي الأنف ذكره إذا طبع من الكتاب طبعات أخرى وذلك بعد بيع النسخ المطبوعة من هذه الطبعات

الجديدة، ومع هذا فقد كان قليلون من الكتاب هم الذين يعيشون من حصاد مؤلفاتهم - لقد هيا التأليف لتوماس مور Moore معيشة مريحة، وكان الأمر مشكوكا فيه بالنسبة إلى سوثرى Southy وهازلت Hazlitt، وتراوحت حياة سكوت Scott بين الثراء والفقر. لقد خلف الناشرون النبلاء كحماة للأدب والفكر وظل بعض الأثرياء يقدمون يد العون، ومن هنا رأينا آل ودجودز Wedg woods يقدمون العون المالي لكولردج Coleridge ووجدنا ريزلي كالفرت Raisley Calvert يوصي لوردزورث بتسعمائة جنيه، وأرسلت الحكومة للمؤلفين حَسَنِي السلوك مكافآت شرفية في المناسبات، ورعت شاعر البلاط بمائة جنيه لذا كان من المتوقع أن يُولف قصائد تتناول نصرا حققه الجيش، أو تهنئة بمولود ملكي أو زواج ملكي أو رثاء لفقيد من الأسرة المالكية.

وقد عاق حركة القراءة العامة ارتفاع أسعار الكتب، لكن حركة القراءة هذه قد زادت بانتشار نوادي الكتب وبتاحة الاستعارة من المكتبات التي كان أفضلها المكتبة العامة (قاعة المطالعة أو الأثينايوم Athenaeum) وقاعة المحاضرات (الليسيوم Lyceum) وكلتاهما في ليفربول، وكان في الأولى ثمانية آلاف مجلد وفي الأخرى أحد عشر ألفا. وكان على المشترك أن يدفع رسماً (اشتراكا) سنويا يتراوح ما بين جنيه (إنجليزي) وجنيهين مما يعطيه الحق في استعارة أي كتاب من الكتب المصنوفة فوق الرفوف. وكان في كل مدينة مكتبة لإقراض (إعارة) الكتب. وكلما انتشرت القراءة بين العوام متخطية حدود الطبقة الوسطى فقدت شيئا من مذاقها ومستواها. فكما اتسع جمهور القراء زاد التحول من التراث الكلاسي إلى الكتابات العاطفية (الرومانسية) ومما ساعد على هذا التحول أيضا زيادة اعتناق حب الشباب وانفلاته من الرقابة الأبوية وروابط الملكية (بكسر الميم) وكان من الممكن توظيف حكاية حب واحدة في خلق مائة عقدة قصصية. إن موضوعات ريتشاردسون Richardson المبكية مستقاة من حكايات فيلدنج Fielding عن العشاق المتيمين ومن حكايات سمولت Smollett عن المغامرين المفعمين رجولة.

لقد غلبت النساء (المقصود الشخصيات النسائية) على أعمال الروائيين باستثناء متى مونك Monk لويس وقصة أميروزيو Ambrosio أو الراهب (5971) التي عرض فيها مشاهد مرعبة، ويليه في مدرسة الغموض والرعب السيدة أن راد كليف Ann Radcliffe، فهي فقط التي تستحق المكانة الثانية بعده في هذه المدرسة بأعمالها الناجحة: قصة صقلية (0971) قصة الغابة (1971) وأسرار أدولفو (4971) وعادة ما يطلق العامة من الإنجليز على مثل هذه الكتب: قصص romances (من الكلمة الفرنسية roman التي تعني قصة) أما الكلمة novel فخصصت للأعمال القصصية الممتدة التي تتناول أحداثا طبيعية في حياة مألوفة كما هو الحال في كتابات فيلدنج Fielding و الكاتبة جين أوستن Jane Austin وقد وصلت روايات ويفرلي التي ألفها سكوت بين هذين الفرعين أو بتعبير آخر كانت عوانا بينهما. وفي القصص الرومانسي تفوقت النساء على الرجال، وكان هذا أمراً طبيعياً. لقد أحدثت فرانسس (فاني Fanny) بيرنى (Fanny) Frances Burney (زوجة بروايتها إيفيلينا Evelina 8771) واستمرت رواياتها كشرارات في الوسط الأدبي: سيسيليا Cecilia (2871) وكاميليا Camilla (6971) والمتجول Wanderer (4181) وبعد موتها (0481) شغلت يومياتها (2481) جيلاً آخر وكانت ماريا إيجورث Maria Edgeworth أكثر شهرة، فروايتها (0081 Castle Rackrent) والمتغيب (2181 Absentee)؟) اتسمتا بالواقعية وقدمتا وصفا تفصيليا لاستغلال اللوردات الإنجليز للأيرلنديين لدرجة أن إنجلترا نفسها تأثرت وعملت على تخفيف هذه الشرور. ولم تتفوق عليها من نساء عصرها المؤلفات سوى امرأة واحدة فاقت الرجال جميعاً.

صفحة رقم : 14649

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الأدب والفكر في مرحلة انتقال -> جين أوستن

كل المغامرين في قصصها كانت هي وكيلة عنهم (تتحدث باسمهم)، وما دامت تجد في الحياة العادية للأرستقراطيين والمهذبين إغراء كافيا فلم تكن في حاجة لإضافة إلا ما هو قليل - فهذه الحياة العادية لهذه الطبقة كانت عامرة بنساء متعلمات حساسات مثلها. وكان أبوها قسًا لأبرشية ستيفنتون Steventon في هامبشير Hamps hire. لقد وُلدت - إذن - في بيت قس وعاشت فيه حتى بلغت السادسة والعشرين من عمرها. وفي سنة 9081 قدم أخوها إدوارد لأمه وأخواته بيتا في شوتون Chawton. وعاشت في هذا البيت حتى العام الأخير من عمرها وكانت تغير نمط حياتها البسيط بالقيام بزيارات لإخوتها وبالإقامة في لندن. وفي مايو سنة 7181 ذهبت إلى ونشستر Winchester لتعالج من مرض ألم بها فقضت نحبها في 81 يوليو عن عمر يناهز الواحدة والأربعين ولم تكن قد تزوجت. وقد أعطت لحياتها معنى وأضفت عليها تشويقا بالحلب الأخوي الذي جعل خطاباتها دافئة، بفكاهاتها الساخرة الخفيفة التي يشع منها الذكاء تلك الفكاهات التي تقتنص ما في الحياة من سخف وقلق باطني، ثم إنها راحت تصور كل هذا دون مرارة، ومما أضفى أيضا على حياتها معنى سعادتها بمشاهد الريف وإيقاع الحياة السهل فيه. وكان لديها من الأسباب ما يكفي لتكره مدينة لندن فهي لم تقدم لنا صورة مشوقة لها وإنما عرضت الحياة فيها عوانا بين الفقر المزري والفساد المتأصل وصورتها كمكان لا تأتي إليه البنات الريفيات إلا ليتعرضن للاغتصاب. لقد شعرت أن أفضل أنواع الحياة في إنجلترا هي حياة الطبقة الأرستقراطية الدنيا في الريف الإنجليزي. ففي بيوتهم تراث متوارث وانضباط يؤدي إلى شيوع الاستقرار والرضا والقناعة. وفي هذا الجو المشبع سلاما قلما يسمع المرء عن الثورة الفرنسية، ونابليون في هذا الوسط غول أوشبح بعيد جدا، إنه أبعد ما يكون عن انتزاع المرء من أشغاله الأكثر أهمية المتمثلة في اختيار الشريك المناسب ليراقصه أو ليعيش معه. وفي بيوت هذه الطبقة يجد المرء للدين مكانا يحفظه إذ إنهم نزعوا من الدين ما يجعله يسبب الرعب نتيجة التكلف الباطني (المقصود غالبا المصطنع) الذي قد يزدهر في بيت قسيس. ولم تكن الثورة الصناعية قد وصلت بعد إلى الريف لتغيظ الطبقات وتشوه المناظر وتلوث الهواء. إننا نسمع صوت جين أوستن الموثوق والموثوق به في مواسمها لفاني بريس Fanny Price التي كان عليها أن تقضي شهورا في لندن على غير رغبتها:

لقد حزنت فاني لا افتقارها كل مباهج الربيع .. إنها لم تكن تعرف إلى أي مدى كانت تسببه لها بداية ظهور الأوراق واستمرارها في الاخضرار من بهجة وسرور، إلا بعد أن افقدتها. يا للانتعاش الذي كان يحس به الجسد والروح عند مراقبة تقدم الربيع الذي لا يمكن - رغم نزواته وتقلباته - أن يكرهه المرء... انظر إلى جماله الذي يزداد رويدا رويدا من بداية ظهور وروده الباكورة في أكثر الأجزاء دفنا في حديقة خالتها إلى البراعم في مزرعة عمها وعظمة الأشجار وسموقها(1).

لقد كانت مثل هذه البيئة هي التي أضفت على روايات جين أوستن جوا منعشا من السلام والصحة والطبيعة - إنها بيئة تمثل المنزل المريح والحديقة ذات العبير والتجول في الأمسيات مع الأخوات السعيدات، وكلمات التشجيع التي كانت تسمعها من أبيها عن تصفح مخطوطات رواياتها، هذا كله جعل قراءها من النوع غير التعجل الذين كانوا راضين بهدوء عما يقرأون وقلما نجد قراء من هذا النوع لأي نوع من الروايات. لقد تعلمت أن النهار نفسه به ما يكفي من البركة.

لقد كتبت رواياتها الست وصبرت كثيرا على عدم نشرها. نفي سنة 5971 - وكانت قد بلغت العشرين - ألقت أول أعمالها الشعور والإحساس لكنها لم تكن راضية عنه وفي العام التاليين أنهت روايتها الكبرياء والكراهية وواصلت مراجعتها وتنقيحها وأرسلتها إلى الناشر وأعادها إليها لأنها لن تحقق ربحا. وفي سنة 8971 - 9971 وضعت التخطيط العام لرواية دير نور ثاجر فاشترى كروسبي Crosby حق نشرها لكنه تركها - بعد أن دفع للمؤلفة - دون نشر. ثم مرت بها فترة غير مثمرة (بلا إنتاج) ربما كانت بسبب تغير محل الإقامة وربما كانت بسبب عدم التشجيع. وفي فبراير 1181 بدأت كتابة رواياتها حديقة مانسفيلد، وفي نوفمبر أعادت صياغة روايتها الشعور والإحساس وتمت طباعتها. وفي آخر خمس سنوات عمرها ظهر الحصاد الكبير: فوجدت رواية الكبرياء والكراهية ناشرا في سنة 3181 وحديقة مانسفيلد في سنة 4181، وإيما Emma في سنة 6181، وبعد موتها في سنة 7181

ظهرت رواية دير نور ثانجر وبعدها بقليل رواية الإقناع. وتقدم رواية الكبرياء والكراهية في بدايتها خمس أخوات كلهن جاهزات للزواج وتواقات إليه. فقد كانت السيدة بنت Bennet ذات روح منقلبة مندهشة وكانت دعواتها كل صباح أن تجد لبناتها أزواجا، وكان فكرها دوماً يدور حول هذا الأمر. أما زوجها السيد بينت فقد تعلم الهروب من حياته اليومية إلى المكتبة حيث يجد عالماً آخر بلا إزعاج وكان قد تخلى تماماً عن مشكلة تقديم خمس دوبات - من الأراضي والجنهيات - لبناته، فهو يحتفظ ببيته طوال حياته فقط، وبعد الموت ينقل على وفق وصية للسيد المبجل كولنز Collins وهو قس بروتستنتي في مدينة قريبة ولما يتزوج بعد - أه لو أن إحدى بناته (بنات السيد بنت) استطاعت أن توقع هذا القسي في شراكها! لقد كانت كبرى البنات والطفهن (جين Jane). قد عقدت الآمال على الزواج من السيد بنجلي Mr Bingley الثري الوسيم لكن يبدو أنه كان يفضل أخرى، ولم تكن جين تستطيع إخفاء أحزانها إلا بالكاد. أما إليزابيث التي تليها في العمر فلم تكن فخورة بجمال وجهها وقوامها وإنما باستقلالها وكونها شخصية معتمدة على نفسها فكانت تفكر بنفسها في أمر نفسها ولم تكن لتقبل أن تطرح في مزاد. لقد كانت تقراً كثيراً في مجالات مختلفة وكان يمكنها مواجهة أي رجل في مضمار الثقافة والفكر، وأبدت المؤلفه إعجاباً بمثل هذه الشخصية. والأخت الثالثة ماري كانت صالحة للزواج من حيث السن وكانت تواقه إليه وكانت مغیظة ساخطة لأن الأكبر منها سنا سيستغرق وقتاً طويلاً قبل أن يفسح لها الطريق (المقصود أنها لن تتزوج إلا إذا تزوجن). أما ليديا Lydia أصغرهن فكانت مندهشة تتساعل لم يتحتم على البنات أن تنتظر الزواج الرسمي؟ ولم لا يسمح لها باكتشاف أسرار الجنس قبل ذلك؟.

لقد ابتهجت الأسرة بأخبار مفادها أن السيد كولنز Collins يخطط لزيارتها. وكان السيد كولنز هذا رجلاً معتزلاً بنفسه وواعياً بقداسته، لكنه يراعي بعناية الفروق الطبقيّة والمصالح المادية. ومن خلاله قدمت المؤلفه صورة قاسية للتبعية المطلقة للطبقة الاجتماعية المغلقة، تلك التبعية التي وقع فيها هذا القس الإنجليكاني المتدني الرتبة في السلك الكهنوتي. لقد كان هجاء المؤلفه شديداً، لكنه كان واضحاً وعميقاً وحاداً كحد المقصلة.

وأتى الشاب المبجل ورأى أن جين الجميلة منبوعة صعبة القيادة فتقدم للزواج من إليزابيث التي أربكت الأسرة برفضها إياه فقد كانت إليزابيث حبيسة الصورة المثالية التي رسمتها لشريك حياتها. لكن ماري ثوجّه عينها وابتساماتها صوب وريث الثروة الموعود وراحت تلتفت نظره برقتها وقد دفعه هذا إلى طلب يدها من والديها السيد والسيدة بنت، وهي لم تفعل ذلك إلا لإحساسها أن زواج الأخت الثالثة قبل الأخريات سيكون شركاً بكل معنى الكلمة.

لقد بدت كل الأمور على مايرام ولكن ليديا Lydia كانت خائفة أن يفوتها قطار الزواج بسبب تهور السيد وكمان Wickman معها. لقد تلوثت الأسرة كلها بسبب خطيئتها مع السيد وكمان وتجنبها كل الجيران تقريباً. وأرسل السيد المبجل كولنز توبيخاً للسيدة بنت: إن موت ابنتك كان أفضل مما حدث... من الذي سيرتبط بمثل هذه الأسرة؟ (2) وأنقذت إليزابيث الجميع بإغرائها السيد داركي Darcy الطبقي المنحفظ بتمنعها وكبريائها فألقى بملايينه تحت قدميها وأجبر وكمان Wickman على إصلاح خطئه بالزواج من ليديا Lydia وحلت كل المشكلات وعبرت المؤلفه عن هذا بطريقتها الساحرة لدرجة أن السيد بنجلي Bingley اكتشف أنه كان دوماً يحب جين.

أما رواية حديقة مانسفيلد فقد كانت أفضل بناءً، فقد كان الحل متوقفاً في مستهل القصة. ويكاد يكون الإعداد له في كل حدث من أحداث الخطة بشكل تدريجي (خطوة خطوة). ولم تكن شخصيات القصة مجرد دمي في حبكة فنية وإنما كانت أرواحاً تشق طريقها في الحياة بحوية، وكلها توضح بشكل سوي توجيه (أو ملاحظة) هير اكلينوس

Heracleitus التي مؤداها شخصية الإنسان هي قدره (وستكون هذه الملاحظة هي الدليل المرشد في كل القصة) أما الحديقة فمن الممتلكات الجميلة للسيد توماس برترام Thomas Bertram الذي كان أباً أكثر تدقيقاً ومراقبة من السيد بنت. وعلى أية حال فقد ارتكب هو أيضاً أخطاء غريبة؛ فقد انشغل بجمع الثروة والحصول على الرتب الشرفية فترك

ابنه الكبير الذي انحط أخلاقياً وتدهور بدنياً بسبب عدم رعاية أبيه له، وسمح هذا الأب أيضاً لابنته بقضاء إجازة طويلة في لندن حيث تصبح كل أخلاق الريف مجالاً للسخرية مع أن أهل الريف هم عماد الحياة. وكان مما يحسب له أنه تبنى في أسرته فاني بريس Fanny Price ابنة أخت زوجته الفقيرة والمتواضعة والحساسة. وكان محط فخره هو ابنه الأصغر إدmond المكرس للكنيسة والذي وصف بأنه نموذج لما يجب أن يكون عليه رجل الدين. لقد كان بديلاً مؤقتاً للسيد كولنز. لقد استغرق الحديث عن إدmond مئات الصفحات لتؤكد المؤلفه أن تأثيره في فاني كبير، وقد عرضت المؤلفه في سياقها الهادئ ارتباطهما معاً بالطريقة التي يحدث بها مثل هذا الارتباط في الحكايات الكلاسيكية.

لقد كانت جين أوستن حتى في روايتها هذه وفي دراساتها عن الحب كلاسيكية ذات عقل رزين وتتاول ممتاز. ففي زمن سادت فيه أسرار أدولف Udolpbian mysteries وقلاع والبول Walpolian Castles ظلت واقعية وظلت مراقبة تحكم أحكام العقل. وكان أسلوبها عفيفاً محتشماً كأسلوب دريدن Dryden وكانت تقواها غير انفعالية وإنما كانت كنفوى البابا (رزينة متعقلة) وكان مجال اهتمامها ضيقاً لكنه كان عميقاً تسبره بمسبارها. لقد أدركت أن الجانب

الأساسي في الحياة هو تجنيد الفرد لخدمة الجنس البشري، فحتى أزمات الحكومات وصراع القوى بل والمطالبة بالعدالة الاجتماعية، كل ذلك أقل أهمية من الجهود غير الواعية للشباب للوصول إلى مرحلة النضج، واستخدام قواهم والاستفادة منها. ونظرت المؤلفة إلى عنصري البشرية - الرجال والنساء - على قدم المساواة، فكلاهما - الرجل والمرأة - تستعصي أمراضهما على العلاج وتستعصي أهدافهما على الفهم، فيما ترى المؤلفة. إنها تتناول موضوعها بهدوء، فلا نسمع لها صراخا لكننا نستطيع تتبع أفكارها بشوق بالقدر الذي تسمح به سرعة خطى الحياة أو سرعة وقع أحداثها، ويمكن في وسط هذه السرعة أن نكون هادئين أو بتعبير آخر أن نسمح لهدوء المؤلفة بالانتقال إلينا. في هذه الأيام كنا قلما نجد قرية في إنجلترا إلا وفيها متعبوها (طائفة من المتدينين).

صفحة رقم : 14650

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الأدب والفكر في مرحلة انتقال -> وليم بلايك

4- وليم بلايك

7281 - 7571

ولد وليم بلايك قبل جين أوستن بثمانية عشر عاما ولاقي نحبه بعد موتها بعشر سنين. ويمثل بلايك حلقة الوصل أو المرحلة الانتقالية إلى الرومانسية. لقد عاش في عالم الأسرار ورفض العلم وشك في الله وعبد المسيح وحول الكتاب المقدس ونافس الأنبياء ودعا إلى مدينة مثالية (يوطوبيا) يقطنها قديسون يمشون على الأرض .
لقد كان ابنا لصانع جوارب في لندن، واعتراه الرعب وهو في الرابعة من عمره عندما رأى الرب ينظر إليه عبر النافذة. وبعد ذلك بقليل رأى الملائكة ترفرف فوق شجرة، كما رأى النبي حزقيال Ezekiel يتجول في حقل(3). وربما لم يُرسل به أهله إلى المدرسة حتى العاشرة من عمره بسبب خيالاته التي كانت تختلط بحواسه دون فاصل أو قاعدة. وقد التحق بعد وصوله هذه السن (العاشرة) إلى مدرسة رسم، وفي الخامسة عشرة بدأ التدريب على مهنة النحت مع النحات جيمس باسير Basire واستمر على هذه الحال طوال سبع سنوات . لقد قرأ كثيرا بما في ذلك أعمالا رومانسية مثل ذخائر الشعر الإنجليزي القديم لبيرسي Percy ومؤلف ماكفرسون Macpherson المعروف باسم أوسيان Ossian وكتب هو نفسه الشعر ورسم الرسوم التوضيحية. وعندما بلغ الثانية والعشرين تم قبوله كدارس للحفر في الأكاديمية الملكية Royal Academy ولكنه تمرد على نصائح رينولدز Reynolds الكلاسيكية، وفي وقت لاحق ندم على أنه أضاع جهده وشبابه وعبقريته في ظل كابوس السيد يشوع Joshua وجماعته الماكرة من الخدم المستأجرين(4) وقد طور أسلوبه الخيالي في الرسم رغماً عنهم وكان قادرا على إبراز شخصيته من خلال الألوان المائية وأعمال الحفر .

ولم يكن ميالا بشدة إلى الجنس الآخر وقد عبر ذات مرة عن أمه في ألا تكون هناك لقاءات جنسية وعن أمنيته في زوال هذه الرغبة من البشر(5). ومع هذا فقد تزوج وهو في الخامسة والعشرين من كاترين بوشير Catherine Boucher وكان غالبا ما يسبب لها المتاعب بنوبات غضبه كما كان يرعبها برؤاه، ومع هذا فقد اعترفت بعبقريته

واهتمت به بإخلاص حتى آخر حياته ولا نعرف أن له أطفالاً لكنه كان يجب اللعب مع أطفال أصدقائه. وفي سنة 3871 قام جون فلاكسمان Flaxman و أ. س. ماثوس A.S. Mathews بتمويل طبعة خاصة لأشعار بلايك الباكورة، وقد أعيد نشر هذه الاسكتشات الشعرية في سنة 8681 فأسهم ذلك في تحقيق شهرته التي تأخرت. وبعض هذه الأشعار مثل إلى نجم المساء (الزهرة) وهي مقطع ملحمي غير مقفى احتل مكاناً حفياً في الشعر الإنجليزي (6). وقد كان مثله في ذلك مثل أي روح شاعرة حساسة باغضا لتركز الثروة وشيوع الفقر في إنجلترا. لقد كان مثل توم بين Paine وجودون Godwin وماري ولستونكرافت Wollstonecraft وغيرهم من الراديكاليين الذين تعاملوا مع الناشر جوزيف جونسون Johnson، قد شرب حتى الثمالة من نبيذ التنوير الفرنسي وتغنوا بالعدالة الاجتماعية والمساواة. وكان مظهره ينم عن روح نافرة من أي نظام مفروض. كان قصيراً ممتلئاً ذا ملامح نبيلة مفعمة تعبيراً وحيوية وكان شعره بنياً مُشرباً بصفرة مصففاً بإتقان وكانت خصلاته غير متدلّية وإنما منتصبية وكان ينظر وكأنه رادار لما هو بعيد، ولا بد أن عينه الحادة وجبهته العريضة وراسته الشديدة قد أضفت على مظهره جاذبية حقيقية (7).

وفي سنة 4871 افتتح محل طباعة في شارع برود Broad Street واتخذ من أخيه الأصغر روبرت مساعداً له فكانت علاقتهما حميمة لأن كل واحد منهما كرس حياته للأخر، ولكن روبرت كان متلافاً كثير الإنفاق وقد أدى موته في سنة 7871 إلى تعميق التوتر والكآبة في نفس وليم، وأدى إلى الجانب الصوفي في فكره. لقد كان مقتنعاً أنه رأى روح روبرت لحظة موته وهي تصعد عبر السقف. رآها وهي تصفق من فرط السعادة (8) وقد عزا إلى شبح روبرت طريقة الحفر على إحدى اللوحات - سواء حفر النص أو حفر الرسوم التوضيحية. وكانت كل كتب بلايك تقريباً محفورة على النحو نفسه وكانت تباع بمبلغ يتراوح بين ثلثيات قليلة وعدة جنيهات للواحد منها. وكان قرأه - حتى ذلك الوقت - قليلاً.

وفي سنة 9871 أصدر أول عمل كبير من أعماله هو أغاني البراءة وكان يضم تسع عشرة مقطوعة شعرية. ومن الواضح أنه كان يعني بالبراءة مرحلة ما قبل البلوغ عندما كانت الحكايات المجمعّة والمتعلّقة بالمسيح تحظى بالتصديق وتسبب للمستمع إليها سعادة قصوى وبهجة، وعلى أية حال فقد كان بلايك قد بلغ الثانية والثلاثين من عمره عندما ظهرت قصائده هذه ونحن نحس أن الخبرة راحت تنمي موت البراءة. ولا بد أن نعيد هنا سطور الشهيرة التي يمكن أن نضاهيها بأبياته التي وجهها لنمر Tiger بعد ذلك بخمس سنوات :

أيها الحمل الصغير، من خلقك؟

ألا تعلم من سواك؟

ألا تعلم من نفخ فيك الحياة ورزقك؟

وهيا لك المجرى تشرب منه

وكسالك ثوب البهجة

ياله من ثوب ! إنه أنعم الأثواب

ثوب من صوف فاتن متألّق

أيها الحمل الصغير ، من سواك فعدلك حملاً؟

ألا تعرفه؟ !

أيها الحمل الصغير

أنا سأقول لك

إنه يدعى باسمك

لأنه أسمى نفسه حملاً

إننا ندعو نفسنا باسمه

أيها الحمل الصغير ليباركك الرب

ليباركك الرب

وربما كانت القصيدة التالية هي الأجل. إنها بعنوان الصبي الأسود الصغير وفيها يعجب الصبي الزنحي لم خلقه الله
أسود البشرة. إنه يحلم بوقت يأتي يلعب فيه الصبي الأسود مع الصبي الأبيض دون أن تعوق ظلال اللون لبعيها. وثمة
قصيدتان بعد ذلك - قصيدة كتّاس المدخنة وفيها يتخيل ملكاً (ملك) ينزل من السماء ليحرر العاملين في تنظيف
المدائن من معاطفهم الملوثة بالسخام التي يعملون - وينامون - وهي تغطي أبدانهم، أما القصيدة الأخرى فهي
الخميس المقدس والتي ينهيها بتحذيره: والآن، فلتتمسك بالرحمة والشفقة، وإلا أبعدت الملائكة عن بابك
ومرت خمسة أعوم: إنها الأعوام التي اندلعت فيها الثورة الفرنسية وتآلفت مثالياتها (1971) ثم عادت إلى المذابح
والإرهاب (2971 - 4971). وفي سنة 9871 - على وفق بعض الروايات - وضع بلايك فوق رأسه غطاء الرأس
الأحمر الذي يرمز للثورة الفرنسية وانضم إلى بلين Plaine في مهاجمة الكنيسة الإنجليزية وأثرت فيه الاضطرابات
والفوضى فانفجر مؤلفاً قصيدة قصصية بسيطة زاخرة بالنبوءات تعكس ما ورد في إرمياء Jeremiah وهوشع
Hosea، فكانت إعلاناً مشئوماً لعالم تجلله الخطايا والآثام.
ولانوصي أولئك الذين يتمتعون من الإبهام بقراءة عمله هذا ولكننا نلاحظ أن بلايك في ديوانه زواج الفردوس
وجهنم (في معرض هجائه لسويدنبرج Swedenborg) يقارن بين هاتين المملكتين (ممكلة الفردوس و ممكلة جهنم)
من ناحية والبراءة والخبرة من ناحية أخرى. وبعض الأمثال التي أتى بها من الجحيم استوحت راديكالية هوثيمان
وفرويد و نيتشة Whitmanic - Freudian - Nietzschean radicalism :

كل الطعام المفيد يتم الحصول عليه دون شبك أو شراب...

فما هو أجدى وأرفع أن تجعل آخر في مواجهتك...

فكبرياء الطاووس هي عظمة الرب ... وعري

النساء هو عمل الرب...

وقتله لطفل في مهده لا تجدي معه رغبات ممرضة

لاجدوى من جهودها...

فالرب هو - فقط - الفعل والوجود في الكائنات

أو البشر ...

فكل الأرباب في صدور البشر ...

فعبادة الرب هي توقير مواهبه للآخرين .. وهي حب أعظم الرجال ... إن أولئك الذين يغارون من الرجال العظماء أو يشوهون سمعتهم إنما يكرهون الرب لأنه ليس هناك أرباب سوى هؤلاء العظماء.
وفي ديوانه أغاني الخبرة (4971) نجد الشاعر يعارض ما ورد في ديوانه أغاني البراءة بقصائد غنائية أخرى عامرة بالشك والإدانة:

أيها النمر .. أيها النمر

المتألق كالنار في ظلمات الغابة

أي يد خالدة أو عين ساهرة

أمكنها صياغة سيمترية رُعبك !؟

ياكتفيك! يالمرك! وياحيك!

أيمكنها أن تتحمل قلبك؟!

ومتى بدأ قلبك يسحق ويضرب ويخفق؟

يا لقسوة أقدامك! ..ياقسوة قدميك الخلفيتين!

وقدميك الأماميتين!

متى تطرح النجوم حراكك؟

ومتى ترتوى السماء بدموعك؟

أليس هو الذي يسره فعلك؟

أليس هو الذي جعل الحمل Lamb يوجدك؟

وبينما نجد في ديوانه أغاني البراءة الصبي الصغير التائه وقد أنقذه الرب وأعادهُ مسرورا إلى بيته، نجد في أغاني
الخبرة صبيا يحرقه الفسّس لأنهم لم يعرفوا له ديناً. وفي ديوان أغاني البراءة يصف في قصيدته الخميس المقدس
كاتدرائية القديس بول مزدحمة بالأطفال السعداء الذين ينشدون الترانيم، نجده يتساءل في أعاني الخبره يتساءل:

أهذا شيء مبارك (مقدس) يستحق أن نراه؟.

في بلاد غنية مثمرة

يرزح الأطفال في البؤس

يأكلهم البرد والمرابون

أنتك أغنية صارخة مضطربة؟

أيمكن أن تكون أغنية مرحة!؟

وهذا العدد الكبير من الأطفال الفقراء فيها

إنها بلاد الفقر.

ولم تكن الثورة فيما يبدو علاجاً لهذه الشرور فالقبضة الحديدية أطاحت برأس الطاغية، ثم أصبحت طاغية بد
لأعنه(9). لقد وجد بلايك - الذي لم يكن يحب الثورات العنيفة - العزاء فيما تبقى لديه من عقيدة دينية. إنه الآن لا يثق

في العلم لأنه خادم للمادية وأداة يستخدمها النشيط ضد البرئ وتستخدمها السلطة ضد البسطاء. فالفن هو شجرة الحياة والعلم هو شجرة الموت، والرب هو يسوع المسيح(01).

وبعد سنة 8181 لم يكتب بلانك شعرا إلا قليلا ولم يجد له إلا قلة من القراء، وعاش على إنتاجه في الفن. وفي بعض سني الستينيات من عمره عانى الفقر الشديد حتى اضطر إلى حفر الإعلانات لمصنع ودجود Wedgwood للخزف. وفي سنة 9181 أنقذه من فقره جون لينل John Linnel إذ عهد إليه برسم الرسوم التوضيحية لسفر أيوب Book of Job والكوميديا الإلهية لدانتي. ووافته منيته (7281) بينما كان يعمل في هذين العملين، ولم يكن ثمة حجر يشير إلى موضع دفنه لكن بعد قرن كامل من وفاته نصب لوح حجري عليه اسمه في البقعة التي دفن فيها، وفي سنة 7591 صنع له سير جاكوب إبستين Jacob Epstein تمثالا نصفيا وضع في كنيسة وستمنستر Westminster وعند موته كان الانتقال إلى مرحلة الرومانسية قد غدا انتقالا كاملا. لقد بدأ هذا الانتقال مترددا عندما كانت الكلاسية في ذروتها مع الفصول Seasons التي ألفها (0371) طومسون والقصائد الغنائية Odos التي ألفها كولنز (7471)، و Clarissa Harlowe التي ألفها ريشاردسون (7471Richardson) وأغاني الرثاء Elegy التي ألفها جري (1571Gray) وجولي لروسو (1671)، au la nouvelle Héloïse، و (2671Fingel) التي ألفها ماكفرسون Macpherson وقلعة على أوترانتو (4671Otranto) التي ألفها والوب Walope وكتابات بيرسي Percy عن الشعر الإنجليزي القديم (8671) والقصائد الغنائية الإسكتلندية والألمانية، وما كتبه شترتون (9671Chatterton) وويرثر Werther (فيرثر) التي كتبها جوته (4771Goethe). حقيقة أن أي عهد لم يكن يخلو من الرومانسية، فالرومانسية لم تنعدم أبداً في أي وطن أو عصر عند أي فتى أو فتاة، وكانت الكلاسية بناء متغلغلا غير راسخ في الحكم وكانت قيда على نبضات وعواطف تسري في العروق مسرى الدم.

ثم أتت الثورة الفرنسية فجلبت الحرية حتى في مرحلة انهيارها - أي انهيار الثورة، ففقدت الأشكال القديمة للقوانين والنظم التقليدية هيبتها وسطوتها، وانطلقت المشاعر والخيالات والطموحات والتطلعات تعبر عن نفسها بالكلمة والفعل. لقد أشعل الشباب نيران الشعر والفن تحت كل قاعدة أدبية وكل حظر أخلاقي وكل تضيق عقدي وكل دولة مكتسبة بقشور القانون، وفي سنة 8971 راح وردزورث وكولردج يكتبان معا القصائد والمباحث التقديمية للقصائد الغنائية المعروفة باسم Lyrical Ballads وراح بيرنز Burns وسكوت Scott يغنيان للحب والثورة والحب في سكتلندا، وراحت جيوش نابليون تحطم الحدود بشكل أسرع من قدرة الثورة على نشر حلمها. لقد أصبح الأدب في كل مكان هو صوت الحرية. قلما بدا المستقبل مفتوحا بلا آفاق تحده كما هو الآن، وقلما كانت الآمال بلا نهاية كما هو الآن، وقلما بدا العالم شابا كما يبدو لنا الآن.

صفحة رقم : 14651

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> البيئة المحيطة

الفصل الواحد والعشرون

شعراء منطقة البحيرة

1- البيئة المحيطة

لقد جمعنا في فصل واحد مُربك بين وردزورث، وكولردج وسوثي، لا لأنهم أسسوا مدرسة أدبية، فهذا لم يحدث ولا لأنهم اشتركوا في سمات أدبية واحدة، فأشعار كولردج الساحرة تغوص في أسرار عامرة بالغموض والأرواح الغريبة بينما أشعار وردزورث ذوات روح نثري تجول برضا بين ما هو عام مألوف، من البشر رجلاً ونساء وأطفالاً وما هو عام مألوف من الأشياء. ولقد عاش كولردج ومات رومانسياً - لقد كان رجل المشاعر والآمال والمخاوف والهوى، أما وردزورث - باستثناء فترة رومانسية انتقالية في فرنسا وفترة الإعلان الثوري سنة 1897 - فقد كان كلاسياً مثل كريب Crabbe وكان يتسم بهدوء محافظ. أما بالنسبة إلى سوثي Southey فكان شعره رومانسياً في وقت راج فيه هذا الشعر، وكان نثره ملتزماً جديراً بدريدن Dryden (المقصود يضارع كتابات دريدن) وكانت سياساته الناضجة مرتبطة بالوضع الحالي (الراهن) وكانت حياته الزوجية المستقرة وصدقاته الخصبة توازن الاتجاهات الفلسفية والمالية والجولات الجغرافية لرفيق الشاعر الذي راح يحلم وإياه في وقت من الأوقات بمدينة مثالية (يوطوبيا) اشتراكية على شواطئ سسكويهانا Susquehanna. إن هؤلاء الرجال لم يكونوا مدرسة إلا بمعنى أنهم جميعاً قطنوا لسنوات طوال منطقة (ولاية أو محافظة) البحيرة في شمال غرب إنجلترا - إنها منطقة ضبابية ممطرة تتجمع فيها السحب... إنها منطقة تجلجل نرى جبالها الثلوج وتمتلئ بالبحيرات والبرك الفضية مما يجعل المنطقة من كندال Kendal وعبر وندمير Windemere أو مبلسيد Ambleside وريدال ووتر Rydal Water وجراسمير Grasmere ودرونتووتر Derwentwater وكزويك Keswick حتى كوكرموث Cockerthmouth واحدة من أجمل مناطق كوكينا. إن جبال المنطقة غير شاهقة فأعلاها لا يتجاوز ارتفاعه ثلاثة آلاف قدم وهي غير متجانسة (لا يشبه بعضها الأخر) ويكاد المطر يهطل يومياً لكن الضباب يعانق الجبال بحب، وتكاد الشمس تطل يومياً واعتاد المترددون على تحمل تقلبات المناخ بسبب السلام الذي يخيم على القرى وبسبب الخضرة الدائمة وكثرة الورود السعيدة يبللها الندى وروحي كولردج المجنون، ووردزورث الرصين اللتين تتردد أصواتهما بين التلال. هناك في كوكرموث Cockerthmouth ولد وردزورث وفي جراسمير Grasmere مات، وهناك في كزويك Keswick عاش كولردج فترات متقطعة وعاش سوثي Suthey أربعين سنة، وهناك عاش فترات مختلفة كل من: دي كوينسي De Quincey وأرنولد الروجي Arnold of Rugby ورسكين Ruskin وباختصار، فهناك أتى كل من سكوت Scott وشيلي Shelley وكارليل Carlyle وكيثس Keats ليتذوقوا طعم الجنة Eden ويتشتموا عبرها.

كانت أمه ني أن كوكسون Nee Ann Cookson ابنة تاجر كتان في بنريث Penrith - أما أبوه جون وردزورث فكان محامياً نجح في عمله كوكيل لأعمال السير جيمس لوثر Lowther، وقد ربي الزوج والزوجة في منزلهما المريح في كوكرموث خمسة أطفال: ريتشارد الذي أصبح محامياً ووكيل أعمال، وأدار الأمور المالية للشاعر، ووليم ودوروثي وهما اللذان سنهت بهما في سياقنا هذا، وجون الذي مات في حادث جنوح سفينة، وكريستيان الذي درس وتدرج في المناصب حتى صار رئيساً لكلية التثليث في كمبردج. ولأسباب لانعلمها الآن لم يتم تعميده وليم إلا بعد ميلاد دوروثي التي ولدت بعده بعام (في سنة 1771) فقد تم تعميده الأخ وأخته في اليوم نفسه كما لو كان هذا لمباركة حبهما الذي استمر مدى الحياة.

لقد أصبحت دوروثي هي صديقة طفولته وكان ارتباطه بها يفوق ارتباطه بإخوته الآخرين. وكان وليم وردزورث حاد الذهن حساساً، وكانت هي أكثر منه حدة وأشد حساسية إذ كانت أسرع منه في تمييز أشكال النباتات وألوانها، وأنواع الأشجار وطبيعتها وما تفرزه وحركة السحب البطينية وكانت شديدة الإحساس بضوء القمر الفضي الذي يكسو البحيرات. لقد كان على الشاعر أن يقول عن أخته: لقد كانت عيني التي أرى بها وأذني التي أسمع بها. لقد كانت تلطف من حدة اندفاعه في القنص ليطارده ويقتل، لقد أصرت على أن عليه ألا يؤذي أي كائن حي (1).

وعندما بلغت دوروثي السابعة من عمرها فجعا بموت أمهما. وحزن أبوهما حزناً شديداً ورفض أن يتخذ له زوجه أخرى، واستغرق في عمله وأرسل أطفاله ليعيشوا مع أقاربهم. فذهبت دوروثي إلى خالة لها في هاليفاكس Halifax في يوركشير فلم تعد الآن قادرة على رؤية وليم إلا في فترة الإجازات. وتم إلحاقه في سنة 9771 بمدرسة جيدة في هوكشيد Hawkshead بالقرب من بحيرة وندرمير Windermere وفيها درس الكلاسيات الإغريقية واللاتينية وبدأ - كما قال - ينسج الشعر. ويبدو أن الغابات والمياه القريبة قد لعبت دوراً كبيراً من دور كتبه في تشكيل أسلوبه وشخصيته. ولم يكن عازفاً عن الحياة الاجتماعية فقد كان يشارك غيره من الشباب في المباريات وأحياناً كان يقضي أمسيات صاخبة في فندق محلي لكنه كثيراً ما كان يتجول وحيداً بين التلال على طول شاطئ استويت Esthwaite Water وبحيرة وندرمير Windermere. وبين الحين والآخر كان لا يعبأ بالمناخ فقد ألف تغييراته، فكان يمعن في تجوله إلى أماكن لا

يكون فيها أمناً وعرف المخاوف التي يمكن أن تلم بالشباب الذين يترددون على الأماكن التي بها كائنات حية غير بشرية، لكنه بالتدريج بدأ يحس بالروح الكامنة في نمو النباتات وفي لعب الحيوانات وصراعها، وفي شموخ الجبال وفي

ابتسام السماء ونجهمها. لقد بدا له وكأن كل هذه الأصوات المنبعثة من الحقول والغابات والذرى والسحب تتحدث إليه بلغتها الخاصة. لغة أدق من لغة الكلمات وأرق وأكثر باطنية، لكنه يحس معانيها التي تؤكد له أن الأشياء المتعددة الكثيرة لا تصدق الموجودة حوله ليست مجرد ماديات لاجلها وإنما هي إبداع رب أعظم وأقرب من الإله البعيد الصامت الذي لا شكل له، الذي يتوجه إليه في صلواته. ومن هنا أصبح ذا مزاج استبطاني جعله يستغرق في تأمل الحياة الداخلية أو الباطنية بالإضافة للعبادة الظاهرة.

وفي سنة 3871 مات أبوه فجأة. وكانت ممتلكاته متفرقة وغير موثقة، فمرت عبر قضايا استغرقت وقتاً طويلاً وكلفت الكثير من الأموال وتأخر سداد مبلغ 4,007 جنيه إسترليني التي كان السير جيمس لوثر مديناً بها كثيراً حتى إن الوصية الموجودة لم تكن تسمح سوى بستمانه جنيه لكل طفل وهو مبلغ لا يسمح أبداً بمواصلة تعليمهم (2) ومع ذلك وجد أخوهم ريتشارد من الوسائل ما يمكنه من رؤية وليم في هوكشيد Hawkshead وفي أكتوبر سنة 7871 التحق وردزورث بكلية القديس جون في كمبردج. وحث أحد أعمامه مدير الكلية لتقديم منحة دراسية له على أمل أن يتمكن من إعداد نفسه لتسليم منصب كهنوتي في الكنيسة الإنجليكانية، وبالتالي لايشكل عبئاً مالياً

على أقرابه . لكن وليم بدلاً من أن يعكف على دراسات تؤهله لمنصب كهنوتي راح يقرأ ما يعجبه، خاصة شوسر Chaucer وسبنسر وشكسبير وميلتون - واعترض على إلزامه بالحضور إلى الكنيسة مرتين في اليوم، فقد كان من الواضح أن قراءته قد أزاحت شيئاً من عقيدته الموروثة. لكن كثيراً من إيمانه وعقيدته الموروثة هذه لا بد أن يكون قد ظل مصاحباً له لأنه لم يكن يأنس لأفكار فولتير . وفي يوليو سنة 1791 حدث زميل دراسته، ابن ويلز، روبرت جون على أن يدخرا معا عشرين جنيها للقيام معا برحلة - مشياً على الأقدام - في القارة الأوروبية. واتخذا طريقهما إلى بحيرة كومو Como واتجها شرقاً في سويسرا، وهناك أصبح المال اللازم معهما قليلاً فأسرعا بالعودة إلى إنجلترا ليهدئا من غضب المسؤولين الماليين. و عوض وردزورث، دوروثي عن إهماله لها طوال عام بأن راح يقضي أيام الكريسماس معها في فورنست ركتوري Fornsett Rectory (المقابل الحرفي للكلمة ركتوري هو بيت القسيس) بالقرب من نورويتش Norwich - لقد كتبت دوروثي إلى جين بولارد لقد اعتدنا أن نتمشى كل صباح نحو ساعتين ، وكنا في كل يوم نذهب إلى الحديقة في الساعة الرابعة مساءً... لنسير جيئةً وذهاباً حتى السادسة .. آه يا جين .. إنني لم أكن أشعر بالبرد عندما يكون معي(3) وكانت تأمل أن يصير رجل دين وأن يسمح لها عندئذ بأن ترضع بيته. وعندما تخرج من كمبريدج (يناير 1791) تحطمت كثير من آماله بذهابه إلى لندن حيث عاش في خمول يكاد يكون تاماً(4) وكان في كل شهر من شهور مايو يقوم مع جونز Jones بجولة في أنحاء ويلز، فكانا

يتسلقان جبل سنودون (Snowdon، 1053 قدماً) ليريا شروق الشمس. وفي 72 نوفمبر عبر مرة أخرى بمفرده إلى فرنسا. لقد كانت الثورة الفرنسية وقت وصوله إلى فرنسا هذه المرة في أجمل وأرق مراحلها، لقد كانت الثورة قد صاغت دستورها اللبيرالي وتم إعلان حقوق الإنسان للعالم، فإلي أي حد كان شاب صغير لازال يتمرغ في مهاد الفلسفة، يستطيع أن يقاوم هذه الدعوة للعدالة والأخوة العالمية (على مستوى العالم)؟ لقد كان يصعب كثيراً على دارس فقير لحقه بعض الضرر من اللوردات وذوي الألقاب الطبقيّة (سير جيمس لوثر Lowther) أن يدين هؤلاء الفرنسيين الذين وصفهم بعد ذلك في مستهل ترجمته الذاتية (كتابته عن تاريخ حياته):

- هؤلاء الفرنسيون الذين يعرضون أموراً علينا النظر إليها،

- إنهم يعرضون جمهورية حيث يكون،

- كل الناس فيها - إلى حد كبير - سواء،

- يقفون على أرضية مشتركة

- لنصبح جميعاً إخوة

- متساويين في الكرامة والشرف لنكون مجتمعاً

- واحداً كريماً وشريفاً،

- مجتمعاً واحداً يضم السادة والدارسين، ولا تغدو

- هناك فوارق

- ويقف شأن الألقاب والثروة

- أمام المواهب والجدارة والحرف (الصناعات) المزدهرة.

وعندما وصل إلى فرنسا تأثر بحماسة أمّة تقزع إلى السلاح لمواجهة تهديدات الدوق برونسويك Brunswick بسحق الثورة وتسوية باريس بالأرض إن قاومتها. وعقد صداقة مع أحد ضباط جيش الثوار ميشيل دي بوبوي Michel de Beaupuis الذي كان ينتمي بحكم ميلاده إلى طبقة النبلاء، لكنه يشعر الآن بضرورة الدفاع عن فرنسا ضد الغزاة. لقد حرك هذا الانفلات من أسر الطبقيّة مشاعر وردزورث وأوحى له أن يكون مفيداً لخدمة قضية الثورة، لكنه شعر أنه أوهن من أن يحمل سلاحاً وأن ما يعرفه من اللغة الفرنسية لا يؤهله للعمل في المجال المدني أو السياسي، فاستقر في أورليان Orleans لدراسة الفرنسية، هذه اللغة الفاتنة خاصة إذا تحركت بها شفاه النساء.

ووجد هذه اللغة رائعة جذابة، ومما زاد من هذه الروعة وتلك الجاذبية أنه تلقاها على يد أنيت فالون Annette Valon الشابة دافئة القلب دافئة الدماء التي لم تكتف بتعليمه الفرنسية وإنما وهبته جسداً أيضاً. ولم يقدم لها مقابل هذا إلا شبابه فقد كان في الواحدة والعشرين بينما كانت هي في الخامسة والعشرين. وعندما ظهرت عليها بوادر الحمل ظنت أنها جديرة أن تكون زوجة له، ولكن وليم تساءل: أيستطيع هو - الذي يعرف من اللاتينية أكثر مما يعرف من الفرنسية أن يكون زوجاً في فرنسا، وهل تستطيع هي ، وهي كاثوليكية وثنية Pagan Catholic أن تعيش في إنجلترا البيوريتانية (التطهريّة)؟

وفي 92 أكتوبر سنة 1791 تركها في أورليان واتجه إلى باريس وقبل مغادرتها وقع مستنداً يخول السيد م. دفور

Dufour أن يقوم بدور الأب الغائب عند تعمييد الطفل المرتقب (الذي ستجبه أنت (Annette) وفي 51

ديسمبر أنجبت طفلة أطلق عليها اسم كارولين.

وانخرط وردزورث وهو في باريس في هذا الوقت في وقائع الثورة، فحضر اجتماعا للبعاقبة وزار الجمعية التشريعية وكون صداقات مع الجيرونديين. لقد دهمته حمى العصر (المقصود أحداثه الساخنة) فوجد نفسه في وسط أحداث صنعت التاريخ وهزته:

- أن تكون على قيد الحياة في فجر هذه الأحداث، فتلك نعمة،

- أما أن تكون شابا فقد أدركت الفردوس بعينه! (7)

ووصله خطاب من أخيه ريتشارد يرفض تقديم مزيد من الدعم المالي ويصر على عودته السريعة. ولم يعرض عليه الثوار دعما فعبير إلى لندن وحاول تحسين الأمور المالية للأسرة، وظل الأخ ريتشارد صارماً رغم حبه. أما العم وليم كوكسون Cookson وكاهن فورنست Fornsett ومضيف دوروثي (أي الذي تقيم عنده دوروثي) فقد أوصد أبوابه في وجه هذا الشاب الذي كان يقدم له الدعم المالي لمواصلة تعليمه ليكون رجلاً ديناً فإذا به الآن يتحول فيما يبدو إلى يعقوبي كسول.

لقد أضير وليم ضرراً شديداً، فعكف على الشعر يدرسه ويقرضه، وشعر أنه كتاب مخلص لرية الشعر والغناء (موزيه Muse) جدير بدعم الإخوة والأعمام والأحوال، وانضم إلى الراديكاليين الذين كانوا يترددون على مكتبة جونسون (لبيع الكتب ونشرها) وواصل تأييده العلني للثورة. وفي السطور الخمسين الأخيرة لإسكتشات الوصفية Descriptive التي كتبها ونشرها في سنة 3971 امتدح الثورة الفرنسية لا باعتبارها تحريراً لأمة فحسب وإنما باعتبارها تتطوي على تحرير الجنس البشري كله، وقد اعترف في كتابات نشرت بعد وفاته أنه كان يكتف سعادته لانتميات الثورة الفرنسية حتى عندما كان الآلاف الإنجليز يلقون حتوفهم في ميدان المعركة دون أن يتركوا وراءهم مجداً (8) وفي أول فبراير سنة 3971 أعلنت فرنسا الحرب على إنجلترا وفي مارس من العام نفسه وصل إلى وردزورث خطاب من أنت Annette تتوسل إليه أن يعود إليها لكن القتال الإنجليزي كان قد أغلق في وجه المسافرين المدنيين. ولم ينسها أبداً، فقد كانت ذكرها تحرق شعوره، وسنراه بعد ذلك يتسع سنين يحاول تقديم بعض الترضيات، وخلال هذه الأعوام أصبحت أنت Annette من أنصار الملكية المتحمسين، واكتشف وليم شيئاً فشيئاً مزايا الدستور البريطاني. لقد تضاعل إيمانه بالثورة الفرنسية عندما قطعت المقصلة رؤوس الجيرونديين في عهد الإرهاب في سنة 4971، وكان وليم معجباً بهم. وفي نحو هذا التاريخ كان متأثراً تأثراً شديداً بكتاب جودون Godwin عن العدالة السياسية Enquiry Concerning Political Justice لقد شجع هذا الكتاب اتجاهه الراديكالي لكنه أثر في تحذيره من الثورات التي يشعل الثوريون نيرانها. وفي سنة 5971 قابل جودون Godwin نفسه وأعجب به ودعي سبع مرات في هذا العام إلى منزل الفيلسوف الشهير. وحتى عندما أصبح هو محافظاً متحمساً للاتجاه المحافظ ظل على صداقته لجودون حتى فرق الموت بينهما (6381).

وفي سنة 5971 أوصى له ريزلي كلفرت Raisley Calvert بتسعمائة جنيه، فزاده هذا اعتدالاً ووقاراً لكنه

أقرض - بطيش - ثلاثمائة جنيه من هذه الثروة لصديقه المتلاف سيء السمعة بازل مونتاجو Basil Montagu كما أقرض لصديق مونتاجو الحميم المدعو شارلز دوجلاس Douglas مائتي جنيه - وفي كلتا الحالتين لم يكن هذا الرهن ليدير أكثر من 01%، وحسب وردزورث (وردزورث) أن الفوائد السنوية التي قوامها خمسون جنيهاً (لم تكن تدفع بانتظام) مع الأربعمائة جنيه المتبقية لن تكفي حتى مع العشرين جنيهاً التي تمثل دخلاً سنوياً لدوروثي لتمويل حلم أخته بإقامة سكن يعيشان فيه عيشة مشتركة متواضعة قوامها الشعر والحب، لكن منذ الآن قدم لهما صديق آخر هو جون بني البريستولي John Pinney of Bristol مقر إقامته المؤثث في دورست Dorset ليقوما فيه مجاناً، وهناك ظلاً حتى يونيو سنة 7971 ونعماً في هذا المكان بما لم يكونا يتوقعانه من راحة وخير.

إننا نصفه الآن وقد بلغ الخامسة والعشرين. شخص متوسط الطول، نحيل، منحني انحناء خفيفاً، يتدلى شعره غير الكثيف وغير المرجل حول أذنيه وياقة قميصه، وتنتظر عيناه الداكنتان الحزبتان على طول أنفه المتسائل العدوانية المستقر على نحو ما. وكان سرواله بنطاله ذا طابع ريفي من نسيج مزخرف بالمربعات، وكان معطفه عباءة واسعة، ولديه منديل أسود يستخدمه كرباط عنق وكان واهن الجسم لكنه كان ذا طاقة كبيرة وروح قوية وإرادة شديدة، وكان يستطيع أن يلبي حاجة ضيوفه مهما ثقلت وكان يستطيع أن يجعل نيرانه مشتعلة في الأخشاب التي جمعها من الغابة أو قطعها من أشجارها مستخدماً قوة ذراعيه وضربات فأسه. لقد كان حساساً كشاعر، وعصياً كامراً وكان يعاني من الصداع خاصة عندما ينخرط في تأليف الشعر. وغالباً ما كان مكتئباً متقلب المزاج يميل إلى الهيبوكونديا (الوسواس المرضي) وكان قريب الدمع، وفكر ذات مرة في الانتحار (9) - لكن هذا كان وسيلة معروفة في العلم للتظاهر بالشجاعة. وكان يحب المال حبا جما، معتزاً بنفسه واثقاً من تفوق أحاسيسه وسموه العقلي ورقبه الخلقي (متساهلاً مع ما أتاه من اتصالات جنسية لانتسم بالمبالاة) لكنه كان متواصلاً أمام الطبيعة معتزاً بنفسه خادماً لها ومعبراً عنها.

أما دوروثي فكانت على نقيضه، أكسبت وجهها سمرة بكثرة مشيها تحت أشعة الشمس، ولم تكن أنانية مستغرقة حول ذاتها أو مفرطة بالإعجاب بنفسها فعكفت على خدمة أخيها ولم تكن تشك في عبقريته أبداً وجعلت بيتهما نظيفاً دافئاً ورعته في مرضه وكانت تبحث عن مباحج الطبيعة وعجائبها وخوارقها بعينين متوهجتين (01) وذلك على حد تعبيره، وكانت تدون بسرعة في يومياتها هذه المدركات لتتذكرها، وكان هو يستخدم هذه اليوميات (لتوحي له أفكاراً وأشعاراً). لقد جعلت أذنيها ويديها وعينيها في خدمته، فلم تكن تمل أبداً من الإصغاء إليه وهو ينشد أشعاره، ولم تكن تمل من نسخها. أما من ناحيته هو فقد أحبها حباً عميقاً - دون أن يمنع نفسه عن إقامة علاقات جنسية محرمة معها - لأنها كانت أعز مساعداته له، كما كانت لا تطلب منه الكثير، وكانت بالنسبة إليه تمثل الجزء الذي يحتاجه النبات المعترش للتلقيح والامتداد.

وعندما عادا إلى بيتهما حيث الأسرة، وحصلا على خمسين جنينها إضافية لدخلهما السنوي، شرعا يرعيان بازل و Basil ذا الأعوام الثلاثة وهو ابن بازل مونتاجو Montagu وسعدا لرؤية هذا القاصر الغض وهو يتحول من نبات مرتعش هش على وشك الموت إلى صبي مفعم حيوية متوردا لا يعرف الخوف إليه سبيلاً (11). وفي ربيع سنة 1791 أنت صديقة دوروثي، ماري هتشنسون من بنرث Penrith لتقيم معها حتى الخامس من يونيو. وفي السادس من الشهر نفسه اقتحم شاب في الخامسة والعشرين من عمره مسكون بالشعر البوابة وجاس خلال الحقل ودخل بكل قوته حياة وليم وردزورث (وردزورث) ودوروثي وردزورث، وكان هذا استجابة لدعوة أرسلها إليه وليم وردزورث. إن هذا الشاب الشاعر هو كولردج.

صفحة رقم : 14653

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> كولردج 1772

3- كولردج

2771 - 4971

كولردج هو أكثر أفراد المجموعة التي نتناولها في هذا الفصل تشويقاً وأكثرهم تبايناً في مواهبه وتنوعاً في جاذبيته، وأفكاره وقلقه ونقائصه. لقد اجتاز السلسلة كاملة من المثالية إلى كوارث في الحب والأخلاق، ونكبات في الأدب والفلسفة. وقد اقتبس من أفكار - وكلمات - مؤلفين كثيرين تأثر بهم واستوحى أفكارهم ولا يمكن لقسم من فصل أن يوفيه حقه.

ولد صمويل (صموئيل) تايلور كولردج في 12 أكتوبر سنة 1771 وكان هو الابن العاشر والأخير لجون كولردج ناظر المدرسة والذي كان عند مولده قسا في أوترى سانت ماري Ottery St. Mary في ديفونشير Devonshire وكان جون دارسا للرياضيات المتطورة وعالماً باللغتين اليونانية واللاتينية واللغات الشرقية، وهو مؤلف كتاب عن نحو اللغة اللاتينية Acritical Latin Grammer أما الابن الذي أصبح بعد ذلك يشير إلى اسمه بالأحرف الأولى

(S. T. C) فقد وقع في إيسار هذا التراث الذي تعلمه إذ كادت كل فقرة من فقراته تتضمن اقتباسا يونانيا أو لاتينيا. وقد روى - فيما بعد - ما كان عليه حاله من الثالثة إلى السابعة:
لقد أصبحت نكداً شكيماً رعيدياً نَمَامَا وإشياء، وكان رفاقي في المدرسة يبعدونني عن اللعب معهم وكانوا دائما يؤذونني لذا فلم أسعد بألعاب الصبية ومن ثم عكفت على القراءة باستمرار... لقد قرأت في السادسة من عمري بيليزاريوس Belisarius وروبزون كروزو Robinson Crusoe وألف ليله وليلة... فتملكتني الأشباح... وأصبحت حالماً وأصبحت أعاني انحرافاً في صحتي إثر أي نشاط جسماني، وكنت جباناً رعيدياً عاطفياً انفعالياً بشكل مبالغ فيه... وكنت كسولاً مكروهاً من الصبية لأنني كنت أستطيع القراءة والهجاء... وكانت لدي ذاكرة قوية وقدرة على الفهم تكادان تتمان عن نضج غير طبيعي، وكنت موضع إعجاب من النسوة كبيرات السن... ولذا فقد أصبحت مختالاً فخوراً، وأصبحت قبل أن أبلغ الثامنة من عمري شخصية (المقصود شخصاً ذا سمات خاصة) من حيث الأحاسيس والخيال والزهو والكسل، ومشاعر الاحتقار العميق والمرير لكل من يمر على تفكيري. حتى لو كان من المبرزين المشاهير (21).

وكان موت أبيه (9771) الذي كان الشاعر يحبه بعمق صدمة عنيفة له. وبعد موت أبيه بعامين أرسل إلى مدرسة خيرية في لندن تابعة لمستشفى يسوع Christ Hospital s لمواصلته تعليمه. وكانت الوجبات التي تقدمها هذه المدرسة هزيلة وكان النظام فيها صارماً، وقد تحدث في أواخر حياته عن العقاب الشائن الذي أنزلوه مضاعفاً وبقسوة على صبي شعر أن أسرته قد نسيتَه. لقد أرادوا له أن يكون قسماً بينما كان هو يرنو أن يكون صانع أحذية. وفي سنة 0381 (في هذا التاريخ كانت ذاكرته - على نحو خاص لا يُعوّل عليها) جُلد، وهو يروي لنا قصة جلده ولم تكن هي المرة الوحيدة، فيقول:

عندما كنت في الثالثة عشرة من العمر ذهبت إلى صانع أحذية وتوسلت إليه أن أعمل عنده ليعلمني المهنة. وكان رجلاً أميناً لذا فإنه سرعان ما دبر لي لقاء مع بوير Bowyer رئيس جماعة صانعي الأحذية، فثار غضباً وركلني... وسألني لماذا أبرهن هكذا على غيابي؟ فأجبتُه إنني شديد الرغبة في أن أكون صانع أحذية وأكره أن أكون رجل دين، فسألني لماذا؟ فقلت له: الحق أقول لك يا سيدي... إنني كافر وبمجرد أن قلت ذلك لم يسمح بوير بمزيد من الكلام، وجلدني (31) ومن الواضح أنه اقتطف بعض الفاكهة المحرمة، وربما كان ذلك من كتب إحدى محلات بيع الكتب بشارع الملك (كنج ستريت) ففي هذه المكتبات - كما زعم بعد ذلك - بطريقته التذكارية:
لقد قرأت في كل الكتب الواردة في الفهرس (المقصود كتالوج المكتبة) وفي كل الكتب الضخام (من القطع الأعظم) سواء كنت أفهم ما أقرأه أم لا... وكنت أغامر بكل شيء للحصول على المجلدين اللذين فرضت علي نفسي الحصول عليهما يومياً. لقد كنت مدركاً لما يجب أن أكون عليه وأنا في الرابعة عشرة من عمري. لقد كنت محموماً دائماً (المقصود أنه كان شديد التوق للقراءة): لقد كان كياني كله موجهاً نحو الانسحاب إلى ركن مشمس لأقرأ وأقرأ وأقرأ، مغمضاً عيني عن أي هدف آخر (41).

وبطبيعة الحال فإننا نلمح زهواً مبالغاً فيه هنا. وعلى أية حال فقد أنجز إنجازاً طيباً في مدرسة مستشفى يسوع حتى إن أسرته رتبّت أمر إدراجه بين الطلبة المساعدين (يفتح العين) الذين يعملون ويدرسون في أن واحد في كلية يسوع كمبردج (1971) وهناك حاول دراسة الرياضيات المتقدمة واللغة اليونانية المعرقة في قدمها لقد قرأت بندار Pindar ورحلت أولف الشعر باللغة اليونانية وكانني كلب مجنون أو بتعبير آخر ككلب مصاب بالسعار... وفي أي وقت فراغ يتاح لي كنت أترجم Anacreon... وتعلمت العزف على الفيولين (الكان) (51).
وعندما نقرأ عن كولردج لا بد أن نسمح لأنفسنا بتقبل ما هو عليه من غلو وإفراط. لقد أهمل صحته، وأصيب في سنة 3971 بالحمى الروماتيزمية، ولجأ إلى الأفيون لتسكين الآلام، وكان الأفيون في ذلك الوقت شائعاً كعقار مسكن لكن كولردج أدمنه، وأبطأت خطاه في المجال الدراسي، وسمح لنفسه بمزيد من الاهتمام بالأمر العامة. وعلى أية حال فقد تجاوز ما سمحت له به أسرته ووقع في الديون وطارده دائنوه وفي جهد يائس للهرب منهم غادر كمبردج فجأة، وفي ديسمبر سنة 3971 تطوع في جيش كان يعد لحرب فرنسا. واشترى أخوه جورج إطلاق سراحه مقابل أربعين جنيهاً إنجليزياً وحثه على العودة إلى كمبردج. ودبر أمر تخرجه من الجامعة في سنة 4971 دون الحصول على الدرجة العلمية، ولم يزعجه هذا كثيراً لأنه في هذه الأثناء كان قد اكتشف اليوتوبيا (المدينة المثالية).

وكان يعد نفسه لهذا الاكتشاف بتخليه عن عقيدته الدينية، وعقد آماله على السعادة واليوتوبيا (المدينة المثالية) وقد حركت الثورة الفرنسية مشاعره كما كادت تحرك مشاعر كل المتعلمين وغير المالبيين في إنجلترا. والأن، في ربيع سنة 4971 وصلته رسالة من صديقه روبرت آلن Allen في أكسفورد مفادها أن طلبة مختلفي المشارب راغبون جداً في إصلاح الأساليب والمؤسسات البريطانية، وذكر آلن أن أحد الطلبة يتميز بالألمعية ويكتب شعراً يحقّق فيه بالثورة الاجتماعية. أيسطيع كولردج أن يذهب إلى أكسفورد للقاء هؤلاء الشباب؟ لقد فعلها كولردج في يونيو سنة 4971.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> سوئي 1774

4- سوئي

3081 - 4771

من بين ثلاثي منطقة البحيرة كان روبرت سوئي Southey أفضل الرجال وأسوأ الشعراء (أقلهم قيمة). ولد في بريستول وكان ابنا لتاجر أثواب وأقمشة، لكن من بين هذه البيئة التجارية (الميركانتيلية) كانت خالته إليزابيث تابلور غالبا ما تدفعه إلى التهذب بسلوكيات المجتمع الأرستقراطي في باث Bath، وتم إرساله في الرابعة عشرة من عمره إلى مدرسة وستمنستر الراقية في لندن وفيها - بلاشك - قرأ سرا أعمال فولتير وروسو وجيبون كما قرأ فيرثر Werther لجوته (تكتب أيضا جيته) كما كتب بعض الشعر الملحمي وقطعا نثرية ثورية، وأثارت مهاجمته للعقاب البدني في مجلة مدرسية بعنوان الضارب بالسياط Flagellant ناظر المدرسة الذي حار جوابا ففصله من المدرسة وهو على وشك التخرج، لكن روبرت استطاع بطريقة أو أخرى أن يتقدم إلى كلية باليول Balliol في أكسفورد في ديسمبر سنة 2971. وهناك واصل أعماله السرية، فكتب ملحمة John of Arcer امتدح فيها الثورة الفرنسية، واشتغل بالدراما الشعرية محاكيا وات تيلر Wat Tyler الثائر الإنجليزي في سنة 1831 - عندما وصل كولردج. ووجد الشاعر الأكبر سنا أن الرجل الأكثر شبابا مستغرق في تفكير عميق لأن روبيسبير كان قد أطاح برووس أكثر قادة الثورة الفرنسية حيوية - دانتون Danton وديمولان Desmoulin، ألم تنته حقوق الإنسان التي تم إعلانها إلى مجرد تنافس على القتل؟ لكن كولردج طمأن باله شارحا أن أوربا ممزقة مهترئة، ومع هذا ففي غضون أسبوع أو نحو ذلك أبحرت من مدينة بريستول موطن سوئي سفينة متجهة إلى أمريكا الرحبة الخصبة الجمهورية. لم لا ينظم كولردج وسوئي مجموعة من الشبان والشابات الجسورين ويتم عقد قرانهم بشكل صحيح ويهاجرون معا إلى بنسلفانيا ليقبوا مستعمرة جماعية (اشتركية) على شواطئ سسكويهانا Susquehana الجميلة غير الملوثة؟ لقد كان كل ما هو ضروري هو أن يشارك كل شاب بمبلغ 521 جنيه إسترليني لتكوين ميزانية موحدة (مشتركة، وكان لا بد أن يكون لكل زوجين صوت - على قدم المساواة - في حكم المستعمرة، ومن هنا أطلق كولردج على هذه المستعمرة اسم البانتيسوكراسيا Pantisocracy.

وليرفع المؤسسان من نصيبهما المالي في التكاليف اشتركا معا في كتابة دراما شعرية بعنوان سقوط روبيسبير وتم نشرها لكنها لم تحقق المبيعات المطلوبة. وباع سوئي عمله الأدبي John of Acre إلى كونل Cottle البريستولي of Bristol نظير خمسين جنيها.

وقام الخريجون (الذين لم يحصلوا على درجاتهم العلمية) بالقاء محاضرات في بريستول وكسبوا ما يكفي لتمكين سوئي من الزواج وبالفعل فقد قبلته إديث فريكر Edith Fricker زوجها لها (41 نوفمبر 5971) وكانت أخت إديث واسمها ماري قد قبلت بالفعل روبرت لوفل Lovell زوجها لها كما قبلت مبدأ البانتيسوكراسيا (العيش في مستعمرة اشتركية). والآن كما يقول سوئي كان من المرغوب فيه جدا أن يحب كولردج الأخت الثالثة سارة، وأن يتزوجها.

وقبل سوئي دعوة لزيارة لشبونة كمرافق لعم كان قسا بالسفارة البريطانية، وقد وسعت الرحلة أفق هذا الشاب (سوئي). لقد ارتحل في إسبانيا وكذلك في البرتغال، وعندما عاد إلى إنجلترا (مايو 1697) اكتشف أنه يحب إليزابث تيلر Tyler التي سبق أن رفضته لأفكاره المخربة وعدم عراقة أصله، كما اكتشف أن فكرة البانتيسوكراسيا أضاعت شبابه، فدرس القانون ووجد عملا كصحفي، وكان لديه الوقت الكافي لكتابة ملاحم لم يكتب لها الخلود بالإضافة إلى بعض القصائد القصصية البسيطة مثل معركة بلنهايم The Battle of Blenheim في سنة 1704 وأقام في جرينا هول Greta Hall في كزويك Keswick مستعينا بإعانة ودية قوامها 61 جنيهًا إسترلينيًا.

صفحة رقم : 14655

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> كولردج 1794

5- كولردج

4971 - 7971

كان كولردج ممزقا بين أعصاب حية وجلد وصبر من ناحية، وإرادة مترددة من ناحية أخرى. لقد أحب ماري إيفانز ابنة لندن لكنه جفل من مهمة الإبقاء عليها في ظل أسلوبها المعتاد، أما هي فقد أحببت روحه الثرية المتحمسة لكنها لم تكن واثقة في قدرته على الكسب فابتعدت عنه، فوجد نفسه مستسلما لسارة فريكر فهي رغم بساطتها وإفلاسها يمكن أن تحافظ له على بيته وتتجذب أطفالا وإن كانت غير قادرة على إلهامه أشعاره.

وليمول زواجه المأمول وأحلامه الباقية راح يلقي المزيد من المحاضرات في بريستول محصلا شلنا كرسوم دخول (لقاعة الاستماع) (واستمر هذا في الفترة من يناير إلى يونيو 1791)، وكان نشاط هذه الجماعة راديكاليا بشكل طائش: لقد شجبوا الكنيسة القائمة Established Church كخادمة للأثرياء، وأنها لا تعرف ربا Lord سوى المالك الإقطاعي Lord of the manor وأدانوا الحرب ضد فرنسا لقمع الثورة وإحداث ردة تاريخية. والتمسوا الأعداء للإرهاب باعتباره رد فعل لحرب بت Pitt وs war وأدانوا مراسيم تقييد حرية الرأي Gag Bills كجهود حكومية لكبت إرادة الجماهير. لقد كان ما حصلوه من الأموال قليلا لكنه كان كافيا ليعقد كولردج قرانه على سارة فريكر في مذبح الكنيسة في 4 أكتوبر 1791.

وفي هذا الخريف نفسه التقى لأول مرة بوردزورث، ولم يكن وليم ليكبر صمويل (صموئيل) بأكثر من عامين لكنه كان قد خبر الثورة الفرنسية، لقد كان قد عاين اليوطوبيا معاينة حية معاينة من رأى لا من سمع. وقد شارك الرجل الأصغر منه بعامين الخشبة من استعادة البوربون عرش فرنسا، لكنه لم يكن قادرا على العيش في بنسلفانيا فقد كانت أوربا هي مسرح الصراع الفكري، أما بالنسبة إلى بهاء منطقة سوسكويهانا Susquehanna وجمالها، فلم لا يكتب قانعا بعظمة البحيرات الإنجليزية وبهائها؟ ولم يكن كولردج مقتنعا تمام الاقتناع لكنه كتب في مذكراته (مجموعة أوراقه) أن يتابع تطور وليم وربما ليتعلم منه كيف يتخطى صعوبات الحياة (يجتاز عواصفها ومنحدراتها) لقد ملأ كثيرا من الأوراق بمعلومات وأفكار كثيرة جمعها من الكتب وممن قابلهم. لقد كان يقرأ قراءات واسعة في مجالات

شئى وبشغف في اثني عشر مجالاً، لقد قرأ في التراجم وعن الحيوانات والنباتات والعلوم والأديان والفلسفة والأمم والأدب والفكر والفنون. وكان واحداً من أكثر من عرفنا شغفا بالقراءة واستيعاباً لما يقرأ وقدرة على التذكر. لقد أصبحت ذاكرته مخزناً يسحب من رصيده حتى نهاية حياته يسحب منه الأفكار والأخيلة والعبارات والأدلة، بل وحتى فقرات كاملة. وكثيراً ما كان يهمل ذكر مصدر معلوماته وربما كان ينسى المصدر سعياً بهذا النسيان، وكان يخلط دون اهتمام أفكاره بالأفكار التي استقاها من مصادر أخرى. وفي خاتمة المطاف ضاق عقله بهذا المخزون الكبير من المعرفة المتباينة خاصة وأن عقله كان نزاعاً للحرية نافرماً من الانضباط. لقد كاد المخزن ينهار على المخزون وربما رغبة منه في تحرير ذاكرته أو رغبة منه في إطعام زوجته وجدناه يركز على فكرة طبع مجلة وبيعها، وكاد هو أن يكون كاتبها الوحيد، وأجبر معارفه والمستمعين لمحاضراته على الاشتراك في هذه المجلة ووزع عدداً محدوداً من هذه النشرة التمهيدية Prospectus حتى يعلم الجميع الحقيقة فقد جعلنا الحقيقة أحراراً. وفي يوم الجمعة، الخامس من فبراير سنة 1971 تم نشر العدد الأول (يسعر أربعة بنسات) على أن تصدر كل ثمانية أيام بعنوان (المراقب

Watchman) بقلم س. ت. كولردج Coleridge مؤلف نداءت إلى الشعب Addresses To the (61 People). وهنا - كما هو الحال في محاضراته - كان يتحدث كراديكالي أحرق خلفه كل الجسور، لقد راح يهاجم الحرب والعبودية (الرق) وتعويق حرية الصحافة والنشر، وكان يهاجم بشكل خاص الضرائب على المبيعات لوطناتها الثقيلة على عامة الشعب (71). لكنه لم يوص بحق الانتخاب العام للبالغين من الذكور أو الإناث. يجب أن تكون لدينا الجرأة بالاعتراف بالحقيقة السياسية فقط لأولئك الذين هم قادرين على استخدام عقولهم والإقناع بما هو منطقي، ولا نعترف بها أو نفرها للغالبية الجاهلة المحتاجة التي تحركها بالضرورة عواطفها المهتاجة (81). ووجد كولردج أنه من غير المحتمل أن يكتب اثنتين وثلاثين صفحة كل ثمانية أيام إذ راحت هذه الصفحات - بشكل متزايد - تمتلئ بكتابات غرباء لم يكونوا دائماً معروفين. واحتج بعض القراء المتابعين للمجلة وقل التوزيع وارتفعت الديون وبعد العدد العاشر توقفت هذه المجلة (مجلة المراقب Watchman).

وفي أول سبتمبر سنة 1971 وُلد لكولردج أول مولود. فأسماه ديفيد هارثلي David Hartley على اسم رائد علم النفس الارتباطي (سيكولوجية الترابط أو التداعي). لقد كان المولود صبور الوجه باعناً للمسرة، لكنه كان فماً جديداً يطالب بالطعام. وفي هذه الأثناء كان كولردج يعاني من متاعب في القلب والرئتين، وراح يزيد من جرعات الأفيون لتسكين آلامه، وكادت موارده تنفذ عندما قدم له صديق متساهل ودود هو توماس بول Poole منزلاً صغيراً بالقرب من منزله (منزل بول) في نثر ستوي Nether Stowey بالقرب من بردجوتر Bridgewater - بايجار رمزي مقداره سبعة جنيهات سنوياً. وفي 13 ديسمبر سنة 1971 انتقل كولردج وسارة وابنه (ديفيد) إلى هذا المنزل. وجعلت سارة المنزل نظيفاً مريحاً، وعمل كولردج في حديقة مجاورة وساعد في رعاية خنازير بول Poole ودواجنه، وكتب شعراً جديراً بأن يخلد.

وفي نحو هذا الوقت - على وفق ذاكرته الثرية العامرة دائماً - ظهرت له فكرة قبلاي خان Kubla Khan في حلم رائع وقد كتب غالبها مستوحياً هذا الحلم:

(في صيف سنة 1971 عكف المؤلف - وكان معتلاً صحياً - في منزل ريفي منعزل بين بورلوك Porlock ولينتون Linton... ونتيجة توعك صحته وتناولة العقارات المسكنة (الأفيون) غلبه النوم وهو جالس على مقعده بينما كان يقرأ... في كتاب رحلة بورشاز Purchas Pilgrimage. وفي الحلم أمر قبلاي خان ببناء قصر بداخله حديقة، وتم تسوير هذه الأميال العشرة من الأرض الخصبة بسور. ولقد استمر المؤلف في نوم عميق نحو ثلاث ساعات - على الأقل كانت حواسه الخارجية هي النائمة - وخلال هذه الساعات كان واثقاً ثقة تامة أنه لا يستطيع أن يكتب أقل من مائتي سطر أو ثلاثمائة سطر دون أن ينتابه الإرهاق والتعب. وعندما استيقظ ظهر أنه يتذكر تفاصيل الحلم فأمسك بقلمه وأدنى منه الحبر والورق، وراح يكتب بشكل مستمر وبشغف السطور التي بقيت لنا).

هذه المقدمة الشهيرة فسرها النقاد بأنها خرافة خدع بها كولردج نفسه أو آخرين لقبول فكرة الحبل بلا دنس immaculate Conception وديمومة قبلاي خان. وعلى أية حال فمن غير المعلوم أن المؤلف بعد صياغة جُملته خلال النهار، وأصل عمله في أثناء الحلم أم لا، لكن تكاد هذه الدرر دوماً تغوص في اللاشعور وكأنها يقظة نائم Sleeper wakes وربما كان للأفيون أثره ليس في الحلم (الرؤيا) فقط وإنما في الإيهام بأن التأليف كان جزءاً من الحلم. وعلى أية حال فإن كولردج بمهارته المميزة في السجع والجناس قد حول نثر بورشاز Purchas إلى واحد من أكثر النصوص - التي لم يكتمل إنجازها - تشويقاً في اللغة الإنجليزية.

وربما كان الحدث (الأدبي) الأكثر أهمية من قبلاي Kubla بالنسبة لكولردج في عام 1971 هو دعوة ودزورث له لزيارته في ريسدون Racedown، فاستأذن من زوجته ساره وابنه ديفيد David وانطلق ليسيير كل المسافة تقريباً. وتراءى له هدفه في 6 يونيو فجرى - وقد أخذت الإثارة منه مأخذها - إلى باب أخيه الشاعر. وعندما فتح له

وليم ودوروثي الباب وفتحاً له مع الباب قلبيهما، بدأت حقبة جديدة في حياة ثلاثتهم، وكان تعاونهم واحداً من أعظم ما حققه التعاون بين الأدباء إثماراً في تاريخ الأدب.

صفحة رقم : 14656

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> الثلاثي

6- الثلاثي

7971 - 8971

كان كولردج آنذ في ذروة تألقه. كان بدنه - رغم آلامه وسمومه غير الظاهرة - مستجيباً لاهتمامات عقله الحيوية. وكان وجهه الوسيم - بغمه الشهواني وأنفه دقيق التكوين وعينيه الرماديتين تتألقان شغفا وحب استطلاع، ورقبته وأذنيه، وشعره الأسود المهوش المتدلي على رقبته وأذنيه - قد جعله جذاباً خاصة في عيني دوروثي. لم يطل الأمر أحبته بطريقتها الخجولة، وإن ظل إعجابها بوليم في المحل الأول. لقد أخذ كولردج برقتها وجذبته إليها بعاطفتها الهادئة. لقد كانت صديقة جارته في كل أتامه وتجاوزت عن كسله لتستمتع بمشاعره الدافئة وخيالاته العميقة الغربية وإيمانه المهتز، وضاعت آلام الشاعر المبرحة بين الحيل والصراع. وعلى أية حال، فقد كاد يرى في هذه الفتاة شجراً رعيدياً سحقها أخوها (سيطر عليها تماماً).

وهنا تحقق كولردج أن هذا الرجل وردزورث بوجهه الهادئ الحزين وجبهته المرتفعة وعينيه المتأملتين شاعر حقيقي وحيوي حساس لكل خلجة ونيضة من خلجات الأشياء والأشخاص ونيضاتهم، وينأى بنفسه عن أي اضطراب اقتصادي جاعلاً من خلجات الطبيعة والناس ونيضهما وسيلة للبحث عن الكلمات المعبرة بعمق وعاطفة عن بصيرته وأحلامه. وكان كولردج - الذي كانت (أغاني البحار القديم) تعتمل بالفعل في نفسه - هو أعظم الشعارين - لكنه أحسّ بتكريس هذا الشاعر (وردزورث) نفسه للشعر وحسده لتكريس نفسه تماماً للشعر، وربما كان قد تعجب ما إذا كانت الأخت ليست أفضل من الزوجة. لقد كتب حالماً وصل: لقد شعرت بضالتي بجواره، ومع هذا لم أعتبر نفسي أقل مما كنت أظن نفسي سابقاً إن وليم (وردزورث) رجل عظيم جداً. إنه الرجل الوحيد الذي أحسست أنني أقل منه في كل الأوقات وفي كل حالات تفوقي (91).

وبدأ ثلاثتهم ثلاثة أسابيع يحث بعضهم بعضاً، لقد راح كل واحد منهم يقرأ قصائده على الآخرين. وكان وردزورث يقرأ أكثر، بينما كان كولردج يتحدث أكثر. كتبت دوروثي: إن مناقشاته وحواراته تتزاحم في الروح والنفس والعقل. وهو خير جداً حسن الطباع جذاب .. وهو يتحدث بعينه التي تعبر عن كل عواطفه (02).

وعادة ما يبرد الحب بين هذا الثلاثي بعد ثلاثة أسابيع فرجا كولردج كلاً من وليم ودوروثي أن يصحباها إلى نذر ستوي Nether Stowey ليكرمه كما أكرماه، فانطلقا معه متوقعين أن يعودا سريعاً إلى ريسدون Racedown لكن الصديق بول Poole علم أن الفترة التي يقضيها مع كولردج ستنتهي ولا مجال لتمديد ما فدبر لهما منزلاً جميلاً

مؤثتا في أفوكسدن مقابل 32 جنيتها استرلينياً سنوياً، وألوفكسدن هذه على بعد أربعة أميال من مقر كولردج، وهناك أقام وليم وردزورث ودوروثي في راحة، وراحا يستلهمان الشعر طوال خمسة عشر شهراً. وفي هذه الفترة السعيدة راحا يسيرون وهم ينشدون الشعر أو يتناقشون فيه : أحيانا كان الرجلان يسيران معا، وأحيانا كولردج ودوروثي، وأحيانا ثلاثهم معا. لقد راحا يتبادلون المشاعر والأفكار والملاحظات: وردزورث شجع كولردج على ترك الخيال كمرشد له، وزاد كولردج من معارف وردزورث عن الفلاسفة وتحداه ليكتب ملحمة شعرية. وفي أعوام لاحقة تذكر وردزورث في (المقدمة) صديقه الذي كان يجول معه (كولردج) ذكراً أنه صديق الأرواح المرححة slash حيث كنا نخصص جانباً من أيامنا لأول مرة لننغمس معا في الشعر الجامح(12) وكانت دوروثي هي رباطهما محفزتهما (مشجعتهما). لقد كانت تبهجهما بمدبحةا، وباستماعها باهتمام وشغف متحدية إياهما بحماسها وعمق إدراكها ونفاذ بصيرتها، موحدة إياهما كعروس روحية لكليهما. لقد كانوا - كما قال كولردج ثلاثة أشخاص في روح واحدة(22).

ولا بد أن وردزورث وكولردج قد طالعا اليوميات التي بدأت دوروثي كتابتها في أفوكسدن في 02 يناير سنة 7971. ولا بد أنهما توقفا عند سطر في الصفحة الثانية طنين الحشرات، تلك الضوضاء الصامتة (غير المزعجة) التي تملأ أجواء الصيف أما سارة كولردج فلا بد أنها كانت أكثر تأثراً بما ورد عن الفترة من 3 إلى 21 فبراير:

3 فبراير: سرت مع كولردج فوق التلال ...

4 فبراير: سرت مسافة طويلة في الطريق إلى ستوي Stowey مع كولردج

5 فبراير: سرت إلى ستوي مع كولردج ...

11 فبراير: سرت إلى قرب ستوي مع كولردج

21 فبراير: سرت وحدي إلى ستوي، وعدت مساء مع كولردج(32).

ولم تكن ساره سعيدة بحكاية المشي هذه، لقد بدا الأمر لها برئياً غير مرتبط بعلاقة جنسية، لكن أين تنتهي هذه الحكاية؟

صفحة رقم : 14657

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> الشعر الغنائي

7- الشعر الغنائي

8971

وفي يناير سنة 8971 ظهر في كولردج حافظ آخر يحفزه على التفرغ للشعر، إذ إن جوسياه Josiah وتوماس ودجوود Wedgwood - ابني جوسياه ودجوود (0371 - 5971) ووريثاه - عرضا على الشاعر شبه المفلس راتباً سنوياً مقداره 051 جنيتها (3، 057 دولار) شريطة أن يتفرغ تماماً للشعر والفلسفة. وكان أبوهما صانع فخار أتقن صنعته فجعل فخاره وخزفه مشهوراً في أوربا كلها. وكتب كولردج لهما خطاباً في 71 يناير يرحب فيه بهذه المنحة،

وأغرق في التأمل والاندماج في عملية الإبداع ليكمل (أغنية الملاح القديم) واقترح كولردج على وردزورث بعد أن تسلح بهذه المنحة الدالة على شهرته في مضمار الشعر - أن يجمعا معا قصائدتهما الجديدة في مجلدات تحمل اسميهما فقد تعود عليهما بمبالغ مالية تكفي لتمويل رحلة يقومان بها إلى ألمانيا. لقد كان كولردج يأمل في أن عاما يقضيه في ألمانيا سيمكنه من تعلم اللغة الألمانية بشكل يكفي لقراءة الأعمال الكبرى التي ألفها الألمان من جوته (جيتة) إلى كانط Kant في لغتها الأصلية وفهمها، فهؤلاء الأعلام الألمان قد جعلوا من ألمانيا رائدة في مجال الفلسفة الأوروبية بلا منازع أو على الأقل جعلتها تنافس إنجلترا وفرنسا في مجال الأدب والفكر. ولم يكن وردزورث متحمساً لألمانيا، لكن لأن فرنسا وشمال إيطاليا كانا في قبضة الثورة الفرنسية، فقد وافق كولردج على خطته.

وفي أبريل سنة 1897 وجهها دعوة للناسر كوتل Cottle ليأتي إليهما من بريستول ليعلم أشعارهما الأخيرة، وأتى واستمع إليهما وعرض ثلاثين جنيها لشراء حق الطبع، وأراد أيضا أن ينشر اسمي الشعارين ولكن كولردج رفض قائلا إن اسم وردزورث ليس شينا أما اسمي فيلاقي احتجاجا عنيفا (42).

وبعد ذلك بثمانية عشر عاما شرح كولردج نظريته الكامنة وراء هذا التعاون (العمل المشترك): من المتفق عليه أن محاولاتي تتناول شخصاً وشخصيات ميثافيزيقية (فوق الطبيعية) أو على الأقل رومانسية أما السيد وردزورث فقد جعل هدفاً له أن يضيفي الجدة والجاذبية على أمور تحدث كل يوم، وأن يثير مشاعر تناظر ما أثيره من أمور فوق طبيعیه (ميثافيزيقية) بلغت الأنظار إلى ما في العادات من بلادة ولا مبالاة، إنه يوجه شعره إلى ما في العالم أمامنا من جمال وعجائب... لقد كتبت الملاح القديم من هذا المنطلق وكنت أجهز أيضا بمثل هذه الروح لعلمي اللبدي السوداء وكريستابل Chris table اللذين كنت فيهما أكثر اقترابا من تحقيق هذه الغاية (52).

وربما أخذت هذه النظرية شكلها بعد كتابة القصائد. وقد وضح هذا وردزورث في مقدمة الطبعة الأولى: تعتبر معظم القصائد الواردة في هذه الطبعة تجارب شعرية. لقد كتبت في الأساس من وجهة نظر مؤداها التحقق من المدى الذي يمكن فيه للغة العادية (لغة الحوار) في الطبقتين الوسطى والدنيا أن تكون قادرة على تحقيق أغراض الشعر وما يحدث من بهجة. لقد اعتاد القراء على الزخارف اللفظية والأساليب الفارغة لكثيرين من الكتاب المعاصرين، لذا فإن هؤلاء القراء إذا ثابروا على قراءة هذا الكتاب إلى نهايته ربما كان عليهم أن يقاوموا ما يحسون به من غثاثة وسماجة وغبابة. إنهم سينظرون إلى الشعر الذي ألفوه واعتادوا عليه ثم يندفعون متسانلين بأي حق أطلقنا على محاولتنا هذه لفظ الشعر؟ إنه لمن المرغوب فيه ألا يعاني مثل هؤلاء القراء أمام كلمة الشعر المتفردة، تلك الكلمة التي تنازع الناس حول معناها؟ إنه لمن غير المرغوب فيه أن تقف هذه الكلمة عائقا بين الناس وبين الاستمتاع (بما نكتب)....

والقراء الأرقى حكما قد لا يوافقون على الأسلوب الذي كتبنا به كثيرا من هذه القصائد... فسيظهر لهم أن المؤلف (الشاعر) رغبة منه في تجنب الأخطاء الشائعة قد تنازل كثيرا واستخدم كثيرا من التعبيرات الشائعة جدا والتي لا تتسم لفرط تداولها بالوقار الكافي... (62).

وتدخل النثر ليقطع عليهم روح الشعر: مالك منزل أفوكسدن أحاط آل وردزورث علما أن لاحق لهم في الإقامة في المنزل بعد 03 يونيو 1897. وفي 52 يونيو غادر وليم وردزورث ودوروثي إلى بريستول للتفاوض مع كوتل Cottle (الناشر) وفي 01 يوليو استقلتهما سفينة ليعبرا نهر سيفرن Severn وسار عشرة أميال في ويلز إلى كنيسة تنتيرن Tintern Abbey. وبالقرب من هذه الخرائب الجميلة جدا وفي طريق العودة إلى بريستول ألف وردزورث القصيدة التي أضيفت كقصيدة أخيرة إلى ديوانهما الشعر الغنائي Lyrical Ballads.

وتم نشر هذا الديوان الصغير في 4 أكتوبر 1897 بعد تسعة عشر يوما من مغادرة الشعارين - غير المعترف بشاعريتهما - قاصدين ألمانيا. لقد كان عنوان الديوان مناسبا؛ فقد كان إسهم كولردج الرئيس يسير على نسق الأشعار الإنجليزية القديمة - حكايات شعرية صالحة للغناء، وكان معظم إسهم وردزورث قصائد غنائية بسيطة تتناول الحياة البسيطة تكاد تقتصر على استخدام ألفاظ من مقطع واحد يستخدمها الفلاحون الإنجليز.

وكانت القصيدة الأولى في الديوان هي (أغنية الملاح القديم) وشغلت 51 صفحة من 711 صفحة هي كل صفحات الديوان وهي أطول قصائده وربما أفضلها رغم أن إنجلترا لم تدرك ذلك إلا ببطء، أما وردزورث فلم يعترف بقيمتها أبدا. حقيقة أن هذه القصيدة كانت حاوية على أخطاء كثيرة لكن لا يجب التركيز على الأخطاء التي نعتبرها منافية للعقل (أفكار اللامعقول) في الحكاية الشعرية، ذلك لأن كولردج كان قد اقتحم عالم الغموض حيث الأسرار والرموز وحيث الخيال الذي يجعل كل شيء ممكنا (72)، ففي عالم الخيال يمكن أن تنتج أحداث جسام من وقائع تافهة أو بسيطة. ومع هذا فإنه يتمسك بعبير الأسرار في الحكايات والأساطير القديمة، كما يتمسك بأوزان وإيقاعات الأشعار الغنائية والقصص البسيطة القديمة (فالملاح القديم) تكاد تحملنا معه إلى النهاية. إنها (الملاح القديم) تعتبر - بالطبع - واحدة من أعظم قصائد الشعر الغنائي في اللغة الإنجليزية.

أما إسهامات وردزورث فتكاد كلها تكون نماذج من الحكمة التي وجدها في شخصيات البسطاء. وبعض هذه القصائد مثل (الصبي الأبله Idiot boy) و(سيمون لي Simon Lee) هجاهما المتابعون (النقاد) بصخب، لكن من منا لم يتعاطف مع حب الأم المتمسك بالصرير لطفلها غير المؤذي ضعيف العقل (طفلها الأبله) ؟ (إن شرطاً واحداً من هذه القصيدة المفهومة يخبرنا عن العشب الأخضر - الذي تكاد تسمعه في أثناء نموه (82) أيمن أن يكون هذا التعبير اقتباساً من دوروثي؟) وبعد أن أطل كثيراً في قصائده ذات المذاق الريفي أنهى وردزورث الديوان بأبيات تأملية من (أميال قليلة) فوق (دير تترن Tintern Abbey). إنه هنا يقدم لنا تعبيرات فائقة (سامية) تعبر عن مشاعره عن أن (الطبيعة) و(الرب) هما شيء واحد (على وفق تعبير سبينوزا Deus sive Natura) إنهما (الطبيعة) و(الرب) لايتحدثان فحسب من خلال معجزات النمو (أو التطور) وإنما أيضاً من خلال الرهبة التي تبدو (من خلال قصر نظر البشر) قوى مدمرة كان تيرنر Turner يتعبد في محرابها (أي الرهبة) عند ممارسة فن الرسم. ومن جولاته (وردزورث) في الغابات والحقول، وتجديفه على صفحات البحيرات الهادئة وتسلقه فوق الصخور الضخام الوعرة، وعن آلاف النداءات صياحاً أو همساً الصادرة من آلاف الكائنات الحية، وحتى من تلك الموجودات التي يفترض ألا حياة فيها نسمعه - عن هذا ينشد :-

إليها ... إنني مدين لها بكل ما هو مقدس ومبارك،

ففيها تكمن الأسرار،

وفيهما يلقي الضوء،

على كل ما هو غامض مبهم في عالمنا،

وعن طريقها تريح هذا العبء الثقيل المرعب من الغموض والإبهام في عالمنا

فبسلطان التناسق (الهارمونية) تسعد العين بالهدوء

وبسلطان البهجة العميقة

نرى أعماق كل ما هو حي (92).

وبعد ذلك يشرب إلى دقائق إيمانه:

لقد تعلمت،

أن أنظر إلى الطبيعة،

لاكتساب لافكر له ، لكنني أسمع في أحوال كثيرة،

هارمونية الصمت، وموسيقاه الحزينة،

إنها ليست فجأة وليست ضبابية غامضة رغم سلطانها الواسع الممتد، وقدرتها

على التطهير (تطهير النفس) والسيطرة (القهر). ولقد شعرت،

بحضور يثيرني بالبهجة،

بهجة الأفكار السامية: معان تسمو،

الأشياء سموماً عميقاً وبعيداً بما يتخللها،

معان محورها ضوء الشمس الغاربة،

والمحيط الهائل والهواء الطلق،

والسمااء الزرقاء، وفي نفس الإنسان،

الحركة والروح اللتان تدفعان،

كل ما هو مفكر، وكل أهداف للأفكار،

وتدور في كل الأشياء، لذا أزالنتُ

عاشقاً لكل المروج والغابات

والجبال ... معترفاً أن،

في الطبيعة ولغة المعاني

دليل قلبي وحارسه وروح،

كل وجودي المعنوي (أو بتعبير آخر مغزى وجودي)(03).

وقد وصلت دوروثي أيضا إلى هذه العقيدة (الإيمان) الشافية التي توحد بين الطبيعة والرب ووجدت أنها لا تتفق مع العقيدة المسيحية. وفي نهاية قصيدته أضاف وردزورث إهداء يعبر فيه عن شكره لها وتسبيحه بفضلها كأخت روحه معلنا تمسكه بها حتى النهاية:

إن إيماننا البهيج الذي نتمسك به جميعا،

إيمان مقدس ومبارك. لذا دع القمر،

يبزغ بنوره عليك عندما تكون سائرا بمفردك،

ودع رياح الجبال التي بللها السديم تهب حرة،

دعها تهب عليك، وفي الأعوام التالية،

عندما تصبح هذه الانجذابات البرية ناضجة

في بهجة رصينة، عندما تصبح نفسك

ملاذا لكل ما هو محبب

ستصبح ذاكرتك مسكناً

لكل الأصوات الحلوة، وكل ما هو متناسق جميل... (13)

ولم يحظ هذا الديوان (Lyrical Ballads) باستقبال حسن إذ ذكرت السيدة كولردج أن أحداً لم يحب هذه القصائد - لقد كانت السيدة كولردج زوجة معذورة إذ كانت تغار من ملهمة زوجها الشاعر .
وانشغل المتابعون (النقاد) انشغالا شديدا بعدم الحكمة في قصيدة (البحار القديم) وعدم الترابط في الأفكار العاطفية في القصائد الغنائية القصيرة التي كتبها وردزورث، وبدا أن أحدا منهم لم يعترف بقصيدة (البحار القديم) كشكل سيسود مستقبلا في كل الأعمال الأدبية الشعرية رغم أن بعض التابعين لاحظ وحدة الوجود (كون الطبيعة والرب شيئا واحدا) والإيمان بهما إيمانا شديداً في قصيدة (دير تيننيرن Tin tern Abbey)، وبيع من هذا الديوان الصغير خمسمائة نسخة على مدار عامين وعزا كولردج أحد أسباب نقص المبيع منه إلى كلمه (البحار) التي أوحى أن الديوان يتناول أغاني التجارة أما وردزورث فقد عزاه إلى احتواء الديوان في على قصيدة (الملاح القديم) هذه وليس مجرد اسم (الملاح).

وفي سنة 9971 بينما كان كولردج في المانيا أعد وردزورث طبعة ثانية من هذا الديوان . وفي 42 يونيو كتب إلى الناشر كوتل: من خلال ما سمعته وقرأته يبدو أن قصيدة (الملاح القديم) قد ألحقت ضررا بالديوان (قد يكون هذا صحيحا) ... إذا قدر طبع الديوان طبعة ثانية فإنني سأضع مكانها بعض المقطوعات الصغيرة قد تكون أكثر مواعمة للذوق العام (32) ومع هذا فقد اشتمل الديوان في طبعته الثانية على قصيدة (الملاح القديم) مع شروح غير متعاطفة قدمها وردزورث ، يبين فيها عيوب القصيدة وأخطاءها ولكنه لفت الأنظار إلى كونها قصيدة ممتازة . وهذه الطبعة (يناير 1801) اشتملت على قصيدة جديدة لوردزورث هي قصيدة تحمل عنوان ميشيل Michael - وهي حكاية كتبها بالشعر المرسل (غير المقفى) عن راع بلغ من العمر أربعة وثمانين عاما مخلص في عمله متمسك بالأخلاق الحميدة ، محبوب في قريته ، وعن ابنه الذي انتقل إلى المدينة فغدا فاسقا منحلا . وذكر وردزورث في مقدمة جديدة للديوان بالتفصيل - وفي عبارات أصبحت الآن مشهورة - نظريته في الشعر : إن أي شيء وأية فكرة أن تثمر شعرا إذا حملت بالشاعر والمعاني ، وإن أي أسلوب أولغة يمكن أن يكون شعرية إذا كان قادراً على نقل هذه المشاعر والأحاسيس والمعاني فالشعر هو فيض عفوي للمشاعر القوية . التي تعود إلى أحاسيس وعواطف تراكمت بهدوء (33) وعلى الشاعر نفسه أن يتحكم في هذه الأحاسيس وتلك العواطف قبل أن يعطيها شكلها الفني ، ولكن مثل تلك المشاعر والأحاسيس ليست قصرا على المتعلمين أو النخبة المثقفة إذ يمكن أن تكون لدى الفلاح الأمي كما يمكن أن تكون لدى الدارس أو الباحث أو اللورد وربما تتخذ شكلها أنقى وأوضح عند الأشخاص الأكثرين بساطة، ولا يحتاج التعبير عنها إلى مفردات شعرية خاصة أو أسلوب شعري خاص فأفضل الأساليب هو أبسطها وأفضل الألفاظ هو أقلها زخرفة

وخلوا من الادعاء والخيلاء. والوضع الأمثل هو أن يتحدث الشاعر بلغة الرجل العادي وحتى الكلمات العلمية أو المكتسبة بالتعليم يمكن أن تكون شعرية إذا نقلت المشاعر والقيم المعنوية. وفي خاتمة المطاف فإن المضمون المعنوي مشاعر وأحاسيس - هو المعول عليه في كل الفنون والآداب. المسألة إذن هي إلى أي مدى إذن نوظف مهارتنا (كشعراء) في توضيح الأفكار وتبرئتها مما يشوبها والتسامي بها (جعلها نبيلة)، فالشاعر العظيم يجب أن ينقي المشاعر الإنسانية إلى درجة معينة... ليجعلها أكثر معقولة ونقاء ودواما - باختصار أكثر توافقا وتناغما مع الطبيعة - أعني مع الطبيعة الخالدة، والروح العظمى للأشياء. لابد للشاعر أن يكون إلى جوار الإنسان، وأن يسبقه (يستشف المستقبل) بين الحين والحين (43). والشاعر المثالي - أو الرسام أو النحات - هو فيلسوف يلبس الحكمة ثوب الفن والأدب، ويوحى المعاني من خلال الشكل الأدبي أو الفني الذي ابتغاه.

لقد قامت هذه المقدمة (التي كتبها وردزورث) بدور في التاريخ لأنها ساعدت في وضع نهاية للذوق اللغوي الذي كان سائدا غالبا في الشعر والخطابة لدى الإنجليز في العهد الأوغسطي كما ساعد على وضع نهاية للظلم الطبقي والمرجعيات الكلاسيكية في ذلك العصر. لقد أعلنت هذه المقدمة حرية المشاعر (حق الجميع في الشعور)، وكانت عاملا آخر من عوامل الترحيب بالقصص الرومانسي - وإن صاغها وردزورث بأسلوب أبعد ما يكون عن الرومانسية. لقد كان وردزورث نفسه ذا مزاج وصفات كلاسيكية فكريا وحكما لقد تفاعلت ذكرياته معه بهدوء، بينما كان كولردج رجل عواطف وأحاسيس وخيال. لقد كان التعاون بين الرجلين تعاوناً مثمرا ومفيدا. إنها مشاركة ممتازة.

صفحة رقم : 14658

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> الباحثان المتجولان

8- الباحثان المتجولان

8971 - 9971

لم ينتظر الشاعران (وردزورث وكولردج) ليريا ديوانهما منشورا وأبحرا ومعهما دوروثي في 51 سبتمبر سنة 8971 من يارموث Yarmouth إلى همبرج Hamburg، وكان أحد أسباب قرارهما منحة إضافية تلقاها كولردج من جوزياه ودجوود Josiah Wedgwood وقرضا تلقاه وردزورث من أخيه رتشارد. وفي همبرج، افترقا بعد أن قاما بزيارة غير ملهمة للشاعر العجوز كلوبستوك Klopstock. وذهب كولردج للدراسة في جامعة جوتنجن Gottingen أما وردزورث ودوروثي فاستقلتهما مركبة عمومية إلى جوسلار Goslar المدينة الإمبراطورية الحرة عند السفوح الشمالية لجبال هارتس Harz، وهناك مكثا أربعة أشهر، ولم يكن ذلك في خطتهما وإنما بسبب البرد الشديد. وفي هذه الفترة راحا يتسكعان في الشوارع ويتدفان أمام الموقد المدفأة ويكتبان الشعر أو ينسخانه. وليدفي نفسه بالذكريات ألف وردزورث الكتاب الأول من مقدمته (The Prelude) وهو ملحمة سيرته الذاتية. وفجأة تحققت من أنها يحبان إنجلترا كثيرا فانطلقا سيرا على الأقدام في 32 فبراير سنة 9971 وكان البرد قارسا ليودعا كولردج في

جوتجن، ثم أسرعا عاندين عبر بحر الشمال القارس إلى يارموث ومنها إلى سوكبيرن Sockburn حيث كانت ماري هنتشسون تنتظر بصبر قدوم وليم (وردزورث) ليتزوجها.

وفي هذه الأثناء كان كولردج قد بذل قصارى جهده في جوتجن ليكون ألمانياً إذ تعلم الألمانية وأصبح مشغولاً بالفلسفة الألمانية. ولم يجد توضحاً للعقل (أو النفس mind) في سيكولوجيا المادية Psychology of materialism وتحلى عن نظرية هارتلي Hartley عن النداعي Mechanistic associationism وتبنى مثالية idealism كانط ولاهوت شلنج Shelling الذي جعل الطبيعة Nature والعقل Mind هما وجهي الرب (جانبي الله). وقرأ أو سمع محاضرات أو غسطنس فيلهلم فون شليجل August Wilhelm Von Schlegel عن شكسبير واقتبس منها أفكاراً كثيرة في محاضراته اللاحقة عن الدراما في عهد إليزابث. وبعد أن تشبع تماماً بالفكر والمجردات، فقد ميله للمشاعر والخيال وترك الشعر إلى الفلسفة. وكتب: لقد مات الشعر فيّ. لقد نسيتُ كيف أنظم قصيدة (53). لقد أصبح هو حامل الفلسفة الألمانية إلى إنجلترا. وفي يوليو سنة 1971، غادر ألمانيا عائداً إلى نذر ستوى Nether Stowey لكن ابتعاده عن زوجه مدة عام كان قد أثر في قدرتها على رعاية بيتها، لم تعد ساره كولردج رومانسية حاملة، وأصابها هم بسبب موت ابنهما الثاني حديثاً - بيركلي Berkeley. وفي شهر أكتوبر انطلق - وقد اعتراه الملل - شمالاً ليرى وردزورث في سوكبيرن Sockburn. وفي تلك الزيارة أبقى يد سارة هنتشسون - أخت ماري - في يده طويلاً، وسرى تيار باطني غامض من المرأة إلى الرجل، وانشغل كولردج بحبه الثالث غير السعيد، فسارة هذه - لم تقدم له أكثر من التعاطف لأنها كانت تدرك التزاماته تجاه الأخرى. وبعد عامين من التودد إليها بلا أمل استسلم للهزيمة وكتب قصيدة غنائية مؤثرة بعنوان الأحران تكاد تكون آخر نبض شعري له.

وصحب وردزورث في جولة على الأقدام في منطقة البحيرة يبحث كل منهما عن مسكن، وفي كزويك Keswick ظن أنه وجد مكاناً للإقامة لكنه تلقى عرضاً للعمل في جريدة مورنينج بوسط morning Past فغير خطته واتجه إلى لندن. وفي هذه الأثناء استأجر وردزورث مسكناً على بعد ثلاثة عشر ميلاً إلى الجنوب - في جراسمير Grasmere. وعاد إلى سوكبيرن ورضيت دوروثي بالتحرك للمنزل الجديد وفي 71 ديسمبر 1971 بدأ الأخ والأخت رحلتها الطويلة سيراً على الأقدام في معظم الوقت قطعاً خلالها أميالاً كثيرة في طرق وعرة وغير مستوية في فصل الشتاء. وفي 12 ديسمبر أقاما مدفأتهما في المنزل الجديد فيما أسماه وردزورث طرف المدينة وأصبح فيما بعد يحمل اسم مسكن اليمامة (دوف كوتاج Dove Cottage) وهناك قضيا أصعب أعوامهما وأسعدها في الوقت نفسه.

صفحة رقم : 14659

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> قصيدة رومانسية في جريسمير

9- قصيدة رومانسية في جريسمير

3081 - 0081

احتفظت لنا دوروثي في يومياتها في جريسمير في الفترة من 41 مايو 0081 إلى 61 يناير 3081 بتفاصيل شغلت 051 صفحة تمكننا من معرفة الحياة اليومية للأخ والأخت - والتي أصبحت باختصار فيما بعد حياة أخ وأخت وزوجة في آن واحد - ولم يكن مناخ جراسمير صحياً: فالمطر والتلج يكادان يسقطان يومياً. وبرد الشتاء بما يصاحبه من تلوج قد يعاود الظهور في يونيو أو يوليو (63). لقد كانت الأيام المشمسة تمثل - لندرتها - بهجة غامرة، وكان ظهور القمر بين الحين والحين إلهاماً وتجلياً. وكان المنزل يدفأ بإشعال الفحم في المستوقد ولكن دوروثي ذكرت أنني لم أكن أستطيع النوم بسبب شدة البرد وقسوته

لقد اعتبرنا مسألة المناخ هذه مسألة مفروضة وتصرفاً إزاءها على نحو رواقى، وكاننا ممتنين للربيع وهوادة الأمطار لقد كانت السماء تمطر باعتدال وبشكل لطيف. هذه العبارة تكررت مراراً في يوميات دوروثي. وورد فيها أيضاً أنه في بعض الأحيان كانت جريسمير تبدو جميلة جداً يكاد يذيب القلب (73).

وكاننا يسيران مسافات طويلة، معاً، أو فرادى وأحياناً كانا يقطعان ميلاً إلى أمبلسيد Ambleside حيث مقر البريد، وأحياناً كانا يقطعان رحلة تستغرق نصف يوم إلى كزويك keswieck بعد استقرار كولردج بها. وبدا ورد زورت راضياً بزواجه من أخته إذ كان يدعوها:

رفيقة وحدتي في مسيرتي،

ألمي وفرحتي وأختي وصديقتي،

وأحياناً أعز عليّ من هذا كله إن كان

العقل يدرك ما هو أعز من ذلك، أو كان،

في قلب الحب، ما هو أعز.

وفي وقت متأخر حتى سنة 2081 (عام زواجه) كان يشير إليها بعبارة (حبي) (83) وكانت راضية بدعوتها له (أخي اللطيف) (93).

لقد أصبح دخلها الآن أربعين جنيهها أما هو فدخله سبعون جنيهها بالإضافة إلى مبالغ ضئيلة منقطة تصل إلى حوالي 041 جنيهها (3، 005؟ دولار) وهذا هو كل دخلهما السنوي. وكان عندهما خادم أو خادمان، ذلك لأن الفقر كان منتشرًا جدًا حتى إن نسوة كثيرات بل ورجالاً من غير المتزوجين كانوا راغبين في أداء عمل مقابل المأوى والطعام. وكان الشاعر وأخته يرتديان ملابس بسيطة: دوروثي كانت ترتدي عباءة عادة ما تكون من صنعها هي، بل إنها عادة ما كانت تصنع حذاءها (04) أما وليم وردزورت فكان يرتدي ملابس فلاح أو ملابس مستعملة أرسلها له أصدقائه (14).

وكان لديهما حديقة خضراوات، وكانا أحيانا يصطادان الأسماك من البحيرة. وأكثر من هذا فقد ورد في يوميات دوروثي: لقد كنت أصنع كعكة الفاكهة والحلوى(24) الخبز والحلوى(34) الحلوى والكعك(44). لقد كانت تدلل وليم. لقد كان وليم يعمل أيضا: فقد خصص شطراً من كل يوم عادي للتأليف، وعادة ما كان يؤلف في أثناء سيره منفرداً فإذا ما عاد أملى على دوروثي. وكان أيضا يقطع الأخشاب ويعزق أرض الحديقة ويزرعها كان وليم يطهر المجرى المائي اللازم(54) مثل المجرى اللازم حفره في الجليد للتخلص من صرف المراض. وبالإضافة إلى هذا كانت دوروثي تخمر الجعة (64) وكنا نستعير بعض الزجاجات لتعبئة الرُم (شراب مسكر)(74) ورغم تناول وليم للخضراوات فقد كان يعاني من البواسير(84) وبعد سنة 5081 أصبح يعاني من ضعف الإبصار والأرق فكان على دوروثي في كثير من الأمسيات أن تقرأ له حتى ينام(94).

وفجأة اضطربت تلك الأيام بسبب المال والزواج. ففي 42 مايو سنة 2081 توفي سير جيمس لوثر James Lowther إيرل لونسدال Lonsdale تاركاً ثروته ولقبه لابن أخيه - السير وليم لوثر الذي رتب دفع المبالغ المدين بها السير جيمس لورثة جون وردزورث. وكان من الواضح أنه قد جرى تقسيم أربعة آلاف جنيه بين الأطفال ورغم أن نصيب وليم ودوروثي لم يتم دفعه حتى سنة 3081 فإن وليم شعر أن توقعاته المعقولة تدعم تقدمه لطلب الزواج من ماري هنتنسون لكن ذكرى أنيت فالون Annette Valon راحت تعتمل في وعيه. ألا يجب عليه الكشف عن علاقته بها قبل أن يطلب من ماري الاقتراح به؟ وفي التاسع من يوليو غادرا جالوهل Gallow Hill استقلتتهما عربة إلى لندن. لقد أخذ بروعة المدينة كما بدت له في الصباح الباكر من جسر وستمنستر Westminster Bridge. وألف وردزورث واحدة من سونيتاته (السونيتة قصيدة من أربعة عشر بيتاً) الخالدة - ليس على وجه البسيطة ما هو أجمل من ذلك(05) وواصل طريقهما إلى دوفر Dover واستقلتتهما سفينة نقل البريد عبر القنال وفي 13 يوليو وجدا أنيت Annette ابنتها كارولين ذات الأعوام التسعة في انتظارهما في كاليه Calais. ولا ندري ما توصلنا إليه من اتفاق، وكل ما نعرفه أنه بعد 41 سنة، عندما تزوجت كارولين، كانت حالة وردزورث وقتها منتعشة خصص لها راتباً سنوياً مقداره 03 جنيه (057 دولار). ومكث الأربعة في كاليه Calais مدة أربعة أسابيع حيث راحوا يسيرون على شاطئ البحر في وفاق ظاهر. ونسج وردزورث قصيدة (سونيتة) أخرى رائعة:

إنها أمسية جميلة، هادئة وسمحة

الزمن القدسي هادئ كراهبة

كتم أنفاسه لفرط الوقار.

وانتهى بالدعاء لكارولين. وفي 92 أغسطس غادر وردزورث ودوروثي إلى دوفر ولندن. ومن الواضح أنه لم يكن في عجلة من أمره فلم يعد الأخ ولا أخته إلى جالوهل Gallow Hill حتى 42 سبتمبر. وفي 4 أكتوبر 2081 تزوج وليم وماري ولم تتلق العروس هدايا لأن أقاربها لم يكونوا موافقين على زواجها منه(15) أما دوروثي التي كانت قد كتبت في يومياتها مؤخراً عن وليم أنه (عشيقها) فلم تستطع أن تتق في قدرتها على حضور مراسم زواجه فقد كانت مشاعرهما مهتاجة تكاد لا تستطيع السيطرة عليها(25) فصعدت السلم وهي لا تكاد تحس بما حولها حتى دعته سارة هنتنسون قائلة إنهما عادا من الكنيسة. كان هذا - كما ذكرت في يومياتها - بعد الظهر - فاضطرت إلى انتزاع نفسها من سريرها وتحركت لا تدري كيف ... وهي لا تكاد تحمل نفسها حتى قابلت حبيب وليم فارتميت على صدره، فقام هو وجون هنتنسون باقتيادي إلى البيت وهناك مكثت لأرحب بعزيتي ماري. وفي هذا اليوم نفسه بدأ الشاعر وزوجته وأخته رحلة طويلة إلى جراسمير Grasmere في عربة خفيفة تجرها خيول. وبالتدريج كيقت دوروثي نفسها للعيش كئالفة ثلاثة وسرعان ما تعلمت أن تحب ماري كأخت وصديقة

حميمة. بالإضافة إلى ذلك فقد جلبت ماري إلى بيت الزوجية دخلها السنوي البالغ عشرين جنيهًا. وعندما وصل مبلغ لوثر Lowther الأنف ذكره أخيرا ارتقت أحوال الأسرة فنعمت بالرفاهية البورجوازية، وأصبح وليم وطنيا غيورا وأدرج اسمه في قائمة متطوعي جراسمير Grasmere للدفاع المدني عن إنجلترا ضد نابليون. ومن أناشيده الرعوية الرومانسية التي تعد من أجمل قصائده (إلى فراشة To a Butterfly) وأقوى سونيتاته (ميلتون)، أما قصيدته (الثبات والاستقلال) فتعكس نزعه إلى الحزن الشديد، وبين عامي 3081 و 6081 ظهر أشهر أعماله (إعلانات الخلود من ذكريات الطفولة الباكرة) فقلما تكون هناك فنتازيا فلسفية جرى التعبير عنها بمثل هذا الجمال. لقد بدأت بملاحظة كىئبة عن إعتام عينيه:

أدور قدر مايمكن

ليلا أونهارا

فالأشياء التي كنت أراها لم أعد أراها الآن.

ترى لم تخبو كلما تقدم بنا السن؟

ميلادنا ليس سوى نوم ونسيان،

فروحنا التي تشب معنا ونجم حياتنا،

لا بد أن يخبوا (يغربا) في مكان ما،

لقد أتت روحنا من بعد قصي

ليست من المجهول تماما

وليست من العري الكامل

لكننا أتينا من مؤخرات سحب الجلال

من الرب الذي هو سكننا

فالفردوس حولنا في مرحلة طفولتنا

وتبدأ ظلال السجن تدرك الصبي النامي،

لكنه يمسك النور، وحيثما ينساب النور

يراه في لحظات سعادته ومرحه

وأخيرا يدرك الانسان أنه يتلشى،

ويذوب في وضح النهار .

ومن ثم يحيى الشاعر الطفل باعتباره:

أنت أفضل فيلسوف، فأنت لا تزال تحتفظ

بترائك ...

بل وعندما نبلغ من العمر مبلغا يكون لدينا وعي غائم بهذا الأفق الضائع:

الهواجس الشاحبة للخلق

تتحلق حول عوالم غير مؤكدة ...،

تلقى أرواحنا نظرة على هذا البحر الخالد

الذي ألقى بنا هنا

أيمكن في لحظة أن نرحل إلى هناك،

ونرى ألعاب الأطفال على الشاطئ،

ونسمع أصوات الأمواج الجلييلة مرة أخرى؟

تلك إنتر وبولوجيا كُسبت كساء لاهوتيا: الطفل لايزال حيوانا يسعد بحريته وأطرافه وعواطفه الحيوانية، ينفض أي كساء وأية قيود وأي حطر، يتطلع إلى الحرية في الحياة الحيوانية والحركة في الحقول أو الغابات أو البحار أو الهواء وشينا فشيئا يفقد - بامتعاظ - تلك الحريات كلما تقدم به السن وكلما أصبح شابا يعيش في ظل الحضارة. لكن وردزورث لم يرد أن يكون كذلك، لقد راح يتذكر فيثاغورث وراح يأمل أن يجد فيه جسرا يعبر منه إلى عقيدته أيام الطفولة (عقيدة الطفولة أو إيمانها) إن الرجل الهرم يبحث عن رحم لمشاعره كالرحم الذي أتى به إلى الحياة.

صفحة رقم : 14660

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> حب وعمل وأفيون

10- حب وعمل وأفيون

0081 - 0181

في أبريل سنة 0081 أتى كولردج إلى جراسمير بعد أن أكمل مهمته في جريدة مورننج بوست Morning Post ليقتضي ثلاثة أسابيع مع آل وردزورث، فأخبرته دوروثي أنها وجدت مأوى جميلا له ولأسرته في منزل كبير يقال له جريتا هول Greta hall على بعد نحو ثلاثة أميال خارج كزويك Keswick وذهب كولردج ورأى البيت في عز الصيف ووجد في إحدى الغرف مكتبة تضم خمسمائة مجلد، كثير منها غلال ملائمة لطاحونته (المقصود ملائمة لمزاجه الفكري) فوق عقدة الإيجار بحماس . وفي أغسطس سنة 1800 اصطحب زوجته سارة وابنه هارتلي من نذر ستوي Nether Stowey إلى منزلهم الجديد ، حيث وضعت ساره طفلا آخر أسموه درونت Derwent على اسم بحيرة ومجرى مائي قريب . وسرعان ما حل الشتاء فنبه الأسرة إلى خطئها فقد فاقم البرد والمطر من استعداد كولردج لمرض الربو والحمى الروماتيزمية ، كما أن ابتعاد الزوجة عن أقاربها عمق اكتئابها لأن زوجها كان غالبا ما يتركها وحيدة مرتحلا ببدنه وفكره .

فكثيرا ما كان يتركها ليسير على قدميه ستة عشر ميلا إلى كزويك وجراسمير ليسعد بمناقشات وردزورث المثيرة، ورعاية دوروثي الودودة. ولم يكن وردزورث ودوروثي ليسيرا في اتجاه الشمال كثيرا ليهيجا أيام كولردج. وفي نوفمبر سنة 0081 أقبلت سارة هتشنسون من جالوهل Gallow Hill لتمكث عدة شهور مع ماري ووليم ودوروثي

في دوف كوتاج Dove Cottage وهناك تابع كولردج ملاحقته لها، وببساطة فاسية غير مقصودة اعترف لزوجته بحبه لسارة الثانية وطلب منها أن تأذن له بحبهما معا. ويوما فيوم ابتعدت عنه نفسيا منشغلة باهتماماتها كأم، وانكفاً هو على كتبه وتأملاته.

وحاول أن يكمل قصته الشعرية (كريستابل Christabel) التي كان قد بدأها في سنة 1797 لكنه لم يجد في نفسه حماساً أو إلهاماً فتركها ولما تكتمل. وقد امتدح سكوت Scott وبايرون Byron هذه القصيدة في شكلها المخطوط رغم أنهما أخذاً عليها بعض الهنات في الموضوع والوزن والحالة النفسية، وأخيراً (6181) طبعها الناشر مري Murray بتشجيع وحث من بايرون إنها بقايا لم تكتمل لأثر راح ما به من جمال يزوي. وبعد عام في جريتا هول Greta Hall كانت صحة كولردج وميزابنته تنفذ شيئاً فشيئاً وأحس أنه لن يستطيع الحياة شتاء آخر في منطقة البحيرات. وسعد لتلقيه دعوة للانضمام إلى هيئة تحرير المورننج بوست Morning Post وفي أكتوبر سنة 1081 ذهب إلى جراسمير Grasmere للوداع وفي التاسع من الشهر نفسه سارت معه دوروثي وماري إلى جريتا هول Greta Hall، وفي العاشر من الشهر نفسه غادر إلى لندن، أما دوروثي وماري فقد عادتا إلى جراسمير. وكتبت دوروثي في يومياتها لقد قضى كولردج يوماً ممتعا ... إن كل مشهد وكل صوت يذكرني به كرفيق عزيز عزيز .. لقد كنت مكتئبة ولا أستطيع الحديث لكنني أخيراً هونت على نفسي بالبكاء - قال وليم: يا له من انتخاب عصبي. ولم يكن الأمر كذلك، أه بالكثرة الأسباب التي تجعلني قلقة عليه! (35).

وصل كولردج إلى لندن وانشغل بالكتابة بجدية كاملة في كتاب (الزعماء) الذي كان يتمشى مع سياسة الجريدة (مورننج بوست) الأداة الرئيسية لحزب الأحرار (الهويج) - المعارض للوزارة، وإن كان مؤيداً للملكية (بكر الميم). لقد أدان الرق والتنظيم الإداري القابل للرشوة rotten boroughs (الذي كان يرسل بانتظام التورى - المحافظين - إلى البرلمان) وأدان الحكومة لرفضها السلام الذي عرضه نابليون (0081) وكاد يحطم بت Pitt بتحليلاته التي لا ترحم له كرجل دولة. وعلى أية حال فقد دافع عن الملكية (بكر الميم) الشخصية كأساس ضروري لمجتمع متقدم ومنظم وساق الأدلة على أن الحكومة هي أفضل من يجعل سلطان كل فرد متناسبا مع ممتلكاته (45) لقد كانت كتاباته قوية ومؤثرة فزاد توزيع الجريدة كثيرا أثناء كتابته فيها (55). لكن عاما من العمل الشاق أسهم في تدمير صحته. وعندما عاد إلى جريتا هول (2081) كان منهرا صحيا ومعنويا - آلام بدنية، وانصراف عن الزوجة، وُعد عن الحب وأصبح عبدا للأفيون. وكان قد بدأ في تناول الأفيون في سنة 1971، وهو في التاسعة عشر من عمره (65) لتهدئة أعصابه وتخفيف آلامه وجلب النوم ووقف ما حاق به من تدهور في القلب والرئتين. وعندما وافاه النوم المتقطع أخيراً اجتاحته في أثناءه الأحلام المروعة (الكوابيس) التي أشار إليها في آلام النوم (3081).

حشد شيطاني شرير،

خليط غريب من الرغبة والقرف،

أشياء كريهة وحشية يختلط بعضها ببعضها الأخر،

عواطف جامحة وهدير مثير،

وخجل، ورعب شامل(75).

ويخبرنا في مذكراته عن بشر خياليين على سطح القمر إنهم مثل البشر على الأرض في كل شيء إلا أنهم يأكلون بمؤخراتهم (ألياتهم - جمع ألية) ويتبرزون (يتغوطون) في أفواههم .. ولا يمارسون التقبيل كثيراً(85). لقد كانت تعثره الأحلام المزعجة (الكوابيس) مثل غالبنا، لكن أحلامه المزعجة هذه كانت حية جداً تكاد تكون حقيقية حتى إنه كان - في بعض الأحيان - يوقظ ساكني المنزل بصراخه(95).

وربما فتحت له آلامه وما يتناوله من عقاقير أفاقاً جديدة وأتاحت له صوراً ذهنية ومدرجات حسية وخيالات غير متاحة للعقل العادي، رغم أنها - أي هذه الأمراض وتلك العقاقير - كانت تشوش على أفكاره وتضعف إرادته. على أية حال فقد كان محصوله المعرفي لا يبارى في جيله، فهو في هذا يفوق وردزورث بمراحل، فلم يكن وردزورث يستطيع أن يتحدث في غير قصائده، بينما كان الحوار مع كولردج - حتى في فترة تدهوره - يشمل موضوعات كثيرة ويتسم بالحيوية كونه شائقاً حتى إنه ترك بصماته على كارليل Carlyle، وربما كان قادراً حتى على إلزام مدام دي ستيل Stael الصمت. وما جعله مبهوراً بوردزورث هو أن هذا الأخير كان شديد التركيز لتحقيق هدفه، بالإضافة إلى قوة إرادته أما هو (كولردج) فكان - شيئاً فشيئاً - يحل الإرادة محل الرغبة، ويزيح الخيال ليحل محله الحقيقة. لقد كان تواضعه شديداً بشكل غريب لكنه كان واعياً بذاته بشكل مكثف مدركاً أنه يكاد يكون مهتماً بكل الموضوعات (وهو في هذا مثل وردزورث ومثلنا) وكان في طويته معتزاً بنفسه بشكل عدواني (يفوق الحد) وقد لفت الانتباه بأمانته والتزامه الخلفي الصارم ولامبالاته بالشهرة والمال، لكنه كان يتطلع إلى المكانة(106). وانتحل عبارات الآخرين وأفكارهم بسعادة، واقترض المال وترك أصدقاءه ينفقون على زوجته وأولاده وربما أضعف الأفيون من قدرته على ممارسة الجنس.

وفي أبريل سنة 4081 راح يبحث عن تقليص آلامه التي ضاعفها الربو والحمى الروماتيزمية بالتوجه إلى شمس البحر المتوسط وهوانه فقبل مائة جنيه قرضاً من وردزورث(16) وأبحر إلى مالطة التي كانت في ذلك الوقت معقلاً للقوة البريطانية وإن كانت موضع نزاع. وأخذ معه أوقية (أونصة) من الأفيون الخام وخمس أوقيات (أونصات) من اللودانيوم (مستحضر أفيوني يسمى أحياناً صبغ الأفيون) وقد كتب عن الرحلة في مذكراته (يوم 31 مايو) دعاء يانس:

يا ربي العزيز! أعطني القوة أن أقوم بتجربة واحدة عميقة - إذا رسوت في جريرة مالطة، فلا يكون الجو متعباً طوال شهر واحد، وأن تكون الطبيعة هادئة .. إنني عاشق رقيق القلب ولا أستطيع ممارسة الخطيئة دون إفلات من العقاب، لكن آه إنني واهن جداً منذ أيام طفولتي وحتى الآن، فلترحمي فلترحمي أيها الأب والرب(26). وفي نحو عام بدا وكأنه استعاد سيطرته على نفسه وفي يوليو تم تعيينه سكرتيراً خاصاً لحاكم مالطة - السير إسكندر بول Ball، وفي يناير 5081 رقي إلى منصب السكرتير العام وهو منصب صلاحياته أكثر. لقد مارس عمله بجدية وأظهر براعة مدهشة في الحكم والتنفيذ. وبعد عام من الخدمة اعتراه إرهاق شديد، حتى إنه أسرف في تناول المخدرات، وغادر مالطة إلى صقلية وإيطاليا وعاد إلى إنجلترا (6081) وفي هذا الوقت أصبح أكثر اعتماداً على الأفيون، وكان يقاوم تأثيره المنوم بتناول البراندي.

وفي 62 أكتوبر 6081 قابل وردزورث في فندق في كندال Kendal، وكتبت دوروثي تحت هذا التاريخ لم أشعر أبداً قبل ذلك بصدمة مثل صدمتي عندما وقع عليه نظري، فمن النظرة الأولى وجدته سميناً جداً حتى إن عينيه بدتا غائرتين في وجهه المنتفخ والتألق الوحيد الذي بدا في عينيه للحظة كان تعبيراً مقدساً عن هدوء محياه(36) وذهب إلى كزويك Keswick ليطلب من زوجته الانفصال لكنها رفضت فتركها وأخذ معه ابنه درونت Drewent البالغ من العمر ست سنوات، وحول لزوجته الراتب السنوي الذي كان يتلقاه من وجود(46) Wedgood لكن جوزياه ووجود سحب مساهمته في هذا الراتب السنوي في سنة 3181. وأخذت سوئي Southey التي استقرت في جريتا هول Greta Hall منذ سنة 3081 - على عاتقها رعاية امرأة أخيه. وتغلب كولردج على أزمته بفضل هدية أرسلها له رفيقه في الإدمان دي كوينسي De Quincey، وقد أرسلها له دون أن يحدد أنه هو مرسلها (أرسلها مجهولة المصدر) وبفضل المحاضرات التي ألقاها في المعهد الملكي Royal Institution في سنة 8081 و9081 و0181. وفي هذا العام انتهت الصداقة الكبيرة التي كان أساسها تبادل الخبرات الشعرية. لقد توقفت عندما جف ينبوع الشعر عند كولردج بعد سنة 0081 بسبب وهن جسمه وتأثير الأفيون المنوم والنفور الزوجي وافتتانه بالفلسفة. وكان وردزورث قد شجع كولردج على ترك ربات الشعر، واقترح عليه كتابة النثر لأنه أقرب إلى عبقريته. وقد انزعج

كولردج عندما علم أن آل وردزورث الثلاثة قد حذروا سارة هتشنسون من الاقتران به وبلغ الخلاف أشده عندما كتب وردزورث خطابا في 13 مايو 9081 يحذر فيه بول Poole من الارتباط كثيرا بالعمل في مجلة كولردج الجديدة (9081 - 01819) والتي تحمل عنوان الصديق The friend باعتباره - أي بول - أحد أعز أصدقاء كولردج وأقربهم إليه. كتب وردزورث: إن ما أقوله لك هو رأيي الذي لم أقدمه لك إلا بعد ترو وتفكير، وهو رأي قائم على أدلة وبراهين تعمقت طوال سنوات. وإن كولردج لا يقدر ولا يستطيع ولا يريد تنفيذ أي شيء مفيد لنفسه أو لأسرته أو للبشرية. فلا مواهبه ولا عبقريته ولا معلوماته الواسعة ستفيده في أي شيء، لقد خابت جميعا بسبب ما اعتري تفكيره من تشويش. والحقيقة أنه لم يعد لديه طاقة عقلية من أي نوع ولا هو قادر على تنفيذ أي عمل يحتمه الواجب أو الالتزام المعنوي (56) لقد كان هذا الرأي قاسيا متطرفا لكن وردزورث كان قد ذكر لكولردج الكثير في خطاب أرسله له منذ أسابيع قليلة سابقة (66). وتفاقم الأمر سوءا عندما أخبر بازل مونتاجو Basil Montagu كولردج أن وردزورث نصحه بالأيداع (أي يدع كولردج) يقيم معه بسبب إيمانه الشديد الذي جعله مزعجا لا يطاق عندما كان يقيم في جراسمير (76) إلا أن وردزورث بعد ذلك أكد لكولردج أن مونتاجو أساء فهم كلماته، وتظاهر كولردج أنه اقتنع ولكن الخيوط بينهما كانت قد تقطعت واستحال وصلها وماتت الصداقة التاريخية.

صفحة رقم : 14661

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> كولردج فيلسوفا

11 - كولردج فيلسوفا

ربما نكون قد بالغنا في انهيار كولردج، فلا بد أن نلاحظ أنه بين عامي 8081 - 5181 ألقى محاضرات في بريستول وفي المعهد الملكي في لندن - ظهر فيها أنه يعاني تشوشا في الفكر والتعبير لكنه أثر في مستمعين مثل شارلز لامب Lamb ولورد بايرون وصمويل (صموئيل) روجرز، وتوماس مور ولاي هنت Leigh Hunt، وكأنما دفعهم وغيرهم من الكتاب للتضامن مع زميلهم الذي أصابه ما أصابه. وقد وصف هنري كراب Crabb الذي يعتبر واحدا من أصدقائه البارزين إنجليزاً وألماناً، المحاضرة الثالثة التي ألقاها في لندن بأنها محاضرة ممتازة وألمانية جدا وذكر أنه بالنسبة إلى لمحاضرة الرابعة فقد كانت ذات صيغة ألمانية جدا وكانت طريقة التناول فيها تتسم بالتجريد الشديد بما لا يطيقة المستمعون الذين كان عددهم قليلا (86). لقد كان تجميع كولردج للحقائق والأفكار والفروض المسبقة جميعا مزدهما وهائلا حتى إنه لم يستطع السيطرة على موضوعه. لقد كان يطوف بعناصر موضوعه بجموح لكنه كان ملهما. لقد لخص شارلز لامب، كولردج في عبارة مشهورة إنه كملك - بفتح الميم واللام - من الطبقة العليا، لحقه بعض الدمار (96) وانتهى إلى أنه يكفينا أن نكون في نطاق رياح عبقريته ونسماتها حتى لا نمتلك مشاعرنا أو بتعبير آخر حتى لا تصبح أرواحنا مستقرة (07).

وفي الفترة من 5181 إلى 7181 عندما كان كولردج مرة أخرى على وشك الانهيار دفع بخلاصة فكره إلى المطبعة. ففي كتابه نظرية الحياة (Theory of Life 5181) أظهر لنا معلومات مثيرة في العلم - خاصة الكيمياء التي تعلمها عن طريق صداقته لهمفري ديفي Humphry Davy لكنه رفض كل المحاولات ليشرح العقل mind من خلال مصطلحات فيزيو كيميائية. لقد سمى فكرة إرازموس داروين السخيفة (17) بأنها فكرة رجل انطلق من حالة انبثاق برتقالية (orange - outagestate وفي مطبوع (6181 Statesmans manual) قدم الكتاب المقدس باعتباره أفضل مرشد للفكر السياسي، والتبصر بالعواقب. نجده يقول:

يجد المؤرخ أن الأحداث الكبرى - وحتى التغيرات الأكثر أهمية في العلاقات التجارية العالمية - أنا لانجد جذورها لدى مجموعة رجال الدولة ولا في الرؤى العملية لرجال الأعمال وإنما نجد جذورها لدى المنظرين الذين لا تتسم

كتابتهم بالتشويق، وفي رؤى العباقرة المنعزلين (المتقربين) كل الثورات الدينية التي أعادت صياغة فترات زمنية في العالم المسيحي، والثورات الدينية التي أعادت معها صياغة العادات المدنية والاجتماعية والمحلية تزامنت مع قيام نظم (نظريات) ميتافيزيقية أوسقوطها(27).

(ربما كان يفكر في نتائج الفكر الذي أتى به يسوع، وكوبر نيكس وجوتنبرج ونيوتن وفولتير وروسو وبعد موجز واضح للعوامل التي أدت إلى الثورة الفرنسية انتهى كولردج إلى أن صوت الشعب ليس هو صوت الله لأن الناس (الشعب) يفكرون في مجردات عاطفية أو مطلقات عاطفية ولا يمكن الوثوق بهم عند تولي السلطة(37)، وأن أفضل طريق للإصلاح لا يكون إلا من خلال وعي الأقلية المتعلمة ذات الممتلكات(47)، وأفعالها. وبشكل عام فإن أفضل مرشد للعمل الصحيح في السياسة وفي كل مجال هو الكتاب المقدس Bible لأنه يحتوي على كل الحقائق المهمة في التاريخ والفلسفة فأنتم يا من تتحركون في الطبقات العليا من المجتمع يجب أن تعلموا أيضا التاريخ والفلسفة واللاهوت، فأنتم أهل لها وليس أفراد الطبقات العاملة فتعلمهم التاريخ والفلسفة واللاهوت غير مطلوب إلى حد كبير بل وربما كان غير مرغوب فيه عموما. إن ترياق زيف رجال الدولة هو التاريخ ذلك أن جمع الحاضر مع الماضي في سياق واحد، وتأسيس عادة مقارنة أحداث عصرنا - بعمق - بأحداث عصور خلت مسألة مطلوبة(57) ويواصل في كتابه (Alay Sermon) الصادر في سنة 1781 دعواه للطبقات العليا والوسطى باعتبارها أفضل أداة للإصلاح الصحيح وباعتبار أفرادها حراسا ضد الغوغائية والفسطائية وضد المدرسة الثورية المضرة للنيران(67) لكن الكتاب يعترف ببعض الشرور الجارية (الموجودة في زمنه): تضخم الدين الوطني بشكل غير محسوب، فقر الفلاحين فقرا شديدا، وعمل الأطفال في المصانع، ولاحظ كولردج الحماقات والوقاحات والتبذير والتطرف الذي أعقب الرخاء الذي حل بنا والذي لم يسبق لنا أن شهدناه، كما لاحظ الممارسات العمياء والولع الأعمى بالمضاربات على مستوى التجارة العالمية بما في ذلك من مخاطر غير واضحة ومفاسد لقد تفجّع بسبب احتمال تعرض الاقتصاد الجديد لهزات دورية تؤدي إلى انهيار عام ومعاناة يشرب الجميع كأسها(77).

وأوصى ببعض الإصلاحات الأساسية ضرورة خضوع أصحاب المصانع للقوانين العامة(87) خاصة فيما يتعلق بتشغيل الأطفال، ولا بد أن تعترف الدولة أن أهدافها الإيجابية، هي: 1- أن تجعل مصادر الرزق ووسائل الإعاشة أكثر يسرا لكل فرد. 2- أن تؤمن لكل المواطنين آمالهم في تحسين أحوالهم وأحوال أبنائهم. 3- تطوير القيم الضرورية لإنسانية المواطن - كمخلوق عاقل(97) ودعا إلى إنشاء منظمات (نقابات) تضم رؤساء كل العاملين في كل الحرف لدراسة المشاكل الاجتماعية من منظور فلسفي ولتقديم توصيات للجماعة، ولا بد أن تمول الدولة هذه الطوائف الوطنية (national churches) (08).

وأنهى كولردج كتابه (عظات غير دينية Lay Sermon) بأن رضخ للاهوتيين معترفاً بأنه ليست هناك عظة أو حكمة علمانية خالصة أو بتعبير آخر ليست هناك حكمة خالية من البعد الديني يمكنها أن تحل مشاكل البشرية(18) فلا يستطيع إلا الدين الغيبي (الفوق طبيعي) والنظام الأخلاقي الذي قدمه الله للبشر أن يواجه الشر الموروث في نفوس البشر، فالشر من شيم النفوس لدرجة أن الذكاء البشري وحده لا يعتبر كافيا لجعل الإرادة البشرية مبرأة من العيوب(28). لقد دعا إلى العودة بتواضع إلى الدين وإلى الاعتقاد الكامل في يسوع كرب مات لتخليص البشرية(38) وفي 1811/6181 ألف (أو أملى) فقرات عن حياتي الأدبية وأرائي Sktches of my Literary Life & opinions لتكون أساساً لكتابه سيرته الذاتية. ولم يكمل هذا المجلد (سيرته الذاتية) ونشر (فقرات عن حياتي الأدبية وأرائي) في سنة 1781 بعنوان (ترجمة أدبية Biographia Literaria) التي تعد الآن أكثر مصادرنا أهمية عن فكر كولردج في مجالي الأدب والفلسفة. إنه كتاب متماسك وواضح بشكل ملحوظ رغم أنه كتب غالبه خلال فترة قنوط وجزع بسبب إدمانه الأفيون وتراكم ديونه، وعدم قدرته على تقديم المال اللازم لتعليم أبنائه. لقد بدأ بالتبرؤ من علم النفس الترابطي associationis Psychology الذي كان مفتوناً به في وقت من الأوقات. لقد رفض فكرة أن الفكر كله ما هو إلا نتيجة آلية (أوتوماتيكية) للحواس (للإحساس)، فالإحساس - كما أصبح يعتقد - يعطينا مجرد مواد خامة تقوم النفس - التذكر، والمقارنة، والفردية المستمرة - بإعادة تركيبها لتصبح خيالا خلاقا وفكرا موجها ذا هدف، وفعلا واعيا. فكل تجاربنا - واعية أو غير واعية - مسجلة في الذاكرة التي هي مخزن يستقي منه العقل - بوعي أو بغير وعي - المادة اللازمة لتفسير التجربة (الخبرة) الحالية، ولتطوير الخيارات الحالية (أي التي تعين الفرد على الاختيار من بين متعددات كثيرة) وهنا - بطبيعة الحال - نجد كولردج يتبع خطى كانط Kant. إن الشهور العشرة التي قضاها في ألمانيا لم تحوله فقط من شاعر إلى فيلسوف وإنما من جبري determinist كاسبينوزا Spinoza إلى نصير لحرية الإرادة مثل كانط free - will Kantian وهنا اعترف اعترافا كاملا بدينه (المقصود اعترف لمن هو مدين له بفكره الجديد) كتابات الحكيم المشهور حكيم كونيجسبرج Konigsberg أكثر من أي كتابات أخرى، تلك الكتابات التي كانت في وقت من الأوقات قد أُنشئت تفكير ونظمته(48) ومن أفكار كانط Kant تقدم كولردج إلى فكرة فيشته Fichte عن النفس وإعلاء مقامها باعتبارها الحقيقة الوحيدة المعروفة بشكل مباشر، ومن ثم جاس خلال أفكار هيغل

(الديالكتيك الهيجلي) بين الفكرة ونقيضها، والوحدة بين الطبيعة والنفس، إلى أفكار شلنج Schelling عن خضوع الطبيعة للنفس أو تبعيتها لها، باعتبارهما - أي الطبيعة والنفس - وجهان لحقيقة واحدة إلا أن الطبيعة - على أية حال - تعمل بلا وعي، بينما يعمل العقل بشكل واع ويصل إلى أسامي درجات التعبير من خلال الخلق العبقري الواعي. لقد اقتبس كولردج بانطلاق كامل من شلنج Schelling إلا أنه غالباً ما كان يهمل ذكر مصادره (85). لكنه اعترف بشكل عام بمن هو مدين لهم بأفكاره وأضاف قائلاً: بالنسبة إلي يكفيني سعادة وشرفاً إن نجحت في نقل فكر شلنج بشكل واضح إلى أهل بلدي (68).

والأحد عشر فصلاً الأخيرة من كتابه الأنف ذكره (ترجمه أدبية .. Biographia) تقدم مناقشة فلسفية للأدب باعتباره إفراناً للخيال، وقد ميز بين الوهم fancy والخيال، فالوهم فانتازيا (أو خيال جامح) كما في حالة حورية الماء (المخلوق البحري الذي له جسد امرأة ورأس سمكة) بينما الخيال (كتب كولردج الكلمة بحروف كبيرة slash كابيتال هكذا IMAGINaTION) فهو توحيد واع بين أجزاء لتشكل كلا جديداً كما في حالة حبكة الرواية، وتصنيف كتاب، وخلق عمل فني أو صياغة نتائج العلوم في نسق (نظام) فلسفي. هذا التصور (أو الإدراك) يصبح أداة لفهم - ونقد - أي قصيدة أو كتاب أو رسم أو سيمفونية أو تمثال أو عمارة؛ إلى أي مدى استطاع الشاعر أو الفنان أن يجعل مكونات عمله متناسقة أو بعبارة أخرى إلى أي مدى استطاع أن يصل بين الأجزاء بالأجزاء الأخرى المرتبطة بها أو ذات الصلة بها، لتحقيق معنى العمل ككل ولتجعله متماسكاً في كل واحد؟ إلى أي مدى نجح المنشئ في هذا وإلى أي مدى فشل؟ وفي هذه الصفحات قدم لنا كولردج الأساس الفلسفي للحركة الرومانسية في الأدب والفن.

وقد أنهى كتابه الأنف ذكره بنقد حاد لفلسفة وردزورث، وطريقته الشعرية. هل حقيقة أن أسامي فلسفة في الحياة يمكن أن يجدها المرء في طرائق التفكير عند أبسط الناس؟ أحقا أن لغة هؤلاء البسطاء هي أفضل وسيلة شعرية؟ أليس هناك فارق جوهري بين الشعر والنثر؟ في كل هذه النقاط وجه كولردج نقده لوردزورث بشكل دمته لكنه حاد ومؤثر. وانتهى أخيراً بما يفيد ولاءه وتقديره لحكيم جراسمير كأعظم شاعر منذ ميلتون (78) Milton.

صفحة رقم : 14662

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> وردزورث (الذروة)

12- وردزورث: الذروة

4081 - 4181

وبعد أن قام آل وردزورث بجولات قصيرة نقلوا مقر سكنهم (8081) من دوف كوتاج Dove Cottage إلى مسكن أوسع بالقرب من ألان بانك Allan Bank وهناك أبدع الشاعر كيبستاني فزرع حول البيت نباتات ووروداً راحت تختال تحت أمطار جراسمير. وفي سنة 3181 انتقلت الأسرة أخيراً إلى عقار بسيط في جبل ريدال Rydal Mount في أمبلسيد Ambleside إلى الجنوب من جراسمير بميل. لقد أصبح آل وردزورث الآن في رغد من العيش ولديهم عدد من الخدم وصادقوا بعض ذوي المكانة. وفي هذا العام رتب اللورد لوندسديل Lonsdale لتعيين وردزورث

موزعا للطوابع في إقليم وستمور لاند Westmorland فاستمر يزاول هذا العمل حتى سنة 2481 وكان يدر عليه مائة جنيه إضافية في العام. أما وقد تخلص من متاعبه المالية فقد راح يقضي مزيدا من الوقت في بستانه فجعله فردوساً من الورود والنباتات المزهرة لاتزال موجودة.

ومن نافذته في الطابق الثاني كان يطل على مشهد ملهم - انه منظر بحيرة ريدال Rydal water التي تبعد مسافة ميلين.

وفي هذه الأثناء (5081) أكمل كتابه (المقدمة The Prelude) الذي كان قد بدأه سنة 8971. وقد كتبت دوروثي: إنه كان يجمعنا كل يوم في اجتماع كبير كله متعة وصفاء بعد أن يقوم بجولاته مشيا على الأقدام (88). لقد كانت هي وسارة هنتنسون تتشغلان دوما بكتابة ما يُملَى عليهما، وكان وردزورث قد تعلم التكبير من خلال الشعر

المنثور. وكان يضع العناوين الجانبية لملمحته الشعرية التي تأتي في كتابتها تطور عقل شاعر The growth of Poet's mind، قد قصد بهذا العمل أن يكون سيرة ذاتية لتطوره العقلي والنفسي، وكقدمة للنزعة Excursion التي تعرض بالتفصيل الفلسفة التي تمخض عنها هذا التطور. وقد قدم لنا ما يفيد مودته لكولردج بأن راح مرارا يستعيد ذكرياته معه، وتوجيه الحديث إليه. لقد اعتذر للأناحية والحديث عن الذات كما تبدوان في القصيدة لمن تناولها بشكل سطحي، فقد اعترف أنه لم يسبق لأحد أن تحدث عن نفسه بهذه الكثرة (98) وربما لهذا السبب لم ينشر هذا العمل في أثناء حياته.

لكنها مقبولة ومحتملة تماما إن تناولناها في جرعات قليلة، وأكثر ما هو مبهج فيها هو مشاهد طفولته (كتاب 1 و 2) حيث ذكر جولاته في الغابات المنعزلة حيث بدا له أنه يسمع صوت الرب الكامن وراء كل شيء، الذي يأخذ صورا شتى، كلما جلس. لقد بدا له أنه يسمع هذا الصوت في أصوات الطيور والحيوانات وحفيف الأشجار بل ويسمعه حتى في الصخور نفسها وفي التلال:

- وحدي فوق ربوة نائثة،

- مع تنفس الصبح

- ففي هذه اللحظات يكون - غالبا - هذا الهدوء القدسي،

- الذي يغمر روحي، فلا أعود أرى بعيني بدني

- إنني أنسى ذلك تماما، فما أراه

- يبدو لي وكأنه داخل نفسي، يبدو حلما

- يبدو مشاهد موجودة داخل نفسي..

- لقد كنت في هذا الوقت

- أرى بركات تنتشر حولي وكأنها بحر...

- بركات قدسية لا توصف..

- لقد شعرت بعاطفة الموجود Being تنتشر،

- فوق كل ما يتحرك، وفوق كل ما يبدو ساكنا،

- فوق كل ما لا يطوله فكر

- وفوق كل المعرفة البشرية، وفوق ما لا

- تراه عين البشر، بل إنني أحسست أنه يعيش حتى في القلب،

- فوق كل ما يثب وكل ما يجري، وكل ما يصيح وكل ما يغني

- أو يحرك الهواء العليل، فوق كل ما هو بين الأمواج، بل إنه موجود حتى في الأمواج نفسها،

- وفي أعماق البحار، وأعماق أعماقها،

- أحس بالبهجة القصوى، إن وصل الاتصال ذروته

- بين الأرض والسماء

- اتصال بين كل ما هو مخلوق، مع

- الخالق (غير المخلوق) ..

(قد نرى هنا تناقضا أو ترجعا، فالبعبع الأخير يفترض وجود فاصل حقيقي بين الخلق والخالق، بينما نظرة

وردزورث - كنظرة سبينوزا تريان الرب) والطبيعة شيئا واحداً - النظرة القائلة (بوحدة الوجود).

وفي كامبردج (3) كان أحيانا ينضم إلى حفلات السمر التي يرتبها الطلبة كما كان أحيانا يشاركهم عبتهم، ومع هذا

فقد كان منزعا لفهمهم للحياة بشكل سطحي طائش، فقد كان يجد متعة أكثر في دراسة الكلاسيات الإنجليزية

(الأعمال الأدبية الكلاسيية) أو ركوب الزوارق (النص boating on the Cam) وفي أوقات العطلات (4) كان

يعود إلى مأواه الأصلي فيتناول طعامه على مائدة أسرته ويأوي إلى فراشه المعتاد:

- هذا السرير المنخفض الذي كنت أسمع وأنا ثاو فيه عصف الريح ، وصوت المطر المنهمر بعنف
- وكنت في ليالي الصيف أظل يقظان رغم تمددي على السرير وكان هذا يحدث كثيرا ، لأراقب
- القمر في بهائه مضطجعا بين أوراق
- أشجار الدردار الباسقة القريبة من مسكننا ،
- ورحت أرقب هذه الأشجار بعينين لا تبغيان عنها حولا ، بينما تتحرك ذراها بين الحين والحين
- مع كل هبة من هبات النسيم .
وفي كوكرموث Cockermouth كان يستطيع السير مع كلبه الهرم الذي كان يتركه يؤلف الأشعار وينشدها بصوت
عال دون أن يتهمه بخلل أصاب عقله:
- أه ، أنا في حاجة - يا صديقي العزيز
- أن أقول إن قلبي قد فاض؟ ، إنني لا
- أقدم نذورا ، إنما كانت النذور تقدم لي
- ذلك أنني لا بد كنت روحا مكرسة يُهدى إليها
لقد كان يعيش للشعر . كما كان يجد مسرة أيضا في تلك الرحلات الممتعة التي كان يقوم بها خلسة في القنال الإنجليزي
(6) ليشعر بالسعادة المجنونة لفرنسا الثورة ، وبالפורان فوق الألب (المفهوم طبعاً أنه لا يصل إلى هذه الأماكن)
ومن ثم يعود إلى لندن تلك المدينة الضخمة التي تشبه كثيب الرمال الناتج عن تشبيد النمل لمساكنها حيث برلمانها
الذي يرثل تراثيل فضائل التقاليد مع احتقار شديد لنظرية (أفكار) محدثي النعمة (المقصود ثوار فرنسا) وراح يراقب
الجموع المزدهمة في فوكسهول Vauxhall والذين يتعبدون في كنيسة القديس بول، وراح يرى أويسمع الجموع
المتحركة تضم مختلف الأجناس والوجوه والأزياء واللغات، وفوضى المرور، وابتسامات المومسات ونداءات
البائعين، ومناشدة النسوة، والفنانين يرسمون بالطباشير على أحجار الطريق (الرسم التقليدي - قروود على ظهور
جمال) والمغنين في الطريق وكأنهم عشاق يعزفون السرينات (أغان يرددها العشاق تحت شرفات المعشوقات) - كل
هذا شعر به الشاعر شعورا قويا كشعوره بالغابات لكنه لم يرتبط بها وانسل (8) إلى المشاهد الأكثر هدوءا حيث الحب
لكل الطبيعة يمكن أن يعلمه أن يفهم ويعفو ثم يعود مرة أخرى لفرنسا (9) حيث برر الحكم الطاعي واليؤس القديم قيام
الثورة وجعلها عادلة نبيلة بل إنه حتى البريتوني a Briton يمكنه أن ينخرط في هواها (تعتربه نشوة حب لها):
- الجمال بشير بالوعود،
- ليس في الأماكن الأثيرة وحدها وإنما في كل الأرض،
- فأني منا لا يتطلع مفكراً في السعادة المرتقبة.
ومن هذه النشوة التي بلغت السؤدد انحدرت فرنسا إلى الجريمة وانحدر وردزورث إلى النثر:
- لكن الآن أصبح الثوار ظلمة
- حولوا الحرب من أداة للدفاع عن أنفسهم
- إلى أداة للغزو، ولم يعودوا يرون
- كل ما كانوا يناضلون من أجله...
وببطء وتردد أنهى الشاعر مقدمته (4Ihis Prelude) داعياً صديقه للعودة من مألطة (المقصود كولردج) لينضم
للجهود المبدولة للعودة من الحرب والثورة إلى حب الطبيعة والبشر . ولم يكن على وفاق مع قصيدته (09) فقد كان
يعلم أنه توجد صحراوات شاسعات حول الواحات . ولم يكن وردزورث يرى إلا فروقا قليلة بين النثر والشعر . لقد
اعترف بذلك، وكان غالبا أيضا ما يمزج بينهما في شعره غير المقفى، المتسم بفتور نبرته وتؤدة وقعه . لقد جعل
العاطفة والأحاسيس تنبع من السكون وهدوء النبرة، وجعل من هذا جوهر الشعر وروحه (دعنا نقل الموسيقى الداخلية)
لكن هذا السكون الشعري الذي يستمر على نحو متواصل طوال أربع عشرة مقطوعة قد يحيلها إلى هودة أو هدهدة
تبعث على النوم . وبشكل عام فإن طبيعة الملحمة أنها تتناول حدثا عظيما أو نبيلاً، أما الأفكار فهي شخصية جدا حتى
إنه لا يصلح تناولها في ملحمة . ومع هذا فإن (المقدمة The Prelude) تركت القارئ المصمم على مواصلة قراءتها
وقد شعر بقبول سليم للحقيقة الباقية . وفي بعض الأحيان كان وردزورث - كأغاني الطفولة - يطهرنا بنقاء الغابات
والحقول ويجعلنا - كالتلال الراسخات - نتحمل العواصف صامتين صابرين .
وكان وردزورث قبل المغادرة قاصدا ألمانيا في سنة 8971 قد بدأ (الناسك The Recluse) وهو عمل بث فيه فكرة
أن الإنسان الذي يعرف الحياة حق المعرفة هو الذي عاشها ومن ثم انسحب منها، وقد حثه كولردج على تطوير هذه
الفكرة في صياغة كاملة ونهائية لفلسفته . وتحديد أكثر اقترح عليه كولردج قائلا أريدك أن تكتب قصيدة بالشعر الحر
(غير المقفى) موجهة إلى هؤلاء الذين فقدوا كل أمل في تحسن أحوال البشرية وانغمسوا فيما يكاد يكون
أنانية لا تبحث إلا عن اللذة أو بتعبير آخر الأنانية الأبيقورية - وذلك نتيجة الفشل الكامل للثورة الفرنسية (19)

لقد اتفقا على أن نزوة الأدب هو الزواج السعيد بين الفلسفة والشعر. وعندما عاود وردزورث التفكير شعر أنه غير مستعد لمواجهة هذا التحدي. وكان قد أحدث تطورا مهما في (المقدمة The Prelude) ليجعل منها تاريخا لتطوره العقلي (النفسي) فكيف يستطيع كتابة شرح أفكاره أو عرضها قبل إنجاز هذا العمل (الناسك)؟ لقد نحى (الناسك The Recluse) جانبا وتابع كتابة (المقدمة The Prelude) إلى نهايتها. وبعد ذلك وجد نفسه واهن العزم قليل الثقة، وكان خروج كولردج من حياته قد حرمه من الإلهام الحي الذي كان يحفره على العمل في وقت من الأوقات. وفي ظل هذه الأحوال المثبطة كتب (الرحلة The Excursion) لقد بدأها بداية جيدة بوصفه لأطلال المسكن حيث كان يعيش الجوال (الرحالة) ويبدو أنه أخذ هذا الوصف من عمله الذي تخلى عنه ولم يكمله ونعني به الناسك Recluse وهذه الصورة التي رسمها وردزورث تقود الرحلة إلى العزلة والتنسك Solitary فهو يحكي لنا كيف فقد إيمانه الديني وأصبح متخما بالحضارة فعاد إلى سلام الجبال. وقدم لنا الجوال الدين على أنه العلاج الوحيد لليأس، والمعرفة شيء طيب لكنها تزيد من قوتنا أكثر من زيادتها لسعادتنا، ثم ينقاد للقس (راعي الأبرشية) الذي يقدم الإيمان البسيط والترابط الأسري عند رعاياه الفلاحين باعتبارهما أكثر حكمة من محاولة الفيلسوف صياغة حكمة العصور في روابط فكرية. لقد كره الجوال حياة المدن المصطنعة وشرور الثورة الصناعية ودعا إلى تعليم عالمي وتتبا بأثاره العظيمة. وعلى أية حال فإن القس (راعي الأبرشية) كانت لديه الكلمة الأخيرة فراح ينشد أشودة التسبيح للرب. وقد نُشرت (الرحلة) وهي في جانب منها (الناسك Recluse) في سنة 4181 وبيعت النسخة بجنيهين (ومن المفترض أن المقدمة Prelude لم تكن قد طبعت حتى سنة 0581) وطلب وردزورث من جيرانه - كلاركسون Clarksons - مساعدته في بيع نسخ مطبوعة بين أصدقائهم من طائفة الكويكر Quaker الذين كانوا أثرياء وشغوفين بالكتب التنويرية والثقافية وقدم نسخة للروائي شالز لويدي Charles Lloyd على ألا يعيرها لأي قادر على شراء نسخة ورفض أن يعير نسخة لأرملة ثرية اعتبرت أن سعر النسخة مرتفع بالنسبة إلى جزء من عمل (29) وبعد ثمانية أشهر من النشر لم يكن قد باع إلا ثلاثمائة نسخة .

أما المتابعون للعمل فقد تباينت آراؤهم فاللورد جفري Jeffrey أدان في نوفمبر سنة 4181 (في مطبوع مستخلصات أدنبره Edinburgh Review) القصيدة بمقدمة تعتبرها نذير سوء إن هذا لن يحدث أبداً أما هازلزت Hazlitt فبعد أن امتدح الفقرات البهيجة المتعلقة بوصف الطبيعة، والأفكار الموحية ذكر أن القصيدة طويلة ومتكلفة وكرر النتائج نفسها حتى أصبحت سطحية وتافهة (39) أما كولردج الذي دعا إلى تأليف عمل كبير خالد، فقد رأى في (الرحلة Excursion) إسهابا وإطنابا وتكرارا وإعادة (49) لكن كولردج راح بعد ذلك في (Table Talk) يمتدح الكتابين (الجزئين) الأول والثاني باعتبارهما من أجمل القصائد في اللغة الإنجليزية (59). أما شبلي Shelley فقد كره (الرحلة) لأنها تبين استسلام وردزورث للفكر الحلولي (كؤن الرب والطبيعة شيئا واحدا)، لكن كيتس Keats اعتبر وردزورث بسبب هذه القصيدة أعلى مرتبة من بايرون (69 Byron)، وبمرور الوقت ترسخ رأي كيتس.

صفحة رقم : 14663

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> حكيم الهايجيت

في أبريل سنة 6181 كان كولردج قريبا من الأنهيار الجسدي والنفسي وهو في الثالثة والأربعين، وفي هذه الأثناء استقبله د. جيمس جيلمان James Gillman كمرضى في هايجيت بلندن، وكان كولردج في هذه الأثناء يتناول ما وزنه باينت Pint من اللودانيوم (مستحضر أفيوني) يوميا. وقد وصفته سوئي Southey في نحو هذه الفترة بأنه كان كزوج هائلا كمنزل. لقد أصبح متحنيا غير متماسك، وأصبح وجهه شاحبا منتفخا مترهلا وأصبح ينهج (قصير النفس)، وأصبحت يده واهنتين مرتعشتين لا يستطيع إلا بالكاد أن يرفع كوباً إلى شفثيه (79) وكان له بعض الأصدقاء المحبين له مثل لامب Lamb ودي كوانسي De Quincey وكراب روبنسون Crabb Robinson ولكنه قلما كان يرى زوجته وأولاده. وربما كان الطبيب الشاب قد سمع أن بايرون Byron ووالتر سكوت Scott قد اعتبرا هذا الإنجليزي المكسور أعظم رجال الأدب الإنجليزي (89). وعلى أية حال فقد كان من رأي هذا الطبيب أنه يمكن إنقاذ كولردج - فقط - بالمداومة على العناية الطبية به والإشراف عليه، فأخذه إلى بيته (أي بيت الطبيب) بموافقته زوجته (زوجة كولردج) وأطعمه واعتنى به وعالجه، وظل تحت إشرافه إلى أن مات.

لقد استعاد كولردج نشاطه العقلي بشكل مدهش، ودهش الطبيب لانتساع دائرة معارف مريضه وثرأه أفكاره والمعمية حواراته ومناقشاته التي فتحت أبوابه لعدد كبير من الشباب وكبار السن اعتبروا هذا الملاك المحطم ذا تأثير كبير وذا فطنة، ولحديثه مذاق خاص رغم أنه قلما يلتزم الموضوع الكامل والنظام المنطقي الصارم. ولا زالت متفرقات من هذه المناقشات المدونة في (الحوارات Table Talk) تبرق تألقاً: كل إنسان ولد أرسطيا أو أفلاطونيا إما أن تكون لنا أرواح خالدة، أو لا تكون. فإن لم تكن لنا فنحن دواب، دواب من الدرجة الأولى أو دواب حكيمة أو أحكم الدواب ليس هذا مهما، المهم أننا بدون أرواح خالدة نكون دواباً (بهائم) حقيقية (99).

ولم يكن يرضيه أن يكون من بين أحكم الدواب. وكلما اقترب من الموت كان يبحث عن راحته وسلواه في أحضان الدين، كما لو كان يريد التأكيد من صفقته فقد اعتنق الدين (المسيحي) في أقصى درجات سلفيته (أورثوذ كسية) المعروفة - ممثلة في كنيسة إنجلترا باعتبارها ركيزة الاستقرار والأخلاق في إنجلترا والتي لها الدوام للأبد. وقد قدم في مقاله عن دستور الدولة وكنيستها الدستور والكنيسة باعتبارهما ثنائيا ضروريا لوحدة الأمة يحمي كل منهما الآخر (001). وقد عارض هو ووردزورث التحرر السياسي للكاتوليك البريطانيين على أساس أن قوة الباباوية ستعرض الدولة للخطر بازدياد تنازع الولاء بين الوطنية والدين.

وقد أخذ الجانب المحافظ حتى كبر سنه. ففي سنة 8181 أيد روبرت أوين Robert Owen والسير روبرت بيل Peel في معركتهما لفرض قيود على تشغيل الأطفال، لكنه في سنة 1381 عارض مرسوم الإصلاح Reform Bill الذي كان سيؤدي إلى كسر هيمنة التوريين (حزب المحافظين) على البرلمان، وعارض إلغاء الرق في الهند وجزر الهند الغربية (101) وكان هو من درس العلوم وأيد العلم - أكثر من غيره من الفلاسفة، ومع هذا فقد رفض فكرة التطور وفضل على حد تعبيره التاريخ كما أجده في الكتاب المقدس (201) وفي النهاية استسلم ذكاؤه للرحب ورؤيته البعيدة المدى لآلام جسده وما اعتري إرادته من اعتلال، واعتراه خوف شديد من أي تغيير في السياسة أو العقيدة الدينية.

وكان يفتقد الصبر والدأب لتأليف عمل متكامل مترابط، ففي السيرة الأدبية (7181 Bigorophia Literaria) أخبرنا عن عزمه على كتابه اللوجوسوفيا Logosophia كعمل كبير يلخص فيه العلم والفلسفة والدين ويربط بينها، لكن كل ما سمح له به بدنه وروحه هو خليط غير مترابط مشوش وغامض. لقد أصبح هذا هو حال العقل الذي وصفه (في وقت من الأوقات) دي كوينسي De Quincey بأنه أرحب عقل بشري وأكثر العقول دقة وفهما (301).

وفي يوليو سنة 4381 بدأ كولردج وداعه للحياة. إنني أموت، لكن دون أن أتوقع راحة سريعة... هوكر Hooker رغب العيش ليُنهي كتابه الحكومة الإكليريكية - كذلك أنا أرغب أن تمهلني الحياة ويكون لدي القوة لإكمال فلسفتي، لأنني - والله يسمعني - عزمت وصممت في قلبي على السمو باسمه الجليل كما أهدف - بعبارات أخرى - للرقى بالبشرية. لكن المرء يريد والله يريد والله فعّال لما يريد، وما أراد الله كان وما لم يردده لم يكن (401) ومات كولردج في 52 يوليو 4381 في الثانية والستين من عمره.

وصدم وردزورث لرحيل أفضل من عرفهم وقال لامب Lamb الصديق الصدوق لكليهما إن روحه العزيزة والعظيمة تلبّستني (501).

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> على الهامش

14- على الهامش

كان شارلز لامب (5771 - 4381) واحداً من عدة أرواح قلقة ومؤثرة جعلتهم مؤلفاتهم أجدر بالتناول في فترة ما بعد سنة 5181، لكننا تناولناه في فترتنا هذه التي نتناولها الآن لأنه دخل بشكل حميم في حياة شعراء منطقة البحيرة. فقد كان لامب واحداً من أقرب أصدقاء كولردج في لندن. لقد تعارفا كرفيقي دراسة في مدرسة مستشفى يسوع، وفي هذه المدرسة لم يتفوق لامب بسبب ما يعانيه من تلغم شديد. وغادر المدرسة في الرابعة عشرة من عمره ليعول نفسه، وفي السابعة عشرة عين محاسباً في مؤسسة الهند الشرقية وظل في هذه الوظيفة حتى أحيل للتقاعد في الخمسين من عمره.

وشهدت حياته سلسلة من حالات الجنون فقد قضى هو نفسه ستة أسابيع في مصحة للأمراض العقلية (5971 - 6971)، وفي سنة 6971 قتلت أخته ماري أن (Ann 4671-7471) - في نوبة جنون شديدة - أمها، وبسبب جنونها ظلت ماري محتجزة في مصحة الأمراض العقلية عدة فترات، لكن لأن لامب Lamb لم يكن يرغب في الزواج فقد جعلها تقيم معه حتى وفاته. وقد شفيت ماري من جنونها بدرجة كانت تكفي لتشاركه في كتابة (حكايات من شكسبير) (Tales from Shakespeare 7081). أما عمله الوحيد الذي أنجزه بمفرده فهو (مقالات إلبا Essays of Elia 0281-5281) وفيه تجلى أسلوبه العبقري ووقاره وفنه الذي أوحى بوحدة من أكثر الشخصيات المحببة في هذا العصر غير المفرط في تسامحه.

وفي سنة 7971 - وكان لا يزال متأثراً بالمآسي التي واجهها في العام السابق - قبل دعوة من كولردج لزيارته في نذر ستوي Nether Stowey وكان لا يكاد يتكلم - بسبب تلغمه - عندما يكون في مواجهة شاعرين (كولردج، ووردزورث) يباري كل منهما الآخر في ذرابة اللسان. وبعد ذلك بخمس سنوات زار مع أخته عائلة كولردج في جريتا هول Greta Hall، وذكر لامب أنه تلقاهم بفيض من الكرم يفوق الوصف (601) ورغم أنه هو نفسه ظل شكوكياً حتى آخر عمره إلا أنه لم يسمح أبداً لتجاوزات كولردج اللاهوتية أن تتغلغل إليه رغم تأثره به ورغم إعجابه الشديد به.

ويضم المتحف الفني للفنون The National Portrait Gallery (المفهوم أنه متحف مقتصر على رسوم الأشخاص) رسماً مؤثراً ولطيفاً للامب Lamb إلى جوار صديقه وليم هازلت (7871 - 0381) الذي كان أبرع النقاد وأكثرهم حيوية في عصره. وقد زار هازلت كولردج سنة 8971. كما زاره مرة أخرى في جريتا هول في سنة 3081. وفي المناسبة الثانية انضم إليهما وردزورث وهناك راح ثلاثتهم يتناقشون فيما إذا كان الله God موجوداً. وكان وليم بالي Paley - كما رأينا - قد دافع مؤخراً عن وجوده بأدلة من التصميمات الهندسية والفنية، وقد رفض هازلت هذه الأدلة، أما وردزورث فاتخذ موقفاً وسطاً مؤكداً أن الله ليس موجوداً خارج الكون، يوجهه من مكان قصي وإنما هو كامن فيه إته حياة الكون وعقله. وفي هذه الزيارة أثار هازلت غضب الحيران باغتصابه تلميذة، وخوفاً من القبض عليه أو حدوث ما هو أسوأ هرب إلى جراسمير حيث أواه وردزورث هناك طوال ليلة، وفي الصباح قدم له مبلغاً من المال ليسافر إلى لندن.

وعندما عاد كولردج ووردزورث وهاجما الثورة وأدانا نابليون في قصيدة هجاء شديدة اعتبرهما هازلت متراجعين عن أفكار أمانا بها يوماً، وكتب أربعة مجلدات عن (حياة نابليون بوناپرت 8281 - 0381) مدافعاً عن وجهات نظر نابليون. وفي هذه الأثناء كان معروفاً كناقذ من خلال محاضراته (0281) عن الدراما في العصر الإليزابيثي وكتابه عن (روح العصر - 5281) ولم يكن وردزورث سعيداً بهجومه على مدرسة البساطة في الأدب أو على حد تعبير

وردزورث (701 Peasant school) · لقد أحب الشاعر العجوز أكثر توماس دي كونسي (5871 - 9581) الذي كان يبدي إعجابه به بشكل مستمر · لقد كان توماس عبقرياً فيما يرى لأنه نبّه بريطانيا في سنة 1281 بمؤلفه Confessions of an English Opium Eater أي (اعترافات إنجليزي يتعاطى الأفيون) · لقد كانت بدايته كولد معجزة يتحدث اليونانية الكلاسيكية بطلاقة وهو في الخامسة عشرة من عمره، وأنهى الدراسة في المدرسة بسرعة وانتقل إلى أكسفورد حيث كانت خطاه أسرع من خطى أقرانه (المقصود أنه كان أكثر تفوقاً) ولا بد أنه اندهش مبتهجاً بالبساطة الخلابّة التي صيغت بها الأشعار الغنائية Lyrical Ballads وفي مايو سنة 3081 كتب إلى وردزورث خطاباً ربما أدار رأس الشاعر المتفرد ·

ليس هناك ما يغريني بصداقتك أكثر - فيما أظن - مما يغري كل من قرأ Lyrical Ballads وأحس بها كما أحس · إن محصلة البهجة التي أحسست بها من ثماني قصائد أو تسع استطعت الحصول عليها جعلت العالم يبدو مقصراً تقصيراً لا حد له عن إدراك ما يعنيه هذان المجلدان الفاتنان - إن اسمك سيرتبط معي إلى الأبد بمشاهد الطبيعة الجميلة ... أي زعم يمكنني من ادعاء القدرة على مرافقة جماعة فيها مثلك تشع عبقرية وسناء فائقين؟ ·

وأضاف أن وردزورث لن يجد أبداً أحداً أكثر استعداداً .. للتضحية حتى بحياته (مثله) لتحقّق مصالحك وسعادتك وكان رد وردزورث ينطوي على توجيهاً رقيقة، فقد كتب له إنني لا أقدر على منح صداقتي (لأحد) فهذا ليس في يدي · إنها هبة لا يستطيع الإنسان تقديمها ... فالصداقة الصحيحة والحقة تتكون بمرور الوقت وتحكمها الظروف · إنها سنز هو كالزهور البرية إن كانت الظروف حولها ملائمة، فإن لم يحدث هذا فعيناً البحث عنها · وحاول أن يثني الشاب عن مراسلته بشكل منتظم فقال له إنني أكثر الناس كسلاً في هذا العالم وأكثرهم عزواً عن كتابة الخطابات لكنه أضاف قائلاً: وسأكون سعيداً جداً حقاً أن أراك في جر اسمير (801) ·

ورغم حرارة دي كونسي De Quincy ورغبته في لقاء وردزورث، فإنه لم يقبل الدعوة إلا بعد ثلاث سنوات، وعندما أصبح منزل وردزورث على مرأى منه فقد الشجاعة وكأنما هو حاج واهن يقترب من روما، فرجع ولم يواصل رحلته للقاء وردزورث، ولكن في سنة 7081 وفي بريستول قبل كولردج دعوته لمرافقة زوجته (زوجة كولردج) وأولاده إلى كزويك Keswick، وفي الطريق توقف معه عند منزل وردزورث، والآن، وأخيراً رأى دي كونسي، الشاعر وردزورث رأي العين، كما كان على بروننج Browning أن يرى شيلي Shelley · قال دي كونسي: رأيت كوميضة نور · إنه رجل أقرب إلى الطول · مد يده وحياني مرحباً ترحيباً ودوداً جداً (901) ·

صفحة رقم : 14665

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> سوئي 1803

15- سوئي

1803 - 1843

وفي هذه الأثناء - في كل من جريتا هول ولندن - كان سوئي يعول زوجته إديث Edith وبناته الخمس (ولدت في الفترة من 4081 و2181) وابنه - الذي أحبه حبا يفوق الوصف، والذي وافته منيته سنة 6181 وهو في العاشرة من عمره. كان سوئي ينفق على كل هؤلاء من حصاد كتاباته المنقحة - لكنها غير ملهمة. وبعد انتقال كولردج إلى مالطة تولى سوئي رعاية أولاده (أي أولاد كولردج) وزوجته. وحتى وردزورث كان أحيانا يعتمد عليه: فعندما فقد أخو ولیم في البحر (1805) اضطرت الأسرة في جراسمير. فأرسل وردزورث خطابا إلى سوئي متوسلا إليه أن يأتي ويساعده لبث الطمأنينة في دوروثي وماري. واستجاب سوئي، وكان رحيما رفيقا جدا: إذ كبت دوروثي: لقد كان ودودا حتى إنني أحببته في وقت من الأوقات. لقد بكى معنا وأبدى حزنه لحزننا، لذا أضن أنني لا بد أن أحبه دائما(011).

وعبثا حاولوا إثناءه عن التسرع في الكتابة. فكتب ملحمة شعرية في إثر ملحمة، لاقت جميعا الفشل، فكرس نفسه للنثر فكانت النتائج أفضل، ونشر في سنة 7081 (خطابات من إنجلترا لدون مانويل ألفاريز إسبريلا Letters from England by Don Manuel Alvatez Esprillea) ووضع على لسان هذا الإسباني المتخيل شجبا غنيا لتشغيل الأطفال والأحوال الأخرى السائدة في المصانع البريطانية:

إنني أجد الجراة الكافية لتساعل عن أحوال هؤلاء البشر الذين يعملون في ظل هذه الأحوال الرهيبة، وأجد... أنه نتيجة جمع مثل هذه الأعداد من الجنسين بشكل يتنافى تماما مع مبادئ الدين والأخلاق، لا بد أن يكون هناك تهتك وخلاعة وفساد، ورجال سكيرون ونساء منحلات، ومهما كانت الأجور التي يحصلون عليها مرتفعة، فإن قصر نظرهم سرعان ما يجعلهم في حالة عوز. وإن على المحافظات (الدوائر) التي هي غير قادرة على حمايتهم كأطفال، أن تقدم لهم العون في حالة المرض الناتج عن أسلوب حياتهم، وفي حالة العجز والشيخوخة(111) وكان ما انتهى إليه هذا الأرستقراطي فيما يتعلق بالاقتصاد البريطاني هو أنه في التجارة - ربما أكثر مما في الحرب - يعتبر البشر والدواب - في الأساس - مجرد آلات، ويتم التضحية بهم دون أي وخز من ضمير(211).

وسرعان ما أدرك سوئي أنه لن يستطيع العيش من حصاد كتاباته فقد وجد نفسه عاجزا عن إعالة من يعولهم خاصة زمن الحرب، إلا إذا تبنى اتجاها أكثر محافظة، وتم هذا التغير بسهولة بسبب إعانة حكومية قوامها 061 جنيا في السنة (7081) وبسبب دعوة للمساهمة بتقديم مقالات بشكل منتظم لمجلة حزب المحافظين (التوري) ربع السنوية Tory Quarterly Review. وفي سنة 3181 رفع من شأن نفسه كمؤلف وكوطني بإصداره كتابا عن حياة نلسون Life of Nelson فكان كتابا واضحا وحيويا يتضح فيه أثر البحث الجاد، وكتبه بأسلوب القرن الثامن عشر، بسيطا واضحا وسهلا يحمل القارئ رغم انحياز المؤلف الطبيعي للتعاطف مع نلسون بطلا ومع بريطانيا وطنا. أما عن افتتان نلسون بإمّا هاملتون Emma Hamilton فلم يتناوله المؤلف سوى في فقرة واحدة.

وقد حزن بايرون Byron وشيلي Shelley وهازلت Hazlitt عندما بدأ سوئي يحط من شأن الشعر بقبوله جائزة إنجلترا Laureateship og England. وكان شأن هذه الجائزة قد انحط عندما قدمها بت Pitt في سنة 0971 لهنري بي Pye قاضي السلام الغامض. وعند موت بي (3181Pye) عرضت الحكومة المنصب على والتر سكوت Scott فرفضه وأوصى به لسوئي وقبل سوئي فكوفى بزيادة معاشه السنوي إلى ثلاثمائة جنيه وعلق وردزورث الذي كان يجب أن يحصل على هذا التعيين بلطف قائلا: إن لدى سوئي عالما صغيرا يقوم على أكتافه(311).

أما بايرون الذي أدان سوئي أخيرا بكلمات هي وسط بين التجريح والعفو فقد راح يتحدث عنه بشكل طيب بعد لقائه في دار هولندا Holland House في سبتمبر 3181: إنه أفضل من رأيت من الشعراء منظر(411) وذكر لتوماس مور Moore: إنه رجل ذو موهبة .. لطيف المعشر .. نشره يتسم بالكمال(511) لكن حرص سوئي على إرضاء ذوي المال والسلطة جعل بايرون يشن عليه حربا عنيفة في سنة 8181، وتمت القطيعة الكاملة مع الجميع عندما استطاعت مجموعة من هؤلاء الثوار الحصول على مخطوطة مسرحية (وات تيلور Wat tyler) وهي دراما راديكالية كان سوئي قد كتبها في سنة 4971 وتركها مخطوطة لم يطبعها وقاموا بنشرها - سعداء بما فعلوا - في سنة 7181. وعاد سوئي إلى جريتا هول ومكتبته وزوجته التي كانت قد اقتربت من الجنون أكثر من مرة، وفي سنة 4381 فقدت عقلها تماما وماتت في سنة 7381. أما سوئي نفسه فقد تخلى عن معركته مع المناوئين له في سنة 4381، ومن ثم جعل وردزورث أميرا للشعراء رغم معارضته هو نفسه (أي وردزورث) وقد حظي هذا التعيين بموافقة عالمية.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> شعراء منطقة البحيرة -> آخر ما قاله وردزورث

16- آخر ما قاله وردزورث

5181 - 0581

الشعر للشباب، وقد عاش وردزورث ثمانين عاما ومات كشاعر في نحو سنة 7081 وعندما كان عمره 73 سنة ألف أنثى الطبي البيضاء في ريلستون The White Doe of Rylstone. وفي هذا الوقت كان والتر سكوت قد نشر (أنشودة آخر المغنين) (The Lay of the Last Minstrel 5081)، وقد أثارت حسد وردزورث لأسلوبها المزهر فاستخدم الوزن نفسه لكتابة أنشودة من تأليفه - قصيدة قصصية غنائية عن الحروب الدينية في شمال إنجلترا في السنة الثانية عشرة من حكم إليزابيث الأولى. إن أسرة كاملة تقريبا - أب وثمانية أبناء - قد هلكت في معركة واحدة. إميلي Emily - الأخت التي ظلت على قيد الحياة - قضت ما تبقى لها من الحياة في حالة حداد، وكانت أنثى الطبي البيضاء تأتيها كل يوم لتعزيها وكانت تصحبها كل سبت لزيارة قبر أخيها الصغير في ساحة كنيسة بولتون وعندما ماتت إميلي ظلت أنثى الطبي البيضاء تقوم بهذه الرحلة الأسبوعية وحدها من ريلستون إلى بولتون وتظل إلى جوار القبر حتى تنتهي صلوات السبت sabbath في الكنيسة ثم تعود بهدوء قاطعة الغابات والمجاري المائية إلى ماواها في ريلستون. إنها حكاية جميلة حكاها بطريقة جميلة ورائعة ومؤثرة.

وكان هذا العمل هو آخر انتصار أدبي لوردزورث، بصرف النظر عن بعض السونيات Sonnets (السونيتة قصيدة تتألف من أربعة عشر بيتا) التي عبر فيها عن مشاعره بأقل قدر من الإثارة - وفيما عدا ذلك - لم يقدم للشعر جديداً آخر. وبعد أن بلغ الخمسين بدا حكيمًا، طويلاً، رزينًا متدثرًا بعباءة تقيه البرد الشديد وأصبح شعره مهوشًا ورأسه مطأطأً وعيناه غائرتين مغرقتين في التأمل كما لو كان بعد أن رأى شيلي Shelly وبايرون ينتقلان من الطفولة إلى الانجذاب الصوفي إلى الموت - راح ينتظر الآن - بهدوء - دوره راضيا أن ترك من الآثار الأدبية ما هو أكثر خلودا من المدن المثالية (البوطوبيات) أو الأشعار الساخرة.

لقد كان في فضائله نقص فقد تحدث عن ذاته كثيرا. لقد كتب هازلت إن ميلتون هو وثنه الأكبر أو بتعبير آخر هو إلهه الزائف، وكان أحيانا يجد الجرأة لمقارنة نفسه به (611) وقد قبل المديح كأمر لا يمكن تجنبه وكان يكره النقد ويعتبره جحودا، وكان يحب إنشاد شعره وقد لاحظ ذلك - بخبث - إمرسون Emerson الذي زاره في سنة 3381، لكنه كان قد قال في مقدمة سنة 5181 إن قصائده قد ألفت لتقرأ بصوت عالٍ والحقيقة أنها كانت قصائد تحوي من الموسيقى قدرا يساوي ما تحويه من معانٍ، والقصيدة في حاجة إلى قيّارة.

وبطبيعة الحال كان اتجاهه المحافظ يزداد كلما تقدم به السن. إنها ميزة التقدم في السن، وربما كان واجب الأعمار أن تجعل المرء محافظا. وإذا كان بايرون وشيلي لم يعترفوا بهذا فربما لأنهما ماتا وهما لا يزالان في حالة جنون الشباب. لقد أدى تدهور الثورة الفرنسية من الدستور إلى الفوضى إلى تحفظ وردزورث إلى حد ما، كما أن وحشية الثورة الصناعية بدت على نحو ما مرضية لمشاعره؛ ذلك أن شيئا لطيفا ومفيدا قد لحق بإنجلترا بإحلال عمال المصانع محل الحرس الوطني المكون من فرسان غلاظ شداد من طبقة صغار مالكي الأرض، ذلك الحرس الذي أنشئ سنة 1671. وفي سنة 5081 أصبح - عن طريق الشراء أو تلقي الهبات - مالكا لعدة عقارات متواضعة، وكان كمالك للأرض مستعدا للتعاطف مع فكرة (الريع) أو (عوائد الأرض) كأساس للنظام الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي. وقد عارض الحركة الإصلاحية كخطة تبناها أصحاب المصانع لخفض أسعار الغلال، وبالتالي أجور العمال بإبطال (قوانين الغلال Corn Laws) وكذلك الرسوم الجمركية العالية التي تفوق استيراد الغلال من الخارج.

وقد أصبح وردزورث الذي كان طوال سنوات عديدة معجبا بأفكار جودون - أصبح الآن يرفض دعوة جودون للفردية (الحرية الفردية Free individualism) على أساس أن الأفراد لا يمكنهم العيش إلا من خلال وحدة اجتماعية (إلا من خلال جماعة) لا يمكنها الاستمرار إلا من خلال الاحترام العام للتقاليد والملكية والقانون. وبعد سنة 5181 أيد الحكومة في كل إجراءاتها القمعية، ووصف بأنه ارتد عن مبدأ الحرية. وتمسك بموقفه ولخص تشخيصه لحال العصر قائلًا: العالم يجري بجنون معتقدا أن شفاؤه من شروره لا يكون إلا بالتغيرات السياسية والعلاجات السياسية والحلول السياسية، بينما الشرور العظمى - وهي الحضارة والرق والبؤس - تكمن عميقة في قلوب البشر ولا علاج لها إلا بالتمسك بالفضيلة وأهداب الدين (711).

وعلى هذا فقد دعا الشعب الإنجليزي مناشدا لدعم الكنيسة الإنجليزية وكتب (1281) مقطوعات شعرية دينية بلغت سبعا وأربعين مقطوعة (سونيتات) تناول فيها جانبا من جوانب التاريخ الإنجليزي، نقلنا فيها إلى أبطال إنجليز لم يعد أحد يذكرهم، وأثار في قرائه الدهشة. على وفق ما قاله هنري كراب روبنسون، فإن وردزورث قال إنه سيبذل دمه عند الضرورة للدفاع عن الكنيسة القائمة (الإنجليزية) ولم يهتم بالضحكات الصاخبة التي قهقهها الآخرون ذاكرين أنه سبق أن اعترف أنه لا يدري متى كان تابعا لكنيسة في بلاده (811).

ونحن لا نعرف أنه بحث عن سلواه في أحضان الدين عندما بدأ عالم الحب حوله ينهار. في سنة 9281 عانت دوروثي من حصة في الكلى مما أدى إلى ضعف صحتها وانهايار روحها المعنوية باستمرار. وتعرض جهازها العصبي للتلف، وبعد سنة 5381 لم تعد تستطيع تحريك ساقها، ولم تعد تتذكر إلا الأحداث البعيدة التي مضى عليها زمن طويل، وقصائد أخيها التي كانت - لاتزال - تستطيع إنشادها. وظلت قعيدة طوال العشرين سنة التالية بلا معين وأطبق عليها الجنون، وكانت تجلس صامتة على مقعد قرب المدفأة منتظرة الموت صابرة. وفي سنة 5381 ماتت ساره هنتشسون، وتُرك وردزورث مع زوجته ماري للعناية بأخته وأولاده. وفي سنة 7381 كان لديه الجلد الكافي للقيام بجولة طوال ستة أشهر في فرنسا وإيطاليا مع روبنسون ذي الشخصية المؤثرة.

وتوفي في 32 أبريل 0581 ودفن بين من مات من جيرانه في باحة كنيسة جراسمير. وعاشت دوروثي (أخته) بعد موته خمس سنوات صابرة تعينها ماري التي أصبحت الآن شبه عمياء. وماتت ماري سنة 9581 عن عمر يناهز التاسعة والثمانين، وبعد عمر طويل أدت فيه واجباتها بإخلاص. ولا بد أن وردزورث كان يتحلى بصفات أعظم من كونه شاعرا كبيرا لأنه احتفظ بحب امرأتين - من هذا النوع - أخلصنا له دوماً - ومثلهما في ملايين البيوت - لا بد من تذكرهما كلمحة من ملامح صورة إنجلترا.

صفحة رقم : 14667

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> قافلة فقدت بريقها

الفصل الثاني والعشرون

الشعراء الثوريون

كي نفهم بايرون لابد أن نُعرّف ببعض التفاصيل تاريخ أجداده وطبيعتهم الذين تجري دماؤهم - كالحمي المتقطعة - في عروقه. إن بعضاً من هذه الدماء - كاسمه - قد تعود إلى فرنسا، فالتاريخ يذكر لنا عديداً من آل بيرون Birons في فرنسا، وقد ذكر بايرون نفسه متفاخراً في (دون جوان) (النشيد 01 slash البيت 63) أحد جدوده - ردولفس دي بورو Burun الذي قدم إلى إنجلترا في ركاب وليم الفاتح. وفي القرن الثاني عشر أصبح آل بورو Buruns هم آل بايرون Byron (أي تغير نطق الاسم ليتماشى مع طبيعة اللغة الإنجليزية أو الأسماء الإنجليزية)، وعمل السير جون بايرون في خدمة هنري الثامن بإخلاص حتى أن الملك عندما حل الأديرة نقل إليه نظير مبلغ ضئيل ملكية دير (أسس في نحو 0711) والأراضي التابعة له، ودير راهبات نيوستيد Newstede. في زمام نوتجهاام (1) ولعب آل بايرون بعد ذلك أنواراً صغرى في التاريخ الإنجليزي وأيدوا أسرة ستيوارت المالكة وتبعوا شارلز الثاني في المنفى وصادرت الحكومة منهم مبنى دير نيوستيد، واستعادوه بعد عودة الملك للعرش وخدم وليم عم والد الشاعر - لورد بايرون الخامس (2271 - 8971) في البحرية، وكان وسيماً طائشاً وأطلق عليه اسم اللورد الشقي أو اللورد الشرير إذ عاش حياة الخلاعة في مبنى الدير الأنف ذكره وأتلف كثيراً من ثروته وقتل قريبه وليم شورث Chaworth في مبارزه مرتجلة (لم يُعد لها) في غرفة مظلمة بأحد الفنادق، فتم إرساله إلى القلعة بتهمة القتل وحاكمه مجلس اللوردات (5671) الذي قرر أنه ليس مذنباً كقاتل عمداً وإنما هو مذنب بالقتل غير العمد فعاد إلى مبنى الدير وعاش في عزلة كئيبة حتى وافته منيته.

وقد أصبح أخوه جون بايرون (3271 - 6871) ضابط صف بحري وتعرض لجنوح سفينته ونشر سرداً قصصياً عن جنوح السفينة استقى منه حفيده مشاهد حية في (دون جوان). وقد دار جون - كقبطان للسفينة دولفين - حول الكرة الأرضية. وأخيراً عاد لموطنه في غرب إنجلترا وعرف باسم (الملاح العاشق) لأنه كان يحتفظ بزوجة أو خليلية في كل ميناء.

وكان ابنه الأكبر الكابتن جون بايرون (6571 - 1971) وهو والد شاعرنا الذي نتناوله الآن. قد مارس كثيراً من الأعمال الشريرة في سنوات عمره البالغة خمسا وثلاثين سنة حتى عُرف بجاك المجنون. وبعد أن خدم في المستعمرات الأمريكية قضى بعض الوقت في لندن وجعل خليلته يدفعن ديونه. وفي سنة 8771 فرّ مع مرليزة كارمارثن Carmarthen فطلقها زوجها المركزي، وتزوجها القبطان بايرون ونعم بثروتها وأنجبت له ثلاثة أبناء كان منهم أوجستالاي Angusta Leigh الأخت غير الشقيقة لشاعرنا، وأحياناً خليلته.

وفي سنة 4871 ماتت لادي كارمارثن وبعد ذلك بعام تزوج الأرمل الأنيق من فتاة إسكتلندية في العشرين من عمرها ولها دخل يبلغ 32,000 جنيه إسترليني - إنها كاترين جوردون الجيتية of Gight، وكانت متكبرة جداً وتعود شجرة نسبها إلى ملك سكوتلندا جيمس الأول. وعندما حملت بشاعرنا أورثته التميز والقلق: فرنسي الأصل، عاصف الشخصية أو بتعبير آخر ذو طبيعة عاصفة ميال للنهب والقتل والعداوة، وكانت الأم نفسها مزيجاً من الحب العنيف والكرهية. لقد أنفقت على زوجها الذي بدد ثروتها ثم هجرها ثم على ابنها الوحيد الذي غمرته بعواطفها فأصبح لفرط الدلال كالطفل الكسيح. قال شيلدهارولد لا بُد أن يعرف المرء الثمرة التي تنمرها شجرة هذه بذورها (2).

ولد جورج جوردون بايرون في لندن في 22 يناير 8871، ولحق بقدمه اليمنى تشوه عند الولادة بسبب لينة للداخل مع رفع الكعب لأعلى، وكان يمكن معالجة هذا الخلل بتدليك يدي يومياً لكن الأم لم يكن لديها صبر ولا طاقة على هذا بالإضافة إلى أن هذا قد يبدو للطفل قسوة مقصودة كما أن الأطباء لم يكونوا ميالين لنصحتها لهذا العمل العلاجي وفي

سن الثامنة، تحسنت القدم المصابة كثيراً حتى أصبح الصبي يستطيع لبس الحذاء المعتاد فوق حذاء داخلي مصمم لموازنة الاعوجاج والتقليل من أثره. وفي الحياة العامة، وفي أثناء ممارسة الألعاب الرياضية اتسم بالرشاقة رغم عرجته لكنه لم يكن يستطيع عبور قاعة الاستقبال دون أن يحس بألم وفي شبابه كان يغضب بشدة عند أي إشارة لعاهته. وقد ساعد هذا على جعله حساساً، وربما حثه هذا على تحقيق انتصارات في مجال السباحة والتودد للنساء والشعر، فربما يصرف هذا النظر عن إعاقته.

وفي سنة 1971 انتقلت الأم مع ابنها إلى أبردين Aberdeen، وبعد ذلك بعام هرب زوجها إلى فرنسا حيث مات في سنة 1971 معدماً فاجراً. ولم يكن قد ترك إلا قليلاً من ثروة زوجته التي بذلت قصارى جهدها لتعليمه تعليماً يليق بلورده. وكانت تصفه أوصافاً تنم عن حبها الشديد له عندما كان في السادسة من عمره (إنه ولد لطيف يمشي ويجري كأبي ولد آخر) (3) وفي السابعة دخل مدرسة أبردين الإعدادية حيث تلقى أساساً طيباً في اللغة اللاتينية وعن طريق مزيد من التعليم وكثير من الأسفار في اليونان وآسيا الصغرى وإيطاليا أصبح عاشقاً للآداب اللاتينية واليونانية لدرجة أن الدارسين للآداب الكلاسيكية هم وحدهم الذين يمكنهم فهم الاقتباسات والإشارات التاريخية التي بثها في عمله (دون جوان). لقد أحب بايرون التاريخ - مبراً من الوطنية والميثولوجيا - كحقيقة - لا حقيقة سواها - عن الإنسان - أما شيلي Shelley فقد أنكره وكان لا يرتاح للتاريخ.

وفي سنة 1897 مات عم والده اللورد الشقي أو الشرير الأنف ذكره في نيوسيد تاركاً لقب البارون لابنه البالغ من العمر عشرة أعوام، ومبنى الدير و 0023 أكر (فدان إنجليزي) وديونه (أي ديون اللورد الشقي)، وكان هذا لا يكفي إلا لتمكين الأرملة من الانتقال من أبردين إلى مبنى الدير لتعيش هناك مستمتعة بمزايا الطبقة الوسطى. لقد أرسلت الصبي إلى مدرسة في دولوش Dulwich، وفي سنة 1081 أرسلته إلى مدرسة ثانوية داخلية مشهورة في هارو Harrow على بعد أحد عشر ميلاً من لندن. وفيها بشم العبادات المملة التي كان يفرضها الطلاب الأكبر سناً على الطلاب الأصغر سناً، وعندما أصبح هو نفسه كرجل من الطبقة العليا - يتحتم عليه القيام بهذه العبادات، أداها بحماس. وكان طالباً قلقاً يكره النظام ويحب التهريج ويهمل الواجبات المدرسية لكنه قرأ كثيراً من الكتب غالبها جيد، بل وقرأ بيكون ولوك Locke وهيوم Hume وبيركيلي Berkeley. وكان من الواضح أنه فقد عقيدته الدينية لأن أحد رفاق دراسته وصفه بأنه ملحد ملعون (4). وفي السابعة عشرة من عمره التحق بكلية التثليث Trinity College في كامبردج، وهناك أقام في جناح مكلف به خدم وكتب كما اتخذ له رفيقاً غير متزن يشاركه السكن وتعامل مع العاهرات والأطباء وكان بين الحين والحين يبحث عن خدمات متميزة في لندن. وفي إجازة قضاها في بريتون (Brighton 8081) كان معه فتاة متكررة في شكل صبي، لكنه طور في كامبردج ما أسماه حياً شديداً وعاطفة قوية - رغم نقائها though Pure لشاب وسيم (5). وقد أقام صداقات دائمة بسبب مرحه وحيوته وكرمه، وكان أفضل هذه الصداقات هي صداقته مع جون كام هوبهوس Hobhouse الذي كان يسبقه في الدراسة بعامين إلا أنه ساهم في ضبط حياة بايرون غير المنضبطة في بعض الأحيان. فقد كان الشاعر الشاب (بايرون) يبدو على وشك تدمير نفسه بتحرره (المقصود عدم انضباطه الخلقى) فلم يكن ذكاًؤه بقادر على أن يحل محل المحاذير الدينية التي لم يعد يأخذ بها.

وفي يونيو سنة 7081 - وكان قد بلغ التاسعة عشرة من عمره. ونشر ديوان ساعات من الكسل بقلم جورج جوردون ولورد بايرون، الصغير. وذهب إلى لندن لترتيب أن يحظى ديوانه بتعليقات طيبة وقد حيتته دورية مستخلصات أدنبره (عدد يناير 8081) بتعليقات ساخرة. لقد سخرت من العنوان كعنوان يليق بالنثر لا بالشعر، وانتقدت المؤلف واعتبرت ذكر اسمه مقروناً بغيره هو نوع من الاعتذار، فلم لا ينتظر هذا اللورد المراهق الوقت المناسب للنشر عندما يصبح أكثر نضجاً. وبلغ الحادية والعشرين من عمره في 22 يناير 9081، ودفع ديونه الملحة وانغمس في المقامرة وشغل مقعده في مجلس اللوردات وعانى كثيراً بسبب الصمت الذي ينصح به العضو الجديد (المبتدئ) لكن بعد ثلاثة أيام شن هجوماً على ناقد كتابه في دورية (English Bards & Scotch Revivewers) لقد شن هجوماً حاداً وحيوياً وكأنا هو يحاكي - بل ويضارع - بيانات البابا. لقد سخر من الحركة الرومانسية الوجدانية (التي أصبح بعد ذلك راندها) ودعا للعودة إلى الروح الرجولية والأسلوب الكلاسيكي اللذين سادا في عصر أوغسطس Augustan Age:

- سوف تؤمن بملتون ودردين والبابا،

- ولن تُعلي من شأن وردزورث وكلردج وسوثي،....

- إننا نعلم من هوراس إن هوميروس ينام أحياناً،

- ونشعر بكونه أن وردزورث أحياناً يستيقظ (يظلم يقظان - والمقصود أنه نائم عادة) (6).

وبعد أن حصل بايرون على درجة الماجستير في كامبردج صادق الملاكمين وتعلم تحاشي الضربات وأخذ دورة عملية أخرى في حياة الليل في لندن، وأبحر في 2 يوليو 9081 مع هوبهوس إلى لشبونة وتطلع للشرق.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> الرحلة الكبرى

2- الرحلة الكبرى

بايرون 9081 - 1181

لم تكن رحلة - من الناحية التقليدية - هائلة: فقد كانت إنجلترا في حالة حرب، وكان نابليون يحكم فرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وإيطاليا، لذا فقد قضى بايرون معظم العامين اللذين استغرقتهما رحلته في ألبانيا واليونان وتركيا، وقد تركت هذه الرحلة أثرا مهما في سياساته وفي وجهات نظره عن النساء والزواج بل وأثرت في موته. لقد خلف ديونا مقدارها 31،000 جنيه إسترليني وراءه (المقصود قيل أن يبدأ رحلته) واصطحب معه أربعة من الخدم. لقد وجد لشبونة فقيرة مسلوقة القوة ولم تكن حرب شبه الجزيرة الأيبيرية مبررا كافيا لهذه الحال، وبدا كل الناس عدوانيين فكان بايرون يحمل مسدسيه أينما ذهب. وانتقل ركبه على ظهور الخيل إلى أشبيلية وقادش ومنها - على ظهر فرقاطة بريطانية - إلى جبل طارق (وهناك أعفى كل خدمه ما عدا خادمه الخصوصي متولي أمور ملابسه ولیم فلنشر) ومن جبل طارق اتجه إلى مالطة حيث أحب السيدة سينسر سمث (1 - 81 سبتمبر 9081)، وتصرف بشكل مناف للذوق حتى إن القبطان البريطاني علق على تهوره وعدم كياسته. فتحداه بايرون مع تلميح ادعائي سخي فطالبها أن السفينة التي علي أن أركبها لا بد أن تبحر على أول تغير في اتجاه الريح، فإن الإبحار في الساعة السادسة غدا هو الوقت المناسب تماما، فهذا ادعى لترتيب أشغالنا بشكل أفضل وأسرع واعتذر القبطان عن عدم تنفيذ ذلك. وفي 91 سبتمبر غادر بايرون وهوبهوس على السفينة سبيدر Spider (الكلمة تعني العنكبوت أو المقلاة) وبعد أن ظلت مبحرة طوال أسبوع وصلت إلى باتراس Patras. فنزلا إلى الشاطئ فورا بمجرد وضع أقدامهما على تربة اليونان، لكن في الليلة نفسها عاودا ركوب السفينة (سبيدر) وأبحرت السفينة متجاوزة ميسولونجي Missolonghi وبنيلوب الملحقة بايثاكا Penelopes Ithaca نزلا إلى الشاطئ في بريفيرا Preveza بالقرب من أكتيوم Actium التي شهدت معركة تحدد فيها مصير أنطونيو وكليوباترا. ومن هنا اتجه شمالا على ظهور الخيل خلال إبيروس Epirus ودخل ألبانيا التي كان التركي المرعب علي باشا يحكم من عاصمتها - بالسيف والأوامر - كل ألبانيا وإبيروس، وقد رحب ببايرون ترحيبا يليق بلورد بريطاني لأنه (كما قال للشاعر) عرف أنه ذو أصل نبيل لصغر يديه وأذنيه.

وفي 32 أكتوبر عاد بايرون ورفاقه. وفي 72 من الشهر نفسه وصلا إلى يانينا Janina عاصمة إبيروس. وهناك بدأ يسجل انطباعاته عن الرحلة في (Childe Harold Pilgrimage) على شكل سيرة ذاتية. وفي 3 نوفمبر ارتحلت المجموعة جنوبا حتى ما يعرف اليوم باسم إيتوليا Aetolia في حماية حرس الباشا من المرتزقة الألبانيين، وكان كل واحد من هذا الحرس بارعا في القتل والسرقة. وقد أحبوا سيدهم الجديد (المقصود لورد بايرون) وكان أحد أسباب ذلك أنه بدا لهم غير هيأب من الموت. وعندما أصابت الحمى بايرون هددوا الطبيب بالقتل إذا مات مريضه، ففر الطبيب وشفي بايرون. وفي 12 نوفمبر استقلت المجموعة سفينة نقلتهم من ميسولونجي Missolonghi إلى باتراس Patras وتقدموا بصحبهم حرس جديد على ظهور الخيول في البلوبونيز وأتيكا Attica (في اليونان الحالية) ورأوا

دلفي Delphi وThibes ودخلوا أثينا في يوم الكريسماس 9081. وكان لابد أن يمر على الرحلتين يوم حافل بالأفراح والأحزان معا. عظمة الآثار القديمة، والدمار الذي لحق بالبلاد حديثا، وعدم الترحيب الشديد بالحكم التركي، فالبيونانيون كانوا يوما شعبا فخورا معتزلا بنفسه وأصبحوا الآن وقد نزلوا من علياء مجدهم السياسي والفكري ورضوا بحكم الأيام. لقد كان هذا مدعاة لتسليية هوبهوس لكنه أحزن بايرون الذي تجسدت فيه روح الاستقلال، والفخر بالعرق وعلى أية حال فقد كانت نساء اليونان جميلات، عيونهم سوداء مثيرات، خضوعهن (استسلامهن) لطيف. وقد سكن بايرون وهوبهوس عند الأرملة ماكري Macri التي تولت خدمتهما، وكان لديها ثلاث بنات كلهن دون الخامسة عشرة. الفاسقة الصغيرة تعلمت أن تحس إزاءهم بعاطفة أبهجتهما وذكرتهما بحبهما أيام براءتهما الأولى. إنها تريزا البالغة من العمر اثنتي عشرة سنة وهي التي علمته التحبة الشجية: يا حياة حياتي، أنا أحبك Zoe mou sas agabo وقد كتب أغنيته الشهيرة مستوحيا أفكارها من هذه الكلمات: يا عذراء أثينا، هل سنفترق! أعيدي إليّ قلبي! وفي 91 يناير 0181 انطلق بايرون وهوبهوس مع خادم ودليل ورجلين للناية بالخيول لزيارة واحد من أكثر المشاهد إلهاما في اليونان، واستغرق انتقالهم راكبين أربعة أيام لكن الغاية تبرر الوسيلة: لقد أصبحوا على مرأى الأعمدة الباقية من معبد بوسيدون (النص temple to Poseidon) في الماضي البطولي على فنة جبل سونيوم Sunium Promontorium (Cape Colonna) لتخبر البحارة أنهم وصلوا بلاد الإغريق. ومما يذكر أن مشاهد هذا الكمال القدسي المتناثرة ومنظر بحر إيجه الذي يبدو على البعد هادنا ناعما، كل ذلك أوحى للشاعر بتأليف قصيدته (جزر اليونان) التي أدرجها أخيرا في النشيد الثالث في عمله (دون جوان). ومن سونيوم Sunium تستغرق المسافة إلى الماراثون ثلاثة أيام فقط على ظهور الخيل، وفي الماراثون تحركت قريحة الشاعر بالأبيات المشهورة التالية:

- الجبال تُطل على الماراثون،
- والماراثون يُطل على البحر،
- ورحلت أسلي نفسي هناك ساعة وحدي،
- وحلمت أن تعود اليونان حرة
- تقف على جثث الفرس (المقصود الأتراك)
- إنني لا أطيق أن أكون عبدا.

وفي 5 مارس غادر بايرون وهوبهوس أثينا واستقلتهما سفينة إنجليزية (البايلاذز Pylades) قاصدين سميرنا Smyrna، وأجبروا هناك على الانتظار شهرا حيث أكمل الشاعر النشيد الثاني في مؤلفه الشعري (شابلد هارولد Childe Harold). وقام برحلة جانبية استغرقت ثلاثة أيام إلى إفسوس Ephesus واستوحى خرائب (آثار) مدينة شهدت أوج الحضارات الثلاث - الإغريق، والمسيحية والإسلام (النص: الديانة المحمدية). ولاحظ هوبهوس أن انحلال الأديان الثلاثة يقدم هناك من وجهة نظر واحدة (7).

وفي 11 أبريل عبروا (الشاعر وهوبهوس ومن معهم) على الفرقاطة سالست Salsette إلى القسطنطينية (المقصود إستانبول)، وأدت الرياح القاسية والموانع الدبلوماسية للإبقاء على السفينة طوال أسبوعين راسية على الجانب الآسيوي من الدردنيل، ووطئ بايرون وهوبهوس سهل طروادة Troad Plain على أمل أن يكون قد غطى عظام هومر Homers Ilium ولكن شليمان Schliemann لم يكن قد ولد بعد. وفي 51 أبريل قام بايرون والضابط البحري الإنجليزي - الليفتنانت وليم إكنهيد بالانتقال عبر الهيليسبونت Hellespont إلى الجانب الأوربي، وحاولا العودة سباحة لكنها عانها من شدة التيار وبرودة الماء. وفي 3 مايو حاولا مرة ثانية وعبرا من سيستوس Sestos في الجانب الأوربي من تركيا إلى أبيدوس Abydos في آسيا الصغرى. وأنجز إكنهيد Ekenhead قطع المسافة في 56 دقيقة أما بايرون فأنجزها في سبعين دقيقة، وكان طول القناة في هذا الموضع (المقصود القناة الموصلة بين البر والاسيوي والبر الأوربي) ميلا واحدا فقط، لكن التيارات المائية أجبرتها على السباحة أكثر من أربعة أميال (8). ووصل السائحان إلى القسطنطينية (المقصود إستانبول) في 21 مايو وأثارت المساجد إعجابهما وغادرا في 41 يوليو وفي السابع عشر من الشهر نفسه رست سفينتهما في مرفأ زي 'Zea في جزيرة كوس Koes، وهناك افترقا فتابع هوبهوس طريقه إلى لندن واستقل بايرون وفتنشر قارب آخر متجها إلى باتراس Patras. ومرة أخرى عبر الطريق البري إلى أثينا. وهناك راح بايرون يواصل بحثه الطويل عن الفروق بين النساء (الفوارق الأنثوية). لقد تباهى بغزواته (المفهوم طبعاً غزواته النسائية) وأصيب بالسيلان، وسار سراعا في طريق الاكتئاب، ففي 62 نوفمبر كتب إلى هوبهوس: لقد رأيت العالم الآن... وذقت كل أنواع اللذة... ليس لي من أمل آخر. وربما بدأت في التفكير في أفضل طريقة للخروج من هذا العالم... أمل أن أستطيع أن أجد بعضاً من نبات الشوكران (نبات سام) الذي حصل عليه سقراط (9) وفي يناير سنة 1181 استأجر غرف لإقامته وإقامة بعض خدمه في دير كابوشن Capuchin عند سفح الأكروبوليس وراح يحلم بالسلام (النفسي) الذي تتيحه الحياة في دير.

وفي 22 أبريل غادر أثينا لآخر مرة ومكث شهرا في مالطة ثم واصل رحلته عائدا إلى إنجلترا التي وصلها في 41 يوليو بعد عامين واثنى عشر يوما من مغادرتها، وبينما كان منشغلا بتجديد عقودها في لندن تلقى خبر وفاة أمه عن عمر يناهز السادسة والأربعين، فاندفع متجها إلى مبنى دير نيوستيدي Newstead، وقضى الليل جالسا في الظلام إلى جوار جثمان أمه وعندما توصلت إليه الخادمة أن يترك الجثمان ويعود إلى غرفته رفض قائلا: لم يكن لدي إلا صديق وحيد في العالم إنها أمي. وقد فارقتني! وكان قد قال عبارة قريبة من هذه ونقشها على قبر كلبه (من نيو فوندلاند) بوتسوين Boatswain الذي مات في نوفمبر سنة 8081 ودفن في سرداب بحديقة الدير:

للتذكير ببقايا صديق أقيمت هذا الشاهد، فلم يكن لي إلا صديق واحد - انه يرقد هنا. وفي أغسطس سنة 1181 سجل وصية لوقف مبنى الدير على ابن عمه جورج بايرون، وخصص منحا لخدمته، وترك توجيهات تنفذ عند دفنه أريد أن يدفن جسدي في قبو في حديقة نيوستيدي دون أية شعائر أو صلوات وألا ينقش على شاهد القبر أي شيء سوى الذي هو مدفون فيه(01) وبعد أن رتب الأمور المتعلقة بموته اتجه إلى لندن لمواصلة غزواته.

صفحة رقم : 14669

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> أسد لندن

3- أسد لندن

بايرون 1181 - 4181

لقد كان لديه - في لندن - أصدقاء بالفعل لأنه كان جذابا دمثا جيد الحديث واسع المعرفة في الأدب والتاريخ كما كان مخلصا لأصدقائه أكثر من إخلاصه لخليلاته. لقد استأجر مقرا في 8 شارع جيمس، وهناك في مقره هذا استقبل بترحاب توماس مور وتوماس كومبل Campbell وصامويل (صمونيل) روجرز، وهوبهوس... كما زارهم ورحبوا به بدورهم. وعن طريق روجرز، ومور دخل بايرون دائرة الضوء في دار هولاند Holland House، وهناك قابل ريتشارد برينسلي شريدان Sheridan الذي كان نفوذه السياسي قد قل لكنه لم يكن قد فقد ميله للنقاش والحديث لقد روى بايرون متذكرا عندما كان يتحدث كنا نصغي من الساعة السادسة حتى الواحدة دون أن يتناعب واحد منا .. ياله من رفيق بانس! لقد انهمك في الشراب بشدة .. لقد كان من نصيبي في عدة مناسبات أن أنقله للبيت(11) وتبنى بايرون موقف اللوديت Luddite (محطمو الماكينات في موطنه نوتنجهامشير Nottinghamshire) متأثرا بهؤلاء المتقنين المؤيدين للإصلاح (الهوريجيين Whiggish - الهويج هو حزب الأحرار فيما بعد)، وفي 02 فبراير سنة 2181 أجاز مجلس العموم مرسوما بالحكم بالإعدام على كل من يضبط متلبسا بتحطيم الماكينات، وعند مناقشة هذا المرسوم في مجلس اللوردات في 71 فبراير عارضه بايرون، وكان قد كتب خطابه مقدما بلغة إنجليزية راقية. وذكر أن بعض العمال مذنبون لقيامهم بأعمال عنيفة سببت خسائر في الممتلكات وأن الماكينات المحطمة كانت - على المدى البعيد - ستحقق مكاسب للاقتصاد الوطني. لكنها - أي هذه الماكينات - قد أدت إلى حرمان المئات من العمال من العمل الذي كانوا يعملون أسره عن طريقه، فأصبحوا الآن فقراء بانسين يعتمدون على ما يتلقونه من هبات وصدقات، وأن هذا

اليأس وهذه المرارة هما اللذان أديا إلى قيامهم بأعمال العنف. وكلما تقدم في خطابه تخلى الخطيب الشاب عن حذره وراح يهاجم الحرب كمصدر لبؤس غير مسبوق يعاني منه العمال الإنجليز. لكن اللوردات تجهموا لمقاتلته وأجازوا المرسوم الأنف ذكره. وفي 12 أبريل ألقى بايرون خطابا ثانيا أدان فيه الحكم البريطاني في أيرلندا ودعا إلى تحرير (عق) الكاثوليك في كل أنحاء الإمبراطورية البريطانية، وقد امتدح اللوردات بلاغته ورفضوا قضيته وأجبروه على الجلوس (عدم مواصلة حديثه) باعتباره غرا سياسيا لما ينضج بعد، وتخلي عن السياسة وقرر الدفاع عن قضاياها وأفكاره من خلال الشعر.

فبعد اثني عشر يوما من خطبته غير المسبوقة قدم النشيديين الأولين الواردين في مؤلفه Childe Harolds Pilgrimage للناس. وكادا يلقيان نجاحاً غير مسبوق فقد نفذت الطبعة الأولى (005 نسخة) في ثلاثة أيام مما أقتنعه أنه وجد وسيلة أكثر بقاء وقوة من الخطب المثيرة للجدل. لقد لفت الآن الأنظار إليه بشدة لقد استيقظت ذات يوم فوجدت نفسي مشهوراً (21). حتى أعداؤه القدامى في دورية (مستخلصات أدنبره) امتدحوه، وإقراراً بالفضل أرسل اعتذاراً الجفري لتعرضه له في دورية English Bards & Scotch Reviewers. تكاد تكون كل الأبواب مشرعة أمامه الآن، ودعته النساء الشهيرات - اثنتا عشر امرأة تحلقن حوله مبهجات بوجهه الوسيم كل منهن تأمل في إيقاع الأسد الشاب في حبالها. ولم يبعدهن عنه ما عرف عنه من نهم جنسي، كما أن لقب اللورد الذي يحمله جعله يبدو صيدا ثميناً لمن لا يعرفن ديونه. لقد سعد باهتمامهن به وكان بالفعل مستثاراً بسحرهن الغامض. لقد قال: هناك شيء في مريح جدا يظهر في حضور امرأة - إنه تأثير غريب على نحو ما حتى لو كنت غير عاشق لها - شيء لا أعرف كنهه، فلست خبيراً بالجنس خبرة يشار إليها بالبنان (31).

وكانت الليدي كارولين لامب (5871 - 8281) تمثل إحدى غزواته النسائية الأولى، وهي ابنة الإيرل الثالث لبيسبورو Bessborough وتزوجت في العشرين من عمرها من وليام لامب الابن الثاني للورد ميلبورن وليدي ميلبورن. وبعد أن قرأت كتابه (Childe Harolds Pilgrimage) قررت مقابلة المؤلف لكنها عندما رأته اعتبرتة شخصا من الخطر معرفته وابتعدت عنه سريعا، فأثاره ذلك وعندما التقى بها ثانية رجها أن يلتقيا وأتى إليها وكانت وقتها أكبر منه بثلاث سنين وكانت قد أنجبت بالفعل وكانت وارثة لثروة كبيرة كما كانت عطرة مرحة. وأتى إليها ثانية، وتكررت زيارته فعدت كل يوم تقريبا. وكان زوجها مشغولا بأعماله فقبله كمرافق لزوجته أو عشيق لها وهو أمر شائع في إيطاليا Cavalier Servente وتعلقت به أكثر فأكثر وذهبت إلى بيته علنا أو متكررة في زي غلام وكتب له خطابات غرامية حارة، وازداد اندماجهما حتى إنه اقترح عليها أن تفر معه تاركة بيت الزوجية (41) لكن عندما ذهبت إلى أيرلندا (في سبتمبر 2181) مع أمها وزوجها، كان قد تخلى عنها بالفعل وسرعان ما وثق علاقته بليدي أو كسفورد. وفي خضم مثل هذه الأمور المعكرة للصفو، احتفظ بايرون ببعض الاستقرار النفسي بأن راح يكتب بسرعة شعراً سهلاً كان مجاله حكايات مغامرات وعنف وحب مستوحاة من تراث الشرق. ولم يعرض فيها صور العظمة الصارخة المدعاة، وإنما كانت حكايات خيال رومانسي تعكس أفكار الشاعر ومشاعره التي استوحاه من رحلاته في ألبانيا وإبيروس واليونان، ولم يجهد المؤلف فكره في كتابتها، كما لم تكن تتطلب من قارئها قدح ذهنه وإجهاد عقله، وقد راجت بشكل مدهش وبيع منها عدد كبير من النسخ. ظهرت القصة الشعرية الأولى وهي The Giaour في مارس سنة 3181، وسرعان ما ظهرت الأخرى في ديسمبر The Bride of Abydos التي بيع منها ستة آلاف نسخة في شهر واحد، ثم الثالثة التي كانت أكثر رواجاً وهي Corsiar (يناير 4181) التي حطمت كل الأرقام السابقة إذ بيع منها عشرة آلاف نسخة في اليوم نفسه الذي ظهرت فيه، ثم ظهرت لارا (5181Lara) وحصار كورنث (6181Corinth Siege of). وجمع الناشر جنيهاته وقدم نصيباً منها لبايرون الذي تصرف كلورد وعف أن يأخذ ثمناً لأشعاره.

وحتى عندما كان بايرون يؤلف هذه الحكايات التي تدين الخارجين على القانون كان هو نفسه قلقاً منزعاً بسبب حياته غير الملتزمة (الخارجة عن العرف والقانون). فلم يكن يستطيع مواصلة التشبب بالنساء إلا إذا دمر صحته، وميزانيتها. لقد كان قد نذر هو وهوبهوس ألا يتزوجا لأن الزواج سجن للروح والبدن، أما الآن فقد راح يميل إلى أن الزواج كابح أساسي ومنظم للرجبات التي إن تركت على عواهنها دمرت الفرد والمجتمع جميعاً. لقد شعر أنه قد يجد مبرراً للتخلي عن حريته في سبيل الاستقرار والهدوء أو في سبيل دخل أكثر ثباتاً مما يدره عليه مبنى الدير (الذي يمتلكه) ذلك المبنى الذي أصبح آيلاً للسقوط.

وبدت له أنابلا ميلبانك Annabella Milbanke وكان فيها من المواصفات ما يحقق كل مطالبه. ففيها الجمال ونالت قسطاً من التعليم وكانت الطفلة الوحيدة لأسرتها وتنتظرها ثروة طائلة. وعندما قابلها للمرة الأولى في 52 مارس 2181 في منزل عمته الليدي ملبورن Melbourne تعلق بها فقد كانت ملامحها صغيرة وأثوية، رغم أنهما أي الملامح - غير منتظمة، كانت بشرتها أجمل بشرة يمكن تخيلها، وكان قوامها جميلاً مكتمل الخلق متناسبا مع طولها، وكان يحيط بها جو من البساطة والتواضع ... مما جعلني أزداد تعلقاً بها (51). ولم يتحدث إليها، فقد كان كل منهما

ينتظر المبادأة من الآخر . لكنها كانت هي أيضا شغوفة به، ففي يومياتها وخطاباتها راحت - أحيانا - تحلل شخصيته: حدة روح... سخريّة شديدة... مخلص ومستقل... يقال إنه كافر (غير مؤمن) ربما كان هذا صحيحا وذلك من خلال الطبيعة العامة لعقليته. وقصيدته (يقصد Childe Harold) برهان كافٍ على أنه يستطيع أن يحس أحاسيس نبيلة، لكنه كان يداري طبيته أو بتعبير آخر لا يظهر أحاسيسه الطيبة(61). كانت هذه عبارة متدبّرة ذكية ربما راودها بعد ذلك سؤال هو كيف حاولت أن تنزع من هذا الرجل الحساس مشاعره - تلك المحاولة الشائقة إلا أنها خطيرة - وكيف حاولت أن تمنعه وهو أسد لندن - عن كل هؤلاء النسوة اللاتي انجذبن إليه بسبب شهرته الكبيرة؟

ومضت شهور اعتلت فيها الليدي كارولين لامب خشبة المسرح (المقصود دخلت حياته ثانية) لكن لهيب الحب برد بسبب القنّة الأيرلندية (المقصود أن البعد جفاء - أي أنها عندما ذهبت لأيرلندا تاركة حبيبها وفي لندن، راح لهيب شوقها وشوقه يبردان أو ينطفئان رويدا كلما زاد البعد)، وفي 31 سبتمبر سنة 2181 كتب بايرون إلى الليدي ميلبورن خطابا غريبا فرض على حياته اتجاها بدا وكأنه قدر محتوم: أخشى أن أقول إنني كنت ولا زلت وسأظل مفتونا... بتلك الأنسة التي لم أقل عنها كثيرا، لكنها لم تغب أبداً عن ناظري.. إنها تلك التي أريد أن أتزوجها لولا أن أمور مدام لامب هذه اقتحمت حياتي .. إنني أريد الزواج منها هي الأنسة ميلبانك Milbanke.. إنني لم أر أنني حظيت بتقديرٍي مثلما حظيت هي(71) وأخبرت الليدي ميلبورن - سعيدةً - ابنة أخيها باعتراف بايرون طالبة منها الموافقة. وفي 21 أكتوبر أرسلت الأنسة ميلبانك رداً جديراً بتاليران Talleyrand: اعتقاداً مني أنه لن يكون أبداً موضع حب شديد يجعلني سعيدة في حياتي الأسرية إلا أنني أعظمه حقه على نحو ما إن أنا - حتى ولو بشكل غير مباشر - جعلته يتأكد من مشاعره الحالية. فمن خلال ملاحظاتي المحدودة لمسلكه أراني أميل إلى أن سبب ذلك هو تزكيتك الشديدة له، وإنني أعزو موقفي هذا منه إلى قصور في مشاعري أكثر من أن أعزوه إلى طبيعته، ذلك أنني لا أميل إلى مبادلتة مشاعره. بعد هذا الذي قلت بأسف لما يسببه من آلام له فلا بد أن أترك علاقاتنا في المستقبل حسب تقديره وحكمه. وليس لدي سبب يحملني على التخلي عن معرفة ما يشرّفني فهو قادر على منحي كثيرا من المباحج والمسرات الفكرية إلا أنني أخشى خداعه بشكل غير مقصود(81).

وتلقى بايرون هذا الرّفص بتسامح فلم يكن في حاجة ماسة لهذه الليدي المتعلمة بقضة الضمير، ذلك أنه - بالفعل - كان يجد سلواه في أحضان كونتيسة أكسفورد، وفي أحضان الليدي فرانس Frances وبستر وفي الوقت نفسه في أحضان أخته غير الشقيقة أوغسطا لاى Augusta Leigh لقد مضى على زواجها الآن (3181) من ابن عمها الأول الكولونيل جورج لاى، ست سنوات وأنجبت منه ثلاثة أطفال. وفي هذه الأثناء أتت إلى لندن من منزلها في كمبرد جشير Cambridg shire لتطلب من بايرون مساعدة مالية لتعنيها في مواجهة الصعاب بعد الخسائر التي مني بها زوجها وغيابه الطويل في حلبات السباق ولم يستطيع بايرون أن يقدم لها الكثير لأن دخله كان متقللاً غير قائم على أساس وطيء. لكنه أمّتها بحواراته الممتعة واكتشف أنها امرأة (المعنى مفهوم). لقد كانت في الثلاثين ولم تكن أنثى متعجزة وكان ينقصها الجانب الفكري والثقافي كما كانت الحيوية تنقصها أيضا لكنها كانت عاطفية لينة العريكة وربما كانت متأثرة بشهرة أخيها، فكانت ميالة لإعطائه ما ترغبه، فطول بعاها عنه بالإضافة لإهمال زوجها جعلها في حالة خواء عاطفي. وكان بايرون قد نحى جانبا كل المحاذير الأخلاقية أو كل المحرمات التي لم تتفق مع عقله الشاب فتساءل متعجبا لم لا يتزوج أخته كما كان الفراغة يفعلون. وتشير الدلائل اللاحقة أنه الآن أو بعد ذلك أقام مع أخته أوجستا Augusta علاقات جنسية(91). وفي أغسطس سنة 3181 فكر في اصطحابها في رحلة في البحر المتوسط(02). لكن الخطة فشلت فأخذها إلى مبنى دير نيوسيد في شهر يناير، وعندما أنجبت بنتا في 51 أبريل كتب بايرون إلى الليدي ميلبورن أنه إذا كانت قرده، فلا بد أن يكون ذلك خطئي وكانت الطفلة نفسها - ميدورا لاى Medora Leigh - تعتقد أنها ابنته(12). وفي شهر مايو أرسل إلى أوجستا ثلاثة آلاف جنيه لدفع ديون زوجها. وفي يوليو كان معها في هاستنجز Hastings وفي شهر أغسطس أقامت معه في مبنى الدير.

وبينما راح يندمج أكثر وأكثر في علاقاته الجنسية مع أخته غير الشقيقة أرسلت له الأنسة ميلبانك خطابات أوجبت مشاعره حتى إنه كتب في يومياته عند حديثه عن الأول من ديسمبر سنة 3181: بالأمس وصلني خطاب رقيق من (أنابلا) وقد أرسلت لها خطابا رداً على خطابها. إن لصداقتنا وموقفنا وضع فريد غريب، وأي غرابة! - فبدون بارقة حب واحدة من كلينا... هي امرأة متفوقة جدا، عيوبها قليلة جدا بالنسبة لامرأة لها هذا النصيب الوافر من المال والثراء وفي العشرين من عمرها... فمن هي في وضعها وفي سنها قد لا تزيد عن طفلة. إنها شاعرة ورياضية ومتبايزيقية ومع ذلك - وفوق هذا - فهي لطيفة جدا وكريمة جدا وظريفة جدا، لا تدعي كثيرا. إن أحداً غيرها قد تدور رأسه إذا امتلك ما تملك وإن كان لديه عشر مزاياها(22).

وكانما كانت قد قرأت هذا التقدير لها (مع أنه لم يكتبه لها وإنما سجله في يومياته) فقد أصبحت خطاباتها في سنة 4181 تعج شوقا وأكدت له أن قلبها غير مشغول الآن بأحد وطلبت منه صورة له ووقعت خطاباتها مشفوعة بكلمة (مع حبي) أو (المحبة). وقد كتب لها تجاوبا مع خطاباتها الدافئة في 01 أغسطس: كنت دوما ولا زلت أحبك فأجابت

أنها لا تصلح للزواج فقد استغرقتها الفلسفة والشعر والتاريخ(32). وقد أجاب على تحديها بأن أرسل لها في 9 سبتمبر اقتراحاً آخر أقل عاطفية يدعوها لتواجهه في لعب الشطرنج فإن رفضت مرة أخرى فإنه سيخطط لمغادرة بريطانيا مع هوبهوس إلى إيطاليا. وقبلت مواجهته في (دور) شطرنج. لقد بدأ قدره ينحو به نحو الانضباط. لقد كان قد فقد الحرية التي اعتادها - حرية في الصداقة والجنس والأفكار أملاً في أن ينقذه الزواج من الروابط المتشابكة المعقدة والخطرة. لقد شرح لأصدقائه: لا بد بطبيعة الحال أن أصلح حالي. إنها إنسانة طيبة وقال لخطيبته أمل أن تكوني صالحة طيبة.. سأكون كما تريد(42) وقبلت مهمتها على أساس أنها مهمة يقوم بها الصالحون الأتقياء. وكتبت لإميلي ميلنر Milner في نحو الرابع من أكتوبر سنة 4181: إن شخصية لورد بايرون الحقة لا مجال للبحث عن نظير لها في هذا العالم، وكل ما يمكننا هو البحث عن شخصية أقرب ما تكون إلى شخصيته. نبحث عن التعس الذي أساءه وعن البائس الذي ساعده وعن أتباعه الذين كان لهم نعم السيد. أما عن قنوطه فأخشى أن أكون مسؤولة عنه طوال العامين الأخيرين. إنني أحس باطمئنان عميق - فأنا أثق في الله وفي الإنسان(52).

وعندما حان الوقت ذهب بايرون إلى أسرة أنابلا في سيهام (بالقرب من درهام) لطلب الزواج منها خائفة شجاعته فعرج في الطريق على منزل أوجستا وهناك كتب خطاباً إلى خطيبته معلناً انسحابه من مشروع الارتباط بها لكن أوجستا حثته على تمزيق الخطاب(62) وأن يقبل الزواج كرباط منقذ له. وفي 92 أكتوبر تابع طريقه إلى سيهام وبصحبه هوبهوس الذي كتب في يومياته: لم يكن متعجلاً. لم أر عاشقاً أقل تسرعاً منه ورحبت أسرة العروس به وأظهر هو من الصفات الطيبة ما جعلهم مسرورين وفي الثاني من شهر يناير 5181 ذهب معها إلى مذبح الكنيسة (لإتمام الزواج).

صفحة رقم : 14670

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> محنة الزواج

4- محنة الزواج

بايرون 5181 - 6181

وبعد إتمام طقوس الزواج ركبا في يوم من أيام الشتاء العاصية متجهين إلى (هالنابي هول) في ضواحي درهام لقضاء شهر العسل. لقد كان عمره الآن يقترب من السابعة والعشرين، وكانت هي في الثالثة والعشرين. وقضى ثماني سنوات أو أكثر يكاد لا يكف عن اللقاءات الجنسية غير الشرعية وغير المسؤولة ولما كانت معاشرته الجنسية ترتبط بالحب. وعلى وفق ما ذكره مور Moore عن فقرة قرأها في مذكرات بايرون (تم إحراقها في عام 4281) فإن الزوج لم ينتظر حلول الليل، وإنما طرح الليدي بايرون على الأريكة قبل تناول العشاء في يوم الزواج نفسه(72) وبعد تناول العشاء إن جاز لنا أن نتق في ذاكرته سألها إن كانت تتوي أن تنام معه في السرير نفسه، وأضاف قائلاً إنني أكره النوم مع أي امرأة لكن إن اخترت ذلك فسأفعل(82) وكيف وضعه مع طبيعتها (المعنى غير عاداته ونام معها في

السرير نفسه) لكنه أخبر هوبهوس أنه في تلك الليلة الأولى حاصرته نوبة مفاجئة من الانقباض وغادر السرير وفي اليوم التالي (كما زعمت الزوجة) قابلني عازفا عني وتمتم بكلمات ساخرة لاذعة لقد نفذ القضاء، وكان ما كان (92) ووصله خطاب من أوجستا لاي فقراً على أنابلا استهلاله: يا أعز خلق الله وأفضلهم وأولهم (03) وعلى وفق ما روته الزوجة فإنه كان يشكو قائلاً إنه إذا كنت تزوجته قبل ذلك بعامين لكنت قد أنقذته من علاقة لا يستطيع هو نفسه أن يسامح نفسه عليها - لقد قال إنه يستطيع أن يخبرني لكن لا يجوز لأن هذا سر شخص آخر... وتساءلت إذا كانت أوجستا تعرف هذه العلاقة، فبدأ مرعوباً لتساؤلي (13) وعلى أية حال فيبدو أن أنابلا لم تكن تشك في أوجستا وقتها. وبعد ثلاثة أسابيع في (هالنابي هول) عاد العروسان وهما لا يزالان في شهر العسل إلى (سيهام) ليقبلا مع أسرة (ميلبانك). وكيف بايرون نفسه وأصبح أليفا لكل من حوله بمن فيهم زوجته. وبعد ستة أسابيع بدأ يحن لمباهج لندن وأصوات أصدقائه. ووافقت (أنابلا). وفي لندن أقاما في مقر فاخر في 31 (بيكادلي تراس) وبعد يوم من وصولهما أتى (هوبهوس) واستعاد بايرون روحه الفكيه. تروي زوجته أنه طوال عشرة أيام كان رقيقاً رقة لم أعهدا فيه أبداً من قبل (23) وربما عرفنا بالجميل أو خوفاً من الوحدة دعت أوجستا لقضاء بعض الوقت معها. وبالفعل أتت أوجستا في أبريل سنة 5181 وظلت مقيمة معها حتى يونيو. وفي العشرين من هذا الشهر زار جورج تكنور المؤرخ الأمريكي الذي تخصص في تاريخ الأدب الإسباني عش الزوجية الجديد وأثنى على مسلك بايرون. وفي هذه المناسبة دخل عم (أنابلا) مبتهجا بأخبار يحملها مفادها أن نابليون قد هزم لئوه في واترلو، فقال بايرون لقد كدت أموت كمداً لذلك.

وواصل بايرون كتابة الشعر. وفي أبريل 5181 اشترك مع مؤلفين يهوديين في إصدار (ألحان عبرية Hebrew Melodies) وقد ألف بايرون كلماتها ووضع اليهوديان ألحانها. وبيع منها عشرة آلاف نسخة رغم أن سعر النسخة كان جنياً إنجليزيا، وأصدر الناشر مري Murry طبعة بالقصائد وحدها (دون الألحان الموسيقية) لاقت أيضاً رواجاً كبيراً. وفي أكتوبر أنهى بايرون (حصار كورنيث The Seige of Cornith)، وقدمت الليدي بايرون نسخة واضحة للطابع. لقد قال بايرون لليدي بليسنجتون Blessington: إن (أنابلا) على درجة كبيرة من الانضباط والتحكم في النفس بشكل لم أر له مثيلاً. وهذا يؤثر في سلبا (33). وكان لديه بعض العذر لنزقه وسرعة استنارته. وقد استأجر بيتاً مفروشا غاليا ليقم فيه مع زوجته وراح ينفق ببذخ في إعادة تأنيته - كل هذا لأنه افترض أن الثمن الذي سيتقاضاه من بيع بيته في نيوستيدي Newstead Abbey سيكون مرتفعاً، لكن الأسعار تدنت في هذه الأثناء ووجد بايرون نفسه محاصراً بكل ما تعنيه الكلمة. وفي نوفمبر سنة 5181 دخل مساعد المأمور البيت المؤث وأحتجز بعض الأثاث وهدد بالمبيت في البيت إلى أن يدفع بايرون ما عليه من ديون (يسدد فواتيره). وشعر بايرون أن والدي (أنابلا) الثريين لا بد أن يساهما مساهمة أكثر كرماً في تكاليف منزل الزوجية الجديد.

وقد طبعت متاعبه أثراً واضحاً بسبب ما سببته من مرارة وكآبة. لقد قال لزوجته إذا كانت هناك امرأة قادرة على جعل الزواج أمراً محتملاً لي، فهو أنت. أعتقد أنك ستظلين تحببني حتى أضربك وعندما عبّرت عن أمليها ويقينها أنه سيرف كيف يحبها، راح يكرر هذا متأخر جداً الآن. لو أنك تزوجتني منذ عامين مضياً... لكن قدرتي هو أن أحطم كل من أقترب منه (43). وقبل بايرون وظيفة في الهيئة الحكومية لمسرح دروري لين Drury Lane Theatre فاستغرقه الشراب مع شريكات وآخرون، وكون علاقة جنسية مع إحدى الممثلات (53). ودعت (أنابلا) أخته غير الشقيقة (أوجستا) للقدوم لمعاونتها على ضبطه. وفي 51 نوفمبر 5181 قدمت (أوجستا) ووبخت أباها، ووجدت نفسها هي و (أنابلا) ضحايا حنقه وغضبه وحننت (أوجستا) كثيراً لحال زوجة أخيها (63).

وخلال أصعب هذه الشهور حملت الليدي بايرون وفي العاشر من ديسمبر 5181 وضعت أنثى وأسماها (أوجستا أدا) وأصبح اسمها بعد ذلك (أدا) وفرح بايرون وسعد بالطفلة وبالتالي بزوجته. لقد قال لهوبهوس في هذا الشهر إن زوجتي كاملة.. إنها الكمال نفسه. إنها أفضل مخلوق يتنفس.. لكن نفسي ترفض الزواج (73) وسرعان ما عاودته نوبات الغضب بعد مولد (أدا) وفي إحدى نوبات غضبه قذف في نار المدفأة ساعة ثمينة كانت معه منذ صباه ثم كسرها بالقضيب المعدني الذي يحرك به وقود المدفأة (83)، وفي 3 يناير 6181 - على وفق ما قالت (أنابلا) لأبيها - دخل بايرون غرفتها وتحدث بعنف ظاهر عن علاقته الجنسية بإحدى نساء المسرح. وفي 8 يناير استدعت الدكتور مئى بيلي Matthew Baillie لفحص بايرون، فأتى وفحص الشاعر الحبيب، ومال إلى وصف الأفيون له. وكان من الواضح أن بايرون موافق على ضرورة ذهاب (أنابلا) مع طفلها لتقيم مع أمها الليدي (ميلبانك) وكان اسم أسرتها قبل زواجها هو نول Noel - المقيمة في عقارات نول Noel في كيركبي Kirkby في ليسسترشير وفي بكور، الخامس عشر من شهر يناير غادرت مع (أدا) بينما كان بايرون لا يزال نائماً. وفي ووبرن Woburn توقفت لترسل له تحذيراً وعظياً، جديراً بالذكر:

بايرون الأعز: الطفلة على مايرام وهي أفضل المسافرين. آمال أن تكون صالحاً good، وتذكر دعواتي وصلواتي ووصاياي لا تستسلم لحرفة الشعر البغيضة ولا للبراندي (نوع من الخمور) ولا لأي شيء غير شرعي أو شخص لا

يكون على جادة الطريق. رغم أنك غير مطيع فدعني أسمع أنك أصبحت مطيعاً وأنا في كيركبي Kirkby ابنتنا (أدا) تحبك. وكذلك أنا. بيب (93Pip)

وكتبت له من (كيركبي) مرة أخرى كتابات فكهة وعاطفية ذاكرة له أن والديها يتطلعان لرؤيته. وفي اليوم نفسه كتبت لأوجستا (التي كانت لاتزال تقيم مع بايرون) تتصحا بتخفيف اللودانيوم (مستحضر أفيوني) الذي يتناوله بايرون بثلاثة أرباعه ماء. وبالتدريج أخبرت (أنابلا) والديها كيف كان بايرون يعاملها - ذلك من وجهة نظرها، فصدما وأصرا على انفصالها عنه نهائياً، فاندفعت الليدي (ميلبانك) إلى لندن لمناقشة الطبيب الذي كان يراقب سلوك بايرون، فإذا كان خبل (جنون) بايرون محققاً لأمكن إبطال زواجه دون ضرورة الحصول على موافقته. وكتب الطبيب تقريراً ذكر فيه أنه لا يرى علامات الجنون على الشاعر لكنه سمع أنه كانت تتنابه حالات هياج عصبي وأرسلت (أنابلا) تحذيراً لأُمها بالأ تَدْخُل (أوجستا لاي) في الأمر لأن (أوجستا) هي أصدق صديقاتي.. وأخشى كثيراً أن تترك أن كثيرين يؤيدون الانفصال عن بايرون، وسيكون هذا قاسياً بالنسبة إليها(04).

وفي الثاني من فبراير سنة 6181 راسل السير (الف ميلبانك) - والد (أنابلا) - بايرون طالباً منه الانفصال عن ابنته بشكل ودي، فأجابها بايرون متودداً ذاكراً أنه لا يرى سبباً لأن تغير زوجة ظلت ترسل إلى وقت قريب رسائل ملؤها الحب موقفها هذا التغيير الكامل. وكتب إلى (أنابلا) متسائلاً هل هي حقاً موافقة بكامل إرادتها على موقف أبيها. وأصبحت في حالة أسي ومحنة بسبب هذا الخطاب لكن والديها منعها من كتابة خطاب ترد فيه عليه. وكتبت (أوجستا) إليها طالبة إعادة النظر في الأمر، فأجابتها (أنابلا): إنني فقط - أذكر اللورد بايرون بمقته الشديد الذي يفوق الحد للحياة الزوجية. وبرغبته وتصميمه. اللذين عبر عنهما - حتى منذ بداية الزواج - على التخلص من هذا الرباط الذي كان يرى فيه قيدياً لا يحتمل (14) وفي 21 فبراير ذهب (هوبهوس) ليرى بايرون. وفي الطريق سمع بعض الإشاعات تدور في الأوساط الاجتماعية والأدبية في لندن مفادها عدم إخلاص بايرون لزوجته وفيما يلي نُتَقَة مما كتبه (هوبهوس) في مذكراته عن هذا اليوم: رأيت السيدة (لاي) وجورج بايرون - ابن عم الشاعر - وعلمت منهما ما أخشى أن يكون حقيقة وهو أن بايرون مذنب لطغيانه الشديد، كثير التهديد والوعيد دائم الغضب والثورة، مهمل لزوجته، بل وألحق بها أذى حقيقياً فكان على سبيل المثال يخبرها بأنه كان يعيش مع امرأة أخرى... لقد كان يغلق الأبواب، ويلوح بالمسدسات... وهي أمور تروىها جميعاً الليدي بايرون تؤكد إنه مدان (مذنب) - لكنهم يبررونه - كيف؟ بقولهم إنه مجنون... بينما سمعت هذه الأمور أنت السيدة (لاي) وراحت تقول إن أباها يصرخ بمرارة في غرفة النوم... إنه بانس... بانس حقاً.

الآن وجدت من واجبي أن أخبر بايرون أنني غيرت رأيي... وعندما أخبرته بما سمعته في الشوارع في هذا اليوم ذهلت - لقد كان قد سمع أنه متهم بالقسوة والإغراق في الشراب وعدم الإخلاص لزوجته. لقد ذكرت له كثيراً مما سمعته في الصباح - فاهتاج هياجاً هائلاً وقال إنه محطم وإنه سيحطم رأس نفسه... وكان أحياناً يقول: وحتى لو أحببتي ذات مرة، وفي أوقات أخرى كان يقول إنه سعيد للتخلص من مثل هذه المرأة - وقال: لو أنني غادرت البلاد لانفصلت عنها فوراً(24).

وفي نحو هذه الفترة تلقى بايرون فاتورة مطلوباً سددها بمبلغ ألفي جنيه ثمناً للمركبة الكبيرة التي كان قد اشتراها له ولزوجته. ولم يستطع تسديد الدين فلم يكن معه إلا 051 جنيهها، ومع هذا فإنه في نحو 61 فبراير 6181 أرسل مائة جنيه إلى الشاعر كولردج وهذا دليل على كرمه الطائش الذي تتسم به شخصيته.

وفي 22 فبراير أنت (أنابلا) إلى لندن وذكرت للدكتور (ستيفن لوشينجتون) أن الانفصال عن بايرون أصبح ضرورياً بناء على تقريره عن حالة بايرون. وفي هذا الأسبوع سرت إشاعات ذكرت السيدة لاي وبايرون المتهم باللواط، أو العلاقة الجنسية غير السوية، وهنا أدرك بايرون أن الاستمرار في رفضه الانفصال بهدوء عن زوجته قد يؤدي إلى إجراء قضائي تتعرض فيه (أوجستا) لتدمير سمعتها. وفي 9 مارس وافق على الانفصال وعرض التخلي عن كل حقوقه في ثروة زوجته التي كانت تتيح للزوجين ألف جنيه في السنة. لكنها وافقت على حصوله على هذا المبلغ سنوياً ووعدت علانية بتجديد صداقتها مع (أوجستا) وأوفت بوعداها، كما أنها لم تطلب الطلاق. وسرعان ما ألف بعد الانفصال قصيدة أرسلها إليها:

Fare thee well, and if for ever -

Still fare thee well -

وواساه في إخفاق زواجه جماعة من أصدقائه أتوا إليه هم: هوبهوس، سكروب ديفز، لاي هنت، صامويل روجرز، لورد هولاند، بنيامين كونستانت. وحملت له ربيبة جودون (ابنة زوجة جودون) - كلير Claire كلمة إعجاب من الشاعر المنافس بيرسي شيلي Shelley وعرضت نفسها عليه لتكون بلسماً لجرأحه. وقبل عرضها مفتتحاً بذلك سلسلة جديدة من الأحران. وفي 52 أبريل 6181 أبحر مع ثلاثة من الخدم وطبيبه الخاص قاصداً أوستند Ostend ولم يبر إنجلترا بعد ذلك.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> شباب شيلي

5- شباب شيلي

1181 - 2971

كان بيرسي Percy معجباً بجده - السير بيثي شيلي Byshe Shelley لأنه تصرف بشكل جيد جداً مع زوجاته الثلاث وأكثر من هذا فقد كان ملحداً كامل الإلحاد وشيد كل آماله على إبطال العقيدة (المفهوم المسيحي) (34) واتخذ بيثي اسمه غير المعتاد بين المسيحيين من اسم جدته لأمه قبل أن تتزوج أي قبل أن تحمل اسم زوجها. وكان له شجرة نسب طويلة (مثل بايرون) تعود إلى أيام الفتح النورماندي Norman Conquest وفي هذه السلالة المميزة تم إعدام واحد لتأييده ريتشارد الثاني، وتم إعدام آخر لاشتراكه في مؤامرة لقتل إليزابيث الأولى. وقد أغوى بيثي زوجته الثانية فهرب معها بعد أن تركت زوجها، وماتت عنده، فأغوى امرأة أخرى وهرب معها، وكانت تعود في نسبها إلى السير فيليب سدني وقد تضخمت ثروتها فزادت ثروة زوجها فساعدته ذلك على الوصول إلى البارونية في سنة 6081، وعاش إلى أن بلغ الثالثة والثمانين من عمره مما جعله عبناً على أبنائه الذين كان أكبرهم (تيموثي شيلي) الذي تخرج في أكسفورد وأصبح عضواً في البرلمان حيث اتخذ اتجاه حزب الهويج (الأحرار). وفي سنة 1971 تزوج من إليزابيث بلفولد ذات الجمال الرائع والطباع الطيبة وشيء من اللادرية (44) agnosticism وقد ظهرت هذه الصفات جميعاً مرة أخرى في ابنها الأكبر.

وُلد بيرسي بيثي شيلي في 4 أغسطس 2971 في أحد عقارات الأسرة المعروف باسم فيلد بلاس (الترجمة الحرفية تعني مكان الحقل) - وهو بيت رحب بالقرب من (هورشام) بالقرب من سوزكس Sussex. وأنجبت أمه بعده أربع بنات وبعد ذلك بمدة طويلة أنجبت له أخاً. ونشأ بيرسي بين أخواته فأخذ منهن شيئاً من الرقة والخيال وسرعة الاستئارة، وكون مع أخته الكبرى علاقة حميمة. وفي (إتون Eton) عانى كرها شديداً بسبب إلزامه بخدمة تلاميذ أكبر منه، وعزف عن كل أنواع الرياضة إلا التجديف ومن سوء الطالع أنه لم يتعلم السباحة أبداً، وسرعان ما نبغ في اللغة اللاتينية فراح يساعد زملاءه في دروسهم فرد لهم بذلك الكيل بتنمهم له في مجالات أخرى. وكانت قراءاته الإضافية (الخارجة عن المقرر الدراسي) تضم كثيراً من الحكايات والأمور الغامضة والمرعبة، لكنه أيضاً استساغ مادية لوكريتيوس Lucretius في كتابه De rerum natura وكتاب بليني في العلوم - التاريخ الطبيعي Natural History وتقاؤل كوندرسية Condorcet في كتابه Sketch of a tableau of the Progress of Hnman Mind وكتاب جودون الذي يفلسف الفوضوية (إلغاء الحكومة) والذي جعل له عنواناً هو (البحث عن العدالة السياسية)

Enquiry Concerning Political Justice) لقد كتب في وقت لاحق أن هذا الكتاب قد فتح عقلي على آراء جديدة ورحبة. لقد أثر في شخصيتي. لقد أصبحت بعد دراسته بإمعان، أفضل وأكثر حكمة... لقد أمنت أن علي واجبات لا بد أن أؤديها(54).

وخلال الإجازة وقع في حب قريبة لم تتجاوز ستة عشر ربيعاً. إنها هاريت جروف Harriet Grove التي كانت تزور أسرته في (فيلد بلاس) كثيراً. وبدأ يتبادلان الرسائل الحارة حتى إنهما في سنة 9081 تعاهدا على الإخلاص الأبدي. لكنه اعترف لها بشكه في الرب، فأظهرت خطابه المنطوي على منحنى لا أدري لأبيها فنصحها ألا ترتبط به (أن تتركه بلا هدف) وعندما نقلت هاريت في يناير سنة 1181 تعهدا بالإخلاص الأبدي له إلى وليم هليز، كتب شيلي لصديقه توماس جيفرسون هوج خطاباً جديراً بأن يكون على لسان أبطال بايرون القساة. إنها لم تعد لي. إنها تمقتني مقتاً شديداً كربوني (مؤمن بالله دون الإيمان بأديان منزلة deist) مع أنها كانت تؤمن الإيمان نفسه قبل ذلك. أه! أه! أيتها الديانة المسيحية كيف أغفر هذا الاضطهاد القاسي، عسى أن يدمرنى الرب (إن كان للرب وجود) .. هل الانتحار خطأ؟ لقد نمت ومعى مسدس محشو وبعض السم ليلة البارحة، لكنني لم أمت (64). وفي هذه الأثناء (0181) كان قد انتقل من (إتون Eton) إلى الكلية الجامعية في أكسفورد. وتجنب هناك الإفراط في العلاقات الجنسية - فيما عدا ليلة أو ليلتين مارس فيهما الجنس على سبيل التجريب(74)، وكانت العلاقات الجنسية تبدو لمعظم الطلبة الذين لم يتخرجوا بعد أمراً لازماً دالاً على الرجولة. وكان يستمتع بين الحين والحين إلى محاضرات يلقيها الأساتذة والعمداء الذين لم يكونوا يتوقفون عليه في اللاتينية واليونانية سوى بخوطة واحدة وسرعان ما راح يؤلف الشعر باللاتينية ولم ينس أبداً إيسخيلوس. وكان مقر إقامته غاصاً بالكتب المبعثرة والمخطوطات والتعويذات غير الواضحة الواردة في كتب العلم القديمة (في الكتب العلمية قبل نضوجها). لقد كاد يملأ غرفته عند إجرائه لإحدى التجارب لقد كان يؤمن بقدرة العلم على صياغة الكون والإنسان. ولم يكن يهتم بالتاريخ فقد كان يؤمن بما قاله فولتير وجيبون من أن التاريخ هو في الأساس سجل لجرائم البشر وغيابهم، ومع هذا فقد قرأ كتابات هذين المؤلفين المتشككين بشغف. وقد ظن أنه وجد حلا لسر الكون عند لوكرتيوس والمتقنين الآخرين، فحركة الذرات لا بد أن تحكمها قوانين، ثم اكتشف سبينوزا وفسره شارحاً أنه يؤمن بجوهريين وحيدتين: المادة والعقل (النفس) باعتبارهما جانبين لجوهر مقدس واحد - فشيء كالعقل (النفس) يسري في المادة، وشيء من المادة يغطي العقل (النفس). لقد كان يقرأ بشغف، وقد وصفه رفيق دراسته هوج بأن كتاباً في يده طوال الوقت - إنه يقرأ .. وهو جالس إلى المائدة، وهو في السرير، بل وفي أثناء المشي خاصة ... لم يكن هذا في أكسفورد فقط، وإنما في الطريق السريعة بل وفي أكثر مناطق لندن ازدحاماً... لم تقع عيناى على من يلتهم الصفحات التهاماً بشرائه أكثر منه(84). وكان يعتبر تناول الطعام مضيقاً للوقت إذا لم يكن مصحوباً بالقراءة، وكان يفضل أبسط أنواع الطعام، ولم يكن قد أصبح نباتياً بعد ومع هذا فقد كانت وجبة من الخبز والزبيب تبدو له متوازنة. وعلى أية حال فإنه كان مولعاً بما هو حلو، وكان يفضل عسل النحل على خبز الزنجبيل وكان يحب أن يخلط ماء الشرب بالنيبيذ(94). وقد وصف في أيام أكسفورد بأنه طويل نحيل، حزمة منحنية من الأعصاب والنظريات والبراهين، غير مهتم بملبسه وغير مرجل لشعره، يترك قميصه مفتوحاً من عند الرقبة يكاد يكون وجهه ذا ملامح أنثوية. عيناها متألقتان لكنهما غير مستقرتين وطباعه حادة لكنها ودودة، وكان كشاعر ذا أعصاب حساسة، دافئ المشاعر، مستسلماً للأفكار الغامضة التي لم تتبلور بعد لكنه كان يفر من التاريخ. وكان كالشعراء يركز على الحرية الفردية ويشك في القيود الاجتماعية وقد ذكر هوج Hogg أن الليالي في غرفة شيلي كانت رائعة عندما كانا يقرآن الشعر والفلسفة معاً ويدحضان القوانين والعقائد ويظلمان يتبادلان الأفكار حتى الساعة الثانية صباحاً ويتفقان - قبل كل شيء - على مسألة أساسية هي أن الرب God لا وجود له. وقد أعد المتمردان الشابان مؤلفاً عن هذا الموضوع جعلاً له عنواناً هو (ضرورة الإلحاد The necessity of Atheism) وكان هذا المصطلح Atheism (تستخدم القواميس المتداولة إنجليزي عربي، كلمه إلحاد كمعنى لهذا المصطلح)، وكان هذا المصطلح ممنوع الاستخدام في المجتمع المهدب، فقد كان الشكاكون المهذبون يطلقون على أنفسهم deists أي الربانيين أو الربوبيين أي المؤمنين بوجود إله مع عدم إيمانهم بالأديان (المفهوم هنا كما هو واضح عدم إيمانهم بالمسيحية) وكانوا يتحدثون باحترام عن الله God كموجود لا يمكن معرفة طبيعته، كموجود في الطبيعة وهو حياتها - أي الطبيعة - والروح السارية فيها، وهو موجود غير مشخص Spirit (روحاني). وقد اعتنق شيلي في وقت لاحق أفكارهم، لكن عند صدور الكتاب الذي نتحدث عنه كان شيلي وزميله في مرحلة الشباب وكانا لا يقدران عواقب الأمور فضلاً استخدام لفظ Atheists ليطلقاه على نفسيهما متحدين بذلك كل ما هو طابو taboo (أي محرم) ولجذب الانتباه. وقد كانت الحجج التي ساقها هي أنه لا الحواس ولا العقل ولا التاريخ تثبت وجود الرب فالحواس لا تدلنا إلا على المادة في حركتها على وفق قانون، والعقل يرفض الفكرة - فكرة وجود خالق واحد خلق الكون من لا شيء. والتاريخ لا يقدم مثلاً واحداً لفعل إلهي ولا لشخص إلهي ظهر على الأرض. ولم يوقع المؤلفان باسميهما لكنهما نسبا الكتاب على صفحة العنوان إلى ملحد، ألد لنقص البراهين على وجود الرب.

وحتوى مطبوع جامعة أكسفورد وسيتي هيرالد Oxford university and City Herald إعلانا عن هذا الكتيب في 9 فبراير سنة 1181 وظهر الكتيب فعلا في 31 فبراير، ووضع شيلي على الفور نسخا منه في مدخل مكتبة بيع الكتب في أكسفورد، ورأه جون ووكر Walker الإكليريكي الموقر فطلب من البائع تدمير كل النسخ وبالفعل تم هذا. وفي هذه الأثناء أرسل شيلي نسخاً إلى كثير من الأساقفة وكثير من الشخصيات المرموقة في الجامعة (05). وأحضر واحد من هؤلاء الكتيب (النشرة) إلى عميد الكلية الجامعية وأسألتها فاستدعوا شيلي للمثول أمامهم في 52 مارس، فمثل أمامهم فسألوه عن مؤلف الكتيب فرفض الإجابة ودعا لحرية الفكر وحرية الكتابة، فطلبوا منه مغادرة أكسفورد في الصباح التالي، وعندما سمع هوج Hogg بذلك اعترف أنه شاركه في تأليف الكتيب وطلب أن يطبقوا عليه العقاب نفسه الذي طبقوه على شيلي، وقد كان. وبعد الظهر ظهر في نشرة الكلية أن شيلي، وهوج قد فصلا لتمردهما برفضهما الإجابة عن بعض الأسئلة الموجهة إليهما وأرسل العميد - بشكل شخصي إلى شيلي ذكرا له أنه إذا تعذر عليه الرحيل (مغادرة أكسفورد) خلال هذه الفترة الوجيزة فإنه - أي العميد - يمكنه السماح له بالبقاء لأيام قليلة إن قدم طلبا بذلك، وتجاهل شيلي الرسالة وغادر ومعه هوج في 62 مارس في أعلى مركبة قاصدين لندن.

صفحة رقم : 14672

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> التطور الأول

6- التطور الأول

شيلي 1181 - 2181

استأجر شيلي وهوج مسكنا في 51 شارع بولاند Poland st وأتى والد شيلي - الذي كان في لندن لحضور جلسات البرلمان - إليهما وطلب منهما التراجع عن آرائهما فلما وجد ابنه متمسكا بموقفه أمره بالانفصال عن هوج لما له من تأثير شريك عليه وأن يعود إلى بيت الأسرة ويمكن هناك في رعاية شخص سيعينه الأب وعليه الاستماع لتعاليمه وتوجيهاته، ورفض شيلي فتركهما الأب غاضبا يائسا. لقد اعترف بقدرات شيلي وكان يتطلع لتبوءه مكانا مرموقاً في البرلمان. وترك هوج لندن قاصدا يورك لدراسة القانون وسرعان ما نفذ ما كان مع شيلي من مال وراحت أخواته اللاتي كن يدرسن في مدرسة مسز فننج Mrs. Fenning School s في محافظة (دائرة) كلافام Clapham يرسلن له ما يحصلن عليه من مصروف. وفي شهر مايو رق قلب أبيه فسمح له بمثني جنيه استرليني في العام. وكان من بين زميلات أخواته في (كلافام) فتاة في السادسة عشرة من عمرها هي هاريت وستبروك، وهي ابنة مالك ثري لحانة في ميدان جروسفينور. وعندما التقت ببيرسي فتنت بنسبه وبراعته في اللغة واتساع دائرة دراساته وسحر آرائه الفاتنة، وسرعان ما أمنت مثله أن الرب قد مات وأن القوانين إزعاج غير ضروري. وقرأت بشغف النصوص الثائرة التي أعارها إياها، والكلاسيات المترجمة التي تعكس حضارة رائعة، لم تسمع أبداً أن المسيح أتى بمثلها. ودعته لبيتها. وكتب شيلي إلى هوج في مايو سنة 1181 إنني أقضي معظم وقتي في منزل الأنسة وستبروك إنها تقرأ المعجم الفلسفي لفولتير (15) Dictionnaire Philosophique وعندما اكتشفت زميلاتها أن صديقها ملحد

atheist قاطعتها باعتبارها قد شمت بالفعل ربح جهنم وعندما ضبط معها خطاب منه تم فصلها. وفي بدايات شهر أغسطس كتب شيلي إلى هوج: أبوها يضطهدها بشكل مرعب لإجبارها على الذهاب إلى المدرسة لقد طلبت نصيحتي، فنصحتها بالمقاومة وحاولت في الوقت نفسه أن أطوع السيد وستبروك، لكن دون جدوى! ونتيجة نصيحتي لها جعلت حمايتها على كاهلي(25) ثم تناول نتائج هذا فقال في خطابه لقد أصبحت أخيراً مرتبطة بي وخائفة ألا أبادلها موقعها... من غير الممكن أن أبتعد عن إنسانة لها مثل هذه المشاعر، لقد قررت أن أربط مصيري بمصيرها(35) ومن الواضح أنه عرض عليها الارتباط بعلاقات حب حرة لكنها رفضت فلما اقترح عليها الزواج وافقت لكن والدها رفض. وفي 52 أغسطس هرب العاشقان واستقلتهما مركبة إلى أدنبره Edinburgh وتزوجا على وفق طقوس الكنيسة الإسكتلندية في 82 أغسطس 1181 واستسلم أبوها للأمر الواقع وخصص لها مبلغاً سنوياً مقداره 002 جنيه. وأنت أختها الكبرى إليزا Eliza لتعيش معها في يورك (اعترف شيلي أنه كان صفر اليمين) وكان شيلي ينفق من ميزانية الأسرة، وذكر أن إليزا كانت تحتفظ بالميزانية المشتركة في أحد جيوبها لتخرج منها عند الطلب(45) ولم يكن شيلي سعيداً تماماً بالإشراف المالي لإليزا لكنه كان يجد عزاءه في مرونة هاريت وانصياعها له. لقد كتب في وقت لاحق إلى جودون: إن زوجتي تشاركني أفكارى ومشاعري(55).

ومكثت هاريت وإليزا - غير بعيدتين عن هوج - في يورك، بينما ذهب شيلي إلى لندن ليلين من عريكة والده الذي كان قد أوقف دعمه المالي له بعد أن سمع بزواجه من هاريت، وبعد أن تودد الشاعر إليه عاد فسمح به لكنه منعه (أي منع ابنه) من دخول منزل الأسرة، وعاد شيلي إلى يورك ووجد أن صديقه العزيز هوج كان قد حاول اغتصاب زوجته هاريت. إنها لم تقل لزوجها شيئاً عن هذه المحاولة لكن هوج هو الذي اعترف وطلب الغفران ورحل. وفي نوفمبر غادر الثلاثة (الشاعر وإليزا وهاريت) إلى كزويك Keswick حيث تعرف شيلي على الشاعر سوئي Southey (ترد أحياناً في الكتابات العربية: صني) الذي كتب في 4 يناير 2181 يوجد هنا رجل هو مثل قرين لي. إنه كشبحي. إنه يشبهني تماماً عندما كنت في سنة 4971.. لقد قلت له إن الفرق الوحيد بيننا أنه في التاسعة عشرة من عمره وأنا في السابعة والثلاثين(65) ووجد شيلي أن سوئي شخص لطيف وكريم وراح يقرأ شعره بلذة. وبعد ذلك بأيام قلنل كتب: إن سوئي يفكر بطريقة أسمى من الطريقة التي أفكر بها.. ولا بد أن أعترف أنني عندما أراه في أسرته يبدو أكثر ما يكون سناء وبهاء... كيف أزعج العالم وأفسدته العادات، إن قلبي يتمزق عندما أفكر فيما آل إليه(75).

ووجد بعض التسلية والمتعة عند قراءة كتاب جودون (العدالة السياسية). وعندما علم أن هذا المؤلف الذي كان ذات يوم فيلسوفاً مشهوراً أصبح يعيش الآن فقيراً في الظل، كتب خطاب إعجاب: لقد سجلت اسمك في قائمة العظماء الذين وافتهم المنية. لقد شعرت بالأسف لأن عظمة وجودك قد فارقت عالماً الأرضي. ولم يكن الأمر كذلك. فأنت ستظل حياً وإنني أعتقد جازماً أنك تخطط لرفاهية الجنس البشري. إنني لم أدخل إلا لتوي في معترك التفاعلات البشرية ومع هذا فمشاعري وتفكيري تواصل مع مشاعرك وأفكارك.. إنني شاب وشغوف بقضايا الفلسفة والحقيقة.. عندما أتى إلى لندن سأبحث عنك. إنني مقتنع أنني أستطيع المثل أمامك مع أنني غير جدير بصدقتك.

وداعاً. سأكون منتوقاً لتلقي إجابتك(85). وفقد رد جودون، لكن يمكننا الحكم على فحواه من خطابه المؤرخ في مارس 2181: على قدر ما أستطيع التغلغل في شخصيتك فإنني مقتنع أن فيك جملة من الصفات الحميدة بشكل غير عادي، وإن كانت لا تخلو من بعض العيوب. وهذه العيوب تحدث دوماً وبشكل أساسي نتيجة كونك لازلت صغيراً جداً، وأنت لست مقتنعاً قناعة كافية بهذا ونصح شيلي ألا ينشركل ما يعن له، وإن نشر شيئاً من هذا النوع ألا يضع اسمه عليه فحياة الإنسان الذي ينشر ويوقع ستكون سلسلة من التراجعات(95).

وكان شيلي بالفعل يطبق هذا بالاحتفاظ بمخطوطات مؤلفاته أو يطبعها طبعات خاصة (محدودة) وأول تأليفه المهمة (Queen Mab) كنت قد كتبتها وأنا في الثامنة عشرة من عمري - وأجرؤ على القول أنني كتبتها بحماس كاف وروح عالية - لكنني... لم أكن أنوي نشرها(06) وفي سنة 0181 كان لا يزال مولعاً بالمتفقيين والمفكرين الفرنسيين لقد قدم لقصيدته (Queen Mab) بشعار فولتير الغاضب Ecrasez l'infame! واستعار أفكاراً كثيرة من كتاب فولني (Volney Les Ruines, ou Meditations sur les revolutions des Empires) (1971) في مطلع القصيدة الأنف ذكرها نجد يانث Ianthe العذراء نائمة. وفي الحلم نجد الملكة ماب (وهي جنية) تهبط عليها من السماء وتصعد بها إلى النجوم وتطلب منها أن تتأمل من هذا المنظور ماضي الأرض وحاضرها ومستقبلها فمرت أمام عينيها إمبراطوريات الماضي متتابعة - مصر وتدمر واليهودية والإغريق والرومان... وعند الانتقال إلى الحاضر صورت الملكة ماب ملكاً (من الواضح أن المقصود هو الوصي على العرش) هو في الحقيقة عبد لنهمه الشديد(16) ودهشت لأن أحداً من البؤساء الذين يجوعهم بينما هو متختم لم يرفع ذراعه للإطاحة به من فوق عرشه. فأطلقت حكمها الذي أصبح الآن مشهوراً:

- الرجل

- ذو الروح الفاضلة العفيفة لا يأمر ولا يؤمر

- فالسلطة كالطاعون المدمر،

- تلوث كل ما تمسه(26).

وكانت الملكة ماب تكره أيضا التجارة وتكره آدم سميت: إن اتساق وسعادة شخص يستسلم لثروة الأمم يتمثلان في أن كل شيء للبيع حتى الحب(36). وصورت لها أيضا إحراق ملحد مما أربع البكر يانث Ianthe فواستها الملكة بأن أكدت لها أنه لا وجود لله (There,s no God 46) ودخل أهاسويروس Ahasuerus اليهودي الجوال وراح يوبخ الله God كما ورد في سفر التكوين (السفر الأول من التوراة) لأنه عاقب بليون رجل وامرأة وطفل عبر آلاف السنين من أجل خطيئة غير مفهومة (خطيئة غامضة) ارتكبتها امرأة واحدة(56). (ربما وجد بايرون هنا أفكار أوحث له عمله قابيل Cain، وكان شيلي قد أرسل بصفة شخصية نسخة من عمله - ملكة ماب). وأخيرا صورت الملكة ماب (الجنية)

مستقبلا زاهرا: الحب بلا قانون. السجون خالية ولا لزوم لها. لا بغاء الموت بلا ألم. وعندئذ أمرت يانث Ianthe بالعودة إلى الأرض لتبشر بإنجيل الحب العالمي، وكان لديها إيمان غير واهن بانتصار هذا الحب. واستيقظت يانث Ianthe. إنها قصيدة قوية رغم فكرها الصبياني ورغم أسلوبها عالي النبرة في بعض المواضع (المقصود الأسلوب المنمق أو الطنان رغم بساطة المعنى). وعلى أية حال فقد كان هذا عملا لافتنا للنظر لفتى في الثامنة عشرة من عمره. وعندما تم نشر (الملكة ماب) في سنة 1281 دون موافقة الشاعر رحب بها الراديكاليون في إنجلترا باعتبارها تمثل حلمهم وخلال عشرين عاما ظهرت منها أربع عشرة طبعة غير مرخص بها(66). وبعد أن مكث شيلي وهاريت في أيرلندا (فبراير - مارس 2181) حيث عمل ببطولة محابدة لصالح قضايا الكاثوليكية والبروليتاريا، انتقل إلى ويلز. وهناك فجع وزوجته بمنظر الفقر السائدة فاتجها إلى لندن ليؤسس صندوقا لجمع الأموال لصالح أهل ويلز. وانتزه هذه الفرصة لتقديم احترامه لجودون الذي سره أن تتزاور أسرتهما كثيرا. وبعد زيارات قصيرة متكررة لأيرلندا وويلز استقر الزوجان الشابان (شيلي وهاريت) في لندن. وهناك أعاد شيلي وهاريت مراسم زواجهما على وفق طقوس كنيسة إنجلترا ليضمنا شرعية أي ابن يرزقانه ليكون وريثا شرعيا، وكان هذا في 42 مارس سنة 4181. وكان شيلي قبل ذلك ببعض الوقت قد كتب لها قصيدة يجدد فيها حبه وعهده بمناسبة عيد ميلادها:

- هاريت، دعي الموت يدمر كل الروابط الزائلة،

- أما رباطنا فلن يتمزق أبدا،

- فالفضيلة والحب، راسخان صامدان

- وكذا الحرية والإخلاص والنقاء،

- فروحي مكرسة لك في هذه الحياة(76).

صفحة رقم : 14673

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> التطور الثاني

7- التطور الثاني

شيلي 2181 - 6181

بدا شيلي خلال كل جولاته لا يفكر في تدبير مورد رزق له. ربما كان يشارك وردزورث نظريته في أن الشعر لا شريك له وأنه لا بد من إعفاء الشاعر من العمل أو الاهتمامات التي قد تخنق الشعر في دمه. ولم يكن يرى تناقضا بين دعوته للمساواة في الحقوق في ظل جمهورية وجهوده في الحصول على نصيبه من الثروة التي وقفها جده على أبيه. وقد أضاف إلى المبلغ السنوي الذي خصصه له والداه مبلغاً آخر فقد باع للمرابين حقه الذي سيحصل عليه بعد وفاة والده، ففي سنة 3181 تقاضى 006 جنيه نقداً مقابل تنازله عن ألفي جنيه من ميراثه المتوقع. وربما شجع المرابين على ذلك هشاشة بنيانه، والأمراض التي كانت تعاوده دوماً فالآلام الدائمة التي كانت تعترى جنبه الأيسر (كما ذكرت زوجته الثانية) كانت تؤثر في أعصابه فتحيله حساساً حساسية شديدة، وتجعل نظريته للحياة مختلفة عن نظرة إنسان سليم الصحة. لقد كان يعاني من الاضطراب والقلق إلى حد كبير وكان أقرب ما يكون إلى الاستئثار وكانت قدرته على التحمل دوماً يتسع مداها، حتى يكون لطيفاً مع الآخرين متدرعاً بالصبر (86). وظن أن بمقدوره تخفيف آلامه بتناول وجبات نباتية، وتمسك بهذا الأمل بناء على تجارب وصفها جون نيوتن في كتابه عودة للطبيعة أو دفاع عن الرجيم النباتي (1181). وثبت على هذه الفكرة فأصبح هو وهاريت نباتيين في سنة 2181. وفي سنة 3181 تمسك لما أسمته زوجته (النظام الفيثاغورسي) (96) فأقحمه في تعليقاته على قصيدة (الملكة ماب) ودعا إليه:

إنني أنشد كل الذين يحبون السعادة والحقيقة أن يجربوا بشكل مناسب النظام النباتي (الاكتفاء بأكل ما هو نباتي) .. إنني أدعوهم لهذا بحق ما هو مقدس في آمالنا لصالح الجنس البشري... فالوجبات النباتية والماء النقي لا تسببان أمراضاً بدنية أو عقلية (نفسية)، بل إنه لا يوجد مرض إلا ويسكنه هذا العلاج الناجع (الماء والنبات) فيتحول الضعف إلى قوة ويتحول المرض إلى صحة (07).

وفي مطبوع (الدفاع عن الوجبات الطبيعية) (3181 Vindication of Natural Deit) عزا الدوافع الشريرة للبشر ومعظم الحروب للوجبات التي تحتوي على لحوم ودعا إلى ترك التجارة والصناعة والعودة للزراعة: عندما نأخذ بالنظام الطبيعي لن نكون بحاجة إلى بهار الهند ولا نبيذ البرتغال وإسبانيا وفرنسا وماديرال... إن روح الأمة التي ستبدر بقيادة هذا الإصلاح العظيم ستصبح - لا إرادياً - زراعية. فالتجارة بكل آثامها وأنانيتها ستتهار تدريجياً، ومزيد من العادات الطبيعية سيتمخض عنها طباع أكثر دماثة (17). وأدت ظروف غريبة متتابعة نتجت عن نباتيته (مذهبه في الاقتصار على تناول ما هو نباتي) إلى دمار زواجه الأول. فبسبب إعجاب بهجون نيوتن قابل أخت زوجته (أي أخت زوجة جون نيوتن) السيدة جون بوينتون John Boynton النباتية الجمهورية، الجذابة رغم شعرها الأبيض، والقدرة على إجراء مناقشات تتم عن علم وثقافة بالغتين. وفي يونيو سنة 3181 وضعت هاريت مولودة جميلة أسماها شيلي (يانث) وفي هذا الصيف انتقل بزوجه وابنته والأخت إليزا إلى براكنل وهو مكان جميل يبعد عن لندن بثلاثين ميلاً. وبعد ذلك بفترة يسيرة استأجرت السيدة بوينتون منزلاً هناك وجمعت حولها المهاجرين الفرنسيين (الذين تركوا فرنسا بسبب الثورة الفرنسية) والراديكاليين الإنجليز الذين كانت آراؤهم في الحكم والتشريع تعجب شيلي. وزادت فترات افتراقه عن هاريت وابنته يانث وإليزا فقد كان يذهب للاستمتاع بصحبة السيدة بوينتون وأصدقائها وابنتها المتروجة.

ولم تعد علاقته بزوجه حميمة تماماً كما كانت إذ يعدو أنه بدأ يشعر بشيء من التأخر في تطورها الفكري، كما أنها راحت تتشغل بابنتها انشغالا شديداً، ولم تعد تهتم بالسياسة بل راحت تهتم كثيراً بالمسرات والملابس الجميلة، وقد اشترى من أجلها عربة غالية الثمن، وفي هذه الفترة الحرجة تلقى في 62 مايو 3181 من والده مايفيد أنه (شيلي) إذا لم يترجع عن إلحاده atheism ويعتذر لعميد كليته في أكسفورد، فإنه (أي الوالد) سيجرمه من الميراث ويمنع عنه كل مساعدة مالية وكان شيلي قد استدان مقدماً على حساب الثروة التي ستأتيه بعد ذلك (استدان في 4 أغسطس 3181) وذعرت هاريت وأختها إليزا. أحقا لاتستحق باريس إقامة قداس؟! (المقصود أن هذه الأحوال ومثلها مبرر كاف لقيام الثورة الفرنسية) ورفض شيلي التراجع عن آرائه وواصل سهواته المسائية التي تقيمها السيدة بوينتون. وأرسل جودون مايفيد أن دائنيه يهددون بالقبض عليه وطلب المساعدة. وفي يونيو سنة 4181 انتقلت هاريت وابنتها إلى باث Bath متوقعة أن يلحق بها زوجها بسرعة، لكن شيلي ذهب إلى لندن واستأجر غرفة في شارع فليت وحاول أن يجمع مالا لصالح جودون وكان غالباً ما يتناول غداءه على مائدة هذا الفيلسوف في شارع سكينر Skinner، وهناك التقى بماري جودون.

لقد كان دفاعها عن حقوق المرأة دفاعاً طبيياً لكن لم يلق قبولاً على نطاق واسع، وكان شبابها الغض وعقلها النشط. ووجهها الشاحب المفكر وإعجابها الذي لم ينته بشيلي - كبيراً جداً بالنسبة لشاعر لازل شاباً في الحادية والعشرين من عمره. ومرة أخرى اختلطت الشفقة بالرغبة. وكان طالما سمع عن ماري ولستونكرافت وكتابتها المثير

للانتباه، وها هي ابنتها التي لم تكن سعيدة بحياتها مع زوجة أبيها القاسية، تذهب كثيرا لتجلس وحيدة بجوار قبر أمها. وهنا شعر شيلي معها بتألف نفسي وعقلي ووجدتها أرقى عقلا وألطف روحا من هاريت، وفي غضون أسبوع بدا له أنه يحس إزاءها بعاطفة قوية لم يألّفها من قبل. وفي 6 يوليو طلب من جودون يد ابنته، واعتبر الفيلسوف المندم هذا الطلب فسقا منه فمنعه من دخول بيته، ووضع ماري في رعاية زوجته (زوجة أبيها) (27). وبعد ذلك وجد توماس لف بيكوك الشاعر يكاد يكون مهتاجا في غرفته بشارع فليت. لاشيء كالذي رأيته سبق لي أن قرأته في الحكايات أو التاريخ. لاشيء يقدم صورة أوضح للمفاجأة والعنف وعدم الاستقرار... والوجد... أكثر من الصورة التي وجدته عليها عندما دعاني لآتيه من الريف... لقد كانت عيناه كالدّم وشعره مهوشا وثيا به غير مهندمة... وأحضر زجاجة من اللودانيوم (مستخضر أفينيوني) وقال: لن أفارق هذه (37). ورغم كل هذه العراقيل رتب شيلي الأمر ليقابل ماري عند قبر أمها وخفف اعتراضها بأن أخبرها أن هاريت لم تكن مخلصا وأنها كانت تخونه مع المدعو السيد (مستر) ريان (Mr. Ryan (47) واستمر لفترة ينكر أبوته للطفل الذي تحمله هاريت في بطنها الآن (في وقت لاحق زعم أنه ابنه). وأنكرت اتهامه وأيدها أصدقاء شيلي: بيكوك، وهوج، وتريلاوني، ومتعهد نشر كتبه هوكهام. وقد رفض جودون في وقت لاحق هذه التهمة (57). وكتب شيلي إلى هاريت (وكانت لاتزال في باث) وطلب منها القدوم إلى لندن فأنت في 41 يوليو 4181 إلى بيت والدها فزارها الشاعر هناك ووجدتها مريضة بشكل خطر، فطلب منها أن توافق على الانفصال عنه لكنها رفضت وعندما عاد إلى غرفته كتب لها خطابا محمومًا يقترح فيه عليها نوعاً من الاتفاق:

يا أعز صديقة:

رغم أنني كنت منهكاً عندما التقينا ورغم أننا سنلتقي غدا في الساعة الثانية عشرة، فإنني لم أستطع منع نفسي من الكتابة لك. لقد أصبحت هادنا وأكثر سعادة بسبب تأكيداتك... لهذا يا عزيزتي هاريت فإنني أشكرك من أعماق روحي. ربما كان هذا أعظم ما تلقيت من بركة على يديك. لقد كرهت النهار في وضحه وكرهت - بعمق - حتى وجودي. لقد عشت على أمل أن تمنحيني السعادة، والعزاء لما أنا فيه، ولم يخب أمني. إنني أكرر لك (صدقيني فأنا مخلص فيما أقول) أن ارتباطي بك لم تنفك عراه، بل إنني مقتنع أنه قد أصبح أعمق وأكثر ديمومة فهو الآن أقل عرضة لتقلبات الهوى والنزوات. فارتباطنا لم يكن ارتباط هوى ونزوة، بل لقد كانت الصداقة هي أساسه، وعلى هذا الأساس كبرت هذه الصداقة وقويت، فأنت لم تملني قلبي بمشاعر المعاناة... لأن أكون أكثر من صديق؟ أه... ساكون أكثر من أخ، فأنا والد ابنتك الحبيبة لكلينا...

إن أردت الدفع لأصحاب المصارف قبل أن أراك، فإن هوكهام سيعطيك كل الشيكات. وداعاً. أحضري معك طفلي الحبيبة الحلوة، فلا بد أنني سأكون لها حبا للأبد من أجلك.

المخلص والمحب دوما

ب.ب. شيلي (67)

وروت هاريت

وروت هاريت الأمور من وجهة نظرها في خطاب إلى كاترين نُوجيت مؤرخ في 02 نوفمبر سنة 4181: ... إن ماري مصرة على اغتصابه... لقد ألهمت خياله باصطحابه إلى قبر أمها كل يوم وبمداومة الحديث عن أمها حتى أخبرته أخيراً أنها تموت فيه حياً... فلم لا نعيش جميعاً معاً؟ هكذا سألته ماري. أنا كأختها وهي كزوجته؟ وكان من الغباء أن اعتقد بإمكان هذا، فأرسل يطلبي ثم أقام في باث Bath. يمكنك تصور شعوري بعد افتتاح هذا الأمر. لقد لازمت الفراش طوال أسبوعين ولم أستطع إنجاز شيء. لقد توسل إليّ أن نعيش... وها أنا يا صديقتي العزيزة في انتظار أن أضع طفلاً في هذا العام المحزن. وفي الشهر القادم سأكون حبيسة المخاض، ولن يكون قريباً مني.

ه. شيلي (77)

وقدم لنا جودون بعض التفاصيل في خطاب أرسله إلى جون تابلور مؤرخ في 72 أغسطس سنة 4181: لقد كنت أثق فيه (أي شيلي) إلى أقصى درجة فقد عرفته سريع التأثير بالمشاعر النبيلة. لقد كان رجلاً متزوجاً عاش بسعادة مع زوجته طوال ثلاث سنين... وفي 62 يونيو (وكان يوم أحد) اصطحب ماري وأختها جين كليرمونت إلى قبر أم ماري... وهناك يبدو أن فكرة غير تقية راودته. لقد فكر في اغتصابها، فخانني بعد أن ائتمنته، وهجر زوجته... وفي السادس من يوليو، وكان يوم الأربعاء... وصل به الجنون حدا جعله يفضي إليّ بما يعتزمه وطلب موافقتي، فتجادلت معه... فوعدني في لحظة وهو في غاية التأثير بالتخلي عن حبه الأثم... لكن الاثنتين خدعاني، ففي ليلة 72 يوليو هربت ماري وأختها جين من بيتي وفي الصباح وجدت خطابا يخبرانني فيه بفعلتهما (87). وكانت جين كليرمونت أختا غير شقيقة لماري فهي ابنة زوجة جودون الثانية من زوجها السابق. وكان اسمها الأصلي كلارا ماري جين، لكنها كانت تفضل أن ينادوها كلارا ثم أصبح اسمها كلير (Clare أو Claire). ولدت في 72 أبريل

8971، وقد بلغت الآن السادسة عشرة من عمرها، وكانت صالحة للزواج بشكل واضح. لقد كانت موهوبة وحساسة ومعتزة بنفسها ولم تكن مرتاحة لسلطة أمها المرعبة وطباعها الثائرة، وكان زوج أمها مفلساً ومشغلاً بدرجة لم تمكنه من تعويضها بأي قدر من الحب، فطلبت من ماري وشيلي أن يأخذاها معهما. وقد كان، ففي 82 يوليو سنة 4181 هرب ثلاثتهم من لندن إلى دوفر ومنها إلى فرنسا.

وفي 02 أغسطس وصلوا إلى لوسيرن، فلم يجد شيلي أية رسائل في انتظاره ولم يأتها مال من لندن، ولم يكن معه سوى ثمانية وعشرين جنيهاً، فأخبر رفيقته وهو حزين بضرورة العودة إلى إنجلترا لتدبير المسائل المالية. فاستقلتهما عربة ثم قارب وأسرا للشمال، وفي 31 سبتمبر سنة 4181 كانوا - مرة ثانية - في لندن. ومكث طوال اثني عشر شهراً مختبئاً من دائنيه، بل واقترض أموالاً أخرى ليطعم نفسه وماري وكليير وجودون الذي كان لا يزال يرفض رؤيته لكنه رحب بالمساعدة المالية. وفي هذه الأثناء وضعت هاريت مولودها الثاني، وأسمته شارلز، ووضعت ماري مولودها الأول وليم. وأوت كليير إلى مخدع بايرون. وأخيراً مات جد شاعرنا تاركاً ثروة لوالد شيلي الذي أصبح الآن هو السير تيموثي شيلي - تقدر بثمانين ألف جنيه. لقد أصبح شيلي الآن وارثاً، لكن والده لم يعترف بذلك. لقد عرض عليه التنازل عن حقوقه مقابل مبلغ سنوي قدره ألف جنيه فوافق، فجعل شيلي مائتين منها كل عام لهاريت، وفي 4 مايو 6181 غادر الشاعر وماري ووليم وكليير مرة أخرى قاصدين دوفر ومنها إلى فرنسا، وكان بايرون - قبلهم بتسعة أيام قد نفّض عن قدميه تراب إنجلترا.

صفحة رقم : 14674

قصة الحضارة - < عصر نابليون - > بريطانيا - < الشعراء الثوريون - > إجازة سويسرية

8- إجازة سويسرية

بايرون وشيلي 6181

اختار شيلي وكذلك بايرون، دون اتفاق سابق، سويسرا لتكون ملاذاً لهما، واختارا جنيف لتكون مركزاً لنشاطهما. ووصلت جماعة شيلي في 51 مايو واتخذت لها محل إقامة في ضاحية سيشيرون Secheron. أما بايرون وبطانته فاستقلتهما في أوستد مركبة فخمة كان قد أمر بتشييدها بتكلفة خمسمائة جنيه على نمط مركبة كان يستخدمها نابليون واستولى عليها أعداؤه في جناب Genappe بعد هزيمته في واترلو. لقد كان بها سرير ومكتبة وكل ما يلزم لتناول الطعام. وقام بايرون بجولة خاصة في أرض المعركة (واترلو) وتفقّد ما تخلف عنها، وربما يكون قد ألف في بروكسل هذه الليلة المقاطع الشعرية من 12 إلى 82 وهي المقاطع الأكثر خلوداً في النشيد الثالث في (رحلة شيلد هارولد Childe Harold Pilgrimage) وفي 52 مايو وصل إلى فندق دنجلتير d,Angleterre الواقع على بعد ميل إلى الشمال من قلب جنيف، فطلب منه موظف الاستقبال كتابة سته فكتب مائة واكتشفت كليير كليرمونت التي كانت مشرفة بمراجعة أسماء الواصلين فأرسلت إليه تواسيه لكبر سنه واقترحت عليه اللقاء. وفي 72 مايو أتى ليلتقي بشيلي وماري وكليير فكان هذا أول لقاء بين الشاعرين. وكان بايرون قد قرأ (الملكة ماب) فامتدح القدرة الشعرية لكنه

صمت تأدبا فيما يتعلق بالجانب السياسي الذي تتطوي عليه، فقد كان من الصعب أن يتوقع من شاب في الرابعة والعشرين أن يفهم فضائل الأرستقراطية - رغم أنهما ربما اتفقا على أهمية التوريت. وأخيرا اعتبر شيلي أن لورد بايرون أرقى منه شعرا.

وفي 4 يوليو استأجر بيتا في مونتاليجر Montallegre التي تبعد عن جنيف بميلين، وتقع على الشاطئ الجنوبي لبحيرة جنيف. في 7 يوليو استأجر بايرون فيلا ديوداتي Diodati التي لا تبعد عن شيلي سوى بمسيرة عشر دقائق، واشتركا معا في استنجاز قارب صغير وغالبا ما كانت الأسرتان تبحران فيه معا في البحيرة كما كانا يقضيان الأمسيات في النقاش والمسامرة في فيلا ديوداتي. وهناك، في 41 يوليو، اقترح بايرون أن يكتب كل واحد منهم قصة عن الأشباح. وحاول كل منهم وفشلوا إلا ماري التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها فقد ألقت واحدة من أشهر الروايات في القرن التاسع عشر. هي: فرانكنشتين أو برومئوس المعاصر Frankenstein, or the Modern Prometheus وتم نشرها في سنة 1818م وكتب شيلي مقدمة لها. وقد طرحت القصة - من بين أمور أخرى كثيرة - قضيتين غاية في الأهمية، ماتز الان محل اهتمام: أيمن للعلم أن يخلق الحياة؟ وهل يمكنه تسخير قوته لمنع الشر بنفس مقدرته على إزجاء الخير؟

واقترح بايرون أيضا أن يقوم هو وشيلي بالطواف بقاربهما المتواضع حول البحيرة وأن يتوقفا عند النقاط التاريخية خاصة التي حققت شهرة بسبب كتاب ورسو (Julie, ou La Nouvelle He.loise) ووافق شيلي رغم أنه لم يكن قد تعلم السباحة. وانطلقا في 22 يونيو واستغرق منهما الوصول إلى مليري Meillerie (في سافوي) يومين، وهناك تطلعا إلى البقعة التي افترق فيها سان - برو Saint - Preux عن جولي (كما ورد في الرواية أي أن هذه الأسماء وردت في الرواية وليس لها بالضرورة حقيقة تاريخية) وحيث - كما هو مفترض - نقش اسمها على الصخر. وواصلوا الرحلة فتعرضا لعاصفة مفاجئة وغمرت الأمواج بشكل متكرر مقدمة القارب مهددة بقلبه رأسا على عقب، وقد تذكر بايرون بعد ذلك ما حدث لقد خلعت معطفي وطلبت منه أن يفعل الشيء نفسه وأن يمسك بالمجداف وأخبرته أنني أظن... أنه يمكنني إنقاذه إذا لم يقاوم إذا أمسكت به... فأجاب ببرود شديد أنه ليست لديه فكرة عن إمكانية إنقاذه وأن كل ما يمكنني عمله هو إنقاذ نفسي وتوسل ألا يزعجني(97).

واستقر القارب ونزل الشاعران إلى البر واستراحا، وفي صباح اليوم التالي زارا شيلون Chilon والقلعة التي كان فرانسوا دي بونيفار de Bonnevard قد سجن فيها (1803 - 1831)، بأمر من دوق لوزان. وفي كلارنز Clarenس كان شيلي يمسك بيده رواية روسو ليسترشد بها - لقد سار الشاعران على الأرض التي أصبحت جديرة بالذكر كمقدس للرومانسية الفرنسية. وفي 72 يونيو وصلا بقاربهما إلى أوشي Ouchy مرفا لوزان، وفي هذه الليلة كتب بايرون سجين شيلون Prisoner of Chillon كما كتب مقاطع شعرية عن روسو في (شيلد هارولد Childe Harold) وفي 82 يوليو زار الشاعران منزلا في لوزان كتب فيه جيبون كتابه (انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها). وفي أول يوليو عاد الجوالان إلى مونتاليجو وديوداتي. وفي غضون الأسبوعين التاليين كتب بايرون النشيد الثالث في رحلة شيلد هارولد Childe Harold's Pilgrimage ونسخت كلير كليرمونت نسخة منها فقد عرفت الآن إحدى لحظات السعادة القليلة في حياتها.

لقد كان قدرها أن يصاحبها سوء الحظ، فقد أدى إخلاصها لبايرون إلى إثارة الأفاويل في سويسرا الدرجة مؤذية: لقد كان هناك اتهام بأن الشاعرين كانا يعيشان مع الأختين في علاقات مشتركة غير شرعية، وسمى بعض الخياليين بايرون وشيلي بالشيطانين المتجسدين، وأصيبت سيدة إنجليزية تقوم برحلة في سويسرا، بالإغماء عندما ظهر بايرون في صالون مدام دي سنثيل في كوبت(08). وربما أسهمت هذه الأفاويل في تصميم بايرون على إنهاء علاقته بكلير. لقد طلب من شيلي ألا يسمح لها بالقدوم إلى فيلا ديوداتي مرة ثانية. وكانت كلير في ذلك الوقت حاملا من بايرون، وكانت في شهر حملها الثالث، فطلبت أن يسمح لها بزيارة واحدة أخرى لكن تم إثنائها عن عزمها. وفي 42 يوليو أخذ شيلي كلا من كلير وماري في رحلة إلى شامونكس Chamonix في سافوي. وفشلوا في هذا اليوم في محاولتهم الوصول إلى المير دي جلاس Mer - de - Glace لكنهما نجحا في اليوم التالي. وعند عودتهما إلى سويسرا توقفا عند دير شارنيز Chartreuse في مونتفير Montenvers. وكتب تحت توقيعه في دفتر الزيارات - وقد أثارته مظاهر التدين - كتب باللغة اليونانية: إنني أحب البشر، وديموقراطي وملحد(18) وعندما زار بايرون بعد ذلك بفترة وجيزة المكان نفسه محا الكلمة الدالة على الإلحاد خوفاً من أن تستخدم في غير صالح شيلي في إنجلترا. وقد كان(28). وفي 9 أغسطس غادر شيلي وماري وكلير سويسرا قاصدين إنجلترا، وأعطى بايرون، مخطوطة (سجين شيلون) والنشيد الثالث والرابع من (شيلد هارولد) لشيلي كي يسلمها للناسر جون مري. أما شيلي نفسه فقد كان مشغولا مع ماري وكلير فلم يحضر سوى (ترنيمة جمال الفكر) وقصيدة Mount Blanc: (أبيات كتبت في قصيدته (وادي شامونكس Chamonix). وهذه القصيدة تكاد تكون مرتبكة كنهيرات الجليد التي تهبط ملتقة حول المنحدرات الجبلية في المير دي جلاس Mer - de - Glace. فقد وجد شيلي انطباعاته عديدة ومتباينة حتى إنه كان

غير قادر على التعبير عنها بوضوح بأي شكل من الاشكال وفكر برهه من الزمن في الكتلة الشاهقة مخاطبا إله الطبيعة كما تصوره وردزورث لكنه عاد مرة أخرى إلى الشعور بالكثافة الباردة تاركاً كل الأمور لأحكام البشر. وتظهر أيضا في قصيدته (ترنيمة جمال الفكر) بعض تأثيرات وردزورث لكن سرعان ما زوى إعلان شيلي بالخلود لقد عبر عن دهشته لوجود الظلمة جنباً إلى جنب مع النور، والشر جنباً إلى جنب مع الخير، وراح يحلم بخلص الإنسان بتسمية إحساسه بالجمال وتعميقه وتوسيع مداه، ومتابعة الإحساس بالجمال في الفكر والعمل كما نتابعه في الشكل والبدن:

- لقد نذرت نفسي ..

- لك .. ألم أف بنذري؟

- ليس من فرح أزال عن جيبني التقطيب

- فلا أمل لدي أن تتحرري

- فمن هذا العالم، من عبوديته المظلمة

- يمكنك التعبير عما لم تستطع هذه الكلمات التعبير عنه

- يا للفتنة المدهشة! (38)

وأخيراً كان على محاولات وردزورث، وبايرون، وشيلي أن تجد صديقا خيرا في طبيعة هوت أمام الحياض الهادئ، فاستسلم وردزورث لكنيسة إنجلترا، واستسلم بايرون وشيلي لليأس.

صفحة رقم : 14675

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> انحلال في فينيسيا

9- انحلال في فينيسيا

بايرون 6181 - 8181

في شهر سبتمبر سنة 6181 قدم هوبهوس من إنجلترا وانضم إلى بايرون في رحلة واسعة المدى في الألب السويسرية. وفي أكتوبر عبراها إلى إيطاليا، فتلقاهما أهل ميلان بقبول حسن واحتقى المتفقون الإيطاليون ببايرون كأعظم شاعر إنجليزي على قيد الحياة وقدروا شجبه الواضح لحكم النمسا في لمبارديا. لقد أخذ وساما في لاسكالا La Scala ورآه ستندهاال Stendhal هناك ووصفه باعجاب لقد فوجئت بعينيه... لم أر في حياتي ما هو أجمل ولا أكثر تعبيراً. وحتى اليوم فإنني إذا فكرت في التعبير الذي يجب أن يسبغه الرسام على العبقرية - لم أجد أمامي إلا هذا الرأس السامق (رأس بايرون)... لن أنسى أبداً التعبير القدسي في وجهه... إنه يشيع جو القوة والعبقرية (48). ووصل الشاعر وصديقه إلى فينيسيا في 61 نوفمبر 6181 وفارقه هوبهوس لرؤية ما يستحق الرؤية وتابع طريقه بسرعة إلى روما، أما بايرون فاستأجر منزلاً في شارع جانبي متفرع من بيازا سان ماركو Piazza San Marco وجعل من زوجة صاحب الفندق واسمها ماريانا سيجاتي مديرة لأمر جناحه في الفندق، ووجد وقتاً لإتمام (مانفرد Manfred)

وفي شهر سبتمبر سنة 8181 بدأ عمله (دون جوان Don Juan) الذي انتقل فيه من الرومانسية العابسة والانهماك في الذات إلى الأهاجي المرححة الساخرة ذات الطابع الواقعي .
وبطبيعة الحال فإن (مانفرد) هو (بايرون) نفسه مرة أخرى، وقد ألبسه المؤلف شخصية مكتئب كارو للبشر في قلعة قوطية شاعرا بلعنة هائلة على روجي راقدا محتضنا بيض خطاياها. لقد استدعى الفاتنات من مخادعهن فوق الألب وطلب منهن منحة واحدة - النسيان، فقالا له لا نسيان إلا بالموت، وتسلق الجنجرافو Jungfrau ورأى في شجرة صنوبر ذابلة شبيها يرمز إليه جذع أصابه التلف على صخرة ملعونة لا تمد الشجرة إلا بالفناء وبحث عن الموت بمحاولة القفز من فوق منحدر صخري شاهق لكن صيدا أوقفه واصطحبه إلى كوخ في الجبل وقدم له نبيذا دافئا وسأله عن سبب يأسه. وأجاب مانفرد الذي اعتبر النبيذ رمزا للدم - بكلمات قد يفهم منها اعترافه بمعاشرة المحارم:

إنني أقول إنه (أي النبيذ) دم! فالمجرى الدافئ النقي

الذي جرى في عروق آبائي وعروقنا

عند ما كنا في شبابنا ، وكانت قلوبنا

في حالة عشق وأحب أهدنا الآخر كما لا يجب أن يكون

إن هذا كان ولايزال يغلق أبواب السماء دوني .

وراح يحسد الصبياد لحيته وحياته الصحيحة . وقدم للصيدا ذهباً ورحل ، واستخدم علمه غير المقدس فاجتمع بأستارت Astarte التي رأى فيها شبح حبه المحرم ودعاها للصفح عنه أستارت ، يا حبيبتي تحدثي إلي - في الذروة إذ حلق بايرون معبراً عن عواطفه وانفعالاته . وكما كان يحدث في بلاد جلفر التي يعيش فيها اللجناجيون Luggnaggian حكم عليه بالخلود، ظنا منه أن الخلود هو أقصى درجات العقاب . لقد توسل إليها (إلى أستارت) أن تستخدم قوتها السحرية وتمنحه الموت، فطمأنته قائلة مانفرد، غدا تنتهي حياتك في هذه الدنيا وشفقت ساحرة حاضرة لشجاعته: إنه يسيطر على نفسه . إنه يجعل عذابه مرتبطا بارادته . أكان واحداً منا؟! سيكون روحاً مرعبة . وربما يكون شيطان Satan ميلتون Milton قد ترك واحداً من أصدائه الكثيرة في أعمال بايرون . وقد أجاب (مانفرد) رئيس دير الرهبان الذي أراد جذبته مرة أخرى إلى المسيحية، قائلاً: إن هذه دعوة جاءت متأخرة جداً وأضاف قائلاً:

ليس هناك نظام

للبشر على الأرض، فهناك من أصبحوا

شيوخا في شبابهم وماتوا قبل منتصف العمر،

دون أن يذوقوا الموت في ساحات الوغى.

وعندما غادر (مانفرد) للقاءاته الأخيرة حزن رئيس الدير وتجعج:

هذا لا بد أنه كان مخلوقا نبيلًا، إن لديه

كل الطاقة التي تخلق عناصر رائعة،

وقد تم مزجها بحكمة!

وكما لو كان يتحدى العالم معترفا بما كان موضع شك، أرسل بايرون عمله (مانفرد) إلى إنجلترا فنشره الناشر مري Murroy في 61 يونيو سنة 7181، وبعد النشر بأسبوع ظهر عرض في صحيفة لندنية منهيًا كل تعاطف مع بايرون انه تناول شخصه (أي شخص) بايرون وأطلق عليه اسم مانفرد. إنه يقصد نفسه... إن (مانفرد) قد طرد نفسه من المجتمع فكيف نتعاطف مع منعزل مطرود؟! إنه ببساطة قد ارتكب أشد أنواع الجرائم المقرزة. لقد غشي محارمه(58).

وفي 71 أبريل 7181 غادر بايرون مدينة فينيسيا ليقضي شهرا مع هوبهوس في روما. وعاقته قدمه (المصابغة) عن القيام بجولة في متاحف روما لكنه رأى البقايا الهائلة لروما الكلاسية وزار بومبي Pompeii لقد وقفت كبقايا وسط بقايا هكذا قال شيلد هارولد(68). وفي 82 مايو عاد إلى فينيسيا (البندقية) وفي ديسمبر نجح بعد محاولات كثيرة في بيع مبنى دير نيوستيد Newstead Abbey والأراضي المحيطة به بمبلغ 005،49 جنيه إسترليني وفوض مسؤول أموره المالية في لندن دوجلاس كنيرد لدفع كل ديونه وأن يرسل له 003،3 جنيه إسترليني سنويا عن أرباح المبلغ المتبقي، وبالإضافة إلى هذا فقد أصبح الآن يقبل الحصول على أموال مقابل نشر أشعاره. وامتألاً بالحيوية فاشترى قصرًا فخما Palazzo Mocenigo على القنال الكبير (جراند كانال Grand Canal) وحشدها بأربعة عشر خادما وقردين وكلب حراسة ضخمة وخليلة جديدة هي مارجاريتا كوجني وهي زوجة معتزة بنفسها لأحد المسؤولين المحليين. ولم يكن ليكتفي بامرأة واحدة فقد تباهى بعلاقاته الجنسية بمائتي امرأة على التوالي في فينيسيا (البندقية)(78) وفي 02 يناير سنة 7181 أخبر كنيرد أنه في الأمسيات أخرج أحيانًا، وأنخرط دومًا في علاقات

جنسية وفي 9 مايو 8181 كتب لمسؤوله المالي إن لدي عالماً من الموسسات(88) وفي منتصف الصيف تردت أحواله الصحية فأصبح بعيداً تماماً عن الأوصاف الرائعة التي وصفه بها ستندھال منذ عامين. لقد أصبح سميماً وتحول شعره إلى اللون الرمادي وبدأ أكبر من سنه (كان في الثلاثين من عمره) وصدّم شيلي عندما رآه على هذه الحال عندما التقيا مرة أخرى.

صفحة رقم : 14676

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> أمور شيلي العائلية

10- أمور شيلي العائلية

6181 - 8181

في الثامن من سبتمبر سنة 6181 وصل شيلي وماري وابنه ولیم ومربيته السويسرية إليز فوجي وكليير كليرمونت - إلى إنجلترا. وذهب جميعهم عدا شيلي إلى باث Bath أما شيلي فأسرع إلى لندن متوقفاً أن يجد أباه قد ترك له خمسمائة جنيه، لكن شيئاً لم يصل وكان عليه أن يسحب وعده بأن يعطي ثلاثمائة جنيه لوالده الروحي واهتاج جودون وهرب شيلي إلى باث حيث زوجته غير الشرعية.

وهناك (في باث) تلقت ماري خطابات حنونة من أختها غير الشقيقة فاني جودون في 62 سبتمبر و 3 أكتوبر. ولدت فاني Fanny في فرنسا سنة 4971 وكانت هي الابنة الطبيعية (ابنة زنا) من القبطان إملاي Imlay وماري ولستونكرافت Wollstonecraft، وتبناها جودون عند زواجه من أمها ورغم شفقتة عليها فإنها لم تكن سعيدة بحياتها مع زوجته الثانية السيدة كليرمونت. وعكست خطاباتها روحاً لطيفة تتحمل التعاسة بشجاعة ولا تلوم أحداً وتتوق للسرور بقلب مخلوع. وكانت ماري محبة لها لكن بعد أن غادرت ماري وكليير مع شيلي لم يعد لفاني سند يواسيها لظروف حياتها مع زوجة أبيها، وعندما عاد العاشقان الهاربان إلى إنجلترا لم تساعدهما ظروفهما المالية على استقبال فاني لتعيش معهما. وفي 21 سبتمبر حمل شيلي لماري وكليير أخباراً مفادها أن فاني كانت قد ذهبت إلى سوانسي Swansea واعتزلت في غرفتها بالفندق وقتلت نفسها بالأفيون.

ولم ترحم الأحوال شيلي إلا قليلاً. فعند عودته إلى إنجلترا جرى معه تحقيق بشأن زوجته التي كان لا يزال مرتبطاً بها من الناحية الرسمية. لقد علم أنها كانت تعيش مع أبيها وكانت تتلقى بانتظام مائتي جنيه سنوياً. وفي نوفمبر سعى إلى زيارتها فعلم باختفائها، وفي 21 ديسمبر 6181 كتبت جريدة التايمز Times تقريراً عن انتشار جنتها منذ يومين من بحيرة سيربنتين Serpentine في الهايد بارك Hyde Park وأسرع شيلي بتوثيق زواجه من ماري (جعل ارتباطه بها شرعياً) في 03 ديسمبر سنة 6181، رغبة منه في رعاية نسله من هاريت - الابنة يانت والابن شارلز، وظلت مطالبته بابنيه تسوّف في محكمة شانسري Chancery طوال ثلاثة أشهر. وقد أكدت له ماري أنها ستكون سعيدة باستقبال هذا الكنز العزيز ليكونا تحت رعايتها، لكن والد هاريت وأختها رفضا دعوى شيلي على أساس أنه ملحد وغير مؤمن بالزواج الشرعي (الزواج الموثق من الكنيسة) وأنه هجر زوجته وهرب مع امرأة غير متروجة، فمُثل

هذا الرجل - على وفق رأيهما - غير جدير بتربية أطفال بطريقة سوية تجعلهم صالحين للعيش في إنجلترا، وحكمت المحكمة على شيلي في مارس سنة 7181 معترفة بالحجج التي ساقها والد هاريت بصرف النظر عن المسائل اللا هوتية (الدينية). وعلى أية حال فإن المحكمة زكت اختياره والدين لتنشئة طفليه ووافق هو على دفع مائة جنيه سنويا لإعاشتهما. وسهرت ماري لرعاية كليز كليز مونت التي كانت لاتزال في التاسعة عشرة من عمرها ووضعت مولودة في 21 يناير سنة 7181 سميت أخيرا أليجرا Allegra في الوقت الذي كان فيه شيلي يرفع دعوى قضائية في لندن . ولم تكن كليز قد تلقت ردودا على خطاباتها التي أرسلتها لبايرون منذ مغادرة سويسرا، وكانت الفكرة الراسخة لديها أن بايرون لن يعترف أبداً بالطفلة مما دفع الأم لليأس وطلب شيلي من بايرون تعليمات بشأن رعاية الطفلة مركزاً في خطابه على جمالها. ووافق بايرون على رعاية الطفلة وضمها إليه إذا أتت إليه. وتعددت الأمور في سبتمبر سنة 7181 عندما وضعت ماري مولودها الثاني، وقد وضعتها أنثى وجرى تسميتها باسم كلارا إيفيرينا. وعانت الأم والمولودة فاتفتت الأسرة كلها على أن ما يحتاجونه هو دفاء إيطاليا وسمائها وفاكهتها. وفي 11 مارس 8181 عبروا إلى فرنسا وبدؤوا رحلة طويلة في مركبات مال دي مير mal - de - mer إلى ميلان.

ومن ميلان أرسل شيلي إلى بايرون لياتي لرؤية أليجرا. وخوفاً من أن يؤدي هذا إلى تجديد العلاقة مع كليز، رفض بايرون القوم، واقترح - بدلا من ذلك - أن تأتي المربية بالطفلة إلى فينيسيا، فإذا تم ذلك بشكل مرض أصبحت الأم حرة في زيارة الابنة (أليجرا) بين الحين والآخر، فوافقت كليز على كره منها، ووجد بايرون الطفلة رائعة جميلة فأخذها إلى قصره لكنها خافت من حيواناته ومومساته حتى إن بايرون سرعان ما دفع للقتل البريطاني - ريتشارد هوبنر - وزوجته ليأخذا الطفلة إلى بيتهما.

وعندما سمع شيلي وكليز بذلك (تركها ماري وأطفالها في Lurcc) وذهبا إلى فينيسيا ووجدا أليجرا تعامل معاملة جيدة بشكل معقول. وقابل بايرون، شيلي بحرارة واصطحبه في جولة في ممرات البندقية المانية (جوندولاتها) إلى الليدو Lido ودعاه هو وأسرته وكليز وأليجرا للإقامة في فيلته ما طابت لهم الإقامة. وقدمت ماري من Lucca مع أطفالها لكن كلارا إيفيرينا مرضت في الطريق وماتت في البندقية (فينيسيا) في 42 سبتمبر 8181. وفي 92 أكتوبر، بعد مرور شهر من الإقامة في فيلا بايرون (I Cappuccini) ودعوا أليجرا وقصدوا روما.

صفحة رقم : 14677

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> شيلي

11- شيلي: الذروة

9181 - 1281

في الفترة من وصول شيلي إلى روما (9181) حتى ارتباطه ثانياً ببايرون في بيزا، كانت قصائده هي الأحداث الكبرى في حياته. وهذا لا يمنع أنه قبل هذه الفترة كانت هناك ومضات شعرية فائقة الجودة متناثرة هنا وهناك في قصيدته الطويلة (الملكة ماب) وبعد ذلك في عمله (7181Oz ymandias) وهو سوننة (قصيدة من أربعة عشر

بيتا) الفكر المحكم والقوة الهائلة فالأبيات المكتوبة في التلال الإيجانية (Euganean Hills 8181) كان ينقصها مثل هذا التركيز في الفكر والحبكة في الشكل والصياغة، والأبيات المكتوبة وهو في حال اكتئاب Dejection بالقرب من نابلي (8181) مغرقة في المرارة والتحسر على الذات إغراقاً شديداً لا يدفع على المواساة (التعاطف مع كاتبها)، فالمرء لا يجب أن يحمل أحرانه وتظلماته في أكمامه. لكنه الآن بعد ثلاث سنين طلع علينا بروميثيوس المنطلق: (قصيدة إلى الريح الغربية) و(إلى طائر القبرة) و(السحاب) و(إبيسيكيديون Epipsychidion) وأدونيس Adonais. ونغفل هنا عمله (The Cenci 9181) الذي حاول فيه - محققاً بعض النجاح - أن يناقش جون وبستر وغيره من دراميي اليقافية في عصر إليزابث في قصصهم الدموية الفاتمة التي تعج قتلاً وغشياناً للمحارم. وعلى وفق مقدمة المؤلف (لبروميثيوس المنطلق) فإنه كتبها في أعلى حمامات كاراكالا Caracalla في روما سنة 0281.

وكان قد تحدى مؤلفي العصر الإليزابيثي بعمله (the Cenci) أما الآن فإنه يخاطر بفكرة أبعد بطموحه لتحدي الكتاب الإغريق. ففي (بروميثيوس المقيد) نجد إيسخيلوس يظهر العارف سلفاً fore knower كثائراً. وتم تقبيد تيتان Titan إلى صخرة في القوقاز ليوحى للبشرية كثيراً جداً من شجرة المعرفة. وفي البقايا المفقودة من هذه الثلاثية - على وفق المرويات - فإن زيوس فقد الآن قلبه وحرر بروميثيوس وفك قيوده كما حرره من الصقر الذي كان ينقر كبده باستمرار بناء على أوامر إلهية، ينقر كبد بطلنا كما ينقر الشك في صلب اليقين. وتصور (الدراما الغنائية Lyrical Drama) كما أسماها شيلي زيوس كبوربوني عجوز فظ مسؤول بقسوة عن تعاسة البشر وانقلاب حال الدنيا. لقد أطاح به بروميثيوس بكل حماسة خريج أكسفورد الفاهم المستوعب الذي يستدعي الأساقفة لحضور جنازة الرب (المقصود هنا جنازة زيوس). وهنا يظهر ندم تيتان على قسوة لعنته: إنني لا أرب في أن يعاني كائن حي من الألام (98) لقد عاد يباشر مهمته التي اختارها - أن يجلب الحكمة والحب للبشرية. وهنا نجد روح الأرض Earth تهلل سعيدة هاتفة باسمه: أنت أكثر من إله، فأنت حكيم ورحيم (09) خلال الفصل الأول نجد الحديث محتملاً وقصائد الأرواح الحاضرة تدمم بقوة جوهرية، متألثة بكنايات واستعارات ومجازات حلوة وقصائد مقفاة متسقة - لكن الخطب - سواء كانت لاهوتية أم غير لاهوتية ليست هي روح الشعر ونوره، فبالخطب تصبح القصائد الغنائية كريمة، وبالخطب تفقد القصائد فنتتها وإغراءها عندما تهبط كالصخرة على القارئ بإسراف مريب. إن الجمال في هذه الحال يصبح مصدر إزعاج لا ينتهي! ففي كثير من شعر شيلي نجد عواطف متأججة دون سكون، وكلما تقدمنا في القراءة أحسنا شيئاً من الضعف في هذا الشعر وأحسنا بكثير جداً من المشاعر إزاء أفعال درامية قليلة جداً، وكثير جداً من حالات القلوب ومجموعات الورد (تقول روح الأرض: إنني كقطرة ندى تموت. إن أسلوبه الشعري يمكن أن يكون لانقا جداً بالقصيدة الغنائية لكنه بطيء بالنسبة إلى الدراما، فكلمة الدراما تعني من بين ما تعني الفعل والحركة، وعلى هذا فعنوان عمله (الدراما الشعرية Lyrical Drama) ينطوي على تناقض (فالقصيدة تركز على المشاعر، والدراما تركز على الحركة مع عدم إغفال المشاعر) (19) وعلى العكس من (الدراما الشعرية) نجد أن (قصيدة للريح الغربية Ode to the West Wind) نثيرنا لأن ما بها من أفكار ومشاعر قد تم تكثيفها في سبعين بيتاً. لقد ركز في قصيدته على فكرة واحدة، ولم ينشر المشاعر والعواطف على نحو ضحل، ولم يتختم قصيدته على ما فيها من ثراء القوافي والعبارات - إن الفكرة التي تتحلل حولها القصيدة هي أن الربيع أت بما يحمله من نماء رغم ما يعترينا من سخط نفد الأمل فيه في أثناء الشتاء. لقد راح شيلي يستخدم المجاز الراقى على نحو متكرر. لقد كان هذا المجاز معيناً له عند التعبير عن عالم أماله وأحلامه الذي بدا حطاماً أمام قسوة التجارب لكنه راح يأمل أن تبقى أفكاره وتنتشر من خلال أشعاره slash النص: تعاويد أشعاره كما تذر الرياح الأوراق المتساقطة فتنشرها. وقد حدث هذا بالفعل. هذه القصيدة التي لامست ذروة الشعر راودت الشاعر فكرتها فكتب معظمها كما يقول لنا شيلي نفسه في غابة تطوق الأرنو the Arno بالقرب من فلورنسا، في يوم كانت الريح فيه عاصفة... مما أدى إلى تجمع الضباب فخرت أمطار الخريف (29) لماذا غادر شيلي روما؟ إن هذا يرجع في جانب منه إلى أنه كان يريد أن ينفرد بنفسه لأنه لم يتحمل القرب من السياح البريطانيين الذين كان رأيهم فيه أنه زان ملحد لا شاعر كبير. كما أنه هو وماري قد أثر فيهما كثيراً موت ابنيهما وليم (7 يناير 9181) ولم يتجاوز الرابعة من عمره. ولم يستطع الأب ولا الأم أن يفيق من هول فقدان طفليهما في غضون تسعة أشهر. لقد ظهر الشعر الأشيب في حاجب شيلي رغم أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره.

وبعد دفن وليم في المقبرة الإنجليزية في روما انتقلت الأسرة إلى ليفورنو Livorno - لوجوريا الأنجليكانية وعندما راح يتجول في حديقة هناك شعر بالألم ربما كأى شاعر - لهروب الطيور طيراناً خوفاً من اقترابه - وقد فتن على نحو خاص بطائر من هذا السرب كان يغني في أثناء تحليقه، فلما عاد الشاعر إلى غرفته ألف قصيدته (إلى طائر القبرة) من شكلها الأول بتفاعيلها السداسية hexameters المتتالية، وسرعة وقعها. وهذه المقاطع الشعرية المرحية كان كل بيت شعري فيها عامراً بالمشاعر الدافئة، والفكر الجاف، في أن واحد. وفي الثاني من شهر أكتوبر 9181

انتقل شيلي وأسرته إلى فلورنسا حيث وضعت ماري مولودها الثالث الذي سرعان ما أطلقوا عليها اسم بيرسي Percy. وفي فلورنسا وجدت كلير كليرمونت وظيفة معلمة خصوصية فأعفت - أخيرا - شيلي من رعايتها. وفي 92 أكتوبر 0281 نقل أسرته إلى فندق تري بالازي Tre Palazzi في بيزا حيث ربما يكون قد قام بأغرب مغامراته على الإطلاق. ورغم مرضه المتكرر فإنه لم يفقد حساسيته إزاء الجنس الآخر. وعندما وجد امرأة لم تكن فقط جميلة وإنما كانت تعسة، انجذب إلى جمالها وتعاسفها. لقد كانت إيميليا فيفياني فتاة من أسرة راقية وضعوها على غير رغبتها في دير بالقرب من بيزا لضمان احتفاظها بعذريتها حتى يتم تدبير زوج ثري لها. وكان شيلي وماري - وأحيانا كلير يذهبون لرؤيتها وقد فتتوا جميعا بملامحها الكلاسية، وسلوكها المتواضع وبساطتها الواثقة، ورأى الشاعر فيها مثالا للمرأة فأصبحت محور أحلام بقطته وكتب بعض هذه الأحلام في عمله (Epipsychidion) بعنوان (إلى روح فريدة) نشرها دون توقيع في سنة 1281. ومن أبياتها المدهشة:

لم أنتور أن أرى قبل مماتي

مثل هذا الشباب المكتمل. أحبك

يا إيميلي، رغم أن العالم سيواري هذا الحب بخجل لا قيمة له.

أه ليتني وأنت توأمان في رحم أم واحدة

أو تبادلنا قلبينا

أو نكون شعاعين في أبدية واحدة

أو أن يكون أحدنا شرعا، والآخر حقيقة

إنني ملك يديك

إنني لا أملك نفسي، فأنا قطعة منك!

ومن هذا الانجذاب الصوفي العاشق إلى انجذاب آخر:

قرينة، أخت، ملك، دليل قدري

دربك بلا نجوم (المقصود نورك يكفي)

أه لقد تأخر حبك، فأنت سرعان ما صرت معبودتي.

ففي حقول الخلود لا بد أن تعبدك روعي، تعبدك أنت أول ما تعبد

يا ذات الحضور القدسي..

من الواضح أن ابن الثمانية والعشرين عاما كان في حالة انجذاب ومثالية، فقوانيننا ومعنوياتنا (أخلاقنا) لا يمكن أن تنظم تماما غددنا (تحكم نزواتنا) وإذا كان امرؤ عبقريا أو شاعرا فلا بد أن يجد خلاصا أو راحة في عمل أو فن. وفي هذه الحال كان العلاج أو الخلاص عن طريق قصيدة تتأرجح بين اللامعقول والتفوق (الامتياز):

سيأتي اليوم الذي ستطيرين فيه معي...

فالسفينة في المرفأ الآن،

والرياح تهب فوق حافة الجبل .. تهب ملوحة.

ليأخذهم إلى جزيرة في بحر إيجة الأزرق:

انها جزيرة بين السماء والهواء والأرض والبحر

جزيرة معلقه وسط السكون

هذه الجزيرة وهذا البيت هما ملكي وإنني أعدك

أن تكوني سيدة العزلة والانفراد.

وهناك ستكون هي حبه وسيكون هو حبها:

ستختلط أنفاسنا، وسيتضام صدرانا

وستخفق عروقنا معا وستلتقي شفاهنا ببلاغة أقوى من بلاغة الكلمات

تلتقي لتطفئ لظى الروح التي تحترق بينها

والينابيع الفواراة في عمق أعماق خلايانا

إنني متلهف. إنني أغرق. إنني أهتز نشوة.

لقد انتهيت! (39).

أيمكن أن تكون هذه هي سهل شيلي؟ مسكينة ماري، لقد تركها لطفلتها بيرسي وأحلامها فلم تلاحظ هذا السيل العرم لفترة. وفي هذه الأثناء تبدد الحلم فتزوجت إيميليا (49) وعدل شيلي عن خطيئته الشجية وراحت ماري تداوي أساها بفهم أمومي.

وعندما سمع بموت كيتس (مات في 32 فبراير 1281) دفعه هذا للارتقاء بشعره، وربما لم يهتم كثيرا من أجل Endymion لكن النقد القاسي الذي حيت به الدورية ربع السنوية Quarterly Review جهود كيتس العظيمة، أغضبت شيلي كثيرا فاستلهم الموزية (إحدى إلهات الشعر عند اليونان) لتلهمة ترنيمة جنازية (قصيدة رثاء) مناسبة. وفي 11 يونيو كتب لناشره في لندن: انتهيت من كتابة قصيدتي Adonais وستسلمها حالا. قد لا يتقبلها العامة كثيرا لكنها ربما كانت أفضل أعماله (59) وقد اختار شكلاً لهذه القصيدة الشكل الصعب الذي أخذ به الشاعر سينسر والذي استخدمه مؤخرًا جدا مع تحسين في نسق القوافي الشاعر بايرون في قصيدته (رحلة شايلد هارولد) وتعامل شيلي مع قصيدة الرثاء (النص: القداس المقام لراحة الميت) بكل عناية النحات الذي ينحت نصبا تذكاريًا لصديق، لكن متطلبات الشكل الشعري الصارم (الوزن والقافية) أعطت لبعض الأبيات الشعرية طابعا مصطنعا. وقد بلغ عدد أبيات القصيدة خمسة وخمسين بيتا (مقطعا). وقد افترضت القصيدة بعجلة أن النقد (الظالم) قتل كيتس، ودعا الشاعر المتفجع أن تحل لعنة كاللعنة التي أصابت قابيل على من طعن هذا الصدر البريء لكن تشريح جثة كيتس أظهر أنه مات بمرض السل الحاد (69). ورحب شيلي في مقاطعه الشعرية الأخيرة في هذه القصيدة، بأن يموت، ففي الموت راحتته لأنه سيلتقي بالميت الحي (المقصود كيتس): يبقى الواحد the One، ويتغير كثيرون ويمضون،

فنور الله Heaven يشرق دائما، وظلال الأرض تطير،

والحياة كقبة مزدانة بكثير من الزجاج الملون

تلقي ظلالها على شعاع الأبدية الأبيض فتغير لونه

حتى يسحقها الموت فيهبشهما

أيها الموت إن كان هذا ما تطلبه

فلم تتوان! لم تتراجع! لم تحزن قلبي؟

أمالك ذهبت أنفا ونزعت من كل الأشياء هنا

لقد غادرتنا (فارقتنا) ولا بد أن تفارق أنت الآن...

إن أدونيس يناديك. آه! أسرع إلينا

لا تدع الحياة أكثر من هذا تفرّق ما يمكن أن يجمعه الموت..

لقد حملت دكانة وخوفا وبعدا

بينما روح أدونيس كالنجم

تهدينا إلى طريق الخالد الباقي.. إلى طريق الله(79).

وكانما كان كيتس يجيبه بأبياته الشعرية التي لا تنسى:

الآن أكثر من أي وقت، يبدو شيئاً نفيساً أن تموت،

أن تتوقف أنفاسك في منتصف الليل بلا ألم،

بينما أنت تدفع روحك خارجك

في نشوة ما بعدها نشوة، وانجذاب يفوق الوصف(89).

صفحة رقم : 14678

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> حب وثورة

12- حب وثورة

بايرون 8181 - 1281

احتفظ شيلي بذكرىات مختلفة عن بايرون في لقائهما الأخير - طباعه الرقيقة، ومناقشاته الصريحة، وكرمه - ورضاؤه الواضح عن علاقته الجنسية غير الشرعية بالخليلات والمومسات. فربما كانت النساء الإيطاليات اللاتي كَوْنَ معهن علاقات هن أخط النساء في العالم... لقد كان بايرون متألف مع هذا النوع المنحط من النساء اللاتي كان مسير ووندولاته (القوارب التي تسير في قنوات البندقية) يلتقطونهن له. وكان بايرون واعياً بتخليه عن الأخلاق الإنجليزية وذاق الإنجليزية. لقد كانت الأعراف الإنجليزية تجرمه (تعتبره خارجاً على العرف والقانون) وقد رفضها هو بدوره. بل انه قال لأحد أصدقائه في سنة 9181: إنني مشمئز ومُتَعْت من الحياة التي وصلت إليها في فينيسيا وسعيد بأن أدير ظهرى لها (001) وقد نجح بمساعدة تريزا جويشيولي Teresa Guiccioli وصبرها وإخلاصها. لقد تقابلا للمرة الأولى عند قدميها من رافنا Ravenna إلى البندقية (فينيسيا) في أبريل سنة 9181 وكانت وقتها في التاسعة عشر من عمرها رقيقة الملامح وجميلة وعابثة، تلقت تعليمها في دير، وكانت عاطفية دافئة القلب. وكان زوجها الكونت أليساندرو جويشيولي في الثامنة والخمسين قد تزوج مرتين قبلها وكان منشغلاً بأعماله غالباً. وقد

جرى العرف تماما في الطبقة العليا الإيطالية على السماح للمرأة (الزوجة) في هذه الحال باتخاذ رفيق Cavalier Servente - شخص مهذب في خدمتها يكون تحت إمرتها يثير إعجابها ويسليها ويحرسها وتكافئه بتقبيل يدها أو بما هو أكثر في السر والكنمان إذا كان الزوج مشغولاً أو متعباً. ولم يكن من خطر كبير على الزوجة والرفيق بل إن الزوج في بعض الأحيان كان يقدر مساعدة هذا الرفيق Cavaliere Servente، وربما تعمد أن يتغيب بعض الوقت ليتيح لهما إتمام المراد. وعلى هذا شعرت الكونتيسة بأن من حقها أن تتجذب إلى الوجه الإنجليزي الوسيم ومناقشاته المثيرة وشفثيه الجذابتين، أو على حد قولها في وقت لاحق: إن ملامحه النبيلة الجميلة الرائعة، ونغمة صوته وطباعه وآلاف الأشياء الساحرة الفاتنة التي تحيط به - جعلته مختلفاً تماماً عن كل من رأيتهم ومخلوقاً أسمى بكثير منهم، فكان من المستحيل ألا يفتنني وألا يترك تأثيراً عميقاً في نفسي. فمنذ ذلك المساء كنت ألتقى به كل يوم خلال كل فترة إقامتي في البندقية (101) وانتهت أيام السعادة الطانشة هذه عندما أخذ الكونت زوجته تيريزا وعاد إلى رافنا Ravenna، فأرسل لها بايرون تعهدات بالبقاء على حبه، ففي 22 أبريل سنة 1819 مثلاً أرسل إليها يقول: أوكد لك أنك ستظلين حبي الأخير، فقبل أن أعرفك شعرت باهتمام بكثير من النسوة لكنني لم أرتبط بواحدة بعينها. أما الآن فأنا أحبك وليس في حياتي حب آخر لامرأة أخرى سواك على وفق ما نعلم فقد حفظ عهده. وفي الأول من يونيو غادر البندقية في عربته النابليونية الثقيلة (المقصود المشيدة على طراز عربية نابليون) متوجهاً إلى رافنا كسائح يبحث عن آثار دانتي Dante فحبت به تيريزا، وكان زوجها الكونت لطيفاً كيساً، وكتب بايرون إلى أحد أصدقائه: إنهم يجعلون للحب هنا مساحة كبيرة من وقتهم ولا يشوهون سمعة شخص إلا قليلاً (201) وسمح له باصطحاب تيريزا إلى الميرا La Mira (إلى الجنوب من البندقية بسبعة أميال) حيث كانت له فيلا هناك، وهناك باشر معها الحب من كل موضع ولم يعقه إصابتها بداء البواسير (301) وانضمت إليهما أليجرا Allegra في الفيلا فجعلت جو المجموعة محترماً. ووصل توم مور واستلم الآن من بايرون مخطوطة كتابه (حياتي ومغامراتي) التي أحدثت كثيراً من الفتن والاضطرابات بعد موت المؤلف. ومن الميرا La Mira أصطحب بايرون، تيريزا إلى البندقية حيث عاشت معه في قصره Palazzo Mocenigo وأتى والدها ليردها إلى جادة الصواب فأخذها معه إلى رافنا ومنع بايرون من الذهاب معها. وعند وصولها إلى رافنا سقطت مريضة، وكان مرضها شديداً لا ادعاء فيه حتى إن زوجها الكونت أسرع باستدعاء عشيقها (بايرون) الذي وصل في 42 ديسمبر سنة 1819 وبعد أن قام ببعض الجولات استقر في الطابق الثالث في قصر الكونت مقابل دفع إيجار. وأحضر معه في مقره الجديد قطنين وستة كلاب وحيوان الغرير badger وصقرا وغبابا مدجنا وقرداً وثعلباً. وفي خضم هذه الحياة التي انشغل فيها بأمر مختلف كتب سطوراً كثيرة. في مؤلفه (دون جوان) وبعض مسرحيات عن دوقات (دوجات) البندقية غير قابلة للتمثيل على المسرح (مسرحيات ذهنية) ودراما جيدة عن سردانا بالوس Sardanapalus وفي يوليو سنة 1811 كتب (قابيل: سره Cain, A Mystery) ذلك العمل الذي به أصبح اسمه مكروها تماماً، وموضع مقت شديد في إنجلترا.

المشهد الأول في هذا العمل يظهر آدم وحواء، وقابيل (قايين) وأخته التي هي زوجته في الوقت نفسه Adah، وهابيل وأخته التي هي زوجته في الوقت نفسه Zillah يستعدون للصلاة وتقديم الأضاحي لله (جيهوفاه أو ياهوفاه Jehovah) ووجه قابيل لوالديه بعض الأسئلة - وهي أسئلة تحير بايرون في مرحلة الدراسة: لم خلق الله الموت؟ إذا كانت حواء قد أكلت من شجرة المعرفة، فلم زرع الله هذه الشجرة المحرمة في مكان ظاهر بجنة عدن؟ ولم كان طلب المعرفة خطيئة؟ ولماذا أصدر الله قراره بأن يعمل الجميع وأن يصبح الموت مصير الأحياء عقاباً على وجبة بسيطة تناولتها حواء؟ وظهر الشيطان (Lucifer) Lightbearer واعلى خشبة المسرح - كما عند ميلتون - وأعلن نفسه متبهايا واحداً من تلك:

- الأرواح التي تجاسرت على النظر إلى وجه الطاغية (يقصد الله سبحانه وتعالى)

- الذي لا فناء له، ليقول له

- إن أفعاله الشريرة غير صالحة.

وتعود Adah (زوجة قابيل) لتطلب من قابيل الانضمام إلى العمل مع أهله في الحقل، لأنه أهمل ما يخصه من العمل في هذا اليوم وأنها قامت بعمله بدلاً عنه، وهي تدعوه الآن لقضاء ساعة حب واستحمام. فوبّخها إبليس Lucifer بأن وصف لها الحب بأنه شرك أوطعم للإنجاب والتوالد وتنبأ لها بقرون من الكدح والنضال والمعاناة وبموت ينتظر الجموع التي ستتطلق للوجود من رحمها... وأعد قابيل وهابيل مكاناً (مذبحاً) لتقديم الأضاحيات، فضحى هابيل بأول قطيعه، وقدم قابيل فاكهة، لكنه بدلاً من أن يصلي ويدعو راح يسأل ثانية لم يسمح الله بالشر؟ ونزلت نار متألقة من السماء أحرقت حمل هابيل (دليل قبول أضحيته)، وأطاحت ريح غاضبة بأضحية قابيل فألقته إلى التراب فغضب وحاول تدمير مذبح (مكان تقديم الأضحية) هابيل فقاومه، فضربه قابيل فمات. ووبّخ آدم حواء باعتبارها المصدر الأول للخطيئة فلعلنت حواء قابيل لكن Adah (زوجة قابيل) دافعت عنه لا تلعبه يا أمي، فهو أخي وزوجي ny betrothed وأمر آدم قابيل أن يرحل عنهم وألا يعود، فلحقت Adah بقابيل وعوقبت بمثل عقابه، ولأن هابيل مات

ولم يكن له ولد، فإن كل البشر (كما استنتج بايرون) من ذرية قابيل ويحملون طباعه في غرائزهم، تلك الطباع المتمثلة في العنف والقتل والحرب. ويبدو قابيل مرات عديدة وكأنه طالب ملحد لم يقرأ سفر الجامعة في العهد القديم Ecclesiastes، ومع هذا ترقى هذه الدراما في بعض الأحيان إلى مستوى قريب من كتابات ميلتون القوية. وقد امتدح والتر سكوت هذا العمل، وكان بايرون قد أهداه إليه (كتب اسمه في صفحة الإهداء) وقال جوته (تكتب أيضا جيته) لن نرى جمالا كجمال هذا العمل مرة ثانية في هذا العالم (401) ولاشك أنه كان قد فقد منظوره الأولمبي للحظات عندما قال هذا. أما في إنجلترا فقد أدى نشر هذا العمل إلى موجة من النقد الساخط والرعب. لقد اعتبره الإنجليز قابيل آخر بل اعتبروه قاتلا أسوأ منه - إنه يقتل العقيدة التي حمت آلاف الأجيال وساندتهم. وحذر الناشر مري اللورد بايرون من أنه يفقد بسرة قراءه. والصورة التي رسمها بايرون لزوجة قابيل المخلصة Adah تقدم برهانا آخر على الجوانب العظيمة في شخصيته، لكن معاملته لأليجا وأمها تظهر قسوته. فالطفلة التي كانت سعيدة يوما ما بلغت الآن الرابعة من عمرها، وكانت تعسة لبعدها عن والديها، فأرسل بايرون يستدعيها إلى رافنا وحتى عندما أتت لم يستطع إلا بالكاد أن يطلب منها العيش معه ومع مجموعة حيواناته في قصر الرجل الذي أصبح معروفا بسطوته غير المريحة، وبعد تكبير طويل وضعها في دير في باجنا سافالو Bagnacavallo التي تبعد عن رافنا باثني عشر ميلا (في أول مارس 1281) وهناك سيكون لها - كما افترض - صداقات فتبتعد عن طريقه وتتلقى قدرًا من التعليم، ولم يزعج أن تصبح كاثوليكية بل العكس فقد شعر أنها ستصبح في مأساة إن نشأت بلا دين في إيطاليا، فكل النساء فيها (إيطاليا) كاثوليكيات متمسكات بالكاثوليكية حتى في علاقاتهن غير الشرعية. والأهم من كل هذا فإذا كان لا بد للمرء أن يكون مسيحيا فالأفضل أن يسير في الطريق إلى منتهاه فيؤمن بما آمن به الدعاة الأوائل للمسيحية (الرسل Apostles) ويؤمن بالقداس والقديسين (الأولياء) ويصبح كاثوليكيًا. لقد كتب في 3 أبريل سنة 1281 إنني أربح أن تصبح أليجرا من الأروام الكاثوليك فدينهم أفضل الأديان (المقصود أفضل المذاهب المسيحية) (501) وعند ما أصبحت أليجرا مستعدة للزواج رأيت أنها لن تجد صعوبة في الارتباط بالزوج المرتقب، وأنها سيخصص لها مبلغ 4,000 جنيه. وكان هذا ملائما لبايرون، ولكن عندما وصلت هذه الأخبار إلى كلير كليرمونت اعترضت وتأثرت عاطفيا على نحو مثير وطلبت من شيلي أن يعمل على إعادة إليجا إليها فذهب شيلي إلى رافنا ليرى أحوال أليجرا فاستقبله بايرون في 6 أغسطس 1281 بترحاب فكتب شيلي لزوجته إن اللورد بيرون في أطيب حال وابتهج لرؤياي وقد استعاد صحته تماما ويعيش حياة غير الحياة التي كان يعيشها في البندقية (فينيسيا) (601). وقد أخبره بايرون أن الظروف السياسية سرعان ما ستجبره للانتقال إلى فلورنسا أو بيزا، وسيأخذ أليجرا معه وستكون - بذلك - قريبة من أمها، ورصي شيلي بذلك، وصرف اهتمامه إلى شيء سيصبح حالا أكثر تأثرا بالنسبة إليه.

لقد أصابه الرعب (أي شيلي) عندما علم أن المربية إليز Elise - مربية أليجرا - التي كان قد طردها من خدمته في سنة 1281) قد أخبرت الـ Hoppners أنه كان على علاقة جنسية سرية بأليجرا حتى إن كلير قد وضعت له طفلا في فلورنسا وضعه فوراً في ملجأ للقطاء، وأكثر من هذا أن شيلي وكلير كانا يعاملان ماري بطريقة تدعو للخجل ووصل الأمر إلى حد أنه كان يضربها. فكتب الشاعر الذي اعترضته الدهشة إلى ماري (في أغسطس) طالبا منها أن تكتب للـ Hoppners مكدبة هذه الأقاويل، فقبلت ماري لكنها أرسلت خطابها إلى شيلي ليوافق على ما ورد به، فأظهره لبايرون وعول عليه في تسليم هذا الخطاب للـ Hoppners واستاء شيلي إذ وجد أن بايرون كان يعلم بهذه الإشاعات وكان - فيما هو واضح - يصدقها. وبدأت الصداقة الشهيرة بينهما تبرد وزاد برودها عندما انتقل بايرون من رافنا إلى بيزا تاركاً أليجرا في ديرها.

هذا التغيير كان نتيجة تفاعل الحب والثورة في إهاب واحد. ففي يوليو سنة 1281 استصدر والد تيريزا - الكونت رجيرو جامبا Ruggero Gamba من الإدارة الباباوية أمراً باباويًا (فتوى) بانفصالها عن زوجها مع حصولها على نفقة منه شريطة أن تعيش مع والديها. فانتقلت إلى بيت والديها بناء على هذا، وكان بايرون لا يزال يعيش في قصر جويشبولي Guriccioli فأصبح يزور أسرة جامبا Gamba بشكل متتابع، وابتهج لأنه وجد جامبا وابنه بيتر وكانا زعيمين في حركة الكاربوناري Carbonari وهي تنظيم سري يعمل على الإطاحة بالحكم النمساوي في شمال إيطاليا والحكم الباباوي في وسطها وحكم البوربون في نابلي لمملكة الصقليتين (جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية) وكان بايرون في (نبوءة دانتي) الصادرة سنة 9181 قد دعا الشعب الإيطالي أن يهب للتحرك من حكم الهبسبورج والبوربون. وفي سنة 0281 شكك الجواسيس النمساويين في أنه يدفع أموالاً لشراء أسلحة للكاربوناري، ووضعت ملصقات ملكية في رافنا مطالبة بإعدامه (701). وفي 42 فبراير سنة 1281 فشلت حركة العصيان المسلح التي قام بها الكاربوناري وهرب قادتها من المناطق الإيطالية الخاضعة للبوربون. وذهب الكونت جامبا وابنه إلى بيزا وسرعان ما لحقت بهما تيريزا بناء على نصيحة بايرون، وفي الأول من نوفمبر سنة 1281 وصل بايرون إلى بيزا واستقر في الكازا لانفرانشي the Casa Lanfranchi في الأرنو the Arno حيث كان شيلي قد استأجر بالفعل غرفا لاستقباله. والآن سيأتي المحك الأخير لصداقتهم.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> التباين

13- التباين

لقد كان كل من الشعارين قد وصل الآن إلى ذروة تطوره. لقد كان على الأكبر سنا منهما أن ينظم بعض القصائد في عمله (دون جوان) التي اشتملت على عداء مريب لإنجلترا، عداء لم يكن حتى الغاليون (الفرنسيون) يستسيغونه. وكان علمه *The vision of Judgment* (أكتوبر 1281) يمثل هجاء لا يرحم لكن سبق سوئي (صئي *Southey*) بعمله *A vision of Judgment* (أبريل 1281) قد حرض على الثأر منه (من بايرون) بإطلاق زعيم المدرسة الشيطانية في الشعر الإنجليزي عليه (على بايرون) وقد هوى عليه بايرون بنقده الماهر الساخر. وفي مؤلفاته الأخيرة هذه ابتعد بايرون عن روح (شايلد هارولد) الرومانسية والانقباض والمرارة، ليتخذ موقفاً أكثر كلاسية متجها نحو العقل والمنطق وروح الفكاهة، وإن كان لا يزال ينقصه الاعتدال. وتظهر خطاباته - خاصة تلك التي أرساها إلى الناشر مري - نضجاً أكثر لأنها تحتوي على نقد ساخر ينطوي على نقد ذاتي وتفحص لأعماله كما لو أنه اكتشف أن التواضع يفتح الباب للحكمة. لقد كان متواضعا فيما يتعلق بشعره إنني أضع الشعر أو الشعراء في مرتبة فكرية سامية. وقد يبدو هذا انحيازاً لكنه رأيي الحقيقي... إنني أفضل المواهب العملية - مواهب الحرب في مجلس الشيوخ أو حتى في مجال العلم - فتلك أفضل من تأملات الحالمين الذين لا يملكون إلا الحلم (801). وقد امتدح شيلي إنساناً لكنه فكر كثيراً في شعره كفاتنازيا طفولية *Childish fantasy*. وكان تواقاً لتقييمه كإنسان أكثر من تقويمه شاعراً، وكان واعياً - بشكل مؤلم - بمظهره، وكان يفضل الركوب على المشي لأن إصابة قدمه اليمنى كانت تصرف النظر عن وجهه الوسيم، وكان موقفه من الطعام متذبذباً متغيراً فطورا يفرط في الطعام وطورا يقوم بحمية، ففي سنة 8081 كان وزنه 491 رطلا (وطوله خمس أقدام وثمانية بوصات ونصف البوصة)، وفي سنة 2181 تدهى وزنه ليصبح 721 رطلا وفي سنة 8181 أصبح سمينا وبلغ وزنه 202 رطلا. وكان فخوراً بإنجازاته الجنسية وكان يرسل تقارير إحصائية بعدد هذه الإنجازات لأصدقائه. وكان عاطفياً وغالبا ما يفلت زمام مشاعره منه. وكان متألقاً من الناحية العقلية لكنه لم يكن مستقراً. قال جوته (جيبته) في لحظة من اللحظات يصبح بايرون طفلاً (901).

أما من الناحية الدينية فقد بدأ كلفنياً (من أتباع مذهب كلفن البروتستنتي) ففي عمله [شايلد هارولد] تحدث عن الباباوية كبرتستنتي متحمس باعتبارها (زانية بابلية) (011) وفي سني العشرين قرأ الفلسفة فأحب سبينوزا وفضل عليه هيوم وأعلن أنا لا أنكر شيئا لكنني أتشكك في كل شيء (111) وفي سنة 1181 كتب إليه صديق من مذهب مسيحي يقال له مذهب المهنتين: أنا لا أدري ماذا أفعل بالخلود الذي تقول عنه. وبعد ذلك بعشر سنوات كتب: أعتقد أنني لا أشك كثيراً في خلود الروح (211) وفي إيطاليا تأثر بمن حوله وما حوله وبدأ يفكر في الكاثوليكية، وعندما حضر صلاة التجسد (أو صلاة التبشير) تطلع إلى حالة السلام (الصفاء) التي بدت للحظات تخيم على حياة أهل إيطاليا جميعاً، وكتب طالما تمنيت أن أكون قد ولدت كاثوليكية (311) وفي أواخر حياته (3281) راح يتحدث - كما كان يتحدث في صباه - عن الله، وعن القضاء والقدر وكون الإنسان لا يملك من أمره شيئاً (411). وعندما كان في مرحلة المراهقة فقد عقيدته الدينية ولم يجد قيماً ومعنويات يرتمي في أحضانها في أدب أو فلسفة وبالتالي لم يجد وازعا يقاوم حواسه وعواطفه ورغباته، وكان عقله المتحرر وفكره المنقلب يجدان أسباباً حافزة للاستسلام لرغباته ولم تتكشف له فحوى حكمة

القيود التي فرضها المجتمع. ومن الظاهر أنه كبح ميوله للشذوذ الجنسي وعوضَ منها بالصدقات الحميمة المخلصة بل لقد استسلم لمفاتن أخته، وفي ديوانه (شايلد هارولد) يخبرنا بجسارة عن حبه:

لوأحدة ذات صدر ناهد

ارتبط صدره بصدرها برباط أقوى

من الارتباط بالكنيسة (أو أقوى من رباط تعقده الكنيسة)(511)

وعندما أدانه المجتمع الإنجليزي لإطلاقه العنان لشهوته أو لفشله في إخفائها، أعلن الحرب على النفاق الإنجليزي أو بعبارة أخرى تظاهر الإنجليزي بالفضيلة، وراح يهجو الطبقات العليا المكونة من قبيلتين قويتين وأدان استغلال أصحاب المصانع للعمال، بل ودعا أحيانا للثورة:

يحمي الله الملك والملوك

لأنه إن لم يفعل، أشك أن يستمر البشر!

أظن أنني أسمع طائرا صغيرا يغني قائلا:

سيغدو الشعب - عما قريب - أقوى..

وكذا سواد الناس

الكل أخيرا سيتخلى عن العمل الزائف..

سأقول سعيدا: ياللتعاسة!

إذا لم أدرك هذه الثورة

فيمكنني وحدي أن أنفذ العالم من دنس جهنم(611).

وعلى أية حال فإنه لم يكن ميالا للديموقراطية فلم يكن يثق في الجماهير وكان يخشى أن تؤدي الثورة إلى دكتاتورية أسوأ من دكتاتورية الملك أو البرلمان. وكان يرى بعض المزايا في حكم الأرستقراطيين بالمولد ويتطلع إلى أرستقراطية نظيفة عاقلة مدربة تتسم بالكفاءة. فلم ينس أنه هو نفسه لورد فسرعان ما عارض رفع الكلفة والمساواة فقد كان يعرف أن وجود مسافة أو حدود في العلاقات الاجتماعية يُضفي سحراً عليها. وتغيرت نظرته لنابليون مع مرور الأحداث مادام نابليون قد توج نفسه إمبراطورا وسلح نفسه بالألقاب فقد رآه بايرون خيرا صيغة وسطية بين الملوك والجماهير. لقد كان بايرون يدعو أن ينتصر نابليون على كل ملوك أوربا حتى عندما كان نابليون يغزو إسبانيا وروسيا دون مبرر واضح، وقد وبخ الإمبراطور المهزوم (نابليون) لنتازله عن العرش بدلاً من أن ينتحر لكن عندما عاد نابليون من إلبا Eiba عاد الشاعر (بايرون) يدعو له بالنصر ثانية على كل أعدائه المتحالفين ضده. وبعد ست سنوات عندما سمع بموت نابليون حزن حزنا شديدا لقد كانت الإطاحة به سهما أصاب رأسي فمنذ مات أصبحنا عبيداً للأغبياء(711).

لقد كان بايرون خليطاً مربكاً من الأخطاء والفضائل، ففي حال غضبه يصبح فظاً قاسياً، وفي أحواله العادية نجده ودوداً متحفظاً كريماً. لقد كان يعطي أصدقاءه بكرم غير محسوب، فقد نقل إلى روبرت دالاس حق نشر (حق المؤلف في النشر) وكان هذا الحق يساوي ألف جنيه، ودفع ألف أخرى لفرانسيس هودجسون فأنقذه بذلك من الإفلاس، ووصفته تيريزا جويشيولي التي كانت تراه تقريبا كل يوم بأنه ملك (بفتح اللام) حقيقي(811). لقد كان - أكثر من كولردج بكثير - كبير ملائكة محطم يحمل في جسمه ميراثاً من الصدوع، وضحها وكان خلاصه منها بالجرأة وكتابة الشعر بوفرة وقوة الفكر الثوري مما دفع جوته العجوز إلى وصفه بأنه أعظم عبقرية أدبية في قرننا(911). وبالمقارنة فقد كان شيلي ملكاً (بفتح اللام) غير مؤثر ذا طابع تاريخي، لكننا لانستطيع أن نقول إنه غير مؤثر تماماً فمن هو القائل إن أوراق الشجر ستنبت عند تجسد أشعاره. لم يضع بعض البذور لتنمو في جو التسامح الديني وتحرر المرأة وانتصار العلم وقيام التكنولوجيا وتآلق الفلسفة وامتداد الحقوق الدستورية وإصلاح البرلمان مما جعل القرن التاسع عشر قرناً مدهشاً؟

وكان شيلي ملكاً (بفتح اللام) بشرياً تماماً، فقد كان له جسد استسلم لطلباته على الأقل من خلال إغوائه زوجتين على الهروب معه، دعنا من الحديث عن إيميليا فيفاني. لقد كان نحيلاً معتل الجسد، يعاني ألماً دائماً في ظهره. وكان بطبيعة الحال مفرط الحساسية - ربما أكثر من بايرون - للمثيرات الداخلية والخارجية فلنذكر خطابه المؤرخ في 61 يناير 1281 لكثير كليرمونت: أنت تسأليني أين أجد المتعة؟ إن الريح والنور والهواء ورائحة الورد تؤثر في وتثير عواطفني(021) وكان مثلنا جميعاً معجباً بنفسه على نحو خاص. لقد اعترف لجودون (82 يناير 2181) يبدو أن إفراطي في الأنا لا ينضب له معين(121) وعندما أخذ ماري جودون، وطلب من زوجته هاريت أن تصبح علاقته بها مجرد علاقة الأخ بأخته، فإنه كان يبحث عن إرضاء شهواته مثله في ذلك مثل أي كائن معرض للموت، وبرر الأمر

لنفسه بأنه هاريت أقل من ماري اتفاقاً معه في فلسفته وأفكاره. وكان له رأي متواضع في شعره (لم يكن شاعراً مغروراً) إذ كان يصنف أشعاره في رتبة أدنى من أشعار بايرون. وكان مخلصاً متحفظاً في صداقته إلى النهاية. لقد كتب بايرون مخبراً الناشر مري بوفاة شيلي لقد كنتم جميعاً قساة ومخطئين في حق شيلي، فقد كان - بلا استثناء - أقل من عرفت أنانية أو بعبارة أخرى أفضل الأثانيين الذين عرفتهم. إنني لم أعرفه بهيمة ترتدي ثياب البشر مقارنة بالآخرين (221) وذكر هوج Hogg الشاعر بأنه غريب الأطوار ينسى واجباته ووعوده، يستغرق في التأمل والتفكير فينسى الزمان والمكان (321). وهو بشكل عام غير عملي لكن ليس من السهل خداعه في أمور المال، ولم يتخل عن حقوقه الموروثة قبل نضال شديد.

وكان متوتر الأعصاب شديد الاستثارة مما يحول بينه وبين أن يكون مفكراً هادئاً، وكانت تنقصه روح الفكاهة عند مناقشة أفكاره، وكان مغرماً دوماً بالخيال، فكان يهرب من الواقع إلى أحلام اليقظة. لقد اقترح أن نتخلص من الملوك والمحامين ورجال الدين، وأن نتحول إلى الحياة النباتية - مكتفين بتناول النباتات ممتنعين عن تناول اللحوم، كما كان يدعو لتخليص العلاقات الجنسية للبشر من كل القيود. إنه يرى أن كل هذه الأمور والقيود طارئة ليس لها أساس في طبيعة الإنسان ولا في ماضيه البيولوجي. لقد قالت أرملته المخلصة كان شيلي يعتقد أن البشر لا يجب أن يتطلعوا إلا للقضاء على الشر... لقد احتفى بهذا الرأي احتفاء بالغاً (421). وكاد يهمل التاريخ إلا أنه كان يرى الإغريق مثاليين ولكنه كان يجهل أن الأغريق مارسوا الاسترقاق

ونحن نميل إلى المبالغة في بساطة شيلي لأننا ننسى أن الموت عاجله فلم يتركه يعيش حتى مرحلة النضج - لقد عرفنا بايرون وشيلي وهما لما يصلا بعد إلى مرحلة النضج فوصلا إلى قلوبنا كشاعرين رومانسيين كانا مفيدين جدا للحركة الرومانسية في إنجلترا، أما لو أنهما عاشتا حتى الستين لكان من المحتمل أن يكونا مواطنين محافظين، وفي هذه الحال ربما كانت مكانتهما في التاريخ أكثر تواضعاً، لكن موتها المبكر جعلها علمين في عالم الرومانسية.

الإ أن شيلي كان حقيقة قد أصبح بالفعل وهو في الثامنة والعشرين معتدلاً، ففي سنة 0281 كتب مقالاً جوهرياً بعنوان نظرة فلسفية للإصلاح نشره بعد كتابته بعام، أعلن فيه أن الشعراء الفلاسفة هم مشرعو العالم غير المعترف بهم (521). الشعراء لأنهم صوت الخيال يأتون بأفكار جديدة تدحض كثيراً من السخافات السائدة، وهذه الأفكار

الجديدة تثير في وقت من الأوقات الناس وتحفزهم إلى التجربة والتقدم. والفلاسفة لأنهم يخضعون القضايا الاجتماعية للفكر العقلي الهادئ، وينظرون إليها بمنظور السنين. وكان شيلي - مثله في ذلك مثل بايرون والإنسانيين - ساخطاً لأحوال العمال في مصانع إنجلترا، كما كان مستاء من البرود الذي تعامل به مالتوس في كتاباته مع مشكلة السكان وطريقة ضبطها بينما (أي مالتوس) ترك الأجور ليحكمها قانون العرض والطلب (621). وأدان البروتستانتية

والكاثوليكية معاً لفشلها في إضفاء روح المسيح على العلاقة بين الأغنياء والفقراء (721). واقترح فرض ضريبة على الأثرياء لسداد الدين الوطني الذي تتطلب فوائده السنوية الباهظة فرض ضرائب ثقيلة على العامة (821). وأشار إلى أن زيادة السكان فيما بين 9861 و 9181 قد أخل بالتناسب بين المصوتين Voters وغير المصوتين مما جعل انتخاب أعضاء البرلمان قاصراً على أقلية صغيرة، وهذا يعني من الناحية العملية حرمان الشعب من حق

الاقتراع (921). وقد غفر لأرسقراطية ملاك الأراضي لأنها تجذرت بمرور الزمن وأصبحت راسخة من الناحية القانونية (ربما بالنظر إلى مستقبل آل شيلي) وكان يبارك انتقال الثروة بطرق معتدلة، لكنه كان يحققر البلوتوقراطية (حكم طبقة الأثرياء) ممثلة في التجار وأصحاب المصانع والماليين (031). وامتنع من آراء مكيافيلي التي تعفي الحكومة من الالتزام بالأخلاق: فالسياسات في الواقع هي أخلاق الأمم (131) ودافع عن الثورة الفرنسية وامتدح حكومة نابليون القنصلية وتبرأ من نابليون عندما توج نفسه إمبراطوراً وحزن لهزيمة فرنسا في واترلو (23).

ولم يجد كتاب شيلي (دفاع عن الشعر) الذي كتبه سنة 1281 ناشراً حتى سنة 0481. وهنا وجدنا الشاعر الذي نفى نفسه الآن يسقط الفلاسفة، ويعلي من شأن الشعراء باعتبارهم مشرعي العالم الأكثرين رقياً (331). ولقد عبر عن رأيه هذا الذي اطمأن إليه في مقدمة (بروميثيوس المنطلق): كتاب عصرنا العظماء هم الذين يواكبون (أويسقون إلى) بعض التغيرات التي لا يمكن تصورها في نظامنا الاجتماعي أو في الأفكار والآراء المرتبطة به. إن لدينا أسباباً

معقولة لقولنا هذا. فسحابة العقل تفرغ ضياءها المتجمع. والتوازن بين المؤسسات institutions والآراء يعود الآن أو لنقل إنه على وشك العودة (431). لكنه عاد الآن ليضيف: سيكون عصرنا عصراً خالداً بسبب إنجازاته الفكرية، فنحن نعيش وسط فلاسفة على شاكلة كانط وفيتشة وهيجل وشلنج وجودون وشعراء من أمثال جوته (جنتية) وشيلير، ووردزورث، وكولردج وبايرون وشيلي فاقوا كل من تقدموا منذ النضال الوطني الأخير للمطالبة بالحريات المدنية والتحرر الديني (2461) (531).

وعلى النقيض من ذلك وجدنا شيلي يقلل من شأن دور العلم في إعادة تشكيل الأفكار والمؤسسات، وكان العلم قد بدأ بالفعل في تحقيق دوره في هذا المجال. لقد حذر من ترك التقدم العلمي يسبق التطور الأدبي والفلسفي - فالعلم ليس

أكثر من أداة لتحسين أدواتنا tools بينما التطور الأدبي والفلسفة هو غايتنا(631). وإلا زاد ثراء الأقلية الماهرة وأدى ذلك إلى زيادة تركيز الثروة والسلطة(731).
لقد انتقل استياء شيلي من أمور حميه المالية إلى فلسفة جودون. وقد استكشف شيلي كتابات أفلاطون من جديد (كان قد ترجم جانباً من حواراته) وانتقل من الاتجاه الطبيعي إلى التفسير الروحي للطبيعة والحياة. إنه الآن يشك في هيمنة العقل وقدرته المطلقة وفقد حماسه للإلحاد. وكلما اقترب من سن الثلاثين. وجدناه يتوقف عن مهاجمة الأمور الغيبية في الدين. إنه الآن يفكر في أن الطبيعة هي الشكل الخارجي أو الظاهري لروح (جوهر) داخلي، وتفكيره على هذا النحو يشبه كثيراً تفكير وردزورث الشاب (في هذه النقطة). ولا بد أن يكون هناك نوع من الخلود فالقوة الحيوية (الروح) في الفرد تنتقل بعد موته إلى شكل أو كيان آخر لكنها لاتموت(831).

صفحة رقم : 14680

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> نشيد بيزا

14- نشيد بيزا

1281 - 2281

عندما وصل بايرون إلى بيزا كان قد تجاوز تاريخه الجنسي بالكاد منذ فترة، فيما عدا ذكرياته المثالية كما في أبياته العرضية (التي أدرجها بين نشيدين) في (دون جوان). وفي بيزا كانت تيريزا جويشيولي تعيش مع بايرون لكن المودة بينهما كانت قد قلت. كان يقضي معظم وقته مع أصدقائه وأصدقاء شيلي وكان يرتب لهم وجبة غداء أسبوعياً، وكانت المناقشات تجري حرة في هذه الأثناء، وكان شيلي يحضر ويجلس مهذباً لكنه كان حاسماً في سوق حججه، وكان ينسحب قبل أن يبدأ تناول الخمور شديدة التأثير. وحاولت تيريزا أن تعطي لحياتها الهادئة روحاً بصداقتها لماري شيلر، وبقراءة التاريخ لتجاري ماري في اهتماماتها. ولم يكن بايرون موافقاً على دراسة تيريزا للتاريخ مفضلاً أن تكون المرأة جذابة وفاتنة وأن تكون عقلها تابعاً لهذه الجاذبية وتلك الفتنة أو بتعبير آخر أن يكون عقلها في المحل الثاني. وكان ينسى أليجا. ودبرت أمها مع ماري شيلي الذهاب إلى فلورنسا ليدير ثلاثتهم خطة للذهاب إلى رافنا لإبعاد الفتاة وإحضارها لتعيش في مناخ أفضل للصحة، ولتعيش حياة أرحب. ورفض شيلي السماح بهذا، وأنت بعد ذلك أخبار مفادها أنه في 02 أبريل سنة 2281 ماتت في الدير بالملايا وهي في الخامسة من عمرها. وكان لهذا الخبر أثره في فتور العلاقة بين شيلي وبايرون. وفي بواكير هذا الربيع كتب إلى لاي هنت Leig Hunt : ثمة ميول خاصة في شخصية اللورد بايرون تحول دون الاقتراب منه والتودد معه ، وهو ما وجدت نفسي أعاني منه .. فهو أمر لا يحتمل . يا صديقي العزيز هذا ما أعترف به وأقضي به إليك ، ثقة مني فيك(931).
لقد حاول أن يخفي استياءه لأنه كان قد حدث بايرون على دعوة هنت إلى بيزا لتحرير مجلة جديدة (الليبرالي - Liberal) التي خطط بايرون وشيلي أن يبدأ بها كشعبة أو فرع من المستخلص ربع السنوي Quarterly

المحافظة. وأرسل بايرون إلى هنت المفلس 052 جنيتها فأبحر مع أسرته من لندن آملا أن يصل جنوة في أول يوليو سنة 2281 ووعد شيلي بلقائه هناك. ومن الناحية الظاهرية كانت الشهور الستة الأولى من هذا العام الحاسم فترة سعيدة للشاعرين. فقد كانا يذهبان راكبين كل يوم تقريبا إلى نادي الرماية ليجربا براعتهما في إصابة الهدف. وكاد شيلي بضارع بايرون في هذا المجال. لقد كتب إلى بيكوك إن صحتي تحسنت، ومشاعلي قلت، ورغم أن شينا لن يعالج مشكلة تضاول أموالني فإن جيوبني تبدو كجيوب الأثرياء دائما خاوية، لكن أموالهم لا تنتفد تماما (041) وفي يناير توفيت زوجة والد بايرون فتركته (رغم انفصاله عن زوجته) وقد أضافت إلى دخله السنوي ثلاثة آلاف جنيه، فأمر - سعيدا - ببناء يخت مناسب في جنوة وعين جون تريلاوني قائداً له وأطلق على يخته هذا اسم بوليفار احتفاءً بثائر أمريكا الجنوبية ودعا شيلي وصديقيه الجديدين إدوارد وويليمز وتوماس مذنون للانضمام إليه مع آل جامبا في رحلة باليخت في الصيف القادم. وشارك شيلي وويليمز بقارب أصغر طوله 84 قدما وأقصى عرض له ثمانين قدما وكانت تكلفته ثمانين جنيتها وأطلق عليه تريلاوني اسم (دون جوان) إلا أن ماري غيرت اسمه إلى (أريل) (Ariel 141). وفي انتظار حلول الصيف للقيام بالرحلة، أقام بايرون في هذه الأثناء بفيلا دوبوي Dupuy بالقرب من يجورن (جنوة) واستأجر شيلي وويليامز لأسرتيهما الكازا ماجني Casa Magni بالقرب من ليريسي Lerice على ساحل خليج سبتسيا (سببزيا Spezia) إلى شمال جنوة بأربعين ميلاً. وفي 62 أبريل 2281 انتقل شيلي وويليامز إلى المقر الجديد (الكازا ماجني) وراحا ينتظران تسلم القارب (الجديد).

صفحة رقم : 14681

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> تضحية

15- تضحية

شيلي 2281

شيء من نزوات الشعراء هو الذي أملى اختيار هذا المكان الموحش لقضاء إجازة فيه. لقد كان الكازا ماجني Casa Magni واسعا جدا بالنسبة إلى أسرتين كما أنه لم يكن مؤثنا، وكان قديما يقترب من الانهيار. وكانت الغابة تحيطه من ثلاث جهات، أما واجهته فكانت تطل على البحر الذي كان يقذف بأواجه أحيانا إلى أبوابه. وقد راحت ماري شيلي تتذكر فيما بعد قائلة: لقد احتفت بنا الرياح الهوجاء والعواصف عند وصولنا، وكان أهل المنطقة أكثر وحشة من المكان. وبمجرد أن ارتطمت سفينتنا بجزيرة البحار السبعة حتى كدنا نشعر أننا أبعد ما نكون عن الراحة والحضارة (241).

وفي 21 مايو وصل القارب أرييل Ariel من جنوة، فابتهج وويليامز الذي سبق له العمل في البحرية، وابتهج شيلي الذي لم يكن يجيد السباحة، وراحا يقضيان كثيرا من الفترات بعد الظهر أو في الماء وهما يبحران على طول الساحل. ولما كان شيلي في أي وقت مضى سعيدا بمثل هذه السعادة الفائقة. وكانت النسوة أحيانا ينضممن إليهما في

نزهاتهما هذه، لكن ماري أصبحت حاملاً مرة أخرى وكان المرض يعاودها ولم تكن سعيدة لأن زوجها لم يتركها تقرأ خطابات أبيها الحزينة(341).

وقد كتب شيلي في المنزل أو القارب قصيدته الأخيرة انتصار الحياة التي توقف فيها عند البيت رقم 445 بسبب رحلته الأخيرة. ولم يكن هناك انتصار في هذه الرحلة لأنها تصف مواكب الأجناس البشرية المختلفة في طريقها للفشل والانحطاط مسرعة إلى الموت. وفي البيت رقم 28 نجد تأثير روسو، فالشاعر هنا يتعرض لغباء الحضارة، فهو يظهر مشاهير التاريخ - أفلاطون وقيصر وقسطنطين وفولتير و نابليون - وقد وقعوا في أحابيل الاندفاع المجنون نفسه نحو الثروة والسلطة، ويوصي بالعودة إلى الحياة الطبيعية البسيطة، ولا يجد خلاصاً للبشر إلا بذلك.

لم يكن شيلي قد بلغ الثلاثين بعدما فكر في الانتحار في 81 يونيو سنة 2281. لقد كتب إلى تريلاوني: أيمكنك أن تقابل أي عالم يستطيع أن يحضر حامض البروسيك أو خلاصة زيت اللوز المر... سأعتبر ذلك فضلاً كبيراً إن أنت وفرت لي قدراً قليلاً من هاتين المادتين... إنني سأدفع أي مبلغ مطلوب مقابل هذا الدواء... لست في حاجة لأن أخبرك أنني لا أنوي الانتحار في الوقت الحاضر لكنني أعترف لك أنني سأكون مرتاحاً إذا ما امتلكت المفتاح الذهبي لغرفة أرتاح فيها راحة أبدية(441).

وربما رغبة منه (شيلي) في مساعدة زوجته المريضة - دعا كلير كليرمونت أن تأتي من فلورنسا لقضاء الصيف في الكازاماجني، وبالفعل أنت في أوائل شهر يونيو وكان هذا وقتاً مناسباً لمساعدة ماري في عملية الإجهاض المهلكة. وفي 22 يونيو كان شيلي على وشك الانهيار العصبي وكان يعاني كوايبس مرعبة جداً حتى إنه كان يهب فزعا ويجري من غرفته إلى ماري وهو يصرخ. وفي أول شهر يوليو وصلتهم الأخبار أن لاي هنت وأسرتة قد وصلوا إلى جنوة وأنهم يستعدون لمغادرتها بقارب نقل للانضمام إلى بايرون. وكان شيلي تواقاً للترحيب بصديقه المخلص، ولتيسير استقبال بايرون له (لهنت) ولتدعيم شريكه الذي تضاعلت مصالحه في إصدار مجلتهما الجديدة، فقرر أن يبحر فجأة مع ويليامز في القارب أرييل Ariel إلى ليجورن. وكانت ماري قد أرهقت بالكارثة (حدثها قلبها أن كارثة ستقع) لقد طلبت منه الأيقوم بهذه الرحلة مرتين أو ثلاث. ورحت أصرخ بمرارة عندما ذهب (541) وغادر القارب أرييل (كازا ماجني) في ظهر الأول من يوليو ووصل ليجورن بأمان في التاسعة مساءً. وحيثاً شيلي صديقه هنت بسعادة وفرح لكنه أصيب بالإحباط عندما علم أن السلطات التسكانية قد أمرت آل جامبا Gambas بمغادرة البلاد فوراً وأن بايرون الذي قرر أن يلحق بنيريزا كان يخطط لمغادرة ليجورن حالاً ليلحق بها في جنوا. ومع هذا وافق بايرون على الاحتفاء باتفاقيته مع هنت وخصص له ولأسرتة غرفاً في الكازا لانفرانشي Casa Lanfranchi في بيزا pisa، فصحبهم شيلي إلى بيزا فلما اطمأن إلى مقامهم عاد إلى ليجورن في السابع من يوليو. وقضى صباح الأحد الموافق 8 يوليو في شراء مستلزمات أسرتة في كازا ماجني. وحثه ويليامز على الإسراع لانتهاز فرصة الرياح المناسبة إلى ليريسي Lerici، وكان قائد السفينة (البوليفار) قد تنبأ بهبوب عاصفة بعد ظهر هذا اليوم ونصح بتأخير الإبحار يوماً، إلا أن وليم كان يلح على الإبحار حالاً، فوافق شيلي وفي نحو الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر أبحر القارب أرييل Ariel من ليجورن وعلى متنه شيلي وويليامز وبحار شاب هو شارلز فيفان.

وفي نحو السادسة والنصف من هذا اليوم هبت عاصفة عنيفة مصحوبة برعد ومطر على خليج سبيريا Spezia فهرعت مئات السفن والقوارب إلى داخل الميناء. وفي كازا ماجني كانت العاصفة قاسية جداً حتى إن النسوة الثلاث مكثن قلقات يعزين أنفسهن قائلات إن الزوجين لم يبحرا في هذه العاصفة وإنهما في أمان في ليجورن. ومضى يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس. وراحت ماري في وقت لاحق تتذكر ما حدث: إن الكرب الحقيقي الذي عانيناه في هذه اللحظات يفوق كل كرب وضفته والقصص والروايات، فمهما ذهب الخيال لايمكن أن يعبر عن حالتنا تلك، فعزلتنا، وطبيعة السكان الفظة في القرية المجاورة ومجاورتنا للبحر الهائج، كل ذلك تضافر معاً ليبعث فينا رعباً غريباً(641) وفي يوم الجمعة وصل خطاب من هنت إلى شيلي يضم سطورا جلبت مزيداً من الرعب إلى قلوب المرأتين المنتظرتين: أخبرنا كيف وصلت منزلك لأنهم قالوا إن الطقس لم يكن مناسباً بعد إبحارك ونحن قلقون. وركبت جين وويليامز وماري طوال النهار ليصلا إلى بيزا. وفي منتصف الليل وصلنا إلى كازا لانفرانشي، فوجدت بايرون وهنت هناك فأكدوا لهما أن شيلي وويليامز غادرا ليجورن يوم الأحد، فركبا ليلاً ووصلا ليجورن في الساعة الثانية صباح السبت 31 يوليو، وهناك حاول تريلاوني وروبرتز تهدئتهما بقولهما إن الأمواج ربما تكون قد أزاحت القارب إلى إلبا أو كورسيكا. وعهد بايرون إلى روبرتز بركوب (البوليفار) للبحث في البحر وعند السواحل بين ليجورن وليريسي Lerici، وصحب تريلاوني كلا من جين وماري وفي بحث غير مجد على طول الساحل بحثاً عن أخبار عن الرجلين المفقودين ومكث مع المرأتين المنتحبتين في كازا ماجني حتى 81 يوليو، ثم فارقهما لإجراء مزيد من التحريات. وفي 91 يوليو عاد إليهما وأخبرهما بكل ما في جعبته من لطف أن جتتي زوجيهما قد عثر عليهما بالقرب من فيارجيو Viareggio في 71 أو 81 يوليو. (وفي 03 يوليو ثم العثور على جثة شارلز فيفان مشوهة على بعد أربعة أميال إلى الشمال وتم دفنها على الساحل) واصطحب ماري وجين إلى بيزا وعرض عليهما بايرون الإقامة

في كازا لانفر انشي لكننا استأجرا غرنا بالقرب منه. وكتبت ماري إلى إحدى صديقاتها إن لورد بايرون رفيق جدا بي، وغالبا ما يأتي مع جويشيولي لرؤيتنا(741). وكان أهالي المنطقة قد دفنوا بالفعل الجثث في الرمال وقانون تسكانيا يمنع نقل الجثث التي تم دفنها لإعادة دفنها من جديد في مكان آخر، لكن تريلاوني كان يعلم رغبة زوجة شيلي في دفن رفات زوجها بالقرب من رفاة ابنه وليم في روما، فحث سلطات تسكانيا للسماح بإخراج رفاتة على أن يتم حرقها على الساحل، وكانت جثة شيلي وصديقه قد تعفنتا أو تأكلتا فصعب تعرفهما، إلا أنهم وجدوا في أحد جيوب معطف أحدهما مجلدا لسوفوكليس وفي الجيب الآخر مجلداً لكيتس (Keats 841).

وفي 51 أغسطس، وقف هنت، وتريلاوني مع مسؤول الحجر الصحي، والكابتن شنلي Shenley وهو ضابط إنجليزي بينما تولت مجموعة من الجنود إحراق بقايا ويليامز. وفي اليوم التالي تم النيش عن رفاة شيلي وتم إحراقه في حضور بايرون، وهنت وتريلاوني وبعض الفلاحين المجاورين، وقذف تريلاوني في اللهب المشتعل في الرفات عطورا ونبيذا وزيتا وراح يترنم ببعض الدعوات طالبا أن يعود رماده إلى الطبيعة التي عبدها(941). ولم يطق بايرون تحمل المشهد إلى نهايته فسبح إلى (البوليفار) وبعد ثلاث ساعات تقريبا كان كل الجسد [الرفات] قد أصبح رمادا خلا القلب، فانترعه تريلاوني من النار معرضا يده للإصابة بالحروق. وتم نقل رماد الرفات في سلة إلى روما، وتم دفنها في مقبرة جديدة بالقرب من مقبرة قديمة للبروتستانت تضم رفات ابنه وليم. أما قلب شيلي مقدمه تريلاوني لهنت الذي فقدمه بدوره لماري، وعند موتها في سنة 1581 تم العثور على رماد القلب في نسختها من كتاب أدونيس Adomus.

صفحة رقم : 14682

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> التجلي

16- التجلي

بايرون 2281 - 4281

في سبتمبر 2281 انطلق بايرون وآل جمبا Gambas من بيزا إلى ألبارو Albaro إحدى ضواحي جنوا. لقد أرهق بايرون بدنه وعقله منذ غادر إنجلترا، فبدأ يضجر حتى من حب تيريزا غير المضجر. لقد أزاحت عيناه الحادثان وروحه الساخرة ما على وجه الحياة من حجاب ويظهر أنه لم يترك حقيقة تحفره على الإخلاص والمثالية. لقد كان أشهر شاعر على قيد الحياة لكنه لم يكن معتزا بشعره فالآلام المحمومة التي ظهرت في عمله (شابلد هارولد) بدت الآن تتم عن جبن، والملاحظات الساخرة في (دون جوان) تركت المؤلف والقارئ وقد خاب أملهما وتحررا من الوهم. إنه يشعر الآن أن على الإنسان أن يقدم للبشرية شيئا أكثر من الشعر(051) وفي جنوا طلب من طبيبه أن يدلّه على أفضل سم وأسرع مفعولا(151). وعرض عليه اليونانيون موتا يخلصه. لقد سقطت اليونان في أيدي الترك (العثمانيين) في سنة 5641 وأصبحت مخدرة في ظلال حكم أجنبي. وكان بايرون قد دعا اليونانيين في قصيدته

الطويلة (شايلد هارولد) (النشيد 2\الأبيات 37 - 48) للثورة ضد حكم الأتراك (العثمانيين): أيها الأرقاء! slash
ألا تعلمون أن تحرركم يحتاج إلى هبة كالإعصار؟ وثار اليونانيون في سنة 1281 لكن كان ينقصهم السلاح والمال
والوحدة، وكانوا يصرخون طالبين المساعدة من الأمم التي استقادت من تراثها الخصب، وأرسلت اليونان لجنة إلى
لندن طالبة العون المالي، وأرسلت اللجنة ممثلين إلى جنوا متحدية بايرون أن يرسل بعض أمواله للتعجيل بالثورة التي
كان يدعو إليها. وفي 7 أبريل 3281 أخبر المبعوثين أنه رهن إشارة الحكومة اليونانية المؤقتة.

لقد تحول بايرون من الشعر إلى العمل. إنه قد كرس نفسه الآن للأفعال لا الأقوال. لقد أفسحت التعبيرات الساحرة
الطريق للعمل من أجل قضية. لقد تنحى الشعر، وخرجت الرومانسية من إهابها لتبحث عن حل. وبعد أن خصص
جانبا من ميزانيته لآل هنت، وتبريزا على نحو خاص، جعل ما تبقى من ثروته لصالح الثورة اليونانية. لقد أصدر
تعليماته لوكلائه في لندن لبييعوا كل ما يملك في إنجلترا ویرسلوا إليه المبالغ، وباع (البوليفار) بنصف تكلفته واتفق أن
تقوم سفينة إنجليزيه لتسقله هو، وبيتر وجمبا وتريلوني إلى اليونان وأن تكون السفينة مزودة ببعض المدافع
والذخيرة وإمدادات طبية تكفي ألف رجل مدة عامين. وناضلت تريزا لإثنائه عن عزمه كي يكون إلى جوارها،
فرفض بركة ورضى عندما علم أنها والديها قد حصلوا على إذن بالعودة إلى رافنا، وأخبر الليدي بليسجنون لدى
شعور أنني سأموت في اليونان. أتمنى أن يتحقق هذا، فلو حدث لكان خير نهاية لحياة كئيبة جدا(251).

وفي 61 يوليو أبحرت السفينة (Hercules) من جنوا قاصدة اليونان. وبعد تأخير كان مدعاة لسخطه رست في 3
أغسطس في ميناء أرجوستوليون Argostolion في سيفالونيا أكبر الجزر الأيونية. وبوصولهم لهذه الجزيرة يكونون
على بعد خمسين ميلا من اليونان لكن بايرون أجبر على تضييع عدة شهور فيها. لقد كان يأمل أن ينضم في
ميسولونجي Missolonghi بأهم الزعماء اليونانيين لكن ماركو بوزاريس Bozzaris كان قد لقي حقه في أثناء
العمليات، وكانت ميسولونجي في أيدي الأتراك العثمانيين كما كانت السفن الحربية العثمانية تتحكم في كل السواحل
المؤدية إلى البر اليوناني من جهة الغرب. وفي بواكير شهر ديسمبر استعاد الأمير أليگزاندروس مافروكورداتوس
Alexandros Mavrokordatos، ميسولونجي، وفي 92 من الشهر نفسه غادر بايرون جزيرة سيفالونيا وكتب
الكولونيل ليسستر ستانهوب Leicester Stanhope ممثل اللجنة اليونانية التي كانت تجمع الأموال في إنجلترا
لمساعدة الثورة اليونانية - كتب من ميسولونجي: الكل يتطلع إلى وصول اللورد بايرون كما لو كانوا ينتظرون المسيح
المخلص(351) ووصل المخلص الشاب بعد عدة مغامرات وبعد اجتياز عدة مشاكل أدت لتأخره إلى ميسولونجي في
4 يناير سنة 4281 فتلقاه الأمير والناس بفرح غامر.

وعهد إليه مافروكورداتوس بقيادة ستمائة من السوليتو Sulitos، وتقديم المؤن لهم ودفع رواتبهم (والسوليتو فرقة
انتحارية جزء منها يونانيون وجزء ألبان ولم يكن منظرهم ملهما للورد بايرون وكان يعرف أن الثورة اليونانية
منقسمة إلى فصائل متنافسة تحت قيادات ذوات ميول سياسية أكثر منها حربية. ومع هذا فقد كان سعيدا للقيام بدور
فعال ولم يتأخر عن تقديم المساعدة. لقد قدم إلى مافروكورداتوس وحده نحو ألفين من الجنيات كل أسبوع لتمويل
أهالي ميسولونجي بالطعام والمشروبات. وفي هذه الأثناء كان يعيش في فيلا شمال المدينة بالقرب من الساحل. يقول
تريلاوني: عند حافة أسوأ مستنقع رأيته في حياتي. وثبت أن السوليتو غير منضبطين وبميلون للتمرد، وكانوا مشتاقين
لأموالهم أكثر من رغبتهم لطاعة أوامره. وكان الشاب لوشينفار يأمل تأجيل الأعمال العسكرية حتى يتم استعادة النظام
والانضباط، ولم يكن تريلاوني ميالا للتأجيل فمضى يبحث عن المغامرة في أي مكان. ولم يبق إلا بيترو جامبا
Gamba قريبا من بايرون يرعاه قلما عليه لمعاناته من الحرارة والفرز والمالاريا.

وفي 51 فبراير أصبح وجه بايرون على حين فجأة شاحبا في أثناء زيارة الكولونيل ستانهوب، وسقط مغشيا عليه
وراح في حالة تشنج فاقد الوعي. واستعاد وعيه فتم نقله إلى فيلته وتجمع حوله الأطباء وراحوا يفسدون بعلاقات
تسحب الدم، وعندما تم إبعاد العلاقات لم يتوقف نزيف الدم ووهن بايرون وأصبح يعاني من نقص دمه. وفي 81
فبراير تمرد رجال الكتيبة التابعة له (السوليتو) مرة ثانية مهددين باقتحام فيلته وقتل كل الأجانب الذين يقابلونهم. فهب
من سريره وهدأهم لكن أمه في قيادتهم ضد الترك في ليبانتو كان قد تلاشى وضاع بذلك حلمه بموت بطولي
مثمر. وتلقى خطابا - كان كالعزاء له - من أوجستا لاي Augusta Leigh به صورة لابنته أدا Ada مع وصف
لعادات الطفلة وميولها كما قدمته أنابلا - فالتمعت عيناه بالسعادة للحظات، فقد تنكرت له كل الأمور التي ألفها الناس.
وفي 9 أبريل ذهب راكبا إلى بيترو Pietro وفي أثناء العودة دهمهم مطر عنيف وفي هذه الليلة عانى بايرون من
القشعريرة والحمى. وفي 11 من الشهر نفسه زادت حالته سوءا فلزم سريره وشعر بانهايار قواه وأدرك أنه على وشك
الموت. وفي أيامه العشرة الأخيرة كان يفكر أحيانا في الدين لكنه ذكر الحقيقة أنني أجد صعوبة في معرفة ما يجب
الاعتقاد فيه في هذا العالم وما لا يجب. هناك أسباب كثيرة معقولة تدفعني لأن أموت متعصبا، تماما كذلك الأسباب
التي جعلتني أعيش حتى الآن مفكرا حرا(451) وذكر الدكتور جوليس ميلينجن - طبيبه الرئيسي:

يجب أن أذكر بأسف لاحد له أنه رغم كوني لم أفارق وسادة اللورد بايرون خلال فترة مرضه الأخيرة إلا نادراً، فلم أسمع يشير إلى الدين أية إشارة ، غير أنني في لحظة واحدة سمعته يقول هل سأطلب الرحمة؟ وبعد فترة صمت طويلة قال تعال! تعال! لاضعف، فلاأكن رجلاً حتى النفس الأخير. وهذا الطبيب نفسه يرون عنه قوله: لا ترسلوا جثتي إلى إنجلترا. دعوا عظامي تقنى هنا! اطرحوني في أول ركن دون جلبية ولاتصرفات حمقاء(551).

وفي 51 ابريل، بعد أن انتابته حالة تشنج أخرى سمح لأطبائه بقصد دمه ثانية، فأسالوا منه رطلين من الدماء ورطلين آخرين في فترة لاحقة، ومات في 91 أبريل 4281. وأظهر تشريح جثته - ولم يكن هذا أمراً معتاداً - إصابته بتبولن الدم (اختلاط بوله بدمه) ولم تكن هناك علامات على إصابته بداء الزهري (السيفس) وظهرت أدلة أن كثرة الفصد والأدوية المسهلة (المسببة للإسهال) كانتا هما الأسباب الأخيرة لموته. وكان مخه من أكبر الأمخاخ المعروفة - إذ كان يزن 017 جرامات وهو رقم يزيد على أعلى متوسط لمخ الإنسان العادي(651). وربما أضعفه وعجل بنهايته ما عرف عنه من إفراط في الأمور الجنسية، وإفراطه في تناول الطعام أحياناً، وإفراطه في الحمية أحياناً أخرى بغير ضابط، فقد أضعف كل هذا مقاومته للإجهاد والقلق والهواء الرطب المحمل بالعفونة.

ولم تصل أخبار موته إلى لندن حتى 41 مايو، إذ حمل هوبهوس هذا الخبر إلى أوجستا لاي، وقد صدما معاً بهذا البناء. والآن عاد هوبهوس لمشكلة المذكرات السرية لبايرون. لقد كان مور Moore قد باعها للناسر مري Murray بمبلغ ألفين من الجنيهات، فحاول هذا الأخير دفعها للمطبعة رغم تحذير مستشاره وليم جيفورد قائلاً على حد تعبير هوبهوس إنها لا تصلح لإلبوت الدعارة والمواخير وستسبب كثيراً جداً إلى اللورد بايرون وستلحق به عاراً أبدياً إن نشرت(751).

واقترح مري وهوبهوس إتلاف المخطوطة، واعترض مور ولكنه وافق أن يترك الأمر لرأي السيدة لاي Leigh فكان من رأيها إحراق المذكرات، وتم ذلك بالفعل، وأعاد مور الألفي جنيه إلى مري. وأصر فلتشر الخادم العجوز الذي صاحب لورد بايرون على أن سيده قد عبر عن رغبته قبل موته بقليل أن يدفن في إنجلترا، إلا أن السلطات اليونانية وعامة اليونانيين اعترضوا على ذلك لكن كان عليهم أن يقتنعوا بأجزاء من أمعائه تمت إزالتها قبل تحنيطه. وتم حفظ بدنه باستخدام 001 جالون من الخمر، ووصلت الجثة بالفعل إلى لندن في 92 يونيو، وتم تقديم طلب لسلطات كنيسة وستمنستر لدفن الشاعر في الركن المخصص للشعراء فيها لكن الطلب لم يلق قبولا. وفي 01\9 يوليو سمح للعامة بإلقاء نظرة على الرفات المكفن فأقبل أناس كثيرون من قلبي الذكر، لكن بعض ذوي الحيثية سمحوا بأن تسير عرباتهم الخالية (أي التي لم يكونوا هم أنفسهم فيها) بالسير في الموكب الذي واكب الجثة من لندن إلى نوتنجهام في 21 - 51 يوليو. ورأت كلير كليرمونت، وماري شيلي من النافذة، موكب الجنازة وهو يتحرك. وفي 61 يوليو جرى دفن الشاعر في قبو أجداده بجوار أمه في كنيسة هكنال توركارد Hucknall Torkard - وهي قرية بالقرب من مبنى نيوسنيد، وهو مبنى دير قديم لم يعد يستخدم كدير Newstead ·Abbay

صفحة رقم : 14683

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> بريطانيا -> الشعراء الثوريون -> الباقرن على قيد الحياة

عاش معظم من لعبوا أدوارا في حياة بايرون الحافلة في الحقبة التالية لوفاته. وكان أسرهم لحاقاً به هو بيبتر و جامبا الذي عاد ليونان بعد أن رافق جثمان بطله (بايرون) إلى لندن، وظل وفيها للثورة اليونانية ومات بالحمى في سنة 7281 - وأصبحت الليدي كارولين لامب مريضة جدا عندما أخبرها زوجها أن جثمان بايرون قد مر في طريقه إلى مثواه الأخير، وكانت قد هجته في روايتها (6181Glenarvon) لكنها الآن تقول إنني أسفة على كل كلمة غير طيبة قلتها في حقه(851).

وقد عاشت بعده ما لا يقل عن أربع سنوات - وورثت أوجستا لاي بناء على وصية من بايرون كل ما تبقى من ثروته تقريبا (نحو مائة ألف جنيه) وأنفقت معظمها في دفع ديون زوجها وأولادها الناتجة عن المقامرة، وماتت فقيرة سنة 2581(951) - والليدي بايرون ظلت تذكر بشيء من الخير الرجل الذي تسببت شروره الموروثة لعنة لزوجها. لقد كتبت طوال ما بقي لي من حياة تظل مشكلتي الرئيسية هي أنني لا أتذكره بمودة كبيرة(061). ومع هذا فبعد كل الأمور التي اتضحت أقول لقد كان هناك موجود (إنسان) أفضل بكثير.. لقد كان صدره يعتمل بما هو أفضل.. لقد كان كثير التحدي لكنه لم يستطع التدمير أبدا(161). وابنتهما أدا Ada التي كان اللورد بايرون يعقد عليها الآمال تزوجت من الإيرل الثاني للوفيلاس Lovelace وفقدت ثروتها في الرهان على سباق الخيل وأنقذتها أمها من الإفلاس، وفقدت صحتها وآمالها - كأبيها - فماتت في السادسة والثلاثين (2581) وحاولت الليدي بايرون أن تملأ وحدتها بالعمل في مجال الخدمة العامة، وماتت في سنة 0681. ودخل جون كام هوبهوس البرلمان كراديكالي، وارتقى ليصبح وزيرا في فترة الحرب (2381 - 3381) وأصبح بارونا ومات في سنة 9681 في الثالثة والثمانين من عمره. وعادت تيريزا جويشبولي - بعد وفاة بايرون - إلى زوجها لكنها سرعان ما عملت على الانفصال عنه، وتم لها ما أرادت. وكونت علاقات لم تطل مع صديق بايرون الأعرج هنري فوكس ومع لامارتين الشاعر الفرنسي المعجب ببايرون. وتنتقلت بين العاشقين، ولم يطل مقامها مع أي منهم إلا قليلا وأخيرا تزوجت وهي في السابعة والأربعين من ماركيز بوسي Marquis da Boissy وكان ثريا لطيفا يقدمها لمعارفه وأصدقائه بفخر قائلا: زوجتي، والعشيق السابقة لبايرون. (على وفق وجهة النظر الإنجليزية المجحفة شيئا ما) وعندما مات الماركيز اشتغلت بتحضير الأرواح (الاتصال بأرواح الموتى) وتحدثت مع روح بايرون وروح زوجها الذي مات وقالت: إنهما معا الآن، وهما أفضل الأصدقاء - تقصد يصادق كل منهما الآخر صداقة مخلصمة عميقة(261) وماتت في سنة 3781 في الثانية والسبعين من عمرها بعد أن كتبت عدة كتب تصور فيها بايرون كعبقري ورجل مهذب لاعيوب فيه - وماتت كلير كليرمونت في سنة 9781 عن عمر يناهز الواحدة والثمانين وظلت حتى آخر أيامها متمسكة برأيها في بايرون بأنه مجرد تركيبة من العيب والغباء وكل ضعف بائس - فلما تجتمع في مخلوق بشري واحد(361).

أما ماري شيلي فرغم ما لحقها منه ببعض الضرر فقد كانت تحتفظ لألبي Albe [كما كان يطلق عليه المحيطون به - أي ببايرون -] بمشاعر أكثر وداً، فعندما علمت بوفاته كتبت أه يا ألبي Aibe (المقصود اللورد بايرون) - أيها العزيز الفاتن المتقلب ألبي - غادرت هذا العالم الخرب، فليمنحني الرب موتا باكرا في شبابي(461) وأمضت كثيرا من وقتها فيما تبقى لها من العمر (72 سنة) في تحرير كتب زوجها بحب ورعاية مستخدمة فصاحتها وقدرتها على البيان.

أما لاي هنت الذي كان قد تجاسر وامتدح أشعار شيلي في الوقت الذي أدانها كل النقاد تقريبا باعتبارها أوهام مراهقة - فقد ظل مخلصاً لراديكاليته الشبابية وكتب مذكرات معادية لبايرون، وظل على قيد الحياة حتى 9581. أما توماس جيفرسون هوج فبعد تجارب عاطفية مختلفة - تزوج من أرملة ويليامز (جين) وعاش معها السنوات الخمس والثلاثين الباقية من حياته. وكان الأكثر لفتاً للنظر هو إدوارد جون تريلاوني الذي دخل حياة شيلي في بيزا، وكان كلاهما في الثلاثين من عمره. وكان شيلي يقترب من نهايته، بينما كان على تريلاوني أن يعيش تسعا وخمسين سنة أخرى. لقد كان هذا الفارس الجوال... الداكن الوسيم ذو الشارب الكبير (كما وصفه هنت) قد قام بكثير من المغامرات في كثير من البلاد، حتى إن استعادته لما مر به من ذكريات وأحداث لم يكن يسبب ضيقاً لأصدقائه الجدد. ورغم أن بايرون قد عينه مسؤولاً عن خيوله وعن قاربه الفخم (بخته) بوليفار، فقد كان يحب كثيرا شيلي هذا الصبي الأمد حسن الطباع. وبعد أن شهد وصول بايرون بأمان إلى ميسولونجي (وإن كان - أي بايرون - قد اضطر للبقاء هناك دون قدرة على الحركة لفترة) انطلق لبيحث عن قدره متوقفاً أن يموت في سبيل القضية اليونانية. لقد رأى اليونان وهي تتحرر فواصل تجواله وعاش حتى سنة 1881 وتم دفنه في مقبرة اشتراها في سنة 2281 بالقرب من رفات (رماد) شيلي في المقبرة الإنجليزية في روما.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> مقدمة الترجمة

الكتاب الرابع

ملوك أوروبا في مواجهة التحدي

2181 - 9871

مقدمة الترجمة العربية

يتناول هذا الكتاب: كيف واجه ملوك أوروبا خطر الثورة الفرنسية ونابليون؟ لم يكن هذا في رأي مؤلفي هذا الكتاب (ول ديورانت وزوجته) بالحرب فقط، فالحروب كما يقول لنا المؤلفان هي الألعاب النارية في التاريخ (راجع الفصل 62)، وإنما كان في الأساس - وببساطة - بأن نقلوا إلى بلادهم ما وجدوه حسناً متمشياً مع روح العصر في هذه الثورة الفرنسية. لقد أخذوا بشيء كثير من التنظيمات النابليونية والقوانين النابليونية، بل لقد أخذوا من الدستور الفرنسي (راجع على سبيل المثال الفصل الخاص بالإمبراطورية الروسية، خاصة القسم المتعلق بالإمبراطور اسكندر) واتخذوا خطوات للقضاء التدريجي على الإقطاع بإتاحة ملكية الأرض لكل أبناء الوطن الواحد كخطوة تمهيدية ليصبح الجميع ملاكاً (راجع على سبيل المثال جهود شتاين Stein في الفصل الخاص بألمانيا)، ورغم أنهم راحوا يركزون على الدين ويحمون الكنائس التقليدية في بلادهم كأداة جماهيرية فعالة في مواجهة الملحد نابليون - على حد قولهم، إلا أنهم أيضاً وجدوا من الحكمة أن يأخذوا بما طبَّقه نابليون من حرية اعتقاد للأقليات الدينية بل وحمية المنشقين عن الكنيسة الرسمية شريطة ألا يهددوا الأمن العام، بل وإعطائهم معظم حقوق المواطنين العاديين (كما حدث في روسيا وألمانيا والنمسا) وإن تقاعست أسبانيا والبرتغال عن هذه الخطوة لأسباب تاريخية. بعد أن اتخذ ملوك أوروبا هذه الإصلاحات أتى دور الألعاب النارية التي حقق فيها ملوك أوروبا النصر العسكري على نابليون، بعد أن كانت تحالفاتهم ضده. قد فشلت تحالفاً إثر تحالف. وبذلك جنت شعوب أوروبا كلها ما في الثورة الفرنسية من جوانب إيجابية وتحاشت سلبياتها التي اكتوت بنارها فرنسا من حروب داخلية، وصراع طبقي دام ومقصلة جزّت من الرؤوس أكثر مما جز أي سلطان عثماني كما يقول المؤلفان في معرض تقويمهما الحضيف للدولة العثمانية. ولم تكن هذه أول حالة في التاريخ ينتصر فيها المهزوم انتصاراً حضارياً على هازميه، فالمؤرخ الأمريكي روم لاندو يذكر لنا أن المغول بعد أن اجتاحت العالم الإسلامي، بل ودمروه، اعتنقوا دين ضحاياهم الأرقى حضارة وفكراً وأخذوا بمؤسساتهم ونظمهم بل وراحوا يعمرّون ما سبق لهم تدميره. إننا هنا إزاء حالة انتصرت فيها الحضارة الإسلامية رغم هزيمة المسلمين. القول نفسه ينطبق شيئاً ما على الثورة الفرنسية ونابليون، لقد خرجت جيوش نابليون من أوروبا لكن بقيت

المدونة القانونية النابليونية. خرجت جيوش نابليون لكن خرجت معها محاكم التفتيش وتقلصت سلطة الباباوات ولم تعد أبداً كما كانت.

في الفصل الخامس والعشرين يظهر لنا المؤلفان أن حركة تحرير المستعمرات الإسبانية والبرتغالية في العالم الجديد، بدأت بسبب إنهاك نابليون للدولتين المستعمرتين: إسبانيا والبرتغال، وفي الفصل السادس والعشرين يبين لنا أن الجذور التاريخية لحركة الوحدة الإيطالية بعد ذلك - إنما تعود لجهود نابليون في توحيد إيطاليا تحت سلطانه، وفي الفصل التاسع والعشرين يرى المؤلفان أن تكوين نابليون لكونفدرالية الراين، وإثارته حفيظة الشعوب الألمانية كان هو الأساس التاريخي لقيام الوحدة الألمانية بعد ذلك.

والطريف أن المؤلفين يركزان هنا على ما سبق أن ألمحنا إليه في مقدمة المجلد الثالث، وهو أن المسيحية في أوروبا أصبحت غطاء للشملة أكثر منها عقيدة محكمة، بعد أن تعرض شرق أوروبا للاجتياح العثماني. إنه يقول لنا إن معظم رجال الدين البروتستانت في بروسيا كانوا يرون المسيح رجلاً محبوباً أو بتعبير آخر مثله كمثل آدم، وإنهم رغم إيمانهم بهذه الحقيقة فإنهم لم يكونوا يصرحون بها (الفصل الثلاثون)، وكان بيتهوفن يقرأ الشعر الفارسي (الفصل 82)، ولم يرد أبداً في أحاديثه أو كتاباته أية إشارة للمسيح كرب (الفصل 82) وإنما تحدث وهو غير بعيد عن الموت عن الواحد القدوس (الفصل 82) وكان يعتبر الارتباط بزوجة رجل آخر زناً، ولم يتسامح أبداً مع زوجة أخيه عندما زنت، وظل يقاضيهما لينزع منها حضانه ابن أخيه لأن الزانية لا تصلح لحضانه ابن أخيه. وكان المؤلف قد علل في الفصل السادس والعشرين اهتزاز العقيدة المسيحية بتقدم العلم، فكلما ظهرت الحقائق العلمية انهارت الكنيسة أو تقهقر الإيمان المسيحي... وبينما كان بيتهوفن يحتضر أشاروا عليه بإحضار القس فوافق وبعد أن انتهى القس من طقوسه قال بيتهوفن: انتهت المهزلة أو المسخرة أو الملهاة (كوميديا فينييتا) ورجح المؤلفان أن بيتهوفن كان يقصد انتهت الحياة، ولا يقصد طقوس القس، ويبقى هذا - على أية حال - استنتاجاً قابلاً للجدل. وقد وصف أحد أصدقاء بيتهوفن الرجل بأنه مثل (المور Moor) إشارة إلى هيئته الغربية وعدم وسامته لكن هذا لا يمنعنا في ضوء ما سبق من استنتاجات أخرى، لكن بيتهوفن على أية حال كان يعترف بأنه غير وسيم، فقد كتب لأحدهم طالباً منه أن يبحث له عن عروس شريفة أن تكون جميلة، فمن غير المعقول أن أحب أي شيء غير جميل، وإلا لكنت قد أحببت نفسي وعتب بيتهوفن على خالقه بأسلوب غير مهذب لأنه خلقه بهذا الوجه النكد. على أية حال فقد كان أحد أسباب سخط بيتهوفن على نابليون أن هذا الأخير عقد اتفاقاً (كونكورد) مع الكنيسة. هذا المجلد إذن كالمجلدات السابقة غاص بالتحليلات الجديدة، والعرض الطيب لهذه المرحلة التاريخية المهمة. وعلى الله قصد السبيل.

د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ

صفحة رقم : 14685

قصة الحضارة - < عصر نابليون - < ملوك أوروبا في مواجهة التحدي - < أيبيريا - < البرتغال

الفصل الخامس والعشرون

أيبيريا

وصلت أخبار الثورة الفرنسية إلى البرتغال التي كانت تناضل للعودة إلى نظم العصور الوسطى المحافظة بعد المحاولة العنيفة المخزية التي قام بها الماركيز دي بومبال Pombal لجعل البرتغال تابعة في ثقافتها وقوانينها لفرنسا لويس الخامس عشر، وإسبانيا شارل الثالث Charles III. وكانت جبال البرانس تعوق تدفق الأفكار من فرنسا إلى شبه الجزيرة الأيبيرية. وكان يحول بين انتقال الأفكار من إسبانيا إلى البرتغال شغف إسبانيا وتوقها المتكرر لابتلاع أختها الصغرى (البرتغال)، وكان ممثلو محاكم التفتيش طوال قرنين يبدون كأسود على بوابة قصر يصدون أية كلمة وأية فكرة تشكك في العقيدة الدينية القديمة أو تضعها موضع تساؤل.

وفي أدنى السلم الاجتماعي كان هناك حرس آخر يحمي الماضي ويدافع عنه: العوام البسطاء الذين كانوا في غالبيتهم يجهلون القراءة والكتابة - الفلاحون والحرفيون والعمال والجنود، فقد كانت هذه الطوائف قد أنست إلى عقائدها المتوارثة وارتاحت إلى ما بها من أساطير، واعتزتها الخشبية لما بها من معجزات وتفاعلت بتقوى شديدة مع طقوسها. وفي أعلى السلم الاجتماعي كان البارونات الإقطاعيون هم ملاك الأرض الذين يتصرفون بشكل نموذجي على وفق ما هو مطلوب في عصرهم، وكانت الملكة ماريا فرانسيسكا Maria Francisca الرعية الواهنة العقل، وابنها جون الوصي على العرش (9971) والذي أصبح ملكا (6181 - 6281)، يعتمدان على الكنيسة كأداة للحماية، وكوسيلة لا بد منها لدعم أخلاق الأفراد، وضبط النظام الاجتماعي ومؤازرة الملكية المقدسة ذات الحق الإلهي والسلطة المطلقة ووسط كل هذا الحرس المدافع عن القديم، كانت هناك قلة قليلة - الدارسون والماسونيون والعلماء والشعراء ورجال الأعمال، وقلة من الموظفين، بل واحد من النبلاء أو اثنين - يزعجها الحكم المطلق الذي ورثته البلاد عن الماضي، وكان أفراد هذه القلة يغزلون الفلسفة ويحلمون بحكومة تمثيل نيابي، ويحلمون بحرية التجارة وحرية الصحافة وحرية الاجتماع وحرية الفكر، ويحلمون بمشاركة فعالة متجاوبة مع فكر العالم.

وأنت أخبار الثورة الفرنسية لتسبب البهجة لتلك القلة المرتدة، ولتسبب الرعب لذوي المقامات الرفيعة ومحاكم التفتيش، وعبر غير المتحفظين عن فرحتهم بشكل ينم عن الطيش، واحتقت المحافل الماسونية في البرتغال بهذا الحدث (الثورة الفرنسية) وهلل السفير البرتغالي في باريس للجمعية الوطنية الفرنسية، وربما كان قد قرأ كتابات روسو أو سمع خطب ميرابو، وسمح وزير الشؤون الخارجية في البرتغال للجريدة الرسمية بنشر تحية لسقوط سجن الباستيل، وراح أصحاب المكتبات الفرنسيون في البرتغال يبيعون نسخاً من دستور 1971(1).

لكن عندما عزل ثوار باريس الملك لويس السادس عشر أحست الملكة ماريا أن عرشها يهتز وسلمت الحكم لابنها. وانقض جون الرابع (كما سيصبح اسمه فيما بعد) بشراسة على الليبراليين في البرتغال، فشجع مدير شرطته على ملاحقة كل ماسوني، وكل أجنبي ذي شأن، وكل كاتب يدعو للإصلاح السياسي، بالقبض عليهم، أو نفيهم أو مراقبتهم بشكل دائم. وجرى سجن فرانسكو دا سيلفا Francisco do Silva زعيم الليبراليين، وجرى إبعاد النبلاء الليبراليين عن البلاط. وسجن مانويل دي بوكيج (5671- 5081) الشاعر البرتغالي الرائد في عصره الذي كان قد كتب قصائد (سونيتات) قوية ضد الطغيان، فراح يستغل وقت فراغه في السجن في ترجمة أوفيد Ovid وفيرجيل (2) Virgil. وفي سنة 3971 حذت البرتغال حذو إسبانيا فشنّت حرباً مقدسة على فرنسا بأن أرسلت أسطولاً صغيراً لينضم إلى الأسطول البريطاني في البحر المتوسط، والحقيقة أن تصرف البرتغال على هذا النحو كان يعبر عن استيائها الشديد من إعدام الملك الفرنسي لويس السادس عشر لكن سرعان ما سعت إسبانيا لعقد سلام منفرد مع فرنسا (5971) فطلبت البرتغال من فرنسا تسوية العلاقات بينهما على النحو نفسه، لكن فرنسا رفضت بحجة أن البرتغال هي في الواقع مستعمرة لإنجلترا وحليفة لها، واستعر النزاع حتى استطاع نابليون أن يطول هذه الدولة الصغيرة التي كانت ترفض الانضمام إلى جهوده لإغلاق القارة الأوروبية في وجه البضائع البريطانية والنفوذ البريطاني (الحصار الفرنسي المضاد)، ولم يتمكن نابليون من وضع البرتغال في محور اهتمامه إلا بعد أن كان قد فتح نصف أوروبا.

وكانت البنية الاقتصادية البرتغالية غير الراسخة كامنة وراء أوضاعها العسكرية والسياسية، فكما كان الحال في إسبانيا كانت ثروة البرتغال تقوم على جلب المعادن النفيسة من مستعمراتها. وكانت هذه المجلوبات من ذهب وفضة تذهب لقاء المواد التي تستوردها البرتغال لإضفاء مظهر براق زائف على العرش وزيادة غنى الغني، وشراء الرفاهيات والعبيد. ولم تكن هناك طبقة وسطى نامية لتطوير الموارد الطبيعية بزراعة متقدمة وصناعة تقوم على التكنولوجيا. وعندما أصبحت السيادة على البحار لإنجلترا أصبح وصول إمدادات الذهب للبرتغال متوقفاً على إمكانية الإفلات من الأساطيل البريطانية، أو إمكانية عقد اتفاقات مع الحكومة البريطانية. واختارت إسبانيا طريق الحرب وكادت تستنفد مواردها في بناء أسطول ممتاز في كل شيء خلا طاقم بحارته والروح المعنوية لقادته وجنوده، فعندما انضم هذا الأسطول الإسباني - على مضض - للأسطول الفرنسي، حاقت به الهزيمة في معركة الطرف الأغر، فأصبحت إسبانيا معتمدة على فرنسا، أما البرتغال فأصبحت معتمدة على إنجلترا مخافة أن تبتلعها إسبانيا أو فرنسا، فراح المغامرون الإنجليز يشغلون مناصب مهمة في البرتغال وراح آخرون منهم يقيمون فيها المصانع أو يتولون إدارة المصانع البرتغالية، وهيمنت البضائع البريطانية على تجارة الواردات البرتغالية ووافق البريتون على شرب نبيذ الميناء من أوبورتو Oporto في البرتغال (الاسم أوبورتو يعني ميناء Pirt).

لقد أسخط هذا الوضع نابليون واستثاره، إذ كان فيه التحدي لخطته القائمة على إجبار إنجلترا على قبول السلام بمنع بضائعها ومنتجاتها من دخول أسواق القارة الأوروبية، ووجد نابليون في ذلك مبرراً لغزو البرتغال، فالبرتغال إذا تم فتحها يمكنها أن تساهم مع فرنسا في إجبار إسبانيا على الارتباط بالسياسة الفرنسية، أو بتعبير آخر لا تجد لها فكاكاً من الارتباط الدائم بفرنسا، وساعتئذ يمكن لبونابرت آخر أن يتبوأ عرش إسبانيا. وعلى هذا، فكما سبق أن ذكرنا، حث نابليون الحكومة الإسبانية على الانضمام لفرنسا في غزو البرتغال، فهربت الأسرة المالكة البرتغالية في سفينة إنجليزية إلى البرازيل، وفي 03 نوفمبر سنة 7081 قاد جانو Junot جيشاً فرنسياً إسبانياً إلى لشبونة، وكاد طريقة يكون خالياً من المقاومة، وتحلق الزعماء الليبراليون في البرتغال حول الحكومة الجديدة أملين أن يلحق نابليون بلادهم وأن يقيم فيها مؤسسات تمثيل نيابي(3). ولاطف جونو Junot هؤلاء الرجال، وضحك منهم في سريرته، وأعلن في أول فبراير سنة 8081 انتهاء حكم أسرة براجانزا Braganza وراح هونفسه يحكم قبضته، ويتصرف أكثر فأكثر كملك.

صفحة رقم : 14686

قصة الحضارة - < عصر نابليون - > ملوك أوروبا في مواجهة التحدي - < أيبيريا - > إسبانيا

2- إسبانيا

كانت إسبانيا لاتزال تعيش أجواء العصور الوسطى. لقد كانت دولة ذاتية في عشق الرب، تزدهم كاتدرائياتها المهيبة، ويقوم أبناؤها بالحج إلى المزارات المقدسة، دولة مكتظة برجال الدين، أنست إلى الغفران الذي تمنحه الكنيسة الكاثوليكية، تخشى محاكم التفتيش وتوقرها، وكان الإسبان يخرون ركعاً سجداً في الطرقات عندما يمر أعضاء محاكم التفتيش في موكبهم المهيبة. كما كان الإسبان يضعون في اعتبارهم قبل أي شيء آخر أن يكون الرب God حاضراً في كل بيت من بيوتهم يرعى أطفالهم ويحفظ عذرية بناتهم ويثيب في النهاية بالفردوس بعد اختبار مرهق اسمه الحياة. وقد وجد جورج بورو Borrow بعد ذلك بجيل < أن جهل الجماهير كان فظيماً > على الأقل في ليون Leon < لدرجة أن التمام المطبوعة ضد الشيطان وأعوانه، والتمام التي تبعد النحاس، كانت تباع علناً في المحلات وكانت

تلقى روجا كبيرا (4) > وقد انتهى نابليون الذي كان لا يزال ابنا لحركة التنوير إلى أن < دور الفلاحين الإسباني وإسهامهم في الحضارة الأوروبية أقل حتى من دور الفلاحين الروس (5) >. لقد عبر نابليون عن ذلك بينما هو يوقع الكونكوردات (الوفاق) مع الكنيسة الكاثوليكية. ومع هذا فقد كان الفلاح الإسباني - كما شهد لورد بايرون يستطيع < أن يكون فخورا معتزاً بنفسه كأكثر الدوقات نبالة (6) >.

وكاد يكون التعليم مقصوراً على البورجوازية والنبلاء. وكانت معرفة القراءة والكتابة تمثل حداً فاصلاً، وحتى الهيدالجوات hidalgos (من طبقة النبلاء الدنيا) فلما كان الواحد منهم يستطيع قراءة كتاب. وكانت الطبقة الحاكمة تتخوف من الطباعة (7)، وعلى أية حال لم يكن محو الأمية مطلوباً في ظل الاقتصاد الإسباني الموجود آنذاك. وكانت بعض المدن التجارية مثل قادش Cadiz وأشبيلية مزدهرة، وقد اعتبر اللورد بايرون قادش < أجمل مدن أوروبا > (8) في سنة 9081. وكانت هناك بعض المراكز الصناعية المزدهرة، فقد ظلت توليدو Toledo مشهورة بسببها (9) لكن طبيعة البلاد الجبلية الوعرة لم تجعل غير ثلثها فقط هو الذي يمكن زراعته بمردود اقتصادي، وكانت الطرق والقنوات (الترع) قليلة جداً، ووعرة وتنقصها الصيانة كما كان المرور فيها يستلزم رسوماً تفرضها الولايات أو السيد الإقطاعي، لدرجة أن الناس وجدوا أنه من الأرخص استيراد القمح من إنتاجه محلياً (10). لقد راح الفلاحون - وقد أوهنت التربة التي لا تصلح للزراعة إلا بشق النفس - من عزائهم راحوا يفخرون بحياة البطالة الواضحة بدلاً من انتظار نتائج الكدح في تربة ليس نتاجها مؤكداً. ووجد أهل المدن سعادتهم في تهريب البضائع أكثر مما وجدوها في العمل الذي لا يتقاضون لقاءه أجوراً مجزية. وكان يجثم فوق أنفاس الحياة الاقتصادية ضرائب تزداد أكثر مما يزداد الدخل وجهاز شرطة فاسد وطبقة موظفين متزايدة، وحكومة منحطة (فاسدة).

ورغم هذه الصعوبات فقد ظلت روح الأمة العالية، يشد أزرها تراث فيرديناند وإيزابيلا، وفيليب الثاني، وتراث فيلاسكويز Velasquez وموريلو Murillo، ويشد أزرها زيادة ثروة الإمبراطورية الإسبانية في الأمريكتين والشرق الأقصى، تلك الثروة الهائلة التي كانت إمكانية زيادتها أمراً متوقعا. وحقق الفن الإسباني شهرة ضارعت الفن الإيطالي والهولندي. لقد جمعت الأمة الإسبانية - الآن - كنوزها الفنية - رسماً ونحتاً في متحف دل برادو Museo del Prado الذي شيده في مدريد (5871 - 9181) خوان دي فيلانوفيا Juan de Vilanueva ومعاونوه ومن أتوا بعده. وفي هذا المتحف توجد الأعمال العظيمة الخالدة لسيد رسامي العصر فرانسيسكو جوز دي جويبا Francisco Jose de Giya Y Lucientes (6471 - 8281) وقد وصلتنا صورة لهذا الرسام رسمها له فيسنت لوبيزي بورتانا Vicente Lopez Y Portana وهي صورة تظهره عنيدا متصلباً مما يتوافق مع الروح المتجهمّة التي أظهر فيها (في رسومه) الحرب بكل وحشيتها وقسوتها الدموية، ومما يتوافق مع رجل أحب بلاده لكنه في الوقت نفسه كان يحقر ملكها. لقد انتعش الأدب الإسباني بفضل حافظين، أولهما الثقافة الكاثوليكية، وثانيهما التنوير الفرنسي، واستمر هذا الانتعاش حتى عندما استهلكت الحروب الأهلية والحروب الخارجية الأمة الإسبانية. فالقس الجزويتي (اليسوعي) خوان فرانسيسكو دي ماسدو Juan Francisco de Masdeu أصدر على مراحل بدءاً من سنة 3871 إلى سنة

5081 كتابه المهم عن تاريخ الثقافة الإسبانية Historia Critica de Espana Y de la Cultura Espanola تناول فيه التاريخ بشكل تكاملي إذ خلط التاريخ الثقافي في سياق التاريخ الحضاري العام (11). وتلقى خوان أنتونيو لورنت Juan Antonio Llorente - الذي كان سكرتيراً عاما لمحكمة التفتيش الإسبانية (الكاثوليكية) من 9871 إلى 1081 - من جوزيف بونابرت (9081) تكليفاً بكتابة تاريخ هذه المؤسسة (محكمة التفتيش)، ووجد خوان أن كتابة هذا التاريخ في باريس سيكون أكثر أمناً، فكتبه بالفرنسية في الفترة بين عامي 7181 و 8181. ولم يكن ازدهار النثر والشعر الذي كان غزيراً في جبين عصر شارلز الثالث قد ذبل تماماً عند موته: فقد واصل جاسبار ملشور دي جوفيلانوس Gaspar Melchor de Jovellanos (4471 - 1181) دوره كصوت معبر عن الليبرالية في التعليم ونظم الحكم، وظل ليندرو فرناندز دي مورتين Leandro Fernandez de Mortain (0671 - 8281) يتسود على خشبة المسرح بمسرحياته الضاحكة (كوميدياته) التي ضمنت له لقب (موليير إسبانيا)، وخلال حرب التحرير (8081 - 4181) راح مانويل جوزي كوانتانا Manuel Jose Quantana والقس خوان نيكازيو جاليجو Juan Nicasio Gallego يفيضان أشعاراً حماسية لتأجيج نيران الثورة على الفرنسيين.

لقد تأثر معظم الكتاب الإسبان الرواد بالأفكار الفرنسية سواء في مجال الفكر الخالص أو التحرر السياسي، لقد تفرس هؤلاء الكتاب تماماً كما تفرس الماسونيون. حدث هذا رغم النضال الإسباني للتحرر من الاحتلال الفرنسي. لقد استنكروا إضعاف الملكية لمجالس الأقاليم (المحافظات) تلك المجالس المحلية التي كان لها دور في وقت من الأوقات في المحافظة على أسبانيا حية في مختلف أنحاءها. لقد هللوا للثورة الفرنسية ورحبوا بنابليون كمتحدٍ يدفع إسبانيا لتخليص نفسها من الاستقرابية الإقطاعية والكنيسة ذات الصبغة الوسيطة (كنيسة العصور الوسطى) والحكومة التي لا تتسم بالكفاءة. ولندع مؤرخاً إسبانياً متمكناً يقدم لنا لحناً جنائزياً حزينا ومتسماً بالقوة يتناول فيه الأسرة الحاكمة الإسبانية المحتضرة:

في سنة 8081، وعندما كانت أسرة البوربون الحاكمة في فرنسا تسير نحو الهاوية - يمكننا أن نلخص الوضع السياسي والاجتماعي في أسبانيا كالتالي: أرستقراطية فقدت احترامها للملوك، فقد كان رجال الحاشية على نحو خاص لا يوقرون ملوكهم. وسياسات فاسدة يقوم عليها سياسيون تحركهم العداوات الشخصية، ويملاهم الخوف والتردد. وكانت الطبقات العليا تعوزها الوطنية لا يحركها سوى الجشع والهوى. وكانت الآمال المحمومة للجماهير تتحلق حول أمير (هو فرديناند) أثبت بالفعل أنه حقوق يميل للانتقام وأنه أمير زائف. وأخيرا ظهر التأثير العميق في دوائر الأدب والفكر، لأفكار الموسوعيين (الأنسيكلو بديين) الفرنسيين والثورة الفرنسية (21) >.

وقد وصفنا في فصل سابق انهيار العرش الإسباني وتقسيمه من وجهة نظر نابليون: لقد سمح شارل الرابع (حكم من 8871 إلى 8081) لزوجته ماريا لويزا Luisa وعشيقتها جودوي Godoy أن يسلباه صلاحيات الحكم، وراح الأمير فرديناند الوريث الظاهر يناور لعزل أبيه، وحارب أنصار جودوي أنصار الأمير فرديناند، وغرقت مدريد وما حولها في حالة من الفوضى. ووجد نابليون في هذه الفوضى فرصة لضم كل شبه الجزيرة الأيبيرية للحكم الفرنسي ليحكم بها الحصار القاري (المضاد) في وجه البضائع والنفوذ البريطانيين. لقد أرسل نابليون مورا Murat والجيش الفرنسي الثاني إلى أسبانيا بتعليمات مؤداها إعادة النظام إلى أسبانيا. ودخل مورا Murat مدريد (32 مارس 8081) وقمع العصيان المسلح المعروف بعصيان الثاني من مايو historic Dos de Mayo. وفي هذه الأثناء دعا نابليون كلا من شارلز الرابع وفرديناند للالتقاء به في بايون Bayonne في فرنسا بالقرب من الحدود الإسبانية. وأرهب نابليون الأمير وأجبره على إعادة العرش لوالده، ثم حث نابليون الأب على التنازل عن العرش لصالح من يعينه هو (أي يعينه نابليون) ووعد نابليون بالاعتراف بالكاثوليكية كدين رسمي وحمايتها كدين وطني لأسبانيا. وأمر نابليون أخاه جوزيف بالقدوم ليكون ملكاً على أسبانيا. ولم يكن جوزيف راغباً في القدوم لكنه أتى على مضض وتسلم من نابليون دستوراً جديداً لأسبانيا منح فيه الإسبان كثيراً مما كان يطمح إليه الليبراليون الإسبان، لكنه - أي الدستور - طلب منهم أن يكونوا على علاقة طيبة بالكنيسة. وتولى جوزيف مهامه الجديدة غير سعيد بها، وعاد نابليون إلى باريس سعيداً بابتلاع أسبانيا غير واضع في اعتباره الجماهير الإسبانية ولنجتون Wellington.

صفحة رقم : 14687

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> أيبيريا -> آرثر ويليزلي

3- آرثر ويليزلي

9671 - 7081

حتى سنة 9081 لم يحمل اسم ولنجتون، فحتى سنة 8971 كان اسمه وزلي Wesley رغم أنه كان بعيداً عن الولاية (أو الميتودية أو المنهجية Methodism). ولد في دبلن Dublin في أول مايو سنة 9671 (قبل مولد نابليون بمائة يوم وخمسة أيام) وكان هو الابن الخامس لجاريت وزلي Garret Wesley الإيرل الأول لمورننجتون Mornington مالك مزرعة وعقار إلى الشمال من العاصمة الأيرلندية. وجرى إرساله إلى إتون Eton وهو في

الثانية عشرة من عمره لكنه دعي للعودة إلى منزله بعد ثلاثة أعوام غير مجيدة(31). وليس هناك ما يشير إلى أنه كان متفوقاً في الرياضة إذ كان حاله فيها كحالها في الدراسة، وفي وقت لاحق شكك في صحة المقولة التي لا نعرف قائلها والتي مؤداها أن معركة واترلو ما كانت ليحقق فيها البريطانيون نصراً لولا ما كان يجري في ملاعب إتون (Eton) (41) لقد كانت أمه حزينة تردد دائماً قولها إنني ألجأ إلى الله لأعرف ما سأفعله مع ابني آرثر غير البارع(51) لكل هذا فقد تم إلحاقه بالجيش فجرى إرساله وهو في السابعة عشرة من عمره إلى الأكاديمية الملكية في أنجرز (Academie Royale de L'Equitation, Angers) حيث كان أبناء النبلاء يتعلمون الرياضيات وشيئاً من العلوم الإنسانية ويتلقون كثيراً من التدريبات على ركوب الخيل والمبارزة وهي أمور لازمة للضباط. وعندما فاز بجوائزه - بفضل نفوذ أسرته أو مقابل دفع الأموال - تم تعيينه معاوناً للورد ليفتنانت أيرلندا كما شغل مقعداً في مجلس العموم في أيرلندا ممثلاً لمدينة تريم Trim. وفي سنة 9971 أصبح ليفتنانت كولونيل وقاد ثلاث كتائب لغزو الفلاندر Flanders وعاد من هذه المغامرة غير الناجحة مشمئزاً من الحرب ممرغاً في الوحل متهما بعدم الكفاءة حتى إنه فكر في ترك الجيش والانخراط في الحياة المدنية. لقد كان يفضل الكمان على التكنات العسكرية وكان يعاني آلاماً متلاحقة، وكان من رأي أخيه مور نتجتون أن أحداً لا يجب أن يتوقع منه الكثير لنقص كفاءته (61) وقد رسمه جون هوبنر Hopner في صورة تظهره وهو في السادسة والعشرين بعينين كعيني شاعر، وبوسامة كوسامة بايرون. وقد رشح - مثل بايرون - للزواج من ليدي نبيلة رفضت الاقتراح به. وفي سنة 6971 ذهب إلى الهند كولونيلاً تحت قيادة أخيه ريتشارد الذي هو الآن (في هذه الفترة) الماركيز ويلزلي Wellesley وأصبح حاكماً لمدراس Madras ثم البنغال، وضم بعض الإمارات الهندية للإمبراطورية البريطانية. لقد أحرز آرثر ويلزلي Arthur Wellesley (كما أصبح دوق المستقبل يكتب اسمه) بعض الانتصارات الباهرة في هذه المعارك في الهند، ومنح لقب فارس في سنة 4081.

وعندما عاد إلى إنجلترا ضمن لنفسه مقعداً في البرلمان البريطاني وتقدم مرة أخرى لطلب يد كاثي باكنهام Cathey Pakenham فقبلته (6081) فعاش معها غير سعيد حتى تعلم كل منهما العيش بمعزل عن الآخر، وقد أنجب منها طفلين.

وواصل الترقى من منصب إلى آخر، ولم يكن هذا بتقديم الرشا وإنما كان في الأساس لشهرته بالتحليلات الدقيقة والإنجازات المتسمة بالكفاءة. وقد وصفه ولیم بت Pitt قرب موته بأنه رجل يضع في اعتباره كل الصعوبات قبل القيام بمهمة فلا يبقى من هذه الصعوبات شيء بعد إتمام المهمة(71) وفي سنة 7081 أصبح وزيراً أول لشؤون أيرلندا في وزارة دوق بورتلاند Duke of Portland، وفي سنة 8081 أصبح ليفتنانت جنرال، وفي شهر يوليو من العام نفسه عهد إليه بقيادة 00531 مقاتل لطرده جونو Junot والفرنسيين من البرتغال.

وفي أول أغسطس رسا برجاله في ساحل خليج مونديجو Mondego إلى الشمال من لشبونة بمائة ميل. وانضم إليه هناك نحو 0005 برتغالي، ووصله خطاب من وزارة الحرب تحده فيه بإمداده بمحاربين آخرين عددهم 00051 في أقرب وقت، لكن الخطاب أضاف أن السير هيو دالريمبل Hew Dalrymple البالغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً سيكون على رأس هذا المدد وسيتولى القيادة العليا للحملة كلها، ولكن ويلزلي Wellesley كان قد وضع خطته بالفعل ولم يكن سعيداً بالعمل تحت قيادة قائد آخر، فقرر ألا ينتظر وصول المدد المكون من 000،51 مقاتل، فاتجه شمالاً على رأس رجاله البالغ عددهم 005،81 ليخوض المعركة التي ستحدد مصير جونو Junot ومصيره (أي مصير ويلزلي)، وكان جونو Junot قد سمح لرجال بالانغماس في اللهب بكل أنواعه في العاصمة، وكان على رأس 000،31 مقاتل، فقبل التحدي لكنه عانى هزيمة منكرة في فيميرو Vimeiro بالقرب من لشبونة (12 أغسطس 8081). ووصل دالريمبل Dalrymple بعد المعركة فتولى القيادة، وأوقف مواصلة زحف القوات البريطانية ورتب مع جونو Junot اتفاق سنترال (3 سينتمبر) يسلم بمقتضاه كل المدن والحصون التي كان الفرنسيون قد استولوا عليها في البرتغال، على أن ينسحب بمن بقي من رجاله بأمان، ووافق البريطانيون على تقديم سفنهم لنقل الراغبين في العودة إلى فرنسا، ووقع ويلزلي Wellesley الوثيقة شاعراً أن تحرير البرتغال بمعركة واحدة أمر يستحق من بريطانيا بعض الرضا.

واتفاق سنترال Cintra هذا هو الاتفاق الذي وافق الشعاران وردزورث ولورد بايرون على أنه غباء لا يصدق (وإن كانا لم يرددا هذا الرأي بعد ذلك إلا نادراً) فهو لاء المقاتلون الفرنسيون الذين تم إطلاق سراحهم سرعان ما سيجنون مرة أخرى لمحاربة بريطانيا وحلفائها. وتم استدعاء ويلزلي Wellesely إلى لندن لا ستجوابه، فذهب غير آسف تماماً فهو لم يكن راغباً في الخدمة تحت قيادة دالريمبل Dalrymple وكان يكره الحرب بالفعل. لقد قال بعد أن حقق انتصارات كثيرة اسمع رأيي عن الحرب: إنك إن خضت الحرب ولو ليوم واحد فستدعو الله القدير ألا تشهدا ولو لساعة واحدة مرة أخرى(81). ويبدو أنه أقنع محاكميه أن اتفاق سنترال قد أنقذ حياة الآلاف من البريطانيين وحلفائهم

بمنع القوات الفرنسية من إبداء المزيد من المقاومة. وبعد ذلك عاد إلى أيرلندا منتظراً فرصة أفضل لخدمة بلاده واسمه ذي السمعة الطيبة.

صفحة رقم : 14688

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> أبييريا -> حرب شبه الجزيرة الأيبيرية

4- حرب شبه الجزيرة الأيبيرية

الحرب الثالثة

2181 - 8081

لقد كان ملك أسبانيا جوزيف بونابرت في اضطراب لا مزيد عليه. لقد عمل على اكتساب قبول واسع أكثر من القبول الذي حباه به بعض الليبراليين. وكان الليبراليون يؤيدون إجراءات المصادرة ضد الكنيسة الثرية ولكن جوزيف الذي كان يعاني من شهرته كلا أدري (اللاادري هو الموقن بأن الأمور غير المادية يصعب الوصول إليها باليقين الإيماني) كان يدرك أن أي تصرف منه ضد رجال الدين سيسارع بإشعال نيران المقاومة ضد الحكم الأجنبي (الفرنسي) وكانت الجيوش الإسبانية التي هزمها نابليون قد جرى تشكيلها من جديد في مناطق أسبانية متفرقة، حقيقة أنها لم تكن منظمة منضبطة، لكنها كانت متحمسة. واستمرت حرب العصابات التي يشنها الفلاحون ضد مغتصبي العرش كل عام في الفترة ما بين موسم البذر وموسم الحصاد، وكان يتحتم على الجيش الفرنسي في أسبانيا أن يقسم نفسه إلى قوات متفرقة يقودها جنرالات متحسدون يخوضون معارك في جو من الفوضى وعدم الانضباط أعجز جهود نابليون للتنسيق بينهم من مقره في باريس. قال كارل ماركس لقد تعلم نابليون درساً مفاده أنه إذا كانت الدولة الإسبانية قد ماتت، فإن المجتمع الإسباني لا يزال مفعماً بالحياة وأن كل جانب منه يفيض رغبة في المقاومة. لقد كان محور المقاومة الإسبانية في كل مكان وليس في مكان واحد (91). وبعد انهيار الجيش الفرنسي الرئيسي في بيلن Bailen انضم الجانب الرئيس من الأرستقراطية الإسبانية إلى الثورة وبذلك حولوا الكراهية الشعبية التي كانت موجهة إليهم إلى الغزاة. وكان للتأييد الفعال الذي قدمه رجال الدين الإسبان للثورة أثره المهم في تحويل الحركة عن الأفكار الليبرالية، بل لقد حدث العكس فقد أدى نجاح حرب التحرير الإسبانية إلى تقوية الكنيسة ومحاكم التفتيش (02). ومع هذا فقد ظلت بعض العناصر الليبرالية موجودة في المجالس السياسية Juntas في المديرينات (الولايات) الإسبانية المختلفة، وكانت هذه المجالس ترسل ممثلين عنها للمجلس الرئيسي (على مستوى الوطن كله) في قادش Cadiz، وكان هؤلاء يكتبون دستوراً جديداً. لقد كانت شبه الجزيرة الأيبيرية مفعمة بالعصيان المسلح والأمال والإيمان

الكاثوليكي، بينما كان جوزيف بونابرت يتطلع إلى نابلي، في حين كان نابليون يحارب النمسا وكان ويلزلي Wellesely (ولنجتون) يستعد لينقض مرة ثانية من إنجلترا ليسانغ في عودة أسبانيا إلى ما كانت عليه في العصور الوسطى، مع أنه هونفسه (ويلزلي) كان رجلاً عصرياً بكل معنى الكلمة.

وكان السير جون مور (John Moore - قبل موته في كورونا (61Corunna يناير 19081) قد نصح الحكومة البريطانية ألا تقوم بمحاولات أخرى للسيطرة على البرتغال، فقد كان يعتقد أن الفرنسيين سيفقدون أوامر نابليون بضم البرتغال إلى فرنسا عاجلاً أم آجلاً، كما كان يعتقد أن إنجلترا لن تجد وسيلة لنقل العدد الكافي من الجنود لمواجهة 000,001 جندي فرنسي موسمى في أسبانيا كما أنها لن تتمكن من تدبير المؤن اللازمة لجنودها. لكن السير آرثر ويلزلي كان قلقاً في أيرلندا وأخبر وزير الحرب أنه إذا أتاح له قيادة عشرين ألف أو ثلاثين ألف جندي بريطاني ودعم وطني، فإنه يستطيع أن يحفظ البرتغال بعيدة عن قبضة أي جيش فرنسي لا يزيد عن 000,001 مقاتل(12)، ووافقت الحكومة البريطانية وألزمته بكلماته، وفي 22 أبريل سنة 19081 وصل إلى لشبونة على رأس 000,52 بريطاني وصفهم في وقت لاحق بأنهم حثالة الأرض... ومجموعة من الأوغاد... لا يمكن السيطرة عليهم إلا بالسياسة، إذ إنهم لم يخلقوا إلا للسكر (22). لكنهم يستطيعون القتال بشراسة إذا لم يكن أمامهم سوى خيار واحد: إما أن يقتلوا (يفتح الياء) أو يقتلوا (بضم الياء).

وتحسباً للوصول ويلزلي وقواته، حرك المارشال سولت 000,32Soul جندي فرنسي إلى أوبورتو Oporto وفي هذه الأثناء كان جيش فرنسي آخر بقيادة المارشال كلود فكتور Claude Victor يتقدم من الغرب على طول التاجوس Tagus. وقرر ويلزلي Wellesley - الذي كان قد درس معارك نابليون بدقة - أن يهاجم سولت Soul قبل أن يتمكن المارشالان من ضم قواتهما معاً لشن هجوم على لشبونة التي تمكن البريطانيون منها. وبعد أن انضم إلى قوات ويلزلي البالغة 000,52 مقاتل، 000,51 مقاتل برتغالي بقيادة وليم كار بيرسفورد W. Carr Beresford (فيكونت بيرسفورد) قادهم جميعاً إلى نقطة على نهر دورو Douro في مواجهة أوبورتو Oporto وفي 21 مايو سنة 19081 عبر مجرى النهر وهاجم مؤخرة جيش سولت Soul بشكل مفاجئ فترجع الجيش الفرنسي وعمته الفوضى، وخسر الجيش الفرنسي 0006 قتيل وكل مدفعيته، ولم يتعقب ويلزلي الجيش الفرنسي المنهزم فقد كان عليه أن يسرع جنوباً للتصدي لجيش فرنسي آخر بقيادة فيكتور، لكن فيكتور بعد أن علم بهزيمة سولت Soul استدار عائداً إلى تالافيرا Talavera وهناك تلقى من جوزيف مدداً زاد من عدد جيشه ليصبح 000,64 مقاتل، ولم تكن قوات ويلزلي تزيد على 000,32 بريطاني و 000,63 أسباني، والتقى الجيشان في تالافيرا في 82 يوليو سنة 19081، وهرب الجنود الإسبان ومع هذا فقد تمكن ويلزلي من تكبيد جيش فكتور 0007 قتيل وجريح واستولى منه على 71 مدفعاً. وسيطر ويلزلي على ميدان المعركة رغم أن جيشه فقد 0005 ما بين قتيل وجريح، وقدرت الحكومة البريطانية كفاءة ويلزلي وشجاعته فأصبح يحمل لقب فيكونت ولنجتون ومع هذا فقد أدى انتصار نابليون في معركة (اجرام (19081Wagram) وزواجه من ابنة الإمبراطور النمساوي (مارس 181) إلى وضع حد لولاء النمسا لإنجلترا. وكانت روسيا لا تزال حليفة لفرنسا، وكان هناك 000,831 جندي فرنسي إضافي مستعدين للخدمة العسكرية في أسبانيا، وكان المارشال أندريه ماسينا Andre Massena بجنوده البالغ عددهم 000 و56 يخطط للخروج بهم من أسبانيا لغزو البرتغال. وأخبرت الحكومة البريطانية ولنجتون أنه إذا غزا الفرنسيون أسبانيا مرة أخرى فلا جناح عليه إن انسحب بجيشه إلى إنجلترا(32). وكانت هذه لحظة حرجية في مهمة ولنجتون، فالانسحاب - رغم أن الحكومة البريطانية قد سمحت به - قد يلوث سجله إذا لم يحقق نصراً كبيراً على نحو ما يخفف من وطأة الانسحاب، فقرر أن يخاطر برجاله وبمهمته وبحياته بضربة أخرى تعتمد على الحظ (برمية تروء أخرى)، وفي هذه الأثناء كان قد جعل رجاله يقيمون خطاً من التحصينات إلى الشمال من قاعدته في لشبونة بخمسة وعشرين ميلاً من التاجوس Tagus وعبر تورز فيدراس Torres Vedras حتى البحر.

وبدأ ماسينا Massena معركته بالاستيلاء على حصن سيوداد رودريجو Ciudad Rodrigo الإسباني ثم عبر إلى البرتغال بستين ألف مقاتل. وكان ولنجتون على رأس 000,25 من المتحالفين (بريطانيين وأسبان وبرتغاليين) فالتقى به في بوساكو Bussaco (شمال كويمبرا Coimbra) في 72 سبتمبر سنة 181 فتنكب 0521 ما بين قتيل وجريح أما ماسينا فتنكب 4,006، ومع هذا فقد أدرك ولنجتون أنه لن يستطيع - كما سينا - التعويل على مدد يأتيه، لذا فقد تراجع إلى تحصينات تورز فيدراس Torres Vedras وأمر رجاله باتباع سياسة الأرض المحروقة أي تدمير كل ما يلقونه في طريق تراجعهم حتى يعاني جيش ما سينا من الجوع، وفي 5 مارس سنة 1181 قاد ماسينا جنوده الجياع عائداً إلى أسبانيا وأسلم القيادة لأوجست مارمون Auguste Marmont.

وبعد أن قضى ولنجتون فترة الشتاء في الراحة وتدريب رجاله أخذ المبادرة فاتجه إلى أسبانيا على رأس جنوده البالغ عددهم 000,05 وهاجم قوات مارمون البالغ عددها 000,84 بالقرب من سالامانكا Salamanca في 22 يوليو 181، فقدت القوات الفرنسية 000,41 ما بين قتيل وجريح بينما فقد البريطانيون وحلفاؤهم 007,4، وانسحب

مارمون، وفي 12 يوليو غادر الملك جوزيف بونابرت مدريد على رأس 51،000 مقاتل لتقديم النجدة لمارمون، لكنه علم في أثناء الطريق بما حل بمارمون من هزيمة، فلم يجرؤ (أي الملك جوزيف بونابرت) على العودة للعاصمة (مدريد) فقاد قواته إلى فالنسيا Valencia ليلحق هناك بجيش فرنسي أكبر عددا بقيادة المارشال سوش Sochet ولحق به - بعجلة وفوضى - 01،000 من المتفرنسين (المؤيدين للحكم الفرنسي من الإسبان والبرتغاليين) وحاشيته وموظفوه. وفي 21 أغسطس دخل ولنجتون مدريد فرحبت به الجماهير بحماس بالغ، تلك الجماهير التي ظلت غير مفتونة بدستور نابليون. وكتب ولنجتون لأحد أصدقائه إنني بين أناس يكاد الفرح يذهب بعقولهم. لقد منحني الرب حظاً سعيداً أرجو أن يستمر لأكون أداة لتحقيق استقلاله(42).

لكن الرب تردّد فلم يُعْطه استمراراً لهذا الحظ فقد أعاد مارمون تنظيم جيشه خلف تحصينات بورجو Burgos، فحاصره ولنجتون هناك؛، وتقدم جوزيف من فالنسيا Valencia على رأس 0009 مقاتل لمواجهة القوات البريطانية والمتحالفين معها، فراجع ولنجتون (81 أكتوبر 2181) متجاوزاً سالامانكا إلى سيوداد رودريجو Ciudad Rodrigo وفقد في أثناء تراجعه 0006 من قواته (بين قتيل وجريح)، ودخل جوزيف مدريد مرة أخرى وسط استياء عارم من الجماهير، وإن ابتهجت الطبقة الوسطى لعودته، وفي هذه الأثناء كان نابليون يرتجف في موسكو، وظلت أسبانيا - مثلها في ذلك مثل سائر أوروبا - في انتظار نتيجة مغامرته التي ستؤثر في أحوال القارة الأوروبية.

صفحة رقم : 14689

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> أيبيريا -> النتائج

5- النتائج

تمخضت حرب شبه الجزيرة الأيبيرية حتى عند هذه المرحلة غير الحاسمة عن بعض النتائج الواضحة. فمن الناحية الجغرافية كانت أهم النتائج هي أن المستعمرات البرتغالية والإسبانية في أمريكا الجنوبية قد استطاعت التحرر من قبضة الوطن الأم الذي اعتراه الضعف (إسبانيا أو البرتغال)، وبدأت هذا المستعمرات مرحلة نشيطة وحيوية. ومن النتائج أيضاً أن كل أسبانيا جنوب التاجوس Tagus قد تخلّصت من الجنود الفرنسيين. ومن الناحية العسكرية أثبت ولنجتون أن فرنسا يمكن ألا تستولي على البرتغال، أو بتعبير آخر أن منع فرنسا من الاستيلاء على البرتغال أمرٌ ممكن، بل وربما لا تستطيع فرنسا الاحتفاظ بأسبانيا، إلا إذا خاطرت بكل فتوحاتها إلى الشرق من الراين Rhine. ومن الناحية الاجتماعية حققت المقاومة الشعبية - رغم عدم انضباطها - انتصاراً لصالح الفلاحين والكنيسة. ومن الناحية السياسية استعادت المجالس السياسية المحلية (في الدوائر أو الولايات) بعضاً من سلطاتها القديم فأقامت كل منها جيشاً خاصاً بها وسكّت عملة خاصة بها، وأصبح لكل منها سياسة خاصة بها، بل إنها في بعض الأحيان كانت تُوقع سلاماً منفصلاً مع بريطانيا (أي دون الرجوع إلى الحكومة المركزية). والأكثر دلالة من ذلك كله هو أن هذه المجالس السياسية المحلية أرسلت ممثلين عنها إلى البرلمان المركزي مزوّدين بتعليمات لصياغة دستور جديد لأسبانيا جديدة.

وبعد أن تحرر هذا البرلمان من الجيوش الفرنسية اجتمع للمرة الأولى في جزيرة دي ليون Isla de Leon في سنة 0181 وبعد الانسحاب الفرنسي انتقل إلى قادش Cadez، وهناك في 91 مارس تم إعلان الدستور الليبرالي. ولأن معظم المبعوثين (المفوضين) كانوا متمسكين بالكاثوليكية، فقد نصت المادة 21 من هذا الدستور على أن دين الأمة الإسبانية هو الكاثوليكية وسيظل دائماً كذلك، فالكاثوليكية الرومانية (التابعة لكنيسة روما) الرسولية (كنيسة الرعاة

الأوائل للمسيحية) هي الدين الوحيد الحق. إنها الدين الذي تحميه الأمة بالحكمة والتشريعات الصحيحة، ويتم حظر ممارسة شعائر أي دين آخر مهما كان. وعلى أية حال فقد حظر الدستور (الجديد) محاكم التفتيش، وحددت عدد الجماعات (الفرق) الدينية. وقيل البرلمان بمجلسيه في كل الأمور الأخرى تقريباً بقيادة (زعامة) المفوضين (الممثلين) من الطبقة الوسطى والبالغ عددهم 481. وكان معظمهم يطلقون على أنفسهم (ليبراليين) - وكان استخدامهم لهذا المصطلح بمفهومه السياسي هو أول استخدام معروف له. وفي ظل قيادتهم أصبح دستور سنة 2181 يضارع دستور 1971 الذي أصدرته فرنسا الثورة.

لقد قبلوا بالملكية الإسبانية واعترفوا بفرديناند السابع (الغائب) ملكاً شرعياً، إلا أن الدستور على أية حال لم يضع السلطة في يد الملك وإنما في يد الأمة عن طريق ممثلها المنتخبين (بفتح الخاء)، وكان على الملك أن يكون حاكماً دستورياً يُطيع القوانين، ولا يجوز إبرام المعاهدات إلا بموافقة البرلمان، ولا بد من إجراء انتخابات كل عامين لتكوين برلمان جديد، والانتخاب حق لكل ذكر بالغ، وتتم الانتخابات على ثلاث مراحل: على المستوى الأبرشي Parochial، ومستوى المقاطعة، ومستوى الولاية. ولا بد من توحيد القوانين في إسبانيا كلها، وكل المواطنين سواء أمام القانون، والقضاء مستقل عن السلطة التشريعية وعن الملك. ودعا الدستور إلى إلغاء التعذيب والرق والمحاكم الإقطاعية، كما دعا إلى حرية الصحافة إلا في أمور الدين. كما دعا إلى ضرورة توزيع الأراضي العامة (أراضي الدولة) غير المزروعة على الفقراء.

لقد كان هذا الدستور شجاعاً وتقدمياً في ظل هذه الظروف وفي ظل التراث الديني الإسباني. لقد بدا الآن أن أسبانيا تدخل القرن التاسع عشر.

صفحة رقم : 14690

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> إيطاليا وغزائها -> خريطة إيطاليا

الفصل السادس والعشرون

إيطاليا وغزائها

3181 - 9871

1- خريطة إيطاليا

في هذه الفترة لم تكن إيطاليا أمة وإنما كانت ساحة قتال. لقد كانت ممزقة إلى مناطق منفصلة متناحرة، وإلى لهجات متباينة لقد كانت ممزقة بشكل يصعب معه أن تتحد في وجه هجوم أجنبي وكانت المنطقة شمال نابلي تنعم بالشمس والتربة المثمرة التي توفر لها ري جيد ومجار مائية تهبط إليها من جبال الألب أو الأبينين Apennines، مما حمل أهلها مرارا على حمل السلاح بسبب الخلافات بينهم وبين الأجانب من جامعي الضرائب.

وكان معظم إيطاليا قد وقع تحت حكم - أو نفوذ - أسرة الهيسبرج النمساوية على وفق بنود معاهدة أوترخت (أوترخت) الموقعة في سنة 3171، تلك المعاهدة التي جعلت ميلان، ومانتوا Mantua ونابلي وسردينيا وما يتبعها جميعا للإمبراطور شارل السادس Charles VI - وفي الركن الشمالي الغربي من شبه الجزيرة الإيطالية، كانت سافوي وبيدمونت يحكما ملكا سردينيا. وفي سنة 4371 كانت مملكة الصقليتين بمركزها: نابلي، وباليرمو، قد انتقلت من الهيسبرج إلى البوربون بفضل المقاتل المقدر، والحاكم القدير الذي أصبح مليكا لأسبانيا ونعني به شارلز الثالث Charles III، وقبل أن يتجه إلى أسبانيا ورث مملكة نابلي لابنه فرديناند الرابع IV Ferdinand الذي تزوج الأرشوقة ماريا كارولينا Maria Carolina التي أدت سيطرتها على زوجها إلى وقوع مملكة نابلي بكاملها تحت النفوذ النمساوي. وعندما ماتت الإمبراطورة ماريا تيريزا (Maria Theresa 1780-1792) حكم أبناؤها لومبارديا Lombardy وتسكانيا Tuscany ومادينا Modena وتزوجت ابنتها من حاكمي نابلي وبارما Parma وأصبحت سافوي Savoy وبيدمونت Piedmont وسردينيا Sardinia تحت الحماية النمساوية. وكانت المنطقة الإيطالية الوحيدة التي تحظى بالاستقلال آنذ هي البندقية (فينيسيا Venice) ولوسا Lucca وسان مارينو وجنوة Geneo. وكان في القسم الإيطالي الواقع بين المناطق التي يسيطر عليها هيسبرج النمسا في الشمال، والمناطق التي يسيطر عليها بوربون أسبانيا في الجنوب - الولايات البابوية Papal states، ولم تبق هذه الولايات بابوية (أي تابعة للبابا) إلا بسبب التنافس بين الأسرتين، وبسبب كون الإيمان الكاثوليكي هو وحده الذي يربط إيطاليا ليجعل منها كيانا واحدا.

وكان الحكم النمساوي في الشمال الإيطالي ممتازا بمقاييس العصر، فقد كانت الضرائب تفرض على الملاك الإقطاعيين والإكليزيكيين (الملاك من رجال الدين)، وكانت امتيازات هؤلاء الإقطاعيين والإكليزيكيين قد جرى تقليصها، وتم إغلاق مائة دير، وجرى تخصيص عوائدها لأغراض التعليم والإحسان، وجرى إصلاح إجراءات التقاضي، ومنع التعذيب وأصبح القانون الجنائي أكثر إنسانية (أكثر مراعاة للبعد الإنساني)، وفي تسكانيا في الفترة من 5671 إلى 0971 قدم الدوق الكبير ليوبولد لمنطق آل ميديتشي سابقا، ربما أفضل حكومة في أوروبا (1) وظلت عاصمتها فلورنسا حصنا للحضارة خلال كل الفترات التي تماوجت فيها القوى والأفكار.

والبندقية الثرية الفاسدة المرتشية الجميلة أصبحت الآن (9871) تقترب بشكل واضح - من نهايتها كدولة ذات سيادة. فإمبراطوريتها الشرقية وقعت منذ زمن طويل في أيدي الأتراك (العثمانيين)، لكن حكمها (أي البندقية) ظل معترفاً به فيما بين جبال الألب Alps وبدوا Padua وما بين تريست Trieste وبريسكيا Brescia. وكانت البندقية من الناحية الرسمية جمهورية، لكنها كانت من الناحية الفعلية أرستقراطية مغلقة، وأصبحت حكومتها فاترة الهمة مستبدة لا تتسم بالكفاءة. لقد كان لدى البندقية أفضل التوابل في العالم المسيحي لكنها لم تكن تمتلك جيشا. لقد كانت قد أصبحت ملعباً لأوروبا تضمن لأهلها المسرات وتوفر لهم البغايا حتى تضمن أن يعاملها الأعداء بود. لقد كانت واقعة بين النمسا في الشمال ولمبارديا النمساوية في الغرب، وكان من الجلي أن قدرها سيؤول بها إلى الوقوع فريسة للنمسا بمجرد توقف فرنسا عن حمايتها.

وإلى الجنوب من تسكانيا والبو the Po بدأت الولايات البابوية أساليها المتعرجة (غير المباشرة) مع منطقتها في روما، Romagna ومفوضياتها: فرارا Ferrara وبولونيا Bologna (ليس المقصود بطبيعية الحال كيان أو دولة بولونيا المعروفة حاليا) ورافنا Ravenna، وكان كل منها يديره مفوض بابوي (مفوض من قبل البابا)، ومن ثم إلى الجنوب مع الحدود marches أو الأراضي الحدودية بالقرب من الأدرياتي: ريميني Rimini، وأنكونا Ancona وأوربينو Urbino، ومن ثم عبر جبال الأبينين Apennines خلال بيروجيا Perugia التابعة لأومبريا Umbria

وسبوليتو Spoleto، وعبر أورفيتو لاتيوم Latium،s Orvieto وفيتربو Viterbo إلى روما Rome كل هذه المنطقة التاريخية كانت تحت حكم الباباوات على وفق هبات donations قدمها للكنيسة الكاثوليكية بين Pepin ملك الفرنجة Franks في سنة 457، وشارلمان في سنة 477. وبعد انتصار حاسم في مجمع ترنت Council of Trent (5451-3651) وسع الباباوات سلطاتهم على الأساقفة تماما كما فعل الشيء نفسه الملوك المعاصرون بتوسيع سلطانهم على اللوردات الإقطاعيين. لقد بدأت السلطة تتمركز أو بتعبير آخر بدأت تتمحور حول مركز.

لكن سرعان ما بدأت الباباوية تنهار ببطء وبالتدريج كلما تقدم العلم وتعمقت الفلسفة مما أفقد الكنيسة - بشكل خطير - تأييد الطبقات المؤثرة في أوربا الغربية، ومما عرضها لتحديات صريحة ليس فقط من الحكام البروتستانت، وإنما أيضا من الحكام الكاثوليك من جوزيف الثاني في النمسا وفرديناند الرابع في نابلي. بل كان تزايد الأقلية المتشككة في الكاثوليكية في ولايات الكنيسة نفسها (الولايات الباباوية) والتي كانت تشكل روابط سرية، إلى إضعاف قبضة الإكليروس (رجال الدين) على الناس. لقد كتب جوزيف الثاني في سنة 8671 إن المحكمة الباباوية Curia كادت تصبح محتقرة، فمن الداخل كان سكان الولايات الباباوية في الغاية من البؤس والانهطاط، وكانت ميزانية هذه الولايات في فوضى كاملة بدرجة لا تصدق وكان جوزيف غير مؤمن بالكاثوليكية، لذا فقد نعتبره مبالغا، لكن سفير البندقية كتب في تقرير له في سنة 3871 أن الأمور الداخلية في ولايات الحبر الجليل (البابا) في أقصى درجات الفوضى، إنها في حالة انهيار تدريجي، والحكومة الباباوية تخسر كل يوم قوتها ومصداقيتها ومشروعيتها (2). ورغم فقر الولايات الباباوية وعدوى المالاريا في جو الصيف، فقد جعل أهل روما الحياة مستساغة باهتبال كل المزايا المتمثلة في تسامح الكنيسة مع علاقاتهم الغرامية وبالاستمتاع بالكارنفالات، بل لقد كان رجال الدين أنفسهم ينعمون باسترخائهم في دفء الشمس في إيطاليا.

وكان الباباوات في هذه الفترة الحرجة على تقوى وشرف فيبوس السادس VI Pius (تولى الباباوية في الفترة من 5771 إلى 9971) - رغم رحلته الشاقة إلى البندقية فشل في إعادة جوزيف الثاني النمساوي للطاعة (المقصودة الطاعة للكاثوليكية والباباوية) ولم تنفعه ثقافته وكياسته من منع فرنسا من ضم أفينون Avignon إليها، ومات وهو في سجنه في ظل حكومة الإدارة (في فرنسا)، وببوس السابع VII Pius (تولى الباباوية في الفترة 0081 - 3281) بذل كل ما في وسعه لإعادة الكاثوليكية لفرنسا، وعانى السجن لفترة طويلة في ظل حكم نابليون وعاش لينتصر بتواضع على الإمبراطور المخلوع (4181).

وإلى الجنوب من الولايات الباباوية ازدهر البوربون الأسبان بازدهار كل من جيتا Gaeta وكابوا Capua وكاسرتا Caserta ونابلي وكابري Capri وسورنتو Sorrento. لكن الازدهار الإيطالي توقف هناك (لم يعد له وجود) فمدن مثل بيسكارا (بسكره Pescara) وأكويل Aquila وفوجيا Foggia وباري Bari وبرينديسي Brindisi وتارانتو Taranto وكروتون Croton تذكرت ميلو Milo وقيصر وفريدريك الثاني (إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة)، بل وحتى فيثاغورس، لكن أهل هذه المدن كانوا عرضة للشمس الحارقة، منهكين بالضرائب وليس من سلوى لهم سوى في عقيدتهم الدينية. ثم يأتي جامعو الضرائب عابرين من رجيو كالابريا Reggio Calabria إلى مسينا Messina في صقلية، وهناك أيضا تقرر المدن فقرا إذا ما تذكرت الفينيقيين، والإغريق، والقرطاجيين والرومان والفندال والمسلمين والنورمان والأسبان حتى يتوقف جامعو الضرائب في بالرمو Palermo ليكونوا في خدمة احتياجات الملوك والملكات والأمراء التجار واللصوص والقديسين Saints. تلك هي المملكة التي ورثها في سنة 9571 فرديناند الرابع ذو الثمانية أعوام. لقد نشأ رياضياً وسيماً يفضل المسرات والألعاب الرياضية على أعباء السلطة فكان غالبا ما يترك أمور الحكم لزوجته ماريا Maria Carolina. ويتوجه من رئيس وزرائها (وزيرها الأول) وعشيقها السير جون أكتون John Acton أدارت ماريا سياسة نابلي من مناصرة الحكم الأسباني إلى مناصرة الحكم النمساوي، إلى مناصرة إنجلترا في سنة 1971. وفي هذه الأثناء كان البارونات الإقطاعيون يستقطنون كل عائد من الفلاحين المنهكين، وسادت الرشوة، وساد الفساد في البلاط وفي طبقة الموظفين والقضاة وكانت الضرائب باهظة وكانت تقع في الأساس على كاهل الطبقات الدنيا، وأصبح سكان المدينة يتصرفون كالبرابرة بسبب الفقر، لقد اعتادوا الفوضى والجريمة لا يكبحهم سوى العدد الوافر من رجال الشرطة ورجال الدين الظلاميين الماهرين في إظهار المعجزات. (في كنيسة الكاندرائية، كانت رفات القديس جنيوار يوس Januarius تنزف دما في كل عام). وجرت العادة أن تتسامح الكنيسة مع خطايا الجسد، فهذه الخطايا هي الرفاهية الوحيدة المسموح بها للفقراء. وفي أيام الكرنفالات ينظر الناس للوصية السادسة من الوصايا العشر باعتبارها قيذا للزوم له يتناقى مع الطبيعة البشرية.

ومع هذا فقد كانت الملكة تغار من كاترين الثانية الروسية التي كان حولها كثير من الفلاسفة رهن إشارتها، لذا فقد رعت الفنانين والدارسين وأساتذة الحكمة حتى لو لم تكن تعرف شيئا عن الفن والبحث والحكمة. وهو احتمال وارد، لذا فقد كان في نابلي كثير من الرجال النساء الذين يؤمنون بالأفكار العصرية، وربما فاق عددهم ما هو موجود في أية

مدينة إيطالية أخرى (3) وقد تابع كثيرون منهم بأمل صامت الأخبار التي أتت من باريس والتي تفيد أن الفرنسيين قد اجتأحوا سجن الباستيل واستولوا عليه.

صفحة رقم : 14691

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> إيطاليا وعزائها -> إيطاليا والثورة الفرنسية

2- إيطاليا والثورة الفرنسية

لقد هبأت أفكار الليبراليين ذوات التأثير، الطبقات المتعلمة في إيطاليا لاستيعاب بعض التحولات الأساسية في فرنسا. لقد كان بكاريا Beccaria وباريني Parini في ميلان، وتانوسي Tanucci وجينو فيسي Genovesi وفيلانجير Filangieri في نابلي، وكاراكولي Caraccioli في صقلية قد مارسوا بالفعل كتابة النثر والشعر، وكتبوا بالفعل في مجال التشريع والفلسفة وكانت الأفكار التي طرحوها هي نفسها - إلى حد ما - الأفكار التي قررها الآن حكومة الجمعية الوطنية (الفرنسية)، أفكار تؤيد العقل وتعتمد عليه وتميل إلى الحداثة. وفي توسكانيا Tuscany رحب الدوق الكبير ليوبولد نفسه بالثورة الفرنسية باعتبارها إصلاحاً عظيماً واعداً في كل أنحاء أوروبا (4). وعندما اندفع نابليون ابن الثورة وجزءها في إيطاليا (6971)، وكأنه ربح غزبية عاصفة، وأخرج الجيوش السردينية (جيوش سردينيا) والنمساوية من بيدمونت ولومبارديا، رحب به كل الإيطاليين تقريباً باعتباره قائداً إيطالياً يقود جنوداً فرنسيين لتحرير إيطاليا. ورغم ما واجهه من عصيان مسلح في بافيا Pavia وجنوة Genoa وبيرونا Verona فقد كان في مقدوره - لفترة - أن يتصرف في الدول والإمارات الإيطالية كما لو كانت قد استسلمت له بغير شروط، وعلى هذا ففي شهري يوليو وأغسطس سنة 7971 دمج كلا من ميلان ومودينا Modena وريجيو إيميليا Reggio Emilia وبولونيا Bologna وجانبا من سويسرا، ليجمع منها كياناتاً مختلطة هو الجمهورية السيزالبية Cisalpine Republic (الجمهورية القريبة من جبال الألب والمحيط بها)، وقدم لها دستوراً كدستور فرنسا الثورة.

وقد أبهجت ليبراليته في فترة حكمه الأولى في شمال إيطاليا أحلام السكان المحليين بالحرية. وقد اعترف الزعماء المحليون بعد أن لانت عريكتهم بالوظائف الشرفية، وألقاب الفخامة التي وزعها عليهم نابليون، بأنه في قارة يقتسمها الذئاب لا بد من ذئب أو آخر كحام لإيطاليا، وإن أفضل ذئب يمكن اختياره هو الذي يتحدث الإيطالية بطلاقة، ويخفف أعباء الضرائب، ويضبط الأمن بقوانين متتورة. لكن زيادة التشريعات الثورية ضد الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا صدمت عواطف الإيطاليين، فقد ثبت لهم أن دينهم أعلى بالنسبة إليهم من التحرر السياسي الذي يضطهد في ظله قسيسهم، ويتشمم المرء في ثناياه مذابح سبتمبر. وفي 31 يناير 2971 هاجمت الجماهير في روما ممثلاً دبلوماسياً للحكومة الفرنسية، مات في اليوم التالي من فرط ما أصابه على أيدي هذه الجماهير. وقد خلق هذا أزمة جديدة للبابا بيوس السادس الذي كان يعاني بالفعل من مرسوم التسامح (1871) الذي أصدره جوزيف الثاني في النمسا. لقد وجد البابا نفسه الآن في مواجهة مصادرة الثورة الفرنسية لممتلكات الكنيسة وفي مواجهة الدستور المدني للإكليريوس (رجال الدين) الصادر في 21 يوليو سنة 0971. ولأن هذا البابا كان قد نشأ على الاحترام الكامل للتراث الكنسي فقد أعلن إدانته للثورة وأيد الملوك الذين يتصدون لها لمحقتها. لكنه أجبر في صلح تولينتينو (Peace of Tolentino 91 فبراير 7971) على التخلي لفرنسا عن المقاطعات الباباوية:

أفينون Avignon و فيناسين Venaissin كما أُجبر في الصلح نفسه على التخلي عن المدن الدول City - states: فرارا Ferrara وبولونيا Bologna ورافنا Ravenna للجمهورية السيزالية.

وفي ديسمبر سنة 7971 قتلت الجماهير الإيطالية الجنرال الفرنسي ليونار دوفو Leonard Duphot، وانتَهز الجنرال الفرنسي لوي (لويس) بيرثيه Berthier الذي خلف نابليون في قيادة جيش إيطاليا (كان نابليون وقتها في مصر) الفرصة لغزو روما وإقامة جمهورية روما تحت الحماية الفرنسية، واعترض البابا بيوس السادس فتم القبض عليه وتم نقله من مكان إلى آخر حتى مات في فالنسي Valence في 92 أغسطس 9971 في عهد حكومة الإدارة. وراح المراقبون غير الواعين بالتاريخ يتساءلون عما إذا كان في موته موت للباباوية أو بتعبير آخر هل انتهى الآن عصر الباباوية بغير رجعة (5)؟ وأتاح هذا الموقف لفرديناند الرابع النابلي (نسبة إلى نابلي) فرصاً ثلاث: أن يجرب الجيش الجديد الذي كان جهزه له السير جون أكتون Acton، وأن يثبت للكنيسة الكاثوليكية أنه ابن مخلص لها، وأن يستولي على جانب من الولايات الباباوية مكافأة تشريافية له. ووافق الأدميرال (أمير البحر) نيلسون الذي كان في هذا الوقت يتكأ في نابلي لقضاء أكبر وقت ممكن مع إما هاملتون Emma Hamilton - وافق على تقديم المساعدة بإنزال قوة بحرية في ليجورن Leghorn، وجعل الملك على رأس جيشه الجنرال النمساوي كارل ماك Karl Mack وركب معه لفتح روما (92 نوفمبر 8971) وقررت الحاميات الفرنسية التي بقيت في روما أنه لا قبل لها بمواجهة كل جيش نابلي فأبدت استعدادها لإخلاء المدينة (روما).

وبينما كان الكاردينالات المتفوقون يختارون بابا جديدا في البندقية (فينيسيا) كان جنود فرديناند يختبرون أجراس روما ويستعرضون فنونها، وفي هذه الأثناء هبط الجنرال الفرنسي اللامع جان - إتين شامبيون Etienne Championnet Jean - من الشمال على رأس جيش فرنسي منتعش (لم تنهكه الحروب) فحقق نصرا على جيش ماك Mack غير المنظم في سيفيتا كاستيلانا Civita Castellana (51 ديسمبر 8971) وتعبه طوال انسحابه إلى نابلي واستولى على المدينة وسط فرحة طبقة المثقفين، وأقام الجمهورية البارثينية Parthenopean (32 يناير 9971) وهرب فرديناند والملكة وكذلك السير ولیم هاملتون (من Bovary) إلى بالرمو في سفينة القيادة التابعة لنيلسون (كان اسم السفينة هو فانجارد Vanguard ومعناها الطليعة).

ولم تستمر هذه الجمهورية الجديدة سوى أقل من خمسة أشهر فقد تم استدعاء شامبيون وكثير من رجاله للاتجاه شمالا لطرده النمساويين، ومات شامبيون في هذه المعركة ضد النمساويين. وجهز الكاردينال فابريزيورفو Fabrizio Ruffo جيشا جديدا لفرديناند، وعاون القائد الإنجليزي إدوارد فوت Foote في إعداد هذا الجيش، فاستعاد فرديناند نابلي بمساعدة الجماهير فيها، فقد كانت الجماهير في نابلي تنتظر للحملة الفرنسية على أنها مكونة من مقاتلين ملحدین ملعونين، ولجأ الفرنسيون بمساعدة أدميرال من نابلي هو فرانسكو كاركايولو Caracciolo إلى حصنين من حصون الميناء. وعرض عليهم الكاردينال رفو Ruffo والقائد فوت Foote المغادرة إلى فرنسا دون عوائق إن استسلموا لكن قبل تنفيذ الاتفاق وصل نيلسون بأسطوله حاملا مجموعة ملكية، قادمًا من بالرمو، فتولى هو (نيلسون) القيادة ووجه مدافعه إلى الحصون رغم اعتراض الكاردينال (6)، فاستسلم الفرنسيون بلا شرط، وقبض على كاركايولو (الذي ساعد الفرنسيين) بينما كان يحاول الإبحار بعيدا وحوكم محاكمة سريعة أمام محكمة عسكرية عقدت على سفينة نيلسون وشنق في 92 يونيو 9971 على سفينته. (لامينيرفا La Minerva) وتدلّى جسده من عارضة شراع هذه السفينة، واستعاد الملك والملكة العرش فسجنوا مئات الليبراليين وأعدموا قاداتهم.

صفحة رقم : 14692

قصة الحضارة - < عصر نابليون - > ملوك أوروبا في مواجهة التحدي - < إيطاليا وغازتها - > إيطاليا تحت حكم نابليون

ظل نابليون طوال تسعة أشهر بعد عودته من مصر يعمل على إقناع الأمة الفرنسية بتعريفه للحرية السياسية عن طريق استفتاءات دورية كان يتوقع أن تسفر نتائجها عن كون الحرية السياسية تتفق مع الاستبداد المتطور (حكم المستبد العادل). لقد كانت فرنسا قد تعبت من الحرية الديمقراطية في الوقت الذي كان فيه الليبراليون الإيطاليون يتوقون إليها بعد أن أثار حفيظتهم عودة الحكم النمساوي. فمتى يعود هذا الإيطالي اللامع الذي أصبح فرنسا (نابليون) إلى إيطاليا ليخرج هؤلاء النمساويين وليجعل لإيطاليا حاكماً إيطالياً؟

واستغرق القنصل البارع (نابليون) وقتاً مناسباً للإعداد المتقن - وكان الإتقان أول مبادئ استراتيجيته. وعندما تبلورت الأمور أمامه أخيراً كانت خطته أكثر كفاءة بكثير من هجوم سنة 6971: تسلق جبال الألب، ومن ثم الهبوط عليها من الجانب الآخر، وشق القوات النمساوية لتصبح في قسمين، وقيادة الجيش الفرنسي الرئيسي لمهاجمة مؤخرة القوات النمساوية وتطويرها وحجزها مع قائدها العجوز حتى يستسلم الذئب النمساوي للثعلب الغالي (الفرنسي) ويترك له كل الممتلكات الإيطالية غرب فينيزيا (Venezia 1081) لقد كانت خطته أقرب ماتكون إلى خطة سبق أن وضعها ونفذها في سنة 7971. وأعطى نابليون للجمهورية السيزلية المتمحورة حول ميلان والجمهورية الليجورية في جنوا استقلالاً نسبياً، وجعل على رأس كليهما حاكماً إيطالياً تحت الحماية الفرنسية. وحتى الآن فإن نابليون لم يقدم على عمل يسبب الإزعاج للولايات الباباوية إذ عقد اتفاقات وفاق مع الكنيسة وارتد عن الإسلام (لم يصبح محمدياً Mohammedan) ووافق فرديناند الرابع ملك نابلي على إغلاق موانئها في وجه السفن البريطانية ولم يستطيع نيلسون تقديم يد العون لبلاده لأنه كان مشغولاً بمهاجمة كوبنهاجن (2 أبريل 1081) وأحس الإيطاليون بيد إيطاليا رقيقة كامنة وراء هذا الإنجاز (المقصود يد نابليون) فابتهجوا.

والآن لقد قبضت هذه اليد على زمام السلطة، ففي يناير سنة 2081 تقابل 454 مندوباً مفوضاً من الجمهورية السيزلية في ليون Lyons وأقرروا دستوراً جديداً وضعه نابليون وقبلوا اقتراح تاليران بانتخاب نابليون رئيساً للجمهورية الإيطالية الجديدة Repubblica Italiana. وبعد أن نصب نابليون نفسه إمبراطوراً على فرنسا (4081) بدأ منصب (رئيس إيطاليا) متواضعاً بالنسبة إليه، لذا، ففي 62 مايو سنة 5081 تلقى نابليون في ميلان تاج الملوك اللومبارديين الموقر والعريق، وكان تاجاً من حديد وأصبح بذلك حاكماً لشمال إيطاليا وقدم لأهل البلاد المدونة القانونية النابليونية، وسأوى بين الجميع في فرص التعليم بأن فرض على الدوائر (المقاطعات) الأكثر ثراء مساعدة الدوائر الأفقر، ووعد بأن يجعل شعبي في إيطاليا... لا يتحمل ضرائب باهظة بل ستكون وطأة الضرائب هنا أخف منها في أي أمة أخرى في أوروبا وعندما غادرهم ترك معهم ابن زوجته الحبيب إلى نفسه يوجين دي بوهارنيه Eugén de Beauharnais نائباً له (نائب ملك) دلالة على اهتمامه بأمرهم.

وطوال الأعوام الثمانية التالية نعمت المملكة الجديدة (خاصة لومبارديا) برخاء عام وحياة سياسية نشيطة ظل الإيطاليون يذكرونهما بخير لفترة طويلة. ولم تتظاهر الحكومة بالديمقراطية، فقد كان نابليون غير مؤمن بقدرة الجماهير في أي مكان على الاختيار الحكيم للقادة أو السياسات، لكنه بدلاً من ذلك نصح يوجين أن يجمع حوله أكثر المديرين خبرة وكفاءة. وبالفعل فإن هؤلاء الأكفاء قد خدموه بحماسة ومهارة، لقد نظموا جهازاً إدارياً يتسم بالكفاءة، ونفذوا كثيراً من الإنشاءات العامة - طرق، وقنوات وحدائق عامة ومشروعات إسكان ومدارس، وأصلحوا وسائل الصرف واتخذوا إجراءات للمحافظة على الصحة العامة وأصلحوا السجون وقانون العقوبات وأقاموا مشاريع محو الأمية ونهضوا بالموسيقى والفنون، وارتفعت عوائد الضرائب من 28 مليون فرنك في سنة 5081 إلى 441 مليون فرنك في سنة 2181، لكن جزءاً من هذه الزيادة كان يعكس التضخم (وفرة العملة اللازمة لتمويل الحرب) كما كان في جانب آخر منها نتيجة إعادة توزيع الثروات المتركة في أيدي القلة للقيام بمشروعات للصالح العام.

وفي هذه الأثناء واصل نابليون جهوده لصنع إيطاليا بالصيغة النابليونية، ففي سبتمبر 2081 ألحق بيدمونت بفرنسا، وفي يونيو سنة 5081 حدث حكومة جنوة على طلب إدماج الجمهورية الليجورية في الإمبراطورية الفرنسية. وفي سبتمبر 5081 ضم دوقيات بارما Parma وبياسنزا Piacenza وجواستالا Guastalla. وفي ديسمبر 5081 - بعد محق الجيش النمساوي في معركة أوسترليتز - حدث الإمبراطور فرانسيس الثاني على تسليم فينيزيا (فينيتسيا

Venezia) لمملكة يوجين الجديدة. وكانت البندقية Venice شديدة الامتنان لهذا التعويض الجزئي عن المقايضة غير العادلة التي عقدها نابليون مع البنادقة في سنة 7971، وعبرت عن امتنانها هذا بإقامة مهرجانات الترحيب به (بنابليون) عندما زار مدينتهم في سنة 7081(7). وفي مايو سنة 8081 تولى أمر دوقية تسكانيا Tuscany الكبيرة في وقت كانت الإدارة النمساوية بها في أحسن حالاتها. وحكمت ليزا أخته (أخت نابليون) لوسا Lucca حكما طيبا حتى إن نابليون حولها إلى تسكانيا وبفضل حكمها وسياسة الاسترضاء التي اتبعتها أصبحت فلورنسا ملاذا للآداب والفنون يعيد إلى الأذهان ذكريات أيام آل ميدتشي.

وفي 03 مارس سنة 6081 أعلن نابليون تعيين أخيه جوزيف ملكا على نابلي وأرسله على رأس جيش فرنسي ليعيد للطاعة فريدريك الرابع غير المنضبط وزوجته الملكة كثيرة المطالب. لقد بدأ الإمبراطور (نابليون) قد ادخر أكثر المهام صعوبة لجوزيف الكريم وأنه - أي نابليون - لم يضع في اعتباره كثيرا المخاطر والصعوبات التي تطوي عليها هذه المهام. لقد كان جوزيف رجل ثقافة يحب صحبة المتعلمين وصحبة النسوة اللاتي لم يطغ علمهن على جاذبيتهن(8). وقد شعر بونايرت أن هذه الصفات لا تكفي ليحكم المرء مملكة حكما ناجحا. فلم عينه إذن؟ لقد عينه لأنه كانت لديه من الممالك التي فتحها ما يفوق عدد إخوته، ولم يكن نابليون يثق في أحد ثقته في أقاربه المقربين. لقد كان جوزيف قد حظي معلا - كملك لنابلي - بتأييد زعماء الطبقة الوسطى الذين لم يكونوا مرتاحين في ظل النظام الإقطاعي، لكن العامة رفضته كمغتصب وكافر، وكان على جوزيف أن يتخذ إجراءات صارمة لقمع مقاومتهم. وكانت الملكة قد أخذت معها إلى صقلية كل الأموال المودعة في بنك الدولة. وكان الأسطول البريطاني يحاصر الميناء ويعوق حركة التجارة، وكان الجنود الفرنسيون قد شرعوا في حركة عصيان خطيرة، فرغم جهودهم الحربية الممتازة كانت روايتهم قليلة جدا، وطلب جوزيف من أخيه أن يحول إليه بعض الأموال، فوجهه أخوه إلى جمع الأموال من نابلي لقاء قيام الفرنسيين بتحريرها وتفاوض جوزيف مع رجال المال الهولنديين للحصول على قرض، وفرض ضريبة على كل الدخول (جمع دخل)، على النبلاء والعوام ورجال الدين على سواء. واستدعى من باريس الكونت بيير - لويس رودريه Comte Pierre - Louis Roederer وهو أحد الاقتصاديين الذين يفضلهم نابليون ليتولى أمر خزانة الدولة فسرعان ماضبطها، وقام إداريون آخرون ذوو خبرة بتأسيس مدارس مجانية في كل كميونات المملكة، وكلية في كل مقاطعة وتم إبطال الإقطاع، وتم تأميم أراضي الكنيسة وبيعها للفلاحين ولأفراد الطبقة الوسطى النامية، وتمت مواعمة القوانين مع مدونة نابليون القانونية، وتم تطهير النظام القضائي، وتسهيل الإجراءات القضائية، وتم إصلاح السجون ونظام العقوبات(9).

لقد كان جوزيف يقترب من النجاح الكامل وكاد يصبح مقبولا من العامة عندما دعي فجأة ليتبوأ عرشا يتعرض شاغله لخطر أشد، وليقوم بمهام أصعب - لقد دعي ليكون ملكا على أسبانيا(01 يونيو 8081)، وعين نابليون بدلاً منه على عرش نابلي جوشيم مورا Joachim Murat زوج أخته كارولين بونايرت، ولم يلجأ نابليون لهذا (تعيين زوج أخته) إلا لأنه لم يكن لديه أخ آخر يمكن تعيينه على عرش نابلي. وإذا ذكر مورا Murat ارتبط اسمه بأناقة ملبسه وجرأته في المعارك، كما أنه يفرض علينا تكريم ذكره لأنه أعاد تشكيل حكومة نابلي. لقد كان رجلا يتحلى بكل فضائل الفلاحين خلا الصبر. لقد كان أكثر ملاءمة للأعمال والمهام الشاقة (الهرقلية) منه للدبلوماسية الماكرة ودور رجل الدولة المتسم ببعد النظر، وكان زوجاً محبا ممزقا بين الخلافات مع أخي زوجته، والإخلاص له، حتى ظنه مجنونا، ونستطيع أن نفهم شكواه (أسباب تيرمه) من حقيقة أن الحصار القاري الذي طلبه نابليون (منع دخول البضائع الإنجليزية إلى دول أوروبا) كان يدمر الحياة الاقتصادية في نابلي. ومع هذا فقدنجح هو ومساعدوه - ربما بسبب عدم صبره - إنجاز الكثير في فترة حكمه التي دامت أربع سنوات. لقد أكمل مع مساعديه إصلاح نظام الضرائب ودفع ديون البلاد بكاملها (وكان هذا في معظمه نتيجة بيع الممتلكات الكنسية) وألغى رسوم المرور الداخلية، ومول المشروعات العامة الأساسية. لقد حولت إدارة جوزيف وإدارة مورا Murat اللتان استمرت أقل من ثماني سنوات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في نابلي تحولا أساسيا حتى إنه عندما استعاد فرديناند الرابع عرشه في سنة 5181 قبل تقريبا كل الإصلاحات التي قام بها الفرنسيون. وكان أعز هذه الإنجازات إلى قلب جوشيم Joachim هو الجيش ذا الستين ألف مقاتل الذي نظمته ودربه، وكان يأمل أن يستطيع به توحيد إيطاليا ليكون هو أول ملك لإيطاليا الموحدة، لكنه استيقظ من هذا الحلم ونزع من شمس إيطاليا باستدعاء أخي زوجته سنة 2181 لينضم إليه في غزو روسيا.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> إيطاليا وجزائها -> إمبراطور وبابا

4- إمبراطور وبابا

شعر نابليون أنه خطأ خطوات أساسية في تحويل إيطاليا من مجرد تعبير جغرافي إلى أمة، وذلك بتنظيمه الجمهورية السيزبية (جمهورية جنوب الألب) في الشمال، ومملكة نابلي في الجنوب، لكن النمساويين كانوا قد استطاعوا - في أثناء غياب نابليون في مصر - وضع نهايه لجمهورية روما التي أسسها الفرنسيون قبل ذلك بعام واحد فقط، واستعادت الباباوية عاصمتها التاريخية (روما) ومعظم الولايات الباباوية، وفي 31 مارس 0081 عقد الكرادلة اجتماعا لانتخاب بابا جديد، فوقع الاختيار على بيوس السابع VII Pius الذي كان كل الكاثوليك تقريبا يتطلعون إليه ليدافع عن ممتلكات الكنيسة وعن السلطة الزمنية للباباوات.

ووجد نابليون أن بيوس السابع معقول بما فيه الكفاية عند التفاوض لعقد اتفاقات (كونكوردات) مع الحكومة الفرنسية سواء جرت هذه المفاوضات في باريس أو روما، كما وجده معقولا في مباركته للصلاحيات الإمبراطورية، لكن هذه الولايات الباباوية (رغم أنها لم تكن منحة من قسنتين كما جرى الادعاء في وقت من الأوقات) قد قدمها بين القصير Pepin the Short للبابا ستيفن الثاني Stephen في سنة 457. وقد أكد شارلمان في سنة 477 منحة بين Pepin هذه، وإن كان قد تدخل في شؤون الحكم في الولايات الباباوية واعتبر نفسه رأس العالم المسيحي لا بد أن يصغي البابا إليه حتى في أمور اللاهوت (01). وقد طور نابليون أفكارا مشابهة لأفكار شارلمان. لقد كان نابليون قد عقد العزم على مواجهة حصار إنجلترا لفرنسا بحصار مضاد (الحصار القاري المضاد) بمنع دخول البضائع البريطانية إلى الأسواق الأوروبية لكن المجلس الإداري التابع للبابا أصر على أن تظل الموانئ التابعة للولايات الباباوية مفتوحة للجميع. وأكثر من هذا فقد كانت هذه الولايات الباباوية تقف حاجزا (بحكم موقعها) بين شمال إيطاليا وجنوبها، فما الحل وقد أصبح نابليون تواقا لتوحيد إيطاليا وضمها لتكون تحت قبضته. لقد قال لأخيه جوزيف إن هذا هو هدف سياستي الذي لا أبغي عنه حوالا (11) واتساقا مع هذه السياسة استولى الجيش الفرنسي على أنكونا (7971Ancona) وهي ميناء إستراتيجي في البحر الأدرياتي يتحكم في الاتصال بين شمال إيطاليا وجنوبها والآن (31 نوفمبر 5081) كان نابليون يستعد لخوض معركة ضد النمسا وروسيا، فانتهاز البابا بيوس السابع هذه الفرصة واستجاب لتحريض مجلسه الإداري وحثه المتهور، فأرسل إلى نابليون تحديا خطيرا: لقد أخذنا على عاتقنا أن نطلب من عظمتكم إخلاء أنكونا Ancona، فإن ووجهنا بالرفض فلا ندري كيف نكون على علاقة صداقة مع وزير عظمتكم (21) وقد أجاب نابليون على هذا التحدي بتحدٍ مضاد إن كان قدا ستكم تحكمون روما، فإنني إمبراطورها (31) لقد امتعض نابليون كثيرا من إرسال البابا تحديه هذا قبيل معركة أوسترليتز Austerlitz. لقد تحدث نابليون كشارلمان لكنه تقدم كقيصر وهزم النمساويين والروس في معركة أوسترليتز.

وبعد ذلك بعام (21 نوفمبر 6081) وكان قد دمر الجيش البروسي في بينا Jena - أرسل نابليون من برلين للبابا يطلب منه طرد الإنجليز من روما وأن تدخل الولايات الباباوية في الكونفدرالية الإيطالية أي تنضم إليها في وحدة كونفدرالية لأنه - أي نابليون - لا يستطيع أن يتسامح بشأن وجود موانئ وحصون تقع بين مملكة إيطاليا (في الشمال) ومملكة نابلي (في الجنوب) يمكن أن يحتلها الإنجليز زمن الحرب مما يعرض ولاياته وأهلها للخطر (41). وأعطى نابليون للبابا بيوس فرصة حتى فبراير 7081 للانصياع لهذا الأمر، ورفض البابا وسمح للوزير البريطاني بالبقاء في روما، وأعاد نابليون طلبه بطرد المفوضيين الإنجليز من روما عند عودته المظفرة من تيلسيت Tilsit ورفض البابا مرة أخرى، وفي 03 أغسطس هدد نابليون بالاستيلاء على الولايات الباباوية، فوافق البابا - خوفاً وعلواً - على إغلاق موانئه في وجه البريطانيين، وطلب نابليون الآن من البابا الانضمام إليه لمواجهة أعداء فرنسا، فرفض بيوس، وفي العاشر من شهر يناير 8081 أمر نابليون جنرال ميولي Miollis الذي كان وقتها على رأس كتيبة فرنسية في فلورنسا، بالاستيلاء على روما.

ومنذ ذلك اليوم تحركت الأحداث لتشهد صراعا تاريخيا متصاعدا بين الكنيسة والدولة. وفي 2 فبراير استولى جيش ميولي Miollis على سيفيتا فيشيا Civitavecchia ودخل روما في اليوم التالي وطوق الكويرينال Quirinal وهو التل الذي يقع عليه قصر البابا ومقر مجلسه الإداري. ومنذ هذا الوقت حتى مارس سنة 4181 أصبح بيوس السابع سجين فرنسا وفي 2 أبريل 8081 أمر نابليون بضم الولايات الباباوية إلى مملكة إيطاليا. لقد أصبح هناك الآن منطقة مفتوحة بين مملكة نابلي ومملكة إيطاليا أي بين جوزيف وبوجين.

ثم كان عام انتشغل فيه نابليون بأسبانيا. وفي 71 مايو 9081 ومن فينا التي فتحها نابليون للمرة الثانية، أعلن ضم الولايات الباباوية للإمبراطورية الفرنسية، وأعلن بذلك نهاية السلطة الزمنية (غير الدينية) للباباوات، وفي العاشر من يونيو أعلن البابا حرمان نابليون من رحمة الكنيسة، وفي 6 يوليو قاد الجنرال راد Radet بعض الجنود في قاعة الاستقبال الخاصة بالبابا وخيّر بين التنازل (عن حكم الولايات الباباوية) أو النفي، ولم يأخذ بيوس معه سوى كتاب الصلوات اليومية الخاص به وصلبيه وتبع أسريه إلى عربة كانت في الانتظار حملته على طول الساحل الإيطالي مارة بجنوا إلى سافونا Savona وهناك ظل سجيناً يعامل بلطف إلى أن أمر نابليون بنقله إلى فونتينبلو Fontaine bleau (يناير 2181) بعد نشر تفاصيل مؤامرة مزعومة لحطفه إلى إنجلترا.

وفي 31 فبراير 3181 وقع بيوس اتفاقاً جديداً مع نابليون وفي 42 مارس سحب توقعه، وكان يعيش في سجنه الفخم Palatial عيشة بسيطة لدرجة أنه كان يخطط (أو يرفو) قميصه بنفسه(51). وظل في سجنه هذا خلال كل أحداث 2181 و 3181 حتى واجه نابليون نفسه السجن في 12 يناير سنة 4181، فأعيد إلى سافونا. وفي أبريل أرسل الحلفاء - بعد استيلائهم على باريس - إلى البابا بما يفيد أنه أصبح حراً وفي 52 مايو دخل البابا بيوس السابع روما ثانية، وكان في حالة يرثى لها بدنياً ونفسياً، ورحب به كل السكان تقريباً، وتنافس شباب روما في جر عربته (بدلاً من ترك الخيول تجربها) إلى الكويرينال(61) Quirinal (حيث قصره).

لقد استطاعت إدارة نابليون الفرنسية للولايات الباباوية في فترة حكمها القصيرة بمساعدة من الليبراليين من أهلها إحداث نقلة مهمة في الحياة الاقتصادية والسياسية، كانت نقلة سريعة ونشيطة، وربما سببت هذه السرعة وهذا النشاط بعض الألام. لقد أنهت الإدارة الفرنسية الإقطاع ومحاكم التفتيش وأغلقت ما يزيد على مائة كنيسة ودير وسرحت 258،5 راهباً وراهبة. وطردت الموظفين المرتشدين الفاسدين، وأخضعت الجهات المختلفة لنظم محاسبية. وأصلحت الطرق وزادت فيها من قوات الشرطة، وكادت تقضي تماماً على اللصوصية وقطع الطرق. وجعلت الشوارع نظيفة مضاءة ليلاً، وجففت مستنقعات بونتين Pontine وأتاحها للراغبين في زراعتها، وأعلنت حرية الاعتقاد (الحرية الدينية)، وسمحت لليهود بالانتقال بحرية من معازلهم their ghetto وانتعشت وحسنت من أوضاع السجن، وبنيت المدارس وزودتها بالمعلمين، وتم افتتاح جامعة جديدة في بيروجيا Perugia، واستمرت أعمال الكشف عن الآثار الكلاسيكية وعين كانوفا Canova للإشراف على متحف يضم ما يعثر عليه من آثار، لكن الإدارة الفرنسية كانت تجمع الضرائب بدأب كما كانت تجند المواطنين إلزامياً في الجيش. واشتكي التجار من القيود التي فرضتها الإدارة الفرنسية على التعامل مع إنجلترا. وشعر غالب السكان بالتعاسة لتغيير مؤسساتهم التقليدية، وللمعاملة المخزية التي لاقاها البابا الذي كانت له شعبية، وبدأ الناس - حتى الملحدون - يحبونه وراح الناس يتطلعون إلى الماضي بحسرة، متمنين عودة حكم البابا، ذلك الحكم المتسم بالنعومة والهدوء والتراخي(71).

لقد كان إقدام نابليون على سجن البابا بيوس السابع خطأ فاحشاً من حاكم عرف بدهائه وحكته. لقد كانت اتفاقات الوفاق التي عقدها مع الكنيسة الكاثوليكية في روما وكذلك تنويجه إمبراطوراً قد جعلته مؤتلفاً مع الكاثوليك في أنحاء أوروبا بل وجعلت كل ملوك أوروبا تقريباً يقبلونه من الناحية الرسمية لكن معاملته السيئة للبابا في الفترة الأخيرة جعلت كل الكاثوليك تقريباً وكثيراً من البروتستانت ينفرون منه. لقد كانت الباباوية قد قويت بسبب محاولة نابليون استخدامها كأداة سياسية، فالكنيسة الكاثوليكية الفرنسية التي كانت حتى ذلك الوقت غالبية Gallican أي مناهضة لبابا روما، أصبحت الآن توقر الباباوية وتبدي ولاءها لها. والجزويت (طائفة اليسوعيين) الذين سبق أن طردهم بابا خائف مرتعد، عادوا مرة أخرى يمارسون نشاطهم في مختلف أنحاء العالم المسيحي في ظل البابا بيوس السابع المهذب والمصمم في الوقت نفسه، وقد حدث هذا في سنة 4181. وفي هذا العام نفساً استعادت الباباوية سلطانها الزمني، بل وازداد سلطانها الروحي بسبب المقاومة الهادئة التي أبداها البابا السجين. وقد اعترف نابليون نفسه بسوء حكمه على البابا بيوس السابع وكان هذا الاعتراف بعد تنازله عن العرش للمرة الأولى لقد كنت دائماً أعتقد أن البابا شخص ذو شخصية ضعيفة جداً. لقد عاملته بقسوة. لقد كنت مخطئاً. لقد كنت أعمى(81). ومن ناحية أخرى فإن البابا بيوس لم يقلق أبداً من شأن نابليون ولم يبخسه أبداً حقه، فقد أبدى إعجاباً به كثيراً، بل لقد أظهر تعاطفاً معه عندما سجن مع أنه (أي نابليون) كان سجنه. وعندما شككت أم نابليون للبابا من أن الإنجليز يسيئون معاملة ابنها في سانت هيلينا، توسل بيوس للكاردينال كونسالفي Consalvi طالباً منه التدخل لصالح عدوه السابق الذي هو(91). وعاش البابا

بعد موت الإمبراطور بعامين. إذ مات في سنة 3281 وهو يهذي هذيان المحموم سافونا، فونتنبيلو , Savona , Fontainebleau

صفحة رقم : 14694

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> إيطاليا وعزائها -> ما وراء المعارك

5- ما وراء المعارك

المعارك هي الألعاب النارية في دراما التاريخ، فخلها يكمن الحب والكراهية بين الرجال والنساء، والكفاح والمقاومة في مضمار الاقتصاد، والهزائم والانتصارات في مجالات العلوم والآداب والفنون والتطلع اليانس لعقيدة دينية. وقد يكون الإيطالي عاشقا متعجلا، لكنه يعمل بحيوية على زيادة أفراد الجنس البشري (المعنى أنه كثير الجماع) كما أنه يريد أن يملأ شبه الجزيرة الإيطالية الذهبية بأمثاله، حتى إن المهمة الوحيدة للمعارك والحروب هي تقليص عدد السكان المزدحمين، ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية تشجع عدم الإنجاب بل كانت ترفضه أكثر من رفضها للزنا، لذا فلم تكن الكنيسة تعمل على تحديد النسل وما كانت تستطيع وقف تضاعف عدد السكان.

لقد كانت الكنيسة تشجع العلاقات الغرامية مبتسمة لإيروس Eros (إله العشق عند الإغريق) ولم تفرض المحاذير على الشهوات المنطلقة في الكرنفالات. وكانت البنات غالبا ما يحتفظن بعذريتهن لأنهن كن يتزوجن في سن مبكرة، وكن يخضعن لمراقبة قاسية قبل الزواج، لكن بعد الزواج كان يمكن للمرأة أن يكون لها تابع يقوم بأمرها غير زوجها Cacvalier Servente أو حتى عشيق (لأن الزواج يعني عادة ضم ممتلكات الزوجين) ولا يجد الإيطالي غضاضة في اتخاذ زوجته عشيقا، إذ يظل الزواج رغم هذا محترما في نظره، وإذا اتخذت المرأة عشيقين أو ثلاثة اعتبرت (شبهة على نحو ما Little Wild). وهذه على أية حال شهادة اللورد بايرون (12) الذي كان يميل إلى أن كل النساء يمكن الوصول إليهن. وربما كان حديثه منصرفا إلى نساء البندقية فقط حيث استقرت فيها فينوس (إلهة الحب عند الرومان) على نحو خاص، لكننا وجدنا ستندھال Stendhal يقول الشيء نفسه عن نساء ميلان في مؤلفه Chartreuse de Parme.

ورغم هذا التساهل والتسيب الخلقي، فالحياة في ميلان بدت كئيبة في نظر مدام دي ريموزا de Re, musat التي حزنّت لغياب الحياة الأسرية، فالأزواج غرباء بالنسبة إلى زوجاتهم إذ يتركهن ليرعى أمورهن العشاق Servente (22Cavaliere). ولم تكن مدام دي ستيل de Stael سعيدة لما اعتبرته سطحية تبدو واضحة في مناقشات الرجال في إيطاليا، وكانت مدام دي ستيل متألقة في المناقشات التي أجرتها مع الجنسين. لقد كانت ترى أن الإيطاليين يرهقهم التفكير (32). لقد ذكرها الإيطاليون بأن الكنيسة لا تترتاح إلى التفكير بصوت مسموع. لقد كان غالب الإيطاليين متفقين مع البابا في أن الدين مع العقيدة المستقرة والعوائد المالية التي تدرها مناطق ما وراء الألب أكثر فائدة لإيطاليا ومع هذا كان هناك الكثير من الفكر الحر الهادئ بين الأقلية المتعلمة (42) بل وقدر غير قليل من الهرطقة السياسية. لقد كان باستطاعة ألفيري Alfieri أن يكتب بحماس عن الثورة الفرنسية وصفق مئات الإيطاليين لسقوط الباستيل، وكان في إيطاليا مؤسسات مختلطة (تضم رجالا ونساء) وتقدم تعليما مهذبا مثل أكاديمية أركاديا the Accademia della Arcadia التي كانت في وقت من الأوقات تجمعا مشهورا للرجال المتعلمين والنساء المتعلمات، وتم تأسيس أكاديمية كروسكا Crusca في سنة 2181. وفي سنة 0081 كانت هناك امرأة هي كلوتيدا تامبروني Coltida Tambroni تقوم بتدريس اليونانية في جامعة بولونيا Bologna في إيطاليا.

وانتشرت دراسة العلوم والطب في جامعات إيطالية أخرى ففي سنة 1971 وضع لويجي جالفاني Luigi Galvani (7371- 8971) في جامعة بولونيا الإيطالية أنه إذا تم توصيل عضلة ساق الضفدعة بقطعة من الحديد، وتم توصيل عصبها (عصب الضفدعة) بقطعة من النحاس، نشأ عن ذلك تيار كهربائي وسيبب هذا التيار تقلص العضلة. وفي سنة 5971 اخترع أليساندرو فولتا (Alessandro Volta 5471- 7281) في جامعة بافيا Pavia البطارية الجافة Voltaic Pile التي أدهشت أوروبا حتى إنه استدعى إلى باريس في سنة 1081 لعرضها في المعهد العلمي الفرنسي، وفي 7 نوفمبر، قرأ ورقة بحثية أمام جمهور ضم نابليون نفسه عن (تطابق الموانع الكهربائية مع الموانع الجلفانية) وفي سنة 7081 نشر لويجي رولاندو Luigi Rolando أبحاثه التي مازت هذه الفترة عن تشريح المخ. إن إيطاليا عديمة الفكر كانت تعلم أوروبا ثورة أعظم من الثورة الفرنسية.

وضعف المسرح الإيطالي لأن الإيطاليين وجدوا أنه من الطبيعي تماماً أن يحولوا الحديث العادي إلى أغان، والدراما إلى أوبرا، وكانت الجماهير تميل كثيراً إلى المسرحيات البسيطة ذات الطابع الكوميدي، أما الأفراد الأكثر نضجا فكانوا يؤثرون المسرحيات من نوع ما يكتبه فيتوريو ألفيري (Vittorio Alfieri 9471- 3081) التي أعلن فيها كرهه للطغيان وتطلعه لتحرير إيطاليا من الحكم الأجنبي، فكل مسرحياته تقريباً سبقت الثورة الفرنسية (52) لكن مبحثه الانفعالي المفعم حماساً لم ينشر إلا سنة 7871 في بادن Baden مع أنه كتبه في سنة 7771، ولم ينشر في إيطاليا إلا سنة 0081 وأصبح بعد نشره من كلاسيات الفلسفة الإيطالية وفن الكتابة بالإيطالية. وأخيراً وجدناه في عمله الذي يحمل عنوان (Misogallo 9971) الذي كتبه في أواخر حياته المضطربة - يدعو الشعب الإيطالي للنهوض والإطاحة بالحكم الأجنبي كما دعاة للوحدة. وهنا وجد مازيني Mazzini وغاريبaldi صوتاً واضحاً يعبر عن أفكارهما.

لقد انعكست طبيعة الإيطاليين الانبساطية (غير الانطوائية) ولغتهم الشجية ونزوعهم الموسيقي إلى الشعر، فقد شهد هذا العصر القصير - حتى بعد استسلام ألفيري Alfieri للماضي وليوباردى Leopardi للمستقبل - مائة شاعر يتسلقون الشكل الشعري ويركزون عليه أكثر من تركيزهم على محتواه العاطفي (المدرسة البرناسية الفرنسية التي طغى اهتمامها بالشكل الشعري على ما سوى ذلك)، وكان أسعدهم هو فينسينزو مونتي (Vincenzo Monti 4571- 8281) الذي كان لديه كلمات طيبة يقولها في كل موضوع واعد. لقد دافع في عمله (La Bassevilliana 3971) عن الدين في وجه الثورة الفرنسية مما جعله مقبولاً في البلاط الباباوي، وفي عمله (Il bardodella Selva Nara) المنشور في سنة 6081 عظم من شأن تحرير نابليون لإيطاليا فعينه الفاتح (نابليون) أستاذاً في جامعة بافيا Pavia وبعد سقوط نابليون اكتشف أخطاء الفرنسيين وأعلنها كما اكتشف فضائل النمساويين. وخلال كل هذه التقلبات راح يمتدح بشكل متواصل (La ballezza dell, Universo). وقد تخطى هذه الشطحيات في ترجمته للإلياذة (0181)، ولم يكن يعرف من اللغة اليونانية شيئاً، وإنما قام بصياغة شعرية لنص نثري، لذا فقد وصفه فوسكولو Foscolo بهذه العبارة: gran traduttore dei traduttore d, Omero وكان أجو فوسكولو Ugo (Foscolo 8771- 7281) شاعراً أكبر منه وكان أكثر ميلاً منه للحزن. وهو كشاعر كان ذا حس عاطفي يغلب على التفكير المنظم. لقد أطلق العنان لرغباته وانتقل من قصة شعرية قوامها الحب والفروسية إلى قصة أخرى، ومن بلد إلى بلد ومن بشارة gospel إلى أخرى، وانتهى إلى اشتياقه للأحلام القديمة. لكن خلال كل مراحل تطوره كان حريصاً على الالتزام بالشكل الشعري، وحتى عندما استبعد الوزن والقافية راح يسعى للكمال في موسيقا اللغة. لقد ولد بين عالمين - ولد في جزيرة زانطة Zante بين اليونان وإيطاليا، من أب إيطالي وأم يونانية، وبعد أن قضى في زانطة خمسة عشر عاماً انتقل إلى البندقية واقتطف من جمالها السهل ووقع في حب تهتكها وتعلم أن يكره السيطرة النمساوية المجاورة، وفرح عندما أتى نابليون كإعصار من نيس Nice إلى مانتوا Mantua، وهنق لبطل أركول Arcole: بونا بارت المحرر، لكن عندما سلم المخلص (نابليون) البندقية للنمسا انقلب عليه معبراً عن سخطه في رواية (Le Ultime Lettere di Lacopo Ortis) التي نشرها في سنة 8971، وهي رواية يعبر فيها عن أفكاره من خلال الخطابات الأخيرة التي كتبها بندقي (Werther) لأحد أصدقائه يقص عليه فيها مأساته المزدوجة: فقد حبيبته إذ فاز بها عزوله، وفقد البندقية تلك المدينة الحبيبة إذ وقعت في قبضة الغول النيتوني Teutonic Ogre.

وعندما انطلق النمساويون لغزو شمال إيطاليا مرة أخرى انضم فوسكولو Foscolo للجيش الفرنسي، وحارب بشجاعة في بولونيا Bologna (مدينة إيطالية) وفلورنسا وميلان وخدم قائداً Captain في القوات التي أعدها نابليون لغزو إنجلترا. وعندما تبدد حلم غزو إنجلترا، تخلى فوسكولو عن الحرية وعكف على القلم وعاد لإيطاليا ونشر أجمل أعماله (I Sepolcri) في سنة 7081. لقد احتفى في هذه الرواية البالغ عدد صفحاتها ثلاثمائة صفحة مفعمة عاطفة مصقولة على نحو كلاسي بالكتابات على القبور باعتبارها تخليداً لذكرى أناس عظماء، وعظم من شأن كنيسة سانتا كروز Croce في فلورنسا لعنايتها الشديدة ببقايا مكيا فيللي وميشيل أنجلو وجاليليو، وراح يتساءل كيف يخضع شعب أنجب خلال قرون عديدة هذا العدد الكبير من رواد الفكر والإنجاز لحكام أجنبي؟ كيف يخضع مثل هذا الشعب

بإنجازاته الهائلة في الفلسفة والشعر والفن لهؤلاء الأجانب؟ وراح يعلي من شأن ما خلفه الرجال العظماء كدليل على الخلود، وكدليل على عظمة أمة وسمو حياتها الروحية. وعندما أصبح النمساويون مرة أخرى سادة لشمال إيطاليا (4181 - 5181) فرض فوسكولو على نفسه النفي فأقام في سويسرا ومنها اتجه - بعد ذلك - لإنجلترا، وراح ينفق على نفسه من عمله مدرساً وكاتب مقالات ومات في فقر شديد سنة 1781. وفي سنة 1781 نقل رفاته من إنجلترا إلى فلورنسا حيث دفن في ساننا كروز في إيطاليا التي تحررت أخيراً.

قال بايرون (الذي أحب إيطاليا رغم قوله هذا) في إيطاليا لا بد أن يكون الرجل في خدمة امرأة Cicisbeo أو مغنياً في ثنائي أو متقناً لفن الأوبرا وإلا فإنه يصبح لا شيء (62) فالأوبرا الإيطالية خاصة تلك التي كان يتم إنتاجها في البندقية ونابلي ظلت تسود المسارح الأوربية الهادفة، بعد أن تحداها لفترة وجيزة جلك Gluck وموزارت Mozart، إذ سرعان (5181) ماسرقت أعمال روسيني Rossini الميلودية وأنغامه العاصفة الأضواء حتى في فينا Vienna. وقد عاد بكيني Piccine - بعد أن نافس جلك Gluck في باريس - إلى نابلي، حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية في منزله لتعاطفه مع الثورة الفرنسية.

وبعد أن فتح نابليون إيطاليا دعي مرة أخرى إلى فرنسا (8971) لكنه مات فيها بعد عامين. وقد حقق بيسيلو Paisiello - كمؤلف وقائد فرقة موسيقية - انتصارات فنية في سان بطرسبرج St. Petersbrug وفي فينا، وفي باريس، وفي نابلي في ظل حكم فرديناند الرابع، وبعده في ظل حكم جوزيف بونابرت، ثم في ظل حكم Murat. وخلف دومينيكو سيماروزا Domenico Cimarosa خلف أنطونيو ساليري Salieri كقائد أوركسترا في فينا وأنتج هناك أكثر أعماله الأوبرالية شهرة في سنة 2971 وهي (IL matrimonio Segreto) وفي سنة 3971 دعاه فرديناند للعودة إلى نابلي كما يسترو maestro di Capella، وعندما استولى الفرنسيون على نابلي استقبلهم بسرور، وعندما استعاد فرديناند عرشه حكم عليه بالإعدام لكن هناك من حثه على تخفيف الحكم فصدر قرار بنفيه خارج البلاد، فانطلق سيماروزا قاصداً سان بطرسبرج، لكنه مات في الطريق إليها في البندقية (1081)، وفي هذه الأثناء كان موزيو كليمنتي Muzio Clementi يؤلف الموسيقى ويعزف على البيانو في العواصم المختلفة، وكان يعد عمله الذي حقق شهرة في وقت من الأوقات (Gradus ad Parnassum) في سنة 7181 وهو كتاب تعليمي للشباب عن راغبي تعلم العزف على البيانو في كل مكان.

وبدأ نيكولو (نيقولا) باجاني (Niccolo Paganini 2871- 0481) في جنيف في سنة 7071 مهمته التي قضى فيها ردحا طويلاً من الزمن إذ راح يحيي الحفلات بالعزف على الفيولين (الكمان). لقد أحب الكمان بإخلاص وعشقه أكثر من أي امرأة من الكثيرات اللاتي تدلن حبا في موسيقاه. لقد طور إمكانات الكمان بشكل لم يسبق له مثيل عزفاً وتأليفاً. لقد ألف أربعة وعشرين لحناً حراً Capricci أدهشت بغرابتها وتطورها كل من سمعها. وقد عينته إليزا بونابرت باكويوش (باكويوكي Bacciocchi) على رأس فرقة موسيقية في بيمبينو (Piombino 5081) لكن هذا التعيين لم يمنعه لفترة طويلة من تنقلاته إلى حيث كانت كونه نشراته تجلب له الشهرة والنجاح الأكيد، والثروة. وفي سنة 3381 استقر في باريس، ومنح بيرليوز Berlioz عشرين ألف فرنك لينقذه من فقر شديد كان يعانيه، وشجعه لتأليف عمله (هارولد في إيطاليا). لقد أصبح باجاني Paganini مرهقاً إرهاقاً شديداً بسبب انهماكه الشديد في العمل والعزف، فقرر أن يترك الإثارة في العاصمة المفتونة بالعبرية والتي تمور بالثورة. ومات في نيس Nice سنة 0481 تاركاً بالإضافة إلى ألبانته الحرة الأنف ذكرها ثمانية كونه نشراته والعديد من السوناتات يتحدى بها عازفي الفيولين (الكمان) والذين يؤلفون مقطوعات له (للفيولين) لقرن قادم. إن فن العزف على الفيولين وتأليف مقطوعات للعزف على هذه الآلة لم يعودا بمثل هذه الحيوية إلا الآن وبفضله.

كانت إيطاليا في عصر نابليون منشغلة تماما بالحروب والسياسة بانسة تماما في روحها العام ليس بها من الأعمال الخيرية الخاصة إلا القليل وهما الأمران اللذان لنشر الفنون خاصة فن العمارة الذي أعلى من شأن إيطاليا في الوقت الذي كانت فيه كل أورا ترسل بنسي Pence القديس بطرس للباباوات، وفي الوقت الذي كانت فيه فلورنسا والبندقية وميلان مثل روما ونابلي - ثرية وتحكم نفسها بنفسها أو بتعبير آخر تتمتع بحكم ذاتي. لقد ارتفعت شامخة بعض الإنشاءات المتميزة:

Arco della Pace في ميلان (6081 - 3381) التي قام عليها لويجي كاجنولا Luigi Cagnola - Teatro La Fenice (مسرح البندقية) في البندقية (2971) الذي قام عليه أنطونيو سيلفا Selva - Palazzo Braschi (قصر برازش) في روما (5971) بسلمه الفخم الذي قام عليه كوزيمو موريللي Cosimo Niccolini ولم تشهد إيطاليا رسوما (فن تصوير) خالدة ولكن النحاتين الإيطاليين استلهموا الآثار الهرقلية Herculanum لينبذوا تأثيرات فن الباروك العربية وطخامة الروكوكو rococo ليعودوا يستلهمون الروعة والهدوء والخطوط البسيطة في فن النحت الكلاسي. وقد ترك لنا واحد من هؤلاء النحاتين أعمالا لاتزال تستوقف الرائي، وتغريه بلمسها، وتبقى في ذاكرته إنه أنطونيو كانوفا الذي ولد في بوساجنو Possagno (بوسانو) عند سفح جبال الألب في البندقية. وكان أبوه - وكذلك جده - نحاتا، وقد تخصص الأب والجد في أعمال النحت المرتبطة بمذابح الكنائس وكذلك في نحت الأيقونات وتمائيل القديسين وغير ذلك من المنحوتات ذات الطابع الديني المسيحي. وعندما مات الأب (0671) أخذ الجد ابن ابنه أنطونيو إلى بيته ثم بعد ذلك إلى الإستوديو الخاص به. ولفت أنطونيو أنظار شريف أرسولو Arsolo (الشريف Patrician لقب للأرستقراطي الروماني) جيوفاني فالير Giovanni Falier لدأبه على العمل وتوقه الشديد للتعلم، فقدم له المال اللازم لدراسته في البندقية ورد له الشاب جميله بأن قدم له أول منحوتاته اللافتة للنظر (أورفيوس ويوريديس (72) Orpheus & Eurydice) وفي سنة 9771 انطلق - بموافقة الشريف فالير - إلى روما، فدرس فيها آثار الفنون القديمة، وراح أكثر فأكثر يستوعب تفسيرات وشروح ونكلمان Winckelmann للنحت الإغريقي باعتباره فنا يهدف إلى تمثيل الجمال المثالي من خلال الشكل الكامل والخط كأفضل وأتم ما يكون. لقد كرس نفسه تماما لإحياء الأسلوب الكلاسي في النحت.

وحتى أصدقاؤه في البندقية الحكومة على دفع راتب سنوي له طوال السنوات الثلاث التالية فأصبح يتلقى بناء على هذا ثلاثمائة دوكانت Ducat في العام. ولم تلهه هذه الأموال ولم تُعفه عن مواصلة ما نذر نفسه له فقد راح - بحب - يحاكي النماذج الكلاسيكية وبدا في بعض الأحيان وقد أنتج مثيلا يضارعها تماما كما في تمثال بيرسيوس Persues وعمله الذي أطلق عليه The Pugilist، وقد أنجز كلا العملين في سنة 0081، فكانا هما العملين الوحيديين من بين أعمال النحاتين المعاصرين اللذين استحقا أن يوضعوا في بلفيدير الفاتيكان جنبا إلى جنب مع الأعمال الفنية الكلاسيكية التي حازت إعجاب العالم (82). وعمله النحتي (ثيزيوس يذبح القنطور كائن خرافي نصفه فرس ونصفه بشر (Thesues Slyng the Centour) 5081) - وهو نحت من رخام - موجود الآن فيما كان يعرف في وقت من الأوقات بالحدائق الإمبراطورية في فينا - يمكن ببساطة أن يخطئ المرء فيظنه من الأعمال النحتية الخالدة في العصور القديمة، لولا المبالغة في إظهار القوة والضراوة، وكان كانوفا أفضل ما يكون في الأعمال ذات الطابع الناعم (المقصود غير العنيف) التي تتلاءم مع شخصيته كما في تمثاله هيب Hebe الموجود في المتحف الوطني في برلين، ففي هذا العمل نجد ابنة زيوس Zeus وهيرا Hera وهي ربّة الشباب تحظى بشرف توزيع النبيذ على الأرباب. وبدأ كانوفا في عام 5081 وهو عامه العاشر بالإنتاج أشهر تماثيله: فينوس Venus Victri X (في متحف بورجيز في روما Galleria Borghese) وقد حث بولين بورجيز Pauline Borghese - أخت نابليون - أن تتخذ أمامه هذا الوضع (البوز Pose) لينحت لها تمثالا يعبر عن مفاتها، وكانت وقتها في الخامسة والعشرين في تمام تكوينها

الجسدي(92) لكن قيل إن الفنان لم ينقل مباشرة إلا ملامح وجهها (لم يستخدم - كموديل - إلا وجهها) أما الملابس والأطراف فقد أعمل فيها خياله وأحلامه وذاكرته. وانتهى من هذا التمثال في غضون عامين ثم عرضه ليحكم عليه العامة والنحاتون المنافسون، فراعهم التمثال بما فيه من جمال عزيز ولمسة حب، وفي هذا التمثال لم يكن الفنان مجرداً مقلد لبعض الأعمال القديمة العظيمة الخالدة، وإنما كان تعبيراً عن امرأة حية في زمن حي، كانت في رأي أخيها (نابليون) هي الأجل. لقد جعل منها كانوفا هدية للأجيال.

وفي سنة 2081 دعا نابليون الفنان كانوفا ليأتي من روما إلى باريس، فنصحه البابا بيوس السابع - وكان قد وقّع لتوّه اتفاقاً (كونكوردات) مع القنصل (نابليون) - بتلبية الدعوة والذهاب لفرنسا لأسباب ليس أقلها أن يكون غازيا إيطالياً آخر يغزو فرنسا (تلميح لأصول نابليون الإيطالية) وأفضل التماثيل النصفية العديدة التي نحتها هذا الفنان لنابليون هو ذلك التمثال الموجود في متحف نابليون في كاب دنتيب Cap d Antibes إذ يبدو المحارب الشاب في هذا التمثال وكأنه أرسطو في حالة تأمل حقيقي والأكثر شهرة بكثير هو التمثال الكامل (من الرأس إلى القدمين) الذي صنعه كانوفا من الجص ثم نحته بعد ذلك من كتلة واحدة من رخام كارارا Carrara marble عند عودته لروما. وتم إرسال هذا التمثال إلى باريس في سنة 1181 حيث وُضع في متحف اللوفر، لكن نابليون اعترض على هذا التمثال بحجة أنّ شارة النصر المجنحة التي وضعها النحات في يمينه تبدو للرأي وكأنها تطير مبتعدة عنه، فتم حجب التمثال عن المشاهدين وفي سنة 6181 اشترته الحكومة البريطانية وأهدته إلى ولنجتون Wellington، وهو الآن موجود أدنى سلم قصر ولنجتون في لندن (بيت أبسلي Apsley) ويبلغ ارتفاعه أحد عشر قدماً. وقدم كانوفا إلى باريس مرة أخرى في سنة 0181 لنحت تمثال لماري لويز Marie Louise وهي جالسة على مقعد. ولم تكن النتيجة محل إعجاب لكن نابليون قدّم للفنان عند رحيله الأموال اللازمة لترميم كاتدرائية فلورنسا ومبلغاً لتمويل أكاديمية القديس لوك Luke (للفنون) في روما. وبعد سقوط نابليون أصبح كانوفا رئيساً لهيئة عيّنّها البابا لاستعادة الأعمال الفنية التي كان الجنرالات الفرنسيون قد أرسلوها لباريس، وردّها لأصحابها الأصليين.

لقد تربع على عرش النحت الإيطالي في عصره، ولم يبرّزه في أوربا إلا هودون (Houdon 1471- 8281) الذي حظي في هذه الفترة بالتوقير، وكان من رأي بايرون الذي كان أكثر ألفة في إيطاليا منه في فرنسا أن أوروبا والعالم ليس فيها إلا كانوفا واحد(03) وأنه - أي كانوفا - يضارع نحاتي العصور الكلاسيكية القديمة(13) وربما كان أحد أسباب الاحتفاء به هو موجة الكلاسيكية الجديدة التي جعلته - كما جعلت ديفد David (ساعد نابليون كليهما) يتنبأ بمقد الريادة في فنّه. لكن أوروبا لم تكن لترضى لفترة طويلة بتقليد (أو نسخ) الأعمال الفنية القديمة أو بتعبير آخر لم تكن لترضى - لفترة طويلة - بتقليد الآثار، لذا فسرعان ما أخضعت الحركة الرومانسية الخط والشكل للون والمشاعر وهكذا زوت شهرة كانوفا.

ولا يبعد عن سياق حديثنا ان نذكر أن كانوفا كان رجلاً طيباً معروفاً بتواضعه وتقواه وحبه للإحسان كما كان قادراً على تقدير منافسيه وعدم بخسهم حقهم، وكان يعمل بجد، وعانى من جو روما المسبب للملاريا ومن نحت الأعمال الضخمة، فغادر روما في صيف سنة 1281 طالباً هواء أنقى وحياة أهدأ في مسقط رأسه بوساجنو (بوسانو) وفيها مات في 31 أكتوبر 2281 وهو في الرابعة والستين من عمره فبكاه كل المثقفين في إيطاليا.

صفحة رقم : 14696

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> إيطاليا وغازتها -> سبعت إيطاليا من جديد

7- سبعت إيطاليا من جديد

ما هي المحصلة الجبرية (نسبة إلى علم الجبر) الكلية لما أحدثته فرنسا من خير وشر في إيطاليا في هذا العصر؟ لقد قدمت فرنسا لأمة تتمرغ في الكسل بسبب حكم الأجانب لها، صيحة صاخبة ونموذجاً لأمة حققت حريتها بإرادتها وأفعالها وهي تكاد تميز من الغيظ. لقد قدمت فرنسا لإيطاليا روحاً جديدة مفعمة بالتحدي فيما يتعلق بعلاقة المواطنين بالدولة. لقد قدمت فرنسا لإيطاليا مجموعة المدونة النابليونية. لقد كانت صارمة لكنها كانت بناءة ومحددة وواضحة ضبقت الأمور وأشاعت النظام ومهدت الطريق للوحدة والمساواة أمام القانون في شعب طالما قسمته الطبقة والنفور من الامتثال للقانون. وعمل نابليون ورجال إدارته الدؤوبون على تحسين الأداء الحكومي وتطهيره وعلى الإسراع بالتنفيذ ومضاعفة الأشغال العامة (المشروعات العامة) وتزيين الطرق وإنشاء الحدائق والشوارع التي تحفها الأشجار، وتطهير الطرق والمستنقعات والترع والقنوات، وتأسيس المدارس وإلغاء محاكم التفتيش وتشجيع الزراعة والصناعة والعلوم والآداب والفنون. وحى الحكم الجديد (الفرنسي) دين الناس لكنه لم يعط الحكومة حق قمع المنشقين عن الكنيسة. لقد كان نابليون المتشكك (غير المؤمن بالكاثوليكية) هو الذي خصص الأموال لإكمال كاتدرائية ميلان، وتم الإسراع بالإجراءات القانونية كلها كما أدخل عليها الإصلاح، وأصبح التعذيب مخالفاً للقانون ولم يُعد استخدام اللغة اللاتينية في المحاكمة أمراً لازماً، وفي هذه الفترة (1791 - 1813) لم يكن ينقص جوزيف ومورا في نابلي ويوجين في ميلان إلا أن يكونوا إيطاليين ليحظوا بحب الشعب.

أما الجانب الآخر للصورة فيتمثل في التجنيد الإلزامي والضرائب والاختلاس (بمقادير قليلة). لقد وضع نابليون نهاية للصوصية وقطع الطرق، لكنه استولى على الأعمال الفنية الشهيرة التي كانت إيطاليا متخمة بها، وفيما يتعلق بالتجنيد الإجباري فقد كانت حجج نابليون هي الأكثر معقولة باعتباره - أي التجنيد الإجباري - وسيلة عادلة لحماية الأمة الجديدة من الفوضى الداخلية والحكم الأجنبي، فالإيطاليون كما قال لا بد أن يتذكروا أن الجيش هو الداعم الأساسي للدولة. لقد أن الأوان أن يكف الشباب العاطل في المدن الكبيرة عن الخوف من متاعب الحروب وأخطارها. وربما كان التجنيد الإجباري مقبولاً أكثر لا بد منه لو أن المجتدين الإيطاليين لم يجدوا أنفسهم عرضة للذهاب إلى أي جبهة لحماية مصالح نابليون أو فرنسا، لقد تحرك ستة آلاف منهم إلى القتال الإنجليزي في سنة 1801 للانضمام للجيش الفرنسي لغزو إنجلترا، ذلك المشروع الذي كان غير مضمون النتائج. وتحرك ثمانون ألفاً منهم (23) ليُقذف بهم بعيداً عن شمس إيطاليا ليعانوا في سهول روسيا ويدهمهم جليدها، ويواجهوا جنود القوزاق. ولم يوافق الإيطاليون على وطنية الضرائب Patriotism of Taxation، ففي حالة الضرائب أيضاً لم يكن العامل الإيطالي يدفع لحماية إيطاليا وحدها وحكمها وتحسين ظروفها، وإنما أيضاً لمساعدة نابليون في مواجهة المصاريف المترتبة المطلوبة لإدارة إمبراطوريته الممتدة والمتقلبة (غير المستقرة). وكان يوجين يتوقع أن يحظى بحب رعاياه بينما هو يسلب ما في جيوبهم، إذ ارتفعت عوائد الضرائب في مملكته الصغيرة من 28 مليون فرنك في سنة 1801 إلى 441 مليون في سنة 1812، وكان من رأي الإيطاليين أن هذه الأعباء الثقيلة كان من الممكن تحملها بشكل أيسر إذا لم يسلب الحصار القاري الذي فرضه الإمبراطور (نابليون) السوق الإنجليزي من الصناعة الإيطالية، بينما كانت جمارك التصدير والاستيراد التي تجعل فرنسا في الوضع الأكثر رعاية قد كُتلت التجارة الإيطالية بالتعامل مع فرنسا وألمانيا.

وعلى هذا وحتى قبل عودة النمساويين، كان الإيطاليون قد تعبوا من حماية نابليون. لقد شعروا أنهم لم يفقدوا أعمالهم الفنية العظيمة فحسب، وإنما كانوا أيضاً عرضة لاستنزاف ثرواتهم التي كونوها في سبيل مشروع نابليون لغزو إنجلترا وفتح روسيا، ولم يكن هذا هو حلم شعرائهم. إنهم يعترفون أن المسؤولين الذين عينهم البابا كانوا قد سمحوا بدرجة كبيرة من الفساد والرشوة في الولايات الباباوية ومع هذا فقد ساءت معاملتهم السيئة التي لاقاها البابا بيوس السابع من المسؤولين الفرنسيين كما ساءهم أن يأمر نابليون بسجنه، وأخيراً كرهوا حتى يوجين المحبوب فعلى يديه جرى تنفيذ كثير من مراسيم نابليون التي لم تكن تلقى منهم ترحيباً وقد رفضوا دعم جهود يوجين لإرسال دعم لنابليون عندما كان عرضة لهزيمة كاملة (1813) بعد ليبسج (ليبيج) Leipzig. لقد فشلت جهود تحرير إيطاليا بواسطة حكم أجنبي وجيش من الغرباء، وكان على التحرير أن ينتظر وحدة وطنية من خلال جيش إيطالي ورجال دولة إيطاليين وأدب إيطالي.

وقد تنبأ نابليون نفسه بهذه الصعوبات، وكانت حساباته صحيحة هذه المرة، رغم أنه أساء الحساب كثيراً فيما يتعلق بإيطاليا، ففي سنة 1801 - عام تنويجه ملكاً على إيطاليا. قال لبورين Bourienne: لا يمكن أن يكون اتحاد إيطاليا مع فرنسا إلا مؤقتاً، لكنه ضروري لتعويد أمم إيطاليا (المقصود دولها) على العيش معاً في ظل قانون عام. فهناك كراهية متبادلة بين الجنوبيين، والبيدمونتيين، والبنادقة، والميلانيين وأهل تسكانيا وأهل روما وأهل نابلي. وروما هي العاصمة الطبيعية لإيطاليا بسبب التراث المرتبط بها. وعلى أية حال، فكي تكون روما

كذلك (عاصمة طبيعية) من الضروري تقييد سلطة البابا في نطاق الأمور الروحية الخالصة. إنني لا أستطيع الآن التفكير في هذا لكنني سأنظر فيه مستقبلاً. إن هذه الدول الإيطالية الصغيرة ستصبح تلقائياً معتادة على القوانين نفسها، وعندما تخف حدة عداواتها ستصبح هناك إيطاليا واحدة، وسأجعلها مستقلة. لكن هذا قد يستغرق مني عشرين عاماً، ومن منا يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل؟ (33).

إننا لا نستطيع دوماً الثقة في بورين Bourrienne لكن لا كاس Las Cases روى أن نابليون ذكر ما يشبه فحوى هذا الكلام في سانت هيلانة: لقد زرعت في قلوب الإيطاليين مبادئ لا يمكن انتزاعها أبداً، ف عاجلاً أم آجلاً سيحقق البعث الإيطالي (43) وقد حدث هذا بالفعل.

صفحة رقم : 14697

قصة الحضارة - < عصر نابليون - < ملوك أوروبا في مواجهة التحدي - < النمسا - < أباطرة متنورون

الفصل السابع والعشرون

النمسا

0871 - 2181

1- أباطرة متنورون

0871 - 2971

في سنة 9871 كانت النمسا واحدة من دول أوروبا الكبرى معترزة بتاريخها وثقافتها وقوتها وبإمبراطوريتها الأوسع كثيراً من النمسا ذاتها. واسم النمسا (أوستريا) من كلمة (أوستر Auster) التي تعني ريح الجنوب ثم انصرف معناها ليعني شعباً صارماً تيوطنياً وإن كان - رغم صرامته - حسن الطباع محباً للفكاهة يشارك بسعادة في مباحث الحياة

ويشارك الإيطاليين جنونهم بالموسيقا. وكانت النمسا أمة سلتيية Celtic عندما غزاها الرومان قبل ظهور المسيح بفترة وجيزة، وظهر أنها احتفظت عبر ألفي سنة بشيء من حيوية السلتيين وثقافتهم وذكائهم، وشيد الرومان في فيندوبونا Vindobona (التي أصبحت فيينا Vienna ثم فين Wein) قاعدة أمامية لحضارتهم في مواجهة البرابرة المتطقلين المهاجمين، وفي هذا الموضع كبح ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius الماركوماني Marcomanni في نحو 171م - بين أفكار ذهبية، وفي هذا المكان وضع شارلمان العلامة الشرقية East Mark أو الحدود الشرقية لمملكته، وفي هذا المكان، في سنة 559م أقام أوتو Otto العظيم مملكته الشرقية his Osterreich في مواجهة الماغير Magiars، وفي هذا الموضع في سنة 8721 أسس رودلف الهيسبرجي (من أسرة الهيسبرج) حكم أسرة حاكمة استمر حكمها حتى سنة 8191. وفي الفترة من 8161 إلى 8461 هبت ربح الجنوب كاثوليكية عنيفة فهبت العقيدة القديمة في مواجهة العقيدة الجديدة واستعرت الحرب بينهما ثلاثين عاماً، وتدعمت تلك العقيدة عندما وقفت فينا في سنة 3861 وللمرة الثانية كحصن للدفاع عن العالم المسيحي بصددها التقدم التركي (العثماني). وفي هذه الأثناء نشرت أسرة الهيسبرج الحاكمة حكم النمسا على الدوقيات المجاورة: ستيريا Styria، وكارينثيا Carinthia وكرانيولا Carniola والتيرول Tirol وعلى بوهيميا (تشيكوسلوفاكيا) وترانسلفانيا (رومانيا) والمجر (هنجارية) وغاليسيا البولندية ولومبارديا والأراضي المنخفضة الإسبانية (بلجيكا). وعندما دق نابليون بوابات فينا للمرة الأولى في سنة 1797 كان هذا هو وضع إمبراطورية النمسا ذات الممتلكات المبعثرة على هذا النحو ووصل الهيسبرج أوجههم في عهد ماريا تيريزا Maria Theresa (حكمت من 1741 إلى 1807)، هذه الأم العنيدة المدهشة التي نافست كاترين الثانية Catherine II وفريدريك الكبير بين ملوك عصرها. لقد فقدت سيليزيا أمام دهاء فريدريك الميكافيلي لكنها - بعد ذلك - حاربت مع شعبها وحلفائها حتى وصل الطرفان إلى طريق مسدود، واستنزفتها الحرب تماماً، وعاشت لتضع خمسة من أبنائها البالغين ستة عشر ابناً على عروش مختلفة: جوزيف في فيينا وليوبولد في تسكانيا، وماريا أماليا في بارما Parma وماريا كارولينا في نابلي وماري أنطوان في فرنسا. ونقلت مملكته على كره منها لابنها الأكبر، لأنها كانت منزعة لعدم يقينه الديني (كان لا أدرياً) كما كان ميالاً للإصلاح، وتنبأت أن شعبها الراسخ في حبه لها لن يكون سعيداً إذا حدث ما يعكس صفو عقائده التقليدية وأساليبه المعتادة في الحياة.

وبدا حكمها صانئاً بسبب الاضطرابات التي أربكت جوزيف الذي شاركها العرش من سنة 1567 إلى 1807 ثم تبوأه عشر سنوات أخرى. لقد صدم الأرسقراطية بتحريره أفتان الأرض Serfs، وصدّم السكان الكاثوليك ذوي الشوكة بإعجابه بفولتير وبسماحه للبروتستانت بممارسة طرائقهم في العبادة، وبإزعاجه المستمر للبابا بيوس السادس. وكان عليه أن يعترف في أواخر أيامه، وكان جهازه الإداري المحيط به غير مؤيد له لأن الفلاحين الذين انفصلوا فجأة عن ساداتهم الإقطاعيين قد أسعوا استخدام حريتهم، وأنه قد عطل المسيرة الاقتصادية وأنه قد كان سبباً في ثورة الطبقات العليا في المجر والأراضي المنخفضة النمساوية بل لقد هدّد وجود الإمبراطورية النمساوية نفسها، لقد كانت أهدافه خيرة لكن أساليبه في الحكم كانت قائمة على إصدار ما لا حصد له من القرارات والمراسيم التي تقرض النتائج ولا تهيب الأسباب أو بتعبير آخر لا تضع وسائل التنفيذ في الاعتبار. لقد قال عنه فريدريك الكبير: إنه دائماً يتخذ الخطوة الثانية قبل الخطوة الأولى (1) ومات في 02 فبراير سنة 1971 أسفا على إجراءاته الطائشة المندفعة، حزينا على النزوح العام للمحافظة ذلك النزوح الذي يفضّل كثيراً ما هو مألوف معتاد على إجراء الإصلاح المطلوب.

أما أخوه ليوبولد فقد شاركه أهدافه ولكنه لم يشاركه تعجّله، فرغم أنه كان في الثامنة عشرة من عمره فحسب عندما تولّى منصب دوق تسكانيا الكبير (1567) إلا أنه باشر سلطته بحذر وجمع حوله إيطاليين ناضجين (مثل سيزار بيكاريا Cesare Beccaria) وأدرك طبيعة الشعب وتآلف معها، وعرف احتياجات الدوقية وإمكاناتها، وبذلك قدّم لمملكته التاريخية حكومة كانت موضع حسد أوروبا. وعندما أدّى موت أخيه إلى وصوله لمرتبة القيادة الإمبراطورية كان قد أصبح ذا خبرة امتدت خمسة وعشرين عاماً، فخفف من حدة بعض إصلاحات أخيه (جوزيف) فجعلها أكثر اعتدالاً، وألغى بعضها الآخر، لكنه اعترف تماماً بالنتزام الإمبراطور المنتورّ بزيادة فرص التعليم لشعبه، وتوسيع المجالات الاقتصادية أمامه. لقد سحب الجيش النمساوي الذي كان أخوه قد أعدّه دون تقدير للعواقب لمهاجمة تركيا (الدولة العثمانية) واستخدمه لحث بلجيكا على العودة للتحالف مع النمسا. وهذا نبلاء المجر بالاعتراف بالدايت Deit المجرى ودستور المجر، وهذا البوهيميين Bohemians بأن أعاد إلى براغ تاج ملوك بوهيميا القدماء وقيل التتويج هناك في كاتدرائية القديس فيتس Vitus. لقد علم أن الملك يمكن ألا يكون له مكان إذا تم الحفاظ على الشكل.

وفي هذه الأثناء قاوم محاولات المهاجرين الفرنسيين (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية) وملوك أوروبا لجره إلى حرب مع فرنسا الثورة. لقد شعر بمأزق أخته الأصغر منه - ماري أنطوانيت، لكنه خشى أن تؤدي حربه مع فرنسا إلى فقدانه بلجيكا التي لازالت الأحوال فيها غير مستقرة. ومع هذا فعندما توقف لويس السادس عشر وماري أنطوانيت في هروبهما عند فارن Varennes وأعيدا إلى باريس ليعيشا حياة يتعرضان فيها للخطر كل يوم اقترح ليوبولد على الملوك المواليين له أن يتخذوا إجراء موحداً لضبط الثورة الفرنسية والسيطرة عليها فالتقى فريدريك وليم

الثاني البروسي مع ليوبولد في بلنيتز Pillnitz ووقعا معا إعلانا (في 72 أغسطس 1971) هددوا فيه بالتدخل في شؤون فرنسا. وبقبول لويس السادس عشر لدستور الثورة الفرنسية (31 سبتمبر)، بدأ هذا الإعلان بلا معنى، لكن الفوضى استمرت وزادت وأصبح الملك الفرنسي والملكة الفرنسية مرة أخرى في خطر، فنظّم ليوبولد التعبئة العامة في الجيش النمساوي، وطلبت الجمعية الوطنية الفرنسية تفسيراً لهذا غير أن ليوبولد مات (أول مارس 1971) قبل أن تصله رسالة الجمعية الوطنية الفرنسية. ورفض ابنه وخليفته فرانسيس الثاني (42 عاماً) الإنذار، وفي 02 أبريل أعلنت فرنسا الحرب على النمسا.

صفحة رقم : 14698

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> النمسا -> فرانسيس الثاني

2- فرانسيس الثاني

تلك القصة وصلتنا من وجهة نظر فرنسية فما هي وجهة نظر النمساويين وكيف شعروا بهذا الأمر؟ لقد سمعوا أن أرشوقتهم - التي كان جمالها قد أطلق عنان فصاحة آدموند بورك Edmund Burke - يحتقرها أهل باريس ويطلقون عليها ساخرين (المرأة النمساوية [Autrichienne]) وأن جماهير باريس جعلوها سجيناً قصر التوليري، وأن الجمعية الوطنية الفرنسية خلعتها بعد ذلك وأودعتها السجن. لقد سمعوا عن مذابح سبتمبر وكيف أن رأس الأميرة دي لامبل de Lamballe المتصلب قد يُعرض على رأس رمح على مرأى من الملكة التي كانت تحبها. لقد سمعوا أن الشيب غزا شعرها، وأنها ركبت عرب السجناء في طريقها لتُعدم بالمقصلة وحولها جمع غفير من الجماهير يسخرون منها. ولم يكن هناك ما هو أكثر من هذا يجعلهم يجأرون لإمبراطورهم الشاب ليقودهم في حرب ضد هؤلاء الفرنسيين القتلة، ولا يهم أنه كان ذا عقل متوسط وأنه كان إمبراطوراً خيراً لكنه غير متقن، وأنه اختار جنرات غير أكفاء وأنه سلّم النمسا جزءاً بعد جزء وترك عاصمتها تحت رحمة الغازي، فهذه الهزائم جعلت النمساويين يحيون فرانسيس أكثر، لقد بدا لهم الحاكم الذي عينته العناية الإلهية وكرسه البابا وتبوأ العرش بشريعة لا تقبل التحدي وأنه كان يدافع عن شعبه بقدر ما يستطيع ضد البرابرة القتلة وهو الآن يدافع عنهم ضد الشيطان الكورسيكي (نابليون)، إن رفضه لكل ما هو ليبرالي مما تركه عمه وأبوه، وإعادته للسخرى والرسوم الإقطاعية ورفضه لأي تحول من الأوتوقراطية إلى الحكم الدستوري - كل ذلك كان مغفوراً له مُتسامحاً فيه بعد أوسترليتز Austerlitz وبريسبورج Pressburg. لقد دخل عاصمته مرة أخرى مضروباً مهزوماً منهوباً. لقد أخلص له شعبه إخلاصاً لا مزيد عليه(2). إن الشعب النمساوي لم ير في كل الأحداث المتلاحقة طوال السنوات الثماني الآتية التي انتصر فيها الشر سوى أن حاكمهم الطيب سينتقم لا محالة من أعداء النمسا وسيستعيد كلَّ سلطانه وممتلكاته التي ورثها، وكانوا على يقين من هذا كيقينهم بأن الرب موجود.

صفحة رقم : 14699

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> النمسا -> ميترنيخ

3- ميترنيخ

لقد كان الرجلُ الذي قاد فرانسيس الثاني لهذا الإنجاز قد وُلد في كوبلنتس Coblenz (كوبلنز) على شاطئ الراين في 51 مايو سنة 3771 وجرى تعميده باسم كليمنس فنزل فون ميترنيخ Klemens Wenzel Von Metternich وكان هو الابن الأكبر للأمير فرانتس (فرانز) جورج كارل فون ميترنيخ ممثل النمسا في بلاطات الأمراء الناخبين Electors الأمراء من (الأمراء المؤهلين لاختيار رأس الإمبراطورية) في كل من تريير Trier ومينز Mainz وكولوني Cologne. وتلقى الصبي اسميه الأوليين من أول هؤلاء الحكام الإكليريكيين ولم ينس أبداً ارتباطه الديني وولاءاته خلال نزوحه لأفكار فولتير في شبابه ونزوحه لأفكار ميكيافيللي عند توليه الوزارة. وكان من أسمائه أيضاً لوتر Lothar لتذكير أربا أن أحد أجداده الذين حملوا هذا الاسم حكم تريير Trier في القرن السابع عشر. وأحياناً كان يضيف إلى اسمه (فينبرج بيلشتين Winneburg Beilstein) ليشير إلى الممتلكات التي كانت الأسرة قد امتلكتها طوال ثمانية قرون وأن الخمسة والسبعين ميلاً مربعاً التي امتلكتها أسرته هي مبرر كافٍ للفظ الدال على النبالة الذي يحمله وهو (فون Von) من الواضح أن الرجل لم يُخلق ليحب الثورات أو يقودها.

تلقى تعليماً مناسباً لوضعه من معلم لفته أفكار الحركة التنويرية الفرنسية (3) ثم تعلم في جامعة ستراسبورج، وعندما شعر أساتذة هذه الجامعة بشيء من الرجفة لسقوط الباستيل تم نقله إلى جامعة مينز (مينتس Mainz) حيث درس القانون كعلم لحقوق الملكية وكعلم يستشهد بالسوابق. وفي سنة 4971 حاصر الفرنسيون كوبلنز (كوبلنتس Coblenz) باعتبارها مأوى للمهاجرين الفرنسيين المحرّضين (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية)، وأمم الفرنسيون كل ممتلكات آل ميترنيخ تقريباً، فلجأت الأسرة إلى فيينا، وتودّد كليمنس Klemens الطويل الرياضي الأنيق إلى إليونور فون كونيتس Eleonore Von Kaunitz فكسب ودها وهي حفيدة ثرية لرجل الدولة الذي كان قد جمع بين النمسا الهابسبرجية وفرنسا البوربونوية. وقد أخذ عن عروسه فنون الدبلوماسية ممثلة في انحناءات الاحترام التي لا معنى لها، وسرعان ما أصبح متمرساً في فن الخداع والمداهنة.

وفي سنة 1081 وكان وقتها في الثامنة والعشرين من عمره، تمّ تعيينه وزيراً في بلاط سكسونيا Saxony، وهناك التقى بفريدريش فون جنتر (جينتس) Fredrich Von Genz الذي أصبح ناصح المخلص والناطق باسمه طوال الثلاثين عاماً التالية وسلّحه بمعظم الحجج التي تؤيد الرجوع إلى الأوضاع السابقة على الثورة الفرنسية. وإخلاصاً منه للنظم التي كانت سائدة قبل الثورة الفرنسية Ancien Regime اتخذ له خليفة هي كاتارينا باجراسيون Katharina Bagration وهي ابنة جنرال روسي ستحدث عنه مرة أخرى بعد ذلك، وكانت في الثامنة عشرة من عمرها. وفي سنة 2081 وضعت له طفلة اعترفت زوجته بأبوتها لها (4). واعترفت فيينا بتقدمه فعينته (3081) سفيراً للنمسا في برلين. وفي أثناء الأعوام الثلاثة التي قضاها في بروسيا التقى بالقصير إسكندر الأول وكونّ معه صداقة استمرت حتى الإطاحة بنابليون. وعلى أية حالة، فإن هذا لم يكن في حساب نابليون عندما طلب من الحكومة النمساوية بعد معركة أوسترليتز Austerlitz أن ترسل واحداً من الكونيتز a Kaunitz كسفير لها في فرنسا، فأرسل له وزير خارجية النمسا الكونت فيليب فون شتاديون Stadion - ميترنيخ الذي وصل باريس في 2 أغسطس 6081 وكان وقتها في الثالثة والثلاثين من عمره.

والآن بدأت معركة استمرت تسعة أعوام عامرة بالدهاء والذكاء بين الدبلوماسية والحرب انتصر فيها الدبلوماسي بتعاونه مع الجنرال. وليسترخي ميترنيخ مبتعداً عن عيني نابليون النفاذتين، وعن زوجته (أي زوجة ميترنيخ) المملة الباردة جنسياً - راح يسلي نفسه مع مدام لور جونو Loure Junot زوجة حاكم باريس وقتها، لكنه لم ينس أن النمسا كانت تتوقع منه أن يسير أغوار عقل نابليون ويعرف أهدافه ويكتشف كل إمكانيات تحقيق مصالح النمسا. لقد كان كلا الرجلين معجباً بالآخر. لقد كتب ميترنيخ إلى جنس Gents في سنة 6081 إن نابليون هو الرجل الوحيد في أوروبا

الذي يفعل ما يريد(5) كما وجد نابليون في ميترنيخ فكراً ثاقباً فككره(6) وفي هذا الأثناء تعلم النمساويون الكثير بدراستهم لتاليران Talleyrand.

وقضى ميترنيخ ثلاثة أعوام سفيراً في باريس ورأى برضاً أخفاه الشرك الذي وقع فيه الجيش الفرنسي العظيم Grande Armee في أسبانيا، وحاول - ولكنه فشل - أن يخفي عن نابليون أن النمسا تتسلح من جديد لبذل محاولة أخرى للإطاحة به. وغادر باريس في 52 مايو سنة 9081 ولحق بفرانسييس الثاني على الجبهة وشهد هزيمة النمسا في وارجان (فارجان Wargan)، واستقال شتاديون Stadion من إدارة دفة السياسة بعد أن أصابه الإحباط لفشل مغامرته العسكرية، فعرض فرانسييس المنصب على ميترنيخ في 8 أكتوبر 9081 فقبله وكان وقتها في السادسة والثلاثين من عمره، وبدأ بذلك مهامه وزيراً للأسرة الإمبراطورية ومسؤولاً عن الشؤون الخارجية، واستمر في منصبه هذا تسعاً وثلاثين سنة.

وفي يناير سنة 0181 وجد الجنرال جونو Junot في مكتب زوجته بعض خطابات الحب أرسلها إليها ميترنيخ فحاول خنقها وكاد ينجح وأقسم أن يتحدى الوزير الممثلة نشاطاً لبيارزه في مينز (مينس Mainz)، وأنهى نابليون النزاع بإرسال الجنرال وزوجته إلى أسبانيا، ومن الظاهر أن هذه الحكاية لم تدمر سمعة ميترنيخ ولا زواجه ولا وضعه في الحكومة النمساوية، فقد شارك في ترتيب زواج نابليون من الدوقة النمساوية ماري لويز (ماريا لويس Marie Louise)، وابتهج عندما علم بأن هذا التقارب الفرنسي النمساوي قد أغضب روسيا، وراح يراقب التوتر يزداد بين هذين القطبين الأوربيين المصارعين. لقد كان يأمل ويخطط لإضعاف الإمبراطوريتين الفرنسية والروسية فهذا يمكن النمسا من استعادة الأراضي التي فقدتها واستعادة مكانتها العالية وسط القوى المتصارعة.

صفحة رقم : 14700

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> النمسا -> فيينا

4- فيينا

خلف أسوار الحرب عاش أهل فيينا المسالمون الوديعون. إنهم خليط متسامح صبور - بقدر معقول - من الألمان والمجريين والتشيك والسلوفاك والكروات والمورافيين والفرنسيين والإيطاليين والبولنديين والروس 000،091 نفس. وكانت غالبيتهم العظمى من الكاثوليك التابعين لبابا روما (الأروام الكاثوليك) وكانوا - إذ سمحت لهم ظروفهم - يتعبدون في ضريح القديس حامي المدينة في كنيسة القديس ستيفن St. Stephen وكانت شوارعها في غالبها ضيقة وإن كانت هناك بعض الشوارع الفسيحة التي تكتنفها الأشجار والممهدة تمهيداً جيداً. وتتعلق المباني الملكية الفخمة حول مبنى البلاط الإمبراطوري الذي يشغله الإمبراطور وأسرته وشاغلو المناصب الأساسية في الحكومة ويمر نهر الدانوب (الأزرق) على طول حافة المدينة حاملاً التجارة والمسرات في فوضى محببة، وفي اتجاه النهر يُطلق على المنتزه اسم المراج Prater حيث يُتاح لكل شاب وشيخ مجال للتنزه بالعربات التي تجرها الخيول أو التنزه سيراً على الأقدام بالنسبة إلى السائرين المحظوظين الذين يحبون الأشجار ورائحة الزهور وأوراق الشجر وشفشقة الطيور وأحانها الشجية، واللقاء بين هذه المناظر الخلابة والأحان الشجية.

وبشكل عام فإن أهل فيينا أناس طيِّعون سهلو الانقياد حسنو السلوك، وهم يختلفون اختلافاً تاماً عن أهل باريس الذين يكرهون نبلاءهم ويتشككون في ملوكهم ويشككون في وجود الرب. ويوجد في فيينا نبلاء كما في باريس، لكن نبلاء فيينا يرقصون ويعزفون الموسيقى في قصورهم ويحترمون من هم دونهم ولا يتسّمون بالتفاخر والادعاء ويموتون حياً في

التودد للنساء، وكانت كل هذه الصفات بطبيعة الحال غير مجدية في مواجهة جيوش نابليون المحبة للقتال. وكان الوعي الطبقي أكثر حدة لدى الشرائح العليا من الطبقة الوسطى التي كونت ثروات بتوريدها مستلزمات الجيش أو بإقراضها أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين تعرضوا للفقر أو بإقراضها الدولة التي كانت تحارب، وتخسر الحرب دائماً.

وبدأت الطبقة الأرستقراطية تتشكل فيحلول عام 0181 كان هناك ما يزيد على مئة مصنع في فينا وبالقرب منها، وكان بهذه المصانع نحو 000،72 عامل وعاملة، وكانت أجورهم تكفي - بشق الأنفس - للعيش والتكاثر (7). وفي وقت باكر يرجع لسنة 1181 ظهرت الشكاوى من أن مصانع المواد الكيماوية ومصافي البترول تلوث الجو (8). وكانت التجارة تتطور، ومما ساعد على تطورها ما أتاحه ميناء تريست Trest من تيسيرات لتجارة النمسا في البحر الأدرياتي، وكذلك نهر الدانوب الذي يمر بمئات المدن بالإضافة لبودابست، ويصل - أي النهر - إلى البحر الأسود. وبعد محاولة نابليون في سنة 6081 إقصاء البضائع الأوروبية عن القارة الأوروبية، وكذلك بعد الهيمنة الفرنسية على إيطاليا وهنّت أوضاع التجارة والصناعة في النمسا، وأصبحت مئات الأسر تُعاني البطالة والفقر المدقع. أما أمور المالية، فكانت في غالبها في أيدي اليهود إذ أدّى حرمانهم من الاستثمار الزراعي والصناعي إلى أن أصبحوا خبراء في التعاملات المالية. وضارع بعض البنكيين اليهود الإسترهيز the Esterhazys في بهاء منشآتهم وعظمتها وأصبح بعضهم أصدقاء أثيرين للباطرة، وكرّم بعضهم باعتبارهم مُنقذين للدولة. ومنح جوزيف الثاني بعض البنكيين اليهود رُتب النبالة تقديراً لوطنيّتهم. وكان الإمبراطور يحب عن نحو خاص زيارة ناتان فون أرنشتين Nathan Von Arnstein في بيته حيث كان يستطيع مناقشة أمور الأدب والفكر والموسيقا مع الزوجة الجميلة لهذا البنكي اليهودي. إنها فاني إيتسج Fanny Itzig المثقفة المتعدّدة المواهب التي كانت صاحبة أفضل صالونات فينا (9). وكان النبلاء يُسيرون أمور الحكومة بكفاءة متوسطة وبغير كثير من الأمانة، وقد نعى جيرمي بنتام Jeremy Bentham في خطاب مؤرّخ في 7 يوليو 7181: الفساد التام الذي يسود دولة النمسا ويُس لأنه لم يجد فيها شخصاً شريفاً ولم يكن لأي من العوام أن يطمح للوصول إلى منصب قيادي في الجيش أو الحكومة، لهذا لم يكن أي من البيروقراطيين (الإداريين) أو الجنود ليبدل الجهد متحملاً الألام أو المخاطرة للترقي. فامتألت صفوف الجيش بالمتطوعين الكسالى أو المجنّدين إلزامياً أو بالمتسولين المكرهين على الخدمة والمجرمين والراديكاليين (01)، فلا عجب إذن أن كانت الجيوش النمساوية تتعرض لهزيمة منكرة أمام الكتائب الفرنسية التي كان يمكن لأي فرد فيها أن يصل إلى رتبة القيادة بل وينضم إلى جماعة الدوقات المحيطين بنابليون.

أما النظام الاجتماعي فقد كان يسيطر عليه الجيش والبوليس والعقيدة الدينية. ورفض الهيسبرج الحركة الدينية الإصلاحية (حركة لوثر ورفاقه) وأبقوا على الولاء للكنيسة الكاثوليكية واعتمدوا على إكليروسها المدربين جيداً للتدريس في المدارس وإحكام الرقابة على الصحف وتنشئة كل طفل مسيحي على عقيدة تُؤكّد مبدأ وراثة العرش كحق إلهي، وتجعل الفقر والأحزان شيئاً مريحاً يُكافأ عليهما المرء في الحياة الأخرى كما تُعَدُّ بذلك العقيدة الدينية. وكانت الكنائس الكبرى (مثل سبتفانسكيرش وكارلزكيرش) تقدم طقوساً وقورة مصحوبة بالأغاني والمباخر التي يتصاعد منها البخور والدعوات (الصلوات) الجماعية التي تمجدها الجماهير، والتي كان البروتستانت مثل باخ Bach والمتشككون مثل بيتهوفن يتوقون لتقديمها. وكانت المواكب الدينية مصحوبة بشكل دوري بالأعمال الدرامية التي تقدمها في الشوارع لتذكير رجل الشارع بحياة القديسين وشهداء العقيدة والاحتفاء بالتواضع والرحمة اللتين تميزان ملكة فينا، والأم العذراء. وبالإضافة للخوف من جهنم وبعض المشاهد المأسوية لتعذيب القديسين، فقد كانت هذه الأمور تمثل ديناً مريحاً طالما جرى تقديمه للبشرية.

وترك التعليم في المرحلة الأساسية والمرحلة الثانوية لتتولاها الكنيسة، وكان الأساتذة في جامعتي فينا و انجولشتندت Ingolstadt وإنسبروك Innsbruck من الجزويت (اليسوعيين)، وتم إيقاف كل الأفكار الفولتيرية عند حدود النمسا بمعنى أنه لم يُسمح لها بالتغلغل كما تم إغلاق أبواب فينا في وجهها. وكان المفكرون الأحرار يمثلون قلة قليلة، وكان بعض المحافل الماسونية قد ظل باقياً بعد محاولة ماريا تيريزا تدميرها (أي تدمير هذه المؤسسات الماسونية) إذ حافظت بعض هذه المحافل والجمعيات على أفكار معتدلة بضرورة مقاومة تدخل الإكليروس في الحياة العامة، كان من الممكن أن يأخذ بها حتى الكاثوليكي المتمسك بكاثوليكيته، كما أخذت هذه الجمعيات والمحافل ببرنامج للإصلاح الاجتماعي أيده الإمبراطور. ولهذا كان موزارت Mozart - وهو كاثوليكي متمسك تمسكاً شديداً بكاثوليكيته - ماسونياً، وانضم جوزيف الثاني للتنظيم السري (الماسونية) ووافق على مبادئ الإصلاح بل وحوّل بعضها إلى قوانين. وبقيت جمعية سرية راديكالية أخرى هي جمعية الإليوميناتي Illuminati، وكان آدم فيشوبت Adam Weishaupt الجزويتي (اليسوعي) الذي نبذ الجزويت (اليسوعيون) قد أسس هذه الجمعية السرية (الإليوميناتي) في سنة 6771، لكن هذه الجمعية لم تكن منتعشة بالمقارنة بالجمعيات الأخرى. وجدّد ليوبولد الثاني قرار أمه بمنع كل الجمعيات السرية.

وقد حققت الكنيسة بشكل طيب مهامها في تعليم الناس الوطنية والإحسان والانضباط الاجتماعي والالتزام بالمحرمات في العلاقات الجنسية. وقد ذكرت مدام دي ستيل Stael في سنة 1781: أنت لا تلتقي أبداً بمتسول... فالمؤسسات الخيرية منظمة بانضباط شديد، ويُقيمها من يشاء دون مانع. إن كل شيء يحمل الطابع الأبوي لحكومة دينية حكيمة (11) ويلتزم العامة - بشكل حر - بتجنب المحرمات الجنسية، لكن الطبقات العليا أكثر تسليماً في هذا الشأن فلرجال في هذه الطبقة خيليات وللنساء عشاق. واعترض بيتهوفن - فيما يقول ثاير Thayer - على ممارسة كانت غير قليلة الانتشار في فيينا على أيامه وهي أن يعيش المرء مع امرأة غير متزوجة، حياة الأزواج (21) لكن قوة الروابط داخل الأسرة كانت أمراً معتاداً، وظلت سلطة الأب قائمة، وكانت العادات معتدلة لطيفة ولم تكن المشاعر الثورية لتلقى ترحاباً كبيراً. كتبت بيتهوفن في 2 أغسطس سنة 1791 أعتقد أن النمساوي لن يثور طالما كانت لديه جعته (البيرة) الداكنة وسجقه (السجق هو النقانق) (31).

وكان رجل فينا النمطي (التقليدي) يفضل أن تُولم له (أي تدعوه لوليمة) أو تحتفي به أكثر من تفضيله للإصلاح. لقد كان بالفعل ينفق بنسبته القليلة (قطع العملة القليلة القيمة، وكان من هذه العملات السائدة في فينا الجروشن groschen والكروزر Kreuzers) لمشاهدة نيكولوس روجر Niklos Roger ذلك الحاوي الإسباني الذي يدعي أنه محصن ضد النار (لا يحترق) (41) وإن استطاع ابن فينا تدبير قطعة عملة أخرى لعب البليارد أو كرة البولنج. وكانت فينا وضواحيها تغص بالمقاهي - نسبة إلى مشروب القهوة الذي أصبح الآن ينافس البيرة (الجعة) كمشروب محبب. وكانت المقاهي هي نوادي الفقراء، إذ كان أهل فينا من الطبقات الصاعدة يذهبون إلى البيروهلن Bierhallen التي كانت الحدائق الجميلة تحيط بها، وكان بها قاعات حسنة حيث كان في مقدور الأثرياء أن يفقدوا أموالهم في المقامرة كما كان في مقدورهم الذهاب إلى الحفلات التنكرية حيث يرقص مئات الأزواج والزوجات معاً وفي الوقت نفسه، في صالات مغلقة (ريدوتتستال)، وحتى قبل أيام جوهان شتراوس (1804- 1849) كان رجال فينا ونساؤها وكأنهم قد خلّفوا ليرقصوا. وذابت الممنوعات والمحرمات في ثنايا رقصات الفالس، لقد أصبح في مقدور الرجل الآن أن يسعد بالالتصاق الذي يحقق الرعدة مع من يراقصها، ويدور بها دورانا مجنوناً، واحتجت الكنيسة لكنها تسامحت (غفرت).

صفحة رقم : 14701

قصة الحضارة - عصر نابليون - ملوك أوروبا في مواجهة التحدي - النمسا - الفنون

5- الفنون

انتعش المسرح في فينا على كل مستوياته ابتداء من الاستكشافات التافهة في المسارح التي تقدم أعمالاً مُرتجلة (غير معدة سلفاً) إلى الدراما الكلاسيكية في المسارح الراقية نوات الديكورات المكلفة. وكان أقدم المسارح وأكثرها انتظاماً هو الكيرنتنيرثور Karntnerthor الذي شيدته البلدية في سنة 1781، وفي هذا المسرح وجدنا الكاتب المسرحي جوزيف أنطون سترانيتسكي John Anton Stranitsky (توفي 1771) يبني على شخصية أرليشينو Arlecchino (هارلكوين Harlequin) الإيطالية، فيخلق ويطور شخصية هانزفيرست Hanswurst أو جون بولوني John Boloney المهرج الضاحك الصخّاب الذي هجا الألمان - في الجنوب والشمال - سخافاتهم المحببة من خلاله. وفي سنة 1771 دعم جوزيف الثاني ومولّ البيرجثيتر the Burgtheater الذي وعدت واجهته الكلاسيكية بأفضل المسرحيات الكلاسيكية والحديثة. وكان أكثر المسارح فخامة وترفا هو مسرح أن دير فين Theater an-der-

wien (على نهر فين Wien) الذي شيده في سنة 3971 جوهان (يوهان) إيمانويل شيكاندر Johann Emanuel Schikaneder الذي كتب النص الأوبرالي libretto للفلوت السحرية majic Flute لموزارت (1971Mozart) وقد زود مسرحه بكل أساليب الحيل الميكانيكية (المسرحية) المعروفة لتغيير المشاهد في عصره، وقد أدهش رواد مسرحه بالمشاهد المسرحية التي تفوق الحقيقة فكسب لمسرحه ميزة تقديم العرض الأول لفيدليو Fidelio لبيتهوفن. ولم يكن في ذلك الوقت فن آخر يناقش الدراما في فينا سوى فن واحد. إنه ليس فن العمارة لأن النمسا كانت قد أنهت في سنة 9871 عصرها الذهبي الذي تميز بطراز الباروك baroque. إنه ليس الأدب لأن الكنيسة أناخت بكلها على فكر العباقرة كما أن عصر جريلبارتسر (1971Grillparzer - 2781) لم يكن إلا في بدايته. وفي فينا ذكرت مدام دي سيغل أن الناس لا يقرأون إلا قليلاً (51) فقد كانت الصحف اليومية تكفي لإشباع حاجاتهم الأدبية كما هو الحال في بعض المدن اليوم، وكانت صحيفتا Wiener Zeitung (صحيفة ابن فينا)، و Wiener Zeitschrift، صحيفتين ممتازتين.

وكانت الموسيقى بطبيعة الحال هي الفن الأعلى مقاماً في فينا. فقد كانت الموسيقى في النمسا وألمانيا أقرب ما تكون إلى محلي يفضله العامة كهواية أكثر من كونها عملاً يحترفه المحترفون. فقد كان النمساويون والألمان يعتبرون بيوتهم ينبوع الحضارة وحصنها، فقد كان غالب الأسر المتعلمة لدى كل منها آلات موسيقية وكان يمكن لبعضها تقديم مقطوعات موسيقية تشترك في أدائها أربع آلات (أو بتعبير آخر تقديم مقطوعات رباعية)، وبين الحين والآخر كان يجري تنظيم كونشرتات لمشتركين دفعوا - سلفاً - ثمن حضورهم، لكن الكونشرتات العامة (الحفلات الموسيقية العامة) التي يُتاح حضورها للعامة كانت أمراً نادراً. وبذلك كانت فينا مدينة مزدحمة بالموسيقيين الذين أفقر بعضهم بعضاً بسبب كثرتهم.

فكيف بقي هؤلاء الموسيقيون؟ لقد كان ذلك في غالبه بسبب قبولهم دعوات (أو حتى بدون دعوة تضمن لهم حقوقهم المالية بعد ذلك) النبلاء الأثرياء ورجال الإكليروس ورجال الأعمال أو بتأليف مقطوعات موسيقية وإهدائها إليهم. لقد ظل حب الموسيقى ورعايتها تراثاً وتقليداً توارثه حكام أسرة الهابسبورج طوال قرنين، واستمر ذلك بشكل فعال في فترة حكم جوزيف الثاني وليوبولد الثاني وابن ليوبولد الأصغر ونعني به الأرشوق رولف (1381- 8871Rudolf) الذي كان تلميذاً لبيتهوفن وراعياً له في الوقت نفسه. وقدمت أسرة الإسترهيزي the Esterhazy كثيرين ممن دعموا الموسيقى ورعواها، لقد رأينا الأمير ميكولوس جوزيف إسترهيزي (1711Miklos Josef Esterhazy - 0971) يرعى هايدن Hayden طوال ثلاثين عاماً كقائد للأوركسترا في قصر Schloss إسترهيزي، الذي يُعد فيرساي المجر Versailles of Hungary. وارتبط حفيده الأمير ميكولوس نيكولاس إسترهيزي Milkos Nicolaus Esterhazy (5671- 3381) مع بيتهوفن لتأليف مقطوعات موسيقية لأوركسترا الأسرة. وكان الأمير كارل ليشنوفسكي (3571Lichnowsky - 4181) صديقاً حميماً - وراعياً - لبيتهوفن وأواه في قصره لفترة من الزمن. وقد شرف الأمير جوزف فران لوبكوفتس Lobkowitz وهو سليل أسرة بوهيمية عريقة، والأرشيدوق رودلف والكونت كينسكي Kinsky بتقديم العون المالي لبيتهوفن حتى وافته منيته. ولا بد أن نضيف إلى هؤلاء البارون جود فريد فان شفيتين (4371Gottfried Van Swieten - 3081) الذي ساعد موسيقيين آخرين برعايته وجهوده ومهارته في جمع شملهم مع المتعاقدين معهم، أكثر من رعايته لهم بتقديم أمواله لهم. لقد فتح لندن لهايدن Hayden، وأهداه بيتهوفن أولى سيمفونياته وأسس في فينا جمعية موسيقية Musikalische Gesell Schaft من خمسة وعشرين نبيلاً بهدف العمل على عقد لقاءات واتفاقيات بين المؤلفين الموسيقيين وناشري الأعمال الموسيقية وجمهور المستمعين. ويرجع إلى هذه الجمعية - على نحو ما - الفضل في أن أصبح أكثر الموسيقيين في التاريخ عرضة للنقد وعدم القبول هو سيد الموسيقى بلا منازع في القرن التاسع عشر.

صفحة رقم : 14702

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> بيتهوفن -> شاب في بون

الفصل الثامن والعشرون

بيتهوفن

7281 - 0771

تأثير إنجلترا في مسيرة الأحداث

1- شاب في بون

2971 - 0771

وُلد في 61 ديسمبر سنة 0771، وكانت بون هي مقر الناخب الأسقفي لكولوني Cologne التي كانت إحدى إمارات أراضي الراين (قبل أن يقضي نابليون على الحكم ذي الطابع الديني فيها) التي يحكمها رؤساء أساقفة كاثوليك يميلون إلى دعم الفنانين ذوي السلوك الحسن، ورغم أن حكمهم كان ذا طابع ديني إلا أنهم أيضا كانوا ذوي ميول علمانية فانتة منها دعم الفنانين ذوي السلوك الحسن كما أسلفنا. وكان الجانب الأكبر من سكان بون البالغ عددهم 065,9 نفساً يعتمدون على المؤسسة التي أقامها الناخب الحاكم electoral establishment (أو مؤسسة الإمارة أو مؤسسة الدولة) وكان جد بيتهوفن مغنيا جهير الصوت عميقه في كورس (جوقة المنشدين) الناخب Elector (الناخب في هذا السياق هو من له حق انتخاب الإمبراطور والمعنى الأقرب لفهم القارئ العربي هو: الأمير) كما كان أبو بيتهوفن (جوهان فان بيتهوفن) صادحا tenor (مغن عالي الصوت يفوق صوته كل من يشترك معه في الغناء) في الفرقة نفسها. وترجع الأسرة إلى أصول هولندية إذ كانت قد أتت من قرية بالقرب من لوفين Louvain. والكلمة الهولندية فان Van تشير إلى مكان الأصل ولا تشير كالكلمة الألمانية فون Von أو الفرنسية de إلى لقب نبالة أو حيازة ممتلكات تؤهل للنبالة. وكان جده وأبوه مسرفين في الشراب، وقد ورث عنهما شيئا من ذلك. وفي سنة 7671 تزوج جوهان فان بيتهوفن من أرملة شابة هي ماريما ماجدالينا كيفيرتش لايم Laym ابنة طباح في إيرنسبريتشتين Ehrensbreitstein وأصبحت ماريما أما يحبها بشدة ابنها المشهور لبساطتها، وقلبها الحنون. وقد أنجبت لزوجها سبعة أطفال مات أربعة منهم في مرحلة الطفولة، وتبقى لها الإخوة: لودفيج Ludwig وكاسبار كارل (4771 - 5181) ونيكولاوس جوهان (6771 - 8481).

ولم يكن للأب فيما يبدو سوى راتبه مغنياً صادقاً في بلاط الناخب (الأمير) ومقداره ثلاثمائة فلورين florin فعاشت الأسرة في أحد أحياء الفقراء في بون Bonn، ولم يكن المحيطون ببيتهوفن والمرتبون به من النوع الذي يجعل منه رجلاً مهذباً (جنتلمان)، لذا فقد ظل متمرداً فظاً (غير مصقول) وقد حث والد بيتهوفن ابنه - أو أجيده - وهو في الرابعة من عمره على العزف على البيان أو الفيولين عدة ساعات نهاراً وأحياناً ليلاً، رغبة من الوالد في تحسين دخل الأسرة بتقديم ابنه كعازف معجزة. ومن الظاهر أن الطفل لم يكن لديه من نفسه وازع يحثه على عزف الموسيقى وسماعها (1). وعلى وفق شهود عيان كثيرين أن الطفل (بيتهوفن) كان يجبر على العزف بطرق قاسية حتى إنه كان يبكي في بعض الأحيان. وأحب الطفل الموسيقا بعد أن تعرض لآلام كثيرة بسببها، وظهر بيتهوفن وهو في الثامنة من عمره مع تلميذ آخر في حفلة موسيقية عامة في 62 مارس سنة 8771 وحصل على عائد مادي لم تذكره المصادر. وحث الأصدقاء الأب على التعاقد مع معلمين لينموا مواهب لودفيج Ludwig بيتهوفن.

وبالإضافة لهذا تلقى بعض التعليم الرسمي. لقد علمنا أنه التحق بمدرسة حيث تعلم اللاتينية بقدر يكفي لأن يبث في بعض خطباته بعض التفهيمات اللاتينية المضحكة. وتعلم قدراً من الفرنسية (التي كانت هي اللغة العالمية في هذا العصر) بقدر يمكنه من الكتابة بها بشكل مفهوم. ولم يتعلم أبداً كيف يكتب هجاء الكلمات في أي لغة بشكل صحيح وقلما كان يكلف نفسه عناء استخدام علاقات الترقيم، لكنه كان يقرأ بعض الكتب بشكل جيد، وكانت هذه الكتب التي قرأها تتراوح بين روايات سكوت Scott والشعر الفارسي Persian وكان ينقل في دفتر خاص به نفاً من الحكمة التي يلتقطها من قراءاته. ولم يكن يمارس الرياضة إلا من خلال أصابعه (يقصد عزفه على الآلات الموسيقية) وكان يحب أن يرتجل to improvise ولم يكن يضارعه في هذا سوى أبت فوجلر Abt Vogler وفي 4871 تم تعيين ابن مارياتريزا الأصغر - ماكسميليان فرانسيس Maximilian Francis - ناخباً لكونوني (على وفق مصطلح العصر في هذه المنطقة، فإن الناخب يعني من له حق المشاركة في اختيار الإمبراطور الجديد، ولعل كلمة أمير تقرب المعنى للقارئ العربي فهو إذن قد تم تعيينه أميراً لكونوني) فاتخذ بون مقراً لإقامته، وكان رجلاً رحيماً رقيقاً مولعاً بالطعام والموسيقا وأصبح لفرط حبه للطعام أسمن رجل في أوربا (2) لكنه أيضاً جمع أوركسترا من إحدى ثلاثين قطعة موسيقية. وعزف بيتهوفن وهو في الرابعة عشرة من عمره الفيولا (الكمان الأوسط) في هذه الأوركسترا. كما كان له جمهور مستمعين أيضاً كعازف مساعد على الأرغن في البلاط (بلاط الناخب) والمعنى أنه كان يعزف على الأرغن إذا غاب العازف الرئيسي، وكان يتقاضى راتباً على هذه المهمة مقداره 051 gulden (نحو 057 دولاراً؟؟) في العام (3)، وكتب المسئولون عنه تقريراً للناخب (الأمير) في سنة 5871 بأنه كفاء... هادئ وسلوكه حسن، وفقير (4).

ورغم بعض الشواهد على قيامه بمغامرات جنسية، فإن سلوكه الطيب ونمو كفاءته الموسيقية وتطورها جعلت الناخب (الأمير) يسمح له، برحلة إلى فيينا على نفقته (أي نفقة الناخب) لدراسة التأليف الموسيقي. وسرعان ما استقبله موزارت Mozart بمجرد وصوله، وكان موزارت قد سمع عزفه فامتدحه امتداحاً معتدلاً بشكل مخيب للأمال ظناً منه أن مقدرة الشاب على العزف متوقفة على هذه القطعة التي عزفها والتي عزفها قبله كثيرون، فلما أحس بيتهوفن منه هذا الشك طلب منه (من موزارت Mozart) أن يقدم له مقطوعات مختلفة لعزفها على البيانو، فانبهر موزارت بخصوبة الشاب وتمكنه من العزف، فقال لأصدقائه راقبوه، فسيقدم في يوم من الأيام للعالم ما يجعله موضع حديث (6) لكن هذه القصة تبدو بغير أساس، فقد كان موزارت يعطي الفتى بعض الدروس، إلا أن موت والد موزارت - ليوبولد - في 82 مايو 7871، ووصول أخبار بأن أم بيتهوفن تحتضر قطعت هذه العلاقة التي لم تطل، إذ أسرع بيتهوفن عائداً إلى بون ليكون إلى جوار أمه وهي تموت (71 يوليو).

وكتب والد بيتهوفن الذي كان صوته الصادح قد تدهور منذ مدة طويلة، كتب للناخب (الأمير) واصفاً فقره المدقع طالباً منه المساعدة. ولم يصل إلينا ما يفيد أنه تلقى رداً لكن مغنياً آخر في الخورس (جوقة العزف في بلاط الناخب) قدم له يد العون، وفي سنة 8871 أضاف لودفيج بيتهوفن نفسه للأسرة دخلاً إضافياً بتدريسه البيانو لإليانور فون بروننج Eleonore Von Breuning وأخيها لورنز (لورنتس Lorenz) وقد استقبلته الأم الأرملة الثرية المثقفة كابن من أبنائها، وقد أثرت هذه الصداقة إلى حد ما في تهذيب شخصية بيتهوفن. ومن الذين قدموا لبيتهوفن يد العون الكونت فرديناند فون فالدشتين (Count Ferdinand Von Waldstein 2971-3281) الذي كان هو نفسه موسيقياً وصديقاً مقرباً للناخب (الأمير) إذ إنه عندما علم بفقر بيتهوفن راح يرسل له بين الحين والحين أموالاً زاعماً أنها من الناخب نفسه (من الأمير) وقد أهدى إليه بيتهوفن في وقت لاحق سوناتا البيانو (in C Major 53Opus) التي حملت اسمه. وكان لودفيج بيتهوفن لا يزال في حاجة إلى مساعدة أكثر من تلك التي كان يتلقاها حتى الآن لأن والده المكتئب كان قد استسلم للكحول (أدمن معاقرة الخمر) وتم إنقاذه من الاحتجاز (أو القبض عليه) يشق النفس لما يسببه من إزعاج عام. وفي سنة 9871 أخذ بيتهوفن على عاتقه - ولم يكن قد تجاوز التاسعة عشرة من عمره - مسئولية إخوته الأصغر سنًا وأصبح هو رأس الأسرة من الناحية الرسمية، وفي 02 نوفمبر صدر مرسوم من

الناخب (الأمير) بإنهاء خدمة جوهان (يوهان) فان بيتهوفن (والد لودفيج بيتهوفن) على أن يدفع نصف راتبه السنوي وقدره مائة ريخثالر reichsthalers لابنه لودفيج بيتهوفن ونصفه الآخر لأخيه الأكبر، واستمر بيتهوفن في كسب مبالغ بسيطة كعازف رئيسي للبيان وأرغني ثان (عازف ثان للأرغن) في أوركستر الناخب (الأمير). وفي سنة 0971 توقف فرانز (فرانتس) جوزيف هايدن Haydn - وهو عائد مكالم بالنصر من لندن - في بون وهو في طريقة إلى فينا، فقدم له بيتهوفن كنتاجه Cantata كان قد ألفها. مؤخرًا فامتدحها هايدن، وربما علم الناخب (الأمير) بشيء من هذا الثناء، فلبى اقتراحًا بإرسال الشاب إلى فينا للدراسة مع هايدن وأن يتلقى راتبه في الوقت نفسه كموسيقي عامل في بلاط الناخب (الأمير) وربما كان الكونت فون فالدشتين Waldstein وراء هذه المنحة التي تلقاها صديقه الموسيقي الشاب. لقد كتب في ألبوم لودفيج كلمة وداع كالتالي: عزيزي بيتهوفن، أنت راحل إلى فينا لإنجاز ما طالما تفتت كثيرًا لإنجازه. إن عبقرية موزارت (الذي كان قد مات في 5 ديسمبر 1971) لا يزال ينعيها الناعون.. فلتعمل بجد ولتتلق روح موزارت من أيدي هايدن. صديقك المخلص فالدشتين Waldstein. وغادر بيتهوفن بون وأباه وأسرته وأصدقائه في أول نوفمبر سنة 2971 أو في يوم قريبًا من هذا التاريخ. وسرعان ما احتلت قوات الثورة الفرنسية بون فهرب ناخبها (أميرها) إلى مينز (منتس Mainz) ولم ير بيتهوفن بون بعد ذلك أبدًا.

صفحة رقم : 14703

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> بيتهوفن -> تقدم ومأساة

2- تقدم ومأساة

2971 - 2081

عندما وصل إلى فينا وجدها تعج بالموسيقين المتنافسين على من يرعاهم وعلى جمهور المستمعين والناشرين، والذين ينظرون بازدراء لكل قادم جديد، فلم يجدوا في هذا القادم الجديد من بون جمالًا يُلطف وقع قدمه فقد كان لودفيج بيتهوفن قصير الممتلئ الجسم متجهم الملامح (أطلق عليه أنطون إيسترهيزي اسم البربري the Moor به آثار الجذري (بقايا بثور الجذري)، صف أسنانه الأمامي الأعلى بارز عن صف أسنانه الأمامي الأسفل، وأنفه عريض ممتلئ، وله عينان غائرتان متحديتان، أما رأسه فمثل كرة الرصاص يغطيه بشعر مستعار وحلية a wig & a van لم تكن شخصيته مهياة لتكون ذات بعد جماهيري سواء بين العامة أو بين منافسيه من الموسيقين ومع ذلك فلم يعدم - إلا نادرا - صديقًا منقذًا (يسعفه وقت اللزوم) وسرعان ما وصلت الأخبار بوفاة والده (81 ديسمبر 2971) وظهرت بعض المشاكل فيما يتعلق بنصيب بيتهوفن في راتب أبيه السنوي إذ قدم بيتهوفن التماسًا للناخب [الأمير] طالبًا استمرار هذا الدخل السنوي، فرد الناخب الأمير بمضاعفة هذا الدخل وأضاف: لا بد من تقديم ثلاثة مكابيل من الحبوب له... لتعليم أخويه (كارل وجوهان اللذين كانا قد انتقلا إلى فينا(7)). وكان بيتهوفن ممتنًا إذ انتهى إلى حلول طيبة. لقد كتب في ألبوم أحد أصدقائه في 22 مايو 3971 مستخدمًا كلمات شيلر في مؤلفه دون كارلوس Don Carlos: إنني لست شريرا - فالدم الحار هو خطئي - إن جريمتي أنني شاب... فرغم أن الانفعالات والعواطف

الجياشة قد تخدع قلبي وتخرجه عن جادة السبيل، إلا أن قلبي طيب. وقرر أن يفعل كل ما يقدر عليه من الخير، وأن يحب الحرية قبل أي شيء آخر، وألا ينكر الحق حتى أمام العرش(8).

وأخضع مصروفاته لتكون في الحد الأدنى خاضعا لأحكام الضروة: بالنسبة إلى شهر ديسمبر سنة 2971، 41 فلورينا (نحو 53 دولار؟) للإيجار، ستة فلورينات لتأجير بيانو، الأكل، في كل وجبة 21 كروزر Kreuzer (سنة سنتات) وجبات مع نبيذ 5،6 فلورين (52 و 61 دولار؟)، وثمة أوراق أخرى للتذكرة تدرج هايدن Hayden (كتبها بيتهوفن Haiden) باعتبار أن تكاليف الدروس التي يتلقاها بيتهوفن على يديه في أوقات مختلفة تبلغ جروشين two groschen (بنسات قليلة)، ومن الواضح أن هايدن لم يكن يطلب إلا القليل لقاء دروسه. وقد قبل التلميذ (بيتهوفن) لفترة تصويبات أستاذه بتواضع لكن مع استمرار الدروس وجد هايدن أنه من المستحيل أن يقبل ابتعاد بيتهوفن عن قواعد التأليف الموسيقي التقليدية. وقرب نهاية سنة 3971 هجر بيتهوفن أستاذه العجوز وراح يتردد ثلاث مرات في الأسبوع لدراسة فن مزج الألحان (الكونتر بوينت Counterpoint) على يد جوهان جورج البرخشتبيرجر Albrechtsberger وهو رجل حقق شهرة معلما أكثر منه مؤلفا موسيقيا. وفي الوقت نفسه كان يدرس لثلاثة أيام في الأسبوع آلة الفيولين مع إجناز (إجناتس) شبانترج وفي سنة 5971 كان قد أخذ كل ما يحتاجه من ألبرخشتبيرجر Albrechtsberger فتردد على أنطونيو ساليري Salieri الذي كان وقتها مديرا لأوبرا فيينا لدراسة التأليف الموسيقي للأصوات. ولم يكن ساليري يتلقى شيئا من التلاميذ الفقراء. وقدم بيتهوفن نفسه له ككفيل فقبله. وقد وجده كل هؤلاء المدرسين الأربعة تلميذا صعب المراس تندفع منه أفكار خاصة به ويرفض أن يشكل نفسه على وفق النظرية الموسيقية التي يقدمها له معلمه. ويمكننا أن نتخيل الرعدات (الارتجافات) التي كانت تعترى بابا هايدن Papa Hayden (الذي عاش حتى سنة 9081) بسبب مؤلفات بيتهوفن بالجمهورية (المصوتية الموسيقية Sonorities) وعدم الاتساق. ورغم انحراف بيتهوفن عن الطرق المألوفة المطروقة (وربما بسبب ذلك) فقد حققت إنجازات بيتهوفن له بحلول عام 4971 شهرة باعتباره أكثر عازفي البيانو (مؤلفي المقطوعات الموسيقية للبيان) تشويقا في فيينا. لقد ربح البيانو الحديث معركته مع البيانو القيثاري (الذي يتخذ شكل قيثارة). وكان جوهان (يوهان) كريستيان باخ Bach قد بدأ في سنة 8671 في إنجلترا عزف الألحان الصولو Solos (لحن معد ليحزف على آلة واحدة) على البيانو، وأخذ موزارت بهذا الأسلوب تبعهما هايدن في سنة 0871، وكان موزيو كليمنتي Muzio Clementi يؤلف الكونشترات (الألحان التي تعزف بمصاحبة الأوركسترا) المخصصة للعزف على البيانو، والتي كانت لمرونتها عوانا بين البيانو والفورت forte (الشديد أي النغم الذي يعزف بشدة) وبين الساكاتو Staccato (مقطع موسيقي منقطع) والسوستوتو Sostenuto. لقد استخدم نابليون إمكانات البيانو استخداما كاملا، كما صب كل قدراته هو نفسه لإنتاج كل ما يمكن من أعمال موسيقية للبيانو، خاصة في أعماله المرتجلة (غير المعدة سلفا) حيث لايعوق أسلوبه الموسيقي أية نوت موسيقية مطبوعة. وقد أعلن - في وقت لاحق - فرديناند ريس Ries تلميذ هايدن وتلميذ بيتهوفن أيضا أنه: لا يوجد فنان أبدا فيمن أعرف من الفنانين أو سمعت عنهم يداني بيتهوفن في هذا الفرع من العزف. إن ثروة الأفكار التي تتراحم فيه (في بيتهوفن)، والترددات والنزوات الفكرية التي يستسلم لها، وتغير المعالجة ومواجهة الصعاب اللحنية تمثل فيه طاقة لا تنفذ (9).

لقد رعاه رعاة الموسيقى في المقام الأول كعازف بيان، ففي حفلة موسيقية ليلية في بيت بارون فان سفيتين (شفيتين Sweiten) دعاه صاحب البيت للبقاء بعد انتهاء برنامج الحفل (كما يروي لنا سندلر كاتب سيرة حياة بيتهوفن) وحثه على أن يضيف قليلا من فجوات fugues باخ Bach ليختم بها السهرة (01) وكان الأمير كارل ليشنو فسكى Karl Lichnowsky الهاوي والموسيقي الكبير في فيينا يحب أيضا بيتهوفن حتى إنه كان ليتعاقد معه بانتظام لإحياء حفلاته الموسيقية التي كان يعقدها كل يوم جمعة واستضافه في بيته فترة لكن بيتهوفن - على أية حال - لم يستطع أن يكيف نفسه مع ساعات تناول الأمير لوجباته، فكان يفضل التردد على فندق قريب. وكان الأمير لوبكوفتس Iobkowitz أكثر رعاة الموسيقى - ممن يحملون رتب النبالة - حماسا، وكان هذا الأمير نفسه عازف فيولين ممتاز، أنفق كل دخله تقريبا على الموسيقى والموسيقين. وظل لسنوات يساعد بيتهوفن رغم ما حدث بينهما من نزاع، وكان هذا الأمير يتعامل بروح سمحة مع بيتهوفن وإصراره على أن يعامل كند مساو لذوي الرتب من ناحية المكانة الاجتماعية. وكانت زوجات هؤلاء النبلاء الذين يقدمون له يد العون يسعدن بكبريائه واستقلاله ويتلقون على يديه دروس الموسيقى ويتحملن توبيخه بل ويسمحن لهذا الفارس الأعزب الفقير بإقامة علاقات حب معهن من خلال الخطابات، وكن - وكذلك اللوردات - يقبلن إهداءاته ويكافئنه عليها بهدوء (11).

لقد اقتصر شهرته على تمكنه من عزف البيان، ووصلت هذه الشهرة إلى براغ prague وبرلين اللتين زارهما في سنة 6971. لكن في هذه الأثناء راح يؤلف الموسيقا، ففي 12 أكتوبر 5971 نشر مجموعة قطعه الموسيقية الأولى (من تأليفه) Opes (الثلاثية الكبيرة Three Grand Trios) التي أعلن جوهان كرامر Johann Cramer بعد عزفها إن هذا الرجل (يقصد بيتهوفن) قد عوضنا عن موت موزارت (21) وتأثر بيتهوفن بهذا المديح فكتب في دفتر

مذكراته: بالالتشجيع! فرغم كل ما يعترني جسمي من وهن، فإن روحي هي التي ستحكم مسيرتي... إن هذا العام سيجعل مني رجلاً كاملاً. سأنجز كل شيء ولن أوجل عملاً (31) وفي سنة 1797 دخل نابليون حياة بيتهوفن للمرة الأولى، ولم يكن له فيها وجود قبل ذلك. لقد طرد الجنرال الشاب النمساويين من لومبارديا وقاد جيوشه عبر جبال الألب وكان يقترب من فيينا فراحت العاصمة (فيينا) تعد دفاعاتها بشكل مرتجل بقدر ما تستطيع. لقد راحت تعد المدافع وتجهزها، وتؤلف الترانيم الدينية ليحفظ الله النمسا، وكتب هايدن الآن النشيد الوطني للنمسا: ليحفظ الله فرانتس Gott erhalte Franz den Kaiser, unsern guten kaiser Franz وألف بيتهوفن موسيقاً لأغنية حرب أخرى تطالب كل الألمان بمساعدة النمسا dertsch Volk sind wir Ein grosses العمل على سلام مخز. الموسيقية ككتائب كثيرة العدد لكنها لم تحرك مشاعر نابليون الذي أجبرهم على السلام مخز. وبعد ذلك بعام أتى الجنرال بيرنادوت (Bernadotte) إلى فيينا ليكون السفير الفرنسي الجديد وصدّم المواطنين (أهل فيينا) بأن رفع من شرفته علم الثورة الفرنسية ذا الألوان الثلاثة. وأعلن بيتهوفن صراحة - كان بالفعل معجباً بالأفكار الجمهورية - إعجابه بنابليون، وغالباً ما كان يرى في حفلات الاستقبال التي يعدها السفير الفرنسي الجديد (41). ويظهر أن بيرنادوت هو الذي اقترح على بيتهوفن فكره تأليف عمل موسيقي لتكريم نابليون وتشيّفه (51).

وأهدى بيتهوفن في سنة 1797 مجموعة ألبانته رقم 31 Opes والتي جعل لها عنواناً هو Grande Sonate Pathetique للأمير ليشنوفسكي Lichnowsky اعترافاً بأفضاله أو أملاً في أفضل تأتبه على يديه. لقد كان بإهدائه هذا برنو لمصلحة قريبة. وكان رد الأمير (0081) هو أن وضع ستمائة جلدن gulden تحت تصرف بيتهوفن حتى أحصل (أي بيتهوفن) على تعيين مناسب (61). لقد بدأت هذه السوناتا ببساطة وكأنها مقتبسة بتواضع من أعمال موزارت Mozart إلا أنها سرعان ما تشابكت وتعقدت لكنها اعتبرت في وقت لاحق بسيطة إلى جانب سوناتات الهمركلافير the Hammerklavier Sonatas أو الأباشيوناتا Appassionata وكانت السيمفونية الأولى (0081) وسيمفونية ضوء القمر في (C Sharp minor) سنة 1081 هما الأسهل سواء من ناحية العزف أو من ناحية القدرة على تذوقهما. ولم يعط بيتهوفن مقطوعته الأخيرة اسمها المشهور لكنه أطلق عليها (Sonata quasi Fantazia) ويظهر أنه لم يكن ينوي تحويلها إلى أغنية محببة. حقيقة أنه أهداها إلى الكونتيسة جوليا جوشياردى Giulia Guicciardi التي كانت من بين ربات الجمال اللاتي لم يمسهن واللاتي أوحين له بألبانته الموسيقية الحاملة، لكنها (أي السوناتا) كتبت لمناسبة أخرى مختلفة (71).

لقد شهد عام 2081 إحدى أغرب الوثائق في تاريخ الموسيقى التي طالما رجع إليها الباحثون، وهي جديرة بذلك. إنها الوثيقة السرية وثيقة هيليجنشتادت Heiligenstadt Testament التي لم يكشف عنها إلا عندما تم العثور عليها بين أوراق بيتهوفن بعد وفاته. إنها وثيقة لا يمكن فهمها إلا من خلال مواجهة صريحة مع شخصيته. لقد كان يتمتع بكثير من الصفات الطيبة في شبابه، روح مرحة، ميل للفكاهة، إخلاص في الدراسة، استعداد لتقديم العون للمحتاج، وظل كثير من أصدقائه في بون - مثل مدرسة كريستيان جوتلوب نيف Neefe وتلميذته إليانور فون بروننج Eleonore Von Breuning وراعيه الكونت فون فالدشتين Waldstein - أوفياء له رغم أن نظرتهم للحياة راحت - بشكل متزايد - تتسم بالمرارة. وعلى أية حال فقد راح يفقد صديقاً إثر صديق في فيينا حتى كاد يصبح وحيداً لكن أصدقائه عندما علموا أنه على وشك الموت عادوا إليه وبذلوا كل ما في طاقتهم لتخفيف آلامه.

لقد تركت بيئته الباكورة فيه آثاراً دائمة لا تمحى، فهو لم ينس أبداً الفقر المدقع والمقلق (ولم يغفر ذلك لبيئته ولم يكن متسامحاً إزاء هذه الظروف) ولم ينس الهوان لرؤية والده وهو يستسلم للفشل والخمر. بل إنه هو نفسه (بيتهوفن) بعد أن أتت عليه الأيام راح يستسلم أكثر فأكثر لمعاقره النبيذ طلباً للنسيان (81). ويدعو تمثاله المقام في فيينا (خمس أقدام وخمس بوصات) للتأمل، ولم يكن وجهه ينم عن حظ حسن أو ثراء، وكان شعره كثافاً مهوشاً خشناً. وكانت لحينه تنتشر حتى قرب عينيه الغائرتين، وكان يتركها لتتمو فتصل إلى نصف بوصة قبل أن يحلقها (91). لقد جأ بالشكوى في سنة 1819 أه ياربي، بالها من مصيبة (طاعون) أن يكون لشخص مثل هذا الوجه المهلك كوجهي (02) وربما كانت هذه العيوب الخلقية (بكسر الخاء) حافزاً على الإنجاز لكنها بعد الأعوام القليلة الأولى في فيينا جعلته يهمل ثيابه وبدنه (صحته) ومسكنه وعاداته. لقد كتب في 22 أبريل سنة 1081 إنني رفيق مهممل (بفتح الميم الثانية)، وربما كان الملمح الوحيد لعبقريتي أن أشيائي ليست دائماً في ترتيب جيد وكان يكسب أموالاً نتيجاً له أن يكون له خدم لكنه كان سرعان ما يتعارك معهم وقلما احتفظ بهم لفترة طويلة. لقد كان قظاً مع من هم أدنى منه، وكان في بعض الأحيان ذلولاً خانعاً لمن كانوا نبلاء المحند، لكنه كان غالباً معتزلاً بنفسه بل ومتكبراً. وكان يقلل من قيمة منافسيه بشكل لا يرحم فكادوا يجمعون على كراهيته. وكان قاسياً مع تلاميذه لكنه علم بعضهم دون مقابل (12).

لقد كان كارها للناس، لكنه كان متسامحاً مع ابن أخيه كارل Karl الذي كان يعاني المتاعب، وكان محباً له، كما كان يحب كل تلميذ ماهر. ولقد قدم للطبيعة عاطفة جياشة لم يستطع أن يكنها للبشر وكان مزاجه - تباعاً - سوداويًا، لكنه

أيضا كان تباعا - ينخرط في حالات ابتهاج صاحبة سواء بنبيذ أو بدون نبيذ. (انظر على سبيل المثال الخطابات 41، 22، 52، 03)(22)، وكان كلامه ينطوي على تورية في كل مناسبة وكان أحيانا يخترع كنى عدائية لأصدقائه وكان أكثر استعداداً للقهقهة منه للابتسام.

وحاول خلال السنوات المزعجة أن يلغي الأحزان التي مرتت حياته (جعلتها مريرة)، ففي خطاب بتاريخ 92 يونيو 1081 كتبه لأحد أصدقاء شبابه وهو فرانز (فرانتس) فيجلر Franz Wegeler: طوال السنوات الثلاث الأخيرة أجد سمعي يضعف بالتدريج. وربما يرجع ذلك للآلام التي أعانيها في بطني.. والتي جعلت حياتي بائسة حتى قبل مغادرتي بون، لكنها غدت أسوأ في فينا حيث كنت مبتلى باستمرار بالإسهال وكنت أعاني من اعتلال غير عادي.. وظل هذا هو حالي حتى خريف آخر عام وأحيانا كنت أستسلم لليأس. يجب أن أعترف أنني حبيس حياة بائسة. فطوال عامين كدت لا أحضر أية مناسبة اجتماعية لأنني لم أكن قادرا على أن أقول للناس: إنني أصم. لو أن لدي مهنة أخرى لكنت قادرا على التغلب على عجزتي (صممي)، لكن صممي هذا مصيبة بالنسبة إلي، وأنا عازف ومؤلف موسيقي. إن الله وحده يعلم ما ستأتي به الأيام بالنسبة لي. إنني بالفعل ألحن خالقي وألحن وجودي. أرجوك لاتذكر أي شيء عن ظروفي لأي أحد ولا حتى للورشين Lorchen [البانور فون بروننج]. وقضى بيتهوفن شطراً من عام 2081 في قرية هيلجنشتادت Heiligenstadt الصغيرة القريبة من جوتنجن Gottingen أملاً فيما يبدو الاستفادة من حماماتها الكبريتية. وفي أثناء تجوله في الغابات القريبة رأى على مسافة قريبة منه راعياً ينفخ في مزار، ولكنه لم يسمع شيئاً، فتحقق الآن فقط أنه لن يصل إلى سمعه سوى أصوات الأوركسترا العليا. وكان قد بدأ بالفعل قيادة الفرق الموسيقية كما كان قد بدأ التأليف الموسيقي لذا فقد سقط صريع اليأس عندما تحقق أنه لا يسمع موسيقا مزارع الراعي، فذهب إلى غرفته وكتب في 6 أكتوبر 2081 ما عرف باسم وثيقة هيلجنشتادت كوثيقة روحية واعتذارية، ورغم أنه ذكر شيئاً عنها لأخوية كارل و - بيتهوفن إلا أنه أخفاها بعناية عن كل العيون، ونحن هنا ننقل سطورها الأساسية:

أنتم أيها الناس الذين ظننتم (وقلتم) أنني حقود أو عنيد أو كاره للبشر، كم أنتم مخطئون في حقي، فأنتم لم تعلموا السر الكامن وراء ظهوري بهذا المظهر. لقد كان قلبي وعقلي منذ طفولتي ميالين للعمل الخير وكنت دوماً تواقاً لإنجاز الأعمال العظيمة لكنني أصبحت الآن منذ ست سنوات فاقد الأمل، وتفاقم هذا بسبب الأطباء الحمقى.. وأخيراً أُجبرت على مواجهة ما هو متوقع من استمرار مرضي... لقد ولدت صاحب مزاج متوهج حي بل وحساس لانحرافات المجتمع، فأجبرت منذ وقت باكراً على العزلة وعلى أن أعيش وحيداً، وعندما حاولت في بعض الأوقات نسيان ذلك كله صدمت صدمة ما أقساها! لقد كانت صدمة مضاعفة إذ فقدت ما بقي من سمعي، وضاعف الحزن أنني لم أكن أستطيع أن أقول للناس تحدثوا بصوت أعلى! اصرخوا، فأنا أصم. أه كيف أقر بصممي، ومن المفترض أنني كموسيقي، أكمل ما يكون في حاسة سمعه... أه لا أستطيع أن أقر بذلك العجز، لذا سامحوني إذ رأيتوني أبتعد عنكم بينما كان المفروض أن أسعد بالاندماج معكم... أه يا للخزي عندما يجلس بجوار شخص يسمع الفلوت flute على البعد بينما أنا لا أسمع شيئاً. إن مثل هذه الأحداث أسلمتني لحافة اليأس، بل ولما هو أكثر قليلاً من ذلك وهو أن أضع حداً لحياتي، ولم ينقذني سوى الفن. أه لقد بدا لي أنه من المحال أن أترك العالم إلا بعد أن أنتج كل ما شعرت أنه يطالب بإخراجه للناس... أه أنت أيها الواحد القدوس Divine One الذي تعلم ما يخفيه صدري وما تكنه روحي. أنت تعلم أن حب البشر والرغبة في حياة صالحة كامنين في أعماقي. أيها الناس عندما تقرأون في يوم من الأيام كلماتي هذه ستدركون كم كنتم مخطئين في حقي... وأنتم يا إخوتي كارل و - إذا مت فاسألوا الطبيب شمد Schmid إن كان لا يزال حياً، اسأله نيابة عني ليصف مرضي وأضيفوا هذه الوثيقة لتاريخي المرضي، فلعن هذا يجعل العالم يتألف معي بعد موتي ويلتمس لي العذر... إنني أرغب أن تكون حيواتكم أفضل من حياتي، أوصوا أولادكم بالفضيلة فهي وحدها التي تتيح السعادة، هي وليس المال إنني أحدثكم عن خبرة وتجربة. إنها الفضيلة هي التي كانت سندي أيام بؤسي، فالفضيلة - بعد فني - هي منعنتي من الانتحار. وداعاً ولتبادلوا الحب... إنني أسرع إلى الموت سعيداً.

وفي الهامش كتب: تقرأ وتوضع موضع التنفيذ بعد موتي (32) إن هذه الوثيقة لم تكن وصية منتحر، وإنما تحوى في ثناياها اليأس والأمل (التصميم). لقد وجد بيتهوفن ضرورة تقبل المشاق والمتاعب التي يمر بهما لينقل لأذان أخرى غير أذنيه الموسيقا القابعة - في صمت - داخل وجدانه. لقد ألف، وكان لا يزال في هيلجنشتادت في نوفمبر 2081 سيمفونيته الثانية (in D)، ولم يكن فيها أثر لشكوى أو حزن، وبعد ذلك بعام واحد ألف سيمفونيته الثالثة (البطولة the Eroica) بعد صرخته النابعة من الأعماق، فدخل بهذه السيمفونية الثالثة مرحلته الثانية، وهي المرحلة الخلاقة الأكثر تميزاً.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> بيتهوفن -> أعوام سيمفونية البطولة

3- أعوام بطولية أو أعوام سيمفونية البطولة

3081 - 9081

قسم علماء الموسيقى الذين خاضوا هذه الصفحات المحيرة حياة بيتهوفن الفنية في ثلاث حقبة: من 1797 إلى 1801، ومن 1801 إلى 1811، ومن 1811 إلى 1828. ففي الحقبة الأولى راح يعمل بشكل تجريبي على وفق أسلوب موزارت وهايدن، ذلك الأسلوب الهادئ الراسخ البسيط. وفي الحقبة الثانية ركز على مراقبة الأداء من حيث التنبؤ Tempo (درجة السرعة الواجب اعتمادها في العزف) وعلى البراعة في استخدام الأصابع، وعلى الفورس force (درجة القوة في العزف). لقد اكتشف التناقض في المود mood بين الرقة والقوة. لقد أطلق العنان لقدرته على الإبداع في الألحان على نحو يخالف المؤلف كما أطلق العنان لنزعه للارتجال، لكنه أخضع هذا لمنطق الدمج والتناسب والتطور (المقصود تطور اللحن). لقد غير (جنس sex) السوناتا والسيمفونية فقد حولهما من الرقة والمشاعر الأنثوية إلى الإرادة الرجولية والحسم، وكما لو أن بيتهوفن أراد إبراز هذا التغيير في مسيرته فقد أعاد - الآن - المينيوت minuet في الحركة الثالثة مع شرزو Scherzo (موسيقا مرحة مازحة) تضحك في وجه القدر. لقد وجد بيتهوفن الآن في الموسيقى ردا على سوء الحظ: لقد أصبح بمقدوره أن يذوب في الإبداع الموسيقي بشكل يجعل موت جسده مجرد حدث عابر في حياة ممتدة (خلود الذكر). إنه يقول عندما أعزف أو أولف الموسيقا.. تخف أجزائي إلى أدنى درجة (42). إنه لم يعد يسمع ألحانه الآن بأذنيه وإنما راح يسمعها بعينه - بقدرة الموسيقى الباطنية على تحويل الأنغام التي يتخيلها إلى بقع وخطوط ثم يسمعها - بلا صوت - من الصفحات المكتوبة.

وتكاد كل أعماله الموسيقية في هذه المرحلة تصبح من الكلاسيات إذ ظهرت الأجيال المتعاقبة كذخائر (ريبورتوار) موسيقية أوركستراية (المقصود أن الفرق المختلفة حفظتها وأتقنتها، وأصبحت على استعداد لأدائها في أي وقت). لقد ألف سوناتا الكروتسر Kreutzer sonata (الكروتسر عملة معدنية نمساوية صغيرة) مجموعة ألحان 74 في سنة 1801 لعازف الفيولين (الكمان) جورج برديجتور Bridgetower وأهداها إلى رودولف كروتسر Rodolphe Kreutzer مدرس الفيولين (الكمان) في كونسرفتوار باريس، وكان بيتهوفن قد قابلته في فيينا في سنة 1807، لكن كروتسر حكم على اللحن بالغرابة عن أسلوبه ومزاحه ولم ير أبداً عزفها على مسامع الجمهور. واعتبر بيتهوفن أن أفضل سيمفونياته هي سيمفونية الأرويك (البطولة) (52) the Eroica التي ألفها في عامي

1801/1804. ونصف العالم يعرف قصة إهداء هذه السيمفونية - في الأساس - لنابليون. ورغم أن بيتهوفن كان له صداقات بين النبلاء وذوي المكانة، ورغم إهداءاته الحكيمة لأعماله، إلا أنه ظل إلى آخر حياته جمهوريا مصمما وقد هلك لنابليون لقبضه على زمام السلطة في فرنسا وإعادة تنظيم الحكم (1797 - 1808) واعتبر ذلك خطوة نحو الحكم المسؤول، لكن بيتهوفن - على أية حال - عبر عن أسفه لتوقيع نابليون وفاقا (كونكوردات Concordat) مع الكنيسة. لقد كتب بيتهوفن: الآن انتكست الأمور (62) ويروي لنا شاهد عيان هو فرديناند ريس Ries قصة الإهداء الأنف ذكره، فلنتركه يروي لنا:

في هذه السيمفونية كان نابليون (وهو قنصل أول) موجوداً في عقل بيتهوفن الذي كان يقدره تقديراً شديداً في هذا الوقت وشبهه بأعظم القناصل الرومان. وقد رأيت مع عديد من أصدقائه الحميمين نسخة من سيمفونية الأرويكيا Eroica على مكتبه وقد كتب في أعلاها بونايرت وفي أدناها لوجي Luigi فان بيتهوفن ولم نقرأ أي كلمة أخرى... وكنت أول من حمل له خبر أن نابليون قد أعلن نفسه إمبرطوراً، وعندها انفعلي ساخطاً (أي بيتهوفن) وصاح إنه إذن بشر كالبشر العاديين. إنه سيطاً كل حقوق الإنسان وسينشغل بطموحاته، وسيعلني نفسه فوق الآخرين ويصبح طاغية وتوجه بيتهوفن إلى المنضده فمزق اسم نابليون من فوق صفحة عنوان سيمفونية وقذفه إلى الأرض، وغير الصفحة الأولى وجعل عنوان السيمفونية إرويكيا (البطولة) (Sinfonia eroica 72).

وعندما نشرت السيمفونية (5081) حملت العنوان التالي: Sinfonia eroica Per festeggiare il sovvenira d'un gran uomo ومعناها سيمفونية البطولة للاحتفاء بذكرى رجل عظيم (82).

وفي 7 أبريل 5081 أدها فرقة موسيقية للمرة الأولى على مسرح أن دير فين Theatre - an - der - wein بقيادة بيتهوفن رغم اعتلال سمعه. وكان أسلوبه في قيادة الفرقة مع شخصيته - مثيراً محكماً بارعاً، فعند الفقرات الموسيقية الرقيقة جداً (البيايسيمو Pianissimo) نجده ينحني حتى يكاد الدسك (المكتب المرتفع الخيل) يخفيه، وكلما تصاعد النغم وازداد (كريسندو Crescendo) وجدناه يرفع قامته شيئاً فشيئاً بالتدرج مع تصاعد النغم، فإذا وصل الصوت للذروة فور تسميو fortissimo انبثق قافزاً في الهواء ماداً ذراعيه إلى آخر مدى كما لو كان يريد التحليق فوق السحاب (92). وتعرضت السيمفونية للنقد بسبب غرابة انتقالها النغمي أي غرابة الانتقال من أسلوب في الأنغام إلى أسلوب آخر (الموديولاشن modulation)، وعنف المقاطع الانتقالية وصخبها Violent transitions... ولما بها من حدة غير مرغوبة. ولطولها المفرط. وقد نصح النقاد بيتهوفن بالعودة لأسلوبه الأول والأكثر بساطة. لكن بيتهوفن أرغى وأزبد وحال إقناعهم بأسلوبه (03).

وحاول بيتهوفن دخول مجال الأوبرا لضمان نصر جديد، ففي 02 نوفمبر 5081 قاد العرض الأول لأوبرا ليونور Leonore لكن جيوش نابليون كانت قد احتلت فيينا في 31 نوفمبر، فهرب الإمبراطور فرانسيس ورؤوس النبلاء، فلم يعد الناس ميالين للأوبرا أو بتعبير أوضح لم تعد أمتعتهم رائعة للاستمتاع بالأوبرا. لقد حقق الأداء فشلاً مديراً رغم تصفيق الضباط الفرنسيين الموجودين وسط الجمهور قليل العدد. وقيل لبيتهوفن إن أوبراه his opera طويلة جداً وغير متقنة الترتيب، فاختصرها وراجعها وعرضها مرة ثانية في 92 مارس 6081 ففشلت مرة أخرى. وبعد ذلك بثماني سنوات عندما ازدحمت المدينة بوفود مؤتمر فيينا، تم تغيير اسم الأوبرا ليصبح فيديليو Fidelio وتم عرضها للمرة الثالثة فلم تحقق إلا نجاحاً متواضعاً. لقد كان اتجاه بيتهوفن في التأليف الموسيقي يعتمد على التناغم بين الآلات أو المزوجة بين أنغامها فقد كان يجد في ذلك رحابة ومرونة أكثر مما كان يجدها في الصوت البشري، لكن المغنين كانوا - على أية حال - تواقين لكسر حواجز جديدة، ولم يستطيعوا - ببساطة - القيام بالأداء الغنائي لبعض الفقرات المحلقة (المتسمة بالسمو) فتمردوا أخيراً. وهذه الأوبرا تعرض الآن في المناسبات بسبب شهرة مؤلفها (بيتهوفن) وبعد خضوعها لمراجعات كثيرة لا مجال لمزيد عليها.

وبعد هذه التجربة الصعبة راح ينتقل من تأليف عمل عظيم خالد إلى آخر. وفي سنة 5081 قدم كونشرتو البيانو (4G, No 58 Opus)، واحتفى بعام 6081 بسوناتا (57F. Minor, Opus) التي أطلق عليها في وقت لاحق (أباسبوناتا Appassionata) وأضاف ثلاثة أرباع، ومجموعة ألحان 59 Opus وأهداها إلى كونت أندرياس رازوموفسكي Razumovsky السفير الروسي في فيينا. وفي مارس 7081 نظم أصدقاء بيتهوفن حفلاً خيرياً له - ربما تعزية لفشل عمله الأوبرالي، وفي هذا الحفل أدار عزف سيمفونياته؟ الأولى والثانية والثالثة (إرويكيا سيمفونية البطولة) وسمفونيته الجديدة (الرابعة) (60 in B Flat, opus) ولا ندري كيف تحمل جمهور المستمعين هذا الكم الموسيقي المفرط إلى حد التخمة.

وفي سنة 6081 عهد الأمير ميكلوس نيكولوس نيكولوس إيستر هيزي Miklos Nicolaus Ester ha,zy إلى بيتهوفن تأليف موسيقاً قداساً لعيد شفيعة زوجته (إحياء لذكرى القديسة التي تحمل الزوجة اسمها)، فذهب بيتهوفن إلى قصر إيستر هيزي في ايزنشتادت Eisenstadt في المجر وقدم هناك قداسه (86C, opus) في 31 سبتمبر 7081. وبعد العزف سأله الأمير لكن يا عزيزي بيتهوفن، ما هو الذي فعلته مرة أخرى؟ وفسر بيتهوفن هذا السؤال على أنه دال على عدم الرضا فغادر القصر قبل انتهاء مدة دعوته.

وأتحف عام 8081 بسيمفونيتين لا زالتا معروفتين حتى الآن في العالم كله: السيمفونية الخامسة (in C Minor) والسيمفونية السادسة (أو الرعوية) (in F). ويبدو أنه ألفهما معا خلال عدة أعوام فقد تراوح المزاج العام فيهما ما بين الاكتئاب في الخامسة والبهجة في السادسة، وقد تم أداءهما معا على مسمع من الجمهور للمرة الأولى في 22 ديسمبر 8081، وأدى تكرار أدائهما إلى أن فقدتا جاذبيتهما حتى عند عشاق الموسيقى. فلم تعد مشاعرنا تتحرك لتقدر يطرق الباب أو طيور تغرد بين الأغصان، لكن ربما كان تلالشي انجذابنا إليهما راجعاً لنقص التعليم الموسيقي الذي يمكننا

من الاستمتاع بفن مزج الألحان وما فيها من تضاد وتطور واتساق، وتنافس الآلات في الأداء، والحوار بين آلات النفخ والآلات الوترية، وطبيعة كل حركة موسيقية والبناء العام للقطعة الموسيقية وتوجهها. فالعقول التي تتنازع فيها المشاعر والأفكار لا بد أن تجد عناء في تتبع هذا تماما كما أن هيجل يجد صعوبة في فهم بيتهوفن، وكما يجد بيتهوفن - أو أي شخص آخر - صعوبة في فهم هيجل.

وفي عامي 8081 و 9081 ألف بيتهوفن كونشرتو البيان رقم 5 (73in E Flat, Opus) المعروف باسم الإمبراطور. ومن بين كل أعماله، يعتبر هذا الكونشرتو هو الأكثر بقاءً وجمالاً. إنه عمل لا نمل سماعه أبداً. وعلى أية حال فإننا عندما نسمعه تهتّر مشاعرنا اهتزازاً يفوق اهتزاز مشاعرنا بالكلمات المصاحبة، فهو عمل موسيقي يتسم بالتألق والحيوية. إنه فيض من مشاعر وبهجة لا حد لهما. إنه عمل ينم عن قدرة إبداعية هائلة. ففي هذا الكونشرتو يسمو الإنسان منتصراً متجاوزاً النكبات منشداً قصيدة تعج بالفرح، على نحو أكثر إقناعاً مما في الكورس الجهير في السيمفونية التاسعة.

وربما عكس كونشرتو الإمبراطور والسيمفونية الرعوية ما كان يمر به بيتهوفن من رخاء وازدهار. وفي سنة 4081 تعاقد مع الأرشيدوق ردولف ابن الإمبراطور فرانسيس الأصغر - ليعلمه العزف على البيانو، وهكذا بدأ في تكوين صداقة، غالباً ما كانت سبباً في زيادة كتمان بيتهوفن لميوله الجمهورية. وفي سنة 8081 تلقى عرضاً مغرباً من جيروم بونابرت، ملك وستاليا ليأتي إلى كاسل Cassel ليعمل قائداً لأوركسترا في الفرقة الموسيقية الملكية فوافق بيتهوفن مقابل ستمائة دوكة ذهبية في العام ويبدو أنه كان لا يزال مؤملاً في أذنيه اللتين كانتا في مرحلة قريبة من الصمم، عندما شاعت الأخبار أنه يتفاوض مع كاسل Cassel اعترض عليه أصدقاؤه ذاكين له أن في قبوله لهذا العرض نقضاً لولائه لفينا فأجابهم إنه ظل يكدح في فينا ستة عشر عاماً دون أن يؤمن وضعه. وفي 62 فبراير سنة 9081 تلقى بيتهوفن موافقة رسمية من الأرشيدوق بأنه إذا وافق بيتهوفن على البقاء في فينا، فسيتلقى 0004 فلورين Florin سنوياً، يدفع منها ردولف 0051 ويدفع الأمير لوبكوفتس 007Lobkowitz، والكونت كينسكي Kinsky 0081، بالإضافة ما يكسبه بيتهوفن من أية أعمال يؤديها، ووافق بيتهوفن. وفي سنة 9081 وهو العام الذي قبل فيه هذا العرض، مات الموسيقار هايدن المعروف ببابا هايدن فورت بيتهوفن تاجه.

صفحة رقم : 14705

قصة الحضارة - < عصر نابليون - < ملوك أوروبا في مواجهة التحدي - < بيتهوفن - < العاشق

4- العاشق

بعد أن حقق بيتهوفن الاستقرار في أحواله الاقتصادية راح يرنو لزوجته، فطالما كان تواقاً لذلك. لقد كان رجلاً حاراً محباً للجنس، ومن المفترض أنه وجد متنفسات مختلفة لطاقته (13) لكنه شعر منذ فترة طويلة بحاجته إلى شريكة حياة دائمة. لقد كان في بون في حالة عشق دائمة على وفق ما ذكره صديقه فيجيلر Wegeler وفي سنة 1081 ذكر لصديقه هذا فتاة حلوة عزيزة تحبه ويحبها ويفترض بشكل عام أنه يقصد تلميذته ذات السبعة عشر ربيعاً الكونتيسة جوليا جويشياردي Guilia Guicciardi إلا أنها - على أية حال - تزوجت الكونت جلنبرج Gallenberg. وفي سنة 5081 عقد بيتهوفن أماله على الكونتيسة الأرملة جوزفين فون ديم Jovephine Von Deym التي أرسل لها إعلاناً عاطفياً كالتالي:

إنني هنا أعدك وعدا مقدسا أنه في غضون وقت قصير سأقف أمامك وأنا جدير بنفسي وبك - آه لو أنك - فقط - رايعت هذا الذي أعنيه، وهو أن أجد سعادتي في أساليب حب لم ترينها.. آه يا جوزفين الحبيبة إن رغبتى فيك ليست رغبة رجل في امرأة (ليست للجنس) وإنما رغبتى فيك أنت لشخصك، إنها فيك كلال متكامل، بكل صفاتك. إن هذا هو كل ما استحوذ على مشاعري نحوك، وكما ما يسترعي اهتمامي حيالك.. دعيني أمل أن يدق قلبك من أجلي، أما قلبي فلن يتوقف عن الدق حبا لك إلا إذا صمت للأبد ولم يعد يدق أبداً(23).

ويظهر أن الليدي كان لها تطلعات أخرى، فبعد ذلك بعامين كان بيتهوفن لا يزال يرنو للقيها والتقدم لها فلم تحبه وفي مارس 1781 أحب بالعمق نفسه مدام ماري بيجوت Marie Bigot، فاعترض زوجها. فأرسل بيتهوفن خطابا اعتذارا لها ولزوجها: عزيزتي ماري، عزيزي بيجوت. إن من مبادئ الأساسية ألا أدخل في أية علاقة - سوى علاقة الصداقة - مع زوجة رجل آخر(33).

وفي 41 مارس 1781 كتب إلى بارون فون جليشنشتاين Gleichenstein: الآن يمكنك مساعدتي بالبحث لي عن زوجة. حقيقة أنه يمكنك أن تجد بعض الفتيات الجميلات في فرايبورج Freiburg ربما يكن قد تنهدن لموسيقاي... إن وجدت واحدة منهن فمن فضلك اعقد رباطا بيني وبينها سلفا (لحين وصولي) - لكن لا بد أن تكون جميلة فمن غير الممكن أن أحب أي شيء غير جميل، وإلا لكنت قد أحببت نفسي(43). لكن يحتمل أن يكون هذا الخطاب أحد فكاهات (نكات) بيتهوفن.

وكان أمره مع تيريز مالفاتي Therese Malfatti أكثر جدية، وكانت هي الأخرى إحدى تلميذاته، وكانت ابنة طبيب مشهور. ويشير خطابه لها والمؤرخ في 8 مايو سنة 1811 أن حبه كان مقبولا منها. وفي 2 مايو أرسل بيتهوفن طلبا عاجلا إلى صديقه فيجلر - وكان وقتها في كوبلنز (كوبلنتس) - أن يذهب إلى بون ليستخرج له شهادة معمودية (التي يظهر فيها تاريخ الميلاد) لأنهم يقولون إنني أكبر سنا مما أنا عليه ونفذ فيجلر الطلب، لكن بيتهوفن لم يتابع الأمر، وفي شهر يوليو كتب ستيفان فون بروننج Bruning إلى فيجلر: أعتقد أن مشروع زواجه قد فشل، ولهذا السبب لم يعد يشعر برغبة في شكرك على ما بذلته من جهد لاستخراج هذه الشهادة. لقد ظل بيتهوفن حتى الأربعين من عمره يصر على أنه ولد في سنة 1771، بينما تشير شهادة المعمودية (التي يظهر فيها تاريخ الميلاد) أنه ولد في سنة 1771.

وبعد وفاته عثر على ثلاثة خطابات في درج مغلق، وكانت هذه الخطابات من بين أرق وأحر خطابات الحب التي عرفها التاريخ. لكنه لم يرسلها أبدا، ولم يذكر فيها اسما بعينه ولا عنوانا، فظلت خطابات غامضة.. الخطاب الأول يحمل تاريخ 6 يوليو صباحا، ويحكي عن قيامه (بيتهوفن) برحلة توافة إلى مكان غير محدد في المجر للقاء امرأة، وفيما يلي بعض عبارات هذا الخطاب:

يا ملاكي، يا كلي، يا نفسي (ياروحي).... أيمكن أن يصمد حينا إلا من خلال التضحيات - إلا بالكف عن طلب كل شيء - أيمكنك أن تغيريه فلا تكوني كلية لي، ولا أكون كلية لك - آه يا إلهي طالع جمال الطبيعة، ولتقر عينك بهذا الذي يجب أن يكون - الحب يحتاج لكل شيء - سنلتقي يقينا في وقت أوشك حينه.. قلبي مليء بالكثير الذي أودّ قوله لك. آه إن هناك لحظات أشعر فيها مع ذلك أن الكلام ليس شيئا (لا قيمة له)، فلتبق حقيقتي، وكزني الوحيد، وكلي (وكل كياني) تماما كما أنا بالنسبة لك فأنا حقيقتك وكزك الوحيد وكلك (روحك)...

والخطاب الثاني مختصر كثيرا وهو مؤرخ في مساء الأحد، 6 يوليو وينتهي كالتالي: آه يا إلهي، كم أنت قريب وكم أنت متعال! أليس حينا حقا صرحا سماويا - محكم كالقبة الزرقاء. أما الخطاب الثالث فنقرأ فيه مايلي:

صباح الخير - كتب في 7 يوليو رغم أنني في سريري إلا أن أفكاري تنطلق إليك يا حبي الخالد سعيدة طورا وحزينة طورا، في انتظار أن أعرف هل سيصغي لنا القدر أم لا. إن حياتي لا تكون كاملة إلا بك، فإما حياة أنت فيها بجانبتي وإما لا حياة - نعم لقد قررت أن أتجول طويلا بعيدا عنك حتى أستطيع أن أطير إلى ذراعيك، لأقول ساعتها إنني أصبحت حقا في بيتي، وأرسل روعي لتستقر فيك في عالم الأرواح... آه يا إلهي، لم كان ضروريا أن أفارق من أحب لتصبح حياتي في فينا بانسة؟.

لقد جعلني حبك في وقت من الأوقات أسعد الرجال وأتسهم - ففي مثل عمري أحتاج حياة ثابتة مستقرة.. كوني هادئة، فبالهدوء وحده يمكن أن نحقق هدفنا بالعيش معا - كوني هادئة - فلتحبيني - اليوم - الأمس - أشتاق إليك حتى البكاء - حياتي - كل كياني - وداعا - آه، وأصلي حبك لي - لا تنظمي قلب حبيبيك لودفيج وهو أكثر القلوب حبا لك. سأكون لك دوما. ستكونين دوما لي، سيكون كل منا للأخر دوما(53).

من هي؟ لا أحد يعرف. لقد انقسم مؤرخو حياته فمنهم من قال إنها الكونتيسة Guicciardi - Gdllenberg ومنهم من قال إنها الكونتيسة تيريز فون برونسفيج Therese von Brunswig، ولم يلحق أي كونتيسة منهما ضرر. من الواضح أن الليدي كانت متزوجة، وإن كان الأمر كذلك يكون بيتهوفن بتودده لها قد نسي المبدأ الممتاز الذي اعترف

به لآل بيجوت Bigots (والذي أشرنا إليه آنفاً). وعلى أية حال، فهو لم يرسل هذه الخطابات ولم يحدث ضرر لأي طرف من الأطراف وربما استفادت الموسيقى من هذا الحب.

صفحة رقم : 14706

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> بيتهوفن -> بيتهوفن وجوته

5- بيتهوفن وجوته (جيتة)

9081 - 2181

وفي سنة 9081 كانت النمسا - مرة أخرى - تخوض حرباً مع فرنسا. وفي شهر مايو كانت القذائف الفرنسية تدك فيينا، فهرب النبلاء ورجال البلاط، ولجأ بيتهوفن إلى قيو يحتمي به، واستسلمت فيينا وفرض المنتصرون ضرائب على طبقة العوام بلغت عشر دخولهم السنوية، وفرضت ثلث الدخول كضريبة على الأثرياء، ودفع بيتهوفن لكنه وهو آمن على البعد وجه لکمه للغال (الفرنسيين) وكتائبهم وصاح قائلاً: إذا أنا - كجنرال - أعرف عن الإستراتيجية، قدر معرفتي - كمؤلف موسيقي. عن تناسب الأنغام، لاقترح عليك شيئاً تفعله(63).

ومن ناحية أخرى، شهدت الفترة من 9081 إلى 5181 بيتهوفن وهو في حالة نفسية طيبة نسبياً. ففي هذه الأعوام كان غالباً ما يزور بيت فرانز (فرانتس) برينتانو Fraz Brentano التاجر الثري وراعي الفن والموسيقا، والذي كان يساعد بيتهوفن - أحياناً - بتقديم القروض له. وكانت زوجة فرانز (فرانتس) أنطوني - تعكف في غرفتها لمرضها فكان بيتهوفن - أكثر من مرة يتسلل إليها بهدوء ليعزف على البيانو ثم يغادر دون أن ينطق بكلمة واحدة، فقد كان حديثه إليها بلغة الموسيقى. وفي إحدى مرّات عزفه لها فوجئ وهو يعزف بيدين على كنفه فلما التقت لتبيّن الأمر وجد امرأة شابة (كانت وقتها في الخامسة والعشرين) جميلة، تتألق عيونها سروراً لعزفه بل ولغناؤه، لقد كان يعزف موسيقاه التي وضعها لقصيدة جوته (جيتة) الشهيرة عن إيطاليا (Kennst du das Land). لقد كانت هذه المرأة الجميلة هي إليزابث (بتينا Bettina) برينتانو أخت فرانز (فرانتس) وكليمنتس برينتانو الذي سنتناوله فيما بعد كمؤلف ألماني شهير، وهي نفسها أصبحت في وقت لاحق مؤلفة لعددٍ من الكتب الناجحة تُرّاجح فيها بين أدب السيرة الذاتية وأدب الرواية على نحو كان في ذلك الوقت سمة سائدة. إنها - أي هذه المؤلفة - هي مصدرنا الوحيد للقصة التي رويناها لتوتنا، كما أنها هي مصدرنا الوحيد للأحداث اللاحقة التي يظهر فيها أنها سمعت في حفلة في بيت فرانز (فرانتس) مناقشات بيتهوفن وفهمتها بعمق بل وروتها بنظام وأناقة كانا يُعوزان أحاديثه بشكل عام، وإن كان هذا النظام وتلك الأناقة يظهران أحياناً في خطاباتهما. وفي 82 مايو 0181 كتبت - بحماس - عنه (عن بيتهوفن) إلى جوته (جيتة) الذي لم تكن تعرفه من خلال علاقات الجوار مع أسرته في فرنكفورت فحسب وإنما وإنما من خلال زيارته في فيمار Weimar، وفيما يلي مقتطفات من خطابها الشهير هذا:

عندما رأيتُ من ساحتك عنه الآن، نسبتُ العالم كله.. إنه بيتهوفن الذي أود أن أحدثك عنه والذي جعلني أنسى العالم وأنسأك.. إنه يسير شامخاً في طليعة الحضارة البشرية.. هل سندركه أو نتخطاه أبداً؟ أشك في ذلك، لكن لنضمن أنه

يعيش حتى... يتطور السر الغامض الكامن في روحه تطوراً تاماً... ساعاتها فإنه بالتأكيد سيضع بين أيدينا مفتاح علمه السماوي (المقدس)...

لقد قال هو نفسه: عندما أفتح عيني لأبد أن أتهدد، لأن ما أراه يناقض ما في ديني، ولابد أن أحتقر العالم الذي لا يدري أن الموسيقى وحي أرقى من الحكمة والفلسفة. إنها النبيل الذي يوحى للمرء بعمليات تخليق وتوالد جديدة، وأنا عاصرُ النبيذ the Bacchus الذي يستخلص هذا النبيذ العظيم للبشر لأجلهم يثملون محلقين في عالم الروح... لا أخشى على موسيقي، فلن يكون مصيرها شراً، فهؤلاء الذين يفهمونها لابد أن تحررهم من كل البؤس الذي يوقع الآخرين في شباكه...

إن الموسيقى عوان بين الحياة الفكرية والحياة الحسية. كم أود أن أتحدث إلى جوته (جيتته) عن هذا - فهل سيفهمني؟ تحدثني إلى جوته عني... قولي له ليسمع سيمفونياتي وسيجد أنني مصيب في قولي إن الموسيقى هي المدخل الروحي الوحيد لعالم معرفي أسمى...

ونقلت بتينا Bettina إلى جوته (جيتته) هذه الأقوال المبهجة التي قالها بيتهوفن، وأضافت: أسعدني الآن برد عاجل يُظهر لبيتهوفن أنك تقدره وأجاب جوته بخطاب مؤرخ في 6 يونيو 0181: وصلني خطابك يا طفلي الحبيبة إلى قلبي في وقت سعيد. لقد تكبدت عناء كبيراً لتصور لي طبيعة عظيمة وجميلة في إنجازها وكفاحها... إنني لا أشعر برغبة في تكذيب ما استطعتُ الإمام به من انفجارك السريع (حماسك الشديد)، بل العكس إنني أفضل في الوقت الحاضر أن أوق بين طبيعتي وما أمكن تمييزه في أقوالك المتعددة الأوجه. فالعقل البشري العادي ربما يجد تناقضاً فيها، لكن قبل هذا القول الذي قاله شخص ملهم على هذا النحو، فإن الرجل العادي لابد أن يقف احتراماً له... فقدمي لبيتهوفن أحر التحيات وأخبريه أنني سأضحى بكل شيء للتعرف به... وبممكنك أن تحثيه للقيام برحلة إلى كارلسباد Karlsbad التي أذهب إليها كل عام تقريباً لأكون في الغاية من السعادة لسماع موسيقاه والتعلم منه(73).

ولم يستطع بيتهوفن أن يذهب إلى كارلسباد، لكن أكبر فنانين في ذلك العصر التقيا في تيبليتس Teplitz (منتجع في بوهيميا) في يوليو سنة 2181. وزار جوته الموسيقار بيتهوفن في مقر إقامته هناك وكتب انطباعاته الأولى في خطاب أرسله لزوجته: إنه أكثر من رأيتُ من الفنانين تحلقاً حول نفسه (أكثرهم ذاتية) وحيوية وإخلاصاً لفنه. إنني أستطيع أن أفهم جيداً كيف أصبحت نظرتي للعالم متفردة. إنها لابد أن تكون كذلك(83). وفي 12 و 32 يوليو قضى أمسيتين مع بيتهوفن الذي عزف ببهجة، وثمة قصة مألوفة عن مرّة سارا فيها معاً:

هناك أقبل نحوهما كل أفراد الحاشية وأميرة النمسا والدوقات، فقال بيتهوفن: (أمسك ذراعي لابد أن يُتبحوا لنا مكاناً، لا نحن الذين ننتج لهم مكاناً)، وكان لجوته رأي مختلف وأصبح الموقف محرراً له، فخلع ذراعه من ذراع بيتهوفن، واتخذ له مكاناً جانبياً وقد خلع قبعته (احتراماً) بينما ظل بيتهوفن طاوياً ذراعه وسار يميناً بين الدوقات ولم يخلع قبعته وإنما أمالها قليلاً، بينما تنحى الدوقات جانباً لإفساح الطريق له، وحيّوه جميعاً بسرور، وعند الطرف الآخر توقف منتظراً جوته (جيتته) الذي سمح للدوقات ورجال الحاشية بالمرور به وهو واقف وقد أحنى رأسه، فقال بيتهوفن حسناً لقد انتظرتُ لأنني أكن لك التقدير والاحترام الجديرين بك، لكنك جعلت هؤلاء الواقفين هناك في مكانة أعلى بكثير(93).

تلك هي رواية بيتهوفن على وفق ما ذكرته بتينا Bettina التي أضافت قائلة: وبعد ذلك أتانا بيتهوفن سعيماً وأخبرنا بكل شيء وليس لدينا رواية بشأن هذه الواقعة عن جوته، وربما كان علينا أن نتشكك نحن بدورنا في هذه القصة التي اختلف الراون وتضاربوا في تفاصيلها، ذلك أن جوته عندما عبّر عن غيظه لقطع الحوار بينه وبين بيتهوفن بكثرة التحيات، أجابه بيتهوفن قائلاً: لا تدعهم يسببون لسعادتكم إزعاجاً، فربما كانت هذه التحيات موجهة لي(04).

قد تكون الرواية مشكوكاً فيها، وقد تكون صحيحة، وفي كلا الروايتين وجدنا من يجعلها متسعة مع بعض التعبيرات التي ذكرها كل من العيقرين في معرض تلخيص مقابلاته، وفي 9 أغسطس كتب بيتهوفن إلى ناشريه في ليبزج (ليبسيغ) - برتكروپف Bretkropf و هارتل Hartel: جوته مغرم غراماً شديد بأجواء البلاط أكثر من غرامه بأنه شاعر. وفي 2 سبتمبر كتب جوته لكارل زلتر (تسلتر):

لقد تعرفت على بيتهوفن في تيبليتس Teplitz. إن موهبته أذهلتني. لكنه لسوء الحظ ذو شخصية غير أليفة بالمرّة ليس فقط لنظراته الخاطئة للعالم، فهو يمقت ما حوله وإنما أيضاً لأنه لم يعمل على جعل هذا العالم مبهجاً له أو للآخرين. ومن ناحية أخرى فإنه رجل يمكن أن نسامحه وهو جدير تماماً بذلك فهو يدعو للشفقة فهو يفقد سمعه، وربما يشوّه هذا الجانب الموسيقي في طبيعته أكثر مما يسبب له مشاكل اجتماعية. إنه ذو طبيعة مقتضية لا يجب الإطناب، وربما ضاعف اعتلال سمعه من ميله للإيجاز (عدم الإفراط في الكلام)(14).

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> بيتهوفن -> الانتصارات الأخيرة

6- الانتصارات الأخيرة

1181 - 4281

أينما ذهب، ألف الموسيقا، ففي سنة 1181 وضع المجموعة الموسيقية 79 في شكلها الأخير (Opus) in B Flat (97) وهي ثلاثية للبيان والفيولين (الكمان) والفيولونسيل Violoncello وأهداها إلى الأرشدوق رودلف، حملت اسمه. وهي المجموعة الأكثر بهجة ووضوحاً من بين أعماله إذ لا يعترها الاضطراب إلا في أضيق الحدود، وهي متناسقة فيها تكامل عضوي يُضفي عليها الجمال الكلاسي والمهابة. وكان ظهوره لأول مرة كمؤدٍ (عازف) على البيان عند تقديمه لهذا العمل الكلاسي في أبريل سنة 4181. لقد كان الآن (عند أداء هذا العمل) وقد بلغ به الصمم حداً يجعله يفقد الحكم الصائب على صحة الضرب على مفاتيح البيان، فبعض الأصوات الصارخة (الفورتيسمي Fortissimi) كانت تخفت منه، وبعض الأصوات الواهنة (البياييسيبي Pianissimi) كانت تتلاشى منه وتصبح غير مسموعة.

وفي مايو سنة 2181 بينما كان نابليون يسوق نصف مليون مقاتل إلى الموت في روسيا، أصدر بيتهوفن سيمفونيته السابعة التي قلما عزفها العازفون، وهي تبدو الآن أفضل من سيمفونيته الخامسة والسادسة. هنا (في السيمفونية السابعة) نجد ألقانا حزينة جنازية مُعتمة لضياح العظمة وتحطم الآمال، وهنا أيضاً حنين، وهنا حزن لضياح الحب الباقي، وهنا تساؤل حول السلام ومحاولة للفهم. وكما كان مارش March الجنائزي مقدمة موسيقية عفوية (غير مقصودة) لهزيمة نابليون في موسكو فإن عرضه (أداءه) للمرة الأولى في 8 ديسمبر 3181 كان مزامناً لانهايار قوات نابليون في ألمانيا وأسبانيا. وقد أسعد الاستقبال الحماسي الذي لقيته هذه السيمفونية المتشائم العجوز (بيتهوفن) الذي استمر في إنتاج أعمال خالدة التي لا بد أن نعتبرها بالنسبة إليه كأعمال كيثس Keats في الجرة الإغريقية Grecian Urn: أغان بسيطة بلا نغم.

ولم يستقبل مستعمو الموسيقا سيمفونيته الثامنة استقبالاً حسناً كسابقتها، وكان قد كتبها في أكتوبر سنة 2181. واسترخى الاستاذ وقرر ألا يعكف على الأعمال ثقيلة الوطأة، ولم يتوافق تمام الموافقة مع مزاج أمةٍ ترقب مصيرها (قدرها) يوماً وهو معلق على نتائج الحرب، وإنما كان من رأيه أن نبتهج الآن. لقد عكف على بندول الإيقاع (الميترونوم metronome) والسيرزاندو المرح المتبختر Scherzando، لقد كان هذا إبداعاً جديداً عامراً بالمرح والفكاهة.

وكانت أكثر تأليف بيتهوفن الموسيقية نجاحاً هي مقطوعة (Die Schlacht von Vittoria) التي عزفت في فينا في 8 ديسمبر 3081 احتفاءً بالمعركة التي استطاع فيها ولنجتون Wellington تدمير القوة الفرنسية في إسبانيا. لقد فرحت فينا أخيراً بوصول هذه الأخبار إليها فلطالما كانت مُحبطة لما يبدو من أن هذا الكورسيكي (نابليون) لا يُقهر. والآن أصبح بيتهوفن بالفعل شهيراً في المدينة التي تبنته (فيينا). لقد كان موضوع هذه المقطوعة وما حققته من نجاح سبباً في جعل بيتهوفن معروفاً ومشهوراً لدى أصحاب الجلالة والفخامة والسمو الذين حضروا مؤتمر فينا

المعروف. وانتهاز بيتهوفن الفرصة لينظم حفلاً موسيقياً لصالحه فقدم له البلاط الإمبراطوري - انتشاء بالنصر - قاعته الواسعة (الريدوتنسال Redoutensaal)، وأرسل بيتهوفن دعوات شخصية لأصحاب المقام الجليل ممن حضروا المؤتمر، فحضر ستة آلاف شخص، فأصبح نابليون ثرياً قادراً على ادخار مبلغ كبير لتأمين مستقبله ومستقبل ابن أخيه.

وفي 11 نوفمبر سنة 5181 مات أخوه كارل Karl بعد أن ورث (بوصية) مبلغاً بسيطاً لأخيه لودفيج (بيتهوفن)، كما عينه (أي عين أخاه لودفيج بيتهوفن) وأرملته وصيين على ابنه كارل ذي الثمانية أعوام. وواصل بيتهوفن في الفترة من 5181 إلى 6281 في الأوساط الأدبية وفي المحاكم نضاله الذي راح يذوي شيئاً فشيئاً مع تيريزا أرملته أخيه للحصول على رعاية ابن أخيه كارل وتنشئته وتعليمه، وكانت تيريزا قد قدمت لكارل الكبير دوتة Dowrg ومنزلاً، لكنها كانت قد غرقت في إثم الزنا، وكانت قد اعترفت لزوجها بأنها زنت فسامحها، لكن بيتهوفن لم يسامحها أبداً لارتكابها فاحشة الزنا، واعتبرها غير جديرة برعاية ابن أخيه (واسمه أيضاً كارل) ولن نتنبع تفاصيل هذه القصة بجزئياتها القذرة. وفي سنة 6281 حاول كارل (ابن أخي بيتهوفن) الانتحار بسبب تمزقه بين أمه (الزانية) وعمه (الموسيقيار بيتهوفن) لكن أحواله صلحت أخيراً فالتحق بالجيش وراح يرعى أموره بشكل طيب.

ومع سنة 7181 كان بيتهوفن في المرحلة الأخيرة من حياته الإبداعية. لقد ظل بيتهوفن لفترة طويلة ثائراً في سياساته الخاصة، أما الآن فقد أعلن هذه الثورة ضد القواعد الكلاسية ورحب بالحركة الرومانسية في الموسيقى، وخفف من وطأة البناء الكلاسي في السوناتا والسيمفونية لينطلق بها إلى رحاب العاطفة والتعبير عن الذات. لقد تأثر بيتهوفن بشيء من الروح المتمردة الحماسية التي كانت في فرنسا من خلال كتابات روسو وأحداث الثورة الفرنسية، والتي كانت في ألمانيا خلال فترة الغليان Sturm und Drag في كتابات جوته (جيبته) (فيرتر ليدن Werthers Leiden) والشاب شيلر Schiller (دي راوبرت Die Raubert) ومن ثم في قصائد نيك Tieck ونوفاليس Noivalis، وفي الكتابات النثرية لشليجل Schlegels، وفي الكتابات الفلسفية لفيشة Fichte وشلنج Schelling لقد وصل شيء من هذا كله لبيتهوفن فوجد تربة خصبة في نزوعه الفطري للاتجاه العاطفي وتميزه الفردي الفخور. لقد زوت قيود النظام القديم في الفن، كما زوت في القانون والمعاهدات، مخلية السبيل أمام الحرية الفردية المصممة على شق طريقها ضاربة عرض الحائط بالقواعد والقيود والأشكال القديمة. لقد سخر بيتهوفن من الجمهور كسوام ومن النبلاء كمدعين. لقد هزأ من المعاهدات والاتفاقات باعتبارها بعيدة أولاً صلة لها بالإبداع الفني ورفض أن يكون حبيس القوالب التي لا تليق إلا بالأموال، بل وحتى تلك التي كانت تليق بباخ Bach وهاندل Handel وهايدين Haydn وموزارت وجك Gluck. لقد أحدث ثورته الخاصة بل وحتى إرهابه Terror الخاص، وجعل مقطوعة أغنية فرحة Ode to Joy إعلاناً للاستقلال حتى في توقعه للموت.

لقد شكلت سوناتاته الصارخة (الهمركلافير Hammerklavier) جسراً بين مرحلته الفنية الثانية، ومرحلته الثالثة. حتى اسمها كان ثورة. وقد اقترح بعض التوتون Teutons الذين سُموا هيمنة اللغة الإيطالية في الاقتصاد والموسيقا، استخدام اللغة (المقصود المصطلحات) الألمانية بدلاً من الإيطالية في النوت الموسيقية والآلات الموسيقية، وعلى هذا كان من رأيهم ضرورة أن يستبدل الموسيقيون بمصطلح منخفض Low وعال Strong المصطلح الألماني همركلافير Hammerklavier مادام النغم ينتج بالطرق الخفيف على الأوتار (بواسطة مفاتيح البيان بطبيعة الحال) وقبل بيتهوفن الفكرة بالفعل وكتب إلى صانع الآلات الموسيقية سيجمون شتينر Sigmund Steiner في 31 يناير 7181 بدلاً من مصطلح Pianoforte اكتب همركلافير Hammerklavier فهذا سيجعل الأمر مستقراً إلى الأبد وللجميع (24).

وكانت السوناتا الثانية (in B Flat 106Opes) في مجموعة سوناتاته الصارخة (الهمركلافير) هي الأكثر لفتاً للنظر. كتبها في عامي 8181 و 9181 باعتبارها السوناتا الكبيرة للهمركلافير Grosse Santa fur das Hammerklavier وأخبر زيرني (تسيرني) Czerny أنها ستظل أعظم مقطوعاته الموسيقية التي ألفها للبيان وأكد عازفو البيان في الأجيال المتعاقبة ذلك. وأنها تبدو معبرة عن استسلام بيتهوفن، ومع هذا فإنها تمثل انتصار الفن على اليأس. إنها أكثر من هذا فهي رفض للجزع والكآبة حتى إن بيتهوفن أتم بعدها سيمفونيته التاسعة. لقد بدأ في تأليفها في سنة 8181 في الوقت نفسه الذي يكتب فيه أيضاً عمله (Missa Solemnis) الذي كان يعد ليتم أداءه بمناسبة تنصيب (ترسيم) الأرشودوق ردولف رئيساً لأساقفة أولموتس Olmutz، وانتهى من موسيقا القداس أولاً (قداس Missa Solemnis) وكان ذلك في سنة 3281 وبذلك تأخر عن ميعاد الترسيم (التنصيب) ثلاث سنوات.

ورغبة من بيتهوفن في إضافة القليل (من المال) لما لديه ليكون مفزاً له في الشيخوخة، وليوصي منه لابن أخيه كارل - فكر في بيع اشتراكات في نسخ من موسيقا قداسه الأنف ذكره قبل نشرها، وأرسل دعوى بهذا الصدد لملوك أوروبا وحكامها طالباً من كل منهم خمسين دوكانت ذهباً (34). وأنته الموافقة ببطء، لكن في سنة 5281 أنته عشرة ردود: من حكام روسيا وبروسيا وفرنسا وسكسونيا وتوسكانيا، وأمراء جوليتسين Golitsyn وراذ زيفيل

Radziwill ومن جمعية في فرانكفورت (هي جمعية Caecilia Association og Frankfort) وموسيقا القداس التي نتحدث عنها (Missa Solemnis) طال تدبره فيها قبل إخراجها للناس، واتسمت بغرابة بدائل شكلها النهائي، فكانت تلقى القبول بشكل عام. وليس فيها أثر لهرطقاته التي كانت تظهر في بعض المناسبات والتي شككت في عقيدته الكاثوليكية الموروثة، فكل نبضة في هذه الليتورجية (موسيقا القداس) تتفق مع موسيقا الكونكوردات (موسيقا التوافق مع الكنيسة الكاثوليكية) ومن خلال نغماتها كلها يمكن أن نسمع عقيدة يائسة لرجل يموت. لقد كتب في مستهل بيان عقيدته في مخطوطة قطعته الموسيقية: الله فوق الجميع - الله لم يتخل أبداً عني (44) لقد كانت موسيقاه في موسيقا القداس هذه تعبيراً قويا جدا عن التواضع المسيحي لكن التركيز الشديد على كل جزء وفقرة، ومايساند ذلك كله من جلال وفخامة جعلت هذه المقطوعة الموسيقية (Missa Solemnis) أضحية أخيرة ومناسبة لروح حائرة لله الذي لايسبر أغواره أحد incomprehensible وفي فبراير سنة 4281 أكمل سيمفونيته التاسعة التي ناضل فيها ليحبر عن فلسفته الأخيرة - أن يقبل الإنسان قدره بسعادة - وليكسر كل قيود النظام الكلاسي (في التأليف الموسيقي) ومضى الملك المتهور تاركا كبريائه لتقوده لابتهاج كاسح للتضحية بالنظام الموسيقي القديم حتى الجيد منه للحرية الشابة الجيدة (أيضا). لقد اخفتت عن مسامع السامعين إلا سمعه الباطني (السري) أو بتعبير آخر إلا من ذوي النغمات في أعماقه كل المذابح altars المتناثرة التي كان عليه أن يختار منها والتي كان يجب أن تقف شامخة كالأعمدة التي تحمل الصرح. لقد بدت الفقرات الموسيقية مفرطة في التكرار والإصرار، وفي بعض السياقات كانت تظهر لحظة من الرقة أو الهدوء ومن ثم ينطلق النغم الصارخ (الفورتيسيمو fortissimo) وكأنما ينبه عالما مجنوننا غير مستجيب. لكن الدارس العظيم للموسيقا لا يرى الأمر كذلك، وإنما يرى في هذه الوفرة الموسيقية وهذا الثراء الموسيقي بساطة في الشكل لا حد لها، وإتقاناً للتفاصيل الموسيقية التي قد تبدو لأول وهلة مربكة حتى نتحقق أنها متسقة مع نتائجها المنطقية... (54).

وربما ألقى الأستاذ (بيتهوفن) بشكل غير معلن الجهود الكلاسيكية ليقدّم لنا شكلاً موسيقياً خالداً (دائماً) لمعنى محجوب أو جمال هائل (لا حد له). لقد اعترف باستسلامه وراح يمرح في ثروته غير النظامية - ثروة خياله ومناخه منه السخية. وفي النهاية عاد أسير تحديات الشباب، وادخر للموسيقا أغنية شيلر Schiller التي لم تكن - حقيقة - مجرد أغنية مرحة، وإنما كانت حرباً مرحة سعيدة ضد الحكم المطلق وضد البعد عن القيم الإنسانية:

- واجهوا الملوك بأرواح ملؤها الرجولة
- حتى لو كلفنا هذا ثرواتنا وأرواحنا
- ففي دمار التيجان حياة لما هو أجدر
- الموت لهم جميعاً - إنهم ذوو دماء كاذبة
(أويسري لكذب فيها)

لقد راح بيتهوفن الآن بعد اكتمال أعماله الكبرى ووصوله لأوج اكتمال فنه الموسيقي يتطلع إلى فرصة لتقديمها للجمهور، لكن روسيني Rossini كان قد فتن النمسا في سنة 3281 بالإضافة إلى أن متذوق الموسيقا البنادقة أصبحوا الآن مفتونين بالأنغام الإيطالية فأحجم مديرو الفرق الموسيقية المحليون عن المخاطرة بتقديم عمليتين موسيقيين يتسمان بالصعوبة مثل موسيقا القداس التي أسماها بيتهوفن (Missa Solemnis)، والسيمفونية الكورالية. وعرض منتج من برلين على بيتهوفن تقديمها فأوشك على قبول العرض، إلا أن مجموعة من عشاق الموسيقا على رأسها أسرة ليشنوفسكي Lichnowsky حذرت مؤلف فينا الموسيقي البارز من اللجوء إلى عاصمة منافسة لفينا لعزف آخر أعماله وأكثرها بهاء، وتعهدت بعزفها على مسرح كير ننتيرثور Karntnerthor، ويعد مساومات شاقّة من كل الأطراف تحدد ميعاد الحفل الموسيقي في 7 مايو 4281 ببرنامج ثم تكييفه على وفق المتاح من الإمكانيات: مستهل موسيقي، وأربعة أجزاء من موسيقا القداس Missa Solemnis والسيمفونية التاسعة مع كورس ألماني جهير، ولم يستطع المغنون الوصول إلى المستوى المرتفع للنوتة الموسيقية، فحذفوا ما لم يستطيعوا أداءه (64)، واستقبل الجمهور موسيقا القداس استقبالا وقورا، أما السيمفونية التاسعة فأثارت إعجابا حماسيا. وكان بيتهوفن يقف على المسرح وظهره للجمهور، ولم يكن يستطيع سماع التصفيق، فكان عليه أن يدير وجهه للجمهور ليراه (التصفيق) رأي العين (74).

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> بيتهوفن -> انتهت الملهاة (كوميديا فينيستا)

7- انتهت الملهاة (كوميديا فينيستا)

7281 - 4281

لقد تشاجر بيتهوفن مع شيندلر Schindler وأصدقاء آخرين بسبب المبلغ القليل (024 فلورين) الذي تلقاه من عوائد الحفل الموسيقي البالغ 2،002 فلورين. لقد اتهمهم ببخس حقه، فتركوه وحيداً، ولم يكن يتردد عليه إلا ابن أخيه في المناسبات، وقد كانت محاولة ابن الأخ هذا الانتحار في سنة 6281 مما ضاعف أحران بيتهوفن فطرح به كيل الحزن، وفي هذه الأعوام كتب بيتهوفن آخر خمسة كارتينات quartets من كارتيناته البالغة ستة عشر كارتيتاً (الكارتيت قطعة موسيقية تعزفها أربع آلات) وبدأ تأليفه لهذه الكارتينات في سنة 3281 عندما عرض الأمير نيكولاي جوليتسين Nikolai Golitsyn أن يدفع أي مبلغ مقابل كارتيت واحد أو كارتيتين أو ثلاثة تهدي إليه، ووافق بيتهوفن أن يأخذ لقاء كل كارتيت خمسين دوكانت (الكارتيت لحن موسيقي تعزفه أربع آلات). وهذه الكارتينات الثلاثة تحمل الأرقام التالية (127opp, 130 & 132) أما العمالان اللذان يحملان أرقام (131Opp. & 135) فهما الكارتيتان النهائيان اللذان اتسمت موسيقاهما بالغموض الباطني والغراية مما ضمن لهما الشهرة. وتم عزف الكارتيت رقم 031 بشكل خاص في سنة 6281 فجاهر المستمعون باستحسانهم إياه وبهجته به إلا أن العازفين وجدوا الحركة الرابعة فيه صعبة الأداء، فأعاد بيتهوفن كتابة هذه الحركة الأخيرة بشكل أبسط. وهذه الحركة التي كان قد تم رفضها يتم عزفها الآن في المجموعة اللحنية 331 Opus, Grosse Fugue, 133 إذ فسرها أحد دارسي بيتهوفن بأنها تعبر عن فلسفته النهائية: الحياة والحقيقة تكونان نقبضين لايفصلان - الخير والشر، والفرح والتعاسة، والصحة والمرض، المولد والوفاة، ولا بد أن تتكيف الحكمة مع هذا، فهذا هو جوهر الحياة الذي لا مناص منه. وأعظم هذه الكارتينات في نظر بيتهوفن، هي رقم 131 (inCSharp Minor) وقد انتهى من تأليفها في 7 أغسطس 6281، وقد حظي هذا الكارتيت بثناء المستحقين والنقاد أكثر مما حظيت به الكارتينات الأخرى. لقد قيل أن في هذا الكارتيت نظرة باطنية (صوفية) معروضة بشكل تام (84) وقال السامعون لها مؤخراً أنها تبدو كعويل غامض، وأنين مرير لحيوان أصيب بجرح مميت. وآخر الكارتيت الخامس (135Opus) يطرح سؤالاً في حركته الأخيرة: أكان هذا ضرورياً؟ (Muss es Sein?) وكانت الإجابة: نعم Es muss Sein.

وفي 2 ديسمبر سنة 6281 أصيب بيتهوفن بسعال حاد فاستدعى طبيبياً، فرفض طبيبان من أطبائه الذين سبق أن عالجه - الحضور إليه (94) وأتى إليه الطبيب الثالث فافروخ Wawruch وشخص حالته بأنه مصاب بداء الرئة (نويمونيا Pneumonia) وعكف بيتهوفن في سريره وأتى أخوه جوهان Johann لرعايته، وغادر ابن أخيه كارل بناءً على استدعاء الجيش له، فباركه بيتهوفن (دعا له أن تصحبه السلامة)، وفي 11 يناير انضم الدكتور (الطبيب) مالفاتي Malfatti إلى الطبيب فافروخ لعلاج بيتهوفن، فوصف تناول المريض شراب البنش المجدد (البنش شراب مسكر به كحول وليمون وأعشاب أخرى) لمساعدته على النوم، فحسن بيتهوفن من مذاقه بإضافة الكحول المقطر لقد أساء استخدام الوصفة الطبية (05) فتقاوم الاستسقاء Dropsy واليرقان Jaundice، ولم يستطع التبول فتراكم البول في جسمه، وتم سحب البول من جسمه مرتين فقارن نفسه بنبع ماء حار.

ورغم مرضه فقد قرر ألا ينفق من أسهمه البنكية (التي بلغت قيمتها الإجمالية عشرة آلاف فلورين) لأنه ادخرها لابن أخيه كارل، والآن فقد كان مضطراً لكثرة النفقات فكتب إلى السير جورج سمارت Smart في لندن في 6 مارس

:7281

ماذا سيحدث لي؟ هل سأعيش حتى أستعيد قوتي وأستطيع أن أكسب عيشي مرة أخرى عن طريق قلبي؟ أتوسل إليك أن تستخدم كل نفوذك لحث جمعية عشاق الموسيقى لتنفيذ قرارها الذي اتخذته في وقت سابق بإقامة حفل موسيقي لصالحي. ولا تساعدني صحي على أن أقول المزيد (15). وأرسلت له الجمعية مائة جنيه مقدمة لعوائد الحفل الموسيقي المقترح.

وفي 61 مارس اتفق الأطباء على أن بيتهوفن لم يبق بينه وبين الموت وقت طويل، فطلبوا منه - وكذلك طلب أخوه جوهان (يوهان) أن يوافق على استدعاء قس، فوافق. إذ يبدو أنه نسي الآن ملاحظاته للرب في خطاب أرسله في 41 مارس يذكر أنه، يقبل كل ما تقره حكمة الله سبحانه (25) وفي 32 مارس تلقى أسرار المسيحية المقدسة Sacrament لأخر مرة، ويظهر أنه قبلها بمزاج مرحب، وقد ذكر أخوه في وقت لاحق أن الرجل المحتضر (بيتهوفن) قال له: شكراً على هذه الخدمة الأخيرة (35)، وقال بيتهوفن لصديقه شيندلر Schindler وهو يحتضر بعد انتهاء الطقوس الدينية (تلقين أسرار المسيحية): كوميديا فينيتا أي لقد انتهت الملهاة أو المهزلة وهو لا يقصد غالباً الطقوس الدينية وإنما الحياة نفسها (45)، وكانت هذه العبارة (كوميديا فينيتا) تستخدم في المسرح الروماني الكلاسي لإعلان نهاية المسرحية.

لقد أسلم بيتهوفن الروح في 62 مارس 7281 بعد ثلاثة أشهر من المعاناة، وقبل لحظات قليلة من إسلامه الروح غمر الغرفة ضوء أضاء الغرفة أعقبها رعد شديد، فرجع بيتهوفن ذراعاً اليمنى ووجه قبضته (لكمته) إلى شيء ما، يبدو أنه وجهها للعاصفة، وبعدها مباشرة انتهت ألامه (حياته) ولن نعرف أبداً ما تعنيه هذه الإيماءة الأخيرة (توجيهه لكمة إلى شيء ما).

وأظهر فحص جثته اضطرابات داخلية معقدة هي التي كانت سؤدت حياته ومزاجه. لقد كان كبده متقلصة سقيمة. وكانت شرايين أذنيه قد سدتها جزئيات دهنية كما كان العصب السمعي تالفاً. إن آلام الرأس وغسر الهضم والمغص واليرقان - تلك الأمراض التي كان يشكوها منها باستمرار، بالإضافة إلى الإحباط العميق الذي يُفسر ما ورد في كثير من خطابات - كل هذا كان نتيجة طبيعية لالتهاب الكبد المزمن وعسر الهضم (55). وربما كان حبه للمشي والهواء الطلق قد خفقا من ألامه، وأتاحا له ساعات في حياته لا يعاني فيها ألماً.

وحضر جنازته ثلاثون ألفاً، وكان هميل Hummel عازف البيان، وكروتسر Kreutzer عازف الفيولين من بين حاملي بساط الرحمة في جنازته، وكان شوبرت Schubert وزيرني Czerny وجريلبارتسر Grillparzer من بين حاملي المشاعل فيها (في جنازته)، ولم يُكتب على شاهد قبره سوى الاسم بيتهوفن، وتاريخ ميلاده وتاريخ وفاته.

صفحة رقم : 14709

قصة الحضارة - < عصر نابليون - < ملوك أوروبا في مواجهة التحدي - < ألمانيا ونابليون - < الإمبراطورية الرومانية المقدسة

الفصل التاسع والعشرون

ألمانيا ونابليون

يرى هينرش فون تريبتشكه Heinrich Von Treitschke، وهو بروسي وطني متحمس لروسيا، ومع ذلك فهو مؤرخ عظيم (لم تبعده وطنيته عن النظرة الموضوعية اللازمة للمؤرخ) أنه: لم يحدث أبداً منذ أيام لوثر Luther أن أصبحت ألمانيا في هذه المكانة المرموقة في أوروبا كما هي عليه الآن (0081) حيث أصبح أعظم أبطال العصر وأعظم شعرائه من أمتنا (ألمانيا) (1).

قد نصّف فريديريك Frederick كمننصر في درجة أدنى من نابليون، ولكن الذي لا شك فيه أن السّناء المنبعث من جوته (جيتيه) Goethe وشيلر Schiller كان لا يُضارعه سناء في مضممار الشعر والنثر من أدنبره (إدينبورج Edinburgh) إلى روما. وقد اهتز العقل الأوروبي من لندن إلى سان بطرسبرج St. Petersburg بفكر الفلاسفة الألمان من كانط Kant ومروراً بفيتشه Fichte وشيلنج Shelling وهيجل إلى شوبنهور Schopenhauer. لقد كانت ألمانيا تشهد عصر نهضتها الثاني Second Renaissance.

لقد كانت ألمانيا - مثل إيطاليا في القرن السادس عشر - ليست أمة إن كان المقصود بالأمة مجموعة من الناس يعيشون في ظل قوانين واحدة وحكومة واحدة. لقد كانت ألمانيا في سنة 0081 سلسلة غير محكمة (غير متماسكة) من نحو 052 دولة لكل منها قوانينها الخاصة وضرائبها الخاصة، وكثير من هذه الدول كان لكل منها جيشها الخاص، وعملتها الخاصة، ودينها الخاص بل وعاداتها الخاصة ولباسها، وكان بعضها يتحدث لغة (ألمانية) غير مفهومة لنصف العالم الألماني. إلا أن اللغة الألمانية المكتوبة كانت على أية حال لغة واحدة مما أتاح لكتاب ألمانيا قرأاً من ثلث القارة الأوروبية.

ويجب أن ننوه في هذا الصدد أن الاستقلال النسبي لهذه الدول الفردي كان يسمح باختلاف الأشكال والأنماط، ويُثير المنافسة، وينتج حرية التجريب والتفكير بقدر قد يفوق ما هو موجود في عاصمة مركزية لدولة كبيرة. لقد كان الوضع بالنسبة إلى هذه الولايات الألمانية في هذه الفترة شبيهاً بما كان في إيطاليا في عصر النهضة (الرينيسانس). ألم تكن مدن ألمانيا القديمة - التي كانت لاتزال متفردة على هذا النحو الجذاب، لتفقد حيويتها وطبيعتها إذا ما تم إلحاقها ببرلين سياسياً وثقافياً، كما حدث بالنسبة لمدن فرنسا عندما أصبحت تابعة لباريس؟ وهل لو كونت كل أجزاء ألمانيا كياناً واحداً مشكّلة أمة موحدة - صارت قلباً لأوروبا غنياً بالسكان والمواد بيزّ كل ما بقي من أوروبا على نحو لا يُقاوم؟ لقد كانت الدول الألمانية بمعنى واحد ناقصة الاستقلال: لقد قبلت هذه الدول أن تكون أعضاء في الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت قد بدأت - أي هذه الإمبراطورية - في سنة 008 بتتويج البابا لشارلمان الذي يشير إليه الألمان بأنه their own Frankish Karl der Grosse، وكان أهم هذه الدول الألمانية المكوّنة للإمبراطورية الرومانية المقدسة هي تسعة دول ناخبة electoral أي دول تنتخب الإمبراطور: النمسا، وروسيا، وبافاريا،

وسكسونيا، وبرونزفيك - لوينبورج Brunswick - Luneburg، وكولوني Cologne ومينز (مينتس) Mainz وهانوفر وتريير (تريفز Treves)، ويأتي في المقام الثاني سبعة وعشرون كياناً ذو طابع روحي أو ديني Spiritual Lands يحكم كل منها أسقف (مطران) كاثوليكي على نحو يذكّر بالحكم الأسقفي للمدن في الإمبراطورية الرومانية الغربية التي انتهت منذ ألف عام، وهذه الكيانات الروحية (ذوات الصبغة الدينية) هي: أرشيبشوبية سالزبورج (سالنتسبورج) Sazburg (لفظ الأرشيبشوب يعني كبير الأساقفة - والأرشيبشوبية هي مقر كبير الأساقفة) وفي سالزبورج هذه عاشر موزارت. أما الأسقفيات (حيث في كل منها أسقف بيشوب) فهي: مينستر Munster وليج

Lige وفيرتسبورج Wurzburg وبامبرج Bamberg وأوسنابروك Osnabruck وبادر بورن Paderborn وأوجسبرج Augsburg وهايلدشيم Hildesheim وفولدا Fulda وسبير Speyer وريجنسبرج Regensburg (راتيسبورن Ratisborn) وكونستانس Constance وفورمز Worms ولوبك Lubeck... وكان هناك أمراء علمانيون (غير إكلييريكيين) يحكمون سبعة وثلاثين دولة، بما فيها هس - كاسل Hesse - Cassel وهيس دارمشتادت Hesse - Darmstadt وهولشتين Holstein وفيرتمبرج Wurtemberg (مع شتوتجارت Stuttgart) وساشن (زاخن) Sachsen (ساكس - Saxe) فيمار Weimar (وكان بها جوتة) وساشن جوتا Sachsen - Gotha (وكان فيها الدوق إرنست الثاني - المستبد المتتور) وبراونشفيج فولنبوتل Braunschweig Walfenbittel (براونشفيج نُكتب أيضاً برونسفيك Brunswick) وبادن (Baden - With Baden Karlsruhe) وكانت هناك خمسون مدينة حرّة (رايخشتادت Reichstade) كانت كذلك زمن الإمبراطورية: هامبورج وكولوني، وفرانكفورت - أم - مين Frankfurt. am. Main وبريمن Bremen وفورمز (فورمز Worms) وسبير Speyer ونورمبرج Nuremberg (نكتب أيضاً Nurnberg نورنبرج) وأولم Ulm... و من كل تلك الكيانات الألمانية وغيرها كان يأتي الناخبون Electors (أو الفرسان الإمبراطوريون) وغيرهم من الممثلين إلى الرايخستاج Reichstag أو الدايت الإمبراطوري Imperial Diet الذي يجتمع في ريجنسبورج Regensburg بدعوة من إمبراطورهم (إمبراطور كل هذه الكيانات أي إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة). وفي سنة 2971 اختار الناخبون Electors (الناخب بالمفهوم الذي شرحناه آنفاً أكثر من مرة) فرانسييس الثاني النمساوي إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة وتوجّه في حفل تتويج فخم اتسم بالإسراف الشديد، فغصّت فرانكفورت - أم - مين بالنبلاء وذوي المكانة من مختلف أنحاء ألمانيا. وكان فرانسييس الثاني هو الأخير في سلسلة طويلة من أباطرة هذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وبحلول عام 0081 فقدت هذه المؤسسة (الإمبراطورية) - التي كانت يوماً ما مؤثرة ومفيدة بشكل عام - فقدت تقريباً كل فعاليتها وفائدتها. لقد أصبحت أثراً من آثار النظام الإقطاعي. لقد كانت كل قطعة segment (لنقل قرية أو عزبة) يحكمها سيد (لورد) إداري manorial lord (لنقل عمدة فهو أقرب للمفهوم العربي) تابع لسلطة مركزية في المدينة، إلا أن هذه السلطة المركزية اعترها الضعف بسبب ازدياد عدد سكان هذه الوحدات وزيادة ثروتها وقوتها العسكرية، وانتحائها نحواً علمانياً أما الوحدة الدينية في هذه الإمبراطورية المقدسة فكانت قد انتهت بظهور حركة الإصلاح الديني (الحركة البروتستنتية) وحرب الثلاثين عاماً، وحرب السنوات السبع 6571 - 3671. فكان شمال ألمانيا في سنة 0081 على المذهب البروتستنتي بينما كان جنوب ألمانيا على الكاثوليكية أما غرب ألمانيا فتخلّى عن شيء من تدينه نتيجة حركة التنوير الفرنسية، التنوير Aufkarung الذي انتشر على يد الكاتب المسرحي الألماني ليسنج Lessing. وكلما مالت شمس الدين للأفول، ازدهرت الروح الوطنية على نحو قل أم أكثر، فإن عقيدة ما (سياسية أو اجتماعية) كان لابد من وجودها لتمسك أجزاء المجتمع وتضمها معا وتوثق عراها في مواجهة الاندفاع بعيداً عن المركز أو بتعبير آخر في مواجهة الرغبة في مزيد من التفكك. وقد أدى استقطاب ألمانيا بين الشمال البروتستنتي بقيادة بروسيا، والجنوب الكاثوليكي بقيادة النمسا إلى نتائج رهيبية ممثلة في فشل القطبين (الشمال البروتستنتي والجنوب الكاثوليكي) في توحيد جهودهما ضد نابليون في معركة أو سترليتز Austerlitz في سنة 5081 ومعركة جينا (بيننا) في سنة 6081. وقبل هاتين اللطمتين بفترة طويلة كانت النمسا نفسها قد بدأت تتجاهل الدايت الإمبراطوري (المجلس التشريعي الإمبراطوري) وتبعته في ذلك دول ألمانية كثيرة (2) (دول بالمعنى الوارد في صدر هذا الفصل)، وفي سنة 8871 لم يستجب للدعوة لحضور هذا الدايت سوى 41 أميراً من بين مائة لهم حق انتخاب (الأمبراطور) وثمانية من بين خمسين من رؤساء المدن (عمد المدن (3)) فكان محالاً أن يستطيع الدايت إصدار قرارات. وفي معاهدة كوميو فورميو (7971 Compoformio) ولونيفيل (1081 Luneville) أجبر نابليون النمسا على الاعتراف بالحكم الفرنسي على المناطق الواقعة غرب الراين، وهكذا أصبح الجزء الثري من الإمبراطورية الرومانية المقدسة - بما في ذلك مدن: سبير Speyer ومنهيم Mannheim وفورمز Worms ومينز (مينتس Mainz) وبنجن Bingen وترير Trier وكوبلنز (كوبلنتس Coblenz)، وأخن Aachen وبون Bonn وكولوني Cologne - تحت الحكم الفرنسي. وبحلول عام 1081 كان هناك قبول عام بأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة أصبحت - كما قال فولتير - لا هي مقدسة، ولا هي رومانية ولا هي إمبراطورية، فلم تكن هناك دولة ألمانية مهمة تعترف بسلطانها أو سلطان البابا فكان لا بد من ظهور شكل جديد من التعاون والنظام - وسط هذه الفوضى - يلقى القبول، وقد أخذ نابليون على عاتقه مواجهة هذا التحدي.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> ألمانيا ونابليون -> كونفدرالية الراين

2- كونفدرالية الراين

6081

كان نهر الراين العظيم كمتحف للمناظر الخلابة الرائعة، والذكريات التاريخية التي خلدها - في بعض الأحيان - الأعمال المعمارية. وكان بالإضافة إلى ذلك ذا فضل حيوي على الاقتصاد؛ يروي التربة الصالحة للزراعة، ويربط كل مدينة يمر بها بالكثير من المدن الأخرى التي تضارعها ثقافة وتجارة، وفقد النظام الإقطاعي أنيابه وأساليبه مع توطن التجارة والصناعة على جانب النهر. لكن هذا الازدهار المنساب كانت تقسده أربع قضايا: كسل الحكام وانغماسهم في الملذات، شيوع الرشوة بين الجهاز الإداري، تركيز الثروة بشكل حاد، تمزق أوتفتت عسكري يحرض الغزاة على الغزو.

وقد فتح الطريق إلى التنظيم الجديد لدول الراين بوعد قدمته كل من فرنسا والنمسا لتعويض ذوي الحيشية الألمان الذين فقدوا ممتلكاتهم بسبب اعتراف النمسا بالسيادة الفرنسية على غرب الراين - تعويضهم بممتلكات جديدة، وأدى تدمير الذين نزع ملكيتهم واعتراضهم على ما عُضوا به إلى انعقاد مؤتمر رشتات Rastatt بين فرنسا والنمسا (61 ديسمبر 1797)، واقترح بعض الأمراء من غير أولي المصلحة ضرورة تحويل الولايات (الإمارات) الإكليريكية إلى ولايات (أولايات) علمانية، وبتعبير أوضح تحويلها من حكم الأساقفة إلى حكم سواد الناس (غير الإكليريك)، ولم يكن المؤتمر قادراً على الموافقة على هذا الاقتراح فأحال الأمر للدايت التالي للإمبراطورية الرومانية المقدسة. وظل الأمر معطلاً معلقاً حتى عاد نابليون من مصر وأحكم القبضة على السلطة في فرنسا وهزم النمسا في معركة مارنجو Marengo، وعقد اتفاقاً معها (النمسا) وبروسيا وروسيا أصدر بمقتضاه الدايت الإمبراطوري في 52 فبراير 1801 3081 مرسوماً شاملاً يحدد خريطة غرب ألمانيا ونظم الحكم فيها وهو المرسوم الذي يطلق عليه بالألمانية Reichsdeputationshauptschluss وبناء عليه تم عزل كل الأساقفة تقريباً (من حكم وحداتهم) ووافقت بروسيا باعتدال على تقليص الحكم الأسقفي، وكانت النمسا بلا حول ولا قوة فلم يجد لها سخطها فتتلاً.

وتحقق الحكام الجدد أن النمسا قد تكون غير راغبة في تقديم حماية عسكرية لهم - بل إنها غير قادرة. كما لم يكونوا يتوقعون - وهم كاثوليك في غالبيتهم - حماية بروسيا البروتستنتية لهم. فلجأت الدول التي أعيد تشكيلها - المرة تلو المرة - إلى نابليون فهو الأقوى عسكرياً، كما أنه من الناحية الرسمية - كاثوليكي - ففي ميونخ (Munich) 03 ديسمبر 1801 (5081) قابل كارل تيودور فون دالبرج Karl Theodor Von Dalberg ناخب منز (مينتس Mainz) الإكليريكي (رئيس الأساقفة) - قابل نابليون العائد منتعشاً لانتصاره في معركة أستر ليتز Austerlitz، ودعا لقبول قيادة الولايات (الإمارات) التي أعيد تنظيمها. وظل الإمبراطور (نابليون) المشغول يفكر في الأمر مدة نصف عام، فوجد أن فرض الأمة الفرنسية لحمايتها على ألمانيا (جعلها محمية فرنسية) سيؤدي إلى عداء بقية الألمان، كما سيزيد عداء كل من إنجلترا وروسيا حدة. وفي 21 يوليو 1801 دخلت بافاريا، وفيرتمبرج Württemberg وبادن Baden وهس - دارمشتادت Darmstadt - Hesse ونساو Nassau وبيرج Berg ودول ألمانية أخرى كثيرة - في اتحاد كونفدرالي هو كونفدرالية الراين Rheinbond، وفي أول أغسطس وافق نابليون أن يأخذ على عاتقه حماية هذا

الاتحاد الكونفدرالي وافق أن يجعله محمية فرنسية، واحتفظ الكيان باستقلاله في الأمور الداخلية لكن المتحدين وافقوا على أن يرسم لهم السياسة الخارجية ووافقوا على أن يضعوا قوة عسكرية كبيرة تحت أمره يطلبها متى شاء (4). وأرسلوا إلى فرانسيس الثاني والدايت الإمبراطورية بما يفيد أن دول الكونفدرالية لم تعد أعضاء في الرايخ. وفي 6 أغسطس أعلن فرانسيس رسمياً حل الإمبراطورية الرومانية المقدسة وتخلي عن لقبه الإمبراطوري المرتبط بها (كإمبراطور للإمبراطورية الرومانية المقدسة) واحتفظ بمنصبه ولقبه كإمبراطور للنمسا. لقد زوت عظمة الهبسبرج وأصبح شارلمان الجديد (المقصود نابليون) يحكم من فرنسا ماداً سلطانه على غرب ألمانيا. وحققت كونفدرالية الراين فوائد حيوية، كما عانت من كوارث لامفر منها. لقد أدخلت مدونة نابليون القانونية (بما فيها من إلغاء العوائد أو الرسوم الإقطاعية والأعشار الكنسية) وأخذت بحرية العبادة الدينية والمساواة أمام القانون والنظام الفرنسي في الإدارة (تولى محافظ أو مدير أو وال لمنطقة بعينها) وهو نظام مركزي ولكنه يتسم بالكفاءة، بالإضافة لتعيين قضاة مدربين أكثر استعصاء على الرشوة. وكان الخلل الأساسي في هذا البناء هو قيامه على أكتاف قوى أجنبية (فرنسية) ولا يمكنه الاستمرار إلا إذا وازنت الحماية الأجنبية تكاليفه الداخلية. وعندما أخذ نابليون آلافاً من أبناء الألمان ليحاربوا النمسا في سنة 1812 بدت محمية الراين متوترة، وعندما أخذ آلافاً من أبناء الألمان لمحاربة روسيا في سنة 1812 وطلب دعماً مالياً ثقيل الوطأة لتمويل معركته، بدت المحمية وكأنها حمل كبير ينزع منه نابليون ويستنزفه شيئاً فشيئاً، وعندما جند المان كونفدرالية الراين ليحارب بهم ألمان بروسيا في سنة 1813 راح ألمان الكونفدرالية ينتظرون تراجع الفرنسيين لينقضوا البناء كله على رأس الكورسيكي الذي أنهكته الحروب (نابليون). وفي هذه الأثناء كان نصراً لنابليون أنه كان قد رتب حدوداً جديدة آمنة لفرنسا ذات ميزة أمنية مزدوجة. لقد كان قد أدمج أراضي غرب الراين في فرنسا، وأصبحت المناطق الغنية على الشاطئ الشرقي التي تصل حتى الألب متحالفة مع فرنسا ومعتمدة عليها. ورغم أن كونفدرالية الراين قد تفككت عقب هزيمة نابليون في ليبزج (Leipzig) في سنة 1813، فقد كان هذا التوحيد حياً في ذاكرة بسمارك بعد ذلك كما أن توحيد نابليون لإيطاليا كان بعد ذلك إلهاماً لهم مازيني Mazzini و غاريبالدي Garibaldi وكافور Cavour.

صفحة رقم : 14711

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> ألمانيا ونابليون -> مقاطعات نابليون الألمانية

3- مقاطعات نابليون الألمانية

كانت هناك إلى الشمال من كولوني Cologne منطقتان كانتا رغم عضويتها في كونفدرالية الراين (الراينبوند Rhenbund) تابعتين كلية لنابليون لاستيلائه عليهما عنوة عن طريق الحرب، وقد حكمهما هو نفسه أو بواسطة أقربائه: دوقية بيرج Berg الكبيرة التي حكمها قريبه جواشيم مورا Joachim Murat ومملكة وستفاليا Westphalia التي حكمها أخوه جيروم Jerome. وعندما رقى نابليون أخاه جيروم فكلفه بحكم نابلي (8081) راح نابليون يحكم دوقية بيرج عن طريق مفوضين يرسلهم إليها، وراح عاماً بعد عام يدخل فيهما الأساليب الفرنسية في الإدارة والضرائب والقانون. وكان النظام الإقطاعي فيهما قد غدا أثراً بعد عين إذ تطورت التجارة والصناعة حتى أصبحت الدوقية مركزاً مزدهراً لاستخراج المعادن وصناعتها.

أماوستاليا فكانت أكثر تنوعا واتساعا، فطرفها الغربي هو دوقية كليفيز Cleves (التي ترجع إليها أصول الزوجة الرابعة لهنري الثامن) ومن ثم تتخذ اتجاهها شرقيا عبر مينستر Munster وهايلدشيم Hildesheim وبرونسفيلك Brunswick وفولفن بوتل Wolfenbuttel إلى ماجدنبورج Magdenburg، وعبر بادربورن Paderborn إلى كاسل Cassell (العاصمة) وعبر أنهار الرور (الروهر Ruhr) وإمز Ems وليب Lippe إلى السال Saale والإلب Elbe. وعندما أصبح جيروم بونابرت ملكا عليها في سنة 7081 كان في الثالثة والعشرين من عمره وكان أكثر اهتماماً بالمسرات منه بالسلطة. وراح نابليون - أملاً أن تحوله المسؤولية إلى شخص ناضج مستقر - يرسل له خطابات غاصة بالنصائح والتوجيهات الممتازة، بل وكانت ذات لمسة إنسانية حقاً، لكنها كانت مصحوبة بمطالب مالية كبيرة، ووجد جيروم أنه من الصعب إشباع مطالب أخيه مقارنة بالموارد المالية المتاحة، بالإضافة إلى ميله (أي جيروم) للحاشية المسرفة وحياة الترف. وقد تعاون بشكل فعال تماماً في إدخال الإصلاحات المبدعة الخلافة التي عادة ما كان نابليون يجلبها معه في فترة فتوحاته وكان من مبادئ نابليون الأساسية أن الناس لا قدرة لهم على تحديد مستقبلهم، فالمؤسسات وحدها هي التي تحدد قدر الأمم (5) لذا فقد قدم لوستاليا مجموعة قوانين (مدونة قانونية) وإدارة تتسم بالكفاءة، كما كانت تتسم بالأمانة النسبية، وحرية دينية ونظاماً قضائياً كفواً وأدخل نظام المحلفين، والمساواة أمام القانون، وتوحيد الضرائب، ونظام المراجعة المحاسبية الدورية لكل الأنشطة الحكومية. وكانت جمعية وستاليا الوطنية يتم انتخابها من خلال حق اقتراح محدود: 51 من بين 001 مندوب (نائب أومفوض) يتم اختيارهم من التجار ورجال الصناعة، و 51 من بين العلماء وغيرهم من ذوي المكانة. ولم يكن لهذه الجمعية الوطنية حق المبادرة بإصدار التشريعات، لكن كان من حقها انتقاد الإجراءات التي يقدمها مجلس الدولة، وغالباً ما كان يؤخذ بنصائحها.

وكانت الإصلاحات الاقتصادية أساسية. لقد انتهى النظام الإقطاعي الآن، فالاقتصاد الحر لا بد أن يفتح كل المجالات أمام كل الطموحين. وكان لا بد من صيانة المجاري المائية والطرق وتحسينها، وتم إلغاء تعريف الانتقال في نطاق وستاليا وتم توحيد الموازين والمقاييس في كل أنحاء المملكة (وستاليا). وصدر مرسوم في 42 مارس 9081 يحمل كل كميون مسؤولية الفقراء في نطاقه سواء بتوظيفهم أو تقديم مساعدات الإعاشة لهم (6). واشتكى دافعوا الضرائب. ومن الناحية الثقافية كانت وستاليا أكثر الدول الألمانية تطوراً لقد احتضنت بين جنباتها حياة فكرية منذ غدت مكتبة فودا Fuda الديرية عصر النهضة (الرييسانس) بالمخطوطات الكلاسيكية، بل وقبل ذلك. لقد كان في هايلدشيم Hildesheim الفيلسوف والرياضي ليبينيس (ليبنيز Leibniz) وكان في فولفنبوتل Wolfenbuttel الناقد والكاتب المسرحي ليسنج Lessing، والآن فإن لدى الملك جيروم أمين مكتبة ماهر هو جاكوب جريم Jacob Grimm سنتتاوله بعد ذلك كمؤسس لعلم فيلولوجيا (علم لغة التاريخي والمقارن) اللغات النيوتونية. وفي سنة 7071 - بناء على دعوة نابليون - ترك جوهان فون ملر Muller كبير مؤرخي عصره - منصبه في برلين كمؤرخ ملكي (مؤرخ رسمي) ليأتي إلى وستاليا وزيراً وليتولى (8081 - 9081) أمر التعليم العام. وكان في وستاليا آنذ خمس جامعات، كان معترفاً بثلاث منها في ظل حكم جيروم: جوتنجن Göttingen وهيل Halle وماربوج Marburg، وحققت جامعتان منها شهرة عبر أوروبا. لقد رأينا الشاعر كولردج Coleridge يتجه مباشرة من نذر ستوي Nether Stowey إلى جوتنجن، ويعود لإنجلترا بعد عام وقد اعترته الدهشة والإعجاب بسبب الأفكار الألمانية. وفي مقابل هذه الأمور الطيبة كان هناك شران شديداً الوطأة: الضرائب والتجنيد الإلزامي. لقد كان نابليون يطلب من كل الكيانات التابعة له مساهمة مالية فعالة لحكمه، ولبلاطه الذي راح إسرافه يزداد يوماً بعد يوم، ولنفقات جيوشه. وكانت حجته بسيطة: إذا حدث أن استطاعت النمسا أو أي قوى معادية أن تلحق به الهزيمة أو تطيح به، فإن الأمور الطيبة التي جلبها معه سنترع من رعاياه. ولهذا السبب نفسه لا بد للدول الواقعة تحت حمايته من مشاركة فرنسا التزاماتها بتقديم أبنائها القادرين للخدمة العسكرية ليضحوا عند الضرورة بحياتهم. وحتى سنة 3181 كان رعايا جيروم يتحملون برجولة هذا الاستنزاف. والأهم أن الجدل لم يكن معروفاً في جيوش نابليون، كما كانت الترقية بالجدارة والاستحقاق، فكان يمكن لأي جندي أن يصبح ضابطاً، بل ومارشالاً، لكن بحلول عام 3181 كان على وستاليا أن ترسل 0008 من شبابها للاشتراك في حرب نابليون في إسبانيا، و 61،000 للمشاركة في حربه في روسيا، ولم يعد منهم من إسبانيا سوى 008، أما من عادوا من روسيا فلم يزيدوا على 2،000.

وكانت ناخبية (إمارة) هانوفر تقع في شمال شرق وستاليا. وفي سنة 4171 كان ناخبها قد أصبح هو ملك إنجلترا جورج الأول، فأصبحت هانوفر تابعة لإنجلترا. أما الناخب الذي تولى أمرها تبعاً فهو جورج الثالث الذي جعل منها منطقة موالية لبريطانيا وعمل على عدم ابتعادها عنها (عن بريطانيا) ولهذا الغرض ترك ملاك الأراضي الكبار فيها (في هانوفر) يحكمون الإمارة (المقاطعة) لصالح الأرستقراطية الألمانية - وهي من أكثر الأرستقراطيات تمسكا وانغلاقاً بمعنى أن من الصعب أن ينضم إليها غيرهم. لقد كانت كل المناصب المهمة يحتكرها النبلاء الذين كانوا حريصين ألا يقع على كاهلهم شيء من عبء الضرائب. وعلى أن يتحمل غالبها الفلاحون وأهل المدينة. وظل النظام

الإقطاعي قائما وإن خفف من وطأته العلاقات الأسرية وكانت الحكومة المحلية أمينة أمانة فوق التصور (7). وفي سنة 3081 - عند بداية الحرب مع إنجلترا - أمر نابليون قواته وجهازه الإداري بالسيطرة على هانوفر لضمان عدم نزول قوات برية بريطانية فيها ولمنع أي بضائع إنجليزية، ولم يلق الفرنسيون سوى مقاومة بسيطة، وفي سنة 7081 - وكان نابليون مشغولاً باهتمامات أكبر - أمر بالحاق (ضم) هانوفر إلى وستفاليا وأتاحها (أي هانوفر) لجهاز جمع الضرائب التابع للملك جيروم. وراح أهل هانوفر يندبون حظهم متضرعين إلى الرب ليعودوا تابعين لإنجلترا كما كانوا.

وعلى النقيض من هانوفر، كانت المدن الهانسيية - هامبورج، وبريمن Bremen ولوبك Lubeck - موطناً للازدهار والرخاء والكبرياء (الاعتزاز بالانتماء). لكن العُصبة (التحالف المكوّن من هذه المدن) كانت قد انحلت منذ مدة طويلة، غير أن انهيار أنتورب Antwerp وأمستردام تحت الإدارة الفرنسية أدى إلى تحويل كثير من تجارتيهما إلى هامبورج وبدأت المدينة الواقعة على مصب نهر إلب the Elbe والتي كان سكانها في سنة 000،511:0081 نفس، وكأنما صُمّمت لخدمة التجارة البحرية ولإعادة شحن السفن بشكل ناشط. لقد كان يحكمها التجار الكبار والماليون، وكان احتكارهم محتملاً نظراً لمهارتهم ووضعهم كل الأمور في الاعتبار. وتلَهّف نابليون لضم هذه المدن التجارية لحكمه ليضمها للحظر الذي فرضه على الواردات البريطانية وليستفيد بأموالها والقروض التي يحصلها منها على حروبه فأرسل بورين Borrienne وآخرين لوقف تدفق البضائع البريطانية إلى هامبورج، وقد أصبح هذا الوزير السابق (بورين) ثرياً بفضل تعاضيه (إغلاقه عينيه الأثنتين) وأخيراً ضم نابليون المدينة الكبيرة إلى حكمه (0181) فانزعج أهلها انزعاجاً شديداً حتى إنهم شكّلوا جمعيات سرية لاغتياله (اغتيال نابليون) وراحوا يتآمرون كل يوم لإسقاطه.

صفحة رقم : 14712

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> ألمانيا ونابليون -> سكسونيا

4- سكسونيا

إلى الشرق من وستفاليا وإلى الجنوب من بروسيا وُجدت دولة ألمانية عرفها أهلها باسم Sachsen وعرفها الفرنسيون باسم ساكس Saxe كانت ذات يوم تمتد من بوهيميا إلى البلطيق، وقد تركت هذه الدولة آثارها في الأسماء المختلفة في بريطانيا التي تنتهي بالمقطع (Sexes) هذه الدولة قد لحقها الخراب في وقت لاحق بسبب حروب الأعوام السبعة لكنها الآن (من هذه الفترة) تنعم بناخبية (إمارة: بالمعنى السابق شرحه) مزدهرة تمتد على جانبي نهر الإلب Elbe من فيتبرج Wittenberg (التي شهدت شطراً من حياة لوثر) حتى دريسدن Dresden (باريس ألمانيا). وفي ظل حكم فريدريك أوغسطس الثالث كناخب (له حق المشاركة في اختيار إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة) (في الفترة من 8671 - 6081) وكمملك (فريدريك أوغسطس الأول) في الفترة من 6081 إلى 7281 سرعان ما استعادت سكسونيا ازدهارها خاصة وهي تنعم بنهر الإلب الذي يرويها وكأنه أم رؤوم. ونعمت دريسدن مرة أخرى بعماثرها المشيدة على وفق طراز الروكوكو rococo وشوارعها الفسيحة وجسورها الجميلة، وتمثيل العذراء، وفخارها المنقوش. وأدار الحاكم الشاب - رغم عدم تقوّه كرجل دولة - مملكته بشكل حكيم وأنفق موارده بعناية وسدّ الدّين الوطني وطوّر مدرسة مشهورة للتعددين في فريبيرج Freiberg.

وواصلت ليبزج (ليبزيغ Leipzig) تنظيم معرض الكتاب الذي يُعقد فيها سنوياً الذي كان ناشرو أوروبا يعرضون فيه آخر إصداراتهم فنافست بذلك درسدن. وأدى انتعاش الأدب الألماني إلى التفوق الفكري. وانضم فريدريك أغسطس العادل أو المستقيم إلى بروسيا والنمسا في محاولة تهذيب الثورة الفرنسية وأسهم في معركة فالمي في سنة 1791، وكانت قواته مع الجيش البروسي المنسحب. لقد انزعج كثيراً لإعدام ابن عمه لويس السادس عشر لكنه انضم راعباً إلى جهود السلام مع فرنسا في سنة 1791. وعندما وصل نابليون إلى السلطة حافظ فريدريك على علاقات طيبة معه، وكان نابليون يحترمه كمستبد عادل (متنوّز) يحب شعبه. وعلى أية حال، فعندما كانت جيوش نابليون تقترب في سنة 1806 من جينا (بينا) وقع فريدريك بين المطرقة والسندان: حذّره نابليون ألا يترك الجيش البروسي يمر في أراضي سكسونيا، لكن بروسيا أصرت على مرور جيشها وغزت سكسونيا، فاستسلم الناخب وترك جيشه الصغير ينضم للجيش البروسي. و عامل المنتصر (نابليون) فريدريك أغسطس بتساهل نسبي فعرض عليه أن يدفع لفرنسا تعويضاً مقداره 52 مليون فرنك وأمره أن يغير لقبه ليصبح (ملك سكسونيا) وجعله على رأس دوقية وارسو (فرسافا) Warsaw الكبيرة وأجبر بروسيا على التنازل لسكسونيا عن مناطق Circle of Cattbus على الشاطئ الغربي لنهر سبري Spree. وهكذا أصبحت بروسيا محصورة بين بولندا من الشمال والشرق، ووستفاليا من الغرب وسكسونيا من الجنوب - وكلها معاهدة لنابليون. لقد بدا وكأن المسألة مسألة وقت لتتبع بروسيا بقية ألمانيا في خضوعها لفرنسا النابليونية (فرنسا في ظل حكم نابليون).

صفحة رقم : 14713

قصة الحضارة - < عصر نابليون - > ملوك أوروبا في مواجهة التحدي - < ألمانيا ونابليون - > بروسيا (تراث فريدريك)

5- بروسيا: تراث فريدريك

6871 - 7871

عند موت فريدريك الثاني كانت مملكة بروسيا الكبيرة تتكوّن من ناخبية (إمارة بالمعنى الأنف شرحه) براندنبورج Brandenburg، ودوقية سيليزيا Silesia وبوميرانيا القصى Farther Pomerania، وولايات (مقاطعات) بروسيا الشرقية - بما فيها كونيجسبرج Konigsberg وفريدلاندر Friedland ومملم Memel - وبروسيا الغربية التي تم الاستيلاء عليها من بولندا في سنة 1771 ومقاطعات مختلفة من قلب غرب ألمانيا تشمل فريدلاندر الشرقية ومينستر Munster وإسن Essen وبعد موت فريدريك أضافت بروسيا إليها منطقة ثورن Thorn ودانزج (داننسيج Danzig) في التقسيم الثاني لبولندا (1791) ووارسو (فرسافا) وقلب بولندا في التقسيم الثالث (لبولندا) في سنة 1806 وآنسباخ Ansbach وبايروث Bayreuth ومانسفيلد Mansfeld في سنة 1806 ونيوشاتل Neuchatel في سويسرا في سنة 1806. لقد بدت بروسيا وكأنها قررت ابتلاع شمال ألمانيا عندما تقدم نابليون ليعفيها من هذه المهمة.

لقد كان والد فريدريك العظيم هو الذي جعل هذا التوسّع البروسي ممكناً، ذلك أن فريدريك الأول كان قد علّم ابنه وشعبه تحمل المشاق بصمت، بالإضافة إلى أنه ترك له أفضل جيش في العالم المسيحي، وترك له شعباً منظماً بإحكام يخضع لنظام تعليمي واحد ونظام ضرائبي واحد، ونظام خدمة عسكرية يسري على الجميع. لقد كانت بروسيا قد أصبحت لقمة سائغة لملك ذي ميول عسكرية، وارتعدت أوروبا كلها وألمانيا كلها وبروسيا كلها لرؤية هذا الرجل وهو يلتهم الملك (العرش) بضباطه الأرسقراطيين (اليونكر Junker) المستبدين ورماة القنابل ذوي الأقدام الثمانية. لقد حذرت الأم ابنها قائلة:

(8Do not get tall, or the recruiters will get you)

وقد أضاف فريدريك العظيم (حكم من 0471 إلى 6871) لهذا الجيش وهذه الدولة عبقريته الخاصة التي شحنها بقراءة فولتير، وتكيفاً مع الواقع (رواقية عميقة) من مورثاته (جيناته)، لقد رفع من شأن بروسيا من مملكة صغيرة تضارعها سكسونيا وبافاريا إلى قوة تُضاهي النمسا في العالم الألماني تقف كحاجز قوي في وجه الضغط الدائم للسلاف الذين يتكاثر عددهم بسرعة، ليصل بها (بروسيا) مرة أخرى إلى حدودها القديمة على نهر الإلب Elbe. وفي الداخل أسس نظاماً قضائياً مشهوراً بتكامله وجهازاً من الإداريين حل بالترجيح محل النبلاء لتسيير أمور الدولة. وأرسى دعائم حرية الحديث والصحافة والعبادة وتحت حمايته أصبح نظام المدارس في ألمانيا هو البديل للتعليم الكنسي الذي جعل البروسي في سُبَات روجي عميق(9). لقد كان هو الرجل الوحيد في عصره الذي يستطيع أن يفوق فولتير ويعلم نابليون. قال نابليون في سنة 7971 إن فريدريك العظيم بطل أحب أن أناقشه في كل شيء؛ في الحرب وفي الإدارة. لقد درستُ مبادئه في الميدان، وخطاباته المألوفة كانت بالنسبة لي دروساً فلسفية(10).

وكان هناك نقص في إنجاز، فهو لم يجد الوقت الكافي بسبب المعارك التي خاضها - لتهديب النظام الإقطاعي البروسي فيعطيه طابعاً أكثر إنسانية كما هو الحال في دول الراين Rhineland States، وأدت حروبه إلى فقر أصاب شعبه، فكانت هذه الحروب إلى حد ما مسؤولة عن انحدار بروسيا بعد وفاته. أما فريدريك وليم الثاني (حكم من 6871 إلى 7971) فكان كعمه الذي لم ينعم بطفولته مولعاً بالنساء والفنون أكثر من ولعه بالحكم والحرب، فقد ألحق بزوجته الأولى خلية أنجبت له خمسة أبناء، وطلق زوجته في سنة 9671 وتزوج من فريدريكه لويز Friedrike Louise (من هس دارمشتادت Hesse - Darmstadt) التي أنجبت له سبعة أبناء، وفي أثناء زواجه الأخير هذا حدث رجال الدين في بلاطه على السماح له بارتباط مورجانتني (أي السماح له بالزواج ممن هي أدنى منه منزلة ودرجة على أن يظل كل طرف من الطرفين في درجته نفسها وطبقته نفسها، وليس للأولاد المولودين من هذا الزواج حق الإرث أو حق وراثة ألقاب النبالة) مع جولي فون فوس (7871) التي ماتت بعد الزواج بعامين، ومن ثم تزوج الكونتيسة صوفي دونهوف (Sophie Donhoff 0971) التي أنجبت له ولداً. وكان لديه من الوقت ما يسمح له بعزف الفيولونشلو Violoncello وباستقبال موزارت وبيتهوفن، وبتأسيس أكاديمية للموسيقا ومسرح للدولة. ومول (وأعلن) في سنة 4971 مدونه قانونية جديدة تحوي كثيراً من العناصر الليبرالية.

وسمح لجوهان (يوهان) فون فولنر Johann Von Wollner وهو إصلاحى أخذ بالمذهب العقلي، وكان أثيراً لديه - سمح له في سنة 8871 بإصدار قانون إيمان ديني(11) Religionsedikt أنهى التسامح الديني وأحكم الرقابة حتى إن كثيراً من الكتاب هجروا برلين بسببه.

وقامت سياسته الخارجية على الدفاع، فقد رفض الموقف الهجومي لسلفه، وهزأ بقرن سبق من الأحداث، فخطب ود النمسا، باعتبار ذلك خطوة كبرى نحو وحدة ألمانيا وأمنها. ولم يكن يحب الثورة الفرنسية، فبقي راضياً عن النظام الملكي (وكذلك كان شعبه راضياً عن الملكية) وأرسل بعض القوات للمشاركة في معركة فالمي (2971) ولكنه كان سعيداً بعودة من بقي من جنوده لمساعدته في التقسيم الثاني لبولندا، وفي سنة 5971 وقع اتفاق سلام بازل (بازل Basel) مع فرنسا التي سمحت له بالاستيلاء على وارسو (فرسافا) في التقسيم الثالث لبولندا.

ورغم ما حصل عليه وضمه لبلاده فقد سمح بتدهور أحوالها مالياً وعسكرياً. ومنذ وقت باكر يرجع إلى سنة 9871 كتب ميرابو Mirabeau بعد إقامة طويلة في برلين - وكأنه ينتبأ: العرش البروسي أصبح في وضع لا يتمكن فيه من التغلب على أية كارثة(21). لقد أصبح الجيش في حالة استرخاء وفقد حماسه، وأصبح الجهاز الإداري هشاً يشيع فيه الغش والخداع والرشوة. وأصبحت ميزانية الدولة مضطربة وقريبة من الإفلاس(31). ولم تكن سوى الحرب هي التي تستطيع بشكل حاسم أن تُوضِّح لهذا الجيل الأعمى ما وصلت إليه بلادهم من تدهور. ذلك التدهور الذي أصاب بالشلل كل النشاطات بعد أن ركن الناس لسحر شهرة بلادهم في الماضي(41).

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> ألمانيا ونابليون -> انهيار بروسيا

6- انهيار بروسيا

7081 - 7971

وهكذا مات الملك الطيب ووقع عبء العناية بالدولة المريضة على عاتق ابنه فريدريك وليم الثالث في فترة شهدت فيها أوروبا توسعات نابليون، وجهود ميترنيخ النمساوي، وظل فريدريك الثالث يحمل هذا العبء حتى سنة 0481. ويدهش الجميع لاستمراره في الحكم طوال هذه المدة مع أنه كان ضعيف الإرادة رقيق المشاعر. لقد كان يتحلّى بكل الفضائل التي يمكن أن تمكن المواطن الصالح من التطوير والعمل: تعاون، عدالة، رقة، تواضع، إخلاص لزوجته وحب للسلام. لقد حرر الأفنان (عبيد الأرض) في الأراضي التي تمتلكها الأسرة المالكة. تزوج في سنة 3971 لويزا Luise (Louise) of Mecklenburg من مكلنبورج ستريليز Luise (Louise) of Mecklenburg وهي في السابعة عشر من عمرها، جميلة وعاطفية ومخلصة ووطنية، وسرعان ما أصبحت محبوبة الشعب. وظلت المصدر الأساسي للسعادة التي غرق فيها متناسياً كل النكبات والكوارث.

لقد راح القرن الجديد يجلب له الأزمة تلو الأزمة. ففي سنة 3081 استولى الفرنسيون على هانوفر التي كانت بروسيا قد ضمنت حيادها، فطالب الضباط الشبان في الجيش البروسي بقطع العلاقات - على الأقل - مع فرنسا، إن لم يكن الحرب. لكن فريدريك وليم عقد معها سلاماً. وأحكمت القوات الفرنسية قبضتها على مصب نهر الإلب Elbe ونهر فستر (وستر Wester) فأصرت - بفعلها هذا - بالتجارة البروسية، فتدّرع فريدريك بالصبر.

ودعت الملكة لويزا للحرب، وارتدت الزي العسكري الخاص بالفوج العسكري الذي يحمل اسمها، وظهرت في عرض عسكري وهي تمتطي صهوة جواد، وراحت تبتئ الحماس في الجيش الذي لا يقهر. أما الأمير لويس فرديناند - ابن عم الملك - فكان يتطلع إلى فرصة لإظهار همته ونشاطه، أما دوق برونسفيك (برونسويك Brunswick) العجوز فعرض أن يقود هو بنفسه الجيش البروسي.

أما الجنرال بلوشر (بلوخر) Blucher - الذي أصبح بعد ذلك بطلاً من واترلو - فقد أيده (أي أيد دوق برونسفيك). ومع هذا فقد راح فريدريك وليم يقاوم رغبات كل هؤلاء بهدوء. وفي سنة 5081 حثت النمسا - التي قررت أن تتحدّى نابليون - بروسيا على تقديم المساعدة لها، لكن الملك البروسي لم يستجب.

غير أن صبر فريدريك وليم نفذ عندما توغلت القوات الفرنسية - وهي في طريقها إلى أوسترليتز Austerlitz في منطقة بيروث Bayreuth البروسية، فدعا الملك إلى مؤتمر في بوتسدام Potsdam يحضره ملك روسيا إسكندر، وأقسم الملكان عند قبر فريدريك الكبير أن يقفا معاً في مواجهة نابليون وأن يهبأ معاً لنجدة النمسا. وسارت قوات إسكندر الروسية جنوباً فلاقت الهزيمة وفي الوقت نفسه تشتت الجيش البروسي في الوقت الذي ولى فيه إسكندر هارباً إلى بلاده روسيا. وأعطى نابليون سلاماً سهلاً - لكنه مشروط - لفريدريك وليم (51 ديسمبر 5081، 51 فبراير 6081): تتنازل بروسيا لفرنسا عن نيوشاتل Neuchatel وكليفز Cleves وأنسباخ (أنسباخ Ansbach) لفرنسا، في مقابل أن تأخذ (أي بروسيا) هانوفر، ووافق فريدريك وليم على إغلاق الموانئ البروسية في وجه البضائع البريطانية بعد أن حصل على هانوفر وضمها لملكه - تلك الجائزة الثمينة التي طالما اشتهاها - ووقع مع فرنسا معاهدة تحالف دفاعية هجومية، فأعلنت إنجلترا الحرب على بروسيا. وتوجه نابليون لتكوين فدرالية الراين التي كانت تحيط

ببعض المقاطعات البروسية في غرب ألمانيا، وعندما سمع فريدريك وليم أن نابليون يعرض هانوفر على انجلترا سرا - دخل في تحالف سري مع روسيا (يوليو 19081)، وفي أول أغسطس استولى نابليون على كل غرب ألمانيا وجعلها تحت حمايته، وفي 9 أغسطس عبأ فريدريك وليم جانباً من جيشه، وفي الرابع من سبتمبر أعاد فتح الموانئ الروسية أمام البضائع الإنجليزية، وفي 31 سبتمبر أمر قواته بدخول سكسونيا Saxony وانضمت قواته إلى القوات السكسونية، فأصبح جنرالاً وعلو رأسهم دوق برونسفيك (برونسويك) يقودون 000,02 مقاتل. وغضب نابليون غضباً شديداً لما اعتبره انتهاكاً لاتفاقيتين وتحالف، فأمر جيوشه التي كانت متمركزة بالفعل في ألمانيا أن تنقض على مقدمة وجناح جيوش الحلفاء، وأسرع هو نفسه إلى الجبهة وأشرف على هزيمة البروس والسكسون هزيمة منكرة في جينا (بيينا) وأورشنتد (أورشنتاد Auersted) في اليوم نفسه - 41 أكتوبر 6081. ما ذكرناه أنفا هو وجهة النظر الفرنسية. أما على الجانب البروسي فقد كان ما حدث واحداً من أظلم المآسي وأقساها في تاريخها. لقد هرب فريدريك وليم بحكومته وأسرتة إلى شرق بروسيا وحاول أن يباشر مهامه من ممل Memel، وأصدر نابليون - من مقر البلاط الملكي في برلين - أوامر لقارة (بأكملها) بفرض الحصار القاري (على البضائع البريطانية) وأخرجت القوات الفرنسية الجيوش البروسية من بولندا، وهزم نابليون الروس في فريدلاند Friedland وصحبتة قواته إلى تيلسيت Tilsit حيث عقد سلاماً مع إسكندر. وهنا علم فريدريك وليم الشروط الأخيرة (النهائية) التي بمقتضاها يمكن أن تظل بروسيا كيانياً موجوداً على الخريطة. لا بد أن تتنازل بروسيا لفرنسا عن كل الأراضي البروسية الواقعة غرب نهر الإلب وأن تعيد إلى بولندا كل أراضيها التي استولت عليها في التقسيمات الثلاثة. ولا بد أن تقبل دفع تعويض حرب بدفع رواتب الجنود الفرنسيين الذين احتلوا بروسيا حتى يصل إجمالي ما تدفعه إلى 061 مليون فرنك. وبهذه المعاهدة التي وقعت بروسيا في 9 يوليو 7081 فقدت 94% من الأراضي التي كانت تحكمها وصار عدد سكانها 5,052,000 بعد أن كان 9,005,000 (المقصود أنها بفقد المناطق التي تنازلت عنها نتيجة الهزيمة فقدت حكم سكانها، وليس المقصود أن كل هذا النقص ضحايا حرب) وفي الفترة بين 6081 و 8081 كانت تكاليف القوات الفرنسية والتعويضات تستنفد كل دخل بروسيا (51). ومع هذا فقد كان هناك بعض الألمان يظنون - وهم يرون الدمار الذي حاق بروسيا - أنها لن تقوم لها قائمة بعد ذلك ولن تلعب دوراً مهماً في التاريخ الألماني.

صفحة رقم : 14715

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> ألمانيا ونابليون -> بروسيا تنهض من جديد

7- بروسيا تنهض من جديد

7081 - 2181

هناك نواة صلبة في الطبيعة الألمانية - أكدتها قرون من الحياة الشاقة بين شعوب محاربة وأجنبية - وهي أن الألمان شعب يمكنه تحمل الهزيمة مرفوع الرأس وينتظر الوقت المناسب للرد. وكان هناك آنئذ (الفترة التي نتحدث عنها)

رجال على شاكلة شتاين Stein و هاردنبرج Hardenberg وشارنهورست Scharnhorst وجنيشيناو Gneisenau، ولم يتركوا يوماً واحداً يمرّ دون أن يكون شغلهم الشاغل هو كيف يتم خلاص بروسيا أو بتعبير آخر كيف تبعث من جديد. فهو لاء الملايين من الأقتنان (عبيد الأرض) الذين لا أمل لهم في ظل عبوديتهم القديمة - كم هي الطاقة التي سيصبونها في الاقتصاد البروسي وكم هي الحيوية التي سينعشونها بها لوأنهم تحرروا من أعبائهم المهنية وراحوا - وسط الترحاب - يعملون في مشروعات حرة في الريف أو المدن؟ وهذه المدن التي هي الآن كسولة فاترة الهمة في ظل حكم النبلاء الذين يحتقرون التجارة، ويمارسون مهامهم في حكم الأمة من عاصمة مركزية بعيدة - ما هي المبادرات النشيطة التي قد يطورونها في مجالات الصناعة وإدارة الأعمال، والمالية، في ظل حافز الحرية والتجريب؟ إن فرنسا في عهد الثورة الفرنسية قد حررت أقتنان الأرض وانتعشت، بل إنها أبقّت المدن تحت نفوذ باريس، فلم لا نحرر المدن والأقتنان (عبيد الأرض) في أن، قاطعين الطريق على الغازي؟ على هذا النحو فكر فراهير هنريش - فريديش كارل فوم أوند تسوم شتاين Freiherr Heinrich Friedrich Karl Vom und zum Stein والمقطع الأخير من اسمه Vom und zum stein يعني أبو صخر عند الصخرة of and at Rock نسبة إلى مدينة أسلاف أسرته على نهر لاهن Lahn الذي يلتقي بنهر الراين فوق كوبلنز (كوبلنتس Coblenz)، ولم يكن الرجل بارونا وإنما فراهير Freiherr - والكلمة تعني رجلاً حراً - من الفرسان الإمبراطوريين (الرايخسترترشافت Reichstritterschaft)، وقد دعا للدفاع عن الأراضي التابعة له، وعن المملكة - لقد ولد (62 أكتوبر 7571) ليس في مدينة Vom Und zum Stein (مدينة أبو صخر عند الصخرة) وإنما بالقرب القريب من مدينة نساو Nassau، وكان أبوه حاجباً لناخب (أمير) مينز (منتس Mainz)، والتحق الابن عند بلوغه السادسة عشرة من عمره بمدرسة القانون والسياسة في جامعة جوتنجن Göttingen. وهناك قرأ منتسكيو Montesquieu وأخذ عنه إعجابه بالدستور الإنجليزي، وقرر أن يكون عظيماً (أي بتعبير آخر قرر أن يلعب أدواراً مهمة) ومارس مهنته القانونية في محاكم الإمبراطوية الرومانية المقدسة في فتسلر Wetzler وفي الدايت الإمبراطوري في ريجنسبورج Regensburg. وفي سنة 0871 دخل الخدمة المدنية في بروسيا فعمل في الإدارة الوستقالية للصناعة والتعدين. وفي سنة 6971 تولى منصباً قيادياً في الإدارة الاقتصادية لكل المقاطعات البروسية على طول الراين، واستدعى إلى برلين في سنة 4081 ليشغل منصب وزير الدولة للتجارة بسبب نشاطه البالغ ونجاح مقترحاته. وفي غضون شهر من توليه منصب وزير الدولة للتجارة عهد إليه بتقديم العون لوزارة المالية. وعندما وصلت أخبار العاصمة مفادها تشتيت نابليون للجيش البروسي في بينا (جينا Jena) نجح شتاين Stein في نقل محتويات الخزانة البروسية إلى ممل Memel وبأموالها استطاع فريديريك وليم الثالث تمويل حكمه في المنفى (المقصود بعيداً عن العاصمة)، وربما أدت كوارث الحرب وما صاحبها من توتر إلى توتر أعصاب الملك والوزراء، ففي 3 يناير 7081 طرد فريديريك وليم الثالث وزيره شتاين Stein لأنه عنيد متعطرس لا علاج له وغير مطيع، وهو - لإعجابه بعقريته ومواهبه... يعمل انطلاقاً من عواطفه وكراهيته الشخصية وعلى وفق ما تلميه عليه ضغائنه (61). وعاد شتاين إلى بيته في نساو Nassau، وبعد ذلك بستة أشهر دعاه الملك - بعد أن علم أن نابليون طلبه كمدير - ليتولى وزارة الداخلية.

وكان منصب وزير الداخلية هو بالضبط الموقع المناسب الذي يمكن شتاين (ذلك الهر herr أي السيد المتحرر الغضوب) من تقديم أفضل الإصلاحات لإطلاق طاقات الشعب البروسي. وفي 4 أكتوبر 7081 تولى مهام منصبه الجديد بالفعل، وفي 9 أكتوبر كان يعد للملك إعلاناً طالماً تطلع إليه ملايين الفلاحين ومئات الليبراليين، وكانت المادة الأولى في مشروعه هذا معتدلة إذ تعلن حق كل ساكن من سكان ولاياتنا أن يشتري أرضاً ويتملكها وكان هذا الحق - حتى الآن - غير متاح للفلاحين. والمادة الثانية تسمح لأي بروسي أن يعمل في أي استثمار مشروع، وعلى هذا فستفتح كل المجالات أمام المواهب - كما هو الحال في ظل حكم نابليون - بصرف النظر عن الانتماء لأسرة أو طبقة، وستصبح الحواجز الطبقيّة لا مكان لها في المجال الاقتصادي، والمادة العاشرة تمنع أي قناة (عبودية للأرض) أما المادة 21 فتعلن ابتداء من 11 نوفمبر (المارتنامس أي عيد القديس مارتن) لا يصبح في كل ولاياتنا فلاح نصف حر... سنكون جميعاً أحراراً (71) وقاوم نبلاء كثيرون هذا المرسوم، ولم يصبح ساريا بكل بنوده حتى سنة 1181. وعمل شتاين Stein والليبراليون المؤيدون له خلال عام 8081 على تحرير المدن البروسية من حكم البارونات الإقطاعيين أو ضباط الجيش المتقاعد أو متعهدي الضرائب الذين كانت سلطتهم - في الغالب - بلا حدود. وفي 91 نوفمبر سنة 8081 أصدر الملك - الذي أصبح مرة أخرى راغباً في الإصلاح - القانون المحلي للبلديات، يحكم المدن بمقتضاه مجلس محلي (جمعية محلية) تختار موظفيها بنفسها، باستثناء المدن الكبيرة فالملك هو الذي يعين عمدة burgomaster كل منها من بين ثلاثة رجال يختارهم المجلس المحلي. وهكذا بدأت الحياة السياسية الصحيحة على المستوى المحلي وتطورت إلى نظام إداري بلدي ألماني ممتاز.

ولم يكن شتاين Stein وحده في رعاية أمور بروسيا. فقد عمل جير هارد (جيرارد) فون شارنهورست Gerhard Von Scharnhorst (3181- 5571) والكونت أوجست نيتهاردت فون جنيشيناو Count August Neithardt

(2281- 0571Karl Von Hardenberg (الأمير كارل فون هاردنبرج (1381- 0671Von Gneisenau (عملوا معا على إعادة بناء الجيش البروسي مستخدمين مختلف الحيل لتحاكي القيود التي فرضها نابليون. وكان تطور هذه العملية (إعادة بناء الجيش البروسي) من التقدم بمكان كما يتضح من خطاب أرسله شتاين في 51 أغسطس سنة 8081 إلى أحد الضباط البروس، ووقع في أيدي الفرنسيين الذين نشروه في جريدة المونيتير Moniteur في 8 سبتمبر وفيما يلي جانب من هذا الخطاب:

السخط يزداد كل يوم في ألمانيا. لا بد أن نطعم الناس ونعمل من أجلهم. إنني شديد الرغبة في إقامة روابط بين هيس و Hesse وستفاليا ومن الضروري أن نعد أنفسنا لأحداث معينة تتطلب منا مواصلة الاتصال بالرجال ذوي الطاقة والقدرة على العمل وذوي النوايا الحسنة. لا بد أن نجعل هؤلاء الرجال يلتقون (لتدارس الأمر)... لقد تركت أحداث إسبانيا أثرا حيويا، لقد أثبتت ما كنا نتوقعه ومن المفيد أن ننشر هذه الأنباء بحذر. إننا نظن أن الحرب بين فرنسا والنمسا أمر لامناس منه. وهذا الصراع سيقدر مصير أوربا(81). وكان نابليون على وشك الاتجاه إلى إسبانيا لخوض معركة كبرى، فأمر فريدريك وليم بطرد شتاين Stein من منصبه فتوانى الملك في الإذعان إلى أن حذر من أن الجيش الفرنسي سيقبى في الأراضي البروسية إلى أن يذعن لأمر لنابليون. وفي 42 نوفمبر سنة 8081 طرد شتاين مرة أخرى من منصبه، وفي 61 ديسمبر أصدر نابليون من مدريد مرسوما يجعله بعيدا عن حماية القانون (مرسوما بإهدار دمه) ومصادرة كل ممتلكاته والقبض عليه في أي مكان يوجد فيه داخل المناطق التي تسيطر عليها فرنسا. وهرب شتاين في بوهيميا. وسدت بروسيا النقص بتعيين هاردنبرج (Hardenberg 0181) مستشارا للدولة - وهو منصب يعني في الواقع (رياسة الوزراء) وكان هاردنبرج عضوا في الحكومة السابقة، وكان قد أعاد تنظيم وزارة المالية وتفاوض في اتفاق السلام في سنة 5971، وتحمل جانبا من المسؤولية في كارثة 6081 وطرد من الحكومة بإصرار من نابليون (7081)، والآن فقد بلغ الرجل الستين من عمره، وبينما كان نابليون غارقا في حب إمبراطورته الجديدة، راح هاردنبرج يحرك الملك نحو النظام الملكي الدستوري بحثه دعوة أول جمعية للنبل (1181) تم دعوة جمعية لممثلي الأمة (2181) ذات مهام استشارية، ولأن هاردنبرج كان معجبا بالمفكرين الفرنسيين فقد جعل ممتلكات الكنيسة علمانية وأصر على أن ينعم اليهود بالمساواة (11 مارس 2181) وفرض ضريبة ممتلكات على النبلاء وضريبة كسب على رجال الأعمال. وأنهى احتكار الطوائف (نقابات الصناعات والتجار ذات الطابع الوسيط - أي العائد للقصور الوسطى) ذلك النظام المعوق ورسخ مبدأ حرية الاستثمار والتجارة.

لقد كانت حركة إعادة بناء بروسيا فيما بين عام 7081 وعام 2181 موحية بالقوة المخترنة في طبقات الشخصية الألمانية. فتحت نواظر العيون الفرنسية المعادية، وفي ظل حكم واحد من أضعف الملوك في بروسيا استطاع رجال مثل شتاين Stein وهاردنبرج Hardenberg - ولم يكن أي منهما نبيلًا - أن يأخذوا على عاتقهم إعادة بناء أمة مهزومة ومحتلة ومفلسة، واستطاعوا في غضون ستة أعوام أن يسموا بها إلى سنام السلطة والفخر مما جعلها في سنة 3181 القائد الطبيعي في حرب التحرير (المقصود حرب التخلص من السيادة الفرنسية) وأسهمت كل الطبقات في هذا الجهد، فقاد النبلاء الجيش وقبل الفلاحون التجنيد الإجباري وتنازل التجار عن كثير من أرباحهم للدولة وناضل الرجال والنساء من أهل الأدب والفكر في طول ألمانيا وعرضها من أجل حرية الصحافة والفكر والعبادة، وفي سنة 7081، وفي برلين المحشودة بالقوات الفرنسية ألقى فيشته Fichte خطباته الشهيرة التي وجهها للأمة الألمانية دعا فيها إلى أقلية منظمة لتقود الشعب البروسي إلى طهارة خلقية (معنوية) وبعث وطني جديد وفي كونيغسبرج Konigsberg في سنة 8081 نظم بعض أساتذة الجامعات اتحاد الأخلاق والعلوم عرف فيما بعد باسم عصبة الفضيلة (توجنبوند Tugendbund) وكان هدفه تحرير بروسيا.

وفي هذه الأثناء كان شتاين Stein حائرا خارج بلاده يعاني النفي والفقر، والخوف الدائم من أن يقبض عليه أو تطلق عليه النار، وفي مايو سنة 2181 دعاه إسكندر للانضمام لبلائطه في سان بطرسبرج، وظل هناك مع مضيفه (إسكندر) في انتظار قدوم نابليون.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الشعب الألماني -> الاقتصاد

الفصل الثلاثون

الشَّعْبُ الأَلمَانِي

181 - 2181

1- الاقتصاد

كان الألمان في سنة 0081 شعباً ذا وعي طبقي، قبل التقسيم الطبقي كنسق للنظام الاجتماعي والتنظيم الاقتصادي، وقلما يحصل الشخص على لقب من ألقاب النبالة إلا بالميراث (أي يكتسبه عند ميلاده). لقد لاحظت مدام دي ستيل de Stael أنه في ألمانيا يحافظ كل شخص على رتبته (طبقتة) ومكانه في المجتمع وكأنما هما (الطبقة والمكانة) أمراً راسخاً (غير قابل للتغيير)(1)، وكان هذا الوضع أقل وضوحاً على طول الراين وبين خريجي الجامعات، لكن - بشكل عام - كان الألمان أكثر صبراً من الفرنسيين، فلم يصل الألمان إلى وضع الفرنسيين في سنة 9871 إلا في سنة 8481.

لقد كان تأثير الثورة الفرنسية في الأدب مثيراً، وكان تأثيرها في الصناعة الألمانية سطحياً. لقد كان في ألمانيا موارد طبيعية ثرية، لكن استمرار النظام الإقطاعي وسلطة البارونات الإقطاعيين في الدول الألمانية الوسطى والشرقية أبطأ من نهوض طبقة رجال الأعمال والمستثمرين الصناعيين التي كان يمكن أن تزدهر في ظل الحوافز المتاحة في الاقتصاد الحر وغير الطبقي، مما يتيح للصناعة الاستفادة من الفحم والمعادن المتوفرة بكثرة في الأرض الألمانية. أما التجارة فقد ساعد على ازدهارها مجموعة من الأنهار الرائعة: الراين، والفستر Wester والإلب Elbe والسال Saale والمين Main والسبري Spree والأودر Oder لكن تمزق الكيانات الألمانية (أو بتعبير آخر عدم اتحاد ألمانيا، وبقاؤها في كيانات سياسية منفصلة) جعل الطرق قصيرة قليلة غير معتنى بها، وفرض على المرور بها ضريبة مرور، وقطعها للصوص وقطاع الطرق. ومما عوق التجارة القيود التي فرضتها الروابط (التكتلات) التجارية والصناعية، والضرائب الباهظة واختلاف المقاييس والمكاييل والموازين والعملة والقوانين من منطقة إلى أخرى.

وكان على الصناعة الألمانية أن تواجه حتى سنة 7081 منافسة البضائع الإنجليزية التي أنتجتها آلات. لقد نعمت إنجلترا بجيل الريادة في الثورة الصناعية ومنعت تصدير تكنولوجيتها الجديدة كما منعت فنييها المهرة من العمل في الدول الأخرى(2). لقد عمل إله الحرب ذو الوجهين على ازدهار الصناعات لإطعام الناس وكسوتهم وقتلهم، فانتعش الاقتصاد الوطني، وبعد سنة 6081 أدى الحصار القاري الذي فرضه نابليون إلى منع البضائع البريطانية من دخول القارة على نحو قل أم كثر، مما ساعد الصناعات داخل القارة على النمو (لمواجهة نقص البضائع الواردة). لقد تطورت صناعة استخراج المعادن وتصنيعها في غرب ألمانيا خاصة في دوسلدورف Dusseldorf وإسن Essen وماحولهما. ففي سنة 0181 بدأ فريدرش كروب (Friedrich krupp 7871-6281) في إسن Essen مجمع صناعات معدنية ظلت تسلح ألمانيا لقرن.

ورغم هذا الجهد الذي كان يبذله رجال الصناعة فقد كان النبلاء والملك ينظرون إليهم نظرة دونية باعتبارهم مستغلين طلاب ربح، ولم يكن مسموحاً لتاجر أو مستثمر صناعي أن يتزوج من طبقة النبلاء أو أن يشتري أرضاً يمكنه أن يفرض عليها رسوماً إقطاعية. وكان مسموحاً للماليين - من الهوجونوت (طائفة من البروتستانت) أو اليهود أو غيرهم - أن يقرضوا النبلاء والملوك، لكن عندما اقترحوا في سنة 1810 أن تحذو بروسيا حذو إنجلترا وفرنسا بتأسيس بنك وطني يصدر سندات مالية بفوائد منخفضة، وبذا يساعد الدين العام في تمويل الدولة، كان من رأي الملك والنبلاء أن مثل هذا الإجراء سيجعل المملكة تحت رحمة رجال البنوك (الماليين). ورفضت بروسيا أن يتحكم في الأمة مديرو العاصمة، وإنما كانت أكثر ميلاً إلى أن يقودها العسكريون والأرستقراطية (اليونكر Junker).

صفحة رقم : 14717

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الشعب الألماني -> المؤمنون بالمسيحية والمتشككون فيها

2- المؤمنون بالمسيحية (والمتشككون فيها)

ما زال الألمان في فترتنا هذه منقسمين دينياً كما كان عليه الحال خلال حرب الثلاثين عاماً. وبطرق كثيرة كانت حروب فريديريك الكبير مع النمسا وفرنسا استجابة لهذه المسألة التي طال أمدها. وإذا كان فريديريك قد خسر، فإن البروتستانتية قد تختفي من بروسيا كما كانت قد اختفت من هس Husse في بوهيميا Bohemia بعد سنة 1702. ولما كان رجال الدين البروتستانت قد انتقلت إليهم الممتلكات الكنسية للأساقفة الكاثوليك في الشمال البروتستانتية، فقد أصبحوا - أي رجال الدين البروتستانت - معتمدين على الحماية العسكرية للأمرء البروتستانت واعترفوا بهم كرأس للكنيسة البروتستانتية في ممالكهم (أي ممالك هؤلاء الأمرء)، وعلى هذا كان فريديريك هو رأس الكنيسة البروسية مع أنه هو نفسه كان لا أدرياً (أي متشككاً في اللاهوت المسيحي - في هذا السياق). وفي الدول الألمانية الكاثوليكية - النمسا، وبوهيميا، وكل كيانات كونفدرالية الراين تقريباً - كان الأساقفة - إن لم يكونوا هم أنفسهم حكاماً - يحتاجون للحماية نفسها، وأصبحوا تابعين للسلطة المدنية (غير الدينية أو بمعنى أدق سلطة غير الإكليروس) وراح كثيرون منهم لايهتمون كثيراً بالبيانات التي يصدرها البابا، لكن معظمهم كان يقرأ بانتظام من فوق منابر الوعظ قرارات السلطات المدنية التي تحميهم. وعلى هذا كان الأساقفة في الكيانات الألمانية التابعة لنابليون - سواء منهم البروتستانت أو الكاثوليك - يقرأون من فوق منابر كنائسهم أوامر نابليون الإدارية ونشراته العسكرية (3) وكان لتبعية الكنيسة على هذا النحو آثار مختلفة (غالباً ما كانت هذه التبعية تأخذ أشكالاً متناقضة): اتجاهات تقوية Pietism (وهو اتجاه ديني متشدد يؤكد على دراسة الكتاب المسيحي المقدس والخبرة الدينية الشخصية) واتجاهات عقلية (اتجاه يعتبر العقل هو الحكم في قضايا المعتقدات). لقد كانت هناك أسر ألمانية كثيرة لها تراثها التقوي (بالمعنى الأنف ذكره) الذي يفوق انتماءها السياسي وهو في الوقت نفسه أعمق من تمسكها بالطقوس الدينية (الاتجاه الطقسي). وهذه الأسر كانت تجد إلهامها الديني أكثر ما يكون في الصلوات داخل المنزل (في نطاق الأسرة) وليس في اللاهوت الرسمي أو عظات رجال الدين من فوق منابر كنائسهم، فرأوا شيئاً فشيئاً يهملون الكنائس وعوضاً عن ذلك راحوا يتعبدون في جماعات خفية esoteric (المقصود جماعات لها أساليبها الخاصة في العبادة لا يعرفها غيرها)، وكانت جماعات المتصوفة (الباطنية) الذين يوفرون تراث المتنبئين مثل جاكوب (يعقوب) بوهم Jakob Bohme هم الأكثر حماسة واعتزازاً بأساليبهم في العبادة إذ كانوا يزعمون رؤية الرب ومقابلته وجهاً لوجه أو أنهم يسعون لذلك، كما كانوا يزعمون أنهم

عابنوا التنوير وجربوه، ذلك التنوير (المعنى هنا أقرب إلى الذوبان في القوى القدسية العليا) الذي ينهي أقسى مشاكل الحياة وأكثرها مرارة. وكانت أخوية المورافيين Moravian Brotherhood (الأخوية تعني الجماعة الدينية التي يرتبط أفرادها ارتباطاً شديداً أساسه الإيمان بمعتقدات واحدة) هي على نحو خاص الأكثر تأثيراً، فقد عانى أفرادها ببطولة صامته قرونا من الاضطهاد، فقد طردتهم بوهيميا الكاثوليكية وانتشروا في المناطق الألمانية البروتستانتية وأثروا - بعمق - في حياتها الدينية. وقابلت مدام دي ستيل Stael بعضهم وتأثرت بتقواهم وإسهامهم في الأعمال الخيرية وكان ينقش على قبر الواحد منهم إذا مات ولد في يوم كذا وعاد إلى وطنه في يوم كذا (4) وقد أمّنت البارونة جولي (باربارا جوليانه) فون كروندر (4281 - 4671) Julie (Barbara Juliane) Von Krudener الأثيرة لدي مدام دي ستيل أمّنت بمعتقدهم وكانت تدعو إليه بطريقة جذابة حتى إن الملكة لويز Louise البروسية تأثرت بهذه الدعوة، وكذلك تأثر بها لفترة القيصر الروسي إسكندر، لكنهما وإن كانا قد تأثرا بالمعتقد فإنهما لم يستجيبا للمشاركة في الأعمال الخيرية.

وكان الشكاكون Skeptics (المفهوم أنهم شكاكون في المعتقد المسيحي) الذين استنشقوا هواء التنوير الفرنسي هم الطرف الآخر المقابل للباطنيين المسيحيين (المتصوفة المسيحيين) لقد فتح ليسنج Lessing على استحياء عصر التنوير الألماني Aufklärung بالبحث عن أمور أهلها التاريخ وراح ينشر جزءاً منها (Fragmente eines ungenannten) في الفترة من 4771 إلى 8771 وقد عبر هيرمان ريماروس Hermann Reimarus في هذا العمل عن شكوكه في صحة الأناجيل (شكه في أصلها التاريخي)، وبطبيعة الحال كان هناك شكاكون (المفهوم أنهم شكاكون في المعتقد المسيحي) في كل جيل، لكن غالبهم كان يرى الصمت من ذهب، وكان تأثيرهم يتم قمعه إما بالبوليس أو بالتخويف من عذاب الجحيم. أما الآن فلم تعد أفكار هؤلاء الشكاكين مكتومة فقد وجدت طريقها في محافل البنائين الأحرار (الماسونيين) ومحافل الروزيكريشيين Rosicrucian (تشكيلات سرية اشتهرت في القرنين 71 و 81 وزعمت أنها تملك معرفة سرية للطبيعة والدين) وفي الجامعات بل وحتى في الأديرة. وفي سنة 1871 أدى كتاب كانط (نقد العقل الخالص) إلى حدوث بلبلة بين المتعلمين في ألمانيا بشرحه لصعوبات اللاهوت العقلي (صعوبات إخضاع اللاهوت للعقل)، وظلت الفلسفة الألمانية طوال جيل بعده تعمل على دحض شكوكه أو إلغائها، وحقق بعض الباحثين بدأب لدحض أفكاره شهرة عالمية مثل فريدريش شلايرماشر Schleiermacher، على وفق ما ذكره ميرابو Mirabeau (الذي زار ألمانيا ثلاث مرات بين عامي 6871 و 8871) كان معظم رجال الدين البروتستانت البروسي في هذا الوقت قد تركوا - بشكل سرّي - إيمانهم السفلي وابتأوا يفكرون في المسيح كرجل صوفي محبوب أعلن قرب نهاية الدنيا. وفي سنة 0081 سجل مراقب متعجل أن الدين (المسيحي) قد مات في ألمانيا وأنه من غير الملائم وصفها بأنها مسيحية (5) وتتبا جورج ليشنتبرج (Lichtenberg 2471- 9971) أنه سيأتي يوم يكون فيه اعتقاد الجميع في الرب (المقصود يسوع) God كاعتقاد أطفال الحضانة في الأثباح (6).

لقد كانت هذه التقارير مبالغاً فيها، فقد أثرت الشكوك في الدين في عدد قليل من الأساتذة وذوي الثقافة الضحلة لكن هذه الشكوك لم تكن تصل إلا قليلاً إلى الجماهير. واستمرت العقيدة المسيحية تدعو إلى معنى اعتماد الإنسان على قوى علوية فوق الحس، وتوضح ميل الإنسان - حتى المتعلم - لطلب العون من قوى علوية (فوقطبيعية)، وراحت التجمعات البروتستانتية تدفئ قلوب أعضائها بالترانيم الرائعة، واستمرت الكنيسة الكاثوليكية في تقديم معجزات القديسين والتمولجيا، والتأملات الباطنية والموسيقا والفن لتكون ملاذاً أخيراً لأرواح أرهقتها أعوام من الملاحة العقلية وسط عواصف الفلسفة والجنس ومخاطرهما. وعلى هذا فإن علماء واسع المعرفة مثل فريدريش فون شليجل Friedrich Von Schlegel وبنات موسى مندلسون Mendelssohns اليهوديات المتألفات راحوا يبحثون أخيراً عن الدفاء وحنان الأمومة في حضن الكنيسة الأم. لقد ظل الإيمان دوماً، وبقي الشك أيضاً.

لا بد وأن يكون الإيمان المسيحي قد ضعف مع ازدياد التسامح الديني، فكلما زادت المعرفة وجدناها تتخطى الحواجز التي وضعتها العقائد. لقد أصبح من المستحيل بالنسبة إلى المسيحيين المتعلمين أن يكرهوا اليهودي المعاصر بسبب صلب المسيح السياسي (صلب تم لأسباب سياسية) مضى عليه ثمانية عشر قرناً، وربما قرأ المسيحي المتعلم في إنجيل متى (8/12) كيف أن جموعاً من اليهود قد انتشروا وجرى النخيل في أيديهم للترحيب بداعيهم المحبوب (المقصود المسيح عليه السلام) وهو يدخل القدس قبل موته بأيام قليلة. وعلى أية حال فقد كان اليهود في النمسا قد جرى تحريرهم على يد جوزيف الثاني، وفي بلاد الراين على يد الثورة الفرنسية أو نابليون، وفي بروسيا على يد هاردينبرج فخرجوا سعداء من معازلهم ghettos وتكيفوا مع محيطهم وزمانهم لباساً ولغةً وعادات، وأصبحوا عمالاً قادرين ومواطنين موالين للبلاد التي يقيمون فيها وعلماء مبدعين ودارسين مخلصين. لكن ظلت معاداة السامية سائدة بين غير المتعلمين أما بين المتعلمين فقد فقدت بعدها الديني وإنما كان لها (أي معاداة السامية) أساس يغذيها في المنافسة الاقتصادية والفكرية وفي أساليب الحياة في (الجيتو) التي ظلت باقية إذ حافظ عليها اليهود الفقراء. لقد شهدت فرانكفورت أيام جوتة (جيتته) عداً شديداً بين المسيحيين واليهود، واستمر هذا العداً طويلاً، لأن البورجوازية الحاكمة هناك أحست بالمنافسة اليهودية الشرسة في مجال التجارة والصرافة والأمور المالية. وكان مير أمشل روتشلد Meyer Amschel Rothchild اليهودي (3471 - 2181) يعيش بينهم في هدوء وأسس أعظم البيوت المالية في التاريخ بإقراض الأمراء المفلسين مثل الكونتات الألمان (اللاندرجريف) في هس - كسل - Hesse Cassel، أو يعمل اليهود كوكلاء لإنجلترا لتقديم الأموال للذين يواجهون نابليون. ومع هذا فقد كان نابليون هو الذي أصرّ في سنة 0181 على منح يهود فرانكفورت حريتهم كاملة بضمنان تشريعاته المعروفة بالمدونة النابليونية (7). أما ماركوس هيرز (هيرتس) (7471 - 3081) فقد عمل على استخدام الازدهار - المالي لليهود في رعاية العلوم والفنون. ولد ماركوس في برلين وهاجر في سنة 2671 إلى كونيجسبرج Königsberg حيث كان كانط وغيرهم من الليبراليين قد أقنعوا الجامعة بقبول اليهود، وسجل هيرتس في الجامعة كطالب طب لكنه كان يحضر محاضرات كانط ويواظب عليها غالباً مع حضوره محاضرات الطب وجعله حبه للفلسفة واهتمامه بها تلميذاً أثيراً لكانط (8). وعندما حصل على درجته العلمية في الطب عاد إلى برلين وسرعان ما حقق شهرة ليس فقط كطبيب وإنما أيضاً كمحاضر في الفلسفة وجذبت محاضراته في الفيزياء مستمعين ذوي حيثة كان منهم فريدريك وليم الذي أصبح بعد ذلك هو الملك فريدريك وليم الثالث وكان زواجه من هنريتا دي ليموس Henrietta de Lemos - إحدى أجمل نساء عصرها - سبباً لبهجة وتعاسة معاً. لقد جعلت بيته صالوناً يضارع أفضل صالونات باريس. وامتد كرمها ليشمل الجميلات اليهوديات الأخريات بمن فيهن برندل Brendel ابنة موسى مندلسون (أصبح اسمها بعد ذلك دورثيا Dorothea) وراشيل ليفن Rachel Levin التي تزوجت بعد ذلك الدبلوماسي والمؤلف فارنهاجن فون إنس Varnhagen Von Ense وتخلق ذوو الحيثة من مسيحيين ويهود حول ربات الفتنة والجمال الثلاث، وابتهج المسيحيون إذ وجدنهن جميلات جسداً وعقلاً وكن مغامرات فانتات. وحضر ميرابو Mirabeau هذه الاجتماعات ليناقد الأمور السياسية مع ماركوس كما كان يتناول موضوعات تنسم بالظرف والذكاء مع هنريتا، وكانت حوارته معها أكثر من حوارته مع زوجها ماركوس وكانت تستمتع بإعجاب ذوي الحيثة من المسيحيين بها، ودخلت في علاقات غامضة مع فيلهلم فون همبولدت Wilhelm Von Humboldt المعلم، ومع فريدريش شليمرماشر Friedrich Schleiermacher الذي كان داعية فلسفياً. وفي هذه الأثناء شجعت دوروثا Drotha - التي كانت قد تزوجت سيمون فايت Simon Veit وأنجبت له طفلين - على ترك زوجها وبيتها لتعيش مع فريدريش فون شليجل Von Shlegel كخليفة له، غير أنها أصبحت بعد ذلك زوجته.

وكان لهذا الاختلاط الحرّ بين المسيحيين واليهود أثر مضعف على الجانبين: لقد أضعف العقيدة المسيحية (السائدة) عندما وجد المسيحيون أن المسيح ورسله Apostles (الكلمة في المصطلح المسيحي تعني الدعاة له وسفر أعمال الرسل يعني سفر الدعاة أو المبشرين بالمسيحية) الاثني عشر لم يكن هدفهم سوى الوصول إلى يهودية جديدة إصلاحية، أو بتعبير آخر لم يكن هدفهم سوى إصلاح اليهودية لتكون مطابقة لشرائع موسى والهيكل. وكذلك أدى هذا الاختلاط إلى إضعاف عقيدة اليهود الذين رأوا أن إخلاصهم لليهودية يشكل معوقاً قاسياً يحول بينهم وبين المكانة

الاجتماعية والتواؤم مع من يعيشون معهم. وعلى كلا الجانبين (المسيحي واليهودي) أدى تدهور المعتقد الديني إلى تساهل في المعايير الأخلاقية.

صفحة رقم : 14719

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الشعب الألماني -> الأخلاق

4- الأخلاق

كانت قواعد السلوك والأخلاق قائمة على الاعتقاد في إله رحيم منتقم، يشجع كل تواضع ويراقب كل عمل ويعلم ما تخفي الصدور، لا ينسى شيئاً، وهو صاحب الحق ومالك القوة، ليصدر الحكم ويعاقب أو يعفو. إنه إله الحب والانتقام إنه السيد المهيم مالك الجنة والنار (وهي صورة الإله في العصور الوسطى). هذه العقيدة الكنسية والتي ربما كان لابد منها ظلت موجودة بين الجماهير وساعدت رجال الدين والأرستقراطيين Junkers والجنرالات والبطارقة على التحكم في جماهيرهم (قطيعهم) والفلاحين والجنود والبيوت. لقد تطلبت الحروب الدورية والمنافسة التجارية والحاجة للانضباط الأسري، تأصيل وصياغة عادات الطاعة والتنفيذ لدى الشباب وعادات التواضع المبهج والعمل داخل المنزل لدى البنات، والصبر والإخلاص لدى الزوجات، والقدرة الصارمة على القيادة لدى الزوج والأب. وكان الرجل الألماني العادي يجد من الحكمة أن يكون وقوراً أمام زوجته وأبنائه ومناقسيه وموظفيه، رغم أنه بعيداً عنهم - يكون مرحاً محباً للفكاهة - على الأقل عندما يكون في الحانة. وهو - أي الألماني العادي - يعمل بجد، ويتوقع الشيء نفسه ممن يعملون تحت إدارته، وهو يحترم التقاليد والتراث باعتبارهما نبع الحكمة وعمود المصداقية. والعادات القديمة تمكنه من مواجهة مهامه اليومية وارتباطاته بفكر منظم مريح. وهو متمسك بدينه كتراث مقدس وهو شاكر له لأنه يعينه على تدريب أبنائه على المودة والنظام والانضباط. وهو يتبرأ من الثورة التي أشاعت الفوضى في فرنسا ويكره استعجال الشباب الألماني وهياجهم متمثلة في تحللهم الطائش من العلاقات الراضخة، اللازمة بشكل حيوي لضبط المنزل والدولة. وهو - أي الرجل الألماني العادي - يجعل زوجته وأبنائه تابعين له، لكنه يستطيع أن يكون إنسانياً ومحبوفاً في منزله في الوقت نفسه وهو يعمل بلا ملل ولا كلل لمواجهة احتياجات أسرته البدنية والعقلية والنفسية.

وقد قبلت الزوجة وضعها دون كبير مقاومة لأنها مقتنعة أن الأسرة الكبيرة في بلد غير آمن يحيطه الأعداء، في حاجة إلى يد ثابتة صارمة. وهي في المنزل - كتابعة لزوجها وملتزمة بالقانون (الشريعة) - تصبح مقبولة كسلطة موجهة، وغالبا ما كانت دوماً تحظى بحب أولادها طوال الحياة. وكانت راضية بدورها كأم للأطفال مبرأة من الإثم (9) تحافظ على بقاء الجنس البشري.

لكن كانت هناك أصوات أخرى. ففي سنة 1771 كان تيودور فون هيل Theodore Von Hippel قد سبق ماري فولستونكرافت Wdlstonecraft بثمانية عشر عاماً، إذ نشر كتابه (عن الزواج) فكان صوتاً رجولياً للدفاع عن تحرير المرأة. لقد اعترض على قسم الزوجة على طاعة زوجها إذ كان من رأيه أن الزواج مشاركة وليس تبعية الزوجة لزوجها، فهي شريكة له. وطالب بتحرير المرأة تحريراً كاملاً ليس فقط بإعفائها من قسم الطاعة بل لأهليتها للمناصب بل لأعلى المناصب، وذكر بعض النسوة الحاكمات في عصره - كريستينا في السويد وكاترين في روسيا، وماريا تريزا في النمسا. وإذا لم ينص القانون على التحرر الكامل للمرأة، فإن من الأمانة أن نحول مصطلح حقوق الإنسان إلى مصطلح حقوق الرجال (01) ولم تصغ إليه ألمانيا لكن - بتأثير الثورة الفرنسية وانتشار الفكر الراديكالي

في ألمانيا - شهدت نهاية القرن 81 وبداية القرن 91 هبة لنساء متحررات كن كثيرات العدد في الفترة التي نتحدث عنها، لكن كانت حركة تحرير النساء في فرنسا في القرن الثامن عشر هي الأكثر ألمعية، ولم تنتم الحركة في كلا الكيانين بالطيش والتهور. ولم تنظر الحركة الرومانسية - التي كانت صدى للثروبادوريين في العصور الوسطى - للمرأة كأم كديمتر Demeter ولا كعذراء كمريم وإنما كباقة ورد تجعل المرء ثملاً معجباً بحيويتها (أي المرأة) الجسدية والعقلية ولأبأس من شيء من الغيبة والقليل والقال بل والفضائح لإكمال الإغراء (لإثارة الفتنة). لقد لاحظنا أن هنريتا هيرز (هيرتز)، ودوروثا مندلسون Mendelssohn - بالإضافة إلى كارولين ميشيل Caroline Michaelis (ابنة جوتجن أوريينتالست Gottingen Orientalist) التي كانت - وهي أرملة ثورية - قد تزوجت أوجست فون شليجل وطلقته وتزوجت من الفيلسوف شيلنج. وهناك تيريزا فورستر التي ضارعت زوجها في اتجاهها الجمهوري، وتركته (أي تركت زوجها) لتعيش مع دبلوماسي من سكسونيا، وكتبت رواية سياسية (the Seldorf family) أحدثت ضجة في بلاد الراين. لقد كتب فيلهلم فون همبولدت أنها بتفوقها الفكري كانت واحدة من أكثر النساء جدارة بلفت النظر إليها في عصرها (11) وهناك راشيل ليفن فارنهامن فون إنس Ense التي كان يتردد على صالونها دبلوماسيو برلين ومفكروها، وهناك بيتنافون أرنييم Bettina Von Arnim التي رأيناها تحوم حول بيتهوفن وجوته (جيتته) ورأينا نسوة مثقفات - لسن ثوريات تماما يفقن جوته بريفا في فيمار: إنهن الدوقة لويزا Luise وشارلوت فون كالب Kalb وشارلوت فون شتاين Steins وكان من الطبيعي أن تؤدي حركة تحرير المرأة في المدن الألمانية الكبيرة إلى تخفيف الكوابح الأخلاقية، فقد اتخذ فريدريك وليم الثاني خليات، وضارعه بعد ذلك في هذا الأمير لويس فريديناند، وازداد بدرجة كبيرة الزواج عن حب لأن الشباب الأصغر سنا تخلى عن البحث عن زوجة ذات مال إلى زوجة يعشقونها ذات جمال (أي راحوا يبحثون عن النسوة الرومانسية)، وراح جوته المسن ينظر بازدرء من فيمار لحياة الترف التي يحياها أفراد الطبقات العليا وذوو المكانة في برلين لكنه تبنى الأخلاق الجديدة عندما ذهب إلى منتجعات كارلسباد Karlsbad حيث رأى النسوة يعرض أنفسهن بخيلاء في ملابسهن المتمشية مع (المودة) الجديدة على نحو ما كانت تفعل مدام تاليا Tallien ونساء آل بوهارنيه Beauharnis في باريس في سنة 5971.

وضارعه الفساد السياسي هذا الانحلال الجنسي، فكانت الرشوة أداة أثيرة يستخدمها الدبلوماسيون، وكانت الرشوة سائدة في الجهاز الإداري في الدول الألمانية الكاثوليكية والبروتستنتية على سواء. وبدا رجال الأعمال أكثر أمانة من رجال السياسة وكان البورجوازي حتى إذا تزوج من امرأة متساهلة relaxed فإنه يجعلها بمعزل عن حفلات السمر على طول نهر السبري Spree وعلى أية حال ففي هذه الأثناء كانت الجامعات تصب في الحياة الألمانية وفي قيم الأخلاق فيها شبابا لم يحظ بالقدر الكافي من التعليم فكان كعملية هدم في خلايا المجتمع الحية تسبب له ازعاجا.

صفحة رقم : 14720

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الشعب الألماني -> التعليم

5- التعليم

لقد أصبح التعليم الآن هو الشاغل الأول لألمانيا وهو الإنجاز الأول أيضا، وارتبط هذا بالحرب فقد كان لا بد من حفز العقول والأنفس والأبدان لمواجهة نابليون. لقد وجدنا فشته Fichte في كتابه خطابات إلى الأمة الألمانية (7081)(21) يعبر عن قناعات العصر رغم أن قلة هم الذين تنبهوا لقوله: إن إصلاح التعليم في كل مراحلها، هو

وحده الذي يعلي من شأن ألمانيا لمواجهة احتياجات الدولة في هذه الأعوام التي تحطمت فيها الروح الألمانية بسبب الاستسلام السريع والإذلال الذي تعرض له الوطن. وفي سنة 9081 تم تعيين فيلهلم فون همبولدت Wilhelm Von Humboldt (1797-1835) وزيرا للتعليم في بروسيا، وأعطى لنفسه صلاحيات تجعل إصلاحاته نافذة المفعول، فجدد النظام التعليمي الألماني الذي سرعان ما أصبح بفضل أفضل نظام تعليمي في أوروبا. فأتى الطلاب من بلاد لا حصر لها للدراسة في جامعات جوتنجن Gottingen و هيدلبرج Heidelberg وبيننا Jene وبرلين. وانتشر التعليم ليشمل كل الطبقات واتسعت موضوعاته وأعراضه، ورغم التركيز على دراسة الدين كدعامة أساسية للشخصية، فقد كان المعلمون الرسميون يركزون على الوطنية كدين جديد في مدارس ألمانيا - تماما كما فعل نابليون في مدارس فرنسا، إذ جعل الوطنية هي اللاهوت الجديد.

لقد كانت الجامعات الألمانية في حاجة إلى دعم قوي، وقد تلقته بالفعل، ذلك أن كثيرا منها كان يعاني من الإهمال الذي كان يعود لفترة طويلة مضت، لقد كانت جامعة هايدلبرج Heidelberg قد أسست في سنة 6831، وأسست جامعة كولوني Cologne في سنة 8831، وجامعة أرفورت Erfurt في سنة 9731، وجامعة ليبزج (ليبتسج Leipzig) في سنة 9041، وجامعة روستوك Rostok في سنة 9141 وجامعة مينز (مينتس Mainz) في سنة 6741، وجامعة توبنجن Tubingen في سنة 7741 وجامعة فيتنبرج Wittenberg في سنة 2051 والآن أصبحت كل هذه الجامعات في عُسْر وحاجة. وكانت جامعة كونجسبرج Königsberg التي بدأت في سنة 4451 قد انتعشت بوجود عمانويل كانط Immanuel Kant بها. أما جامعة بينا Jena التي أسست سنة 8551 فقد صارت العاصمة الثقافية لألمانيا بوجود شيلر Schiller وفيشته Fichte وشيلنج Schelling وهيجل Hegel والأخوين شليجل Schlegel والشاعر هولدرلين Holderlin، وفي هذه الجامعة كانت هيئة التدريس غالبا ما تضارع الطلاب في ترحيبهم بالثورة الفرنسية. وكانت جامعة هال (Halle 4061) أول جامعة عصريه بثلاثة معان: لقد نذرت نفسها لحرية الفكر والتدريس، ولم تكن تطلب من أساتذتها تعهدا بالالتزام بالعقيدة الدينية السلفية (orthodoxy) (المقصود الصحيحة من وجهة نظر رجال الدين الكاثوليك أو البروتستانت) وقد خصصت في برامجها التعليمية مكانا للعلوم والفلسفة، وأصبحت مركزا للبحث العلمي بدراساته النظرية والمعملية (31). أما جامعة جوتنجن التي أسست في وقت متأخر يرجع لسنة 6371، فقد أصبحت في سنة 0081 أعظم مدرسة في أوروبا (41) لاتضارعها إلا جامعة لايدن Leiden في هولندا. قالت مدام دي ستايل Staol التي كانت تجول هناك في سنة 4081 إن كل شمال ألمانيا غاص بأفضل الجامعات في أوروبا (51) لقد كان فيلهلم فون Humboldt كفرنسيس بيكون في هذه الحركة الإحيائية التعليمية، وكان واحدا من بين العقول المتحررة العظيمة في عصره. ورغم أنه نبيل الأصل (من طبقة النبلاء) إلا أنه وصف طبقة النبلاء بأن وجودها كان ضروريا في وقت من الأوقات أما الآن فقد أصبح وجودها شراً لا داعي له وقد خلص من دراسته للتاريخ أن كل المؤسسات تقريبا مهما أصبحت ناقصة معوقة معيبة، إلا أنها في وقت من الأوقات كانت مفيدة. فما الذي جعل الحرية على قيد الحياة في العصور الوسطى؟ إنه نظام الإقطاع fiefs. ما الذي حافظ على العلوم في عصور البربرية؟ إنه النظام الديري (61). لقد كتب هذا وهو في الرابعة والعشرين من عمره، وبعد ذلك بعام (2971) حكم بحكم - وكأنه يتنبأ - على الدستور الفرنسي الجديد الذي أصدرته فرنسا في سنة 1971 بأنه يحيوي - في رأيه - كثيرا من المبادئ المثيرة للإعجاب، لكن الشعب الفرنسي - وهو شعب عاطفي مستثار - لن يكون قادرا على التعايش معه بحكمة وقد يحولون بلادهم إلى فوضى ويغرقونها في الاضطراب. وبعد ذلك بجيل كان يتجول مع صديق له فيلولوجي (عالم بفتح اللغاة) في ميدان معركة ليبزج (ليبتسج) حيث واجه نابليون كارثة في سنة 3181، فقال: إن الممالك والإمبراطوريات - كما نرى هنا - تموت، لكن قصيدة رقيقة تبقى للأبد (71) وربما كان يفكر في الشاعر بندار Pindar الذي كان هو قد ترجم أشعاره من لغتها الإغريقية الصعبة بشكل غير عادي.

لقد فشل كدبلوماسي لأنه كان شديد الافتتان بالثورة الفكرية بدرجة تجعله غير قادر على معالجة أمور السياسة المتغيرة ولما كان غير مرتاح على المسرح العام (غير مرتاح للتعامل مع الأمور العامة) فقد عكف على حياة العزلة وراح يدرس، وكان مفتونا بعلم فقه اللغة (الفيلولوجيا) وتتبع الألفاظ عند انتقالها من مكان إلى مكان (المفهوم لمعرفة ما يلحقها من تحريف أو تبديل). ولم يكن يؤمن بقدرة الحكومة على حل المشكلة الاجتماعية لأن أفضل القوانين يمكن أن تقشل أمام طبيعة الإنسان التي لا تتغير. وخلص إلى أن الأمل الوحيد للإنسان يكمن في تطور أقلية قد يكون في إخلاصها منارة تهدي الشباب فيقتدون بها حتى في جيل أصابه القنوط.

وعلى هذا فقد خرج وهو في الثانية والأربعين من خصوصيته (انكفائه على نفسه) وخدم بلاده وزيرا للتعليم، وفي سنة 0181 عهدت إليه الحكومة بتنظيم جامعة برلين، فأحدث فيها تغييرات ظلت مؤثرة في الجامعات الأوروبية والأمريكية حتى اليوم: لقد كان محك اختيار الأساتذة ليس قدرتهم على التدريس فحسب وإنما لشهرتهم أو رغبتهم في البحث العلمي الأصيل. وتم دمج أكاديمية برلين للعلوم (أسست في سنة 1171) والمرصد الوطني وحديقة النباتات والمتحف والمكتبة في الجامعة الجديدة. والتحق بهذه الجامعة فيشته الفيلسوف، وشلير مباشر اللاهوتي، وسافيجني Savigny

القانوني وفريديش أوغسط فلف (9571-4281 Wolf) العالم الكلاسي (المقصود المتخصص في الكلاسيات أي الدراسات اليونانية واللاتينية) الذي فاجأ الهيلينستيين Hellenists (المقصود هو المتخصصون في الدراسات الهيلينستية أي التراث اليوناني المتفاعل مع تراث الشرق عامة، وقد يكون المقصود أهل هذه المناطق) ببحوثه المتسمة بالنتور والتي خلص منها إلى أن هوميروس Homer ليس شاعرا واحدا وإنما سلسلة من المغنين هم الذين ألفوا - بشكل جماعي - الإلياذة والأوديسة، وقد صدرت دراسته هذه (Prolegomena Homerum) في سنة 5971، وفي جامعة برلين كان بارتولد جورج نيبور Niebuhr (نيبهر) (6771 - 1381) يلقي الحاضرات التي مهدت لظهور كتابه (تاريخ روما) (Geschichte Romisch 1181-2381) وأدهش الباحثين برفضه الفصول الأولى من كتاب ليفي Livy باعتبارها أساطير وليست تاريخا. ومن الآن فصاعدا أصبحت ألمانيا هي رائدة العالم في الدراسات الكلاسيكية والفيلولوجيا (فقه اللغة) وتاريخ التاريخ (الهستور يوجرافي) وكذلك الفلسفة. أما تفوقها وسيادتها في مجال العلوم فسيأتيان فيما بعد.

صفحة رقم : 14721

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الشعب الألماني -> العلوم

6- العلوم

لقد تأخر العلم في ألمانيا بسبب ارتباطه غالبا بالفلسفة، ارتباطا شديدا وكأنه والفلسفة توأمان ملتصقان (سياميان) فخلال معظم هذه الفترة كان يعتبر جزءا من الفلسفة، وكان مندمجا فيها مع الدراسات التاريخية والثقافية تحت مسمى دراسة المعرفة أو حسب المصطلح الألماني فسنشافتليهر Wissenschaftslehre لقد دمر هذا الارتباط العلم لأن الفلسفة الألمانية كانت في ذلك الوقت تنظر إلى المنطق النظري باعتباره أرقى بكثير من الإثبات بالبحث أو التحقق بالتجربة.

غير أن رجليين كانا هما على نحو خاص اللذين فرضا احترام العلم في ألمانيا في هذا العصر - كارل فريديش جاوس (7771-5581 Gauss) وإسكندر فون همبولدت (9671-6581 Humboldt). ولد جاوس في بيت ريفي في برونسفيك Brunswick لأب يعمل بستانيا وبناء بالأجر ومطهر قنوات ولم يكن هذا الأب موافقا على التعليم باعتباره جواز مرور إلى الجحيم(81). وكانت أم كارل - على أية حال - قد لاحظت ابتهاجه بالأرقام ومهارته في التعامل معها، وراحت الأم تقتصد وتوفر لتدبير المال اللازم لإرساله إلى المدرسة الابتدائية ثم المدرسة الثانوية Gymnasium وهناك أحرز تفوقا سريعا في الرياضيات حتى إن معلمه دبر له لقاء مع الدوق شارلز وليم (فليام) فرديناند البرونسفيكي of Bronswick وتأثر الدوق فدفع للصبي المصاريف الدراسية طوال ثلاث سنوات في كلية كارولينيم في برونسفيك of Bronswick Collegium Carolinum، وبعد اجتيازه اختباراتها التحق بجامعة جوتنجن (5971) وبعد أن قضى فيها عاما لم تكن أمه قادرة على فهم دراسته ابنتها للأرقام والدياجرامات (رسومه البيانية) فسألت معلمه عما إذا كان هناك أمل في أن يحقق ابنها درجة الامتياز، فكان رده: سيكون ابنك أعظم علماء الرياضيات في أوربا(91) وربما تكون الأم قد سمعت قبل موتها ما قاله لابلاس Laplace من أن جاوس Gauss قد حقق بالفعل نبوءة معلمه. إنه الآن في نفس درجة أرشميدس ونيوتن(02).

إننا لن نتظاهر بفهم اكتشافاته، ولن نخوض في الشرح إلا في أقل القليل - اكتشافاته في نظرية الأرقام، والأرقام التخيلية وحساب التفاضل والتكامل والحساب اللانهائي - وبهذا نقل جاوس علم الرياضة من الحال التي كان عليها في أيام نيوتن إلى علم يكاد يكون جديداً، فأصبح بذلك (أي علم الرياضيات) أداة لما حققه العلم من معجزات في عصرنا. بل إنه هو نفسه راح يطبق نتائج الرياضيات في ستة حقول من حقول المعرفة. وأدى رصده لمدار أكبر السبيرات (أكبر الكواكب السيارة الصغيرة بين المريخ والمشتري) ومراقبته إلى صياغة منهج جديد وسريع لتحديد مدارات الكواكب كان أول هذه السبيرات (الكويكبات) قد تم اكتشافه في أول يناير سنة 1081. وأجرى أبحاثاً أقامت نظرية المغناطيسية والكهربية على أسس رياضية. لقد كان بركة لكل العلماء كما حملهم عبئاً ذلك أنه آمن بأن العلم لا يعتبر علماً إلا إذا صيغ في شكل رياضي وبمصطلحات رياضية.

وكان هو نفسه شائقاً كعلمه، فبينما هو يعيد بناء العلوم، ظل نموذجاً للتواضع، فلم يكن عجولاً لنشر مكتشفاته ومن هنا لم يحظ بالإطراء لهذه المكتشفات إلا بعد وفاته، وأحضر أمه العجوز لتعيش مع أسرته ومعه، وراح يخدمها بنفسه ويمرضها دون أن يسمح لأي أحد آخر غيره بالقيام بهذا حتى في أحوالها الأربعة الأخيرة عندما أصبحت عمياء تماماً، وقد بلغت أمه من العمر سبعة وتسعين عاماً (12).

وكان أخو فيلهلم فون همبولدت الأصغر واسمه إسكندر هو البطل الآخر في مضمار العلم الألماني في هذا العصر، فبعد تخرجه في جامعة جوتنجن التحق بأكاديمية المعادن والتعدين في فرايبيرج Freiberg حيث عرف بدراساته عن الحياة الحضرية تحت الأرض، واكتشف عندما كان مديراً للمناجم في بيروث Bayreuth تأثير المغناطيسية الأرضية في الرواسب الصخرية فأسس بذلك مدرسة في علم المناجم وحسن ظروف العمل. ودرس تكوينات الجبال مع ه. ب. دي سوسور H. B. de Saussure في سويسرا، كما درس الظاهرة الكهربائية مع أليساندرو فولتا Alessandro Volta في بافيا Pavia. وفي سنة 6971 بدأ - مصادفة - رحلة طويلة بهدف الكشف العلمي وأدت اكتشافاته إلى أن أصبح على وفق ملاحظة معاصرة تتطوي على الطرافة أشهر رجل في أوربا بعد نابليون (22). لقد ضارعت اكتشافاته اكتشافات دارون.

وبدأ مع صديقه عالم النبات أمي بونبلاند Ame Bonpland من مرسيليا رحلة أملاً أن يلحق بنابليون في مصر لكن الظروف انحرفت بهم إلى مدريد حيث قدم لهم رئيس وزرائها رعاية لم يكونا يتوقعانها، مما شجعهما على اكتشاف أمريكا الإسبانية (المناطق التي احتلتها إسبانيا في العالم الجديد)، فأبحرا في سنة 9971 وتوقفا لمدة ستة أيام في تينيريف Tenerife أكبر جزر الكناري، وهناك تسلقوا ذروة القنة الجبلية الداخلة في البحر (21، 291 قدماً) وشاهدوا البرد الجوي meteoric Shower مما دفع همبولدت Hnmboldt إلى دراسة تتابع هذه الظاهرة. وفي سنة 0081 بدأ من كركاس Caracas في فنزويلا تجو الا لاكتشاف الحياة النباتية والحيوانية في مناطق السفانا (الأعشاب الطوال في المناطق الحارة) ومناطق الغابات الممطرة على طول نهر أو رينوكو Orinoco حتى وصلا إلى المنابع المشتركة لهذا النهر ونهر الأمازون. واستغرقت رحلتها هذه ستة أشهر. وفي سنة 1081 شقا طريقهما عبر جبال الأنديز Andes من كارتاجنا Cartagna (ميناء كولومبيا) إلى بوجوتا Bogota وكيوتو Quito وتسلقا جبل سيمبورازو Chimborazo (398.81 قدماً) وقدماً للعالم تقريراً ظل مأخوذاً به طوال الست الثلاثين سنة التالية. ورحلا على طول ساحل المحيط الهادي (الباسيفيكي) إلى ليما Lima فقام همبولدت Humboldt بحارة تيارات المحيط ويحمل هذا القياس اسمه حتى الآن. وراقب عبور كوكب عطارد وقام بدراسة كيميائية على الجوانو guano (سماد طبيعي من إفرازات الطيور البحرية) وأظهر إمكانية استخدامه كسماد وأرسل عينات منه إلى أوربا لإجراء مزيد من التحليلات عليه، وبذا كان سبباً في أن أصبح هذا السماد الطبيعي واحداً من أهم صادرات أمريكا الجنوبية. وكان الباحثان اللذان لا يكلان قد وصلا تقريبا إلى شيلي فعادا أدرجهما شمالاً وقضيا عامين في المكسيك ووقفا قصيراً في الولايات المتحدة ووصلا أوربا في سنة 4081 - لقد كانت رحلتها واحدة من أكثر الرحلات العلمية فائدة في التاريخ.

ومكث همبولدت ثلاث سنوات تقريبا في برلين يدرس فيها ما جمعه من معلومات وكتب كتابه (ملاحظات عن الطبيعة (7081 Anzichten der Natur) وبعد ذلك بعام ذهب إلى باريس ليكون قريباً من المراجع العلمية والوسائل المعينة على البحث، وظل في باريس 91 عاماً حيث نعم بصداقة علماء فرنسا الرواد وحياة الصالونات، وكان واحداً ممن اعتبرهم نيتشه Nietzsche رجال أوربا الصالحين، وقد شهد بهدوء الجيولوجي الاضطرابات الظاهرية (السطحية) - قيام الدول وسقوطها. وصحب فريدريك وليم الثالث في زيارة مع الملوك المنتصرين للندن في سنة 4181، لكنه كان - في الأساس - منشغلاً في تطوير العلوم القديمة أو استحداث علوم أخرى جديدة. واكتشف في سنة 4081 أن القوى المغناطيسية للأرض تقل كلما اتجهنا من أحد القطبين إلى خط الاستواء. وأثرى علم الجغرافيا بدراسته للأصل الناري (البركاني) لبعض الصخور، ودراسته لتكوين الجبال والتوزيع الجغرافي للبراكين. وقدم المبادئ الأولى للقوانين التي تحكم الاضطرابات المناخية وألقى الضوء - بالتالي - على أصل العواصف المدارية

واتجاهاتها، وقام بدراسات كلاسية للهواء والتيارات البحرية في المحيطات. وكان هو أول من قدم للجغرافيا (7181) تفسيراً لتساوي درجة الحرارة السنوية في بعض الأماكن رغم اختلاف درجات العرض. لقد اندهش الخرائطيون عندما رأوا في الخريطة التي وضعها همبولدت أن لندن متوسط درجة حرارتها تساوي متوسط درجة حرارة سينسيناتي Cincinnati مع أن لندن تقع إلى الشمال مثل لابرادور Labrador، بينما سينسيناتي Cincinnati إلى الجنوب على خط العرض الذي تقع عليه لشبونة. وبدأ بمقاله عن جغرافية النباتات علماً جديداً هو علم الجغرافيا البيولوجية (الحيوية)، ذلك العلم الذي يدرس توزيع النباتات على وفق الظروف الطبيعية (التضاريس) هذا بالإضافة إلى مئات الإسهامات الأخرى ثم نشرها في 03 مجلداً من سنة 5081 إلى 4381. لقد كانت إسهاماته هذه تبدو متواضعة في الظاهر لكنها كانت ذات تأثير واسع ودائم. والمؤلف ذو الثلاثين جزءاً والذي أشرنا إليه لتونا يحمل عنوان: رحلات همبولدت وبونبلاند Voyages de Humboldt et Bonpland aux regions equinoxiales du nouveau Continent. وأخيراً بعد أن نفذت ثروته لكثرة ما أنفقه على أبحاثه قبل وظيفة يتقاضى منها راتباً فعمل حاجباً في البلاط البروسي (7281)، وبعد استقراره في هذه الوظيفة سرعان ما عاد لإلقاء المحاضرات العامة في برلين، تلك المحاضرات التي شكلت فيما بعد أساس مؤلفه ذي المجلدات العديدة والذي يحمل عنوان (الكون (Kosmos 5481- 2681) الذي كان من بين أكثر الكتب شهرة على مدى أفق الرؤية لدى الأوربيين. وتحدثنا مقدمة الكتاب بتواضع عقل ناضج:

في الليلة الأخيرة من حياة حافلة، أقدم للشعب الألماني عملاً كانت صورته غير المحددة تتراءى لعقلي لنحو نصف قرن. وكنت مراراً أرنو إلى إكماله لكنني كنت أعتبر هذه الرغبة غير عملية، بل غالباً ما كنت أميل إلى التخلي عنه، إلا أنني عدت مرة أخرى إلى مواصلة العمل فيه، وربما كان هذا طيشاً مني... وكان الدافع الأساسي الذي وجهني هو السعي المتلهف لفهم ظواهر الأمور الفيزيائية في إطار ارتباطاتها العامة بعناصرها وبما هو خارج عنها، وفهم الطبيعة في إطارها العام ككل متكامل عظيم، يتحرك ويحيا ويتفاعل بفعل قوى داخلية (32). وترجم الكتاب إلى الإنجليزية في سنة 9481، فبلغت صفحاته ألفي صفحة تقريباً، كانت تتناول الفلك والجيولوجيا والأرصاد الجوية والجغرافيا، مظهراً العالم المادي (الفيزيقي) حياً مثيراً للدهشة ورغم هذه الحيوية فإن القوانين الرياضية، وقواعد الكيمياء والفيزياء تحكمه. لقد قدم لنا صورة عامة كأوسع ما يكون، صورة عامة لم تنشأ ميكانيكية جامدة (كتركيب جامد لا حياة فيه) وإنما مفعمة بحيوية لا حد لها، وامتداد لا نهاية له، وإبداع ملازم للحياة. لقد كانت طاقة همبولدت وحيويته مثيرة، فما كاد يستقر في برلين حتى قبل دعوة من القيصر نيقولا (نيكولاس) الأول ليرأس بعثة كشفية علمية في آسيا الوسطى (9281) ففضى نصف عام يجمع بيانات عن الأرصاد الجوية ويدرس تكوين الجبال وفي الطريق اكتشف مناجم ألماس في الأورال Urals، وعندما عاد إلى برلين استفاد من منصبه في البلاط ليحسن النظام التعليمي ولتقديم العون للعلماء والفنانين. وبينما كان يكتب المجلد الخامس من كتابه عن (الكون (Kosmos) أتاه الموت وهو في التسعين من عمره، فشيخته بروسيا في جنازة رسمية.

صفحة رقم : 14722

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الشعب الألماني -> الفن

لم يكن هذا العصر في ألمانيا موافقاً لعلم أو فن، فالحرب إما دائرة بالفعل وإما على وشك، فاستنزفت ثروات البلاد وحماسها، وكان قيام أفراد (من النبلاء أو الأثرياء) برعاية الفنون، أمراً نادراً، وإن حدث، فإنه يكون غير ثابت. وكانت متاحف ليبزج (ليبستج) وشتوتجارت وفرانكفورت، ودريسدن وبرلين تعرض الأعمال الفنية الخالدة (والمدينتان الأخيرتان على نحو خاص) لكن نابليون نقلها إلى اللوفر Louvre.

ومع هذا فقد أنتج الفن الألماني بعض الأعمال الجديرة بالذكر وسط هذا الاضطراب العظيم، وبينما كانت باريس ترقص مع حالة اللاتكون (حالة لم تتضح فيها الأمور تماماً) رفعت برلين بانيان بوابة براندنبورج Brandenburg شامخة. لقد صممها كارل جوتهارد لانجهانز (Karl Gotthard Langhans 1731- 1808) على الطراز الدوري الإغريقي بأعمدة ذوات أفضية (جمع قناة أي نحت في العمود من أعلى إلى أسفل يبدو وكأنه قنوات) وأقام على هذه البوابة قوسرة (مثلت في أعلاها) كما لو كان يعلن بهذه القوسرة موت طراز الباروك والروكوكو، لكن هذا البنيان بشكله الراسخ كان يعلن بشكل أساسي قوة آل هوهنتسولرن Hohenzollerns وتصميمهم على ألا يدخل برلين عدو. لكن نابليون دخلها في سنة 1806 ودخلها الروس في سنة 1812.

وحقق فن النحت تقدماً ملموساً. إنه في الأساس فن كلاسي يعتمد على الخط ويتحاشى (منذ القدم) اللون، كما أن عدم الاتساق في الطراز الباروكي baroque، والمرح في طراز الروكوكو Rococo لا يتفقان مع روحه. لقد نحت جوهان (يوهان) فون دانكر Johann Von Dannecker بإزميله لمتحف شتوتجارت تمثاليته (a Sappho) و (فتاة كانتو لس مع الطائر Ctullus, Girl with the Bird) وتمثاله (أريادن Ariadne) لمتحف بثمان Bethmann في فرانكفورت، والتمثال النصفي الشهير لشيلر Schiller لمكتبة فيمار Weimar. أما يوهان (جوهان) جوتفريد شادو (Johann Gottfried Schadow 1764- 1850) فيعد أن درس على يد كانوفا Canova في روما عاد إلى بلده برلين، وفي سنة 1791 لفت انتباه العاصمة (برلين) بأن وضع عند قمة بوابة براندنبورج Brandenburg كارديجا Qradriga (مركبة بعجلتين) تجرها أربعة خيول يرشدها (يقودها) النسر المجنح الذي كان موجوداً في المركبات الرومانية. ونحت لشتنتن Stettin تمثالا من رخام لفريدريك الكبير واقفاً في ثياب عسكرية يحرق أعداءه بناظريه، لكن يوجد عند قدميه مجلدان كبيران ليشهدا أنه مؤلف أيضاً، ونسي النحات فلوته (الفلوت آله نفخ موسيقية)، والتمثال الأكثر رقة هو تمثال يمثل عملاً نحتياً واحداً للملكة لويز Luise والملك فريديك (1797) وقد تغطي نصف كل منهما بالجوخ ووضع كل منهما ذراعه في ذراع الآخر، وهما يتحركان بهدوء رمزا للعلو والسمو والأسى. لقد ألهمت الملكة الفنانين بجمالها وعاطفتها الوطنية وموتها. وقد خصص هينريش (هينريخ) جنس (Heinrich Genz 1767- 1811) ضريحاً ضخماً مهيباً في شارلوتنبورج Charlottenburg ونحت كرستيان راوخ (Christian Rauch 1777- 1858) قبراً جديراً بجسدها وروحها.

وكان الرسم الألماني لا يزال يعاني من فقر الكلاسيكية الجديدة يحاول أن يعيش على رماد البومبية Pompeii (نسبة إلى مدينة بومبي الأثرية الرومانية - في إيطاليا) ومواطن الآثار الهرقلية، ومباحث ليسنج Lessing وفنكلمان Winkelmann، ووجه منج Mengs وديفيد David الشاحبة والخيالات الرومانية لأنجليكا كاوفمان Angelica Kaufman وما لاحصر له من الرسامين. لكن هذا التنصل (هذا الأسلوب في إزالة الألوان Decoloration) لم يكن له جذور حية في التاريخ الألماني والشخصية الألمانية، فالرسامون الألمان في هذا العصر كانوا لا يزالون بالكلاسيكية الجديدة، فعادوا للخلف يستلهمون المسيحية، وما وراء حركة الإصلاح الديني وعدائها للفن ولا مبالاتها به، وإلى ما قبل الرافائيلية في إنجلترا Pre-Raphaelites، وراحوا يصغون لأصوات مثل أصوات فيلهيلم فاكنرودر Wilhelm Wackenroder وفريدريش شليجل Schlegel تدعوهم للعودة للأصول إلى ما قبل رافائيل، العودة إلى الفن الوسيط (الفن في العصور الوسطى) الذي قدم لنا رسوماً ومنحوتات تتسم بالبساطة وترمز في سعادة في حضن إيمان غير مهتر. ومن هنا ظهرت مدرسة في الرسم عرفت باسم أهل الناصرة Nazarenes (إشارة إلى استلهمهم التراث المسيحي الأول، ولا يعني هذا أنهم من الناصرة).

وكان زعيم هذه المدرسة هو يوهان (جوهان) فريدريش أو فريك (Overbeck 1781- 1869) الذي ولد في لوبك Lubeck وحمل معه خلال ثمانين عاماً الجديدة الصارمة للأسر التجارية العريقة والضباب المنتشر الذي يصل لوبك من بحر البلطيق. ذهب إلى فينا لدراسة الفن فلم يجد في الكلاسيكية الجديدة غذاء يطعمه هناك وفي سنة 1808 أسس هو وصديقه فرانتس بفر Franz Pforr أخوية القديس لوقا Brotherhood Lukan التي تهدف إلى إعادة إحياء الفن وإنعاشه بتكريسه لإيمان أعيد تجديده كما كان موجوداً أيام البرخت (البريشت) دورر (Durer 1471- 1528). وفي سنة 1819 هاجرا إلى روما لدراسة بيروجينو Perugino وغيره من رسامي القرن الخامس عشر، وألحقا في سنة 1811 ببيتر فون كورنيليوس (Von Cornelius 1771- 1868) وبعد ذلك بفيليب فيت Veit وفيلهيلم فون شادو - جودنهاوس Schadow - Godenhaus وجوليوس (يوليوس) شنور فون كارلسفلد Julius Schnorr Von Carolsfeld.

لقد عاشا على النباتات كقديسين في دير منعزل على جبل بنشيو Monte Pincio هو دير سان إيزيدورو Isidoro وقد راح أوفريك Overbeck بعد ذلك يستعيد ذكرياته فقال: لقد عشنا حياة ديرية حقة، ففي الصباح كنا نعمل معا وفي منتصف النهار نطبخ غداءنا الذي لم يكن يتكون إلا من الحساء والسجق أو بعض الخضروات الساخنة وكان كل منهما يعتني بالآخر. لقد تجاوزا كنيسة القديس بطرس لأن فيها كثيرا من الفن الوثني) واتجها أكثر إلى الكنائس القديمة والأديرة مثل دير القديس جون لاتييران Lateran ودير القديس بولس خارج أسوار روما. وارتحلا إلى أورفيتو Orvieto لدراسة سيجنوريللي Signorelli وإلى فلورنسا وفيزول Fiesole لدراسة فرا أنجليكو Fra Angelico. لقد قررا ألا يقوموا برسم الصور الشخصية أو أية رسوم للزينة، وإنما كان قرارهما أن يعودا بالرسم إلى عصر ما قبل رافائيل وتكريسه لتشجيع الإيمان المسيحي والوطنية المرتبطة بالعقيدة المسيحية. وواتتهم الفرصة في سنة 6181 عندما عهد إليهما القنصل البروسي في روما - بارثولدي J. S. Bartholdy - بتزيين فيلته برسوم جصية عن قصة يوسف وإخوته. وتفجع أهل الناصرة Nazarenes (المقصود قام هذان الفنانان) لإحلال رسوم بالزيت على (الكانافاه) محل الرسوم الجصية. والآن لقد درسا الكيمياء ليتمكننا من إعداد سطوح تجعل الألوان ثابتة، ونجا إلى الحد الذي تم نقل رسومهما الجصية من روما لتوضع في المتحف الوطني ببرلين، وهي من بين المقتنيات التي تقدر بها العاصمة البروسية، لكن جوته العجوز عندما سمع بهذا الاتجاه الصوفي (ذي الانجذاب العاطفي الديني) أدانها باعتبارها يقلدان أسلوب القرن الرابع عشر في إيطاليا تماما كما تقلد الكلاسيكية الجديدة الفن الوثني. وتجاهل أهل الناصرة (المقصود أصحاب هذه المدرسة) هذا النقد، لكنهما غادرا المسرح بهدوء لأن العلم والبحث والفلسفة راحت - ببطء - تتحت في العقيدة القديمة (المقصود تشكك فيها وتعديلها).

صفحة رقم : 14723

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الشعب الألماني -> الموسيقى

8- الموسيقى

كانت الموسيقى هي كبرياء ألمانيا في رخائها وازدهارها، وسلواها في أساها ونكباتها. فعندما وصلت مدام دي ستيل إلى فيمار في سنة 3081 وجدت أن الموسيقى تكاد تكون جزءا أساسيا في حياة الأسرة المتعلمة، وكان في كثير من المدن فرق أوبرية ومنذ أيام جلك Gluck راحت ألمانيا تقلل شيئا فشيئا من اعتمادها على الأعمال والألحان الإيطالية. وكان في مانهايم Mannheim وليبزج (ليبستج) أوركسترات حققت شهرة في مختلف أنحاء أوروبا. ودخلت موسيقا الآلات في منافسة عامة مع الأوبرا. وكان في ألمانيا عازفو فيولين عظماء مثل لويس سبوهر (4871Spohr -9581) وعازفو بيان مشاهير مثل جوهان (يوهان) همل (Humniel 8771- 7381) وكان الملك فريدريك وليم الثاني يعزف على الفيولنشلو Violoncello كما كان له دور في تأليف الكارتيات واحدهما: (كارتيته وهي مقطوعة موسيقية تعزفها أربع آلات) وأحيانا الأوركسترات، وكان الأمير لويس فرديناند بارعا في العزف على البيانو ولم يمنعه من منافسة بتهوفن وهمل Hummel سوى أصله الملكي(42).

وكان في ألمانيا أيضا أستاذ موسيقا وقائد فرقة حقق شهرة في مختلف أنحاء أوروبا كمعلم ومؤلف وذو واقعة لمعظم الآلات الموسيقية: (إنه أبت Abt (Abbot جورج جوزيف فوجلر (9471Vogler -4181). لقد حقق في بداية حياته شهرة كعازف على الأرغن والبيان، وقد تعلم الفيولين دون أستاذ وطور نظاما جديدا للعزف بالأصابع لتنتمشى بشكل جيد مع أصابعه الطويلة. ذهب إلى إيطاليا لدراسة التأليف الموسيقي على يد بدر مارتيني Padre Martini

وتمرد على أستاذه إثر أستاذه وارتمى في أحضان الدين، وكان الجمهور يصفق له في روما. ولما عاد إلى ألمانيا أسس مدرسة موسيقية في مانهايم Mannheim ثم في دار مستندرت Darmstadt وأخيرا في ستوكهولم. ورفض الأساليب الموسيقية الصعبة في التأليف الموسيقي، تلك الأساليب التي يعلمها المعلمون الإيطاليون، وظنه موزارت وآخرون دجالا لكنهم بعد ذلك بوأه مكانا حفيا ليس كمؤلف موسيقي وإنما كمعلم، وكانسان وكمصمم أرغن، وجاب أوروبا كعازف أرغن ف جذب إليه جمهورا عريضا وحقق مكاسب كبيرة، وطور الأرغن. وغير أسلوب العزف على الأرغن، وأجاد الارتجال كبيتهوفن(52)، وكان أستاذا جليلا وقره عدد كبير من تلاميذه بمن فيهم فيبر Weber وميربير Meyerbeer وعندما مات بكوه وحزنوا عليه كما لو كانوا قد فقدوا أباهم. وفي 31 مايو 1814 كتب فيبر Weber: في اليوم السادس من الشهر انتزع الموت منا فجأة فولجر أستاذنا المحبوب. لكنه سيحيا دوماً في قلوبنا(62).

وكان كارل ماريا فون فيبر (Carl Maria Von Weber 6871 - 6281) واحدا من أبناء كثيرين أنجبهم فرانتس أنطون فون فيبر (6871 - 6281) من زوجته (تزوجها تباعا). وقد تناولنا بالذكر في هذه المجلدات اثنين من بناته أو قريباته (أبناء أو بنات الأخ أو الأخت): ألويزيا Aloysia التي كانت حب موزارت الأول كما كانت مغنية مشهورة، وكونستانزا Constanze التي أصبحت زوجة لموزارت. ودرس ابناه فريس Fritz وإدموند مع جوزيف هايدن، أما الابن كارل فلم يكن فتي واعداد في مجال الموسيقى حتى إن فرانتس قال له: اسمع يا كارل كن كما شئت لكنك لن تكون موسيقيا(72) فاتجه إلى الرسم، لكن في أثناء تجوال فرانتس أنطون كمدير لفرقة تمثيلية وموسيقية، كان غالبا ما يؤلف لأبنائه، - واصل كارل تعليمه الموسيقي على يد معلم مخلص هو جوزيف هيسكل Heuschkel، فأظهر الفتى موهبة وحقق تقدما سريعا بدرجة أدهشت والده وأسعدته. وبحلول عام 0081 كان كارل قد بلغ الرابعة عشرة من عمره واستطاع في هذه السن أن يؤلف الموسيقى ويعزفها أمام الجمهور. وعلى أية حال، ففي هذه الأثناء كان التسرع المحموم في الانتقال من مدينة إلى مدينة (مع الفرقة) قد ترك بعض الأثر على شخصية كارل فغدا عصبيا غير مستقر سريع التغير. وأصبح مفتونا بالطباعة على الحجر، تلك الطريقة التي اخترعها صديقة ألويز سنفلدر Aloys Senefelder حتى أنه أهمل لفترة التأليف الموسيقي وذهب مع أبيه إلى فرايبيرج Freiberg في سكسونيا ليمارس الطباعة على الحجر كعمل تجاري. وفي بواكير سنة 3081 قابل أبت فوجلر Abt Vogler فرب فيه الحماس من جديد وأصبح تميلذا لفوجلر وقبل نظامه الصارم في التدريب والتطبيق، ودفعته ثقة فوجلر لمزيد من الاقتان. لقد راح الآن يتطور تطورا سريعا حتى أنه دعي بناء على توصية فوجلر ليكون قائد أوركسترا Kapellmeister (في برسيلاو (4081Breslau)، ومع أنه لم يكن قد تجاوز السابعة عشر من عمره إلا أنه قيل فأخذ معه والده المريض وذهب إلى العاصمة السيليزية Silesia Capital.

ولم يكن الشاب مناسباً لوظيفة تتطلب مهارة في التعامل مع الرجال والنساء المختلفي المشارب والأهواء، وليس فقط تحقيق انجاز موسيقي، فأصبح له أصدقاء مخلصين وأعداء مفرطين في العداوة، وراح ينفق بسفه ويشرب الخمر بطيش، وخلق بين زجاجة حمض النيتريك وزجاجة النبيذ، فشراب قدرأ من حمض النيتريك قبل أن يدرك أنه يتطلع ناراً، فأضير ضرراً دائماً في حنجرته وحباله الصوتية ولم يعد يستطيع الغناء، بل أصبح لا يستطيع الكلام إلا بصعوبة، وفقد وظيفته بعد ذلك بعام، وراح يعول نفسه وأباه وعمته من المبالغ التي يحصلها من الدروس، وأصبح وضعه خطراً، واقترب من اليأس إلى أن عرض الدوق يوجن Eugen (من فيرتمبرج Wurttemberg) على ثلاثتهم مكانا للإقامة في مقر إقامته Lus Schloss Karlstuhe في سيليزيا (6081) لكن تمزيق نابليون لبروسيا والحاقه الحزاب بميزانيته أثرا على الدوق فلحق به الخراب بدوره، واضطر فيبر Weber ليطلع نفسه وأباه وعمته لهجر الموسيقى لفترة وعمل كسكرتير للدوق لودفيج Ludwig (من فيرتمبرج) في شتوتجارت وكان هذا اللورد عريدا مسرفا فاسقا غير أمين، فترك تأثيرا سيئا على كارل الذي ارتبط عاطفيا بالمغنية مارجرتيا لانج لكنه فقدتها، ففقد بفقد مدخراته وصحته لكن أسرة يهودية في برلين أنقذته من الفسوق - انهم آل بير Beers تلك الأسرة التي أنجبت ميربير Meyerbeer، وأعادته الزواج إلى حالة الاتزان لكنه لم يستعد صحته.

لقد حقق شهرة أثناء حرب التحرير لأنه وضع الموسيقى للأناشيد الحربية التي كتبها كارل تيودور كورنر Korner وبعد الحرب، دخل معركة من نوع آخر - ضد الأوبرا الإيطالية فقد ألف عمله التحرير (Freichutz 1281) كإعلان استقلال، وتم أدائه للمرة الأولى في 81 يونيو 1281 في الذكرى السنوية لمعركة واترلو، لقد طارت على جناحي الوطنية ولم تحقق أوبرا ألمانية ما حققته من نجاح. لقد كان موضوعها مستوحى من حكايات الأشباح والكائنات النورانية Gespenster buch وغمرتها روح المرح بما فيها من جنيات يحمين الحر الذي يذلق النار (على العدو). لقد كانت ألمانيا في هذه الأيام القاسية تتلقى مساعدات كبيرة من الجن، وفي سنة 6281 وجدنا مندلسون Mendelssohn يقدم لنا حلم ليلة منتصف الصيف Midsummer Nights Dream. لقد كانت أوبرا فيبر Weber علاقة على انتصار الرومانسية Romanticism في الموسيقى الألمانية. وكان يأمل أن يواصل نجاحاته

بعمله (Euryanthe) الذي عرض للمرة الأولى في فيينا سنة 3281، لكن روسيني Rossini كان لتوه قد غزا فيينا ولم تعد موسيقا فييلر الأكثر رقة وذكاء تجذب الناس. أدى هذا الفشل - بالإضافة إلى تدهور صحته - إلى إصابته بالإحباط فتوقف - أو كاد - عن التأليف الموسيقي طوال عامين. ثم عرض عليه شارلز كمبل Kemble مدير مسرح حديقة كوفنت Covent Garden Theatre ألف جنيهه لكتابة أوبرا لدار أوبرا وبلاند Wieland وأن يأتي إلى لندن للتعاقب معه. فعمل فيبر Weber بحماس شديد لكتابة هذه الأوبرا ودرس الإنجليزية بجدية ومثابرة حتى إنه عندما وصل إلى لندن لم يكن يستطيع كتابة الإنجليزية فقط وإنما التحدث بها أيضا وبشكل جيد. وفي العرض الأول (82 مايو 5281) حقق نجاحا هائلا حتى إن المؤلف السعيد وصف هذه الليلة لزوجته في اليوم نفسه: لقد حققت هذا المساء أعظم نجاح في حياتي.. عندما بدأت الأوركسترا كان المسرح غاصاً حتى السقف وصفق الحاضرون بحماس شديد عندما دخلت، وطوحوا بالقبعات والمناديل في الهواء وبعد نهاية العرض دعيت إلى خشبة المسرح... فأتجهوا إلي جميعا، وكان كل من أحاطوا بي سعداء(82).

لكن أعماله التي عرضت بعد ذلك لم تلق مثل هذا الاستحسان، وفي 62 مايو 6281 فشل - بشكل محزن - حفل موسيقي لصالحه (لتقديم العون المالي له) وبعد ذلك بأيام قلائل لزم المؤلف المحبب (بفتح الباء) والمرهق سريره إذ تفاقم عليه داء السل (ذات الرئة) فمات في 5 يونيو بعيدا عن وطنه وأسرته.

صفحة رقم : 14724

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الشعب الألماني -> المسرح

9- المسرح

كان في كل مدينة ألمانية - تقريبا - مسرح لأن الناس الذين أرهقتهم الحقائق نهارا يرتاحون إلى الخيال مساء. وكان في بعض المدن فرق مسرحية دائمة كما هو الحال في هامبورج، ومينز (مينتس) وفرانكفورت وفيما وبون وليبزج (ليبينسج) وبرلين. وكانت هناك مدن أخرى تعول على الفرق الجواله وتقيم مسرحا مؤقتا عند وصول إحدى هذه الفرق. وحقق مسرح مانهيتن أفضل شهرة لجودة عروضه وبراعة ممثليه، كما كان مسرح برلين هو الأكثر إيرادا وكان أفراد فرقته التمثيلية يتقاضون أعلى الأجر (بالنسبة إلى المسارح الأخرى) أما مسرح فيمار فاشتهر بعروضه الكلاسيكية.

وكان سكان فيمار في سنة 9871: 0026 نفس ارتبط كثيرون منهم بالوظائف الحكومية والحاشية الأرستقراطية، ولفترة من الزمن أخذ سكان المدن على عواتقهم دعم فرقة من الممثلين فكانت النتيجة أن انتهت هذه الفرقة في سنة 0971 لسوء التمثيل، فأخذ شارلز أو جستس هذا المشروع على كاهله فجعل المسرح جزءاً من بلاطه وحث المستشار جوته على إدارته، وكان يمكن لأي فرد من أفراد الحاشية أن يقوم بدور خلا أدوار البطولة (الأدوار الرئيسية) فهذه الأدوار مقتصرة على النجوم من الرجال أو النساء الذين يأتون إلى المسرح، وعلى هذا أتى إفلاند Iffland العظيم إلى فيمار، وأنت أيضا كورونا شروتر (Schroter 1571- 2081) التي كادت تنتزع بصوتها وقوامها وعينيها المتألفين - جوته من شارلوت فون شتاين. ولم يكن جوته (الشاعر ورجل الدولة والفيلسوف) بالقليل الشأن في التمثيل، فقدم قام بدور أورستس Orestes التراجيدي أمام مدام شروتر Schroter التي قامت بدور إفيجينيا Iphigenia، ونجح أيضا - ويا للدهشة - ككوميدي بل وحتى في الأدوار - الهزلية(92). ودرب الممثلين على الأسلوب الغالي (الفرنسي) في الحدث الذي يكاد يكون خطابة، وكان هذا الأسلوب يتسم بالرتابة، وإن كان يتسم

بالوضوح، والرتابة خطأ والوضوح فضيلة وشجع الدوق بشدة هذه السياسة، وهدد بعقوبة التوبيخ عند وقوع أي خطأ في التفاصيل.

لقد أخذ مسرح فيمار على عاتقه أداء مجموعة من الذخائر المسرحية الطموحة من سوفوكليس وتيرنس Terence إلى شكسبير وكارلدرن Carlderone وراسين وفولتير بل وحتى المسرحيات المعاصرة لفريدريش، وأوجست فيلهيلم فون شليجل وصولاً إلى النصر الداعي للفخر مع عمل شيلر (فالنشتين) (8971 Wallenstein). لقد أتى شيلر Schiller من بينا (جينا Jena) ليعيش في فينا، وبتشجيع من جوته أصبح عضواً في مجلس إدارة الفرقة. والآن (0081) جعل هذا المسرح الصغير من فيمار قبلة ينجه إليها آلاف الألمان من محبي الدراما. وبعد موت شيلر (5081) فقد جوته اهتمامه بالمسرح، وعندما أصر الدوق - بتحريض من خيالاته اللائي كن يترددن عليه - على تقديم فاصل درامي يظهر فيه كلب كنجم مسرحي، استقال جوته من منصبه الإداري واختفى مسرح فيمار من التاريخ.

وهيمن ممثلان على الساحة المسرحية في ألمانيا في هذا العصر. أوجستس (أغسطس) فيلهيلم إفلاند (9571 - 4181) الذي كان يضارع تالما، ولودفيج ديفرينت (4871 - 2381) الذي كرر اهتمامات إدموندكين Kean ومأساته. ولد في هانوفر يوم كان إفلاند في الثامنة عشرة من عمره، وترك بيته ليلتحق بفرقة مسرحية في جوثا Gotha رغم اعتراض والديه. وبعد ذلك بعامين فقط تألق في مناهيم بأدائه (Dieraubers) لشيلر. وفي هذه الفترة الراديكالية من حياته نعم بالرخاء وتعاطف مع الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية، وسرعان ما غدا معبوداً للمحافظين (المناهضين للثورة الفرنسية) وبعد أن قام بأدوار كثيرة في معظم أنحاء ألمانيا قبل دعوة جوته لزيارة فيمار (6971) وأسعد مشاهديه بكميديات الطبقة الوسطى، لكنه لم يكن بارعاً في الأدوار التراجيدية براءة فالنشتين Wallenstein أولير Lear. وألف عدداً من المسرحيات التي أثارت إعجاب الناس بما فيها من فكاهة، وفي سنة 8971 أصبح مديراً لمسرح برلين الوطني وبذلك حقق ما كان يصبو إليه.

وقبل موته بفترة وجيزة تعاقد مع ممثل هو لودفيج ديفرينت Devrient (ديفريا) جلب للمسرح الألماني كل مشاعر ومآسي tragedy الفترة الرومانسية. وكان لقبه الفرنسي ديفرينت (ديفريا - وهو النطق الفرنسي) جزءاً من تراثه الهيجونوتي (الهيجونوت هم البروتستانت الفرنسيون) وتزوج أبوه امرأتين على التوالي وأنجب ثلاثة أبناء كان هو آخرهم وكان أبوه تاجر أجواخ والبسة في برلين، وماتت أمه في طفولته وتركته بانساً في بيت مزدحم، فانكفاً على نفسه وعاش في عزلة ووحدة ولم يكن يواسيه في حياته سوى أنه كان وسيماً أسود الشعر، وهرب من البيت والمدرسة لكن أباه أعاده مرة أخرى وبذل كل جهده ليجعل منه تاجر أجواخ وأقمشة لكن جهوده فشلت فقد كان الفتى غير كفاء بدرجة تدعو للسخط، فتركه أبوه على هواه. وفي سنة 4081 التقى وهو في العشرين من عمره بفرقة مسرحية في لبيزج (ليبتيشيغ) فعهدت إليه بدور صغير، انطلق منه فجأة إلى دور كبير بسبب مرض (الممثل الأول (النجم). لقد كان الدور دور متسول سراق سكير، فوجده يتلاعب مع ذوقه فأداه بانقان حتى كان يشار إليه على سبيل الإذانة أنه ممثل متجول سكير على المسرح وعندما يكون بعيداً عن المسرح (سكير تمثيلاً وواقعا) وأخيراً - في بريسلو Breslau في سنة 9081 - وجد نفسه يمثل لا (فالستف Falstaff) وإنما في مسرحية راديكالية لشيلر (كارل مور Karl Moor)، وفي هذا الدور صبب كل ما تعلمه من كراهية وعدوانية وشر. لقد استولت عليه شخصية زعيم السراق فعبر عنها بكل خلجة من خلجاته وببريق عينيه الغاضب المخيف، ولم تكن بريسلو Breslau قد شهدت من قبل مثل هذه الحيوية والقوة في التمثيل، ولم يكن يمكن أن يصل لهذه الذروة والعمق المسرحيين في هذا العصر العامر بالمثلين العظام سوى إدموندكين Kean، لقد أصبحت كل الأدوار التراجيدية تُسند إليه الآن دون منازع. لقد مثل لير Lear وذاب في دوره (تقصمه تماماً) واستسلم لهذا الخط الرفيع بين الحكمة والجنون حتى أنه ذات ليلة انهار وسط المسرحية وكان لا بد من حمله للبيت أو لحانته المفضلة.

وفي سنة 4181 أتى إفلاند - وكان في الخامسة والخمسين - إلى بريسلو Breslau ومثل مع ديفرينت (دوفريا) وأحس بطاقته ومهارته فطلب منه الانضمام للمسرح الوطني قائلاً له المكان الوحيد الجدير بك هو برلين، فأنا أحس تماماً أن هذا المنصب في المسرح الوطني سيغدو شاغراً عما قريب. إنه محجوز لك (03) وفي سبتمبر مات إفلاند Iffland وفي الربيع التالي شغل ديفرينت مكانه. وهناك ظل يمثل إلى آخر حياته فعاش على الشهرة والنبذ وقضى ساعات ممتعة يتبادل الحكايات مع إ. ت. أ. هوفمان فقبل تحدياً بأن يمثل في فينأفعد منها إلى برلين محطم الأعصاب، ومات في 03 ديسمبر 2381 في الثامنة والأربعين من عمره، وظل أبناء أخيه الثلاثة الموهوبون - وكلهم يحمل اسمه - يتوارثون فنه حتى آخر القرن.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الشعب الألماني -> كُتّاب المسرح

10- كتاب المسرح

بعد أن قام فيلهلم فون شليجل بترجمته الممتازة لأعمال شكسبير (8971 وما بعدها) قدم المسرح الألماني مكاناً جديداً لمسرحيات العصر الإليزابيثي، وكان كتاب المسرح الألمان - بين ليسنج وكلايست Kleist يهدفون عادة إلى إرضاء الطبقة الوسطى بشكل عام، وكانوا قد فقدوا ما حققوه من نجاحات جماهيرية بسبب عدم الاستقرار الذي شهده عصرهم. لقد وضع زكارياس فيرنر Zacharias Werner اتجاهه الصوفي (الباطني) على المسرح بشكل عابر، أما أوجست فون كوتسبو (1671 Von Kotzebue - 9181) فأساعد بمسرحياته جيلاً واحداً لكنه الآن ذكرى باهتة لا يكاد يذكر إلا بسبب اغتياله. لكن الألمان يذكرون هينريش (هينريخ) فيلهلم فون كلايست Kleist شفقة عليه واحترامه لقلمه. ولد (7771) في فرانكفورت - أن - دير - أودر Frankfort - an - der - Oder وكان قريباً في طبعه (مزاجه) للسلاف كما كان قريباً لهم من الناحية الجغرافية وقضى سبع سنوات في الجيش كأبي مواطن ألماني صالح، لكنه تحسّر بعد ذلك على ضياع هذه الأعوام. درس العلوم والأدب والفلسفة في الجامعة المحلية وفقد إيمانه بالدين والعلم على سواء. وارتجف لفكرة الزواج عندما رشح ليكون زوجاً لابنة جنرال، وهرب إلى باريس ومنها إلى سويسرا حيث لعب خياله به بشراء مزرعة وليترك توالي الفصول يهدئ من عقله المزدهم بالأفكار، لكنه عاد مرة أخرى للأدب فكتب تراجم تاريخية (لم يكملها) هي: روبرت جسكارد Guiskard وفي سنة 8081 عرض فوق خشبة المسرح في فيمار مسرحية كوميدية هي مسرحية الإبريق المكسور Der Zerbrochene Krug التي صنفها الجيل التالي باعتبارها عملاً كلاسيكياً. ومكث في فيمار فترة (2081 - 3081) ونعم بصداقة - وتشجيع - كريستوف فيلاند Wieland وهو لا أدري عجز قال له بعد أن سمع مقتطفات من تراجمه جوسكارد Guiskard أنت تحمل في داخلك أرواح أسخيلوس وسوفوكليس وشكسبير (13) وقال له أيضاً إن عبقرية كلايست Kleist خلقت لتسد كل الفراغ في تطور الدراما الألمانية فحتى شيلر وجوته لم يملأه (23) وكان هذا كافياً لتدمير هذا الكاتب المسرحي الشاب أو بتعبير آخر تدمير سوفوكليس الجديد الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره. لقد اتجه إلى باريس ليعيش فيها فشرع بفورانها فراح يتفكر في النزعة إلى الشك المتوارثة في الفلسفة المثالية الألمانية: إذا كنا لا نعرف إلا أقل القليل عن الكون كما ندركه بوعينا، فلن نعرف الحقيقة أبداً. شيء واحد مؤكد فالكل مصيره للتراب: فلاسفة وعلماء وشعراء وقديسون ومنسولون ومجانين. لقد فقد كلايست الشجاعة لمواجهة واقع غير قائم على أساس وطيدي، لقد رفض مواجهته وقبوله والاستمتاع به وانتهى إلى أن عبقريته وهم وكتبه ومخطوطاته عبت، وفي لحظة يأس حرق كل ما كان معه منها وحاول الانضمام إلى جيش نابليون المتأهب لعبور القتال الإنجليزي، وفي 62 أكتوبر سنة 3081 كتب إلى أخته التي أحبها حباً يفوق الوصف مأسأذكره لك قد يكلفك حياتك، لكن لا بد، لا بد من قوله لك. لقد درست وأمعت مرة أخرى في عملي (مؤلفي) فرفضته وأحرقته. والآن حلت النهاية. السماء تنكر عليّ الشهرة - وهي أعظم ما يمكن أن يناله المرء في الدنيا، لكنني كطفل متقلب سأقذف بكل ما بقي أمامها (السماء). لا أستطيع أن أرى نفسي جديراً بصداقتك، وبدون صداقة لا أستطيع العيش. إنني أختار الموت. كوني هادئة، فساموت ميتة جميلة. ساموت سامياً في معركة. لقد غادرت عاصمة البلاد واتجهت إلى سواحلها الشمالية وسألتحق بالخدمة العسكرية الفرنسية وسرعان ما سيركب كل الجنود السفن في الطريق إلى إنجلترا، ودمارنا جميعاً رهن بالبحر. إنني مبتهج لهذا القبر الفخم. وستكونين يا حبيبتي آخر ما أفكر فيه (33).

لكن خطته أن يكون جندياً ألمانيا في الجيش الفرنسي أثارت الشكوك حوله، فطرده من فرنسا بإصرار من السفير البروسي، وبعد ذلك بوقت وجيز أعلنت فرنسا الحرب على بروسيا، وفي سنة 6081 دمر نابليون الجيش البروسي بل

ودمر تقريبا بروسيا نفسها، وبحث كلايست عن ملجأه في دريسدن لكن العسكر الفرنسيين قبضوا عليه ظانين أنه جاسوس ففضى في السجن ستة أشهر وعندما عاد إلى دريسدن انضم إلى مجموعة وطنية من الكتاب والفنانين وتعاون مع آدم ميلر Muller في تحرير دورية أسهم فيها بكتابة بعض من أجمل مقالاته. وفي سنة 8081 نشر مسرحية تراجيدية (Penthesilea) كانت بطلتها أميرة أمازونية Amazonian انضمت إلى تروجان المتهور ضد الإغريق في طروادة (وذلك بعد موت هيكتور Hector). لقد انطلقت لتقبل أخيل Achilles إلا أنه تغلب عليها فوعدت في حبه، وعلى وفق قانون النسوة الأمازونيات كان عليها أن تثبت جدارتها بالانتصار على عشيقها في معركة، فوخزت أخيل بسهم وأطلقت كلابها عليه، وانضمت لهذه الكلاب في تمزيقه إربا وشربت من دمه ثم سقطت ميتة. والمسرحية صدى للجنون أو العريضة السعار المؤقت الذي تناوله يوربيدز Euripides - وهو جانب من الميثولوجيا الإغريقية لم يركز عليه الدارسون للأدب الهيليني قبل نيتشه.

والذي لاشك فيه أن الغضب قد تصاعد بسبب تمزيق نابليون لأوصال بروسيا بطيش وبلا روية، مما أخرج الشاعر من أحزانه الخاصة وأصبح من بين أصوات أخرى تدعو ألمانيا لشن حرب تحرير. وفي نحو نهاية سنة 8081 أصدر مسرحية Die Hermannsschlacht استعاد فيها ذكريات أرمينيوس Arminius على الجيوش الرومانية. في السنة السادسة للميلاد، ليعت بذلك الشجاعة ويحثهم على التصدي لنابليون في حرب بدت يائسة. هنا نجد - مرة أخرى - نجد وطنية كلايست Kleist ترتفع لذروة العصاب: فزوجة هيرمان (توزنلدا Thusnelda) تغري الجنرال الألماني (فينيديوس Ventidius) لتلتقي به لقاء غرام، ومن ثم قادته ليلقى حتفه إذ يلتهمه دب متوحش.

وكان العامان 9081 - 0181 يمثلان ذروة عبقرية كلايست. لقد عرضت مسرحيته الشعرية (Das Kathechen von Hilbronn) وحقت نجاحا في هامبورغ وفيينا وجرار (جراتس) كما أن مجموعة قصصه القصيرة التي صدرت في مجلدين في سنة 0181 ميزته وربما جعلته من بين أصحاب أجمل الأساليب الأدبية في عصر جوته. وبعد ذلك أصيب بالإحباط ربما لتدهور صحته، ووقع أخيرا في حب رومانسي مع امرأة مصابة بمرض عضال هي هنريت فوجل، وربما كان هذا الحب ناتجا عن المعاناة المشتركة بينهما. وتعكس خطاباته لها عقل رجل على حافة الجنون: يا جت Jette العزيزة، يا كلي، يا حصني، يا أرضي الخضراء، يا خلاصة حياتي، يا عرسي، يا عماد أطفالي، يا مأساتي، يا قدرتي، يا ملاكي الحارس، يا ملاكي الجميل، يا سيرافي Seraph (الكلمة تعني ملكاً مجندا لحراسة الله (أستغفر الله) في التوراة)! وقد أجابته بأنه إن كان يحبها فلا بد أن يقتلها، وفي 12 نوفمبر 1181 وعلى شاطئ الفانسي Wansee بالقرب من بوتسدام أطلق عليها النار فأردها ثم قتل نفسه.

لقد استسلمت الرومانسية فيه إلى المشاعر كأشد ما يكون الاستسلام مع قوة خيال وبراءة أسلوب. وبدا في مرات عديدة فرنسياً أكثر منه ألمانياً، مناقضا لجوته، أبا لبودليير وأكثر قرباً لريمبو Rimbaud. ويكاد يكون (بحياته هذه) قد أكد مقولة جوته غير المتعاطفة (الكلاسية صحة، والرومانسية مرض). دعنا نر.

صفحة رقم : 14726

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الأدب الألماني -> ثورة واستجابة

الفصل الواحد والثلاثون

1- ثورة واستجابة

تأثر الأدب الألماني في عصر نابليون بتمرد الشباب الطبيعي وبالرغبة في كسر الروابط الأسرية والخروج على المؤلف، وأصداء الشعر الرومانسي الإنجليزي وروايات ريشاردسون Richardsn، والتراث الكلاسيكي للسنج Lessing وبعد ذلك جوته والثورات الناجمة في المستعمرات الأمريكية والهرطقات التي صاحبت حركة التنوير الفرنسية، والأهم من كل هذا التأثير اليومي للثورة الفرنسية، وأخير دراما صعود نابليون وسقوطه. لقد كان كثيرون من المتعلمين الألمان قد قرأوا أعمال فولتير وديدرو Diderot وروسو، بل إن بعضهم قرأها في لغتها الفرنسية الأصلية، وكان عدد أقل من الألمان قد أحس بلسعات هلفيتيوس Helvetius ودولباش d, Holbach ولا متري La Mettrie. وكان للمفكرين والمتقنين الفرنسيين دور في صياغة (تكوين أو تشكيل) حكام على شاكلة فريدريك الكبير، وجوزيف الثاني النمساوي، والدوق شارلز ولیم فرديناند البرونسيكي، والدوق شارلز أو جستس (في ساكسي فيمار Saxe - Weimar) ولو لم يكن للكتاب والمفكرين الفرنسيين سوى هذا (أي سوى تأثيرهم في هؤلاء الحكام وصياغة فكرهم) لكفى بهذا دليلاً على تأثيرهم في الحضارة الألمانية. لقد بدأت الثورة الفرنسية في البداية تطوراً منطقياً لفلسفة التنوير Enlightenment Philosohy: النهاية - التي أسعدت الناس - للإقطاع والامتيازات الطبقية والأسرية والإعلان الذي طال انتظاره لحقوق الإنسان، والدعوة النشيطة لحرية الكلام والصحافة والتصرف والعبادة والفكر. هذه الأفكار (وكان كثير منها قد تطور داخل ألمانيا ذاتها) عبرت الراين على جناحي الثورة الفرنسية أو مصاحبة لجيوشها المندفعة لقلب أوربا واصله حتى إلى كونجسبرج Königsberg البعيدة.

وعلى هذا فإن مشكلي العقل الألماني وصانعي أدبه رحبوا بالثورة الفرنسية في أعوامها الثلاثة الأولى. لقد رحب بها البناؤون الأحرار Freemasons والروزيكروشيون أصحاب الاتجاه الباطني Rosicrucians ودعاة التنوير المعتزرون بفكرهم Illuminati، واعتبروها فجر عصر ذهبي طال انتظارهم له وشوقهم إليه. لقد أيد الفلاحون الثوار ضد السادة الإقطاعيين (الفرسان الإمبراطوريين) والحكام الأسقيين في تريير Trier وسبير (Ispeyer) وبورجوازيو هامبورج هلوا للثورة باعتبارها إعلاء لشأن رجال الأعمال ضد الأرستقراطيين المتغطرسين، وراح الشاعر العجوز كلوبستوك Klopstock الذي يقيم في هامبورج، يقرأ قصائده في مهرجان الحرية ويصيح بفرح وهو يترنم بأبيات قصائده، وراح العلماء والصحفيون والشعراء والفلاسفة يترنمون مادحين in a Capell-a hymnes (والكابلا قاموسياً هي العتيق)، وراح جوهان (يوهان) فوص Voss مترجم أعمال هومبروس، ويوهان فون ميلر Muller المؤرخ، فريدريش فون جنسس Genz الدبلوماسي (خاج الخدمة) والفلاسفة من كانط إلى هيجل - راحوا جميعاً يتغنون باسم الثورة ويدعون لها بالنجاح. كتب جورج فوستر Foster (الذي كان يصحب كوك Cook في رحلة حول العالم): إنه لشيء عظيم أن يرى المرء الفلسفة قد نضجت في العقول وأصبحت واقعاً في الدولة (2) لقد ظلت ألمانيا منتشية لفترة بأخبار الثورة الفرنسية ففي كل مكان فيها (حتى في الأوساط الملكية كما في حالة الأمير هنري أخو فريدريك الكبير الباقي على قيد الحياة) كان الناس يرفعون أيديهم بالدعاء لفرنسا الثورة. في ظل هذه النشوة أضاف الأدب الألماني الثورة إلى انتصارات فريدريك، وانتع (أي الأدب) في غضون ثلاثين عام (0771 - 0081) ليكون أدباً ناشطاً فعالاً متنوعاً متألقاً يضارع الأدب الناضج في كل من إنجلترا وفرنسا - لقد أصبح هذا هو حال الأدب في ألمانيا بعد أن ظل في حالة سبات طويل منذ فترة النزاع الديني، وهذا الأدب نفسه (المتأثر بالثورة الفرنسية) هو الذي أدهش الناس بقدمه، فراح يلعب دوره في النهوض بألمانيا لإزاحة النير الفرنسي لتدخل (أي ألمانيا) في أزهي قرونها من النواحي السياسية والصناعية والعلمية والفلسفية.

وبطبيعة الحال لم يدم هذا المزاج السعيد، فقد أتت الأخبار بالهجوم على التوليري Tuileries، ومذابح سبتمبر وعهد الإرهاب وسجن الملك (الفرنسي) والملكة ثم إعدامهما ثم أتى الاحتلال الفرنسي لدول ألمانيا، والضرائب الباهظة والتجنيد الإجباري لشباب ألمانيا لدفع ثمن الحماية الإمبريالية والتكاليف الحربية لنشر الحرية. وعاما بعد عام راح حماس الألمان للثورج الفرنسية يخبو ويهمد وراح الذين دافعوا عن الثورج الفرنسية بالأمس ينسلون واحدا إثر واحد من مواقفهم السابقة (عدا كائط) وخاب أملهم فيها وتشككوا في أهداف فرنسا، بل وتحول بعضهم إلى معادين لها غاضبين عليها.

صفحة رقم : 14727

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الأدب الألماني -> فيمار

2- فيمار

كان الرجال الذين شكلوا كوكبة من العباقرة في بلاط فيمار كالملجأ الفكري للمفكرين الألمان خلال فترة التأثير غير المستقر للثورة الفرنسية ونابليون. لقد كان الدوق شارلز أوغسطس (أوجستس) هو نفسه متقلب المزاج متعدد المواهب. لقد ورث الدوقية وهو ابن عام واحد وأصبح حاكمها الفعلي وهو في الثامنة عشرة من عمره (5771) واستمد تعليمه العام من أستاذ خاص، واكتسب مزيدا من المعارف والخبرات من خلال مسؤولياته في الإدارة، ومن خلال نزوات خلية ومن خلال أخطار الحرب والصيد، ولم يكن صالون أمه أقل شأنًا فقد تعلم منه الكثير، ففي هذا الصالون كان يلتقي الشعراء والجنرالات والعلماء والفلاسفة ورجال الدين والمهتمون بالأمور العامة مع بعض نسوة ألمانيا الأكثر ثقافة واستواء فطرة يتبلون أحاديثهم المفعمة بالحكمة المتوارثة باللباقة والذكاء ولا يحسبون من أعمارهم يوما يمر دون أن يشهد الواحد منهم علاقة غرامية مكتومة (لا يعرف بها أحد). لقد ذكر جان بول ريشته Jean Paul Richter أه هنا لدينا نساء! كل شيء هنا يتم بجرأة ثورية، حتى إن المرأة المتروجة لا تعني شيئا (3) وفي سنة 2771 دعت الدوقة (التي كانت هي نفسها نموذجا للفضيلة البهيجة) العالم والشاعر والروائي كريستوف فيلاند ليأتي كي يشرف على تعليم ابنها شالز أو جستس (أغسطس) وكوستنتين (قسطنطين) فأدى مهمته بتواضع وكفاءة وظل في فيمار حتى مات. وكان في السادسة والخمسين من عمره عندما قامت الثورة الفرنسية فرحب بها، لكنه طلب من الجمعية الوطنية في فرنسا أن تأخذ حذرًا من حكم الغوغاء: وكان هذا في خطاب عالمي وجهه في أكتوبر 1987: الأمة تعاني من حمى الحرية التي جعلت أهل باريس - وهم الأكثر أدبًا وتهذيبًا في العالم - ظمأى لدماء الأرستقراطية... عندما يعود الشعب لنفسه - عاجلا أم آجلا - لن يدرك أنه أصبح يقاد رغم أنفه من 0021 طاغية صغير، بعد أن كان يحكمه ملك؟... ولا يمكن أن تكونوا أكثر اقتناعا - وبعمر - مني بأن أمتكم كانت مخطئة لتحمل مثل هذا الحكم السيء لفترة على هذا القدر من الطول، ذلك أن أفضل شكل من أشكال الحكومات هو الذي يفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ويوازن بينها، بحيث، بحيث يكون لكل شيء حق لازب لا يمكن إلغاؤه، حق الحرية بحيث لا تتعارض مع النظام، وأن الضرائب لا بد أن تكون متناسبة مع الدخل، وأن يدفع الجميع الضرائب على وفق المبدأ السابق دون استثناء (4).

وفي سنة 1971 كتب أنه لم يكن يتوقع أبدا أن يتحقق حلمه بالعدالة السياسية هكذا سريعا بإعدام لويس السادس عشر (5) لقد حول إعدام الملك في يناير 2971 من مشاعره المؤيدة للثورة إلى مشاعر عدا لها. لقد عادى الثورة، وساء كثيرا عهد الإرهاب، ونشر بعد ذلك في العام نفسه (كلمات في أوانها) وصل فيها إلى بعض النتائج المعتدلة: لا بد أن يواصل المرء دعوته حتى يستمع الناس ويقتنعوا بأن البشر يمكن أن يصبحوا أسعد حالا إذا أصبحوا أكثر تحكما

للعقل وأكثر مراعاة للأخلاق... بهذا فقط يمكن أن يتقدموا... فالإصلاح لا يجب أن يبدأ بالدساتير وإنما بالأفراد. إن كل الظروف اللازمة للسعادة موجودة فعلا في بلادنا (ألمانيا) (6).

وكان جوهان (يوهان) جوتفرايد فون هيردر Gottfried Von Herder هو آخر من استقر من الأربعة في فيمار وأول من مات منهم، وقد أدان الثورة الفرنسية بعد أن كان يطريها عندما قام الثوار بإعدام الملكة بالمقصلة. لقد أدان الثورة عندها باعتبارها - أي الثورة - انتهاكا وحشيا للمثل الإنسانية. وفي آخر سني عمره عاد إليه الأمل فرغم أن الثورة الفرنسية قد أصابها الجنون المبكر، فإنها قد أحرزت تقدما في أوربا هو التقدم الثاني بعد ذلك الذي أحرزته حركة الإصلاح الديني (حركة لوثر ورفاقه). لقد أنهت الثورة الفرنسية تحكم الإقطاعيين في الناس، كما أنهت حركة الإصلاح الديني هيمنة البابوية على عقول الخلق، فأصبح الناس الآن أقل خضوعا للظروف التي أملاها عليهم مولدهم وانتماؤهم الطبقي، وتحررت الموهبة ففتحت لها الأبواب للتطور والإبداع بصرف النظر عن ظروف الميلاد، وإلا أن التقدم على أية حال يمكن أن يكلف أوربا غاليا، وكان هيردر Herder سعيدا لأن هذه التجربة جرت في فرنسا وليس في ألمانيا الحبيبة إلى قلبه حيث لا يسارع الناس إلى التدمير والإحراق، وإنما هم عمال هادئون يعملون بدأب وعلماء صبورون يمكنهم أن يقودوا الشباب النامي باعتدال وحكمة وثبات، وينشرون بينهم الضياء (التنوير). وكان فريدريش شيلر - الروح الرومانسي الذي حرسه بشغف الثلاثة الكلاسيون - قد أتى إلى فيمار (5971) بعد مغامرات شائقة في الدراما والشعر والتاريخ والفلسفة. وكان خيالها رومانسيا وحساسا بدرجة شديدة فلم يجد إلا القليل يحبه في مرتع شبابه فيرتمبرج Wurttemberg. وقد رد على الظلم والاضطهاد بتوقيع روسو إلى حد العبادة، وبكتابة مسرحية ثورية. لقد أدان كارل مور Karl Moor (بطل مسرحيته اللص) (Die Rauber 1871) استغلال الإنسان للإنسان فلم يترك شيئا لكارل ماركس غير أن هذا الأخير صاغ الأفكار نفسها بشكل ذي طابع أكاديمي. وتظل مسرحية شيلر الثالثة (كابل والحب) (Kabal und Liebe 4871) هي الأكثر ثورية، فقد امتدح فيها استقامة البورجوازية الألمانية وصبرها وحياتها المنتجة وكشف الغش والخداع والرشوة والعلو (التبذير) والمزايا التي يحصل عليها من لا ينتجون. وفي أفضل المسرحيات التي كتبها شيلر قبل الثورة وهي مسرحية دون كارلوس (7871) وكان وقتها في الثامنة والعشرين من عمره، نجده أكثر حرصا على عدم اغضاب نبلاء السلطة منه على عدم اغضاب الفقراء. لقد وضع على لسان الماركيز بوزا Posa عبارة مفادها أن فيليب الثاني هو أبو الشعب الذي يترك السعادة تتساب من مجدك وتندع العقول تتضج (وتثمر) في أرجاء مملكتك الواسعة، لتكون أنت بين آلاف الملوك، ملكا حقا (7).

وعندما انتقل شيلر من مرحلة الشباب إلى مرحلة منتصف العمر انتقل بشكل طبيعي من الراد بكالية إلى الليبرالية. لقد اكتشف بلاد الإغريق القديمة وتعمق بدراسة مسرحيها (مؤلفي المسرح فيها). وقرأ كانط وأشاع الغموض في شعره بمزجه بالفلسفة. وفي سنة 7871 زار فيمار وفتن بنسائها فبث فيه فيلاند Wieland وهيردر Herder الهدوء. (كان جوته في هذا الوقت في إيطاليا). وفي سنة 7871 نشر كتابه (تاريخ ثورة الأراضي المنخفضة المتحدة Geschichte des Abfalls der vereinigten Niederlande) وتخلّى عن فلسفته إلى التاريخ. وفي سنة 9871 تم تعيين شيلر أستاذا للتاريخ في بينا Jena بناء على توصية قدمها جوته لدوق ساكسي فيمار Saxe - Weimar وفي أكتوبر من العام نفسه كتب إلى أحد أصدقائه: إنه لهدف صغير أن أكتب لأمة واحدة، فبالنسبة إلى فيلسوف يعتبر هذا الحد سجنا لا يطاق... فالمؤرخ لا يمكن أن يوهج أمة ويثير فيها حماسا إلا إذا جعلها (أو نظر إليها) كعنصر في مسيرة الحضارة وتقدمها (8).

وعندما وصلت أخبار الثورة الفرنسية إلى بينا Jena كان شيلر في منتصف العمر ينعم بدخل جيد وقبول عام وفهم مقبول. وساعدت مراسلاته مع جوته عبر مسافة بلغت اثني عشر ميلا (وكان الفارق العمري بينهما عشر سنوات) الشاعر الكامن في جوته على أن تظل واقعية العمل الإداري حية عنده، وكذلك محاذير الرخاء، كما ساعدت شيلر على التحقق من أن الطبيعة البشرية لم تتغير إلا قليلا عبر التاريخ تغيرا لا يجعل الثورات السياسية مفيدة للفقراء. وتعاطف مع الملك الفرنسي وزوجته عندما قبض عليهما الثوار في فرساي في سنة 9871، وفي فارن Varennes في سنة 1971 وعند إخراجهما من القصر (الذي كان سجنا لهما) في سنة 2971 وبعد ذلك بوقت قصير أضفت حكومة المؤتمر الثورية على السيد المغفل Le Sieur Gilles لقب المواطن الفرنسي وبعد ذلك بأسبوع دلت مذابح سبتمبر على سلطة العوام المسلحين، وفي ديسمبر حوكم لويس السادس عشر، وبدأ شيلر في كتابة نشرة للدفاع عنه لكن المقصلة هوت على رقبة الملك الفرنسي قبل أن يكملها (يكمل نشرته) وابتسم جوته لتقلب اتجاهات صديقه السياسية، لكنه هو أيضا كان قد ابتعد كثيرا عن المسلمات التي آمن بها في شبابه. لقد كان لديه علاقات جنسية عابرة كثيرة بنسوة جميلات فاسدات قبل أن يدعى في سنة 5771 وهو في السادسة والعشرين من عمره لمغادرة فرانكفورت ليعيش في فيمار كشاعر للدوق شارلز أوجستس (أوغسطس) في وظيفة ثابتة وكرفيق له بمارسان معا الرذيلة بوجهيها (اللذة الجنسية بوجهيها أو بنوعها in both forms)، وخلال الاثني عشر عاما التالية استوعب الحقائق

الاقتصادية والسياسية وأحرز تقدماً سريعاً. لقد اختفى المؤلف الرومانسي الذي ألف في سنة 4771 Die Leiden des Jungen Werth ers وغاص في عمله الجديد كمستشار فرأى في انتصار فرنسا في معركة فالمي في سنة 2971 عصاراً جديداً يتشكل في التاريخ الأوربي. إلا أن التدهور والفوضى اللذين عما الثورة الفرنسية في هذا العام نفسه (2971) جعله يخلص إلى أن الإصلاحات البيئية في ظل مستبدين متنورين هذبتهم الفلسفة، وفي ظل حكام محليين متعلمين وحسني النوايا مثل دوق فيمار الذي يعمل معه - قد تكلف الشعب معاناة أقل من المعاناة التي يسببها التغيير السريع المفاجئ الذي قد يسبب انهيار القاعدة الأساسية للنظام الاجتماعي خلال عقد من الانفصال والعنف. وقد عبر في إحدى قصائد المنظومة على الحكمة Venetian Epigrams عن هذا الخوف في وقت مبكر يرجع إلى سنة 0971:

- ليحذر حكامنا قبل قوات الأوان مما أصاب فرنسا،
- لكن أيها الناس يا من أنتم في الدرك الأسفل، فلتحذروا أنتم أيضاً.
- إذا ذهب الرجال العظماء بغير عودة فمن يحمي الشعب
- عندها سيصبح الغوغاء القساة طغاة يحكموننا جميعاً.

لقد هلك سعيداً عندما أنهى نابليون فوضى الثورة بقبضه على زمام السلطة واعتماده دستوراً يسمح للناس بإدلاء أصواتهم في استفتاء في بعض المناسبات دون تدخل كثير في أمور حكومة حاسمة متمسكة بالكفاءة. ولا يقلل من تقديره للكورسيكي (نابليون) استقبال نابليون له بشكل مجامل في فرانكفورت في سنة 7081 وما قيل من أن هذا اللقاء أسهم كثيراً في شهرة هذا الشاعر المستنشر شهرة عالمية.

وتغلغل بعض اللامسات الرومانسية خلال تطوره الكلاسي الراسخ، حكماً وذوقاً، فالجزء الأول من فاوست Faust (8081) عبارة عن قصة حب كما أنها تركز على أخلاق العصور الوسطى، كما أن عمله الذي أصدره سنة 9081 (Elective affinities) يبدو مؤيداً لصيحة الجيل الجديد، تلك الصيحة الصارخة المطالبة بأن يكون الانجذاب المتبادل هو أساس الارتباط لا أن يكون الأساس هو الارتباط الشرعي أو الدعم المالي للأب. واستمر المستنشر الذي أصبح فيلسوفاً يرفرف حول النسوة الشابات حتى بعد أن بلغ من العمر عتياً، لكن دراسته للفن القديم في إيطاليا وتطور اهتمامه بالعلوم وقراءته للفياسوف سبينوزا Spinoso وتدهور نشاطه البدني - كل ذلك جعله واسع الأفق غير عجول في الحكم على الأمور. وقد أعلن عن هذا التغيير في سيرته الذاتية (1181) التي تعرض فيها لحياته بشكل موضوعي. وكانت ألمانيا الرومانسية - التي أثرت فيها عواطف فاكندرودر Wackenroder ونوفاليز Novalis، والحب المتحرر الذي دعا إليه الكاتبان شليجل Schlegels، وخيل هولدرلين Holderlin وقتل الرحمة (انتحار كلايست) - قد امتعضت لنقده الثورة الفرنسية، نقداً عالي النبرة، ولم تلاحظ إلا بالكاد أنه كان أيضاً يسخر من الطبقة الحاكمة. والحقيقة أنه حتى في أثناء حرب التحرير الألمانية كان يجد صعوبة في كراهية نابليون والفرنسيين وقد شرح لإكرمان Eckermann قلناً:

كيف أستطيع أن أكره أمة من بين أكثر أمم الأرض ثقافة؟ كيف أستطيع أن أكرهها وأنا مدين لها بقدر كبير جداً مما لدي؟ أنتسوي عندي الثقافة والبربرية؟! هناك مرحلة يختفي فيها العداء بين الأمم تماماً حيث يقف المرء وقد تسامى فوق الأممية ليشعر أن الأم شعوب مجاور وسعادته هي نفسها آلامه هو وسعادته (9). ولم يسامحه أبناء جيله أبداً وقلما كانوا يقرأونه واعتبروا شيلر أفضل منه (01) وقلما كانت مسرحياته تعرض في فيمار، واشتكى الناشر من قلة مبيعات (أعماله الكاملة المجمع) ومع هذا فإن رجلاً إنجليزيا هو اللورد بايرون أهدى إليه في سنة 0281 في صدر مؤلفه (Marino Faliero) كتابه لأنه إلى حد بعيد أول شخصية أدبية في أوروبا منذ وفاة فولتير (21) ولم يكن يطبق قراءة كانط، لكنه كان أحكم رجال عصره.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الأدب الألماني -> الساحة الأدبية

3- الساحة الأدبية

لقد كانت ألمانيا مشغولة انشغالا لم تعهده أبداً من قبل كانت مشغولة بالكتابة وبالرسم ونشر الصحف والدوريات والكتب. ففي سنة 6971 توصل ألويز سينفلدر Aloys Senefelder في ميونخ لما عرف فيما بعد بالطباعة الحجرية (الطباعة على الحجر) ذلك أنه حك (فرك) حلي أمه المثبتة في ملابسها المغسولة بحجر، فترك هذا الحك أثراً فتراعى له أن الكلمات والصور والألوان المختلفة يمكن بالحفر الغائر أو الحفر البارز على حجر ناعم أو لوح معدني، طباعتها والحصول على ما لا يحصى من النسخ منها (على أن يتم النقش بطريقة عكسية لتكون الكلمات المطبوعة في وضعها الصحيح - أي كتابتها معكوسة لتبدو سوية كما في حالة المرأة) ومن هنا ظهر طوفان من الصور والرسوم المطبوعة بدءاً من جويا Goya وهير وشيج Hiroshige إلى كورييه Currier وإيفز Ives وبيكاسو Picasso. وكانت الصحف كثيرة وصغيرة الحجم ومالية وخاضعة للرقابة. فصحيفة أليمانى تسايونج Allgemeine Zeitung (الوقائع الألمانية) أسست في توبنجن Tubingen في سنة 8971 ثم انتقلت إلى شتوتجارت ثم إلى أولم Ulm ثم إلى أوجسبورج Augsborg ثم إلى ميونخ لتتحاشى البوليس المحلي. وصحيفة كولنيس تسايونج Kolnische Zeitung تم تأسيسها في سنة 4081 وكانت مقالاتها وأخبارها أكثر هدوءاً، وكانت وطنية كاثوليكية ثم أصبحت نابليونية. وكان في كل من فينا وبرلين وليبزج (ليبستج) وفرانكفورت ونورمبرج صحف ظهرت في وقت سابق على قيام الثورة الفرنسية وظلت تؤدي عملها حتى الفترة التي نتحدث عنها. أما الدوريات والمجلات فكانت كثيرة، من أجملها دورية الموسيقى الألمانية Allgemeine Musikalische (أليمانى موزيكاليشي) التي نشرتها في ليدن شركة براينكوبف وهارتل Breitkopf und Hartel، وظلت تصدر من 5971 إلى 9481 أي من ثورة إلى أخرى. أما أكثرها تألقاً فهي دورية أثيناوم Athenaeum التي أسسها الأخوان شليجل في سنة 8971. وكان الناشرون كثيرين. كما كان المعرض الدولي للكتاب في ليزج (ليبسج) حدثاً أدبياً سنوياً.

وكان لطائفة خاصة من الكتاب - تم تصنيفهم تصنيفاً مرناً باعتبارهم (الخبراء في الشؤون العامة) - تأثير واسع لانحيازهم الشديد لقضاياهم وإن كانوا رغم انحيازهم يمتلكون ناصية المعلومات لمناقشة قضايا العصر الأساسية. لقد هلل فريدريش فون جيننتس (Von Gutz Muth 1791-1859) لسقوط الباستيل، لكنه قلل من حماسه عندما التقى بفيلهيلم فون همبولدت Wilhelm Von Humboldt ذي العقلية المتشككة، وقد قرأ كتاب بروك Bruke عن الثورة الفرنسية (Reflections on the French Revolution) وترجمه. وبعد أن ترقى في الخدمة المدنية البروسية إلى درجة مستشار في وزارة الصناعة قاد معركة أدبية ضد أفكار مثل حقوق الإنسان والحرية والمساواة وسيادة الشعب وحرية الصحافة. ولم يرض عن الثورة الفرنسية حتى بعد أن خفف نابليون من غلوائها. وهاجم نابليون كعسكري أدت غزواته إلى الإخلال بتوازن القوى الذي كان يقوم عليه سلام أوروبا ونظامها وسلامتها - وكان هذا هو رأي معظم الدبلوماسيين. وأصبح أفصح الأصوات وأكثرها بلاغة حائماً فريدريك وليم الثالث على شن حرب لاهاودة فيها (النص صليبية Crusado) ضد نابليون، فلما تردد الملك البروسي، ترك جيننتس Gutz Muth وراح يقدم خدماته للنمسا (2081). وعندما اجتاحت نابليون النمساويين في معركة أوسترليتز Austerlitz لجأ جيننتس Gutz Muth إلى بوهميا لكنه عاد إلى فينا في سنة 9081 وراح يدعو لشن حرب جديدة ضد نابليون. وكان سكرتيراً ومساعداً لميتزنيخ في مؤتمر فينا وأيده في سياسة ما بعد الحرب التي تبناها ميتزنيخ بإبعاد كل تأثير ليبرالي ومنعه من التطور. وكان وقت ثورة 0381 عجوزاً مريضاً ومات وهو مقتنع أنه خدم مصالح البشرية بشكل جيد.

أما جوزيف فون جورز Gorres فكان ذا روح أكثر حساسية، وكان نصف إيطالي، ومفعماً بالعواطف ولايكاد يصلح للصرع الحاد وخوض المعارك الأدبية الشرسة. ولد كاثوليكياً، فترك مهمة دعم الثورة للكنيسة (!) وعاون الفرنسيين في فتح مناطق غرب الراين وهلل تحويل نابليون الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى رابطة الراين (الراينوندي Rheinbund) وهلل لفتح الفرنسيين لروما تحت شعار روما حرة، لكن تكبر عسكر الجيش الفرنسي وابتزاز الإداريين الفرنسيين أثار سخط الشباب الثوري. وفي سنة 8971 أسس صحيفة ضعيفة هي (صحيفة الورقة الحمراء Das rothe Blatt) كصوت جمهوري يحب الثورة الفرنسية لكنه لا يثق في الفرنسيين. ورأى في استيلاء نابليون على السلطة في فرنسا نهاية للثورة الفرنسية، كما رأى في نابليون نفسه شخصاً تواقاً للسلطة بشكل خطر، وعندما هبت ألمانيا لتحارب من أجل التحرير انضم جورز Gorres للمعركة بإصدار صحيفة راينيشي ميركور

Rheinische Merkur، لكن عندما فرض المنتصرون - بعد إزاحة نابليون - ردة سياسية (حركة رجعية سياسية) في كل المجالات التي استطاعوا فرض إرادتهم فيها، هاجمهم جوزف Gorres بحده شديدة وضراوة حتى إنهم اضطروه للجوء إلى سويسرا حيث عاش في فقر مدقع. ولم يعد محط النظر فعاد نادماً حزينا لحض الكنيسة الكاثوليكية (4281) وانتشله لودفيج الأول البافاري من الفقر والعوز بتعيينه أستاذاً للتاريخ في ميونيخ. هناك كتب كتابه ذا المجلدات الأربعة (أسرار المسيحية) (Chrisliche Mystik 6381-2481) وراح يسلي أيامه بالخيالات، ويسود ليلاليه بالرؤى الشيطانية. وبعد موته بأربعة وثلاثين عاماً تم تأسيس جمعية أحباء جوزف Gorres (Gesellschaft 6781) لمواصلة أبحاثه في تاريخ الكنيسة.

وساد الرومانسيون النثر، لكن كاتباً واحداً ظل متقدراً وتملص منهم، إنه جين (جان) بول ريشتر (ريختر) الذي بدأ حياته في بيروث Bayreuth في سنة 3671. ويرجع اسمه المسيحي إلى جده جوهان (يوهان) بول كوهن (كون) Kuhn وحتى سنة 3971 كان يطلق عليه ببساطة هانز Hans. وكان أبوه معلماً في مدرسة وعازف أرغن وأصبح قساً في كنيسة في جوديتس Joditz على نهر سال Saale، وهناك قضى هانز أعوامه الثلاثة عشر الأولى في سعادة وشكل هذا المحيط الريفى البسيط مزاجه خلال المتاعب الاقتصادية والعواصف اللاهوتية.

وعندما انتقلت الأسرة إلى شفارتسناخ Schwarzenbach الواقعة على هذا النهر الهادئ نفسه (سال Saale) نعم بمكتبة رجل دين من الجيران، واعترف رجل الدين هذا بإمكانيات هذا الصبي ولكنه لم يعترف بما يراود الفتى من شكوك. ومات والد ريشتر (ريختر) في هذا المكان (977) تاركاً ذرية ضعافاً قليلة الموارد، وعندما بلغ هانز Hans العشرين من عمره دخل مدرسة اللاهوت في ليزج (ليبسج) لكن قراءاته أضعفت عقيدته، فسرعان ما انسحب من الدراسة وراهن على أن يعيش من قلمه، واستطاع أن ينشر في سنة 3871 وهو في العشرين من عمره، ولكنه لم يستطيع ذلك مرة أخرى إلا في سنة 9871 وفي كلتا الحالتين تعرضت كتاباته لهجاء ساخر مما جعل المتقنين الساخرين يشفقون عليه. وفي سنة 3971 أصدر (الكوخ الخفي Die unsichtbre Loge) باسم مستعار هو جين (جان) بول، وقد اختار الاسم (جان) حياً منه في جان روسو، وحظي الكتاب بعدد قليل من القراء زادوا بعد ذلك بالنسبة لروايته الوجدانية التالية (هيسبيروس Hesperus 5971)، فدعت شارلوت فون كالب kalb صديقة شيلر المؤلف الصاعد إلى فيمار وسعدت به حتى إنها أصبحت خليلته (31). وبدأ في فيمار تأليف روايته ذات الأربعة مجلدات تيتان Titan (0081-3081)، وكان البطل الحقيقي لهذه الرواية هو الثورة الفرنسية.

ودافع المؤلف بعاطفة جياشة عن الثورة الفرنسية في سن تكوينها لكنه أدان مارا Marat لإفسادها بحكم الغوغاء، وامتدح شارلوت كورداي Corday باعتبارها جان دارك الثانية. ورحب باستيلاء نابليون على السلطة كأمر ضروري لاستعادة النظام، وبعد ذلك بثمانية أعوام كان ريشتر (ريختر) راغباً تماماً في أن يرى أوروبا كلها وقد توحدت على يد هذا الرجل (نابليون) الذي يستطيع أن يمسك بها بعقله ويده وقوانينه التي تسري من فرنسا إلى برلين وموسكو. لكن جين (جان) بول كان في قرارة نفسه جمهورياً يرى في كل انتصار عسكري مقدمة لحرب أخرى. وأشفق على الشباب الذين جندهم نابليون، وعلى الأسر الحزينة لفقد أبنائها.

وساق الأدلة على أن الشعب وحده هو الذي يجب أن يتخذ قرار الحرب، لأنه هو وحده الذي يعاني ويلاتها ونتائجها وأطلق من جرابه أقسى رماحه على الحكام الذين يبيعون جيوشهم للحكام (أو الملوك) الأجانب. وطالب بإلغاء الرقابة حتى تستطيع بعض القوى خارج الحكومة أن تكون حرة في كشف أخطاء الحكومة وعرض إمكانات التقدم (41).

وتزوج جين (جان) بول Jean Paul وهو في الثامنة والثلاثين وفي سنة 4081 استقر في بيروث Bayreuth، وبعد أن خاض تجارب حية كتب كتاباً عن التعليم (Lavana) وهو واحد من كلاسيات البيداغوجا الليبرالية (علم أصول التدريس الليبرالي، وتوسع علم التربية الليبرالي) وأصدر عدداً كبيراً من الروايات والمقالات، ترجم بعضها كارليل Carlyle لإعجابه بها. وكان مزجه بين النقد الواقعي والمشاعر الرومانسية قد جعل قراءة أكثر من قراء جوته (جيتيه) أو شيلر. ومات في سنة 5281 تاركاً مقالاً لم يكتمل عن خلود الروح. لقد شهد عصره بداية اكتشاف المادة، وظلت شهرته كأحد المؤلفين الألمان الرواد تطبق آفاق أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر، وبعد أن خدمت شهرته في أوروبا انتقلت محلقة في أمريكا حيث كان لونغفلو Longfellow واحداً من المتحمسين له. ولا نكاد نجد أحداً يقرأه الآن في ألمانيا لكن المؤكد أن كل ألمانى يتذكر قوله المنطوي على الحكمة، والذي كان يقصد به توجيه طعنة إلى الفلسفة الألمانية، وتلخيص عصر نابليون على نحو يفوق كتابنا هذا: إن الله قد أعطى الإنجليز إمبراطورية البحر، وأعطى الفرنسيين إمبراطورية البر، وأعطى الألمان إمبراطورية الهواء (51).

وهناك كاتبان آخران من كثات القصة كان لها جمهور عريض كان إرنست تيودور فيلهلم هوفمان Hoffmann (6771-2281) واحداً من أكثر الألمان تعدداً للمواهب والاهتمامات بشكل غير عادي، وقد غير الاسم فيلهلم Wilhelm إلى أمادوس Amadeus في سنة 3181: لقد كان رساما ومؤلفاً للموسيقا وعازفاً لها ومخرجاً للأوبرا وممارساً قانونياً وكتب قصصاً بوليسية ورواية ألهمت جاك أوفنباخ Offenbach في مؤلفه (حكايات هوفمان)

(1881)· أما أدلبرت فون كاميسو (Adelbert Von Chamisso 1871- 8381) فكان متفردا في حياته وأدبه. لقد كان بحكم الميلاد نبيلاً فرنسياً، ترك فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية وتلقى معظم تعليمه في مدارس ألمانيا وتم تجنيده في كتيبة عسكرية بروسية وحارب فرنسا في معركة بينا Jena. وفي سنة 3181 كتب قصة رمزية هي Peter Schlemihls Wundersame Geschichle بيت فيها فيها تَمَزُقُ ولأته وحنينه لبلاد آباهه وأجداده. لقد كانت حكاية غريبة عن رجل باع ظله للشيطان. وكان عالم نبات راسخاً ذا شهرة، فصحب أوتو فون كوتسبو Otto Von Kotzebue في رحلته العلمية حول العالم (5181-8181) وسجل اكتشافاته في مؤلف حقق شهرة في وقت من الأوقات يحمل عنوان (رحلة حول العالم Reise um die Welt) وقسم ما بقي من عمره بين عمله كمسؤول عن حديقة برلين للنباتات، وكتابة الشعر الرومانسي، وقد امتدح هينريش (هينرخ) هاين Heine قصائده ووضع روبرت شومان Schumann موسيقياً لسلسلة أشعاره عن الحب والنساء.

وكان عدد الشعراء كبيراً ولا يزال كثير منهم في ذاكرة الشعب الألماني، لكن من الصعب نقل أشعارهم إلى لغة أخرى أو بلاد أخرى أو زمن آخر غير الزمن الذي قيلت فيه هذه الأشعار، لارتباط كلماتها بالموسيقا وبمشاعر خاصة. وكان فريديش (فريدريخ) هولندرين (Holderlin 0771- 3481) هو الأكثر مدعاة للشفقة منهم، فقد ثبت أن حاسيته الشعرية كانت حادة جداً بالنسبة إلى صحته النفسية والعقلية، ذهب إلى توبنجن Tubingen للدراسة ليصبح واحداً من رجال الدين فكان علاقة صداقة حافزة مع جورج هيغل Hegel الذي كان وقتها قد وضع المسيحية موضع الشك، وراح الفتى يلحم بسعادة البشرية عندما وصلته أخبار الثورة الفرنسية. لقد قرأ روسو وألف ترانيم الحرية وفي سنة 2971 وكان في آخر قرن يحتضر (القرن 81) راح يظن أنه رأى فجراً رائعاً لعصر من العدالة والنبالة. وعندما اندلعت الحرب كتب لأخته صلّاً من أجل الفرنسيين، تصيري حقوق الإنسان وعندما غرقت الثورة الفرنسية في الدم تعلق بحلمه يائساً:

حُبِّي هو الجنس البشري - ولست أقصر بطبيعة الحال هذا الجنس الفاسد المرتشي الذليل التافه الذي غالباً ما نلتقي بأفراده. إنني أحب العظمة والكفاءة حتى لو وجدت بين شعوب فاسدة. إنني أحب الجنس الذي لم أره بعد، أحب جنس البشر الآتي من القرون القادمة.. إننا نعيش في زمان يتجه فيه كل شيء إلى التحسّن. إنها بذور التنوير حيث تلك الرغبة الصامتة والنضال لتعليم الجنس البشري..

إن هذا سيكون له ثمار عظيمة. هذا هو الهدف المقدس لرغباتي ونشاطي (عملي) - هو أن أزرع البذور التي ستثمر شجرتها ثماراً ناضجة من جيل آخر غير جيلي(61).

حتى الماضي كان يسمح له بالحلم، فقد وقع في حب أبطال اليونان الكلاسية (القديمة) مثله في ذلك مثل معاصره كيتس Keats، فبدأ ملحمة نثرية عن الثوار الإغريق هي ملحمة (هيبيريون Hyperion). وأخذ طريقه إلى بينا Jena فدرس على يد فيشه Fichte وتعلم كيف يحترم كانط وقابل أرباب فيمار عندما كانوا هم أيضاً معجبين بالثقافة الهيلينية. ودير له شيلر وظيفة معلم ومرشد لأحد أبناء شارلوت فون كالب Kalb، وفي سنة 6971 وجد في بيت المالي banker جوتهارد J.F. Gotthard في فرانكفورت - ام - مين Frankfurt - am - Main وظيفة ذات عائد مالي أعلى، وكانت وظيفة مرتبطة أيضاً بتعلم الأبناء ووقع في حب زوجة هذا المالي Banker وقد قُتِرَت الزوجة أشعاره كثيراً، وأدى هذا إلى طرده من الوظيفة وإجباره على مغادرة المدينة. وأدّى به الشوق والنفي إلى شيء من الهوس، ومع هذا ففي هذا الوقت (9971) كتب قصيدة (Der Tod des Empedokles) التي تعد من بين روائع الشعر الألماني. وظل لعدة سنوات يجول المدن بحثاً عن مورد رزق وإلهامات لأشعاره. وطلب من شيلر أن يوصي به ليكون محاضراً في الأدب اليوناني لكن شيلر وجده لا يصلح لكرس الأستاذية فلم يوص به وبينما هو يعمل معلماً خصوصياً في بوردو Borseaux تلقى (هولدرلين) خبر وفاة مدام جوتهارد Gotthard فترك وظيفته وعاد سيراً على الأقدام عبر فرنسا إلى ألمانيا حيث اعتنى به أصدقاؤه (2081) عندما وجدوه وقد اختل عقله بدرجة كبيرة، وعاش حتى سنة 3481 وظلت قصائده مهملة منسوبة لفترة طويلة، حتى هو نفسه كان قد نسيها لكن رينر ماريا ريلكه Rainer Maria Rilke وستيفان جورج امتدحاه، وتضعه الجامعات الأدبية الآن في مرتبة بعد جوته وشيلر مباشرة. وهناك شعراء آخرون كثيرون، منهم كارل تيودور كورنر (Korner 1971- 3181) وهو ابن كريستيان جوتفريد كورنر الذي كان قد عاون شيلر كثيراً(71)، وقد خاض بسيفه وبقلمه (أي كارل تيودور كورنر) حرب التحرير ضد نابليون وأنهض همم الألمان بدعوتهم للسلاح ومات في المعركة (62 أغسطس 3181). أما إرنست موريتس (موريس) أرندت (Arndt 9671- 0681) فشهد خلال عمره البالغ واحداً وتسعين عاما ثلاث ثورات. لقد عمل على إلغاء النظام الإقطاعي في بوميرانيا بوصفه - بشكل واقعي في مبحثه (مقالات نحو التاريخ Versuche einer Geschichte) (3081) وفي مبحثه (Die Geist der Zeit 6081) وأطلق صرخة مدوية ضد نابليون حتى إنه اضطر إلى اللجوء إلى السويد بعد انتصار نابليون في بينا Jena. وفي سنة 2181 دعاخ ستاين Stein إلى سان بطرسبورج ليساعد في تحريض الشعب الروسي على طرد الغزاة الفرنسيين. وبعد سنة 5181 كافح في بروسيا

لمقاومة الإجراءات المحافظة فسجن. وفي سنة 8481 تم انتخابه عضوا في الجمعية الوطنية في فرانكفورت وعندما اضطربت هذه الثورة أيضا (ثورة 8481) وجه قريحته الشعرية بشكل نهائي إلى التقوى (المقصود الدين). وكتب جوزيف فون أيشندورف (Eichendorff 8871- 7581) النبيل الكاثوليكي قصائد بسيطة لازالت تحرك مشاعرنا، ومنها قصيدة (عند موت طفلي Auf meines Kindes Tod)، فهنا يمكن حتى للغريب المتشكك أن يشعر بالموسيقا الشعرية ويشترك في المشاعر ويحسد الأمل:

الساعات تدق من بعيد؛

سنصبح حالا في جوف الليل؛

ضوء ذبالة المصباح صار خافتا؛

لقد تم إعداد مخدعك الصغير؛

الرياح وحدها هي التي لاتزال تتحرك

تنتحب حول البيت

الذي نجلس فيه ولا أنيس

وغالبا مانصغي لما يجري خارجه

آه، كما لو أنك تحاول برفق

أن تطرق الباب

آه، كما لو أنك ضللت طريقك مع أنك تعرفه

فعدت راجعا حزينا

إننا بؤساء - إننا مغفلون بؤساء

نعم فنحن نجول في الظلمة المخيفة

حتى اليأس

لقد كنت تجد بيتك (لا تضل عنه) في الأيام الخوالي.

صفحة رقم : 14729

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الأدب الألماني -> الوجد الرومانسي

4- الوجد الرومانسي

كان أكثر الكتاب تألقاً في هذا الأوج الألماني هم أولئك الذين روعوا عصرهم بصيحات الغرائز وانفلاتها من قيود العقل، وانفلات المشاعر من أحكام الفكر وانفلات الشباب من حكم كبار السن وانفلات الفرد من ضوابط الأسرة والدولة. إن القليلين من هؤلاء الذين يقرؤونهم هذه الأيام لكنهم كانوا في جيلهم أسنة لهب تشعل النار في المفكرين والمتقنين الذين كانوا مهينين لها، وفي الروابط الاجتماعية التي تحبس النفس - المحلقة بطبعها - داخل قيود العادات والمحرمات taboo والأوامر والقانون.

وكان مصدر هذه الثورة هو الاستياء الطبيعي الذي ينظر من خلاله أي مراهق للقيود التي يفرضها الوالدان والإخوة والأخوات والمعلمون والدعاة ورجال الشرطة والنحاة والمناطقية وعلماء الأخلاق. ألم يثبت الفيلسوف الذائع فيشته Fichte أن الحقيقة الأساسية لكل منا هي وعيه الفردي بنفسه؟ وإن كان الأمر كذلك، فإن الكون لا يعني لأي منا شيئاً سوى ما يتعلق بتأثيره في الشخص نفسه، وقد يحق لأي منا أن يتوقف أمام التراث والتقاليد والمحاذير والقوانين والعقائد ليطالب السبب الذي يجعل طاعتها لازمة أو بتعبير آخر من حق الفرد أن يتساءل لم يجب عليه احترام التقاليد والموروثات والمحاذير والقوانين والعقائد. إن المرء قد يرضخ لوصايا الله خوفاً منه، أو لوصايا أحد رجال الله الذين اكتسوا بالقداسة، لكن كيف يكون الأمر وقد تحول الله عند ديدرو Diderot ودمربير d, Alembert وهيلفييتوس Helvetius ودولباش d, Holbach ولامترى Lo Mettrie إلى مجرد قوانين موضوعية تسيّر الكون؟ وقد أضيفت الآن الثورة إلى حركة التنوير الفخورة المتحررة لقد ذابت التقسيمات الطبقيّة، فأولئك اللوردات الذين كانوا ذات يوم يصدرون القوانين وينتزعون الطاعة أصبحوا الآن يسارعون إلى الهرب. فلم يعد هناك حاجز بين الطبقات، ولم يعد هناك غول من الموروثات والتقاليد يساند القوانين. الآن أصبح في استطاعة أي فرد أن يكمل طريقه ليصل إلى أي وضع وأي سلطة، وله أن يختار الطريق إلى المقصلة. لقد فتح الطريق أمام أصحاب المواهب وأصحاب المخالب. لم يحدث أبداً في تاريخ الحضارة المعروف أن كان الإنسان على هذا القدر من الحرية - حرية أن يختار عمله ومشروعه ورفيقه وزوجه (أو زوجته) ودينه وحكومته ونظامه الأخلاقي. وإذا خلت الساحة إلا من كيانات الأفراد فماداً بقي للدولة (ككيان) والكنيسة والجيش والجامعة؟ لن يبقى إذن سوى مؤامرات أفراد يتمتعون بمزايا خاصة للإرهاب والهمجية، ولتشكيل الأمور وفسخها، ولفرض الضرائب وتسيير أمور الحكم، وليسوقوا الباقين إلى المذابح؟ ولما تستطيع عبقرية أن تحقق إنجازاً في ظل هذه القيود، ثم أليست عبقرية واحدة عدل عدد كبير من المعلمين والجنرالات والباباوات والملوك أو مئات النيجان؟

وعلى أية حال فقد كان هناك إلى جانب هذا الاتجاه الجديد الداعي إلى التحرر من كل شيء، كثير من الأرواح الحساسة التي شعرت أن العقل قد انتزع الكثير في طريقه إلى التحرر. فالعقل هو الذي هاجم الدين القديم بما فيه من حكايات القديسين وطقوس عطرة، وموسيقاً محرّكة للمشاعر، ومريم العذراء الشفيعة والمسيح المخلص (بتشديد اللام وكسرها). وكان العقل هو الذي أحل محل هذه الرؤى السامية عمليات مادية كئيبة تتحرك بلا هدف نحو الدمار، وكان العقل هو الذي أحل محل صورة امرأة ورجل يعيشان في تواصل يومي مع المعبود، صورة رجل وامرأة مجسدين يقتربان كل يوم أكثر فأكثر بشكل تلقائي (أوتوماتيكي) على نحو مؤلم منحط، حتى يأتي موت لا قيامة بعده (موت أبدي). إن للخيال حقه حتى ولو لم يكن منسقا مع القياس المنطقي، وإنما لأكثر استعداداً للتفكير في أنفسنا كأرواح تتحكم في المادة أكثر من استعدادنا للتفكير في أنفسنا كآلات تتحكم في الأرواح. وللمشاعر حقه، وهي تترك آثاراً أعمق من الفكر والعقل. فالمتجول البائس وجان جاك المندھش قد يشعر بالحكمة ويحس بها أكثر من العفريت المؤذي (الولد الشقي) في فكر فرني Ferney thought.

لقد كانت ألمانيا قد عرفت روسو وفولتير وسمعت عنهما لكنها اختارت روسو. لقد قرأت - وأحست - بكتايبه أميل Emile وهيلويس Heloise، وفضلتهما على (القاموس الفلسفي Philosophical Dictionary) و (كانديد Candide) وقد تبعت ألمانيا ليسنج في تفضيله رومانسيات شكسبير على كلاسيات راسين Racine. لقد كانت ألمانيا أكثر استعداداً لتقبل (كلاريسا هارلو Clarissa Harlowe) و (تريستران شاندى Tristram Shandy)

وشخصية (أوسيان Ossian) في كتابات مكفرسون Macpherson عن مفكري باريس وأصحاب صالوناتها. لقد رفضت (ألمانيا) القواعد التي وضعها بوالو Boileau كقوانين للأسلوب الكلاسي. لقد امتعضت (ألمانيا) من التركيز على الوضوح والاعتدال، فهما لا يتسقان مع الحماسة والوصول إلى الخلود، ومطلع النور. لقد كانت الرومانسية الألمانية تحترم الحقيقة إن كان لها وجود، لكنها (أي الرومانسية الألمانية) كانت تشك في الحقيقة العلمية التي جعلت وجه الحياة كنييا. لقد ظلت ألمانيا تحتفظ - بحب - في ذاكرتها بالحكايات الخيالية وحكايات الجنيات التي قام كليمنز برينتانو (Clemens Brentano 8771- 2481) وأشيم فون أرنييم Achim Von Arnim (1871- 1381) بجمعها في مؤلف بعنوان (Des Knaben Wunderborn 5081- 8081)، وقام أيضا الأخوان جريم Grim (جاكوب، 5871 - 3681، وفيلهم، 6871 - 9581) بتجميع آخر بعنوان Kinder - und Hausmarchen (2181). لقد كانت هذه الحكايات هي صدى لطفولة الأمة وطفولة الأفراد، وكانت جزءاً من روح الألماني الطيب وربما كانت انعكاساً لما وراء الوعي عنده. وإذا كان لا بد لهذا التراث الخيالي الذي يعود إلى ما قبل الثورة؛ إلى كاثوليكية العصور الوسطى وإلى روح القصة الشعرية أن يعود فإنه يعود إلى الكاتدرائيات القديمة التي كستها الطحالب لفرط قدمها وإلى العقيدة الراسخة التي لا تحتل الشك والحرفيين المهرة الذين يغمرهم النشاط والمرح، ولا بد أن يقود ألمانيا إلى الصلوات والدعوات والترانيم الدينية وأجراس والكنائس مما يجعل الرب حاضراً في الحياة اليومية للناس، ويمزج الأفراد المرهقين بمجموعة القديسين والصالحين الذين كانت حياتهم ملحمة مقدسة في التاريخ المسيحي. وبالأم العذراء Virgin Mother التي نذرت بتولتها وعذريتها للأسرة المقدسة والأمة والجنس البشري. وكان كل هذا بطبيعة الحال بقايا ذوات طابع حماسي من العقائد الوسيطة (العقائد التي سادت في العصور الوسطى) وما صاحبها من مخاوف، وهراطقة لا بد من تجريدهم وأرواح حائرة، ومع هذا فقد بلغت بكثيرين من الرومانسيين الألمان ذروة التوهج والحماس وراح بعضهم - ندماً وتوبة - يلقون بأنفسهم على أعتاب المذابح الكنسية في أحضان الكنيسة الأم.

صفحة رقم : 14730

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الأدب الألماني -> أصوات المشاعر

5- أصوات المشاعر

لقد كادت الرومانسية الألمانية تؤثر في كل مناحي حياة الأمة: لقد أثرت في موسيقا بيتهوفن وفيرر Weber وفيلسوف مندلسون Felix Mendelssohn، وفي روايات هوفمان وتيك Tieck وفي فلسفة فشته وشيلنج Schelling، كما كان لها تأثيرها في الدين كما وجدنا عند شلايرماشر Schleiermacher ومئات من المتحولين للمسيحية مثل فريدريش شليجل، ودوروثيا مندلسون Dorothea Mendelssohn. لقد قاد خمسة رجال - على نحو خاص - هذه الحركة في الأدب الألماني، ولا بد أن نذكر من بينهم امرأة رومانسية شاركتهم الحب المنطلق أو المقيد كما شاركتهم الاهتمامات الفكرية مما صدم العقليات المحتشمت من فرانكفورت إلى الأودر. وكان بالقرب من منابع الحركة طائر يحرك جناحيه ونعني به فيلهلم هينريش فاكندرودر (Vackenderod 3771 - 8971) وهو كاتب خجول سهل الانقياد غير مرتاح للحقيقة (الواقع) والعقل، إنما كان يجد راحته في الدين، وكان يجد سعادته في الفن. لقد رأى في قدرة الفنان على التصور والتنفيذ شبيهاً قريباً بعملية الخلق. وقد صاغ دينه الجديد هذا في مقالات ذات طابع ديني تعبدية تناول فيها ليوناردو، ورافائيل، وميكل (ميشيل) أنجلو، ودوتر Dutter... ووجد دعماً

لاتجاهه هذا في جامعتي جوتنجن وإرلانجن Erlangen، إذ أيده لودفيج تيك Tieck وتحمس له واقترح لكتابات صديقه عنواناً طريفاً هو: (فيوضات قلبية لأخ مسيحي عاشق للفن Hrzensergiessungen eines Kunstliebenden Klosterbruders) ولأن هذه المقالات أخذت طابعاً مسيحياً فقد وجدت لها ناشراً في سنة 1797. لقد سخر فاكندرودر من المذهب العقلي الذي أخذ به ليسنج ومن المذهب الكلاسي الذي أخذ به فنكلمان Winckelmann، وكانت سخريته هذه تكاد تكون بالحدة نفسها التي تجنح إليها البورجوازية الألمانية لإعلاء الفن والسمو به، وراح فاكندرودر يعمل في عصره على إعادة أخويات الفنانين والعمال التي كانت سائدة في العصور الوسطى. وأصيب فاكندرودر بالتيفود فمات وهو في الرابعة والعشرين من عمره.

وظل صديقه تيك (Tieck 1771- 1851) طوال ثمانين عاماً يلعب مباراة خطيرة (فيها مخاطرة) إذ راح يؤيد المشاعر في مواجهة العقل، ويؤيد الخيال في مواجهة الواقع reality. لقد كان هو وفاكندرودر Wackenroder قد درسا الدراما في العصر الإليزابيثي والفن في العصور الوسطى، وابتهجا لسقوط الباستيل. إلا أن تيك كان يختلف عن فاكندرودر في عدة أمور منها أنه كان يتمتع بروح الفكاهة ونزعة للعب. لقد شعر أن الحياة مباراة يلعبها الأرباب مع الملوك والملكات والأساقفة والفرسان والحصون والكاندرايات، والرهانات متواضعة (بسيطة)، أو بتعبير آخر جائزة الفائز في المباراة بسيطة. وعندما عاد لمسقط رأسه برلين بعد أن قضى أيام الجامعة نشر في الفترة من 1791 إلى 1797 رواية في ثلاثة مجلدات نشر في الفترة من 1791 إلى 1797 (Die Geschichte des Herrn William Lovell) كتبها على نمط أسلوب ريتشاردسون، ووصف فيها بتفاصيل حساسة العلاقات الجنسية والانتقالات بين ربوع الفكر لشاب تخلى عن الأخلاق المسيحية واللاهوت المسيحي وانتهى إلى أنه ما دامت النفس - على وفق نظرية المعرفة عند فشته - هي الحقيقة الوحيدة التي يمكننا معرفتها بشكل مباشر، فلنكن إذن هذه النفس (الذات) هي معيار الأخلاق وواضع القوانين:

لا توجد كل الأشياء إلا لأنني أفكر فيها، ولا وجود للفضيلة إلا لأنني أظن وجودها (أفكر فيها) الحق أقول لكم إن الرغبة الجنسية هي السر الكبير لوجودنا. فالشعر والفن، بل وحتى الدين، هي مجرد شهوة جنسية مفتحة. وأعمال النحاتين وشخص الشعراء ورسوم الفنانين التي نرزع أمامها ليست سوى مقدمة للمباهج الحسية..

إنني أشفق على الأغبياء الذين يثرثرون ثرثرة المعتمهين عن الإثم والفسوق للذين ترتكبا حواسنا. وإنهم بانسون مصابون بالعمى. إنهم يقدمون الأضاحي لرب عنين (عاجز جنسيا) لا يمكن أن تسعد عطايه قلب الإنسان ... لا، إنني وهبت نفسي لخدمة إله أعلى تتحني أمامه كل الخلائق، إله يوحد في طبيته كل مشاعر الطرب والنشوة والحب وكل شيء... ففي أحضان لويزا فقط عرفت ما هو الحب، وذكرى أميليا Amelia تبدو لي الآن على البعد باهتة قليلا يغلفها الضباب (81) هنا وقبل (الإخوة كرامازوف) (The brothers Karamazov 1881) بخمسة وثمانين عاماً نجد نبوءة إيفان كرامازوف بأن قرنا من التسبب الأخلاقي سيأتي بعده: إذا لم يكن الله موجودا فكل شيء مباح وعلى أية حال فإن لوفيل Lovell (بطل رواية تيك الأنف ذكراها) عاد للدين قبل أن يموت. لقد قال إن أكثر المفكرين الأحرار طيشا ولا مبالاة أصبح أخيرا متعبدا (91) وكان هذا الاعتراف مناسباً تماماً وفي وقته ذلك أنه قتل بعد ذلك بفترة وجيزة في مبارزة.

وكان الكتاب مفخرة لشاب تحرر قبل أن يصل لسن (العقل). وفي سنة 1797 نشر قصة قصيرة (إكهرت الشقراء Der blonde Eckhart) حازت إعجاب الأخوين شليجل. وذهب إلى بينا Jena بناء على دعوتها، كانت بينا وقتها معقلاً للرومانسية. وعلى أية حال فإن تيك Tick غادرها في سنة 1801 ليعيش في عزبة أحد أصدقائه في فرانكفورت - أن دير - أودر. Frankfort - an - der Oder، وتفرغ لفترة لترجمة مسرحيات العصر الإليزابيثي، ثم لتحرير أعمال معاصريه نوفاليز Novalis وكلايست Kleist وكتب عنها كتابات نقدية متألفة. وسار على خطى ليسنج فشغل طوال سبعة عشر عاماً منصب الدراماتورج Dramaturg (المدير والناقد الدرامي) في مسرح دريسدن Dresden وجلبت له مقالاته الصريحة بعض الأعداء لكنها أيضاً حققت له الشهرة على مستوى الأمة كناقداً أدبي لا يسبقه في هذا المضمار (النقد الأدبي) سوى جوته، وأوجست فون شليجل. وفي سنة 1841 دعاه إلى برلين الملك فريدريك وليام الرابع (الذي لم يكن قد سمع مطلقاً بروايتيه (لفل Lovell) وقبل تيك الدعوة (وكان قد تجاوز لفل منذ زمن) وعاش أعوامه الباقية كأحد عمد الأدب في العاصمة البروسية. أما نوفاليز (Novalis 1771- 1801) فلم يعيش طويلاً ليتمكن من التخلص من أفكار شبابه. وقد تمتع بمزايا غير مؤكدة - كأديب - لنباله مولده، فقد كان أبوه مديراً لإنتاج الملح في سكسونيا، وكان - أي أبوه - ابن عم الأمير كارل فون هارنبرج الوزير البروسي. وكان الاسم الحقيقي لشاعرنا هو فرايهر فريدريش فيليب فون هارنبرج، لكنه استخدم الاسم نوفاليز Novalis كاسم مستعار، لكنه (أي هذا الاسم) كان هو الاسم الفعلي لأحد أجداده في القرن 91. وكانت أسرته تنتمي إلى جماعة هيرنهت Herrnhut التقوية (جماعة دينية بروتستنتية) وكان كآسرتة ذا ميول دينية قوية لكنه عمل أخيراً على التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستنتية كخطوة نحو توحيد أوروبا.

والتحق وهو في التاسعة عشرة من عمره بجامعة بينا Jena. وكون علاقات صداقة حميمة مع تيك Tick وشيلير وفريدريش فون شليجل وربما حضر بعض محاضرات فيشته التي كان لها تأثيرها في بينا وفيمار. وبعد أن قضى عاما في جامعة فيتمبرج تبع أباه إلى أرشتادت Arnstadt في ثورينجيا Thuringia. وبالقرب من جروننجن Gruningen التقى بصوفي فون كوهن Sophie Von Kuhn فاهتز لقوامها الجميل وشخصيتها الفاتنة لدرجة أنه طلب يدها من والديها. وفي سنة 5971 كان هو وصوفي قد خطبا رسميا رغم أنها لم تكن قد تجاوزت الرابعة عشرة من عمرها. وسرعان ما سقطت مريضة بداء الكبد، فأجريت لها عملتان أنهكتها فماتت في سنة 7971، ولم يفق نوفاليز أبدا من هول موت حبيبة قلبه فكانت أشهر قصائده هي ستة ترنيمات (0081) Hymenenen an die Nacht كذكرى حزينة لحبيبته صوفي.

وفي سنة 8971 خطب جولي فون كاربننير لكن الخطبة فشلت فلم ترس السفينة على شاطئ الزواج. وشارك السل (ذات الرنة) الحزن في إنهاك الشاعر فمات في 52 مارس 1081 وهو الثامنة والعشرين. وترك لنا رواية هي (هنريش فون أوفتردنجن) Heinrich Von Ofterdingen (8971 - 0081) تقدم لقرائها تعبيراً مكثفاً عن التطلع للسلام الديني (التوق الشديد إليه، والمقصود التطلع لنهاية الخلاف بين الكاثوليكية والبروتستانتية). وكان قد امتدح في وقت من الأوقات (فيلهلم ميستر Wilhelm Meister) التي ألفها جوتة كعمل واقعي يقدم وصفا مفيدا لتطور الإنسان، لكنه عاد الآن يدينها باعتبارها تضيي المثالية على الأعمال الدنيوية. وكان البطل في روايته كشخصية تاريخية، فهو المؤلف الحقيقي لرواية (Nibelungenlied)، فجالاهاد Galahad كرس نفسه لتتبع وردة زرقاء رمزاً لتحول الموت إلى فهم لا حد له (خالد) ولا نهاية. يقول هنريش: إنها الوردة الزرقاء التي طالما تفت لرؤيتها، إنها دوماً في عقلي ولا أستطيع أن أتخيل سواها (02). إننا نجد هنا، كما نجد في مقاله الذي حقق شهرة في وقت من الأوقات (الدولة المسيحية في أوروبا) دفاعاً عن العصور الوسطى كعصر مثالي (بل إنه دافع عن محاكم التفتيش) شهدت فيها أوروبا وحدة سياسية ووحدة في عقيدتها الدينية، وكان من رأيه أن الكنيسة على حق في مقاومتها للعلم المادي والفلسفة العلمانية (غير الدينية). ومن هذا المنظور يمكننا القول إن التنوير كان يتراجع حزينا. ولما كان الموت يدعوه إليه راح نوفاليزي يرفض كل الأهداف الدنيوية والمباهج الأراضية وراح يحكم بحياة أخرى (في العالم الآخر) لا مرض فيها ولا نصب ولا حزن، بل لا نهاية له.

صفحة رقم : 14731

قصة الحضارة - < عصر نابليون - < ملوك أوروبا في مواجهة التحدي - < الأدب الألماني - < الأخوان شليجل

6- الأخوان شليجل

كان الأخوان أوجست (أغسطس) فيلهلم فون شليجل (7671 - 5481)، وفريدريش فون شليجل، أخوين جديرين بالتأمل: إنهما مختلفان في الطباع والعشق والدراسات والعقائد، لكن يجمعهما في النهاية السنسكريتية والفيلولوجيا (فقه اللغة). ولدا في هانوفر لقس بروتستنتي، وأصبحا لاهوتيين عندما بلغا الحلم ومهرطقين (شاكين في المسيحية) عندما بلغ الواحد منهم العشرين. واستمتع أوجست فيلهلم في جوتنجن Gottingen بدراسة انتقال الكلمات من خلال محاضرات كريستيان هين Heyne ذي الشخصية الجذابة الذي ترجم أعمال فرجيل Virgil كما استمتع بدراسة التراث الفكري في العصر الإليزابيثي من خلال المحاضرات التي كان يلقيها جوتفرايد بيرجر Gottfried Burger مترجم أعمال شكسبير ومؤلف أغنية لينور (12) Lenore. واستقبلت الجامعة نفسها فريدريش فون شليجل بعد

استقبالها لأخيه بخمس سنوات، وبدأ كدارس للقانون كما راح ينتقل بين دراسة الأدب والفن والفلسفة، ونضج سريعا فحق بأخيه في بينا Jena في سنة 6971 وشاركه تأسيس الأثيناوم Athenaum التي أصبحت طوال عامين (8971 - 0081) متحدثا باسم الحركة الرومانسية الألمانية ومرشدا لها. وساهم نوفاليز وشليمرماشر Schleiermacher بالكتابة فيها، وأتى تيك Tieck وأضاف فيشته وشلنج فلسفتيهما، وكان يأتلف إلى هذه الدائرة الحية بعض النسوة الموهوبات، والمتحررات على نحو رومانسي.

وكان فريدريش فون شليجل هو ضابط السرعة الفكرية - إن صح هذا التعبير - لهذه المجموعة، ويكفي لهذا أنه كان أسرعهم في اعتناق الأفكار وأسرعهم أيضا في التخلي عنها.

وفي سنة 9971 أصدر رواية (لوسينده Lucinde) وهي التي أصبحت علما أحمر يقود الهجوم ضد المعتقدات القديمة والمحرمات taboos المزعجة. وكان هذا الهجوم نظريا دافعا عن حق الشعر كمفسر للحياة ومرشد لها. فالصناعة والاتجاه النفعي هما ملائكة الموت، فلم هذا الاندفاع المستمر والعمل الدائب بلا راحة ولا استرخاء؟ ويعلن بطل الرواية أيضا إن إنجيلنا هو إنجيل المرح والحب (22) وهو يعني مرح الحب وبهجته دون زواج. وعندما حاول فريدريش زيارة أخيه الذي كان في ذلك الوقت معلما في جوتنجن (0081) أرسلت السلطات في هانوفر أمرا حاسما لرئيس الجامعة: إذا أتى فريدريش شليجل وهو أخو أستاذ عندكم، إلى جوتنجن بغرض الإلقاء لأي فترة فلن يسمح له بذلك، وسيكون أمرا طيبا إذا طلبتم منه مغادرة المدينة، ذلك لأن كتاباته تنحو نحواً غير أخلاقي (32) والمرأة التي ألهمت شليجل في روايته (لوسينده Lucinde) هي كارولين ميشاليز (ميكاليز Michaelis) ولدت كارولين في سنة 3671 وتزوجت أستاذا جامعيا (4871) ولم تكن سعيدة معه، فتحررت عندما مات، وراحت لعدة سنوات تمرح مستمتعة بمباهج الحياة كأرملة جميلة ومفكرة. وقد أحبها أوجست فون شليجل عندما كان طالبا في جوتنجن، واقترح عليها الزواج فرفضت لأنه أصغر منها بأربع سنوات. وعندما غادر ليدرس في أمستردام (1971) راحت تدخل في سلسلة من المغامرات الجنسية ففوجئت بأنها حامل وانضمت إلى مجموعة ثورية في مينز (مينتس) وقبض عليها، وعمل والداها على إطلاق سراحها فذهبت إلى ليبزج (ليبسج) لتضع حملها، وهنا ظهر أوجست فون شليجل وعرض عليها الزواج مجددا فقبلت فتزوجها (6971) وتبنى طفلها، واتجهوا جميعا (الزواج والزوجة وابنها) إلى بينا Jena. وفي بينا أصبحت المضيفة الأثيرة للبير اليبين لتعلمها وحيويتها ومناقشاتها الذكية وقال عنها فيلهلم فون همبولدت Von Humboldt إنها أكثر من عرف من النساء مهارة ونشاطا (42). وأتى جوته وهردر Herder من فيمار ليجلسوا إلى مائدتها ويسعدوا بصحبتها (52). ووقع فريدريش فون شليجل الذي كان يقيم مع أخيه في هذا الوقت - وقع هو الآخر في حبها، فجعل منها (لوسينده) في روايته وراح ينشد لها أناشيد الحب ويرفع من شأنها حتى ضاقت الكلمات عن عاطفته. وفي هذه الأثناء ذهب أوجست شليجل الذي كانت عاطفته إزاءها قد بردت - ليحاضر في برلين (1081) حيث كون علاقة مع صوفي برنهارد Sophie Bernhadi التي طلق زوجها لتعيش مع حبيبها الجديد. وعندما عاد أوجست شليجل إلى بينا وجد كارولين مفتونة بشيلنج (4081) وعاشت معه حتى ماتت (9081)، ورغم أن شيلنج تزوج بعد موتها إلا أنه ظل يذكرها لأعوام عديدة حتى لو لم تكن لي ما كانت (زوجة) فلا بد أن انى الجنس البشري لفقدتها فقد كانت نموذجا للكمال العقلي لم يعد موجودا. إنها امرأة نادرة ذات روح قوي وعقل حاد اجتمعا معا في جسد أنثى فاتنة تضم قلبا عاشقا (62).

وكانت دوروثيا فون شليجل مثل سابقتها ذات أهمية وتأثير في حياة هذه المجموعة. كان اسمها قبل الزواج برندل مندلسون (مندلسهون) ورغبة منها في إسعاد والدها المشهور تزوجت في سنة 3871 من البنكي (المالي) سيمون فايت Veit وأنجبت له ابنا (فيليب فايت) الذي أصبح رساما شهيرا في الجيل التالي. وكان مالها وفيرا فزهدت فيه لكثرة وراحت تغامر في مجال الفلسفة، ذلك المجال الذي كان لا يزال غير أكيد (كانت المباراة فيه غير مضمونة النتائج) وأصبحت نجما بارزا في مجال الفكر في صالون راشيل فارنهاجن Rachel Varnhagen في برلين، وهناك التقى بها فريدريش فون شليجل ووقع في حبها مباشرة أما هي فكانت مفتونة بأفكاره ووجدته بسبح فيها (في أفكاره) ففتنت به فتنتها بأفكاره، وكان وقتها في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت هي في الثانية والثلاثين، لكن المؤلف كان مفتونا بأمر جذابة كثيرة في هذه الأنثى ذات الثلاثين ربيعا femme de trente ans. لم يكن جمالها صارخا لكنها قدرت مواهبه العقلية وكانت تستطيع أن تصحبه منقمة اكتشافاته الفلسفية والفيلولوجية (في علم فقه اللغة)، وأحس زوجها أنه فقدتها فطلقها (أي تحولت للمسيحية وتركت ديانتها اليهودية) وتسمت باسم دوروثيا، وأصبحت زوجة رسمية لفريدريش في سنة 4081.

نعود إلى أوجست شليجل، فقد أصبح في هذا الوقت أشهر محاضر في أوربا، وأدت ترجمته لأعمال شكسبير إلى إحرازه مكانة عالية وأصبح شكسبير (هذا الإليزابيثي العظيم) يكاد يكون ذا شعبية في ألمانيا كشعبية في إنجلترا. ورغم أن أوجست شليجل يدعى مؤسس المدرسة الرومانسية في ألمانيا (72) إلا أنه كانت فيه كثير من صفات العقل الكلاسي: النظام والوضوح والتناسب والاعتدال، والتقدم الثابت الوئيد للوصول إلى هدف محدد. وقد

تجلت هذه الصفات بشكل أقوى في محاضراته عن الأدب الدرامي التي ألقاها في مدن مختلفة وأعوام مختلفة، وكذلك محاضراته عن شكسبير العامرة بالتعليقات والملاحظات التنويرية، والتي كان ينفذ فيها بشجاعة في بعض الأحيان - شاعره المحبوب (شكسبير). لقد كتب ولیم وهازلت W. Hazlitt في سنة 1781: لقد قدم إلى حد بعيد أحسن عرض ظهر لمسرحيات شكسبير ... إننا نعترف - مع قليل من الغيرة - أننا يجب أن نذكر لناقد غير إنجليزي تقديمه للمبررات التي تؤكد نظرتنا نحن الإنجليز إلى شكسبير (82).

وعندما كانت مدام دي ستيل تطوف ألمانيا بحثاً عن مادة لكتابها حثت أوجست شليجل (4081) على أن يذهب معها إلى كوبت Coppet ليدرّس لأبنائها وليعاونها في إعداد موسوعتها مقابل 21,000 فرنك في السنة، فسافر معها أخيراً إلى إيطاليا وفرنسا والنمسا وعاد معها إلى كوبت وظل معها هناك حتى سنة 1181 عندما رضخت السلطات السويسرية لأوامر نابليون فأمرته بمغادرة سويسرا، فذهب إلى فيينا واعتزته الدهشة إذ وجد أخاه يحاضر فيها مدافعاً عن العصور الوسطى باعتبارها العصر الذهبي الذي شهد وحدة أوروبا سياسة وعقيدة.

لقد كانت فيينا هي العاصمة الكاثوليكية لألمانيا وكان فريدريش دوروثيا قد تحولاً للكاثوليكية في سنة 8081. وكانت دوروثيا قد قالت منذ أعوام خلت: إن صور القديسين والموسيقا الكاثوليكية تهز مشاعري فقررت أنني لو تحولت للمسيحية فسأصبح كاثوليكية (92) أما فريدريش فون شليجل فعزاً تحولته إلى الكاثوليكية إلى ميله للفن a predilection d'artiste وعلى أية حال، فإن الكاثوليكية من نواح كثيرة - باعتبارها مثيرة للخيال والمشاعر والجمال - تبدو ملائمة للمشاعر الرومانسية.

لقد ضجر الرجل العقلاني من العقل بعد أن تأثر بالأسرار الدينية (الكاثوليكية)، وأحس بهوان الإنسان أمام الموت. لقد لجأ هذا الفردّي individualist - بعد أن وجد نفسه وحيداً غير آمن مع نفسه - إلى الكنيسة يرتتمي في أحضانها لتكون له بيتاً مريحاً. لقد تخلى فريدريش شليجل أمهر أنصار الاتجاه العقلي وأكثر الشباب تحمساً للفردية (الاتجاه الفردي) ودعوة إليه، وأكثر الثوار تطرفاً - تخلى الآن عن كل هذا مولياً ظهره لفولتير، ومولياً ظهره للوثر وكالفن ليرتمي في أحضان أوروبا في العصور الوسطى يأخذ عنها ويستلم منها ويتحرق شوقاً لكنيستتها الفايضة على زمام كل الأمور. لقد حزن للتخلي عن الميثولوجيا الملهمة (الحكايات الأسطورية) وإحلال العلم البائس محلها وأعلن أوضح عجز وأكبر نقص تعانيه كل الفنون الحديثه تتمثل في الحقيقة التي مؤداها أن الفنانين لم يعد أمامهم ميثولوجيا يستلمون منها (03).

وربما كانت أبحاثه في آداب الهند القديمة وميثولوجيتها قد عمقت احترامه للميثولوجيا. وكان قد بدأ في باريس سنة 2081 هذه الدراسات التي بلغت ذروتها، ووضعت أساساً لتطور هذا النوع من الدراسات فيما بعد تجلت في كتابه (لغة الهند وحكمته Uber die Sprache und Weisheit der Inder) الذي ساهم في تأسيس علم فقه اللغة المقارن في نطاق اللغات الهندو أوروبية. وناقش فريدريش هذا الجانب من حياته مع أخيه الذي انضم إليه لفترة في فيينا سنة 1181، واستحضر أوجست في ذهنه عمله مع كريستيان هاين Heyne في مجال فقه اللغة (الفيلولوجيا)، فواصل عمله في هذا المجال وانضم إلى أخيه في دراسة اللغة السنسكريتية، فأثمر هذا الاشتراك أفضل النتائج التي تمخضت عنه حياتهما، وأرسخها وأكثرها دواماً. لقد حقق فريدريش لنفسه مكانة في الحياة الثقافية والسياسية في فيينا، ووصل إلى منصب أمانة السرفي الحكومة النمساوية، وساعد في كتابة هجوم عنيف على نابليون أصدره الأرشودوق كارل لودفيج كجزء من معركة سنة 9081، وفي سنة 0181 وسنة 2181 ألقى في فيينا محاضرات شهيرة متميزة في التاريخ الأوربي والأدب في أوروبا، وفي هذه المحاضرات عرض نظرياته في النقد الأدبي وقدم تحليلاً كلاسيكياً للرومانسية. وفي سنة 0281 أصبح محرراً لصحيفة الجناح اليميني الكاثوليكية وهي صحيفة كونكورديا Concordia وراح في هذه الصحيفة يهاجم الأفكار والمعتقدات التي طالما كان قد دافع عنها بحماس في أثناء الأيام التي قضاها في فيينا Jena مما أدى إلى فرقة بلاعودة بينه وبين أخيه. وكانت آخر محاضراته في دريسدن في سنة 8281 ومات في العام التالي، واحتفظت دوروثيا بذكراه واحتقت بها وظلت مخلصاً لأفكاره وأعماله حتى ماتت في سنة 9391.

وعاش أوجست فون شليجل بعدها. وفي سنة 2181 انضم إلى مدام دي ستيل مرة أخرى، وأرشدتها خلال ترحالها في النمسا وروسيا إلى سان بطرسبورج، وذهب معها إلى ستوكهولم، حيث تم تعيينه - بوساطة من مدام دي ستيل - سكرتيراً لبيرنادوت Bernadotte ولي عهد السويد، وصحبه في معركة 3181 ضد نابليون. ومنحته الحكومة السويدية رتبة النبالة لخدماته. وفي سنة 4181 انضم مرة أخرى إلى مدام دي ستيل في كوبت Coppet وظل معها حتى ماتت. وعند هذا الحد يكون قد أنجز ما وعداها به، فقبل منصب أستاذ الأدب في جامعة بون (8181) فواصل دراساته للسنسكريتية وأنشأ مطبعة سنسكريتية ونشر - وحرر - نص الباجافاد جيتا - Indische Bibliothek، والرامايانا Ramayana، وظل طوال عشر سنوات يعمل في مكتبة الأدب الهندي، ومات في سنة 5481 وهو في الثامنة والأربعين بعد أن ترك لنا كنوزاً: نقل التراث الشكسبيري إلى ألمانيا، وقد بذل

في هذا العمل جهداً مضنياً، وقدم لنا - من خلال محاضراته - حصاد ذكريات كولردج وأفكاره ليلتقط منها للفلسفة الألمانية. لقد كانت حياته (أوجست فون شليجل) حياة مثمرة.

الفصل الثاني والثلاثون
الفلسفة الألمانية
5181 - 9871

تتأولنا للفلسفة المثالية التي قال بها كانط ومن أتى بعده من تلاميذه، يعوقه أن كلمة مثالي ideal في التفكير الدارج أصبحت تعني التميز الخلفي، كما يعوقه أيضاً أننا اعتدنا - في عصر العلم والصناعة - أن نفكر في الأشياء التي ندركها وقلما نفكر في عملية الإدراك نفسها. وهناك اتجاهان متنافسان في الفلسفة اليونانية حيث وجدنا ديموقريطس Democritus يبدأ بالجزء أو الذرة (أو الفرد المكون للكل أو العنصر المكون لما هو شامل) بينما بدأ أفلاطون بالأفكار. وفي الفلسفة الحديثة ركز بيكون Bacon على معرفة الكون، وبدأ ديكارت بالتفكير نفسه. ووجدنا هوبز Hobbes يلخص كل شيء في المادة، أما بيركلي Berkeley فكل شيء عنده عقل أو نفس. وقد أعطى كانط الفلسفة الألمانية خصوصيتها بتدليله على أن مهمة الفلسفة الأساسية هي دراسة العمليات التي نكون بها الأفكار. لقد أقر بوجود الحقيقة الخارجية (الكائنة خارج العقل أو النفس) لكنه أصر على أننا لانستطيع أبداً أن نعرفها بشكل موضوعي ما دما لا نستطيع معرفتها إلا كمتغيرات بواسطة أعضاء وعمليات الإدراك الموجودة في أفكارنا. وعلى هذا فالمثالية idealism هي النظرية القائلة بأننا لا نعرف شيئاً سوى الأفكار، وعلى هذا فالمادة matter هي شكل من أشكال العقل · is a form of mind

صفحة رقم : 14732

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الفلسفة الألمانية -> فيشته

نجد هنا - كما وجدنا غالباً عند تناولنا للتاريخ الأدبي - أن دراسة الرجل (المؤلف أو المفكر) أكثر تشويقاً من دراسة مؤلفاته. فدراسة المؤلفات تجعلنا نحس بالتحاحات أو التآكل الذي يسببه فيضان أنماط مختلفة في الأفكار والصيغ لكن دراسة نفس تشق طريقها خلال متاهات الحياة تعد درساً حياً في الفلسفة، وصورة متحركة نابضة بالخبرات التي تصوغ الشخصية وتحول الأفكار.

لقد عاش جوهان (يوهان) جوتليب فيشته Johann Gottlieb Fichte اثنين وخمسين عاماً كانت غاصة بتجارب مختلفة. لقد كانت أمه تدعو الله أن يكون ابنها قسا (راعي أبرشية) فوافق وبعد أن قضى فترة في بعض المدارس المحلية، تم إرساله إلى بينا لدراسة اللاهوت (أصول العقيدة)، لكنه كان كلما تعمق في دراسة اللاهوت المسيحي زاد عجباً وشكاً. وأعطاه واعظ القرية تفنيداً لأخطاء سبينوزا (Refutation of the errors of Spinoza) لكن فشته أعجب بأخطاء سبينوزا وعض الطرف عن تفنيدها (2) واتخذ قراراً وهو أنه لن يصلح أن يكون قساً. ومع هذا فقد تخرج في كلية اللاهوت. وكان مفلساً معظم الوقت، فسار على قدميه من بينا Jena إلى زيورخ لبحث عن عمل له كمعلم خصوصي، وهناك أحب جوهانا (يوهانا) ماريا رahn وتقدم لخطبتها رسمياً، لكنهما اتفقا على تأجيل الزواج حتى يستقر مالياً.

وانتقل إلى لبيزج (ليبتسج) وقام بالتدريس لبعض الطلبة، وقرأ كتاب كانط (نقد العقل الخالص) وافتتن به. وأخذ طريقة إلى كونيجسبرج Königsberg وقدم لكانط كتابه (مقال نحو نقد كل وحي vesush einer kritik aller Offenbarung) (2971)، وطلب قرضاً من كانط فلم يعطه لكنه ساعده في الوصول إلى ناشر لنشر عمله. وأهم الناشر ذكر اسم المؤلف على الكتاب وعندما ذكر النقاد أن الكتاب من تأليف كانط، صرح كانط باسم المؤلف وامتدح الكتاب وهكذا أصبح فيشته عضواً في جماعة المفكرين الجليلية (3) ولم يستقبله اللاهوتيون بحفاوة كما استقبله المفكرون لأن الحجج التي ساقها في مبحثه الأنف ذكره مؤداها أنه رغم أن الوحي لا يقدم دليلاً على وجود الله، فلا بد أن نعزو نظامنا الأخلاقي لله، إن أردنا أن يكون هذا النظام مقبولاً ومطاعاً من الجنس البشري وبناء على توصية كانط وجد فيشته وظيفة كمعلم ومرشد في دانزج (داننسج)، وكانت وظيفة ذات عائد مجز، ووافقت خطيبته الآن على أن تضم مدخراتها لما يأتيه من دخل، وتزوجا في سنة 3971، ونشر في العام نفسه أيضاً مقالين قوبل دون أن يقرنهما باسمه. وفي مقال (ملوك أوروبا وأمرؤها يعيدون حرية الفكر) بدأه بامتداح بعض الحكام المنتورين وتوجيه اللوم

للملوك والأمراء الذين يعوقون تقدم العقل البشري، وحزن لموجة القمع التي أعقبت وفاة فريدريك الكبير. إن الإصلاح roform أفضل من الثورة rerolution لأن الثورة قد تقذف بالإنسان إلى الخلف وترده إلى البربرية، ومع هذا فالثورة الناجحة قد تحقق تقدما للبشرية في نصف قرن ما يحققه الإصلاح في ألف عام. ثم خاطب فيشته قراءه في زمن كان الإقطاع فيه لا يزال راسخا في معظم أنحاء ألمانيا:

لا تتركوا حكامكم بل اكرهوا أنفسكم. إن أحد مصادر بؤسكم هو تقديركم المفرط لهؤلاء الأشخاص (الحكام) الذين ضلت عقولهم لنقص التعليم والانغماس في الذات والخرافة... هؤلاء هم الذين يبذلون كل جهدهم لقمع حرية الفكر... اصرخوا في وجوههم قائلين لهم إنكم لن تسمحوا لأحد أن يسلبكم حرية فكركم...

لقد انتهت عصور الظلمة... عندما يقولون لكم باسم الرب إنكم طيع من المواشي خلق ليستغل وليخدم حفنة من الأشخاص الفانين (أي أنهم بشر مثلكم) بونوا مكانا عليا ليمتلكوكم وتصبحوا ملكاً لهم... لا... إنكم لستم ملكاً لهم، ولا حتى أنتم ملك للرب، إنكم ملك أنفسكم... سنسألون الآن الأمير (أو الملك) الذي يريد أن يحكمكم: بأي حق ستحكمنا؟ فإن قال بحق الوراثة، فلتسألوه: وكيف حصل جدك الأول (مؤسس الأسرة الحاكمة) على هذا الحق؟... إن الحاكم يستمد كل سلطانه من الشعب (4) أما مقاله الثاني فهو عن تصحيح الأحكام العامة عن الثورة الفرنسية فهو الأكثر راديكالية. فالمزاي الإقطاعية لا يجب أن تكون متوارثة، وإنما هي وجدت برضا الدولة ولا بد من إغائها بما يتفق مع مصلحة الدولة. والأمر نفسه بالنسبة إلى الملكات الكنسية. لقد تم إقرارهم بموافقة الدولة وتحت حمايتها، ويمكن تأميمها على وفق حاجة الأمة وإرادتها. وهذا ما فعلته الجمعية الوطنية الفرنسية، وهي على حق.

لقد نشر هذان المقالان غفلاً من الاسم، ولو كان معروفاً أن فيشته هو مؤلفهما ما دعي في ديسمبر 1971 ليشغل كرسي الفلسفة في بينا Jena. وكان الدوق شارلز أوجستس لا يزال هو لورد فيمار وبيننا Jena. الهادئ، وكان جوته الذي يشرف على هيئة التدريس في الجامعة لم يقرر بعد أن الثورة الفرنسية كانت سقما (مرضا) رومانسيا (5). وعلى هذا فقد بدأ فيشته محاضراته في بينا Jana في الفصل الدراسي الذي يبدأ بعد عيد الفصح في سنة 14971. لقد كان مدرسا مقنعا وخطيبا مفوها يمكنه أن يمزج المشاعر بالفلسفة ويمكنه أن يجعل الميثافيزيقا فوق كل شيء لكن اندفاعه كان مؤثرا في مهنته كأستاذ، وكان يندب بتمرد واضطراب وتم نشر خمس من محاضراته الأولى في سنة 17971 بعنوان (بعض المحاضرات عن مهمة العالم) طرح فيها فكرة أن الدولة ستختفي في وقت مناسب في المستقبل، لتترك الناس أحراراً حقا، وكانت هذه الفكرة تكاد تكون دعوة للفوضوية (اللاحكومة) وتشابه ما دعا إليه جودوين في كتابه الذي نشره قبل ذلك بعام (بحث في العدالة السياسية Enquiry Concerning Political Justice): المجتمع السياسي ليس جزءا من الأهداف الخالصة للحياة البشرية وإنما هو - فقط - الوسائل الممكنة لتكوين مجتمع كامل. والدولة تميل بشكل مستمر إلى إلغاء دورها، إذا كان الهدف النهائي لكل حكم أن يجعل من نفسه زيادة غير ضرورية. قد يكون علينا أن نتنظر دهورا طويلة لكن سيأتي يوم تصبح فيه كل التشكيلات السياسية غير ضرورية (6).

وأضاف فيشته لهذه النظرة العامة التي جعلها سائغة للملوك والحكام بتوقعه ألا تحدث إلا بعد فترة طويلة، فكرة أخرى Pisgah View: إن الهدف النهائي للمجتمع هو المساواة الكاملة بين كل أفراد، وكان في قوله هذا صدقاً لأفكار جان جاك روسو، ولم ينكر فيشته ذلك: ليحل السلام على رفات روسو ولنتبارك ذكراه لأنه أيقظ أرواحنا (7). ورحب الثوار الرومانسيون الذين كان عليهم أن يجتمعوا في بينا في سنة 6971 بهذه الأفكار الداعية إلى يوطوبيا (مدينة مثالية)، فكتب فريدريش فون شليجل إلى أخيه: إن أعظم المتيا فيزييين موجود الآن على قيد الحياة. إنه كاتب ذو شعبية. يمكنك أن تراه في كتابه الشهير عن الثورة... إن كل لحظة من لمحات حياة فيشته العامة تبدو وكأنها تقول: هذا رجل (8)

2slash1 الفيلسوف

تري ما هي هذه الميتا فيزيقا التي جذبت الرومانسي كل هذا الجذب؟ لقد كان محورها هو أن الفرد والأنا الواعية بذاتها - تلك الأنا التي جوهرها الإرادة الحرة - هي ذروة كل حقيقة reality. ولا شيء يبهج الرومانسي أكثر من هذا لكن الأمر لم يكن (لوسينده Lucinde) كما عرضها فريدريش فون شليجل، بل إن فيشته نفسه بعد أن نشر كتابه (تأسيس علم شامل للمعرفة، 4971) وجد من الضروري أن يوضح أفكاره، فأصدر في سنة 7971 (مقدمة ثانية) وبتقديم جديد، وقد أضاف كلا العمليين سخافات جديدة (أمورا منافية للعقل). لقد كانت الكلمة الشارحة أو الكلمة المفتاح

في حد ذاتها تحتاج إلى شرح. لقد استخدم كلمة Wissenschaftsleher التي تعنى عمود المعرفة Shaft أو عصبها أو جزءها المركزي Trunk، أو لنستخدم كلمة مانعة جامعة - نظرية المعرفة.

وبدأ فيشته بتقسيم الفلاسفة إلى قسمين: الدوجماتيين dogmatists (أصحاب النظريات الذين يؤكدون نظرياتهم أو أفكارهم ويرفضون بحسم كل نظرية غيرها) أو القائلون بالوجود الحقيقي للمادة خارج العقل realists. (إنهم مقتنعون بأن الأشياء موجودة بشكل مستقل خارج العقل (أو النفس)، والمثاليون idealists الذين يعتقدون أن كل التجارب وكل الحقائق facts هي مفاهيم عقلية، وعلى هذا فهي كل الحقيقة فكل ما يمكننا معرفته جزء من العقل المدرك. لقد اعترض فيشته على القائلين بالوجود المنفصل للمادة (الوجود المستقل لها) realists على أساس أن مقالتهم تقضي منطقياً إلى أن الجبرية التلقائية التي تجعل (الوعي) أمراً زائداً أو غير ضروري مما يقوض دعائم المسؤولية (البشرية) والأخلاق، بينما حرية الإرادة (حرية الاختيار) من بين أكثر الأمور التي نتمسك بها. لقد رفض فيشته ما هو أكثر إذ ذهب إلى أن أي فلسفة تبدأ بالمادة لا يمكنها أن تشرح الوعي الذي هو غير مادي. لكن قضايا الفلسفة الأساسية تهتم بهذه الحقيقة الغامضة التي نسميها الوعي. وهكذا بدأ فيشته بالوعي نفسه - الأنا (The Ego) أو I ch أو I. لقد تعرف العالم الخارج عن الأنا، لكن كان تعرفه من خلال ما نعرفه (نحن) عنه عن طريق إدراكنا الحسي. هذا - من خلال عمليات إعداد عقلية - يحول الأشياء إلى جزء من العقل (إنه تفسير الحواس من خلال الذاكرة أو الغرض (أو الهوى أو الهدف Purpose)) (وعلى هذا فالكلمة بمعناها الصحيح (الموضوعي) تختلف تماماً عن الكلمة كما تفسرها الخبرة والسياق والغرض. وعلى هذا فالعاصفة (مثلاً) التي هي من الناحية الحسية مجرد فوضى لا معنى لها تراها (وتحس بها) حواس مختلفة تصبح في الإدراك - من خلال الذاكرة والظروف والرغبة - مثيرة لفعل عامر بالمعاني)) وانتهى فيشته إلى أننا يجب أن نفترض أن (الأشياء خارج الذات) أو (اللا أنا non - Ego) هي سبب لإحساسنا بما هو خارج الذات، لكن هذه الأشياء الواقعة خارج الذات لا تفسرها إلا الحواس والذاكرة والإرادة، وبالتالي فهي من مكونات العقل. وانطلاقاً من وجهة النظر هذه فإن (الموضوع) والمادة Object هي جزء من الأنا، ولا يمكن أن نعرف أي شيء خارج الأنا Ego. تلك هي فلسفة فيشته إلا جانباً واحداً. فإزاء النفس المدركة هناك النفس الراغبة (ذات الرغبة) والمريدة (ذات الإرادة) فالأنا (الإيجو Ego) هي نظام للدوافع أو البواعث أو المثيرات فكل النظام الذي تتشكل منه أفكارنا يعتمد على دوافعنا وإرادتنا (9) (هنا نجد فيشته يتفق مع سبينوزا في قوله إن الرغبة هي الجوهر الصميم للإنسان) كما أن أفكاره هذه تقضي إلى فكرة شوبنهاور عن (الكون كإرادة وفكرة). والإرادة الطائشة ليست جزءاً من الكون (العالم) الموضوعي الذي يبدو خاضعاً (أو عبداً) لجبرية تلقائية. هنا فالإرادة حرة. فالحرية هي جوهر الإنسان لأنها تجعله كائناً مسؤولاً أخلاقياً، قادراً على الالتزام - بشكل حر - بالقانون الأخلاقي. وكلما مضت الأيام بفيشته طور إعجاب كانط بالنظام الفلكي والأخلاقي في لاهوت جديد يفترض قانوناً أخلاقياً يحكم الكون ويدعمه كما يحكم شخصية الإنسان ومجتمعاته ويحميها. وأخيراً فقد جعل النظام الأخلاقي للكون (بالمعنى الأنف ذكره) بمعنى قيام كل جزء فيه بخدمة الكل من خلال أدائه لما هو منوط به - جعله هو نفسه الله (01). فهدف الإنسان الحر وواجبه هو أن يعيش في تناسق (هارمونية) مع هذا النظام الأخلاقي المقدس. وعلى هذا فالنظام الأخلاقي الكوني ليس مجرد (شخص) وإنما هو (عملية) ويظهر أي هذا النظام بشكل أساس في التطور الأخلاقي للبشرية (11). فمهمة الإنسان هي أن يعيش متناسقاً (في هارمونية) مع النظام المقدس (بالمعنى الأنف ذكره). كل هذا يذكرنا مرة أخرى بأسبينوزا Spinoza لكننا نجد فيشته أيضاً في سياق آخر متأثراً بهيجل: فالنفس الفردية أو الروح الفردية فانية (21) ومع هذا فهي تسهم في خلود هذا (الكل) من النفوس الواعية التي هي الأنا Ego الخالصة أو الفكرة أو الروح.

إننا عند تناولنا لفلسفة فيشته نحس بقلق إنسان يتلمس طريقه بعد أن فقد إيمانه الديني المتوارث لكنه يناضل كي يجد لنفسه وقرانه أو تلاميذه طريقاً وسطاً بين الإيمان والشك. وفي سنة 8971 واجه المشكلة (القضية) مرة أخرى في مبحثه (على أساس معتقدنا في الحكم المقدس للكون العالم). لقد أعاد مفهومه لله سبحانه رافضاً أن يكون الله شخصاً (مشخصاً) وإنما هو النظام الأخلاقي غير المشخص للكون، لكنه (أي فيشته) سمح بأن يعزى إلى هذا النظام شيء من (الشخصية) أو (التشخيص) (أي جعله مشخصاً على نحو قليل) لإضفاء الحيوية. وعلى أية حال فقد أضاف أننا لو تصورنا الله كطاقية اعتماداً على ما سيقدمه لنا من مسرات ومباهج في المستقبل، فمعنى هذا أننا نعبد وثناً، والذين يعبدون إلهاً على هذا النحو حري بنا أن نسميهم وثنيين.

وظهر مقال لم يذكر اسم مؤلفه يصف مبحث فيشته الأنف ذكره بأنه مناهض للدين (المفهوم طبعاً المسيحية بمعناها التقليدي) وشارك آخرون في الهجوم، فصدرت حكومة سكسونيا كل النسخ المتاحة من مبحث (مقال) فيشته، وقبلت شكوى مؤداه أن حكومة فيمار تسمح للألحاد (المقصود هنا الخروج عن العقيدة المسيحية التقليدية) بأن يصبح موضوعاً للدرس في مناطقها. وحاولت اللجنة التعليمية في فيمار تهدئة الأمر برد مهذب على السكسون Saxon، لكن فيشته لم يكن مسالماً فأصدر نشرتين (كتيبين) للدفاع عن كتابه أمام العامة، كانت نشرة منهما تحوي رداً مباشراً (نداء

للجماهير)، فاعتبرتها لجنة فيمار التعليمية تحدياً لطريقتها في معالجة الأمر ووصلته شائعة مفادها أن اللجنة ستطلب من مجلس الجامعة توجيه اللوم له علناً. وساق فيشته الأدلة على أن هذا الإجراء سيؤدي للحرية الأكاديمية وكتب إلى عضو المجلس الملكي في فيمار مهدداً بالاستقالة إذا أصدرت الجامعة هذا اللوم وأضاف أن أساتذة آخرين وافقوا على تقديم استقالتهم تضامناً معه فأصدرت اللجنة التعليمية في فيمار (بموافقة جوته وشيلر) بلاغاً لمجلس الجامعة يرغبها في توجيه اللوم له وقبلت الجامعة تهديد فيشته وتحدية فصلته، وقدم الطلبة ملتسمين لإعادة أستاذهم، فتجاهلتهما الجامعة (31).

وفي يوليو 1971 انتقل فيشته وزوجته إلى برلين حيث تلقاه بحرارة فريدريش فون شليجل، وشليبرماشر وآخرون من جماعة الرومانسيين الذين أحسوا المذاق الرومانسي في خيال فيشته وقوة الأنا البطولية heroic - Egonism في فلسفته. وكي يوفر فيشته أجره الإقامة في منزل مستقل قبل رغم معارضة زوجته دعوة شليجل العيش معه ومع برنلد مندلسون فايت Veit. لقد كان الفيلسوف المرح (فيشته) يحب العيش مع الناس واقترح أن يكثر من عدد المجموعة. لقد كتب يقول لو نجحت خطتي فإن آل شليجل وآل شلنج ونحن سنكون أسرة واحدة كبيرة لنقطن في بيت أوسع وليكون عندنا طباخ واحد (41) لكن الخطة لم توضع موضع التنفيذ لأن كارولين فون شليجل لم تتسجم مع برنلد. إن الفردية هي الحياة التي تتربص بفرديوس العيش المشترك.

وعلى أية حال فقد ظل فيشته حتى النهاية وفيه مسحة اشتراكية، فقد نشر في سنة 1808 مقالاً بعنوان (دولة التجارة المقفلة) ذكر فيه أن التجارة الخارجية وتداول النقد يمكنان الأمم الأغنى من استنزاف للأمم الأفقر، وعلى هذا فلا بد أن تسيطر الحكومة على التجارة الخارجية كلها وأن تمتلك كل سبيكة صالحة للتداول. فالدولة إن تسلمت بهذه السلطة أمكنها أن تضمن لكل فرد أجراً يكفي معيشته ونصيباً مساوياً في دخل البلاد، وفي مقابل هذا حق على كل فرد أن يسلم بحق الدولة في تحديد الأسعار وحققها في تحديد مكان عمله وطبيعته (51).

ومن الغريب أن يتزامن مع دعوته هذه إصداره لمبحث ديني هو (مهمة الإنسان، 1808) الذي يصف فيه الله باعتباره نظاماً أخلاقياً للكون، ويلجأ إليه (إلى الله بهذا المعنى) بنشوة وحب وتعب:

عقيدتنا... عقيدتنا في الواجب هي - فحسب - إيماننا به (بالله in Him) وبحكمته His reason وبحقيقته His truth... فالإرادة الأبدية الخالدة هي خالقة الكون على نحو أكيد... ونحن أيضاً خالدون لأنه (الله He) هو الخالد. الإرادة السامية الحية معروفة بغير اسم، لا يحيط بها فكر... إن الأطفال يعرفونها كأفضل ما يكون وتعرفها النفوس البسيطة المؤمنة...

إنني أخفي وجهي أمامك Thee (يا الله) وأضع يدي على فمي (لا أجرؤ على الكلام)... كيف أنت Thou وكيف تنظر لوجودي... لا أستطيع أن أعرف أبداً...

أنت يا الله (Thou) علمتني واجبي ومهمتي في عالم الموجودات العاقلة. كيف لا أعرف وكيف لا أحتاج للمعرفة... في ظل علاقتك هذه بي... أستطيع الاطمئنان إلى نعمتك أو بتعبير آخر أستطيع أن أرتاح في ظل نعمتك المريحة (61)؟

يظهر أن فيشته - وقد أصبح معتمداً في تدبير أمور معيشته على محاضراته العامة التي ينشرها بعد ذلك - راح ينتج أكثر فأكثر نحو الإيمان المسيحي، والوطنية الألمانية. وفي سنة 1808 دعي ليشغل منصب أستاذ الفلسفة في جامعة إرلانجن Erlangen فحقق لنفسه فيها شهرة جديدة عندما اضطر بعد دخول جيوش نابليون ألمانيا إلى البحث عن منصب أكثر أمناً، فعبر إلى شرق بروسيا وراح يدرس لفترة في كونجسبرج Königsberg وأدى اقتراب جيوش نابليون بعد ذلك بفترة وجيزة من فريلاندر Frieland إلى انتقاله هذه المرة إلى كوبنهاجن. وفي أغسطس سنة 1808 عاد إلى برلين مرة أخرى بعد أن تعب من العيش بلا وطن، وهناك ترك الفلسفة جانباً، وأعطى كل جهده لاستعادة كرامة شعب ممزق طعن في كبريائه.

الوطني 3\1

راح فيشته كل يوم أحد من 31 ديسمبر 1808 إلى 2 مارس 1808 يلقي في مدرج مسرح أكاديمية برلين سلسلة محاضرات تم نشرها بعد ذلك بعنوان خطابات إلى الأمة الألمانية Reden an die deutsche Nation. لقد كانت دعوة عاطفية مفعمة حماساً لشعبه كي يستعيد احترامه لذاته وشجاعته وأن يتخذ الإجراءات للخروج من العزلة التي

فرضها عليهم وهم حاملو السيوف من الطبقة العسكرية البروسية، والخروج من اتفاقية سلام تلسيت Tilsit غير الإنسانية، والخروج من التمزق وتقطيع أوصال البلاد (المملكة البروسية) الذي فرضه الكورسيكي (نابليون) المنتصر. وفي هذه الأثناء كان العسكر الفرنسيون يقومون بدور البوليس في المدينة المغتصبة، وكان الجواسيس الفرنسيون يرصدون كل حديث. وتعتبر (خطابات إلى الأمة الألمانية) هي الأكثر حيوية في كل ما تركه فيشته، ولا زالت دافنة بمشاعر الفيلسوف الذي تحول إلى الاهتمام بأمر الوطن. لقد نحى جانبا الجوانب الفكرية للمنطق النظري وواجه الحقائق الأكثر مرارة في أسود أعوام بروسيا. ولم يوجه حديثه لبروسيا وحدها وإنما لكل الألمان الذين كانوا يحتاجون لهذا المثير نفسه ويتحدثون اللغة نفسها رغم انقسامهم في ظل إمارات متناثرة. لقد عمل على تقريبهم في شكل من أشكال الوحدة بتذكيرهم بتاريخ ألمانيا وانتصاراتها المشهورة وإنجازاتها في مجالات الحكم والدين والأدب والفن وبرفضه المادية materialism التي تدفع لفقدان الأمل والتي وجدها - كما زعم - في الحياة الإنجليزية والنظريات الإنجليزية، وبرفضه التخلي عن الدين تماما كما في حركة التنوير الفرنسية وفي الثورة الفرنسية ذاتها. لقد راح يتحدث مفتخرا ذاكرا الأدلة من المدن التجارية في ألمانيا الأقدم - نورميرج ومنها البريخت (البريشت دورر Albrecht Dhrer، وأوجستبرج ومنها الفوجر Fuggers ومواطنو العصبة الهانستية Hanseatic Leaguo الذين جابوا الكرة الأرضية. فالقصور الحالي - كما يخاطب فيشته طبقته وبلاده - يجب النظر إليه من منظور الماضي المتألق، ولا يمكن أن يستمر حبس أمة بواسطة أمة أخرى، فالأمة الألمانية لديها من الأنفس والعقول والإرادة ما يمكنها من الخروج من حضيضها الحالي.

كيف؟ أجاب فيشته: بإصلاح التعليم إصلاحاً كاملاً، ومدته ليشمل كل طفل ألماني، وجعله إلزامياً، وإعادة صياغته ليركز على الجوانب المعنوية الأخلاقية لا أن يكون الغرض منه تحقيق النجاح التجاري. ليس هناك حديث أكثر من ذلك عن ثورة، فليس هناك إلا ثورة واحدة وهي تنوير العقول وتطهير الطباع. لابد من تطوير قدرات الطفل على وفق منهج بيستالوزي Pestalozzi (السويسري) ولابد من توجيههم لتحقيق أغراض الأمة وأهدافها كما تحدها الدولة. ولابد أن يقود الدولة متعلمون مخلصون ولا يجب أن تكون خاضعة لإرادة الجيش وإنما توجهها إرادة الأمة، وأجهزتها. ولابد أن يكون كل مواطن خادماً للدولة، وأن تكون الدولة خادمة للجميع. وحتى الآن فإن الجزء الأكبر - إلى حد بعيد - من دخل الدولة... يتم إنفاقه لإقامة جيش دائم أما تعليم الأطفال فترك لرجال الدين الذين يستغلون الله كوسيلة للبحث عن الذات في عوالم أخرى بعد موت الجسد... مثل هذا الدين سيدفن حقا ليكون مع الماضي (71) لابد أن يحل محله دين الوعي الأخلاقي القائم على حس ملم بالمسؤولية الجماعية.

واعتقد فيشته أن الوصول لهذا النوع من الرجال، يستلزم فصل الطلاب عن مجتمع البالغين ليكونوا مجتمعا منفصلا ومكتفيا ذاتيا... تدريبات بدنية... زراعة وتجارة بمختلف أنواعها بالإضافة إلى تنمية العقل بالتعليم... (81) إن الطلبة بعد أن نزلهم على هذا النحو مبتعدين بهم عن مفاصل الماضي، فإنهم بالعمل والدراسة سيكونون متحفزين ولابد لخلق صورة لنظام البشرية الاجتماعي كما ينبغي أن يكون أي - ببساطة - كما يتمشى (أي هذا النظام) مع العقل. إن الطالب في هذه الحال يملأ بحب شديد لمثل هذا النظام (نظام الأشياء كما يجب أن يكون) بدرجة يصعب معها تماما ألا يأنس إليه ويرغبه، وبدرجة يصعب معها تماما ألا يعمل بكل قوته لتحسينه عندما يتحرر من توجيه المعلم (91). إنه حلم رائع يذكرنا بجمهورية أفلاطون ويسبق دعاة Prophets الاشتراكية الذين انعقدت عليهم الآمال في القرون المتعاقبة. ولم يكن لهذه الأفكار سوى تأثير قليل في عصر فيشته كما لم تسهم إلا بالقليل (رغم أن هذا القليل قد جرى تضخيمه) في إلهاب الحماس ضد نابليون (02). لكن فيشته كان يفكر في أمر هو أعظم من طرد الفرنسيين من بروسيا. لقد كان يحاول أن يجد طريقا لتحسين الطبيعة البشرية التي فعلت الكثير في التاريخ بجوانبها الخيرة والشريرة. وعلى أية حال فقد كان حلمه هذا حلما نبيلاً شديد الثقة - ربما - في سلطان التعليم وقدرته على تغيير الصفات الوراثية والموروثات، كما أنه يفتح الباب - وهذا يدعو للحزن - لإساءة فهمه وإساءة استخدامه من قبل النظم الحكومية السلطوية، لكن فيشته قال: لن أفقد الأمل ما حييت في أن أقتنع بعض الألمان... بأن التعليم وحده هو السبيل الوحيد لإنقاذنا (12).

لقد ضعفت صحة فيشته لهروبه المصحوب بالمخاطر من إرلانجن Erlangen إلى كونجسبرج إلى كوبنهاجن إلى برلين، فبعد إكماله (خطابات إلى الأمة بوقت قصير) انهارت صحته، فذهب إلى تيلتس Teplitz وفيها استعاد صحته نسبيا وفي 0181 عين رئيسا لجامعة برلين الجديدة، وعندما بدأت بروسيا حرب التحرير حث فيشته طلبته بحماس بالغ على طرد المحتل حتى إن كلهم تقريبا دخلوا الجندية (22). وتطوعت زوجة فيشته للعمل كمرضة وأصبحت بالحمى فراح يعتني بها نهارا ويلقي محاضراته في الجامعة مساء وانتقلت إليه العدوى منها، فعاشت هي، ومات في 72 يناير 4181. وبعد ذلك بخمس سنوات ماتت دفنت إلى جواره على وفق العادة الطبية القديمة في الدفن التي تسمح للعاشقين والزوجين أن يدفنا متجاورين رمزا لأنهما أصبحا بعد الموت كيانا واحدا (حتى لو لم يجتمع منهما سوى الشعر والعظام)

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الفلسفة الألمانية -> شيلنج

2- شيلنج

4581 - 5771

رغم أن فيشته اعترف بوجود عالم خارجي (عالم خارج الأنا) إلا أن فلسفته كانت غالباً ما تتحاشى ذكره (أي ذكر هذا الوجود خارج الذات) إلا من خلال مروره (وتنقيته) من خلال الإدراك (البشري). أما فريدريش فيلهلم جوزيف فون شيلنج فرغم حرف الجر (Von) الدال على أرسنقراطيته، فقد كان - بالفعل - قد قبل الطبيعة nature ووحدها مع العقل في كيان مشترك يكون الله أو بتعبير آخر كان الله عنده هو الطبيعة والعقل مندمجين في كل واحد.

لقد كان شيلنج ابناً لقس بروستناطي (من أتباع لوثر) في فيرتمبرج Wurttemberg، وكان أبوه من ذوي الممتلكات، وراح يعد ابنه ليشتغل منصباً كهنوياً (ليكون أحد رجال الدين)، فألحقه بكلية اللاهوت في توبنجن Tubingen، وهناك أصبح شيلنج وهولدرلين Holderlin وهيجل يشكلون مجموعة نشيطة من الدارسين الراديكاليين الذين احتقوا بالثورة الفرنسية وأعادوا تعريف الإله (أي تحديد معنى جديد له) وأقاموا فلسفة جديدة قائمة على المزج بين أفكار سبينوزا وكانط وفيشته. وأضاف شيلنج قصيدة بعنوان عقيدة أبيقوري The Creed of an Epicurean (32) ويمكن أن يتنبأ المرء مطمئناً أن هؤلاء الشباب اليافعين سيكون اتجاههم محافظاً يحترم القديم. واشتغل ليضع سنين مدرساً، مثل فيشته وهيجل ونشر وهو في العشرين مقالاً عن أسس الفلسفة (5971) لفت أنظار فيشته وضمن لشيلنج دعوة لتدريس الفلسفة في بينا Jena، وكان وقتها في الثالثة والعشرين. وكان راضياً - لفترة - بوصف نفسه بأنه أحد أتباع فيشته. وأنه يقبل العقل كحقيقة وحيدة، لكن في بينا Jena، وبعد ذلك في برلين انضم للرومانسيين وأتاح لنفسه نشوة عابرة: لن أطيق هذا طويلاً، لا بد أن أمارس الحياة بشكل أعمق، لا بد أن أترك حواسي حرة - فهذه الحواس هي - تقريباً - أساسي الذي خرجت منه (اشتققت منه) على وفق ما تقول به النظريات الكبرى التي تتناول ما وراء الخبرة البشرية transcendental theories ولكنني أيضاً سأعترف الآن كيف أن قلبي يثب والدماء الحارة تندفع في عروقي.. ليس لي دين إلا هذا، وهو أنني أحب الركب الجميلة التكوين والصدور الناهدة والخصور النحيلة والورود التي تفوح عطراً، والإرضاء الكامل لرغباتي، وتلبية كل حب أطلبه، وإذا كان لا بد أن يكون لي دين (رغم أنني أستطيع أن أعيش بدون سعادة أكثر) فلا بد أن يكون هذا الدين هو الكاثوليكية في شكلها القديم حيث كان القسس والمصلون من غير رجال الدين يعيشون معاً.. ويمارسون يوماً في بيت الرب House of God المرخ الصاخب ويعربدون(42).

ومن المعقول أن يكون هذا العاشق المتحمس للحقيقة المادية الملموسة مروّعاً للهالة المثالية المحيطة بفيشته في بينا Jena، والتي ظلت - أي هذه الهالة - وراءه حتى بعد أن غادر بينا إلى برلين، لقد عرّف شيلنج قضية الفلسفة الأساسية بأنها المأزق الواضح بين المادة والعقل، إذ كان من المستحيل (من وجهة نظره) أن نفكر في أن أحدهما ينتج

عنه الآخر، وانتهى (وهو في هذا يعود مرة أخرى إلى فكر سبينوزا) إلى أنه أفضل مخرج من هذا المأزق هو أن ن فكر في المادة والعقل كوجهين لحقيقة واحدة معقدة ولكنها متحدة فكل فلسفة تقوم على العقل الخالص وحده هي فلسفة سبينوزية (نسبة إلى سبينوزا Spinoza) أو ستصبح كذلك، لكن هذه الفلسفة في رأي شيلنج منطقية على نحو صارم لكن بشكل يفقدها الحيوية إن الإدراك الدينامي للطبيعة لا بد أن يحدث تغييراً أساسياً واحداً في فكر سبينوزا Spinozism.. فالإسبينوزية صارمة صرامة شديدة كتمثال بيجماليون Pygmalion تحتاج إلى أن يكون فيها روح (52) تلك هي أفكار شيلنج كما عرضها في مقالته: صورة مبدئية لنظام الفلسفة الطبيعية (9971) ومقال آخر عن المثالية (0081).

واقترح شيلنج ليجعل هذه الأحديّة المنطوية على الثنائية dualistic monism أكثر وضوحاً - أن نفكر في القوة force أو الطاقة energy كجوهر داخلي (باطني) للمادة والعقل. وفي أي من الحالتين لا نعرف إلى أي منهما (المادة أو العقل) ترجع هذه القوة، لكن ما دمنا نرى هذه (القوة) أو (الطاقة) تظهر في الطبيعة بأشكال تتطور دائماً لتكون أكثر دقة وحدقا - تتأفر الجزئيات، إحساس النبات أو تحرك زوائد الأميبا (الكائن وحيد الخلية) لتلمس طريقها أو تتعلق بها، وحركة الشمبانزي السريعة الذكية، والعقل الواعي للإنسان - فإنه يمكننا استنتاج أن الله المهيمن على كل شيء ليس هو المادة فقط وليس هو العقل فحسب وإنما هو وحدة بينهما في بانوراما باهرة من الأشكال والقوى. لقد كان شيلنج هنا يكتب شعراً وفلسفة في آن واحد، وقد وجد وردزورث وكولردج فيه روحاً مماثلة لهما تسعى لبناء عقيدة جديدة لأرواح سيطر عليها العلم لكنها تتطلع بشوق إلى إله.

وفي سنة 3081 غادر بينا Jena ليُدرس في جامعة فيرتسبورج Wurzburg المفتحة حديثاً فواصل كتابة مباحثه الفلسفية التي كان ينقصها قوة فلسفته الطبيعية وفعاليتها. وفي سنة 9081 ماتت زوجته مُلهمة حياته كارولين، فكانها أخذت معها نصف حيويته، وتزوج مرة أخرى (2181) وراح يكتب بشكل متقطع ولكنه لم ينشر شيئاً بعد سنة 9081 فقد أصبح هيغل Hegel في هذه الفترة هو سيد الفلسفة بغير منازع أو بتعبير آخر أصبح هيغل هو نابليون الفلسفة الذي لا يجرؤ أحد على تحديه.

وفي سبني انحداره راح شيلنج يجد سلواه في الاتجاه الباطني (الصوفية mysticism) وفي شروح وتفسيرات واقعة وراء نطاق الخبرة البشرية للتناقض الظاهري بين إله محبوب (ومُحِب) وطبيعة حمراء الأسنان والمخلب وبين جبرية العلم من ناحية وحرية الإرادة (الاختيار) اللازمة للمسؤولية الأخلاقية. وأخذ عن جاكوب بوهم Jakob Bohme (5751- 4261) فكرة أن الله نفسه يتنازع الخير والشر أو بتعبير آخر هو نفسه ساحة معركة بين الخير والشر وعلى هذا فالطبيعة (بدورها) تتذبذب بين موقف الكفاح لفرص النظام من ناحية والاستسلام للفوضى (الهيولى) من ناحية أخرى، وفي الإنسان نفسه شيء أساسي غير مقبول عقلياً (62). لكن في النهاية كما يعد شيلنج قراءه سينتهي كل شر وستتج الحكمة الإلهية لتحويل جرائم البشرية وسخافاتها إلى الخير (72).

لكن شيلنج لم يعد مرتاحاً لفترة طويلة وهو يرى هيغل يجمع فوق رأسه كل تيجان الفلسفة، ورغم أن شيلنج عاش بعد موت هيغل ثلاثة وعشرين عاماً، إلا أن تلاميذ هيغل ظلوا بعد موته يقسمون بينهم تراث أستاذهم (الديالكتيكية) بين الشيوعية ورد الفعل. وفي سنة 1481 وجّه الملك فريدريك وليم الرابع الدعوة لشيلنج لشغل كرسي الفلسفة في جامعة برلين، وكان الملك يأمل أن يستطيع شيلنج المحافظ وقف الاتجاه الراديكالي.

لكن شيلنج لم يستطع جذب تلاميذه واندفعت الأحداث في طريقها للثورة، فكان لا بد من التخلي عن الفلسفة. ومع هذا فقد كان وردزورث بالفعل قد صاغ أفكار شيلنج الحيّة عن وحدة الوجود في أشعار فخمة (82)، وعزا إليه كولردج - مع استثناءات معينة أهم انتصارات الثورة الكانطية في الفلسفة (92) وبعد موت شيلنج بنصف قرن قال هنري بيرجسون - باعث المذهب الحيوي من جديد - إن شيلنج واحد من أعظم الفلاسفة في كل العصور (03) ولو كان هيغل قد سمع هذا الكلام لاعترض عليه.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> الفلسفة الألمانية -> هيجل

3- هيجل

1381 - 0771

عندما قرأ الفيلسوف شوبنهاور كتابات كانط، كتب في سنة 6181 كان الناس مضطرين للنظر فيما هو غامض على أنه ليس دائماً - بلا معنى. لقد كان يظن (أي شوبنهاور) أن فيشته وشيلنج هما الميزة الكبيرة لنجاح كانط مع الغموض، لكن شوبنهاور واصل كلامه قائلاً:

إنّ ذروة السخف في أن يكرس المرء هدفه لخدمة اللا معنى وأن يجمع معاً بين ما لا معنى له وحشد من الكلمات المتسمة بالإسراف والمبالغة، ولم تكن نعرف كل هذا قبل أن يستخدمه هيجل إلا في مستشفى المجانين، لكنه وصل إلى هيجل أخيراً وأصبح أداةً لأكثر أنواع الغموض والتعمية جمالاً مما لم نسمع به من قبل، والنتيجة ستظهر بشكل لا يُصدق للأجيال القادمة، وستبقى دليلاً قائماً على الغباء الألماني(13).

3\1- تقدّم هيجل الشاك

كان جورج فيلهيلم فريدريش هيجل حياً ومزدهراً عندما نُشر هذا اللحن الحزين (8181) وعاش بعد ذلك ثلاثة عشر عاماً. وهو ابن أسرة من الطبقة الوسطى من شتوتجارت متدينة تديناً شديداً، ورهنت الأسرة أملكها لترسل ابنها جورج (هيجل) لدراسة اللاهوت في معهد توبنجن Tubingen اللاهوتي (8871 - 3971) وكان هناك الشاعر هولدرلين Holderlin، ووصل إليها شيلنج في سنة 0971، وقد استاء كلاهما من جهل مدرسيهم ورحبوا بانتصارات فرنسا الثورية، وطوّر هيجل اهتماماً خاصاً بالدراما الإغريقية، وكان امتداحه للوطنية الإغريقية مقدمة لفلسفته السياسية في شكلها الأخير:

بالنسبة للإغريقي كانت فكرة أرض آبائه (الدولة) هي الحقيقة الأسمى غير المنظورة التي يعمل من أجلها.. وكانت ذاتيته (أوفرديته individuality) لا شيء بالمقارنة بهذه الفكرة (فكرة أرض آبائه)، فأرض الآباء تعني دوامه وبقاءه واستمراره حياته.. فالإغريقي لم يكن يرغب أو يدعو لنفسه بحياة الخلود ككفر، فهذا لم يخطر له على بال(23). وبعد أن تخرّج حاصلاً على درجة علمية في اللاهوت، أزعج والديه برفضه الدخول في سلك الكهنوت. وراح يعول نفسه بتقديم دروس خصوصية في بيرن Bern في منزل أحد الأرستقراطيين، وكان في هذا المنزل مكتبة عامرة، فراح يقرأ في هذه المكتبة (وبعد ذلك في إحدى مكتبات فرانكفورت) كتابات ثوسيديد Thucydides ومكيافيللي Machiavelli وهوبز Hobbes وسبينوزا وليبنز (لبينش) ومنتسكيو ولوك وفولتير وهيوم Hume وكانط، وفيشته Fichte، فكيف كان يمكن لإيمانه المسيحي المصل أن يصمد أمام فيض أفكار هذه التلة من المتشككين؟ إن التمرد الطبيعي لشباب متحمس نشط وجد ساحة للعردة في مهرجان وثني (المقصود في أفكار غير متفقة مع المسيحية التقليدية).

وفي سنة 6971 أُلّف كتابه (حياة يسوع Das Leben Jesu) الذي ظلّ غير منشور حتى سنة 5091. لقد كان كتابه هذا على نحو من الأنحاء إرهاباً بكتاب آخر يحمل الاسم نفسه (حياة يسوع) (5381) الذي بدأ به ديفيد شتراوس David Strauss - أحد أتباع هيجل - هجوماً ضارياً على قصة يسوع (المسيح) كما وردت في الانجيل. لقد وصف هيجل يسوع بأنه ابن يوسف ومريم، ورفض المعجزات المنسوبة للمسيح، كما رفض تفسيرها تفسيراً طبيعياً. لقد صورّ المسيح (كمصلح) يُدافع عن الوعي الفردي ضد القواعد الكهنوتية، وخلص إلى أنّ المتمرد المصلوب (يقصد

المسيح عليه السلام) قد تمّ دفنه، ولم يُحدّثنا عن قيامته. وقدّم لنا وصفاً للإله الذي يجب الإيمان به حتى النهاية العقل الخالص الذي لا تحدّه حدود هو الله Deity نفسه(33). وفي سنة 1971 مات والد هيجل تاركاً له 30451 فلورين. لقد كتب إلى شيلنج يطلب مشورته عن مدينة ذات مكتبة عامرة و(43) ein gutes Bier فاقترح عليه شيلنج مدينة جينا Jena وعرض عليه الإقامة في مقر إقامته، وأتى هيجل في سنة 1081 وسُمح له بالقاء محاضرات في الجامعة على ألا تدفع الجامعة له راتباً، وإنما يتلقّى أجره من طلبته الذي يجب ألا يزيدوا عن أحد عشر طالبا (ويُعرف المحاضر الذي يعمل على وفق هذا النظام في الجامعات الألمانية باسم Privatdozent) وبعد ثلاث سنوات من هذه المهمة الشاقّة تمّ تعيينه (استاذاً في مهمة خاصة) أو بتعبير آخر استاذاً مكلفاً Professor extraordinarius، وبعد عام أصبح له لأول مرة دخل ثابت (مائة شيلر Thalers) وكان هذا بناء على تدخل جوتته (جيتة). ولم يكن أبداً مدرساً ذا شعبية، لكنه في جينا Jena (وبعد ذلك في برلين) أثار في عدد من الطلبة فارتبطوا به ارتباطاً خاصاً مكّنهم من التوجّل إلى ما وراء القشرة الظاهرية الصعبة للغته للوصول إلى أسرار فكره المُفعم نشاطاً وحيوية.

وفي سنة 1081 بدأ في كتابة مقال مهم عن دستور ألمانيا Kritik der Verfassung Deutschlands لكنه لم يُكمل كتابته (أي تركه منقوصاً) ولم ينشر هذا العمل إلا في سنة 13981. لقد راح وهو يتأمل أحوال ألمانيا يتذكر الكيانات الصغيرة التي كانت تتكوّن منها إيطاليا في عصر النهضة مما أدى إلى وقوعها لُقمة سائغة في أفواه الغزاة الأجانب، كما راح يتذكر نصائح مكيا فيللي لأمير قوى كي يهوى بمطرقته على تلك الكيانات الإيطالية المتفرقة ليجعل منها أمة (واحدة). ولم يكن هيجل يُعول على الإمبراطورية الرومانية المقدسة وتنبأ بانهيارها الباكر: إن ألمانيا لم تعد دولة... فمجموعة من البشر لا يمكنها أن تسمّى نفسها دولة إلا إذا ترابط أفرادها معا للدفاع المشترك عن كل ما يخص هذه المجموعة البشرية. لقد دعا إلى توحيد ألمانيا لكنه أضاف قاتلاً: ولن يكون هذا أبداً نتيجة فكر أو حماسة، أنّه لا يكون إلا بالقوة... إن جماهير الشعب الألماني لابد أن تتجمّع لتصير كتلة واحدة لمواجهة أحد الغزاة(53). ومن المفترض أنه لم يكن يفكر في نابليون آنذاك، لكن عندما احتاج نابليون (5081) النمساويين والروس في أوسترليتز ربما يكون هيجل - ساعتها - قد تساءل عمّا إذا كان هذا الرجل (نابليون) هو الذي عبّئه القدر لتوحيد أوروبا كلها وليس ألمانيا وحدها. وفي العام التالي، عندما كان الجيش الفرنسي يقترب من جينا Jena وبدا مستقبل أوروبا مرّعزاً غير واضح المعالم، ورأى هيجل نابليون يمتسقى صهوة جواده في شوارع جينا (31 أكتوبر 6081) كتب لصديقه نيتهامر Niethammer لقد رأيت الإمبراطور راكباً يتفقد المدينة. لقد بدا كأنه روح العالم. ياله من إحساس رائع حقاً أن يرى المرء مثل هذا الفرد (الإمبراطور) متمركزاً هنا في بقعة بعينها متطياً حصاناً بعينه، ومع هذا فهو منتشر ممتد عبر العالم، ومن هذه البقعة يحكمه (يحكم العالم)... أن يحدث هذا التقدم من يوم الخميس إلى يوم الأحد، فهذا محال إلا إذا كان على رأس المتقدّين رجل فذ غير عادي، إننا لا نملك غير الإعجاب به... إن الجميع الآن يتمنون للجيش الفرنسي حظاً طيباً(63).

وفي اليوم التالي ساد الجيش الفرنسي، وبدأ بعض الجنود الفرنسيين ينهبون المدينة بعيداً عن عيني روح العالم (الإمبراطور) ودخلت إحدى مجموعات الجنود غرفة هيجل المستأجرة. وعبر الفيلسوف عن أمله أن رجلاً مميّزاً على هذا النحو (إشارة إلى قائد المجموعة الذي يحمل فوق سترته العسكرية شارة التميز العسكري المعروفة باسم Cross of the Legion Honor) سيعامل باحتراماً ألمانيا بسيط معاملة كريمة. وتخلّق الغزاة (الجنود الأنف ذكرهم) حول زجاجة نبيذ لكن انتشار السلب، أرعب هيجل فلاذ بمكتب نائب رئيس الجامعة.

وفي 5 فبراير 7081 أنجبت كريستينا بوركهاردت Christna Burchardt زوجة صاحب الفندق الذي يقيم به اعترف به الأستاذ وهو غائب العقل (في حالة غيبوبة) أنه واحد من أعماله غير المنسوبة إليه (التي لم يكتب اسمه عليها). ولأن دوق ساكس فيمار Saxe - Weimar كان يجد صعوبة في تمويل كلية جينا (هيئة التدريس بها)، فقد وجد هيجل أن الوقت أصبح مناسباً ليجرّب مدينة أخرى وامرأة أخرى وعملاً آخر، فغادر جينا في 02 فبراير ليصبح محرراً لصحيفة Bamberger Zeitung. وفي خضم الإضطرابات نشر (في سنة 7081) كتابه

Phanomenologie des Geistes، فلم يبذ أن أحداً تشكك في أن هذا العمل سيصبح في وقت لاحق هو أهم أعماله، وهو الإسهام الفلسفي الأكثر صعوبة، والأكثر اسهاماً في تكوين منطلقات فكرية فيما بين كانط وشوبنهاور.

وغدر هيجل بامبرج (Bamberg 8081) لما سبّته له الرقابة الحكومية من إزعاج، ليكون ناظر مدرسة في نورمبرج Nuremberg، وراح يعمل في هذا المجال الجديد بإخلاص وضمير حي، يدرّس ويوجّه لكنه كان دوماً تواق للعمل في جامعة مميزة تنتج له منصبا علمياً أمناً يركن إليه. وفي 61 سبتمبر 1181 - وكان قد بلغ الواحدة والأربعين - تزوّج ماري فون توشر (توخر) ابنة سيناتور نورمبرج ذات العشرين ربيعاً. وبعد الزواج بفترة يسيرة فاجأت كريستينا بوركهاردت العروسين بزيارة قدمت لهما فيها لودفيج Ludwig ابن هيجل ذي السنوات الأربع. وتقبّلت زوجة هيجل الوضع بشجاعة وتبنت الطفل وجعلته بين أفراد أسرتها.

ولأن هيجل كان يحلم بمنصب في برلين فقد قبل في سنة 1816 دعوة من جامعة هيدلبرج ليكون استاذ الفلسفة الأول بها. وبدأ يدرّس لخمسة طلاب، سرعان ما زادوا ليصبحوا عشرين قبل انتهاء الفصل الدراسي. ونشر وهو في المنصب موسوعة العلوم الفلسفية (1817)، وكان هذا العمل أكثر مدعاة لإطراء المتقنين وحكومة برلين من عمله السابق (Logik) الذي كان قد سبق نشره في سنة 1812. وسرعان ما دعاه وزير التعليم البروسي ليشغل كرسي الفلسفة الذي ظل شاغراً منذ موت فيشته (1814). لقد كان هيجل قد بلغ الآن السابعة والأربعين من عمره، فراح يساوم حتى حصل أخيراً على المكافأة التي طال انتظاره لها والتي عوضته عما فات. لقد طلب بالاضافة إلى الراتب السنوي البالغ الغي ثالر Thaler مبلغاً آخر يعوّض غلاء الأسعار والإيجارات في برلين، ومبلغاً للأثاث الذي اشتراه والذي عليه أن يبيعه الآن بثمن أقل من الثمن الذي اشتراه به (أي يبيعه بالخسارة) ومبلغاً كمصاريف انتقال (بدل سفر) إلى برلين مع زوجته وأطفاله، وأكثر من هذا فقد كان عليه أن يحب وفره بعينها في الإنتاج (73) وكان كل هذا مضموناً ففي 22 أكتوبر 1818 بدأ هيجل في جامعة برلين تولّي منصب الأستاذية حتى وفاته. وفي هذه السنوات الثلاث عشرة عُرفت محاضراته بالغموض لكنها أخيراً أصبحت ذات معان عميقة فكثُر مستمعوه شيئاً فشيئاً حتى سعى إليه الطلبة من مختلف أنحاء أوروبا بل ومن خارج أوروبا. إنه الآن يقدم لنا أكثر النظم الفكرية اكتمالاً وتأثيراً في التاريخ الأوروبي بعد كانط.

3\2- المنطق كميّتا فيزيقا

لقد بدأ هيجل بالمنطق - ليس بمعناه الذي نعرفه اليوم كقواعد للاستنتاج، وإنما بمعناه القديم والكلاسي كنسبة ratio أو عرض للأسباب والمبادئ أو المعنى الأساسي لأي شيء وما ينطوي عليه من عمليات، وذلك على نحو ما نستخدم مصطلحات مثل الجيولوجيا لنعني بهما معنى الأرض وما تنطوي عليه من عمليات أو مصطلح البيولوجيا لنعني به معنى الحياة وما تنطوي عليه من عمليات أو مصطلح السيكلوجيا لنعني به معنى العقل أو النفس وما تنطوي عليه من عمليات. وعلى هذا فقد كان المنطق بالنسبة إلى هيجل يدرس معنى أي شيء وما ينطوي عليه من عمليات. وبشكل عام فإنه يترك العمليات للعلم، كما أن العلم يترك المعنى للفلسفة. إنه يقترح أن يحلّ لا الكلمات بطريقة عقلية (للخوص منها باستنتاجات) وإنما السبب أو العقل أو المنطق في الحقائق realities وسيعطي لمصدر هذه الأسباب اسم الرب أو الله God وهو في هذا يشبه إلى حد كبير الصوفييين (ذوي الاتجاه الباطني) القدامى الذين يجعلون الرب the deity واللوجوس Logos (الكلمة) شيئاً واحداً - منطق العالم وحكمته. فالعقل المدرك (الواعي) يُضفي معنى للأشياء بدراسة أبعادها في المكان والزمان وعلاقتها بالأشياء الأخرى المدركة أو المُتذكّرة. وكان كانط قد أطلق على مثل هذه العلائق اسم المقولات Categories، وعدّد منها اثنتي عشرة مقولة رئيسية: الوحدة والتعددية والكلية وأيضاً الحقيقة والنقيض والقصر، والسبب والنتيجة والوجود والعدم، والاحتمال والحتم.

وأضاف هيجل مقولات أخرى كثيرة: الموجود المطلق، والانجذاب والتنافر، والتشابه والاختلاف... فكل شيء في نطاق خبرتنا هو نسيج معقد من مثل هذه العلاقات، فهذه المنضدة - على سبيل المثال - لها مكان خاص، وعمر خاص وشكل خاص وتحمل خاص ولون خاص ووزن خاص ورائحة خاصة وجمال خاص، وبدون هذه العلاقات الخاصة تصبح المنضدة مجرد فوضى غامضة تُعطي مشاعر متنافرة منفصلة، أما إن وجدت هذه العلاقات استطاعت الحواس إدراكها كموجود (مُدرّك) موحد. وهذا الإدراك في ضوء ما تعيه الذاكرة، وفي ضوء فهم الغرض تُصبح هناك فكرة. ومن هنا فإن العالم - بالنسبة إلى كل منا - هو أحاسيسنا (الداخلية والخارجية) حولتها المقولات (بالمعنى الأنف ذكره) التي نسقتها إلى أفكار ومُدركات مختلطة بالذكريات ومتأثرة بإدانتنا. والمقولات ليست أشياء، وإنما هي طرائق وأدوات للفهم تقدم الشكل والمعنى لأحاسيسنا. إنها المقولات تكون النسق العقلي والمنطق والتكوين والسبب لكل شعور أو فكرة أو شيء. إنها جميعاً تكوّن المنطق والعقل ولوجوس الكون، على وفق فهم هيجل.

والوجود الخالص Pure Being هو أبسط أنواع المقولات وأكثرها كونية فعن طريق الوجود الخالص نحاول فهم خبرتنا - أعني الوجود كما ينطبق على كل الأشياء أو الأفكار دون تخصيص. وكونية Universality هذه المقولة الأساسية هي أنها مقدّرة ومحتمة its fatality: فبافتقارها أي شكل أو سمة لا نستطيع أن نتمثل أي شيء موجود، ومن هنا فإن فكرة الوجود الخالص أو الكينونة الخالصة Pure Being هي من حيث نتائجها أو من حيث مفعوليتها مساوية للمقولة المناقضة لها - ونعني بها العدم أو عدم الوجود أو عدم الكينونة أو اللاشيء Nichts، ومن هنا فهما

بالفعل (الوجود والعدم) ممتزجان، فما كان غير موجود (غير كائن) يُضاف للوجود (لما هو كائن) Being ويجرد من لا حتميته أو يجرد من كونه محضاً خالصاً، فالوجود والعدم Being or nonbeing يصبحان على أية حال أمراً سالباً على نحو ما أو تحتوي الفكرة على شيء من السلب. أما مقولة الصيرورة Becoming الغامضة (Werden) فهي المقولة الثالثة، وهي أكثر المقولات فائدة، فبدونها لا يمكن إدراك أي شيء وهو يحدث أو يتخذ شكلاً. وتتبع كل المقولات اللاحقة النسق نفسه أي أنها تظهر من المزوجة بين الفكرة ونقيضها.

من هذا التلفيق الهيجلي Heglian Prestidivitation نشأ الكون (مثل آدم وحواء) من اتحاد أو اقتران (بين فكرتين) مما يعيد للذاكرة فكرة العصور الوسطى القائلة بأن الله خلق الكون من اللاشيء (من العدم). لكن هيجل حاج بأن مقولاته هذه ليست أشياء، وإنما هي طرائق لإدراك الأشياء، ولجعل سلوكها أو تحركها مُدركاً أو مفهوماً، ويمكن التنبؤ به غالباً، بل ويمكن أحياناً السيطرة عليه.

لقد طلب منا بعض التقييد (التكليف) في معنى الفكرة ونقيضها (تلك الفكرة المقدسة في المنطق القديم) وهو أن A P لا يمكن أن تكون إلا A P أي لا يمكن أن تكون نقيض A P not حسناً جداً لكن A P قد تصبح لا P أو نقيض P ((not - A)) فالماء قد يصبح ثلجاً أو بخاراً. فكل حقيقة - كما أدركها هيجل - هي في عملية متطورة من المواعمة أو الملاءمة. إنها - أي الحقيقة reality ليست في حالة وجود استاتيكي (ثابت) (a static Parmenidean world of Being وإنما هي في حالة سيالة متحوّلة. فكل شيء ينساب. ففي رأي هيجل أن كل حقيقة وكل فكر وكل شيء وكل تاريخ ودين وفلسفة هي جميعاً في حالة تطور مستمر ليس من قبيل الانتخاب الطبيعي، وإنما من خلال تطور التناقض الداخلي (الفكرة ونقيضها) وما يتمخض عنه من نتائج، ومن ثم التقدم نحو مرحلة أو حالة أكثر تعقيداً.

هذا هو الديالكتيك الهيجلي الشهير (وهو ديالكتيك فيشته سابقاً، وديالكتيك تعني حرفياً الحوار). إنه ديالكتيك الفكرة thesis ونقيضها autithesis والجمعية Synthesis (أي ما يتمخض عن الفكرة ونقيضها من فكرة جديدة): فالفكرة أو الموقف ينطوي في باطنه على نقيضه ويطوره ويناهضه ثم يتحد معه ليتخذ وإياه شكلاً جديداً. والمناقشة المنطقية لا بد أن تأخذ شكل البناء الديالكتيكي من عرض ومعارضة وتوفيق. والتداول أو التشاور الحساس لا بد أن يكون على هذا النحو - وزن الأفكار والرغبات بميزان التجربة. والمقاطعة أو التداخلات في أثناء المناقشة هي كما أصرت مدام دي سنيل هي حياة الحوار، لكنها تصبح موتاً له (للحوار) إذا لم نجد للتناقض حلاً توفيقياً، أو كانت الفكرة النقيضة غير وثيقة بالموضوع، فالجمعية الحقيقية Synthesis (أي الفكرة الناتجة عن الفكرة ونقيضها) ترفض الإثبات والنفي، وتتيح مكاناً لعناصر من الموقنين (الفكرتين) المثبتة والنافية. وكارل ماركس - تلميذ هيجل - كان يرى أنّ الرأسمالية تحوي في طبيعتها بذور الاشتراكية، بمعنى أن الشكلين الاقتصاديين المتنافسين لا بد أن يتصارعا حتى الموت، وأن الاشتراكية لا بد أن تسود، وتنبأ الهيجليون الأكثر تمسكاً بفكر هيجل أن الرأسمالية والاشتراكية سيتحدان معاً كما نرى في أوروبا الغربية الآن. وكان هيجل أكثر الهيجليين تطرفاً. لقد راح يتتبع المقولات - ليُظهر كيف أن كلا منها - بالضرورة - ناتج عن فكرة ونقيضها. ونظم حججه وبراهينه، وحاول أن يقسم كل عمل من أعماله في شكل ثلاثي (الفكرة ونقيضها والجمعية) وطبق ديالكتيكيه على الحقائق realities كما طبقه على الأفكار. فأظهر أن التناقض والصراع والجمعية Synthesis تظهر في السياسة والاقتصاد والفلسفة والتاريخ.

لقد كان محققاً أو واقعياً realist بالمعنى الوسيط (المعنى الذي كان سائداً في العصور الوسطى): فالكون أكثر حقيقة من أي من أجزائه (ذراته) التي ينطوي عليها: فالإنسان يشمل كان البشر من كان منهم حياً أو من أغرق في الموت، والدولة أكثر حقيقة أو أعمق وجوداً realer، وأكثر أهمية وأطول عمراً من أي مواطن من مواطنيها وللجمال قوة خالدة يبقى حتى ما مات، فتظل بولين بونابرت ويبقى الجمال حتى لو أن أفروديت لم تكن قد وجدت في يوم من الأيام. وأخيراً وجدنا الفيلسوف الملزم (بكسر الزاي) يحمل كوكبة مقولاته على المقولة الأقوى والأشمل والأبقى. إنها الفكرة المجردة التي تتمثل فيها كونية كل شيء أو فكر أو عقل أو تكوين أو قانون، إنها الفكرة التي تمسك بالكون، إنها اللوجوس Logos أو الكلمة التي تجلّل الجميع وتحكمه.

3-العقل

كتب هيجل كتابه Phenomenologie des Geists في بينا Jena بينما كان جيش نابليون الأساسي يقترب من المدينة (بيناً). ونشر الكتاب في سنة 7081 عندما كان أبناء الثورة الفرنسية يدمرون بروسيا بلا رحمة وبدوا وكأنهم يثبتون أن العقل البشري قد ضل طريقه إلى الحرية في تلمسه التاريخي هذا لطريقه من الملكية إلى الإرهاب إلى الملكية مرة أخرى. وقرر هيجل أن يدرس عقل الإنسان في ظواهره المختلفة كإحساس وإدراك ومشاعر ووعي

وذاكرة وخيال ورغبة وإرادة ووعي ذاتي وتفكير، وربما يستطيع في نهاية هذا الطريق أن يكتشف سر الحرية. ولم يتهيب من هذا البرنامج فقرر أن يدرس أيضا العقل الإنساني من خلال دراسته للمجتمعات والدولة، وفي الفن والدين والفلسفة. وكانت نتيجة بحثه هي تحفته الخالدة العامرة بالبلاغة والغموض، وكان لها تأثير في ماركس وكيركجارد Kierkegaard و هيديجر وسارتر Sartre بشكل أو آخر.

لقد بدأت الصعوبة مع كلمة Geist التي نشرت سحابا من الغموض واللبس على الروح والعقل والنفس (Ghost and Mind & Spirit & soul) وسوف نترجمها عادة بمقابل إنجليزي واحد هو mind (عقل أو نفس) لكن في بعض السياقات سنجد من الأفضل استخدام كلمة روح spirit كما في عبارة روح العصر Zeitgeist. والجايست Geist (العقل أو النفس) ليس جوهرًا منفصلاً أو وجوداً (أو كينونة) كما خلف النشاطات النفسية (السيكولوجية)، بل إنه هو هذه النشاطات نفسها. فليس هناك ملكات عقلية أو نفسية faculties منفصلة وإنما هناك فقط العمليات الفعلية التي تحول بها التجربة إلى فعل action أو فكر.

وقد جعل هيجل الجايست (العقل أو النفس) في واحد من تعريفاته الكثيرة مساوياً للوعي (83). والوعي بطبيعة الحال هو سر الأسرار لأنه - أي الوعي - يشبه العضو الذي يفسر التجربة ولكنه لا يستطيع أن يفسر نفسه. ومع هذا فإنه - أي الوعي - أكثر الحقائق جدارة بالملاحظة والإدراك بالنسبة إلينا. والمادة Matter التي قد تكون خارج العقل تبدو أقل غموضاً رغم أن معرفتنا بها أقل مباشرة. وهيجل يتفق مع فيشته في أننا نعرف الأشياء فقط بقدر ما هي جزء منا كموضوعات مدركة (كموضوعات يمكن إدراكها)، لكنه - أي هيجل - لم يشكك أبداً في الكون الخارجي (الموجود خارج النفس أو العقل)، فعندما يكون المدرك (بضم الميم وفتح الراء) كائناً آخر يتفاعل مع العقل، يصبح الوعي واعياً بذاته عن طريق التضاد (نقيض الفكرة) عندئذ تولد الأنا (الإيجو Ego) بشكل واع وتصبح مدركة (بشكل غير مريح). إن الصراع (أو التنافس) هو سنة الحياة. ثم يقول فيلسوفنا الصارم إن كل إنسان يهدف إلى تدمير الآخر وموته (93) ويظل الصراع حتى يقبل أحد الطرفين التبعية (04) أو يكون مصيره الموت. وفي هذه الأثناء تتغذى الأنا Ego بالتجربة كما لو أنها مدركة أنها يجب أن تتسلح وتتقوى لخوض تجارب الحياة ومحنها. كل هذه العملية المعقدة التي تحول بها المحسوسات إلى مدركات (بضم الميم وفتح الراء) تخزن ذلك في الذاكرة وتحولها إلى أفكار يتم استخدامها في تنوير الرغبات وتلوينها وخدمتها، تلك الرغبات التي تشكل الإرادة. فالأنا Ego هي بؤرة الرغبات وتعاقباتها ومكوناتها، فالمدركات الحسية والأفكار والذكريات والتفكير المتروكي مثل الأذرع والسيفان هي أدوات للنفس أو الأنا Ego تبحث عن البقاء والمسرة والقوة. وإذا كانت الرغبة عنيفة مفعمة عاطفة، فإنها تتعزز سواء كانت رغبة صالحة أم شرييرة. ولا يجب أن ندين ما هو مفعم عاطفة وحماساً، فلا شيء عظيم في العالم يمكن تحقيقه دون عاطفة (14) إنها قد تؤدي للألم لكن هذا الألم لا يساوي شيئاً إن أسهم في الوصول إلى النتيجة المرغوبة. فالحياة لم توجد للسعادة وإنما لتحقيق الإنجاز (24).

هل الإرادة (أي رغباتنا) حرة؟ نعم لكن ليس بمعنى عدم الخضوع للسببية أو مبدأ العلية أو القانون. إنها حرة بقدر ما تتفق مع قوانين الواقع ومنطقه، فالإرادة الحرة هي التي ينورها الفهم ويرشدها العقل. فلا يكون التحرر الحقيقي - بالنسبة إلى الأمة أو الفرد - إلا من خلال تطور الفكر، والفكر معرفة منظمة ومستخدمة. فالحرية في ذروتها هي في المعرفة بالمفولات (بالمفهوم الهيجلي السابق ذكره) وعملياتها في مسار الطبيعة وفي اتحادها مع الفكرة المجردة (بالمفهوم الهيجلي) Absolute idea التي هي الله، وتناسقها معه. وهناك ثلاثة مناهج يمكن للإنسان من خلالها أن يقترب من هذه الذروة من الفهم والحرية: عن طريق الفن والدين والفلسفة. وباختصار ففي كتابه علم وصف الظواهر Phenomenologie وفي كتابه الآخر الذي نشر بعد وفاته عن علم الجمال (Vorlesungen uber Aesthetic) (حاول هيجل أن يخضع الطبيعة وتاريخ الفن لفكرته ثلاثية الأبعاد (الفكرة ونقيضها والجمعية)، وكان عرضه في كتابه الثاني Vorlesungen أكثر تفصيلاً. واتفق أن استوحى معلومات مدهشة عن العمارة والنحت والرسم والموسيقا، ومعلومات مفصلة عن مجموعة الأعمال الفنية في برلين ودريسدن وفيينا وباريس والأراضي المنخفضة. لقد شعر أن الفن هو محاولة عقلية (نفسية) - بالبدئية أو الحدس intuition أكثر منها بالمنطق والحجج العقلية (ومعنى قولنا بالحدس أو البدئية ينطوي على خبرة مباشرة وموسعة وإدراك حسّي مستمر)، والفن كمحاولة عقلية (نفسية) يقدم لنا معنى روحياً (معنوياً) من خلال وسائط متعلقة بالحواس. لقد تعرف ثلاثة عهود للفن: (1) الشرقي Oriental حيث وجدنا العمارة تعمل على تدعيم الحياة الروحية والرؤى الباطنية (الصوفية) من خلال المعابد الضخمة كما في مصر والهند. (2) الكلاسيات الإغريقية الرومانية التي تحول المثل المنطقية والعقلية ممثلة في التوازن والهارمونية من خلال أشكال نحتية كاملة (متسمة بالكمال). (3) الرومانسية المسيحية التي راحت من خلال الرسم والموسيقا والشعر تعبر عن العواطف وتتوق إلى الروح الحديثة. وفي هذه المرحلة الثالثة (الرومانسية المسيحية) وجد هيجل بعض بذور التحلل والفناء وافترض أن أعظم مراحل الفن قد وصلت إلى نهايتها.

لقد أزعج الدين وأربكه في أواخر أيامه لأنه (أي هيجل) اعترف بالدور التاريخي للدين في تعديل طبيعة الإنسان وفي دعم النظام الاجتماعي، لكنه (أي هيجل) كان شغوفاً جداً بالعقل شغوفاً يحول بينه وبين السعي للاهوت وفهم معاناة القديسين وعبادة رب متجسد Personal God والخوف منه (34). وناضل للتوفيق بين العقيدة المسيحية وديالكتيكة (الديالكتيكة الهيجلي الأنف ذكر: الفكرة، نقيص الفكرة، الجمعية) لكن قلبه لم يكن مطمئناً لهذا التوفيق، وقد فسر أكثر أتباعه تأثيراً أن رب هيجل هو عقل العالم (الكون) أو القانون غير المشخص (المتجسد) والخلود متمثلاً في آثار كل لحظة بشرية على الأرض (وربما كان هذا الخلود بلا نهاية) (44) وفي أواخر كتابه عن وصف الظواهر Phenomenologie استوحى حبه الحقيقي - إنه الفلسفة - لم يكن مثله الأعلى هو القديس بل الحكمة sage وفي غمار حماسه لم يعترف بأي حد للفهم الإنساني مستقبلاً. إن طبيعة الكون ليس لها سلطان يمكنها من المقاومة الدائمة للجهود الشجاعة للذكاء البشري. فلا بد أن تفتح آفاقها في النهاية لهذا الذكاء ولا بد أن تقضي له بكل أعماقها وثوراتها (54) لكن لا بد قبل الوصول إلى هذه الذروة الفلسفية أن ندرك أن الكون الحقيقي ليس هو الذي نلمسه أو نراه وإنما هو العلاقات والقواعد التي تضيء عليه النظام والنبالة. إنه القوانين غير المكتوبة التي تحرك الشمس والنجوم وتكون العقل غير المشخص (غير المتجسد) للكون. إلى هذه الفكرة المجردة أو عقل الكون يقدم الفيلسوف ولاه. إنه (عقل الكون) هو إلهه الذي يتعبد له، ويجد عنده حرثته ورضاءه التام.

3\4- الأخلاق والقانون والدولة

في سنة 1281 قد لنا هيجل عملاً كبيراً آخر هو حول فلسفة الحق Grundlinien der philosophie des Rechts والحق rechts كلمة جلييلة مهيبية في ألمانيا. إنها كلمة تعطي الأخلاق والقانون كعنصرين لازمين بينهما صلة قريبة لدعم الأسرة والدولة والحضارة. وقد تناول هيجل كل ذلك في مجلد فخم ترك تأثيراً دائماً في شعبه الألماني. كان الفيلسوف عند تأليفه هذا الكتاب قد دخل عقده السادس. لقد أصبح معتاداً على الاستقرار مشبعاً بالرضا. وكان يتطلع لشغل منصب حكومي (64). وكان قد أصبح بالفعل محافظاً وهو الاتجاه المناسب لهذه الحقبة من العمر. وأكثر من هذا فقد كان الموقف السياسي قد تغيراً كبيراً منذ أن احتفى (أي هيجل) بفرنسا وأعلن إعجابه بنابليون: كانت بروسيا قد هبت حاملة السلاح ضد نابليون وحاربت بقيادة بلوشر Blucher وأطاحت بالمغتصب، وأصبحت بروسيا الآن تعيد ترسيخ نفسها على أسس فريديريكية Frederician أساسها جيش منتصر وملكية إقطاعية كدعامتين للاستقرار بين شعب أصابه فقر مدقع بسبب تكاليف الحرب التي انتصر فيها، وعمته الفرصى وراوده الأمل في الثورة وكبحه الخوف منها.

وفي سنة 1816 نشر جاكوب فريز Jadow Fries الذي كان وقتها يشغل منصب أستاذ الفلسفة في جامعة جينا Jena بحثاً عن الكونفدرالية الألمانية والدستور السياسي لألمانيا Von Deutschem Bund & Deutscher staatsverfassung عرض فيه الخطوط العريضة لبرنامج إصلاح أرفع الحكومات الألمانية فأصدرت مراسم عنيفة في كونجرس كارلسباد (1819) وطرد فريز من منصبه كأستاذ للفلسفة وأعلن مسئولو الشرطة أنه خارج حماية القانون (مهرد الدم) (74).

لقد خصص هيجل نصف مقدمة كتابه (عن فلسفة الحق) لمهاجمة فريز Freis باعتباره مغفلاً خطراً واتهمه بأن مثال لضحالة التفكير. لقد كان فريز يرى أن شعبا يحكمه حاكم شعبي أصيل لا بد أن يتلقى كل ما يتعلق بالأمر العامة (التي تخص الشعب) من الشعب نفسه وقد اعترض هيجل ذكراً أن هذا الرأي يعني أن عالم الأخلاق سينتزع للتقييم الذاتي (غير الموضوعي) وللأهواء. فبالعلاج الأسري البسيط الممثل في أن نعزو للشعور عمل العقل والفكر يمكن بطبيعة الحال أن نتخلص من كل الاضطرابات في البصيرة والمعرفة التي يوجهها التفكير المحفوف بالمخاطر (84) وصب الأستاذ الغاضب (فريز) جام غضبه واحتقاره على فلاسفة الحوار (يقصد هيجل من بينهم) الذي يقيمون دواً متسمة بالكمال بسبب الأحلام الوردية غير الناضجة (94). وأعلن فريز موقفه ضد هذا التفكير المرغوب فيه، باعتباره أساساً واقعياً لفلسفته (فلسفة هيجل) سواء السياسية أو الميتافيزيقية - وهو مبدأ ما هو عقلي فهو عملي واقعي، وما هو واقعي عملي فهو عقلي (05). (إن ما يفرضه منطق الأحداث، هو ما يجب أن يكون في ظل الظروف نفسها) وهاجم الليبراليون الألمان المؤلف (هيجل) باعتباره طالب دنيا يبحث عن منصب ويخدم الوضع القائم وباعتباره الفيلسوف المكمل بالغار لحكومة رجعية.

إن الحضارة تحتاج للأخلاق والقانون معاً مادامت تعني أن نعيش كمواطنين (مواطنين) civis في مجتمع، ولا يمكن أن يظل المجتمع قائماً إلا في ظل تقييد الحرية لضمان الحماية (للآخرين). لا بد أن تكون الأخلاق ميثاقاً عاماً لا مجرد

نزعة فردية. فالحرية في ظل القانون بناءة، والحرية بعيدا عن الالتزام بالقانون مستحيلة في الطبيعة ومدمرة في المجتمع تماما كما حدث في فرنسا في بعض مراحل الثورة. فالقيود التي تفرضها الأخلاق المعتادة على الحرية الفردية هي الأقدم والأشمل والأكثر دواما (الأحكام الأخلاقية تتطور مع تطور المجتمع). وما دامت مثل هذه القواعد الأخلاقية تنتقل أساسا من خلال الأسرة والمدرسة والكنيسة، فهذه المؤسسات أساسية للمجتمع وتشكل أعضائه الحيوية. وعلى هذا فمن الحق أن نترك الأسرة تقوم على أساس زواج الحب، فالرغبة الجنسية لها حكمها البيولوجية في استمرار النوع واستمرار المجتمع، ولكنها أي الرغبة الجنسية لا تتطوي على حكمة اجتماعية تعين على حياة مشتركة طوال العمر لرعاية الممتلكات والأطفال (15). ولا بد أن يكتفي الرجل بزوجة واحدة، كما لا بد أن توضع العراقيل أمام الطلاق ولا بد أن تكون ممتلكات الأسرة مشاعا لها لكن إدارتها لا بد أن تقع على كاهل الزوج (25). وللمرأة دورها المهم في الأسرة من حيث إخلاصها لها وبالترامها الأخلاقي (35). ولا يجب أن يقيم التعليم أصناما للحرية واللعب (كما هو الحال في فكر بيسنالوزي وفيشته)، فالنظام هو عصب الشخصية، ومعاقبة الأطفال المقصود منها هو منعهم من ممارسة الحرية فهذا المنع موجود في الطبيعة، لتكون القضايا الكلية في وعيهم وإرادتهم (45).

ولا يجب أن نقيم وثنا للمساواة، فنحن سواء فقط من حيث أن لكل منا روحا، ولا يجب أن نكون أداة لشخص آخر، لكن الواقع يقول إننا لسنا سواء، سواء من الناحية الجسمية أو من ناحية قدراتنا العقلية. وأفضل النظم الاقتصادية هي التي يتاح فيها لذوي القدرات الأعلى تطوير أنفسهم مع إتاحة حرية نسبية لتحويل الأفكار الجديدة إلى حقائق إنتاجية. ولا بد أن تكون الملكية خاصة وبدون هذا لن يكون هناك حافظ لذوي القدرات الأعلى لإجهاذ أنفسهم. ولا بد لتحقيق أهداف الحضارة من الإبقاء على الدين كأداة مثلى لأنه يربط الفرد بالكل. ما دام الدين عاملا متكامل مع الدولة، يزرع معنى الوحدة في أعماق نفوس الناس، فلا بد - حتى - أن تطلب الدولة من كل مواطنيها أن يكونوا أعضاء في الكنيسة. فالدولة لا يمكنها أن تتداخل مع الكنيسة لأن إيمان الفرد قائم على أفكاره الخاصة (55).

ولا بد أن تكون الكنائس منفصلة عن الدولة لكن لا بد على الكنائس أن تنتظر للدولة كأمر متمم للعبادة يكون فيه هدف الدين توحيد الفرد مع الكل بقدر ما تسمح الإمكانيات في هذه الدنيا (65). فالدولة إذن هي أسمى إنجاز بشري. إنها عضو organ المجتمع المنوط به حماية الشعب وتطويره، إذ يقع على كاهلها والتوفيق بين النظام الاجتماعي من ناحية والنزوع الطبيعي للفردية، والصراع والغيرة بين المجموعات الداخلية (في داخل المجتمع) من ناحية أخرى. والقانون هو حرية الإنسان المتحضر لأنه يحرره من الظلم ويحميه من الخطر في مقابل موافقته على ألا يلحق بالمواطنين الآخرين ظلما أو يعرضهم للخطر. فالدولة هي بالفعل الحرية الرصينة (75) وكي تتحول الفوضى إلى حرية منضبطة لا بد أن يكون لدى الدولة الصلاحية بل وحق استخدام القوة في بعض الأحيان، فالشرطة أمر ضروري وفي الأزمان مع القوى الخارجية يكون التجنيد الإلزامي ضروريا أيضا. لكن إذا كانت الدولة جيدة التنظيم حسنة الإدارة لأمكنها أن تدعى أنها تنظيم عقلي. وبهذا المعنى يمكننا أن نقول عن الدولة ما قلناه عن الكون ما هو عقلي هو حقيقي واقع، وما هو حقيقي واقع هو عقلي. هذه ليست يوطوبيا، فالبوطوبيا غير حقيقية. أكان هذا تقنيا مثاليا لبروسيا في سنة 0281؟ ليس تماما. فعلى النقيض من هذا النظام، أخذت على عاتقها النجاح الكامل لإصلاحات شتاين وهاردنبرج Stein & Hardenberg. لقد دعت إلى ملكية (بفتح الميم) مقيدة وحكومة دستورية، وحرية العبادة وإعطاء حقوق المواطنة لليهود. لقد أدانت الحكم المطلق الذي عرفته بأنه حيث يختفي القانون، وعندما تتحكم إرادة بعينها سواء كانت إرادة العرش أو إرادة العوام (حكومة الدهماء Ochlocracy) وتصبح هذه الإرادة قانوناً أو تحل محل القانون، بينما تقتضي الدقة أن توجد الحكومة الشرعية والدستورية في وضع مثالي (85) ورفض هيجل الديمقراطية برمتها:

فالمواطن العادي غير مهيباً لاختيار الحاكم الكفو، وغير مهيباً لرسم سياسة البلاد. وقيل الفيلسوف (هيجل) دستور الثورة الفرنسية الصادر في سنة 1971 ذلك الدستور الذي دعا لملكية دستورية يصوت فيه الشعب لاختيار أعضاء جمعية وطنية، وليس لاختيار الحاكم. والملكية الانتخابية هي أسوأ المؤسسات (95) لذا فقد أوصى هيجل بحكومة ذات مجلسين تشريعيين ينتخبها المواطنون ذوو الممتلكات، ومجلس وزراء تنفيذي وإداري، وملكة (بفتح الميم) وراثية في يدها القرار النهائي (06). إن تطوير الدولة إلى ملكية دستورية هو إنجاز العالم المعاصر (16). ومن غير العدل أن نصف هذه الفلسفة بالرجعية فهي متمشية تماما مع الاتجاه العقلي المحافظ لكل من مونتانيه Montaigne وفولتير، وبورك Burke وماكولي Macaulay، وبها نصح بنيامين كونستانت ابن الثورة نابليون، وكذلك انتهى توكفيل بعد دراسة الحكومتين الفرنسية والأمريكية. ويترك هذا النظام مساحة لحرية الفكر الفردية والتسامح الديني. ولا بد أن ننظر لهذا النظام في سياق الزمان والمكان: ولا بد - كي نفهم هذا النظام - أن نتصور أنفسنا في خضم الاضطراب الهائل الذي ساد أوربا بعد فترة نابليون بما اعترأها من إفلاس وإحباط، حيث كانت حكوماتها

الرجعية تحاول إعادة نظم الحكم القديمة (السابقة على الثورة الفرنسية) - لا بد أن نتصور أنفسنا في فترة هذه صفاتها لنفهم رد فعل مفكر كان هو أيضاً قد تقدم به العمر كثيراً بدرجة تمنعه من أن يكون مغامراً فكرياً وكانت أقدمه قد رسخت رسوخاً شديداً بدرجة تمنعه من التشوق للثورة، أو المخاطرة بإحلال نظريات لم تُحكّمها التجربة محل حكومات قديمة أو استبدالها بحكم العامة. لقد كانت كتاباته في هذه المقدمة متعجلة غير منظمة بعناية ولم تكن جديرة باسم فيلسوف. لقد خاف الرجل العجوز من بلاغة فريز Fries وفصاحته وما يلقاه من استقبال حافل فاستدعى الشرطة ولم يكن أسفاً لقد التفتت الحكومات أخيراً لهذا النوع من الفلسفة (26) لقد كانت الفترة فترة محافظة لا مغامرة.

3-5- التاريخ

لا بد أن تلاميذ هيجل كانوا يحبونه، فقد عكفوا بعد موته على ملاحظاته notes وأضافوا ما كتبوه في أثناء إلقائه لمحاضراته، ونظموا نتائجهم في نسق منطقي، ونشروها باسمه. ومن هنا فقد ظهر لهيجل أربعة كتب بعد موته: علم الجمال Aesthetics وفلسفة الدين وفلسفة التاريخ، وتاريخ الفلسفة. وكانت هذه الأعمال هي أكثر أعماله وضوحاً ففيها أقل قدر من تعقيد الفكر والأسلوب.

فالفكرة الوحيدة التي أدخلتها الفلسفة لدراسة التاريخ وتأمله هي فكرة العقل (التعليل) البسيطة: فالعقل (التعليل) أي منطق الأحداث وقوانينها هي ملك العالم Sovereign of the World، وعلى هذا فتاريخ العالم يُقدم لنا عملية عقلية (36) وهنا أيضاً نجد ما هو واقع (ما هو موجود أو ما هو فعلي) هو أيضاً عقلي - إنه النتيجة الوحيدة المنطقية والاحتمية لأحداث سبقت antecedents وغالباً ما يتحدث هيجل عن العقل الحاكم Sovereign Reason بمصطلحات دينية لكنه يعرفه بالمزاوجة بين سبينوزا Spinoza ونيوتن Newton: العقل هو جوهر الكون، أعني أنه به (أي بالعقل) وفيه (أي في العقل) توجد كل الحقيقة وتعيش ومن ناحية أخرى فهو (العقل) الطاقة المطلقة وغير المحدودة للكون أي أن مقولات المنطق (Logik) بالمفهوم الهيجلي الأنف ذكره) هي الوسائل الأساسية لفهم العلاقات الفاعلة التي تكون التركيب النهائي للأشياء، وجوهرها Essence وحيقيتها (46).

وإذا كانت عمليات التاريخ تعبيراً عن العقل Reason - أي عن القوانين الملازمة لطبيعة الأشياء - فلا بد أن هناك منهجاً لمسيرة الأحداث التي تبدو في الظاهر غريبة. ويرى هيجل منهجاً (method) يحكم الأحداث أو مسيرة الأحداث ونتائجها. إن فعل العقل في التاريخ - كما هو في الفكر - هو فعل دياكتيكي: كل مرحلة أو حالة هي فكرة (thesis) تحوي نقيضها (antithesis) وتتصارعان معاً (الفكرة والنقيض) لتظهر منهما الجمعية (Synthesis) وعلى هذا فالحكم المطلق يحاول قمع الرغبة الإنسانية في الحرية، فيقوم الراغبون في الحرية بثورة، فنكون النتيجة (الجمعية Synthesis) ملكية دستورية. وهناك إذن خطة عامة أو كلية وراء مسيرة التاريخ؟ لا، إن كان هذا يعني قوة عليا واعية تقود كل الأسباب والجهود للوصول إلى هدف محدد، ونعم إذا كان المقصود أن المجرى العريض للأحداث كالنقدم في مضمار الحضارة إنما يحركه عقل كلي total of Geist or mind لتقريب الإنسان شيئاً فشيئاً لهدفه الذي استغرقه (تشربه أو كمن فيه) ألا وهو الحرية من خلال العقل Reason. لا حرية من from القانون وإنما حرية من خلال through القانون (رغم أن الحرية من القانون قد تأتي إن وصل الذكاء البشري إلى منتهاه أي إلى ذروة تطوره)، وعلى هذا فتطور الدولة يمكن أن تكون هبة للحرية. وهذا التقدم نحو الحرية ليس مستمراً لأنه في دياكتيك التاريخ (الدياكتيك بالمعنى الهيجلي الأنف ذكره) هناك تناقضات يتعين حلها، وتعارضات يتعين تحويلها لتندمج مع غيرها وتباينات ناشئة مندفعة بعيدة عن المركز يتعين جذبها إلى مركز واحد بحكم طبيعة العصر أو جهود بشر غير عاديين.

هاتان القوتان (الزمن والعبقرية) هما مهندسا التاريخ وعندما يعملان معاً تكون لهما قوة لا تُقاوم. واعتقد هيجل - مستوحياً أفكار كارليل Carlyle - في الأبطال وفي عبادة الأبطال. والعباقرة ليسوا بالضرورة طاهرين أخلاقياً، رغم أن من الخطأ أن نتصورهم أنانيين، فنابليون لم يكن مجرد غاز يغزو لمجرد الغزو، فقد كان - سواء كان واعياً بذلك أم لا - ممثلاً لأوروبا في توقعها للوحدة وحاجتها لقوانين متماسكة لها طابع الدوام. لكن العبقرية تصبح بلا معين لها إذا لم تتمثل روح العصر ومتطلباته (سواء كان العبقري واعياً بذلك أم لا) فالعباقرة لهم بصيرة نافذة بمتطلبات العصر - أو بتعبير آخر أنهم يدركون ما الذي نضج ووصل لمرحلة القابلية للتطوير. هذا هو الأكثر فائدة لعصرهم وعالمهم، أن يدركوا ما هو الذي تشكل فعلاً في رُحَم الزمن (56) إذا اعتلى العبقري هذه الموجة (مثل جاليليو وفرانكلين وجيمس وات) سيصبح قوة دافعة للتطور حتى ولو سبب بؤساً لجيل كامل، فليس معنى العبقرية تسويق السعادة وتاريخ العالم

ليس مسرحاً للسعادة، ففترات السعادة فيه صفحات عقيمة لأنها فترات الهارمونية (التناسق) عندما تكون الفكرة المضادة antithesis في حالة معطلة (أو بتعبير آخر في لا فاعلية مؤقتة) (66in abeyance) هنا ينم التاريخ والعقبة الرئيسية في تفسير التاريخ كحركة تقدم مستمر هي الحقيقة التي مؤداها أن الحضارة يمكن أن تموت أو تختفي تماماً. لكن هيجل لم يكن هو الرجل الذي يترك هذه العوارض لتقصد ديالكتيكه. لقد قسم ماضي البشرية (كما قلنا آنفاً) إلى ثلاث فترات: الشرفية، والإغريقية - الرومانية، والمسيحية ورأى في تعاقبها بعض التقدم. الشرفية أعطت الحرية لرجل واحد وهو الحاكم المطلق، والحضارة الكلاسية أعطت الحرية لطبقة تستخدم الرقيق، والعالم المسيحي أعطى لكل شخص روحاً تسعى لتحرير الكل. لقد لاقت مقاومة في تجارة الرقيق لكن الثورة الفرنسية أنهت هذا الصراع. وعند هذه النقطة (نحو سنة 2281) نجد هيجل يتفجر بتسبيحة شكر مذهشة لهذه الثورة أو لما حدث في أثنائها في السنتين الأوليين:

الأوضاع السياسية في فرنسا لم تكن تقدم شيئاً إلا امتيازات كثيرة غير منظمة، كانت جميعاً تُنافي الفكر والعقل وعمت المفساد الأخلاقية وتدنت أرواح الناس. لقد كان ولا بد أن يكون - التغيير عنيفاً لأن الحكومة لم تأخذ على عاتقها مهمة إعادة التحويل أو إعادة تشكيل أوضاع جديدة (فقد كان البلاط والنبلاء ورجال الدين يعارضون ذلك) .. وأثبتت فكرة الحق سلطانها، ولم يستطع النظام القديم القائم على الظلم أن يُقاوم. إنه فجر عقلي ونفسي باهر، فكل الموجودات المفكرة تشارك في التهليل والترحيب (بالثورة الفرنسية). إن الحماس الروحي ملأ العالم (76).

وسود الغوغاء صفحة هذا الفجر لكن بعد أن ضُمدت الجراح ظل التقدم الجوهرى، وكان هيجل لا يزال عالمي النظرة حتى إنه اعترف بفضل الثورة الفرنسية الكثير على ألمانيا - لقد أدخلت إليها القوانين النابليونية (المدونة القانونية) وألغت الامتيازات الإقطاعية ووسعت قاعدة الحرية ووسعت دائرة الملاك (86) وباختصار فإن تحليل هيجل للثورة الفرنسية في الصفحات الأخيرة من كتابه (فلسفة التاريخ) يثبت أن هذا المحافظ العجوز لم ينبذ تماماً أفكار شبابه. واعتبر هيجل أن الخطأ الرئيسي للثورة الفرنسية هو معاداتها للدين. فالدين هو ذروة العقل وسنام العمل. ومن السخف أن نعتقد أن القسس قد ابتدعوا الدين ليخدعواهم به ويحققوا لصالحهم المكاسب من ورائه (96) وعلى هذا فمن الغباء أن نظن أننا قادرون على إنشاء دساتير سياسية بمعزل عن الدين (07). فالدين هو الجو العام الذي تعطي الأمة نفسها من خلاله معياراً لما هو صحيح True، وعلى هذا ففكرة الله God تكون الأساس العام لطبيعة (شخصية) أي شعب (17).

وعلى العكس من ذلك فالشكل الذي يتمثل فيه التجسيد الكامل للروح Spirit هو الدولة (27) فالدولة كاملة التطور تصبح هي أساس كل عناصر حياة الشعب الأساسية، ومحورها - فناً وتشريعاً وأخلاقاً ودينياً وعلومياً (37) ويتأييد الدين ودعمه تصبح الدولة مقدسة.

لقد راح هيجل يطبق ديالكتيكه في مجال بعد آخر متطوعاً إلى تأسيس نظام فلسفي موحد يتم شرحه بصيغة فلسفية واحدة. وقد أضاف تلاميذه إلى فلسفته للتاريخ مؤلفاً آخر نشر بعد وفاته وهو تاريخ الفلسفة. فالنظم (الفلسفية) القديمة المشهورة في تحليل الكون - في هذه النظرة - تتبع نسقاً مرتبطاً بشكل أساسي بتطور المقولات (بالمفهوم الهيجلي) في المنطق Logik (بالمفهوم الهيجلي أيضاً). لقد ركز بارمينيدز Parmenides على الوجود Being والاستقرار أو الثبات Stability، وركز هيراكلبيوتس Heraclitus على الصيرورة والتطور والتغير. ورأى ديموقريطس Democritus (مادة) موضوعية أما أفلاطون فرأى فكرة ذاتية (غير موضوعية) وكان أرسطو هو الذي قدم الجمعية Synthesis (بالمفهوم الهيجلي). وكل نظام (فلسفي)، ككل مقولة وكل جيل يطوق النظم السابقة عليه ويضيف إليها، لذا ففهم آخر النظم الفلسفية فهما كاملاً يتطلب فهمها جميعاً. فكل ما يحرزه جيل من تقدم في المعرفة والإبداع يرثه الجيل الذي يليه. وبشكل هذا الميراث روحه وجوهه الروحي (47) ولما كانت فلسفة هيجل هي الأخيرة في سلسلة الفلسفات العظيمة، فهي (أي فلسفة هيجل) تضم (من وجهة نظر هيجل) كل الأفكار والقيم الأساسية لكل ما سبقها من نظم (فلسفية) فهي (أي فلسفة هيجل) تمثل الأوج التاريخي والنظري لها جميعاً (57).

36-slash- موت وعودة

كاد عصره - لفترة - يقتره كتنقيده لنفسه. لقد زاد عدد التلاميذ في فصوله رغم طباعه الصارمة وأسلوبه المبهم. لقد أتى رجال بارزون قاطعين مسافات طويلة لرؤية هيجل وهو يوازن الكون بمقولاته. لقد أتاه كوزي Cousin وميشيل Michelet من فرنسا وهايبيرج من الدنمرك. وتم تكريمه في باريس في سنة 7281 وكرمه جوته العجوز. وفي سنة 0381 اهترت مسلماته بانتشار الحركات الراديكالية والهباج الثوري، فهاجمها جميعاً وفي سنة 1381 أصدر من

وراء القتال الإنجليزي دعوة لمناهضة وثيقة الإصلاح Reform Bill التي تعد علامة على قيام الديمقراطية في إنجلترا. وأعاد صياغة فلسفته لتصبح أكثر فأكثر مقبولة من رجال الدين البروتستانت، ومات في برلين في 41 نوفمبر 1381 إثر إصابته بالكوليرا وكان في الواحد والسنتين من عمره، وكان لا يزال وافر النشاط. وتم دفنه على وفق رغبته إلى جوار قبر فيشته، وانقسم تلاميذه إلى جماعتين متناقضتين - كما لو كان هذا تأكيداً لغموضه الحذر: الهيجليين اليمينيين وعلى رأسهم جوهان إردمان Erdmann وكونو فيشر Kuno Fischer وكارل روزنكرانتس Rosenkranz، والهيجليين اليساريين ومنهم لودفيج فويرباخ Feuerbach وديفيد شتراوس Strauss وبرونو باور Bauer وكارل ماركس. وقد برع اليمينيون (الهيجليون) في الدراسة وإن انحدروا بازدهار (موجة نقد الكتاب المقدس)، أما اليساريون (الهيجليون) فزاد هجومهم على السلفية الدينية والسياسية. وفسر اليساريون الهيجليون تعريف هيجل لله God والعقل Reason على اعتبار أنه يعني بهما أن الطبيعة والإنسان والتاريخ خاضعة لقوانين مجردة غير قابلة للتغيير. واقتبس فويرباخ Feuerbach من أقوال هيجل ما فسره بأن الإنسان لا يعرف عن الله، إلا بقدر ما يعرف الله عن نفسه من خلال الإنسان (67) وعلى هذا فإن عقل الكون لا يكون واعياً إلا في الإنسان، فالإنسان وحده هو القادر على التفكير في قوانين الكون. وكارل ماركس الذي عرف هيجل في الأساس من خلال كتاباته، حول الحركة الديالكتيكية للمقولات الهيجلية إلى تفسير اقتصادي للتاريخ جعل فيه صراع الطبقات (النص حرب الطبقات) محل الأبطال، باعتبار هذا الصراع هو أداة التقدم الرئيسية. وأصبحت الاشتراكية هي الجمعية Synthesis الماركسية للرأسمالية وتناقضاتها الداخلية.

وتضاءلت شهرة هيجل لفترة حين اجتاحت آلام شوبنهاور التهكمية المسرح الفلسفي. وتاه فلاسفة التاريخ مع تقدم الدراسات التاريخية. وبدت الهيجلية تموت في ألمانيا لكنها بُعثت من جديد في بريطانيا العظمى مع جون وإدوارد كيرد Caird وت. هـ. جرين Green و ج. م. إ. مکتجارت Mctaggart وبيرنارد بوسانكت Bosanquet. وعندما ماتت (الهيجلية) في إنجلترا بُعثت من جديد في الولايات المتحدة. وربما ساعدت عبادة هيجل للدولة (أي توقيره الشديد لها) على تمهيد الطريق لبسمارك وهتلر. وفي هذه الأثناء وجد كل من سورن كيركجارد Soren Kierkegaard وكارل جاسبرز Jaspers ومارتن هايدجر Heidegger وجان - بول سارتر في أفكار هيجل ملاحظات وإشارات حاسمة عن التنافس البشري في عالم بعيد عن التوجيه الإلهي، فأصبح هيجل أباً روحياً للوجودية.

وباختصار فإن عصر جوته وبيتهوفن وهيجل كان إحدى الذرى في تاريخ ألمانيا. لقد وصلت ألمانيا أو كادت إلى ذرى لا تقل عن ذرى سبقت في عصر النهضة الأوبية (الرينيسانس) وعصر الإصلاح الديني الأوربي، لكن حرب الثلاثين عاما حطمت الحياة الاقتصادية والفكرية للشعب وجعلت روح ألمانيا قائمة وكادت تطرح اليأس على الروح الألمانية طوال قرن. وشيئاً فشيئاً وببطء أدى النشاط والحيوية الكامنان في روح هذا الشعب، والصبر الرواقي (الراضي بالواقع) الذي تتحلى به الألمانيات، وعمق الموسيقى الألمانية وقوتها ومهارة الحرفيين في ألمانيا ونشاط التجار - إلى إعداد ألمانيا لتلقي التأثيرات الأجنبية وضمها وتحويلها ليتفق مع الذوق الألماني والشخصية الألمانية، ومن أمثلة هذا هضم الألمان لشكسبير وأشعار إنجلترا الرومانسية، وضمهم لحركة التنوير والثورة الفرنسية. لقد طوّرت وعدلت فولتير إلى جوته وفيلاند Wieland، وطوّرت وعدلت روسو إلى شيلر وريشتر (ريختر) Richter، وردت على نابليون بحرب التحرير وأفسحت الطريق لإنجازات الشعب الألماني المتعددة في القرن التاسع عشر. إن الحضارة مجال تعاون كما أنها مجال منافسة، وعلى هذا فإنه لأمر طيب أن يكون لكل أمة ثقافتها وحكومتها واقتصادها وأزيائها وأغانيها. إنها - أي الحضارة - قد أخذت أشكالاً مختلفة من النظم والتعبيرات لتصنع الروح الأوروبية على هذا القدر من الذكاء والمهارة والتباين، وتصنع من أوروبا اليوم فتنة جميلة لا ينتهي جمالها، وتراتلاً لا ينضب.

صفحة رقم : 14735

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> حول القلب -> سويسرا

شعرت هذه الأرض المباركة بنبص الثورة الفرنسية بكل مودة الجار. لقد رحب الليبراليون السويسريون بالثورة الفرنسية كدعوة للحرية، وأعلن جوهان (يوهان) فون ميلر (2571Muller - 9081) أشهر المؤرخين المعاصرين في 41 يوليو 9871 أن يوم قيام الثورة الفرنسية هو أفضل يوم في تاريخ أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية، وعندما تولى اليعاقبة زمام الأمر، كتب لأحد أصدقائه الذي لا شك فيه أنك تشاركني أسفي أنه في الجمعية الوطنية (الفرنسية) نجد الفصاحة والبلاغة تطغى على الفهم الصحيح، وربما تفهم أنه نظراً لرغبتهم في أن يكونوا أحراراً إلى أقصى درجة فلن يكونوا أحراراً أبداً. ومع هذا لا بد أن تتمخض الأيام عن شيء لأن هذه الأفكار تسكن في كل قلب (1).

فريدريك - سيزار دي لاهارب Frederic - cesar desa Harpe - الذي كان قد عاد في سنة 6971 إلى موطنه سويسرا - بعد أن أشرب عقل زارفتش إسكندر Czarevich Alexander بالليبرالية - انضم مع بيتر (بترس) أوكس Peter Ochs وغيره من الثوار السويسريين ليكونوا النادي السويسري (الهلفيتي Helvetic) الذي عمل على الإطاحة بحكم الأوليغارشيات Oligarchies (الأوليغاركية نظام يقوم على حكم الأقلية) التي تحكم الكانتونات (الولايات) السويسرية. وعندما كان نابليون يمر عبر سويسرا بعد غزوته الأولى لإيطاليا، لاحظ هذه الومضات فلفت نظر حكومة الإدارة في فرنسا أنها ستجد أعوانا كثيرين إذا اختارت مواجهة النشاطات المعادية للثورة الفرنسية التي يقوم بها المهاجرون الفرنسيون الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة فيها، والذين - أي هؤلاء المهاجرون - يجدون ملجأ عند الأرستقراطية السويسرية التي لهم العون. وأدركت حكومة الإدارة في فرنسا القيمة الاستراتيجية لسويسرا في الصراع بين فرنسا والأمراء الألمان، فأرسلت جيشاً إلى الكانتونات (الولايات السويسرية) وضمت جنيف وقضت على حكم الأوليغارشيات، وأقامت - بعون متحمس من الثوريين السويسريين - الجمهورية السويسرية (الهلفيتية Helvetic) تحت الحماية الفرنسية (8971).

وانقسمت الحكومة السويسرية الجديدة إلى يعاقبة (وطنيين) ومعتدلين، وفيدراليين. وقد تعاركوا وحبك كل منهم انقلاباً، ولما خشوا مغبة الفوضى والحرب الداخلية طلبوا من نابليون (كان في منصب القنصل الأول في هذا الحين) أن يعطيهم دستوراً جديداً. وفي سنة 1081 أرسل لهم دستوراً Constitution of Mailmaison كان رغم ما به من قصور أفضل دستور كانت تأمل فيه سويسرا (2) رغم أنه - أي هذا الدستور - احتفظ بسويسرا تحت الوصاية الفرنسية. وبعد مزيد من المعارك الداخلية أطاح الفيدراليون بالحكومة الجمهورية ونظموا جيشاً جديداً واقتروا تجديد حكم الأوليغاركية (حكم الأقلية) فتدخل نابليون وأرسل جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل لإعادة السيطرة الفرنسية على سويسرا. وطلبت الفرق المتنازعة من نابليون مرة أخرى أن يتوسط بينها. فصاغ مرسوم الوساطة الذي قبلته كل الفرق الكبيرة المتنازعة. لقد أنهى هذا المرسوم الجمهورية السويسرية (الهلفيتية) وأقام الفيدرالية السويسرية التي

تشبه في خطوطها الأساسية ما عليه سويسرا الآن فيما عدا التزام سويسرا بالاستمرار في تقديم عدد من بنيتها كل سنة للجيش الفرنسي. ورغم هذا العبء فقد كان مرسوم الوساطة هذا دستوراً جيداً (3) وأطلقت الكانتونات (الولايات) السويسرية على نابليون (معيد الحرية).

وعلى أية حال فقد كانت سويسرا رغم بهاء مناظرها تعتبر مجالاً ضيقاً ليس به إلا مرح صغير وعدد قليل من القراء والمستمعين مما لا يرضي طموح المؤلفين والفنانين والعلماء الذين راحوا يبحثون عن بلاد أوسع ذوات ميدان أرحب وفرص أكبر. فذهب جوهان (يوهان) فوسلي Fussli إلى إنجلترا ليرسم، وذهب أوجسطين دي كاندول de Candolle (8771-4181) إلى فرنسا وقدم هناك وصفا للنباتات وتصنيفاً لها. أما جوهان (يوهان) بستالوزي (Pestalozzi) (6471-7281) فبقي في سويسرا ولفت انتباه أوربا بتجاربه في حقل التعليم. وفي سنة 5081 أسس في فيردون Yverdun مدرسة داخلية أدارها على وفق مبدأ أنه - على الأقل بالنسبة إلى الناشئة - لا يكون للأفكار معنى إلا إذا ارتبطت بأشياء حسية، وأن تعليم الأطفال يكون أفضل أي ذا ثمار أحسن إن كان من خلال أنشطة جماعية. وقد جذبت المدرسة انتباه المدرسين فقدموا إليها من اثنتي عشرة دولة وأثرت في التعليم في المرحلة الابتدائية في أوربا والولايات المتحدة. ووضعها فيشته في خطته لإعادة تربية الشباب وتعليمهم.

وقضى جوهان (يوهان) فون ميلر Muller اثنين وعشرين عاماً (6871 - 8081) في تأليف كتابه متعدد الأجزاء (تاريخ الاتحاد الكونفدرالي السويسري Schweizerischer Eidgenossenschaft) (Geschichten) ولم يتابع السرد التاريخي إلا إلى سنة 9841 ولكنه ظل كلاسياً في جوهره وأسلوبه. ولأنه كتاب ممتاز فقد أضيف على مؤلفه لقب تاسيتوس السويسري Swiss Tacitus وقد كان لوصفه الكانتونات (الولايات) السويسرية في العصور الوسطى بشكل يجعلها مثالية، بالإضافة إلى الانتصارات العسكرية أثر كبير في رفع الروح المعنوية للسويسريين. وقد استوحى شيلر Schiller من قصته ذات الطابع الأسطوري (وليم تل) الخطوط العريضة لمسرحيته الشهيرة. وفي سنة 0181 وكان قد بلغ الثامنة والخمسين بدأ ميلر Muler كتابة تاريخ عام (Vier und Zwanzig Bucher allgemeiner Geschichten). وانجذب إلى ألمانيا بسبب قرائه فعمل في خدمة الناخب (الأمير) الكاثوليكي في مينز (Mainz) وانتقل إلى العمل في خدمة المستشار الإمبراطوري في النمسا وانتهى به الأمر مديراً للتعليم في وستفاليا التي كان يحكمها وقتئذ جبروم بونابرت. وعندما مات كتبت مدام دي ستيل عنه: لا نستطيع أن ندرك كيف يمكن لرأس رجل واحد أن يحوي مثل هذا الكم الهائل من الحقائق والتواريخ dates. إننا إذ نفتقده نبذو وكاننا افتقدنا أكثر من واحد (4).

ولا يليه في فن كتابة التاريخ سوى جان - شارلز - ليونارد دي سيسمونيدي (de Sismondi) (3771-2481) الذي كان أحد مرافقي (وعشاق) المدام. ولد في جنيف وهرب إلى إنجلترا تخلصاً من العنف الثوري ومنها إلى إيطاليا، ثم عاد إلى جنيف بعد استتباب الأمر فيها، وقابل جرمن Germaine في سنة 3081 وصحبها إلى إيطاليا وراح في وقت لاحق يتردد على صالونها بالقرب من كوبت Coppet. وفي هذه الأثناء راح يكتب بشكل مدهش ومتواصل وأسهمت مجلدات كتابه تاريخ الجمهوريات الإيطالية في العصور الوسطى Histeire des republicues (italienne on Moyenage) (9081-8181) البالغة ستة عشر مجلداً في إلهام مانزوني Manzoni ومازيني Massini وكافور Cavour وغيرهم من زعماء توحيد إيطاليا. وظل طوال ثلاث وعشرين سنة (1281 - 4481) يعمل في تأليف كتابه ذي الواحد والثلاثين مجلداً (تاريخ الفرنسيين الذي ظل لفترة ينافس كتابات ميشيل Michelet فيما ناله من تقيظ).

وزار إنجلترا مرة أخرى في سنة 8181 وتأثر كثيراً بقوة اقتصادها حتى إنه كتب ونشر في سنة 9181 كتاباً جديراً بالملاحظة ذا طابع تنبني (مبادئ جديدة للاقتصادي السياسي Nouveaux Principes d'conomie Poiltique). لقد ساق الأدلة على أن القضية الأساسية في الكساد الاقتصادي في إنجلترا كانت في فتور القوى الشرائية العامة مع زيادة الإنتاج وزيادة سرعة نتيجة المخترعات (الحديثة)، ودلل على أن هذا الفتور في القوى الشرائية يرجع في الأساس إلى نقص الأجور، وقد تتكرر أزمات مشابهة بسبب قلة الاستهلاك طالما بقي النظام الاقتصادي دون تغيير.

وكانت اقتراحات سيسمونيدي Sismondi راديكالية بشكل يثير المخاوف. فراهية السكان لا بد أن تكون هي الهدف الرئيسي للحكومة. ولا بد من إلغاء القوانين المناهضة لاتحادات العمال. ولا بد من تأمين العمال ضد البطالة، وحمائتهم من الاستغلال. ولا يجب التضحية بمصالح الأمة أو الإنسان لصالح الشجع... إذ يجب حماية الأثرياء من جشعهم ورغم هذه الماركسية التي سبقت الماركسية، فقد رفض سيسمونيدي Sismondi الاشتراكية (التي كانت تسمى وقتئذ بالشيوعية) لأنها قد تضع السلطة السياسية الهيمنة الاقتصادية في مطال الأيدي نفسها، وقد تضحي بالحرية الفردية لصالح هيمنة الدولة فيصبح سلطانها مطلقاً (5).

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> حول القلب -> السويد

2- السويد

كان من الممكن أن ترحب السويد بالثورة الفرنسية على الأقل في مراحلها الأولى، لأنه خلال حركة التنوير السويدية في القرن الثامن عشر كان الفكر السويدي منسجماً مع الفكر الفرنسي، وكان الملك السويدي نفسه - جوستاف الثالث Gustavus III (حكم من 1771 إلى 1792) أحد أبناء التنوير الفرنسي وكان معجبا بفولتير. لكن الملك جوستاف لم يكن يحترم الديمقراطية وإنما كان يرى في الملكية القوية الطريق الوحيد لحكم قوي تقبض على زمامه أرسقراطية ملاك الأراضي الحريصة حرصاً شديداً على امتيازاتها التقليدية. لقد نظر إلى مجلس طبقات الأمة (مايو 1787) كاجتماع مرتبط بملاك الأراضي والعقارات وعندما تطور الصراع بين هذا المجلس ولويس السادس عشر شعر بتهديد قوي لكل الملوك وليس للويس السادس عشر وحده فعرض وهو الليبرالي المنتور أن يكون على رأس تحالف ضد الثورة الفرنسية، وبينما كان منشغلاً بوضع الخطط لإنقاذ لويس السادس عشر دبر بعض النبلاء السويديين مؤامرة لاغتياله. وفي 61 مارس 1792 تم إطلاق النار عليه، ومات في 62 مارس وعمت الفوضى السياسية في السويد حتى سنة 1810.

وكان حكم جوستاف الرابع (1792 - 1809) حكماً تفساً. لقد انضم للتحالف الثالث ضد فرنسا (1805) مما أعطى نابليون مبرراً للاستيلاء على بوميرانيا Pomerania وسترالسوند Stralsund - وهي آخر الممتلكات السويدية على البر الأوربي المقابل لها. وفي سنة 1808 عبر جيش روسي خليج بوتنيا Bothnia على الجليد وهدد ستوكهولم فاضطرت السويد إلى التخلي عن فنلندا مقابل السلام، وعزل الريكسداج Riksdag، جوستاف الرابع وأعاد سلطان الأرستقراطية واختار عم الملك المعزول، وكان في الواحدة والستين من عمره سهلاً طبعاً. إنه شارل الثالث عشر Cherlex XIII (حكم من 1809 - 1818)، ولأنه لم ينجب فكان لابد من اختيار وريث لعرشه، فطلب الريكسداج Riksdag من نابليون أن يسمح لأحد أبرز مارشالاته وهو جان - بابتست بيرنادوت Jean - Baptiste Bernadotte بقبول ولاية العهد. ووافق نابليون، ربما أملاً في أن يكون لزوجته بيرنادوت التي كانت ذات مرة خطيبة نابليون وكانت أخت جوزيف بونابرت - نفوذ في السويد. وعلى هذا أصبح بيرنادوت في سنة 1810 هو ولي عهد السويد وأصبح اسمه شارل جون Charles John.

وفي ظل حكومة هذا تكوينها وأصل العقل السويدي جهوده في مضمار التعليم والعلم والأدب والفن، فكانت جامعات أوبسالا Uppsala وأبو Abo ولوند Lund من بين أفضل الجامعات في أوروبا. وكان جون جاكوب بيرزيليوس Jons Jakob Berzelius (1771-1848) أحد مؤسس الكيمياء المعاصرة. إذ استطاع بدراسته المتأنية الدقيقة لنحو ألفي مركب أن يصل إلى قائمة بالأوزان الذرية أكثر دقة بكثير من قائمة دالتون Dalton ولا تختلف إلا قليلاً جداً من حيث دقتها عن القائمة التي استقر عليها العلم في سنة 1791(6). وعزل كثيراً من العناصر الكيميائية للمرة الأولى. وراجع نظام الرموز الكيميائية الذي وضعه لافوازيه Lavoisier وقام بدراسات كلاسيكية في الأثر الكيميائي للكهرباء وطور نظاماً ثانياً لدراسة عناصر في التفاعل الكيميائي كموجبة أو سالبة كهربياً. وأصبح كتابه الموجز الذي نشره في سنة 1808 وتقريره السنوي Jahresbericht الذي بدأ صدوره سنة 1810 إنجيلاً للكيميائيين طوال جيل.

وكذلك كان في السويد كثير من الشعراء انقسموا إلى مدرستين شعريتين متنافستين: الفوسفوريون Phosphorists الذين ترجع تسميتهم بهذا الاسم إلى مجلتهم التي أصدرها بعنوان (الفوسفوري Phosphorous) وكانوا متأثرين

بالرومانسية الألمانية الوافدة وتحوي أشعارهم الكثير من العناصر الباطنية (الصوفية) أكثر من سواهم من الشعراء، والقوطيون (المدرسة الشعرية القوطية) Gothics الذين راحوا يعزفون في أشعارهم على أنغام البطولة. وبدأ تجنر Esaias Tegner كقوطني (من المدرسة الشعرية القوطية الأنف ذكرها) لكنه كان كلما سار قدما في مضمار الشعر راح يوسع مجالات تناوله الشعري حتى بدا وكأنه يضم بين جنبه كل مدارس الشعر السويدية. ولد تجنر في سنة 2871 ولم يكن قد بلغ السابعة من عمره عندما نشرت الثورة الفرنسية - وكانت كأعظم الفوسفوريين - نورها وحرارتها خلال أوربا، وما كاد يبلغ الثالثة والثلاثين حتى نفي نابليون إلى سانت هيلانة. وعاش تجنر إحدى وثلاثين سنة أخرى لكنه كان قد حقق بالفعل تفوقه وشهرته عندما منحه الأكاديمية الملكية السويدية في سنة 1181 جائزة لقصيدته (Svea) التي وبّخ فيها كل معاصريه لفشلهم في الحفاظ على عادات أسلافهم. وانضم (إلى الاتحاد القوطني Gothic Union) وسخر من الفوسفوريين (أتباع المدرسة الشعرية الفوسفورية الأنف ذكرها) منهما إياهم بالضعف الرومانسي. وأصبح وهو في الثلاثين من عمره أستاذا للغة اليونانية في جامعة لوند Lund وأصبح وهو في الثانية والأربعين (أسقف فيكسجو Vaxjo) وفي الثالثة والأربعين (5281) نشر أشهر قصيدة في الأدب السويدي. لقد كانت هذه القصيدة الطويلة (Frithjofs Saga) سلسلة من الحكايات الأسطورية مستوحاة من التراث الشعري الإسكندنافي القديم وظن بعض النقاد (7) أن الملحمة معرقة جدا في الاتجاه الخطابي (ذات نبرة عالية) - فالشاعر لم يستطع استبعاد مزاجه الأسقي، لكن بهاء قصائده وروحها الغنائية جعلتها تحظى بقبول حماسي حتى خارج السويد فبحلول عام 8881 ترجمت إلى الإنجليزية إحدى وعشرين مرة وإلى الألمانية تسع عشرة مرة.

وبدا وكان تجنر قد استنفد قواه في عمله الشعري هذا فبعد أن أنهاه تدهورت صحته لكنه ظل يكتب الشعر في المناسبات وأهدى إحدى قصائده لامرأة متزوجة من فكسجو Vaxjo. لقد كان ليبراليا في الأساس لكنه تحول إلى متحفظ متمسك بالاتجاه المحافظ ودخل في خلافات ساخنة مع الأقلية الليبرالية في الراكسداج Riksdag. وأعقب اضطرابات 0481 اضطراب فكري لكن واصل كتابة شعره الجيد حتى مات في سنة 6481 في فكسجو Vaxjo وفي هذه الأثناء أصبح الملك شارل الثالث عشر مريضا بشكل مستمر، فتولى ولي العهد شارل جون الوصاية على العرش وتولى مسئولية الحكم. وسرعان ما واجه خيارا صعبا بين ولاءه لوطنه الأصلي (فرنسا) والبلاد التي احتضنته (السويد)، ومادامت الدول تكون مولعة بضم بلاد أخرى تماما كمواطنيها، فإنها ترسل زواندها الكاذبة كزواند الأميبا المعدة للإمساك - تلك الزواند المسماة بالجوش - للإمساك بما يعد وجبات شهية، فقد راحت الحكومة السويدية تتطلع بنهم لامتلاك جارتها النرويج التي كانت الدنمرك منذ سنة 7931 تدعي حق ملكيتها. واقترح ولي عهد السويد على نابليون أن تضم السويد النرويج إليها فبهذا تتوثق عرى العلاقات بين السويد وفرنسا فرفضه نابليون لأن الدنمرك كانت من أخلص حلفائه، وفي يناير سنة 2181 استولى نابليون مرة أخرى على بوميرانيا Pomerania السويديه بحجة أنها سمحت باستيراد البضائع البريطانية وهذا إخلال بالحصار القاري الذي فرضه نابليون، فاتجه الأمير شارل جون إلى روسيا التي كانت هي بدورها تتجاهل الحصار القاري فوافقت روسيا على أن تبتلع السويد النرويج مقابل أن تؤيد السويد بما قامت به روسيا من ضم فنلندا إليها. وفي أبريل سنة 2181 وقعت السويد تحالفاً مع روسيا وفتحت موانئها للتجارة البريطانية. هذا هو الوضع في السويد عندما كان نابليون يحتفي بملوك أوربا في دريسدن Dresden في طريقه إلى موسكو.

صفحة رقم : 14737

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> حول القلب -> الدنمرك

لم تنثر أخبار سقوط الباستيل دهشة كبيرة لدى الدنمركيين الذين كانوا بالفعل منذ سنة 2771 قد ألغوا القنانة (عبودية الأرض) والتعذيب في أثناء المحاكمة وأصلحوا القانون والمحاكم والشرطة وطهروا مجال الخدمة المدينة من الرشوة واستغلال النفوذ وأعلنوا حرية العبادة لكل الأديان وشجعوا الأدب والفن. وكان الدنمركيون ينظرون إلى أسرتهن المالكة كأساس استقرار وسط صراع الطبقات وتقلبات السياسة. وعندما هاجم الجمهور الباريسي الملك لويس السادس عشر، وبعد الحكم عليه بالإعدام - رغم أنه أي لويس السادس عشر كان كالمملك الدنمركي مؤيداً لاتخاذ إجراءات ليبرالية، كان الدنمركيون متفقين مع مليكهم على أنهم ليسوا في حاجة إلى هذا الانفعال (العنف). وسرعان ما نظر الدنمركيون بتسامح إلى نابليون لتهدئته الثورة وإعادته النظام في فرنسا، فرفضت الدنمرك الانضمام لتحالف مضادٍ له.

بل على العكس فقد تحددت الحكومة الدنمركية دعاوي الأدميرالية البريطانية بحق قباطنتها في الصعود إلى أي سفينة متجهة إلى فرنسا والبحث عن البضائع المهربة فيها. وفي مناسبات عديدة في سنتي 9971 و 0081 اعتلى القباطنة البريطانيون سفنا دنمركية وقبض أدهم على سبعة تجار دنمركيين ممن قاوموه واحتجزهم في ميناء بريطاني. وفي أغسطس سنة 0081 دعا القيصر بول الأول Czar paul I ملوك بروسيا والسويد والدنمرك للانضمام إليه في العصبة الثانية للحياد المسلح بهدف مقاومة تفتيش البريطانيين للسفن المحايدة. وفي 61 و 81 ديسمبر سنة 0081 وقعت القوى البلطيقية الأربع إعلان مبادئ وافقوا بمقتضاه على الدفاع عن الآتي:

(1) لكل سفينة محايدة الحق في الإبحار بحرية من ميناء إلى ميناء على سواحل الدول المتحاربة. (2) البضائع التي تخص رعايا القوى المتحاربة - باستثناء المهربة - لا يجوز التفتيش عليها إذا كانت على متون سفن تمتلكها دول محايدة... (5) إعلان قائد السفينة (المحايدة) أن السفينة أو السفن التابع للبحرية الملكية أو الإمبراطورية... ليس في حمولتها بضائع مهربة - يكفي لمنع أي تفتيش (8).

أعرب نابليون عن اغتباطه بهذا الإعلان، ودعا بول الأول فرنسا للانضمام إلى روسيا في غزو الهند للقضاء على السيطرة البريطانية هناك (9). وأحست إنجلترا أن النزاع وصل إلى نقطة حرجة لأن الأساطيل المشتركة للقوى المحايدة وفرنسا يمكن أن تنهي السيطرة البريطانية على البحار التي هي - أي هذه السيطرة - المانع الوحيد الذي يمنع نابليون من غزو إنجلترا، فانتهدت الحكومة البريطانية إلى أن الحل الوحيد هو الاستيلاء على الأسطول الدنمركي أو الروسي أو تدميره. ومن الأفضل أن يلحقوا هذا بالأسطول الدنمركي لأن الهجوم على روسيا قد يفتح للأسطول الدنمركي الهجوم على مؤخرة الأسطول البريطاني.

وفي 21 مارس 1081 غادر أسطول بريطاني بقيادة السير هايد باركر Hyde Parker، ميناء يارموث Yarmouth مزوداً بتعليمات للتوجه إلى كوبنهاجن ومطالبة الدنمرك بالانسحاب من عصابة الحياد المسلح وفي حالة الرفض يقوم الأسطول الإنجليزي بالاستيلاء على الأسطول الدنمركي أو تدميره. وكان الأدميرال المساعد هو هوراتيو نيلسون Horatio Nelson وكان في الثانية والأربعين من عمره، وكان هو القائد الثاني، وكان مستاء من تبعيته للأدميرال باركر البالغ من العمر اثنين وستين عاماً والذي أظهر ميلاً للحنز من ميل نيلسون للخروج عن قيادته.

ووصلا إلى الساحل الغربي لجوتلاند Jutland في 71 مارس وأبحرا بحذر شمالاً وحول رأس شجبراك Shaggerak لشبه الجزيرة ثم جنوباً في خليج كتيجات Kattegat الكبير إلى جزيرة سجالاند Sjaelland ومن ثم عبرا المضيق الضيق بين هالسنبورج Helsingborg السويدية وهلسنبورج Helsingor الدنمركية فأطلق عليهم حصن كرونبورج Kronborg مدافعه، فاتجه الأسطول البريطاني جنوباً في المضيق حيث مضيق آخر هو أضيق المضائق جميعاً فبدأت كوبنهاجن منيعة يحميها الأسطول الدنمركي والحصون - لقد كان هناك سبع عشرة سفينة مصفوفة في خط من الشمال إلى الجنوب، وكان كل منها مسلحاً بمدافع يتراوح عددها بين عشرين وأربعة وستين مدفعاً. وقرر الأدميرال باركر أن سفنه الكبرى حجماً نوات الغاطس الأعمق من سفن نلسون لا يمكنها دخول هذا المضيق ذي المياه الضحلة، دون خطر الارتطام بالأرض أو التعرض للتدمير فانقل نلسون بعلم قيادته من السفينة سانت جورج إلى السفينة إيفانت (الفيل Elephant) وقاد إحدى وعشرين سفينة أصغر من سواها في المضيق

ركزها في مواجهة السفن والحصون الدنمركية مباشرة. لقد دارت المعركة (2 أبريل 1081) وكل طرف منهما على مقربة من الطرف الآخر حتى كادت كل طلقة أو قذيفة تحمل معها الدمار أو الموت وقد حارب الدنماركيون بشجاعتهم المألوفة، وحارب الإنجليز بنظامهم المعهود ومهارتهم في التصويب. وكادت كل سفينة من السفن المشتركة في القتال تتعرض لخطر شديد، وبدأ موقف نيلسون حرجاً جداً حتى إن الأدميرال باركر أشار إليه بالإشارة رقم 93 الشهيرة والتي تعني التراجع. وثمة رواية إنجليزية تذكر أن نيلسون راح ينظر للإشارة بإمعان بعينه المصابة بالعمى، وعلى أي حال فقد أقسم في وقت لاحق أنه لم ير أبداً الإشارة التي تأمر بالتراجع، فواصل القتال. ونجح المغامر الكبير (01)

فراحت السفن الدنماركية تهوي غارقة أو تصبح غير صالحة للقتال. وعرض نيلسون وقف إطلاق النار فقبل طلبه، وكان نيلسون - كنبليون - يستخدم الدبلوماسية إلى جانب الحرب لتحقيق غرضه، فاتجه إلى الساحل لمناقشة شروط السلام مع فريدريك الوصي على العرش الدنمركي وولي العهد. وكان الأمير قد تلقى أخباراً مفادها أن القيصر بول الأول قد اغتيل (32 مارس 1081) وأن عصابة الحياض المسلح قد انهارت، فوافق على الانسحاب منها. وأكدت الحكومة البريطانية الاتفاق الذي وقعه نيلسون، وعاد إلى نصر آخر، فقد دعت الأمة (5081) لينتقد السيادة البريطانية على البحار في معركة الطرف الأغر.

ونجت الدنمرك واحترمتها إنجلترا كما كانت تحترمها سائر دول أوروبا، وظلت هذه المملكة الصغيرة طوال الست سنوات التالية تُناضل للحفاظ على حيادها بين بريطانيا العظمى وروسيا اللتين تسيطران على البحار المجاورة، والجيوش الفرنسية التي تُعس في الأراضي المجاورة لهذه الشبه جزيرة التي يعمها الاضطراب. وكان الدنمركيون بشكل عام يميلون لنابليون لكنهم امتنعوا بسبب إلحاحه عليهم لمزيد من الانحياز له. وبعد سلام تيليسيت Tilsit أرسل نابليون رسالة إلى الحكومة الدنمركية ملحا على ضرورة منع أي بضائع إنجليزية، ومطالباً بتعاون أسطول الدنمرك الجديد مع الفرنسيين.

والآن - كما كان الأمر في سنة 1081 - أخذت الحكومة البريطانية بزمام المبادرة وأرسلت أسطولاً كبيراً على متون سفنه 000،72 مقاتل إلى المياه الدنمركية (62 يوليو 7081) متذرة بأن عملها هذا لا هدف له إلا تحقيق السلام، وحذر وزير الخارجية البريطاني جورج كاننج حكومته من أن نابليون كان يخطط لضم الأسطول الدنمركي إلى أسطول آخر في محاولة لإنزال جنود في سكوثلندا أو إيرلندا (11)، وفي 82 يوليو أصدر كاننج تعليمات لممثلي الحكومة البريطانية في الدنمرك بإعلام ولي العهد الدنمركي أنه من الضروري لأمن بريطانيا العظمى أن تتحالف معها (أي الدنمرك) وأن تضع أسطولها تحت تصرف الحكومة الإنجليزية. ورفض ولي العهد الدنمركي واستعد للمقاومة، فحاصرت السفن البريطانية سجالاند Sjaeland وأحكم الجند البريطانيون الحصار حول كوبنهاجن، وتعرضت المدينة لثقل المدفعية من البر والبحر (2-5 سبتمبر 7081) وكان القصف عنيفاً لدرجة أن الدنمركيين سلّموا لإنجلترا كل أسطولهم: 81 سفينة كبيرة وعشر فرقاطات وأربع وعشرين سفينة صغيرة (21). ومع هذا فقد واصلت الدنمرك الحرب وظلت منحازة لفرنسا حتى سنة 3181.

وفي أثناء الحروب، بل وبإلهام منها في غالب الأحيان - قدم الدنمركيون إسهامات مهمة في العلوم والآداب والفنون. لقد اكتشف هانز كريستيان أورستد (Oersted 7771-1581) أن إبرة ممغنطة (على محور) ستعود عند الزوايا القائمة إلى الطرف الآخر حاملة تياراً كهربياً. ودخلت الكلمة (أورستد Oersted) إلى كل اللغات الأوروبية والأمريكية لتعني وحدة القوة في مجال مغناطيسي (وحدة شدة المجال المغناطيسي). لقد أسس أورستد علم الكهرباء المغناطيسية خلال ثلاثين عاماً من التجارب.

وكان نيكولاي جرنندتج طوال عمره البالغ ثمانية وتسعين عاماً يبذل كل جهده ليكون لاهوتياً متحرراً وأسقفاً وفيلسوفاً ومؤرخاً ومرتبياً مبدعاً ورائداً في دراسة الحكايات الشعبية والتراثية من الآداب الأنجلوسكسونية وآداب سكندنافيا، وألف بعض القصائد الملحمية والأغاني والتراجم الدينية التي مازالت محبوبة في سكندنافيا.

وكان للدنمرك في هذا العصر المفعم بالأحداث مسرح ناشط، عملت كوميدياته على وخز مظاهر الادعاء على المستوى الاجتماعي، فسخر بيتر أندرياس هايبيرج (Heiberg 1481-8571) من التمييز الطبقي في مسرحيته (de vanner Og De vonner) فكثرت أعداؤه بسبب ذلك حتى إنه لجأ إلى باريس طلباً للأمان فعمل في وزارة الخارجية الفرنسية مع تاليران، وقد أنجب ابناً هو جوهان (يوهان) لودفيج هايبيرج (1971-0681) الذي كان له شأن كبير في المسرح الدنمركي في الفترة التالية.

وظهر في الأدب الدنمركي شاعران على الأقل تخطت شهرتهما حدود الدنمرك واللغة الدنمركية، ولا شك أن جينز إيمانويل (عمانويل) باجسن (Jens Immannel Baggesen 4671-6281) كان ذا شخصية جذابة وأسلوب رشيق. ولقد افتتن دوق أوجستنبورج Augustenburg بأشعاره الأولى، فدفع للشاعر الشاب تكاليف زيارته لألمانيا وسويسرا. وقابل جينز كلاً من فيلاند، وشيلر، وهيردر وكلوبستوك، وأحس بتطلعات روسو الرومانسية، وسعد بالثورة الفرنسية وابتهج لقيامها.

ودرس فلسفة كانط وسار في تيارها، ذلك التيار الذي أنعش الفلسفة الألمانية، وأضاف اسم كانط إلى اسمه وكتب حصاد رحلاته وتأملاته في كتاب متأه شاعر جوال (Labyrinth eller Digtervandring 2971) كاد يضارع فيه لورنس ستيرن Laurence Stern فكاهاً وفيضاً مشاعر. ولما عاد للدنمرك تخلى عن إثارة فيمار وباريس، وعاش في فرنسا في الفترة من 0081 إلى 1181 يراقب نابليون وهو يصوغ النظام من الحرية ويحول الجمهورية إلى إمبراطورية (المقصود يحول النظام الجمهوري إلى نظام إمبراطوري أو ملكي). وفي سنة 7081 ألف قصيدة حيوية (الشبح ونفسه Gjengengeren og ban Slev) عرض فيها بذكاء وعمق تأرجحه بين المثل

الكلاسيكية من نظام وانضباط وحقيقة من ناحية، والاعتدال والتطلع الرومانسي إلى الحرية والخيال والرغبة من ناحية أخرى. وفي سنة 1181 أصبح أسنأذا في جامعة كيل Kiel، وبعد ذلك بعامين دخل في معركة حامية مع أعظم شعراء الدنمرك.

لقد عاش آدم جوتلوب أولنشلير (Adam Gottlob Oehlenschläger 1797-1808) حياة سعيدة - بشكل غير عادي - في فترة شبابه. كان والده ناظراً لأحد قصور الضواحي التي تحيط بها الحدائق والحقول، فاستمتع ابنه بحديقة يلعب فيها ومكتبة يقرأ فيها وصالة يعرض فيها الأعمال الفنية، وحلق به خياله وتطلع للعمل في مهنة التمثيل لكن صديقه هانز كريستيان أورستد Oersted جذبته إلى جامعة كوبنهاجن. لقد عاش خلال الفترة التي قذف فيها البريطانيون بمدافعهم الأسطول الدنمركي والعاصمة الدنمركية في سنة 1801، وأحس بتأثير الفيلسوف النرويجي هنريك ستيفنز Steffens، وأخيراً وصل إلى مكانته من الشهرة بإصداره مجموعة قصائد في سنة 1801 رسخت الاتجاه الرومانسي في الأدب الدنمركي.

وواصل معركته فأصدر مجموعة أشعار (3081) يوازن فيها بين حياة المسيح والتغييرات السنوية الحادثة في الطبيعة فأدانته الكنيسة الرسمية كحلولي (قائل بوحدة الوجود) مهرطق، لكن الحكومة الدنمركية كافأته بمنحة للسفر إلى ألمانيا وإيطاليا وفرنسا. وقابل جوته، وربما تعلم منه أن يراجع ذاتيته الرومانسية. وفي ديوانه (قصائد شمالية، 7081 Nordiske Digte) استوحى الميثولوجيا الأسكندنافية بملحمة تحقني برحلات الرب تور Thor، ودراما عن هاكون جارل Haakon Jarl الذي حكم النرويج من سنة 997 إلى سنة 999 وخاض معركة خاسرة لمواجهة انتشار المسيحية. وعندما عاد أولنشلير إلى كوبنهاجن (9081) استقبلته الدوائر الأدبية كأعظم شاعر دنمركي. وانتهز فرصة شهرته وشعبيته فنشر سلسلة من الأعمال المتعجلة، فانتهز جينز بجسن Beggesen علناً ذاكراً أن أعماله تتسم بتدني المستوى والإهمال. واستعر الخلاف، ولم يدافع فيه أولنشلير عن نفسه كثيراً، إلا أن أصدقائه - على أية حال - تولوا هذه المهمة عنه وتحذوا بجسن Baggesen بدخول مبارزة في شكل نقاش أو مناظرة باللغة اللاتينية. وفي هذه الأثناء نشر أولنشلير عمله (Helge and Den Lille Hyrdedreng) فرحب بجسن Baggesen به لأنه عودة آدم القديم (31) وفي سنة 9281 توج أولينشلير في لوند كأمبر للشعراء، وقام بتتويجه تجنر Esaias Tegner وفي 4 نوفمبر 9481 امتدحه الشعراء المعاصرون في عيد ميلاده السابعين واصفينه بأنه آدم جبلنا المقدس (The Adam of our Parnassus) وفي مضممار الفن قدمت الدنمرك لأوروبا نحاتاً لم يكن هناك من يضارعه عندما بلغ أوجه سوى كانوفا Canova. إنه بيرنل ثوروالدسن (Thorwaldsen 1771-1844) الذي فاز بمنحة لدراسة الفن بأكاديمية كوبنهاجن واستقر في سنة 7971 في روما التي كانت لاتزال راضحة لإنجيل فينكلمان Winckelmann في الفن الهيليني باعتباره هو الفن الذي يجب احتدأؤه (النموذج الأمثل). لقد لفت انتباه كانوفا، وحذا حذوه في نحت تماثيل لأرباب المعتقدات الوثنية، كما نحت تماثيل للمشاهير المعاصرين له في أوضاع وملابس إغريقية أو رومانية، وعلى هذا فقد وجدناه في سنة 7181 يقيم تماثلاً نصفياً لبايرون على نسق أنطونيوس الوقور. وكان يلي كانوفا من حيث المكان كزعيم للمدرسة الكلاسيكية الجديدة في النحت وانتشر أسلوبه النحتي انتشاراً كبيراً حتى إنه عندما غادر روما في سنة 9181 ليقوم في كوبنهاجن كان يلقي ترحيباً كبيراً في أثناء مروره بفينا وبرلين ووارسو (فرسافا (41)). والآن (9181) وجدنا يصنع النموذج الذي احتدأه لوكاس أهورن Lucas Ahorn ونحته من حجر رملي (Lion of Lucerne) تخليداً لذكرى الحرس السويسري الذي مات أفراداً دفاعاً عن لويس السادس عشر في سنة 1792. وتألقت كوبنهاجن عندما وجدته يغادرها مرة أخرى إلى روما. لكنها - في سنة 8381 - احتقت مفتخرة بعودته. وكان في هذا الوقت قد حقق ثروة وهب جزءاً منها لإقامة متحف لعرض أعماله التي كان من أشهرها تماثيل له شخصياً ليس كلاسياً إذ أظهر فيه بدانته بأمانة. وتوفي في سنة 4481 ودفن في حديقة متحفه.

لم تكن بولندا قادرة على مقاومة روسيا وبروسيا والنمسا تلك القوى التي قسمتها مرات ثلاث (2771 و 3971 و 5971 - 6971) فيما بينها، وبهذا التقسيم لم تعد بولندا دولة لها وجود سياسي، لكنها استمرت كتقافة غنية أدياً وفناً وكشعب تواق للحرية. وكان كل البولنديين تقريباً من السلاف فيما عدا جيب ألماني في الغرب وقلة يهودية في وارسو (فرسافا) وفي شرقي البلاد. وكان البولنديون كاثوليكاً متحمسين لأن هذه العقيدة (الكاثوليكية) كانت تواسيهم في أجزائهم وتعطيهم الأمل في الخلاص وتحفظ النظام الاجتماعي في ظل دولة محطمة، لذا فقد أدانوا الهرطقة واعتبروها خيانة (المقصود بالهرطقة هنا الخروج على الكاثوليكية) فكان نزوعهم الوطني غير متمسك بالتسامح ولم يكن أحد من البولنديين - خلا الذين تلقوا قسماً وافراً من التعليم - بقادر على الشعور بالتآخي مع اليهود الذين تقفوا في مضمار التجارة والمهن، أما اليهود الفقراء الذين يحملون سمات العزلة (الجيتو) ويؤسها فكان التعاطف معهم أقل بكثير.

وقد تعجب المسيحيون واليهود البولنديون للإهانة التي ألحقها نابليون بالنمسا وروسيا في أوسترليتز Austerlitz وزاد عجبهم وإعجابهم بانتصاراته على البروسيين في بينا Jena وأورشنتدت Auerstedt، والآن (6081) فإن (نابليون) متمركز في برلين يصدر الأوامر لنصف أوربا. لقد طارد نابليون معتصبي بولندا، وكان في طريقه لمحاربة روسيا. فإذا لم يعلن في طريقه إلى روسيا أن بولندا دولة حرة فإنه على الأقل سيقم عليها ملكاً ويمنحها دستوراً ويعدها بالحماية. والزعما البولنديون إليه فرددهم بأدب مؤكدا لهم أنه سيعادهم الآن بقدر طاقته، لكن تحرير بولندا متوقف على نتيجة مواجهة التالية مع الروس.

وحذر كوزكيو سكو Kosciusko أكثر الزعماء البولنديين تحفظاً أهل بولندا من تعليق الآمال على نابليون. فهو - أي نابليون - لا يفكر إلا في نفسه، وهو يكره كل أمة عظيمة، وهو طاغية ولا هم له إلا إرضاء طموحه وعندما أرسل نابليون لبيسال كوزكيو سكو عن طلباته أجاب: حكومة حكومة إنجلترا وإلغاء القنانة (عبودية الأرض)، وأن تحكم بولندا من داترج (داننيسج) إلى المجر، من ريجا Riga إلى أوديسا (Odessa 510).

وفي هذه الأثناء نظم البولنديون جيشاً صغيراً وطردوا البروس من وارسو (فرسافا)، وعندما دخل نابليون العاصمة في 91 ديسمبر 6081 استقبلته الجماهير بحفاوة بالغة وانضم الجنود البولنديون إلى جيشه راغبين في محاربة روسيا تحت قيادته، تماماً كما كان فيلق بولندي يحارب باسمه (باسم نابليون) في إيطاليا. وربما كان نابليون يقدر جمال النسوة البولنديات وسحرهن أكثر من تقديره لعروض قادتهم. لقد وجدنا مدام فالفسكا Walewska التي وهبت نفسها له في البداية كنوع من التضحية أملاً في حثه على إنقاذ وطنها، وجدناها تحبه الآن بعمق وظلت معه خلال فصل الشتاء القارس الذي دمر - تقريباً - كل جيشه في إيلاو Elau، ثم عادت إلى وارسو (فرسافا)، بينما واصل هو طريقه ليهزم الروس في فريدلاند Friedland.

وفي معاهدة تيلسيت (Tilsit 9 يوليو 7081) أجبر فريديريك وليام الثالث على التخلي عن مزاعمه في وسط بولندا (بولندا الوسطى) واعترفت المادة الرابعة من المعاهدة بدوقية وارسو الكبيرة (والجديدة) كدولة مستقلة يحكمها ملك سكسونيا. وفي 22 يوليو قدم نابليون للدوقية دستوراً مستقى من الدستور الفرنسي، والمساواة أمام القانون والتسامح الديني والتجنيد الإجباري، ورفع قيمة الضرائب وفرض رقابة على الصحف. ووضع الكنيسة الكاثوليكية تحت سلطة الدولة لكن يجب على الدولة أن تقبل بالعقيدة الكاثوليكية وتحميها. وأعطى الدستور لليهود الحقوق الكاملة لكنه اشترط توثيق الدولة لزواجهم وممتلكاتهم من الأراضي (61). وكان نابليون يتوقع حرباً حتى الموت مع إسكندر Alexander فأوعز أن يحوي الدستور البولندي تأكيداً بدعم بولندا لفرنسا. وبالفعل فقد ظلت كل الطبقات تؤيد نابليون حتى عام 4181 أي عندما أصبح - أي نابليون - غير قادر على حمايتها. وظلت الفيالق البولندية في جيوشه تحارب معه بإخلاص حتى النفس الأخير. لقد راح كثيرون من البولنديين يهتفون في أثناء غرقهم عند انهيار جسر فوق البيريزينا Berezina: عاش الإمبراطور، رغم أنه كان عائداً من روسيا بعد أن حاقت به أكبر نكبة عسكرية في التاريخ.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> حول القلب -> تركيا (الدولة العثمانية) في أوروبا

5- تركيا (الدولة العثمانية) في أوروبا

كانت أيام الإنجاز العثماني في مجال الحكم والأدب والفن قد ولت، لكن الأتراك (العثمانيين) كانوا مابزون في سنة 9871 يمسون بأيد غير ثابتة زمام الأمر في مصر والشرق الأدنى إلى الفرات وآسيا الصغرى وأرمينيا واليونان وبلغاريا وألبانيا وصربيا والمقاطعتين الدانوبيتين فاليشيا ومولدافيا (الأفلاق و البغدان) (الآن رومانيا) اللتين كانتا من بين مناطق متنازع عليها تركها نابليون لإسكندر Alexander في اتفاقية تيلسيت Peace of Tilsit وكان السلاطين العثمانيون قد ضعفوا بسبب الجمود الاقتصادي والتفشي الأخلاقي، فسمحوا للباشاوات بحكم الولايات، واستنزافها دون تدخل من إسطنبول Constantinople إقليلاً. وسبق أن لاحظنا مع بايرون حكم علي باشا القوي في ألبانيا (8871 - 2281) وكيف أن (علي باشا) تجاوز حده وراح يتأمر على الباب العالي، فدبر السلطان أمر قتله. لقد حارب الصرب من أجل الاستقلال. وعندما أعدم الإنكشارية الباشا ذا الشعبية حاول الوطني الصربي قره جورج (Karageorge 4081) أن يؤسس جمهورية بجمعية وطنية تختار بدورها مجلس شيوخ (سينات Senate) وفي سنة 8081 انتخب مجلس الشيوخ هذا قره جورج أميراً تتوارث ذريته الحكم، فأرسل السلطان محمود جيشاً كبيراً إلى بلجراد للقضاء على هذه الجمهورية الجديدة (3181) فهرب قره جورج وآلاف من أتباعه إلى النمسا. وقامت ثورة أخرى بقيادة الأمير ميلوسي أوبرينوفتش Milos Obrenovich فاضطر السلطان محمود لقبول تسوية (5181) يمنح الصرب بمقتضاها حرية الاعتقاد (الحرية الدينية) والتجارة وأن يكون لهم نظامهم التعليمي الخاص. ودعم ميلوسي أوبرينوفتش حكمه بالأساليب السياسية والاعتقالات إذ عمل على إعدام منافسه قره جورج، وحصل من السلطان على اعتراف بأن يكون الحكم متوارثاً في ذريته. وفي سنة 0381 كانت صربيا من الناحية الفعلية دولة مستقلة.

وكانت اليونان قد سقطت في أيدي الأتراك (العثمانيين) في سنة 2541 وظلت طوال هذه الفترة خاضعة لهم حتى كادت تنسى كبرياءها القديم. واختلطت الدماء في اليونان بعد أن غزاها الروم (المقصود: الأتراك العثمانيين) وهاجر إليها الصرب، وكما اختلطت الدماء اختلطت أيضاً الذكريات الوطنية (العرقية) واللهجات حتى لم تعد لغة الحديث العامة وثيقة الصلة باللغة اليونانية التي كانت سائدة أيام أفلاطون. ومع هذا احتفظ العلماء والشعراء والوطنيون بشيء من بلاء الإغريق الكلاسيكية وبذكرى أحد عشر قرناً (593 - 2541) كان اليونانيون خلالها يحكمون الإمبراطورية البيزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) واستمروا طوال هذه القرون يثرون العلم والفلسفة والفن. لقد ألهمت أخبار الثورة الفرنسية هذه الذكريات وجعلت اليونانيين بندهشون مع لورد بايرون (في ديوانه شايلد هارولد Childe Harold) ويتساءلون لم لا تعود اليونان حرة كما كانت؟ وأعاد ريجاس فيروس (Rhigas Pheraios 7571؟ - 8971) كتابة نشيد المارسلين باليونانية وحواره بما يناسب أوضاع اليونان، ونشره على نطاق واسع، وكون جمعية تهدف إلى ربط اليونانيين والأتراك معا على أساس من الحرية والمساواة وكان ريجاس قد وُلد في فاليشيا (في رومانيا الحالية) في مدينة تيسالي Thessaly وعاش في فينا. وذهب قاصداً اليونان في سنة 7971 ومعه صندوق مليء بالمنشورات (71) فتم القبض عليه في تريست وأعدم في بلجراد. وتم تكوين جمعية betairia أخرى في أوديسا Odessa امتدت في سائر بلاد اليونان وشاركت في تهيئة اليونان للثورة. وكرس كوريز (Koraes 8471 - 3381) العنيد نفسه لتتقية لغة الحديث اليونانية لجعلها أقرب ما تكون إلى اليونانية القديمة. وكوريز هذا يوناني من سميرنا Smyrna استقر في باريس في سنة 8871، وقد ابتهج لقيام الثورة الفرنسية وراح ينشر المنشورات وينشد القصائد التي لم يكن يعزوها

لنفسه (جعلها مجهولة المؤلف) كما راح يطبع التراث اليوناني الكلاسي، فنشر بذلك الأفكار الجمهورية والأفكار المناهضة للكنيسة - رغم أنه حذر من أن الثورة قد تكون مبتسرة (أي أتت قبل الأوان). كانت جهوده هذه في سنة 1281 ولم تأت سنة 0381 إلا وكانت اليونان حرة.

ولم تكن الحكومة التركية في ظل ظروف العصر والموقع أكثر جورا بشكل واضح - من حكومات أوربا قبل سنة 0081. لقد صدم بايرون وهو يرى رؤوس المجرمين المجدوذة معلقة على جانبي بوابة سيراجليو Seraglio لكن لا بد أن نسلم بأن، ما جزته مقلصة الحكومة الثورية الفرنسية من رؤوس الرجال والنساء كان أكثر من الرؤوس التي أمر السلاطين العثمانيون بقطعها في أي فترة منبئة مساوية لفترة الحكومة الثورية الفرنسية. وكانت الثروة مركزة في يد قلة كما هو عليه الحال في كل مكان (أي أن ذلك لم يكن قصرا على الدولة العثمانية) وكان الأتراك (العثمانيون) أهل فلسفة وشعر كما كانوا أهل حرب، وهم يؤمنون بالقضاء والقدر خيره وشره من الله، لن يغيره نتمهم، ويعتبرون المرأة المهذبة المعطرة أثمن من أي شيء خلا الذهب، ويؤثرون تعدد الزوجات إن استطاعوا مؤونة ذلك، فلم لا يكونون أقدر سلالة؟ ولم يكونوا في حاجة للمومسات (العاهرات) إلا قليلا، وإنما كانت مواخيرهم يرتادها المسيحيون، وكان الترك (العثمانيون) لايزالون ينتجون أبدأ وفنا، فكثير الشعراء وتألفت المساجد وربما كانت إسطنبول هي أجمل مدن أوربا في سنة 0081. لقد كان وضع تركيا من الناحية السياسية محفوفا بالمخاطر فقد كان اقتصادها وجيشها في حالة مضطربة بينما كانت موارد أعضائها وقواتهم العسكرية في حالة نمو. وكانت عاصمتها (إسطنبول) هي أكثر النقاط إستراتيجية على الخريطة فكانت أوربا المسيحية كلها تتحرق شوقا للاستيلاء على هذه اللؤلؤة. ومدت الإمبراطورة كاترين قيضة روسيا للبحر الأسود، فاستولت على القرم Crimea من التتار Tatars وراحت - بمباركة فولتير - تحلم بنتويج حفيدها - قسطنطين - في إسطنبول (القسطنطينية) - كان هذا هو الوضع عند تولي السلطنة سليم الثالث (9871) وهو في السابعة والعشرين من عمره، وكان قد تلقى تعليما جيدا وكون صداقة حميمة مع السفير الفرنسي، وأرسل ممثلا عنه إلى فرنسا ليكتب له تقارير عن غرب أوربا، سياسة وفكرا وأساليب حياة، وقرر السلطان أنه إذا لم يتم إصلاح المؤسسات التركية إصلاحا جوهريا فلن تستطيع تركيا التصدي لأعضائها، فعقد سلاما مع كاترين في جسي (2971Jassy) واعترف بالسيادة الروسية على القرم ونهري دنيستر Dniester وبعج Bug ثم كرس نفسه لاستحداث نظام جديد في الإمبراطورية العثمانية، قائم على انتخاب النواب والولاية (المحافظين)، وبمساعدة ضباط وخبراء من غرب أوربا أقام مدارس للملاحة والهندسة وكون بالندريج جيشا جديدا. ووضع الخطط لنقض عهوده مع روسيا لكن استيلاء نابليون على مصر ومهاجمته عكا عرقلا خطه، وانضم السلطان إلى إنجلترا وروسيا لشن حرب على فرنسا (8971) واستتب السلام في سنة 2081 لكن الحرب كلفت كثيرا وتمرد الولاية والرسميون الفاسدون ضد الدستور الجديد فاعتزل سليم الثالث (7081) ومع ذلك فقد قتلوه (بعد ذلك)، وبعد عام من الفوضى ساد المناصرون له وتولى محمود الثاني (ابن أخيه) السلطنة في سنة 8081 وهو في الواحد والثلاثين من عمره. وحولت القوى المتصارعة في العالم المسيحي التحكم في سياسات الباب العالي (الحكومة العثمانية) باستخدام المال والتهديد. ولم تبق الدولة العثمانية على قيد الحياة إلا لأن واحدة من القوى الأوروبية المتصارعة لم تكن لتسمح للقوى الأخرى بالتحكم في مضيق البوسفور. وفي سنة 6081 أرسل إسكندر الأول جيشا إلى مولدافيا وفاليشيا (الأفلاق والبغدان) لضمهما إلى روسيا فحدث سفير نابليون السلطان سليما على المقاومة، فأعلنت تركيا (الدولة العثمانية) الحرب على روسيا، وفي معاهدة تيلسيت (7081Tilsit) رتب نابليون أمر السلام لكن الهدنة كانت تخرق مرارا إلى أن قرر إسكندر سحب جيوشه من الجبهة الجنوبية تحسبا للحرب ضد نابليون، وفي 82 مايو 2181 قبل مغادرة نابليون - بيوم واحد - لدريسدن Dresden لينضم إلى قواته المتجمعة في بولندا، تخلت روسيا عن كل دعاويها في الولايات الدانوبيتين (الأفلاق والبغدان). لقد أصبح في مقدور إسكندر الآن تجميع كل قواته ومدافعه لمواجهة 000,04 مقاتل من الفرنسيين وحلفائهم كانوا يستعدون لعبور النيمن Niemen إلى روسيا.

صفحة رقم : 14740

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> روسيا -> الظروف المحيطة بالروس

1- الظروف المحيطة بالروس

كتب تاليران في سنة 6181: كان من الممكن أن تكون فرنسا والنمسا أقوى قوتين في أوروبا لو لم تكن قوة أخرى قد ظهرت في الشمال (خلال القرن الأخير) تلك القوة الشمالية التي كان تقدمها المرعب والسريع مسببا بالضرورة للفرع، فقد كانت اعتداءاتها وتجاوزاتها قد أصبحت بالفعل سمة من سماتها، ولم تكن هذه التجاوزات سوى مقدمات لمزيد من الغزو الذي سينتهي بابتلاعها كل شيء (1).

إن المساحة الهائلة يمكن أن تصنع التاريخ. طالع خريطة العالم من كالينينجراد Kaliningrad (التي عرفها كانط باسم كونيجسبرج Königsberg) على بحر البلطيق إلى كامشكا Kamchatka على المحيط الهادئ (الباسفيكي)، ومن المحيط المتجمد الشمالي إلى بحر قزوين، وروسيا تشغل كل المساحة الواقعة بين الهملايا ومنغوليا والصين واليابان. لندع الخريطة نتكلم أو لنستمع إلى مدام دي ستيل التي اتخذت طريقها من فينا إلى سان بطرسبورج في سنة 2181:

مساحة روسيا شاسعة لدرجة أن كل شيء يضيع فيها حتى القصور الضخام بل وحتى السكان. إنه يهيباً للمسافر فيها أنه يسافر في بلاد هجرها سكانها للتو... وأوكرانيا خصبة التربة جدا... فأنت ترى سهولا شاسعة مزروعة حنطة فيهباً لك أن أيادي خفية زرعتها، فعدد السكان قليل، والتجمعات السكنية نادرة (2).

ويحتشد السكان في قرى متناثرة لأنهم لم ينسوا بعد التتار الذي عاثوا في الأرض فسادا وراحوا يقتلون باستماتح. لقد رحل التتار لكن قد يأتي آخرون مثلهم، وقد تركوا (التتار) شيناً من قسوتهم ليؤثر في أساليب الروس في العيش ونزوعهم الشديد إلى الكد والكح والانضباط. لقد كان الانتخاب الطبيعي (البقاء للأصلح) يعمل عمله فيهم بلا رحمة ليبقي على قيد الحياة التواقين للعمل يزرعون الأرض ويحراثون النساء بلا كلل ولا ملل، وقد جعل بطرس الأكبر من بعضهم جنداً وملاحين، وجلب من أتوا بعده المغامرین الألمان، والتشييك المهرة، ودفعت كاترين الجيوش الكبيرة والجنرالوات المغرورين ليتوغلوا جنوبا دافعين التتار والترك أمامهم فاستولوا على القرم وأبحروا منتصرين في البحر الأسود.

واستمر التوسع في عهد إسكندر الأول، واستقر الروس في ألاسكا وأقاموا حصنا بالقرب من سان فرانسيسكو وأسسوا مستعمرة كاليفورنيا (3)، لقد جعل المناخ القاسي لروسيا الأوربية - حيث لا جبال ولا غابات تحميها من برد القطب الشمالي - من الشعب الروسي شعباً شديداً البأس يمكنه تحقيق المستحيل إذا وجد الخبز وأتيح له الوقت. وفي ظل هذه الظروف كان من الممكن أن يكون الروس قساة لأن الحياة قاسية عليهم، وكان من المفهوم أن يكونوا معذبين للأسرى والسجناء، ذباحين لليهود. لكنهم لم يكونوا جامدين يتعذر تغيير طباعهم، فقد أثرت الحياة الآمنة فيهم بشكل متزايد

فصاروا أرق حاشية وأتقى، وراحوا يتعجبون لم قتلوا؟ ولم كانوا آثمين؟ وراحوا ينظرون إلى العالم النائر المضطرب غير المفهوم باستغراب شديد وصل بهم إلى حد الهذيان.

إلا أن الدين هداً من عبيهم ولطف من حدة اضطرابهم. لقد قام رجال الدين هنا بدور الجيش الروحي لدعم قوة القانون بقوى أخرى باطنية مستمدة من الميثولوجيا لإعطاء القانون بعداً باطنياً أو لشرحه وتفسيره، وللتغيب والترهيب، تماماً كما فعل رجال الدين في المراحل الأولى في مجتمعات غرب أوروبا. وكان القياصرة يعلمون أهمية هذه الميثولوجيا وحيويتها لتحقيق الانضباط الاجتماعي وحث العامل على أداء عمله بصبر، والتشجيع على التضحية بالنفس في الحرب والسلم. فدفع القياصرة مرتبات عالية لرجال الدين من ذوي الرتب الكنسية العليا، ودفعوا لرجال الدين ممن هم أقل درجة مرتبات كفيلاً بإعاشتهم وكفيلة بدعم ولأهم الوطني. وقد حمى القياصرة المنشقين الدينيين طالما ظلوا موالين للدولة ولايسببون إزعاجاً. لقد تغاضت كاترين الثانية وتغاضى أيضاً إسكندر الأول عن المحافل الماسونية التي كانت تدعو - بحذر - لإصلاحات سياسية.

لقد تمسك النبلاء الروس بكل حقوقهم الإقطاعية ومارسوها وكانوا يتحكمون - تقريباً - في كل جانب من جوانب حياة أقتان الأرض العاملين في أراضيهم، فكان يمكن للسيد الإقطاعي أن يبيع رقيق الأرض من العاملين عنده، كما كان يمكنه تأجيرهم للعمل في المصانع في المدن، وكان يمكنه أن يودع من يشاء منهم في السجن ويضربه بالعصا أو يجلده بالسوط. وكان يمكنه أن يعهد بهم إلى الحكومة لتشغيلهم في سيبيريا أو سجنهم هناك (4) وكان في هذا شيء من التخفيف عليهم. وكان بيع عبد الأرض (الغن) بمفرده دون أسرته أمراً نادراً، لكن بعض النبلاء أسهموا في تعليم بعض الأقتان وغالباً ما كان هذا التعليم من النوع التقني أو الحرفي الذي يفيد العمل في ممتلكات النبيل، وأحياناً يكون هذا التعليم لإعدادهم لمجال أوسع، فقد سمعنا أنه في نحو سنة 0081 كان هناك قن serf يدير مشروعاً للنسيج به خمسمائة نول لكن معظم هذه الأنوال كانت في بيوت في مزارع أسرة شيرميتيف Sheremetev الشاسعة. ويشير تعداد السكان في روسيا في سنة 3871 إلى أن إجمالي عدد السكان هو 850,776,52 نفس، وكان هناك من بين الذكور البالغ عددهم 925,838,21 أقتان يمتلكهم أصحاب الأراضي، يبلغ عددهم (أي الأقتان) 932 و 986 و 6 (لكل قن منهم أنثاه) أي أكثر من نصف السكان. لقد بلغت الفنانة ذروتها في تلك الفترة، وساعت في عهد كاترين، وتخلّى إسكندر الأول عن محاولاته الباكرا للتقليل منها(5).

ويشير الإحصاء الأنف ذكره إلى أن 59.5% من سكان روسيا من أهل الريف، لكن هذا الرقم يشتمل على فلاحين يعملون في المدن ويعيشون فيها. وكانت المدن تنمو ببطء فلم يكن يزيد عدد ساكنيها في سنة 6971 عن 103,1000 نفس(6).

وكانت التجارة فعالة ونامية خاصة على طوال السواحل وفي القنات المانية الكبيرة - وكانت أوديسا Odessa بالفعل مركزاً عامراً للتجارة البحرية، أما الصناعة فكان نموها أبطأ، فكثير من النشاطات الصناعية كان يتم في محلات ومنازل في مناطق ريفية. وكانت حرب الطبقات أقل استعارة بين البروليتاريا وأصحاب الأعمال منها بين طبقة التجار الصاعدة - التي كان أفرادها يتنون من وطأة الضرائب - والنبلاء المعفيين من أداء الضرائب.

وكان التفاوت بين الطبقات حاداً وكان القانون يقننه ويرسم له حدوداً، ومع هذا فقد كان هذا التفاوت الطبقي يقل رويداً رويداً كلما تطور الاقتصاد وانتشر التعليم. وكان الحكام الروس قبل بطرس الأكبر غير مرتاحين للمدارس لأنها تفتح الطريق لراديكالية غرب أوروبا، وللعقوق (اللاتقوى) ومع هذا فإن بطرس - رغبة منه في أن يكون مقبولاً لدى الغرب الأوربي - أسس مدارس للبحرية والهندسة ليدخلها أبناء النبلاء ومدارس أبرشية لإعداد القسس، واثنتين وأربعين مدرسة ابتدائية يدخلها أبناء كل الطبقات ما عدا أبناء الأقتان، وكانت هذه المدارس تتحو نحواً حرفياً

(تكنولوجيا). وفي سنة 5971 أسس ب. P. شوفالوف Shuvalov جامعة موسكو بقسمين؛ قسم للنبلاء وآخر للعوام، وتأثرت كاترين بأفكار المثقفين الفرنسيين فنشرت المدارس على نطاق واسع، ودافعت عن حق المرأة في التعليم. وسمحت بإقامة دور نشر خاصة، فقد صدر في أثناء فترة حكمها 48% من إجمالي الكتب التي نشرت في روسيا في القرن الثامن عشر. وبحلول عام 0081 كان في روسيا بالفعل طبقة مثقفين (أهل الفكر) سرعان ما ستكون ذات شأن في التاريخ السياسي للأمة الروسية. وبحلول هذا العام أيضاً (0081) وصل بعض التجار أو أبناء التجار إلى مواقع النفوذ، بل ووصل بعضهم إلى مناصب في البلاط. ورغم لاهوت الأساقفة والقسس المحليين - ذلك اللاهوت المتسم بالحرارة والتوقد - فإن مستوى الأخلاق والطباع كان بشكل عام أدنى في غرب أوروبا فيما عدا لدى القلة في البلاط. فغالب الروس كانوا طبيي القلب وكرماء، وربما يرجع ذلك إلى أنهم كانوا ينظرون إلى الآخرين كشركاء لهم في المعاناة في عالم قاس. لكن البربرية كانت تغلي في الروح متذكراً أياماً كان على المرء فيها أن يكون قاتلاً أو مقتولاً. وكان الإغراق في الشراب ملجأ للراحة هروباً من الواقع حتى بين النبلاء، وكانت الحياة غير المستقرة التي عانى منها الكتاب والمؤلفون سبباً لإدمانهم الكحول وسبباً لموتهم المبكر(7). وانتشر المكر والكذب والنشل (السرقات الصغيرة) بين العوام، فكل حيلة بدت لهم جائزة في مواجهة السادة القساء، والتجار الغشاشين

وجامعي الضرائب اللوحين. وكانت النساء صارمات كالرجال أو كن - على الأقل - يعملن بجد وشدة كالرجال، ويحاربن بضرورة، وإذا سمحت لهن الظروف حكمن بمهارة، فمن من القياصرة بعد بطرس نجح في الحكم كما نجحت كاترين الثانية؟ وانتشر الزنا بزيادة الدخول. وكان الاغتسال والنظافة أمراً نادراً خاصة في الشتاء، ومن ناحية أخرى أذمن قلة من الناس الحمامات الساخنة والتدليك (المساج) القاسي. وعمت الرشوة والفساد بدءاً من الفن (رقيق الأرض) للنبييل، ومن موظف المدينة للوزير الإمبراطوري. لقد كتب سفير فرنسي في سنة 1781 الرشوة هنا منتشرة انتشاراً لا يجده المرء في أي دولة أخرى. إنها عمل منظم بمعنى من المعاني، وربما لا يوجد موظف حكومي واحد لا يمكن شراء ذمته (8).

وفي عهد كاترين وصل البلاط إلى درجة من الدمائية والكياسة والترف لم يكن يسبقه فيها سوى بلاط فرساي في عهد اللويسين: لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر رغم أن البربرية كانت في بعض الأحيان كامنة خلف المظاهر. وكانت اللغة المستخدمة في بلاط كاترين هي الفرنسية، كما كانت أفكار الأرستقراطية الفرنسية هي السائدة فيه مع استثناءات قليلة. وكان النبلاء الفرنسيون مثل الأمير دي لني Ligne غالباً ما يعتبرون أنفسهم في مواطنهم سواء كانوا في باريس أم في سان بطرسبرج وكان الأدب الفرنسي رائجاً في هذا العاصمة الشمالية (سان بطرسبرج) وكانت الأوبرا الإيطالية تلقى استحساناً فيها كالاستحسان الذي تلقاه في البندقية وفيينا. وكانت النسوة الروسيات الثريات وسليالات الأسر العريقة يضعن الشعر المستعار (الباروكات) ويمتنعن رجالهن على نحو ما كانت تفعل الدوقات قبل الثورة الفرنسية (في ظل نظام الحكم القديم Ancien Regime). ولم يكن هناك شيء في المهرجانات الاجتماعية المقامة على نهر السين في فرنسا يفوق بهاء التجمعات في سان بطرسبرج وفي القصر الفخم على نهر النيفا Neva، تلك التجمعات التي تتطلع إلى شمس الصيف في سماء الليل وكأنها لا تريد أن يضيع منها المشهد (9).

صفحة رقم : 14741

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> روسيا -> بول الأول

2- بول الأول

1081 - 6971

وعند ذروة هذا البهاء الودود كانت توجد سيدة (مدام). لقد كان بول (بافال بتروفيتش) ابن كاترين الثانية، لكن عبقريتها تخطت جيلاً، وتركت بول صغيراً نزاعاً للشك مكتئباً - رغم صغر سنه - مولعاً إلى حد الجنون بالسلطة المطلقة

لم يكن عمره قد تجاوز الثماني سنوات عندما علم أن أباه القيصر بطرس الثالث Peter III كان قد قتل وتستر على جريمة قتله أليكسي أورلوف Aleksei Orlov أخو جريجوري أورلوف العشيق الدائم لأم بول. ولم يفق بول أبداً من هذا الكابوس. وكان من الطبيعي - على وفق التسلسل المعتاد - أن يرث بول عرش أبيه، لكن كاترين نحتة وقبضت على زمام السلطة كاملة. وحبكت زوجة بول الأولى - بعلمه - مؤامراً للإطاحة بكاترين وتنصيب بول

قيصرًا، واكتشفت كاترين المؤامرة وأجبرت بول وزوجته على الاعتراف. واعترفت الإمبراطورة كاترين به وريثًا لها لكنه لم يطمئن أبداً وكان يحس أنها ستزيحه هو أيضا، وعاشت زوجته في رعب دائم وماتت عندما كانت تضع طفلاً وولد ميتاً.

ووضعت له زوجته الثانية ماريا فودوروفنا Maria Feodorovna ابنه إسكندر (7771) وفكرت كاترين لفترة في تسميته وليا لعهدا وإزاحة بول، لكنها لم تحول هذه الفكرة الدائرة في رأسها إلى عمل، وإن كان بول قد أحس بها مما جعله مرتاباً في ابنه. وفي سنة 3871 منحت كاترين، بول، مزرعة وعقارا في جاتشينا Gatchina على بعد ثلاثين ميلا من سان بطرسبرج، وهناك راح بول يدرّب فوجاً عسكرياً خاصاً به ويعلمه على نسق أسلوب أبيه - أسلوب خطوة الإوزة الذي أخذ به فريدريك الكبير، وخشيت كاترين أن يقوم بمحاولة أخرى لعزلها فأرسلت جواسيسها لمراقبته، فعين هو بدوره جواسيس لمراقبة الجواسيس، وتملكته الهالوس التي كانت تدور حول لقائه مع شبح جده بطرس الأول الكبير في أثناء الليل. وبعد اثنتين وأربعين سنة غير سعيدة اعتلى أخيراً العرش كان عقله بالفعل قد اقترب من الإفلات منه.

وفي غمرة مشاعره الطيبة أصدر بعض المراسيم الخيرة. لقد حرر عددا من ضحايا مخاوف كاترين المزمنة - نوفيوكوف Novikov وراديشيف Radischev ومفكرين راديكاليين وكوزكيو سكو Kosciusko وآخرين ممن سبق لهم النضال لتحرير بولندا. وكان مرتاعاً من أحوال مستشفى موسكو فأمر بتجديدها وإصلاحها وإعادة تنظيمها (7971) فأصبحت نتيجة لذلك واحدة من أفضل مستشفيات أوروبا (01). وأصلح العملة وجعلها مستقرة. وخفض الجمارك، وافتتح قنوات (ترعا) جديدة لخدمة التجارة الداخلية.

وعلى أية حال فقد أصدر أوامر محمولة للجنود لتلميع أزرار ملابسهم الرسمية وإصلاحها وتنظيف باروكات الشعر، وأصدر أوامر للشعب يحدد فيها ما يجب عليهم لبسه، ومنع الأزياء التي سادت أوروبا بعد الثورة الفرنسية، مهددا المخالفين بعقوبات شديدة (11) وبحلول عام 0081 منع استيراد الكتب المنشورة خارج روسيا ولم يشجع طباعة كتب جديدة في روسيا. وتصدى لأتوقراطية النبلاء وأعاد لملاك الأراضي 053,000 قنأ (من أقتان الأرض) كانوا ينعمون فيما سبق بأوضاع أيسر كموظفين في الدولة. وأقر العقوبات الصارمة التي صدرت ضد الأقتان المتمردين، على وفق رغبة الملاك (21). أما جنوده الذين كانوا في وقت من الأوقات مخلصين له، فقد امتعضوا لمراقبته الصارمة ونظامه شديد الانضباط. وكانت سياسته الخارجية شديدة التقلب. لقد ألغى خطط كاترين القاضية بإرسال 04-000 جندي ضد فرنسا الثورة. واستاء من استيلاء نابليون على مالطا ومصر، وتحالف مع تركيا وإنجلترا ضده، وحث السلطان على السماح للسفن الحربية الروسية بالمرور عبر البوسفور والدردينيل. واستولت سفنه الحربية على الجزر الأيونية وأنزل جنوده في مملكة نابلي للمساعدة على طرد الفرنسيين. لكن عندما رفضت بريطانيا العظمى تسليمه مالطه باعتباره الرئيس الأعلى المنتخب لفرسان مالطه Knights of Malta (من بقايا الحروب الصليبية) انسحب بول من التحالف ضد فرنسا بل وأصبح محبا لنابليون. وعندما بدرت عن نابليون إشارات تدل على نوايا حسنة، منع كل أنواع التجارة مع إنجلترا واستولى على البضائع البريطانية الموجودة في المخازن الروسية، وناقش مع نابليون إرسال حملة فرنسية روسية مشتركة لطرد إنجلترا من الهند، وتضاعفت نوبات غضبه بعد أن رأى مجريات الأمور الخارجية لا تسير على وفق هواه وبعد أن رأى مجريات الأمور في الداخل تتضاعف أمام طلباته الكثيرة. لقد عاقب بقسوة لأدنى خطأ وأبعد عن موسكو نبلاء سبق لهم أن شككوا في سياساته وأرسل إلى سيبيريا ضباط جيش توانوا في تنفيذ الأوامر. وغالبا ما كان ابنه إسكندر موضع حنقه وسخطه (31). وراح النبلاء والضباط - أكثر فأكثر - بنخرطون في المؤامرة لعزله، فأقنع الجنرال ليفين بنيجسن Levin Bennigsen الكونت نيكيتا بانين Nikita Panin وزير الخارجية، واستمالا لخطتهما الكونت بطرس فون باهلن Peter Von Pahlen الذي كان على رأس شرطة المدينة ورئيسا للعسكر فيها، وعملوا ثلاثتهم على إقناع إسكندر بخطنتهم ونجحوا أخيراً إذ وافق إسكندر شريطة عدم إلحاق الأذى البدني بوالده، فوافقوا على ذلك وهم يعلمون أن فرض الأمر الواقع سيكون هو خير دفاع، وفي الساعة الثانية صباح يوم 42 مارس 1081 قاد باهلن Pahlen المتمارين ورهطاً من الجنود إلى قصر ميخائيلوفسكي Mikhailovsky وهزموا قوات الحرس وأحاطوا بالإمبراطور المقاوم (بكسر الواو) وخنقوه حتى مات. وبعد ساعات قليلة أحاطوا إسكندر علماً أنه قد أصبح الآن هو قيصر روسيا الجديد.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> روسيا -> تعليم إمبراطور

3- تعليم إمبراطور

من الصعب على عقول انشغلت طوال أعوام بحكاية نجم مذنّب يقال له نابليون أن تدرك أن إسكندر الأول (الأسكندر بافلوفيتش 7771 - 5281) كان محبوباً في روسيا على نحو ما كان بونابرت محبوباً في فرنسا. لقد نشأ مثل صديقه وعدوه في رحاب التنوير الفرنسي، ومزج - مثله - أوتو قراطيته بالأفكار الليبرالية، لقد حقق ما حاول أعظم الجنرالات (المعاصرين) تحقيقه (لأنه لا بد من احترام سمي القيصر) وفشل - قاد جيشه عبر القارة من عاصمته إلى عاصمة عدوه وتغلب عليه، وأنه في ساعة النصر تصرف باعتدال وتواضع، وأثبت أنه من بين هذا العدد الكبير من الجنرالات والعباقرة أفضلهم أدباً وكياسة. أيمن أن تتجب روسيا هذا المثل الأعلى؟ نعم، لكن بعد أن انغمس طويلاً في آداب فرنسا وفلسفتها بفضل معلم سويسري.

إن طريقة تعليمه في حاجة إلى زينوفون Xenophon آخر ليحمله في سيروبيديا Cyropaedia أخرى عن شباب ملك وتعليمه وتدريبه. لقد تعرض تعليمه لعناصر متضاربة متصارعة. فأولاً كانت هناك جدته كاترين الكبيرة المشغولة الغائبة - رغم متابعة أمره بدقة. لقد أبعدته كاترين عن أمه ونقلت له مبادئ الحكم المطلق المنتور ممتزجة بننف من المؤلفين الذين كانت تحبهم - فولتير وروسو وديدرو Diderot - وذلك قبل أن تفقد هي نفسها هذه المبادئ. وربما بتوجيه منها تعلم منذ طفولته أن ينام بلا غطاء ثقيل والنوافذ مشرعة، على حشبة من جلد مراكشي (جلد ماعز) محشوة بالقش (41)، فأصبح بذلك محصناً ضد تقلبات الجو وتمتع بصحة وحيوية فائقتين. لكنه مات في الثامنة والأربعين من عمره.

وفي سنة 4871 أحضرت له كاترين من سويسرا فريدريك سيزار دي لا هارب Frederic - Cesar de La Harpe (4571-8381) ليكون مشرفاً على تعليمه، وكان دي لا هارب متحمساً مخلصاً للمكبرن والمتقنين الفرنسيين. ولقن دي هارب تلميذه إسكندر طوال تسع سنوات تاريخ فرنسا وآدابها. وتعلم الأمير كيف يتكلم الفرنسية بإتقان بل وأن يفكر - غالباً - كالفرنسيين. (لا حظ أن نابليون كان يتحدث الفرنسية لكن ليس بشكل تام، وكان يفكر كإيطالي من عصر النهضة الرينيسانس). وكانت هناك ممرضة علمت الأمير - بالفعل - اللغة الإنجليزية، والآن فإن ميخائيل مورافيوف Mikhail Muraviov قد علمه لغة الإغريق القديمة وآدابها، ونقل إليه الكونت ن. ج. سالتيكوف N. J. Saltykov عادات الأوتوقراطية الإمبراطورية (الأوتوقراطية تعني حكم الفرد)، وكان هناك معلمون آخرون يعلمونه الرياضيات والفيزياء والجغرافيا. ونقل إليه سومبورسكي Somborsky كبير القسس الأخلاق المسيحية على وفق مبدأ مؤداه أن على كل إنسان أن يجد في كل إنسان جارا له لكي يحقق شرع الرب (51) وربما وجب علينا أن نضيف إلى قائمة معلمي إسكندر لويزا إليزابيث (من بادن - دورلاش) Luise Elisabeth of Baden - Durlach التي أصبحت اسمها إليزافيتا أليكسييفنا Elizaveta Alekseevna والتي تزوجته في سنة 3971 بناء على طلب كاترين، وكان في السادسة عشرة من عمره، ومن المفهوم أن إليزافيتا قد علمته الطرق الصحيحة لمباشرة النساء. لقد كان هذا البرنامج التعليمي ملائماً لتخريج عالم ورجل مهذب لكنه لا يكاد يصلح لحاكم مطلق يحكم الروس. وعندما خافت كاترين من التطورات التي حدثت في مسار الثورة الفرنسية لم تعد معجبة بفولتير وديدرو Diderot، وأبعدت لا هارب (La Harpe 4971) عن تولي مهمة الإشراف على تعليم إسكندر، فعاد إلى سويسرا ليقود ثورة هناك. ووجد إسكندر أن الواقع في البلاط وفي جاتشينا Gatchina يختلف بشكل مريب عن مناقشات الفلاسفة ومثاليات روسو Rousseau. لقد أصابه الرعب لتشابك القضايا التي تواجه الحكومة وتعقدتها، وربما ضاع منه التفاؤل الذي علمه إياه لا هارب La Harpe واكتأب لموت جدته (كاترين). لقد كتب في سنة 6971 لصديقه المقرب الكونت كوشبي Kochubey:

إنني مشتمر للوضع الذي أجد نفسي فيه. إنه بعيد جداً عن طبيعتي التي تتلاءم على نحو أكثر مع حياة السلام والهدوء. فحياة البلاط لا تصلح لي. إنني أحس بالبؤس أن أكون وسط مثل هؤلاء الناس (رجال البلاط) وفي الوقت

نفسه أجدهم يشغلون أعلى المناصب في الإمبراطورية. وباختصار يا صديقي العزيز فأنا أدرك أنني لم أولد لأشغل منصبا عالياً ذلك المنصب الذي أشغله الآن بل إنني أقل من المنصب الذي ينتظرني في المستقبل، وقد أقسمت بيني وبين نفسي أن أتخلى عنه بطريقة أو بأخرى... إن أمور الدولة مضطربة تماماً، فالابتزاز والاختلاس في كل مكان، وكل الوزارات والإدارات تدار بشكل سيء... ورغم كل هذا فلا هم للإمبراطورية سوى التوسع، وعلى هذا أيمكنني أن أدير الدولة، بل أيمكنني ما هو أكثر من هذا - أعني إصلاحها والقضاء على الشرور المتأصلة فيها؟ أظن أن هذا يفوق طاقة أي عبقر في البال بشخص مثلي ذي قدرات عادية.

إنني بعد أن وضعت كل هذا في اعتياري أتخذت قراراً الذي ذكرته لك آنفاً. إن خطتي هي التخلي عن العرش (لا أستطيع أن أقول متى) وأن استقر مع زوجتي على شواطئ الراين لأعيش حياتي الخاصة كمواطن أستمتع بصحبة الأصدقاء ودراسة الطبيعة(61).

إلا أن الحظ أتاح له خمس سنوات ليكيف نفسه مع متطلبات منصبه. لقد تعلم كيف يقدر العناصر البناءة في الحياة الروسية: المثالية والإخلاص المستوحيان من المسيحية، والاستعداد لتبادل تقديم المساعدة (التعاون)، والشجاعة وتحمل المشاق الناتجة عن الحروب مع التتار والترك، وقوة الخيال السلافي Slavic وعمقه الذي سرعان ما أفرز أدباً عميقاً وفريداً، والكبرياء الصامته الناتجة عن الوعي بحاضر الروس والمساحة المكانية الكبيرة التي يشغلونها. وفي 42 مارس 1081 وجدنا إسكندر - الشاعر محب العزلة - وقد تحدثه الفرصة المتاحة له، فوجد في جذوره وأحلامه ما يمكنه من فهم شعبه وقيادته نحو العظمة ليجعل من روسيا حكماً (بفتح الحاء والكاف) لأوروبا.

صفحة رقم : 14743

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> روسيا -> القيصر الشاب

4- القيصر الشاب

1081- 4081

لم يطرد إسكندر أبداً من بانين Panin أو باهالن Pahlen فجأة وهما اللذان خططا لمقتل أبيه، فقد خاف نفوذهما كما أنه لم يكن متأكداً من براءته هو نفسه (إذ كان قد وافق على تدبيرهما لخلع والده)، كما كان في حاجة إلى باهالن ورجال البوليس التابعين له لحفظ الأمن في موسكو، كما كان في حاجة إلى بانين Panin للتعامل مع إنجلترا التي كان أسطولها يهدد بتحطيم الأسطول الروسي بعد أن دمر بالفعل الأسطول الدنمركي، وعلى هذا فقد جرى استرضاء بريطانيا، وهكذا انهارت عصبة الحياد المسلح الثانية. فطرد باهالن في يونيو 1081 واستقال بانين في ديسمبر من العام نفسه.

لقد أمر إسكندر في العام الأول من حكمه بإطلاق سراح آلاف السجناء السياسيين، وسرعان ما طرد الذين كانوا مستشاري بول، ومن كانوا ضالعين في إجراءاته الإرهابية. وفي 03 مارس جمع اثني عشر مسؤولاً من مسؤولي الدولة الكبار ممن هم أقل فساداً من سواهم وكون منهم مجلساً دائماً لتقديم المشورة له في مجالي التشريع

والإدارة (71). واستدعى بعض المبعدين من أكثر النبلاء ليبرالية وعينهم في حكومته: الكونت فيكتور كوشبي Kuchubey وزيراً للدخالية، ونيكولاي نوفوسيلتسوف Novosiltsov وزيراً للدولة، والكونت بافال ستروجانوف Stroganov وزيراً للتعليم، كما عين الأمير آدم جرزي شارتورسكي Adam Jerzy Czartoryski - الوطني البولندي المتألف مع السلطة الروسية - وزيراً للشئون الخارجية. وكون من هؤلاء وغيرهم من رؤساء الإدارات مجلس الوزراء Committee of Ministers كجهاز استشاري آخر. وقد استدعى إسكندر من سويسرا لا هارب La Harpe كمستشار آخر له (نوفمبر 1081) لمساعدته في تحديد سياساته والتنسيق بين عناصرها. وكان هناك تحت هذه الأجهزة التنفيذية، مجلس (سينات) نبلاء ذو سلطات تشريعية وقضائية، لمراسيمه وقراراته Ukases قوة القانون إذا لم يعترض عليها القيصر. وظلت إدارة الولايات في أيدي معينين من قبل الحكومة المركزية. وكل هذه التنظيمات تشبه التنظيمات الإمبراطورية في ظل نابليون باستثناء أن مجلس النواب كان في ظل نابليون يتم اختيار أعضائه بالانتخاب، كما أنه القناتة ظلت موجودة في روسيا ولم يكن للأقنان (عبيد الأرض) أي حقوق سياسية، وكان مستشارو إسكندر في أعوام حكمه الأولى من الليبراليين المتعلمين تعليماً جيداً، لكنهم كانوا خاضعين لطبيعة الأشياء أو لأحكام الضرورة على حد تعبير نابليون. فقد بدت الحقوق rights في هذه الظروف مجرد أو هام في مواجهة الضروريات، في أمة 09% من أهلها فلاحون أشداء أميون لا يتوقع منهم أحد أن يفكروا لأبعد من القرى التي يعيشون فيها سواء من ناحية الاقتصاد أو التنظيم السياسي أو الإنتاج والتوزيع أو الدفاع. لقد كان إسكندر مدعناً لنظام النبالة القوي حيث كان للنبلاء تشكيلاتهم التنظيمية الخاصة، ونظامهم المحلي لتسيير أمور الزراعة والقضاء والشرطة والصناعات الريفية. وكانت القناتة (عبودية الأرض) عميقة الجذور راسخة عبر الزمن حتى إن القيصر لم يكن يجسر على مهاجمتها خوفاً من قلّة النظام الاجتماعي وضياع عرشه. وكان إسكندر يتلقى شكاوى من الفلاحين، وكان في حالات كثيرة يُنزل عقوبات قاسية بملأك الأراضي المذنبين (81) لكنه لم يكن يستطيع أن يقيم على مثل هذه الحالات برنامجاً لتحرير رقيق الأرض. لقد كان لابد من مرور سنتين عاماً قبل أن يستطيع إسكندر الثاني تحرير رقيق الأرض في روسيا (قبل إعلان لينكولن Lincoln إلغاء الاسترقاق بعامين). ولم يجد نابليون - الذي عاد من روسيا مهزوماً (2181) أن إسكندر قد أخطأ في هذا الاتجاه فقد قال نابليون لكولينكور Caulaincourt: إن إسكندر ليبرالي جداً، وهو ديموقراطي جداً بالنسبة إلى الروس. فهذه الأمة تحتاج لقبضة حديدية. وسيكون أكثر ملاءمة لو حكم أهل باريس. إنه ودود مع النساء، مجامل مع الرجال، وطريقته اللطيفة في التصرف تدعو إلى البهجة (91). وفي ظل هذه الظروف المقيدة (بتشديد الباء وكسرها) أحدث إسكندر شيئاً من التقدم. لقد عمل على تحرير 351،74 فلاحاً، وأمر أن تكون القوانين واضحة دائمة متسقة، فكما ورد في مذكراته التفسيرية لقوانينه أن يقوم رخاء شعبنا على نسق قوانيننا الموحدة اعتقاداً منا أن هذه الإجراءات المختلفة قد تجلب للبلاد السعادة التي لا يؤكدها - للأبد - إلا تلك القوانين، ولقد عملت منذ اليوم الأول لحكمي على استقصاء أحوال هذا الجانب في الدولة (02). وأمر أن يكون الاتهام والمحاكمة والعقاب على وفق إجراءات محددة مقننة ومُلمزة. كما أمر أن تقضي المحاكم العادية - لا السرية - في الجرائم السياسية. والآن فقد هدّبت التنظيمات من أحوال البوليس السري وتمّ منع التعذيب (لقد منعه بول لكنه ظل سائداً في أثناء حكمه) وتمّ السماح للروس الأحرار (المقصود غير الأقنان) بالسفر خارج روسيا والعودة إليها، وسُمح للأجانب بدخول روسيا على وفق إجراءات ميسرة من ذي قبل. وتمّ دعوة 21،000 مئفَى للعودة إلى روسيا. وظلت الرقابة على الصحف قائمة لكنها أصبحت من اختصاص وزارة التعليم مع طلب مهذب وهو أن تكون هيئة لينة مع المؤلفين (12). وتم إلغاء الحظر على استيراد الكتب الأجنبية وإن ظل هذا الحظر سارياً على المجلات، وفي سنة 4081 تم إقرار الحرية الأكاديمية تحت إشراف مجالس جامعية، على وفق نظام أساسي.

وكان إسكندر مدركاً أنّ أيّ إصلاح لا يمكن أن يزدهر ويؤتي ثماره إلا إذا كان مفهوماً ومؤيداً من نسبة كبيرة من السكان، ففي سنة 2081 عهد إلى وزارة التعليم بمعاونة نوفوسيلتسوف Novosiltsov وتشارتورسكي Czartoryski ومخائيل مورافيوف Muraviov مهمة تنسيق نظام تعليمي عام جديد. وصدر قانون (نظام أساسي) في 62 يناير 3081 يُقسّم روسيا إلى ستة أقاليم regions يكون في كل إقليم منها جامعة واحدة على الأقل، وأن تكون هناك مدرسة ثانوية على الأقل في كل جوبرنيا Guberniya (ولاية)، وأن تكون هناك مدرسة - على الأقل - في كل مقاطعة (كونتية) ومدرسة ابتدائية على الأقل في كل تقسيم أبرشي، وبالإضافة إلى الجامعات التي كانت موجودة بالفعل (جامعات موسكو وفيلنا Vilna ودوربات Dorpat) أنشئت جامعات سان بطرسبرج، وخاركوف Kharkov وقازان Kazan، وفي هذه الأثناء كان النبلاء لا يزالون يُتيحون التعليم الخاص والمدارس الخاصة لأبنائهم، ومنع الرأبيون اليهود (الحاخامات) الآباء من إلحاق أبنائهم بمدارس الدولة باعتبارها أداة مراوغة لتدمير الإيمان اليهودي (22).

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> روسيا -> اليهود في ظل حكم إسكندر

5- اليهود في ظل حكم إسكندر

تحسنت أحوال اليهود بشكل ملحوظ في ظلّ (حظائر الاستيطان Pale of settlement) أي المناطق التي سُحج لليهود بالإقامة فيها، وذلك في عهد كاترين الثانية. وفي سنة 0081 كانت هذه المناطق (الحظائر) تشمل كل المناطق البولندية التي كانت تابعة لروسيا ومعظم مناطق جنوب روسيا بما في ذلك كييف Kiev وشيرنيجوف Chernigov، وإكاترينوسلاف Ekaterinoslav والقرم. وخارج هذه المناطق Pale لم يكن أي يهودي يستطيع أن يُقيم إقامة دائمة. أمّا خلال هذه المناطق فقد كان اليهود البالغ عددهم 000,009 في سنة 32)4081 يتمتعون بكل حقوق المواطنة بما في ذلك التعيين في الوظائف الحكومية مع استثناء واحد: اليهودي الراغب في الانضمام إلى طبقة التجار ورجال الأعمال في المدن كان عليه أن يدفع ضريبة ضعيف الضريبة التي يدفعها غير اليهودي فقد كان غير اليهودي يرى أنّ منافسة اليهودي مسألة مستحيلة وأنه إذا ترك الأمر تحقق دماره على يد اليهودي (42). وفي هنا وجدنا تجار موسكو (0971) يُقدمون شكوى ضد التجار اليهود الذين يبيعون البضائع الأجنبية بأسعار أقل من أسعارها الحقيقية ومن ثمّ يُلحقون أضراراً بالغة بالتجارة المحلية (52) وفي هذه الأثناء أدت منافسة اليهود إلى امتناع أصحاب الحانات والخانات في الريف فبذلت الحكومة قصارى جهدها للإبقاء على اليهود في المدن بعيداً عن القرى. وفي سنة 5971 أمرت كاترين ألا يكون لليهود حقوق مدنية إلا في المدن وألا يُقيموا في الريف. وفي نوفمبر سنة 2081 عين إسكندر (لجنة لتحسين Amelioration أوضاع اليهود) ودراسة مشاكلهم وتقديم توصيات، فدعت اللجنة الكاهالات Kahals (المجالس الإدارية التي تحكم المجتمعات اليهودية وتقرض عليهم ضرائب تصرف لصالح هذه المجتمعات) لإرسال مندوبين عنها إلى سان بطرسبرج ليناقتشوا مع الحكومة المطالب اليهودية، فطلبوا بعد مناقشات مستفيضة مهلة سنة أشهر ليتمكنوا فيها من الحصول على مزيد من الصلاحيات والتعليمات من كاهالاتهم their Kahals، فأرسلت اللجنة توصياتها مباشرة إلى الكاهالات بدلاً من التباحث مع مندوبيها، فرفضت الكاهالات اقتراح اللجنة منع اليهود من امتلاك الأراضي، ومنعهم من بيع الخمر، وطلبوا تأجيل هذه الإجراءات مدة عشرين عاماً لإتاحة الوقت اللازم للتوائم مع هذه الإجراءات الاقتصادية الصعبة، ورفضت اللجنة، وفي 9 ديسمبر سنة 4081 أصدرت الحكومة الروسية بعد موافقة القيصر إسكندر دستور اليهود أو الدستور اليهودي Jewish Constitution.

وكان هذا الدستور (المشروطة) مرسوماً بالحقوق، كما كان يقصر الوجود اليهودي على المدن. وكانت الحقوق كبيرة إذ أتاح للأطفال اليهود الالتحاق بكل المدارس والجامعات في الإمبراطورية الروسية وأجاز لهم تأسيس مدارس خاصة بهم على أن يكون التدريس فيها باللغة الروسية أو البولندية أو الألمانية وأن تستخدم إحدى هذه اللغات في المحرّرات الرسمية. ولكل جماعة يهودية أن تختار الرّابيين (الحاخامات) الخاصين بها وكذلك كاهالاتها Kahal على ألا يصدر الراي قراراً بالحرمان وأن يكون الكاهال Kahal مسؤولاً عن جمع كل الضرائب التي تفرضاها الدولة. ودُعي اليهود للعمل في مجال الزراعة بشراء الأراضي الشاغرة في أجزاء معينة من المناطق المتاح لهم الإقامة فيها Pale أو الاستقرار في أراضي التاج (أراضي الدولة) على أن يُعفوا من الضرائب في غضون السنوات القليلة الأولى.

وعلى أية حال فبحلول الأول من يناير سنة 8081 يصبح ممنوعاً على أي يهودي في قرية أو نجع أن يُوجّر أرضاً، أو يفتح حانة أو فندقاً أو صالوناً... أو يبيع نبيذاً في القرى أو حتى أن يعيش فيها بأي حجة مهما كانت (62).

وكان هذا يعني إبعاد ستين ألف أسرة يهودية عن مساكنها في القرى، ووصلت مئات الالتماسات لسان بطرسبرج يطلب مقدموها تأجيل هذا الترحيل الجماعي وانضم كثير من المسيحيين إليهم يؤيدونهم في مطلبهم هذا وأشار الكونت كوشبي Kochubey إسكندر إلى أن نابليون كان يخطط ليعقد في باريس في فبراير 7081 اجتماعاً (سنهدريم) للرأبيين (للحاجمات) من كل أنحاء غرب أوروبا لصياغة برنامج إجرائي لإعتاق اليهود ومنحهم حق الاقتراع. فأمر إسكندر بإيقاف برنامج محل الجدل. وربما أحييت لقاءاته مع نابليون في تيلسيت Tilsit طموحه في إقناع الغرب West بأنه حاكم متنور. وفي سنة 9081 أخبر حكومته أن خطة إخلاء اليهود الأنف ذكرها خطة غير عملية لأن اليهود لن يكون لديهم الوسائل التي تمكنهم من الاستقرار والحصول على مساكن في الأماكن المحيطة بالقرى التي سيُطردون منها، والحكومة بدورها غير قادرة على تدبير مساكن لهم جميعاً (72) وعندما أصبح الغزو الفرنسي لروسيا وشيكاً أفتع نفسه بضرورة أن يحبه اليهود وأن يكونوا مؤالين للدولة.

صفحة رقم : 14745

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> روسيا -> الفن الروسي

6- الفن الروسي

وصف الأمير دي لئي de Ligne الذي عرف كل شخص ذي شأن وكل شيء ذي بال في أوروبا في هذا العصر - سان بطرسبرج في نحو سنة 7871 بأنها أجمل مدينة في العالم (82) وفي سنة 2181 وصفها مدام دي ستيل بأنها من أجمل مدن العالم (92) فقد كان بطرس الأول قد بدأ في تزيين عاصمته الوليدة بعد أن تملكته الغيرة من جمال باريس. وكانت كاترين تُرضى عشاقها الذين تخلت عنهم بقصور أكثر بقاء من حبها، وواصل إسكندر الأول رعايته الملكية للأعمدة الكلاسيكية التي تواجه - بصرامة - نيفا Neva. لقد كانت أوروبا تشهد موجة الكلاسيكية الجديدة في هذه الفترة، وقد نسي القيصر والقيصرة الأشكال (الأنماط الفنية) الروسية واستدعوا الأنماط الرومانية، فأرسلوا إلى إيطاليا وفرنسا لدعوة المعمارين والنحاتين للقُدوم إلى روسيا لتخليد الكبرياء السلافية Slavic بالفن الكلاسيكي. فقصر الشتاء الذي بدأ العمل فيه بارتولوميو راستريلي Bartolomeo Rastrelli في سنة 5571 وأكمله في سنة 7181 جياكومو كارنيجي Giacomo Quarenghi وس. ج روسي C.J. Rossi - هذا القصر كان أكثر القصور الملكية في أوروبا جلالاً ومهابة، يصبح قصر فرساي إلى جواره قزماً وأقل بهاء: 51 ميلاً من الممرات (أروقة ودهاليز...) و0052 غرفة، وما لا يُحصى من الأعمدة الرخامية، وألف لوحة فنية شهيرة، وفي الأدوار الدنيا ألفاً خادماً، وفي جناح واحد، دجاج ويطوماعز وخنزير في مأوى مغطى بالقش (03). لقد راح إسكندر الأول بعد لقاء نابليون في تيلسيت يجد في نفسه الدافع لمنافسته ليس فقط في مجال القوة وإنما أيضاً في أن يجعل عاصمته في مثل عظمة عاصمة نابليون. لقد أحضر إسكندر المعمارين الفرنسيين والإيطاليين ليُلهبوا حماس البيئات الروس ويُفجروا طاقاتهم بما لديهم من علم ومهارة. لقد ظل الفنانون الغربيون مرتبطين بالأنماذج الكلاسيكية لكنهم ذهبوا إلى ما وراء روما وأثارها إلى الجنوب الإيطالي والآثار الإغريقية كمعابد هيرا في بيستيم Paestum (بيز Paese بالقرب من سالرنو). لقد كانت هذه الآثار في مثل قديم البارثينون Parthenon وتكاد تكون في مثل جمالها، وأعطت الروح الرجولية للأعمدة الدورية Doric (الأعمدة الإغريقية على الطراز الدوري) روحاً جديداً للزروع الروسي إلى الكلاسيكية الجديدة.

لكن الملمح المميّز للنمط الإمبراطوري Empire Style في عهد إسكندر هو تخلص فن العمارة الروسي تدريجياً من التأثير اللاتيني. فبينما كان البنائون البارزون في عهد كاترين (2671-6971) ثلاثة إيطاليين: بارتولوميو راسترلي Rastrelli وأنطونيو رينالدي Rinaldi وجياكومو كارينجي Quarenghi، فإن المعماريين الأساسيين في عهد إسكندر الأول كانوا هم توماس ثومون Thomas Thomon وأندري فورونيكين Andrei Voronykhin وأدريان زخاروف Zakharov وهم روس تأثروا بالأسلوب الفرنسي (13)، وإيطالي هو كارلو روسي Rossi الذي تنبأ مكاناً رفيعاً في أواخر حكم إسكندر.

وفي سنة 1081 عهد إسكندر إلى توماس بتصميم وبناء بورصة الأوراق المالية لمواكبة نشاطات طبقة التجار والماليين الصاعدة في سان بطرسبورج. فأقام المعماري الطموح (سنة 7081 وما بعدها) مبنى ضخماً مستوحياً فيه معابد بيسنوم Paestum ومحاكياً بورصة إسكندر برونجنيار Brongniart في باريس (8081-7281) - تحفة فورونيكين Voronykhin الفنية هي الكازانسكي سوبور Kazansky Sobor - الكاتدرائية التي أنشئت تخليداً لذكرى سدبتنا (ستنا) ست (سيدة) قازان التي أقيمت على ضفاف نهر النيفا Neva بين عامي 9081-1181، بأروقته التي تدور مدار نصف دائرة وقيابها الثلاث المدرجة التي تذكرنا بأعمال بيرنيني Bernini وميكل أنجلو (ميشيل أنجلو) الخالدة أو ببانثيون Pantheon سوفلو Soufflot في باريس - ومبنى الأدميرالية الأكثر مدعاة للتقدير حيث ربع ميل من الأعمدة والكارتيديات Caryatids (الكارتيدي عمود على شكل امرأة) وأبراج الكنائس المدببة الذرى، ذلك المبنى الذي تم تصميمه لخدمة البحرية الروسية - ويضارع هذا مبنى الأركان العامة الذي أقامه في ميدان القصر روسي Rossi بعد موت إسكندر بفترة وجيزة.

وبناء على وصية نيكولا (نقولا) الأول توج ريكارد دي مونتفران de Montferand عصر إسكندر بعمود مرتفع من حجر واحد (عمود مونوليثي) ربما ذكرنا بعمود فيندوم Vendome في باريس، فرغ من أن القيصر قد هزم فرنسا إلا أنه لم يفقد احترامه لفتحها.

وجلس النحاتون الروس أيضاً تحت أقدام الفنانين الفرنسيين الذين ركعوا بدورهم أمام فتاني روما الذي استعاروا من فن الإغريق رغم انتصار الرومان على الإغريق. وقبل كاترين الثانية الغربية الشرقية West - Oriented (المقصود تأثرها بالحضارة البيزنطية والرومانية معا)، كان تأثير الدين البيزنطي ذا طابع شرقي Oriental في غالبه يخشى الجسد البشري باعتباره أداة للشيطان مما دفع الروس إلى الابتعاد عن معظم فنون النحت المتجسدة التي يراها المشاهد من كل الجوانب لكن شيئاً قسبياً وبيطء ومع الروح الوثنية الشهوانية للتتوير دخل النحت مع كاترين وتمّ التخلي عن هذه المحاذير (الطابو taboo) في خضم الحرب الداخلية وفي خضم التذبذب بين الدين والجنس. لقد ظل إثنين مورييس فالكون Etienne - Maurice Falconet الذي أغرته كاترين بترك فرنسا والقوم إلى روسيا - ينحت ويحفر حتى سنة 8771، وفي تمثاله المهم لبطرس الكبير لم يكتف برفع الحصان وراكبه في الهواء وإنما ترك العنان للفن الصحيح لتوصيل رسالته لا يعوقه شيء ودون أن يضع في الاعتبار شيئاً سوى التعبير عن الجمال والحقيقة والقوة.

وفي هذه الأثناء أتى نيكولا (نقولا) فرانسوا جيل Nicolas - Francois Gillet ليبرس النحت في سنة 8571 في أكاديمية الفنون الجميلة التي كانت قد افتتحت في سان بطرسبورج قبل قدومه بعام. وكان أحد تلاميذه هو اف. اف. شدرين Shchedrin قد تم ابتعائه إلى باريس لمزيد من إتقانه لفن النحت بالإزميل، وقد حقق نتائج باهرة حتى إن تمثاله فينوس Venus ضارع النموذج الفرنسي (المستحمة أو امرأة تستحم Baigneuse) الذي نحته أستاذه جيريل دلجره Allegrain. وكان شيدرلين Shchedrin هو الذي نحت الكارتيديات (أعمدة على هيئة نساء) الخاصة بالبوابة الرئيسية لأدميرالية زخاروف - والأخير من بين تلاميذ جيل Gillet المشاهير هو إيفان ماركوس Ivan Markos - عمل لفترة مع كانوفا Canova وثوروالدسون Thorwaldson في روما وأضاف إلى مثاليته الكلاسيكية شيئاً من العواطف الرومانسية التي حلت محل عصر الكلاسيكية الجديدة.

وقال النقاد إنه جعل الرخام يبكي وإن عمله لا يصلح إلا للقبور (23). ولازال التماثيل لمقابر ليننجراد تعرض فنه. واجتاز فن الرسم في روسيا تحولاً أساسياً من خلال التأثير الفرنسي في أكاديمية الفنون الجميلة. فحتى سنة 0571 كاد الفن يكون دينياً تماماً إذ كان في غالبه يتكون من أيقونات Icons مرسومة بالألوان المموهة distemper، أو رسوماً جدارية (فريسكو) على الخشب. وسرعان ما أدت الميول الفرنسية لكاترين واستدعائها للفنانين الفرنسيين والإيطاليين إلى أن قلدهم الفنانون الروس، فانقلوا من الرسم على الخشب إلى استخدام الكانفا Canvas ومن الفريسكو إلى الرسم بالزيت ومن الموضوعات الدينية إلى الموضوعات الأخرى المختلفة - تاريخية ووطنية وطبيعية وأخيراً شعبية.

ووصل أربعة فنانين إلى درجة الامتياز في عهد بول وعهد إسكندر. لقد وجد فلاديمير بورفكوفسكي Vladimir Brovikovsky (مودلات) جذابة من بين نساء البلاط الشبابات بعيونهن المرححة أو المتأملة وبصودرهن العالية الفخورة وبملايسهن المزهرة (33)، وربما يكون قد تأثر بمدام فيجي - ليبرون Vigee- Lebrun التي كانت ترسم في

سان بطرسبرج في سنة 0081 - كما رسم كاترين المسننة في لحظة بساطة وبراعة غير متوقعة أبدأ من هذه المرأة الشبقة التواقة للجماع، وترك لنا - في هيئة قاسية رسماً لامرأة مجهولة وعلى رأسها شعرها المستعار (43) ربما كان يقصد بها مدام دي ستيل التي دارت في أنحاء أوروبا هروباً من نابليون.

أما فودور أليكسييف Feodor Alekseev فابثعث إلى البندقية ليكون مهندس ديكور إلا أنه عاد ليصبح أحد أبرز رسّامي المناظر الطبيعية الروس. وفي سنة 0081 رسم سلسلة لوحات لموسكو بقيت لتكون أفضل مرشد لنا لشكل المدينة قبل أن يتم حرق ثلثها وأنف نابليون يثم ربح الحريق.

أما سيلفستر شيدريرين Sylvester Shchedrin ابن النحات الأنف ذكره فقد أحب الطبيعة أكثر من النساء كملهمة لفرشاته. ابثعث إلى إيطاليا في سنة 8181 لدراسة الفن فأحب شمس نابلي وسواحلها وغاباتها، كما أحب كل ذلك في سورنتو Sorrento.

أما أوريست أداموفتش كبرنسكي (Orest Adamovich Kiprensky 6381-2871) فاقترب من ذروة العظمة بين الرسامين الروس في عصره. وكان ابناً غير شرعي أنجبته امرأة من أقنان الأرض فتنبأه زوجها وحرّره فوجد طريقه إلى أكاديمية الفنون الجميلة بعد أن ساعدته الظروف، ومن أفضل رسومه الأولى صورة لأبيه بالنبتي، رسمها في سنة 4081 وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، لقد بدا أمراً لا يُصدّق أن يستطيع شاب في مثل هذه السن الوصول إلى الفهم والتمكّن اللذين يجعلانه يرى (وينقل) في صورة شخصية واحدة قوة البدن وقوة الشخصية اللتين تجليا في سوفورف Suvorov وكوتوزوف Kutuzov، واللتين (قوة البدن وقوة الشخصية) قادا الروس المنتصرين من موسكو إلى باريس (2181-3181) أما الصورة التي رسمها كبرنسكي (7281) للشاعر بوشكين فمختلفة تماماً إذ أظهر فيها الجمال والوسامة والحساسية والتأمل ورأساً عامراً بالروائع. ومرة أخرى نجد له عملاً فريداً، ونعني به تلك الصورة للضابط الفارس إيفجراف دافيدوف Evgraf Davidov، وهي صورة بالحجم الطبيعي في حلة رسمية جميلة ومظهر فخور، وإحدى يديه على سيفه وفي سنة 3181 بعد أن أصبح العالم مختلفاً تماماً رسم صورة للشاب إسكندر بافلوفتش باكونين Bakunin ولا ندري مدى قرابته لميخائيل ألكزاندروفتش باكونين الذي أزجج في وقت لاحق كارل ماركس بأطروحاته المخالفة وأسس الحركة التقدمية في روسيا Nihilist movement وكان كبرنسكي نفسه متمرداً على نحو ما متعاطفاً مع حركة الديسمبريين Decembrist التي قامت في سنة 5281 ولما اتضح للسلطات أنه محرّض اتجه لفلورنسا طلباً للأمان، حيث طلب منه متحف أوفيزي Uffizi صورة له. ومات في إيطاليا في سنة 6381 واعترفت به الأجيال الروسية اللاحقة كأعظم فنان روسي في عصره.

صفحة رقم : 14746

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> روسيا -> الأدب الروسي

7- الأدب الروسي

في ظل كاترين الكبرى أزهز الأدب الروسي وانحط في آن، فقلما شهد التاريخ حاكماً أبدى هذا الحماس للاستسلام لثقافة أجنبية، فقد أحببت التنوير الفرنسي وجندت بحذق كلاً من فولتير وديدرو Diderot وفريدريش ملشيبور فون جريم Grimm كمدافعين فصحاء عن روسيا في كل من فرنسا وألمانيا. لكن عندما قامت الثورة الفرنسية اهتزت كل العروش فتم استبعاد كل أرباب التنوير باعتبارهم أصل المقصلة (الجيلوتين). لقد ظل البلاط الروسي يتحدث فرنسية القرن الثامن عشر لكن الكتاب الروس أظهروا ما في لغتهم الروسية من جمال، وكان بعضهم على وفق رواية مدام

دي سنيل يطلقون على من يجهل لغتهم الروسية (أبكم وبه صمم) (53) ودارت معركة حامية على مستوى الأمة بين المعجبين بالأنماط الأجنبية في الحياة والأدب والتمسكين بالأخلاق الروسية، والعادات الروسية وأساليب الحياة والحديث في روسيا، وكانت هذه الروح مفهومة وضرورية لتأكيد ذات الأمة وطبيعتها وعقلها، وفتحت الطريق لفيض العبقريّة الأدبية الروسية في القرن التاسع عشر. وقد استلهمت هذه الحركة اتجاهها إلى حد كبير من حروب إسكندر و نابليون.

وكان إسكندر نفسه رمزاً لهذا الصراع في طويّة نفسه وفي تاريخه لقد كان حساساً جداً للجمال من الطبيعة والفن، وفي المرأة وفي طويّة نفسه، لقد اعترف للفن بمعجزتين، معجزة الدوام والخلود فهو يخلد الحب العابر ويخلد الشخصية الطارئة، ومعجزة المعنى المتنور فهو يستخرج النموذج الأمثل من الواقع غير المتجانس. لقد جعل تأثير لا هارب La Harpe وفرنسة البلاط الروسي من حفيد كاترين الألمانية رجلاً مهذباً (جنتمان) يضارع أيّ غالي (فرنسي) في مسلكه وتعليمه. وكان من الطبيعي أن يشجّع كارامزين Karamzin وآخرين على إدخال اللطائف والحدة الذهنية في الحديث الروسي وطرق التصرف. تلك اللطائف والحدة الذهنية السائدة في أسلوب الفرنسي إذا تحدث، وفي طريفته في التصرف، وأدت صداقته لنابليون (181-7081) إلى تدعيم هذا الاتجاه الغربي Westward، لكن صراعه مع نابليون (1181-5181) أدى إلى لمس جذوره الروسية فعاد ليتعاطف مع إسكندر شيزكوف Aleksandre Shiskov و السلافوفيليين Slavophiles، وفي كلتا الحالتين كان إسكندر يشجع المؤلفين بالرواتب أو الوظائف الشرفية (حيث يتقاضى شاعها راتباً دون أن يؤدي عملاً حقيقياً) أو الأوسمة أو المنح. وأمر بأن تطبع الحكومة على نفقتها الأعمال المهمة أدبية كانت أم علمية أم تاريخية. وقدم العون المالي لترجمة أعمال آدم سميث وبنثام Bentham وبيكاريا Beccaria ومونتسكيو.

وعندما علم أن كارامزين Karamzin يرغب في كتابة تاريخ روسيا لكنه يخشى أن يفترق نتيجة تفرغه لهذا العمل، قدّم له ألفي روبل كراتب سنوي وأمر وزارة الخزانة بنشر مجلداته على نفقتها (63). وكان نيكولاي (نقولا) ميخائيلوفتش كارامزين (6671-6281) ابناً للنتري من ملاك الأراضي في ولاية سيمبيرسك Simbirsk في حوض الفولجا الأدنى. وتلقّى قسطاً وافراً من التعليم وأتقن الألمانية والفرنسية وقام برحلة أعد لها جيداً في كل من ألمانيا وسويسرا وفرنسا وإنجلترا استغرقت ثمانية عشر شهراً، وعندما عاد إلى روسيا أسس مجلة شهرية (the Moskovsky zhurnal) كان من أجمل ما نشر فيها ما كتبه هو عن رحلته (خطابات رحالة روسي) إذ كان بأسلوبه السهل الرشيق لا يصف الأشياء التي رآها فقط. وإنما يعبر عن مشاعره إزاءها مستوحياً تأثيرات روسو والنزوع الروسي الوجداني. وسار كارامزين خطى أوسع في اتجاهه الرومانسي هذا في روايته (ليزا البائسة) (2971Poor lisa): وليزا هذه بنت فلاحه تعرضت للاغتصاب والهجر وانتحرت. ورغم أن الحكاية لا تدعي أكثر من كونها قصة (من نسج الخيال) فإن البقعة التي أغرقت فيها ليزا نفسها أصبحت محجاً للشباب الروس (73). لقد كاد كارامزين يترك بصماته في كل مجالات الأدب. فقد كان لقصائده ذوات الاتجاه الرومانسي الواضح جمهور عريض. وقد صدم السلافوفيليين (الرافضين للتأثيرات الأجنبية في الأدب الروسي وأسلوب الحياة الروسية) بإدخاله المصطلحات الفرنسية والإنجليزية لتحل محل المصطلحات أو العبارات الروسية التي بدت لأذنيه - وهما أذنا رحالة - غير رشيقة أو غير دقيقة أو متنافرة النغمات. وقد اتهمه شيشكوف بأنه خائن لوطنه إلا أن كارامزين ظل متمسكاً بموقفه وانتصر: فقد نقى اللغة الروسية ونشرها وجعلها لغة موسيقية نقلها واضحة نقية ليتلقفها بوشكين وليرمونوتف Lermonotv.

لقد ساد اتجاه كارامزين لسبب آخر أيضاً: لقد كان يطبق ما يدعو إليه في اثني عشر مجلداً تكون أول تاريخ حقيقي لروسيا. وقد أعانته المساعدة المالية التي قدمتها له الحكومة على التفرغ تماماً لهذا العمل. لقد نقل عن الحوليين الأوائل بحكمة وتمييز وأفعم سردهم البارد بالعاطفة وخفف وطأة الحكاية الطويلة برشاقة أسلوبه ووضوحه. وعندما ظهرت المجلدات الثمانية الأولى (6181 - 8181) في ثلاثة آلاف نسخة تلقفتها الأيدي فنفتت في خمسة وعشرين يوماً. ولم يكن تاريخه هذا يضارع الكتابات التاريخية لفولتير وهيوم وجيبون Gibbon، ولكنه كان عملاً ذا طابع وطني صريح، وكان المؤلف يرى أن الحكم الملكي المطلق هو الحكم الأمثل لشعب يناضل ليعيش في مواجهة مناخ لا يرحم وغزاة متبربرين وكان مضطراً لإيجاد قانون وهو ينتشر مبتعداً عن مصادر الخطر. وقد أثبت هذا الكتاب (تاريخ روسيا) أنه منجم نفيس استقى منه الشعراء الروائيون طوال أجيال متعاقبة فمن هنا - على سبيل المثال - وجد بوشكين قصة بوريس جودونوف Boris Godunov. لقد أسهم كتاب (تاريخ روسيا) بتواضع في صد نابليون وإبعاده عن موسكو بالروح الروسية لتقوم بدورها المتألق والفريد في مجال الأدب والموسيقا في القرن التاسع عشر.

وكما كان كارامزين هو هيرودوت عصر إسكندر المزدهر، كذلك كان إيفان أندرييفتش كريلوف (9671Krylov - 4481) هو كايوبوب Aesop في هذا العصر نفسه. وكان إيفان ابناً لجندي بسيط في الجيش ربما أخذ من معسكرات

الجيش بعض الخشونة في الحديث وبعض الشتائم الحادة التي جعلت كوميدياته حادة حتى أدمت الأوضاع القائمة، وعندما أجبرته الحكومة على السكوت انسحب من مجال الأدب إلى مجالات عملية أخرى - عمل مدرسا وسكرتيراً ومقامرا ولاعب ورق محترف..وفي سنة 9081 أصدر كتابا عن الحكايات والنوادر على أسنة الحيوانات والطيور جعلت كل من يقرأها يغرق في الضحك على الجنس البشري إلا القارئ (أي أن القارئ في هذه الحال لا يضحك على نفسه ظنا منه أنه مستثنى من النقد والسخرية الواردين في الحكاية). وكانت بعض هذه الحكايات - كما جرت العادة غالبا في كتب الحكايات - تعكس ما رواه قصاصون سابقون، خاصة لافونتين La Fontaine وتعرض معظم حكاياته - على أسنة الأسود والأفيال والغربان وفلاسفة آخرين - الحكمة الشعبية في أشعار شعبية يتكون البيت الواحد منها من مقطع قصير وآخر طويل، يتفق طوله مع المناسبة. وأعاد كريلوف Krylov اكتشاف أسرار الراويين الكبار لهذه الحكايات - إنها الحكمة الوحيدة المفهومة الواضحة أعني بها حكمة الفلاحين التي تظهر فيها الذات واضحة دون رياء أو غطاء كاذب. لقد عرض كريلوف ردائل الناس وغباءهم وخداعهم وفسادهم، وكان من رأيه أن هجاءه هذا كله وتعريته كتعليم وإرشاد يفوق تأثير شهر في السجن. ولم يكن هناك من يظن أن الحكاية تنطبق عليه - سوى قليل من القراء - لذا فقد أقيمت القراء بشغف على شراء هذا المجلد الصغير (بيع منه أربعون ألف نسخة في عشر سنوات)، وكان هذا الإقبال غريبا في بلاد تعد معرفة القراءة والكتابة فيه مدعاة للفخر. وراح كريلوف Krylov يدمي مجتمعه بشكل دوري بنشر عشرة مجلدات أخرى في الفترة من 9081 إلى 3481. ولأن الحكومة كانت ممتنة لكريلوف لتحفظه بشكل العام فقد عينته في المكتبة العامة، فتولى منصبه راضيا كسولا حتى أتى يوم - وكان في الخامسة والسبعين من عمره - تناول فيه عدد كبيرا من طيور الحجل فمات(83).

صفحة رقم : 14747

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> ملوك أوروبا في مواجهة التحدي -> روسيا -> إسكندر ونابليون

8- إسكندر ونابليون

5081 - 2181

كاد كل منهما (إسكندر ونابليون) يصلان إلى السلطة في الوقت نفسه، وقد وصل كلاهما إليها بعد أحداث عنف. لقد وصل نابليون إلى السلطة في 9 نوفمبر 9971 أما إسكندر فنسبها في 42 مارس 1081. وكما اقتربا زمانا فقد تباعدا مكانا: كقوتين متواجهتين في خلية فقد مد كل منهما سلطانه حتى مزقا القارة الأوروبية، الأول (نابليون) في أوسترليتز Austerlitz حربا، ثم في تيلسيت Tilsit سلاما. وكان كلاهما يتصارعان على تركيا لأن كليهما كان يفكر في السيطرة على القارة الأوروبية، ومفتاحها إسطنبول (القسطنطينية)، وكلاهما أخذ دوره في مغازلة بولندا لأنها معبر إستراتيجي بين شرق (أوروبا) وغربها. وكانت حرب 2181 - 3181 ذات هدف فقد كانت هي التي ستقرر أي قوة منهما ستسيطر على القارة، وربما تغزو الهند. لقد واجه إسكندر ابن الرابعة والعشرين في سنة 1081 هرج القوى العريقة في أساليب الخداع فتذبذبت سياسته الخارجية لكنه كان يمد مجال حكمه بشكل متكرر. وتغيرت مواقفه من

تركيا بين الحرب والسلام وضم جورجيا في سنة 1081 وألاسكا Alaska في سنة 4081 وتحالف مع بروسيا في 2081 ومع النمسا في 4081 ومع إنجلترا في 5081. وفي سنة 4081 رفع له وزير خارجيته خطة لتقسيم الإمبراطورية العثمانية (93) وامتدح جهود نابليون في فترة القنصلية وأدانه لإعدامه دوق دنجبن d Enghien دون محاكمة متأنية، وانضم للنمسا وبروسيا في حرب مدمرة ضد المغتصب (نابليون) (5081 - 6081) ثم قابله وقبله في تيلسيت (7081 Tilsit) واتفق معه على أن نصف أوروبا يكفي الواحد منهم، حتى إشعار آخر.

وغادر كل منهما تيلسيت وهو مقتنع أنه حقق نصرا دبلوماسيا كبيرا، وحث نابليون القيصر إسكندر على التخلي عن إنجلترا والتحالف مع فرنسا وتقوية الحصار القاري بمنع دخول البضائع البريطانية. وقد أنقذ إسكندر مملكته من غزو مدمر بالتخلي عن حليف والتحالف مع حليف أقوى، وأمن لنفسه حرية التصرف مع السويد وتركيا، فقد كان جيشه الرئيس مبعثرا في فريدلاند Friedland. لقد امتدح الجيش الفرنسي والعاصمة الفرنسية انتصارات نابليون العسكرية والدبلوماسية، أما إسكندر فعندما عاد إلى سان بطرسبرج وجد كل من فيها تقريبا - الأسرة المالكة والبلاط والنبلاء ورجال الدين والتجار والعامه - مصدومين لأنه - أي إسكندر - وقع اتفاق سلام مهين مع مدع لص ملحد ونشر بعض الكتاب - مثل ف. ن. جليнка Glinka وكونت فودور روستوبشين Rostopchin (حاكم موسكو في وقت لاحق) مقالات يوضحون فيها أن سلام تيلسيت مجرد هدنة ووعدا بأن الحرب ستنتشب من جديد ضد نابليون في الوقت المناسب وستنتهي - أي هذه الحرب - بتدميره نهائيا (04).

وانضمت طبقة رجال الأعمال إلى المهاجمين لمعاهدة السلام ما دامت تعني قيام روسيا بإحكام الحصار القاري إذ كان التبادل التجاري تصديراً واستيراداً مع بريطانيا مسألة حيوية لتحقيق الرخاء، وكان منع هذه التجارة يعني تدمير التجار ورجال الأعمال وإرباك اقتصاد البلاد خاصة وأن حكومة روسيا كانت قد اقتربت من الإفلاس في سنة 0181. واهتزت ثقة إسكندر فأحكم قبضته وأعاد فرض الرقابة على الأحاديث والصحافة وألغى خطته الإصلاحية واستقال وزراؤه الليبراليون - كوشبي Kochubey وتشارتوريسكي Czartoryski ونوفوسيلستوف Novosilstov - وغادر اثنان منهم روسيا. وكان إسكندر قد اتخذ في سنة 9081 مستشاراً أثيراً لديه وهو إصلاحى مندفع افترض أن القيصر مقبل على تكوين حكومة دستورية (ونعني به الكونت ميخائيل ميخائيلوفتش سبيرانسكي Speransky) وذلك في محاولة أخيرة من إسكندر لتحرير نفسه من التيار المحافظ المحيط به.

كان الكونت ميخائيل سبيرانسكي Speransky ابناً لقس في إحدى القرى. ولد في سنة 2771، وطور شغفه بالعلوم ووصل إلى درجة أستاذ الرياضيات والفيزياء في معهد سان بطرسبورج وافتتج جهوده تشار يفتش إسكندر فتم تعيينه في وزارة الداخلية التي كان على رأسها في ذلك الوقت كوشبي Kochubey. فأظهر قدرة على العمل بجد شديد وتقديم التقارير الواضحة حتى إن القيصر عينه للإشراف على تقنين القوانين الروسية (تنظيمها وتقسيمها إلى مواد)، وعندما انطلق إسكندر للقائه الثاني مع نابليون اصططح معه سبيرانسكي كصاحب أوضح رأس في روسيا (14) (المقصود أن تفكيره واضح). وثمة رواية غير مؤكدة مؤداها أن إسكندر عندما سأله عن رأيه في أحوال الدول الواقعة تحت سيطرة نابليون أجاب: إن لدينا رجالاً أفضل، ولديهم مؤسسات أفضل (24) وعندما عاد إلى سان بطرسبرج راح القيصر يوكل إليه المزيد من الصلاحيات حتى وجدا نفسيهما يفكران في إعادة بناء الحكومة الروسية برمتها. لقد أراد سبيرانسكي إلغاء القنانة (عبودية الأرض) ولكنه اعترف أن هذا محال في سنة 9081، وعلى أية حال فقد اقترح إصدار مرسوم للتمهيد لذلك بالسماح لكل الطبقات بشراء الأراضي، وربما يكون في هذا متأثراً بإجراء مشابه اتخذه شتاين Stein في بروسيا. واقترح أن تكون الخطوة التالية هي أن يقوم كل الملاك في كل مدينة وزمامها (فولوست Volost) بانتخاب مجلس محلي Local дума يتحكم في الميزانية ويعين الموظفين المحليين ويختار ممثليه، ويقدم التوصيات لمجلس المركز district дума الذي يعين الموظفين على مستوى المركز ويقترح سياساتها، ويرسل مندوبيه وتوصياته إلى مجلس الولاية (أو المقاطعة) Provincial дума التي ترسل بدورها مندوبيها وتوصياتها إلى المجلس الوطني National дума في سان بطرسبرج. وليس لأحد سلطة إقرار القوانين سوى القيصر، لكن المجلس الوطني له حق اقتراح القوانين. ويوجد بين المجلس (الدوما) والحاكم مجلس استشاري يعينه الحاكم نفسه ليعينه في الأمور الإدارية والتشريعية.

ووافق إسكندر على الخطة بشكل عام لكن القوى الأخرى في الدولة عوقته. لقد شعر النبلاء أنه قلل من شأنهم، واتهموا سبيرانسكي بأنه من العوام (ليس نبيلاً) وأنه منحاز لليهود (34)، ومعجب بنابليون وأنه أثر في فكر إسكندر ليكون - وهو الوزير الطموح - السلطة الكامنة وراء العرش (المقصود ليكون هو الحاكم الفعلي) وانضمت البيروقراطية إلى صفوف المهاجمين لأن سبيرانسكي حث إسكندر على إصدار مرسوم (6 أغسطس 9081) يجعل الحصول على درجة جامعية أو اجتياز اختبار نزيه شرطاً للتعيين في الوظائف الإدارية العليا. وتأثر إسكندر بهذه الاعتراضات فأعلن أن الوضع الدولي لا يسمح بتجارب جوهرية في أمور الحكم.

لقد ساءت العلاقات بين إسكندر وفرنسا بسبب زواج نابليون من أرشدوقة النمساوية وبسبب استيلائه على دوقية أولدنبورج (Oldenburg 22 يناير 1181) التي كان دوقها هو حما أخت القيصر (إسكندر)، وتعلل نابليون بأن الدوق رفض إغلاق موانئه في وجه البضائع الإنجليزية (44). ولم يكن إسكندر يحب قيام نابليون بإنشاء دوقية وارسو (فرسافا) الكبيرة القريبة جدا من المناطق البولندية التي استولت عليها روسيا مخافة أن يقوم نابليون في أي وقت بإحياء مملكة بولندا المعادية لروسيا. ووجد إسكندر أنه ليوحد بلاده صفاً واحداً وراءه، فعليه أن يقدم تنازلات للنبلاء والتجار.

لقد كان يعلم أن البضائع البريطانية (أو البضائع الواردة من المستعمرات البريطانية) تدخل روسيا بأوراق يزورها التجار والموظفون الروس لتفقد أنها بضائع أمريكية وبالتالي فدخلها مباح. فسمح بدخول البضائع البريطانية وكان جانب من هذه البضائع يتخذ طريقه من روسيا إلى بروسيا وغيرها (54). وقد أرسل نابليون احتجاجاً غاضباً إلى القيصر عن طريق الوزير minister الروسي في باريس إلا أن القيصر أصدر مرسوماً في 13 ديسمبر 0181 يجيز فيه دخول بضائع المستعمرات البريطانية وخفض التعريفات الجمركية عليها، ورفع التعريفات الجمركية على البضائع الفرنسية. وفي فبراير سنة 1181 أرسل له نابليون خطاباً حزينا: إن جلالتم لم تعودوا تكونون أي صداقة لي، فلم نعد في نظر إنجلترا وأوروبا حلفاء (64) ولم يجب إسكندر وإنما حشد 000،042 من جنوده في نقاط مختلفة على حدوده الغربية (74). وعلى وفق ما ذكره كولينكور Caulaincourt فإن إسكندر كان قد قرر خوض حرب منذ بواكير شهر مايو 1181: من الممكن بل ربما من المحتمل أن يهزمنا نابليون لكن هذا لن يتيح له السلام... إن بلادنا شاسعة يمكن أن نتراجع فيها... سوف نتركه لمناخنا، ولشتائنا ليخوضا الحرب ضده... إنني سأنسحب إلى كامشاتكا Kamshatka لكنني لن أتخلي أبداً عن أي من ممتلكاتي (84).

لقد اتفق - الآن - إسكندر مع الدبلوماسيين الإنجليز في سان بطرسبرج ومع شتاين Stein واللاجئين الروس في بلاطه الذين كانوا يقولون له منذ وقت طويل أن هدف نابليون هو ضم كل أوروبا إلى حكمه. وليوحد الأمة ألغى كل الإصلاحات وكل اقتراح بالإصلاح، إذ كانت هذه الإصلاحات ستثير عليه أكثر الأسر الروسية نفوذاً، بل لقد شعر أنه حتى العوام لم يكونوا مهينين لها. وفي 92 مارس 2181 طرد سبيرانسكي ليس من منصبه فقط وإنما من البلاط ومن سان بطرسبرج، وراح يصغي على نحو أكثر فأكثر للكونت المحافظ أليكسي إراكشيف Aleksei Aradcheev. وفي أبريل وقع معاهدة مع السويد مؤيدا دعاويها في النرويج، وأرسل أوامر سرية لممثليه في جنوب روسيا لعقد معاهدة سلام مع تركيا حتى ولو أدى هذا إلى التخلي عن كل الدعاوي الروسية في مولدافيا وفاليشيا (الأفلاق والبعغان) ليكون الجيش الروسي كله متاحاً لمواجهة نابليون. ووقعت تركيا معاهدة سلام مع روسيا في 82 مايو.

وكان إسكندر يعلم أنه يخاطر بكل شيء لكنه كان قد ارتقى أكثر فأكثر في أحضان الدين كسند يستند إليه في هذه الأيام العصبية التي يتحتم عليه أن يتخذ فيها قراراً. لقد راح يصلي ويقرأ الكتاب المقدس المسيحي كل يوم. لقد أصبح يرى نابليون الآن أصل الشرور وتجسيدا لها أصبح يراه فوضوياً مجنوناً لا يشبع من التوسع، ويزداد قوة يوماً بعد يوم، وأصبح إسكندر يرى نفسه بمؤازرة شعبه المؤمن، وبمساحة بلاده الشاسعة، هو الوحيد القادر على إيقاف هذا الشيطان المدمر لينقذ استقلال بلاده ويعيد النظام القديم في أوروبا، وينزع الأمم من فولتير ليعيدها للمسيح. وفي 12 أبريل 81 21 غادر سان بطرسبرج بصحبة قادة حكومته مصحوباً بدعوات شعبه، واتجه جنوباً إلى فيلنا Vilna عاصمة ليتوانيا الروسية فوصلها في 62 أبريل وانتظر هناك - على رأس أحد جيوشه - قدوم نابليون.

كان السبب المباشر للحرب الفرنسية الروسية سنة 2181 هو رفض روسيا الاستمرار في الحصار القاري الذي نصّ عليه مرسوم برلين الذي أصدره نابليون في 12 نوفمبر 6081. وكان هذا المرسوم ينطوي على خطة نابليون بإغلاق كل موانئ وسواحل القارة الأوروبية في وجه البضائع البريطانية، وكانت هذه الخطة تهدف إلى إجبار بريطانيا العظمى على إنهاء حصارها - الذي كانت قد أعلنته في 61 مايو 6081 - على كل الموانئ الخاضعة لفرنسا من بريست Brest إلى إلبا the Elbe، ولإنهاء التدخل البريطاني في حركة التجارة الفرنسية البحرية ولاستعادة المستعمرات الفرنسية التي استولت عليها بريطانيا العظمى، ولإنهاء التمويل البريطاني لدول القارة الأوروبية التي تشن حرباً على فرنسا.

كيف كانت آلية الحصار القاري؟ بحلول عام 0181 أدى هذا الحصار النابليوني المضاد إلى تعرض إنجلترا لهبوط اقتصادي قاس. وفي العامين الأولين (6081 - 8081) بعد إصدار نابليون مرسوم برلين الأنف ذكره انخفضت الصادرات البريطانية من 000،008،04 جنيه إسترليني إلى 000،002،53 جنيه إسترليني، وانخفضت وارداتها من القطن بنسبة 59%. وكإحدى نتائج الحصار ارتفع سعر القمح (الحبوب بشكل عام) من 66 شلناً إلى 49 شلناً لكل ربع (كوارت): وحدة وزن تساوي 82 باونداً) (ربع الهندريديت الذي يساوي 211 باوند)، وفي غضون ما لا يزيد إلا قليلاً عن عام (7081 - 8081). وفي هذه الأثناء أدى تدهور التجارة الخارجية إلى هبوط الأجور وانتشار البطالة وقيام الإضرابات المدمرة. لقد كانت بريطانيا تحتاج إلى الحديد السويدي لمصانعها وللأخشاب الروسية لسفنها، لكن الحرب مع السويد وتحالف روسيا مع فرنسا (7081) أديا إلى منعه هذين الموردين عنها. وناضلت بريطانيا لمواجهة هذا التقهقر بحماية من تبقى لها من منتقسات لتجارتها، فارتفعت صادراتها إلى البرتغال وأسبانيا وتركيا (الدولة العثمانية) 004% بين عام 5081 و 1181 إلى أن أتى الغزو الفرنسي المكلف لشبه الجزيرة الأيبيرية.

وكانت الأمور تزداد سوءاً في بريطانيا كلما استمر الحصار؛ لقد انخفضت صادراتها إلى شمال أوروبا بما نسبته 2% في عامي 0181 - 1181. وأدى تراجع ميزانها التجاري إلى ارتفاع المبالغ المدفوعة بالذهب في أوروبا، كما أدى إلى انهيار قيمة الجنيه في العالم إلى درجة دفعت المعارضة ممثلة في زعيمها جرينفيل وجراي Grenville & Grey إلى المطالبة بالسلام بأي ثمن (1). وفي سنة 1181 - أي قبل عام من حرب نابليون مع روسيا - وصل تأثير حصاره القاري ذروته في بريطانيا العظمى.

وكان الحصار البريطاني لفرنسا مفيداً بشكل جوهري لها (أي لفرنسا) فرغم أن موانئ فرنسا - لي هافر Le Havre و نانت Nantes وبوردو ومارسيليا - كانت قد تعرضت لخراب اقتصادي شديد حتى إن المدينتين الأخيرتين طالبتا بعودة حكم البوربون (2)، إلا أن التجارة الفرنسية الداخلية استفادت من إزاحة المنافسة البريطانية، واستفادت من تدفق الذهب ووفرة رأس المال، والإعانات المالية التي تقدمها حكومة رجل الأعمال التي أثرت خزانته بغنائم الحرب. وكانت أرباح التجار ورجال الأعمال الفرنسيين لا تزال أكثر بسبب هذه العوامل وبسبب تحسن أحوال أسواق القارة وزيادة التيسيرات فيها في ظل سيادة نابليون. وتضاعفت صناعة النسيج أربع مرات في الفترة من 6081 إلى 0181 مما عجل بالثورة الصناعية - بعد ذلك - في فرنسا. وأعطى انعدام البطالة والاستقرار السياسي في نطاق الحدود الممتدة حافظاً للصناعة حتى إنه لو ربح فرنسا الحروب النابليونية لكانت قد أدركت إنجلترا إنتاجاً وتجارة عالمية، وضارعتها.

وكان الحصار القاري (الذي فرضته فرنسا) مفيداً لصناعاتها وتجارتها الداخلية، لكنه كان مُضراً بالتجارة الخارجية بالنسبة إلى دول النظام القاري التابعة لنابليون. فالمدن الهانسيية - أمستردام، وهامبورج، وبريمن ولوبك Lübeck - كان من الطبيعي أن تعاني من الحصار القاري المزدوج (المقصود الحصار القاري الذي فرضه نابليون على البضائع البريطانية، والحصار الذي فرضته بريطانيا على الموانئ والسواحل الفرنسية والتابعة لفرنسا)، لكن سويسرا وشمال إيطاليا ومجتمعات الراين ازدهرت نتيجة امتداد المؤسسات النابليونية بشكل غير معوق. أما كلما اتجهنا إلى الشرق (في أوروبا) حيث الصناعة أقل تطوراً، فإن الحصار القاري - بمنعه بيع منتجات الإقليم لبريطانيا - كان عبئاً أدى إلى زيادة الاستياء. وبطبيعة الحال، كان هذا أكثر ما يكون وضوحاً على نحو خاص في روسيا.

وكانت نقطة الضعف الأساسية في الحصار القاري (الذي فرضه نابليون) هي أنه كان معاكساً للرغبة البشرية الطبيعية في طرق كل الأبواب المؤدية إلى الكسب. لقد كانت موانئ أوروبا ومدنها الساحلية غاصة بأناس كان الواحد منهم راغباً في المخاطرة بحياته لتهريب البضائع البريطانية إلى القارة، فقد أصبحت هذه البضائع جذابة بسبب منعها، وكان أصحاب الصناعات داخل القارة الذين كانوا يجدون لبضائعهم أسواقاً أجنبية غير راضين بإجبارهم على التخلي عن الأسواق البريطانية. وأدى استياء الأسر التجارية الكبيرة في هولندا إلى حشد الملك لويس بونايرت إلى الكتابة للقيصر الروسي إسكندر متجاوزاً الحد في انتقاد نابليون بمرارة لا ترحم (3).

وفي مواجهة المعارضة المتزايدة استخدم نابليون 002.000 دار جمارك وآلافاً من رجال الشرطة السرية أو المعروفين، وما لا يُحصى من الجنود لكشف أي خرق للحصار، والقبض على من يرتكب هذه المخالفة وعقابه ومصادرة البضائع المهربة. وفي سنة 2181 أصدرت محكمة الجمارك في هامبورج في ظرف ثمانية عشر يوماً، 721 حكماً كان بعضها بالإعدام، إلا أن الحكم بالإعدام كان على أية حال نادراً، بل وحتى أحكام الإعدام التي صدرت لم تكن تُنفَّذ. وكانت البضائع المصادرة تباع للخزانة الفرنسية، وكان بعضها يُحرق علناً مما كان يفرح كل المشاهدين تقريباً ويسبب استياءهم.

ولتخفيف العداء على نحو ما، ولزيادة الدخل ولسد العجز، بدأ نابليون في سنة 9081 في بيع التراخيص، وعادة ما كان الحصول على الترخيص مقابل ألف فرنك - وذلك لاستيراد البضائع البريطانية التي يثبت ضرورتها للصناعة الفرنسية أو ضرورتها لرفع الروح المعنوية للفرنسيين، أو تصدير بضائع إلى بريطانيا مقابل البن والسكر والذهب. ورغم أن نابليون بدأ رسمياً في إصدار هذه التراخيص علناً منذ سنة 9081 إلا أنه فيما يُقال كان يصدرها قبل ذلك بمدة طويلة، وكانت بريطانيا قد سبق لها أن أصدرت تراخيص مشابهة - 643،44 منها بين 7081 و 2181 - لإلغاء الحظر على بضائعها (4). إن نابليون - بالمقارنة - لم يُصدر سوى 494 ترخيصاً بحلول 52 نوفمبر سنة 1181 (5)، ومع هذا فإن إسكندر أشار إلى أنه بينما يطالب نابليون روسيا بحظر دخول البضائع البريطانية حظراً تاماً فإنه - أي نابليون يتغاضى عن دخولها إلى فرنسا.

وباختصار فإن الحصار القاري الذي فرضه نابليون كان رغم تدني جماهيريته بشكل واسع، ورغم الصعوبات والأخطاء التي قامت في سبيله - يبدو ناجحاً في سنة 0181. لقد أصبحت إنجلترا على حافة الإفلاس، بل وعلى حافة الثورة المطالبة بالسلام مع فرنسا، وكانت الدول المتحالفة مع فرنسا متدمرة لكنها كانت خاضعة مطيعة، وكانت فرنسا رغم الاستنزاف المالي والبشري الذي سببته الحرب الأيبيرية، مزدهرة اقتصادياً ربما كما لم تكن في أي وقت آخر

مضى. ولم يكن لدى الفرنسي سوى القليل من الحرية، لكن كان لديه فرنكاته، ونصيبه من عظمة فرنسا المنتصرة، وإمبراطورها الذي لا نظير له.

صفحة رقم : 14749

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى موسكو -> فرنسا في حالة ركود اقتصادي

2- فرنسا في حالة ركود اقتصادي

1181

وفجأة - كما لو أن بعض القوى الشريرة كانت تُنسق لإحداث كوارث - بدا كل الاقتصاد المتعدد الأوجه ينهار متمزقا إربا غارقاً في دوامات الفشل البنكي، والاضطرابات في الأسواق، وإغلاق المصانع والبطالة والإضرابات والتمرد بل وخطر المجاعة - كان كل هذا والإمبراطور الأعجوبة الذي لا يمل يخطط لجمع الأموال والجنود ورفع الروح المعنوية لخوض معركة حياة أو موت مع روسيا البعيدة المجهولة الواسعة.

إن أسباب ركود اقتصادي حديث يصعب تحديدها، فكيف سنحلل أسباب الركود الاقتصادي في فرنسا في سنة 1181؟ إنه لأمر أشد صعوبة، مما يظن أكبرنا سناً (ممن شهدوا الركود الاقتصادي الحديث)، وهناك مؤرخ نابيه (6) أرجع الركود الاقتصادي الفرنسي الأنف ذكره إلى سببين: (1) فشل صناعة الغزل والنسيج في فرنسا في تدبير المواد الخام ورأس المال. (2) وفشل شركات الصرافة في لوبك Lübeck. لقد كانت مصانع الغزل في فرنسا تعتمد على استيراد القطن الخام إلا أن سياسة حماية المنتجات المحلية التي اتخذتها الحكومة الفرنسية قضت بوضع تعريف جمركية عالية على مثل هذه الواردات فقلَّ الوارد وارتفعت أثمان القطن، ولم يستطع أصحاب مصانع الغزل دفع المبالغ اللازمة لتشغيل كل أنوالهم، ولم يستطيعوا دفع نسبة الربح العالية التي تقرضها البنوك الفرنسية على القروض. وشعر أصحاب هذه المصانع بضرورة الاستغناء عن المزيد والمزيد من العاملين لديهم. وسرعان ما أعقب فشل بنك لوبك إفلاسات مماثلة في هامبورج وأمستردام أثرت في الشركات والمؤسسات الباريسية. لقد زاد عدد البنوك المفلسة في فرنسا من 71 بنكا في أكتوبر سنة 0181 إلى 14 في نوفمبر من السنة نفسها، إلى 16 في يناير 1181، وأدت ندرة القروض البنكية وارتفاع فوائدها إلى اضطراب الشركات شركة إثر أخرى إلى تقليص عدد العاملين فيها، بل وإيقاف أعمالها، وسرعان ما ازدحمت شوارع المدن الفرنسية بالعاطلين الذين راحوا يعرضون ممتلكاتهم للبيع أو راحوا يتسولون الخبز، بل وانتحر بعضهم (7). وتكوّنت عصابات من العاطلين في المناطق الشمالية أغارت على المزارع واستولت على الغلال، وفي المدن هاجم العاطلون الأسواق والمخازن واعترضوا حمولات الطعام في الطرق والأنهار ونهبوها. لقد بدت الفوضى التي سادت عام 3971 تعود من جديد.

وأصدر نابليون قرارات بعقوبات قاسية ضد جرائم الإخلال بالنظام العام، وأرسل الجنود لقمع المضربين، ونظم أمر توزيع الطعام مجانياً. وأصدر قراراً في 82 أغسطس بإرسال 000،005 هنديديت من القمح و 000،03 جوال من الدقيق للمراكز ذوات الوضع الحرج. وفي هذه الأثناء خرق هو نفسه الحصار القاري بالسماح باستيراد الغلال من

الخارج، ورفع التعريف الجمركية عن المنتجات الأجنبية التي تتنافس الصناعات الفرنسية، ونظّم أمر القروض الحكومية لتمكين الشركات من مواصلة التعيين (التوظيف) والإنتاج، وفي مايو سنة 2181 وضع حداً أعلى لسعر القمح تأسياً بسوابق ثورية، لكن هذه المحاولة فشلت لأن الفلاحين منعوا منتجاتهم منه عن السوق حتى ترتفع الأسعار فيحصلوا على السعر الذي يطلبونه. وساعدت الأعمال الخيرية الخاصة الحكومة على تجنب هيجان على مستوى الأمة، فالكونت رمفورت Rumfort العالم الأمريكي البريطاني الذي كان يعيش آنذاك في فرنسا رتب نوعاً من الحساء هو (حساء رمفورت) مكوناً أساساً من اللوبيا أو الفاصوليا، والبسلة أو الفول، وهو حساء لا تقتصر فائدته على احتوائه على البروتينات النباتية وإنما تُقلل من الحاجة إلى الخبز. وكانت الأزمة الاقتصادية التي أطلت في أثناء استعدادات نابليون لغزو روسيا اختباراً لقوة أعصابه وربما أسهمت في إضعاف ثقته في نفسه وإضعاف قراراته، ومع هذا فلم يتخل عنه حظه الطيب، فقد كانت البشائر تشير إلى محصول وفير في سنة 2181 وثبت هذا بالفعل، فأصبح الخبز أرخص سعراً، وأصبح يمكن العاطلين - على الأقل - من أن يجدوا ما يسد رمقهم. وفتحت البنوك أبوابها مرة أخرى أو حلت محلها بنوك أخرى وتدفتت القروض وواصلت العاصمة دورها في المصانع وكان لا بد من هذا وأصبح من الممكن دفع الأجور بالعمل في إنتاج بضائع قد يستغرق وصولها إلى المشتري نصف عام. وأصبحت الأسواق عامرة مرة أخرى. والآن كان في مقدور نابليون أن يكرس نفسه لحرب لإحكام الحصار القاري الذي كان قد بدأ فعلاً في الإخفاق بسبب تصرفات الأمم وطبيعة البشر.

صفحة رقم : 14750

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى موسكو -> مقدمات الحرب

3- مقدمات الحرب

1181 - 2181

استعدَّ الإمبراطوران المتخاصمان للمعركة بتحركات دبلوماسية، وتجمعات عسكرية، وتهيئة جماهيرية، وحاول كل منهما إقناع الآخر بأنه مخلص للسلام. اختار نابليون كسفير له في روسيا أرمان دي كولينكور Armand de Caulaincourt وهو رجل تفوق قيمته مجرد أصله النبيل. وعندما وصل هذا السفير إلى سان بطرسبرج (نوفمبر 7081) تأثر بما لحق بإسكندر من تطور من حاكم شاب حيي - ذلك الحاكم الذي كان قد رآه في سنة 1081 إلى قيصر كان قد أصبح مثلاً للمظهر الطيب والعادات الرشيقة والأسلوب الودود في الحديث. واعترف إسكندر أنه مُحب لنابليون وأنه لا يزال متمسكاً بالاتفاقات التي عُقدت في تيلسيت - وأبدى بعض التوافقات الخفيفة اعتبرها الإمبراطور الفرنسي الأريب معقولة.

لكن بولندا فرقت بينهما. لقد كان نابليون قد أسس دوقية وارسو (فرسافا) الكبيرة (7081) تحت الحماية الفرنسية لكن إسكندر واجه هذا بأن راح يتوَدَّد للنبلاء البولنديين بعرضه عليهم إعادة بولندا مملكة موحدة كما كانت قبل التقسيم تحكم نفسها حكماً ذاتياً مع الاعتراف بقيصر روسيا كملك لها مهيمن على علاقاتها الخارجية. ووقعت خطابات تحوي

هذا العرض في يد نابليون فاستشاط غضباً(8)، واستدعى كولينكور (فبراير 1181) وعين بدلاً منه جاك لو Jaques Law (ماركيز لوريستور Lauriston مستقبلاً) سفيراً لفرنسا في روسيا. وفي هذا الشهر حدث إسكندر النمسا على الانضمام إليه في شن هجوم على قوات نابليون في بلوندا مغرباً إيّاها بمكسب عرضي - نصف مولدافيا وكل فاليشيا(9)، ورفضت النمسا. وقد ألقى نابليون - بعد ذلك - وهو في سانت هيلانا بعض الضوء على سياسته في بلوندا لم أكن أبداً لأشن الحرب على روسيا لأخدم - ببساطة - مصالح طبقة النبلاء البولنديين، أما بالنسبة إلى مسألة تحرير أفنان الأرض فإنني لا أستطيع أبداً أن أنسى أنني عندما تحدثت إلى أفنان الأرض في بلوندا عن الحرية، أجابوني: بالتأكيد نحن نحب الحرية كثيراً جداً، لكن من سيطعنا ويكسوننا ويدبر لنا سكتناً؟(10) وهذا يعني أنهم كانوا سيتعثرون في حالة حدوث أي تغيير مفاجئ.

ووصل كولينكور إلى باريس في 5 يونيو 1181 محملاً بالهدايا من القيصر، وحاول بكل جهده إقناع نابليون بنوايا إسكندر السلمية وحثه من أن غزو فرنسا لروسيا قد ينتهي إلى هزيمة بسبب مناخها ومساحتها الشاسعة، وانتهى نابليون إلى أن كولينكور قد وقع في حب القيصر، فانتهاك بذلك واجبات منصبه الدبلوماسي(11)، وعباً نابليون جيشه في بروسيا أو بالقرب منها بعد أن استبعد الأمل في حل سلمي وبعد أن ساوره الشك أن روسيا تحاول كسب بروسيا والنمسا إلى جانبها(21)، فأرهب - أي نابليون - فريدريك وليام الثالث لتوقيع تحالف مع فرنسا (5 مارس 2181) ألزم بروسيا بتقديم عشرين ألف جندي ينضمون إلى الجيش الفرنسي لغزو روسيا، كما ألزمها بإطعام الجيش الفرنسي عند مروره بالأراضي البروسية على أن تُخصم تكاليف الطعام من تعويض الحرب الذي كانت بروسيا لا تزال ملتزمة بدفعه لفرنسا(31). وفي 41 مارس دخلت النمسا في تحالف قسري مماثل مع فرنسا. وفي أبريل اقترح نابليون على السلطان (العثماني) تحالفاً يُتيح لتركيا تطوير صراعها مع روسيا في حرب مقدسة (جهاد) وأن نتعاون مع فرنسا في مسيرة متزامنة إلى موسكو، ويستعيد الباب العالي - في حالة نجاح الحملة - ولاياته الدانوبية مع ضمان سيطرته على القرم والبحر الأسود. لكن الباب العالي وقد تذكر أن نابليون قد حارب الترك (العثمانيين) في مصر والشام، وأنه عرض في تيلسيت على إسكندر أن يتصرف كما يحلو له ضد تركيا (الدولة العثمانية) - رفض عروض نابليون، ووقع - أي السلطان العثماني - اتفاق سلام مع روسيا (82 مايو 2181)، وفي 5 أبريل وقع إسكندر اتفاقية تعاون مشترك مع السويد، وفي 81 أبريل عرض على بريطانيا العظمى التحالف. وفي 92 مايو أعلن أن كل الموائم الروسية مفتوحة لسفن كل الأمم. والحقيقة أن هذا الإعلان كان يعني الانسحاب من الحصار القاري (الذي فرضه نابليون) وإعلان الحرب على فرنسا.

ومع هذه المبارزة الدبلوماسية كانت تجري واحدة من أكثر الاستعدادات العسكرية في التاريخ ضخامة. وفي هذا المجال كانت مهمة إسكندر أبسط وأضيق من مهمة نابليون. لقد كان أمام إسكندر دولة واحدة كان عليه تعبئة قواتها ومشاعرها. أما تعبئة المشاعر فكانت تتم بدون مجهود منه: فروسيا الأم هبت بشكل تلقائي ضد جحافل البرابرة الذين نظموا أنفسهم وعلى رأسهم كافر وتوجهوا لغزو روسيا. وتحولت العاطفة الوطنية التي أدت فيما سبق إلى إدانة سلام تيلسيت إلى دعم ذي طابع ديني للقيصر، فحيثما ذهب تحلق حوله البسطاء رجالاً ونساء يُقتلون حصانه أو حذاه. أما وقد وجد نفسه بهذه القوة فقد زاد من عدد جيوشه وأمرها بالاستعداد للحرب، ومركز 000،002 جندي على طول الدفيينا Dvina والدنيبر Dnieper وهما أطول نهريْن يفصلان روسيا الروسية عن ليتوانيا والولايات البولندية التي حصلت عليها روسيا في أثناء تقسيم بلوندا(41).

أما تعبئة نابليون فكانت أكثر تعقيداً. لقد واجه الصعوبة المبدئية المتمثلة في أن 000،003 جندي فرنسي واثني عشر جنراً فرنسياً كانوا متورطين في إسبانيا والحاجة إليهم أكثر لمنع ويلنجتون من اجتياح شبه جزيرة أيبيريا واجتياز جبال البرانس إلى فرنسا. لقد كان نابليون يأمل العودة إلى إسبانيا ليكرر نصراً آخر كالذي كان قد أحرزه في سنة 9081، والآن كان على نابليون أن يختار بين فقد إسبانيا والبرتغال والحصار القاري من ناحية، وفقد التحالف الروسي والحصار إنني أعلم أكثر من أي شخص آخر أن إسبانيا كانت سرطاناً مزعجاً كان لا بد من علاجه قبل أن نستطيع الدخول في مثل هذه الحرب المرعبة التي لا بد أن تكون معركتها الأولى على بعد ألف وخمسمائة ميل من حدودي(51).

وكان نابليون قد بدأ استعداداته العسكرية في سنة 0181 بتقوية الحاميات الفرنسية في دانتسج (دانزج) وأوغر - بالإضافة لذلك - بحذر شديد، إلى تنظيم أمور العسكر الفرنسيين في بروسيا. وفي يناير 1181 استدعى للخدمة العسكرية الذين أتى عليهم الدور في هذا العام ووزعهم على طول الساحل الألماني من نهر إلبا Elbe إلى نهر أودر Oder تحسباً لهجوم بحري روسي. وفي الربيع أمر أمراء كوفندرالية الراين أن يجهزوا حصتهم من الجنود المفروض تقديمها لجيوش نابليون، للقيام بعمل عسكري فعلي. وفي أغسطس بدأ في دراسة الأراضي الروسية دراسة جادة متأنية، ووقع اختياره على شهر يونيو كأفضل شهر لغزوها(61). وفي ديسمبر نشر شبكة جواسيس للعمل في روسيا وما حولها(71).

وبحلول شهر فبراير سنة 2181 كان الطرفان قد أتتا التعبئة العامة اللازمة للحرب. كانت عملية التجنيد في فرنسا تُوحى بهبوط حاد في شعبية الجيش: من بين 000,003 تم استدعاؤهم للخدمة اختفى 000,08، وتم البحث عن آلاف منهم باعتبارهم مجرمين (81) (هاربين من الخدمة العسكرية). وكثيرون من المجندين الجدد تركوا الخدمة العسكرية أو كانوا كارهين للجندية وأثبتوا - بشكل خطير - أنه لا يمكن الاعتماد عليهم في الأزمات. أما في المعارك السابقة فقد كان المجندون الجدد يجدون أمامهم القدوة والمثال الطيب الذي يدعو للفخر في التشجيع الأبوي من المحاربين المخضرمين القدماء في الحرس الإمبراطوري، أما الآن فقد كان معظم رفاق المعارك هؤلاء قد ماتوا أو كانوا في إسبانيا أو بلغ بهم العمر عتياً. فلم يعودوا قادرين على القيام بأدوار بطولية فعلية وكل ما كانوا يستطيعونه هو اجترار ذكريات بطولاتهم الماضية. بل إنه لم يكن للمجندين الجدد إلهام من أمة موحدة ومتحمسة تقف وراءهم. وقد ناشدهم نابليون كما ناشد رعاياه أن ينظروا إلى هذا المشروع كحرب مقدسة تشنها الحضارة الغربية ضد موجة غرور البربرية السلافية (91) لكن الفرنسيين المتشككين كانوا قد سمعوا مثل هذه الحكايات من قبل، وعلى أية حال فقد كانت روسيا بعيدة بعداً يكفي لعدم إرهابهم. وحاول نابليون إلهاب مشاعر جنرالاته إلا أنهم لم يكادوا يُصيخون إليه سماعاً لأنهم كانوا ضد الحرب الجديدة لأنها - في رأيهم - دعوة إلى مأساة. وكان كثيرون منهم قد غدوا أثرياء بفضل هباته وكانوا راغبين أن يتركهم لينعموا بها في سلام.

وكان بعض مساعديه من الشجاعة بمكان بحيث صارحوه بشكوكهم. بل إن كولينكور رغم ولاءه له وبرغم أنه خدمه حتى سنة 4181 كقائم على إصطبله الإمبراطوري ومشرف على خيوله - حذره من أن الحرب مع روسيا مدمرة، بل وجرؤ على أن يقول له إنه قد سبب كل هذه المتاعب لإرضاء ولعه الشديد بالحرب (02). أما فوشيه Fouché الذي كان قد أبعد عن الحضرة الإمبراطورية بسبب تأمره الشديد، كما هو مفترض فقد استدعاه نابليون مرة أخرى ليضعه تحت نظريته أو ليتمكن من توجيهه. فوشيه Fouché هذا قال لنابليون إنه من الصعب هزيمة روسيا بسبب المناخ وإنه - أي نابليون - يفعل كل هذا بسبب حلمه المضلل بأن يحكم العالم كله - هذا إن جاز لنا أن نصدق فوشيه هذا (12). وقد شرح نابليون أنه لا يحلم إلا بليجاد ولايات متحدة أوربية وأن يقدم للقارة تشريعات قانونية واحدة وعملة واحدة، ونظام مقاييس وموازين واحد ومحكمة استئناف واحدة - كل هذا تحت قبعة واحدة ذات زوايا ثلاث. وهذا الجيش الهائل الذي لم يسبق له مثيل الذي بذل جهوداً كبيرة لجمعه وإعداده - كيف يُعيده إلى دياره الآن ليسير خلال ما بقي له من حياة وذيله بين سيقانه؟!

لقد كان فعلاً جيشاً هائلاً: 000,086 مقاتل من بينهم 000,001 فارس وما لا يُحصى من المسؤولين السياسيين والخدم والنسوة المرافقات. وكان أقل من نصف هذا العدد من الفرنسيين، أما الباقون فكانوا كتائب عسكرية مطلوبة من كل من إيطاليا، وإيليريا Illyria والنمسا وألمانيا وبولاندا. وكان هناك خمسون جنراً: ليفيفر Lefebvre، دافو Davout، أودينو Oudinot، ني Ney، مورا Murat، فيكتور، أوجيرو Augereau، يوحين دي بوهارنيه، الأمير جوزيف أنتوني بونيافوسكي ابن أخي آخر ملوك بولندا الفرسان، وغيرهم. لقد تجمعت كل هذه القوى في جيوش منفصلة في نقاط مختلفة في الطريق إلى روسيا وتم تزويد كل جنرال بتعليمات محددة عن متى وأين يقود جيشه؟! لقد كانت مهمة إعداد وتمويل هذا العدد الكبير تحتاج إلى عبقرية وصبر ومال، ربما أكثر من مهمة جمعها (حشدها). حقيقة لقد كانت المرحلة الأولى من هذا المشروع وكذلك الأخيرة قد تأثرت بشكل حيوي بظروف نقل الجنود وتمويلهم، ولم يكن من الممكن بدء المعركة إلا بعد أن تكون التربة قد سمحت بنمو الحشائش بقدر كاف لإطعام الخيول. وكان دمار الحملة يكاد يكون تاماً باستيلاء الروس على المون التي كان الفرنسيون الجوعى العائدون يتوقعون وجودها في سمولنسك Smolensk. لقد حاول نابليون أن يحسب حساب كل شيء سوى الكارثة. لقد كان قد رتب أموره ليكون لديه مخازن للمواد وقطع الغيار الميكانيكية والطعام والملابس والأدوية في كل من وزل Wesel وكولوني Cologne وبون Bonn وكوبلنز (كوبلننس Coblenz) ومينز (ميننس Mainz) وغيرها من النقاط في طرق جيوشه المتجمعة، وكان لابد من إمدادات شبيهة ممثلة في منات من عربات النقل تتبّع الغزاة إلى روسيا. وكان نابليون يعرف أين يشتري وماذا يدفع. لقد كان يعرف خداع الموردين، وكان مستعداً لإحراق أي تاجر يُحمل جيشه أكثر مما يطيق أو يبيعه بضائع رديئة أو معشوشة.

كيف دفع تكاليف كل هذه المون ونقلها وخزنها وكيف دفع لجنده ومستخدميه؟ لقد فرض الضرائب وفرض على المقرضين إقراضه وأخذ القروض من بنك فرنسا ومن البنوك الخاصة، وأخذ الملايين من المبالغ الخاصة به وبالغة 083 مليون فرنك ذهباً والتي أودعها في أقبية التوليري، وراح يقاوم الإسراف أينما كان ووبّخ مطلقته الحبيبة جوزفين لأنها تتفق كإمبراطورة وامتدح الإمبراطورة ماري لويز لاقتصادها في النفقات (22). وباختصار فإنه قال في وقت لاحق: إن معركة روسيا... كانت هي الأفضل، والأكثر إتقاناً، والأكثر براعة في قيادتها، بل والأكثر منهجية (نظاماً) من بين كل المعارك التي قُدتها (32).

أكان كفؤاً لقيادتها؟ ربما كان أكثر معاصريه كفاءة لكنه كان أقل ملاءمة مما تحتاجه مثل هذه المعركة. لقد كان في الثالثة والأربعين، وكان في هذه السن قد ألف بالفعل حياة المعسكرات وواجبات المعارك، ويمكننا أن نفترض أنه ربما كان يعاني من آلام عوقته في بورودينو Borodino وواترلو Waterloo (بعد ذلك): آلام في المعدة، صعوبات متوالية في التبول، آلام البواسير. ومع هذا فقد كان لا يزال رقيقاً عادلاً وزوجاً طيباً لماري لوييز وأباً مولعاً بابنه منها. ولكنه كان قد أصبح بعد ثمانية أعوام من الحكم الإمبراطوري نافذ الصبر دكتاتوراً سهل الاستتارة سريع الغضب مغالياً في تقدير قدراته العقلية وإمكاناته السياسية. مع استثناءات كثيرة: لقد تحمل انتقادات كولنكور بفكاهة وصدر رحب. وغفر كثيراً من الأخطاء المكلفة لإخوته وجنراته. وكانت تمر به لحظات ينظر فيها لنفسه نظرة واقعية: يخبرنا سكرتيره أنه في الحالات التي كان يستغرق فيها في التفكير والتأمل كنت أسمعه بشخص وضعه وموقفه بعبارة يقول فيها لقد شددنا القوس إلى منتهاه(42) لكنه فلما كان يفقد الرؤية والإحساس بالقصور. لقد قال لناربون Narbonne وبعد كل هذا، فإن، فإن هذا الطريق الطويل [إلى موسكو] هو الطريق إلى الهند(52). وعلى هذا ففي 9 مايو 2181 غادر سان كلود St. Clud قاصداً موسكو على الأقل، لقد كان كل شيء في حياته مقامرة، وكانت هذه (ذهابه بجيشه إلى موسكو) هي أكبرها.

صفحة رقم : 14751

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى موسكو -> الطريق إلى موسكو

4- الطريق إلى موسكو

62 يونيو - 41 سبتمبر 2181

ألحت عليه ماري لوييز أن تصحبه حتى دريسدن Dresden وأن يدعو والديها للقائهما هناك لتكون مرة أخرى مع أسرته لفترة، وستكون هذه الفترة وجيزة على أية حال. ووافق نابليون، ووجد من الحكمة أن يدعو أيضاً فريديريك الثالث البروسي وعددًا كبيراً من الشخصيات الملكية وذوي الحيثية. لقد أصبحت مسيرته من مينز (مينتس) مشرقاً عبر بلاد الراين موكب نصر، إذ كان الحكام المحليون يخرجون لاستقبال سيدهم الأعلى، وكانوا ينضمون إلى موكبه طوال تقدمه في سكسونيا. وإلى الغرب من دريسدن بأيميل قليلة التقى بالملك فريديريك أغسطس الذي صحبه ومن معه إلى العاصمة، فوصلوا المدينة قبل منتصف الليل بساعة في 61 مايو وازدحمت الشوارع التي مرّوا بها بالناس حاملين المشاعل وهاتفين مرحبين ودقت أجراس الكنائس ودوت المدافع بطلقات التحية(62). وفي 81 مايو وصل ميترنيخ مع إمبراطور النمسا وإمبراطورتها، وعانقت ماري لوييز أباه بعاطفة جياشة وكانت سعادتها قد قلت بسبب هواجس اعترتها بأن هذا العام مليء بالنحس. وسرعان ما أتى ملك بروسيا وولي عهدها وربما لم يكونا سعيدين وسط هذا الجو من التوافق والود بين أعداء وطنهم التاريخيين، وعلى أية حال فقد كان القيصر إسكندر قد تلقى تأكيدات سرية بأن بروسيا والنمسا تتمانيان هزيمة نابليون(72). وقام الملك فريديريك أغسطس كمضيف بتخفيف أمور السياسة بالأوبرا والدراما والصيد والألعاب النارية والرقص والاستقبالات التي كان يحكم

ألمانيا يقدمون فيها لنابليون فروض الولاء والطاعة (البيعة homage) وكان هذا مبهجاً له - رغم تواضعه - وبلغ ابتهاجه الذروة.

وفي 82 مايو انطلق نابليون لينضم إلى أحد جيوشه في ثورن Thorn على الفيستولا Vistula، وكانت الأوامر قد صدرت لجنرالاته للقاءه عند شاطئ نهر نيمن Niemen الذي يفصل دوقية وارسو (فرسافا) الكبيرة عن روسيا. وركب هو نفسه في عربة مزودة بمصباح ومنضدة وأدوات كتابة وخرائط وكتب. وكانت هذه الأدوات تُنقل كل يوم في أثناء المسيرة إلى خيمته حيث كان يكتب الأوامر ويطلب من سكرتيريه نقلها لجنرالاته، وكانت هذه الأوامر تتعلق بالعمليات في صباح اليوم التالي. وقد صحبه سكرتيره العجوز مينيفال Méneval وسكرتيره الجديد نسبياً فرانسوا Faïn وخادمه الخصوصي كونستانت طوال الطريق إلى موسكو وطوال رحلة العودة. ووصل نابليون إلى شاطئ نهر نيمن في 32 يوليو فاستطلع الأحوال ولم يجد أثراً لوجود العدو على الضفة الأخرى من النهر، فأقيمت ثلاثة جسور عائمة بسرعة، وفي 42 - 62 يونيو عبر 000,002 من جنوده إلى مدينة كوفنو Kovno (الآن كاوناس Kaunas) وفي الوقت نفسه تقريباً عبر جيش فرنسي آخر مكون من نحو 000,002 مقاتل النهر نفسه في أدنى المجرى عند تيلسيت (الآن سوفيتسك) (82Sovetsk) حيث التقى نابليون وإسكندر منذ خمس سنوات خلت وأقسما على أن يظلاً صديقين حتى الممات.

لقد كان إسكندر الآن في فيلنا Vilna إلى الجنوب الشرقي من كوفنو Kovno بسبعة وخمسين ميلاً. وكانت هناك عدة جيوش في انتظار أوامره: في الشمال 000,051 مقاتل بقيادة الأمير ميخائيل بارسلي دي تولي Mikhail Barclay de Tolly (من أصول إسكتلندية) وفي الجنوب 000,06 بقيادة الأمير بيوتر باجراتيون Pyotr Bagration (من جورجيا)، وفي الشرق 000,04 بقيادة الجنرال إسكندر تورماسوف Aleksandr Tarmasov. ولم تكن هذه الجيوش نداءً قوياً لجيوش نابليون البالغ عددها 000,004، لكن بالانسحاب المنظم يمكنها أن تستهلك أو تدمر كل المؤن وموارد الطعام أو تبعدها، ولا تترك إلا القليل لينهبه الغزاة. وكان هناك جيش روسي آخر مكون من 000,06 مقاتل شديد اليأس أصبح متاحاً الآن بعد الاتفاق مع تركيا وتوقيع معاهدة سلام معها، وكان هذا الجيش في طريقه للشمال بقيادة الجنرال بول شيخاجوف Chichagov لكن هذا الجيش كان يبعد مسيرة سبعة أيام.

وفي 42 يونيو كان إسكندر هو ضيف الشرف في حفل راقص في مزارع الكونت ليفين بنيجسن Levin Bennigsen الذي سبق له أن حارب نابليون في إيلاو Eylau سنة 7081. وفي أثناء الحفل أفضى حامل الرسائل لقيصر بأن الفرنسيين عبروا النيمن إلى روسيا، فأخفى قيصر الخبر حتى انتهى الاحتفال. ولما عاد لمقره أصدر الأوامر لجيوشه المحلية بالانضمام معاً إن أمكن، وعليها في كل الأحوال أن تتسحب إلى المناطق الداخلية. لقد وصل الفرنسيون أسرع مما كان متوقعاً ولم تستطع القوات الروسية أن ينضم بعضها إلى بعضها الآخر لكنها راحت تتراجع (تتسحب) بنظام جيد.

وفي 62 يونيو أرسل قيصر إلى نابليون طالباً فتح باب المفاوضات شريطة مغادرة القوات الفرنسية للأراضي الروسية فوراً. ولم يكن هو نفسه مؤمناً بجدوى اقتراحه، فغادر فيلنا Vilna مع جيش باسلي دي تولي Barclay de Tolly قاصداً فيتسك Vitebsk، وهناك، ألح عليه ضباطه بأنه غير مؤهل لوضع استراتيجيات عسكرية، فغادر قاصداً موسكو وناشد المواطنين التضحية بالمال والدم للدفاع عن بلاد آبائهم وأجدادهم فتفاعلوا بحماس مع مناشداته فعاد إلى سان بطرسبرج وقد امتلأ شجاعة.

وفي 72 يونيو بدأ نابليون وجيشه الرئيس مسيرة طويلة - 005 ميل - من كوفنو إلى موسكو. وحتى هذه الأيام الأولى في روسيا كانت محنة؛ إذ بلل المطر الثقيل كل شيء ونقعه في الماء. وكان كل جندي يحمل معه طعاماً يكفي لخمس أيام لكنهم راحوا ينهبون الحقول وأكواخ القرى دون مراعاة لأوامر الإمبراطور بالكف عن السلب والنهب، وكان هذا رغبة منهم في زيادة كميات الطعام لديهم أو تعزيزها بأنواع أخرى. ووصل الجيش إلى فيلنا Vilna في 82 يونيو ونهبها بقدر ما يستطيع قبل وصول نابليون، وأتى (أي نابليون) وهو يتوقع أن يستقبله أهلها كمحرر، وحياء بعض اللتوانيين والبولنديين لكن آخرين قابلوه بصمت مُتجهِّم مُتعضين مما قام به جيشه من سلب ونهب (92) وأنته وفود طالبة منه أن يضمن عودة العرش البولندي، ولم يستطع أن يلزم نفسه خوفاً من تحول البروس والنمساويين في حكومته عنه أو تمرد الجنود البروس والنمساويين في جيشه عليه، وطلب من الوفود تأجيل هذا الطلب إلى حين عودته منتصراً من موسكو.

وكان نابليون يأمل أن يُجأى في فيلنا Vilna أحد جيوش القيصر ويدمره، لكن بارسلي Barclay وجنوده كانوا قد هربوا (انسحبوا) إلى فيتسك Vitebsk وكانت قوات نابليون تخشى ملاحقته شديدة، واستمر نابليون طوال أسبوعين يستعيد النظام ويرفع الروح المعنوية للجنود، وتعاكس مزاج الإمبراطور لأحداث متوالية غير مواتية، فقد كان قد أرسل أخاه جيروم Jérôme بجيش مهم لملاحقة باجراتيون Bagration في الجنوب، وفشل جيروم في الإيقاع

بفريسته فعاد إلى الجيش الفرنسي الرئيسي فوبَّخه نابليون لإجراءاته البطيئة وقيادته المترخية فسلم القيادة وانسحب إلى بلاطه في وستفاليا (03).

وفي 61 يوليو قاد نابليون جيشه الذي أعيد إنعاشه وتمويله خارج فيلنا Vilna في مسيرة بلغ طولها 052 ميلاً إلى فيتيبسك Vitebsk. وكان يخطط أن يلحق هناك بجيش بارسلي دي تولى Barclay de Tolly لكن الإسكتلندي (المقصود: نو الأصول الإسكتلندية) البار كان بالفعل قد تقدم في الطريق إلى سمولينسك Smolensic ولم يستطع نابليون ملاحقته إلى أبعد من فيتيبسك لأنه (أي نابليون) كان قد أمر بإرسال دعم ومؤن لجيشه في فيتيبسك، فلا شيء يمكن به إجبار إسكندر على الإذعان لشروطه (شروط نابليون) سوى الاستيلاء على عاصمة روسيا المقدسة والعريقة.

وبعد أن قضى نابليون خمسة عشر يوماً في فيتيبسك قاد جيشه في 31 أغسطس أملاً أن يلحق بجيش بارسلي Barclay في سمولنسك التي كانت مركزاً مزدحماً بالسكان وكانت المناطق المحيطة بها ذوات تربة خصبة وتقع على نهر الدنيبر Dnieper فازدهرت تجارتها وصناعاتها وكانت محصنة بشكل جيد حتى إن بارسلي Barclay وباجراتيون Bagration بعد أن وحدًا جيشيهما قررا مواجهة نابليون فيها أو على الأقل إيقاف تقدمه. ووصل الفرنسيون في 61 أغسطس مُنهكين بسبب مسيرتهم الطويلة وقل عددهم بسبب من مات منهم وبسبب فرار الجنود إذ بلغ عدد من مات أو فرَّ 000,061 رجل (13). ومع هذا كان الهجوم الفرنسي عنيفاً وفعّالاً، وفي ليل 71 أغسطس اشتعلت المدينة بالنار سواء بسبب المدفعية الفرنسية، أو بفعل الروس أنفسهم بأساً منهم، وكان هذا مبعث بهجة لنابليون ولذوقه الجمالي إذ قال متسانلاً لمسؤول خيوله (كولنيكور): ألا ترى هذا المشهد بهيجاً؟ فأجاب: هذا مرعب يا سيدي فقال له نابليون: ياه!! تذكر ما قاله إمبراطور روماني: رائحة جثة العدو رائحة زكية دائماً (23). وفي 81 أغسطس أرسل الإمبراطور إلى مار Moret وزير الشؤون الخارجية تقريراً لرفع الروح المعنوية في باريس: لقد استولينا على سمولنسك Smolensk ودون أن نخسر رجلاً واحداً (33) لكن تقريراً آخر لمؤرخ إنجليزي ذكر أن الفرنسيين خسروا في هذه المعركة ما بين 0008 و 0009 رجل أما الروس فخسروا 0006 (43). وكان من المحال تعويض الخسارة الفرنسية (بقوات أخرى)، وتراجعت الجيوش الروسية إلى المدن. ومناطق تجمع المياه Pools المالية للجيش الروسي حيث يمكن تجنيد مزيد من الرجال.

وفي 02 يوليو - بعد أن استاء القيصر من خلافات جنرالاته وتكتيكاتهم - قرر أن قواته المسلحة في حاجة إلى قيادة واحدة، فعين في منصب القائد العام ميخائيل إيلاريفيتش كوتوزوف (Mikhail Ilarionovich Kutuzov 5471 - 3181) الذي كان قد حقّق شهرة بسبب قيادته الناجحة في كثير من المعارك. لقد كان قد بلغ الثالثة والستين من عمره كسولاً قعيداً سميناً لدرجة أنه كان يتعين نقله إلى المعسكر أو ميدان المعركة في عربة، وكان قد فقد إحدى عينيه وكانت الأخرى معتّنة وكان - شيئاً ما - داعراً، دُبّاً مع النساء، لكنه كان قد تعلّم فن الحرب خلال خمسين عاماً من الممارسة الفعلية، واستاعت كل روسيا لهذا التعيين. لقد استاء كل الناس تقريباً بمن فيهم نابليون بسبب تجنبه المواجهة العسكرية وأمره بمزيد من الانسحاب (أمره بالانسحاب إلى مناطق داخلية أبعد)

وعالج نابليون التوقف عن المطاردة بأن جعل من سمولنسك Smolensk مركزاً حصيناً في وسط روسيا وقضى الشتاء هناك وحافظ على خطوط مواصلات - تحميها قواته - مع غرب أوروبا، لكنه الآن قد وجد نفسه في موقف غير متوقع بالمرّة: جيشه غير منضبط بسبب الانقسامات العرقية (لم يكن جميع أفرادهم من الفرنسيين) وانهيار النظام فيه حتى أنه - أي نابليون - وجد أكثر أماناً أن يواصل المسيرة حيث يؤدي الخوف من هجوم العدو إلى تماسك جيشه. لقد قال للجنرال سيباستياني Sébastiani: هذا الجيش لا يمكن أن يتوقف الآن.. فالحركة وحدها هي التي تجعله على قلب رجل واحد. إن المرء يمكنه أن يتقدم على رأسه، لكن دون توقف أو تراجع (53) وعلى هذا فبعد منتصف ليلة 52 أغسطس بقليل - أي بعد أسبوع واحد من الاستيلاء على المدينة - غادرها بجنوده في طريق حار ومترب إلى فيازما Viazma وجاز هاتسك Gazhatsk... وموسكو - التي تبعد مسيرة ثلاثة أسابيع. وكان مورا Murat على رأس قوات الخيالة (الفرسان) قد يرفع الروح المعنوية لقواته بطيش مرح بأن راح - وقواته - يحاربون للخلف (يتراجعون) لمواجهة أي هجوم من مؤخرة الجيش الروسي المنسحب. وقد وصفه نابليون في وقت لاحق: إنه لا يكون شجاعاً إلا في حضور العدو، وفي هذه الحال تجده أشجع رجل في العالم. لقد أدت به شجاعته الطائشة (المتهورّة) إلى وضع نفسه وسط الأخطار. لقد كان وقتها مُثقلاً بالذهب والريش فوق رأسه فبدا كبير الكنيسة. لقد نجا باستمرار - كما لو كان ذلك بفعل معجزة - لأنه كان معروفًا بلباسه. لقد كان هدفاً دائماً للعدو، واعتاد القوزاق الإعجاب به بسبب شجاعته المدهشة (63).

وفي الخامس من سبتمبر، وبينما كان الجيش الفرنسي يقترب من بورودينو Borodino (لازال هناك خمسة وسبعون ميلاً للوصول إلى موسكو) وصلت طليعة الجيش إلى قمة تل فرأوا في السهل أمامهم منظرًا أبهجهم وأحزنهم: مئات

من المتاريس والحواجز الدفاعية المكتملة يمكن أن تختفي وراءها المدافع، وإلى الأبعد من السهل حيث يلتقي نهرا كالاشا Kalacha وموسكفا Moskva آلاف الجنود. من الظاهر أن كوتوزوف Kutuzov قرر المواجهة. وطوال السادس من سبتمبر ظل الجيشان يستعدان للمعركة. وفي هذا الليل البارد الرطب كان من الصعب أن ينام أحد. وفي الثانية صباحاً أرسل نابليون بياناً ليقرأ على جنوده، مصحوباً بترجمة إلى اللغات التي يتحدث بها جنوده غير الفرنسيين: أيها الجنود! ها هي المعركة التي طال انتظاركم لها. الآن، النصر يعتمد عليكم إنه أت لا ريب. إنه سيأتي لنا رخاء ومنتجعا شتوياً طيباً وعودة باكراً إلى بلاد آبائنا وأجدادنا (73) وفي هذه الليلة - وبناء على أوامر كوتوزوف Kutuzov - حمل القسسُ المصاحبون للجيش الروسي أيقونة العذراء السوداء Black Virgin وطافوا بها في المعسكرات وكانت هذه الأيقونة قد تم إنقاذها من حريق سمولنسك (الأنف ذكره) وركع الجنود ورسما إشارة الصليب وتجاوبوا مع القسس وراحوا يدعون الله رحيم وانحنى كوتوزوف ليقبّل الأيقونة (83).

وفي نحو هذا الوقت أتى حامل الرسائل لنابليون بخطاب من ماري لويز مع صورة جانبية حديثة لابنهما البالغ من العمر عاماً واحداً، كما وصلت إليه أخبار مفادها أن جيشه عانى هزيمة عصبية على يد ويلنجتون Wellington في سالامانكا Salamanca، وقضى نابليون جانباً كبيراً من الليل يصدر التوجيهات لضباطه فيما يتعلق بتكتيكات الصباح. ولا بد أنه كان من الصعب عليه أن ينام لأن عُسر البول كان يسبب له ألماً، وكان لون بوله متغيراً بشكل يندر بالخطر وكانت ساقاه متورمتين مع استسقاء وكان نبضه ضعيفاً غير محسوس بشكل متتابع (93).

ورغم هذا فقد أرق ثلاثة خيول في اليوم الأول من المعركة إذ راح يتنقل من جانب إلى آخر في جيشه (04). لقد كان نابليون يقود 000,031 رجل مرهق، أما كوتوزوف فكان على رأس 000,021، وكان مع الجيش الفرنسي 785 مدفعاً بينما كان مع الروس 046. وطوال السابع من سبتمبر راحت هذه الألوف المؤلفة من الجيش تحارب بعناد وبطولة، يقتلون ويُقتلون وقد شملهم الخوف والكرهية، وكان كلا الطرفين يحاربان ببطولة وكأنما كانا يشعلان أن مصير أوروبا سيتحدد بنتيجة المعركة. وضحى باجراتيون Bagration بحياته، وفقد كولينكور في هذه الحرب التي سبق له أن عمل لمنعها أخاه الحبيب، وواجه يوجين ودافو Davaut ومورا الموت مئات المرات، وفاز نبي Ney في ميدان المعركة من نابليون بلقب أمير موسكو Moskva هذا اللقب الأثير المغربي، لقد كان النصر عواناً بين الجانبين المتقاتلين وعندما حلّ الليل انسحب الروس بهدوء وظل الفرنسيون سادة الميدان لكن نابليون اعتبر النصر أبعد ما يكون عن أن يكون أكيداً. وأرسل كوتوزوف إلى إسكندر تقريراً فخوراً حتى إن كاتدرائيات سان بطرسبرج وموسكو قدّمت ابتهالات الشكر للرب. لقد فقد الفرنسيون 000,03 ما بين قتل وجريح أما الروس ففقدوا 000,05 (14). وفي البداية، في 8 سبتمبر فكر كوتوزوف في تجديد المعركة لكن عندما علم بعدد قتلاه وجرحاه شعر أنه لا يستطيع تعريض جنوده الباقين لمذبحة مماثلة ليوم آخر، فواصل سياسة التراجع ومن الآن فصاعداً سيواصل هذه السياسة حتى النهاية. وفي 31 سبتمبر أمر بإخلاء موسكو، وفي 41 من الشهر نفسه انطلق محزوناً إلى حيث لا يدرى الخطوة التالية.

وفي هذا اليوم وصل نابليون ومن تبقى معه (000,59 مقاتل) (24) إلى بوابات موسكو بعد مسيرة ثلاثة وثمانين يوماً من كوفنو Kovno ووصلته رسالة من الجنرال ميلورادوفتش Miloradovich قائد حامية موسكو بوقف إطلاق النار في أثناء خروجه ورجاله من المدينة فوافق نابليون، وانتظر نابليون قدوم ذوي الحيثية في المدينة ليقدّموا أنفسهم له ويطلبوا منه الحماية لكن أحداً منهم لم يأت. وعندما دخل المدينة (موسكو) لاحظ أن أحداً من ساكنيها لم يبق فيها خلا آلاف قليلة من الطبقات الدنيا (34). لقد بقي بعض البغايا طمعا في الفرنكات وكن مستعدات لتقديم المطلوب مقابل المأوى والغذاء. وكان نابليون قد أحضر معه حملاً من أوراق البنكونت الروسية المزيفة ورفضها الروس فأحرقها نابليون (44). وجال المنتصرون في المدينة ونهبوا القصور ومزارع الريف المحيطة بالمدينة وحملوا النبيذ والأمتعة (خاصة الأعمال الفنية).

وكان مقدراً لهذه الأعمال الفنية أن تُفقد (بالببيع أو خلافه) عملاً إثر عمل، في أثناء طريق العودة. وفي 51 سبتمبر تحرك نابليون إلى الكرملين وراح ينتظر أن يطلب إسكندر السلام. وفي المساء بدأت موسكو تحترق.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى موسكو -> موسكو تحترق

5- موسكو تحترق

51 - 91 سبتمبر 2181

لقد أعجب نابليون بجمال المدينة المهجورة إذ أخبر لاسكاس Las Cases: إنها من كل الزوايا يمكن مقارنتها بأي عاصمة أوروبية بل إنها تفوق في جمالها معظم هذه العواصم (54). إنها أضخم مدن روسيا. إنها المدينة المقدسة أو العاصمة الروحية للروس، وبها 043 كنيسة تزين السماء بقبابها الكبيرة. وقد نجت معظم هذه الكنائس من الحريق لأنها كانت مشيئة بالحجارة، أما المساكن فكان معظمها من الخشب. لقد دمرت النيران 11،000 منزل كان بعضها (6،000 منزل) من مواد مقاومة للنيران.

وقد شاهد الفرنسيون الداخلون للمدينة بعض هذه النيران فهرعوا لإطفائها، لكن نيراناً أخرى سرعان ما كانت تشتعل، وانتشرت النيران بسرعة حتى أحالت ليل 51 سبتمبر إلى نهار ونهت النيران خدم نابليون الذين كانوا يحرسونه في أثناء نومه، فأيقظوه، فأمر فرقة الإطفاء في جيشه بالعمل على إخمادها ثم عاد إلى سريريه، وفي صباح 61 سبتمبر طلب يوجين مورا من نابليون مغادرة المدينة مخافة أن تشعل إحدى شرارات الحريق مخازن البارود التي أقامها الجيش في الكرملين Kremlin فقاوم طلبهم كثيراً، لكنه رضخ أخيراً وركب معهم خارجاً من المدينة تتبعه عربات محملة بالسجلات والمواد. وخدمت النيران في 81 سبتمبر بعد أن دمرت ثلثي موسكو، فعاد نابليون إلى الكرملين. من كان مسؤولاً عن هذا الحريق؟ لقد كانت سلطات المدينة قبل مغادرتها قد أطلقت سراح المسجونين (64) وقد يكون هؤلاء هم الذين أشعلوا النيران في المدينة في أثناء نهبهم لها، وربما كان بعض الفرنسيين غير مباشرين في أثناء السلب والنهب مثل السجناء المطلق سراحهم والأنف ذكرهم، فتسببوا هم أيضاً في إحداث حرائق (74). ووصلت تقارير كثيرة لنابليون في 61 سبتمبر تُفيد أن حملة مشاعل كانوا منتشرين في موسكو وكانوا يُشعلون النار عمداً، فأمر بأن من يُقبض عليه من هؤلاء المحرقين عمداً لا بد من إطلاق النار عليه أو شنقه، وتم تنفيذ هذه الأوامر بالفعل. وتم القبض على أحد هؤلاء المحرقين - وكان رجلاً من الشرطة الحربية الروسية - وهو يشعل النيران في برج الكرملين فدافع عن نفسه بأنه كان ينفذ الأوامر، فتم تحويله لمقابلة نابليون، وتم بعد ذلك قتله في الساحة (84). ودافع عدد من الروس المقبوض عليهم بتهمة الإحراق عن أنفسهم بأنهم تلقوا أوامر بذلك من حاكم موسكو الذي غادرها، الكونت روستوبشين (Rostopchin 94). وفي 02 سبتمبر كتب نابليون لإسكندر:

لم يعد لمدينة موسكو الفخورة الجميلة وجود. لقد تسبب روستوبشين في إحراقها. لقد تم القبض على أربعمائة من المحرقين عمداً وقد أقرروا جميعاً بأنهم تلقوا أوامر بذلك من الحاكم مدير الشرطة. وقد تم إطلاق النيران عليهم. لقد دُمرت ثلاثة أرباع المنازل. إنه عمل لا جدوى منه كما أنه عمل أثم شرير. هل المقصود حرماننا من المؤمن؟ إنها في مخازن لم تطلها النيران. يا له من هدف تافه، أُنْدمر من أجل هذا جهود قرون وإحدى أجمل المدن في العالم! لا يمكنني أن أصدق هذا. أهذا يتفق مع مبادئكم ومشاعركم وأفكاركم عمّا هو حق؟! أهذا الاسفاف جدير بحاكم عادل وأمة عظيمة؟.

لقد قمتُ بشن الحرب على عظمتكم دون أية مشاعر عدائية. لقد كان خطاب واحد منكم قبل هذه المعركة الأخيرة أو بعدها كفيلاً بإيقاف أي تقدم للجيش الفرنسي، بل لقد كنت قد تخليتُ رغباً عن احتلال موسكو، لو كنتم عظيمتم مازلتُم تحفظون لي ببعض المشاعر التي كنتم تكتونها لي سابقاً، لفسرتم هذا الخطاب تفسيراً حسناً. وعلى أية حال فإنه لا يمكنكم إلا الموافقة على أن ما ذكرته عن حرق موسكو صحيح (05).

ولم يجبه إسكندر، لكنه أجاب الضابط الروسي المكلف بإبلاغه خبر حرق موسكو إذ سأله عمّا إذا كان هذا الحدث (حرق موسكو) قد أثر في معنويات جيش كوتوزوف Kutuzov فكانت إجابة الضابط هو أن أخشى ما يخشونه أن

يعقد القيصر اتفاق سلام مع نابليون. وقيل إن إسكندر أجابه قائلاً: قل لرجالي الشجعان أنه عندما لا يبقى لدي إلا جندي واحد فسأضع نفسي على رأس نبلائي وفلاحي لأقاتله. وإذا قدر القدر أن ينتهي حكم أسرتي فسأترك لحيتي تنمو حتى صدري وسأوجه إلى سبيرييا لأكل البطاطس، فهذا أفضل من إلحاق العار بوطني ورعاياي الطيبين (15). ورحب الشعب الروسي بقراره لأن الاستيلاء على موسكو، وحرقتها قد صدمهم ولمس أعماق مشاعرهم الدينية. لقد كانوا يوقرون موسكو كحصن لعقيدتهم الدينية، وكانوا ينظرون إلى نابليون كملحد عديم الضمير، واعتقدوا أن همجيته الوافدة هي التي أحرقت المدينة المقدسة. لقد اعتبروا إسكندر مذنباً لأنه قبل في وقت من الأوقات صداقة مثل هذا الرجل (نابليون)، وفي بعض الأوقات كانوا يخشون أن يستولي هذا الشيطان الحي على سان بطرسبرج أيضاً ليذبح ملايين من الروس. وكان بعض النبلاء يفضلون إبرام تسوية مع نابليون لإخراجه من روسيا مخافة أن يثير الأفتان (عبيد الأرض) ويحررهم في أي وقت، لكن معظم المحيطين بإسكندر كانوا يحتونه على المقاومة. وكان الأجانب المحيطون: شتاين Stein، أرندت Arndt، مدام دي ستيل De Stael والعديد من المهاجرين الفرنسيين الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية - كانوا يرددون معه أنه مع تطور المعركة سيجد نفسه (أي إسكندر) ليس قائداً لبلاده فقط وإنما أيضاً زعيماً لأوروبا والمسيحية والحضارة. ورفض إسكندر الإجابة عن ثلاث رسائل أرسلها له نابليون من موسكو عارضاً عليه السلام. ولما وجدت الأرستقراطية الروسية أن الأسابيع تمضي أسبوعاً بعد أسبوع دون أن يحرك نابليون ساكنها ودون مزيد من العمليات، بدأوا يفهمون حكمة كوتوزوف Kutuzov في عدم التحرك، ووطنوا أنفسهم على حرب طويلة، ومرّة أخرى راحت قصور العاصمة تتألق بالكونيتيسات اللائي تزيّن ملابسهن المجوهرات، وبالضباط بحللم الرسمية الفخورة يتحركون بثقة راقصين على أنغام الموسيقى التي لم تشعر أبداً بالثورة.

وبعد أن خدمت النيران في موسكو أمر نابليون رجاله بالعناية بالجرحى أو المعدمين (الذين لا يجدون قوتاً) بصرف النظر عن أعمارهم (25)، واتخذ الترتيبات لخزن المؤن التي تركها المواطنون الروس أو استهلاكها على وفق نظام خاص. وكان نابليون يجيب عن الرسائل والاستفسارات التي يحضرها حاملو الرسائل من بلاد رعاياه، وقد راح يفخر في وقت لاحق بأنه طوال إقامته في موسكو لم يقع واحد من حاملي الرسائل - وكانوا يصلون إليه يومياً - في أيدي الأعداء طوال مراحل الطريق (35). وأعاد نابليون تنظيم جيشه كما أعاد تجهيزه باللازم، وحاول أن يجعل جنوده في حالة قتالية جيدة بالمداومة على التدريبات. لكن جنود الجيش الفرنسي ملأوا هذه العروض. لقد كانت الحفلات الموسيقية والمسرحيات يقدمها الموسيقيون الفرنسيون الذين كانوا مستقرين في موسكو (قبل الغزو الفرنسي) (45)، ووجد نابليون الوقت الذي يجعله يصدر أمراً مفصلاً بإعادة تنظيم مسرح الكوميدي فرانسيز Comédie Francaise في باريس.

ومضى شهر ولم تصل لنابليون كلمة واحدة من إسكندر. وتدمّر نابليون قائلاً: إنني أضرب (أهزم) الروس كل يوم، لكن هذا لم يحدث لي في أي مكان (55) سبتمبر بارد ويأتي بعده أكتوبر وسرعان ما يحلّ الشتاء الروسي. وأخيراً وبعد أن ينس من رد يأتيه من القيصر، أو تحدّ من كوتوزوف Kutuzov، وبعد أن تحقق من أن كل يوم يمضي يكون موقفه فيه أسوأ - استسلم لقرار أشد مرارة: أن يعود بخفي حنين (خاوي الوفاض) أو ببعض الأشياء التذكارية القليلة.. لقد قرر العودة إلى سمولنسك، ففيلنا Vilna فرارسو (فرسافا).... وأخيراً ليصل إلى باريس. أي نصر هذا؟ يمكن لمثل هذا النصر أن يُزيل عار الهزيمة!؟

لم يبق إلا أمل واحد. لقد كان كوتزوف Kutuzov قد جمع مؤناً في كالوجا Kaluga إلى الجنوب الغربي من موسكو بتسعين ميلاً. وفكر نابليون في التوجه إلى هناك وأن يجبر الجنرال الماكر للدفاع عن هذه المخازن، فإن انتصر الفرنسيون نصراً حاسماً فقد يُجبر النبلاء الروس القيصر إسكندر على التوسل لاتفاق سلام. وأكثر من هذا فإن كالوجا Kaluga كانت على طريق آخر مؤد إلى سمولنسك غير الطريق الذي كان الغزاة قد أتوا منه، وفي اتخاذ هذا الطريق تجنّب للذكريات الأليمة عند المرور ببورودينو Borodino حيث كان قد مات كثير من رفاق الحرب. وصدرت الأوامر بالاستعداد لإخلاء موسكو.

وعلى هذا ففي 91 أكتوبر بدأ جيش نابليون (000,05 جندي و 000,05 من غير المقاتلين) في الخروج من موسكو. وكانت عربات التحميل تحوي مؤناً لعشرين يوماً، وهو وقت يكفي للوصول إلى سمولنسك حيث صدرت الأوامر بتجهيز مؤن طازجة لهم فيها (65). وكانت هناك عربات أخرى تضم المرضى أو الجرحى وبعض الأشياء التذكارية الثقيلة وذهب نابليون المتناقص.

وفي مالورياروسلافتش Maloyaroslavets - على بعد خمسة وعشرين ميلاً من كالوجا Kaluga اتصل الفرنسيون اتصالاً مباشراً بجيش كوتزوف، وأعقب ذلك حركة (عملية) حادة (42 أكتوبر) مما أجبر الروس على الانسحاب خلف دفاعاتهم في كالوجا Kaluga. وقرر نابليون أن جيشه ليس مجهزاً لحصار طويل، فأمر رجاله - وهو كاره - باتخاذ طريقهم عبر بوروفسك Borovsk وموزهايسك Moshaisk إلى بورودينو Borodino، وليتخذوا بعد ذلك الطريق الذي كانوا قد اتبعوه في فصل الصيف حيث كانوا مفعمين بالأمل. وعلى أية حال فإن شيطان كوتزوف قد جعله الآن يحدّ جيشه على المسير في طريق مواز لطريق عدوّه مراعيًا - بشكل مرآوغ - أن يكون بعيداً عن نظره عدوّه، لكنه راح بين الحين والآخر يرسل فصائل من الفرسان القوزاق الأشداء لإزعاج جناحي الجيش الفرنسي وراح الفلاحون السعداء يطلقون النار على الفرنسيين المنتشرين في غير نظام والذين غامروا بالابتعاد عن خط سير الجيش البالغ سنين ميلاً (75).

وكان نابليون محمياً بشكل جيد اللهم إلا من خطر طارئ. وكان حاملو الرسائل يجلبون إليه في أثناء مسيرته أخباراً عن نزاعات شديدة تهدّد حكومته في باريس وثورات في الأراضي (البلاد) التابعة له. وفي 62 أكتوبر بعد خروجه من موسكو بأسبوع سأل كولينكور عما إذا كان يجب عليه (أي يجب على نابليون) أن يتجه مباشرة إلى باريس ليوّاجه السخط الناجم عن هزيمته ويسيطر عليه، وليقيم جيشاً جديداً للدفاع عن القوات الفرنسية التي تركها في بروسيا والنمسا، فنصحها كولينكور بالذهاب (85). وفي 6 نوفمبر وصلت أخبار مفادها أن كلود - فرانسوا دي مال de Malet - وهو جنرال في الجيش الفرنسي - قد أطاح بالحكومة الفرنسية في 22 أكتوبر وأنه لقي دعماً من أشخاص بارزين لكنه خُلع وتمّ إطلاق النار عليه (92 أكتوبر) فتأكد العزم لدى نابليون بضرورة التوجه إلى باريس. وكلما أوغل الفرنسيون في طريق العودة كان الطقس يزداد سوءاً. لقد تساقط الثلج في 92 أكتوبر وسرعان ما كوّن غطاء دائماً - جميلاً وممتعاً، وتحول في الليل البارد إلى جليد انزلقت فوقه الخيول التي تجر العربات وسقطت، وكان بعض هذه الخيول منهكاً بدرجة استحالة معها قيامها من جديد وكان لابد من تركها، ومع طول مسافة المسيرة راح الجنود يأكلون مثل هذه الضحايا (الخيول الساقطة أو النافقة) لكن معظم الضباط حافظوا على حياة خيولهم برعايتها وتغطيتها. وكان الإمبراطور (نابليون) يركب بعض الوقت في عربته مع المارشال بيرثيه Berthier لكنه كان يسير مع الباقين مرتين أو ثلاثاً في اليوم أو أكثر من هذا على وفق رواية مينيفال (95Méneval).

وفي 31 نوفمبر بدأ الجيش الذي تقلص عدده الآن إلى رقم إجمالي هو 05.000 - في دخول سمولنسك، وانتابهم الرعب عندما وجدوا أن معظم الطعام والكساء الذي كان نابليون قد أمر بتجهيزهما قد فقدتا نتيجة غارات القوزاق والاختلاس، ومن ثمّ تمّ عرض ألف ثور مخصصة للجيش لبيعها للتجار الذين قاموا بدورهم بعرضها على أي مشتر (06)، وحارب الجنود للحصول على ما تبقى من التموينات واستولوا بالقوة على كل ما وجدوه في الأسواق. وكان نابليون راغباً في إتاحة فترة راحة طويلة لجنوده في سمولنسك لكن أخباراً وصلتته باقتراب كوتزوف على رأس 000,08 روسي لم يعودوا راغبين - بعد - في الانسحاب، ولم يكن مع نابليون من الصالحين للقتال سوى

52،000(16). وفي 41 نوفمبر قاد جزءاً من قواته في الطريق إلى كراسنو Krasnoe مستخدماً طريقاً إلى فيلنا Vilna غير الطريق الذي سبق له استخدامه في الصيف. وكان على دافو Davout أن يتبعه في 51 نوفمبر، وني Ney في 61 من الشهر نفسه. وكان الطريق جبلياً ومغطى بالجليد، ولم تكن الخيول ذوات حدوات (جمع حدوة) تمكنها من التقدم في هذا الشتاء الروسي فانزلجت فوق التلال وفشلت كل الجهود لإقامة مئات منها، وفشلت الموت باعتبارها رحمة في ظل هذه الظروف بل إن رجالاً كثيرين فضلوا هذا الحل تخلصاً من المتاعب. وذكر جندي بعد ذلك أنه طوال الطريق كنا مضطرين للخطو فوق مِيت أو محتضر (26) فعند المنحدرات الجليدية لهذه التلال لم يكن أحد يجرؤ على الركوب أو السير على قدميه، فالجميع بمن فيهم الإمبراطور (نابليون) كان يتزلج وهو جالس، كما سبق لقلّة منهم أن فعلت عند عبور جبال الألب إلى مارنجو Marengo منذ اثنتي عشرة سنة خلت. لقد كانت أياماً تعادل سنوات من عمر القائد ورجاله. ويبدو أنه عند هذه النقطة حثّ نابليون الدكتور يفان Yvan على أن يعطيه قِينة سم يحفظ بها معه ليستخدّم سمّها إذا أسره العدو أو لأي سبب آخر يجعله يود إنهاء حياته.

ووصل الفرنسيون كراسنو Krasnoe في 51 نوفمبر لكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا قسطاً من الراحة، فقد كان كوتوزوف Kutuzov يقترب بقوات يفوق عددها قوات نابليون بشكل كبير، فأمر نابليون رجاله بمواصلة الطريق إلى أورشا Orsha، وقاد يوجين المسيرة ليحارب بين الحين والحين العصابات المسلحة التي تعترض الطريق، وتبعه الإمبراطور (نابليون) ودافو Davout. ووصلوا أورشا Orsha بعد ثلاثة أيام أخرى من المشي على الجليد، وانتظروا هناك بقلق وصول ني Ney بالجزء الثالث من القوات الفرنسية.

وكان ني Ney هو نجم الجيش المتألق في هذا الوقت، كما كان في بورودينو Borodino. لقد قاد رجاله البالغ عددهم 0007 رجل باعتبارهم حارساً لمؤخرة الجيش الفرنسي، وخاض اثنتي عشرة معركة لحماية الجيش الفرنسي في أثناء انسحابه من هجوم المغيرين من رجال كوتوزوف، ودخل هو ورجاله سمولنسك أخيراً في 51 نوفمبر وصدموا لاكتشافهم قلة الطعام الذي تركه نابليون وديفو عند مغادرة المدينة، فأسرع برجاله رغبة في البقاء على قيد الحياة إلى كراسنو Krasnoe، فلم يجدوا نابليون كما سبق أن وعدهم وإنما وجدوا كوتوزوف الذي سد طريقهم بنيران مدفعيته المهلكة، وفي جُتج الليل (81 - 91 نوفمبر) قاد ني Ney جنوده على طول مجرى متجمد إلى نهر دنيبر Dnieper وعبره وتكبد في أثناء عبوره خسارة في بعض رجاله وخيوله وراح يحارب في أثناء مسيرته الفوزاق كما حاربهم فوق المستنقعات المتجمدة ليصل إلى أورشا Orsha في 02 نوفمبر، وهناك رحّب نابليون والجيشان المنتظران بالأبطال الجائعين بالمديح وبالطعام. وعانق نابليون جنراله ني Ney وأطلق عليه (أشجع الشجعان) وفي وقت لاحق قال نابليون: إن لدي أربعمئة مليون قطعة ذهبية في أقبية التوليري، ويسعدني أن أعطيها جميعاً لمن يمكنني من رؤية المارشال ني Ney مرة أخرى (36).

ولتُبعد الفرنسيون عنهم جموع كوتوزوف الأبطال، أسرعوا طوال أربعة أيام ليوافقوا العقبة التالية - نهر بيريزينا Berezina. وعندما وصلوه (52 نوفمبر) وجدوا أن الجنرال الروسي شيخاجوف Chichagov كان قد وصل من الجنوب على رأس 000،42 مقاتل كما علموا أن قوة روسية أخرى مؤلفة من 000،43 من الجنود الأثناء بقيادة المارشال لودفيج وتجنشتين Wittgenstein كانت تسرع القادمة من الشمال لحصر الفرنسيين بين نارين عندما يكونون - أي الفرنسيون - في حالة فوضى فيبأس قائدهم من إنقاذهم من الدمار.

لكن الأخبار لم تكن كلها سيئة إذ سرعان ما علم نابليون أن قوتين مواليتين له قد هبتا لنجدته. فرقة عسكرية بولندية بقيادة الجنرال جان هنريك دومبروفسكو Dombrowski استطاعت - رغم أن عدد جنودها ثلث قوات شيخاجوف Chichagov - مواجهة هذه القوات وتأخير التقدم الروسي، وفي 32 نوفمبر فاجأت قوات فرنسية من 0008 رجل بقيادة المارشال أودينو Oudinot - الجنرال الروسي شيخاجوف واستولت على إحدى كتائبه وأجبروا الباقين على الفرار عبر جسر على بوريسوف Borisov ناحية الشاطئ الأيمن (الغربي) لنهر بيريزينا Berezina. وعلى أية حال فقد حطّم الروس الجسر وهو الجسر الوحيد الذي يمكن بواسطته اجتياز النهر في هذا الموقع.

ووصلت أخبار هذه العمليات إلى نابليون بينما جيشه الخائف يقترب من المجرى الذي يأملون أن يؤخّر ملاحقة كوتوزوف Kutuzov لهم (كانت قوات نابليون الآن 000،52 جندي و 000،42 من غير المقاتلين) كما كان نابليون قد فقد أيضاً عدداً من رجاله هربوا أو مرضوا أو ماتوا. لم يبق معه سوى 000،72 من 000،79 كانوا معه عند خروجه من كالوجا، والآن بقي أربعون ميلاً خلف مؤخرة جيش نابليون. لازل هناك وقت لعبور النهر إذا كان من الممكن عبوره.

واستعاد نابليون الأمل فأرسل فصيلاً بقيادة المارشال فيكتور Victor للاتجاه شمالاً وإيقاف ويتجنشتين Wittgenstein وفصيلاً آخر بقيادة ني Ney للانضمام إلى أودينو Oudinot في منع شيخاروف من معاودة عبور النهر. وكان نابليون منذ عبور النيمن Nemen قد احتفظ معه بالمهندسين الذين كانوا قد أقاموا الجسور هناك في شهر يونيو، والآن طلب منهم أن يجدوا بقعة على نهر بيريزينا يمكن أن يقيموا عليها جسرين طوّافين، فأخبروه بوجود هذه

البعقة المناسبة في سندنكي Studenki إلى الشمال من بوريسوف Borisov بتسعة أميال. وراح المهندسون ومساعدوهم يعملون طوال يومين في مياه متجمدة، وغرق عدد منهم بسبب انخداهم بالجليد الطافي فوق مياه غير متجمدة، لكن في الساعة الواحدة بعد الظهر في 62 نوفمبر اكتمل إنشاء أحد الجسرين وبدأ الجيش في العبور فوقه، وبحلول الساعة الرابعة كان الجسر الثاني يحمل فوقه المدفعية والأحمال الثقيلة، وانتظر نابليون وجنرالاته حتى وصل معظم الجنود للشاطئ الغربي ومن ثم عبروا تاركين قوة بقيادة فيكتور Victor لحماية نحو 0008 من غير المقاتلين سيعبرون بعد ذلك. وقبل تمام نجاح هذه العملية الأخيرة خطط الروس لهجوم على طول جانبي النهر لكن قوات فيكتور وأودينو Oudinot وني Ney تصدّت لهم. لقد راح نابليون ينظم العبور والمقاومة في آن واحد وسط آلاف الرجال الذين يناضلون ليبقوا على قيد الحياة. وانكسر الجسر مرتين، وغرق مئات وفي هذه الأثناء كانت مدفعية ويتجنشتاين تمطر قذائف على الآلاف الأخيرة التي تزاحمت للعبور، وفي 92 نوفمبر أمر نابليون المهندسين العسكريين بتدمير الجسرين، تاركاً مئات من غير المقاتلين يبحثون عن فرصة للعبور. وكان هدف نابليون من تدمير الجسرين تعويق قوات ويتجنشتاين عن ملاحقته ومنع وصول قوات كوتوزوف. وباختصار كان عبور بيريزينا Berezina هو أكثر ذرى البطولة طوال ستة أشهر أساء فيها أحد أعظم الجنرالات في التاريخ - تقدير الأمور على حقيقتها.

واستمرت الأساة طوال مسيرة من بقي على قيد الحياة من الجنود الفرنسيين نحو الغرب، لقد هبطت درجة الحرارة ثانية إلى ما دون درجة التجمد، لكن كان لهذا ميزة واحدة إذ سمح بالانتقال فوق المستنقعات المتجمدة فقصّر المسافة إلى فيلنا Vilna. ولأن الخوف من القوزاق والفلاحين المعادين قلّ، فقد تضاعف عدد الهاربين واختفى النظام. ورأى نابليون أن من تبقى معه لم يعودوا في حاجة ماسة له، فوافق على نصيحة مورا Murat بالعودة إلى باريس مخافة أن تستسلم فرنسا لثورة أخرى، وعند توقيفه في مولودشنو Molodechno وهي محطة التوقف الرئيسية التالية تلقى مزيداً من التفاصيل عن أمور مال Malet. لقد انتهى هذا المغتصب لكن السهولة التي خدع بها المسؤولين دلت على استرخاء الحكومة التي لم تعد مؤمنة بنابليون الذي غاب غياباً طويلاً وربما انتهت حياته السياسية بل وربما مات. لقد راح العاقبة والملكيون، فوشيه وتاليران يتأمرون لخلعه.

وكي يعيد ترسيخ نفسه ويبعث اليقين في الشعب الفرنسي من جديد أرسل من سمورجوني Smorgonie في 5 ديسمبر النشرة رقم 92 التي كانت تختلف عن سابقتها إذ كان غالبها يحوي حقائق صادقة. تقول النشرة إن الفرنسيين قد انتصروا في كل معركة واستولوا على كل مدينة مروا بها وحكموا موسكو إلا أن قسوة الشتاء الروسي التي لا ترحم قد دمرت هذا المشروع العظيم وألحقت الألم والموت بالفرنسيين المتحضرين الذين اعتادوا العيش في مناخ متحضر. وأشارت النشرة إلى خسارة في الرجال بلغت 000,05 لكنها أشارت بفخر لقصة تخلص ني Ney من ملاحقة كوتوزوف وقدمت عبور نهر بيريزينا من جانبها البطولي لا المأسوي وانتهت النشرة بعبارة ذات مغزى وكأنها تحذير لأعداء نابليون: إن صحّة عظمته لم تكن في يوم من الأيام أفضل مما هي عليه الآن. ومع هذا فقد كان هو منزحاً. لقد قال لكولينكور إنني استطيع أن أحكم قبضتي على أوروبا من التوليري وحده (46) واتفق معه بوجين ومورا Murat ودافو Davout. ونقل قيادة الجيش المتحرك إلى الملك مورا وأخبره أن يتوقع مؤناً وتعزيزات من فيلنا Vilna. وفي وقت متأخر من مساء الخامس من ديسمبر غادر (أي نابليون) سمورجوني Smorgonie قاصداً باريس.

لقد تقلّصت القافلة إلى 000,53 وغادرت في اليوم التالي قاصدة فيلنا التي تبعد ستة وأربعين ميلاً. الآن انخفضت الحرارة إلى 03 درجة فهرنهايت تحت الصفر وكانت الرياح على حد تعبير جندي بقي على قيد الحياة تمزق اللحم والعظم (56). وعندما وصلوا إلى فيلنا (8 ديسمبر) اندفع الجنود الجياع في فوضى لا حدّ لها نحو المون التي تنتظرهم وضاع طعام كثير وسط الفوضى. وواصلوا مسيرتهم وفي 31 ديسمبر وعند كوفنو Kovno عبروا نهر النيمن نفسه وكان عددهم 000,03، بينما شهدهم النهر وقد بلغ عددهم 000,004 يعبرون في شهر يونيو، هنا وعند تبلسيت وعند بوزن Posen سلم مورا القيادة لبوجين (61 يناير 3181) خائفاً - هو بدوره - على عرشه وأسرع عبر أوروبا إلى نابلي. أما بوجين البالغ من العمر ثلاثين عاماً فكان ذا خبرة رغم شبابه، فتولى مسؤولية ما تبقى من الجنود وقادهم بصبر يوماً بعد يوم إلى ضفاف نهر الألب Elbe وراح ينتظر أوامر متبنيه (نابليون).

ركب نابليون من سمورجوني Smorgonie في أول عربية من عربات ثلاث، وكانت كل عربية منها موضوعة على مركبة جليد يجرها حصانان، وكانت إحدى العربات تحمل أصدقاء الإمبراطور ومساعديه وأخرى تحمل حرسا بولنديا من حملة الرماح. لقد ركب نابليون مع كولينكور الذي كان ينظم مسألة تبديل الخيل، ومع الجنرال فونسوفيتش Wonsowicz المترجم الذي عهد إليه نابليون بمسدّسيه قاتلاً: إن حدث خطر حقيقي اقتلني ولا تجعل العدو يأسرني (66) ومخافة أن يتعرض للاغتتيال أو الأسر، تنكر في لباس كولينكور، بينما ارتدى كولينكور ملابس

نابليون. وقد تذكر كولينكور في وقت لاحق ما حدث، إذ قال: في أثناء مرورنا ببولندا، كنت أنا دائماً المسافر المميّز، وكان الإمبراطور - ببساطة - هو سكرتيري (76).
لقد واصل الركب طريقه إلى باريس دون توقف ليلاً أو نهاراً، وكانت أطول فترة توقّف فيها نابليون ومن معه هي فترة التوقف في وارسو (فرسافا) حيث أدهش نابليون الممثل الفرنسي في بولندا بقوله الذي صار مثلاً: بين الذروة والقاع خطوة واحدة (86). وأراد أن يقوم بزيارة أخرى للكونتيسة فالسكا Walewska لكن كولينكور نصحه بالعدول عن هذه الزيارة (96)، ربما بتذكيره أن حماه هو أيضاً إمبراطور. وفي أثناء الركوب من وارسو إلى دريسدن راح الإمبراطور (نابليون) فيما يقول كولينكور يمتدح الإمبراطورة ماري لويز باستمرار متحدثاً عن حياته الأسرية بمشاعر طيبة وبساطة يسعد المرء بسماحها.
وفي دريسدن أراح نابليون وكولينكور مركبة الجليد والحرس البولندي، وانتقلا إلى عربة السفير الفرنسي المغلقة. ووصلوا إلى باريس في وقت متأخر من يوم 81 ديسمبر بعد ثلاثة عشر يوماً من سفر كاد يكون بلا توقف. وذهب نابليون مباشرة إلى قصر التوليري وعرف حرس القصر بنفسه وأرسل يُعلم زوجته بوصوله وقبل منتصف الليل تماماً اندفع إلى غرفة نوم الإمبراطورة وضمها بين ذراعيه (07). وأرسل حامل الرسائل إلى جوزفين يطمئنها أن ابنها بخير وأدفاً قلبه بنظرة إلى ابنه ذي الشعر الجعد الذي كان قد أسماه ملك روما.

صفحة رقم : 14754

قصة الحضارة - عصر نابليون - خاتمة المطاف - إلى إلبا - إلى برلين

الفصل السادس والثلاثون

إلى إلبا

4181 - 3181

1- إلى برلين

بدأت أوروبا كلها متوترة تعودُ القهقري إلى انقسامات القرن الثامن عشر، ونابليون يندفع فوق ثلوجها وعبر مدنها ليدعم عرشه المهتر، فقد أصبحت كل التحوم (الحدود) القديمة صدوعاً في قصر غير قائم على أساس ونعني به الحكم

الأجنبي. لقد راح أهل ميلان يتفجعون على أبنائهم الذين استدعاهم نابليون للخدمة العسكرية في جيشه لغزو روسيا، ولم يعودوا أبداً، فراحوا (أي أهل ميلان) يعملون لخلع يوجين اللطيف النائب الغائب لملك غائب. وأهل روما المغرمون بالبابا الصبور الذي كان لا يزال يتعرض للإهانة أسيراً في فونتينبلو Fontainebleau، راحوا يدعون لعودته إلى كرسيه الرسولي (المقصود البابوي أي كرسي الدعاة الأوائل للمسيحية).

وراح أهل نابلي وأمرؤها ينتظرون اللحظة التي يسقط فيها مورا Murat المنكفي على ذاته مخلصاً الطريق أمام البوربون الشرعيين المسموحين بالزيت (أي المكرسين الذين اعتمدتهم الكنيسة). أما النمسا - وقد مزقتها الحرب، وتعرضت للإهانة بسبب سلام مفروض عليها - فراحت تنتظر توأقة إلى ميترنيخ كي يحرقها بشيء من براعته الدبلوماسية من تحالف مفروض عليها مع عدوها التقليدي (فرنسا). أما دول كونفدرالية الرأين على طول نهر الرأين فراحت تحلم بالازدهار الذي لا يكون بتسليم أبنائهم للعقري الأجنبي صعب المراس. أما بروسيا فقد تم تجريدتها من نصف المناطق التابعة لها (جرى تقليص حدودها إلى النصف) ومن نصف مواردها، وتم هذا على يد عدوها القديم والتي أصبحت (أي بروسيا) الآن حليفته على غير رغبتها. إنها الآن ترى عدوها (ناهبها) وقد مزقته كارثة مروعة: لقد حانت الفرصة - أخيراً - والتي طالما تمنوها. إنها الآن تتذكر دعوة فيشته Fichte وهي الآن تُصيخ السمع إلي مناشدة شتاين Stein المنفي، لطرد هؤلاء الجنود الفرنسيين الذي يعسؤون بينهم وهؤلاء الجامعين لتعويضات الحرب الذين يستنزفونهم، وليهبوا أقوياء أحراراً كما كانوا في ظل فريديريك وليصبحوا حصناً للحرية الألمانية.

وكان يكمن خلف هذا الامتعاظ والتمرد ذي الأصول المشتركة، الأخبار المدهشة التي مفادها أن روسيا لم تهزم فحسب جيش هذا الكورسيكي الذي كان من المفترض أنه لا يهزم، ولم تطرد - فحسب - الجيش الفرنسي من فوق التراب الروسي، وإنما كانت تتعقبه عبر الحدود إلى دوقية وارسو (فرسافا) الكبيرة، وكانت (أي روسيا) تدعو قلب أوروبا للانضمام إليها في حرب مقدسة للإطاحة بالمغتصب (نابليون) الذي جعل من فرنسا مركزاً لطغيانه في القارة الأوروبية.

وفي 81 ديسمبر سنة 2181 (وهو اليوم الذي وصل فيه نابليون المهزوم إلى باريس) غادر إسكندر سان بطرسبرج. وفي الثالث والعشرين من الشهر نفسه وصل إلى فيلينا Vilna وشارك كوتوزوف وجيشه الاحتفال بالنصر. لقد كان هذا الجيش قد عانى كثيراً خلال مسيرته لإزعاج الفرنسيين المغادرين لبلاده. لقد مات مائة ألف وجرح خمسون ألفاً، وهرب أو قُتِلَ خمسون ألفاً (1). وامتدح إسكندر جنراله علناً، لكنه شكك في قيادته في مجالسه الخاصة، لقد قال للسير روبرت ويلسون Robert Wilson (إن جاز لنا أن نصدق السير روبرت): كل ما فعله ضد العدو أنه كان يُقاد (بضم الياء) بحكم الظروف. لقد انتصر رغم أنفه... إنني لن أترك الجيش مرة أخرى لأنني لا أريد أن يتعرض لأخطار مثل هذه القيادة (2). ومع هذا فقد منح المقاتل المُرهب أعلى الأوسمة العسكرية الروسية: وسام الصليب الكبير لجماعة Order القديس جورج (العسكرية).

وكان إسكندر - بسبب تحقق نبوءته - مقتنعاً بأنه - بشكل أو آخر - ملهم من السماء، فلم يأنس لتردد جنراله، وتولى القيادة العليا لجيشه المتحدة بنفسه، وأصدر الأوامر لها بالتوجه إلى الحدود الغربية. وتحاشى المرور بكونوفو Konovo (لأنها كانت مواجهة لبولندا التي كانت لا تزال مُعادية)، وواصل طريقه على طول نهر النيمن Niemen إلى تورجن Tauroggen حيث كان الجنرال جوهان (يوهان) يورك فون فارتنبورج Jahn Yorck Von Wartenburg على رأس قوة بروسية فسمح للروس بعبور النهر إلى بروسيا الشرقية (03 ديسمبر 2181) وحث شتاين Stein الذي كان مرافقاً لإسكندر منذ خروجه من سان بطرسبورج - حثه على التقدم في المناطق التي يتوقع أن يرحب به فيها شعب بروسيا. وأعلن القيصر العفو العام عن كل البروس الذين سبق أن حاربوه ودعا ملك بروسيا وشعبها للانضمام إليه في حربه المقدسة in his Crusads. وكان فريديريك وليم الثالث ممزقاً بين النس Eagle الفرنسي والدب Bear الروسي فرفض امتداح تصرف يورك yorck وانسحب من برلين إلى بريسلو (بريسلاو Breslau). وتقدم إسكندر عبر بروسيا الشرقية وراح الناس يحيونه صائحين: إسكندر طويل العمر! حياة مديدة للقوزاق (3).

وعندما اقترب من المناطق الحدودية بين بروسيا الشرقية وبولندا، أرسل رسالة للزعماء البولنديين يعدهم بالعفو العام وبدستور وبمملكة على رأسها قيصر روسيا. وبناء على تفاهم سري - فيما يبدو - بين روسيا والنمسا قام الأمير كارل فيليب فون شفارتسنبورج Von Schwarzenberg قائد الحامية النمساوية في وارسو (فرسافا) بالانسحاب مع جنوده إلى غاليسيا (جاليسيا Galicia)، وأقبل المسؤولون البولنديون للترحيب بإسكندر، وفي 7 فبراير 3181 دخل العاصمة دون مقاومة. وهكذا ماتت دوقية وارسو الكبيرة موتاً مبكراً وأصبحت بولندا كلها تابعة لروسيا. وكانت بروسيا تأمل في استعادة جزء بولندا الذي كان ضمن ممتلكاتها في سنة 5971، فسارع إسكندر بالتأكيد لفريديريك وليم أنه سرعان ما ستوجد تسوية مقبولة لنصيبه المفقود (في بولندا)، وفي هذه الأثناء راح إسكندر مرة أخرى يحث ملك بروسيا وشعبها للانضمام إليه ضد نابليون.

وكان البروس قد طال انتظارهم لهذه الدعوة (مواجهة نابليون) فقد كانوا شعباً معترراً بنفسه لا يزال يتذكر فريديريك. ومما ألقى الروح الوطنية لدى البروس وعمّقها هذا التوسع الفرنسي السريع، وقيام إسبانيا بانتفاضة ناجحة. وكانت الطبقات الوسطى متحمسة في الاعتراض على الحصار القاري (الذي فرضه نابليون) كما كانت معترضة على الضرائب المرتفعة المفروضة لدفع تعويضات الحرب للفرنسيين. وكان مسيحيو بروسيا مغرمين بكنائسهم غيورين على عقيدتهم، وكانت كل الطوائف المسيحية لا تنق في نابليون وتعتبره ملحداً يخفي إحداه (المقصود عدم إيمانه باللاهوت المسيحي). واتفقت الفرق المسيحية جميعاً على إدانة معاملته السيئة للبابا. ودعا اتحاد الفضيلة (التوجنبوند Tugenbund) كل الألمان أن يهبوا جميعاً للدفاع عن بلاد آبائهم وأجدادهم Vaterland، وسمح الملك البروسي لوزرائه بإعادة بناء الجيش البروسي وزيادة عدده تحت غطاء الدفاع عن بروسيا ضد الغزو الروسي. وكان الروس قد استولوا على مارينبورج Marienburg في يناير، وفي 11 مارس توجهوا - دون أن يلقوا مقاومة - إلى برلين.

وأصدر الملك البروسي المحب للسلام قراراً فرض عليه من بريسلو (بريسلاو Breslau): نداء إلى شعبي An mein Volk في 71 مارس يناشدتهم فيه أن يهبوا حاملين أسلحتهم لمواجهة نابليون: ... يا أهل براندنبورج! أيها البروس، يا أهل سيليزيا، يا أهل بوميرانيا، يا أهل ليتوانيا! أنتم تعلمون ما تحملتموه طوال سبع سنين! أنتم تعلمون القدر الثمين الذي ينتظركم إذا لم تته هذه الحرب نهايةً مُشرفةً. فكروا في أيامكم الخوالي - أيام الناخب الأعظم Great Elector فريديريك العظيم! تذكروا البركات التي حارب من أجلها آبائكم وأجدادكم تحت قيادتهم والتي بذلوا من أجلها دماءهم - حرية الشعور، والفخر بالوطن والاستقلال والتجارة والصناعة والتعليم. انظروا إلى النموذج العظيم لحلفائنا الأقوياء الروس، انظروا إلى الإسبان والبرتغاليين. اشهدوا السويسري البطل، وشعب الأراضي المنخفضة... إنها المعركة النهائية والحاسمة التي يعتمد عليها استقلالنا ورخاؤنا ووجودنا. ليس أمامنا بديل آخر إلا سلام مشرف وإما نهاية بطولية... إن الرب، وتصميمنا على هدفنا سيكونان عوناً لنا فنتنصر قضيتنا، وبانتصارها يتحقق السلام المؤكد العظيم وتعود أيامنا أكثر سعادة.

وهبت كل الطبقات استجابةً لدعوة الملك، فأعلن رجال الدين - خاصة البروتستانت - الحرب المقدسة ضد الكافر (نابليون). وصرف المعلمون - ومنهم فيشته وشلبيرماشر - طلبتهم قائلين لهم إن الوقت ليس وقت دراسة بل وقت عمل. وظل هيجل فوق المعركة لكن جوته بارك أحد الأفواج العسكرية التي حيتته في أثناء مرورها (4). وغير الشعراء - مثل شنكندروف Schenkendorf وأولاند Uhland وريكرت Ruckert - عن مشاعر الملك والشعب بأشعارهم، أو نحواً أقلامهم جانباً وامتشقوا الحسام أو حملوا البنادق، ومات بعضهم - مثل ثيودور كورنر Korner - في المعركة. وعاون إرنست موريتز أرندت Ernst Moritz Arndt - الذي عاد من منفاه في روسيا - في رفع الروح المعنوية الألمانية وصياغتها بقصيدته (أتلك ألمانيا أرض الأباة!؟). وفي حرب التحرير هذه ولدت ألمانيا جديدة.

وعلى أية حال فما من أمة يمكنها أن تعتمد على المتطوعين عندما يكون وجودها في خطر وعلى هذا فقد أمر فريديريك الثالث بالتجنيد الإلزامي لكل الذكور ما بين السابعة عشرة والأربعين، مع عدم قبول أي بديل (بمعنى عدم قبول تطوع شخص بدلاً عن الآخر) وكان هذا في اليوم نفسه الذي ناشد فيه شعبه القتال لتحرير البلاد. وعندما بدأ ربيع سنة 3181 كان لدى بروسيا 000,06 رجل مدرّب ومستعد للخدمة العسكرية. ومن بين الجيوش المختلفة التي كانت قد أتت من روسيا، كان هناك 000,05 رجل صالحين للقتال. وبهؤلاء الجنود البالغ عددهم 000,011 (5) دخل إسكندر وفريديريك وليم المعركة التي كان عليها أن تقرر مصير نابليون وتكوين أوروبا. وقد تحقق من أن هذا العدد قد لا يكون كافياً فراحا يبحثان عن حلفاء يمكنهم المساهمة بالرجال والأموال. وظلت النمسا لفترة على إخلاصها لتحالفها مع فرنسا فقد كانت تخشى أن تكون أول من يتعرض لهجوم نابليون إن هي انضمت إلى الحلف الجديد، وتذكر فرانسيس الثاني أن له أختاً في التاج الفرنسي. وكان الأمير بيرنادوت Bernadotte قد وعد إسكندر بتقديم 000,03 جندي له (6) لكنه شغل معظمهم بفتح النرويج. أما إنجلترا فتعهدت بتقديم مليوني جنيه إسترليني لدعم هذه المعركة الجديدة بنهاية شهر أبريل، وفتحت بروسيا موانئها للبضائع البريطانية وسرعان ما وصلت هذه البضائع بكميات كبيرة إلى المخازن على نهر إلبا (إلبه Elbe). ومات كوتوزوف Kutuzov في سيليزيا Silesia في 82 أبريل، وكان لا يزال ينصح الروس بالعودة إلى بلادهم، وأمر إسكندر بأن يتولى بارسلي دي تولى Tolly أمر الجيش الروسي بعد موت كوتوزوف، لكن إسكندر احتفظ بالقيادة العليا لنفسه (جعل من نفسه قائداً أعلى للقوات المسلحة). إنه (إسكندر) قد انطلق ليحقق في تقدمه غرباً كل ما

كان يريد نابليون تحقيقه في تقدمه شرقاً: وأن يغزو بلاد العدو ويهزم جيوشه ويستولي على عاصمته ويجبره على التخلي عن عرشه، ويجبره على السلام.

صفحة رقم : 14755

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى إلبا -> إلى براغ

2- إلى براغ

وفي هذه الأثناء كان نابليون يحارب للاحتفاظ بمكانه في فرنسا ولم يعد مفتوناً بانتصاراته. وكاد يتعین على كل أسرة في فرنسا أن تسلّم ابنا أو أختاً من أبنائها. لقد كانت الطبقة الوسطى قد رحبت بنابليون كحامٍ لها، لكنه الآن أصبح ملكياً أكثر من البوربون وحلّق حوله الملكيين الذين كانوا قد تأمروا الخلع. ولم يكن القسس يتقون في نابليون، وكان الجنرالات الفرنسيون يتمنون السلام. وكان نابليون نفسه قد تعب من الحرب. لقد تضخم بطنه (كرشه) وأرهقته الآلام وكبر سنه وبطؤ تفكيره وتذبذبت إرادته، ولم يعد قادراً أن يستخلص من جوهر النصر فتنة تدعوه إلى مزيد من المعارك أو تفتح شهيته للحكم. كيف يستطيع هذا الرجل المرهق أن يجد في هذه الأمة المرهقة الموارد البشرية المطلوبة لمواجهة أعداء في ذروة الاندفاع؟

لكن اعترازه بنفسه وفخره كانا هما آخر قوة يركن إليها. فهذا القيصر الغادر، هذا الراقص الوسيم الذي يلعب دور الجنرال، وهذا الجيش الذي يصيبه الرعب أمام القوزاق - جيش فريدريك، وهذا المارشال الفرنسي الذي تخلى عن قضية وطنه والمفترض أنه سيقود الجيش السويسري ضد بلاده (فرنسا) - كل أولئك لن يجدوا الشجاعة والمهارة والسرعة التي تحلى بها الجندي الفرنسي، والتي تتحلى بها أمة قوية متحمسة لحماية أرقى الحضارات في أوروبا. قال نابليون في ديسمبر سنة 2181 في دعوة يانسة لاستنهاض الفخر العنصري من الآن فصاعداً ليس لأوروبا إلا عدو واحد - الصنم الروسي الكبير (7).

ومن ثمّ فرض الضرائب وتفاوض للحصول على القروض، وسحب من رصيده المالي في أفيية التوليري، وأصدر الأوامر باستدعاء دفعة التجنيد الإجباري لسنة 3181 للخدمة العسكرية الفعلية، وأن يتم تدريب دفعة 4181، كما أمر بإعداد الكتائب العسكرية التي كانت معدة للخدمة داخل فرنسا، لتكون مستعدة للحرب خارجها كما أمر بإبرام عقود لتمويل جيشه بالذخائر والملابس والأسلحة والخيول والطعام. ونظم أمور التدريب والتقدم والمعارك بمركزه الكتائب المدربة في مواقع بعينها، وجعلها مستعدة كي ينضم بعضها إلى بعضها الآخر عند صدور الأوامر، لتكون معاً في المكان المحدد والزمان المحدد. وفي منتصف أبريل كان قد نظم جيشاً بلغ تعداده 000,052 رجل. وعين وصيّ regent ماري لويز ليقوم مقامه عند غيابه في الجبهة وجعل من مينيفال Meneval سكرتيراً لها، وكان مينيفال هو سكرتيره المرهق، وغادر نابليون باريس في 51 أبريل لمقابلة جيوشه في مين Main وإلبي Elbe (مفهوم أنه نهر إلبا وليس الجزيرة المعروفة).

وسار يوجين جنوباً ومعها البقية الناجية من الفاجعة الروسية (الهزيمة في روسيا) ومعها أيضاً جنود تم استدعاؤهم من مواقعهم في ألمانيا، وأقبل من الجنوب برتران Bertrand. وبهؤلاء الرجال الموثوق بهم على رأس ميسرته وميمنته تحرك نابليون متقدماً بجيشه (جيش مين Main)، وفي 2 مايو قابل من لينتزن Lutzen بالقرب من ليبنتسج (ليبيزج Leipzig) جيشاً متحالفاً بقيادة الجنرال الروسي ويتجنستن Wittgenstein وبرعاية القيصر والملك. عدد الجنود الفرنسيين الآن 000,051، وعدد الجنود الروس 000,85 أما الجنود البروس فعدددهم 000,54 وربما ليشجع

الإمبراطور جنوده ويزيد من حماسهم راح يخاطر بنفسه في مقدّمة الجيش، فقد كتب المارشال مارمون Marshal Marmont: ربما كان هذا اليوم قد شهد مخاطرته بنفسه كأشد ما تكون المخاطرة في ميدان المعركة (8). وهُزم الحلفاء وتراجعوا لكن بعد أن كبدوا الفرنسيين 02،000 رجل (أي بخسارة تزيد بمقدار 0008 عن خسائر أعدائهم) (9).

لكن فريدريك أغسطس الأول ملك سكسونيا قرر ضم جيشه البالغ عدده 01،000 جندي إلى القوات الفرنسية خوفاً من جارتها النمسا، فكان في ذلك - إلى حد ما - عزاء لنابليون. وفي 9 مايو أصبحت دريسدن عاصمة فريدريك أغسطس قاعدة لنابليون يقود منها معركتين.

ومخافة أن تنضم النمسا إلى الحلفاء لمحاولة الاستيلاء مرة أخرى على شمال إيطاليا، أرسل نابليون قائده يوجين إلى ميلان Milan لإعادة بناء جيشه هناك ومراقبة الثوريين الإيطاليين. وغادر نابليون - نفسه - دريسدن في 81 مايو أملاً أن يحقق نصراً أكثر حسماً على المتحالفين ضده الذين أعادوا تنظيم أنفسهم في بوتزن Bautzen إلى الشرق من دريسدن بثلاثين ميلاً، فأرسل قائده ني Ney ليتقدم في نصف دائرة مُلتقاً حول العدو مهاجماً إياه من المؤخرة، بينما هو نفسه (نابليون) يقود الجيش الرئيسي ليشن هجوماً على مقدمة العدو، وتأخر ني Ney فلم يستطع منع الحلفاء الذين هزمهم نابليون من التراجع إلى سيليزيا Silesia بعد أن فقدوا 51،000 مقاتل. وتقدم نابليون إلى الأودر Oder وضم جنود الحامية الفرنسية في جلوجاو Glogau إلى جيشه. لقد كتب أحد المهاجرين الفرنسيين (الذين تركوا فرنسا عقب أحداث الثورة الفرنسية) واسمه روجر دي داماس Roger de Damas معبراً عن غضبه: إن الإمبراطورية الفرنسية قد حلت بها نكبة ومع هذا فقد خرجت منتصرة (01).

وفي هذه اللحظة وبينما كان نابليون يتحرك على طول الأودر Oder ويضم حاميات فرنسية أخرى إلى جيشه، استمع نابليون إلى عرض ميترنيخ بتوسط النمسا لترتيب سلام بين القوى المتحاربة. وحثه بيرثيه Berthier باسم الجنرالات، وكولينكور Caulencourt باسم الدبلوماسيين على القبول خوفاً من حرب طويلة مع حلفاء متحدين لهم موارد لا تتفد، بينما فرنسا منقسمة مستنزفة، وأحس نابليون بمؤامرة (فخ) لكنه كان يأمل في أن عقد هدنة سيُتيح له وقتاً لتجنيد مزيد من الجنود وتعزيز سلاح الفرسان في جيشه، كما خشي من أن رفضه عرض ميترنيخ قد يؤدي إلى انضمام النمسا إلى المتحالفين ضده. وتم ترتيب أمور الهدنة في بلايسفيتز (بلايسفيتس) (Pleisswitz 4 يونيو) وكانت هذه الهدنة لمدة شهرين ثم مُدّت في وقت لاحق إلى 01 أغسطس. وسحب نابليون قواته إلى دريسدن وأصدر توجيهاته باستكمال كتائبه واتجه إلى مينز (مينتس Mainz) ليقضي بعض الوقت مع ماري لويز فربما تستطيع أن تحت أباها على مواصلة تحالفه مع فرنسا، ذلك التحالف الذي كانت هي ضمّانه. وفي هذه الأثناء راح ميترنيخ يزيد عدد الجيش النمساوي ويقوّيه بالمعدّات اللازمة متظاهراً بأن ذلك العمل موجه ضد أعداء نابليون (المتحالفين). واستفاد المتحالفون ضد نابليون من الهدنة. لقد رحبوا ببيراندوت Bernadotte الذي جعل الآن جيشه المكون من 52،000 مقاتل في خدمة قضيتهم. وأتى معه مورو Moreau الذي كان قد أُنهمَ بارتباطه بمتآمرين لقتل نابليون وسُمح له بالهجرة إلى أمريكا. لقد عاد الآن ليعرض خدماته على الحلفاء باعتباره يعرف أسرار استراتيجية نابليون. لقد ركّز على قاعدة واحدة: تجنبوا المعركة إذا كان نابليون يقودها، واسعوا إليها (المعركة) عندما يكون بعيداً. وكان الحلفاء أكثر سعادة بلورد كاتكار Cathcart الذي قدم لهم في 51 يونيو إعانة مالية مقدارها أربعة ملايين جنيه على ألاّ يعقدوا سلاماً مع نابليون دون موافقة إنجلترا (11).

وفي 72 يونيو قبل المتحالفون ضد نابليون وساطة النمسا واتفقوا على أن يرسل الأطراف الثلاثة مفاوضين إلى براغ لترتيب شروط السلام. وأرسل نابليون كلا من ناربون Narbonne وكولينكور Caulaiccourt على أمل أن يكون اطمئنان إسكندر إلى كولينكور (الذي جعل نابليون معه ناربون لمراقبته) سبباً للوصول إلى نتائج مواتية. وعلى كل حال فإن الشروط التي قُدّمت لنابليون من خلال كولينكور وميترنيخ كانت راجعة في رأيه إلى هزيمته (السابقة) في روسيا وبولندا وإلى الثورة البروسية ضده. لقد طُلب منه أن يُسلم المناطق التي استولى عليها من بروسيا، وأن يترك كل دعاويه في دوقية وارسو (فرسافا)، والدول - المدن الهانسياتية Hanseatic وبوميرانيا وهانوفر وإيليريا Illyria وكونفدرالية الراين. وأنه يمكنه العودة إلى فرنسا ليحتفظ بحدودها الطبيعية وبعرشه وبأسرته الحاكمة لا يتحداها أحد. لكن كان هناك عيب خطير في هذه الاقتراحات: لإنجلترا الحق في إضافة مطالب أخرى، وأن المتحالفين ضد نابليون لن يُوقّعوا سلاماً مع نابليون دون موافقة إنجلترا.

وأرسل نابليون إلى براغ طالباً تأكيداً رسمياً لهذه الشروط، فلم يصله هذا التأكيد إلا في 9 أغسطس مع تحذير من ميترنيخ أن الهدنة ستنتهي في منتصف ليلة العاشر من أغسطس، وسيُنفض مؤتمر الحلفاء في هذا الوقت أيضاً ولا بد أن تصل موافقة نابليون قبل هذا التاريخ. وأرسل نابليون موافقة مشروطة لم تصل إلى براغ حتى إعلان ميترنيخ انتهاء الهدنة وفضّ المؤتمر. وفي 11 أغسطس انضمت النمسا إلى الحلف المضاد لفرنسا، واستؤنفت الحرب.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى إلبا -> إلى الراين

3- إلى الراين

لقد زادت قوات الحلفاء عددا وتمويلا. لقد أصبحت الآن نحو 294.000 مقاتل و 3831 مدفعا، واستقبل نابليون فرقة عسكرية من الدنمرك، ودفعة مجتدين كان ينتظرها وأصبح لديه الآن 044.000 مقاتل و 0021 مدفوع. وكون الحلفاء ثلاثة جيوش: جيش الشمال بقيادة بيرنادوت وتمركز في برلين، وجيش سيليزيا بقيادة بلوشر (بلوخر Blucher) المدفع الذي لا تنقصه الشجاعة، وتخلق جيشه في تشكيلاته المختلفة حول بريسلو (بريسلاو Breslau) والجيش الثالث وهو أكبرها جميعا هو جيش بوهيميا بقيادة الأمير فون سفارتسنبرج Schwarzenberg Vcn المتمركز في براغ. وكونت الجيوش الثلاثة نصف دائرة حول نابليون المتمركز في دريسدن. وترك لكل جيش من هذه الجيوش حرية القتال لشق طريقه إلى باريس بشكل مستقل. وفي مواجهة هذه الجيوش أعد نابليون جيش الميسرة Left بقيادة أودينو Oudinot لإيقاف بيرنادوت، وجيش الوسط بقيادة ني Ney لمراقبة بلوخر Blucher وجيش الميمنة بقيادته هو نفسه (نابليون) لحراسة الطرق التي قد يُطلق عبرها سفارتسنبرج Schwarzenberg من بوهيميا عدداً كبيراً من قواته لقد كانت هناك عيوب في الموقف الفرنسي لم يكن يمكن كما هو واضح تجنبها؛ لم يكن نابليون بقادر على استخدام خطته التي استخدمها في إيطاليا بالتركيز بكل قواته على أحد الجيوش، فهذا قد يؤدي إلى فتح الطريق إلى باريس للجيشين الآخرين أو أحدهما، وكان يتعين على جيشين من جيوشه أن يتحركا بعيداً عن الأثر المحمّس الذي كان يتركه وجوده في صفوف الجيش، وأدى عدم وجوده إلى حرمان هذين الجيشين من مناورته السريعة وتكتيكاته البارعة وفي 21 أغسطس بدأ بلوخر Blucher معركة خريف 3181 بالتحرك غرباً من برسلو (بريسلاو Breslau) لمهاجمة قوات ني Ney من كاتسباخ Katzbach في سكسونيا فأخذهم على غرة وفروا وقد تملكهم الذعر، فاندفع نابليون من جورليتس Gorlitz بحرسه الإمبراطوري وقوات الفرسان بقيادة مورا Murat لإعادة تنظيم قوات ني Ney، وقادهم إلى نصر كلف قوات بلوخر 0006 قتيل (21).

لكن في الوقت نفسه قاد سفارتسنبرج قواته البالغ عددها 000،002 شمالاً في هجوم سريع للاستيلاء على مقر القيادة الفرنسية في دريسدن. واستدار نابليون وكفّ عن متابعة بلوخر Blucher، وقاد 000،001 رجل مسافة 021 ميلاً في أربعة أيام، ووجد أن النمساويين يكادون يتحكمون في كل المرتفعات حول العاصمة السكسونية، وفي 62 أغسطس راح الجيش الفرنسي بقيادة الحرس القديم والحرس الجديد يهتف عاش الإمبراطور وهو - أي الجيش الفرنسي - يقتحم صفوف الأعداء ويحاربهم بضرارة شديدة حتى إن مورا Murat قاد سلاح الفرسان التابع له بتهور شديد كما كان يفعل أيام شبابه لدرجة أنه بعد يومين من المعركة، أمر سفارتسنبرج Schwarzenberg قواته بالتراجع مخلفاً 0006 من رجاله بين قتيل وجريح وأسير. وكان نابليون نفسه يوجه إطلاق المدافع فأصلى العدو ناراً كثيفة حامية (31).

وكان إسكندر يراقب الصراع من فوق تل مكشوف، وكان معه مورو Moreau الذي كان قد أصبح أثيراً لديه. وأصابته ذئفة مدفع ساقى مورو فأطاحت بهما، ومات بعد أيام قليلة وسط جيش القيصر، لكنه صاح وهو يموت: أنا مورو! تصيبني طلقة من الجيش الفرنسي وأموت بين أعداء فرنسا!! (41).

وتعقب فاندام Vandamme النمساويين المنسحبين ولم يتبعه نابليون ولم يقدم له دعماً (كان نابليون قد تعرض لآلام حادة في معدته)، ووقع فاندام في شرك نصبه له العدو فاستسلم مع رجاله البالغين 0007 في 82 أغسطس لأحد أقسام

جيش سفارتسنبرج، وبعد ذلك سرعان ما فقد ني Ney 000،51 من رجاله في اشتباكات مع العدو في دنيقتس (Dennewitz 6 سبتمبر)، وحزن نابليون لأن نصره الذي أحرزه في دريسدن سرعان ما ضاع هباءً. فأرسل (أي نابليون) إلى السينات Senate لاستدعاء 000،021 مجند إلزامي من دفعة 4181 (الدفعة التي يحين وقت تجنيدها في سنة 4181) و 000،061 من دفعة 5181. وكان هؤلاء المجندون الجُدد صغاراً وسيحتاجون لشهور كثيرة لتدريبهم. وفي الوقت نفسه كان 000،06 جندي قد أُضيفوا إل الجيش الروسي، وكانوا ممن تمسوا على الحرب في معركة في بولندا، وفي 8 أكتوبر انضم جيش بافاريا Bavaria إلى أعداء نابليون بعد أن كان يقاتل في صفه. أما وقد أصبح المتحالفون ضد نابليون على هذا القدر من القوة فقد أصبح هدفهم هو الاستيلاء على ليبزج (ليبنتسج) وأن يحسموا الحرب بمعركة تستطيع فيها قواتهم الموحدة إحباط أي استراتيجية نابليونية. وفي أكتوبر قاد كلٌّ من بلوخر Blucher وبنجسن Bennigsen وبيرنادوت Bernadotte وسفارتسنبرج Schwarzenberg ويوجين الفيرتمبرجي of Wurttemberg وغيرهم من الجنرالات - قوات من 000،061 رجل حول المدينة - فاستدعى نابليون جيوشه من الشمال والوسط والجنوب فبلغ تعدادها 000،511 رجل بقيادة مارمون Marmont وإسكندر مكدونالد وأوجيرو Augereau وبرتيران Bertrand وكليمان Kellermann وفيكتر، ومورا Murat وني Ney والأمير جوزيف بونياتوفسكي Poniatowski. قلما وجدنا مثل هذه العبقرية العسكرية وقلما رأينا هذا العدد من الجنسيات تتجمع لتتلاقى في معركة واحدة. إنها معركة الأمم أو كما سماها الألمان (فولكرشلاخت Volkerschlacht) والكلمة تعني حرفياً (مذبحة الشعوب).

واتخذ نابليون موقعاً مكشوفاً في مؤخرة قواته وراح يُوجه تحركاتها طوال ثلاثة أيام من العمليات (61-91 أكتوبر 1813)، على وفق ما قاله (51) (أي نابليون) فقد ظلَّ للفرنسيين اليد العليا حتى 81 أكتوبر وعندها تحول الجنود السكسون Saxon troops إلى القوات المتحالفة ضد نابليون ووجهوا مدافعهم ضدَّ الفرنسيين الذين اعتزتهم الدهشة وغمرتهم الفوضى فبدأوا يفقدون مواقعهم (61). وفي اليوم التالي تخلت كتائب كونفدرالية الراين عن الفرنسيين وانضمت إلى المتحالفين ضدهم. وعندما وجد نابليون أن رجاله بدأت تعوزهم الذخيرة وتعرضوا لخسائر فادحة - أمر بالتراجع (الانسحاب) عبر نهر بليس Pleisse وإلستر Elster. ونجحت معظم القوات الفرنسية في تنفيذ هذا الانسحاب عبر النهرين الأنف ذكرهما لكن مهندساً مُهتاجاً نسف جسراً فوق نهر الإلستر Elster بينما كان بعض الفرنسيين يعبرونه، فغرق كثيرون بمن فيهم بونياتوفسكي الأنيق الذي كان قد حارب في صف نابليون ببراعة حتى إنه (أي نابليون) رماه في ميدان المعركة إلى رتبة مارشال. ولم يصل من بين 000،511 من الجنود الذين حاربوا مع نابليون في ليبزج إلى نهر سال Saale إلا 000،06، لقد وقع الآلاف أسرى، وتلقى الفرنسيون الذين وصلوا إلى نهر سال غذاءً وكساءً ومؤناً ثم وصلوا طريقهم غرباً إلى المين Main عند هاناو Hanau وهناك حاربوا قوات نمساوية وبافارية وهزموا في 21 نوفمبر وصلوا إلى الراين عند مينز (مينتس Mainz) بعد أسبوعين من الفرار، وعبروا النهر إلى فرنسا.

صفحة رقم : 14757

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى إلبا -> الانكسار

لقد بدا نابليون وقد لحقه انكسار لا انجبار بعده. فقد كان جيشه (الآن) مكوناً من 000,06 مقاتل مهزومين ومُحبطين ومستنفدين، يحتشدون على غير هدى على ضفة الراين، أما القوات الفرنسية في ألمانيا فكانت مجمدة لا يمكن تعبئتها. لقد كانت قواته البالغة 000,06 (الأنف ذكرها) والمحتشدة عند ضفة الراين بغير سلاح وبغير ملابس وقد تقشى فيهم التيفوس الذي راحوا يصيبون به كل المناطق التي مرّوا بها (71) وراحت الأخبار المحبطة تأتي من كل اتجاه. ففي إيطاليا كان يوجين قد استطاع بشق النفس أن يجمع قوة من 000,63 رجل لكنه أصبح الآن في مواجهة 000,06 جندي نمساوي عبّر الأديج Adige. وفي نابلي راح مورا Murat يتأمر لإنقاذ عرشه بالتخلي عن نابليون ومناصرة المتحالفين ضدّه. وفي الأراضي المنخفضة أطاحت ثورة داخلية تدعمها قوات بروسية بقيادة بولو Bulow بالحكم الفرنسي (نوفمبر 3181) وأحكمت قوات إنجليزية قبضتها على الشيلدت Scheldt وعادت أسرة أورنج orange وهرب جيروم من وستفاليا (فستفاليا). ومن إسبانيا عبر ويلينجتون Wellington المنتصر البيداسوا Bidassoa إلى فرنسا (7 أكتوبر) وفرض حصاراً على بايون Bayonne في ديسمبر.

وبدت فرنسا نفسها ممزقة، فقد أدى ضياع إسبانيا، واضطراب الحركة التجارية مع ألمانيا وإيطاليا إلى أزمة اقتصادية فأفلست البنوك وأغلقت المصانع أبوابها، وأعقب إغلاق بيت جاباش Jabach للتمويل، سلسلة من عمليات الإفلاس. وهبطت البورصة من 08 في شهر يناير إلى 74 من شهر ديسمبر. وراح آلاف المتعطّلين يتسكعون في الشوارع أو يخفون فقرهم بالاعتكاف في بيوتهم أو يلتحقون بالجيش لياكلوا وتمرد الشعب احتجاجاً على المزيد من التجنيد الإلزامي، واحتجت الطبقة الوسطى على رفع الضرائب، وطالب الملكيون بتولي لويس الثامن عشر العرش، لقد راحت كل الطبقات تطالب بالسلام.

ووصل نابليون إلى باريس في 9 نوفمبر فرحبت به مليكته غير السعيدة وابنه المرح، وراح يعمل على إقامة جيش جديد من 000,003 مقاتل كضرورة أولى للحرب أو السلام. لقد أرسل المهندسين لإصلاح الطرق لجبهات جديدة وإعادة الأسوار إلى المدن ولبناء الحصون، وللاستعداد لحفر الخنادق وتدمير الجسور عند الضرورة لإعاقة تقدم الغزاة. وصادر الخيول لسلاح الفرسان وأمر بإعداد المدافع من السبائك كما أمر بإعداد الأسلحة والذخائر للمشاة وراح يسحب المزيد من الأموال التي ادخرها من أقبية التوليري، وراحت الأمة تنتظر إليه باستغراب وخوف معجبة بقدرته على استعادة رباطه جائسه وطاقته التي لا تنفذ كما أصابها الرعب مخافة عام جديد مليء بالحروب.

أما الحلفاء (القوى المتحالفة ضد نابليون) فقد تردّدوا أمام الراين وبسبب حلول الشتاء، فأرسلوا له من فرانكفورت في 9 نوفمبر عرضاً غير رسمي وغير موقع لإحلال السلام: أن تحتفظ فرنسا بحدودها الطبيعية - الراين، والألب، والبرانس، وأن تتخلى عن دعاويها كلها فيما وراء ذلك (81). وفي الثاني من شهر ديسمبر أجاب نابليون من خلال وزير الشؤون الخارجية (كولينكور) بالموافقة. وعلى أية حال فإن ثورة هولندا أنهت السيطرة الفرنسية على مصاب الراين. وساعد الحلفاء هذه الثورة وسحبوا موافقتهم على مبدأ الحدود الطبيعية لفرنسا (91).

بل لقد أصدروا في 5 ديسمبر إعلان فرانكفورت: إن القوى المتحالفة لا تشن الحرب على فرنسا. فملوك وحكام أوروبا يريدون أن تكون فرنسا عظيمة قوية سعيدة..

فالقوى المتحالفة تؤيد الإمبراطورية الفرنسية في امتلاك مناطق لم يحدث أبداً أن كانت تحت حكم ملوكها (02). لم تكن المسألة في حاجة إلى مزيد من الجهد لإبعاد الشعب عن إمبراطوره، فقد كان السينات Senate والهيئة التشريعية معارضين له علناً مطالبين بدستور يضمن الحرية.

وفي 12 ديسمبر عبر الحلفاء نهر الراين إلى فرنسا. وفي 92 ديسمبر أرسل السينات إلى نابليون تأييده وتأكيد أنه موالٍ له. لكن في اليوم نفسه قرأ لينيه Laine - أحد الأعضاء الملكيين من بورديو - على المجلس التشريعي تقريراً ينتقد فيه أخطاء وتجاوزات الإدارة الإمبراطورية، ممتدحاً الحكم السعيد على أيام البوربون، ومرحّباً بالمتحالفين ضد نابليون الذين يرغبون في الإبقاء علينا ضمن نطاق حدود بلادنا، والذين يودون كبح النشاطات الطموحة التي أدت طوال العشرين سنة الماضية إلى إيذاء كل شعوب أوروبا (12). وصوّت المجلس التشريعي بواقع 322 ضد 13 بالسماح بطبع تقرير لينيه Laine. وفي مساء ذلك اليوم أمر نابليون بإنهاء الدورة التشريعية للمجلس، وأجاب بهياج شديد غاضباً مرهقاً:

من المؤكّد أنّه عندما يكون علينا أن نطرد العدو من بلادنا، فإن هذا الوقت يكون غير ملائم لمطالبتني بدستور. إنكم لستم ممثلي الأمة فأنتم مجرد مندوبين أرسلتهم الدوائر (المحافظات).. إنني أنا وحدي ممثل الأمة. ومع ذلك، فما هو العرش؟ أهو أربع قطع من الخشب المموّه بالذهب تغطيه القطيفة (المخمل)؟ لا، إنه ليس كذلك، إنه شاغله، وأنا شاغله. إنني أنا الذي أستطيع إنقاذ فرنسا، وليس أنتم! إنني إن أصغيت لكم لسلمت للعدو أكثر مما يطلب. إنكم ستحصلون على السلام في ثلاثة أشهر أو أهلك (22).

وبعد أن تخلى عنه المندوبون المصدومون، أرسل (أي نابليون) يستعدي بعض الشيوخ Senators الذين وقع عليهم اختياره وشرح لهم سياسته لإحلال السلام وخطط مفاوضاته، وانتهى باعتراف كسير، كما لو كان يعترف أمام محكمة التاريخ:

إنني لا أخاف من الاعتراف أنني قد أطلت أمد الحرب كثيراً. لقد كنت مقتنعاً بمشروعات واسعة المدى. لقد كنت راغباً في أن أؤمّن لفرنسا إمبراطورية العالم (حكم العالم). لقد كنتُ مخطئاً، فهذه المشروعات لم تكن متناسبة مع عدد سكان فرنسا، لقد كنتُ سأجد نفسي مضطراً لتجنيد الشعب الفرنسي كله، وإنني مقتنع الآن بأن تقدم المجتمع ورفاهية الدولة وازدهارها الأخلاقي والمعنوي لا يتفق مع تحويل الشعب كله إلى أمة من الجنود. ولا بد أن أكفر عن أخطائي التي ارتكبتها بركوني كثيراً جداً إلى حظي السعيد، إنني سأكفر عن أخطائي، إنني سأبرم اتفاق سلام، على وفق الشروط التي تملئها الظروف، وهذا السلام لن يكون فيه خزي إلا لي وحدي، فسيكون عليّ وحدي أن أؤدع نفسي، وسيجب عليّ وحدي أن أعاني، وليس فرنسا. إن فرنسا لم ترتكب أي خطأ، فهي قد بذلت دماءها لي ولم تبخل عليّ بأية تضحيات..

أذهبوا إذن أيها السادة إلى دوائركم (محافظاتكم) لأنني على وشك إبرام اتفاق سلام، فأنا لن أطلب من الفرنسيين بعد الآن أن يبذلوا دماءهم لمشروعاتي ولي.. لكن لفرنسا ولسلامة أراضيها (حدودها). أخبروا مواطنكم أنني لا أطلب منهم سوى الوسائل التي تعين على طرد العدو الأجنبي من أراضي الوطن. قولوا لهم إن العدو قد غزا الألزاس ونافار Navarre وبيارن Bearn. قولوا لهم إنني أدعو الفرنسيين لمد يد العون للحرية(32).

وفي 12 يناير أمر مندوبيه بإطلاق سراح البابا بيوس السابع من محبسه في فونتينبلو Fontainebleau وترتيب الأمر لعودته إلى إيطاليا. وفي 32 يناير جمع من التوليري ضباط الحرس الوطني وقدم لهم الإمبراطورة (زوجته) وابنه (ملك روما) الذي كان وسيماً ولم يكن قد بلغ الثالثة من عمره بعد وأوصاهما بالاهتمام بالحرس. ومرة أخرى عين ماري لويص وصية على العرش في أثناء غيابه، وفي هذه المرة عين أيضاً أخاه جوزيف ليفيتينانت جنرال للإمبراطورية والقائم بالأعمال الإدارية للإمبراطورة. وفي يوم 42 من يناير أحيط علماً بأن مورا Murat قد انحاز إلى الحلفاء (المتحالفين ضد نابليون) وأنه يتقدم من نابلي على رأس 81,000 مقاتل ليساعد في طرد يوجين من إيطاليا. ومن هذا اليوم نفسه ودّع نابليون زوجته وابنه لآخر مرة، فلن يتأتى له رؤيتهما بعد ذلك، وغادر باريس لينضم إلى جيشه الذي أعيد تكوينه ليتحدى غزاة فرنسا.

صفحة رقم : 14758

قصة الحضارة - عصر نابليون - خاتمة المطاف - إلى إلبا - إلى باريس

5- إلى باريس

لقد راح الحلفاء يتقدمون في صفوف يقترب بعضها من بعض لتتجمع في نقطة واحدة، وكانت عيونهم هذه المرة على باريس. لقد سرق (بالمعنى الحرفي للكلمة) سفارتسنبرج Schwarzenberg طريقه من الفرنسيين بعبوره نهر الراين عند بازل على رأس 061,000 من رجاله وانتهك الحياد السويسري إذ تغاضت الأوليجاركيات السويسرية بسعادة عن تحركاته، وتحرك بسرعة عبر الكانتونات واستولى على جنيف التي لم تُبد دفاعاً، وظهر من الأراضي الفرنسية لمسافة أبعد بمائة ميل مما كان يتوقع الفرنسيون، وأسرع بالاتجاه شمالاً نحو نانسي Nancy على أمل الانضمام إلى قوات بلوخر Blucher أو التنسيق معه هناك.

وكان نابليون قد أمر الجيوش الفرنسية أن يفاجئوا العدو بمعارك غير متوقعة في إيطاليا وجنوب شرق فرنسا، ومن ثمّ يتجهون شمالاً لاعتراض سبيل سفارتسبرج أو على الأقل إبطاء مسيرته، لكن النمساويين عطلوا حركة يوجين. وفي هذه الأثناء عبر بلوخر Blucher بجيشه جيش سيليزيا المكون من 000,06 مقاتل لازالوا أقياء - نهر الراين عند مينز (مينتس Maiz) ومانهايم Mannheim وكولنز (كوبلنتس Coblenz) وراح يتقدم بلا مقاومة تقريباً إلى نانسي Nancy حيث استقبله حكامها وجمهورها مع جنوده البروس كمخلصين من طغيان نابليون(42). أما بير نادوت فإنه بعد أن فقد أمه في أن يخلف نابليون كحاكم لفرنسا، وجدناه يتخلى عن الحلفاء بعد ليبزج (ليبسج Leipzig) ليضرب الدنمركيين ليتخلوا عن النزوح للسويد (41 يناير 1814) وبعد أن أتم هذه المهمة انضم بجيشه إلى بلوخر Blucher في الزحف تجاه باريس.

ولم تجسر القوات الفرنسية التي تركها نابليون في شرق فرنسا على مواجهة قوات بلوخر Blucher أو قوات سفارتسبرج لقد تراجع ني Ney غرباً من نانسي، وتراجع مورتييه Mortier من لانجر Langers وتراجع مارمون Marmont من ميتز Metz وراحوا ينتظرون قدوم نابليون.

لقد أحضر نابليون معه إلى مقر قيادته الجديد في شالون - سير - مارن Chalons - Sur - Marne (التي لا تبعد عن باريس سوى خمسة وتسعين ميلاً) نحو 000,06 مجنّد ليُضافوا إلى 000,06 ممن بقوا أحياء بعد ليبزج (ليبسج) بقيادة ني Ney ومارمون Marmont ومورتييه وبذلك أصبح تحت قيادته 000,021 كان عليه أن يوقف بهم جنود بلوخر وسفارتسبرج البالغ عددهم 000,022.

لقد كان نابليون ملتزماً بسياسة عدم السماح لقوات الحلفاء بالاندماج معاً ومنعهم من أن يكونوا قوة واحدة، مع تجنّب مواجهة قوات سفارتسبرج، وإيقاف أو تأخير تقدمها نحو باريس بإحراز انتصارات سهلة على كتائب الحلفاء البعيدة عن مركز القيادة الرئيسي، وبذلك لا تواجه القوات الفرنسية قوات الحلفاء الرئيسية.

لقد كانت معركة 1814 إحدى أكثر معارك نابليون براعة من الناحية الإستراتيجية، لكنها أيضاً كانت واحدة من أكثرها خسائر وأخطاء بسبب ندرة التعزيزات العسكرية. وقد وقع بلوخر بدوره في كثير من الأخطاء، لكنه كاد لا يكون عرضة للهزيمة أو قلة الموارد بسبب كل هؤلاء الجنرالات المعارضين لنابليون الآن أو بعد ذلك. وكان سفارتسبرج أكثر حذراً، وكان هذا في جانب منه لطبيعته الخاصة، كما كان في جانب آخر منه لأنه كان يصحب القيصر إسكندر والامبراطور فرانسيس الثاني.

وأدت بعض الانتصارات الميدانية التي أحرزها نابليون إلى إفراطه في الثقة (ثقة لم تكن في محلها). لقد أسر رجال بلوخر وهم يتناولون طعامهم أو ينعمون بقطعة من الراحة في برين (Brienne 92 يناير 1814) وكادت قواته تأسر بلوخر نفسه. وتراجعت قوات بلوخر، لكن نابليون كان حكيماً فلم يتعقبه لأن جيشه (أي جيش نابليون) كان قد خسر 000,4 مقاتل، كما لم يكن أمامه (أي نابليون) إلا مجال ضيق للهروب: لقد كان البروس يقترّبون منه وسيوفهم مُصلّته، عندما أقدم الجنرال جورجو Gourgeaud على إطلاق النار على تابعه الذي تجاوز حده فأرداه قتيلاً. وحزن نابليون بسبب الدمار الذي أحدثته المعركة في المدينة وفي مدرستها الشهيرة التي تلقى فيها تعليمه وتدريبه العسكري، ووعد بإعادتهما (المدينة والمدرسة) إلى ما كانتا عليه بعد طرد الغزاة من فرنسا(52).

واندفع سفارتسبرج فلم يكن لديه وقت للتفكير، لدعم بلوخر، فوجد جنود نابليون المنتصرين وهم يكادون يكونون محاصرين بمائة ألف جندي نمساوي وبروسي وروسي في لاروثيير La Rothiere (أول فبراير) فلم يكن لدى نابليون سوى خيار واحد هو أن يحارب، فقاد المعركة بنفسه. وكانت المعركة تكاد تكون متعادلة (لم يحقق أي من الطرفين انتصاراً حاسماً)، لكن تعادل الفريقين المتقاتلين في الخسائر كان كارثة بالنسبة إلى الفرنسيين الذين قادهم الإمبراطور منسحباً إلى تروي Troyes، وقرر بلوخر ألا يتبع سفارتسبرج في حذره، فانفصل عنه بقواته وقرر مواصلة طريقه إلى باريس عبر المارن Marne بينما يتابع النمساويون طريقهم على طول السين Seine. وكانت قوات الحلفاء واثقة من النصر حتى إنها أجرت الترتيبات لتتلاقى عند القصر الملكي في الأسبوع المقبل(62).

وبعد أن أتاح نابليون لجيشه الجريح أسبوع راحة أسند جانباً منه إلى قائده فكتور Victor وأودينو Oudinot لإعاقه تقدم سفارتسبرج، وتقدم هو نفسه (نابليون) على رأس 000,06 مقاتل عبر مستنقعات سان جون St. Gond كطريق مختصر إلى شامبوبرت Champaubert. وهناك لحقوا بمؤخرة قوات بلوخر، وقاد مارمون Marmont القوات الفرنسية في نصر حاسم (01 فبراير)، واندفعت القوات الفرنسية فالتقت بعد ذلك بيوم بقسم من جيش بلوخر عند مونتيريال Montmirial، وكان كل من نابليون وبلوخر حاضرين في المعركة، لكن مارمون Marmont أثبت مرة أخرى أنه بطل المواجهة، ففي 41 فبراير التحمت القوتان في معركة أكبر في فوشامب Vouchamps، وقاد نابليون جيشه الذي أصبح الآن أكثر ثقة - إلى النصر. لقد فقد بلوخر في غضون أربعة أيام 000,03 من رجاله(72). وأرسل نابليون 0008 أسير ليتم عرضهم في باريس لرفع الروح المعنوية للمواطنين الفرنسيين(82).

وعلى أية حال فإن سفارتسنبرج كان في هذه الأثناء يلاحق قوات أودينو Oudinot وفيكتور Victor حتى كاد يصل إلى فونتينبلو Fountainbleau. لقد أصبح في إمكان الجيش النمساوي البروسي القيام بهجوم شامل كي يصل مع الإمبراطورين إلى باريس في غضون أربعة أيام. وصُدِم نابليون بهذا التعزيز الذي محق كل انتصاراته فترك مارمون Mormont لمواجهة بلوخر الذي اعترت قواته الإرهاق (على الأقل)، واندفع جنوباً على رأس 07،000 من قواته والتقى بأحد جيوش الحلفاء في مونتر و Montereau بقيادة فيتجنشتاين Wittgenstein وهزمه (81 فبراير) وتمركز في نانجي Nangis وأرسل كلا من فيكتور Victor وأودينو Oudinot لمهاجمة قوات سفارتسنبرج من الجناحين والمؤخرة. ووجد سفارتسنبرج أن قواته في وضع خطر من ثلاث جهات ففكر هذا القائد النمساوي أن الوقت قد أصبح مناسباً لعرض الهدنة على نابليون، الذي أجاب أنه يستطيع الموافقة على وقف إطلاق النيران في حالة واحدة وهي أن يضمن الحلفاء ما عرضه في فرانكفورت والقاضي بضممان حقوق فرنسا في حدودها الطبيعية.

وتشاور الحلفاء في هذا العرض الذي يعني انسحابهم إلى ما وراء الراين وأنهوا المفاوضات، ولم يضعوا في اعتبارهم عرض نابليون، وأكدوا تحالفهم لمدة عشرين عاماً أخرى في شومون Chaumont في 9 مارس، وتراجع سفارتسنبرج إلى تروي Troyes وكان لا يزال معه 001،000 مقاتل.

وراح نابليون يلاحقه بحذر على رأس 04،000 مقاتل. وفي هذه الأثناء علم أن بلوخر أعاد تكوين قواته وتشكيلها وأنه راح - مرة أخرى - يشق طريقه إلى باريس على رأس 05،000 مقاتل، فترك (أي نابليون) كلا من أودينو Oudinot ومكدونالد Macdonald وإتين - موريس - جيرار Etienne - Maurice Gerard لمناوشة قوات سفارتسنبرج وعاد برجاله من السين إلى المارن Marne، ودمج بين قوات مارمون ومورتنيه Mortier على أمل الإيقاع بقوات بلوشر (بوخلر) عند نهر آسن Aisne حيث لا يمكن للقوات البروسية أن تهرب إلا من فوق جسر سويسون Soissons، لكن جيشين آخرين من جيوش الحلفاء (05،000 مقاتل) تحركا من الشمال وانقضا على جسر سويسون Soissons، وأرهبوا القائد الفرنسي على تسليم الجسر والمدينة، فعبرت قوات بلوخر Blucher الجسر وأحرقته (بعد العبور) وانضمت إلى القوات المنقذة (بكسر القاف) فأصبح إجمالي عدد القوات 001،000، وتعقبهم نابليون على رأس 05،000 وقاتلهم بشكل غير حاسم في كرون CRAonne ولاقى الهزيمة في معركة شرسة استمرت يومين في لون (9-01 مارس).

وترك نابليون كلا من مارمون، ومورتنيه لمواجهة بلوشر (بلوخر) وراح مرة أخرى ينتقل من مواجهة عدو إلى مواجهة عدو آخر، وفي أرسى - سير - أوبى Arcis - Sur - Aube (في 02 مارس) بدأ حرباً عنيفة مجنونة بمن بقي معه (02،000) مع جيش سفارتسنبرج (09،000 من الجنود الأقوياء) وبعد يومين من المذابح والحرب البطولية اعترف بالهزيمة وعبّر الأوبي Aube لإتاحة مكان ملائم لجيشه المستنزف كي يستريح.

لقد أصبح نابليون مرة أخرى على وشك الانتهاء. لقد أصبح حاد المزاج لتوتر أعصابه واعتلال جسده وراح يوبخ ضباطه بشكل غاضب مع أنهم خاطروا بحياتهم من أجله في حرب إثر حرب. لقد حذرته ذاكرين أنه لن يتلقى تعزيزات عسكرية أخرى من أمة تعبت من العظمة وتلبستها اللامبالاة. وراحت الحكومة التي تركها وراءه في باريس - حتى أخوه جوزيف - ترسل له مناشدات لإبرام السلام بأي ثمن.

وفي حالة اليأس هذه قرر نابليون أن يخاطر بكل شيء بالقيام بهجوم آخر يتسم باستراتيجية خيالية. سيترك أفضل جنرالاته لإيقاف تقدم قوات الحلفاء على قدر ما يستطيعون، ويتجه هو (أي نابليون) بقوات غير كثيرة العدد إلى ناحية الشرق ويحرر الجنود الفرنسيين المحتجزين في الحصون الألمانية على طول نهر الراين، وبهؤلاء الجنود المتمرسين على القتال بالإضافة لكتيبة (كتيبة نابليون) المزودة بالمدافع يقطع خطوط مواصلات العدو ويمنع عنه المؤن، ويهاجم مؤخرة حراساتهم ويجبرهم على عدم متابعة تقدمهم، فيمكن بذلك أن تستعيد باريس روحها المعنوية العالية بفضل شجاعته فتبني دفاعاتها، وتتحدى غزاتها. وفي لحظة أكثر تعقلاً أرسل نابليون تعليمات إلى جوزيف مفادها أنه إذا كان التسليم وشيكاً فإن على الحكومة أن تصحب ماري لويز ، وملك روما (ابنه إلى مكان آمن وراء نهر اللوار حيث يمكن تجميع كل القوات الفرنسية المتاحة لخوض معركة أخيرة.

وبينما كان نابليون يقود قواته المندھشة شرقاً، راح الحلفاء يوماً بعد يوم يحطمون مقاومة بقايا الجيش الفرنسي، ويتحركون ليقتربوا أكثر فأكثر من نهاية رحلتهم الطويلة. وبقي فرانسيس الثاني عند ديجون Dijon غير راغب بالمشاركة في إذلال ابنته، وكان فريدريك وليام الثالث معتدلاً كالعادة، إذ شعر أنه ثار لتحطيم جيشه وتمزيق بلاده وإبعاده منفياً عن عاصمته، أما إسكندر فقد كان فخوراً متوتراً فلم يعد يجد سعادته في المذابح اليومية، ونظر إلى نفسه باعتباره قد أنجز ما وعد به في فيلنا Vilna من تطهير روسيا ممن دس موسكو وحرر أوروبا من جنون القوة ممثلة في هذا الكورسيكي (نابليون).

وفي 52 مارس قام مارمون ومورتييه بمحاولة يائسة لوقف تقدم الحلفاء عند لافير - شامبنواز Lafere Champeniose على بعد مائة ميل من باريس، فحارب الفرنسيون بشجاعة منقطعة النظير مع أن قواتهم كانت نصف قوات العدو، حتى أن إسكندر نفسه تقدم إلى ساحة المعركة وأمر بإيقاف هذه المذبحة غير المتكافئة وصاح قائلاً: أريد إنقاذ هؤلاء الشجعان "Je veux Sauver ces braves" وبعد انتهاء المعركة أعاد المنتصرون إلى الجنرالات المهزومين وخبولهم وسيوفهم (92). وانسحب مارمون ومورتييه إلى باريس استعداداً للدفاع عن العاصمة. ووصل بلوخر وشفارتسبرج إلى ضواحي باريس في 92 مارس، وأصيب المواطنون الباريسيون بالذعر بسبب أصوات قذائف المدافع، وفرار الفلاحين إلى المدينة، وأصاب الذعر أيضاً 21،000 من أفراد الميليشيا الذين كان معظمهم غير مسلحين سوى بالرمح، وهم مدعوون الآن لمساعدة الجيش الفرنسي المقيم في باريس بشغل حصون العاصمة والتمركز فوق تلالها. وكان جوزيف يتوسل إلى الإمبراطورة الوصية على العرش منذ مدة لمغادرة العاصمة على وفق ماكان نابليون قد وجه به، وقد امتثلت الإمبراطورة الآن للطلب لكن ليجلومص Aiglon قاوم إلا أن جلبة المعركة التي أصبحت وشيكة، جعلته يذعن.

وفي 03 مارس بدأ الغزاة البالغ عدد جنودهم 07،000 هجومهم الأخير، فراح مارمون ومورتييه على رأس 52،000 مقاتل يبذلان كل ما في وسعهما من جهد للدفاع عن المدينة التي لم يفكر الإمبراطور الفخور (نابليون) أبداً في تحصينها، وانضم إلى القوات المدافعة عدد من المحاربين القدماء وضحايا الحرب وطلبة مدرسة البوليتيخنيك والعمال وغيرهم من المتطوعين. وراح جوزيف يراقب المقاومة إلى أن أدرك أنه لا جدوى منها وأنها قد تدفع الغزاة إلى دك المدينة (باريس) بالمدافع، وهي مدينة عزيزة على أثريائها وفقرائها على سواء. ورغم أن إسكندر قد يتصرف تصرف المعزى المواسي المحسن، إلا أن الجنود القوزاق قد يستعصون على السيطرة، ولم يكن بلوخر بالرجل الذي يمنع كتائبه البروسية من الأخذ بثأرها كاملاً. لكل هذا فقد حول جوزيف سلطاته إلى المارشالات وغادر المدينة ليلحق بماري لويز والحكومة الفرنسية في بلوا Blois على نهر اللوار. وبعد يوم من المقاومة الدموية وجد مارمون ألا جدوى من استمرارها فوقع وثيقة استسلام المدينة في الساعة الثانية من صباح 13 مارس سنة 4181. وفي وقت لاحق من هذا الصباح دخل إسكندر وفرديريك وليم الثالث وشفارتسبرج على رأس 05،000 جندي رسمياً إلى باريس، فحيّاهم الناس بحقد صامت لكن القيصصر هذا من روعهم بتكرار التحية وإظهار شيء من المودة (03). وعندما انتهت المراسم بحث عن تاليران في شارع سان فلورنتين St Florentin وطلب منه النصيحة لإحداث تغيير منظم في الحكومة الفرنسية. واتفقا على ضرورة انعقاد جلسات السينات Senate مرة أخرى، وأن يضع دستوراً وأن يعين حكومة مؤقتة. واجتمع السينات في أول أبريل ووضع دستوراً يضمن الحريات الأساسية وعين حكومة مؤقتة اختار تاليران رئيساً لها، وفي 2 أبريل أعلن السينات Senate عزل نابليون.

صفحة رقم : 14759

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى إلبا -> طريق السلام

6- طريق السلام

لقد كان نابليون في سان ديزييه St. Dizier على بعد 051 ميلاً من باريس عندما وصلته الأخبار (72 مارس) بأن الحلفاء يحاصرون باريس، فانطلق بجيشه في الصباح التالي، وبعد ظهر اليوم نفسه تلقى رسالة عاجلة أكثر أهمية: حضور الإمبراطور أمر ضروري إن كان راغباً في ألا تستسلم عاصمته للعدو. لا يجب تضييع لحظة واحدة. وترك

نابليون جيشه عند تروي Troye وامتطى حصانه طوال معظم الأميال المتبقية رغم الآلمه، واقترب من باريس (13 مارس) وأرسل كولينكور Caulaincourt إلى باريس على أمل أن يحث هذا الروسي إسكندر على عقد تسوية.. وواصل الإمبراطور (نابليون) طريقه راكياً حصانه إلى فونتينبلو مخافة أن يُقبض عليه إن - هو - دخل المدينة (باريس)، وفي مساء اليوم نفسه تلقى رسالة من كولينكور: لقد خاب مسعاي(13). وفي 2 أبريل علم أنه نُحّي عن العرش، ففكر للحظة كم هو شيء يدعو إلى السرور أن يترك العرش. لقد قال: إنني لستُ معلقاً بالعرش. لقد وُلدت جندياً. إنه يمكنني أن أكون مواطناً دون تدمر. لكن وصول جيشه الذي كان عدده 000,05 مقاتل لمس الوتر المناسب في طبيعته(23)، فأمر أن ينصب هذا الجيش خيامه على طول إيسون Essonne (أحد روافد السين) استعداداً لأوامر أخرى، وقاد مارمون إلى هذا المعسكر ما تبقى من الجنود الذين كانوا يدافعون عن باريس.

وفي 3 أبريل استعرض نابليون الحرس الإمبراطوري في ساحة ميدان فونتينبلو، وقال لهم: لقد عرضت على الإمبراطور إسكندر سلاماً لا يتحقق إلا بتضحيات جسام.. لكنه رفض.. إنني في غضون أيام قليلة سأذهب لأهاجمه في باريس. هل أعول عليكم؟ وفي البداية لم يجيبوه لكن عندما سألتهم: أنا على صواب؟ أجابوا: عاش الإمبراطور! هيا إلى باريس. وراح رماة القنابل ينشدون نشيدي الثورة في أيامها الأولى: نشيد الانطلاق، ونشيد المارسييليز.

وكان الجنرالات متشككين. لقد وجدهم في اجتماع خاص معارضين لعودة البوربون، لكنهم أيضاً كانوا غير متحمسين لبذل محاولة لإخراج الحلفاء من باريس. وفي 4 أبريل دخل المارشالات (ني Ney وأودينو Oudinot ومونسي Moncey وليفييفر Lefebvre) غرفة نابليون دون دعوة منه وقالوا له إنه ما دام السينات (مجلس الشيوخ) قد عزله فإنهم لا يستطيعون أن يتبعوه في هجوم على القوات المتحالفة والحكومة المؤقتة، فقال لهم إنه سيقود الجيش بدونهم، فردّ عليه ني Ney بحسم: إن الجيش سيطيع قاداته فسألهم نابليون ماذا يريدون منه، فأجاب ني Ney وأودينو

Oudinot: التنازل فكتب نابليون تنازلاً مشروطاً يترك بمقتضاه العرش لأبنه تحت وصاية ماري لوييز. وأرسل كولينكور، ومكدونالد وني Ney إلى باريس لتقديم هذا العرض. وفي الطريق توقفوا عند معسكر إيسون Essonne لاستشارة مارمون Mormont فراهم أن وجدوه قد شرع في التفاوض مع سفارتسنبرج حول شروط تسليم المدينة. وفي تلك الليلة (4-5 أبريل) قاد مارمون رجاله البالغ عددهم 000,11 عبر تخوم المدينة بعد أن قبل تماماً شروط سفارتسنبرج المتساهلة. وفي 5 أبريل أحاط قادة الحلفاء كولينكور علماً بأنهم لن يتعاملوا منذ الآن مع نابليون إلا إذا تنازل عن العرش دون قيد أو شرط وفي هذه الأثناء أرسلوا جنوداً لتطويق فونتينبلو لمنعه من الهرب.

وخفف إسكندر من وطأة هذه الإجراءات القاسية بأن حمى باريس من السلب والنهب، كما قام بزيارات ودية لكل من ماري لوييز، وجوزفين، وهورتنس Hortense. لقد كان الروسي هو الأكثر تحضراً من بين الفاتحين. لقد حثّ زملاءه على أن يوقعوا معه معاهدة فونتينبلو التي تقدم لنابليون جزيرة في البحر المتوسط كسجن فسيح ينعم فيه بسماة إيطالي مشمس ودخل يأتيه من فرنسا. وفيمايلي النص الأساسي لهذه الاتفاقية:

صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون من ناحية وأصحاب الجلالة إمبراطور النمسا.. وإمبراطور كل روسيا، وملك بروسيا يتعهدون بالأصالة عن أنفسهم وكل حلفائهم..

مادة (1): يتخلى صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون بالأصالة عن نفسه وأخلافه وذريته وكل أفراد أسرته عن كل حقوق السيادة في الإمبراطورية الفرنسية.. وفي كل المناطق الأخرى.

مادة (2): يحتفظ صاحب الجلالة: الإمبراطور نابليون والإمبراطورة ماري لوييز بألقابهما ورتبتهما طوال فترة حياتيهما. ويحتفظ أيضاً كل من: أم الإمبراطور وإخوته وأخواته وأبناء إخوته وأبناء أخواته وبنات إخوته وبنات أخواته - أينما حلوا بألقابهم الملكية.

مادة (3): جزيرة إلبا Elba التي اختارها صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون كمقر ستنقى خلال حياته ولاية منفصلة يملكها ويكون له فيها حق السيادة الكاملة، وهي ملك له.

وعلاوة على ذلك سيقدّم للإمبراطور نابليون عائد سنوي مقداره 2,000,000 فرنك كملك خالص له من الخزانة الفرنسية يحول منها 1,000,000 للامبراطورة(33). (المفهوم أن الحلفاء سيدفعون هذا المبلغ مع إضافته إلى ديون فرنسا).

ووقع نابليون هذا الاتفاق في 31 أبريل كما وقع تنازله الأول عن العرش ومن ثمّ وقعه الحلفاء. لقد كان نابليون يتطلع إلى كورسيكا لتكون منفى له لكنه علم أنه لن يُسمح له بذلك لأن كورسيكا حاضنة للثورة (مهيأة لها)، فكانت إلبا Elba هي اختياره الثاني(43). ولم يُسمح لماري لوييز باصطحابه إلى إلبا، وكانت قد حاولت اللحاق به في فونتينبلو، لكن الحلفاء حالوا بينها وبين رغبتها كما أن نابليون - بدوره - لم يشجعها على القدوم إليه(53). وفي 72 أبريل غادرت مع ابنها رامبول Rambouillet قاصدة فينا، وكان هذا على غير رغبتها.

وربما يكون نابليون قد أثنأها عن القدوم إليه لاعتزاه الانتحار. لقد لاحظنا فيما سبق أن الدكتور يفا Yvan قد أعطاه قنينة سُم عند عودته من روسيا، وفي ليلة 21-31 أبريل ابتلع محتويات القنينة، ويبدو أن السُم كان قد فقد مفعوله

فعانى نابليون لكنه شفي واعتراه الخجل كثيراً لهذا، فراح يبرر استمرار وجوده على قيد الحياة بأن اقترح على نفسه كتابه سيرته الذاتية التي تقدم القصة من وجهة نظره والتي تحثني بأعمال الشجعان الذين قاتلوا معه Mes (63braves).

وفي 61 أبريل كتب وداعاً لجوزفين: لا تنس هذا الذي لم ينسك ولن ينساك أبداً (73) وماتت جوزفين بعد ذلك بشهر (92 مايو)، وفي 91 أبريل ودّع خادمه الخصوصي كونستانت (قسطنطين) وحارسه الشخصي روستا Roustam (النص مملوكة Mameluke) وفي 02 مايو ودّع جنود حرسه القديم الذين كانوا قد بقوا معه إلى النهاية: أيها الجنود وداعاً، فطوال عشرين عاماً كنا فيها معاً كان تصرفكم مثالياً محققاً لكل رغباتي. لقد كنت أجدكم دوماً على طريق العظمة.. فيكم وبالرجال الشجعان الذين لا زالوا مخلصين كان يمكنني أن أفود حرباً أهلية لكن فرنسا ساعتهن لن تكون سعيدة.. إذن كونوا مخلصين لملككم الجديد، وكونوا مطيعين لقادنتكم الجُدد ولا تتخلوا عن وطنكم المحبوب. لا تندبوا حظي، فساكون سعيداً إذا علمت أنكم سعداء.. ربما مت.. لكنني إن كنت قد رضيت بالحياة فليس إلا لاستجلاء مزيد من عظمتكم. ساكتب عن الأمور العظيمة التي حققناها.

لا أستطيع أن أعانقكم واحداً واحداً، لكنني سأعانق جنرالكم تعال يا جنرالي لأضمك إلى قلبي. أحضر لي العُقاب (النسر) لأعانه أيضاً (النسر هو شعار الحرس). أه يا عقابي (نصري) العزيز، ربما تجد هذه القُبلة التي أقدمها لك - صداها لدى الأجيال القادمة. وداعاً يا أولادي، سيتمنى لكم قلبي دوماً أحسن الأمانى. لا تنسوني! (83).

واختار أربعائة من الحرس ليصبحوه إلى جزيرة إلبا. ودخل العربية مع الجنرال بيرتران Bertrand الذي سيظل معه إلى النهاية وصحبه أربعة من ضباط الحلفاء للتأكد من غرضه - روسي وبروسي ونمساوي وإنجليزي، كما صحبتته حامية فرنسية صغيرة لحمايته (93). لقد كان في حاجة إلى حماية في أثناء مروره في بروفنس Provence حيث كان السكان كاثوليكاً متعصبين كما كانوا موالين للملكية على نحو ما فراحوا يوجهون له الإهانة في أثناء مروره. وفي أوجون Orgon بالقرب من أرل Arles رأي تمثاله مشنوقاً، وهددته الجماهير، وأمرته أن يقول عاش الملك فامتثل للأمر تماماً كما سبق للثوار أن أجبروا لويس السادس عشر على الهتاف للثورة. وبعد ذلك تنكّر بارتدائه حلّه رسمية وعباءة قدمهما له الضباط النمساويون والروس. وارتفعت روحه المعنوية في 62 أبريل عندما وجد أخته بولين Pauline في انتظاره في لي لوس Le Lus. لقد تركت الريفيرا الفرنسية وتخلت عن دعوة إلى روما، ومكثت في بيت ريفي صغير وكتبت إلى فيليس باكيوشي Felice Bacciocchi إن الإمبراطور سرعان ما سيمر من هنا وأنا راغبة في رؤيته لأعبر له عن عواطفِي، فأنا لم أكن أحبه كامبراطور وإنما لأنه أخي (04) ورفضت أن تعانقه وهو متنكر، فأزاح عن نفسه ملابس التنكر وراح ينعم بإخلاصها ووفائها طوال أربع ساعات. وفي 72 من الشهر نفسه واصل الطريق إلى فريجو Frejus وهناك (في 82 أبريل) حيث السفينة البريطانية (أندوننت Undaunted - ومعناها الشجاع أو الجسور) بإطلاق إحدى وعشرين طلقة من مدافعها، وأبحر قاصداً إلبا، وحاول طوال الأشهر التسعة التالية أن يتعامل مع هذا السلام الذي اتسمت شروطه بالسداجة.

صفحة رقم : 14760

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى واترلو -> لويس الثامن عشر

الفصل السابع والثلاثون

1- لويس الثامن عشر

هو لويس 81 ابن لويس الدوفين Dauphin (الكلمة تعني الابن البكر)، ابن لويس 51 فهو إذن رابع لويس، كما كان لويس السادس عشر هو ثالث لويس. وحتى سنة 1971 - عندما كان في الثلاثين من عمره - كان قانعاً فيما يظهر بأن يكون كونتاً لبروفنس Provence، وكان وسيماً لطيفاً يتذوق الأدب ويدعم الأدباء ويشارك في المناقشات الرائعة في صالون خليلته(1). وعندما حاول لويس السادس عشر الهرب من فرنسا (1971) حاول هو بدوره ونجح وانضم إلى أخيه كونت درتوا Artois في بروكسل Brussels، وعندما مات لويس السابع عشر في العاشرة من عمره (5971) بعد أن تَوَي بسبب السجن والأحزان، حمل كونت بروفنس Comte de Provence - باعتباره الوريث الشرعي لعرش فرنسا - اسم لويس الثامن عشر واعتبر نفسه ملك فرنسا طوال سنوات الثورة وطوال فترة حكم نابليون. ولأن نفوذ الثورة ونابليون راحا ينتشران، فقد كان على لويس الثامن عشر أن يغيّر مقر إقامته فراح ينتقل من مكان إلى مكان - من ألمانيا إلى روسيا إلى بولندا إلى روسيا إلى إنجلترا (1181)، وهناك أيدته الحكومة، واحتفظ هو نفسه باحترام للدستور البريطاني.

وفي 41 أبريل 4181 أصدر السينات (مجلس الشيوخ الفرنسي) وعلى رأسه تاليران القرار التالي: امتثالاً لاقتراح الحكومة المؤقتة وتقرير لجنة خاصة من سبعة أعضاء، يعهد مجلس الشيوخ (السينات) بحكومة فرنسا المؤقتة، لصاحب الجلالة كونت درتوا Artois بمسمى ليفيناننت جنرال المملكة حتى يتم استدعاء لويس - ستانيسلاوس زافييه Louis - Stanislaus - Xavier ليشغل عرش فرنسا مع قبول الصيغة الدستورية(2). ودعا الدستور الذي صاغه مجلس الشيوخ (السينات) إلى عفو عام عن الثوريين الذين على قيد الحياة، كما دعا إلى إلغاء الرسوم الإقطاعية والأعشار الكنسية، وأكد صحة حجج الملكية التي يحوزها من اشتروا ممتلكات من ممتلكات الدولة (مما صودر من الكنيسة ومن المهاجرين الذين تركوا فرنسا عقب أحداث الثورة الفرنسية) والإبقاء على مجلس النواب ومجلس الشيوخ واحترام الحريات المدنية وسيادة الشعب.

وطلب لويس وقتاً للتفكير وقد أسعدته الدعوة لشغل العرش الفرنسي وأزعجته الشروط المفروضة. وفي 42 أبريل غادر إنجلترا قاصداً فرنسا. ومن سان أون Ouen (في 21 مايو) أعلن أنه سيحترم غالب ما ورد في الدستور المقترح لكنه يرفض سيادة الشعب لأنها تتعارض مع الحقوق الوراثية للملك كما منحها الله. واقترح أن يمنح فرنسا ومجلس الشيوخ ميثاقاً Charter بدلاً من الدستور. وسيصبح مجلس الشيوخ (السينات) مجلس نبلاء Chamber of Peers يختار الملك أعضائه، وسيصبح اسم الجمعية التشريعية مجلس النواب Chamber of Deputies ويتم انتخاب أعضائه بواسطة الناخبين الذين يدفع الواحد منهم ثلاثمائة فرنك أو أكثر كل سنة كضرائب مباشرة، وسيكون على هذين المجلسين إدارة عوائد الحكومة ونفقاتها. وأغرى العرض بالسيطرة على أموال فرنسا، المجلسين بقبول الميثاق (عوضاً عن الدستور) وتعهد الملك بالتعاون، وهكذا عاد حكم البوربون (4 يونيو 4181).

وفي معمعة هذه التغييرات قلّصت القوى المتحالفة على وفق معاهدة باريس الأولى (03 مايو 4181) حدود فرنسا إلى ما كانت عليه في سنة 2971، وأعطتها شامبري Chambery، وأنيسي Annecy وملهوس Mulhouse، ومونتبيليار Montbeliard. وسلّمت فرنسا مستعمرات مهمة لإنجلترا وإسبانيا واعترفت بالحكم النمساوي لشمالي إيطاليا، ووافقت - مقدّماً - على أية قرارات سيتخذها مؤتمر فيينا فيما يتعلق بكل المناطق التي استولت عليها فرنسا منذ سنة 2971.

وبعد أن استقر لويس الثامن عشر في التوليري شعر أنّ من حقه أن يستريح ويسترخي ويسعد بعودة ملكه، وراح يتحدث عن عام 4181 باعتبارها السنة التاسعة عشرة لحكمي. لقد أصبح عمره الآن 95 سنة وسيما ودوداً كسولاً

بطيئاً سميناً مصاباً بداء المفاصل، ولم يكن في كل حالاته ملكاً. لقد أسلم نفسه لحكومة دستورية، وكيّف نفسه - بكياسة - مع ناخبين وخطباء ومنتازعين وصحافة أصبحت تتعم بحرية أكثر مما كانت تتعم به في ظل حكومة الإدارة أو نابليون، وانتعشت الصالونات بالمناقشات الأدبية والسياسية. وبعد أن أصبحت مدام دي سنتيل منتصرة (بمعنى أن أغراضها قد تحققت واصلت اجتماعاتها في باريس واستضافت الملوك.

وكانت النجاحات الاقتصادية التي حققها الحكم الجديد مدعاة لسعادة الشعب بشكل عام. لقد كان لويس 81 ذا حِسٍّ سليم فترك قوانين المدونة القانونية النابليونية دون تغيير وترك - وبدون تغيير أيضاً - نظام نابليون القضائي والإداري، كما أنه (أي لويس) لم يغيّر البنية الاقتصادية. وكما كان نابليون محظوظاً بأن وجد لوزارة المالية - تلك الوزارة الحيوية - شخصاً على قدر كبير من الكفاءة والاستقامة هو فرانسوا موليا Francois Mollien - كذلك وجد لويس الثامن عشر لشغل هذا المنصب نفسه البارون جوزيف - دومينيك لويس Baron Joseph - Dominique Louis الذي واجه دون توان متطلبات الخزنة وقاوم كل إغراءات الخداع المالي (المغالطات المالية).

وقد أشاد البلاط الملكي بجهوده كرمز لتيسير الانتقال من نظام حكم إلى نظام حكم آخر (كمرحلة انتقال)، وفي العام الأول من الحكم الجديد، كان هناك قدر قليل من الانتقام من أولئك الذين عملوا مع نابليون. لقد راح المارشالات الإمبراطوريون (الذين عملوا مع نابليون) يختلطون بحرية مع الملكيين من ذوي الأنساب في بلاط البوربون ونسنتي من هؤلاء المارشالات دافو Davout، أما أفراد النبالة الدنيا مثل مدام دي ريموزا Remusat والسيد ريموزا الذين كانوا قريبين من نابليون فراحوا يتعبدون عند الضريح الذي أعيد ترميمه وصقله (المقصود: راحوا يتقربون للبوربون من جديد)، وسخر تاليران قائلاً: إن البوربون لم يتعلموا شيئاً ولم ينسوا شيئاً وقد يكون هذا القول صحيحاً بالنسبة إلى الكونت درتوا Artois الذي كان متكبراً بغباء رغم طباعه الجيدة ومنظره الحسن، لكن هذا القول لا ينطبق على لويس 81، بل إن نابليون نفسه شهد بعد ذلك (في سانت هيلانا) بسرعة قبول معظم الفرنسيين للحكم القديم بعد إلحاق تجديبات به كما لو كانوا قد وقعوا في أسر العادات القديمة الراسخة منذ زمن بعيد، بحيث لم يكن ممكناً استئصالها تماماً.

ومع هذا كان هناك شيء من الاستياء وعدم الرضا. لقد جحدت الكنيسة الكونكوردات Concordat النابليوني وأصرّت على عودة سلطانها كما كان قبل الثورة، خاصة سلطانها على التعليم. وحصلت الكنيسة من الملك على مرسوم بمراعاة الالتزام الديني الصارم في أيام الأحاد وأيام الأعياد الدينية، ففي هذه الأيام يتعين إغلاق كل المحال من الصباح إلى المساء فيما عدا محال الكيماويين (المقصود الصيادلة) والعشابين، ولم يكن مسموحاً في هذه الأيام: (الأحاد والأعياد الدينية) بالقيام بأعمال مدفوعة الأجر أو نقل البضائع لأغراض تجارية (3). وأصبح من الصعب عدم الاعتراف بالكاثوليكية. لكن الأكثر مدعاة للإزعاج هو مطالبة الكنيسة بكل الممتلكات الكنسية التي صادرتها الثورة، وهو طلب بدا معقولاً. لكن تنفيذه لا يمكن إلا أن يواجه بثورة مئات الألوف من الفلاحين وأفراد الطبقة الوسطى الذين سبق أن اشتروا هذه الممتلكات من الدولة. إن خوف هؤلاء المشترين من نزع ملكياتهم كلها أو جزءاً منها جعلهم يفكرون في الترحيب بعودة نابليون مبراً من داء شن الحرب.

لا زالت هناك أقلية نشيطة متعلّقة بمبادئ الثورة راحت - على أية حال - تعمل بشكل سري لإحياء هذه المبادئ. لقد راح اليعاقبة Jacobins الذين تعرضوا لضغط شديد على يد الحكم الملكي الجديد - يعملون على أمل أن تصبح عودة نابليون ضرورة وأن يطيح بحكم البوربون، ويصبح مرة أخرى ابناً للثورة. واستطاع اليعاقبة أن يجندوا كثيرين في صفوف الجيش لتحقيق هذا الأمل. وكان المارشالات قد وقعوا أسرى كرم الملك ودمائته ولكن طبقة الضباط كانت تتطلع إلى إحياء الأيام التي كانت فيها هراوة المارشالات يمكن أن يحوزها الضابط في ميدان المعركة (المعنى: يمكن أن يتحول الضابط العادي إلى مارشال على وفق بلانه في المعركة). لقد راحت طبقة الضباط تتوق لتلك الأيام خاصة وهم يرون أن طبقة النبلاء راحت تستعيد احتكارها للمناصب العليا. وكان لويس 81 - رغبة منه في موازنة الميزانية - قد سرح 81،000 ضابط و 3،000 جندي، وراح كل هؤلاء الرجال المطرودين تقريباً يناضلون ليجدوا لهم مكاناً في ظل النظام الاقتصادي السائد، وراحوا يتذكرون بحسرة أيام الإمبراطور (نابليون) التي بدت في عيونهم مثالية، تلك الأيام التي بدا فيها الموت دالاً على العظمة.

وكان سخط الجيش هو الأكثر وضوحاً من بين مظاهر السخط البادية في القوى الأخرى التي فتحت الباب أمام عودة المبالغات الفاتنة. أضف إلى هذا خوف الفلاحين من نزع ملكياتهم أو عودة الرسوم الإقطاعية، وكان الصناع يعانون من تدفق البضائع البريطانية تدفقاً شديداً. لقد كان الجميع مستائين باستثناء الكاثوليك شديدي التمسك بكاثوليكيتهم والخاصعين لسيطرة الإكليروس خضوعاً شديداً، وكان حل الملك للمجلسين في نهاية سنة 4181 (لم يُعدها حتى شهر مايو) مما زاد السخط، وكان الفقراء مشتاقين في طوايا نفوسهم لفرنسا النابليونية المثيرة ذات البهاء؛ كل هؤلاء كانوا سهلي الانقياد وكانوا في انتظار ربح مواتية فوصلت أخبارهم إلى إلبا Elba ورفعت الروح المعنوية للمقاتل السجين (نابليون) الذي اتضح أنه وإن كان قد جرح فإنه لم يموت.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى واترلو -> مؤتمر فيينا

2- مؤتمر فيينا

سبتمبر 4181 - يونيو 5181

كان هذا المؤتمر أكثر الاجتماعات السياسية تميزاً في التاريخ الأوروبي وكان من الطبيعي أن يكون أعضاؤه البارزون هم المنتصرين الكبار في حرب الأمم: روسيا وبروسيا والنمسا وبريطانيا العظمى، لكن كان هناك أيضاً مندوبون عن السويد والدنمرك وإسبانيا والبرتغال والباباوية وبافاريا وسكسونيا وفيرتمبرج Wurttemberg...، ولأن تاليران المخادع كان يمثل فرنسا المهزومة، فإن هذا وحده كان كافياً لوضعها في الاعتبار. وستوضّح إجراءات المؤتمر مبدئين ليسا متناقضين تماماً بالضرورة: أصوات المدافع أقوى وأعلى من الكلمات، كما أن القوة قلماً تُحرز نصراً إذا لم يحكمها العقل.

كانت روسيا ممثلة بشكل أساسي بالقيصر إسكندر الأول ذي الجيش الأكبر والجاذبية الأوضح. لقد اقترح بمساعدة الكونت أندرياس رازوموفسكي (راعي بيتهوفن) والكونت كارل روبرت نسلرود Nesselrode أن تحصل روسيا على بولندا كلها مكافأة لها لقيادتها الحلفاء من مرحلة التردد على النيمين Niemen والسبري Spree إلى النصر على ضفاف السين Seine، وأيد الأمير تشارتوريسكي Czartoryski ممثل بولندا (بإذن من إسكندر) هذا الاقتراح على أمل أن توحيد بولندا يمكن أن يكون خطوة نحو استقلالها.

وكان يمثل بروسيا من الناحية الرسمية الملك فريدريك وليام الثالث وإن كان الأكثر فعالية في وفدها هو الأمير فون هاردينبرج مع فيلهلم فون همبولدت الذي كان كفيلسوف الحاشية.

لقد طالبوا بمكافأة مناسبة للقيادة العسكرية الباهرة للقائد البروسي بلوخر Blucher ولتضحية البروس بحياتهم. ووافق إسكندر بشرط أن تسحب بروسيا دعاويها في المنطقة البولندية التي كانت تابعة لها، وقدم لفريدريك وليام كل سكسونيا (التي كان ملكها مسجوناً في هذا الوقت في برلين) والذي يستحق عزله من منصبه لأنه كان قد قدم الجيش السكسوني ليكون تحت إمرة نابليون، ووجد الفريهر فوم شتاين Freiherr Vom Stein أن هذا حل لطيف للمسألة.

وآذعت النمسا أن دعوتها للحالف (ضد نابليون) هي التي قررت نتيجة الحرب، ولا بد - لهذا - أن تتلقى عوناً كريماً على مائدة المنتصرين. وكان إبعاد النمسا عن بولندا أمراً لا يُحتمل كما أن ضم سكسونيا إلى بروسيا قد يطيح بتوازن القوى كلية بين الشمال والجنوب، وبذل ميترنيخ كل جهده وكياسته وحده ذهنه للحيلولة بين المجتمعين وبين أن يجعلوا من النمسا قوة أوروبية (أو كياناً أوروبياً) من الدرجة الثانية. وعاون الإمبراطور فرانسيس الثاني وزير خارجيته في تحقيق هذا الغرض بإغراق ضيوفه بالولائم والحفلات. لقد كانت خزائنه بعد الحرب على شفا الإفلاس، فغامر بما بقي فيها بإغراق ضيوفه بالنبيذ والشمبانيا (نوع من الخمور) وإتخامهم بالوجبات الدسمة Neanderthal Meals، وتألفت

صالات القصور الملكية طوال معظم الليل بالحفلات المسرفة، وظهر الممثلون والممثلات والمغنون والمغنيات والفنانون والفنانات لتحقيق البهجة لأصحاب الجلالة والسعادة والسمو ومن معهم.

وهز بيتهوفن مشاعر المدينة بمقطوعته "Die Schlacht Von Vittaria" وحملت النسوة الجميلات ثروات طائلة في ملابسهم وشعرهن (المقصود الحلي والمجوهرات)، وأبدین للعيان كثيراً من زينتهن بقدر ما يسمح احترامهن الرقيق للكاردينال كونسالفي Consalvi، وأصبحت الخيليات رهن إشارة الباحثين عنهن من ذوي المكانة، وسدّت المحظيات والمومسات حاجة أفراد النبالة الدنيا. وسرت الإشاعات في المدينة عن علاقات القيصر الغرامية (4).

لقد ربح قيصرُ النساء لكنه خسر معركته الدبلوماسية. لقد راح ميترنيخ يبحث عن حلفاء ضده (ضد القيصر) من بين أعضاء وفود القوى الصغرى. لقد دافع عن أن مبدأ الشرعية يمنع سلب ملك (نزع من ملكه) وهو الاقتراح الذي قدمته كل من روسيا وبروسيا فيما يتعلق بسكسونيا وملكها. وقد اتفقوا، لكن كيف يستطيعون إقناع روسيا بهذا المبدأ وهي تركز على جبهتها الغربية 000,005 جندي؟ وناشد ميترنيخ اللورد كاسلريه Castlereagh المتحدث باسم إنجلترا: ألن تتوقع إنجلترا شراء من روسيا الممتدة عبر بولندا والمتحالفة مع بروسيا المنتخفة بضم سكسونيا إليها؟ ماذا سيفعل هذا بتوازن القوى شرقاً وغرباً؟ وبرر كاسلريه موقفه قائلاً إن بريطانيا في حرب مع الولايات المتحدة ولا تستطيع المخاطرة بمواجهة روسيا.

وهنا لجأ ميترنيخ - كملاذ أخير - إلى تاليران لقد كان ميترنيخ قد أغضب الرجل الفرنسي (تاليران) باستثناء فرنسا من الاجتماعات الخاصة للأربعة الكبار Big Four كما استنتى معها القوى الأقل أهمية، وأجل (أي ميترنيخ) أول اجتماع شامل لكل الدول التي حضرت المؤتمر إلى أول نوفمبر 4181. فكون تاليران فكراً عاماً (قضية مشتركة) بين كل أعضاء الوفود الذين لم يحضروا الاجتماعات الأربعة الكبار، وسرعان ما وافقوا على أن يكون متحدثاً باسمهم. وبعد أن أصبح موقفه قوياً على هذا النحو بدأ يتحدث عن فرنسا كقوة لازالت من الدرجة الأولى، يمكنها أن تقيم جيشاً من 3,000,000 مقاتل وتموله. ووجد ميترنيخ في هذا أملاً (أفكاراً واعدة يمكن استثمارها) مع أنه ربما يكون قد اعتبر هذا تهديداً. وضمن تاليران موافقة لويس 8، وكسب الدبلوماسيان (تاليران وميترنيخ) تأييد كاسلريه Castlereagh الذي عقدت بلاده الآن اتفاق سلام مع أمريكا. وفي 3 يناير 5181 كوّن كل من فرنسا والنمسا وبريطانيا العظمى تحالفاً ثلاثياً Triple Alliance ليوازن بعضهم بعضهم الآخر للحفاظ على توازن القوى. وعندما ووجهت روسيا بهذا التحالف الجديد سحبت كل دعاو لها في بولندا، ووافقت بروسيا - بعد أن استعادت ثورن Thorn وبوزن Posen - على أن تحصل على خمس سكسونيا فقط. لقد أصبح من حق تاليران أن يفخر بأنه حول بدبلوماسية فرنسا من متسول مهان إلى قوة كبرى مرة أخرى.

وبعد نحو تسعة أشهر من المساومة أعاد أصحاب الجلالة والفقامة والسمو المجتمعون توزيع أراضي أوروبا على وفق المبدأ القديم - تبقى الأسلاب للمنتصرين إن كانوا مازالوا أقوياء قوة تمكثهم من الاستيلاء عليها، وظهر هذا واضحا في قرارات مؤتمر فيينا الصادرة في 8 يونيو 5181. واحتفظت مالطا باعتبارها مركز حراسة تابع لها في قلب البحر المتوسط، وبسطت حمايتها على الجزر الأيونية كمراكز حراسة تابعة لها في الأدرياتي وشرق البحر المتوسط. وأعدت بعض المستعمرات الفرنسية والهولندية التي كانت قد استولت عليها في أثناء الحرب، لكنها احتفظت لنفسها بمستعمرات أخرى لم تردها (خاصة سيلان ورأس الرجاء الصالح) واستعادت سيطرتها على هانوفر ورثبت تفاهماً مشتركاً قوياً مع مملكة الأراضي المنخفضة Netherlands الجديدة التي تضم الآن هولندا وبلجيكا وبالتالي تضم بين جنباتها مصبات نهر الراين.

وعانت بولندا من تقسيم جديد مع بعض التحسينات. وتسلمت بروسيا المناطق المحيطة بكل من بوزن Posen ودانزج (دانزج Danzig)، وتسلمت النمسا جاليسيا Galicia، وتسلمت روسيا دوقية وارسو (فرسافا) الكبرى التي أصبح اسمها مملكة بولندا وأصبح القيصر الروسي ملكاً عليها كما أصبح لها دستور ليبرالي.

لقد خرجت بروسيا من الحرب بمكاسب أعدتها لبسمارك (بمعنى أنها أصبحت تربة صالحة لأفكار بسمارك وجهوده): فبالإضافة إلى خمس سكسونيا ضمت إليها بوميرانيا Pomerania السويدية وريجن Rugen ومعظم وستفاليا Westphalia ونيوشاتل Neuchatel في سويسرا، وتأثير ساند غلاب في الكونفدرالية الألمانية German Confederation التي حلت الآن محل الكيان الذي كان نابليون قد أسماه كونفدرالية الراين German Confederation of the Rhine. واحتفظت سكسونيا بثلاثة أخماس أراضيها السابقة واستعادت ملكها. أما النمسا فبالإضافة إلى أراضيها التي كانت في حوزتها قبل مؤتمر فيينا حصلت على سالزبورج (سالزبورج Salzburg) وإليريا، ودلماشيا والتيرول والمملكة اللومبارديه الفينيسية في الشمال الإيطالي. وعادت الولايات الباباوية إلى البابا، وعادت توسكانيا إلى الحكم الهبسبرجي البوربوني. وأخيراً أذان المؤتمر تجارة الرقيق إذعاناً للمسيحية.

وخلال شهري ديسمبر ويناير 4181-5181 نظر المؤتمر بجدية إلى اقتراحات باتخاذ مزيد من الإجراءات مع نابليون. لقد كان من رأي بعض أعضاء الوفود أنه من المؤكد أن هذا الرجل المثير (نابليون) لن يستقر راضياً لفترة

طويلة وهو حاكم لجزيرة إلبا الصغيرة، وهذه الجزيرة (إلبا) قريبة جدا (بشكل غير مريح) لإيطاليا وفرنسا. فأى إزعاج سيسببه إن هرب منها؟ وكانت هناك اقتراحات عديدة بإرسال قوة عسكرية إلى إلبا للقبض على نابليون وعزله في مكان آخر أكثر بُعداً، وأكثر أمناً لأوروبا. وكان هذا أيضاً هو رأي تاليران وكاسلريه، ولكن القيصر إسكندر اعترض، فاستقر الأمر على تركه في إلبا(5).

وبينما المؤتمر على وشك إنهاء أعماله وصلته في بكور صباح 7 مارس رسالة تحمل خاتم طارئ وعاجل. لقد كانت هذه الرسالة من القنصل النمساوي في جنوه وموجهة إلى الوزير النمساوي ومُفادها أن نابليون هرب من إلبا. وعندما أحيطت الوفود علماً وافقت على تأجيل فض المؤتمر وأن يبقوا في فينا حتى يتم الاتفاق على عمل موحد. وفي 11 مارس وصلت أخبار أخرى مفادها أن نابليون قد نزل بالقرب من أنتيب Antibes، وفي 31 مارس أصدر المؤتمر من خلال لجنة الثمانية إدانة لنابليون مع اعتباره مُهدراً للدم، فكل من يقتله لا يقع تحت طائلة القانون، وكان المؤتمر قد أكمل برنامجه، لكنه رغم تفرق الوفود ظل رسمياً منعقداً حتى 91 يونيو عندما وصلت أخبار بهزيمة نابليون في واترلو في اليوم السابق. ساعتها أعلن المؤتمر إنهاء أعماله رسمياً.

صفحة رقم : 14762

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى واترلو -> إلبا

3- إلبا

وصل نابليون إلى بُورتو فرَيَاو في 3 مايو 4181. ونزل إلى البر في صباح اليوم التالي فاستقبله سكان المدينة بترحيب يفوق الوصف ظناً منهم أنه أحضر معه ملايين الفرنكات لينفقها (في جزيرتهم) وكانوا قبل ثمانية أيام قد شنقوا تمثلاً له باعتباره رجلاً مولعاً بالحرب إلى حدّ الجنون(6). لقد حقّوه حارسين له إلى قصر الحاكم الذي أصبح لايد، الآن، يكتسي بالأبهة الإمبراطورية. وطوال التسعة شهور التالية كان على نابليون أن يكون إمبراطوراً على جزيرة مساحتها 68 ميلاً وسكانها 21،000 نفس. وأحاط نفسه بكل مظاهر العظمة - ملابس فاخرة وحرس ملكي وحجّاب وياورات وخدم وحشم وموسيقيين ومائة حصان وسبع وعشرين عربية، وربما كان هذا في جانب منه لإيمانه بأن المظاهر هي لعبة الحكم(7). وفي 62 مايو أتى 004 عضو من أعضاء الحرس القديم لخدمته كنواة لجيش مصغّر. وأتى نحو مائتي متطوع من فرنسا كما أتاه متطوعون آخرون من إيطاليا وكورسيكا فسرعان ما أصبح لديه نحو 0061 مقاتل مستعدين للحرب في مواجهة أية محاولة لايداء إمبراطورهم المحبوب رغم كراهية آخرين له. وليتمتع بمزيد من المناعة حصّن الميناء ونظّم أسطولاً - سفينة كبيرة بصاريين (السفينة إنكونستانت Inconstant) وأربع سفن صغار، وكانت كلها مسلحة.

كيف أمكنه تمويل كل ذلك، وغير ذلك من الأعمال العامة والمشروعات التي حسّن بها أحوال الجزيرة؟ لقد كانت معاهدة فرنينبلو قد ضمنّت له مبلغاً سنوياً يأتيه من فرنسا، لكن ذلك لم يحدث، ولم يتلق المبلغ(8). لقد كان نابليون على أية حال قد أحضر معه 3،004،000 فرنك ذهباً وفضة، وجمع 000،004 ليرة سنوياً من الضرائب وعوائد أخرى. وبعد انقضاء نصف عام راح يفكر في كيفية مواجهة هذه النفقات إذا مكث في الجزيرة أكثر من عام. وظل لفترة سعيداً بشكل معقول، واضعاً في اعتباره أساليبه الموسعة (المقصود خططه طويلة المدى)، وفي 9 مايو كتب إلى ماري لوييز: وصلت هنا منذ خمسة عشر يوماً. لقد اتخذت لي محلّ إقامة جميلاً. صحتي على ما يُرام. المنطقة (الجزيرة) مقبولة. لا ينقصني سوى أخبار منك وتأكيدات بأنك على خير ما يرام. إلى اللقاء يا حبيبتي. قبله لابني(9).

وكان ابن آخر مع أمه الكونتيسة المخلصة فالفسكا Walewska من بين أول من زاره، وظن البحارة والمواطنون أنها الإمبراطورة، فرحبوا بها كما يجري الترحيب بالإمبراطورة. وانزعج نابليون فقد كان يأمل أن تلحق به زوجته (ماري لويز) وابنه ملك روما، فاستراح ليوم أو يومين بين ذراعي فالفسكا (01) ثم طردها برفق متعللاً بالأحوال. وربما تكون ماري لويز قد سمعت إشاعات مبالغاً فيها عما جرى في هذين اليومين (11). وفي أكتوبر أنت أمه وأخته بولين للإقامة معه. وقدمت له بولين جواهرها والتمست عنده الأعداء لما ظهر من مورا Murat من عدم ولاء. واهتمت به أمه اهتماماً مفعماً بالعاطفة، وواسته وقدمت له كل مدخراتها. وظلت أمه وأخته معه رغم افتقادهما حيوية الحياة الإيطالية.

ويمكننا أن نتصور كم كان يعاني بعد الشهور القليلة الأولى من المجال الصغير للجزيرة، وضيقها عن إمكاناته الكبيرة وأحلامه العظيمة. وحاول أن يهرب من الملل بالانهماك في النشاط البدني، لكن ما كان يمضي يوم حتى تأتيه أخبار من البر الأوربي تزيد اضطراباً وتحول بينه وبين الاستقرار. لقد أخبره مينيفال Meneval الذي كان في خدمة ماري لويز في فينا عن المناقشات التي جرت في المؤتمر (مؤتمر فينا) بخصوص إبعاده عن جزيرة إلبا إلى مكان أبعد ضماناً لأمن أوربا (21) وأضاف قائلاً له إن المؤتمر ربما ينتهي في 02 فبراير. وأخبره آخرون باستياء الجيش الفرنسي، ومخاوف الفلاحين وهياج اليعاقبة وعودة نظم العبادة الكاثوليكية إلى قوتها الأولى. وفي فبراير 5181 أرسل له هوج مار Hugues Maret (دوق باسانو Duc de Bassano) رسالة حملها فلوري دي شابولو Fleruy de Chaboulon يؤكد له فيها كل هذه التقارير (31).

واندهش لهذه التقارير التي أنعشت فيه الآمال بنهاية أكثر نبلاً من الموت بسبب الفراغ والعزلة، فأخبر أمه بنواياه وطلب منها النصيح، فاعتراها القلق من أنها لو تركته الآن يذهب فلن تراه مرة أخرى أبداً، فقالت له: دعني أنعم بالأمومة لفترة وبعدها سأقول لك رأيي لكنها علمت أنه كان قد قرر بالفعل أن يقوم بمغامرته الأخيرة. فقالت له اذهب يا ولدي إلى قَدْرِكَ (النص: اذهب لتنفيذ ما كتبه القدر لك (41)). لقد شعر أنّ عليه أن يعمل بسرعة. فإن انقضى وقت قصير قد لا يكون لديه الوسائل التي يدفع عنها لهؤلاء الفرنسيين البالغين ألفا الذين خدموه والذين يجب أن تستمر خدماتهم. إن الظروف قد تطورت بما يسمح له بمحاولة لاستعادة عرشه والدفاع عنه ليورثه لابنه الجميل كأدونيس Adonis بعد تدريبه على فنون الحكم. لقد كان الحلفاء يهونون مؤتمراً وبسبيل عودتهم إلى بلادهم مصحوبين بجنودهم، وربما يكونون قد أصبحوا مستعدين للاستجابة لدعوته للسلام فرادى. لقد كانت لياليه لا تزال طويلة، وفي جنح الليل يمكن لأسطوله الصغير أن يُغْتَل من المراقبة ليكون مرة أخرى - على الأرض الفرنسية.

لقد جهّز أموره بسريرة قدر الإمكان، لكن من خلال تفكيره العميق ونظيره الثاقب كما هو معتاد منه. لقد أمر الحرس الإمبراطوري وثمانمائة من رماة القنابل (المجموع 0011 مقاتل) أن يُعدّوا أنفسهم ليكونوا على رصيف الميناء في مساء 62 فبراير للقيام برحلة تستغرق عدة أيام إلى جهة غير محددة، ومع هذا فقد استنتجوا أنهم ذاهبون إلى فرنسا وأسعدهم هذا.

وفي مساء اليوم المحدد عانق أمه وأخته (اللذين كان عليهما أن تتجها حالا إلى أصدقاء في إيطاليا) وانضم إلى كتيبته الصغيرة وركبوا معه السفينة إنكونستانت والسفن الأربع الصغار وأبحروا بهدوء في جنح الليل. ولم تكن الرياح مواتية فكانت تهمد حيناً فتترك أسطولهم بلا عون، وأحياناً كانت تقترب بهم إلى الشاطئ، واعتراهم القلق مخافة أن تتعرفهم السلطات ويتم إيقافهم فيعرضون للسجن بشكل مخز. لقد ظلوا طوال ثلاثة أيام يبحرون شمالاً ثم غرباً متجاوزين جنوا والريفيرا الفرنسية. وفي أثناء الإبحار على هؤلاء الرجال - ممن يعرفون الكتابة - أن يستنسخوا مئات النسخ من بيان نابليون الذي سيورّع في فرنسا:

أيها الفرنسيون

لقد سمعتُ في منفاي تفجعكم ودعاءكم. إنكم تتطلعون إلى الحكومة التي تختارونها، فالحكومة التي تختارونها هي وحدها الحكومة الشرعية. لقد عبرتُ البحرَ، وإنني أتُ لاسترداد حقيقي التي هي حقوقكم - بالنسبة إلى الجيش: إن ممتلكاتك وربتك وعظمتك ومجدك، هي ممتلكات أبنائك وربتهم وعظمتهم ومجدهم، وليس هناك للأبناء أعداء أشد وطأة من هؤلاء الأمراء الذين فرضهم الأجانب عليكم..... إن النصر سيُسرع الخطى، والنسر (العقاب) والأعلام الوطنية ستتحلق فوق كل أبراج الكنائس من برج كنيسة إلى برج كنيسة آخر، بل حتى على أبراج نوتردام Notre-dame. ستكونون أنتم محرري وطنكم (51).

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى واترلو -> رحلة لا تصدق

4- رحلة لا تُصدّق

1- 02 مارس 5181

ظهر الأسطول الصغير الذي يحمل الإمبراطور وقدره أمام رأس أنتيب Cap d, Antibes في فجر أول مارس، وفي وسط النهار بدأ الجنود البالغ عددهم 0011 بالنزول إلى البر في جولف جوان Golfe Juan، وقفز بعضهم في المياه الضحلة وخاضوا إلى الساحل. وكان نابليون آخر من هبط، فأمر بإقامة معسكر مؤقت في مزرعة زيتون بين البحر والطريق من أنتيب إلى كان Cannes. وأرسل مجموعة صغيرة إلى كان لشراء خيول ومؤن على أن يدفعوا ثمنها نقدا إذ كان قد أحضر معه من إلبا 000،008 فرنك ذهبيا. وأمر مجموعة أخرى أن تذهب إلى أنتيب لتحت حاميتها على الانضمام إليه، فعثف أمر الحامية ميعوثي نابليون وسجنهم ولم يحاول نابليون التوجه إليه لإطلاق سراح رجاله فقد كان قد قرر الاستيلاء على باريس دون أن يطلق طلقة واحدة.

لم يجد نابليون ترحيبا في أنتيب فلم يكن العابرون يبديون حماسا عندما كان يقال لهم إن الرجل الضئيل الحجم الذي يدرس الخرائط على منضدة في الهواء الطلق هو الإمبراطور. لقد كانت المنطقة قد أصابها الضّر بسبب الحرب والتجنيد الإلزامي والحصار المزدوج (حصار بريطانيا للسواحل الفرنسية والحصار المضاد الذي فرضه نابليون على البضائع البريطانية) وبالتالي لم يكن لدى أهل أنتيب شهية للمزيد من هذا. وأتى محافظ أنتيب (رئيس بلديتها) ليتحصص أحوال هؤلاء الغزاة (نابليون ورجاله) وقال لنابليون: لقد كنا قد بدأنا نشعر بالسعادة والسكون. إنك ستفسد كل شيء. وقد تذكر نابليون بعد ذلك وهو في سانت هيلانا هذا القول، فذكر لجورجو Gourgoud: لن أقول لك كيف أثرت في هذه الملاحظة ولا الألم الذي سببته لي(61). وأكد له مراسل (جاسوس) عابر أن كل الجيش والعوام يقفون إلى جانبه - على نحو أو آخر - من باريس إلى كان، لكن أهل بروفنس Provence يقفون ضده.

وكان نابليون يعرف ذلك جيدا فتذكر تجاربه المريرة في أورجون Orgon قبل ذلك بأحد عشر شهرا، والآن فإن هذه الذكريات حدثت طريقه إلى باريس. لقد اختار أن يسلك الطريق الجبلي من كان إلى جراس Grasse، ودني Digne وجرينوبل Grenoble وليون وكانت المنطقة إلى الجنوب من جرينوبل غير كثيفة السكان كما كانت الحاميات فيها قليلة العدد، وكانت مناطق معروفة بعدم موالاتها للبوربون. وكانت الجبال التي سيتعين مرورهم فوقها لازالت مغطاة بالجليد، وقد يتدمر من ذلك حرسه القديم ورماة القنابل، لكنهم لن يتخلوا عنه.

وهكذا، في نحو منتصف ليلة الأول من مارس انطلق بجنوده البالغين 0011 في الطريق إلى كان. وكان نحو ستين منهم قد تمكنوا من شراء خيول، لكن كان عليهم أن يحفظوا المسافة والألفة بينهم وبين الباقين، ولهذا ساروا إلى جانب الركائب الحاملة للأمتعة. وعادة ما كان نابليون يركب عربة، وفي وسط الركب كان هناك حرس يحرص ذهب نابليون، كما كان هناك عدد من الكورسيكيين الصارمين يحمون المؤخرة(71).

وفي جراس Grasse تركوا مدفعهم لفرط ضخامته لأنه سيسبب مشكلة في طرق جبلية يجلالها الجليد. وقطع المحاربون القدماء الذين اعتادوا كسب المعارك بسيقانهم (المقصود بسرعة حركتهم) مسافات طيبة، وفي الخامس من مارس وصل الركب إلى جاب Gap بعد أن كان غالبيهم قد قطع 051 ميلا في أربعة أيام. وعند لامور La Mure (02 ميلا إلى الجنوب من جرينوبل) واجهوا أول تحدٍ خطير.

لقد كان قائد القسم الخامس في الجيش المتمركز في جرينوبل قد تلقى أوامر من باريس بالقبض على نابليون فأرسل كتيبة من 005 جندي لوقف المتمردين الذين اقتربوا. وعندما اقتربت الكتيبة المعترضة وتقارب أفرادها أمر نابليون رجاله بإلقاء أسلحتهم (تحتيتها جانبا) وتقدم هو إلى الصدراة وترجل متقدما إلى الجنود (المهاجمين) واقترب منهم، وتوقف إزاءهم وخاطبهم: يا جنود القسم الخامس، أنا إمبراطوركم، ألا تعرفونني؟! وكشف عن معطفه العسكري ثم قال: إن كان بينكم جندي يريد أن يقتل إمبراطوره، فهذا أنا إذا فخفض غالبهم أسلحتهم (نحوها جانبا) وصاحوا عاش الإمبراطور وتفرقت الكتيبة وتجمع جنودها حول نابليون سعداء محاولين لمسها، فتحدث إليهم نابليون بعاطفة جيّاشة وعاد إلى جيشه الصغير، وهناك قال إن الأمور قد استقرت وנסحب في غضون عشرة أيام في التولييري(81).

وفي تلك الليلة اقتربوا من جرينوبل فتجمع مئات الفلاحين والبروليتاريا للترحيب بنابليون، وعندما وجدوا إحدى بوابات المدينة مغلقة كسروها ليتمكن جيشه الصغير من العبور، وترك رجاله المرهقين لينالوا قسطا طيبا من الراحة حتى ظهر اليوم التالي، وذهب هو نفسه إلى فندق تروا دوفين Trois Dauphins (الدلافيين الثلاثة)، فرحب به رئيس المجلس البلدي ومسؤولو الإدارة، بل وجاء القادة العسكريون لتحيته. وفي الصباح أقيمت إليه وفود أكبر طالبة منه أن يتعهد بحكومة دستورية. لقد كان يعلم أنّ جرينوبل كانت في طليعة الثورة وأنها لم تفقد أبداً تعاطفها للحرية فحدثهم حديث من ترك أفكار ترك السلطة في يد الحاكم (الحكم الاستبدادي) ووعدهم بالإصلاح. لقد اعترف أنه كان أسرف في استخدام السلطة وأنه كان قد سمح للحرب التي كانت دفاعية في الأساس لتصبح موجّهة للغزو فاستنزفت فرنسا تقريبا، ووعد أن يقدم لفرنسا حكومة نيابية على وفق مبادئ 9871 و 2971. وقال لهم إن أعز أمانيه الآن هو أن يُعد ابنه ليكون زعيما ليبراليا جديرا بحكم فرنسا المتتورة(91).

وبعد ظهر هذا اليوم (8 مارس) أمر أتباعه بمواصلة مسيرتهم لأنه سيبقي يوما آخر في جرينوبل لإصدار توجيهات للمدن التي قبلت قيادته لكنه وعد جماعته بالانضمام إليهم ثانية في الوقت المناسب لمساعدتهم في تحقيق انتصارات سلمية. وفي العاشر من مارس انضم إليهم وقادهم إلى ليون.

وقبل هذا الوقت، وصلت أخبار مغامرة نابليون إلى لويس الثامن عشر، فلم ينزعج في البداية، وشعر بالثقة في أن هذا المتهّم (نابليون) سرعان ما سيتم إيقافه. لكن عندما استمرت مسيرة نابليون واقتربت من جرينوبل - المعروفة بعدائها للبوربون - أصدر (أي لويس) إعلانا في السابع من مارس يحض فيه كل مواطن على المساعدة في القبض على هذا المجرم المزعج (نابليون) لإعدامه بعد محاكمة عسكرية، كما صدر مرسوم بإيقاع العقاب نفسه على كل من ساعده. واستدعى الملك نِي Ney من محل تقاعده وطلب منه أن يقود قوة عسكرية ضد نابليون، فوافق، لكن قصة تعهده بأن يأتي بنابليون في قفص حديدي، ربما كانت قصة موضوعه(02). لقد أسرع نِي Ney جنوبا، وتولى قيادة كتيبة عسكرية في بيسانسون Besancon واستدعى الجنرال دي بورمون de Bourmont والجنرال ليكورب Lecourbe للانضمام إليه بقواتهما عند لون - لي - سونييه Lons - Le - Saunier (شمال غرب جنيف)، وتوجه للسته آلاف مقاتل جُمعوا على هذا النحو بكلام حماسي شديد لإلهاب شجاعتهم. لقد قال لهم: حسنا. هذا الرجل القادم من إلبا حاول تنفيذ مشروعه الغيبي، وسيكون هذا آخر عمل له(12) ولم يتجاوب معه رجاله إلا قليلا.

وفي ذلك اليوم (01 مارس) كانت ليون ترحب بنابليون، فقد كان الصناع وأصحاب المصانع هناك قد انتعشت أحوالهم في ظل الحصار القاري الذي فتح كل أوربا (ما عدا إنجلترا) أمام منتجات ليون ولم يكن أهل ليون يحبون المهاجرين (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية) الذين عادوا الآن إلى المدينة وراحوا يتصرفون كما لو أن الثورة الفرنسية لم تقم في وقت من الأوقات أو بتعبير آخر راحوا يتصرفون كما كانوا يتصرفون قبل الثورة. وفي وسط هذا الاستياء راح أصحاب الأعمال - لأسباب خاصة بهم - يرحبون بنابليون، وكان كثيرون من أهل المدينة يعاقبة متحمسين كما ظهرت الآن على السطح تيارات لم تكن ظاهرة راحت ترحب بنابليون على أمل أن يعود بهم إلى عام 9871. وكان الفلاحون في المناطق الداخلية قلقين بشأن أراضيمهم، وراحوا يتطلعون إلى نابليون كمخلص سينيها لصالحهم معركة استرداد الأراضي المؤممة أو الأراضي التي وزعتها الثورة من ممتلكات الكنيسة، وكان جنود حامية ليون تواقين لوضع عقدة الشريط الأحمر على حراهم.

لكل هذا فتحت ليون بواباتها، فهرب الملكيون وابتسم البورجوازيون وابتهج العمال والجنود، بينما كان نابليون يقود كتيبته في المدينة. وأقبل مسئولو البلدية والقضاة بل وبعض القادة العسكريين ليقدموا ولاءهم له، فأجابهم بأن وعدهم بحكومة دستورية وبناتجاه سياسة السلام. وانضمت الحامية كلها - فيما عدا الضباط النبلاء - إلى جيشه المتضخم (الذي راح عدده يزداد بالتدريج) وهو يواصل مسيرته إلى باريس. لقد أصبح عدد جيشه الآن 21،000 كلهم مستعد للحرب بناء على أوامره، لكنه كان لا يزال عاقداً الأمل على إحراز النصر دون إطلاق النار. وكتب إلى ماري لويز واعدأ إياها أن يكون في باريس في 02 مارس (الذكرى السنوية الثالثة لميلاد ابنه) وقال لها إنها سسعدده سعادة فوق الحد إن استطاعت اللحاق به هناك حالا. وكتب إلى نِي Ney ملاحظات ودودة كما لو أن صداقتهم لم تشبها شائبة قط، ودعاها للالتقاء به في شالون Chalons ووعد أن يلقاه كما لقيه بعد معركة بوروديو Borodio، أي كأمير

موسكو Prince of Moskva وفي 41 مارس دعا نَيّ Ney (وكان لا يزال في لون - لي - سونيه - Le - Lons Saunier) جنوده جميعا وقرأ عليهم الإعلان الذي كلفه حياته بعد ذلك: أيها الجنود إن قضية البوربون قضية خاسرة وإلى الأبد. فالأسرة الحاكمة الشرعية لفرنسا على وشك أن تعتلي العرش. إن الإمبراطور نابليون هو حاكمنا وهو الذي سيحكم بلدنا العظيم من الآن فصاعدا فهزّ الجنود الأرض بصيحاتهم وهتافهم المتكرر عاش الإمبراطور عاش المارشال نَيّ! (22) وعرض عليهم أن يقودهم للانضمام إلى قوات نابليون، فوافقوا، ووجدهم نابليون في أوكزير Auxerre في 71 مارس. وفي 81 مارس استقبل نابليون المارشال نَيّ Ney وتجددت صداقتهما وبعدها لم يجسر أحد على اعتراض سبيل الزحف إلى باريس.

وفي مساء 71 مارس اجتمع الملك لويس 81 بالمجلسين في قصر البوربون، مرتديا زيه الملكي كاملا وأعلن عزمه على مقاومة نابليون. قال: لقد عملتُ لسعادة شعبي، أيمن - وأنا في الستين من عمري - أن أجد نهاية أفضل من الموت دفاعا عنه؟ وأمر بتعبئة كل القوى الملكية، وقد استجاب له بعض ممثلي هذه القوى وكان معظمهم - بشكل أساسي - من جنود حرس أسرته، أما الجيش النظامي فكان متوانيا بطيء الاستجابة، ولم يظهر قائد قدير يعرض قيادته لهذا الجيش أو بث الحماس فيه. وشرع الملكيون والموالون للملكية في الهجرة (تُرْك فرنسا) مرة أخرى. وغصّ صالون مدام دي سينتل بالإشاعات وراحت هي أيضا تقكّر في الهرب. وفي 91 مارس نشرت جريدة (جورنال دي ديبات Journal des de bats) (أي: جريدة المناقشات) مقالا بقلم عشيق مدام دي سنيل غير الدائم - بنيامين كونستانت يعيد فيه تأييده لـ لويس الثامن عشر والحكومة الدستورية، ثم اختفى في مساء اليوم نفسه (أي أخفى نفسه وسترها عن العيون).

أما لويس الثامن عشر نفسه الذي كان دوما كارها للانتقال فقد أجل رحيله حتى وصلته الأخبار في 91 مارس بأن نابليون وصل إلى فونتينبلو، ومن المتوقع أن يصل باريس في اليوم التالي. وفي الساعة الحادية عشر مساء ركب لويس 81 مع أسرته خارجا من التوليري قاصدا ليل Lille تلك المدينة المولية للملكية بشدة لكن الملك - بلاشك - فكر في أخ له انطلق في رحلة مماثلة في سنة 1971 فأعاده الشعب سجيناً (إشارة إلى محاولة الهرب التي قام بها لويس 61). وفي 02 مارس قام بعض البونابارتيين المتحمسين - بعد أن علموا أن قصر التوليري قد خلا من الملك وحرسه - بدخول القصر بفرح غير منضبط، وأعدوا الغرف الملكية لاستقبال نابليون. وكان جيش نابليون كلما تقدم لهدفه ازداد عدده. وبقي نابليون نفسه في فونتينبلو حتى الثانية ليلا. يُملّي الرسائل ويصدر التعليمات، ومن المفترض أنه تجول بشغف بالقرب من القصر الذي شهد كثيرا من أحداث التاريخ بما في ذلك تنازله عن العرش للمرة الأولى، ذلك التنازل الذي حان وقت إلغائه والثأر ممن كانوا سببا فيه. ووصل باريس في نحو الساعة التاسعة صباحا بصحبة بيرتران Bertrand وكولينكور Caulaincourt، فساروا ولا يكاد يتعرفهم أحد حتى وصلوا التوليري، وهناك كان جمع من الأقارب والأصدقاء حيّوه بعاطفة جيّاشة وحملوه ليرقوا به الدرجات، وراح ينتهي من عناق أحدهم حتى يعانق الآخر حتى جلس أمامهم منهكا مدهولا لكنه كان سعيدا إلى درجة أن الدموع ذرفت من عينيه. وأنت هورتنس Hortense فوبّخها لأنها قبلت تودّد إسكندر إليها، فدافعت عن نفسها، فرق لها وأخذها بين ذراعيه وقال: أنا أب طبيب... أنت تعرفين هذا... وأنت حضرت موت جوزفين البائسة. لقد ألم قلبي موتها رغم أنني كنت أعاني من أمور سيئة كثيرة (32).

وهكذا انتهت هذه الرحلة التي تفوق الخيال: 027 ميلا من كان إلى باريس في عشرين يوما، وأنجزها غالب الجنود والمرافقين سيراً على الأقدام، وأوفى نابليون وعده بأن تتم إعادة فتح فرنسا دون إطلاق نار. والآن كون حكومة جديدة لإعادة السلام والوحدة في البلاد واستعد لمواجهة 000,005 جندي تجمعا من روسيا وبروسيا والنمسا وإنجلترا ليعيدوه إلى جزيرته الصغيرة أو إلى جزيرة أخرى أبعد أو إطلاق النار عليه.

كل نهاية هي بداية، ففي 02 مارس بدأ نابليون فترة حكم المائة يوم Hundred Days منها.

لقد كانت عملية استعادة الحكومة والجيش والإرادة الوطنية عملية صعبة تواجهها عوائق ثلاثة: عدم شرعية موقفه، واتحاد القوى الخارجية المعادية له، وتفرق شعبه.

هاهو مرة أخرى يستولي على السلطة بالقوة، كما حدث في سنة 9971 أو على الأقل بالتهديد باستخدام القوة ويزيح حكومة مستقرة تشريعياً. وحقيقة أنه استولى بالقوة على سلطة نُزعت منه بقوة السلاح، لكنه كان قد تنازل عن العرش كما أن السينات Senate قدّم العرش للويس 81 فقبله كحق شرعي له، وهو الآن (أي لويس 81) لم يتخلّ عنه (أي عن العرش). لقد بدا في نظر الحلفاء وعدد غير قليل من الفرنسيين مغتصباً. لقد زاد اتحاد أعدائه الأجانب ضده عن ذي قبل أي عن أيام معاركهم المشتركة ضده في عامي 3181 و 4181. لقد أجمعت الأمم العديدة التي مثلت في مؤتمر فينا على أنه خارج على القانون. لقد تعهدت كل من روسيا وبروسيا والنمسا وإنجلترا بأن تقدم كل منها 000,051 مقاتل لخوض معركة جديدة لإخفائه من فوق مسرح الأحداث، ولم تكن هذه الدول وحدها، فقد قامت فدرالية الراين الجديدة بل وسويسرا الصغيرة بالإسهام في تكوين حاجز بشري ضده وتقديم المال اللازم للانقضاء عليه. وأرسل لهم نابليون عرضاً ذليلاً للمفاوضات دون إراقة دماء فلم يتلق منهم رداً، وناشد والد زوجته (إمبراطور النمسا فرانسيس الثاني) للتدخل لصالحه لدى المتحالفين الآخرين ضده، فلم يتلق منه رداً، وكتب لزوجته (ماري لويز) يتوسل إليها أن تليّن عريكة والدها، ومن الظاهر أن الرسالة لم تصل إليها. وفي 52 مارس أعلن الحلفاء أنهم لن يشنوا الحرب على فرنسا ولكنهم لن يُبرموا أبداً سلاماً مع نابليون بونابرت مخافة أن يقود فرنسا ثانية - رغبة أو غير رغبة - في حرب أخرى تزعزع مؤسسات النظام الأوروبي.

لم تكن فرنسا موحدة بأية حال في مواجهة حلفاء متحدين. لقد ظل فيها آلاف الملكيين للدفاع عن قضية الملك الغائب (لويس 81) وتنظيم دفاعاتهم وفي 22 مارس رحب مئات من الملكيين بالملك (لويس 81) عند وصوله إلى ليل Lille هاربا من باريس وحزنوا عندما تركهم مواصلاً طريقه إلى جنت Ghent ليكون مرة أخرى تحت حماية القوات الإنجليزية - وفي الجنوب الفرنسي كان الملكيون أقوياء قوة تمكنهم من إحكام السيطرة على بورديو Bordeaux ومرسيليا. وفي الغرب الفرنسي هب إقليم فندي الكاثوليكي شديد التمسك بكاثوليكيته، هب مرة أخرى حاملاً السلاح ضد نابليون الذي كانوا يعتبرونه ملحداً اضطهد باباهم، وتحالف مع قاتلي الملك (42)، وكان حليفاً لليعاقبة في السر كما كان مدافعاً عنيدا عن الاستيلاء على أموال الكنيسة. وفي مايو سنة 5181 أرسل نابليون 000,02 مقاتل لقمع هذا العصيان المسلح في إقليم فندي، لكنه في وقت لاحق راح يندم على ذلك فلو أن هذا العدد من الجنود (000,02) قد انضم إليه في معركة واترلو فربما كان قد ربحها (52).

وفي مواجهة أعدائه داخل فرنسا قد يجد بعض عناصر الدعم العام لم تكن كلها متمشية مع آرائه وطبيعته، وكان الجيش هو الأكثر توافقاً معه، ذلك الجيش الذي كان مخلصاً له (فيما خلا القوات الموجودة في بورديو Bordeaux وفرندي) باعتباره مخطط النصر والمكافئ عليه. وكانت الشرائح الدنيا من الأمة الفرنسية - الفلاحون والبروليتاريا وجماهير المدن - على استعداد لاتباع قيادته لكنها - أي هذه الشرائح - كانت تأمل أن يتمكن من تجنب الحرب، كما أنهم لم يعودوا يعبدونه عبادة تجعله متكبراً طائشاً. ولازال هناك كثير من اليعاقبة في المدن راغبين في نسيان عداوته لهم إذا ما أعلن ولاءه للثورة. وقد قبل تأييدهم له لكنه لم يتعهد بالانضمام إليهم في حربهم ضد التجار ورجال الدين. وكان نابليون محل إعجاب الطبقة الوسطى باعتباره واضع أسس النظام الاجتماعي والأخلاقي منذ مذابح سبتمبر، وقد أصبح هذا النظام محور فلسفته السياسية، ولكنها - أي الطبقة الوسطى - لم تقدم له الدعم ولم تقدم له أبناءها. لقد كانت الطبقة الوسطى تقدّر حرية التجارة وحرية الصحافة لكنها لم تكن تؤيد حرية الاقتراعات العامة (السرية) أو الحديث العام؛ فقد كانت تخشى الراديكاليين وترغب في قصر حق الانتخاب على الملاك. لقد كان أفراد الطبقة الوسطى قد انتخبوا مجلس النواب وقرروا حماية حقوق هذا المجلس لمواجهة سلطان الملك (أو الإمبراطور) وسياساته. كما أن ذلك القسم المساعد من البورجوازية (الصحفيين والمؤلفين والعلماء والفلاسفة) قد أوضح بجلاء أنه سيحارب بكل أسلحته أي محاولة يقوم بها نابليون لفرض سلطة إمبراطورية مرة أخرى. أما البطل الذي يواجه التحدي فكان هو نفسه ممزقاً بين الغرض والرغبة. لقد كان مايزال يعمل بجد، يراقب كل شيء ويدون كل شيء، وأحياناً كان يُلمي 051 خطاباً في اليوم (62). لكن قرط انتباهه وحذره أوْهنه إذتبتين الآن أنه لا يمكنه - إلا قليلاً - الاعتماد على

جنرالته الجُدُد أو مجلسيّه أو الأمة بل ولا حتى على نفسه. لقد كانت الأمراض التي تمكنت منه طوال الست سنوات التالية قد أضعفته بالفعل، لقد بثره داء البواسير وأذله فلم يعد قادراً على العمل لمدة طويلة كما كان حاله أيام تألقه في مارينجو، وأوسترليتر (أوسترليترس). لقد كان قد فقد شيئاً من صفاء ذهنه ووضوح غرضه وثقته القديمة في النصر؛ تلك الثقة التي كانت مصحوبة بالتفاؤل والبهجة. لقد كان قد بدأ يشك في نجمه (his star 72).

اختار نابليون في المساء نفسه الذي وصل فيه باريس وزارة جديدة، لأنه كان في حاجة إلى عونها تماماً. واعتراه السرور عندما علم أن لازار كارنو Carnot منظم النصر في أثناء الثورة مستعد لخدمته لمواجهة أعدائه لكن نابليون وجده كبير السن (26 عاماً) لا يتحمل معركة حربية، لكن نابليون عينه وزيراً للداخلية باعتباره شخصاً يمكن للجميع الوثوق به. ويكاد يكون هذا السبب هو نفسه الذي دعاه لاختيار جوزيف فوشيه Fouché وزيراً للشرطة إذ كان قد بلغ من العمر ستاً وخمسين عاماً يخشى الجميع بأسه ويشكون فيه، وكان يدير شبكة خاصة من الجواسيس وتكاد تكون له علاقات سرّية بكل الفرق، وربما أسرع الحاكم الذي هو في عجلة من أمره (نابليون) للاستعانة به بعرض منصبه (منصب فوشيه) القديم عليه، رغبة منه (نابليون) في إحكام مراقبته والتدقيق في أعماله وتوجهاته بالإضافة إلى أن أحداً ما لا يشكك في قدرات فوشيه Fouché. وظل فوشيه محتفظاً بأوضح رؤيه كما كان متمتعاً بمرونة لا حد لها طوال معظم الفترة المعقّدة التالية. لقد كتب في مذكراته: الإمبراطور في نظري مجرد ممثل احترق، لن يستطيع إعادة ما كان قد أنجزه (82). وحتى في أثناء عمله مع نابليون نجده قد تنبأ في نحو نهاية شهر مارس أنه - أي نابليون - لن يستطيع البقاء أكثر من ثلاثة أشهر (92)م.

وكانت الخطوة التالية، بعد اختيار الحكومة هي تنظيم جيش. لقد كان لويس 81 قد شعر بعدم جدوى الجيش سوى لضبط الأمور الداخلية، وبالتالي فقد ألغى التجنيد الإلزامي وقُصص القوات العسكرية إلى 000,061 رجل، فأعاد نابليون التجنيد الإلزامي في شهر يونيو لكن هؤلاء الشباب المحظوظين لم يكونوا قد جُندوا عندما أنهت معركة واترلو الحرب. ودعا نابليون الحرس الوطني للاستعداد لأداء خدمات عسكرية كاملة بما في ذلك الحرب ضد الأجنبي، فرفض كثيرون منهم، ولم يمثل سوى 000,051. وبهؤلاء وبعض المتطوعين بالإضافة إلى الجيش القائم أصبح في إمكانه أن يحشد في يونيو 000,003، مركز معظمهم في الدوائر (المحافظات) الشمالية وأمرهم بانتظار أوامر أخرى. وفي هذه الأثناء كرر مرة أخرى أعماله الجليلة كما كان في سنة 3181 و 4181 بتدبير المؤن والمواد اللازمة للجيش الجديد. واستورد سرا البنادق والمدافع من إنجلترا عدوته الأثيرة (03). ولم يستطع استخدام كل مارشالاته السابقين لأن بعضهم نذر نفسه لخدمة لويس الثامن عشر، لكن كان لا يزال في خدمته كل من Ney ودافو Davout وصولاً Soult وجروشي Grouchy وفاندام Vandamme. ودرس خرائط الطرق والتضاريس وتقارير تحركات العدو وخطط لكل الجوانب الكبيرة في المعركة القادمة. وفي هذا التخطيط كان في ذروة تألقه العقلي وفي ذروة سعادته. ورغم أنه كان يقبض على زمام الحكم إلا أن مهمته الثالثة ألا وهي كسب الدعم الجماهيري، كانت هي الأصبغ من مهامه الثلاث - لقد كانت كل العناصر تقريباً - فيما عدا الملكيين - يطالبون بالترامه بدستور يحمي حرية الحديث والصحافة ويجعله مسؤولاً أمام برلمان منتخب. وكان هذا ضد مزاجه على نحو موجه، لأنه كان قد اعتاد لفترة طويلة على الحكم المطلق، وشعر أنّ موجّه (مُرشداً) مقتدراً حسن النوايا مثله أفضل للبلاد من برلمان اللغو والمناقشات، ومع هذا ففي إيماءة منه للتسوية أرسل يستدعي بنيامين كونستانت (6 أبريل) لصياغة دستور لتهدئة الليبراليين دون أن يُخلّ يد العرش. لقد كان نابليون يعرف أنه كتب ضده بعنف لكنه كان يعرف أنه صاحب أسلوب محكم وعقل مرن. وأقبل كونستانت - غير واثق من مصيره - فتم استقباله ليجد أن كل ما يطلبه الإمبراطور منه هو أن يرتجل دستوراً يرضي كلاً من نابليون ومدام دي سيئل، فظل يعمل في هذا المشروع طوال أسبوع، ويعرض كل يوم ما أنجزه على (صاحب العمل) وفي 14 أبريل قدم نتاج عمله لمجلس الدولة. لقد اقترح ملكية دستورية يكون الملك (بضم الميم) فيها متوارثاً وتكون السلطة التنفيذية في يد رأس الدولة هذا، لكنه سيكون مسؤولاً أمام مجلس الشيوخ الذي يعين أعضائه الحاكم (الملك). ومجلس تشريعي (من 600 عضو) يضم ممثلين ينتخبهم الشعب عن طريق جمعيات (لجان) وسطى (أي بين الشعب والحكومة) وألغت مواد معينة رقابة الدولة وضمنت حرية العبادة، وحرية الصحافة. وبهذه الطريقة التقليدية تماماً وجد الإمبراطور وكاتبه (المقصود كونستانت) أنهما جمعاً بين مزايا الديمقراطية والأرستقراطية والملكية.

وبعد أن قبل نابليون كل هذا أصر على تقديم الدستور الجديد للشعب لا باعتباره تירוفاً من حكمه الماضي وإنما باعتباره وثيقة إضافية تشهد بالحرية التي كانت موجودة بالفعل في ظل الإمبراطورية (من وجهة نظر نابليون) واعترض كونستانت ومستشاروه الليبراليون واستسلموا. وفي 23 أبريل طُرحت (الوثيقة الجديدة) للاستفتاء العام على كل الناخبين المسجلين، ورفض الملكيون التصويت وامتنع آخرون كثيرون. وكانت نتيجة التصويت 1.552.450 لصالح الدستور واعترض 4800، وأمر نابليون بضرورة اجتماع الشعب في كامب - دي مارس - Champ - de Mars لإقامة احتفال جماهيري رسمي احتفاءً بالدستور وبداية حقبة جديدة ولمباركة الجنود ووداعهم في أثناء

الرحيل. وتم تأجيل هذا الاحتشاد إلى أول يونيو حيث شاهدت الجموع نابليون في أبهته الملكية: لقد أُقبل مرتديا ملابس الإمبراطورية في عربة تتويجه التي تجرها خيول أربعة يسبقه إخوته كأمرء للإمبراطورية. ولم تكن الجموع سعيدة بهذا العيق الآتي من ماضٍ مات. ماذا جرى للدستور الجديد؟

لقد قابلته الأمة ببعض التشكك وكثير من عدم الاهتمام فقد كان من الجلى أن كثيرين تشككوا في إخلاصه وإمكان استمراره، بل إن نابليون نفسه أبدى شواهد متناقضة. لقد شعر فيما يقول لا كاس Las Cases أن الشك في إخلاصه ليس له ما يبرره:

لقد عدت من جزيرة إلبا رجلا جديدا. إنهم لا يستطيعون تصديق هذا. إنهم لا يستطيعون أن يتخيلوا أن المرء قد يكون لديه من قوة العقل والنفس ما يمكنه من تغيير شخصيته أو ما يمكنه من الانحناء أمام قوة الظروف. وعلى أية حال فإن لدي ما يثبت هذا وهناك آخرون يخضعون للتأثير نفسه. من يجهل أنني لست رجلا ناقص التدبير؟ إنه يمكنني أن أكون مخلصا للملكية الدستورية والسلام تماما كما كنت مخلصا للحكم المطلق والمشروعات (التوسعية) الكبرى (31). لكن جورجو Gourgaud وهو مخلص لنابليون، كما عادة ما يكون محل ثقة (في رواياته) نقل عن نابليون قوله: لقد كنت مخطئا في إضاعة وقت ثمين في مسألة الدستور، فلم هذا ما دامت نيتي قد انعقدت على إزاحتهم جميعا (النواب) حالما أحقق النصر؟ (32).

لقد كان قد خطط ألا يدعو المجلسين للانعقاد إلا بعد المعركة حين قد يأتهم مكلًا بنصر مُتبع. لكن لافايت Lafayette الذي كان قد خرج من مكان اعتزاله وقد بلغ الثامنة والخمسين من عمره، ليلعب دورا في هذه الدراما (الأحداث)، فقد أحرر على عقد اجتماع لمجلس النواب قبل مغادرة نابليون للانضمام إلى جنوده. وأذعن نابليون واجتمع المجلس في 3 يونيو، وسرعان ما أبدى المجلس ما يشير إلى اتجاهه إذ انتخب لرئاسته الكونت جان - ديني - لانجواني Jean - Denis Languinais عدو الإمبراطور اللدود. وفي 7 يونيو ذهب نابليون في زيّ بسيط إلى قصر البوربون، وخاطب المجلسين المجتمعين معا بتواضع طالب أن يُقسم كل عضو للالتزام بالدستور والإخلاص للإمبراطور (33).

وفي 12 يونيو، في نحو الساعة الثالثة صباحا غادر نابليون باريس - وأهلها نيام - قاصداً الجبهة.

صفحة رقم : 14765

قصة الحضارة - عصر نابليون - خاتمة المطاف - إلى واترلو - المعركة الأخيرة

6- المعركة الأخيرة

1815: 6\15 يونيو

بلجيكا

كانت خطة نابليون للمعركة القادمة تقوم على المعلومات التي جمعها عن حجم قوات الحلفاء وتقسيمها وقيادتها وموقعها واستراتيجيتها القادمة. لقد كانت قوات الحلفاء قد تباطأت في تقدمها غرباً لإتاحة الوقت اللازم لوصول القوات الروسية واشتركاها في المعركة، لكن تقدم نابليون السريع حسم المسألة قبل وصول القوات الروسية لنهر الراين.

وفي أول يونيو تجمع جيش بروسي قوامه 120.000 مقاتل بالقرب من نامور Namur في بلجيكا بقيادة المارشال بلوخر (بلوشر Blucher) البالغ من العمر 73 سنة. وإلى الأبعد شمالاً كان الدوق ويلنجتون Wellington (كانت مهمته في البرتغال وإسبانيا قد انتهت بالنصر) على رأس ما أسماه الجيش سيء السمعة المكوّن من 93.000 مجنّد بريطاني وهولندي وبلجيكي وألماني، وكان معظمهم لا يعرف الواحد منهم سوى لغة واحدة مما سبّب مشكلة للقائد الإنجليزي. وكان على ويلنجتون أن يعوّض نقص تدريبهم، بقرارات وحلول يبتدعها من عند نفسه على وفق خبرته. وقد رسم له لورنس صورة شخصية وهو في لحظة تأمل تُظهره في وضع فخور (معتزّ بنفسه) وملامح وسيمة ونظرة هادئة ثابتة، ومن هذه الصورة يمكن أن نستنتج ما كان يجب على نابليون المرهق والمعتل كبير السن أن يفعله عند المواجهة في 18 يونيو.

وكان نابليون قد ترك جزءاً من جيشه لحماية باريس وخطوط مواصلاته. ولم يكن مع نابليون سوى 126.000 مقاتل مما يسمّى بجيش الشمال Armee dn Nord لمواجهة 213.000 مقاتل بقيادة بلوخر Blucher وويلنجتون. وبطبيعة الحال فقد كان يأمل أن يلتقي بواحدٍ من الجيشين (جيش بلوخر أو جيش ويلنجتون) ويهزمه قبل أن يجتمع شمل الجيشين، ومن ثم يعطي جيشه قسطاً من الراحة ويعيد تنظيم صفوفه قبل خوض معركة مع الجيش الآخر.

لقد كان الطريق بين الجيشين المتحالفين (جيش بلوخر وجيش ويلنجتون) يمتد من نامور Namur عبر سومبريف Sombreffe إلى كاتر - برا - Quatre Bras (أربعة جيوش) ومن ثم غرباً (حيث يتسع الطريق عن ذي قبل) من الحدود الفرنسية البلجيكية عند شارلروي Charleroi فشمالاً من واترلو إلى بروكسل. وكان هدف نابليون الأول هو الاستيلاء على كاتر - برا - Quatre Bras ومن ثم يُؤصد الطريق بين الجيشين الحليقين. وكان نابليون قد أصدر تعليمات بأن تتقارب الكتائب الثلاث من جيشه (جيش الشمال) في 14 يونيو عند نهر سامبر Sambre في مواجهة شارلروي Charleroi. وانضم هو إلى واحدة من الكتائب الثلاث وأمر الكتائب الثلاث جميعاً بعبور النهر إلى الأرض البلجيكية نحو الساعة الثالثة من صباح 15 يونيو، وتمّ هذا، فاستولوا بسهولة على شارلروي بعد أن هزموا حاميتها البروسية الصغيرة.

وعلى أية حال، ففي الوقت نفسه انهزم الجنرال لويس دي بورمون Bourmont لصالح الحلفاء وأفضى إلى ضباط بلوخر بخطط نابليون. لكن الحذر (بلوخر) كان قد استنتج هذه الخطط وبالتالي فقد كان قد أرسل جانباً من جيشه غرباً إلى سومبريف Sombreffe وانضم إليه في نحو الساعة الرابعة من صباح 15 يونيو. لقد قسم نابليون الآن جيشه إلى ميمنة بقيادة جروشي Grouchy وميسرة بقيادة ني Ney وقوة احتياطية بقيادة درو درلو Drouet d Erlon بالقرب من شارلروي لتهب لنجدة جروشي أو ني على وفق ما تمليه الظروف. وكان على جروشي أن يتقدم شمالاً بشرق نحو سومبريف لمواجهة بلوخر. وكان على ني Ney أن يتوجه شمالاً للاستيلاء على كاتر - برا - Quatre Bras وأن يمنع في كل الأحوال قوات ويلنجتون من الانضمام إلى قوات بلوخر. ولأن نابليون نفسه كان يتوقع صداماً حاداً مع بلوخر، فقد ركب مع جروشي.

وتي Ney الذي كان حتى الآن أشجع الشجعان راح طوال 15 و 16 يونيو يتبع سياسة الحذر التي عطلت خطط نابليون بشكل سيء. لقد توجه شمالاً من شارلروي وطرد البروسيين من جوسيل Gosselies ومن ثمّ توقف مخافة مواجهة قوات ويلنجتون الأكثر عدداً. لقد أرسل فصيلة خيالة (فرسان) لدراسة الموقع عند كاتر - برا - Quatre Bras فعدت له بنقير مفاهه أنها خالية من قوات العدو، فقاد 3000 من رجاله للاستيلاء عليها اعتقاداً منه أن هذا سيكون كافياً لكن في الوقت الذي رأى فيه كاتر - برا - Quatre Bras، كانت قوات الأمير بيرنهارد الساكس - فيماري Bernhard of Saxe - Weimar البالغ عددها 0004 مقاتل قد استولت عليها، وكان بيرنهارد يصحب معه أربعة مدافع، فاستدار ني Ney عائداً إلى جوسيل وراح ينتظر هناك تعليمات أخرى. وأرسل بيرنهارد رسالة إلى ويلنجتون طالباً أن يحضر بقواته الرئيسية إلى كاتر - برا - Quatre Bras مخافة أن تأتي قوات ني Ney سريعاً لحصارها.

وفي الساعة الثالثة صباح 15 يونيو تلقى ويلنجتون في بروكسل أخباراً مفادها أن جيش نابليون قد عبر إلى بلجيكا، واحتفظ ويلنجتون بقواته في حالة استعداد قرب العاصمة البلجيكية ظناً منه أن نابليون سينفذ خطته المعتادة بالإسراع

للقيام بهجوم جانبي (على جناح العدو). وفي تلك الليلة كان هو وكثيرون من ضباطه الرجال الشجعان منهمكين مع النسوة الجميلات إذ كانوا في حفل راقص أعدته الدوقة ريشمون (Richmond 34) وفي أثناء الحفل تلقى في منتصف الليل الرسالة التي تُفيد أن كاتر - برا Quatre - Bras في خطر، فأصدر أوامره بهدوء لضباطه بالاستعداد للانطلاق في بكور الصباح، أما هو فلم يُعكّر صفو الحفل الراقص وظل يرقص حتى الساعة الثالثة صباحا (53).

26/16 يونيو: لني Ligny

في نحو الساعة الثانية من صباح 16 يونيو، أرسل المارشال سول (صول Soult) رئيس أركان نابليون أوامر نهائية إلى ني Ney:

كُلفني الإمبراطور أن أحيطك علما بأنّ العدو جمّع جانبا من قواته بين سومبريف Sombrefe وبري Brye وأنه في الساعة الثانية والنصف صباحا سيهاجم بالفصيل الثالث والرابع هذه القوات. إن صاحب الجلالة الإمبراطور يريد أن تهاجم أيّ عدو تواجهه وبعد الضغط عليه بشدة وإجباره على التراجع، عدّ إلينا لتتضم إلى قواتنا لتطويق العدو (36).

لقد أحضر بلوخر كل رجاله البالغ عددهم 83.000 لمقاومة الفرنسيين، وبدأت المعركة في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر بالقرب من مدينة لني (ليجني Ligny) بهجوم متزامن (في الوقت نفسه) تقوم به ميمنة جروشي بقيادة فاندام Vandamme وقلب قوات جروشي بقيادة جيرار Gerard، وميسرة جيشه (جيش جروشي) بالإضافة إلى سلاح الفرسان بقيادة جروشي نفسه، بينما يوجّه نابليون العمليات الثلاث التي ينفذها 78.000 مقاتل. وسرعان ما اتضح أنّ تحطيم بلوخر المهيب ليس أمراً سهلاً، وإذا كان لا بد أن يهزم الفرنسيون هنا إذن فقد تنهار معركتهم كلها (يفقدوا المعركة الأساسية كلها). وفي الساعة الثالثة والرابع أرسل نابليون إلى ني Ney سيبتد الجيش البروسي إن حاربت بضراوة. مستقبل فرنسا بين يديك، لذا فلا تتوان للحظة في إنجاز ما أوكل إليك، ثم عد إلى سان أمان Amand وبري Brye لتشارك في النصر الذي قد يقرر مصيرنا جميعا (37).

لكن ني Ney أيضا كان يواجه صعوبات. فبحلول الساعة الثالثة بعد الظهر كان ويلنجتون قد جلب معظم جيشه إلى كاتر - برا Quatre - Bras. ولم يعلم نابليون بهذا (لأن السيطرة على وسائل الاتصال كانت قد أفلتت من صول)، لذا فقد أرسل الأوامر إلى درو درلو Drouet D Erlon في شارلروي ليسرع شمالا بقوات الاحتياط التابعة له ليهاجم ميمنة بلوخر، وتقدم درو بالفعل حتى كاد يصل إلى لني (ليجني Ligny) حيث وصله طلب عاجل من ني Ney ليندفع مسارعا إلى نجدته في مواجهة قوات ويلنجتون الأكثر عددا في كاتر - برا Quatre - Bras، ووجد درو أن طلب ني Ney هو الأكثر إلحاحا فسارع إليه ليجده - بعد جهود يائسة - قد تخلى عن محاولة طرد ويلنجتون من المدينة (كاتر - برا).

في لني (ليجني Ligny) استمرت المعركة ست ساعات من المذابح. وتذكر ضابط بروسي - في وقت لاحق - ما حدث، قائلا: لقد راح الرجال يذبح بعضهم بعضا بكرهية شديدة وكأنما الواحد منهم يكن للآخر كراهية شخصية (38). إن قرينتين هادنتين مثل سان أمان St.Armand ولا هاي La Haye كانتا تنتقلان من حوزة فريق إلى حوزة فريق آخر، والحرب على أشدها رجلا إزاء رجل، واشتعلت النيران في لني (ليجني Ligny) نفسها، وبينما الليل يرخي سدوله والمطر يهطل، أمر نابليون حرسه القديم بمهاجمة قلب القوات البروسية، وأصبح المطر مصحوبا برعد، فأفسح القلب البروسي الطريق، وسقط بلوخر الذي كان لا يزال يقاوم من فوق حصانه، وكان لا بد من حمله بعيدا. وكانت القوات الفرنسية قد اعترها إرهاق شديد فلم تحوّل هزيمة أعدائها إلى هزيمة منكرة لا قيامة بعدها. وانسحبت القوات البروسية شمالا نحو ويفر Wavre مخلّقة وراءها 12.000 قتيل وجريح. وكان نابليون نفسه قد كاد يستنفد كل موارده وأعصابه، فلو أن ويلنجتون كان قد استطاع الوصول هذه اللحظة إلى هنا من كاتر - برا لما كانت هناك حاجة إلى معركة واترلو.

33/17 يونيو: المطر

لقد كان من صالح نابليون أن جعل المطر الغزير المعركة الكبرى مستحيلة في 17 يونيو. لقد كانت الأرض غاصة بالطين فكيف يمكن سحب المدافع وثبيتها فوق أرض مشبعة بالمياه وغير ثابتة بسبب الطين الكثير فوقها؟ ربما كانت هذه الأوضاع واضحة في عقل الإمبراطور عندما وصلته رسالة من ني Ney تفيد أنّ ويلنجتون قابض على زمام الأمر في كاتر - برا Quatre - Bras، ولمحّ - أي ني Ney - إلى أنه لا يمكن إخراجها منها إلا بالقوات الفرنسية مجتمعة، فأجابته نابليون بعبارة مبهمة لا بد أنها تركت ني Ney أكثر ارتباكاً من ذي قبل: تمسك بموقعك عند كاتر - برا Quatre - Bras. لكن إن كان هذا مستحيلا، أرسل حالا معلومات عن الموقف، وسيصرف الإمبراطور على وقفها. وإذا... لم يكن هناك إلا مؤخرة جيش العدو فهاجمها واستول على الموقع (39). وكان هناك أكثر من المؤخرة،

ورفض ني Ney أن يجدد الهجوم. وكان ويلنجتون - بعد أن علم بهزيمة بلوخر - قد سحب جيشه شمالاً إلى هضبة مونت سان جان Mont St. Jean التي يمكن الدفاع منها وتراجع هو إلى مركز قيادته بالقرب من واترلو. ووجه نابليون جنراله جروشي على رأس 30.000 لمتابعه البروس طوال يوم 17 يونيو ولمنعهم في كل الأحوال من الانضمام إلى قوات ويلنجتون. أما هو نفسه (نابليون) فقاد 40.000 ممن نجوا من معركة لني (لجني Ligny) لينضم إلى ني Ney عند كاتر - برا Quatre - Bras، وعندما وصل في الساعة الثانية مساءً ثبطت همته فتفجّع صارخاً ضاعت منا فرنسا! (40) فراح يلاحقه وقاد هو نفسه عملية الملاحقة هذه لكن المطر الكثيف أجبره على إنهاء هذه العملية، وفي التاسعة مساءً حيث كانت الرطوبة شديدة ركب عانداً قاطعاً ميلاً أو ميلين لينام في مخدع في كيلو Caillou بينما عسكر جيشه المنهك على أرض رطبة طوال الليل، وكان المطر قد توقف.

4:6\18 الأحد 18 يونيو: واترلو

في الثانية صباحاً أرسل بلوخر رسالة إلى ويلنجتون يعده فيها بأن جيشاً بروسيا بقيادة الجنرال فريدريش فيلهيلم فون بولو Friedrich Wilhelm Von Bulow سيغادر ويفر Wavre فجراً لينضم بقواته إليه لقتال الفرنسيين، وأن جيشين بروسيين آخرين سرعان ما سيتبعانه. وفي العاشرة صباحاً أرسل نابليون الذي لم يكن يعلم بهذا التدبير تعليمات إلى جروشي لمواصله ملاحقة بلوخر إلى ويفر Wavre.

لقد كان قد خطط لبدء العمليات في التاسعة صباحاً لكن قادة المدفعية حثوه على التأجيل حتى تبدأ التربة في الجفاف. وفي هذه الأثناء ركز ميلنجتون قواته فوق أرض مرتفعة جنوب تل مونت سان - جان Mont St. Jean لقد كان معه 70.000 مقاتل و 184 مدفعاً، أما نابليون فكان على رأس 74.000 مقاتل وكان معه 266 مدفعاً. وكان مع كل منهما (ويلنجتون ونابليون) جنرالات كان لهم مكانة في التاريخ (أو حققوا في هذه المعركة مكانة): الأمير فريدريش البرونسفكي Friedrich of Brunswick (ابن الدوق الذي خسر في فالمي وجرح جرحاً مميتاً في أورشتدت Auerstedt) ودورنبرج Dornberg وألتن Alten وكمبت Kempt وسومرست Somerset وأكسبرج Uxbrisse وهل Hill وبونسوني Ponsonby وبيكتون Picton، وكان كل هؤلاء مرتبطين بويلنجتون، وكان كل واحد منهم معزراً بنفسه كدوق. وبالإضافة إلى هؤلاء كان هناك بولوف Bulow وتسيدتن Zieten وبيرخ (بيرش Pirch) تحت قيادة بلوشر (بلوخر)، وبالنسبة إلى الفرنسيين كان هناك ني Ney وجروشي وفاندام وجيرار وكامبرون وكيلرمان Kellermann ورييل Reille ولوبو Lobau ونابليون.

لقد كان نابليون قد بدأ يدفع حساب سنواته المزدحمة بالأحداث حيث كان يأكل بعجلة ويضاجع بعجلة ويعاني غاية التوتر وهو فوق العرش أو في ميدان المعارك وأخيراً وجد سلواه في الأكل بنهم. وبعد ذلك بست سنوات أثبتت تشريح أعضائه بعد مماته وجود ست علل. والآن في واترلو كان عليه أن يظل ممتطياً جواده طوال ساعات بينما هو يعاني من داء البواسير (14)، وكان يعاني من حصوات في المثانة، وكان عُسر البول يتطلب منه محاولة التبول مراراً وغالباً ما يكون ذلك في أوقات غير مناسبة. وربما يكون السرطان الذي أودى بحياته وحياة أبيه قد بدأ فعلاً في التغلغل في بدنه (24). هذه المتاعب قد ثبطت من همته وأثرت في شجاعته وصبره وثقته. لم أعد أجد في نفسي الإحساس بالنجاح النهائي... إنني أحس أن الحظ قد تخلى عني (43) ومع هذا فقد أكد لجنرالاته الذين اعترضوا خوفهم (من المفترض أن ذلك لتقوية عزيمتهم): إذا تم تنفيذ أوامري بشكل جيد، فسننام الليلة في بروكسل (44).

لكن جنرالاته كانوا يرون الموقف بشكل أوضح. لقد نصحه صول Soult أن يأمر جروشي Grouchy بالاتجاه بقواته البالغ عددها 30.000 غرباً بالسرعة الممكنة لينضم إلى الهجوم، لكن بدلاً من ذلك سمح نابليون لهم أن يضيعوا الوقت وأنفسهم في مطاردة قوات بلوخر شمالاً حتى ويفر Wavre، ومن المفترض أنه كان يأمل أنه إذا اتجه البروس غرباً لمساعدة ويلنجتون لاستطاع جروشي مهاجمة المؤخرة. وقد ارتكب ويلنجتون على وفق ما ورد في تحليل لاحق سلسلة من الأخطاء المماثلة بتركه 17.000 من رجاله بالقرب من بروكسل لمواجهة هجوم فرنسي جانبي على طرقه المهمة والحيوية المؤدية إلى البحر.

وأمر نابليون في الساعة الحادية عشرة صباحاً جيشه ببدء الهجوم على قلب (مركز أو وسط) العدو حيث كان المقاتلون من الإسكتلنديين الأشداء. وقاد ني Ney قواته باندفاعه وبسالته المعروفين لكن البريطانيين ثبتوا وراحوا من وراء تل بعد تل ينشرون الموت بالجملة بمدافعهم (التي أخفوها عن الأعين) في صفوف الفرنسيين الذين اعترضوا الهلع. وفي نحو الساعة الواحدة بعد الظهر رأى نابليون من موقع المراقبة جنوب غرب العمليات جيشاً في أقصى الشرق يتحرك صوب ميدان العمليات، فأخبره أسير ألماني أن هذه القوات هي طليعة قوات بولو Bulow البروسية تتقدم لمساعدة ويلنجتون. فأرسل نابليون كتيبة بقيادة الجنرال لوبو Loban لوقف القوات البروسية المتقدمة، وأرسل إلى جروشي لمهاجمة بولو (بولوف) Bulow ثم القوم لمساعدة الجيش الفرنسي الرئيسي ضد ويلنجتون. وفي نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً توجه جروشي شمالاً بين جمبلو Gemblow وويفر Wavre فسمع صوت إطلاق

المدافع قادما (أي الصوت) من الغرب، فتحته الجنرال جيرار Gerard ليكفأ عن ملاحقة بلوخر وأن يشق طريقه عبر المنطقة ليضم جنوده البالغ عددهم 30.000 إلى قوات نابليون، والتقى جروشي بجزء من قوات بلوخر وهزمها، ودخل ويفر Wavre فاستراح بقواته بعد أن وجد بلوخر قد ابتعد بقواته. لكن في هذا الوقت (الساعة الرابعة عصرا) كانت معركة واترلو في ذروتها: تلاحم صاخب بين رجال يقتلون ويُقتلون (بضم الياء) يفقدون ضربات استراتيجية أو يستعيدونها، يواجهون الخيول المندفعة يتلقون ضربات السيوف أو يروغون منها، يسقطون ويموتون في الوحل. وفر الآلاف من الجانبين تاركين ساحة الوغى. وقضى ويلنجتون جانبا من وقته يُرهب الفارين للعودة إلى مواقعهم. وتولى ني Ney مهمة بعد مهمة ومسئولية بعد مسؤولية، وماتت تحته أربعة خيول. وفي نحو الساعة التاسعة مساء تلقى أمراً من نابليون بالاستيلاء على لاهاي سانت La Haye Sainte - الهولي هيدجرو the Holy Hedgerow. ونجح في مهمته وظن أنه وجد طريقا (فتحة) إلى مؤخرة ويلنجتون، فأرسل إلى نابليون طالبا مزيدا من الجنود المشاه واندفع متقدما واستشاط نابليون غضبا بسبب تقدّمه الطائش إذ لم يكن لدى نابليون الدعم العسكري الكافي الذي يُمكن إرساله إليه دون أن يكون ذلك على حساب الخطة العامة (أي دون أن يؤدّي هذا إلى إضعاف الموقف العام) لكنه - أي نابليون - شعر أنه لا يجب ترك هذا البانس ليهلك ومن معه، فأمر كيلرمان Kellermann بالتوجه لدعم ني بثلاثة آلاف من الفرسان المترعين (اللابسين دروعا). وعندما طلب قائد الخط البريطاني الأخير دعماً من ويلنجتون أجاب الدوق بأنه لا يستطيع تقديم أية تعزيزات. ويُقال إن الضابط أجابه: حسنا جدا يا سيدي اللورد، إننا سنصمد حتى آخر رجل (45). وعندما بدأ هذا الخط الإنجليزي في الانكسار اندفع الفرسان الفرنسيون إلى الأمام للمشاركة في النصر؛ فعلق ضابط إنجليزي هو الكولونيل جولد Gould: لقد انتهى كل شيء (46) وهربت كتيبة هانوفرية عند هذا الحد إلى بروكسل، وراح أفرادها يصيحون جميعا: خسرنا المعركة، والفرنسيون قادمون (47).

وحقيقة الأمر أن البروسيين كانوا هم القادمين. لقد كسر بولو (بولوف Bulow) (البروسي) مقاومة لوبو Labau (الفرنسي) وراح يقترب بسرعة من مسرح العمليات الرئيسية، كما كانت قواتان بروسيتان أخريان تقتريان. ورأى نابليون أن فرصته الأخيرة هو أن يهزم الإنجليز قبل أن يتمكن البروسي من التدخل، فدعا حرسه القديم ليتبعه في معركة حاسمة، واتخذ هارب فرنسي طريقه إلى ويلنجتون وحرّره ستصل إليك قوات الحرس الفرنسي في غضون نصف ساعة. وفي نحو هذا الوقت رأى رجل مراقبة بريطاني - نابليون، وقال: ها هو نابليون يا سيدي أظن أنني أستطيع اصطيداه، هل أطلق عليه النار؟ فمنعه الدوق: لا.. لا.. فالجنرالات الذين يقودون الجيوش، لديهم ما هو أهم من إطلاقهم النار بعضهم على بعض الآخر (48).

وهنا ظن الفرنسيون أنهم الغالبون، لكنهم علموا فجأة بهجوم 30.000 جندي بروسي راحوا ينشرون الفرع والفوضى في صفوف الفرنسيين (49). وعندما شرع ني Ney في مواصلة مهمته تماسكت القوات البريطانية بسرعة وتراجع ني Ney، وانتهز ويلنجتون هذه الفرصة فصعد قمة منحدر وراح يلوح بقبعته - كإشارة متفق عليها لتتقدم قواته كلها، وواصلت الطبول والأبواق توصيل الرسالة، فتحوّل 40.000 إنجليزي وإسكتلندي وبلجيكي وألماني من الدفاع إلى الهجوم واندفعوا متقدمين لا يهابون الموت. ووهنت الروح المعنوية للفرنسيين وعمهم الانهيار فولّوا مُذبرين، حتى أفراد الحرس القديم بدأوا يُديرون رؤوس خيولهم متراجعين. وصاح نابليون مُصدرا الأوامر بالتوقف فذهب صوته أدراج الرياح وسط الجلبة، ولم يعد من الممكن تمييزه (التعرف عليه) بسبب دخان المعركة والأتربة المتصاعدة فاستسلم لهذا الاستفتاء العام (بمعنى أنه أذعن للتحركات العفوية لقواته) فأمر بالانسحاب في تشكيلات لكن القوات الفرنسية التي كانت تتعرض لهجوم من قوات تفوقها عدداً بكثير، من المقدمة ومن الجانب - لم يكن لديها الوقت لتنظم نفسها في تشكيلات، فأصبح شعار كل فرد فيها دع كل فرد يُنفذ نفسه بقدر ما يستطيع لقد أصبح هذا هو الشعار السائد سواء نطقوا به أم لا، ذلك أنهم لم يعودوا جنودا بل بشراً ليس إلا. ووسط هذه الهزيمة وقف المارشال ني Ney مذهولاً بلا حصان، وقد اسودّ وجهه بالبارود وتمزقت ثيابه العسكرية، وسيفه مكسور في يده، هذا السيف الذي طالما حقق به النصر. كان هذا هو وضع ني Ney بطل الأبطال في واترلو (05). لقد انضم هو ونابليون إلى أربعين ألف فرنسي يندفعون في الطرقات والحقول إلى جيناب Gennape وإلى كاتر - برا Quatre - Bras وإلى شارلروي Charleroi ومن ثم عبروا بكل وسيلة متاحة نهر سامبر Sambre إلى فرنسا. لقد ترك الفرنسيون في ميدان المعركة 25.000 ما بين قتيل وجريح و 8000 أسير، وفقد ويلنجتون 15.000 وفقد بلوخر 7.000. والتقى المنتصران (ويلنجتون وبلوخر) في الطريق بالقرب من لا بل أليانس La Belle Alliance وتبادلا القبلات فرحاً بالنصر. وترك ويلنجتون مهمة ملاحقة الفرنسيين للبروس المتحمسين. وبلوخر أيضا كان كبير السن بدرجة لا تسمح له بالمطاردة، فترك هذه المهمة لجنايسناو Gneisenau في جيناب Genappe التي أرسل منها خطابا لزوجته: بالتنسيق مع صديقي ويلنجتون أبدا جيش نابليون. لكنه كتب أيضا لصديقه كنيبيك Knesebeck: لقد اضطربت كل أعضائي، فقد بذلنا جهودا مُضنية (51). أما ويلنجتون فقد بسط الأمر أمام لورد أكسبريدج Uxbridge بطريقة

حماسية: لقد وجهنا لنابليون ضربة حاسمة فليس أمامه إلا أن يشنق نفسه(52). وفي أثناء الانسحاب انضم نابليون إلى كتيبة أكثر انضباطاً من غيرها، وترجل وسار على قدميه مع الآخرين. وبكى لضياح جيشه، وحزن لأنه لم يلق حتفه.

صفحة رقم : 14766

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى سانت هيلنا -> التنازل الثاني عن العرش

الفصل الثامن والثلاثون

إلى سانت هيلنا

1- التنازل الثاني عن العرش

22 يونيو 5181

وصل نابليون إلى باريس في نحو الساعة الثامنة صباح يوم 21 يونيو. وذكر في وقت لاحق لقد كنت منهكاً تماماً، لأنني لم أكل شيئاً ولم أتم منذ ثلاثة أيام(1) وذهب إلى قصر الإليزيه، وقال لكو لينكور ملتسماً: أريد أن أستريح ساعتين(2). وفي هذه الأثناء اجتمع مجلس النواب، وكان الشعور العام يميل بشدة لعزله. ولما علم بهذا الاتجاه، اقترح على أصدقائه أن الأمر يتطلب دكتاتورية مؤقتة نظراً لاضطراب الآراء في البلاد، والحاجة إلى عمل موحد للدفاع عن فرنسا وعاصمتها في مواجهة الحلفاء، وذلك لضبط الأمة وحكومتها. وعندما علم أهل باريس بالنكسة العسكرية تجمع عدد كبير منهم أمام قصر الإليزيه مؤكدين استمرار ثقتهم في نابليون بهتافهم: عاش الإمبراطور وراحوا بطالبون بالسلح للدفاع عن مدينهم. ولما سمعهم نابليون قال لبنيامين كونستانت: أنت ترى! ليس هؤلاء هم الرجال الذين أهدقت عليهم التشرىف والأموال. بماذا هم مدينون لي؟ إنني أراهم بؤساء، وقد تركتهم بؤساء... إنني لو أردتُ لأنهيئُ وجود هذا المجلس Chamber المتمرد في ظرف ساعة... لكن حياة شخص واحد لا تستحق هذا الثمن. إنني لا أريد أن أكون ملك الفلاحين Jacqueries. إنني لم أت من إلبا لأغرق باريس في الدماء(3).

لقد كان نابليون حتى في أثناء فراره من واترلو يخطط لإقامة جيش جديد من 300.000 مقاتل(4). وفي الفترة من 22 إلى 24 يونيو كانت بقايا جيشه المهزوم تتجمع في لون Loan وكان هناك من يُعيد تنظيمها تقع لون Loan على بعد ستة وسبعين ميلا إلى الشمال الشرقي من باريس)، وهناك - في 26 يونيو - انضم إلى هذه البقايا جروشي على رأس 30.000 من رجاله بعد انسحاب عبقرى. وعلى أية حال، ففي هذه الأثناء، كان بلوخر قد جمع قواته المنتصرة وكان يقودها نحو باريس متجنباً - بعناية - المرور بلون Laon. وتردد ويلنجتون الذي أضرِب جيشه ضرراً شديداً في الانضمام إلى البروسي المنذف لكنه سرعان ما كان على الطريق نفسه (إلى باريس) متجنباً المرور بلون Loan، وفي الفترة نفسها (22 - 52 يونيو) كانت جيوش النمسا وبافاريا وفيرتمبرج تعبر نهر الراين في طريقها إلى باريس. إن التاريخ يُعيد نفسه.

وقرر مجلس النواب بعد مناقشات حامية أن مقاومة القوات المتحالفة مسألة غير عملية وأن الأعضاء سيصرون على اعتزال نابليون. وعمل Fouché بأساليبه الحاذقة على ضمان هذا الاعتزال، وكان فوشيه وكان فوشيه قد تنبأ قبل واترلو أن الامبراطور سينتصر في معركة أو معركتين لكنه سيهزم في الثالثة وعندها سيبدأ دورنا(5) لكن فوشيه لم ينتظر طويلاً، لقد اندفع لوسيا Lucien - أخو نابليون - إلى المجلس Chamber طالباً التريث فعارضه فوشيه وتساءل لاقيت ألم يستهلك نابليون ما يكفي من الحيوانات؟ (جمع حياة). لقد فشل لوسيا Lucien الآن فيما كان قد نجح فيه في سنة 1799، ولكنه نصح نابليون أن يُطرح بالمجلسين بالقوة، فرفض نابليون. لقد كانت المعركة قد استنفدت قواه، وكانت الهزيمة قد أضعفت من إرادته لكنها أثارَت بصيرته، وبينما كانت الجماهير تهتف حول القصر عاش الإمبراطور، راح يُملي على أخيه لوسيا Lucien صيغة اعتزاله للمرة الثانية موجهاً إيَّاه للمجلسين:

لقد عملت على إعادة توحيد كل الجهود... وموافق كل الأجهزة في الحكم في بداية الحرب التي كان هدفها تحقيق استقلال الأمة، لكن الظروف تبدو لي وقد تغيرت... إنني أقدم نفسي فداء (أضحية) لمواجهة كراهية أعداء فرنسا. ربما كانوا صادقين في إعلاناتهم من أنهم حقيقة لا يريدون إلا الخلاص مني. اتحدوا جميعاً لتحقيق السلامة العامة ومن أجل ما بقي من استقلال إرادتنا... إنني أعلن تنصيب ابني باسم نابليون الثاني(6). ووافق كل الوزراء على هذا التنازل ما عدا كارنو Carnot فقد بكى، أما فوشيه فقد غمرته السعادة.

وقبل المجلسان هذا التنازل متجاهلين تعيين ابنه ذي الأعوام الأربعة (وكان وقتها في فينا) كخلف له، واختار المجلسان خمسة من أعضائها ((فوشيه وكارنو، وكولينكور، وجرينيه (الجنرال الغامض) وأونيت Quinette عضو الجمعية الوطنية الثورية القديمة))، ليكونوا مجلساً تنفيذياً Commission Executive وحكومة مؤقتة. وتم اختيار فوشيه Fouché رئيساً للمجلس التنفيذي وشرع مباشرة في التفاوض مع الحلفاء ونابليون. ومخافة القيام باضطرابات شعبية لصالح نابليون. حثّ دافو Davout القائد العسكري في باريس على إقناع نابليون بمغادرة باريس والإقامة في مالميزو Malmaison. وفي 25 يونيو غادر نابليون قاصداً مالميزو بصحبة برتران Bertrand وجورجو Gourgaud وكونت دي لا كاس de Las Cas وكونت دي مونثولو Montholon، فرحبت به هورتنس Hortense بدعوته إلى بيت أمها الراحلة. وراح يمشي مع هورتنس في الحديقة ويتحدث برقة عن جوزفين. لقد قال:

حقاً لقد كانت أفضل امرأة عرفتها(7). إنه يفكر الآن في البحث عن الملجأ والأمان في أمريكا. لقد طلب من بيرتران Bertrand أن يدبر له مجموعة كتب عن الولايات المتحدة(8). وكان قد قرأ كتاب إسكندر فون همبولدت Humboldt رحلات إلى القارة الجديدة، وقد اعتزم أن يكرس ما بقي من حياته للعلم. انه يود الآن الذهاب إلى أمريكا لاكتشاف أرضها وغطائها النباتي وحيواناتها من كندا إلى رأس هورن Horn، وفي 26 يوليو أرسل إلى الحكومة المؤقتة طلباً للانتقال إلى روشفور Rochefort ليبحر إلى أمريكا(9). فأمر فوشيه على الفور وزير البحرية بتجهيز فرقاطتين في روشفور لنقل نابليون إلى الولايات المتحدة(10) وفي اليوم نفسه زار نابليون أخوه جوزيف وأخوه لوسيا وأخوه جيروم، وكانوا جميعاً قد قرروا مغادرة فرنسا، وكان جوزيف يريد الهجرة إلى أمريكا مع أخيه نابليون. وربما يكونون هم الذين أحضروا له خطاباً من أهم تعرض عليه فيه كل ما تملك فأرسل لها شاكرًا ولم يأخذ منها شيئاً. فلأزال معه قدر كبير من المال مع البنكي جال لافيت Jacques Lafitte الذي أتى بنفسه إلى مالميزو ليرتب أمور نابليون المالية.

وفي 28 يونيو أتاه ضابط يحذره من اقتراب البروس من مالميزو فربا يكفي لإرسالهم فصيلاً عسكرياً للقبض عليه، وبالفعل فقد كان بلوخر قد أرسل رتلاً سريعاً أمراً وإيَّاه بإحضار نابليون حياً أو ميتاً وعبر عن نيته بإطلاق النار عليه كمجرم خارج على القانون(11). وعندما سمع جورجو بهذه النية أقسم لئن رأى الإمبراطور وقد سقط في أيدي البروس لأطلق النار عليه، ومع هذا كان نابليون كارها لمغادرة مالميزو الذي حفلت كل غرفة وممراته بذكريات سعيدة. وفي 29 يونيو كلف فوشيه الجنرال بكه (بكر Becker) بالتوجه بفرقة من الجنود لإجبار نابليون على الاتجاه إلى روشفور.

ووافق نابليون، وأقنعه هورتنس بقبول قلاذتها الأمامية الموضوعة في حزام والتي تساوي 200.000 فرنك. وودع نابليون الجنود القلائل الذين كانوا في حمايته. وفي الخامسة مساءً (29 يونيو) ركب عربية ذات غطاء تجرها أربعة خيول مصحوباً بحرس عسكري قليل العدد وغادر مالميزو، وبعد ساعات قليلة من مغادرته وصلت خيالة بلوخر.

صفحة رقم : 14767

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى سانت هيلانا -> البوربون يستعيدون العرش للمرة الثانية

2- البوربون يستعيدون العرش للمرة الثانية

7 يوليو 1815

راح المجلسان والحكومة المؤقتة يتناقشون هل يحاربون الحلفاء الذين اقتربوا أم يتفاوضون للوصول لأفضل الشروط المتاحة. وعرض دافو Davout أن يقود الميليشيا الموجودة بالمدينة (باريس) ضد ويلنجتون وبلوخر إن أصراً على إعادة لويس 81 إلى العرش. وخاف النواب أن تؤدي المقاومة والهزيمة إلى تمزيق فرنسا وما يعقب ذلك بوقت وجيز، من فضّل المجلسين معاً. ولم تكن بقايا جيش نابليون المعروف بجيش الشمال في حالة نفسيه تسمح بهزيمة أخرى (وانترو أخرى) بالإضافة إلى نقص المؤن، بينما كانت قوات الأعداء موحدة بين لون Loan وباريس. وعندما علم لويس الثامن عشر أن فريقاً من الحلفاء كان يعمل على إحلال لويس فيليب (دوق دورليان Duc d'Orleans) مكانه كملك لفرنسا انتقل وهو في حالة قلق من جنت Ghent إلى شاتو كمبريزي Chateau Cambresis وأصدر من هناك (في 25 يونيو) بياناً يعد فيه بالترضية (التسوية) ونظام الحكم الليبرالي. وأدى هذا إلى ابتهاج المجلسين، وفي 30 يونيو وقّعت الحكومة الفرنسية المؤقتة والحلفاء شروط تسليم العاصمة. كان على كل القوات الفرنسية أن تتسحب فيما وراء نهر اللوار مع ضمان أمن المواطنين وممتلكاتهم. وفي السابع من يوليو دخل الحلفاء باريس وفي الثامن من يوليو أصبح لويس 18 مرة أخرى ملكاً لفرنسا. واستخدم مدير شرطة دائرة (محافظة) السين Seine عند الترحيب به عبارة المائة اليوم Cent Jours للمرة الأولى ليصف بها الفترة الواقعة بين اغتصاب نابليون الملك للمرة الثانية (02 مارس) واستعادة لويس 81 عرشه.

وقبل معظم الفرنسيين وقف المقاومة باعتباره الحل العملي الوحيد للمشاكل الناجمة عن انهيار حكم نابليون المفاجئ. وعلى أية حال فإن بلوخر قد أطلق صيحة احتجاج مؤداها أنه سيطلب من مهندسيه نسف جسر بونت دينا Pont d'Iena وذلك الجسر الذي يُذكر بانتصار الفرنسيين على البروس في سنة 1806، واقترح تدمير كل ما يذكّر بنابليون (المقصود الأثار والنصب التذكارية... الخ)، وانضم ويلنجتون مع لويس 18 في حث بلوخر على الكف عن كل ذلك، لكنه أصر، غير أن وصول القيصر إسكندر والملك فريدريك وليم والإمبراطور فرانسيس الثاني على رأس قوات ورسية ونمساوية وبيدمونتية أدى إلى إجبار الوطني العجوز (بلوخر) على التهنة من حدة غضبه (12). لقد بلغ إجمالي القوات الأجنبية الآن نحو 800.000 لآبد أن يُطعمها الشعب الفرنسي لقاء حمايتها له policing (أي قيامها بدور رجال الشرطة)، وعلى وفق حساب كاسلريه Castlereagh فإن هذا كان يكلف فرنسا 1.750.000 فرنك في

اليوم (لإطعام الذين يحتنون بلاده)، وبالإضافة إلى هذا كان على كل ولاية أو منطقة أو محافظة أن تدفع للحلفاء تعويضات حرب، وكانت هذه التعويضات باهظة. وأخبر لويس 18 قادة الحلفاء أنهم إذا لم يلتزموا بإعلان 25 مارس واستمروا في معاملة رعاياه كأعداء، فإنه سيترك فرنسا باحثاً عن ملجأ له في إسبانيا. فوافق الحلفاء على تخفيض تعويضات الحرب إلى خمسين مليون فرنك متدريين بأنهم راضون تماماً بقوانين الحرب وبالسوابق التي رسختها نابليون عندما غزا بروسيا والنمسا.

ووجدنا أيضا الملكيين في بعض المدن الفرنسية منهمكين في إرهاب أبيض White Terror ثارا من الإرهاب الأحمر الذي أدى إلى مقتل عدد كبير من الملكيين في عامي 1793 - 1794. ولم يكن هذا الإرهاب الأبيض دائما بغير إعدام عاجل، فعندما تظاهر فريق من الملكيين في مارسيليا مطالبين بعودة لويس الثامن عشر إلى العرش قام بعض جنود الحامية المحلية ممن لا زالوا موالين لنابليون بإطلاق النار عليهم. وسرعان ما أوقف القائد إطلاق النيران وحاول أن يقود جنوده خارج المدينة المعادية لكن في أثناء خروجهم تعرض مئات منهم لقذائف النيران التي أطلقت عليهم من النوافذ ومن فوق الأسطح (25 يونيو) وفي هذا اليوم واليوم الذي تلاه راح الملكيون المسلحون يجرّون حول المدينة مطلقين النار على البونابرتيين واليعاقبة فسقط منهم مئة ضحية، وكان كثيرون من هؤلاء الضحايا لا يزالون يهتفون حتى وهم يحتضرون عاش الإمبراطور وراحت النسوة الملكيات يرقصن حول جثث البونابرتيين واليعاقبة (13). وفي أفينيون Avignon سجن الملكيون البونابرتيين وقتلوهم. وثمة شخص كان الملكيون يبحثون عنه على نحو خاص، إنه جولوم برونيه Guillaume Brune الذي كان متهماً بحمل رأس الأمير لاميل Lamballe على سن رمحه في سنة 1792. لقد اختبأ في فندق أفينيون وعثرت عليه الجماهير فأطلقت عليه النار وجرت جثته في شوارع المدينة وراحوا يضربون جثته بنشوة حانقة، ثم ألقوها في الرون Rhone وراح الرجال والنساء يرقصون بنشوة وسعادة (2 أغسطس 1815). وشهدت مدن نيم Nimes ومونتبلية Montpellier وتولوز Toulouse مشاهد مماثلة. لقد كان لويس 18 رجلا متسامحا لا يمكن عزو هذه البربرية له، لكنه لم يكن قادرا على التسامح مع ني Ney الذي سبق أن تعهد له (تعهد للويس 18) بإحضار نابليون حيا أو ميتا لكنه تخلى عن وعده وانضم إلى نابليون وتسبب في موت كثيرين في واترلو. لقد فرّ ني Ney من باريس في 6 يوليو وراح يتنقل متخفيا من مدينة إلى أخرى لكن تم التعرف عليه فقبض عليه وقدم إلى محكمة مكونة من 161 عضوا (نبيل) Peers أصدرت حكمها بأنه متهم بالخيانة فتم إعدامه بإطلاق النار عليه في 7 ديسمبر سنة 1815 بعد أن رفض أي خدمات دينية من القسس (رفض أن يُلقنه القسس أصول المسيحية الكاثوليكية كما رفض الطقوس الكنسية المرتبطة بالموت). لقد أصبح فوشيه وتاليران الآن في خدمة (وزارة) لويس 18 لقد انتصرا لكنهما لم يكونا سعيدين. لقد وصم الملكيون في مجلس الوزراء فوشيه بأنه ضالع في قتل لويس 16 ونصحوا الملك بطرده، وسوّى الملك الأمر بتعيينه وزيرا له (سفيراً) في سكسونيا (15 سبتمبر) لكنه استدعاه بعد ثلاثة أشهر ونفاه من فرنسا، فراح فوشيه ينتقل من براغ إلى لينز (لينتس Lins) إلى تريست حيث مات في سنة 1820 عن عمر يناهز الواحد والستين عاما مارس فيها كثيرا جدا من الشرور والسلوك الطائش.

وكان تاليران يضارعه مكرًا ودهاء ويفوقه تحملا وصمودا. لقد وصفه لويس 18 بسطور من كورنيل Corneille: لقد فعل معي كثيرا من الأمور الطيبة تمنعني من ذكره بشر، وألحق بي كثيرا من الأذى مما يمنعني من ذكره بخير (14) ويبدو أن تاليران هو الذي قال (في سنة 1796) عن البوربون: إنهم لم يتعلموا شيئا ولم ينسوا شيئا (15). لكن هذا القول لا يكاد ينطبق على لويس الثامن عشر الذي تعلم كيف يتعامل مع المجالس المنتخبة وكيف يُرحّب بجنرالات نابليون وكيف يُبقي على كثير من التشريعات النابليونية. وكان الوزراء الملكيون يكرهون تاليران ليس لأنه كان شريكا في المؤامرة على قتل الملك (لويس 16) فحسب وإنما أيضا باعتباره خاننا لطبقته، وأذعن لويس 18 لهم فطرده (24 سبتمبر 1815)، ولكن تاليران عاد إلى منصبه، وعاش بعد لويس 18 بل وعاش بعد تنازل شارل العاشر (1830) وتم تعيينه سفيراً لفرنسا لدى بريطانيا العظمى (1830 - 1834) وهو في السادسة والسبعين من عمره. وعندما انتقد مركز لوندونديري Londonderry السفير تاليران في مجلس اللوردات دافع عنه ويلنجتون الذي كان قد تعامل مع السيد تاليران في مواقف كثيرة فوجده على حد تعبير دوق ويلنجتون أكثر من عرف من الرجال حماسا ومهارة في حماية مصالح بلاده (فرنسا) وأكثر من عرف من الرجال استقامة وشرفا في تعامله مع الدول الأخرى. وعندما قرأ تاليران هذه الكلمات كاد يبكي، فلا شيء أفضل له من هذه الكلمات: إنني ممتن شديد الامتنان لدوق ويلنجتون فهو رجل الدولة الوحيد في العالم الذي تحدث عني حديثا طيبا (16) أما وقد عاون في تنظيم التحالف الرباعي في سنة 1834 ومات في سنة 1838 عن عمر يناهز الرابعة والثمانين، وفاق الجميع حدة ذهن ودهاء، فإنه كاد يخدع الموت نفسه.

وفي 20 نوفمبر 1815 وقع لويس الثامن عشر مع الحلفاء معاهدة باريس الثانية التي صاغت العقوبات التي كان على فرنسا أن تتحملها لسماحها لنابليون بمواصلته الحكم (بعد عودته من إلبا) لقد كان على فرنسا أن تتنازل عن السار

Saar وسافوي وأربع مدن حدودية بما في ذلك فيليبفيل Philippeville ومارينبورج Marlenburg، وأن يعيد الأعمال الفنية التي استولى عليها جنرالها الغازون، وأن تدفع تعويضات حرب مقدارها 700 مليون فرنك بالإضافة إلى 240 مليون فرنك على وفق دعاوى (مطالبات) خاصة، وأن تظل قوات الحلفاء في الأراضي الفرنسية مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وخمس وأن تدفع فرنسا تكاليف هذه القوات (17). ورفض تاليران توقيع هذه الوثيقة لكن وزير الخارجية الذي خلفه - أرمان إمانويل دي بلس Plessis دوق ريشيليو Duc de Richelieu وقعها محتجاً (وقعها معلناً احتجاجه عليها) وبعدها صاح: لقد لوثتُ شرفي (18).

صفحة رقم : 14768

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى سانت هيلانا -> التسليم

3- التسليم

4 يوليو - 8 أغسطس 1815

لقد ركب نابليون من مالميزو متجها جنوبا فلحق به عند نيور Niort أخوه جوزيف، ورفيقه في السلاح جورجيو. ووصلوا إلى روشفور Rochefort (جنوب شرق لا روشيل La Rochelle بثلاثة عشر ميلا) في وقت متأخر من الثالث من يوليو فوجدوا الفرقاطين اللتين توقعوا وجودهما (الفرقاطة سال Saale والفرقاطة ميدوز Meduse) في الميناء، لكن خلف هاتين الفرقاطين كان يوجد أسطول حربي بريطاني صغير يحاصر الميناء ويمنع فيما يبدو أي خروج منه دون تصريح.

وفي 4 يوليو أرسل نابليون استفسارا إلى قبطان الفرقاطة سال Saale - هل تم احتجاز مكان له ولبعض أصدقائه لرحلة إلى أمريكا، وهل يمكن للفرقاطة سال Saale اختراق الحصار؟ فأنته الإجابة بأن الفرقاطة جاهزة ومستعدة للإبحار وستحاول أن تروغ من السفن الحربية (المحصرة - بكسر الصاد) ليلا مع احتمال أن تتعرض للتوقيف أو القصف لكن إن أفلتت فإن سرعتها الفائقة لن تمكن السفن الحربية من اللحاق بها. إن نابليون الآن في محن راح يقاها فظل تسعة أيام مترددا يقرب الخطط - خطط هربه، وراح يطلب النصيحة من رفيق بعد رفيق، فعرض عليه جوزيف الذي كان يشبهه في المظهر أن يتنكر هو (أي جوزيف) متنمصا شخصية نابليون وأن يترك نفسه ليحتجزه البريطانيون، بينما قد يُسمح لنابليون بملابسه المدنية بمواصلة رحلة تبدو روتينية على متن إحدى الفرقاطتين، ورفض نابليون تعريض أخيه للخطر. وقد أبحر جوزيف نفسه في وقت لاحق على إحدى الفرقاطتين إلى أمريكا. لقد نسي نابليون خمسة عشر عاما من الحرب، وراح الآن يعزف على أنغام الهوى مع إنجلترا مؤملا أنه إذا سلم نفسه لها فقد تعامله كأسير مُميز وتسمح له بقطعة أرض متواضعة ليعيش فيها كمالك - بسلام. وفي 10 يوليو أرسل لا كاس Las Cases وسافاري Savary (دوق روفيجو Rovigo) ليطلب من القبطان فريدريك ميتلاند Maitland على ظهر السفينة بيلروفون Bellerophon التابعة للنتاج البريطاني عما إذا كان قد تلقى أية جوازات سفر (تصاريح سفر) باسم نابليون يتوجه بمقتضاها إلى أمريكا. ولم يكن لدى القبطان بطبيعة الحال مثل هذه الجوازات. عندئذ سأل لا كاس

عما إذا سلم نابليون نفسه للبريطانيين فهل يتوقع أن يعامله الإنجليز بالكرم المعروف عنهم، فأجاب ميتلاند أنه يسعده أن يستقبل نابليون ويأخذه إلى إنجلترا لكنه - أي ميتلاند - غير مخول بتقديم أية وعود عن كيفية استقباله هناك. وقيل هذا الحوار أو في أثنائه أو بعده تلقى القبطان ميتلاند من رئيسه - السير هنري هوتام Hotham نائب الأدميرال (الذي كان يطوف وقتها إزاء الساحل الشمالي الغربي لفرنسا) رسالة يُخبره فيها أن نابليون موجود في روشفور Rochefort أو بالقرب منها وأنه ينوي العبور إلى أمريكا، وأضاف الأدميرال: عليك أن تبذل قصارى جهدك لمنعه من الإبحار فوق الفرقاطات،... وإن أسعدك الحظ بالقبض عليه، ضعه تحت حراسة جيدة وتوجه به بأقصى سرعة إلى ميناء بريطاني(19).

وفي 14 يوليو أو نحو هذا التاريخ تلقى نابليون تحذيرا من أن لويس الثامن عشر كان قد أمر الجنرال بونفور Bonnefours بالتوجه إلى روشفور للقبض عليه (على نابليون)(20) وتحرك بونفور ببطء. لقد أصبح نابليون الآن ملزما بخيار من خيارات ثلاثة: إما أن يسلم نفسه للويس الثامن عشر الذي لديه كل الأسباب التي تجعله كارهاله، أو أن يخاطر بالهرب محاولا الإفلات من الحصار البريطاني أو أن يسلم نفسه للقبطان ميتلاند على أمل أن يحظى بمعاملة كريمة من بريطانيا. واختار نابليون الطريق الثالث، ففي 14 يوليو كتب للوصي على العرش الذي كان يحكم بريطانيا آنذاك:

يا صاحب السمو الملكي
نظراً للثورة (الشقاق) التي استتفت بلادنا، واختلاف القوى الكبرى في أوروبا قررت أن أنهي كل عمل لي في مجال السياسة وإني أت - مثل تيميستوكل Themistoches - لأقيم في بيت الشعب البريطاني لأنعم بالدفء بينه. إنني أضع نفسي تحت حماية قوانينكم التي أناشد سموكم الملكي باعتباركم أكثر أعدائي قوة وعزما وكرما أن تمنحوني حمايتها.

نابليون(21).

وعهد نابليون إلى جورجو بتسليم هذا الخطاب وطلب منه أن يحصل على إذن لتوصيل الخطاب في القارب التالي. وقد وافق ميتلاند لكن القارب الذي استقل جورجو قد تم احتجازه طويلا في الحجر الصحي، وليس هناك ما يشير إلى أن هذا الخطاب قد وصل إلى الوصي على العرش.

وفي 51 يوليو وُضع نابليون ورفاقه على متن السفينة البريطانية بيلروفون Bellerophon، واستسلموا طائعين لبريطانيا العظمى. قال نابليون لميتلاند: لقد أتيتُ على متن سفينتك لأضع نفسي تحت حماية القوانين الإنجليزية(22). وقد استقبلهم القبطان بمودة ووافق على نقلهم إلى إنجلترا ولم يقل لهم شيئا عن رسالة الأدميرال هوتام Hotham لكنه حذر نابليون من أنه لا يضمن أن يتم استقباله بود في إنجلترا. وفي 16 يوليو أبحرت السفينة بيلروفون قاصدة إنجلترا وفي وقت لاحق أبدى ميتلاند ملاحظة طيبة عن أسيره الكبير: لقد كانت طباعة دمة تماما. لقد كان يشارك في كل مناقشة، ويروي كثيرا من النوادر، ويسلك كل السبل لجعل الجو فكها مرحا. وكان مؤتلفا بشكل كبير جدا مع كل من معه... رغم أنهم كانوا يعاملونه بكثير من الاحترام. وكان يملك - بشكل مدهش - القدرة على إحداث تأثير محبب على من يناقشونه.

وكان طاقم السفينة متهجأ وعامله بأقصى درجات الاحترام. وفي 4 يوليو وصلت السفينة تيلروفون إلى خليج تور Tor Bay وهو خليج صغير في القنال الإنجليزي على ساحل ديفونشير Devonshire وسرعان ما تمركزت فرقاطتان مسلحتان عند الجانب الآخر للسفينة. لقد أصبح من الواضح أن نابليون قد غدا أسيرا، وأتى الأدميرال الفيسكونت (النبييل) كيث Viscount Keith فوق سطح السفينة وحيّاه بمودة متسمة بالبساطة: وبعد ذلك قال جورجو لنابليون إنه لم يستطع تسليم خطابه (خطاب نابليون) للوصي البريطاني على العرش، لكنه كان مضطرا لتسليمه إلى كيث الذي لم يعره اهتماما(24). وأمر كيث القبطان ميتلاند أن يتجه بسفينته إلى بلايموث Plymouth على بعد ثلاثين ميلا حيث ظلت السفينة هناك حتى الخامس من أغسطس. وفي هذه الفترة أصبحت محط حب استطلاع البريطانيين. لقد ركب الرجال والنساء من كل أنحاء جنوب إنجلترا إلى بلايموث وازدحموا في القوارب ليروا الغول الإمبراطوري وهو يمشي الفترة المقررة له يوميا فوق متن السفينة.

وأمضت الحكومة البريطانية أياما لتقرر ما تصنعه معه. وكان الرأي السائد هو معاملته كشخص خارج على القانون على وفق ما سبق للحلفاء أن أعلنوه رسميا وباعتباره شخصا خرق اتفاق فونتينبلو المتساهل معه، فأجبر أوروبا على حرب أخرى معه كلفتها كثيرا من الأرواح والأموال. من الواضح أنه يستحق الموت، فإن سجن فقط لكان ممثنا، لكن إن كان لا مناص من سجنه فليكن بحيث لا يهرب ليحارب مرة أخرى. وربما كان يستحق بعض الرحمة لتسليم نفسه طوعا فوق الحلفاء مزيدا من المتاعب، لكن هذه الرحمة لا يجب أن تدع له طريقا للهروب، وعلى هذا أمرت الحكومة البريطانية الأدميرال كيث أن يخبر الأسير (السجين) أنه عليه أن يقيم من الآن فصاعدا في جزيرة سانت هيلانا (هيلانه) على بعد نحو 1200 ميل من غرب إفريقيا. إنها جزيرة بعيدة، لكن كان لا بد أن يختاروا له مكانا بعيدا، كما

أن بعدها قد يُريح السجين (نابليون) والمتحفظين عليه مما تتطلبه المراقبة عن قرب من صرامة. وتناقش حلفاء بريطانيا ووافقوا على هذا الحكم مع احتفاظهم بحق إرسال مندوبين عنهم للجزيرة للمشاركة في الإشراف عليه (مرافقته) وكاد نابليون ينهار عندما علم أنه قد حُكم عليه بما اعتبره موتاً رغم أنه يتنقّس، فاعترض بشدة لكنه استسلم عندما رأى أنه لا جدوى من ذلك. ومُنح عدة مزايا، فقد سُمح له باختيار من يرغب من أصدقائه ليصحبوه، فذكر الجنرال بيرتران المارشال الكبير في القصر والكونت دي مونثولو، والكونتيسة دي مونثولو Montholon (كان هذا الكونت هو معاونه في معركة واترلو) والجنرال جورج المدافع المخلص عنه، كما اختار واحداً من اثنين: الكونت دي لا كاس وابنه. وسمحت السلطات لكل واحد منهم (نابليون وصحبه) أن يصحب معه خدماً ومبلغ 1600 فرنك. لقد أخذ نابليون معه عديداً من الخدم وديبر ليأخذ معه مبلغاً كبيراً من المال، فقد أخفى قلادة هورتيس الألماسية الثمينة في حزام لا كاس، وخبياً 350.000 فرنك في عباة خدمته. وكان مطلوباً من كل منهم تسليم سيفه، لكن عندما تقدم الأدميرال كيث ليأخذ سيف نابليون هدده نابليون بسله دفاعاً عن نفسه، ولم يصر كيث (25). وفي الرابع من أغسطس أبحرت السفينة بيلروفون من بلايموث قاصدة بورتسموث Portsmouth وهناك سلّمت أسيرها (نابليون) وحاشيته ومتعلقاتهم لسفينة أكبر (النورثمبر لاند Northumberland) التي أبحرت في 8 أغسطس قاصدة سانت هيلانا.

صفحة رقم : 14769

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى النهاية -> جزيرة سانت هيلانا

الفصل التاسع والثلاثون

إلى النهاية

1- جزيرة سانت هيلانا

لقد كانت رحلة طويلة من إنجلترا - من 8 أغسطس إلى 15 أكتوبر. وكان نابليون معتاداً على السرعة في الحركة والفعل والحديث فاعتراه الملل وتحمّله بشق النفس. وفكر الأدميرال السير جورج كوكبورن Cockburn في تيسير الأمر بأن راح يدعو يوماً نابليون وأحد رفاقه لتناول الغداء معه ومع بعض الضباط البريطانيين، وعلى أية حال فقد كان البريطانيون يقضون ساعتين ونصف على مائدة الغداء أمّا نابليون فكان يحثهم على قبول اعتذاره عندما يبدأون في تناول الشراب (الخمور)، وكان يجفل عندما ينادونه بجنرال بدلاً من إمبراطور لكنه كان معجباً بمودّتهم ولطفهم. واقترح أصدقاؤه كوسيلة لقتل الوقت وتهوينه أن يُملّي عليهم ذكرياته في الحكم والحرب. لقد بدأ الآن دور الذكريات التي دوّنها أوميرا Meara أو لاكاس أو جورج، أو مونثولو والتي نشرها بعد وفاته. ولعبت دوراً في أن أصبحت ذكرى نابليون قوة حيّة في فرنسا طوال القرن. لقد طال مقام الرجال في البحر فلا بد أن نابليون نفسه

قد اعتراه السرور عندما رأى الساحل الصخري لجزيرة سانت هيلانا. إن نظرة واحدة يمكنها أن تحيط بمعظم أنحاء الجزيرة. لقد كان محيطها عشرين ميلاً فقط، ويكاد يكون كل سكانها متجمعين في مينائها جيمستون ذى الشارع الواحد. لقد كان عدد سكان هذه الجزيرة خمسة آلاف نفس. وكانت الأرض المتضرسة (الوعرة) غير المستوية ترتفع صُعداً إلى هضبة عند لونجوود Longwood ومناخها إستوائي حار ممطر سديمي، والفصول المنتظمة لا وجود لها وإنما هناك تغيرات غير محسوبة من رطوبة وجفاف. وكانت تربتها غير ودودة (المقصود غير خصبة) تضن بالطعام عند زراعتها. إنها بقعة من الأرض صالحة لعزل صانع مشاكل لكنها كتعذيب لرجل كانت حياته عملاً يتطلب قارة تكون مسرحاً له.

لقد ظل هو ومن معه على متن السفينة، بينما راح الأدميرال كوكبورن Cockburn يبحث لهم عن مقر إقامة مؤقت حتى ينتهي العمل في البيت الكبير الذي كانت الحكومة البريطانية قد اختارته ليقموا فيه معاً. فبالنسبة إلى نابليون ولا كاس Las Cases وابنه وجد الأدميرال مكاناً باعثاً على المسرة البريار Briars ظن مالكة (وليم بالكومب Balcombe) أن استضافته للإمبراطور (نابليون) ستكون أمراً شائقاً. وكان لمالك هذا البيت اثنان إحداهما في السادسة عشرة والأخرى في الرابعة عشرة، أهبجتا البيت، فقد كانتا تتحدثان قليلاً من الفرنسية وتمثلان وتغنيان، وقد شُغفتا بنابليون حتى أن الصغيرة منهما بكت عندما أصبح عليه أن يغادر إلى البيت المشترك الذي أعدته الحكومة البريطانية لإقامته ومن معه، وكانت يطلق عليه بيت لونجوود Longwood.

لقد كان هذا البيت المشترك لونجوود بيتاً ريفياً قديماً على بعد نحو ستة أميال من جيمستون. وكانت غرفه الكثيرة بسيطة لكنها مؤنثة بشكل كاف. وعلى وفق الخطة الممتازة التي وضعها لأكاس Las Cases يكون من نصيب نابليون ست غرف: غرفة انتظار واسعة للزوار وحجرة مؤدية إليها وردة وغرفة نوم وغرفة دراسة ومكتبة وغرفة طعام واسعة. وكانت الجدران مغطاة من الداخل بكانافا مشبعة بالقار، وكانت طريقة تغطيتها أنيقة، وكان هناك نوافذ كثيرة. وقبل نابليون هذا دون شكوى مبدئياً، بل إنه كان سعيداً بالحمام الذي وصفه بأنه فخم مترف بطريقة لم يُسمع عنها في هذه الجزيرة البائسة (1) وقد ذكر لا كاس أن الإمبراطور كان راضياً عن كل شيء (2). أما الجناح الآخر من الغرف المشيدة فقد هيئت لكل من لا كاس وابنه والكونت دي مونثولو Montholon والكونتيسة دي مونثولو، والجنرال جورجو، والدكتور أوميرا O, Meara، وطبيب نابليون. وتم إعداد غرف كبيرة عامة لخدم نابليون وخدم الآخرين (3). أما الجنرال بيرتران Bertrand وزوجته وخدمهما فقد أقاموا في بيت صغير في الطريق إلى جيمستون.

وكان لنابليون حرية الحركة - على قدميه أو ركباً حصاناً أو في عربته في حدود دائرة نصف قطرها خمسة أميال من البيت الذي يُقيم فيه، لكن كان لا بد أن يخضع لمراقبة الجنود الإنجليز إذا ما خرج من هضبة لونجوود (الهضبة التي فيها بيت لونجوود الذي يُقيم فيه، والآنف ذكره)، وكان حاكم الجزيرة الإنجليزي يرسل يومياً الوجبات الغذائية لنابليون ومن معه، وكان يمكنهم طلب طعامهم في حدود لا يتعدونها (4). واعتاد الإمبراطور أن يأكل بمقادير ضئيلة حتى الساعة الثامنة مساءً (المعنى: لا يتناول وجبته مرة واحدة) ثم يتناول هو ومن معه عشاءهم بتروء مما يجعله - بعد العشاء - مستعداً للنوم. وكان نابليون قد أحضر معه من فرنسا أدوات مائدة مُترفة غالية الثمن، وكان يستخدمها بانتظام بل لقد سمعنا أنه جلب معه سكاكين وملاعق وشوكات من ذهب (5). أما الأطباق فكان غالبها من خزف سيفر Porcelain Sevres (سيفر مدينة فرنسية). وكان الخدم يرتدون ملابسهم الرسمية الخضراء المحلاة بالذهب كاملة. وكان لا كاس ميهورا بأناقة أدوات المائدة والطريقة الممتازة التي تنظم بها موائد الطعام (6) لقد استمر الإتيكيت الذي كان معمولاً به في التوليري في لونجوود. وسمح نابليون لأصدقائه المخلصين بالحديث معه بكثير من الصراحة لكنه لم يُزل الكلفة بينه وبينهم، فقد كانوا دوماً يشيرون إليه في حديثهم بالإمبراطور، وكانوا يخاطبونه بصاحب العظمة، وكانت الخطابات التي توجه إليه كجنرال لا يتم فضتها، وكان على الزوار أن يخاطبوه كإمبراطور أو أن يمتثلوا بعيداً عنه (لا يخاطبونه) وكانت هناك بعض الصعوبات ومسببات السخط، فقد استوطنت الفئران في منزل الإمبراطور، بل وحتى في قبعته، وكانت تجري حول أرجل المائدة وهو يتناول طعامه، ولم تكن البراغيث ولا البق لتمييز بين الخادم والإمبراطور. لقد تدمر لا كاس قانلاً: لقد أكلتنا هذه الحشرات بكل معنى الكلمة (7) وكان الضباب المسبب للكآبة يعم المنطقة يوماً بعد يوم، وكان الماء يسقط أحياناً وافقد الإمبراطور حمامة الدافئ. وأدت المراقبة الدائمة - مهما كانت مهذبة أو من بُعد - إلى اعتكاف يشبه اعتكاف الرهبان في الدير، ومما جعل هذا مقبولاً رتابة الحياة في هذا المكان. لكن في أي مكان آخر يُتاح لسجين أن يكون له هذا العدد من الأصدقاء والخدم وحصان وعربة خفيفة وكل الكتب التي يمكنه استخدامها؟ باختصار لقد كان سجننا محتملاً أكثر مما يتوقع أي سجين خاصة بعد أن هرب من مكان احتجازه السابق وبعد أن كلف ملايين الجنيهات الإسترلينية والضحايا لإعادة القبض عليه. لقد سارت الأمور بشكل معقول حتى وصل السير هدسون لو Lowe.

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى النهاية -> السير هيدسون لو

2- السير هيدسون لو

وصل إلى جزيرة سانت هيلانا في 41 أبريل سنة 1816 ليحل محل السير جورج كوكبورن، كحاكم للجزيرة. وقد وضعت الحكومة البريطانية في اعتبارها عند اختياره أنه موظف واع ينفذ التعليمات بإخلاص. وكان لابد أن تمتد التعليمات التي لديه لتشمل السجين (نابليون) كل عمل مرتبط بسلامته لقد بدأ السير هيدسون لو مهامه بشكل طيب. لقد أحضر معه نحو ألفي مجلد باللغة الفرنسية وجعلها تحت أمر نابليون ومن معه وأرسل يقول إنه سمع أن المنزل الذي يقيم فيه هو ومن معه (منزل لونجورود) في حاجة لبعض الترميمات وأنه سيأمر بإجرائها حالاً (8). وظن أن عليه أن يزور سجينه المميز وطلب من سلفه الأدميرال كوكبورن أن يصحبه في هذه الزيارة. ومن المفترض أنه لم يكن يعلم أن نابليون كان قد أصدر تعليماته إلى بيرتران ألا يسمح لأحد بزيارته إلا بإذنه - أي إن بيرتران - وعلى أن يكون هو (أي بيرتران) مرافقاً لهذا الزائر، خوفاً من الفضوليين والراغبين في مشاهدته حياً للاستطلاع. وأتى السير هيدسون والأدميرال دون ميعاد سابق وطلباً الإذن فكان رد نابليون أنه مريض ولا يمكنه رؤيتهما فسأل لو Lowe متى يأتي إذن، فأجاب نابليون: غداً. لقد جرح كبرياء لو Lawe ولكنه أتى في اليوم التالي ومعه بيرتران، فاستقبله نابليون ببرود وسرد عليه بعض الأمور التي يُعاني منها: الحُرَّاس متمركزون بالقرب القريب من منزله وهم أحياناً يحدقون ليلاً عبر نوافذ بيته، وهو لا يستطيع أن يجول بحصانه إلا في حدود ضيقة دون أن يتبعه ضابط بريطاني. فوعده لو Lowe بأن يبذل قصارى جهده لإزالة أسباب الشكوى (9). وبعد مغادرته، ذكر نابليون لرفاقه أنه لم ير أبداً ملامح أكثر شبهاً بملامح طائر السقاج الإيطالي من ملامحه (10).

وكان السير هيدسون لديه من الكبرياء أكثر مما لديه من روح الفكاهة، وبعد عودته إلى مكتبه أرسل إلى مساعدي نابليون يخبرهم أن القيود موضع الشكوى فرضتها الحكومة البريطانية وليس لديه الصلاحيات لإلغائها، وأضاف قائلاً إنه بناء على تعليمات حكومته لابد أن تمر كل مراسلات بين لونجورود والعالم الخارجي من خلاله وأن تكون خاضعة لتفتيشه (رقابته (11)) وعلى وفق ما ذكره لا كاس Las Cases رفض الحاكم أن يوصل لنابليون الخطابات التي تخاطبه بالإمبراطور نابليون (21). وأرسل الحاكم دعوة على العشاء للجنرال بيرتران، والجنرال نابليون، فرفضها نابليون. وبلغ النزاع درجة عالية من السخونة عندما أخبر الحاكم الجنرال بيرتران أن الحكومة البريطانية تدمرت من التكاليف الباهظة التي تنكبدها للحفاظ على نابليون والإنفاق على إقامته ومن معه (51 شخصاً) (31). وكانت الحكومة قد سمحت بمبلغ 8000 جنيه إسترليني سنوياً لهذا الغرض، لكن المصاريف الفعلية بلغت 18.000 جنيه إسترليني في العام الأول واقتربت الحكومة البريطانية أن أي مبلغ يزيد - بعد ذلك - عن 8000 جنيه لابد أن يدفعه نابليون. فأمر الإمبراطور مونثولو أن يبيع الفضة الإمبراطورية وعرض أن يدفع المصاريف الزائدة إذا وافق لو على ألا يقض خطاب نابليون لمسئوله البنكي في باريس، ولم يستجب لو Lowe. وأرسلت أسرة نابليون له عروضاً بتقديم الأموال له فشكرهم ولكنه قال إنه سيضع ذلك في اعتباره، وعرضوا عليه أن يأتوا للإقامة معه فمنعهم قائلاً إنهم لن يتحملوا المناخ ولا العزلة طويلاً. وفكر لو في تيسير الموقف برفع المخصصات إلى 12000 جنيه إسترليني (14)، لكن مناقشاته حول النفقات أحنقت نابليون. وعندما زاره (لو) مرة أخرى (16 يوليو 1816) قال له نابليون (على وفق ما ذكره للاكاس) محرقاً كل الجسور بينهما أسمح لي أن أقول لك عن رأينا فيك؟ إننا نعتبرك قادراً على كل

شيء... نعم كل شيء. إنني لن أشكو من هؤلاء الذين أرسلوني إلى سانت هيلانا، وإنما من هؤلاء الذين جعلوك حاكما عليها. إنك مصيبة حلت بنا، مصيبة أبشع من كل ما تسببه لنا هذه الصخرة المرعبة من بؤس (15).
يقول لاكاس: إن الإمبراطور ذكر أنه أزعج مرارا السير هدسون لو في أثناء المناقشة. لقد كنت متعكر المزاج تماما. لقد أرسلوا إلي أكثر من سجان. إن السير هدسون لوجاد بكل معنى الكلمة... ولا بد أن يكون غضبي قد ازداد بقوة لأنني كنت أشعر باهتزاز ربله ساقني (بطة ساقني) اليسرى (16).
وسيطر السير هدسون على نفسه وانسحب، ولم تجر بينهما أية مناقشات بعد ذلك.

صفحة رقم : 14771

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى النهاية -> الرفاق العظماء

3- الرفاق العظماء

إن الجانب المثير والداعي إلى الدهشة في حياة الحبس هذه هو الإخلاص الدائم والعميق لهؤلاء المساعدين الذين صحبوا نابليون إلى سانت هيلانا. ومن المفترض أن عطر الشهرة المُسكّر قد حفزهم على المزيد من خدمته، لكن إصرارهم على هذا ومثابرتهم عليه رغم قيود المنفى وحنينهم إلى وطنهم، يكاد يضيفي على ذكراهم طابعا أسطوريا Arthurian Legend، فهم قد واصلوا إخلاصهم بل وتعاركوا متنافسين على خدمة الإمبراطور، رغم المناخ القاسي المسبب للإحباط، ورغم حاكم الجزيرة غير المقبول منهم. لقد كان إخلاصهم نبيلًا رغم الغيرة.
وكان أنبلهم جميعا هو الكونت هنري - جراتيا بيرتران (Henri - Gartien Bertrand 1773-1844). لقد دخل التاريخ كمهندس في أثناء معركة نابليون الأولى في إيطاليا. وفي الحملة الفرنسية على مصر قاد كتيبة في معركة الأهرام، وجرح في أثناء معركة أبي قير، وكانت الجسور التي أقامها على الدانوب في معركة 1809 تُعد على وفق تقدير نابليون من أجمل الكباري (الجسور) منذ عهد الرومان (17). وفي سنة 1813 تم تعيينه مارشالا لحرارة القصر. وظل مواليا لنابليون خلال الأعوام المريرة التي انسحب (تراجع) فيها نابليون أمام الحلفاء، وصحبه إلى البنا وظل معه طوال المائة يوم (بعد العودة إلى فرنسا) وركب معه إلى روشفور وأبحر معه إلى إنجلترا وسانت هيلانا. وظل في سانت هيلانا مارشالا لمحل الإقامة، يُعابن الزوّار ويهدئ الغضاب ويلطف الجو بين نابليون وحاكم الجزيرة، وتحمل بصبر متسامح محاولة اغتصاب زوجته. لقد كانت إنجليزية مخلطة (كيرول) ابنة أخ اللورد ديلون Dillon وتمت بصله قرابة لجوزفين. وتحملت عزلتها بصبر نادر في سانت هيلانا تاركة الحياة الاجتماعية في باريس. وقد صحبها بيرتران عائداً بها إلى فرنسا بعد موت نابليون بخمسة أشهر، وكتب ثلاثة مجلدات عن يوميات سانت هيلانا ولكنه رفض نشرها. وقد تم فك رموزها وتم نشرها (1949 - 1959) بعد قرن من وفاته؛ وقد دفن في سرداب مقبرة المحاربين القدماء بجانب رفات نابليون.
ويكاد يضارعه في إخلاصه لنابليون الجراح الأيرلندي بري أواميرا (Barry O, Meara 1786-1836). لقد كان - باعتباره طبيبا على متن السفينة نورثمبر لاند - يعود نابليون ويتحدث معه بالفرنسية والإيطالية، وكان متفقا معه إلى حد ما في آرائه عن الأطباء، وارتبط به ارتباطا شديدا حتى إنه طلب الإذن من الحكومة البريطانية أن يظل يرعى نابليون طبيا في سانت هيلانا، فوافقت الحكومة على ذلك. ولم يكن السير هدسون لو موافقا على هذه العلاقة الحميمة

بين الطبيب البريطاني والمجرم الفرنسي (نابليون) وشك في أن الطبيب أوميرا يشارك في خطة لتمكين نابليون من الهرب، وأصر (أي الحاكم) على تعيين جندي ليصحب هذا الطبيب الجراح أينما ذهب فاعترض أوميرا، فعمل (لو) على أن يتم استدعاؤه إلى بريطانيا (يوليو 1818) وفي سنة 1822 نشر أوميرا كتابه (نابليون في المنفى أو نداء من سانت هيلانا)، وهو دفاع مشبوب بالعاطفة يطالب فيه بمعاملة أفضل للإمبراطور الذي سقط. وحقق هذا الكتاب ذو المجلدين مبيعات كبيرة فبدأت موجة من التعاطف البريطاني مع نابليون. ويحتوي الكتاب على بعض الأخطاء (91) لكن لا كاس دافع عن رواية أوميرا، وكان كل المحيطين بنابليون يكونون لأوميرا احتراماً كبيراً كطبيب وكإنسان مهذب (جننلمان).

أما إخلاص الكونت عما نويل - أوجسطين - ديودونيه دي لا كاس Emmanuel - Augustin - Dieudonne de Las Cases (1766-1842) والأحداث الكثيرة التي شهدتها وكتابه متعدد المجلدات عن ذكريات سانت هيلانا (Memorial de Sainte - Helena - فتجعله في المقام الثاني بعد نابليون ولو Lowe في النزاع الشخصي الذي جرى في الجزيرة. لقد كان نبيلاً صغيراً (المقصود ليس من طبقة النبلاء العليا) حارب في جيش كونديه Conde ضد الثورة، وهاجر إلى إنجلترا وانضم إلى محاولة بعض المهاجرين (الذين تركوا فرنسا عقب أحداث الثورة الفرنسية) لغزو فرنسا عند كويبرو Quiberon وفشلت المحاولة فعاد إلى إنجلترا وراح يكسب معيشته بتدريس التاريخ. ولقد وضع الأطلس التاريخي الذي حظي في وقت لاحق بتقدير نابليون الشديد. وغامر بعد 18 بروميير Brumiere بالعودة إلى فرنسا، وانتهى إلى أن نابليون هو أحسن دواء للثورة وراح ينتهز كل الفرص للعمل في خدمته فترقى ليصبح عضواً في مجلس الدولة، ولم تطفئ معركة واترلو من حرارة إعجاب بنابليون، فذهب إلى مالميزو لمساعدته وتبعه إلى روشفور وإلى إنجلترا وإلى سانت هيلانا.

لقد كان هو الأقرب إلى الإمبراطور من بين كل رفاقه، فكان هو الأكثر حماساً في تسجيل ما يمليه، وحظي بتقديره الكبير خلال كل العواصف (المشكلات) التي مرت بهم في المنفى. لقد دون كل شيء عن نابليون خلا أخطائه، فلم يكن يعتقد - مثله في ذلك مثل كرومويل Cromwell - في الأخطاء الخالدة (المقصود التي لا تُمحي. وكان تقريره عن ذكريات نابليون وملاحظاته يفيد أنها ليست دقيقة دقة كاملة: كان الإمبراطور يُلمي بسرعة، وعادة ما كانت سرعته في أثناء الإملاء تفوق سرعته في أثناء المناقشات العادية، لذا فقد كنت مضطراً لابتداع نوع من الكتابة الهيروغليفية (المقصود المختصرة أو المختزلة) ثم أعود فأملئها بدوري على ابني أو كنت أجلس إلى جوار ابني وهو يعيد كتابته ما أملاه الإمبراطور... وكنت دائماً أقرأ على الإمبراطور ما كان قد أملاه في اليوم السابق فيقوم بإجراء تصحيحات ثم يواصل الإملاء (20). وعلى أية حال فإن اللغة التي عبر بها لا كاس عن آرائه الخاصة تشبه إلى حد كبير اللغة التي عزاها (نسبها) إلى نابليون حتى إننا لا نستطيع أن نقبل تقريره باعتباره بالنزاهة نفسها التي ظهرت في كتابات جورجو Gourgau حيث كان يدون مباشرة يومياته المفعمة بالحيوية.

ورغبة من لا كاس في إثارة أوريا بسبب الصعوبات التي كان نابليون يواجهها في منفاه كتب عن هذه المشاق والصعوبات على قطعة من الحرير ليرسلها إلى لوسيا بونابرت Lucien عهد بها إلى خادم كان على وشك العودة إلى أوريا، إلا أن سلطات الجزيرة فتشت الخادم واكتشفت الرسالة، فأمر السير هيدسون لو بالقبض على لا كاس ومصادرة أوراقه (بما في ذلك مناقشاته مع نابليون) وأمر بترحيله هو وابنه إلى كيب تاون (مدينة الرأس) في 15 نوفمبر 1816 ومن هذا المكان القصي (كيب تون) بدأ الكونت أعواماً من الترحال إلى إنجلترا وبلجيكا وألمانيا، وعادة ما كان خاضعاً لمرافقة مشددة في أثناء تجواله هذا. وفي أكتوبر سنة 1818 قدم لمؤتمر الحلفاء المنعقد في إيكس - لا - شابيل Aix - La Chapelle (أخن Aachen) التماساً من أم نابليون لإطلاق سراح ابنها، وقدم هو نفسه مناقشات لحكام روسيا وبروسيا والنمسا وإنجلترا للغرض نفسه لكنه لم يتلق رداً. وبعد موت نابليون سُمح له بالعودة إلى فرنسا (1822). وحصل من الحكومة البريطانية على مخطوطاته المصادرة ونشرها كلها تقريباً في كتابه ذكريات سانت هيلانا (1823) فأصبحت هذه المذكرات هي الحدث الأدبي لذلك العام. وقد أثرى لا كاس وورثته من حصيلة البيع. وقد أدت شهادته المتحمسة على المعاملة السيئة - كما اعتقد - التي أدت إلى موت نابليون إلى استمرار نابليون كأسطورة وأدت إلى رفع نابليون الثالث إلى سدة الحكم فاستمر فيه أكثر مما استمر عمه، كما أدى إلى وصول لا كاس الصغير إلى منصب السيناتور في الإمبراطورية الفرنسية الثانية (أصبح عضواً في مجلس الشيوخ) وكان الرفاق الآخرون غيورين من لا كاس لأنه كان كثير التردد على نابليون وأكثر منهم قرباً إليه، ولأن نابليون كان يُكن له مودة شديدة. وكان أكثرهم ضجراً وغيره هو الجنرال جاسبار جورجو (1783 - 1852) الذي كان لديه أسباب كثيرة لهذا، فقد حارب من أجل الإمبراطور في إسبانيا والنمسا وروسيا وفرنسا، وكان قد أنقذ حياة الإمبراطور في بريين Brienne. وكان أكثر من في المنفى حيوية وحديثاً، متحمس في صداقته، متحمس في عداوته، وتحدى مونتولو وطلب مبارزته، وكان يحب نابليون ويغار عليه من محبيه الآخرين. قال نابليون إنه يحبني كما يحب العاشق معشوقته (21) (بمعنى أنه يغار عليه من الآخرين). ولكي يُعيد نابليون الوثام إلى جماعة المنفى، أرسله إلى أوريا

(1818) حاملا رسالة إلى القيصر إسكندر . ورغم هذا فإن يوميات جورج (1899) Journal inedit de Sainte Helene هي الأكثر واقعية وفتنة (جمالا) من بين كل الأصداء التي انبعثت من سانت هيلانا . ولا يكاد الكونت شارل - تريزا دي مونثولو (Comte Charles - Trisan de Montholon 1783- 1853) يستحق كراهية جورج لأنه كان أكثر الأربعة المحيطين بالإمبراطور أدياً ولين عريكة . لقد كان لديه ذكريات تدعو إلى الفخر إذ تعلم الرياضيات وهو في العاشرة من عمره على يد قائد مدفعية شاب اسمه بونابرت، وبعد ذلك تبع نابليون في صعوده وسقوطه وأحرّ على اصطحابه إلى سانت هيلانا، وكانت زوجته ألبني دي فاسا Albinie de Vassad قد تزوجت وطلقت قبله مرتين، وكان مطلقاًها لايزالان على قيد الحياة، لذلك لم يكن مونثولو واثقاًفيها تماماً في أي وقت من الأوقات، وتردّت إشاعات في سانت هيلانا أنها كانت تساعد نابليون على تدفئة فراشه، وقد تناول المندوبون الروس أمرها بخشونة: رغم أنها كبيرة السن وفاسقة وسمينة فإنها اليوم خليقة رجل عظيم(22). وعندما غادرت الجزيرة (9181) بكى نابليون(32). أما مونثولو نفسه فقد بقي إلى النهاية وشارك بيرتران في العناية بالأسير المحتضر وكان يُسمّى المنقذ المشارك لتحقيق الإرادة الإمبراطورية . وعندما عاد إلى فرنسا شارك ابن أخي نابليون في السجن سبع سنين وساعده بعد ذلك ليكون إمبراطوراً آخر .

صفحة رقم : 14772

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى النهاية -> الدكتاتور الكبير

4- الدكتاتور الكبير

لقد كان العدو اللدود لهؤلاء المنفيين هو الوقت وابنه الضجر ، فهم رجال كانوا قد أدمنوا العمل وتآلفوا مع الموت ، وصاروا الآن وقد أصبحت مهمتهم هي العناية بشخصية عالمية سقطت من عليائه الإمبراطورية إلى سجين لا حول له ولا قوة بكل آلامه وأمراضه وضعفه البشري، بل إن نابليون نفسه قال إن وضعي مُرّعب، إنني كميّت حي(42) أو كميّت لازالت رغبته موجودة، فالبطل الذي كان فيما سبق يتطلع إلى مزيد من الوقت لمواجهة مهامه التي اختارها أو لينفذ خطته، أصبح يشعر الآن أن الساعات تمر ثقلاً، وأصبح يرحب بالليل ليخفف عنه - بالنوم - وطأة الوقت، بل لم يكن الليل حتى ليشفى عنته، فنظراً لقلّة العمل وجد صعوبة في النوم فراح ينتقل من سرير إلى أريكة إلى كرسي، ثم يعود مرة أخرى بحثاً عن اللادوعي (راغباً في الغيبوبة).

وغالبا ما كان يلعب الشطرنج يوميا، وكان يضجر بانتصاره (في الشطرنج) فلم يكن من ندر له يجرؤ على هزيمته (في لعبة الشطرنج) وخلال السنة الأولى في منفاه كان يركب حصانه لعدة أميال يوميا لكنه سرعان ما عزف عن ذلك عندما لاحظ أن بعض الضباط البريطانيين كانوا يراقبونه دوما . وكان يقرأ لعدة ساعات في اليوم لقد كان دوماً يحب الكتب، وكان لابد أن يقرأ بعض الوقت حتى في الأيام التي يكون مشغولاً فيها، لقد كان يأخذ معه مئات المجلدات في أثناء المعارك، بل لقد أخذ معه 008 مجلد إلى واترلو (كان من بينها سبعون مجلدا لفلتير(52)). وكان قد جلب معه إلى سانت هيلانا 004 كتاب من فرنسا، وعند توقف السفينة نورثمبر لاند في ماديرا Madeira أرسل طلباً للحكومة البريطانية طالباً عدداً من الكتب التعليمية وصلته في يونيو سنة 6181، ووصلته شحنة أخرى في العام التالي، وأرسل له السير هديسون لو بعض الكتب من مكتبته(62). وأصبح خبيراً في معارك الإسكندر الأكبر وهانيبعل (هانيبال) وقيصر . وقرأ مرارا درامات كورنيل وراسين بل لقد كان يقرأهما بصوت عال أمام رفاقه ويوزع عليهم

الأدوار . وكان يحب الأدب الإنجليزي وجعل لا كاس يعلمه المزيد من الإنجليزية ليتمكن من القراءة بها بل والحديث بها . ذكر جورجو أن الإمبراطور كان نوماً يتحدث معي بالإنجليزية (72) . وكان لديه ميزة يتميز بها عن سائر مرافقيه في المنفى: لقد كان يستطيع أن يدمج الحاضر في الماضي بإعادة سرد تاريخ بلاده، وتاريخ نصف أوروبا من سنة 6971 إلى سنة 5181، وغالباً ما كان هذا من الذاكرة (كان التاريخ حاضراً في ذاكرته)، ومن وجهة نظر المشارك الرئيسي (في الحدث)، ولم يكن يطبق صبراً على الكتابة لكنه كان يستطيع أن يتحدث . ويبدو أن لا كاس هو الذي اقترح أنه (أي نابليون) بإملائه مذكراته لواحد أو آخر من حاشيته يعطي قيمة وتشويقاً لكل يوم يمر . والآن قد لا يجد نابليون في قول دانتي حقيقة ينقصها الكمال: ليس هناك أكثر مدعاة للألم من تذكر السعادة في أيام الشقاء فإن ذكريات الأيام السعيدة قد تخفف الأحران الحالية وإن كانت تعمقها في الوقت نفسه . لقد هتف قائلاً: لقد كانت إمبراطورية جميلة! لقد كان هناك 38 مليون إنسان تحت حكمي - آه إنهم نصف سكان أوروبا (82) .

ومن هنا فقد دشّن دكتاتورية جديدة في السفينة نورثمبر لاند واستمر يمارسها على نحو أو آخر في سانت هيلانا طوال أربع سنوات . لقد بدأ بأن راح يعيد على لا كاس رواية معاركه الإيطالية في سنة 6971 حيث أدت سرعته الحاسمة وانتهيار أوروبا إلى أن أصبح (أي نابليون) لازماً لفرنسا لزوماً لفاكك منه . وعندما لم يصبح لا كاس موجوداً بسبب حنق لو Low راح الإمبراطور يملّي على جورجو، وبعد ذلك على مونثولو، وقليلاً على بيرتران وأحياناً كان يملّي على اثنين منهم في يوم واحد . الآن، تحول هؤلاء المقاتلون من السيف إلى القلم، فأراقوا أحباراً كثيرة واستهلكوا أوراقاً كثيرة لحفظ ذكريات الإمبراطور من الضياع وليصبح اسمه مقبولاً حسن السمعة في فرنسا التي أصبحت بوربونية من جديد، وأمام محكمة التاريخ . وسرعان ما تعبوا أسرع مما تعب هو، فقد شعر أن هذه هي فرصته الأخيرة ليدافع عن نفسه في مواجهة الخطباء والبلغاء والصحفيين ورسامي الرسوم الكاريكاتيرية الذين مكثوا أعداءه من تصويره في صورة لا إنسانية بجعله غولاً متعطشاً للدماء . وكان نابليون يعلم أنه لا يمكن أن يكون وازعهم لتسجيل أعماله ومذكراته دون مقابل، لذا فقد أعطى لكل منهم الحق الكامل للتصرف في مخطوطته وما تدرّاه من عوائد . والحقيقة أن كل مخطوطة من هذه المخطوطات أفاضت - عندما نُشرت - على كاتبها أو ورثته ثروة (92) .

ومن الطبيعي أن يبرز المؤلف أفضل الوجوه مبرراً لأخطائه لكن - بشكل عام - كانت هذه المذكرات صحيحة بقدر ما يمكن أن يتوقع من رجل يدافع عما فعله في حياته . وقد كان نابليون قد تعلم في هذا الوقت أنه ارتكب أخطاء خطيرة في مجال السياسة والقيادة العسكرية . لقد كنتُ مخطئاً في الاختلاف مع تاليران . لقد كان يمتلك كل ما ينقصني . فلو أنني سمحت له بنفس رضىة أن يشاركني عظمتي لكان قد خدمني جيداً، ولظلتُ حتى تحين ميني وأنا أعطي عرش فرنسا (03) . وقد اعترف أنه أساء تقدير صعوبات غزو إسبانيا، وقهر روسيا . لقد تسرّعت في الانطلاق من البلبا . لقد كان عليّ أن أنتظر حتى ينفذ مؤتمر فيينا وحتى يكون الأمراء والملوك قد عادوا إلى بلادهم (13) . لا أستطيع أن أفهم حتى الآن الهزيمة في والترلو (23) . لقد كنت أتمنى أن أموت في والترلو (33) .

لقد كاد الذين أملى عليهم مذكراته يتعبون، فلم يجدوا وقتاً لتدوين مناقشاته إلا بشق الأنفس . وكانت بطبيعة الحال شائقة فمن في عصره يضارعه في مغامراته المثيرة التي شملت ثلاث قارات؟ لقد كان رواية ممتازاً يذكر كثيراً من النوازل والطرانف في أي موضوع يتناوله . لقد كان بطريقته الموضوعية (المحايدة) فيلسوفاً، وكان يمكنه أن يتحدث بتسامح في أي موضوع بدءاً من الزراعة حتى زيوس Zeus . لقد قرأ التاريخ وتوسع في قراءته توسعاً جعله يتنبأ بالمستقبل وإن كان في بعض تنبؤاته جنوح عن الصواب . النظام الاستعماري... انتهى بالنسبة إلى الجميع، انتهى بالنسبة إلى إنجلترا التي تملك كل المستعمرات، وانتهى بالنسبة إلى القوى الأخرى (43) . سرعان ما سيطيح الشعب الفرنسي بعبودية البوربون (53) . سرعان ما ستواصل ألمانيا طريقه الذي بدأه هو (أي نابليون) نحو الوحدة (63) . سيكون القرن التاسع عشر قرن الثورات، فمبادئ الثورة الفرنسية - باستثناء بعض الإسفاف - ستتصير في أمريكا وفرنسا وإنجلترا، ومن هذه الدول الثلاث سيغمر النور العالم (73) . لقد انتهى النظام القديم، وثمة نظام جديد يقوي من نفسه ولن يتأثّر قبل حدوث اضطرابات عنيفة (83) إن روسيا قوة ستتقدم مندفعة بالتأكيد، وبخطى واسعة نحو الهيمنة العالمية (93) . وإحدى تخميناته الخاطئة إن السلطة الملكية في إنجلترا تزداد قوة يوماً... إنها الآن تسير ولا يعوقها عائق نحو السيادة المطلقة (04) وأخيراً عرض لنا سياسة ولخصها لنا بشكل مُرضٍ: لقد أغلقت خليج الأنارشيّة (المناداة بمبدأ القضاء على الحكومة) وظهرت الطريق من الفوضوية . لقد نقيت الثورة ووقرت الأمم ورسخت أقدام الملوك . وضربت المثل وكنتُ القدوة ومددتُ حدود العظمة، وكفأت على كل تميّز . إن الدكتاتورية كانت ضرورية بكل ما في كلمة الضرورة من معنى . ألن يُقال إنني قمعتُ الحرية؟ لقد كان هذا هو مستهل الحرية . ألن أتهم أيضاً بأنني كنتُ مولعاً بالحرب ولعاً شديداً؟ لقد كنتُ أنا الذي أتلقى الهجوم الأول . ألن يُقال إنني كنتُ أهدف إلى حكم العالم كله (أن أتربّع على عرش العالم؟) إن أعدائي أنفسهم هم الذين قادوني خطوة خطوة إلى هذا العزم . وأخيراً، أسوف الأمل على طموحي؟ لا بد أن يُسمح لي بالطموح بلاشك، فطموحي هو أسمى وأنبّل أنواع الطموح، بل وربما أسمى

وأنبأ أنواع الطموح على الإطلاق - إنه الطموح إلى تأسيس إمبراطورية العقل وتكريسها، وإلى الاستعادة الكاملة من كل القدرات والملكات البشرية والتعمُّ بها. هنا ربما يشعر المؤرخ أنه مضطر إلى الأسف لأن هذا الطموح لم يتحقق ولم يُكافأ صاحبه عليه... هذا هو كل تاريخي في كلمات قلائل(14).
وفي 9 مارس 1281 أدياً قلبه المحبب بالتنبؤ برؤيا فخورة: سيظل خيال الفرنسيين طوال الخمسائة سنة القادمة عامراً بذكراي. إنهم لن يتحدثوا إلا عن عظمة معاركنا العبقريّة. فليكن الله في عون من سيجرؤ على الحديث عني بشكل سيء(24).

صفحة رقم : 14773

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> إلى النهاية -> المعركة الأخيرة

5- المعركة الأخيرة

أدت الاضطرابات الداخلية ونقص التدريبات البدنية إلى أن أصبح نابليون شيخاً هرمًا وهو لا يزال في سني الأربعين. لقد أدى إصرار لو Lowe على أن يقوم جندي بريطاني بمتابعة الميراطور أينما ذهب بحصانه خارج حدود لونجوود إلى غضب الأسير (نابليون) فتحاشى الخروج للترييض بحصانه أو في عربته. كما أن وجود العسس على مرأى من غرفه جعله يطيل المكث وراء الأبواب المغلقة، كما أدى عزوفه عن الحياة وأمله ألا يطول مقامه في الدنيا إلى سكون وعدم نشاط. لقد كتب بيرتران في سنة 1818: مضى مائة يوم منذ... خرج من المنزل وذكر لا كاس أن الدورة الدموية للإمبراطور كانت تعاني صعوبات (34) إذ انخفض نبضه إلى 55 نبضة في الدقيقة(44).
وفي سنة 1818 بدأ العمل في زراعة حديقة، وهاجم مشاكله بشجاعة حربية وانضباط. لقد جند كل مستعمرته للعمل في المشروع فسعدوا بالخروج على روتينهم اليومي وانخرطهم في الحفر وجر عربات المزرعة والزرع والري وإزالة الأعشاب الضارة. وبادر السير هيدسون لو - في مبادرة ودية منه - إلى إرسال النباتات وأدوات الزراعة لسجينه(54). وازدهرت الحديقة فسرعان ما أنبتت خضروات طازجة راح نابليون يأكلها بهجة. وتحسنت صحته بشكل ملحوظ. لكن بعد أن تم استهلاك محصول الحديقة وساد الطقس السيء عاد نابليون إلى كسله قابعا خلف الأبواب.

وسرعان ما عاودته الآلام وحاصرته في جبهات عديدة: الآلام في الأسنان، صداع، طفح جلدي، تقيؤ، دوستاريا، برودة أطراف، وساءت قرحته، وداء السرطان الذي تبين أنه مصاب به بعد تشريح جثته، اتضح أنه كان قد بدأ يُسبب له الآلام متواصله(64). لقد أثرت هذه المعاناة الجسدية في مزاجه بل وحتى في عقله، فأصبح متشائما سريع الهياج، مُحسبًا بالمرارة، بل إنه راح ينظر لما حققه من فخر وعظمة على أنهما شيء تافه، مستعداً للإساءة سريع التسامح، يَعدُّ البنسات القليلة ويعطي - برغبته - مبالغ كبيرة(74). وفي سنة 1818 وصف حالته بجزع: كيف سقطت؟! أنا - الذي كان نشاطي لا حد له. أنا الذي لم أخلد للراحة! أصبح هذا حالي؟ كسولا بليدا خيرا! لقد أصبحت أبذل جهدا لأفتح عيني (لأرفع الجفن عن عيني) لقد كنت في بعض الأحيان معتادا أن أُملي في مختلف الموضوعات على أربعة أو خمسة من السكرتيرين يكتبون بالسرعة نفسها التي بها أتحدث، لكنني كنت وقتها نابليون... أما الآن فأنا لا شيء... إنني حي لكنني ميت(84).

لقد تعاقب عليه عدد من الأطباء المختلفين لكن واحداً منهم لم يمكث معه الفترة الزمنية الكافية لدراسة أعراض مرضه بشكل منهجي أو وضع نظام دائم لعلاج وطعامه. وكان الدكتور أوميرا O Meara هو أول أطبائه (في سانت

هيلانا) وأفضلهم، لكن مهمته قد أنهيت بعد فترة وجيزة. وحل محله طبيبان بريطانيان (ستوكو Stokoe وأرنوت Arnott) وكان كلاهما طبيبا جيدا وصبورا وواعيا، لكن في 12 سبتمبر 9181 اضطرب الأمر بوصول الدكتور فرانسيسكو أنتومارشي Antommarchi البالغ من العمر تسعة وثلاثين عاما، وكان يحمل توصية من خال نابليون (الكاردينال فش Fesch) فسمح له الطبيبان الآخران بالعناية به. لقد أجاب أنتومارشي بإسهاب عن سؤال نابليون عما إذا كان الجنرالات أم الأطباء هم الأكثر إفاءة للبشرية أو بتعبير آخر أيهما أكثر ضحايا، إذ كان هذا الطبيب معتزا بنفسه واثقاً منها عديم الرحمة إذ عندما اشكى نابليون من الألم في معدته، وصف له أنتومارشي مقيماً على عصير الليمون، فكادت روحه تخرج لفرط الألم، وظن أن السم قد دس له في الدواء، فطرد أنتومارشي ولم يسمح له بالعودة لعلاجها (94)، لكن في غضون يوم أو يومين عاد أنتومارشي بأدويته وقاروراته، وكان على الإمبراطور أن يتحملة رغم أنه (أي الإمبراطور) راح يسببه ويلعنه بأقذع السباب واللعنات مما لا يمكن كتابته هنا (95).

وفي نحو منتصف مارس 1281 لزم نابليون فراشه ولم يعد يغادره بعد ذلك إلا نادراً. لقد كان يعاني من آلام مستمرة لا تكاد تتوقف فراح أنتومارشي والطبيبان الآخران يهدئانه بإعطائه جرعات صغيرة من الأفيون على نحو متكرر. وقال نابليون في 72 مارس: لو انتهت مهمتي في هذه الدنيا، إني إذن لسعيد. لقد كنت أتطلع للموت في عدة أوقات فأنا لا أخاف الموت (15). وخلال هذا الشهر الأخير من حياته كان يتقيأ كل الطعام الذي يتناوله تقريباً. وفي 51 أبريل كتب وصيته، وفيما يلي قيس منها:

1- أموت على دين الدين الرسولي الروماني (دين الدعاة الأوائل للمسيحية) الذي ولدت في أحضانه... 2- أريد أن توضع رفاتي على ضفاف نهر السين وسط الشعب الفرنسي الذي أحببته كثيراً. 3- لقد كان لدي دوما من الأسباب ما يجعلني أسعد بزوجتي الحبيبة ماري لويز. إنني أكن لها لأخر لحظة في حياتي أسمى مشاعر المودة. إنني أتوسل إليها أن ترعى ابني وأن تحميه من الشراك (والمشاكل) التي لا زالت تعكر طفولته... 5- إنني أموت قبل الأوان مقتولاً على يد الحكومة البريطانية (The English Oligarchy) (25).

لقد كان لديه ستة ملايين فرنك، كان عليه توزيعها (5.3 مليون + الفوائد)، وكان قد أودعها مع لافيت Laffitte، وكان يعتقد أنه له مليونين آخرين عند يوجين بوهارنيه. لقد أوصى بمبلغ كبير لبيتران ومونثولو ولا كاس، وكبير خدمه مارشان Marchan وسكرتيره مينيفال Meneval ولجنرالات آخرين أو أبنائهم وأوقف أشياء مختلفة على عدد كبير من الأشخاص ممن خدموه أو ساعدوه. لم ينس أحداً. كما أوصى بعشرة آلاف فرنك للضابط كانتيلون Cantillon الذي تحمل المحاكمة بتهمة اشتراكه في مؤامرة لقتل اللورد ويلنجتون، وهي التهمة التي بُرئ منها. لقد كان لكانتيلون كثير من الحق لقتل هذا الأوليغارشي (الملكي المؤيد لحكم الأقلية) تماماً كما كان لهذا الأخير الحق في أن يرسلني لأهلك على صخرة سانت هيلانا (35).

وترك في ورقة منفصلة وصية لابني) ربيع 1281: لا يجب أن يفكر ابني في الثأر لموتي، بل الأحرى به أن يتعلم منه درساً. يجب أن يضع في عقله ما أنجزته دون أن ينساه. وعليه أن يكون مثلي فرنسياً تماماً. وعليه أن يكافح ليحكم بسلام. وإن كان عليه أن يحاول بدء حروبي التي انتهت بدءاً جديداً لا شيء إلا لمجرد تقليدي، وبدون ضرورة تفرضا هذه الحرب، فإنه ساعتها لن يكون أكثر من قرد (مقلد). فإن يبدأ أحد القيام بعمله نفسه فهذا يعني أنني لم أنجز شيئاً. فالأجدي هو إكمال هذا العمل بإثبات قوة أساساته (ومؤسساته) وإكمال الصرح الذي وضعت أساسه وتصميمه. فالعمل الذي قمتُ به لا يمكن أن يحدث مرتين في قرن واحد. لقد كنتُ مضطراً لكبح أوربا وترويضها بقوة السلاح، أما الآن فيجب إقناعها (لأبد أن تكون مقتنعة). لقد أنفذت الثورة بينما كانت على وشك الموت. لقد طهرتها من جرائمها وسموتُ بها فأصبح الشعب الفرنسي يتألق شهرة. لقد أوحيتُ لفرنسا وأوربا بأفكار جديدة لن تُنسى أبداً. عسى أن يرعى ابني البذرة التي وضعتها حتى تُزهر! عساه يطور كل عناصر الرخاء الكامنة في التربة الفرنسية (45).

وكان لأبد أن تتم الاستعدادات الأخيرة كي يُسلم الروح. لقد استغرق وقتاً طويلاً ليصل إلى الإيمان الديني (المقصود الكاثوليكي - المترجم) ولأنه كان قد قرأ جيبون Gibbon فقد ظهر أنه يعتبر كل الأديان زائفة (كما ينظر إليها الفيلسوف) لكنه كرجل دولة كان يعتبرها مفيدة (55). لقد كان قد تحول للإسلام (النص: الدين المحمدي) ليربح مصر، وإلى الكاثوليكية ليقبض على زمام الأمر في فرنسا. ولقد عبّر لجورجو بما يفيد إيمانه بالمادية البسيطة: قل ما تشاء! إن كل شيء مادي (كل شيء مادة) غير أن التنظيم (الاتساق) فيها مختلف، فهناك هو أكثر اتساقاً، وهناك ما هو أقل. عندما أخرج للصيد أمر بفتح أحشاء الأيل deer فأرى أن ما بداخله هو نفسه الذي بداخلي. وعندما أرى أن للخنزير معدة مثلي، وحصيلة هضم مثلي، أقول لنفسني (إن كان لي روح فإن له أيضاً روحاً) (65). عندما نموت يا عزيزي جورجو نصبح جميعاً موتى (75). وفي 72 مارس (أي قبل موته بستة أسابيع) قال لبيتران: إنني سعيد جداً أنني بغير دين. إنني أجد في هذا ترضية (سلوى كبرى)، فأنا لا أضع في اعتياري إرهاباً متخيلاً (المقصود عذاباً منظرًا) ولا خوفاً من المستقبل (85). وسأل: كيف نوائم بين ازدهار الشرير وعذاب القديس مع وجود إله عادل؟ انظر إلى تاليران. إنه متأكد أنه سيموت في فراشه (95).

وكلما اقترب منه الموت بدأ يجد أسبابا للايمان. قال لجورجو: المجنون وحده هو الذين يعلن أنه سيموت دون اعتراف. هناك الكثير مما لا يعرفه المرء (06) وكان يشعر؟ أن الدين جزء ضروري من الوطنية: الدين يشكل جزءا من قدرنا. إنه مع التربة والقوانين والعادات يكون الكلّ المقدس الذي نسميه (أرض الآباء Fatherland) التي لا يجب أن نتخلّى عن مصالحتها. وعندما طلب مني بعض الثوريين القدامى أيام الكونكوردات (الوفاق مع الكنيسة الكاثوليكية) أن أجعل فرنسا بروتستنتية شعرت كما لو أنهم يطلبون مني خلع الجنسية الفرنسية لأصبح إنجليزيا أو ألمانيا (16).

لذا فقد قرّر بتواضع أن يخضع للطقوس التقليدية التي يتبعها الفرنسي وهو يُسلم الروح، فوجد قسيما محليا ورتب الأمر لإقامة قدّاس على روحه كل يوم أحد في لونجوود، وراح يجد راحة في عقيدة طفولته وراح يُسلي أصدقاءه ونفسه بكيفية استقباله في السماء: إنني أذهب للقاء كلييه (كليير) وديزيه Desaix ولان Lannes ومسينا Massena... ني Ney. سيأتون للقائي. وسنتحدث عما فعلناه. سنتحدث عن مهامنا مع فريدريك وتورين Turenne وكونديه Conde وقيصر وهانيبال (26Hannibal) وفي 62 أبريل بلغ به الوهن مبلغا كبيرا حتى أنه أطاع الأطباء دون سؤال. وفي هذا المساء راح يهذي مهتاجا للحظة قائلا إنه سيعطي ابنه 004 مليون فرنك (36). وذكر مونثولو الذي يقيم معه الآن ليل نهار أنه في نحو الساعة الرابعة صباح يوم 62 أبريل قال له بعاطفة جياشنة: لقد رأيت لتوي جوزفين الطيبة... إنها تجلس هناك، كما لو أنني لم أرها إلا ليلة البارحة. إنها لم تتغير - إنها دائما هي نفسها لا زالت مخلصه لي. لقد قالت لي إننا سنلقي ثانية، ولن نفترق ثانية أبدا. لقد وعدتني، رأيتها؟ (46).

وفي 3 مايو أُجريت له الطقوس الدينية. وفي هذا اليوم انضم طبيبان إلى أرنوت Arnott وأنتومارشي واتفق الأربعة على إعطاء المريض عشر حبات من الكالول Calomel (مسهّل) لقد أدّى هذه الجرعة الكبيرة بشكل غير معتاد من هذا الدواء غير المناسب إلى اضطراب عنيف مرعب مع فقد للوعي. وظهرت كل علاقات النزيف في الجهاز المعوي (56). فمات في 5 مايو 1281 وهو يتمّم قائلا: على رأس الجيش A la tete de La rmee وفي 6 مايو أنهى أنتومارشي فحص الجثة بعد الوفاة بحضور ستة عشر آخرين بمن فيهم سبعة جراحين بريطانيين، وبيرتران ومونثولو. لقد أظهر تشريح الجثة السبب الرئيسي لما كان يعاني منه نابليون: قرحة سرطانية في الفتحة بين المعدة والمعوي (البيلورس Pylorus) وثمة قرحة أحدثت ثقباً بسعة ربع بوصة في جدار المعدة متسببة في نشر التعفن فيما حولها، وكان أنتومارشي قد شخص العلة على أنها التهاب كبدي لكن اتضح أن الكبد رغم أنه كان أكبر من المعتاد لم تكن به ظواهر مرضية (66). واتضح وجود الأكياس الدهنية لا في الجلد فقط وغشاء التجويف البطني وإنما أيضا في القلب وربما كان هذا سببا في بطء نبضاته على نحو غير طبيعي. وكانت المثانة صغيرة وبها بعض الحصوات الصغيرة، وربما كان هذا بالإضافة إلى تشوّه الكلية اليسرى سببا في حاجة الإمبراطور إلى التبول تباعا وربما يفسر هذا عدم تركيزه بشكل مستمر في أثناء معركة بورودينو Borodino ومعركة واترلو. ولم يسجل أي واحد ممن فحصوا الجثة أي أثر لمرض السيفلس (الزهري) لكن أعضائه التناسلية كانت صغيرة وبدت ضامرة.

وفي 9 مايو انطلق موكب كبير يضم السير هيدسون لو Lowe لنقل الجثمان إلى مقبرة خارج لونجوود في وادي جيرانيومز Geraniums وكان نابليون نفسه قد اختار هذا الموقع، ولف بالعباءة التي كان يرتديها في معركة مارنغو Marengo ودُفن معه سيفه الذي كان محل فخره وشعار حياته. وظلت جثته في هذا القبر تسعة عشر عاما حتى أحبطه فرنسا ثانية فأعدت رفاته إلى بلاده.

صفحة رقم : 14774

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> وماذا بعد -> الأسرة

الفصل الأربعون

عاشت أمه بعده خمسة عشر عاما وماتت من عمر يناهز السادسة والثمانين. وتكاد تكون حياتها موجزا للأمومة في مراحلها المختلفة: زوج غير دائم الإقامة في البيت، أطفال كثيرون، أفراح وأحزان، إنجاز وحرمان، فزع ووحدة، دهشة وأمل. لقد رأت كل انتصارات أبنائها، وظلّت ليوم قد يحتاجون فيه إليها. من يدري غيري، فر بما يأتي يوم يتعيّن عليّ فيه أن أقدم لكل هؤلاء الملوك؟ (1). لقد ظلّت تعيش باعتدال (بلا إسراف) لآخر عمرها، وكان البابا يحميها ويجلّها، مع أنّ ابنها قد أساء معاملته. وكانت من الناحية العرقية أقوى آل بونايرت وأصحهم عقلا.

أما جوزيف - ابنها الأكبر - فكان مولعا بالكتب والمال وتزوج زواجا سعيدا من جولي كلاري Julie Clary وقد أحبه أخوه الإمبراطور وكلفه بمهام، وخدم جوزيف أخاه (نابليون) بكل قدراته المحدودة، ولجأ إلى أمريكا بعد انهيار الإمبراطورية وعاد إلى أوروبا حيث عاش بهدوء في منطقة ريفية بجوار جنوا، ومات في فلورنسا في سنة 4481 وهو في السادسة والسبعين من عمره.

أما لوسيا Lucien، فبعد أن ترقى في ظل حكومة الإدارة وبعد أن ساعد أخاه (نابليون) في الإطاحة بها، عارض دكتاتورية نابليون، وتزوج ضد الرغبة الإمبراطورية، وابتعد عن الصراع من أجل السلطة، وأصبح أميرا باباويا، وأبحر إلى أمريكا فأسرته سفينة بريطانية وتم التحفظ عليه في إنجلترا، ووجد طريقه إلى جانب نابليون في الأيام المائة (بعد عودة نابليون من إلبا) ودافع عنه في المجلسين، وهرب إلى روما بعد تنازل أخيه عن العرش للمرة الثانية، ومات في فيتربو Viterbo في سنة 0481.

أما لويس بونايرت فبعد أن تخلّى عن عرش هولندا، وانفصل عن هورتنس Hortense - عاش في بوهيميا والنمسا وإيطاليا، ومات قبل ست سنوات من وصول ابنه الثالث إلى العرش باسم نابليون الثالث.

ونعم جيروم بثروته الملكية في وستفاليا، وفشل كجنرال في الشهر الأول في أثناء المعركة مع الروس، وعاد إلى عرشه، وفقد لصالح الحلفاء في سنة 3181 وحارب ببسالة في واترلو، وكاد يكون آخر فرنسي يغادر ميدان الهزيمة (2). وبعد تنازل نابليون عن العرش للمرة الثانية راح ينتقل من مكان إلى مكان وعاد إلى فرنسا في سنة 7481 وشهد وصول ابن أخيه للحكم فأصبح رئيسا للسينات في ظلّه (في ظل نابليون الثالث) ومات في سنة 0681 وهو في السادسة والسبعين من عمره في عصر كان كل عام فيه عامراً بالأحداث.

أما إليزا بونايرت بكيوشي Bacciocchi فكانت أكبر أخوات نابليون وأكثرهن قدرة. لقد لاحظنا نجاحها كحاكمة في توسكانيا المنطقة الإيطالية المتأثرة بالثقافة الهلينية (الطرز الأثينية). وعندما تبين أنّ أخاها لا يستطيع مواجهة الحلفاء المتحدين، انسحبت إلى نابلي وانضمت إلى أختها كارولين لمساعدة مورا في الحفاظ على عرشه.

وكان مورا Murat بعد أن قاد قوات الفرسان إلى جانب نابليون في ليبزج (ليبنتسج) عاد إلى نابلي ودخل في تحالف مع النمسا (8 يناير 4181) وتعهد باستخدام جيشه لصالح الحلفاء ضد نابليون في مقابل أن تساعد النمسا في الحفاظ على عرشه في نابلي. ورفض الحلفاء اعتماد هذه المعاهدة. وعندما هرب نابليون من إلبا، خاطر مورا بكل شيء بمناشدته كل إيطاليا للانضمام إليه لشن حرب استقلال ضد الحكم الأجنبي كله (03 مارس 5181)، وتركته زوجته (كارولين) وأختها (إليزا) ووجدتا ملجأ لهما في فينا. وهُزم مورا في تولينتينو Tolentino أمام جيش نمساوي (2)

مايو) وهرب إلى فرنسا ومنها إلى كورسيكا واستعاد فرديناند الرابع عرش نابلي. وبعد معركة واترلو كان موراد أصبح رجلا بلا وطن، فعبر من كورسيكا إلى كالابريا Calabria مع حفنة رجال، فتم القبض عليه وحوكم أمام محكمة عسكرية، قضت بإطلاق النار عليه وتم تنفيذ الحكم في 31 أكتوبر. وقد وصفه نابليون في سانت هيلانا بما يفيد حبه له، وإن كان حكمه عليه قاسيا لا يرحم: إنه أشجع الرجال في مواجهة العدو، ولا نظير له في ساحة الوغى، لكنه غبي في كل أفعاله الأخرى خارج الميدان(3).

وكانت بولين (0871 - 5281) أخت نابليون هي أكثر ذويه جاذبية. لقد كان من نصيبها أن تنتشر السعادة والمشاكل لأنها كانت أجمل نساء عصرها، فالرجال الذين رأوها لم ينسوها أبدا، والنسوة اللاتي رأينها لم يسامحنها أبدا. ولم تكن مكتفية أبدا بزواج واحد، لكنها كانت فيما يبدو زوجة محبوبة في أثناء زواجها الأول حيث شاركت زوجها الجنرال ليكليرك Leclerc المخاطر التي تعرض لها ولم تتركه عندما أصيب بالحمى الصفراء في سانت دومنج St. Domingue. وعندما مات (2081) عادت إلى باريس، وبعد فترة حداد قصيرة كوّنت ثروة أخرى من الشّعْر تجلّل رأسها، وكانت تستحم بخمسة جالونات من الحليب الطازج يوميا(4). وافتتحت صالوننا وأسعدت الأزواج بجمالها وأسعدت بعضهم بكرمها. وكان نابليون نفسه مفتونا - على نحو طاهر - بتكوينها فسارع بتزويجها من الأمير الثري الوسيم كاميلو بورجيز (Camillo Borghese 3081) وفي فلورنسا طلب منها كاتوفا أن تتخذ وضع ديانا الصيادية، وكانت بولين ميالة للموافقة، إلا أنها عندما سمعت أن ديانا طلبت من جوبيتر Jupiter أن يهبها عذرية دائمة ضحكّت واستبعدت الفكرة. وعلى أية حال فهناك من حثها على أن تتخذ وضع فينوس Venus Victrix وهي شبه عارية، فكثرت المترددون على متحف بورجيز (جاليريا بورجيز Galleria Borghese) لرؤية الصورة وكان بورجيز نفسه واعيا بعدم كفاءته فقترح لواجباته العسكرية كضابط عند نابليون، وتركها. وراحت بولين تسلي نفسها بشكل مخز متجاوزة المعايير الأخلاقية، فألحقت بصحتها الضرر لكن ليس من دليل واضح على إصابتها بالسيفلس (الزهرى)(5) وكانت ربة الجمال اللعوب أيضا مثالا للرقّة ولم تكن تفوقها في رقتها سوى جوزفين التي راح كل آل بونايرت - ما عدا نابليون - يشنون عليها حرب مستمرة. لقد أعطت بولين بسخاء وكسبت صداقات كثيرة دائمة حتى من بين عشاقها الذي تخلّت عنهم، وكانت أكثر آل بونايرت ولاءً لنابليون بعد أمها. لقد خرجت عن طريقها لتقابل أخاها غير السعيد وتواسيه وهو في طريقه إلى فريجو Frejus في سنة 4181 وسرعان ما تبعته إلى إلبا، وهناك عملت مضيفة له وأنعشت حياته وحياة الجزيرة بحفلاتها ومرحها وحيويتها ومداعباتها. وعندما خرج من الجزيرة في آخر مغامراته أعطته أجمل قلادة من قلاندها. وعمل مارشان Marchand على انتقالها إلى سانت هيلانا، وكانت تخطط بالفعل لذلك عندما وصلتها أخبار موت نابليون، ولم تعش بعده أكثر من أربع سنوات إذ كان السرطان سببا في موتها(6) (5 يونيو 5281) وهي في الرابعة والأربعين، وسامحها زوجها على ما ارتكبه من آثام وعاش معها عامها الأخير وأقل جفنيها عندما ماتت.

وكانت جوزفين قد ماتت (92 مايو 4181) نتيجة إصابتها بنوبة برد حادة بينما كانت تستقبل القيصر إسكندر في المميزو(7). أما ابنتها هورتنس دي بوهارنيه (3871 - 7381) فبعد انفصالها عن لويس بونايرت عاشت في كنف الإمبراطور ثم تحت القيصر في وقت لاحق. ولم تعش حتى ترى ابنها وقد اعتلى العرش باسم نابليون الثالث. أما أخوها يوجين فقد ظل مخلصا لنابليون (الذي تبناه) حتى اعتزاله العرش للمرة الأولى، وبعد ذلك بخمسة أعوام تراجع مع زوجته إلى ميونخ حيث استقبله أبو زوجته ملك بافاريا بترحاب. وعندما مات هناك (12 فبراير 4281) وهو في الثالثة والأربعين من عمره، كان كل الفرقاء مجمعين على احترامه.

أما ماري لويز، فقد أخذوها من فرنسا على غير رغبتها وجرى استقبالها في فينا كأميرة لم تخطئ (في حق بلدها) فتم إنقاذها من الانتقام الذي حل بال بونايرت. وسمح لها بالاحتفاظ بمينيغال كمرافق لها فبذل كل جهده لمواجهة التأثيرات التي كانت تقع عليها يوميا لنزعها من إخلاصها لنابليون. ويخبرنا مينيغال أنها في أثناء أسابيعها الخمسة في فينا تلقت عدة خطابات من زوجها لم تجد وسيلة لإرسال الرد عليها لكنها كانت تأمل أن تنضم إليه في إلبا، وإن لم تُظهر هذا الأمل لمن حولها(8). ولخوف أبيها أن تتدهور صحتها في فينا التي تستعد لمؤتمر الحلفاء المنتصرين أرسلها للاستحمام في إيكسلز بينز Aixles - Bains وفي أول يوليو سنة 4181 عين الكونت آدم فون نيبرج Von Nieberg هناك ليكون مساعدا لها في أمورها. ورغم أنه كان في التاسعة والثلاثين ولم تكن هي قد تجاوزت الواحدة والعشرين فقد أدى اقترابه منها إلى أن قبلته عاشقا عندما بدت لها كل فرص العودة لنابليون وقد تلاشت. وفي سنة 1581 أنعم عليها مؤتمر فينا بدوقيات بارما، وبياسنزا Piacenza وجواستالا Guastalla، فصحبها نيبرج Niepperg وشاركها في الحكم. وفي سنة 7181 ولدت له طفلة. وعلم نابليون بهذا في سانت هيلانا لكنه لم يزع صورته المعقولة على جدار غرفته في لونجوود، وذكرها في وصيته - كما رأينا - بعد موت نابليون تزوجت نيبرج وعاشت معه على ما يبدو بإخلاص حتى موته في سنة 9281. وتزوجت مرة أخرى في سنة 4381 وماتت في سنة 7481. وإذا وضعنا الظروف المحيطة بها، فإنها تبدو امرأة صالحة لا تستحق إهمال ذكرها.

أما ابنها من نابليون المسمّى ملك روما (وهو اللقب التقليدي لوارث الإمبراطورية الرومانية المقدسة) والعقاب الشاب (Aiglon) فقد تم فصله عن أمّه عند مغادرتها باريس وأعيد تعميده باسم دوق رايششتادت Duke Reichstadt وأصبح في بلاط فيينا لينشأ في ظل تقاليد الهبسيبرج وتحت إشرافهم الكامل. وظل مخلصاً لذكرى أبيه وراح يحلم أن يستعيد مملكته يوماً، وكان يعاني من المرض الذي عاوده مراراً، ومات بالسل في قصر شونبرون Schonbrunn في فيينا في 22 يوليو 2381 وهو في الواحد والعشرين من عمره.

صفحة رقم : 14775

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> وماذا بعد -> العودة إلى رحاب الوطن

2- العودة إلى رحاب الوطن

حتى وإن تلاشت ظواهر الأحداث من ذاكرة الفرنسيين فإن صورة نابليون نفسه أخذت شكلاً حياً جديداً في ذاكرتهم وخيالهم. فكلما التأمّت الجروح بفعل الزمن، وكلما تم تعويض الملايين الذين ذهبوا للحرب ولم يعودوا، فامتلات الحقول والذكاكين من جديد، وزاد عدد أفراد الأسر، بدت صوت عصر نابليون أكثر تألقاً وبطولة بشكل لا مثيل في التاريخ المدني (أي بصرف النظر عن الوقائع الدينية في التاريخ). إننا نجد - بادئ ذي بدء - أن الجنود القدماء راحوا يتذكرون أعمالهم البطولية ومآثرهم وينسون معاناتهم. لقد راقت لعيونهم انتصارات نابليون وكلما كانوا يلومونه لهزيمته. لقد أحبوه ربما كما لم يحب جنود قائدهم في وقت من الأوقات. لقد أصبح رامى القنابل المعمر الذي حارب مع نابليون هو حكيم قريته تخلده آلاف القصائد والحكايات والأغاني. ففي القصة الشعرية التي تحمل عنوان (العلم القديم Lavieux Drapan) ومئات غيرها وجدنا (Pierre de Beranger 0871- 7581) يمجّد نابليون ومعاركه ويهجو النبلاء المستبدين والأساقفة النهمين لتملك الأراضي لدرجة أحققت حكومة البوربون فسجنته (1281 - 8281) وكتب فيكتور هوجو Hugo قصيدته (Ode to the Column) يحتفي فيها بعمود فيندوم Vendome ودلالته التاريخية متوجاً بتمثال نابليون الذي أزيح سنة 5181 ثم أعيد سنة 3381. أما بلزاك Balzac في عمله (طبيب المعركة) (3381) فقد صور لنا بشكل مُفعم حيوي جندياً محنكاً غيراً يشجب البوربون لإصدارهم تقريراً يفيد أن نابليون قد مات. هذا لم يحدث، فالعكس هو الصحيح فمن المؤكد أن نابليون ما زال حياً، وأنه كان ابناً لله جعله أباً للجنود (9). أما ستندال Stendhal فلم يكتف بأن بث في رواياته مديحاً لنابليون، وإنما أصدر في سنة 7381 كتابه حياة نابليون يلخص لنا فحواه (فحوى كتابه) في المقدمة حيث يقول: ليس في قلبي حب إلا لنابليون وقال عن نابليون إنه أعظم من عرفته البشرية منذ قيصر (01).

وربما قبل نابليون هذا الإطراء مع شيء غير مؤكد بالنسبة إلى قيصر (دكتاتور روما القديمة)، فلم يكن نابليون ليفقد الأمل في أن تعود فرنسا إلى أيامه (أيام قيصر). وكان نابليون قد راح يعزّي نفسه في منفاه بأن يؤدي امتعاض الفرنسيين بسبب نفيه وسجنه إلى أن يصبحوا مخلصين له ثانية. لقد قال لأوميرا: ستكون هناك ردة فعل لصالح بعد أن أرسلوني للمنفى. إن استشهادي (كوني ضحية) هو الذي سيعيد تاج فرنسا لأسرتي... قبل انقضاء عشرين سنة عندما أكون قد ووريت الثرى، سترى ثورة أخرى في فرنسا (11). وقد تحققت النبوءتان.

ومن هنا فقد أملى مذكراته لتبقى على صورته حية، وقد حققت أغراضها جيداً. وقد تم تهريب مذكراته عن معركة واترلو التي أملاها على جورجو من جزيرة سانت هيلانا، وتم نشرها في باريس سنة 0281، وذكر لنا لا كاس أن نشرها كان نبأ مثيراً وأنه أحدث ضجة (21). وفي عامي 1281 - 2281 صدرت في فرنسا سنة مجلدات أخرى من

سيرته الذاتية. وسرعان ما شقت مذكرات وحكايات الإمبراطور طريقها ولعبت دورا كبيرا في تعديل الأسطورة (أي صورته بين الناس) وجعلته وهو ميت، قوة حية في فرنسا. وأصبح رفاقه هم رُسُلُه apostles (أي حواريوه وفي هذا تشبيه له بالمسيح، والرسول في المفهوم المسيحي هم الدعاة الأوائل للمسيحية - المترجم)، ودافع عنه أوميرا بشجاعة (2281) في عقر دار ألد أعدائه، ودافع عنه لا كاس وجعله بلا أخطاء في كتابه ذي المجلدات الأربعة (3281)، ذلك الكتاب الذي أصبح إنجيلا لعقيدة جديدة ملهمة. ولم يظهر تقرير الكونت دي مونثولو الموسع حتى سنة 7481، كما لم يظهر تقريرا جورجو، وبيرتران إلا بعد موتهما، لكن في هذه الأثناء كانت شهادتهما الحية تغذيان هذا الايمان (بنابليون)، وراح مونثولو يذكرنا بتوجيهاته لابنه وهو - أي نابليون - على فراش الموت مُضْغِباً الفضائل على الماضي الإمبراطوري: الحذر والاعتدال والحكم الدستوري وحرية الصحافة وانتهاج سياسة السلام مع العالم والآن أتى دور النصيحة المناسبة: دعو ابني يقرأ التاريخ ويتأمله، فالتاريخ هو الفلسفة الوحيدة الصادقة (31).

وحتى في شهادة رفاقه المخلصين فإن الإمبراطور العظيم رغم متاعبه وآلامه وحبسه ومرضه وزيادة أخطائه بحكم كبر سنه، بدا الناس رغم كل هذا وقد نسوا كل هذا وركزوا على انتصاراته الحربية وتراثه الإداري وحده ذهنه. لقد كان في الواقع قد تبرأ من معظم الثورة، فاستبدل الاستبداد بالحرية وأخذ بالاستبداد) وأحل الارستقراطية محل المساواة والنظام محل جماعات الإخاء (الأخويات)، لكن في صورته الجديدة المعدلة أصبح مرة أخرى ابنا للثورة والبعاقبة الذين كانوا في وقت من الأوقات أعداءه المضطهدين، أما الآن فإنهم يتحلقون حول ذكراه. وفي الوقت الذي كان فيه نابليون ينقي سجله ويكفر عن ذنوبه بما لاقاه من عقاب، كان حكم البوربون الذين حلوا محله يفقد بريقه، ويقال إقبال الفرنسيين عليه رغم قبولهم إياه في البداية. لقد كان لويس الثامن عشر نفسه رجلا معقولا تأثر بالتثوير لكنه كان قد سمح أن يسيطر الملكيون على حاشيته، وكان هؤلاء الملكيون غير متسامحين في شيء، ويطالبون بكل شيء بما في ذلك عقاراتهم ومزارعهم القديمة بل ويطالبون بحكومة لا تقيدها مؤسسات التمثيل النيابي. ووجهت المعارضة (بارهاب أبيض) من الجواسيس والمطاردين، وبالإعدام السريع. ولم يكن الجنود القدامى بمستطيعين نسيان مطاردة ني Ney وإطلاق الرصاص عليه، وكان الجيش لا يزال يذكر بإعزاز نابليون (ذا الجسد الضئيل) الذي كان يتحدث بلا كلفة مع المجندين حول النيران الموقدة للتدفئة في المعسكرات، فنابليون هذا قد رقاهم دون نظر إلى طبقاتهم ودون تأخير بيروقراطي، وكان جيشه العظيم فخرا لفرنسا ورعا للملوك (أعداء فرنسا). وتذكر الفلاحون أن نابليون حماهم في مواجهة مطالب النبلاء والإكليروس. وكانت البروليتاريا قد انتعشت في ظل حكمه، وكانت الطبقة الوسطى قد حققت ثروة وحظيت بالمكانة الاجتماعية. وشعر ملايين الفرنسيين أنه رغم أوتوقراطيته (ممارسته حكم الفرد) فإنه حافظ على أساسيات الثورة: نهاية الإقطاع وعوائده ورسومه المرهقة، فتح الطريق للتقدم والترقي أمام كل الطبقات دون استثناء، المساواة أمام القانون، تسيير أمور العدالة بناءً على قوانين واضحة ومكتوبة موحدة على مستوى الأمة. وعلى هذا فبعد عشرين عاما من وفاته، ولد نابليون من جديد وراح من جديد يسيطر على عقول الناس وخيالهم. كتب شاتويريان: العالم مرتبط بنابليون... لقد فشل نابليون في الاستيلاء على العالم وهو حي، لكنه امتلكه بعد أن مات (41). لقد غدت المشاعر البونابرتية ثورة 0381 المعتدلة. لقد انتهى تسلسل الملك بشكل مباشر في أسرة البوربون بتتحي شارل العاشر عن العرش، فقد كان الملك الجديد لويس فيليب من الفرع الأورلياني Orleanist للبوربون، وكان ابنا للويس فيليب جوزيف، دوق أورليان الذي كان يطلق على نفسه فيليب إيجاليتيه Philippe Egalite (فيليب مساواة، فالكلمة Egalite تعني مساواة) وكان قد صوت لصالح إعدام لويس السادس عشر. لقد نعم الملك الجديد لفترة بتأييد البونابرتيين ودعمهم، وقد جعل من شعار الألوان الثلاثة (علم الثورة) رمزا للحكم الإمبراطوري وأمر بإعادة تمثال نابليون إلى قمة عمود فيندوم Vendome.

وفي هذه الأثناء كانت وصية الرجل الميت (نابليون) قد نُشرت، وبدأت الفقرة الثانية منها رغبة إمبراطورية أخيرة: أرغب في أن أدفن على ضفاف نهر السين بين الشعب الفرنسي الذي أحبته كثيرا. وفي كل أنحاء فرنسا راحت ترتفع وتتعالى مناشدات الأمة أعيدوه إلى وطنه. دعوا فرنسا تقيم لبطلها الجنازة التي يستحقها مثله. دعوا الرفات المنتصر (انتصار الرفات - كما أصبح يسمى) يُزِيل عار السجن الكئيب! ووصلت المناشدة إلى الحكومة، ويبدو أن وزير الخارجية الفرنسية لويس أدولف ثييه (Thiers) هو الذي اقترح على زملائه في الوزارة أن يطلبوا من الملك أن يخاطب بريطانيا العظمى للموافقة على نقل جثة نابليون إلى باريس. وثييه هذا (7971 - 7781) هو الذي كتب أعظم كتاب عن تاريخ نابليون، وتم انتخابه في سنة 1781 كأول رئيس في الجمهورية الثالثة. لقد وافق لويس فيليب على مخاطبة الحكومة البريطانية في هذا الشأن لأن ركوبه هذه الموجة قد يكسبه قلوب الفرنسيين. ولم يكن مجلس الوزراء البريطاني فوافقا على رأي زعماء الحكومة لكن اللورد بالمرستون أجاب مباشرة وببراعة: إن حكومة صاحبة الجلالة تأمل أن يكون ردّها الإيجابي دليلا تقدمه للشعب الفرنسي على رغبتها في محو آخر أثر للعداوة بين الأمتين، تلك العداوة التي أدت في حياة الإمبراطور - إلى حرب مسلحة بين الأمتين (51) وعهد الملك الفرنسي إلى ابنه فرانسوا

أمير جونفيل Prince de Joinville بالتوجه إلى سانت هيلانا ليعيد رفات نابليون. وفي 7 يوليو سنة 0481 أبحر الأمير من طولون على من السفينة (بل بول Belle Paule) وبصحبه الجنرالات؛ بيرتران، وجورجو، وكونت دي لا كاس ومارشان خادم نابليون الأثير لديه، فهو لاء هم الذين سيقررن أن الجثة لنابليون. وصلوا سانت هيلانا في 8 أكتوبر، وبعد كثير من الإجراءات الرسمية رأوا الجثة بعد إخراجها من القبر وتعرفوا عليها وفي 03 نوفمبر وصلوا بها إلى شيربورج Cherbourg.

وهناك بدأت أطول جنازة في التاريخ. نقول أطول جنازة كحقيقة مؤكدة. لقد نقلت الجثة إلى الباخرة نورماندي Normandie التي نقلتها بدورها إلى فال دي لا هاي Val de La Haye على السين إلى الأدنى من الرون Rouen ثم نقلت إلى سفينة نهريّة أقيم عليها معبد (مصلى أو كنيسة صغيرة) يحرسها في أركانها الأربعة كل من بيرتران، وجورجو، ولاكاس، ومارشان، وتحت هذا المعبد (أو الكنيسة الصغيرة) كان التابوت الذي يضم الرفات مطلاً على نهر السين. وراحت السفينة تتوقف أمام كل مدينة كبرى للاحتفاء على الشاطئ (61). وعند كوربفوى Courbevoie (شمال باريس بأربعة أميال) نقل التابوت إلى عربة جنازيرية مزينة يحفها موكب من الجنود والبحارة وذوي المكانة ليمر عبر نيللي Neuilly وتحت قوس النصر وعلى طول الإليزيه، وكانت الحشود فرحة تصفق (71). وفي وقت متأخر من هذا اليوم اللاذعة برودته وصل الجثمان أخيراً إلى مكانه (القبر) - كنيسة مقابر ضحايا الحرب ذات القبة الرائعة. وغص صحن الكنيسة ومماشيها بآلاف المشاهدين الصامتين بينما يحمل أربعة وعشرون بحارا التابوت الثقيل إلى مذبح الكنيسة حيث خاطب الأمير دي جونفيل de Joinville أباه الملك قائلاً: سيدي، لقد أحضرت لك جثمان إمبراطور فرنسا فأجاب الملك لويس فيليب: إنني أستقبله باسم فرنسا. ووضع بيرتران سيف نابليون فوق التابوت، وأضاف جورج قبعة الإمبراطور، وأنشدت الجموع القداس على روحه بمصاحبة موسيقا موزارت، وأخيراً أصبح رفات الإمبراطور حيث كان يود أن يكون - في قلب باريس وعلى ضفاف نهر السين.

صفحة رقم : 14776

قصة الحضارة -> عصر نابليون -> خاتمة المطاف -> وماذا بعد -> منظور (زاوية رؤية)

3- منظور (زاوية رؤية)

بعد أن نكون قد فرغنا من هذا الكتاب نكون جميعاً - المؤلفان والقراء - قد حققنا نبوءته - إن العالم سيحيي موته بنتهيده ارتياح. لقد كان قوة جرى استنفادها، وظاهرة من ظواهر الطاقة الكافية المتفجرة، طاقة صاعدة حارقة، شعلة ماحقة تلتهم تماماً كل من يلمسها. إننا لم نجد في التاريخ روحاً أخرى تحرق بهذه الشدة وعلى طول هذا المدى. لقد كانت إرادته في البداية مترددة خائفة كنيية، لكنه سرعان ما اكتشف أسلحتها ومصادرها في ذهن ثاقب وعين فاحصة، فأصبحت إرادة وثقة مندفعة مهيبه كل ذلك مع فهم وإدراك وقوة، حتى حارت الأرباب معه، فربطت إرادات أقل من إرادته قوة لنتحالف معا وتتعبه وتحاصره وتقيد به إلى صخرة حتى تخمد نيرانه. إنها واحدة من أعظم أنواع الدراما في التاريخ، لا تزال تنتظر كاتباً مثل إيسخيلوس ليكتبها.

لكن حتى في عصره كان لديه شخص كهيجل لم تُعمه الحدود فرأى فيه قوة عالمية - تتحدث من خلالها حتية الأحداث والظروف - لتحيل التفرق إلى وحدة. والهبولي إلى معنى موثر. هنا - في فرنسا أولاً ثم في وسط أوروبا - كانت توجد روح العصر Zeitgeist: الحاجة إلى الانضباط والنظام، نهاية الإفراط المدمر في الحرية الفردية،

والإفراط المدمر في تشطّي الحكم (المقصود تقسيم أوروبا إلى كيانات سياسية صغيرة يحكم كل منها حاكم). بهذا المعنى كان نابليون قوة تقدمية، أرسى دعائم الاستقرار السياسي، وأعاد القيم الأخلاقية ونظم الهوية وحدت القوانين ونقاها وقتنها (نظمها)، وحمل الحياة والممتلكات، وأنهى الإقطاع أو خفف وطأته، وطمأن الفلاحين وقدم العون للصناعة، وحافظ على العملة الصحيحة، وظهر الإدارة والقضاء وطورهما وشجع العلوم والفنون (لكنه لم يشجع الأدب وقمع الصحافة) وشيّد المدارس، وجمل المدن وأصلح بعض ما دمرته الحرب، وبفضل حثه ودأبه تقدّمت أوروبا في ظرف الخمسة عشر عاما التي حكم فيها تقدماً ما كان يحدث إلا في خمسين عاما.

ولم يكن نابليون هو أقوى قوة في عصره وأكثرها دوماً، فقد كانت الثورة الصناعية أقوى منه، فقد جعلت بريطانيا العظمى من الثراء بحيث أمدت ومولت كي تُسقط نابليون، وبعدها جعلت هذه الثورة الصناعية من أوروبا قوة فعّالة بحيث سيطرت على الكرة الأرضية ثم إن هذه الثورة الصناعية استطاعت بعد ذلك أن تجعل من أمريكا قارة ذات موارد بما يكفي لإنقاذ أوروبا وتعويض ما نقص فيها وما كان يلي الثورة الصناعية في القوة هو الثورة الفرنسية التي بدأت في فرنسا 1789 والتي هي بدورها أقوى من نابليون (ابن الثورة) بكثير وأبقى منه بمرحل، فهذه الثورة الفرنسية (1789) نشرت تأثيراتها في كل أنحاء أوروبا إذ ألغت الروابط الإقطاعية والرسوم الإقطاعية وألغت محلها الحقوق الفردية، وجعلت الجياح (المتعطشين) على مستوى العالم يجدون فيها (أي في الثورة الفرنسية) أوضح صوت معبر عنهم: الجياح للحرية - حرية الحركة والنمو والعمل الاقتصادي والعبادة والفكر والصحافة، والجياح للمساواة - في الفرص المتاحة والتعليم والصحة والعدالة القانونية. هؤلاء الجياح (المتعطشون) المعادون - لما هو قائم أخذوا دورهم في السيطرة على تاريخ الإنسان المعاصر: لقد أصبح التعطش للحرية، والضرر الناتج عن المساواة موضوعين أثيرين تم تناولهما بشكل مستمر في أوروبا وأمريكا في القرن التاسع عشر، وأصبح التعطش للمساواة - على حساب الحرية - جانبا مهيمنا على التاريخ الأوربي والأمريكي في القرن العشرين. فالثورة الفرنسية، والثورة الأمريكية كما فسرها جيفرسون Jefferson حملت الحرية فوق طاقتها وأفرطت فيها. حرّرت الفرد إلى حد إفساد النظام، وحرّرت القدرات المتوقعة إلى حد نشوء أزمات متكررة بسبب تكسّس الثروة. وقد قدّم نابليون النظام الذي قمع الفوضى السياسية والاقتصادية والأخلاقية في فرنسا في فترة ما بعد الثورة. وليس هناك نظام يكبح هذه الفوضى في زماننا.

وعندما بالغ نابليون في فرض النظام بعدسلام نيلسبت (1781) وأخضع أمور الدولة لإرادة السلطة (القوة) فإنه ساعته لم يعد يمثل روح العصر. لقد انضم وقتها إلى ملكيات أوروبا المطلقة وراح يقلدها، تلك الملكيات التي كان هو نفسه قد حاربها. لقد حسد الأرستقراطية وحاول إغراءها، تلك الأرستقراطية التي احتقرته وتأمّرت لتدميره. لقد أصبح قوة رجعية عندما راحت فرنسا من جديد تُنوّق للحرية وتطالب بالديمقراطية.

ومن سخرية التاريخ أنه بينما كان نابليون في أثناء حياته يعمل على تجسيد حاجة بلاده للانضباط والنظام بعد فترة من الحرية المنفلتة، فإنه أصبح مرة أخرى بعد مماته ابناً للثورة وعداً للحكم المطلق والأرستقراطية ورمزاً للثوار والمتحدث المتمكن المناادي بالحرية (وكان هذا بفضل إعادة صياغة تاريخ حياته، تلك الحياة التي اتخذت طابعا أسطوريا). في سنة 1797 كانت الظروف وطبيعته قد جعلته دكتاتوراً يكاد يكون أكثر دكتاتورية من التاريخ، وبعد سنة 1815 وسجنه في سانت هيلانا أعاد الخيال العام تشكيله، وكانت إعادة التشكيل هذه أوضح بعد موته 1821، ليصبح طوال نصف قرن أكثر الدعاة إلى الحرية. لقد ترك لنا عدد قليل من الرجال العظماء بعد موتهم ما يفيدنا بما كانوا عليه في أثناء حياتهم.

أكان نابليون مثير حرب؟ أكان مسئولاً عن هذه السلسلة المتعاقبة من الحروب الحاشدة، وعن هؤلاء الملايين من الشباب الذين قضوا نحبهم ولم يستفيدوا شيئاً سوى نشوة المعركة وخُدارها، وملايين النسوة اللاتي لم يعد إليهن ذوهن؟ فلنسمعهم (أي نسمع نابليون). لقد اعترف أنه كان يسعد بالقيادة العسكرية (يسعد بجنز البيته) لأنه كان قد تدرب على الفن العسكري وممارسه ممارسة جيدة، لكن كيف كان غالباً ما يتطلّع للخلاص من الحرب لممارسة أحد فنونه الأخرى - الإدارة تحويل الفوضى (الهيولى) السائدة في الحياة إلى نظام فعّال بتأسيس بنية قانونية قوية وقاعدة أخلاقية متينة! كم مرة عرض السلام فوجه بالتسفيه والاحتقار والرفض! لقد رحب به الإيطاليون كمحرّر سواء في عام 1797 أو في عام 1808. وأعاد النمساويين، ضمّهم (إخضعهم) عندما كان (أي نابليون) في مصر. وهاجمه النمساويون بينما كان مشغولاً عند القتال الإنجليزي، وانضمت بروسيا وروسيا إلى هذا الهجوم دون أن يكون قد ألحق بأيهما ضرراً. وهاجمته النمسا مرة أخرى بينما كان يحارب في إسبانيا، ونقضت روسيا عهدها فلم تدعمه في مثل هذا الموقف، وتعهّدت روسيا في تيلسيت أن تُحكم الحصار القاري على البضائع البريطانية وكان هذا الحصار (المضاد) الذي فرضه نابليون هو السبيل الوحيد أمام فرنسا لمواجهة الحصار البريطاني للموانئ الفرنسية، واستيلاء البريطانيين على السفن الفرنسية والمستعمرات الفرنسية. وكان الذهب البريطاني قد مولّ تحالفاً إثر تحالف ضد نابليون حتى عندما جنح أعداؤه الآخرون للسلم، وعاملته الحكومة البريطانية كمجرم رغم تسليمه نفسه طوعاً، بينما

كان هو نفسه يعامل ضباط الأعداء الأسوريين في أثناء المعارك بمودة وإنسانية. لقد قرر أعداؤه تدميره لأنه وصل للملك بجهد وعمله وليس بالوراثة. وهكذا جرى دفاع نابليون. لقد اتفق المؤرخون الإنجليز (عادة ما كانوا عادلين) والمؤرخون الألمان (عادة ما كانوا دقيقين) وكثير من المؤرخين الفرنسيين (عادة ما كانوا وطنيين) مثل ميشيل Michelet ولانفري Lanfrey وتين Taine وليفييفر Lefebvre - على إدانة الكورسيكي. لقد اغتصب العرش إذ استعاد من اعدام لويس السادس عشر وانهيار حكومة الإدارة الفاسدة ليستولي على عرش هو حق للويس الثامن عشر. مثل هذا الاغتصاب لا يمكن التسامح فيه طالما كان يقلل الاستقرار السياسي العزيز على كل أمم أوروبا. ولم تكن مطالباته بمؤتمرات سلام تؤخذ على محمل الجد طالما كان الحلفاء يرفضون الاعتراف بأمر يرونها غير محتملة كالاعتراف بالسيادة الفرنسية على سويسرا وإيطاليا، وفي وقت لاحق على كونفدرالية الراين. وشجعت مهارته الحربية على شن الحرب لذا فقد كان سيفاً مصلتاً لا على توازن القوى المطلوب لتحقيق السلام فحسب وإنما على النظام السياسي الأوروبي كله، وأدت غرامات الحرب الباهظة التي فرضها بعد انتصاراته إلى أن أصبحت الحكومات المهزومة غير قادرة على تمويل أية حركة مقاومة لحلمه الخيالي، ألا وهو توحيد كل أوروبا تحت السيادة الفرنسية وفي ظل قوانين المدونة القانونية النابليونية، فاضطرت هذه الحكومات المهزومة إلى أن تقبل راضية الإعانات المالية التي قدّمتها لها الحكومة البريطانية. وكان الاستيلاء على المستعمرات الفرنسية كوسيلة لإعادة فرنسا إلى وعيها متفقاً مع ما جرى عليه العرف بين الحكومات في حروب القرن الثامن عشر. أكان يمكن لحكومات كاثوليكية - كحكومة النمسا - أن تكون في ظل ملحد لا يخفي إحداه (المقصود معاد للكاثوليكية) كان قد اضطهد بقسوة البابا الذي مسح بالزيت (كرسه) والذي لا يملك سلاحاً سوى تقواه؟ وقد عامل الحلفاء نابليون بكرم بعد تنازله عن العرش للمرة الأولى إلا أنه بمغادرته إليها نقض الاتفاق فأجبر أوروبا على إنفاق الملايين من عوائدها والآلاف من أرواح أبنائها لقمعه وأسرّه، واكتفت إنجلترا وحلفاؤها بعزله بعيداً من مكان يستحيل معه أن ينطلق مرة أخرى لتحطيم السلام في أوروبا.

قلما تكون الحقيقة بسيطة، فغالباً ما يكون لها يد يمينى وأخرى يسرى وغالباً ما تمشي على قدمين. أكان هناك - منذ أشوكا Ashoka - حرب كبرى قدمت فيها أمة واحدة لقضية أعضائها حلاً عادلاً كاملة؟ يوجد جانب في طبيعة المواطن يجعله يؤمن بأن الله شريك في حروب بلاده. (يحارب في صف بلاده). ليست هناك دولة مهما كبرت ومهما قوت يمكنها أن تحل المشكلة لأن بعض حروبنا الكبرى ذوات أبعاد غير حربية (مدنية). إن أفضل سبيل نأمل تحقيقها هو أن نحث مزيداً من الرجال والنساء على تقديم نزاعاتهم إلى محكمة دولية أو عصبة أمم دولية، لكن يجب ألا نتوقع أن تقدّم أمة للتحكيم ما تعتبره مسألة حياة أو موت. فالحفاظ على النفس يظل هو القانون الأساسي للحياة. في نطاق هذه الحدود، على الفيلسوف أن يعمل على تطبيق بضاعته (أفكاره أو فلسفته)، إن عليه أن يفهم ويتسامح. إننا نستطيع أن نفهم الإمبراطور فرانسيس الثاني الذي جرّده نابليون من نصف دولته، وطرده من عاصمته الحبيبة إلى نفسه، ومع هذا فقد عاد إليها وظل محبوباً من شعبه، رغم أنه سلب وتعرض للإهانة، ونستطيع أن نفهم الكاثوليكي الطيب وقد صدمه أن يُعامل البابا معاملة سيئة، ومع هذا فقد طلب من الحلفاء في وقت لاحق تيسير ظروف سجن نابليون الذي اضطهد البابا. ونستطيع أن نفهم ممانعة القيصر إسكندر في التضحية بتجارة بلاده بالترامه بالحصار القاري (المضاد) الذي فرضه نابليون، ونستطيع أن نفهم قرار إنجلترا بالدفاع عن توازن القوى، ذلك التوازن الذي تعتمد عليه لضمان أمنها وحماية نفسها من سيطرة القوى الخارجية عليها. ونستطيع أن نفهم دفاع فرنسا عن الرجل الذي خلص حكومتها وقيمها من الفوضى القاتلة، والذي وسّع حدودها بانتصاراته العبقريّة وحقق لها عظمة غير مسبوقة. لا. إن نابليون، هذا الرجل الرائع ليس مجرد غول قاتل مخرب. حقيقة إن رغبته في السلطة وتوقه إليها، واتساع مدى حلمه الذي لا يقاوم - كل أولئك قاده إلى أفعاله ومصيره، لقد كان أوتوقراطيًا (مؤمناً بحكم الفرد) واثقاً من أنه يعرف أفضل مما يعرف مواطنوه، ما هو خير لفرنسا وأوروبا. لكنه كان أيضاً رجلاً كريماً، سريع العفو، حنوناً يخفي حنانه، تردّد عدة سنوات قبل أن يطلق جوزفين، تلك المرأة التي تُقَاد للإثم بسهولة. ويمكننا أن نقول من أجله أنه هو أيضاً قد عانى وكفّر عن ذنوبه، لقد عانى من الأمراض والأطباء وعانى عند تراجعه من روسيا (انسحابه) وعانى في سانت هيلان التي كان فيها ميتاً حياً.

إنه يبقى الشخصية البارزة المميزة في عصره، وبقي منه شيء نبيل ظل باقياً رغم حبه الأناني للسلطة ورغم تعرضه للهبوط بين الحين والحين من سؤدد العظمة إلى الهزيمة. لقد ظنّ نابليون أننا لن نرى مثيلاً له مرة أخرى لمدة خمسمائة عام. إننا لا نتمنى هذا، بل إنه لأمر طيب (طيب بما فيه الكفاية) أن نتأمل ونعاني - مرة كل ألف عام - في سلطان العقل البشري، مدى قوته، ومدى قصوره.

منتدى حديث المطابع
موقع الساخر

www.alsakher.com